المفَصَّلُ

في عواملِ النَّصر والهزيمةِ

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنَّة

علي بن نايف الشحود



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ،القائل { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) }غافر : ٥١ - ٥٢

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، القائل"بُعِثْت بَيْنَ يَدَيَ السَّاعَةِ بالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"[1]

وعلى آله وصحبه أجمعين ، الذين قال الله تعالى في حقهم : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } سورة الفتح ٢٩

أما بعد :

فإنَّ الأحداث التي تجري في بلاد الإسلام ولاسيما في فلسطين عامة وغزة خاصة والعراق وغيرهما، مما لا نحسد عليها ، فإننا نرى أنهارا من الدماء تسفك بغير حق ، وأموالاً تنتهب ، وحرمات تنتهك ، وضربات موجعة يوجهها أعداء الإسلام للمسلمين شرقاً وغرباً .

وكثير من المسلمين اليوم قد أصيب بالإحباط الشديد مما يرى ويسمع ، ولا يعرف كيفية المخرج مما نحن فيه .

وقد تباينت مواقف الكتاب والباحثين إزاء ما يجري :

فمنهم من قال علينا بتقليد الغرب والأخذ بحضارته عجرها وبجرها عندئذ يزول الذل والهوان !!.

وقد قالوا ذلك بسبب انبهارهم بهذه الحضارة ،وفاتهم أن هذا من باب تقليد المغلوب للغالب ، وأن الحضارة الغربية لم تجلب للعالم سوى الدمار والخراب والشقاء .

وبعضهم دعا إلى توحيد العرب تحت راية القومية العربية ، للخروج من ذلك ، وفاتهم أن دعاة القومية العربية لم تجتمع كلمتهم يوماً واحداً ، ولما استلموا في بعض الدول سفكوا دماء بعضهم البعض ، وداسوا على العروبة بأقدامهم .

وما موقف الجامعة العربية إزاء قضايا الأمة المصيرية عنا ببعيد .

---

[1] - مصنف ابن أبي شيبة (٥ / ٣١٣)(١٩٧٤٧)عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، وهو صحيح

وبعضهم يستجدي أعداء الإسلام حتى يخففوا من وطأتهم علينا ،وهذا ما يفعله كثير مـــن العمـــلاء والخونة .

وبعضهم دعا للحوار مع الغرب وترك قتاله ومصادمته لعلهم يعطفون علينا ، فيمنون علينـــا بـــبعض فتات الديمقراطية والحرية .

وبعضهم يدعوا للهتافات والمظاهرات ، وتقديم بعض المساعدات المادية للمنكوبين ، وحرق أعـــلام الدول المعادية للإسلام والمسلمين ، ومقاطعة بعض البضائع التافهة التي لا تغني ولا تسمن من جوع ، والعدو يزداد صلفاً وضراوة، وصدق فيهم قول الشاعر :

من يهنْ يسهلِ الهوانُ عليهِ ... ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

وبعضهم قد صدع بالحق فهنيئا لهم ، وبعضهم ذهب يمينا وشمالاً .

والصواب من القول أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

فلا بد من الرجوع لمصادرنا الأصيلة ، وقيمنا العليا ليس إلا ، ففيهما بيان كـــاف وشـــاف للـــداء والدواء ،فالقرآن والسنة سفينة النجاة لهذه الأمة ، فعلينا أن نستلهم منهما سعادتنا وعزتنا .

فلا بد من مراجعة الحسابات وتصحيح الأخطاء ، والتوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى قبل فوات الأوان ، فالضعفاء لا يحترمهم أحد في هذه الأيام .

قال الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله يصف مأساتنا :

١.- أمتي هل لك بين الأمم *** منبر للسيف أو للقلم

٢. - أتلقاك وطرفي مطرق *** خجلاً من أمسك المنصرم

٣.- أين دنياك التي أوحت إلى *** وترى كل يتيم النغم ؟

٤.- كم تخطيت على أصدائه *** ملعب العز ومغنى الشمم

٥.-وتهاديت كأني ساحب *** مئزري فوق جباه الأنجم

٦.-أمتي كم غصة دامية *** خنقت نجوى علاك في فمي

٧.- ألإسرائيل تعلو راية *** في حمى المهد وظل الحرم ؟

٨.- كيف أغضيت على الذل و لم و لم تنفضي عنك غبار التهم ؟

٩.- أو ما كنت إذا البغي اعتدى *** موجة من لهب أو دم ؟

١٠.- اسمعي نوح الحزانى واطربي وانظري دم اليتامى وابسمي

١١.- ودعي القادة في أهوائها *** تتفانى في خسيس المغنم

١٢.- رب وامعتصماه انطلقت *** ملء أفواه الصبايا اليتّم

١٣.- لامست أسماعهم لكنها *** لم تلامس نخوة المعتصم

١٤.- أمتي كم صنم مجدته *** لم يكن يحمل طهر الصنم

١٥.- لا يلام الذئب في عدوانه *** إن يك الراعي عدو الغنم

١٦.- فاحبسي الشكوى فلولاك لما *** كان في الحكم عبيد الدرهم

إذن: لابد لهذه الأمة أن تعرف أسباب النصر والهزيمة، وأن تتلمس واقعها هذا، والأمور التي أدت إلى نزولها إلى هذا الحضيض، وأن تحاول أن تنتشل نفسها، وأن تخرج إلى ما أراد الله لها من قيادة هذه الدنيا، ومن سيادة العالم أجمع ، وذلك بقوله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...... [البقرة : ١٤٣] }

هذا وقد كتبت أبحاث عديدة عن أسباب النصر والهزيمة في عصرنا هذا ، لكنها مع أهميتها البالغة لم تستقص ما يتعلق بهذا الموضوع الجلل .

وقد حاولت استقصاءها في موسوعتي هذه ، من القرآن والسنَّة والتاريخ وأقوال العلماء .

وقد قسمتها للأبواب التالية :

الباب الأول - عوامل النصر والهزيمة العامة ، وفيه أربعة عشر مبحثاً .

الباب الثاني - شروطُ الاستخلافِ والتمكين في هذه الأرضِ ، وفيه مباحث عديدة .

الباب الثالث - عوامل النصر الخاصة في القرآن والسنة ، وفيه تسعون مبحثاً .

الباب الرابع - عوامل الهزيمة الخاصة في القرآن والسنة، وفيه ثمانية وأربعون مبحثاً

البابُ الخامس - النصر قادم بإذن الله تعالى، وفيه أربعة مباحث .

الباب السادس - تصحيح مفاهيم خاطئة في صراعنا مع اليهود والنصارى ، وفيه ستة عشر مبحثاً .

الباب السابع -بحوث ومقالات وخطب حول أسباب النصر والهزيمة،وفيه حوالي مائتين وثلاثة وعشرين مبحثاً ..

وأما طريقة عملي فيه ، فهو كما يلي :

شرح الآيات القرآنية بما يدلُّ على مرماها .

تخريج الأحاديث من مظانها في الأبواب الستة الأولى والحكم عليها بما يناسبها ، وغالبها تدور بين الصحة والحسن .

شرح غريب الحديث ، والتعليق على الحديث إذا لزم الأمر .

ذكر مصدر الأقوال في الباب السابع إما بذكر اسم صاحبه ، أو مصدره على النت ، وتركت هذا الباب كما هو دون تعليق عليه .

وقد قمت بفهرستها على برنامج الورد ليسهل الرجوع إليها ، وكذلك قمت بوضعها في الشاملة ٣ مع فهرستها التامة ، وموافقتها للمطبوع ، وقد نافت صفحاتها على الألفي صفحة من القطع الكبير آملاً أن تكون زادا ومعيناً لا ينضب للجيل المعاصر ولمن بعده ، وسبباً من أسباب نصر هذه الأمة والتمكين لها في الأرض ، وما ذلك على الله بعزيز .

سائلاً المولى سبحانه وتعالى أن ينفع بها جامعها وقارئها وناشرها والدال عليها في الدارين .

قال تعالى : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة : ٢١٤] }

جمعه وأعده

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ١٩ محرم لعام ١٤٣٠ هـ الموافق ل ١٥/١/٢٠٠٩ م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الباب الأول

عوامل النصر والهزيمة العامة

* الابتلاء والمحن سنة الدعوات :

وتنتهي هذه التوجيهات في سورة البقرة والتي تستهدف إنشاء تصور إيماني كامل ناصع في قلوب الجماعة المسلمة . . تنتهي بالتوجه إلى المؤمنين الذين كانوا يعانون في واقعهم مشقة الاختلاف بينهم وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، وما كان يجره هذا الخلاف من حروب ومتاعب وويلات . . يتوجه إليهم بأن هذه هي سنة الله القديمة ، في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة ، وليكونوا لها أهلا:أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم ؛ وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم والشدة والضر ؛ وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة ؛ حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم ، لم تزعزعهم شدة ، ولم ترهبهم قوة ، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة . . استحقوا نصر الله ، لأنهم يومئذ أمناء على دين الله ، مأمونون على ما ائتمنوا عليه ، صالحون لصيانته والذود عنه . واستحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف وتحررت من الذل ، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء . فهي عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة ، وارفع ما تكون عن عالم الطين: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} (٢١٤) سورة البقرة. .

هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، وإلى سنته – سبحانه – في تربية عباده المختارين ، الذين يكل إليهم رايته ، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم . .

وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة . . إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه . من الرسول الموصول بالله ، والمؤمنين الذين آمنوا بالله . إن سؤالهم: (متى نصر الله ؟) ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون إلا محنة فوق الوصف ، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب ، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: (متى نصر الله ؟) . .

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة . . عندئذ تتم كلمة الله ، ويجيء النصر من الله: (ألا إن نصر الله قريب) . .

إنه مدخر لمن يستحقونه . ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية . الذين يثبتون على البأساء والضراء . الذين يصمدون للزلزلة . الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة . الذين يستيقنون أن لا نصر

إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله . وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى (نصر الله) ، لا إلى أي حل آخر ، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله . ولا نصر إلا من عند الله .

بهذا يدخل المؤمنون الجنة ، مستحقين لها ، جديرين بها ، بعد الجهاد والامتحان ، والصبر والثبات ، والتجرد لله وحده ، والشعور به وحده ، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه .

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ، ويرفعها على ذواتها ، ويطهرها في بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضيء ، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية ، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها . وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع ، وكما يقع في كل قضية حق ، يلقي أصحابها ما يلقون في أول الطريق ، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين . .

على أنه – حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته . يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها ، وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة ، والحرص على الحياة نفسها في النهاية . . وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء . كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون ، والمؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته .

وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف . . وهذا هو الطريق . .

هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى ، وللجماعة المسلمة في كل جيل .

هذا هو الطريق:إيمان وجهاد . . ومحنة وابتلاء . وصبر وثبات . . وتوجه إلى الله وحده . ثم يجيء النصر . ثم يجيء النعيم . .

---

* توجيهات عامة في سورة آل عمران :

هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها . وهو قوامها وكيانها . وهو حارسها وراعيها . وهو بيانها وترجمانها . وهو دستورها ومنهجها . وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة – كما يستمد منه الدعاة – وسائل العمل ، ومناهج الحركة ، وزاد الطريق . .

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسنا ، ونستحضر في تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية ، ذات وجود حقيقي ؛ ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة ؛ ووجهت به حياة إنسانية حقيقية في هذه الأرض ؛ وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس البشرية وفي رقعة من الأرض كذلك . معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات .

وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجـــرد تراتيـــل تعبدية مهومة ، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه هذا الخلق المسمى بالإنسان ، والتي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين ! بينما هذه الآيات نزلت لتواجه نفوسا ووقائع وأحداثا حية ، ذات كينونة واقعية حية ؛ ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعيا حيـــا ، نشأ عنه وجود ، ذو خصائص في حياة "الإنسان" بصفة عامة ، وفي حياة الأمة المسلمة بوجه خاص.

ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة ، في فترة من فتـــرات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها ، ولكنه – مع هذا – يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة ، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية ، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها ، وفي معركتـــها كـــذلك في داخل النفس ، وفي عالم الضمير ، بنفس الحيوية ، ونفس الواقعية التي كانت له هناك يومذاك .

ولكي نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة ، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة ، ونتلقـــى منه التوجيه المدخر للجماعة المسلمة في كل جيل . . ينبغي أن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعـــة المسلمة الأولى التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة . . كينونتها وهي تتحرك في واقع الحياة ، وتواجـــه الأحداث في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها ؛ وتتعامل مع أعدائها وأصـــدقائها ؛ وتتصـــارع مـــع شهواتها وأهوائها ؛ ويتنزل القرآن حينئذ ليواجه هذا كلـــه ، ويوجـــه خطاهـــا في أرض المعركـــة الكبيرة:مع نفسها التي بين جنبيها ، ومع أعدائها المتربصين بها في المدينة وفي مكة وفيما حولهمـــا . . وفيما وراءهما كذلك . .

أجل . . يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى ؛ ونتمثلها في بشريتها الحقيقية ، وفي حياتها الواقعية ، وفي مشكلاتها الإنسانية ؛ ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة في شؤونها اليومية وفي أهدافها الكلية على السواء ؛ ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة . وهي تعثر وتنهض . وتحيد وتستقيم . وتضعف وتقاوم . وتتألم وتحتمل . وترقى الدرج الصاعد في بطء ومشقة ، وفي صـــبر ومجاهـــدة ، تتجلى فيها كل خصائص الإنسان ، وكل ضعف الإنسان ، وكل طاقات الإنسان .

ومن ثم نشعر أننا نحن أيضا مخاطبون بالقرآن في مثل ما خوطبت به الجماعة الأولى . وأن بشريتنا التي نراها ونعرفها ونحسها بكل خصائصها ، تملك الاستجابة للقرآن ، والانتفاع بقيادته في ذات الطريق.

إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حيا يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى ؛ ويملك أن يعمل في حياتنـــا نحن أيضا . وسنحس أنه معنا اليوم وغدا . وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهومة بعيدة عن واقعنا المحدد ، كما أنه ليس تاريخا مضى وانقضى وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية .

إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته . الكون كتاب الله المنظور . والقرآن كتاب الله المقروء . وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع ؛ كما أن كليهما كائن ليعمل . . والكـــون

بنواميسه ما زال يتحرك ويؤدي دوره الذي قدره له بارئه . الشمس ما زالت تجري في فلكها وتؤدي دورها ، والقمر والأرض ، وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها ، وجدة هذا الدور في المحيط الكوني . . والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية ، وما يزال هو هو . فالإنسان ما يزال هوهو كذلك . ما يزال هو هو في حقيقته وفي أصل فطرته . وهذا القرآن هو خطاب الله لهـذا الإنسان – فيمن خاطبهم الله به . خطاب لا يتغير ، لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقا آخـر ، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله ، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هـذه الظـروف والملابسات . . والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير ؛ ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدا لأنه معد لهذا ، بما أنه خطاب الله الأخير ؛ وبما أن طبيعته كطبيعـة هـذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل .

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا:هذا نجم قديم "رجعي ؟ " يحسن أن يسـتبدل به نجم جديد "تقدمي ! " أو أن هذا "الإنسان" مخلوق قديم "رجعي" يحسن أن يستبدل به كائن آخر "تقدمي" لعمارة هذه الأرض !!!

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأولى أن يكون هذا هو الشأن في القرآن . خطـاب الله الأخير للإنسان .

وهذه السورة تمثل قطاعا حيا من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد "غزوة بـدر" – في السـنة الثانية من الهجرة – إلى ما بعد "غزوة أحد" في السنة الثالثة . وما أحاط بهذه الحياة مـن ملابسـات شتى في خلال هذه الفترة الزمنية . وفعل القرآن – إلى جانب الأحداث – في هذه الحياة ، وتفاعلـه معها في شتى الجوانب .

والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة ؛ وصورة الحياة التي عاشتها الجماعة المسلمة ؛ وصورة الاشتباكات والملابسات التي أحاطت بهذه الحياة . مع استبطان السرائر والضمائر ، وما يدب فيها من الخواطر ، وما يشتجر فيها من المشاعر ، حتى لكأن قارئها يعيش هذه الأحداث ، ويعايش الأمة التي كانت تخوضها وتتفاعل وإياها . ولو أغمض الإنسان عينيه فلربما تراءت له – كما تراءت لي – شخوص الجماعة المسلمة رائحة غادية ، بسماتها الظاهرة على الوجـوه ، ومشـاعرها المستكنة في الضمائر . ومن حولها أعداؤها يتربصون بها ، ويبيتون لها ، ويلقون بينها بالفرية والشبهة ، ويتحاقدون عليها ، ويجمعون لها ، ويلقونها في الميدان ، وينهزمون أمامها – في أحد – ثم يكـرون عليها فيوقعون بها . . وكل ما يجري في المعركة من حركة وكل ما يصاحب حركاتها مـن انفعـال باطن وسمة ظاهرة . . والقرآن يتنزل ليواجه الكيد والدس ، ويبطل الفرية والشبهة ، ويثبت القلـوب والأقدام ، ويوجه الأرواح والأفكار ، ويعقب على الحادث ويبرز منه العبرة ، ويبني التصور ويزيـل

عنه الغبش ، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر والكيد الماكر ، ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل ، قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور . .

ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التي احتوتها السورة خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان ، وقيد الظروف والملابسات ، تواجه النفس البشرية ، وتواجه الجماعة المسلمة – اليوم وغدا – وتواجه الإنسانية كلها ، وكأنها تتنزل اللحظة لها ، وتخاطبها في شأنها الحاضر ، وتواجهها في واقعها الراهن . ذلك أنها تتناول أمورا وأحداثا ومشاعر وجدانية وحالات نفسية كأنما كانت ملحوظة في سياق السورة . . بل هي ملحوظة قطعا في تقدير العليم الخبير بالنفوس والأشياء والأمور. ومن ثم يتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة في أي مكان وفي أي زمان . وهو دستور هذه الأمة في أي جيل ومن أي قبيل . وهو حادي الطريق وهادي السبيل على توالي القرون . . ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان في جميع العصور . .

في هذه الفترة كانت الجماعة المسلمة في المدينة قد استقرت بعض الاستقرار في موطنها الجديد في مدينة الرسول ﷺ ومضت خطوة وراء الموقف الذي صورناه من قبل في هذه الظلال في مطلع استعراض "سورة البقرة " .

كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت ؛ وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش . وكان هذا النصر بظروفه التي تم فيها والملابسات التي أحاطت به تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة . . ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبي بن سلول من عظماء الخزرج أن يترل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونبيه ﷺ وأن يكبت حقده وحسده للرسول الكريم ؛ وأن ينضم – منافقا – للجماعة المسلمة ، وهو يقول:"هذا أمر قد توجه" . . أي ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يرده عنها راد !

بذلك وجدت بذرة النفاق في المدينة – أو نمت وأفرخت ، فقد كان هناك قبل بدر من اضطروا لمنافقة أهلهم الذين دخلوا في الإسلام – وأصبحت مجموعة من الرجال ، ومن ذوي المكانة فيهم ، مضطرة إلى التظاهر بالإسلام ، والانضمام إلى المجتمع المسلم ، بينما هي تضمر في أنفسها الحقد والعداء للإسلام والمسلمين ؛ وتتربص بهم الدوائر ؛ وتتلمس الثغرات في الصف ؛ وتترقب الأحداث التي تضعضع قوى المسلمين أو تزعزع الصف المسلم ، ليظهروا كوامن صدورهم ، أو ليضربوا ضربة الإجهاز إذا كان ذلك في مكنتهم !

وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم في اليهود ، الذين كانوا يجدون في أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين ، وعلى نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام مثل ما يجد المنافقون بل أشد . وقد هددهم الإسلام تهديدا قويا في مكانتهم بين "الأميين" من العرب في المدينة ؛ وسد عليهم الثغرة التي كانوا ينفذون منها للعب بين الأوس والخزرج ، بعدما أصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وفي ظل الإسلام صفا واحدا مرصوصا .

وقد غص اليهود وشرقوا بانتصار المسلمين في بدر ، وارتفع غليان حقدهم على الجماعة المسلمة ، وانطلقوا بكل ما يملكون من دس وكيد وتآمر يحاولون تفتيت الصف الإسلامي ، وإلقاء الحيرة في قلوب المسلمين ، ونشر الشبهات والشكوك ، في عقيدتهم وفي أنفسهم على السواء !

وفي هذه الفترة وقع حادث بني قينقاع فوضح العداء وسفر . . على الرغم مما كان بين اليهود والنبي ﷺ من مواثيق أبرمها معهم عقب مقدمه إلى المدينة .

كذلك كان المشركون موتورين من هزيمتهم في بدر ، يحسبون ألف حساب لانتصار محمد ﷺ ومعسكر المدينة ، وللخطر الذي يتمثل إذن على تجارهم وعلى مكانتهم وعلى وجودهم كذلك ! ومن ثم يتهيأون لدفع هذا الخطر الماحق قبل أن يصبح القضاء عليه مستحيلا .

وبينما كان أعداء المعسكر الإسلامي في عنفوان قوتهم وفي عنفوان حقدهم كذلك ! كان الصف المسلم ما يزال في أوائل نشأته بالمدينة . غير متناسق تماما . فيه الصفوة المختارة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ ولكن فيه كذلك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد . والجماعة كلها على العموم لم تنل من التجارب الواقعية ما يسوي النتوءات ، ويوضح حقيقة الدعوة وحقيقة الظروف الملابسة لها ، وحقيقة منهجها العملي وتكاليفه .

كان للمنافقين – وعلى رأسهم عبد الله بن أبي – مكانتهم في المجتمع ، وروابطهم العائلية والقبلية لم تنفصم بعد ؛ ولم ينضج في نفوس المسلمين الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي أسرتهم وهي قبيلتهم وهي وشيجتهم التي لا وشيجة معها . ومن ثم كانت هناك خلخلة في الصف الإسلامي بسبب وجود مثل هذه العناصر مندمجة في الصف ، مؤثرة في مقاديره .

وكان لليهود مكانتهم كذلك في المدينة ، وارتباطاتهم الاقتصادية والتعهدية مع أهلها . ولم يتبين عداؤهم سافرا . ولم ينضج في نفوس المسلمين كذلك الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي العهد وهي الوطن وهي أصل التعامل والتعاقد ، وأنه لا بقاء لصلة ولا وشيجة إذا هي تعارضت مع العقيدة ! ومن ثم كانت لليهود فرصة للتوجيه والتشكيك والبلبلة . وكان هناك من يسمع لقولهم في الجماعة المسلمة ويتأثر به . وكان هناك من يدفع عنهم ما يريد النبي ﷺ أن يترل بهم من إجراءات لدفع كيدهم عن الصف المسلم [كما حدث في شفاعة عبد الله بن أبي في بني قينقاع ، وإغلاظه في هذا للرسول ﷺ] .

ومن ناحية أخرى كان المسلمون قد انتصروا في بدر ذلك النصر الكامل الباهر بأيسر الجهد والبذل . فقد خرج ذلك العدد القليل من المسلمين ، غير مزودين بعدة ولا عتاد – إلا اليسير – فلاقوا ذلك الجحفل الضخم من قريش في عددهم وعتادهم . ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزر الباهر .

وكان هذا النصر في الوقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله بجند الشرك قدرا من قدر الله . ندرك اليوم طرفا من حكمته . ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها . بل لإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة ، لتأخذ بعد ذلك طريقها .

فأما المسلمون فلعلهم قد وقع في نفوسهم – من هذا النصر – أنه الشأن الطبيعي الذي لا شأن غيره . وأنه لا بد ملازمهم على أي حال في كل مراحل الطريق ! أليسوا بالمسلمين ؟ أليس أعداؤهم بالكافرين ؟ وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين !

غير أن سنة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة ، فلهذه السنة مقتضياتها في تكوين النفوس ، وتكوين الصفوف ، وإعداد العدة ، واتباع المنهج ، والتزام الطاعة والنظام ، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان . . وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة في "غزوة أحد" على النحو الذي تعرضه السورة عرضا حيا مؤثرا عميقا ، وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين ؛ وتوجه في ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء .

وحين نراجع غزوة أحد نجد أن تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلفهم أهوالا وجراحات وشهداء من أعز الشهداء – على رأسهم حمزة رضي الله عنه وأرضاه – وكلفهم ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم . . كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته وتكسر سنة ، ويسقط في الحفرة ، ويغوص حلق المغفر في وجنته ﷺ الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين !

ويسبق استعراض "غزوة أحد" وأحداثها في السورة قطاع كبير تستغرقه كله توجيهات متشعبة لتصفية التصور الإسلامي من كل شائبة ؛ ولتقرير حقيقة التوحيد جلية ناصعة ، والرد على الشبهات التي يلقيها أهل الكتاب ، سواء منها ما هو ناشئ من انحرافاتهم هم في معتقداتهم ، وما يتعمدون إلقاءه في الصف المسلم من شبهات ماكرة لخلخلة العقيدة وخلخلة الصف من وراء خلخلة العقيدة .

وتذكر عدة روايات أن الآيات من ١ – ٨٣ نزلت في الحوار مع وفد نصارى نجران اليمن الذي قدم المدينة في السنة التاسعة للهجرة . ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات . فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة ، حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة . وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وفي سلوكها .

وسواء صحت رواية أن الآيات نزلت في وفد نجران أم لم تصح ؛ فإنه واضح من الموضوع الذي تعالجه أنها تواجه شبهات النصارى وبخاصة ما يتعلق منها بعيسى عليه السلام ، وتدور حول عقيدة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام . وتصحح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه . وتدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن بصدقها .

ولكن هذا الفصل يتضمن كذلك إشارات وتقريعات لليهود وتحذيرات للمسلمين من دسائس أهل الكتاب . وما كان يجاورهم في المدينة من أهل الكتاب ممن يمثل مثل هذا الخطر إلا اليهود .

وعلى أية حال فإن هذا الفصل الذي يستغرق حوالي نصف السورة يصور جانبا من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة في الجزيرة كلها . . وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظري من المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة الناشئة وكل أعدائها الذين كانوا يتربصون بها ، ويتحفزون من حولها ، ويستخدمون في حربها كل الأسلحة وكل الوسائل . وفي أولها زعزعة العقيدة ! وهي في صميمها المعركة التي ما تزال ناشبة إلى هذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها . . إنهم هم هم:الملحدون المنكرون ، والصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية !!!

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين أن الوسائل هي الوسائل كذلك ؛ والأهداف هي الأهداف . ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة ، ومرجع هذه الأمة - اليوم وغدا - كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس في نشأتها الأولى . وأنه لا يعرض عن استنصاح هذا الناصح واستشارة هذا المرجع في المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول يعرض عن سلاح النصر في المعركة ؛ ويخدع نفسه أو يخدع الأمة ، لخدمة أعدائها القدامى المحدثين في غفلة بلهاء أو في خبث لئيم !

ومن خلال المناقشات والجدل والاستعراض والتوجيه في هذا المقطع الأول يتبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم ، من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة ، ممثلا في أمثال هذه النصوص:

{هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} (٧) سورة آل عمران. .

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ} (٢٣) سورة آل عمران. .

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} (٦٥) سورة آل عمران

{وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (٦٩) سورة آل عمران. .

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} (٧٠) سورة آل عمران. .

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} (٧١) سورة آل عمران. .

{وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (٧٢) سورة آل عمران

{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (٧٣) سورة آل عمران. .

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (٧٥) سورة آل عمران. .

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (٧٨) سورة آل عمران. .

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} (٩٨) سورة آل عمران. .

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (٩٩) سورة آل عمران.

{هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (١١٩) سورة آل عمران.

{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (١٢٠) سورة آل عمران) . .

وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب ؛ و لم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب . . إنما كانوا يحاربونها أولا في عقيدتها . كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونشر الشبهات وتدبير المناورات ! كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها ، ومنها قام وجودها ، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين . ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماما – أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ؛ ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ؛ ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ؛ ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الإيمان ، مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه ، حاملة لرايته ، ممثلة لحزبه ، منتسبة إليه ، معتزة بهذا النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة .

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة . وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ، ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها . . ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال ، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور !

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة ، والتشكيك فيها ، والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة: ({وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (٦٩) سورة آل عمران . .

فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة !

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا . . كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه ؛ وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب ؛ ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين ؛ ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض ، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ، ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة ، وأهدافهم الخطرة ، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين ، لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم . .

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها في هذا الوجود . فيبين لها هزال أعدائها ، وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء . كما يبين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك . وأنه سيأخذ الكفار [وهو تعبير هنا عن اليهود] بالعذاب والنكال ؛ كما أخذ المشركين في بدر منذ عهد قريب .

ومن هذه الحملة الطويلة التي اقتطفنا منها هذه الآيات ، وتنوع توجيهاتها وتلقيناتها تتبين عدة أمور:

أولها:ضخامة الجهد الذي كان يبذله أهل الكتاب في المدينة وغيرها ، وعمق الكيد وتنوع أساليبه ، واستخدام جميع الوسائل لزعزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم من ورائها .

وثانيها:ضخامة الآثار التي كان هذا الجهد يتركها في النفوس وفي حياة الجماعة المسلمة ، مما اقتضى هذا البيان الطويل المفصل المنوع المقاطع والأساليب .

وثالثها:هو ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة . من أن هؤلاء الأعداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوة وأصحابها في الأرض كلها ؛ وهم الذين تواجههم هذه العقيدة وأهلها . ومن ثم اقتضت إرادة الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادي الضخم البعيد المطارح لتراه الأجيال المسلمة قويا واضحا عميق التركيز على كشف الأعداء التقليديين لهذه الأمة ولهذا الدين !

أما القطاع الثاني في السورة فهو خاص بغزوة أحد . وهو يشتمل كذلك على تقريرات في حقائق التصور الإسلامي والعقيدة الإيمانية . وعلى توجيهات في بناء الجماعة المسلمة على أساس تلك الحقائق . إلى جانب استعراض الأحداث والوقائع ، والخواطر والمشاعر ، استعراضا يتبين منه بجلاء حالة الجماعة المسلمة يومها وقطاعاتها المختلفة التي أشرنا إليها في أول هذا التمهيد .

وعلاقة هذا المقطع بالمقطع الأول في السورة ظاهرة . فهو يتولى عملية بناء التصور الإسلامي وتجليته – في مجال المعركة والحديد ساخن ! – كما يتولى عملية تثبيت هذه الجماعة على التكاليف المفروضة

على أصحاب دعوة الحق في الأرض . مع تعليمهم سنة الله في النصر والهزيمة . ويربيهم بالتوجيهـــات القرآنية كما يربيهم بالأحداث الواقعية .

* تعقيب القرآن الكريم على غزوة أحد :

من معركة الجدل والمناظرة ، والبيان والتنوير ، والتوجيه والتحذير – فيما سبق من السورة – ينتقل السياق إلى المعركة في الميدان . . معركة أحد . .

وغزوة أحد لم تكن معركة في الميدان وحده ؛ إنما كانت معركة كذلك في الضمير . . كانت معركة ميدانها أوسع الميادين . لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانبا واحدا من ميدانها الهائل الذي دارت فيه . . ميدان النفس البشرية ، وتصوراتها ومشاعرها ، وأطماعها وشهواتها ، ودوافعها وكوابحها ، على العموم . . وكان القرآن هناك . يعالج هذه النفس بألطف وأعمق ، وبأفعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال !

وكان النصر أولا ، وكانت الهزيمة ثانيا ، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة . . انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلاها القرآن ؛ واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين . وتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ، وانطلاق الجماعة المسلمة – بعد ذلك – متحررة من كثير من غبش التصور ، وتميع القيم ، وتأرجح المشاعر ، في الصف المسلم . وذلك بتميز المنافقين في الصف إلى حد كبير ، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق ، في القول والفعل ، وفي الشعور والسلوك . ووضوح تكاليف الإيمان ، وتكاليف الدعوة إليه ، والحركة به ، ومقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالمعرفة ، والاستعداد بالتجرد ، والاستعداد بالتنظيم ، والتزام الطاعة والاتباع بعد هذا كله ، والتوكل على الله وحده ، في كل خطوة من خطوات الطريق ، ورد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة ، وفي الموت والحياة ، وفي كل أمر وفي كل اتجاه

وكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث ، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث ، أكبر وأخطر – بما لا يقاس – من حصيلة النصر والغنيمة . . لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة . . وقد كانت الجماعة المسلمة إذ ذاك أحوج ما تكون لهذه الحصيلة الضخمة . . كانت أحوج إليها ألف مرة من حصيلة النصر والغنيمة . وكان الرصيد الباقي منها للأمة المسلمة في كل جيل أهم وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة . وكان تدبير الله العلوي من وراء ما بدا في الموقعة من ظواهر النقص والضعف والتميع والغبش في الصف المسلم ، ومن وراء الهزيمة التي نشأت عن هذه الظواهر . . كان تدبير الله العلوي من وراء هذا الذي وقع وفق سنة الله الجارية ، حسب أسبابه الطبيعية الظاهرة ، تدبيرا كله الخير للجماعة المسلمة في ذلك الحين ، لتنال هذه الحصيلة الضخمة من العبرة والتربية ، والوعي والنضح ، والتمحيص والتميز ، والتنسيق والتنظيم . وليبقى للأمة المسلمة في أجيالها المتعاقبة هذا الرصيد من التجارب والحقائق والتوجيهات التي لا تقدر بثمن . ولو كان هذا الثمن هو النصر والغنيمة !

لقد انتهت المعركة في ميدان الأرض ، ليبدأها القرآن في ميدانها الأكبر:ميدان النفس ، وميدان الحيـــاة الشاملة للجماعة المسلمة . وصنع بهذه الجماعة ما تصنعه يد الله ، عن علم وعن حكمة ، وعن خبرة ، وعن بصيرة . وكان ما شاءه الله وما دبره . وكان فيه الخير العظـــيم ، مـــن وراء الضـــر والأذى والابتلاء الشاق المرير .

ولعل مما يلفت النظر في التعقيب القرآني على أحداث المعركة هو ذلـــك الازدواج العجيـــب بـــين استعراض مشاهدها ووقائعها ، والتوجيهات المباشرة على هذه المشاهد والوقائع . . وبين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس ، وتخليصها من غبش التصور ، وتحريرها من ربقة الشهوات ، وثقلة المطامع ، وظلام الأحقاد ، وظلمة الخطيئة ، وضعف الحرص والشح . والرغبات الدفينة .

ولعل مما يلفت النظر أكثر ، الكلام – في صدد التعقيب على معركة حربية – عن الربا والنهي عنه ، وعن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهريـــة في النتـــائج الســـيئة للمعركة !

ثم . . سعة المساحة التي يعمل فيها المنهج القرآني في النفس البشرية ، وفي الحياة الإنسانية ، وتعـــدد نقط الحركة فيها ، وتداخلها ، وتكاملها العجيب . .

ولكن الذين يدركون طبيعة هذا المنهج الرباني لا يعجبون لشيء من ذلك الازدواج وهذه الســـعة ، وهذا التداخل ، وهذا التكامل . فالمعركة الحربية في الحركة الإسلامية ليست معركة أسلحة وخيـــل ورجال وعدة وعتاد ، وتدبير حربي فحسب . . فهذه المعركة الجزئية ليست منعزلة عـــن المعركـــة الكبرى في عالم الضمير ، وعالم التنظيم الاجتماعي للجماعة المسلمة . . إنها ذات ارتباط وثيق بصفاء ذلك الضمير ، وخلوصه ، وتجرده ، وتحرره من الأوهاق والقيود التي تطمس على شفافيته ، وتقعد به دون الفرار إلى الله ! وكذلك هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة ، وفق منهج الله القويم . المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها – لا في نظام الحكم وحده – وعلى النظام التعاوني لا النظام الربوي . والتعاون والربا لا يجتمعان في نظام !

والقرآن كان يعالج الجماعة المسلمة ، على إثر معركة لم تكن – كما قلنا – معركة في ميدان القتـــال وحده . إنما كانت معركة في الميدان الأكبر . ميدان النفس البشرية ، وميدان الحياة الواقعية . . ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه ؛ وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحض عليه ؛ وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة ؛ وعرج على كظم الغيظ والعفو عن النـــاس ، وعلـــى الإحســـان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار ، والتوبة وعدم الإصرار ؛ فجعلها كلها مناط الرضوان . كما عـــرج على رحمة الله المتمثلة في رحمة الرسول ﷺ ولين قلبه للناس . وعلى مبدأ الشورى وتقريره في أحـــرج الأوقات . وعلى الأمانة التي تمنع الغلول . وعلى البذل والتحذير من البخل في نهايـــة مـــا نـــزل في التعقيب على الغزوة من آيات . .

عرج على هذا كله . لأنه مادة إعداد الجماعة المسلمة للمعركة في نطاقها الواسع ؛ الـذي يتضمن المعركة الحربية في إطاره ولا يقتصر عليها . معركة التعبئة الكاملة للانتصار الكبير . الانتصار على النفس والشهوات والمطامع والأحقاد ، والانتصار في تقرير القيم والأوضاع السليمة لحياة الجماعة الشاملة .

وعرج على هذا كله ليشير إلى وحدة هذه العقيدة في مواجهة الكينونة البشرية ونشاطها كله . ورده كله إلى محور واحد:محور العبادة لله ، والعبودية له ، والتوجه إليه في حساسية وتقوى . وإلى وحدة منهج الله في الهيمنة على الكينونة البشرية كلها ، في كل حال من أحوالها . وإلى الترابط بين جميع هذه الأحوال في ظل هذا المنهج . وإلى وحدة النتائج النهائية للنشاط الإنساني كله ، وتأثير كل حركة من حركات النفس ، وكل جزئية من جزئيات التنظيم في هذه النتائج النهائية .

وإذن فهذه التوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة . فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية والنظامية ، والذين تولوا يوم التقى الجمعان في "أحد":إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب . والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب ، والالتجاء إلى الله ، والالتصاق بركنه الركين . والتطهر من الذنوب إذن والالتصاق بالله ، والرجوع إلى كنفه من عدة النصر ، وليست بمعزل عن الميدان ! واطراح النظام الربوي إلى النظام التعاوني من عدة النصر ؛ والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر من المجتمع الربوي . وكظم الغيظ والعفو عن الناس من عدة النصر ، فالسيطرة على النفس قوة من قوى المعركة ، والتضامن والتواد في المجتمع المتسامح قوة ذات فاعلية كذلك .

كذلك كان من الحقائق التي اتكأ عليها السياق من بدئه إلى نهايته . . حقيقة قدر الله . ورد الأمر إليه جملة . وتصحيح التصور في هذه النقطة تصحيحا حاسما جازما . وفي الوقت ذاته تقرير سنة الله في ترتيب العواقب التي تحل بالبشر على ما يصدر من سعيهم ونشاطهم ، وخطئهم وإصابتهم ، وطاعتهم ومعصيتهم ، وتمسكهم بالمنهج وتفريطهم فيه . واعتبارهم بعد هذا كله ستارا للقدرة ، وأداة للمشيئة ، وقدرا من قدر الله يحقق به ما يشاء سبحانه .

ثم . . في النهاية . . إشعار الجماعة المسلمة أن ليس لها من أمر النصر شيء . إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره ، من خلال جهادها . وأجرها هي على الله . وليس لها من ثمار النصر شيء من أشياء هذه الأرض . ولا لحسابها الخاص يؤتيها الله النصر إذ يشاء . إنما لحساب الأهداف العليا التي يشاؤها الله . وكذلك الهزيمة . فإنها حين تقع بناء على جريان سنة الله ، وفق ما يقع من الجماعة المسلمة من تقصير وتفريط ، إنما تقع لتحقيق غايات يقدرها الله بحكمته وعلمه ؛ لتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ، وتجلية الحقائق ، وإقرار القيم ، وإقامة الموازين ، وجلاء السنن للمستبصرين . .

ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ؛ ما لم يقم هـــذا كله على أساس المنهج الرباني ، في الانتصار على النفس ، والغلبة على الهوى ، والفوز على الشهوة . وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس . ليكون كل نصر نصرا لله ولمنهج الله . وليكـــون كـــل جهد في سبيل الله ومنهج الله . وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية . ولا خـــير فيهـــا للحيـــاة ولا للبشرية . إنما الخير أن ترتفع راية الحق لذات الحق . والحق واحد لا يتعدد . إنه منهج الله وحـــده . ولا حق في هذا الكون غيره . وانتصاره لا يتم حتى يتم أولا في ميدان النفس البشـــرية . وفي نظـــام الحياة الواقعية . وحين تخلص النفس من حظ ذاتها في ذاتها ، ومن مطامعها وشهواتها ، ومن أدرانهـــا وأحقادها ، ومن قيودها وأصفادها . وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق . وحـــين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها ، لتكل الأمر كله إلى الله ، بعد الوفاء بواجبها من الجهـــد والحركة . وحين تحكم منهج الله في الأمر كله ، وتعد هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصـــارها . حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار في المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصارا . في ميـــزان الله . وإلا فهو انتصار الجاهلية على الجاهلية ، الذي لا وزن له عند الله ولا قيمة !

ومن ثم كان ذلك الازدواج ، وكان ذلك الشمول ، في التعقيب على المعركة التي دارت يوم أحـــد ، في ذلك الميدان الفسيح ، الذي يعد ميدان القتال جانبا واحدا من جوانبه الكثيرة .

---

* معالجة القرآن لأحداث الغزوة :

هذه بعض اللقطات من المعركة التي تجاور فيها النصر والهزيمة ، لا تفرق بينهما إلا لحظة من الزمان ، وإلا مخالفة عن الأمر ، وإلا حركة من الهوى ، وإلا لفتة من الشهوة ! والتي تجاورت فيها القيم العالية والسفوح الهابطة ! والنماذج الفريدة في تاريخ الإيمان والبطولة ، وفي تاريخ النفاق والهزيمة !

وهي مجموعة تكشف عن حالة من عدم التناسق في الصف حينذاك ، كما تكشف عن حالة من الغبش في تصورات بعض المسلمين . . وهذه وتلك أنشأت – وفق سنة الله وقدره – هذه النتائج التي ذاقها المسلمون ؛ وهذه التضحيات الجسام ، التي تتراءى على قمتها تلك التي أصابت رسول الله ﷺ والتي لا شك أن الصحابة حين ذاك كانوا يحسوها بعمق وعنف ، ويروها أشد ما نالهم من الآلام . وقد دفعوا الثمن غاليا ليتلقوا الدرس عاليا ، وليمحص الله القلوب ويميز الصفوف ، وليعد الجماعة المسلمة للمهمة العظمى التي ناطها بها:مهمة القيادة الراشدة للبشرية ، وإقرار منهج الله في الأرض في صورته المثالية الواقعية . .

فلننظر إذن كيف عالج القرآن الكريم الموقف بطريقة القرآن .

إن النص القرآني لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض ؛ ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ؛ ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه . .

وهو لا يعرض الحوادث عرضا تاريخيا مسلسلا بقصد التسجيل ؛ إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ؛ ورسم سمات النفوس ، وخلجات القلوب ، وتصوير الجو الذي صاحبها ؛ والسنن الكونية التي تحكمها ؛ والمبادىء الباقية التي تقررها . وبذلك تستحيل الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات ، والنتائج والاستدلالات . يبدأ السياق منها ؛ ثم يستطرد حولها ؛ ثم يعود إليها ؛ ثم يجول في أعماق الضمائر ، وفي أغوار الحياة ؛ ويكرر هذا مرة بعد مرة ، حتى ينتهي برواية الحادث إلى نهايتها وقد ضم جناحيه على حفل من المعاني والدلائل والقيم والمبادىء ، لم تكن رواية الحادث إلا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حواليها . وحتى يكون قد تناول ملابسات الحادث وعقابيله في الضمائر ، فجلاها . ونقاها ، وأراحها في مواضعها ، فلا تجد النفس منها حيرة ولا قلقا ، ولا تحس فيها لبسا ولا دخلا . .

وينظر الإنسان في رقعة المعركة ، وما وقع فيها – على سعته وتنوعه – ثم ينظر إلى رقعة التعقيب القرآني ، وما تناوله من جوانب ؛ فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك ، وأبقى على الزمن ، وألصق بالقلوب ، وأعمق في النفوس ، وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية ، وحاجات الجماعة الإسلامية ، في كل موقف تتعرض له في هذا المجال ، على تتابع الأجيال . فهي تتضمن الحقائق الباقية من وراء الأحداث الزائلة ، والمبادىء المطلقة من وراء الحوادث المفردة ، والقيم الأصيلة من وراء الظواهر العارضة ، والرصيد الصالح للتزود بغض النظر عن اعتبارات الزمان والمكان . .

وهذه الحصيلة الباقية تدخرها النصوص القرآنية لكل قلب يتفتح بالإيمان ، في أي زمان وفي أي مكان

* التذكير بمعجزة النصر في بدر :

هكذا يبدأ الحديث عن المعركة التي لم ينتصر فيها المسلمون – وقد كادوا – وهي قد بدأت بتغليب الاعتبارات الشخصية على العقيدة عند المنافق عبد الله بن أبي ؛ وتابعه في حركته أتباعه الذين غلبوا اعتباره الشخصي على عقيدتهم . وبالضعف الذي كاد يدرك طائفتين صالحتين من المسلمين . ثم انتهت بالمخالفة عن الخطة العسكرية تحت مطارق الطمع في الغنيمة ! فلم تغن النماذج العالية التي تجلت في المعركة ، عن المصير الذي انتهت إليه ، بسبب ذلك الخلل في الصف ، وبسبب ذلك الغبش في التصور . .

وقبل أن يمضي في الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التي انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بالمعركة التي انتهت بالنصر – معركة بدر – لتكون هذه أمام تلك ، مجالا للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ؛ ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة . ثم – بعد ذلك – ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ لحكمة تتحقق من وراء النصر كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء . وأن مرد الأمر في النهاية إلى الله على كلا الحالين ، وفي جميع الأحوال:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) [آل عمران/١٢٣-١٢٩]) . .

والنصر في بدر كان فيه رائحة المعجزة – كما أسلفنا – فقد تم بغير أداة من الأدوات المادية المألوفة للنصر . لم تكن الكفتان فيها – بين المؤمنين والمشركين – متوازنتين ولا قريبتين من التوازن . كان المشركون حوالي ألف ، خرجوا نفيرا لاستغاثة أبي سفيان ، لحماية القافلة التي كانت معه ، مزودين بالعدة والعتاد ، والحرص على الأموال ، والحمية للكرامة . وكان المسلمون حوالي ثلاثمائة ، لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة ذات الشوكة ، إنما خرجوا لرحلة هينة . لمقابلة القافلة العزلاء وأخذ الطريق عليها ؛ فلم يكن معهم – على قلة العدد – إلا القليل من العدة . وكان وراءهم في المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم ، ومنافقون لهم مكانتهم ، ويهود يتربصون بهم . . وكانوا هم بعد ذلك كله قلة مسلمة في وسط خضم من الكفر والشرك في الجزيرة . ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة

أنهم مهاجرون مطاردون من مكة ، وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبته غير مستقرة في هذه البيئة !

فبهذا كله يذكرهم الله – سبحانه – ويرد ذلك النصر إلى سببه الأول في وسط هذه الظروف:
(ولقد نصركم الله ببدر . وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون) . .

إن الله هو الذي نصرهم ؛ ونصرهم لحكمة نص عليها في مجموعة هذه الآيات . وهم لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم . فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله ، الذي يملك النصر والهزيمة ؛ والذي يملك القوة وحده والسلطان . فلعل التقوى أن تقودهم إلى الشكر ؛ وأن تجعله شكرا وافيا لائقا بنعمة الله عليهم على كل حال .

هذه هي اللمسة الأولى في تذكيرهم بالنصر في بدر . . ثم يستحضر مشهدها ويستحيي صورها في حسهم ، كأنهم اللحظة فيها: (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) [آل عمران/١٢٤-١٢٦]) . .

وكانت هذه كلمات رسول الله ﷺ يوم بدر ، للقلة المسلمة التي خرجت معه ؛ والتي رأت نفير المشركين ، وهي خرجت لتلقى طائفة العير الموقرة بالمتاجر ، لا لتلقى طائفة النفير الموقرة بالسلاح ! وقد أبلغهم الرسول ﷺ ما بلغه يومها ربه ، لتثبيت قلوبهم وأقدامهم ، وهم بشر يحتاجون إلى العون في صورة قريبة من مشاعرهم وتصوراتهم ومألوفاتهم . . وأبلغهم كذلك شرط هذا المدد . . إنه الصبر والتقوى ؛ الصبر على تلقي صدمة الهجوم ، والتقوى التي تربط القلب بالله في النصر والهزيمة:
(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

فالأن يعلمهم الله أن مرد الأمر كله إليه ، وأن الفاعلية كلها منه – سبحانه – وأن نزول الملائكة ليس إلا بشرى لقلوبهم ؛ لتأنس بهذا وتستبشر ، وتطمئن به وتثبت . أما النصر فمنه مباشرة ، ومتعلق بقدره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة: (ما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) . .

وهكذا يحرص السياق القرآني على رد الأمر كله إلى الله ، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة:قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة ، وإرادته الفاعلة ، وقدره المباشر . وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة . وإنما هي أداة تحركها المشيئة . وتحقق بها ما تريده . (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) . .

وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي ، وعلى تنقيتها من كل شائبة ، وعلى تنحيه الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة . . لتبقى الصلة

المباشرة بين العبد والرب . بين قلب المؤمن وقدر الله . بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط . كما هي في عالم الحقيقة . .

وبمثل هذه التوجيهات المكررة في القرآن ، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد ، استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين ، على نحو بديع ، هادئ ، عميق ، مستنير .

عرفوا أن الله هو الفاعل – وحده – وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب ، وبذل الجهد ، والوفاء بالتكاليف . . فاستيقنوا الحقيقة ، وأطاعوا الأمر ، في توازن شعوري وحركي عجيب !

ولكن هذا إنما جاء مع الزمن ، ومع الأحداث ، ومع التربية بالأحداث ، والتربية بالتعقيب على الأحداث . . كهذا التعقيب ، ونظائره الكثيرة ، في هذه السورة . .

وفي هذه الآيات يستحضر مشهد بدر والرسول ﷺ يعدهم الملائكة مددا من عند الله ؛ إذا هم استمسكوا بالصبر والتقوى والثبات في المعركة – حين يطلع المشركون عليهم من وجههم هذا . . ثم يخبرهم بحقيقة المصدر الفاعل – من وراء نزول الملائكة – وهو الله . الذي تتعلق الأمور كلها بإرادته ، ويتحقق النصر بفعله وإذنه .

(الله العزيز الحكيم) . . فهو(العزيز) القوي ذو السلطان القادر على تحقيق النصر . وهو(الحكيم) الذي يجري قدره وفق حكمته ، والذي يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة . .

ثم يبين حكمة هذا النصر . . أي نصر . . وغاياته التي ليس لأحد من البشر منها شيء:

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) [آل عمران/١٢٧-١٢٨]) . .

إن النصر من عند الله . لتحقيق قدر الله . وليس للرسول ﷺ ولا للمجاهدين معه في النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصي . كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء ! فلا هم أسباب هذا النصر وصانعوه ؛ ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده . لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده: (ليقطع طرفا من الذين كفروا) . .

فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة ، أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة !

(أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) . . أي يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين .

(أو يتوب عليهم) . .

فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام والهداية . .

(أو يعذبهم فإنهم ظالمون) . . يعذبهم بنصر المسلمين عليهم . أو بأسرهم . أو بموتهم على الكفر الذي ينتهي بهم إلى العذاب . . جزاء لهم على ظلمهم بالكفر ، وظلمهم بفتنة المسلمين ، وظلمهم بالفساد في الأرض ، وظلمهم بمقاومة الصلاح الذي يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه . . إلى آخر صنوف الظلم الكامنة في الكفر والصد عن سبيل الله .

وعلى أية حال فهي حكمة الله ، وليس لبشر منها شيء . . حتى رسول الله ﷺ يخرجه النص من مجال هذا الأمر ، ليجرده لله وحده - سبحانه - فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك .

بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر:من أسبابه ومن نتائجه ! وبذلك يطامنون من الكبر الذي يثيره النصر في نفوس المنتصرين ، ومن البطر والعجب والزهو الذي تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم ! وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شيء ، إنما الأمر كله لله أولا وأخيرا .

وبذلك يرد أمر الناس - طائعهم وعاصيهم - إلى الله . فهذا الشأن شأن الله وحده - سبحانه . شأن هذه الدعوة وشأن هؤلاء الناس معها:طائعهم وعاصيهم سواء . . وليس للنبي ﷺ وليس للمؤمنين معه إلا أن يؤدوا دورهم ، ثم ينفضوا أيديهم من النتائج ، وأجرهم من الله على الوفاء ، وعلى الولاء ، وعلى الأداء .

وملابسة أخرى في السياق اقتضت هذا التنصيص: (ليس لك من الأمر شيء) فسيرد في السياق قول بعضهم: (هل لنا من الأمر من شيء ؟) . . وقولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . . . ليقول لهم:إن أحدا ليس له من الأمر من شيء . لا في نصر ولا في هزيمة . إنما الطاعة والوفاء والأداء هي المطلوبة من الناس . وأما الأمر بعد ذلك فكله لله . ليس لأحد منه شيء . ولا حتى لرسول الله . . فهي الحقيقة الأصيلة في التصور الإسلامي . وإقرارها في النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث ، وأكبر من شتى الاعتبارات . .

ويختم هذا التذكير ببدر ، وهذا التقرير للحقائق الأصيلة في التصور ، بالحقيقة الشاملة التي ترجع إليها حقيقة أن أمر النصر والهزيمة مرده إلى حكمة الله وقدره . . يختم هذا التقرير بتقرير أصله الكبير:وهو أن الأمر لله في الكون كله ، ومن ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفق ما يشاء:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . .

فهي المشيئة المطلقة ، المستندة إلى الملكية المطلقة . وهو التصرف المطلق في شأن العباد ، بحكم هذه الملكية لما في السماوات وما في الأرض . وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد ، في المغفرة أو في العذاب . إنما يقضي الأمر في هذا الشأن بالحكمة والعدل ، وبالرحمة والمغفرة . فشأنه - سبحانه - الرحمة والمغفرة: (والله غفور رحيم) . .

والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته ، بالعودة إليه ، ورد الأمر كله له ، وأداء الواجب المفروض ، وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب .

* سنة الله في الابتلاء والتمحيص والتداول :

إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة ، إنما هو حادث عابر ، وراءه حكمة خاصة . . ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان . فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها . وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها:حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب ، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ؛ ووقف المسلمين أمام الموت وجها لوجه وقد كانوا يتمنونه ، ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعي ! ثم في النهاية محق الكافرين ، بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين . . وإذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النصر أو هي الهزيمة .

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) [آل عمران/١٣٧-١٤٣])

لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة ، وأصابهم القتل والهزيمة . أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابيا ، وكسرت رباعية الرسول ﷺ وشج وجهه ، وأرهقه المشركون ، وأثخن أصحابه بالجراح . . وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس ، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر ، حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: أنى هذا ؟ وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون ؟!

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض . يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور . فهم ليسوا بدعا في الحياة ؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف ، والأمور لا تمضي جزافا ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق . و لم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ؛ بدون الأخذ بأسباب النصر ، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول .

والسنن التي يشير إليها السياق هنا ، ويوجه أبصارهم إليها هي:

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . ومداولة الأيام بين الناس . والابتلاء لتمحيص السرائر ، وامتحان قوة الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين .

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة في الشدة ، والتأسية على القرح ، الذي لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفا ، وأهدى منهم طريقا ومنهجا ، والعاقبة بعد لهم ، والدائرة على الكافرين .

(قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) . .

إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ، ولم تكن معارفهم ، ولم تكن تجاربهم – قبل الإسلام – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لولا هذا الإسلام – وكتابه القرآن – الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا . .

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم ؛ فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعا . . وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة . بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها ، في ربع قرن من الزمان . على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ؛ ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية ، إلا بعد أجيال وأجيال . . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية ، وأنه إلى الله تصير الأمور . . فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله ، واتسع له تصورها ، ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان – بعد هذا – إلى مشيئته الطليقة !

(قد خلت من قبلكم سنن) . . وهي هي التي تحكم الحياة . وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة . فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله – بمشيئة الله – في زمانكم ، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم .

(فسيروا في الأرض) . . فالأرض كلها وحدة . والأرض كلها مسرح للحياة البشرية . والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر .

(فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . . وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض ، وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك . . ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة . بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه . وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل . .

وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة:إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغدا . ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة . وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى . وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير . وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير .

وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان: (هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين) . . هذا بيان للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادي . ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى ، وتجد فيه الموعظة ، وتنتفع به وتصل على هداه . . طائفة "المتقين" . .

إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى . والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها . . والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل ، وبالهدى والضلال . . إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل . إنما تنقص الناس الرغبة في الحق ، والقدرة على اختيار طريقه . . والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان ، ولا يحفظهما إلا التقوى . . ومن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات . تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق ، ومن هدى ، ومن نور ، ومن موعظة ، ومن عبرة . . . إنما هي للمؤمنين وللمتقين . فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة . وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة . . واحتمال مشقات الطريق . . وهذا هو الأمر ، وهذا هو لب المسألة . . لا مجرد العلم والمعرفة . . فكم ممن يعلمون ويعرفون ، وهم في حمأة الباطل يتمرغون . إما خضوعا لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة ، وإما خوفا من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة !

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين) . . لا تهنوا – من الوهن والضعف – ولا تحزنوا – لما أصابكم ولما فاتكم – وأنتم الأعلون . . عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه ! ومنهجكم أعلى . فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله ، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله ! ودوركم أعلى . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها ، الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن النهج ، ضالون عن الطريق . ومكانكم في الأرض أعلى ، فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . . فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا . فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا ، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص: (إن يمسسكم قرح فقد

مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) . .

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله ، قد يكون إشارة إلى غزوة بدر . وقد مس القرح فيها المشركين وسلم المسلمون . وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد . وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر . حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون ، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد . حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها . . ثم كانت الدولة للمشركين ، حينما خرج الرماة على أمر رسول الله ﷺ واختلفوا فيما بينهم . فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة . جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج ، وتحقيقا لسنة من سنن الله التي لا تتخلف ، إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة . والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله ، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد . وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض ، وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما . ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون . كما تتكشف الأخطاء . وينجلي الغبش .

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . . وليعلم الله الذين آمنوا) . .

إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة ، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، وطبائع القلوب ، ودرجة الغبش فيها والصفاء ، ودرجة الهلع فيها والصبر ، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح !

عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن:مؤمنين ومنافقين ، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم ، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم . ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده ، وهم مختلطون مبهمون !

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين . والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور . ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء ، وتجعله واقعا في حياة الناس ، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر ، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر ، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء . فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم .

ومداولة الأيام ، وتعاقب الشدة والرخاء ، محك لا يخطىء ، وميزان لا يظلم . والرخاء في هذا كالشدة . وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل . والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء ، وتتجه إلى الله في الحالين ، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله .

وقد كان الله يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء ، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة . لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة . ولتزيد طاعة لله ، وتوكلا عليه ، والتصاقا بركنه . ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين .

ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة ، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس ، وفيما بعد تمييز الصفوف ، وعلم الله للمؤمنين:

(ويتخذ منكم شهداء) . .

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق – إن الشهداء لمختارون . يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويتخذهم لنفسه – سبحانه – فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد . إنما هو اختيار وانتقاء ، وتكريم واختصاص . . إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ، ليستخلصهم لنفسه – سبحانه – ويخصهم بقربه .

ثم هم شهداء يتخذهم الله ، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس . يستشهدهم فيؤدون الشهادة . يؤدونها أداء لا شبهة فيه ، ولا مطعن عليه ، ولا جدال حوله . يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق ، وتقريره في دنيا الناس . يطلب الله – سبحانه – منهم أداء هذه الشهادة ، على أن ما جاءهم من عنده الحق ؛ وعلى أنهم آمنوا به ، وتجردوا له ، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه ؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق ؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا ، فلم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس ، وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس . . يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون . وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت . وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال !

وكل من ينطق بالشهادتين:شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . لا يقال له أنه شهد ، إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها . ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلها . ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا منالله . فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد ؛ وأخص خصائص العبودية التلقي من الله . . ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله . ولا يعتمد مصدرا آخر للتلقي إلا هذا المصدر . .

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض ، كما بلغها محمد ﷺ فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس ، والذي بلغه عنه محمد ﷺ هو المنهج السائد والغالب والمطاع ، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء .

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله ، فهو إذن شهيد . أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها . واتخذه الله شهيدا . . ورزقه هذا المقام .

هذا فقه ذلك التعبير العجيب: (ويتخذ منكم شهداء . .) . .

وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ومقتضاه . . لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع !

(والله لا يحب الظالمين) . . والظلم كثيرا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك . بوصفه أظلم الظلم وأقبحه . وفي القرآن: (إن الشرك لظلم عظيم) . . وفي الصحيحين عن ابن مسعود:أنه قال:قلت:يا رسول الله . أي الذنب أعظم ؟ قال:" أن تجعل لله ندا وهو خلقك . . . " . .

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة الله في المكذبين ؛ فالآن يقرر أن الله لا يحب الظالمين . فهو توكيد في صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله . والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين ، يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين . وهذه الإثارة في معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد ، لها مناسبتها الحاضرة . فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه . وهذا هو مقام الاستشهاد ، وفي هذا تكون الشهادة ؛ ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء . .

ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث ، في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى ، ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين ، وستارا لقدرته في هلاك المكذبين: (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) . .

والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز . التمحيص عملية تتم في داخل النفس ، وفي مكنون الضمير . . إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات . تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق ، بلا غبش ولا ضباب . .

وكثيرا ما يجهل الإنسان نفسه ، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها . وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها ، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب ، لا تظهر إلا بمثير !

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير:محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية .

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص . . ثم إذا هو يكشف – على ضوء التجربة العملية ، وفي مواجهة الأحداث الواقعية – إن في نفسه عقابيل لم تمحص . وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ، ليعاود المحاولة في سبكها من جديد ، على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة ، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة !

والله – سبحانه – كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية ، وكان يريد بها أمرا في هذه الأرض . فمحصها هذا التمحيص ، الذي تكشفت عنه الأحداث في أحد ، لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها: (ويمحق الكافرين) . .

تحقيقا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص . .

وفي سؤال استنكاري يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة الله في الدعوات ، وفي النصر والهزيمة ، وفي العمل والجزاء . ويبين لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وزاده الصبر على مشاق الطريق ، وليس زاده التمني والأماني الطائرة التي لا تثبت على المعاناة والتمحيص: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) [آل عمران/١٤٢، ١٤٣]) . .

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور:تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان:أسلمت وأنا على استعداد للموت . فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان ، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان !

إنما هي التجربة الواقعية ، والامتحان العملي . وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد ، وعلى معاناة البلاء .

وفي النص القرآني لفتة ذات مغزى: (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) . . (ويعلم الصابرين) . .

فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون . إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضا . التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان . فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ، ويختبر بها الإيمان . إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي:معاناة الاستقامة على أفق الإيمان . والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك ، والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني:في النفس وفي الغير ، ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية . والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر ! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات . والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال . . والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدا منها ، في الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان !

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) . .

وهكذا يقفهم السياق وجها لوجه مرة أخرى أمام الموت الذي واجهوه في المعركة ، وقد كانوا من قبل يتمنون لقاءه . ليوازنوا في حسهم بين وزن الكلمة يقولها اللسان ، ووزن الحقيقة يواجهها في العيان . فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حسابا لكل كلمة تطلقها السنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم ، على ضوء ما واجهوه من حقيقتها حين واجهتهم ! وبذلك يقدرون قيمة الكلمة ،

وقيمة الأمنية ، وقيمة الوعد ، في ضوء الواقع الثقيل ! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة ، والأماني المرفرفة هي التي تبلغهم الجنة ، إنما هو تحقيق الكلمة ، وتجسيم الأمنية ، والجهاد الحقيقي ، والصبر على المعاناة . حتى يعلم الله منهم ذلك كله واقعا كائنا في دنيا الناس !

ولقد كان الله – سبحانه – قادرا على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى ، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء . وكان قادرا أن يترل الملائكة تقاتل معهم – أو بدوهم – وتدمر على المشركين ، كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط . .

ولكن المسألة ليست هي النصر . . إنما هي تربية الجماعة المسلمة ، التي تعد لتتسلم قيادة البشرية . . البشرية بكل ضعفها ونقصها ؛ وبكل شهواتها ونزواتها ؛ وبكل جاهليتها وانحرافها . . وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعدادا عاليا من القادة . وأول ما تقتضيه صلابة في الخلق ، وثبات على الحق ، وصبر على المعاناة ، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية ، وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف ، ووسائل العلاج . . ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة . وصبر على الشدة بعد الرخاء . وطعمها يومئذ لاذع مرير ! . .

وهذه التربية هي التي يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة ، ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق ، الذي ينوطه بها في هذه الأرض . وقد شاء – سبحانه – أن يجعل هذا الدور من نصيب "الإنسان" الذي استخلفه في هذا الملك العريض !

وقدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه ، بشتى الأسباب والوسائل ، وشتى الملابسات والوقائع . . يمضي أحيانا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة ، فتستبشر ، وترتفع ثقتها بنفسها – في ظل العون الإلهي – وتجرب لذة النصر ، وتصبر على نشوته ، وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء ، وعلى التزام التواضع والشكر لله . . ويمضي أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة . فتلجأ إلى الله ، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية ، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله . وتجرب مرارة الهزيمة ؛ وتستعلي مع ذلك على الباطل ، بما عندها من الحق المجرد ؛ وتعرف مواضع نقصها وضعفها ، ومداخل شهواتها ، ومزالق أقدامها ؛ فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة . . وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد . . ويمضي قدر الله وفق سنته لا يتخلف ولا يحيد . .

وقد كان هذا كله طرفا من رصيد معركة أحد ؛ الذي يحشده السياق القرآني للجماعة المسلمة – على نحو ما نرى في هذه الآيات – وهو رصيد مدخر لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من أجيال المسلمين .

* أهم أحداث المعركة وتصحيح التصور :

ثم يمضي السياق خطوة أخرى في استعراض أحداث المعركة ؛ واتخاذها محورا للتعقيبات ، يتوخى بها تصحيح التصور ، وتربية الضمائر ، والتحذير من مزالق الطريق ، والتنبيه إلى ما يحيط بالجماعة المسلمة من الكيد ، وما يبيته لها أعداؤها المتربصون:

ولقد كانت الهزيمة في أحد مجالا لدسائس الكفار والمنافقين واليهود في المدينة . وكانت المدنية لم تخلص بعد للإسلام ؛ بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير . نبتة غريبة أحاطتها "بدر" بسياج من الرهبة ، بما كان فيها من النصر الأبلج . فلما كانت الهزيمة في أحد تغير الموقف إلى حد كبير ؛ وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم ، وأن ينفثوا سمومهم ؛ وأن يجدوا في جو الفجائع التي دخلت كل بيت من بيوت المسلمين - وبخاصة بيوت الشهداء ومن أصابتهم الجراح المثخنة - ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة في الأفكار والصفوف .

وفي هذه الفقرة التالية من الاستعراض القرآني الموجه - وهي تمثل جسم المعركة وأضخم مشاهدها - نسمع الله سبحانه يدعو الذين آمنوا ليحذرهم من طاعة الذين كفروا ؛ ونسمعه - سبحانه - يعدهم النصر على عدوهم ، وإلقاء الرعب في قلبه ؛ ويذكرهم بالنصر الذي حققه لهم في أول المعركة ، حسب وعده لهم ؛ والذي إنما أضاعوه هم بضعفهم ونزاعهم وخلافهم عن أمر رسول الله ﷺ ثم يستحضر مشهد المعركة بشطريه ، في صورة فائضة بالحيوية والحركة . ثم ما أعقب الهزيمة والفزع ، من إنزال الطمأنينة في قلوب المؤمنين منهم ؛ بينما القلق والحيرة والحسرة تأكل قلوب المنافقين ، الذين ساء ظنهم بالله سبحانه . ويكشف لهم كذلك عن جانب من حكمته الخفية وتدبيره اللطيف ، في سير الأحداث سيرتها تلك ، مع تقرير حقيقة قدر الله في آجال العباد . ويحذرهم في نهاية هذه الفقرة من ضلال التصورات التي يشيعها الكفار في قضية الموت والاستشهاد . ويردهم إلى حقيقة البعث ، التي ينتهي إليها الناس . . ماتوا أو قتلوا . . وإلى أنهم مرجوعون إلى الله على كل حال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ

هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)} [آل عمران/١٤٩-١٥٨] . .

وحين ننظر في هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمت جوانحها على حشد ضخم من المشاهد الفائضة بالحيوية ، ومن الحقائق الكبيرة الأصيلة في التصور الإسلامي ، وفي الحياة الإنسانية . وفي السنن الكونية . . نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعة حية متحركة عميقة ، فلا تدع منها جانبا إلا سجلته تسجيلا يستجيش المشاعر والخواطر ؛ وهي بدون شك أشد حيوية وأشد استحضارا للمعركة بجوها وملابساتها ووقائعها ، وبكل الخلجات النفسية والحركات الشعورية المصاحبة لها . . من كل تصوير آخر ورد في روايات السيرة - على طولها وتشعبها - ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق في صورتها الحية الفاعلة في النفوس ، البانية للتصور الصحيح .
وما من شك أن احتشاد هذه المشاهد كلها ، وهذه الحقائق كلها ، في هذا القدر من الألفاظ والعبارات - مع حيويتها وحركتها وإيحائها على هذا النحو - أمر غير معهود في التعبير البشري . يدرك ذلك من يدركون أسرار الأساليب ، وطاقات الأداء ، وبخاصة من يعالجون منهم التعبير ، ويعانون أسرار الأداء !

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) . .

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ، ليثبطوا عزائمهم ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخاوف القتال ، وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم . . وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب ، وخلخلة الصفوف ، وإشاعة عدم الثقة في القيادة ؛ والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء ؛ وتزيين الانسحاب منها ، ومسالمة المنتصرين فيها ! مع إثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية ؛ وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ، ثم لهدم كيان العقيدة ، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين !

ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة ، وليس فيها ربح ولا منفعة . فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر . فالمؤمن إما أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل والمبطلين ، وإما أن يرتد على عقبيه كافرا – والعياذ بالله – ومحال أن يقف سلبيا بين بين ، محافظا على موقفه ، ومحتفظا بدينه . . إنه قد يخيل إليه هذا . . يخيل إليه في أعقاب الهزيمة ، وتحت وطأة الجرح والقرح ، أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم ، وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه ! وهو وهم كبير . فالذي لا يتحرك إلى الإمام في هذا المجال لا بد أن يرتد إلى الوراء ، والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان ، لا بد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان ! والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين ، والاستماع إليهم ، والثقة بهم يتنازل – في الحقيقة – عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى . . إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته ، وأن يستمع إلى وسوستهم ، وأن يطيع توجيهاتهم . . الهزيمة بادىء ذي بدء . فلا عاصم له من الهزيمة في النهاية ، والارتداد على عقبيه إلى الكفر ، ولو لم يحس في خطواته الأولى أنه في طريقه إلى هذا المصير البائس . . إن المؤمن يجد في عقيدته ، وفي قيادته ، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته . فإذا استمع إلى هؤلاء مرة فقد سار في طريق الارتداد على الأعقاب . . حقيقة فطرية وحقيقة واقعية ، ينبه الله المؤمنين لها ، ويحذرهم إياها ، وهو يناديهم باسم الإيمان: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) .
وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب ، من الإيمان إلى الكفر ؟ وأي ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان ؟

وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم ، فهو وهم ، يضرب السياق صفحا عنه ، ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية: (بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين) .

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية ، ويطلبون عندها النصرة . ومن كان الله مولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد ؟

ثم يمضي السياق يثبت قلوب المسلمين ، ويبشرهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، بسبب إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ولم يجعل له قوة وقدرة . وذلك فوق عذاب الآخرة المهيأ للظالمين: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين) . .

والوعد من الله الجليل القادر القاهر ، بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، كفيل بنهاية المعركة ، وضمان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه . .

وهو وعد قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان . فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم ، ويتحرك الرعب الملقى من الله في قلوبهم . ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين . حقيقة الشعور بولاية الله وحده ، والثقة المطلقة بهذه الولاية ، والتجرد من كل شائبة من شك في أن جند الله هم الغالبون ، وأن الله غالب على أمره ، وأن الذين كفروا غير معجزين في الأرض ولا سابقين لله سبحانه !

والتعامل مع وعد الله هذا ، مهما تكن ظواهر الأمور تخالفه ، فوعد الله أصدق مما تراه عيون البشر وتقدره عقولهم !

إنه الرعب لأن قلوبهم خاوية من السند الصحيح . لأنهم لا يستندون إلى قوة ولا إلى ذي قوة . إنهم أشركوا بالله آلهة لا سلطان لها ، لأن الله لم يمنحها سلطانا .

والتعبير: (ما لم ينزل به سلطانا) ذو معنى عميق ، وهو يصادفنا في القرآن كثيرا . مرة توصف به الآلهة المدعاة ، ومرة توصف به العقائد الزائفة . . وهو يشير إلى حقيقة أساسية عميقة:

إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ، أو منظمة . . إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من "الحق" أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام الله عليها الكون ، ومع سنن الله التي تعمل في هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هذا الوجود . وإلا فهي زائفة باطلة ضعيفة واهية ، مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش !

والمشركون يشركون مع الله آلهة أخرى – في صور شتى – ويقوم الشرك ابتداء على إعطاء غير الله – سبحانه – شيئا ما من خصائص الألوهية ومظاهرها . وفي مقدمة هذه الخصائص حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها ؛ وحق وضع القيم التي يتحاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم ؛ وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم . . ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه ، وواحدة منها !

فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الذي أقام الله عليه الكون ؟ إن الله الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى خالقه الواحد ؛ وخلق هذه الخلائق لتقر له بالعبودية وحده بلا شريك ؛ ولتتلقى منه الشريعة والقيم بلا منازع ؛ ولتعبده وحده حق عبادته بلا انداد . . فكل ما يخرج على قاعدة التوحيد في معناها الشامل ، فهو زائف باطل ، مناقض للحق الكامن في بنية الكون . ومن ثم فهو واه هزيل ، لا يحمل قوة ولا سلطانا ، ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة ؛ بل لا يملك عناصر الحياة ولا حق الحياة !

وما دام أولئك المشركون يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا ؛ من الآلهة والعقائد والتصورات فهم يرتكنون إلى ضعف وخواء ، وهم أبدا خوارون ضعفاء ؛ وهم أبدا في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذي السلطان . .

وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل . . وكم من مرة وقف الباطل مدججا بالسلاح أمام الحق الأعزل . ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب ، ويرتجف من كل حركة وكل صوت – وهو في حشده المسلح المحشود ! فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل ؛ ولو كانت له الحشود ، وكان للحق القلة ، تصديقا لوعد الله الصادق: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) . .

ذلك في الدنيا . فأما في الآخرة . . فهناك المصير المحزن البائس الذي يليق بالظالمين .

(ومأواهم النار . وبئس مثوى الظالمين !) . .

وهنا يردهم السياق إلى مصداق وعد الله هذا في غزوة أحد ذاتها . فقد كان لهم النصر الساحق في أوائلها . ولقد استحر القتل في المشركين حتى ولوا الأدبار ، وتركوا وراءهم الغنائم ، وسقط لواؤهم فلم تمتد يد لرفعه حتى رفعته لهم امرأة ! . . ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم ؛ وتنازعوا فيما بينهم ، وخالفوا عن أمر رسول الله ﷺ نبيهم وقائدهم . .

وهنا يردهم السياق إلى صميم المعركة ومشاهدها ومواقفها وأحداثها وملابساتها ، في حيوية عجيبة:

{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)}. .

إن التعبير القرآني هنا ليرسم مشهدا كاملا لمسرح المعركة ، ولتداول النصر والهزيمة . مشهدا لا يترك حركة في الميدان ، ولا خاطرة في النفوس ، ولا سمة في الوجوه ، ولا خالجة في الضمائر ، إلا ويثبتها . . وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر ، ويحمل في كل حركة صورا جديدة نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد في الجبل ، والهروب في دهش وذعر ، ودعاء الرسول ﷺ للفارين المرتدين عن المعركة ، المصعدين للهرب . يصحب ذلك كله حركة النفوس ، وما يدور فيها من خواج وخواطر وانفعالات ومطامع . . ومع هذا الحشد من الصور الحية المتحركة النابضة ، تلك التوجيهات

والتقريرات التي يتميز بها أسلوب القرآن ، ومنهج القرآن التربوي العجيب: (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) . .

وكان ذلك في مطالع المعركة ، حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين ، أي يخمدون حسهم ، أو يستأصلون شأفتهم . قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة . وكان رسول الله ﷺ قد قال لهم:" لكم النصر ما صبرتم " فصدقهم الله وعده على لسان نبيه .

(حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون:منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) . .

وهو تقرير لحال الرماة . وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ؛ ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ وانتهى الأمر إلى العصيان . بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه . فكانوا فريقين:فريقا يريد غنيمة الدنيا ، وفريقا يريد ثواب الآخرة . وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة ، و لم يعد الهدف واحدا . وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة . فمعركة العقيدة ليست ككل معركة . إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير . ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير . إنها معركة لله ، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له .

وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها ، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها ؛ كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية . ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك – لحكمة يعلمها الله – أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد ،فلا يمنحهم الله النصر أبدا ، حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا . .

وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة ، وهذا ما أراد الله – سبحانه – أن يعلمه للجماعة المسلمة ، وهي تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح !

(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) . .

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب ، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم . . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا ، حتى نزل فينا يوم أحد: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) . . وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ؛ ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها !

وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره ، وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها ؛ ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة: (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) . .

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميـــدان ، فـــلاذوا بالفرار . . وقع كل هذا مرتبا على ما صدر منهم ؛ ولكن مدبرا من الله ليبتليهم . . ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ؛ وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب ، ومـــن تمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف - كما سيجيء .

وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها ، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها . بلا تعارض بين هـــذا وذاك . فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب تدبير . . من اللطيف الخبير . .

(ولقد عفا عنكم) . . عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ؛ وعفا كـــذلك عمـــا وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد . . عفا عنكم فضلا منه ومنة ، وتجاوزا عن ضعفكم البشـــري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة . . عفا عنكم لأنكم تخطئون وتضعفون في دائـــرة الإيمان بالله ، والاستسلام له ، وتسليم قيادكم لمشيئته: (والله ذو فضل على المؤمنين) . .

ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ، ما داموا سائرين على منهجه ، مقرين بعبوديتهم له ؛ لا يـــدعون من خصائص الألوهية شيئا لأنفسهم ، ولا يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ، ولا موازينهم إلا منه . . فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة . . فيتلقاهم عفـــو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص . .

ويستحضر صورة الهزيمة حية متحركة: (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يـــدعوكم في أخراكم) . .

كي يعمق وقع المشهد في حسهم ؛ ويثير الخجل والحياء من الفعل ، ومقدماته التي نشأ عنها ، مـــن الضعف والتنازع والعصيان . . والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في الفـــاظ قلائل . . فهم مصعدون في الجبل هربا ، في اضطراب ورعب ودهش ، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد ! ولا يجيب أحد منهم داعي أحد ! والرسول ﷺ يدعوهم ، ليطمئنهم على حياته بعـــد مـــا صـــاح صائح:إن محمدا قد قتل ، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم . . إنه مشهد كامل في الفاظ قلائل . .

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول ﷺ بفـــرارهم ، غمـــا يمـــلأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه - وهو ثابت دونهـــم ، وهم عنه فارون - ذلك كي لا يحفلوا شيئا فاتهم ولا أذى أصابهم . فهذه التجربة التي مرت بهـــم ، وهذا الألم الذي أصاب نبيهم - وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم - وذلك الندم الـــذي ســـاور نفوسهم ، وذلك الغم الذي أصابهم . . كل ذلك سيصغر في نفوسهم كل ما يفوتهم مـــن عـــرض ، وكل ما يصيبهم من مشقة: (فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) . .

والله المطلع على الخفايا ، يعلم حقيقة أعمالكم ، ودوافع حركاتكم: (والله خبير بما تعملون) . .

ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها ، وهرجها ومرجها ، سكون عجيب . سكون في نفوس المـؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى نبيهم . لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين !
والتعبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم ، حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو المطمـئن الوديع: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) . .
وهي ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين ؛ فالنعاس حين يلم بالمجهدين المـرهقين المفزعين ، ولو لحظة واحدة ، يفعل في كيانهم فعل السحر ، ويردهم خلقا جديـدا ، ويسـكب في قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب في كيانهم الراحة . بطريقة مجهولة الكنه والكيف ! أقول هـذا وقـد جربته في لحظة كرب وشدة . فأحسست فيه رحمة الله الندية العميقة بصورة تعجـز عـن وصـفها العبارة البشرية القاصرة !
عَنْ أَبِي طَلْحَةَ ، قَالَ : رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا إِلا وَهُوَ يَمَلُّ تَحْتَ جُحْفَتِـهِ مِنَ النُّعَاسِ . [٢]" . .
أما الطائفة الأخرى ؛ فهم ذوو الإيمان المزعزع ، الذين شـغلتهم أنفسـهم وأهمتـهم ، والـذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية ، و لم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة ، و لم يستسـلموا بكليتـهم لقدره ، و لم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص ، وليس تخليا من الله عن أوليائه لأعدائه ، ولا قضاء منه – سبحانه – للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل: (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون:هل لنا من الأمر من شيء ؟) . .
أن هذه العقيدة تعلم أصحابها – فيما تعلم – أن ليس لهم في أنفسهم شيء ، فهم كلهم لله ؛ وأنهـم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له ، ويتحركون له ، ويقاتلون له ، بلا هدف آخر لـذواتهم في هذا الجهاد ، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره ، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم ، كائنا هذا القدر ما يكون .

فأما الذين تهمهم أنفسهم ، وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم ، ومحـور اهتمـامهم وانشـغالهم . . فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان . ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التي يتحـدث عنها القرآن في هذا الموضع . طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، فهم في قلـق وفي أرجحـة ، يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم ، ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعـا ولا إرادة لهم فيها ؛ وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير ، ويؤدون الثمن فادحا من القتل والقـرح والألم . . وهم لا يعرفون الله على حقيقته ، فهم يظنون بالله غير الحق ، كما تظن الجاهلية . ومن الظن غـير الحق بالله أن يتصوروا أنه – سبحانه – مضيعهم في هذه المعركة ، التي ليس لهم من أمرهـا شـيء ،

[٢] – المعجم الكبير للطبراني – (٤ / ٤٩٧) (٤٥٧٥) صحيح

وإنما دفعوا إليها دفعا ليموتوا ويجرحوا ، والله لا ينصرهم ولا ينقذهم ؛ إنما يدعهم فريسة لأعدائهم ، ويتساءلون: (هل لنا من الأمر من شيء ؟) .

وتتضمن قولتهم هذه الاعتراض على خطة القيادة والمعركة . . ولعلهم ممن كان رأيهم عدم الخروج من المدينة ؛ ممن لم يرجعوا مع عبد الله بن أبي . . ولكن قلوبهم لم تكن قد استقرت واطمأنت . .

وقبل أن يكمل السياق عرض وساوسهم وظنونهم ، يبادر بتصحيح الأمر وتقرير الحقيقة فيما يتساءلون فيه ، ويرد على قولتهم: (هل لنا من الأمر من شيء ؟) .

(قل:إن الأمر كله لله) . . فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لغيرهم . ومن قبل قال الله لنبيه ﷺ (ليس لك من الأمر شيء) . فأمر هذا الدين ، والجهاد لإقامته وتقرير نظامه في الأرض ، وهداية القلوب له . . كلها من أمر الله ، وليس للبشر فيها من شيء ، إلا أن يؤدوا واجبهم ، ويفوا ببيعتهم ، ثم يكون ما يشاؤه الله كيف يكون !

ويكشف كذلك خبيئة نفوسهم قبل أن يكمل عرض وساوسهم وظنونهم: (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) . .

فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس ، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ؛ وسؤالهم: (هل لنا من الأمر من شيء) . . يخفي وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه ! وأنهم ضحية سوء القيادة ، وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير .

(يقولون:لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) . .

وهو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة ، حينما تصطدم في موقعة بالهزيمة ، وحينما تعاني آلام الهزيمة ! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن ؛ وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع ؛ وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحا ولا مستقرا ؛ وحين تتخيل أن تصرف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة ، وكانت في نجوة من الأمر لو كان أمرها في يدها ! وهي لا يمكن – بهذا الغبش في التصور – أن ترى يد الله وراء الأحداث ، ولا حكمته في الابتلاء . إنما المسألة كلها – في اعتبارها – خسارة في خسارة ! وضياع في ضياع !

هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله . لأمر الحياة والموت . ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء:

(قل:لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم ،وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور) . .

قل لو كنتم في بيوتكم ؛ ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة ، وكان أمركم كله لتقديركم . . لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . . إن هنالك أجلا مكتوبا لا يستقدم ولا يستأخر . وإن هنالك مضجعا مقسوما لا بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه ! فإذا حم الأجل ، سعى صاحبه

بقدميه إليه ، وجاء إلى مضجعه برجليه ، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم ، ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم !

ويا للتعبير العجيب . . "إلى مضاجعهم" . . فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذي تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهي إليه الضاربون في الأرض . . مضجع يأتون إليه بدافع خفي لا يدركونه ولا يملكونه ، إنما هو يدركهم ويملكهم ؛ ويتصرف في أمرهم كما يشاء . والاستسلام له أروح للقلب ، وأهدأ للنفس ، وأريح للضمير !

إنه قدر الله . ووراءه حكمته: (وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم) . .

فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ، ويصهر ما في القلوب ، فينفي عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء . . فهو الابتلاء والاختبار لما في الصدور ، ليظهر على حقيقته ، وهو التطهير والتصفية للقلوب ، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف . وهو التصحيح والتجلية للتصور ؛ فلا يبقى فيه غبش ولا خلل: (والله عليم بذات الصدور) .

وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها ، التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور ! والله عليم بذات الصدور هذه . ولكنه – سبحانه – يريد أن يكشفها للناس ، ويكشفها لأصحابها أنفسهم ، فقد لا يعلمونها من أنفسهم ، حتى تنفضها الأحداث وتكشفها لهم!

ولقد علم الله دخيلة الذين هزموا وفورا يوم التقى الجمعان في الغزوة . إنهم ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها ؛ فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها ، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ ، واستزلهم فزلوا وسقطوا: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم) . .

وقد تكون الإشارة في هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال في نفوسهم الطمع في الغنيمة كما جال فيها أن رسول الله سيحرمهم أنصبتهم . فكان هذا هو الذي كسبوه ، وهو الذي استزلهم الشيطان به ولكنها في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة ، فتفقد ثقتها في قوتها ، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس ، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة ، وهي بعيدة عن الحمى الآمن ، والركن الركين .

ومن هنا كان الاستغفار من الذنب هو أول ما توجه به الربيون الذين قاتلوا مع النبيين في مواجهة الأعداء . الاستغفار الذي يردهم إلى الله ، ويقوي صلتهم به ، ويعفي قلوبهم من الأرجحة ، ويطرد عنهم الوساوس ، ويسد الثغرة التي يدخل منها الشيطان ، ثغرة الانقطاع عن الله ، والبعد عن حماه . هذه الثغرة التي يدخل منها فيزل أقدامهم مرة ومرة ، حتى ينقطع بهم في التيه ، بعيدا بعيدا عن الحمى الذي لا ينالهم فيه !

ويحدثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشيطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم . . ويعرفهم بنفســه – سبحانه – فهو غفور حليم . لا يطرد الخطاة ولا يعجل عليهم ؛ متى علم من نفوسهم التطلع إليــه ، والاتصال به ؛ و لم يعلم منها التمرد والتفلت والإباق !

ويتم السياق بيان حقيقة قدر الله في الموت والحياة ، وزيف تصورات الكفار والمنافقين عن هذا الأمر ، مناديا الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء . ويردهم في النهاية إلى قــيم أخرى وإلى اعتبارات ترجح الآلام والتضحيات: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالــذين كفــروا ، وقالوا لإخوانهم – إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى –:لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم . والله يحيي ويميت . والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في ســبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) . .

وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة ، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعــوا قبــل المعركة ، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ؛ ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات . . وأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد ، مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهليهم ، واستجاشة الأسى على فقدهم في المعركة – نتيجة لخروجهم – ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجع دامية مما يترك في الصف المسلم الخلخلة والبلبلة . ومن ثم جاء هذا البيان القرآني لتصــحيح القيم والتصورات ، ورد هذا الكيد إلى نحور كائديه .

إن قول الكافرين: (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) . . ليكشف عن الفارق الأساسي في تصــور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها ، للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها:سراؤها وضراؤها . . إن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف إلى مشيئة الله ، مطمئن إلى قدر الله . إنه يعلم أنــه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ومــن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع ، ولا يتلقى السراء بالزهو ، ولا تطير نفسه لهذه أو لتلك ؛ ولا يتحســر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا ، أو ليستجلب كذا ، بعد وقوع الأمر وانتهائه ! فمجال التقــدير والتدبير والرأي والمشورة ، كله قبل الإقدام والحركة ؛ فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير – في حدود علمه وفي حدود أمر الله ونهيه – فكل ما يقع من النتائج ، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتســليم ؛ موقنا أنه وقع وفقا لقدر الله وتدبيره وحكمته ؛ وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع ؛ ولو أنه هو قــدم أسبابه بفعله ! . . توازن بين العمل والتسليم ، وبين الإيجابية والتوكل ، يســتقيم عليــه الخطــو ، ويستريح عليه الضمير . . فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه الصورة المستقيمة ، فهو أبدا مستطار ، أبدا في قلق ! أبدا في "لو" و "لولا" و "يا ليت" و "وا أسفاه" !

والله – في تربيته للجماعة المسلمة ، وفي ظلال غزوة أحد وما نال المســلمين فيهــا – يحــذرهم أن يكونوا كالذين كفروا . أولئك الذين تصيبهم الحسرات ، كلما مات لهم قريب وهــو يضــرب في

الأرض ابتغاء الرزق ، أو قتل في ثنايا المعركة وهو يجاهد: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونـــوا كالـــذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى:لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) . .

يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون ، ولحقيقة القوة الفاعلة في كل ما يجري . فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية ، بسبب انقطاعهم عن الله ، وعن قدره الجاري في الحياة .

(ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) . . فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا في الأرض في طلب الرزق فيموتوا ، أو ليغزوا ويقاتلوا فيقتلوا . . إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتـــل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج ! ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية وهي استيفاء الأجل ، ونداء المضجع ، وقدر الله ، وسنته في الموت والحياة ، ما تحسروا . ولتلقوا الابتلاء صابرين ، ولفاءوا إلى الله راضين: (والله يحيي ويميت) . .

فبيده إعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، ســـواء كـــان الناس في بيوتهم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة . وعنـــده الجـــزاء ، وعنـــده العروض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر: (والله بما تعملون بصير . .) . .

على أن الأمر لا ينتهي بالموت أو القتل ؛ فهذه ليست نهاية المطاف . وعلـــى أن الحيـــاة في الأرض ليست خير ما يمنحه الله للناس من عطاء . فهناك قيم أخرى ، واعتبارات أرقى في ميزان الله: (ولـــئن قتلتم – في سبيل الله – أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن مـــتم أو قتلـــتم لإلى الله تحشرون) . .

فالموت أو القتل في سبيل الله – بهذا القيد ، وبهذا الاعتبار – خير من الحياة ، وخير مما يجمعه النـــاس في الحياة من أعراضها الصغار:من مال ومن جاه ومن سلطان ومن متاع . خير بما يعقبه من مغفـــرة الله ورحمته ، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون . وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل الله المؤمنين . . إنه لا يكلهم – في هذا المقام – إلى أمجاد شخصية ، ولا إلى اعتبارات بشرية . إنما يكلهم إلى مـــا عند الله ، ويعلق قلوبهم برحمة الله . وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق ، وخير مما تتعلـــق بـــه القلوب من أعراض . .

وكلهم مرجوعون إلى الله ، محشورون إليه على كل حال . ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض ، أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان . فما لهم مرجع سوى هذا المرجع ؛ وما لهـــم مصـــير سوى هذا المصير . . والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام . . أما النهايـــة فواحدة:موت أو قتل في الموعد المحتوم ، والأجل المقسوم . ورجعة إلى الله وحشر في يـــوم الجمـــع والحشر . . ومغفرة من الله ورحمة ، أو غضب من الله وعذاب . . فأحمق الحمقى من يختار لنفســـه المصير البائس . وهو ميت على كل حال !

بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة قدر الله . وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر ؛ وإلى ما وراء القدر من حكمة ، وما وراء الابتلاء من جزاء . . وبــــذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحداث المعركة ، وفيما صاحبها من ملابسات . .

---

* مسؤولية أحداث أحد وحكمتها :

ثم يمضي السياق خطوة في استعراض أحداث المعركة ، والتعقيب عليها ؛ فيعرض دهشتهم لما صارت إليه الأمور ، واستغرابهم لوقوع ما وقع بهم – وهم المسلمون – مما يشي بسذاجة تصـــورهم للأمـــر يومذاك قبل أن تطحنهم التجربة ، وتصوغهم صياغة واقعية ، تتعامل مع واقع الأمر ، وطبيعة السنن ، وجدية هذا الواقع الذي لا يحابي أحدا لا يأخذ بالسنن ، ولا يستقيم مع الجد الصارم في طبيعة الكون والحياة والعقيدة ! ومن ثم يقفهم على الأرض الصلبة المكشوفة ؛ وهو يبين لهم أن ما أصـــابهم كـــان بفعلهم ، وكان الثمرة الطبيعية لتصرفهم ! . . ولكنه لا يتركهم عند هذه النقطة – التي وإن كانـــت حقيقة إلا أنها ليست نهاية الحقيقة – بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج ؛ وبمشـــيئة الله الطليقة من وراء السنن والقوانين ؛ فيكشف لهم عن حكمة ما وقع ، وعن تدبير الله فيه ليحقق مـــن ورائه الخير لهم ، وللدعوة التي يجاهدون في سبيلها ؛ وليعدهم بهذه التجربة لما بعـــدها ، ولـــيمحص قلوبهم ، ويميز صفوفهم ، من المنافقين الذين كشفتهم الأحداث . فالأمر في النهاية مرجعه إلى قدر الله وتدبيره . . وبذلك تتكامل الحقيقة في تصورهم ومشاعرهم من وراء هذا البيـــان القـــرآني الـــدقيق العميق: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَـــى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِـــيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُـــمْ لِلْكُفْـــرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) [آل عمران : ١٦٥-١٦٨]) . .

لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته ، وأصحاب عقيدته . . ولكنه علق هذا النصـــر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ؛ وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم ؛ وباســـتكمال العدة التي في طاقتهم ، وببذل الجهد الذي في وسعهم . . فهذه سنة الله . وسنة الله لا تحابي أحدا . . فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير . فإن كونهم مســـلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وأبطال الناموس . فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلـــها علـــى السنن ، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس . .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك ، ولا يضيع هباء . فإن استسلامهم لله ، وحملهم لرايته ، وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه . . من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيرا وبركة في النهاية – بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح – وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروسا وتجارب ، تزيد في نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ؛ وتؤهل للنصر الموعود ؛ وتنتهي بالخير والبركة . . ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته . بل تمدهم بزاد الطريق . مهما يمسهم من البرح والألم والضيق في أثناء الطريق .

وبهذا الوضوح والصرامة معا يأخذ الله الجماعة المسلمة ؛ وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ؛ ويكشف عن السبب القريب من أفعالها ؛ كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره – سبحانه – يواجه المنافقين بحقيقة الموت ، التي لا يعصم منها حذر ولا قعود: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير) . .

والمسلمون الذين أصيبوا في أحد بما أصيبوا ؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التي عانوها في هذا اليوم المرير ؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم ، وهم المسلمون ، وهم يجاهدون في سبيل الله ، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله . . المسلمون الذين أصيبوا بهذه المصيبة ، كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها:أصابوا مثلها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش . وأصابوا مثلها يوم أحد في مطلع المعركة ، حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله ﷺ وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم . وقبل أن تهجس في أنفسهم الخواطر التي لا ينبغي أن تهجس في ضمائر المؤمنين !

ويذكرهم الله هذا كله ، وهو يرد على دهشتهم المتسائلة ، فيرجع ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب: (قل:هو من عند أنفسكم) . .

أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر . وأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس . وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله وخطته للمعركة . . فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم ، وتقولون:كيف هذا ؟ هو من عند أنفسكم ، بانطباق سنة الله عليكم ، حين عرضتم أنفسكم لها . فالإنسان حين يعرض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه ، مسلما كان أو مشركا ، ولا تنخرق محاباة له ، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداء !

(إن الله على كل شيء قدير) . .

ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته ، وأن يحكم ناموسه ، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته ، وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث .

ومع هذا فقد كان قدر الله من وراء الأمر كله لحكمة يراها . وقدر الله دائما من وراء كل أمر يحدث ، ومن وراء كل حركة وكل نأمة ، وكل انبثاقة في هذا الكون كله: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . . .) . .

لم يقع مصادفة ولا جزافا ، ولم يقع عبثا ولا سدى . فكل حركة محسوب حسابها في تصميم هذا الكون ؛ ومقدر لها علتها ونتائجها ؛ وهي في مجموعها - ومع جريانها وفق السنن والقوانين الثابتة التي لا تنخرق ولا تتعطل ولا تحابي - تحقق الحكمة الكامنة وراءها ؛ وتكمل "التصميم" النهائي للكون في مجموعة !

إن التصور الإسلامي يبلغ من الشمول والتوازن في هذه القضية ، ما لا يبلغه أي تصور آخر في تاريخ البشرية . .

هنالك ناموس ثابت وسنن حتمية . . وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة . وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها . . والناموس يتحكم والسنن تجري في كل شيء - ومن بينها الإنسان - والإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الإرادية المختارة ، وبفعله الذي ينشئه حسب تفكيره وتدبيره ، فتنطبق عليه ، وتؤثر فيه . . ولكن هذا كله يقع موافقا لقدر الله ومشيئته ؛ ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره . . وإرادة الإنسان وتفكيره وحركته وفاعليته هي جزء من سنن الله وناموسه يفعل بها ما يفعل ، ويحقق بها ما يحقق في نطاق قدره وتدبيره . فليس شيء منها خارجا على السنن والناموس . ولا مقابلا لها ومناهضا لفعلها ، كما يتصور الذين يضعون إرادة الله وقدره في كفة ، ويضعون إرادة الإنسان وفاعليته في الكفة المقابلة . . كلا . ليس الأمر هكذا في التصور الإسلامي . . فالإنسان ليس ندا لله ، ولا عدوا له كذلك . والله - سبحانه - حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض ، لم يجعل شيئا من هذا كله متعارضا مع سنته - سبحانه - لا مناهضا لمشيئته ، ولا خارجا كذلك عن الحكمة الأخيرة وراء قدره في هذا الكون الكبير . . ولكن جعل من سنته وقدره أن يقدر الإنسان ويدبر ؛ وأن يتحرك ويؤثر ؛ وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه ؛ وأن يلقى جزاء هذا التعرض كاملا من لذة وألم ، وراحة وتعب ، وسعادة وشقاوة . . وأن يتحقق من وراء هذا التعرض ونتيجته ، قدر الله المحيط بكل شيء ، في تناسق وتوازن . .

وهذا الذي وقع في غزوة أحد ، مثل لهذا الذي نقوله عن التصور الإسلامي الشامل الكامل . فقد عرف الله المسلمين سنته وشرطه في النصر والهزيمة . فخالفوا هم عن سنته وشرطه ، فتعرضوا للألم والقرح الذي تعرضوا له . . ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كان وراء المخالفة والألم تحقيق قدر الله في تمييز المؤمنين من المنافقين في الصف ، وتمحيص قلوب المؤمنين وتجلية ما فيها من غبش في التصور ، ومن ضعف أو قصور . .

وهذا بدوره خير ينتهي إليه أمر المسلمين - من وراء الألم والضر - وقد نالوه وفق سنة الله كـذلك . فمن سنته أن المسلمين الذين يسلمون بمنهج الله ويستسلمون له في عمومه ، يعينهم الله ويرعـاهم ، ويجعل من أخطائهم وسيلة لخيرهم النهائي - ولو ذاقوا مغبتها من الألم - لأن هذا الألم وسيلة مـن وسائل التمحيص والتربية والإعداد .

وعلى هذا الموقف الصلب المكشوف تستريح أقدام المسلمين وتطمئن قلوبهم ، بلا أرجحة ولا قلـق ولا حيرة ، وهم يواجهون قدر الله ، ويتعاملون مع سنته في الحياة ؛ وهم يحسون أن الله يصنع بهم في أنفسهم وفيمن حولهم ما يريده ، وأنهم أداة من أدوات القدر يفعل بها الله ما يشـاء ، وأن خطـأهم وصوابهم - وكل ما يلقونه من نتائج لخطئهم وصوابهم - متساوق مع قدر الله وحكمته ، وصائر بهم إلى الخير ما داموا في الطريق: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . . وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم:تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا:لو نعلم قتالا لاتبعنـاكم . هـم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم . والله أعلم بما يكتمون) . .

وهو يشير في هذه الآية إلى موقف عبد الله بن أبي بن سلول ، وممن معه ، ويسميهم:"الذين نافقوا" . . وقد كشفهم الله في هذه الموقعة ، وميز الصف الإسلامي منهم . وقرر حقيقة مـوقفهم يومـذاك: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) . . وهم غير صادقين في احتجاجهم بأنهم يرجعون لأنهـم لا يعلمون أن هناك قتالا سيكون بين المسلمين والمشركين . فلم يكن هذا هو السبب في حقيقة الأمر ، وإنما هم: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) . . فقد كان في قلوبهم النفاق ، الـذي لا يجعلـها خالصة للعقيدة ، وإنما يجعل أشخاصهم واعتباراتها فوق العقيدة واعتباراتها . فالذي كان برأس النفاق - عبد الله بن أبي - أن رسول الله ﷺ لم يأخذ برأيه يوم أحد . والذي كان به قبل هذا أن قدومه ﷺ إلى المدينة بالرسالة الإلهية حرمه ما كانوا يعدونه له من الرياسة فيهم ، وجعل الرياسـة لـدين الله ، ولحامل هذا الدين ! . . فهذا الذي كان في قلوبهم ، والذي جعلهم يرجعون يوم أحد ، والمشركون على أبواب المدينة ، وجعلهم يرفضون الاستجابة إلى المسلم الصادق عبد الله بن عمرو بن حـرام ، وهو يقول لهم: (تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا) محتجين بأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا ! وهذا ما فضحهم الله به في هذه الآية: (والله أعلم بما يكتمون) . .

ثم مضى يكشف بقية موقفهم في محاولة خلخلة الصفوف والنفوس: (الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا) . .

فهم لم يكتفوا بالتخلف - والمعركة على الأبواب - وما يحدثه هذا التخلف من رجـة وزلزلـة في الصفوف والنفوس ، وبخاصة أن عبد الله بن أبي ، كان ما يزال سيدا في قومه ، ولم يكشف لهم نفاقه بعد ، ولم يدمغه الله بهذا الوصف الذي يهز مقامه في نفوس المسلمين منهم . بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة ، وهم يقولون: (لو أطاعونا ما قتلوا) . .

فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول ﷺ واتباعه مغرما ومضرة . وأكثر من هذا كله يفسدون التصور الإسلامي الناصع لقدر الله ، ولحتمية الأجل ، ولحقيقة الموت والحياة ، وتعلقهما بقدر الله وحده . . ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع ، الذي يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامي ويجلو عنه الغبش من ناحية: (قل:فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) . .

فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر . ولا يؤجله جبن ولا قعود . . والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء . . وهذا الواقع هو الذي يجبههم به القرآن الكريم ، فيرد كيدهم اللئيم ، ويقر الحق في نصابه ، ويثبت قلوب المسلمين . ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين . .

ومما يلفت النظر في الاستعراض القرآني لأحداث المعركة ، تأخيره ذكر هذا الحادث – حادث نكول عبد الله ابن أبي ومن معه عن المعركة – وقد وقع في أول أحداثها وقبل ابتدائها . . تأخيره إلى هذا الموضع من السياق . .

وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية . . فقد آخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامي التي قررها ؛ وحتى يقر في الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التي أقرها ؛ وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التي وضعها . . ثم يشير هذه الإشارة إلى "الذين نافقوا" . وفعلتهم وتصرفهم بعدها ، وقد تهيأت النفوس لإدراك ما في هذه الفعلة وما في هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح ، وعن القيم الصحيحة في الميزان الصحيح . . وهكذا ينبغي أن تنشأ التصورات والقيم الإيمانية في النفس المسلمة ، وأن توضع لها الموازين الصحيحة التي تعود إليها لاختبار التصورات والقيم ، ووزن الأعمال والأشخاص ، ثم تعرض عليها الأعمال والأشخاص – بعد ذلك – فتحكم عليها الحكم المستنير الصحيح ، بذلك الحس الإيماني الصحيح . .

ولعل هنالك لفتة أخرى من لفتات المنهج الفريد . فعبد الله بن أبي كان إلى ذلك الحين ما يزال عظيما في قومه – كما أسلفنا – وقد ورم أنفه لأن النبي ﷺ لم يأخذ برأيه – لأن إقرار مبدأ الشورى وإنفاذه اقتضى الأخذ بالرأي الآخر الذي بدا رجحان الاتجاه إليه في الجماعة – وقد أحدث تصرف هذا المنافق الكبير رجة في الصف المسلم ، وبلبلة في الأفكار ، كما أحدثت أقاويله بعد ذلك عن القتلى حسرات في القلوب وبلبلة في الخواطر . . فكان من حكمة المنهج إظهار الاستهانة به وبفعلته وبقوله ؛ وعدم تصدير الاستعراض القرآني لأحداث الغزوة بذلك الحادث الذي وقع في أولها ؛ وتأخيره إلى هذا الموضع المتأخر من السياق . مع وصف الفئة التي قامت به بوصفها الصحيح:"الذين نافقوا" والتعجيب من أمرهم في هذه الصيغة المجملة: (ألم تر إلى الذين نافقوا ؟) ، وعدم إبراز اسم

كبيرهم أو شخصه ، ليبقى نكره في:"الذين نافقوا" كما يستحق من يفعل فعلته ، وكمـــا تســـاوي حقيقته في ميزان الإيمان . . ميزان الإيمان الذي أقامه فيما سبق من السياق . .

* تسلية ومواساة بعد أحداث أحد :

وأخيرا يتجه السياق في ختام الاستعراض والتعقيب ، إلى الرسول ﷺ يسليه ويؤسيه عما يقع في قلبه الكريم من الأسى والحزن ، من مسارعة الكفار إلى الكفر ، ونشاطهم فيه كأنهم في سباق إلى هدف ! فإن هذا لن يضر الله شيئا . وإنما هي فتنة الله لهم ، وقدر الله بهم ، فقد علم الله من أمرهم وكفرهم ما يؤهلهم للحرمان في الآخرة ؛ فتركهم يسارعون في الكفر إلى نهايته ! وقد كان الهدى مبذولا لهم ، فآثروا عليه الكفر ؛ فتركوا يسارعون في الكفر . وأملي لهم ليزدادوا إثما مع الإملاء في الزمن والإملاء في الرخاء . فهذا الإمهال والإملاء إنما هو وبال عليهم وبلاء . . ويختم الاستعراض بكشف حكمة الله وتدبيره من وراء الأحداث كلها:من وراء ابتلاء المؤمنين وإمهال الكافرين . إنها تمييز الخبيث من الطيب ، بالاختبار والابتلاء ، فقد كان أمر القلوب غيبا مما يستأثر الله به ، ولا يطلع الناس عليه ، فشاء سبحانه أن يكشف هذا الغيب بالصورة المناسبة للبشر ، وبالوسيلة التي يدركها البشر . . فكان الابتلاء للمؤمنين والإمهال للكافرين ، ليتكشف المخبوء في القلوب ، ويتميز الخبيث من الطيب ؛ ويتبين المؤمنون بالله ورسله على وجه القطع واليقين: (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) [آل عمران : ١٧٦ - ١٧٩]) . .

إن هذا الختام هو أنسب ختام لاستعراض الغزوة التي أصيب فيها المسلمون هذه الإصابة ؛ والتي رجع منها المشركون بالنصر والغلبة . . فهناك دائما تلك الشبهة الكاذبة التي تحيك في بعض الصدور ؛ أو الأمنية العاتبة التي تهمس في بعض القلوب ، أمام المعارك التي تنشب بين الحق والباطل . ثم يعود فيها الحق بمثل هذه الإصابة ، ويعود منها الباطل ذا صولة وجولة !

هناك دائما الشبهة الكاذبة ، أو الأمنية العاتبة:لماذا يا رب ؟ لماذا يصاب الحق وينجو الباطل ؟ لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل ، ويعود بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذي ينبغي أن ينتصر ؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة ؟ وفيم يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة ، وفيها فتنة للقلوب وهزة ؟!

ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أحد في دهشة واستغراب:" أنى هذا ؟! " . .

ففي هذا المقطع الختامي يجيء الجواب الأخير ، والبيان الأخير . ويريح الله القلوب المتعبة ، ويجلو كل خاطرة تتدسس إلى القلوب من هذه الناحية ، ويبين سنته وقدره وتدبيره في الأمر كله:أمس واليوم وغدا . وحيثما التقى الحق والباطل في معركة فانتهت بمثل هذه النهاية:

إن ذهاب الباطل ناجيا في معركة من المعارك وبقاءه منتفشا فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب ، أو بحيث يضر الحق ضررا باقيا قاضيا . .

وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ، ليس معناه إن الله مجافيه أو ناسيه ! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه . .

كلا . إنما هي حكمة وتدبير . . هنا وهناك . . يملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق ؛ وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق ! . . ويبتلى الحق ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ويثبت . . فهو الكسب للحق والخسارة للباطل ، مضاعفا هذا وذاك ! هنا وهناك !

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ، ولهم عذاب عظيم) . .

إنه يواسي النبي ﷺ ويدفع عنه الحزن الذي يساور خاطره ؛ وهو يرى المغالين في الكفر ، يسارعون فيه ، ويمضون بعنف واندفاع وسرعة ، كأنما هنالك هدف منصوب لهم يسارعون إلى بلوغه !

وهو تعبير مصور لحالة نفسية واقعية . فبعض الناس يرى مشتدا في طريق الكفر والباطل والشر والمعصية ؛ كأنه يجهد لنيل السبق فيه ! فهو يمضي في عنف واندفاع وحماسة كأن هناك من يطارده من الخلف ، أو من يهتف له من الإمام ، إلى جائزة تنال !

وكان الحزن يساور قلب رسول الله ﷺ حسرة على هؤلاء العباد ؛ الذين يراهم مشمرين ساعين إلى النار ، وهو لا يملك لهم ردا ، وهم لا يسمعون له نذارة ! وكان الحزن يساور قلبه كذلك لما يثيره هؤلاء المشمرون إلى النار المسارعون في الكفر ، من الشر والأذى يصيب المسلمين ، ويصيب دعوة الله ، وسيرها بين الجماهير ، التي كانت تنتظر نتائج المعركة مع قريش لتختار الصف الذي تنحاز إليه في النهاية . . فلما أسلمت قريش واستسلمت دخل الناس في دين الله أفواجا . . ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الاعتبارات وقعها في قلب الرسول الكريم . فيطمئن الله رسوله ﷺ ويواسي قلبه ، ويمسح عنه الحزن الذي يساوره .

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر . إنهم لن يضروا الله شيئا) . .

وهؤلاء العباد المهازيل لا يبلغون أن يضروا الله شيئا . والأمر في هذا لا يحتاج إلى بيان . إنما يريد الله سبحانه أن يجعل قضية العقيدة قضيته هو ؛ وأن يجعل المعركة مع المشركين معركته هو . ويريد أن يرفع عبء هذه العقيدة وعبء هذه المعركة عن عاتق الرسول ﷺ وعاتق المسلمين جملة . . فالذين

يسارعون في الكفر يحاربون الله ، وهم أضعف من أن يضروا الله شيئا . . وهم إذن لن يضروا دعوته . ولن يضروا حملة هذه الدعوة . مهما سارعوا في الكفر ، ومهما أصابوا أولياء الله بالأذى .

إذن لماذا يتركهم الله يذهبون ناجين ، وينتفشون غالبين ، وهم أعداؤه المباشرون ؟

لأنه يدبر لهم ما هو أنكى وأخزى !

(يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة) . . يريد لهم أن يستنفدوا رصيدهم كله ؛ وأن يحملوا وزرهم كله ، وأن يستحقوا عذابهم كله ، وأن يمضوا مسارعين في الكفر إلى نهاية الطريق !

(ولهم عذاب عظيم) . . ولماذا يريد الله بهم هذه النهاية الفظيعة ؟ لأنهم استحقوها بشرائهم الكفر بالإيمان .

(إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم) . . ولقد كان الإيمان في متناول أيديهم . دلائله مبثوثة في صفحات الكون ، وفي أعماق الفطرة . وأماراته قائمة في "تصميم" هذا الوجود العجيب ، وفي تناسقه وتكامله الغريب ، وقائمة كذلك في "تصميم" الفطرة المباشرة ، وتجاوبها مع هذا الوجود ، وشعورها باليد الصانعة ، وبطابع الصنعة البارعة . . ثم إن الدعوة إلى الإيمان – بعد هذا كله – قائمة على لسان الرسل ، وقائمة في طبيعة الدعوة وما فيها من تلبية الفطرة ، ومن جمال التناسق ، ومن صلاحية للحياة والناس . .

أجل كان الإيمان مبذولا لهم ، فباعوه واشتروا به الكفر ، على علم وعن بينة ، ومن هنا استحقوا أن يتركهم الله يسارعون في الكفر ، ليستنفدوا رصيدهم كله ، ولا يستبقوا لهم حظا من ثواب الآخرة . ومن هنا كذلك كانوا أضعف من أن يضروا الله شيئا . فهم في ضلالة كاملة ليس معهم من الحق شيء . ولم ينزل الله بالضلالة سلطانا ؛ ولم يجعل في الباطل قوة . فهم أضعف من أن يضروا أولياء الله ودعوته ، بهذه القوة الضئيلة الهزيلة ، مهما انتفشت ، ومهما أوقعت بالمؤمنين من أذى وقتي إلى حين !

(ولهم عذاب أليم) . . أشد إيلاما – بما لا يقاس – مما يملكون إيقاعه بالمؤمنين من الآم !

(ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . إنما نملي لهم ليزدادوا إثما . ولهم عذاب مهين) .

وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور ، والشبهة التي تجول في بعض القلوب ، والعتاب الذي تجيش به بعض الأرواح ، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق ، متروكين لا يأخذهم العذاب ، ممتعين في ظاهر الأمر ، بالقوة والسلطة والمال والجاه ! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم ؛ ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ؛ يحسبون أن الله – حاشاه – يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان ، فيملي له ويرخي له العنان ! أو يحسبون أن الله – سبحانه – لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل ، فيدع للباطل أن يحطم الحق ، ولا يتدخل لنصرته ! أو يحسبون أن هذا الباطل حق ، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب ؟! أو

يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض ، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر ! ثم . . يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين ، يلجون في عتوهم ، ويسارعون في كفرهم ، ويلجون في طغيانهم ، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم ، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم !!!

وهذا كله وهم باطل ، وظن بالله غير الحق ، والأمر ليس كذلك . وها هو ذا الله سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن . . إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه ، وإذا كان يعطيهم حظا في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه . . إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء ، فإنما هي الفتنة ؛ وإنما هو الكيد المتين ، وإنما هو الاستدراج البعيد: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . . إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) !

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة ، بالابتلاء الموقظ ، لابتلاهم . . ولكنه لا يريد بهم خيرا ، وقد اشتروا الكفر بالإيمان ، وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه ! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة – غمرة النعمة والسلطان – بالابتلاء !

(ولهم عذاب مهين) . . والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء .

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير . فإذا أصابت أولياءه ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم – ولو وقع الابتلاء مترتبا على تصرفات هؤلاء الأولياء – فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف ، وفضل الله على أوليائه المؤمنين .

وهكذا تستقر القلوب ، وتطمئن النفوس ، وتستقر الحقائق الأصيلة البسيطة في التصور الإسلامي الواضح المستقيم .

ولقد شاءت حكمة الله وبره بالمؤمنين ، أن يميزهم من المنافقين ، الذين اندسوا في الصفوف ، تحت تأثير ملابسات شتى ، ليست من حب الإسلام في شيء . فابتلاهم الله هذا الابتلاء – في أحد – بسبب من تصرفاتهم وتصوراتهم ، ليميز الخبيث من الطيب ، عن هذا الطريق:

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) . .

ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله – سبحانه – وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته ، أن يدع الصف المسلم مختلطا غير مميز ؛ يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام . فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دورا كونيا كبيرا ، ولتحمل منهجا إلهيا عظيما ، ولتنشيء في الأرض واقعا فريدا ، ونظاما جديدا . . وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضي ألا يكون في

الصف خلل ، ولا في بنائه دخل . . وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض ؛ وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة . .

وكل هذا يقتضي أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث . وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة . وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر . . ومن ثم كان شأن الله – سبحانه – أن يميز الخبيث من الطيب ، ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة !

كذلك ما كان من شأن الله – سبحانه – أن يطلع البشر على الغيب ، الذي استأثر به ، فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التي فطرهم عليها للاطلاع على الغيب ، وجهازهم البشري الذي أعطاه الله لهم ليس "مصمما" على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار . وهو مصمم هكذا بحكمة . مصمم لأداء وظيفة الخلافة في الأرض . وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب . ولو فتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم . لأنه ليس معدا لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه ، ويصل كيانه بكيان هذا الكون . وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها ، ألا يحرك يدا ولا رجلا في عمارة الأرض ، أو أن يظل قلقا مشغولا بهذه المصائر ، بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض !

من أجل ذلك لم يكن من شأن الله سبحانه ، ولا من مقتضى حكمته ، ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب .

إذن كيف يميز الله الخبيث من الطيب ؟ وكيف يحقق شأنه وسنته في تطهير الصف المسلم ، وتجريده من الغبش ، وتمحيصه من النفاق ، وإعداده للدور الكوني العظيم ، الذي أخرج الأمة المسلمة لتنهض به ؟

(ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) . . وعن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل في تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم في طريق الجهاد . . عن طريق هذا كله يتم شأن الله ، وتتحقق سنته ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويمحص القلوب ، ويطهر النفوس . . ويكون من قدر الله ما يكون . .

وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة الله ، وهي تتحقق في الحياة ؛ وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة . .

وامام مشهد الحقيقة متجلية بسيطة مريحة ، يتجه إلى الذين آمنوا ليحققوا في ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه ، ويلوح لهم بفضل الله العظيم ، الذي ينتظر المؤمنين . (فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) . . فيكون هذا التوجيه وهذا الترغيب ، بعد ذلك البيان وذلك الاطمئنان ، خير خاتمة لاستعراض الأحداث في "أحد" والتعقيب على هذه الأحداث . .

* دروس هامة من غزوة أحد :

وبعد . . فقد تمخضت المعركة والتعقيب القرآني عليها عن حقائق ضخمة منوعة ، يصعب إحصاؤها ثم إيفاؤها حقها من البسط والعرض في هذا السياق من الظلال . فنكتفي بالإشارة إلى أشملها وأبرزها ، ليقاس عليه سائر ما في الغزوة كما عرضها القرآن الكريم من مواضع للعبرة والاستدلال:

١- لقد تمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة في طبيعة هذا الدين الذي هو المنهج الإلهي للحياة البشرية ، وفي طريقته في العمل في حياة البشر . وهي حقيقة أولية بسيطة ، ولكنها كثيرا ما تنسى ، أو لا تدرك ابتداء ، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين:في حقيقته وفي واقعه التاريخي في حياة الإنسانية ، وفي دوره أمس واليوم وغدا . .

إن بعضنا ينتظر من هذا الدين – ما دام هو المنهج الإلهي للحياة البشرية – أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ! دون اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم !

وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة ، وإنما هو يعمل في حدود الطاقة البشرية ، وحدود الواقع المادي للبشر . وأن هذه الطاقة وهذا الواقع يتفاعلان معه ، فيتأثران به في فترات تأثرا واضحا ، أو يؤثران في مدى استجابة الناس له ، وقد يكون تأثيرهما مضادا في فترات أخرى فتقعد بالناس ثقلة الطين ، وجاذبية المطامع والشهوات ، دون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه في طريقه اتجاها كاملا . . حين يرون هذه الظواهر فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ! – ما دام هذا الدين من عند الله – أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته ! أو يصابون بالشك في الدين إطلاقا !

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد ، هو عدم إدراك طبيعة هذا الدين ، وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

إن هذا الدين منهج للحياة البشرية ، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد بشري ، في حدود الطاقة البشرية ، ويبدأ في العمل من النقطة التي يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادي ، ويسير بهم إلى نهاية الطريق ، في حدود جهدهم البشري وطاقتهم البشرية ، ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه .

وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة ، في أية خطة ، وفي أية خطوة ، عن طبيعة فطرة الإنسان ، وحدود طاقته ، وواقعه المادي أيضا . وأنه في الوقت ذاته يبلغ به – كما تحقق ذلك فعلا في بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائما كلما بذلت محاولة جادة – ما لم يبلغه وما لا يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق .

ولكن الخطأ كله – كما تقدم – ينشأ من عدم الإدراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها ؛ ومن انتظار الخوارق التي لا ترتكن على الواقع البشري ؛ والتي تبذل فطرة الإنسان ، وتنشئه نشأة أخرى ، لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداده وطاقاته ، وواقعه المادي كله !

أليس هو من عند الله ؟ أليس دينا من عند القوة القادرة التي لا يعجزها شيء ؟ فلماذا إذن يعمل فقط في حدود الطاقة البشرية ؟ ولماذا يحتاج إلى الجهد البشري ليعمل ؟ ثم لماذا لا ينتصر دائما ؟ ولا ينتصر أصحابه دائما ؟ لماذا تغلب عليه ثقلة الطبع والشهوات والواقع المادي أحيانا ؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه وهم أهل الحق أحيانا ؟

وكلها – كما نرى – أسئلة وشبهات تنبع من عدم إدراك الحقيقة الأولية البسيطة لطبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيانها !

إن الله قادر – طبعا – على تبديل فطرة الإنسان – عن طريق هذا الدين أو من غير طريقه – وكان قادرا على أن يخلقه منذ البدء بفطرة أخرى . . ولكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة . وشاء أن يجعل لهذا الإنسان إرادة واستجابة . وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والتلقي والاستجابة . وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائما ، ولا تمحى ، ولا تبدل ، ولا تعطل . وشاء أن يتم تحقيق منهجه للحياة في حياة البشر عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية . وشاء أن يبلغ "الإنسان" من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد في حدود ملابسات حياته الواقعة .

وليس لأحد من خلقه أن يسأله:لماذا شاء هذا ؟ ما دام أن أحدا من خلقه ليس إلها ! وليس لديه العلم ، ولا إمكان العلم ، بالنظام الكلي للكون ، وبمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود ، وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا "التصميم" الخاص !

و "لماذا ؟ " – في هذا المقام – سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله كذلك ملحد جاد . . المؤمن لا يسأله ، لأنه أكثر أدبا مع الله – الذي يعرفه قلبه بحقيقته وصفاته – وأكثر معرفة بأن الإدراك البشري لم يهيأ للعمل في هذا المجال . . والكافر لا يسأله ، لأنه لا يعترف بالله ابتداء . فإن اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه – سبحانه – ومقتضى ألوهيته !

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لا هو مؤمن جاد ، ولا هو ملحد جاد . . ومن ثم لا ينبغي الاحتفال به ولا الجد في أخذه !

وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية . . فالسبيل لإجابة هذا الجاهل ليس هو الجواب المباشر . إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية – حتى يعرفها فهو مؤمن ، أو ينكرها فهو ملحد . . وبهذا ينتهي الجدل إلا أن يكون مراء !

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسأله – سبحانه – لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنساني بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة ، لا تمحى ، ولا تعدل ، ولا تعطل ! ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ؟

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة ؛ ويراها وهي تعمل في واقـــع البشـــرية ، ويفســـر التاريخ البشري على ضوئها ؛ فيفقه خط سير التاريخ من ناحية ، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى .

هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام – كما جاء به محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض في دنيا النـــاس ، بمجرد تنزله من عند الله . ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه . ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحـــو ما يمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب ، وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية . . إنمـــا يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر ، تؤمن به إيمانا كاملا ، وتستقيم عليه – بقدر طاقتها – وتجعلـــه وظيفة حياتها وغاية آمالها ؛ وتجهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية كذلك ؛ وتجاهـــد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهدا ولا طاقة . . تجاهد الضعف البشري ، والهوى البشري ، والجهـــل البشري في أنفسها وأنفس الآخرين . وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف في وجه هذا المنهج . . وتبلغ – بعد ذلك كله – من تحقيق هذا المنهج الإلهي إلى الحد والمستوى الذي تطيقـــه فطرة البشر . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلا ؛ ولا تغفل واقعهم ، ومقتضيات هذا الواقع ، في سير مراحل هذا المنهج وتتابعها . . ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة ؛ وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة . بقدر ما تبذل من الجهد ؛ وبقدر ما تتخذ من الأساليب العملية ؛ وبقدر ما توفق في اختيار هذه الأساليب . . وقبل كل شيء ، وقبل كل جهد ، وقبل كل وسيلة . . هنالك عنصر آخر:هو مدى تجرد هذه المجموعـــة لهـــذا الغـــرض . ومدى تمثيلها لحقيقة هذا المنهج في ذات نفسها ؛ ومدى ارتباطها بالله صاحب هذا المنهج ، وثقتها به ، وتوكلها عليه .

هذه هي حقيقة هذا الدين وطريقته ، وهذه هي خطته الحركية ووسيلته . .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة ، وهو يربيها بأحداث معركـــة أحـــد ؛ وبالتعقيب على هذه الأحداث . .

حينما قصرت في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذات نفسها في بعض مواقف المعركة . وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل العملية في بعض مواقفها . وحينما غفلت عن تلك الحقيقة الأولية أو نسيتها ؛ وفهمت أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتما بغض النظر عن تصورها وتصرفها – حينئذ تركهـــا الله تلاقي الهزيمة ؛ وتعاني آلامها المريرة . ثم جاء التعقيب القرآني يردها إلى تلك الحقيقة:(أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم:أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير) . .

ولكنه - كما قلنا في سياق الاستعراض للنصوص - لا يترك المسلمين عند هذه النقطة ، بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج ؛ ويكشف لهم عن إرادة الخير بهم من وراء الابتلاء ، الذي وقع بأسبابه الظاهرة من تصرفاتهم الواقعة . .

إن ترك المنهج الإلهي يعمل ويتحقق عن طريق الجهد البشري ، ويتأثر بتصرف البشر إزاءه . . هو خير في عمومه ، فهو يصلح الحياة البشرية ولا يفسدها أو يعطلها ؛ ويصلح الفطرة البشرية ويوقظها ويردها إلى سوائها . . ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان . مجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ؛ ومجاهدتهم باليد لدفعهم من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية . . وحتى يتعرض في هذه المجاهدة للابتلاء والصبر على الجهد ، والصبر على الأذى ، والصبر على الهزيمة ، والصبر على النصر أيضا - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة - وحتى يتمحص القلب ، ويتميز الصف ، وتستقيم الجماعة على الطريق ، وتمضي فيه راشدة صاعدة ، متوكلة على الله .

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان . لأنه يجاهد نفسه أولا في أثناء مجاهدته للناس ؛ وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدا ، وهو قاعد آمن سالم ؛ وتتبين له حقائق في الناس ، وفي الحياة ، لم تكن لتتبين له أبدا بغير هذه الوسيلة ؛ ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته ، وبعاداته وطباعه ، وبانفعالاته واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبدا ، بدون هذه التجربة الشاقة المريرة .

وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة ، حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء ، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته ، وعلى حقيقة غايته ؛ ثم تتعرف هي على حقيقة اللبنات التي تتألف منها . مدى احتمال كل لبنة ، ثم مدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الصدام .

وهذا ما أراد الله - سبحانه - أن يعلمه للجماعة المسلمة ، وهو يربيها بالأحداث في "أحد" وبالتعقيب على هذه الأحداث في هذه السورة . وهو يقول لها ، بعد بيان السبب الظاهر في ما أصابها: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا) . . وهو يقول: (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) . ثم . . وهو يردهم إلى قدر الله وحكمته من وراء الأسباب والوقائع جميعا ؛ فيردهم إلى حقيقة الإيمان الكبرى التي لا يتم إلا باستقرارها في النفس المؤمنة:(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) . .

وإذن فهو – في النهاية – قدر الله وتدبيره وحكمته ، من وراء الأسباب والأحـــداث والأشـــخاص والحركات . . وهو التصور الإسلامي الشامل الكامل ، يستقر في الـــنفس مـــن وراء الأحـــداث ، والتعقيب المنير على هذه الأحداث .

٢– وتمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة عن طبيعة النفس البشرية وطبيعة الفطرة الإنسانية ، وطبيعة الجهد البشري ، ومدى ما يمكن أن يبلغه في تحقيق المنهج الإلهي:

إن النفس البشرية ليست كاملة – في واقعها – ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء ، حـــتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض .

وها نحن أولاء نرى قطاعا من قطاعات البشرية – كما هو وعلى الطبيعة – ممثلا في الجماعة التي تمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . . وهم أصحاب محمـــد ﷺ المثـــل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق . . فماذا نرى ؟ نرى مجموعة من البشر ، فيهم الضعف وفيهم النقص ، وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنمـــا اســـتزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) . ومن يبلغ أن يقول الله عنـــهم: (حـــتى إذا فشـــلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم مـــن يريـــد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم) . . وفيهم من يقول الله عنهم:(إذ همت طائفتان منكم أن تفشـــلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . . وفيهم من ينهزم وينكشف ، وتبلغ منهم الهزيمة ما وصـــفه الله سبحانه بقوله: إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم . فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . .

وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون ؛ ولكنهم كانوا في أوائل الطريق . كانوا في دور التربية والتكـــوين . ولكنهم كانوا جادين في أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم لله ، مرتضين قيادته ، ومستسلمين لمنهجه . ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم ؛ وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم ، ويستغفر لهم ، وأمره أن يشاورهم في الأمر ، بعد كل ما وقع منهم ، وبعد كل ما وقع من جراء المشـــورة ! نعم إنه – سبحانه –تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم تلك ، وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المريـــر . . ولكنه لم يطردهم خارج الصف ، ولم يقل لهم:إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر ، بعد ما بـــدا منكم في التجربة من النقص والضعف . . لقد قبل ضعفهم هذا ونقصهم ، وربـــاهم بـــالابتلاء ، ثم رباهم بالتعقيب على الابتلاء ، والتوجيه إلى ما فيه من عبر وعظات . في رحمة وفي عفو وفي سماحة ؛ كما يربت الكبير على الصغار ؛ وهم يكتوون بالنار ، ليعرفوا ويدركوا وينضجوا . وكشـــف لهـــم ضعفهم ، ومخبآت نفوسهم ، لا ليفضحهم بها ، ويرذلهم ، ويحقرهم ، ولا ليرهقهم ويحملهم مـــا لا يطيقون له حملا . ولكن ليأخذ بأيديهم ، ويوحي إليهم أن يثقوا بأنفسهم ولا يحتقروها ولا ييأســـوا من الوصول ما داموا موصولين بحبل الله المتين .

ثم وصلوا . . وصلوا في النهاية ، وغلبت فيهم النماذج التي كانت في أول المعركة معدودة . وإذا هم في اليوم التالي للهزيمة والقرح ، يخرجون مع رسول الله ﷺ غير هيابين ولا مترددين ولا وجلين من تخويف الناس لهم حتى استحقوا تنويه الله بهم:(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل) . .

ولما كبروا بعد ذلك شيئا فشيئا . . تغيرت معاملتهم ، وحوسبوا كما يحاسب الرجال الكبار . بعد ما كانوا يربتون هنا كما يربت الأطفال ! والذي يراجع غزوة تبوك في سورة براءة ؛ ومؤاخذة الله ورسوله للنفر القلائل المتخلفين ، تلك المؤاخذة العسيرة ، يجد الفرق واضحا في المعاملة ؛ ويجد الفرق واضحا في مراحل التربية الإلهية العجيبة . كما يجد الفارق بين القوم يوم أحد ، والقوم يوم تبوك . . وهم هم . . ولكن بلغت بهم التربية الإلهية هذا المستوى السامق . . ولكنهم مع هذا ظلوا بشرا . وظل فيهم الضعف ، والنقص ، والخطأ . ولكن ظل فيهم كذلك الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله إنها الطبيعة البشرية التي يحافظ عليها هذا المنهج ؛ ولا يبدلها أو يعطلها ، ولا يحملها ما لا تطيق . وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض .

وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة في إعطاء الأمل الدائم للبشرية ، لتحاول وتبلغ ، في ظل هذا المنهج الفريد . فهذه القمة السامقة التي بلغتها تلك الجماعة ، إنما بدأت تنهد إليها من السفح الذي التقطها منه . وهذه الخطى المتعثرة في الطريق الشاق زاولتها جماعة بشرية متخلفة في الجاهلية . متخلفة في كل شيء . على النحو الذي عرضنا نماذج منه في سياق هذا الدرس . . وكل ذلك يعطي البشرية أملا كبيرا في إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامي ، مهما تكن قابعة في السفح . ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة ، فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر . فهي ليست وليدة خارقة عابرة . إنما هي وليدة المنهج الإلهي ، الذي يتحقق بالجهد البشري ، في حدود الطاقة البشرية – والطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير !

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التي هي فيها ، ومن الواقع المادي الذي هي فيه . ثم يمضي بها صعدا كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة . . من السفح . . ثم انتهى بها في فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان ، إلى ذلك الأوج السامق . .

شرط واحد لا بد أن يتحقق . . أن تسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج . أن تؤمن به . وأن تستسلم له . وأن تتخذه قاعدة حياتها ، وشعار حركتها ، وحادي خطاها في الطريق الشاق الطويل

٣ – وحقيقة ثالثة تمخضت عنها المعركة والتعقيب عليها . . حقيقة الارتباط الوثيق في منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة ، وبين كل معركة تخوضها مع أعدائها في أي ميدان .

الارتباط بين العقيدة والتصور والخلق والسلوك والتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي . . وبين النصر أو الهزيمة في كل معركة . . فكل هذه عوام أساسية فيما يصيبها من نصر أو هزيمة .

والمنهج الإلهي – من ثم – يعمل في مساحة هائلة في النفس الإنسانية وفي الحياة البشـرية . مسـاحة متداخلة الساحات والنقط والخطوط والخيوط ، متكاملة في الوقت ذاته وشاملة . والخطـة يصـيبها الخلل والفشل حين يختل الترابط والتناسق بين هذه الساحات كلها والنقط والخطوط والخيـوط . . وهذه ميزة ذلك المنهج الكلي الشامل ، الذي يأخذ الحياة جملة ، ولا يأخذها مزقا وتفاريق . والذي يتناول النفس والحياة من أقطارها جميعا ، ويلم خيوطها المتشابكة المتباعدة ، في قبضته ، فيحركهـا كلها حركة واحدة متناسقة ، لا تصيب النفس بالفصام ، ولا تصيب الحياة بالتمزق والانقسام .

ومن نماذج هذا التجميع ، وهذه الارتباطات المتداخلة الكثيرة حديثه – في التعقيب القـرآني – عـن الخطيئة ، وأثرها في النصر والهزيمة . فهو يقرر أن الهزيمة كانت موصولة بالشيطان الذي استغل ضعف الذين تولوا بسبب مما كسبوا: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان بـبعض ما كسبوا) . . كما يقرر أن الذين قاتلوا مع الأنبياء ووفوا – وهم النموذج الذي يطلب إلى المؤمنين الاقتداء به – بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب:

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْـتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) [آل عمران : ١٤٦ – ١٤٨]. .

وفي توجيهاته للجماعة المسلمة يسبق نهيه لها عن الوهن والحزن في المعركـة ، توجيههـا للتطهـر والاستغفار:(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعـدت للمـتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحـب المحسـنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الـذنوب إلا الله – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) . . ومن قبل يذكر عن سـبب ذلـة أهـل الكتـاب وانكسارهم:الاعتداء والمعصية:(ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا – إلا بحبل من الله وحبل من الناس – وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلـون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . .

وكذلك نجد الحديث عن الخطيئة والتوبة ، يتخلل التعقيب على أحداث الغزوة ، كما نجد الكلام عن "التقوى " وتصوير حالات المتقين ، يتخلل سياق السورة كلها بوفرة ملحوظة . ويربط بـين جـو السورة كلها – على اختلاف موضوعاتها – وجو المعركة . كما نجد الدعوة إلى تـرك الربـا ، وإلى طاعة الله والرسول ، وإلى العفو عن الناس ، وكظم الغيظ ، والإحسان ، . . وكلها تطهير للـنفس وللحياة وللأوضاع الاجتماعية . . والسورة كلها وحدة متماسكة في التوجيـه إلى هـذا الهـدف الأساسي الهام .

٤ – وحقيقة رابعة . . عن طبيعة منهج التربية الإسلامي . . فهـــو يأخـــذ الجماعـــة المســـلمة بالأحداث ، وما تنشئه في النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات ، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث . . على النحو الذي يمثله التعقيب القرآني على غزوة أحد . . وهو في التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة ، ليصحح تأثره ، ويرسب فيه الحقيقة التي يريد لها أن تستقر وتستريح ! وهو لا يدع جانبا من الجوانب ، ولا خاطرة من الخـــواطر ، ولا تصـــورا مـــن التصورات ، ولا استجابة من الاستجابات ، حتى يوجه إليها الأنظار ،ويسـلط عليهـا الأنـوار ، ويكشف عن المخبوء منها في دروب النفس البشرية ومنحنياتها الكثيرة ، ويقـف الـنفس تجاهها مكشوفة عارية ؛ وبذلك يمحص الدخائل ، وينظفها ويطهرها في وضح النور ؛ ويصـحح المشـاعر والتصورات والقيم ؛ ويقر المبادئ التي يريد أن يقوم عليها التصور الإسلامي المتين ، وأن تقوم عليها الحياة الإسلامية المستقرة . . مما يلهم وجود اتخاذ الأحداث التي تقع للجماعة المسلمة في كل مكـان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق . .

وننظر في التعقيب على غزوة أحد ، فنجد الدقة والعمق والشمول . . الدقة في تناول كل موقـف ، وكل حركة ، وكل خالجة ؛ والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينـة ؛ والشـمول لجوانب النفس وجوانب الحادث . ونجد التحليل الدقيق العميق الشامل للأسباب والنتائج . والعوامل المتعددة الفاعلة في الموقف ، المسيرة للحادث ، كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء ؛ بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجا عميقا عنيفا ، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصـف ، والتعقيب . فهو وصف حي ، يستحضر المشاهد – كما لو كانت تتحرك – ويشيع حولها النشـاط المؤثر والإشعاع النافذ ، والإيحاء المثير .

٥ – وحقيقة خامسة كذلك . . عن واقعية المنهج الإلهي . . فمن وسائل هذا المنهج لإنشاء آثاره في عالم الواقع ، مزاولته بالفعل ، فهو لا يقدم مبادئ نظرية ، ولا توجيهات مجـردة . . ولكنـه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته . وأظهر مثل على واقعية المنهج في هذه الغزوة ، هو موقفه إزاء مبدأ الشورى . .

لقد كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة ، التي تعرضت لها – وهي بعد ناشئة ومحاطة بالأعداء من كل جانب ، والعدو رابض في داخل أسوارها ذاتها – نقـول كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها ، لـو أنه قضى برأيه في خطة المعركة ، مستندا إلى رؤياه الصادقة ؛ وفيها مـا يشـير إلى أن المدينـة درع حصينة ؛ و لم يستشر أصحابه ، أو لم يأخذ بالرأي الذي انجلت المشورة عـن رجحانـه في تقـدير الجماعة ! أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع ، وقد خرج من بيتـه ، فـرأى أصحاب هذا الرأي نادمين أن يكونوا قد استكرهوه على غير ما يريد !

ولكنه – وهو يقدر النتائج كلها – أنفذ الشورى . وأنفذ ما استقرت عليه ، ذلك كي تجابه الجماعة المسلمة نتائج التبعة الجماعية ، وتتعلم كيف تحتمل تبعة الرأي ، وتبعة العمل . لأن هذا في تقديره ﷺ وفي تقدير المنهج الإسلامي الذي ينفذه ، أهم من اتقاء الخسائر الجسيمة ، ومن تجنيب الجماعة تلــك التجربة المريرة . فتجنيب الجماعة التجربة معناه حرمانها الخبرة ، وحرمانها المعرفة ، وحرمانها التربية ! ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى – بعد المعركة كذلك – تثبيتا للمبدأ في مواجهة نتائجه المريــرة . فيكون هذا أقوى وأعمق في إقراره من ناحية ، وفي إيضاح قواعد المنهج من ناحية . .

إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته ! فهو يعلم أنها لن تستعد أبدا لمزاولتــه إلا إذا زاولته فعلا ، وإن حرمانها من مزاولة مبادىء حياتها الأساسية – كمبدأ الشورى – شــر مــن النتائج المريرة التي تتعرض لها في بدء استعماله ، وأن الأخطاء في مزاولته – مهما بلغت من الجسامة – لا تبرر إلغاءه ، بل لا تبرر وقفة فترة من الوقت ، لأنه إلغاء أو وقف لنموها الذاتي ، ونمــو خبرتهــا بالحياة والتكاليف . بل هو إلغاء لوجودها كأمة إطلاقا !

وهذا هو الإيحاء المستفاد من قوله تعال – بعد كل ما كان من نتائج الشورى في المعركــة: (فــاعف عنهم ،واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر) .

كما أن المزاولة العملية للمبادىء النظرية تتجلى في تصرف الرسول ﷺ عندما رفــض أن يعــود إلى الشورى بعد العزم على الرأي المعين ، واعتباره هذا ترددا وأرجحة . وذلك لصيانة مبــدأ الشــورى ذاته ، من أن يصبح وسيلة للتأرجح الدائم ، والشلل الحركي . فقال قولته التربوية المأثورة:" ما كان لنبي أن يضع لأمته حتى يحكم الله له " . . ثم جاء التوجيه الإلهي الأخير: (فإذا عزمت فتوكل علــى الله) . . فتطابق – في المنهج – التوجيه والتنفيذ . .

٦ – وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآني على مواقف الجماعة المسلمة التي صاحبت رسول الله ﷺ والتي تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله . . وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنــا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله . .

إن منهج الله ثابت ، وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنــهج ، ويخطئــون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد السلوك . ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوبا على المنــهج ، ولا مغيرا لقيمه وموازينه الثابتة .

وحين يخطئ البشر في التصور أو السلوك ، فإنه يصفهم بالخطأ . وحين ينحرفون عنه فإنه يصــفهم بالانحراف . ولا يتغاضى عن خطئهم وانحرافهم – مهما تكن منازلهم وأقدارهم – ولا ينحرف هــو ليجاري انحرافهم !

ونتعلم نحن من هذا ، أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج ! وأنه من الخير للأمة المســلمة أن تبقى مبادىء منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الــذي

يستحقونه – أيا كانوا – وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبدا ، بتحريف المنهج ، وتبديل قيمه وموازينه . فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو الانحراف . . فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص . والواقع التاريخي للإسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم . وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقا تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة . . وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يحسب على الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ؛ إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه:من خطأ أو انحراف أو خروج على الإسلام . . إن تاريخ "الإسلام" ليس هو تاريخ "المسلمين" ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان ! إن تاريخ "الإسلام" هو تاريخ التطبيق الحقيقي للإسلام ، في تصورات الناس وسلوكهم ، وفي أوضاع حياتهم ، ونظام مجتمعاتهم . . فالإسلام محور ثابت ، تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت . فإذا هم خرجوا عن هذا الإطار ، أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتا ، فما للإسلام وما لهم يومئذ ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم هذه تحسب على الإسلام ، أو يفسر بها الإسلام ؟ بل ما لهم هم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الإسلام ، وأبوا تطبيقه في حياتهم ، وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم ، لا لأن أسماءهم أسماء مسلمين ، ولا لأنهم يقولون بأفواههم:إنهم مسلمون ؟!

وهذا ما أراد الله – سبحانه – أن يعلمه للأمة المسلمة ، وهو يكشف أخطاء الجماعة المسلمة ، ويسجل عليها النقص والضعف ، ثم يرحمها بعد ذلك ويعفو عنها ، ويعفيها من جرائر النقص والضعف في حسابه . وإن يكن أذاقها جرائر هذا النقص والضعف في ساحة الابتلاء !

* في الطريق إلى بدر والفرق بين إرادة الله وإرادة المسلمين :

يأخذ سياق السورة (الأنفال) في الحديث عن الموقعة التي تخلفت عنها تلك الأنفال التي تنازعوا عليها ، وساءت أخلاقهم فيها – كما يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه في خلوص وصراحة ووضوح – ويستعرض مجمل أحداثها وملابساتها ، ومواقفهم فيها ، ومشاعرهم تجاهها . . . فيتبين من هـذا الاستعراض أنهم هم لم يكونوا فيها إلا ستاراً لقدر الله ؛ وأن كل ما كان فيها من أحداث ، وكل ما نشأ عنها من نتائج – بما فيها هذه الأنفال التي تنازعوا عليها – إنما كان بقدر الله وتوجيهه وتـدبيره وعونه ومدده . . أما ما أرادوه هم لأنفسهم من الغزوة فقد كان شيئاً صغيراً محدوداً ، لا يقـاس إلى ما أراده الله لهم ، وبهم ، من هذا الفرقان العظيم في السماوات وفي الأرض . ذلك الذي اشتغل بـه الملأ الأعلى إلى جانب ما اشتغل به الناس في الأرض ، وما اشتغل به التاريخ البشري على الإطلاق . . ويذكرهم أن فريقاً منهم واجه المعركة كارهاً ؛ كما أن فريقاً منهم كره تقسيم الأنفـال وتنـازع فيها ؛ ليروا أن ما يرونه هم ، وما يكرهونه أو يحبونه ، ليس بشيء إلى جانب ما يريده الله سـبحانه ويقضي فيه بأمره ، وهو يعلم عاقبة الأمور:

{ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)} [الأنفال : ٥ – ١٤]. .

لقد رد الله الأنفال كلها إلى الله والرسول ، ليعيد الرسول ﷺ قسمتها بينهم على السـواء – بعـد استبقاء الخمس الذي ستأتي فيما بعد مصارفه – ذلك لتخلص نفوس العصـبة المؤمنـة مـن كـل ملابسات الغنيمة ؛ فيمتنع التنازع عليها ، ويصير حق التصرف فيها إلى رسول الله كما يعلمـه الله ، فلا يبقى في النفوس من أجلها شيء ؛ وليذهب ما حاك في نفوس الفئة الـتي حـازت الغنـائم ، ثم سويت مع الآخرين في القسمة على ما تقدم .

ثم ضرب الله هذا المثل من إرادتهم هم لأنفسهم ، ومن إرادة الله لهم ، وبهم ، ليستيقنوا أن الخيرة فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال ؛ وأن الناس لا يعلمون إلا ما بين أيديهم والغيب عنهم محجوب .
. ضرب لهم هذا المثل من واقعهم الذي بين أيديهم . . من المعركة ذاتها تلك التي يتقاسمون أنفالها . . فما الذي كانوا يريدونه لأنفسهم فيها ؟ وما الذي أراده الله لهم ، وبهم ؟ وأين ما أرادوه مما أراده الله ؟ . . إنها نقلة بعيدة في واقع الأمر ؛ ونقلة بعيدة على مدّ الرؤية والتصور !

كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غـير ذات الشوكة تكون لكم ؛ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . .

إن رد الأنفال لله والرسول ، وقسمتها بينهم على السواء ، وكراهة بعض المؤمنين لهذه التسـوية . . ومن قبل كراهة بعضهم لاختصاص بعض الشباب بالنصيب الأوفر منها . . إنها شأن يشـبه شـأن إخراج الله لك من بيتك – بالحق – لمقاتلة الفرقة ذات الشوكة ؛ وكراهة بعض المؤمنين للقتـال . . وبين أيديهم العاقبة التي أنتجت هذه الأنفال . .

ولقد سبق لنا في استعراض وقائع الغزوة – من كتب السيرة – أن أبا بكر وعمر قاما فأحسنا حـين استشار رسول الله ﷺ الناس معه في أمر القتال ، بعدما أفلتت القافلة ، وتبين أن قريشاً قـد جـاءت بشوكتها وقوتها . وأن المقداد بن عمرو قام فقال:يا رسول الله ، امض لأمر الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . . . الخ "[٣] . وأن هذا كان كلام المهـاجرين . فلمـا كـرر رسول الله ﷺ القول على الناس فهم الأنصار أنه إنما يعنيهم ، فقام سعد بن معاذ فقال كلاماً طـويلاً قاطعاً مطمئناً . .

ولكن هذا الذي قاله أبو بكر وعمر ، والذي قاله المقداد ، والذي قاله سعد بن معـاذ – رضـي الله عنهم – لم يكن هو مقالة جميع الذين خرجوا من المدينة مع رسول الله ﷺ فلقد كره بعضهم القتال ، وعارض فيه ، لأنهم لم يستعدوا لقتال ، إنما خرجوا لملاقاة الفئة الضعيفة التي تحرس العير ؛ فلمـا أن علموا أن قريشاً قد نفرت بخيلها ورجلها ، وشجعانها وفرسانها ، كرهوا لقاءها كراهية شديدة ، هي هذه الكراهية التي يرسم التعبير القرآني صورتها بطريقة القرآن الفريدة:
(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِـي الْحَـقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) [الأنفال : ٥ ، ٦]) !

[٣] – انظر دلائل النبوة للبيهقي (٨٧٤) ومجمع الزوائد (١٥٦٨٣) صحيح بغيره

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ حَدَّثَهُ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ : إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نُخْرِجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ ؟ لَعَلَّ اللَّهُ يُغْنِمُنَاهَا ، فَقُلْنَا : نَعَمْ ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا ، فَلَمَّا سِرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ، قَالَ لَنَا : مَا تَرَوْنَ فِي الْقَوْمِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ ؟ ، فَقُلْنَا : لا وَاللَّهِ مَالَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ ، وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ ، ثُمَّ قَالَ : مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ ؟ ، فَقُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ الْمِقْدَادُ بن عَمْرٍو : إِذَنْ لا نَقُولُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى : {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} ، قَالَ : فَتَمَنَّيْنَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَوْ أَنَّا قُلْنَا كَمَا قَالَ الْمِقْدَادُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَنَا مَالٌ عَظِيمٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ : {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الأنفال : ٥ ،٦] ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بنانٍ} [الأنفال : ١٢] ، وَقَالَ : {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [الأنفال : ٧] ، وَالشَّوْكَةُ الْقَوْمُ وَغَيْرُ ذَاتِ الشَّوْكَةِ الْعِيرُ ، فَلَمَّا وَعَدَنَا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا الْقَوْمُ وَإِمَّا الْعِيرُ طَابَتْ أَنْفُسُنَا ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلا لِيَنْظُرَ مَا قِبَلَ الْقَوْمِ ؟ فَقَالَ : رَأَيْتُ سَوَادًا وَلا أَدْرِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُمْ هَلُمُّوا أَنْ نَتَعَادَ ، فَفَعَلْنَا ، فَإِذَا نَحْنُ ثَلاثَ مِائَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلا ، فَأَخْبَرَنَا رَسُولَ اللَّهِ بِعِدَّتِنَا ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَقَالَ : عِدَّةُ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، ثُمَّ إِنَّا اجْتَمَعْنَا مَعَ الْقَوْمِ فَصَفَفْنَا ، فَبَدَرَتْ مِنَّا بَادِرَةٌ أَمَامَ الصَّفِّ ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : مَعِي ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ وَعْدَكَ ، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشِيرَ عَلَيْكَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ مَنْ يُشِيرُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَنْشُدَهُ وَعْدَهُ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ رَوَاحَةَ لأَنْشُدَنَّ اللَّهَ وَعْدَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ ، فَانْهَزَمُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال : ١٧] فَقَتَلْنَا وَأَسَرْنَا ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى أَنْ يَكُونَ لَكَ أَسْرَى ، فَإِنَّمَا نَحْنُ دَاعُونَ مُوَلِّفُونَ ، فَقُلْنَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ : إِنَّمَا يَحْمِلُ عُمَرُ عَلَى مَا قَالَ حَسَدًا لَنَا ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُوا لِي عُمَرَ ، فَدُعِيَ لَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .[٤]

فهذا ما حاك في نفوس فريق من المسلمين يومئذ ، وما كرهوا من أجله القتال ، حتى ليقول عنهم القرآن الكريم: (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) . . وذلك بعد ما تبين الحق ، وعلموا أن الله

---

[٤] – المعجم الكبير للطبراني – (٤ / ٢٣٨) (٣٩٥٠) حسن

وعدهم إحدى الطائفتين وأنه لم يبق لهم خيار بعدما أفلتت إحدى الطائفتين وهـــي – العـــير – وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى ، وقد قدر الله لهم لقاءها وقدر أنها ستكون لهم . كانت ما كانت . كانت العير أو كانت النفير . كانت الضعيفة التي لا شوكة لها أم كانت القوية ذات الشوكة والمنعة . وإنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر ؛ ويتجلى فيها أثر المواجهة الواقعية – على الرغم من الاعتقاد القلبي – والصورة التي يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضـــع في تقـــديرنا لمتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع ؛ فلا نغفل طاقة النفس البشرية وذبذباتها عنـــد المواجهـــة ؛ ولا نيئس من أنفسنا ولا من النفس البشرية جملة حين نراها تهتز في مواجهة الخطر – على الـــرغم مـــن طمأنينة القلب بالعقيدة – فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي في الطريق ، وتواجه الخطر فعلاً ، وتنتصر على الهزة الأولى ! . . لقد كان هؤلاء هم أهل بدر ، الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:" وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر اطلاعة ، فقال:اعملوا ما شئتم ، فقـــد غفرت لكم " . . وهذا يكفي . .

ولقد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غير ذات الشوكة هي التي كتب الله عليهم لقاءها:
{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ } (٧) سورة الأنفال. .

هذا ما أرادته العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك . أما ما أراده الله لهم ، وبهم ، فكان أمراً آخر:
(وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَـــوْ كَـــرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) [الأنفال : ٧ ، ٨]) . .

لقد أراد الله – وله الفضل والمنة – أن تكون ملحمة لا غنيمة ؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه . وأراد أن يقطع دابر الكافرين ، فيقتل منهم من يقتـــل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقريـــر ألوهيـــة الله في الأرض ، وتحطيم طاغوت الطواغيت . وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف – تعـــالى الله عن الجزاف – وبالجهد والجهاد وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال .

نعم . أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة ؛ وأن يصبح لها قـــوة وســـلطان . . وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها . فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وأن تعلـــم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزاد . . . إنما هو بمقدار اتصال القلـــوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد . وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عـــن مجـــرد تصـــور واعتقاد قلبي . ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ؛ ولتـــوقن كـــل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من

القلة ويكن عدوها من الكثرة ؛ ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد . . وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان .

وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومــذاك وما أراده الله لها . بين ما حسبته خيراً لها وما قدره الله لها من الخير . . ينظر فيرى الآماد المتطاولــة ؛ ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهــم ؛ وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى . بينمــا يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال ، ولا بخيال !

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها ؟ لقد كانت تمضي – لو كانت لهم غــير ذات الشوكة –قصة غنيمة . قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت في التاريخ كلــه قصة عقيدة . قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل . قصة انتصار الحق على أعدائه المــدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ؛ والحق في قلة من العدد ، وضعف في الزاد والراحلة . قصــة انتصــار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي . بل قصة انتصار حفنة من القلوب مــن بينها الكارهون للقتال ! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي ، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركــة والكفــة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل ؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر ؛ فإذا الحق راجح غالب .

ألا إن غزوة بدر – بملابساتها هذه – لتمضي مثلاً في التاريخ البشري . ألا وإنها لتقرر دستور النصــر والهزيمة ؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة . . الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية . . ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان ، لا تتبدل دلالتها ولا تــتغير طبيعتها . فهي آية من آيات الله ، وسنة من سننه الجارية في خلقه ، ما دامت السماوات والأرض . .

ألا وإن العصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية في الأرض – بعد ما غلبــت عليهــا الجاهلية – لجديرة بأن تقف طويلاً أمام [بدر] وقيمها الحاسمة التي تقررها ؛ والأبعاد الهائلــة الــتي تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّــهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُــونَ (٨) [الأنفال : ٧ ، ٨]) . . .

إن العصبة المسلمة التي تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين في دنيا الناس وفي عالم الواقع ، قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية في المرحلة التي كانت فيها العصبة المسلمة الأولى يوم بدر . ولكن المــوازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها ونتائجها والتعقيبات القرآنية عليها ما تزال تواجه وتوجه

موقف العصبة المسلمة في كل مرحلة من مراحل الحركة ، ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كليـــة ودائمة ما دامت السماوات والأرض ، وما كانت عصبة مسلمة في هذه الأرض ، تجاهـــد في وجـــه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية . . .

* حرمة الفرار من المعركة وقدر الله في النصر :

والآن . . وقد أعاد عليهم مشاهد الوقعة وملابساتها ، وأراهم يد الله فيها وتدبيره ، وعونه ومـــدده ،وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستار لقدر الله وقدرته . . الله هو الذي أخرج رسوله مـــن بيته بالحق – لم يخرجه بطراً ولا اعتداء ولا طغياناً – والله هو الذي اختار لهم إحدى الطائفتين لأمـــر يريده ، من قطع دابر الكافرين(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . . والله هو الذي أمدهم بألف من الملائكة مردفين . . والله هو الذي غشاهم النعاس أمنة منه ، ونزل عليهم من السماء مـــاء ليطهرهم به ، ويذهب عنهم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام . . والله هو الذي أوحى إلى الملائكة ليثبتوا الذين آمنوا ، وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب . . والله هو الذي أشرك الملائكة في المعركة وأمرهم أن يضربوا فوق الأعناق وأن يضربوا من المشركين كل بنان . . والله هو الذي غنمهم الغنيمة ورزقهم من فضله بعد أن خرجوا بلا مال ولا ظهر ولا عتاد . .

الآن . . وقد استعرض السياق القرآني هذا كله ، فأعاده حاضراً في قلوبهم ، شاخصاً لأبصـــارهم . وهو يتضمن صورة من النصر الحاسم الذي لا يستند إلى تدبير بشري ، ولا إلى قوة العدد ولا قـــوة العدة ؛ إنما يستند إلى تدبير الله وتقديره وعونه ومدده ؛ كما يستند إلى التوكل علـــى الله وحـــده ، والالتجاء إليه ، والاستغاثة به ، والسير مع تدبيره وتقديره . .

الآن . . وهذا المشهد حاضر في القلوب شاخص للأبصـــار . . الآن . . وفي أنســـب اللحظـــات لاستجابة القلوب للتوجيه . . الآن يجيء الأمر للذين آمنوا – بصفتهم هذه – أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا ؛ وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار ؛ ما دام أن النصر والهزيمة موكولان إلى إرادة فـــوق إرادة الناس ؛ وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التي يراها الناس ؛ وما دام أن الله هو الذي يدبر أمر المعركة – كما يدبر الأمر كله – وهو الذي يقتل الكفار بأيدي المؤمنين ؛ وهو الذي ينجح الرميـــة حين ترمى – وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه – وهو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تدبيرهم ويذيقهم العذاب في الدنيا والآخرة لأنهم شـــاقوا الله ورسوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِـــيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْـــهُ بَلَـــاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) [الأنفال : ١٥ ، ١٨] }

ويبدو في التعبير القرآني شدة في التحذير ؛ وتغليظ في العقوبة ؛ وتهديد بغضب مـــن الله ومـــأوى في النار: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبـــره – إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة – فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهـــنم وبـــئس المصـــير . .

والمعنى:يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا(زحفاً) أي متدانين متقاربين متواجهين ؛ فلا تفروا عنهم ، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب ، حيث تختارون موقعاً أحسن ، أو تدبرون خطة أحكم ؛ أو أن يكون ذلك انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين ، أو إلى قواعد المسلمين ، لتعاودوا القتال . . وأن من تولى ، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب:غضباً من الله ومأوى في جهنم . .

وقد وردت بعض الأقوال في اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل بدر ، أو بالقتال الذي يكون رسول الله ﷺ حاضره . ولكن الجمهور على أنها عامة ، وأن التولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات .

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخا ثابتا لا تهزمه في الأرض قوة ، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده . . وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة – وهو يواجه الخطر – فإن هذه الهزة لا يجوز أنتبلغ أن تكون هزيمة وفرارا . والآجال بيد الله ، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفا على الحياة . وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانا . فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة . ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها . ثم إنه إلى الله إن كان حياً ، وإلى الله إن كتبت له الشهادة . فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه وهو يشاق الله ورسوله . . ومن ثم هذا الحكم القاطع: (ومن يولهم يومئذ دبره – إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة – فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير) .

ولا بد أن نقف هنا عند التعبير ذاته ؛ وما فيه من إيماءات عجيبة: (فلا تولوهم الأدبار) . . (ومن يولهم يومئذ دبره) . . فهو تعبير عن الهزيمة في صورتها الحسية ، مع التقبيح والتشنيع ، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء ! . . ثم: (فقد باء بغضب من الله) . . فالمهزوم مولٍّ ومعه (غضب من الله) يذهب به إلى مأواه: (ومأواه جهنم وبئس المصير) . .

وهكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالته في رسم الجو العام ؛ وتثير في الوجدان شعور الاستقباح والاستنكار للتولي يوم الزحف والفرار .

ثم يمضي السياق بعد هذا التحذير من التولي يوم الزحف ؛ ليكشف لهم عن يد الله وهي تدير المعركة من ورائهم ؛ وتقتل لهم أعداءهم ، وترمي لهم وتصيب . . . وهم ينالون أجر البلاء لأن الله يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء ، ليثيبهم عليه من فضله وهو الذي وهبهم إياه: (فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت – إذ رميت – ولكن الله رمى . وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا . إن الله سميع عليم) . .

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمي هنا بأنه رمية الحصى التي حثاها رسول الله ﷺ في وجوه الكفار ، وهو يقول:" شاهت الوجوه . شاهت الوجوه " فأصابت وجوه المشركين ممن كتب عليهم القتل في علم الله . .

ولكن دلالة الآية أعم . فهي تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للـــنبي ﷺ والعصـــبة المسلمة معه . ولذلك تلاها قول الله تعالى: (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) . .

أي ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذي ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به النصـــر . فهو الفضل المضاعف أولاً وأخيراً .

(إن الله سميع عليم) . . يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم ؛ ويجعلكم ستارا لقدرته ، متى علـــم مـــنكم الخلوص له ؛ ويعطيكم النصر والأجر . . كما أعطاكم هذا وذاك في بدر . .

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) . . وهذه أخرى بعد تلك الأولى ! إن التدبير لا ينتهي عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم ، ويصيبهم برمية رسولكم ، ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليـــه . . إنما هو يضيف إليه توهين كيد الكافرين ، وإضعاف تدبيرهم وتقديرهم . . فلا مجال إذن للخـــوف ، ولا مجال إذن للهزيمة ، ولا مجال إذن لأن يولي المؤمنون الأدبار عند لقاء الكفار . .

ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة . . فإذا كان الله هو الذي قتل المشركين ، وهـــو الـــذي رماهم ، وهو الذي أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن ، وهو الذي أوهن كيد الكافرين . . فمـــا التراع والاختلاف إذن في الأنفال ، والمعركة كلها أديرت بتدبير الله وبتقديره ، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارا لهذا التدبير والتقدير ؟!

---

* استمرار المعركة بين الهدى والضلال :

تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن ســـبيل الله وتمـــنعهم مـــن الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرمة الشعائر ، وتمكـــن المـــؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله ، الكفيل بتحقيـــق الخـــير للبشرية في الدنيا والآخرة .

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيـــدهم اعتـــداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل ديـــن الله ، ووعدهم النصر والتمكين ، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدهم التي بينها لهم فيما يلي من الآيات: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـــاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـــلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) [الحج : ٣٨-٤١]) . .

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامح والباطل مسلح . وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

و لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم . ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد . . وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) . .

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما: (إن الله لا يحب كل خوان كفور) . .

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين:

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) . . وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم: (وإن الله على نصرهم لقدير) . .

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة . وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق: (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا:ربنا الله) . . وهي أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التي تشتجر فيها الأطماع ؛ وتتعارض فيها المصالح ؛ وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع !

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) . .

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهـــي أوســـع مـــن الصـــوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهي كلها معرضة للهدم – على قداستها وتخصيصها لعبادة الله – لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الـــذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول . ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد مـــن القوة تحميه وتدفع عنه . وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان !

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عـــالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحـــب كل خوان كفور) . .

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عـــدوه ، ظاهر حتما على عدوه . . ففيم إذن يأذن لهم بالقتال ؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وفـــيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام . . . والعاقبة معروفـــة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال ؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذي ندركه نحن البشـــر مـــن تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من "التنابلة " الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بـــلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلمـــا مســـهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ؛ إنما هي الـــزاد الـــذي يتزودونـــه للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هـــم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجـــه الخطر ؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كـــل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ؛ ولتتساند مع الخلايـــا الأخـــرى في العمليـــات

المشتركة ؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه ؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بـــذلك لحمـــل الأمانـــة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين ، يعطل تلـــك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيـــه تضحيات عزيزة . وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ بـــه و لم تحشـــد طاقـــاتهم وتشحد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفـــر ، والقـــوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . . من الأمل والألم . ومن الفـــرح والغـــم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة . . ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات . وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ و لم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا:ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله .

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، و لم يتم بعد تمامها ، و لم تحشـــد بعـــد طاقاتها ، و لم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا !

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فـــلا تستبقي عزيزا ولا غاليا ، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند مـــن الله لا تكفل النصر . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعـــدها إلى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سندا إلا الله ، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه . وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأيها في سبيل الله . فقال:" من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية !

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه !

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه: (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ ولله عاقبة الأمور) . .

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره . . فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه ؟ إنهم هؤلاء:

(الذين إن مكناهم في الأرض) . . فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر . . (أقاموا الصلاة) . . فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين . . (وآتوا الزكاة) . . فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحي – كما قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . .

(وأمروا بالمعروف) . . فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس . . (ونهوا عن المنكر) . . فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه . .

هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة ، معتزين بالله وحده دون سواه . وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين .

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وأعبائه . . والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصرا ، والنصر هزيمة ، عندما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف: (ولله عاقبة الأمور) . .

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح . المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات . .

وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه . .

---

* نصر الله المؤمنين وغلبة الروم على الفرس وطبيعة الكفار :

قال تعالى : {الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) } [الروم : ١ - ٧] . .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : " كَانَتْ فَارِسُ ظَاهِرَةً عَلَى الرُّومِ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسٍ ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، وَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى دِينِهِمْ : فَلَمَّا نَزَلَتْ الم غُلِبَتِ الرُّومُ إِلَى فِي بِضْعِ سِنِينَ قَالُوا : يَا أَبَا بَكْرٍ : إِنَّ صَاحِبَكَ يَقُولُ : " إِنَّ الرُّومَ تَظْهَرُ عَلَى فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ " ، قَالَ : صَدَقَ ، قَالُوا : هَلْ لَكَ أَنْ نُقَامِرَكَ ؟ فَبَايَعُوهُ عَلَى أَرْبَعِ قَلَائِصٍ ، إِلَى سَبْعِ سِنِينَ ، فَمَضَتِ السَّبْعُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ ، فَفَرِحَ الْمُشْرِكُونَ بِذَلِكَ ، وَشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : فَقَالَ : " مَا بِضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُمْ ؟ " قَالُوا : دُونَ الْعَشْرِ ، قَالَ : " اذْهَبْ فَزَايِدْهُمْ وَازْدَدْ سَنَتَيْنِ " قَالَ : فَمَا مَضَتِ السَّنَتَانِ ، حَتَّى جَاءَتِ الرُّكْبَانُ

بِظُهُورِ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ ، فَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : الم غُلِبَتِ الرُّومُ إِلَى قَوْلِهِ : وَعْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ "[٥]

وقبل أن نتجاوز الحادث إلى ما وراءه في السورة من التوجيهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية .

وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان . ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر . مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ؛ وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون في أي مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم ، ويؤثر في قضية الكفر والإيمان .

وهذه الحقيقة البارزة هي التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا ؛ ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول الله ﷺ . منذ حوالي أربعة عشر قرنا . ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية ؛ ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان ؛ وأن المعركة في صميمها هي المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان .

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة ، وحقيقة القضية ؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستر بها أحزاب الشرك والكفر ، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة ، مهما تنوعت العلل والأسباب .

والإيحاء الآخر هو تلك الثقة المطلقة في وعد الله ، كما تبدو في قولة أبي بكر - رضي الله عنه - في غير تلعثم ولا تردد ، والمشركون يعجبونه من قول صاحبه ؛ فما يزيد على أن يقول:صدق . ويراهنونه فيراهن وهو واثق . ثم يتحقق وعد الله ، في الأجل الذي حدده: (في بضع سنين) . . وهذه الثقة المطلقة على هذا النحو الرائع هي التي ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينا وثباتا في وجه العقبات والآلام والمحن ، حتى تمت كلمة الله وحق وعد الله . وهي عدة كل ذي عقيدة في الجهاد الشاق الطويل .

والإيحاء الثالث هو في تلك الجملة المعترضة في مساق الخبر ، من قول الله سبحانه: (لله الأمر من قبل ومن بعد) . . والمسارعة برد الأمر كله لله . في هذا الحادث وفي سواه . وتقرير هذه الحقيقة الكلية ، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف . فالنصر والهزيمة ، وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها . شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده كله إلى الله ، يصرفه كيف

[٥] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٥٥٦١) فيه انقطاع

شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث والأحوال إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة ، التي ليس لأحد عليها من سلطان ؛ ولا يدري أحد ما وراءها من الحكمة ؛ ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله . و إذن فالتسليم والاستسلام هو أقصى ما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها الله وفق قدر مرسوم .

(ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) . .

(لله الأمر من قبل ومن بعد) . .

(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) . .

ولقد صدق وعد الله ، وفرح المؤمنون بنصر الله .

(ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم) . .

فالأمر له من قبل ومن بعد . وهو ينصر من يشاء . لا مقيد لمشيئته سبحانه . والمشيئة التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تيسر الأسباب . فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب . والنواميس التي تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة . وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف ؛ وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات . والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات ، وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال . فهي ترد الأمر كله إلى الله . ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع . أما أن تتحقق تلك النتائج فعلا أو لا تتحقق فليس داخلا في التكليف ، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله . عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ ؟ قَالَ : اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ.[٦]

. فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله .

(ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم) . .

فهذا النصر محفوف بظلال القدرة القادرة التي تنشئه وتظهره في عالم الواقع ؛ وبظلال الرحمة التي تحقق به مصالح الناس ؛ وتجعل منه رحمة للمنصورين والمغلوبين سواء . (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وصلاح الأرض رحمة للمنتصرين والمهزومين في نهاية المطاف .

(وعد الله . لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) . .

---

[٦] - صحيح ابن حبان - (٢ / ٥١٠) (٧٣١) حسن

ذلك النصر وعد من الله ، فلابد من تحققه في واقع الحياة:(لا يخلف الله وعده) فوعده صـــادر عـــن إرادته الطليقة ، وعن حكمته العميقة . وهو قادر على تحقيقه ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا يكون في الكون إلا ما يشاء .

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذي لا يتغير (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولو بدا في الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعرفون الكثير . ذلك أن علمهم سطحي ، يتعلق بظـــواهر الحيـــاة ، ولا يتعمق سننها الثابتة ، وقوانينها الأصيلة ؛ ولا يدرك نواميسها الكبرى ، وارتباطاتها الوثيقة: (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) . . ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ؛ ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه .

وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا ، يستغرق جهـــودهم بعضـــه ، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة . والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل ، تحكمه نـــواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه .

والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ؛ ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصـــرفه ، يظـــل ينظر وكأنه لا يرى ؛ ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ، ولكنه لا يدرك حكمته ، ولا يعـــيش بها ومعها . وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود ؛ وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود . والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع النـــاس . ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية .

(وهم عن الآخرة هم غافلون) . . فالآخرة حلقة في سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجـــود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخـــرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجـــود ، لا تتخلـــف مطلقا ولا تحيد .

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ؛ وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم ؛ فلا يملكـــون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورا صحيحا ؛ ويظل علمهم بها ظاهرا سطحيا ناقصا ، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض . فحياته علـــى الأرض إن هـــي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصـــيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيره . ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد مـــن النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة !

ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها . لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ؛ ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ،

ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . . هذا يرى ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضـــر والمســـتقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء . . وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ؛ ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان . الخليفة في الأرض . المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله . [٧]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٧] – معظم هذا الباب مستقى من الظلال .

الباب الثاني

شروطُ الاستخلافِ والتمكين في هذه الأرضِ

١–الدلالة اللغوية لكلمة "التمكين":

"التمكين" مصدر للفعل مكّن وهو من مزيد الثلاثي والأصل "مكَن" وقد وردت مـادة "مكـن" في كتب اللغة و لم تخرج عن أصل وضعها، قال الجوهري: ("مكن" مكنه الله من الشيء وأمكنـه منـه بمعنى، واستمكن الرجل من الشيء وتمكن منه بمعنى، وفلان لا يمكنه النهوض: أي لا يقدر عليه.
والمكْن: بيض الضب.. قال الكسائي: أمكنت الضبة جمعت بيضها في بطنها) [٨]

وقال صاحب اللسان: ((مكن) المَكْنُ والمَكِنُ بيضُ الضَّبَّةِ والجَرَادة ونحوهما قال أبو الهِنْديّ واسمـه عبد المؤمن بن عبد القُدُّوسِ ومَكْنُ الضِّبابِ طَعامُ العُرَيب ولا تشْتَهيه نفُوسُ العَجَمْ واحدتـه مَكْنَـةٌ ومَكِنة بكسر الكاف وقد مَكِنَتِ الضَّبَّةُ وهي مَكُونٌ وأَمْكَنتْ وهي مُمْكِنٌ إذا جمعـت البـيض في جوفها والجَرادةُ مثلها الكسائي أَمْكَنَتِ الضَّبَّةُ جمعت بيضها في بطنها فهي مَكُونٌ وأَنشد ابن بـري لرجل من بني عُقيل أَراد رَفِيقي أَنْ أَصيدَهُ ضَبَّةً مَكُوناً ومن خير الضِّباب مَكُونُهـا وفي حـديث أَبي سعيد لقد كنا على عهد رسول الله ﷺ يُهْدَى لأَحدنا الضَّبَّةُ المَكُونُ أَحَبُّ إليه من أَن يُهْـدَى إليـه دجاجةٌ سمينة المَكُونُ التي جمعت المَكْنَ وهو بيضها يقال ضبة مَكُونٌوضَبٌّ مَكُونٌ ومنـه حـديث أَبي رجاء أَيُّما أَحبُّ إليك ضَبٌّمَكُون أَو كذا وكذا ؟ وقيل الضبَّةُ المَكُونُ التي على بيضها ويقال ضِـبابٌ مِكانٌ قال الشاعر وقال تعَلَّمْ أَنها صَفَرِيَّةٌ مِكانٌ بما فيها الدَّبَى وجَنادِبُهْ الجوهري المَكِنَةُ بكسر الكاف واحدة المَكِنِ والمَكِناتِ وقوله ﷺ أَقِرُّوا الطير على مَكِناها ومَكُناها بالضم قيل يعني بيضها على أَنـه مستعار لها من الضبة لأَن المَكِنَ ليس للطير وقيل عَنى مَوَاضع الطير والمكنات في الأَصل بيض الضِّباب قال أَبو عبيد سأَلت عِدَّةً من الأَعراب عن مَكِناتِها فقالوا لا نعرف للطير مَكِناتٍ وإِنما هي وُكُنـات إِنما المَكِناتُ بيض الضِّبابِ قال أَبو عبيد وجائز في كلام العرب أَن يستعار مَكْنُ الضِّبابِ فيجعل للطير تشبيهاً بذلك كما قالوا مَشافر الحَبَشِ وإِنما المَشافر للإِبل وكقول زهير يصف الأَسد لدَى أَسَدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ له لِبَدٌ أَظفارُه لم تُقَلَّمِ وإِنما له المَخالِبُ قال وقيل في تفسير قوله أَقِـرُّوا الطـير علـى مَكِناها يريد على أَمْكِنتها ومعناه الطير التي يزجر بها يقول لا تَزْجُرُوا الطير ولا تلتفتوا إِليها أَقِرُّوهـا على مواضعها التي جعلها الله لها أَي لا تضر ولا تنفع ولا تَعْدُوا ذلك إِلى غيره وقال شمر الصحيح في قوله على مَكِناتِها أَنها جمع المَكِنَة والمَكِنةُ التمكن تقول العرب إِن بني فلان لذوو مَكِنةٍ من السـلطان

---

[٨] – الصحاح (٢٢٠٥/٦).

أي تَمكُّنٍ فيقول أَقِرُّوا الطير على كل مَكِنةٍ ترَوْنَها عليها ودَعُوا التطير منها وهي مثل التَّبِعةِ مِنَ التَّتَبُّعِ والطَّلِبةِ من التَّطلُّب قال الجوهري ويقال الناس على مَكِناتِهم أَي على استقامتهم قال ابن بري عند قول الجوهري في شرح هذا الحديث ويجوز أَن يراد به على أَمْكِنتها أَي على مواضعها التي جعلها الله تعالى لها)[9]

وقال صاحب المفردات عند مادة "مكن": (المكان عند أهل اللغة: الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحوي، وذلك أن يكون سطح الجسم الحاوي محيطا بالمحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين. قال: {مكانا سوى} [طه/٥٨]، {وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا} [الفرقان/١٣] ويقال: مكنته ومكنت له فتمكن، قال: {ولقد مكناكم في الأرض} [الأعراف/ ١٠]، {ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه} [الأحقاف/٢٦]، {أو لم نمكن لهم} [القصص/٥٧]، {ونمكن لهم في الأرض} [القصص/٦]، {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم} [النور/٥٥]، وقال: {في قرار مكين} [المؤمنون/١٣]. وأمكنت فلانا من فلان، ويقال: مكان ومكانة. قال تعالى: {اعملوا على مكانتكم} [هود/٩٣] وقرئ: {على مكاناتكم} (وبها قرأ شعبة عن عاصم. انظر: الإتحاف ص ٢٦٠)، وقوله: {ذي قوة عند ذي العرش مكين} [التكوير/ ٢٠] أي: متمكن ذي قدر ومنزلة. ومكنات الطير ومكناتها: مقاره، والمكن: بيض الضب، و {بيض مكنون} [الصافات/٤٩]. قال الخليل (العين ٥/٣٨٧) : المكان مفعل من الكون، ولكثرته في الكلام أجري مجرى فعال (وهذا النقل عن التهذيب ١٠/٢٩٤.

وقال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعالا؛ لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك. فقد دل هذا على أنه مصدر من (كان) أو موضع منه. انظر: اللسان (مكن))، فقيل: تمكن وتمسكن، نحو: تمنزل.).[10]

ومما سبق نخلص إلى أن مادة الكلمة قد استعملت بمعانٍ عديدة متقاربة لا تخرج عن أصل الاستعمال فقد استعملت بمعنى القدرة على الشيء والظفر به، وكذلك بمعنى السلطان والقدر والمنزلة.

٢-التمكين في اصطلاح القرآن الكريم:

[9] - لسان العرب - (ج ١٣ / ص ٤١٢)

[10] - مفردات ألفاظ القرآن ـــ نسخة محققة - (ج ٢ / ص ٣٨٢)

وردت كلمة "التمكين" في القرآن الكريم باشتقاقاتها ثماني عشرة مرة، و لم يحدد لها القرآن اصطلاحاً خاصاً بل استعملها في المعاني التي ذكرت معاجم اللغة، وباستقراء الآيات التي وردت فيها اشتقاقات الكلمة يتبين لنا أن القرآن استعمل الكلمة على سبعة معانٍ هي الآتي:-

أولاً: التمكين بمعنى الملك والسلطان:-

قال ـجل ذكرهـ في شأن ذي القرنين: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} (٨٤) سورة الكهف ،قال ابن كثير رحمه الله: أَيْ أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مُمَكَّنًا فِيهِ مِنْ جَمِيع مَا يُؤْتَى الْمُلُوك مِنْ التَّمْكِين وَالْجُنُود وَآلَات الْحَرْب وَالْحِصَارَات وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب مِنْ الْأَرْض وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَاد وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوك الْعِبَاد وَخَدَمَتْهُ الْأُمَم مِنْ الْعَرَب وَالْعَجَم .[١١]

ومن هذا القبيل قوله -تعالى-: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (٤١) سورة الحج، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: (أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض)[١٢] .

ثانياً: التمكين بمعنى المترلة عند الملك:

قال تعالى في شأن يوسف -على نبينا وعليه الصلاة والسلام-: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ} (٥٤) سورة يوسف، وقال تعالى في جبريل عليه السلام: {ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} (٢٠) سورة التكوير، وكذلك قال تعالى في شأن يوسف ـعلى نبينا وعليه الصلاة والسلام-:{وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (٥٦) سورة يوسف، ويفسر هذا التمكين أنه نصيب من الملك ومترلة ذات قدر عند الملك قوله تعالى في آخر السورة على لسان يوسف -على نبينا وعليه الصلاة والسلام-: { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (١٠١) سورة يوسف.

ثالثاً: التمكين بمعنى التهيئة:

قال تعالى : { وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (٥٧) سورة القصص أي ألم نجعل حرماً ذا أمن .[١٣]

---

[١١] - تفسير ابن كثير - (ج ٩ / ص ٢٢٥)

[١٢] - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٥٣٩)

[١٣] - انظر فتح القدير (١٧٩/٤).

وقال تعالى في شأن يوسف –على نبينا وعليه الصلاة والسلام–: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (٢١) سورة يوسف، أي جعلنا هذا مقدمة وتهيئة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق .[١٤]

رابعاً: التمكين في نعم الدنيا ومعايشها:

قال تعالى : {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} (٦) سورة الأنعام. وقال تعالى : {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون} (٢٦) سورة الأحقاف، قال ابن كثير: رحمه الله: يَقُول تَعَالَى وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَم السَّالِفَة فِي الدُّنْيَا مِنْ الْأَمْوَال وَالْأَوْلَاد وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نُعْطِكُمْ مِثْله وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ".[١٥]

خامساً: التمكين للدين:

وهو يعني القدرة على مزاولة شعائره في أمن وإظهارها دون منازع أو مشوش، قال –تعالى– في سورة النور: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (٥٥) سورة النور.

سادساً: التمكين بمعنى الظفر:

قال تعالى: { وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (٧١) سورة الأنفال، فأمكن بمعنى أظفر وأقدر [١٦].

سابعاً: التمكين بمعنى الثبوت والاستقرار: قال تعالى:{ أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) } [المرسلات/٢٠، ٢١]. أي ثابت مستقر.

٣–وعد القرآن بالتمكين لدعوة الحق:

---

[١٤] – انظر تيسير الكريم الرحمن (٤/١٥).

[١٥] – تفسير ابن كثير – (ج ١٥ / ص ٢٦٢)

[١٦] – راجع لسان العرب (٤١٥/١٣).

الوعد بالتمكين لدعوات المرسلين وأتباعهم من المؤمنين استفاضت به آيات التتريل وكادت لا تذكر تحدياً بين الحق والباطل أو صراعاً أو دولة دالت بأتْباع الحق إلا وتعقبت ذلك الحال بالطمأنـة بـأن العاقبة للمتقين والنصر للمرسلين والغلبة للجند المؤمنين، قال سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَـا فِـي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَـوْمٍ عَابِـدِينَ (١٠٦) } سورة الأنبياء.

قال أكثر أهل التفسير: أي كتب الله ذلك عنده في اللوح المحفوظ وهو الذكر وجزم به ـسـبحانهـ بعد ذلك في "الزبور" وهو اسم جنس للكتاب المترل على الأنبياء من التوراة والإنجيل والقرآن وما هو من جنسها.[١٧]

فالوعد إذن بالتمكين مؤكد غاية التوكيد مجزوم به من الله ـسبحانه وتعالىـ في أم الكتاب عنده وفي سائر كتبه المترلة، ولقد تكاثرت الآيات وتظاهرت على توكيده كذلك في القرآن الكريم، قال تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْـدَنَا لَهُـمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) } [الصافات/١٧١-١٧٤] ، وقال سبحانه وتعالى :{ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } (٥١) سورة غافر ، وقال سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَـا وَرُسُـلِي إِنَّ اللَّـهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ (٢١) } [المجادلة/٢٠، ٢١] ، وقال سبحانه : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) } [إبراهيم/١٣، ١٤].

والوعد بالتمكين يأتي أحياناً في الذكر الحكيم مجزوماً به ولكن يُذكر فيه الرسل فقط، وأحياناً يُـذكر الرسل والمؤمنون في سياق بعض آيات الوعد بالتمكين أو النصر، وتارة ثالثة يفرد ذكر المؤمنين فقط في سياق الآيات، ولا إشكال في ذلك أو عظيم تباين فالوعد للرسل ينسحب كذلك على المـؤمنين باعتبار أن الرسل لا يمكن أن يجاهدوا أو يمكنوا إلا في أتباع من المؤمنين وكذلك الوعـد للمـؤمنين ينسحب على الرسل باعتبارهم من أهل الإيمان.

٤-وعدُ الرسل بالتمكين ومزاياه:

إننا نلحظ في القرآن مجيء الوعد بالنصر والغلبة والعاقبة والتمكين المذكور فيه الرسل أكثر وآكد ــ بمؤكدات لفظية ظاهرة ومعنوية ــ من الوعد بالتمكين والنصر المذكور فيه المؤمنون فقط، ومـا ذاك

[١٧] - راجع تفسير ابن كثير (٣/٢١٠).

إلا أن دعوات الرسل خصوصاً من أمر منهم بقتال فلا يمكن أن يغلبه أعداؤه أبداً ألبتة بل النصر مجزوم به له ولأتباعه وهم الغالبون القاهرون، قال تعالى : { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } (٢١) سورة المجادلة . وهنا أكد الله سبحانه وتعالى غلبة الرسل بمؤكد ما بعده مؤكد فقد عطف الرسل على ذاته العلية ((أنا)) فتأكدت الغلبة كل تأكيد فالله معهم وهو غالب لا يغلب سبحانه، والتحقيق أن الأنبياء الذين ذكر القرآن أن أقوامهم قتلوهم أنهم لم يكونوا في قتال.[١٨]

أما من قاتل منهم فإنه لا يتصور بحال ولا يليق بحال العزيز القهار ذي الانتقام أن يكلف ويرسل رسولاً ويأمره بقتال ثم يقتل وهو لم ير ما وُعد من نصر والآية المذكورة شاهدة في هذا المعنى بذلك.

ومما يلحظ كذلك أن الآيات التي جاء فيها الوعد بالتمكين ونحوه وذُكِرَ لفظ الرسل فيها فهي في الغالب تجزم بالوعد دون تعليقه على أي عمل أو شرط أو تقديم يتقدم به الرسل لينالوا الوعد ويتحقق لهم؛ بينما الآيات التي يذكر فيها الوعد بالتمكين ونحوه للمؤمنين يعلق الوعد بالتمكين أو النصر أو نحوهما بأعمال وأحوال إذا هي تحققت تحقق لهم متعلقها من الموعود به من النصر والتمكين، وذلك أن الرسل على صلة مباشرة بالوحي فلا حاجة لتنبيههم لحالة أو صفة ليتحلوا بها وهم قد تحلوا بالصفات المؤهلة لنيلهم النصر منذ تأهلوا واستحقوا أن يكونوا موضع رسالات الله سبحانه وتعالى، وكذلك فهم لصلتهم المباشرة بالوحي وعناية الإله ورعايته لدعوتهم، لا يمكن أن يخطئوا الطريق أو يعشوا عن عوامل النصر وأسباب تحقق الوعد بالتمكين.

٥- وعدُ المؤمنين بالتمكين ومزاياه:

إنَّ أهل الإيمان من بعد الرسل فإنهم لا يلبثون بين فينة وأخرى حتى يقصروا عن أسباب النصر، وعوامل التمكين، أو يبحثون عنها أحياناً، ويخطئون الطريق إليها أحياناً، أو تفقد منهم صفات وأحوال هي حتمية لنيل النصر وإحقاق وعد الله لهم بالعاقبة، ولذلك جاء الوعد بالتمكين لهم معلقاً بصفات وأعمال وتقدمات يجب أن يحققها أهل الإيمان ليتحقق لهم وعد النصر والتمكين.

وإليك الآيات في ذلك فهي ظاهرة الدلالة واضحة في ترتيب الوعد لهم وتعلقه بأمور عدة بخلاف ما سبق سرده من آيات ذكر فيها الرسل، وذكر فيها الوعد لهم بالنصر والتمكين دون تعليق إلا نادراً :

---

[١٨] - راجع بيان ذلك والاستدلال عليه في تفسير أضواء البيان (٨٢٤/٧).

قال سبحانه وتعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (٥٥) سورة النور.

فعلق الوعد بالتمكين هنا بأربعة أمور:

(أ) وجود الجماعة المؤمنة وتحقق الإيمان فيها.

(ب) عمل الصالحات : من القيام بشرائع الدين وتنفيذ أوامر الله عملاً وليس ادعاءً فقط.

(ج) التزام نهج الصحابة، لقوله: ((منكم)) فالخطاب لهم وينسحب على من نهج نهجهم.

(د) انتفاء الشرك في العبادة: { يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } (٥٥) سورة النور

وقال سبحانه وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (٧) سورة محمد.

وهنا علّق الله سبحانه وتعالى نصره للمؤمنين بقيامهم بنصرة دينه سبحانه.

وقال سبحانه وتعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) } [الصف/١٠-١٤] .

فرتب النصر والفتح هنا على الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله بالمال والنفس.

نتيجة تمايز الوعدين:

ومن خلال امتياز وعد الرسل بالتمكين عن وعد المؤمنين في القرآن بالميزتين السابقتين وهما:

١. كثرة المؤكدات اللفظية والمعنوية.

٢. عدم تعليق الوعد بتمكينهم بشرط أو عمل كما في وعد المؤمنين.

من خلال ذلك نخرج بنتيجة هامة جداً وهي أن التزام منهج الرسل في نصرة الدين هو أعظم عوامل تمكين الجماعة المؤمنة من بعدهم، وذلك أن هذا الالتزام التزام لمنهج قد ضمن الله _سبحانه_ له التمكين وكتبه على نفسه وأكده أعظم تأكيد، و لم يعلقه بشرط أو أمر، مما يدل أنه منهج شامل متكامل يضم كل عوامل النصر والتمكين ويضمنها، فالثبات عليه هو جماع الأمر في تمكين المؤمنين ودعوتهم والسبب الأول والأخير في سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ولقد بين الله جل وعلا هذا أتم البيان وجعل ذلك سنة لا تتخلف في نصر المؤمنين إذا ثبتوا على مناهج المرسلين وسماهم بذلك "المحسنين" قال تعالى عن الجموع الغفيرة من المؤمنين الذين ثبتوا بعد قتل النبي : { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا

وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران/١٤٦-١٤٨].

فتأمل قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) أي كم من نبي قتل، فهذا ليس بحال نبي واحد ولا مجموعة بل كثرة، وهذا حال المؤمنين بعدهم وهذا حال نصر الله لهم فآتاهم الله ((ثواب الدنيا)) أي "النصر والظفر والعاقبة" مع حسن ثواب الآخرة كذلك.

وجعل هذا سبحانه سنة ثابتة في سورة الصافات للمؤمنين إذا ترسموا مناهج النبيين، فعقب على نصر نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس عليهم صلوات الله وسلامه ــ كلٌ على حدة ــ بقوله: { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) } [الصافات/٨٠-٨٢] أي نصر الله هذا لهم ليس خاصاً بهم فقط، وإنما لكل جماعة مؤمنة أحسنت على نهج إحسانهم وعبدت الله على حقيقة إيمانهم.

ومن هنا نعلم مدى الحكمة عند الصحابة وعظيم الحرص على الثبات على الحال التي فارقهم عليها رسول الله ﷺ حتى في بناياتهم ومقتنياتهم وحالتهم المادية ــ عند كثير منهم ــ فكيف بحرصهم على البقاء على الدين والمعتقد والإيمان والمنهج وهو سبيل النصر العظيم في الدنيا، وسبيل النجاة في الآخرة. ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في هذا المعنى كلاما لا أظن أن كلاما ــ بعد كلام الله ورسوله ــ أنفس منه ولا أجمل إذ قال : (... ولهذا كل من كان متبعًا لرسول الله ﷺ كان الله معه بحسب هذا الاتباع ، قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (٦٤) سورة الأنفال، أي حسبك وحسب من اتبعك ، فكل من اتبع الرسول ﷺ من جميع المؤمنين فالله حسبه ، وهذا معنى كون الله معه ، والكفاية المطلقة مع الاتباع المطلق ، والناقصة مع الناقص ، وإذا كان بعض المؤمنين به المتبعين له قد حصل له من يعاديه على ذلك فالله حسبه ، وهو معه ، وله نصيب من قوله تعالى : {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٤٠) سورة التوبة، فإن هذا قلبه موافق للرسول ﷺ وإن لم يكن صحبه ببدنه ، والأصل في هذا القلب كما في الصحيحين

البخارى(٤٤٢٣) ومسلم (٥٠٤١)عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ « وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » . .

فهؤلاء بقلوبهم كانوا مع النبي ﷺ ، فلهم معنى صحبته في الغزاة ، فالله معهم بحسب تلك الصحبة المعنوية [١٩].

٦–قتلُ الأنبياء والوعد بالتمكين لهم :

قد سبق في مبحث "الوعد بالتمكين" ذكر وعد الله سبحانه في أم الكتاب عنده وفي الكتب المنزلة على الرسل بأن التمكين لهم والغلبة حظهم، وأنه سبحانه أكد ذلك الوعد بتوكيدات هي الغاية في التأكيد حقاً، ولكن تتفاجأ بديهة القارئ لكتاب الله ـــ بعد أن يستشعر صدق الوعد ومثوله متحققاً ـــ بقتل ذلك الموعود وعلى يدي أراذل الخلق ومجرمي الوقت، ومن المقتول ؟ النبي المرسل الداعي الموعود بالنصر والغلبة والحق الذي لا غبار عليه أن الوعد لم يتخلف فإن الله لا يخلف الميعاد، ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أصدق من الله حديثاً، وأما النبي فقد قتل فعلاً، فقد قال سبحانه وتعالى عن أنبياء بني إسرائيل: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } (٨٧) سورة البقرة. وقال عنهم سبحانه وتعالى :{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } (٦١) سورة البقرة. وقال سبحانه وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٢١) سورة آل عمران.

ولإزالة الغموض وبيان الحق في هذه المسألة، وبيان أن وعد الله على تمامه سبحانه وتعالى رغم قتل النبي الموعود بالتمكين فلا بد من بيان ثلاث نقاط، وهي :

الأولى: أنه لم يقتل نبي من الأنبياء الذين أمروا بالقتال أبداً:

فلم يقتل نبي في قتال ، وإنما قتل الأنبياء الذين ذكر الله أنهم قتلوا في غير جهاد ولا قتال ، قال صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى :

" وقد دلت هذه الآية الكريمة ، وأمثالها من الآية كقوله تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] أنه لن يقتل

[١٩] – منهاج السنة (٤٨٧/٨ـــ ٤٨٨) طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود .

نبي في جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قسم مقابل للغلبة ، كما بينه تعالى في قوله : { وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ } [النساء : ٧٤] الآية . وقال تعالى : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا } [غافر : ٥١] الآية . وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفياً باتاً في قوله تعالى : { إن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ } [آل عمران : ١٦٠] .

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى : { أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ استكبرتم فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } [البقرة : ٨٧] وقوله تعالى : { قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بالبينات وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ } [آل عمران : ١٨٣] ليسوا مقتولين في جهاد ، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران : ١٤٦] ، على قراءة قتل بالبناء للمفعول ، هو ربيون لا ضمير النبي .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } [آل عمران : ١٤٦] وذكرنا بعضه في الصافات في الكلام على قوله تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين } [الصافات : ١٧١] ".[٢٠]

والحقيقة أن هذا الاستنباط الذي استنبطه العلامة الشنقيطي من دلالات الآيات والتوفيق بينها للخروج بهذه القطعية لينبئ عن براعة الرجل في تفسير القرآن بالقرآن، وكذلك يخرج ببرهان واضح في هذه المسألة، ويوافق ما قاله الحسن وسعيد بن جبير من أنه "ما قتل نبي في حرب قط" .

أما القراءة التي في قوله تعالى: { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } (١٤٦) سورة آل عمران بدلاً من قراءة ((قاتل)) فهي قراءة سبعية، قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو، ومن العشرة يعقوب وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم، إلا أن الآية لا تنص على أن النبي المقتول كان في قتال أو أمر به، وعليه فلا تخالف ما سبق تقريره في ذلك.

٧- الانتصارُ من قتلة الأنبياء:

إن دماء الأنبياء الذين يقتلون لا تذهب هدراً فوليها بالثأر هو الله سبحانه وتعالى، هم ومن كان قائماً في الناس يأمرهم بالقسط من المؤمنين، قال سبحانه وتعالى: { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } (٥١) سورة غافر.

والرسل الذين قتلوا يكون نصرهم في الدنيا بالانتصار ممن قتلهم والانتقام منه، وقَالَ السُّدِّيّ:" لَمْ يَبْعَث اللَّه عَزَّ وَجَلَّ رَسُولًا قَطُّ إِلَى قَوْم فَيَقْتُلُونَهُ أَوْ قَوْمًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْحَقّ فَيُقْتَلُونَ

[٢٠] - أضواء البيان - (ج ٨ / ص ١٦٥)

فَيَذْهَب ذَلِكَ الْقَرْن حَتَّى يَبْعَث اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ مَنْ يَنْصُرهُمْ فَيَطْلُب بِدِمَائِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَالَ فَكَانَتْ الْأَنْبِيَاء وَالْمُؤْمِنُونَ يُقْتَلُونَ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مَنْصُورُونَ فِيهَا وَهَكَذَا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابه عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ وَكَذَّبَهُ وَعَادَاهُ فَجَعَلَ كَلِمَته هِيَ الْعُلْيَا وَدِينه هُوَ الظَّاهِر عَلَى سَائِر الْأَدْيَان "[٢١]

ولقد ذكر الإمام ابن جرير في تفسيره عند هذه الآية قتل الأنبياء ونصرهم المذكور في الآية وأجاب عليه بجوابين، أحدهما: قول السدي هذا، وقول السدي هذا من الانتصار لهم في الدنيا هو الجواب الأولى الذي عليه شواهد من القرآن والسنة، فقد قرن الله سبحانه وتعالى في موضعين من كتابه بين ضرب الذلة والمسكنة وبين قتل الأنبياء ، وجعل ضرب الذلة والمسكنة عقابا لقتلة الأنبياء . قال تعالى: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } (٦١) سورة البقرة، وكذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى أن الذين يخرجون رسله من قراهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يحل بهم العذاب ، فقال سبحانه وتعالى: { وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) } سورة الإسراء. فإذا كانت هذه سنته سبحانه فيمن أخرج رسله من إحلال العذاب بهم بعد مدة يسيرة من إخراج الرسول، فما الحال إذن فيمن قتلوا رسولهم إلا أشد وأنكى والله عزيز ذو انتقام.

الثالثة: قتل النبي ليس قتلاً لدعوته وإنما لشخصه فقط: وأحياناً بل غالباً ما يكون قتل الداعي إلى أمر ما عاملاً في إلهاب الحماس في نفوس أنصاره والثبات على نهجه وسبباً في انتشار دعوته.وإليك الآيات وهي تبين ذلك، ونحن نوردها على قراءة البناء للمفعول في (قتل).

قال تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران/١٤٦-١٤٨].

والله سبحانه وتعالى إنما بعث الرسل للدعوة إلى عبادته وإعلاء كلمته وإظهار دينه، لا للدعوة إلى أنفسهم وإبراز شخصياتهم وإظهارها، وهو سبحانه وتعالى حين وعدهم النصر والغلبة، لم يعدهم كذلك لأجل أشخاصهم، وإنما وعدهم لأجل ما يحملونه من دعوة حق، ومنهاج شريعة من عنده،

[٢١] – تفسير ابن كثير – (ج ١٤ / ص ٣٥٧)

فبقاء دعوة الحق وانتشارها، ووجود من يحملها نصر لها وللداعي إليها، وإن كان قد مـات أو قتـل ذلك الداعي.وهذا نبي الله عيسى –على نبينا وعليه الصلاة والسلام–، قد أزمع اليهود قتله وباؤوا بإثم قتله وإن كانوا لم يقتلوه ـــ وذلك لتمام تصميمهم على هذا الإثم ـــ رفعه الله إليه وتوفـاه وجعـل الذين اتبعوه فوق من كفر بدعوته وتربص به ظاهرين عليهم إلى يوم القيامة، فلم يتخلف شيء ممـا وعد الله به الرسل من ظهور الدين وتمام النصر والانتصار لهم، لم يتخلف شيء من ذلـك في دعـوة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام. قال تعالى: { إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَـرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (٥٥) سورة آل عمران.

٨–أن تحمله جماعة من البشر وتضحي من أجله بالغالي والنفيس :

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين، وطريقة عمله في حياة البشر... حقيقـة أوليـة بسـيطة... ولكنها مع بساطتها، كثيراً ما تنسى، أو لا تدرك ابتداء. فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكهـا خطـأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي. حاضرة ومستقبله كذلك!.

إن البعض ينتظر من هذا الدين– ما دام منزلاً من عند الله– أن يعمل في حياة البشر بطريقة سـحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقاتهم الفطرية، ولواقعهم المادي، في أي مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم.

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة، والواقع المادي للحياة الإنسان ية ، يتفاعلان معه، فيتأثران به – في فترات – تأثراً واضحاً، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم، وضعفهم ونقصهم، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه..

حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها – ما دام هذا الدين منزلاً من عنـد الله – أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته. أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً!.

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي: هو عدم إدراك هذا الدين وطريقتـه، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة.

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية. يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسـهم في حـدود طاقتهم البشرية؛ وفي حدود الواقع المادي حينما يتسلم مقاليدهم. ويسير بهمـإلى نهايـة الطريـق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة.

وميزته الأساسية: انه لا يغفل لحظة، في أية خطة وفي أية خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته ، وواقع حياته المادي أيضاً. وأنه – في الوقت ذاته– يبلغ به – كما تحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات، وكما يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة –إلى ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق . و في يسر وراحة وطمأنينة واعتدال.

ولكن الخطأ كله – كما تقدم – ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها. ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه...تلك الخوارق التي تبدل فطرة الإنسان ، ولا تبالي طاقاته المحدودة ، ولا تحفل واقعه المادي البيئي !

أليس هو من عند الله؟ أليس الله قادرا على كل شيء؟ فلماذا إذن يعمل هذا الدين – فقط– في حدود الطاقة البشرية المحدودة؟ وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشري؟ بللماذا يحتاج أصلا إلى الجهد البشري؟ ثم...لماذا لا ينتصر دائماً، ولا ينتصر أصحابه دائماً؟لماذا تغلب ثقلة الضعف والشهوات والواقع المادي على رفرفته وشفافيته وانطلاقته أحياناً؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه – وهم أهل الحق – أحياناً!!

وكلها – كما ترى – أسئلة وشبهات، تنبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته... أو من نسيانها!.

إن الله قادر – طبعاً – على تبديل فطرة الإنسان ، عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه. ولكنه – سبحانه – شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها. وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " ... وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائماً، ولا تمحى ولا تعطل: " و نفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها ".. وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "... " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد، وما يُنفق من الطاقة، وما يصبر على الابتلاء في تحقيق هذا المنهج الإلهي القويم، وفي دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله: "احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعملن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ".

وليس لأحد من خلق الله أن يسأله – سبحانه –لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان. ليس لأحد من خلقه أن يسأله – سبحانه – ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً، وليس لديه العلم، ولا إمكان العلم – بالنظام الكلي لهذا الكون؛ ومقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود.

ولماذا ؟ - في هذا المقام - سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله ملحد جاد... المؤمن لا يسـأله، لأنه أكثر أدباً مع الله - الذي يعرفه بذاته وصفاته وخصائصه - وأكثر معرفة بطبيعة إدراكه البشري وحدوده، وأنه لم يهيأ للعمل في هذا المجال... والملحد الجاد لا يسأله، لأنه لا يعترف بالله ابتـداء، فان هو اعتراف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه - سبحانه - ومقتضى ألوهيته، وأنه : " لا يسـأل عما يفعل وهم يسألون ". لأنه وحده المهيمن العليم بما يفعل.

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع. لا هو مؤمن جاد، ولا هو ملحد جاد. ومن ثم لا يجوز الاحتفـال به، ولا أخذه مأخذ الجد... وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية وخصائصها. فالسـبيل لتعلـيم هـذا الجاهل ليس هو الإجابة المباشرة. إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية وخصائصها... حتى يعرفها ويسلم بها فهو مؤمن. أو يجحدها وينكرها فهو ملحد... وبهذا ينتهي الجدل... إلا أن يكون مراء !

والمسلم منهى عن المضي في الجدل حتى يكون مراء!.

والخلاصة التي ننتهي إليها من هذا الاستطراد في هذه الفقرة: هي أنه ليس لأحد مـن خلـق الله أن يسأله - سبحانه -لماذا شاء أن يخلق " الإنسان " بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن يبقي فطرتـه هـذه عاملة لا تمحى ولا تعطل ؟لماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياته البشرية يتحقق عن طريـق الجهـد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، والواقع المادي لحياته؟ و لم يشأ أن يجعله يتم بوسـيلة خارقـة، وبأسباب مبهمة غامضة!.

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها؛ ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية. ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوئها. فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية؛ ويعرف كيـف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحية أخرى. ويعيش مع حكمة الله وقدره، فينطبع بهمـا الانطبـاع الصحيح من ناحية ثالثة.

هذا المنهج الإلهي، الذي يمثله "الإسلام " في صورته النهائية، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، لا يتحقق في الأرض، وفي دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله. لا يتحقق بكلمة: "كـن" الإلهيـة، مباشرة لحظة تنزله. ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه. ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب.

إنما يتحقق بان تحمله جماعة من البشر. تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها- وتجتهـد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك... تجاهد الضـعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجـه الهدى... وتبلغ - بعد ذلك كله - من تحقيق هذا المنهج،إلى الحد الذي تطيقه فطرة البشر، والـذي يهيئه لهم واقعهم المادي. على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعـلاً، ولا تغفـل واقعهـم، ومقتضياته في سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهي... ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس

الناس معها تارة. وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة.. بقدر ما تبذل من الجهـد . وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال. وقبل كل شيء... بمقدار ما تمثـل هي ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته ترجمة عملية في واقعها وسلوكها الذاتي.

هذه هي طبيعة هذا الدين وطريقته... وهذه هي خطته الحركية ووسيلته.. وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهو يقول لها: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسـهم ". " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ". " والذين جاهدوا فينا يهدينهم سبلنا ".

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة في غزوة أحد حينما قصـرت في تمثيـل حقيقة هذا الدين في ذوات أنفسها في بعض مواقف الغزوة. وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل المناسبة في بعض مواقفها. وحينما غفلت عن هذه الحقيقة الأولية أو نسيتها. وفهمت أن من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتماً! فقال لها الله سبحانه: " أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليهـا قلـتم: أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم ". وقال لها. " ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حـتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة.. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ".

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة، لا بالكلام ولا بالعتاب، ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالآلام. ودفعت ثمنها غالياً: هزيمة بعد نصر. وخسارة بعد غنم. وجراحاً لم تكد تـدع أحداً معافى. وشهداء كراماً فيهم سيد الشهداء حمزة – رضى الله عنه – وأغلى من ذلك كله وأشـد وقعاً على الجماعة المسلمة كلها جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشج وجهه الكريم، وكسـر رباعيته في فمه، ووقوعه لجنبه في الحفر التي حفرها أبو عمرو الفاسق حليف قريش مكيدة للمسلمين، وجهد المشركين له –صلى الله عليه وسلم– وهم يطاردونه، وهو مفرد في نفر من أصحابه استشهدوا واحداً بعد واحد وهم يذودون عنه، ويترس أحدهم– أبو دجانة– بظهره عليه يقيه نبل المشـركين، والنبل يقع في ظهره فلا يتحرك... حتى ثاب إليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم، وهم يتلقـون هـذا الدرس الشاق المرير!.

على أنه من الملاحظ الواضح أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حـدود الطاقـة البشرية، يصلح النفوس البشرية، ويصلح الحياة البشرية.. نقول هذا لا لنعلل به مشيئة الله – سبحانه– في جعل الأمر على ما جعله. ولكن لنسجل – فقط – ملاحظة واقعية لآثار هذه المشـيئة في حيـاة العباد.

ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان. مجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منهاإلى الحق والإسلام . ومجاهدتهم باللسـان

بالتبليغ والبيان. ورفض باطلهم الزائف، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام . ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم!..

وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء والأذى، والصبر على الابتلاء والأذى، والصبر على الهزيمة والصبر على النصر أيضاً - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة. ثم يثبت ولا يرتاب، ويستقيم ولا يتلفت، ويمضي في طريق الإيمان راشداً صاعداً.

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس؛ وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة. ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة.

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ". وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح، وتسترخي معه الهمة، ويتلفها الرخاء والطراوة،. ثم تأسن الحياة كلها بالركود. أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها. كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء!

فهذه كذلك من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. لقد جعل صلاح هذه الفطرة في المجاهدة لإقرار منهج الله للحياة البشرية، عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية كذلك.

ثم إن هذه المجاهدة ومن يصاحبها من الابتلاء، هي الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف - بعد تمحيص النفوس - ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين، ومن ضعاف النفوس والقلوب، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان، وتتعرض للابتلاء، وتتكشف فيها خفايا النفوس، كما تتميز فيها الصفوف،. تحت مطارق الابتلاء ومشقة التجربة، ومرارة الآلام.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة، وهو يعقب على أحداث الغزوة. فيقول لها، رداً على سؤال المسلمين: " أنى هذا؟" "قل: هو من عند أنفسكم ".. ثم يعقب على هذا بقوله: " وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله. وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ".. " وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب".. " وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين "... كل ذلك ليستقر في حسهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم في تمثيل حقيقة الإيمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاهم في الغزوة.. فانه كذلك كان لخيرهم في النهاية بفضل الله عليهم، وتجاوزه عن تقصيرهم،

واتخاذ نتائجه مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم، وتمييز صفوفهم... وكله خير لأنفسهم ولحياتهم في نهاية المطاف...

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان... تكملة ضرورية لها لابد من بيانها كذلك:

إن كون هذا المنهج الإلهي متروك تحقيقه للجهد البشري، في حدود الطاقة البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في شتى المدارج، وشتى البيئات.. لا يعني استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر، وانقطاعه عن قدرة الله وتدبيره، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره.. فتصور الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلام ي.

ولقد بينا فيما سلف أن الله –سبحانه – يساعد من يجاهد للهدى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "... وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم، وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ".

وهذان النصان يوضحان لنا العلاقة بين الجهد البشري الذي يبذله الناس، وعون الله ومدده الذي يسعفهم به، فيبلغون به ما يجاهدون فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح.

فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية، وبدونها لا يبلغ "الإنسان " بذاته شيئاً، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها ويجاهد في الله ليبلغ رضاه.

وقدر الله – مع ذلك كله – هو الذي يحيط بالناس والأحداث، وهو الذي يتم وفقه ما يتم من ابتلاء، ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء.

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله – سبحانه– أن يعلمها للجماعة المسلمة. وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب الهزيمة – من عملها – ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء كله، ومن وراء النصر والهزيمة: وعن تدبيره كذلك " ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه. حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ". وليعرفهم سنته الشاملة. ومردها في النهاية إلى مشيئته الطليقة وقدره النافذ من وراء الأسباب والوقائع: "إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله. وتلك الأيام نداولها بين الناس. وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منك شهداء. والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين".

وإذن فهو – في النهاية – تدبير الله ومشيئته وقدره، ليتم ما يريده من وراء الأسباب والأحداث. وهو الأمر الذي لا يسأل عنه سبحانه: لأنه شأنه الإلهي، الذي لا يسأل عنه... وهذه هي حقيقة الإيمان الكبرى التي لا يتم في النفس إلا باستقرارها فيها، واطمئنانها إليها... وهي التكملة التي لابد منها لما قررناه في هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين وطريقته ... بلا تعارض بين طرفي هذه الحقيقة في حسن

المسلم، الذي يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين، كما أنزلها الله. ولا يعارضها بتصورات ومقررات ليست مستقاة من كتاب الله.

٩–أن يعي المسلمون معنى لا إله إلا الله :

العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة : أن لا إله إلا الله . والتلقي عن رسول الله – ﷺ – في كيفية هذه العبودية – هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان ، وأركان الإسلام ، إنما هو مقتضى لها . فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية ... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلّغه لنا رسول الله – ﷺ – عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضاياتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضاياتها فيه لا يكون مسلماً .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية عنها :

* إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ * ... [يوسف : ٤٠]

* مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ * .. [النساء : ٨٠]

هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين ، وفي حركته الواقعية كذلك :

إنه يفيدنا أولاً في تحديد " طبيعة المجتمع المسلم " .

ويفيدنا ثانياً في تحديد " منهج نشأة المجتمع المسلم " .

ويفيدنا ثالثاً في تحديد " منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية " .

ويفيدنا رابعاً في تحديد " منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية " .

وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً .

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله .. هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله

وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية ، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء .

فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه :

* وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * ... [النحل : ٥١ - ٥٢]

ليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله - معه أو من دونه :

* قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣]

وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ، عن الطريق الذي بَلَّغَنَا الله به ، وهو رسول الله ﷺ :

* أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ * [الشورى : ٢١]

* وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا * [الحشر : ٧]

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم ، كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم ، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم .. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود . لتخلف ركنه الأول ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولقد قلنا : إن العبودية لله تتمثل في " التصور الاعتقادي " .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي .. إنه التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني ، والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ، ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه - غيبه وشهوده - ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها - غيبها وشهودها - ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً ، تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده ، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها ، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله - كما بَلَّغَهَا رسول الله ﷺ - تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

فإذا تقرر أن هذا هو " المجتمع المسلم " ، فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟

إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله ..

لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ، ولا تدين لغير الله في العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع ..

ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة .. تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله – معه أو من دونه – وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله – معه أو دونه – وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله – معه أو من دونه . عندئذ – وعندئذ فقط – تكون هذه الجماعة مسلمة ، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك ..

فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله – على النحو الذي تقدم – فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً .. ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام ، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم – هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – لم تقم بشطريها

وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام مجتمع إسلامي ، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام .. ينبغي أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله – في أي صورة من صورها التي أسلفنا – وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة .. وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله ، اعتقاداً وعبادة وشريعة ، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم ، وينظم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده .. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول .. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة ، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله – معه أو من دونه – إلى العبودية لله وحده بلا شريك ، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية ..

وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد ، مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ، ومواجه له بعقيدة جديدة ، ونظام للحياة جديد ، يقوم على أساس هذه العقيدة ، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريه .. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم ، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه ، وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا

هوادة فيها ، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه – وهو أفراد أو مجموعات – أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً – وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام ، إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، بغير استثناء .

وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم ، قوة الاعتقاد والتصور ، وقوة الخلق والبناء النفسي ، وقوة التنظيم والبناء الجماعي ، وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه ، أو على الأقل يصمد له !

ولكن ما هو " المجتمع الجاهلي " ؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته ؟

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم !

وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا : إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي ، وفي الشعائر التعبدية ، وفي الشرائع القانونية ..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار " المجتمع الجاهلي " جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً !!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية .. أولاً : بإلحادها في الله – سبحانه – وبإنكار وجوده أصلاً ، ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى " المادة " أو " الطبيعة " ، ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى " الاقتصاد " أو " أدوات الإنتاج " ، ثانياً " : بإقامة نظام العبودية فيه للحزب – على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ! – لا لله سبحانه ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص " الإنسان " وذلك باعتبار أن " المطالب الأساسية " له هي فقط مطالب الحيوان ، وهي : الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس ! وحرمانه من حاجات روحه " الإنساني " المتميز عن الحيوان ، وفي أولها : العقيدة في الله ، وحرية اختيارها ، وحرية التعبير عنها ، وكذلك حرية التعبير عن " فرديته " وهي من أخص خصائص " إنسانيته " . هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية ، وفي اختيار نوع العمل والتخصص ، وفي التعبير الفني عن " الذات " إلى آخر ما يميز " الإنسان " عن " الحيوان " أو عن " الآلة " إذ أن التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء ، كثيراً ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة !

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية – وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية – تدخل فيه – أولاً : بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله – معه أو من دونه – وتدخل فيه ثانياً : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها .. كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع ، المرجع فيها لغير الله وشريعته . سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ ، أو استمدتها من هيئات مدنية " علمانية " تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى

شريعة الله .. أي أن لها الحاكمية العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان .. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله سبحانه ، ولا تزاول إلا بالطريقة التي بَلَّغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً .. تدخل فيه هذه المجتمعات أولاً : بتصورها الاعتقادي المحرَّف ، الذي لا يفرد الله – سبحانه – بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك ، سواء بالبنوة أو بالتثليث ، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته ، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها :

* وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * .. [التوبة : ٣٠]

* لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ... [المائدة : ٦٣]

* وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ * ... [المائدة : ٦٤]

* وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ * ... [المائدة : ١٨]

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .. ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها ، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده ، بالإقرار له وحده بحق الحاكمية ، واستمداد السلطان من شرعه ، بل تقيم هيئات من البشر ، لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه .. وقديماً وصمهم الله بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان ، يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه :

* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * .. [التوبة : ٣١]

وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان . ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية ، إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم ، بما لم يأذن به الله ، فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر ، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحباراً ولا رهباناً .. وكلهم سواء .. وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها " مسلمة " ! .

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً ، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها . فهي – وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله – تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين

بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها ، وشرائعها وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريباً ! .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين : * وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * .. [المائدة : ٤٤]

ويقول عن المحكومين : * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ... * إلى أن يقول * ... فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً * .. [النساء : ٦٠ - ٦٥]

كما إنه - سبحانه - قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده ، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه ، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم " مسلمون " لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء . فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده ، فهي خروج من دين الله ، ومن شهادة أن لا إله إلا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة " علمانيته " وعدم علاقته بالدين أصلاً ، وبعضها يعلن أنه " يحترم الدين " ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً ، ويقول : إنه ينكر " الغيبية " ويقيم نظامه على " العلمية " باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية ! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال ( ) وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هذه شريعة الله ! .. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

وإذا تعين هذا ، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة :

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره .

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة .. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده . وهي من ثم تلتقي - مع سائر المجتمعات الأخرى - في صفة واحدة .. صفة " الجاهلية " ..

وهذا يقودنا إلى القضية الخطيرة وهي منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله .. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان .. وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الأولى عن " طبيعة المجتمع المسلم " ، وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله .

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال :

- ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري أيّاً كان ؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة .. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة .. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول ، لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله – ﷺ – لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ، ثم يتبع اتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد :

* وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا * [الحشر : ٧]

ثم إن الإسلام يسأل :* أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ *

ويجيب :* وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * .. * وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً * ..

والذي يعلم – والذي يخلق ويرزق كذلك – هو الذي يحكم .. ودينه الذي هو منهجه للحياة ، هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة .. أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف ، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون ، والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً !

ودين الله ليس غامضاً ، ومنهجه للحياة ليس مائعاً .. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني : محمد رسول الله ، فهو محصور فيما بَلَّغه رسول الله ﷺ ، من النصوص في الأُصول .. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص . وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد – وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته . لا وفق الأهواء والرغبات – :

* فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ * .. [النساء : ٥٩]

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة ، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر ، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطاناً باسم الله . كالذي عرفته أوروبا ذات يوم باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم المقدس " فليس شيء من هذا في الإسلام . وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله – ﷺ – وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله ..

إن كلمة " الدين للواقع " يساء فهمها ، ويساء استخدامها كذلك . نعم إن هذا الدين للواقع . ولكن أي واقع !

.. إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه ، وفق منهجه ، منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها ، ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق ، والذي يعلم من خلق :* أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * [الملك : ١٤]

والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقرَّه ويبحث له عن سند منه ، وعن حكم شـــرعي يعلقـــه عليـــه كاللافتة المستعارة ! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه ، فيقر منه ما يقر ، ويلغي منه ما يلغي ، وينشـــئ واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه ، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعنى بأن الإسلام : " دين للواقع " .. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح !

ولعله يثار هنا سؤال : " أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم ؟ " ! .

ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجيب عليه : – * أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ * ؟

– * وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * !

إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله ، كما أنزله الله ، وكما بَلَّغه عنه رسول الله ..

فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم .. أولاً : " واهمون " فيمـــا بدا لهم .

* إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ، أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ، فَلِلَّـــهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * ... [النجم :٢٣-٢٥]

وهم .. ثانياً : " كافرون " .. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين . ومن أهل هذا الدين ! .

شَرِيعَةٌ كَـــوْنِيّة

إن الإسلام حين يقيم بناءه الإعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملـــة لله وحـــده ، ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء ، باعتبار أن هـــذه العبوديـــة الكاملة لله وحده – في صورتها هذه – هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله إلا الله .. وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله – ﷺ – وحده هو المدلول العملي كـــذلك لشـــهادة أن محمـــداً رسول الله ...

إن الإسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الأساس ، بحيث تمثل شهادة أن لا إلـــه إلا الله وأن محمـــداً رسول الله منهج الحياة في الإسلام ، وتصور ملامح هذا المنهج ، وتقرر خصائصه .. إن الإسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذي يفرقه عن جميع الأنظمة الأُخرى التي عرفتها البشرية .. إنمـــا يرجع إلى أصل أشمل فـــي تقريره عن الوجود كله ، لا عن الوجود الإنساني وحـــده . وإلى منـــهج للوجود كله لا منهج للحياة الإنسانية وحدها .

إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله – سبحانه – قوانينه التي يتحرك بها ، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها ، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء .

* إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * [النحل : ٤٠] .

* وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * .. [الفرقان : ٢] .
إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره ، وقدراً يحركه ، وناموساً ينسقه . هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها ، وينظم حركاتها جميعاً ، فلا تصطدم ، ولا تختل ، ولا تتعارض ، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة – إلى ما شاءَ الله – كما إن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره ، والقدر الذي يحركه ، والناموس الذي ينسقه ، بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة ، أو أن يتنكر للقدر ، أو أن يخالف الناموس وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد إلا أن يشاء الله :
* إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * .. [الأعراف : ٥٤] .
والإنسان من هذا الوجود الكوني ، والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله .. لقد خلقه الله – كما خلق هذا الوجود – وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض ، وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنساناً ، إنما رزقه الله إياه مقدراً تقديراً ، وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنَّه الله له – رضى أم أبي – يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه – فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنين وجوده – وهو يُولَد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة . وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له . وهو يحس ويتألم ، ويجوع ويعطش ، يأكل ويشرب ، ويمثل الطعام والشراب .. وبالجملة يعيش .. وفق ناموس الله ، عن غير إرادة منه ولا اختيار ، شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه ، في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه ...
والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان ، والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني ..
هو – سبحانه – الذي سن للإنسان " شريعة " لتنظيم حياته الإرادية تنظيماً متناسقاً مع حياته الطبيعية . فالشريعة – على هذا الأساس – إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان ، وفطرة الوجود العام ، وينسقها كلها جملةً واحدة .
وما من كلمة من كلمات الله ، ولا أمر ولا نهي ، ولا وعد ولا وعيد ، ولا تشريع ولا توجيه .. . إلا هي شطر من الناموس العام ، وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية – أي القوانين الإلهية الكونية – التي نراها تتحقق في كل لحظة ، بحكم ما في طبيعتها من حق أزلي أودعه الله فيها ، وهي تتحقق بقدر الله .

و " الشريعة " التي سنَّها الله لتنظيم حياة البشر هي – من ثم – شريعة كونية . بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ، ومتناسقة معه ..

ومن ثم فإن الالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان ، وحركة الكون الذي يعيش فيه .. بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة . وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان ..

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام – ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له – رضوا أم أبوا – فإنهم – من ثم – لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاماً يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة . إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ، ومدبر أمره وأمرهم ، وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه .

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق ذلك التناسق ..

وذلك فوق وجوبه لتحقق الإسلام اعتقاداً . فلا وجود للإسلام في حياة فرد أو حياة جماعة ، إلا بإخلاص العبودية لله وحده ، وبالتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده ، تحقيقاً لمدلول ركن الإسلام الأول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر ، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد .. إنهم – في هذه الحالة وحدها – يعيشون في سلام من أنفسهم .. فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون ، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه .. وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة ، فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته ، لأن شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة ، في يسر وهدوء .. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر في ارتباط الناس ونشاطهم العام ، لأنهم جميعاً يسلكون حينئذ وفق منهج موحد ، هو طرف من الناموس الكوني العام .

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق إهتدائها وتعرفها في يسر إلى أسرار هذا الكون ، والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في أطوائه ـــ واستخدام هذا كله وفق شريعة الله ، لتحقيق الخير البشري العام ، بلا تعارض ولا اصطدام .

ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر :

* وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ * ... [المؤمنون : ٧١] .

ومن ثَمَّ توحد النظرة الإسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين ، والحق الذي تقوم عليه السموات والأرض . ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب الله به ويجازي من يتعدونه .. فهو

حق واحد لا يتعدد ، وهو الناموس الكوني العام الذي أراده الله لهذا الوجود في جميع الأحوال ، والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم وأشياء وأحياء .

* لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ، وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ، لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ، وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ * ... [الأنبياء : ١٠ – ٢٠] .

وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق في أعماقها ، فطبيعة تكوينه وطبيعة هذا الكون كله من حوله ، توحي إلى فطرته بأن هذا الوجود قائم على الحق ، وأن الحق أصيل فيه ، وأنه ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تختلف دورته . ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة ، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة ! إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديراً ..

ومن ثم يقع الشقاق – أول ما يقع – بين الإنسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن في أعماقها ، تحت تأثير هواه ، وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله ، وعندما لا يستسلم لله استسلام هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه !

ومثل هذا الشقاق يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال ، كما يقع بين البشر والكون من حولهم ، فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء ، بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبني الإنسان .

وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الأرض ليس مجرد العمل للآخرة . فالدنيا والآخرة معاً مرحلتان متكاملتان ، وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في حياة هذا الإنسان . تنسق الحياة كلها مع الناموس الإلهي العام .

والتناسق مع الناموس لا يؤجّل سعادة الناس إلى الآخرة ، بل يجعلها واقعة ومتحققة في المرحلة الأولى كذلك ، ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة .

هذا هو أساس التصور الإسلامي للوجود كله ، وللوجود الإنساني في ظل ذلك الوجود العام ، وهو تصور يختلف في طبيعته اختلافاً جوهرياً عن كل تصور آخر عرفته البشرية ، ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور آخر في جميع الأنظمة والنظريات

إن الالتزام بشريعة الله – في هذا التصور – هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون ، وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون ، ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان ، وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده ، كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدّعيها لنفسه إنسان .

وإلى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار الذي جرى بين إبراهيم – عليه السلام – أبي هذه الأمة المسلمة – وبين " نمرود " المتجبر المدعي بحق السلطان على العباد في الأرض ، والذي لم يستطع – مع ذلك – أن يدعي بحق السلطان على الأفلاك والأجرام في الكون ، وبهت أمام إبراهيم عليه السلام ، وهو يقول له : إن الذي يملك السلطان في الكون هو وحده الذي ينبغي أن يكون له السلطان في حياة البشر ، ولم يحر جواباً على هذا البرهان : * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * .. [البقرة : ٢٥٨] .

وصدق الله العظيم :

* أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * .. [آل عمران : ٨٣] . (المعالم)

١٠- الجماعةُ المناصرةُ:

مما لا شك فيه أن كل دعوة من الدعوات أياً كانت لا بد لها من جماعة تنهض بها وتناصرها، وأن وجود الجماعة هو العامل الأساس في قيام الدعوة ورسوخها وبقائها، ووجود الجماعة المناصرة لدعوة الحق هو أول عامل في تمكينها وتحقق العاقبة لها.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا في كتابه وبين أن وجود الجماعة المؤمنة المناصرة هو التأييد منه سبحانه لدعوة الحق، والسبب الظاهر في تحقق النصر، قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ : {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} (٦٢) سورة الأنفال، قال ابن كثير: " أَيْ جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَان بِك وَعَلَى طَاعَتك وَمُنَاصَرَتك وَمُؤَازَرَتك ".[٢٢]

فالجماعة التي تكون عاملاً أساسياً في ظهور دعوة الحق وتمكينها، لا بد لها من أمرين:

١- أن تكون مؤمنة.

---

[٢٢] - تفسير ابن كثير - (ج ٦ / ص ٢٦٥)

٢- أن تكون مناصرة لدين الله حق المناصرة.

ومتى فقدت الجماعة هذين الأمرين أو أحدهما، أو نقصت في أحدهما، تخلف النصر والظهور، ولو كان ولاؤها لدين الله، ولا أدلَّ على ذلك مما حدث مع نبي الله موسى وأخيه هارون -على نبينا وعليهم الصلاة والسلام-، وهما يستحثان قومهما للدخول في الأرض التي كتبها الله لهم.

قال سبحانه وتعالى على لسان موسى:{ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} (٢١) سورة المائدة، فعند التأمل في قوله " كتب لله لكم " نجد التعبير بكلمة (كتب) له غاية من التأكيد تفيد أن الأرض لهم قد كتبها الله في علم الأزل لهم وقدَّر أنها ستكون تحت تصرفهم - وبالفعل كانت لهم فيما بعد ودخلوها - ولكن نرى هنا كيف نكلت الجماعة المؤمنة عن نصرة أمر الله، وتحقيق ما كتب الله لهم، فامتنعت عن القتال، وتلكأت عن تنفيذ الأمر بمعاذير هي غاية في الجبن والهلع وعدم الثقة بوعد الله ورسوله، وسوء الأدب مع الله وأنبيائه :{ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٢٤) سورة المائدة.

وعند فقدان المناصرة من الجماعة المؤمنة تأخر ذلك الوعد المكتوب بدخول بني إسرائيل و لم يتخلف في ذاته، وإنما تخلف أولئك الناكلون فلم يستحقوا أن ينالوا ما كُتِب لهم، وهنا نرى في وضوح كوضوح النهار كيف تنحطُّ الدعوةُ من مراتب عظيمة من التمكين، حين ينكلَ وينخذل أبناؤها من الجماعة المؤمنة، عن النصرة والتنفيذ لأوامر الله وما رضي الله لهم، عند ذلك قال نبي الله موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام-: { قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) }[المائدة/٢٥، ٢٦].

وهنا نلمس عبرة للمعتبرين ونراها. لقد أصبحت الأرض المكتوبة لهم محرمة عليهم جزاء إنخذالهم ونكولهم عن نصرة أمر الله ونبيه.وفي الجانب المشرق نرى كيف يكتب الله سبحانه وتعالى التمكين والرفعة للجماعة المؤمنة، حين تتبنى نصرة دين الله، ولو في ساعة العسرة، وكثرة المخالفين، وقلة المؤمنين، كيف يكتبه الله سبحانه وتعالى لهم ويحوطهم ويجعل الرفعة لهم، أبد الآبدين إلى يوم الدين، وهذا جليٌّ واضحٌ ناصعٌ في دعوة نبي الله عيسى -على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام-.

قال تعالى: { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا

وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآَيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) } [آل عمران].

إن تبني نصرة دعوة الحق في ظروف صعبة كهذه محاطة بالعداء لمن انتمى إليها؛ العداء الظاهر والمكر الغادر من جانب آخر، عداء حتى لنبي يرونه أمام أعينهم يحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويبلغ العداء بهم لدعوته رغم ما يرونه من آيات بيده لا يمكن أن تأتي إلا من عند الله أن يسعوا لقتله وصلبه، هذا كله منصب على الداعي رغم ما معه من الآيات، فما بالك بما سيناله من انتمى إلى دعوته أو انحاز إليها من العداء والنكال، إن مثل هذا الحال ليجعل من المستحيل أو العسير حتى التفكير في الانضمام للدعوة والإيمان بها.وهنا يأتي موقف النصرة ظاهراً رغم كل هذه الأحوال؛ يأتي قوياً مدوياً { نحن أنصار الله } على مسامع الملأ ورغم كيدهم وعدائهم ومكرهم، وهنا عبرة كذلك يجب ألا تنسى وأن تكون موضع الاهتمام، وهي أن تبني نصرة الدين في ظروف تشير إلى أن الهلاك محدق بمن انضمَّ إليه – فضلاً عمن ناصره – سببٌ مباشر في حصول أسباب غيبية من الله وظاهرة تجعل أولئك المناصرين للدعوة – يوم لا ناصر لها من قبل الناس وكل لها عدو – في أعلى مراتب الظهور والغلبة والنصر.

قال تعالى: { وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٢٦) سورة الأنفال،

اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم؛ واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله . . اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون . . ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله!

وحض سبحانه وتعالى المؤمنين على نصرة دينه، ووعدهم عليها بالنصر والتمكين، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (٧) سورة محمد.

وقال سبحانه وتعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } (١٤) سورة الصف

١١- اتباع الطريق الصحيح لإقامة الدولة الإسلامية

إن الجهاد والعزة قرينان، كما أن ترك الجهاد وذل الأمة بتكالب الأعداء عليها ونهبهم لخيراتها قرينان، وإنما سُلط الذل على الأمة عقوبة من الله تعالى، لا لأن الكفار أقوى من المسلمين في العدد والعدة ولكن لركون المسلمين إلى الدنيا وانغماسهم في المحرمات كربا العينة وتركهم للواجبات كالجهاد في سبيل الله.

فتأمل قول الرسول ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم).

تجد أن هذا الحديث يصور واقع الأمة المرير، لتركها لرسالتها وانشغالها بالدنيا وارتكابها للمحرمات، فكانت النتيجة العقوبة من الله تعالى بتسليط الذل عليها الذي لا ينزعه الله تعالى ويرفعه إلا بعودة الأمة إلى دينها وشريعة ربها التي لا صلاح لها ولا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بهذا الدين العظيم الذي من عظمته وكمال أحكامه أن شرع الله فيه الجهاد لمنع الفساد في الأرض.

ولهذا نبه الله تعالى إلى هذا الفضل بقوله تعالى: (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً).

وقال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ).

إن الضعف وترك الجهاد مطمعة للأعداء في خيرات الأمة وأراضيها، فعندما سرى الوهن في قلوب كثير من المسلمين فأحبوا الدنيا وكرهوا القتال تكالب عليهم الأعداء من كل صوب يأخذون خيراتهم وديارهم ويسومونهم سوء العذاب.

كما قال نبينا ﷺ: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) قيل: يا رسول الله أمن قلة يومئذ؟ قال: (لا..ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب أعدائكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت).

وفي رواية: قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: (حبكم للدنيا وكراهيتكم للقتال).

وفي هذا الحديث وسابقه أن الوهن الذي ألقي في القلوب هو عقوبة من الله تعالى لميل الأمة إلى الدنيا وتخليها عن حمل الرسالة والجهاد في سبيل الله لا لأن الكفار سبقوها بالعدة والعدد.

إن الأمة الإسلامية تملك مقومات النصر، وعندها أسبابه ولكنها لم تعمل بها و لم تقم بها حق القيام، فالنصر لا يُنال إلا من عند الله فقد قال تعالى: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ)، وقال تعالى: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

والله تعالى وعدنا بالنصر إذا قمنا بأسباب النصر حق القيام؛ فنصرنا دين الله تعالى وحكمنا شرعه في أنفسنا وأهلينا وفي جميع شؤون حياتنا قال تعالى: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)، وقال تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).فإذا أقمنا شرع الله فينا كما أمر الله تعالى حينئذ يتحقق لنا ما وعدنا ربنا تبارك وتعالى من النصر والتمكين.قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِـــنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً).

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الباب الثالث

عوامل النصر الخاصة في القرآن والسنة

١- الإيمانُ المطلقُ :

قال تعالى في سورة البقرة :﴿ الم {١} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {٢} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {٣} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {٤} أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٥} ﴾
لاَ شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا القُرآنَ (الكِتَابُ) مُنْزَلٌ مِنْ عِندِ اللهِ ، وَهُوَ هُدًى وَنُورٌ يَهتَدِي بِهِ الْمُتَّقُونَ ، الذِينَ يَجتَهِدُونَ فِي العَمَلِ بِطَاعَةِ اللهِ ، وَيَتَّقُونَ الشِّرْكَ وَأَسْبَابَ العِقَابِ .

وَهؤلاءِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الذِينَ يُصَدِّقُونَ بِحَزمٍ وَإِيمانٍ وإذعَانٍ بِمَا لاَ يَقَعُ تَحْتَ حَواسِّهِمْ (الغَيْبِ) فَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَنَّتِهِ وَلِقَائِهِ ، وَبِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ . وَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ، وَيُؤَدُّونَهَا حَقَّ أَدَائِهَا وَيُتِمُّونَ - بِخُشُوعٍ تَامٍّ ، وَحُضُورِ قَلْبٍ - رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَتِلاوَتَهَا ، وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ فِي وُجُوهِ الخَيرِ ، وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ .

وَهؤلاءِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الذِينَ يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَبِمَا أُنزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، لا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ ، وَلا يَجْحَدُونَ بِمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِصِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ النُّبُوَّاتُ مِنَ البَعْثِ وَالحِسَابِ فِي الآخِرَةِ .

فَهؤُلاءِ الْمُتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ : مِنْ إِيمَانٍ بِاللهِ ، وَإِيمَانٍ بِالبَعْثِ وَالحِسَابِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلاَةِ ، وَتَأْدِيةِ الزَّكَاةِ . . . هُمْ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَنُورٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَهُمُ الْمُفْلِحُونَ الفَائِزُونَ الذِينَ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوهُ بعدَ السَّعيِ الحَثِيثِ فِي الحُصُولِ عليهِ ، وَنَجَوْا مِنْ شَرِّ مَا اجْتَنَبُوهُ ..

لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم . بقلب خالص . ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة ، أو أن تستهويه ضلالة . . وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً ، خائفاً ، حساساً ، مهيأ للتلقي . . ورد أن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى! قال : فما عملت؟ قال : شمرت واجتهدت . قال : فذلك التقوى . .

فذلك التقوى . . حساسية في الضمير ، وشفافية في الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوق لأشواك الطريق . . طريق الحياة . . الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، وأشواك المطامع والمطامح ، وأشواك المخاوف والهواجس ، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء ، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً . وعشرات غيرها من الأشواك!

ثم يأخذ السياق في بيان صفة المتقين؛ وهي صفة السابقين من المؤمنين في المدينة كما أنها صفة الخلص من مؤمني هذه الأمة في كل حين : { الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون } ..

إن السمة الأولى للمتقين هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة . الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب ، والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة ، واليقين بعد ذلك بالآخرة . . هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية ، وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة ، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعاً ، ولتهيمن على البشرية جميعاً ، وليعيش الناس في ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة ، شاملة للشعور والعمل ، والإيمان والنظام.

فإذا نحن أخذنا في تفصيل هذه السمة الأولى للمتقين إلى مفرداتها التي تتألف منها ، انكشفت لنا هذه المفردات عن قيم أساسية في حياة البشرية جميعا . .{ الذين يؤمنون بالغيب } . . فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنها ، وصدر عنها هذا الوجود؛ ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات .

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود ، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه ، حقيقة أكبر من الكون ، هي التي صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده . . حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول .

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له ، وما لم توهب القدرة للإحاطة به ، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه . إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان ، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض ، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة ، تنظر فيها ، وتتعمقها وتتقصاها ، وتعمل وتنتج ، وتنمي هذه الحياة وتجملها ، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود ، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب

الذي لا تحيط به العقول . فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هـــذه الأرض والحياة عليها ، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول . فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا ، ومحاولة عابثة أخيرا . فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلـــق لرصد هذا المجال . وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال . . ومتى ســـلم العقـــل البشري بالبديهية العقلية الأولى ، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق ، لزمه – احتراما لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل؛ وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضـــمير الغيـــب المكنون؛ وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل؛ وأن يتلقى العلم في شـــأنه مـــن العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن ، والغيب والشهادة . . وهذا الاحترام لمنطق العقل في هـــذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون ، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين .لقد كان الإيمان بالغيـــب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة . ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان ، كجماعة الماديين في كل زمان ، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى . . إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيـــه لغير المحسوس! ويسمون هذا « تقدمية » وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها ، فجعـــل صـــفتهم المميزة ، صفة : { الذين يؤمنون بالغيب } والحمـــد لله علـــى نعمائـــه ، والنكســـة للمنتكســـين والمرتكسين!

{ ويقيمون الصلاة } . . فيتجهون بالعبادة لله وحده ، ويرتفعون بهذا عن عبادة العبـــاد ، وعبـــادة الأشياء . يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود ويحنون جباههم لله لا للعبيد؛ والقلب الذي يسجد لله حقاً ، ويتصل به على مدار الليل والنهار ، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجـــود ، ويجـــد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض ، ويحس أنه أقوى من المخـــاليق لأنـــه موصول بخالق المخاليق . . وهذا كله مصدر قوة للضمير ، كما أنه مصدر تحرج وتقوى ، وعامـــل هام من عوامل تربية الشخصية ، وجعلها ربانية التصور ، ربانية الشعور ، ربانية السلوك .

{ ومما رزقناهم ينفقون } . . فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم ، لا من خلق أنفسهم؛ ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عيـــال الخالق ، والشعور بالآصرة الإنسانية ، وبالأخوة البشرية . . وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير الـــنفس من الشح ، وتزكيتها بالبر . وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن ، وأنها تؤمن العاجز والضعيف والقاصر ، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس ، لا بين أظفـــار ومخالـــب ونيوب!

والإنفاق يشمل الزكاة والصدقة ، وسائر ما ينفق في وجوه البر . وقد شرع الإنفاق قبل أن تشـــرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه . وقد ورد في حديث رسول

الله – ﷺ – بإسناده لفاطمة بنت قيس « إن في المال حقاً سوى الزكاة » . وتقرير المبدأ على شموله هو المقصود في هذا النص السابق على فريضة الزكاة .

{ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك } . . وهي الصفة اللائقة بالأمة المسلمة ، وارثة العقائد السماوية ، ووارثة النبوات منذ فجر البشرية ، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة ، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان . وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينها ، ووحدة رسلها ، ووحدة معبودها . . قيمتها هي تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ما داموا على الطريق الصحيح . . قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها . هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد . قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تتقلب الأيام والأزمان ، وهو ثابت مطرد ، كالنجم الهادي في دياجير الظلام .{ وبالآخرة هم يوقنون } . . وهذه خاتمة السمات . الخاتمة التي تربط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء؛ والتي تشعر الإنسان أنه ليس لقى مهملاً ، وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى؛ وأن العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفيء إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف .واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود .

وقال تعالى : { الم (١) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) } [لقمان/١-٦]

هذِهِ هِيَ آياتُ القُرآنِ الحَكِيم بَيَاناً وَتَفْصِيلاً .وَهِيَ تَهدِي مِنَ الزِّيغِ الذينَ أَحْسَنُوا العَمَلَ واتَّبَعُوا الشَّرِيعَةَ ، وتَشْفِيهِمْ من الشَّكِ والضَّلاَلَةِ . ثُمَّ يُعَرِّفُ اللهُ تَعَالى هؤُلاءِ الذينَ يُحسِنُونَ العَمَلَ ، وَيَهْتَدُونَ بالقُرآن ، فَيَقُولُ : إِنَّهُم الذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلاَةَ عَلَى وَجْهِهَا الأَكْمَلِ ، ويُتِمُونَّها بخُشُوعِها وَرُكُوعِها وَسُجُودِها ، وَيُؤدُّونَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ عَلى أَموالِهِم ، وَيُؤْمِنُونَ إيماناً ثَابتاً رَاسِخاً بأَنَّ اللهَ سَيْبَعَثُ الخَلاَئِقَ فِي الآخِرَة ، وأَنَّهُ سَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وأَنَهُ سَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بعَمَلِهِ . وَهَؤُلاءِ الذينَ اتَّصَفُوا بالصِّفَاتِ المُتَقَدِّمَةِ ، هُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ ونُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَهؤُلاءِ هُمُ الفَائِزُونَ بِمَا أَمَّلُوا مِنْ ثَوابِ اللهِ يومَ القِيَامَةِ ، فَرَبَحَتْ صَفْقَتُهُمْ .

ذا الكتاب الحكيم . أو آياته . { هدى ورحمة للمحسنين } فهذه حاله الأصيلة الدائمة . . أن يكون هدى ورحمة للمحسنين . هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذي لا يضل سالكوه . ورحمة بما

يسكبه الهدى في القلب من راحة وطمأنينة وقرار؛ وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح؛ وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به؛ ثم بين هذه القلوب ونواميس الكون الذي تعيش فيه ، والقيم والأحوال والأحداث التي تتعارف عليها القلوب المهتدية ، وتتعارف الفطر التي لا تزيغ . .والمحسنون هم : { الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون } . . وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفي وقتها أداء كاملاً تتحقق به حكمتها وأثرها في الشعور والسلوك ، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التي تعلق القلوب بالصلاة . . وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطري ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون . ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التي لم يفسدها الترف ولا الحرمان . . واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا؛ ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليل؛ والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة؛ لأنهم بما في قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون في صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة؛ ويتصلون بما في طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميه وأهدافه الحكيمة ، وتصطلح نفوسهم عليه ، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق .وإن هذا القرآن ليعطي كل قلب بمقدار ما في هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق؛ وبقدر ما يقبل عليه في حب وتطلع وإعزاز . إنه كائن حي يعاطف القلوب الصديقة ، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفرفة والحنين! وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة . . { أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون } . ومن هُدي فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل إلى الغاية ، ناج من الضلال في الدنيا ، ومن عواقب الضلال في الآخرة؛ وهو مطمئن في رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن في الوجود .أولئك المهتدون بالكتاب وآياته ، المحسنون ، المقيمون للصلاة ، المؤتون للزكاة ، الموقنون بالآخرة ، المفلحون في الدنيا والآخرة . .

٢–الإيمان العميق بالله تعالى :

قال تعالى : * وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* (٤١) سورة الأنفال

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ طَرِيقَةَ قِسْمَةِ المَغَانِمِ التِي يَغْنَمُها المُسْلِمُونَ فِي الحَرْبِ . وَالغَنِيمَةِ هِيَ المَالُ المَأْخُوذُ مِنَ الكُفَّارِ بِإِيجَافِ خَيْلٍ وَرِكَابٍ . أَمَّا الفَيْءُ فَهُوَ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ (أَيْ بُدُونِ حَرْبٍ أَوْ بِدُونِ خُرُوجِ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ إِلَى الأَعْدَاءِ : كَالأَمْوَالِ التِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا ، أَوْ يَمُوتُونَ عَنْهَا دُونَ وَارِثٍ لَهُمْ ، وَالخَرَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ) .

يَقُولُ تَعَالَى : اعْلَمُوا يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ أَنَّ كُلَّ مَا غَنِمْتُمُوهُ مِنَ الكُفَّارِ المُحَارِبِينَ فَاجْعَلُوا أَوَّلاً خُمْسَهُ للهِ تَعَالَى لِيُنْفِقَ فِيمَا يُرْضِيهِ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِ العَامَّةِ : كَالدَّعْوَةِ لِلإِسْلاَمِ وَإِقَامَةِ شَعَائِرِهِ ، وَعِمَارَةِ الكَعْبَةِ وَكِسْوَتِها ، ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ لِلرَّسُولِ كِفَايَتَهُ لِنَفْسِهِ وَنِسَائِهِ مُدَّةَ سَنَةٍ ، ثُمَّ أَعْطُوا مِنْهُ ذَوِي القُرْبَى مِنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ نَسَباً وَوَلاءً (وَقَدْ خَصَّ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ بِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أَخِيهِ المُطَّلِبِ المُسْلِمِينَ) ، ثُمَّ المُحْتَاجِينَ مِنْ سَائِرِ المُسْلِمِينَ ، وَهُمُ اليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ ، وَابْنُ السَّبِيلِ (وَهُوَ المُجْتَازُ الذِي نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ) . وَهَذا الخُمْسُ يُدْفَعُ لِلإِمَامِ (بَعْدَ الرَّسُولِ) لِيَصْرِفَهُ فِي الوُجُوهِ المُبَيَّنَةِ فِي الآيَةِ .

وَاليَتَامَى – هُمْ أَيْتَامُ المُسْلِمِينَ – وَقِيلَ : إِنَّ النَّصَّ عَامٌّ يَعُمُّ الأَغْنَيَاءَ مِنَ الأَيْتَامِ وَالفُقَرَاءَ .

المَسَاكِين – هُمُ المُحْتَاجُونَ الذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يَسُدُّونَ بِهِ خَلَّتَهُمْ .

وَابْنِ السَّبِيلِ – هُوَ المُسَافِرُ أَوْ المُرِيدُ السَّفَرَ مَسَافَةَ القَصْرِ (أَيْ المَسَافَةُ التِي يُبَاحُ فِيهَا قَصْرُ الصَّلاَةِ) وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِهِ .

أَمَّا الأَخْمَاسُ الأَرْبَعَةُ البَاقِيَةُ فَهِيَ لِلْمُقَاتِلِينَ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ ، وَاعْمَلُوا بِهِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ حَقّاً ، وَآمَنْتُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ آيَاتِ التَّثْبِيتِ وَالمَدَدِ يَوْمَ الفُرْقَانِ الذِي فَرَقْنَا فِيهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ ، وَالإِيمَانِ وَالكُفْرِ ، وَهُوَ اليَوْمُ الذِي الْتَقَى فِيهِ جَمْعُكُمْ مَعْ جَمْعِ المُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ ، وَاللهُ عَظِيمُ القُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيءٍ .

إن للإيمان إمارات تدل عليه ؛ والله – سبحانه – يعلق الاعتراف لأهل بدر – وهم أهل بدر – بأنهم آمنوا بالله ، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعلق الاعتراف لأهل بدر هؤلاء بالإيمان ، على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم في صدر الآية ؛ فيجعل هذا شرطاً لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله وبما أنزله على عبده من القرآن ؛ كما يجعله مقتضى لإعلانهم الإيمان لا بد أن يتحقق ليتحقق مدلول هذا الإعلان .

وهكذا نجد مدلول الإيمان – في القرآن – واضحاً جازماً لا تميع فيه ، ولا تفصيص ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد ، عندما وجدت الفرق والمذاهب والتأويلات ، ودخل الناس في الجدل والفروض المنطقية الذهنية ، كما دخل الناس – بسبب الفرق المذهبية والسياسية – في الاتهامات ودفع الاتهامات ؛ وصار النبز بالكفر ، ودفع هذا النبز ، لا يقومان على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين ؛ إنما يقومان على الغرض والهوى ومكايدة المنافسين والمخالفين ! عندئذ وجد من

ينبز مخالفيه بالكفر لأمور فرعية ؛ ووجد من يدفع هذا الاتهام بالتشدد في التحرج والتغليظ على من ينبز غيره بهذه التهمة . . وهذا وذلك غلو سببه تلك الملابسات التاريخية . .

أما دين الله فواضح جازم لا تميع فيه ولا تفصيص ولا غلو . . " ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل " . . ولا بد لقيامه من قبول ما شرع الله وتحقيقه في واقع الحياة . . والكفر:رفض ما شرع الله ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والتحاكم إلى غير شرع الله . . في الصغير وفي الكبير سواء . . أحكام صريحة جازمة بسيطة واضحة . . وكل ما وراءها فهو من صنع تلك الخلافات والتأويلات . .

وهذا نموذج من التقريرات الصريحة الواضحة الجازمة من قول الله سبحانه:

(واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) . .

ومثله سائر التقريرات الواضحة الجازمة الصريحة التي ترسم حقيقة الإيمان وحدوده في كتاب الله .

لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها في المعركة ؛ وردها الى الله والرسول – في أول السورة – ليخلص الأمر كله لله والرسول ؛ وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض ؛ وليسلموا أمرهم كله – أوله وآخره – لله ربهم وللرسول قائدهم ؛ وليخوضوا المعركة لله وفي سبيل الله ، وتحت راية الله ، طاعة لله ؛ يحكمونه في أرواحهم ، ويحكمونه في أموالهم ويحكمونه في أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض . .

فهذا هو الايمان . . كما قال لهم في مطلع السورة وهو ينتزع منهم ملكية الغنيمة ويردها إلى الله ورسوله:(يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله . . إن كنتم مؤمنين . .) .

حتى إذا استسلموا لأمر الله ، وارتضوا حكمه ذاك ، فاستقر فيهم مدلول الإيمان . . عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة ، ويستبقي الخمس على الأصل – لله والرسول – يتصرف فيه رسول الله ﷺ ، وينفق منه على من يعولهم في الجماعة المسلمة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . .

عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة ، وقد استقر في نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح ، فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله ؛ إنما هم يستحقونها بمنح الله لهم إياها ؛ كما أنه هو الذي يمنحهم النصر من عنده ؛ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله . . وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان . .

هو شرط الإيمان ، وهو مقتضى الإيمان . .

واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . .

وهكذا تتواتر النصوص ، لتقرر أصلا واضحاً جازماً من أصول هذا الدين في اعتبار مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه .

ثم نقف أمام وصف الله – سبحانه – لرسوله ﷺ بقوله:(عبدنا) في هذا الموضع الذي يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء ، وأمر الخمس المتبقي أخيراً: (إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) . .

إنه وصف موحٍ . .

إن العبودية لله هي حقيقة الإيمان ؛ وهي في الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له ؛ فهي تجلى وتذكر في المقام الذي يوكل فيه إلى رسول الله ﷺ التبليغ عن الله ، كما يوكل إليه فيه التصرف فيما خوله الله .

وإنه لكذلك في واقع الحياة ! إنه لكذلك مقام كريم . .

أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان . .

إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى ، والعاصم من العبودية للعباد . . وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له ، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه .

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده ، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى . يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم ؛ فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع "الإنسان" من بين سائر الأنواع ؛ وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شر الدواب ، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل ، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا – كما خلقهم الله – في أحسن تقويم .

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله في شر العبوديات الأخرى وأحطها . .

يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم ، يصرفون حياتهم وفق هواهم ، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر ، مشوبة بحب الاستعلاء ، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى !

ويقعون في عبودية "الحتميات" التي يقال لهم:إنه لا قبل لهم بها ، وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها . . "حتمية التاريخ" . . و "حتمية الاقتصاد" . .

و "حتمية التطور" وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين "الإنسان" في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه ، ولا أن يناقش – في عبوديته البائسة الذليلة – هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة !

ثم نقف كذلك أمام وصف الله – سبحانه – ليوم بدر بأنه يوم الفرقان: (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) . .

لقد كانت غزوة بدر – التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده – فرقاناً . . فرقاناً بين الحق والباطل – كما يقول المفسرون إجمالاً – وفرقاناً بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيراً . .

كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً . .

ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء . . الحق الذي يتمثل في تفرد الله – سبحانه – بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ، وفي عبودية الكون كله:سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك . . والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ؛ ويغشي على ذلك الحق الأصيل ؛ ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ! . .

فهذا هو الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر ؛ حيث فرق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغي ؛ وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان !

لقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق ، على أبعاد وآماد:كانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير . .

فرقاناً بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العبادة والعبودية ؛ وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات . . .

وكانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك . .

فرقانا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع ، وللشرائع والقوانين ، وللتقاليد والعادات . . .

وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره ولا متسلط سواه ولا حاكم من دونه ، ولا مشرع إلا إياه . .

فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله ؛ وتساوت الرؤوس لا تخضع إلا لحاكميته وشرعه ؛ وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة . .

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية:

عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار . وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع . .

والإسلام بوصفه تصورا جديدا للحياة ، ومنهجا جديدا للوجود الإنساني ، ونظاما جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدولة . .

بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير "الإنسان" في "الأرض" بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكميته . .

الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد . لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه ، تتمثل في

شعائر تعبدية لله ، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم . و لم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، في واقع الحياة ؛ وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولاً ؛ ثم في حياة البشرية كلها أخيراً . . وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله . .

وكانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ البشرية . .

فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامي هي غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام . .

هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام . وهذا النظام الجديد الذي انبثق من هذا التصور . وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلاداً جديداً للإنسان . وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعي والتشريع القانوني سواء . .

هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود المجتمع الجديد . إنما صار – شيئا ًفشيئا – ملكاً للبشرية كلها ؛ تأثرت به سواء في دار الإسلام أم في خارجها ، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته ! . .

والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ، ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه في ربوعه ، قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذي جاءوا ليحطموه ؛ وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعي الذي كان سائدا عندهم ، بعد ما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعي الإسلامي ! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه – بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ! – قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية في النهاية ؛ وحملوها لينشروها في رقعة من الأرض جديدة ؛ وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين في قلب أوربا ! . .

وعلى أية حال فالتاريخ البشري كله – منذ وقعة بدر – متأثر بهذا الفرقان في أرض الإسلام ، أو في الأرض التي تناهض الإسلام على السواء .

وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة . فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين ؛ وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: (غر هؤلاء دينهم) . .

وقد أراد الله أن تجري المعركة على هذا النحو – وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة – لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ؛ فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ؛ وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر . ذلك المدلول الذي يوحي به قول الله تعالى في أوائل هذه السورة: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) .

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة . فأراد الله لهم غير ما أرادوا . أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان [غير ذات الشوكة] وأن يلاقوا نفير أبي جهل [ذات الشوكة] وأن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ؛ ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة ! وقال لهم الله – سبحانه – إنه صنع هذا: (ليحق الحق ويبطل الباطل) . .

وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة . .

إن الحق لا يحق ، وإن الباطل لا يبطل – في المجتمع الإنساني – بمجرد البيان "النظري" للحق والباطل . ولا بمجرد الاعتقاد "النظري" بأن هذا حق وهذا باطل . .

إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس ؛ وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس . إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا . .

فهذا الدين منهج حركي واقعي ، لا مجرد "نظرية " للمعرفة والجدل ! أو لمجرد الاعتقاد السلبي !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ؛ وكان هذا النصر العملي فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته – سبحانه –من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق ؛ ومن وراء إفلات القافلة [غير ذات الشوكة] ولقاء الفئة ذات الشوكة . .

ولقد كان هذا كله فرقاناً في منهج هذا الدين ذاته ، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم . .

وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ؛ حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين !

حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين !

وهكذا كان يوم بدر (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة . .

(والله على كل شيء قدير) . . وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء . .

مثل لا يجادل فيه مجادل ، ولا يماري فيه ممار . .

مثل من الواقع المشهود ، الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله . وأن الله على كل شيء قدير

٣-العملُ الصالحُ :

قال تعالى :﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٥٥} النور﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ مِنْ أُمَّتِهِ خُلَفَاءَ فِي الأَرْضِ ، وَأَئِمَّةً لِلنَّاسِ ، وَأَنَّهُ سَيُبَدِّلُهُمْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْناً وَحُكْماً فِيهِمْ . وَقَدْ أَمْضَى المُسْلِمُونَ عَشْرَ سِنِينَ فِي مَكَّةَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الإِسْلاَمِ سِرّاً ، وَهُمْ خَائِفُونَ لاَ يُؤْمَرونَ بِالقِتَالِ ، حَتَّى أُمِرُوا بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ ، وَأُمِرُوا بِالقِتَالِ ، فَكَانُوا خَائِفِينَ يُمْسُونَ بِالسِّلاَحِ ، وَيُصْبِحُونَ بِالسَّلاحِ ، فَصَبُروا عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ . ثُمَّ إِنَّ رَجُلاً مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ مَا يَأتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأَمَنُ فِيهِ ، وَنَضَعُ السِّلاَحَ؟ فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ : لَنْ تَصْبِروا إِلاَّ يَسيراً حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُم فِي المَلأ العَظِيمِ مُحْتَبِياً لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ) .وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ .

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ سَيَسْتَخْلِفُ المُؤْمِنِينَ فِي الأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخَلَفَ المُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، وَسَيَكُونُ لَهُم الأَمْرُ . وَحَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَمَنْ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ ، وَجَحَدَ نِعَمَهُ عَلَيْهِ ، فَقَدْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْباً عَظِيماً ..

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : "لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَآوَتْهُمُ الأَنْصَارُ ، رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ كَانُوا لاَ يَبِيتُونَ إِلاَّ بِالسِّلاحِ وَلا يُصْبِحُونَ إِلاَّ فِيهِ ، فَقَالُوا : تَــرَوْنَ أَنَّا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنَيْنِ مُطْمَئِنَّيْنِ لاَ نَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ ؟ فَنَزَلَتْ : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ إِلَى وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ "المستدرك[٢٣] .

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ أن يستخلفهم في الأرض . وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا . . ذلك وعد الله . ووعد الله حق . ووعد الله واقع . ولن يخلف الله وعده . . فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله؛ وتوجه النشاط الإنساني كله . فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله؛ لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله؛ وهي طاعة لله واستسلام لأمره في

---

[٢٣]- (ج ٣ / ص ١٦٩) برقم (٣٥١٢) وهو حديث حسن

الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ، ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله .

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه . وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً . . يتوجه بهذا كله إلى الله . . يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن : { يعبدونني لا يشركون بي شيئاً } والشرك مداخل وألوان ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله .

ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض . .

أمانة الاستخلاف . .

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم . . إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء؛ وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض ، اللائق بخليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح ، لا على الهدم والإفساد . وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر . وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري ، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ليحققوا النهج الذي أراده الله؛ ويقرروا العدل الذي أراده الله؛ ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله . . فاما الذين يملكون فيفسدون في الأرض ، وينشرون فيها البغي والجور ، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان . . فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض . إنما هم مبتلون بما هم فيه ، أو مبتلى بهم غيرهم ، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله .

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده : { وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم } . . وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب ، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها . فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض . ودينهم يأمر بالإصلاح ، ويأمر بالعدل ، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض . . ويأمر بعمارة هذه الأرض ، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ، ومن رصيد ، ومن طاقة ، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله .

{ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً } . . ولقد كانوا خائفين ، لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة .

وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس عَنْ أَبِي الْعَالِيَة فِي قَوْله " وَعَدَ اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فِي الْأَرْض كَمَا اِسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينهمْ الَّذِينَ اِرْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا " الْآيَة قَالَ كَانَ النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه بِمَكَّة نَحْوًا مِنْ عَشْر سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّه وَحْده وَإِلَى عِبَادَته وَحْده لَا شَرِيك لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَال حَتَّى أُمِرُوا بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَة فَقَدِمُوهَا فَأَمَرَهُمْ اللَّه بِالْقِتَالِ فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلَاح وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلَاح فَصَبَرُوا عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّه ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ الصَّحَابَة قَالَ يَا رَسُول اللَّه : أَبَد الدَّهْر نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا ؟ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْم نَأْمَن فِيهِ وَنَضَع عَنَّا السِّلَاح ؟ فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ : " لَنْ تَصْبِرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِس الرَّجُل مِنْكُمْ فِي الْمَلَإِ الْعَظِيم مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَة " وَأَنْزَلَ اللَّه هَذِهِ الْآيَة فَأَظْهَرَ اللَّه نَبِيّه عَلَى جَزِيرَة الْعَرَب فَآمَنُوا وَوَضَعُوا السِّلَاح ثُمَّ إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَبَضَ نَبِيّه ﷺ فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَة أَبِي بَكْر وَعُمَر وَعُثْمَان حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ فَأُدْخِلَ عَلَيْهِمْ الْخَوْف فَاتَّخَذُوا الْحُجْزَة وَالشُّرْط وَغَيَّرُوا فَغُيِّرَ بِهِمْ .

إن الإسلام منهاج حياة كامل؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها ، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفي كل حركاتها وسكناتها . ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة؛ وينسق بينها جميعاً ، ويتجه بها إلى الله في النهاية .

لقد تحقق وعد الله مرة . وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله:

(يعبدونني لا يشركون بي شيئا) . .

لا من الآلهة ولا من الشهوات . ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحا . ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة . إنما يبطىء النصر والاستخلاف والتمكين والأمن . لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة ؛ أو في تكليف من تكاليفه الضخمة ؛ حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة ، وتخلفت فطلبت الاستخلاف . .

كل ذلك بوسائله التي أرادها الله ، وبشروطه التي قررها الله . .

تحقق وعد الله الذي لا يتخلف ، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعا .

٤- إقامةُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال تعالى في سورة الحج: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {٤١} ﴾

وَيُتَابِعُ اللهُ تَعَالَى وَصْفَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَظْلُومِينَ فَيَقُولُ : إِنَّهُمُ الذِينَ إِذَا مَكَنَّ اللهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ، وَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرَ والغَلَبَةَ ، وَجَعَلَ لَهُمُ العَاقِبَة ، عَمِلُوا بِأمْرِ اللهِ ، وَاجْتَنُبوا مَا نَهَاهُم عَنْهُ ، فَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وأَدَّوهَا حَقَّ أَدَائِها ، وَدَفَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وَأَمَرُوا بالمعْرُوفِ ، وَحَثُّوا النَّاسَ عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَمَا يُرْضِي اللهَ ، وَنَهَوْا المُتَجَاوِزِينَ عَلَى حُدُودِ اللهِ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ . وَعِنْدَ اللهِ حِسَابُ النَّاسِ جَميعاً فِي نِهَايَةِ المَطَافِ ، وَلَهُ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ، فَيجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ ..

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامح والباطل مسلح .

وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

و لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم . ومن ثم لم يشأ ان يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد . . وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته : { إن الله يدافع عن الذين آمنوا } . .وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتماً : { إن الله لا يحب كل خوان كفور } . .وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلمون غير معتدين ولا متبطرين : { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا } . .

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم : { وان الله على نصرهم لقدير } . .

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة . وذلك فوق انهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق : { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله } . . وهي أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل

هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصـــراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التي تشتجر فيها الأطماع؛ وتتعارض فيها المصـــالح؛ وتختلـــف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع!

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : { ولـــولا دفـــع الله النـــاس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً } . .

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهـــي أوســـع مـــن الصـــوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اســـم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أي دفع حماة العقيدة لأعـــدائها الـــذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول .

ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنـــه . وهـــي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان!

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عـــالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين :{ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور } . .فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهـــو ممنوع حتماً من عدوه ، ظاهر حتماً على عدوه . . ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفـــيم إذن يكتـــب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضـــحية والآلام . . والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذي ندركه نحن البشـــر مـــن تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من « التنابلة » الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بـــلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلمـــا مســـهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء!

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها؛ إنما هي الـــزاد الـــذي يتزودونـــه

للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها؛ ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . . من الأمل والألم . ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة . . ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات . . وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله .

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً!

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . إنما يتترل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل؛ ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه .

وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأيها في سبيل الله . فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه : { ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر؛ ولله عاقبة الأمور } . .

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره . . فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء :

{ الذين إن مكناهم في الأرض } . . فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر . . { أقاموا الصلاة } . . فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين . . { وآتوا الزكـــاة } . . فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوســـة الشـــيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحي كمـــا قـــال رسول الله ﷺ - : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . { وأمروا بالمعروف } . . فدعوا إلى الخير والصـــلاح ، ودفعوا إليه الناس . . { ونهوا عن المنكر } . . فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهي قـــادرة علـــى تحقيقه

٥-الاعتصامُ بحبل الله ووحدة الصف وعدم الفرقة :

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِـــهِ وَلاَ تَمُـــوتُنَّ إِلاَّ وَأَنـــتُم مُّسْـــلِمُونَ {١٠٢} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـــوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُـــمْ آيَاتِـــهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {١٠٣} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَـــاتُ وَأُوْلَـــئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٠٥} آل عمران ﴾

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ بأنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَذَلِكَ بأنْ يُطاعَ فَلاَ يُعْصَى ، وَأنْ يُشْكَرَ فَلا يُكْفَـــرَ ، وَأنْ يُذْكَرَ فَلا يُنْسَى ، وَيَقُولُ لَهُمْ : حَافِظُوا عَلَى الإِسْلاَمِ في حَيَاتِكُمْ لِتَمُوتُوا عَلَيهِ ، فَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيءٍ بُعِثَ عَلَيهِ .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ بالتَّمَسُّكِ بحَبْلِ الله ، أيْ بعَهْدِهِ وَدِينِهِ وَذِمَّتِهِ وَقُرْآنِهِ ، وَمَا أمَرَهُمْ بِهِ مِـــنَ الإِلْفَةِ وَالَمحَبَّةِ وَالاجْتِمَاعِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ ، وَيَطْلُبُ إلَيْهِمْ أنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيهِمْ إذْ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَآخَى بَيْنَهُم بَعْدَ العَدَاوَةِ المُسْتَحْكِمَةِ ، وَالفُرْقَةِ التِي كَانَتْ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَـــزْرَجِ ، فَقَـــدْ كَانُوا عَلَى مِثْلِ شَفِيرِ النَّارِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلاَلِهِمْ وَاقْتِتَالِهِمْ ، فَهَدَاهُمُ اللهُ وَأَنْقَذَهُمْ .

وَكَمَا بَيَّنَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ، فِي هَذِهِ الآيَاتِ ، مَا يُضْمِرُهُ لَهُمُ اليَهُودُ مِنْ شَرٍّ وَخِدَاعٍ وَغِشٍّ ، وَمَا كَـــانُوا عَلَيهِ فِي حَالِ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفُرْقَةٍ وَاقْتِتَالٍ ، وَمَا صَارُوا إليهِ بِفَضْلِ الإِسْلاَمِ مِنْ وَحْدَةٍ وَإِخَاءٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّن سَائِرَ حُجَجِهِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ ، لِيُعِدَّهُمْ لِلاهْتِدَاءِ الدَّائِمِ ، حَتَّـــى لا يَعُـــودُوا إلى عَمَلِ أهْلِ الجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالعَدَاوَةِ وَالاقْتِتَالِ .

لِتَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الأَحْكَامِ ، وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ وَفِقْهَهُ ، تَتَولَّى القِيَامَ بالدَّعْوَةِ إلى الدِّين ، وَتَأمُرُ بالمَعْروفِ ، وتُحَارِبُ المُنْكَرَ ، وتَنْهَى عَنْهُ ، وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُحَارِبَ المُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إلى ذَلِكَ ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الفَائِزُونَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ عَنْ أنْ يَكُونُوا كَأهْلِ الكِتَابِ الذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ ، وَكَانُوا شِيعاً تَذْهَبُ كُل شِيعَةٍ مِنْهَا مَذْهَباً تَدْعُو إليهِ ، وتُخَطِّئُ غَيْرَها ، وَلِذَلِكَ تَعَادَوْا وَاقْتَتَلُوا .

وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ تَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ ، وَتَتَّجِهُ إلى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَمَا تَفَرَّقُوا ، وَلَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . وَهَؤُلاءِ المُخْتَلِفُونَ المُتَفَرِّقُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخُسْرَانٌ فِي الدُّنيا ، وَعَذَابٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ ..

إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم . فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه :

ركيزة الإيمان والتقوى أولاً . . التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل . . التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته } . .

اتقوا الله – كما يحق له أن يتقى – وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدّت له أشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى . وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام!

{ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } . .والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً ، وأن يكون في كل لحظة مسلماً . وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه . وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع منها ، على نحو ما أسلفنا .

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها . إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً . ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة ، إنما تكون هناك مناهج جاهلية . ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية ، إنما تكون القيادة للجاهلية .

فأما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة . . الأخوة في الله ، على منهج الله ، لتحقيق منهج الله : { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } . .فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام . . من الركيزة الأولى . .

أساسها الاعتصام بحبل الله – أي عهده ونهجه ودينه – وليست مجرد تجمع على أي تصور آخـــر ، ولا على أي هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!

{ واعتمصوا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } . .هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها علـــى الجماعة المسلمة الأولى . وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً . وهو هنا يذكرهم هـــذه النعمة . يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية « أعداء » . . وما كان أعدى من الأوس والخـــزرج في المدينة أحد . وهما الحيان العربيان في يثرب . يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقـــدون حـــول هـــذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعاً . ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه ، ولا تعيش إلا معه . فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام . . وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة . وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً . وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله ، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية . ويتجمع الصف تحت لواء الله الكـــبير المتعال . .

{ واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم ينعمته إخواناً } . .

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها ، إنقـــاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله – الركيزة الأولى – وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً – الركيزة الثانية – : { وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها } .

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : « القلب » . . فلا يقول : فألف بينكم . إنمـــا ينفذ إلى المكمن العميق : { فألف بين قلوبكم } فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه . بل مشهداً حياً متحركـــاً تتحـــرك معـــه القلوب : { وكنتم على شفا حفرة من النار } .. وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعـــة ، إذا بالقلوب ترى يد الله ، وهي تدرك وتنقذ! وحبل الله وهو يمتـــد ويعصـــم . وصـــورة النجـــاة والخلاص بعد الخطر والترقب! وهو مشهد متحرك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة! وتكاد العيـــون تتملاه من وراء الأجيال!

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، قَالَ : مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، عَظِيمَ الْكُفْـــرِ ، شَدِيدَ الضِّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ ، عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْـــأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ . فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ جَمَاعَتِهِمْ وَأَلْفَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ : قَدِ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَـــةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ فَأَمَرَ فَتًى شَابًّا مِنَ الْيَهُودِ وَكَانَ مَعَهُ ، فَقَالَ : اعْمِدْ إِلَيْهِمْ ، فَاجْلِسْ مَعَهُمْ وَذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَـــانُوا

تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ . وَكَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ، وَكَانَ الظُّفُرُ فِيهِ لِلْأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ ، فَفَعَلَ ، فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكَبِ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنَ الْأَوْسِ ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ أَحَدُ بَنِي سَلِمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ ، فَتَقَاوَلَا ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنْ شِئْتُمْ وَاللَّهِ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً ، وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ ، وَقَالُوا : قَدْ فَعَلْنَا ، السِّلَاحَ السِّلَاحَ ، مَوْعِدُكُمُ الظَّاهِرَةُ – وَالظَّاهِرَةُ : الْحَرَّةُ – فَخَرَجُوا إِلَيْهَا وَتَحَاوَرَ النَّاسُ ، فَانْضَمَّتِ الْأَوْسُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى دَعْوَاهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى جَاءَهُمْ ، فَقَالَ : " يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهَ اللَّهَ ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُمْ تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا " فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، فَأَلْقَوُا السِّلَاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَبَكَوْا وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ ، قَدْ أَطْفَأَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللَّهِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا الْآيَةَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوْسِ بْنِ قَيْظِيٍّ وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا الَّذِينَ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا مِمَّا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ إِلَى قَوْلِهِ : أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَقِيلَ : إِنَّهُ عَنَى بِقَوْلِهِ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ جَمَاعَةَ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَّامَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ وَالنَّصَارَى ، وَأَنَّ صَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ بِإِخْبَارِهِمْ مَنْ سَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِ نَبِيِّ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، هَلْ يَجِدُونَ ذِكْرَهُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ نَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمْ " [٢٤] .

وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه في التعقيب في الآية : { كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } .فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه ، لقيادة البشرية في طريقه . . هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة ، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله . وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب . كادت ترد المسلمين الأولين كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض . وتقطع بينهم حبل الله المتين ، الذي يتآخون فيه مجتمعين . وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق .

[٢٤] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ(٦٨٥٩) حسن مرسل

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة . فهي تشي - مع ما قبلها في السياق وما بعــدها - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينــة ، وإثــارة الفتنــة والفرقة بكل الوسائل . والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب ، ومن الاســتماع إلى كيدهم ودسهم ، ومن التفرق كما تفرقوا . . هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة ، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار . . وهــو دأب يهود في كل زمان . وهو عملها اليوم وغداً في الصف المسلم ، في كل مكان!

أما إذا كانت مفرقة ومشتتة، فإن النصر لن يكون حليفها، ولذلك صلاح الدين الأيوبي رحمه الله لمــا أراد أن يستخلص بيت المقدس من أيدي الصليبيين أول أمر فعله أن قام بتوحيد أقوى بلدان المسلمين في ذلك الوقت، وهي: مصر والشام، فلما وحدها نهض لقتال الصليبيين، فوحدة الصف المسلم سبب من أسباب النصر والتمكين، وأما إذا كان المسلمون مفرقين فإن النصر منهم بعيد.

٦-يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين :

قال تعالى في سورة المائدة :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّــهُ بِقَــوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٥٤} إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّــذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ {٥٥} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ {٥٦} ﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَيَقُولُ إنَّ الذِينَ يَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِهِمْ مِنَ الإِيمَانِ إلى الكُفْرِ ، وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ ، فَإِنَّ اللهَ سَيَسْتَبْدِلُ بِهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، وَأَشَدُّ مَنَعَــةً ، وَأَقْــوَمُ سَبِيلاً ، يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ : العِزَّةُ عَلَى الكَافِرِينَ ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلاَ يَرُدُّهُمْ رَادٌّ عَنْ إذاعَةِ أَمْرِ اللهِ ، وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ ، وَقِتَــالِ أَعْدَائِهِ ، يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَ فَضْــلُ اللهِ عَلَيْــهِ كَبِيراً ، وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ ، مِمَّنْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إيَّاهُ.

(وَقِيلَ إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، فَقَدْ عَلِمَ اللهُ أنَّ النَّاسَ سَيَرْتَدُّونَ عَنِ الإِسْلاَمِ ، وَأَنَّ عُصْبَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، سَــيَقُومُونَ بِمُحَارَبَةِ الْمُرْتَدِّينَ ، وَأَنَّهُمْ سَيَثْبُتُونَ فِي حَرْبِهِمْ حَتَّى يُتِمَّ اللهُ نَصْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

يَحُثُّ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُوَالاَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وَيُسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُعَفَاءِ وَالمَسَاكِينِ ، وَهُمْ دَائِمُونَ الرُّكُوعِ للهِ .

نَزَلْت هَذِهِ الآيَةُ فِي عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ حِينَ بَرِئَ مِنْ مُوَالاةِ اليَهُودِ ، وَرَضِيَ بِمُوَالاَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ . وَكُلُّ مَنْ رَضِي بِمُوَالاَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤمِنِينَ هُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَهُوَ مَنْصُورٌ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، لأنَّهُ يَكُونُ فِي حِزْبِ اللهِ ، وَحِزْبِ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ ، وَلاَ يُغْلَبُ مَنْ يَتَوَالاَّهُمُ اللهُ .

إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا – على هذه الصورة . وفي هذا المقام – ينصرف – ابتداء – إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام . وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدًا منهم ، منسلخا من الجماعة المسلمة منضما إليهم: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) . .

وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول . .

يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق ، وهو منصب على النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار ، يجمع بينهم على هذا النحو ، الذي يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء ، وأن تفرقة الإسلام في المعاملة بين أهل الكتاب والكفار ، لا تتعلق بقضية الولاء ، إنما هي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء . .

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) . .

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض ، وتمكين سلطانه في حياة البشر ، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة . .

إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته . فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة . .

فهو وذاك ، والله غنى عنه – وعن العالمين . والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم .

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا ، صورة واضحة السمات قوية الملامح ، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) . .

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم . .

الحب . . هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش . .

هو الذي يربط القوم بربهم الودود .

وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله – سبحانه – بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها . .

أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي . .

الذي يعرف من هو الله . . من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكـــون وهو جرم صغير !

من هو في عظمته . ومن هو في قدرته . ومن هو في تفرده . ومن هو في ملكوته . .

من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب . .

والعبد من صنع يديه – سبحانه – وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم ، الأزلي الأبدي ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها . .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا هائلا عظيما ، وفضلا غامرا جزيلا ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذي الذي لا نظير له في مذاقات الحـــب كلـــها ولا شبيه . .

هو إنعام هائل عظيم . . وفضل غامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين . .

وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين – وهم قليل من بين ذلـــك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل – ولا زالت أبيات رابعـــة العدويـــة تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهي تقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض ، وينطبع في كل حي وفي كل شيء ، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنســـاني كلـــه ممثلا في ذلك العبد المحب المحبوب . .

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب . .

وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة . .

إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل:(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهـــم الرحمن ودًا) . .

(إن ربي رحيم ودود) . .(وهو الغفور الودود) . .

(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) . .

(والذين آمنوا أشد حبا لله) . .

(قل:إن كنم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . . وغيرها كثير . .

وعجبا لقوم يمرون على هذا كله ، ليقولوا:إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر ، وعذاب وعقاب ، وجفوة وانقطاع . . .

لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله ، فيربط بين الله والناس ، في هذا الازدواج !

إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك النـــدى الحبيب ،بين الله والعبيد ، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد ، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزية . .

إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين .

وهنا – في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين – يرد ذلك النص العجيب:

(يحبهم ويحبونه) ويطلق شحنته كلها في هذا الجو ، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق . شاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل . .

ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات: (أذلة على المؤمنين) . .

وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين . .

فالمؤمن ذلول للمؤمن . . غير عصي عليه ولا صعب . هين لين . . ميسر مستجيب .

سمح ودود . . وهذه هي الذلة للمؤمنين .

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة . إنما هي الأخوة ، ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلــط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين .

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه . فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه ، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به . . وماذا يبقى لــه في نفسه دونهم ، وقد اجتمعوا في الله إخوانا ؛ يحبهم ويحبونه ، ويشيع هــذا الحـــب العلــوي بينـــهم ويتقاسمونه ؟!

(أعزة على الكافرين) . . فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء . .

ولهذه الخصائص هنا موضع . . إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس . إنمـــا هـــي العـــزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين . إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعــوا الآخـــرين لأنفســـهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين !

ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ؛ وبغلبة قوة الله على تلك القوى ؛ وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية . .

فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك ، في أثناء الطريق الطويل . .

(يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . .

فالجهاد في سبيل الله ، لإقرار منهج الله في الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته في الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس . . هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد . .

وهم يجاهدون في سبيل الله ؛ لا في سبيل أنفسهم ؛ ولا في سبيل قومهم ؛ ولا في سبيل وطنهم ؛ ولا في سبيل جنسهم . .

في سبيل الله . لتحقيق منهج الله ، وتقرير سلطانه ، وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق . . وليس لهم في هذا الأمر شيء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك . .

وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . .

وفيم الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس ؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ، ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة الله ، ويعرضون منهج الله للحياة ؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ؛ ومن يستمد عونه ومدده من عندالناس ؛ أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناسوشهواتهم وقيمهم ؛ وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون . كائنا هؤلاء الناس ما كانوا ؛ وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان ، وكائنة "حضارة " هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون !

إننا نحسب حسابا لما يقول الناس ؛ ولما يفعل الناس ؛ ولما يملك الناس ؛ ولما يصطلح عليه الناس ؛ ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين . .

لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم . . إنه منهج الله وشريعته وحكمه . . فهو وحده الحق وكل ما خالفة فهو باطل ؛ ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون !

إنه ليست قيمة أي وضع ، أو أي عرف ، أو أي تقليد ، أو أية قيمة . .

أنه موجود ؛ وأنه واقع ؛ وأن ملايين البشر يعتنقونه ، ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم . . فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي . إنما قيمة أي وضع ، وأي عرف ، وأي تقليد ، وأية قيمة ، أن يكون لها أصل في منهج الله ، الذي منه – وحده – تستمد القيم والموازين . .

ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم . . فهذه سمة المؤمنين المختارين . .

ثم إن ذلك الاختيار من الله ، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين ، وتلك السمات التي يجعلـــها طابعهم وعنوانهم ، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم ، والسير على هداه في جهادهم . . ذلك كله من فضل الله .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله واسع عليم) .

يعطي عن سعة ، ويعطي عن علم . . وما أوسع هذا العطاء ؛ الذي يختار الله له من يشاء عن علـــم وعن تقدير .

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان ؛ ويبين لهم من يتولـــون: (إنمـــا وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) . .

هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالا للتمحل أو التأول ؛ ولا يترك فرصـــة لتمييـــع الحركـــة الإسلامية أو تمييع التصور . .

و لم يكن بد أن يكون الأمر كذلك !

لأن المسألة في صميمها - كما قلنا - هي مسألة العقيدة . ومسألة الحركة بهذه العقيدة . وليكـــون الولاء لله خالصا ، والثقة به مطلقة ، وليكون الإسلام هو "الدين" . وليكون الأمر أمر مفاصلة بـــين الصف المسلم وسائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام دينا ، ولا تجعل الإسلام منهجا للحياة . ولتكون للحركة الإسلامية جديتها ونظامها ؛ فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة ورايـــة واحـــدة . ولا يكون التناصر إلا بين العصبة المؤمنة ؛ لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة . .

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان ، أو مجرد راية وشعار ، أو مجرد كلمة تقال باللســـان ، أو مجرد نسب ينتقل بالوراثة ، أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكان !

فإن السياق يذكر بعض السمات الرئيسية للذين آمنوا: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون) . .

فمن صفتهم إقامة الصلاة - لا مجرد أداء الصلاة - وإقامة الصلاة تعني أداءها أداء كاملا ، تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . .

والذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يقم الصلاة ؛ فلو أقامها لنهته كما يقول الله !

ومن صفتهم إيتاء الزكاة . . أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبـــة . فليســـت الزكاة مجرد ضريبة مالية ، إنما هي كذلك عبادة . أو هي عبادة مالية . وهذه هـــي ميـــزة المنـــهج الإسلامي . الذي يحقق أهدافا شتى بالفريضة الواحدة . وليس كذلك الأنظمة الأرضية الـــتي تحقـــق هدفا وتفرط في أهداف . .

إنه لا يغني في إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة [مدنية !] أو أن يأخذ المـــال مـــن الأغنياء للفقراء باسم الدولة ، أو باسم الشعب ، أو باسم جهة أرضية ما . . فهي في صورتها هذه قد تحقق هدفا واحدا ؛ وهو إيصال المال للمحتاجين . .

فأما الزكاة . .

فتعني اسمها ومدلولها . . إنها قبل كل شيء طهارة ونماء . .

إنها زكاة للضمير بكونها عبادة لله . وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء ، بمـــا أنهـــا عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة ، كما يرجو منها نماء المـــال في الحيـــاة الـــدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادي المبارك . ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخـــذين أنفســـهم ؛ إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء ؛ ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من إخوانهم الأغنياء [مع تذكر أن الأغنياء في النظام الإسلامي لا يكسبون إلا من حلال ولا يجـــورون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال] . .

وفي النهاية تحقق هدف الضريبة المالية في هذا الجو الراضي الخير الطيب . .

جو الزكاة والطهارة والنماء . .

وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله في شئون الحياة ؛ فهي إقرار منهم بسلطان الله في أمرهم كله . .

وهذا هو الإسلام . .

(وهم راكعون) . . ذلك شأنهم ، كأنه الحالة الأصلية لهم . .

ومن ثم لم يقف عند قوله: (يقيمون الصلاة) . . فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل . إذ أنهـــا تـــرسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم . فأبرز سمة لهم هي هذه السمة ، وبها يعرفون . .

وما أعمق إيحاءات التعبيرات القرآنية في مثل هذه المناسبات !

والله يعد الذين آمنوا – في مقابل الثقة به ، والالتجاء إليه ، والولاء له وحده – ولرسوله وللمـــؤمنين بالتبعية . .

ومقابل المفاصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذي يتمحض لله . . يعدهم النصـــر والغلبة: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) . .

وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها . .

وأنها هي الولاء لله ورسوله وللمؤمنين ؛ وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتباره خروجـــا من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى ، وارتدادا عن الدين . .

وهنا لفتة قرآنية مطردة . .

فالله – سبحانه – يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير ! لا لأنه سيغلب ، أو سيمكن له في الأرض ؛ فهذه ثمرات تأتي في حينها ؛ وتأتي لتحقيق قدر الله في التمكين لهذا الدين ؛ لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين . . والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم . لا شيء لذواتهم وأشخاصهم . وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم ، ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم ! فيكون لهم ثواب الجهد فيه ؛ وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين الله في الأرض ، وصلاح الأرض بهذا التمكين . . كذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم ؛ وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم – وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة – فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة ؛ وتخطي العقبة ، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة ، فيكون لهم ثواب الجهاد ، وثواب التمكين لدين الله ، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين .

كذلك يشي ورود هذا النص في هذا المجال ، بحالة الجماعة المسلمة يومذاك ، وحاجتها إلى هذه البشريات . بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب الله . . مما يرجح ما ذهبنا إليه من تاريخ نزول هذا القطاع من السورة . ثم تخلص لنا هذه القاعدة ؛ التي لا تتعلق بزمان ولا مكان . .

فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التي لا تتخلف . وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف . فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب الله هم الغالبون . .

ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل الطريق !

وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقق وعد الله في نهاية الطريق !

٧–بالجهاد في سبيل الله تلك الفريضة الشاقة

قال تعالى : *كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ* (٢١٦) سورة البقرة

كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بالإِنْفَاقِ عَلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ لِحِمَايَةِ المُجْتَمَعِ مِنْ دَاخِلِهِ ، كَذلِكَ فَرَضَ اللهُ الجِهَادَ عَلَى المُسْلِمِينَ ، وَمُحَارَبَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ ، لِيَكُفُّوا عَنْ الجَمَاعَةِ المُسْلِمَةِ شَرَّ أَعْدَائِها . وَالجِهَادُ فَرْضُ كِفَايَة إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ الأُمَّةِ سَقَطَ عَنِ البَاقِينَ ، وَالجِهَادُ وَاجبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ غَزا أَوْ قَعَدَ ، فَالقَاعِدُ عَلَيهِ أَنْ يُعِينَ إذا اسْتَعَانَ بِهِ النَّاسُ ، وَأَنْ يُغيثَ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِهِ ، وَأَنْ يَنْفِرَ إذا اسْتُنْفِرَ .

وَيَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى : أَنَّ الجِهَادَ فِيهِ كُرْهٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى الأَنْفُسِ ، مِنْ تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ السَّفَرِ ، إِلَى مَخَاطِرِ الحُرُوبِ وَمَا فِيهَا مِنَ جَرْحٍ وَقَتْلٍ وَأَسْرٍ ، وَتَرْكٍ لِلْعِيَالِ ، وَتَرْكٍ لِلتِّجَارَةِ وَالصَّنْعَةِ وَالعَمَلِ . . إلخ ، وَلكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ الخَيْرُ لأَنَّهُ قَدْ يَعْقُبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ بِالأَعْدَاءِ ، وَالاستِيلاءُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَبِلاَدِهِمْ .

وَقَدْ يُحِبُّ المَرْءُ شَيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَهُ ، وَمِنْهُ القُعُودُ عَنِ الجِهَادِ ، فَقَدْ يَعْقُبُهُ استِيلاءُ الأَعْدَاءِ عَلَى الـبِلادِ وَالحُكْمِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُها العِبَادُ .

إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة . ولكنها فريضة واجبة الأداء . واجبة الأداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة ، وللبشرية كلها . وللحق والخير والصلاح .

والإسلام يحسب حساب الفطرة ؛ فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا يهون من أمرها . ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها . فالإسلام لا يماري في الفطرة ، ولا يصادمها ، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل . . ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، ويسلط عليه نورا جديدا إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ؛ ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسيغ مرارته ، وتحقق به خيرا مخبوءا قد لا يراه النظر الإنساني القصير . .

عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ؛ ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها . نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور . .

إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرا . ووراء المحبوب شرا . إن العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذي يعلم وحده . حيث لا يعلم الناس شيئا من الحقيقة .

وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة ، وتتفتح منافذ الرجاء ، ويستروح القلب في الهاجرة ، ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين وفي رضاء .

هكذا يواجه الإسلام الفطرة ، لا منكرا عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية ، ولا مريدا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف . ولكن مربيا لها على الطاعة ، ومفسحا لها في الرجاء . لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير ؛ ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة ، ولتحس بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها ، ويعترف بمشقة ما كتب عليها ، ويعذرها ويقدرها ؛ ويحدو لها بالتسامي والتطلع والرجاء .

وهكذا يربي الإسلام الفطرة ، فلا تمل التكليف ، ولا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند المشقة البادية ، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة . ولكن تثبت وهي تعلم أن الله يعذرها ويمدها بعونه ويقويها . وتصمم على المضي في وجه المحنة ، فقد يكمن فيها الخير بعد الضر ، واليسر بعد العسر ، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء . ولا تتهالك على ما تحب وتلتذ . فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة ! وقد يكون المكروه مختبئا خلف المحبوب . وقد يكون الهلاك متربصا وراء المطمع البراق .

إنه منهج في التربية عجيب . منهج عميق بسيط . منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة . بالحق وبالصدق . لا بالإيحاء الكاذب ، والتمويه الخادع . . فهو حق أن

تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرا ويكون فيه الخير كل الخير . وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرا وتتهالك عليه . وفيه الشر كل الشر . وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون ! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب ؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل ؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور ؟!

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه . وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون ، وتقلب الأمور ، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه . وإنها لتتركه حين يستجيب لها طيعا في يد القدر ، يعمل ويرجو ويطمع ويخاف ، ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل ، وهو راض قرير . . إنه الدخول في السلم من بابه الواسع . .

فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله . وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان !

إن الإذعان الواثق والرجاء الهادىء والسعي المطمئن . .

هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة . .

وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط . في يسر وفي هوادة وفي رخاء . يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال . فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال .

وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني ، لا يقف عند حد القتال ، فالقتال ليس إلا مثلا لما تكرهه النفس ، ويكون من ورائه الخير . .

إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها . ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها . . إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر . .

لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها ، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة . لا فئة الحامية المقاتلة من قريش . ولكن الله جعل القافلة تفلت ، ولقاهم المقاتلة من قريش !

وكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام . فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين !

وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم ؟ والله يعلم والناس لا يعلمون !

ولقد نسي فتى موسى ما كانا قد أعداه لطعامهما – وهو الحوت – فتسرب في البحر عند الصخرة . (فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال:أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . .

قال:ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا . . .) . .

وكان هذا هو الذي خرج له موسى . ولو لم يقع حادث الحوت ما ارتدا . ولفاتهما ما خرجا لأجله في الرحلة كلها !

وكل إنسان - في تجاربه الخاصة - يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائهاالخير العميم . ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه . وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها . ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشيء له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل .

إن الإنسان لا يعلم . والله وحده يعلم . فماذا على الإنسان لو يستسلم

إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية . لتؤمن وتسلم وتستلم في أمر الغيب المخبوء ، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف . .

٨-لا يوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه :

قال تعالى في سورة المجادلة :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ {٢٠} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ {٢١} لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٢٢} ﴾

إنَّ الذِينَ يُخَالِفُونَ أَوَامِرَ الله ، وَيُعَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَمْتَنِعُونَ عَنِ القِيَامِ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، هُمْ فِي جُمْلَةِ أَهْلِ الذِّلَّةِ ، لأنَّ الغَلَبَةَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنينَ ، وَسَيُلاَقُونَ الذِّلَّةَ فِي الدُّنْيَا بِالقَتْلِ والأَسْرِ وَالإِخْرَاجِ ، وَفِي الآخِرَةِ بالخِزْيِ وَالنَّكَالِ وَالعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وَقَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى ، وَحَكَمَ فِي أُمِّ الكِتَابِ ، بِأَنَّ النَّصْرَ والغَلَبَةَ سَتَكُونُ لَهُ تَعَالَى ، وَلِرَسُولِهِ ولِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَقَضَاءُ اللهِ نَافِذٌ لاَ مَحَالَةَ ، وَلاَ رَادَّ لَهُ ، وَاللهُ قَوِيٌّ لاَ يُقْهَرُ ، عَزِيزٌ لاَ يُغَالَبُ .

لاَّ تَجِدُ قَوْماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيْمَانِ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَبَينَ مُوَادَّةِ أَعْدَاءِ اللهِ وَأَعْدَاءِ رَسُولِهِ ، لأَنَّ المُؤْمِنِينَ حَقّاً لاَ يُوَالُونَ الكَافِرِينَ ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ الكَافِرُونَ هُمْ أَهْلَهُمْ ، وَأَقْرِبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ الذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيهِمْ ، وَالمُؤْمِنُونَ الذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ مُوَادَّةِ الكَافِرِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أَقْرِبَاءَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ ، هُمُ الذِينَ ثَبَّتَ اللهُ الإِيْمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى ، وَقَوَّاهُمْ بِطُمَأْنِينَةِ القَلْبِ ،

وَالثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ { وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ } ، وَسَيُدْخِلُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَيَبْقَوْنَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، فَـأَدْخَلَهُمُ الجَنَّـاتِ ، وَرَضُوا بِمَا آتَاهُم اللهُ عَنْهُمْ ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، فَأَدْخَلَهُمُ الجَنَّاتِ ، وَرَضُوا بِمَا آتَاهُم اللهُ مِـنْ فَضْلِهِ ، وَبِمَا عَوَّضَهُمْ بِهِ لإِسْخَاطِهِم الأَقَارِبَ وَالأَبْنَاءَ . وَهَؤُلاَءِ هُم أَنْصَارُ اللهِ ، وَجُنْدُهُ ، وَحِزْبُـهُ ، وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ ، وَهُمْ أَهْلُ الفَلاَحِ وَالسَّعَادَةِ والنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ..

. وهذا وعد الله الصادق الذي كان والذي لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض ؛ ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض - كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية - فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة . فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد ، لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة ، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة ، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين ، يحميهم من الانهيار ، ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ، ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه . . حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى . يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل !!

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود ، وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون ، وأن الله ورسله هم الغالبون . وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون . ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون !

وفي النهاية تجيء القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون ، أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس:(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو

إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هـم المفلحون) . .

إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائي للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد .

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . .

فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين:ودا لله ورسـوله وودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .

(ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) . .

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكـن هنـاك محـادة وخصومة بين اللوائين:لواء الله ولواء الشيطان . والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت المحـادة والمشـاقة والحـرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبـو عبيدة أباه في يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب بن عمير أخـاه عبيد بن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) . .فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن . فلا زوال له ولا اندثار ، ولا انطماس فيه ولا غموض !

(وأيدهم بروح منه) . .وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكـن أن تشـرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق ، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق .

(ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) . .جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطـة وآصرة ؛ ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه) . .وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة ، ترسم حالة المؤمنين هـؤلاء ، في مقام عال رفيع . وفي جو راض وديع . . ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم . انقطعوا عـن كل شيء ووصلوا أنفسهم به ؛ فتقبلهم في كنفه ، وأفسح لهم في جنابه ، وأشعرهم برضاه . فرضوا . رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه . .

(أولئك حزب الله) . .فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه . فهي قدر من قدر الله .

(ألا إن حزب الله هم المفلحون) .ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ؟
وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين:حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين:راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . . وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان !!
لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية . . أنما هي العقيدة ، والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم ، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله ، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت رايةالباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض ، ولا من جنس ، ولا من وطن ولا من لون ، ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر . . لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فأنبتت هذه الوشائج جميعا . .
ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة ، مما تعالجه هذه الآية في النفوس ، وهي تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم ، والمفاضلة القاطعة . . إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة ، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام .
وهذه الصورة هي أنسب ختام للسورة التي بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة في واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسوله ﷺ في شأنها وشأن زوجها !
فالانقطاع لله الذي يرعى هذه الأمة مثل هذه الرعاية هو الاستجابة الطبيعية . والمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هي الأمر الذي لا ينبغي غيره للأمة التي اختارها الله للدور الكوني الذي كلفها إياه .

٩-الإيثارُ :

قال تعالى في سورة الحشر: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٩}
أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَى الأَنْصَارِ مُبِيِّناً فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ ، حِينَ جَعَلَ اللهُ الفَيءَ لإِخْوَانِهِم المُهَاجِرِينَ دُونَهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : والذِينَ سَكَنُوا دَارَ الهِجْرَةِ قَبْلَ المُهَاجِرينَ ، وَآمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ ، يُحِبُّونَ المُهَاجِرِينَ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُمُ الخَيْرَ ، كَمَا يَتَمَنَّوْنَهُ لأَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ أَسْكَنُوا المُهَاجِرِينَ

فِي دُورِهِمْ ، وَأَشْرَكُوهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضِ نِسَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ . وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَنُفُوسُهُمْ طَيِّبَةٌ ، وَأَعْيُنُهُمْ قَرِيرَةٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ، لاَ يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَداً لِلْمُهَاجِرِينَ . وَلاَ ضِيقاً بِهِمْ لِمَا فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ المَنْزِلَةِ والشَّرَفِ وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ والرُّتْبَةِ ، وَلِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ مَغْنَمِ بَنِي النَّضِيرِ دُونَهُمْ .

(رُوِيَ أَنَّ المُهَاجِرِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ حُسْنَ مُوَاسَاةٍ فِي قَلِيلٍ ، وَلاَ حُسْنَ بَذْلٍ فِي كَثِيرٍ ، لَقَدْ كَفَوْنَا المُؤْنَةَ ، وَأَشْرَكُونَا فِي المَهْنَأ ، حَتَّى لَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ . قَالَ : لاَ . مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ ، وَدَعَوْتُمْ لَهُمُ اللهَ) .

وَهُمْ يُقَدِّمُونَ أَهْلَ الحَاجَةِ مِنَ المُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَيَبْدَؤُونَ بالنَّاسِ قَبْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ .وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ " . (البُخَارِيُّ) .

وَمَنْ سَلِمَ مِنْ آفَةِ الحِرْصِ عَلَى المَالِ وَالبُخْلِ ، فَقَدْ فَازَ وَأَفْلَحَ .

(وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، واتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُحَّ قَدْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَطُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ") .. (مسلم)

وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم فِي قَوْله تَعَالَى " وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورهمْ حَاجَة مِمَّا أُوتُوا " يَعْنِي مِمَّا أُوتُوا الْمُهَاجِرُونَ قَالَ وَتَكَلَّمَ فِي أَمْوَال بَنِي النَّضِير بَعْض مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْأَنْصَار فَعَاتَبَهُمْ اللَّه فِي ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى " وَمَا أَفَاءَ اللَّه عَلَى رَسُوله مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْل وَلَا رِكَاب وَلَكِنَّ اللَّه يُسَلِّط رُسُله عَلَى مَنْ يَشَاء وَاَللَّه عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير " قَالَ : وَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ " إِنَّ إِخْوَانكُمْ قَدْ تَرَكُوا الْأَمْوَال وَالْأَوْلَاد وَخَرَجُوا إِلَيْكُمْ " فَقَالُوا أَمْوَالنَا بَيْننَا قَطَائِع فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ " أَوَغَيْر ذَلِكَ " قَالُوا وَمَا ذَاكَ يَا رَسُول اللَّه ؟ قَالَ " هُمْ قَوْم لَا يَعْرِفُونَ الْعَمَل فَتَكْفُونَهُمْ وَتُقَاسِمُونَهُمْ الثَّمَر " فَقَالُوا نَعَمْ يَا رَسُول اللَّه .

وَقَوْله تَعَالَى" وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسهمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة " يَعْنِي حَاجَة أَيْ يُقَدِّمُونَ الْمَحَاوِيج عَلَى حَاجَة أَنْفُسهمْ وَيَبْدَءُونَ بِالنَّاسِ قَبْلهمْ فِي حَال اِحْتِيَاجهمْ إِلَى ذَلِكَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ " أَفْضَل الصَّدَقَة جَهْد الْمُقِلّ " وَهَذَا الْمَقَام أَعْلَى مِنْ حَال الَّذِينَ وَصَفَ اللَّه بِقَوْلِهِ تَعَالَى " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَام عَلَى حُبّه " وَقَوْله " وَآتَى الْمَال عَلَى حُبّه " فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ وَقَدْ لَا يَكُون لَهُمْ حَاجَة إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَة بِهِ وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسهمْ مَعَ خَصَاصَتهمْ وَحَاجَتهمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ وَمِنْ هَذَا الْمَقَام تَصَدَّقَ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّه عَنْهُ بِجَمِيعِ مَاله فَقَالَ لَهُ رَسُول اللَّه ﷺ" مَا أَبْقَيْت لِأَهْلِك ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أَبْقَيْت لَهُمْ اللَّه وَرَسُوله وَهَكَذَا الْمَاء الَّذِي عُرِضَ عَلَى عِكْرِمَة وَأَصْحَابه يَوْم الْيَرْمُوك فَكُلّ مِنْهُمْ يَأْمُر بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبه وَهُوَ جَرِيح مُثْقَل أَحْوَج مَا يَكُون إِلَى الْمَاء فَرَدَّهُ الْآخَر إِلَى الثَّالِث فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِث حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرهمْ وَلَمْ يَشْرَبهُ أَحَد مِنْهُمْ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ

وَقَالَ الْبُخَارِيّ حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم بْن كَثِير حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة حَدَّثَنَا فُضَيْل بْن غَزْوَان حَدَّثَنَا أَبُو حَازِم الْأَشْجَعِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ : أَتَى رَجُل لِرَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ يَا رَسُول اللَّه أَصَابَنِي الْجَهْد فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِد عِنْدهنَّ شَيْئًا فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ" أَلَا رَجُل يُضَيِّف هَذَا اللَّيْلَة رَحِمَهُ اللَّه " فَقَامَ رَجُل مِنْ الْأَنْصَار فَقَالَ أَنَا يَا رَسُول اللَّه فَذَهَبَ إِلَى أَهْله فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ هَذَا ضَيْف رَسُول اللَّه ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا فَقَالَتْ وَاَللَّه مَا عِنْدِي إِلَّا قُوت الصِّبْيَة قَالَ فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَة الْعَشَاء فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاج وَنَطْوِي بُطُوننَا اللَّيْلَة فَفَعَلَتْ ثُمَّ غَدَا الرَّجُل عَلَى رَسُول اللَّه ﷺ فَقَالَ " لَقَدْ عَجِبَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ – أَوْ ضَحِكَ – مِنْ فُلَان وَفُلَانَة " وَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى" وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسهمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة " وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي مَوْضِع آخَر وَمُسْلِم وَالنَّسَائِيّ مِنْ طُرُق عَنْ فُضَيْل بْن غَزْوَان بِهِ وَفِي رِوَايَة لِمُسْلِمٍ تَسْمِيَة هَذَا الْأَنْصَارِيّ بِأَبِي طَلْحَة رَضِيَ اللَّه عَنْهُ .

وَقَوْله تَعَالَى " وَمَنْ يُوقَ شُحّ نَفْسه فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ" أَيْ مَنْ سَلِمَ مِنْ الشُّحّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ قَالَ أَحْمَد حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق أَخْبَرَنَا دَاوُد بْن قَيْس الْفَرَّاء عَنْ عُبَيْد اللَّه بْن مِقْسَم عَنْ جَابِر بْن عَبْد اللَّه أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ " إِيَّاكُمْ وَالظُّلْم فَإِنَّ الظُّلْم ظُلُمَات يَوْم الْقِيَامَة وَاتَّقُوا الشُّحّ فَإِنَّ الشُّحّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمهمْ " اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم فَرَوَاهُ عَنْ الْقَعْنَبِيّ عَنْ دَاوُد بْن قَيْس بِهِ .وَقَالَ الْأَعْمَش وَشُعْبَة عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة عَنْ عَبْد اللَّه بْن الْحَارِث عَنْ زُهَيْر بْن الْأَقْمَر عَنْ عَبْد اللَّه بْن عَمْرو رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ " اِتَّقُوا الظُّلْم فَإِنَّ الظُّلْم ظُلُمَات يَوْم الْقِيَامَة وَاتَّقُوا الْفُحْش فَإِنَّ اللَّه لَا يُحِبّ الْفُحْش وَلَا التَّفَحُّش وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا " وَرَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد مِنْ طَرِيق شُعْبَة وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق الْأَعْمَش كِلَاهُمَا عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة بِهِ وَقَالَ اللَّيْث عَنْ يَزِيد بْن الْهَادّ عَنْ سُهَيْل بْن أَبِي صَالِح عَنْ صَفْوَان بْن أَبِي يَزِيد عَنْ الْقَعْقَاع بْن الْجُلَاح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول اللَّه ﷺ يَقُول : " لَا يَجْتَمِع غُبَار فِي سَبِيل اللَّه وَدُخَان جَهَنَّم فِي جَوْف عَبْد أَبَدًا وَلَا يَجْتَمِع الشُّحّ وَالْإِيمَان فِي قَلْب عَبْد أَبَدًا " وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم ثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَبْدَة بْن سُلَيْمَان أَخْبَرَنَا اِبْن الْمُبَارَك حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِيّ عَنْ جَامِع بْن شَدَّاد عَنْ الْأَسْوَد بْن هِلَال قَالَ جَاءَ رَجُل إِلَى عَبْد اللَّه فَقَالَ يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن إِنِّي أَخَاف أَنْ أَكُون قَدْ هَلَكْت فَقَالَ لَهُ عَبْد اللَّه وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ سَمِعْت اللَّه يَقُول " وَمَنْ يُوقَ شُحّ نَفْسه فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ " وَأَنَا رَجُل شَحِيح لَا أَكَاد أَنْ أُخْرِج مِنْ يَدِي شَيْئًا فَقَالَ عَبْد اللَّه : لَيْسَ ذَلِكَ بِالشُّحِّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّه فِي الْقُرْآن إِنَّمَا الشُّحّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّه فِي الْقُرْآن أَنْ تَأْكُل مَال أَخِيك ظُلْمًا وَلَكِنْ ذَاكَ الْبُخْل وَبِئْسَ الشَّيْء الْبُخْل .

وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ طَارِق بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ أَبِي الْهَيَّاج الْأَسَدِيّ قَالَ كُنْت أَطُوف بِالْبَيْتِ فَرَأَيْت رَجُلًا يَقُول اللَّهُمَّ قِنِي شُحّ نَفْسِي لَا يَزِيد عَلَى ذَلِكَ فَقُلْت لَهُ فَقَالَ إِنِّي إِذَا

وُقِيت شُحّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِق وَلَمْ أَزْنِ وَلَمْ أَفْعَل وَإِذَا الرَّجُل عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف رَضِيَ اللَّه عَنْهُ رَوَاهُ اِبْن جَرِير وَقَالَ اِبْن جَرِير حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن إِسْحَق حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن الدِّمَشْقِيّ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش حَدَّثَنَا مُجَمِّع ابْن جَارِيَة الْأَنْصَارِيّ عَنْ عَمّه يَزِيد بْن جَارِيَة عَنْ أَنَس بْن مَالِك عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ " بَرِيء مِنْ الشُّحّ مَنْ أَدَّى الزَّكَاة وَقَرَى الضَّيْف وَأَعْطَى فِي النَّائِبَة .

لم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخي . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليروى أنه لم يترل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين! { ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا } . . مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفيء ، فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا . ولا يقول : حسداً ولا ضيقاً ، إنما يقول : { شيئاً } . مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم ، فلا تجد شيئاً أصلاً .{ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة } . . والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً . وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً .{ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون } . . فهذا الشح . شح النفس . وهو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل في صورة من الصور . بذل في المال . وبذل في العاطفة . وبذل في الجهد . وبذل في الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائماً أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي . ومن يوق شح نفسه ، فقد وقي هذا المعوّق عن الخير ، فانطلق إليه معطياً باذلاً كريماً . وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه .

١٠- الرحمةُ الشاملةُ :

قال تعالى في سورة الفتح :﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا {٢٩} ﴾

إن مُحمداً ﷺ رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً ، بلاَ شَكٍّ وَلاَ رَيب ، وَإِنَّ أَصْحَابَهُ يَتَّصِفُونَ بالصِّفَاتِ الجَمِيلةِ الحَسَنةِ ، فَهُمْ أشِدَّاءٌ غِلاَظُ القُلُوبِ عَلَى الكُفارِ ، وَهُمْ رُحَماءُ مُتَوَادُّونَ فيما بَيْنَهم يَرَاهُم النَّاظِرُ إليهِمْ دَائِبينَ عَلَى أَدَاءِ الصَّلاَةِ ، مُخْلِصِينَ فيها للهِ ، مُحْتَسِبينَ أجْرَهَا عِنْدَ اللهِ ، يَبْتَغُونَ بِصَلاتِهِمْ رِضَا اللهِ

وَرِضْوَانَهُ ، تَتْرُكُ نُفُوسُهُمُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَثَراً عَلَى وُجُوهِهِمْ ، فَهِي هَادِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ مَسْتَبْشِرَةٌ ، وَهَـذِهِ هِـيَ صِفَاتُ الْمُؤمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ فِي التوراةِ . وَجَاءَ وَصْفُهُمْ فِي الإِنجيلِ أَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ سَيَكُونُونَ قَليلينَ ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيكْثُرُونَ وَيَسْتَغْلظُونَ كَزَرْعٍ أخْرَجَ مُحَمَّدٍ سَيَكُونُونَ قَلِـيلينَ ثُـمَّ يَـزْدَادُونَ وَيَكْثُـرُونَ وَيَسْتَغْلظُونَ كَزَرْعٍ أخْرَجَ فُروعَهُ (شَطْأَهُ) التي تَتَفَرَّعُ مِنْهُ عَلَى جَوَانبِهِ ، فَيَقْوى وَيَتَحَوَّلُ من الدِّقَّـةِ إِلى الغِلْظَةِ ، وَيَستَقيمُ عَلَى أصُولِهِ فَيُعْجَبُ بِهِ الزَّراعِ لِخِصْبِهِ ، وَقُوَّتِهِ ، وَحُسْنِ مَظْهَرِهِ ، وَقَدْ نَمَّـاهُمُ اللهُ وأكْثَرَ عَدَدَهُم لِيَغِيظَ بهم الكُفَّارَ ، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، العَامِلِينَ للصَّالِحَاتِ ، بأن يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهمْ ، وَأَنْ يُجزِلَ لَهُمُ الأجْرَ والعَطَاءَ ، وبِأنْ يُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِهِ ، وَاللهُ لاَ يُخْلِفَ وَعْدَهُ أبداً

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِىَّ -ﷺ- : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْـلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ » سنن أبى داود [٢٥].

وفي صحيح مسلم (٦٧٥١)عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- :« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِـى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَـائِرُ الْجَسَـدِ بِالسَّـهَرِ وَالْحُمَّى »

وفي صحيح البخارى (٤٨١)عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » . وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حـالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسـهم : { أشداء على الكفار رحماء بينهم } ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم : { تراهم ركعاً سجداً } . . ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها : { يبتغون فضلاً من الله ورضواناً } . . ولقطة تصـور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم : { سيماهم في وجوههم من أثر السجود } . . { ذلك مثلهم في التوراة } . . وهذه صفتهم فيها . . ولقطات متتابعة تصورهم كمـا هـم في الإنجيل . . { كزرع أحرج شطأه } { فآزره } . . { فاستغلظ } { فاستوى على سـوقه } . { يعجب الزراع } . . : { ليغظ بهم الكفار } . .

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - ﷺ - صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين : { محمد رسول الله } . . ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى . ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حيـاتهم ، ونقـط الارتكـاز الأصيلة في هذه الحياة .وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة . . وإرادة التكريم

---

[٢٥] – سنن أبى داود برقم (٤٩٤٣) وسنن الترمذى برقم (٢٠٤٩) صحيح

واضحة في اختيار هذه اللقطات ، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها . التكـريم الإلهـي لهـذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : { أشداء على الكفار رحماء بينهم } . . أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنـهم قطعـوا هـذه الوشائج جميعاً . رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين . فهي الشدة لله والرحمة لله . وهي الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فـيهم شـيء . وهـم يقيمـون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحـدها . يشـتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغـير الله ، والوشيجة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبـادة : { تراهم ركعاً سجداً } . . والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهـم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم؛ فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً .واللقطـة الثالثـة مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : { يبتغون فضلاً من الله ورضـواناً } . . فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة . كل ما يشغل بالهم ، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم ، هـو فضل الله ورضوانه . ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .واللقطـة الرابعـة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم ، ونضحها على سماتهم : { سيماهم في وجوهم من أثر السجود } . . سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف . وليست هذه السيما في النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : { من أثر السجود } . . فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة . واختـار لفـظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشـوع . أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة . ويحل مكانها التواضـع النبيـل ، والشفافية الصافية ، والوضاءة الهادئة ، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً . وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة : {ذلك مثلهم في التوارة } . . وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بما قبل أن يجيئوا إليها .{ ومثلهم في الإنجيل } . . وصـفتهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : { كزرع أخرج شطأه } . . فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخـه ، من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده . { فآزره } . أو أن العـود آزر

فرخه فشده . { فاستغلظ } الزرع وضخمت ساقه وامتلأت . { فاستوى على سوقه } لا معوجا ومحنيا .

وقال تعالى : {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} (١٧) سورة البلد

وَقَوْله تَعَالَى " وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" أَيْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ صَالِحًا الْمُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاس وَعَلَى الرَّحْمَة بِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الشَّرِيف " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمهُمْ الرَّحْمَن اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْض يَرْحَمكُمْ مَنْ فِي السَّمَاء " وَفِي الْحَدِيث الْآخَر " لَا يَرْحَم اللَّه مَنْ لَا يَرْحَم النَّاس " وَقَالَ أَبُو دَاوُد حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْن أَبِي شَيْبَة حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ اِبْن أَبِي نَجِيح عَنْ اِبْن عَامِر عَنْ عَبْد اللَّه بْن عَمْرو يَرْوِيه قَالَ : مَنْ لَمْ يَرْحَم صَغِيرنَا وَيَعْرِف حَقّ كَبِيرنَا فَلَيْسَ مِنَّا .والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة . والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس . تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضاً بالصبر على العبء المشترك؛ ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل؛ ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . وإن يكن قائماً على الصبر الفردي . وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام؛ ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .وكذلك التواصي بالمرحمة . فهو أمر زائد على المرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجباً جماعياً فردياً في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه . وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ﷺ لأهميته في تحقيق هذا الدين . فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً . .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة كما وصفها القرآن وحددها { أولئك أصحاب الميمنة } . . وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة . . وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان . وأن يقفوا أمامها طويلاً . ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها .

لقد خرَّجت هذه الدعوة جيلاً من الناس – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – جيلاً مميزًا في تاريخ الإسلام كله وفى تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى ..

نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة .

هذه ظاهرة واضحة واقعة ، ذات مدلول ينبغي الوقوف أمامه طويلاً ، لعلنا نهتدي إلى سرِّه

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا ، وحديث رسول الله – ﷺ – وهديه العملي ، وسيرته الكريمة ، كلها بين أيدينا كذلك ، كما كانت بين أبدي ذلك الجبل الأول ، الذي لم يتكرر في التاريخ ..

و لم يغب إلا شخص رسول الله – ﷺ – فهل هذا هو السر ؟

لو كان وجود شخص رسول الله – ﷺ – حتميًّا لقيام هذه الدعوة ، وإيتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكَّل إليها أمر الناس في هذه الأرض ، إلى آخر الزمان ..

ولكن الله – سبحانه – تكفل بحفظ الذِّكْر ، و علم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله – ﷺ – ويمكن أن تؤتي ثمارها . فاختاره إلى جواره بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الرسالة ، وأبقى هذا الدِّين من بعده إلى آخر الزمان ..

وإذن فإن غيبة شخص رسول الله – ﷺ – لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها

فلنبحث إذن وراء سبب آخر . لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الأول ، فلعل شيئاً قد تغير فيه . ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه ، فلعل شيئاً قد تغير فيه كذلك .

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده . فما كان حديث رسول الله – ﷺ – وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع . فعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها – عن خُلق رسول الله – ﷺ – قالت : " كان خُلقه القرآن " ( ) .

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه ، ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، و لم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة ، ولا ثقافة ، ولا علم ، ولا مؤلفات ، ولا دراسات .. كلا ! فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه ، أو على امتداده . وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم . وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك . وحضارات أخرى قاصية ودانية : حضارة الهند وحضارة الصين إلخ . وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها ، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة .. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده .. في فترة تكونه .. وإنما كان ذلك عن " تصميم " مرسوم ، ونهج مقصود . يدل على هذا القصد غضب رسول الله – ﷺ – وقد رأى في يد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه — صحيفة من التوراة . وقوله : " إنه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني " ( ) .

وإذن فقد كان هناك قصد من رسول الله – ﷺ – أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل .. في فترة التكون الأولى .. على كتاب الله وحده ، لتخلص نفوسهم له وحده . ويستقيم عودهم على منهجه وحده . ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يستقي من نبع آخر .

كان رسول الله – ﷺ – يريد صنع جيل خالص القلب . خالص العقل . خالص التصور . خالص الشعور . خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم .

ذلك الجيل استقى إذن من ذلك النبع وحده . فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد ..

ثم ما الذي حدث ، اختلطت الينابيع . !

صبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية فلسفة الإغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، وإسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات . واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والأصول أيضًا . وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل أبدًا .

وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملاً أساسيًّا من عوامل ذلك الاختلاف البيِّن بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد .

هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع . ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد ..

إنهم – في الجيل الأول – لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع . لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته . إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه !

ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

هذا الشعور .. شعور التلقي للتنفيذ ..

كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ، ويخفف عنهم ثقل التكاليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي ، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف ، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة .

إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح : روح المعرفة المنشئة للعمل . إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ، ولا كتاب أدب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ – وإن كان هذا كله من محتوياته – إنما جاء ليكون منهاج حياة . منهاجًا إلهيًّا خالصًا . وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقًا ، يتلو بعضه بعضًا : { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [الإسراء : ١٠٦]

لم ينزل هذا القرآن جملة ، إنما نزل وفق الحاجات المتجددة ، ووفق النمو المطَّرِد في الأفكار والتصورات ، والنمو المُطَّرِد في المجتمع والحياة ، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية . وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما في نفوسهم ، وتصوِّر لهم ما هم فيه من الأمر ، وترسم لهم منهج العمل في الموقف ، وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك ، وتربطهم في هذا كله بالله ربهم ، وتعرِّفُه لهم بصفاته المؤثرة في الكون ، فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملأ الأعلى ، تحت عين الله ، في رحاب القدرة . ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم ، وفق ذلك المنهج الإلهي القويم .

إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول . ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه . وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسيًا كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .

هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل .

لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديدًا ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام !

وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة ، وإذا اجتذبته عاداته مرة ، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة ..

شعر في الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني .

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية ، فهو قد انفصل نهائيًا من بيئته الجاهلية واتصل نهائيًا ببيئته الإسلامية . حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي ، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعُرْفُها وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته .

وكان هذا مفرق الطريق ، وكان بدء السير في الطريق الجديد ، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي ، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه . ولم يكن هناك إلا ما يلقاه المسلم من أذى وفتنة ، ولكنه هو في ذات نفسه قد عزم وانتهى ، ولم يعد لضغط التصور الجاهلي ، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلي عليه من سبيل .

نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم . كل ما حولنا جاهلية ..

تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم . حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيرًا إسلاميًا ..

هو كذلك من صنع هذه الجاهلية !!

لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا ، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة .

فلا بد إذن – في منهج الحركة الإسلامية – أن نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها . لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذي استمد منه أولئك الرجال ، النبع المضمون أنه لم يختلط ولم تشبه شائبة . نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق ، وجود الله سبحانه ..

ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة ، وقيمنا وأخلاقنا ، ومناهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة .

ولا بد أن نرجع إليه – حين نرجع – بشعور التلقي للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع . نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون ، لنكون . وفي الطريق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن وبالقصص الرائع في القرآن ، وبمشاهد القيامة في القرآن .. وبالمنطق الوجداني في القرآن ..

وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع . ولكننا سنلتقي بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول . إن هدفنا الأول أن نعرف :

ماذا يريد منا القرآن أن نعمل ؟ ما هو التصور الكلي الذي يريد منا أن نتصور ؟

كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله ؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة ؟

ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية .. في خاصة نفوسنا ..

ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا أن ندين بالولاء له ، فهو بهذه الصفة .. صفة الجاهلية .. غير قابل لأن نصطلح معه . إن مهمتنا أن نغيِّر من أنفسنا أولاً لنغير هذا المجتمع أخيرًا .

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه . هذا الواقع الذي يصطدم اصطدامًا أساسيًا بالمنهج الإسلامي ، وبالتصور الإسلامي ، والذي يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش .

إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته ، وألا نعدِّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيرًا لنلتقي معه في منتصف الطريق . كلا ! إننا وإياه على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق !

وسنلقى في هذا عنتًا ومشقة ، وستفرض علينا تضحيات باهظة ، ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله به منهجه الإلهي ، ونصره على منهج الجاهلية .

وإنه لمن الخير أن ندرك دائمًا طبيعة منهجنا ، وطبيعة موقفنا ، وطبيعة الطريق الذي لا بد أن نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد ..((معالم في الطريق))

١١- الإصلاح بين المسلمين إذا تناعوا :

قال تعالى : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) } [الحجرات/٩-١١]

وإذَا اقْتَتَلَتْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ فَأصلِحُوا - يا أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ - بَينَهما بالعَدْلِ ، وذَلِكَ بالدَّعْوةِ إلى حُكْمِ اللهِ ، وَالرِّضَا بِمَا فيهِ ، فإذا أَبَتْ إِحْدَى هَاتِينِ الطَّائِفَتَينِ الإجَابَةَ إلى حُكْمِ اللهِ ، وَتَجَاوَزَتْ حُدُودَ العَدْلِ ، وأَجَابتِ الاخرى ، فَقَاتِلُوا التِي تَعْتَدِي وَتأبى الإجَابَةَ إلى حُكْمُ اللهِ ، حَتَّى تَرْجِعَ إليهِ وَتَخْضَعَ لَهُ ، فَإِنْ رَجَعَت الطَّائِفَةُ البَاغِيةُ إلى الرِّضا بِحُكْمِ اللهِ ، فَأَصْلِحُوا بَينَهما بالعَدْلِ ، وَاعْدِلُوا في

حُكْمِكُم فإنَّ اللهَ يُحبُّ العَادِلِينَ ، وَيَجزِيهِم أحْسَنَ الجَزَاءِ . المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فِي الدِّينِ ، (وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ ") .
فأصْلِحُوا بَينَ الأخَوينِ المُتَقَاتِلَين ، أو الطَّائِفَتَين المُتَقَاتِلَتَين كَما تُصْلِحُونَ بين الأخَوينِ منَ النَّسَبِ ، وَاتَّقُوا اللهَ فِي جَميعِ أمُورِكُم لَعَل اللهَ يَرْحَمُكُم وَيَصْفَحُ عَمَا سَلَفَ مِنْكُم مِنْ ذُنُوبٍ وَهَفَواتٍ .
وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تأتي تعقيباً على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل التثبت والاستيقان .
وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أم كان تشريعاً لتلافي مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح .
والقرآن قد واجه – أو هو يفترض – إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقي لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب .وهو يكلف الذين آمنوا – من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعاً – أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين . فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق – ومثله أن تبغيا معاً برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها – فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلباً لرضاه { إن الله يحب المقسطين } . ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتي جمعتهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام؛ وتذكيرهم بتقوى الله ، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه : { إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون } . .
ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك .ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثاني ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام الإمام علي – رضي الله عنه – بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم . وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر – رضي الله عنهم – إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة . وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص : « ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنياً عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك » . . . والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر – رضي الله عنه – في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام .ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات – بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة بين بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة – فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية ، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال .وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن في كل محاولات البشرية في هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور . . ولكن البشرية البائسة تطلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر . وأمامها الطريق الواضح الممهد المستقيم!

١٢- السمعُ والطاعة والإنفاق في سبيل الله :

قال تعالى في سورة التغابن: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٦}﴾

فَابْذُلُوا فِي تَقْوَى اللهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الجَهْدِ وَالطَّاقَةِ ." وَقَدْ قَالَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ " مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ،وَقَوْله تَعَالَى " وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا " أَيْ كُونُوا مُنْقَادِينَ لِمَا يَأْمُركُمْ اللَّه بِهِ وَرَسُوله وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ يَمْنَة وَلَا يَسْرَة وَلَا تُقَدِّمُوا بَيْن يَدَيْ اللَّه وَرَسُوله وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَمَّا بِهِ أُمِرْتُمْ .وَلَا تَرْكَبُوا مَا عَنْهُ زُجِرْتُمْ وَقَوْله تَعَالَى " وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ "

أَيْ وَابْذُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّه عَلَى الْأَقَارِب وَالْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِين وَذَوِي الْحَاجَات وَأَحْسِنُوا إِلَى خَلْق اللَّه كَمَا أَحْسَنَ اللَّه إِلَيْكُمْ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا يَكُنْ شَرًّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَقَوْله تَعَالَى " وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسه فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ"وَمَنْ يَبْتَعِدْ عَنِ البُخْلِ وَالحِرْصِ عَلَى المَالِ ، يَكُنْ مِنَ الفَائِزِينَ

وفي هذا القيد: (ما استطعتم) يتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقاتهم في تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله ﷺ:" إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " فالطاعة في الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان . ويهيب بهم إلى الإنفاق: (وأنفقوا خيرا لأنفسكم) . .فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، ويعدها الخير لهم حين يفعلون .ويريهم شح النفس بلاء ملازما . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ؛ والوقاية منه فضل من الله: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . .ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحبيبهم في الإنفاق ، فيسمي إنفاقهم قرضا لله . ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به ، ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر في شكره . وهو الله ! (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حليم) . .وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضا . يضاعفه . . ثم . . يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه . . ! يالله !!!

إن الله يعلمنا – بصفاته – كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه – سبحانه – ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله في الإنسان من روحه . فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته ، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع ، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة ، حتى يلقى الله بما يحبه له ويرضاه .

١٣- تغييرُ ما بالنفس من شر إلى خير:

قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ {١١} الرعد ﴾ لِلْعَبْدِ مَلاَئِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَى مُرَاقَبَتِهِ وَحِرَاسَتِهِ ، وَيَحْفَظُونَهُ مِنَ المَضَارِّ فِي نَوْمِهِ ، وَفِي حَالِ يَقَظَتِهِ ، بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَإِذْنِهِ ، فَلاَ يَصِلُ إِلَيْهِ شَيءٌ إِلاَّ إِذَا كَانَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ ، مِنْ

خَيْرٍ إِلَى سُوءٍ ، إِلاَّ إِذَا غَيَّرُوا مَا هُمْ عَلَيهِ ، وَلا يُغَيِّرُ اللهُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ سُوءٍ إِلَى خَيْرٍ حَتَّى يُغَيِّــرُوا مَــا بَأَنْفُسِهِمْ .

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُصِيبَ قَوْماً بِشَرٍّ عِقَاباً لَهُمْ ، فَلاَ رَادَّ لإِرَادَتِهِ وَقَضَائِهِ ، وَلَــيْسَ لَهُــمْ وَلِــيٌّ يَنْصُرُهُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ ، أَوْ يَرُدُّ قَضَاءَ اللهِ عَنْهُمْ ..

إن الله – تعالى – قد اقتضت سنته ، أنه – سبحانه – لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية وخير بضده ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية؛ ومن جميل إلى قبيح ، ومن صلاح إلى فساد .

وإذا أراد – سبحانه – بقوم سوءا من عذاب أو هلاك ما يشبهها بسبب إيثارهم الغى على الرشــد ، فلا راد لقضائه ، ولا دافع لعذابه .

وما لهم من دونه – سبحانه – من وال أى من ناصر ينصرهم منه – سبحانه – ويرفع عنهم عقابه ، ويلى أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد .

فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله فى شئون عباده ، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصى وجحود النعمة ، فإنه – سبحانه – لا يعصم الناس من عذابه عاصم . ولا يدفعــه دافع .

فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصــرفه بهم . فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى ، ولا يغير عزاً أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانــة . . إلا أن يغــير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم . وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون . ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجيء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم . وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة؛ فقــد قضــت مشيئة الله وجرت بها سنته ، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر؛ وأن تنفذ فــيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم.

والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك إلى جانب التبعة دليــل التكــريم لهــذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله ، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

١٤- التواصي بالحق والتواصي بالصبر :

قال تعالى : {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} سورة العصر

يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِالدَّهْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ وَعِبَرٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قَدْرَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ .

إنَّ الإِنْسَانَ لَخَاسِرٌ فِي أَعْمَالِهِ . وَأَعْمَالُهُ مَصْدَرُ شَقَائِهِ ، وَهِيَ التِي تُوقِعُهُ فِي الهَلاَكِ (وَهَـذَا هُـوَ جَوَابُ القَسَمِ)

قَالَ تَعَالَى : إِنَّ بَنِي الإِنْسَانِ خَاسِرُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ إِلاَّ الذِينَ اعْتَقَدُوا اعْتِقَاداً صَحِيحاً بِوُجُـودِ اللهِ وَوحْدَانِيتِهِ ، وَبِمَا أَنْزلَ مِنَ الكُتُبِ عَلَى رُسُلِهِ الكِرَامِ ثُمَّ عَمِلُوا صَالِحَةً تُرْضِي اللهَ ، وَاجْتَنَبُوا مَا حَرَّمَ اللهُ وَأَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً بالصَّبْرِ عَنِ المَعَاصِي التِي تَشْتَاقُ إِلَيهَا النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ ، وَبِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ التِي يَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ القِيَامُ بِهَا . . فَهؤُلاَءِ المُسْتَثْنَوْنَ هُمُ الرَّابِحُونَ الفَائِزُونَ .

إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة . .

التعبد لإله واحد ، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار . . ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان . والانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود . إنه ليس هناك إلا قـوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً ، لأنه هو الأمـر المنطقي الوحيد .

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينـه واعتباراتـه وشـرائعه وقوانينه ، وكل ما يربطه بالله ، أو بالوجود ، أو بالناس . فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة ، وتحل محلهما الشريعة والعدالة . وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه ، وتمده بالاستعلاء على تصـورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها ، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة .

. ولو كان فرداً واحداً ، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق ، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتها الناصـعة ، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد ، وبلا وساطة في الطريق . ويودع القلـب نوراً ، والروح طمأنينة ، والنفس أنساً وثقة . وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء!

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله . فلا يكون الخير فلته عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة . إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله ، فتقـوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح ، والراية الواحدة المتميزة . كما تتضـامن الأجيـال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله ، يرفع من اعتباره في نظر نفسه ، ويثير في ضميره الحيـاء مـن التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها . وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه . . أنه كريم عند الله . . وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه ، ويرده إلى منبت حقير ، ويفصـل

بينه وبين الملأ الأعلى . . هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة!

ومن هنا كانت إيحاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني ، فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع ، ليس فيه ما يستغرب ، ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء!

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله سبحانه في أطواء حسه إحساساً يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه!

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر . وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعاً . . أمام الله . . وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود ..

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا وهو بعض إيحاءات الإيمان واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى . { وفي ذلك فليتنافس المتنافسون } والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملأ الأعلى . مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيراً على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود . فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت سبحانه – ولا ينسى ، ولا يغفل شيئاً من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب . وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجاً موصولاً ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر . سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه

وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل!

والإيمان يعالج هذا الشعور علاجاً أساسياً كاملاً .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف . وإلا فهي ثمـــرة شـــيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام!

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة . وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء ، ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات . .

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال ، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون ، وتنسلك في طريق واحد ، وفي حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم . .

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ، ولا يشد إلى هذا المحور ، ولا ينبـــع من هذا المنهج . والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة . . جاء في سورة إبراهيم : { مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . لا يقدرون مما كســـبوا علـــى شيء } وجاء في سورة النور : { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حـــتى إذا جاءه لم يجده شيئاً } وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله ، ما لم يستند إلى الإيمان ، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود ، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود . وهذه هي النظـــرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله . فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني ، وتناسقه مع فطرة الكـــون كلـــه ، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله .

فهو يعيش في هذا الكون ، وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب . ولا بـــد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان ، بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق . فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل ، كان هذا بذاته دليلاً علـــى خلـــل ونقص في الجهاز الذي يتلقى ، وهو هذا الكيان الإنساني . وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا خسران . ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبـــه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية . . خاسرة أي خسران!

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تســـتقر فيها حقيقة الإيمان في القلب . فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح . . هذا هو الإيمان الإسلامي . . لا يمكـــن أن يظل خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن . . فإن لم يتحرك هـــذه

الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت . شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً . وإلا فهو غير موجود!

ومن هنا قيمة الإيمان . . إنه حركة عمل وبناء وتعمير . . يتجه إلى الله . . إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير . وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منة قوة بناء كبرى في صميم الحياة .وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني . وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود . صادرة عن تدبير ، متجهة إلى غاية . وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود . الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله .

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة أو الجماعة المسلمة ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح ، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة أو الجماعة المتضامة المتضامنة . الأمة الخيرة . الواعية . القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير . . وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة . . وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام . . هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن . .

والتواصي بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين . . والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله . . وهذا الدين وهو الحق لا يقوم إلا في حراسة جماعة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال .

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل ، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بد من الصبر . لا بد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير . والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبعد النهاية!

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار . . إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة الـتي لا تعـيش حقيقة الإسلام إلا في جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها . . وإلا فهو الخسران والضياع .

وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية مـن الخسـران ، فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا اسـتثناء . يهولنـا هـذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا قبل الآخرة يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلـك الإعـراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها؛ مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هـذه الأرض . . هذا والمسلمون أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق هم أبعد أهل الأرض عن هـذا الخير ، وأشدهم إعراضاً عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم ، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع . والبقاع الي انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التي رفعها لها الله ، راية الإيمان ، لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيراً قـط في تاريخها كله . لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء . حتى جاء الإسلام فرفع لها هـذه الراية المنتسبة لله ، لا شريك له ، المسماة باسم الله لا شريك له ، الموسومة بميسم الله لا شريك له . . الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مـرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل . .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ » . . عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله ، وتحت عنوان « عهد القيادة الإسـلامية » : « الأئمـة المسلمون وخصائصهم » :« ظهر المسلمون ، وتزعموا العالم ، وعزلوا الأمم المزيفة مـن زعامـة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها ، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً ، وقد تـوفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيـادتهم » .« أولاً : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسـهم . لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للنـاس خـبط عشواء ، وقد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس { أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخـارج منـها؟ } وقد قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شـنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون } ثانياً : أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر ، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق ، يزكيهم ويؤدبهم ، ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار وخشية الله ، وعـدم الاستشـراف للإمـارة

والحرص عليها . يقول : » إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله ، أو أحداً حرص عليـــه « .ولا يزال يقرع سمعهم : { تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين } فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب ، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمـــارة ، ويزكوا أنفسهم ، وينشروا دعاية لها ، وينفقوا الأموال سعياً وراءها . فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغنماً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد؛ بل عدوه أمانة في عنقهم ، وامتحاناً من الله؛ ويعلمون أهم موقوفون عند رهم ، ومسؤولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قـــول الله تعالى : { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعـــدل } وقوله . . { وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم } » ثالثاً : إنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يســعون لرفاهيتــه ومصلحته وحده؛ ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقــوا إلا ليكونـــوا حكاماً ، و لم تخلق إلا لتكون محكومة لهم . و لم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحـــده . كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : الله ابتعثنا لنخرج الناس مـــن عبـــادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام

فالأمم عندهم سواء ، والناس عندهم سواء الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب . لا فضل لعـــربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكـــر وأنثـــى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم } وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم؟ فلم يبخل هؤلاء بما عندهم مـــن ديـــن وعلم وتهذيب على أحد ، و لم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً ، بـــل كـــانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها .في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب حـــتى المضطهدة منها في القديم أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل ، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين . .

« رابعاً : إن الإنسان جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لا يسعد ولا يفلـــح ولا يرقى رقياً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لائقاً بها ، ويتغـــذى غـــذاء صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة ألبتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكـــن

فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني . وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية ، وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة » . .

إلى أن يقول تحت عنوان : « دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة » :

« وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل . وفي ظهور المدنية الصالحة . . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا ، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقل الجنايات ، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالفرد .وهو دور كمالي لم يحلم الإنسان بأرقى منه ، و لم يفترض المفترضون أزهى منه . . « .هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع » سورة العصر « قواعده ، وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .فأين منها هذا الضياع الذي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان ، والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر ، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة . ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة . وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار . وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله . وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق . وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور ، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح! وراية الله ما تزال . وإنها لترتقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح .ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض . وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير . وهناك . هناك الربح الحق والخسر الحق . هناك في الأمد الطويل ، وفي الحياة الباقية ، وفي عالم الحقيقة . . هناك الربح والخسر : ربح الجنة والرضوان ، أو خسر الجنة والرضوان . هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له ، أو يرتكس فتهدر آدميته ، وينتهي إلى أن يكون حجراً في القيمة ودون الحجر في الراحة : { يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً } وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق . . إنه الخسر . { إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر } . . طريق واحد لا يتعدد . طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة ، التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم

متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .إنه طريق واحد . ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة » والعصر « ثم يسلم أحـــدهما على الآخر . . لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي ، يتعاهدان على الإيمـــان والصـــلاح ، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر . ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدســـتور . ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور . .

١٥-   الخوفُ من الوعيد :

قال تعالى : { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَــاءُ مِــنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَــا أَلَّــا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّــلِ الْمُتَوَكِّلُــونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُــمْ لَــنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَــافَ مَقَــامِي وَخَــافَ وَعِيــدِ (١٤) [إبراهيم/١٠-١٤] }

قَالَ الرُّسُلُ لِهَؤلاءِ الُمكَذِّبينَ ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ شَكَّهُمْ فِي وُجُودِ اللهِ وَوَحْدَانيَّتِهِ : أَفِي وُجُودِ اللهِ وَوَحْدَانيَّتِهِ شَكٌّ؟ فَإِنَّ الفِطْرَةَ شَاهِدَةٌ بوُجُودِهِ ، وَمَجْبُولَةٌ عَلَى الإِقْرَارِ بِهِ ، لِذَلِكَ كَانَ الاعْتِرَافُ بِــهِ ضَرُورِيّاً فِي الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَاضْطِرَابٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ الُموصِــلْ إِلى وُجُودِ اللهِ ، وَلِذَلِكَ لَفَتَ الرُّسُلُ نَظَرَهُمْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ ، فَقَالُوا لَهُمْ : إِنَّهُ فَــاطِرُ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمُبْدِعُهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، وَهُوَ تَعَالَى يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِرَكُمْ فِي الدُّنْيا إِلَى أَجَلٍ مُعَيَّنٍ (مُسَمًّى) . فَقَالَتِ الأُمَمُ لِلرُّسُلِ : كَيْفَ نَتْــبَعُكُمْ بِمُجَــرَّدِ قَوْلِكُمْ أَنَّكُمْ رُسُلُ اللهِ ، فَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَلَمْ نَرَ مِنْكَ مُعْجِزَةً تَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِكُمْ ، فَإِذَا أَرَدْتُــمْ أَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ فَأْتُونَا بِبُرْهَانٍ وَدَلِيلٍ وَاضِحٍ عَلَى صِدْقِ مَا تَقُولُونَ .فَقَالَتْ لَهُمْ الرُّسُلُ : صَحِيحٌ أَنَّنَا بَشَــرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَمنُّ بِفَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَيُؤْتِيهِ الرِّسَالَةَ وَالنُّبوَّةَ ، وَلاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكُمْ بِمَا سَأَلْتُمُوهُ مِنَ الُمعْجزَاتِ وَالخَوَارِقِ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَأَمْرِهِ ، فَهُوَ الذِي يَأْتِي بِــالُمعْجزَاتِ ، وَيَأْذَنُ بِهَا ، وَالُمؤْمِنُونَ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، فَلْنَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ عَلَى كُفْــرِكُمْ ، وَتَكْذِيبِكُمْ إِيَّانَا .

وَبَعْدَ أَنْ أَجَابَهُم الأَنْبِيَاءُ عَلَى شُبُهَاتِهِمْ ، أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ يُخَوِفُونَهُمْ ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بالانْتِقَامِ وَالإِيذَاءِ ، فَقَالَ لَهُمُ الأَنْبِيَاءُ إِنَّنَا لاَ نَخَافُ تَهْدِيدَكُمْ ، بَلْ نَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ ، وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ لاَ نَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ ، وَقَدْ هَدَانَا لأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِهَا وَأَبْيَنِهَا؟ وَسَنَصْبِرُ عَلَى مَا أَلْحَقْتُمُوهُ بِنَا مِنَ الأَذَى بِأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَمَنْ تَوَكّلَ عَلَى اللهِ كَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ وَأَغَمَّهُ .

وَلَمَّا عَجَزَ رُؤُوسُ الكُفْرِ وَالضَّلاَلَةِ عَنْ مُقَارَعَةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ، عَمَدُوا إلى تَهْدِيدِ الرُّسُلِ بِالنَّفْيِ وَالإِخْرَاجِ مِنْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، إِنْ لَمْ يَعُودُوا فِي مِلَّتِهِمْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الرُّسُلِ : أَنَّهُ تَعَالَى سَيُهْلِكُ هؤُلاَءِ الْمُكَذِّبِينَ الظَّالِمِينَ .وَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى الرُّسُلِ : أَنَّهُ سَيُسْكِنُهُمْ أَرْضَ الكَافِرِينَ وَدِيَارَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَذا جَزَاءٌ عَادِلٌ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ، يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَخَافَ مَا خَوَّفَهُ بِهِ رَبُّهُ ، وَمَا تَوَعَّدَهُ بِهِ مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ .

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية . . إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها . فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية . لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم؛ ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل . وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله ، وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى ،وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة؛ ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية . .إن التجمع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي ، ولتوطيد جاهليته! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي ، والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع . هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره . . لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . .

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل ، وإن كانوا طغاة متجبرين : { فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد } .ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائماً بعد مفاصلة الرسل لقومهم . . بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . . وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين

عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً . . عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ، ولتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، ولتمكن للمؤمنين في الأرض ، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين . . ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي ، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة .

{ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين } . .نون العظمة ونون التوكيد . . كلتاهما ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد . لنهلكن المتجبرين المهددين ، المشركين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسول وللناس بهذا التهديد . .{ ولنسكننكم الأرض من بعدهم } . .لا محاباة ولا جزافاً ، إنما هي السنة الجارية العادلة : { ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد } . .ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامي ، فلم يتطاول و لم يتعال و لم يستكبر و لم يتجبر . وخاف وعيد ، فحسب حسابه ، واتقى أسبابه ، فلم يفسد في الأرض ، و لم يظلم في الناس ، فهو من ثم يستحق الاستخلاف ، وينالـه باستحقاق .

وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة قوة الطغاة الظالمين بالقوة الجبارة الطامة قوة الجبار المهيمن المتكبر فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين .

ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف ، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله – سبحانه – في صف . ودعا كلاهما بالنصر والفتح . .

وكانت العاقبة كما يجب أن تكون:

(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) . .

والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم . يسقاه بعنف فيتجرعه غصبا وكرها ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحها من خلال الكلمات !

ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . .

إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع . وتشترك كلمة(غليظ) في تفظيع المشهد ، تنسيقا له مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين .

ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله – أي إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية ، أي الحاكمية والسلطان – ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا

بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية ؛ وتصبح بذاتها خطرا على وجود الجاهلية . وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص ، يأخذ أفراده من التجمع الجاهلي ؛ وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية القيادة ، ومن ناحية الولاء . . الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان . .

وعندما يشعر التجمع الجاهلي – بوصفه كيانا عضويا واحدا متساندا – بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ؛ كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له . .

فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام !

إنها المعركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام !

المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماما للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة ، أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ؛ ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد . .

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي ، في أول الأمر وهو في دور التكوين ، ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . .

لما كانت هذه كلها حتميات لا بد منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح ، فإن الجاهلية لا تطيق منذ البدء دعوة الإسلام . .

ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام ! . .

إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاجتياح ؛ ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد !

وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها ، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت ، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام ! . .

إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة ، وكذلك لم يخدع الرسل الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم – أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة . .

(وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) . .

فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم ، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص . إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم ، ويندمجوا في تجمعهم ، ويذوبوا في هذا التجمع . أو أن يطردوهم بعيدا وينفوهم من أرضهم . .

و لم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي ، ولا أن يذوبوا فيه ، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص . .

هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي . .

و لم يقولوا – كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام . .

ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات –:حسنا ! فلنندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم !!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي ، لا بد أن يتبعه حتما تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه . . وليس في ذلك اختيار . .

إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات . .

هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساسا بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده ؛ وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان . كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في المجتمع الجاهلي خادما للتجمع الجاهلي لا خادما لإسلامه كما يظن بعض الأغرار !

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال . وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين ؛ والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم ؛ وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم . . فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته . .

وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين . .

وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله ، وهم واعون مقدرون . .

١٦- التوكل على الله تعالى في شئون حياتهم

قال تعالى :{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) } [آل عمران/١٥٩، ١٦٠]

وقال تعالى :{ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)} [النساء/٨٠، ٨١]

وقال تعالى :{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) }[الأعراف/٨٨، ٨٩]

وقال تعالى :{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) } [الأنفال/٢-٥]

وقال تعالى :{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) } [الأنفال/٤٩، ٥٠]

وقال تعالى :{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} [التوبة/١٢٨، ١٢٩]

وقال تعالى :{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١)} [يونس/٧١]

وقال تعالى :{ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) } [يونس/٨٤-٨٧]

وقال تعالى :{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) } [هود/٥٠-٥٦]

وقال تعالى :{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) } [هود/٨٧، ٨٨]

وقال تعالى :{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) }[يوسف/٦٧]

وفي التوكل على الله ، وإسلام النفس لقدره – على علم بمجراه واتجاهه – فأمضى الأمر في الخروج ،ودخل بيته فلبس درعه ولأمته – وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذي ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات . . وحتى حين أتيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ﷺ على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى . . حتى حين أتيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع . لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله . درس الشورى . ثم العزم والمضي . مع التوكل على الله والاستسلام لقدره . وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأي من جديد . فهذا مآلة الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي . . إنما هو رأي وشورى . وعزم ومضاء . وتوكل على الله ، يحبه الله:(إن الله يحب المتوكلين) . .

والخلة التي يحبها الله ويحب أهلها هي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون . بل هي التي تميز المؤمنين . . والتوكل على الله ، ورد الأمر إليه في النهاية ، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية . وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة:حقيقة أن مرد الأمر كله لله ، وأن الله فعال لما يريد .

ولتقرير حقيقة التوكل على الله ، وإقامتها على أصولها الثابتة ، يمضي السياق فيقرر أن القوة الفاعلة في النصر والخذلان هي قوة الله ، فعندها يلتمس النصر ، ومنها تتقى الهزيمة ، وإليها يكون التوجه ، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ، ونفض الأيدي من العواقب ، وتعليقها بقدر الله:(إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله – سبحانه – وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله . . إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب . ولكن الأسباب ليست هي التي "تنشىء" النتائج . فالفاعل المؤثر هو الله . والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته . . ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفي بالتزاماته . وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها . . وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره . هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء ، وكيفما يشاء . . وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله . فهو يعمل ويبذل ما في طوقه ؛ وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته . ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب . فهو لا يحتم أمرا بعينه على الله !

وهنا في قضية النصر والخذلان ، بوصفهما نتيجتين للمعركة – أية معركة – يرد المسلمين إلى قدر الله ومشيئته ؛ ويعلقهم بإرادة الله وقدرته:إن ينصرهم الله فلا غالب لهم . وأن يخذلهم فلا ناصر لهم

من بعده . . وهي الحقيقة الكلية المطلقة في هذا الوجود . حيث لا قوة إلا قوة الله ، ولا قـــدرة إلا قدرته ، ولا مشيئة إلا مشيئته . وعنها تصدر الأشياء والأحداث . . ولكن هـــذه الحقيقـــة الكليـــة المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج ، وطاعة التوجيه ، والنهوض بالتكاليف ، وبذلك الجهد ، والتوكل بعد هذا كله على الله: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير الله ؛ ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود ؛ فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحمايـــة والالتجـــاء ؛ ويتوكل على الله وحده في أحداث النتائج ، وتحقيق المصاير ، وتدبير الأمر بحكمته ، وتقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أيا كان .إنه التوازن العجيب ، الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام .

____

(وعلى ربهم يتوكلون) . .عليه وحده . . كما يفيده بناء العبارة . لا يشركون معه أحداً يســـتعينون به ويتوكلون عليه . . أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير في التفسير:" أي لا يرجون ســـواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منـــه ، ولا يرغبـــون إلا إليـــه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك لا شـــريك لـــه ولا معقـــب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد ابن جبير:التوكل على الله جماع الإيمان " . .وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن يجتمع في قلب واحـــد ، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه . والذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحـــد أو علـــى سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله !

وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ؛ ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليهـــا . إن الذي ينشئ النتائج – كما ينشئ الأسباب – هو قدر الله . ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن . . اتخاذ السبب عبادة بالطاعة . وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليـــه إلا الله . . وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها ؛ وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها .ولقد ظلت الجاهلية "العلمية ! " الحديثة تلـــج فيهـــا تسميه "حتمية القوانين الطبيعية " . ذلك لتنفي "قدر الله" وتنفي "غيب الله" . حتى وقفت في النهاية عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها ، أمام غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمي ! ولجـــأت إلى نظرية "الاحتمالات" في عالم المادة . فكل ما كان حتمياً صار احتمالياً . وبقي "الغيـــب" ســـراً مختوماً . وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة ؛ وبقي قول الله – سبحانه – (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) هو القانون الحتمي الوحيد ، الذي يتحدث بصدق عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون ، بقدره النافذ الطليق !

يقول سير جيمس جيتز الإنجليزي الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات: "لقد كان العلم القديم يقـرر تقرير الواثق ، أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً ، وهو الطريق الذي رسم من قبـل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأن لا منـاص مـن أن الحالة [أ] تتبعها الحالة [ب] . . أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حـتى الآن ، هـو أنالحالة [أ] يحتمل أن تتبعها الحالة [ب] أو [ج] أو [د] أو غيرها من الحالات الأخرى الـتي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول:إن حدوث الحالة [ب] أكثر احتمالاً من حـدوث الحالة [ج] وإن الحالة [ج] أكثر احتمالاً من [د] . . . وهكذا . بل إن في مقدوره أن يحـدد درجة احتمال كل حالة من الحالات [ب] و [ج] و [د] بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنـه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين:أي الحالات تتبع الآخرى . لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث ، فأمره موكول إلى الأقدار . مهما تكن حقيقة هذه الأقدار"

ومتى تخلص القلب من ضغط الأسباب الظاهرة ، لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله ابتـداء . وقدر الله هو الذي يحدث كل ما يحدث . وهو وحده الحقيقة المستيقنة . والأسباب الظاهرة لا تنشئ إلا احتمالات ظنية ! . . وهذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشـري – وللعقل البشري أيضاً – النقلة التي تخبطت الجاهلية الحديثة ثلاثة قرون لتصل إلى أولى مراحلها مـن الناحية العقلية ؛ و لم تصل إلى شيء منها في الناحية الشعورية ، وما يترتب عليها من نتـائج عمليـة خطيرة في التعامل مع قدر الله ؛ والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية ! . . إنها نقلة التحرر العقلي ، والتحرر الشعوري ، والتحرر السياسي ، والتحرر الاجتماعي ، والتحرر الأخلاقي . . . إلى آخر أشكال التحرر وأوضاعه . . . وما يمكن أن يتحرر "الإنسان" أصلاً إذا بقي عبداً للأسباب "الحتمية " وما وراءها من عبوديته لإرادة الناس . أو عبوديته لإرادة [الطبيعة !] فكل "حتمية " غـير إرادة الله وقدره ، هي قاعدة لعبودية لغير الله وقدره . . ومن ثم هذا التوكيد على التوكل على الله وحده ، واعتباره شرطاً لوجود الإيمان أو عدمه . . والتصور الإعتقادي في الإسلام كل متكامـل . ثم هـو بدوره كل متكامل مع الصورة الواقعية التي يريدها هذا الدين لحياة الناس .

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيل:إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الاسلام في مكة – ولكـن لم تصح عقيدتهم و لم تطمئن قلوبهم – خرجوا مع النفير مزعزعين ، فلما رأوا قلـة المسـلمين وكثـرة المشركين قالوا هذه المقالة !

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ فهـم يـرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ؛ ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيـدة ، والثقة في الله ، والتوكل عليه ، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا تـرتكن إلى عقيـدة في الله

تمنحها القوة الحقيقية . . فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم ، مغرورين بدينهم ، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها !

إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان . ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر . . فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئاً وراءه ؛ والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من "الواقع" الحقيقي ! الواقع الذي يشمل جميع القوى ، ويوازن بينها موازنة صحيحة: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) . .هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه ؛ وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه ! وهذا ما يرجح الكفة ، ويقرر النتيجة ، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان .وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، عن العصبة المسلمة يوم بدر: (غر هؤلاء دينهم) . . هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبة المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت في عنفوانه ؛ وعدتها الأساسية التي تملكها هي هذا الدين ؛ وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة ؛ وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله ؛ وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه .إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت ، وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر ، وتستخف بالخطر ! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة ، وللأخطار الواضحة . . إنهم هم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور – كما يسمونه – وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة ! . . إنهم يحسبون الحياة كلها – بما فيها الدين والعقيدة – صفقة في سوق التجارة . إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها ؛ فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى ! . . إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان . . إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائماً ؛ فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين:النصر والغلب ، أو الشهادة والجنة . . ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف ؛ فهناك الله . . وهذا مالا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض !

والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة ؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقي بالها دائما إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) . .. . وصدق الله العظيم . .

(وعلى ربهم يتوكلون) . .وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك

لمن عداه . وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله . مطمـــئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ؛ قريــــر الـــنفس في الســـراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذي يحتمل تبعة ارتياد الطريق

١٧- الهجرة في الله :

قال تعالى : { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَـأَجْرُ الْـآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) } [النحل/٤١، ٤٢]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الجَزَاءِ الذِي أَعَدَّهُ لِلمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، وَهُمُ الـــذِينَ فَـــارَقُوا الدَّارَ وَالإِخْوَانَ وَالخِلاَّنَ ، رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ وَحُسْنِ جَزَائِهِ : فَقَالَ إِنَّهُ وَعَدَهُمْ بِالُمجَازَاةِ الحَسَـــنَةِ فِـــي الدَّارِ الدُّنْيا وَفِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، فَأَكْرَمَهُمُ اللهُ بِالسَّكَنِ فِي المَدِينَةِ ، وَآتَاهُمُ الرِّزْقَ وَالحَلاَلَ الطَّيِّـــبَ ، وَجَعَلَهُمْ سَادَةً وَأُمَرَاءَ ، وَسَيَكُونُ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ اللهِ فِي الآخِرَةِ أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِمَّا آتَاهُمْ فِي الـــدُّنْيا . وَلَوْ كَانَ الذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الهِجْرَةِ يَعْلَمُونَ مَا ادَّخَرَ اللهُ ، لِمَنْ أَطَاعَهُ ، وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ ، مِـــنْ عَظِـــيمِ الثَّوَابِ ، لَمَا تَأَخَّرُوا عَنِ اللَّحَاقِ بِهِمْ .وَهَؤُلاَءِ الُمهَاجِرُونَ هُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مَا نَالَهُمْ مِـــنْ أَذَى قَوْمِهِمْ ، وَاحْتَمَلُوهُ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ ، الذِي أَحْسَنَ لَهُمْ العَاقِبَةَ ، فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضـــحوا بـــدارهم وقرب عشيرهم والحبيب من ذكرياهم . . هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكـــل ما تركوا . وقد عانوا الظلم وفارقوه . فإذا كانوا قد خسروا الديار ف { لنبوّئنهم في الدنيا حسنة } ولنسكننهم خيرا مما فقدوا { ولأجر الآخرة أكبر } لو كان الناس يعلمون . هؤلاء { الذين صـــبروا } واحتملوا ما احتملوا { وعلى رهم يتوكلون } لا يشركون بـــه أحـــدا في الاعتمـــاد والتوجـــه والتكلان .

وقال تعالى : { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُـــلُّ نَفْـــسٍ ذَائِقَـــةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِـــنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَـــى رَبِّهِـــمْ يَتَوَكَّلُـــونَ (٥٩) }[العنكبوت/٥٦-٥٩]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالى عِبَادَهُ الُمؤمِنينَ بالهِجْرَةِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ لا يَقْدِرُونَ فيهِ عَلَى إِقَامَةِ الشَّعائِرِ الدِّينيَّةِ إلى مَكَـــانٍ آخَرَ مِنْ أَرْضِ اللهِ الوَاسِعَةِ ، يَسْتَطِيعُونَ فِيهِ إِقَامَةَ شَعائِرِ دِينِهِمْ كَمَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ .

(وَجَاءَ فِي الحَديثِ : " البِلاَدُ بلاَدُ اللهِ ، وَالعِبَادُ عِبَادُ اللهِ ، حَيْثُما أَصَبْتَ خَيْراً فـــأَقِمْ " (أَخْرَجَـــهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ) وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِككُمُ المَوْتُ ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَحَيْثُ أَمَرَكُمْ اللهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، فَالمَوْتُ آتٍ لا مَحَالَةَ ، وَلا مَفَرَّ مِنْهُ وَلا مَهْرَبَ ، ثُمّ تُرْجَعُونَ إلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعِنْدَهُ الحِسَـــابُ والجَزَاءُ .

وَالذِينَ آمَنُوا باللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ، وَعَمِلُوا بِـــمَ أَمَرهُمُ اللهُ فَأَطَاعُوهُ فِيهِ ، وانْتَهَوا عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ ، فإنّهُ تَعَالى يَعِدُهُمْ وَعْداً حَقّاً أنَّهُ سَيُنْزِلُهُمْ في الجَنَّـــةِ قُصُوراً ، وأَمَاكِنَ مُرتَفِعَةً (غُرَفاً) تَجْرِي في أَرْضِها الأَنْهَارُ وَسَيَبْقَونَ فِيها خَالدِين ، أَبداً ، جَزَاءً لَهُمْ عَلَى مَا عَمِلُوا .وَمَا حَصَلُوا عَلَيهِ مِنْ جَزاءٍ كَرِيمٍ هُوَ نِعْمَ الأَجْرُ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحاً . وَهؤُلاءِ العَـــامِلُون ، الذينَ فَازُوا بغُرفاتِ الجَنَّةِ ، هُمُ الذِينَ صَبَرُوا عَلَى أَذَى المُشْرِكِينَ ، وَعَلَى شَدَائِدِ الهِجْرَةِ ، وَعَلَـــى الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّهِمُ في جَمِيعِ أَعْمَالِهِم .

إن خالق هذه القلوب ، الخبير بمداخلها ، العليم بخفاياها ، العارف بما يهجس فيها ، وما يســـتكن في حناياها . . إن خالق هذه القلوب ليناديها هذا النداء الحبيب : يا عبادي الذين آمنوا : يناديها هكذا وهو يدعوها إلى الهجرة بدينها . لتحس منذ اللحظة الأولى بحقيقتها . بنسبتها إلى ربها وإضـــافتها إلى مولاها : { يا عبادي } . .هذه هي اللمسة الأولى . واللمسة الثانية : { إن أرضي واسعة } . . أنتم عبادي . وهذه أرضي . وهي واسعة . فسيحة تسعكم . فما الذي يمسككم في مقامكم الضيق ، الذي تفتنون فيه عن دينكم ، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم؟ غادروا هذا الضيق يا عبادي إلى أرضي الواسعة ، ناجين بدينكم ، أحراراً في عبادتكم { فإياي فاعبدون } .

إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذي يتحرك في النفس التي تدعى للهجرة . ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين : بالنداء الحبيب القريب : { يا عبادي } وبالسعة في الأرض : { إن أرضي واسعة } وما دامت كلها أرض الله ، فأحب بقعة منها إذن هي التي يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه .ثم يمضي يتتبع هواجس القلوب وخواطرها . فإذا الخاطر الثاني هو الخوف من خطر الهجرة . خطر الموت الكامن في محاولة الخروج وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين في مكة ، ولا يسمحون لهم بالهجرة عندما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة . ومن هنا تجيء اللمسة الثانية : { كل نفس ذائقة المـــوت . ثم إلينـــا ترجعون } . .فالموت حتم في كل مكان ، فلا داعي أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أســـبابه . وإلى الله المرجع والمآب . فهم مهاجرون إليه ، في أرضه الواسعة ، وهم عائدون إليه في نهاية المطاف .وهم عباده الذين يؤويهم إليه في الدنيا والآخرة . فمن ذا يساوره الخوف ، أو يهجس في ضـــميره القلق ، بعد هذه اللمسات؟

ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده؛ بل يكشف عما أعده لهم هناك . وإنهم ليفارقون وطناً فلهم في الأرض عنه سعة . ويفارقون بيوتاً فلهم في الجنة منها عوض . عوض من نوعها وأعظم منها : { والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها } .وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله : { نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون }

وهي لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب ، في موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع

١٨- الإيمان بالقضاء والقدر :

قال تعالى :{ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)} [التوبة/٥٠، ٥١]

وَهَؤُلاَءِ تَسُوؤُهُمْ أَيَّةُ حَسَنَةٍ أَوْ نَصْرٍ أَوْ فَتْحٍ يُصِيبُهُ الرَّسُولُ وَالمُسْلِمُونَ ، وَإِذَا أَصَابَتِ الرَّسُولَ وَالمُؤْمِنينَ مُصِيبَةٌ ، أَوْ شِدَّةٌ ، يَقُولُونَ قَدِ احْتَظْنَا لأَمْرِنَا ، وَأَخَذْنَا حِذْرَنَا إذْ تَخَلَّفْنَا عَنِ القِتَالِ ، وَلَمْ نُلْقِ بَأَيْدِينَا إلَى التَّهْلُكَةِ ، وَيَنْقَلِبُونَ إلَى أَهْلِهِمْ فَرِحِينَ بِمَا اجْتَنَبُوهُ مِنَ المَصَائِبِ ، وَبِالشَّمَاتَةِ بِالنَّبِيِّ وَالمُسْلِمِينَ . قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلاَءِ الذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا يُصِيبُ المُسْلِمِينَ مِنَ المَصَائِبِ ، وَتَسُوؤُهُم النِّعْمَةُ الَّتِي تُصْيبُ المُسْلِمِينَ : نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ وَقَدَرِهِ ، وَمَا قَدَّرَهُ لَنَا سَيَأْتِينَا ، وَلَيْسَ لَهُ مَانِعٌ وَلاَ دَافِعٌ . وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، فَلاَ نَيْأسُ عِنْدَ الشِّدَّةِ ، وَلاَ نَبْطَرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ .

إنهم لا يريدون بالرسول خيراً ولا بالمسلمين؛ وإنهم ليسؤوهم أن يجد الرسول والمسلمون خيراً : { إن تصبك حسنة تسؤهم } . .وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما يترل بهم من مشقة : { وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل } . .واحتطنا ألا نصاب مع المسلمين بشرّ ، وتخلفنا عن الكفاح والغزو!

{ ويتولوا وهم فرحون } . .بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور ، ويحسبون البلاء شراً في كل حال ، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود . وقد خلت قلوبهم من التسليم لله ، والرضى بقدره ، واعتقاد الخير فيه . والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى ، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وأن الله ناصر له ومعين :{ قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون } . .والله قد كتب للمؤمنين النصر ، ووعدهم به في النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء؛ فهو

إعداد للنصر الموعود ، ليناله المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله ، نصراً عزيزاً لا رخيصاً ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية . والله هو الناصر وهو المعين : { وعلى الله فليتوكل المؤمنون } . .والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق . فذلك أمر الله الصريح : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . } وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التي لا تحابي أحداً ، ولا تراعي خاطر إنسان!

١٩- أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل :

قال تعالى : { إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} (٥٨) سورة النساء

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنينَ بِأَدَاءِ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . وَأَدَاءِ الأَمَانَاتِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الأَمَانَاتِ الوَاجِبَةِ عَلَى الإِنْسَانِ : مِنْ حُقُوقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ صَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ . . .) وَمِنْ حُقُوقِ العِبَادِ (كَالوَدَائِعِ وَغَيرَ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمَنُ الإِنْسَانُ عَلَيهِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ بِيَدِ أَصْحَابِهَا وَثَائِقَ وَبَيِّنَاتٍ عَلَيهَا) . هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُ حِجَابَةُ الكَعْبَةِ . وَلَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ طَافَ الرَّسُولُ ﷺ بالكَعْبَةِ ، ثُمَّ دَعَا بِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ، وَأَخَذَ مِنْهُ مُفْتَاحَ الكَعْبَةِ وَدَخَلَها . فَجَاءَهُ العَبَّاسُ (وَقِيلَ بَلْ جَاءَهُ عَلِي) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، اجْمَعْ لَنَا حَجَابَةَ الكَعْبَةِ مَعَ السِّقَايَةِ . فَدَعَا رَسُولَ اللهِ بعُثْمَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ وَدَفَعَ إِلَيهِ المُفْتَاحَ ، وَخَرَجَ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ .

وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنينَ بِأَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بالعَدْلِ ، وَأَنْ يَكُونَ العَدْلُ عَاماً لِلْبَرِّ وَالفَاجرِ ، وَلِكُلِّ أحَدٍ ، وَأَنْ لاَ يَمْنَعَهُمْ مِنْ إِقَامَةِ العَدْلِ حِقْدٌ أَوْ كَرَاهِيَةٌ أَوْ عَدَاوَةٌ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ ، وَيَعِظُ بِهِ المُؤْمِنينَ ، هُوَ الشَّرْعُ الكَامِلُ ، وَفِيهِ خَيْرُهُمْ ، وَاللهُ سَمِيعٌ لأَقْوَالِ العِبَادِ ، بَصِيرٌ بأَفْعَالِهِمْ ، فَيُجَازي كُلَّ وَاحِدٍ بمَا يَسْتَحِقُّ ..

وعَنِ الْبَرَاءِ ، قَالَ :" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، قَالَ : الأَمَانَةُ فِي الصَّلاَةِ ، وَالأَمَانَةُ فِي الْغُسْلِ مِنْ الْجَنَابَاتِ ، وَالأَمَانَةُ فِي الْكَيْلِ ، وَالأَمَانَةُ فِي الْوَزْنِ ، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ فِي الْوَدَائِعِ "مصنف ابن أبي شيبة [٢٦].

عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ الْمَكِّىِّ قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ لِفُلاَنٍ نَفَقَةَ أَيْتَامٍ كَانَ وَلِيَّهُمْ فَغَالَطُوهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ فَأَدْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَيْهَا. قَالَ قُلْتُ أَقْبِضُ الأَلْفَ الَّذِى ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ قَالَ لاَ

[٢٦]- (ج ١٣ / ص ٢٠٤) برقم (٣٤٧٦٣)

حَدَّثَنِى أَبِى أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » سنن أبى داود[٢٧]

هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة؛ وهذا هو خلقها : أداء الأمانات إلى أهلها . والحكم بين « الناس » بالعدل . على منهج الله وتعليمه .

والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى . . الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان؛ والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها « الإنسان » . . أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة . فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به ، والاهتداء إليه ، ومعرفته ، وعبادته ، وطاعته . وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه . والإنسان وحده هو الذي وكل إلى فطرته ، وإلى عقله ، وإلى معرفته ، وإلى إرادته ، وإلى اتجاهه ، وإلى جهده الذي يبذله للوصول إلى الله ، بعون من الله : { والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا } وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات .

ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات ، التي يأمر الله أن تؤدى :

ومن هذه الأمانات : أمانة الشهادة لهذا الدين . . الشهادة له في النفس أولاً بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة حية في شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس . فيقولوا : ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه؛ وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون .

. والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته – بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية – فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه ، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك ، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان . وهي إحدى الأمانات . . ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض؛ منهجاً للجماعة المؤمنة؛ ومنهجاً للبشرية جميعاً . . المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة ، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة . فإقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات؛ بعد الإيمان الذاتي . ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة . . ومن ثم ف « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » على هذا الأساس . . أداء لإحدى الأمانات . .

ومن هذه الأمانات – الداخلة في ثنايا ما سبق – أمانة التعامل مع الناس؛ ورد أماناهم إليهم : أمانة المعاملات والودائع المادية . وأمانة النصيحة للراعي وللرعية . وأمانة القيام على الأطفال الناشئة . وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراها . . . وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال . . فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن

[٢٧]- برقم (٣٥٣٦) صحيح

تؤدى؛ ويجملها النص هذا الإجمال . .فأما الحكم بالعدل بين « الناس » فالنص يطلقه هكذا عـــدلاً شاملاً « بين الناس » جميعاً . لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب . ولا عدلاً مـــع أهـــل الكتاب ، دون سائر الناس . . وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه « إنساناً » . فهذه الصفة - صـــفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني . وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعـــاً : مؤمنين وكفاراً . أصدقاء وأعداء . سوداً وبيضاً . عرباً وعجماً . والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت في أمرهم - هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط - في هذه الصورة - إلا على يد الإسلام ، وإلا في حكم المسلمين ، وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشـــرية . . والـــذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة؛ فلم تذق له طعماً قط ، في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتـــاح للناس جميعاً . لأنهم « ناس »! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه « النـــاس »!

وذلك هو أساس الحكم في الإسلام؛ كما أن الأمانة - بكل مدلولاتها - هي أساس الحياة في المجتمـــع الإسلامي .والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها؛ والحكم بين الناس بالعدل؛ هو التذكير بأنه من وعظ الله - سبحانه - وتوجيهه . ونعم ما يعظ الله به ويوجه : { إن الله نعما يعظكم بـــه } . .ونقف لحظة أمام التعبير من ناحية أسلوب الأداء فيه . فالأصل في تركيب الجملة : إنـــه نعـــم مـــا يعظكم الله به .. ولكن التعبير يقدم لفظ الجلالة ، فيجعله « اسم إن » ويجعل نعم مـــا « نعمـــا » ومتعلقاتها ، في مكان « خبر إن » بعد حذف الخبر . . ذلك ليوحي بشدة الصلة بين الله - ســـبحانه - وهذا الذي يعظهم به . .

ثم إنها لم تكن « عظة » إنما كانت « أمراً » . . ولكن التعبير يسميه عظـــة . لأن العظـــة أبلـــغ إلى القلب ، وأسرع إلى الوجدان ، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة الحياء!

ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية؛ يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه :{ إن الله كـــان سميعـــاً بصيراً } والتناسق بين المأمور به من التكاليف؛ وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس؛ وبـــين كون الله سبحانه « سميعاً بصيراً » مناسبة واضحة ولطيفة معاً . . فالله يسمع ويبصر ، قضايا العـــدل وقضايا الأمانة . والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع البصير وإلى حسن التقـــدير ، وإلى مراعـــاة الملابسات والظواهر ، وإلى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر . وأخيراً فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور.وبعد فالأمانة والعدل . . ما مقياسهما؟ ما منهج تصـــورهما وتحديـــدهما وتنفيذهما؟ في كل مجال في الحياة ، وفي كل نشاط للحياة؟

أنترك مدلول الأمانة والعدل؛ ووسائل تطبيقها وتحقيقهما إلى عرف الناس واصـــطلاحهم؟ وإلى مـــا تحكم به عقولهم - أو أهواؤهم؟

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان : هـذا حـق . . ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات ، متأثراً بشتى المؤثرات . . ليس هناك ما يسمى « العقل البشري » كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك ، وعقـل فـلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، في مكان ما وفي زمان ما . . وهذه كلها واقعـة تحـت مؤثرات شتى؛ تميل بها من هنا ، وتميل بها من هناك . .ولا بد من ميزان ثابت ، ترجـع إليـه هـذه العقول الكثيرة؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها . ومدى الشطط والغلو ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات . وقيمة العقل البشري هنا هو أنـه الأداة المهيـأة للإنسان ، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان . . الميزان الثابت ، الذي لا يميل مع الهـوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات . .ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين . . فقد يكون الخلـل في هـذه الموازين ذاتها . فتختل جميع القيم . . ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم .

٢٠- القيام بأعمال البرِّ كلها

قال تعالى : {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـاكِينَ وَابْـنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (١٧٧) سورة البقرة

بَعْدَ أَن حَوَّلَ اللهُ قِبْلَةَ المُسْلِمِينَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إلى البَيتِ الحَرامِ ، شَقَّ ذلِكَ عَلَى نُفُوسِ طَائِفَةٍ مِـنَ المُسْلِمِينَ ، وَأَخَذَ اليَهُودُ فِي الدَّسِّ والنَّقْدِ بُغْيَةَ زَعْزَعَةِ ثِقةِ المُسلِمِينَ بِرَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ ﷺ ، فَأَوْضَحَ اللهُ فِي عَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ حِكْمَتِهِ مِنْ ذلِكَ ، وَهِيَ : أَنَّ المُرَادَ أَسَاساً هُوَ طَاعَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ ، وَالتَّوَجُّهِ حَيْثُما أَمَرَ وَوَجَّهَ ، فَهذا هُوَ البِرُّ وَالتَّقوَى وَالإِيمَانُ الكَامِلُ ، وَلَيسَ فِي التَّوجُّهِ نَحْوَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ بِحَدِّ ذَاتِهِ طَاعَةٌ ولا بِرٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ شَرْعِ اللهِ وَأَمْرِهِ . فَالبِرُّ يَقُومُ بالإِيمَانِ بِـاللهِ ، وَاليَـومِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ ، وَالكِتَابِ المُنْزَلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَالإِيمَانِ بالنَّبِيِّينَ الـذِينَ أَرْسَـلَهُمُ اللهُ إلى النَّـاسِ ، وَبِإِنْفَاقِ المَالِ فِي طَاعَتِهِ - وَالإِنْسَانُ حَيٌّ سَلِيمٌ صَحِيحٌ يَأْمَلُ العَيْشَ ، وَيَخْشَى الفَقْرَ - عَلَـى ذَوِي قُرْبَاهُ ، وَعَلَى اليَتَامَى الذِينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ ، وَهُمْ صِغَارٌ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى الكَسْبِ ، وَعَلى المَسَـاكِينِ الذِينَ لاَ يَجدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَمَسْكِنِهِمْ وَكُسْوَتِهِمْ ، وَعَلَى ابنِ السَّبِيلِ - وَهُـوَ المُسَـافِرُ المُجْتَازُ الذِي نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ - وَعَلَى مَنْ يُرِيدُ سَفَراً فِي طَاعَةِ اللهِ فَيُعطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَّابِـهِ ، وَعَلَى السَّائِلِينَ الذِينَ يَتعرَّضُونَ لِلسُّؤالِ ، وَعَلَى العَبيدِ المُكَاتَبِينَ الذِين لاَ يَجِـدُونَ مَـا يُؤَدُّونَـهُ في كِتَابَتِهِمْ .

كَمَا أَنَّ البِرَّ يَقُومُ : بِإِقَامَةِ الصَّلاَةِ (وَإِتمَامِ أَفْعَالِهَا بِخُشُوعٍ تَامٍّ فِي أَوْقَاتِهَا وَإِتْمَامِ رُكُوعِها وَسُجُودِها) ، وَبِدَفْعِ الزَّكَاةِ ، وَبِالتَّمسُّكِ بالعُهُودِ والمَواثِيقِ وَعَدَمِ النَّكْثِ بها ، وَبالصَّبرِ فِي البَأْسَاءِ – أَيْ فِي حَالِ الفَقْرِ – وَفِي الضَّرَّاءِ – أَيْ فِي حَالِ المَرَضِ – ، وَالصَّبرِ حِينَ البَأْسِ – أَيْ فِي حَالَةِ القِتالِ وَلِقَاءِ الأَعْدَاءِ– .

فَالذِينَ اتَّصَفُوا بالصِّفَاتِ المُتَقَدِّمَةِ هُمُ البَرَرَةُ الذِينَ صَدقُوا فِي إِيمَانِهِمْ ، وَفَازُوا بِرِضَا اللهِ .

(وَقَدْ نَصَبَ اللهُ تَعَالَى الصَّابِرينَ عَلَى المَدْحِ والثَّناءِ عَلَى الصَّبرِ ، وَالحَثِّ عَليهِ لِشِدَّتِهِ ، وَصُعُوبَةِ احتِمَالِهِ عَلَى النُّفُوسِ) .

إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى ، وشتى الأشياء ، وشتى الاعتبارات . . إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية ، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد؛ ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار . . وهي نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام ، ومن التيه إلى القصد ، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه . فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد ، لا تعرف لها قصداً مستقيماً ولا غاية مطردة ، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد وفي مساواة ، كما يتجمع الوجود كله ، واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات . . والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء؛ وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان . وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء . . والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان ، وتصور الإنسان لهذا الوجود وتصور الحيوان . الإنسان الذي يؤمن بما وراء الحس والحيوان المقيد بحسه لا يتعداه . . والإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وهو الإيمان بوحدة البشرية ، ووحدة إلهها ، ووحدة دينها ، ووحدة منهجها الإلهي . . ولهذا الشعور قيمة في شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات .وما قيمة إيتاء المال – على حبه والاعتزاز به – لذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب؟

إن قيمته هي الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة . انعتاق الروح من حب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق ، ويقبض النفوس عن الأريحية ، ويقبض الأرواح عن الانطلاق . فهي قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال . وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال . لا في الرخيص منه ولا الخبيث . فيتحرر من عبودية المال ، هذه العبودية التي تستذل النفوس ، وتنكس الرؤوس . ويتحرر من الحرص . والحرص يذل اعناق الرجال . وهي قيمة إنسانية كبرى في حساب الإسلام ، الذي يحاول دائماً تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج في محيط الجماعة وارتباطاتها ، يقيناً منه بأن عبيد أنفسهم

هم عبيد الناس؛ وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس في المجتمعات! . . ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية في محيط الجماعة . . هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس ، وكرامة الأسرة ، ووشائج القربى . والأسرة هي النواة الأولى للجماعة . ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم . . وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار في الجماعة ، وبين الأقوياء فيها والضعفاء؛ وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين؛ وحماية للأمة من تشرد صغارها ، وتعرضهم للفساد ، وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم براً ولا رعاية .. وهي للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون – وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضناً بماء وجوههم – احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم ، وصيانة لهم من البوار ، وإشعار لهم بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة ، التي لا يهمل فيها فرد ، ولا يضيع فيها عضو . . وهي لابن السبيل – المنقطع عن ماله وأهله – واجب للنجدة في ساعة العسرة ، وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والديار؛ وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل ، وبأن الأرض كلها وطن ، يلقى فيها أهلاً بأهل ، ومالاً بمال ، وصلة بصلة ، وقراراً بقرار . . وهي للسائلين إسعاف لعوزهم ، وكف لهم عن المسألة التي يكرهها الإسلام . وفي الإسلام لا يسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملاً ، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل ، وأن يقنع ولا يسأل . فلا سائل إلا حيث يعييه العمل والمال . . وهي في الرقاب اعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء عمله في الرق بحمل السيف في وجه الإسلام – حتى يسترد حريته وإنسانيته الكريمة . ويتحقق هذا النص إما بشراء الرقيق وعتقه ، وإما بإعطائه ما يؤدي به ما كاتب عليه سيده في نظير عتقه . والإسلام يعلن حرية الرقيق في اللحظة التي يطلب فيها الحرية ، ويطلب مكاتبته عليها – أي أداء مبلغ من المال في سبيلها ، ومنذ هذه اللحظة يصبح عمله بأجر يحسب له ، ويصبح مستحقاً في مصارف الزكاة ، ويصبح من البر كذلك إعطاؤه من النفقات غير الزكاة . . كل أولئك ليسارع في فك رقبته ، واسترداد حريته .

وإقامة الصلاة؟ ما قيمتها في مجال البر الذي هو جماع الخير؟

إن إقامة الصلاة شيء غير التولي قبل المشرق والمغرب . إنها توجه الإنسان بكليته إلى ربه ، ظاهراً وباطناً جسماً وعقلاً وروحاً . إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسم . وليست مجرد توجه صوفي بالروح . فالصلاة الإسلامية تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة . إن الإسلام يعترف بالإنسان جسماً وعقلاً وروحاً في كيان؛ ولا يفترض أن هناك تعارضاً بين نشاط هذه القوى المكونة في مجموعها للإنسان ، ولا يحاول أن يكبت الجسم لتنطلق الروح ، لأن هذا الكبت ليس ضرورياً لانطلاق الروح . ومن ثم يجعل عبادته الكبرى . . الصلاة . مظهراً لنشاط قواه الثلاث وتوجهها إلى خالقها جميعاً في ترابط واتساق . يجعلها قياماً وركوعاً وسجوداً تحقيقاً لحركة الجسد ، ويجعلها قراءة وتدبراً وتفكيراً في المعنى والمبنى تحقيقا لنشاط العقل؛ ويجعلها توجها واستسلاماً لله تحقيقا لنشاط

الروح . . كلها في آن . . وإقامة الصلاة على هذا النحو تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة ، وتحقق فكرة الإسلام كلها عن الحياة . . في كل ركعة وفي كل صلاة .

وإيتاء الزكاة؟ . . إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التي جعلها الله حقاً في أموال الأغنياء للفقراء ، بحكم أنه هو صاحب المال ، وهو الذي ملكه للفرد بعقد منه ، من شروطه إيتاء الزكاة . وهي مذكورة هنا بعد الحديث عن إيتاء المال - على حبه - لمن ذكرتهم الآية من قبل على الإطلاق؛ مما يشير إلى أن الإنفاق في تلك الوجوه ليس بديلا من الزكاة ، وليست الزكاة بديلة منه . . وإنما الزكاة ضريبة مفروضة ، والإنفاق تطوع طليق . . والبر لا يتم إلا بهذه وتلك . وكلتاهما من مقومات الإسلام . وما كان القرآن ليذكر الزكاة منفردة بعد الإنفاق إلا وهي فريضة خاصة لا يسقطها الإنفاق ، ولا تغني هي عن الإنفاق .

والوفاء بالعهد؟ إنه سمة الإسلام التي يحرص عليها ، ويكررها القرآن كثيراً؛ ويعدها آية الإيمان ، وآية الآدمية وآية الإحسان . وهي ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول . تقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله . وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعاً قلقاً لا يركن إلى وعد ، ولا يطمئن إلى عهد ، ولا يثق بإنسان ، ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمة لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله ، ولم تصل إليها إلا على حداء الإسلام وهدي الإسلام .

والصبر في البأساء والضراء وحين البأس؟ . . إنها تربية للنفوس وإعداد ، كي لا تطير شعاعاً مع كل نازلة ، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة . إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسراً . إنه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله . ولا بد لأمة تناط بها القوامة على البشرية ، والعدل في الأرض والصلاح ، أن تهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة . الصبر في البؤس والفقر . والصبر في المرض والضعف . والصبر في القلة والنقص . والصبر في الجهاد والحصار ، والصبر على كل حال . كي تنهض بواجبها الضخم ، وتؤدي دورها المرسوم ، في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال . ويبرز السياق هذه الصفة . . صفة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس . . يبرزها بإعطاء كلمة { الصابرين } وصفاً في العبارة يدل على الاختصاص . فما قبلها من الصفات مرفوع أما هي فمنصوبة على الاختصاص بتقدير : « وأخص الصابرين » . . وهي لفتة خاصة لها وزنها في معرض صفات البر . . لفتة خاصة تبرز الصابرين وتميزهم ، وتخصص هذه السمة من بين سمات الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين وإيتاء المال - على حبه - وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد . . وهو مقام للصابرين عظيم ، وتقدير لصفة الصبر في ميزان الله ، يلفت الأنظار . .وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد ، وتكاليف النفس والمال ، وتجعلها كلاً لا يتجزأ ، ووحدة لا تنفصم .

وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو « البر » أو هو « جماع الخير » أو هو « الإيمان » كمـــا ورد في بعض الأثر . والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادىء المنهج الإسلامي المتكامـــل لا يستقيم بدونها إسلام .ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم : { أولئك الـــذين صـــدقوا ، وأولئك هم المتقون } .

أولئك الذين صدقوا ربهم في إسلامهم . صدقوا في إيمانهم واعتقادهم ، وصدقوا في ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة في الحياة .وأولئك هم المتقون الذين يخشون ربهـــم ويتصـــلون بـــه ، ويؤدون واجبهم له في حساسية وفي إشفاق . وننظر نحن من خلال هذه الآية إلى تلك الآفاق العالية التي يريد الله أن يرفع الناس إليها ، بمنهجه الرفيع القويم . . ثم ننظر إلى الناس وهم ينأون عـــن هـــذا المنهج ويتجنبونه ، ويحاربونه ، ويرصدون له العداوة ، ولكل من يدعوهم إليه . . ونقلب أيادينـــا في أسف ، ونقول ما قال الله سبحانه : يا حسرة على العباد!

ثم ننظر نظرة أخرى فتنجلي هذه الحسرة ، على أمل في الله وثيق ، وعلى يقين في قوة هذا المنـــهج لا يتزعزع ، ونستشرف المستقبل فإذا على الأفق أمل . أمل وضيء منير . أن لا بد لهذه البشرية من أن تفيء – بعد العناء الطويل – إلى هذا المنهج الرفيع . وأن تتطلع إلى هذا الأفـــق الوضـــيء . . والله المستعان

٢١- نصرةُ دين الله :

قال تعالى في سورة محمد :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾
يَحُثُّ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ عَلَى الجِهَادِ ، وَيُعْلِمُهُمْ بَأنَّه يَنْصُرُهُمْ إذا أخْلَصُوا النيَّةَ في قِتَالِ أعدائِهِ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : إنَّهُمْ إذا نَصَرُوا دِينَ اللهِ نَصَرَهُمُ اللهُ عَلَى أعْدائِهِمْ ، وثَّبتَ أقْدَامَهُمْ في الحَرْبِ وَفي الدِّينِ ..

وكيف ينصر المؤمنون الله ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها . . فهـــذا نصـــر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهـــذا نصر الله في واقع الحياة .ونقف لحظة أمام قوله تعالى : { والذين قتلوا في سبيل الله } . . وقوله : { إن تنصروا الله } . .وفي كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصرة . يشترط أن يكون هـــذا لله وفي

سبيل الله . وهي لفتة بديهية ، ولكن كثيراً من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال . وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لا جهاد ، ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة .

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا . وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبي موسى – رضي الله عنه – قال : سئل رسول الله – ﷺ – عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أي ذلك في سبيل الله؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.وليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد في سبيله من يجاهد ، ويستشهد دونه من يستشهد ، فيحق له وعد الله بالجنة . إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف . من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية ، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصوراً غريباً على طبيعة العقيدة .لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في الأوضاع والنظم . والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد .

وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف .وإذا عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط الله . .

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام . وعد الله لا يخلفه . فإذا تخلف فترة؛ فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت . وذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم – فترة – نصر الله .

ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة في التعبير : { ينصركم . ويثبت أقدامكم } . .

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سبباً فيه . وهذا صحيح . ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت . معنى التثبيت على النصر

وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال . فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة . للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر . وفي عدم التراخي بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء . ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء . وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن . والعلم لله .{ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم } . .وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام . فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء . .

{ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم } . .وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذي يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة . وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهي نفوس يلتقي بها الإنسان كثيراً في كل زمان وفي كل مكان ، ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لذعتها العقارب! وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث! ولعلنا نشاهد في هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة!

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله ، أن أحبط الله أعمالهم . وإحباط الأعمال تعبير تصوري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير . فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعاً من المرعى سام . ينتهي بها إلى الموت والهلاك . وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت . . ثم انتهت إلى الهلاك والضياع! إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام .

المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى من ذلك النبت السام!

٢٢- الإيمانُ الحقُّ :

قال تعالى في سورة غافر: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ {٥١} يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ {٥٢}﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى ، إِنَّهُ سَيَجْعَلُ رُسلَهُ هُمُ الغَالِبِينَ لأَعْدَائِهِمْ وَمُعَانِدِيهِمْ ، وَإِنَّهُ سَيَنْصُرُ مَعَهُمُ المُؤْمِنِينَ بِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ يَكُونُ بالطُّرُقِ التَّالِيةِ :

- إِمَّا بِجَعْلِهِمْ غَالِبِينَ عَلَى مَنْ كَذَّبَهم ، كَمَا فَعَلَ بِدَاوُدَ وَسُلَيمَانَ وَمُحَمَّدٍ ، عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ .
- وإِمَّا بِالانْتِقَامِ مِمَّنْ عَادَاهُمْ وَآذَاهُمْ ، وَإِهْلاَكِهِ إِيَّاهُمْ ، وَإِنْجَائِهِ الرُّسُلَ والمُؤْمِنِينَ ، كَمَا فَعَلَ بِنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَمُوسَى وَلُوطٍ .
- وَإِمَّا بِالانْتِقَامِ مِمَّنْ آذَى الرُّسُلَ بَعْدَ وَفَاةِ الأَنْبِيَاء والرُّسُلِ ، بِتَسْلِيطِ بَعْضِ خَلْقِ اللهِ عَلَى المُكَذِّبِينَ المُجْرِمِينَ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ ، كَمَا فَعَلَ مَعَ زَكَرِيا وَيَحْيَى ، عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ .
وَكَمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْصُرُ رَسُلَهُ والمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَتِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، كَذَلِكَ يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَهُوَ اليومُ الذِي يَقُومُ فِيهِ الأَشْهَادُ مِنَ المَلاَئِكَةِ والأَنْبِيَاءِ والمُؤْمِنِينَ ، بالشَّهَادَةِ عَلَى الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ بِأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ أَبْلَغُوهُمْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ.
فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية . ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة . وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان .
إن وعد الله قاطع جازم : { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . . } . . بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذباً مطروداً ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى في الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد . . فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل!
ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير .
إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها!
والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى .
وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . . إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها . . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار . كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة . وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب! . . والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة . فأما في

الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً . فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه . يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين . من المسلمين . وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد . وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال .

ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور . ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا!

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد ﷺ في حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً . من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية . وفق تقدير الله وترتيبه .وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا . ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها . وحقيقة الإيمان كثيراً ما يتجوز الناس فيها . وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله . وإن هنالك لأشكالاً من الشرك خفية؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه ، وقدره عليه ، ويحسن أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله

٢٣- الثباتُ عند لقاء العدو والإكثار من ذكر الله ...

قال تعالى في سورة آل عمران :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ {٤٥} وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {٤٦} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {٤٧} ﴾

يَحُثُّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، لِتَقْوَى قُلُوبُهُمْ ، وَتَثْبُتَ نُفُوسُهُمْ ، وَهَذَانِ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الفَوْزِ وَالنَّصْرِ عَلَى الأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيا ، وَمِنْ أَسْبَابِ الفَوْزِ بِالفَلاَحِ وَبِرِضْوَانِ اللهِ فِي الآخِرَةِ .

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى فِي الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَبِالإِخْلاَصِ لَهُ ، وَبِبَذْلِ الجُهْدِ فِي القِتَالِ ، وَبِذِكْرِ اللهِ كَثِيراً لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ وَتَهْدَأَ ، وَيُزَايِلَهَا الخَوْفُ وَالتَّرَدُّدُ وَالقَلَقُ ، كَمَا أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ، وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِ ، إِنْجَاحاً لِلْخُطَّةِ العَامَّةِ لِلْجَيْشِ فِي الْمَعْرَكَةِ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِألاَّ يَتَنَازَعُوا ، وَلاَ يَخْتَلِفُوا ، لأَنَّ فِي التَّنَازُعِ وَالاخْتِلاَفِ الفَشَلَ وَالخُذْلاَنَ وَضَيَاعَ مَا حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي المَعْرَكَةِ { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } . ثُمَّ يُكَرِّرُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتِزَامِ الصَّبْرِ ، لأَنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَعَلَيْكُمْ ، أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ ، أَنْ تَمْتَثِلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ ، وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِمَا ، وَلاَ تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمْ الْمُشْرِكِينَ الذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطَراً بِمَا أوتُوا مِنَ النِّعْمَةِ ، وَمُرَاءَاةً لِلنَّاسِ لِيُعْجَبُوا بِهِمْ ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بِالغِنَى وَالقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ . . وَهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِم الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ ، وَالحَدَّ مِنْ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَلاَ يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيءٌ ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ..

هذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر . والطاعة لله والرسول . وتجنب النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة . والحذر من البطر والرئاء والبغي

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما . وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها ، ولا حياة له سواها؟!

وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي .

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة ، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي ، قولهم : { وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين } ومما حكاه كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل ، وهي تواجه جالوت وجنوده : { ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت

أقدامناً وانصرنا على القوم الكافرين } ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة : { وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين } ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة؛ فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدواً . وقد حكى الله – فيما بعد – عن العصبة التي أصابها القرح في « أحد »؛ فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم ، كان هذا التعليم حاضراً في نفوسها : { الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل } إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب؛ والثقة بالله الذي ينصر أولياءه . . وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهي معركة لله ، لتقرير ألوهيته في الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية؛ وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي . . كما أنه توكيد لهذا الواجب – واجب ذكر الله – في أحرج الساعات وأشد المواقف . . وكلها إيحاءات ذات قيمة في المعركة؛ يحققها هذا التعليم الرباني .

وأما طاعة الله ورسوله ، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة : { ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم } . . . فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار . فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع « الذات » في كفة ، والحق في كفة؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء! .

. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة . . إنه من عمليات « الضبط » التي لا بد منها في المعركة . . إنها طاعة القيادة العليا فيها ، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها . وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي تجاهد لله ، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلا . . والمسافة كبيرة كبيرة . .

وأما الصبر . فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة . . أية معركة . . في ميدان النفس أم في ميدان القتال .{ واصبروا ، إن الله مع الصابرين } . .وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب و الفلاح . .ويبقى التعليم الأخير : { ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط } . .يبقى هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في

غير ما أرادها . . والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله؛ تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر ، وتقرير عبودية العباد لله وحده . وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده ، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية – بغير إذن الله وشرعه – وتخرج لإعلان تحرير « الإنسان » في « الأرض » من كل عبودية لغير الله ، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته . وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم ، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر . وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد؛ وفي إقامة منهجه في الحياة؛ وفي إعلاء كلمته في الأرض؛ وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه . . حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل الله . .ولقد كانت صورة الخروج بطراً ورئاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصبة المسلمة؛ يروها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشاً التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله : وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة . . وكان الله سبحانه يذكر العصبة المسلمة بشيء حاضر له وقعه وله إيحاؤه :{ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط } .

والبطر والمراءاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها في قولة أبي جهل ، وقد جاءه رسول أبي سفيان – بعد أن ساحل بالعير فنجت من رصد المسلمين – يطلب إليه الرجوع بالنفير ، إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه .وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق . فقال أبو جهل : « لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبداً » . . فلما عاد الرسول إلى أبي سفيان برد أبي جهل قال : « واقوماه! هذا عمل عمرو بن هشام (يعني أبا جهل) كره أن يرجع ، لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغي منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا » . . وصحت فراسة أبي سفيان ، وأصاب محمد – ﷺ – النفير؛ وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم : { والله بما يعملون محيط } . .لا يفوته منهم شيء ، لا يعجزه من قوتهم شيء ، وهو محيط بهم وبما يعملون .ويمضي السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذي نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار : { وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب } . .ولقد وردت في هذه الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار؛ ليس من بينها حديث عن رسول الله – ﷺ – إلا ما رواه مالك في الموطأ : حدثنا أحمد بن الفرج ،

قال : حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، قال : حدثنا مالك ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما رئي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك ما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر! » قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر؟ قال : « أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة » .وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، وهو ضعيف الحديث ، والخبر مرسل .فأما سائر الآثار فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طريق علي بن أبي طلحة وطريق ابن جريج . وعن عروة بن الزبير من طريق ابن إسحاق . وعن قتادة من طريق سعيد بن جبير . وعن الحسن وعن محمد بن كعب . وهذه أمثلة منها من رواية ابن جرير الطبري :

* حدثني المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه راية ، في صورة رجل من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم .

فقال الشيطان للمشركين : { لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم } . . فلما اصطف الناس أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا مدبرين . وأقبل جبير إلى إبليس ، فلما رآه ، وكانت يده في يد رجل من المشركين ، انتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة ، تزعم أنك لنا جار؟ قال : { إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب } وذلك حين رأى الملائكة .

*حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن رومان . عن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر - يعني من الحرب - فكاد ذلك أن يثنيهم . فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ، وكان من أشراف كنانة ، فقال : أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه . فخرجوا سراعاً .

* حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : { وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم } إلى قوله : { شديد العقاب } قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة فزعم عدو الله أنه لا يد له بالملائكة ، وقال : { إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله } . . وكذب والله عدو الله ، ما به مخافة الله ، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له ، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم عند ذلك .

ونحن - على منهجنا في هذه الظلال - لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو حديث نبوي صحيح متواتر . فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته . ولكننا في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض . .

وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخـــروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم؛ وأنه بعد ذلك – لما تراءى الجمعان أي رأى أحدهما الآخـــر – { نكص على عقبيهِ وقال : إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقـــاب } . . فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم ، ولم يوف بعهده معهم . .

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم ، والتي قال لهم بها : لا غالب لكم اليوم مـــن النـــاس وإني جار لكم . والتي نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك ..

الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب؛ ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم . والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث . .

بعد ، فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، ويشجعهم على الخروج ، ثم يتركهم لمصيرهم البائس . . . كان المنافقون والذين في قلوبهم ضعف ، يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون؛ وهم يرونها تواجه جحافل المشركين ، وهـــي قليلـــة العدد ضعيفة العدة؛ ويرون – بقلوبهم المدخولة ونظرتهم إلى الظواهر المادية الخادعـــة – أن المـــؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة ، مخدوعين بدينهم ، ظانين أنه ينصـــرهم أو يقـــيهم : { إذ يقـــول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم } . .والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيـــل : إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام في مكة – ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمـــئن قلـــوبهم – خرجوا مع النفير مزعزعين ، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة!

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة؛ فهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها؛ ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة ، والثقـــة في الله ، والتوكل عليه ، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القـــوة الحقيقية . . فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم ، مغرورين بدينهم ، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها!

إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاويـــة مـــن الإيمان . ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر . . فالقلوب الخاوية تـــراه ولا ترى شيئاً وراءه؛ والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من « الواقع » الحقيقي! الواقع الـــذي يشـــمل جميع القوى ، ويوازن بينها موازنة صحيحة : { ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم } . .هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه؛ وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرجح الكفة ، ويقرر النتيجة ، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كـــل مكـــان .وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، عن العصبة المسلمة يوم بدر : { غر هؤلاء دينـــهم } . . هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبة المسلمة تتعرض لجحافـــل الطـــاغوت في

عنفوانه؛ وعدمًا الأساسية التي تملكها هي هذا الدين؛ وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة؛ وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله؛ وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه .إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت ، وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر ، وتستخف بالخطر! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة ، وللأخطار الواضحة .. إنهم هم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور – كما يسمونه – وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة! . . إنهم يحسبون الحياة كلها – بما فيها الدين والعقيدة – صفقة في سوق التجارة . إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها؛ فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى! . . إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان . . إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائماً؛ فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين : النصر والغلب ، أو الشهادة والجنة . . ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف؛ فهناك الله . . وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض!

والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقي بالها دائماً إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين .{ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم } . . . . وصدق الله العظيم . .

٢٤- الاعتزاز بالله ورسوله :

قال تعالى : {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (٨) سورة المنافقون

وَيَقولُ هَؤُلاَءِ المَنَافِقُونَ : إذَا رَجَعْنَا إلَى المَدِينَةِ فَإِنَّنا سَنُخْرِجُ المُؤْمِنِينَ مِنْهَا ، لأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ هُم الأَقْوِيَاءَ الأَعِزَّاءَ فِيهَا لَكَثْرَةِ جَمْعِهِمْ ، وَوَفْرَةِ مَالِهِمْ ، وَأَنَّ المُؤْمِنِينَ ضِعَافٌ قَلِيلُو العَدَدِ .

وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلاَءِ المُنَافِقِينَ قَائِلاً : إنَّ العِزَّةَ للهِ وَحْدَهُ ، فَهُوَ ذُو الجَلاَلِ والعِزَّةِ ، ثُمَّ تَكُونُ العِزَّةُ مِنْ بعْدِهِ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ ، ثُمَّ لِلْمُؤْمِنينَ الذِينَ يَسْتَعِزُّونَ بعِزِّ اللهِ ، وبنَصْرِهِ ، فَهُمْ أَعِزَةٌ بذَلِكَ ، وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَيَظُنُّونَ أَنَّ العِزَّةَ بوَفْرَةِ المَالِ وَكَثْرَةِ النَّاصِرِ . (وَروي أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ بْنِ سَلُول – وَكَانَ مُؤْمِناً مُخْلِصاً فِي إِيْمَانِهِ – لَمَّا سَمِعَ مَقَالَةَ أَبيهِ هَذِهِ اسْتَلَّ سَيْفَهُ وَوَقَفَ ببَابِ المَدِينَةِ ، وَلَمْ يَسْمَحْ لأَبيهِ أَنْ يَدْخُلَ حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ بالدُّخُولِ ، ثُمَّ قَالَ لأَبيهِ : عَلَيَّ للهِ أَلاَّ أُغْمِدَ سَيْفِي حَتَّى تَقُولَ : مُحَمَّدٌ الأَعَزُّ ، وَأَنَّا الأَذَلُّ .فَلَمْ يَبْرَحْ حَتَّى قَالَ : ثُمَّ أَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ بالدُّخُولِ إِلَى المَدِينَةِ فَدَخَلَ) .ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفي

عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسـوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول : ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز! وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التي لا تهون ولا تهن ، ولا تنحني ولا تلين . ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة . .{ ولكن المنافقين لا يعلمـون } . .وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟

إن الأمة مهما بحثت عن سعادتها وإعادة مكانتها فلن تجد ذلك بدون الجهاد في سبيل الله ، فقد جعله الله سبباً لتمكين الدين في الأرض وتحطيم عروش الطغاة من البشر وإذلال المنافقين وكسر شـوكتهم وإرهاباً للأعداء مهما اتسعت ممالكهم وعظمت قوتهم ، ومن ظن غير ذلك فقد افتـرى علـى الله الكذب وسلك طريقاً غير طريق المؤمنين وبقي يراوح في مكانه

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (٥٤) سورة المائدة

و لم يُعلم في تاريخ هذه الأمة أنها عظمت بين الأمم بدون الجهاد في سبيل الله. ثم اعلم وفقك الله أن الجهاد هو استفراغ الوسع والطاقة وتحمل المشقة والصبر عليها في الدعوة إلى الله تعالى حسـب مـا يقتضيه حال المدعو من الحجة والبيان وبذل الأموال أو المحاربة بالسيف والسنان وبكل ما يمكـن أن يجاهد به في كل مكان وزمان. وهو نوعان: جهاد طلب وابتداء وجهاد دفع.

فالأول:

هو غزو الكفار في بلادهم فدعوتهم إلى الإسلام فإن أبو أخذت منهم الجزية فإن امتنعوا وجب قتالهم وهذا ما درج عليه سلف هذه الأمة حيث وصلت الجيوش الإسلامية إلى شتى بقاع الأرض وانتشـر الإسلام في أرجائها وتوزعت أشلاء المجاهدين في أنحائها جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا.

ففي صحيح مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِى خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ « اغْزُوا بِاسْمِ اللَّـهِ فِـى سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَ لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيـدًا وَإِذَا لَقِيـتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِـمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى يَجْرِى

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِى الْغَنِيمَةِ وَالْفَىْءِ شَىْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ ».

والثاني: جهاد الدفع وذلك حينما يدخل العدو في بلاد المسلمين فيستولي عليها أو تجهز لقتالهم فإنه والحالة هذه يجب على المسلمين قتالهم حتى يندفع شرهم ويرد كيدهم.

وفي كلتا الحالتين هو فرض من فروض الدين وواجب من واجباته شرعة الله سبحانه وتعالى لمصارمة العدو وإدخاله في دين الإسلام.

قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) (البقرة:٢١٦).

وقال تعالى (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) (التوبة:٥).

وقال سبحانه وتعالى (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) (البقرة:١٩١).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة:١٢٣).

وقال عز من قائل (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) (التوبة:١٤).

وفي سنن أبي داود عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِىَّ -ﷺ- قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ ». (صحيح)

وعند النسائي عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ ».(صحيح)

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لأَبِى بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِى عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

وعند أبي داود عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- : « الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا وَالصَّلاَةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ خَلْفَ كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ وَالصَّلاَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ ». ((حسن لغيره))

وروى الترمذي عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا فَقَالَ لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِى هَذَا الشِّعْبِ وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ « لاَ تَفْعَلْ فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهِ فِى بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ اغْزُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ قَاتَلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وروى ابن أبي شيبه في مصنفه ١٩٥٤٥ -حَدَّثَنَا عَبْدَةُ ، عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ رَافِعٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : اُغْزُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا. ((صحيح مرسل))

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- " جَاهِدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ الْجِهَادَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنَجِّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ مِنَ الهَمِّ وَالْغَمِّ "[٢٨]

وعَنْ سُبَيْعٍ قَالَ أَرْسَلُونِى مِنْ مَاءٍ إِلَى الْكُوفَةِ أَشْتَرِى الدَّوَابَّ فَأَتَيْنَا الْكُنَاسَةَ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ جَمْعٌ - قَالَ - فَأَمَّا صَاحِبِى فَانْطَلَقَ إِلَى الدَّوَابِّ وَأَمَّا أَنَا فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ حُذَيْفَةُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ شَرٌّ قَالَ « نَعَمْ ». قُلْتُ فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْهُ قَالَ « السَّيْفُ ». أَحْسَبُ أَبُو التَّيَّاحِ يَقُولُ السَّيْفُ. أَحْسَبُ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا قَالَ « ثُمَّ تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ ». قَالَ قُلْتُ « ثُمَّ مَاذَا ». قَالَ ثُمَّ تَكُونُ دُعَاةُ الضَّلاَلَةِ - قَالَ - فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِى الأَرْضِ فَالْزَمْهُ وَإِنْ نَهَكَ جِسْمَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَإِنْ لَمْ تَرَهُ فَاهْرَبْ فِى الأَرْضِ وَلَوْ أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَاضٌّ بِجِذْلِ شَجَرَةٍ ». قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا قَالَ « ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ ». قَالَ قُلْتُ فِيمَ يَجِىءُ بِهِ مَعَهُ قَالَ بِنَهَرٍ أَوْ قَالَ مَاءٍ وَنَارٍ فَمَنْ دَخَلَ نَهْرَهُ حُطَّ أَجْرُهُ وَوَجَبَ وِزْرُهُ وَمَنْ دَخَلَ نَارَهُ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ »[٢٩].

ومع هذه النصوص القطعية في الأمر بالجهاد في سبيل الله يخرج علينا أقوام يزعمون أن هذا الوقت لا يصلح فيه تطبيق مثل تلك النصوص ويرون الاكتفاء بالدعوة إلى الله عن طريق حلقات العلم وإقامة المناشط الدعوية ظناً منهم أن هذا الوقت أشبه ما يكون بالزمن المكي بل يرون أن هذا العمل هو الجهاد الحقيقي الذي يجب على كافة المصلحين أن يهتموا به غاية الاهتمام إلى غير ذلك من التوهمات

---

[٢٨] - مسند أحمد (٢٣٣٤٨) حسن لغيره

[٢٩] - مسند أحمد (٢٤١٣٨) حسن -الجذل : أصل الشجرة = الفلو : المُهْر الصغير إذا فطم

التي لا تمت إلى الدين بصلة حيث أن التربية لا تكون بدون الجهاد فقد ربى رسول الله ﷺ أصحابه على ذلك في وقت وجيز ثم أمرهم بحمل الرايات لقتال العدو.

ولست أختلف مع هؤلاء في أن الدعوة إلى الله من الجهاد إلا أن مسلكهم هذا يجب أن يكون مطابقاً للعهد المكي حيث أن دعوته ﷺ قائمة بين الكفار وعبدة الأصنام و لم يكن ﷺ يعيش بين المسلمين كما هي حالنا اليوم ولهذا وجب على العلماء والدعاة من المصلحين أن يجمعوا بين الأمرين الدعوة والجهاد.

وأما ما يستدل به هؤلاء على طريقتهم تلك فإنما هو مجرد اجتهاد غير مبني على أصل شرعي وقد يعتقد بعضهم أن ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال حينما رجع من عزوة تبوك رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يدل على وجوب الدعوة إلى الله وأنها أهم من الجهاد بالسيف مع أنه لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي يَرْوِيه بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ { رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ } فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ ؛ بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} (٩٥) سورة النساء، وَقَالَ تَعَالَى : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) [التوبة : ١٩ ، ٢٢] } ..

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلاَّمٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلاَّمٍ قَالَ حَدَّثَنِى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ رَجُلٌ مَا أُبَالِى أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أُسْقِىَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ مَا أُبَالِى أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا

اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.[٣٠]

. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِى عَمْرٍو الشَّيْبَانِىِّ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ – رضى الله عنه – سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ « الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا » . قُلْتُ ثُمَّ أَىٌّ . قَالَ « ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » . قُلْتُ ثُمَّ أَىٌّ قَالَ « الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ » . فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِى[٣١]..

وَفِي الصَّحِيحَ عَنْ أَبِى ذَرٍّ – رضى الله عنه – قَالَ سَأَلْتُ النَّبِىَّ – ﷺ – أَىُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ، قَالَ « إِيمَانٌ بِاللَّهِ ، وَجِهَادٌ فِى سَبِيلِهِ » . قُلْتُ فَأَىُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ « أَغْلاَهَا ثَمَنًا ، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا » . قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ « تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ » . قَالَ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ « تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ »[٣٢] ..

وَفِي الصَّحِيحَ عن أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ . قَالَ « لاَ أَجِدُهُ – قَالَ – هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ » . قَالَ وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِى طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ . أ.هـ[٣٣]..

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ جَلَسَ فِى أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا » . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ . قَالَ « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ »[٣٤].

ولا يشك عاقل أن جهاد النفس وتربيتها على الإيمان أنه من أعظم مقومات النصر إذ أن الهزيمة سببها الوقوع في المعصية لكن ليس معنى ذلك أن يترك الجهاد لهذه الحجة.

قال ابن القيم رحمه الله عند قوله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) : "علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد

---

[٣٠] – صحيح مسلم(٤٩٧٩)

[٣١] – صحيح البخارى (٢٧٨٢) وصحيح مسلم(٢٦٤)

[٣٢] – صحيح البخارى(٢٥١٨) – الأخرق : الجاهل بما يجب أن يعمله و لم يكن فى يديه صنعة يكتسب بها

[٣٣] – صحيح البخارى(٢٧٨٥) وانظر مجموع الفتاوى – (١١ / ١٩٧-١٩٩)

[٣٤] – مسند أحمد (٢٤١٣٨) حسن –الجذل : أصل الشجرة = الفلو : المُهْر الصغير إذا فطم

الشيطان وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل به من الجهاد:

قال الجنيد رحمه الله : (والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً فمن نصر عليها نصر على عدوه ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.. إلى أن قال: ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة ولهذا قال الأوزاعي وابن المبارك " إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر " يعني أهل الجهاد فإن الله يقول (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)] أ.هـ.

فعلى القائلين بعدم وجوب الجهاد أن يتقوا الله في أنفسهم وأن لا يقولوا على الله إلا الحق فإن القول بعدمه ليس له أصل ،وسأذكر بعض الأدلة الواردة في الوعيد الشديد على من لا يرى الجهاد تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى: { قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (٢٤) سورة التوبة

وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة:٣٨-٣٩).

وروى النسائي عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِىِّ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ وَوَضَعُوا السِّلاَحَ وَقَالُوا لاَ جِهَادَ قَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِوَجْهِهِ وَقَالَ « كَذَبُوا الآنَ الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ وَلاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِى أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ وَحَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِى نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يُوحَى إِلَىَّ أَنِّى مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِى أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ » (صحيح).

وفي سنن النسائي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- : « ثَلاَثَةٌ مِنْ أَصْلِ الإِيمَانِ : الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلاَ تُكَفِّرْهُ بِذَنْبٍ وَلاَ تُخْرِجْهُ مِنَ الإِسْلاَمِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِىَ اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِى الدَّجَّالَ لاَ يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلاَ عَدْلُ عَادِلٍ وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ ».

وفي سنن أبي داود عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ ». (صحيح)

وفي مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ ». -.

وروى ابن ماجة عَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ».(حسن)

وما ذكرته هنا من النصوص في هذا المعنى إنما هو قليل من كثير، ولكن أين من ينتفع بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ؟

وأين من يقتدي بسلف هذه الأمة في رفع لواء التوحيد وإعلاء كلمه الله؟

ومن الذي يؤثر الباقي على الفاني ويبيع دنياه بأخراه؟

فاحذروا أيها القاعدون المتقاعسون المخذلون المرجفون من مقت الله لكم وسخطه عليكم، فإن الجهاد في سبيل الله شريعة ماضية إلى يوم القيامة. فعليكم بالتوبة إلى الله والإنابة إليه قبل العرض عليه والحساب بين يديه.

ومع الأسف أن الأمر لم يتوقف على القول بترك الجهاد فحسب بل تعدى ذلك إلى إيذاء المؤمنين المجاهدين والنيل منهم ووصفهم بأنهم إرهابيون حسب ما يراه اليهود والنصارى وأعداء الدين أو أنهم لا يفقهون حقيقة الإسلام أو أنهم خارجون على ولاتهم ومجتمعاتهم فنصبوا لهم العدى وجعلوا يتتبعونهم في كل مكان لأجل تسليمهم إلى العدالة المزعومة فيصبون عليهم جام غضبهم من سجن وتعذيب نكاية لهم ولما قاموا به من نصرة لدين الله عز وجل

أما يعلم هؤلاء أن الله عز وجل لهم بالمرصاد لما يتعاملون به مع حزبه وجنده الذين قال الله فيهم: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج:٣٨).

أما يفيق هؤلاء مما هم سادرون فيه من إيذاء وتنكيل بالمؤمنين أم إنهم قد استبطئوا العذاب والانتقام للمظلومين فويل لهم ثم ويل لهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين فيقتص للمظلوم من الظالم، أليس الله عز وجل قد تولى محاربة من حارب المؤمنين وتعذيبهم بالعذاب المهين؟

أين هؤلاء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما فيهما من الوعيد الشديد على من تعرض المؤمنين وقام بإيذائهم؟ .

وهذه جملة من نصوص الكتاب والسنة أوردها تحذيراً لهؤلاء من الاستمرار فيما هم فيه وتنبيهاً لغافلهم، قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) (الأحزاب:٥٨).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (وإن كان أذيه المؤمنين عظيمة وإثمها عظيماً ولهذا قال فيها: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) أي بغير جناية منهم

موجبة للأذى (فَقَدِ احْتَمَلُوا) على ظهورهم (بُهْتَاناً) حيث آذوهم بغير سبب (وَإِثْماً مُبِينــاً) حيــث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة الله باحترامها].

وفي الظلال : (وهذا التشديد يشي بأنه كان في المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيــد للمــؤمنين والمؤمنات ، بنشر قالة السوء عنهم ، وتدبير المؤامرات لهم ، وإشاعة التهم ضدهم .

وهو عام في كل زمان وفي كل مكان . والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة مــن الأشرار المنحرفين ، والمنافقين ، والذين في قلوبهم مرض . والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيــد ، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان . وهو أصدق القائلين .)

وقال عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُــمْ عَــذَابُ الْحَرِيقِ) (البروج:١٠).

و عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَــادَى لِــى وَلِيًّــا فَقَــدْ آذَنْتُــهُ بِالْحَرْبِ............... » رواه البخاري.

وقال أبو داود - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ الصَّبَّاحِ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِى مَرْيَمَ أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ قَالَ حَدَّثَنِى يَحْيَــى بْنُ سُلَيْمٍ أَنَّهُ سَمِعَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الأَنْصَــارِىَّ يَقُولاَنِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَا مِنِ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِى مَوْضِعٍ تُنْتَهَــكُ فِيــهِ حُرْمَتُــهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِى مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْــلِمًا فِــى مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِى مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ ».

وفي البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضى الله عنهما - عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « الْمُسْلِمُ مَــنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ..... »

ففي هذين الحديثين دليل على وجوب احترام المسلم وعدم خذلانه وإيذاءه.

وفي سنن أبي داود عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِىِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ غَزَوْتُ مَعَ نَبِىِّ اللَّهِ -ﷺ- غَزْوَةَ كَذَا وَكَذَا فَضَيَّقَ النَّاسُ الْمَنَازِلَ وَقَطَعُوا الطَّرِيقَ فَبَعَثَ نَبِىُّ اللَّهِ -ﷺ- مُنَادِيًا يُنَادِى فِى النَّاسِ أَنَّ مَــنْ ضَيَّقَ مَنْزِلاً أَوْ قَطَعَ طَرِيقًا فَلاَ جِهَادَ لَهُ.

وفي المستدرك عن حذيفة رضي الله عنه قال : يكون أمراء يعذبونكم و يعذبهم الله وقال الذهبي في التلخيص : على شرط البخاري ومسلم

فبهذه النصوص وغيرها يتبين عظم جرم المعتدي على عباد الله المؤمنين وأن مصيره إلى العذاب الأليم فاحذروا يا من نذرتم أنفسكم لمطاردة أولياء الله وتعذيبهم والزج بهم في غياهب الســجون فــإن الله يمهل ولا يهمل، وفي البخاري عَنْ أَبِى مُوسَى - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . قَالَ ثُمَّ قَرَأَ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهْــىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

وفي مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ».

وفي البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – أَنَّ النَّبِىَّ – ﷺ – بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ ، فَقَالَ « اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » .

وما أرى هذه الجيوش الصليبية التي قد كشرت عن أنيابها وجاءت لتعلن حقدها الدفين إلا من جراء ما هو حاصل من الظلم والبطش بالمؤمنين والتلبس بكثير من المعاصي التي هي سبب في انتقام الله وسطوته على من تعدى حدوده وارتكب محارمه قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (الرعد:١١).

وقال عز وجل (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى:٣٠).

فاحذروا أن تجروا الأمة إلى الدمار وإشعال الفتن التي ربما عز إطفاؤها وفقدت القدرة على إخمادها

فالجهاد ليس جريمة يحاسب عليها المرء ويدان بها بل الجريمة أن يترك الجهاد ويتعقب المجاهدون لا لشيء إلا لما قاموا به من هذا الأمر العظيم الذي تحدث عنه القرآن في أكثر من خمس مائه آية وجاءت الأحاديث التي لا تحصى تبين حكمه وفضله وما للمجاهدين عند الله من المترلة العظيمة بل توعد الله من ترك الجهاد بالذل والهوان وتسليط العدو والعذاب في الآخرة كما قال تعالى عن المنافقين (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) (التوبة:٨١).

فتأمل قوله تعالى (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً) لما اعتذروا له ﷺ من شدة الحر كيف كان الجواب لهذا الاعتذار الذي لا يغني عنهم من الله شيئاً وقد نهى الله عز وجل عن تقديم محبة الآباء والأبناء وغيرهم على محبة الجهاد وأن من فعل ذلك يحكم عليه بالفسق

قال تعالى : { قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (٢٤) سورة التوبة

وأن من تقاعس عن الجهاد والنفرة في سبيل الله يعذبه الله العذاب الأليم

قال تعالى : {إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٣٩) سورة التوبة

وتأمل الأحاديث المذكورة قريباً يتبين لك ما توعد الله به الناكصين والمتخاذلين عنه فضلاً أن يتربصوا بأهلة الدوائر ويصفوهم بالأوصاف الشنيعة

قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُم الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ {٥٤} وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾

يَسْتَحِثُّ اللهُ تَعَالَى الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِلَى المُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، وَيَقُولُ لَهُم : ارْجِعُوا إِلَى رَبِّكُمْ بالتَّوْبَةِ ، والعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ بِكُمْ نقمُهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ العَذَابُ ، وَحِينَئِذٍ لاَ تَجدُونَ مَن يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَأسِ الله . وَلاَ مَنْ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَهُ ..

ثُمَّ يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ باتِّبَاعِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ (وَهُوَ أَحْسَنُ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَى عِبَادِهِ) ، وَباجْتِنَابِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ ، مِنْ قبلِ أَنْ يَنْزِلَ بِهِم العَذَاب فَجْأَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ، وَلاَ يَنْتَظِرُونَ وَقُوعَهُ حِينَ يَغْشَاهُمْ .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بالإِيمَانِ وبالرُّجُوعِ إِلَيهِ تَعَالَى لِكَيلاَ يَأْتِيَ يَومُ القَيَامَةِ ، فَتَقُولَ بَعْضُ الأَنْفُسِ حِينَ تَرَى صِدْقَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلَ : يَا حَسْرَتِي عَلَى تَقْصِيرِي فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَعَلَى سُخْرِيتِي وَاسْتِهْزَائِي بِرَسُولِ الله ، وَبَمَا جَاءَنِي بِهِ مِنْ عِنْدِ الله .

أَوْ تَقُولَ بَعْضُ الأَنْفُسِ حِينَ تَرَى العَذَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ : لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي وَأَرْشَدَنِي إِلَى دِينِهِ وَطَاعَتِهِ ، لَكُنْتُ فِي الدُّنْيَا مِمّن اتَّقَى اللهَ ، وَتَرَكَ الشِّرْكَ ، وَأَقْلَعَ عَنِ ارْتِكَابِ المَعَاصِي .

أَوْ تَقُولَ بَعْضُ الأَنْفُسِ المُذْنِبَةِ حِينَ تَرَى العَذَابَ يَومَ القِيَامَةِ : لَيْتَ لِي رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا فَاتَّبِعَ الرُّسُلَ ، وَأَكُونَ مِنَ المُهْتَدِينَ المُحْسنِينَ فِي أَعَمَالِهِمْ .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِهَؤُلاَءِ المُتَبَاطِئِينَ فِي التَّوْبَةِ : إِنَّ رَدَّهُ تَعَالَى عَلَى تِلْكَ الأَنْفُسِ التِي تَتَمَنَّى المُنَى يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَتَتَحَسَّرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهَا مِنْ قُصُورٍ ، هُوَ أَنَّهُ لاَ فَائِدَةَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ اليَومَ ، فَقَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فِي الدُّنْيَا عَلَى لِسَانِ رُسُلِي تُذَكِّرُكَ وَتَدْعُوكَ وَتُنذِرُكَ فَكَذَّبْتَ بهَا ، وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ قَبُولِهَا ، وَكُنْتَ مِنَ الثَّابِتِينَ عَلَى الكُفْرِ .الإنابة . والإسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . .

هذا هو كل شيء . بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء !

إنه حساب مباشر بين العبد والرب . وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق . من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإنابة من الضالين ، فلينب . ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء:كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب !

وهيا . هيا قبل فوات الأوان . هيا (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) . . فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا .(واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) . . وهو هذا القرآن بين أيديكم . . (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) . .هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط في حق الله ، وعلى السخرية بوعد الله:أن تقول نفس:يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله . وإن كنت لمن الساخرين أو تقول إن الله كتب عليَّ الضلال ولو كتب عليَّ الهدى لاهتديت واتقيت:(أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين) . .وهي علالة لا أصل لها . فالفرصة ها هي ذي سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة ها هو ذا مفتوح !

(أو تقول حين ترى العذاب:لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) . .وهي أمنية لا تنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وها أنتم أولاء في دار العمل . وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: (بلى . قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) !

٢٦- أن يكونوا جنداً للرحمن :

قال تعالى في سورة الصافات :﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ {١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ {١٧٣}﴾

وَلَقَدْ سَبَقَ وَعْدُ اللهِ فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ أَنَّ العَاقِبَةَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِم المُخْلِصِينَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ . وَأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُمْ وَيُؤَزِّرُهُمْ وَيُذِلُّ أَعْدَاءَهُمْ وَأَعْدَاءَ اللهِ .وَإِنَّ جُنْدَ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، سَتَكُونَ لَهُمْ الغَلَبَةُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي الحَرْبِ .

وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ، وَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَانْتَظِرْ مُدَّةً قَلِيلةً ، فَإِنَّ اللهَ سَيَجْعَلُ لَكَ العَاقِبَةَ ، والنَّصْرَ والغَلَبَةَ

والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض؛ وقام بناء الإيمان ، على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم . وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض . وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل . باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها .وحقت كلمة الله لعباده المرسلين . إنهم لهم المنصورون

وإن جنده لهم الغالبون .هذه بصفة عامة . وهي ظاهرة ملحوظة . في جميع بقاع الأرض . في جميع العصور .وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة . إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق ، وقامت في طريقها العراقيل . ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة ، وهي إن هي إلا معارك تختلف نتائجها . ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله . والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين .

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة؛ وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان؛ وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء . . ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء . ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين!

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريده الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . . ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام . وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام .ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة ، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر . ولأن الله يهيء الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع ، وفي خط أطول ، وفي أثر أدوم .لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد : { ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون } .وعند إعلان هذا الوعد القاطع ، وهذه الكلمة السابقة ، يأمر الله رسوله ﷺ أن يتولى عنهم ، ويدعهم لوعد الله وكلمته ، ويترقب ليبصرهم وقد حقت عليهم الكلمة ، ويدعهم ليبصروا ويروا رأى العين كيف تكون : { فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون؟ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون } . .فتول عنهم ، وأعرض ولا تحفلهم؛ ودعهم لليوم الذي تراهم فيه ويرون هم ما ينتهي إليه وعد الله فيك وفيهم .

٢٧- بذلُ الجهد الكامل لهداية الكفار واليأس من إصلاحهم :

قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {١١٠} ﴾

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلاً قَبْلَهُ فَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يَتَرَاخَى نَصْرُ اللهِ عَنِ الرُّسُلِ ، وَأَنْ يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ ، حَتَّى إِذَا زُلْزِلَتِ النُّفُوسُ ، وَاسْتَشْعَرَتِ القُنُوطَ وَاليَأْسَ مِنَ النَّجَاةِ وَالنَّصْرِ ، فَحِينَئِذٍ يَأْتِي نَصْرُ اللهِ ، فَيُنَجِّي مَنْ يَشَاءُ اللهُ إِنْجَاءَهُ ، وَيُهْلِكُ مَنْ يَشَاءُ إِهْلاَكَهُ ، وَلاَ يَرُدُّ أَحَدٌ بَأْسَ اللهِ وَعِقَابَهُ عَنِ القَوْمِ الُمجْرِمِينَ .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى (كُذِبُوا) قَرَاءَتَانِ :

الأُولَى - (كُذِّبُوا) - بِضَمِّ الكَافِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ - وَكَذَلِكَ كَانَتْ تَقْرَؤُهَا عَائِشَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا - وَمَعْنَاهَا : إِنَّ الرُّسُلَ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ ، وَلَنْ يُؤْمِنُوا لَهُمْ ، وَيَئِسُوا مِنْ قَوْمِهِم الكَافِرِينَ .

وَالثَّانِيَةُ - (كُذِبُوا) - بِضَمِ الكَافِ وَتَخْفِيفِ الذَّالِ - وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَؤُهَا ابْنُ عَبَّاسٍ - وَمَعْنَاهَا : إِنَّهُ لَمَّا يَئِسَ الرُّسُلُ مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوهُمْ ، جَاءَ نَصْرُ اللهِ فَأَيَّدَ الرُّسُلَ .فَفِي القِرَاءَةِ الأُوْلَى : يَشْعُرُ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ كُذِّبُوا مِنْ قِبَلِ أَقْوَامِهِمْ .

وَفِي القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ : يُدْرِكُ القَوْمُ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبُوهُمْ بِمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ ..

إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل في قوته ، وكثرة أهله ، والمؤمنون في عدهم القليلة وقوهم الضئيلة .إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . فتهجس في خواطرهم الهواجس . . تراهم كُذِبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى : { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله . . . ؟ } ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس ، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة ، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات ، وما يحس به من ألم لا يطاق .في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة . . في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً : { جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يردُّ بأسنا عن

القوم المجرمين } . .تلك سنة الله في الدعوات . لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمراً ماحقاً لا يقفون له ، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير .ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً . فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً . أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً . فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء .والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة ، لذلك يشفقون أن يدَّعوها ، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله ، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل؛ إما أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض ، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة ، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله ، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات! . . ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثيرة التكاليف أيضاً . وأنه من ثم لا تنضم إليها في أول الأمر الجماهير المستضعفة ، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله ، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا . وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً . ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، بعد جهاد يطول أو يقصر . وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً .

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية – (ج ٣ / ص ٣٤٥) : " فَصْلٌ فِي قَوْله تَعَالَى { حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } الْآيَةُ : قِرَاءَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ . وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقْرَأُ بِالتَّثْقِيلِ وَتُنْكِرُ التَّخْفِيفَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَهُ – وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِهِ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } مُخَفَّفَةً قَالَتْ – مَعَاذَ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا – قُلْت : فَمَا هَذَا النَّصْرُ – { حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ } بِمَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنَّتْ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ لَعَمْرِي لَقَدْ

اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ . وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ جريج سَمِعْت ابْـنَ أَبِـي مُلَيْكَةَ يَقُولُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : { حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } خَفِيفَةً ذَهَبَ بِهَـا هُنَالِكَ وَتَلَا { حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } فَلَقِيـت عُرْوَةَ فَذَكَرْت ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ : مَعَاذَ اللَّهِ وَاَللَّهِ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى ظَنُّوا وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُهُمْ ؛ فَكَانَتْ تَقْرَؤُهَا : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } مُثَقَّلَةً . فَعَائِشَةُ جَعَلَتْ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِـنْ الْكُفَّـارِ الْمُكَذِّبِينَ وَظَنَّهُمْ التَّكْذِيبَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَلَكِنَّ الْقِرَاءَةَ الْأُخْرَى ثَابِتَةٌ لَا يُمْكِنُ إنْكَارُهَا وَقَدْ تَأَوَّلَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَظَاهِرُ الْكَلَامِ مَعَهُ وَالْآيَةُ الَّتِي تَلِيهَا إنَّمَا فِيهَا اسْتِبْطَاءُ النَّصْرِ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : { مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } فَإِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ تُبْطِئُ لِطَلَبِ التَّعْجِيلِ . وَقَوْلُهُ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } قَدْ يَكُونُ مِثْلَ قَوْلِهِ : { إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ } وَالظَّنُّ لَا يُرَادُ بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الِاعْتِقَادُ الرَّاجِحُ كَمَا هُوَ فِي اصْطِلَاحِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ فِي الْعِلْمِ وَيُسَمُّونَ الِاعْتِقَـادَ الْمَرْجُـوحَ وَهْمًا بَلْ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ } وَقَدْ قَـالَ تَعَـالَى : { وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } . فَالِاعْتِقَادُ الْمَرْجُوحُ هُوَ ظَنٌّ وَهُوَ وَهْمٌ وَهَذَا الْبَابُ قَدْ يَكُـونُ مِـنْ حَدِيثِ النَّفْسِ الْمَعْفُوِّ عَنْهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ } وَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْوَسْوَسَةِ الَّتِي هِيَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ كَمَا ثَبَـتَ { فِـي الصَّـحِيحِ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : إنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يُحْرَقَ حَتَّى يَصِيرَ حُمَمَةً أَوْ يَخِرَّ مِـنْ السَّمَاءِ إلَى الْأَرْضِ : أَحَبُّ إلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَـالَ ذَلِـكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ } وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : { إنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ مَا يَتَعَاظَمُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ : الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إلَى الْوَسْوَسَةِ . } فَهَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي هِيَ تَعْرِضُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : مِنْهَا مَا هُوَ ذَنْبٌ يَضْعُفُ بِهِ الْإِيمَانُ وَإِنْ كَانَ لَا يُزِيلُهُ . وَالْيَقِينُ فِي الْقَلْبِ لَهُ مَرَاتِبُ وَمِنْهُ مَا هُوَ عَفْوٌ يُعْفَى عَنْ صَاحِبِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ يَقْتَرِنُ بِهِ صَرِيحُ الْإِيمَانِ . وَنَظِيرُ هَذَا : مَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَـيِّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ { يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَـدْ كَـانَ يَأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ؛ وَلَوْ لَبِثْت فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْت الدَّاعِيَ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } } وَقَدْ تَرَكَ الْبُخَارِيُّ ذِكْرَ قَوْلِهِ : " بِالشَّكِّ " لَمَّا خَافَ فِيهَا مِنْ تَوَهُّمِ بَعْضِ النَّاسِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَا أَخْبَرَ اللَّـهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى } وَلَكِنْ طَلَبَ طُمَأْنِينَةَ قَلْبِهِ كَمَا قَالَ : { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِـي } فَالتَّفَاوُتُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالِاطْمِئْنَانِ سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ شَكًّا لِذَلِكَ بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَذَلِكَ الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ فِـي الدُّنْيَا : يَكُونُ الشَّخْصُ مُؤْمِنًا بِذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَضْطَرِبُ قَلْبُهُ فَلَا يَطْمَئِنُّ فَيَكُونُ فَوَاتُ الِاطْمِئْنَانِ ظَنًّا أَنَّهُ قَدْ كُذِّبَ فَالشَّكُّ مَظِنَّةُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا تَقْدَحُ فِي الْإِيمَانِ الْوَاجِـبِ وَإِنْ

كَانَ فِيهَا مَا هُوَ ذَنْبٌ فَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنْ الْإِقْرَارِ عَلَى ذَلِكَ كَمَا فِي أَفْعَالِهِمْ عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ أُصُولِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ . وَفِي قَصَصِ هَذِهِ الْأُمُورِ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَوْا بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَيْأَسُوا إذَا اُبْتُلُوا بِذَلِكَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَدْ اُبْتُلِيَ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ إلَى خَيْرٍ فَلْيَتَيَقَّنْ الْمُرْتَابُ وَيَتُوبُ الْمُذْنِبُ وَيَقْوَى إيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ فَبِهَا يَصِحُّ الاتساء بِالْأَنْبِيَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ . } وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ الَّتِي فِيهَا تَسْلِيَةٌ وَتَثْبِيتٌ لِيَتَأَسَّى بِهِمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } وَلَنَا لِأَنَّهُ أُسْوَةٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } وَقَالَ : { مَا يُقَالُ لَكَ إلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } وَقَالَ : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ } { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . } وَإِذَا كَانَ الاتساء بِهِمْ مَشْرُوعًا فِي هَذَا وَفِي هَذَا فَمِنْ الْمَشْرُوعِ التَّوْبَةُ مِنْ الذَّنْبِ وَالثِّقَةُ بِوَعْدِ اللَّهِ وَإِنْ وَقَعَ فِي الْقَلْبِ ظَنٌّ مِنْ الظُّنُونِ وَطَلَبُ مَزِيدِ الْآيَاتِ لِطُمَأْنِينَةِ الْقُلُوبِ كَمَا هُوَ الْمُنَاسِبُ للاتساء وَالِاقْتِدَاءِ دُونَ مَا كَانَ الْمَتْبُوعُ مَعْصُومًا مُطْلَقًا . فَيَقُولُ التَّابِعُ : أَنَا لَسْت مِنْ جنسهِ فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُ بِذَنْبٍ فَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَيْأَسَ مِنْ الْمُتَابَعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ ؛ لِمَا أَتَى بِهِ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِي يُفْسِدُ الْمُتَابعَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْعِصْمَةِ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ : إنَّ ذَلِكَ مَجْبُورٌ بِالتَّوْبَةِ فَإِنَّهُ تَصِحُّ مَعَهُ الْمُتَابَعَةُ كَمَا قِيلَ : أَوَّلُ مَنْ أَذْنَبَ وَأَجْرَمَ ثُمَّ تَابَ وَنَدِمَ آدَمَ أَبُو الْبَشَرِ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ مَا ظَلَمَ . وَاَللَّهُ تَعَالَى قَصَّ عَلَيْنَا قِصَصَ تَوْبَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِنَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي الْمَتَابِ وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الِاقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي أُقِرُّوا عَلَيْهَا فَلَمْ يُنْهَوْا عَنْهَا وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْهَا فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ . فَأَمَّا مَا نُهُوا عَنْهُ وَتَابُوا مِنْهُ فَلَيْسَ بِدُونِ الْمَنْسُوخِ مِنْ أَفْعَالِهِمْ وَإِنْ كَانَ مَا أُمِرُوا بِهِ أُبِيحَ لَهُمْ ثُمَّ نُسِخَ تَنْقَطِعُ فِيهِ الْمُتَابَعَةُ ؛ فَمَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ أَحْرَى وَأَوْلَى . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } قَدْ يَكُونُونَ ظَنُّوا فِي الْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ فِيهِ بِطَرِيقِ الِاجْتِهَادِ مِنْهُمْ ؛ فَتَبَيَّنَ الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ فَهَذَا جَائِزٌ عَلَيْهِمْ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ فَإِذَا ظَنَّ بِالْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ فِيهِ ثُمَّ تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ كَذِبٌ وَكَانَ كَذِبًا مِنْ جِهَةِ ظَنٍّ فِي الْخَبَرِ مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ . فَأَمَّا الشَّكُّ فِيمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ وَسَنُوَضِّحُ ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذَكَرَ هُنَا شَيْئَانِ : " أَحَدُهُمَا " اسْتِيئَاسُ الرُّسُلِ . و " الثَّانِي " ظَنُّ أَنَّهُمْ كُذِبُوا . وَقَدْ ذَكَرْنَا لَفْظَ " الظَّنِّ " فَأَمَّا لَفْظُ (اسْتَيْأَسُوا فَإِنَّهُ قَالَ سُبْحَانَهُ : { حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ } وَلَمْ يَقُلْ يَئِسَ الرُّسُلُ وَلَا ذَكَرَ مَا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ وَهَذَا اللَّفْظُ قَدْ ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ { فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . } وَقَدْ يُقَالُ : الِاسْتِيئَاسُ لَيْسَ هُوَ الْإِيَاسُ ؛ لِوُجُوهِ : " أَحَدُهَا " أَنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ لَمْ يَيْأَسُوا مِنْهُ

بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ قَوْلَ كَبِيرِهِمْ : { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَرْجُو أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ وَحُكْمُهُ هُنَا لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ تَخْلِيصَنَا لِيُوسُفَ مِنْهُمْ وَإِلَّا فَحُكْمُهُ لَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يُنَاسِبُ قُعُودَهُ فِي مِصْرَ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَأَيْضًا : ف " الْيَأْسُ " يَكُونُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي لَا يَكُونُ وَلَمْ يَجِئْ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذًا لَظَالِمُونَ } فَامْتَنَعَ مِنْ تَسْلِيمِهِ إلَيْهِمْ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا لَا يُوجِبُ الْقَطْعَ بِأَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ إلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَتَغَيَّرُ عَزْمُهُ وَنِيَّتُهُ وَمَا أَكْثَرَ تَقْلِيبَ الْقُلُوبِ وَقَدْ يَتَبَدَّلُ الْأَمْرُ بِغَيْرِهِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ إلَى غَيْرِهِ وَقَدْ يَتَخَلَّصُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَالْعَادَاتُ قَدْ جَرَتْ بِهَذَا عَلَى مِثْلِ مَنْ عِنْدَهُ مَنْ قَالَ لَا يُعْطِيهِ . فَقَدْ يُعْطِيهِ وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْ يَدِهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَقَدْ يَمُوتُ عَنْهُ فَيَخْرُجُ وَالْعَالَمُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذَا . " الْوَجْهُ الثَّانِي " قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ : { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } . فَنَهَاهُمْ عَنْ الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ الِاسْتِيئَاسِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ . وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَافِرِينَ فَهَذَا هُوَ " الْوَجْهُ الثَّالِثُ " أَيْضًا . وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ { لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ يَأْسٌ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَأَنْ يَقَعُوا فِي الِاسْتِيئَاسِ بَلْ الْمُؤْمِنُونَ مَا دَامُوا مُؤْمِنِينَ لَا يَيْأَسُونَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَهَذِهِ السُّورَةُ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْمُسْتَيْئِسِينَ وَأَنَّ الْفَرَجَ جَاءَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لِئَلَّا يَيْأَسَ الْمُؤْمِنُ ؛ وَلِهَذَا فِيهَا : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } فَذِكْرُ اسْتِيئَاسِ الْإِخْوَةِ مِنْ أَخِي يُوسُفَ وَذِكْرُ اسْتِيئَاسِ الرُّسُلِ يَصْلُحُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا ذَكَرَتْهُ عَائِشَةُ جَمِيعًا . " الْوَجْهُ الرَّابِعُ " أَنَّ الِاسْتِيئَاسَ اسْتِفْعَالٌ مِنْ الْيَأْسِ وَالِاسْتِفْعَالُ يَقَعُ عَلَى وُجُوهٍ : يَكُونُ لِطَلَبِ الْفِعْلِ مِنْ الْغَيْرِ فَالِاسْتِخْرَاجُ وَالِاسْتِفْهَامُ وَالِاسْتِعْلَامُ يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ يُقَالُ : اسْتَخْرَجْت الْمَالَ مِنْ غَيْرِي وَكَذَلِكَ اسْتَفْهَمْت وَلَا يَصْلُحُ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الِاسْتِيئَاسِ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَطْلُبُ الْيَأْسَ وَيَسْتَدْعِيهِ ؛ وَلِأَنَّ اسْتَيْأَسَ فِعْلٌ لَازِمٌ لَا مُتَّعَدٌ . وَيَكُونُ لِلِاسْتِفْعَالِ لِصَيْرُورَةِ الْمُسْتَفْعِلِ عَلَى صِفَةِ غَيْرِهِ وَهَذَا يَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ كَقَوْلِهِمْ : اسْتَحْجَرَ الطِّينُ أَيْ صَارَ كَالْحَجَرِ . وَاسْتَنْوَقَ الْفَحْلُ أَيْ صَارَ كَالنَّاقَةِ . وَأَمَّا النَّظَرُ فِيمَا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ إخْوَةِ يُوسُفَ حَيْثُ قَالَ : { فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ } . وَأَمَّا الرُّسُلُ فَلَمْ يَذْكُرْ مَا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ بَلْ أَطْلَقَ وَصْفَهُمْ بِالِاسْتِيئَاسِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُقَيِّدَهُ بِأَنَّهُمْ اسْتَيْأَسُوا مِمَّا وُعِدُوا بِهِ وَأُخْبِرُوا بِكَوْنِهِ وَلَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ . وَثَبَتَ أَنَّ قَوْلَهُ : { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } لَا يَدُلُّ عَلَى ظَاهِرِهِ فَضْلًا عَنْ بَاطِنِهِ : أَنَّهُ حَصَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْلُ تَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ فِيمَا أُخْبِرُوا بِهِ فَإِنَّ لَفْظَ الظَّنِّ فِي اللُّغَةِ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ؛ بَلْ يُسَمَّى ظَنًّا مَا هُوَ مِنْ أَكْذَبِ الْحَدِيثِ عَنْ الظَّانِّ ؛ لِكَوْنِهِ أَمْرًا مَرْجُوحًا فِي نَفْسِهِ . وَاسْمُ الْيَقِينِ وَالرَّيْبِ وَالشَّكِّ وَنَحْوِهَا يَتَنَاوَلُ عِلْمَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ وَتَصْدِيقَهُ وَعَدَمَ تَصْدِيقِهِ وَسَكِينَتَهُ وَعَدَمَ

سَكِينَتِهِ لَيْسَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ بِمُجَرَّدِ الْعِلْمِ فَقَطْ كَمَا يَحْسَبُ ذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ كَمَا نَبَّهْنَا [عَلَيْهِ] فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . إذْ الْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : { حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ } . فَإِذَا كَانَ الْخَبَرُ عَنْ اسْتِيئَاسِهِمْ مُطْلَقًا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ إذَا وَعَدَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ مُطْلَقٍ - كَمَا هُوَ غَالِبُ إخباراته - لَمْ يُقَيِّدْ زَمَانَهُ وَلَا مَكَانَهُ وَلَا سَنَتَهُ وَلَا صِفَتَهُ فَكَثِيرًا مَا يَعْتَقِدُ النَّاسُ فِي الْمَوْعُودِ بِهِ صِفَاتٍ أُخْرَى لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهَا خِطَابُ الْحَقِّ بَلْ اعْتَقَدُوهَا بِأَسْبَابِ أُخْرَى كَمَا اعْتَقَدَ طَائِفَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ إخْبَارَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَيَطُوفُونَ بِهِ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا وَرَجَا أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامَ وَيَطُوفَ وَيَسْعَى . فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْ دُخُولِهِ مَكَّةَ ذَلِكَ الْعَامَ - لَمَّا صَدَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى قَاضَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصُّلْحِ الْمَشْهُورِ - بَقِيَ فِي قَلْبِ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ حَتَّى { قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَلَمْ تُخْبِرْنَا أَنَّا نَدْخُلُ الْبَيْتَ وَنَطُوفُ ؟ قَالَ : بَلَى . فَأَخْبَرْتُك أَنَّك تَدْخُلُهُ هَذَا الْعَامَ ؟ . قَالَ : لَا . قَالَ : فَإِنَّك دَاخِلُهُ وَمُطَوِّفٌ } وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ عِلْمًا وَإِيمَانًا مِنْ عُمَرَ حَتَّى تَابَ عُمَرُ مِمَّا صَدَرَ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُحَدَّثًا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ ﷺ { قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ } فَهُوَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْمُحَدَّثُ الْمُلْهَمُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَلَكِنْ مَزِيَّةُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ مُتَابَعَةً لِلرَّسُولِ وَعِلْمًا وَإِيمَانًا بِمَا جَاءَ بِهِ دَرَجَتُهُ فَوْقَ دَرَجَتِهِ ؛ فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ أَفْضَلَ الْأُمَّةِ صَاحِبَ الْمُتَابَعَةِ لِلْآثَارِ النَّبَوِيَّةِ فَهُوَ مُعَلِّمٌ لِعُمَرِ وَمُؤَدِّبٌ لِلْمُحَدَّثِ مِنْهُمْ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مِنْ رَبِّهِ إلْهَامٌ وَخِطَابٌ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ مُعَلِّمًا لِعُمَرِ وَمُؤَدِّبًا لَهُ حَيْثُ قَالَ لَهُ : فَأَخْبَرَك أَنَّك تَدْخُلُهُ هَذَا الْعَامَ ؟ قَالَ : لَا قَالَ إنَّك آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ . فَبَيَّنَ لَهُ الصِّدِّيقُ أَنَّ وَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ مُطْلَقٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَقْتِ وَكَوْنُهُ سَعَى فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَقَصَدَهُ لَا يُوجِبُ أَنْ يَعْنِيَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَقْصِدُ الشَّيْءَ وَلَا يَكُونُ ؛ بَلْ يَكُونُ غَيْرُهُ ؛ إذْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَصَدَهُ ؛ بَلْ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ أَنْ يُقَيِّدَهُ عَمَّا يَقْصِدُهُ إلَى أَمْرٍ آخَرَ هُوَ أَنْفَعُ مِمَّا قَصَدَهُ كَمَا كَانَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْفَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ دُخُولِهِمْ ذَلِكَ الْعَامِ بِخِلَافِ خَبَرِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ صَادِقٌ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَيَتَحَقَّقَ . وَكَذَلِكَ ظَنُّ النَّبِيِّ كَمَا { قَالَ فِي تَأْبِيرِ النَّخْلِ : إنَّمَا ظَنَنْت ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ } فَاسْتِيئَاسُ عُمَرَ وَغَيْرِهِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ هُوَ اسْتِيئَاسٌ مِمَّا ظَنُّوهُ مَوْعُودًا بِهِ وَلَمْ يَكُنْ مَوْعُودًا بِهِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يَمْتَنِعُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَظُنُّوا شَيْئًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ مَا [ظَنُّوهُ] فَقَدْ يَظُنُّونَ فِيمَا وَعَدُوهُ تَعْيِينًا وَصِفَاتٍ وَلَا يَكُونُ كَمَا ظَنُّوهُ فَيَيْأَسُونَ مِمَّا ظَنُّوهُ فِي الْوَعْدِ لَا مِنْ تَعْيِينِ الْوَعْدِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { رَأَيْت أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَدْ أَسْلَمَ ؛ فَلَمَّا أَسْلَمَ خَالِدٌ ظَنُّوهُ هُوَ فَلَمَّا أَسْلَمَ عِكْرِمَةُ عُلِمَ أَنَّهُ هُوَ } . وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ { أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمِ يُلَقِّحُونَ : فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا هَذَا لَصَلَحَ قَالَ : فَخَرَجَ سَبْتًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ : مَا لِفَحْلِكُمْ ؟ قَالُوا : قُلْت : كَذَا وَكَذَا . قَالَ : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ }

وَرُوِيَ أَيْضًا { عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ طَلْحَةَ ابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ : مَرَرْت مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ : مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ فَقَالَ : يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَتُلَقَّحُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ . فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ : إنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي ظَنَنْت ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ } . فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُنَا إذَا حَدَّثَنَا بِشَيْءٍ عَنْ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ بِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ أَتْقَانَا لِلَّهِ وَأَعْلَمُنَا بِمَا يُتَّقَى وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَكُونَ آخِذًا بِمَا يُحَدِّثُنَا عَنْ اللَّهِ فَإِذَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِوَعْدٍ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِهِ وَتَصْدِيقُهُ هُوَ بِهِ أَعْظَمُ مِنْ تَصْدِيقِنَا وَلَمْ يَكُنْ لَنَا أَنْ نَشُكَّ فِيهِ وَهُوَ - بِأَبِي - أَوْلَى وَأَحْرَى أَنْ لَا يَشُكَّ فِيهِ ؛ لَكِنْ قَدْ يَظُنُّ ظَنًّا كَقَوْلِهِ : { إنَّمَا ظَنَنْت ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ } وَإِنْ كَانَ أَخْبَرَهُ بِهِ مُطْلَقًا فَمُسْتَنَدُهُ ظُنُونٌ كَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ ذِي الْيَدَيْنِ : { مَا قَصُرَتْ الصَّلَاةُ وَلَا نَسِيت } . وَقَدْ يَظُنُّ الشَّيْءَ ثُمَّ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَى جَلِيَّتِهِ كَمَا وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أُمُورٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا } نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ لَمَّا اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ [وَهَمَّ أَنْ] يَغْزُوَهُمْ لَمَّا ظَنَّ صِدْقَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ بَنِي أبيرق الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا : { إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } وَذَلِكَ لَمَّا جَاءَ قَوْمٌ تَرَكُوا السَّارِقَ الَّذِي كَانَ يَسْرِقُ وَأَخْرَجُوا الْبَرِيءَ ؛ فَظَنَّ النَّبِيُّ ﷺ صِدْقَهُمْ حَتَّى تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ . { وَقَالَ فِي حَدِيثِ قَصْرِ الصَّلَاةِ : لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ فَقَالُوا : بَلَى قَدْ نَسِيت } . وَكَانَ قَدْ نَسِيَ فَأَخْبَرَ عَنْ مُوجَبِ ظَنِّهِ وَاعْتِقَادِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ . { وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إنِّي لَا أَنْسَى لِأَسُنَّ } وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ فِي الْقُرْآنِ : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } شَامِلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأُمَّتِهِ حَيْثُ قَالَ فِي صَدْرِ الْآيَاتِ : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } الْآيَاتُ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيسَى الْأَنْصَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ { عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بينا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ إلَّا الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بنورين أُوتِيتهمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَك : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إلَّا أُعْطِيته } . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ آدَمَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ { عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : { وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ } دَخَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا قَالَ : فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } الْآيَاتُ إلَى قَوْلِهِ : { أَوْ أَخْطَأْنَا } قَالَ قَدْ فَعَلْت إلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ : قَدْ فَعَلْت } . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ { عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا

مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ } اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا : أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْك هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَك رَبَّنَا وَإِلَيْك الْمَصِيرُ فَلَمَّا اقْتَرَاهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ : أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَثَرِهَا : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ } إلَى قَوْلِهِ : { وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا سُبْحَانَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا } إلَى قَوْلِهِ : { قَبْلِنَا } قَالَ : نَعَمْ : { وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } قَالَ : نَعَمْ . إلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ : نَعَمْ } . وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الْخَطَأُ فِي الِاجْتِهَادِ ؛ لَكِنْ لَا يُقِرُّونَ عَلَيْهِ وَإِذَا كَانَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَكَيْفَ فِي الْخَبَرِ ؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : { إنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ فَأَحْسَبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ } فَنَفْسُ مَا يَعِدُ اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَقًّا لَا يَمْتَرُونَ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ نُوحٍ { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ } إلَى آخِرِ الْآيَةِ . وَمِثْلُ هَذَا الظَّنِّ قَدْ يَكُونُ مِنْ إلْقَاءِ الشَّيْطَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ } إلَى قَوْلِهِ : { صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَلِلنَّاسِ فِيهَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ ؛ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ التَّمَنِّيَ هُوَ التِّلَاوَةُ وَالْقُرْآنُ كَمَا عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ السَّلَفِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ } وَأَمَّا مَنْ أَوَّلَ النَّهْيَ عَلَى تَمَنِّي الْقَلْبِ فَذَاكَ فِيهِ كَلَامٌ آخَرُ ؛ وَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ النَّوْعَيْنِ ؛ لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ فِي التَّفْسِيرِ وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَمُرَادُ الْآيَةِ قَطْعًا لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ : { فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } . وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ فِي مُجَرَّدِ الْقَلْبِ إذَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ النَّبِيُّ ؛ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي ظَنِّهِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بَعْضُهُ النَّخْلُ وَنَحْوُهَا وَهُوَ يُوَافِقُ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِذَا كَانَ التَّمَنِّي لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ الْقَوْلُ فَفِيهِ قَوْلَانِ : " الْأَوَّلُ " أَنَّ الْإِلْقَاءَ هُوَ فِي سَمْعِ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّسُولُ وَهَذَا قَوْلُ مَنْ تَأَوَّلَ الْآيَةَ بِمَنْعِ جَوَازِ الْإِلْقَاءِ فِي كَلَامِهِ . و " الثَّانِي " - وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ عَامَّةُ السَّلَفِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ - أَنَّ الْإِلْقَاءَ فِي نَفْسِ التِّلَاوَةِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَسِيَاقُهَا مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ كَمَا وَرَدَتْ بِهِ الْآثَارُ الْمُتَعَدِّدَةُ وَلَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ إلَّا إذَا أَقَرَّ عَلَيْهِ فَأَمَّا إذَا نَسَخَ اللَّهُ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ وَأَحْكَمَ آيَاتِهِ فَلَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ وَلَيْسَ هُوَ خَطَأٌ وَغَلَطٌ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إلَّا إذَا أَقَرَّ عَلَيْهِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَنْ يُقِرَّ عَلَى خَطَأٍ كَمَا قَالَ : { فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ بِشَيْءِ فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ } وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا قَامَتْ الْحُجَّةُ بِهِ فَإِنَّ كَوْنَهُ رَسُولَ اللَّهِ يَقْتَضِي أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ وَالصِّدْقُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْكَذِبِ وَنَفْيَ الْخَطَأِ فِيهِ . فَلَوْ جَازَ عَلَيْهِ الْخَطَأُ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ

وَأَقَرَّ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ . وَالَّذِينَ مَنَعُوا أَنْ يَقَعَ الْإِلْقَاءُ فِي تَبْلِيغِهِ فَرُّوا مِنْ هَذَا وَقَصَدُوا خَيْرًا وَأَحْسَنُوا فِي ذَلِكَ ؛ لَكِنْ يُقَالُ لَهُمْ : أَلْقَى ثُمَّ أَحْكَمَ فَلَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ هَذَا يُشْبِهُ النَّسْخَ لِمَنْ بَلَغَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ إذًا مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِرَفْعِ قَوْلٍ سَبَقَ لِسَانُهُ بِهِ لَيْسَ أَعْظَمَ مِنْ إخْبَارِهِ بِرَفْعِهِ . وَلِهَذَا قَالَ فِي النَّسْخِ : { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } فَظَنُّهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا هُوَ يَتَّبِعُ مَا يَظُنُّونَهُ مِنْ مَعْنَى الْوَعْدِ وَهَذَا جَائِزٌ لَا مَحْذُورَ فِيهِ . إذَا لَمْ يُقِرُّوا عَلَيْهِ وَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِظَاهِرِ الْآيَةِ وَلِسَائِرِ الْأُصُولِ مِنْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَالَّذِي يُحَقِّقُ [ذَلِكَ] أَنَّ بَابَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ لَيْسَ بِأَعْظَمِ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . فَإِذَا كَانَ مِنْ الْجَائِزِ فِي بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَنْ يَظُنُّوا شَيْئًا ثُمَّ يَتَبَيَّنُ الْأَمْرُ لَهُمْ بِخِلَافِهِ ؛ فَلَأَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى حَتَّى إنَّ بَابَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ إذَا تَمَسَّكُوا فِيهِ بِالِاسْتِصْحَابِ لَمْ يَقَعْ فِي ذَلِكَ ظَنُّ خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ الَّذِي لَا يَثْبُتُ إلَّا بِخِطَابِ إذَا نَفَوْهُ قَبْلَ الْخِطَابِ كَانَ ذَلِكَ اعْتِقَادًا مُطَابِقًا لِلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ وَبَابُ الْوَعْدِ إذَا لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ قَدْ يَظُنُّونَ انْتِفَاءَهُ كَمَا ظَنَّ الْخَلِيلُ جَوَازَ الْمَغْفِرَةِ لِأَبِيهِ حَتَّى اسْتَغْفَرَ لَهُ وَنُهِينَا عَنْ الِاقْتِدَاءِ . كَمَا { قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَك مَا لَمْ أُنْهَ عَنْك } وَحَتَّى اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ لِأُمِّهِ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَتَّى صَلَّى عَلَى الْمُنَافِقِينَ قَبْلَ أَنْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ وَكَانَ يَرْجُو لَهُمْ الْمَغْفِرَةَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } إلَى قَوْلِهِ : { لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } وَقَالَ عَنْ الْمُنَافِقِينَ : { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا } الْآيَةُ . وَقَالَ { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لن يغفر الله لهم } فَإِذَا كَانَ صَلَّى عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ رَاجِيًا أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ . وَلِهَذَا سَوَّغَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يُرْوَى فِي بَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنْ الْأَحَادِيثِ مَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ كَذِبٌ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِسْنَادِ . بِخِلَافِ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْخَذُ فِيهِ إلَّا بِمَا يَثْبُتُ أَنَّهُ صِدْقٌ ؛ لِأَنَّ بَابَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ إذَا أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ صِدْقًا وَأَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ الْخَبَرُ كَذِبًا لَمْ يَجُزْ نَفْيُهُ ؛ لَا سِيَّمَا بِلَا عِلْمٍ كَمَا لَمْ يَجُزْ الْجَزْمُ بِثُبُوتِهِ بِلَا عِلْمٍ ؛ إذْ لَا مَحْذُورَ فِيهِ . مَنَابِتُ النَّاسِ اللَّفْظُ تَعْيِينُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَلَا يَجُوزُ مَنْعُ ذَلِكَ بِمَنْعِ الْحَدِيثِ إذَا أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ صِدْقًا ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إبْطَالًا لِمَا هُوَ حَقٌّ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ } وَهَذَا الْبَابُ وَهُوَ " بَابُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ " هُوَ فِي الْكِتَابِ بِأَسْمَاءِ مُطْلَقَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ وَالْمُحْسِنِينَ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَظُنُّ مِنْ النَّاسِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْوَعْدِ وَيَكُونُ اللَّفْظُ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْوَعْدِ لَا فِي اعْتِقَادِ صِدْقِ الْوَعْدِ فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : { إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وَقَوْلِهِ : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } الْآيَتَيْنِ فَقَدْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ كَمَالَ الْإِيمَانِ الْمُسْتَحِقِّ لِلنَّصْرِ وَإِنَّ جُنْدَ اللَّهِ الْغَالِبُونَ وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَقَدْ يَقَعُ مِنْ النَّصْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ مَا لَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ الْمَوْعُودِ بِهِ فَالظَّنُّ الْمُخْطِئُ فَهَمَ

ذَلِكَ كَثِيرٌ جدًّا أَكْثَرُ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَعَ كَثْرَةِ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي ذَلِكَ وَهَذَا مِمَّا لَا يَحْصُرُ الْغَلَطَ فِيهِ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَهَذَا عَامٌّ لِجَمِيعِ الْآدَمِيِّينَ ؛ لَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ لَا يُقِرُّونَ ؛ بَلْ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ وَغَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ لَا يَتَبَيَّنُ لَهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا . وَلِهَذَا كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَأْمُرُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَصْدِيقِ الْوَعْدِ وَالْإِيمَانِ وَمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ الصَّبْرِ إلَى أَنْ يَجِيءَ الْوَقْتُ وَمِنْ الِاسْتِغْفَارِ لِزَوَالِ الذُّنُوبِ الَّتِي بِهَا تَحْقِيقُ اتِّصَافِهِ بِصِفَةِ الْوَعْدِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } وَقَالَ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ } الْآيَةُ . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ . وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ".

٢٨- الصبرُ على أذى الكفار في حال الضعف :

قال تعالى في سورة الأنعام :﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ {٣٤} ﴾

يَلْفِتُ اللهُ تَعَالَى نَظَرَ رَسُولِهِ إلى مَا لاَقَاهُ الرُّسُلُ قَبْلَهُ مِنْ تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ ، فَصَبَرُوا عَلَى الإِيذَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ، حَتَّى جَاءَ نَصْرُ اللهِ . ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَنْ تَتَأَسَى بِهِمْ ، وَتَصْبِرَ ، فَكَمَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ مَنْ سَبَقَكَ مِنَ الرُّسُلِ ، كَذَلِكَ سَيَنْصُرُكَ اللهُ عَلَى أَعْدَائِكَ الكَافِرِينَ ، وَلاَ مُبَدِّلَ لَكَلِمَاتِ اللهِ التِي قَضَى فِيهَا أنَّ النَّصْرَ وَالعَاقِبَةَ سَتَكُونَانِ لِلْمُؤْمِنينَ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ نَبَأُ نَصْرِ اللهِ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ وَعَادَاهُمْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ ، فِيمَا قَصَّهُ عَلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ نَبَأِ المُرْسَلِينَ قَبْلَكَ ، وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لَكَ ، وَتَثْبِيتٌ .

إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب . . مستقيم الخطى ، ثابت الأقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . . والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة هي العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق :{ ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين } . .كلمات يقولها الله – سبحانه – لرسوله – ﷺ – . . كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية . . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله – ﷺ – طريقهم واضحاً ، ودورهم محدداً ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . . .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة . كما أنها كذلك وحدة . وحدة لا تتجـزأ . . دعـوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . ولكنها تجيء في موعدها . لا يعجلها عـن هـذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكـذيب ، ولا أن المجـرمين الضـالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صـاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حباً في هدايتهم ، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة ، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة .. لا يعجلـها عن موعدها شيء من ذلك كله . فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه . ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم ، أم تعلقت بالأجل المرسوم .إنه الجد الصارم ، والحسم الجازم ، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية . .

إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيـه ، إلا أن هذا النصر إنما يأتي في موعده الذي يقدره الله ، وفق علمه وحكمته ، وهو غيب لا يعلم موعده أحد – حتى ولا الرسول – والمشقة في هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين:من التكـذيب والإعـراض اللذين تقابل بهما الدعوة في أول الأمر ، والحرب والأذى اللذين يعلنان على الدعاة . .

ثم من الرغبة البشرية في نفس الداعية في هداية الناس إلى الحق الذي تذوقـه ، وعـرف طعمـه ، والحماسة للحق والرغبة في استعلانه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحـرب والأذى . فكلها من دواعي مشقة الطريق !

والتوجيه القرآني في هذه الموجه من السياق يعالج هذه المشقة من جانبيها . .

ذلك حين يقرر أن الذين يكذبون بهذا الدين أو يحاربون دعوته ، يعلمون علم اليقين أن ما يـدعون إليه هو الحق ، وأن الرسول الذي جاء به من عندالله صادق . ولكنهم مع هذا العلم لا يسـتجيبون ، ويستمرون في جحودهم عنادا وإصرارا ، لأن لهم هوى في الإعراض والتكذيب ! وأن هـذا الحـق يحمل معه دليل صدقه ، وهو يخاطب الفطرة فتستجيب له ، متى كانت هذه الفطرة حية ، وأجهـزة الاستقبال فيها صالحة: (إنما يستجيب الذين يسمعون) . .

فأما الذين يجحدون فإن قلوبهم ميتة وهم موتى وهو صم وبكم في الظلمات . والرسول لا يسـمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء . والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى . فذلك من شأن الله . . هذا كله من جانب ، ومن الجانب الآخر ، فإن نصر الله آت لا ريب فيه . .

كل ما هنالك أنه يجري وفق سنة الله وبقدر الله ، وكما أن سنة الله لا تستعجل ، وكلماته لا تتبدل ، من ناحية مجيء النصر في النهاية ، فكذلك هي لا تتبدل ولا تستعجل من ناحية الموعد المرسوم . .

والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يلحق بالدعاة – ولو كانوا هم الرسل – فإن استسلام صـــاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة ، وصبره على الأذى بلا تململ ، ويقينه في العاقبة بلا شك . . كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر إلى موعده المرسوم .

ويحدد هذا التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين – ودور الدعاة بعده في كل جيل – إنه التبليغ ، والمضي في الطريق ، والصبر على مشاق الطريق . .

أما هدى الناس أو ضلالهم فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته . .

والهدى والضلال إنما يتبعان سنة إلهية لا تتبدل ، ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يحـــب ، كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب . .

إن شخصه لا اعتبار له في هذه القضية ، وحسابه ليس على عدد المهتدين ، إنما حسابه على مـــا أدى وما صبر وما التزم ، وما استقام كما أمر . .

وأمر الناس بعد ذلك إلى رب الناس . . (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . . (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) . .

(إنما يستجيب الذين يسمعون) وقد بينا من قبل علاقة مشيئة الله الطليقة في الهدى والضـــلال باتجـــاه الناس وجهادهم . بما فيه الكفاية .

من هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة إلى هذا الدين ، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة ، في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية ؛ ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغبـــاتهم وأهوائهم وشهواتهم . .

ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق – وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنـــهم القرآن في مواضع منه شتى ، منها في هذه السورة (وقالوا:لولا أنزل عليه ملك !) . . (وقـــالوا:لولا نزل عليه آية من ربه) . .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) . .

وفي السور الأخرى ما هو أشد إثارة للعجب من هذه الاقتراحات . ذلك كالذي حكـــاه عنـــهم في سورة الإسراء: (وقالوا:لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيـــل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء – كما زعمت – علينا كسفا ، أو تأتي بـــالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تـــترل علينا كتابا نقرؤه !) . .

وكالذي حكاه عنهم في سورة الفرقان: وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك ، فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كتر ، أو تكون له جنة يأكل منها ! . .

والتوجيه القرآني المباشر في هذه الموجه من السورة نهى رسول الله ﷺ والمؤمنين أن يرغبوا في إتيانهم بآية – أية آية – مما يطلبون . وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم:(وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون) . .

وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ! قيل لهم: قل:إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون . .

ليعلموا أولاأن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق ، ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون ، وأنهم موتى ، وأن الله لم يقسم لهم الهدى – وفق سنة الله في الهدى والضلال كما اسلفنا – ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجري وفق سنة لاتتبدل ، وأنه أعز من أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم !

وهذا يقودنا إلى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني . .

إنه ليس خاصا بزمن ، ولا محصورا في حادث ، ولا مقيدا باقتراح معين . فالزمن يتغير ، وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى . وأصحاب الدعوة إلى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر . .

إن الرغبة في الاستجابة لمقترحات المقترحين هي التي تقود بعض أصحاب الدعوة الإسلامية اليوم إلى محاولة بلورة العقيدة الإسلامية في صورة "نظرية مذهبية " على الورق كالذي يجدونه في النظريات المذهبية الأرضية الصغيرة ، التي يصوغها البشر لفترة من الفترات ؛ ثم يمضي الزمن فإذا كلها عورات وشطحات ومتناقضات ! . .

وهي التي تقود بعض أصحاب هذه الدعوة إلى محاولة بلورة النظام الإسلامي في صورة مشروع نظام – على الورق – أو صورة تشريعات مفصلة – على الورق أيضا – تواجه ما عليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها بالإسلام [لأن أهل هذه الجاهلية يقولون:إن الإسلام عقيدة ولا علاقة له بالنظام العام الواقعي للحياة !] وتنظم لهم هذه الأوضاع ؛ بينما هم باقون على جاهليتهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ولا يحكمون أو يتحاكمون إلى شريعة الله . .

وكلها محاولات ذليلة ، لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة ، التي لا تثبت على حال . باسم تطور وسائل الدعوة إلى الله !

وأذل من هذه المحاولة محاولة من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات . .

كالاشتراكية . . والديمقراطية . . وما إليها . .

ظانين أنهم إنما يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة ! . .

إن "الاشتراكية " مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشـــر ؛ قابـــل للصـــواب والخطـــأ . وإن "الديمقراطية " نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك ، يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضا . .

والإسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي ، والنظام الاجتماعي الاقتصادي ، والنظام التنفيـــذي والتشكيلي . .

وهو من صنع الله المبرأ من النقص والعيب . .

فأين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله – سبحانه – عند البشر بوصفه بصـــفة مـــن أعمال البشر ؟ بل أين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لله – سبحانه – عند العبيد بقول مـــن أقوال هؤلاء العبيد ؟! . .

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه . . يتخـــذونهم أولياء:

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . .) فهذا هـــو الشـــرك ! فمـــا الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنـــهم – ويا للنكر والبشاعة ! – يستشفعون لله – سبحانه – عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيـــد ومناهجهم ؟!

إن الإسلام هو الإسلام . والاشتراكية هي الاشتراكية . والديمقراطية هي الديمقراطية . . ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له ، والصفة التي وصفه بها . . وهذه وتلك من مناهج البشر . ومن تجارب البشر . .

وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس . .

ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله ، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشـــري المتقلب . وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله !

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم ، ولم يقدروا الله حق قدره . .

إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية ، وباسم الديمقراطية ، لأن هذين زيان مـــن أزياء الاتجاهات المعاصرة . فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند النـــاس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعي !

كما كانالحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجميع القـــومي للولايـــات المتناثرة كما في ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وماتزيني مثلا ! وغدا من يدري ماذا يكون الزي الشـــائع

من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم التي يضعها العبيد للعبيد ، فكيف يا ترى ستقولون غدا عن الإسلام ؟ لتقدموه للناس في الثوب الذي يحبه الناس ؟!

إن التوجيه القرآني في هذه الموجة التي نحن بصددها - وفي غيرها كذلك - يشمل هذا كله . . إنه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه ؛ فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين ؛ ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ؛ ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته . .

إن الله غني عن العالمين . ومن لم يستجب لدينه عبودية له ، وانسلاخا من العبودية لسواه ، فلا حاجة لهذا الدين به ، كما أنه لا حاجة لله - سبحانه - بأحد من الطائعين أو العصاة .

ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه ، التي يريد الله أن تسود البشرية . فإن له كذلك أصالته في منهجه في العمل ، وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية . . إن الذي نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه ، وبمنهجه الحركي وأسلوبه ، هو - سبحانه - الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه . .

وفي هذه الموجة من السورة نموذج من مخاطبته للفطرة الإنسانية . .

نموذج من نماذج متنوعة شتى . . فهو يربط الفطرة البشرية بالوجود الكوني ، ويدع الإيقاعات الكونية تواجه الفطرة البشرية ، ويثير انتباه الكينونة البشرية لتلقي هذه الإيقاعات . .

وهو يعلم أنها تستجيب لها متى بلغتها بعمقها وقوتها: (إنما يستجيب الذين يسمعون) . .

والنموذج الذي يواجهنا في هذه الموجة هو:

(وقالوا:لولا نزل عليه آية من ربه ! قل:إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون) . .

وفي هذه الآية يحكي قول الذين يكذبون ويعارضون ويطلبون خارقة يراها جيلهم وتنتهي . . ثم يلمس قلوبهم بما يكمن وراء هذا الاقتراح لو أجيب !

إنه الأخذ والتدمير !

والله قادر على أن ينزل الآية . .

ولكن رحمته هي التي اقتضت ألا ينزلها ، وحكمته هي التي اقتضت ألا يستجيب لهم فيها . .

وفجأة ينقلهم من هذا الركن الضيق في التصور والتفكير ، إلى الكون الواسع . إلى الآيات الكبرى من حولهم . الآيات التي تتضاءل دونها تلك الآية التي يطلبونها . الآيات الباقية في صلب الكون للأجيال كلها من قبلهم ومن بعدهم تراها:

(وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا في الكتاب من شيء . ثم إلى ربهم يحشرون) . .

وهي حقيقة هائلة . .

هي حقيقة تستطيع ملاحظتهم وحدها حينذاك - حيث لم يكن لهم علم منظم - أن تشهد بها . .

حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في أمم . .
لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك . . وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر ، ولكن علمهم لا يزيد شيئا على أصلها !
وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة بها ، وهي إحاطة علم الله اللدني بكل شيء ، وتدبير الله لكل شيء . .
وهي الحقيقة التي تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة . .
فأين تذهب الخارقة المادية التي كانوا يطلبون ، أمام الخارقة الكبرى التي يرونها حيثما امتدت أبصارهم وملاحظتهم وقلوبهم فيما كان وفيما سيكون ؟
إن المنهج القرآني - في هذا النموذج - لا يزيد على أن يربط الفطرة بالوجود ، وأن يفتح النوافذ بين الوجود والفطرة ، وأن يدع هذا الوجود الهائل العجيب يوقع إيقاعاته الهائلة العميقة في الكيان الإنساني . .
إنه لا يقدم للفطرة جدلا لاهوتيا ذهنيا نظريا . ولا يقدم لها جدلا كلاميا [كعلم التوحيد] الغريب على المنهج الإسلامي . ولا يقدم لها فلسفة عقلية أو حسية ، إنما يقدم لها هذا الوجود الواقعي - بعالميه عالم الغيب وعالم الشهادة - ويدعها تتفاعل معه وتتجاوب ، وتتلقى عنه وتستجيب ، ولكن في ظل منهج ضابط لا يدعها - وهي تتلقى من الوجود - تضل في المتاهات والدروب .
ثم يختم الفقرة بالتعقيب على موقف المكذبين بهذه الآيات الكبرى:
(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . .
فيقرر حقيقة حالة المكذبين وطبيعتهم . .
إنهم صم وبكم في الظلمات . .
ويقرر سنة الله في الهدى والضلال . .
إنها تعلق مشيئة الله بهذا أو ذاك ، وفق الفطرة التي فطر الله عليها العباد .
بذلك تلتئم جوانب التصور الإسلامي للأمر كله . إلى جانب وضوح المنهج في الدعوة ، وتقرير موقف صاحب الدعوة ، وهو يتحرك بهذه العقيدة ، ويواجه النفوس البشرية في كل حال وفي كل جيل . .

وقال تعالى : (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (ابراهيم:١٢)
وَبَعْدَ أَنْ أَجَابَهُم الأَنْبِيَاءُ عَلَى شُبُهَاتِهِمْ ، أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ يُخَوِفُونَهُمْ ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بِالانْتِقَامِ وَالإِيذَاءِ

، فَقَالَ لَهُمُ الأَنْبِيَاءُ إِنَّنَا لاَ نَخَافُ تَهْدِيدَكُمْ ، بَلْ نَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ ، وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ لاَ نَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ ، وَقَدْ هَدَانَا لأَقْوَمِ الطُّرُق وَأَوْضَحِهَا وَأَبْيَنِهَا؟ وَسَنَصْبِرُ عَلَى مَا أَلْحَقْتُمُوهُ بِنَا مِنَ الأَذَى بِأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَمَنْ تَوَكّلَ عَلَى اللهِ كَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ وَأَغَمَّهُ ..

وكلها لمحات من ذلك الجمال الباهر لا يملك التعبير البشري إلا أن يشير إليها كما يشار إلى النجم البعيد ، لا تبلغ الإشارة مداه ، ولكنها فقط تلفت العين إلى سناه . . .

. ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام! . . إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاجتياح؛ ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد!

وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها ، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت ، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام! . . إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة؛ وكذلك لم يخدع الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة . .{ وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا } . .فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم ، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص . إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم ، ويندمجوا في تجمعهم ، ويذوبوا في هذا التجمع . أو أن يطردوهم بعيداً وينفوهم من أرضهم . .و لم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي ، ولا أن يذوبوا فيه ، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص . . هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي . . و لم يقولوا كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام . . ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات : حسناً! فلنندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم!!!

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي ، لا بد ان يتبعه حتماً تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه . . وليس في ذلك اختيار . . إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات . . هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساساً بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده؛ وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان . كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في الجاهلية خادماً للتجمع الجاهلي لا خادماً لإسلامه كما يظن الأغرار!

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال . وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين؛ والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم؛ وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم . . فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه عاملون في

تشكيلاته . . وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والـــتمكين . . وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله ، وهم واعون مقدرون . .

وقال تعالى : {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) [الأحقاف/٣٥]

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلى مَا تُلاقِيهِ مِنْ تَكْذِيبِ قَومِكَ لَكَ ، كَمَا صَبَرَ أَصْحَابُ القُوَّةِ والثَّبَـــاتِ ، مِـــنَ الرُّسُلِ الذِينَ سَبَقُوكَ ، عَلَى تَكْذِيبِ أَقْوامِهِمْ لَهُمْ حِينَما أَبْلَغُوهُمْ دَعْـــوَةَ اللهِ إِلى الإِيمَـــانِ بِـــهِ . وَلا تَسْتَعْجِلْ بِسُؤَالِ رَبِّكَ أَنْ يُنزِلَ بِهِم العَذَابَ ، فَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ لا مَحَالَةَ . وَأَنَّهُمْ حِينَمـــا يَنْـــزِلُ بِهِـــم العَذَابُ يَومَ القِيَامَةَ يَرَوْنَ أَنَّ مُدَّةَ لَبْثِهِمْ في الدُّنيا (أَوْ فِي قُبُورِهِمْ) كَانَتْ قَصِيرةً ، حَتَّى لَيَحْسَـــبُوها سَاعَةً مِنْ نَهارٍ .

وَهذا الذِي وُعِظْتُم بِهِ لكَافٍ فِي المَوعِظَةِ ، وَلاَ يَهلِكُ بالعَذاب إِلا الكَافِرُونَ الخَارِجُونَ عَنْ طَاعَـــةِ اللهِ وَأَمْرِهِ ، لأَنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ إِلا مَنْ يَسْتَحِقُّ العَذَابَ ..وكل كلمة في الآية ذات رصيد ضخم ؛ وكـــل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعاني والإيحاءات ، والقضايا والقيم .

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل لهم . .

توجيه يقال لمحمد ﷺ وهو الذي احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى . وهو الذي نشأ يتيما ، وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد . الأب . والأم . والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون . وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل . كما هو مجرد من كل ســـند أو ظهير . وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين . وهو الذي خـــرج مـــرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة . وفي بعض المرات باستهزاء الســـفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتـــهال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . .

ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ في تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وصلابتها ، وفي صفائها وشفافيتها . تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .

نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتـــاج إلى صـــبر . وإن مرارتـــه لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم .(فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرســـل ولا تستعجل لهم

تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية . . ثم تطمين: (كأهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) .

إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الأخرة . وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار . . ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم . وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم: (بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) . .لا . وما الله يريد ظلما للعباد . لا . وليصبر الداعية على ما يلقاه . فما هي إلا ساعة من نهار . ثم يكون ما يكون . .

٢٩- الصبر على البلاء :

قال تعالى :{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)} [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧]

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ بِأَنَّهُ سَيَبْلُوهُمْ وَيَخْتَبِرُهُمْ بِقَليلٍ (بِشَيءٍ) مِنْ الخَوْفِ والجُوعِ ، وَبِذَهَابِ بَعْضِ المَالِ ، وَبِموتِ بَعْضِ الأَصْحَابِ وَالأَقَارِبِ وَالأَحْبَابِ ، وَبِنَقْصِ غِلاَلِ المَزَارِعِ . . . فَمَنْ صَبَرَ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَحُكْمِهِ أَثَابَهُ ، وَمَنْ قَنَطَ وَلَجَّ أَحَلَّ بِهِ عِقَابَهُ .

وَيُبَشِّرُ اللهُ الصَّابِرينَ بِحُسْنِ العَاقِبَةِ فِي أُمُورِهِمْ .

أَمَّا الصَّابِرُونَ الذِينَ خَصَّهُمُ اللهُ بِالبُشْرَى فَهُمُ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللهِ ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ مُصِيبَةٌ صَبَرُوا ، وَتَمَسَّكُوا بِقَولِهِمْ : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِليهِ رَاجِعُونَ ، أَيْ إِنَّهُم عَبيدُ اللهِ وَمُلْكُهُ ، وَإِنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِليهِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ . وَفِي الحَدِيثِ : " مَنِ استَرجَعَ عِنْدَ المُصِيبَةِ جَبَرَ اللهُ مُصِيبَتَهُ ، وَأَحْسَنَ عَاقِبَتَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ خَلَفاً صَالِحاً يَرْضَاهُ " (أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ)

يُثْنِي اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّابِرينَ ، وَيُخْبِرُ بِأَنَّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَثَرَهَا فِي بَرْدِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ نُزُولِ المُصِيبَةِ ، وَأَنَّهُمْ هُمُ المُهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِ الخَيْرِ ، وَإِلَى الحَقِّ والصَّوابِ ، وَأَنَّهُمُ اسْتَسْلَمُوا لِقَضَاءِ اللهِ فَلَمْ يَسْتَحْوِذِ الجَزَعُ عَلَيهِمْ .

لا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . .

لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف . والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها

عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين . وكلما تألموا في سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها . .

كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها . كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها . .

إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم:لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ، ولا صبروا عليه . . وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها ، مقدرين لها ، مندفعين إليها . . وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا . .

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى . فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ؛ وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد . والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون ، والران عن القلوب .

وأهم من هذا كله ، أو القاعدة لهذا كله . .

الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها ، وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب إلى الله وحده . لا يجد سندا إلا سنده . وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات ، وتتفتح البصيرة ، وينجلي الأفق على مد البصر . . لا شيء إلا الله . . لا قوة إلا قوته . . لا حول إلا حوله . . لا إرادة إلا إرادته . . لا ملجأ إلا إليه . . وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح . . والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: (وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا:إنا لله وإنا إليه راجعون) . .

إنا لله . . كلنا . . كل ما فينا . . كل كياننا وذاتيتنا . .

لله . . وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير . .

التسليم . . التسليم المطلق . . تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه بالحقيقة الوحيدة ، وبالتصور الصحيح .

هؤلاء هم الصابرون . . الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل . .

وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) . .

صلوات من ربهم . .

يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه . . وهو مقام كريم . .

ورحمة . . وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون . . وكل أمر من هذه هائل عظيم . .

وبعد . . فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي . التعبئة في مواجهة المشقة والجهد ، والاستشهاد والقتل ، والجوع والخوف ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف .

إن الله يضع هذا كله في كفة . ويضع في الكفة الأخرى أمرا واحدا . . صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . .

إنه لا يعدهم هنا نصرا ، ولا يعدهم هنا تمكينا ، ولا يعدهم هنا مغانم ، ولا يعدهم هنا شيئا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته . .

لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها . فكان من ثم يجردها من كل غاية ، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية – حتى الرغبة في انتصار العقيدة – كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته . .

كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون . .

هذا هو الهدف ، وهذه هي الغاية ، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها . . فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم ، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها .

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء . جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات . وجزاء على الخوف والجوع والشدة . وجزاء على القتل والشهادة . .

إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء . أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور . .

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب ، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين .

٣٠- الاستغاثةُ بالله تعالى :

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ {٩} وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {١٠} ﴾

حِينَمَا التَقَتِ الفِئَتَانِ ، المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سَاحَةِ المَعْرَكَةِ ، وَجَدَ المُسْلِمُونَ المُشْرِكِينَ كَثِيري العَدَدِ ، فَاسْتَغَاثَ الرَّسُولُ بِرَبِّهِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ أَنْجِزْنِي وَعْدَكَ الذِي وَعَدْتَنِي . فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ

الآيَةَ الكَرِيمَةَ . وَفِيهَا يُعْلِمُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهِ وَدُعَاءِ الُمسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُ سَيَمُدُّهُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ يَأْتُونَهُمْ مَدَداً يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، أَيْ يَأتِي بَعْضُهُمْ إِثْرَ بَعْضٍ .

وَيَذْكُرُ تَعَالَى : أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ إِرْسَالَ المَلاَئِكَةِ لإِمْدَادِ الُمسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ إِلاَّ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتَطْمِيناً لِقُلُوبِهِمْ ، بِأَنَّهُمْ سَيَنْتَصِرُونَ ، وَتَثْبِيتاً لأَقْدَامِهِمْ أَثْنَاءَ القِتَالِ ، لأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِهِمْ بِدُونِ ذَلِكَ ، لأَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَحْدَهُ ، فَهُوَ العَزِيزُ الجَانِبِ ، الحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ ..

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ حَدَّثَنِى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِىُّ اللَّهِ -ﷺ- الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِى مَا وَعَدْتَنِى اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِى اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِى الأَرْضِ ». فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَالَ يَا نَبِىَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلاَئِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِى ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِى أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ « صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ». فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ « مَا تَرَوْنَ فِى هَؤُلاَءِ الأُسَارَى ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِىَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ». قُلْتُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِى رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّى أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّى مِنْ فُلاَنٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِىَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِى مِنْ أَىِّ شَىْءٍ تَبْكِى أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « أَبْكِى لِلَّذِى عَرَضَ عَلَىَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَىَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ». شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِىِّ اللَّهِ -ﷺ-. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (مَا كَانَ لِنَبِىٍّ

أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ) إِلَى قَوْلِهِ (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا) فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. صحيح مسلم[٣٥]

إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره؛ وتسير بجند الله وتوجيهه . . وهي شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان ، كأنه يكون الآن!

فأما قصة الاستغاثة فقد روى الإمام أحمد – بإسناده – عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي – ﷺ – إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة . فاستقبل النبي – ﷺ – القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً » قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل :{ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين}

وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة في يوم بدر : عددهم . وطريقة مشاركتهم في المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . . ونحن – على طريقتنا في الظلال– نكتفي في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة . والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : { إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أَنِّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين } . . فهذا عددهم . . { إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان } . . فهذا عملهم . . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . . وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم ، وهي قلة والأعداء كثرة . وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيها الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله – سبحانه – في كلماته . .قال البخاري : باب شهود الملائكة بدرا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي ، عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر – قال : جاء جبريل إلى النبي – ﷺ – فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال : « من أفضل المسلمين » – أو كلمة نحوها – قال : « وكذلك من شهد بدراً من الملائكة » . . (انفرد بإخراجه البخاري) . . .{ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم } . .لقد استجاب لهم ربهم

[٣٥]– برقم (٤٦٨٧) – خطم : ظهر أثر الضربة فيه =الصناديد : جمع صنديد وهو كل عظيم شريف رئيس متغلب

وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين . . ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سبباً ينشئ نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه – سبحانه – تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره . فهذه الاستجابة ، وهذا المدد ، وهذا الإخبار به . . . كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون . . هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً . .

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي ، وأن يمضوا في طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله . . كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم . . وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتاً للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي . . وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة . ثم يجيء النصر من عند الله وحده . حيث لا يملك النصر غيره . وهو « العزيز » القادر الغالب على أمره . وهو « الحكيم » الذي يحل كل أمر محله .

<u>وفي كتاب فقه السيرة</u> :– أهمية التضرع الى الله تعالى وشدة الإستعانة به :

لقد رأينا أن النبى ﷺ كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم ' حتى أنه كان يشير الى أماكن متفرقة من الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ' وهذا مصرع فلان ' ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة و السلام ' فما تزحزح أحد فى مقتله عن موضع يده كما ورد فى الحديث الصحيح .

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة فى العريش الذى أقيم له يجأر إلى الله تعالى داعياً متضرعاً ' باسطاً كفيه الى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره الذى وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر الصديق ' والتزمه قائلا : كفى يا رسول الله ' إن الله منجز لك ما وعد ' فلماذا كل هذه الضراعة ما دام أنه مطمئن الى درجة أنه قال : لكأنى أنظر الى مصارع القوم ' وأنه حدد مصارع بعضهم على الأرض ؟

والجواب : أن إطمئنان النبى ﷺ و إيمانه بالنصر ' إنما كان تصديقاً منه للوعد الذى وعد الله به رسوله ' ولا شك ان الله لا يخلف الميعاد ' وربما أوحى إليه خبر النصر فى تلك الموقعة .

أما الإستغراق فى التضرع و الدعاء و بسط الكف الى السماء ' فتلك هى وظيفة العبودية التى خلق من أجلها أفنسان ' وذلك هو ثمن النصر فى كل حال .

فما النصر– مهما توافرت الوسائل و الأسباب – إلا من عند الله تعالى و بتوفيقه ' والله عز وجل لا يريد منا إلا أن نكون عبيداً له بالطبع و الإختيار ' وما تقرب متقرب الى الله بصف أعظم من صفة العبودية'وما إستأهل إنسان بواسطة من الوسائط إستجابة دعاء من الله تعالى ' كمن إستأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتزىّ ويتبرقع به بين يدى الله تعالى .

وما كل أنواع المصائب و المحن المختلفة التى تهدد الإنسان فى هذه الحياة أو تنزل بـــه ' إلا أســـباب وعوامل تنبهه لعبوديته ' وتصرف آماله وفكره الى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته ' كى يفر إليه سبحانه وتعالى ويبسط أمامه ضعفه و عبوديته ' ويستجير به من كل فتنة وبلاء ' وإذا إســـتيقظ الإنسان فى حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها ' فقد وصل الى الحد الذى أمر الله عباده جميعـــاً أن يقفوا عنده وينتهوا إليه .

فهذه العبودية التى إتخذت مظهرها الرائع فى طول دعاء النبى ﷺ وشدة ضراعته و مناشدته لربه أن يؤتيه النصر ' هى الثمن الذى إستحق به ذلك التاييد الإلهى العظيم فى تلك المعركة ' وقد نصت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول :(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بـــألف مـــن الملائكـــة مردفين) ' ويقينا منه ﷺ بهذه العبودية لله عز وجل ' كان واثقاً بالنصـــر مطمئنـــاً الى أن العاقبـــة للمسلمين ' ثم قارن مظهر هذه العبودية التى تجلت فى موقفه ﷺ ونتائج ذلك ' مع مظهـــر ذلـــك الطغيان والتجبر الذى تجلى فى موقف أبى جهل حينما قال : لن نرجع حتى نرد ماء بـــدر فننحـــر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ' وتسمع بنا العرب و بمسيرنا وجمعنـــا فـــلا يزالون يهابوننا ' ونتائج ذلك التجبر و الجبروت ... !

لقد كانت نتيجة العبودية و الخضوع لله تعالى عزة قعساء ومجداً شامخاً خضع لهمـــا جـــبين الـــدنيا باسرها ' ولقد كانت نتيجة الطغيان و الجبروت الزائفين قبراً من الضيعة و الهوان أقـــيم لأربابهمـــا حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان ' وتلك هى سنة اله فى الكون كلما تلاقـــت العبوديةلله خالصة مع جبروت و طغيان زائفين .

- الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر :

إنطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد و النصر للمسلمين الصادقين ' فقـــد أمـــدّ الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم ' وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب و السنة الصحيحة ' روى ابن هشام أن النبى صلى اله عليه وسلم خفق خفقة فى العريش ثم إنتبه فقال :(أبشر يا أبـــا بكر ' أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع) ورواه البخارى أيضـــاً بلفـــظ قريب منه .

ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة فى بيان الله عز وجل ليس المقصود به ما يتوهمـــه البعض من المدد الروحى أو القوة المعنوية أو نحو ذلك - أقول من أوضح الأدلة القاطعة على بطـــلان هذا الوهم ' ضبط البيان الإلهى الملائكة بعدد محدود وهو الألف ' فى قوله تعالى :(فاستجاب لكـــم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل فى الأشياء ' ولا يكون ذلك إلا فى الأشياء المادية المحسوسة .

ومن هنا نعلم أن تقييد ا لبيان الإلهى الملائكة بعدد معين ينطوى على حكم باهرة من أجلها قطع السبيل على من يريد تناول الآية ' ويفسر الملائكة بالمعنى الذى يروق له وهو مجرد الدعم المعنوى . ثم إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين ' إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم ' واستجابة حسية لشدة إستغاثتهم إقتضاها أنهم يقفون مع أول تجربة قتال فى سبيل الله ' لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم فى العدة و العدد 'وإلا فإن النصر من عند الله وحده ' وليس للملائكة أى تأثير ذاتى فى ذلك ' ومن أجل بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى معللا نزول الملائكة :(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ' وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) .

٣١- عدمُ الخوف إلا من الله :

قال تعالى في سورة آل عمران :﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ {١٧٢} الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {١٧٣} فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ {١٧٤} إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {١٧٥} ﴾

بَعْدَ أنِ انْصَرَفَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ يَوْمَ أحُدٍ مُتَّجِهةً إلَى مَكَّةَ ، نَدِمَتْ عَلَى الانْصِرَافِ قَبْلَ اسْتِئْصَالِ شَأفَةِ المُسْلِمِينَ ، وَالقَضَاءِ عَلَيْهِمْ ، ففَكَّرُوا فِي العَوْدَةِ إلى المَدِينَةِ .

وَعَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بذَلِكَ ، فَنَدَبَ المُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ وَرَاءَ المُشْرِكِينَ لِيَثْنِيَهُمْ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي العَوْدَةِ ، وَأمَرَ بألاَّ يَخْرُجَ مَعَهُ إلاَّ مَنْ شَهِدَ أحُداً ، فَتَسَارَعَ النَّاسُ إلَى الخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيهِ مِنْ جِرَاحٍ وَقَدْ وَعَدَ اللهُ مَنْ أحْسَنَ مِنْ هَؤُلاءِ المُسْتَجِيبِينَ لِلْرَسُولِ ﷺ وَاتَّقى أجْراً عَظِيماً .

وَخَافَتْ قُرَيشٌ أنْ يَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أهْلَ المَدِينَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي المَعْرَكَةِ ، وَيَخْرُجَ وَرَاءَهُمْ ، فَأَرْسَلُوا إلَيهِ بَعْضَ نَاقِلِي الأخْبَارِ لِيُهَوِّلُوا عَلَيهِ ، لِيَكُفَّ عَنِ اللِّحَاقِ بِهِمْ ، وَقَالَ نَاقِلُوا الأخْبَارِ لِلْمُسْلِمِينَ : إنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ (النَّاسَ) قَدْ حَشَدُوا لَكُمْ ، وَجَمَعُوا قُوَاهُمْ ، فَاحْذَرُوهُمْ ، وَاخْشَوْهُمْ ، فَلَمْ يَزِدْ هَذَا القَوْلُ هَؤُلاءِ المُؤْمِنِينَ - الذِينَ اسْتَجَابُوا لِلْرَسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أصَابَهُمُ القَرْحُ وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُلَبِّينَ دَعْوَتَهُ ، رَاغِبِينَ فِي نَيْلِ رِضْوَانِ رَبِّهِمْ وَنَصْرِهِ - إلاَّ إيمَاناً بِرَبِهِمْ ، وَثِقَةً بوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ وَأجْرِهِ ، وَرَدُّوا عَلَى مُخَاطِبِيهِمْ قَائِلِينَ : إنَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُمْ . فَلَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ كَفَاهُمُ اللهُ مَا أَهَمَّهُمْ وَأَغَمَّهُمْ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأسَ النَّاسِ (الكَافِرِينَ) ، فَرَجَعُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ ، وَقَدْ فَازُوا بِرِضْوَانِ اللهِ ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ

(خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ الرَّسُولِ إلى مَوْقِعٍ يُعْرَفُ بِحَمْرَاءِ الأَسَــدِ ، وَأَرْسَــلَ إلى الْمُشْــرِكِينَ رُسُــلاً يُحَذِّرُونَهُمْ ، فَخَافَتْ قُرَيْشٌ وَتَابَعَتْ سَيْرَهَا نَحْوَ مَكَّةَ) .

وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ وَاعَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَدْراً مِنَ العَامِ القَابِلِ ، فَخَرَجَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى بَدْرٍ فِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ ، وَتَخَلَّفَتْ قُرَيْشٌ ، فَاشْتَرَى رَسُولَ اللهِ عِيْراً مَرَّتْ بِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ ، ثُمَّ بَاعَهَا فَرَبِحَ ، وَوَزَّعَ الرِّبْحَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، فَانْقَلَبُوا مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ الثَّانِيَةِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَنَالُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَحَصَلُوا عَلَى فَضْلِهِ فِي الرِّبْحِ . وَاللهُ عَظِيمُ الفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ .

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، أنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الذِي يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُــوهِمُكُمْ أَنَّهُــمْ ذَوُو بَأْسٍ وَقُوَّةٍ ، وَهُوَ الذِي قَالَ لَكُمْ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَــلاَ تَخَــافُوا أَوْلِيَــاءَ الشَّيْطَانِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ ، وَالْجَؤُوا إِلَيهِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقّاً ، فَإِنَّهُ كَافِيكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَنَاصِــرُكُمْ عَلَيْهِمْ . وَخَافُوهُ هُوَ فَهُوَ القَادِرُ عَلَى النَّصْرِ وَعَلَى الخُذْلاَنِ ، وَعَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ..

وعَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَــرْحُ لِلَّــذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) قَالَتْ لِعُرْوَةَ يَا ابْنَ أُخْتِى كَانَ أَبُوكَ مِنْهُمُ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْــرٍ ، لَمَّــا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا قَالَ « مَنْ يَذْهَبُ فِى إِثْرِهِمْ » . فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلاً ، قَالَ كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْــرُ . صــحيح البخارى[٣٦]

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة . وهــم مثخنون بالجراح . وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة . وهم لم ينسوا بعد هــول الدعكة ومرارة الهزيمة وشدة الكرب . وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا فقل عددهم فوق مــا هــم مثخنون بالجراح!

ولكن رسول الله - ﷺ - دعاهم . ودعاهم وحدهم . ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخــرج معهم - ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! - فاستجابوا . . استجابوا لدعوة الرسول - ﷺ - وهي دعوة الله - كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتــها وفي مفهــومهم كــذلك - فاستجابوا بهذا لله والرسول { من بعد ما أصابهم القرح } ونزل بهم الضر وأثخنتهم الجراح .

لقد دعاهم رسول الله - ﷺ - ودعاهم وحدهم . وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى وتومىء إلى حقائق كبرى نشير إلى شيء منها :

فلعل رسول الله - ﷺ - شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم هو شــعور الهزيمة وآلام البرح والقرح ؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش وتعقبها كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء

---

[٣٦]- برقم (٤٠٧٧)

وليست نهاية المطاف . وأنهم بعد ذلك أقوياء وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء إنما هي واحدة وتمضي ولهم الكرة عليهم متى نفضوا عنهم الضعف والفشل واستجابوا لدعوة الله والرسول .ولعل رسول الله - ﷺ - شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته .فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس ؛ يشعر قريشاً أنها لم تنل من المسلمين منالاً . وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها . .وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة

ولعل رسول الله - ﷺ - شاء أن يشعر المسلمين وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض . . حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها . ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها وليس لهم من غاية في حياتهم سواها . عقيدة يعيشون لها وحدها فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها ولا يقدمونها فداها

لقد كان هذا أمراً جديداً في هذه الأرض في ذلك الحين . ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها - بعد أن يشعر المؤمنون - بقيام هذا الأمر الجديد وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة .ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة : صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم - كما أبلغهم رسل أبي سفيان - وكما هوّل المنافقون في أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا - : { الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل } . .هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلاناً قوياً عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة . وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة . .وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صورة من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة : قال محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله - ﷺ - من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال : شهدنا أحداً مع رسول الله - ﷺ - أنا وأخي ، فرجعنا جريحين . فلما أذن مؤذن رسول الله - ﷺ - بالخروج في طلب العدو ، قلت لأخي - أو قال لي - أتفوتنا غزوة مع رسول الله - ﷺ -؟ - والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل . فخرجنا مع رسول الله - ﷺ - وكنت أيسر جراحاً منه فكان إذا غلب حملته عقبة . . حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون .وقال محمد بن إسحاق : كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله - ﷺ - في الناس بطلب العدو وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس .فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام . فقال : يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع . وقال يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن . ولست بالذي أوثرك

بالجهاد مع رسول الله – ﷺ – على نفسي . فتخلف على أخوتك . فتخلفت عليهن . . فأذن لــه رسول الله – ﷺ – فخرج معه . .وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان مــيلاد تلــك الحقيقة الكبيرة في تلك النفوس الكبيرة . النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلاً وترضــى بــه وحــده وتكتفي وتزداد إيماناً به في ساعة الشدة وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس : { حســبنا الله ونعم الوكيل } . .ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه المكتفين به المتجردين له :{ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله } .فأصــابوا النجــاة – لم يمسسهم سوء – ونالوا رضوان الله . وعادوا بالنجاة والرضى .{ بنعمة من الله وفضــل } . .فهنــا يردهم إلى السبب الأول في العطاء : نعمة الله وفضله على من يشاء . ومع التنويه بموقفهم الرائع فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله لأن هذا هو الأصل الكبير الذي يرجع إليه كل فضل وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل!

{ والله ذو فضل عظيم } . .بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد وفي كلامه الــذي تتجــاوب بــه جوانب الكون كله صورتهم هذه وموقفهم هذا وهي صورة رفيعة ، وهو موقــف كــريم .وينظــر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف فيحس كأن كيان الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم وليلة . نضجت . وتناسقت . واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها . وانجلى الغبش عن تصورها . وأخذت الأمر جداً كله . وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة التي حدثت بــالأمس فقــط في التصــورات والصفوف . فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس . . والفارق هائل والمسافة بعيدة . . لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس ؛ وقد هزتها الحادثــة هزاً عنيفاً . أطار الغبش وأيقظ القلوب وثبت الأقدام وملأ النفوس بالعزم والتصميم . .نعم . وكان فضل الله عظيماً في الابتلاء المرير . .وأخيراً يختم هذه الفقرة بالكشف عن علــة الخــوف والفــزع والجزع . . إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب وأن يخلع عليهم سمــة القــوة والهيبة . . ومن ثم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان وأن يبطلوا محاولته .فلا يخافوا أوليــاءه هؤلاء ولا يخشوهم بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوي القاهر القادر الذي ينبغي أن يخاف : { إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين } .إن الشيطان هو الــذي يضخم من شأن أوليائه ويلبسهم لباس القوة والقدرة ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول وأنهــم يملكون النفع والضر . . ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه وليحقق بهم الشــر في الأرض والفســاد وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ؛ ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد .والشيطان صاحب مصلحة في أن ينــتفش الباطــل وأن يتضخم الشر وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً لا تقف في وجهه معارضة ولا يصــمد لــه مدافع ولا يغلبه من المعارضين غالب . . الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا . فتحت

ستار الخوف والرهبة وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقــر عينــه! يقلبــون المعروف منكراً والمنكر معروفاً وينشرون الفساد والباطل والضلال ويخفتون صوت الحــق والرشــد والعدل ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخــير . . دون أن يجــرؤ أحــد علــى مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة . بل دون أن يجرؤ أحد علــى تزييف الباطل الذي يروجون له وجلاء الحق الذي يطمسونه . .والشيطان ماكر خادع غادر يختفــي وراء أوليائه وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته . . ومن هنــا يكشــفه الله ويوقفه عارياً لا يستره ثوب من كيده ومكره . ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكره ووسوســته ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . فهم وهو أضعف من أن يخــافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته . . إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملــك النفع والضر . هي قوة الله . وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها وحدها أقــوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة في الأرض . . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان : { فلا تخــافوهم . وخافون إن كنتم مؤمنين } . .وأخيراً يتجه السياق في ختام الاستعراض والتعقيب إلى الرســول - ﷺ - يسليه ويؤسيه عما يقع في قلبه الكريم من الأسى والحزن من مســارعة الكفــار إلى الكفــر ونشاطهم فيه كأنهم في سباق إلى هدف! فإن هذا لن يضر الله شيئاً . وإنما هي فتنة الله لهم وقدر الله بهم فقد علم الله من أمرهم وكفرهم ما يؤهلهم للحرمان في الآخرة ؛ فتركهم يسارعون في الكفر إلى نهايته! وقد كان الهدى مبذولاً لهم فآثروا عليه الكفر ؛ فتركوا يسارعون في الكفــر . وأملــي لهــم ليزدادوا إثماً مع الإملاء في الزمن والإملاء في الرخاء . فهذا الإمهال والإملاء إنما هو وبال عليهم وبلاء .

٣٢- عدم الفرار من المعركة :

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَــارَ {١٥} وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَــأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {١٦} ﴾

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الُمؤْمِنِينَ بالثَّبَاتِ فِي المَعْرَكَةِ ، وَبِمُوَاجَهَةِ الكَافِرِينَ بقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى عَــدَمِ الفِرَارِ وَتَوْلِيَةِ الظُّهُورِ لِلأَعْدَاءِ ، وَإِنْ كَانَ الكَافِرُونَ أَكْثَرَ مِنَ الُمؤْمِنِينَ عَدَداً ، لأنَّ الفِرَارَ يُحْدِثُ الوَهَنَ فِي الجَيْشِ الإِسْلاَمِي الُمقَاتِلِ .

وَلَكِنَّهُ تَعَالَى سَمَحَ لِلْمُقَاتِلِ بِحُرِّيَّةِ الحَرَكَةِ أَثْنَاءِ المَعْرَكَةِ ، كَأنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَكَانٍ فِي المَعْرَكَةِ إلى مَكَــانٍ آخَرَ ، لِنُصْرَةِ فَرِيقٍ مِنَ الُمسْلِمِينَ ، أَوْ لِسَدِّ ثَغْرَةٍ نَفَذَ مِنْهَا العَدُوُّ ، فَالُمهِمُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ هَدَفُ الُمقَاتِــلِ

الْمُسْلِمِ النَّصْرَ أَوِ الشَّهَادَةِ ، وَإِطَاعَةِ أَمْرِ القِيَادَةِ . أَمَّا الذِينَ يَتْرُكُونَ المَعْرَكَةَ فِرَاراً وَهَرَباً مِنَ المَوْتِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ بِالعَذَابِ الأَلِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وفي صحيح البخارى (٢٧٦٦) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هُنَّ قَالَ « الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ » .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا { إِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ } زاحفين نحوكم لقتالكم { فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار } أى . فلا تفروا منهم ، ولا تولوهم ظهوركم منهزمين ، بل قابلوهم بقوة وغلظة وشجاعة ، فإن من شأن المؤمن أن يكون شجاعا لا جبانا ، ومقبلا غير مدبر .

فالمراد من تولية الأدبار : الانهزام ، لأن المنهزم يولى ظهره وقفاه لمن انهزم منه . وعدل من لفظ الظهور إلى الأدبار ، تقبيحا للانهزام ، وتنفيرا منه ، لأن القبل والدبر يكنى بهما عن السوءتين .

ثم بين – سبحانه – أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين فقال – تعالى – : { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير } .

وقوله : { مُتَحَرِّفاً } من التحرف بمعنى الميل والانحراف من جهة إلى جهة بقصد المخادعة فى القتال وهو منصوب على الحالية .

وقوله { أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ } من التحيز بمعنى الانضمام . تقول : حزت الشئ أحوزه إذا ضممته إليك . وتحوزت الحية أى انطوت على نفسها .

والفئة : الجماعة من الناس . سميت بذلك لرجوع بعضهم إلى بعض فى التعاضد والتناصر . من الفئ بمعنى الرجوع إلى حالة محمودة .

والمعنى : أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون المؤمن عند توليته منحازا إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضما إليها للتعاون معها على القتال ، حيث إنها فى حاجة إليه .

وهذا كله من أبواب خدع الحرب ومكايدها .

وقد توعد – سبحانه – الذى ينهزم أمام الأعداء فى غير هاتين الحالتين بقوله : { فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير } .أى : ومن يول الكافرين يوم لقائهم دبره غير متحرف ولا متحيز فقد رجع متلبسا بغضب شديد كائن من الله – تعالى – ومأواه الذى يأوى إليه فى الآخرة جهنم وبئس المصير هى .وقوله : { فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله . . . } جواب الشرط لقوله ، ومن يولهم .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١- وجوب مصابرة العدو ، والثبات فى وجهه عند القتال ، وتحريم الفرار منه .

قال الآلوسى : فى الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المتحرف أو المتحيــز . أُخـــرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – أنه قال : " اجتنبـــوا الســـبع الموبقات – أى المهلكات – قالوا : يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقـــذف المحصـــنات الغافلات المؤمنات " .

ثم قال : وجاء وعد – التولى الزحف – من الكبائر فى غير ما حديث .

٢– أن الخطاب فى الآيتين لجميع المؤمنين وليس خاصاً بأهل بدر . قال الفخر الرازى ما ملخصـــه : اختلف المفسرون فى أن هذا الحكم – وهو تحريم التولى أمام الزحف – هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإِطلاق؟

فنقل عن أبى سعيد الخدرى والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهزم يوم بدر . قالوا : والسبب فى اختصاص بدر بهذا الحكم أن رسول الله – ﷺ – كان حاضراً يوم بدر . . وأنــه – سبحانه – شدد الأمر على أهل بدر ، لأنه كان أول الجهاد ، ولو اتفق للمسلمين انهزام فيه لـــزم منه الخلل العظيم

والقول الثانى : أن الحكم المذكور فى هذه الآية كان عاماً فى جميع الحروب بديل أن قوله – تعـــالى – { يَآأَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ } عام فيتناول جميع الصور . أقصى ما فى الباب أنه نـــزل فى واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وهذا القول الثانى هو الذى نرجحه ، لأن ظاهر الآية يفيد العموم لكل المؤمنين فى كل زمان ومكان ، ولأن سورة الأنفال كلها قد نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها .

٣– أن الآيتين محكمتان وليستا منسوختين . أى أن تحريم التولى يوم الزحف على غير المتحـــرف أو لمتحيز ثابت لم ينسخ .

وقد رجح ذلك الإِمام ابن جرير فقال ما ملخصه : " سئل عطاء بن أبى رباح عن قوله { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ } فقال : هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال بعد ذلك وهى قوله – تعـــالى – : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ . . . } ولـــيس لقوم أن يفروا من مثليهم .

وقال آخرون : بل هذه الآية حكمها عام فى كل من ولى الدبر عن العدو منهزما .

وأولى التأويلين بالصواب فى هذه الآية عندى : قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهـــل بدر . وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين . وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الـــدبر منهزمين إلا لتحرف القتال ، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين ، حيث كانت من أرض الإِســـلام ، وأن

من ولادهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما – بغير نية إحدى الخلتيين اللتين أباح الله التولية بهمـــا – فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

وإنما قلنا : هى محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا فى غير موضع ، أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ وله فى غير النسخ وجه ، إلا بحجة التسليم لها : من خبر يقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قوله – تعالى – { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَـــالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ } .

٣٣- شعورهم بانهم مظلومون وسعيهم لإزالة الظلم :

قال تعالى :{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِـــنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَـــوَامِعُ وَبِيَـــعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيـــزٌ (٤٠) } [الحج : ٣٩ ، ٤٠]

هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الجِهَادِ ، وَقَدْ نَزلَتْ بَعْدَ خُروجِ النَّبِيِّ عليهِ السَّلاَمُ وَأَصْحَابِهِ مِنْ مَكَّـــةَ إِلَـــى المَدِينَةِ . يَقُولُ تَعَالَى : إنَّ المُشْرِكِينَ قَدْ ظَلَمُوا المُسْلِمينَ فِي مَكَّةَ ، وأَخْرَجُوهُم مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَلاَ ذَنْبَ لَهُمْ إلاَّ أَنَّهُمْ آمَنُوا باللهِ ، وَقَالُوا : رَبُّنَا اللهُ . وَلِذَلِكَ أَذِنَ اللهُ تَعَالَى للمُسْـــلِمِينَ فِـــي قِتَـــالِ المُشْرِكِينَ ، دَفْعً لأَذَاهُم ، وإِضْعَافاً لِشَوْكَتِهِم ، وتَشْجيعاً لِمَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي الإِسْلاَمِ عَلَى الالْتِحَاقِ بالمُسْلِمِينَ لِيَكُونُوا قُوَّةً تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِها ، وَتُرهِبُ أعْدَاءَهَا الكفَّارَ ، وإنَّ اللهَ قَادِرٌ وَحْدَهُ عَلَى نَصْـــرِ المُسْلِمِينَ دُونَ عَوْنٍ مِنْهَمْ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يُريدُ مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُم فِي طَاعَةِ رَبِّهِـــم ، وأَن يَقُومُوا بواجِبِهِم فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفِسهِم وَدِينِهِ .

وقال السعدي :

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلمـــوا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم.

{ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } فليستنصروه، وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: { الَّـــذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ } أي: ألجئوا إلى الخروج بالأذية والفتنة { بِغَيْرِ حَقٍّ إلا } أن ذنبهم الذي نقـــم منهم أعداؤهم { أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } أي: إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنبا، فهو ذنبهم كقوله تعالى: { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } وهذا يدل

على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين الله، وذب الكفار المؤذين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال: { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين، { لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ } أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين، { يُذْكَرَ فِيهَا } أي: في هذه المعابد { اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } تقام فيها الصلوات، وتتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وفتنوهم عن دينهم، فدل هذا، أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وببركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضوا من أعضاء المملكة، وجزء من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعددها أو عددها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصا المساجد، فإنها -ولله الحمد- في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظرا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثير] ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفا من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت -ولله الحمد- أسبابه [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل] فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } أي: يقوم بنصر دينه، مخلصا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

{ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عدد عدوكم وعددهم فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } وقوموا، أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا }

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ } أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، { أَقَامُوا الصَّلاةَ } في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

{ وَآتُوا الزَّكَاةَ } التي عليهم خصوصا، وعلى رعيتهم عموما، آتوها أهلها، الذين هم أهلها، { وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ } وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا من حقوق الله، وحقوق الآدميين، { وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } كل منكر شرعا وعقلا معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعا، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

{ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ } أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة.

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامح والباطل مسلح .

وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

و لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم . ومن ثم لم يشأ ان يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد . . وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته : { إن الله يدافع عن الذين آمنوا } . .

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتماً : { إن الله لا يحب كل خوان كفور } . .

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلمون غير معتدين ولا متبطرين : { أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا } . .

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم : { وان الله على نصرهم لقدير } . .

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة . وذلك فوق انهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق : { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله } . . وهي أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التي تشتجر فيها الأطماع؛ وتتعارض فيها المصالح؛ وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع!

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً } . .

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول .

ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه . وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان!

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين :

{ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور } . .

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتماً من عدوه ، ظاهر حتماً على عدوه . . ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام . . والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من « التنابلة » الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء!

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها؛ ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين ، يعطل تلــك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيــه تضحيات عزيزة . وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ بــه و لم تشــحذ طاقــاقم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفــر ، والقــوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . . من الأمل والألم . ومن الفــرح والغــم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة . . ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات . . وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ و لم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

٣٤- اليقينُ بوعد الله تعالى :

قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَــدَنَا اللَّــهُ وَرَسُــولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا {٢٢} مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّــهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا {٢٣} لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِــدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا {٢٤} وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَــرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّــا عَزِيــزًا {٢٥} وَأَنــزَلَ الَّــذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِــرُونَ فَرِيقًــا {٢٦} وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ قَــدِيرًا {٢٧}﴾

وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الصّادِقُونَ فِي إِيمَانِهِم الأحزابَ ، يُحْدِقُونَ بالمدِينةِ ، قَالُوا : هَذا مــا وَعَــدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الابتلاءِ والاختبار وَالامتِحَانِ بالشَّدَائِدِ ، الذِي يَعْقُبُهُ النَّصْــرُ القَريــبُ . وَصَــدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ في النَّصْرِ والثَّوَاب ، كَمَا صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ في الابتِلاءِ والاخْتِبَارِ ، وَمَا زَادَهُمْ ذَلِــكَ إلا صَبْراً عَلى البَلاءِ ، وَتَصْدِيقاً بتَحْقِيقِ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَتَسليماً لِلقَضَاءِ .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالى فِي سُورَةِ البَقَرَةِ : مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَرَّاءُ وَزَلزلوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصرَ اللهِ قَرِيبٌ) .

لَمَّا ذَكَر اللهُ تَعَالى أَنَّ المُنَافِقِينَ نَقَضُوا العَهْدَ ، وَصَفَ المُؤمنينَ بأَنَّهُمُ اسْتَمَرُّوا على المُحَافَظَـةِ عَلَـى العَهْدِ وَالمِيثَاق ، وَأَنَّ مِنْهُمْ رِجَالاً أَوْفُوا بِمَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ مِـنَ الصَّـبْرِ في الشِّـدَّةِ وَالبَأْسَـاءِ ، فَاسْتُشْهِدَ بَعْضُهُمْ فِي بَدْرٍ ، وَبَعْضُهُمْ اسْتُشْهِدَ فِي أُحُدٍ ، وَبَعْضُهُمْ لَقِيَ وَجْهَ رَبِّهِ فِي غَـيرِ هـذينِ المَوْقِفَينِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَضَى عَلَى الوَفَاءِ للهِ بالعَهْدِ ، وَمَا غَيَّرُوا وَمَا بَدَّلُوا .

(رُوِيَ أَنَّ هذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنسِ بْنِ النَّضْرِ الذِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكَانَ غَابَ عَنْ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : لَئِنْ أَرَانِي اللهُ تَعَالَى مَشْهَداً مَعَ رَسُولِ اللهِ ، فِيمَا بَعدُ ، لَيَرَينَّ اللهُ تَعَالى مَا أَصْنَعُ) . (وَقِيـلَ إِنَّها نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ عُثْمَانُ وَحَمْزَةُ بَنْ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْـدِ اللهِ ﷺ ثَبَتُوا وَقَاتَلُوا حَتى يُسْتَشْهَدُوا) .

وَاللهُ تَعَالَى يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بالخَوْفِ وَالزَّلْزَلَةِ لِيَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيُظْهِرَ أَمْرَ كُلٍّ مِنْهُمـا جَلِيّـاً وَاضِحاً ، فَيَجزِي أَهْلَ الصِّدْقِ بصِدْقِهِمْ بما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ ، وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ النَّاقِضِينَ لِلْعَهْـدِ ، المُخَالِفِينَ لأَوامِرِ رَبِّهِمْ ، إذا اسْتَمَرُّوا عَلى نِفَاقِهِمْ ، حَتَّى يَلْقَوْهُ ، أَمَّا إذا تَابُوا وَعمِلُوا صَالِحاً فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَآثام ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ، وَرَحْمَتُهُ لِعِبَادِهِ هِيَ الغَالِبَةُ لِغَضَبِهِ .

وَرَدَّ اللهُ المُشْركينَ ، مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطْفَانَ وَأَسَدٍ وسُلَيْمٍ ، بغَيْظِهِمْ لِفَوتِ مَا أَمَّلُوهُ مِنَ الظَّفَرِ بمُحَمَّـدٍ وَصَحْبِهِ ، وَالفَوْزِ بالغَنائِمِ ، وَلَمْ يَحْتَجِ المُؤْمِنُونَ إلى مُنَازَلَتِهِمْ لإِجْبَارِهِمْ عَلَى الانْسِـحَابِ ، وَإِنَّمـا سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِمْ رِيحاً ، وَأَرْسَلَ عَلَيهِمْ مَلائِكَتَهُ يُلْقُونَ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَانْسَـحَبُوا مَخْـذُولِينَ مَفْلُولِينَ فَكَفَى اللهُ المُؤْمِنينَ شَرَّ القِتالِ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهزمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، لاَ إِلـهَ إِلاَّ هُوَ . وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ، لاَ يُغْلَبُ وَلاَ يُضَامُ . لَمَّا قَدِمَتِ الأَحْزَابُ إلى المَدِينةِ كَـانَ بَـيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَبَيْنَ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ عَهْدٌ وَمُوَادَعَةٌ ، فَجَاءَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ – زَعِيمُ يَهُـودِ بَـنِي النَّضِيرِ – وَكَانَ مَعَ قَوْمِهِ مَعَ الأحْزاب ، – إِلى بَنِي قُرَيْظَةَ يَسْتَحِثُّهُمْ عَلَى نَقْضِ عَهْدِهِمْ مَعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ ، وَمُشَارَكَةِ الأَحْزَابِ فِي مُحَارَبَةِ المُسْلِمينَ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَـى المُسْـلِمينَ .

وَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الأَحْزَابَ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ الكَرِيمَ بأَنْ يَسيرَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُعَـاقِبَهُمْ عَلَـى غَـدْرِهِمْ ، وَنَقْضِهِمْ العَهْدَ . وَبَعْدَ حَرْبٍ دَامَتْ خَمْسَةً وعِشْرِينَ يَوْماً اضْطَرُّوا إِلى النُّزُولِ على حُكْمِ سَعْدِ بْـنِ مُعَاذٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَكَانَ حَلِيفاً لَهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، فَاسْتَدْعَاهُ رَسُولُ اللهِ – وَكَانَ فِـي المَدِينـةِ يَشْتَكِي مِنْ جُرْحٍ أَصَابَهُ – فَحَكَمْ سَعْدٌ بِأَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ ، وَتُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالأَمْوالُ .وَلِذَلكَ قَالَ اللهُ تَعَالى : إِنَّهُ قَذَفَ فِي قُلُوبِ بَنِي قُرَيْظَةَ الرُّعْبَ (الذِينَ ظَاهَرُوا الأحْزَابَ مِـنْ أَهـلِ الكِتَـابِ) ، وَأَنْزَلَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ (صَيَاصِيهِمْ) عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ ، فَقَتَلَ المُسْلِمُونَ فَرِيقـاً ، وَأَسَـرُوا فَرِيقاً .وَأَوْرَثَ اللهُ المُؤْمِنِينَ أَرْضَ بَنِي قُرَيْةَ ، وَنَخِيلَهُمْ ، وَمَـزارِعَهُمْ ، وَأَمْـوَالَهُمْ ، وَمَوَاشِـيَهُمْ ، وَأَوْرَثَ اللهُ المُؤمنينَ الأَرَاضيَ التي فَتَحُوها فِيما بَعْدُ ، مِنْ أَراضي اليَهودِ والمُشْرِكِينَ وَغَيرِهـم ، في

الجَزيرةِ العَرَبيَّةِ وَخَارِجها ، وَهِيَ أراضٍ لَمْ يَسْبَقْ لِلمؤمِنينَ أَنْ وطِئَتْها أَقْدَامُهُمْ مِنْ قبلُ ، واللهُ تَعَالى قَادِرٌ عَلى ذَلِكَ ، فَلا يَتَعَذَّرُ عَليهِ شيءٌ ..

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة؛ وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة؛ وكان الفزع الذي لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالاً شديداً ، كما قال عنهم أصدق القائلين : { هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً } . .لقد كانوا ناساً من البشر . وللبشر طاقة . لا يكلفهم الله ما فوقها . وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية؛ وبشارة الرسول ﷺ لهم ، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق . . على الرغم من هذا كله ، فإن الهول الذي كان حاضراً يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم .

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة . « والرسول ﷺ يحس حالة أصحابه ، ويرى نفوسهم من داخلها ، فيقول : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع . يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة . أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة » . ومع هذا الشرط بالرجعة ، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة ، فإن أحداً لا يلبي النداء . فإذا عين بالاسم حذيفة قال : فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني! . . ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة . .

ولكن كان إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس . . كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله؛ والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله؛ والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها . ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سبباً في انتظار النصر . ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب }وها هم أولاء يزلزلون . فنصر الله إذن منهم قريب! ومن ثم قالوا : { هذا ما وعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله } . . { وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً } { هذا ما وعدنا الله ورسوله } . . هذا الهول ، وهذا الكرب ، وهذه الزلزلة ، وهذا الضيق . وعدنا عليه النصر . . فلا بد أن يجيء النصر : { وصدق الله ورسوله } . . صدق الله ورسوله في الأمارة وصدق الله ورسوله في دلالتها . . ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله : { وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً } . .لقد كانوا ناساً من البشر ، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر ، وضعف البشر . وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري؛ ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس؛ ويفقدوا خصائصه ومميزاته . فلهذا خلقهم الله . خلقهم ليبقوا بشراً ، ولا يتحولوا جنساً آخر . لا ملائكة ولا شياطين ، ولا بهيمة ولا حجراً . . كانوا ناساً من البشر يفزعون ، ويضيقون بالشدة ، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة . ولكنهم كانوا مع هذا مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله؛ وتمنعهم من السقوط؛ وتجدد فيهم الأمل ، وتحرسهم من القنوط . .

وكانوا بهذا وذاك نموذجاً فريداً في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .وعلينا أن ندرك هـذا لنـدرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور . علينا أن ندرك أنهم كانوا بشراً ، لم يتخلوا عـن طبيعـة البشر ، بما فيها من قوة وضعف . وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيـأة لبني الإنسان ، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء .وحين نرانـا ضعفنا مرة ، أو زلزلنا مرة ، أو فزعنا مرة ، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق . . فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا؛ أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبداً! ولكـن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه لأنه يقع لمن هـم خير منا! هنالك العروة الوثقى . عروة السماء . وعلينا أن نستمسك بها لننـهض مـن الكبـوة ، ونسترد الثقة والطمأنينة ، ونتخذ من الزلزال بشيراً بالنصر . فنثبت ونستقر ، ونقوى ونطمـئن ، ونسير في الطريق . .وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام . النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده ، وثباته على عهـده مـع الله ، فمنهم من لقيه ، ومنهم من ينتظر أن يلقاه : { من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهـدوا الله عليـه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلاً } هذا في مقابل ذلك النموذج الكريـه . نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار . ثم ولم يوفوا بعهد الله : { وكـان عهـد الله مسؤولاً } . .روى الإمام أحمد بإسناده عن ثابت قال : « عمي أنس بن النضر رضـي الله عنـه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسـول الله ﷺ غبت عنه! لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصـنع .قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ رضـي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه يا أبا عمرو . أين واهاً لريح الجنة! إني أجده دون أحد . قال : فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنـة ورميـة . فقالت أخته عمتي الرُّبيِّع ابنة النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه . قال : فنزلت هذه الآية : { مـن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . الخ } قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصـحابه رضي الله عنهم . (ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بـن المغـيرة) . وهـذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان ، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق . لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء ، وعاقبة النقض والوفاء؛ وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله : { ليجزي الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . إن الله كان غفـوراً رحيماً}

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد ليرد الأمر كله إلى الله ، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع . فليس شيء منها عبثاً ولا مصادفة . إنما تقع وفق حكمة مقدرة ، وتدبير قاصد . وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب . وفيها تتجلى رحمة الله بعباده . ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر :{ إن الله كان غفوراً رحيماً} ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التي تصدق ظن المؤمنين برهم؛ وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراهم؛ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية : { ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً } . .وقد بدأت المعركة ، وسارت في طريقها ، وانتهت إلى نهايتها ، وزمامها في يد الله ، يصرفها كيف يشاء . وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره . فأسند إلى الله تعالى إسناداً مباشراً كل ما تم من الأحداث والعواقب ، تقريراً لهذه الحقيقة ، وتثبيتاً لها في القلوب؛ وإيضاحاً للتصور الإسلامي الصحيح .

و لم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم . بل دارت كذلك على بني قريظة حلفاء المشركين من يهود : { وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً .وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم تطؤوها . وكان الله على كل شيء قديراً } . .فأما قصة هذا فتحتاج إلى شيء من إيضاح قصة اليهود مع المسلمين . .

إن اليهود في المدينة لم يهادنوا الإسلام بعد وفوده عليهم إلا فترة قصيرة . وكان الرسول ﷺ قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إليها أوجب لهم فيها النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ، ولا يمدوا يداً بأذى .ولكن اليهود ما لبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول . وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة . كذلك أحسوا بخطر التنظيم الجديد الذي جاء به الإسلام للمجتمع بقيادة رسول الله ﷺ فقد كانوا قبل ذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا في المدينة . فلما وحد الإسلام الأوس والخزرج تحت قيادة نبيهم الكريم لم يجد اليهود الماء العكر الذي كانوا يصطادون بين الفريقين فيه!

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير إسلام حبرهم وعالمهم عبدالله بن سلام . ذلك أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه . ولكنه إن هو أعلن إسلامه خاف أن تتقول عليه يهود . فطلب إلى رسول الله ﷺ أن يسألهم عنه قبل أن يخبرهم بإسلامه! فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فخرج عندئذ عبدالله بن سلام إليهم ، وطلب منهم أن يؤمنوا بما آمن به . فوقعوا فيه ، وقالوا قالة السوء ، وحذروا منه أحياء اليهود . وأحسوا بالخطر الحقيقي على كيانهم الديني

والسياسي . فاعتزموا الكيد لمحمد ﷺ كيداً لا هوادة فيه .ومنذ هذا اليوم بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام ويهود!

لقد بدأت في أول الأمر حرباً باردة ، بتعبير أيامنا هذه . بدأت حرب دعاية ضد محمد عليه الصلاة والسلام وضد الإسلام . واتخذوا في الحرب أساليب شتى مما عرف به اليهود في تاريخهم كله . اتخذوا خطة التشكيك في رسالة محمد ﷺ وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة . واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض . بين الأوس والخزرج مرة ، وبين الأنصار والمهاجرين مرة . واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين . واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يوقعون بواسطتهم الفتنة في صفوف المسلمين . . وأخيراً أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التأليب على المسلمين ، كالذي حدث في غزوة الأحزاب . .

وكانت أهم طوائفهم بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة . وكان لكل منها شأن مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين .فأما بنو قينقاع وكانوا أشجع يهود ، فقد حقدوا على المسلمين انتصارهم ببدر؛ وأخذوا يتحرشون بهم ويتنكرون للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته ، بعدما انتصر على قريش في أول اشتباك بينه وبينهم .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة عن طريق ابن إسحاق ما كان من أمرهم قال :

وكان « من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وذكر ابن هشام عن طريق عبدالله بن جعفر قال : كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بحلب لها فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، وشدت يهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وأكمل ابن إسحاق سياق الحادث قال :« فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، فقام عبدالله بن أبيٍّ بن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في مواليّ وكانوا حلفاء الخزرج قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن في مواليّ . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أرسلني . وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً . ثم قال : » ويحك! أرسلني . « قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في

مواليّ . أربع مائة حاسر . وثلاث مائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود . تحصدهم في غداة واحدة . إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله ﷺ هم لك» .
وكان عبدالله بن أبي لا يزال صاحب شأن في قومه . فقبل رسول الله ﷺ شفاعته في بني قينقاع على أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح .
وبذلك تخلصت المدينة من قطاع يهودي ذي قوة عظيمة .وأما بنو النضير ، فإن رسول الله ﷺ خرج إليهم في سنة أربع بعد غزوة أحد يطلب مشاركتهم في دية قتيلين حسب المعاهدة التي كانت بينه وبينهم . فلما أتاهم قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟
ثم أخذوا في تنفيذ هذه المؤامرة الدنيئة ، فألهم رسول الله ﷺ ما كان من أمرهم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . وأمر بالتهيؤ لحربهم . فتحصنوا منه في الحصون . وأرسل إليهم عبدالله ابن أبي ابن سلول (رأس النفاق) أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم . إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . ولكن المنافقين لم يفوا بعهدهم . وقذف الله الرعب في قلوب بني النضير فاستسلموا بلا حرب ولا قتال . وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . ففعل . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . ومن أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب . . هؤلاء الذين كان لهم ذكر في تأليب مشركي قريش وغطفان في غزوة الأحزاب .
والآن نجيء إلى غزوة بني قريظة . وقد مر من شأنهم في غزوة الأحزاب أنهم كانوا إلباً على المسلمين مع المشركين ، بتحريض من زعماء بني النضير ، وحيي بن أخطب على رأسهم . وكان نقض بني قريظة لعهدهم مع رسول الله ﷺ في هذا الظرف أشق على المسلمين من هجوم الأحزاب من خارج المدينة .

ومما يصور جسامة الخطر الذي كان يتهدد المسلمين ، والفزع الذي أحدثه نقض قريظة للعهد ما روي من « أن رسول الله ﷺ حين انتهى إليه الخبر ، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، ومعهما عبدالله بن رواحة ، وخوات بن جبير رضي الله عنهم فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس . وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » . (مما يصور ما كان يتوقعه صلى الله عيله وسلم من وقع الخبر في النفوس) .« فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا

عقد! . . ثم رجع الوفد فأبلغوا رسول الله ﷺ بالتلميح لا بالتصريح . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر . أبشروا يا معشر المسلمين

. (تثبيتاً للمسلمين من وقع الخبر السيئ أن يشيع في الصفوف) .

ويقول ابن إسحاق : وعظم عند ذلك البلاء؛ واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم . حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين . . الخ .

فهكذا كان الأمر إبان معركة الأحزاب .فلما أيد الله تعالى نبيه بنصره . ورد أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيراً؛ وكفى الله المؤمنين القتال . . رجع النبي ﷺ إلى المدينة منصوراً ، ووضع الناس السلاح ، « فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء المرابطة ، في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدى له جبريل عليه السلام فقال : » أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ : « نعم » . قال : « ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها! وهذا أوان رجوعي من طلب القوم » . ثم قال : « إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة » وكانت على أميال من المدينة . وذلك بعد صلاة الظهر . وقال ﷺ : لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة « فسار الناس في الطريق ، فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق ، وقالوا : لم يرد رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير . وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة . فلم يعنف واحداً من الفريقين .

وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم (صاحب عبس وتولى أن جاءه الأعمى . .) رضي الله عنه وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة . فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية . واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك كما فعل عبدالله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع حتى استطلقهم من رسول الله ﷺ فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك . ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله (وهو عرق رئيسي في الذراع لا يرقأ إذا قطع) أيام الخندق؛ فكواه رسول الله ﷺ في أكحله ، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب؛ وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنا لها؛ وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها؛ ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة .

فاستجاب الله تعالى دعاءه . وقدر عليهم أن يترلوا على حكمه باختيارهم ، طلباً من تلقاء أنفسهم فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم . فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطأوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ، يقولون : يا سعد إنهم مواليك ، فأحسن عليهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه . وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم!

فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ « قال رسول الله : » قوموا إلى سيدكم « فقـام إليـه المسلمون فأنزلوه؛ إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : » إن هؤلاء وأشار إليهم قد نزلوا على حكمك . فاحكم فـيهم بما شئت « فقال رضي الله عنه : وحكمي نافذ عليهم؟ قال : ﷺ : » نعم « . قال : وعلى من في هذه الخيمة؟ قال : » نعم « . قال : وعلى من ها هنا (وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً) . فقال رسول الله ﷺ : » نعم « . فقال رضي الله عنه : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » (أي سماوات) .ثم أمر رسـول الله ﷺ بالأخاديد فخدت في الأرض ، وجيء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم . وكانوا ما بين السبع مائة ، والثماني مائة . وسبي من لم ينبت (كناية عن البلوغ) مع النساء والأموال . وفـيهم حيـي بـن أخطب . وكان قد دخل معهم في حصنهم كما عاهدهم .

ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود ، وضعفت حركة النفاق في المدينة؛ وطأطأ المنافقون رؤوسهم ، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون . وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين ، بـل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم .

وقال تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِـأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَـارِ (٥٥) }[غافر/٥٣-٥٥]

وَلَقَدْ أَعْطَينَا مُوسَى الشَّرَائِعَ والمُعْجزَاتِ التِي يَهْتَدِي بهَا النَّاسُ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيهِ التَّوْرَاةَ ، وَفِيهَـا مَـا يَهْدِي بِهِ قَوْمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَوارَثُوهُ خَلَفاً مِنْ سَلَفٍ .

وَجَعَلْنَا التَّوْرَاةَ هُدًى يَهْتَدِي بَنُو إِسْرَائِيلَ بأَحْكَامِهَا ، وَتَذْكِرَةً لأَوْلِي العُقُـولِ السَّـلِيمَةِ والأَفْهَـامِ المُسْتَقِيمَةِ (لأُوْلِي الأَلْبَابِ) .

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ لأَمْرِ رَبِّكَ ، وَبَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَأَيْقِنْ بأَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ وَعْـدَهُ لَـكَ ، وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى مِنْ عَادَاكَ وَعَانَدَكَ ، وَكَفَرَ بِرِسَالَتِكَ ، وَسَلْ رَبَّكَ المَغْفِرَةَ لِذَنْبِكَ ، والصَّفْحَ عَنْكَ ، وَصَلِّ فِي طَرَفِيْ النَّهَارِ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً فِي الصَّبَاحِ والمَسَاءِ .

وكان هذا نموذجاً من من نماذج نصر الله . إيتاء الكتاب والهدى . ووراثة الكتاب والهدى . وهـذا النموذج الذي ضربه الله مثلاً في قصة موسى ، يكشف لنا رقعة فسيحة ، نرى فيها صورة خاصـة من صور النصر تشير إلى الإتجاه .

وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع ، توجيهاً لرسول الله ﷺ ومن كانوا معه من المؤمنين في مكة في موقف الشدة والمعاناة . ولكل من يأتي بعدهم من أمته ، ويواجهون مثل الموقف الذي كانوا فيه:

(فاصبر . إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك ، بالعشي والإبكار) . .

الإيقاع الأخير . . الدعوة إلى الصبر . . الصبر على التكذيب . والصبر على الأذى . والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان . والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك . والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال . والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء !

(فاصبر . إن وعد الله حق) . . مهما يطل الأمد ، ومهما تتعقد الأمور ، ومهما تتقلب الأسباب . إنه وعد من يملك التحقيق ، ومن وعد لأنه أراد .

وفي الطريق ، خذ زاد الطريق: (واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار) . .

هذا هو الزاد ، في طريق الصبر الطويل الشاق . استغفار للذنب ، وتسبيح بحمد الرب . والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب ، وهو في ذاته تربية للنفس وإعداد . وتطهير للقلب وزكاة . وهذه هي صورة النصر التي تتم في القلب ، فتعقبها الصورة الأخرى في واقع الحياة .

واختيار العشي والإبكار . إما كناية عن الوقت كله - فهذان طرفاه - وإما لأنهما آنان يصفو فيهما القلب ، ويتسع المجال للتدبر والسياحة مع ذكر الله .

هذا هو المنهج الذي اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد . ولا بد لكل معركة من عدة ومن زاد . .

وقال تعالى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) }[غافر/٧٧]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَ مِنْ قَوْمِهِ ، فَإِنَّ اللهَ سَيُنْجزُ وَعْدَهُ ، وَسَيُظْهِرُهُ بِأَعْدَائِهِ ، وَسَيُنْزِلُ العِقَابَ بالمُكَذِّبينَ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ . ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : إِمَّ أَنْ يُرِيَهُ فِي حَيَاتِهِ بَعْضَ الذِي يَعِدُهُمْ مِنَ العَذَاب والنَّقْمَةِ ، كَالقَتْلِ والأَسْرِ فِي بَدْرٍ ، فَذَلِكَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَوَفَّاهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ بِهِم عُقُوبَتَهُ وَعَذَابَهُ فَإِنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ فِي الآخِرَةِ عِقَاباً شَدِيداً حِينَمَا يُرْجَعُونَ إِلَيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق . إن هذا الرسول الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود ، يقال له ما مفهومه : أد واجبك وقف عنده . فأما النتائج فليست من

أمرك . حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه! إنه يعمل وكفى . يؤدي واجبه ويمضي . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست قضيته . إن الأمر كله لله . والله يفعل به ما يريد .يا لله! يا للمرتقى العالي .

ويا للأدب الكامل . الذي يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة . في شخص رسوله الكريم .

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية . أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشري العنيفة . ألعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة . فلم يكن هذا تكراراً للأمر الذي سبق فيها . إنما كان توجيهاً إلى صبر من لون جديد . ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب ؟!

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته ، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء ، أمر شديد على النفس صعيب . ولكنه الأدب الإلهي العالي ، والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين ، وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها فيه أرب ، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين !

ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين . فهذا هو حزام النجاة في خضم الرغائب ، التي تبدو بريئة في أول الأمر ، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم !

٣٥- وجوبُ الإعداد والاستعداد للمعركة :

قال تعالى في سورة الأنفال :﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ {٦٠} ﴾

يَأْمُرُ اللهُ الُمسْلِمِينَ بِالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ ، وَبِإِعْدَادِ آلاتِهَا لِمُقَاتَلَةِ الكُفَّارِ ، وَدَفْعِ العُدْوَانِ ، وَحِفْظِ الأَنْفُسِ ، وَالحَقِّ وَالفَضِيلَةِ ، حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالاسْتِطَاعَةِ : مِنْ خَيْلٍ وَسِلاَحٍ وَعُدَدٍ وَمُؤَنٍ وَتَدْرِيبٍ وَعِلْمٍ وَكُلَّ مَا يَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ القُوَّةِ التِي تُمَكِّنُ الأُمَّةَ مِنْ مُقَاوَمَةِ خُصُومِهَا ، بِحَسَبِ مَفْهُومِ العَصْرِ ، وَذَلِكَ لإِرْهَابِ الكُفَّارِ – مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ غَيْرِهِمْ – أَعْدَاءِ اللهِ ، وَأَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ وَالُمسْلِمِينَ ، وَلإِرْهَابِ الأَعْدَاءِ الآخَرِينَ مِنْ مُنَافِقِينَ وَيَهُودٍ يُجَاوِرُونَ الُمسْلِمِينَ فِي المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَغَيْرِهِمْ ، مِمَّنْ لاَ يَعْلَمُهُمْ رَسُولُ اللهِ وَالُمسْلِمُونَ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُمْ . وَيُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى الُمؤْمِنِينَ أَنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُونَهَا فِي الجِهَادِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ ، سَتُوَفَّى إِلَيْهِمْ بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ ، وَلاَ يَبْخَسُ اللهُ أَحَداً مِنْهُمْ شَيْئاً ..

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد؛ والنص يأمر بإعداد القوة علـــى اخـــتلاف صنوفها وألوانها وأسبابها؛ ويخص { رباط الخيل } لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة . . ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مـــع الـــزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – والمهم هو عموم التوجيه : { وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة }

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في « الأرض » لتحرير « الإنسان » . .

وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة : أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتـــهم في اختيارها؛ فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها . .

والأمر الثاني : إن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على « دار الإسلام » التي تحميها تلك القوة . .

والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المـــد الإســـلامي ، وهو ينطلق لتحرير « الإنسان » كله في « الأرض » : كلها . . والأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها؛ ولا تعتـــرف بأن الألوهية لله وحده؛ ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه . .

إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب ، وتنظيماً للشعائر ، ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة؛ يواجه مناهج أخرى تقوم عليهـــا ســـلطات وتقـــف وراءها قوى مادية . فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الرباني – من تحطيم تلك القـــوى الماديـــة ، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الرباني . .

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة . . ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني . ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعـــلان تحريـــر الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر؛ ولا لتقرير سلطان زعيم ، أو دولة ، أو طبقة ، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان؛ ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية؛ ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية . . إنما ينطلق من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير؛ ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير « الإنسان » في « الأرض » من العبوديـــة للعبيد . .

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الـــدفاع؛ وهـــم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي .

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة . فالنص القرآني يقول : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } . فهي حدود الطاقة إلى أقصاها . بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها .كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة .{ ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم } . .فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض . الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون؛ ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم ، أو لم يجهروا لهم بالعداوة ، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم .وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم . والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء ، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض؛ ولتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله .

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالاً ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله : { وما تنفقوا من شيء – في سبيل الله – يوف إليكم وأنتم لا تظلمون } . .وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله ، من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصي؛ ومن كل شعور قومي أو طبقي ، ليتمحض خالصاً لله { في سبيل الله } لتحقيق كلمة الله ، ابتغاء رضوان الله .ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه – منذ الوهلة الأولى – كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول . وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق . وكل حرب تقوم للقهر والإذلال . وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن ، أو قوم على قوم ، أو جنس على جنس ، أو طبقة على طبقة . . ويستبقي نوعاً واحداً من الحركة . . حركة الجهاد في سبيل الله . . والله – سبحانه – لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب . إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته . وهو غني عن العالمين . ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين .

والنبي ﷺ أعد أسباب القوة، وفعل الأسباب الموجودة في عصره، والتي استطاع أن يفعلها، فلبس الدرع يوم أحد، وحفر الخندق يوم الأحزاب، وأخذ السلاح وأعد الجنود، وأعد القادة ورباهم، وأعد الأموال فكان يعمل بالأسباب الممكنة في عصره. لكن ينبغي أن نعلم أن الاعتماد لا يكون على الأسباب إنما على الله القوي العزيز وحده.

وعلينا أن نعلم حقيقة مهمة وهي: أنه لم يلتق ولم يحصل يوم من الأيام أن كانت قوة المسلمين أقوى من قوة الكافرين، فالكافرون دائماً هم الأكثر، والكافرون دائماً هم الأقوى من ناحية العدة والعتاد، ولكن جانب الإيمان يرجح المسلمين على عدوهم ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا استبطأ النصر من قادته كتب لهم:'إنا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة إنما نقاتلهم بهذا الدين فلعلكم أحدثتم أمراً'. يذكرهم لعلكم أحدثتم شيئاً فراجعوا أنفسكم، هل أخللتم بشيء من أسباب النصر.

وفعل الأسباب وإعداد العدة ينقسم لأمور كثيرة جداً لعل أهمها:

أ- إعداد الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة: هذه هو أهمها وأولها، فتعد هذه القوة التي هي الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة بالإيمان والعمل الصالح أولاً، وينقى الصف المؤمن من غير هؤلاء، ولذلك بمجـــرد أن تطالع كتب 'الفقه الإسلامي' تجدهم يقولون: وعلى القائد أن يمنع المخذل والمرجف من أن يسير مع الجيش؛ لأن هذا منافق لا يستطيع أن يواجه الكفار إذا حمي الوطيس.

فإذن: لابد من إعداد الجندي المؤمن الذي يذكر الله كثيراً، والذي يحافظ على طاعة ربه، ويجتنب ما نهاه الله عنه، والذي نصب عينيه أن يموت شهيداً ليدخل الجنة بفضل الله. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِـــكٍ قَـــالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِى سُفْيَانَ فَجَاءَ وَمَا فِـــى الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِى وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ لاَ أَدْرِى مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَـــالَ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَتَكَلَّمَ فَقَالَ « إِنَّ لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا ». فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِى ظُهْرَانِهِمْ فِى عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَـــالَ « لاَ إِلاَّ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا ». فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وســـلم- وَأَصْـــحَابُهُ حَتَّـــى سَـــبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « لاَ يُقَـــدِّمَنَّ أَحَـــدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَىْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ ». فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ». قَالَ يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِىُّ يَا رَسُولَ اللَّـــهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ قَالَ « نَعَمْ ». قَالَ بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ ». قَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا ». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيـــتُ حَتَّـــى آكُـــلَ تَمَرَاتِى هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ - قَالَ - فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّـــى قُتِـــلَ.. رواه مسلم [٣٧].

إذن إذا وجد مثل هذا النموذج الذي يقدم على الموت، فإنه سيوهب لنا النصر، وستوهب لنا الحياة، وسنحصل على الحسنيين .

ب- الأمر الآخر في إعداد العدة إعداد العدة العسكرية: بالعتاد.. بالأجهزة.. بما نستطيع من قوة فنعد ذلك ونجهزه، حتى لا يبقى سبب من أسباب النصر في استطاعتنا إلا وفعلناه، فإذا أعددنا تلـــك العدة، فإن القلوب تنام وهي مطمئنة مرتاحة .

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف ، فأهملوا فرضاً مـــن فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض ، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني .

---

[٣٧] - صحيح مسلم (٥٠٢٤)- العين : الجاسوس

وكيف لا يطمع العدو فى بلاد الإسلام ، وهو لا يرى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب ، بـــل كلها مما يشترى من بلاط العدو؟

أما آن لها أن تتنبه من غفلتها ، فتعد العدة التى أمر الله بها لأعدائه ، وتتلافى ما فرطت قبل أن يـــداهم العدو ما بقى منها بخيله ورجله . . ؟

إن القوة التى طلب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء ، تتناول كل ما مـــن شـــأنه أن يجعـــل المؤمنين أقوياء . كإعداد الجيوش المدربة ، والأسلحة المتنوعة التى تختلف بحسب الأزمنة والأمكنة .

وما روى من تفسيره القوة – التى وردت فى الآية – بالرمى ، فإنما هو على سبيل المثال ، ولأن الرمى كان فى ذلك الوت أقوى ما يتقوى به .

قال الفخر الرازى عند تفسيره للآية ، والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً لحصول القوة ، وذكروا فيـــه وجوها :

الأول : المراد من القوة أنواح الأسلحة .

الثانى : روى أنه – ﷺ – قرأ هذه الآية على المنبر وقال : " ألا إن القوة الرمى " قالها ثلاثاً .

الثالث : قال بعضهم : القوة هى الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعانى : الأولى أن يقال : هذا عام فى كل ما يتقوى به على حـــرب العـــدو ، ولك ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله – ﷺ – : " القوة هى الرمى " لا ينفـــى كون غير الرمى معتبراً . كما أن قوله – ﷺ – " الحج عرفه " " والندم توبة " لا ينفى اعتبار غـــيره . بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هنا .

وهذه الآية تدر على أن الاستعداد للجهاد بالنبل ، والسلاح ، وتعليم الفروسية ، والرمى فريضـــة إلا أنه من فرض الكفايات .

إن رباط الخيل للجهاد فى سبيل الله فضله عظيم ، وثوابه كبير فقد كانت الخيل هى خير ما عـــرف العرب من وسائل الانتقال فى الحرب وأسرعها ، وما زالت الخيل لها قيمتها فى بعض أنواع الحروب .

قال القرطبى ، فإن قيل : إن قوله { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ } كان يكفى ، فلماذا خـــص الخيل بالذكر؟

قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحرب وأوزارها الى عقد الخير فى نواصيها ، وهى أقوى القـــوة ، وأشد العدة ، وحصون الفرسان ، وبها يجال فى الميدان ، لما كانت كذلك خصها بالذكر تشـــريفاً ، وأقسم بغبارها تكريماً ، فقال : { والعاديات ضَبْحاً } وقال الإمام ابن العربى : وأما رباط الخيل هو فضل عظيم ومترلة شريفة .

روى الأئمة عن أبى هريرة أن رسول الله – ﷺ – قال : " الخيل ثلاثة ، لرجل ستر ، ولرجل أجـــر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى عليه وزر رجل ربطها رياء وفخراً ونواء لأهـــل الإســـلام – أى : مناوأة ومعاداة – فهى عليه وزر " .

وأما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شئ إلا كتب الله له عدد ما أكلت حسنات . .

وروى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله قال : " رأيت رسول الله – ﷺ – يلوى ناصية فـــرس بأصبعيه وهو يقول : " الخير معقود فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة " " .

ت– ومن العدة أيضاً: إعداد الأموال اللازمة: فإن الأموال الآن أصبحت عماد الجهاد، بـــل هـــي عماد الجهاد منذ عصر النبي ﷺ، ومن أشرف وجوه الإنفاق فى سبيل الله أن يبذل المسلم ما يســـتطيع بذله فى الجهاد الذى هو ذروة سنام الإسلام ، والذى ما تركه قوم إلا ذلوا . . وألقوا بأنفســـهم فى التهلكة . .

ولقد بشرت الآية الكريمة المنفقين فى سبيل الله ، بأنه – سبحانه – سيجازيهم على إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .

قال – تعالى – { وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُـــونَ } وفى الحـــديث الشريف الذى رواه الترمذى عن أبى يحيى قال : قال رسول الله – ﷺ – : " من أنفق نفقة فى ســـبيل الله كتب له سبعمائة ضعف " .

ولعل الجميع يتذكر أن عثمان بن عفان لما جهز جيش العسرة، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– بِأَلْفِ دِينَارٍ – قَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ وَكَانَ فِى مَوْضِعٍ آخَـــرَ مِنْ كِتَابِى فِى كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِى حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ –صلى الله عليه وسلم– يُقَلِّبُهَا فِى حِجْرِهِ وَيَقُولُ « مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْـــدَ الْيَـــوْمِ ». مَـــرَّتَيْنِ. رواه الترمذي [٣٨]

هذه جائزته لماذا؟ لأن المال هو عصب الجهاد، فلا بد أيضاً أن تعد الأمة الأموال اللازمة للجهـــاد في سبيل الله .

ث– ومن إعداد العدة: ألا يغفل المسلمون عن معرفة عدوهم وعن قدراته:

فعَنْ عَلِيٍّ، رَضِى اللَّه عَنْه، قَالَ: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَصَبْنَا مِنْ ثِمَارِهَا فَاجْتَوَيْنَاهَا، وَأَصَابَنَا بِهَا وَعْـــكٌ وَكَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – يَتَخَبَّرُ عَنْ بَدْرٍ، فَلَمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَقْبَلُوا، سَارَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – إِلَى بَدْرٍ، وَبَدْرٌ بِئْرٌ، فَسَبَقَنَا الْمُشْرِكُونَ إِلَيْهَا، فَوَجَدْنَا فِيهَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ وَمَوْلًى لِعُقْبَةَ بْنِ

[٣٨] – سنن الترمذى(٤٠٦٦) حسن

أَبِى مُعَيْطٍ، فَأَمَّا الْقُرَشِيُّ فَانْفَلَتَ، وَأَمَّا مَوْلَى عُقْبَةَ فَأَخَذْنَاهُ فَجَعَلْنَا نَقُولُ لَهُ: كَمِ الْقَوْمُ؟ فَيَقُولُ: هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ، حَتَّى انْتَهَوْا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ لَهُ: كَمِ الْقَوْمُ؟ قَالَ: هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ، فَجَهَدَ النَّبِىُّ - ﷺ - أَنْ يُخْبِرَهُ كَمْ هُمْ فَأَبَى، ثُمَّ إِنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - سَأَلَهُ: كَمْ يَنْحَرُونَ مِنَ الْجُزُرِ؟ فَقَالَ: عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ وَتَبِعَهَا ..." رواه أحمد [٣٩].

فَأَعَدَّ لذلك عدته، فهذا واجب من واجبات المسلمين، فلا يستهينوا بعدوهم، واحتقار العدو ليس من شأن المسلمين بل إننا نبحث عن مكامن القوة ومواطن الضعف فيه، ثم نستنصر بالله جل وعلا عليه، ومع ذلك علينا أن نتأمل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ] رواه البخاري ومسلم.أي أننا نسأل الله جل وعلا أن ينصرنا عليهم وأن يخذلهم، حتى ولو لم نلتق بهم و لم نقاتلهم .

ج- أن المقصود من إعداد العدة فى الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا فى الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين فى ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحداً سواه - عز وجل . .

وليس المقصود بأعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله - تعالى - .

ولذلك وجدنا الآية صريحة فى بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو - كما عبرت عنه { تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ } .

وهناك آيات أخرى صريحة فى بيان سبب مشروعيته القتال فى الإسلام ومن ذلك قوله - تعالى - : { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المعتدين } وقوله - تعالى - : { وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين لِلَّهِ فَإِنِ انتهوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظالمين } والخلاصة : أن من تتبع آيات القرآن الواردة فى القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال فى الإسم ينحصر فى رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقدية ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

ما المقصود بالإعداد للجهاد؟

المقصود إعدادان: إعداد مادي وإعداد إيماني، ولا يجوز قصر الإعداد على أحدهما. أما الإعداد المادي: فهو المشار إليه في آية الأنفال، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي

[٣٩] - غاية المقصد فى زوائد المسند (٢٦٨٦) صحيح

سَبِيلِ اللَّهِ}[40]، وقد ورد تفسير هذه الآية مرفوعا بما لا يدع مجالا لتأويلها أو حملها على غير المـــراد، فقد روى مسلم أن عقبة بن عامر قال إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «ألا إن القوة الرمي» ثلاثا.

فلا يجوز حمل هذه الآية على الإعداد الإيماني والتربية، والإعداد المادي يشمل إعداد الرجال والسلاح والمال. والآية السابقة ذكرت السلاح والمال صراحة والرجال إشارة، وقد ورد الأمر بإعداد الرجـــال في آيات أخر، كقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ}[41]، وكقوله تعالى: {فَقَاتِـــلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّـــذِينَ كَفَــرُوا}[42]، وكقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ...}[43].

وقد سبق تفصيل هذا في الباب الثاني من هذه الرسالة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إنـــه إذا ســـقط الجهاد للعجز وجب الإستعداد بإعداد القوة ورباط الخيل[44]. **وقد جعل الله سبحانه هذا الإعداد من علامات صدق الإيمان وفيصلا بين المؤمن والمنافق** في قوله تعالى {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُـــمْ إِلاَّ خَبَـــالا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}[45]. فبين الله سبحانه أن ترك المنافقين إعداد العدة كان بسابق الخذلان القدري لهم منه سبحانه، وأن هذا كان رحمة منـــه ســـبحانه للمـــؤمنين الصادقين فلو خرج معهم هؤلاء المنافقون لما كان منهم إلا الإفساد والفتن، خاصة وأن **بعض المؤمنين يُحسنون الظن بهؤلاء المنافقين** {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} فينشأ من هذا فساد كبير. هذا فيما يتعلـــق بالإعداد المادي.

أما الإعداد الإيماني (التربية) فلا منه أيضا، وقد سبق ذكر أدلته في هذا الفصل بما يغني عن الإعـــادة، وهذا الإعداد في غاية التشعب بعدد شعب الإيمان الظاهر منها والباطن، العلمي منها والعملي، ولـــه أثر مباشر في النصر أو الخذلان القدري كما سبق في الأصول الخمسة ولكن هناك بعض التحفظـــات فيما يتعلق بالإعداد وهي:

---

[40] – سورة الأنفال، الآية: ٦٠

[41] – الأنفال، الآية: ٦٥

[42] – سورة النساء، الآية: ٨٤

[43] – سورة الصف، الآية: ١٤

[44] – مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٥٩

[45] – سورة التوبة، الآيتان: ٤٦ ــ ٤٧.

* **ألا تُحْمَل آية الإعداد بالأنفال على التربية،** فقد ورد تفسيرها مرفوعا بما يُبْطِل تأويلـــها، أمـــا التربية فلها أدلة أخر سبق بيانها. وأقبح من هذا من يُقْصِر الإعداد على الإيماني دون المـــادي، فهـــذا مكذب بآيات الله.

* **ألا تتخذ التربية ذريعة للقعود عن الجهاد،** خاصة الجهاد العيني (فرض عين)، وهذا هـــو أهـــم التحفظات فيما يتعلق بالتربية. وهذا يحملنا إلى الشق الثاني من هذا التنبيه.ثانيا: هل العدالة من شروط وجوب الجهاد؟

فالذين يقولون لا نجاهد حتى نستوفي التربية الإيمانية، نسألهم سؤالين:

السؤال الأول: هل الغرض من هذه التربية الوصول بالفرد المسلم إلى مرتبة العدالـــة الشـــرعية أم إلى مرتبة أعلى؟.

السؤال الثاني: هل العدالة من شروط وجوب الجهاد؟ بمعنى أنه هل لا يجوز للمسلم أن يجاهد حـــتى يكون عدلا؟ وهل يسقط وجوب الجهاد عن الفاسق؟.

ونذكر أولا تعريف العدالة فنقول: [هي استواء أحوالِه في دينه، وقيل من لم تظهر منه رِيبة... ويعتبر لها شيئان: ١ = الصلاح في الدين وهو أداء الفرائض برواتبها، واجتناب المحرم بأن لا يأتي كـــبيرة ولا يُدمن على صغيرة. ٢ = استعمال المروءة بفعل ما يُجَمِّله ويُزَيِّنه وترك ما يدنسه ويشينه][٤٦].

ثم نذكر شروط وجوب الجهاد ـــ وقد سبقت في الملحق السابق ـــ وهي (الإسلام والبلوغ والعقـــل والذكورية والسلامة من الضرر والحرية ووجود النفقة وإذن الوالدين وإذن الدائن)[٤٧]، وهذا في الجهاد الكفائي أما العيني فالشروط هي الخمسة الأُوَل فقط. **وكما ترى فإن العدالة ليســـت مـــن هـــذه الشروط.**

فإذا ثبت أن العدالة ليست شرطا لوجوب الجهاد، سقط قول من يقول لابد من التربيـــة للوصـــول بالمسلم إلى رتبة العدالة قبل أن يجاهد، وبالتالي يسقط قول من يشترط رتبة أعلى من العدالة.

بل قد صرح الفقهاء بعكس ذلك، أي أنه يجوز الاستعانة بالفاسق والمنافق في الغـــزو، فقـــد قـــال الشوكاني: [قال في البحر: وتجوز الاستعانة بالمنافق إجماعا لاستعانته ﷺ بابن أُبَيّ وأصحابه، وتجـــوز الاستعانة بالفُساق على الكفار إجماعا، وعلى البغاة عندنا لاستعانة عَلِيّ عليه السلام بالأشعث. أ هــ][٤٨].

---

[٤٦] – منار السبيل شرح الدليل ط المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـــ ج ٢ ص ٤٨٧، ٤٨٨

[٤٧] – المغني والشرح الكبير ج ١٠ ص ٣٦٦، ٣٨١، ٣٨٤

[٤٨] – نيل الأوطار ج ٨ ص ٤٤

وقال في المجموع: [قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: الجهاد واجب مع الفساق كوجوبه مع العدول، وسائر الآية الموجبة لفرض الجهاد لم يفرق بين فعله مع الفساق ومع العدول الصالحين، وأيضا **فإن الفساق إذا جاهدوا فَهُم مطيعون في ذلك**)[٤٩].

وقال ابن حزم ـــ بعدما ذكر حديث «إن الله ينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم» وحديث «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» ـــ قال: [فهذا يبيح الاستعانة على أهل الحرب بأمثالهم وعلى أهل البغي بأمثالهم من المسلمين الفجار الذين لا خلاق لهم، وأيضا فإن **الفاسق مفترض عليه من الجهاد** ومن دفع أهل البغي كالذي افترض على المؤمن الفاضل فلا يحل منعهم من ذلك، بل الغرض أن يُدْعَوا إلى ذلك][٥٠].

وقد سبق في الباب الثالث من هذه الرسالة بحث مسألة الغزو مع الأمير الفاجر على التفصيل، فإن جاز الخروج مع الفاجر متبوعا، فخروجه تابعا أولى.

وقد أسهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان هذا، ومما نقلته عنه في الباب الثالث قوله: [فإن اتفق من يقاتلهم على الوجه الكامل فهو الغاية في رضوان الله وإعزاز كلمته وإقامة دينه، وطاعة رسوله، وإن كان فيهم من فيه فجور وفساد نية بأن يكون يقاتل على الرياسة أو يتعدى عليهم في بعض الأمور، وكانت مفسدة ترك قتالهم أعظم على الدين من مفسدة قتالهم على هذا الوجه: كان الواجب أيضا قتالهم دفعا لأعظم المفسدتين بالتزام أدناهما، فإن هذا من أصول الإسلام التي ينبغي مراعتها.

ولهذا كان **من أصول أهل السنة والجماعة** الغزو مع كل بر وفاجر، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لاخلاق لهم، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع **الأمراء الفجار**، أو **مع عسكر كثير الفجور**، فأنه لابد من أحد أمرين: إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضررا في الدين والدنيا، وإما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين، وإقامة أكثر شرائع الإسلام، وإن لم يمكن إقامة جميعها، فهذا هو الواجب في هذه الصورة، وكل ما أشبهها، بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلا على هذا الوجه ـــ إلى أن قال رحمه الله ـــ فإذا أحاط المرء علما بما أمر به النبي ﷺ من الجهاد الذي يقوم به الأمراء إلى يوم القيامة، وبما نهى عنه من إعانة الظلمة على ظلمهم: عَلِمَ **أن الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض جهاد من يستحق الجهاد، كهؤلاء القوم المسئول عنهم، مع كل أمير وطائفة وهي أولى بالإسلام منهم**، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة

---

[٤٩] – المجموع شرح المهذب ج ١٩ ص ٢٧٩

[٥٠] – المحلى ج ١١ ص ١١٣، ١١٤

التي يغزو معها على شيء من معاصي ا لله، بل يطيعهم في طاعة الله، ولا يطيعهم في معصية الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديما وحديثا. **وهي واجبة على كل مكلف**. وهي متوسطة بين طريـــق الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريق المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقا وإن لم يكونوا أبرارا][51].

قلت: وقد أَخَذَتْ هذه المسألة من الاستقرار ما جعلها تُدَوَّن ضمن مســائل اعتقــاد أهــل الســنة والجماعة، كما نقلته عن شرح العقيدة الطحاوية في الباب الثالث، ومما ورد فيه (والحــج والجهــاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفــاجرهم إلى قيــام الســاعة لا يُبطلــهما شــيء ولا ينقضهما)[52].

مما سبق ترى أن الجهاد مع الفاسق متبوعا كان أم تابعا **جائز** إجماعا، وقد **يجب** إذا لم يمكــن دفــع الكفار إلا بالجهاد مع الفساق كما قال ابن تيمية رحمه الله في كلامه السابق.

والأصل في هذه المسألة هو أن الجهاد مخاطب به الذين آمنوا كما قوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِــأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ}[53]، وغيرهــا مــن الآيات، فهذه الآية خطاب للمؤمنين بالجهاد، ومن هؤلاء من له ذنوب {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} فدلت الآية على أن إلمام المؤمن بالذنوب لا يُسقِّط مخاطبته بالجهاد. والفاسق وإن عظمت ذنوبــه فإنــه لا يسلب الإيمان بالكلية، فإن معه مطلق الإيمان (أي الحد الأدنى منه) الموجب لتكليفه بالشرائع، وإن لم يكن معه الإيمان المطلق (أي الكامل) **واجتماع الطاعة والمعصية في العبد من عقيدة أهــل الســنة**، وهذا مستفاد من القاعدة العمة وهي **أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية** ــ وقد سبق بيان هذا ــ ومن أمثلة ذلك ما رواه البخاري عن عمر رضي الله عنه (أن رجلا كان على عهد الــنبي ﷺ وكان اسمه عبد الله، وكان يلقب حِمَارا، وكان يُضْحِكُ رسول الله صلى الله عليه وســلم، وكــان رسول الله ﷺ قد جَلَدَه في الشراب، فأتي به يوما، فأمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ «لا تلعنه، فوالله ما علمت، إنه يحب الله ورسوله»)، فهــذا الصحابي رغم معصيته بشرب الخمر إلا أن معه من الطاعة كمحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم،

---

[51] – مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٥٠٦ ــ ٥٠٨

[52] – شرح العقيدة الطحاوية ط المكتب الإسلامي ١٤٠٣هــ ص ٤٣٧

[53] – سورة الصف، الآيات: ١٠ ــ ١١ ــ ١٢

وهذه المحبة من أعظم شعب الإيمان، وتأمل مترلتها في آية إبطال الأعذار الثمانية بسورة التوبة {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ...} الآية.

ثم إن صاحب المعصية له نفع خاص من الجهاد وذلك لتكفير ذنوبه. كما قال ابن تيمية رحمه الله معقبا على آية الصف السابقة [ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد، فإن الله ﷻ يغفر ذنوبه، كما أخبر الله في كتابه بقوله سبحانه وتعالى {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}، ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة ولا يمكن رده إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه، فإن ذلك طريق حسنة إلى خلاصه مع ما يحصل له من أجر الجهاد][54].

مما سبق تعلم أن **الفسق لا يُسقط التكليف بالجهاد، فالفاسق خاطب شرعا بالجهاد** كالصالح العادل، وسبق ما نقله الشوكاني من جواز ـــ وليس وجوب ـــ الاستعانة بالفاسق والمنافق إجماعا.

فإذا ثبت الجواز آل الأمر إلى اعتبار المنافع والمفاسد المترتبة على خروجه في الجهاد **فأيتهما غلبت فالحكم لها.** أي إذا كانت منفعة خروجه أعظم من مفسدته، سُمِحَ له بالخروج وعكسه بعكسه.

ومن هذا ما قاله ابن قدامة [**ولا يستصحب الأمير معه مُخَذِّلا** وهو الذي يثبط الناس عن الغزو... **ولا مُرْجِفا** وهو الذي يقول قد هلكت سرية المسلمين وما لهم مدد ولا طاقة لهم بالكفار... ولا من يعين **على المسلمين بالتجسس للكفار... ولا من يوقع العداوة** بين المسلمين **ويسعى بالفساد**][55]، وهذا كله يرجع إلى قوله تعالى {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}[56]، وقوله تعالى {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}[57]، **ومحصل ذلك أنه يُمنع من الجهاد من فيه تخذيل أو إفساد للصف أو خيانة، فهذا عظيم المفسدة وإن كان فيه بعض النفع.**

فإذا سمح الأمير للفاسق العاصي ـــ الذي منفعته أعظم من فسقه ـــ بالخروج للجهاد، فهذا **لا يعني إقراره على فسقه ومعصيته،** بل يأمره بالمعروف تعليما ونصحا، وينهاه عن المنكر زجرا وعقوبة، وهذا معناه **ممارسة التربية الإيمانية أثناء الجهاد،** ولا نقول يؤجل الجهاد حتى ننتهي من التربية الإيمانية فهذه **لانهاية لها إلا بالموت** لقوله تعالى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[58]، واليقين هو الموت كما

---

[54] – مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٤٢١، ٤٢٢

[55] – المغني والشرح الكبير ج ١٠ ص ٣٧٢، وقد سبق في مسألة (المحافظة على وحدة الجماعة) وتجد مثل هذا في المجموع شرح المهذب ج ١٩ ص ٢٧٨ ـــ ٢٨٠

[56] – سورة التوبة، الآيتان: ٤٦ ـــ ٤٧.

[57] – سورة التوبة، الآية: ٨٣

[58] – سورة الحجر، الآية: ٩٩

في التفسير، وقد يحين الأجل و لم يُحَصِّل العبد إلا قدرا يسيرا من هذه التربية، قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}[٥٩]، فهذه هي المنازل الإيمانية لأتباع الرسل وورثة الكتاب.

ويمكنني أن ألخص ما سبق فيما يلي:

١ = الإعداد الإيماني (التربية) واجب ومقوم أساسي من مقومات النصر، وقد سبق تفصيل هذا، خاصة ما يتعلق بأثر المعاصي في الخذلان، وأن معصية البعض تضر الكل إذا تركوا الإنكار، وهذا هو الحال الأمثل الذي إن وُجِدَ فيها ونعمت.

٢ = ومع ذلك نقول إن الجهاد لا يؤجل من أجل الإعداد الإيماني ـــ وإن كان يؤجل من أجل الإستعداد المادي عند العجز ـــ خاصة إذا كان الجهاد فرض عين وأخص من الجهاد العيني ما إذا نزل العدو ببلد المسلمين، وهو حال كثير من البلدان الآن، فمثل هذا الجهاد واجب عيني مُضَيَّق الوقت، وتأجيل مثل هذا الجهاد العيني يؤدي إلى ضرر وفساد، فأي فتنة أعظم من حلول الكافرين بعقر بلاد المسلمين يفرضون عليهم أحكام الكفر ويسعون في إفساد المسلمين وفتنتهم عن دينهم بشتى وسائل المكر، فمن قال بتأجيل جهاد هؤلاء حتى يتسنى تربية من يرغب في الجهاد، فصاحب هذه المقولة لا يدرك أن عوامل الهدم أضعاف عوامل البناء، {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا}[٦٠]، {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}[٦١]، كذلك فإنه لا يدرك أن الكافرين لن يُبقوا على أي وسيلة من وسائل التربية الصالحة، قال تعالى: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٦٢]، فلولا دفع الله تعالى للكافرين بالمجاهدين في سبيله لما بقي مكان صالح لعبادة الله سبحانه، ولذلك وصف ابن القيم رحمه الله المجاهدين بقوله: [قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعداءه، **وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم** في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم، **ولهم مثل أجور من عَبَدَ الله بسبب جهادهم وفتوحهم** فإنهم كانوا هم السبب فيه. والشارع قد نَزَّل التسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر، ولهذا كان الداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تَبِعَه][٦٣].

---

[٥٩] – سورة فاطر، الآية: ٣٢

[٦٠] – سورة البقرة، الآية: ٢١٧

[٦١] – سورة البقرة، الآية: ١٢٠

[٦٢] – سورة الحج، الآية: ٤٠

[٦٣] – طريق الهجرتين ط دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ ص ٣٥٥

٣ = إذا اكتمل للمسلمين الإعداد المادي قدر الاستطاعة {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ} مع مظنة الظفر فيجب الشروع في الجهاد ولا يؤجل من أجل إكمال الإعداد الإيماني، وهذا معناه أنه عند العجز عن الجهاد يجب السعي في الإعدادين المادي والإيماني معا، فمن سعى في الإعداد الإيماني وترك المـــادي أو أَجَّله، فقد أثم لترك المأمور به {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}.

٤ = الإعداد الإيماني تجب ممارسه في كل المراحل قبل الشروع في الجهاد وخلاله، وكما قلت من قبل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة لازمة للمسلمين قبل التمكين وبعده، وخير أنواع التربيـــة تلك التي تمارس أثناء الجهاد حيث يَغْلُب على الناس القرب من الله تعالى في هذه الحالة. والرسول ﷺ كان دائم التوجيه لأصحابه مع قيامهم بالجهاد، **وما قال أحد نؤجل الجهاد حتى تكتمـــل التربيـــة،** ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[٦٤]، وقولـــه ﷺ لسرية عبد الله بن حذافة: «لو دخلوها ماخرجوا منها أبدا، إنما الطاعة في المعروف»[٦٥]، وقولـــه ﷺ لأسامة بن زيد: «أقتلته بعد ما قال لا إلـــه إلا الله»[٦٦]، وقولـــه ﷺ لأبي ذر: «إنـــك امـــرؤٌ فيـــك جاهلية»[٦٧]، وقوله ﷺ في إحدى الغزوات: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٦٨]، كذلك فقد وقعت قصة الإفك بعد إحدى الغزوات وأقام النبي ﷺ حد القذف على من خاضوا فيها ومنهم مـــن شهد بدرا وهو مِسْطَح بن أُثاثة ومنهم شاعر النبي ﷺ حسان بن ثابت[٦٩]. ولهذا فقد يكون الرجـــل كاملا فاضلا مشهودا له بالجنة يعنا ويقع في الكبائر كمسطح بن أُثاثة وحاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ في شأن حاطب: «أو ليس من أهل بدر؟ وما يدريك لعل الله اطلع علـــى عليهم فقال: اعملوا ما شئتم فقد أوجبت لكم الجنة»[٧٠]، وقال ابن حجر: [إن المـــؤمن ولـــو بلـــغ بالصلاح أن يُقطع له بالجنة لا يُعصم من الوقوع في الذنب لأن حاطبا دخل فيمن أوجـــب الله لهـــم الجنة ووقع منه ما وقع][٧١]. وأمثلة هذا كثيرة. فالتربية الإيمانية تمارس أثناء الجهاد ولا يؤجل الجهاد من أجلها. فهي ــــ كما سبق ــــ لا تنتهي إلا بموت العبد، والله سبحانه يقلب القلوب ويصرفها كيـــف يشاء.

[٦٤] – رواه البخاري.

[٦٥] – رواه البخاري.

[٦٦] – متفق عليه.

[٦٧] – رواه البخاري.

[٦٨] – رواه البخاري.

[٦٩] – انظر فتح الباري ج ٨ ص ٤٧٨ ــــ ٤٧٩

[٧٠] – رواه البخاري حديث ٦٩٣٦

[٧١] – فتح الباري ج ١٢ ص ٣١٠

٥ = العدالة ليست من شروط وجوب الجهاد، ويجوز للفاسق أن يخرج للجهاد تابعا (جنـــديا) **إذا كانت منفعته للجهاد أعظم من مفسدته،** كما سبق تفصيله، ويُمنع من فيه إفساد أو خيانة.

٦ = إنه لا يعيب طائفة من المسلمين أن يكون بين صفوفها بعض العصاة، إنما يعيبها أن تقرهم علـــى المعاصي ولا تأخذهم بطاعة الله تعالى أمرا ونهيا، إذ إن الخطأ والمعصية لا تنفك عن الإنسان، وقد أقام ﷺ حدود الزنا والقذف والخمر والسرقة والحرابة في حياته صلى الله عليه وسلم، وكـــان المنـــافقون يخرجون معه في الغزو كما سبق في أوائل هذه الرسالة، و لم يقل أحد لا نجاهد طالمـــا في الصـــفوف عصاة أو منافقون. فقد قال ﷺ : «لا يأتي عليكم يوم إلا والذي بعده شر منه»[٧٢]. والمقصد من هذا أنه إذا وجد بعض العصاة في طائفة مجاهدة قائمة بأمر الله فإن هذا ليس بمبرر لترك الجهاد معها بحجة أن بها بعض العصاة.

٧ = فإن عدمت مثل هذه الطائفة المشار إليها أعلاه (وهي الطائفة الصالحة التي تضم بعض العصـــاة) و لم يمكن الجهاد إلا مع أمي فاجر أو مع عسكر كثير الفجور، فالجهاد معهم واجب ــ كما قال ابن تيمية ــ **لدفع أعظم المفسدتين وهي مفسدة الكافرين** ــ وهذه هي **تقوى الله المســـتطاعة للعبـــد** {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}[٧٣]، فإنه لا توجد مفسدة أعظم من استيلاء الكفار على بلاد المسلمين ومـــا يترتب على ذلك من الردة الإجبارية لعموم المسلمين إلا من رحم الله إنه هو الغفور الـــرحيم، قـــال تعالى: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَـــنْ دِينِـــهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْـــحَابُ النَّـــارِ هُـــمْ فِيهَـــا خَالِدُونَ}[٧٤]. فإن خرج المسلم مع أمير فاجر أو عسكر كثير الفجور، فإنه يعاونهم على البر والتقوى ولا يعاونهم على الإثم والعدوان، يطيعهم في الطاعة ويعصيهم في المعصية، ويبذل النصح لهم عسى الله تعالى أن يُصلح به. وقال ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: [فإن تعذر إقامة الواجبات مـــن العلـــم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: **كان تحصـــيل مصـــلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس،** ولهذا كان الكـــلام في هـــذه المســـائل فيـــه تفصيل][٧٥].

[٧٢] – رواه البخاري عن أنس.

[٧٣] – سورة التغابن، الآية: ١٦

[٧٤] – سورة البقرة، الآية: ٢١٧

[٧٥] – مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢١٢

وقال الشاطبي: [وكذلك الجهاد مع ولاة الجور قال العلماء بجوازه، قال مالك: "لو تُرِكَ ذلك لكان ضررا على المسلمين؟ فالجهاد ضروري، والوالي فيه ضروري، والعدالة فيه مكملة للضروري، والمُكَمِّل إذا عاد للأصل بالإبطال **لم يُعْتَبر**"][76].

ولأبي محمد بن حزم كلام شديد في النكير على من يَنْهَى عن جهاد الكفار مع الأمير الفاجر، قال ابن حزم: [ولا إثم بعد الكفر أعظم من إثم من نهى عن جهاد الكفار وأمر بإسلام حريم المسلمين إليهم من أجل فسق رجل مسلم لا يُحَاسَب غيره بفسقه][77].

قلت: وقد سبق في الباب الثالث بيان أن الأمير الفاجر الذي يُغْزَى معه ــ إن عُدِمَ غيره ــ هو من كان فجوره في نفسه، ومن كان فجوره دون الكفر.

ومما سبق ترى يا أخي المسلم أن القول بأنه لا نجاهد حتى نطلب العلم الشرعي أو حتى نستكمل التربية الإيمانية، وإلزام كل مسلم بهذا، هو قول يفضي إلى استئصال دين الإسلام.

وكما قلت في الرد على شبهة الشيخ الألباني، فإن العلم والتربية حق ونحن ندعو الناس إليهما، مع مراعاة ما يلي:

أ = أنهما ــ العلم والتربية ليسا من شروط وجوب الجهاد، بمعنى أنه لا يصح أن ننهى أحدا عن الجهاد حتى يتعلم دينه أو يزكي نفسه، اللهم إلا العلم العيني الخاص بالجهاد كعلم مشروعية الجهاد ومعرفة الراية التي يقاتل تحتها.

ب = إن طريق الخلاص من حياة الذل التي يحياها المسلمون هو طريق الجهاد، كما في حديث ثوبان مرفوعا «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ...»، وحديث ابن عمر مرفوعا «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ...»، وقد سبقا، وهذا الجهاد نراه واجبا على معظم المسلمين خاصة جهاد الحكام المرتدين، ومن هنا فإننا نعتبر العلم والتربية جزء من الإعداد للجهاد من أجل تكوين طائفة مجاهدة على علم ودين، ولا نعتبر العلم والتربية بدون الجهاد طريقا للخلاص كما سبق في الرد على شبهة الشيخ الألباني.(العمدة في إعداد العدة)

٣٦- بذلُ الغالي والنفيس في سبيل الله :

قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١١١} التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ

[76] – الموافقات ٢ / ١٥

[77] – المحلى ٧ / ٣٠٠

السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {١١٢} ﴾

يُرَغِّبُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ فِي الجِهَادِ ، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيُعَوِّضُ الْمُؤْمِنِينَ بالجَنَّةِ عَنْ بَذْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لِتَكُونَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، ولِإحْقَاقِ الحَقِّ ، وَإِقَامَةِ العَدْلِ فِي الأَرْضِ ، فَهُمْ حِينَ يُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ أَعْدَاءَهُمْ ، وَيُقْتَلُونَ هُمْ ، وَهُمْ فِي كِلاَ الحَالَيْنِ مُثَابُونَ عَلَى ذَلِكَ . وَقَدْ وَعَدَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ الحَقِّ ، وَجَعَلَهُ حَقّاً عَلَيهِ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجيلِ وَالقُرْآنِ .

ثُمَّ يَدْعُو اللهُ تَعَالَى مَنِ التَزَمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بعَهْدِهِ للهِ إِلَى الاسْتِبْشَارِ بذَلِكَ الفَوْزِ العَظِيمِ ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، لأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَفَاءً بِالْعَهْدِ ، وَلاَ أَكْثَرَ مِنْهُ التِزَاماً بالوَعْدِ الذِي يَقْطَعُهُ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رِبْحٌ أَكْبَرُ مِنَ الرّبحِ الذِي يُحَقّقُهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ الصَّفْقَةِ .

وَهُنَا يُعَدِّدُ اللهُ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الذِينَ اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بالجَنَّةِ ، وَهُمْ : التَّائِبُونَ مِنْ الذُّنُوبِ كُلِّها ، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ ، القَائِمُونَ بعِبَادَةِ رَبِّهِمْ ، وَالْمُحَافِظُونَ عَلَيهَا ، وَالحَامِدُ نَ للهِ عَلَى نعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ ، السَّائِحُونَ فِي الأَرْضِ ، لِلاعْتِبَارِ وَ الاسْتِبْصَارِ بمَا خَلَقَ اللهُ مِنَ العِبَرِ وَ الآيَاتِ ، (وَقِيلَ أَيْضاً إنَّ مَعْنَى السَّائِحِينَ هُنَا الصَّائِمُونَ) وَالْمُصَلُّونَ . وَهُمْ مَعْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْعَوْنَ فِي نَفْعِ خَلْقِ اللهِ ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى طَاعَتِهِ ، بِأَمْرِهِمْ بالْمَعْرُوفِ ، وَنَهيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، مَعَ العِلْمِ بمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ ، وَيَجبُ تَرْكَهُ طَاعَةً للهِ (أَيْ إِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ حُدُودَ اللهِ) . وَيُبَشِّرُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الكَرِيمَةِ بِخَيْرَي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ..

إنها صفقة مشتراة ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتخير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام . .

والثمن:هو الجنة . .

والطريق:هو الجهاد والقتل والقتال . .

والنهاية:هي النصر أو الاستشهاد: (إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون) . .

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة . من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن . . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا . . ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال . ولكنه كرم هذا لإنسان فجعله مريداً؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع الله – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة : . . شر البهيمة . . { إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة

وهم لا يتقون } كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها في عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه . ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات : { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون } . .

عونك اللهم! فإن العقد رهيب . . وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم « مسلمين » في مشارق الأرض ومغاربها ، قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد .ولا يقتلون . ولا يقتلون . ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال!

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول الله – ﷺ – فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم؛ و لم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها . لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة . . هكذا أدركها عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – في بيعة العقبة الثانية . قال محمد بن كعب القرظي وغيره : قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، لرسول الله – ﷺ – (يعني ليلة العقبة) – : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قال : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل .هكذا . . « ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل » . لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين؛ انتهى أمرها ، وأمضى عقدها ، و لم يعد إلى مرد من سبيل : « لا نقيل ولا نستقيل » فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار؛ والجنة : ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن وعداً قديماً في كل كتبه :{ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن } . .{ ومن أوفى بعهده من الله؟ } . أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . . كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله . . إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض } { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً } إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه . ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق! . . بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق . . إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده . ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق . . بل لا بد أن يقطع عليه الطريق . . ولا بد لدين الله أن ينطلق في « الأرض » كلها لتحرير « الإنسان » كله . ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل

طريقاً! . . وما دام في « الأرض » كفر . وما دام في « الأرض » باطل . وما دامت في « الأرض » عبودية لغير الله تذل كرامة « الإنسان » فالجهاد في سبيل الله ماض ، والبيعة في عنق كـــل مـــؤمن تطالبه بالوفاء .وإلا فليس بالإيمان : و « من مات و لم يغز ، و لم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » (رواه الإمام أحمد ، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي) .

{ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم } .استبشروا بـــإخلاص أنفســـكم وأموالكم لله ، وأخذ الجنة عوضاً وثمناً ، كما وعد الله . . وما الذي فات؟ ما الذي فـــات المـــؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله ما فاته شيء . فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت . سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه! والجنة كسب . كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذه الطريق أو ذاك!

ود ع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله . ينتصر – إذ انتصر – لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه . ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله ، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة . ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الأ لم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة .

إن هذا وحده كسب . كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة؛ وانتصار الإيمان فيه على الأ لم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة . . فإذا أضيفت إلى ذلـــك كله . . الجنة . . فهو بيع يدعو إلى الاستبشار؛ وهو فوز لا ريب فيه ولا جـــدال : { فاستبشـــروا ببيعكم الذي بايعتم فيه ، وذلك هو الفوز العظيم } .ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعـــالى في هـــذه الآية : { وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن} فوعد الله للمجاهدين في ســـبيله في القـــرآن معروف مشهور مؤكد مكرور . . وهو لا يدع مجالاً للشك في إصالة عنصر الجهاد في ســـبيل الله في طبيعة هذا المنهج الرباني؛ باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكـــان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركـــي ، يحمي نفسه بالقوة المادية؛ ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة الماديـــة كـــذلك؛ ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد ، وتحرير « الإنســـان » في « الأرض » من العبودية للعباد . كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد . . ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في « الأرض » لتحقيق إعلانه العام بتحرير « الإنسان » أن يصطدم بـــالقوة الماديـــة الـــتي تحمـــي التجمعات الجاهلية؛ والتي تحاول بدورها – في حتمية لافكاك منها – أن تســـحق حركـــة البعـــث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري ، لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد!

فأما وعد الله للمجاهدين في التوراة والإنجيل .فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان . .

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها؛ وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين؛ و لم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة . . وهو قليل . . أضيف إليه الكثير!

ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد ، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين ، لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله .فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد . . ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية؛ فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها – بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! – وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .والله سبحانه يقول في كتابه المحفوظ : إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون؛ ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن . . فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . كل مؤمن على الإطلاق . منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين الله . .ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال؛ إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة ، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة : { التائبون . العابدون . السائحون . الراكعون الساجدون . الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . والحافظون لحدود الله } { التائبون } . . مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين . والتوبة شعور بالندم على ما مضى ، وتوجه إلى الله فيما بقي ، وكف عن الذنب ، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك ، فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح .{ العابدون } . . المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ، إقراراً بالربوبية . . صفة هذه ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر ، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع . فهي إقرار بالألوهية والربوبية لله في صورة عملية واقعية .

{ الحامدون } . . الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة ، وتلهج ألسنتهم بحمد الله في السراء والضراء . في السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة . وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها ، ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفي على العباد إدراكه .

{ السائحون } . . وتختلف الروايات فيهم . فمنها ما يقول : إنهم المهاجرون . ومنها ما يقـــول : إنهم المجاهدون . ومنها ما يقول : إنهم المتنقلون في طلب العلم . ومنهم من يقول : إنهم الصـــائمون . . ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه ، ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر : { إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يـــذكرون الله قيامـــاً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض : ربنا مـــا خلقـــت هـــذا بـــاطلاً سبحانك! . . . } فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد . فمـــع التوبـــة والعبـــادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله ، وإدراك حكمته في خلقه ، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق . لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمـــل والاعتبار . ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك . .{ الراكعون الساجدون } . . الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم؛ وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم .

{ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر } . . وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة الله ، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه ، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هـــذا المجتمـــع؛ ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه . . ولكن حين لا يكـــون في الأرض مجتمع مسلم؛ وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده ، وشريعة الله وحدها هي الحاكمية فيه ، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر ، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم . والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهي عـــن المنكر الأكبر . وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغـــير شـــريعة الله . . والذين آمنوا بمحمد – ﷺ – هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشـــريعة الله ، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة . فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينـــهون عـــن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي . ولم ينفقوا قط جهدهم ، قبل قيام الدولـــة المســـلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع . فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكـــر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر ، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

{ والحافظون لحدود الله } . . وهو القيام على حدود الله لتنفيذها في النفس وفي الناس .ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها . . ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يقام عليهـــا إلا في مجتمع مسلم . ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة الله وحدها في أمره كله؛ وإلا الـــذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع؛ ويرفض حكم الطاغوت المتمثـــل في كـــل

شرع لم يأذن به الله . . والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع . ومتى قام كـــان هنـــاك مكان للحافظين لحدود الله فيه . . كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته . وهذه هي صفاتها ومميزاتها : توبة ترد العبد إلى الله ، وتكفه عن الذنب ، وتدفعه إلى العمل الصالح . وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته . وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله . وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصـــميم الخلـــق . وأمـــر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة . وحفظ لحدود الله يـــرد عنها العادين والمضيعين ، ويصونها من التهجم والانتهاك

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضي مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسوله ورسالاته . قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله؛ وقتل لأعداء الله الذين يحادّون الله؛ أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهليـــة ، وبين الشريعة والطاغوت ، وبين الهدى والضلال .وليست الحياة لهواً ولعباً . وليست الحياة أكلاً كما تأكل الأنعام ومتاعاً . وليست الحياة سلامة ذليلة ، وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصـــة . . إنمـــا الحياة هي هذه : كفاح في سبيل الحق ، وجهاد في سبيل الخير ، وانتصـــار لإعـــلاء كلمـــة الله ، أو استشهاد كذلك في سبيل الله . . ثم الجنة والرضوان . .هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون بالله : { يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } وصدق الله . وصدق رسول الله ﷺ . .

٣٧- النظرُ في السُّنَن الربانية:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَـــانَ عَاقِبَـــةُ الْمُكَـــذَّبِينَ {١٣٧} هَـــذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {١٣٨} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَـــوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {١٤٠} آل عمران ﴾

يُخَاطِبُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَصَابِهِمْ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ فَيَقُولُ لَهُمْ : لَقَدْ جَرَى عَلَى أَتْبَـــاعِ الأَنْبِيَـــاءِ السَّابِقِينَ مِنَ الأُمَمِ الغَابِرَةِ نَحُوٌ مِمَّا جَرَى لَكُمْ يَوْمَ أحُدٍ ، فَأُصِيبُوا وَقُتِلُوا وَهُزِمُوا . . وَلَكِنَّ العَاقِبَـــةَ كَانَتْ لَهُمْ ، وَالدَّائِرَةَ كَانَتْ عَلَى الكَافِرِينَ . . . وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ مَا التَقَـــى الإِيْمَـــانُ وَالشِّرْكُ إلاّ نَصَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ ، وَأَعْلَى رَايَةَ الإِيْمَانِ ، وَهَزَمَ الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ ، وَنَكَّسَ أَعْلاَمَهُ

. وَأَجْدَرُ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ هُمُ المُؤْمِنُونَ فَسِيرُوا يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ فِي الأَرْضِ ، وَتَأَمَّلُوا فِيمَا حَلَّ بالأُمَمِ السَّابِقَةِ .

وَمَا تَقَدَّمَ هُوَ بَيَانٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ مِنْهُمْ خَاصَّةً ، فَالإِرْشَادُ عَامٌّ لِلنَّاسِ ، وَحُجَّةٌ عَلَى المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ ، (وَذَلِكَ يَدْحَضُ مَا قَالَهُ المُشْرِكُونَ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولاً حَقّاً لَمَا غُلِبَ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ) . فَهَذا البَيَانُ وَالهُدَى يُرشِدَانِ إِلَى أنَّ سُنَنَ اللهِ حَاكِمَةٌ عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ، كَمَا هِيَ حَاكِمَةٌ عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ ، فَمَا مِنْ قَائِدٍ يُخَالِفُهُ جُنْدُهُ ، وَيَتْرُكُونَ حِمَايَةَ الثَّغْرِ الذِي عُهِدَ إِلَيهِمْ بِحِمَايَتِهِ ، إِلاّ كَانَ جَيْشُهُ عُرْضَةً لِلْهَزِيمَةِ .وَهَذَا البَيَانُ هُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الذِينَ يَتَفكَّرُونَ فَيَعْتَبِرُونَ .

وَلاَ تَضْعَفُوا عَنِ الجِهَادِ ، وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالإِعْدَادِ ، بِسَبَبِ مِا أَصَابَكُمْ مِنَ الفَشَلِ وَالجِرَاحِ يَوْمَ أحُدٍ ، وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَقَدْتُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ ، فَإِنَّ العَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ سَيَكُونَانِ لَكُمْ إِذَا تَمَسَّكْتُمْ بِحَبْلِ اللهِ ، وَرَاعَيْتُمْ تَعَالِيمَهُ ، فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ أنْ يَجْعَلَ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .إنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ ، وَقُتِلَ مِنْكُمْ رِجَالٌ يَوْمَ أحُدٍ ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِمَّا أَصَابَكُمْ ، فَلاَ يَنْبَغِي لَكُمْ أنْ تَقْعُدُوا وَتَتَقَاعَسُوا عَنِ الجِهَادِ بِسَبَبِ مَا أَصَابَكُمْ ، فَالمُشْرِكُونَ قَدْ سَبَقَ أنْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ أَنْتُمْ فِي أحُدٍ ، فَلَمْ يَتَقَاعَسُوا ، وَلَمْ يَقْعُدُوا عَنِ الإِعْدَادِ لِلْحَرْبِ وَمُبَاشَرَتِهَا ، وَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، فَكَيْفَ تَتَرَدَّدُونَ وَأَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ ، وَاللهُ وَعَدَكُمْ نَصْرَهُ ، وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لَكُمْ؟ وَمِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى مُدَاوَلَةُ الأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَمَرَّةً تَكُونُ الغَلَبَةُ لِلْبَاطِلِ عَلَى الحَقِّ ، إِذَا أَعَدَّ لَهُ أَهْلُهُ وَاحْتَاطُوا ، وَتَرَاخَى أَهْلُ الحَقِّ ، وَمَرَّةً تَكُونُ الغَلَبَةُ لِلْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ . وَلَكِنَّ العَاقِبَةَ تَكُونُ دَائِماً لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ . وَاللهُ تَعَالَى يَبْتَلِي المُؤْمِنِينَ لِيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ ، وَلِيَتّخِذَ مِنَ المُؤمِنِينَ رِجَالاً يُكْرِمُهُمْ بِالشَّهَادَةِ ..

لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة وأصاهم القتل والهزيمة . أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابياً وكسرت رباعية الرسول - ﷺ - وشج وجهه وأرهقه المشركون وأثخن أصحابه بالجراح . . وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس ، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم : « أنى هذا؟ » وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟!

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض . يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور . فهم ليسوا بدعاً في الحياة ؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي

الطريق . و لم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ؛ بدون الأخـــذ بأســـباب النصر ، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول .والسنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه أبصارهم إليها هي :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . ومداولة الأيام بين الناس . والابتلاء لتمحيص السرائر ، وامتحان قوة الصبر على الشدائد واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين .

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال والمواساة في الشدة والتأســية على القرح الذي لم يصبهم وحدهم إنما أصاب أعداءهم كذلك وهم أعلى مـــن أعـــدائهم عقيـــدة وهدفاً وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً ، والعاقبة بعد لهم والدائرة على الكافرين .

{ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للنـــاس وهدى وموعظة للمتقين } . .إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها وحاضرها بماضيها فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حيـــاتهم و لم تكن معارفهم و لم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لـــولا هـــذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى وخلق به منهم أمة تقود الدنيا . .

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين ســكان الجزيـــرة ومجريات حياتهم ؛ فضلاً على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها فضـــلاً علـــى الـــربط بـــين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً . . وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئـــة و لم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة . بـــل حملتـــهم إليهـــا! وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان . على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون ؛ و لم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية إلا بعد أجيال وأجيال . . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشـــيئة الإلهية وأنه إلى الله تصير الأمور . . فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله واتسع له تصورها ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة فاستقامت حياتها على التعامل مع ســـنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة!

{ قد خلت من قبلكم سنن } . .وهي هي التي تحكم الحياة . وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة . فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله - بمشيئة الله - في زمانكم وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم .{ فسيروا في الأرض } . .فالأرض كلها وحدة . والأرض كلـــها مسرح للحياة البشرية . والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصـــائر .{ فـــانظروا كيف كان عاقبة المكذبين } . .وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض وتشهد بها ســـيرهم الـــتي

يتناقلها خلفهم هناك . . ولقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة .

بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه . وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل . . وهنا يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة : إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً . ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة . وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى . وقد كان هنالك ما يدعو إلى الطمأنينة وما يدعو إلى التحذير . وفي السياق سيرد من هذه الدواعي الكثير .وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان :

{ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين } . .هذا بيان للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادي . ولكن طائفة خاصة هي التي تجد فيه الهدى ، وتجد فيه الموعظة وتنتفع به وتصل على هداه . . طائفة { المتقين } . .إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى . والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها . . والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل ، وبالهدى والضلال . . إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل . إنما تنقص الناس الرغبة في الحق ، والقدرة على اختيار طريقه والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه . . لا ينشئهما إلا الإيمان ، ولا يحفظهما إلا التقوى . . ومن ثم تتكرر في القرآن أمثال هذه التقريرات . تنص على أن ما في هذا الكتاب من حق ومن هدى ومن نور ومن موعظة ومن عبرة . . . إنما هي للمؤمنين وللمتقين . فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة . وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة . . واحتمال مشقات الطريق . . وهذا هو الأمر وهذا هو لب المسألة . . لا مجرد العلم والمعرفة . . فكم ممن يعلمون ويعرفون وهم في حمأة الباطل يتمرغون . إما خضوعاً لشهوة لا يجدي معها العلم والمعرفة وإما خوفاً من أذى ينتظر حملة الحق وأصحاب الدعوة!

وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت :{ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين } . .لا تهنوا – من الوهن والضعف – ولا تحزنوا – لما أصابكم ولما فاتكم – وأنتم الأعلون . . عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى . فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها الهداة لهذه البشرية كلها وهم شاردون عن النهج ضالون عن الطريق . ومكانكم في الأرض أعلى فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . . فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون . وإن

كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا . فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا على أن تكـــون لكـــم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص :

{ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله .وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين } . .

وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله قد يكون إشارة إلى غزوة بدر . وقـــد مـــس القرح فيها المشركين وسلم المسلمون . وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد . وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر . حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقـــد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد . حتى رفعته لهم امـــرأة فلاثـــوا بهـــا وتجمعوا عليها . . ثم كانت الدولة للمشركين حينما خرج الرماة علـــى أمـــر رســـول الله – ﷺ – واختلفوا فيما بينهم . فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة . جزاء وفاقاً لهـــذا الاخـــتلاف وذلك الخروج وتحقيقاً لسنة من سنن الله التي لا تتخلف إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشـــئين من الطمع في الغنيمة . والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله لا ينظـــرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد . وتحقيقاً كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض وهي مداولة الأيام بين الناس – وفقاً لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً . ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون . كما تتكشف الأخطاء . وينجلي الغبش .{ إن يمسسكم قرح فقـــد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . . وليعلم الله الذين آمنوا } . .

إن الشدة بعد الرخاء والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس وطبـــائع القلـــوب ودرجة الغبش فيها والصفاء ودرجة الهلع فيها والصبر ودرجة الثقة فيها بـــالله أو القنـــوط ودرجـــة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح!

عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن : مؤمنين ومنافقين ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم . ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ مـــن قلـــة التناسق بين أعضائه وأفراده وهم مختلطون مبهمون!

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين . والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور . ولكن الأحـــداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء وتجعله واقعاً في حياة الناس وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر ، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر ، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء . فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم .

ومداولة الأيام وتعاقب الشدة والرخاء ، محك لا يخطىء وميزان لا يظلم . والرخاء في هذا كالشدة . وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل . والنفس المؤمنة هـــي الـــتي

تصبر للضراء ولا تستخفها السراء وتتجه إلى الله في الحالين وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله .

وقد كان الله يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهـذا الابـتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب – وإن يكـن هـذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة . لتتعلم هذه الجماعة أسـباب النصر والهزيمة . ولتزيد طاعة لله وتوكلاً عليه والتصاقاً بركنه . ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفـه معرفة اليقين .ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس وفيما بعد تمييز الصفوف وعلم الله للمؤمنين :{ ويتخـذ منكم شهداء } . .

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق – إن الشهداء لمختارون . يختارهم الله من بين المجاهدين ويتخذهم لنفسه – سبحانه – فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد . إنما هـو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص . . إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه – سبحانه – ويخصهم بقربه .ثم هم شهداء يتخذهم الله ويستشهدهم على هذا الحـق الـذي بعث به للناس . يستشهدهم فيؤدون الشهادة . يؤدونها أداء لا شبهة فيه ولا مطعن عليه ولا جـدال حوله . يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس . يطلب الله – سبحانه – منهم أداء هذه الشهادة ، على أن ما جاءهم من عنده الحق ؛ وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه ؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق ؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس . . يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون . وتكـون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت . وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال!

وكل من ينطق بالشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . لا يقال له إنه شـهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها . ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلها . ومـن ثم لا يتلقـى الشريعة إلا من الله . فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد؛ وأخص خصائص العبودية التلقي من الله . . ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله . ولا يعتمد مصدراً آخـر للتلقي إلا هذا المصدر .

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض كما بلغها محمـد – ﷺ – فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد – ﷺ – هو المنـهج السـائد والغالـب والمطاع ، وهو النظام الذي يصرّف حياة الناس كلها بلا استثناء .فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في

سبيله فهو إذن شهيد . أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها . واتخذه الله شهيداً . . ورزقه هذا المقام .

هذا فقه ذلك التعبير العجيب : { ويتخذ منكم شهداء . . } . .وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومقتضاه . . لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع!

{ والله لا يحب الظالمين } . .والظلم كثيراً ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك . بوصفه أظلم الظلم وأقبحه . وفي القرآن : { إن الشرك لظلم عظيم } وفي الصحيحين « عن ابن مسعود : أنه قال : قلت : يا رسول الله . أي الذنب أعظم؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . . . » .

وقد أشار السياق من قبل إلى سنة الله في المكذبين؛ فالآن يقرر أن الله لا يحب الظالمين . فهو توكيد في صورة أخرى لحقيقة ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله . والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين . وهذه الإثارة في معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد لها مناسبتها الحاضرة . فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه . وهذا هو مقام الاستشهاد وفي هذا تكون الشهادة؛ ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء . .

ثم يمضي السياق القرآني يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث ، في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين وستاراً لقدرته في هلاك المكذبين : { وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين } . .والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز . التمحيص عملية تتم في داخل النفس ، وفي مكنون الضمير . . إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية وتسليط الضوء على هذه المكنونات . تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب . .وكثيراً ما يجهل الإنسان نفسه ومخابئها ودروبها ومنحنياتها . وكثيراً ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها وحقيقة ما استكن فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير!

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير : محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية .ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص . . ثم إذا هو يكشف – على ضوء التجربة العملية وفي مواجهة الأحداث الواقعية – إن في نفسه عقابيل لم تمحص . وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سبكها من جديد على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة!

والله – سبحانه – كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية وكان يريد بها أمراً في هذه الأرض

فمحصها هذا التمحيص الذي تكشفت عنه الأحداث في أحد لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لهـا وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها : { ويمحق الكافرين } . .تحقيقاً لسنته في دمغ الباطـل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص . .

٣٨- وجوبُ التعلُّق بالمبدأ وليس بالأشخاص :

لأنَّ المبدأ لا يضل ولكن الأشخاص قد يضلون أو يحبسون أو يشردون في الأرض أو يقتلون.

وهذه نقطة جوهرية في صميم هذه الرسالة الخالدة ، وقد ترك كثير من الصحابة الجهاد في غـزوة أحد لما سمعوا بمقتل النبي ﷺ وكثير من الناس اليوم أذا قتل الداعية أو سجن أو انحرف تخلـوا عـن الدعوة ويئسوا من رحمة الله تعالى وهذا أمر خطير يتعلق بعقيدة المسلم تجاه هذه الرسالة الخاتمة .

قال تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَـابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:١٤٤)

لَمَّا انْهَزَمَ المُسْلِمُونَ يَوْمَ أحُدٍ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ، أُشِيعَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ فِي صُفُوفِ المُسْلِمِينَ ، وَتَأَخُّرٌ عَنِ القِتَالِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيةَ ، وَفِيهَا يُذَكِّرُ المُسْـلِمِينَ بـأَنَّ مُحَمَّداً بَشَرٌ قَدْ سَبَقَتْهُ رُسُلٌ ، مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ، ثُمَّ يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ ضَـعُفَ مِنْهُمْ ، حِينَ سَمَاعِ إشَاعَةِ قَتْلِ الرَّسُولِ ، ضَعْفَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَفَإِنْ مَاتَ مُحَمَّدٌ ، أوْ قُتِلَ ، تَـرَاجَعْتُمْ وَنَكَصْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَتَرَاجَعُ وَيَنْكُصْ عَلَى عَقِبَيْهِ ، فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئاً ، لأنَّ اللهَ غَنِـيٌّ عَـنِ العَالَمِينَ ، أمّا الذِينَ امْتَثَلُوا لأمْرِ اللهِ ، وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ ، فَهَؤُلاءِ هُـمُ الشَّـاكِرُونَ ، وَسَيَجْزِيهمْ رَبُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ

فعَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ؛أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْـرٍ بالسُّـنْحِ - قَـالَ إِسْمَاعِيلُ : يَعْنِي بالْعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ : وَاللهِ ، مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَالَتْ : وَقَالَ عُمَـرُ : وَاللهِ ، مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إلاَّ ذَاكَ ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ ، فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لاَ يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَـسَ عُمَرُ ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ ، فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ، وَقَالَ : "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وَقَالَ : "وَمَا مُحَمَّدٌ

إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) قَالَ : فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ "[٧٨]

إن البشر إلى فناء ، والعقيدة إلى بقاء ، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس ، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ .

وكأنما أراد الله – سبحانه – بهذه الحادثة ، وبهذه الآية ، أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي ﷺ وهو حي بينهم . وأن يصلهم مباشرة بالنبع . النبع الذي لم يفجره محمد ﷺ ولكن جاء فقط ليومىء إليه ، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق ، كما أومأ إليه من قبله من الرسل ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه !

وكأنما أراد الله – سبحانه – أن يأخذ بأيديهم ، فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى . العروة التي لم يعقدها محمد ﷺ إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر ، ثم يدعهم عليها ويمضي وهم بها مستمسكون !

وكأنما أراد الله – سبحانه – أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة ، وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة ، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط . حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة ، التي لا يخليهم منها أن يموت الرسول ﷺ أو يقتل ، فهم إنما بايعوا الله . وهم أمام الله مسؤولون !

وكأنما كان الله – سبحانه – يعد الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى – حين تقع – وهو – سبحانه – يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم . فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب ، وأن يصلهم به هو ، وبدعوته الباقية ، قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول .

ولقد أصيبوا – حين وقعت بالفعل – بالدهش والذهول . حتى لقد وقف عمر – رضي الله عنه – شاهرا سيفه ، يهدد به من يقول:إن محمدا قد مات !

و لم يثبت إلا أبو بكر ، الموصول القلب بصاحبه ، وبقدر الله فيه ، الاتصال المباشر الوثيق . وكانت هذه الآية – حين ذكرها وذكر بها المدهوشين الذاهلين – هي النداء الإلهي المسموع ، فإذا هم يثوبون ويرجعون !

٣٩- الاقتداءُ بالصالحين من السلف الصالح :

كالإقتداء بسحرة فرعون لما عرفوا الحق آمنوا به وثبتوا عليه والإقتداء بصاحب يس الذي قدم نفسه سخية في سبيل الله وغيرهم كثير ، قال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ

---

[٧٨] -صحيح البخارى (٣٦٦٨) والمسند الجامع - (ج ١٤ / ص ٨٦)(١٠٦٤١)

قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) (آل عمران)

فِي هَذِهِ الآيَةِ يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا وَقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ يَوْمَ أحُدٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ وَهُوَ يُقَاتِلُ ، وَكَانَ مَعَه جَمَاعَاتٍ كَثِيرَةٌ (رِبِّيُّونَ) مِمَّنْ آمَنُوا بِهِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، فَمَا وَهِنُوا ، وَمَا ضَعُفُوا بَعْدَ قَتْلِ النَّبِيِّ ، وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَمَا اسَتَذَلُّوا لِمَا أصَابَهُمْ فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَفِي سَبِيلِ إعْلاَءِ دِينِهِ ، وَإِنَّمَا صَبَرُوا عَلَى قِتَالِ الأَعْدَاءِ ، وَلَمْ يَهْرُبُوا مُوَلِّينَ الأَدْبَارَ ، لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ فِي سَبِيلِ نَبِيِّهِمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أنْ تَعْتَبِرُوا بأولَئِكَ الرِّبِّيِّينَ ، وَتَصْبِرُوا كَمَا صَبَرُوا فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ ، وَسُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ وَاحِدَةٌ ..

فَاحْتَسَبَ هَؤُلاءِ الْمُؤْمِنُونَ (الرِّبِّيُّونَ) اللهَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الخَطْبِ ، وَهُمْ يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَوْلٍ عِنْدَ نُزُولِ الكَوَارِث إلاَ الدُّعَاءُ إِلَى اللهِ أنْ يَغْفِرَ لَهُمْ بجِهَادِهِمْ مَا كَانُوا أَلَمُّوا بِهِ مِنْ ذنُوبٍ ، وَتَجَاوُزَوا فِيهِ حُدُودَ الشَّرائع ، وَأن يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ القَوِيمِ ، حَتَّى لا تُزَحْزِحَهُم الفِتَنُ ، وَلاَ يَعْرُوهُمُ الفَشَلُ حِينَ مُقَابَلَةِ الأعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ .

فَآتَاهُمُ اللهُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الأَعْدَاءِ ، وَهُمَا ثَوَابُ الدُّنْيا ، وَجَمَعَ لَهُمْ ، إِلَى ذَلِكَ الظَّفَرِ ، حُسْنَ ثَواب الآخِرَةِ ، وَهُوَ الفَوْزُ بِرُضْوَانِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الذِينَ يُحْسِنُونَ العَمَلَ ، لأَنَّهُمْ يُقِيمُونَ سُنَّتَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَيُظْهِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ جَدِيرُونَ بخِلاَفَةِ اللهِ فِيهَا .[٧٩]

لقد كانت الهزيمة في « أحد » ، هي أول هزيمة تصدم المسلمين ، الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل؛ فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية . فلما أن صدمتهم أحد ، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه!

ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة في القرآن الكريم . واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة ، وبالاستنكار تارة وبالتقرير تارة وبالمثل تارة تربية لنفوسهم وتصحيحاً لتصورهم ، وإعداداً لهم . فالطريق أمامهم طويل والتجارب أمامهم شاقة والتكاليف عليهم باهظة والأمر الذي يندبون له عظيم .

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام ، لا يحدد فيه نبياً ولا يحدد فيه قوماً . إنما يربطهم بموكب الإيمان؛ ويعلمهم أدب المؤمنين؛ ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين؛ ويربطهم بأسلافهم من اتباع الأنبياء؛ ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين؛ ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد . وإنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير : { وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا } . .. . وكم من نبي قاتلت معه

[٧٩]- انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٠٤)

جماعات كثيرة . فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح . وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء . . فهذا هو شأن المؤمنين المنافحين عن عقيدة ودين . .

{ والله يحب الصابرين } . .الذين لا تضعف نفوسهم ولا تتضعضع قواهم ولا تلين عزائمهم ولا يستكينون أو يستسلمون . . والتعبير بالحب من الله للصابرين . له وقعه . وله إيحاؤه . فهو الحب الذي يأسو الجراح ويمسح على القرح ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء . فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم . صورة الأدب في حق الله وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه . ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله . . لا لتطلب النصر أول ما تطلب – وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس – ولكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء : { وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين } . .إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء . بل لم يطلبوا ثواباً ولا جزاء . . لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة . لقد كانوا أكثر أدباً مع الله وهم يتوجهون إليه بينما هم يقاتلون في سبيله . فلم يطلبوا منه – سبحانه – إلا غفران الذنوب وتثبيت الأقدام . . والنصر على الكفار . فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار . . إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم.وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئاً أعطاهم الله من عنده كل شيء . أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة . وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه : { فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة } . .

وشهد لهم – سبحانه – بالإحسان . فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد وأعلن حبه لهم وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب : { والله يحب المحسنين } . .وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض ؛ وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي . وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة . وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل . .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)

يَحُثُّ اللهُ تَعَالى المُؤْمِنينَ عَلَى الاقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ والتَّأَسِّي بِهِ فِي صَبْرِهِ وَمَصَابَرَتِهِ وَمُرَابطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ فَقَالَ لِلّذِينَ أَظْهَرُوا الضَّجَرَ وَتَزَلْوَلُوا واضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الأَحْزابِ : هَلاَّ اقْتَدَيْتُم

بِرَسُولِ الله ، وتَأَسَّيْتُمْ بشَمَائِلِهِ فَلَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ إِنْ كُنْتُمْ تَبْتَغُونَ ثَوابَ الله ، وَتَخَافُونَ عِقَابَهُ ، وَتَذْكُرونَ اللهَ ذِكْراً كَثيراً ، فَذِكْرُ الله يُؤَدِّي إِلى أُسْوَةٌ حَسَنٌ – قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ ..

وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد ، مثابة الأمان للمسلمين ، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان . وإن دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم لمما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم؛ وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر؛ وتطلب نفسه القدوة الطيبة؛ ويذكر الله ولا ينساه .

ويحسن أن نلم بلمحات من هذا الموقف على سبيل المثال . إذ كنا لا نملك هنا أن نتناوله بالتفصيل.

خرج رسول الله ﷺ يعمل في الخندق مع المسلمين . يضرب بالفأس ، ويجرف التراب بالمسحاة ، ويحمل التراب في المكتل . ويرفع صوته مع المرتجزين ، وهم يرفعون أصواقم بالرجز في أثناء العمل ، فيشاركهم الترجيع! وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجة من وحي الحوادث الجارية : « كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل ، فكره رسول الله ﷺ اسمه ، وسماه عمراً . فراح العاملون في الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج :ـسماه من بعد جعيل عمراً ــــ وكان للبائس يوماً ظهراًــــ

فإذا مروا في ترجيعهم بكلمة » عمرو « ، قال رسول الله ﷺ : » عمراً « . وإذا مروا بكلمة » ظهر « قال رسول الله ﷺ : ظهراً »

ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون ، والرسول ﷺ بينهم ، يضرب بالفأس ، ويجرف بالمسحاة ، ويحمل في المكتل ، ويرجع معهم هذا الغناء .

ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم؛ وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز .

« وكان زيد بن ثابت فيمن ينقل التراب . فقال ﷺ » أما إنه نعم الغلام! « وغلبته عيناه فنام في الخندق . وكان القر شديداً . فأخذ عمارة بن حزم سلاحه ، وهو لا يشعر . فلما قام فزع . فقال رسول الله ﷺ : » يا أبا رقاد! نمت حتى ذهب سلاحك «! ثم قال : » من له علم بسلاح هذا الغلام «؟ فقال عمارة : يا رسول الله هو عندي . فقال : » فرده عليه « . ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعباً! »

وهو حادث كذلك يصور يقظة العين والقلب ، لكل من في الصف ، صغيراً أو كبيراً . كما يصور روح الدعابة الحلوة الحانية الكريمة : « يا أبا رقاد! نمت حتى ذهب سلاحك! » ويصور في النهاية ذلك الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه في كنف نبيهم ، في أحرج الظروف . .

ثم كانت روحه ﷺ تستشرف النصر من بعيد ، وتراه رأي العين في ومضات الصخور على ضرب المعاول؛ فيحدث بها المسلمين ، ويبث فيهم الثقة واليقين .

قال ابن إسحاق : « وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال : ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت عليّ صخرة ، ورسول الله ﷺ قريب مني . فلما رآني أضرب ، ورأى شدة المكان عليّ ، نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة . قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت ، لمع المعول وأنت تضرب؟ قال : » أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان «؟ قال : قلت . نعم : قال : أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن . وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب . وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق »

وجاء في « إمتاع الأسماع للمقريزي » أن هذا الحادث وقع لعمر بن الخطاب بحضور سلمان . رضي الله عنهما

ولنا أن نتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول في القلوب ، والخطر محدق بها محيط .

ولنا أن نضيف إلى تلك الصور الوضيئة صورة حذيفة عائداً من استطلاع خبر الأحزاب؛ وقد أخذه القر الشديد؛ ورسول الله ﷺ قائم يصلي في ثوب لإحدى أزواجه . فإذا هو في صلاته واتصاله بربه ، لا يترك حذيفة يرتعش حتى ينتهي من صلاته بل يأخذه صلوات الله وسلامه عليه بين رجليه ، ويلقي عليه طرف الثوب ليدفئه في حنو .ويمضي في صلاته . حتى ينتهي ، فينبئه حذيفة النبأ ، ويلقي إليه بالبشرى التي عرفها قلبه ﷺ فبعث حذيفة يبصر أخبارها!

أما أخبار شجاعته ﷺ في الهول ، وثباته ويقينه ، فهي بارزة في القصة كلها ، ولا حاجة بنا إلى نقلها ، فهي مستفيضة معروفة .

وصدق الله العظيم : { لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً } . .

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية – (ج ٦ / ص ٤١٩)

فَصْلٌ فَإِذَا تَبَيَّنَ بَعْضُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ . فَإِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ " سُورَةَ الْأَحْزَابِ " وَعَرَفَ مِنْ الْمَنْقُولَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَالْمَغَازِي : كَيْفَ كَانَتْ صِفَةُ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ ثُمَّ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْحَادِثَةَ بِتِلْكَ : وُجِدَ مِصْدَاقُ مَا ذَكَرْنَا . وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إلَى الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ . كَمَا انْقَسَمُوا فِي تِلْكَ . وَتَبَيَّنَ لَهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَشَابِهَاتِ . افْتَتَحَ اللَّهُ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا قَوْلَهُ : { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا } { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } ثُمَّ قَالَ : { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } . فَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْحَى إلَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ – الَّتِي هِيَ سُنَّتُهُ – وَبِأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ . فَبِالْأُولَى يُحَقِّقُ قَوْلَهُ : { إيَّاكَ نَعْبُدُ } . وَبِالثَّانِيَةِ يُحَقِّقُ قَوْلَهُ : { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ

} وَقَوْلُهُ : { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } . وهذا وَإِنْ كَانَ مَأْمُورًا بِهِ فِي جَمِيعِ الدِّينِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فِي الْجِهَادِ أَوْكَدُ ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إلَى أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ؛ وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إلَّا بِتَأْيِيدِ قَوِيٍّ مِنْ اللَّهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ سَنَامَ الْعَمَلِ وَانْتَظَمَ سَنَامُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ . فَفِيهِ سَنَامُ الْمَحَبَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } . وَفِيهِ سَنَامُ التَّوَكُّلِ وَسَنَامُ الصَّبْرِ ؛ فَإِنَّ الْمُجَاهِدَ أَحْوَجُ النَّاسِ إلَى الصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } { الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } وَقَالَ { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } . وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ - اللَّذَيْنِ هُمَّا أَصْلُ التَّوَكُّلِ - يُوجِبَانِ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } . وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ . كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا : إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرِ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } . وَفِي الْجِهَادِ أَيْضًا : حَقِيقَةُ الزُّهْدِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ الدُّنْيَا . وَفِيهِ أَيْضًا : حَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ فِيمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا فِي سَبِيلِ الرِّيَاسَةِ وَلَا فِي سَبِيلِ الْمَالِ وَلَا فِي سَبِيلِ الْحَمِيَّةِ وَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا لِمَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا . وَأَعْظَمُ مَرَاتِبِ الْإِخْلَاصِ : تَسْلِيمُ النَّفْسِ وَالْمَالِ لِلْمَعْبُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ } . وَ (الْجَنَّةُ اسْمٌ لِلدَّارِ الَّتِي حَوَتْ كُلَّ نَعِيمٍ) . أَعْلَاهُ النَّظَرُ إلَى اللَّهِ إلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ مِمَّا قَدْ نَعْرِفُهُ وَقَدْ لَا نَعْرِفُهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ { أَعْدَدْت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ } . فَقَدْ تَبَيَّنَ بَعْضُ أَسْبَابِ افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذَا . ثُمَّ إنَّهُ تَعَالَى قَالَ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } . كَانَ مُخْتَصَرُ الْقِصَّةِ : أَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَحَزَّبَ عَلَيْهِمْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ وَجَاءُوا بِجُمُوعِهِمْ إلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَأْصِلُوا الْمُؤْمِنِينَ . فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَحُلَفَاؤُهَا مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَأَشْجَعَ وَفَزَارَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قَبَائِلِ نَجْدٍ . وَاجْتَمَعَتْ أَيْضًا الْيَهُودُ : مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ . فَإِنَّ بَنِي النَّضِيرِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْحَشْرِ " . فَجَاءُوا فِي الْأَحْزَابِ إلَى قُرَيْظَةَ وَهُمْ مُعَاهِدُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمُجَاوِرُونَ لَهُ قَرِيبًا مِنْ الْمَدِينَةِ - فَلَمْ يَزَالُوا بِهِمْ حَتَّى نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ الْعَهْدَ وَدَخَلُوا فِي الْأَحْزَابِ . فَاجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأَحْزَابُ الْعَظِيمَةُ وَهُمْ بِقَدْرِ الْمُسْلِمِينَ

مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ . فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ الذُّرِّيَّةَ مِنْ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي آطَامِّ الْمَدِينَةِ وَهِيَ مِثْلُ الجواسق وَلَمْ يَنْقُلْهُمْ إلَى مَوَاضِعَ أُخَرَ . وَجَعَلَ ظَهْرَهُمْ إلَى سَلْعٍ - وَهُوَ الْجَبَلُ الْقَرِيبُ مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ وَالشَّامِ - وَجَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ خَنْدَقًا . وَالْعَدُوُّ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ الْعَالِيَةِ وَالسَّافِلَةِ . وَكَانَ عَدُوًّا شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَكَانَتْ نِكَايَتُهُ فِيهِمْ أَعْظَمَ النِّكَايَاتِ . وَفِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ تَحَزَّبَ هَذَا الْعَدُوُّ مِنْ مَغُولٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ التُّرْكِ وَمِنْ فُرْسٍ وَمُسْتَعْرِبَةٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَجْنَاسِ الْمُرْتَدَّةِ وَمِنْ نَصَارَى الْأَرْمَنِ وَغَيْرِهِمْ . وَنَزَلَ هَذَا الْعَدُوُّ بِجَانِبِ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ بَيْنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ مَعَ قِلَّةِ مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . وَمَقْصُودُهُمْ الِاسْتِيلَاءُ عَلَى الدَّارِ وَاصْطِلَامُ أَهْلِهَا . كَمَا نَزَلَ أُولَئِكَ بِنَوَاحِي الْمَدِينَةِ بِإِزَاءِ الْمُسْلِمِينَ . وَدَامَ الْحِصَارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَ الْخَنْدَقِ - عَلَى مَا قِيلَ - بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً . وَقِيلَ : عِشْرِينَ لَيْلَةً . وَهَذَا الْعَدُوُّ عَبَرَ الْفُرَاتَ سَابِعَ عَشَرَ رَبِيعٍ الْآخِرِ وَكَانَ أَوَّلُ انْصِرَافِهِ رَاجِعًا عَنْ حَلَبَ لَمَّا رَجَعَ مُقَدَّمُهُمْ الْكَبِيرُ قازان بِمَنْ مَعَهُ : يَوْمَ الِاثْنَيْنِ حَادِي أَوْ ثَانِي عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى يَوْمَ دَخَلَ الْعَسْكَرُ عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ إلَى مِصْرَ الْمَحْرُوسَةِ . وَاجْتَمَعَ بِهِمْ الدَّاعِي وَخَاطَبَهُمْ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ . وَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَلْقَى مِنْ الِاهْتِمَامِ وَالْعَزْمِ : أَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ الرَّوْعَ وَالِانْصِرَافَ . وَكَانَ عَامَ الْخَنْدَقِ بَرْدٌ شَدِيدٌ وَرِيحٌ شَدِيدَةٌ مُنْكَرَةٌ بِهَا صَرَفَ اللَّهُ الْأَحْزَابَ عَنْ الْمَدِينَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } . وَهَكَذَا هَذَا الْعَامُ أَكْثَرَ اللَّهُ فِيهِ الثَّلْجَ وَالْمَطَرَ وَالْبَرْدَ عَلَى خِلَافِ أَكْثَرِ الْعَادَاتِ . حَتَّى كَرِهَ أَكْثَرُ النَّاسِ ذَلِكَ . وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ : لَا تَكْرَهُوا ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ لِلَّهِ فِيهِ حِكْمَةً وَرَحْمَةً . وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي صَرَفَ اللَّهُ بِهِ الْعَدُوَّ ؛ فَإِنَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِمْ الثَّلْجُ وَالْمَطَرُ وَالْبَرْدُ حَتَّى هَلَكَ مِنْ خَيْلِهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ . وَهَلَكَ أَيْضًا مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ . وَظَهَرَ فِيهِمْ وَفِي بَقِيَّةِ خَيْلِهِمْ مِنْ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ بِسَبَبِ الْبَرْدِ وَالْجُوعِ مَا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ مَعَهُ بِقِتَالٍ . حَتَّى بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ كِبَارِ الْمُقَدَّمِينَ فِي أَرْضِ الشَّامِ أَنَّهُ قَالَ : لَا بَيَّضَ اللَّهُ وُجُوهَنَا : أَعَدَوْنَا فِي الثَّلْجِ إلَى شَعْرِهِ وَنَحْنُ قُعُودٌ لَا نَأْخُذُهُمْ ؟ وَحَتَّى عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا صَيْدًا لِلْمُسْلِمِينَ لَوْ يَصْطَادُونَهُمْ ؛ لَكِنْ فِي تَأْخِيرِ اللَّهِ اصْطِيَادَهُمْ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ . وَقَالَ اللَّهُ فِي شَأْنِ الْأَحْزَابِ : { إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا } . وَهَكَذَا هَذَا الْعَامُ . جَاءَ الْعَدُوُّ مِنْ نَاحِيَتِي عُلُوِّ الشَّامِ وَهُوَ شَمَالُ الْفُرَاتِ . وَهُوَ قِبْلِيُّ الْفُرَاتِ . فَزَاغَتْ الْأَبْصَارُ زَيْغًا عَظِيمًا وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ لِعِظَمِ الْبَلَاءِ ؛ لَا سِيَّمَا لَمَّا اسْتَفَاضَ الْخَبَرُ بِانْصِرَافِ الْعَسْكَرِ إلَى مِصْرَ وَتَقَرَّبَ الْعَدُوُّ وَتَوَجَّهَهُ إلَى دِمَشْقَ . وَظَنَّ النَّاسُ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هَذَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ الشَّامِ حَتَّى يصطلموا أَهْلَ الشَّامِ . وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ لَوْ وَقَفُوا لَكَسَرُوهُمْ كَسْرَةً وَأَحَاطُوا بِهِمْ إحَاطَةَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ . وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ أَرْضَ الشَّامِ مَا بَقِيَتْ تُسْكَنُ وَلَا بَقِيَتْ تَكُونُ تَحْتَ مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ . وَهَذَا يَظُنُّ إنَّهُمْ يَأْخُذُونَهَا ثُمَّ يَذْهَبُونَ إلَى مِصْرَ

فَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا فَلَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ فَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْفِرَارِ إلَى الْيَمَنِ وَنَحْوِهَا . وَهَذَا – إذَا أَحْسَنَ ظَنَّهُ – قَالَ : إنَّهُمْ يَمْلِكُونَهَا الْعَامَ كَمَا مَلَكُوهَا عَامَ هُولَاكُو سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ . ثُمَّ قَدْ يَخْرُجُ الْعَسْكَرُ مِنْ مِصْرَ فَيَسْتَنْقِذُهَا مِنْهُمْ كَمَا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَامَ . وَهَذَا ظَنُّ خِيَارِهِمْ . وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَهْلُ الْآثَارِ النَّبَوِيَّةِ وَأَهْلُ التَّحْدِيثِ وَالْمُبَشِّرَاتُ أَمَانِي كَاذِبَةٌ وَخُرَافَاتٌ لَاغِيَةٌ . وَهَذَا قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ حَتَّى يَمُرَّ الظَّنُّ بِفُؤَادِهِ مَرَّ السَّحَابِ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَتَفَهَّمُ وَلَا لِسَانٌ يَتَكَلَّمُ . وَهَذَا قَدْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ الْأَمَارَاتُ وَتَقَابَلَتْ عِنْدَهُ الْإِرَادَاتُ ؛ لَا سِيَّمَا وَهُوَ لَا يُفَرِّقُ مِنْ الْمُبَشِّرَاتِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ . وَلَا يُمَيِّزُ فِي التَّحْدِيثِ بَيْنَ الْمُخْطِئِ وَالصَّائِبِ . وَلَا يَعْرِفُ النُّصُوصَ الْأَثَرِيَّةَ مَعْرِفَةَ الْعُلَمَاءِ ؛ بَلْ إمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِهَا وَقَدْ سَمِعَهَا سَمَاعَ الْعِبَرِ ثُمَّ قَدْ لَا يَتَفَطَّنُ لِوُجُوهِ دَلَالَتِهَا الْخَفِيَّةِ وَلَا يَهْتَدِي لِدَفْعِ مَا يَتَخَيَّلُ أَنَّهُ مُعَارِضٌ لَهَا فِي بَادِئِ الرَّوِيَّةِ . فَلِذَلِكَ اسْتَوْلَتْ الْحِيرَةُ عَلَى مَنْ كَانَ مُتَّسِمًا بِالِاهْتِدَاءِ وَتَرَاجَمَتْ بِهِ الْآرَاءُ تَرَاجُمَ الصِّبْيَانِ بِالْحَصْبَاءِ . { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا } . ابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذَا الِابْتِلَاءِ الَّذِي يُكَفِّرُ بِهِ خَطِيئَاتِهِمْ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ وَزُلْزِلُوا بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الرَّجَفَاتِ مَا اسْتَوْجَبُوا بِهِ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلَّا غُرُورًا } . وَهَكَذَا قَالُوا فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ فِيمَا وَعَدَهُمْ أَهْلُ الْوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْخِلَافَةُ الرسالية وَحِزْبُ اللَّهِ الْمُحَدِّثُونَ عَنْهُ . حَتَّى حَصَلَ لِهَؤُلَاءِ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } . فَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَدْ مَضَى التَّنْبِيهُ عَلَيْهِمْ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ . فَذَكَرُوا هُنَا وَفِي قَوْلِهِ : { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ } وَفِي قَوْلِهِ : { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } . وَذَكَرَ اللَّهُ مَرَضَ الْقَلْبِ فِي مَوَاضِعَ . فَقَالَ تَعَالَى : { إذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ } . وَالْمَرَضُ فِي الْقَلْبِ كَالْمَرَضِ فِي الْجَسَدِ فَكَمَا أَنَّ هَذَا هُوَ إحَالَةٌ عَنْ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ فَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ مَرَضٌ يُحِيلُهُ عَنْ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمُوتَ الْقَلْبُ سَوَاءٌ أَفْسَدَ إحْسَاسَ الْقَلْبِ وَإِدْرَاكَهُ أَوْ أَفْسَدَ عَمَلَهُ وَحَرَكَتَهُ . وَذَلِكَ – كَمَا فَسَّرُوهُ – : هُوَ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ ؛ إمَّا بِضَعْفِ عِلْمِ الْقَلْبِ وَاعْتِقَادِهِ وَإِمَّا بِضَعْفِ عَمَلِهِ وَحَرَكَتِهِ . فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ ضَعُفَ تَصْدِيقُهُ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْجُبْنُ وَالْفَزَعُ ؛ فَإِنَّ أَدْوَاءَ الْقَلْبِ مِنْ الشَّهْوَةِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْحَسَدِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلُّهَا أَمْرَاضٌ . وَكَذَلِكَ الْجَهْلُ وَالشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ الَّتِي فِيهِ . وَعَلَى هَذَا فَقَوْلٌ : { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } هُوَ إرَادَةُ الْفُجُورِ وَشَهْوَةُ الزِّنَا كَمَا فَسَّرُوهُ بِهِ . وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ { وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنْ الْبُخْلِ ؟ } . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ } . وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : { اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بك مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْأَدْوَاءِ } . وَلَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللَّهِ إلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ كَمَا ذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا شَكَا إلَى أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ

الْوُلَاةِ فَقَالَ : لَوْ صَحَحْت لَمْ تَخَفْ أَحَدًا . أَيْ خَوْفُك مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِك . وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ لَا يَخَافُوا حِزْبَ الشَّيْطَانِ ؛ بَلْ لَا يَخَافُونَ غَيْرَهُ تَعَالَى فَقَالَ : { إنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } أَيْ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ . وَقَالَ لِعُمُومِ بَنِي إسْرَائِيلَ تَنْبِيهًا لَنَا : { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } . وَقَالَ : { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } وَقَالَ : { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي } وَقَالَ تَعَالَى : { الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ } . وَقَالَ : { إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلَّا اللَّهَ } وَقَالَ : { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلَّا اللَّهَ } وَقَالَ : { أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ } . فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ – وَهِيَ قَوْلُه تَعَالَى { إذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } – عَلَى أَنَّ الْمَرَضَ وَالنِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ يُوجِبُ الرَّيْبَ فِي الْأَنْبَاءِ الصَّادِقَةِ الَّتِي تُوجِبُ أَمْنَ الْإِنْسَانِ : مِنْ الْخَوْفِ حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهَا كَانَتْ غُرُورًا لَهُمْ كَمَا وَقَعَ فِي حَادِثَتِنَا هَذِهِ سَوَاءٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا } وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَسْكَرَ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَ سَلْعٍ وَجَعَلَ الْخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : لَا مُقَامَ لَكُمْ هُنَا ؛ لِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ . فَارْجِعُوا إلَى الْمَدِينَةِ . وَقِيلَ : لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَارْجِعُوا إلَى دِينِ الشِّرْكِ . وَقِيلَ : لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى الْقِتَالِ فَارْجِعُوا إلَى الِاسْتِئْمَانِ وَالِاسْتِجَارَةِ بِهِمْ . وَهَكَذَا لَمَّا قَدِمَ هَذَا الْعَدُوُّ كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ قَالَ : مَا بَقِيَتْ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَقُومُ فَيَنْبَغِي الدُّخُولُ فِي دَوْلَةِ التَّتَارِ . وَقَالَ بَعْضُ الْخَاصَّةِ : مَا بَقِيَتْ أَرْضُ الشَّامِ تُسْكَنُ ؛ بَلْ نَنْتَقِلُ عَنْهَا إمَّا إلَى الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَإِمَّا إلَى مِصْرَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ الْمَصْلَحَةُ الِاسْتِسْلَامُ لِهَؤُلَاءِ كَمَا قَدْ اسْتَسْلَمَ لَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَالدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمِهِمْ . فَهَذِهِ الْمَقَالَاتُ الثَّلَاثُ قَدْ قِيلَتْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ . كَمَا قِيلَتْ فِي تِلْكَ . وَهَكَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِأَهْلِ دِمَشْقَ خَاصَّةً وَالشَّامِ عَامَّةً : لَا مُقَامَ لَكُمْ بِهَذِهِ الْأَرْضِ . وَنَفْيُ الْمُقَامِ بِهَا أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْمُقَامِ . وَإِنْ كَانَتْ قَدْ قُرِئَتْ بِالضَّمِّ أَيْضًا . فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُومَ بِالْمَكَانِ فَكَيْفَ يُقِيمُ بِهِ ؟ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلَّا فِرَارًا } . وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ يَقُولُونَ – وَالنَّاسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ سَلْعٍ دَاخِلُ الْخَنْدَقِ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ – : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ . أَيْ مَكْشُوفَةٌ لَيْس بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ حَائِلٌ . – وَأَصْلُ الْعَوْرَةِ : الْخَالِي الَّذِي يَحْتَاجُ إلَى حِفْظٍ وَسِتْرٍ . يُقَالُ : اعْوَرَّ مَجْلِسُك إذَا ذَهَبَ سِتْرُهُ أَوْ سَقَطَ جِدَارُهُ . وَمِنْهُ عَوْرَةُ الْعَدُوِّ – . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ : أَيْ ضَائِعَةٌ تُخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقُ . وَقَالَ قتادة : قَالُوا : بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي الْعَدُوَّ فَلَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا فائذن لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إلَيْهَا لِحِفْظِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ } لِأَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهَا { إنْ يُرِيدُونَ إلَّا فِرَارًا } فَهُمْ يَقْصِدُونَ الْفِرَارَ مِنْ الْجِهَادِ

وَيَحْتَجُّونَ بِحُجَّةِ الْعَائِلَةِ . وَهَكَذَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْغُزَاةِ . صَارُوا يَفِرُّونَ مِنْ الثَّغْرِ إلَى الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَإِلَى الْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ كَمِصْرِ . وَيَقُولُونَ : مَا مَقْصُودُنَا إلَّا حِفْظَ الْعِيَالِ وَمَا يُمْكِنُ إرْسَالُهُمْ مَعَ غَيْرِنَا . وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ . فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ جَعْلُهُمْ فِي حِصْنِ دِمَشْقَ لَوْ دَنَا الْعَدُوُّ . كَمَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ إرْسَالُهُمْ وَالْمُقَامُ لِلْجِهَادِ . فَكَيْفَ بِمَنْ فَرَّ بَعْدَ إرْسَالِ عِيَالِهِ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إلَّا يَسِيرًا } فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ الْمَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُمْ الْفِتْنَةَ – وَهِيَ الِافْتِتَانُ عَنْ الدِّينِ بِالْكُفْرِ أَوْ النِّفَاقِ – لَأَعْطُوا الْفِتْنَةَ . وَلَجَئُوهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ . وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْعَدُوُّ الْمُنَافِقُ الْمُجْرِمُ . ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ مُوَافَقَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ – وَتِلْكَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ – لَكَانُوا مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ . كَمَا سَاعَدَهُمْ فِي الْعَامِ الْمَاضِي أَقْوَامٌ بِأَنْوَاعِ مِنْ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا بَيْنَ تَرْكِ وَاجِبَاتٍ وَفِعْلِ مُحَرَّمَاتٍ إمَّا فِي حَقِّ اللَّهِ وَإِمَّا فِي حَقِّ الْعِبَادِ . كَتَرْكِ الصَّلَاةِ وَشُرْبِ الْخُمُورِ وَسَبِّ السَّلَفِ وَسَبِّ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّجَسُّسِ لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَدَلَالَتِهِمْ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرِيمِهِمْ . وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَتَعْذِيبِهِمْ وَتَقْوِيَةِ دَوْلَتِهِمْ الْمَلْعُونَةِ وَإِرْجَافِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفِتْنَةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا } وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ عَاهَدُوا ثُمَّ نَكَثُوا قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ . فَإِنَّ فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَفِي هَذَا الْعَامِ : فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ مَنْ عَاهَدَ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ وَلَا يَفِرَّ ثُمَّ فَرَّ مُنْهَزِمًا لَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ . ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إلَّا قَلِيلًا } فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْفِرَارَ لَا يَنْفَعُ لَا مِنْ الْمَوْتِ وَلَا مِنْ الْقَتْلِ . فَالْفِرَارُ مِنْ الْمَوْتِ كَالْفِرَارِ مِنْ الطَّاعُونِ . وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إذَا وَقَعَ بِأَرْضِ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ } وَالْفِرَارُ مِنْ الْقَتْلِ كَالْفِرَارِ مِنْ الْجِهَادِ . وَحَرْفُ " لَنْ " يَنْفِي الْفِعْلَ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ . وَالْفِعْلُ نَكِرَةٌ . وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ جَمِيعَ أَفْرَادِهَا . فَاقْتَضَى ذَلِكَ : أَنَّ الْفِرَارَ مِنْ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ لَيْسَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ أَبَدًا . وَهَذَا خَبَرُ اللَّهِ الصَّادِقِ . فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ فِي خَبَرِهِ . وَالتَّجْرِبَةُ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرُّوا فِي هَذَا الْعَامِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِرَارُهُمْ ؛ بَلْ خَسِرُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا وَتَفَاوَتُوا فِي الْمَصَائِبِ . وَالْمُرَابِطُونَ الثَّابِتُونَ نَفَعَهُمْ ذَلِكَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا حَتَّى الْمَوْتُ الَّذِي فَرُّوا مِنْهُ كَثُرَ فِيهِمْ . وَقَلَّ فِي الْمُقِيمِينَ . فَمَا مَنَعَ الْهَرَبُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالطَّالِبُونَ لِلْعَدُوِّ وَالْمُعَاقِبُونَ لَهُ لَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا قُتِلَ ؛ بَلْ الْمَوْتُ قَلَّ فِي الْبَلَدِ مِنْ حِينِ خَرَجَ الْفَارُّونَ . وَهَكَذَا سُنَّةُ اللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إلَّا قَلِيلًا } يَقُولُ : لَوْ كَانَ الْفِرَارُ يَنْفَعُكُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ إلَّا حَيَاةً قَلِيلَةً ثُمَّ تَمُوتُونَ . فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْحَمْقَى أَنَّهُ قَالَ : فَنَحْنُ نُرِيدُ ذَلِكَ الْقَلِيلَ . وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُ بِمَعْنَى الْآيَةِ . فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ : إنَّهُمْ يُمَتَّعُونَ بِالْفِرَارِ قَلِيلًا . لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ أَبَدًا . ثُمَّ ذَكَرَ

جوَابًا ثَانِيًا . أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إلَّا مَتَاعٌ قَلِيلٌ . ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَالِثًا وَهُوَ أَنَّ الْفَارَّ يَأْتِيهِ مَا قُضِيَ لَهُ مِنْ الْمَضَرَّةِ وَيَأْتِي الثَّابِتُ مَا قُضِيَ لَهُ مِنْ الْمَسَرَّةِ . فَقَالَ : { قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } . وَنَظِيرُهُ : قَوْلُهُ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الْجِهَادِ : { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } الْآيَةَ وَقَوْلُهُ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . فَمَضْمُونُ الْأَمْرِ : أَنَّ الْمَنَايَا مَحْتُومَةٌ فَكَمْ مَنْ حَضَرَ الصُّفُوفَ فَسَلَّمَ وَكَمْ مِمَّنْ فَرَّ مِنْ الْمَنِيَّةِ فَصَادَفَتْهُ كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ – لَمَّا اُحْتُضِرَ – لَقَدْ حَضَرْت كَذَا وَكَذَا صَفًّا وَأَنَّ بِبَدَنِي بِضْعًا وَثَمَانِينَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِسَيْفِ وَطَعْنَةٍ بِرُمْحِ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمِ . وهأنذا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ . فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا } . قَالَ الْعُلَمَاءُ : كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَرْجِعُ مِنْ الْخَنْدَقِ فَيَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا لَهُ : وَيْحَك اجْلِسْ فَلَا تَخْرُجْ . وَيَكْتُبُونَ بِذَلِكَ إلَى إخْوَانِهِمْ الَّذِينَ بِالْعَسْكَرِ : أَنْ ائْتُونَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنَّا نَنْتَظِرُكُمْ . يُثَبِّطُونَهُمْ عَنْ الْقِتَالِ . وَكَانُوا لَا يَأْتُونَ الْعَسْكَرَ إلَّا أَلَّا يَجِدُوا بُدًّا . فَيَأْتُونَ الْعَسْكَرَ لِيَرَى النَّاسُ وُجُوهَهُمْ . فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُمْ عَادُوا إلَى الْمَدِينَةِ . فَانْصَرَفَ بَعْضُهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعِنْدَهُ شِوَاءٌ وَنَبِيذٌ . فَقَالَ : أَنْتَ هَهُنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ ؟ فَقَالَ : هَلُمَّ إلَيَّ فَقَدْ أُحِيطَ بك وَبِصَاحِبِك . فَوَصَفَ الْمُثَبِّطِينَ عَنْ الْجِهَادِ – وَهُمْ صِنْفَانِ – بِأَنَّهُمْ إمَّا أَنْ يَكُونُوا فِي بَلَدِ الْغُزَاةِ أَوْ فِي غَيْرِهِ فَإِنْ كَانُوا فِيهِ عَوَّقُوهُمْ عَنْ الْجِهَادِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْعَمَلِ أَوْ بِهِمَا . وَإِنْ كَانُوا فِي غَيْرِهِ رَاسَلُوهُمْ أَوْ كَاتَبُوهُمْ : بِأَنْ يَخْرُجُوا إلَيْهِمْ مِنْ بَلَدِ الْغُزَاةِ لِيَكُونُوا مَعَهُمْ بِالْحُصُونِ أَوْ بِالْبُعْدِ . كَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الْغُزَاةِ . فَإِنَّ أَقْوَامًا فِي الْعَسْكَرِ وَالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمَا صَارُوا يُعَوِّقُونَ مَنْ أَرَادَ الْغَزْوَ وَأَقْوَامًا بُعِثُوا مِنْ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَغَيْرِهَا إلَى إخْوَانِهِمْ : هَلُمَّ إلَيْنَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : { وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ } أَيّ بُخَلَاءَ عَلَيْكُمْ بِالْقِتَالِ مَعَكُمْ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : بُخَلَاءُ عَلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ . وَهَذِهِ حَالُ مَنْ بَخِلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ أَوْ شَحَّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ اللَّهِ : مِنْ نَصْرِهِ وَرِزْقِهِ الَّذِي يُجْرِيهِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ . فَإِنَّ أَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِهِمْ وَأَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ . وَهُمْ الْحُسَّادُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ يُشْبِهُونَ الْمُغْمَى عَلَيْهِ وَقْتَ النَّزْعِ . فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيُذْهِلُ عَقْلَهُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ وَلَا يَطْرِفُ . فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ الْقَتْلَ . { فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ } وَيُقَالُ فِي اللُّغَةِ " صَلَقُوكُمْ " وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْكَلَامِ الْمُؤْذِي . وَمِنْهُ " الصَّالِقَةُ " وَهِيَ الَّتِي تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالْمُصِيبَةِ . يُقَالُ : صَلَقَهُ وَسَلَقَهُ – وَقَدْ قَرَأَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ بِهَا ؛ لَكِنَّهَا خَارِجَةٌ

عَنْ الْمُصْحَفِ – إذَا خَاطَبَهُ خِطَابًا شَدِيدًا قَوِيًّا . وَيُقَالُ : خَطِيبٌ مِسْلَاقٌ : إذَا كَانَ بَلِيغًا فِي خُطْبَتِهِ ؛ لَكِنَّ الشِّدَّةَ هُنَا فِي الشَّرِّ لَا فِي الْخَيْرِ . كَمَا قَالَ { بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ } وَهَذَا السَّلْقُ بِالْأَلْسِنَةِ الْحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهِ : تَارَةً يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ : هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ دَعَوْتُمْ النَّاسَ إلَى هَذَا الدِّينِ وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ . وَتَارَةً يَقُولُونَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا وَالثَّبَاتِ بِهَذَا الثَّغْرِ إلَى هَذَا الْوَقْتِ وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا . وَتَارَةً يَقُولُونَ – أَنْتُمْ مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ – تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا الْعَدُوَّ وَقَدْ غَرَّكُمْ دِينُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } . وَتَارَةً يَقُولُونَ : أَنْتُمْ مَجَانِينُ لَا . عقل لَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسُ مَعَكُمْ . وَتَارَةً يَقُولُونَ : أَنْوَاعًا مِنْ الْكَلَامِ الْمُؤْذِي الشَّدِيدِ . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَى الْغَنِيمَةِ وَالْمَالِ الَّذِي قَدْ حَصَلَ لَكُمْ . قَالَ قتادة : إنْ كَانَ وَقْتَ قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ بَسَطُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِيكُمْ . يَقُولُونَ : أَعْطُونَا فَلَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا . فَأَمَّا عِنْدَ الْبَأْسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَخْذَلُهُمْ لِلْحَقِّ . وَأَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فأشح قَوْمٍ . وَقِيلَ : أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أَيْ بُخَلَاءُ بِهِ لَا يَنْفَعُونَ لَا بِنُفُوسِهِمْ وَلَا بِأَمْوَالِهِمْ . وَأَصْلُ الشُّحِّ : شِدَّةُ الْحِرْصِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ الْبُخْلُ وَالظُّلْمُ : مَنْ مَنَعَ الْحَقَّ وَأَخَذَ الْبَاطِلَ . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا } ؟ فَهَؤُلَاءِ أَشِحَّاءُ عَلَى إخْوَانِهِمْ أَيْ بُخَلَاءُ عَلَيْهِمْ وَأَشِحَّاءُ عَلَى الْخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَيْهِ . فَلَا يُنْفِقُونَهُ . كَمَا قَالَ : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إلَّا قَلِيلًا } . فَوَصَفَهُمْ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ . أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ لِفَرْطِ خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ الْبَلَدِ . وَهَذِهِ حَالُ الْجَبَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إلَى تَصْدِيقِ الْخَبَرِ الْمُخَوِّفِ وَتَكْذِيبِ خَبَرِ الْأَمْنِ . الْوَصْفُ الثَّانِي : أَنَّ الْأَحْزَابَ إذَا جَاءُوا تَمَنَّوْا أَنْ لَا يَكُونُوا بَيْنَكُمْ ؛ بَلْ يَكُونُونَ فِي الْبَادِيَةِ بَيْنَ الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ : إيش خَبَرُ الْمَدِينَةِ ؟ وإيش جَرَى لِلنَّاسِ ؟ . وَالْوَصْفُ الثَّالِثُ : أَنَّ الْأَحْزَابَ إذَا أَتَوْا وَهُمْ فِيكُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إلَّا قَلِيلًا . وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ كَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَعْرِفُهُ مِنْهُمْ مِنْ خَبَرِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } . فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الَّذِينَ يُبْتَلَوْنَ بِالْعَدُوِّ كَمَا اُبْتُلِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَهُمْ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ حَيْثُ أَصَابَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُ . فَلْيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي التَّوَكُّلِ وَالصَّبْرِ وَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ نِقَمٌ لِصَاحِبِهَا وَإِهَانَةٌ لَهُ . فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ مَا اُبْتُلِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرُ الْخَلَائِقِ ؛ بَلْ بِهَا يُنَالُ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ وَبِهَا يُكَفِّرُ اللَّهُ الْخَطَايَا لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . وَإِلَّا فَقَدْ يُبْتَلَى بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ فِي حَقِّهِ

عَذَابًا . كَالْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلَّا إيمَانًا وَتَسْلِيمًا } . قَالَ الْعُلَمَاءُ : كَانَ اللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَسِبَ خِلَافَ ذَلِكَ - أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلَّا بَعْدَ أَنْ يُبْتَلَوْا مِثْلُ هَذِهِ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ بِـ " الْبَأْسَاءِ " وَهِيَ الْحَاجَةُ وَالْفَاقَةُ . وَ " الضَّرَّاءُ " وَهِيَ الْوَجَعُ وَالْمَرَضُ . وَ " الزِّلْزَالُ " وَهِيَ زَلْزَلَةُ الْعَدُوِّ . فَلَمَّا جَاءَ الْأَحْزَابُ عَامَ الْخَنْدَقِ فَرَأَوْهُمْ . قَالُوا : { هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ ابْتَلَاهُمْ بِالزِّلْزَالِ . وَأَتَاهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا زَادَهُمْ إلَّا إيمَانًا وَتَسْلِيمًا لِحُكْمِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ . وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ : قَالُوا ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ } أَيْ عَهْدَهُ الَّذِي عَاهَدَ اللَّهَ عَلَيْهِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ عَاشَ . وَ " النَّحْبُ " النَّذْرُ وَالْعَهْدُ . وَأَصْلُهُ مِنْ النَّحِيبِ . وَهُوَ الصَّوْتُ . وَمِنْهُ : الِانْتِحَابُ فِي الْبُكَاءِ وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ فِي الْعَهْدِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَهْدُهُمْ هُوَ نَذْرُهُمْ الصِّدْقُ فِي اللِّقَاءِ - وَمَنْ صَدَقَ فِي اللِّقَاءِ فَقَدْ يُقْتَلُ - صَارَ يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ { قَضَى نَحْبَهُ } أَنَّهُ اُسْتُشْهِدَ . لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ النَّحْبُ : نَذْرُ الصِّدْقِ فِي جَمِيعِ الْمُوَاطِنِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْضِيهِ إلَّا بِالْمَوْتِ . وَقَضَاءُ النَّحْبِ هُوَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ } أَيْ أَكْمَلَ الْوَفَاءَ . وَذَلِكَ لِمَنْ كَانَ عَهْدُهُ مُطْلَقًا : بِالْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ . { وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ } قَضَاءَهُ إذَا كَانَ قَدْ وَفَى الْبَعْضَ فَهُوَ يَنْتَظِرُ تَمَامَ الْعَهْدِ . وَأَصْلُ الْقَضَاءِ : الْإِتْمَامُ وَالْإِكْمَالُ . { لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } . بَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَتَى بِالْأَحْزَابِ لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ حَيْثُ صَدَقُوا فِي إيمَانِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } . فَحَصَرَ الْإِيمَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ هُمْ الصَّادِقُونَ فِي قَوْلِهِمْ : آمَنَّا ؛ لَا مَنْ قَالَ كَمَا قَالَتْ الْأَعْرَابُ : آمَنَّا وَالْإِيمَانُ لَمْ يَدْخُلْ فِي قُلُوبِهِمْ ؛ بَلْ انْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا . وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَإِمَّا أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . فَهَذَا حَالُ النَّاسِ فِي الْخَنْدَقِ وَفِي هَذِهِ الْغَزَاةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَلَى النَّاسَ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَهُمْ الثَّابِتُونَ الصَّابِرُونَ لِيَنْصُرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . وَنَحْنُ نَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ نَدِمَ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ . وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ لِلتَّوْبَةِ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ عَرْضُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً . لَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا

وقال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (الممتحنة:٤)

أَفلاَ تَأَسَّى هَؤُلاَءِ الذِينَ يُوَادُّونَ الكَافِرِينَ بِأَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَصْحَابِهِ المُؤْمِنِينَ ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِم الذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَنْدَادِ ، وَجَحَدْنَا ما أَنْتُمْ عَلَيهِ مِنَ الكُفْرِ ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الحَرْبَ عَلَيْكُمْ ، فَلاَ هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَتُوَحِّدُوهُ ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَلاَ صَاحِبَةَ وَلاَ وَلَدَ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ .وَلَكُمْ فِي أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا ، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسْلَكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلاَ تَسْتَثْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ التِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلاَّ اسْتِغْفَارَهُ لأَبِيهِ الذِي بَقِيَ مُقِيماً عَلَى الكُفْرِ ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ : إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللهَ ، وَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَالأَمْرُ مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ . وَلَكِنَّ هَذَا القَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيم حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَيَتْبَعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمُ وَالمُؤْمِنُونَ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجَؤُوا إِلَى اللهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ : رَبَّنَا إِنَّنَا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا) ، وَرَجَعْنَا إِلَيكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِلَيكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالحِسَابِ . فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ ..

ينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان ، وإذا هو راجع إلى إبراهيم ، لا في عقيدته فحسب ، بل في تجاربه التي عاناها كذلك . فيشعر أن له رصيداً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل ما يمر به ، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته . فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين . . ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها ، إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته . فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال . . الشجرة التي غرسها أول المسلمين . . إبراهيم . .مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة : { إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده } . .فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة

وآصرة الإيمان . وفي هذا الفصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيـــل . وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشـــاعرهم الموصـــولة بـــذوي قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه : { لأســـتغفرن لك } . .فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك . قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه : { فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه } . . كما جاء في سورة أخرى .ويثبت هنا أن إبـــراهيم فـــوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال : { وما أملك لك مـــن الله من شيء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير } . .

وهذا التسليم المطلق لله ، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائـــه المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، وإبراز ما في ثنايـــاه مـــن ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم .ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعـــاء إبـــراهيم ونجواه لمولاه : { ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا } . .

فلا تسلطهم علينا . فيكون في ذلك فتنة لهم ، إذ يقولون : لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيراً ما تحيك في الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحـــق ، ويتســـلط الطغاة على أهل الإيمان لحكمة يعلمها الله في فترة من الفترات .والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور .

وبقية الدعاء :{ واغفر لنا } . .يقولها إبراهيم خليل الرحمن . إدراكاً منه لمســـتوى العبـــادة الـــتي يستحقها منه ربه ، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه ، ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه ، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده .

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء :

{ ربنا إنك أنت العزيز الحكيم } . .العزيز : القادر على الفعل ، الحكيم : فيما يمضي من تدبير .

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأســـوة ويكررها؛ مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين :{ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجـــو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد } . .فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمـــن كان يرجو الله واليوم الآخر . هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم ، ويجدون فيها أسوة تتبع ، وسابقة تهدي . فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أســـوة . . وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج . من يريد أن يحيـــد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه ســـبحانه { فإن الله هو الغني الحميد } . .وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديـــد ،

ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة ، ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة؛ ووجدوها طريقاً معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين ، فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك ولو كان وحده في جيل! ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق!

بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التي يعلم الله ما بها من حنين ورغبة في زوال حالة العداء والجفوة التي تكلفهم هذه المشقة . ينسم عليها بنسمة الأمل الندية في أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام ، وإلى صفوف المسلمين؛ فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين . . ثم يخفف عنهم مرة أخرى وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ، فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداء والعدوان .

٤٠- عدم التطلع إلى أية لعاعة من لعاعات الدنيا

وذلك لأنها تفقدهم دورهم الحقيقي في هذه الأرض المهم مرضاة الله تعالى ليس إلا، فعَنْ عَامِرٍ قَالَ انْطَلَقَ النَّبِىُّ -ﷺ- وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ إِلَى السَّبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَقَالَ: « لِيَتَكَلَّمْ مُتَكَلِّمُكُمْ وَلاَ يُطِيلُ الْخُطْبَةَ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْناً وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ ». فَقَالَ قَائِلُهُمْ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ سَلْ يَا مُحَمَّدُ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ ثُمَّ أَخْبِرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ. قَالَ فَقَالَ: « أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّى عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِى وَلأَصْحَابِى أَنْ تُؤْوُنَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ». قَالُوا فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ قَالَ « لَكُمُ الْجَنَّةُ ». قَالُوا فَلَكَ ذَلِكَ. مسند أحمد [٨٠]

التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، ومن كل مطمع - حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله - حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ، ويكلوا أمرها إليه ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها !

هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء . . فقط . وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء . . ثم انتظار كل شيء هناك !

---

[٨٠]- ٤/١٢٠ (١٧٥٤٣) وهو صحيح مرسل

ثم يقع النصر ، ويقع التمكين ، ويقع الاستعلاء . . ولكن هذا ليس داخلا في البيعة . ليس جزءا من الصفقة . ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا . وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء . . والابتلاء على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة ؛ وعلى هذا كان البيع والشراء . و لم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ؛ و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية ، إلا حين تجردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء: وهكذا ربى الله الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض ، وزمام القيادة ، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها ، وكل رغباتها ، وكل شهواتها ، حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها ، والمنهج الذي تحققه ، والعقيدة التي تموت من أجلها . فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه ، أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة .

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة . ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء . وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل . . حتى إذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاها النصر في الأرض ، وائتمنها عليه . لا لنفسها . ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ؛ و لم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه !

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة . بعد ذلك . وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة ، تراها الأجيال . فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام . إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

٤١- أن يكون القتال في سبيل الله وإنقاذ المستضعفين ليس إلا :

قال تعالى : { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(٧٤) وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) (النساء)

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبِيعَ الحَيَاةَ الدُّنْيا ، وَيَبْذُلَهَا ، وَيَجْعَلَهَا ثَمَناً للآخِرَةِ ، لأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ أَعَزَّ دِينَ اللهِ ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيا . وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَظْفَرْ بِهِ عَدُوُّهُ وَيَقْتُلُهُ ، أَوْ يَظْفَرْ هُوَ بعَدُوِّهِ ، فَإِنَّ اللهَ سَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً مِنْ عِنْدِهِ .

(وَفِي هَذِهِ الآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَمَّ المُقَاتِلِ المُسْلِمِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الظَّفَرَ أَوِ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَعَلَيْهِ أنْ لاَ يُفَكِّرَ فِي الهَرَبِ وَالنَّجَاةِ بِالنَّفْسِ ، فَالهَرَبُ لاَ يُنَجِّي مِنْ قَدَرِ اللهِ ، وَفِيهِ غَضَبُ اللهِ وَسَخَطُهُ) ..

يُحَرِّضُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ فِي سَبِيلِ إعْلاَءِ كَلِمَتِهِ ، وَفِي سَبِيلِ إِنْقَاذِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ المَوْجُودِينَ فِي مَكَّةَ ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، المُتَبَرِّمِينَ بالمَقَامِ فِيهَا ، وَيَقُولُ لَهُمْ : أَيُّ عُذْرٍ لَكُمْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لِتُقِيمُوا التَّوْحِيدَ ، وَتَنْصُرُوا العَدْلَ وَالحَقَّ ، وَفِي سَبيلِ إِنْقَاذِ إِخْوَانِكُمُ المُسْتَضْعَفِينَ الذِينَ يَسْتَذِلُّهُمُ الطُّغَاةُ الكَفَرَةُ فِي مَكَّةَ ، وَهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ تِلْكَ البَلْدَةِ (القَرْيَةِ) الظَّالِمِ أَهْلُها ، وَأَنْ يُسَخِّرَ لَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ مَنْ يَنْصُرُهُمْ ، وَيُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ .

الذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَنَشْرِ دِينِهِ ، لاَ يَبْتَغُونَ غَيْرَ رِضْوَانِ اللهِ . أَمَّا الذِينَ كَفَرُوا ، فَإِنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوتِ) ، الذِينَ يُزَيِّنُ لَهُمُ الكُفْرَ ، وَيُمَنِّيهِمُ النَّصْرَ . وَكَيْدُ الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ ، وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَوْلِيَائِهِ . أَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَهُمُ الأَعِزَّةُ ، لأَنَّ اللهَ حَامِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُعِزُّهُمْ ، وَلِذَلِكَ فَعَلَى المُؤْمِنِينَ ، أَوْلِيَاءِ اللهِ ، أنْ لاَ يَخَافُوا أَعْدَاءَهُمُ الكُفَّارَ ، لأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ .

فليقاتل – في سبيل الله – فالإسلام لا يعرف قتالاً إلا في هذا السبيل . لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة . ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي!

إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض؛ ولا للاستيلاء على السكان .. لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات ، والأسواق للمنتجات؛ أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات!

إنه لا يقاتل لمجد شخص . ولا لمجد بيت . ولا لمجد طبقة . ولا لمجد دولة ، ولا لمجد أمة ، ولا لمجد جنس . إنما يقاتل في سبيل الله . لإعلاء كلمة الله في الأرض . ولتمكين منهجه من تصريف الحياة . ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج ، وعدله المطلق « بين الناس » مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يقتنع بها . . في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام . .وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله ، بقصد إعلاء كلمة الله ، وتمكين منهجه في الحياة . ثم يقتل . . يكون شهيداً . وينال

مقام الشهداء عند الله . . وحين يخرج لأي هدف آخر - غير هذا الهدف - لا يسمى « شهيداً » ولا ينتظر أجره عند الله ، بل عند صاحب الهدف الأخر الذي خرج له . . والذين يصفونه حينئذ بأنه « شهيد » يفترون على الله الكذب؛ ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس . افتراء على الله!

فليقاتل في سبيل الله - بهذا التحديد . . من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة . ولهم - حينئذ - فضل من الله عظيم؛ في كلتا الحالتين : سواء من يُقتل في سبيل الله؛ ومن يَغلب في سبيل الله أيضاً : { ومن يقاتل في - سبيل الله - فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً } . .بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس؛ وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم؛ في كلتا الحالتين . وأن يهوّن عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئاً إلى جانب الفضل العظيم من الله . كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة و لم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالباً بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض . وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال - فيما يحتويه - ويحتوي سواه؟!

فليقاتل في سبيل الله - بهذا التحديد . . من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة . ولهم - حينئذ - فضل من الله عظيم؛ في كلتا الحالتين : سواء من يُقتل في سبيل الله؛ ومن يَغلب في سبيل الله أيضاً : { ومن يقاتل في - سبيل الله - فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً } . .بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس؛ وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم؛ في كلتا الحالتين . وأن يهوّن عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئاً إلى جانب الفضل العظيم من الله . كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة و لم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالباً بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض . وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال - فيما يحتويه - ويحتوي سواه؟!

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين . يلتفت من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطئين؛ إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها . يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس ، وحساسية القلوب؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون على أيدي المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص ، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجاً من دار الظلم والعدوان . . يلتفت هذه الالتفاتة ليوحي إليهم بسمو المقصد ، وشرف الغاية ، ونبل الهدف ، في هذا القتال ، الذي يدعوهم أن ينفروا إليه ، غير متثاقلين ولا مبطئين .

وذلك في أسلوب تحضيضي؛ يستنكر البطء والقعود : { ومـا لكـم لا تقـاتلون في سـبيل الله ، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً؟ } . .وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله؛ واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الـذين ترتسـم صـورهم في مشهد مثير لحمية المسلم ، وكرامة المؤمن ، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ هـؤلاء الـذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم ، والفتنة في دينهم . والمحنة في العقيدة أشـد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض ، لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني ، الـذي تتبعه كرامة النفس والعرض ، وحق المال والأرض!

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف ، مشهد مؤثر مثير . لا يقل عنه مشهد الشـيوخ الـذين لا يملكون أن يدفعوا – وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة – وهذا المشهد كله معـروض في مجال الدعوة إلى الجهاد . وهو وحده يكفي . لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات . . وهو أسلوب عميق الوقع ، بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس .ولا بد من لفتـة هنـا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن : إن { هذه القرية الظالم أهلها } التي يعدها الإسلام – في موضعها ذاك – دار حرب ، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها ، هـي « مكة » وطن المهاجرين ، الذين يُدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها . ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه!

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام – حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه؛ وحين فـتن فيها المؤمنون عن دينهم ، وعذبوا في عقيدتهم . . بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم « دار حرب » . . دار حرب ، هم لا يدافعون عنها ، وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوتهم المسـلمين منها . . إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته . ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلـد الـذي تقام شريعة الله فيه؛ وأرضه التي يدفع عنها هي « دار الإسلام » التي تتخذ المنهج الإسلامي منـهجاً للحياة . . وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي ، تنضح به الجاهليات ، ولا يعرفه الإسلام ثم لمسة نفسية أخرى ، لاستنهاض الهمم ، واستجاشة العزائم ، وإنارة الطريـق ، وتحديـد القـيم والغايات والأهداف ، التي يعمل لها كل فريق : { الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ والذين كفـروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفاً } . .

وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق . وفي لحظة ترتسم الأهداف ، وتتضح الخطـوط . وينقسم الناس إلى فريقين اثنين؛ تحت رايتين متميزتين :{ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله } . . { والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت } ..الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل « بين الناس » باسم الله . لا تحت أي عنوان آخر . اعترافاً بـأن الله

وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم :والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى – غير منهج الله – وإقرار شرائع شتى – غير شريعة الله – وإقامة قيم شتى – غير التي أذن بها الله – ونصب موازين شتى غير ميزان الله!

ويقف الذين آمنوا مستندين الى ولاية الله وحمايته ورعايته .ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياهم ، وشتى مناهجهم ، وشتى شرائعهم ، وشتى طرائقهم ، وشتى قيمهم ، وشتى موازينهم . . . فكلهم أولياء الشيطان .ويأمر الله الذين أمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان :{ فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً } .

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد . مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ . وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء . . إنما هي لله وحده ، ولمنهجه وشريعته . وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق . لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية – وكل مناهج البشر جاهلية – على شريعة منهج الله؛ ولتغليب شرائع البشر الجاهلية – وكل شرائع البشر جاهلية – على الله؛ ولتغليب ظلم البشر– وكل حكم للبشر من دون الله ظلم – على عدل الله ، الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس . .كذلك يخوضون المعركة ، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها . وأنهم يواجهون قوماً ، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف . . إن كيد الشيطان كان ضعيفاً . .

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها . قبل أن يدخلوها . وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة – فهو واثق من النتيجة – أم بقي حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر؛ فهو واثق من الأجر العظيم

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه ، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة الجماعة المسلمة الأولى؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة . وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال؛ فهي كثيرة مشهورة . . ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب ، في أقصر فترة عرفت في التاريخ؛ فقد كان هذا التصور جانباً من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة ، على المعسكرات المعادية . . ذلك التفوق الذي أشرنا إليه من قبل في هذا الجزء . وبناء هذا التصور ذاته كان طرفاً من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين ، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال؛ ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين؛ فأمسوا مهزومين!

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته .فلم يكن الأمر هيناً . و لم يكن مجرد كلمة تقال . ولكنه كان جهداً موصولاً ، لمعالجة شح النفس ، وحرصها على الحياة –

بأي ثمن – وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة . . وفي الدرس بقية من هذا العلاج ، وذلك الجهد الموصول .

وقال تعالى : { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْـدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) }سورة التوبة

قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلاَءِ الذِينَ يَفْرَحُونَ بمَا يُصِيبُ الُمسْلِمِينَ مِنَ المَصَائِبِ ، وَتَسُوؤُهُم النِّعْمَةُ الَّتِـي تُصْيبُ الُمسْلِمِينَ : نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ وَقَدَرِهِ ، وَمَا قَدّرَهُ لَنَا سَيَأْتِينَا ، وَلَيْسَ لَهُ مَانِعٌ وَلاَ دَافِـعٌ . وَنَحْنُ مُتَوَكّلُونَ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، فَلاَ نَيْأسُ عِنْدَ الشِّدَّةِ ، وَلاَ نَبْطَرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ. وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ : هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بنَا ، وَتَنْتَظِرُونَ أَنْ يَقَعَ لَنَا ، إلاَّ وَاحِدَةٌ مِن اثْنَتَيْنِ : وَكِلْتَاهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَفِيهِمَا حَسَنَةٌ : شَهَادَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ ظَفَرٌ . أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا نَنْتَظِرُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ عَـذَابُ اللهِ ، أَوْ أَنْ يُسَلِّطَنَا عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ فَنُذِيقَكُمْ بَأْسَنَا .

فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين؟ إنها الحسنى على كل حال . النصر الذي تعلو به كلمة الله ، فهـو جزاؤهم في هذه الأرض . أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين؛ أو ببطش المؤمنين بهم كما وقـع من قبل للمشركين . . { فتربصوا إنا معكم متربصون } والعاقبة معروفة . . والعاقبة للمؤمنين .

٤٢- عدمُ الخوف إلا من الله وحده مهما بلغت الشدائد

قال تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّـهِ وَاللَّـهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَـافُونِ إِنْ كُنْـتُمْ مُـؤْمِنِينَ (١٧٥) (آل عمران)

خَافَتْ قُرَيشٌ أنْ يَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أهْلَ المَدِينَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي المَعْرَكَةِ ، وَيَخْرُجَ وَرَاءَهُـمْ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيهِ بَعْضَ نَاقِلِي الأخْبَارِ لِيُهَوِّلُوا عَلَيهِ ، لِيَكُفَّ عَنِ اللِّحَاقِ بهِمْ ، وَقَـالَ نَـاقِلُوا الأَخْبَـار لِلْمُسْلِمِينَ : إنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ (النَّاسَ) قَدْ حَشَدُوا لَكُـمْ ، وَجَمَعُـوا قُـوَاهُمْ ، فَاحْـذَرُوهُمْ ، وَاخْشَوْهُمْ ، فَلَمْ يَزِدْ هَذَا القَوْلُ هَؤُلاءِ الُمؤْمِنِينَ – الذِينَ اسْتَجَابُوا لِلْرَسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُلَبِّينَ دَعْوَتَهُ ، رَاغِبِينَ فِي نَيْلِ رِضْوَانِ رَبِّهِمْ وَنَصْرِهِ – إلاَّ إِيمَاناً بِـرَبِهِمْ ، وَثِقَةً بِوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ وَأجْرِهِ ، وَرَدُّوا عَلَى مُخَاطِبِيهِمْ قَائِلِينَ : إِنَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُمْ .

فَلَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ كَفَاهُمُ اللهُ مَا أَهَمَّهُمْ وَأَغَمَّهُمْ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأسَ النَّاسِ (الكَافِرِينَ) ، فَرَجَعُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ ، وَقَدْ فَازُوا بِرِضْوَانِ اللهِ ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ

(خَرَجَ الُمسْلِمُونَ مَعَ الرَّسُولِ إلى مَوْقِعٍ يُعْرَفُ بِحَمْرَاءِ الأَسَدِ ، وَأَرْسَلَ إلى الُمشْرِكِينَ رُسُلاً يُحَذِّرُونَهُمْ ، فَخَافَتْ قُرَيْشٌ وَتَابَعَتْ سَيْرَهَا نَحْوَ مَكَّةَ) .

وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ وَاعَدَ رسُولَ اللهِ ﷺ بَدْراً مِنَ العَامِ القَابِلِ ، فَخَرَجَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إلَى بَدْرٍ فِي المَوْعِدِ الُمحَدَّدِ ، وَتَخَلَّفَتْ قُرَيْشٌ ، فَاشْتَرَى رَسُولَ اللهِ عِيْراً مَرَّتْ بِهِمْ فِي المَوْسِمِ ، ثُمَّ بَاعَهَا فَرَبِحَ ، وَوَزَّعَ الرِّبْحَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، فَانْقَلَبُوا مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ الثَّانِيَةِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَنَالُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَحَصَلُوا عَلَى فَضْلِهِ فِي الرِّبْحِ . وَاللهُ عَظِيمُ الفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ .

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنينَ ، أنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الذِي يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الُمشْرِكِينَ ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَقُوَّةٍ ، وَهُوَ الذِي قَالَ لَكُمْ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَلاَ تَخَافُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ ، وَالْجَؤُوا إلَيهِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقّاً ، فَإِنَّهُ كَافِيكُمْ إيَّاهُمْ ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ . وَخَافُوهُ هُوَ فَهُوَ القَادِرُ عَلَى النَّصْرِ وَعَلَى الخُذْلاَنِ ، وَعَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ .

وهم الذين قال لهم بعض المشركين: إن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا أمرهم على الرجوع إليكم لاستئصالكم، فاحذروهم واتقوا لقاءهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فزادهم ذلك التخويف يقينًا وتصديقًا بوعد الله لهم، و لم يَثْنِهم ذلك عن عزمهم، فساروا إلى حيث شاء الله، وقالوا: حسبنا الله أي: كافينا، ونعْم الوكيل المفوَّض إليه تدبير عباده. استجابوا لدعوة الرسول ﷺ وهي دعوة الله - كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك - فاستجابوا بهذا لله والرسول (من بعد ما أصابهم القرح) ، ونزل بهم الضر ، وأثخنتهم الجراح .

لقد دعاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وحدهم . وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى ، وتومئ إلى حقائق كبرى ، نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول الله ﷺ شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم ، هو شعور الهزيمة ، وآلام البرح والقرح ؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش ، وتعقبها ، كي يقر في أخلادهم إنها تجربة وابتلاء ، وليست نهاية المطاف . وأنهم بعد ذلك أقوياء ، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء ، إنما هي واحدة وتمضي ، ولهم الكرة عليهم ، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل ، واستجابوا لدعوة الله والرسول.

ولعل رسول الله ﷺ شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش ، وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته . فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس ؛ يشعر قريشا أنها لم تنل من المسلمين منالا . وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها . . ولعل رسول الله ﷺ شاء أن يشعر المسلمين ، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض ،حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها . ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها ، وليس

لهم من غاية في حياتهم سواها . عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعـــدها ، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولا يقدمونها فداها . .

لقد كان هذا أمرا جديدا في هذه الأرض في ذلك الحين . و لم يكن بد أن تشعر الأرض كلها – بعـــد أن يشعر المؤمنين – بقيام هذا الأمر الجديد ، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة . و لم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة:صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم – كما أبلغهم رسل أبي سفيان – وكما هول المنـــافقون في أمـــر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا –: (الذين قال لهم الناس:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فـــزادهم إيمانا وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل) . . هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة .

٤٣– يقينُهم –مهما كانوا ضعفاء– أنهم على الحقِّ وعدوهم على الباطل :

قال تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (آل عمران:١٢)

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ – وَهُمْ هُنَا اليَهُودُ – : إِنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ فِي الدُّنيا وَيُحْشَرونَ يَـــوْمَ القِيَامَـــةِ ، وَيُسَاقُونَ إلى جَهَنَّمَ ، لِتَكُونَ لَهُمْ مَهْداً وَفِرَاشاً ، وَبِئْسَ المَهْدُ وَالفِرَاشُ . (هَذِهِ الآيةُ نَزَلَتْ فِي يَهُـــودِ بَنِي قَيْنُقَاعٍ . فَبَعْدَ أنْ نَصَرَ اللهُ المُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، جَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ يَهُودَ المَدِينةِ ، وَقَالَ لَهُـــمْ : يَـــا مَعْشَرَ اليَهُودِ أسْلِمُوا قَبْلَ أنْ يُصِيبَكُمْ اللهُ بمَا أصَابَ بِهِ قُرَيْشاً .فَقَالُوا : يَا مُحَمَّـــدُ لاَ يَغُرَّنَّـــكَ مِـــنْ نَفْسكَ أنَّكَ قَتَلْتَ نَفَراً مِنْ قُرَيشٍ لاَ يَعْرِفُونَ القِتَالَ ، إنَّكَ وَاللهِ لَوْ قَاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أنَّا نَحْـــنُ النَّـــاسُ ، وَأنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا . فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هذِهِ الآيَةَ والتي بَعْدَهَا ، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ فَقَتَلَ المُسْلِمُونَ بَني قُرَيْظَةَ ، وَأجْلَوا بَني النَّضِيرِ وَبَني قَيْنُقَاعٍ ، وَفَتُحُوا خَيْبَرَ).

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة . وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة . . إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله ، قائم في كل لحظة . ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة – ولو قل عددها – قائم كذلك في كل لحظة . وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقـــة قائمة لم تنسخ ، وسنة ماضية لم تتوقف . وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقـــة ؛ وتثق في ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ؛ ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله ، المدبر بحكمته ، المؤجل لموعده الذي يحقق هـــذه الحكمة . (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) ولا بد من بصر ينظر وبصيرة تتدبر ، لتـــبرز العـــبرة ، وتعيها القلوب . وإلا فالعبرة تمر في كل لحظة في الليل والنهار !

وقال تعالى : (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (١٩٧) آل عمران لاَ تَنْظُرْ إِلَى مَا أُتْرِفَ فِيهِ هَؤُلاءِ الكُفَّارُ مِنَ النِّعْمَةِ وَالغَبْطَةِ وَالسُّرُورِ .
وَلاَ تَعْجَبْ مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي الأَسْفَارِ لِلتِّجَارَةِ وَالتَّكَسُّبِ ثُمَّ عَوْدَتِهِمْ سَالِمِينَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَدِيَارِهِمْ .
فَإِنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ زَائِلٌ ، يَتَمَتَّعُونَ بِهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ، ثمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المُسْتَقَرُّ وَالمَهْدُ

وتقلب الذين كفروا في البلاد ، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة . يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين؛ وهم يعانون الشظف والحرمان ، ويعانون الأذى والجهد ، ويعانون المطاردة أو الجهاد .. وكلها مشقات وأهوال ، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون! . . ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة ، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وأهله في منجاة ، بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم؛ فيزيدهم ضلالاً وبطراً ولجاجاً في الشر والفساد .هنا تأتي هذه اللمسة : { لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد } متاع قليل . . ينتهي ويذهب . . أما المأوى الدائم الخالد ، فهو جهنم . . وبئس المهاد!

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات . وخلود . وتكريم من الله :{ جنات تجري من تحتها الأنهار } . . { خالدين فيها } . . { نزلاً من عند الله } . . { وما عند الله خير للأبرار } . .وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة ، وهذا النصيب في كفة ، أن ما عند الله خير للأبرار . وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان . وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألباب!

إن الله – سبحانه – في موضع التربية ، وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر ، ولا يعدهم بقهر الأعداء ، ولا يعدهم بالتمكين في الأرض ، ولا يعدهم شيئاً من الأشياء في هذه الحياة . . مما يعدهم به في مواضع أخرى ، ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه .إنه يعدهم هنا شيئاً واحداً هو { ما عند الله } . فهذا هو الأصل في هذه الدعوة . وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة : التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، ومن كل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله – وقهر أعداء الله – حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ، ويكلوا أمرها إليه ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها!

هذه العقيدة : عطاء ووفاء وأداء . . فقط . وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء . . ثم انتظار كل شيء هناك!

ثم يقع النصر ، ويقع التمكين ، ويقع الاستعلاء . . ولكن هذا ليس داخلاً في البيعة . ليس جزءاً من الصفقة . ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا . وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء . . والابتلاء . على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة؛ وعلى هذا كان البيع والشراء . و لم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء؛ و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية ، إلا حين تجردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء :قال محمد بن كعب القرظي وغيره : « قال عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – لرسول الله – ﷺ – يعني ليلة العقبة (ونقباء الأوس والخزرج يبايعونه – ﷺ – على الهجرة إليهم) : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال » أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم « . قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال » الجنة « . . قالوا : ربح البيع . ولا نقيل ولا نستقيل » .هكذا . . « الجنة » والجنة فقط لم يقل : النصر والعز والوحدة . والقوة . والتمكين . والقيادة . والمال . والرخاء – مما منحهم الله وأجراه على أيديهم – فذلك كله خارج عن الصفقة!

وهكذا . . ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل . . لقد أخذوها صفقة بين متبايعين؛ أنهي أمرها ، وأمضي عقدها . و لم تعد هناك مساومة حولها!

وهكذا ربى الله الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض ، وزمام القيادة ، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها ، وكل رغباتها ، وكل شهواتها ، حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها ، والمنهج الذي تحققه ، والعقيدة التي تموت من أجلها . فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه ، أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة .

فالثقة بالله سبحانه وتعالى والثقة بوعده: وأنه سبحانه سيعلي هذا الدين وينصره ويمكن له في الأرض إن عاجلاً أو آجلاً، فإن حساب الزمن ليس عند الله شيء، فمن المعلوم أن اليوم عند الله يساوي ألف سنة مما نعد نحن، فلا ننظر بمنظار الأعمار البشرية، بل ننظر إلى المنهج الذي ينتصر ويبقى، وننظر إلى الزبد الذي يذهب جفاء في الأرض .

لابد أن نكون واثقين من أن الله سينصر هذا الدين مهما ضيق عليه، ومهما حورب دعاته، ومهما وقف في وجوههم، ومهما وضعت في طريقهم العراقيل؛ فإن النصر حليفهم إن عاجلاً أو آجلاً، فالحق يبتلى أولاً، ثم يمكن له وينصر . وكم من الدعاة والمجاهدين والعلماء ابتلوا حتى ظن الناس أنهم قد هلكوا وفشلت دعوتهم، فإذا بهم تنقلب في طريقهم المحن إلى منح، ويضع الله لهم القبول في الأرض والتمكين والنصر .

٤٤- كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائمها ونياتها:

من أهم أسباب النصر التي ينبغي أن يعرفها المؤمنون حتى لا يصابوا بشيء من الإحباط: كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائمها ونياتها ، كيف ذلك؟

الأمة- أحياناً- قد تحارب ولكنها لا تكون في مستوى النصر، فيؤخر الله النصر قليلاً حتى يرتفع مستوى هذه الأمة وتصبح قادرة على تحمل أعباء النصر الذي سيمنحه الله إياها إذا جاء وقته، يقول الله سبحانه:{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]}[سورة الحج] من هم يا رب؟ {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج] . {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ} إذن: ها هنا نيات وعزائم في القلوب لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ} هذا مستقبل {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ} ربما يوجد من الدعاة من لو مُكن في الأرض لترك بعض أمور الدعوة، وما أقام الصلاة وما آتى الزكاة، أو ربما يقوم بالصلاة ويؤدي الزكاة، ولكنه لا يقوم تمام القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ربما يتنازل بعض المحسوبين على الدعوة عن بعض الأمور الهامة، ربما يتحالف مع الشيوعيين، ربما يتحالف مع علمانيين من أجل مكاسب.. هذا لا يستحق النصر.

أيضًا: تكون الأمة في مستوى النصر بالإمكانات بالقدرات، فيكون لديها من يستطيعون إدارة البلدان المسلمة لو تيسر لها النصر، أو إدارة العالم لو تمكنت من فتح العالم كله، فإذا أصبحت الأمة في هذا المستوى، وتوفرت لها بقية الأسباب؛ فإن الله جل وعلا يمنحها النصر أمراً مؤكداً لا شك فيه ولا ريب .

٤٥- عدمُ الاكتراث بالذينَ لا يوقنون :

قال تعالى : {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} (٦٠) سورة الروم

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هُؤلاءِ الُمشْرِكِينَ ، وَلا تَلْتَفِتْ إلى تَكذِيبِهم وَمُكَابَرَتِهِمْ ، وبَلِّغْهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ ، فَإِنَّهُ وَعَدَكَ النَّصْرَ والظَّفَرَ ، وسَيُنْجِزُ لَكَ وَعْدَهُ ، وَلا يَحْمِلَنَّكَ الذِين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ (لاَ يُوقِنُونَ) عَلى الخِفَّةِ والانْفِعَالِ ، فَيَصْرِفُوكَ بذلِكَ عَمَّا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ مِنْ إِبْلاَغِ رِسَالاَتِهِ إلى النَّاسِ .

ختم – سبحانه – السورة الكريمة ، بأمر النبى ﷺ بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : { فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ } .

أى : إذا كان الأمر وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن وعد الله – تعالى – بنصرك عليهم حق لا شك فى ذلك .

{ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ } أي : ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون صحة ما تتلوا عليهم من آيات ، ولا بما يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون بصحة ما تتلوا عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير .

فالصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية والثقة بوعد الله الحق والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين فأما المؤمنون الواصلون المسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين مهما يطل هذا الطريق ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم.

وهكذا تختم السورة التي بدأت بوعد الله في نصر الروم بعد بضع سنين ونصر المؤمنين تختم بالصبر حتى يأتي وعد الله ؛ والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون فيتناسق البدء والختام وتنتهي السورة وفي القلب منا إيقاع التثبيت القوي بالوعد الصادق الذي لا يكذب واليقين الثابت الذي لا يخون

٤٦- وجوبُ الصبر و المصابرة والمرابطة والتقوى:

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران:٢٠٠)

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ أنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الذِي ارْتَضَاهُ اللهُ لَهُمْ ، وَهُوَ الإِسْلاَمُ ، فَلاَ يَدَعُونَهُ لِشِدَّةٍ ولاَ لِرَخَاءٍ ، حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ . وَالْمُرَابَطَةِ هِيَ المَرَابَطَةِ فِي الثُّغُورِ لِلْغَزْوِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ . وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وَمَا عَلَيهَا " .

وَقَالَ اِبْن جَرِير : حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا مُطَرِّف بْن عَبْد اللَّه الْمَدِينِيّ حَدَّثَنَا مَالِك بْن زَيْد بْن أَسْلَم قَالَ : كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَة إِلَى عُمَر بْن الْخَطَّاب يَذْكُر لَهُ جُمُوعًا مِنْ الرُّوم وَمَا يَتَخَوَّف مِنْهُمْ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَر : أَمَّا بَعْد فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِل بِعَبْدٍ مُؤْمِن مِنْ مَنْزِلَة شِدَّة يَجْعَل اللَّه لَهُ بَعْدهَا فَرَجًا وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ وَإِنَّ اللَّه تَعَالَى يَقُول " يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اِصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " وَهَكَذَا رَوَى الْحَافِظ اِبْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة عَبْد اللَّه بْن الْمُبَارَك مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم اِبْن أَبِي سُكَيْنَة قَالَ : أَمْلَى عَلَيَّ عَبْد اللَّه بْن الْمُبَارَك هَذِهِ الْأَبْيَات بِطَرَسُوس وَوَدَّعْته لِلْخُرُوجِ وَأَنْشَدَهَا مَعِي إِلَى الْفُضَيْل بْن عِيَاض فِي سَنَة سَبْعِينَ وَمِائَة وَفِي رِوَايَة سَنَة سَبْع وَسَبْعِينَ وَمِائَة.

يَا عَابِد الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتنَا ... لَعَلِمْت أَنَّك فِي الْعِبَادَة تَلْعَب

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدّه بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّب

أَوْ كَانَ يُتْعِب خَيْلَهُ فِي بَاطِل ... فَخُيُولنَا يَوْم الصَّبِيحَة تَتْعَب
رِيح الْعَبِير لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرنَا ... رَهْج السَّنَابِك وَالْغُبَار الْأَطْيَب
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَال نَبِيِّنَا ... قَوْل صَحِيح صَادِق لَا يُكْذَب
لَا يَسْتَوِي غُبَار خَيْل اللَّه فِي ... أَنْف اِمْرِئٍ وَدُخَان نَار تَلْهَبُ
هَذَا كِتَاب اللَّه يَنْطِق بَيْننَا ... لَيْسَ الشَّهِيد بِمَيِّتٍ لَا يُكْذَب

وفي مسند أبي عوانة (٦٠١٣) عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ مُرَابِطٌ، جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ،(صحيح).

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة . إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء . . الصبر على أشياء كثيرة : الصبر على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم ، وانحراف طباعهم ، وأثرتهم ، وغرورهم ، والتوائهم ، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل ، ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة ، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر ، وضعف المعين ، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله ، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة . من الألم والغيظ ، والحنق ، والضيق ، وضعف الثقة أحياناً في الخير ، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية؛ والملل والسأم واليأس أحياناً والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة ، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر ، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام ، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله ، واستسلام لقدره ، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع . .

والصبر على هذا كله – وعلى مثله – مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل . . لا تصوره حقيقة الكلمات . فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة . إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق؛ وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي . فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء . كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاولوه . .

والمصابرة . . وهي مفاعلة من الصبر . . مصابرة هذه المشاعر كلها ، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين . . مصابرتها ومصابرتهم ، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة . بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى : أعدائهم من كوامن الصدور ، وأعدائهم من شرار الناس سواء . فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم ، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر

، والدفع بالدفع ، والجهد بالجهد ، والإصرار بالإصرار . . ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء . . وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق ، فما أجدر الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق!

والمرابطة . . الإقامة في مواقع الجهاد ، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء . . وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبداً ولا تستسلم للرقاد! فما هادنها أعداؤها قط ، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة ، والتعرض بها للناس .

وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني عن المرابطة للجهاد ، حيثما كانت إلى آخر الزمان!

إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي . منهج يتحكم في ضمائرهم ، كما يتحكم في أموالهم ، كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم . منهج خير عادل مستقيم . ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم؛ والباطل لا يحب الخير والعدل والاستقامة؛ والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة . . ومن ثم ينهد لهذه الدعوة أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان . ينهد لحربها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال . وينهد لحربها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الطغيان والاستكبار . وينهد لحربها المستهترون المنحلون ، لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات . . ولا بد من مجاهدتهم جميعاً . ولا بد من الصبر والمصابرة . ولا بد من المرابطة والحراسة . كي لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين ، الدائمين في كل أرض وفي كل جيل . . هذه طبيعة هذه الدعوة ، وهذا طريقها . . إنها لا تريد أن تعتدي؛ ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم . . وهي واجدة أبداً من يكره ذلك المنهج وهذا النظام . ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد . ومن يتربص بها الدوائر . ومن يحاربها باليد والقلب واللسان . . ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها ، ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!

والتقوى . . التقوى تصاحب هذا كله . فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل؛ ويحرسه أن يضعف؛ ويحرسه أن يعتدي؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك .

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ ، إلا من يعاني مشاق هذا الطريق؛ ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات . .

إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات . وهو جماعها كلها ، وجماع التكاليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها . . ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار : { لعلكم تفلحون } . وصدق الله العظيم .

٤٧- وجوبُ الاستعانة بالصبر والصلاة :

قال تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة:٤٥)

وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالاسْتِعَانَةِ عَلَى أَدَاءِ التَّكَالِيفِ ، وَمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ ، بِالصَّبْرِ عَلَى الفَرَائِضِ ، وَضَبْطِ النَّفْسِ عَنِ المَعَاصِي ، وَبِالصَّلاةِ ، لَعَلَّهُمْ يَبْلُغُونَ مَا يُؤَمِّلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ . وَيُنَبِّهُهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ القِيَامَ بِهذِهِ الوَصِيَّةِ التِي يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ الأَخْذَ بِهَا مِنْ صَبْرٍ وَصَلاةٍ . . . أَمْرٌ شَاقٌ ثَقِيلٌ عَلَى النُّفُوسِ ، إلاَّ النُّفوسَ المُؤْمِنَةَ الخَاشِعَةَ المُسْتَكِينَةَ لِطَاعَةِ اللهِ ، المُتَذَلِّلَةَ مِنْ مَخَافَتِهِ .

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرا ؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ؛ والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات ؛ والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب ، مجندة القوى ، يقظة للمداخل والمخارج . .

ولا بد من الصبر في هذا كله . .

لا بد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصي ، والصبر على جهاد المشاقين لله ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقلة العناد ، ومضاضة الإعراض . .

وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد ، قد يضعف الصبر ، أو ينفد ، إذا لم يكن هناك زاد ومدد . ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر ؛ فهي المعين الذي لا ينضب ، والزاد الذي لا ينفد . المعين الذي يجدد الطاقة ، والزاد الذي يزود القلب ؛ فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع . ثم يضيف إلى الصبر ، الرضى والبشاشة ، والطمأنينة ، والثقة ، واليقين .

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى ، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة . حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع ، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا وقد أوشك المغيب ، ولم ينل شيئا وشمس العمر تميل للغروب . حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا ، ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق . .

هنا تبدو قيمة الصلاة . .

إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية . إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض . إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض . إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي

الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير . إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة ، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود . .

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب . صلة يستمد منها القلب قوة ، وتحس فيها الروح صلة ؛ وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا . .

ولقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام

وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق ، وريا في الهجير ، ومددا حين ينقطع المدد ، ورصيدا حين ينفد الرصيد . .

واليقين بلقاء الله – واستعمال ظن ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة – واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور . .

هو مناط الصبر والاحتمال ؛ وهو مناط التقوى والحساسية . كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم:قيم الدنيا وقيم الآخرة . ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمنا قليلا ، وعرضا هزيلا ؛ وبدت الآخرة على حقيقتها ، التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها . وكذلك يجد المتدبر للقرآن في التوجيه الذي قصد به بنو إسرائيل أول مرة ، توجيها دائما مستمر الإيحاء للجميع . .

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة . والعبادة فيه ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق . وأنها مدد الروح . وأنها جلاء القلب . وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر . .

إن الله سبحانه حينما انتدب محمدا ﷺ للدور الكبير الشاق الثقيل ، قال له:

(يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . . إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) . .

فكان الإعداد للقول الثقيل ، والتكليف الشاق ، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن . .

إنها العبادة التي تفتح القلب ، وتوثق الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

ومن ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام . .

إلى الصبر وإلى الصلاة . .

ثم يجيء التعقيب بعد هذا التوجيه: (إن الله مع الصابرين) . .

معهم ، يؤيدهم ، ويثبتهم ، ويقويهم ، ويؤنسهم ، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم ، ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة ، وقوتهم الضعيفة ، إنما يمدهم حين ينفد زادهم ، ويجدد عزيمتهم حين

تطول بهم الطريق . . وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا . . ويختم النداء بذلك التشجيع العجيب: (إن الله مع الصابرين) .

والأحاديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبته للسياق القرآني هنا في إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبئها والقيام بدورها:

ففي صحيح البخارى(٣٦١٢) عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، قُلْنَا لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » . .

وفي صحيح البخارى(٣٤٧٧) عن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى النَّبِىِّ - ﷺ - يَحْكِى نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ ، وَهْوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » ..

وفي مسند الطيالسي (١٩٨٨)عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَرَاهُ ابْنَ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُسْلِمُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ ، أَوْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ.(صحيح).

٤٨- تحملُّ الأذى الشديد في سبيل الله تعالى وعدمُ الوهن في طلب الكفار

قال تعالى : (وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) (النساء:١٠٤)

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بالجِدِّ فِي قِتَالِ الأَعْدَاءِ ، وَفِي طَلَبِهِمْ وَيُنَبِّهُهُمْ إلى أَنَّهُمْ إنْ كَانَتْ تُصِيبُهُمْ جِرَاحٌ ، وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا ، فَإِنَّ أَعْدَاءَهُمْ تُصِيبُهُمْ أَيْضاً جِرَاحٌ ، وَيَأْلَمُونَ مِنْهَا . وَالفَارِقُ الوَحِيدُ بَيْنَ المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ أنَّ المُؤْمِنَ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ المَثُوبَةَ وَالأَجْرَ ، وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ ، وَإِعْلاَءَ كَلِمَةِ اللهِ ، التِي وَعَدَهُ اللهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ، فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ ، وَالكَافِرِ لا يَنْتَظِرُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا يَفْرِضُهُ وَيُقَدِّرُهُ ..

إنهن كلمات معدودات . يضعن الخطوط الحاسمة ، ويكشفن عن الشقة البعيدة ، بين جبهتي الصراع إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة . . ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه . . إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء . . ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء . . إن المؤمنين

يتوجهون إلى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده جزاءهم . . فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله ، ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة . .

فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام . وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإن هذا لهو فضل العقيدة في الله في كل كفاح .

فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة ، ويربو الألم على الاحتمال . ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد . هنالك يأتي المدد من هذا المعين ، ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم .

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة . معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين . لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل .

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة . . ولكن القاعدة لا تتغير . فالباطل لا يكون بعافية أبداً ، حتى ولو كان غالباً! إنه يلاقي الآلام من داخله . من تناقضه الداخلي؛ ومن صراع بعضه مع بعض . ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء .وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار . وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم . والألم أنواع . والقرح ألوان . . { وترجون من الله ما لا يرجون } . . وهذا هو العزاء العميق . وهذا هو مفرق الطريق . .{ وكان الله عليماً حكيماً } . .يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب . ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح . .

وقد تكلم الإمام الرازى عن الحكمة فى مداولة الأيام بين الناس فقال ما ملخصه : واعمل أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله – تعالى – ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين ، وذلك لأن نصرة الله منصب شريف ، وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر ، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه :

الأول : إنه – سبحانه – لو شدد المحنة على الكفار فى جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين فى جميع الأوقات . لحصل العلم الاضطرارى بأن الإيمان حق وما سواه باطل ، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب ، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية ، والمكلف يدفعها بواسطة النظر فى الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله .

والثاني : أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصى ، فيكون تشديد المحنة عليه فى الــدنيا أدبــاً ، وأمــا تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضباً من الله عليه " .

ووجه آخر وهو شحذ عزائم المؤمنين فى اتخاذ وسائل النصر فلا يركنوا إلى إيمانهم ويتركــوا العمــل بالأسباب .ثم كشفت السورة الكريمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث فى غزوة أحد ، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس فقال – تعالى – { وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ } .

أى فعلنا ما فعلنا فى أحد ، واقتضت حكمتنا أن نداول الأيام بينكم وبين عدوكم ، ليظهر أمركم – أيها المؤمنون – ، وليتميز قوى الإيمانى من ضعيفه .فمعنى علم الله هو تحقيق ما قدره فى الأزل فيعلمه الناس ، ويعلمه الله – تعالى – واقعا حاضرا ، وذلك لأن العلم الغيبيى لا يتربت عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً فى الحس .قال صاحب الكشاف : وقوله { وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمَنُواْ } فيه وجهان : أحدهما : أن يكون المعلل محذوفا والمعنى : وليتميز الثــابتون علــى الإيمان منكم من الذين على حرف فعلنا ذلك . وهو من باب التمثيل . بمعنى : فعلنا ذلك فعل مــن يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ، وإلا فالله – عز وجل – لم يــزل عالمــا بالأشياء قبل كونها .

والثاني : أنه تكون العلة محذوفة ، وهذا عطف عليه والمعنى : وفعلنا ذلك ليكون كيت ولــيعلم الله . وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى عليهم ، وليبصــرهم بأن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه "

وقوله { وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ } بيان لحكمة أخرى لما أصاب المسلمين يوم أحد .

أى : وليكرم ناسا منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن الحق . وهو – سبحانه – يحب الشهداء من عباده ، ويرفعهم إلى أعــلا الــدرجات ، وأسمى المنازل .قال القرطبى ما ملخصه : قوله – تعالى – { وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُــهَدَآءَ } أي يكــرمكم بالشهادة ، أي ليقتل قوم منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد .

وقيل : سمى شهيداً لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سمى شهيدا ، لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم ، فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . والشهادة فضلها عظيم ويكفيك فى فضلها قوله – تعالى – { إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة } الآيــة . وفى الحديث الشريف " أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبــورهم إلا الشــهيد؟ فقال ﷺ " كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة "

وقوله – تعالى – { والله لاَ يُحِبُّ الظالمين } جملة معترضة لتقدير مضمون ما قبلــها .أى : والله – تعالى – لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرة الحق ، وإنما يحــب المؤمنين الثابتين على الحق ، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ، ونصره شريعته .

ثم ذكر – سبحانه – حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين فى غزوة أحد فقــال : { وَلِــيُمَحِّصَ الله الذين آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الكافرين } .وقوله { وَلِيُمَحِّصَ } من المحص بمعنى التنقية والتخليص . يقــال : محصت الذهب بالنار ومحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث .أو من التمحيص بمعــنى الابــتلاء والاختبار .وقوله { وَيَمْحَقَ } من المحق وهو محو الشيء والذهاب به ، وأصله نقص الشــيء قلــيلا قليلا حتى يفنى . يقال : محق فلان هذا الطعام إذا نقصه حتى أفناه ومنه المحاق ، لأخر الشــهر ، لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفى .والمعنى : ولقد فعل – سبحانه – ما فعل فى غزوة أحــد ، لكى يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب ، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم ، ولكــى يهلــك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم .فأنت ترى أن الله – تعالى – قد ذكر اربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد وهي : تحقق علم الله – تعالى – وإظهاره للمــؤمنين ، وإكــرام بعضــهم بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات ، وتطهير المؤمنين وتخليصهم مــن ذنــوبهم ومــن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا .

٤٩-   أن يكون القتال في سبيل الله :

قال تعالى : { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} (١٩٠) سورة البقرة

هذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي القِتَالِ فِي المَدِينَةِ . قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَبِثَ بَعْدَ هذِهِ الآيَــةِ يُقَاتِلُ مَنْ قَاتَلَهُ ، وَيَكُفُّ عَمَّنْ كَفَّ عَنْهُ ، حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ ، وَجَاءَ فِيها : { فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ } وَهذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَّةِ ، فَقَدْ خَافَ المُسْلِمُونَ أَنْ لا تَفِيَ لَهُمْ قُرَيْشٌ بِمَا اتَّفَقَتْ عَلَيهِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَصُدَّهُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ بالقُوَّةِ وَتُقَاتِلَهُمْ ، وَكَــرِهَ المُسْــلِمُونَ القِتَالَ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ ، وَفِي البَلَدِ الحَرَامِ .

وَفِي هذِهِ الآيَةِ يَأْذَنُ اللهُ لِلْمُؤْمِنينَ فِي قِتَالِ المُشْرِكِينَ إِعْزَازاً لِدِينِ اللهِ ، وَإِعلاءً لِكَلِمَتِهِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِأَلاَّ يَعْتَدُوا فِي ذلِكَ ، وَأَنْ لا يَبْدَؤُوهُمْ بالقِتَالِ .

(وَيَدْخُلُ فِي الاعْتِدَاءِ ارْتِكَابُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ كَالمُثْلَةِ فِي القَتْلى ، وَالغُلُولِ (وَهُوَ إِخْفَاءُ شَيءٍ مِــنَ المَغْنَمِ) ، وَقَتْلِ النِّساءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشُّيوخِ ، وَأَصْحَابِ الصَّوامِعِ ، وَتَحْرِيقِ الأَشْجَارِ ، وَقَتْلِ الحَيَــوانِ لِغَيرِ مَصْلَحَةٍ) .

وفي أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال ، والراية التي تخاض تحتها المعركــة في وضوح وجلاء: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) . .

إنه القتال لله ، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة . القتـال في سبيل الله . لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض ، ولا في سبيل المغانم والمكاسب ؛ ولا في سبيل الأسواق والخامات ؛ ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس . . إنما هـو القتـال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام ، القتال لإعلاء كلمـة الله في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، أو أن يجرفهم الضلال والفسـاد ، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام ، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام .

ومع تحديد الهدف ، تحديد المدى: (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . .

والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الـذين لا يشـكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة ، كالنسـاء والأطفـال والشـيوخ والعبـاد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين . .

كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام ، ووضع بها حدا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء . .

تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام ، وتأباها تقوى الإسلام .

وهذه طائفة من أحاديث الرسول ﷺ ووصايا أصحابه ، تكشف عن طبيعة هذه الآداب ، التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام:

ففي صحيح البخارى (٣٠١٥)عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِـى بَعْضِ مَغَازِى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ

وفي صحيح البخارى (٢٥٥٩)عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ » . .

وفي صحيح البخارى(٣٠١٦)عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّـهِ - ﷺ - فِى بَعْثٍ فَقَالَ « إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ أَرَدْنَـا الْخُرُوجَ « إِنِّى أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا ، وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلاَّ اللَّهُ ، فَإِنْ وَجَـدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » . .

وفي سنن أبى داود (٢٦٦٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسـلم- « أَعَـفُّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الإِيمَانِ ».(حسن).

وفي صحيح البخارى(٢٤٧٤) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ يَزِيدَ الأَنْصَارِىَّ قَالَ: نَهَى النَّبِىُّ - ﷺ - عَنِ النُّهْبَى وَالْمُثْلَةِ . .

وفي سنن أبي داود (٢٦٨٩) عَنِ ابْنِ تِعْلَى قَالَ غَزَوْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَأُتِيَ بِأَرْبَعَةِ أَعْلاَجٍ مِنَ الْعَدُوِّ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُتِلُوا صَبْرًا. قَالَ أَبُو دَاوُدَ قَالَ لَنَا غَيْرُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ فِى هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ بِالنَّبْلِ صَبْرًا فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِىَّ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَنْهَى عَنْ قَتْلِ الصَّبْرِ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةٌ مَا صَبَرْتُهَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَأَعْتَقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ. (حسن) -الأعلاج : جمع العلج وهو الشديد القوى على العمل.

وفي سنن أبي داود(٥٠٨٢) عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مُسْلِمٍ التَّمِيمِىِّ أَنَّ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ نَحْوَهُ إِلَى قَوْلِهِ « جِوَارٌ مِنْهَا ». إِلاَّ أَنَّهُ قَالَ فِيهِمَا « قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَدًا ». قَالَ عَلِىُّ بْنُ سَهْلٍ فِيهِ إِنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ وَقَالَ عَلِىٌّ وَابْنُ الْمُصَفَّى بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِى سَرِيَّةٍ فَلَمَّا بَلَغْنَا الْمُغَارَ اسْتَحْثَثْتُ فَرَسِى فَسَبَقْتُ أَصْحَابِى وَتَلَقَّانِى الْحَىُّ بِالرَّنِينِ فَقُلْتُ لَهُمْ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ تُحْرَزُوا فَقَالُوهَا فَلاَمَنِى أَصْحَابِى وَقَالُوا حَرَمْتَنَا الْغَنِيمَةَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَخْبَرُوهُ بِالَّذِى صَنَعْتُ فَدَعَانِى فَحَسَّنَ لِى مَا صَنَعْتُ وَقَالَ « أَمَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا ». قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا نَسِيتُ الثَّوَابَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَمَا إِنِّى سَأَكْتُبُ لَكَ بِالْوَصَاةِ بَعْدِى ». قَالَ فَفَعَلَ وَخَتَمَ عَلَيْهِ فَدَفَعَهُ إِلَىَّ وَقَالَ لِى ثُمَّ ذَكَرَ مَعْنَاهُمْ " (حسن)

وفي سنن أبي داود (٢٦١٤)عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِى خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ « إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ أَوْ خِلاَلٍ فَأَيَّتُهَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمُ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يُجْرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِى الْفَىْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَلاَ تُنْزِلْهُمْ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ فِيهِمْ وَلَكِنْ أَنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِكُمْ ثُمَّ اقْضُوا فِيهِمْ بَعْدُ مَا شِئْتُمْ ». (صحيح).

وفي موطأ مالك (٩٧١) عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَمْشِى مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ – وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الأَرْبَاعِ – فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لأَبِى بَكْرٍ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ إِنِّى أَحْتَسِبُ خُطَاىَ هَذِهِ فِى

سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ وَإِنِّى مُوصِيكَ بِعَشْرٍ لاَ تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلاَ صَبِيًّا وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلاَ بَعِيرًا إِلاَّ لِمَأْكُلَةٍ وَلاَ تَحْرِقَنَّ نَحْلاً وَلاَ تُفَرِّقَنَّهُ وَلاَ تَغْلُلْ وَلاَ تَجْبُنْ. (حسن لغيره) -فحص : حلق رأسه.

وفي مُشْكِلُ الْآثَارِ لِلطَّحَاوِيِّ (٩٣٩) عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أُمَرَاءَ الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ : " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ ، وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً " (صحيح لغيره)

وفي السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (١٥٤٤٠) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى مَنِ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ " أَنْ يَدْعُوَهُمْ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، وَيُنَبِّئَهُمْ بِالَّذِي لَهُمْ فِيهِ وَعَلَيْهِمْ ، وَيَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ ، فَمَنْ أَجَابَهُ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ ، كَانَ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ ، بِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَاتِلُ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، فَإِذَا أَجَابَ الْمَدْعُوُّ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَصَدَقَ إِيمَانُهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ حَسِيبَهُ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ مِمَّنْ يَرْجِعُ عَنْهُ أَنْ يَقْتُلَهُ " (صحيح لغيره)

وفي السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (١٦٦٢٨) عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، وَشُرَحْبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ ، قَالَ : لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أُمَرَاءِ جُنُودِهِ يُوَدِّعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ ، فَقَالُوا : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانٌ ؟ فَقَالَ : " إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " . ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ ، فَقَالَ : " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ ، وَلَا تَغُلُّوا ، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تَجْبُنُوا ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ، ادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ ، فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا

وَلَا تَحْرِقُنَّهَا ، وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً ، وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ ، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً ، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ ، وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا ، فَإِذَا وَجَدْتُمْ أُولَئِكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ " .(حسن لغيره)

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام ؛ وهذه هي آدابه فيها ؛ وهذه هي أهدافه منها . . وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين) . .

وقد كان المسلمون يعلمون أهم لا ينصرون بعددهم - فعددهم قليل - ولا ينصرون بعدهم وعتادهم - فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم - إنما هم ينصرون بإيماهم وطاعتهم وعون الله لهم . فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم وتوجيه رسول الله ﷺ فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه . ومن ثم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل . .

ولما فار الغضب برسول الله ﷺ فأمر بحرق فلان وفلان [رجلين من قريش] عاد فنهى عن حرقهما ، لأنه لا يحرق بالنار إلا الله .

ثم يمعن السياق في توكيد القتال لهؤلاء الذين قاتلوا المسلمين وفتنوهم في دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، والمضي في القتال حتى يقتلوهم على أية حالة ، وفي أي مكان وجدوهم . باستثناء المسجد الحرام . إلا أن يبدأ الكفار فيه بالقتال . وإلا أن يدخلوا في دين الله فتكف أيدي المسلمين عنهم ، مهما كانوا قد آذوهم من قبل وقاتلوهم وفتنوهم: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) . .

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية . ومن ثم فهي أشد من القتل . أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة . ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي ، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه . وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد ، ويسن تشريعات تبيح المحرمات كالزنا والخمر ، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه ؛ بينما يقبح لهم اتباع الفضائل المشروعة في منهج الله . ويجعل من هذه الأوضاع فروضا حتمية لا يملك الناس التفلت منها .

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة ، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية . .

هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام ، ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني . فغاية الوجود الإنساني هي العبادة [ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله] . وأكرم ما في الإنسان حرية

الاعتقاد . فالذي يسلبه هذه الحرية ، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة ، يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته . ومن ثم يدفعه بالقتل . .

لذلك لم يقل:وقاتلوهم . إنما قال:(واقتلوهم) . .

(واقتلوهم حيث ثقفتموهم) . . أي حيث وجدتموهم .

في أية حالة كانوا عليها ؛ وبأية وسيلة تملكونها – مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار .

ولا قتال عند المسجد الحرام ، الذي كتب الله له الأمن ، وجعل جواره آمنا استجابة لدعوة خليله إبراهيم [عليه السلام] وجعله مثابة يثوب إليها الناس فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام . . لا قتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته ، فيبدءون بقتال المسلمين عنده . وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم . . فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين ، الذين يفتنون الناس عن دينهم ، ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام ، الذي عاشوا في جواره آمنين .

(فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) . .

والانتهاء الذي يستأهل غفران الله ورحمته ، هو الانتهاء عن الكفر ، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين . فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون . ولكنه لا يؤهل لمغفرة الله ورحمته . فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان ، لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان .

وما أعظم الإسلام ، وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة ، ويسقط عنهم القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم ، الذي قتلوا منه وفتنوا ، وفعلو بأهله الأفاعيل !!!

وغاية القتال هي ضمانة ألا يفتن الناس عن دين الله ، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام ، وتسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات . وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ، ويهابه أعداؤه ، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة ، ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحق به الأذى والفتنة . . والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة ؛ وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة:

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . .

وإذا كان النص – عند نزوله – يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة ، وهي التي كانت تفتن الناس ، وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها في أمان . والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ؛ وتطلق الناس أحرارا من قهرها ، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله .

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة ، بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل . . هـذا التكـرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام ؛ وينشىء مبدأ عظيما يعني في حقيقته ميلادا جديدا للإنسـان على يد الإسلام . ميلادا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته ، وتوضع حياته في كفة وعقيدتـه في كفة ، فترجح كفة العقيدة . كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء "الإنسان" . . إنهـم أولئـك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه ، ويؤذون مسلما بسبب إسلامه . أولئك الذين يحرمون البشرية أكـبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله . .

وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم ، وأن تقتلهم حيث وجدتهم (حتى لا تكون فتنة ويكـون الدين لله) . .

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائما . وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى العصور . .

وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان . .

وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور ، وفي أي شـكل مـن الأشكال ، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل ؛ وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسـلام ، فكـان ميلادا جديدا للإنسان . .

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم ؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم ؛ فلا عدوان علـيهم – أي لا مناجزة لهم – لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين: (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا من باب المشاكلة اللفظية . وإلا فهو العدل والقسط ودفـع العدوان عن المظلومين .

ثم يبين حكم القتال في الأشهر الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام:

(الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مـا اعتـدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين) . .

فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام . وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان ؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسـلام في الزمان . تصان فيها الدماء ، والحرمات والأموال ، ولا يمس فيها حي بسوء . فمن أبى أن يسـتظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها ، فجزاؤه أن يحرم هو منها . والذي ينتـهك الحرمـات لا تصان حرماته ، فالحرمات قصاص . . ومع هذا فإن إباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع في حدود لا يعتدونها . فما تباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . .

بلا تجاوز ولا مغالاة . . والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم . وقد كانوا يعلمون – كما تقـــدم – أنهم إنما ينصرون بعون الله . فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين . بعد أمرهم بالتقوى . . وفي هذا الضمان كل الضمان . .

٥٠- المواظبةُ على طاعة الله بكل أشكالها في السِّرِّ والعلَن :

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُـــمْ تُفْلِحُـــونَ) (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّـــةَ أَبِـــيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَـــى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْـــمَ النَّصِـــيرُ} (٧٨) سورة الحـــج

يأمُر اللهُ المؤمِنينَ بعِبَادَتِهِ ، وَبإقَامَةِ الصَّلاةِ ، وَبالرُّكُوع والسجُودِ له ، وَبفِعْلِ الخَيْـــرِ ، لَعَـــلَّ ذَلِـــكَ يُوصِلُهُمْ إلَى الخَيْر ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُوصِلُهُمْ إلَى الخَيْر واللفَلاَحِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

يَأمُرُ اللهُ المُؤْمِنينَ بالجِهَادِ وأَخْلَصَهُ : بالأَمْوَالِ والأَنْفسِ والأَلْسنَةِ ، فَقَدْ اصْطفَى اللهُ المُؤْمِنينَ مِنْ هَـــذِهِ الأُمَّةِ ، واخْتَارَهُمْ عَلَى مَنْ سِوامهُم ، وَلَمْ يُكلِّفْهُمْ مَا لاَ يُطِيقُونَ ، وَلَمْ يُضَيِّق اللهُ عَلَيْهِم فِي شَيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينهم ، بَلْ وَسَّع عَلَيهم ، فِي شَيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينهم ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِم ، كَمَا وَسَّعَ فِـــي مِلَّـــةِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِم فِي شَيْءٍ مِنْ أُمورِ دِينهم ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِم ، كَمَا وَسَّعَ فِي مِلَّةِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامَمُ (وَنَصَبَ مِلَّةِ) عَلَى تَقْدِيرِ الزَمُوا مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ) ، وَقَدْ سَمَّاهُم اللهُ تَعَالَى بالمُسْلِمين فِي شَرْعِ إبْـــرَاهِيمَ وَفِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ ، وَفِي هَذَا القُرْآنِ (مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) . وَقَدْ جَعَلَ اللهُ المُسْلِمِينَ أُمَّـــةً وَسَـــطاً عُدُولاً لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، لأَنَّ النَّاسَ جَميعاً يَعْتَرِفُونَ بفَضْلِ المُسْلِمِينَ فِي ذَلِـــكَ اليَوْمِ ، فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِم ، فِي أَنَّ الرُّسُلَ أَبْلَغَتَهُم رِسَالَةَ أَبْلَغَتْهُم رِسَالَةَ رَبِّهِمْ ، والرَّسُـــولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ أَنَّهُ أَبْلَغَهَا مَا أَوْحَاهُ اللهُ إلَيهِ ، فَلْيُقَابلِ المُسْلِمُونَ هَذِهِ النعْمَةَ العَظِيمَـــةَ بالقِيَـــام بشُكْرِ اللهِ عَلَيها ، وَأداء حَقِّ اللهِ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِم ، ومِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ إقَامَةُ الصَّلاَةِ وأداؤها حَقَّ أَدَائِها ، وَدفْعُ الزَّكَاةِ ، والاعْتِصَامُ باللهِ ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ ، والاتِّكَالُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ مَوْلاَهُمْ وَحَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ ، وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّاصِرِ عَلَى الأعْداءِ .

(وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ – " بُعِثْتُ بالحَنيفيَّةِ السَّمْحَةِ ") . " وَأَوْصَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعَاذَ بنَ جبَلٍ وَأَبَـــا مُوسَى حِينَما بَعَثَهُمَا أمِيرَيْنَ عَلَى اليَمَنِ فَقَالَ لَهُمَا : بَشِّرا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرا " ..

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها ، ويقـــرر مكانها الذي قدره لها ، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل ، متى استقامت علـــى النـــهج الذي أراده لها الله .

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود . وهما ركنا الصلاة البارزان . ويكـــني عـــن الصـــلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة ، وحركة ظاهرة في التعبير ، ترسمها مشـــهداً شاخصـــاً ، وهيئة منظورة . لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثراً وأقوى استجاشة للشعور .ويثني بـــالأمر العـــام بالعبادة . هي أشمل من الصلاة . فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله . فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله . حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصـــبح عبـــادات تكتب له بها حسنات . وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها ، وينوي بها أن يتقوى على طاعتـــه وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات ، ولم يتحول في طبيعتها شيء ، ولكن تحـــول القصـــد منـــها والاتجاه!

ويختم بفعل الخير عامة ، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبـــادة ..يـــأمر الأمـــة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح . فهذه هي أسباب الفلاح . . العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل . وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة ، الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصـــالة الاتجاه .

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة ، فاستقام ضميرها واســـتقامت حياتها . . نهضت بالتبعة الشاقة :{ وجاهدوا في الله حق جهاده } . . وهو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفاً ضخماً ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد . .{ وجاهدوا في الله حق جهاده } . . والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد . . كلها سواء .

{ وجاهدوا في الله حق جهاده } . . فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها مـــن بـــين عباده : { هو اجتباكم } . . وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنـــها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء!

وهو تكليف محفوف برحمة الله : { وما جعلنا عليكم في الدين من حرج } . . وهذا الـــدين كلـــه بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ في تلبيتـــه تلـــك الفطـــرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء . فلا تبقى حبيسة كالبخـــار المكتـــوم . ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم!

وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية ، موصول الماضي بالحاضر : { ملة أبيكم إبراهيم } وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السلام فلم تنتقطع من الأرض ، و لم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام .وقد سمى الله هذه الأمة بالمسلمين . سماها كذلك من قبل وسماها كذلك القرآن : { هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا } . .والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد ﷺ وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية . فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله : { ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهدآء على الناس } . . فالرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهي تشهد على الناس بمثل هذا ، فهي القوّامة على البشرية بعد نبيها؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

٥١- وجوبُ التحلي بمكارم الأخلاق :

قال تعالى :{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)} سورة الرعد

لا يَسْتَوِي المُهْتَدِي مِنَ النَّاسِ ، الذِي يَعْلَمُ أَنَّ الذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ ، الذِي لاَ شَكَّ فِيهِ ، مَعَ الضَّالِّ ، الذِي لاَ يَعْلَمُ ذَلِكَ ، لأَنَّهُ يَكُونُ كَالأَعْمَى لاَ يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ ، وَلاَ يَفْهَمُهُ ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ إِلَيْهِ ، وَلاَ صَدَّقَ بِهِ وَلاَ انْتَفَعَ . ؟ فَالذِينَ يَتَّعِظُونَ وَيَعْتَبِرُونَ هُمْ أَصْحَابُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ ، وَالبَصَائِرِ المُدْرِكَةِ (أُولُو الأَلْبَابِ) .

وَالمُهْتَدُونَ الذِينَ سَتَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ ، فِي الدُّنْيا وَالآخِرَى ، هُمُ الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدُوا ، وَلاَ يُنْقِضُونَ عَهْدَهُمْ مَعَ عِبَادِهِ ، وَلاَ يَغْدُرُونَ بِذِمَّةٍ ، وَلا يَفْجُرُونَ وَلاَ يَخُونُونَ .وَهَؤُلاَءِ المُؤْمِنُونَ المُهْتَدُونَ يَصِلُونَ الأَرْحَامَ التِي أَمَرَ اللهُ بِوَصْلِهَا ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى الأَقْرِبَاءِ وَالفُقَرَاءِ ، وَيُعَامِلُونَهُمْ بِالمَوَدَّةِ وَالحُسْنَى ، وَيَبْذُلُونَ المَعْرُوفَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فِيمَا يَأْتُونَ ، وَيُرَاقِبُونَهُ فِي ذَلِكَ ،

وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، وَعَدَمِ الصَّفْحِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ .وَهَؤُلاَءِ المُؤْمِنُونَ المُهْتَدُونَ يَصْبِرُونَ عَنِ ارْتِكَابِ المَحَارِمِ وَالمَآثِمِ ، وَيَمْتَنِعُونَ عَنْ مُقَارَفَتِهَا طَاعَةً للهِ ، وَتَقَرُّباً إِلَيْهِ ، وَطَمَعاً بِمَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ، وَيُؤَدُّونَ الصَّلاةَ حَقَّ أَدَائِهَا ، وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ عَلَى مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِمْ نَفَقَتُهُمْ ، مِنْ أَقْرِبَاءَ وَمُحْتَاجِينَ وَسَائِلِينَ . . فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ ، لاَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الأَحْوَالِ ، فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالجَمِيلِ صَبْراً ، وَاحْتِمَالاً وَحِلْماً وَعَفْواً ، فَهَؤُلاَءِ لَهُمْ حُسْنُ العَاقِبَةِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ .وَتِلْكَ العَاقِبَةُ الحَسَنَةُ هِيَ دُخُولُ جَنَاتِ عَدْنٍ ، وَالإِقَامَةُ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً ، لاَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا . وَيَجْمَعُ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ مِنَ الآبَاءِ وَالأَزْوَاجِ وَالأَبْنَاءِ الصَّالِحِينَ لِدُخُولِ الجَنَّةِ ، لِتَقَرَّ بِهِمْ أَعْيُنُهُمْ؛ وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مُسْلِمِينَ مُهَنِّئِينَ بِدُخُولِ الجَنَّةِ ، وَبِرِضْوَانِ اللهِ عَلَيْهِمْ .

وَتَقُولُ لَهُمُ المَلاَئِكَةُ : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ، وَأَمْنٌ دَائِمٌ لَكُمْ ، لَقَدْ صَبَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَاحْتَمَلْتُمُ المَشَاقَّ وَالآلاَمَ ، فَفُزْتُمْ بِرِضْوَانِ اللهِ ، فَنَعِمَتْ عَاقِبَتُكُمْ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ..

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد ﷺ هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة ، وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده ، فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره ، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه؛ ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل حركة؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة؛ ويقيمون الصلاة؛ وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية؛ ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان . إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة؛ التي تسير على هدى الله وحده؛ والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه . . إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء ، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده؛ والتي تتبع من ثم مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده . . إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية ، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية! . . إنها كلها من مناهج العُمْي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ هو وحده الحق ، الذي لا يجوز العدول عنه ، ولا التعديل فيه . . إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من مناهج العُمي ، الذين يقيمون من أنفسهم أرباباً من دون الله ، تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة ، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله؛ وتعبدهم لما تشرع ، فتجعل دينونتهم لغير الله ..وآية هذا الذي نقوله استمداداً من النص القرآني هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين . وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها . . سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية! . . وسواء في ذلك أشكال

الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية! إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق . . لأنها كلها سواء من صنع العُمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هو الحق وحده؛ ولا تلتزم من ثم بعهد الله وشرعه؛ ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه .إن المسلم يرفض بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق كل منهج للحياة غير منهج الله؛ وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي؛ وكل وضع كذلك سياسي؛ غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده .ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله؛ فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه .إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعُمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . . فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العُمي! . .

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله؛ وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العُمي ، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون . فلم تسعد قط؛ ولم ترتفع « إنسانيتها » قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط ، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم .

هذه بعض المعالم البارزة في هذه السورة ، وقفنا عندها هذه الوقفات التي لا تبلغ مداها ، ولكنها تشير إليها .

٥٢- المسارعةُ بالتوبة من الذنوب والآثام :

قال تعالى : { وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) سورة آل عمران

يَنْدُبُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ إلَى القِيَامِ بالأَعْمالِ الصَّالِحَةِ ، وَإلى المُسَارَعَةِ فِي فِعْلِ الخَيْرَاتِ ، لِيَنَالُوا مَغْفِرَةَ اللهِ وَرِضْوَانَهُ ، وَجَنَّتَهُ الوَاسِعَةَ العَرِيضَةَ التِي أَعَدَّهَا اللهُ لِعِبَادِهِ المُتَّقِينَ ، الذِينَ يَمْتَثِلُونَ أَمْرَهُ .

يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ صِفَاتِ أهْلِ الجَنَّةِ فَيَقُولُ : إِنَّهُمُ الذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللهِ ، فِي الرَّخَاءِ (السَّرَاءِ) ، وَفِي الشِّدَّةِ (الضَرَّاءِ) ، وَفِي الصِّحَّةِ وَالمَرَضِ ، وَفِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ ،

لاَ يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، وَالإِنْفَاقِ فِي سَبيلِ مَرْضَاتِهِ ، وَإِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ إذَا ثَارَ ، وَيَعْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيهِمْ . وَاللهُ يُحِبُّ الذِينَ يَتَفَضَّلُونَ عَلَى عِبَادِهِ البَائِسينَ ، وَيُوَاسُونَهُمْ شُكْراً للهِ عَلَى جَزيلِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ . (وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إنْفَاذِهِ مَلأَ اللهُ جَوْفَهُ أَمْناً وَإِيمَاناً ") .

وَمِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَّهُمْ إذَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِعْلَ قَبيحٌ يَتَعَدَّى أثرُهُ إلَى غَيْرِهِمْ (كَغَيبَةِ إنْسَانٍ) ، أو صَدَرَ عَنْهُمْ ذَنْبٌ يَكُونُ مُقْتَصِراً عَلَيْهِمْ (كَشُرْبِ خَمْرٍ وَنَحْوَهُ) ، ذَكَرُوا اللهَ تَعَالَى وَوَعِيدَهُ ، وَعَظَمَتَهُ وَجَلاَلَهُ ، فَرَجَعُوا إلَى اللهِ تَائِبِينَ ، طَالِبِينَ مَغْفِرَتَهُ ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلى القَبيحِ مِنْ غَيْرِ اسْتِغْفَارٍ ، لِعِلْمِهِمْ أنَّ اللهَ هُوَ الذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى الذَّنْبِ ، لأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ مَنْ تَابَ إلَى اللهِ ، تَابَ اللهُ عَلَيهِ ، وَغَفَرَ لَهُ .

وَالْمُتَّقُونَ الْمُتَمَتِّعُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ سَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ عَلَيهَا بالمَغْفِرَةِ ، وَبالأَمْرِ مِنَ العِقَابِ ، وَلَهُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَداً ، وَالجَنَّةُ خَيْرُ مَا يُكَافَأُ بِهِ المُؤْمِنُونَ العَامِلُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَاتِ

سارعوا فهي هناك : المغفرة والجنة . . { أعدت للمتقين } . .

ثم يأخذ في بيان صفات المتقين : { الذين ينفقون في السراء والضراء } . .

فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء . السراء لا تبطرهم فتلهيهم . والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . إنما هو الشعور بالواجب في كل حال ؛ والتحرر من الشح والحرص؛ ومراقبة الله وتقواه . . وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها المحبة للمال بفطرتها . . ما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال إلا دافع أقوى من شهوة المال وربقة الحرص وثقلة الشح . . دافع التقوى . ذلك الشعور اللطيف العميق الذي تشف به الروح وتخلص وتنطلق من القيود والأغلال . .

ولعل للتنويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك في جو هذه المعركة . فنحن نرى الحديث عن الإنفاق يتكرر فيها كما نرى التنديد بالممتنعين والمانعين للبذل - كما سيأتي في السياق القرآني - مكرراً كذلك . مما يشير إلى ملابسات خاصة في جو الغزوة وموقف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله .

{ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس } . .كذلك تعمل التقوى في هذا الحقل ، بنفس البواعث ونفس المؤثرات .فالغيظ انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم ؛ فهو إحدى دفعات التكوين البشري وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ؛ وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهي وحدها لا تكفي . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين . . وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن . . لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين . . إنها العفو والسماحة والانطلاق . .إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ؛ وشواظ يلفح القلب ؛ ودخان يغشى الضمير . . فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب فهو الانطلاق من ذلك الوقر والرفرفة في آفاق النور والبرد في القلب والسلام في الضمير .

{ والله يحب المحسنين } . .والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون . والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون . . والله { يحب } المحسنين . . والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم . .

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين ، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه . وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب . . فليس هو مجرد التعبير الموحي ، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير!

والجماعة التي يحبها الله وتحب الله . . والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان . . هي جماعة متضامة وجماعة متآخية وجماعة قوية . ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق!

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :{ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ – و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون } . .

يا لسماحة هذا الدين! إن الله – سبحانه – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا :

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين . . ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين { الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم } . . والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . . قافلة المؤمنين . . إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . . مرتبة { المتقين } . . على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء . . وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله والاستسلام له في النهاية .

فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه . حين يرتكب

الفاحشة . . المعصية الكبيرة . . وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر . . وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير . . إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه والحبل في يده . ما دام يذكر الله ولا ينساه ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته .إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب . . إنه يطمعه في المغفرة ويدله على الطريق ويأخذ بيده المرتعشة ويسند خطوته المتعثرة وينير له الطريق ليفيء إلى الحمى الآمن ويثوب إلى الكنف الأمين .شيء واحد يتطلبه : ألا يجف قلبه وتظلم روحه فينسى الله . . وما دام يذكر الله . ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي . ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي . ما دام في قلبه ذلك الندى البليل . . فسيطلع النور في روحه من جديد وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد وستنبت البذرة الهامدة من جديد .إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط – لا سواه – في الدار . . سيروح آبقاً شارداً لا يثوب إلى الدار أبداً . فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . . فإنه سيعود!

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة وبجانب الثقلة رفرفة وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية . . فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود ويربت عليه في لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة! والرسول – ﷺ – يقول : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة »

والإسلام لا يدعو – بهذا – إلى الترخص ولا يمجد العاثر الهابط ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف « الواقعية »! إنما هو يقيل عثرة الضعف ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء كما يستجيش فيها الحياء! فالمغفرة من الله – ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ – تخجل ولا تطمع وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار .

فأما الذين يستهترون ويصرون فهم هنالك خارج الأسوار موصدة في وجوههم الأسوار!

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها .. . . هؤلاء المتقون ما لهم؟ { أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين } ..فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار من المعصية . كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس . . إنما هم عاملون . { ونعم أجر العاملين } . . المغفرة من ربهم ، والجنة

تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله . . فهنالك عمل في أغوار النفس وهنالك عمل في ظاهر الحياة . وكلاهما عمل وكلاهما حركة وكلاهما نماء .

٥٣- اللجوءُ إلى الله تعالى ولا سيما عند الشدائد :

قال تعالى : قال تعالى : { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) } [الأنبياء/٨٧-٩٠]

يَذْكُرُ اللهُ تَعالى قِصَّةَ يونُسَ عليهِ السلامُ (وهوَ ذو النُّونِ أيْ صاحبُ الحُوت) ، وكانَ اللهُ قَدْ بَعَثَهُ نَبياً إلى أَهْلِ نينَوَى فَدَعَاهُمْ إلى عِبَادةِ اللهِ وَحدَهُ فَأَبَوْا ، وَتَمَادَوْا في كُفْرهم ، فَخَرَجَ يُونُسُ مِنْ بَيْنِهم مُغَاضِباً لَهُمْ ، وأَنْذَرَهُمْ بأنَّ العَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ بَعْدَ ثَلاثَةِ أيَّام ، فَلما تَحَقَّقُوا مِنْ ذَلِكَ ، وَعِلمُوا أنَّ النبيَّ لا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا مِنَ البلدِ بأطْفَالِهم وأنْعامِهم ومَوَاشِيهم ، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إلى اللهِ تَعَالى ، وَجأَرُوا إليهِ بالدُّعَاءِ ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ العَذابَ ، وصَرَفَهُ عَنْهُم ، كَمَا جَاءَ في آيةٍ أُخْرى .

أمَّا يونسُ فإنَّه تَرَكَ قَوْمَه مُغَاضِباً لَهُم ، وذَهَبَ فَرَكِبَ في سَفِينَةٍ فَاضْطَرَبَتْ وَخافَ مَنْ فِيهـا مِـنْ غَرَقِها ، فاقْتَرعُوا على رَجُل يُلقُونهُ مِنْ بينهم في الماءِ يَتَخففُونَ مِنهُ ، فوقَعَتِ القُرْعَةُ علـى يُـونُسَ ، فَأَبَوْا أنْ يُلْقُوهُ ، ثُمَّ أعادُوا القُرْعَةَ فَوَقَعَتْ عليْهِ ، فَأَبَوْا ، ثمَّ أعَادُوا للمرةِ الثّالثةِ فَوَقَعَتْ عليه ، فَتَجَرَّدَ يُونُسُ مِنْ ثِيَابهِ ، وأَلْقَى بِنَفْسهِ في المَاءِ ، فالْتَقَمَهُ الحُوتُ ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ بصَاحِبِ الحُوتِ (ذُو النُّونِ) .

وكانَ يُونسُ يَظُنُّ أنَّ اللهَ لَنْ يُضَيِّقَ عليْهِ في بَطْنِ الحُوتِ ، (أو أنهُ تَعالى لنْ يَقْدِرَ عليه أَنْ يَكُونَ فِـي بَطْنِ الحُوتِ) فَكَانَ في بَطْنِ الحوتِ في ظُلْمَةٍ ، وفي أعْمَاقِ البَحْرِ في ظُلمَةٍ ، وفي ظَلاَمِ الليلِ في ظُلْمَةٍ ، ولذلك قَالَ تَعالى : { فنادى فِي الظلمات } ودَعاَ رَبَّهُ قائلاً : لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَك إِنِّي كُنْـتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

وَقَوْله " فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمّ " أَيْ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْن الْحُوت وَتِلْكَ الظُّلُمَـات" وَكَـذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ " أَيْ إِذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِد وَدَعَوْنَا مُنِيبِينَ إِلَيْنَا وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَعَوْا بِهَذَا الـدُّعَاء فِـي حَال الْبَلَاء فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيب فِي الدُّعَاء بِهِ عَنْ سَيِّد الْأَنْبِيَاء

قد سمي ذا النون أي صاحب الحوت لأن الحوت التقمه ثم نبذه ، وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدراً ، وغادرهم مغاضباً ، و لم يصبر على معاناة الـدعوة

معهم . ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون . وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة ، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين .

ذلك معنى { فظن أن لن نقدر عليه } أي أن لن نضيق عليه .

وقاده غضبه الجامح ، وضيقه الخانق ، إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها . حتى إذا كانت في اللجة ثقلت ، وقال ربانها : إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق . فساهموا فجاء السهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو بنفسه . فالتقمه الحوت ، مضيقاً عليه أشد الضيق! فلما كان في الظلمات : ظلمة جوف الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل نادى : { أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين } . فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه من الغم الذي هو فيه . ولفظه الحوت على الساحل . ثم كان من أمره ما يفصله في سورة الصافات .

فحسبنا هذا في هذا السياق .

إن في هذه الحلقة من قصة يونس عليه السلام لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات .

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدراً بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس؛ فاوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبيه مضايقات المكذبين . لولا أن ثاب إلى ربه! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه . لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه .

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا بتكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود . فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة . . وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف . . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا و لم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب!

إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة . فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب . ولا بد من إزالة هذا الركام . ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة . ولا بد من لمس جيمع المراكز الحساسة . ومن محاولة العثور على العصب الموصل . . وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء . ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها . وإن

الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل على كل الجهود!

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال . . إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطئ المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم إذا حركة عابرة من يـدك . فتتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام!

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال . وأصحاب الدعوات لا بـد ان يحـاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد الف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال!

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس . . إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدئ الأعصاب . . ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليهـا من هجران المكذبين المعارضين؟!

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية! فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض . وخير له أن يصـبر فلا يضيق صدره بما يقولون!

إن الداعية أداة في يد القدرة . والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الله . والهدى هدى الله .

وإن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه .

وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها .

وإن رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين :{ كـذلك ننجـي المؤمنين}

ثم إشارة إلى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام واستجابة الله لزكريا دعاه :{ وزكرياَ إذ نادى ربـه . رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجـه . إنهـم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين } . .

وقصة مولد يحيى سبقت مفصلة في سورة مريم وفي سورة آل عمران . وهي ترد هنا متناسـقة مـع السياق . فتبدأ بدعاء زكريا : { رب لا تذرني فرداً } بلا عقب يقوم على الهيكل : وكان زكريـا قائماً على هيكل العبادة في بني إسرائيل قبل مولد عيسى عليه السلام ولا ينسى زكريـا أن الله هـو وارث العقيدة ووارث المال : { وأنت خير الوارثين } إنما هو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده في أهله ودينه وماله .وماله . لأن الخلق ستار القدرة في الأرض .

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة: (فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) وكانت عقيما لا تصلح للنسل . . ويختصر السياق تفصيلات هذا كله ليصل مباشرة إلى استجابة الله للدعاء .

(إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) . . فسارع الله في استجابة الدعاء .(ويدعوننا رغبا ورهبا) . . رغبة في الرضوان ورهبة للغضب . فقلوبهم وثيقة الصلة دائمة التطلع . (وكانوا لنا خاشعين) . . لا متكبرين ولا متجبرين . .بهذه الصفات في زكريا وزوجه وابنهما يحيى استحق الوالدان أن ينعم عليهما بالابن الصالح . فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه .

وقال تعالى : {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (١٨٦) سورة البقرة

قَالَ أَعْرَابِيٌّ : يَا رَسُولَ الله : أَقَرِيبٌ رَبُّنا فَنُنَاجيهِ ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَسَكَتَ الرَّسُولُ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآيَةَ ، وَفِي الحَدِيثِ : " القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ ، فَإِذا سَأَلْتُمُ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بالإِجَابَةِ فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ "

ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بالاسْتِجَابَةِ إليهِ ، وَبالقِيَامِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الإِيمَانِ وَالعِبَادَاتِ ، كَالصَّوْمِ وَالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ . . لَعَلَّهُمْ يَكُونُونَ مِنَ الُمهْتَدِينَ الرَّاشِدِينَ .

فإني قريب . . أجيب دعوة الداع إذا دعان . . أية رقة؟ وأي انعطاف؟ وأية شفافية؟ وأي إيناس؟ وأين تقع مشقة الصوم ومشقة أي تكليف في ظل هذا الود ، وظل هذا القرب ، وظل هذا الإيناس؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة : { وإذا سألك عبادي عني فإني قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان } . .

إضافة العباد إليه ، والرد المباشر عليهم منه . . لم يقل : فقل لهم : إني قريب . . إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال . . قريب . . ولم يقل أسمع الدعاء . . إنما عجل بإجابة الدعاء : { أجيب دعوة الداع إذا دعان } . .إنها آية عجيبة . . آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة ، والود المؤنس ، والرضى المطمئن ، والثقة واليقين . . ويعيش منها المؤمن في جناب رضيّ ، وقربى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين .وفي ظل هذا الأنس الحبيب ، وهذا القرب الودود ، وهذه الاستجابة الوحية . . يوجه الله عباده إلى الاستجابة له ، والإيمان به ، لعل هذا أن يقودهم إلى الرشد والهداية والصلاح . { فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون } . .فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هي لهم كذلك .. وهي الرشد والهدى والصلاح . فالله غني عن العالمين .

والرشد الذي ينشئه الإيمان وتنشئه الاستجابة لله هو الرشد . فالمنهج الإلهي الذي اختاره الله للبشر هو المنهج الوحيد الراشد القاصد؛ وما عداه جاهلية وسفه لا يرضاه راشد ، ولا ينتهي إلى رشاد . واستجابة الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له هم ويرشدون . وعليهم أن يدعوه ولا يستعجلوه . فهو يقدر الاستجابة في وقتها بتقديره الحكيم .

وقال تعالى : {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) } سورة الأنفال

حِينَمَا التَقَتِ الفِئَتَانِ ، الُمسْلِمُونَ وَالُمشْرِكُونَ فِي سَاحَةِ المَعْرَكَةِ ، وَجَدَ الُمسْلِمُونَ الُمشْرِكِينَ كَثِيرِي العَدَدِ ، فَاسْتَغَاثَ الرَّسُولُ بِرَبِّهِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ أَنْجِزْنِي وَعْدَكَ الذِي وَعَدْتَنِي . فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ . وَفِيهَا يُعْلِمُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهِ وَدُعَاءِ الُمسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُ سَيَمُدُّهُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ يَأْتُونَهُمْ مَدَداً يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، أَيْ يَأتِي بَعْضُهُمْ إِثْرَ بَعْضٍ .

وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم ، وهي قلة والأعداء كثرة . وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيها الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله - سبحانه - في كلماته . .

قال البخاري : باب شهود الملائكة بدرا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي ، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي - ﷺ - فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال : « من أفضل المسلمين » - أو كلمة نحوها - قال : « وكذلك من شهد بدراً من الملائكة » . . (انفرد بإخراجه البخاري) . . .

{ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم } . .

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين . . ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سبباً ينشئ نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه - سبحانه - تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره . فهذه الاستجابة ، وهذا المدد ، وهذا الإخبار به . . . كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون . . هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً . .لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي ، وأن يمضوا في طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله . . كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم . . وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتاً للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي . . وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة . ثم يجيء النصر من عند الله وحده . حيث لا يملك النصر غيره . وهو « العزيز » القادر الغالب على أمره . وهو « الحكيم » الذي يحل كل أمر محله .

وقال تعالى : {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} (٧٧) سورة الفرقان

قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ الذينَ أُرْسِلْتَ إليهم : إنَّ الفائزينَ بنعَمِ اللهِ الجَليلةِ ، التي يَتَنَافَسُ فيها المُتنافِسُونَ إنما نَالُوها بما ذُكِرَ من الصِّفاتِ الحميدةِ التي اتَّصَفُوا بها ، وَلَوْلاها لم يَهْتَمَّ بهم ربُّهم ، و لم يَعْتَدَّ . ولذلكَ فإنَّهُ لا يَعْبَأُ بِكُمْ إذا لم تَعْبُدُوه ، فما خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ إلا لِيَعْبُدُوا ربَّهُمْ ويُطِيعُوه وحْدَه لا شريكَ لـه ، وما دُمْتُمْ قد خَالَفْتُم أمرَ ربِّكم ، وَعَصَيْتُمْ حُكْمَهُ ، وكَذَّبْتُم رَسُولَهُ ، فَسَوْفَ يَلْزَمُكُمْ أَثَر تَكْذِيبِكُمْ ، وهو العقابُ الذي لا مَنَاصَ منهُ ، فاسْتَعِدُّوا له ، وهَيِّئُوا أنفسَكُمْ لذلكَ اليومِ العصيبِ ، وهو آتٍ قَريبٌ .

فما قومه ؟ وما هذه البشرية كلها ، لولا القلة المؤمنة التي تدعو الله . وتتضرع إليه . كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون ؟

من هم والأرض التي تضم البشر جميعا إن هي إلا ذرة صغيرة في فضاء الكون الهائل . والبشرية كلها إن هي إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض . والأمة واحدة من أمم هذه الأرض . والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله ؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا ؛ ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه ! وهو هين هين ، ضعيف ضعيف ، قاصر قاصر . إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد ، وعندئذ فقط يكون شيئا في ميزان الله ؛ وقد يرجح ملائكة الرحمن في هذا الميزان . فضلا من الله الذي كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة ، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له ، فيحفظ بذلك خصائصه التي سجدت له معها الملائكة ؛ وإلا فهو لقي ضائع ، لو وضع نوعه كله في الميزان ما رجحت به كفة الميزان !

(قل:ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) . . وفي التعبير سند للرسول ﷺ وإعزاز: (قل:ما يعبأ بكم ربي) . فأنا في جواره وحماه . هو ربي وأنا عبده . فما أنتم بغير الإيمان به ، والانضمام إلى عباده ؟ إنكم حصب جهنم (فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) .

وفي الدعاء للطبراني(٩٥٧)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، قَالَ : لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺإِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ ، فَانْصَرَفَ فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : " اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ " (حسن)

وفي صحيح مسلم(٤٦٨٧) عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ ، حَدَّثَنِي سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ ، يَقُولُ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ ، ح وحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ ، وَاللَّفْظُ لَهُ ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ ، حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ : " اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ " ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ : فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ ، قَالَ : بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ : أَقْدِمْ حَيْزُومُ ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ ، وَشُقَّ وَجْهُهُ ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : " صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ " ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ : " مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى ؟ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ " قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا ، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ – شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ – وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ "

وفي مصنف ابن أبي شيبة(٣٨١٣٨) عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ : هَلْ كُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ ؟ فَقَالَ : أَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺأَنَّهُ مَا وَلَّى ، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ وَحُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ ، قَالَ :

فَانْكَشَفُوا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ هُنَالِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بَغْلَتَهُ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَاسْتَنْصَرَ وَهُوَ يَقُولُ : " أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ . أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ . اللَّهُمَّ نَصْرُكَ " قَالَ : كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ الَّذِي يُحَاذِي بِهِ "(صحيح)

٥٤- إيثارُ حبِّ الله ورسوله على كل شيء

قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) } [آل عمران/٣١-٣٣]
هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ حِينَ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَعْبَ بنَ الأشْرَفِ وَمَنْ تَابَعَهُ مِنَ اليَهُودِ إلى الإيمَانِ ، فَقَالوا : (نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ) . فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هذِهِ الآيَةَ ، وَفِيهَا يَأمُرُ اللهُ نَبِيَّهُ الكَرِيمَ بأنْ يَقُولَ لَهُمْ : مَنِ ادَّعَى حُبَّ اللهِ دُونَ أن يَتَّبعَ شَرْعَ مُحَمَّدٍ ، فَهُوَ غَيْرُ صَادِق ، فَدِينُ اللهِ وَاحِدٌ ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ ، وَالأدْيَانُ يَصَدِّقُ بَعْضُها بَعْضاً وَيُكَمِّلُها .وَجَاءَ دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَخْتِمَ الأدْيَانَ السَّابقَةَ وَيُكَمِّلَها ، فَلاَ يُمْكِنُ أنْ يَدَّعِي أحَدٌ حُبَّ اللهِ ، وَهُوَ يَكْفُرُ بشَرْعِهِ وَمَا أنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِه . وَمَنْ يَتَّبعْ شَرْعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيُخْلِصْ فِي ذَلِكَ يُحْبِبْهُ اللهُ ، وَاتِّبَاعِ أمْرِهِ . وَاللهُ كَثِيرُ الغُفْرَانِ لِعِبَادِهِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ . وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : " مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " .

هَذِهِ الْآيَة الْكَرِيمَة حَاكِمَة عَلَى كُلّ مَنْ اِدَّعَى مَحَبَّة اللَّه وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَة الْمُحَمَّدِيَّة فَإِنَّهُ كَاذِب فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْس الْأَمْر حَتَّى يَتَّبِع الشَّرْع الْمُحَمَّدِيّ وَالدِّين النَّبَوِيّ فِي جَمِيع أَقْوَاله وَأَفْعَاله كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرنَا فَهُوَ رَدّ " وَلِهَذَا قَالَ " إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّه " أَيْ يَحْصُل لَكُمْ فَوْق مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتكُمْ إِيَّاهُ وَهُوَ مَحَبَّته إِيَّاكُمْ وَهُوَ أَعْظَم مِنْ الْأَوَّل كَمَا قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء الْحُكَمَاء : لَيْسَ الشَّأْن أَنْ تُحِبّ إِنَّمَا الشَّأْن أَنْ تُحَبّ .
وَقَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ وَغَيْره مِنْ السَّلَف : زَعَمَ قَوْم أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّه فَابْتَلَاهُمْ اللَّه بِهَذِهِ الْآيَة فَقَالَ " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّه "
مَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِكُلِّ أَحَد مِنْ خَاصّ وَعَامّ " قُلْ أَطِيعُوا اللَّه وَالرَّسُول فَإِنْ تَوَلَّوْا " أَيْ تُخَالِفُوا عَنْ أَمْره " فَإِنَّ اللَّه لَا يُحِبّ الْكَافِرِينَ " فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَته فِي الطَّرِيقَة كُفْر وَاَللَّه لَا يُحِبّ مَنْ اِتَّصَفَ بِذَلِكَ وَإِنْ اِدَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسه أَنَّهُ مُحِبّ لِلَّهِ وَيَتَقَرَّب إِلَيْهِ حَتَّى يُتَابِع الرَّسُول النَّبِيّ الْأُمِّيّ خَاتَم الرُّسُل وَرَسُول اللَّه إِلَى جَمِيع الثَّقَلَيْنِ الْجِنّ وَالْإِنْس الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاء بَلْ الْمُرْسَلُونَ بَلْ أُولُو الْعَزْم مِنْهُمْ فِي زَمَانه مَا وَسِعَهُمْ إِلَّا اِتِّبَاعه وَالدُّخُول فِي طَاعَته وَاتِّبَاع شَرِيعَته .

إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياماً بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الأتباع لرسول الله ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة . . وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشـــاعر تجـــيش ، ولا شعائر تقام . ولكنه طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول . .

يقول الإمام ابن كثير في التفسير عن الآية الأولى : « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعـــى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية . فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : » من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد « .ويقول عن الآية الثانية : { قل أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا } . . أي تخالفوا عن أمره – { فإن الله لا يحب الكافرين } . . فدل على أن مخالفته في الطريقة كفـــر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ..ويقول الإمام شمس الـــدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه : زاد المعاد في هدى خير العباد :« ومن تأمل في الســـير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له – ﷺ – بالرسالة وأنه صادق ، فلـــم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام . . علم أن الإسلام أمر وراء ذلك ، وأنه ليس مجرد المعرفة فقـــط . ولا المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً . . »

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها . . حقيقة الطاعة لشريعة الله ، والاتباع لرســـول الله ، والتحاكم إلى كتاب الله . . وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بهـــا الإســـلام . توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تعبد الناس لها ، وتطوّعهم لأمرها ، وتنفذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها . ومن ثم توحيد القوامة التي تجعـــل الحاكمية لله وحده في حياة البشر وارتباطاها جميعاً ، كما أن الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله . وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير .

____

قال تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (١٦٥) ســـورة البقرة

وَمَعَ قِيَامِ الأَدِلَّةِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِنَ الكُفَّارِ يَتَّخِـــذُونَ للهِ شُـــرَكَاءَ وَأَمْثَالاً (أَنْدَاداً) يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ ، وَهُوَ اللهُ الذِي لاَ مَثِيلَ لَهُ ، وَلاَ شَرِيكَ مَعَـــهُ . أَمَّا الذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُم يَعْبُدُونَ اللهُ وَحْدَهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَيُحِبُّونَهُ وَحْدَهُ ، وَهُمْ أَشَدُّ حُبّاً للهِ مِنْ أَيِّ شَيءٍ آخَرَ . وَحِينَ يَرَى المُشْرِكُونَ العَذَابَ الشَّدِيدَ الذِي يُنْزِلُهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَـــةِ بالكُفَّـــارِ ، فَتَتَقَطَّعُ بِهِمُ الأَسْبَابُ ، وَلاَ تُغْنِي عَنْهُم الأَنْدَادُ ، يُدْرِكُونَ حِينَئِذٍ أَنَّ القُوَّةَ جَمِيعَهَا للهِ ، وَأَنَّ الحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ .

من الناس من يتخذ من دون الله انداداً . . كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجاراً وأشجاراً ، أو نجوماً وكواكب ، أو ملائكة وشياطين . . وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص أو شارات أو اعتبارات . . وكلها شرك خفي أو ظاهر ، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله ، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ، فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله؟

إن المؤمنين لا يحبون شيئاً حبهم لله . لا أنفسهم ولا سواهم . لا أشخاصاً ولا اعتبارات ولا شارات ولا قيماً من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس :{ والذين آمنوا أشد حباً لله } . .أشد حباً لله ، حباً مطلقاً من كل موازنة ، ومن كل قيد . أشد حباً لله من كل حب يتجهون به إلى سواه .

والتعبير هنا بالحب تعبير جميل ، فوق أنه تعبير صادق . فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب . صلة الوشيجة القلبية ، والتجاذب الروحي . صلة المودة والقربى . صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود

{ ولو يرى الذين ظلموا - إذ يرون العذاب - أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار } . .أولئك الذين اتخذوا من دون الله انداداً . فظلموا الحق ، وظلموا أنفسهم . . لو مدوا بأبصارهم إلى يوم يقفون بين يدي الله الواحد! لو تطلعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين! لو يرون لرأوا { أن القوة لله جميعاً } فلا شركاء ولا أنداد . . { وأن الله شديد العذاب } .لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب ، وانشغل كل بنفسه تابعاً كان أم متبوعاً . وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها ، وعجزت عن وقاية أنفسها فضلاً عن وقاية تابعيها . وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة ، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب .

٥٥- لا يلهيهم شيءٌ عن أداء رسالتهم في الأرض

قال تعالى : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) } سورة النور

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ نُورِهِ لِعِبَادِهِ ، وَهِدَايَتَهُ إِيَّاهُمْ ، أَرَادَ هُنَا بَيَانَ حَالِ مَنْ اهْتَدَوا بِذَلِكَ النُّورِ ، وَصِفَاتِهِمْ ، فَقَالَ : إِنَّ حَالَ هَؤُلاءِ الْمُهْتَدِينَ فِي الطَّهَارَةِ مِنَ النَّجَاسَاتِ الحِسِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ (كَاللَّغْوِ والرَّفْثِ فِي الحَدِيثِ) كَمَثَلِ القَنْدِيلِ فِي المِصْبَاحِ المُضِيءِ ، الدُّرِي المُقَامِ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ التي أُقِيمَتْ لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا ، وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مُنَزَّهَةٌ ، يَقُومُ فِيهَا بِعِبَادَتِهِ تَعَالَى رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ يُنَزِّهُونَ اللهَ تَعَالَى فِيهَا وَيُقَدِّسُونَه فِي أَوائِلِ النَّهَارِ (الغُدُوِّ) وَفِي آخِرِهِ (الآصَالِ) .

وَهَؤُلاءِ الرِّجَالُ ، الذينَ يَعْمُرُونَ بُيُوتَ اللهِ ، هُمُ رِجَالٌ أَصْحَابُ هِمَمٍ وَعَزَائِمَ لاَ يُلْهِيهِمْ شَيءٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وإِقَامِ الصَّلاَةِ : لاَ تِجَارَةٌ ، وَلاَ بَيْعٌ ، وَلاَ تَشْغَلُهُم الدُّنْيا وَزُخْرُفُهَا ، وَزِينَتُها ، وَمَلاذُّهَا ، وَلاَ بَيْعُها ، ولاَ رِبْحُها . . عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ لأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الذي عَنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُمْ وأَنْفَعُ مِمَا بأَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ يُقَدِّمُونَ طَاعَةَ رَبِّهِمْ وَمَحَبَّتَه عَلَى مُرَادِهِم وَمَحَبَّتِهِمْ ، فَلاَ شَيءَ يُلْهِيهِم عَنْ أَنْ يُؤَدُّوا الصَّلاَةَ فِي وَقْتِهَا ، لأَنَّهُمْ يَخَافُونَ يَومَ القِيَامَةِ الذي تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصَارُ مِنْ شِدَّةِ الفَزَعِ ، وَعِظَمِ الهَوْلِ .

وَهَؤُلاَءِ هُمُ الذينُ يَتَقَبَّلُ اللهُ تَعَالَى حَسَنَاتِهِمْ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الحَسَنَاتِ (وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ) ، وَهُوَ تَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَبِدُونَ تَحْدِيدٍ فَهُوَ الكَرِيمُ الجَوَادُ .

بين – سبحانه – بعد ذلك أكثر الأماكن والأشخاص انتفاعا بنوره ، فقال – تعالى – : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله } .وقوله { فِي بُيُوتٍ } متعلق بقوله : { يُسَبِّحُ } . والمراد بهذه البيوت : المساجد كلها ، وعلى رأسها المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى .و " أذن " بمعنى أمر وقضى ، وفاعل " يسبح " قوله " رجال " .والغدو والغداة : من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والآصال جمع أصيل ، وهو ما بين العصر وغروب الشمس .

أى : هذا هو نور الله – الذى يهدى إليه من يشاء من عباده ، وعلى رأس أولئك العباد الذين هداهم الله – سبحانه – إلى ما يحبه ويرضاه ، هؤلاء الرجال الذين يعبدونه ويقدسونه فى تلك المساجد التى أمر – سبحانه – بتشييدها وتعظيم قدرها ، وصيانتها من كل سوء أو نجس ، إنهم يسبحونه وينزهونه عن كل نقص ، ويتقربون إليه بالصلوات وبالطاعات . فى تلك المساجد فى أول النهار وفى آخرة ، وفى غير ذلك من الأوقات .وخص – سبحانه – أوقات الغدو والآصال بالذكر ، لشرفها وكونها أشهر ما تقع فيه العبادات .وقوله – تعالى – : { رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله } مدح وتكريم لهؤلاء الرجال .

أى : يسبح الله – تعالى – فى تلك المساجد بالغدو والآصال ، رجال من شأنهم ومن صفاتهم ، أنهم لا يشغلهم ، " تجارة " مهما عظمت ، " ولا بيع " ، مهما اشتدت حاجتهم إليه " عن ذكر الله " أى : عن تسبيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده وطاعته .

ولا تشغلهم – أيضا – هذه التجارات والبيوع عن " إقام الصلاة " فى مواقيتها بخشوع وإخــلاص ، وعن " إيتاء الزكاة " للمستحقين لها .

وذلك لأنهم " يخافون يوما " هائلا شديدا هو يوم القيامة الذى " تتقلب فيه القلوب والأبصــار " أى تضطرب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت من شدة الهول والفزع .

ثم بين – سبحانه – الأسباب التى حملتهم على الإكثار من هذه الطاعات فقال { لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ } .أى : إنهم يكثرون من تسبيح الله بالغدو والآصال ، دون أن يشغلهم عن ذلك أى شاغل ، لأنهم يرجون منه – سبحانه – أن يجزيهم أحسن الجزاء على أعمــالهم ، وأن يزيدهم من فضله وإحسانه ، بما يليق بكرمه وامتنانه ." والله " – تعالى – " يرزق مــن يشــاء " أن يرزقه " بغير حساب " أى : بدون حدود ، ولا قيود ، وبدون حصر لما يعطيه ، لأن خزائنه لا تنقص ولا تنفد ، حتى يحتاج إلى عد وحساب لما يخرج منها .فالجملة الكريمة تذييل قصد به التقرير للزيــادة التى يتطلع إليها هؤلاء الرجال الصالحون ، ووعد منه – عز وجل – بأنه سيرزقهم رزقا يزيــد عمــا يتوقعونه .

وبذلك نرى الآيات قد طوفت بنا مع نور الله – عز وجل – ومثلت له بما من شأنه أن يجعل النفوس يشتد استمساكها بالحق الذى جاء به رسول الله ﷺ من عند ربه ، ومدحت مدحا عظيمــا أولئــك الرجال الأخيار ، الذين يكثرون من طاعة الله – تعالى – فى بيوته التى أمر برفعها ، دون أن يشــغلهم عن ذلك شاغل ، وبشرتهم بالعطاء الواسع الذى سيعطيهم الله إياه بفضله وكرمه .

٥٦- تلاوة كتاب الله حق تلاوته

قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُــونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ(٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) } سورة فاطر

إنَ عِبَادَ اللهِ الْمُؤْمِنينَ الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَعْمَلُونَ بمَا فِيهِ مِنْ أَوَامِرَ : مِــنْ إقامَــةِ الصَّلاةِ وأَدائها بخُشُوعِها ، وإِتْمَامِها برُكُوعِها وسُجُودِها ، وَمِنَ الإنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ سِراً وَعَلاَنيةً فِي سَبيلِ اللهِ عَلَى الفُقَراءِ والمُحْتَاجينَ ، وفيمَا فِيهِ خيرُ الجَمَاعَةِ المُسلِمَةِ ، إنَّ هؤلاءِ العِبَادَ المُــؤْمِنينَ ، الذِينَ يَقُومُونَ بذَلِكَ ، يَرْجُونَ الثَّوَابَ عَلَى أَفْعَالِهِمْ ، عِنْدَ اللهِ ، وَسَتَكُونُ تِجارَتُهُمْ رَابِحَةً عِنــدَ اللهِ ، وَلَنْ تَكْسُدَ .

وَيرْجُونَ أَنْ يَجْزِيَهُمُ اللهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى عَلَى أَعْمَالِهِم الصَّالِحَةِ ، وَأَنْ يَزيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، فَيتجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَهَفَواتِهِمْ ، وَيَضَاعِفَ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ حَتَّى سَبعِمِئَةِ ضِعْفٍ ، وَاللهُ تَعَالى غَفُــورٌ لِلــذُّنُوب ، شَكُورٌ لِلْقَلِيلِ مِنَ الأعمالِ الصَّالِحةِ .

وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت . تعني تلاوته عن تدبر ، ينتهي إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك . ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق سراً وعلانية من رزق الله . ثم رجاؤهم بكل هذا { تجارة لن تبور } . . فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون . ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح . يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة؛ ويتاجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة . . تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم ، وزيادتهم من فضل الله . { إنه غفور شكور } . . يغفر التقصير ويشكر الأداء . وشكره تعالى كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء . ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم . تشبهاً واستحياء . فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟!

وفي صحيح البخارى(٥٠٢٧)عَنْ عُثْمَانَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » .

وفي سنن الترمذى(٣١٦٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ : « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وفي سنن الترمذى(٣١٧٦)عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلاَمِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلاَمِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ». قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وفي صحيح مسلم (١٨٩٨)عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- : « الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ ».

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَوْصِنِي ، قَالَ : أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، زِدْنِي ، قَالَ : عَلَيْكَ بِتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ ، وَذِكْرِ اللهِ ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ " رواه ابن حبان في صحيحه في حديث طويل(٣٦١) وهو حسن لغيره

وفي مصنف ابن أبي شيبة(٣٠٦٧٧)عَن زُبَيْدٍ ، قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللهِ : الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ ، فَمَنْ جَعَلَهُ إمَامَهُ قَادَهُ إلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ قَادَهُ إلَى النَّارِ.(صحيح)

وفي صحيح ابن حبان(١٢٤) عَنْ جَابِرٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ : الْقُرْآنُ مُشَفَّعٌ ، وَمَا حِلٌ مُصَدَّقٌ ، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ.ماحل بكسر الحاء المهملة أي ساع وقيل خصم مجادل

وفي سنن أبي داود (١٤٥٥)عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ :« مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَوْؤُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِى بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِى عَمِلَ بِهَذَا ».(حسن لغيره)

وفي صحيح البخارى(٧٣) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا » .

٥٧- التجارةُ التي تنجي من العذاب الأليم :

قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) [الصف/١٠-١٤]}

يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ باللهِ ، وَالمُصَدِّقُونَ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَآيَاتِهِ ، أَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلَّكُمْ عَلَى صَفَقَةٍ رَابِحَةٍ ، وَتِجَارَةٍ نَافِعَةٍ ، تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرِّبْحِ العَظِيمِ ، وَتُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

وَهذِهِ الصَّفَقَةُ هِيَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَتَصَدِّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَعِزَّةِ دِينِهِ ، بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ ، كَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ فِي الدُّنْيَا : مِنَ النَّفْسِ وَالمَالِ وَالزَّوْجِ وَالوَلَدِ ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ المُجَاهِدِينَ فِي الآخِرَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَتَرَ اللهُ ذُنُوبَكُمْ وَمَحَاهَا ، وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتِهَا ، وَأَسْكَنَكُمْ مَسَاكِنَ طَيبةً تَقَرُّ بِهَا العُيُونَ ، وَهَذا هُوَ مُنْتَهَى ما تَصبُوا إِليهِ النُّفُوسُ ، وَهُوَ الفَوْزُ الذِي لاَ فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ

وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى ، مَعَ الفَوْزِ فِي الآخِرَةِ ، الذِي وَعَدَكُمْ اللهُ بِهِ ، نِعْمَةٌ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا ، وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللهِ ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، تَجْنُونَ مَغَانِمَهُ ، وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ المُؤْمِنِينَ بِهَذَا الجَزَاءِ

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل ، واستفهام وجواب ، وتقديم وتأخير ، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: يا أيها الذين آمنوا . . يليه الاستفهام الموحي . فالله – سبحانه – هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟) . .
ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهي هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: (تؤمنون بالله ورسوله) . . وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! (وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) . . وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة ، يجيء في هذا الأسلوب ، ويكرر هذا التكرار ، ويساق في هذا السياق . فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار ، وهذا التنويع ، وهذه الموحيات ، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض . . . ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين: (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . . فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد . . ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره في الحس ويمكن له: (يغفر لكم ذنوبكم) . . وهذه وحدها تكفي . فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئا ؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: (ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن) . . وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة – حتى حين يفقد هذه الحياة كلها – ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم . . وحقا . . (ذلك الفوز العظيم) . .وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق . فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض ، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع ؟
لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة – رضي الله عنه – ليلة العقبة . قال لرسول الله ﷺ:"اشترط لربك ولنفسك ما شئت" . فقال ﷺ:" أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . . قال:فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال:" الجنة " قالوا:" ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل" !
ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشري المحدود . وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل:(وأخرى تحبونها:نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين) . .وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله . الله الذي لا تنفد خزائنه ، والذي لا ممسك لرحمته . فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة .

وفوقها . . فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب . . فمن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد ؟!

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب . . إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ؛ ويعيش بقلبه في هذا التصور ؛ ويطلع على آفاقه وآماده ؛ ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، في حدودها الضيقة الصغيرة ، وفي مستوياتها الهابطة الواطية ، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة . . هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان ، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع ، ليعيش فيه ، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك . . ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته . فهو ذاته أجر . . هذا الجهاد . . وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان . ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد . كائنا مصيره فيه ما يكون . .ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف ، وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط . .ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ؛ ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع ، في شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان .

٥٨- أن يكونوا أنصاراً لله :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) }[الصف/١٤]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَنْصَاراً للهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ : بِأَقْوالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ ، كَمَا اسْتَجَابَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَمَا سَأَلَهُمْ : مَنْ يُعِينُنِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ لَهُ الحُوَارِيُّونَ : إِنَّهُمْ أَنْصَارُ اللهِ ، وَإِنَّهُمْ سَيُعِينُونَهُ وَسَيُؤَازِرُونَهُ فِيمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ إِبْلاَغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ ، فآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِرِسَالَةِ عِيسَى ، وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَجَحَدَتْ نُبُوَّتَهُ ، وَرَمَتْهُ وَأُمَّهُ بالبُهْتَانِ ، وَغَلَتْ فِرَقٌ مِنْهُمْ فِي عِيسَى ، فَقَالُوا : إِنَّهُ اللهُ ، أَوْ إِنَّهُ ابْنُ اللهِ ، أَوْ إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ، وَرَفَعُوهُ مَرْتَبةِ النُّبُوَّةِ . فَأَيَّدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ بِرِسَالَةِ عِيسَى بِنَصْرِهِ ، وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ .

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل:الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به ، وينقطعون للتلقي عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) . . في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرا للرب ؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم . . كونوا أنصار الله ، (كما قال عيسى بن مريم للحواريين:من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون:نحن أنصار الله) . . فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الأخير . . فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق .

وماذا كانت العاقبة ؟

(فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

.

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين:إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقا من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا كما حدث في التاريخ . وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد . ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير ؛ وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها ، وهي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله في الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه (كما قال عيسى بن مريم للحواريين:من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون:نحن أنصار الله) . . والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة في السورة ، واللمسة الأخيرة في السياق ؛ وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها ، مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق .

٥٩- إقامةُ العدل بكل أشكاله وصوره

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) } [المائدة/٨، ٩]

يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِيَكُنْ هَمَّكُمْ وَدَأْبَكُمُ التِزَامَ الحَقِّ فِي أَنْفُسِكُمْ (بِدُونِ اعْتِدَاءٍ عَلَى أَحَدٍ) ، وَفِي غَيْرِكُمْ (بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَحْدَهُ ، لاَ لأجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ ، وَاكْتِسَابِ السُّمْعَةِ الحَسَنَةِ عِنْدَهُمْ) ، وَكُونُوا شُهَدَاءَ بِالعَدْلِ (القِسْطِ) ، دُونَ مُحَابَاةٍ لِمَشْهُودٍ لَهُ ، وَلاَ لِمَشْهُودٍ عَلَيهِ ، فَالعَدْلُ مِيزَانُ الحُقُوقِ ، وَمَتَى وَقَعَ الجُورُ فِي أُمَّةٍ ، زَالَتِ الثِّقَةُ مِنْ نُفُوسِ النَّاسِ ، وَانْتَشَرَتِ المُفَاسِدُ ، وَتَقَطَّعَتْ رَوَابِطُ المُجْتَمَعِ . وَلاَ تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتُكُمُ الشَّدِيدَةُ لِقَوْمٍ ، وَبُغْضُكُمْ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ العَدْلِ فِي أَمْرِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ إِذَا كَانُوا أَصْحَابَ حَقٍّ ، أَوْ عَلَى عَدَمِ الحُكْمِ لَهُمْ بِذَلِكَ ، فَالمُؤْمِنُ يُؤْثِرُ العَدْلَ عَلى الجُورِ وَالمُحَابَاةِ . ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ السَّابِقَ بِضَرُورَةِ إِقَامَةِ العَدْلِ ، وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالقِسْطِ فَيَقُولُ : اعْدِلُوا لأنَّ العَدْلَ أَقْرَبُ لِتَقْوَى اللهِ ، وَأَبْعَدُ عَنْ سَخَطِهِ ، وَاتَّقُوا سَخَطَ اللهِ وَعِقَابَهُ لأَنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا ، وَاحْذَرُوا أنْ يُجَازِيَكُمْ بِالعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمُ القِيَامَ بِالعَدْلِ .

وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . . وَعَمِلُوا الأعْمَالَ الصَّالِحَةَ التِي يَرْضَاهَا رَبُّهُمْ (مِثْلَ العَدْلِ ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ ، وَمُرَاعَاةِ جَانِبِ اللهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي رَوَابِطِهِم الاجْتِمَاعِيَّةِ) ، بِأَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَيُثِيبُهُمْ بِالأَجْرِ العَظِيمِ ، وَهُوَ الجَزَاءُ المُضَاعَفُ عَلى الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَضْلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً مِنْ لَدُنْهُ .

لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام ، على الاعتداء . وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم . فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل . . وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق . فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء . فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين!

والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة . فيقدم له بما يعين عليه :{ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله . . . } ويعقب عليه بما يعين عليه أيضاً :{ واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون } . .

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مـــع الله . حـــين تقوم لله ، متجردة عن كل ما عداه . وحين تستشعر تقواه ، وتحس أن عينه على خفايـــا الضـــمير وذات الصدور .

وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق ، ويثبتها عليه . وما غير القيام لله ، والتعامل معه مباشرة ، والتجرد من كل اعتبار آخر ، يملك أن يستوي بهذه النفس على هذا المرتقى .

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين ، كما يكفله لهم هـــذا الدين؛ حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر؛ وأن يتعاملوا معه ، متجردين عن كل اعتبار .

وبهذه المقوّمات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير؛ الذي يتكفل نظامه للناس جميعـــاً – معتنقيه وغير معتنقيه – أن يتمتعوا في ظله بالعدل؛ وأن يكون هذا العدل فريضـــة غلـــى معتنقيـــه ، يتعاملون فيها مع ربهم ، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن . .

وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية . مهما يكن فيها من مشقة وجهاد .

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة؛ وأدت تكاليفها هذه؛ يوم استقامت على الإسلام . و لم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا ، ولا مجرد مثل عليا ، ولكنها كانت واقعاً من الواقع في حياتها اليومية ، واقعـــاً لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد ، و لم تعرفه في هذا المستوى إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة . . والأمثلة التي وعاها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة . تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية ، قد استحالت في حياة هذه الأمة منهجاً في عالم الواقع يؤدى ببساطة ، ويتمثل في يوميـــات الأمة المألوفة .

. إنها لم تكن مثلاً عليا خيالية ، ولا نماذج كذلك فردية . إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن هناك طريقاً آخر سواه .وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكـــل ديارها – .بما فيها جاهلية العصور الحديثة – ندرك المدى المتطاول بين منـــهج يصـــنعه الله للبشـــر ، ومناهج يصنعها الناس للناس . ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلـــك المنـــهج الفريد في الضمائر والحياة

إن الناس قد يعرفون المبادىء؛ ويهتفون بها . . ولكن هذا شيء ، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر . . وهذه المبادىء التي يهتف بها الناس للناس طبيعي ، ألا تتحقق في عالم الواقع . . فليس المهـــم أن يُدعى الناس إلى المبادىء؛ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها . . المهم هو الجهة الـــتي تصـــدر منـــها الدعوة . . المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر . . المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدحهم لتحقيق هذه المبادىء . .

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادىء التي تدعو إليها ، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله ، فما يقوله فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر؟ وماذا يملك للناس حين يعودون إليه بكدحهم وكدهم في تحقيق هذه المبادىء؟

يهتف ألف هاتف بالعدل . وبالتطهر . وبالتحرر . وبالتسامي . وبالسماحة . وبالحب . وبالتضحية . وبالإيثار . . . ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس؛ ولا يفرض نفسه على القلوب . لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان!

ليس المهم هو الكلام . . ولكن المهم من وراء هذا الكلام!

ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادىء والمثل والشعارات – مجردة من سلطان الله – ولكن ما أثرها؟ إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم . تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور . فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس . فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة ، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر!

ثم إن قيمة هذه « الوصايا » في الدين ، أنها تتكامل مع « الإجراءات » لتكييف الحياة . فهو لا يلقيها مجردة في الهواء . . فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا؛ وإلى مجرد شعائر؛ فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان . .إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين؛ وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه . ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات! . . وهذا هو « الدين » في المفهوم الإسلامي دون سواه . . الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة .

وحين تحقق « الدين » بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة؛ والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة؛ كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء . . وحين تحول « الدين » إلى وصايا على المنابر؛ وإلى شعائر في المساجد؛ وتخلى عن نظام الحياة . . لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة!

ولا بد من جزاء للمؤمنين من الله ، الذي يتعاملون معه وحده؛ يشجع ويقوي على النهوض بتكاليف القوامة؛ وعلى الوفاء بالميثاق . ولا بد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله :{ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة وأجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم } . .

إنه الجزاء الذي يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا – وهم ينهضون بالتكاليف العليا – والذي تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها في هذه الأرض . . ثم هو العدل الإلهي الذي لا يسوي بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار!

ولا بد من تعليق قلوب المؤمنين وأنظارهم بهذا العدل وبذلك الجزاء . لتتعامل مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة من ملابسات الحياة . . وبعض القلوب يكفيها أن تشعر برضاء الله؛ وتتذوق حلاوة هذا الرضى؛ كما تتذوق حلاوة الوفاء بالميثاق . . ولكن المنهج يتعامل مع الناس جميعاً . مع الطبيعة البشرية والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم . وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة . يطمئنها على مصيرها وجزائها؛ ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين! وبخاصة إذا كانت مأمورة بالعدل مع من تكره من هؤلاء! بعد أن تلقى منهم ما تلقى من الكيد والإيذاء . . والمنهج الرباني يأخذ الطبيعة البشرية بما يعلمه الله من أمرها؛ ويهتف لها بما تتفتح له مشاعرها ، وتستجيب له كينونتها . . ذلك فوق أن المغفرة والأجر العظيم دليل رضى الله الكريم؛ وفيهما مذاق الرضى فوق مذاق النعيم .

وقال تعالى : {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (١٥٢) سورة الأنعام

وَيُتَابِعُ اللهُ تَعَالَى ، فِي هَذِهِ الآيَةِ ، بَيَانَ مَا أَوْصَى بِهِ النَّاسَ ، وَمَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ ، فَيَقُولُ تَعَالَى : وَمِمَّا أَوْصَى بِهِ النَّاسَ : أَلاَّ يَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيم ، إذَا وَلُّوا أَمْرَهُ ، أَوْ تَعَامَلُوا مَعَهُ ، إلاَّ بالطَّرِيقَةِ الحَسَنَةِ (إلاَّ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ) التِي تَحْفَظُ مَالَهُ ، وَتُثَمِّرُهُ ، وَتُرَجِّحُ مَصْلَحَتَهُ ، وَأَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبيلِ تَرْبيَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ حَتَّى يَبْلُغَ اليَتِيمُ سِنَّ الرُّشْدِ ، وَالقُوَّةِ وَالقُدْرَةِ عَلَى الإِدْرَاكِ وَالتَّصَرُّفِ .

وَلَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ ، فَأَخَذُوا فِي عَزْلِ مَالِ اليَتِيمِ وَطَعَامِهِ ، عَنْ مَالِهِمْ ، فَكَانَ طَعَامُ اليَتِيمِ يَفْسَدُ ، لاَ يَمَسُّهُ أَحَدٌ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُمْ . فَشَكَوا ذَلِكَ لِلْنَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ . } فَاللهُ تَعَالَى يَأْمُرُ النَّاسَ بِمُرَاعَاةِ مَصْلَحَةِ اليَتِيمِ ، وَالعِنَايَةِ بِمَالِهِ ، وَعَدَمِ التَّصَرُّفِ فِيهِ إِلاَّ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَيُحَذِّرَهُمْ تَعَالَى مِنَ التَّجَاوُزِ عَلَى مَالِ اليَتِيمِ .وَيَقُولُ تَعَالَى : إنَّ مِمَّا أَوْصَى بِهِ النَّاسَ أَيْضاً : إِيفَاءَ الكَيْلِ وَالمِيْزَانِ عِنْدَ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَعَدَمَ غَمْطِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَاللهُ تَعَالَى يَدْعُو المُؤْمِنَ أَنْ يَبْلُغَ جُهْدَهُ فِي أَدَاءِ ذَلِكَ ، فَإِذَا بَلَغَ جُهْدَهُ ، وَعَمِلَ مَا فِي وُسْعِهِ ، يَكُونُ قَدْ قَامَ بِأَمْرِ اللهِ ، وَلاَ حَرَجَ عَلَيْهِ إن أَخطَأَ بَعْدَ ذَلِكَ ، لأنَّ اللهَ لاَ يُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ، وَقَدرَ طَاقَتِهَا .وَيَقُولُ تَعَالَى : إنَّ مِمَّا وَصَّى بِهِ النَّاسَ أَيْضاً العَدْلُ فِي القَوْلِ وَالفِعْلِ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَفِي كُلِّ حَالٍ : فِي الشَّهَادَةِ وَفِي الحُكْمِ وَفِي الكَيْلِ وَالمِيْزَانِ ، وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِقَرِيبٍ ، فَإِنَّ القَرَابَةَ وَالصَّدَاقَةَ يَجِبُ أَلاَّ تَصْرِفَا الإِنْسَانَ عَنْ قَوْلِ الحَقِّ ، وَعَنِ العَدْلِ فِيهِ .

كَمَا يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالوَفَاءِ بِعَهْدِ اللهِ ، وَالقِيَامِ بِطَاعَتِهِ ، فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى ، وَفِيمَا عَاهَدُوا النَّاسَ عَلَيْهِ

وَهَذَا مَا أَوْصَى بِهِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَرَهُمْ بِهِ ، وَأَكَّدَ عَلَيهِ .وَيَقُولُ تَعَالَى : إِذَا اجْتَهَدْتُمْ بِالوَفَاءِ بِمَا أَمَرَ اللهُ ، وَتَوَاصَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَعَلَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تَتَّعِظُونَ ، وَتَنْتَهُونَ عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلِ .

واليتيم ضعيف في الجماعة ، بفقده الوالد الحامي والمربي ، ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة- على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي - وكان اليتيم ضائعاً في المجتمع العربي في الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة في القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشي بما كان فاشياً في ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه؛ حتى انتدب الله يتيما كريماً فيه؛ فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة . وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه :{ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده } .

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن لليتيم . فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده . أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمي ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً؛ وسلمته حقه كاملا .وهناك خلاف فقهي حول سن الرشد أو بلوغ الأشد . . عند عبد الرحمن بن زيد وعند مالك ، بلوغ الحلم ، وعند أبي حنيفة خمسة وعشرون عاما . وعند السدي ثلاثون ، وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معاً بدون تحديد .

{ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها - } .وهذه في المبادلات التجارية بين الناس في حدود طاقة التحري والإنصاف ، والسياق يربطها بالعقيدة؛ لأن المعاملات في هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة . والذي يوصي بها ويأمر هو الله . ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية ، وتذكر في هذا المعرض الذي يبرز فيه شأن العقيدة ، وعلاقتها بكل جوانب الحياة . .ولقد كانت الجاهليات - كما هي اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات ، وبين الشرائع والمعاملات .. من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب : { قالوا : يا شعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء } ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء ، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة ، للدلالة على طبيعة هذا الدين ، وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة والمعاملة ، في أنها كلها من مقومات هذا الدين ، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل

{ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى } . .وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطـه الله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . . فهنا مزلة من مـزلات الضعف البشري . الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل؛ وفي قوة القرابة سند لضعفه؛ وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشـهادة لهم أوعليهم ، أو القضاء بينهم وبين الناس . . وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشـري ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به مـن مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو - سبحانه - أقرب إلى المـرء من حبل الوريد . .لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التي قبله - مذكراً بعهـد الله : { وبعهد الله أوفوا } . .

ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . . وقبـل ذلك كله . . من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر ، المأخوذ على فطرة البشـر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها

ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف :{ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون } . .

والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطـة بهذا العهد ولا ينساها .. . . هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيـدة الإسـلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، وما سبقها مـن حـديث الحاكميـة والتشريع . . . هذه هي صراط الله المستقيم . .

٦٠- الحكمُ بين الناس بالحقِّ

قال تعالى : { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَـا تَتَّبِـعِ الْهَـوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَـوْمَ الْحِسَـابِ} (٢٦) سورة ص .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ : إِنَّهُ جَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ، نَافِذَ الكَلِمَةِ والحُكْمِ بَينَ الرَّعِيَّـةِ ، فَعَلَيْـهِ أَنْ يَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَالعَدْلِ ، وَأَنْ لاَ يَتَّبعَ الهَوَى لأَنَّ اتِّبَاعَ الهَوَى يَكُونُ سَبَباً لِلضَّلاَلَةِ وَالجَوْرِ عَنِ الطَّرِيقِ القَوِيمِ الذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : إنَّ الذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَهُدَاهُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ (يَوْمَ الحِسَاب) عَذَابٌ شَدِيدٌ لِنسْيَانِهِمْ ذَلِكَ اليَومَ ، وَإِنَّ اللهَ سَيُحَاسِبُ العِبَادَ فِيهِ عَلَى أَعَمَالِهِمْ جَمِيعاً ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا .

فهي الخلافة في الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى . واتباع الهوى فيما يختص بنبي هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين . . مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال . أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله . وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب .

ومن رعاية الله لعبده داود ، أنه نبهه عند أول لفتة . ورده عند أول اندفاعة . وحذره النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة! وذلك فضل الله على المختارين من عباده . فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقيلها الله ، ويأخذ بيدهم ، ويعلمهم ، ويوفقهم إلى الإنابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم ، بعد الابتلاء . .

وفي مسند أحمد(١٥٣٤٠) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي. فَقَالُوا هَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا. (صحيح)

وفي سنن الترمذى(١٣٧٢) عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِىَّ -ﷺ- قَالَ « الْقُضَاةُ ثَلاَثَةٌ قَاضِيَانِ فِى النَّارِ وَقَاضٍ فِى الْجَنَّةِ رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَاكَ فَذَاكَ فِى النَّارِ وَقَاضٍ لاَ يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِى النَّارِ وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِى الْجَنَّةِ ».(صحيح)

وفي مسند البزار(٢٣٤٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا.(صحيح)

٦١- إقامة الحدود على الجميع :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) } [البقرة : ١٧٨ - ١٨٠]

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنينَ إنَّهُ قَدْ فَرَضَ (كَتَبَ) عَلَيْهِمُ العَدْلَ وَالمُسَاوَاةِ فِي القِصَاصِ ، فَالحُرُّ يُقْتَلُ بِالحُرِّ ، إذا كَانَ القَتْلُ عَمْداً ، وَالعَبْدُ يُقْتَلُ بِالعَبْدِ ، وَالأُنْثَى تُقْتَلُ بِالأُنْثَى (وَقَدْ جَرَى العَمَلُ مِنْ لَدُنِ

رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بالمَرْأَةِ ، وَالحُرِّ بالعَبْدِ إنْ لَمْ يَكُنِ القَاتِلُ سَيِّدَ العَبْدِ ، فَإذا كَانَ سَيِّدَهُ عُزِّرَ بشِدَّةٍ) ، وَأَمَرَهُمُ اللهُ بأَلاَّ يَعْتَدُوا وَلا يَتجَاوَزُوا ، كَمَا اعْتَدَى اليَهُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللهِ ، فكَانَتْ قَبيلَةُ بَني قُرَيْظَة ضَعْيفةً ، وَقَبيلَةَ بَني النَّضِيرِ قَوِيَّةً ، فكَانُوا إذَا قَتِلَ أَحَدٌ مِنْ بَني النَّضِيرِ أَحَداً مَنْ بَني قُرَيْظَةَ لَمْ يَكُنْ يُقْتَلُ بِهِ بَلْ يُفَادَى ، وَإِذَا قَتَلَ القُرَظِيُّ نَضِيرِيّاً كَانَ يُقْتَلُ بِهِ ، وَإذَا فَادَوْهُ كَانَ يُفَادَى بِمِثْلَيْ مَا يُفَادَى بِهِ النَّضِيْرِيُّ .

وَكَانَ حَيَّانِ مِنَ العَرَبِ قَدْ اقْتَتَلا فِي الجَاهِلِيَّةِ قُبَيْلَ الإسْلامِ ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى وَجِرَاحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا العَبيدَ والنِّسَاءَ ، فَكَانَ أَحَدُ الحَيَّين لاَ يَرْضَى حَتَّى يَقْتُلَ بالعَبْدِ مِنهُ الحُرَّ مِنْ خُصُومِهِ ، وَبالمَرْأَةِ مِنْهُ الرَّجلَ . وَكَانَ هؤُلاءِ لاَ يَقْتُلونَ الرَّجُلَ الذِي يَقْتُلُ المَرْأَةَ عَمْداً ، وَلكِنْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بالرَّجُلِ ، وَالمَرْأَةَ بالمَرْأَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : النَّفْسُ بالنَّفْسِ وَالعَيْنُ بالعَيْنِ مُبْطِلاً ذلِكَ التَّعامُلَ ، فَإذا قَبِلَ وَلِيُّ الدَّمِ أَنْ يَأخُذَ الدِّيَةَ ، وَيُعْفُو عَنِ القَاتِلِ ، فَعليهِ أَنْ يَتَّبعَ ذلِكَ بالمَعْرُوفِ ، وَأَنْ يَطْلُبَ الدِّيَةَ برِفْقٍ ، وَأَنْ لاَ يُرْهِقَ القَاتِلَ مِنْ أَمْرِهِ عُسْراً . وَعَلَى القَاتِلِ أَنْ يُؤَدِّيَ المَطْلُوبَ مِنْهُ بإحسَانٍ ، وَأَنْ لا يَمْطُلَ وَلاَ يَنْقُصَ ، وَلا يُسيء فِي كَيْفيَّةِ الأَدَاءِ .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أَنَّهُ شَرَعَ للنَّاسِ أَخْذَ الدِّيَةِ فِي حَالَةِ القَتْلِ العَمْدِ تَخْفِيفاً مِنْهُ ، وَرَحْمَةً بالمُسْلِمِينَ ، إذْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى الأُمَمِ السَّالِفَةِ القَتْلُ أَوِ العَفْوُ . وَإذَا تَعَدَّدَ أَوْلِياءُ الدَّمِ وَعَفَا أَحَدُهُمْ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ ، وَسَقَطَ القِصَاصُ . وَيَجُوزُ العَفْوُ فِي الدِّيَةِ أَيْضاً . (وَقِيلَ إنَّ بَني إسْرَائِيلَ كَانَ مَفْرُوضاً عَلَيهِمُ القَتْلُ لاَ غَيْرَ ، وَأَهْلَ الإنْجيلِ أُمِرُوا بالعَفْوِ ، وَلَيسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مُقَابلَ العَفْوِ دِيَةً) .

وَيُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى مَنْ يَعْتَدِي بالقَتْلِ عَلَى القَاتِلِ – بَعْدَ العَفْوِ وَالرِّضَا بالدِّيَةِ – بالعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وفِي القِصَاصِ رَاحَةُ البَالِ ، وَصِيَانَةُ النَّاسِ مِن اعتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِهِم الآخَرِ ، لأَنَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ يُعَاقَبُ بالقَتْلِ ، تَحْمِلُهُمْ عَلَى الارتِداعِ عَنِ القَتْلِ ، فَتُصَانُ حَيَاةُ النَّاسِ ، وَحَيَاةُ مَنْ يُفَكِّرُ بالقَتْلِ . وَخَصَّ اللهُ تَعَالَى بالنِّداءِ أَرْبَابَ العُقُولِ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى أَنَّ الذِينَ يَفْهَمُونَ قِيمَةَ الحَيَاةِ ، وَيُحَافِظُونَ عَلَيهَا هُمُ العُقَلاَءُ . وَإذا تَدَبَّرَ أُولُو الأَلبَابِ الحِكْمَةَ مِنْ شَرْعِ القِصَاصِ حَمَلَهُمْ ذلِكَ عَلَى اتِّقَاءِ الاعتِدَاءِ ، وَالكَفِّ عَنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ .

حقيقة هذا الدين . . إنه وحدة لا تتجزأ . . تنظيماته الاجتماعية ، وقواعده التشريعية وشعائره التعبدية . . كلها منبثقة من العقيدة فيه؛ وكلها نابعة من التصور الكلي الذي تنشئه هذه العقيدة؛وكلها مشدودة برباط واحد إلى الله؛ وكلها تنتهي إلى غاية واحدة هي العبادة : عبادة الله الواحد . الله الذي خلق ، ورزق ، واستخلف الناس في هذا الملك ، خلافة مشروطة بشرط : أن يؤمنوا به وحده؛ وأن يتوجهوا بالعبادة إليه وحده؛ وأن يستمدوا تصورهم ونظمهم وشرائعهم منه وحده .

فالنداء للذين آمنوا . . بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله ، الذي آمنوا به ، في تشريع القصاص . وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى ، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى . وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة ، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة ، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى؛ وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص .

وهذه الشريعة التي تبينها الآية : أنه عند القصاص للقتلى – في حالة العمد – بقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى .

{ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان } . .

وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني . ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه ، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة . ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال . تحقيقاً لصفاء القلوب ، وشفاء لجراح النفوس ، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء .

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة :

{ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة } . .

و لم يكن هذا التشريع مباحاً لبني إسرائيل في التوراة . إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند التراضي والصفاء .

{ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم } . .

وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة . . يتعين قتله ، ولا تقبل منه الدية . لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول ، نكث للعهد ، وإهدار للتراضي ، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب ، ومتى قبل ولي الدم الدية ، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي .

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام؛ وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها؛ ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع . . إن الغضب للدم فطرة وطبيعة . فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص . فالعدل الجازم هو الذي يكسر شرة النفوس ، ويفثأ حنق الصدور ، ويردع الجاني كذلك عن التمادي ، ولكن الإسلام في الوقت ذاته يحبب في العفو ، ويفتح له الطريق ، ويرسم له الحدود ، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامي في حدود التطوع ، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق .

{ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون } . .

إنه ليس الانتقام ، وليس إرواء الأحقاد . إنما هو أجل من ذلك وأعلى . إنه للحياة ، وفي سبيل الحياة ، بل هو في ذاته حياة . . ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة ، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله . .

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء . فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل . . جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد . كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل . شفائها من الحقد والرغبة في الثأر . الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم . وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم ، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل ، ولا تكف عن المسيل . .

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم . فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها ، واعتداء على كل إنسان حي ، يشترك مع القتيل في سمة الحياة . فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها . وكان في هذا الكف حياة . حياة مطلقة . لا حياة فرد ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . . بل حياة . .

ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله ، ولتقواه : { لعلكم تتقون } ..

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء . الاعتداء بالقتل ابتداء ، والاعتداء في الثأر أخيراً . . التقوى . . حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله؛ وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه .

إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة ، ولا يفلح قانون ، ولا يتحرج متحرج ، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان!

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي - ﷺ - وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً . . لقد كانت هنالك التقوى . . كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر ، وفي حنايا القلوب ، تكفها عن مواضع الحدود . . إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب . . وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى ، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور . نظيف الحركة نظيف السلوك . لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير!

« حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً ، تفادياً من سخط الله ، وعقوبة الآخرة » .إنها التقوى . . إنها التقوى . .

أهداف إقامة الحدود الشرعية

أولاً: شرع الله جلَّ وعلا الحدود لمكافحة الجريمة والرذيلة

وصيانة المجتمع من الفساد والمعاصي وحماية مصالح أساسية أجمعت الشرائع السماوية على المحافظة عليها وهي: حفظ الدين، وحفظ النسل، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وهي المعروفة بالضروريات الخمس، وسميت بذلك لأنه لا قيام لحياة الناس وصلاحهم إلا بتوافرها وتواجدها، وحفظها من الاعتداء عليها ووضع العقاب الرادع لمن حاول التعدي عليها. وقد أحكم الله جلَّ وعلا وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام وشرعها على أكمل الوجوه، فشرع حد الزنا صيانة للأنساب من التعرض للضياع، وحد السرقة، وقطع الطريق لصيانة الأموال والأنفس، وحد القذف لصيانة الأعراض، وحد الشرب لصيانة العقول.

ويمكن تلخيص أهداف العقوبات في الإسلام بشكل عام وأهداف الحدود والقصاص والتعازير بشكل خاص فيما يلي:

١- من الأهداف العظيمة للتشريع الإسلامي من الحدود والقصاص والتعزير تطهير المجتمع الإسلامي من الجرائم الآتية:

أ) جرائم الحدود وهي الزنا والسرقة وقطع الطريق والقذف والبغي وشرب الخمر والردة عن الإسلام.

ب) جرائم القتل العمد.

ج) جرائم التعازير.

فبتطبيق الحدود والقصاص والتعازير، يزجر كل من تسول له نفسه ارتكاب إحدى هذه الجرائم، ويترتب على هذا التطهير الأمن والأمان والطمأنينة بين أفراد المجتمع الإسلامي، كما يترتب على هذا التطهير أيضاً حفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل.

تحقيق العدالة والمساواة على وجه الأرض

رفع الظلم عن العباد، هدف سامٍ من أهداف إقامة الحدود الشرعية، فبتطبيق الحدود الشرعية على المجرمين بما يتناسب مع إجرامهم تتحقق العدالة والمساواة بين المسلمين جميعاً بغض النظر عن لونهم وجنسهم، وحسبهم، وغناهم وفقرهم.... ويؤكد حقيقة المساواة والعدالة في تطبيق الحدود ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال – عندما أراد رجل من الصحابة أن يشفع للمرأة المخزومية السارقة (أتشفع في حد من حدود الله؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، وفي عدم تطبيق ذلك انتهاك لحدود الله تعالى وهذا ظلم – قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، وقال تعالى (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) صدق الله العظيم.

امتثال أمر الله وطاعته

من أهداف إقامة الحدود طاعة الله تعالى فقد أمر جل وعلا بإقامة الحدود وأمره سبحانه وتعالى نافذ تجب طاعته، وكما هو معلوم فإن عدم طاعة الله والحكم بغير ما أنزل يعتبر ظلماً وفسقاً وكفراً.

٤- إقامة الحدود الشرعية فيه شفاء لما في الصدور من غل وحقد تجاه الجاني. ويظهر هذا واضحاً في جرائم القتل والسرقة والقذف والزنا، فبالقصاص من القاتل تشفى صدور الورثة من الغل والحقد اللذين لحقا بهم من جراء قتل الغريب عمداً. وبإقامة حد السرقة يشفى صدور من سرق ماله من الغل والحقد تجاه السارق. وبإقامة حد الزنا يشفى صدر الزانية إذا غصبت، وإن لم يشف صدرها فيشفى صدر أقاربها، وبتطبيق الحدود والقصاص والتعازير يشفى المجتمع الإسلامي من الحقد والغل اللذين لحقا بهم من جراء الجرائم التي وقعت على أفراده.

تأديب الجاني

إن إقامة العقوبات على الجاني يزيل الخبث الذي علق به والذي حمله على ارتكاب الجريمة، وإزالة الخبث من نفسه تطهيراً له من هذا الخبث وتأديباً له ولهذا شرعت الحدود والقصاص والتعازير وأعلى مجالات التأديب هنا الحدود، لأنها جعلت لجرائم وجنايات خطيرة.

تكفير الذنوب التي حصلت بفعل الجريمة

من أقيم عليه حد أو قصاص أو تعزير في هذه الدنيا بسبب جريمة توجب ذلك، فهو كفارة لهذا الذنب الذي اقترفه، لما رواه عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ وحوله جماعة من أصحابه قال (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك).

ثانياً: خصائص الحدود الشرعية ومميزاتها :

تمتاز الحدود الشرعية بخصائص معينة تميزها عن غيرها من سائر العقوبات ويمكن تلخيص أهمها فيما يلي:

١) أن عقوبة الحد مقدرة نوعاً وكماً وصفة، ومن ثم لا يجوز إبدالها ولا النقص منها أو الزيادة عليها على أنها حد بنص من شارع كما في عقوبة الزاني تبعاً لبكارته أو إحصانه، ومعنى تقدير الحد نوعاً أنه قد عين الشارع كونه جلداً أو قطعاً أو قتلاً أو نحو ذلك، وإما تقدير صفته فإنه قد يطلب أن يكون علناً تشهده طائفة من المؤمنين وبهذا لم يترك للحاكم إلا سلطة مقصورة على التنفيذ.

٢) أنه لا يختلف بإختلاف الأشخاص بل يتساوى فيه الحاكم والمحكوم والشريف وغيره لقوله ﷺ (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

٣) أن الحد يشترط في إقامته على الجاني أن يكون مكلفاً ولذا لا تقام على الصبي ونحوه.

٤) أن الشارع الحكيم قد ضيق في باب الحدود من جهات ثلاث:

أ – أنه ضيق في طرق إثباتها فجعلها تثبت بالإقرار مع قبول الرجوع فيه، كما اشترط في شهودها أن يكونوا من الذكور العدول على تفضيل بين أن يكونوا أربعة أو اثنين، و لم يقبل فيها شهادة النســاء ولا شاهد مع اليمين.

ب – أنه قصر الحدود على جرائم محددة هي ما كانت اعتداء على إحــدى الضــروريات الخمــس الواجبة الحفظ شرعاً.

ج– أنه شدد في الاحتياط عند إقامتها فجعلها تسقط بالشبهة المعتبرة كقولــه ﷺ (أدرأوا الحــدود بالشبهات)، والمراد بالشبهة المعتبرة ما يثبت صلاحيتها بقرينة ترجح أن للجاني عذراً في جنايته.

٥) ومن خصائص الحدود الشرعية ومميزاتها ما ذكر العلماء من أن الحد لا يقبل الشفاعة ولا يســقط بعد بلوغه للإمام لصيرورته حقاً لله تعالى حينئذ فلا يملك الإمام ولا غيره إسقاطه.

تقصير السلطان في إقامة الحدود..

إن شرع الله واجب التنفيذ، والنصوص الدالة على وجوب إقامة الحدود، والآثار المترتبة على إقامتها، والمفاسد المترتبة على عدم إقامتها، وقد أشار بعض علماء المذهب الحنفي إلى الهدف العام من تشريع الحدود، فقال: "أن الحدود حق الله تعالى، لأن القصد منها إخلاء العالم عن الفساد".. [الهداية بشرح البناية (٣٧٣/٥)].

فإذا أهمل من تولى أمر المسلمين إقامة الحدود، فقد أذن بذلك للفساد أن يــتمكن في الأرض، أو في العالم..

فما موقف المسلمين عندئذ، وبخاصة علماءهم وذوي الرأي منهم؟

إنه لا يخلو الحاكم من حالات ثلاث:

الحالة الأولى:

أن يجتمع أهل الحل والعقد لمناصحته، فيستجيب لنصحهم وينفذ شرع الله تعالى، ومنه الحدود، فمــا عليه عندئذٍ من سبيل، بل يجب أن يعان على ذلك من قبل الأمة.

الحالة الثانية:

أن يرفض إقامة الحدود بنفسه، مقيماً بعض الأعذار على سبب رفضه، مع إظهاره الإيمان بشريعة الله وأنها حق، ويأذن لعلماء قطره وذوي الرأي منهم أن يقوموا بها حسبة، ولا يعارضهم بل يأمر أتباعــه بعدم التعرض لهم.

الحالة الثالثة:

أن يرفض إقامة الحدود مدعياً أنها غير صالحة لهذا الزمن وأن وقتها قد انتهى، وأن القوانين الوضــعية أولى بالتنفيذ من شرع الله، وقد لا يصرح بذلك، ولكن قرائن أحواله المتضافرة تدل على هذا المعنى.

القول في الحالات السابقة..

الحالة الأولى:

لا حاجة إلى الكلام عنها..

وإنما الحاجة إلى بيان ما يجب على العلماء وأولي الرأي من الأمة إزاء الحالتين: الثانية والثالثة..

فالحالة الثانية التي يأذن فيها السلطان لغيره بإقامة الحدود، هذه الحالة في الحقيقة مفروضة فرضاً، والغالب أن الحاكم الذي يهمل إقامة الحدود ولا يسمع نصح أهل الحل والعقد، ولا يرجع إلى الله تعالى فيطبق حكمه، الغالب أنه لا يأذن لغيره في إقامتها..

ولكن ما الحكم على هذا الافتراض؟

إنه يجب أن نعود هنا إلى قاعدتين من قواعد الإسلام:

القاعدة الأولى: حكم فرض الكفاية – والحدود من فروض الكفاية.

والقاعدة الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية.

أما القاعدة الأولى، فان فرض الكفاية هو كما قال ابن قدامة رحمه الله:

"الذي إن لم يقم به من يكفي أثم الناس كلهم، وإن قام به من يكفي سقط عن سائر الناس، فالخطاب في ابتدائه يتناول الجميع، كفرض الأعيان، ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض العين لا يسقط عن أحد بفعل غيره". [المغني (٩/١٩٦)].

فإذا تخلى الحاكم الذي نصبته الأمة، أو نصب نفسه للقيام بمصالحها عن إقامة الحدود، فإن الأمة كلها تأثم بعدم إقامتها، إلا من كان عاجزاً عن ذلك، وعلى هذا فإنه بناءً على هذه القاعدة يتحتم على القادرين من الأمة أن يدفعوا عنها الإثم بإقامة الحدود.

أما القاعدة الثانية، فإن النصوص الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاطعة بإثم من استطاع القيام بذلك و لم يقم به.

قال تعالى: ((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..)) [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ((وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ((التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)) [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ((الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)) [الحج: ٤١].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَـنْ رَأَى مِـنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ ».)". [مسـلم (٦٩/١)].

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: "عن النبي ﷺ قال: (« مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَـى حُـدُودِ اللَّـهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِى أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِى نَصِيبِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نُـؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًـا » .)". [البخاري(٢٤٩٣) (١١١/٣)].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِى بُرْدَةَ وَأَخْرَجَ الْكِتَابَ فَقَالَ هَذَا كِتَابُ عُمَرَ ثُمَّ قُرِئَ عَلَى سُفْيَانَ مِنْ هَا هُنَا إِلَـى أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِىَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لاَ نَفَاذَ لَهُ آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِى مَجْلِسِكَ وَوَجْهِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لاَ يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِى حَيْفِكَ وَلاَ يَخَافَ ضَعِيفٌ جَوْرَكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً لاَ يَمْنَعَنَّكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ بِالأَمْسِ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ وَهُدِيتَ فِيـهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَإِنَّ الْحَقَّ لاَ يُبْطِلُهُ شَىْءٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِى فِى الْبَاطِلِ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا تَخَلَّجَ فِى صَدْرِكَ مِمَّا لَمْ يَبْلُغْكَ فِى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ اعْرِفِ الأَمْثَالَ وَالأَشْـبَاهَ ثُمَّ قِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى وَاجْعَلْ لِلْمُـدَّعِى أَمَدًا يَنْتَهِى إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ وَإِلاَّ وَجَّهْتَ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى وَأَبْلَغُ فِـى الْعُـذْرِ الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَيْنَهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ مَجْلُودًا فِى حَدٍّ أَوْ مُجَرَّبًا فِى شَهَادَةِ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِى وَلاَءٍ أَوْ فِى قَرَابَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِيَّاكَ وَالضَّجَرَ وَالْقَلَقَ وَالتَّـأَذِّىَ بِالنَّاسِ وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِى مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِى يُوجِبُ اللَّهُ بِهَا الأَجْرَ وَيُحْسِنُ الذُّخْرَ فَإِنَّهُ مَنْ يُخْلِصْ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ شَانَهُ اللَّهُ . سنن الدارقطنى (٤٥٢٥) ٢٠٨/٤ صحيح لغيره

فهذه النصوص تدل على أن هذه الأمة خير من غيرها من الأمم، بإيمانها وأمرها بالمعروف ونهيها عـن المنكر، فإذا فقدت ذلك أو نقص شيء منه، فقدت تلك الخيرية أو نقصت بمقدار ما نقص منها.

وأن من لوازم تحقيق الولاء بين المسلمين، أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، ومـن صـفاتهم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وحفظهم لحدود الله..

ولا حفظ لحدود الله بغير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن من أهم وظائفهم إذا مكنهم الله في الأرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأن المستطيع مأمور بالقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب استطاعته والأمر - للوجوب، فمن لم يقم بما يقدر عليه من ذلك وقد تعين عليه فهو آثم.

وأن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يمكن السفهاء من نشر الفساد في الأرض وفي ذلك هلاك العالم وفساده.[٨١]

فلقد شرع الله سبحانه وتعالى الحدود لحكم عظيمة ومنافع جمة غفيرة، ينعم بجناها المجتمع الإنساني، ويتفيأ ظلالها، وتعود عليه بالأمن والاستقرار والراحة والهناء والاطمئنان، فيعيش المرء أمنا في سربه، مرتاح الضمير، روحه مصونة فلا تزهق، ودمه محقون فلا يراق، ونسبه كريم صاف فلا يلوث ولا يعتدى عليه، وعرضة سليم فلا يقذف ولا يوصم به، وأمواله محفوظة فلا تصل إليها يد خائن مجرم ولا تمتد إليها يد سارق جشع اتخذ النهب حرفة، وعقله باق على جبلته التى ميزه الله بها، فلا يزيل نعمة الله عليه بالسكر، ودينه ثابت مستقيم قوي صلب لا تلعب به الأهواء ولا تزعزعه العواطف فتجده مذبذباً متردداً يسير على غير هدى ويخبط خبط عشواء، ولهذا جعل الشارع عقوبة المرتد القتل ((من بدل دينة فاقتلوه))(البخاري).

فما دامت هذه فوائد الحدود، فهنيئا للذين يطبقون حدود الله في الأرض، حياة مستقرة سعيدة في الدنيا، وأجر ومغفرة من الله في الآخرة.

وبالمقابل، فما من أمة ضيعت أمر الله وحدوده إلا شاع فيها الذعر والفزع والاضطراب، وقل خيرها، وذهبت بركتها، وضاقت أرزاق أهلها، وكثرت فيها الأزمات والقلاقل.

ومصداق هذا من كتاب الله قوله تعالى: وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً [الجن:١٦]. وقوله تعالى: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض والواقع خير شاهد ودليل.

فانظروا إلى أولئك الذين استبدلوا بشريعة الله قوانين الكفر والضلال، كيف وصل حالهم؟! كيف فتكت الجرائم بمجتمعهم، فنشأ عن عدم تطبيق الحدود اجتراء الناس على محارم الله ومواقعتهم لحمى الله؟! والله يغار أن تنتهك محارمه أو يعتدى على حماه، ولا أحد أغير من الله ومن يجترئ على حدود الله، يصير معاديا له ومحاداً لرسوله، ومن حاد الله ورسوله، وقع في إسار الذلة والهوان، إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين .

وباجتراء الناس على محارم الله وإمساك الأمة عن إقامة الحدود والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، تلحقهم اللعنة، كما لحقت بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

---

[٨١] - انظر كتاب :الحدود والسلطان (١٦) الجزء الثاني..المبحث الثالث: حكم تعدد الأمراء أو تقصير السلطان في إقامة الحدود

وكذلك تكون الأمة من عنصرين: عصاة متمردون، وضعاف خائفون، لا يأمرون بخير ولا ينهون عن شر، وأي أمة تتألف من هذين الفريقين، لا يرجى لها فلاح، ولا يتحقق لها احترام ولا تقدير.

ونتيجة ذلك وقوع الأزمات الطاحنة والكوارث المدمرة والحروب بين الجماعات والطوائف.

وقد ينخدع بعض الناس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة وهم غافلون فيرون بعض العصاة أو الكفار في بحبوحة من الدنيا ورغد من العيش وقوة ومنعة، ولو أنهم أمعنوا النظر وأعملوا الفكر لأدركوا أن ذلك متاع ظاهري، مقرون بالقلق النفسي من ناحية، ومهدد بالزوال والتدمير من ناحية ثانية، ومتبوع بالعقاب والسخط الإلهي من ناحية ثالثة لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد [الأعراف:٩٦].

عباد الله!

إن إقامة الحدود الشرعية، وتطهير المجتمع من بذور الإجرام، قد أثار حقد أعوان الشيطان من القانونيين الكفرة، فبدؤوا يلقون الشبه حول تطبيق القوانين الوضعية، التي شقي بها معظم المجتمعات، فهم يريدون أن يعم الشقاء حيث زعموا أن إقامة الحدود ضربا عنيفا من القسوة العاتية التي تتنافى مع الإنسانية الرحيمة ومع الشفقة التي يجب أن يتحلى بها الناس والتي تساير المدنية الحديثة والحضارة الراقية المهذبة!! إلى آخر ما قالوا من هذه العبارات الجوفاء الخاوية ونقول لهؤلاء: نعم إن في إقامة الحدود مظهرا من مظاهر الشدة التي تسمونها قسوة، ولا بد لكل عقوبة أن يكون فيها مظهر شدة أيا كانت وإذا لم تشتمل العقوبة على شيء من الشدة فأي أثر لها في الزجر والردع؟!

ثم، أسأل عقول هؤلاء – إن كانت لهم عقول –: ما الذي حمل على هذه القسوة في نظركم؟ وما الذي دفع القاضي أن يحكم بهذه القسوة؟

إن الذي دعا إلى هذا هو شيء أشد منه قسوة، ولو تركنا هذه العقوبة القاسية – فيما تزعمون، لوقعنا في أمر أقسى من العقوبة وأقسى من موجبها، فمن الرحمة والشفقة أن تقيم الحد، ففيه رحمة بالمحدود، وبمن اعتدى عليه ألا ترون الطبيب الماهر الذي يستأصل بمبضعه جزء حيا من جسم أخيه الإنسان، أليست عملية البتر وضرب المبضع في اللحم الحي مظهرا من مظاهر القسوة؟ وهل يستطيع أن يمارس هذه العملية إلا قلب قوي يعد في نظركم أيها المترفون قلبا قاسيا؟! ولكنها – لو تعلمون – قسوة هي الرحمة بعينها، وبخاصة إذا قيست بما يترتب على تركها.

فحرصا على سلامة المجتمع من سرطان الجريمة كان من الحزم الواجب استئصال العضو المريض الذي لا يرجى من بقائه إلا الفساد والإفساد.

فذا العضو الفاسد أغلق قلبه، فلم يقبل نصحا، وألغى إنسانيته فلم يعرف رحمة ولا شفقة، فكان الجزاء من جنس العمل جزاء وفاقا [النبأ:٢٦]. من يعمل سوء يجز به [النساء:١٢٣].

فالقائلون بهذا القول نظروا إلى الحدود بعين واحدة، نظروا إلى الحــــدود و لم ينظـــروا إلى الجـــرائم، ينظرون إلى المجرم نظرة العطف ولا ينظرون إلى الضحايا نفس النظرة، والمجرم في الحد قـــد يكـــون واحدا، وقد تكون الضحية أكثر من واحد.

إن المجرم بمقارفته الحد يتحدى المجتمع كله، فكيف يصبر عليه؟! وكيف يعفو عنه؟!

ومن هذه الشبهة المتقدمة أنبت الشيطان وجنده شبهة ثانية، فقالوا: ولماذا كان القتل في حد المحصـــن رجما بالحجارة، أليس ذلك تحقيرا للإنسانية وازدراء لها؟! أليس هناك وسائل للقتل أرحـــم وأحســـن وأسرع؟! فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذبحة وأي إحسان في القتـــل بـــالرجم ؟! أليس الصعق مثلا أو الشنق أخف على المحدود؟! ونحن نقول لهؤلاء: على رسلكم أيها الرحماء - كما تزعمون -! إن هذا قتل لا يراد منه الإزهاق الروحي وكفى، وإنما المراد من هذا القتل الزجر والردع عن مقارفة الجريمة الشنعاء، فليكن القتل بطريقة تليق بمن اقترف هذا الإثم المســـتقذر البشـــع ومـــن الحكمة في حد المحصن أن يكون الرجم بالحجارة، ليتألم جميع بدنه كما تلذذ بشهوة الـــزنى، جـــزاء وفاقا فالذي فرض العقوبة وقدرها وبين كيف تكون، إنما هو العليم الخبير، الذى يعلم خبايا الـــنفس البشرية، والله يعلم المفسد من المصلح .

ومن ثم أتى الشيطان وجنوده بشبهة أخرى وهى أن إقامة الحد تقتضـــي إزهـــاق الأرواح وتقطيـــع الأطراف، وبذلك تفقد البشرية كثيرا من الطاقات والقوى وينتشر فيها المشوهون والمقطعون الـــذين كانوا يسهمون في النتاج والعمل.

ونحن نقول لجنود إبليس: إن القتل وتقطيع الأطراف في الحدود إنما يكون في حالات ضيقة محصورة، ولمن؟! إنه إزهاق لنفوس شريرة لا تعمل ولا تنتج، بل إنها تعطل العمل والإنتاج وتضيع على العاملين المنتجين ثمرات أعمالهم وإنتاجهم، مع ملاحظة أن إقامة الحدود إبقاء لآلاف الأطراف سليمة طـــاهرة عامله منتجة فالله تعالى يقول: ولكم في القصاص حياة [البقرة:١٧٩]. حيث إنه لـــيس انتقامـــا ولا إرواء للأحقاد، وإنما هو حياة، حيث يكف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذى يوقن أنه يـــدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد فالله جعل لهذه الحدود مصلحة ومنفعـــة، فهو العليم الخبير الحكيم، الذي يضع كل شيء في موضعه الطبيعي.

ولقد أورد إبليس وجنوده شبه أخرى حيث قالوا: إن إقامة الحدود تقهقر بالإنسانية الراقية ورجعة إلى عهد الظلام الدامس والقرون الوسطى!! وهل يستسيغ عاقل متمـــدن عـــاش في القـــرن العشـــرين الميلادى!! وفى المدن الراقية مثل لندن ومثل باريس ونحوها!! أن يأخذ بقانون نشأ بين جبال وأحراش الجزيرة وجلاميد الصحراء؟

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا [الكهف:٥]. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فهذه الشبهة زائفة، تحمل كفنها بين يديها، فنقول لهؤلاء: إن المعدن الأصيل لا يفقد ميزاته بالقــدم، بل إن القدم مع الأصالة يشكلان أسباب نفاسته، شريعة الله مع قدمها لها هذه الأصالة، فلــها مــن الثبات ما عجزت عنه تلك الأحكام التي يحتكمون إليها التي لا ترتكز على الجدة والقدم، فكم مــن قديم أسمى من جديد، وإنما الميزان هو النفع والضر، والطيب والخبيث وما أكثر الشبه!!

ولكن الله لا يصلح عمل المفسدين، فهم كناطح صخرة يوما ليوهنا.[٨٢]

أول إعلان للمساواة في تاريخ الإنسانية

تظهر عظمة الإسلام وسمو شريعته في هذا الميدان كما ظهرت في غيره من الميادين ، فلأول مرة في تاريخ البشرية يأتي الإسلام رحمة للعالمين ، دين يوجه إلى البشرية كلها ، ويعتبر كل إنسان على وجه الأرض مساويا للآخر ، وهو أهل لثبوت الحقوق وتحمل الواجبات كأي إنسان آخر ، وأن كلا من الأصل والجنس واللون واللغة لا يمكن أن يفرق بين إنسان وآخر أمام الشريعة .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول الرسول الكريم ﷺ في حجة الوداع : ((يا أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى)) (١) .

في هذا الوحي الرباني نجد أول إعلان في تاريخ الإنسانية يؤكد مبدأ المساواة بين بني الإنسان جميعا ((يا أيها الناس)) أما شرع الله على اختلاف أصلهم وأجناسهم وألوانهم وظروفهم الاجتماعيــة أو درجاتهم في الجماعة .

حقائق مشهودة وليست دعايات مزعومة .

و لم يكن مبدأ المساواة الذي أعلنه الإسلام مبدأ نظريا كما فعلت الثورات والإعلانــات العالميــة لحقوق الإنسان ، بل إن هذا المبدأ طبق في واقع الناس على مجتمع يتمــايز فيــه النــاس بالأصــول والأحساب والغنى والثروة .

إن مجتمعا يقف فيه بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، وخباب بــن الأرت ، وعمار بن ياسر بجانب أبي سفيان ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب لــدليل قــاطع علــى أن العصبيات والقوميات والجنسيات قد ذهبت إلى غير رجعة ، وانصهرت في عقيدة واحدة ، هي عقيدة التوحيد ، تحت لواء واحد ، هو لواء الإسلام ، وأما نظام واحد هو شريعة الله .

---

[٨٢] - انظر موسوعة خطب المنبر - (١ / ٢٨)

لقد كانت العصبيات قبل البعثة عميقة الجذور ، قوية البنيان فاستطاع رسول الله ﷺ أن يجتث هذا الداء العضال بكل صوره وأشكاله ، من أرض كانت تحيي ذكره ، وتهتف بحمده ، وتتفاخر على أساسه ، باعتبار ذلك كله من بقايا الجاهلية التي أعلن نبينا ﷺ إماتتها إلى الأبد في لقائه الجامع بأمته في خطبة الوداع عندما قال لهم : ((ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع !!)) فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، لا تفاضل بنسب ، ولا تمايز بلون ، وما النزعات العنصرية والنعرات الوطنية إلا ضرب من الإفك والدجل .

يقول المعصوم ﷺ : ((إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء (كبرها وفخرها) فالناس رجلان: مؤمن تقي ، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون (أحقر) على الله من الجعلان (حيوان الخنفساء) التي تدفع بأنفها النتن)) (٢) .

ولله در علي ☐ عندما قال :

الناس من جهة الآباء أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم من أصلهم نسب	يفاخرون به فالطين والماء

المساواة في الإنسانية

لا تميز الشريعة الإسلامية بين الأفراد فهم جميعا لدى شريعة الله سواء ، فالحكام كالمحكوم ، والشريف كالوضيع ، والقوي كالضعيف ، ولا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى .

مرحبا بمن عاتبني فيه ربي !

١- وقد عاتب الله نبيه عتابا شديد لأنه اهتم بأمر قادة قريش وسراتها أكثر مما اهتم بأمر فقير أعمى ، هو ابن أم مكتوم عمرو بن قيس ، جاء يسأل رسول الله ﷺ أن يعلمه مما علمه الله ، وكان النبي ﷺ مجتمعا في هذا الوقت بصناديد قريش وسراتها يكلمهم في شأن الدعوة ، فكره أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، وظهرت هذه الكراهية في وجهه ، وأعرض عنه وهو يطمع في استمالة القوم ، فأنزل الله جل شأنه يف هذا الحادث: ☐ عَبَسَ وَتَوَلَّى .أَن جَاءَهُ الأَعْمَى .وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى .أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى .أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى .فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى .وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى .وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى .وَهُوَ يَخْشَى .فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى .كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ☐ [عبس١-١١].

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها!

٢- ولقد حرص النبي ﷺ على تطبيق مبدأ المساواة أمام الشريعة ، وعدم التمييز بين الناس ، من ذلك أنه طبق هذا المبدأ يوم سرقت امرأة من أشراف قريش ، فتحدث الناس أن رسول الله ﷺ عزم على قطع يدها ، وأعظموا ذلك ، وكلموا فيها رسول الله ﷺ : فقام خطيبا فقال : ((إنما هلك

الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)) (٣) .

طف الصاع طف الصاع !!

٣- عن أبي ذر أنه قال : قاولت(٤) رجلا عند النبي ﷺ فقلت له : يا ابن السوداء ، فقال النبي ﷺ : طف الصاع طف الصاع(٥) ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل ، قال أبو ذر : فاضطجعت وقلت للرجل : قم فطأ على خدي)) (٦) .

جبلة بن الأيهم والشموخ العمري !

٤- ولا زالت قصة جبلة بن الأيهم(٧) تقرع آذان الذين يتشدقون بأن أوروبا صاحبة الفضل في تقرير مبدأ المساواة ، فقد داس أعرابي على إزاره ، وهما يطوفان بالكعبة فلطمه جبلة ، فشكاه الأعرابي إلى عمر بن الخطاب ، فأمر بالقصاص ، وعز على جبلة وهو شريف أن يقتص منه الأعرابي ، فهرب ولحق بأرض الروم وتنصر ثم أدركه الندم فقال مقالته المشهورة :

تنصرت الأشراف من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

مبني التعويض على الضرر وليس على مركز المجني عليه

٥- القاعدة في الشريعة الإسلامية أن التعويض لا ينظر فيه لشخصية المجني عليه ، ولا مركزه ، ولا ثروته ، كما تفعل القوانين الوضعية ، وإنما يقدر التعويض على أساس نتيجة الفعل الذي وقع عليه ، فإذا قتل شريف ووضيع فديتهما واحدة ، وإذا أصيب عامل في شركة ومدير الشركة في حادث وترتب على الحادث أن فقد كل منهما ذارعا كان التعويض متساويا وقد جاء في الحديث : ((المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم)) (٨)

المساواة أمام القانون

المقصود بمبدأ المساواة أما القانون :

أن يكون القانون واحدا ، لا يكون قانون للأشراف وآخر للعامة ، ولا يكون قانون للبيض وآخر للسود ، بل يكون الجميع خاضعين لقانون واحد .

وأن يكون تطبيقه ملاحظا فيه المساواة في الحكم ، لا فرق في التطبيق بين غني وفقير ، ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين جاهل ومتعلم ، بل الجميع أمام القانون سواء .

ولقد قررت الشريعة الإسلامية هذا المبدأ وأكدت عليه منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولقد طبقه النبي ﷺ في حياته وسار على نهجه أصحابه من بعده ، ومن أمثلة ذلك: من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه !

١- خرج النبي ﷺ أثناء مرضه الأخير بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب حتى جلس على المنبر ثم قال : ((أيها الناس : من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد(٩) منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فيأخذ منه ، ولا يخش الشحناء من قبلي ، فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له ، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس ، ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع إلى المنبر فعاد لمقالته الأولى)) (١٠)

إني وليت عليكم ولست بخيركم

٢- صعد أبو بكر المنبر عقب توليه الخلافة فقال : ((إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، وإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق له ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)) (١١) .

رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه !

٣- كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فإذا اجتمعوا قال : ((أيها الناس : إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم فما قام أحد إلا رجل قام فقال : يا أمير المؤمنين إن عاملك فلانا ضربني مائة سوط ، قال: فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إن فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك ، فقال : أنا لا أقيد وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه)) (١٢) .

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

٤- عن أنس أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب قال : يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم ، قال: عذت معاذ(١٣) قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر على عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه ، فقدم فقال عمر : أين المصري؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين ، قال أنس : فضرب والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه فما أقلع(١٤) عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه . ثم قال للمصري : ضع على صلعة عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه ، فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم و لم يأتني(١٥) .

ابعث إلي بعبد الرحمن على قتب !!

٥- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : شرب أخي عبد الرحمن ، وشرب معه أبو سروعة – عتبة بن الحارث – وهما بمصر ، في خلافة عمر بن الخطاب فسكرا ، فلما أصبحا انطلقا على عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا ، فإنا قد سكرنا من شراب شربناه ، قال عبد الله : فذكر لي أخي أنه سكر فقلت : ادخل الدار أطهرك و لم أشعر أنهما قد أتيا عمروا ، فأخبرني أخي أنه قد أخبر الأمير بذلك ، فقلت لا تحلق اليوم على رؤوس الناس ، ادخل الدار أحلقك ، وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد ، فدخلا الدار ، قال عبد الله : فحلقت أخي بيدي ثم جلدهم عمرو . فسمع بذلك عمر فكتب إلى عمرو رضي الله عنهما أن ابعث إلي بعبد الرحمن على قتب ، ففعل ذلك فلما قدم على عمر بن الخطاب جلده وعاقبه لمكانه منه(١٦) .

لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله !

٦- ويقول عمر بن الخطاب لسعد بن وهيب خال رسول الله ﷺ : ((يا سعد سعد بني وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة(١٧) .

المساواة أمام القضاء

المقصود بالمساواة أمام القضاء :

المساواة أمام القضاء يقصد بها : أن المحاكم لا تختلف أو تتفاوت باختلاف الأشخاص الذين يتقاضون أمامهم ، ولي في الإسلام للحاكم محكمة خاصة أو ميزة بطبقة اجتماعية معينة كما في الأنظمة القديمة ، وكما هو الحال في فرنسا قبل الثورة وفي الديمقراطية الغربية من إفراد الحكم لمحكمة خاصة وشروط خاصة .

كما أن بعض الطوائف في تلك الديمقراطيات كرجال القضاء وأعضاء المجالس النيابية لا تجوز محاكمتهم إلا بشروط خاصة وفي ظروف معينة .

أما الإسلام فلا تفرقة فيه بسبب الأصل أو الجنس أو الطبقة أو اللون أو الثروة ، فالجميع أمام القضاء سواء .

وحدة جهة التقاضي

ولقد كان الرسول ﷺ يتولى بنفسه الفصل في الخصومات في المدينة فقد جاء في الحلف الذي عقده عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين وأهل المدينة ((ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله)) (١٨) ، أي أنه عليه

الصلاة والسلام كان الجهة القضائية الوحيدة التي يتحاكم أمامها جميع الناس ، وهو ما يعرف اليوم بوحدة القاضي أو جهة التقاضي .

المساواة أمام القضاء سنة الخلفاء الراشدين

ولقد جرى العمل في الشريعة الإسلامية على محاكمة الخلفاء والملوك والولاة أمام القاضي العادي وبالطريق العادل :

فعلي بن أبي طالب – في خلافته – يفقد درعا له ، و يجدها مع يهودي يدعي ملكيتها فيرفع أمره إلى القاضي فيحكم لصالح اليهودي ضد علي) ((١٩) .

شموخ عمري !

وعمر يكتب لقاضيه أبي موسى الأشعري كتابا في القضاء فيقول : ((آس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك)) (٢٠) .

ويروي الشعبي فيقول : ((كان بين عمر وبين أبي بن كعب رضي الله عنهما خصومة فقال عمر : اجعل بيني وبينك رجلا ، فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا ، وفي بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال : ها هنا يا أمير المؤمنين فقال له عمر : هذا أول جور(٢١) جرت في حكمك ، ولكن أجلس مع خصمي ، فجلسا بين يديه ، فادعى أبي وأنكر عمر ، فقال زيد لأبي : أعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره ، فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء)) (٢٢) .

جزاك الله عن دينك .. وعن خليفتك أحسن الجزاء !

ويقص علينا التاريخ أن المنصور – وهو خليفة المسلمين – ادعى عليه جماعة حقا لهم أمام القاضي محمد بن عمر الطلحي ، فأرسل القاضي إلى الخليفة يستدعيه ، فاسجاب الخليفة وحضر مجلس القضاء ، وأجلسه القاضي مع الخصوم ، وبعد سماع أقوال طرفي القضية حكم القاضي ضد الخليفة ، وبعد انصراف الناس و عودة الخليفة إلى دار الخلافة استعدى القاضي الطلحي ، فذهب وهو يخشى غضب السلطان ، ولما مثل بين يديه قال له المنصور : جزاك الله عن دينك ونبيك وعن حسبك وعن خلفيتك أحسن الجزاء(٢٣).

المساواة في تولي الوظائف العامة

المقصود بالمساواة في تولي الوظائف العامة

التسوية بين الناس في تولي الوظائف العامة يقصد بها :

إتاحة فرص متساوية أمام من تتوافر فيهم الشروط اللازمة لتولي عمل أو وظيفة معينة ، لا يقتصر حق تولي الوظائف العامة على طبقة معينة بسبب الأصل أو اللون أو المركز المالي أو الاجتماعي أو غير ذلك .

وأن تكون الحقوق والرواتب والمزايا واحدة لمن يحملون نفس المؤهل ويتمتعون بنفس الكفاءة وتتوافر لديهم نفس الخبرة .

ولقد عرف الإسلام هذا المبدأ وطبقه أتباعه قبل أن تعرفه النظم الإدارية الوضعية بما يزيد على ألف عام ، فلم يكن لهذا المبدأ وجود في النظم السابقة على الإسلام ولا المعاصرة له ، فقد كانت هذه النظم تقصر حق تولي الوظائف العامة على طبقة معينة من طبقات الشعب نظرا لمركزها الاجتماعي أو قدرتها المالية ، أو لأصلها أو جنسها أو لونها ولا زالت هذه التفرقة موجودة حتى اليوم في أعرق الدول حضارة على حد زعمها .

تجاوز الأكفأ خيانة لله ولرسوله والمؤمنين !

إن مقاصد الشريعة العامة وقواعدها الكلية وأدلتها الجزئية تجعل التسوية بين المسلمين في تولي الوظائف العامة واجبا تلتزم به الدولة ، فإذا أسندت الدولة عملا إلى شخص وهناك من هو أكفأ منه فقد قصرت في أداء واجبها وتعدت حدود سلطاتها .

القوة والأمانة شرطان في كل ولاية

فالإسلام يشترط فيمن يلي عملا أن يكون تقيا مخلصا أمينا على هذا العمل ، وأن يكون قادرا على أدائه على الوجه الأكمل ولا يغني أحد الشرطين عن الآخر ، فالتقوى وحدها لا تكفي لتولي عمل يحتاج إلى علم دقيق ، وخبرة واسعة ، وكفاءة عالية .

ولذلك يقص المولى عز وجل علينا قصة ابنة شعيب حينما طلبت من والدها أن يستعمل موسى ، فقد بينت المؤهلات التي يستحق صاحبها تولي العمل فقالت قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ [القصص: ٢٦].

فالقوة تشير إلى القدرة على القيام بالعمل الذي يسند إليه ، والأمانة تشير إلى الدين والخوف من الله والخشية منه .

ومن أجل ذلك بين الله سبحانه المؤهلات التي استحق به طالوت الرئاسة على بني إسرائيل فقال : وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ [البقرة: ٢٤٧].

فالبسطة في العلم تعني معرفة الله ، والعلم بشرعه وحلاله وحرامه ، وأما البسطة أو القوة في الجسم فتعني القدرة على القيام بهذا العمل ، وتختلف المؤهلات المطلوبة من كل عامل بحسب اختلاف نوع العمل المطلوب إسناده إليه .

تحريم المحاباة في الولايات العامة

والإسلام يفرض على ولي أمر المسلمين أن يختار لكل عمل أكفأ الناس وأصلحهم للقيـام بـه ، وأقدرهم على أدائه على خير وجه وأتمه ، دون محاباة أو أثرة بسبب الأصـل أو اللـون أو المركـز الاجتماعي أو المالي أو غير ذلك ، وهذه بعض الأمثلة :

١- عن أبي ذر □ قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال : فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقهـا وأدى الذي عليه فيها(٢٤) .

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من استعمل رجلا من عصـابة ، وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين(٢٥) .

٣- وقد كان عليه الصلاة والسلام يولي على الولاية أو العمل أصلح الناس له ، فولى خالـد بـن الوليد □ على حروبه لما امتاز به من خبرة عالية في فنون الحرب والقتال ، وقدمـه علـى بعـض السابقين من المهاجرين والأنصار ، كما ولى أسامة بن زيد وهو فتى صغير قيادة الجيش لأنـه عليـه الصلاة والسلام عرف منه الكفاءة العالية والقدرة على القتال.

٤- عن يزيد بن أبي سفيان قال : قال أبو بكر □ حين بعثني إلى الشام : يا يزيد إن لـك قرابـة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكبر ما أخاف عليك ، فإن رسول الله ﷺ قال : ((من ولي مـن أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخلـه جهنم)) (٢٦)

٥- عن أبي هريرة □ قال : ((بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قاله فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه قال : أين أراه السائل عن الساعة قال : ها أنا يا رسول الله ، قال : فإذا ضـيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)) (٢٧) .

ولقد قرر فقهاء الإسلام أنه يجب على ولي أمر المسلمين أن يختار لكل عمل اقدر الناس على القيام بـه وأصلحهم له امتثالا لقوله تعالى □ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا □ [النساء: ٥٨] فهـذه الآية تفيد وجوب إسناد كل ولاية أو عمل إلى من هو له أهل دون محاباة ولا أثرة .[٨٣]

٦٢- الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر

[٨٣] - انظر

٢pJF٧/search?q=cache:٢٠٩,٨٥,١٧٥,١٣٢http://
%٨D%٨٢%٩D%١B%٨D%٣B%٨D%٢٢%GGRaIsJ:amjaonline.com/docs/equality.doc+
D%٨٧%٩AF%D%٨A%D٨%٩AA+%D%٨D%٩B%٨D%٧B%٨D%٨٢%٩D%٨٤%٩AA+%D
٤١&hl=ar&ct=clnk&cd=٢٢%٧A%٨

قال تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) } [آل عمران : ١٠٤ ، ١٠٥]

لِتَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الأَحْكَامِ ، وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ وَفِقْهَهُ ، تَتَوَلَّى القِيَامَ بِالدَّعْوَةِ إلى الدِّين ، وَتَأمُرُ بِالمَعْروفِ ، وتُحَارِبُ المُنْكَرَ ، وَتَنْهَى عَنْهُ ، وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُحَارِبَ المُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إلى ذَلِكَ ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الفَائِزُونَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته . فهناك « دعوة » إلى الخير . ولكن هناك كذلك « أمر » بالمعروف . وهناك « نهي » عن المنكر . وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان ، فإن « الأمر والنهي » لا يقوم بهما إلا ذو سلطان . .هذا هو تصور الإسلام للمسألة . . إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى . . سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر . . سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله . . سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر . . وتحقيق هذا المنهج يقتضي « دعوة » إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج . ويقتضي سلطة « تأمر » بالمعروف « وتنهى » عن المنكر . . فتطاع . . والله يقول : { وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله } فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان . فهذا شطر . أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي ، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية ، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة ، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرىء برأيه وبتصوره ، زاعماً أن هذا هو الخير والمعروف والصواب!

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – من ثم – تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم . وفيهم الحاكم المتسلط . وفيهم الهابط الذي يكره الصعود . وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد . وفيهم المنحل الذي يكره الجد . وفيهم الظالم الذي يكره العدل . وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة . . وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف ، ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة ، ولا تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفاً ، والمنكر منكراً . . وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى . . وتطاع . .

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين : الإيمان بالله والأخوة في الله ، لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة ، وكلفها به هذا التكليف . وجعل القيام به شريطة الفلاح .

فقال عن الذين ينهضون به : { وأولئك هم المفلحون } . .إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته . فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية . هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير .

المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل . والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم . . عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر . والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة . والحق فيه أقوى من الباطل . والعدل فيه أنفع من الظلم . . فاعل الخير فيه يجد على الخير اعواناً . وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً . . ومن هنا قيمة هذا التجمع . . إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد ، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه . والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة ، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه .والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص . . يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافاً جوهرياً أصيلاً . فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة . لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي ، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية .هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له؛ فيحيا فيه هذا التصور ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه . وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجد من يدافعها دون منهج الله في الحياة .هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة . الإيمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض . . والأخوة في الله . كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة ، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار . الإيثار المنطلق في يسر ، المندفع في حرارة ، المطمئن الواثق المرتاح .وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى – في المدينة – على هاتين الركيزتين . . على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله – سبحانه – وتَمَثُّلِ صفاته في الضمائر؛ وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب الفياض الرائق والود . الود العذب الجميل ، والتكافل . التكافل الجاد العميق . . وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً ، لولا أنه وقع لعد من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض . ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان!

وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان . .ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف؛ وينذرها عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله

قبلها – من أهل الكتاب – ثم تفرقوا واختلفوا ، فترع الله الراية منهم ، وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية .وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الإلهية الكريمة . . بالإيمان والائتلاف .وهكذا ترى الجماعة المسلمة مصير هؤلاء القوم من أهل الكتاب ، الذين تحذر أن تطيعهم . كي لا تشاركهم هذا المصير الأليم في العذاب العظيم . يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه .

ـــــــــــــــــــــــ

وقال تعالى : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) } [التوبة/٧١، ٧٢]

الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَيْنَهُمْ أُخُوَّةٌ ، وَمَوَدَّةٌ ، وَتَعَاوُنٌ ، وَتَرَاحُمٌ ، وَيَتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ التِي يَأْمُرُهُمْ بِهَا دِينُهُمْ : فَيَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاضَدُونَ وَيَفْعَلُونَ الخَيْرَ ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ ، وَيَنْتَهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤَدُّونَهَا حَقَّ أَدَائِهَا ، وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَيَتْرُكُونَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ . وَالمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الطَّيِّبَةِ الْكَرِيمَةِ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ عَزِيزُ الجَانِبِ ، يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي قِسْمَتِهِ الصِّفَاتِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، فَجَعَلَ المُؤْمِنِينَ يَخْتَصُّونَ بِالصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ ، وَالمُنَافِقِينَ يَخْتَصُّونَ بِالصِّفاتِ الذَمِيمَةِ المُنْكَرَةِ .

وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ أَنَّهُ سَيُدْخِلُهُمْ فِي الآخِرَةْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، يُقِيمُونَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً ، فِي مَسَاكِنَ طَيِّبَةْ حَسَنَةِ البِنَاءِ ، وَطَيِّبَةِ القَرَارِ فِي هَذِهِ الجَنَّاتِ ، وَوَعَدَهُمْ بِرِضْوَانٍ مِنْهُ أَكْبَرَ وَأَجَلَّ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ . فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ . فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبداً " (رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَمَالِكُ) .

إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض . إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة . . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . أن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض . فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف . وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة

قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه في الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآني الدقيق لا يغفل هذا المعنى في وصف هؤلاء وهؤلاء

{ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض } . . { والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض } . .إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل ، وطبيعة التضامن ، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر .

{ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر } . . وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون . ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفاً واحداً . لا تدخل بينها عوامل الفرقة . وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها ، وعن عقيدتها ، هو الذي يدخل بالفرقة . ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها . السمة التي يقررها العليم الخبير!

{ بعضهم أولياء بعض } . . يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإعلاء كلمة الله ، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض .

{ ويقيمون الصلاة } . .الصلة التي تربطهم بالله .

{ ويؤتون الزكاة } . .الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة ، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن .

{ ويطيعون الله ورسوله } . .فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله . ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله . . وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم .

{ أولئك سيرحمهم الله } . .والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكون في هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتصال بالله ، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث . ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

إن هذه الصفات الأربع في المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لتقابل من صفات المنافقين : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدي . . وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار . . وإن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية :

{ إن الله عزيز حكيم } . .قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف ، حكيم في تقدير النصر والعزة لها ، لتصلح في الأرض ، وتحرس كلمة الله بين العباد .

وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين والكافرين ، وكانت لعنته لهم بالمرصاد ، وكان نسـيانه لهـم يدمغهم بالضآلة والحرمان . فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين :{ جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن } . .للإقامة المطمئنة . ولهم فوقها ما هو أكبر وأعظم :
{ ورضوان من الله أكبر } . .وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هـالات ذلـك الرضوان الكريم .
{ ورضوان من الله أكبر } . .إن لحظة اتصال بالله . لحظة شهود لجلاله . لحظة انطلاق من حبسـة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة . لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشـري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار . لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس مـن روح الله . . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشـر في ومضـة صـفاء ، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع ، وكل رجاء . . فكيف برضوان مـن الله يغمـر هـذا الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع؟
{ ذلك هو الفوز العظيم } . .
فالجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذان الأمران سياجان حافظـان لهـذه الأمة، فالجهاد يحفظها من الخارج ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظها من الداخل ، الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ السفينة من أن تُخرق ثم بعد ذلك تغرق، والجهاد يحفظ الأمة مـن أن تستذل، أو أن يهينها العدو، فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا، قاعدة قالها أسلافنا رحمهم الله ،و رضي الله عن علي إذ قال:'ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا كتبت عليهم الذلة ".
الجهاد سبب العز، وسبب النصر: يقول سبحانه:{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُـمْ وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُـوَ شَـرٌّ لَكُـمْ وَاللَّـهُ يَعْلَـمُ وَأَنْـتُمْ لَـا تَعْلَمُونَ[٢١٦]}[سورة البقرة] . عندما تقرأ تفسير هذه الآيات للإمام القرطبي الذي عاش رحمـه الله وقت سقوط الأندلس تحس بالحسرة والألم بين السطور والعبارات، يقول مامعنـاه :'{وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا} وهو القتال وسفك الدماء وبذل الأموال، {وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}: أي التمكين في الأرض والعز والنصر، { وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا} وهو الراحة والإخلاد إلى الأرض والطمأنينـة في البيـوت والديار، وهو شر لكم بالإذلال وانتهاك حرماتكم وأعراضكم، واستيلاء الكفار عليكم، واستئصالهم لكم' ثم قال عبارة مؤلمة محرقة:' ولما أصبح المسلمون في الأندلس على هذه الحال تسلط عليهم العدو فأخذوا ديارهم واحدة بعد الأخرى بلاد وأي بلاد '. يعني ما أحسنها من بلاد، ومع ذلك فرط فيها أهلها فضاعت.

ومن المعلوم عند كل عاقل أن الكفار لن يتركوا المسلمين ولو تركهم المسلمون، وهذه حقيقة شرعية وسنة إلهية أخبرنا الله بها في حيث قال:{ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّـى يَـرُدُّوكُمْ عَـنْ دِيـنِكُمْ إِنِ

اسْتَطَاعُوا...[٢١٧]}[سورة البقرة] . يعني مهما فعلتم، ومهما تقربتم إلى هؤلاء الكفـــرة، فهـــم لا يزالون يقاتلونكم.. لن يتركوكم ترتاحون حتى ترتدوا عن هذا الدين وتتبعوا أهـــوائهم كمـــا قـــال سبحانه:{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...[١٢٠]}[سورة البقرة] .

فإذن: هم لن يرضوا عنك إلا بهذا.. ولن يتركوك من القتال إلا بهذا وإذا كانوا لم يتركوك من القتال والقتال هو أشق شيء على النفوس، فسيحاربونك بغير القتال من باب أولى.. ســيحاربونك بغـــزو ثقافي.. بغزو فكري.. عن طريق المرأة.. عن طريق الإعلام.. سيحاربونك لتهديم دينـــك، ولتضـــييع عقيدتك.. فكن أيها المسلم الموحد من الكافرين على حذر .

٦٣- عدمُ الاغترار بالحياة الدنيا

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَـــازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الـــدُّنْيَا وَلَـــا يَغُـــرَّنَّكُمْ بِاللَّـــهِ الْغَـــرُورُ (٣٣) } [لقمان/٣٣]

يُحَذِّرُ اللهُ تَعالَى النَّاسَ مِنْ أَهوالِ يومِ القِيَامَةِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بتَقْوَاهُ لِيُنقِذُوا أَنفُسَهُمْ مِنْ أَهْوَالِهِ ، فَهُوَ يـــومٌ لا يستَطِيعُ فِيهِ أحدٌ نَفْعَ أحدٍ ، فَلا الوَالِدُ يستَطيعُ أنْ يَفْدِيَ ابنَهُ ، وَلا المَولُودُ يَستَطِيعُ أَنْ يَفْدِيَ وَالِدَهُ ، أَوْ أَنْ يَنْفَعَهُ بشيءٍ ، أَوْ أَنْ يَحْمِلَ مِنْ ذُنُوبِهِ شَيئاً ، وَلاَ يَنْفَعُ الإنسانَ فِي ذَلِكَ اليوم إِلا إِيمَانُهُ بربِّهِ ، وإخلاصُهُ العِبَادَةَ لَهُ ، وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ .

ثُمَّ يأمرُ اللهُ تَعَالى العِبَادَ بأَلاَّ تُلْهِيَهُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا بزُخْرُفِها ، وَزِينَتِهَا ، وَمَتَاعِهَا ، عَنِ العَمَلِ النَّافِعِ لِيَوم القِيَامَةِ ، وَيومُ القِيَامةِ هوَ وعدٌ حَقٌّ مِنَ اللهِ ، واللهُ لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ أَبداً . كَمَا يَأْمُرُهُمْ بـــأَلاّ يَغُـــرَّهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَحْمِلَهُمْ على المَعَاصي بِتَزْيِينها لَهُمْ .

إن الهول هنا هول نفسي ، يقاس بمداه في المشاعر والقلوب . وما تنقطع أواصـــر القـــربى والـــدم؛ ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد ، وبين المولود والوالد . وما يستقل كل بشـــأنه ، فـــلا يجزى أحد عن أحد ، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه . ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظـــير لـــه في مألوف الناس . . فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب؛ وقضـــية الآخـــرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتسمع لها القلوب .

{ إن وعد الله حق } . . فلا يخلف ولا يتخلف؛ ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد .

{ فلا تغرنكم الحياة الدنيا } . . وما فيها من متاع ولهو ومشغلة؛ فهي مهلة محدودة وهـــي ابـــتلاء واستحقاق للجزاء .

{ ولا يغرنكم بالله الغرور } . . من متاع يُلهي ، أو شغل يُنسي ، أو شيطان يوسوس في الصدور . والشياطين كثير . الغرور بالمال شيطان . والغرور بالعلم شيطان . والغرور بالعمر شيطان . والغرور بالقوة شيطان . والغرور بالسلطان شيطان . ودفعة الهوى شيطان . ونزوة الشهوة شيطان . وتقوى الله وتصور الآخرة هما العاصم من كل غرور!

و قال تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) } [فاطر/٥]

يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالحِسَابِ وَالجَزَاءِ . . هُوَ وَعْدٌ حَقٌّ لاَ شَكَّ فِيهِ وَلاَ مِرْيَة ، فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا ، وَلاَ تُلْهِيَنَّكُمْ بِزُخْرُفِها وَزِينتِها ، عَنْ طَلَبِ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ حُلُولِ مَوْعِدِ الحَشْرِ ، وَبَعْثِ الخَلاَئِقِ ، وَلاَ تَدَعُوا الشَّيطَانَ يَغُرَّكُمْ ، وَيَفْتِنْكُمْ ، وَيَصرِفْكُمْ عَن اتِّبَاعِ رُسُلِ اللهِ ، وَتَصْدِيقِ كَلِمَاتِهِ ، فَإِنهُ غَرَّارٌ كَذَّابٌ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ - فَلاَ تَخْدَعَنَّكُمْ وَلاَ تُلْهِيَنَّكُمْ .

إن وعد الله حق . . إنه آت لا ريب فيه . إنه واقع لا يتخلف . إنه حق والحق لا بد أن يقع ، والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع . { فلا تغرنكم الحياة الدنيا } . ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكنوه من أنفسكم { ولا يغرنكم بالله الغرور } . . والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم { فاتخذوه عدواً } لا تركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحاً لكم ، ولا تتبعوا خطاه ، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل! وهو لا يدعوكم إلى خير ، ولا ينتهي بكم إلى نجاة : { إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير } ! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير؟!

إنها لمسة وجدانية صادقة . فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات . يتحفز لدفع الغواية والإغراء؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ، ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين ، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم!

وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير . حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية؛ كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرة في النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان .

حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبداً .

٦٤- اتباعُ شرعِ الله :

قال تعالى : {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) [الجاثية/١٨-٢٠] }

لَقَدْ بَعَثَكَ اللهُ يَا مُحمَّدُ ، بَعْدَ اختِلافِ أَهلِ الكِتَابِ ، عَلَى مِنهَاجٍ وَاضِحٍ مِنْ أَمْرِ الدِّين شَرَعَهُ لَكَ ، ولمنْ قَبلَكَ مِنَ الرُّسُلِ ، فاتَّبعْ مَا أَوحى إليكَ رَبُّكَ ، وَلا تَتَّبعْ مَا دَعَاكَ المُشرِكُونَ الجَاهِلُونَ إِليهِ مِن عِبَادةِ آلهتِهم ، فَهؤلاءِ لا يَعلَمُونَ طَريقَ الحقِّ .

وهؤُلاءِ الجَاهِلُونَ لاَ يَدْفَعُونَ عَنْكَ شَيئاً ممّا أَرادَهُ اللهُ بك إِنِ اتَّبعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَتَرَكْتَ شَرْعَ رَبِّكَ . والكَافِرونَ يَتولّى بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي الدُّنيا ، وَيُظَاهِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، أَمَّا في الآخِرةِ فلا يُغني أَحَدٌ عن أَحَدٍ شَيئاً . أَمَّا المُتَّقُون المهتَدُون فإنَّ اللهَ وَليُّهُم يَنْصُرُهُم وَيُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ .

إنَّ هذا القُرآنَ هُدى ودَلائِلُ للنَّاسِ فِيمَا يحتَاجُونَ إِليهِ في أَمرِ دِينِهم ، وَهُوَ بَيِّنَاتٌ تُبَصِّرُهُم ، وَتُعَرِّفُهُم بواجبَاتِهِمْ نَحْوَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ هُدًى يَهدِيهِم إِلى مَا فيهِ خَيرهُمُ وَصَلاحُ أمرِهِم ، وَفيهِ الرَّحمةُ لِقومٍ يُوقِنُونَ بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العَالمينَ .

وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله . وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة؛ وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون!

والله سبحانه يحذر رسوله ﷺ أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، فهم لا يغنون عنه من الله شيئاً . وهم يتولون بعضهم بعضاً . وهم لا يملكون أن يضروه شيئاً حين يتولى بعضهم بعضاً ، لأن الله هو مولاه : { إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض . والله ولي المتقين } .

وإن هذه الآية مع التي قبلها لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده ، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل : { ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين } . .

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف ، وما عداها أهواء منبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء . فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة . وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض . وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه . ولكنهم أضعف من أن يؤذوه . والله ولي المتقين . وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضاً؛ من صاحب شريعة يتولاه الله . ولي المتقين؟

وتعقيباً على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما في هذا القول وأمثاله في القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين :{ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون } . .ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة . . ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التي لا يخامرها شك ، ولا يخالطها قلق ، ولا تتسرب إليها ريبة .وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه ، فلا يتلجلج ولا يتعلثم ولا يحيد . وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً ، والأفق منيراً ، والغاية محددة ، والنهج مستقيماً ، وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين .

٦٥- تطبيقُ حدود الله تعالى :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) } سورة البقرة

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَدْ فَرَضَ (كَتَبَ) عَلَيْهِمُ العّدْلَ وَالمُسَاوَاةِ فِي القِصَاصِ ، فَالحُرُّ يُقْتَلُ بالحُرِّ ، إذا كَانَ القّتْلُ عَمْداً ، وَالعَبْدُ يُقْتَلُ بالعَبْدِ ، وَالأُنْثَى تُقْتَلُ بالأُنْثَى (وَقَدْ جَرَى العَمَلُ مِنْ لَدُنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بالمَرْأَةِ ، وَالحُرِّ بالعَبْدِ إنْ لَمْ يَكُنِ القَاتِلُ سَيِّدَ العَبْدِ ، فَإذا كَانَ سَيِّدَهُ عُزِّرَ بشِدَّةٍ) ، وَأَمَرَهُمُ اللهُ بأَلاَّ يَعْتَدُوا وَلا يَتَجاوَزُوا ، كَمَا اعْتَدَى اليَهُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللهِ ، فَكَانَتْ قَبيلَةُ بَني قُرَيْظَة ضَعْيفةً ، وَقَبيلَةَ بَني النَّضِير قَوِيَّةً ، فَكَانُوا إذَا قَتِلَ أَحَدٌ مِنْ بَني النَّضِير أَحَداً مَنْ بَني قُرَيْظَةَ لَمْ يَكُنْ يُقْتَلُ بهِ بَلْ يُفَادَى ، وَإِذَا قَتَلَ القُرَظِيُّ نَضِيرِيّاً كَانَ يُقْتَلُ بهِ ، وَإِذَا فَادَوْهُ كَانَ يُفَادَى بمِثْلَيْ مَا يُفَادَى بِهِ النَّضِيْرِيُّ .

وَكَانَ حَيَّانِ مِنَ العَرَبِ قَدْ اقْتَتَلا فِي الجَاهِلِيَّةِ قُبَيْلَ الإِسْلامِ ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى وَجِراحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا العَبيدَ والنِّسَاءَ ، فَكَانَ أَحَدُ الحَيَّين لاَ يَرْضَى حَتَّى يَقْتُلَ بالعَبْدِ مِنهُ الحُرَّ مِنْ خُصُومِهِ ، وَبالمَرْأَةِ مِنْهُ الرَّجلَ . وَكَانَ هؤُلاءِ لاَ يَقْتُلونَ الرَّجُلَ الذِي يَقْتُلُ المَرْأَةَ عَمْداً ، وَلكِنْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بالرَّجُلِ ، وَالمَرْأَةَ بالمَرْأَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : النَّفْسُ بالنَّفْسِ وَالعَيْنُ بالعَيْنِ مُبْطِلاً ذلِكَ التَّعَامُلَ ، فَإذا قَبلَ وَلِيُّ الدَّمِ أَنْ يَأخُذَ الدِّيَةَ ، وَيُعْفُو عَنِ القَاتِلِ ، فَعَليهِ أَنْ يَتَّبعَ ذِلكَ بالمَعْرُوفِ ، وَأَنْ يَطْلُبَ الدِّيَةَ برِفْقٍ ، وَأَنْ لاَ يُرْهِقَ القَاتِلَ مِنْ أَمْرِهِ عُسْراً . وَعَلَى القَاتِلِ أَنْ يُؤَدِّيَ المَطْلُوبَ مِنْهُ بإِحسَانٍ ، وَأَنْ لا يَمْطُلَ وَلاَ يَنْقُصَ ، وَلا يُسيء فِي كَيْفيَّةِ الأَدَاءِ .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أَنَّهُ شَرَعَ للنَّاسِ أَخْذَ الدِّيَةِ فِي حَالَةِ القَتْلِ العَمْدِ تَخْفِيفاً مِنْهُ ، وَرَحْمَةً بالْمُسْلِمِينَ ، إِذْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى الأُمَمِ السَّالِفَةِ القَتْلُ أَوِ العَفْوُ . وَإِذَا تَعَدَّدَ أَوْلِياءُ الدَّمِ وَعَفَا أَحَدُهُمْ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ ، وَسَقَطَ القِصَاصُ . . وَيَجُوزُ العَفْوُ فِي الدِّيَةِ أَيْضاً . (وَقِيلَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ مَفْرُوضاً عَلَيهِمُ القَتْلُ لاَ غَيْرَ ، وَأَهْلَ الإِنْجِيلِ أُمِرُوا بالعَفْوِ ، وَلَيسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مُقَابلَ العَفْوِ دِيَةً) .

وَيُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى مَنْ يَعْتَدِي بِالقَتْلِ عَلَى القَاتِلِ - بَعْدَ العَفْوِ وَالرِّضَا بِالدِّيَةِ - بِالعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ

فِي القِصَاصِ رَاحَةُ البَالِ ، وَصِيَانَةُ النَّاسِ مِنِ اعتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِهِم الآخَرِ ، لأَنَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ يُعَاقَبُ بالقَتْلِ ، تَحْمِلُهُمْ عَلَى الارتِداعِ عَنِ القَتْلِ ، فَتُصَانُ حَيَاةُ النَّاسِ ، وَحَيَاةُ مَنْ يُفَكِّرُ بالقَتْلِ . وَخَصَّ اللهُ تَعَالَى بالنِّداءِ أَرْبَابَ العُقُولِ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى أَنَّ الذِينَ يَفْهَمُونَ قِيمَةَ الحَيَاةِ ، وَيُحَافِظُونَ عَلَيهَا هُمُ العُقَلاَءُ . وَإذا تَدَبَّرَ أُولُو الأَلبَابِ الحِكْمَةَ مِنْ شَرْعِ القِصَاصِ حَمَلَهُمْ ذلِكَ عَلَى اتِّقَاءِ الاعتِدَاءِ ، وَالكَفِّ عَنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ .

النداء للذين آمنوا . . بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله ، الذي آمنوا به ، في تشريع القصاص . وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى ، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى . وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة ، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة ، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى؛ وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص .

وهذه الشريعة التي تبينها الآية : أنه عند القصاص للقتلى - في حالة العمد - بقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى .

{ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان } . .وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني . ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه ، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة . ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال . تحقيقاً لصفاء القلوب ، وشفاء لجراح النفوس ، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء .

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة :{ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة } . .ولم يكن هذا التشريع مباحاً لبني إسرائيل في التوراة . إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند التراضي والصفاء .

{ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم } . .وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة . . يتعين قتله ، ولا تقبل منه الدية . لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول ، نكث للعهد ، وإهدار للتراضي ، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب ، ومتى قبل ولي الدم الدية ، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي .

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام؛ وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها؛ ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع . . إن الغضب للدم فطرة وطبيعة . فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص . فالعدل

الجازم هو الذي يكسر شرة النفوس ، ويفثأ حنق الصدور ، ويردع الجاني كذلك عن التمادي ، ولكن الإسلام في الوقت ذاته يحبب في العفو ، ويفتح له الطريق ، ويرسم له الحدود ، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامي في حدود التطوع ، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق .

وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة . نسختها آية المائدة التي نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقاً : { وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . الآية } . . قال ابن كثير في التفسير : وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم . حدثنا أبو زرعة . حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير . حدثني عبد الله بن لهيعة . حدثني عطاء بن دينار . عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى } – يعني إذا كان عمداً – الحر بالحر . . . وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية – قبل الإسلام بقليل . فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء ، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا .

فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال ، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، والمرأة منا الرجل منهم . . فنزل فيهم : { الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى } . . منسوخة نسختها : { النفس بالنفس } وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله : { النفس بالنفس } .

والذي يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس . . وأن لكل منهما مجالاً غير مجال الأخرى . وأن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين ، على فرد معين أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين كذلك . فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمداً . . فأما الآية التي نحن بصددها فمجالها مجال الاعتداء الجماعي – كحالة ذينك الحيين من العرب – حيث تعتدي أسرة على أسرة ، أو قبيلة على قبيلة ، أو جماعة على جماعة . فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء . . فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك ، والعبد من هذه بالعبد من تلك ، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك . وإلا فكيف يكون القصاص في مثل هذه الحالة التي يشترك فيها جماعة في الاعتداء على جماعة؟

وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ لهذه الآية ، ولا تعارض في آيات القصاص .

ثم يكمل السياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها الأخيرة : { ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون } . .إنه ليس الانتقام ، وليس إرواء الأحقاد . إنما هو أجل من ذلك وأعلى . إنه للحياة ، وفي سبيل الحياة ، بل هو في ذاته حياة . . ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة ، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله . .

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء . فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل . . جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد . كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل . شفائها من الحقد والرغبة في الثأر . الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم . وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم ، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل ، ولا تكف عن المسيل . .

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم . فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحيـاة كلـها ، واعتداء على كل إنسان حي ، يشترك مع القتيل في سمة الحياة . فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها . وكان في هذا الكف حياة . حياة مطلقة . لا حياة فرد ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . . بل حياة . .

ثم – وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة – استجاشة شعور التدبر لحكمة الله ، ولتقواه : { لعلكم تتقون } ..

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء . الاعتداء بالقتل ابتداء ، والاعتداء في الثأر أخيراً . . التقوى . . حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله؛ وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه .

إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة ، ولا يفلح قانون ، ولا يتحرج متحرج ، ولا تكفي التنظيمـات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان!

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي – ﷺ – وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً . . لقد كانت هنالك التقوى . . كانـت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر ، وفي حنايا القلوب ، تكفها عن مواضع الحدود . . إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب . . وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمـات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى ، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور . نظيف الحركة نظيف السلوك . لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير!

« حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيـالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبـة الشـديدة ، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً ، تفادياً من سخط الله ، وعقوبة الآخرة » .إنها التقوى . . إنها التقوى . .

قال تعالى : { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) }[الزمر/١١-١٨]

وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ : إنَّ اللهَ أَمَرَني بِأَنْ أَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ أُخْلِصَ لَهُ العِبَادَةَ وَأَمَرَني رَبي بِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَانْقَادَ ، وَأَخْلَصَ العِبَادَةَ وَالتَّوحِيدَ للهِ .وَقُلْ لَهُمْ : إِنِّي أَخَافُ - وَأَنَا رَسُولُ اللهِ - عَذَابَ يَوْمِ القِيَامَةِ الكَثِيرِ الأَهْوَالِ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي ، وَتَرَكْتُ الإِخْلاَصَ لَهُ وَإِفْرَادَهُ بالرّبُوبِيَّةِ . وَقُلْ لَهُمْ : إنَّني أَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وأُخْلِصُ لَهُ عِبَادَتِي . فَاعْبُدُوا أَنْتُمْ أَيُّهَا المُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ مَا شِئْتُمْ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ ، وَسَتَعْلَمُونَ سُوءَ مُنْقَلَبِكُمْ حِينَمَا تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ . وَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : إنَّ الخُسْرَانَ الذِي لاَ خُسْرَانَ بَعْدَهُ ، هُوَ خُسْرَانُ النَّفْسِ وَإِضَاعَتُهَا بالضَّلاَلِ ، وَخُسَرَانُ الأَهْلِ ، وَعَدَمُ الالْتِقَاءِ بهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، سَوَاءٌ ذَهَبَ الخَاسِرُ إِلَى النَّارِ وَأَهْلَهُ إِلَى الجَنَّةِ ، أَوْ ذَهَبُوا جَمِيعاً إِلَى النَّارِ ، وَذَلِكَ الخُسْرَانُ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ الظَّاهِرُ لِفَظَاعَتِهِ وَهَوْلِهِ .يَصِفُ اللهُ تَعَالَى حَالَ هَؤُلاَءِ الخَاسِرِينَ وَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَقُولُ : إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِيهَا ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ طَبَقَاتٌ مُتَرَاكِمَةٌ مِنَ النَّارِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَكَأَنَّهَا الظُّلَلُ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ طَبَقَاتٌ مِثْلُهَا ، فَتَغْمُرُهُمْ النَّارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُصُّ عَلَى النَّاسِ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ حَالُ الكُفَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُخَوِّفَهُمْ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ اليومِ ، فَيَزْدَجِرَ العُقَلاَءُ عَنِ الكُفْرِ وَالمَعَاصِي ، وَيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللهِ ، فَيَا عِبَادَ اللهِ اتَّقُوا رَبَّكُمْ تَعَالَى ، وَبَالِغُوا فِي الخَوْفِ والحَذَرِ ، وَلاَ تَرْتَكِبُوا مَا يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ . والذينَ اجْتَنَبُوا عِبَادَةَ الأَصْنَامِ ، واتِّبَاعَ الشَّيَاطِينِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُعْرِضِينَ عَمّا سِوَاهُ ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ عَلَى أَلْسنَةِ رُسُلِهِ بالثَّوَابِ العَظِيمِ حِينَ المَوْتِ ، وَحِينَ يَلْقَونَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الحِسَابِ .الطَّاغُوتَ - الشَّيْطَانَ وَيُطْلَقُ عَلَى الوَاحِدِ والجَمْعِ وَسُمِّيتْ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ عِبَادَةً لِلشَّيْطَانِ . أَوْ هُوَ الأَوْثَانُ وَالمَعْبُودَاتُ البَاطِلَةُ .وَهَؤُلاَءِ الذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، وَسَمِعُوا القَوْلَ فَاتَّبَعُوا أَحْسَنَهُ وَأَوْلاَهُ بالقَبُولِ . . هَؤُلاَءِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بالنَّعِيمِ المُقِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَأولَئِكَ هُمُ الذِينَ وَفَّقَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِلرَّشَادِ وَالصَّوَابِ ، وَأولَئِكَ هُمْ أَصْحَابُ العُقُولِ والأَفْهَامِ السَّلِيمَةِ .

وهذا الإعلان من النبي ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له الدين وحده؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إنه هو عصى ربه . . هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . فالنبي ﷺ في هذا المقام هو عبدالله . هذا مقامه لا يتعداه

. وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد . . وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان ، فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتتجرد صفة الوحداينة لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه . وحين يقف محمد رسول الله ﷺ في مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العصيان ، فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة :{ قل : الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه .قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين } . .مرة أخرى يعلن : إنني ماض في طريقي . أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة . فأما أنتم فامضوا في الطريق التي تريدون؛ واعبدوا ما شئتم من دونه . ولكن هنالك الخسران الذي ما بعده خسران . خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم . وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق . وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجحيم . . { ألا ذلك هو الخسران المبين } . .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين :{ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون } . .وهو مشهد رعيب حقاً . مشهد النار في هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار!

إنه مشهد رعيب . يعرضه الله لعباده وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه . ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه :{ ذلك يخوف الله به عباده } . .ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا :{ يا عباد فاتقون } .وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم :{ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب } . .والطاغوت صياغة من الطغيان؛ نحو ملكوت وعظموت ورحموت . تفيد المبالغة والضخامة . والطاغوت كل ما طغا وتجاوز الحد . والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود في أية صورة من صور العبادة . وهم الذين أنابوا إلى ربهم . وعادوا إليه ، ووقفوا في مقام العبودية له وحده .

هؤلاء { لهم البشرى } صادرة إليهم من الملأ الأعلى . والرسول ﷺ يبلغها لهم بأمر الله :{ فبشر عباد } . . إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم . وهذا وحده نعيم!

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد ما عداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذي تزكو به النفوس والقلوب . . والنفس الطيبة تتفتح

للقول الطيب فتتلقاه وتستجيب له . والنفس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له .

{ أولئك الذين هداهم الله } . .فقد علم الله في نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له . والهدى هدى الله .{ وأولئك هم أولو الألباب } . .فالعقل السليم هو الذي يقود صاحبه إلى الزكاة ، وإلى النجاة . ومن لا يتبع طريق الزكاة والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التي أعطاها له الله .وقال تعالى : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (٥) سورة البينة

وقال تعالى : {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) } سورة الزمر

إنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ القُرْآنَ (الكِتَابَ) آمِراً بِالحَقِّ وَالعَدْلِ الوَاجِبِ اتِّبَاعُهُمَا ، والعَمَلُ بِهِمَا ، فَاعْبُدْهُ يَا مُحَمَّدُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ والعِبَادَةَ ، وَادْعُ الخَلْقَ إِلَى ذَلِكَ .

أَلاَ للهِ وَحْدَهُ العِبَادَةُ والطَّاعَةُ ، وَلاَ شَرِكَةَ لأَحَدٍ مَعَهُ فِيهِمَا ، لأَنَّ كُلَّ مَا دُونَهُ هُوَ مُلْكٌ لَهُ ، وَعَلَى المَمْلُوكِ طَاعَةُ مَالِكِهِ ، وَعَلَى العَبْدِ أَنْ يُخْلِصَ العِبَادَةَ للهِ ، والذِينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ مِنَ المُشْرِكِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا هُوَ أَنَّهُمْ مَثَّلُوا بِهَذِهِ الأَصْنَامِ المَلاَئِكَةَ ، فَعَبَدُوا تِلْكَ الصُّوَرَ تُنْزِيلاً لَهَا مَنْزِلَةَ المَلاَئِكَةِ ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ فِي حَاجَاتِهِمْ .وَكَانَ المُشْرِكُونَ يُبَرِّرُونَ عِبَادَتَهُمْ لِمَنْ هُمْ دُونَ اللهِ بِأَنَّ الإِلَهَ الأَعْظَمَ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَعْبُدَهُ البَشَرُ مُبَاشَرَةً ، فَهُمْ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الآلِهَةَ ، وَهِيَ تَعْبُدُ الإِلَهَ الأَعْظَمَ . واللهُ تَعَالَى يَحْكُمُ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خُصُومِهِمْ ، مُتَّبِعِي الحَقِّ وَسُبُلِ الهُدَى ، فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ ، وَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ بِعَمَلِهِ .وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُرْشِدُ إِلَى الحَقِّ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ ، فَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ وَلَداً أَوْ صَاحِبَةً . تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً .

إن أساس الحق الذي أنزل به الكتاب ، هو الوحدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود . وفي الآية الخامسة من السورة يجيء: (خلق السماوات والأرض بالحق) . فهو الحق الواحد الذي قامت به السماوات والأرض ، وأنزل به هذا الكتاب . الحق الواحد الذي تشهد به وحدة النظام الذي يصرف السماوات والأرض ؛ والذي ينطق به هذا الكتاب . الحق الذي يتسم به كل ما خرج من يد الصانع المبدع في هذا الوجود . .

والخطاب لرسول الله ﷺ الذي أنزل إليه الكتاب بالحق . وهو منهجه الذي يدعو إليه الناس كافة . . عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد .

وتوحيد الله وإخلاص الدين له ، ليس كلمة تقال باللسان؛ إنما هو منهاج حياة كامل . يبـدأ مـن تصور واعتقاد في الضمير؛ وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة .

والقلب الذي يوحد الله ، يدين لله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئاً من غـيره ولا يعتمد على أحد من خلقه . فالله وحده هو القوي عنده ، وهو القاهر فوق عباده . والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له نفعاً ولا ضراً؛ فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منـهم . وهـم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . والله وحده هو المانح المانع ، فلا حاجة بـه إلى أن يتوجـه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء .

والقلب الذي يوحد الله ، يؤمن بوحدة الناموس الإلهي الذي يصرف الوجود كله؛ ويؤمن إذن بـأن النظام الذي اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد ، لا تصلح حياة البشر ولا تستقيم مع الكون الذي يعيشون فيه إلا باتباعه . ومن ثم لا يختار غير ما اختاره الله من النظم ، ولا يتبـع إلا شريعة الله المتسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة .

والقلب الذي يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعت يد الله في هذا الكـون مـن أشـياء وأحياء؛ ويحيا في كون صديق يعاطفه ويتجاوب معه؛ ويحس يد الله في كل ما حوله ، فيعيش في أنس بالله وبدائعه التي تلمسها يداه وتقع عليها عيناه ويشعر كذلك بالتحرج من إيذاء أحد ، أو إتـلاف شيء أو التصرف في أحد أو في شيء إلا بما أمره الله . خالق كل شيء ، ومحيي كل حي . ربه ورب كل شيء وكل حي

وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر ، كما تبدو في السلوك والتصـرفات . وترسـم للحياة كلها منهاجاً كاملاً واضحاً متميزاً . ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان . ومـن ثم تلـك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتوضيحها وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزلـه الله : وهـو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، في كل عصر ، وفي كل بيئة . فالتوحيد بمعناه ذلك معنى ضـخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك

{ ألا لله الدين الخالص } . .يعلنها هكذا مدوية عالية في ذلك التعبير المجلجل . بأداة الافتتـاح { ألا } وفي أسلوب القصر { لله الدين الخالص }. فيؤكد معناها بالبناء اللفظي للعبارة . . فهي القاعـدة التي تقوم عليها الحياة كلها . بل التي يقوم عليها الوجود كله . ومن ثم ينبغي أن ترسخ وتتضح وتعلن في هذا الأسلوب الجازم الحاسم : { ألا لله الدين الخالص } .

وقال تعالى : {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَـاء رَبِّـهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (١١٠) سورة الكهف

وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلاَءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ فِيمَا أُخْبِرُكُمْ بِهِ ، مِنَ المَاضِي ، عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَصِ أَهْلِ الكَهْفِ ، وَخَبَرِ ذِي القَرْنَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ لِلْحَقِيقَةِ وَوَاقِعُ الحَالِ ، وَلَوْ لَمْ يُطْلِعْنِي عَلَيْهِ اللهُ رَبِّي لِمَا عَلِمْتُهُ .وَأَنَا أُخبِرُكُمْ أَنَّ إِلهَكُمُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ لاَ شَرِيكَ لَهُ . فَمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللهِ (لِقَاءَ رَبِّهِ) ، وَجَزَاءَهُ الحَسَنَ فِي الآخِرَةِ ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً خَيِّراً مُوَافِقَاً لِلْشَّرْعِ ، وَلاَ يُرِدْ بِهِ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى . (وَمُوَافَقَةُ العَمَلِ لِلْشَرْعِ ، وَابْتِغَاءِ وَجْهِ اللهِ بِهِ هُمَا الرُّكْنَانِ الأَسَاسِيَّانِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَتَقَبَّلُهُ اللهُ) .

إنه أفق الإلوهية الأسمى . . فأين هنا آفاق النبوة ، وهي – على كل حال – آفاق بشريته ؟

(قل:إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي . . .) . . بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى . بشر يستمد من ذلك المعين الذي لا ينضب . بشر لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه . بشر يتعلم فيعلم فيعلم . . فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى ، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذي يتلقى ، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها:(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .وهكذا تختم السورة – التي بدأت بذكر الوحي والتوحيد – بتلك الإيقاعات المتدرجة في العمق والشمول ، حتى تصل إلى نهايتها فيكون هذا الإيقاع الشامل العميق ، الذي ترتكز عليه سائر الأنغام في لحن العقيدة الكبير . .

٦٧- تحكيمُ الله والرسول في كل شئون حياتنا

قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) }

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ ابْنَةَ عَمَّتِهِ (زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ) لِمَولاَهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، فَأَبَتْ ، وَقَالَتْ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ حَسَباً ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالى هذِهِ الآيَةَ : فَقبِلَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْهُ ، وَقَالَتْ سَمْعاً وَطَاعَةً .

(وَفِي الحَدِيثِ : " وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ ")

وَكَانَ زَوَاجُ زَيْنَبَ مِنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ لِحِكْمَةٍ إِذْ تَبعَخُ رَدُّ الأُمُورِ إلى نِصَابِها فِي أَمْرِ التَّبَنِّي . فَقَدْ كَانَتِ العَرَبُ تُعْطِي الوَلَدَ الْمُتَبَنَّي (الدَّعِيَّ) حُقُوقَ الابْنِ مِنَ النَّسَبِ ، حَتَّى المِيراثَ ، وَحُرْمَةَ النَّسَبِ . فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى مَحْوَ ذَلِكَ بالإِسْلاَمِ ، حَتَّى المِيراثَ ، وَحُرْمَةَ النَّسَبِ . فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى مَحْوَذَلِكَ بالإِسْلاَمِ ، حَتَّى لا يُعْرَفَ إلا النَّسبُ الصَّرِيحُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالى : { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ

ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ } وَمَعْنَى الآيَةِ : لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ وَلا لِمُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ قَضَاءً ، أَنْ يَتَخَيَّروا مِنْ أَمْرِهِمْ غيرَ مَا قَضَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُمْ ، وَلاَ أَنْ يُخَالِفُوا أَمْرَ اللهِ وَأَمرَ رَسُولِهِ وَقَضَاءَهُما . وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَا بِهِ ، وَنَهَيَا عَنْهُ ، فَقَدْ جَارَ عَنِ السَّبِيلِ القَوِيمِ ، وَسَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الهُدَى وَالرَّشَادِ .

فهذا المقوّم من مقومات العقيدة هو الذي استقر في قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقراراً حقيقياً؛ واستيقنته أنفسهم ، وتكيفت به مشاعرهم . هذا المقوم يتلخص في أنه ليس لهم في أنفسهم شيء؛ وليس لهم من أمرهم شيء . إنما هم وما ملكت أيديهم لله . يصرفهم كيف يشاء ، ويختار لهم ما يريد . وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام . وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام؛ ويقسم لهم دورهم في رواية الوجود الكبيرة؛ ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم .

وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون به ، لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة؛ وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح؛ وإن هم إلا أجراء ، لهم أجرهم على العمل ، وليس لهم ولا عليهم في النتيجة! عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله . أسلموها بكل ما فيها؛ فلم يعد لهم منها شيء . وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله؛ واستقامت حركاتهم مع دورته العامة؛ وساروا في فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها ، لا تحاول أن تخرج عنها ، ولا أن تسرع أو تبطئ في دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله .

وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله ، لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذي يصرف كل شيء ، وكل أحد ، وكل حادث ، وكل حالة . واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة

وشيئاً فشيئاً لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم ، ولا بالجزع الذي يعالج بالتجمل؛ أو بالألم الذي يعالج بالصبر . إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف في حسه ، معروف في ضميره ، ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولا غرابة!

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمراً هم يريدون قضاءه ، و لم يعودوا يستبطئون الأحداث لأن لهم أرباً يستعجلون تحقيقه ، ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها! إنما ساروا في طريقهم مع قدر الله ، ينتهي بهم إلى حيث ينتهي ، وهم راضون مستروحون ، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق ، وفي غير من ولا غرور ، وفي غير حسرة ولا أسف . وهم على يقين أنهم يفعلون ما قدر الله لهم أن يفعلوه؛ وأن ما يريده الله هو الذي يكون ، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم .

إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم؛ وهم مطمئنون لليد التي تقـــودهم ، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين ، سائرون معها في بساطة ويسر ولين .

وهم مع هذا يعملون ما يقدرون عليه ويبذلون ما يملكون كله ، ولا يضيعون وقتاً ولا جهـــداً ، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة . ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص ، ومن ضعف وقوة؛ ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقـــات ، ولا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ولا أن يقولوا غير ما يفعلون .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة ، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون . . هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها؛ وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال!

واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعـــة الأولى تحقيـــق تلـــك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة ، وفي حياة المجتمع الإنساني إذ ذاك .

وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك ، وخطوات الزمان ، ولا تحتك بهـــا أو تصطدم ، فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام . وهو الذي بارك تلك الجهود ، فإذا هـــي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان .

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود ، وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود . . كان هذا التحول في تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التي لا يقدر عليها بشر؛ إنمـــا تتم بإرادة الله المباشرة التي أنشأت الأرض والسماوات ، والكواكب والأفلاك؛ ونسقت بين خطاهـــا ودوراتها ذلك التنسيق الإلهي الخاص .

وإلى هذه الحقيقة تشير هذه الآيات الكثيرة في القرآن . . حيث يقول الله تبارك وتعالى : { إنـــك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء } أو يقول : { ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء } أو يقول : { إن الهدى هدى الله } فذلك هو الهدى بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع . هـــدى الإنسان إلى مكانه في هيكل هذا الوجود؛ وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود .

ولن يؤتي الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه؛ وتستقيم حركة الفرد مـــع دورة الوجود؛ ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذي لا يكون في الوجود أمر إلا وفق مقتضاه.

ومن هذا البيان ينجلي أن هذا النص القرآني : { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم } . . أشمل وأوسع وأبعد مدى من أي حادث خاص يكون قد نـــزل فيه . وأنه يقرر كلية أساسية ، أو الكلية الأساسية ، في منهج الإسلام!

٦٨- ردُّ المتنازَعُ فيه لله وللرسول

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} (٥٩) سورة النساء

بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ ، فَلَمَّا خَرَجُوا اسْتَاءَ مِنْهُمْ مِنْ شَيءٍ كَانَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمْ رَسُولُ الله أَنْ تُطِيعُوني؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَاجْمَعُوا حَطَباً ، ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَضْرَمَهَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُم : عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلُنَّهَا (أَيْ لَتَقْتُلُنَّ أَنْفُسَكُمْ فِي النَّارِ) ، فَرَفَضُوا ذَلِكَ إلى أنْ يَسأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ ، فَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ : " الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ "

وَقَالَ رَسُولُ الله : " السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإذَا أَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ "

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِإطَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَبالعَمَلِ بِكِتَابِهِ ، وَبِإِطَاعَةِ رَسُولِهِ ، لأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَيُبَلِّغُ عَنِ اللهِ شَرْعُ وَأَوَامِرَهُ ، كَمَا يَأْمُرُ اللهُ بِإطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ ، مِنْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءٍ وَرُؤَسَاءِ جُنْدٍ ، مِمَّنْ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي الحَاجَاتِ ، وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ ، فَهَؤُلاءِ إذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أنْ يُطَاعُوا فِيهِ ، بشَرْطِ أنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ ، وَأنْ لاَ يُخَالِفُوا أَمْرَ الله ، وَلاَ سُنَّةَ نَبِّيِهِ التِي عُرِفَتْ بِالتَّوَاتُرِ ، وَأنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْثِهِمْ فِي الأَمْرِ ، وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرَ مُكْرَهِينَ عَلَيهِ بِقُوَّةِ أَحَدٍ أَوْ نُفُوذِهِ

وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ المُسْلِمُونَ فَمِنَ الوَاجِبِ رَدُّهُ إلى كِتَابِ الله ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، وَيَحْتَكِمْ إلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ، فَلَيْسَ مُؤْمِناً باللهِ وَلاَ باليَوْمِ الآخِرِ .

وَمَنْ يَحْتَكِم إلى شَرْعِ الله ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلاً (تَأْوِيلاً) ، لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لِلنَّاسِ إلاَّ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ ، وَالاحْتِكَامِ إلى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الاخْتِلافَ المُؤَدِّي إلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلاَلِ .

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان : هذا حق . . ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات ، متأثراً بشتى المؤثرات . . ليس هناك ما يسمى « العقل البشري » كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك ، وعقل فلان وعلان ، وعقول هذه المجموعة من البشر ، في مكان ما وفي زمان ما . . وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى؛ تميل بها من هنا ، وتميل بها من هناك

ولا بد من ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها . ومدى الشطط والغلو ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات .

وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان ، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميـــزان . . الميزان الثابت ، الذي لا يميل مع الهوى ، ولا يتأثر بشتى المؤثرات . .

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين . . فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها . فتختل جميع القيم . . ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم .

والله يضع هذا الميزان للبشر ، للأمانة والعدل ، ولسائر القيم ، وسائر الأحكام ، وسائر أوجه النشاط ، في كل حقل من حقول الحياة : { يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله؛ وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر . . منكم . . فإن تنازعتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخـــر . ذلك خير وأحسن تأويلاً } .

وفي هذا النص القصير يبين الله – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام .

في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة؛ وقاعـــدة الحكـــم ، ومصـــدر السلطان . . وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده؛ والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصـــاً ، من جزيئات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال؛ مما تختلـــف فيـــه العقـــول والآراء والأفهام . . ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام!

إن « الحاكمية » لله وحده في حياة البشر – ما جل منها وما دق ، وما كبر منها وما صـــغر – والله قد سن شريعة أودعها قرآنه . وأرسل بها رسولاً يبينها للناس . ولا ينطق عن الهوى . فسنته – ﷺ – من ثم شريعة من شريعة الله .

والله واجب الطاعة . ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة . فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله – ابتداء – وأن يطيعوا الرسول – بما له من هذه الصفة . صفة الرسالة من الله – فطاعته إذن من طاعة الله ، الذي أرسله بهذه الشريعة ، وببيانها للناس في سنته . . وسنته وقضـــاؤه – على هذا – جزء من الشريعة واجب النفاذ . . والإيمان يتعلق – وجوداً وعدماً – بهذه الطاعة وهـــذا التنفيذ – بنص القرآن :{ إن كنم تؤمنون بالله واليوم الآخر } . .

فأما أولو الأمر؛ فالنص يعين من هم .{ وأولي الأمر . . منكم . . }

أي من المؤمنين . . الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية . . مـــن طاعـــة الله وطاعة الرسول؛ وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء؛ والتلقي منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء ، مما لم يرد فيه نـــص؛ لتطبيق المبادىء العامة في النصوص عليه .

والنص يجعل طاعة الله أصلاً؛ وطاعة رسوله أصلاً كذلك – بما أنه مرسل منه – ويجعل طاعـــة أولي الأمر . . منكم . . تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله . فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ، كما كررها

عند ذكر الرسول- ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله - بعد أن قرر أنهم « منكم » بقيد الإيمان وشرطه . .

وطاعة أولي الأمر . . منكم . . بعد هذه التقريرات كلها ، في حدود المعروف المشروع من الله ، والذي لم يرد نص بحرمته؛ ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادىء شريعته ، عند الاختلاف فيه .

. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين :

في الصحيحين من « حديث الأعمش : إنما الطاعة في المعروف » .

وفيهما من « حديث يحيى القطان : السمع والطاعة على المرء المسلم . فيما أحب أو كره . ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وأخرج مسلم من « حديث أم الحصين : ولو استعمل عليكم عبد . يقودكم بكتاب الله . اسمعوا له وأطيعوا »

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله . أميناً على إيمانه وهو ودينه . أميناً على نفسه وعقله . أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة . . ولا يجعله بهيمة في القطيع؛ تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح ، وحدود الطاعة واضحة . والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد ، ولا تتفرق ، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون!

ذلك فيما ورد فيه نص صريح . فأما الذي لم يرد فيه نص . وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية ، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات - ولا يكون فيه نص قاطع ، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق . . مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام - فإنه لم يترك كذلك تيهاً . و لم يترك بلا ميزان . و لم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع . . ووضع هذا النص القصير ، منهج الاجتهاد كله ، وحدده بحدوده؛ وأقام « الأصل » الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضاً .

{ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول } . .ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمناً . فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو ، فردوه إلى المبادىء الكلية العامة في منهج الله وشريعته . . وهذه ليست عائمة ، ولا فوضى ، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول . وهناك - في هذا الدين - مبادىء أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية ، وتضع لها سياجاً خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين .{ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر } . .تلك الطاعة لله والطاعة للرسول ، ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول . . ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول . . هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر . كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر . . فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود . . ولا يوجد الإيمان ، ثم يتخلف عنه أثره الأكيد .

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي ، يقدمها مرة أخـــرى في صـــورة « العظـــة » والترغيب والتحبيب؛ على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب :{ ذلك خير وأحسن تأويلاً } ذلك خير لكم وأحسن مآلاً . خير في الدنيا وخير في الآخرة . وأحسن مآلاً في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك . . فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضاء الله وثواب الآخرة – وهو أمر هائل ، عظيم – ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحســـن مـــآل الفـــرد والجماعة في هذه الحياة القريبة .

إن هذا المنهج معناه : أن يستمتع « الإنسان » بمزايا منهج يضعه له الله . . الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير . . منهج بريء من جهل الإنسان وهوى الإنسان ، وضعف الإنسان ، وشهوة الإنسان منهج لا محاباة فيه لفرد ، ولا لطبقة ، ولا لشعب ، ولا لجنس ، ولا لجيل من البشر على جيـــل . . لأن الله رب الجميع ، ولا تخالجه – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – شهوة المحاباة لفـــرد ، أو طبقة ، أو شعب ، أو جنس ، أو جيل .

ومنهج من مزاياه ، أن صانعه هو صانع هذا الإنسان . . الذي يعلم حقيقـــة فطرتـــه ، والحاجـــات الحقيقية لهذه الفطرة ، كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها؛ ووسائل خطابها وإصلاحها ، فلا يخـــبط – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – في تيه التجارب بحثاً عن منهج يوافق . ولا يكلف البشر ثمـــن هذه التجارب القاسية ، حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميـــدان الإبـــداع المادي ما يشاءون ، فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري . وحسبهم كذلك أن يحـــاول هـــذا العقل تطبيق ذلك المنهج؛ ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول .

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون ، الذي يعيش فيه الإنسان . فهو يضمن للإنســـان منهجاً تتلاءم قواعده مع نواميس الكون؛ فلا يروح يعارك هذه النواميس . بل يروح يتعرف إليهـــا ، ويصادقها ، وينتفع بها . . والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه .

ومنهج من مزاياه أنه – في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه – يكرمه ويحترمه ويجعـــل لعقلـــه مكاناً للعمل في المنهج . . مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة . ثم الاجتهاد في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادىء العامة للدين . . ذلك إلى المجال الأصيل ، الـــذي يحكمـــه العقـــل البشري ، ويعلن فيه سيادته الكاملة : ميدان البحث العلمي في الكون؛ والإبداع المادي فيه . .

{ ذلك خير وأحسن تأويلاً } . . وصدق الله العظيم

-٦٩ الاستجابةُ لله وللرسول

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُــواْ أَنَّ اللّــهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِــنْكُمْ خَاصَّــةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) } سورة الأنفال .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بالاسْتِجَابَةِ إِلَى دَعْوَتِهِ تَعَالَى ، وَإِلَى دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ التِي أَمَرَهُ اللهُ بِإِبْلاَغِهَــا إِلَيْهِمْ ، لأَنَّهَا تُزكّي نُفُوسَهُمْ وَتُطَهِّرُهَا ، وَتُحْيِيها بالإِيمَانِ ، وَتَرْفَعُها إِلَى مَرَاتِبِ الكَمَال فَتَحْظَى برضَا اللهِ ، ثُمَّ يُعْلِمُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى قُلُوبِ العِبَادِ يُوَجِّهُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، فَيَحُولُ بَيْنَ المَــرْءِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ ، فَيُمِيتُ الإِحْسَاسَ وَالوجْدَانَ وَالإِدْرَاكَ فِيهِ ، فَتُشَلُّ الإِرَادَةِ ، وَيَفْقِدُ الإِنْسَانَ سَيْطَرَتَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ ، وَيَتْبَعُ هَوَاهُ ، فَلاَ تَعُودُ تَنْفَعُ فِيهِ المَوَاعِظُ وَالعِبَرُ . وَاللهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ القَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا تَرَدَّوْا فِيهِ ، إِذَا اتَّجَهُوا إِلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ .

ثُمَّ يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا بِمَا يَسْتَحِقُّونَ .

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ مِنْ وُقُوعِ البَلاَءِ وَالفِتَنِ بَيْنَهُمْ إِذَا لَمْ يَقُومُوا بواجبهمْ نَحْوَ دِينهم وَجَمَاعَتِهِمْ فِي الجِهَادِ ، وَالأَمْرِ بالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، وَفِي الضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي المُفْسدِينَ ، وَفِي النُّصْحِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ ، وَفِي إِطَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ . وَيُنَبِّهُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّ العِقَابَ الذِي يُنْزِلُهُ اللهُ بِــالأُمَمِ المُقَصِّرَةِ بالقِيَامِ بوَاجبَاتِهَا لاَ يُصِيبُ السَّيِّىءَ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا يَعُمُّ بِهِ المُسيءَ وَغَيْرَهُ ، وَيُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ لِلأُمَمِ التِي تُخَالِفُ سُنَنَهُ وَهُدَى دِينِهِ ، وَتُقَصِّرُ فِي دَرْءِ الفِتَنِ ، وَفِي التَّعَاوُنِ عَلَــى دَفْعِهَــا ، وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ : أَمَرَ اللهُ المُؤْمِنِينَ أَنْ لاَ يُقِرُّوا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ فَيَعُمَّهُمُ اللهُ بالعَذَابِ)

إن رسو ل الله – ﷺ – إنما يدعوهم إلى ما يحييهم . . إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة ، وبكل معاني الحياة . .

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومــن ضــغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء . .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله؛ تعلن تحرر « الإنسان » وتكريمه بصــدورها عــن الله وحــده ، ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها؛ لا يتحكم فرد في شعب ، ولا طبقة في أمــة ، ولا جنس في جنس ، ولا قوم في قوم . . ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد .

ويدعوهم إلى منهج للحياة ، ومنهج للفكر ، ومنهج للتصور؛ يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة ، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان ، العليم بما خلق؛ هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد؛ ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء .

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، والانطلاق في « الأرض » كلها لتحرير « الإنسان » بجملته؛ وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده؛ وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله ، فاستلبها منه الطغاة!

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس؛ وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة؛ ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله - سبحانه - وحاكميته وسلطانه؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده؛ وعندئذ يكون الدين كله لله . حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول - ﷺ - وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

إن هذا الدين منهج حياة كاملة ، لا مجرد عقيدة مستسرة . منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى . ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها . وفي كل مجالاتها ودلالاتها . والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية :{ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } .

استجيبوا له طائعين مختارين؛ وإن كان الله - سبحانه - قادراً على قهركم على الهدى لو أراد :

{ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه } . .ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة . . { يحول بين المرء وقلبه } فيفصل بينه وبين قلبه؛ ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ، ويصرفه كيف شاء ، ويقلبه كما يريد . وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه الذي بين جنبيه!

إنها صورة رهيبة حقا؛ يتمثلها القلب في النص القرآن ، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب ، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس!

إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة ، والحذر الدائم ، والاحتياط الدائم . اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته؛ والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس . . والتعلق الدائم بالله - سبحانه - مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته ، أو غفلة من غفلاته ، أو دفعة من دفعاته . .

ولقد كان رسول الله - ﷺ - وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فكيف بالناس ، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟!

إنها صورة تهز القلب حقاً ، ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات ، ناظرا إلى قلبه الذي بين جنبيه ، وهو في قبضة القاهر الجبار ، وهو لا يملك منه شيئا ، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير!

صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم : يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم }

ليقول لهم : إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى - لو كان يريد - وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة ، ولكنه - سبحانه - يكرمكم؛ فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر؛ وعن إرادة تعلو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان . . أمانة الهداية المختارة؛ وأمانة الخلافة الواعية ، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة .

{ وأنه إليه تحشرون } . .فقلوبكم بين يديه . وأنتم بعد ذلك محشورون إليه . فما لكم منه مفر . لا في دنيا ولا في آخرة . وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور ، لا استجابة العبد المقهور .

ثم يحذرهم القعود عن الجهاد ، وعن تلبية دعوة الحياة ، والتراخي في تغيير المنكر في أية صورة كان : { واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب } . .والفتنة : الابتلاء أو البلاء . . والجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره - وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة - ولا تقف في وجه الظالمين؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين .. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين . . فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله لا يتبع؛ بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها!) وهم ساكتون . ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون!

٧٠- لا بد من انتفاضة العقيدة

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ

وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) سورة البقرة

قَالَ المُفَسِّرُونَ إِنَّ بني إسرائيلَ كَانُوا فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَلَبِثُوا عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً مِـنَ الزَّمَن . ثُمَّ تَضعضَعَ أَمْرُهُمْ ، وَعَبَدَ بَعْضُهُمُ الأَوْثَانَ ، وَضَاعَ المُلْكُ مِنْهُمْ . وَتَسَلَّطَ عَلَيهِمْ أَعَداؤُهُمْ ، فَأخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ بالقَهْرِ ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِليْهِمْ نَبِيّاً ، وَأَمَرَهُ بدِعْوَتِهِمْ إلى اللهِ ، وَإلى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَتَوْحِيدِهِ . فَدَعَاهُمُ النَّبيُّ ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أنْ يُقِيمَ لَهُمْ مَلِكاً يُقَاتِلونَ مَعَهُ أَعْدَاءَهُمْ . فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : لَعَلَّكَمْ إنْ أقَامَ اللهُ لكُمْ مَلِكاً ألاَّ تُقَاتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ ، وَألاَّ تُوفُوا بمَا التَزَمْتُمْ بهِ مِنَ القِتَالِ مَعَهُ . فَقَالُوا : كِيْفَ لا نُقَاتِلُ فِي سَبيلِ اللهِ وَقَدْ ضَاعَتْ بلادُنَا ، وَسُبِيَتْ ذَرارينا؟ فَلَمّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالُ لَمْ يُوفُوا بِمَا وَعَدُوا ، وَنَكَلُوا عَنِ الجِهَادِ وَاللهُ عَليمٌ بِالظَّالِمينَ النَّاكِلِينَ عَن الجِهَادِ دِفَاعاً عَنْ دِينِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأمَّتِهِمْ .

كَانَ مُلْكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سِبْطِ يَهُوذا وَلَمَّا قَالَ لَهُم النَّبيُّ إنّ المَلِكَ سَيَكُونُ طَالُوتَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ يَهُوذا ، احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالُوا كَيْفَ يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلينا وَهُوَ لَيْسَ مِنْ بَيْتِ المَلِكِ ، وَلَيْس مِنَ الأَغْنياء الذِينَ يَسْتَطِيعُونَ تَحَمُّلَ نَفَقَاتِ المُلْكِ؟ فَقَالَ لَهُمْ النَّبيُّ : إنَ اللهَ اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بهِ ، وَزَادَهُ عِلْماً وَقُوَّةً فِي بَدَنِهِ ، وَجَعَلَهُ أصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى الحُرُوبِ ، وَاللهُ هُوَ الحَاكِمُ الذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَلا يُسْأل عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُوَ وَاسِعُ العِلْمِ وَالفُضْلِ ، يَخْتَصُّ برَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ عَليمٌ بمنْ يَسْتَحِقُّ المُلْكَ مِمَّنْ لاَ يَسْتَحِقُّهُ .

كَانَ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ التَّوْرَاةُ وَتَابُوتُ العَهْدِ الذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُنْذُ مَطْلِعِ تَارِيخِهِمْ ، وَكَانَ يَرِثُهُ خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ ، وَكَانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِهِ فِي حُرُوبِهِمْ . وَلَمَّا ضَلُّوا وَبَغَوْا سَلَّط اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ سَلَبَهُمْ إِيَّاهُ (وَهُمُ العَمَالِيقُ الفِلَسْطِينيُّونَ) ، وَقَدْ حَارَبُوا اليَهُودَ وَانْتَصَرُوا عَلَيهِمْ ، فَأَخَذُوا التَّابُوتِ وَنَكَّلُوا بهِمْ تَنْكِيلا شَدِيداً ، فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ عَلامَةِ رِضَا اللهِ عَلَى مُلْكِ طَالُوت هُوَ أنْ يَرُدَّ عَليكُمُ التَّابُوتَ فَيُورِثكُم رَدُّهُ عَلَيكُم السَّكِينَة والطُّمَأنينَةَ . وَفِي التَّابُوتَ التَّوراةُ وَبَقِيَّةُ مِمَّا تَرَكَ مُوسَى وَهَارُونُ وَمِنْهَا

بَقَايَا الألْوَاحِ . فَجَاءَتِ المَلاَئِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَي طَالُوتَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ . وَفِي ذَلِكَ آيَةٌ لِبني إسْرَائِيلَ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ نَبِيِّهِمْ ، وَعَلَى صِدْقِهِ فِيمَا أمَرَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ مِنْ وُجُوبِ إطَاعَةِ طَالُوتَ ، هَذا إنْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليومِ الآخَرِ .

وَلَمَّا خَرَجَ طَالُوتُ بِجَيْشِهِ مِنَ البَلَدِ مُتَّجهاً إلى حَرْبِ الأَعْدَاءِ ، وَكَانَ الوَقْتُ قَائِضاً ، سَأَلَ بَنُو إسْرائِيلَ طَالُوتَ المَاءَ ، فَقَالَ لَهُمْ إنَّ اللهَ مُخْتَبِرُكُمْ بنَهْرٍ سَتَمُرُّونَ بِهِ (وَهُوَ نَهْرُ الأُرْدُنِّ عَلَى قَوْلٍ) فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلا يُصَاحِبْنِي ، وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ فَلْيُصَاحِبْنِي ، وَلَكِنْ لاَ بَأسَ فِي أنْ يَغْتَرِفَ الوَاحِدُ غُرْفَةً بَيَدَيهِ يَبُلُّ بهَا رِيقَهُ ، فَتَمَرَّدَ أكْثَرُهُمْ ، وَشَرِبُوا مِنَ النَّهْرِ ، وَبَقِيَ طَالُوتُ فِي فِئَةٍ قَليلَةٍ مِنْ جُنُودِهِ ، فَاجْتَازَ بِهِم النَّهْرَ ، فَلَمَا نَظَرَ أصْحَابُ طَالُوتَ إلى قِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، قَالُوا : إنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ مُحَارَبَةَ جَالُوتَ وَجُنُودِهِ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، فَشَجَّعَهُمْ عُلَمَاؤهُمْ ، وَقَالُوا لَهُمْ : إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَإنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَلَيْسَ بكَثْرَةِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ ، وَكثيراً مَا غَلَبَتْ قُوَّةٌ صَغِيرةٌ مُؤْمِنَةٌ مُخْلِصَةٌ فِي قِتَالِهَا ، فِئَةً كَثِيرَةَ العَدَدِ بإذْنِ اللهِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ الصَّابرينَ وَيَنْصُرُهُمْ .

وَلَمّا تَقَدَّمَ المُؤْمِنُون المُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللهِ مَعَ طَالُوتَ لِقِتَالِ جَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، دَعَوا اللهَ وَرَجَوْهُ أنْ يُنْزِلَ عَلَيهِم الصَّبْرَ عَلَى الشِّدَّةِ ، وَأنْ يُثَبِّتَ أقْدَامَهُم عِنْدَ لِقَاءِ أَعْدَائِهِمْ ، وَأنْ يُجَنِّبَهُمُ العَجْزَ وَالفِرَارَ ، وَأنْ يَمُنَّ عَلَيهِمْ بِالنَّصْرِ عَلَى القَوْمِ الكَافِرينَ

فَهَزَمَ المُؤْمِنُونَ الذِينَ كَانُوا مَعَ طَالُوتَ أعْدَاءَهُمُ الكَافِرِينَ بِإذْنِ اللهِ ، وَقَتَلَ دَاوُدُ (مِنْ جَيْشِ طَالُوتَ) جَالُوتَ مَلِكَ الكُفَّارِ ، وَمَنَّ اللهُ عَلَى دَاوُدَ بأنْ آتَاهُ المُلْكَ الذِي كَانَ بيَدِ طَالُوتَ ، وَالنُّبُوَّةَ (الحِكْمَةَ) ، وَعَلَّمَهُ اللهُ مِنَ العِلْمِ الذِي اخْتَصَّهُ بِهِ ، وَلَوْلا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَأسَ أهْلِ البَغْيِ وَالجَوْرِ وَالآثَامِ ، بأهْلِ الصَّلاَحِ وَالخَيْرِ ، لِغَلَبَ أَهْلَ الفَسَادِ ، وَبَغَوْا عَلَى الصَّالِحينَ ، وَصَارَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فَفَسَدَتِ الأرْضُ ، فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ أنْ أذِنَ لِلْمُصْلِحِينَ بِقِتَالِ البُغَاةِ المُفْسِدِينَ . وَاللهُ يَمُنُّ عَلَى عِبَادِهِ وَيَرْحَمُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ ، وَلَهُ الحِكْمَةُ وَالحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَميعِ أقْوَالِهِ وَأفْعَالِهِ .

وَهَذِهِ القَصَصُ التِي قَصَّهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ إنَّما قَصَّها بالحَقِّ (أيْ بالوَاقِعِ الذِي كَانَ الأمْرُ عَلَيهِ ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَي أهْلِ الكِتَابِ مِنَ الحَقِّ) لِتَكُونَ لِلنَّبيِّ ﷺ أُسْوةٌ يَتأسَّى بها ، وَلِتَكُونَ دَليلاً عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ ، وَلِيَعْلَمَ أنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُ كَمَا نَصَرَ مَنْ جَاءَ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ ، وَليعَلْمَ أنَّهُ مِنَ المُرْسَلِينَ الذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ .

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى . . ولكنه دستور شامل . . دستور للتربية ، كما أنه دستور للحياة العملية ، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها ؛ وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض من لدن آدم – عليه السلام – وقدمها زادا للأمة المسلمة في جميع أجيالها . تجارها في الأنفس ، وتجارها في واقع الحياة .

كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها ، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم ، وذلك الرصيد المتنوع .

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة ، وبهذا التنوع ، وبهذا الإيحاء . .

وقصص بني إسرائيل هو أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم ، لأسباب عدة ، ذكرنا بعضها في الجزء الأول من الظلال عند استقبال أحداث بني إسرائيل ؛ وذكرنا بعضها في هذا الجزء في مناسبات شتى - وبخاصة في أوله - ونضيف إليها هنا ما نرجحه . . وهو أن الله - سبحانه - علم أن أجيالا من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مر فيها بنو إسرائيل ، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل ؛ فعرض عليها مزالق الطريق ، مصورة في تاريخ بني إسرائيل ، لتكون لها عظة وعبرة ؛ ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيد الله - سبحانه - قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق !

إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي . وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية ، تتنزل اليوم ، لتعالج مسائل اليوم ، ولتنير الطريق إلى المستقبل . لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل ؛ أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود !

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا ؛ كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة . . وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد . وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي ! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق ؛ وتقول لنا:هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه . وتقول لنا:

هذا عدو لكم وهذا صديق . وتقول لنا:كذا فاتخذوا من الحيطة وكذا فاتخذوا من العدة . وتقول لنا حديثا طويلا مفصلا دقيقا في كل ما يعرض لنا من الشؤون . .

وسنجد عندئذ في القرآن متاعا وحياة ؛ وسندرك معنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) . .

فهي دعوة للحياة . . للحياة الدائمة المتجددة . لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ .

هذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم ؛ يضمهما إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب ؛ ويعد بهما الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف ؛ بسبب قيامها بدورها الكبير ، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية ، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصيب .

والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها ؛ ويعرضها في اختصار كامل ، ولكنه واف . فهي تجربة جماعة (خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت) . .

فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر ؛ وأدركهم قدر الله الذي خرجوا حذرا منه . . فقال لهم الله:(موتوا) . .

(ثم أحياهم) . . لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت ، و لم يبذلوا جهدا في استرجاع الحياة . وإنما هو قدر الله في الحالين .

وفي ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال ، وعلى الإنفاق في سبيل الله ، واهب الحياة . وواهب المال . والقادر على قبض الحياة وقبض المال .

والثانية تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى . .

بعدما ضاع ملكهم ، ونهبت مقدساتهم ، وذلوا لأعدائهم ، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدي ربهم ، وتعاليم نبيهم . .

ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة ؛ واستيقظت في قلوبهم العقيدة ؛ واشتاقوا القتال في سبيل الله . فقالوا: (لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) .

ومن خلال هذه التجربة - كما يعرضها السياق القرآني الموحي - تبرز جملة حقائق ، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل ، فضلا على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين .

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ، ومن تخلي القوم عنها فوجا بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا . .

فقد كان فيها النصر والعز والتمكين ، بعد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل والذي تحت أقدام المتسلطين . ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان - وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض ، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه ؛ والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى . .

وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ؛ وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت !

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية ؛ كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين: من ذلك . .

أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها . فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة . .

فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل - من ذوي الرأي والمكانة فيهم - إلى نبيهم في ذلك الزمان ، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم ، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها

مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم:

(هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا !) استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له: (وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟) . . ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة ؛ وكما يقول السياق بالإجمال:

(فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم) . . ومع أن لبني إسرائيل طابعا خاصا في النكول عن العهد ، والنكوص عن الوعد ، والتفرق في منتصف الطريق . . إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال ، في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب . .

وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل . . فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل .

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول . .

فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم . ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها . وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة ، ووقوع علامة الله باختياره لهم ، ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة . . . !

ومع هذا فقط سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى . وضعفوا أمام الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدهم: (فلما فصل طالوت بالجنود قال:إن الله مبتليكم بنهر:فمن شرب منه فليس مني . ومن لم يطعمه فإنه مني – إلا من اغترف غرفة بيده – فشربوا منه إلا قليلا منهم) . . وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية . فأمام الهول الحي ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب: (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا:لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) . . وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة . . اعتصمت بالله ووثقت ، وقالت: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) . . وهذه هي التي رجحت الكفة ، وتلقت النصر ، واستحقت العز والتمكين .

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة . . وكلها واضحة في قيادة طالوت . تبرز منها خبرته بالنفوس ؛ وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة ، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة ، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه . .

ثم – وهذا هو الأهم – عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ؛ و لم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة . فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ، ووعد الله الصادق للمؤمنين .
والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة . .
أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته ؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل ، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود . فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر ، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) . . ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . إنما حكمت حكما آخر ، فقالت: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) . .
ثم اتجهت لربها تدعوه: (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين ، إنما هو في يد الله وحده . فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه . .
وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا ، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون !
ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة . فالنصوص القرآنية – كما علمتنا التجربة – تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن ؛ وبقدر حاجته الظاهرة فيه . ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب ، في شتى المواقف ، على قدر مقسوم . .
فنخلص إذن من هذا العرض العام إلى تفصيل النصوص:
ثم يورد السياق التجربة الثانية ، وأبطالها هم بنو إسرائيل من بعد موسى:
(ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله . قال:هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ! قالوا:وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين) . .
ألم تر ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور . . لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل ، من كبرائهم وأهل الرأي فيهم – إلى نبي لهم . و لم يرد في السياق ذكر اسمه ، لأنه ليس المقصود بالقصة ، وذكره هنا لا يزيد شيئا في إيحاء القصة ، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل . .
لقد اجتمعوا إلى نبي لهم ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته (في سبيل الله) . .

وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه في (سبيل الله) يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ، ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله .

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر . فلا بد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ؛ ولا بد أن يتجرد في حسه الهدف . . في سبيل الله . . فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه إلى أين يسير .

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة ، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر:

(قال:هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا !) . .

ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم ؟ فأنتم الآن في سعة من الأمر . فأما إذا استجبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ؛ ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . . إنها الكلمة اللائقة بنبي ، والتأكد اللائق بنبي . فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ .

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة ؛ وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردد فيه:

(قالوا:وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟) . .

ونجد أن الأمر واضح في حسهم ، مقرر في نفوسهم . .

إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله . وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم . فقتالهم واجب ؛ والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال ؛ ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال .

ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم . ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية: (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم) . .

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولي عن الحق البين . .

ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية ؛ فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقةالتأثير . وهي - من ثم - سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر ، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر ، كي لا تفاجأ بها ، فيتعاظمها الأمر !

فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب ، و لم تصهر و لم تطهر من هذه العقابيل

والتعقيب على هذا التولي: (والله عليم بالظالمين) . .

وهو يشي بالاستنكار ؛ ووصم الكثرة التي تولت عن هذه الفريضة - بعد طلبها - وقبل أن تواجـه الجهاد مواجهة عملية . .

وصمها بالظلم . فهي ظالمة لنفسها ، وظالمة لنبيها ، وظالمة للحق الذي خذلته وهي تعرف أنه الحق ، ثم تتخلى عنه للمبطلين !

إن الذي يعرف أنه على الحق ، وأن عدوه على الباطل - كما عرف الملأ من بـني إسـرائيل وهـم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكا ليقاتلوا (في سبيل الله) . . ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينـهض بتبعة الحق الذي عرفه في وجه الباطل الذي عرفه . . إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهـم . . (والله عليم بالظالمين) . .

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، و لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم مـن أول الطريق . .

والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين . فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود:

(فلما فصل طالوت بالجنود قال:إن الله مبتليكم بنهر . فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني - إلا من اغترف غرفة بيده . فشربوا منه إلا قليلا منهم) . .

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . .

إنه مقدم على معركة ؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مـرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القـوة الظـاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة . الإرداة التي تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتـاز الابتلاء بعد الابتلاء . .

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره:صموده أولا للرغبات والشهوات ، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب . .

واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش . ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية . . وصحت فراسته:

(فشربوا منه إلا قليلا منهم) . .

شربوا وارتووا . فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف !

وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقـاة علـى عاتقه وعاتقهم . وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بـذرة ضـعف

وخذلان وهزيمة . والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصـــامد ، والإرادة الجازمـــة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق .

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ؛ ولا بد من التجربة العملية ، ومواجهـــة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها . ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الـــذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى . .

بل مضى في طريقه .

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت - إلى حد - ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعـــد: (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا:لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) . .

لقد صاروا قلة . وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته:بقيادة جالوت . إنهم مؤمنون لم ينكصـــوا عـــن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته . إنها التجربة الحاسمة . تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور . وهذه لا يصمد لهـــا إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم ؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم !

وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة . والفئة ذات الموازين الربانية:

(قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله:كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين) . .

هكذا . . (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) . .

بهذا التكثير . فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله . القاعدة:

أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حـــتى تنتـــهي إلى مرتبـــة الاصـــطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة . قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين .

وهم يكلون هذا النصر لله: (بإذن الله) . .

ويعللونه بعلته الحقيقية: (والله مع الصابرين) . . فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركـــة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . .

ونمضي مع القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله ، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله ، وأنه مع الصابرين . . إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة ، الثابتة ، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضـــعفها وقلتـــها . . إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة . بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلـــب النصر منه وحده ، وهي تواجه الهول الرعيب:

(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا:ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء) . .

هكذا . .

(ربنا أفرغ علينا صبرا) . . وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه علـــيهم فيغمـــرهم ، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة . (وثبت أقدامنا) . . فهـــي في يـــده – سبحانه – يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد . (وانصرنا على القوم الكافرين) . . فقد وضـــح الموقف . .

إيمان تجاه كفر . وحق إزاء باطل . ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين . فلا تلجلج في الضمير ، ولا غبش في التصور ، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق .

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: (فهزموهم بإذن الله) . .

ويؤكد النص هذه الحقيقة: (بإذن الله) . . ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما . وليتضح التصـــور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون ، ولطبيعة القوة التي تجريه . .

إن المؤمنين ستار القدرة ؛ يفعل الله بهم ما يريد ، وينفذ بهم ما يختار . .

بإذنه . . ليس لهم من الأمر شيء ، ولا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله يختارهم لتنفيـــذ مشـــيئته ، فيكون منهم ما يريده بإذنه . . وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين . .

إنه عبد الله . اختاره الله لدوره . وهذه منة من الله وفضل . وهو يؤدي هذا الدور المختار ، ويحقـــق قدر الله النافذ . ثم يكرمه الله – بعد كرامة الاختيار – بفضل الثواب . .

ولولا فضل الله ما فعل ، ولولا فضل الله ما أثيب . .

ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق . .

فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي ، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد . استحق هـــذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص .

ويبرز السياق دور داود:

(وقتل داود جالوت) . .

وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل . وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا . .

ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها ، إنما تجري بحقائقها . وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها في يده وحده . فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا الله بعهدهم . ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يـــد

هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم . .

وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله . فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه إبنه سليمان ، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود:

(وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) . .

وكان داود ملكا نبيا ، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى . .

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعا . .

وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة ، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية . .

حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى . .

إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات . .

إنما هو الصلاح في الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر:

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين) . .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب المــوار . وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس ، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات . .

ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق ، إلى الخير والصلاح والنماء ، في نهاية المطاف . .

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتنفض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة ، وتظل أبدا يقظة عاملة ، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة . .

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء . .

يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة . تعرف الحق الذي بينه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحا . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض . وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب

الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل ، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه . .

وهنا يمضي الله أمره ، وينفذ قدره ، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا ، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية ، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه . وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة .

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر . ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض ، وتمكين الصلاح في الحياة . إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار .

٧١- عدم الردة مهما أصاب المسلم من مكروه

قال تعالى : *يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* (٢١٧) سورة البقرة

بَعَثَ الرَّسُولُ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ عَلَى سَرِيَّةٍ وَأَمَرَهَا بِأَمْرٍ ، فَلَقِيَتِ السَّرِيَّةُ ابْنَ الحَضْرَمِيِّ فَقَتَلَتْهُ ، وَلَمْ يَعْرِفْ رِجَالُ السَّرِيَّةِ إِنْ كَانَ ذلِكَ اليَوْمُ مِنْ رَجَبٍ أَوْ مِنْ جُمَادَى الآخِرَةِ ، فَقَالَ المُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ : قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآيَةَ . وَفِيهَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِلْمُشْرِكِينَ : إنَّ القِتَالَ فِي الشَّهرِ الحَرَامِ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَجُرْمٌ عَظِيمٌ ، وَلكِنَّهُ إذا ارتُكِبَ لإِزَالَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ، كَانَ لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ ، وَإِنَّ مَا فَعَلَهُ المُشْرِكُونَ مِنَ الكُفْرِ بِاللهِ ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَمُحَاوَلَةِ فِتْنَةِ المُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ بِالتَّعْذِيبِ وَالتَّهْدِيدِ ، وَإِخراجِ المُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ . كُلُّ ذلِكَ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ مِنَ القِتَالِ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ .

وَقَدْ كَانَ المُشْرِكُونَ يَفْتِنُونَ المُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ بِالتَّعْذِيبِ وَالإِخَافَةِ لِيَرُدُّوهُمْ إِلى الكُفْرِ ، وَهذا أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ مِنَ القَتْلِ ، وَهُمْ مَا زَالُوا مُقِيمِينَ عَلَى الكُفْرِ ، وَعَلَى مُحَاوَلَةِ فِتْنَةِ المُسْلِمِينَ لِيَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَعَلَى مُحَاوَلَةِ مَنْعِ الإِسْلاَمِ مِنَ الانْتِشَارِ وَالقَضَاءَ عَلَيهِ ، إِنْ أَمْكَنَهُم ذلِكَ ، لاسْتِحْكَامِ عَدَاوَتِهِمْ لِلمُسْلِمِينَ . وَيُهَدِّدُ اللهُ مِنْ يَضْعُفُ مِنَ المُسْلِمِينَ أَمَامَ هَجَمَاتِهِمْ ، وَمُحَاوَلاتِهِمْ وَإِغْراءَاتِهِمْ فَيَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَهُوَ كَافِرٌ ، بِالعَذَابِ الأَلِيمِ الأَبَدِيِّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَبِحُبُوطِ عَمَلِهِ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

إن المسلمين لم يبدأوا القتال ، و لم يبدأوا العدوان . إنما هم المشركون . هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله ، والكفر به وبالمسجد الحرام . لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . ولقد كفروا بالمسجد الحرام . انتهكوا حرمته ؛ فآذوا المسلمين فيه ، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة . وأخرجوا أهله منه ، وهو الحرم الذي جعله الله آمنا ، فلم يأخذوا بحرمته و لم يحترموا قدسيته . .

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . .

وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام . ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات ؛ الذي يتخذون منها ستارا حين يريدون ، وينتهكون قداستها حين يريدون ! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم ، لأنهم عادون باغون أشرار ، لا يرقبون حرمة ، ولا يتحرجون أمام قداسة . وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة !

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل . وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه ، لتشويه موقف الجماعة المسلمة ، وإظهارها بمظهر المعتدي . . وهم المعتدون ابتداء . وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء .

إن الإسلام منهج واقعي للحياة ، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية . إنه يواجه الحياة البشرية – كما هي – بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية . يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد . يواجهها بحلول عملية تكافىء واقعياتها ، ولا ترفرف في خيال حالم ، ورؤى مجنحة:لا تجدي على واقع الحياة شيئا

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون . لا يقيمون للمقدسات وزنا ، ولا يتحرجون أمام الحرمات ، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة . يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام ! . .

ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام ، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات ، ويرفعون أصواتهم:انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام !

فكيف يواجههم الإسلام ؟

يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة ؟

إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح ، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح ، ولا يتورعون عن سلاح . . !

كلا إن الإسلام لا يصنع هذا ، لأنه يريد مواجهة الواقع ، لدفعه ورفعه . يريد أن يزيل البغي والشر ، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال . ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة ، ويسلم القيـــادة للجماعـــة الطيبة . ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة ، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة !

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات ، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه . ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ، ويؤذون الطيبين ، ويقتلون الصـــالحين ، ويفتنـــون المؤمنين ، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان ! وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد . .

إنه يحرم الغيبة . . ولكن لا غيبة لفاسق . .

فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه . وهو يحرم الجهر بالسوء من القول . ولكنه يستثني (إلا من ظلم) . . فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول ، لأنه حق . ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه !

ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلا مستوى الأشرار البغاة . ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة . .

إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم ، وإلى قتالهم وقتلهم ، وإلى تطهير جو الحيـــاة منهم . . هكذا جهرة وفي وضح النهار . .

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة ، وحين يتطهـــر وجـــه الأرض ممـــن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات . . حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله . هذا هو الإسلام . .

صريحا واضحا قويا دامغا ، لا يلف ولا يدور ؛ ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور .

وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة ، لا تتأرجح فيها أقدامهم ، وهم يمضون في ســـبيل الله ، لتطهير الأرض من الشر والفساد ، ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيهـــا الوساوس . .

هذا شر وفساد وبغي وباطل . .

فلا حرمة له إذن ، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات ، ليضرب من ورائها الحرمات !

وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة ؛ في سلام مع ضمائرهم ، وفي سلام من الله . .

ويمضي السياق بعد بيان هذه الحقيقة ، وتمكين هذه القاعدة ، وإقرار قلوب المسلمين وأقـــدامهم . . يمضي فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم ، وأصالة العدوان في نيتهم وخطتهم:

(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) . .
وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر ؛ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم ؛ بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم . وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل . .
إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ؛ ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم . فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل ، ويرهبه كل باغ ، ويكرهه كل مفسد . إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج ، ومن منهج قويم ، ومن نظام سليم . .
إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد . ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون .ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه ، ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة . ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين ، وتتبع هذا المنهج ، وتعيش بهذا النظام .
وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ، ولكن الهدف يظل ثابتا . . أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا . وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها . .
والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبهها إلى الخطر ؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب ، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة ؛ والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر:
ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . .
والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت . . والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل ، فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي . . يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره ، وهلاكه في النهاية وبواره . .
مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخّ !
ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه ؛ تحت مطارق الأذى والفتنة – مهما بلغت – هذا مصيره الذي قرره الله له . . حبوط العمل في الدنيا والآخرة . ثم ملازمة العذاب في النار خلودا .
إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه ، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا . إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له . وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة . فالله رحيم . رخص للمسلم – حين يتجاوز العذاب طاقته – أن يقي نفسه بالتظاهر ، مع بقاء قلبه ثابتا على الإسلام

مطمئنا بالإيمان . ولكنه لم يرخص له في الكفر الحقيقي ، وفي الارتداد الحقيقي ، بحيث يموت وهـــو كافر . .

والعياذ بالله . .

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان . . ليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه ، ويرتد عن إيمانه وإسلامه ، ويرجع عن الحق الذي ذاقه وعرفه . . وهناك المجاهدة والمجالـــدة والصبر والثبات حتى يأذن الله . والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به ، ويصبرون على الأذى في سبيله . فهو معوضهم خيرا:إحدى الحسنيين:النصر أو الشهادة .

وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله ؛ لا ييئس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم) .

ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدا . .

ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق ، فجاهدوا وصـــبروا ، حـــتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة . وكلاهما خير . وكلاهما رحمة . وفازوا بمغفرة الله ورحمتـــه: (والله غفور رحيم) . .

وهو هو طريق المؤمنين . .

٧٢- وجوب التعلق بالرسول والرسالة

قال تعالى : *لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ* (١٦٤) سورة آل عمران

مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أنْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَمِنْ أهْلِ بَلَدِهِمْ وَلُغَتِهِمْ (مَنْ أنْفُسِهِمْ) ، لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَمُجَالَسَتِهِ ، وَالانْتِفَاعِ بِصُحْبَتِهِ وَسُؤَالِهِ عَمَّا سَيَتَشْكِلُ عَلَيْهِمْ فِـــي أمُـــورِ دِينِهِمْ ، وَيَتْلُو عَلَيهِم القُرآنَ (آياتِ اللهِ) وَيَأمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ ، لِتَزْكُوَ أنْفُسُهُم ، وَتَطْهُرَ مِنْ أرْجَاسِ الجَاهِلِيَّةِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ القُرآنَ (الكِتَابَ) وَالسُّنَّةَ (الحِكْمَةَ) فَقَدْ كَانُوا قَبْـــلَ هَـــذا الرَّسُولِ فِي غَيٍّ وَجَهَالَةٍ (ضَلاَلٍ) ظَاهِرَيْنِ لِكُلِّ أحَدٍ .

إن ختام هذه الفقرة بهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الرسول ﷺ وقيمتها الذاتية ، وعظم المنة الإلهية بها ، ودورها في إنشاء هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادتها ، ونقلها من الضلال المبين إلى العلم والحكمـــة والطهارة . .

إن هذا الختام يتضمن لمسات قرآنية كثيرة منوعة عميقة:
إنها تجيء ابتداء تعقيبا على الغنائم والطمع فيها والغلول ، والانشغال بهذا الأمر الصغير ، الذي كـان الإنشغال به هو السبب المباشر الذي قلب الموقف في المعركة ، وبدل النصر هزيمة ، وفعل بالمسلمين الأفاعيل . فالإشارة إلى حقيقة الرسالة الكبيرة ، والمنة العظيمة المتمثلة فيها ، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية الفريدة . تبدو في ظلها غنائم الأرض كلها ، وأسلاب الأرض كلها ، وإعراض الأرض كلها ، شيئا تافها زهيدا ، لا يذكر ولا يقدر . شيئا تخجل النفس المؤمنة أن تذكره ، بل تستحي أن تفكر فيه ! فضلا عن أن تشغل به !
وهي تجيء في سياق الحديث عن الهزيمة والقرح والألم والخسارة التي أصابت الجماعة المسلمة في المعركة . .
فالإشارة إلى تلك الحقيقة الكبيرة ، وما تمثله من منة عظيمة ، لمسة عميقة من لمسات التربية القرآنية العجيبة ، تصغر في ظلها الآلام والخسائر ، وتصغر إلى جانبها الجراح والتضحيات . على حين تعظم المنة ، ويتجلى العطاء الذي يرجح كل شيء في حياة الأمة المسلمة على الإطلاق .
ثم . . الإشارة إلى آثار هذه المنة في حياة الأمة المسلمة (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . .
وهي تشي بالنقلة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن عهد إلى عهد . فتشعر الأمة المسلمة بما وراء هذه النقلة من قدر الله الذي يريد بهذه الأمة أمرا ضخما في تاريخ الأرض ، وفي حياة البشر ، والذي يعدها لهذا الأمر الضخم بإرسال الرسول ﷺ فما ينبغي لأمة هذا شأنها ، أن تشغل بالها بالغنائم التي تبدو تافهة زهيدة في ظل هذا الهدف الضخم ، ولا أن تجزع من التضحيات والآلام ، التي تبدو هينة يسيرة في ظل هذه الغاية الكبيرة . .
هذه بعض اللمسات المستفادة من ذكر هذه المنة في هذا السياق . نذكرها باختصار وإجمال ، لنواجه النص القرآني الحافل بالإيحاءات والظلال: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) . .
إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولا ، وأن يكون هذا الرسول (من أنفسهم) . . إن العناية من الله الجليل ، بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه ، هي المنة التي لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهي . المنة الخالصة التي لا يقابلها شيء من جانب البشر . وإلا فمن هم هؤلاء الناس ، ومن هم هؤلاء الخلق ، حتى يذكرهم الله هذا الذكر ، ويعنى بهم هذه العناية ؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم ، أن يرسل لهم رسولا من عنده ، يحدثهم بآياته – سبحانه – وكلماته ، لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب ، ويغمر خلائقه بلا سبب منهم ولا مقابل ؟
وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول "من أنفسهم" . .

لم يقل "منهم" فإن للتعبير القرآني "من أنفسهم" ظلالا عميقة الإيحاء والدلالة . .

إن الصلة بين المؤمنين والرسول هي صلة النفس بالنفس ، لا صلة الفرد بالجنس .

فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى . إنما هي أعمق من ذلك وأرقى . ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله . فهو منة على المؤمنين . .

فالمنة مضاعفة ، ممثلة في إرسال الرسول ، وفي وصل أنفسهم بنفس الرسول ، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب .

ثم تتجلى هذه المنة العلوية في آثارها العملية . . في نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنساني: (يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة) . .

تتجلى هذه المنة في أكبر مجاليها . في تكريم الله لهم . بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل: يتلو عليهم آياته . .

ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعته وهزته حتى ما يتمالك أن ينصب قامته أمام الله ، حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة !

ولو تأمل أن الله الجليل – سبحانه – يتكرم عليه ، فيخاطبه بكلماته . يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته ؛ وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها . ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو – هو الإنسان – هو العبد الصغير الضئيل – وعن حياته ، وعن خوالجه ، وعن حركاته وسكناته . يخاطبه ليدعوه إلى ما يحييه ، وليرشده إلى ما يصلح قلبه وحاله ، ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض .

فهل هو إلا الكرم الفائض الذي يجري بهذه المنة ، وهذا التفضل ، وهذا العطاء ؟

إن الله الجليل غني عن العالمين . وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير المحووج . .

ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل ، ويتلمسه بعنايته ، ويتابعه بدعوته ! والغني هو الذي يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته ! فيا للكرم ! ويا للمنة ! ويا للفضل والعطاء الذي لا كفاء له من الشكر والوفاء !

(ويزكيهم) . . يطهرهم ويرفعهم وينقيهم . يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم . ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم . ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم . .

يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته . . ويطهرم من دنس الحياة الجاهلية ، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم .

وقد كان لكل جاهلية من حولهم أرجاسها ، وكان للعرب جاهليتهم وأرجاسها .

من أرجاسها هذا الذي وصفه جعفر بن أبي طالب وهو يحدث نجاشي الحبشة في مواجهة رسولي قريش إليه ، وقد جاءا إليه ليسلمهما المهاجرين من المسلمين عنده . .

يقول جعفر:

" أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِى الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ وَنُسِىءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِىُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ – قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ – فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَحَرَّمْنَا مَا حُرِّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أُحِلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِى جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ." مسند أحمد(١٧٦٦) وهو حديث حسن

ومن أرجاسها ما حكته عائشة – رضي الله عنها – وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية كما جاء في صحيح البخاري (٥١٢٧) ، في هذه الصورة الهابطة الحيوانية المزرية:

" أَنَّ النِّكَاحَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لاِمْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِى إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِى مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِى تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِى نَجَابَةِ الْوَلَدِ فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاِسْتِبْضَاعِ وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا. فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالِىَ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِى كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ. تُسَمِّى مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِى يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِىَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ. . .

ودلالة هذه الصورة على هبوط التصور الإنساني وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق . ويكفي تصور الرجل ، وهو يرسل امرأته إلى "فلان" لتأتي له منه بولد نجيب . تماما كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب ، لتأتي له منه بنتاج جيد !

ويكفي تصور الرجال – ما دون العشرة ! – يدخلون إلى المرأة مجتمعين – "كلهم يصيبها ! " . . ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها !

أما البغاء – وهو الصورة الرابعة – فهو البغاء !

يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة ! لا يجد في ذلك معرة ! ولا يمتنع من ذلك !

إنه الوحل . الذي طهر الإسلام منه العرب . وزكاهم . وكانوا – لولا الإسلام – غارقين إلى الأذقان فيه !

و لم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفا من النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية . يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم:"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين":

"وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف ، تؤكل حقوقها ، وتبتز أموالها ، وتحرم من إرثها ، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجا ترضاه وتورث كما يورث المتاع أو الدابة عن ابن عباس قال:" كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه ، فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتىتفتدى بصداقها ، أو تموت فيذهب بمالها " . .

وقال عطاء بن رباح . . " إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل ، فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم " . . وقال السدي:إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو إبنه ، فإذا مات وترك امرأته ، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه ، أو ينكحها فيأخذ مهرها . وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها " . وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها ، يؤخذ مما تؤتي من مهر ، وتمسك ضرارا للاعتداء . وتلاقي من بعلها نشوزا أو إعراضا ، وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة . ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث . وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من غير تحديد .

"وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد . ذكر الهيثم بن عدي – على ما حكاه عنه الميداني – أن الوأد كان مستعملا في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة . فجاء الإسلام ، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد . فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن . ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء . أو شيماء [سوداء] أو برشاء [برصاء] أو كسحاء [عرجاء] تشاؤما منهم بهذه الصفات . ومنهم كان يقتل أولاده خشية الإنفاق ، وخوف الفقر . .

"وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله ، فلا يئدها إلا وقد كبرت ، وصارت تعقل . وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات . وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق" . .

ومن أرجاسها – وأصل هذه الأرجاس جميعا – الشرك والوثنية الهابطة الساذجة:كما يصورها في إجمال الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه:

"انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها . فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة ، صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصي . قال الكلبي:كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر ، كان آخر ما يصنع في مترله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل مترله أن يتمسح به أيضا" . واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ؛ ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم ، وامام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأنصاب . وكان في جوف الكعبة – البيت الذي بني لعبادة الله وحده – وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنما . وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة . روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي ، قال:كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو خيرا منه القيناه وأخذنا الآخر ؛ فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به . وقال الكلبي:كان الرجل إذا سافر فترل مترلا ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربا ، وجعل ثلاث أثافي لقدره ، وإذاارتحل تركه .

"وكان للعرب – شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان – آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب . فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ، ويعبدونهم ، ويتوسلون بهم عند الله . واتخذوا كذلك معه الجن شركاء لله ، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم ، وعبدوهم . قال الكلبي:كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن . وقال صاعد:كانت حمير تعبد الشمس . وكنانة القمر . وتميم الدبران . ولخم وجذام المشتري . وطي سهيلا . وقيس الشعري العبور . وأسد عطاردا" .

ويكفي أن يتصفح الإنسان هذه الصورة البدائية الغليظة من الوثنية ، ليعرف أي رجس كانت تنشره في القلوب والتصورات وفي واقع الحياة !

ويدرك النقلة الضخمة التي نقلها الإسلام للقوم ، والطهارة التي أسبغها على تصوراتهم وعلى حياتهم سواء . ومن هذه الأرجاس تلك الأدواء الخلقية والاجتماعية ، التي كانت في الوقت ذاته من مفاخرهم في أشعارهم ! ومن مفاخراتهم في أسواقهم ! من الخمر إلى القمار إلى الثارات القبلية الصغيرة ، التي تشغل اهتماماتهم ، فلا ترتفع على تلك التصورات المحلية المحدودة:

"هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر . فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب إبني وائل ، ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا أن كليبا رئيس معد ، رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها ؛ وقتل جساس بن مرة كليبا ،

واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب . وكانت كما قال المهلهل أخو كليب:"قد فني الحياة ، وثكلت الأمهات ، ويتم الأولاد . دموع لا ترقأ ، وأجساد لا تدفن" .

"وكذلك حرب داحس والغبراء . فما كان سببها إلا أن داحسا فرس قيس بن زهير ، كان سابقا في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر ، فعارضه أسدي بإيعاز من حذيفة ، فلطم وجهه وشغله ، ففاتته الخيل . وتلا ذلك قتل ، ثم أخذ بالثأر . ونصر القبائل لأبنائها ، وأسر ، ونزح للقبائل ، وقتل في ذلك ألوف من الناس" .

وكان ذلك علامة فراغ الحياة من الاهتمامات الكبيرة ، التي تشغلهم عن تفريغ الطاقة في هذه الملابسات الصغيرة . إذ لم تكن لهم رسالة للحياة ، ولا فكرة للبشرية ، ولا دور للإنسانية ، يشغلهم عن هذا السفساف . . ولم تكن هناك عقيدة تطهرهم من هذه الأرجاس الاجتماعية الذميمة . .

وماذا يكون الناس من غير عقيدة إلهية ؟ ماذا تكون اهتماماتهم ؟ وماذا تكون تصوراتهم ؟ وماذا تكون أخلاقهم ؟

إن الجاهلية هي الجاهلية . ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها . لا يهم موقعها من الزمان والمكان . فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ، ومن شريعة – منبثقة من هذه العقيدة – تحكم حياتهم ، فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة . . والجاهلية التي تتمرغ البشرية اليوم في وحلها ، لا تختلف في طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التي عاصرتها في أنحاء الأرض ، حتى أنقذها منها الإسلام وطهرها وزكاها .

إن البشرية اليوم تعيش في ماخور كبير !

ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها . ومسابقات جمالها ، ومراقصها ، وحاناتها . وإذاعاتها . ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العاري ، والأوضاع المثيرة ، والإيحاءات المريضة ، في الأدب والفن واجهزة الإعلام كلها . .

إلى جانب نظامها الربوي ، وما يكمن وراءه من سعار للمال ، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره ، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون . .

وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي ، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت ، وكل نظام ، وكل تجمع إنساني . . نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية .

إن البشرية تتآكل إنسانيتها ، وتتحلل آدميتها ، وهي تلهث وراء الحيوان ، ومثيرات الحيوان ، لتلحق بعالمه الهابط ! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر . لأنه محكوم بفطرة حازمة لا تتميع ، ولا تأسن كما تأسن شهوات الإنسان حين ينفلت من رباط العقيدة ، ومن نظام العقيدة ، ويرتد إلى الجاهلية التي

أنقذه الله منها ، والتي يمتن الله على عباده المؤمنين بتطهيرهم منها في تلك الآية الكريمة: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) . .

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالا . أمية القلم ، وأمية العقل سواء . وما كان لهم من المعرفة شيء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة ، في أي باب من الأبواب . وما كان لهم في حياتهم من هموم كبيرة تنشيء معرفة ذات قيمة عالمية في أي باب من الأبواب . فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا ، وحكماء العالم ، وأصحاب المنهج العقيدي والفكري والاجتماعي والتنظيمي ، الذي ينقذ البشرية كلها من جاهليتها في ذلك الزمان . والذي يرتقب دوره في الجولة القادمة – بإذن الله – لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها الحديثة ، التي تتمثل فيها كل خصائص الجاهلية القديمة ؛ من النواحي الأخلاقية والاجتماعية ؛ وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغاياتها كذلك ! على الرغم من فتوحات العلم المادي والإنتاج الصناعي ، والرخاء الحضاري !

(وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . ضلال في التصور والاعتقاد ، وضلال في مفهومات الحياة ، وضلال في الغاية والاتجاه ، وضلال في العادات والسلوك ، وضلال في الأنظمة والأوضاع ، وضلال في المجتمع والأخلاق . .

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون – ولا شك – ماضي حياتهم وأوضاعهم ، ويعرفون طبيعة النقلة التي نقلهم إليها الإسلام ، وما كانوا ببالغيها بغير الإسلام ؛ وهي نقلة غير معهودة في تاريخ بني الإنسان .

كانوا يدركون أن الإسلام – والإسلام وحده – هو الذي نقلهم من طور القبيلة ، واهتمامات القبيلة ، وثارات القبيلة ، لا ليكونوا أمة فحسب . ولكن ليكونوا – على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن – أمة تقود البشرية ، وترسم لها مثلها ، ومناهج حياتها ، وأنظمتها كذلك ، في صورة غير معهودة في تاريخ البشرية الطويل .

كانوا يدركون أن الإسلام – والإسلام وحده – هو الذي منحهم وجودهم القومي ، ووجودهم السياسي ووجودهم الدولي . .

وقبل كل شيء وأهم من كل شيء . .

وجودهم الإنساني ، الذي يرفع إنسانيتهم ، ويكرمآدميتهم ، ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكريم ، الذي جاءهم هدية ومنه من لدن ربهم الكريم . والذي أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك ، وعلموها كيف تحترم "الإنسان" وتكرمه بتكريم الله . غير مسبوقين في هذا ، لا في الجزيرة العربية ، ولا في أي مكان . . وفي اللفتة السابقة إلى "الشورى " طرف من هذا المنهج الإلهي ، الذي كانوا يدركون فيه عظم المنة عليهم من الله .

وكانوا يدركون أن الإسلام – والإسلام وحده – هو الذي جعل لهم رسالة يقدمونها للعامل ، ونظرية للحياة البشرية ، ومذهبا مميزا للحياة الإنسانية . . والأمة لا توجد في الحقل الإنساني الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب ، تقدمه للبشرية ، لتدفع بالبشرية إلى الإمام .

وقد كان الإسلام ، وتصوره للوجود ، ورأيه في الحياة ، وشريعته للمجتمع ، وتنظيمه للحياة البشرية ، ومنهجه المثالي الواقعي الإيجابي لإقامة نظام يسعد في ظله "الإنسان" . . كان الإسلام بخصائصه هذه هو "بطاقة الشخصية " التي تقدم بها العرب للعالم ، فعرفهم ، واحترمهم ، وسلمهم القيادة .

وهم اليوم وغدا لا يحملون إلا هذه البطاقة . ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم . وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم ؛ وإما أن ينبذوها فيعودوا هملا – كما كانوا – لا يعرفهم أحد ، ولا يعترف بهم أحد !

وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ؟

يقدمون لها عبقريات في الآداب والفنون والعلوم ؟ لقد سبقتهم شعوب الأرض في هذه الحقول . والبشرية تغص بالعبقريات في هذه الحقول الفرعية للحياة . وليست في حاجة ولا في انتظار إلى عبقريات من هناك في هذه الحقول الفرعية للحياة !

يقدمون لها عبقريات في الإنتاج الصناعي المتفوق ، تنحني له الجباه ، ويغرقون به أسواقها ، ويغطون به على ما عندها من انتاج ؟ ؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، في يدها عجلة القيادة في هذا المضمار !

يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ، ومن وحي أفكارهم البشرية ؟

إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية . وتشقى بها جميعا غاية الشقاء !

ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز ؟

لا شيء إلا هذه الرسالة الكبيرة . لا شيء إلا هذا المنهج الفريد . لا شيء إلا هذه المنة التي اختارهم الله لها ، وأكرمهم بها ، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم . والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها ، وهي تتردى في هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس ! إنها – وحدها – بطاقة الشخصية التي تقدموا بها قديما للبشرية ، فأحنت لها هامتها . والتي يمكن أن يقدموها لها اليوم ، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ .

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة . وأكبر أمة هي التي تحمل أكبر رسالة . وهي التي تقدم أكبر منهج . وهي التي تتفرد في الأرض بأرفع مذهب للحياة .

والعرب يملكون هذه الرسالة – وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم شركاء – فأي شيطان يا ترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم ؟

أي شيطان ؟!

لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة . وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان . .

وهي مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان !

٧٣- ببيان ثواب الشهادة في سبيل الله :

قال تعالى : وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) سورة البقرة

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ بفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَيَقُولُ لَهُمْ : إنَّ الشُهَدَاء الذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبيلِ الله هُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ بغَيرِ حِسَابٍ ، وَلكِنَّ الأَحيَاءَ لاَ يَشْعُرُونَ بذِلِكَ ، لأَنَّ حَيَاتَهُمْ لَيْسَتْ فِي عَالَمِ الحِسِّ الذِي يُدْرَكُ بالمَشَاعِرِ .

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق . شهداء في سبيل الله . قتلى أعزاء أحباء . قتلى كراما أزكياء - فالذين يخرجون في سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس - هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا . إنهم أحياء . فلا يجوز أن يقال عنهم:أموات . لا يجوز أن يعتبروا أمواتا في الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان . إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه . فهم لا بد أحياء .

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين . ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة . . إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد . وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع . . وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة ، والفكرة التي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد ، وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد . فهم ما يزالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هي صفة الحياة الأولى . فهم أحياء أولا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس .

ثم هم أحياء عند ربهم - إما بهذا الاعتبار ، وإما باعتبار آخر لا ندري نحن كنهه . وحسبنا إخبار الله تعالى به: (أحياء ولكن لا تشعرون) . . لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود . ولكنهم أحياء .

أحياء . ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها . فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة . وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء

أحياء . فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء . أحياء يشاركون في حياة الأهل والأحبــاء والأصدقاء . أحياء فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ، ولا يتعاظمها الأمر ، ولا يهولنها عظم الفداء .ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله ، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه:

وفي صحيح مسلم (٤٩٩٣)عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ « أَرْوَاحُهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِى إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَىَّ شَىْءٍ نَشْتَهِى وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَــرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِى أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا ».

وفي صحيح البخارى (٢٨١٧) عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ ، إِلاَّ الشَّهِيدُ ، يَتَمَنَّــى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ » . طرفه ٢٧٩٥ – تحفة ١٢٥٢

ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء ؟ إنهم أولئك الذين يقتلون (في ســبيل الله) . . في ســبيل الله وحده ، دون شركة في شارة ولا هدف ولا غاية إلا الله . في سبيل هذا الحق الذي أنزله . في ســبيل هذا المنهج الذي شرعه . في سبيل هذا الدين الذي اختاره . . في هذا السبيل وحده ، لا في أي سبيل آخر ، ولا تحت أي شعار آخر ، ولا شركة مع هدف أو شعار . وفي هذا شــدد القــرآن وشــدد الحديث ، حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر . . غير الله . .

وفي صحيح البخارى(١٢٣)عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ – فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْقِتَالُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً . فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ – قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْــهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا – فَقَالَ « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »

.

وفي صحيح ابن حبان (٤٦٣٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : لاَ أَجْرَ لَهُ ، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّــاسُ ، وَقَالُوا لِلرَّجُلِ : عُدْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِمْهُ ، قَالَ : فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : لاَ أَجْرَ لَهُ ، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ ، وَقَــالُوا لِلرَّجُلِ : عُدْ لِرَسُولِ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ : رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَــرَضِ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : لاَ أَجْرَ لَهُ. (صحيح)

وفي صحيح مسلم(٤٩٦٧) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « تَضَــمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَإِيمَانًا بِى وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِى فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ

أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ».

فهؤلاء هم الشهداء . هؤلاء الذي يخرجون في سبيل الله ، لا يخرجهم إلا جهاد في سبيله ، وإيمان به ، وتصديق برسله .

ولقد كره رسول الله ﷺ لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد:

وفي مصنف ابن أبي شيبة(٣٧٩١٦) عَنْ الْفَارِسِيِّ مَوْلَى بَنِي مُعَاوِيَةَ ؛ أَنَّهُ ضَرَبَ رَجُلاً يَوْمَ أُحُدٍ فَقَتَلَهُ ، وَقَالَ : خُذْهَا وَأَنَا الْغُلاَمُ الْفَارِسِيُّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَا مَنَعَك أَنْ تَقُولَ : الأَنْصَارِي وَأَنْتَ مِنْهُمْ ؟ إنَّ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ.(حسن)

فقد كره له ﷺ أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي ﷺ ، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين . . وهذا هو الجهاد . وفيه وحده تكون الشهادة ، وتكون الحياة للشهداء .

وقال تعالى : (والذين قتلوا في سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ، ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم) . .

لن يضل أعمالهم . . في مقابل ما جاء عن الذين كفروا أنه أضل أعمالهم . فهي أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذي صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاها إليه . وهي باقية من ثم لأن الحق باق لا يهدر ولا يضيع .

ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة . . حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله . . فهي حقيقة مقررة من قبل في قوله تعالى:(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) . . ولكنها تعرض هنا عرضا جديدا . تعرض في حالة امتداد ونماء في طريقها الذي غادرت الحياة الدنيا وهي تسلكه وتتوخاه . طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء: (سيهديهم ويصلح بالهم) :

فالله ربهم الذي قتلوا في سبيله ، يظل يتعهدهم بالهداية – بعد الاستشهاد – ويتعهدهم بإصلاح البال ، وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض ؛ أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملأ الأعلى الذي صعدت إليه ، وإشراقه وسناه . فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون . وهي حياة يتعهدها الله ربها في الملأ الأعلى . ويزيدها هدى . ويزيدها صفاء ، ويزيدها إشراقا . وهي حياة نامية في ظلال الله . وأخيرا يحقق لهم ما وعدهم: (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) . .

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء ففي مسند أحمد (١٨٢٥٧) عَنْ قَيْسٍ الْجُذَامِىِّ – رَجُلٌ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ – قَالَ قَالَ النَّبِىُّ –صلى الله عليه وسلم– « يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ عِنْدَ

أَوَّل قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ يُكَفَّرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُؤَمَّنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ ». (حسن)

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء في سبيله . وهذه هي نهاية الهداية الممتدة ، وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاحهم هناك عند الله .

. . . .

وقال تعالى : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) } سورة آل عمران

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَلَكِنَّ أَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ تُرْزَقُ عِنْدَ اللهِ .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ ، لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ ، يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلا الشَّهِيدُ ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنيا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى مِمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ " .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ : عَلَيهِمْ أَلاَّ يَنْخَدِعُوا بِمَا يَقُولُهُ الْمُنَافِقُونَ ، وَمَا يَفْعَلُونَهُ ، فَهُمْ يُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنيا عَلَى الآخِرَةِ ، لارْتِيَابِهِمْ فِي البَعْثِ وَالحِسَابِ فِي الآخِرَةِ ، فَالشُّهَدَاءُ أَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِزْقاً حَسَناً يَعْلَمُهُ هُوَ .

وَيَكُونُ الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ فَرِحِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالغَبْطَةِ ، التِي مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَيهِمْ ، مُسْتَبْشِرِينَ بِإِخْوانِهِمْ الذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ حِينَمَا يَسْتَشْهِدُونَ ، لاَ يَخافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ ، وَلاَ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ فِي الدُّنْيا .

وَهُمْ مُسْتَبْشِرُونَ مِنْ تَلَقِّيهِمْ مَا يُفِيضُهُ اللهُ عَلَيهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالفَضْلِ وَالثَّوَابِ ، وَمِنْ يَقِينِهِمْ بِأَنَّ اللهَ لاَ يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ .

بَعْدَ أَنِ انْصَرَفَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ يَوْمَ أُحُدٍ مُتَّجِهَةً إِلَى مَكَّةَ ، نَدِمَتْ عَلَى الانْصِرَافِ قَبْلَ اسْتِئْصَالِ شَأفَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالقَضَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَفَكَّرُوا فِي العَوْدَةِ إِلى الْمَدِينَةِ .

وَعَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ ، فَنَدَبَ الْمُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ وَرَاءَ الْمُشْرِكِينَ لِيَثْنِيَهُمْ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي العَوْدَةِ ، وَأَمَرَ بِأَلاَّ يَخْرُجَ مَعَهُ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ أُحُداً ، فَتَسَارَعَ النَّاسُ إِلَى الخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيهِ مِنْ جِرَاحٍ .

وَقَدْ وَعَدَ اللهُ مَنْ أحْسَنَ مِنْ هَؤُلاءِ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلْرَسُولِ ﷺ وَاتَّقَى أجْراً عَظِيماً .

وَخَافَتْ قُرَيشٌ أنْ يَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أهْلَ المَدِينَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَرِكُوا فِي المَعْرَكَةِ ، وَيَخْرُجَ وَرَاءَهُمْ ، فَأَرْسَلُوا إلَيهِ بَعْضَ نَاقِلِي الأخْبَارِ لِيُهَوِّلُوا عَلَيهِ ، لِيَكُفَّ عَنِ اللِّحَاقِ بِهِمْ ، وَقَالَ نَاقِلُوا الأخْبَارِ لِلْمُسْلِمِينَ : إنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ (النَّاسَ) قَدْ حَشَدُوا لَكُمْ ، وَجَمَعُوا قُوَاهُمْ ، فَاحْذَرُوهُمْ ، وَاخْشَوْهُمْ ، فَلَمْ يَزِدْ هَذَا القَوْلُ هَؤُلاءِ الْمُؤْمِنِينَ - الذِينَ اسْتَجَابُوا لِلْرَسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُلَبِّينَ دَعْوَتَهُ ، رَاغِبِينَ فِي نَيْلِ رِضْوَانِ رَبِّهِمْ وَنَصْرِهِ - إلاَّ إيمَاناً بِرَبِهِمْ ، وَثِقَةً بوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ وَأجْرِهِ ، وَرَدُّوا عَلَى مُخَاطِبِيهِمْ قَائِلِينَ : إنَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُمْ .

فَلَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ كَفَاهُمُ اللهُ مَا أَهَمَّهُمْ وَأَغَمَّهُمْ ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأسَ النَّاسِ (الكَافِرِينَ) ، فَرَجَعُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ ، وَقَدْ فَازُوا بِرِضْوَانِ اللهِ ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعُ الفَضْلِ

(خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ الرَّسُولِ إلى مَوْقِعٍ يُعْرَفُ بِحَمْراءِ الأَسَدِ ، وَأرْسَلَ إلى الْمُشْرِكِينَ رُسُلاً يُحَذِّرُونَهُمْ ، فَخَافَتْ قُرَيْشٌ وَتَابَعَتْ سَيْرَهَا نَحْوَ مَكَّةَ) .

وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ وَاعَدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَدْراً مِنَ العَامِ القَابِلِ ، فَخَرَجَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إلَى بَدْرٍ فِي المَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ ، وَتَخَلَّفَتْ قُرَيْشٌ ، فَاشْتَرَى رَسُولَ اللهِ عِيْراً مَرَّتْ بِهِمْ فِي المَوْسِمِ ، ثُمَّ بَاعَهَا فَرَبِحَ ، وَوَزَّعَ الرِّبْحَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، فَانْقَلَبُوا مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ الثَّانِيَةِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَنَالُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَحَصَلُوا عَلَى فَضْلِهِ فِي الرِّبْحِ . وَاللهُ عَظِيمُ الفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ .

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، أنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الذِي يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَقُوَّةٍ ، وَهُوَ الذِي قَالَ لَكُمْ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَلاَ تَخَافُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ ، وَالْجَؤُوا إِلَيهِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقّاً ، فَإِنَّهُ كَافِيكُمْ إِيَّاهُمْ ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ . وَخَافُوهُ هُوَ فَهُوَ القَادِرُ عَلَى النَّصْرِ وَعَلَى الخُذْلاَنِ ، وَعَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ .

فهناك حقيقة ضخمة في ذاتها وضخمة في آثارها . . حقيقة أن الذين قتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء . أحياء عند ربهم يرزقون ؛ لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثير والتأثر أهم خصائص الحياة .

ويربط بين حياة الشهداء في معركة أحد وبين الأحداث التي تلت استشهادهم برباط محكم ، ثم ينتقل إلى تصوير موقف العصبة المؤمنة ، التي استجابت لله والرسول بعد كل ما أصابها من القرح ، وخرجت تتعقب قريشا بعد ذهابها خوفا من كرة قريش على المدينة ، ولم تبال تخويف الناس بجموع قريش ، متوكلة على الله وحده ، محققة بهذا الموقف معنى الإيمان وحقيقته: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم:ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ، للذين

أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) . .

لقد شاء الله بعد أن جلا في قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل ، وتحدى ما يبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات بقولهم عن القتلى: (لو أطاعونا ما قتلوا) فقال يتحداهم: قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . .

شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة . .

أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة . فكشف لها عن مصير الشهداء:الذين قتلوا في سبيل الله – وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى ، مجردة من كل ملابسة أخرى – فإذا هؤلاء الشهداء أحياء ، لهم كل خصائص الأحياء . فهم "يرزقون" عند ربهم . وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله . وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين . وهم يحفلون الأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم . .

فهذه خصائص الأحياء: من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير . فما الحسرة على فراقهم ؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث ، فوق ما نالهم من فضل الله ، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة ؟ وما هذه الفواصل التي يقيمها الناس في تصوراتهم بين الشهيد الحي ومن خلفه من إخوانه ؟ والتي يقيمونها بين عالم الحياة وعالم ما بعد الحياة ؟ ولا فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين ، الذين يتعاملون هنا وهناك مع الله . . ؟

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور . إنها تعدل – بل تنشيء إنشاء – تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها ، وهي موصولة لا تنقطع ؛ فليس الموت خاتمة المطاف ؛ بل ليس حاجزا بين ما قبله وما بعده على الإطلاق !

إنها نظرة جديدة لهذا الأمر ، ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين ، واستقبالهم للحياة والموت ، وتصورهم لما هنا وما هناك .

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) . .

والآية نص في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله ، وفارقوا هذه الحياة ، وبعدوا عن أعين الناس . . أموات . . ونص كذلك في إثبات أنهم "أحياء" . . "عند ربهم" . ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات ، وصف ما لهم من خصائص الحياة . فهم "يرزقون" . .

ومع أننا نحن – في هذه الفانية – لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء ، إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح . .

إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة ، وما بينهما من انفصال والتئام . وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها ؛ وإننا حين ننشيء مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها . لا ننتهي إلى إدراك حقيقي لها ؛ وأنه أولى لنا أن ننتظر البيان في شأنها ممن يملك البيان سبحانه وتعالى .

فهؤلاء ناس منا ، يقتلون ، وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها ، ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها . ولكن لأنهم: قتلوا في سبيل الله ؛ وتجردوا له من كل الاعراض والأغراض الجزئية الصغيرة ؛ واتصلت أرواحهم بالله ، فجادوا بأرواحهم في سبيله . .

لأنهم قتلوا كذلك ، فإن الله – سبحانه – يخبرنا في الخبر الصادق ، أنهم ليسوا أمواتا . وينهانا أن نحسبهم كذلك ، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده ، وأنهم يرزقون . فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء . .

ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى: (فرحين بما آتاهم الله من فضله) . .

فهم يستقبلون رزق الله بالفرح ؛ لأنهم يدركون أنه "من فضله" عليهم . فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا في سبيل الله . فأي شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه ؟

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم ؛ وهم مستبشرون لهم ؛ لما علموه من رضى الله عن المؤمنين المجاهدين: (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . (يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) .

إنهم لم ينفصلوا من إخوانهم (الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) و لم تنقطع بهم صلاتهم . إنهم "أحياء" كذلك معهم ، مستبشرون بما لهم في الدنيا والآخرة . موضع استبشارهم لهم: ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

وقد عرفوا هذا واستيقنوه من حياتهم "عند ربهم" ومن تلقيهم لما يفيضه عليهم من نعمة وفضل ، ومن يقينهم بأن هذا شأن الله مع المؤمنين الصادقين . وأنه لا يضيع أجر المؤمنين . .

فما الذي يبقى من خصائص الحياة غير متحقق للشهداء – الذين قتلوا في سبيل الله ؟ – وما الذي يفصلهم عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ؟ وما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة في نفس الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ؛ وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأنس ، عن هذه الرحلة إلى جوار الله ، مع هذا الاتصال بالأحياء والحياة !

إنها تعديل كامل لمفهوم الموت – متى كان في سبيل الله – وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم . وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها ، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة ، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة . وحيث تستقر في مجال فسيح عريض

، لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة !

ووفقا لهذا المفهوم الجديد الذي أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم في قلـوب المسـلمين ، سارت خطى المجاهدين الكرام في طلب الشهادة - في سبيل الله - وكانت منها تلك النماذج الـتي ذكرنا بعضها في مقدمات الحديث عن هذه الغزوة . فيرجع إليها هناك .

وبعد تقرير هذه الحقيقة الكبيرة يتحدث عن "المؤمنين" الذين يستبشر الشهداء في الموقعة بما هو مدخر لهم عند ربهم ، فيعين من هم ؛ ويحدد خصائصهم وصفاتهم وقصتهم مع ربهم: (الذين اسـتجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم النـاس:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا . وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة مـن الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) . .

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة . وهم مثخنون بالجراح . وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة . وهم لم ينسوا بعد هول الدعكـة ، ومرارة الهزيمة ، وشدة الكرب . وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا ، فقل عددهم ، فـوق مـا هـم مثخنون بالجراح !

ولكن رسول الله ﷺ دعاهم . ودعاهم وحدهم . ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم - ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال ! - فاستجابوا . . استجابوا لدعوة الرسول ﷺ وهي دعوة الله - كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك - فاسـتجابوا بهـذا لله والرسول (من بعد ما أصابهم القرح) ، ونزل بهم الضر ، وأثخنتهم الجراح .

لقد دعاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وحدهم . وكانت هذه الدعوة وما تلاها مـن اسـتجابة تحمـل إيحاءات شتى ، وتومى ء إلى حقائق كبرى ، نشير إلى شيء منها: فلعل رسول الله ﷺ شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم ، هو شـعور الهزيمـة ، وآلام الـبرح والقـرح ؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش ، وتعقبها ، كي يقر في أخلادهم إنها تجربة وابتلاء ، وليست نهاية المطاف . وأنهم بعد ذلك أقوياء ، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء ، إنما هي واحدة وتمضي ، ولهـم الكـرة عليهم ، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل ، واستجابوا لدعوة الله والرسول .

ولعل رسول الله ﷺ شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش ، وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصـر ومذاقاته . فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس ؛ يشعر قريشا أنهـا لم تنـل مـن المسلمين منالا . وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها . .

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة .

ولعل رسول الله ﷺ شاء أن يشعر المسلمين ، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقـــة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض . .

حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها . ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها . عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعـــدها ، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولا يقدمونها فداها . .

لقد كان هذا أمرا جديدا في هذه الأرض في ذلك الحين . و لم يكن بد أن تشعر الأرض كلها – بعـــد أن يشعر المؤمنين – بقيام هذا الأمر الجديد ، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة .

و لم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول مـــن بعد ما أصابهم القرح . ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة:صورة التوكـــل علـــى الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم – كما أبلغهم رسل أبي ســـفيان – وكما هول المنافقون في أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا –: (الذين قال لهم الناس:إن النـــاس قـــد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل) . .

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت اعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة . وكان هذا بعـــض مـــا تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة . .

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صورة من ذلك القرح ومن تلك الاســـتجابة: قـــال محمـــد بـــن إسحاق:حدثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السائب مولى عائشة بنـــت عثمـــان أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحدا قال:شـــهدنا أحـــدا مـــع رسول الله ﷺ أنا وأخي ، فرجعنا جريحين . فلما إذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو ، قلت لأخي – أو قال لي – أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ – والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل . فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جراحا منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة . . حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

وقال محمد بن إسحاق:كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحـــد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ، وإذن مؤذنـــه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس . فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حـــرام . فقال:يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع . وقال:يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن . ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفســـي . فتخلف على أخوتك . فتخلفت عليهن . . فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه . .

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة ، في تلك النفوس الكبيرة . النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلا ، وترضى به وحده وتكتفي ، وتزداد إيمانا به في ساعة الشدة ، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس:

(حسبنا الله ، ونعم الوكيل) . .

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه ، المكتفي به ، المتجردين له: (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله) .

فأصابوا النجاة - لم يمسسهم سوء - ونالوا رضوان الله . وعادوا بالنجاة والرضى .

(بنعمة من الله وفضل) . . فهنا يردهم إلى السبب الأول في العطاء:نعمة الله وفضله على من يشاء . ومع التنويه بموقفهم الرائع ، فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله ، لأن هذا هو الأصل الكبير ، الذي يرجع إليه كل فضل ، وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل !

(والله ذو فضل عظيم) . .بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد ، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله ، صورتهم هذه ، وموقفهم هذا ، وهي صورة رفيعة ، وهو موقف كريم .

وينظر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف ، فيحس كأن كيان الجماعة كله قد تبدل ما بين يوم وليلة . نضجت . وتناسقت . واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها . وانجلى الغبش عن تصورها . وأخذت الأمر جدا كله . وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة ، التي حدثت بالأمس فقط في التصورات والصفوف . فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس . .

والفارق هائل والمسافة بعيدة . .

لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس ؛ وقد هزتها الحادثة هزا عنيفا . أطار الغبش ، وأيقظ القلوب ، وثبت الأقدام ، وملأ النفوس بالعزم والتصميم . .

نعم . وكان فضل الله عظيما في الابتلاء المرير . .

وأخيرا يختم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفزع والجزع . .

إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة . . ومن ثم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولته . فلا يخافوا أولياءه هؤلاء ، ولا يخشوهم . بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوي القاهر القادر ، الذي ينبغي أن يخاف: (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة والقدرة ، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول ، وأنهم يملكون النفع والضر . .

ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه ، وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد ، وليخضع لهـم الرقـاب ويطوع لهم القلوب ، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ؛ ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم ، ودفعهم عن الشر والفساد .

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل ، وأن يتضخم الشر ، وأن يتبدى قويا قادرا قـاهرا بطاشا جبارا ، لا تقف في وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه من المعارضين غالب . .

الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا . فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظل الإرهاب والبطش ، يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه !

يقلبون المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخفتـون صـوت الحق والرشد والعدل ، ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير . .

دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة . بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له ، وجلاء الحق الذي يطمسونه . .

والشيطان ماكر خادع غادر ، يختفي وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته . .

ومن هنا يكشفه الله ، ويوقفه عاريا لا يستره ثوب من كيده ومكره . ويعرف المؤمنين الحقيقة:حقيقة مكره ووسوسته ، ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . فهـم وهـو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ، ويستند إلى قوته . . إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضر . هي قوة الله . وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله ، وهم حـين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة في الأرض . .

لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان: (فلا تخافوهم . وخافون إن كنتم مؤمنين) . .

....

وفي صحيح البخاري(٢٨٢٨) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صـلى الله عليه وسلم– « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّـهِ أَنْ يُدْخِلَـهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِى أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا ». فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ. قَالَ « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَـرْشُ الـرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ».

وفي سنن الترمذي(١٧٦٤) عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ –صـلى الله عليـه وسلم– « لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ يُغْفَرُ لَهُ فِى أَوَّلِ دَفْعَةٍ وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُجَـارُ مِـنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَـا

فِيهَا وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُشَفَّعُ فِى سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

٧٤- أخذ الحيطة والحذر من المنافقين والمثبطين:

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) } [النساء : ٧١ - ٧٣]

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الحَذَرِ مِنَ الأَعْدَاء ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّعَرُّفَ عَلَى أَحْوَالِ هَؤُلاءِ الأَعْدَاءِ ، وَمَعْرِفَةِ أَرْضِهِمْ ، وَعَدَدِهِمْ ، وَسِلاَحِهِمْ ، وَأَحْلاَفِهِمْ ، وَثَرْوَتِهِمْ ، كَمَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُّبَ لَهُمْ ، وَإِعْدَادَ الرِّجَالِ لِلْحَرْبِ وَتَدْرِيبَهُمْ وَتَسْلِيحَهُمْ ، وَجَمْعَ السِّلاَحِ وَالمُؤَنِ وَوَسَائِلِ النَّقْلِ وَالرُّكُوبِ ، وَالاسْتِعْدَادَ لِلنَّفِيرِ لِلْقِتَالِ ، حِينَمَا يَدْعُو دَاعِيَ الجِهَادِ ، وَالخُرُوجَ جَمَاعَاتٍ مُتَلاَحِقَةً (ثُبَاتٍ) ، أَوْ خُرُوجَ المُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ جَمِيعاً ، حَسْبَ حَالِ العَدُوِّ ، وَخَطَرِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالخَطَرِ الذِي يَتَهَدَّدُ الأمَّةَ .

وَمِنَ النَّاسِ (وَمِنْهُمُ المُنَافِقُونَ وُالجُبَنَاء وضِعَافِ الإِيْمَانِ) مَنْ يَتَأَخَّرُ عَنِ الخُرُوجِ إِلَى الجِهَادِ ، وَيَتَبَاطَأُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْعُدُ عَنِ الجِهَادِ ، وَيُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الخُرُوجِ ، فَإِنْ أَصَابَتِ المُؤْمِنِينَ مُصِيبَةٌ مِنْ قَتْلٍ وَشَهَادَةٍ ، أَوْ تَغَلَّبَ عَدُوٌّ عَلَى المُؤْمِنِينَ ، فَرِحَ وَعَدَّ تَخَلُّفَهُ عَنِ الجِهَادِ نِعْمَةً ، إِذْ أَنْجَاهُ تَخَلُّفُهُ مِنَ المُصَابِ الذِي حَلَّ بِالمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الأَجْرِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الشِّدَّةِ ، وَالشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ .

وَإِذَا أَصَابَ المُسْلِمُونَ نَصْراً ، وَحَقَّقُوا ظَفَراً ، وَفَازُوا بِمَغْنَمٍ ، (فَضْلٌ مِنَ اللهِ) ، اغْتَمَّ أَلاَّ يَكُونَ مَعَ المُؤْمِنِينَ ، فَيُصِيبَهُ سَهْمٌ مِنَ الغَنِيمَةِ . وَالغَنِيمَةِ هِيَ أَكْبَرُ هَمِّهِ ، وَيَقُولُ ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ كَمَا فَازُوا ، فَهُوَ قَدْ نَسِيَ مَا يَجِبُ عَلَيهِ ، مِنْ مَدِّ يَدِ العَوْنِ لإِخْوَتِهِ المُؤمِنِينَ ، وَبَذْلِ كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ بَذْلَهُ مِنْ نَفْسٍ وَمَالٍ ، لِيَتِمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ .

إنها الوصية للذين آمنوا:الوصية من القيادة العليا ، التي ترسم لهم المنهج ، وتبين لهم الطريق . وإن الإنسان ليعجب ، وهو يراجع القرآن الكريم ؛ فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين - بصفة عامة طبعا - الخطة العامة للمعركة وهي ما يعرف باسم "استراتيجية المعركة " . ففي الآية الأخرى يقول للذين أمنوا: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة) . فيرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية . وفي هذه الآية يقول للذين آمنوا: (خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا) وهي تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى "التاكتيك" . وفي سورة الأنفال

جوانب كذلك في الآيات:(فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) . . . الآيات.

وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ؛ ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب - كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة . ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية . . ومن ثم يطلب - بحق - الوصاية التامة على الحياة البشرية ؛ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم ، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرفه وتوجيهه . وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر:منهجا للحياة الشخصية ، وللشعائر والعبادات ، والأخلاق والآداب ، مستمدا من كتاب الله . ومنهجا للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية ، مستمدا من كتاب أحد آخر ؛ أو من تفكير بشري على الإطلاق !

إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله ومنهجة أحكاما تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة ، وأقضيتها المتطورة - بالطريقة التي رسمها الله في الدرس السابق من هذه السورة - ولا شيء وراء ذلك . وإلا فلا أيمان أصلا ولا إسلام . لا إيمان ابتداء ولا إسلام ، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان ، و لم يعترفوا بعد بأركان الإسلام . وفي أولها:شهادة أن لا إله إلا الله ، التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله .

وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانبا من الخطة التنفيذية للمعركة ؛ المناسبة لموقفهم حينذاك . ولوجودهم بين العداوات الكثيرة في الخارج . والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل . وهو يحذرهم ابتداء: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) . .

خذو حذركم من عدوكم جميعا . وبخاصة المندسين في الصفوف من المبطئين ، الذين سيرد ذكرهم في الآية: (فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا) . .

ثبات . جميع ثبة:أي مجموعة . . والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى . ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة ، أو الجيش كله . .

حسب طبيعة المعركة . .

ذلك أن الآحاد قد يتصيدهم الأعداء ، المبثوثون في كل مكان . وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبثين في قلب المعسكر الإسلامي . .

وهم كانوا كذلك ، ممثلين في المنافقين ، وفي اليهود ، في قلب المدينة .

وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيمًا . .

انفروا جماعات نظامية . أو انفروا جميعا . ولا ينفر بعضكم ويتثاقل بعضكم - كما هـو واقـع - وخذوا حذركم . لا من العدو الخارجي وحده ؛ ولكن كذلك من المعوقين المبطئين المخذلين ؛ سواء كانوا يبطئون أنفسهم - أي يقعدون متثاقلين - أو يبطئون غيرهم معهم ؛ وهو الذي يقع عادة مـن المخذلين المثبطين !

ولفظة(ليبطئن) مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ؛ وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها ، حتى يأتي على آخرها ، وهو يشدها شدا ؛ وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهـذا التعثر والتثاقل في جرسها . وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن ، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة .

وكذلك يشي تركيب الجملة كلها: (وإن منكم لمن ليبطئن) ، بأن هؤلاء المبطئين - وهم معـدودون من المسلمين -(منكم) يزاولون عملية التبطئة كاملة ، ويصرون عليها إصـرارا ، ويجتهـدون فيهـا اجتهادا . .

وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة !

مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة ، وشدة أثرها في الصف المسلم ؛ وشدة ما يلقـاه منها !

ومن ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة عليهم ، وعلى دخيلة نفوسهم ؛ ويرسم حقيقتهم المنفـرة ، على طريقة القرآن التصويرية العجيبة:

فها هم أولاء ، بكل بواعثهم ، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم . .

ها هم أولاء مكشوفين للأعين ، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر ، يكشف النوايا والسـرائر ؛ ويكشف البواعث والدوافع .

ها هم أولاء - كما كانوا على عهد الرسول ﷺ وكما يكونون في كل زمان وكل مكان . ها هـم أولاء . ضعافا منافقين ملتوين ؛ صغار الاهتمامات أيضا:لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر ، ولا أفقا أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة . فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد . وهم هم هذا المحور الذي لا ينسونه لحظة !

إنهم يبطئون ويتلكأون ، ولا يصارحون ، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال ! وتصورهم للـربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف الصغار:

يتخلفون عن المعركة . .

فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين - في بعض الأحـايين - فـرح المتخلفون ؛ وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ، ونجاتهم من الابتلاء نعمة:

فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدًا . .

إنهم لا يخجلون – وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة – أن ينسبوها لله . الله الذي خالفوا عن أمره فقعدوا !

والنجاة في هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبدا . فنعمة الله لا تنال بالمخالفة . ولو كان ظاهرها نجاة !

إنها نعمة ! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله . عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله . ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة . نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطىء الأقدام في هذه الأرض . . كالنمال . .

نعمة عند من لا يحسون أن البلاء – في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله – هو فضل واختيار من الله ، يختص به من يشاء من عباده ؛ ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري ، ويطلقهم من إسار الأرض يستشرفون حياة رفيعة ، يملكونها ولا تملكهم . وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة . . في منازل الشهداء . .

إن الناس كلهم يموتون ! ولكن الشهداء – في سبيل الله – هم وحدهم الذين "يستشهدون" . . وهذا فضل من الله عظيم .

فأما إذا كانت الأخرى . .

فانتصر المجاهدون ؛ الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله . . ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة . .

ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة رابحة ! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة !(ولئن أصابكم فضل من الله ، ليقولن – كأن لم تكن بينكم وبينه مودة – يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيمًا) .

إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب ، هي التي يقولون عنها: (فوزا عظيمًا) والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة ؛ بل مطلوب منه أن يرجوه من الله . والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية . .

ولكن التصور الكلي للمؤمن غير هذا التصور ، الذي يرسمه التعبير القرآني لهذه الفئة رسما مستنكرا منفرا . .

إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية . ولكنه إذا ندب للجهاد خرج – غير متثاقل – خرج يسأل الله إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة . .

وكلاهما فضل من الله ؛ وكلهما فوز عظيم . فيقسم له الله الشهادة ، فإذا هو راض بما قسم الله ؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله ، ويفرح بنصر الله . لا لمجرد النجاة !

وهذا هو الأفق الذي أراد الله أن يرفع المسلمين إليه ؛ وهو يرسم لهم هذه الصـــورة المنفـــرة لـــذلك الفريق(منهم) وهو يكشف لهم عن المندسين في الصف من المعوقين ، ليأخذوا منهم حذرهم ؛ كمـــا يأخذون حذرهم من أعدائهم !

ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان ، يرتسم نموذج إنساني متكـــرر في بني الإنسان ، في كل زمان ومكان ، في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن !

ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبدا . وهي أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء . فـــلا ييئس من نفسه . ولكن يأخذ حذره ويمضي . ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد ، أن يكمل النقص ، ويعالج الضعف ، وينسق الخطى والمشاعر والحركات !

٧٥- عدم موالاة الكفار والفجار

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًـــا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨) سورة المائدة

يُنَفِّرُ اللّهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ مِنْ مُوَالاَةِ أَعْدَاءِ الإِسْلاَمِ ، مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَمِنَ المُشْرِكِينَ ، الذِينَ يَتَّخِـــذُونَ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ المُطَهَّرَةَ ، هُزْواً يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ، وَيَعدُّونَهَا نَوْعاً مِنَ اللَّعِبِ ، وَيَتَمَنَّوْنَ زَوَالَ الإِسْـــلاَمِ وَأَهْلِهِ ، وَيَأمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ ، وَبِألاَّ يَتَّخِذُوا هَؤُلاءِ الأَعْدَاءِ أَوْلِيَاءَ إنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِشَرْعِ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً .

وَهَؤُلاَءِ الأَعْدَاءِ يَسْخَرُونَ مِنَ الأذَانِ ، وَمِنَ الصَّلاَةِ ، وَمِنَ العِبَادَةِ ، وَيَتَّخِذُونَهَا هُزُواً وَلَعِباً وَسُخْرِيَةً ، لأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ مَعْنَى العِبَادَةِ ، وَلاَ مَعْنَى شَرْعِ اللهِ ، وَالصَّلاَةُ أَكْرَمُ شَيءٍ وَأَفْضَلُهُ لِمَـــنْ يَعْقِـــلُ وَيَعْلَمُ .

وبعد فلقد سلك المنهج القرآني في هذا السياق طرقا منوعة ، لنهي الذين آمنوا عن تولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركين ، ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية في ضـــمائرهم وإحساســـهم وعقولهم . مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي ؛ وفي الحركة الإسلامية على السواء .

وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر ، وطريق التخويف من أن يـــأتي الله بالفتح أو أمر من عنده ، فينكشف ستر المنافقين . .

وسلك في النداء الثاني طريق التحذير من الردة بموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين ؛ وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبة المختارة . ممن يحبهم الله ويحبونه ؛ وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب .

فالآن نجده في النداء الثالث في هذا الدرس للذين آمنوا يثير في نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التي يتخذها أعداؤهم هزوا ولعبا . ونجده يسوي في النهي عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ، وينوط هذا النهي بتقوى الله ؛ ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان ؛ ويقبح فعلة الكفار وأهل الكتاب ويصفهم بأنهم لا يعقلون:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا – من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار – أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . .

وهي ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ؛ الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه ، وأهينت عبادته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين يدي ربه مادة للهزء واللعب . .

فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ؛ ويرتكبونها لنقص في عقولهم . فما يستهزىء بدين الله وعبادة المؤمنين به ، إنسان سوي العقل ؛ فالعقل – حين يصح ويستقيم – يرى في كل شيء من حوله موحيات الإيمان بالله .

وحين يختل وينحرف لا يرى هذه الموحيات ، لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله . فالوجود كله يوحي بأن له إلها يستحق العبادة والتعظيم . والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك ، فلا يتخذها هزوا ولعبا وهو صحيح مستقيم .

ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار ، كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب ، في الفترة التي كان هذا القرآن يتنزل فيها على قلب رسول الله ﷺ للجماعة المسلمة في ذلك الحين . و لم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى . .

ولكن الله – سبحانه – كان يضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها وحياتها الدائمة . وكان الله – سبحانه – يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين . وها نحن أولاء رأينا ونرى أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ أمس واليوم من الذين قالوا:إنهم نصارى كانوا أكثر عددا من اليهود ومن الكفار مجتمعين ! فهؤلاء – كهؤلاء – قد ناصبوا الإسلام العداء ، وترصدوه القرون تلو القرون ، وحاربوه حربا لا هوادة فيها منذ أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – حتى كانت الحروب الصليبية ؛ ثم كانت "المسألة الشرقية " التي تكتلت فيها الدول الصليبية في أرجاء الأرض للإجهاز على الخلافة ؛ ثم كان الاستعمار الذي يخفي الصليبية بين أضلاعه فتبدو في فلتات لسانه ؛ ثم كان التبشير الذي مهد للاستعمار وسانده ؛ ثم كانت وما تزال تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامي في أي مكان في الأرض . . وكلها حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون . .

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة . الكتاب الذي يبني تصـــورها الاعتقادي ، كما يبني نظامها الاجتماعي ، كما يبني خطتها الحركية . .

سواء . . وها هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ وينهاها أن يكون ولاؤها لليهود والنصارى والكافرين . ويجزم ذلك الجزم الحاسم في هذه القضية ، ويعرضها هـــذا العـــرض المنوع الأساليب .

إن هذا الدين يأمر أهله بالسماحة ، وبحسن معاملة أهل الكتاب ؛ والذين قالوا:إنهم نصـــارى منـــهم خاصة . .

ولكنه ينهاهم عن الولاء لهؤلاء جميعا . .

لأن السماحة وحسن المعاملة مسألة خلق وسلوك . أما الولاء فمسألة عقيدة ومســـألة تنظـــيم . إن الولاء هو النصرة . هو التناصر بين فريق وفريق ؛ ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب – كما هـــو الشأن في الكفار – لأن التناصر في حياة المسلم هو – كما أسلفنا – تناصر في الدين ؛ وفي الجهـــاد لإقامة منهجه ونظامه في حياة الناس ؛ ففيم يكون التناصر في هذا بين المسلم وغير المسلم . وكيـــف يكون ؟!

إنها قضية جازمة حاسمة لا تقبل التميع ، ولا يقبل الله فيها إلا الجد الصارم ؛ الجد الذي يليق بالمســـلم في شأن الدين . .

٧٦- أن يستحضروا فضل الله تعالى عليهم :

قال تعالى :{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـــكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـــكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)} سورة الأنفال

يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ العِبَادِ ، وَأَنَّهُ المَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ . وَيَقُولُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ : إِنَّكُم لَمْ تَقْتُلُوا الكُفَّارَ يَوْمَ بَدْرٍ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ ، بَلِ اللهُ هُوَ الذِي أَظْفَـــرَكُمْ بِهِـــمْ ، وَأَظْهَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الذِي قَتَلَهُمْ بِأَيْدِيكُمْ . وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَبْلَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ قَدْ أخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ المُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إلاَّ أَصَابَهُ شَيءٌ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ أَوْ فِي حَلْقِـــهِ أَوْ فِي مُنْخَرِهِ . . فَكَانَتْ مِمَّا سَاعَدَ عَلَى إِلْقَاءِ الذُّعْرِ فِي نُفُوسِ قُرَيشٍ وَخِذْلاَنهِمْ . وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى } ، فَالرَّمْيَةُ لَمْ تَكُنْ لِتَبْلُغَ قُرَيْشاً لَوْلاَ إِرَادَةُ اللهِ . وَقَدْ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ المُؤْمِنِينَ القَلِيلي العَدَدِ بِإِظْهَارِهِمْ عَلى عَدُوِّهِمْ ، الذِي يَفُـــوقُهُمْ عَدَداً وَعُدَّةً ، اخْتِبَاراً حَسَناً ، وَلِيَعْرِفُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَلِيَشْكُرُوهَا ، وَاللهُ تَعَالَى سَـــمِيعٌ لاسْـــتِغَاثَةِ الرَّسُولِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ .

وقال تعالى : { وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) }[الأنفال : ٢٦]

يُنَبِّهُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ إِلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الوَفِيرَةِ ، فَقَدْ كَانُوا قَلِيلِي العَدَدِ ، مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ ، يَعْتَدِي عَلَيْهِمُ النَّاسُ ، خَائِفِينَ مِنْ مُجْرِمِي قُرَيْشٍ ، فَقَوَّاهُمْ وَآوَاهُمْ ، وَنَصَرَهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَكُلٌّ هَذِهِ النِّعَمِ التِي أَنْعَمَ بِهَا اللهُ عَلَيْهِمْ تَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا ، فَاللهُ تَعَالَى مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ مِنْ عِبَادِهِ .

اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم ؛ واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله . .

اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون . .

ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله !

ويرسم التعبير مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف: (تخافون أن يتخطفكم الناس) . .

وهو مشهد التربص الوجل ، والترقب الفزع ، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة ، والحركات المفزَّعة ، والعيون الزائغة . .

والأيدي تمتد للتخطف ؛ والقلة المسلمة في ارتقاب وتوجس !

ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم ، في ظل الله الذي آواهم إلى حماه: (فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات) . .

وفي ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا: (لعلكم تشكرون) . .

فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة ، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية . . صوت الرسول الأمين الكريم . .

ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه ، وهذا المشهد وذلك معروضان عليه ، ولكل منهما إيقاعه وإيحاؤه ؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك . .

كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم . . ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق . .

والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس ؛ قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين ، ولا تذوقت المذاقين . .

ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك . ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قولـــه تعـــالى: (إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس) . .

فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول الله ؛ وأن تترقب في يقين وثقة ، موعود الله للعصبة المسلمة ، موعوده الذي حققه للعصبة الأولى ، ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم علـــى طريقه ، وتصبر على تكاليفه . .

وأن تنتظر قوله تعالى: (فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) .

وهي إنما تتعامل مع وعد الله الصادق - لا مع ظواهر الواقع الخادع - ووعد الله هو واقـــع العصـــبة المسلمة الذي يرجح كل واقع !

٧٧- أن يكون القرآن الكريم مصدر التوجيه للحياة:

قال تعالى : * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـــذَا إِنْ هَـــذَا إِلاَّ أَسَـــاطِيرُ الأوَّلِينَ* (٣١) سورة الأنفال

حِينَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَتْلُو القُرْآنَ عَلَى كُفّارِ قُرَيشٍ كَانُوا يَقُولُونَ : قَدْ سَمِعْنا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنا مِثْلَـــهُ . وَلَكِنَّ أَحَداً مِنْهُمْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَوْلَ شَيءٍ مِنْهُ ، لأنَّ اللّهَ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَنْ يَأْتُوا بِسُـــورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ بَعْدَ أَنْ يَقُومَ بِهِ مَجْلِسِهِ الذِي يَقْرَأ فِيهِ القُرْآنَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إلى رَبِّهِمْ ، يَأْتِي النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ فَيَجْلِسُ مَكَانَ الرَّسُولِ ، وَيُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَسَاطِيرِ فَارِسَ وَالـــرُّومِ وَقَصَصِـــهِمْ القَدِيمَةِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : بِاللهِ أيُّنَا أَحْسَنُ قَصَصاً أَنَا أَوْ مُحَمَّدٌ؟

ذكر ابن كثير في التفسير - نقلا عن سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم - أن القائل لذلك هو النضر ابن الحارث قال:" فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم مـــن أخبـــار ملوكهم رستم واسفنديار ؛ ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القـــرآن . فكان - عليه ﷺ - إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ؛ ثم يقول:بالله أينـــا أحسن قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى فيه يوم بدر ووقع في الأسارى ، أمر رســـول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ، ففعل ذلك والحمد لله . وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه . . كما قال ابن جرير:حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شـــعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد ابن جبير قال:قتل النبي ﷺ يوم بدر صبرا عقبة بن أبي معيط ، وطعيمة بـــن عدي ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقـــداد:يا رســـول الله ، أسيري ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إنه كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقـــول " . فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد:يا رسول الله ، أسيري ! فقال رسول الله صـــلى الله عليـــه

وسلم:" اللهم أغن المقداد من فضلك " . فقال المقداد:هذا الذي أردت ! قال:وفيه أنزلت هذه الآية:(وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا:قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين) . .

ولقد تكررت في القرآن حكاية قول المشركين عن القرآن:إنه أساطير الأولين:(وقالوا:أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) . .

وما كان هذا القول إلا حلقة من سلسلة المناورات التي كانوا يحاولون أن يقفوا بها في وجه هذا القرآن ، وهو يخاطب الفطرة البشرية بالحق الذي تعرفه في أعماقها فتهتز وتستجيب ؛ ويواجه القلوب بسلطانه القاهر فترتجف لإيقاعه ولا تتماسك . وهنا كان يلجأ العلية من قريش إلى مثل هذه المناورات . وهم يعلمون أنها مناورات !

ولكنهم كانوا يبحثون في القرآن عن شيء يشبه الأساطير المعهودة في أساطير الأمم من حولهم ليموهوا به على جماهير العرب ، الذين من أجلهم تطلق هذه المناورات ، للاحتفاظ بهم في حظيرة العبودية للعبيد !

لقد كان الملأ من قريش يعرفون طبيعة هذه الدعوة ، مذ كانوا يعرفون مدلولات لغتهم الصحيحة ! كانوا يعرفون أن شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة ، والخروج من حاكمية العباد جملة ؛ والفرار إلى ألوهية الله وحده وحاكميته . ثم التلقي في هذه العبودية لله عن محمد رسول الله ﷺ وحده ، دون الناطقين باسم الآلهة أو باسم الله ! . .

وكانوا يرون الذين يشهدون هذه الشهادة يخرجون لتوهم من سلطان قريش وقيادتها وحاكميتها ؛ وينضمون إلى التجمع الحركي الذي يقوده محمد ﷺ ويخضعون لقيادته وسلطانه ؛ وينتزعون ولاءهم للأسرة والعشيرة والقبيلة والمشيخة والقيادة الجاهلية ؛ ويتوجهون بولائهم كله للقيادة الجديدة ، وللعصبة المسلمة التي تقوم عليها هذه القيادة الجديدة . .

كان هذا كله هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . .

وكان هذا واقعاً يشهده الملأمن قريش ؛ ويحسون خطره على كيانهم ، وعلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقيدية التي يقوم عليها كيانهم .

لم يكن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هو هذا المدلول الباهت الفارغ الهزيل الذي يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون – لمجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم ؛ ويؤدون بعض الشعائر التعبدية ، بينما ألوهية الله في الأرض وفي حياة الناس لا وجود لها ولا ظل ؛ وبينما القيادات الجاهلية والشرائع الجاهلية هي التي تحكم المجتمع وتصرف شؤونه .

وحقيقة إنه في مكة لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة . .

ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ؛ ويمنحـــون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ؛ كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمـــردون عليهـــا ؛ وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين . .

فلم يكن الأمر هو هذا النطق الفارغ الباهت الهزيل . ولكن كانت دلالته الواقعية العملية هي الـــتي تترجمه إلى حقيقة يقوم عليها الإسلام . .

وهذا هو الذي كان يزعج الملأ من قريش من زحف الإسلام ، ومن هذا القرآن . .

إنه لم يزعجهم من قبل أن "الحنفاء" اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم ؛ واعتقـــدوا بألوهيـــة الله وحده وقدموا له الشعائر وحده ، واجتنبوا عبادة الأصنام أصلاً . .

فإلى هنا لا يهم الطاغوت الجاهلي شيء ؛ لأنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلبي والشعائر التعبدية !

إن هذا ليس هو الإسلام - كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين ، ولكنهم لا يعرفون ما هو الإسلام معرفة اليقين ! - إنما الإسلام هو تلك الحركة المصـــاحبة للنطـــق بالشهادتين . .

هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ؛ والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع . .

وهذا ما كان يقض مضاجع الملأ من قريش ، فيقاومونه بشتى الأساليب . .

ومنها هذا الأسلوب . .

أسلوب الادعاء على القرآن الكريم ، بأنه أساطير الأولين !

وأنهم - لو شاءوا - قالوا مثله ! ذلك مع تحديهم به مرة ومرة ومرة . . وهم في كل مرة يعجـــزون ويخنسون !

والأساطير واحدها أسطورة . وهي الحكاية المتلبسة - غالباً - بالتصورات الخرافية عن الآلهة ؛ وعن أقاصيص القدامى وبطولاتهم الخارقة ، وعن الأحداث التي يلعب فيها الخيال والخرافة دوراً كبيراً . .

وقد كان الملأ من قريش يعمدون إلى ما في القرآن من قصص الأولين ؛ وقصص الخوارق والمعجزات ؛ وفعل الله بالمكذبين وإنجائه للمؤمنين . . .

إلى آخر ما في القصص القرآني من هذه الموضوعات ؛ فيقولون للجمـــاهير المســـتغفلة:إنها أســـاطير الأولين ؛ اكتتبها محمد ممن يجمعونها ؛ وجاء يتلوها عليكم ، زاعماً أنه أوحي إليه بها من عند الله . .

وكذلك كان النضر ابن الحارث يجلس في مجلس رسول الله ﷺ بعد انتهائه ؛ أو يجلس مجلســـاً آخـــر يجاوره ؛ ويقص الأساطير الفارسية التي تعلمها من رحلاته في بلاد فارس ؛ ليقول للناس:إن هذا مـــن

جنس ما يقوله لكم محمد . وهأنذا لا أدعي النبوة ولا الوحي كما يدعي ! فإن هي إلا أساطير من نوع هذه الأساطير !

ولا بد أن نقدر أنه كان هناك تأثير لهذه البلبلة في الوسط الجاهلي عند عامة الناس . وبخاصة في أول الأمر ، قبل أن تتجلى الفوارق بين هذه الأساطير والقصص ، وبين القرآن الكريم . لندرك لم نادى منادي رسول الله ﷺ قبل المعركة في بدر بقتل النضر بن الحارث . ثم لما وجده أسيراً أمر بقتله هو والنفرالقليل الذين أمر بقتلهم من الأسرى ؛ و لم يقبل فيه فدية كالآخرين .

على أن الذي انتهى إليه الأمر في مكة أن هذه الأساليب لم تعش طويلاً ؛ وأن هذا النوع من المناورات قد انكشف بعد حين ؛ وأن القرآن بسلطانه القاهر الذي يحمله من عند الله ؛ وبالحق العميق الذي تصطلح عليه الفطرة سريعاً ، قد اكتسح هذه الأساليب وهذه المناورات ، فلم يقف له منها شيء ؛ وراح الملأ من قريش – في ذعر – يقولون: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون !) ووجد كبراؤهم ، من أمثال أبي سفيان ، وأبي جهل والأخنس بن شريق أنفسهم يخالس بعضهم بعضاً ليبيت ليلته يستمع خفية لهذا القرآن ؛ ولا يملك نفسه من أن تقوده قدماه ليلة بعد ليلة إلى حيث يستمع لرسول الله ﷺ في خفية عن الآخرين ؛ حتى تعاهدوا وأكدوا على أنفسهم العهود ، ألا يعودوا إليها ، مخافة أن يراهم الفتية فيفتتنوا بهذا القرآن وبهذا الدين !

على أن محاولة النضر بن الحارث أن يلهي الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يخدعهم به عنه ، لم تكن هي المحاولة الأخيرة ولن تكون . .

لقد تكررت في صور شتى وسوف تتكرر . .

لقد حاول أعداء هذا الدين دائماً أن يصرفوا الناس نهائياً عن هذا القرآن . فلما عجزوا حولوه إلى تراتيل يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون ، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس في جيوبهم وفي صدورهم وتحت وسائدهم . . .

ويفهمون أنهم مسلمون ، ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين !

لم يعد القرآن في حياة الناس هو مصدر التوجيه . . لقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبدالاً منه يتلقون منها التوجيه في شؤون الحياة كلها . .

حتى ليتلقون منها تصوراتهم ومفاهيمهم ، إلى جانب ما يتلقون منها شرائعهم وقوانينهم ، وقيمهم وموازينهم ! ثم قالوا لهم:إن هذا الدين محترم ، وإن هذا القرآن مصون . وهو يتلى عليكم صباحاً ومساء وفي كل حين ؛ ويترنم به المترنمون ، ويرتله المرتلون . . فماذا تريدون من القرآن بعد هذا الترنم وهذا الترتيل ؟! فأما تصوراتكم ومفهوماتكم ، وأما أنظمتكم وأوضاعكم ، وأما شرائعكم وقوانينكم ، وأما قيمكم وموازينكم ، فإن هناك قرآنا آخر هو المرجع فيها كلها ، فإليه ترجعون !

إنها مناورة النضر بن الحارث ، ولكن في صورة متطورة معقدة ، تناسب تطور الزمان وتعقد الحياة . ولكنها هي هي في شكل من أشكالها الكثيرة ، التي عرفها تاريخ الكيد لهذا الدين ، على مدار القرون ولكن العجيب في شأن هذا القرآن ، أنه – على طول الكيد وتعقده وتطوره وترقيه – ما يزال يغلب ! . . إن لهذا الكتاب من الخصائص العجيبة ، والسلطان القاهر على الفطرة ، ما يغلب به كيد الجاهلية في الأرض كلها وكيد الشياطين من اليهود والصليبيين ؛ وكيد الأجهزة العالمية التي يقيمها اليهود والصليبيون في كل أرض وفي كل حين !

إن هذا الكتاب ما يزال يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها ليجعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم الإذاعية ؛ بحيث يذيعه – على السواء – اليهود ، ويذيعه الصليبيون ، ويذيعه عملاؤهم المتسترون تحت أسماء المسلمين !

وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في تحويله في نفوس الناس "المسلمين" ! – إلى مجرد أنغام وتراتيل ؛ أو مجرد تمائم وتعاويذ ! وبعد أن أبعدوه – حتى في خاطر الناس . . المسلمين ! . . من أن يكون مصدر التوجيه للحياة ؛ وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون . . ولكن هذا الكتاب ما يزال يعمل من وراء هذا الكيد ؛ وسيظل يعمل ؛ وما تزال في أنحاء في الأرض عصبة مسلمة تتجمع على جدية هذا الكتاب ، وتتخذه وحده مصدر التوجيه ؛ وهي ترتقب وعد الله لها بالنصر والتمكين . من وراء الكيد والسحق والقتل والتشريد . .

وما كان مرة لا بد أن سيكون . .

٧٨- اليقين بوعد الله :

قال تعالى : * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ* (٥٩) سورة الأنفال

وَلاَ يَحْسَبُ الذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ فَاتُونَا وَسَبَقُونَا ، وَنَجَوا مِنْ عَاقِبَةِ خِيَانَتِهِمْ وَغَدْرِهِمْ ، فَلاَ نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِنَا وَقُدْرَتِنَا ، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا ، فَلا يُعْجِزُونَنَا عَنْ إِدْرَاكِهِمْ ، وَسَنَجْزِيهِمُ الجَزَاءَ الأَوْفَى .

وفي مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر ، ويهوّن عليهم أمر الكفار والكفر ! (ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون) . .

فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق ، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم ، ولن يفلت الخائنين لخيانتهم . والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم ، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم .

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة – متى أخلصوا النية فيها لله – من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة . فإنما هم منصورون بالله الذي يحققون سنته في الأرض ، ويعلون كلمته في الناس ، وينطلقون باسمه . يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك .

وقال تعالى : فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) [غافر/٧٧]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَ مِنْ قَوْمِهِ ، فَإِنَّ اللهَ سَيُنْجِزُ وَعْدَهُ ، وَسَيُظْهِرُهُ بأَعْدَائِهِ ، وَسَيُنْزِلُ العِقَابَ بالمُكَذِّبينَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ . ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : إمَّ أَنْ يُرِيَهُ فِي حَيَاتِهِ بَعْضَ الذِي يَعِدُهُمْ مِنَ العَذَاب والنَّقْمَةِ ، كَالقَتْلِ والأَسْرِ فِي بَدْرٍ ، فَذَلِكَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَوَفَّاهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ بِهِم عُقُوبَتَهُ وَعَذَابَهُ فَإِنَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ فِي الآخِرَةِ عِقَاباً شَدِيداً حِينَمَا يُرْجَعُونَ إِلَيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وأمام هذا المشهد . مشهد الذل والمهانة والعذاب الرعيب . وعاقبة الجدال في آيات الله ، والكبر النافخ في الصدور . . أمام هذا المشهد وهذه العاقبة يتجه السياق إلى رسول الله ﷺ يوصيه بالصبر عل ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال . سواء أراه الله بعض الذي يعدهم في حياته ، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه . فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون : { فاصبر إن وعد الله حق . فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون } . .

وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق . إن هذا الرسول الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود ، يقال له ما مفهومه : أد واجبك وقف عنده . فأما النتائج فليست من أمرك . حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه! إنه يعمل وكفى . يؤدي واجبه ويمضي . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست قضيته . إن الأمر كله لله . والله يفعل به ما يريد .

يا لله! يا للمرتقى العالي .

٧٩- وجوب موالاة المجاهدين ونصرهم :

قال تعالى :{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) } سورة الأنفال

إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ الذِينَ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ ، وَجَاهَدُوا مَعَ الرَّسُولِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالأَنْصَارِ الذِينَ آوَوُا الرَّسُولَ وَنَصَرُوهُ ، هَؤُلاَءِ جَمِيعاً بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالآخَرِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . لِذَلِكَ آخَى الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، كُلَّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ فِي اللهِ ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِرْثاً مُقَدَّماً عَلَى القَرَابَةِ ، حَتَّى نَسَخَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِآيَةِ المَوَارِيثِ .

أَمَّا الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ، بَلْ أَقَامُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ فَهَؤُلاَءِ لاَ يَثْبُتُ لَهُمْ شَيءٌ مِنْ وَلاَيَةِ الْمُسْلِمِينَ وَنُصْرَتِهِمْ ، إِذْ لاَ سَبِيلَ إِلَى وَلاَيَتِهِمْ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ المَغَانِمِ نَصِيبٌ وَلاَ فِي خُمْسِهَا إِلاَّ مَا حَضَرُوا فِيهِ القِتَالَ . وَإِذَا اسْتَنْصَرَ هَؤُلاَءِ ، الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ، إِخْوَانَهُمُ المسْلِمِينَ فِي قِتَالٍ دِينِي عَلَى عَدُوٍ لَهُمْ ، فَعَلَيْهِمْ نَصْرَهُمْ ، لأَنَّهُمْ إِخْوَانٌ فِي الدِّينِ . أَمَّا إِذَا كَانَ الاسْتِنْصَارُ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِيثَاقٌ وَمُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الاَّ يَخْفِرُوا ذِمَّتَهُمْ وَلاَ أَنْ يَنْقُضُوا أَيْمَانَهُم مَعَ الذِينَ عَاهَدُوهُمْ .

الْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَبِذَلِكَ قَطَعَ اللهُ الْمُوَالاَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الكُفَّارِ ، وَمَنَعَ بَيْنَهُمُ المِيرَاثَ (لاَ يَتَوَارَثُ أَهْلَ مِلَّتَيْنِ) .

وَالذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فَهُمْ يَتَنَاصَرُونَ عَلَى البَاطِلِ ، وَيَتَعَاوَنُونَ عَلَى عَدَاوَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلا تُوَالُوهُمْ يَا أَيُّها الْمُسْلِمُونَ وَإِذَا لَمْ تَجْتَنِبُوا الْمُشْرِكِينَ ، وَتُوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ كَانَتْ فِتْنَةٌ بَيْنَ النَّاسِ ، وَالتِبَاسٌ لِلأَمْرِ عَلَى النَّاسِ ، وَاخْتِلاَطِ الْمُؤْمِنِينَ بِالكَافِرِينَ .

فِي الايَاتِ السَّابِقَةِ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيا ، ثُمَّ عَطَفَ فِي هَذِهِ الآيَةِ عَلَى ذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الآخِرَةِ فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى سَيَجْزِيهِمْ بِالصَّفْحِ وَالمَغْفِرَةِ عَنِ الذُّنُوبِ ، وَبِالرِّزْقِ الكَرِيمِ الحَسَنِ الطَّيِّبِ ، الذِي لاَ يَنْقَطِعُ وَلاَ يَنْقَضِي ، وَلاَ يُسْأَمُ وَلاَ يُمَلُّ حُسْنُهُ .

يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ، يَكُونُونَ مَعَ السَّابِقِينَ فِي الآخِرَةِ . وَذَوُو الأَرْحَامِ مِنَ الأَقَارِبِ جَمِيعاً لَهُمْ وَلاَيَةُ القَرَابَةِ ، وَبَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي المَوَدَّةِ وَالمَالِ وَالنُّصْرَةِ كَمَا شَرَعَ اللهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيءٍ فِي هَذَا الوُجُودِ .

والولاية بين المسلمين في إبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر ، كانت ولاية توارث وتكافل في الدياتوولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة . .

حتى إذا وجدت الدولة ومكن الله لها بيوم الفرقان في بدر بقيت الولاية والنصرة ، ورد الله الميراث والتكافل في الديات إلى قرابة الدم ، داخل المجتمع المسلم . .

فأما الهجرة التي يشير إليها النص ويجعلها شرطاً لتلك الولاية - العامة والخاصة - فهي الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام - لمن استطاع - فأما الذين يملكون الهجرة و لم يهاجروا ، استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن في جماعات من الأعراب أسلموا و لم يهاجروا لمثل هذه الملابسات ، وكذلك بعض أفراد في مكة من القادرين على الهجرة . .

وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم - إن استنصروهم في الدين خاصة - على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية !

ونحسب أن هذه النصوص والأحكام تدل دلالة كافية على طبيعة المجتمع المسلم والاعتبارات الأساسية في تركيبه العضوي ، وقيمه الأساسية . ولكن هذه الدلالة لا تتضح الوضوح الكافي إلا ببيان تاريخي عن نشأة هذا المجتمع التاريخية ؛ والقواعد الأساسية التي انبثق منها وقام عليها ؛ ومنهجه الحركي والتزاماته:

إن الدعوة الإسلامية - على يد محمد رسول الله ﷺ - إنما تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام . .

وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً:

هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق ؛ وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق . .

و لم يكن الناس - فيما عدا أفراداً معدودة في فترات قصيرة - ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ؛ إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة أخرى:

إما في صورة الاعتقاد والعبادة ؛ وإما في صورة الحاكمية والاتباع ؛ وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله ، الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ، ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ، ويرتدون إلى الجاهلية ، التي أخرجهم منها ، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى . .

إما في الاعتقاد والعبادة ، وإما في الاتباع والحاكمية ، وإما فيها جميعا . .

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري . . إنها تستهدف(الإسلام) . .

إسلام العباد لرب العباد ؛ وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة . . وفي هذا جاء الإسلام على يد محمد ﷺ ، كما جاء على أيدي الرسل الكرام قبله . .

جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس ؛ فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده ؛ فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله . بل الذي يصرف وجودهم هم أنفسهم في غير الجانب الإرادي من حياتهم . فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله في نشأتهم ونموهم وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم وموتهم ؛ كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها ؛ وهم لا يملكون تغيير سنة الله بهم في هذا كله ؛ كما أنهم لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتصرفه . . ومن ثم ينبغي أن يثوبوا إلى الإسلام في الجانب الإرادي من حياتهم ؛ فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن منشؤون هذه الحياة ، تنسيقاً بين الجانب الإرادي في حياتهم والجانب الفطري ، وتنسيقاً بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني . .

ولكن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر للبشر ، والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني ؛ والتصادم بين منهج الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجانب الفطري . .

هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام لله وحده . والتي واجهها رسول الله ﷺ بدعوته . . هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في "نظرية " مجردة . بل ربما أحياناً لم تكن لها "نظرية " على الإطلاق ! إنما كانت متمثلة دائماً في تجمع حركي . متمثلة في مجتمع ، خاضع لقيادة هذا المجتمع ، وخاضع لتصوراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته ، وهو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي ، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك – بإرادة واعية أو غير واعية – للمحافظة على وجوده ؛ والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد . ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في "نظرية " مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو ؛ فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس إلى الله مرة أخرى ، لا يجوز – ولا يجدي شيئاً – أن تتمثل في "نظرية " مجردة . فإنها حينئذ لاتكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاًوالمتمثلة في تجمع حركي عضوي ، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل ، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته . بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلاً .

والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام – على مدار التاريخ البشري – هي قاعدة:"شهادة أن لا إله إلا الله" . أي إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية . . إفراده بها اعتقاداً في الضمير ، وعبادة في الشعائر ، وشريعة في واقع الحياة . فشهادة أن لا إله إلا الله ، لا توجد

فعلا ؛ ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم . .

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية . .

أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، لا يقضون هم في أي شأن من شؤونها ، ولا في أي جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ؛ بل لا بد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه . . وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه ؛ وهو رسول الله . .

وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام الأول:"شهادة أن محمداً رسول الله" .

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها – وهي تنشئ منهجاً كاملاً للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها ؛ يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية ، في داخل دار الإسلام وخارجها ؛ في علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الاخرى . . ولكن الإسلام – كما قلنا – لم يكن يملك أن يتمثل في "نظرية " مجردة ؛ ليعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة ؛ ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلاً . فإن وجودهم على هذا النحو – مهما كثر عددهم – لا يمكن أن يؤدي إلى "وجود فعلي" للإسلام . لأن الأفراد "المسلمين نظرياً" الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية . سيتحركون طوعاً أو كرهاً ، بوعي أو بغير وعي لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده وسيدافعون عن كيانه ؛ وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه ؛ لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا . . أي أن الأفراد "المسلمين نظرياً" سيظلون يقومون "فعلا" بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون "نظريا" لإزالته ؛ وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى ، وذلك بدلا من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي ، لإقامة المجتمع الإسلامي !

ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام [أي العقيدة] في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى . .

لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه . وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله ﷺ ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته – وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولاءه من التجمع العضوي الحركي الجاهلي – أي التجمع الذي جاء منه – ومن قيادة ذلك التجمع – في أية صورة كانت ، سواء كانت في صورة قيادة دينية ، من

الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم ، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعيـــة واقتصـــادية كالتي كانت لقريش ، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديـــد وفي قيادتـــه المسلمة .

لم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم في الإسلام ، ولنطقه بشهادة أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدا رسول الله . لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا . لا يتحقق بمجـــرد قيـــام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم ؛ لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون ؛ لـــه وجود ذاتي مستقل ، يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً – كأعضاء الكائن الحي – على تأصـــيل وجـــوده وتعميقه وتوسيعه ؛ وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه . ويعملون في هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي تنظم تحركهم وتنسقه ، وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامي . ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي .

وهكذا وجد الإسلام . .

هكذا وجد متمثلا في قاعدة نظرية مجملة – ولكنها شاملة – يقوم عليها في نفـــس اللحظـــة تجمـــع عضوي حركي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع . .

و لم يوجد قط في صورة "نظرية " مجردة عن هذا الوجود الفعلي . . وهكذا يمكن أن يوجد الإســـلام مرة أخرى . .

ولا سبيل لإعادة نشأته في ظل المجتمع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان ، بغير الفقـــه الضـــروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية .

وحين ندرك طبيعة هذه النشأة وأسرارها الفطرية ؛ وندرك معها طبيعة هذا الدين وطبيعـــة منهجـــه الحركي– على ما بينا في مقدمة سورة الأنفال في الجزء التاسع – ندرك معه مدلولات هذه النصوص والأحكام التي نواجهها في ختام هذه السورة ، في تنظيم المجتمع المسلم وتنظيم علاقاته مع المـــؤمنين المهاجرين المجاهدين – بطبقاتهم – والذين آووا ونصروا ؛ وعلاقاته مع الذين آمنوا إلى دار الإســـلام التي تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ؛ و لم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله ؛ ويحقق فيها وجوده الكامل ؛ بعدما تحقق له وجـــوده في مكـــة نســـبيا ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع في تجمع عضوي حركي ، مستقل ومنفصل عن المجتمـــع الجـــاهلي ومواجه له بهذا الوجود المستقل المميز .

وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة ، أو في الأعراب حول المدينة . يعتنقـــون العقيـــدة ، ولكنـــهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ؛ ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه . وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ؛ و لم يجعل الله لهم ولاية – بكل أنواع الولاية – مع هـــذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامي . وفي هؤلاء نزل هذا الحكم:

(والذين آمنوا و لم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم في الـــدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) . .

وهذا الحكم منطقي ومفهوم مع طبيعة هذا الدين – التي أسلفنا – ومع منهجه الحركـــي الـــواقعي . فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم ؛ ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية . . ولكن هنـــاك رابطة العقيدة ؛ وهذه لا ترتب – وحدها – على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ؛ اللهم إلا أن يعتدي عليهم في دينهم ؛ فيفتنوا مثلاً عن عقيدتهم . فإذا استنصروا المسلمين – في دار الإسلام – في مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها . على شرط ألا يخل هذا بعهد مـــن عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدي على أولئك الأفراد في دينـــهم وعقيدتهم !

ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقـــود . فهذه لها الرعاية أولاً ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلي لهذا الدين المتمثل في التجمع الإسلامي . . . . وهذا يعطينا مدى الأهمية التي يعلقها هذا الدين على التنظيم الحركي الذي يمثل وجوده الحقيقي . .

والتعقيب على هذا الحكم: (والله بما تعملون بصير) . .

فكل عملكم تحت بصره – سبحانه – يرى مداخله ومخارجه ، ومقدماته ونتائجه ، وبواعثه وآثاره وكما أن المجتمع المسلم مجتمع عضوي حركي متناسق متكافل متعـــاون يتجمـــع في ولاء واحـــد ، فكذلك المجتمع الجاهلي: (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) . .

إن الأمور بطبيعتها كذلك – كما أسلفنا . إن المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد ؛ إنما يتحرك ككائن عضوي ، تندفع أعضاؤه ، بطبيعة وجوده وتكوينه ، للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه . فهم بعضهم أولياء بعض طبعاً وحكماً . .

ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ، ولكـــن بدرجـــة أعمق وأمتن وأقوى . فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض ، فستقع الفتنة لأفـــراده مـــن المجتمع الجاهلي – لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفراداً – وتقع الفتنـــة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده . ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام ؛ وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله ؛ ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى . وهو أفسد الفساد: (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) . .

ولا يكون بعد هذا النذير نذير ، ولا بعد هذا التحذير تحذير . .

والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركـــي ذي الـــولاء الواحـــد والقيادة الواحدة ، يتحملون أمام الله – فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها – تبعـــة تلـــك الفتنـــة في الأرض ، وتبعة هذا الفساد الكبير .

ثم يعود السياق القرآني ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل في هذه الصورة:

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقـــاً لهـــم مغفرة ورزق كريم) . .

أولئك هم المؤمنون حقاً . . فهذه هي الصورة الحقيقية التي يتمثل فيها الإيمان . .

هذه هي صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقي لهذا الدين . .

إنه لا يوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ؛ ولا بمجرد اعتناقها ؛ ولا حـــتى بمجـــرد القيـــام بالشعائر التعبدية فيها . .

إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود فعلي ، إلا إذا تمثل في تجمع حركي . .

أما وجوده في صورة عقيدة فهو وجود حكمي ، لا يصبح [حقاً] إلا حين يتمثل في تلك الصورة الحركية الواقعية . .

وهؤلاء المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم . .

والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله . . وفوقـــه المغفـــرة وهي من الرزق الكريم . بل هي أكرم الرزق الكريم .

ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين ، كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهـــد – وإن كانـــت للسابقين درجتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى – إنما هذا إلحـــاق في الـــولاء والعضـــوية في المجتمع الإسلامي: (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) . .

ولقد ظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح مكة ؛ حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادتـــه ، وانـــتظم الناس في مجتمعه . فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل . كما قال رسول الله ﷺ غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفا ومائتي عام تقريباً ؛ لم ينقطع فيهـــا حكـــم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه . . فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية ؛ وارتفع حكم الله – سبحانه – عن حياة الناس في الأرض ، وعادت الحاكمية إلى الطاغوت في الأرض كلها ، ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها . .

الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام – كالجولة الأولى – تأخذ – في التنظيم – كـــل أحكامهـــا المرحلية ، حتى تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة ؛ ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى – بـــإذن الله – فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل ؛ كما حدث في الجولة الأولى . .

ولقد كانت لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامي أحكامها الخاصة ، وتكاليفها الخاصة . .

قام الولاء في العقيدة مقام الولاء في الدم ، في كل صوره وأشكاله ، وفي كل التزاماته ومقتضـــياته . بما في ذلك الإرث والتكافل في الديات والمغارم . .

فلما أن استقر الوجود الإسلامي بيوم الفرقان في بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية ، اللازمـــة لعملية البناء الأولى ، المواجهة لتكاليفها الاستثنائية . وكان من هذه التعـــديلات عـــودة التـــوارث والتكافل في الديات وغيرها إلى القرابة - ولكنه في إطار المجتمع المسلم في دار الإسلام: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . .

فلا بأس بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام ، من أولوية ذوي القربى في داخل الإطار العـــام . . إن هذا يلبي جانباً فطرياً في النفس الإنسانية . ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية في النفس الإنسانية ، ما دام أن ليس هناك ما يعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامي . . إن الإســـلام لا يحطـــم المشاعر الفطرية ؛ ولكنه يضبطها . يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإســـلامي ؛ فمـــتى انقضت هذه الحاجات عاد يلبيها - في إطاره العام . ومن ثم تكون لبعض الفتـــرات الاســـتثنائية في الحركة تكاليفها الخاصة ، التي ليست واردة في الأحكام النهائية للإســـلام ، الـــتي تحكـــم المجتمـــع الإسلامي المستقر الآمن في حياته العادية . .

وكذلك ينبغي أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى ؛ وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى . .

إن الله بكل شيء عليم . .

وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر ، وتداخلها وتنظيمهـــا وتنســـيقها . فهي من العلم المحيط بكل شيء . علم الله تعالى . .

وبعد فإن الإسلام - وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج ؛ ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي ؛ ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة - إنما كان يستهدف إبـــراز "إنسانية الإنسان" وتقويتها وتمكينها ، وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنســـاني . وكان يمضي في هذا على منهجه المطرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه

إن الكائن الإنساني يشترك مع الكائنات الحيوانية - بل الكائنات المادية - في صفات توهم أصحاب "الجهالة العلمية ! " مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ؛ ومرة بأنه مادة كسائر المواد ! ولكن الإنســـان مع اشتراكه في هذه "الصفات" مع الحيوان ومع المادة له "خصائص" تميزه وتفرده ؛ وتجعل منه كائنـــاً فريداً - كما اضطر أصحاب "الجهالة العلمية ! " أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعة تلوي أعناقهم ليا ، فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة !

والإسلام - بمنهجه الرباني - يعمد إلى هذه الخصائص التي تميز "الإنسان" وتفرده بـــين الخلائـــق ؛ فيبرزها وينميها ويعليها . .

وهو حين يجعل آصرة العقيدة هي قاعدة التجمع العضوي الحركي ، التي يقيم على أساسها وجـــود الأمة المسلمة ، إنما يمضي على خطته تلك . فالعقيدة تتعلق بأعلى ما في "الإنسان" من "خصائص" . .

إنه لا يجعل هذه الآصرة هي النسب ، ولا اللغة ، ولا الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللون ، ولا المصالح ، ولا المصير الأرضي المشترك . .

فهذه كلها أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان . وهي أشبه شيء وأقرب شيء إلى أواصر القطيع ، وإلى اهتمامات القطيع ، وإلى الحظيرة والمرعى والثغاء الذي يتفاهم به القطيع ! أما العقيـــدة الـــتي تفسر للإنسان وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله تفسيراً كلياً ؛ كما تفسر له منشـــأ وجـــوده ووجود الكون من حوله ، ومصيره ومصير الكون من حوله ؛ وترده إلى كائن أعلى من هذه المـــادة وأكبر وأسبق وأبقى ، فهي أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق ، والذي ينفرد به عن سائر الخلائق ؛ والذي يقرر "إنسانيته" في أعلى مراتبها ؛ حيث يخلف وراءه سائر الخلائق .

ثم إن هذه الآصرة – آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج – هي آصرة حـــرة ؛ يملـــك الفـــرد الإنساني اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأما أواصر القطيع تلك فهي مفروضة عليـــه فرضـــاً ، لم يخترها ولا حيلة له كذلك فيها . .

إنه لا يملك تغيير نسبه الذي نماه ؛ ولا تغيير الجنس الذي تسلسل منه ؛ ولا تغيير اللون الذي ولد به . فهذه كلها أمور قد تقررت في حياته قبل أن يولد ، لم يكن له فيها اختيار ، ولا يملك فيها حيلة .

كذلك مولده في أرض بعينها ، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد ، وارتباطه بمصالح ماديـــة معينـــة ومصير أرضي معين – ما دامت هذه هي أواصر تجمعه مع غيره – كلها مسائل عســـيرة التغـــيير ؛ ومجال "الإرادة الحرة " فيها محدود . .

ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هي آصرة التجمع الإنساني . .

فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج ، فهي مفتوحة دائماً للاختيار الإنساني ، ويملك في كل لحظة أن يعلن فيها اختياره ؛ وأن يقرر التجمع الذي يريد أن ينتمي إليه بكامل حريته ؛ فلا يقيده في هـــذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه ، أو الأرض التي ولد فيها ، أو المصالح المادية التي تتحول بتحول التجمع الذي يريده ويختاره .

. . وهنا كرامة الإنسان في التصور الإسلامي . .

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ؛ ولإقامة التجمع الإســـلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضـــية القريبـــة والحدود الإقليمية السخيفة !

ولإبراز "خصائص الإنسان" في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان . .

كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة !

وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ؛ وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ؛ وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة ؛ وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة . على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان .

لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق:العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونسي والإفريقي . . .

إلى آخر الأقوام والأجناس . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية . و لم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما "عربية " إنما كانت دائماً "إسلامية " . و لم تكن يوماً ما "قومية " إنما كانت دائماً "عقيدية " . .

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة ، وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة . . فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ؛ وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية التاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة ؛ وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ؛ وتبرز فيها "إنسانيتهم" وحدها بلا عائق . . وهذا ما لم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ ! . .

لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد ضمت بالفعل أجناساً متعددة ؛ ولغات متعددة ، وأرضين متعددة . . .

ولكن هذا كله لم يقم على آصرة "إنسانية " و لم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة . . لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني – بصفة عامة – وعبودية سائر الأجناس الأخرى . .

ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ؛ و لم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي .

كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى . .

تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً . .

ولكنه كان كالتجمع الروماني الذي هو وريثه !

تجمعاً قومياً استغلالياً ؛ يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية . .

ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها:الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية . .

وكلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت !

وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة "إنسانية " عامة . إنما أقامته على القاعدة "الطبقية " . . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم . . هذا تجمع على قاعدة طبقة "الأشراف" ؛ وذلك تجمع على قاعدة طبقة "الصعاليك" [البروليتريا] والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى !

وما كان لمثل هذا التجمع الصغير أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني . .

فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن "المطالب الأساسية " للإنسان هي "الطعام والمسكن والجنس" - وهي مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!!

لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني . . وما يزال مفرداً . .

والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة . . إلى آخر هذا النتن السخيف هم أعداء الإنسان حقاً !

هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ؛ ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق . . وهم في الوقت ذاته يسبحون ضد التيار ؛ ويعملون ضد خط الصعود الإنساني ؛ ليعودوا بالإنسان إلى التجمع على مثل ما تتجمع عليه "البهائم" من الحظيرة والكلأ !

بعد أن رفعه الله إلى ذلك المقام الكريم الذي يتجمع فيه على ما يليق أن تتجمع عليه "الناس" !

وأعجب العجب أن يسمى التجمع على خصائص الإنسان العليا تعصباً وجموداً ورجعية ، وأن يسمى التجمع على مثل خصائص الحيوان تقدماً ورقياً ونهضة ؛ وأن تقلب القيم والاعتبارات كلها ؛ لا لشيء إلا للهروب من التجمع على أساس العقيدة . .

خصيصة الإنسان العليا . .

ولكن الله غالب على أمره . .

وهذه الانتكاسات الحيوانية الجاهلية في حياة البشرية لن يكتب لها البقاء . .

وسيكون ما يريده الله حتماً . .

وستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها على القاعدة التي كرم الله الإنسان بها . والتي تجمع عليها المجتمع المسلم الأول فكان له تفرده التاريخي الفائق . وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق ، تتطلع إليها البشرية وهي تحاول مرة أخرى أن ترقى في الطريق الصاعد إلى ذلك المرتقى السامي الذي بلغت إليه في يوم من الأيام . .

ذلك أن سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم في فترة ما بعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوي . .

وفي هذه السورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ؛ كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال ، ومن النفاق والضعف ، والتردد في الواجبات والتكاليف ، والخلط وعدم الوضوح في تصور العلاقات بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات الأخرى ، وعدم المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة – وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار – مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير ، تفي بحاجة المجتمع إليها .

ولقد سبق أن أشرنا إجمالا إلى أن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس في الإسلام بعد الفتح ؛ لم تتم تربيتها ؛ و لم تنطبع بعد بالطابع الإسلامي الأصيل . إلا أن هذه الإشارة المجملة لا يمكن فهمها بوضوح إلا بمراجعة الواقع التاريخي الحركي قبل الفتح وبعده . . وسنحاول أن نلم به هنا بأشد اختصار ممكن ؛ قبل التعليق بشيء على دلالة هذا الواقع التاريخي ومغزاه ، ودلالة النصوص القرآنية التي وردت في سياق هذه السورة كذلك .

لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة ؛ فلم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش – تحس بالخطرالحقيقي الذي يتهددها من دعوة:

"أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله ؛ ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ

هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ورسوله الله ؛ ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية .

لم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة ، وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ؛ وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . .

لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يـــدفع بـــه الكـــائن العضوي خطر الموت عن نفسه . .

وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ؛ في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ؛ وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد ، يتبع في تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض !

وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان . .

ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والانضـــمام إلى التجمـــع الإسلامي الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ؛ وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان . .

بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي ؛ فأما العناصر الـــتي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ؛ وكان هذا النوع قليلا ، فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال مـــن الجاهليـــة إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هـــم القاعـــدة الصلبة لهذا الدين في مكة ؛ ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلـــك في المدينـــة ؛ مـــع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهـــاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ [بيعة العقبة] قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هـــذا الدين . .

قال ابن كثير في التفسير:"وقال محمد بن كعب القرظي وغيره:قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنـــه لرسول الله ﷺ [يعني ليلة العقبة]:اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال:" أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قالوا:فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال:" الجنة " . قالوا:ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل" .

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ؛ ولا يرتقبون من ورائهـــا شـــيئا إلا الجنـــة ؛ ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ ! يعلمـــون أنهم لا يبايعون على أمر هين ؛ بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم ، وأن العرب كلها ســـترميهم ؛ وأنهملن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة وبين ظهرانيهم في المدينة .

ومن رواية ابن كثير في كتابه:"البداية والنهاية ":"قال الإمام أحمد:حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر ابن خيثم ، عن أبي الزبير ، عن جابر . قال:مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين ، يتبع الناس في منازلهم . . عكاظ والمجنة . . وفي المواسم ، يقول:" من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة " . فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره . حتى إن الرجل ليخرج من اليمن ، أو من مضر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون:احذر غلام قريش لا يفتنك . ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الأسلام . ثم ائتمروا جميعا ، فقلنا:حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين ، حتى توافينا . فقلنا:يا رسول الله علام نبايعك ؟ قال:" تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة " . فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - وفي رواية البيهقي - وهو أصغر السبعين - إلا أنا . فقال:رويدا يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وتعضكم السيوف . فإنا أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله . . قالوا:أبط عنا يا أسعد ! فوالله لا ندع هذه البيعة ، ولا نسلبها أبدا ! قال:فقمنا إليه ، فبايعناه ، وأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة " [وقد رواه الإمام أحمد أيضا والبيهقي من طريق داود بن عبد الرحمن العطار - زاد البيهقي عن الحاكم - بسنده إلى يحيى بن سليم كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي إدريس به نحوه . وهذا إسناد جيد على شرط مسلم و لم يخرجوه . وقال البزار:وروى غير واحد غير ابن خيثم ، ولا نعلمه يروى عن جابر إلا من هذا الوجه] .

فقد كان الأنصار إذن يعلمون - عن يقين واضح - تكاليف هذه البيعة ؛ وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا في هذه الحياة الدنيا - حتى ولا النصر والغلبة - وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة . .

ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها . . فلا جرم أن يكونوا - مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة . . ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . .

لقد ظهر الإسلام وفشا في المدينة ؛ واضطر أفراد كثيرون - ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم - أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم . .

حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول:هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقا . ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا في الإسلام تقليدا - ولو لم يكونوا منافقين - ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الإسلام ولا انطبعوا بطابعه . .

مما أنشأ تخلخلا في بناء المجتمع المدني ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية .

وهنا أخذ المنهج القرآني التربوي الفريد ، بقيادة رسول الله ﷺ يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة ؛ ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد .

وحين نراجع السور المدنية - بترتيب النزول التقريبي - فإننا نطلع على الجهد الكبير الذي بذل في عملية الصهر الجديدة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم ؛ وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع - على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ، ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد - وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة . .

ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة في فترات الشدة - أعراض من الضعف ، والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر . . وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . .

والنصوص القرآنية في السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التي كان المنهج القرآني يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة . .

نذكر منها على سبيل المثال: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . . . [الأنفال:٥ - ٨]

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون:آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد . . . [آل عمران:٧ - ٩]

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) . . . [الحشر:١١ – ١٣]

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض:ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم:يا أهل يثرب لا مقام لكمفارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون:إن بيوتنا عورة – وما هي بعورة – إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . . . الخ) [الأحزاب:٩ – ١٤]

يا أيها الذين أمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال:قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن – كأن لم تكن بينكم وبينه مودة –:يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما . . . [النساء:٧١ – ٧٣]

ألم تر إلى الذين قيل لهم:كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا:ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل:متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا:هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا:هذه من عندك . قل:كل من عند الله ، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا . . . . . . [النساء:٧٧ – ٧٨] .

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله . فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . . [محمد:٣٦ – ٣٨] .

ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ، ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب

الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . . . [المجادلة:١٤ - ٢٢] .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون:نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا:أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . . . [المائدة:٥١ - ٥٣] .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ،يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم:إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه:لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) . . . [الممتحنة:١ - ٤] .

وحسبنا هذه النماذج العشرة من شتى السور ، للدلالة على ما كان يظهر في المجتمع المسلم من أعراض . .

نتيجة طبيعية وحتمية لدخول عناصر جديدة فيه بصفة مستمرة ، لا يتم صهرها وتنسيقها مع القاعدة الصلبة الخالصة إلا بعد فترة وجهد وتربية مستمرة . .

إلا أن قوام المجتمع المسلم في المدينة كان يظل سليما في جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ وما تحدثه من تماسك وصلابة في قوامه في وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا ، والتعرض للمخاطر التي تكشف عن هذه العناصر التي لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها .

وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ؛ ويقل عـــدد الناشـــزين مـــن ضعاف القلوب ومن المنافقين ؛ ومن المترددين كذلك والمتهيبين ؛ وممن لم يتم في نفوسهم الوضـــوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين . .

حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ؛ وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد . .

نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتهـــا ؛ فتميـــزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها . . تميز السابقون الأولـــون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر . وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية . ثم تميز بصـــفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . وجاءت النصـــوص القرآنيـــة ، والأحاديـــث النبويـــة ، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضـــوا عنـــه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم . [التوبة:١٠٠] .

"لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم ، فقد وجبت لكم الجنة " . . [من حديث أخرجه البخاري] . وكان هذا رد رسول الله ﷺ على عمر - رضي الله عنه - وقد استأذن رســـول الله ﷺ في أن يضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة حينما أدركته لحظة ضعف فأرسل إلى قريش ســـرا ينبـــئهم بتجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة .

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة علـــيهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) . . . [الفتح:١٨ - ١٩] .

(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير) . . . [الحديد:١٠] .

"مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحد ذهبـــا ، ثم أنفقتـــه في ســـبيل الله مـــا أدركتغدوة رجل من أصحابي ولا روحة " . . . [أورده ابن القيم في زاد المعاد] وهو رد رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد إذ تلاحى مع عبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وخالد هو ســـيف الله . ولكن عبدالرحمن من السابقين الأولين . فقال رسول الله ﷺ لخالد:" دع عنك أصحابي " وهو يعني هذه الطبقة ذات القدر الخاص المتميز في المجتمع المسلم في المدينة .

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركة الإسلامية ، لم يكن مانعا أن تتقـــارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح ؛ وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلـــة في الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد ، والشح بالنفس والمال ، وعدم الوضـــوح العقيـــدي ، والنفاق . . من ذلك المجتمع بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية .

إلا أن فتح مكة في العام الثامن الهجري ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة ، قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية ؛ وفيهم كارهون للإسلام منــافقون ؛ وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر ، وفيهم المؤلفة قلوبهم ، دون انطباع بحقــائق الإســلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية .

لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الإسلام في الجزيرة العربيــة . فقــد كانت قريش هي صاحبة الكلمة العليا في الشؤون الدينية في الجزيرة - فوق ما كان لها مــن نفــوذ اقتصادي وسياسي وأدبي كذلك - فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد ، بهذه الصــورة العنيــدة ، مدعاة لصرف العرب في أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حــتى تنجلي المعركة بين قريش وهذا النبي من أبنائها ! . . .

فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوازن وثقيف في الطائف ؛ وكانت قبائل اليهود الــثلاث القوية في المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام ، وأبيدت بنــو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير . . .

كان ذلك إيذانا بدخول الناس في دين الله أفواجا ، وانسياح الإسلام في أرجاء الجزيــرة كلــها في خلال عام واحد .

غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التي ظهــرت في المجتمع بعد انتصار بدر - ولكن على نطاق أوسع - بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير في خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى ! ولولا أن المجتمع المــدني بجملتــه كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع ؛ لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الإسلام في الجزيرة . ولكن الله الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء به انتصار بــدر ؛ كمــا أنــه - سبحانه - كان قد أعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد الســريع الذي جاء به فتح مكة . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذي جاء عنه في هذه السورة:"التوبة ": لقد نصــركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ؛ وضاقت عليكم الأرض بمــا رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . .

وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة في أول الأمر أن ألفين من "الطلقاء" الذين أسلموا يوم الفتح ، قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة . فكان وجود هذين الألفين – مع عشرة آلاف – سببا في اختلال التوازن في الصف – بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن – ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التي تمت تربيتها وتناسقها في الزمن الطويل ما بين بدر والفتح .

كذلك كان ما ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقي السريع ؛ ودخول تلك الأفواج الجديدة ، بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة . . هذه الظواهر والأعراض التي تحدثت عنها سورة التوبة ، والتي اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب ، التي أشرنا إليها في المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة .

ونستطيع أن نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخي للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح ؛ عندما قبض رسول الله ﷺ فارتدت الجزيرة العربية كلها ؛ ولم يثبت إلا مجتمع المدينة – القاعدة الصلبة الخالصة – فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها . . إن عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الإسلام في نفوس هذه الأفواج الكثيرة التي دخلت في دين الله بعد الفتح ، بمستوياتها الإيمانية المخلخلة . فلما قبض رسول الله – ﷺ – ارتجت الجزيرة المخلخلة ، وثبتت القاعدة الصلبة . واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف في وجه التيار ؛ وأن ترده عن مجراه الجارف ؛ وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى . .

إن رؤية هذه الحقيقة – على هذا النحو – كفيلة بأن ترينا تدبير الله الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة – في أول الأمر – وحكمته في تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها ، ويفتنونها عن دينها ، ويهدرون دماءها ، ويفعلون بها الأفاعيل !

لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة . وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لاتصلب الأعواد ولاتثبت للضغوط ؛ وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والإصرار والمضي في سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع ، وقلة العدد ، وانعدام النصير الأرضي . . .

إن هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى . .

إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل هي التي انضم إليها السابقون من الأنصار ، ليكونوا القاعدة في المدينة – قبل بدر – وليكونوا هم الحراس الأقوياء الأشداء في فترة التخلخل التي أعقبت النصر في بدر ، بالتوسع الأفقي الذي جاء بأعداد جديدة لم تنضج بعد ، ولم تتناسق مع القاعدة في مستواها الإيماني والتنظيمي .

وأخيراً فإن القاعدة الصلبة التي اتسعت أبعادها قبيل الفتح ، حتى صارت تتمثل في المجتمع المدني بجملته ، هي التي حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله ﷺ وارتداد الجزيرة عن الإسلام .

إن هذه الحقيقة – كما أنها ترينا تدبير الله الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة ؛ وفي الأهوال والمشاق والأخطار التي تعرض لها المجتمع المسلم في المدينة حتى الحديبية – هي كذلك تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركي للدعوة الإسلامية المتجددة في أي زمان وفي أي مكان .

إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص ، الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها ؛ والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعياً ؛ ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقي قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة . فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ما حق يهدر وجود أية حركة ، لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذة الناحية ، ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة الأولى .

على أن الله – سبحانه – هو الذي يتكفل بهذا لدعوته . فحيثما أراد لها حركة صحيحة ، عرَّض طلائعها للمحنة الطويلة ؛ وأبطأ عليهم النصر ؛ وقللهم ؛ وبطأ الناس عنهم ؛ حتى يعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا ، وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصة الواعية الأمينة . . ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده – سبحانه – والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . .

٨٠- أن يكونوا من للمتقين :

قال تعالى : *إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* (٣٦) سورة التوبة

خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِجَّةِ الوَدَاعِ فَقَالَ : " أَلاَ إِنَّ الزَمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ (أَيْ فرضَ اللهُ احْتِرَامَهَا ، وَحَرَّمَ فِيهَا القِتَالَ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) ، ثَلاَثَةٌ مُتَتَالِيَاتٍ : ذو القعدةِ وذو الحِجَّةِ وَالُمحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ بَيْنَ جُمادى وَشَعْبَانَ " وَذَلِكَ هُوَ الشَّرْعُ الصَّحِيحُ ، الذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَغَيْرُهُمَا ، وَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بالأَشْهُرِ الحُرُمِ مِنْ أَحْكَام ، فَلا تَظْلِمُوا فِي هَذِهِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ أَنْفُسَكُمْ بارْتِكَابِكُمُ المَعَاصِي لأنَّ الإِثْمَ فِيهَا يَتَضَاعَفُ ، كَمَا أَنَّ المَعَاصِي فِي البَلَدِ الحَرَامِ يَتَضَاعَفُ فِيهَا الإِثْمُ . وَالعَمَلُ الصَّالِحُ فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ وَفِي البَلَدِ الحَرَامِ أَعْظَمُ ثَوَاباً عِنْدَ اللهِ .

(وَقِيلَ إنَّ مَعْنَى – لاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ – هُوَ لاَ تَجْعَلُوا حَرَامَ هَذِهِ الأَشْهُرِ حَلاَلاً ، وَلاَ حَلاَلَها حَرَاماً ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الشِّرْكِ ، وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ جَمِيعُكُمْ كَافَّةً ، وَكُونُوا يَداً وَاحِـدَةً فِـي دَفْـعِ عُدْوَانِهِمْ ، وَكَفِّ أَذَاهُمْ ، لأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً لِهَدْمِ دِينِكُمْ ، وَالقَضَاءِ عَلَيْهِ ، وَإِطْفَاءِ نُـورِ اللهِ ، فَأَنْتُمْ أَجْدَرُ بِالاتِّحَادِ لِدَفْعِ العُدْوَانِ ، وَجَعْلِ كَلِمَةِ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللهَ مَـعَ المُـتَّقِينَ ، يَنْصُرُهُمْ وَيَمُدُّهُمْ بِعَوْنِهِ وَجُنْدِهِ) .

(وَقِيلَ إنَّ آيَةَ تَحْرِيمِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ قَدْ نُسِخَتْ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ حاصَرَ أَهْلَ الطَّـائِفِ فِـي الشَّهْرِ الحَرَامِ ذِي القِعْدَةِ ، وَبِدَلِيلِ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ ، وَقَالَ : فَلاَ تَظْلِمُوا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ . وَدَلِيلُ السِّيَاقِ أَنَّهُ أَمَرَ بِذَلِكَ أَمْراً عَاماً) .

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . .

ذلك في غير الأشهر الحرم ، ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء في تلك الأشـهر ، لأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القـوة الشريرة المعتدية ؛ ويشيع الفساد في الأرض ؛ والفوضى في النواميس . فرد الاعتداء في هـذه الحالـة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يعتدى عليها ولا تهان .

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . .

قاتلوهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة ، فهم يقاتلونكم جميعاً لا يستثنون منكم أحـداً ، ولا يبقون منكم على جماعة . والمعركة في حقيقتها إنما هي معركة بين الشرك والتوحيد . وبين الكفـر والإيمان وبين الهدى والضلال . معركة بين معسكرين متميزين لا يمكن أن يقوم بينهما سلام دائـم ، ولا أن يتم بينهما اتفاق كامل . لأن الخلاف بينهما ليس عرضياً ولا جزئياً . ليس خلافاً على مصالح يمكن التوفيق بينها ، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها . وإن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقـة المعركة بينها وبين المشركين – وثنيين وأهل كتاب – إذا هي فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية أو معركة قومية ، أو معركة وطنية ، أو معركة استراتيجية . .

كلا . إنها قبل كل شيء معركة العقيدة . والمنهج الذي ينبثق من هذه العقيدة . .

أي الدين . .

وهذه لا تجدي فيها أنصاف الحلول . ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات . ولا علاج لها إلا بالجهـاد والكفاح الجهاد الشامل والكفاح الكامل . سنة اللّه التي لا تتخلف ، وناموسه الـذي تقـوم عليـه السماوات والأرض ، وتقوم عليه العقائد والأديان ، وتقوم عليه الضمائر والقلوب . في كتاب اللّـه يوم خلق اللّه السماوات والأرض .

(واعلموا أن اللّه مع المتقين) . . فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات اللّه . وأن يحلوا ما حرم اللّه ، وأن يحرفوا نواميس اللّه . فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من

الجهاد الشامل . فهو جهاد في سبيل اللّه يقفون فيه عند حدوده وآدابه ؛ ويتوجهون به إلى اللّه يراقبونه في السر والعلانية . فلهم النصر ، لأن اللّه معهم ، ومن كان اللّه معه فهو المنصور بلا جدال

٨١- إرادة إحدى الحسنيين :

قال تعالى : * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ* (٥٢) سورة التوبة

وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ : هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا ، وَتَنْتَظِرُونَ أَنْ يَقَعَ لَنَا ، إلاَّ وَاحِدَةٌ مِن اثْنَتَيْنِ : وَكِلْتَاهُمَا خَيْرٌ لَنَا وَفِيهِمَا حَسَنَةٌ : شَهَادَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ ظَفَرٌ . أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا نَنْتَظِرُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ عَذَابُ اللهِ ، أَوْ أَنْ يُسَلِّطَنَا عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ فَنُذِيقَكُمْ بَأْسَنَا .

واللّه قد كتب للمؤمنين النصر ، ووعدهم به في النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ، ليناله المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التي اقتضتها سنة اللّه ، نصراً عزيزاً لا رخيصاً ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية . واللّه هو الناصر وهو المعين: (وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون) . .

والاعتقاد بقدر اللّه ، والتوكل الكامل على اللّه ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق . فذلك أمر اللّه الصريح: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . .) وما يتكل على اللّه حق الاتكال من لا ينفذ أمر اللّه ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لايدرك سنة اللّه الجارية التي لا تحابي أحداً ، ولا تراعي خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب اللّه المباشر أو على أيدي المؤمنين: (قل:هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون) . .

فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟

إنها الحسنى على كل حال . النصر الذي تعلو به كلمة اللّه ، فهو جزاؤهم في هذه الأرض . أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند اللّه . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عذاب اللّه يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين ؛ أو ببطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين . . (فتربصوا إنا معكم متربصون) والعاقبة معروفة . . والعاقبة معروفة للمؤمنين .

٨٢- البداية بقتال الأقربين من الكفار والفجار :

قال تعالى : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ* (١٢٣) سورة التوب

يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنينَ الطَّرِيقَ الأَمْثَلَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدَؤُوا بِقِتَالِ الأَقْربِ فَالأَقْرَبِ مِنْهُمْ إلى أَرْضِ الإِسْلاَمِ ، وَبذلِكَ لاَ يَبْقَى مَجَالٌ لأنْ يُؤْخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ ، إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ ، وَلِهَذَا بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ العَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ ، لأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ . وَهَكَذَا كَانَ المُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ ، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ العُتَاةِ الفُجَّارِ وَهَكَذَا .

وَيَأْمُرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدّاءَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ ، وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً وَخُشُونَةً فِي القِتَالِ ، لِيُدْخِلُوا الوَهَنَ إِلَى نُفُوسِهِمْ ، وَنُفُوسِ مَنْ خَلْفَهُمْ . وَمِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّارِ ، رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ . وَيُخْبِرُ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُثَبِّتُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ .

فأما خطة الحركة الجهادية التي تشير إليها الآية في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) . .

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من يلون "دار الإسلام" ويجاورونها ، مرحلة فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت و لم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم . ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوبا ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛ . . ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت ، أو على أساس القوميات ! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون . وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام "أمة واحدة " في "دار الإسلام" المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها ، وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله ﷺ وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين .

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين) . .

فنجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار . لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم . . وندرك أن هذا هو الأمر الأخير ، الذي يجعل "الانطلاق" بهذا الدين هو الأصل

الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد ، وليس هو مجرد "الدفاع" كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة .

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام ، وعن أحكام الجهاد في الإسلام ، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن . . أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة ؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآني بذاته مطلق ، وهو النص الأخير ! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام ، أن يكون دقيقا في كل موضع ؛ وألا يحيل في موضع على موضع ؛ بل يتخير اللفظ المحدد ؛ ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص . إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص .

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر ، وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب ، أن فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك .

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام ، وعن أحكام الجهاد في الإسلام ، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام ، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام !

وأن يكون الله – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار ، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار ، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار ! . . يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا ، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ؛ ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة !

إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو . .

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في "سبيل الله" . . جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله . .

جهاد لتحرير "الإنسان" من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد . . (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . . وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله . إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد ! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم ، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد ! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد ، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله في الأرض . .

ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في "الأرض" كلها ، لتحرير "الإنسان" كله . بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها . . فكلها "أرض" يسكنها "الإنسان" وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد !

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج ، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم . . إنها في هذا الوضع لا تستساغ ! وهي فعلا لا تستساغ ! . . لولا أن الأمـــر لـــيس كذلك . وليس لهشبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش ! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية . فليس لواحد منها أن يقول:إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء ! وليس الحال كذلك في نظام إلهـــي يواجه أنظمة بشرية ؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعباد ؛ ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك !

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما لئيما ماكرا خبيثا يقول لهـــم:إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف ، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإســـلامية ؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد !

والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة . .

لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق . .

إن الإسلام يقوم على قاعدة: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) . .

ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ؛ ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنـــة (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ؟ . .

إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد . .

بل لأمر مناقض تماما للإكراه على العقيدة . . إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد ! . .

لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد ؛ يواجه دائما طواغيـــت في الأرض يخضعون العباد للعباد . ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد ؛ تحـــرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور ؛ وتحول دون الناس في داخلـــها ودون سماع الدعوة الإسلامية ؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم ، أو تفتنـــهم عنها بشتى الوسائل . . وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله . . ومـــن هنـــا ينطلـــق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة ، ويدمر هذه القوى التي تحميها . . ثم ماذا ؟ . .

ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحرارا حقا في اختيار العقيدة التي يريـــدونها . إن شـــاءوا دخلـــوا في الإسلام ، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وكـــانوا إخوانـــا في الدين للسابقين في الإسلام !

وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية ، إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ؛ ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد ، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء .

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته ؛ كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها - كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا - لتكرههم على التنصر .
وأحيانا لا تقبل منهم حتى التنصر ، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون . .
وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية . . وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بإنبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن معا !
أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية ، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية . . .
إلى آخر هذه الجزيئات الإعتقادية الجانبية !
وأخيرا فإن صورة الإنطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيا في هذا الزمان وتتعاظمهم ؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الإنطلاق فيهولهم الأمر .
وهو يهول فعلا ! . .
فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين ، وهم شعوب مغلوبة على أمرها ؛ أو قليلة الحيلة عموما !
هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال ، حتى لا تكون فتنة ويكونالدين كله لله ؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا . .
ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلا !
ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر ؟ وفي أي ظرف ؟
لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله ؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين ، ونظمت على أساسه . وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله بيعة صدق ، فنصرها الله يوما بعد يوم ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة . . وأن الزمان قد إستدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمدا ﷺ ليدعو الناس - في جاهليتهم - إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فجاهد والقلة التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة . وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة . .
وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول . .
ثم يصلوا - يوم أن يصلوا - إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله . . ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء ؛ والذي تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية .
ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية:لا إله إلا الله . ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا ، ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد في الأرض ؛ إنما تنطلق بإسم الله وعلى بركة الله . .

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين ، وهم في مثل ما هم فيه من الهزال ! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت !

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق . وحفظ ما في متون الكتب . والتعامل مع النصـــوص في غير حركة ، لا يؤهل لفقه هذا الدين ، و لم يكن مؤهلا له في يوم من الأيام !

وأخيرا فإن الظروف التي نزل فيها قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين) . .

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم . .

وهم أهل كتاب . .

ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملي ، بما في عقيدتهم من انحراف ، وبمـــا في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد . .

وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! . .

وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون – راضين – إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه ، في أي زمان وفي أي مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، وعقب على هـــذا الأمر بقوله: (إن الله يحب المتقين) . .

ولهذا التعقيب دلالته . .

فالتقوى هنا . . التقوى التي يحب الله أهلها . .

هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ؛ وتقاتلهم في "غلظة " أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع . .

حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم – وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين – وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب !

إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين:قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال . . ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد – في حالة الخوف من الخيانة – [والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الـــذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ؛ ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها] .

وهذه آداب المعركة كلها ، من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عن بريدة – رضي الله عنه – قال:كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال:" اغزوا باسم الله ، في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . وإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم . . . " . . . [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي] .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال:وجدت امراة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان . . [أخرجه الشيخان] .

وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل – رضي الله عنه – إلى أهل اليمن معلما فكانت وصيته له:

"إنك تأتي قوما أهل كتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينهما وبين الله حجاب " .

وأخرج أبو داود – بإسناده – عن رجل من جهينة . أن رسول الله ﷺ قال:" لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم ، فيصالحونكم على صلح ، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك ، فإنه لا يصلح لكم " .

وعن العرباض بن سارية قال:" نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ، ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا . فأقبل إلى النبي ﷺ فقال:يا محمد ! لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال:يا ابن عوف اركب فرسك ، ثم ناد:إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة . فاجتمعوا ، ثم صلى بهم ، ثم قام فقال:أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما في القرآن ! ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذي عليهم " .

ورفع إليه ﷺ بعد إحدى المواقع أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم:ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؛ فغضب النبي ﷺ ؛ وقال – ما معناه – إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، أو لستم أبناء المشركين . فإياكم وقتل الأولاد . إياكم وقتل الأولاد .

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:

روى مالك عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – أنه قال: ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما

وقال زيد بن وهب:أتانا كتاب عمر – رضي الله عنه – وفيه:"لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله في الفلاحين " .

ومن وصاياه ! " ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات " .

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه ، وفي آدابه الرفيعة ، وفي الرعاية لكرامة الإنسان . وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه . أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة ؛ وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، غير المحاربين أصلا ؛ وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان . وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين ، ولاحترام بشرية المحاربين . إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة ؛ وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب ، بقدر ما تقتضي حالة الحرب ، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل .

وقال الطاهر بن عاشور :

كان جميع بلاد العرب خلَص للإسلام قبل حجة الوداع ، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقرّ نصارى العرب ، وكانوا تحت حكم الروم ، فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام و لم يكن فيها قتال ولكن وُضعت الجزية على أيْلَةَ وبُصرى ، وكانت تلك الغزوة إرهاباً للنصارى ، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام بحيث كلّما استقر بلد للإسلام وكان تُجاوره بلاد كفر كان حقاً على المسلمين غزو البلاد المجاورة . ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس .

فالجملةُ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك .

وفي توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي إيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب . ولعل في قوله : { واعلموا أن الله مع المتقين } إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام وأن الله معهم كقوله في الآية الأخرى { وسيجْزي الله الشاكرين } [آل عمران : ١٤٤] . والغلظة بكسر الغين : الشدة الحسية والخشونة ، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة ، كقوله : { واغلظ عليهم } [التوبة : ٧٣] . قال في «الكشاف» : وذلك يجمع الجرأة والصبر على القتال والعنف في القتل والأسر . اه .

قلت : والمقصد من ذلك إلقاءُ الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين . ومعنى أمر المسلمين بحصول ما يجده الكافرون من غلظة المؤمنين عليهم هو أمر المؤمنين بأن يكونوا أشداء في قتالهم . وهذه مبالغة في الأمر بالشدة لأنه أمر لهم بأن يجد الكفار فيهم الشدة . وذلك الوجدان لا يتحقق إلا إذا كانت الغلظة بحيث تظهر وتَنال العدو فيحِس بها ، كقوله تعالى لموسى : { فلا يَصدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها } [طه : ١٦] . وإنما وقعت هذه المبالغة لِما عليه العدو من القوة ، فإن المقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم ، وهم أصحاب عَدد وعُدد فلا يجدون الشدة من المؤمنين إلا إذا كانت شدة عظيمة .

ومن وراء صريح هذا الكلام تعريض بالتهديد للمنافقين ، إذ قد ظُهر على كفرهم وهم أشد قرباً من المؤمنين في المدينة . وفي هذا السياق جاء قوله تعالى : { يأيها النبيءُ جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم } [التوبة : ٧٣] .وجملة : { واعلموا أن الله مع المتقين } تأييد وتشجيع ووعد بالنصر إن اتقوا بامتثال الأمر بالجهاد .وافتتحت الجملة ب { اعلموا } للاهتمام بما يراد العلم به كما تقدم في قوله تعالى : { واعلموا أنما غنمتم من شيء } في سورة الأنفال (٤١) . والمعية هنا معية النصر والتأييد ، كقوله تعالى : { إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا } [التوبة : ٤٠] . وهذا تأييد لهم إذ قد علموا قوة الروم .

٨٣- التحرر من الدينونة لغير الله :

قال تعالى : { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ

إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) } سورة هود

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا هُوداً عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى قَوْمِ عَادٍ ، وَهُوَ مِنْهُمْ (أَخَاهُمْ) لِيَأْمُرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ التِي افْتَرُوهَا كَذِباً ، وَاخْتَلَقُوا لَهَا الأَسْمَاءَ الإِلَهِيَّةَ .

وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لاَ يُرِيدُ مِنْهُمْ أَجْراً عَلَى نُصْحِهِ لَهُمْ وَإِبْلاَغِهِ إِيَّاهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِم ، وَإِنَّمَا يَبْغِي الثَّوَابَ مِنَ اللهِ ، الذِي خَلَقَهُ عَلَى الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، مُبَرَّأً مِنَ البِدَعِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : أَفَلاَ تَعْقِلُونَ مَا يُقَالُ لَكُمْ فَتُمَيِّزُونَ بَيْنَ ما يَضُرُّ وَمَا يَنْفَعُ ، وَأَنَّ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أُجْرَةٍ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً .

وَأَمَرَ هُودٌ قَوْمَهُ باسْتِغْفَارِ رَبِّهِمْ مِنَ الشِّرْكِ ، وَمِمَّا أَسْلَفُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَبِإِخْلاَصِ التَّوْبَةِ إِلَيْهِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَى رَبِّهِ وَاسْتَغْفَرَهُ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَحَفِظَ شَأْنَهُ ، وَأَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيْهِ بِالمَطَرِ المُتَتَابِعِ ، وَالإِسَاءَةِ إِلى النَّاسِ .

(وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ : " مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ") .

قَالُوا لَهُ : يَا هُودُ إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنا بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ (بَيِّنَةٍ) عَلَى صِحَّةِ مَا تَدَّعِيهِ مِنْ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ، وَنَحْنُ لَنْ نَتْرُكَ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ لَنَا اتْرُكُوا آلهَتَكُمْ ، وَلَنْ نُصَدِّقَكَ فِيمَا تَقُولُ وَتَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ إِلَيْنَا .

وَقَالُوا لَهُ : مَا نَظُنُّ إِلاَّ أَنَّ بَعْضَ آلِهَتِنَا أَصَابَكَ بِمَسٍّ مِنْ جُنُونٍ وَخَبَالٍ فِي عَقْلِكَ (اعْتَرَاكَ) ، بِسَبَبِ نَهْيِكَ إِيَّانَا عَنْ عِبَادَتِهَا ، وَطَعْنِكَ فِيهَا ، فَصِرْتَ تَهْذِي بِهَذَا الكَلاَمِ . فَرَدَّ عَلَيْهِمْ هُودٌ قَائِلاً : اشْهَدُوا أَنْتُمْ ، وَإِنِّي أُشْهِدُ اللهَ رَبِّي عَلَى مَا أَقُولُ ، بِأَنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الأَصْنَامِ وَالأَنْدَادِ الذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ .

فَاجْتَمِعُوا أَنْتُم وَآلِهَتُكُمْ عَلَى الكَيْدِ لِي ، وَلاَ تَتَوَانَوْا فِي ذَلِكَ ، وَلاَ تُقَصِّرُوا فِيهِ لَحْظَةً ، فَهُوَ لاَ يُهِمُّنِي ، وَلاَ يَضُرّني فِي شَيءٍ .

إِنِّي وَكَّلْتُ أُمُورِي إلى اللهِ ، وَهُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمُ الحَقُّ ، خَلَقَ المَخْلُوقَاتِ كُلَّها ، وَجَعَلَهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الحَاكِمُ العَادِلُ الذِي لاَ يَجُوزُ فِي حُكْمِهِ . وَأَفْعَالُهُ تَعَالى ، تَجْرِي عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ وَالعَدْلِ فِي مُلْكِهِ .

أَمَّا الأَصْنَامُ وَالأَوْثَانُ فَهِيَ حِجَارَةٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً .

فَإِنْ تَتَوَلَّوا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيكُم الحُجَّةُ بِإِبْلاغِي إِيَّاكُمْ رِسَالَةَ اللهِ الذِي بَعَثَنِي بِهَا إِلَيْكُمْ ، وَاللهُ قَادرٌ عَلَى أَنْ يُهْلِكَكُمْ وَأَنْ يَأْتِيَ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ يَخْلُفُونَكُمْ فِي دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ ، وَلا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يُبَالِي رَبُّكُمْ بِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ ، بَلْ يَعُودُ وَبَالُ كُفْرِكُمْ عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ ، وَرَبِّي رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ ، قَائِمٌ بِالحِفْظِ عَلَيهِ .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللهِ بِإِهلاكِ قَوْمِ عَادٍ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ، فَأَهْلَكَهُمْ بِهَا جَمِيعاً ، وَلَمْ يَتْرُكْ أَحَداً مِنْهُمْ حَيّاً . وَنَجَّى اللهُ هُوداً وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ، مِنَ العَذَابِ الغَلِيظِ الذِي أَنْزَلَهُ بِقَوْمِ عَادٍ .

وَكَانَ ذلِكَ مَصِيرَ قَوْمِ عَادٍ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأَنْكَرُوا آيَاتِهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ (لأَنَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولاً فَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ جَمِيعاً) . وَاتَّبَعَ الدَّهْمَاءُ مِنْهُمْ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ ، وَقَادَتِهِم الطُّغَاةِ ، الذِينَ يَأْبَوْنَ الحَقَّ ، وَلا يُذْعِنُونَ لَهُ وَإِنْ قَامَ عَلَيهِ الدَّلِيلُ .

وَبِسَبَبِ كُفْرِهِمْ هَذا وَعُتُوِّهِمْ ، اسْتَحَقُّوا مِنَ اللهِ ، وَالمَلاَئِكَةِ ، وَالنَّاسِ ، لَعْنَةً فِي الدُّنْيا كُلَّمَا ذُكِرُوا ، وَتَتْبَعُهُمُ اللَّعْنَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَمَا يُنَادِى عَلَيْهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ : أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .

وكان هود من عاد . فهو أخوهم . واحد منهم ، تجمعه - كانت - آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة . وتبرز هذه الآصرة هنا في السياق ، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته ، وليبدو موقف القوم من أخيهم ونبيهم شاذا ومستقبحا ! ثم لتقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة . ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة . لتتفرد هذه الوشيجة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي ، ثم لكي تتبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركي . . فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض . . . ثم تنتهي بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد . . أمة مسلمة وأمة مشركة . .

وبينهما فرقة ومفاصلة . . وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين . ولا يجيء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة ، وتتم المفارقة ، وتتميز الصفوف ، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم ، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم ، ويخلعوا ولاءهم لقومهم ولقيادتهم السابقة ، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد . . وعندئذ فقط - لا قبله - يتنزل عليهم نصر الله . .

(وإلى عاد أخاهم هودا) . .

أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحا إلى قومه في القصة السابقة .

(قال:يا قوم) . .

بهذا التودد ، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم ، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول . فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه .

(قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . .

القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا - كما أسلفنا - عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة . ولعل أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح ! ثم تطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ؛ ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات ، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة - في صورة من صور الجاهلية الكثيرة . ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق . الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلا الله وحده . . الانحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله .

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هم يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . (إن أنتم إلا مفترون) .

.

مفترون فيما تعبدونه من دون الله ، وفيما تدعونه من شركاء لله .

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة ، فليس له من ورائها هدف . وما يطلب على النصح والهداية أجرا . إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل: (يا قوم لا أسألكم عليه أجرا . إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟) .

مما يشعر أن قوله: (لا أسألكم عليه أجرا) كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغي أجرا أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها . وكان التعقيب: (أفلا تعقلون ؟) للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولا من عند الله يطلب رزقا من البشر ، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوت هؤلاء الفقراء !

ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة . ويكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين: (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين) . .

استغفروا ربكم مما أنتم فيه ، وتوبوا إليه فابدأوا طريقا جديدا يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية . .

(يرسل السماء عليكم مدرارا) . .

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء ، ويحتفظون به بالخصب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع .

(ويزدكم قوة إلى قوتكم) . . هذه القوة التي عرفتم بها . .

(ولا تتولوا مجرمين) . . مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب .

وننظر في هذا الوعد . وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة . وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود ، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة ؟

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ، بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن ؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرارا كراما لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه . . كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض ؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإله الحق في فطرة البشر !

والملحوظ دائما أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها سدنتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة . .

أحيانا . . كل ذلك ليدين لها الناس !

فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد !

وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعباد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده في عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها ، بدلا من أن ينفقه عباد الأرباب الأرضية في الطبل والزمر والتراتيل والتسابيح لهذه الأرباب المفتراة !

ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم ، ولكنها قوة إلى حين . حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله ، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج . وهذه وحدها لا تدوم . لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين .

فأما إرسال المطر . مدرارا . فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني . ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محييا في مكان وزمان ، ومدمرا في مكان وزمان ؛ وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم ، وأن يكون الدمار معه لقوم ، وأن ينفذ الله تبشيره

بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية ؛ فهو خالق هذه العوامل ، وجاعل الأسباب لتحقيق سننه على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض غير مقيد بما عهده الناس في الغالب .

تلك كانت دعوة هود - ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة . ربما لأن الطوفان كان قريبا منهم ، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكرهم به في سورة أخرى - فأما قومه فظنوا به الظنون . .

(قالوا . يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . .) .

إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم ، إلى حد أن يظنوا أن هودا يهذي ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء ، فأصيب بالهذيان !

(يا هود ما جئتنا ببينة) . . .

والتوحيد لا يحتاج إلى بينة ، إنما يحتاج إلى التوجيه والتذكير ، وإلى استجاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير .

(وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) . .

أي لمجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل !

وما نحن لك بمؤمنين . .

أي مستجيبين لك ومصدقين . .

وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء !

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي . وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه . وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين . وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب:

(قال إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ) . .

إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقا . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة .

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم . ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم ؛ كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم !

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه . ومع ثقة الإيمان واطمئنانه !

وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا حمقى . يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلا فيهذي ؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذيانا من أثر المس !

يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ؛ ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي . لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم .

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد . ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب . .

إنه الإيمان . والثقة . والاطمئنان . . الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان إلى نصره . . الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة . لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعدا للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب .

(قال:إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه) .

إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم:أنني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله . ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسني بسوء .

تجمعوا أنتم وهي – جميعا – ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعا ، ولا أخشاكم شيئا:

(إني توكلت على الله ربي وربكم) . .

ومهما أنكرتم وكذبتم . فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله لي ولكم . فالله الواحد هو ربي وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة . .

(ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) . .

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس . والناصية أعلى الجبهة . فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . .

وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد: (إن ربي على صراط مستقيم) . .

فهي القوة والاستقامة والتصميم .
وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي . .
إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود – عليه السلام – في نفسه من ربه . .
إنه يجد هذه الحقيقة واضحة . .
إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر: (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) . .
وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرا . فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها ؛ وهي لا تسلط عليه – إن سلطت – إلا بإذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟
إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه ، لا تدع في قلبه مجالا للشك في عاقبة أمره ، ولا مجالا للتردد عن المضي في طريقه .
إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدا .
وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله ، وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة ، يأخذ هود في الإنذار والوعيد:
(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) . .
فأديت واجبي لله ، ونفضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه:
(ويستخلف ربي قوما غيركم) . .
يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم .
(ولا تضرونه شيئا) . .
فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك في كونه فراغا ولا نقصا . .
(إن ربي على كل شيء حفيظ) . .
يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربا !
وكانت هي الكلمة الفاصلة . وانتهى الجدل والكلام . ليحق الوعيد والإنذار: (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا . ونجيناهم من عذاب غليظ) .
لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء . وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة .
والآن وقد هلكت عاد . يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيع باللعنة والطرد ، في تقرير وتكرار وتوكيد:

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عادا كفروا ربهم . ألا بعدا لعاد قوم هود) . .

(وتلك عاد) . . بهذا البعد . وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق ، وكان مصرعهم معروضا على الأنظار . . ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار . .

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) . .

وهم عصوا رسولا واحدا . ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا ؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعا . ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها . فهم جحدوا آيات ، وهم عصوا رسلا . فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة !

(واتبعوا أمر كل جبار عنيد) . .

أمر كل متسلط عليهم ، معاند لا يسلم بحق ، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين ، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم . ولا يكونوا ذيولا فيهدروا آدميتهم .

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد . .

كانت هي قضية الحاكمية والاتباع . .

كانت هي قضية:من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره ؟ يتجلى هذا في قول الله تعالى: (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد) . .

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل - لأنه أمر الله - ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان . .

في كل رسالة وعلى يد كل رسول .

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير الله ؛ والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة ؛ وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية ، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة . . لقد خلق الله الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ، ولا يتزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم . فهذا مناط تكريمهم . فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة . وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة ، وتدعي الإنسانية ، وهي تدين لغير الله من عباده . والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين . فهم كثرة والمتجبرون قلة . ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال .

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد . .

هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة:

(وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) . .

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال:

(ألا إن عادا كفروا ربهم) . .

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:

(ألا بعدا لعاد قوم هود) . .

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد . كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا:

. . (ألا بعدا لعاد قوم هود) !!!

تعقيب على قصة هود

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة ، قبل أن ننتقل منها إلى قصة صالح . ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون . .

ليس فقط في ماضيها التاريخي ، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان . وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة . وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك ؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان . .

وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد ؛ ودليلها في الحركة في كل حين .

ولقد أشرنا إشارات سريعة إلى اللمسات القرآنية التي سنعيد الحديث عنها كلها تقريبا . ولكنها مرت في مجال تفسير النصوص القرآنية مرورا عابرا لمتابعة السياق . وهي تحتاج إلى وقفات أمامها أطول في حدود الإجمال:

نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة . . دعوة توحيد العبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: (قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . .

ولقد كنا دائما نفسر "العبادة " لله وحده بأنها "الدينونة الشاملة " لله وحده . في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة . ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي . . فإن "عبد" معناها:دان وخضع وذلل . وطريق معبد طريق مذلل ممهد . وعبده جعله عبدا أي خاضعا مذللا . .

و لم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية . بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية !

إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله ؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره . . ولقد فسر رسول الله ﷺ "العبادة " نصا بأنها هي "الاتباع" وليست هي الشعائر التعبدية . وهو يقول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا:" بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم " . .

إنما أطلقت لفظة "العبادة " على "الشعائر التعبدية " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون . . صورة لا تستغرق مدلول "العبادة " بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة !

فلما بهت مدلول "الدين" ومدلول "العبادة " في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلا !

وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح "مسلما" لا يجوز تكفيره ! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله . . .

إلى آخر حقوق المسلم على المسلم !

وهذا وهم باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ "العبادة " التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه – وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن . وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة ، والذي نص عليه رسول الله ﷺ نصا وهو يفسر قول الله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) .

وليس بعد تفسير رسول الله ﷺ لمصطلح من المصطلحات قول لقائل .

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيرا في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا الله لكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي . .

فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه ؛ وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها ؛ وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . .

إنه لم يكن يعني:يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير الله !

كما يتصور الذين انحسر مدلول "العبادة "(١) يراجع البحث القيم الذي كتبه المسلم العظيم الاستاذ السيد أبوالاعلي المودودي أمير الجماعة الاسلامية بباكستان بعنوان:" المصطلحات الاربعة في القران " . . "الاله . الرب . الدين . العبادةفي مفهوماتهم ، وانزوى داخل إطار الشعائر التعبدية ! إنما كان يعني الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها ؛ ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها . . والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي

مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله . . فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده - أي الدينونة له وحده - إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي:جحودهم بآيات ربهم ، وعصيان رسله . واتباع أمر الجبارين من عبيده:(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد) . كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين . .

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل ، واتباع الجبارين . .

فهو أمر واحد لا أمور متعددة . .

ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله . ودانوا للطواغيت بدلا من الدينونة لله ؛ فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ؛ وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك - وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض ؛ فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض ؛ وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض . إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية ، حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام . .

وهكذا إلى يومنا هذا . .

والواقع إنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد . وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ؛ وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة . . . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود ؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان . .

لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه ، فالله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة "بالإنسان" إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها . [وهذا ما نرجو أن نزيده بيانا - إن شاء الله - في نهاية قصص الرسل في ختام السورة] . .

ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم:(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين) . .

وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله ﷺ لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى:(وأن استغفروا ربكـــم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخـــاف عليكم عذاب يوم كبير) . .

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكـــون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين . . وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت ؛ وبخاصة في نفوس الذينيعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى تـــرى هـــذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها . .

إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية الله – سبحانه – والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ، المتجلي في طبيعة هذا الكون و نواميسه الأزلية . . والقرآن الكـــريم كثيرا ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية الله – سبحانه – والحق الذي قامت به السماوات والأرض ؛ والحق المتمثل في الدينونة لله وحده . . والحق المتمثل في دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة ، والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة . . وذلك في مثل هذه النصوص:

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا . . إن كنـــا فاعلين . . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ، وله من في السماوات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنـــهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهـــة ؟ قل:هـــاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضـــون . ومـــا أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . . . [الأنبياء ١٦ – ٢٥] .

(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقـــة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مســـمى ، ثم نخـــرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم – من بعد علم – شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريـــب فيها وأن الله يبعث من في القبور) . . . [الحج:٧ – ٥]

وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عـــذاب يـــوم عقيم . الملك يومئذ ، لله يحكم بينهم ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعـــيم . والـــذين

كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين . والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم حليم . ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ، إن الله لعفو غفور . ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير . له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور . لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك في الأمر ، وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم . . . . . [الحج:٥٤ – ٦٧] .

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق ، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق ، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق . وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق ، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق . . فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء ، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء ؛ وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء . ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة ، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدرارا . . . فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره ، وفي تدبيره وتصريفه ، وفي حسابه وجزائه ، في الخير وفي الشر سواء . .

ومن هذا الارتباط يتجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس . فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة . سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم . أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك . وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان ، من النتائج المحسوسة المدركة .

وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الآثار العملية الواقعية حين قلنا مرة:إن سيادة المنهج الإلهي في مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل في هذا المجتمع ، وأن يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعي – فضلا على الأمن والسكينة والاستقرار القلبي بالإيمان – ومن شأن هذا كله أن يمتع الناس متاعا حسنا في هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير في الآخرة . .

وحين قلنا مرة:إن الدينونة لله وحده في مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقاتهم من أن تنفق في الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التي تطلق حول الأرباب المزيفة ، لتخلع عليها شيئا من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب ! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود

والطاقات للبناء في الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس . فضلا على الكرامة والحرية و المساواة التي يتمتع بها الناس في ظل الدينونة لله وحده دون العباد . . وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحق حقيقته في حياة الناس . . [وسيرد عنها بعض التفصيل في نهاية استعراض قصص الرسل في ختام السورة إن شاء الله] .

ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه ؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل ، وفي تحد سافر ، وفي استعلاء بالحق الذي معه ، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة: (قال:إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ) . .

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا المشهد الباهر . . رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم ، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى:

(كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود:ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا:سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين) ! . . [الشعراء:١٢٣ - ١٣٨]

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة ؛ والذين أبطرتهم النعمة ؛ والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود ! . .

هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة . في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال . وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال !

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة ، بعدما بذل لقومه من النصح ما يملك ؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد . .

ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله . .

لقد وقف هود – عليه السلام – هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب ! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربه آخذ بناصيتها ؛ ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب ؟! وان ربه هو الذي استخلفهم في الأرض ، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين ! للابتلاء لا لمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضرونه شيئا ، ولا يردون له قضاء . .

ففيم إذن يهوله شيء مما هم فيه ، وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء ؟ . .

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم . . أمام القوة المادية . وقوة الصناعة . وقوة المال . وقوة العلم البشري . وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات . .

وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة ؛ وأن الناس – كل الناس – إن هم إلا دواب من الدواب !

وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان . .

أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه . وأمة تتخذ من دون الله أربابا ، وتحاد الله !

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير على أعدائه – في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال – ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده . .

وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرا سواه .

٨٤- الأخذ بفقه الحركة لا فقه الأوراق :

قال تعالى :{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٧)} يوسف

فَلَمَّا تَحَقَّقَ المَلِكُ مِنْ بَرَاءَةِ يُوسُفَ قَالَ لأَصْحَابِهِ : أَحْضِرُوهُ إِليَّ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِي أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) فَلَمَّا جِيءَ بِيُوسُفَ ، وَتَحَدَّثَ المَلِكُ إِلَيْهِ ، وَعَرَفَ فَضْلَهُ . وَحُسْنَ رَأْيِهِ ، وَكَانَ عَرَفَ حُسْنَ خُلُقِهِ ، وَسِيرَتِهِ ، وَطَهَارَةَ نَفْسِهِ ، قَالَ لَهُ : إِنَّكَ عِنْدَنَا ذُو مَكَانَةٍ سَامِيَّةٍ ، وَأَمَانَةٍ تَامَّةٍ ، فَأَنْتَ غَيْرُ مُنَازِعٍ فِي تَصَرُّفِكَ ، وَلاَ مُتَّهَمٍ فِي أَمَانَتِكَ .

فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِلْمَلِكِ : اجْعَلْنِي حَافِظاً عَلَى خَزَائِنِ مُلْكِكَ ، فَإِنِّي خَازِنٌ أَمِينٌ شَدِيدُ الحِفْظِ ، فَلاَ يَضِيعُ مِنْهَا شَيْءٌ وَإِنِّي ذُو عِلْمٍ وَذُو بَصِيرَةٍ بِمَا أَقُومُ بِهِ مِنَ الأَعْمَالِ .

وَقَدْ قَبِلَ المَلِكُ عَرْضَ يُوسُفَ ، فَجَعَلَهُ المَلِكُ وَزِيراً . وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّهُ مَكَّنَ بِذَلِكَ لِيُوسُفَ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، وَإِنَّهُ تَعَالَى يُصِيبُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَلا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسنِينَ ، الذِينَ أَحْسَنُوا العَمَلَ ، وَإِنَّهُ لَمْ يُضِعْ صَبْرَ يُوسُفَ عَلَى أَذَى إِخْوَتِهِ ، وَصَبْرَهُ فِي السِّجْنِ . وَإِنَّ مَا ادَّخَرَهُ اللهُ تَعَالَى لِيُوسُفَ فِي الآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِمَّا أَعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا ، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك . وأي ملك ؟ ملك مصر !

ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلما ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك . .

كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال: (ائتوني به أستخلصه لنفسي) . .

فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة "الرضاء الملكي السامي ! " فيطير بها فرحا . .

كلا !

إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجي والصديق . .

فيا ليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام – وهم أبرياء مطلقو السراح – فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء .

يا ليت رجالا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح – حتى المادي – أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء !

وقال الملك:ائتوني به استخلصه لنفسي . .

ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك . .

(فلما كلمه قال:إنك اليوم لدينا مكين أمين) . .

فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفي أمان . فليس هو الفتى العبراني الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المهدد بالسجن . إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفي حماه . فماذا قال يوسف ؟

إنه لم يسجد شكرا كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت . و لم يقل له:عشت يا مـــولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كما يقول المتملقون للطواغيت !

كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أول بها رؤيـــا الملك ، خيرا مما ينهض بها أحد في البلاد ؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبـــلادا مـــن الخراب ، ومجتمعا من الفتنة – فتنة الجوع – فكان قويا في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايتـــه وأمانته ، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه:

(قال:اجعلني على خزائن الأرض . إني حفيظ عليم) . .

والأزمة القادمة وسنوالرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة علـــى إدارة الأمـــور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها . وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلـــم بكافـــة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء . ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها ، وأن وراءها خيرا كـــبيرا لشـــعب مصـــر وللشعوب المجاورة:

(إني حفيظ عليم) . .

و لم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض . . إنما كان حصيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيـــل ذي التبعـــة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ؛ وليكون مسؤولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجـــاوره طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه . فـــإن التكفـــل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة . إنما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفـــر والجنون .

استطراد لتعليل طلبه الحكم

وهنا تعرض شبهة . . أليس في قول يوسف – عليه السلام –: (اجعلني علـــى خـــزائن الأرض ، إني حفيظ عليم) . .

أمران محظوران في النظام الإسلامي:

أولهما:طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول صلى الله عليه وسلم:" إنا والله لا نـــولي هـــذا العمل أحدا سأله [أو حرص عليه] " . . [متفق عليه] .

وثانيهما:تزكية النفس ، وهي محظورة بقوله تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم) ؟

ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد محمد رسول الله ﷺ وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف – عليه السلام – والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة ، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول .

لا نريد أن نجيب بهذا ، وإن كان له وجه ، لأننا نرى أن الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقا ، وأوسع آفاقا من أن يرتكن إلى هذا الوجه ؛ وأنه إنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بد من إدراكها ، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص ، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها ، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والركود !

إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ ! . .

لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية . كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ؛ إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي . .

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة ؛ كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي ؛ وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية .

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها ؛ وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . .

الذين يفعلون ذلك ؛ ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ ؛ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ . .

هؤلاء ليسوا "فقهاء" !

وليس لهم "فقه" بطبيعة الفقه ! وبطبيعة هذا الدين أصلا !

إن "فقه الحركة " يختلف إختلافا أساسيا عن "فقه الأوراق" مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها "فقه الأوراق" !

إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره "الواقع" الذي نزلت فيه النصوص ، وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لا تنفصل عناصره . فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته ، واختل تركيبه !

ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته ، يعيش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها . . إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ !

ونأخذ مثالا لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب ،وهو المأخوذ من قوله تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم) ومن قول رسول الله ﷺ " إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله " . .

لقد نشأ هذا الحكم – كما نزلت تلك النصوص – في مجتمع مسلم ؛ ليطبق في هذا المجتمع ؛ وليعيش في هذا الوسط ؛ وليلبي حاجة ذلك المجتمع . وفق نشأته التاريخية ، ووفق تركيبه العضوي ، ووفق واقعه الذاتي . فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي . . وقد نشأ في وسط واقعي و لم ينشأ في فراغ مثالي . وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشيءآثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي . .

إسلامي في نشأته ، وفي تركيبه العضوي ، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة . .

وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر "فراغا" بالقياس إلى ذلك الحكم ، لا يملك أن يعيش فيه ، ولا يصلح له ، ولا يصلحه كذلك !

. . ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي . وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني . .

ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشوري أو للإمامة أو للإمارة . .

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بالتزاحم عليه – اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى – ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يمنعوها !

ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم ، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضا . .

إن الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع . فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية . .

أولا:تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله – على عهد النبوات – أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله – على مدار الزمان بعد ذلك – فيستجيب للدعوة ناس ؛ يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة .

فمنهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضي نحبه شهيدا ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق . .

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستارا لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصـــر مـــن ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقيم مملكة الله في الأرض - أي لينفذ حكم الله في الأرض - ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ؛ إنما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله في العباد

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ؛ ولا عند حدود جنس معين ؛ ولا عند حـــدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقـــون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا "الإنسان" . .

كل الإنسان:في "الأرض" . .

كل الأرض . .

من العبودية لغير الله ؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت .

وفي أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم في المجتمـــع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، مـــن الـــبلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة . .

وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها . .

ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركـــة بتلك القيم الإيمانية - كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل - ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام . .

في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا ، ولا ينكر الناس فضائل المتميـــزين - مهمـــا غلـــب الضعف البشري أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع - وعندئذ تنتفي الحاجة - من جانب آخـــر - إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة . .

لن يوجد اليوم أو غدا ، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد ، وإخراجهم مـــن الجاهلية التي صاروا إليها . . وهذه نقطة البدء . .

ثم تعقبها الفتنة والابتلاء – كما حدث أول مرة – فأما ناس فيفتنون ويرتدون ! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء . وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام ، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار ؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم في الأرض – كما مكن للمسلمين أول مرة – فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي . .

ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية . .

ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم !

ولقد يقال بعد هذا:ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى . فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين !

إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة . .

يتحرك لتحرير "الإنسان" . كل الإنسان . . في "الأرض" . .

كل الأرض . .

من العبودية لغير الله ؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت ؛ بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة !

وإذن فستظل الحركة – التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة – تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ؛ ولا تقف أبدا ليركد هذا المجتمع ويأسن – إلا أن ينحرف عن الإسلام – وسيظل الحكم الفقهي – الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية – قائما وعاملا في محيطه الملائم . .

ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال:ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا ؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية !

وهذا القول كذلك وهم ناشيء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . .

إن المجتمع المسلم يكونأهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين – كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام في المجتمع المسلم – ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ؛ فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية . .

سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام – الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – له . . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته – أو يكتبون – يدخلون في متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم ، بتركيبه العضوي الحاضر !

وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر – بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية – فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام . .

إن تركيبه العضوي مناقض تماما للتركيب العضوي للمجتمع المسلم . فالمجتمع المسلم – كما قلنا – يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع ، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام . مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة ، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف . أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية . . وهو – من ثم – يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام ! هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم – أول ما يحيرهم – طريقة اختيار أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية !

كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة !

كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام ؟

أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد ؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد – متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها – فكيف يعودون هم فيختارون الإمام ؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم ؟

ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام ؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم ؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهم له ، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره ؟ . . .

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا في هذه المتاهة !

أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة . .

إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم ؛ وأن قواعد النظام الإسـلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضـوي الحاضـر ، وبقيمـه وأخلاقه الحاضرة !

هذه نقطة البدء في المتاهة . .

ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ ، ويوغل في هذا الفراغ ، حتى يبعد في التيه ، وحتى يأخـذه الدوار! !

إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم ، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام . .

لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظامالإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكـن أن تتحرك في فراغ ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ ، ولم تتحرك في فراغ كذلك !

إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي . . ينشـأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت – في وجه الجاهلية – لإنشائه ؛ وتحددت أقدارها وتميـزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة .

إنه مجتمع جديد . .

ومجتمع وليد . .

ومجتمع متحرك دائما في طريقه لتحرير "الإنسان" ، . .

كل الإنسان . .

في" الأرض " . .

كل الأرض . .

من العبودية لغير الله ، ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت . .

أيا كانت هذه الطواغيت . .

ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة ، واختيار الإمام ، واختيار أهل الشورى . . .

وما إليها . . .

قضايا كثيرة تثار ، ويطرقها الباحثون في الإسلام . .

في الفراغ . . في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه . .

بتركيبه العضوي المختلف تماما عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم . .

وبقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته و أخلاقه ومشاعره وتصوراته . .

أعمال البنوك وأساسها الربوي . .

شركات التأمين وقاعدتها الربوية . .

تحديد النسل وما أدري ماذا ؟!

إلى آخر هذه "المشكلات" التي يشغل "الباحثون" بها أنفسهم أو يجيبون فيها عن استفتاءات توجه إليهم . .

إنهم جميعا – مع الأسف – يبدأون من نقطة البدء في المتاهة ! يبدأون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر ؛ فتنتقل هذه المجتمعات إذن – متى طبقت عليها أحكام الإسلام – إلى الإسلام !

وهي تصورات مضحكة لولا أنها محزنة !

إن الفقه الإسلامي بكل أحكامه ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم . إنما المجتمع المسلم بحركته – في مواجهة الجاهلية ابتداء – ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانيا ، هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي مستمدا من أصول الشريعة الكلية . .

والعكس لا يمكن أن يكون أصلا !

إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ، ولا يعيش في فراغ كذلك . . لا ينشأ في الأدمغة والأوراق ؛ إنما ينشأ في واقع الحياة . وليست أية حياة . إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد . .

ومن ثم لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي ؛ فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق . . وعندئذ تختلف الأمور جدا . .

وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص – بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة – إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل . . .

الخ وقد لا يحتاج !

ذلك أننا لا نملك سلفا أن نقدر أصل حاجته ، ولا حجمها ، ولا شكلها ، حتى نشرع لها سلفا !

كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها . .

ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها . ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك !

إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل ، الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه !

ولكن الأمر غير ذلك تماما . . إن دين الله هو الأصل الذي يجب على البشريةأن تطابق نفسها عليه ؛ وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة . . ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمان عادة إلا عن طريق واحد . . هو التحرك – في وجه الجاهلية – لتحقيق ألوهية الله في الأرض وربوبيته وحده للعباد ، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت ، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم . . وهذه

الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء . فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد ، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد ، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق ، وحتى يمكن الله له في الأرض ، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي ، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه ، وتميزوا بقيمه . .

وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها . .

وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام ؛ وينشأ فقه إسلامي حي متحرك – لا في فراغ – ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات . .

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبى فيه الزكاة وتنفق في مصارفها ، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة ، ثم بين كل أفراد الأمة ، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر . .

إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية . .

من يدرينا أن مجتمعا كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلا ؟!

وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات ؟!

وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي ، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراته ؟!

وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلا ؟ . . وهكذا . .

وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلما ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها ، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي ، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه . .

فما هذا الضنى في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب ، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم ذاته !

إن نقطة البدء في المتاهة – كما قلنا – هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية ؛ وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي من الأوراق لتطبق عليها ، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته ، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها .

كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه . وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها . .

حاجاتها ومشكلاتها المنبثقة أصلا من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره !

ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته ، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية ، والمجتمعات الجاهلية ، والحاجات الجاهلية . وأن يقولوا للناس – وللذين يستفتونهم بوجه خاص – تعالوا أنتم أولا إلى الإسلام ، وأعلنوا خضوعكم سلفا لأحكامه . . أو بعبارة أخرى . .

تعالوا أنتم أولا فادخلوا في دين الله ، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده ، واشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به . وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء ؛ وتقرير ربوبيته – أي حاكميته وسلطانه – وحده في حياة الناس بجملتها . وتنحية ربوبية العباد للعباد ، بتنحية حاكمية العباد للعباد ، وتشريع العباد للعباد .

وحين يستجيب الناس – أو الجماعة منهم – لهذا القول ، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود . وهذا المجتمع يكون حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو ، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلا . .

فأما قبل قيام هذا المجتمع فالعمل في حقل الفقه والأحكام التنظيمية هو مجرد خداع للنفس ، باستنبات البذور في الهواء ، ولن ينبت الفقه الإسلامي في الفراغ ، كما أنه لن تنبت البذور في الهواء !

إن العمل في الحقل "الفكري" للفقه الإسلامي عمل مريح !

لأنه لاخطر فيه !

ولكنه ليس عملا للإسلام ؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته !

وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة !

أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملا للإسلام في هذه الفترة فأحسب – والله أعلم – أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضا !

إن دين الله يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع ، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الآبق منه ، المتنكر له ، الشارد عنه . . الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته ؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه . .

إن فقه هذا الدين وأحكامه لا تنشأ في فراغ ، ولا تعمل في فراغ . .

وإن المجتمع المسلم الخاضع لسلطان الله ابتداء هو الذي صنع هذا الفقه وليس الفقه هو الذي صنع ذلك المجتمع . . ولن تنعكس الآية أبدا .

إن خطوات النشأة الإسلامية ومراحلها هي دائما واحدة ؛ والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لن يكون يوما ما سهلا ولا يسيرا . ولن يبدأ أبدا من صياغة الأحكام الفقهية في الفراغ ، لتكون معدة جاهزة يوم يقوم المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي . ولن يكون وجود هذه الأحكام المفصلة على "الجاهز" والناشئة في الفراغ هي نقطة البدء في التحول من الجاهلية إلى الإسلام . وليس الذي ينقص

هذه المجتمعات الجاهلية لكي تتحول إلى الإسلام هو الأحكام الفقهية "الجاهزة " ! وليست الصعوبة في ذلك التحول ناشئة عن قصور أحكام الفقه الإسلامي الحاضرة عن ملاحقة حاجات المجتمعات المتطورة . .

إلى آخر ما يخادع به بعضهم ، وينخدع به بعضهم الآخر !

كلا ! إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمية لله ؛ فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا . يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة . . ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله – أي تدين لها وتخضع وتتبع – فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك . . فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام . . وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما في الأرض ؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية .

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية – إذن – بوسائل مكافئة . إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ؛ ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية . ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق . .

وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه ، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي ، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددةفي هذا المجتمع الوليد ، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها ، وهي أمور كلها في ضمير الغيب – كما أسلفنا – ولا يمكن التكهن بها سلفا ، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين !

إن هذا لا يعني – بحال – أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية . ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له ، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه – بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائما الآن فعلا . ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقا بقيام ذلك المجتمع . .

ويبقى الالتزام بها قائما في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ؛ ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية . .

إن إدراك طبيعة النشأة الإسلامية على هذا النحو الذي لا يتغير ، كلما قامت الجاهلية وقامت في وجهها محاولة إسلامية . .

هو نقطة البدء في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي ، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين ؛ وخلا وجه الأرض

من الوجود الحقيقي للإسلام ؛ وإن بقيت المآذن والمساجد ، والأدعية والشعائر ؛ تخدر مشاعر الباقين علي الولاء العاطفي الغامض لهذا الدين ؛ وتوهمهم أنه لا يزال بخير ؛ وهو يمحى من الوجود محوا !

إن المجتمع المسلم وجد قبل أن توجد الشعائر ، وقبل أن توجد المساجد . . وجد من يـــوم أن قيـــل للناس:اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فعبدوه . و لم تكن عبادتهم له ممثلة في الشعائر ، فالشـــعائر لم تكن بعد قد فرضت . إنما كانت عبادتهم له ممثلة في الدينونة له وحده – من ناحية المبدأ فلم تكن بعد قد نزلت شرائع ! – وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده ســـلطان مـــادي في الأرض تترلت الشرائع ؛ وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم هم استنبطت بقية أحكام الفقه ، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة . .

وهذا هو الطريق وحده ؛ وليس هنالك طريق آخر . .

وليت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلـــة في الـــدعوة باللسان ، وببيان أحكام الإسلام !

ولكن هذه إنما هي "الأماني" !

فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت ، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة . .

والذي يبدؤه فرد ، ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الأرض . . ثم . .

يدخل الناس في دين الله أفواجا . .

ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس دينا غيره: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) . .

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف – عليه السلام .

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادمـــا في وضع جاهلي . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيـــام حكمه . وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماما . .

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق . إن السياق لا يثبت أن الملك وافق . فكأنما يقول:إن الطلب تضمن الموافقة !

زيادة في تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . فيكفي أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هـــو الجواب . . ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القاريء يفهم أنه أصبح في المكان الذي طلبه .

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . .

ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . .

فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب . . على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا . والأرض هي مصر . أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها .

(يتبوأ منها حيث يشاء) . .

يتخذ منها المترل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد . في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود .

(نصيب برحمتنا من نشاء) . . فنبدله من العسر يسرا ، ومن الضيق فرجا ، ومن الخوف أمنا ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا .

(ولا نضيع أجر المحسنين) . . الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا في الدنيا . .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . . فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيرا من متاع الدنيا ، متى آمن الإنسان واتقى . فاطمأن بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه في سره وجهره .

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه البشرى في الآخرة جزاء وفاقا على الإيمان والصبر والإحسان .

٨٥- من صفات جيل النصر المنشود :

قال تعالى :{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)} سورة المؤمنون

لَقَدْ فَازَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُصَدِّقُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وسَعِدُوا وَأَفْلَحُوا الإفْلاَحُ – الفَوْزُ بِالبُغْيَةِ بَعْدَ سَعْيٍ واجْتِهَادٍ .

الذين خَشَعَتْ قُلُوبُهم وَخَافَتْ مِنَ اللهِ ، وَسَكَنَتْ . والخُشُوعُ فِي الصَّلاَةِ إِنَّمَا يَحْصلُ لِمَنْ فَرَغَ قَلْبُه لَهَا ، وَاشْتَغَلَ بِها عَمَّا سِوَاهَا ، وَآثَرَهَا عَلَى غَيْرِها ، وَحِينَئذٍ تَكُونُ رَاحةً لَهُ ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ .

والذِينَ يَنْصرِفُونَ إِلَى الجِدِّ ، وَيُعْرِضُونَ عَمَّا لاَ فَائِدَةَ مِنْهُ مِنَ الأَفْعَالِ والأَقْوالِ (اللَّغْوِ) . وَقَدْ وَصفَ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بقَوْلِهِ : { والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً } أَيْ إِنَّهُمْ لاَ يَتَوقَّفُونَ وَلاَ يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ .

وَالذينَ يُطَهِّرُونَ أَنْفُسَهُم بتَأْدِيَةِ زَكَاةِ أَمْوالِهِمْ . وَهَذِهِ الآيَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَزَكَاةُ المَالِ فُرِضَتْ فِي المَدِينَةِ ، لِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُم : إنَّ المَقْصُودَ بالزَّكَاةِ هُنَا زَكَاةُ النفْسِ مِنَ الشِّرْكِ والدَّنَسِ . (وَيَرَى ابنُ كَثِيرٍ : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ المَقْصُودُ بِهَا كِلاَ الأَمَرَيْنِ ، زَكَاةَ النفْسِ وطَهَارَتَهَا ، وزكَاةَ الأَمْوَالِ لأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ زَكَاةِ النَّفْسِ) .

والذينَ يَحْفَظُونَ فُرُوجَهُم فَلاَ يُقَارِفُونَ مُحَرَّماً ، وَلاَ يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُم اللهُ عَنْهُ مِنْ زِنىً وَغَيْرِهِ .

وَلاَ يَقْرَبُونَ سِوَى مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم مِنْ إِمَاءٍ ، وَمَنْ بَاشَرَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ فَهُوَ غَيْرُ مَلُومٍ فِي ذَلِكَ .

فَمَنْ تَجَاوَزَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الحَرَامِ ، فَهْوَ مِنَ المُعْتَدِينَ ، المُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ مَا شَرَعَ اللهُ .

وَالذينَ إِذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِم ، بَلْ يُؤَدُّونَها إلى أَهْلِهَا ، وإِذَا عَاهَدُوا أو عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَخُونُوا وَلَمْ يَغْدُرُوا ، وَبقوا مُحَافِظِينَ عَلَى عُهُودِهِمْ وأَمَانَاتِهِمْ وعُقُودِهِمْ .

والذينَ يُداوِمُونَ عَلَى أَدَاءِ صَلَوَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ ، يُؤَدُّونَها فِي مَوَاقِيتِهَا ، ويَتِمُّونَها بخُشُوعِها ، وسُجُودِها ، حَتَّى تُؤدِّي المَقْصُودَ مِنْهَا ، وَهُوَ خَشْيَةُ اللهِ ، والانْتِهَاءُ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ .

وَبَعْدَ أَنْ عَدَّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوصَافَ المُؤْمِنِينَ الحَمِيدَةَ قَالَ إنَّ الذينَ اتَّصَفُوا بهذِهِ الصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ يَرِثُونَ الجَنَّةَ ، وَيَتَبَوَّءُونَ أَعْلَى مَرَاتِبها ، جَزاءً لَهُمْ عَلَى مَا زَيَّنُوا بِهِ أَنْفُسَهُم مِنَ الصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ ، والآدَابِ العَالِيَةِ ، وَيَبْقَونَ فِيها خَالِدِينَ أَبداً .

(وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَ وَلَهُ مَنْزِلانِ : مَنْزِلٌ فِي الجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ . فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنْزِلَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلَه تَعَالَى : { أولئك هُمُ الوارثون } " (أَخْرَجَه ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة) .

إنه الوعد الصادق ، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين . وعد الله لا يخلف الله وعده ؛ وقرار الله لا يملك أحد رده . الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة . فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة . الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته ؛ والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح ، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين .

فمن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة ، ووعدهم هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ؟

من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض ؟ والمكتوب لهم الفوز والنجاة ، والثواب والرضوان في الآخرة ؟ ثم ما شاء الله غير هذا وذلك في الدارين مما لا يعلمه إلا الله ؟

من هم المؤمنون . الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح:

(الذين هم في صلاتهم خاشعون) .

(والذين هم عن اللغو معرضون) .

(والذين هم للزكاة فاعلون) .

والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم . . . الخ .

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

(والذين هم على صلواتهم يحافظون) .

فما قيمة هذه الصفات ؟

قيمتها أنها ترسم شخصية المسلم في أفقها الأعلى . أفق محمد ﷺ رسول الله ، وخير خلق الله ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذي شهد له في كتابه بعظمة خلقه:(وإنك لعلى خلق عظيم) . .

فلقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت:كان خلقه القرآن . ثم قرأت .(قد أفلح المؤمنون) حتى(والذين هم على صلواتهم يحافظون) . وقالت . هكذا كان رسول الله ﷺ .

ومرة أخرى . .

ما قيمة هذه الصفات في ذاتها ؟ ما قيمتها في حياة الفرد ، وفي حياة الجماعة ، وفي حياة النوع الإنساني ؟

(الذين هم في صلاتهم خاشعون) . .

تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله ، فتسكن وتخشع ، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات . ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته ، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل ، ولا تشتغل بسواه وهم مستغرقون في الشعور به مشغولون بنجواه . ويتوارى عن حسهم في تلك الحضرة القدسية كل ما حولهم وكل ما بهم ، فلا يشهدون إلا الله ، ولا يحسون إلا إياه ، ولا يتذوقون إلا معناه . ويتطهر وجدانهم من كل دنس ، وينفضون عنهم كل شائبة ؛ فما يضمون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله . .

عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها ، وتجد الروح الحائرة طريقها ، ويعرف القلب الموحش مثواه . وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا ما يتصل منها بالله .

(والذين هم عن اللغو معرضون) . . لغو القول ، ولغو الفعل ، ولغو الاهتمام والشعور . إن للقلـــب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر . .

له ما يشغله من ذكر الله ، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق . وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب ، ويشغل الفكر ، ويحرك الوجدان . .

وله ما يشغله من تكاليف العقيدة:تكاليفها في تطهير القلب ، وتزكيـــة الـــنفس وتنقيـــة الضـــمير . وتكاليفها في السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان . وتكاليفها في الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف . وتكاليفهـــا في الجهـــاد لحمايتها ونصرتها وعزتها ، والسهر عليها من كيد الأعداء . .

وهي تكاليف لا تنتهي ، ولا يغفل عنها المؤمن ، ولا يعفي نفسه منها ، وهي مفروضة عليه فـــرض عين أو فرض كفاية . وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري . والطاقـــة البشـــرية محدودة . وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ؛ وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو . والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى انفاقها في البناء والتعمير والإصلاح .

ولا ينفي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين . ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ . . .

(والذين هم للزكاة فاعلون) . .

بعد إقبالهم على الله ، وانصرافهم عن اللغو في الحياة . .

والزكاة طهارة للقلب والمال:طهارة للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الذات ، وانتصار علـــى وسوسة الشيطان بالفقر ، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء . وطهارة للمال تجعل ما بقـــي منـــه بعدها طيبا حلالا ، لا يتعلق به حق - إلا في حالات الضرورة - ولا تحوم حوله شبهة . وهي صيانة للجماعة من الخلل الذي ينشئه العوز في جانب والترف في جانب ، فهي تأمين اجتمـــاعي للأفـــراد جميعا ، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين ، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال .

(والذين هم لفروجهم حافظون) . وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة . ووقاية الـــنفس والأســـرة والمجتمع . بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال ، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال ؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد . لأنه لا أمـــن فيهـــا للبيت ، ولا حرمة فيها للأسرة . والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة ، إذ هو المحضـــن الـــذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج ؛ ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة ، ليصلح محضـــنا ومـــدرجا ، وليعيش فيه الوالدان مطمئنا كلاهما للآخر ، وهما يرعيان ذلك المحضن . ومن فيه من فراخ !

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية ، فالمقياس الذي لا يخطىء للارتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها . وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة ، لا يخجل الأطفال معها من الطريقة التي جاءوا بها إلى هذا العالم ، لأنها طريقة نظيفة معروفة ، يعرف فيها كل طفل أباه . لا كالحيوان الهابط الذي تلقى الأنثى فيه الذكر للقاح ، وبدافع اللقاح ، ثم لا يعرف الفصيل كيف جاء ولا من أين جاء !

والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة:(إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) . . ومسألة الازواج لا تثير شبهة ولا تستدعي جدلا . فهي النظام المشروع المعروف . أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعي شيئا من البيان .

ولقد فصلت القول في مسألة الرق في الجزء الثاني من الظلال ، وبينت هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي . واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي . فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد ، فيصبح أسارى المسلمين رقيقا عند أعدائه ، بينما هو يحرر أسارى الأعداء . . فجفف الإسلام كل منابع الرق – عدا أسرى الحرب – إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى .

ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات ، تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح . فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلا لتحرير الرقيق .

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن ، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق – هذه الفوضى التي لا يحبها الإسلام !

وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية . والأمة تصل إلى مرتبة الحرية بوسائل كثيرة . . إذا ولدت لسيدها ثم مات عنها . وإذا أعتقها هو تطوعا أو في كفارة . وإذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها . وإذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها . . الخ .

وعلى أية حال فقد كان الاسترقاق في الحرب ضرورة وقتية ، هي ضرورة المعاملة بالمثل في عالم كله يسترق الأسرى ، ولم يكن جزءا من النظام الاجتماعي في الإسلام .

(فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . . وراء الزوجات وملك اليمين ، ولا زيادة بطريقة من الطرق . فمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة ، ووقع في الحرمات ، واعتدى على الأعراض التي لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد . وهنا تفسد النفس لشعورها بأنها ترعى في كلأ غير مباح ،

ويفسد البيت لأنه لا ضمان له ولا اطمئنان ؛ وتفسد الجماعة لأن ذئابها تنطلق فتنهش من هنا ومن هناك:وهذا كله هو الذي يتوقاه الإسلام .

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) راعون لأماناتهم وعهدهم أفرادا ؛ وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة . . والأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة ؛ وفي أولها أمانة الفطرة ؛ وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه وإليه شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته ، بحكم إحساسها الداخلي بوحدة الناموس الذي يحكمها ويحكم الوجود ، ووحدة الإرادة المختارة لهذا الناموس المدبرة لهذا الوجود . .

والمؤمنون يرعون تلك الأمانة الكبرى فلا يدعون فطرهم تنحرف عن استقامتها ، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته . ثم تأتي سائر الأمانات تبعا لتلك الأمانة الكبرى .

والعهد الأول هو عهد الفطرة كذلك . هو العهد الذي قطعه الله على فطرة البشر بالإيمان بوجوده وبتوحيده . وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق . فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيدا عليه فيه ، ويرجع في الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته .

والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة ، مسؤولة عن عهدها مع الله تعالى ، وما يترتب على هذا العهد من تبعات . والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد . ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون . فهي صفة دائمة لهم في كل حين . وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات ؛ وترعى فيها العهود ؛ ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة ، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان .

(والذين هم على صلواتهم يحافظون) . . فلا يفوتونها كسلا ، ولا يضيعونها إهمالا ؛ ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام ؛ إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن ، مستوفية الأركان والآداب ، حية يستغرق فيها القلب ، وينفعل بها الوجدان . والصلاة صلة ما بين القلب والرب ، فالذي لا يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير . . ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان ، بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله .

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح . وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي تحياها . الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذي كرمه الله ؛ وأراد له التدرج في مدارج الكمال . ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان ، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام .

ولما كانت الحياة في هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبني الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا في الطريق ، إلى الغاية المقدرة لهم ، هنالك في الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمــن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال: (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين . وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال . .

وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : " إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة " .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلــى الجنــات وأفضلها ، وهم فيها خالدون خلوداً أبديًّا لا يمسهم فيها نصب ، ولا يمسهم فيها لغوب .

وعبر – سبحانه – عن حلولهم فى الجنة بقولهم { يَرِثُونَ } للإشعار بأن هذا النعيم الذى نزلوا بــه ، قد استحقوه بسبب أعمالهم الصالحة ، كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره ، ومن المعروف أن مــا يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب الملك . وشبيه بهذه الآية قولــه – تعــالى – : { وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

وقوله – سبحانه – : { ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } وحذف مفعول اســم الفاعل الذى هو { الوارثون } لدلالة قوله : { الذين يَرِثُونَ الفردوس } عليه .وبذلك نرى الآيــات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين مدحاً عظيماً ووعدتهم بالفوز بأعلى الجنات وأفضلها ، وذلــك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقال تعالى : فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُــوا وَعَلَــى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِــبُوا هُــمْ يَغْفِــرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّــهُ لَــا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّــبِيلُ عَلَــى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) الشورى

لقد سبق في السورة أن صور القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتــاب تفرقــوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغيا بينهم لا جهلاً بما نزل الله لهم من الكتــاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيســى – عليهم صلوات الله – وهو يشير كذلك إلى أن الذين أورثوا الكتاب بعد أولئك المخــتلفين ، ليســوا على ثقة منه ، بل هم في شك منه مريب .

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل – صلوات الله عليهم – فحال أولئك الذين لا يتبعون رسولا ولا يؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا .

ونزل الله الكتاب على عبده محمد ﷺ قرآناً عربياً ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع فيه ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقيم بها الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود ؛ وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله ، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة: (وأمرهم شورى بينهم) . .

مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة ، فهو طابع اساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة:(والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) . .

مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم:(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) . وذكر هذه الصفةهنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، و لم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب ان تقوم أولا ، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا . . ما هي ؟

ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق مما رزق الله . والانتصار من البغي . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها ؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني . إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم . والقيم الزائلة القيم الباقية ؛ كي لا يختلط الأمر في نفوسهم ، فيختل كل شيء في تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة:

(فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى) . .

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاها الله لعباده في الأرض تلطفا منه وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع – ولو في القليل – ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لا يرفع ولا يخفض ، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع . (وما عند الله خير وأبقى) . .

خير في ذاته . وأبقى في مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد .

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفة المؤمنين الذين يذخر الله لهم ما هو خير وأبقى . .

ويبدأ بصفة الإيمان: (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا) . .

وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله إلى بارىء الوجود في طاعة واستسلام وسلام .

وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارىء الوجود

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ؛ ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق ،ويقود البشرية في هذا الطريق . وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح

الشخصي وتحقيق المغانم . إذ يصبح القلب متعلقاً بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس له من الأمر شيء ، إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله !

وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أوذي في الدعوة ؛ ولا يغتر إذا ما استجابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير .

ولقد آمنت العصبة الأولى من المسلمين إيماناً كاملاً أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيراً عجيباً . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في اخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصبة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه:"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" . عن هذا الإيمان:

"انحلت العقدة الكبرى – عقدة الشرك والكفر – فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدهم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ؛ وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . . . . "

"حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم – بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم – وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغد ، لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . . "

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول:

"كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصي بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى ؛ فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله ، وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ ، يقال له:من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمي ملكا من الملوك الأقدمين من غير

أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة . . .

. . . انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذاتسلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه . . .

إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه . يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيباً . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن . تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق" .

"وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ، ووخزاً لاذعاً للضمير ، وخيالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً ، تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة " . .

" . . . وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه الترّع أمام المطامع والشهوات الجارفة ، وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان" .

"وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون في سلك ، يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان ، والأمر والنهي ، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة ، واستسلموا للحكم الإلهي استسلاما كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون

إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون ، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره" .

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها: (وعلى ربهم يتوكلون) . .

وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ؛ قرير النفس في السراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذي يحتمل تبعة ارتياد الطريق .

(والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) . .

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصبة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقتطفات السابقة [ص ٧٧] وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوقة . ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدي به من يشاء في معترك الشهوات !

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة ، والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش . لا صغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من

هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تخجل والعفو يثير في القلب الكريم معنى الحياء .

(وإذا ما غضبوا هم يغفرون) . .

وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه ، فتحبب في السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون .

وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته . وهو ليس شراً كله . فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة ، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة . هذا مع أنه عرف عن رسول الله ﷺ أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء . ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحببهم فيها . إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام ، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

(والذين استجابوا لربهم) . .

فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها . . وهذه هي الاستجابة في عمومها . .

ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة: وأقاموا الصلاة . .

وللصلاة في هذا الدين مكانة عظمى ، فهي التالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهي صورة الاستجابة الأولى لله . وهي الصلة بين العبد وربه . وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجداً ، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تتقدم رجل على رجل !

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى – قبل أن يذكر الزكاة:

(وأمرهم شورى بينهم)

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . وهو كما قلنا نص مكي . كـــان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المســـلمين . إنـــه طـــابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتيـــة . والجماعـــة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهي من ألزم صفات القيادة .

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمـــان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشـــكال الأنظمـــة الإســـلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء . .

وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيـــدة الإسلامية . فهذه العقيدة – في أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها – تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري ، يهـــيء لإفـــراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ؛ ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكي يقوم أي شكل من أشكال الـــنظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي . .

ومتى وجد المسلمون حقاً ، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامي نشـــأة ذاتيـــة ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادىء الإسلامية الكلية خير تحقيق .

(ومما رزقناهم ينفقون) . . وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حددت في الســـنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهاً مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها

ولا بد للدعوة من الإنفاق . لا بد منه تطهيراً للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كـــذلك لحيـــاة الجماعـــة . فالدعوة كفاح . ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره . وأحياناً يكون هـــذا التكافـــل

كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، ونزولهم على إخوانهم في المدينة . حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات . .

والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون .

وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف . فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغي ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل ؛ وهي عزيزة بالله . (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . .

فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة ، ولمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي:

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسي والاجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قبلياً مخلخلاً . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه – ولم يقع إلا في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة – كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالباً . ولم يكن الرسول ﷺ يحب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل

مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التـــوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر في مكة . مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة:(والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) . .

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) . .

فهذا هو الأصل في الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كي لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعـــاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقـــاد . وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة . فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء . فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة و لم يجيء ضعفا يخجل ويستحيي ، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى . والقوي الذي يعفو تصـــفو نفسه وتعلو . فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز . وما يجوز أن يـــذكر العفو عند العجز . فليس له ثمة وجود . وهو شر يطمع المعتدي ويذل المعتدى عليـــه ، وينشـــر في الأرض الفساد !

(إنه لا يحب الظالمين) . .

وهذا توكيد للقاعدة الأولى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد في الاعتداء ، من ناحية أخرى .

وتوكيد آخر أكثر تفصيلا: (ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل علـــى الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم) . .

فالذي ينتصر بعد ظلمه ، ويجزي السيئة بالسيئة ، ولا يعتدي ، ليس عليه من جناح . وهو يـــزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد . إنما الـــذين يجـــب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . فإن الأرض لا تصـــلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقـــتص منه . والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليـــه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية ، وعند المقـــدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا اســـتخذاء ؛ وتجمـــلاً لا ذلاً: (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . .

ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغي ، وتعلقها بالله ورضاه في كل حال . وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعاً مميزاً للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . .

٨٦- لا بد من الفتنة :

قال تعالى : أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) العنكبوت

هَلْ ظَنَّ النَّاسُ أنْ نَتْرَكَهُمْ وشَأْنَهُمْ بمُجَرَّدِ نُطْقِهِمْ بالشَّهادَتَيْنِ ، وَقَوْلِهِمْ آمَنَّا باللهِ وَرَسُولِهِ ، دُونَ أَنْ يَبْتَلِيَهُم اللهُ ، ويَخْتَبِرَ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ : بالهِجْرَةِ ، والتَّكَالِيفِ الدِّينْيةِ الأُخرى ، والجِهَادِ ، والمَصَائِبِ؟ كلاّ ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ المُؤْمِنينَ ، بحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ إِيمانٍ .

(وَجَاءَ في الصَّحِيحِ : " أَشَد النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِياءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَ الأَمْثَلُ فَالأَمثلُ ، يُبتَلى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينه ، فإنْ كَانَ فِي دِينِهِ قُوَّةٌ زِيدَ لَهُ فِي البَلاَءِ ") .

وَلَقَدِ امتَحَنَ اللهُ المُؤمنينَ السَّالِفينَ ، وَعَرَّضَهُمْ للفِتْنَةِ والاخْتِبَارِ ، وغَايَتُهُ سُبحَانَهُ وَتَعالى مِنْ هذا الابتِلاءِ والاخْتِبارِ هيَ أَنْ يُمَحِّصَهُم فَيَعْلَمَ الذينَ صَدَقُوا في دَعوى الإيمانِ ، مِمَّنْ هُمْ كاذبون في دَعواهُم ، ولِيُجَازِيَ كُلاّ بمَا يَسْتَحِقُّهُ .

أَمْ هَلْ يظُنَّ الذِينَ يَرْتَكِبُونَ الفَواحِشَ والآثَامَ ، أَنْ يَفُوتُوا رَبَّهُمْ ، وَيَسْبِقُوهُ ، فَلا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْزِلَ بهِمْ عِقَابَهُ العَادِلَ ، وَلا أَنْ يَأْخُذَهُمْ بظُلْمِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ ، كَما هِيَ سُنَّتُهُ في الظَّالِمين؟ إِنَّهم إنْ ظَنُّوا أَنَّ في اسْتِطَاعَتِهِمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ سَاءَ مَا يَظُنُّونَ ، وَمَا يَحْكُمُونَ .

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالبَعْثِ ، وَيَطْمَعُ فِي ثَوابِ اللهِ يَومَ لِقَائِهِ في الآخِرَةِ ، فَلْيُبَادِرْ إلى فِعْلِ مَا يَنْفَعُهُ ، وَعَمَلِ مَا يُوصِلُهُ إلى مَرْضَاةِ رَبِّه ، وَلَيَجْتَنِبْ ما يُسْخِطُ رَبَّه عَلَيهِ ، فإنَّ أَجَلَ اللهِ الذي حَدَّدَهُ لِبَعْثِ خَلْقِهِ لِلحِسَابِ والجَزَاءِ لآتٍ لاَ مَحَالَةَ ، وَاللهُ هُوَ السَّميعُ لأَقْوالِ العِبَادِ ، العَلِيمُ بعَقَائِدهُمْ وأَعْمَالِهِمْ .

وَمَنْ بَذَلَ جُهْدَهُ في جِهَادِ عَدُوٍّ لِدِينهِ وَوَطَنِهِ وَقَوْمِهِ ، وَفِي مُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ ، وَكَفَّها عَنِ التَّفْكِيرِ في المُنْكَرِ والسُّوءِ ، فإِنَّهُ إِنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ نَفْعِ نَفْسِهِ ، بالفَوْزِ بِثَوابِ اللهِ عَلى جِهَادِهِ ، وبالنَّجَاةِ مِنْ

عِقَابِهِ ، وَلَيْسَ اللهُ بِحَاجَةٍ إِلى جِهَادِ أَحَدٍ ، فَهُوَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَهُوَ عَزِيزٌ لا يُنَـــالَ وَلاَ يُضَامُ .

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس:آمنا . وهم لا يتركون لهذه الـــدعوى ، حـــتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الـــذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به – وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه – وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، في ميزان الله سبحانه: (ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلـــم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد مـــا يعلمـــه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانـــب ، فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه ! .

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منـــهم ويعلـــم الكاذبين .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلـــوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتـــاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة . فهي أمانة كريمة ؛ وهي أمانة ثقيلة ؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ؛ ومن ثم تحتاج إلى طـــراز خاص يصبر على الابتلاء .

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنـــه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البـــارزة للفتنة ، المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة . ولكنها ليست أعنف صور الفتنة . فهناك فتن كثيرة في صور شتى ، ربما كانت أمر وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعـــا . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك . وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم في طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمـــل

منكر لا يحس به أحد ، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئا .

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة في الرذيلة ، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها ، متحضرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهي مشاقة لله !

وهنالك الفتنة الكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة ، وفي منطق البيئة ، وفي تصورات أهل الزمان !

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء في الأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان .

وما بالله – حاشا لله – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة . فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه ، وعلى الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث ؛ وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع . وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا ؛ وأقواها طبيعة ، وأشدها اتصالا بالله ، وثقة فيما عنده من الحسنيين:النصر أو الأجر ، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية . مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار .

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن ؛ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ؛ وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات . والذي يبذل من دمه وأعصابه ، ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولذاته . ثم يصبر على الأذى والحرمان ؛ يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل ؛ فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام .

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله . وما يشك مؤمن في وعد الله . فإن أبطأ فلحكمة مقدرة ، فيها الخير للإيمان وأهله . وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله . وحسب

المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ، ويقع عليهم البلاء ، أن يكونوا هم المختارين من الله ، ليكونوا أمناء على حق الله . وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء:

جاء في الصحيح:" أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء " . .

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فما هم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، وبدا عليه الانتصار والفلاح . وعد الله كذلك وسنته في نهاية المطاف: (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون !) . .

فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوره . فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؛ هو الذي جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد .

وهذا هو الإيقاع الثاني في مطلع السورة ، الذي يوازن الإيقاع الأول ويعادله . فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء .

أما الإيقاع الثالث فيتمثل في تطمين الذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به في ثقة وفي يقين:

(من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم) . .

فلتقر القلوب الراجية في لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواثق المستيقن ؛ ولتتطلع إلى يوم اللقاء في شوق ولكن في يقين .

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجي المشتاق ، الموصول بما هناك . ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح . ويعقب عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها في تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها:

(وهو السميع العليم) .

والإيقاع الرابع يواجه القلوب التي تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد لنفسها ولخيرها ولاستكمال فضائلها ، ولإصلاح أمرها وحياتها ؛ وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد ، وإنه لغنى عن كل أحد: (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغني عن العالمين) . .

فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق ، فإنما ذلك لإصلاحهم ، وتكميلهم ، وتحقيق الخير لهم في الدنيا والآخرة . والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ؛ ويرفع من تصوراته وآفاقه ؛ ويستعلي به على الشح بالنفس والمال ، ويستجيش أفضل ما في كيانه من مزايا واستعدادات . وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة ، وما يعود عليها من صلاح حالها ، واستقرار الحق بينها ، وغلبة الخير فيها على الشر ، والصلاح فيها على الفساد .

(ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) .

فلا يقفن أحد في وسط الطريق ، وقد مضى في الجهاد شوطا ؛ يطلب من الله ثمن جهاده ؛ ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطئ المكافأة على ما ناله !

فإن الله لا يناله من جهاده شيء . وليس في حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل:

(إن الله لغني عن العالمين) . وإنما هو فضل من الله أن يعينه في جهاده ، وأن يستخلفه في الأرض به ، وأن يأجره في الآخرة بثوابه: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) .

فليطمئن المؤمنون العاملون على ما لهم عند الله ، من تكفير للسيئات ، وجزاء على الحسنات . وليصبروا على تكاليف الجهاد ؛ وليثبتوا على الفتنة والابتلاء ؛ فالأمل المشرق والجزاء الطيب ، ينتظرانهم في نهاية المطاف . وإنه لحسب المؤمن حتى لو فاته في الحياة الانتصاف .

٨٧- الصبر لحكم الله :

قال تعالى : فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) القلم

كِلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ إِلَيِّ أَمْرَ هَؤُلاَءِ الُمكَذِّبِينَ بالقُرْآنِ ، وَلاَ تَشْغَلْ قَلْبَكَ بشأْنِهمْ فَأَنَا أَكْفِيكَ أمْرَهُمْ ، وَسَأَسْتَدْرِجُهُمْ إِلَى العَذَاب دَرَجَةً فَدَرَجَةً بالإِمْهَالِ ، وَبإِدَامَةِ الصّحَةِ ، وَزِيَادَةِ النِّعْمَةِ ، مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ اسْتِدْرَاجٌ ، فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ إِيثَارٌ لَهُمْ مِنَ اللهِ ، وَتَفْضِيلٌ لَهُمْ عَلَى الُمؤْمِنينَ .

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ - فَنُمِدُّهُمْ بالأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَنُمِدُّهُمْ فِي الأَرزَاقِ والأَعْمَالِ لِيَغْتَرُّوا وَيَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا يَضُرُّهُمْ وَهَذَا مِنْ كَيْدِ اللهِ لَهُمْ .

وَأُوخِّرُهُمْ وَأُنْسيءُ لَهُمْ فِي آجَالِهِمْ ، لِيَزْدَادُوا عِصْيَاناً وَطُغْيَاناً ، لِتَقُومَ عَلَيهِم الحُجَّةُ ، وَإِنَّ كَيْدِي لأَهْلِ الكُفْرِ لَقَوِي شَدِيدٌ مُحْكَمٌ .

(وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ : " إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ") . (وَرَدَ فِي الصِّحِيحَيْنِ) .

إِنَّكَ لاَ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً يَا مُحَمَّدُ عَلَى مَا تَدْعُوهُمْ إِليهِ مِنَ الإِيمَانِ باللهِ ، وَإِلَى الطَّاعَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، لِيَرْفُضُوا نَصِيحَتَكَ ، مَخَافَةَ أَنْ يَلْحَقَهُمْ غُرْمٌ مِنْ دُخُولِهِمْ فِي الدِّينِ الذِي دَعَوْتَهُمْ إِليهِ .

أَمْ عِنْدَهُم اللَّوْحُ المَحْفُوظُ الذِي فِيهِ أَنْبَاءُ الغَيْبِ ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ فِيهِ مَا يُرِيدُونَ مِنَ الحُجَجِ التِي تَدْعَمُ صِحّةَ قَوْلِهِمْ ، وَيُخَاصِمُونَكَ فِيمَا يَكْتُبُونَ فِيهِ ، وَيَسْتَغْنُونَ بذَلِكَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَكَ .

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ ، فَإِنَّ اللهَ سَيَحْكُمُ لَكَ ، وَسَيَجْعَلُ العَاقِبَةَ لَكَ وَلأَتْبَاعِكَ ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَلاَ تَكُنْ كَنَبِيِّ اللهِ يُونُسَ ، عَلَيهِ السَّلاَمُ (صَاحِبِ الحُوتِ) حِينَ ذَهَبَ مُغَاضِباً قَوْمَهُ فَرَكِبَ السَّفِينَةَ ، ثُمَّ اقْتَرَعَ أَهْلُ السَّفِينَةِ فَأُلْقِيَ فِي البَحْرِ ، فَالتَقَمَهُ الحُوتُ ، وَطَافَ بِهِ الحُوتُ أَرْجَاءَ المُحِيطَاتِ فَحِينئذٍ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ، وَهُوَ مُمْتَلِئٌ غَيْظاً مِنْ قَوْمِهِ إذْ لَمْ يُؤْمِنُوا لَهُ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى الإِيمَانِ : لاَ إِلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

وَلَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَتْهُ رَحَمَةُ اللهِ تَعَالَى وَنِعْمَتُهُ ، بِتَوْفِيقِهِ لِلّتَّوْبَةِ ، وَقَبُولِهَا مِنْهُ ، لَطُرِحَ فِي الفَضَاءِ مِنْ بِطْنِ الحُوتِ ، وَهُوَ مَلُومٌ مَطْرُودٌ مِنْ الرَّحْمَةِ وَالكَرَامَةِ .

وَلَكِنَّ نِعْمَةَ رَبِّهِ تَدَارَكَتْهُ ، فَاصْطَفَاهُ رَبُّهُ ، وَأَوْحَى إِليهِ ، وَجَعَلَهُ مِنَ المُرْسَلِينَ العَامِلِينَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ .

وبذلك التعبير العجيب الموحي الرعيب: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) . .

وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين . .

بهذا وذلك يخلي الله النبي ﷺ والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهي معركته - سبحانه - وهي حربه التي يتولاها بذاته .

والأمر كذلك في حقيقته ، مهما بدا أن للنبي ﷺ وللمؤمنين دورا في هذه الحرب أصيلا . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله في حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل . وهو في الحالين فعال لما يريد . وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد .

وهذا النص نزل والنبي ﷺ في مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفزع للمغترين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر في المعركة . ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذي قاله لهم وهم في مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون في بدر: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم) . .

وذلك ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه . وأن الحرب حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا . وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا . أما حقيقة الحرب فهو الذي يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذي يكتبها . . وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هي الأداة الوحيدة في يده !

وهي حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية في كل موضع ، وفي كل حال ، وفي كل وضـــع . كما أنها هي الحقيقة التي تتفق مع التصور الإيماني لقدرة الله وقدره ، ولســـنته ومشـــيئته ، ولحقيقـــة القدرة البشرية التي تنطلق لتحقيق قدر الله . .

أداة . . ولن تزيد على أن تكون أداة . .

وهي حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، في حالتي قوته وضعفه على السواء . ما دام يخلـــص قلبه لله ، ويتوكل في جهاده على الله . فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر ، إنما هو الله الذي يكفل له النصر . وضعفه لا يهزمه لأن قوة الله من ورائه وهي التي تتـــولى المعركة وتكفل له النصر . ولكن الله يملي ويستدرج ويقدر الأمور في مواقيتها وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة . فلـــيس المؤمن هو الذي ينازله ، إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذي يقول لنبيه (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) وخل بيني وبين هذا البائس المتعوس !

والله يملي ويستدرج فهو في الفخ الرعيب المفزع المخيف ، ولو كان في أوج قوته وعدتـــه . فهـــذه القوة هي ذاتها الفخ وهذه العدة هي ذاتها المصيدة . .

(وأملي لهم إن كيدي متين) !

أما متى يكون . فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره ؟

وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ؟

٨٨- التطلع إلى ما عند الله دون سواه :

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَـــامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١)وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَـــا أُرْسِـــلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) سورة المطففين

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ الذِينَ يُعَانُونَ سُوء العَذَاب ، فِي الآخِرَةِ ، كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الـــذِينَ أَكْرَمَهُم اللهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ، حِينَمَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

وَكَانُوا إِذَا مَرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَيَتَغَامَزونَ عَلَيْهِمْ بِالعُيُونِ ، اسْتِهْزَاءً بِهِمْ .

وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى جَمَاعَتِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ والضَّلاَلِ ، رَجَعُوا مُعْجَبِينَ بِأَنْفُسِهِمْ لِمَا فَعَلُوهُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَالإِيْذَاءِ .

وَإِذَا رَأَى هَؤُلاَءِ الُمجْرِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا : إِنَّهُمْ ضَالُّونَ إِذْ بَدَّلُوا دِينَهُمْ ، وَتَرَكُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُهُمْ ، وَاتَّبَعُوا مُحَمَّداً وَدِينَهُ .

وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلِ الكُفَارَ رُقَبَاءَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَعْهَدْ إِلَيْهِمْ بمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، فَلاَ يَحقُّ لَهُمْ أَنْ يَعِيبُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْمَالَهُمْ .

وَفِي يَوْمِ القِيَامَةِ الذِي يُكَرِّمُ فِيهِ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُخزِي الكَافِرِينَ الُمجْرِمِينَ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الذِينَ يَضْحَكُونَ مِنَ الكُفَّارِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيهِ مِنَ الخَزْيِ والذَّلِّ وَالعَذَابِ .

وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ الَمكَرَّمُونَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ جَالِسِينَ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ .

لِيَرَوا إِنْ كَانَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارُ قَدْ لَقُوا الجَزَاءَ الأَوْفَى ، الذِي يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِم الُمجْرِمَةِ ، فِي الحِيَاةِ الدُّنْيَا .

والمشاهد التي يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا ، وسوء أدهم معهم ، وتطاولهم عليهم ، ووصفهم بأهم ضالون . .

مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة . ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور !!

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) . . كانوا . .

فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة . فإذا المخاطبون به في الآخرة . يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا . وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا !

إهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء هم ، وسخرية منهم . إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء . .

فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا . وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة . وهم يسلطون عليهم الأذى ، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع ، مما يصيب الذين آمنوا ، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين !

(وإذا مروا هم يتغامزون) . .

يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أو يشيره بيده ، أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهي حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب ، والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة ، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !

(وإذا انقلبوا إلى أهلهم) بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم . . (انقلبوا فكهين) . . راضين عن أنفسهم ، مبتهجين بما فعلوا ، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير .

فلم يتلوموا و لم يندموا ، و لم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا . وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير !

(وإذا رأوهم قالوا:إن هؤلاء لضالون) !

وهذه أعجب . . فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال . وأن يزعموا حين يرون المؤمنين ، أن المؤمنين ضالون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف في تشهير وتحقير: (إن هؤلاء لضالون !) . .

والفجور لا يقف عند حد ، ولا يستحيي من قول ، ولا يتلوم من فعل . واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون ، إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تجاوز لجميع الحدود !

والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا ، ولا ليناقش طبيعة الفرية . فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم ، ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر:(وما أرسلوا عليهم حافظين) . .

وما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وما أقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم !

فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير !

وينهي بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا في الدنيا . . ما كان . . ويطوي هذا المشهد الذي انتهى . ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا في ذلك النعيم:

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون) . .

اليوم والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم ، فيصلون الجحيم ، مع الترذيل والتأنيب حين يقال: (هذا الذي كنتم به تكذبون) . .

اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . في ذلك النعيم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم . .

فاليوم . . الذين آمنوا من الكفار يضحكون . .

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل: (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا(الثواب) المعروف من الكلمة . فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم !

ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا . فهو ثوابهم إذن . وياللسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام !

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته – مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا في الدنيا – كما أطال من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه . فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري ، كما أنه فن عال في

العلاج الشعوري . فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لا يتركهم بلا عون ، من تثبيته وتسريته وتأسيته .
وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين ، فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذي يصف هذه المواجع . فهو يراها ، وهو لا يهملها – وإن أمهل الكافرين حينا – وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون . وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون !
إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه في تنزيله . فهو إذن شيء في ميزانه . . .
وهذا يكفي !
نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة .
ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجع . قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة ، تحسه وتقدره ، وتستريح إليه وتستنيم !
ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها ، ونعيمها في جناته ، وكرامتها في الملأ الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم في الملأ الأعلى وعذابهم في الجحيم ، مع الإهانة والترذيل . .
تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل . وهي تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هذا التذوق يمسح على مرارة ما هي فيه من أذى وسخرية وقلة وضعف . وقد يبلغ في بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة ، وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم .
ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة ، وأذاهم البالغ ، وسخريتهم اللئيمة . .
الجنة للمؤمنين ، والجحيم للكافرين . وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل . . وهذا كان وحده الذي وعد به النبي ﷺ المبايعين له . وهم يبذلون الأموال والنفوس !
فأما النصر في الدنيا ، والغلب في الأرض ، فلم يكن أبدا في مكة يذكر في القرآن المكي في معرض التسرية والتثبيت . .
لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة . ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء . وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل . . حتى إذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاها النصر في الأرض ، وائتمنها عليه . لا لنفسها . ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ؛ ولمتتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه !

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة . بعد ذلك . وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه .

وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة ، تراها الأجيال . فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام . إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

٨٩- التسبيح والاستغفار قبل وبعد النصر :

قال تعالى : إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) النصر

إِذَا رَأَيْتَ نَصْرَ اللهِ لِدِينِهِ الحَقِّ ، وَانْهِزَامَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَخِذْلاَنَهُمْ ، وَإِذَا رَأَيْتَ الغَلَبَةَ قَدْ تَحَقَّقَتْ لَكَ عَلَى المُشْرِكِينَ ، وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ .

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ أَصْبَحُوا يَدْخُلُونَ فِي الإِسْلاَمِ جَمَاعَاتٍ وَأَفْواجاً ، لاَ أَفْرَاداً مُتَفَرِّقِينَ كَمَا كَانَ يَحْدُثُ فِي السِّنِينَ الأُولَى لِلدَّعْوَةِ .

فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الخَوْفَ مِنْ اسْتِطَالَةِ المُشْرِكِينَ عَلَى المُسْلِمِينَ قَدْ وَلَّى ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُسَبِّحَ رَبَّكَ وَتَشْكُرَهُ عَلَى نصْرِهِ دِينَهُ ، وَإِعْزَازِهِ جُنْدَهُ عَلَى الكُفْرِ وَالكَافِرِينَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَهُ وَتَتُوبَ إِلَيهِ ، فَهُوَ الكَثِيرُ القَبُول لِتَوْبَةِ عِبَادِهِ .

(وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ : هَذِهِ السُّورَةُ عَلاَمَةٌ عَلَى أَجَلِ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السَّورَةُ ." نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي ، وَأَنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ "

في مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص ، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث ، وما يقع في هذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول ﷺ ودور المؤمنين في هذه الدعوة ، وحدهم الذي ينتهون إليه في هذا الامر . .

هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله . . .) . .

فهو نصر الله يجيء به الله:في الوقت الذي يقدره . في الصورة التي يريدها . للغاية التي يرسمها . وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء ، وليس لهم في هذا النصر يد . وليس لإشخاصهم فيـــه كســـب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمـــر الله يحققـــه بهـــم أو بـــدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حراسا ، ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هـــو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا . .

وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومـــن معـــه بإزاء تكريم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه – ومن معه – هو الإتجـــاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار .

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه . وعلى مـــا أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه ، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفـــائض العميم ، بعد العمى والضلال والخسران .

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل:الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري . فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي ، والشدة الطاغية والكرب الغامر . .

من ضيق بالشدة ، واستبطاء لوعد الله بالنصر ، وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر:(أم حســـبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حـــتى يقـــول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره . فجهد الإنسان ، مهما كان ، ضعيف محـــدود ، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان . . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) . . فمـــن هـــذا التقصـــير يكـــون الاستغفار . .

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . . ففيه إيحاء للنفس واشعار في لحظة الزهو والفخـــر بأنها في موقف التقصير والعجز . فأولى أن تطامن من كبريائها . وتطلب العفو من ربها . وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور . .

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والإتجاه إلى الله طلبا للعفو والسماحة والمغفرة يضـــمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين . ليرقب المنتصر الله فيهم ، فهو الذي سلطه علـــيهم ، وهو العاجز القاصر المقصر . وإنها سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو . والنصر نصره ، والفـــتح فتحه ، والدين دينه ، وإلى الله تصير الأمور .

إنه الأفق الوضيء الكريم ، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه ، وترقى في مدارجه ، على حدائه النبيل البار . الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه ، وترف فيه روحه طليقة لانها تعنو لله !

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحا من روح الله . ليس لها حظ في شيء إلا رضاه . ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق ؛ وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة ؛ وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة ، بانية عادلة خيرة ، . .

الإتجاه فيها إلى الله .

وعبثا يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته ، مقيد برغباته ، مثقل بشهواته . عبثا يحاول ما لم يتحرر من نفسه ، ويتجرد في لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده .

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما ، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه ، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما . .

كان هذا هو أدب يوسف – عليه السلام – في اللحظة التي تم له فيها كل شيء ، وتحققت رؤياه:(ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم) . .

وفي هذه اللحظة نزع يوسف – عليه السلام – نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما ، وألحقني بالصالحين) . .

وهنا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان ، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين عنده . من فضله ومنه وكرمه . .

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: (فلما رآه مستقرا عنده قال:هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم) . .

وهذا كان أدب محمد ﷺ في حياته كلها ، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له . . انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة . مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة . .

فلما أن جاءه نصر الله والفتح ، نسي فرحة النصر وانحنى انحناءةالشكر ، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه ، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار . وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده ، رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله ، وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت ، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق . .

٩٠- تحمل المشاق في سبيل الله :

قال تعالى : * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ* (١٨٦) سورة آل عمران

يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ ، وَيَقُولُ لَهُ : إنَّهُ وَأَصْحَابَهُ سَيَلْقَوْنَ مِنَ الكُفْارِ أَذًى كَثِيراً فِي النَّفْسِ وَالمَال ، كَمَا لَقُوهُ مِنْهُمْ مِنْ أَذَى يَوْمَ أحُدٍ ، وَعَلَى المُؤْمِنِينَ أنْ يُوَطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ ، إذْ لاَ بُدَّ مِنْ أنْ يَبْتَلِيَ اللهُ المُؤْمِنَ فِي شَيءٍ مِنْ مَالِهِ ، أوْ نَفْسِهِ أو وَلَدِهِ أوْ أَهْلِهِ . . . وَابْتَلاءُ المُؤْمِنِ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ صَلاَبَةٌ فِي دِينِهِ زِيدَ فِي بَلائِهِ . وَنَبَّهَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ الكَرِيمَ وَالمُؤْمِنينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمْ إلَى المَدِينَةِ (وَقَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ) إلَى أَنَّهُمْ سَيَسْمَعُونَ مِنَ اليَهُودِ وَمِنَ المُشْرِكِينَ أَذًى كَثِيراً : مِنَ التَّقَوُّل وَالإرْجَافِ ، وَنَقْضِ العُهُودِ وَبَثِّ الشَّائِعَاتِ ، وَمُحَاوَلَةِ الإيذَاءِ . . . وَيَأمر اللهُ نَبِيَّهُ وَالمُؤْمِنينَ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالعَفْوِ حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ ، وَلا يَصْبِرُ عَلَى احْتِمَالِ ذَلِكَ إلاَّ أولُو العَزْمِ الأَقْوِيَاءُ .

إنها سنة العقائد والدعوات . لا بد من بلاء ، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس ، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام .

إنه الطريق إلى الجنة . وقد حفت الجنة بالمكاره . بينما حفت النار بالشهوات .

ثم إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره ، لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة ، وتنهض بتكاليفها . طريق التربية لهذه الجماعة ؛ وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال . وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف ؛ والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة .

ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا . فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها . فهم عليها مؤتمنون .

وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو ، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا فيها بعد ذلك ، مهما تكن الأحوال .

وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة . فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة ، وتنميها وتجمعها وتوجهها . والدعوة الجديدة في حاجة إلى استثارة هذه القوى لتتأصل جذورها وتتعمق ؛ وتتصل بالتربة الخصبة الغنية في أعماق الفطرة . .

وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم ؛ وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية . ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها . وحقيقة الجماعات والمجتمعات . وهم يرون كيف تصطرع مبادىء دعوتهم ، مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس . ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطريق ، ومسارب الضلال !

ثم . . لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير ، ولا بد فيها من سر ، يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون . .

فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها إليها . .

أفواجا . . في نهاية المطاف !

إنها سنة الدعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقة ؛ ويحافظ في ثنايا الصراع المرير على تقوى الله ، فلا يشط فيعتدي وهو يرد الاعتداء ؛ ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائد . . ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء:

(وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) . .

وهكذا علمت الجماعة المسلمة في المدينة ما ينتظرها من تضحيات وآلام . وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال . من أهل الكتاب من حولها . ومن المشركين أعدائها . . ولكنها سارت في الطريق . لم تتخاذل ، ولم تتراجع ، ولم تنكص على أعقابها . . لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت . وأن توفية الأجور يوم القيامة . وأنه من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور . .

على هذه الأرض الصلبة المكشوفة كانت تقف ؛ وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو . . والأرض الصلبة المكشوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان . والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل إنسان . وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها ، تتوالى القرون والأجيال ؛ وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال . .

والقرآن هو القرآن . .

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان ؛ وتختلف وسائل الدعاية ضد الجماعة المسلمة ، ووسائل إيذائها في سمعتها وفي مقوماتها وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها . . ولكن القاعدة واحدة:

(لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) !

ولقد حفلت السورة بصور من مكايد أهل الكتاب والمشركين ؛ وصور من دعايتهم للبلبلة والتشكيك . أحيانا في أصول الدعوة وحقيقتها ، وأحيانا في أصحابها وقيادتها . وهذه الصور تتجدد مع الزمان . وتتنوع بابتداع وسائل الدعاية الجديدة ، وتوجه كلها إلى الإسلام في أصوله الاعتقادية ، وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلامية . فلا تخرج على هذه القاعدة التي كشف الله عنها للجماعة المسلمة الأولى ، وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق ، وطبيعة الأعداء الراصدين لها في الطريق . .

ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيدا للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة ، وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض ؛ فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة ، ووسائل الدعاية الحديثة ، لتشويه أهدافها ، وتمزيق أوصالها . .

يبقى هذا التوجيه القرآني حاضرا يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة ، وطبيعة طريقها . وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق . ويبث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك ؛ فتعرف حين تتناوشها الذئاب بالأذى ، وحين تعوي حولها بالدعاية ، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة . .

أنها سائرة في الطريق ، وأنها ترى معالم الطريق !

ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل عليها وإسماعها ما يكره وما يؤذي . . تستبشر بهذا كله ، لأنها تستيقن منه أنها ماضية في الطريق التي وصفها الله لها من قبل . وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق . ويبطل عندها الكيد والبلبلة ويصغر عندها الابتلاء والأذى ؛ وتمضي في طريقها الموعود ، إلى الأمل المنشود . .

في صبر وفي تقوى . . وفي عزم أكيد . .

الباب الرابع

عوامل الهزيمة الخاصة في القرآن والسنة

١. الانحراف عن الصراط المستقيم:

سواء كان هذا الانحراف انحرافاً عقدياً، أو انحرافاً عملياً، يعني سواء كانت المعاصي في باب الاعتقاد: بالإلحاد في أسماء الله وصفاته.. بالشرك الأكبر والشرك الأصغر، أو كان بـــالردة الكاملـــة باعتنـــاق المذاهب الكافرة كالشيوعية، والقومية، والعلمانية، أو كان من باب الأعمال أي المعاصي العملية.

والمتتبع للقرآن يجد أن هذا هو سبب هلاك الأمم:{ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[٤٠]}[سورة العنكبوت] . فالأمم السابقة أخذت بسبب ذنوبهـــا، وظلمهـــا لأنفسها، والأدلة على هذا كثيرة، وما عليك إلا أن تقرأ كتاب ربك وستجد ذلك واضحاً، وعلـــى سبيل المثال: اقرأ قصة أصحاب سبأ، واقرأ قصة أصحاب السبت، واقرأ سبب إغراق قوم نوح، واقرأ سبب إهلاك قوم عاد وثمود وقوم لوط، وما حصل لقوم موسى، وما حصل لغيرهـــم مـــن الأمـــم؛ فستجد الذنوب هي السبب في ذلك .

أولا:الانحراف العقدي وأثره: سنضرب على الانحراف في العقيدة مثلين هما شاهد حي على أن الأمة إذا انحرفت اعتقادياً، فإنها تضعف وتذل:

الشاهد الأول من القرن الرابع الهجري: فقد شهد مداً رافضياً شديداً، فقامت دول رافضية في شـــرق الجزيرة في البحرين والأحساء قامت دولة القرامطة، وفي بلاد فارس والعراق دولة بني بويه، وفي بلاد الشام الحمدانيون- أبو فراس الحمداني وجماعته كانوا رافضة- وفي بلاد المغرب قامت الدولة العبيدية الإسماعيلية القرمطية، والتي تسمى زوراً وبهتاناً بالدولة الفاطمية، ثم بعد ذلك انطلقت فأخذت مصر، ثم الحجاز. والقرامطة أهل البحرين وصلوا إلى الحجاز، وأخذوا في ذلك القرن الحجر الأسود وبقـــي عندهم اثنتان وعشرون سنة، ووصلوا إلى دمشق، و لم يبق من بلدان المسلمين سالماً من المد الرافضـــي إلا القليل، وأذكر لكم ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله في حوادث حصلت في ذلك الزمن ثم انظروا إلى تعليقاته رحمه الله على تلك الحوادث .

إنه مع قيام تلك الدول الضالة الرافضية تقدم النصارى من بلاد الروم، فأخذوا بعض بلاد المســـلمين، وفعلوا من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان، يذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الحوادث، ثم يعلـــق

عليها، فيقول في حوادث سنة ٣٥٩ للهجرة:'وفيها دخلت الروم أنطاكية فقتلوا من أهلها الشيوخ والعجائز، وسبوا من أهلها الشيوخ والأطفال نحواً من عشرين ألفاً فإنا لله وإنا إليه راجعون' ثم يعلق على ذلك بقوله:'وكل هذا في ذمة ملوك الأرض أهل الرفض الذين قد استحوذوا على البلاد وأظهروا فيها الفساد قبحهم الله'. ثم يذكر أيضاً في حوادث سنة٣٥٩ هـ أيضاً أن ملك الروم فعل أعظم من ذلك في طرابلس الشام، وفي السواحل الشامية وحمص وغيرها، يقول رحمه الله :'ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد ويأسر ما قدر عليه، ثم عاد إلى بلده ومعه من السبي نحو مائة ألف إنسان ما بين صبي وصبية وكان سبب عوده إلى بلاده كثرة الأمراض في جيشه واشتياقهم إلى أولادهم'.

تصوروا عدو من أعداء المسلمين يأتي ويأخذ مائة ألف أسير من المسلمين ولا يرجع إلا بسبب الأمراض التي فتكت بجيشه و لم يحاربه أحد من ملوك الرافضة الذين كانوا ملوك الأرض في ذلك الوقت، تذكروا ما ذكرناه في أول الموضوع أن من أسباب النصر القيادة المؤمنة، ويعلق ابن كثير على ما كان يفعله الروافض في ذلك القرن من سب الصحابة، وما يفعلونه من البدع والضلالات، فيقول في حوادث سنة ٣٥١ هـ بعد أن ذكر غارات الروم وقتلهم ما لايحصى من المسلمين قال:' وفيها كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد لعنة الله على معاوية بن أبي سفيان، وكتبوا أيضاً: ولعن الله من غصب فاطمة حقها-يعنون أبا بكر رضي الله عنه-، ومن أخرج العباس من الشورى -يعنون عمر رضي الله عنه-ومن نفى أبا ذر-يعنون عثمان رضي الله عنه- 'يقول ابن كثير رحمه الله:' رضي الله عن الصحابة وعلى من لعنهم لعنة الله' . ثم تكلم قليلاً ثم قال:'ولما بلغ ذلك جميعه معز الدولة-يقصد ابن بويه وكان رافضياً- لم ينكره و لم يغيره قبحه الله وقبح شيعته من الروافض'.

انظروا إلى تعليق ابن كثير وهو المراد في هذه المحاضرة يقول:'لا جرم أن الله لا ينصر هؤلاء وكذلك سيف الدولة ابن حمدان بحلب فيه تشيع وميل إلى الروافض لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم، وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الإفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس و لم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق، وجميع السواحل وغيرها مع الإفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع' - ثم بعد ذلك صور حال المسلمين-' والناس معهم في حصر عظيم وضيق من الدين وأهل هذه المدن-يقصد دمشق وحلب وحمص وحماة- التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الإفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سب خير الخلق بعد خير الأنبياء'.

هذا نتيجة الانحراف العقائدي الذي استحوذ على هذه الأمة في القرن الرابع الهجري بل استحوذ على حكامها وقادها في ذلك الوقت.

أما الشاهد الثاني : فأضربه لكم من عصرنا هذا: فقد هُزم العرب أمام اليهود رغم أنه لا تناسب بين العددين، ورغم ما كان يتشدق به طواغيت العصر في الشام، وفي مصر من أهم سيلقون بـــاليهود في البحر، وسيفعلون وسيفعلون، كان أولئك يرفعون لواء القومية، ولواء الاشتراكية، ويحاربون الإسلام وكان طاغوقم الأكبر قد قتل سيد قطب رحمه الله قبل المعركة بسنة، ثم لما جاءت المعركـــة كانـــت إذاعاقم ترفع النشيد الآتي تقول موجهة الخطاب لطائرات اليهود:

ميراج طيارك هرب خايف من نسر العرب

والميج علت واعتلت في الجو تتحدى القدر

هذا كانت تتغنى به إذاعة دمشق في ذلك الوقت، إذن كانت تلك الهزيمة الساحقة التي أخذ فيها مـــا تبقى من فلسطين، وأخذت أضعاف أرض فلسطين مثل سيناء والجولان كانت بسبب تلك القيادات الفاجرة المنحرفة التي تسلطت على رقاب المسلمين، وكانت سبب من أهم أسباب الخذلان والهزيمة .

---

٢. عدمُ الإنفاق في سبيل الله :

قال تعالى : آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُـــمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُـــمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَـــدَ اللَّـــهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) [الحديد/٧-١١]

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالإِيْمَانِ بِهِ ، وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، عَلَى الوَجْهِ الأَكْمَلِ ، وَيَحثُّهُمْ عَلَى الإِنْفَاقِ فِي أَوْجُهِ الطَّاعَاتِ ، مِنَ المَالِ الذِي أَعْطَاهُمْ إِيَّاهُ ، وَجَعَلَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَى سَبيلِ الأَمَانَةِ أَوِ الإِعَارَةِ ، لأَنَّ هَذَا المَالَ كَانَ مِنْ قَبْلُ ، فِي أَيدِي أُنَاسٍ آخَرينَ ، فَصَارَ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَمُوتُـــونَ هُـــمْ وَيَتْرُكُونَـــهُ فَيَخْلُفُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ

وَيُرَغِّبُ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ فِي الإِنْفَاقِ فِي أَوْجُهِ الطَّاعَاتِ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ الذِينَ آمِنُوا وَأَنْفَقُـــوا فِـــي أَوْجُهِ الخَيْرِ وَالبرِّ سَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ جَزَاءً حَسَناً ، وَسَيُؤْتِيهِمْ أَجْراً كَبِيراً .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي ، مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ ") . (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)
وَأَيُّ شَيءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِيْمَانِ باللهِ ، وَالرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَيُبَيِّنُ لَكُم الحُجَجَ والبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ ، وَقَدْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْكُمُ المِيثَاقَ ، بِمَا نَصَبَ لَكُمْ مِنَ الأَدْلَّةِ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ ، عَلَى وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى دَلِيلٍ لَتُؤْمِنُوا (أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالدَّلِيلِ إِذَا جَاءَكُمْ) .
وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ ، لِيُخْرِجَكُمْ بِهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ ، إِلَى نُورِ الإِيْمَانِ ، ومِنَ الضَّلاَلَةِ إِلَى الهُدَى ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ بِكُمْ جَعَلَ لَكُمْ عُقُولاً وَأَفْهَاماً للتَّفكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْكُم الرُّسُلَ بالكُتُبِ مِنْهُ تَعَالَى لِتَهْتَدُوا بِهَا إِلَى الإِيْمَانِ باللهِ ، وَإِلَى عَمَلِ الخَيْرِ ، وَالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لِيُدْخِلَكُمُ الجَنَّةَ وَيُجَنِّبَكُمْ عَذَابَ النَّارِ ، وَاللهُ عَظِيمُ الرَّأْفَةِ بالعِبَادِ ، وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لَهُمْ .
وَمَا لَكُم يَا أَيُّها النَّاسُ لاَ تُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوالِكم فِي سَبيلِ اللهِ؟ أَتَخْشَوْنَ الفَقْرَ إِنْ أَنْفَقْتُمْ؟ أَنْفِقُوا وَلاَ تَخْشَوْا شَيْئاً ، فَإِنَّ الذِي أَنْفَقْتُمْ أَمْوالَكُمْ فِي سَبيلِهِ هُوَ مَالكُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ ، وَقَدْ تَكَفَّلَ برِزْقِكُمْ ، وَبالإِخْلاَفِ عَلَيكُم { وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالى تَفَاوتَ دَرَجَاتِ الْمُنْفِقِينَ ، بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَحْوَالِهم ، فَقالَ : إِنَّهُ لاَ يَسْتَوِي مَنْ آمَنَ ، وَهَاجَرَ ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ في سَبيلِ اللهِ ، قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ (أَوْ قَبْلَ صُلْحِ الحَدَيْبِيَةِ عَلَى قَوْلٍ) ، مَعَ مَنْ آمنَ ، وَأَنْفَقَ بَعْدَ الفَتْحِ ، فَالأَوَّلُونَ أَعْظَمُ دَرجةً عِنْدَ اللهِ ، لأنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الفَتْحِ كَانُوا قَليلي العَدَدِ ، وَواجِبَاتُهُمْ كَثِيرةٌ وَثَقِيلةٌ ، أَمَّا بَعْدَ الفَتْحِ فَقَدِ انْتَشرَ الإِسْلاَمُ ، وَأَمِنَ النَّاسُ . وَاللهُ عَلِيمٌ خَبيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ العِبَادُ .
(وَجَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ قَوْلُهُ : " لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ ") . (رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) .
مَنْ هَذَا الذِي يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَطَمَعاً فِي مَثُوبَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ ، مُحْتَسباً أَجْرَهُ عِنْدَ اللهِ ، فَيَعُدُّ اللهُ لَهُ ذَلِكَ قَرْضاً للهِ تَعَالَى ، فَيُضَاعِفُ لَهُ ذَلِكَ القَرْضَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، وَيُثِيبُهُ مَثُوبَةً كَرِيمَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

إن الله – سبحانه- يخاطب القلوب التي خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها . . وهو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلوص القلب واستقرار حقيقة الإيمان استقراراً تنبثق منه آثاره ونتائجه في واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقدمه خالصة لله . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً؛ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات؛ ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وتزن كل شيء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة؛

ولا يكلها إلى هتاف واحد ، أو بيان واحد ، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب . . ومنـــهج القرآن الإلهي في علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاة إلى الله أمامه طويلاً؛ ليتـــدبروه ويحـــاولوا أن يقلدوه!

إن الإيقاعات الأولى في مطلع السورة من القوة والتوالي والعمق والتاثير ، بحيـــث تزلـــزل القلـــوب الجامدة ، وتلين القلوب القاسية وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة التالية . { آمنوا بـــالله ورســـوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه } .

والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يُدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهي إذن حقيقـــة الإيمـــان يدعون لتحقيقها في قلوبهم بمعناها . وهي لفتة دقيقة . وهم يُدعون إلى الإنفاق ، ومع الدعوة لمســـة موحية . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذي { له ملك السماوات والأرض } . . فهو الذي استخلف بني آدم جملة في شيء من ملكه . وهو { يحي ويميت } . . فهو الذي استخلف جيلا منهم بعد جيل .وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما ســـبق مـــن الحقائق الكلية في مطلع السورة . ثم تقوم هي بدورها في استثارة الخجل والحياء من الله ، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم ، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه وممـــا أعطاهم؟! وفي نهنهة النفوس عن الشح ، والله هو المعطي ولا نفاد لما عنده فماذا يمسكهم عن البـــذل والعطاء ، وما في أيديهم رهن بعطاء الله؟!

ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء ، ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخجلهم من كرم الله ويطمعهم في فضله :{ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير } . . فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل؟

غير أن القرآن لا يكلهم إلى هذه اللمسات الأولى .إنما يلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :{ وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخـــذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذي يترل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور . وإن الله بكم لرؤوف رحيم } . .

فما الذي يعوقهم عن الإيمان – حق الإيمان – وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليـــه وأعطوه ميثاقهم؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو يترل على عبده آيات بينات تخرجهم مـــن ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفـــة والرحمة بهم ما فيه .

إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم . . نعمة فوق التصور حين نتملاها نحن الآن من بعيـــد . .

فهذه الفترة – فترة الوحي وحياة الرسول – ﷺ – فترة عجيبة حقاً . . إن الله – جل جلاله – يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده – ﷺ – وفي رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ها هو ذا طريقي فاسلكوه لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح . تعالوا ولا تشردوا بعيداً ، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . . وأنت يا فلان – بذاتك وشخصك – قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وفعلت كذا وهي خطيئة . . فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حماي . . وأنت يا فلان – بذاتك وشخصك – أمرك الذي يعضلك هذا حله . وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه . وعملك الذي عملت هذا وزنه!

إنه الله . هو الذي يقول . يقول لهؤلاء المخاليق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعاً . أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعنى بها ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلاً . . ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات ، ومثل هذا التذكير . . وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركهما ويشعر بهما من لم تقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة

ورد في صحيح البخاري أن « رسول الله – ﷺ – قال يوماً لأصحابه أي المؤمنين أعجب عليكم؟ قالوا الملائكة . قال » وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ « قالوا : فالانبياء . قال » وما لهم لا يؤمنون والوحي يترل عليهم؟ « قالوا فنحن . قال وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها » .وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يعجب : ما لهم لا يؤمنون؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان في نفوسهم إن كانوا مؤمنين!

ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته في توكيد وتكرير :{ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض } . .وفي هذه الإشارة عودة إلى حقيقة : { له ملك السماوات والأرض والى الله ترجع الأمور } . . فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول اليه في الميراث! فما لهم لا ينفقون في سبيله حين يدعوهم الى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا؟ وما الذي يبقى من دواعي الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار ، ما وسعها من النفس والمال ، في ساعة العسرة وفترة الشدة – قبل الفتح – فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريباً محاصراً من كل جانب ، مطارداً من كل عدو ، قليل الأنصار والأعوان . وكان

هذا البذل خالصاً لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام . كان بذلاً منبثقاً عن خيرة اختاروها عند الله؛ وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعاً . . ولكن ما بذلوه – من ناحية الكم – كان قليلاً بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه . فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك ، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان؛ ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان :{ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا } . .

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، والأنصار قلة ، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجرداً كاملاً لا شبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لا يجد على الخير عوناً إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس ، قال : « كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي – ﷺ – فقال دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد – – أو مثل الجبال – ذهبا ما بلغتم أعمالهم » .

وفي الصحيح : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه » .وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسنى :{ وكلاً وعد الله الحسنى }

فقد أحسنوا جميعاً ، على تفاوت ما بينهم في الدرجات .

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع إلى ما يعلمه الله من تقدير أحوالهم ، وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة ما يعملون :{ والله بما تعملون خبير } . .

وهي لمسة موقظة للقلوب ، في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهي التي تناط بها القيم ، وترجح بها الموازين . .ثم مرحلة أخرى في استجاشة القلوب للإيمان والبذل ، ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات :{ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم؟

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج : { من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً؟ } . . ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيراناً! إن الناس ليتسابقون عادة الى إقراض الثري المليء منهم –وهم كلهم فقراء– لأن السداد

مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد؟! ولا يكلهم – سبحانه – إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يعدهم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يعدهم عليه الضعف في المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله : { فيضاعفه له ، وله أجر كريم } .

وقال تعالى في سورة محمد :﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {٣٨} ﴾

إِنَّكُمْ يَا أَيُّها الُمسْلِمُونَ تُدعونَ إلى الإِنْفَاقِ في سَبِيلِ اللهِ ، وَفي سَبِيلِ مُجَاهَدَةِ أعْدَائِهِ ، وَفي سَبِيلِ نَصْرِ دِينِهِ . وَمَنَ الُمؤمِنِينَ مَنْ يَبْخلُ بالإِنْفَاقِ في هذا السَّبِيلِ ، وَمَنْ يَبْخلْ فَإِنَّما يضُرُّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ ، لأنَّهُ يحرمُها ثَوابَ اللهِ ، وَيَحْرِمُها مِنْ رِضْوَانِ اللهِ ، وَاللهُ غَنِيٌّ عَنِ العِبَادِ ، وَعَنْ أمْوالِهِم وَعَنْ جَهَادِهِمْ ، وَهُمُ الفُقَراءُ إلى فَضْلِهِ وإحْسَانِهِ ، وَإنما حَثَّهُمْ عَلَى الجِهادِ وَالبَذْلِ لِيَنَالوا الأجْرَ وَالمَثوْبَة .ثُمَّ يَقُولُ تَعَالى لَهُم : إنَّهُم إنْ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَعَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِهِ فإنه قادِرٌ عَلى إهْلاَكِهِمْ ، وَعَلى الإِتْيَانِ بقَومٍ آخرِينَ يُؤمِنُونَ باللهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لأوامِرِهِ ، وَيَعْمَلُونَ بشَرائِعِهِ ، وَلاَ يَكُونُونَ أمْثَالَ مَنْ أهْلَكَهُمْ في البَخْلِ وَالتَّبَاطُؤِ عَنِ الجِهَادِ ..

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة . فهي تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء . وقد كان هذا واقعاً ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن في مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلاً تحسب من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال . ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال!

والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية : { ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه } . .فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد ، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون .

وقال تعالى في سورة البقرة :﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٩٥} ﴾

بَذَلَ الأَنْصَارُ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبيلِ اللهِ ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ ، وَأَوَوا الُمهَاجِرينَ وَسَاعَدُوهُمْ ، فَلَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ ، قَالَ بَعْضُ الأَنْصَارِ لِبَعْضٍ : لَوْ أَنَّهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى أَمْوَالِهِمْ فَأَصْلَحُوهَا . فَأَنْزَلَ

اللهُ تَعَالَى هذِهِ الآيَةَ . وَفِيها يُبَيِّنُ اللهُ لَهُمْ أَنَّ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ ، وَإِصْلاَحَهَا ، وَتَرْكَ الغَزْوِ وَالجِهَادِ وَالإِنْفَاقِ فِي سَبيلِ اللهِ . . . فِيهِ التَّهْلُكَةُ . فَعَادُوا إلى الجِهَادِ ، وَإِلى إِنْفَاقِ أَمْوالِهِمْ فِي سَبيلِ اللهِ ، وَإِعْلاَءِ كَلِمَتِهِ ، وَفِي وُجُوهِ الطَّاعَاتِ . وَأَخْبَرَ اللهُ المُؤْمِنينَ بِأَنَّ تَرْكَ الجِهَادِ ، وَتَرْكَ الإِنْفَاقِ فِيهِ هَلاَكٌ وَدَمَارٌ لِمَنْ لِزِمَهُ وَاعْتَادَهُ ، فَإِذا بَخِلَ المُؤْمِنُونَ ، وَقَعَدُوا عَنِ الجِهَادِ رَكِبَهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا أَلْقَوا بِأَيْدِيهِمْ إِلى التَّهْلُكَةِ .ثُمَّ أَمَرَ اللهُ المُسْلِمِينَ بِأَنْ يُحْسِنُوا كُلَّ أَعْمَالِهِمْ ، وَأَنْ يُجَوِّدُوها ، وَيَدْخُلُ فِي ذِلِكَ التَّطَوُّعُ بالإِنْفَاقِ فِي سَبيلِ اللهِ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ . . .

وفي سنن أبي داود(٢٥١٤) عَنْ أَسْلَمَ أَبِى عِمْرَانَ قَالَ : غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ فَقَالَ النَّاسُ : مَهْ مَهْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يُلْقِى بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ قُلْنَا : هَلُمَّ نُقِيمُ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِى إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ.قَالَ أَبُو عِمْرَانَ : فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.(صحيح)

والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح ، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف . وبخاصة في نظام يقوم على التطوع ، كما كان يقوم الإسلام .ثم يرتقي بهم من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان : { وأحسنوا إن الله يحب المحسنين } ..

ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام . وهي كما قال رسول الله – ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة ، فإنها تفعل الطاعات كلها ، وتنتهي عن المعاصي كلها ، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة ، وفي السر والعلن على السواء .

وهذا هو التعقيب الذي ينهي آيات القتال والإنفاق ، فيكل النفس في أمر الجهاد إلى الإحسان . أعلى مراتب الإيمان . .

---

٣. أكلُ الربا :

قال تعالى : { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)} [البقرة/٢٧٥-٢٨٠]

بَعْدَ أَنْ ذَكَر اللهُ تَعَالَى الإنفَاقَ فِي سَبيلِ اللهِ ، وَالتَّصَدُّقَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَإِخْراجَ الزَّكَاةِ ، شَرَعَ فِي عَرْضِ حَالِ أَكِلِي الرِّبا ، وَأَمْوالِ النَّاسِ بالبَاطِلِ ، وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ ، فَأَخبَرَ عَنْ حَالِهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ ، يَوْمَ البَعْثِ وَالنُّشُورِ ، فَقَالَ عَنْهُم : إنَّهُم لاَ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إلاّ قِياماً مُنْكَراً ، كَمَا يَقُومُ المَصْرُوعُ حَالَ صَرَعِهِ وَأَكْلُهُمُ الرِّبَا هَذا قائِمٌ عَلى اسْتِحلاَلِهِمْ لَهُ ، وَجَعْلِهِ كَالبَيْعِ ، فَيَقُولُونَ : كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَبيعَ الإنْسَانُ سِلعَتَهُ التِي ثَمَنُهَا عَشَرَةُ دَراهِمَ عَلَى أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيهِ عِشْرِينَ دِرْهَماً بَعْدَ سَنَةٍ ، فَالسَّبَبُ فِي رَأيِهِمْ وَاحِدٌ فِي كُلٍّ مِنَ الزِّيَادَتَيْنِ ، وَهُوَ الأَجَلُ .

هَذِهِ هِيَ حُجَّةُ آكِلِي الرِّبا وَهُمْ وَاهِمُونَ فِيمَا قَالُوهُ ، وَقِيَاسُهُمْ فَاسِدٌ ، لأنَّ البَيْعَ فِيهِ مَا يَقْتَضِي حِلَّهُ لأَنَّهُ يُلاحَظُ فِيهِ انْتِفاعُ المُشْتَرِي بالشَّيْءِ انْتِفَاعاً حَقِيقيّاً .

أَمَّا الرِّبا فَهُوَ إعْطَاءُ الدَّراهِمِ وَالْمِثْلِيَّاتِ وَأَخْذُها مُضَاعَفَةً فِي وَقْتٍ آخَرَ . فَمَا يُؤخَذُ مِنَ المَدِينِ زِيَادَةً فِي رَأسِ المَالِ لاَ مُقَابِلَ لَهُ مِنْ عَيْنٍ وَلاَ عَمَل . فَمَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ اللهِ عَنِ الرِّبا ، فَانْتَهى عَنِ الرِّبا فَلَهُ مَا سَلَفَ مِمَّا أَكَلَهُ مِنَ الرِّبا قَبْلَ التَّحْرِيمِ ، وَمَا سَبَقَ لَهُ أَنْ أَخذَهُ أَيَّامَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَأَمْرُه مَرْدُودٌ إلى اللهِ . وَمَنْ عَادَ إلى الرِّبا ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ النَّهْيُ عَنْهُ ، فَقَدِ اسْتَوْجَبَ العُقُوبَةَ مِنَ اللهِ ، وَالخُلُودَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

الذِي يَتَخبَّطُهُ الشَّيْطَانُ - أي المَصْرُوعُ . وكَانَتِ العَرَبُ تَعْتَقِدُ أنَّ الشَيْطَانَ يَخبِطُ الإنْسَانَ فَيَصْرَعُهُ.

جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ - بَلَغَهُ أمْرُ نَهْيِ اللهِ عَنْ أَكْلِ الرِّبا .

المَسِّ - الجُنُونِ وَالخَبَلِ .

مَرَاحِلُ تَحْرِيمِ الرِّبا فِي القُرْآنِ :

كَمَا مَرَّ تَحْرِيمُ الخَمْرِ فِي مَرَاحِلَ ، كَذَلِكَ مَرَّ تَحْرِيمُ الرِّبا فِي أرْبَعِ مَرَاحِلَ مُتَدَرِّجَةٍ :

١- فِي المَرْحَلَةِ الأولى - قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الآيَةِ المَكِّيَّةِ { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله } أيْ إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ إنَّ الرِّبا لاَ ثَوَابَ فِيهِ عِنْدَ اللهِ .

٢- وَفِي المَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ - أَلْقَىَ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُسْلِمِينَ دَرْساً وَعِبْرَةً مِنْ سِيرَةِ اليَهُودِ الذِينَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِمْ أَكْلَ الرِّبَا فَأكَلُوهُ ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِمَعْصِيَتِهِمْ .

فَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً . } كَمَا جَاءَ بَعْدَهَا { وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . } وَهَذِهِ العِبْرَةُ لاَ يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ إلاَّ إذَا كَانَ مِنْ وَرَائِهَا نَوْعٌ مِنْ تَحْرِيمِ الرِّبا عَلَى المُسْلِمينَ . وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذا المَوْضِعِ نَهْيٌ صَرِيحٌ عَنِ الرِّبا ، وَلكِنَّهُ أُلْمِحَ إلَيهِ .

٣- المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ – وَلَمْ يَجيءِ النَّهْيُ الصَّرِيحُ إلاَّ فِي المَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ إلاَّ نَهْياً جزئياً عَن الرِّبا الفَاحِشِ الذِي يَتَزَايَدُ حَتَّى يَصِيرَ أضْعَافاً مُضَاعَفَةً .

{ يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً . } – المَرْحَلَةُ الرَابِعَةُ – وَفِي المَرْحَلَةِ الرَابِعَةِ وَالأخِيرَةِ خُتِمَ التَّشْرِيعُ القُرْآنِيُّ كُلُّهُ بالنَّهي الحَاسِمِ عَنْ كُلِ مَا يَزِيدُ عَلَى رَأسِ مَال الدَّيْنِ .

{ ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ . } وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ : " إيَّاكَ وَالذُّنوبَ التِي لاَ تُغْفَرُ : الغُلُولُ فَمَنْ غَلَّ شَيْئاً أَتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ والرِّبا ، فَمَنْ أكَلَ الرِّبا بُعِثَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُجْنُوناً يُتَخَبَّطُ " .

وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُحِبُّ الذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى ارتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ وَعَلَى تَحْلِيلِها ، وَلاَ يُحِبُّ الذِينَ لاَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِهِ .

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ أنَّهُ يَمْحَقُ الرِّبا ، وَيُذْهِبُ مِنْ يَدِ آكِلِهِ بَرَكَةَ مَالِهِ ، وَيُهْلِكُ المَالَ الذِي دَخَلَ فِيهِ الرِّبا ، فَلاَ يَنْتَفِعُ بِهِ أحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأنَّهُ يُضَاعِفُ ثَوَابَ الصَّدَقَاتِ ، وَيَزِيدُ المَالَ الذي أُخْرِجَتْ مِنْهُ ، وَيُعَاقِبُ آكِلَ الرِّبا يَوْمَ القِيَامَةِ . وَاللهُ لا يُحِبُّ الكَفُورَ المُتَمَادِي فِي كُفْرِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيهِ مِنْ مَالٍ ، لأنَّهُ لا يُنْفِقُ مِنْهُ فِي سَبِيلِهِ ، وَلاَ يُحِبُّ الذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى تَحْلِيلِ المُحَرَّمَاتِ ، وَلاَ الذِينَ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى ارْتِكَابِها .

يَمْدَحُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ المُصَدِّقِينَ بمَا جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، المُقِيمِينَ الصَّلاَةَ ، وَعَامِلِي الصَّالِحَاتِ وَالمُزَكِّينَ ، وَيُخْبِرُ عَنْهُمْ أنَّهُ يَحْفَظُ لَهُمْ أجْرَهُمْ ، وَأنَّهُمْ لاَ خَوْفَ عَلَيهِمْ ، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ فِي الدُّنيا.

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنينَ ، المُصَدِّقِينَ بمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، بالتَّقْوى ، فَيَقُولُ لَهُمْ : اتَّقُوا اللهَ وَاتْرُكُوا مَا لَكُمْ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الرِّبا (أيْ مَا يزيدُ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوالِكُمْ) إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقّاً بِمَا شَرَعَ اللهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ البَيْعِ ، وَتَحْرِيمِ الرِّبا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَأنْذَرَ اللهُ تَعَالَى الذِينَ لاَ يَمْتَثِلُونَ لأَمْرِهِ مِنْ تَرْكِ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا عِنْدَ النَّاسِ ، بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ لخُرُوجِهِمْ عَنِ الشَّرْعِ ، وَعَدَمِ خضُوعِهِمْ لَهُ ، فَإِنْ تَابُوا فَلَهُمْ رُؤُوسُ أمْوَالِهِمْ بِدُونِ زِيَادَةٍ ، لاَ يَظْلِمُونَ بأخْذِ زِيادَةٍ ، وَلاَ يُظْلَمُونَ بوَضْعِ شَيءٍ مِنْ رَأسِ المَالِ .

فَإِنْ كَانَ المَدِينُ مُعْسِراً لاَ يجدُ وَفَاءَ دَيْنِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يَأمُرُ الدَّائِنَ بنَظِرَتِهِ إلى حِينِ مَيْسَرَتِهِ ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ دَفْعِ مَا عَلَيهِ . وَإِنْ تَصَدَّقَ الدَّائِنُ عَلَى المَدِينِ المُعْسِرِ بِشَيءٍ مِنْ رَأسِ المَالِ ، أوْ برَأسِ المَالِ كُلِّهِ ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ . وَقَدْ وَرَدَتْ أحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الحَثِّ عَلَى تَنْفِيسِ كُرْبَةِ المُكْرُوبِ وَالتَّجَاوُزِ عَنِ المُعْسِرِ ..

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ كَانَ النَّبِىُّ – ﷺ – إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ « مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا » . قَالَ فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا ، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَسَأَلَنَا يَوْمًا ، فَقَالَ « هَلْ رَأَى

أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا » . قُلْنَا لاَ . قَالَ « لَكِنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِى فَأَخَذَا بِيَدِى ، فَأَخْرَجَانِى إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ – قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى إِنَّهُ – يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِى شِدْقِهِ ، حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا ، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ . قُلْتُ مَا هَذَا قَالاَ انْطَلِقْ . فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ ، قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالاَ انْطَلِقْ . فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا ، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا ، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا ، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ . فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالاَ انْطَلِقْ . فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِى فِى النَّهَرِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِى فِيهِ ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِى فِيهِ بِحَجَرٍ ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ . فَقُلْتُ مَا هَذَا قَالاَ انْطَلِقْ . فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَفِى أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا ، فَصَعِدَا بِى فِى الشَّجَرَةِ ، وَأَدْخَلاَنِى دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ ، وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ ، ثُمَّ أَخْرَجَانِى مِنْهَا فَصَعِدَا بِى الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلاَنِى دَارًا هِىَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ ، فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ . قُلْتُ طَوَّفْتُمَانِى اللَّيْلَةَ ، فَأَخْبِرَانِى عَمَّا رَأَيْتُ . قَالاَ نَعَمْ ، أَمَّا الَّذِى رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَالَّذِى رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَالَّذِى رَأَيْتَهُ فِى الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ . وَالَّذِى رَأَيْتَهُ فِى النَّهَرِ آكِلُو الرِّبَا . وَالشَّيْخُ فِى أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ – عَلَيْهِ السَّلاَمُ – وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلاَدُ النَّاسِ ، وَالَّذِى يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ . وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِى دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَنَا جِبْرِيلُ ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِى فَإِذَا فَوْقِى مِثْلُ السَّحَابِ . قَالاَ ذَاكَ مَنْزِلُكَ . قُلْتُ دَعَانِى أَدْخُلْ مَنْزِلِى . قَالاَ إِنَّهُ بَقِىَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ » [٨٤].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِى الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ » [٨٥].

---

[٨٤]– صحيح البخاري برقم (٨٤٥و١٣٨٦ ، ١١٤٣ ، ٢٠٨٥ ، ٢٧٩١ ، ٣٢٣٦ ، ٣٣٥٤ ، ٤٦٧٤ ، ٦٠٩٦ ، ٧٠٤٧) –
تدهده : تدحرج =يشدخ : يكسر =الشدق : جانب الفم

[٨٥]– صحيح البخارى برقم (٢٠٨٣)

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ :« اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هُنَّ قَالَ « الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ » .[٨٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ. قَالَ قُلْتُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ قَالَ إِنَّمَا نُحَدِّثُ بِمَا سَمِعْنَا [٨٧].

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم – في أنحاء الأرض – هو عالم القلق والاضطراب والخوف؛ والأمراض العصبية والنفسية – باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية . . وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار . . ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك!

إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادي ، ولا يسر الحياة المادية وخفضها ولينها في بقاع كثيرة . وما قيمة هذا كله إذا لم ينشىء في النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى؛ ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى! حقيقة أن الناس في أكثر بلاد الأرض رخاء عاماً .. في أمريكا ، وفي السويد ، وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاء مادياً . . أن الناس ليسوا سعداء . . أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء! وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج! وأنهم يغرقون هذا الملل في العربدة والصخب تارة . وفي « التقاليع » الغريبة الشاذة تارة . وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة . ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب . الهرب من أنفسهم . ومن الخواء الذي يعشش فيها! ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها . فيهربون بالانتحار . ويهربون بالجنون . ويهربون بالشذوذ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبداً! لماذا؟

السبب الرئيسي طبعاً هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة – على كل ما لديها من الرخاء المادي – من زاد الروح . . من الإيمان . . من الاطمئنان إلى الله . . وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه .

ويتفرع من ذلك السبب الرئيسي الكبير . . بلاء الربا . . بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سوياً معتدلاً بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . إنما ينمو مائلاً جانحاً إلى حفنة

---

[٨٦]- صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦)

[٨٧]- صحيح مسلم برقم (٤١٧٦)

الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف ، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة؛ ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير في طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع؛ والتي تكفل عملاً منتظماً ورزقاً مضموناً للجميع؛ والتي تهيء طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع . . ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح - ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعاً!

إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديده. . ولا مجال للمماحلة في هذا ولا للمداورة!

{ وأحل الله البيع وحرم الربا } . . .لانتفاء هذا العنصر من البيع؛ ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية؛ وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية . .

وقد عالج الإسلام الأوضاع التي كانت حاضرة في ذلك الزمان معالجة واقعية؛ دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية :{ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله } . .

لقد جعل سريان نظامه منذ ابتداء تشريعه . فمن سمع موعظة ربه فانتهى فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله ، يحكم فيه بما يراه . . وهذا التعبير يوحي للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله ورحمته؛ فيظل يتوجس من الأمر؛ حتى يقول لنفسه : كفاني هذا الرصيد من العمل السيئ ، ولعل الله أن يعفيني من جرائره إذا أنا انتهيت وتبت . فلا أضف إليه جديداً بعد! . . وهكذا يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد .

{ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } . .وهذا التهديد بحقيقة العذاب في الآخرة يقوي ملامح المنهج التربوي الذي أشرنا إليه ، ويعمقه في القلوب .ولكن لعل كثيرين يغريهم طول الأمد ، وجهل الموعد ، فيبعدون من حسابهم حساب الآخرة هذا! فها هو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالمحق في الدنيا والآخرة جميعاً؛ ويقرر أن الصدقات - لا الربا - هي التي تربو وتزكو؛ ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والإثم . ويلوح لهم بكره الله للكفرة الآثمين :{ يمحق الله الربا ، ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم } . .وصدق وعيد الله ووعده . فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة . . إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين - في ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجاً وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد . وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد؛ وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده . ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب

المبيدة؛ كما تصحو وتنام في هم الحرب الباردة! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوماً بعد يوم - سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا - ولا يبارك لهم في مال ولا في عمر ولا في صحة ولا في طمأنينة بال! وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون - الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع - وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع دائما إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائماً إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها .. ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله - أفراداً وجماعات - في ما لهم ورزقهم ، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم .

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يروا ، لأن لهم هوى في عدم الرؤية! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبثوثة عمداً وقصداً من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت؛ فضغطوا عن رؤية الحقيقة!

{ والله لا يحب كل كفار أثيم } . .وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يصرون على التعامل الربوي - بعد تحريمه - من الكفار الآثمين ، الذين لا يحبهم الله ، وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة : لا إله إلا الله . محمد رسول الله . . فالإسلام ليس كلمة باللسان؛ إنما هو نظام حياة ومنهج عمل؛ وإنكار جزء منه كإنكار الكل . . وليس في حرمة الربا شبهة؛ وليس في اعتباره حلالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم . . والعياذ بالله . .

---

٤. انتشارُ الربا والزنا :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ: « لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ ». قَالَ وَقَالَ « مَا ظَهَرَ فِى قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا إِلاَّ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[٨٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ :{ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُشْتَرَى الثَّمَرَةُ حَتَّى تُطْعِمَ ، وَقَالَ : إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ}[٨٩]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرِّبَا إِلاَّ أُخِذُوا بِالسَّنَةِ وَمَا مِنْ قَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِمُ الرُّشَا إِلاَّ أُخِذُوا بِالرُّعْبِ » [٩٠].

---

[٨٨]- مسند أحمد برقم (٣٨٨٦)وصحيح الجامع (٥٦٣٤) صحيح لغيره

[٨٩] – المستدرك للحاكم مشكلا – (ج ٢ / ص ٢٠٣) برقم (٢٢٦١) والمعجم الكبير للطبراني – (ج ١ / ص ١٩٢) برقم (٤٦٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قالا

[٩٠] – مسند أحمد برقم (١٨٢٩٩) وفيه ضعف = السنة : الجدب والقحط

٥. الركونُ إلى الدنيا:

قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ {٣٨} إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٣٩} إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {٤٠} ﴾

يُعَاتِبُ اللهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ ، وَكَانَ الْوَقْتُ حَارّاً قَائِظاً ، فَيَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ : مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَكَاسَلْتُمْ وَتَبَاطَأْتُمْ ، وَمِلْتُمْ إِلَى الدَّعَةِ وَالإِقَامَةِ فِي الظِّلِ وَطِيبِ الثِّمَارِ؟ أَفَعَلْتُمْ ذَلِكَ رِضاً مِنْكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلاً مِنَ الآخِرَةِ؟ وَمَا قِيمَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا مَتَاعُهَا إِلاَّ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الآخِرَةِ ، إِذْ يَنْتَظِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوانٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَجَنَّاتٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .

وَإِذَا لَمْ تَنْفِرُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ ، وَلَمْ تَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الجِهَادِ فَإِنَّ اللهَ سَيُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا ، بِزَوَالِ النِّعْمَةِ وَغَيْرِهَا عَنْكُمْ ، وَفِي الآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلاَ يَصْعُبُ عَلَى اللهِ أَنِ يَسْتَبْدِلَ قَوْماً غَيْرَكُمْ بِكُمْ ، يَخِفُّونَ لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ ، وَيُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيءٍ ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَضُرُّ اللهَ ، لأَنَّهُ الغَنِيُّ عَنِ العِبَادِ ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجرَ ، فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِباً بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِبَابِ الغَارِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكرٍ جَزِعاً : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ طُمَأْنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَأَيَّدَهُ بِالمَلاَئِكَةِ تَحْفَظَهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الشِّرْكِ وَأَهْلَهُ السُّفْلَى ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الإِيمَانِ (لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ) هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ ، وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لاَ يُضَامُ ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ ..

إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض . . ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . . ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . . ثقلة اللحم والدم والتراب . . والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه : { اثاقلتم } . وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل ، يرفعه الرافعون في

جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه : { اثاقلتم إلى الأرض } . . وما لها مـــن جاذبيـــة تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق ..

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والـــدم؛ وتحقيـــق للمعنى العلوي في الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيـــد والضـــرورة؛ وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود : { أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } .

وما يحجم ذوعقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله ، إلا وفي هذه العقيـــدة دخـــل ، وفي إيمـــان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول – ﷺ – « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغـــزو مـــات على شعبة من شعب النفاق » فالنفاق – وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال – هـــو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله . وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : { إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير } . .

والخطاب لقوم معينين في موقف معين . ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيـــدة في الله . والعـــذب الذي يهتددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو ذلك عذاب الدنيا . عذاب الذلـــة الـــتي تصـــيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعـــادين؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهـــاد إلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء .

{ ويستبدل قوماً غيركم } . .يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله :

{ ولا تضروه شيئاً } . .ولا يقام لكم وزن ، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب!

{ والله على كل شيء قدير } . .لا يعجزه أن يذهب بكم ، ويستبدل قوماً غيركم ، ويغفلكم مـــن التقدير والحساب!

إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس ، إثبات للوجود الإنساني الكريم . فهـــو حيـــاة بالمعنى العلوي للحياة : إن التثاقل إلى الإرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكـــريم . فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للأنسان .

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه ، على نصرة الله لرسوله بلا عون منـــهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء :{ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفـــروا ،

ثاني اثنين إذ هما في الغار . إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيـــده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم } ..
ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها صبراً ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه؛ فأطلعه الله علـــى مـــا ائتمـــرت ، وأوحي إليه بالخروج ، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصدّيق ، لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثـــر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة . والسياق يرسم مشهد الرسول – ﷺ – وصاحبه :{ إذ هما في الغار } .
والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق – رضي الله عنه – يجزع – لا على نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعواعليها فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميـــة لأبصـــرنا تحت قدميه . والرسول – ﷺ – وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبـــه فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك بأثنين الله ثالثهما؟ » .ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها في جانب ، والرسول – ﷺ – مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس . وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار :{ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى } .وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة :{ وكلمة الله هي العليا } . .وقد قرئ « { وكلمـــةَ الله } بالنصب . ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى . لأنها تعطي معنى التقرير . فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلاً ، بدون تصيير متعلق بحادثة معينة . والله { عزيز } لا يذل أولياؤه { حكيم } يقدر النصر في حينه لمن يستحقه ،ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولكلمته؛ والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطأون . وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل!
وفي ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق . ولا يقعد بهم طارئ ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الآخرة :{ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهـــدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون } . .انفـــروا في كـــل حـــال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال ، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائـــق والـــتعلات .{ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون } .وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخـــير . فنفـــروا والعوائـــق في طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار . ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله ، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح .قـــرأ أبـــو طلحة – رضي الله عنه – سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزوني يا بني . فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـــه وســـلم حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك .
فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه بها

وروى ابن جرير بإسناده – عن أبي راشد الحراني قال : « وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة ، وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو؛ فقلت له قد أعذر الله إليك . فقال : أتت علينا سورة البعوث .{ انفروا خفافاً وثقالاً }
.وروى كذلك بإسناده – عن حيان بن زيد الشرعبي قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، وكان والياً على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا كبيراً هما ، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار ، فأقبلت إليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك . قال : فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي استنفرنا الله ، خفافاً وثقالاً . ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل .وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة .

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست منسوخة ، فقد قال الإمام القرطبى – ما ملخصه – واختلف فى هذه الآية ، فقيل إنها منسوخة بقوله – تعالى – { لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى }
والصحيح أنها ليست بمنسوخة .

روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله – تعالى – { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً } قال : شباناً وكهولا . ما سمع الله عذر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات .

ثم قال – بعد أن ساق نماذج متعددة لمن خرجوا للجهاد خفافاً وثقالا – فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين قلنا . إن النسخ لا يصح .

فقد تكون هناك حالة يجب فيها نفير الكل ، وذلك إذا تعين الجهاد لغلبة العدو على قطر من الأقطار الإسلامية ، أو بحلوله فى العقر . ففى هذه الحالة يجب على جميع أهل الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً؛ شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته . ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج .

فإن عجز أهل تلك البلدة عن صد عدوهم؛ كان على من قاربهم أن يخرجوا معهم لصد العدو ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل من علم بضعفهم عن عدوهم فالمسلمون كلهم يد على من سواهم .
حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى نزل العدو عليها ، سقط الفرض على الآخرين .
ثم قال – رحمه الله – ومن الجهاد أيضاً ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة . . لإظهار القوة ، وإعزاز دين الله .

ثم قال : وقال ابن العربى ، ولقد نزل بنا العدو – قصمه الله . سنة سبع وعشرين وخمسمائة : فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا . . فقلت للوالى والمولى عليه : عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس . . فيحاط به فيهلك .

فغلبت الذنوب ، ورجفت القلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره ، وإن رأى المكيدة بجاره .

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والذى نراه . أن ما ذهب إليه الإمام القرطبى ، من أن الآية الكريمة ليست منسوخة ، أولى بالاتباع . لأن الجهاد قد يكون فرض كفاية فى بعض الحالات ، وقد يكون فرض عين فى حالات أخرى والآية الكريمة التى معنا تدعو المؤمنين إلى النفي العام فى تلك الحالات الأخرى التى يكون الجهد فيها فرض عين وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تدعو إلى النفير العام . والآيات التى تعفى بعض الن عاسن مشاقه ومتاعبه .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن هذه الآيات الأربع قد عاتبت المؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك عتاباً شديداً؛ وأنذرهم بالعذاب الأليم إن لم ينفروا . . وذكرهم بما كان من نصر الله لنبيه حين أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين . . وأمرهم بالنفور إلى الجهاد خفافاً وثقالا .

---

٦. حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت:

قال تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) } [البقرة/٩٤-٩٦]

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ صِدْقاً أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءَ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ مِنْ دُونِ النَّاس ، وَأَنَّ النَّارَ لَنْ تمسَّكُمْ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، وأنَّ لَكُمُ الجَنَّةَ وَحْدَكُمْ وَمَنْ عَدَاكُمْ مِنَ الخَلْقِ فِي النَّارِ ، فَتَمَنَّوُا المَوْتَ الذِي يُوصِلُكُمْ إلى ذلِكَ النَّعِيمِ الخَالِصِ الدَّائِمِ الذِي لا يُنَازِعُكُمْ فِيهِ أَحَدٌ ، وَاطْلُبُوا المَوْتَ مِنَ اللهِ . فَإِذَا لَمْ يَتَمَنَّوْهُ كَانُوا غَيْرَ صَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ .

وَلَنْ يَتَمَنَّى هَؤُلاءِ الكَافِرُونَ بكَ يا مُحَمَّدُ أنْ يَنْزِلَ بِهِم المَوتُ أبَداً ، لأَنَّهُمْ مَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ ، ومَا أسْلَفَتْ مِنْ سَيِّئِ الأعْمَالِ ، فَهُمْ يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ عَلَيها ، وَاللهُ يَعْلَمُ أنَّهُمْ ظَالِمُونَ فِي قَوْلِهِمْ : إنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ خَالِصَةٌ لَهُم مِنْ دُونِ النَّاسِ .

وَلَتَجِدَنَّ يَا مُحَمَّدُ اليَهُودَ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى البَقَاءِ فِي الحَيَاةِ ، حَتَّى لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ مِنَ المُشْرِكِينَ الذِينَ لاَ كِتَابَ لَهُمْ ، وَلاَ يَعْتَقِدُونَ بِوُجُودِ بَعْثٍ وَحَشْرٍ وَحِسْابٍ عَلَى الأعْمَالِ ، وَلِذلِكَ حَصَرُوا هَمَّهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا أَمَّا اليَهُودُ فِإنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بالبَعْثِ وَالحِسَابِ ، وَيَعْلَمُونَ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيْهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَخُرُوجٍ عَنْ أَمْرِ اللهِ ، وَقَتْلٍ لأَنْبِيَائِهِ ، وَيَعْلَمُونَ مَا يَنْتَظِرُهُمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ مَقْتِ اللهِ وَغَضَبِهِ

وَشدِيدِ عَذَابِهِ ، وَلِذلِكَ فَإِنَّهُمْ يَتَمَنَّونَ أنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَوْمِ القِيَامَةِ أَمَدٌ بَعِيدٌ ، وَأنْ يَعِيشُوا دَهْـــراً طَوِيلاً لِكَيْلا يَصِلُوا إلى العَذَابِ الذِي يَنْتَظِرُهُمْ في الآخِرَةِ .

ويَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَائِلاً : وَلَوْ عَاشَ أحَدُهُمْ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُنْجِيهِ مِنَ العَذَابِ ، مَـــا دَامَ مُقِيماً عَلَى كُفْرِهِ ، وَمُصِراً عَلَى الإِتْيَانِ بالأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ، وَاللهُ مُبْصِرٌ وَمُشَاهِدٌ مَا يَعْمَلُونَ .

(رُوِيَ في سَبَبِ نُزُولِ هذِهِ الآيةِ : أنَّ اليُهُودَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ يَهُودِيّاً . فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى المُبَاهَلَةِ ، وَالدُّعَاءِ بالمَوْتِ وَاللَّعْنَةِ على أكْـــذَبِ الطَّائِفَتَينِ مِنْهُمْ وَمِنَ المُسْلِمينَ . فَنَكَلَ اليَهُودُ عَنْ ذَلِكَ وَظَهَرَ كَذِبُهُمْ فِيمَا يَدَّعُونَ) .

وَرَوَى ابنُ عَبَّاس أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لليَهُودِ " إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي مَقَالَتِكُم فَقُولُوا : اللَّهُمَّ أمِتْنَا فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لاَ يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْكُمْ إلاَ غُصَّ بريقِهِ وَمَاتَ مَكَانَهُ " وَهَذَا تَحَدٍّ آخَرَ لِليَهُودِ قَائِمٌ فَـــوْقَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ .

لن يتمنوه . لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطمعهم في ثواب ، ولا يؤمنهم من عقاب . إنه مـــدخر لهم هناك ، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون .

وليس هذا فحسب . ولكنها خصلة أخرى في يهود ، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزرايـــة وتنضح بالتحقير والمهانة : { ولتجدنهم أحرص الناس على حياة } .

. أية حياة ، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء . وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة . فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس ، وعنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة . . أي حياة!

{ ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون } . .يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة . وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة . . إن الإيمان بالحياة الآخـــرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني . المحدود الأجل الواســـع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة . فالإيمان بالآخرة – فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق ، وجزائه الأوفى – هو ذاته دلالة علـــى فـــيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليـــق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه ، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله .

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- :« يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ». فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ ». فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ قَالَ: « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » أخرجه أبو داود[٩١].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ لِثَوْبَانَ « كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ يُصِيبُونَ مِنْهُ ».

قَالَ ثَوْبَانُ بِأَبِى وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا قَالَ « لاَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ يُلْقَى فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ ». قَالُوا وَمَا الْوَهَنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ ».[٩٢]

---

٧. إيثارُ الدنيا ومتاعها الزائل على الآخرة :

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ {٢٤}

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِتَوَعُّدِ مَنْ آثَرَ حُبَّ القَرَابَةِ وَالعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ وَالتِّجَارَةِ وَالأَمْوَالِ وَالمَسَاكِنِ . . . . عَلَى حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمْرَ اللهِ فِيهِمْ ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِمْ ، وَاللهُ تَعَالَى لا يَهْدِي الفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ سَوَاءَ السَّبِيلِ ..

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكاً؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة؛ ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة . . كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة ، وهي المحركة والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة؛ على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع؛ وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض . فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق – في غير سرف ولا مخيلة – بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ،

---

[٩١]- برقم (٤٢٩٩) وهو صحيح

[٩٢] – مسند أحمد (٨٩٤٧) (صحيح لغيره)

باعتباره لوناً من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليتمتع بها عباده ، وهم يذكرون أنه الـــرازق المـــنعم الوهاب .

{ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء – إن استحبوا الكفر على الإيمان – } .. وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب ، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة . وتبطل ولايـــة القرابـــة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله . فلله الولاية الأولى ، وفيها ترتبط البشرية جميعاً ، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك ، والحبل مقطوع والعروة منقوضة .

{ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون } . .و { الظالمون } هنا تعني المشركين . فولاية الأهـــل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع الإيمان .ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ؛ ليضعها كلها في كفـــة ويضـــع العقيـــدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنســـب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متـــاع الحيـــاة ولذتها) . . وفي الكفة الأخرى : حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله . الجهاد بكل مقتضـــياته وبكل مشقاته . الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب ، وما يتبعه من تضييق وحرمان ، وما يتبعه من ألم وتضحية ، وما يتبعه من جراح واستشهاد . . وهو – بعد هذا كله – « الجهاد في سبيل الله » مجرداً من الصيت والذكر والظهور . مجرداً من المباهاة ، والفخر والخيلاء . مجرداً من إحساس أهـــل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه . وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب . .{ قـــل : إن كـــان آبـــاؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .} ألا إنهـــا لشاقة . ألا وإنها لكبيرة ، ولكنها هي ذاك . . وإلا :{ فتربصوا حـــتى يـــأتي الله بـــأمره } . .وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين : { والله لا يهدي القوم الفاسقين } . .وهذا التجرد لا يطالب بـــه الفـــرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة . فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله .وما يكلـــف الله الفئـــة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه – فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها– وإنـــه لمـــن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال؛ وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها . . لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولـــذة الرجـــاء في رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء . فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبـــة الطامعـــة في الخلاص والفكاك .

٨. الركونُ إلى الظالمين:

قال تعالى في سورة هود :﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّــهِ مِــنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ {١١٣} ﴾

وَلاَ تَسْتَعِينُوا بالظَّالِمِينَ ، وَلاَ تَعْتَمِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تَعْتَزُّوا بِهِمْ ، وَلاَ تَسْتَحْسِنُوا طَرِيقَتَهُمْ (لاَ تَرْكَنُوا) فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ أَصَابَتْكُمُ النَّارُ التِي هِيَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ، وَلَــنْ تَجِدُوا يَوْمَئِذٍ مَنْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ . (وَالآيَةُ عَامَّةٌ تَشْمَلُ الظَّالِمِينَ دُونَ تَفْرِيقٍ بَــيْنَ مُسْــلِمٍ وَكَافِرٍ).

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا . إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القــوة في الأرض ، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبّدونهم لغير الله من العبيد . . لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه ، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير .{ فتمسكم النار } . .جزاء هذا الانحراف .{ وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون } . .والاستقامة علــى الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين . .والركون إلى الشئ الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه فى قضاء مصالحه .والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محــارم الله .والمعنى : واحذروا – أيها المؤمنون – أن تميلوا إلى الظالمين ، أو تسكنوا إليهم؛ لأن ذلك يــؤدى إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل .قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحبة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبي إليه .وقوله { فَتَمَسَّكُمُ النار } أى فتصيبكم النــار بســبب ميلكم إليهم ، والاعتماد عليهم ، والرضا بأفعالهم .وقوله { وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَــآءَ } فى موضع الحال من ضمير { تمسكم } .

أى : والحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب النــازل بكــم ، بســبب ركونكم إلى الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم .وثم فى قوله { ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ } للتراخى الرتبى . أى ثم لا تجدون بعد ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين ما لهــم مــن أنصار .قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس فى حمأته؟!!

ثم قال : وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلــف ، والأعمــال بالنيــات ، والتفصيل أولى .فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو الخــير . فــلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيناسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا . . .

---

٩. تركُ الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر :

وهو سبب من أسباب الهلاك ونزول العذاب ، يقول الله:{ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ[١١٦]وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[١١٧]}[سورة هود] .

لَقَدْ كَانَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ التِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِظُلْمِهَا ، جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أُولُو عَقْلٍ ، وَرَأيٍ ، وَصَلاحٍ ، يَنْهَوْنَ المُفْسِدِينَ عَنِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ ، وَيَأخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ لِكَيْلاَ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ ، لأَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ أَنْ لاَ يُهْلِكَ قَوْماً إِلاَّ إِذَا عَمَّ الفَسَادُ وَالظُّلْمُ أَكْثَرَهُمْ . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَؤُلاَءِ الأَقْوَامِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ قِلَّةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ الذِينَ لاَ يُؤْخَذُ بِرَأْيِهِمْ ، وَلاَ تُسْمَعُ كَلِمَتُهُمْ ، وَلا يُقْبَلُ أَمْرُهُمْ وَنَهْيُهُمْ . أَمَّا الأَكْثَرُونَ فَكَانُوا مِنَ الظَّالِمِينَ المُسْتَكْبِرِينَ المُعَانِدِينَ ، فَأَصَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا حَيَاةَ التَّرَفِ وَالفَسَادِ ، فَحَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الانْتِفَاعِ بِدَعْوَةِ الحَقِّ ، فَبَطَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ أَغْرَقُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الجَرَائِمِ التِي وَلَّدَهَا النَّعِيمُ وَالتَّرَفُ ، وَاسْتَسْلَمُوا لَهَا ، وَلِذَلِكَ رَجَّحُوا مَا أَتَوا بِهِ عَلى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَطَاعَةِ اللهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ .

لَيْسَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى ، وَلاَ مِنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ ، أَنْ يُهْلِكَ القُرَى بِشِرْكِ أَهْلِهَا ، مَا دَامُوا مُصْلِحِينَ فِي أَعْمَالِهِم الاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالعُمْرَانِيَّةِ وَالمَدَنِيَّة ، فَلاَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ ، وَلاَ يَبْطِشُونَ بِالنَّاسِ ، وَلاَ يُذِلُّونَ لِمُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ كَقَوْمِ فِرْعَوْنَ ، وَلاَ يَرْتَكِبُونَ الفَوَاحِشَ وَلاَ يَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَلاَ يَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ المُنْكَرَ ، بَلْ لاَ بُدَّ لَهُمْ ، لِيَحِقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابَ وَالهَلاَكَ ، مِنْ أَنْ يَجْمَعُوا إِلى الشِّرْكِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ ، وَالاسَاءَةِ فِي الأَعْمَالِ وَالأَحْكَامِ ، وَأَنْ يَفْعَلُوا الظُّلْمَ المُدَمِّرَ لِلْعُمْرَانِ .

فعَنْ جَرِيرٍ ، قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ : " وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ قَالَ : " وَأَهْلُهَا يُنْصِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[٩٣].

فَالأُمَّةُ التِي يَقَعُ فِيهَا الفَسَادُ بِتَعْبِيدِ النَّاسِ لِغَيْرِ اللهِ بِصُورةٍ مِنْ صُوَرِهِ فَيَكُونُ فِيهَا مَنْ يَنْهَضُ لِدَفْعِهِ هِيَ أُمَمٌ نَاجيَةٌ لاَ يَأْخُذُهَا اللهُ بِالعَذَابِ وَالتَّدْمِيرِ . أَمَّا الأُمَمُ التِي لاَ يَجدُ فِيهَا الظَّالِمُونَ مَنْ يَرْدَعُهُم وَيَنْهَاهُم عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ فَإِنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى تُحِقُّ عَلَيْهَا إِمَّا بِهَلاَكِ الاسْتِئْصَالِ ، وَإِمَّا بِهَلاَكِ الانْحِلاَلِ وَالاخْتِلاَلِ؟

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم . فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله ، في صورة من صوره ، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية ، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير

---

٩٣ - مُعْجَمُ أَبِي يَعْلَى الْمَوْصِلِيِّ (٧٠) صحيح

. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد ، فإن سنة الله تحق عليها ، إما بهلاك الاستئصال . وإما بهلاك الانحلال . . والاختلال !

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده ، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره ، هم صمام الأمان للأمم والشعوب . . وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده ، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره . . إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب ، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله ، واستحقاق النكال والضياع . .

وقال تعالى في سورة المائدة:﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ {٧٨} كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ {٧٩} تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ {٨٠} وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ {٨١} ﴾

لَعَنَ اللهُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الزَّبُورِ وَالإِنْجِيلِ ، فَقَدْ لَعَنَ دَاوُدُ ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، مَنْ اعْتَدَى مِنْهُمْ فِي السَّبْتِ ، أَوْ لَعَنَ العَاصِينَ المُعْتَدِينَ مِنْهُمْ عَامَّةً ، وَكَذَلِكَ لَعَنَهُمْ عِيسَى بن مَرْيَمَ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ اللَّعْنِ هُوَ تَمادِيهِمْ فِي العِصْيَانِ ، وَتَمَرُّدُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، وَتَمادِيهِمْ فِي الظُّلْمِ وَالفَسَادِ (بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ) .

فَقَدْ كَانُوا لاَ يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً عَنِ مُنْكَرٍ يَقْتَرِفُهُ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ القُبْحِ وَالضَّرَرِ . وَالنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ هُوَ حِفَاظُ الدِّينِ ، وَسِيَاجُ الفَضَائِلِ وَالآدَابِ ، فَإِذَا تَجَرّأ المُسْتَهْتِرُونَ عَلى إِظْهَارِ فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ ، وَرَآهُمُ الغَوْغَاءَ مِنَ النَّاسِ قَلَّدُوهُمْ فِيهِ ، وَزَالَ قُبْحُهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، وَصَارَ عَادَةً لَهُمْ ، وَزَالَ سُلْطَانُ الدِّينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَتُرِكَتْ أَحْكَامُهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إلى فَشْوِ المُنْكَرَاتِ فِيهِمْ . وَيُقَبِّحُ اللهُ تَعَالَى سُوءَ فِعْلِهِمْ ، وَيَذُمُّهُمْ عَلَى اقْتِرَافِ المُنْكَرَاتِ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهَا وَسُكُوتِ الآخرِينَ عَنْهَا ، وَرِضَاهُمْ بِهَا .

وَتَرَى يَا مُحَمَّدُ كَثِيراً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَتَوَلَّوْنَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ وَيُحَالِفُونَهُمْ عَلَيْكَ ، وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى قِتَالِكَ ، وَأَنْتَ تُؤْمِنُ باللهِ ، وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَتَشْهَدُ لَهُمْ بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ ، وَأُولَئِكَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ وَلاَ رَسُولٍ ، وَلاَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَلَولا اتِّبَاعُ الهَوَى ، وَتَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، مَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، فَبِئْسَ مَا قَدَّمُوهُ لأَنْفُسِهِمْ فِي آخِرَتِهِمْ مِنَ الأَعْمَالِ التِي اسْتَوْجَبَتْ سَخَطَ اللهِ ، وَعَظِيمَ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ، وَسَيُجْزَوْنَ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الجَزَاءِ ، وَسَيُحِيطُ بِهُمُ العَذَابُ ، وَلا يَجِدُونَ عَنْهُ مَصْرِفاً ، وَيَخْلُدُونَ فِي النَّارِ أَبَداً .

وَلَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ اليَهُودُ ، الذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الكَافِرِينَ مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ ، يُؤْمِنُونَ بالنَّبيِّ الذِي يَـدَّعُونَ اتِّبَاعَهُ (وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ) ، وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنَ الهُدَى وَالبَيِّنَاتِ ، لَمَا اتَّخَذُوا أُولَئِكَ الكَافِرِينَ مِنْ عَابدِي الأَوْثَانِ ، أَوْلِياءَ وَأَنْصَاراً ، وَلَكَانَتْ عَقِيدَتُهُمْ الدِّينِيَّةُ صَدَّتْهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مُتَمَرِّدُونَ فِي النِّفَاقِ ، خَارِجُونَ عَنْ حَظِيرَةِ الدِّينِ ، وَلاَ يُرِيدُونَ إلاَّ الجَاهَ وَالرِّيَاسَـةَ ، وَيَسْـعَوْنَ إلى تَحْصِيلِهِمَا بأَيَّةِ طَرِيقَةٍ كَانَتْ ، وَبأَيَّةِ وَسِيلَةٍ قَدَرُوا عَلَيْها ..

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِـى إِسْـرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهِ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَـلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ». ثُـمَّ قَالَ (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) إِلَى قَوْلِهِ (فَاسِقُونَ) ثُـمَّ قَالَ « كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَىِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّـهُ عَلَـى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا » سنن أبى داود[٩٤] .

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَـنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ »سنن الترمذى[٩٥].

وعَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـواْ عَلَـيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (١٠٥) سورة المائدة وَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ :« إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ »سنن الترمذى [٩٦].

وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق . وأن أنبياءهم الـذين أرسـلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله؛ فسـمع الله دعـاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل .

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المترلة؛ وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله – كما مر في المواضع القرآنية المتعددة في هذه السورة وفي السور غيرها – وهم الذين نقضوا عهـد الله معهم لينصرنّ كل رسول ويعزرونه ويتبعونه : { ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون } . .

فهي المعصية والاعتداء؛ يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء . وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء . . كما فصل الله في كتابه الكريم .

---

[٩٤] – برقم (٤٣٣٨) وهو حديث حسن – تأطر : تعطفه عليه وتوجهه إليه

[٩٥] – برقم (٢٣٢٣) ومسند أحمد {٣٨٩/٥} برقم (٢٤٠٠٢) ومصنف ابن أبي شيبة مرقم ومشـكل – (ج ١٤ / ص ٤٦٧) برقم (٣٧٢٢١) وهو حَدِيثٌ صحيح.

[٩٦]– برقم (٣٣٣٤) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وهو كما قال

و لم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل . ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها؛ وأن يسكت عنها المجتمع . ولا يقابلها بالتناهي والنكير : { كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون! } . .

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين . فالأرض لا تخلو من الشر؛ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه؛ وأن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهم به . . وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات؛ ويصبح الجزاء على الشرك رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه . . عندئذ يتروي الشر ، وتنحسر دوافعه . وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه . وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة . ولا تصبح هي الطابع العام!

والمنهج الإسلامي - بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي - في صورة الكراهية والتنديد ، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية ، قبل أن تصبح ظاهرة عامة؛ ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق ، وحساساً تجاه الاعتداء عليه؛ ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها ، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء . . ولا يخافوا لومة لائم . سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم؛ أو الأغنياء المتسلطين بالمال؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذى؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى . فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علو أم سفلوا سواء

والإسلام يشدد في الوفاء بهذه الأمانة؛ فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكتت عليه؛ ويجعل الأمانة في عنق كل فرد ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة .

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى؛ لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد - فيها وهو يرى المنكر يقع من غيره - : وأنا مالي؟! وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع ، بحيث لا يقول أحد - وهو يرى الفساد يسري ويشيع - وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات الله ، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله .

. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به . .

وهذا كله في حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله؛ ومعرفة تكاليف هذا الإيمان . وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله؛ ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة . وإلى الجد في أخذ العقيدة بقوة ، والجهد لإقامة المنهج الذي ينبثق منها في حياة المجتمع كله . . فالمجتمع المسلم الذي يستمد قانونه من شريعة الله؛ ويقيم حياته كلها على منهجه؛ هو المجتمع الذي يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر؛ بحيث لا يصبح هذا عملاً فردياً ضائعاً في الخضم؛ أو يجعله غير ممكن أصلاً في كثير من الأحيان! كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم في أرجاء الأرض؛ والتي تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد في شأن أحد؛ وتعتبر الفسق والفجور والمعصية « مسائل شخصية »! ليس لأحد أن يتدخل في شأنها . . كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفاً مصلتاً من الإرهاب يلجم الأفواه ، ويعقد الألسنة ، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان . .

إن الجهد الأصيل ، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولاً إلى إقامة المجتمع الخير . . والمجتمع الخير هو الذي يقوم على منهج الله . . قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية ، شخصية وفردية؛ عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله؛ وحين تطغى الجاهلية ، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله؛ وحيت يتخذ له شريعة غير شريعة الله . فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس ، وأن تنبت من الجذور؛ وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله في الأرض . . وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً يرتكن إلى أساس .

وهذا يحتاج إلى إيمان . وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاله في نظام الحياة . فالإيمان على هذا المستوى هو الذي يجعل الاعتماد كله على الله؛ والثقة كلها بنصرته للخير – مهما طال الطريق – واحتساب الأجر عنده ، فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الأرض ، ولا تقديراً من المجتمع الضال ، ولا نصرة من أهل الجاهلية في أي مكان!

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم . مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان . . وهكذا نجد في قول الرسول – ﷺ – « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر »

. فهو « إمام » ولا يكون إماماً حتى يعترف ابتداء بسلطان الله؛ وبتحكيم شريعته . فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له : « إمام » إنما يقول عنه الله – سبحانه – { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله ، فالمنكر الأكبر فيها والأهم ، هو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات . . هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة . . وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار ، قبل الدخول في المنكرات الجزئية ، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر ، وفرع عنه ، وعرض له . .

إنه لا جدوى من ضياع الجهد . . جهد الخيرين الصالحين من الناس . . في مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول . . منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الألوهية ، ورفض

ألوهية الله ، برفض شريعته للحياة . . لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال .

على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه؟ أنت تقول : إن هذا منكر؛ فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك : كلا! ليس هذا منكراً . لقد كان منكراً في الزمان الخالي! والدنيا « تتطور » ، والمجتمع « يتقدم » وتختلف الاعتبارات!

فلا بد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال ، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم – وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها ، وإلى خضم لا معالم فيه!

فلا بد ابتداء من إقامة الميزان . . ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتاً لا يتأرجح مع الأهواء . .

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله . .

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف – ابتداء – بسلطان الله؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله؟

ألا يكون جهداً ضائعاً ، وعبثاً هازلاً ، أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء؟!

إنه لا بد من الاتفاق مبدئياً على حكم ، وعلى ميزان ، وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء . .لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة . . وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها في جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذي عليه وحده يقام البنيان!

وإن الإنسان ليرثي أحياناً ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » في الفروع؛ بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم؛ ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مقطوع!

فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلاً في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا؛ فيستحيل ماله كله حراماً؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال .. لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله . لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلاً في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة – إلا في حالة الإكراه – ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله . . لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام . وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله . لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين؛ في مجتمع لا يعترف بسلطان الله؛ ولا يعبد فيه الله . إنما هو يتخذ أرباباً من دونه؛ يترلون له شريعته وقانونه؛ ونظامه وأوضاعه ، وقيمه وموازينه . والساب والمسبوب كلاهما ليس في دين الله . إنما هما وأهل مجتمعهما طراً في دين من يترلون لهم الشرائع والقوانين؛ ويضعون لهم القيم والموازين؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر – فضلاً عن أن يكون النهي عن الصغائر – والكبيرة الكبرى لا نهي عنها . . كبيرة الكفر بالله؛ برفض منهجه للحياة؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء « الطيبون » جهدهم وطاقتهم واهتمامهم . . إنه – في هذه المرحلة – ليس أمر تتبع الفرعيات – مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله . فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه . فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة؛ تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع؛ واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة . . فكل جهد في الفروع ضائع؛ وكل محاولة في الفروع عبث . . والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات . .

والرسول – ﷺ – يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم؛ ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم؛ فيبقى أضعف الإيمان؛ وهو تغييره بقلوبهم؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، إن هم كانوا حقاً على الإسلام!

وليس هذا موقفاً سلبياً من المنكر – كما يلوح في بادئ الأمر – وتعبير الرسول – ﷺ – بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته .فإنكار المنكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر . . إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له ، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له ويعترف به . . وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر ، ولإقامة الوضع « المعروف » في أول فرصة تسنح ، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة . . وهذا كله عمل إيجابي في التغيير . . وهو على كل حال أضعف الإيمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان! أما الاستسلام

للمنكر لأنه واقع ولأن له ضغطاً - قد يكون ساحقاً - فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان!

هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل : { لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون! } . .ثم يمضي السياق إلى نهاية هذا المقطع في الحديث عن بني إسرائيل ، وهو نهاية هذا الجزء . فيصف حالهم على عهد الرسول - ﷺ - وهي حالهم في كل زمان وفي كل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا ، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة . وعلة ذلك - مع أنهم أهل كتاب - أنهم لم يؤمنوا بالله والنبي وأنهم لم يدخلوا في دين الله الأخير . . فهم غير مؤمنين . ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين : { ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون } . وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود - على عهد رسول الله - ﷺ - ينطبق على حالهم اليوم وغداً ، وفي كل حين . كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم . . مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن ، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آن . .لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين؛ ويؤلبونهم على المسلمين ، { ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً } كما حكى عنهم القرآن الكريم . وقد تجلى هذا كله على أتمه في غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك؛ إلى اللحظة الحاضرة . . وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيراً إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك ، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و « المسلمون » لا يمثلون الإسلام في شيء .إلا في أنهم من ذراري قوم كانوا مسلمين! ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين؛ ومن ينتمون إليه ، ولو كانوا في انتمائهم مدعين!

وصدق الله العظيم : { ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا } . .{ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون } . .فهذه هي الحصيلة التي قدمتها لهم أنفسهم . . إنها سخط الله عليهم . وخلودهم في العذاب . فما أبأسها من حصيلة! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم؛ ويا لها من ثمرة مرة . ثمرة توليهم للكافرين!

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله : في الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين؛ وأعدائه الذين يتولون الكافرين!

وما الدافع؟ ما دافع القوم لتولي الذين كفروا؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبي : { ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون } . .هذه هي العلة . . إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي . . إن كثرتهم فاسقة . . إنهم يتجانسون - إذن - مع الذين كفروا في الشعور والوجهة؛ فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين . .وتبرز لنا من هذا التعقيب القرآني ثلاث حقائق بارزة :الحقيقة الأولى : أن أهل الكتاب جميعاً - إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ - غير مؤمنين بالله . لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير . ولم ينف القرآن الكريم عنهم الإيمان بالنبي وحده . بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك . { ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء } وهو تقرير من الله - سبحانه - لا يقبل التأويل . مهما تكن دعواهم في الإيمان بالله . . وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية كما سلف في آيات هذا الدرس وفي غيرها من آيات القرآن الكريم .والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب جميعاً مدعوون إلى الدخول في دين الله ، على لسان محمد - ﷺ - فإن استجابوا فقد أمنوا ، وأصبحوا على دين الله . وإن تولوا فهم كما وصفهم الله .والحقيقة الثالثة : أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين ، في شأن من الشئون . لأن كل شأن من شئون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين .ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك؛ وبحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم في دار الإسلام؛ وبتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة ما تكون؛ وإلى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ومجادلتهم بالحسنى كذلك . والوفاء لهم - ما وفوا - بعهدهم ومسالمتهم للمسلمين . . وهم - في أية حال - لا يكرهون على شيء في أمر الدين . .هذا هو الإسلام . . في وضوحه ونصاعته . وفي بره وسماحته . .والله يقول الحق . وهو يهدي السبيل .

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) } [المائدة : ١٠٥]

يَأمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ بأنْ يُصْلِحُوا أنْفُسَهُمْ ، وَأنْ يَفْعَلُوا الخَيْرَ جَهْدَ طَاقَتِهِمْ ، لِيَتَقَرَّبُوا بِذَلِكَ إلى اللهِ . وَيُخْبِرُهُمْ تَعَالَى أنَّهُ مَنْ أصْلَحَ نَفْسَهُ وَأَمْرَهُ مِنْهُمْ ، فَلاَ يَضُرُّهُ فَسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ ، سَوَاءٌ اكَانَ قَرِيباً أوْ بَعِيداً ، "

فعَنْ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ جَارِيَةَ اللَّخْمِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ ، قَالَ : أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ : {لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة :] ؟ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فقَالَ : بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ

مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ ، قَالَ وَزَادَنِي غَيْرُهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : خَمْسِينَ مِنْكُمْ.[٩٧]

فَالْمُؤْمِنُ لاَ يَكُونُ مُهْتَدِياً إِذَا أَصْلَحَ نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِإِصْلاَحِ غَيْرِهِ ، بِأَنْ يَأْمُرَهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَهَذا فَرْضٌ لاَ هَوَادَةَ فِيهِ ، وَلَكِنَّ هذِهِ الفَرِيضَةُ تَسْقُطُ إِذا فَسَدَ النَّاسُ فَسَاداً لاَ يُرْجَى مَعَهُ تَأْثِيرُ الوَعْظِ وَالإِرْشَادِ .

فهم أمة واحدة لها دينها ، ولها نهجها ، ولها شرعها ، ولها مصدر هذا الشرع الذي لا تستمد من غيره . ولا على هذه الأمة – حين تبين للناس منهجها هذا ثم تفاصلهم عليه – من ضلال الناس ، ومضيهم في جاهليتهم .ومرجعهم بعد ذلك إلى الله .

إنه التميز والمفاصلة بينهم وبين من عداهم . ثم إنه التضامن والتواصي فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة { يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } . .

أنتم وحدة منفصلون عمن سواكم ، متضامنون متكافلون فيما بينكم . فعليكم أنفسكم . . عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها؛ وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها؛ ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم . فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم؛ وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض ، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم .

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادىء أساسية في طبيعة الأمة المسلمة ، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى .

إن الأمة المسلمة هي حزب الله . ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان . ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن ، لأنه لا اشتراك في عقيدة؛ ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة؛ ولا اشتراك في تبعة أو جزاء .

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها؛ وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها . . ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى . والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها . فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة ، وأن تحاول هدايتهم ، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم . .

---

[٩٧] – صحيح ابن حبان – (٢ / ١٠٩) (٣٨٥) صحيح

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولاً ، ثم في الأرض جميعاً ، وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه . . والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً؛ وعلى البشرية كلها أخيراً .

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديماً – وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثاً – أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – إذا اهتدى هو بذاته – ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض – إذا هي اهتدت بذاتها – وضل الناس من حولها .

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر ، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان – وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته ، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم .

فإذا كان أهلها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يهلكهم الله، أما إذا تركوا ذلك، وانتشرت الرذائل، وأصبحت علانية، فليسوا مهددين بالهزيمة بل بأعظم من ذلك، وهو أن يهلكهم الله، ويحل بهم العذاب، فعَنْ قَيْسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قَالَ عَنْ خَالِدٍ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِىَّ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ ». وَقَالَ عَمْرٌو عَنْ هُشَيْمٍ وَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِى ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لاَ يُغَيِّرُوا إِلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ رَوَاهُ كَمَا قَالَ خَالِدٌ أَبُو أُسَامَةَ وَجَمَاعَةٌ. وَقَالَ شُعْبَةُ فِيهِ « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِى هُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ ». رواه أبو داود[٩٨] .

وهكذا صحح الخليفة الأول – رضوان الله عليه – ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق . فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه!

وكلا والله! إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد . ولا يصلح إلا بعمل وكفاح . ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه ، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ،

---

[٩٨] – سنن أبي داود(٤٣٤٠) صحيح

ولتقرير ألوهية الله في الأرض ، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان ، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس ، وإقامة الناس عليها . . لا بد من جهد . بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين ، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة . وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى؛ وتعطل دين الله أن يوجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم .

وبعد ذلك – لا قبله – تسقط التبعة عن الذين آمنوا . وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه : { إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون } .

١٠. الترف:

قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ {٦٤} لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ {٦٥} قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ {٦٦} مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ {٦٧} ﴾

حَتَّى إِذَا جَاءَ الْمُتْرَفِينَ مِنْهُمْ ، الْمُنَعَّمِينَ فِي الدُّنْيَا ، عَذَابُ اللهِ وَبَأْسُهُ وَنِقْمَتُهُ ، إِذَا هُمْ يَسْتَغِيثُونَ ، وَيَصْرُخُونَ وَاغوثَاهُ (يَجْأَرُونَ) ، لِشدَةِ مَا يُعَانُونَ مِنَ الكُرَبِ والآلام .

وَيُجِيبُهُم الرَّبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَائِلاً : لاَ تَسْتَغِيثُوا فَلَنْ يُجِيرَكُم اليَوْمَ أَحَدٌ مِمَّا حَلَّ بِكُمْ مِنْ سُوءِ العَذَابِ ، سَوَاءٌ اسْتَغَثْتُم وَصَرَخْتُمْ ، أو سَكَتُّم ، وَلَنْ يَنْصُرَكُم أَحَدٌ مِنْ اللهِ ، فَقَدْ قُضِيَ الأَمْرُ ، وَوَجَبَ العَذَابُ .

لَقَدْ كَانَتْ آيَاتُ اللهِ تُتْلَى عَلَيْكُم بالحَقِّ ، فَكُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ عَنْ سَمَاعِها ، وَتَسْخَرُونَ مِنْهَا ، وَتُعْرِضُونَ عَنْهَا ، وَتُدِيرُونَ ظُهُورَكُمْ إِلَيْهَا وَلِذَلِكَ فَلاَ عُذْرَ لَكُم اليَوْمَ .

وَقَدْ كُنْتُم تُعْرِضُونَ عَن الإِيمَانِ وَأَنْتَمْ تَسْتَكْبِرُونَ بالبَيْتِ الحَرَامِ ، وَتَقُولُونَ : نَحْنَ أَهْلُ حَرَمِ اللهِ ، وَخُدَّامُ بَيْتِهِ ، فَلاَ يُظْهِرُ عَلَيْنَا أَحَداً ، وَلاَ نَخَافُ أَحَداً ، وَكُنْتُم تَسْمُرُونَ حَوْلَ البَيْتِ ، وَتَتَنَاوَلُونَ القُرْآنَ بالُجرِ مِنَ القَوْلِ (سَامِراً تَهْجُرُونَ) ..

أى : حتى إذا عاقبنا هؤلاء المترفين الذين أبطرتهم النعمة . بالعذاب الذى يردعهم ويخزيهم ويذلهم ، إذا هم يجأرون إلينا بالصراخ وبالاستغاثة .

وعبر عن عقابهم ، بالأخذ ، للإشعار بسرعة هذا العقاب وشدته ، كما فى قوله – تعالى – { . . . أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } وخص المترفين بالذكر ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من التنعم والتمتع والتطاول فى الدنيا ، لن ينفعهم شيئاً عند نزول هذا العذاب بهم .

وقوله – سبحانه – { لاَ تَجْأَرُواْ اليوم إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ } تأنيب وزجر لهم على جؤارهم وصراخهم . والمراد باليوم . الوقت الذى فيه نزل العذاب بهم .

أى : عندما أخذناهم بالعذاب المباغت المفاجىء ، وضجوا بالاستغاثة والجؤار ، قلنا لهم على سبيل التقريع والزجر : لا تجأروا ولا تصرخوا فى هذا الوقت الذى أصابكم ما أصابكم فيه من عذاب . فإنكم لن تجدوا من ينجيكم من عذابنا ، أو من يدفع عنكم هذا العذاب . . .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أفضت بهم إلى هذا العذاب المهين ، فقال - تعالى - : { قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ على أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُون . . } .

والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم { تَنكِصُون } من النكوص ، وهو الرجوع إلى الخلف . يقال : فلان نكص على عقبيه ، إذا رجع إلى الوراء ، وهو هنا كناية عن الإعراض عن الآيات .

أى : لا تجأروا ولا تصرخوا ، فإن ذلك لن يفيدكم شيئاً ، بسبب إصراركم على كفركم فى حياتكم الدنيا ، فقد كانت آياتى الدالة على وحدانيتى تتلى على مسامعكم من نبينا ﷺ ومن المؤمنين به ، فكنتم تعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، وكنتم تستهزئون بها ، وتكادون تسطون بالذين يتلونها عليكم .

وقوله - تعالى - { مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ } مقرر لمضمون ما قبله ، من إعراضهم عن آيات الله . ونكوصهم على أعقابهم عند سماعها .

والضمير فى { بِهِ } يرى جمهور المفسرين أنه يعود إلى البيت الحرام ، والباء للسببية .

وقوله : " سامرا " اسم جمع كحاج وحاضر وراكب ، مأخوذ من السمر وأصله ظل القمر وسمى بذلك لسمرته ، ثم أطلق على الحديث بالليل . يقال : سمر فلان يسمر - ككرم يكرم - إذا تحدث ليلاً مع غيره بقصد المسامرة والتسلية .

وقوله : { تَهْجُرُونَ } قرأه الجمهور - بفتح التاء وضم الجيم - مأخوذ من الهجر - بإسكان الجيم - بمعنى الصد والقطيعة ، أو من الهجر - بفتح الجيم - بمعنى الهذيان والنطق بالكلام الساقط ، بسبب المرض أو الجنون .

وقرأ نافع { تُهْجِرُونَ } بضم التاء وكسر الجيم - مأخوذ من هجر هجاراً إذا نطق بالكلام القبيح.

والمعنى : قد كانت آياتى تتلى عليكم - أيها المستغيثون من العذاب - فكنتم تعرضون عنها ، ولم تكتفوا بهذا الإعراض ، بل كنتم متكبرين على المسلمين بالبيت الحرام ، وكنتم تتسامرون بالليل حوله ، فتستهزئون بالقرآن ، وبالرسول ﷺ وبتعاليم الإسلام وتنطقون خلال سمركم بالقول الباطل ، الذى يدل على مرض قلوبكم ، وفساد عقولكم ، وسوء أدبكم .

وقوله : { مُسْتَكْبِرِينَ } و { سَامِراً } و { تَهْجُرُونَ } أحوال ثلاثة مترادفة على واو الفاعل فى { تَنكِصُونَ } أو متداخلة ، بمعنى أن كل كلمة منها حال مما قبلها .

قال القرطبى : { مُسْتَكْبِرِينَ } حال ، والضمير فى { بِهِ } قال الجمهور : هو عائد على الحرم ، أو المسجد ، أو البلد الذى هو مكة . وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر .

أى : يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل فيستكبرون لذلك .

وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن ، من حيث ذكرت الآيات .

والمعنى : يحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغياناً فلا تؤمنوا بى . . . " .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور حسرة المشركين وجؤارهم يوم يترل بهم العذاب تصويراً بديعاً ، كما تين ما كانوا عليه من غرور وسوء أدب ، مما جعلهم أهلاً لهذا المصير الأليم .

وقال تعالى :﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا {١٦} الإسراء ﴾

فِي قِرَاءَةِ (أَمَرْنَا) وَجْهَانِ :

(أَمَرْنَا بالتَّخْفِيفِ – وَهُوَ المَشْهُورُ فِي قِرَاءَتِهَا : فَمِنْ قَائِلٍ : إنَّ المَعْنَى هُوَ أَنَّهُ إذَا دَنَا تَعَلُّقِ إرَادَتِنَا بِإهْلاَكِ قَرْيَةٍ بعَذَاب الاسْتِئْصَالِ لِمَا ظَهَرَ فِيهَا مِنَ المَعَاصِي ، وَلَمَّا دَنَّسَتْ بهِ نَفْسَهَا مِنَ الآثَامِ ، لَمْ يُعَاجِلْهَا اللهُ تَعَالَى بالعُقُوبَةِ ، بَلْ يَأْمُرُ مُتْرَفِيهَا بالطَّاعَةِ فَإذَا فَسَقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَتَمَرَّدُوا ، حَقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابُ لارْتِكَابِهِمُ الكَبَائِرَ وَالفَوَاحِشَ ، فَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى بتَدْمِيرِ تِلْكَ القَرْيَةِ . (وَخَصَّ اللهُ تَعَالَى المُتْرَفِينَ بالذِّكْرِ لِمَا جَرَتْ بِهِ العَادَةُ مِنْ أَنَّ العَامَّةَ تُقَلِّدُهُمْ وَتَكُونُ تَبَعاً لَهُمْ ، فِيمَا يَفْعَلُونَ) .

– وَمِنْ قَائِلٍ بَلْ إنَّ المَعْنَى هُوَ : أَنَّ اللهَ يُسَخِّرُهُمْ لِفِعْلِ الفَوَاحِشِ فَيَسْتَحِقُّونَ العُقُوبَةَ .

– وَأَمَّرْنا – بِتَشْدِيدِ المِيمِ – وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إنَّ مَعْنَاهَا سَلَّطْنَا شِرارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا ، فَإذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالعَذَابِ . وَهذا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى { وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرمِيهَا } .

– وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضاً : إنَّ مَعْنَى (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) ، أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ فَيُؤَدّي ذلِكَ إلى انْتِشَارِ الفِسْقِ وَالفَسَادِ وَالكُفْرِ ، فَيُهْلِكُكُم اللهُ بِالعَذَابِ ..

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع في الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها .

والآية تقرر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم و لم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهي المسؤولة عما

يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، و لم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجـود المتـرفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسنناً لا تتبدل ، وحين توجد الأسـباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء . لكـن وجود المترفين في ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً .وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة .فـالإرادة هنا ليست إرادة للتوجية القهري الذي ينشئ السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السـبب . الأمـر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به . والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق ، ولكنه إنشـاء النتيجـة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق .وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها . وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحـق عليهـا القول فيدمرها تدميراً .

وقال تعالى : { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آَخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّـوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِـيدًا خَامِـدِينَ (١٥ [الأنبياء/١١-١٥] }

لَقَدْ أهْلَكْنَا قُرىً وأُمَماً كَثِيرَةً كَانَتْ ظَالِمةً بكُفْرِها وَفَسَادِها ، وَتَكْذِيبِهَا الرُّسُلَ ، وأَنْشَـأنَا بَعْـدَهُم أَقْوَاماً آخَرِينَ ، خَلَفُوهُم فِي الأرْضِ .وَيَتَهَكَّمُ اللهُ تَعَالَى عَلَيهِم لِفِرارِهِمْ هَرَباً مِنَ العَذَابِ ، ويَأْمُرُ بِأَنْ يُنَادَى عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ والسُّرُورِ ، والعَيْشِ الرَّغِيدِ ، والمَسَاكِنِ الطَّيِّبَـةِ ، لِتُسْأَلُوا عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، وَهَلْ أَدَّيْتُمُ الشُّكْرَ عَلَيْهِ للهِ تَعَالَى .وَمَا زَالُوا يُرَدِّدُونَ تِلْكَ المَقَالَـةَ ، وَهِيَ الاعْتِرَافُ بالظُّلْمِ والكُفْرِ ، حَتَّى حَصَدَهُمُ اللهُ حَصْداً ، وأَهْلَكَهُم وأَخْمَدَا أنْفَاسَهُم ، فَلَمْ يَعُـدْ يُسْمَعُ لَهُم حِسٌ ..

والقصم أشد حركات القطع . وجرسها اللفظي يصور معناها ، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة . فإذا هي مدمرة محطمة . .{ وأنشأنا بعـدها قومـاً آخرين }

وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل ما فيها ومن فيها . وعند الإنشاء يوقع الفعل علـى القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى . . وهذه حقيقة في ذاتها .فالدمار يحل بالديار والـدّيار .

والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور . . ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير ، وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير!

ثم ننظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالفيران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود : { فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون } . .يسارعون بالخروج من القرية ركضاً وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله . كأنما الركض ينجيهم من بأس الله . وكأنما هم أسرع عدواً فلا يلحق بهم حيث يركضون! ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور . عندئذ يتلقون التهكم المرير : { لا تركضوا ، وارجعوا إلى مآ أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون } !

لا تركضوا من قريتكم . وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح . . عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم انفقتموه؟!

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب . إنما هو التهكم والاستهزاء!

عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط . وانه لا ينفعهم ركض ، ولا ينقذهم فرار . فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار : { قالوا : يا ويلنا! إنا كنا ظالمين } . .ولكن لقد فات الأوان . فليقولوا ما يشاءون . فإنهم لمتركون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس : { فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين } . .ويا له من حصيد آدمي ، لا حركة فيه ولا حياة؛ وكان منذ لحظة يموج بالحركة ، وتضطرب فيه الحياة!

---

١١. عدمُ الإنابة إلى الله :

قال تعالى في سورة الزمر ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُم الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ {٥٤}﴾

يَسْتَحِثُّ اللهُ تَعَالَى الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، وَيَقُولُ لَهُم : ارْجِعُوا إِلَى رَبِّكُمْ بِالتَّوْبَةِ ، والعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ بِكُمْ نِقَمُهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ العَذَابُ ، وَحِينَئِذٍ لاَ تَجِدُونَ مَن يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَأْسِ الله . وَلاَ مَنْ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَهُ . .

الإنابة . والإسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . . هذا هو كل شيء . بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء !

إنه حساب مباشر بين العبد والرب . وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق . من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإنابة من الضالين ، فلينب . ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم

. وليأت . . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء:كلـه وراء البـاب لا حاجب دونه ولا حسيب !

وهيا . هيا قبل فوات الأوان . هيا (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) . . فما هنالـك مـن نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا .

(واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) . . وهو هذا القرآن بين أيديكم . . (من قبل أن يـأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) . .هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط في حـق الله ، وعلى السخرية بوعد الله:أن تقول نفس:يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله . وإن كنت لمن الساخرين . .أو تقول إن الله كتب عليَّ الضلال ولو كتب عليَّ الهدى لاهتديت واتقيت:(أو تقـول لو أن الله هداني لكنت من المتقين) . .وهي علالة لا أصل لها . فالفرصة ها هي ذي سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة ها هو ذا مفتوح !

(أو تقول حين ترى العذاب:لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) . .

وهي أمنية لا تنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وها أنتم أولاء في دار العمل . وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: (بلى . قد جاءتك آيـاتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) !

---

١٢. ارتكابُ خمس فواحش :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ: « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِى قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّـاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِى لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِى أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِـذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّـمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِـنْ غَيْـرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِى أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّـهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » رواه ابن ماجة[٩٩].

٣٦- برقم (٤١٥٥) و المستدرك للحاكم برقم (٨٦٢٣) وهو حديث حسن

قوله (إذا ابتليتم) على بناء المفعول والجزاء محذوف أي فلا خير (لم تظهر الفاحشة) أي الزنا (بالسنين) أي بالقحط (منعوا القطر) منعوا على بناء المفعول والقطر بالسكون المطر وهو بالنصب مفعول ثان (لم يمطروا) على بناء المفعول (عهد الله) هو ما جـرى بينهم وبين أهل الحرب

وفي شعب الإيمان (٣١٦٠)عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : " مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ ، وَلَا فَشَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْمَوْتِ ، وَمَا طَفَّفَ قَوْمٌ الْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالسِّنِينَ ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا مَنَعَهُمُ اللَّهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا جَارَ قَوْمٌ فِي حُكْمٍ إِلَّا كَانَ الْبَأْسُ بَيْنَهُمْ - أَظُنُّهُ قَالَ : وَالْقَتْلُ كَذَا - " قَالَ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا *

وبرقم(٣١٦١)عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ ، وَمَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ ، وَلَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ "

وبرقم(٣١٦٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، عَنْ كَعْبٍ ، قَالَ : " إِذَا رَأَيْتَ الْمَطَرَ قَدْ قَحَطَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزَّكَاةَ قَدْ مُنِعَتْ ، وَإِذَا رَأَيْتَ السُّيُوفَ قَدْ عَرِيَتْ فَاعْلَمْ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ ضُيِّعَ فَانْتَقَمَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْوَبَاءَ قَدْ ظَهَرَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزِّنَا قَدْ فَشَا "

وبرقم(٣١٦٣)عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ ، يُحَدِّثُ بِمِنًى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ : " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خِصَالٌ خَمْسٌ إِنِ ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بها إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَأْخُذُ بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بَيْنَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ إِلَّا جَعَلَ بِأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "

وبرقم(٣١٦٤) عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفَقَالَ : " كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا وَقَعَتْ فِيكُمْ خَمْسٌ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ فِيكُمْ أَوْ تُدْرِكُوهُنَّ : مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ يُعْمَلُ بِهَا فِيهِمْ عَلَانِيَةً ، إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَمَا بَخَسَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمئونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا حَكَمَ أُمَرَاؤُهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ واسْتَفْقَدُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا عَطَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "

وبرقم(٣١٦٥) عن جَعْفَرَ ، قَالَ : كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ مَالِكٍ يَعْنِي ابْنَ دِينَارٍ ، وَكَانَتِ الْغُيُومُ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ وَلَا تُمْطِرُ ، قَالَ : فَقَالَ مَالِكٌ : " تَرَوْنَ وَلَا تُوَافُونَ أَنْتُمْ تَسْتَبْطِئُونَ الْمَطَرَ وَأَنَا أَسْتَبْطِئُ الْحِجَارَةَ "

وبرقم(٣١٦٦) عنه قَالَ : سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ : " مَا سَقَطَتْ أُمَّةٌ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَ اللَّهُ أَكَابِرَها بِالْجُوعِ

ومن المعلوم أن العدو لن يستطيع أن يأخذ بعض ما في أيدي المسلمين من الأموال، أو من الأراضـــي، أو من غيرها إلا بعد أن يهزم المسلمون، ويستذلوا.

---

١٣. تركُ الجهاد في سبيل الله :

قال تعالى : { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِــي سَــبِيلِ اللَّــهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَــدَ اللَّــهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) } [النساء/٩٥-٩٧]

يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ مَا لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبيلِ الله ، بأمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، مِنْ عَظِيمِ الأجْـــرِ وَالمَغْفِـــرَةِ وَالدَّرَجَاتِ الكَرِيمَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : إنَّ القَاعِدِينَ عَنِ الجِهَادِ - إذا كَانُوا غَيْرَ مَعْـــذُورِينَ ، وَغَيْرَ ذَوِي عِلَّةٍ وَضَرَرٍ - لاَ يَسْتَوُونَ مَعَ المُجَاهِدِينَ بأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَإنَّ اللهَ فَضَّـــلَ المُجَاهِـــدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ ، وَخَصَّهُمْ بدَرَجَاتٍ عَظِيمةٍ ، وَأَجْرٍ كَبير ، وَإنْ كَانَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ القَاعِـــدِينَ عَـــنِ الجِهَادِ عَجْزاً ، مَعَ تَمَنِّي القُدْرَةِ عَليهِ ، كَمَا وَعَدَ المُجَاهِدِينَ ، بالخَيْرِ وَالمَثُوبَةِ وَالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ لأنَّ كُلاً مِنْهُمْ كَامِلُ الإيمَانِ ، مُخْلِصٌ للهِ فِي العَمَلِ .

وَهَذَا الأَجْرُ العَظِيمُ الذِي وَعَدَ اللهُ بِهِ المُجَاهِدِينَ ، وَفَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى القَاعِدِينَ مِنْ ذَوي الأعْذَارِ ، هُوَ دَرَجَاتٌ مِنْهُ ، وَمَنَازِلُ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الكَرَامَةِ ، وَالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً لِـــذُنُوبِ أَوْلِيَائِهِ الذِينَ يَسْتَحِقُّونَ المَغْفِرَةَ ، رَحِيماً بِأَهْلِ طَاعَتِهِ .

إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله؛ وكان يعالج حالة خاصـــة في هذا المجتمع من التراخي - من بعض عناصره - في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس .

سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظاً بأموالهم ، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئاً من ماله؛ أو توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر ، إذ لم يكن المشـــركون يتركون المسلمين يهاجرون ، وكثيراً ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم - أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق - إذا عرفوا منهم نية الهجرة . . سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة - وهو مـــا نرجحه - أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام ، الذين لم ينشـــطوا للجهـــاد بـــالأموال والأنفس - من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم في درس سابق - أو كان المقصـــود هـــؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء .

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة؛ ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة؛ يطلقها من قيود الزمان ، وملابسات البيئة؛ ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كـــل

مكان - قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس - غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، او يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال - عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم . . قاعدة عامة على الإطلاق :{ لا يستوي القاعدون من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم } ..

ولا يتركها هكذا مبهمة ، بل يوضحها ويقررها ، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين : { فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة } . .

وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ﷺ في مقامهم في الجنة .

في الصحيحين « عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله - ﷺ - قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله . وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » .

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ، « عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - : » من رمى بسهم فله أجره درجة « فقال رجل : يا رسول الله ، وما الدرجة؟ فقال : أما إنها ليست بعتبة أمك . ما بين الدرجتين مائة عام » .

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله ﷺ ، نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها؛ بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون . حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية! وقد كان الذين يسمعون رسول الله - ﷺ - يصدقونه بما يقول . ولكنا - كما قلت - ربما كنا أقدر - فوق الإيمان - على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب!

ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوى بين القاعدين من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى : { وكلاً وعد الله الحسنى } ..

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال؛ مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس . . وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين . إنما هم طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة؛ ولكنها قصرت في هذا الجانب؛ والقرآن يستحثها لتلافي التقصير؛ والخير مرجو فيها ، والأمل قائم في أن تستجيب .

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى؛ مؤكداً لها ، متوسعاً في عرضها؛ ممعناً في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم : { وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة . وكان الله غفوراً رحيماً } .

وهذا التوكيد . . وهذه الوعود . . وهذا التمجيد للمجاهدين . . والتفضيل علـــى القاعـــدين . . والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم . . ومن مغفرة الله ورحمته للـــذنوب والتقصير . .

هذا كله يشي بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كمـــا أســـلفنا وتعالجها . وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكاً لطبيعة النفس البشرية ، ولطبيعة الجماعات البشـــرية ، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلى علاج ما يطـــرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف ، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس ، مع خلوص النفس لله ، وفي سبيل الله . وظهور هذه الخصائص البشرية – من الضـــعف والحرص والشح والتقصير – لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة ، ولا إلى نفـــض اليـــد ، منـــها وازدرائها؛ طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها .

. ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحـــرص والشـــح والتقصير؛ والهتاف لها بالانبطاح في السفح ، باعتبار أن هذا كله جزء من « واقعها »! بل لا بد لهـــا من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة . بكـــل ألـــوان الهتاف والحداء . . كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم .

والحقيقة الثانية : هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هـــذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام . لما يعلمه الله – سبحانه – من طبيعة الطريـــق؛ وطبيعـــة البشر؛ وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين .

إن « الجهاد » ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة . إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هـــذه الدعوة! وليست المسألة – كما توهم بعض المخلصين – أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريـــات؛ فاندس في تصورات أهله – اقتباساً مما حولهم – أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن!

هذه المقررات تشهد – على الأقل – بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهـــذه التكهنات والظنون .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتـــاب الله؛ في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رســـول الله – ﷺ – وفي مثل هذا الأسلوب . .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله – ﷺ – تلك الكلمة الشاملة لكل مســـلم إلى قيـــام الساعة : « من مات و لم يغز و لم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » .

ولئن كان – ﷺ – رد في حالات فردية بعض المجاهدين ، لظروف عائلية لهم خاصة ، كالذي جاء في الصحيح « أن رجلاً قال للنبي – ﷺ – أجاهد . قال : » لك أبوان؟ « قال : نعم . قال : ففيهما جاهد » . لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة؛ وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين . ولعله – ﷺ – على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فرداً فرداً ، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ، ما جعله يوجهه هذا التوجيه . .

فلا يقولن أحد – بسبب ذلك – إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف . وقد تغيرت هذه الظروف!

وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الرؤوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين!

إن الله – سبحانه – يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه . لأنه طريق غير طريقهم ، ومنهج غير منهجهم . ليس بالأمس فقط . ولكن اليوم وغداً . وفي كل أرض ، وفي كل جيل!

وإن الله – سبحانه – يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفاً . ولا يمكن أن يدع الخير ينمو – مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! – فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر . ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل . ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان؛ ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية . . .هذه فطرة! وليست حالة طارئة . . .ومن ثم لا بد من الجهاد . . لابد منه في كل صورة . . ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير .ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود . ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح . ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة . . وإلا كان الأمر انتحاراً . أو كان هزلاً لا يليق بالمؤمنين!

ولا بد من بذل الأموال والأنفس . كما طلب الله من المؤمنين . وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . فأما أن يقدر لهم الغلب؛ أو يقدر لهم الاستشهاد؛ فذلك شأنه – سبحانه – وذلك قدره المصحوب بحكمته . . أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم . . والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل . . والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون . .

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة ، وفي منهجها الواقعي ، وفي خط سيرها المرسوم ، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية ، التي لا علاقة لها بتغير الظروف .

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين – تحت أي ظرف من الظروف . ومن هذه النقط . . الجهاد . . الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث . . الجهاد في سبيل الله وحده . وتحت رايته وحدها . . وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه « شهداء » ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم .

وقد جاءت أحاديث عديدة تحذر من ترك الجاهد في سبيل الله وتبين عاقبته :

عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – : " مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ [100]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ » صحيح مسلم[101].

وعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ :" لَمّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي السّقِيفَةِ وَكَانَ الْغَدُ جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَامَ عُمَرُ فَتَكَلّمَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمّ قَالَ أَيّهَا النّاسُ إنّي كُنْت قُلْت لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ مِمّا وَجَدْتهَا فِي كِتَابِ اللّهِ وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهِدَ إلَيّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَلَكِنّي قَدْ كُنْت أَرَى أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ سَيُدَبّرُ أَمْرَنَا ؛ يَقُولُ يَكُونُ آخِرَنَا وَإِنّ اللّهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُمْ كِتَابَهُ الّذِي بِهِ ﷺ فَإِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَدَاكُمْ اللّهُ لِمَا كَانَ هَدَاهُ لَهُ وَإِنّ اللّهَ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ صَاحِبِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ثَانِي اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الْغَارِ فَقُومُوا فَبَايِعُوهُ فَبَايَعَ النّاسُ أَبَا بَكْرٍ بَيْعَةَ الْعَامّةِ بَعْدَ بَيْعَةِ السّقِيفَةِ ،فَتَكَلّمَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالّذِي هُوَ أَهْلُهُ ثُمّ قَالَ أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ فَإِنّي قَدْ وُلّيت عَلَيْكُمْ وَلَسْت بِخَيْرِكُمْ فَإِنْ أَحْسَنْت فَأَعِينُونِي ؛ وَإِنْ أَسَأْت فَقَوّمُونِي ؛ الصّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ وَالضّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيّ عِنْدِي حَتّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقّهُ إنْ شَاءَ اللّهُ وَالْقَوِيّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتّى آخُذَ الْحَقّ مِنْهُ إنْ شَاءَ اللّهُ لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللّهِ إلّا ضَرَبَهُمْ اللّهُ بِالذّلّ ،وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلّا عَمّهُمْ اللّهُ بِالْبَلَاءِ ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْت اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِذَا عَصَيْتُ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ . قُومُوا إلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمْ اللّهُ "[102]

يقول ابن حجر الهيتمي في كتابه الزواجر: "الكبيرة التسعون والحادية والثانية والتسعون بعد الثلاثمائة: ترك الجهاد عند تعينه؛ بأن دخل الحربيون دار الإسلام أو أخذوا مسلمًا وأمكن تخليصه منهم، وترك الناس الجهاد من أصله، وترك أهل الإقليم تحصين ثغورهم بحيث يخاف عليها من استيلاء الكفار بسبب ترك ذلك التحصين" [103] .

ولذلك كان ترك الجهاد وعدم الاستعداد له علامة على النفاق قال: (من مات و لم يغز و لم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق).

وقد عده الله عز وجل علامة على عدم الإيمان باليوم الآخر، أو ضعف اليقين به فقال تعالى: (لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا

---

[100] – برقم (٣٨٣٩) بإسناد حسن

[101] – برقم (٥٠٤٠)

[102] – سيرة ابن هشام – (ج ٢ / ص ٦٦٠) وهو صحيح

[103] – "الزواجر عن اقتراف الكبائر" للهيتمي: (١٦٣/٢).

يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) (التوبة:٤٤-٤٦).

ويمكن تفصيل المخاطر والعواقب السيئة لترك الجهاد فيما يلي:

١- ترك الجهاد كما مضى كبيرة من الكبائر؛ لأن فيه تعريض النفس لسخط الله عز وجل وعقابه في الدنيا والآخرة•

قال تعالى: (إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة:٣٩).

وقال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (التوبة:٢٦).

ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى الذين يهملون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بأنهم أقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله تعالى؛ فيقول: ﷺوأما الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه؛ فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها. وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلَّ أن ترى منهم من يَحْمَرُّ وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه. وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء'' [١٠٤].

إذًا فترك الجهاد في سبيل الله سبب للهلاك في الدنيا والآخرة؛ وهذا ما يفهم من قوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة:١٩٥).

قال ابن كثير: ''وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه - ومعنا أبو أيوب الأنصاري - فقال أناس: ألقى بيده إلى التهلكة• فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية؛ إنما نزلت فينا؛ صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجيًا فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله - وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد - وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم فنزل فينا: (وَأَنْفِقُوا

---

١٠٤ - ''عدة الصابرين'': (ص١٢١).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: من الآية ١٩٥). فكانت التهلكة: الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد"[105].

كما أن في ترك الجهاد إضعافًا لعقيدة الولاء والبراء؛ وذلك كما مر بنا سابقًا أن عقيدة الولاء والبراء تتناسب طردًا مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل؛ فكلما ركن العبد عن الجهاد ضعفت عقيدة الولاء والبراء وأصابها الوهن؛ وكفى بذلك خطرًا.

٢- بترك الجهاد يفشو الشرك والظلم ويعلو الكفر وأهله ويستعبد الناس بعضهم بعضًا، ولا يخفى ما في ذلك من الشقاء والتعاسة والفساد الكبير على الناس قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: من الآية٢٥١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: من الآية٤٠).

"فلولا أن الله يدفع الكافرين بجهاد المؤمنين، ويكبت الكفار ويذلهم لاعتلوا على المؤمنين، وإذا اعتلى الكافر جعل الناس يعبدونه هو من دون الله سبحانه وتعالى، وإذا عبد الناس من دون الله أحدًا فسدت حياتهم كلها؛ لأن الحياة لا تستقيم إلا إذا سارت على المنهج الذي رسمه الله؛ وهو المنهج الذي يحقق العبودية لله، ويحقق الأخلاق الرفيعة والفضائل الحميدة للبشر؛ فالذي رسم المنهج هو الله الذي خلق الحياة والأحياء العالم بما يصلحهم، أما إذا اعتلى كافر على الأرض وشرع للناس من عند نفسه فإنه لا يعلم جميع الأمور، وليس مبرأ من النقص والهوى، ولا يعلم ما الذي يصلح النفس البشرية فيتخبط خبط عشواء ويفسد الحياة كما هو الحال اليوم• ونظرة على الواقع الذي يعتلي فيه كافر كافية بتقرير هذه الحقيقة، ولولا تخاذل المسلمين عن الجهاد الذي أمر الله به لصلحت حياة الناس الذين يحكمون بشرع الله. لأجل هذا شرع رسول الله ﷺ الجهاد حتى مع الإمام الفاجر الذي لم يصل إلى درجة الكفر؛ لأن بقاء الإسلام وأهله يحكمهم فاسق خير لهم من أن يحكمهم كافر يحكم بغير ما أنزل الله؛ فإن الحكم بغير ما أنزل الله هو سبب فساد الأرض"[106].

٣- ترك الجهاد سبب للذل والهوان كما قال الرسول ﷺ: (لئن تركتم الجهاد وأخذتم بأذناب البقر وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا إلى ما كنتم عليه[107].

١٠٥ - "تفسير ابن كثير": (١/٢٢٨)، وصحح الحديث ابن حبان (١٦٦٧)، والحاكم: (٢/٢٧٥) ووافقه الذهبي.

١٠٦ - "أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية" د. العلياني: (ص٢٥٢).

١٠٧ - "الفتح الرباني" لترتيب مسند أحمد: (١٥/٤٤) وقال المحقق الساعاتي: سنده جيد.

وهذا أمر مشاهد وبارز في عصرنا اليوم؛ حيث تسلط الكفار على بلدان المسلمين، وعاش المسلمون في مؤخرة الركب؛ يأكل الكفار خيراتهم، ويتدخلون في شؤونهم، ويتسلطون عليهم بأنواع الذلة والمهانة؛ وما ذاك إلا بتعطيل أحكام الله وترك الاحتكام إلى شرعه، ومن ذلك تعطيل شعيرة الجهاد.

وإن الكفار لن يلتفتوا إلى حقوق المسلمين ويراجعوا حساباتهم ويكفوا شرهم بمجرد الإدانات والشجب والكلام الأجوف، وإنما الذي يخيفهم ويجعلهم يكفون عن المسلمين وديارهم هو الجهاد في سبيل الله تعالى الذي فيه كبت للكفر وأهله، وفيه إعزاز وكرامة للمسلمين.

وهذا أمر يشهد له التاريخ كما يشهد له الواقع؛ فما من مكان علت فيه راية الجهاد إلا وشعر المسلمون فيه بالعزة، وخاف أعداء الله الكفرة من تكبيرات المجاهدين وتضحياتهم[١٠٨].

"فإذا وجد إحساس لدى أمة ما بضرورة دفع الشر عن نفسها، وضحت في سبيل ذلك براحتها ومتعها وثروتها ومالها، وبشهواتها النفسية، وبروحها وبكل عزيز لديها؛ فإنها لا يمكن أبدًا أن تظل أمة ذليلة مستضعفة، ولا يمكن لأية قوة مهما كانت أن تنال من عزتها أو شرفها• ويجب أن تتصف الأمة الشريفة العزيزة بأن تخفض الرأس أمام الحق، وأن تفضل الموت عن أن تخفض الرأس أمام الباطل، وإذا لم تتوافر لها القوة لإعلاء كلمة الحق ومساعدة الحق فلا بد على أقل تقدير أن تعمل للحافظ على الحق بكل شدة وبكل صلابة، وهذه أقل درجات الشرف"[١٠٩].

ويقول سيد قطب رحمه الله: "والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض.. إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله؛ وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار! "[١١٠].

٤- وفي ترك الجهاد تفويت لمصالح عظيمة في الدنيا والآخرة؛ منها الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين والشهداء في الآخرة، ومنها الحياة العزيزة في الدنيا وإقامة شرع الله عز وجل، والشهادة والغنائم والتربية الإيمانية التي لا تحصل إلا في أجواء الجهاد ومراغمة أعداء الله تعالى.

٥- إلقاء العداوة والفرقة بين المسلمين: وهذا أمر مشاهد؛ فما من وقت تركت فيه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا انشغلت بنفسها ووجه المسلمون حرابهم إلى صدور إخوانهم وانشغل بعضهم ببعض.

---

[١٠٨] - انظر إلى ما ذاقه الهندوس على أيدي المجاهدين الكشميريين، وانظر كيف تحركت قوافل اليهود للهجرة من فلسطين بعد أن عرفوا أن القتل ليس من نصيب المسلمين وحدهم، وفي أفغانستان كيف دفعت الإمبراطورية الروسية ثمناً باهظاً لعدوانها على المسلمين تفككت على إثره وتحولت إلى أمة متسولة لا تكاد تجد قوتها، ثم عادت لتدفع ثمناً غالياً لعدوانها على المسلمين في الشيشان. وفي البوسنة لما ولغ الكفار في دماء المسلمين وفرحت ملل الكفر بذلك لم يكبتوا ويكسروا إلا بعد نزول المجاهدين إلى أرض البوسنة.

[١٠٩] - "شريعة الإسلام في الجهاد" للمودودي: (ص٣٤).

[١١٠] - "في ظلال القرآن" (١٩٤١/٤).

ونظرة أخرى إلى واقعنا المعاصر وما جرى فيه من تعطيل لشرع الله عز وجل - ومن ذلك الجهاد في سبيل الله - ترينا كيف حلَّ بالمسلمين من الفرقة والتحزب والاختلاف بين المسلمين حيث انشغل بعضهم ببعض. وما ذاك إلا من الانحراف عن المنهج الحق وتعطيل هذه الشعيرة العظيمة وما ترتب عليها من تسلط الكفار على بلاد المسلمين وتأجيجهم نار الخلاف والفرقة والتحريش بين المسلمين، وهذه سنة الله عز وجل في كل من أعرض عن شرعه سبحانه ونسي حظًا مما ذكر به قال تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (المائدة:١٤).

---

١٤. الهزيمةُ النفسيةُ

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) } [المائدة/٢٠-٢٣]

وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لأهْلِ الكِتَابِ ، وَأَنْتَ تُبَلِّغُهُمْ دَعْوَةَ رَبِّهِم ، مَا قَالَهُ مُوسَى لِقَوْمِهِ ، وَمَا ذَكَّرَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْعُمِ اللهِ وَأَفْضَالِهِ عَلَيهِمْ ، بِمَا جَمَعَهُ لَهُمْ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الهُدَى ، فَقَدْ جَعَلَ الأَنْبِيَاءَ فِيهِمْ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيهِمْ نَبِيٌّ يَدْعُوهُم إلى اللهِ ، وَيُحَذِّرُهُمْ نِقَمَهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُمْ مُلُوكاً (بِمَعْنَى أَنَّ وَاحِدَهُمْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ - وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ الرَّجُلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ وَخَادِمٌ وَدَارٌ سُمِّيَ مَلِكاً) . وَأَنَّهُ تَعَالَى آتَاهُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ، وَظَلَّلَهُمْ بِالغَمَامِ فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ .

ثُمَّ أخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أنَّ مُوسَى قَالَ لِقَوْمِهِ مُحَرِّضاً إِيَّاهُمْ عَلَى الجِهَادِ لِلاسْتِيلاءِ عَلَى الأرْضِ المُقَدَّسَةِ (أي المُطَّهَرَةِ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ لِمَا بَعَثَ اللهُ فِيها مِنَ الأَنْبِيَاءِ الدُّعَاةِ إلى التَّوحِيدِ) ، فَقَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمِ سِيرُوا إلى الأرْضِ المُقَدَّسَةِ التِي وَعَدَ اللهُ أبَاكُمْ إبْرَاهِيمَ بأنْ يُسْكِنَ فِيها مَنْ آمَنَ مِنْ نَسْلِهِ ، وَلاَ تَرْجِعُوا - بَعْدَ الذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالهُدَى - إِلَى الوَثَنِيَّةِ وَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ وَالبَغْي وَاتِّبَاعِ الأَهْوَاءِ ، فَإِنَّ فِي هذا الرُّجُوعِ خُسْراناً لَكُمْ .

فَاعْتَذَرُوا عَنْ دُخُولِ البَلَدِ بِأَنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ ذَوِي خِلَقٍ هَائِلَةٍ ، وَأَجْسَامٍ ضَخْمَةٍ ، وَقُوى شَدِيدَةٍ ، وَأَنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى قِتَالِهِمْ ، وَلاَ يُمْكِنُهُمُ الدُّخُولُ إِلَيْهَا ، مَا دَامَ الجَبَّارُونَ فِيهَا ، فَإِنْ خَرَجُوا مِنْهَا ، دَخَلَها قَوْمُ مُوْسَى ، وَإِلاَّ فَإِنَّهُمْ لاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِ الجَبَّارِينَ .

فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ إِطَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَمُتَابَعَةِ مُوسَى ، حَرَّضَهُمْ رَجُلاَنِ ، للهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ اللهُ وَيَخْشَى عِقَابَهُ ، فَقَالاَ لِقَوْمِهِمَا : إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ ، وَتَبِعْتُمْ أَمْرَهُ ، وَوَافَقْتُمْ رَسُولَهُ ، نَصَرَكُمْ رَبُّكُمْ عَلى أَعْدَائِكُمْ ، وَأَيَّدَكُمْ وَأَظْفَرَكُمْ بِهِمْ ، وَدَخَلْتُمُ البَلَدَ الذِي كَتَبَ اللهُ لَكُمُ السُّكْنَى فِيها ، فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ هذا القَوْلُ شَيئاً .

وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَصَرُّوا عَلَى النُّكُولِ عَنِ الجِهَادِ ، وَعَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِمْ ، فَقَالوُا لَهُ : إِنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا البَلَدَ مَا دَامَ الجَبَّارُونَ مُقِيمِينَ فِيهَا ، فَإِذا أَصَرَّ مُوسَى عَلَى الجِهَادِ فَلْيَذْهَبْ هُوَ وَرَبُّهُ فَلْيُقَاتِلاَ الجَبَّارِينَ ، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ نَتِيجَةَ المَعْرَكَةِ قَاعِدِينَ ، حَيْثُ هُمْ يُقِيمُونَ .

فَلَمَّا نَكَلُوا عَنِ القِتَالِ ، غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى ، وَاتَّجَهَ إِلى اللهِ بالدُّعَاءِ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ لَيْسَ بَيْنَ هَؤُلاءِ مَنْ يُطِيعُنِي وَيُجِيبُنِي إِلى تَنْفِيذِ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي هَارُونَ ، فَاقْضِ يَا رَبِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَؤُلاءِ القَوْمِ ، الخَارِجِينَ عَلَى طَاعَتِكَ (الفَاسِقِينَ) ، بِقَضَاءٍ تَقْضِيهِ بَيْنَنَا ، فَتَحْكُمَ لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّ ، وَتَحْكُمَ لَهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ

(وَقِيلَ إِنَّ المَعْنَى هُوَ : إِنَّكَ إِذَا أَخَذْتَهُمْ بِالعِقَابِ عَلَى فِسْقِهِمْ ، وَخُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَتِكِ ، فَلا تُعَاقِبْنا مَعَهُمْ) .

فَلَمَّا دَعَا مُوسَى عَلَيهِم ، حِينَ نَكَلُوا عَنِ الجِهَادِ ، قَضَى اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ حَرَّمَ عَلَيهِمْ دُخُولَها أربعينَ سَنَةً ، يَتِيهُونَ خِلاَلَهَا فِي الأَرْضِ (أَيْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ) ، وَيَبْقَوْنَ مُتَحَيِّرِينَ مُتَرَدِّدِينَ ، لاَ يَدْرُونَ مَصِيرَهُمْ ، وَلاَ يَهْتَدُونَ إِلى الخُرُوجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، خِلاَلَ المُدَّةِ التِي قَضَاهَا . اللهُ عَلَيْهِمْ .وَخِلاَلَ وُجُودِهِمْ فِي صَحْرَاءِ سِينَاءَ تُوُفِّيَ مُوسَى وَهَارُونُ ، عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، وَتَوَلَّى قِيَادَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ (وَهُوَ مِنْ نَسْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ) وَجَعَلَهُ اللهُ نَبِيّاً فِيهِمْ ، وَتُوُفِّيَ أَكْثَرُ الجِيلِ القَدِيمِ ، وَنَشَأَ فِي الصَّحْرَاءِ وَالحُرِّيَّةِ جِيلٌ جَدِيدٌ . فَلَمَّا انْقَضَتِ المُدَّةُ التِي قَضَاهَا اللهُ عَلَيهِمْ ، خَرَجَ بِهِمْ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ، وَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلى إِحْدَى المُدُنِ فَحَاصَرَهَا وَفَتَحَها .ثُمَّ سَلَّى اللهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ لَهُ : لاَ تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا قَضَيْتُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ .وَهَذِهِ القِصَّةُ تَتَضَمَّنُ تَقْرِيعاً لِلْيَهُودِ ، وَبَيَاناً لِفَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ، ونكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل . . ذلك لحكمة متشعبة الجوانب .

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول . هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معاً . وهم

الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة . وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة . وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة . فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة ، لتعرف من هم أعداؤها . ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله؛ كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله . فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً؛ ووسائلهم كلها مكشوفة .

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم؛ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف ، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم . . فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها - بتاريخ القوم ، وتقلبات هذا التاريخ؛ وتعرف مزالق الطريق ، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم ، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون ولتتقي - بصفة خاصة - مزالق الطريق ، ومداخل الشيطان ، وبوادر الانحراف ، على هدى التجارب الأولى .

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل . وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها؛ وتنحرف أجيال منها؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة ، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة ، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها ، وينفض عنها الركام ، لجدته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة . فأما القلوب التي نوديت من قبل ، فالنداء الثاني لا تكون له جدته ، ولا تكون له هزته؛ ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته ، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف ، وإلى الصبر الطويل!

وجوانب شتى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل ، وعرضها مفصلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين؛ القوامة على البشر أجمعين . . جوانب شتى لا نملك هنا المضي معها أكثر من هذه الإشارات السريعة . . لنعود إلى هذه الحلقة ، في هذا الدرس ، في هذه السورة :{ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا

خاسرين } . .وإننا لنلمح في كلمات موسى – عليه السلام – إشفاقه من تردد القـــوم ونكوصـــهم على الأعقاب . فلقد جربهم من قبل في « مواطن كثيرة » في خط سير الرحلة الطويـــل . . جـــربهم وقد أخرجهم من أرض مصر؛ وحررهم من الذل والهوان ، باسم الله وبسلطان الله الذي فـــرق لهـــم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده . فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم . فيقولون { يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة } . . وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه حتى يتخذ السامري من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهبا له خوار؛ ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته! . . وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر – أرض الذل بالنسبة لهم – فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا مـــن طعـــام وحياة في سبيل العزة والخلاص ، والهدف الأسمى ، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون! .

. وجربهم في قصة البقرة التي أمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا في الطاعة والتنفيذ . . { فذبحوها ومـــا كادوا يفعلون } ! وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهـــده . فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد مع ربهم – بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايـــا – و لم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم ، { وظنوا أنه واقع بهم } لقد جـــربهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل . . ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا . الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته . .لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخـــيرة ، فيحشد فيها ألمع الذكريات؛ وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات :{ يـــا قـــوم اذكروا نعمة الله عليكم . إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاســـرين } . نعمة الله . ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً . وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ . والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله . فهي إذن يقين . . وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده . وهذا وعده الذي هم عليه قـــادمون . . والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين . .ولكن إسرائيل . ، هي إسرائيل!!! الجبن . والتمحل . والنكوص على الأعقاب . ونقض الميثاق :{ قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين؛ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون } .إن جبلة يهود لتبدو هنـــا علـــى حقيقتـــها ، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل . ذلك أنهم أمام الخطر؛ فلا بقية إذن مـــن تجمـــل؛ ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمحل . إن الخطر ماثل قريب؛ ومن ثم لا يعصمهم منه حتى

وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى!

{ إن فيها قوماً جبارين . . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . . فإن يخرجوا منها فإنا داخلون } .

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود! وهي فارغة القلوب من الإيمان!

{ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين } .هنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه .. فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة؛ وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس . فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين : مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس . . والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده؛ ولا يخاف شيئاً سواه . .{ ادخلوا عليهم الباب . فإذا دخلتموه فإنكم غالبون } . .قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب . . أقدموا واقتحموا . فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم . .{ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين } . .فعلى الله - وحده - يتوكل المؤمن . وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه . . ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبني إسرائيل؟!

{ قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون} وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون؛ ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين؛ بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان . يدفع الجبان إلى الواجب فيجبن . فيحرج بأنه ناكل عن الواجب ، فيسب هذا الواجب؛ ويتوقح على دعوته التي تكلفه ما لا يريد!

{ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون } . .هكذا في وقاحة العاجز ، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان!

{ فاذهب أنت وربك } ! . .فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال!

{ إنا ها هنا قاعدون } . .لا نريد ملكاً ، ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد . . ودونها لقاء الجبارين!

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام . نهاية الجهد الجهيد . والسفر الطويل . واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل!

نعم ها هي ذي نهاية المطاف . . نكوصاً عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها . ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق . . فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟

{ قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي . فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين } . .دعوة فيها الألم . وفيها الالتجاء . وفيها الاستسلام . وفيها - بعد ذلك - المفاصلة والحسم والتصميم!

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . . ولكن موسى في ضعف الإنسان المخذول . وفي إيمان النبي الكليم . وفي عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجهاً إلا لله . يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين . فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق . . ما يربطه بهم نسب . وما يربطه بهم تاريخ . وما يربطه بهم جهد سابق . إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله ، وهذا الميثاق مع الله .وقد فصلوه . فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق . وما عاد يربطه بهم رباط . . إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون . . إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون . .هذا هو أدب النبي . وهذه هي خطة المؤمن . وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون . . لا جنس . لا نسب . لا قوم . لا لغة . لا تاريخ . لا وشيجة من كل وشائج الأرض؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة؛ وإذا اختلف المنهج والطريق . .واستجاب الله لنبيه . وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين .{ قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض . فلا تأس على القوم الفاسقين } .وهكذا أسلمهم الله - وهم على أبواب الأرض المقدسة - للتيه؛ وحرم عليهم الأرض التي كتبها لهم . . والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة؛ وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل . جيل يعتبر بالدرس ، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها صلب العود . . جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب .ويتركهم السياق هنا - في التيه - لا يزيد على ذلك . . وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفني ، على طريقة القرآن في التعبير .ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - مما قصه الله عليهم من القصص - فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر ، قالوا لنبيهم - ﷺ - إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم . { فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون } لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون . .وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة؛ وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل

---

١٥. ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤبداً:

وهذه المعاصي تؤثر تأثيراً مباشراً في هزيمة الأمة أمام أعدائها ،فعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– يَقُولُ « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ » رواه أبو داود[111] .

(إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ) قَالَ الْجَوْهَرِيّ : الْعِين بِالْكَسْرِ السَّلَف .وَقَالَ فِي الْقَامُوس : وَعَيَّنَ أَخَذَ بِالْعِينَة بِالْكَسْرِ أَيْ السَّلَف أَوْ أَعْطَى بِهَا . قَالَ وَالتَّاجِر بَاعَ سِلْعَته بِثَمَنٍ إِلَى أَجَل ثُمَّ اِشْتَرَاهَا مِنْهُ بِأَقَلّ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَن اِنْتَهَى . قَالَ الرَّافِعِيّ : وَبَيْع الْعِينَة هُوَ أَنْ يَبِيع شَيْئًا مِنْ غَيْره بِثَمَنٍ مُؤَجَّل وَيُسَلِّمهُ إِلَى الْمُشْتَرِي ثُمَّ يَشْتَرِيه قَبْل قَبْض الثَّمَن بِثَمَنٍ نَقْد أَقَلّ مِنْ ذَلِكَ الْقَدْر اِنْتَهَى .وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى عَدَم جَوَاز بَيْع الْعِينَة مَالِك وَأَبُو حَنِيفَة وَأَحْمَد ، وَجَوَّزَ ذَلِكَ الشَّافِعِيّ وَأَصْحَابه . كَذَا فِي النَّيْل . وَقَدْ حَقَّقَ الْإِمَام اِبْن الْقَيِّم عَدَم جَوَاز الْعِينَة وَنَقَلَ مَعْنَى كَلَامه الْعَلَّامَة الشَّوْكَانِيُّ فِي النَّيْل .(وَأَخَذْتُمْ أَذْنَاب الْبَقَر وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ) حُمِلَ هَذَا عَلَى الِاشْتِغَال بِالزَّرْعِ فِي زَمَن يَتَعَيَّن فِيهِ الْجِهَاد (وَتَرَكْتُمْ الْجِهَاد) أَيْ الْمُتَعَيَّن فِعْله (سَلَّطَ اللَّه عَلَيْكُمْ ذُلًّا) بِضَمِّ الذَّال الْمُعْجَمَة وَكَسْرهَا أَيْ صَغَارًا وَمَسْكَنَة وَمِنْ أَنْوَاع الذُّلّ الْخَرَاج الَّذِي يُسَلِّمُونَهُ كُلّ سَنَة لِمُلَّاكِ الْأَرْض .وَسَبَب هَذَا الذُّلّ وَاَللَّه أَعْلَم أَنَّهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْجِهَاد فِي سَبِيل اللَّه الَّذِي فِيهِ عِزّ الْإِسْلَام وَإِظْهَاره عَلَى كُلّ دِين عَامَلَهُمْ اللَّه بِنَقِيضِهِ وَهُوَ إِنْزَال الذِّلَّة بِهِمْ فَصَارُوا يَمْشُونَ خَلْف أَذْنَاب الْبَقَر بَعْد أَنْ كَانُوا يَرْكَبُونَ عَلَى ظُهُور الْخَيْل الَّتِي هِيَ أَعَزّ مَكَان . قَالَهُ فِي النَّيْل .[112]

والعينة نوع من أنواع الربا والربا قد انتشر الآن في بلدان المسلمين فحقت عليهم الذلة، [وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ] يعني: الإخلاد إلى الدنيا والالتفات إليها.

[وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ] من أسباب ضرب الذلة، [سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا]، ليس الذل على اليهود فقط، بل الذل يضرب أيضاً على هذه الأمة إذا عصت أمر ربها، [سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ] لا يرفعه إلى متى؟ ليس إلى أن يصبح عندكم مليون جندي، ولا أن يصبح عندكم ألف طائرة، ولا أن يصبح عندكم خمسة آلاف دبابة، لا.. وإنما [حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ] فإذا رجعتم إلى دينكم يرفع الله عنكم الذلة، بهذا الشرط الوحيد، وهو أن ترجعوا إلى دينكم كله من أوله إلى آخره، لا تقولوا: هذه قشور وهذا لباب، ولا تقولوا: هذه سنن وهذه وهذه ، ولا تقولوا: هذه تفرق المسلمين إذا بحثت أمور العقائد بين السنة والروافض، .. بل تأخذ هذا الدين كاملاً كما جاء به محمد ﷺ من عند ربه، تأخذ به كاملاً نقياً صافياً.. فعند ذلك يمنح لك النصر، ويمنح لك الظفر على العدو .

---

١٦. التنازعُ والخصامُ على الدنيا والعلو في الأرض:

[111] – برقم (٣٤٦٤) بإسناد صحيح لغيره

[112]– عون المعبود – (ج ٧ / ص ٤٥٣)

قال تعالى في سورة الأنفال :﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {٤٦} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {٤٧} وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {٤٨} ﴾

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بطَاعَتِهِ تَعَالَى فِي الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَبالإِخْلاَصِ لَهُ ، وَببَذْلِ الجُهْدِ فِي القِتَالِ ، وَبذِكْرِ اللهِ كَثِيراً لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ وَتَهْدَأَ ، وَيُزَايلَهَا الخَوْفُ وَالتَّرَدُّدُ وَالقَلَقُ ، كَمَا أمَرَهُمْ بطَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ، وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِ ، إنْجَاحاً لِلْخُطَّةِ العَامَّةِ لِلْجَيْشِ فِي المَعْرَكَةِ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بألاَّ يَتَنَازَعُوا ، وَلاَ يَخْتَلِفُوا ، لأنَّ فِي التَّنَازُعِ وَالاخْتِلاَفِ الفَشَلَ وَالخُذْلاَنَ وَضَيَاعَ مَا حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي المَعْرَكَةِ { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } . ثُمَّ يُكَرِّرُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بالتِزَامِ الصَّبْرِ ، لأنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَعَلَيْكُمْ ، أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ ، أَنْ تَمْتَثِلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ ، وَالتِزَامِ أَوَامِرِهِمَا ، وَلاَ تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمْ الْمُشْرِكِينَ الذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطَراً بمَا أوتُوا مِنَ النِّعْمَةِ ، وَمُرَاءَاةً لِلنَّاسِ لِيُعْجَبُوا بهِمْ ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بالغِنَى وَالقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ . . وَهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بخُرُوجِهِم الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ ، وَالحَدَّ مِنْ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ ، وَاللهُ مُحِيطٌ بأَعْمَالِهِمْ ، وَلاَ يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيءٌ ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ إذْ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ أَعْمَالَهُمْ بوَسْوَسَتِهِ ، وَإِذْ حَسَّنَ فِي أَعْيُنِهِمْ مَا جَاؤُوا لَهُ ، وَمَا هَمُّوا بِهِ ، وَأَطْمَعَهُمْ بأَنَّهُمْ مَنْصُورُونَ ، وَأَنَّهُمْ لاَ غَالِبَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ ، وَطَمْأَنَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْتَوْا فِي دِيَارِهِمْ أَثْنَاءَ غَيْبَتِهِمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ ، لأَنَّهُ جَارٌ لَهُمْ وَمُجِيرٌ ، فَلَمَّا التَقَى الْمُسْلِمُونَ بالْمُشْرِكِينَ ، وَرَأَى الشَّيْطَانُ مَلاَئِكَةَ اللهِ يَحْمُونَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَّى هَارِباً { نَكَصَ على عَقِبَيْهِ } ، وَقَالَ لأَوْلِيَائِهِ مِنَ الكُفَّارِ : إِنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ يَرَوْنَ ، إِنَّهَ يَرَى المَلاَئِكَةَ يَنْصُرُونَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ عَظَمَةِ اللهِ وَقُوَّتِهِ وَسَطْوَتِهِ ، مَا لاَ يَعْلَمُهُ أَوْلِيَاؤُهُ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَخَافُ اللهَ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهَ تَعَالَى شَدِيدُ العِقَابِ ..

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي: أنك عندما تقرأ في القرآن في أعقاب ذكر غزوات النبي ﷺ؛ لا تجد أبداً أن الله يمدح المؤمنين، ويشيد ببطولاتهم، إنما يبين لهم أن هذا النصر الذي تحقق إنما هو فضل منه:{ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[١٢٦] }[سورة آل عمران]. { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[١٠] }[سورة الأنفال].

بل إنك تجد أن الله ينبه المؤمنين إلى أخطاء وقعت منهم، وهم منتصرون، فيقول لهم يوم بدر:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...[٦٧] }[سورة الأنفال] .{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الْأَنْفَال قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...} ثم قال لهم بعد:{... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[١]}[سورة الأنفال] . كأن هذا إشارة إلى أن اختلافكم في قسمة الغنائم والأنفال ليس بجيد، فاحذروا أن تخالفوا أمر الله وأمر رسوله.

فإذن: ما قال لهم لقد أحسنتم وفعلتم وفعلتم.. ما أشاد بهذه البطولات التي فعلها الصحابة يوم بدر، بل نبههم على أخطاء، وذكرهم بأن لا يعتمدوا على أنفسهم، وأن لا يعجبوا بأنفسهم، إنما النصر من عند الرب وحده لا شريك له. كذلك في أحد عندما تقرأ قصة أحد تجد أن الله نبههم على مكمن الخطأ وسبب ما حاق بهم وما حصل لهم . فالله سبحانه ينبهنا على أن المسلم دائماً يجب أن يكون خاشعاً لله، معتمداً عليه، مستنصراً به، مخلصاً له، يعلم أن النصر من عنده ليس بعدد ولا بعدة .

وهذا الأمر بالإضافة إلى الأمر السابق وهو المعصية كان من أعظم أسباب سقوط الأندلس.

١٧. أن يكون بأسنا بيننا :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ أَنَّهُ قَالَ جَاءَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِى بَنِى مُعَاوِيَةَ - وَهِىَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الأَنْصَارِ - فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مِنْ مَسْجِدِكُمْ هَذَا فَقُلْتُ لَهُ نَعَمْ وَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْهُ فَقَالَ هَلْ تَدْرِى مَا الثَّلاَثُ الَّتِى دَعَا بِهِنَّ فِيهِ فَقُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَأَخْبِرْنِى بِهِنَّ. فَقُلْتُ دَعَا بِأَنْ لاَ يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ وَلاَ يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ فَأُعْطِيَهُمَا وَدَعَا بِأَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمُنِعَهَا. قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَلَنْ يَزَالَ الْهَرْجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. رواه مالك في الموطأ[١١٣]

وفي صحيح مسلم (٧٤٤٢) عن عَامِرَ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِى مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ -ﷺ- « سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِى ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِى وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ

[١١٣]- ٢١٧/١ (٥٠٧) بإسناد صحيح على شرطهما

٤٥٢ - (ش) : سُؤَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَيْنَ صَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حِرْصًا مِنْهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا دَعَا بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِبَارِ لِلْمَسْئُولِ عَنْ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ وَإِلَّا أَعْلَمَهُ ، وَقَوْلُهُ هَلْ تَدْرِي مَا الثَّلَاثُ الَّتِي دَعَا بِهِنَّ يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا ، وَقَوْلُهُ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ وَقَوْلُهُ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُهْلِكُهُمْ بِالسِّنِينَ يُرِيدُ الشَّدَائِدَ والمحل يُقَالُ عَامُ سِنَةٍ أَيْ عَامُ جَدْبٍ وَمَجَاعَةٍ ، وَقَوْلُهُ وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمُنِعَهَا يَعْنِي أَنْ لَا يَجْعَلَ الْحَرْبَ وَالْهَرْجَ بَيْنَهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ وَقَوْلُهُ فَلَنْ يَزَالَ الْهَرْجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَعْنِي الْحَرْبَ وَالْفِتَنَ وَالِاخْتِلَافَ . المنتقى - شرح الموطأ - (ج ٢ / ص ٤)

أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ».

وفي مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٣٥٢)عَنْ ثَوْبَانَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيت الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ ، قَالَ حَمَّادٌ : وَسَمِعْته مَرَّةً وَاحِدَةً يَقُولُ : فَأَوَّلْتهَا مُلْكَ فَارِسٍ وَالرُّومِ وَإِنِّي سَأَلْت رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ ، وَلاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، إنِّي إذَا قَضَيْت قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ ، وَإِنِّي أُعْطِيك لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ ، وَلاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوْ أَجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا ، أَوَ قَالَ : مِنْ أَقْطَارِهَا.(صحيح)

وفي المعجم الكبير للطبراني - (ج ١٥ / ص ٥٥)(١٦٦٩٩) عَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺصَلاةً فَأَطَالَ قِيَامَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، فَلَمَّا قَضَى الصَّلاةَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْتَ صَلاةً أَطَلْتَ قِيَامَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا؟ قَالَ:"إِنَّهَا صَلاةُ رَغِبٍ وَرَهَبٍ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاثًا فَأَعْطَانِيَ اثْنَتَيْنِ، وَزَوَى عَنِّي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَجْتَاحَهُمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ، فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا"(صحيح)

قلت : لقد أصبحنا كبني إسرائيل الذين قال الله تعالى فيهم كما سورة الحشر:﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ {١٤} ﴾

وقال تعالى :{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) [الأنعام/٦٥] }

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ ، الذِينَ يُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ سِوَاهُ ، وَلاَ يَشْكُرُونَهُ عَلَى النِّعَمِ الوَفِيرَةِ التِي أَسْدَاهَا إِلَيْهِمْ : إِنَّ اللهَ هُوَ القَادِرُ عَلَى أنْ يَصُبَّ عَلَيْكُمُ العَذَابَ مِنْ فَوْقِكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ، أَوْ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمُ العَذَابَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، فَيَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ، أَوْ يُزَلْزِلَهَا تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ ، أَوْ يَخْلِطَ الأَمْرَ عَلَيْكُمْ مِنَ الالْتِبَاسِ ، وَيَجْعَلَكُمْ مُلْتَبِسِينَ شِيَعاً وَفِرَقاً ، مُتَخَالِفِينَ فِي الأَهْوَاءِ وَالمَشَارِبِ ، وَيُسَلِّطَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالعَذَابِ وَالقَتْلِ . انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ نُبَيِّنُ الآيَاتِ وَنُوَضِّحُها لَعَلَّ هَؤُلاَءِ يَفْهَمُونَهَا وَيَتَدَبَّرُونَهَا .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّ الْمُرَادَ بقَوْلِهِ تَعَالَى : (مِنْ فَوْقِكُمْ) أَيْ مِنْ حُكَّامِكُمْ وَأُمَرَائِكُمْ ، وَإنَّ الْمُـــرَادَ بِقَوْلِهِ : (مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) أَيْ مِنْ عَبِيدِكُمْ وَسِفْلَتِكُمْ)

وعَنْ جَابِرٍ – رضى الله عنه – قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَـــثَ عَلَـــيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » . قَالَ (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قَالَ رَسُولُ اللَّـــهِ – ﷺ – « هَـــذَا أَهْوَنُ » . أَوْ « هَذَا أَيْسَرُ » صحيح البخاري[١١٤] .

١٨. الغفلةُ عن أسلحتنا وأمتعتنا :

قال تعالى : { وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَـــإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَـــكَ وَلْيَأْخُـــذُواْ حِـــذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَـــدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} (١٠٢) سورة النساء

يُبيِّنُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ النَّصَّ الْمُجْمَلَ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ فِي مَشْرُوعِيَّةِ قَصْرِ الصَّلاَةِ ، وَيُبَيِّنُ هُنَـــا كَيْفِيَّةَ أَدَاءِ صَلاةِ الخَوْفِ .

وَالأَئِمَّةُ مُتَّفِقُونَ عَلى أنَّ صَلاَةَ الخَوْفِ مَنْسُوخَةٌ مِنْ أَسْبَابِ تَأخِيرِ الصَّلاَةِ . وَفِي صَلاةِ الخَـــوْفِ ، إذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي الجَمَاعَةِ وَأَمَّ الْمُسْلِمِينَ فَي الصَّلاَةِ ، تَأْتِي طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَتَأتَمُّ بالرَّسُولِ وَهُمْ بأَسْلِحَتِهِمْ ، وَكَامِلِ عُدَّتِهِمْ ، وَتُصَلِّي مَعَهُ الرَّكْعَةَ الأُولَى مِنْ صَلاَتِهِ ، وَيَسْتَمِرُّ النَّبيُّ وَاقِفاً يُصَـــلِّي ، وَتُتِمُّ الطَائِفَةُ الْمُؤْتَمَّةُ بِهِ صَلاَتَهَا بأَدَاءِ الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ لِنَفْسِهَا ، وَتُسَلِّمُ وَتَقُومُ إلى مَكَانِ الحِرَاسَةِ ، وَتَأْتِي الطَّائِفَةُ الثَّانيَةُ التِي لَمْ تُصَلِّ ، وَالتِي كَانَتْ فِي مَكَانِ الحِرَاسَةِ ، فَتَأتَمُّ بالنَّبيِّ ، وَتُصَلِّي مَعَـــهُ الرَّكْعَـــةَ الثَّانِيَةَ مِنْ صَلاَتِهِ ، ثُمَّ تُتِمُّ الرَّكْعَةَ الثَّانيَةَ مِنْ صَلاَتِهَا لِنَفْسِهَا وَتُسَلِّمُ . وَيُحَذِّرُ اللهُ الْمُؤْمِنينَ مِـــنْ غَـــدْرِ الكُفَّارِ ، وَيُنَبِّهُ الْمُسْلِمِينَ لِيَأخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَلِيَكُونُوا عَلَى أُهْبَةِ الاسْتِعْدَادِ لِمُقَارَعَةِ الأَعْدَاءِ إذَا أَرَادُوا الغَدْرَ بالْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ فِي صَلاَتِهِمْ ، وَاغْتِنَامِ الفُرْصَةِ فِيهِمْ ، وَهُمْ مُنْشَغِلُونَ بهَا .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى إنَّهُ لا حَرَجَ إنْ كَانَ هُنَاكَ مَطَرٌ ، أوْ كَانَ بالْمُسْلِمِينَ مَرَضٌ أنْ يَضَـــعُوا أسْـــلِحَتَهُمْ ، وَلَكِنْ عَلَيهِمْ أَنْ يَحْذَرُوا وَيَحْتَاطُوا لِتَكُونَ أَسْلِحَتُهُمْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ لأَخْذِهَا إذَا احْتَاجُوا إلى اسْـــتِعْمَالِهَا عَلَى عَجَلٍ . وَيُذَكِّرُ اللهُ الْمُؤْمِنينَ بأَنَّهُ وَلِيُّهُمْ ، وَأنَّهُ نَاصِرُهُمْ وَمُخْزِي الكَافِرِينَ ، وَأنَّهُ أَعَدَّ لِلْكَـــافِرِينَ

[١١٤]- برقم (٤٦٢٨)

عَذَابا مُهيناً يَوْمَ القِيَامَةِ ..والمعنى : كونوا دائماً – أيها المؤمنون – فى أقصى درجات التنبه والتيقظ والحذر ، فإن أعداءكم الكافرين يودون ويحبون غفلتكم وعدم انتباهكم عن أسلحتكم وأمتعتكم التى تستعملونها فى قتالكم لهم ، وفى هذه الحالة يحملون عليكم حملة واحدة قوية شديدة ليقتلوا منكم من يستطيعون قتله . فعليكم – أيها المؤمنون – أن تجمعوا بين الصلاة والجهاد جمعا مناسبا حكيما بحيث لا يشغلكم أحد الأمرين عن الآخر أو عن حسن الاستعداد لمجابهة أعدائكم الذين يتربصون بكم الدوائر .

---

١٩. تولي الكفار والثقة بوعودهم :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (٤) سورة الممتحنة

هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَكَانَ حَاطِبٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ، هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ ، وَتَرَكَ فِيهَا مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ مِنْ قُرَيشٍ . فَلَمَا أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ فَتحَ مَكَّةَ دَعَا رَبَّهُ اللهَ أَنْ يُعْمِيَ الأَخْبَارَ عَنْ قُرَيشٍ ، حَتَّى يَأْخُذَهُمْ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ ، فَكَتَبَ حَاطِبٌ كِتَاباً إِلَى قُرَيشٍ يُعَرِّفُهُمْ بِعَزْمِ الرَّسُول ﷺ عَلَى غَزْوِهِمْ ، وَأَرْسَلَهُ مَعَ امْرَأَةٍ لِيَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَداً . وَأَعْلَمَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بالكِتَابِ ، فَأَرْسَلَ الرَّسُولُ عَلِيّاً وَالزُّبَيْرَ ، وَأَمَرَهُمَا بالذَّهَابِ إِلَى رَوْضَةِ خَاخٍ لِيَأْتِيَاهُ بالكِتَابِ مِنَ المَرْأَةِ ، فَلَمَّا جَاءَاهَا طَلَبا مِنْهَا الكِتَابَ فأَنْكَرَتْهُ ، فَهَدَّدَاهَا بِتَجْرِيدِهَا مِنْ ثِيَابِهَا لِتَفْتِيشِهَا ، فَأَخْرَجَتِ الكِتَابَ مِنْ ضَفَائِرِ شَعْرِهَا .

وَسَأَلَ الرَّسُولُ حَاطِباً عَنِ الكِتَابِ فَاعْتَرَفَ وَقَالَ لِلرَّسُولِ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كُفْراً ، وَلاَ ارْتِدَاداً عَنِ الإِسْلاَمِ ، وإِنَّمَا لِيَتَّخِذَ بِهِ يَداً عِنْدَ قُرَيشٍ يَحْمِي بهَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَمَالَهُ . فَقَالَ الرَّسُولُ للصَّحَابَةِ إِنَّهُ صَدَقَكُمْ . وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ . فَقَالَ الرَّسُولُ : إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ .

وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَتَّخِذَوا الكُفَّارَ أَعْوانًا وَأَنْصَاراً لَهُمْ يُبَلِّغُونَهُمْ أَخْبَارَ الرَّسُولِ التِي لاَ يَنْبَغِي لأَعْدَائِهِ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَيهَا ، وَقَدْ كَفَرَ هَؤُلاَءِ الكُفَّارُ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِكِتَابِهِ ، فَكَيْفَ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا تَتَّخِذُونَهُمْ أَنْصَاراً تُسِرُّونَ إِليهِمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيُضُرُّ الرَّسُولَ والمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَينِ أَظْهَرِهِمْ كُرْهاً بِالتَّوْحِيدِ ، وَإِخْلاَصِ العِبَادَةِ للهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذَنْبٌ يُؤَاخَذُونَ عَلَيهِ غَيْرُ ذَلِكَ .فَإِنْ كُنْتُمْ ، يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، قَدْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، فَلاَ تُوَلُوا أَعْدَائِي ، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذِهِ الْمُوالاَةَ ، وَيُفْشِ سِرَّ الرَّسُولِ لأَعْدَائِهِ ، فَقَدْ حَادَ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ المُوصِلَةِ إِلَى الجَنَّةِ .إِنْ ظَفِرَ بِكُمْ هَؤُلاَءِ الكَافِرُونَ ، الذِينَ تُلْقَونَ إِليهِم بِالمَوَدَّةِ ، يُظْهِرُوا لَكُمْ عَدَاوَتَهُمْ ، وَيَمُدُّوا إِليكُمْ أَيدِيَهُمْ وأَلْسِنَتَهُمْ بِمَا يَسُوؤُكُمْ : يُقَاتِلُونَكُمْ وَيَشْتَمُونَكُمْ وَيَتَمَنَّونَ لَو تَكفرُونَ بِرَبِّكُمْ فَتَكُونُوا عَلَى مِثْلِ دِينِهِمْ ، فَكَيْفَ تُسِرُّونَ إِلَى هَؤُلاَءِ بِالمَوَدَّةِ وَهَذِهِ هِيَ حَالُهُمْ؟ . .وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ الذِي اعْتَذَرَ بِرَغْبَتِهِ فِي المُحَافَظَةِ عَلَى أَوْلاَدِهِ وَأَمْوَالِهِ فِي مَكَّةَ ، بِأَنَّ الأَقَارِبَ وَالأَوْلاَدَ ، الذِينَ تُوَالُونَ الكُفَّارَ مِنْ أَجْلِهِمْ ، لَنْ يَنْفَعُوكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَنْ يَدْفَعُوا عَنْكُمْ شَيئاً مِنْ عَذَابِ اللهِ ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُ فِي الدُّنْيا ، لأَنَّهُ سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ . وَيَذْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ عَمَّنْ سِوَاهُ ، وَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَأْنٌ يُغَنيهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ العِبَادُ .أَفَلاَ تَأَسَّى هَؤُلاَءِ الذِينَ يُوَادُّونَ الكَافِرِينَ بِأَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِم الذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَنْدَادِ ، وَجَحَدْنَا ما أَنْتُمْ عَلَيهِ مِنَ الكُفْرِ ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الحَرْبَ عَلَيْكُمْ ، فَلاَ هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَتُوَحِّدُوهُ ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَلاَ صَاحِبَةَ وَلاَ وَلَدَ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ .وَلَكُمْ فِي أَبيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا ، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسَالِكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلاَ تَسْتَثْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ التِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلاَّ اسْتِغْفَارَهُ لأَبِيهِ الذِي بَقِيَ مُقِيماً عَلَى الكُفْرِ ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ : إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللهَ ، وَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَالأَمْرُ مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ . وَلَكِنَّ هَذَا القَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيم حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَيَتْبَعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوٌ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمُ وَالْمُؤْمِنُونُ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجَؤُوا إِلَى اللهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ : رَبَّنَا إِنَّنَا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا) ، وَرَجَعْنَا إِلَيكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِلَيكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالحِسَابِ . فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ ..

والمراد بالعداوة : العداوة الدينية التى جعلت المشركين ، يحرصون كل الحرص على أذى المسلمين ، أى : يامن آمنتم بالله – تعالى – إيمانا حقا ، احذروا أن تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء وأصدقاء وحلفاء . بل جاهدوهم وأغلظوا عليهم ، واقطعوا الصلة التى بينكم وبينهم .

وناداهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة الدينية فى قلوبهم ولحضهم على الاستجابة لما نهاهم عنه .وقدم – سبحانه – عداوته للمشركين ، على عداوة المؤمنين لهم ، لأن عداوة هؤلاء المشركين لله – تعالى – أشد وأقبح ، حيث عبدوا غير خالقهم ، وشكروا غير رزاقهم ، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم .وفى الحديث القدسى : " إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى . . خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم . ويتبغضون إلى بالمعاصى " .

وعبر – سبحانه – بالاتخاذ الذى هو افتعال من الأخذ ، للمبالغة فى نهيهم عن موالاة هؤلاء الأعداء . إذ الاتخاذ يشعر بشدة الملابسة والملازمة .

والمفعول الأول لقوله { تَتَّخِذُواْ } قوله : { عَدُوِّي } والمفعول الثانى قوله : { أَوْلِيَآءَ } .

وقوله – سبحانه – : { تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة } تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التى نهوا عنها أو فى موضع الحال من ضمير { لاَ تَتَّخِذُواْ } .

وحقيقة الإلقاء : قذف ما فى اليد على الأرض أو فى الفضاء ، والمراد به هنا : إيصال ما يدخل السرور على قلوب أعدائهم . والباء فى قوله : { بالمودة } لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله .

أى : احذروا أن تعاملوا أعدائى وأعداءكم معاملة الأصدقاء والحلفاء ، بأن تظهروا لهم المودة والمحبة.

ويصح أن تكون الباء للسببية فيكون المعنى : تلقون إليهم بأخباركم التى لا يجوز لكم إظهارها لهم ، بسبب مودتكم لهم .

وقد ذكروا أن حاطبا أرسل بهذه الرسالة إلى أهل مكة ، عندما تجهز النبى – ﷺ – وأصحابه للذهاب إليها لأجل العمرة عام الحديبية ، أو لأجل فتح مكة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : { تُلْقُونَ } بم يتعلق؟ قلت : يجوز أن يتعلق بقوله : { لاَ تَتَّخِذُواْ } حالا من ضميره . . ويجوز أن يكون استئنافا .

والإلقاء : عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم يقال : ألقى إليه خَرَاشِيَ صدره – أى أسرار صدره – وأفضى إليه بقشوره .

والباء فى { بالمودة } إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها فى قوله : { وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة } وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، ومعناه : تلقون إليهم إخبار رسول الله – ﷺ – بسبب المودة التى بينكم وبينهم

ثم ساق – سبحانه – الأسباب التى من شأنها تحمل المؤمنين على عدم موالاة أعداء الله وأعدائهم ، فقال : { وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق } أى : لا تتخذوا – أيها المؤمنون – هؤلاء الأعداء أولياء ، وتلقون إليهم بالمودة ، والحال أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بما جاءكم على لسان رسولكم – ﷺ – من الحق الذى يتمثل فى القرآن الكريم ، وفى كل ما أوحاه – سبحانه – إلى رسوله .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، تصوير هؤلاء الكافرين ، بما ينفر المؤمنين من إلقاء المودة إليهم .
وقوله – تعالى – : { يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبِّكُمْ } بيان لسبب آخر من الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مقاطعة أعدائهم الكافرين .
وجملة : { يُخْرِجُونَ الرسول } يصح أن تكون مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى محل نصب حال من فاعل { كَفَرُواْ } وقوله : { وَإِيَّاكُمْ } معطوف على الرسول ، وقدم عليهم على سبيل التشريف لمقامه – ﷺ – وجملة { أَن تُؤْمِنُواْ } فى محل نصب مفعول لأجله .
أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بكفرهم بما جاءكم – أيها المؤمنون – من الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى محاولة إخراج رسولكم – ﷺ – وإخراجكم من مكة ، من أجل إيمانكم بالله ربكم ، وإخلاصكم العبادة له – تعالى –
وأسند – سبحانه – محاولة الإخراج إلى جميع الأعداء ، لأنهم كانوا راضين بهذا الفعل ومتواطئين على تنفيذه؛ بعضهم عن طريق التخطيط له ، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلى .
والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة ، يراها قد ساقت أقوى الأسباب وأعظمها ، للتشنيع على مشركى قريش ، ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودة إليهم .
وجواب الشرط فى قوله – تعالى – : { إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابتغآء مَرْضَاتِي } محذوف للدلالة ما قبله عليه أى : إن كنتم – أيها المؤمنون – قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد فى سبيلى ، ومن أجل طلب مرضاتى ، فاتركوا اتخاذ عدوى وعدوكم أولياء ، واتركوا مودتهم ومصافاتهم .
فالمقصود من الجملة الكريمة ، زيادة التهييج للمؤمنين ، حتى لا يبقى فى قلوبهم أى شىء من المودة نحو الكافرين
وقوله – سبحانه – : { تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة } بدل من قوله – تعالى – : قبل ذلك : { تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة } . بدل بعض من كل . لأن إلقاء المودة أعم من أن تكون فى السر أو فى العلن .
ويصح أن يكون بدل اشتمال ، لأن الإسرار إليهم بالمودة ، مما اشتمل عليه إلقاء المودة إليهم .
وهذه الجملة جىء بها على سبيل العتاب والتعجيب ممن فى قلبه مودة لهؤلاء الكافرين ، بعد أن بين الله – تعالى – له ، ما يوجب قطع كل صلة بهم .
ومفعول { تُسِرُّونَ } محذوف . أى : ترسلون إليهم أخبار المسلمين سرا ، بسبب مودتكم لهم؟
وجملة : { وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ } هى مناط التعجيب ممن يتخذ هؤلاء الأعداء أولياء .
أو من يسر إليهم بالمودة ، وهى حالية من فاعل { تُلْقُونَ و تُسِرُّونَ } .
أى : تفعلون ما تفعلون من إلقاء المودة إلى عدوى وعدوكم ، ومن إسراركم بها إليهم والحال أنى أعلم منهم ومنكم بما أخفيتموه فى قلوبكم ، وما أعلنتموه ، ومخبر رسولنا – ﷺ – بذلك .

وما دام الأمر كذلك فكيف أباح بعضكم لنفسه ، أن يطلع عدوى وعدوكم على مالا يجوز إطلاعه عليه؟!

قال الآلوسى : قوله : { وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ } فى موضع الحال و { أَعْلَـمُ } أفعـل تفضـيل . والمفضل عليه محذوف . أى : منكم . . . و { مَآ } موصولة أو مصدرية ، وذكر { مَآ أَعْلَنـتُمْ } مع الاستغناء عنه ، للإشارة إلى تساوى العلمين فى علمه - عز وجل - .

ولذا قدم { مَآ أَخْفَيْتُمْ } . وفى هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم فى إسرار المودة إليهم كأنه قيل : تسرون إليهم بالمودة والحال أنى أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومطلع رسولى على ما تسرون ، فأى فائدة وجدوى لكم فى الإسرار .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره فقال : { وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَـدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل } .

والضمير فى قوله : { يَفْعَلْهُ } يعود إلى الاتخاذ المفهوم من قوله { لاَ تَتَّخِذُواْ } .

أى ومن يفعل ذلك الاتخاذ لعدوى وعدوكم أولاء . ويلقى إليهم بالمودة ، فقد أخطأ طريـق الحـق والصواب . وضل عن الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - حال هؤلاء الأعداء عندما يتمكنون من المؤمنين فقال : { إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُـواْ لَكُمْ أَعْدَآءً ويبسطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسواء وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ } .

ومعنى { يَثْقَفُوكُمْ } يظفروا بكم ، ويدركوا طلبتهم منكم . وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الفهم ، ويقال : ثقفت الرجلَ فى الحرب إذا أدركته وظفرت به

أى : إن يظفر بكم هؤلاء الأعداء - أيها المؤمنون - ويتمكنوا منكم ، يظهروا لكم ما انطوت عليه قلوبهم نحوكم من بغضاء : ولا يكتفون بذلك ، بل يمدون إليكم أيديهم بما يضركم ، وألسنتهم ممـا يؤذيكم .

ثم هم بعد كل ذلك يودون ويتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم .

فأنت ترى أن الآية الكريمة ، قد وضحت أن هؤلاء الكافرين ، قد سلكوا فى عداوتهم للمؤمنين كـل مسلك ، فهم عند تمكنهم من المؤمنين يظهرون حقدهم القديم ، ويـؤذونهم بأيـديهم وألسـنتهم ، ويتمنون فى جميع الأحوال أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين .

وقال - سبحانه - : { ويبسطوا إِلَيْكُمْ . . . } للإشعار بكثرة ما ينزلونه بـالمؤمنين مـن أذى ، إذ التعبير بالبسط يدل على الكثرة والسعة .وقوله : { وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ } معطوف على جملة الشرط والجزاء ، ويكون - سبحانه - قد أخبر عنهم بخبرين : أحدهما : ما تضمنته الجملة الشـرطية مـن عداوتهم للمؤمنين

وثانيهما : تمنيهم ارتدادهم من الإيمان إلى الكفر .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ، ثم قال { وَوَدُّواْ } بلفظ الماضى؟

قلت : الماضى وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الإعراب . فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم . يعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا ، من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردكم كفارا .

وهذا الرد إلى الكفر أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه . والعدو أهم شيء عنده ، أن يقصد أعز شيء عند صاحبه .

ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التى تترتب على ضلالهم عن سواء السبيل فقال : { لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ .. . } .والأرحام : جمع رحم والمراد بهم الأقارب ، الذين كان بعض المؤمنين يوالون المشركين من أجلهم

أى : منكم - أيها المؤمنون - من أفشى أسراركم للكافرين ، خوفا على أقاربه أو أولاده الذين يعيشون فى مكة مع هؤلاء الكافرين ، والحق أنه لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين من أجلهم شيئا من النفع يوم القيامة ، لأنه فى هذا اليوم { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } أى يفرق بينكم وبين أقاربكم وأولادكم يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ } وكما قال - سبحانه - : { يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وصاحبته وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } وخص - سبحانه - الأولاد بالذكر مع أنهم من الأرحام ، لمزيد المحبة لهم - والحنو عليهم .

قال الشوكانى : وجملة { يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } متسأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك اليوم ، ومعنى { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } يفرق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة . ويدخل أهل معصيته النار ، وقيل : المراد بالفصل بينهم ، أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول . . . قيل : ويجوز أن يتعلق { يَوْمَ القيامة } بما قبله . أى : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بقوله { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } والأولى أن يتعلق بما بعده - أى : يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على { أَوْلاَدُكُمْ } ويبتدأ بيوم القيامة .وقراءة الجمهور { يُفْصِلُ بَيْنَكُمْ } - بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد - على البناء للمجهول . وقرأ عاصم { يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ } بفتح الياء وكسر الصاد - على البناء للفاعل ، وقرأ حمزة والكسائى { يُفَصِّلُ بَيْنَكُمْ } - بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الكسر - بالبناء للفاعل - أيضا - .وقرأ ابن عامر { يُفَصَّلُ بَيْنَكُمْ } - بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الفتح - على البناء للمجهول .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بقوله : { والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } أى : والله – تعالى – لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، بل هو مطلع عليها اطلاعا تاما وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآيات الكريمة ما يأتى :

١ – أن هذه الآيات أصل فى النهى عن موالاة الأعداء ومصافاتهم بأية صورة من الصور ، وشبيه بها قوله – تعالى – : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً } وقوله – سبحانه – : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ } ٢ – أن هذه الآيات الكريمة تتجلى فيها رحمة الله – تعالى – بعباده المؤمنين ، حيث ناداهم بهذه الصفة مع وقوع بعضهم فى الخطأ الجسيم ، وهو إفشاء أسرار المؤمنين لأعدائهم قالوا : وفى هذا رد على المعتزلة الذين يقولون : إن المعصية تنافى الإيمان .

٣ – أن هذه الآيات الكريمة فيها ما فيها من الأساليب الحكيمة فى الدعوة إلى الفضائل واجتناب الرذائل ، لأن الله – تعالى – عندما نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأعدائهم ، ساق لهم الأسباب التى تحملهم على قطع كل صلة بهؤلاء الأعداء . بأن ذكر لهم أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بالحق ، وحرصوا على إخراج الرسول والمؤمنين من ديارهم ، وأنهم إن يتمكنوا من المؤمنين ، فسينزلون بهم أشد ألوان الأذى .

وهكذا يجب أن يتعلم الدعاة إلى الله – تعالى – أن على رأس الوسائل التى توصلهم إلى النجاح فى دعوتهم ، أن يأتوا فى دعوتهم بالأسباب المقنعة لاعتناق الحق ، واجتناب الباطل .

٤ – أن هذه الآيات الكريمة صريحة فى أن ما يتعلق بالدين والعقيدة ، يجب أن يقدم على ما يتعلق بالأرحام والأولاد ، لأن الأرحام والأولاد لن تنفع يوم القيامة ، وإنما الذى ينفع هو ما يتعلق بالاستجابة لما يفرضه الدين علينا من واجبات وتكاليف .

---

٢٠. تولي المنافقين والتهاون معهم :

قال تعالى : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٨٩) سورة النساء

فَمَا لَكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِئَتَينِ فِي الُمنَافِقِينَ ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِي كُفْرِهِمْ ، مَعَ تَظَاهُرِ الأَدِلَّةِ عَلَيهِ ، فَلَيْسَ لَكُمْ أنْ تَخْتَلِفُوا فِي شَأنِهِمْ ، وَكَيْفَ تَفْتَرِقُونَ فِي شَأنِهِمْ وَقَدْ صَرَفَهُمُ اللهُ عَنِ الحَقِّ الذِي أَنْتُمْ عَلَيهِ ، بِمَا كَسَبُوا مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ ، وَاجْتَرَحُوا مِنَ المَعَاصِي ، وَقَدْ أَرْكَسَهُمُ اللهُ ، وَجَعَلَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ نَاكِسِي الرُّؤُوس ، بِسَبَبِ إيغَالِهِمْ فِي الضَّلالِ ، وَبُعْدِهُمْ عَنِ الحَقِّ؟ وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الُمؤْمِنُونَ لَيْسَ باسْتِطَاعَتِكُمْ أنْ تُبَدِّلُوا سُنَنَ اللهِ ، لأنَّ مَنْ قَضَتْ سُنَنُ اللهِ فِي خَلْقِهِ أنْ يَكُونَ ضَالاً عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ بِسُلُوكِهَا إلى الحَقِّ .

وَسَبِيلُ الفِطْرَةِ أنْ يَعرِضَ الإنْسَانُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ عَلَى سُنَنِ العَقْلِ ، وَيَتْبَعَ مَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ الحَقُّ الذِي فِيهِ مَنْفَعَتُهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنيا . وَأَكْثَرُ مَا يَصُدُّ الإنْسَانَ عَنْ سَبيلِ الفِطْرَةِ هُوَ التَّقْلِيدُ وَالغُرُورُ وَظَنُّ الإنْسانِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أكْمَلُ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، وَبِهَذَا يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ العَقْلِ وَالنَّظَرِ فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ ، وَالحَقِّ وَالبَاطِلِ .

وَهَؤُلاءِ لاَ يَقْنَعُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ وَالغِوَايةِ ، بَلْ يَطْمَعُونَ فِي أنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ، وَهُمْ يَوَدُّونَ لَكُمُ الضَّلاَلَةَ لِتَستَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا ، وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ ، فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ وَنُصَرَاءَ وَأَصدِقاءَ ، حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيُهَاجِرُوا إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، لِيُثْبِتُوا صِدْقَ إيمَانِهِمْ ، فَإِنْ رَفَضُوا الهِجْرَةَ (تولَّوا) وَلَزِمُوا مَوَاضِعَهُمْ ، وَأَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلاَ تُوَالُوهُمْ ، وَلاَ تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى عَدُوّ لَكُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ

إننا نجد في النصوص استنكاراً لانقسام المؤمنين فئتين في أمر المنافقين وتعجباً من اتخاذهم هذا الموقف؛ وشدة وحسماً في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته ، وفي التعامل مع أولئك المنافقين كذلك .

وكل ذلك يشي بخطر التميع في الصف المسلم حينذاك - وفي كل موقف مماثل - التميع في النظرة إلى النفاق والمنافقين؛ لأن فيها تميعاً كذلك في الشعور بحقيقة هذا الدين . ذلك أن قول جماعة من المؤمنين : « سبحان الله! - أو كما قالوا - أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم ، نستحل دماءهم وأموالهم؟ » . . وتصورهم للأمر على هذا النحو ، من أنه كلام مثل ما يتكلم المسلمون! مع أن شواهد الحال كلها وقول هؤلاء المنافقين : « إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس » . . وشهادة الفئة الأخرى من المؤمنين وقولهم : « يظاهرون عدوكم » . . تصورهم للأمر على هذا النحو فيه تمييع كبير لحقيقة الإيمان ، في ظروف تستدعي الوضوح الكامل ، والحسم القاطع . فإن كلمة تقال باللسان؛ مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين ، لا تكون إلا نفاقاً . ولا موضع هنا للتسامح أو للإغضاء . لأنه تمييع للتصور ذاته . . وهذا هو الخطر الذي يواجهه النص القرآني بالعجب والاستنكار والتشديد البين .

ولم يكن الحال كذلك في الإغضاء عن منافقي المدينة . فقد كان التصور واضحاً . . هؤلاء منافقون . . ولكن هناك خطة مقررة للتعامل معهم . هي أخذهم بظاهرهم والإغضاء إلى حين .

وهذا أمر آخر غير أن ينافح جماعة من المسلمين عن المنافقين . لأنهم قالوا كلاماً كالذي يقوله المسلمون . وأدَّوا بألسنتهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين!

من أجل هذا التميع في فهم فئة من المسلمين ، ومن أجل ذلك الاختلاف في شأن المنافقين في الصف المسلم ، كان هذا الاستنكار الشديد في مطلع الآية .

. ثم تبعه الإيضاح الإلهي لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين : { والله أركسهم بما كسبوا } . .

ما لكم فئتين في شأن المنافقين . والله أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم؟ وهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم . بأنهم واقعون في السوء بما أضمروا وبما عملوا من سوء .

ثم استنكار آخر : { أتريدون أن تهدوا من أضل الله؟ } . .

ولعله كان في قول الفريق . . المتسامح!! . . ما يشير إلى إعطائهم فرصة ليهتدوا ، ويتركوا اللجلجة! فاستنكر الله هذا في شأن قوم استحقوا أن يوقعهم الله في شر أعمالهم وسوء مكاسبهم .

{ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً } . .

فإنما يضل الله الضالين . أي يمد لهم في الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة . وعندئذ تغلق في وجوههم سبل الهداية؛ بما بعدوا عنها ، وسلكوا غير طريقها؛ ونبذوا العون والهدى ، وتنكروا لمعالم الطريق!

ثم يخطو السياق خطوة أخرى في كشف موقف المنافقين . . إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب؛ ولم يستحقوا أن يوقعهم الله في الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب . . إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين : { ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء } . .

إنهم قد كفروا . . على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون ، ونطقوا بالشهادتين نطقاً يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين . . وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد . فالذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين . ولا بد له من عمل وسعي ، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر . ليكونوا كلهم سواء .

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين . . وهو يحمل البيان الذي يرفع التميع في تصور الإيمان؛ ويقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين . وإلا فلا عبرة بكلمات اللسان ، وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق :

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم ، وهو يقول لهم : { ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء } . .

فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر . وبالنقلة الضخمة التي يجدونها في أنفسهم ، بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية . . ثم في الإسلام . وكان الفرق واضحاً

بارزاً في مشاعرهم وفي واقعهم ، تكفي الإشارة إليه لاستثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يـــردهم إلى ذلك السفح الهابط – سفح الجاهلية – الذي التقطهم منه الإسلام؛ فسار بهـــم صـــعداً في المرتقـــى الصاعد ، نحو القمة السامقة .

ومن ثم يتكيء المنهج القرآني على هذه الحقيقة؛ فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفز والتحفز والانتبـــاه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء : { فلا تتخذوا منهم أولياء حـــتى يهـــاجروا في سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً } .

ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم .

. أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة – وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضاً – وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب؛ ويقرر للأمة المسلمة قواعـــد ارتباطاتها . كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته .

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة ، أو روابط الدم والقرابة . أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة أو روابط المصالح الاقتصادية في التجارة وغير التجارة . . إنما تقـــوم الأمة على العقيدة؛ وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة .

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام ، وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب . . ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول . . لا ولاية حتى يهاجر أولئك الـــذين يتكلمـــون بكلمـــة الإسلام؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم – أي إلى الأمة المسلمة – حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله . من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أي هدف آخر؛ ولإقامة المجتمع المســـلم الـــذي يعـــيش بالمنـــهج الإسلامي لا لأي غرض آخر . . بهذه النصاعة . وبهذا الحسم . وبهذا التحديد الـــذي لا يقبـــل أن تختلط به شوائب أخرى ، أو مصالح أخرى ، أو أهداف أخرى . .

فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم . . في دار الحرب . . وهاجروا إلى دار الإسلام ، ليعيشوا بالنظام الإسلامي ، المنبثق من العقيدة الإسلامية ، القائم على الشريعة الإسلامية . . إن هـــم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم ، مواطنون في الأمة المسلمة . وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال : { فإن تولوا فخـــذوهم (أي أســـرى) واقتلـــوهم حيـــث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً } .

وهذا الحكم – كما قلنا – هو الذي يرجح عندنا ، أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة . إذ قد اتبعـــت مع منافقي المدينة سياسة أخرى .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له؛ فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته . ولهـــم – حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته – أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام . في غير ما دعـــوة للمسلمين ولا طعن في الدين . فقد ورد في القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا

يدع مجالاً للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا! وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته . وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم؛ وأنه يمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام؛ وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهاراً نهاراً في العقيدة . . ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال .

لا يتسامح مع من يقولون : إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله . ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية ، كالحاكمية والتشريع للناس؛ فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون ، لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم . . لا لأنهم عبدوهم . ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال ، وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم!

ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون . لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم بقوا في دار الكفر ، يناصرون أعداء المسلمين!

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحاً . إنما هو تميع . والإسلام عقيدة التسامح . ولكنه ليس عقيدة « التميع » . إنه تصور جاد . ونظام جاد . والجد لا ينافي التسامح . ولكنه ينافي التميع .

وفي هذه اللفتات واللمسات من المنهج القرآني للجماعة المسلمة الأولى ، بيان ، وبلاغ . .

ثم استثنى من هذا الحكم – حكم الأسر والقتل – لهذا الصنف من المنافقين ، الذين يعينون أعداء المسلمين – من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد – عهد مهادنة أو عهد ذمة – ففي هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذي يلتجئون ، إليه ويتصلون به : { إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق } . .

ويبدو في هذا الحكم اختيار الإسلام للسلم ، حيثما وجد مجالاً للسلم لا يتعارض مع منهجه الأساسي . من حرية الإبلاغ وحرية الاختيار؛ وعدم الوقوف في وجه الدعوة ، بالقوة مع كفالة الأمن للمسلمين؛ وعدم تعريضهم للفتنة ، أو تعريض الدعوة الإسلامية ذاتها للتجميد والخطر .

ومن ثم يجعل كل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين – عهد ذمة أو عهد هدنة – شأنه شأن القوم المعاهدين . يعامل معاملتهم ، ويسالم مسالمتهم . وهي روح سلمية واضحة المعالم في مثل هذه الأحكام .

كذلك يستثني من الأسر والقتل جماعة أخرى . هي الأفراد أو القبائل أو المجموعات التي تريد أن تقف على الحياد ، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال . إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم . كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين . فيكفوا أيديهم عن الفريقين بسبب

هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء : { أو جاءوكم ، حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم } . .

وواضح كذلك في هذا الحكم الرغبة السلمية في اجتناب القتال؛ حيثما كف الآخرون عن التعرض للمسلمين ودعوتهم؛ واختاروا الحياد بينهم وبين المحاربين لهم . وهؤلاء الذين يتحرجون أن يحاربوا المسلمين أو يحاربوا قومهم . . كانوا موجودين في الجزيرة؛ وفي قريش نفسها؛ و لم يلزمهم الإسلام أن يكونوا معه أو عليه . فقد كان حسبه ألا يكونوا عليه . . كما أنه كان المرجو من أمرهم أن ينحازوا إلى الإسلام ، حينما تزول الملابسات التي تحرجهم من الدخول فيه؛ كما وقع بالفعل .

ويحبب الله المسلمين في انتهاج هذه الخطة مع المحايدين المتحرجين . فيكشف لهم عن الفرض الثاني الممكن في الموقف! فلقد كان من الممكن – بدل أن يقفوا هكذا على الحياد متحرجين – أن يسلطهم الله على المسلمين فيقاتلوهم مع أعدائهم المحاربين! فأما وقد كفهم الله عنهم على هذا النحو ، فالسلم أولى ، وتركهم وشأنهم هو السبيل : { ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً } . .

وهكذا يلمس المنهج التربوي الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين ، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق . يلمسه بما في هذا الموقف من فضل الله وتدبيره؛ ومن كف لجانب من العداء والأذى كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين . ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذي يعرض فلا يرفضوه ، ويجتنبوا الشر الذي يأخذ طريقه بعيداً عنهم ، فلا يناوشوه . . طالما أن ليس في هذا كله تفريط في شيء من دينهم ، ولا تمييع لشيء من عقيدتهم؛ ولا رضى بالدنية في طلب السلم الرخيصة!

لقد نهاهم عن السلم الرخيصة . لأنه ليس الكف عن القتال بأي ثمن هو غاية الإسلام . . إنما غاية الإسلام : السلم التي لا تتحيف حقاً من حقوق الدعوة ، ولا من حقوق المسلمين . . لا حقوق أشخاصهم وذواتهم؛ ولكن حقوق هذا المنهج الذي يحملونه ويسمون به مسلمين .

وإن من حق هذا المنهج أن تزال العقبات كلها من طريق إبلاغ دعوته وبيانه للناس في كل زاوية من زوايا الأرض . وأن يكون لكل من شاء – ممن بلغتهم الدعوة – أن يدخل فيه فلا يضار ولا يؤذى في كل زاوية من زوايا الأرض . وأن تكون هناك القوة التي يخشاها كل من يفكر في الوقوف في وجه الدعوة – في صورة من الصور – أو مضارة من يؤمن بها – أي لون من ألوان المضارة – وبعد ذلك فالسلم قاعدة . والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

ولكن هناك طائفة أخرى ، لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح . لأنها طائفة منافقة شريرة كالطائفة الأولى . وليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم ميثاق . فالإسلام إزاءها إذن طليق . يأخذها بما أخذ به طائفة المنافقين الأولى : { ستجدون آخرين ، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم

. كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم؛ فخذوهم ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً } . .

حكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت في قوم من أهل مكة ، كانوا يأتون النبي – ﷺ – فيسلمون رياء؛ ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا ، وها هنا . فأمر بقتلهم – إن لم يعتزلوا ويصلحوا – ولهذا قال تعالى : { فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم (المهادنة والصلح) ويكفوا أيديهم (أي عن القتال) فخذوهم (أسراء) واقتلوهم حيث ثقفتموهم (أي حيث وجدتموهم) وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً } ..

وهكذا نرى صفحة من حسم الإسلام وجديته ، إلى جانب سماحته وتغاضيه . . هذه في موضعها ، وتلك في موضعها . وطبيعة الموقف ، وحقيقة الواقعة ، هي التي تحدد هذه وتلك . .

ورؤية هاتين الصفحتين – على هذا النحو – كفيلة بأن تنشيء التوازن في شعور المسلم؛ كما تنشيء التوازن في النظام الإسلامي – السمة الأساسية الأصيلة – فأما حين يجيء المتشددون فيأخذون الأمر كله عنفاً وحماسة وشدة واندفاعاً فليس هذا هو الإسلام! وأما حين يجيء المتميعون المترققون المعتذرون عن الجهاد في الإسلام ، كأن الإسلام في قفص الاتهام وهم يترافعون عن المتهم الفاتك الخطير! فيجعلون الأمر كله سماحة وسلماً وإغضاء وعفواً؛ ومجرد دفاع عن الوطن الإسلامي وعن جماعة المسلمين – وليس دفعاً عن حرية الدعوة وإبلاغها لكل زاوية في الأرض بلا عقبة . وليس تأميناً لأي فرد في كل زاوية من زوايا الأرض يريد أن يختار الإسلام عقيدة . وليس سيادة لنظام فاضل وقانون فاضل يأمن الناس كلهم في ظله ، من اختار عقيدته ومن لم يخترها سواء . . فأما حينئذ فليس هذا هو الإسلام .

وفي هذه الطائفة من أحكام المعاملات الدولية بلاغ وبيان . .

لقد كان هذا هو السبب في هزيمة الدولة العباسية أمام التتار لما وثقت بالرافضي الخبيث ابن العلقمي وولته الوزارة، وكان ذلك الخبيث ممن مالأ التتار وكاتبهم من أجل أن تهدم الخلافة وتسقط الدولة، فكان ذلك وحصل له ما أراد، ولكن الله كان له بالمرصاد، فجازاه ملك التتار أن قتله، وقال له: أنت لا تستحق أن يثق فيك، فقتله شر قتلة، وما أكثر أمثال ابن العلقمي في هذه العصور .

قد يندس شياطين الإنس من المنافقين في صفوف المؤمنين، ولا يميزهم المؤمنون، فمن رحمة الله بالمؤمنين أن تتوالى الابتلاءات على المؤمنين، فتكشف حقيقة المنافقين، وتميز الصف المؤمن وتطهره من هؤلاء المندسين حتى يتميز الصف، ويصبح مؤمناً خالصاً، وما هذه الابتلاءات التي حصلت لإخواننا المجاهدين في أفغانستان سابقاً ولا حقاً إلا فيما نحسب من هذا الباب، ليميز الله الصفوف فتتساقط الأوراق المندسة التي لا يستطيع المؤمن أن يكشفها لتظاهرها بالإيمان .

---

٢١. الظلمُ بكل أشكاله :

الظلم ليس سببًا من أسباب الهزيمة فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول، وتغير الأحوال ،قال تعالى : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} (١٣) سورة يونس

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَهْلَ مَكَّةَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ العَذَابِ فِي الأَقْوَامِ السَّابِقَةِ (القُرُونِ) الذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ فِيمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنَ البَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَكَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ لأَنَّهُمْ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لَوْ تَرَكَهُمُ اللهُ ، فَاعْتَبِرُوا يَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَكَمَا أَهْلَكَ اللهُ مَنْ قَبْلَكُمْ ، كَذَلِكَ يَفْعَلُ اللهُ بِالمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ ..

لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم - وهو الشرك - إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط . .

وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم : { وما كانوا ليؤمنوا } . .

لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهيئين للإيمان .

فلقوا جزاء المجرمين . .{ كذلك نجزي القوم المجرمين } . .

قال ابن تيمية رحمه الله :

" وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الِاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ : أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إثْمٍ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ : إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً ؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً . وَيُقَالُ : الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ"[١١٥].

فَالْبَاغِي يُصْرَعُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مَغْفُورًا لَهُ مَرْحُومًا فِي الْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلِ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلِ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنْ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَالنَّفْسُ فِيهَا دَاعِي الظُّلْمِ لِغَيْرِهَا بِالْعُلُوِّ عَلَيْهِ وَالْحَسَدِ لَهُ ؛ وَالتَّعَدِّي عَلَيْهِ فِي حَقِّهِ . وَدَاعِي الظُّلْمِ لِنَفْسِهَا بِتَنَاوُلِ الشَّهَوَاتِ الْقَبِيحَةِ كَالزِّنَا وَأَكْلِ الْخَبَائِثِ . فَهِيَ قَدْ تَظْلِمُ مَنْ لَا يَظْلِمُهَا ؛ وَتُؤْثِرُ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْهَا ؛ فَإِذَا رَأَتْ نُظَرَاءَهَا قَدْ ظَلَمُوا وَتَنَاوَلُوا هَذِهِ الشَّهَوَاتِ صَارَ دَاعِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ أَوْ الظُّلْمِ فِيهَا أَعْظَمَ بِكَثِيرِ وَقَدْ تَصْبِرُ ؛ وَيَهِيجُ ذَلِكَ لَهَا مِنْ بُغْضِ ذَلِكَ الْغَيْرِ وَحَسَدِهِ وَطَلَبِ عِقَابِهِ وَزَوَالِ الْخَيْرِ عَنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا

---

[١١٥]- صحيح ابن حبان - (٢ / ٢٠٠) (٤٥٥) صحيح

قَبْلَ ذَلِكَ وَلَهَا حُجَّةٌ عِنْدَ نَفْسِهَا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ ؛ يَكُونُ ذَلِكَ الْغَيْرُ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَإِنَّ أَمْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ ؛ وَالْجِهَادُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الدِّينِ ."[116]

وقال ابن تيمية رحمه الله أيضاً : " فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى : " { اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً } "[117]

وقال تعالى : { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} (٥٩) سورة الكهف
لَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ الأُمَمَ السَّالِفَةَ : عَاداً وَثَمُودَ وَقَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابَ الأَيْكَةِ . . وَدَمَّرَ قُرَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَعِنَادِهِمْ ، وَجَعَلَ لِمَهْلِكِهِمْ وَقْتاً مُعَيَّناً (مَوْعِداً) ، لاَ يَزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ ، فَاحْذَرُوا ، أَيُّهَا الُمشْرِكُونَ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِنْ تَمَادَيْتُمْ فِي تَكْذِيبِ رَسُولِكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ..

وعَنْ أَبِى مُوسَى – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . قَالَ ثُمَّ قَرَأَ :{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} (١٠٢) سورة هود "صحيح البخاري"[118]

وقال تعالى : { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) [الأعراف/٤-١٠] }

وَكَثِيرٌ مِنَ القُرَى (أَوِ البِلاَدِ) أَهْلَكَ اللهُ أَهْلَهَا ، لِمُخَالَفَتِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ فِيما جَاؤُوهُمْ بِهِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ ، فَأَخْزَاهُمُ اللهُ فِي الدُّنيا ، وَسَيُذِلُّهُمْ فِي الآخِرَةِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَبَأْسُهُ لَيلاً (بَيَاتاً) وَمِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُمْ نَهَاراً وَهُمْ يَسْتَرِيحُونَ وَسَطَ النَّهارِ (قَائِلُونَ) ، وَكِلاَ الوَقْتَينِ وَقْتُ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَلَهْوٍ ، فَعَلى العَاقِلِ أَلاَّ يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا ، وَأَلاَّ يَأْمَنَ غَدْرَ اللَّيَالِي .

وَحِينَ جَاءَهُمُ العَذَابُ لَمْ يَقُولُوا شَيْئاً غَيْرَ الاعْتِرَافِ بِذُنُوبِهِمْ ، وَظُلْمِهِمْ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَشَهِدُوا بِبُطْلاَنِهِ ، وَبِأَنَّهُم حَقِيقُونَ بِهَذا العَذَابِ الذِي نَزَلَ بِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَظْلِمْهُمْ .

---

[116] -مجموع الفتاوى – (ج ٢٨ / ص ١٤٦)

[117] – مجموع الفتاوى – (٢٨ / ٦٢)

[118] – ٦/٩٤ برقم (٤٦٨٦)

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ سَيَسْأَلُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رُسُلَهُمْ فِيمَا أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلَيْهِم ، وَسَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضاً عَمَّا بَلَّغُوهُ إِلَى الأُمَمِ مِنْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ ، وَعَمَّا أَجَابَهُمْ بِهِ أَقْوَامُهُمْ .

وَسَيَقُصُّ اللهُ تَعَالَى ، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ ، عَلَى الرُّسُلِ ، وَعَلَى أَقْوَامِهِمْ الذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِم ، كُلَّ مَا وَقَعَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ ، قَصَصاً بِعِلْمٍ مِنْهُ مُحِيطٍ بِكُلِّ شَيءٍ كَانَ مِنْهُمْ ، وَمَا كَانَ اللهُ غَائِباً عَنْهُمْ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ ، وَلاَ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ ، بَلْ كَانَ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ ، وَيُبْصِرُ مَا يَعْمَلُونَ ، وَيُحِيطُ بِمَا يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ .وَاللهُ تَعَالَى يَزِنُ أَعْمَالَ العِبَادِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَيُقَدِّرُهَا بِعَدْلٍ تَامٍّ (بالحَقِّ) ، فَلا يَظْلِمُ أَحَداً شَيْئاً ، فَالذِينَ تَرْجَحُ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِم الصَّالِحَةِ وَحَسَنَاتُهُمْ (ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُمْ) فَأُولئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ بِالنَّجَاةِ مِنَ العَذَابِ (المُفْلِحُونَ)

أَمَّا الذِينَ خَفَّتْ موازينُ أَعْمَالِهِم الصَّالِحَةِ ، وَرَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَكَثْرَةِ مَا اجْتَرَحُوهُ مِنَ السَّيِّئاتِ ، فَهؤُلاءِ يَكُونُونَ قَدْ خِسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لأَنَّهُمْ حَرَمُوهَا السَّعَادَةَ التِي كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لَهَا لَوْ لَمْ يُفْسِدُوا فِطْرَتَهَا .وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ فِ الأَعْمَالِ ، هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، فَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَهُوَ مُفْلِحٌ ، وَإِنْ عُذِّبَ عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِهِ بِمِقْدَارِهَا ، وَإِنَّ الكَافِرِينَ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَكَاتِهِمْ هُمْ فِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ . يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ الأَرْضَ قَراراً يَعِيشُونَ وَيَسْتَقِرُّونَ عَلَيها ، وَجَعَلَ فِيها جبَالاً رَاسِياتٍ تَسَهِّلُ اسْتِقْرارَ النَّاسِ عَلَيها ، فَلا تَمِيدُ بِهِمْ ، وَجَعَلَ فِيها أَنْهَاراً ، وَأَبَاحَ لِلنَّاسِ التَّمَتُّعَ بِمَنَافِعِها ، وَسَخَّرَ الرِّياحَ لإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا ، وَجَعَلَ لِلنَّاسِ مَا يَتَسَبَّبُونَ بِهِ وَيَتَكَسَّبُونَ (مَعَايِشَ) ، وَلكِنَّ النَّاسَ ، مَعَ جَميعِ هذِهِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، قَلِيلٌ مِنْهُمُ الشَّكُورُ ، وَاللهُ تَعَالَى سَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ بِالنِّعَمِ حِسَاباً عَسِيراً .

---

٢٢. كثرةُ الفساد والإفساد :

قال تعالى : { إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٩٠) سورة النحل

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِالعَدْلِ وَالإِنْصَافِ ، وَيَنْدُبُ إِلَى الإِحْسَانِ وَالفَضْلِ ، وَيَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحْمِ وَإِعْطَاءِ ذَوِي القُرْبَى مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَيَنْهَى عَنِ ارْتِكَابِ الُمحَرَّمَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالفَوَاحِشِ ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، مِمَّا يَأْتِيهِ العَبْدُ سِرّاً وَخِفْيَةً وَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالخَيْرِ ، وَيَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالشَّرِّ ، لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي الفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ ، فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ ..

لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعاً ، ثم لينشئ عالماً ويقيم نظاماً . جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس؛ إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية .

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات ، واطمئنان الأفراد والأمم والشـــعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود :

جاء { بالعدل } الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميـــل مـــع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنســـب ، والغـــنى والفقـــر ، والقـــوة والضعف . إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للجميع .

وإلى جوار العدل . . { الإحسان } . . يلطف من حدة العدل الصارم الجازم ، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب ، وشفاء لغل الصدور . ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً .

والإحسان أوسع مدلولاً ، فكل عمل طيب إحسان ، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل ، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاتـــه بالبشرية جميعاً .

ومن الإحسان { إيتاء ذي القربى } إنما يبرز الأمر به تعظيماً لشأنه ، وتوكيداً عليه . وما يبني هـــذا على عصبية الأسرة ، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحـــيط العام . وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل .

{ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي } . . والفحشاء كل أمر يفحش أي يتجاوز الحد . ومنه مـــا خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها . والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهي شـــريعة الفطرة . وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها . والبغـــي الظلم وتجاوز الحق والعدل .

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغي . . ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكـــل مدلولاتها ، والمنكر بكل مغرراته ، والبغي بكل معقباته ، ثم يقوم . .

والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة ، مهما تبلغ قوتها ، ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها . وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتفاضات ضـــد الفحشـــاء والمنكـــر والبغي . فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حيناً من الدهر ، فالانتقاض عليها دليل علـــى أنها عناصر غريبة على جسم الحياة ، فهي تنتفض لطردها ، كما ينتفض الحي ضد أي جسم غريـــب يدخل إليه . وأمر الله بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي يوافق الفطـــرة الســـليمة الصحيحة ، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله . لذلك يجيء التعقيب : { يعظكم لعلكم تذكرون } فهي عظة للتذكر تذكر وحي الفطرة الأصيل القويم .

وقال تعالى :{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) سورة الفجر

كَانَ قَوْمُ عَادٍ أَشِدَّاءَ ، عِظَامَ الخِلَقِ ، وَكَانُوا خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، مُكَذِّبِينَ رُسُلَهُ ، فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ لِيَتَّعِظَ مُشْرِكُو العَرَبِ ، وَلاَ يَغْتَرُّوا بِقُوَّتِهِمْ وَمَالِهِمْ وَعَدَدِهِمْ .

وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى كَيْفَ دَمَّرَ مَدِينتهُمْ (إِرَمَ) ذَاتَ الأَعْمَدَةِ الضَّخْمَةِ ، (وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ المَقْصُودَ بِالعَمَدِ هُوَ عَمَدُ الخِيَامِ لَمَا كَانَتْ لَهُمْ مَدِينَةٌ ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ يَذْكُرُهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ) .

التِي لَمْ يُخْلَقْ فِي البِلاَدِ كُلِّهَا نَظِيرٌ لَهَا . (وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ تَمْتَازُ بِأَبْنِيَةٍ لاَ مَثِيلَ لَهَا)

أَوَ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عِقَابَهُ بِثَمُودَ ، قَوْمِ صَالِحٍ ، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً ، وَثَمُودُ هَؤُلاَءِ هُمُ الذِينَ قَطَعُوا الصَّخْرَ وَنَحَتُوهُ فِي الوَادِي ، وَبَنَوْا بِهِ القُصُورَ وَالأَبْنِيَةَ العَظِيمَةَ . (وَثَمُودُ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ مِنْ سَكّانِ وَادِي القُرَى ، وَتُعْرَفُ مَدِينَتُهُم اليَومَ بِمَدَائِنِ صَالِحٍ) .

أَوَ لَمْ تَعْلَمْ كَيْفَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عِقَابَهُ بِفِرْعَوْنَ ذِي المَبَانِي العَظِيمَةِ التِي شَادَهَا هُوَ وَمَنْ قَبْلَهُ كَالأَهْرَامَاتِ وَالمِسَلاَّتِ .

(وَلَفَتَ الأُسْتَاذ المَرَاغِي فِي تَفْسِيرِهِ النَّظَرَ إِلَى أَنَّ شَكْلَ المِسَلاَّتِ التِي بَنَاهَا الفَرَاعِنَةُ فِي مَصْرَ يُشْبِهُ شَكْلَ الوَتدِ المَقْلُوبِ الذِي تُشَدُّ بِهِ الخِيَامُ) .

(وَقِيلَ إِنَّ فِرْعَوْنَ سُمِّيَ بذِي الأَوْتَادِ لأَنَّهُ ضَرَبَ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي الأَرْضِ وَشَدَّ إِلَيهَا أَطْرَافَ زَوْجَةٍ لَهُ حَتَّى هَلَكَتْ) .وَهَؤُلاَءِ الذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ . . قَدِ اسْتَعْمَلُوا سُلْطَانَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ فِي الطُّغْيَانِ ، وَالتَّجَاوزِ عَلَى حُقُوقِ العِبَادِ .فَانْتَشَرَ الفَسَادُ وَعَمَّ البِلاَدَ ، وَضَجَّ النَّاسُ بِالشَّكْوَى مِنَ الظُّلْمِ .فَصَبَّ اللهُ عَلَيْهِمْ أَلْوَاناً مُلْهِبَةً مِنَ العَذَابِ وَالبَلاَءِ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى مَا أَجْرَمُوا . وَاللهُ سُبْحَانَهُ عَالِمُ بِمَا يَفْعَلُهُ الطُّغَاةُ ، وَهُوَ يَرْصُدُ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَيُرَاقِبُهَا ، وَلاَ يَفُوتُهُ شَيءٌ مِنْهَا ، فَأَخَذَ هَؤُلاَءِ العُتَاةَ الطُّغَاةَ الكَافِرِينَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ..

وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر الباني ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال . .

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد؛ ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف؛ وكذلك قال فرعون . . {

أنا ربكم الأعلى } عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول بـــه إلى هـــذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أي فساد .

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامـــة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية . والنفس التي تســـتذل تأســـن وتتعفن ، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميداناً للانحرافات مع انطمـــاس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أي فساد . .

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلا بـــد مـــن تزييف للقيم ، وتزوير في الموازين ، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشـــعة ، وتراهـــا مقبولة مستساغة . . وهو فساد أي فساد .

فلما أكثروا في الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد : { فصب علـــيهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد } . .

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيـــث يجتمـــع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمـــان وأي مكان . ومن قوله تعالى : { إن ربك لبالمرصاد } تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصـــد لا يفوته شيء . مراقب لا يند عنه شيء . فليطمئن بال المؤمن ، ولينم ملء جفونه . فإن ربه هناك! . . بالمرصاد . . للطغيان والشر والفساد!

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة ، غير النموذج الـــذي تعرضـــه ســـورة الـــبروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن ولا يزال يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفـــق الحـــالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على الحالين . وتتوقع الأمـــرين ، وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء .

{ إن ربك لبالمرصاد } . . يرى ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء .

وقال تعالى : {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّـــذِي عَمِلُـــوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (٤١) سورة الروم

ظَهَرَ الفَسَادُ فِي العَالَمِ بالفِتَنِ والحُروبِ والاضْطِرابَات . . وذَلكَ بِسَبَبِ مَا اقتَرَفَهُ النَّاسُ منَ الظُّلْـــمِ ، وانتِهَاكِ الحُرُمَاتِ ، والتَّنَكُّرِ لِلدِّينِ ، وَنِسيَانِ يومِ الحِسَابِ فانْطَلَقَت النُّفُوسُ مِنْ عِقَالِها ، وَعَاثَتْ فِي

الأَرضِ فَسَاداً بلاَ وَازِعٍ وَلا رَقيبٍ منْ ضَميرٍ أَوْ وُجدَانٍ أو حَيَاءٍ أَو حِسَابٍ لدِينٍ ، فأَذَاقَهُم اللهُ جزاءَ بعضِ ما عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي والآثَامِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى الحَقِّ ، وَيَكُفُّونَ عَنِ الضَّلالِ والغِوايةِ ، وَيَتَذَكَّرُونَ يومَ الحِسَابِ ..

وعَنْ قُرَّةَ ، قَالَ : سَمِعْت الْحَسَنَ يَقُولُ :" ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، قَالَ : أَفْسَدَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ فِي بَرِّ الأَرْضِ وَبَحْرِهَا بِأَعْمَالِهِمْ الْخَبِيثَةِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ يَرْجِعُ مَنْ بَعْدَهُمْ "مصنف ابن أبي شيبة[١١٩] .

قال ابن القيم رحمه الله :

وَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ وَمَبْدَئِهِ يَعْرِفُ أَنّ جَمِيعَ الْفَسَادِ فِي جَوّهِ وَنَبَاتِهِ وَحَيَوَانِهِ وَأَحْوَالِ أَهْلِهِ حَادِثٌ بَعْدَ خَلْقِهِ بِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ حُدُوثَهُ وَلَمْ تَزَلْ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ وَمُخَالَفَتُهُمْ لِلرّسُلِ تُحْدِثُ لَهُمْ مِنْ الْفَسَادِ الْعَامّ وَالْخَاصّ مَا يَجْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ الْآلَامِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ وَالطّوَاعِينِ وَالْقُحُوطِ وَالْجُدُوبِ وَسَلْبِ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ وَثِمَارِهَا وَنَبَاتِهَا وَسَلْبِ مَنَافِعِهَا أَوْ نُقْصَانِهَا أُمُورًا مُتَتَابِعَةً يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا فَإِنْ لَمْ يَتّسِعْ عِلْمُك لِهَذَا فَاكْتَفِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ } [الرّومُ : ٤١] وَنَزّلْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ وَطَابِقْ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنَهَا وَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلّ وَقْتٍ فِي الثّمَارِ وَالزّرْعِ وَالْحَيَوَانِ وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَلَازِمَةٌ بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ وَكُلّمَا أَحْدَثَ النّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا أَحْدَثَ لَهُمْ رَبّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَفَوَاكِهِهِمْ وَأَهْوِيَتِهِمْ وَمِيَاهِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَصُوَرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ النّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجَبُ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ . وَلَقَدْ كَانَتْ الْحُبُوبُ مِنْ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمّا هِيَ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ أَعْظَمَ . وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ أَنّهُ وَجَدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيّةَ صُرّةً فِيهَا حِنْطَةٌ أَمْثَالَ نَوَى التّمْرِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا : هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيّامَ الْعَدْلِ . وَهَذِهِ الْقِصّةُ ذَكَرَهَا فِي " مُسْنَدِهِ " عَلَى أَثَرِ حَدِيثٍ رَوَاهُ . وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامّةِ بَقِيّةُ عَذَابٍ عُذّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ السّالِفَةُ ثُمّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيّةٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ حَكَمًا قِسْطًا وَقَضَاءً عَدْلًا وَقَدْ أَشَارَ النّبِيّ ﷺ إلَى هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطّاعُونِ إنّهُ بَقِيّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَذَلِكَ سَلّطَ اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرّيحَ عَلَى قَوْمٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيّامٍ ثُمّ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيّةً فِي تِلْكَ الْأَيّامِ وَفِي نَظِيرِهَا عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ . وَقَدْ جَعَلَ اللّهُ سُبْحَانَهُ أَعْمَالَ الْبَرّ وَالْفَاجِرِ مُقْتَضِيَاتٍ لِآثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَا بُدّ مِنْهُ فَجَعَلَ مَنْعَ الْإِحْسَانِ وَالزّكَاةِ وَالصّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْغَيْثِ مِنْ السّمَاءِ وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ وَالْبَخْسَ فِي الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ وَتَعَدّي الْقَوِيّ عَلَى الضّعِيفِ سَبَبًا لِجَوْرِ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ الّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إنْ

---

[١١٩]- برقم (٣٥٢٠٠) وهو صحيح مقطوع

اُسْتُرْحِمُوا وَلَا يَعْطِفُونَ إنْ اُسْتُعْطِفُوا وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الرّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ جَائِرِينَ وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامّةٍ وَتَارَةً بِهُمُومٍ وَآلَامٍ وَغُمُومٍ تُحْضِرُهَا نُفُوسُهُمْ لَا يَنْفَكّونَ عَنْهَا وَتَارَةً بِمَنْعِ بَرَكَاتِ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَؤُزّهُمْ إلَى أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَزّا لِتَحِقّ عَلَيْهِمْ الْكَلِمَةُ وَلِيَصِيرَ كُلّ مِنْهُمْ إلَى مَا خُلِقَ لَهُ وَالْعَاقِلُ يُسَيّرُ بَصِيرَتَهُ بَيْنَ أَقْطَارِ الْعَالَمِ فَيُشَاهِدُهُ وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللّهِ وَحِكْمَتِهِ وَحِينَئِذٍ يَتَبَيّنُ لَهُ أَنّ الرّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ خَاصّةً عَلَى سَبِيلِ النّجَاةِ وَسَائِرُ الْخَلْقِ عَلَى سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ وَإِلَى دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ وَاَللّهُ بَالِغٌ أَمْرَهُ لَا مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادّ لِأَمْرِهِ وَبِاَللّهِ التّوْفِيقُ [١٢٠].

لا ينجو من عذاب الله إلا الذين كانوا ينهون عن الفساد

قال تعالى :{ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (١١٧) سورة هود

لَقَدْ كَانَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ التِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِظُلْمِهَا ، جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أُولُو عَقْلٍ ، وَرَأْيٍ ، وَصَلاحٍ ، يَنْهَوْنَ المُفْسِدِينَ عَنِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ ، وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ لِكَيْلاَ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ ، لأَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ أَنْ لاَ يُهْلِكَ قَوْماً إِلاَّ إِذَا عَمَّ الفَسَادُ وَالظُّلْمُ أَكْثَرَهُمْ . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَؤُلاَءِ الأَقْوَامِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ قِلَّةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ الذِينَ لاَ يُؤْخَذُ بِرَأْيِهِمْ ، وَلاَ تُسْمَعُ كَلِمَتُهُمْ ، وَلا يُقْبَلُ أَمْرُهُمْ وَنَهْيُهُمْ . أَمَّا الأَكْثَرُونَ فَكَانُوا مِنَ الظَّالِمِينَ المُسْتَكْبِرِينَ المُعَانِدِينَ ، فَأَصَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا حَيَاةَ التَّرَفِ وَالفَسَادِ ، فَحَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الانْتِفَاعِ بِدَعْوَةِ الحَقِّ ، فَبَطَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ أَغْرَقُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الجَرَائِمِ التِي وَلَّدَهَا النَّعِيمُ وَالتَّرَفُ ، وَاسْتَسْلَمُوا لَهَا ، وَلِذَلِكَ رَجَّحُوا مَا أَتَوا بِهِ عَلى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَطَاعَةِ اللهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ . لَيْسَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى ، وَلاَ مِنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ ، أَنْ يُهْلِكَ القُرَى بِشِرْكِ أَهْلِهَا ، مَا دَامُوا مُصْلِحِينَ فِي أَعْمَالِهِم الاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالعُمْرَانِيَّةِ وَالمَدَنِيَّةِ ، فَلاَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ ، وَلاَ يَبْطِشُونَ بالنَّاسِ ، وَلاَ يُذِلُّونَ لِمُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ كَقَوْمِ فِرْعَوْنَ ، وَلاَ يَرْتَكِبُونَ الفَوَاحِشَ وَلاَ يَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَلاَ يَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ المُنْكَرَ ، بَلْ لاَ بُدَّ لَهُمْ ، لِيَحِقَّ عَلَيْهِمُ العَذَابَ وَالهَلاَكَ ، مِنْ أَنْ يَجْمَعُوا إلى الشِّرْكِ الإِفْسَادَ فِي الأَرْضِ ، وَالاسَاءَةِ فِي الأَعْمَالِ وَالأَحْكَامِ ، وَأَنْ يَفْعَلُوا الظُّلْمَ المُدَمِّرَ لِلْعُمْرَانِ .

---

[١٢٠]- زاد المعاد - (ج ٤ / ص ٣٢٩)

وَأَخْرَجَ الطَبَرَانِيُّ وَالدَّيْلَمِيُّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ : " وَأَهْلُهَا يُنْصِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ") .

فَالأُمَّةُ التِي يَقَعُ فِيهَا الفَسَادُ بِتَعْبِيدِ النَّاسِ لِغَيْرِ اللهِ بِصُورةٍ مِنْ صُوَرِهِ فَيَكُونُ فِيهَا مَنْ يَنْهَضُ لِدَفْعِهِ هِيَ أُمَمٌ نَاجِيَةٌ لاَ يَأْخُذُهَا اللهُ بِالعَذَابِ وَالتَّدْمِيرِ . أَمَّا الأُمَمُ التِي لاَ يَجدُ فِيهَا الظَّالِمُونَ مَنْ يَرْدَعُهُم وَيَنْهَاهُمء عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ فَإِنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَى تُحِقُّ عَلَيْهَا إِمَّا بِهَلاَكِ الاسْتِئْصَالِ ، وَإِمَّا بِهَلاَكِ الانْحِلاَلِ وَالاخْتِلاَلِ؟.وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم . فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله ، في صورة من صوره ، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية ، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير . فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد ، فإن سنة الله تحق عليها ، إما بهلاك الاستئصال . وإما بهلاك الانحلال . . والاختلال!

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده ، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره ، هم صمام الأمان للأمم والشعوب . . وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده ، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره . . إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب ، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله ، واستحقاق النكال والضياع . .

---

٢٣. كثرةُ الذنوب و المعاصي :

قال تعالى : {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (٤٠)} سورة العنكبوت

يُخبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ ، وَكَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وانْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَنْواعٍ مِنَ العَذَابِ ، فَعَادٌ ، قومُ هُودٍ (وَكَانُوا يَسْكُنُونَ في الأَحْقَافِ ، في مِنْطَقَةِ حَضرَمَوتَ) ، أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيهِمْ سَبْعَ لِيالٍ مُتَواصِلَةٍ فَلَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنْ بَاقِيةٍ .

وثَمُودُ قُومُ صَالِحٍ (وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الحِجْرَ قُربَ وَادي القُرَى) أَهْلَكَهُمُ اللهُ جَمِيعاً بالصَّيْحَةِ ، وبزَلزَلَةِ الأَرْضِ بِهِمْ ، لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ التِي أَخْرَجَهَا اللهُ لَهُم ، بِناءً عَلَى طَلَبِهِمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ .

وَكَانَتِ العَرَبُ تَعرِفُ مَسَاكِنَ قَومِ عَادٍ ، وَقَومِ ثَمُودَ ، وَتَمُرُّ بها في تَرْحَالِها ، وَتَرى آثَارَ الدَّمَارِ والهَلاَكِ الذي نَزَلَ بِهَا وبأَهلها . وَكَانَ سَبَبُ إِهْلاكِهِمْ هُوَ مَا زَيَّنَهُ لَهُم الشَّيْطَانُ مِنْ أعمالٍ سَيِّئَةٍ ،

وَعِبَادَةٍ غيرِ اللهِ تَعَالى ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلى الإدِراكِ والاستبْصَارِ ، والتَّمييز بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ ، وَلِذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ فِي الغَفْلَةِ ، وَعَدَمِ التَّبَصُّرِ فِي العَوَاقِبِ .

واذْكُر لِهؤلاءِ المُغْتَرِّينَ بأَمْوالِهِمْ مِنْ قُريشٍ كَيفَ أَهْلَكَ اللهُ قَارُونَ صَاحِبَ الأموالِ الكثيرةِ ، إذْ خَسَفَ بهِ وبِدَارِهِ وكُنُوزِهِ الأَرْضَ ، كَمَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ مَلِكَ مِصْرَ وَوَزِيرَهُ هَامَانَ ، فَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بالحُجَجِ والبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلى صِدْقِ رِسَالتِهِ ، فاسْتَكْبَرُوا فِي الأرضِ بغيرِ الحَقِّ ، وأَبَوا أَنْ يُصَدِّقُوهُ وأَنْ يُؤمِنُوا لَهُ ، وَلَمْ يَكُونُوا فَائِتِينَ اللهَ ، وَلاَ نَاجِينَ مِنْ عِقَابِهِ ، فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَيهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَهُوَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.

وَقَدْ أَرسَلَ اللهُ تَعَالى عَلَى كُلِّ فِئَةٍ لوناً مِنْ ألوانِ العَذَابِ يَتَنَاسَبُ مَعَ عُتُوِّهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ :

- فَقَومُ عَادٍ كَانُوا يَقُولُونَ : (مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً) ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيهِمْ ، رِيحاً شَدِيدَةَ البُرُودَةِ (صَرْصَراً) ، بَالِغَةَ العُنفِ والعُتُوِّ (عَاتِيَةً) ، تَحْمِلُ الحَصْبَاءَ ، وَترمِيهِمْ بها ، فَأَهْلَكَتْهُمْ جَميعاً .

- وقَومُ ثَمودَ كَذَّبُوا رَسُولَهُم صَالِحاً ، وَتَهَدَّدُوهُ وَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيهِمْ صَيْحَةً أَخْمَدَتْ أَنفَاسَهُمْ ، وَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَداً .

- وَقَارُونُ طَغَى وَبَغَى وعَصَى اللهَ ، وَمَشَى فِي الأَرْضِ ، مَرَحاً فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وبِدَارِهِ الأَرضَ ، وأَهلَكَهُ وكُنُوزَهُ .

- وَفِرْعَوْنُ وهَامَانُ وقَومُهُما مِنَ القِبطِ أَغرَقَهُمُ اللهُ فِي صَبيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَتْ هذهِ العَقُوبَةُ جَزَاءً عَلَى مَا اجتَرَحُوهُ مِنَ الإجْرامِ ، ولَمْ يَظْلِمْهُمُ اللهُ فيما فَعَلَ بِهِمْ ، ولَكِنَّهُمْ هُمُ الذينَ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَنفُسَهُمْ بِالكُفْرِ ، والبَطَرِ والعُتُوِّ والطُّغيَانِ ، فَأَوْصَلُوها إلى العَذَابِ والبَلاَءِ الذي حَلَّ بِها ..

وعاد كانت تسكن بالأحقاف في جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وثمود كانت تسكن بالحجر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى . وقد هلكت عاد بريح صرصر عاتية ، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة . وبقيت مساكنها معروفة للعرب يمرون عليها في رحلتي الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار التدمير ، بعد العز والتمكين .

وهذه الإشارة المجملة تكشف عن سر ضلالهم ، وهو سر ضلال الآخرين .

{ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين } . .فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى؛ ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم . وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة ، وهي غرورهم بأنفسهم ، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال ، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع . { فصدهم عن السبيل } سبيل الهدى الواحد المؤدي إلى الإيمان . وضيع عليهم الفرصة { وكانوا مستبصرين } يملكون التبصر ، وفيهم مدارك ولهم عقول .

وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان . { ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض ، وما كانوا سابقين } . .

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه ، و لم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغي والفساد . وفرعون كان طاغية غشوماً ، يرتكب أبشع الجرائم وأغلظها ، ويسخر الناس ويجعلهم شيعاً ، ويقتل ذكور بني إسرائيل ويستحيي نساءهم عتواً وظلماً . وهامان كان وزيره المدبر لمكائده ، المعين له على ظلمه وبطشه .

{ ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض } . .فلم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء . لم تعصمهم من أخذ الله ، و لم تجعلهم ناجين ولا مفلتين من عذاب الله ، بل أدركهم وأخذهم كما سيجيء

{ وما كانوا سابقين } . هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة ، قد أخذهم الله جميعاً . بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلاً : { فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} .

فعاد أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض فتضربهم وتقتلهم ، وثمود أخذهم الصيحة . وقارون خسف به وبداره الأرض ، وفرعون وهامان غرقا في اليم وذهبوا جميعاً مأخوذين بظلمهم . { وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون } . .

و قال تعالى : { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ (٦) [الأنعام/٤-٧] }

وَمَا تَنْزِلُ عَلَى المُشْرِكِينَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ تَلْفِتُ أَنْظَارَهُمْ إلى مَا أَبْدَعَهُ الخَالِقُ مِنْ صُنْعٍ فِي خَلْقِهِ هذا الكَوْنَ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى وَحدَانِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بالأُلُوهِيَّةِ ، وَعَلى صِدْق مَا أَرْسَلَ بِهِ الأَنْبِيَاءَ ، إلاَّ أَعْرَضَ عَنْهَا هؤُلاءِ الكَفَرَةُ المُكَذِّبُونَ ، اسْتِهزاءً غَيْرَ مُتَدَبِّرينَ مَعْنَاها ، وَلا مُتَفَكِّرِينَ فِي دَلاَلَتِها .وَبِسَبَبِ إعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ فِي الآيَاتِ ، وَالتَّفْكُرِ فِيهَا ، فَقَدْ كَذَّبُوا بِدِينِ اللهِ الحَقِّ ، لَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَلَمْ يَتَرَيَّثُوا ، وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا مَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَهُدًى ، وَسَيَرَوْنَ عَاقِبَةَ التَّكْذِيب وَالاسْتِهْزاءِ ، حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ العُقُوبَاتُ العَاجِلَةُ ، التِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا الآيَاتُ : مَنْ نَصْرِ الرَّسُولِ ، وَإِظْهَارِ دِينِ اللهِ ، وَإِعْزَازِ الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ . . .

يَلْفِتُ اللهُ تَعَالَى أَنْظَارَ الكُفَّارِ مِنْ قُرَيْشَ ، المُكَذِّبينَ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَرُسُلِهِ ، إِلَى الأُمَمِ العَدِيدَةِ التِي كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ رُسُلَهَا ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ، وَكَانَ تَعَالَى قَدْ مَكَّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ أَكْثَرَ مِمَّا مَكَّنَ لِهَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ ، وَأَمَدَّهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَجَعَلَهُمْ أَ : ثَرَ قُوَّةً وَعِمَارَةً فِي الأَرْضِ مِنْ هؤُلاءِ ، وَجَعَلَ السَّمَاءَ

تُمْطِرُهُمْ بِصُورَةٍ مُتَتَالِيةٍ ، مَطَراً غَزِيراً (مِدْرَاراً) ، وَفَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الأَرْضِ يَنَابِيعَ وَأَنْهَاراً ، اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ وَإِمْلاءً ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ كَأَمْسِ الدَّابِرِ . وَجَعَلَ ، مِنْ بَعْدِ هَؤُلاءِ الهَالِكِينَ ، أَجْيَالاً أُخْرَى (قَرْناً آخَرِينَ) لِيَخْتَبِرَهُمْ ، فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِ مَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا المُخَاطِبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُمَا أَصَابَهُمْ ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالعَذَابِ وَمُعَاجَلَةِ العُقُوبَةِ مِنْهُمْ ، لَوْلا لُطْفُ اللهِ وَإِحْسَانُهُ .

إنهم يتخذون موقف الإعراض عناداً واصراراً . فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها . . ليس هذا هو الذي ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر : { وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين } . .

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمدا ومقصوداً - مع توافر الأدلة ، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق - فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد : { فقد كذبوا بالحق لما جاءهم . فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون } . .

إنه الحق هذا الذي جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وخالق الإنسان من طين ، والإله في السماوات وفي الأرض الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون . إنه الحق وقد كذبوا به ، مصرين على التكذيب ، معرضين عن الآيات ، مستهزئين بالدعوة إلى الإيمان . . فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون!

ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل ، الذي لا يعرفون نوعه ولا موعده . . يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول!

وفي موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال ، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب { ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم . فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين } . .

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكنهم الله في الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق . . ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم

، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، وورث الأرض من بعدهم؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبودية له وحده ، والتلقي منه وحده – بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدعي حقوق الألوهية وخصائصها؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف .إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم يتزلقون ولا يشعرون . . حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله . . ثم تختلف أشكال النهاية : مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضاً ، ويدمر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يخضدون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم .. وهكذا تمضي دورة السنة . . السعيد من وعى أنها السنة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظن أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير!

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، ممكناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله . . ولكن الناس إنما يستعجلون . . إنهم يرون أول الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق . . ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث . . والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – في حياتهم الفردية القصيرة – نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق!

إن هذا النص في القرآن : { فأهلكناهم بذنوبهم } وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة ، ويقرر سنة ، ويقرر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ . .إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم؛ وأن هذه سنة ماضية – ولو لم

يرها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب . . كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ : فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال؛ من عوامله ، فعل الذنوب في جسم الأمم؛ وتأثيرهـا في إنشـاء حالة تنتهي إلى الدمار؛ إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التـاريخ القـديم - وإمـا بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي ، الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة الذنوب!

وأمامنا في التاريخ القريب - نسبياً - الشواهد الكافية على فعل الانحـلال الأخلاقـي ، والـدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهي بالنعيم . . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القـوة الظـاهرة والثراء العريض .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التـاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها . . ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلاّ على أساس القاعدة الاعتقادية .والتفسير الإسـلامي - بشـموله وجديتـه وصدقه وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر المادية - التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء - ولكنـه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود . . يبرز قدر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الـداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي . . ولا يغفـل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة . .

وعَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ - رضى الله عنهن أَنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » . وَحَلَّـقَ بِإِصْـبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِى تَلِيهَا . قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ « نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ » صحيح البخاري[١٢١] .

[١٢١]-برقم (٣٣٤٦)

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ حَدَّثَنِى مَوْلًى لَنَا أَنَّهُ سَمِعَ عَدِيًّا يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ:« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلاَ يُنْكِرُوهُ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ » مسند أحمد [١٢٢].

وعَنِ الْمُنْذِرِ بن جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ : " مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ ، وَأَمْنَعُ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ ". معجم الطبراني الكبير [١٢٣]

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بن جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ : " مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَمْنَعُ مِنْهُ ، وَأَعَزُّ لا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ إِلا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ " [١٢٤].

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بن جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ : " مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ بَيْنَهُمْ بِالْمَعَاصِي ، هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ ". [١٢٥]

وعَنْ جَرِيرٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ : " مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ، يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلا يُغَيِّرُونَ ، إِلا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا " . [١٢٦]

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بن جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي ، يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ وَلا يُغَيِّرُونَ ، إِلا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا " .[١٢٧]

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بن جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ : " مَا مِنْ رَجُلٍ يُجَاوِرُ قَوْمًا فَيَعْمَلُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ بِالْمَعَاصِي وَلا يَأْخُذُونَ عَلَى يَدَيْهِ ، إِلا أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابِهِ " [١٢٨].

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بن جَرِيرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ وَأَعَزُّ ، فَيَدْهُنُونَ وَيَسْكُتُونَ ، فَلا يُغَيِّرُونَ إِلا أَصَابَتْهُمْ فِيهِ عُقُوبَةٌ " [١٢٩]

وعَنِ الْمَعْرُورِ بن سُوَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ:إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا فِي النَّاسِ يَوْمَئِذٍ نَاسٌ صَالِحُونَ،

---

[١٢٢] - برقم (١٨١٩٢) صحيح لغيره

[١٢٣] -برقم (٢٣٢٧) صحيح لغيره

[١٢٤] - نفسه برقم (٢٣٢٨) صحيح لغيره

[١٢٥] -نفسه برقم (٢٣٢٩) صحيح لغيره

[١٢٦] -نفسه برقم (٢٣٣٠) صحيح لغيره

[١٢٧] - نفسه برقم (٢٣٣١) صحيح لغيره

[١٢٨] - نفسه برقم (٢٣٣٢) صحيح لغيره

[١٢٩] - نفسه برقم (٢٣٣٣) صحيح لغيره

قَالَ:بَلَى، قُلْتُ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟، قَالَ:يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّـــهِ وَرِضْوَانٍ.[130]

وعَنْ ميْمُونة، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ:لا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مُتَمَاسِكٌ أَمْرُهَا مَـــا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا، فَإِذَا ظَهَرُوا خَشِيتُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ.[131]

٢٤. السخرية واللمز والتنابز بالألقاب

قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْـــدَ الْإِيمَـــانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) } [الحجرات/١١]

يَنْهَى اللهُ تَعَالى الْمُؤْمنينَ عنِ السُّخريةِ مِنْ إخْوانِهِم الْمُؤْمِنينَ ، وَالاستْهزاءِ بهِمْ ، وَاسْتصْغَارِ شـــأْنِهم ، فَقَدْ يَكُونُ الْمُسْتَهزَأ بهِ أكْرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنهُ ، وَالْمُحتقِر لهُ ، فَيَظْلِمُ نَفْسَه بِتَحْقيرِ مَنْ وَقَّرَهُ اللهُ .

كَمَا نَهى تَعَالى النِّساءَ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ أنْ يَسْخَرْنَ مِنْ أخَواتِهِنَّ الْمُؤْمِنَاتِ ، فَقَدْ تَكُونُ الْمُسْتَهزأ بها أكرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنَ السَّاخِرةِ مِنْها . كَما أمَرَ اللهُ الْمُؤمِنينَ بألاَّ يَغْتَابَ بَعْضُهُم بَعْضاً ، وبأنْ لاَ يَعِيبَ بَعْضُـــهُمْ بَعْضاً ، وَبأنْ لا يَطْعَنَ بَعْضهُمْ فِي بَعْضٍ . وَاعْتَبَرَ تَعَالى لَمْزَ الإنسَانِ أخَاهُ كَلمْزِهِ نَفْسَهُ ، وَطَعَنَهُ أخَـــاه كَطَعْنِهِ فِي نَفْسِهِ ، لأنَّ الْمُسْلِمينَ جسَدٌ وَاحِدٌ إنِ اشتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعى لَهُ سَائِرُ الجَسَـــدِ بالسَّـــهرِ وَالحمى . كَما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

وأمرُ الله تَعَالى الْمُؤْمِنينَ بأنْ لاَ يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضاً بلَقَبٍ يَسُوؤُهُ أو يَكْرَهُهُ ، كَأنْ يَقُولَ مُسْلِمٌ لأخِيـــهِ الْمُسْلِمِ : يا فَاجرُ ، أوْ يَا غَادِرُ أو يَا عَدُوَّ اللهِ أو يَا مُنَافِقُ . . .

(وَقَالَ ابنُ عَبّاس : " إنَّ التَّنَابُزَ بالألْقَاب أنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَمِلَ السِّيئَاتِ ثُمَّ تَابَ ، وَرَجَعَ إلى الحَقِّ ، فَنَهى اللهُ تَعَالى أنْ يُعَيَّر بما سَلَفَ مِنْ عَمَلِهِ ") .

وَبئْسَتِ الصِّفَةُ ، وَبِئْسَ الاسْمُ لِلْمُؤْمِنينَ أنْ يُذكَرُوا بالفُسُوق بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِي الإيمَانِ . وَمَن لم يَتُـــبْ مِنْ نَبْزِهِ أخَاهُ الْمُؤمِنَ بلَقَبٍ يَكْرَهُهُ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْ لَمْزِهِ إخْوَتَهُ ، وَمِنْ سُخْرِيَتِهِ مِنْهُم . . فأولئِـــكَ هُمُ الظَّالِمونَ الذِينَ ظَلَمُوا أنفُسَهم فَأكْسَبُوها عِقَابَ اللهِ بِعِصْيَانِهم إيَّاهُ .

---

[130] –نفسه برقم (١٩٢٠٨) حسن لغيره

[131] –نفسه برقم (١٩٥٥٣) حسن

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس . وهي من كرامة المجموع . ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحـــدة ، كرامتها واحدة .

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : { يا أيها الذين آمنوا } . وينـــهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أي رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نســـاء مـــن نســـاء فلعلهن خير منهن في ميزان الله .

وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية ، التي يوزن بها الناس . فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمهـــا الله ، ويزن بها العباد . وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير . والرجل القوي من الرجل الضـــعيف ، والرجل السوي من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام . وقـــد يســـخر ذو الأولاد من العقيم . وذو العصبية من اليتيم . . . وقد تسخر الجميلة من القبيحـــة ، والشـــابة مـــن العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة . . ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين!

ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإحياء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها { ولا تلمزوا أنفسكم } . . واللمز : العيب . ولكن للفظة جرساً وظلاً؛ فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية!

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيباً . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به . ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هـــذا . وقد غير رسول الله – ﷺ – أسماء وألقاباً كانت في الجاهلية لأصحابها ، أحس فيها بحسه المرهـــف ، وقلبه الكريم ، بما يزري بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم .

والآية بعد الإحياء بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز : { بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان } . فهو شـــيء يشـــبه الارتداد عن الإيمان! وتهدد باعتبار هذا ظلماً ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : { ومن لم يتـــب فأولئك هم الظالمون } . . وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

{ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ فكرهتموه واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم } . .

فأما هذه الآية فتقيم سياجاً آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم ، حول حرمـات الأشـخاص بـه وكراماتهم وحرياتهم ، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم ، في أسلوب مـؤثر عجيب . .

وتبدأ – على نسق السورة – بذلك النداء الحبيب : { يا أيها الذين آمنوا } . . ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن ، فلا يتركوا نفوسهم نهباً لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنـون وشـبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر : { إن بعض الظن إثم } . وما دام النهي منصباً علـى أكثـر الظـن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيِّئ أصلاً ، لأنـه لا يدري أي ظنونه تكون إثمًا!

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيِّئ ، فيقع في الإثم؛ ويدعه نقياً بريئـاً مـن الهواجس والشكوك ، أبيض يكن لإخوانه المودة التي يخدشها ظن السوء؛ والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع . وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون!

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب . بـل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، وسياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف ، فلا يؤخذون بظنه ، ولا يحاكمون بريبة؛ ولا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم . بل لا يصـلح أن يكـون أساساً للتحقيق معهم ، ولا للتحقيق حولهم . والرسول ﷺ – يقول : « إذا ظننت فـلا تحقـق » . ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء ، مصونة حقوقهم ، وحرياتهم ، واعتبارهم . حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه . ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم!

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص! وأين أقصـى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا ، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلاً ، وحققه في واقع الحيـاة ، بعـد أن حققه في واقع الضمير؟

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون :{ ولا تجسسوا } . .والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات ، والاطـلاع علـى السوءات .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية ، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم . وتمشياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب .

ولكن الأمر أبعد من هذا أثراً . فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامـه الاجتمـاعي ، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية .

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال .

ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر – مهما يكن – لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة .

قال أبو داود : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب . قال : أتى ابن مسعود ، فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

وعن مجاهد : لا تجسسوا ، خذوا بما ظهر لكم ، ودعوا ما ستر الله .

وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن دجين كاتب عقبة . قال : قلت لعقبة : إن لنا جيراناً يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ، فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم . قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا . وإني داع لهم الشرط فتأخذهم . فقال له عقبة : ويحك! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها »

وقال سفيان الثوري ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية بن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي – ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء – رضي الله عنه – كلمة سمعها معاوية – رضي الله عنه – من رسول الله – ﷺ – نفعه الله تعالى بها .

فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي! و لم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب ، بل صار سياجاً حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم ، فلا تمس من قريب أو بعيد ، تحت أي ذريعة أو ستار

فأين هذا المدى البعيد؟ وأين هذا الأفق السامق؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظاً لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مائة عام؟

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعاً :{ ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ فكرهتموه } . .لا يغتب بعضكم بعضاً . ثم يعرض مشهداً

تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . ميتـــاً . . ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ، والتلـــويح لمن اقترف من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة :{ واتقوا الله إن الله تواب رحيم } . .

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله – ﷺ – متمشياً مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض .

وفي حديث رواه أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قيل : « يا رسول الله ، ما الغيبة؟ قال – ﷺ – : » ذكرك أخاك بما يكره « . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال – صلى الله عيه وسلم – : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتـــه ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . ورواه الترمذي وصححه .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني علي بن الأقمر عن أبي حذيفة ، « عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قلت للنبي – ﷺ – : حسبك من صفية كذا وكذا (قال عن مسدد تعني قصيرة) فقال – ﷺ – : » لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجتـــه « . قالـــت : وحكيت له إنساناً . فقال – ﷺ – : ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا » .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لما عـــرج بي مـــررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » .

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمهما رســـول الله – ﷺ – بعـــد إقرارهمـــا متطـــوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما ، سمع النبي – ﷺ – رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب! ثم سار النبي – ﷺ – حتى مر بجيفـــة حمـــار ، فقال : « أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » قالا : غفر الله لك يا رسول الله! وهل يؤكل هذا؟ قال – ﷺ – :" فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه . والذي نفسي بيده إنـــه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها "

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع ، وانتهى إلى ما صار إليـــه : حلمـــاً يمشي على الأرض ، ومثلاً يتحقق في واقع التاريخ .

---

٢٥. اتباعُ الشهوات :

قال تعالى :{يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧)} سورة النساء .

إنَّ اللهَ يُرِيدُ أنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ ، أيُّها المُؤْمِنُونَ ، مَا أَحَلَّ لَكُمْ ، وَمَا حَرَّمَ عَلَيْكُم ، وَأَنْ يَهْدِيكُمْ إلى سُنَنِ مَنْ كَانُوا قَبْلَكُمْ ، وَطَرَائِقِهِمُ الحَمِيدَةُ ، وَإلى اتِّبَاعِ شَرَائِعِهِ التِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا ، وَيُرِيدُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْكُم مِمَّا ارْتَكَبْتُمْ مِنَ الإِثْمِ وَالمَحَارِمِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

وَاللهُ يُرِيدُ بِمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ الأَحْكَامِ أنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ مَا فِيهِ مَصَالِحُكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ ، وَأَنْ تَهْتَدُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحاً ، وَتَتَّبِعُوا شَرْعَهُ لِيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيئَاتِكُمْ ، وَيُرِيدُ أَتْبَاعُ الشَّيْطَانِ الضَّالُونَ أنْ تَمِيلُوا عَنِ الحَقِّ إلى البَاطِلِ مَيْلاً عَظِيماً ..

إن الله – سبحانه – يتلطف مع عباده؛ فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر . إنه يكرمهم – سبحانه – وهو يرفعهم إلى هذا الأفق . الأفق الذي يحدثهم فيه ، ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم؛ وليقول لهم : إنه يريد : أن يبين لهم . .

{ يريد الله ليبين لكم } . .يريد الله ليكشف لكم عن حكمته؛ ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة ، وأن تتدبروها ، وأن تقبلوا عليها مفتوحي الأعين والعقول والقلوب؛ فهي ليست معميات ولا ألغازاً؛ وهي ليست تحكماً لا علة له ولا غاية؛ وأنتم أهل لإدراك حكمتها؛ وأهل لبيان هذه الحكمة لكم . . وهو تكريم للإنسان ، يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم .

{ ويهديكم سنن الذين من قبلكم } . .فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعاً . وهو منهج ثابت في أصوله ، موحد في مبادئه ، مطرد في غاياته وأهدافه . . هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد . ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون .

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان؛ ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان؛ ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول ، في الطريق اللاحب الطويل . وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه . . إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الإلهي ، على اختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الأوطان؛ والألوان وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل ، ومن كل قبيل .{ ويتوب عليكم } . .فهو – سبحانه – يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ليرحمكم . . . ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل ، والتوبة من المعصية . ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه . .

{ والله عليم حكيم } . . .فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات . ومن العلم والحكمة تجيء هذه التوجيهات . العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة في

طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء . { والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً } . .

وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله – وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات – فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام ، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبـــع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال .فماذا يريد الله بالناس ، حين يبين لهم منهجه ، ويشـــرع لهم سنته؟ إنه يريد أن يتوب عليهم . يريد أن يهديهم . يريد أن يجنبهم المزالق . يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة .وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للنـــاس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، و لم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدن لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنـــهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم.وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات الســـابقة : ميدان تنظيم الأسرة؛ وتطهير المجتمع؛ وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة ، التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء؛ وتحريم ما عداها من الصور ، وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون . . في هـــذا الميدان الخاص ما الذي يريده الله وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات؟

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة . وفيها إرادة التنظيم ، وإرادة التطهير ، وإرادة التيسير ، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال .وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال : ديني ، أو أخلاقي ، أو اجتماعي .. يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح ، من أي لون كان . السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعـــود الآدميون قطعاناً من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلـــة أو مطلق الوسيلة! كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية ، وهي – في هـــذا الوضع – ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة!

وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه ، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات . وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي ، الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف . وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي ، الذي لا عاصم منه ، إلا منهج الله ، حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله .

---

٢٦. التحاكمُ إلى الطاغوت (مهما كان نوعه) :

قال تعالى :{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣)} سورة النساء

يُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَدَّعِي الإِيمَانَ بِاللهِ ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَصْلِ الخُصُومَاتِ إلى غَيْرِ كِتَابِ الله ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ .

(وَقِيلَ : إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنْصَارِيٍّ وَيَهُودِيٍّ اخْتَلَفَا فِي شَيْءٍ ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ . وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ (وَهُوَ مِنْ كُبَرَاءِ اليَهُودِ) . وَيَذُمُّ اللهُ تَعَالَى الذِينَ يَعْدِلُونَ عَنْ شَرْعِ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ، إلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ البَاطِلِ (وَهُوَ المُرَادُ هُنَا بِالطَّاغُوتِ) ، وَقَدْ أُمِرُوا بِأَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَبِحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ الى اتِّبَاعِهِ لِيُضِلَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَشَرْعِهِمْ وَهُدَى رَبِّهِمْ ، وَيُبْعِدَهُمْ عَنْهَا

وَإِذَا دُعِيَ هَؤُلاءِ – الذِينَ يَدَّعُونَ الإِيمَانَ ، ثُمَّ يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إلى الطَّاغُوتِ – إلى رَسُولِ اللهِ لِلتَّحَاكُمِ لَدَيْهِ ، وِفْقاً لِمَا شَرَعَ اللهُ ، اسْتَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا وَرَغِبُوا عَنْ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ إعْرَاضاً مُتَعَمَّداً مِنْهُمْ .

فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إذَا سَاقَتْهُمُ المَقَادِيرُ إلَيكَ فِي مَصَائِبَ تَحِلُّ بِهِمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ ، وَاحْتَاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ جَاؤُوكَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِذَهَابِهِمْ إلى غَيْرِكَ ، وَبِتَحَاكُمِهِمْ إِلَى أَعْدَائِكَ ، إلا المُدَارَاةَ وَالمُصَانَعَةَ (إحْسَاناً وَتَوْفِيقاً) ، لاَ اعْتِقَاداً مِنْهُمْ بِصِحَّةِ تِلْكَ الحُكُومَةِ .

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ المُنَافِقُونَ ، وَاللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ مَبْلَغَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الكُفْرِ وَالحِقْدِ وَالكَيْدِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لاَ تَخْفَى عَلَيهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ . ثُمَّ يَدْعُو اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ إلى مُعَامَلَتِهِمْ :

– أَوْلاً : بِالإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَعَدَمِ الإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ بِالبَشَاشَةِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ المُعَامَلَةِ يُثِيرُ فِي نُفُوسِهِمُ الهَوَاجِسَ وَالشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ .– ثُمَّ بِالنُّصْحِ وَالتَّذْكِيرِ بِالخَيْرِ ، عَلَى وَجْهٍ تَرِقُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَيَبْعَثُهُمْ عَلَى التَّأَمُّلِ فِيمَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ العِظَاتِ .– ثُمَّ بِالقَوْلِ البَلِيغِ ، الذِي يُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِهِمْ ، كَالتَّوَعُّدِ بِالقَتْلِ ، وَالاسْتِئْصَالِ إنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ نِفَاقٌ ، وَأنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللهَ عَالِمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ ..

إن هذا التصوير لهذه المجموعة التي تصفها النصوص ، يوحي بأن هذا كان في أوائل العهد بالهجرة . يوم كان للنفاق صولة؛ وكان لليهود – الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين – قوة . .

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله - إلى الطاغوت - قد يكونون جماعة من المنافقين - كما صرح بوصفهم في الآية الثانية من هذه المجموعة - وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يُدعَوْن - حين تجدّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة - إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها . . التوراة أحياناً ، وإلى حكم الرسول أحيانا - كما وقع في بعض الأقضية - فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلي الذي كان سائداً . . ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم : { يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك } . . واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول . إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله (كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسل كلهم) .وهذا لم يكن يقع إلا في السنوات الأولى للهجرة . قبل أن تخضد شوكة اليهود في بني قريظة وفي خيبر . وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود في المدينة!

على أية حال نحن نجد في هذه المجموعة من الآيات ، تحديداً كاملاً دقيقاً حاسماً لشرط الإيمان وحد الإسلام ، ونجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين { يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت } { وقد أمروا أن يكفروا به } كما نجد قسماً من الله سبحانه - بذاته العلية - أنهم لا يدخلون في الإيمان؛ ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكموا الرسول - ﷺ - في أقضيتهم . ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه . طاعة الرضى ، وتنفيذ الارتياح القلبي؛ الذي هو التسليم ، لا عجزاً واضطراراً .ولكن طمأنينة وارتضاء . .{ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت - وقد أمروا أن يكفروا به - ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً } . .ألم تر إلى هذا العجب العاجب . . قوم . . يزعمون . . الإيمان . ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟! قوم { يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك } . ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر ، وإلى منهج آخر ، وإلى حكم آخر . . يريدون أن يتحاكموا إلى . . الطاغوت . . الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . ولا ضابط له ولا ميزان ، مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . . ومن ثم فهو . . طاغوت . . طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية . وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضاً! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن ظن . . إنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً ، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه : { وقد أمروا أن يكفروا به } . . فليس في الأمر جهالة ولا ظن . بل هو العمد والقصد . ومن ثم لا يستقيم ذلك الزعم . زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب . .

{ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً } . .فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت . وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى

الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم . لعلهم يتنبهون فيرجعوا . ويكشفه للجماعة المسلمة ، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك .

ويمضي السياق في وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله إلى الرسول وما أنزل من قبله . . ذلك الذي يزعمون أنهم آمنوا به :{ وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً } .يا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري . . وإلا ما كان نفاقاً . .

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه . ثم دعي إلى هذا الذي آمن ، به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه؛ كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية . فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية . ويكشف عن النفاق . وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان!

وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله – سبحانه – أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله . ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله . بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدوداً!

ثم يعرض مظهراً من مظاهر النفاق في سلوكهم؛ حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول؛ أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت .

ومعاذيرهم عند ذلك . وهي معاذير النفاق : { فكيف إذا أصابتهم مصيبة – بما قدمت أيديهم – ثم جاءوك يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً } . .وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة – يومذاك – حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة والازدراء في الوسط المسلم . فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناساً يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه؛ ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله؛ أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها . . إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان . وكل ما له من الإيمان زعم كزعم هؤلاء؛ وكل ما له من الإسلام دعوى وأسماء!

أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل؛ ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت؛ في قضية من قضاياهم .أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم . لعلهم يتفكرون ويهتدون . .وأياً ما كان سبب المصيبة؛ فالنص القرآني ، يسأل مستنكراً : فكيف يكون الحال حينئذ! كيف يعودون إلى الرسول – ﷺ – :{ يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً } . .إنها حال مخزية . . حين يعودون شاعرين بما فعلوا . . غير قادرين على مواجهة الرسول – ﷺ – بحقيقة دوافعهم . وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين : أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت – وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية – إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائماً دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته : أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب ، التي تنشأ

من الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة . . إنها حجة الذين يزعمون الإيمان - وهم غير مؤمنين - وحجة المنافقين الملتوين . . هي هي دائماً وفي كل حين!

والله - سبحانه - يكشف عنهم هذا الرداء المستعار . ويخبر رسوله - ﷺ - أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم . ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق ، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء : { أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً } . . أولئك الذين يخفون حقيقة نواياهم وبواعثهم؛ ويحتجون بهذه الحجج ، ويعتذرون بهذه المعاذير . والله يعلم خبايا الضمائر ومكنونات الصدور . . ولكن السياسة التي كانت متبعة - في ذلك الوقت - مع المنافقين كانت هي الإغضاء عنهم ، وأخذهم بالرفق ، واطراد الموعظة والتعليم . .

والتعبير العجيب : { وقل لهم . . في أنفسهم .. قولاً بليغاً } .تعبير مصور . . كأنما القول يودع مباشرة في الأنفس ، ويستقر مباشرة في القلوب .وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله . . بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت؛ ومن الصدود عن الرسول - ﷺ - حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول

وقال تعالى : {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢٥٧) سورة البقرة

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بألاَّ يُكْرِهُوا أَحَداً عَلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلامِ ، لأنَّ الإِسْلاَمَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لاَ يَحْتَاجُ إلى أنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ . وَالإِيمانُ إِذْعَانٌ وخُضُوعٌ ، وَلا يَكُونَ ذَلِكَ بِالإِلْزامِ وَالإِكراهِ . وَإنما يَكونُ بالحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ وَالبُرْهَانِ ، وَقَدْ ظَهَرَ أنَّ فِي هذا الدِّينِ الرُّشْدَ والصَّلاَحَ ، وَأنَّ مَا خَالَفَهُ مِنَ المِلَلِ الأخْرى غَيٌّ وَضَلالٌ .

فَمَنْ كَفَرَ بالأَنْدَادِ وَالأَوْثَانِ وَمَا يَدْعُو إِلَيهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبادَةِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (أَيْ وَمَنْ كَفَرَ بِمَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ وَالإِيمَانُ بِهِ سَبَباً فِي الطُّغْيَانِ وَالخُرُوجِ عَنِ الحَقِّ مِنْ عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ) فَقَدْ ثَبَتَ أَمْرُهُ ، وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ المُثْلَى ، وَأَمْسَكَ بِأوْثَقِ عُرَى النَّجَاةِ التي تَمْنَعُهُ مِنَ التَّرَدِّي فِي مَهَاوِي الضَّلاَلاَتِ .

وَاللهُ سَمِيعٌ لأَقْوَالِ مَنْ يَدَّعِي الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ ، وَالإِيمَانَ بِاللهِ . عَلِيمٌ بِمَا يُكِنُّهُ قَلْبُهُ مِمّا يُصَدِّقُ هَذا أوْ يُكَذِّبُهُ .

الطَّاغُوتِ – هُوَ كُلُّ مَا كَانَ عَليهِ أهْلُ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيها ، وَالاسْتِنْصَارِ بِهَا ، وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّ الطّاغُوتَ هُوَ الشَّيْطَانُ .

اللهُ وَلِيُّ الذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ ، فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ والشَّكِّ وَالرَّيبِ إلى نُورِ الحَقِّ الوَاضِحِ . وَالمُؤْمِنُ لاَ وَلِيَّ لَهُ ، وَلاَ سُلْطَانَ لأَحَدٍ عَلَى اعْتِقَادِهِ إلاَّ اللهُ تَعَالَى . أَمَّا الذِينَ كَفَرُوا فَوَلِيُّهُمُ الشَّيْطَانُ ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ وَالجَهَالَةِ ، وَيُخْرِجَهُمْ عَنْ طُرِيقِ الحَقِّ وَنُورِهِ ، إلى الكُفْرِ وَظُلُمَاتِهِ ، وَيُؤدِّي بهِمْ إلى نَارِ جَهَنَّمَ لِيَبْقَوا فِيها خَالِدِينَ أَبداً . وَالنُّورُ هُوَ الحَقُّ ، وَالحَقُّ وَاحِدٌ ، أمَّا الظُّلُمَاتُ وَهِيَ الكُفْرُ فَهِيَ أجْنَاسٌ ..

إن قضية العقيدة – كما جاء بها هذا الدين – قضية اقتناع بعد البيان والإدراك؛ وليست قضية إكراه وغصب وإجبار . ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته . يخاطب العقل المفكر ، والبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة . يخاطب الكيان البشري كله ، والإدراك البشري بكل جوانبه؛ في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجىء مشاهدها الجاء إلى الإذعان ، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك .

وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة ، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع .وكانت المسيحية – آخر الديانات قبل الإسلام – قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية . بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحباً! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية؛ بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة؛ وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح!

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن – في أول ما يعلن – هذا المبدأ العظيم الكبير :

{ لا إكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي } . .وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه . . وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني . . التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة؛ لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله – باختياره لعقيدته – أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية ، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها؛ فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا – وهو يحرمه من الإيمان باله للكون يصرف هذا الكون – وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب!

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق « الإنسان » التي يثبت له بها وصف « إنسان » . فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد ، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء . . ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة . . وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة .

والإسلام – وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء – هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين؛ وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .

. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهي تفرض فرضاً بسلطان الدولة؛ ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟!

والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق : { لا إكراه في الدين } . . نفي الجنس كما يقول النحويون . . أي نفي جنس الإكراه . نفي كونه ابتداء . فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع . وليس مجرد نهي عن مزاولته . والنهي في صورة النفي – والنفي للجنس – أعمق إيقاعاً وآكد دلالة.

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى ، وتهديه إلى الطريق ، وتبين حقيقة الإيمان التي اعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول :

{ قد تبين الرشد من الغي } . .فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه . والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به .

والأمر كذلك فعلاً . فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان ، وما تمنحه للإدراك البشري من تصور ناصع واضح ، ، وما تمنحه للقلب البشري من طمأنينة وسلام ، وما تثيره في النفس البشرية من اهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة ، وما تحققه في المجتمع الإنساني من نظام سليم قويم دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة . . ما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذي لا يرفضه إلا سفيه ، يترك الرشد إلى الغي ، ويدع الهدى إلى الضلال ، ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء!

ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً : { فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها } . .

إن الكفر ينبغي أن يوجه إلى ما يستحق الكفر ، وهو { الطاغوت } . وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو { الله } .

والطاغوت صيغة من الطغيان ، تفيد كل ما يطغى على الوعي ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله ، ومن الشريعة التي يسنها الله ، ومنه كل منهج غير مستمد من الله ، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله . فمن

يكفر بهذا كله في كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجا . . وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وهنا نجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية . . إن الإيمان بالله عـــروة وثيقـــة لا تنفصم أبداً . . إنها متينة لا تنقطع . . ولا يضل المسك بها طريق النجاة . . إنها موصـــولة بمالـــك الهلاك والنجاة . . والإيمان في حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقـــائق في هـــذا الوجود . . حقيقة الله . . واهتداء إلى حقيقة الناموس الذي سنه الله لهذا الوجود ، وقام بـــه هـــذا الوجود .

والذي يمسك بعروته يمضي على هدى إلى ربه؛ فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفـــرق بـــه الســـبل ولا يذهب به الشرود والضلال .

{ والله سميع عليم } . .يسمع منطق الألسنة ، ويعلم مكنون القلوب . فالمؤمن الموصول به لا يُبخس ولا يظلم ولا يخيب .

ثم يمضي السياق يصور في مشهد حسي حي متحرك طريق الهدى وطريق الضلال؛ وكيـــف يكـــون الهدى وكيف يكون الضلال . . يصور كيف يأخذ الله – ولي الذين آمنوا – بأيديهم ، فيخـــرجهم من الظلمات إلى النور . بينما الطواغيت – أولياء الذين كفروا – تأخذ بأيدهم فتخرجهم من النـــور إلى الظلمات!

إنه مشهد عجيب حي موح . والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء ، جيئة من هنا وذهاباً من هناك . بدلاً من التعبير الذهني المجرد ، الذي لا يحرك خيالاً ولا يلمس حساً ولا يستجيش وجـــداناً ولا يخاطـــب إلا الذهن بالمعاني والألفاظ .

فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية ، فلنحاول أن نضع في مكان هذا المشهد الحي تعبيراً ذهنياً أياً كان . لنقل مثلاً : الله ولي الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان . والـــذين كفـــروا أوليـــاؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران . . إن التعبير يموت بين أيدينا ، ويفقد ما فيه من حـــرارة وحركـــة وإيقاع!

---

٢٧. التقدمُ على الله ورسوله ﷺ بقول أو فعل :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَـــمِيعٌ عَلِـــيمٌ} (١) سورة الحجرات

يُؤَدِّبُ اللهُ تَعَالى في هذِهِ الآيَةِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنينَ ، وَيُعَلِّمُهُمْ أصُولَ مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ والتَّعَامُلِ مَعَـــهُ ، وَتَوْقِيَته حَقَّهُ مِنَ التَّوقِيرِ والاحْتِرَامِ . فَيَقُولُ تَعَالى لِلْمُؤمِنين : لا تُسْرِعُوا في القَضَاءِ في أمْـــرٍ قَبْـــلَ أن

يَقْضِيَ لَكُم فِيهِ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَكُونُوا تَبَعاً لِقَضَائِهِما وَأَمْرِهما ، وَلاَ تَتَكَلَّمُوا فِي أمْـــرٍ قَبْـــلَ أنْ يَـــأْتِيَ الرَّسولُ عَلَى الكَلامِ فِيهِ ، وَلا تَفْعَلُوا فِعْلاً قَبْلَ أنْ يَفْعَلَهُ الرَّسُولُ ، واتَّقُوا اللهَ يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ ، فَإِنَّـــهُ سَمِيعٌ لما تَقُولُونَ ، عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ..

يا أيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحاً ، لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم . ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا في أمر لا ترجعـــون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا . لو صح كذا . فكره الله تعـــالى ذلك . وقال العوفي : نهوا أن يتكلموا بين يديه . وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشـــيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله . وهو منهج في التلقي والتنفيذ . وهو أصل من أصـــول التشـــريع والعمل في الوقت ذاته . . وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشـــعور بأن الله سميع عليم . . وكل ذلك في آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقـــائق الأصـــيلة الكبيرة .

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله؛ ومـــا عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله – ﷺ – أن يدلي به؛ وما عاد أحد منهم يقضـــي برأيه في أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . .

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة – بإسناده – « عن معاذ – رضي الله عنه – حيث قال له النبي – ﷺ – حين بعثه إلى اليمن : » بم تحكم؟ « قال : بكتاب الله تعالى . قال – ﷺ – : » فإن لم تجد؟ « قال : بسنة رسول الله – ﷺ – قال – ﷺ – : » فإن لم تجد؟ « قال – رضي الله عنـــه – : أجتهد رأيي . فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله – ﷺ – لما يرضـــي رسول الله » .

وحتى لكأن رسول الله – ﷺ – يسألهم عن اليوم الذي هم فيه ، والمكان الذي هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله!

جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي – رضي الله عنه – « أن الـــنبي – ﷺ – ســـأل في حجة الوداع : » أي شهر هذا؟ « . . قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : » أليس ذا الحجة؟ « قلنا : بلى! قال : » أي بلد هذا؟ « قلنا : الله ورسوله أعلـــم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : » أليس البلدة الحرام؟ « قلنا بلى! قال : » فأي يوم

هذا؟ « قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : » ألـيس يـوم النحر؟ « قلنا بلى! . . الخ » .

فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلـك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم .

---

٢٨. عدمُ تحكيم الرسول ﷺ في شئون حياتنا :

قال تعالى : { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (٦٥) سورة النساء

يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى أنَّ أولَئِكَ الذِينَ رَغِبُوا عَنِ التَّحَاكُمِ إلى الرَّسُول ، وَمَـنْ مَاثَلَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، لاَ يُؤْمِنُونَ إيمَاناً حَقّاً (أَيْ إِيمَانَ إِذْعَانٍ وَانْقِيَادٍ) إلاّ إذَا كَمُلَـتْ لَهُـمْ ثَـلاثُ خِصَالٍ :

- أنْ يُحَكِّمُوا الرَّسُولَ فِي القَضَايَا التِي يَخْتَصِمُونَ فِيهَا ، وَلاَ يَبِينُ لَهُمْ فِيهَا وَجْهُ الحَقِّ .
- ألاّ يَجِدُوا ضِيقاً وَحَرَجاً مِمَّا يَحْكُمُ بِهِ ، وَأنْ تُذْعِنَ نُفُوسُهُمْ لِقَضَائِهِ ، إذْعَاناً تَامَّاً دُونَ امْتِعَاضٍ مِنْ قَبُولِهِ وَالعَمَلِ بِهِ ، لأَنَّهُ الحَقُّ وَفِيهِ الخَيْرُ .
- أنْ يَنْقَادُوا وَيُسَلِّمُوا لِذَلِكَ الحُكْمِ ، مُوقِنِينَ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فِي حُكْمِهِ ، وَبِعِصْمَتِهِ عَنِ الخَطَأ ..

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام . يقرره الله سبحانه بنفسه . ويقسم عليه بذاته . فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويل لمؤول .

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام . . وهي أن هذا القول مرهون بزمان ، وموقوف على طائفـة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئاً؛ ولا يفقه من التعبير القرآني قلـيلاً ولا كـثيراً . فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام؛ جاءت في صورة قسم مؤكد؛ مطلقة من كل قيد . . ولـيس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله – ﷺ – هو تحكيم شخصه . إنمـا هـو تحكـيم شريعته ومنهجه . وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته – ﷺ – وذلك قـول أشـد المرتدين ارتداداً على عهد أبي بكر – رضي الله عنه – وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتـدين . بـل قاتلهم على ما هو دونه بكثير . وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله ، في حكم الزكاة؛ وعدم قبـول حكم رسول الله فيها ، بعد الوفاة!

وإذا كان يكفي لإثبات « الإسلام » أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسـوله . . فانـه لا يكفي في « الإيمان » هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي ، والقبول القلبي ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان!

هذا هو الإسلام .. وهذا هو الإيمان . . فلتنظر نفس أين هي من الإسلام؛ وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان!

وقال تعالى محذرا :{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (٦٣) سورة النور

كَانَ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُنَادِي رَسُولَ اللهِ ﷺ بيَا مُحَمَّدُ ، أو بيَا أَبَا القَاسِمِ . . . فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ تَعْظِيماً لِقَدْرِ الرَّسُولِ وَتَبْجيلاً ، فَقَالَ قُولُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَيَا رَسُولَ اللهِ . وَيُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ الذين يَتَسَلَّلُونَ وَيَذْهبُونَ بدُونَ إذْنٍ . يَلُوذُ بَعْضُهُمْ ببعْضٍ ، وَيَتَدَارَى بَعْضُهم بِبَعْضٍ لِكَيْلاَ يَرَاهُم الرَّسُولُ ، فَعَيْنُ اللهِ تَرَاهُمْ وَإِنْ لَمْ تَرَهُمْ عَيْنُ الرَّسُولِ . وَيُوَرِّ اللهُ تَعَالَى حَالَ هَؤُلاءِ وَهُمْ يَتَسَلَّلُونَ بحَذَرٍ مِنْ مَجْلِسِ الرَّسُولِ ، مِمَّا يُمَثِّلُ جُبْنَهُمْ عَنَ الْمُوَاجَهَةِ وَطَلَبِ الإِذْنِ . وَيُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى هَؤُلاءِ الْمُنَافِقِينَ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِ اللهِ ، وَيَتَّبِعُونَ نَهْجاً غَيْرَ نَهْجِهِ ، وَيَتَسَلَّلُونَ مِنِ الصَّفِّ ابْتِغَاءَ مَنْفَعَةٍ ، أو اتِّقَاءَ ضَرَرٍ ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ أَنْ تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ تَخْتَلُّ فِيهَا الْمَوَازِينُ ، وَيَضَطَرِبُ فِيهَا النِّظَامُ ، فَيَخْتَلِطُ الحَقُّ بالبَاطِلِ ، وَتَفْسُدُ أُمُورُ الجَمَاعَةِ وَحَيَاتُها ، أَو يُصِيبُهم عَذَابٌ أليمٌ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ . .

---

٢٩. تولي أعداء الله ورسوله ﷺ من الكفار والفجار

قال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} (١٣) سورة الممتحنة

بَعْدَ أَنْ نَهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَادَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، عَادَ تَعَالَى فَكَرَّرَ هَذَا النَّهْيَ فِي آخِرِهَا فَقَالَ : يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لاَ تُوَالُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلاَ تَتَّخِذُوهُمْ أَصْدِقَاءَ لَكُمْ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بمَا يَضُرُّ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَهَؤُلاَءِ الكُفَّارُ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الخَيْرِ والنَّجَاةِ فِي الآخِرَةِ لِعِنَادِهِمْ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفْرِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللهِ . . كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ بَعْثِ مَوْتَاهُمْ ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْتَقِدُونَ بِبَعْثٍ وَلاَ حَشْرٍ وَلاَ حِسَابٍ .

يجيء هتافا للذين آمنوا باسم الإيمان ، وبالصفة التي تميزهم عن سائر الأقوام ، إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله .

وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود ، استنادا إلى دمغهم بهذه الصفة في مواضع أخرى من القرآن . ولكن هذا لا يمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم في السورة ، وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يائس

من الآخرة ، لا يعلق بها رجاء ، ولا يحسب لها حسابا كيأس الكفار من الموتى - أصحاب القبور - لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليكون هو الإيقاع الأخير . الذي تترك السورة أصداءه في القلوب . .

٣٠. تولي اليهود والنصارى :

قال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ (٥٣) سورة المائدة

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنينَ عَنْ مُوَالاَةِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَاتِّخَاذِهِمْ حُلَفاءَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ إنَّ مَنْ يَتَّخِذُهُمْ نُصَرَاءَ وَحُلَفَاءَ وَأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَهُوَ مِنْهُمْ فِي التَّحَزُّبِ عَلى اللهِ وَرَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ . وَمَنْ يَتَولَّى أَعْدَاءُ اللهِ فَهُوَ ظَالِمٌ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِيهِ إلى الخَيْرِ . وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُؤْمِنينَ مِنْهُمْ وَلِيٌّ وَلا نَصِيرٌ .

وَإِذْ كَانَتْ وَلاَيَةُ أَهْلِ الكِتَابِ لاَ يَتْبَعُها إلاَّ الظَالِمُونَ فَإنَّكَ تَرَى الذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ (مَرَضٌ) يُبَادِرُونَ إلَى مُوَالاَتِهِمْ ، وَإلَى مُوَادَّتِهِمْ فِي البَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَيَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَفِي مُوَالاَتِهِمْ ، أنَّهُمْ يَخْشَونَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الكَافِرِينَ بالمُسْلِمِينَ (تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) فَتَكُونَ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ حِينَئِذٍ . فَعَسَى اللهُ أنْ يُتِمَّ أَمْرَهُ بِنَصْرِ المُسْلِمِينَ ، وَيُحَقِقَ لَهُمُ الفَتْحَ وَالغَلَبَةَ ، أَوْ يَتِمَّ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ كَفَرْضِ الجِزْيَةِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَيُصْبِحَ الذِينَ وَالَوْا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ المُنَافِقِينَ نَادِمِينَ عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُوَالاَةِ هَؤُلاَءِ تَحَسُّباً لِمَا لَمْ يَقَعْ ، وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ شَيْئاً ، وَلاَ دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُوراً .

(هَذِهِ الآيَةُ وَالتِي قَبْلَهَا نَزَلَتَا فِي عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ مِنَ الخَزْرَجِ ، فَقَدْ كَانَ لَهُمَا حُلَفَاءُ مِنَ اليَهُودِ ، فَجَاءَ عُبَادَةَ إلَى الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ لِي مَوَالٍ مِنَ اليَهُودِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، وَإِنِي أَبْرَأ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلاَيَةِ يَهُودٍ ، وَأَتَوَلّى اللهَ وَرَسُولَهُ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ : إنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ وَلاَ أَبْرَأ مِنْ وَلاَيَةِ مَوَالِيَّ) .

لَمَّا التَجَأَ هَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى يُوالُونَهُمْ وَيُوادُّونَهُمْ ، افْتَضَحَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَتَسَتَّرُونَ ، لاَ يَدْرِي أَحَدٌ كَيْفَ حَالُهُمْ ، فَتَعَجَّبَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ ، كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، يُعَاضِدُونَهُمْ وَيُسَاعِدُونَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمِ اليَهُودِ ، فَلَمَّا جَدَّ الجِدُّ أَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ مُوَالاَتِهِمْ وَمُمَالأَتِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . وَلَمَّا اسْتَبَانَ حَالُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا : لَقَدْ هَلَكَتْ أَعْمَالُ هَؤُلاَءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ صَلاَةٍ وَصَوْمٍ وَزَكَاةٍ وَجِهَادٍ ، وَخَسِرُوا بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنَ الثَّوَابِ ..

يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة التي يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة . فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه . . وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أي شيء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله : { قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل . وأن أكثركم فاسقون؟؟ } فهذه هي العقدة؛ وهذه هي الدوافع الأصيلة!

وقيمة هذا المنهج ، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية فيه ، عظيمة . فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها . . أمران مهمان سواء في تحقيق شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم ، أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة . . فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلاً ، ولا يكونون في ذواتهم شيئاً ، ولا يحققون في واقع الأرض أمراً ما لم تتم في نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم ، وما لم يتمحض ولاؤهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به ، وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التي يخوضونها معهم ، وما لم يستيقنوا أنهم جميعاً إلب عليهم ، وأن بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء .

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء ، واتخاذهم أولياء شيء آخر ، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين ، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته ، بوصفه حركة منهجية واقعية ، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض ، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية؛ وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة ، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله ، وتدخل في معركة لا حيلة فيها ، ولا بد منها ، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده ، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة . .

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة

الصريحة فيها ، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق ، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة . ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب . . بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة . . وأن هذا شأن ثابت لهم ، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم . وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة . وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . . إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة .

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم . وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب ، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه ، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له . .وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! - ناسين تعليم القرآن كله؛ وناسين تعليم التاريخ كله .فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : { هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً } . وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم درعاً ورداً . وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام ، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذي شردوا العرب المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان . . في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية ، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر . ندفع به المادية الإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرأون القرآن . وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام؛ فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن .إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس . الموقف الذي لا يمكن تبديله . لأنه الموقف الطبيعي الوحيد!

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني ، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . بعضهم أولياء بعض . . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدي القوم الظالمين } . .هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة . . موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة : { الذين آمنوا } . .

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا ، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف ، وعلاقات اقتصاد وتعامل ، وعلاقات جيره وصحبه . . وكان هذا كله طبيعياً مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام ، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة . . وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله؛ بكل صنوف الكيد التي عددها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة؛ والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال؛ والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص .ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة . ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة . المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية . فهذه صفة المسلم دائماً . ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا . . الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل .

---

٣١. عدمُ تحكيم شرع الله تعالى في شئون حياتنا :

قال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ

بآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)} سورة المائدة

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ وَالتِي بَعْدَهَا فِي المُنَافِقِينَ ، الذِينَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي أعْدَاءِ الإسْلامِ مِنَ اليَهُودِ ، الذِينَ كَانُوا كَثِيري الاسْتِمَاعِ إلى كَلامِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَالإخْبَارِ عَنْهُ ، لأجْلِ الكَذِبِ عَلَيهِ بِالتَّحْرِيفِ وَاسْتِنْبَاطِ الشُّبُهَاتِ ، فَهُمْ جَوَاسِيسُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ لأعْدَائِهِمْ ، مَهَمَّتُهُمْ إبْلاغُ رُؤُوسِ الكُفْرِ أَعْدَاءِ الإسْلاَمِ ، كُلَّ مَا يَقِفُونَ عَلَيهِ لِيَكُونَ مَا يَفْتَرُونَهُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَالمُسْلِمِينَ مِنْ كَذِبٍ مَقْبُولاً ، لأنَّهُمْ يَرْوُونَ مَا يُقَالُ ، وَيُحَرِّفُونَ فِيهِ ، وَكَانَ هَؤُلاءِ يَأْتُونَ إلى الرَّسُولِ ﷺ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهُ ، ثُمَّ يَنْقُلُونَ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْهُ إلى الرُّؤسَاءِ ذَوِي الكَيْدِ ، الذِينَ لَمْ يَأْتُوا إلَى النَّبِيِّ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهُ بِآذَانِهِمْ ، إمّا كِبْراً وَإمَّا تَمَرُّداً .

وَيَقُومُ الرُّؤسَاءُ الرُّوحِيُّونَ مِنَ اليَهُودِ بِتَحْرِيفِ كَلامِ التَّورَاةِ مِنْ بَعْدِ أنْ وَضَعَهُ اللهُ فِي مَوَاضِعِهِ ، وَأَحْكَمَهُ ، إمَّا تَحْرِيفاً لَفْظِيّاً ، بِإبْدَالِ كَلِمَةٍ بِكَلِمَةٍ ، وَإمّا بِإخْفَائِهِ وَكِتْمَانِهِ ، وَإما بِالزِّيَادَةِ فِيهِ ، أوْ بِالنَّقْصِ مِنْهُ ، وَإمَّا تَحْرِيفاً مَعْنَوِيّاً ، بِحَمْلِ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنىً يَخْتَلِفُ عَنِ المَعْنَى الذِي قَصَدَهُ الشَّارِعُ ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إنْ حَكَمَ لَكُمْ مُحَمَّدٌ الحُكْمَ الذِي تُرِيدُونَ فَاقْبَلُوهُ ، وَإنْ قَضَى بِغَيْرِهِ فَلا تَسْتَمِعُوا إليهِ .

(وَهَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي يَهُودِيَّين زَنَيا بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إلَى المَدِينَةِ بِقَلِيلٍ ، وَكَانَ اليَهُودُ قَدْ تَخَلَّوْا عَنْ تَنْفِيذِ مَا شَرَّعَهُ اللهُ لَهُمْ فِي التَّورَاةِ مِنْ رَجْمِ الزُّنَاةِ المُحْصِنِينَ ، فَحَرَّفُوا حُكْمَ اللهِ ، وَاصْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى جَلْدِ الزَّانِي مِئَةَ جَلْدَةٍ مَعَ صَبْغِ الوَجْهِ بِالسَّوَادِ (وَيُسَمُّونَهُ التَّحْمِيمَ) . فَلَمَّا وَقَعَتْ حَادِثَةُ الزِّنَى ، قَالَ بَعْضُ اليَهُودِ لِبَعْضٍ تَعَالُوا نَتَحَاكَمُ إلى مُحَمَّدٍ فَإنْ حَكَمَ بِالجَلْدِ ، وَصَبْغِ الوَجْهِ بِالسَّوَادِ ، فَخُذُوا ذِلِكَ عَنْهُ ، وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ

قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بذَلِكَ ، وَإنْ حَكَمَ بالرَّجْمِ فَلاَ تَتّبِعُوهُ . فَلَمَّا جَاؤُوا إلَى الرَّسُولِ ﷺ سَأَلَهُمْ عَمَّا فِي كِتَابِهِمْ فِي حُكْمِ الزُّنَاةِ ، فَقَالُوا نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ . فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَّمٍ - وَكَانَ حَبْراً مِنْ أحْبَارِهِمْ ثُمَّ أَسْلَمَ - كَذَبْتُمْ إنَّ فِيهِ الرَّجْمَ) .وَمَنْ أَرَادَ اللهُ أنْ يَخْتَبِرَهُ فِي دِينِهِ فَيُظْهِرَ الاخْتِبَارُ كُفْرَهُ وَضَلاَلَهُ ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ يَا مُحَمَّدُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، لأنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ أنْ يُطَهِّرَ قَلْبَهُ ، وَلاَ أنْ يَهْدِيَهُ؛ وَلِهَذا الضَّالِّ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا ، وَلَهُ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَلا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدُ بَعْدَ هَذَا عَلَى مُسَارَعَتِهِمْ فِي الكُفْرِ ، وَلاَ تَطْمَعْ فِي هِدَايَتِهِمْ إلى الإِيمَانِ ، فَإِنَّكَ لاَ تَمْلِكُ لأَحَدٍ نَفْعاً ، وَإِنَّمَا عَلَيكَ البَلاَغُ .

وَأَعَادَ اللهُ تَعَالَى وَصْفَهُمْ بكَثْرَةِ السَّمَاعِ لِلْكَذِبِ ، فَقَالَ : وَهُمْ سَمَّاعُونَ لِلْبَاكِلِ ، آكَّالُونَ لِلْمَالِ الحَرَامِ كَالرِّبَا وَالرَّشْوَةِ (السُّحْتِ) ، فَإِذَا جَاؤُوكَ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، فَلاَ عَلَيكَ أنْ لاَ تَحْكُمَ بَيْنَهُم لأَنَّهُمْ لاَ يَقْصِدُونَ ، بِمَجيئِهِمْ إليكَ لِلتَّحَاكُمِ ، اتِّبَاعَ الحَقِّ ، بَلْ يُرِيدُونَ أنْ تَحْكُمَ لَهُمْ بمَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ

(وَهَذا الحُكْمُ خَاصٌّ بالْمُعَاهِدِينَ دُونَ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَبالنِّسْبَةِ لِلمُعَاهِدِينَ لاَ يَجبُ عَلى المُسْلِمِينَ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَهُم (كَالأَجَانبِ الْمُوجُودِينَ فِي بِلاَدِ المُسْلِمِينَ) ، وَإنْ تَحَاكَمُوا إِلَيْهِمْ ، بَلِ المُسْلِمُونَ مُخَيَّرُونَ فِي ذَلِكَ حَسْبَمَا يَرَوْنَ فِيهِ المَصْلَحَةَ .

وَأَمَّا أَهْلُ الذِّمَّةِ فَيَجبُ الحُكْمُ بَيْنَهُمْ إذَا تَحَاكَمُوا إلَى المُسْلِمِينَ ، لأنَّ مَنْ أُخِذَتْ مِنْهُ الجِزْيَةُ تَجْرِي عَلَيهِ أَحْكَامُ الإِسْلاَمِ ، فِي البُيُوعِ وَالمَوَارِيثِ ، وَالعُقُودِ ، عَدَا بَيْعِ الخَمْرِ وَالخِنْزِيرِ) .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذا الحُكْمُ مَنْسُوخٌ بقَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بمَآ أَنزَلَ الله } .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : وَإِذَا أَرَدْتَ أنْ تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، فَاحْكُمْ بِالحَقِّ وَالعَدْلِ ، لأنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يَقْضُونَ بالعَدْلِ (الْمُقْسِطِينَ) .

وَيُنْكِرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلاءِ مَقَاصِدَهُمُ الزَّائِفَةَ ، وَنِيَّاتِهِمُ الفَاسِدَةَ ، فِي تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الكِتَابِ الذِي بِأَيْدِيهِمْ ، وَالذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأمُورُونَ بالتَّمَسُّكِ بِهِ أَبَداً ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهِ إلى غَيْرِهِ (القُرْآنُ وَالإِسْلاَمُ) ، مِمَّا يَعْتَقِدُونَ بُطْلاَنَهُ ، وَعَدَمَ لُزُومِهِ لَهُمْ . فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ فِي أَمْرِ الزُّنَاةِ وَعِنْدَهُمُ التَوراَةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ، وَإذَا أَرَدْتَ أَنْتَ أنْ تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بمَا يَتَّفِقُ مَعَ شَرْعِهِمْ ، لَمْ يَقْبَلُوا حُكْمَكَ (يَتَوَلَّوْنَ) لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ إِيمَاناً صَحِيحاً لا بدِينِهِمْ ، وَلاَ بدِينِكَ .

يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ - يُعْرِضُونَ عَنْ حُكْمِكَ الْمُوَافِقِ لِحُكْمِ التَّوْرَاةِ بَعْدَ تَحْكِيمِكَ .

يَمْدَحُ اللهُ تَعَالَى التَّوْرَاةَ ، فَيَقُولُ : إنَّهُ أَنْزَلَهَا وَفِيهَا هُدىً وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بهَا الأَنْبِيَاءُ الذِينَ أَسْلَمُوا وُجُوهَهُمْ لِرَبِّهِمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (وَهُمْ مُوسَى وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ) بَيْنَ اليَهُودِ لاَ يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا ، وَلاَ يُبَدِّلُونَها وَلاَ يُحرِّفُونَها . وَيَحْكُمُ بهَا العُلَمَاءُ العُبَّادُ (الرَّبَّانِيُّونَ) ، وَالعُلَمَاءُ (الأَحْبَارُ) بمَا اسْتَوْدَعُوا (اسْتُحْفِظُوا) مِنْ كِتَابِ اللهِ الذِي أُمِرُوا بأَنْ يَحْفَظُوهُ مِنَ التَّبْدِيلِ

، وَبأنْ يُظْهِرُوهُ ، وَيَعْمَلُوا بأَحْكَامِهِ ، ثُمَّ خَاطَبَ اللهُ تَعَالَى رُؤَسَاءَ اليَهُودِ الذِينَ كَانُوا فِي زَمَنْ التَّنْزِيلِ فَقَالَ : كَيْفَ لاَ يَخافُونَ اللهَ فِي الكِتْمَانِ وَالتَّبْدِيلِ ، بَعْدَ أنْ قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ سِيرَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ وَيَرْعَوُونَ عَنْ غَيِّهِمْ . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : وَإِذَا كَانَ الحَالُ كَذَلِكَ أَيُّهَا الأَحْبَارُ ، وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّكُمْ لا تُنْكِرُونَهُ ، فَلا تَخْشَوا النَّاسَ فَتَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الكِتَابِ ، خَشْيَةَ النَّاسِ ، أَوْ طَمَعاً فِي مَنْفَعَةٍ عَاجلَةٍ مِنْهُ ، وَأخْشَوْنِي أنَا وَاقْتَدُوا بمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ وَالأَحْبَارِ ، وَاحْفَظُوا التَّوْرَاةَ ، وَلا تَعْدِلُوا عَنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ النَّفْعَ وَالضَّرَرَ بيَدِ اللهِ ، وَلاَ تَتْرُكُوا بَيَانَ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ لِلْنَّاسِ ، وَالعَمَلِ بهَا ، لِقَاءَ مَنْفَعَةٍ دَنْيَوِيَّةٍ قَلِيلَةٍ تَأْخُذُونَها مِنَ النَّاسِ كَرَشْوَةٍ أوْ جَاهٍ .

وَكُلُّ مَنْ يَرْغَبُ عَنِ الحُكْمِ بمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ شَرْعٍ ، وَيُخْفِيهِ وَيَحْكُمُ بغَيْرِهِ (كَحُكْمِ اليَهُودِ فِي الزَّانِيَيْنِ المُحْصَنَيْنِ بالتَّحْمِيمِ وَالجَلْدِ ، وَكِتْمَانِ الرَّجْمِ ، وَقَضَائِهِمْ فِي بَعْضِ قَتْلاَهِمْ بدِيَةٍ كَامِلَةٍ ، وَفِي بَعْضِهِمْ بنِصْفِ دِيَةٍ ، مَعْ أنَّ اللهَ قَدْ سَوَّى بَيْنَ الجَمِيعِ فِي الحُكْمِ) ، فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ الذِينَ سَتَرُوا الحَقَّ الذِي كَانَ عَلَيهِم كَشْفُهُ وَتَبْيِينُهُ لِلنَّاسِ .

جَاءَتِ التَّوْرَاةُ بشِرْعَةِ القِصَاصِ : فَالنَّفْسُ تُقْتَلُ بالنَّفْسِ ، وَلَكِنَّ اليَهُودَ يُخَالِفُونَ هَذا الحُكْمَ عَمْداً وَعِنَاداً : فَقَدْ كَانَتْ قَبيلَتَا بَنِي النَّضِيرَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ تَتَحَارَبَانِ وَتَتَقَاتَلاَنِ ، وَكَانَتْ قَبيْلَةَ بَنِي النَّضِيرِ قَوِيَّةً عَزِيزَةَ الجَانِبِ ، وَكَانَ بَنُو قُرَيْظَةَ ضُعَفَاءَ أَذِلاَّءَ ، فَكَانَ النَّضِيرِيُّ إذَا قَتَلَ قُرَظِيّاً ، لَمْ يَكُنْ لِيَقْتُلَ بِهِ ، بَلْ يُعْدِلُ فِيهِ إلى الدِّيَةِ . أَمَّا إذَا قَتَلَ القُرَظِيُّ نَضيرِيّاً ، فَكَانَ يُقْتَلُ بهِ ، وَفِي ذَلِكَ مُخَالَفَةٌ لِحُكْمِ التَّوْرَاةِ كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَاةِ فِي تَرْكِ رَجْمِ الزَّانِي المُحْصَنِ ، كَمَا أمَرَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ ، وَعَدَلُوا عَنْهُ إلى الجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ . وَقَضَتِ التَّوْرَاةُ بأنْ تُفْقَأَ العَيْنُ بِالعَيْنِ ، وَبأنْ يُجْدَعَ الأَنْفُ بِالأَنْفِ ، وَأنْ تُصْلَمَ الأذْنُ بالأذْنِ ، وَأنْ تُنزعَ السِّنُّ بالسِّنِّ .

أمَّا الجِرَاحُ فَيَتِمُّ فِيهَا القِصَاصُ إذا كَانَتْ فِي مِفْصَلٍ ، فَتُقْطَعُ اليَدُ وَالرِّجْلُ وَالكَفُّ وَالقَدَمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ أَمَّا إذَا كَانَ الجُرْحُ فِي عَظْمٍ وَلَيْسَ فِي مِفْصَلٍ ، فَاخْتُلِفَ فِي كَيْفِيَّةِ التَّطْبِيقِ .

فَمَنْ عَفَا وَتَصَدَّقَ بحَقِّهِ فِي القِصَاصِ عَلَى الجَانِي ، كَانَ التَّصَدُّقُ كَفَّارَةً لَهُ يَمْحُو اللهُ بهَا قَدْراً مِنْ ذُنُوبِهِ.

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كُتُبِهِ مِنْ شَرْعٍ ، فَأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، لأنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا المَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ ، فِي أَمْرٍ أَمَرَ اللهُ بالعَدْلِ وَالمُسَاوَاةِ فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ خَلْقِهِ .

وَأَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِ هَؤُلاءِ الأَنْبِيَاءَ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ مُؤْمِناً بالتَّوْرَاةِ ، وَحَاكِماً بمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى لِلْحَقِّ ، وَبَيَانٌ لِلأَحْكَامِ ، وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ ، وَحَلِّ المُشْكِلاَتِ . وَجَاءَ الإِنْجِيلَ مُصَدِّقاً لِلْتَّورَاةِ ، وَمُتَّبعاً لَهَا ، غَيْرَ مُخَالِفٍ لِمَا فِيهَا إلاّ فِي القَلِيلِ مِمَّا بَيَّنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . وَجَعَلْنَا الإِنْجِيلَ هُدًى يَهْتَدِي بِهِ المُتَّقُونَ ، وَوَاعِظاً وَزَاجِراً لَهُمْ عَنِ ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ ، وَعَنِ اقْتِرَافِ المَآثِمِ .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى أَهْلَ الإِنْجِيلِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الأَحْكَامِ ، وَبِأَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ شَرْعٍ يُؤْمِنُ بِهِ ، كَانَ مِنَ الفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَحُكْمِهِ .

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى القُرْآنَ (الكِتَابَ) إِلَيكَ يَا مُحَمَّدُ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ الذِي لاَ رَيْبَ فِيهِ ، وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، مُصَدِّقاً لِلْكُتُبِ السَّابِقَةِ المُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدْحَهُ ، وَالإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكَانَ نُزُولَهُ كَمَا أَخْبَرْتَ بِهِ مِمَّا زَادَهَا صِدْقاً عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي البَصَائِرِ ، الذِينَ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللهِ وَشَرْعَهُ ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ .وَالقُرْآنُ جَاءَ أَمِيناً عَلَى الكُتُبِ السَّابِقَةِ ، وَشَاهِداً عَلَيْهَا بِالحَقِّ وَالصِّحَّةِ بِمَا بَيَّنَهُ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهَا (مُهَيْمِناً عَلَيْهِ) ، وَمُبَيِّناً حَالَ مَنْ خُوطِبُوا بِهَا : مِنْ نِسْيَانِ حَظٍّ عَظِيمٍ مِنْهَا ، وَتَحْرِيفِ كَثِيرٍ مِمَّا بَقِيَ ، أَوْ تَأْوِيلِهِ ، وَالإِعْرَاضِ عَنِ العَمَلِ بِهِ .

وَبِمَا أنَّ الُرْآنَ جَاءَ رَقِيباً وَأَمِيناً وَشَاهِداً (مُهَيْمِناً) عَلَى الكُتُبِ السَّابِقَةِ ، التِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ، فَاحْكُمْ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ أَهْلِ الكِتَابِ - إذا تَحَاكَمُوا إِلَيكَ - بِمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيكَ مِنَ الأَحْكَامِ ، دُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ ، لأنَّ شَرِيعَتَكَ نَاسِخَةٌ لِشَرِيعَتِهِمْ ، وَلاَ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ وَرَغَبَاتِهِمْ فِي الحُكْمِ لَهُمْ بِمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ ، وَيَخِفُّ احْتِمَالُهُ .

ثُمَّ يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ شَرِيعَةً أَوْجَبَ عَلَيهِمْ إِقَامَةَ أَحْكَامِهَا ، وَمِنْهَاجاً وَطَرِيقاً فَرَضَ عَلَيهِمْ سُلُوكَهُ لِتَزْكِيَةِ نُفُوسِهِمْ (فَأَصْلُ الدِّينِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ العَمَلِيَّةَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ أَحْوَالِ البَشَرِ ، وَطِبَاعِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ) .

وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، ذَاتَ شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ وَاحِدٍ ، يَسِيرُونَ عَلَيْهِ ، لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ، لِيَخْتَبِرَهُمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَلِيُثِيبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَيُعَاقِبَهُمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِ .

وَيَحُثُّ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَى المُبَادَرَةِ وَالإِسْرَاعِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ الذِي جَعَلَهُ نَاسِخاً مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَرَائِعِ ، وَيُخْبِرُهُمْ أنَّ إِلَيهِ مَرْجِعَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُخْبِرُهُمْ بِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ ، وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قَالَ بَعْضُ رُؤَسَاءِ اليَهُودِ لِبَعْضٍ : اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ . فَأَتَوْهُ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَشْرَافُهُمْ وَسَادَتُهُمْ ، وَإِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَا يَهُودُ وَلَمْ يُخَالِفُونَا ، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةً ، فَنُخَاصِمُهُمْ إِلَيكَ فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ ، وَنُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ . فَأَبَى الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ فِيهِمْ .

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الحُكْمِ بَيْنَ أَهْلِ الكِتَابِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِ فِي القُرْآنِ ، وَيُحَذِّرُهُ مِنْ أَنْ يَفْتِنَهُ اليَهُودُ ، وَيَصْرِفُوهُ عَنِ الحَقِّ ، وَيَأْمُرُهُ بِأَلاَّ يَغْتَرَّ بِهِمْ ، فَهُمْ كَذَبَةٌ كَفَرَةٌ . ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ : فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ حُكْمِكَ بَعْدَ تَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ إِرَادَةِ اللهِ ، وَمَشِيئَتِهِ ، وَحِكْمَتِهِ فِيهِمْ ، أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الهُدَى لِيُعَذِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ ، وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ .

أَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ حُكْمِكَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ؟ فَهَلْ يُرِيدُونَ حُكْماً كَحُكْمِ الجَاهِلِيَّةِ المَبْنِي عَلَى التَحَيُّزِ وَالهَوى ، وَتَرْجِيحِ جَانِبِ القَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً ، وَمَنْ أَعْدَلُ مِنْهُ فَصْلاً؟ لِمَنْ عَقَلَ شَرْعَ اللهِ وَآمَنَ بِهِ؟

(نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ حِينَمَا تَخَاصَمَ إلى النَّبِيِّ ﷺ يَهُودٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، وَيَهُودٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، طَالِبِينَ إِلَيهِ أنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا كَانُوا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ فِي المَاضِي (أَيَّامَ الجَاهِلِيَّةِ) مِنْ أنْ تَكُونَ دِيَةُ القُرَظِيِّ نِصْفُ دِيَةِ النَّضِيرِيِّ ، لأنَّ بَنِي النَّضِيرِ كَانُوا أَقْوَى مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَأَعَزَّ جَانباً ، فَفَرَضُوا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ (القَتْلَى بَوَاءٌ – أَيْ سَوَاءٌ) . فَقَالَ بَنُو النَّضِيرِ : لا نَقْبَلُ ذَلِكَ) .

لقد جاء كل دين من عندالله ليكون منهج حياة . منهج حياة واقعية . جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . و لم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب .

فهذه وتلك – على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري – لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها؛ ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عملياً في حياة الناس؛ ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان؛ ويؤاخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات .

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة .

فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقي . . حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع . . وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا . . حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين مختلفين . . وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى : { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } { ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن } { ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون } من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشرية كافة في جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع الحياة ، إلى جانب العقيدة التي تنشيء التصور الصحيح للحياة ، إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله . . وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله . حيثما جاء دين من عند الله . لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة .

وفي القرآن الكريم شواهد شتى على احتواء الديانات الأولى ، التي ربما جاءت لقرية من القـــرى ، أو لقبيلة من القبائل على هذا التكامل ، في الصورة المناسبة للمرحلة التي تمر بها القرية أو القبيلة . . وهنا يعرض هذا التكامل في الديانات الثلاث الكبرى . . اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . .

ويبدأ بالتوراة في هذه الآيات التي نحن بصددها في هذه الفقرة :{ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور } :فالتوراة - كما أنزلها الله - كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ، وإنـــارة طـــريقهم إلى الله . وطريقهم في الحياة . . وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى . وتحمل كذلك شريعة : { يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا مـــن كتاب الله وكانوا عليه شهداء }

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونوراً للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبـــادات فحســـب . ولكن كذلك لتكون هدى ونوراً بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة في إطار هذا المنهج

ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله؛ فليس لهم في أنفسهم شيء؛ إنما هي كلها لله؛ وليســـت لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى في خصيصة من خصائص الألوهية - وهذا هو الإســـلام في معنـــاه الأصيل - يحكمون بها للذين هادوا - فهي شريعتهم الخاصة نزلت لهم في حدودهم هذه وبصـــفتهم هذه - كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار؛ وهم قضاتهم وعلماؤهم . وذلك بما أنهم قـــد كلفـــوا المحافظة على كتاب الله ، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة في أنفسهم ، بصـــياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم .

وقبل أن ينتهي السياق من الحديث عن التوراة ، يلتفت إلى الجماعة المسلمة ، ليوجههـــا في شـــأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحربهم وكفاحهم ، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله في مثل هذا الموقف ، وجزاء نكوله أو مخالفتـــه : فَلَـــا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْـــزَلَ اللَّـــهُ فَأُولَئِـــكَ هُـــمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) [المائدة : ٤٤] } . .

ولقد علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه - في كل زمان وفي كل أمة - معارضـــة من بعض الناس؛ ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام . . ستواجهه معارضـــة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث . ذلك أنه سيترع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونـــه؛ ويرد الألوهية لله خالصة ، حين يترع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله . . وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمـــة علـــى الاســـتغلال والظلـــم والسحت . ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة . . وستواجهه معارضـــة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وســـيأخذهم

بالعقوبة عليها . . وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتيك وتلك؛ ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض .

علم الله – سبحانه – أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات؛ وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة؛ وإن يصمدوا لها ، وإن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال . . فهو يناديهم : { فلا تخشوا الناس واخشون } . .فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله . سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار – من ثم – يتفرد الله – سبحانه – بالألوهية . أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة او المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها . . لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة . فالله – وحده – هو الذي يستحق أن يخشوه .

والخشية لا تكون إلا لله . .كذلك علم الله – سبحانه – أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين؛ قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا؛ وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات ، لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً ، طمعاً في عرض الحياة الدنيا – كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل؛ وكما كان ذلك واقعاً في علماء بني إسرائيل .فناداهم الله : { ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً } . .وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتاوى المدخولة!

وكل ثمن هو في حقيقته قليل . ولو كان ملك الحياة الدنيا . . فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقاباً ومصالح صغيرة؛ يباع بها الدين ، وتشترى بها جهنم عن يقين؟!

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن؛ وليس أبشع من تفريط المستحفظ؛ وليس أخس من تدليس المستشهد . والذين يحملون عنوان : « رجال الدين » يخونون ويفرطون ويدلسون ، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله . .

{ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } . .بهذا الحسم الصارم الجازم . وبهذا التعميم الذي تحمله « من » الشرطية وجملة الجواب . بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان ، وينطلق حكماً عاماً ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل . .والعلة هي التي أسلفنا . . هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله . فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية . ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب ، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر . . وماذا يكون الكفر إن لم

يكن هو هذا وذاك؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل - وهو أقوى تعبيراً من الكلام - ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟!

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه . . وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد .

وقد علم الله أن معاذير كثيره يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء المحكومين المتحاكمين . . وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه ، في بعض الملابسات والظروف . فحذر الله نبيه - ﷺ - في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه . .وأولى هذه الهواجس : الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة ، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد . ومسايرة بعض رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة ، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله - ﷺ - أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم . وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض . . ولكن الأمر- كما هو ظاهر - أعم من حالة بعينها وعرض بعينه . فهو أمر يعرض في مناسبات شتى ، ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين . . وقد شاء الله - سبحانه - أن يحسم في هذا الأمر ، وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف ، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء . فقال لنبيه : إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة؛ ولكنه جعل لكل منهم طريقاً ومنهاجاً؛ وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة ، وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا . وأن كلاً منهم يسلك طريقه؛ ثم يرجعون كلهم إلى الله ، فينبئهم بالحقيقة ، ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق . . وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج . . فهم لا يتجمعون :{ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً . فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون }

بذلك أغلق الله - سبحانه - مداخل الشيطان كلها؛ وبخاصة ما يبدو منها خيراً وتأليفاً للقلوب وتجميعاً للصفوف؛ بالتساهل في شيء من شريعة الله؛ في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف!

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون! فالنـــاس قـــد خلقوا ولكل منهم استعداد ، ولكل منهم مشرب ، ولكل منهم منهج ، ولكل منهم طريق .
ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين . وقد عرض الله عليهم الهدى؛ وتـــركهم يســـتبقون . وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه ، وهم إليه راجعون؛
وإنها لتعلة باطلة إذن ، ومحاولة فاشلة ، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله ، أو بتعـــبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها . فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئاً إلا الفساد في الأرض؛ وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم؛ وإلا انتفاء العدالة في حياة البشـــر؛ وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض ، واتخاذ بعضهم لبعض أرباباً من دون الله . . وهو شر عظـــيم وفســـاد عظيم . . لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون؛ لأنها غير ما قدره الله في طبيعة البشـــر؛ ولأنهـــا مضادة للحكمة التي من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والمشارع ، والاتجاهات والمشارب . . وهو خالق الخلق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير . وإليه المرجع والمصير . .
إن محاولة التساهل في شيء من شريعة الله ، لمثل هذا الغرض ، تبدو - في ظل هذا الـــنص الصـــادق الذي يبدو مصداقه في واقع الحياة البشرية في كل ناحية - محاولة سخيفة؛ لا مبرر لها من الواقع؛ ولا سند لها من إرادة الله؛ ولا قبول لها في حس المسلم ، الذي لا يحاول إلا تحقيق مشـــيئة الله . فكيـــف وبعض من يسمون أنفسهم « مسلمين » يقولون : إنه لا يجوز تطبيق الشـــريعة حـــتى لا نخســـر « السائحين »؟!!! أي والله هكذا يقولون!
فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل . . حكـــم الله يقـــوم في الأرض ، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر . . أو أنه حكم الجاهليـــة ، وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية . . فأيهما يريدون؟
{ أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ } . .إن معنى الجاهلية يتحـــدد بهذا النص . فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هي حكم البشر للبشر ، لأنها هي عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابـــل هـــذا الـــرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله . .إن الجاهلية - في ضوء هذا النص - ليست فتـــرة من الزمان؛ ولكنها وضع من الأوضاع . هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم ، ويوجد غـــداً ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام والناس - في أي زمان وفي أي مكـــان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً ، فهم إذن في دين الله . وإما إنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهـــم إذن في جاهلية؛ وهم في دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال في دين الله . والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية؛ والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، ويعيش في الجاهلية .

وهذا مفرق الطريق ، يقف الله الناس عليه . وهم بعد ذلك بالخيار!

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله .

{ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ } . .وأجل! فمن أحسن من الله حكماً؟

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول : إن الله - سبحانه - وهو يشرع شريعته الأخيرة ، ويرسل رسوله الأخير؛ ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد .

. كان - سبحانه - يجهل أن أحوالاً ستطرأ وأن حاجات ستستجد ، وأن ملابسات ستقع؛ فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه ، حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية . وحكم الجاهلية؛ ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله؟

ما الذي يستطيع أن يقوله . . وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟!

الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ . . ألم يكن هذا كله في علم الله؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والاحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله؛ وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء . . ولكن المسلم . . أو من يدعون الإسلام . . ما الذي يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق ، الذي لا معدى عنده من الاختيار؛ ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال . .

إما إسلام وإما جاهلية . إما إيمان وإما كفر . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية . .

والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون . والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين . .

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم؛ وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء!

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان؛ ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل؛ ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح . . وإذا جاز أن تبقى هذه

القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا « المسلمين » وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم . .

٣٢. الإيمانُ ببعض الكتاب والكفرُ ببعضٍ :

قال تعالى عن بني إسرائيل : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) } سورة البقرة

يَذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى فِي هذِهِ الآيَةِ اليَهُودَ بِأَهَمِّ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ ، وَأَخَذَ المِيثَاقَ عَلَيهِمْ لاجْتِنَابِهِ ، فَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ أَخَذَ المِيثَاقَ فِي التَّورَاةِ عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنْ لاَ يَسْفِكَ بعضُهُمْ دَمَ بَعْضٍ ، وَأَنْ لا يُخْرِجَ بَعْضُهُم بَعْضاً مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، وَإِنَّ يَهُودَ المَدِينَةِ يُقِرُّونَ بِذلِكَ ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ دِيَانَتِهِمْ فِي ذلِكَ ، فَالحَجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيهِمْ .

كَانَ فِي المَدِينَةِ ثَلاَثُ قَبَائِلَ مِنَ اليَهودِ : بَنُو قَيْنُقَاعَ وَبَنُو النَّضِيرِ ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الخَزْرَجِ ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ وَهُمْ حُلَفَاءُ الأَوْسِ ، وَكَانُوا إِذَا وَقَعَتِ الحَرْبُ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ انتَصَرَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ اليَهُودِ لِحُلَفَائِهِ ، وَانْضَمَّ إِلَيهِمْ يُقَاتِلُ خُصُومَهمْ . وَكَثيراً مَا كَانَ اليَهودِيُّ يَقْتُلُ اليَهُودِيُّ فِي الحَرْبِ ، وَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ ، وَيَنْتَهِبُ مَالَهُ وَأَثَاثَ مَنْزِلِهِ ، وَكلُّ ذلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيهِمْ فِعْلُهُ بِنَصِّ التَّورَاةِ .

وَلكِنَّهُمْ كَانُوا إذا وَضَعَتِ الحِرْبُ أَوْزَارَهَا يَقُومُونَ بِافْتِكَاكِ الأَسْرَى وَمُفَادَاتِهِمْ ، عَمَلاً بِنَصِّ التَّورَاةِ ، فَاسْتَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى أَفْعَالَهُمْ هذِهِ ، فَهُمْ يَقتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً خِلاَفاً لِلنَّصِّ ، وَلكِنَّهُمْ يَفْتَكُّونَ الأَسْرَى وَيُفَادُونَهُمْ عَمَلاً بِنَصِّ التَّوراةِ .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ مُسْتَنْكِراً تَصَرُّفَاتِهِمْ هذِهِ : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَعْمَلُونَ بِهِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ وَتُخَالِفُونَهُ؟ وَتَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ ، وَيَكْفُرُ بِبَعْضِهِ الآخَرِ بِالخِزْيِ وَالمَذَلَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ، وَبِالعَذابِ الأَلِيمِ الشَّدِيدِ يَوْمَ القِيَامَةِ . ثُمَّ يُذَكِّرُهُمْ اللهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ غَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

وَهؤُلاءِ الذِينَ يُخَالِفُونَ أَوَامِرَ التَّوراةِ ، وَيَعْمِلُونَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ فِيهَا ، هُمُ الذِينَ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنيا ، وَآثَروها وَفَضَّلُوهَا عَلَى الآخِرَةِ ، بِمَا أَهْمَلُوا مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَبِمَا تَرَكُوا مِنْ أَوَامِرِهَا التِي يَعْرِفُونَها (كَالانتِصَارِ لِلحَلِيفِ المُشْرِكِ وَمُظَاهَرَتِهِ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي الدِّينِ وَالنَّسَبِ ، وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِمْ مِنْ دِيَارِهِم

ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ذلِكَ الحَلِيفِ المُشْرِكِ) ، فَكَانُوا كَمَنِ اشْتَرَى الحَيَاةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ . وَهؤلاءِ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم نَاصِراً يُنْقِذُهُمْ مِنَ العَذَابِ ، وَلا مُجِيراً يُجِيرُهُمْ ..

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج . كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيّان أشد ما يكون حيّان من العرب عداء . وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين . . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه؛ فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى ، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء – وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته . .

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن؛ وهو يسألهم في استنكار :{ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ } . .وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا ، والعذاب الأشد في الآخرة . مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً :

{ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون } . .ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً ، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم :{ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون } . .

وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة . . فهؤلاء هم هناك : { فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون } . .

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة : هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله ، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم . فإن انقسامهم فريقين ، وانضمامهم إلى حلفين ، هي هي خطة إسرائيل التقليدية ، في إمساك العصا من الوسط؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط ، لتحقيق بعض المغانم على أية حال؛ وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق بالله ، ولا يستمسك بميثاقه ، ويجعل اعتماده كله على الدهاء ، ومواثيق الأرض ، والاستنصار بالعباد لا برب العباد . والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ، ويناقض تكاليف

شريعتهم ، باسم المصلحة أو الوقاية ، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم ، ولا وقاية إلا بحفظ عهــدهم مع ربهم .

---

٣٣. تضييعُ الأمانة :

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – :« إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » . قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ :« إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » صحيح الإمام البخارى [١٣٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ : لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَــهُ ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ.[١٣٣]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِــرُ الآخَرَ ، حَدَّثَنَا « أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِى جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ عَلِمُــوا مِــنَ السُّنَّةِ » . وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ « يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَــرِ الْوَكْتِ ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا ، وَلَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّى الأَمَانَةَ ، فَيُقَالُ إِنَّ فِى بَنِى فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا . وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ . وَمَا فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَىَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِى أَيَّكُمْ بَايَعْتُ لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ الإِسْلاَمُ ، وَإِنْ كَــانَ نَصْــرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَىَّ سَاعِيهِ ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا » . صحيح البخارى [١٣٤]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ مَعْقِلٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ ، يَقُولُ :" إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَــةَ ، وَإِنَّ آخِرَ مَا يَبْقَى مِنْ دِينِكُمُ الصَّلاةُ ، وَلَيُصَلِّيَنَّ الْقَوْمُ الَّذِينَ لا دِينَ لَهُمْ ، وَلَيُنْتَزَعَنَّ الْقُرْآنُ مِنْ بَــيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، أَلَسْنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَقَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِفِنَا ؟ قَالَ : يُسْــرَى عَلَيْهِ لَيْلا ، فَيُذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ ، فَلا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ"مصنف عبد الرزاق[١٣٥]

---

٣٤. الغلولُ :

---

[١٣٢]- برقم (٦٤٩٦)

[١٣٣] -صحيح ابن حبان – (ج ١ / ص ٤٢٣)(١٩٤) صحيح

[١٣٤] – برقم (٦٤٩٧) :الجذر : الأصل =المجل : تقرح الجلد وتكوُّن ماء بين الجلد واللحم وظهور ما يشبه البثور =المنتبر : المرتفــع =نفط : تجمع فيها الماء بين الجلد واللحم الوكت : الأثر فى الشيء كالنقطة من غير لونه

[١٣٥] – (ج ٣ / ص ١٥١) برقم (٥٩٨٢) صحيح موقوف ومثله لا يقال بالرأي

والغلول المراد به أخذ مال المسلمين بغير حق : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ مَا ظَهَرَ الْغُلُولُ فِى قَوْمٍ قَطُّ إِلاَّ أُلْقِىَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ وَلاَ فَشَا الزِّنَا فِى قَوْمٍ قَطُّ إِلاَّ كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ وَلاَ نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ قُطِعَ عَنْهُمُ الرِّزْقُ وَلاَ حَكَمَ قَوْمٌ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الدَّمُ وَلاَ خَتَرَ قَوْمٌ بِالْعَهْدِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَدُوَّ.[١٣٦] .

ومن المعلوم أنه إذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنهم لن يواجهوا العدو وسيهزمون ويولون الأدبار هذا أمر لا شك فيه ..

وقد حرم الله تعالى الغلول بكل صوره ،قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [آل عمران : ١٦١] }

يُنَزِّهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيةِ رَسُولَهُ الكَرِيمَ عَنْ أخْذِ شَيءٍ مِنَ المَغْنَمِ خِلْسَةً (عَنِ الغُلُولِ) ، وَعَنِ الخِيَانَةِ فِي أَدَاءِ الأَمَانَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ لأنَّ اللهَ عَصَمَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيُهَدِّدُ اللهُ تَعَالَى مِنْ يَغُلُّ بأنَّهُ سَيَأتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَهُوَ يَحْمِلُ مَا غَلَّ لِيُحَاسَبَ عَلَيهِ ، وَاللهُ لاَ يَظْلِمُ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ .

ما كان له . فهو ليس من شأنه أصلاً ولا من طبعه ولا من خلقه . فالنفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل . وليس نفياً لحله أو جوازه . فطبيعة النبي الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء . . وفي قراءة : « يُغلّ » على بناء الفعل لغير الفاعل . أي لا يجوز أن يخان . ولا أن يخفي عنه أتباعه شيئاً . . فيكون نهياً عن خيانة النبي في شيء . وهو يتمشى مع عجز الآية . وهي قراءة الحسن البصري .

ثم يهدد الذين يغلون ويخفون شيئاً من المال العام أو من الغنائم ذلك التهديد المخيف : { ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة .ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون } . .

عَنْ أَبِى حُمَيْدٍ السَّاعِدِىِّ قَالَ اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - رَجُلاً عَلَى صَدَقَاتِ بَنِى سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِى بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا » . ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّى أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِى اللَّهُ ، فَيَأْتِى فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِى . أَفَلاَ جَلَسَ فِى بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ ، وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ ، إِلاَّ لَقِىَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِىَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ

---

[١٣٦] - موطأ مالك (٩٨٧) وفيه انقطاع ، وله شواهد بنحوه التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - (٢٣ / ٤٣٠) - ختر : غدر

بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ » . ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِىَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ « اللَّهُمَّ هَـلْ بَلَّغْـتُ » . بَصْرَ عَيْنِى وَسَمْعَ أُذُنِى [١٣٧].

وعَنْ أَبِى حَيَّانَ قَالَ حَدَّثَنِى أَبُو زُرْعَةَ قَالَ حَدَّثَنِى أَبُو هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَامَ فِينَا النَّبِـىُّ – ﷺ – فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ قَالَ « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَـاءٌ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَغِثْنِى . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أَبْلَغْتُـكَ . وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِى . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أَبْلَغْتُكَ . وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ ، فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِى . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أَبْلَغْتُكَ . أَوْ عَلَى رَقَبَتِـهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ ، فَيَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِى . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ، قَدْ أَبْلَغْتُكَ » . وَقَالَ أَيُّـوبُ عَنْ أَبِى حَيَّانَ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ [١٣٨]..

وعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِى خَالِدٍ حَدَّثَنِى قَيْسٌ قَالَ حَدَّثَنِى عَدِىُّ بْنُ عُمَيْرَةَ الْكِنْدِىُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ لَنَا عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِنْهُ مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُـوَ غُلٌّ يَأْتِى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَسْوَدُ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْبَلْ عَنِّى عَمَلَكَ. قَالَ « وَمَا ذَاكَ ». قَالَ سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ « وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَأْتِ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِىَ مِنْهُ أَخَذَهُ وَمَا نُهِىَ عَنْهُ انْتَهَى »[١٣٩]..

وقد عملت هذه الآية القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة عملها في تربية الجماعة المسـلمة؛ حتى أتت بالعجب العجاب؛ وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع والتحرج من الغلول في أية صورة من صوره كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية .

وقد كان الرجل من أفناء الناس من المسلمين يقع في يده الثمين من الغنيمة لا يراه أحد فيأتي بـه إلى أميره لا تحدثه نفسه بشيء منه خشية أن ينطبق عليه النص القرآني المرهوب وخشية أن يلقى نبيه على الصورة المفزعة المخجلة التي حذره أن يلقاه عليها يوم القيامة! فقد كان المسلم يعيش هـذه الحقيقـة فعلاً . وكانت الآخرة في حسه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه ، فيتوقاها ويفزع أن يكون فيها . وكان هذا هو سر تقواه وخشيته وتحرجه . فالآخرة كانت حقيقة يعيشها لا وعـداً بعيداً! وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفى ما كسبت وهم لا يظلمون . .

---

[١٣٧] – صحيح البخارى (٦٩٧٩) وصحيح مسلم(٤٨٤٥) – الخوار : صوت البقرة –الرغاء : صوت الإبـل –تيعـر : تصـيح وتصوت صوتا شديدا

[١٣٨] – صحيح البخارى (٣٠٧٣) وصحيح مسلم (٤٨٣٩)

الثغاء : صياح الغنم =الحمحمة : صوت الفرس دون الصهيل =رقاع : ما عليه من الحقوق مكتوبة فى رقاع وقيل الثياب الـتى غلـها =الصامت : الذهب والفضة خلاف الناطق وهو الحيوان

[١٣٩] – سنن أبى داود (٣٥٨٣) صحيح –المخيط : الإبرة

روى ابن جرير الطبري في تاريخه عن أبي عبيدة العنبرىّ، قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحقّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قطّ، ما يعد له ما عندنا ولا يقاربه؛ فقالوا: هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أنّ للرّجل شأنا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحموني، ولا غيركم لبقرّظوني، ولكنّي أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس. [١٤٠]..

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ : لَمَّا أُتِيَ عُمَرُ بخُمُسِ الْأَعَاجِمِ قَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا يُظِلُّنِي سَقْفُ بَيْتٍ حَتَّى أَقْسِمَهُ ، أَيْنَ ابْنُ عَوْفٍ وَابْنُ الْأَرْقَمِ ؟ بَيِّتَا عَلَيْهِ ، ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ حِينَ أَصْبَحَ ، فَكَشَفَ عَنْهُ ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : إِنَّ قَوْمًا أَدُّوا هَذَا لَأُمَنَاءُ ، عَلَيَّ بالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فَبَدَأَ بِهِ قَبْلَ النَّاسِ ، فَحَثَا لَهُ حُثَالَةً ، ثُمَّ أَمَرَ لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بعَشَرَةِ آلَافٍ ، وَلِعَائِشَةَ باثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ : أَشِيرُوا عَلَيَّ ، فَأَعْطَى حَثْوًا وَكَيْلًا ، الْكَيْلُ : الْوَزْنُ ، فَلَا أَدْرِي "[١٤١]..

وهكذا ربى الإسلام المسلمين تلك التربية العجيبة التي تكاد أخبارها تحسب في الأساطير .

---

٣٥. التلاعب بإقامة الحدود أو تركها :

عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِى سَرَقَتْ ، فَقَالَ وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « أَتَشْفَعُ فِى حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ » . ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ « إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »[١٤٢] .

قضية رأي عام

قضية شغلت الرأي العام آنذاك "قريش أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت"، وقريش تجمع بطونًا وقبائل وفروعًا ذات اتصال بالأنساب، وأم رومان أم السيدة عائشة مخزومية، وعمة المرأة التي سرقت أم سلمة وهي مخزومية، وخالد بن الوليد كان مخزوميًّا، وهذا الامتداد والتشابه مع بقية بطون وأفخاذ القبائل يبين مدى سيطرة هذا الحدث وانشغال الناس به، وما كان سعيهم إلا إلى دفع عار السرقة؛ لأن إقامة الحد حتمٌ على المرأة وشهادةٌ بقيامها بجريمة من أشنع الجرائم.

---

[١٤٠] - تاريخ الرسل والملوك - (٢ / ٣٢٠)

[١٤١] - الْأَمْوَالُ لِابْنِ زَنْجُوَيْهِ (٦٠٥) صحيح

[١٤٢] - صحيح البخارى(٣٤٧٥)

وانشغال قريش بفعلة المرأة المخزومية هو دليل سيادة مكارم الأخلاق، وإلا ما حاولوا درء الحد عنها بالشفاعة: "من يكلم فيها رسول الله؟".. هذه الجملة استخلصها الراوي (عائشة رضـــي الله عنـــها) أصابت المعنى الذي ساقت من أجله الجمل والألفاظ، وخلَّصت المعاني مما لا حاجة إليـــه، وانتقـــت الكلام للمعنى المراد من بين ثنايا أقاويل كثيرة، وأوجزته من حوارات تشعَّبت وامتدت فيها ما يتعلق بالسياق، ومنها ما يُعدُّ حواشيَ حوله، فسكتت عما لا يخص ما أرادت تسليط الضوء عليه، وما فُهِمَ من فحوى الخطاب إشارةً.

والجملة الاستفهامية كشفت حيرة القوم وذهولهم واستحياءهم من فعلتها، فعجزوا عن إيجاد مـــدخل أو وسيلة يتواصلون بها مع رسول الله ﷺ راجين درء الحد.

وليس الاستفهام لاستبعاد أن يكلم أحدٌ رسول الله في هذا، وإلا ما جاء السياق "ومن يجترئ عليـــه إلا أسامة حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!"؛ فالجملة الثانية تدل على أنهم كانوا في حال بحث وتنقيب عن المناسب لمحادثة رسول الله ﷺ في هذا الأمر العظيم الذي داهمهم، والاستفهام الأول "من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟" يدل على استعظام المشكلة واستفحالها.

(يجترئ عليه: أي يجرؤ على مخاطبة الرسول ﷺ في هذا الأمر).

من بلاغة السرد

والقصر في الجملة "ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله؟!" قصر إفراد مصـــحوب بوصـــفية تعليلية تفسيرية "حِبُّ رسول الله"؛ فيها حيثية ترشيح المخاطب؛ لمنزلته عند رســـول الله ﷺ ومـــدى حب رسول الله له.

وهنا كلام مسكوت عنه؛ فالسياق طُوِيَت فيه جمل دلَّ عليها الخطاب: "فذهبوا إلى أسامة فـــأخبروه بالأمر ورجَوا منه أن يشفع عند رسول الله، وما زالوا به حتى قَبِل بعد تحرُّجٍ منه، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وكلَّمه"، والربط بين الجمل (بالفاء) يدل على أن السياق جاء في نسق حدث واحد، وهـــو الشفاعة للمرأة المخزومية التي سرقت، وتعثُّر القوم في حل هذه المشكلة وعجزهم عن العثور عمـــن ينهض بالأمر.

مجتمع يظلله الالتزام

واللافت للانتباه أن الكثيرين لم يتقدموا للشفاعة امتثالاً لأمر الله، وتقدم حبّ رسول الله ﷺ أســـامة؛ ليس جرأةً على حدود الله، حاشا لأسامة، ولكن ربما سوَّغ له أهلها أن الأمر يشترك فيه رســـول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهي قد سرقت قطيفة من بيته ﷺ عام الفتح، كما ورد في السِّيَر؛ ولعل هذا هو ما أطمعهم في عفو رسول الله؛ إذ الأمر يتعلق به شخصيًّا، لكنه ﷺ بَيَّنَ أن الأمر غير ذلك.

ويُفهم من فحوى الخطاب "من يكلم فيها رسول الله؟!" بعد "أن قريشًا أهمَّتهم المرأة المخزومية" أن تحرُّكًا ذا طابع قبلي كان يتململ خوفَ إقامة الحد عليها، وإذًا.. كان رفض الشفاعة من أسامة وَأْدًا لأية قيمة جاهلية تطلُّ برأسها في ظل مجتمع إسلامي تسوده شريعة الله وسنه نبيه صلى الله عليه وسلم، وكان رفض الشفاعة بالدرجة الأولى إعلانًا لسيادة حكم الله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (المائدة: من الآية ٥٠)، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: من الآية ٣٦)، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ (النساء).

والحدود: جزءٌ من قانون جنائي؛ تحمي المجتمع كله؛ ماله وعِرضه ودمه وعقله، وقبل كل هذا دينه.

استشفاعٌ يأباه رسول الله

لذلك استنكر رسول الله ﷺ شفاعة أسامة؛ فالاستفهام فحواه: لا ينبغي أن يكون ذلك منك، ولا ينبغي لك لأنه أمر جَلِيٌّ فيه حكم الله؛ فالمرأة ثبت عليها ما يستوجب الحد، فأنَّى لك يا أسامة أن تفكِّر في الشفاعة لمن انتهكت حدًّا من حدود الله تعالى، وأنت لك من الفهم والوقوف على حدود الله ما يمنعك من ذلك؟! وإذا كان هذا ما قوبل به أسامة الذي رشَّحه الناس "حِبّ رسول الله" للشفاعة؛ فالخطاب عام، فلا أنت يا أسامة ولا غيرك ينبغي له أن يشفع في حدٍّ من حدود الله.

أسامة يلوذ بالاستغفار

فاستشعر أسامة الذنب فقال: استغفر الله لي يا رسول الله؛ فالشفاعة مردودة مرفوضة لأنها مصحوبة بدليل رفضها، وهو أنها في "حدٍّ من حدود الله"، وكلمة حدود الله في القرآن الكريم دائمًا تَعقُب قضايا تمسّ أمن الفرد والمجتمع والأمة.

ولما استعظم رسول الله ﷺ ما أقدم عليه أسامة، وما كان إقبال أسامة شافعًا للمرأة إلا اختزالاً لما عليه كثيرٌ من الناس تجاهها؛ فالأمر يتجاوز الفردية؛ لذلك صعد رسول الله ﷺ المنبر واختطب الناس.

الرسول يُوَجِّه الأمة

"ثم قام فاختطب ثم قال: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه".. اختطب: تهيَّأ للخطبة وهيَّأ الناس، فكان التفاعل في ذروته، ثم بدأ الخطبة بما عُهِدَ افتتاحًا وثناءً على الله تعالى، واختطب: افتعل.. الصيغة هذه تدل على تجمُّع الناس وأنهم كانوا يتوافدون سِراعًا؛ لسماع ما يرسيه رسول الله ﷺ لبناء الأمة الوليدة وما يلقيه من أحكام يسعدون بها دنيا وآخرة.

وبيْن "ثم قام فاختطب" و"ثم قال إنما أهلك الذين قبلكم" المسافة الزمانية بين (ثم) الأولى، والثانية توحي بأنه ﷺ ربما شرع في بيان بعض الأمور يمهِّد بها للقضية (الشفاعة في حد السرقة)؛ فإذا ما اجتمع الناس وتهيؤا قال: "إنما أهلك الذين قبلكم" وهنا قصر مجازيٌّ؛ حيث حصر الموصوف (هلاك الذين قبلكم) على الصفة "التجاوز عن السارق إذا كان شريفًا"، والمجاز تنزيلي؛ حيث إن هلاك الأمم

لا يكون بالتجاوز عن الأشراف حال جرمهم فقط؛ بل هناك صفات أخرى تتعاضد فيما بينها فتُودي بالأمم، ولكن أُنزِلت كل هذه الصفات والعوامل منزلة المعدوم، وأُبرزت هذه وخُصَّت دون سواها لخطورتها ولاهتمام المتكلم صلى عليه وسلم بها؛ حيث إنها مناط الحديث؛ ذلك لأنها آفة يُخشى على المجتمع الوليد أن تستشري فيه فتهلكه.

التحذير من مَهلكة وسوء مصير

والإخبار يطوي التعريض إلى سوء المصير، ويحوي جملاً ذات ديناميكية خاصة "القصر"؛ إنما.. التعبير بالماضي في (أهلك)، والظرفية الزمانية ذات الامتداد التواصلي (قبل)، والإضافة التي تُوحي بإلحاق العقاب بهم كما لحق بمن قبلهم، (وإنما) أفادت التعريض؛ أي إذا فعلتم ما فعله من قبلكم فستؤول عاقبتكم إلى مثل ما آلت إليه عاقبتهم فاحذروا وارتدعوا، تقديم نتيجة الظلم والتفرقة الطبقية على سببها.. "أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه".

ويمكن التعبير أن يكون "هلاك الذين قبلكم لكونهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه"، ولكن جوامع الكلم من أفصح البشر ﷺ تسوق الجمل والألفاظ في أبلغ صورها، وجملة "لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف" تعليلية تفسيرية، تبيِّن سبب هلاكهم، وحوى خبر المبتدأ الشرط "إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد".

فهاتان الجملتان الشرطيتان بينهما مقابلة؛ تبيِّن شناعة ما عليه القوم من جور وعسف، وبين الشريف والضعيف طباق يوحي بطبقية يأباها الإسلام؛ لأنها تمثل خنوعًا وقبولاً بالاستبداد ورضا بالقهر، فلولا وجود الضعفاء المستبَدّ بهم ما كان السادة المستبدون، وهذا يُضاد مقتضيات كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، ودلالة التوحيد طرح كل ألوهية، وإعلان العبودية لله وحده؛ لذلك كانت المساواة أساس المجتمع الإسلامي؛ لأن الكل أمام الله عبيد.

تقسيم طبقي مُهلك

وبين "تركوه" و"أقاموا عليه الحد" مقابلة تثير السخط والغضب؛ فحينما يسرق السادة يُعفَى عنهم.. ﴿واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ (يوسف: من الآية ٢٩)، أما الضعفاء فترى الحركة الملتفة حولهم، وجملة "أقاموا عليه الحد" جملة مصورة؛ تشخِّص الموقف حالَ إقامة الحد، والفعل (أقاموا) له دلالة الهِمَّة والجِدية والعزم، والجملة توحي بإحكام القبضة على الضعيف وعدم إفلاته، أما الشريف فالفعل (تركوه) أوحى بعدم التعرض له وعدم المساس به، فيمضي في حياته كيفما شاء، وهذا منتهى الكبر والتألُّه من دون الله، فتنشأ طبقة الطغاة كالتي في زماننا هذا؛ حيث السلب والنهب، ولا أحد يواجههم بما اقترفت أيديهم، بل يتقلبون في البلاد طغاةً باطشين بالأحرار.

واللافت أن مرجع الضمير في الفعلين واحد (تركوه- أقاموا) الذين قبلكم، وهو ضمير ذو امتداد مع كل من يتصف بنفس صفاتهم، مما يبين أنهم مناط الإفساد أو الإصلاح، مما يعظم التبعة والمسئولية،

وضمير الجمع هو الغالب في السياق، والألفاظ ذات معنى الجمع (قبلكم- كانوا- فيهم- أقاموا- الذين) والفرد (الشريف- الضعيف) وهو مناط التفرقة، فسكوت الجمع ورضوخه للواقع المفروض عليه إيذان بهلاك محقق.

السكوت عن الظلم يُودِي إلى الدمار

فامتداد الظلم وتماديه مَهلكةُ الأمم، وما أهلك السابقين يُهلك اللاحقين، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

والأمة التي ترضى بوقوع الظلم فيما بينها ولا تدفعه أمة تُودِّع منها، وأفراد الأمة عندما يُرَبَّوْنَ على إقامة شرع الله ويعايشون نبض رد الحقوق لأهلها؛ تترسَّخ في نفوسهم عقيدة الذود عن الحياض وبذل الأرواح فداءَ الدين والوطن.

أما إذا اعتادت التخاذل وعدم إقامة شرع الله ألفت الهزائم في كافة الميادين، ولعل هذه الحياة التي يعتادها أفراد الأمة إذ يمتثلون شرع الله وحدوده من معاني قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: من الآية ١٧٩)؛ فالأمة حال التزامها بالشرع تحيا وتلوذ بحمى ربها، أما إذا ما فرَّطت هانت على أخسِّ خلق الله، وما واقعنا إلا تصديق لهذا.

أمةٌ أَلِفت الاستعباد

أمة ألفت سماع مسوغات هزائمها، بل وتستعذب ترنُّم الشادي الذي يصدح بنصر زائف، وتصنع الأجهزة الإعلامية (سحرة فرعون) أبطالاً وزعماءَ؛ هم في الحقيقة عملاء وربائب الاستعمار، صنعهم على عينه لينوبوا عنه في تنفيذ مخططاته ومآربه.

رسول الله يقرر حُكمًا

ثم يُقْسِم رسول الله ليقرر حقيقةً وحكمًا "وايم الله؛ لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها" والقسم من الرسول الخاتم ﷺ وهو الذي لم يكذب قط (الصادق الأمين) فالقَسَمُ له عِظَمُهُ، والمُقسَمُ به هو الله رب العالمين الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ إذن الأمر جلل.

رسول الله ﷺ بقسمه يُزيل من الأذهان أية ذرة فكْر يتسرَّب إليها تراجع عن تنفيذ حكم الله، ويضرب رسول الله ﷺ مثلاً بابنته فاطمة، وهي التي يستحيل في حقها السرقة أو أي خُلق مشين؛ لأنها ابنة رسول، والرسل معصومون حتى في أهليهم، ومعلوم أن خيانة امرأة نوح ولوط كانت في عدم الإيمان والبوح ببعض الأسرار كما صدر من امرأة لوط، وكفر ولد نوح دليلٌ على أن رسول الله نوحًا لم يقهر ابنه على اتباعه ولم يقهر زوجه، كما فعل ذلك فرعون عندما قتل امرأته لأنها آمنت بالله.

فكفر زوجتي نبيِّين (نوح ولوط) وابن نوح دليلٌ على مدى الحرية التي وَسِعَت هؤلاء في اختيار معتقدهم؛ أما الطغاة فلم يعرفوا غير السجن والقتل والطرد لمخالفيهم ﴿لأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ

النَّخْلِ﴾ (طه: من الآية ٧١)، ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: من الآية ٥٦).

رسول الله.. مُشَرِّعًا

رسول الله ﷺ حال توعّده بقطع يد فاطمة لو سرقت، ساق الخبر فرضًا؛ بوصفه أبًا وقعت ابنته لحظة ضعف بشري في خطأ، فهو ﷺ هنا فردٌ من الأمة؛ فلذلك قال (تجريدًا) فاطمة بنت محمد؛ بوصفه فردًا من الأمة، شمله عمومها، ثم عادت شخصيته ﷺ بوصفه نبيًّا وقائدًا يطبِّق حدود الله ومسئولاً عن أمن الأمة كلها فظهرت شخصية القائد المنفذ لأحكام ربه "لقطعت يدها".

فهذه فرضية استدلالية لدفع أي توهّم يحُول دون تطبيق شرع الله، فكان (التجريد) لامتثال الشرع وتنفيذه بلا محاباة، وهنا يتجلى مدى الامتثال للشرع مبالغةً في الإصرار على إنفاذ الحد، وهنا سِيق فعلا الشرط بصيغة الماضي (سرقَتْ- قطعْتُ) وهي لم تقُم بالفعل بالسرقة، ولكنه سِيق بصيغة الماضي للتأكيد والحزم بوقوع العقاب إذا اقترفت ما يستوجب الحد، وجواب الشرط يستلزم المستقبل؛ أي سأقطع، ولكنه تحقيقًا في وقوع لازم الفعل سِيق ما يؤكد عقابه إذا استوجبه استحقاقًا وفق شرع الله.

وعندما ذكر رسول الله ﷺ ابنته فاطمة كانت هذه إيماءةَ تواصل مع فاطمة المخزومية (التي سرقت)؛ فرسول الله أبٌ للجميع، وليست إقامة الحد بترًا للعلائق أو انتقامًا شخصيًّا، بل هي تطهير لمن ارتكب ما يستوجب الحد، وسياق الأحداث يؤكد تواصل فاطمة المخزومية بعد إقامة الحد عليها، فكان رسول الله ﷺ يحسن معاملتها بعد توبتها كما أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنها.

فأي عدل هذا وأي مساواة؟! الرسول ﷺ المعصوم وأهله ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: من الآية ٣٣) يُنَزِّلُ ابنته هذه المترلة لتكون نموذجًا لو صدر منه ما يستوجب الحد لأقامه، وتواصل الرسول ﷺ معها دليل رحمة وعفو.

والآن.. أين نحن؟!

انظر ما عليه مترفو أهل زماننا وأصحاب رؤوس الأموال التي لا تعرف حرامًا ولا حلالاً، فشغلهم الشاغل اكتناز الثروات وتكديسها في بنوك الخارج، (أكثر من ألف تريليون دولار في بنوك أمريكا وأوروبا للعرب)، وما تقدمت الأمة نحوهم بسؤال: من أين؟ وإلى أين؟

إن أمةً تجبن عن سؤال ناهبيها وإيقافهم لأمةٌ ميتة؛ جديرة بعقابٍ لا يُصيبنَّ الذين ظلموا منها خاصةً.[١٤٣]

٣٦. عدمُ التراحم :

[١٤٣] – انظر : أمة لا تصون حقوقها.. هل تنتصر؟! http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=٣٨٤٩٤&SecID=٣٩١

عَنِ أبي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – الْحَسَنَ بْنَ عَلِىٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِىُّ جَالِسًا . فَقَالَ الأَقْرَعُ إِنَّ لِى عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا . فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – ثُمَّ قَالَ : « مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ »صحيح البخارى .[144]

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – : « لاَ يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ » صحيح البخارى[145].

وفي سنن أبي داود(٤٩٤٤) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ -ﷺ- صَاحِبَ هَذِهِ الْحُجْرَةِ يَقُولُ : « لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلاَّ مِنْ شَقِىٍّ ».(صحيح)

وفي مسند الشاشي (١٢٠٩) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : " لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ " (صحيح لغيره)

---

٣٧. نقضُ العهود والمواثيق :

قال تعالى : {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) }سورة النحل

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ إِذَا وَاثَقْتُمُوهُ ، وَعَقْدِهُ إِذَا عَاقَدْتُمُوهُ ، فَأَوْجَبْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ حَقّاً لِمَنْ عَاقَدْتُمُوهُمْ وَوَاثَقْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ (وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلُّ عَقْدٍ يَلْتَزِمُ بِهِ الإِنْسَانُ باخْتِيَارِهِ) وَأَشْهَدْتُمُ اللهَ عَلَى الوَفَاءِ بِهِ . وَلا تُخَالِفُوا مَا عَقَدْتُمْ فِيهِ الأَيمَانَ ، وَشَدَّدْتُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ شَاهِداً وَرَاعِياً عَلَيْكُمْ فِي الوَفَاءِ بالعَهْدِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ وَفَاءٍ وَحَلْفٍ ، وَبِرٍّ وَحَنْثٍ ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَ . قِيلَ إِنَّهُ كَانَتْ فِي مَكَّةَ امْرَأَةٌ مُلْتَاثَةُ العَقْلِ تَغْزِلُ غَزْلَهَا فِي النَّهَارِ ، ثُمَّ تَعُودُ فَتَنْقُضُهُ فِي اللَّيْلِ (أَنْكَاثاً) ، وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى فِعْلَ هَذِهِ المَرْأَةِ المُلْتَاثَةِ العَقْلِ مَثَلاً لِلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ تَحْقِيراً لَهُمْ ، وَتَقْبِيحاً لِفِعْلِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : وَلاَ تَكُونُوا يَا أَيُّهَا القَوْمِ فِي نَقْضِكُمْ أَيْمَانَكُمْ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَإِعْطَائِكُمْ رَبَّكُمُ العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ ، كَمَنْ تَنْقُضُ غَزْلَهَا بَعْدَ إِبْرَامِهِ حَمَاقَةً وَجَهْلاً . إِذْ تَجْعَلُونَ أَيْمَانَكُمُ التِي تَحْلِفُونَهَا عَلَى أَنَّكُمْ مُوفُونَ بالعَهْدِ الذِي عَاهَدتُّمْ عَلَيْهِ ، وَسِيلَةً لِلْخِدَاعِ ، وَلِغِشِّ مَنْ عَاقَدْتُمُوهُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَضْمِرُونَ الغَدْرَ وَعَدَمَ الوَفَاءِ ، إِذَا وَجَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنَ الجَمَاعَةِ التِي تَعَاقَدْتُمْ مَعَهَا ، وَأَكْثَرُ عَدَداً ، فَإِذَا وَجَدْتُمْ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنَ

---

[144] - ٨/٩ برقم (٥٩٩٧)

[145] - برقم (٧٣٧٦)

الجَمَاعَةِ التِي تَعَاقَدْتُمْ مَعَها ، تَحَالَفْتُمْ مَعَهُ ، وَحَنِثْتُمْ بِأَيْمَانِكُمْ التِي أَقْسَمْتُمُوهَا لِلجَمَاعَةِ الأُوْلَى (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) .

وَاللهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالوَفَاءِ بالعُهُودِ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ، وَيَبْلُوَ إِيمَانَكُمْ ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بعَمَلِهِ .

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله . والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ، ولا تقوم إنسانية . والنص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلاً عليهم ، وأشهدوه عهدهم ، وجعلوه كافلاً للوفاء بها . ثم يهددهم خفياً { إن الله يعلم ما تفعلون } وقد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً ، لأنها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم ، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال ، وتقبيح نكث العهد ، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات : { ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة .إنما يبلوكم الله به . وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون } .فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأي ، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعاً منكوثة ومحلولة! وكل جزئية من جزيئات التشبيه تشي بالتحقير والترذيل والتعجب . وتشوه الأمر في النفوس وتقبحه في القلوب . وهو المقصود . وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل ، التي تقضي حياتها فيما لا غناء فيه!

وكان بعضهم يبرر لنفسه نقض عهده مع الرسول ﷺ بأن محمداً ومن معه قلة ضعيفة ، بينما قريش كثرة قوية . فنبههم إلى أن هذا ليس مبرراً لأن يتخذوا أقسامهم غشاً وخديعة فيتخلوا عنها : { تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة } أي بسبب كون أمة أكثر عدداً وقوة من أمة . وطلباً للمصلحة مع الأمة الأربى

ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى الآن « مصلحة الدولة » فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول ، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى في الصف الآخر ، تحقيقاً « لمصلحة الدولة »! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر ، ويجزم بالوفاء بالعهد ، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل . ذلك في مقابل أنه لا يقر تعاهداً ولا تعاوناً على غير البر والتقوى . ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان ، وأكل حقوق الناس ، واستغلال الدول والشعوب . . وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام .

والنص هنا يحذر من مثل ذلك المبرر ، وينبه الى قيام مثل هذه الحالة : { أن تكون أمة هي أربى من أمة } هو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم وتحرجهم من نقض العهد الذي أشهدوا الله عليه : { إنما يبلوكم الله به } :
ثم يكل أمر الخلافات التي تنشب بين الجماعات والأقوام إلى الله في يوم القيامة للفصل فيه : { وليبيِّنن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون } يمهد بهذا لترضية النفوس بالوفاء بالعهد حتى لمخالفيهم في الرأي والعقيدة : { ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون } . . ولو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، ولكنه خلقهم باستعدادات متفاوتة ، نسخاً غير مكررة ولا معادة ، وجعل نواميس للهدى والضلال ، تمضي بها مشيئته في الناس ، وكل مسؤول عما يعمل . فلا يكون الاختلاف في العقيدة سبباً في نقض العهود .فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله . والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات . وهذه قمة في نظافة التعامل ، والسماحة الدينية ، لم يحققها في واقع الحياة إلا الإسلام في ظل هذا القرآن .ويمضي السياق في توكيده للوفاء بالعهود ، ونهيه عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة ، وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانية . ويحذر عاقبة ذلك في زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية ، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات . وينذر بالعذاب العظيم في الآخرة ، ويلوح بما عند الله من عوض عما يفوهم بالوفاء من منافع هزيلة . وينوه بفناء ما بأيديهم وبقاء ما عند الله الذي لا تنفد خزائنه ، ولا ينقطع رزقه : { ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً . إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون } .واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوه صورها في ضمائر الآخرين . فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ، ولا أن تثبت له قدم على صراطها . وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل؛ ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ الذي يضربه للمؤمنين بالله .ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم في وعدهم ، ومن إخلاصهم في أيماهم ، ومن نظافتهم في معاملاهم . فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم . ولقد ترك القرآن وسنة الرسول ﷺ في نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاماً في هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز . . روي أنه كان بين معاوية بن أبي سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم في أخر الأجل . (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية . وفاء لا غدر . سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمـــدها » فرجـــع معاوية بالجيش . والروايات عن حفظ العهود مهما تكن المصلحة القريبة في نقضها متواترة مشهورة .وقد ترك هذا القرآن في النفوس ذلك الطابع الإسلامي البارز . وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذي يجره نقضه ضئيلاً هزيلاً ، وما عند الله على الوفاء عظيماً جزيلاً : { ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً .إن ما عند الله هو خير لكـــم إن كنـــتم تعلمـــون } . . ويذكر بأن ما عند البشر ولو ملكه فرد فإنه زائل ، وما عند الله باق دائم : { ما عندكم ينفد ومـــا عند الله باق } ، ويقوي العزائم على الوفاء ، والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجراً حسناً { ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون } والتجاوز عما وقع منهم من عمل سيئ ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه .

قال تعالى : {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} (١٠٠) سورة البقرة وَكَانَ اليَهُودُ قَدْ قَالُوا حِينَمَا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ مُحُمَّداً ﷺ : وَاللهِ ، مَا عَهِدَ إلينَا في مُحَمَّدٍ ، وَمَا أَخَـــذَ عَلَينَا مِيثَاقاً . فَأنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآيَةَ . (وَقَالَ مُفَسرُونَ : إنَّ العُهودَ المَقْصُودَةَ هُنَا هِيَ عُهُودُهُمْ للنَّبيِّ ﷺ وَهُوَ فِي المَدِينة) .وَمَعْنَى الآيَةِ : إنَّ اليَهُودَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَقَضَهُ (نَبَذَهُ) فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَلا يُؤْمِنُونَ بحُرْمَةِ العُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ .

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل ، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد ، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي – ﷺ – أول مقدمه إلى المدينة؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشـــروط معينة ، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه؛ وأول من عاب دينه ، وحاول بث الفرقة والفتنـــة في الصف المسلم ، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه . .

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض ، يعلنها رسول الله – ﷺ – في قوله « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم » . يســـعى بذمتهم أدناهم ، فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد ، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم ، ولقد كتب أبـــو عبيدة – رضي الله عنه – وهو قائد لجيش عمر – رضي الله عنه – وهو الخليفة يقول : إن عبداً أمن أهل بلد بالعراق . وسأله رأيه . فكتب إليه عمر : إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا . . فوفوا لهم وانصرفوا عنهم . . وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة . وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين .

وقال تعالى : {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَـــوْلِهِمْ قُلُوبُنَـــا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} (١٥٥) سورة النساء

فَبِسَبَبِ نَقْضِ هَؤُلاَءِ اليَهُودِ لِلْمِيثَاقِ الذِي وَاثَقَهُمُ اللهُ بِهِ ، (إذْ أحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ، وَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللهُ) . وَبِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بَآيَاتِ اللهِ وَمُعْجزَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ أَنْبِيَائِهِ ، وَبِسَبَبِ قَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ ظُلْماً وَعُدْوَاناً وَاجْتِرَاءً عَلَى مَحَارِمِ اللهِ ، وَبِسَبَبِ قَوْلِهِمْ : قُلُوبُنَا مُغَلَّفَةٌ بِغِطَاءٍ لاَ يَتَيَسَّرُ مَعَهُ وُصُولُ العِلْمِ وَالهُدى إليها (غُلفٌ) . . . فَبِسَبَبِ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الاعْتِدَاءِ وَالتَّجَاوُزِ عَلَى أَوَامِرِ اللهِ وَحُدُودِهِ وَشَرْعِهِ ، فَعَلَ اللهُ بِهِمْ مَا فَعَلَ . وَيَقُولُ تَعَالَى : إنَّ قُلُوبَ هَؤُلاءِ اليَهُودِ لَيْسَتْ مُغَلَّفةً ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى طَبَعَ عَلَيْهَا بِالكُفْرِ ، فَلاَ يَصِلُ إليها إلاَّ قَلِيلٌ مِنَ الإِيمَانِ (أَوْ إنَّهُ لاَ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إلاّ قَلِيلُونَ) .

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما في الألواح . . وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعتهم الغليظة . إذ نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم؛ تهددهم بالوقوع عليهم؛ إذا هم لم يستسلموا و لم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد؛ وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح . . عندئذ فقط استسلموا؛ وأخذوا العهد؛ وأعطوا الميثاق . . ميثاقاً غليظاً . . مؤكداً وثيقاً . . يذكره - بهذه الصفة - ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم ، وغلظ القلب الذي في صدورهم ، ثم يعطي - إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير ، وبالتخييل الحسي والتجسيم

وكان في هذا الميثاق : أن يدخلوا بيت المقدس سجداً . وأن يعظموا السبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيداً . ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم؛ وغياب القهر لهم ، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه بغير حق . وتبجحوا فقالوا : إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، ولا يصل إليها قول ، لأنها مغلفة دون كل قول! وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين - في مواجهة اليهود - في سياق هذه الآيات . .

{ فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف. }

وعند قولهم : { قلوبنا غلف } . . وهي القولة التي كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول - ﷺ - إما تيئيساً له من إيمانهم واستجابتهم ، وإما استهزاء بتوجيه الدعوة إليهم ، وتبجحاً بالتكذيب وعدم الإصغاء ، وإما هذا وذلك معاً . . عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم : { بل طبع الله عليها - بكفرهم - فلا يؤمنون إلا قليلاً - }

فهي ليست مغلفة بطبعها .إنما هم كفرهم جر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم ، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته ، فلا يقع منه الإيمان ، إلا قليلا ، ممن لم يستحق بفعله ، أن يطبع الله على قلبه . أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه ، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه . وهم قلة قليلة من اليهود . كعبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن سعية ، وأسد بن عبيد الله . .

وقال تعالى : {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (١٣) سورة المائدة

فَبِسَبَبِ نَقْضِهِم المِيثَاقَ الذِي أخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ (وَمِنْهُ الإِيمَانُ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللهُ ، وَنَصْرُهُ وَتَبْجِيلُـهُ) اسْتَحَقُّوا مَقْتَ اللهِ وَغَضَبَهُ ، حَتَّى قَتَلُوا الأنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَافْتَرَوا عَلَى مَرْيَمَ ، وَأَسَاؤُوا إلى عِيسَى ، الذِي جَاءَ لإِصْلاَحِ مَا فَسَدَ مِنْ عَقَائِدِهِم وَأخْلاَقِهِمْ ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ ، فَبِسَبَبِ جَمِيعِ مَا اقْتَرَفُوهُ مِـنْ عَقَائِدِهِم وَأخْلاَقِهِمْ ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ ، فَبِسَبَبِ جَمِيعِ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ ذُنُوبٍ وَمَعَاصٍ جَعَلَ اللهُ قُلُـوبَهُمْ قَاسِيَةً ، فَلاَ يَتَّعِظُونَ بِمَوْعِظَةٍ لِغِلْظَةِ قُلُوبِهِمْ وَقَسْوَتِها ، وَجَعَلَ أَفْهَامَهُمْ فَاسِدَةً فَسَاءَتْ تَصَرُّفَاتُهُمْ فِي آيَاتِ اللهِ ، فَأَخَذُوا فِي تَحْرِيفِها وَتَأوِيلِها عَلَى غَيْرِ مَا أنْزِلَتْ لَهُ ، وَحَمَلُوهَا عَلَى غَيْرِ المُـرَادِ مِنْهَـا (يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) وَتَرَكُوا العَمَلَ بهَا رَغْبَةً عَنْهَا (نَسُوْا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) ، وَلاَ تَـزَالُ تَكْتَشِفُ مِنْ أكْثَرِهِمْ غَدْراً وَمَكْراً بِكَ وَبأصْحَابِكَ (تَطَّلِعَ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، وَهذا هُوَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ ، وَفِيهِ تَأَلُّفٌ لِقُلُوبِهِمْ ، لَعَلَّ اللهَ أنْ يَهْدِيَهُمْ إلَـى الحَـقِّ ، إنَّ اللهَ يُحِـبُّ المُحْسِنِينَ . (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ - هُوَ أنَّهُـمْ نَسُـوا الكِتَابَ الذِي أُنْزِلَ إلَيْهِمْ) .

وصدق الله . فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم .

. لعنة تبدو على سيماهم ، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهدايـة . وقسـوة تبـدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة ، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية ، ومهما حـاولوا - مكراً - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة ، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقيعـة ، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة . . وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه . تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إمـا بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة علـى الله! وإمـا بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث! ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم ، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم ، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة علـى منـهج الله الطاهر النظيف القويم .

{ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، إلا قليلاً منهم . . . } . .وهو خطاب للرسول - ﷺ - يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة . فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسـول الله - ﷺ - وقـد كانت لهم مواقف خيانة متواترة . بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معـه في المدينـة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ . على الـرغم مـن أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم ، ورفع عنهم الاضطهاد ، وعاملـهم بالحسـنى ،

ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه . ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقـــارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة ، ولا تني تمكر وتغدر . إن أعوزهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد ، وتآمروا مع كل عدو لهـــم ، حـــتى تحـــين الفرصة ، فينقضوا عليهم ، قساة جفاة لا يرحمونهم ، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة . أكثرهم كذلك . . كما وصفهم الله سبحانه في كتابه ، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله - ﷺ - في المدينة ، تعبير طريف :
{ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم } . .الفعلة الخائنة ، والنية الخائنة ، والكلمة الخائنة ، والنظرة الخائنة . . يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة . . « خائنة » . . لتبقى الخيانـــة وحدها مجردة ، تملأ الجو ، وتلقي ظلالها وحدها على القوم . . فهذا هو جوهر جبلتهم ، وهذا هـــو جوهر موقفهم ، مع الرسول - ﷺ - ومع الجماعة المسلمة . .

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريـــق . وهـــو يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله ، ولو ظلت هـــذه الأمة تستشير قرآنها؛ وتسمع توجيهاته؛ وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها ، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام .

. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة ، وتعاويذ ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها .

ولقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه ، حين نقضوا ميثاقهم مع الله ، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله ، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد ، ناقض للعقد . . فلما غفلت عن هذا التحذير ، وسارت في طريـــق غـــير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية؛ وتركها هكذا ذيلاً في القافلة! حتى تثوب إلى ربهـــا؛ وحـــتى تستمسك بعهدها ، وحتى توفي بعقدها . فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومـــن القيـــادة للبشر والشهادة على الناس . . وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة . . وعد الله لا يخلف الله وعده . .

ولقد كان توجيه الله لنبيه في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية : { فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين } . .والعفو عن قبائحهم إحسان ، والصفح عن خيانتهم إحسان . .

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان . فأمر الله نبيه - ﷺ - أن يجليهم عن المدينة . ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها . وقد كان .

٣٨.　　الغدرُ :

ففي صحيح البخارى(٣٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - قَالَ « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » .

وفي صحيح البخارى (٢٢٢٧) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « قَالَ اللَّهُ ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ، وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ » .

وفي سنن أبي داود (٢٧٦١) عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ - رَجُلٍ مِنْ حِمْيَرَ - قَالَ كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلاَدِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَشُدُّ عُقْدَةً وَلاَ يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِىَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ». فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ. (صحيح)

ينبذ : أى يرمى عهدهم إليهم بإخبارهم بأنه نقض العهد على تقدير خوف خيانتهم

وفي سنن ابن ماجه (٢٧٩٠) عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ شَدَّادٍ الْقِتْبَانِىِّ قَالَ لَوْلاَ كَلِمَةٌ سَمِعْتُهَا مِنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ الْخُزَاعِىِّ لَمَشَيْتُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِ الْمُخْتَارِ وَجَسَدِهِ سَمِعْتُهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ أَمِنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ لِوَاءَ غَدْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».(صحيح)

وفي سنن ابن ماجه(٤١٤٦) عَنْ جَابِرٍ قَالَ لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ قَالَ : « أَلاَ تُحَدِّثُونِى بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ». قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِىَّ وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِى وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِى وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « صَدَقَتْ صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ ».(حسن)

وفي مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٠٩١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رُفِعَ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ ، فَقِيلَ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ. (صحيح)

و(٣٤٠٩٢) عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ.(صحيح)

و(٣٤٠٩٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ ، يُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنٍ.(صحيح)

وفي مسند أحمد (٦٢٣٧) عَنْ بِشْرِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « إِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءً يُعْرَفُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ وَإِنَّ أَكْبَرَ الْغَدْرِ غَدَرُ أَمِيرِ عَامَّةٍ ». (صحيح)

وبرقم(١١٩٨٤) عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « أَلاَ إِنَّ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ أَلاَ وَلاَ غَدْرَ أَعْظَمُ مِنْ إِمَامِ عَامَّةٍ ». (صحيح)

---

٣٩. الخيانةُ :

قال تعالى : { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) } سورة الأنفال

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ ، زَعِيمُهُمْ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ ، وَهُوَ مِنْ طَوَاغِيتِ الكُفْرِ وَالكُرْهِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِلإِسْلاَمِ ، وَفِيهَا يُطَمْئِنُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِلَى أَنَّهُ آمِنٌ مِنْ عَاقِبَةِ كَيْدِهِمْ ، وَيُبَيِّنُ فِيهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ الرَّسُولُ مَعَ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الخَوَنَةِ المُتَرَبِّصِينَ .

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ شَرَّ المَخْلُوقَاتِ التِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ ، فِي حُكْمِ اللهِ وَعَدْلِهِ ، هُمُ الكَافِرُونَ الذِينَ اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ صِفَتَانِ :

(أ) - الإِصْرَارُ عَلَى الكُفْرِ ، وَالرُّسُوخُ فِيهِ حَتَّى لاَ يُرْجَى لَهُمْ إِيمَانٌ .

(ب) - نَقْضُ العَهْدِ .

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ هِجْرَتِهِ إِلَى المَدِينَةِ ، عَقَدَ مَعَ اليَهُودِ عُقُوداً ، أَمَّنَهُمْ فِيهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَدِينِهِمْ ، فَنَقَضُوا هَذِهِ العُهُودَ ، وَتَآمَرُوا عَلَى الرَّسُولِ وَالمُسْلِمِينَ .

الذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَقَضُوهُ ، وَكُلَّمَا أَكَّدُوا بِالأَيْمَانِ نَكَثُوهُ ، وَهُمْ لاَ يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ عَلَى شَيءٍ مِنَ الآثَامِ ارْتَكَبُوهُ .

فَإِذَا مَا لَقِيتَهُم يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي الحَرْبِ ، وَظَفِرْتَ بِهِمْ ، فَنَكِّلْ بِهِمْ ، وَأَثْخِنْ فِيهِمْ قَتْلاً ، لِيَخَافَ سِوَاهُمْ مِنَ الأَعْدَاءِ { فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ } ، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يُحَاذِرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَيَخُونُوا عُهُودَهُمْ ، فَيَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَإِذَا خِفْتَ مِنْ قَوْمٍ عَاهَدْتَهُمْ ، خِيَانَةً وَنَقْضاً لِلْعَهْدِ الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ، وَأَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ لاَ عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ ، فَتَسْتَوِي أَنْتَ وَإِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ بِدُونِ خِدَاعٍ وَلاَ اسْتِخْفَاءٍ . وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتِ الخِيَانَةُ مُوَجَّهَةً لِلْكُفَّارِ .

وفي شعب الإيمان (٤١٩٢) عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ ، قَالَ : " ثَلَاثَةٌ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ فِيهِنَّ سَوَاءٌ : مَنْ عَاهَدْتَهُ وَفِّ بِعَهْدِهِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ، فَإِنَّمَا الْعَهْدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَنْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَحِمٌ فَصِلْهَا ، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا وَمَنِ ائْتَمَنَكَ عَلَى أَمَانَةٍ فَأَدِّهَا إِلَيْهِ " مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا . " (صحيح).

{ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون } . . ولفظ { الدواب } وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض ، فيشمل الأناسي فيما يشمل ، إلا أنه – كما أسلفنا – يلقي ظلاً خاصاً حين يطلق على الآدميين . . ظل البهيمة . . ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التي تدب على الأرض! وهؤلاء هم الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان! وهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة ولا يتقون الله في مرة!

وقد وردت روايات متعددة في المقصودين بهذا النص . . قيل : إنهم بنو قريظة ، وقيل : إنهم بنو النضير وقيل : إنهم بنو قينقاع . وقيل : إنهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة من المشركين . . والنص والواقع التاريخي كلاهما يحتمل أن يكونوا هؤلاء جميعاً . فلقد نقض اليهود عهودهم مع رسول الله – ﷺ – طائفة طائفة ، كما أنه قد تكرر نقض المشركين لعهودهم أيضاً . . والمهم أن نعلم أن هذه النصوص تتحدث عن حالة واقعة قبل بدر وبعدها ، إلى حين نزول هذه الآيات . ولكن الحكم الصادر فيها ، المصور لطبيعة الناقضين للعهد يصور حالة دائمة ، ويقرر صفة ثابتة . .فهؤلاء الذين كفروا ولجُّوا في الكفر { فهم لا يؤمنون } . . ففسدت بذلك فطرتهم ، وباتوا بذلك شر الدواب عند الله . هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه ، فتجردوا بذلك من خصيصة إنسانية أخرى – خصيصة التقيد بالعهد – وانطلقوا من كل قيد ، كما تنطلق البهيمة ، لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط فطرتها ، وهؤلاء لا ضابط لهم . فهم بذلك شر الدواب عند الله!

هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم . . جزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن؛ وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم ، والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم ، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم ، والرسول – ﷺ – ومن بعده من المسلمين مأمورون – إذا التقوا بأمثال هؤلاء في القتال – أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع : فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون}

وإنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذي يكفي السماع به للهرب والشرود . فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب؟ إنها الضربة المروّعة يأمر الله تعالى رسوله – ﷺ – أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد ، وانطلقوا من ضوابط الإنسان ، ليؤمن المعسكر

الإسلامي أولاً ، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيراً؛ وليمنع كائناً من كان أن يجرؤ على الـــتفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد ..

إنها طبيعة هذا المنهج التي يجب أن تستقر صورتها في قلوب العصبة المسلمة . إن هذا الدين لا بد لـــه من هيبة ، ولا بد له من قوة ، ولا بد له من سطوة ، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيـــت حتى لا تقف للمد الإسلامي ، وهو ينطلق لتحرير « الإنسان » في « الأرض » من كل طـــاغوت . والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ ، في وجه العقبات المادية مـــن قـــوى الطاغوت ، هم ناس لا يعرفون شيئاً عن طبيعة هذا الدين!

وهذا هو الحكم الأول يتعلق بحالة نقض العهد فعلاً مع المعسكر الإسلامي؛ وما ينبغـــي أن يتبـــع في ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم وإرهاب من وراءهم بالضربة القاصمة المروعة الهائلة .

فأما الحكم الثاني فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة؛ وذلك بظهور أفعال وأمـــارات تدل على أن القوم يهمون بنقض العهد فعلاً : { وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على ســـواء . إن الله لا يحب الخائنين }

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية؛ و لم يخن و لم يغدر؛ و لم يغش و لم يخدع؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم . فليس بينه وبينهم أمان . . وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة ، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة . . إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض و لم تنبذ؛ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم . . فأما بعد نبذ العهـــد فالحرب خدعة ، لأن كل خصم قد أخذ حذره؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هـــو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلـــب؛ وهـــو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة .

إن الإسلام يكره الخيانة ، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة . . إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ؛ ومتى اســـتحلت لنفسها وسيلة خسيسة ، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة . . وليس مسلماً من يبرر الوسيلة بالغاية ، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية ، لأنه لا انفصال في تكـــوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات .

. إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل ، فإن الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية . . من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة :{ إن الله لا يحب الخائنين

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق . لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان . قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت . ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذي ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي حيث لم تكن أوربا تعرف شيئاً عن المعاملات الدولية إلا ما تقتبسه في أثناء تعاملها مع العالم الإسلامي . ثم هي لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق في عالم الواقع؛ حتى بعد ما عرفت نظرياً شيئاً اسمه القانون الدولي! وعلى الذين يبهرهم « التقدم الفني في صناعة القانون » أن يدركوا حقيقة « الواقع » بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعاً!

وقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } (٢٧) سورة الأنفال

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَبِي لُبَابَةَ حِينَ بَعَثَهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ، فَاسْتَشَارَ اليَهُودُ أَبَا لُبَابَةَ – وَكَانَ حَلِيفاً لَهُمْ – فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالنُّزُولِ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ ، أَيْ أَنَّه الذَّبْحَ . ثُمَّ شَعَرَ أَنَّهُ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةِ المَسْجِدِ تِسْعَةِ أَيَّامٍ لاَ يَذُوقُ طَعَاماً حَتَّى تَابَ اللهُ عَلَيْهِ ، فَأَطْلَقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ . (وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، الذِي أَرْسَلَ رِسَالَةً إِلَى قُرَيْشٍ مَعَ امْرَأَةٍ يُعْلِمُهَا فِيهَا بِأَنَّ الرَّسُولَ تَجَهَّزَ لِغَزْوِهِمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ) . وَالآيَةُ عَامَّةٌ .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ لاَ يَخُونُوا اللهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ ، وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَنِهِ ، وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَأَنْ لاَ يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ التِي ائْتَمَنَ اللهُ العِبَادَ عَلَيهَا : يَعْنِي الفَرَائِضَ ، وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَهُمْ : كَالمِكْيَالِ وَالمِيْزَانِ ، وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ ، وَكِتْمَانِ السِّرِّ . . إلخ . فَالأَمَانَةُ وَاحِدَةٌ وَلاَ تَبْعِيضَ فِيهَا ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مَسَاوِىءَ الخِيَانَةِ ، وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا .

إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول . فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . قضية إفراد الله – سبحانه – بالألوهية؛ والأخذ في هذا بما بلغه محمد – ﷺ – وحده . . والبشرية في تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة؛ ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى . أحيانا قليلة في الاعتقاد والعبادة . وأحيانا كثيرة في الحاكمية والسلطان – وهذا هو غالب الشرك ومعظمه – ومن ثم كانت القضية الأولى لهذا الدين ليست هي حمل الناس على الاعتقاد بألوهية الله . ولكن حملهم على إفراده – سبحانه – بالألوهية ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، أي إفراده بالحاكمية في حياتهم الأرضية – كما أنهم مقرّون بحاكميته في نظام الكون

– تحقيقا لقول الله تعالى : { وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله } كذلك كانت هي حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله؛ ومن ثم الالتزام بكل ما يبلغهم إياه . .

هذه هي قضية هذا الدين – اعتقادا لتقريره في الضمير ، وحركة لتقريره في الحياة – ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول؛ يحذر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان؛ فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي؛ والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد . كذلك يحذرها خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله – – ﷺ – على الإسلام . فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، وليس مجرد عبارات وأدعيات . إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق . إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق؛ ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته ، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء؛ وتأمين الحق والعدل للناس جميعا؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت؛ وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله . .وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها؛ وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه ، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله

وقد جاءت أحاديث كثيرة تحذر من الخيانة :

وفي سنن أبي داود (١٥٤٩)عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ ». (حسن)

وفي مصنف ابن أبي شيبة(٢٦١١٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : الْمُؤْمِنُ يُطْوَى عَلَى الْخِلاَلِ كُلِّهَا غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ.(صحيح)

وبرقم(٢٦١١٧)عَنْ سَعْدٍ ، قَالَ : الْمُؤْمِنُ يُطْبَعُ عَلَى الْخِلاَلِ كُلِّهَا غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ.(صحيح)

وفي مسند أحمد (٨٨٢٤) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « لاَ يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِى قَلْبِ امْرِئٍ وَلاَ يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعاً وَلاَ تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالأَمَانَةُ جَمِيعاً ».(حسن)

وفي مسند أحمد (١٤) عَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيْلٌ وَلاَ خِبٌّ وَلاَ خَائِنٌ وَلاَ سَيِّئُ الْمَلَكَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ الْمَمْلُوكُونَ إِذَا أَحْسَنُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَوَالِيهِمْ ». (فيه ضعف)

وفي سنن أبي داود (٣٥٣٦)عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ الْمَكِّىِّ قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ لِفُلاَنٍ نَفَقَةَ أَيْتَامٍ كَانَ وَلِيَّهُمْ فَغَالَطُوهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ فَأَدْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَيْهَا. قَالَ قُلْتُ أَقْبِضُ الأَلْفَ الَّذِى ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ قَالَ لاَ حَدَّثَنِى أَبِى أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ ».(صحيح)

---

٤٠. إيثارُ حبِّ الأشياء على حب الله ورسوله

قال تعالى : {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (٢٤) سورة التوبة

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بتَوَعُّدِ مَنْ آثَرَ حُبَّ القَرَابَةِ وَالعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ وَالتِّجَارَةِ وَالأَمْوَالِ وَالمَسَاكِنِ . . . . عَلَى حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمْرَ اللهِ فِيهِمْ ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِمْ ، وَاللهُ تَعَالَى لا يَهْدِي الفَاسِقِينَ الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكاً؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة؛ ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة . . كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة ، وهي المحركة والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة؛ على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة . ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع؛ وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض . فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق – في غير سرف ولا مخيلة – بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ، باعتباره لوناً من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليتمتع بها عباده ، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ؛ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) . . وفي الكفة الأخرى : حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله . الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته . الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب ، وما يتبعه من تضييق وحرمان ، وما يتبعه من ألم وتضحية ، وما يتبعه من جراح واستشهاد . . وهو – بعد هذا كله – « الجهاد في سبيل الله » مجرداً من الصيت والذكر والظهور . مجرداً من المباهاة ، والفخر والخيلاء . مجرداً من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه . وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب . .{ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . . }

ألا إنها لشاقة . ألا وإنها لكبيرة ، ولكنها هي ذاك . . وإلا : { فتربصوا حتى يأتي الله بأمره } . .
وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين :{ والله لا يهدي القوم الفاسقين } . .

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة . فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه – فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها– وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال؛ وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها . . لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء في رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء . فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك .

---

٤١. الأمرُ بالمنكر والنهي عن المعروف

قال تعالى : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) } [التوبة/٦٧، ٦٨]

إنَّ أَهْلَ النفَاقِ رِجَالاً وَنِسَاءاً ، يَتَشَابَهُونَ فِي صِفَاتِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِفِعْلِ المُنْكَرِ ، كَالكَذِبِ وَالخِيَانَةِ ، وَإِخْلافِ الوَعْدِ ، وَنَقْضِ العَهْدِ . . وَيَنْهَوْنَ عَنْ فِعْلِ الخَيْرِ وَالمَعْرُوفِ : كَالجِهَادِ ، وَبَذْلِ المَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَيَضِنُّونَ بالإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ البِرِّ وَالطَّاعَاتِ وَالإِحْسَانِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ . . وَقَدْ نَسُوا أَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ تَعَالَى بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ ، وَاتَّبَعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، فَجَازَاهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ بِحِرْمَانِهِمْ مِنْ لُطْفِهِ وَتَوْفِيقِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَمِنَ الثَّوَابِ فِي الآخِرَةِ .

وَالمُنَافِقُونَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ فُسُوقاً ، وَخُرُوجاً عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، وَانْسِلاَخاً مِنَ الفَضَائِلِ الفِطْرِيَّةِ السَّلِيمَةِ . وَقَدَ أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ ، وَوَعَدَهُمْ بِهَا عَلَى سُوْءِ صَنِيعِهِمْ الذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَسَيَمْكُثُونَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ أَبَداً ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنَ الجَزَاءِ وَالعَذَابِ مَا يَكْفِيهِمْ (حَسْبُهُمْ) ، وَلَعَنَهُمْ اللهُ ، وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَهُمْ عَذَابُ مُقِيمٌ دَائِمٌ غَيْرَ عَذَابِ جَهَنَّمَ : كَالسَّمُومِ يَلْفَحَ وَجوهَهُمْ ، وَالحَمِيمِ يَصْهَرُ مَا فِي بُطُونِهِمْ .

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة . المنافقون في كل زمـــان وفي كـــل مكـــان . تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد . سوء الطوية ولـــؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماهم الأصلية . أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس . وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما ، ويفعلون ذلك دساً وهمساً ، وغمـــزاً ولمـــزاً ، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون . إنهم { نسوا الله } فلا يحسبون إلا حســـاب النـــاس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم { فنسيهم } الله فلا وزن لهم ولا اعتبار . وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس ، وإنهم لكذلك في الآخرة عند الله . وما يحســـب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بآرائهم ، ويوقفون خلـــف عقائـــدهم ، ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أو يسالمون في وضح النهار . أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون في الحق لومة لائم ، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسباهم .

{ إن المنافقين هم الفاسقون } . .فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعـــدهم الله مصيراً كمصير الكفار :{ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيهـــا ، هـــي حسبهم } .

وفيها كفايتهم وهي كفاء إجرامهم .{ ولعنهم الله } . .فهم مطرودون من رحمته . .

{ ولهم عذاب مقيم } . هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ، ليست جديدة ، ففي تاريخ البشـــرية لها نظائر وأمثال . ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز . ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما اســـتمتعوا بنصـــيبهم المقدر لهم في هذه الأرض ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء

وفي الطبراني الأوسط (١٣٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ ، وَطَغَى نِسَاؤُكُمْ ؟ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ ؟ قَالَ : " وَشَـــرٌّ مِـــنْ ذَلِـــكَ سَيَكُونُ ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ؟ " (حسن لغيره)

وفي كتاب الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا (٣٢)عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ، عَـــنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ : " كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ ، وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ ، وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ ؟ " ، قَـــالُوا : وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : " نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ " ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : " كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ " ، قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : " نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَـــيَكُونُ " ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : " كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ

مَعْرُوفًا ؟ " ، قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : بِي حَلَفْتُ ، لَأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهِمْ حَيْرَانًا " (حسن لغيره)

وفي الْبِدَعُ لِابْنِ وَضَّاحٍ (١٥٣) نْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ : " كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ ، وَطَغَتْ نِسَاؤُكُمْ ، وَكَثُرَ جُهَّالُكُمْ ؟ " قَالُوا : وَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ " قَالُوا : وَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ؟ "

---

٤٢. الاستهزاءُ بدين الله أو رسله :

قال تعالى : { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) } [الرعد/٣٢]

يَقُول تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ فِي تَكْذِيب مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمه " وَلَقَدْ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلك " أَيْ فَلَك فِيهِمْ أُسْوَة " فَأَمْلَيْت لِلَّذِينَ كَفَرُوا " أَيْ أَنْظَرْتهمْ وَأَجَّلْتهمْ " ثُمَّ أَخَذْتهمْ" أَخْذَة رَابِيَة فَكَيْفَ بَلَغَك مَا صَنَعْت بِهِمْ وَعَاقَبْتهمْ وَأَمْلَيْت لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى " وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة أَمْلَيْت لَهَا وَهِيَ ظَالِمَة ثُمَّ أَخَذْتهَا وَإِلَيَّ الْمَصِير"

قوله - سبحانه - { وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . . . } تسلية للرسول ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب تعنت المشركين معه . ومطالبتهم له بالمطالب السخيفة التى لا صلة لها بدعوته ، كطلبهم منه تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى .

والاستهزاء : المبالغة فى السخرية والتهكم من المستهزأ به . والإملاء : الإمهال والترك لمدة من الزمان والتنكير فى قوله { برسل } للتكثير ، فقد استهزأ قوم نوح به ، وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه .

واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } واستهزأ قوم هود به وقالوا له : { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ . . . } واستهزأ فرعون بموسى فقال : { أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ } والمعنى : ولقد استهزأ الطغاة والجاحدون برسل كثيرين من قبلك -أيها الرسول الكريم - { فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ } أى : فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمان فى أمن ودعة .

{ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } أخذ عزيز مقتدر { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } فانظر كيف كان عقابى إياهم ، لقد كان عقابا رادعا دمرهم تدميرا .

فالاستفهام للتعجيب مما حل بهم ، والتهويل من شدته وفظاعته وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المصير } قال ابن كثير : وَفِي الصَّحِيحَيْنِ " إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ " ثُمَّ قَرَأَ رَسُول اللَّه ﷺ " وَكَذَلِكَ أَخْذ رَبّك إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَة إِنَّ أَخْذه أَلِيم شَدِيد " .

—————————

وقال تعالى : {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ} (١٠) سورة الأنعام

ويُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَمَّا يُلاقِيهِ مِنْ عِنَادِ الكُفَّارِ وَتَكْذِيبِهِمْ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى البَاطِلِ ، فَيَقُولُ لَهُ : لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ جَاؤُوا قَبْلَكَ ، وَسَخِرَ مِنْهُمُ الكَافِرُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَمِنَ العِقَابِ الذِي أَنْذَرُوهُمْ بِهِ ، فَعَاقَبَ اللهُ الذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ فَدَمَّرَهُم ، وَنَصَرَ رُسُلَهُ وَالمُؤْمِنِينَ ، وَكَانَتِ العَاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنينَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لأُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ المُسْتَهْزِئِينَ الجَاحِدِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ ، وَتَتَبَّعُوا أَخْبَارَ الأُمَمِ التِي عَاشَتْ فِيهَا ، ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ المُكَذِّبِينَ ، وَعَاقِبَةُ بَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَاعْتَبَرُوا بِذَلِكَ المَصِيرِ .

إن هذه اللفتة – بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا ؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة ؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم – لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول:تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ؛ وتطمين قلبه ﷺ إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين لمستهزئين بالرسل ؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا في تاريخ الدعوة إلى الحق . فقد لقي مثله الرسل قبله ؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف

والثاني:لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين:وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب . وقد أخذ الله – من قبلهم – قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا في الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة ؛ التي ترج القلوب رجا بهذه رجا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة .

ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني:

(قل:سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . .

والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ؛ ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث ، والوقائع ؛ مسجلة في الآثار الشاخصة ، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها . . السير على هذا النحو ، لمثل هذا الهدف ، وبمثل هذا الوعي . . أمور كلها كانت جديدة

على العرب ؛ تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر والمعرفة .

لقد كانوا يسيرون في الأرض ، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش ، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي . . أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي . . فهذا كان جديدا عليهم . وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به ؛ وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية ، في الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية .

ولقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعد منهجية كهذة التي كان القرآن يوجه إليها العرب ؛ ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها – بإذن الله – ويستطيع الناس ملاحظتها ؛ وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها ؛ ومعرفة مراحلها وأطوارها . . كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئا جديدا على العقل البشري كله في ذلك الزمان . إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار ، مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس ؛ لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث ، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج ، وبين المراحل والأطوار . . فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ؛ ويشرع لهم منهج النظر في أحداث التاريخ الإنساني . وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة . إنما هو "المنهج" . . هو الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني .والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية ، وهي فترة لا تكفي إطلاقا لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية ، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب ، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ؛ ليبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد ، الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله العليم الخبير . . ففي هذا المنهج تكمن المعجزة ، وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلا عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثا . . إله الاقتصاد . .وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية ؛ الذي ينشىء من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم ، ومناهج الفكر ، وقيم الأخلاق ، وآماد المعرفة ، وأوضاع المجتمع ، كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان ؟!

إن هذه اللفتة: (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .إلى جانب اللفتة التي جاءت في صدر هذه الموجة من قوله تعالى:(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) . .إلى جانب أمثالها في هذه السورة وفي القرآن كله لتؤلف جانبا من منهج جديد جدة كاملة على الفكر البشري . وهو منهج باق . ومنهج كذلك فريد

قال تعالى : { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آَلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آَلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) [الأحقاف/٢١] }

ويُسَلِّي اللهُ تَعَالى رَسُولَه الكَريمَ عَمَّا يُلاقِيهِ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ ، واسْتِهْزَائِهِمْ بهِ ، وَيُذَكِّرُهُ بقَصَصِ الأَنبيَاءِ الذِينَ قَبْلَهُ ، فَكَذَّبَهمْ أَقْوامُهُم ، وَاسْتَهْزَاؤوا بِهِمْ فَجَاءَ نَصْرُ اللهِ فَنَجَّى الرُّسُلَ وَالذِينَ آمَنُوا ، وأَهْلَكَ الُمجْرمِينَ .وَهُنَا يَبْدَأُ تَعَالى بسَرْدِ قِصَّةِ هُودٍ ، عَلَيهِ السَّلاَمُ ، مَعَ قُومِهِ عَادٍ ، وَقَدْ كَانوا يَسْكُنُونَ الأَحْقَافَ في مِنْطَقَةِ حَضْرَمَوْتَ ، جَنُوبيِّ الجَزيرَةِ العَرَبيَّةِ ، فَقَدْ بَعَثَهُ اللهُ إلَيهِمْ فَدَعَاهُم إلى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَذَكَّرَهُمْ بِأَنْعُمِ اللهِ عَلَيهِم ، وَبِما مَنَّ عَلَيهِمْ بِهِ من قُوَّةٍ وَغِنىً ، وَكَثْرَةِ عَدَدٍ ، وَأَنذَرَهُمْ بَأسَ اللهِ الشَّدِيدَ وَعِقَابَهُ إن أَقَامُوا عَلى كُفْرِهم وَظُلْمِهِمْ . وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ قَبْلَ هُودٍ رُسُلاً آخرينَ دَعَوا أَقْوَامَهُم إلى الإِيمانِ باللهِ ، وَأَنْذَرُوهُمْ عَذَابَ اللهِ إنْ أَصَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَحَثُّوهُمْ عَلَى الإِقْلاَعِ عَنِ الشِّرْكِ باللهِ ، وَعَلى إِفرادِهِ تَعَالى بالأُلُوهِيَّةِ وَحْدَهُ . وَقَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ نَاصِحاً : إِنِّي أَخافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمِ الهَوْلِ ، هُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ إذا أَصَرُّوا على كَفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ .فَرَدُّوا عَليه قَائِلِينَ : أَجئتَنَا لِتَصْرِفَنَا عَنْ عِبَادَةِ آلهتنا إلى عِبَادةِ رَبِّكَ الذِي تَدْعُونا إليهِ ، فَعَجِّلْ لَنَا بِإِنْزَالِ العَذَابِ عَلَينا ، إنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ في وَعِيدِكَ لَنا (وَهُوَ أَنَّ رَبَّكَ سَيُنْزِلُ عَلينا عَذاباً مُدَمِّراً مُهْلِكاً يُبِيدُنا بهِ إذا ما بقينا مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامِنا) .

فَقَالَ لَهُم هُودٌ عَلَيهِ السَّلاَمُ : إِنَّ اللهَ هُو الذِي يَعْلَمُ إنْ كُنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ العَذَابَ ، وَهُوَ القَادِرُ عَلى إنزالِهِ بكُم ، وَهُوَ العَالِمُ بالوَقْتِ الذِي يُنزلُهُ بكُم إنْ شَاءَ ، أَمَّا أَنَا فَمَهَمَّتِي هِيَ إِبْلاغُكُمْ ما أَرْسَلَني بهِ إليكُم ، وأَنا لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعجِّلَ العَذَابَ الذِي تَطْلُبُونَهُ ، وَلاَ أَقدِرُ عَليهِ ، وإِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ مَهَمَّةَ الرَّسُولِ ، ولِذَلِكَ طَلَبتُمْ مِنّي أَنْ أُعَجِّلَ لَكُمُ العَذَابَ ، كَمَا أَنِّي أَعتَقِدُ أَنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ وَشِدَّةَ بَأسِهِ ، لِذَلِكَ طَلبتُمْ تَعْجِيلَ إِنْزالِ العَذَابِ بِكُمْ ، والعَذَابُ لا يَطْلُبُ

عَاقِلٌ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ .وَكَانَ اللهُ تَعَالى قَدْ حَبَسَ المَطَرَ عَنْ عَادٍ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ، حَتَّى اشتَدَّ بِهِم العَطَشُ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إليهِمْ غُيُوماً كَثِيفَةً اتَّجَهَتْ إلى أودِيَتِهِمْ فَفَرِحَ بها قَوْمُ عَادٍ ، واستَبْشَرُوا ظَنّاً مِنْهُمْ أنَّها سَحَائِبُ تَحمِلُ المَطَرَ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : هذا سَحَابٌ سَيُمْطِرُنا .وَقَالَ لَهُمُ اللهُ تَعَالى (أَوْ قَالَه لَهُمْ هُودٌ عَليهِ السَّلاَمُ) . بَل هُوَ العَذَابُ الذِي استَعْجَلْتُم بإنْزَالِهِ بِكُم ، حِينَ قُلْتُمْ لِرَسُولِكُم { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إن كُنتَ مِنَ الصادقين } إنَّهُ رِيحٌ تحمِلُ إليكُمْ عَذاباً مُهْلِكاً شَدِيدَ الإِيلامِ .وهذِهِ الرِّيحُ التي أَرسَلَها اللهُ عَلَى قَوْمِ عَادٍ تُهلكُ وَتُخَرِّبُ كُلَّ شَيءٍ مَرَّتْ بِهِ بإذن رَبِّها . وَوَصَفَهَا تَعَالى في آيةٍ أخْرى بأنَّها { مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم }

وَسَلَّطَ اللهُ تَعَالى هذهِ الرِّيحَ العَاتيةَ على قَومِ عَادٍ ، فَهَبَّتْ عَلَيهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيةَ أيَّامٍ كَامِلاَتٍ مُتَتَالِيَاتٍ ، فَأهْلَكَتْهُمْ جَميعاً ، ولم تَترُكْ لَهُمْ في أَرْضِهِمْ مِنْ بَاقِيةٍ ، وَلَم يَعُدْ يُرى في دِيَارِهِم إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ خَالِيةً لا سَاكِنَ فِيها .وَيُخبِرُ تَعَالى أنَّهُ يُعَاقِبُ بِمِثْلِ هذِهِ العُقُوبَةِ كُلَّ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ ، وَخَالَفَ أوامِرَهُ .

وَقَدْ مَكنَّا لِقَومِ عَادٍ فِي الدُّنيا فِيمَا لَمْ نُمَكِّنْكُمْ فيهِ ، وَأَعْطَينَاهُمْ مَا لَمْ نُعْطِكُم مِثْلَهُ ، وَلاَ قَريباً مِنْهُ ، مِنَ الأَمْوالِ الكَثِيرَة ، وَالأَولادِ ، وَبَسْطَةِ الأَجْسَام ، وَقُوَّةِ الأَبدَانِ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أسْماعاً وَأَبْصَاراً ، فَلَم يَسْتَعْمِلُوا شَيَئاً مِنْ أَسْماعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وأَفْئِدَتِهِمْ فِيما خُلِقَتْ لَهُ ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بها في الاهتداءِ إلى وُجودِ الخالِقِ وَوحْدَانيتهِ ، وَقُدْرَتِهِ العَظِيمَةِ عَلَى الخَلْقِ ، لأَنَّهُمْ كَانُوا يُكذِّبُونَ رُسُلَ اللهِ ، وَيُنْكِرُونَ آياتِهِ فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالى بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ عَلَيهِم ، وَأَحَاطَ بِهِم العَذَابُ الذِي كَانُوا يَسْتَهزِئُونَ بِهِ ، وَيَستَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ بِهِمْ ، فَاستَعْجَلُوهُ . فَلْيَحْذَرْ مُشْرِكُو مَكَّةَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِقَوْمِ عَادٍ ، إذا استَمَرَوُا عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ .

وَلَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ تَعَالى القُرَى مِنْ حَوْلِ مَكَّةَ (مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَدْيَنَ وَقَوْمِ لُوطٍ) ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَعْرِفُونَ مَنَازِلَ تِلْكَ الأقوامِ ، وَكَانُوا يَمُرُّونَ بها وَهُمْ غَادُونَ رَائِحُونَ في أَسْفَارِهِمْ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ أَهْلَ هذهِ القُرى بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ ، وَحَذَّرَهُمْ ، وَضَرَبَ لَهُمُ الأَمْثَالَ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ دَلاَئِلَ قُدْرَتِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ غَيِّهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، فَلَم يَرْجِعُوا ، وَلَمْ يَتَّعِظُوا ، فَأَخذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . فَهَلاَّ نَصرَهُمُ الأَرْبابُ الذِينَ اتَّخَذُوا عِبادَتَهُم قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بها إلى اللهِ فِيما زَعَمُوا ، حِينَما نَزَلَ بِهِمْ بَأسُ اللهِ وَأَمْرُهُ فَأَنْقَذُوهُمْ مِمَّا نَزَلَ بهِمْ؟ لَكِنَّ هَؤُلاَءِ الأَرْبَابَ أَصْنَامٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ وَقَدْ غَابُوا عَنْهُم ، وَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إليهِمْ . وَعَجْزُ هؤُلاءِ الأَرْبَابِ عَنْ نُصْرَتِهِمْ أَثْبَتَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ في اتِّخَاذِهِمْ آلهَةً ، وَأَنَّهُم يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ في زَعْمِهِمْ أَنَّهُم يُقَرِّبُونَهُم إلى اللهِ زُلْفى ، وَيَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالى .

وأخو عاد هو هود - عليه السلام - يذكره القرآن هنا بصفته . صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه وبينهم ، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهي ذات الصلة بين محمد - ﷺ - وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة .

والأحقاف جمع حقف . وهو الكثيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة - يقال في حضرموت .والله - سبحانه - يوجه نبيه - ﷺ - أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثلما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر المشركين في مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم .وقد أنذر أخو عاد قومه ، و لم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم . .

{ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه } . .قريباً منه وبعيداً عنه في الزمان وفي المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة . والأمر ليس بدعاً ولا غريباً . فهو معهود مألوف .

أنذرهم - ما أنذر به كل رسول قومه - : { ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } . . وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما على السواء .والإشارة إلى يوم { عذاب يوم عظيم } . . تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم .فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه؟

{ قالوا : أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين! } . .سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدي للنذير ، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز!

فأما هود النبي فيتلقى هذا كله في أدب النبي ، وفي تجرده من كل ادعاء ، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه : { قال : إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكني أراكم قوماً تجهلون } . .إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم . وليست أعلم متى يحين موعده ، ولا كيف يكون شكله . فعلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعي علماً ولا قدرة مع الله . . { ولكني أراكم قوماً تجهلون } وتحمقون . وأية حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدي والتكذيب؟

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضي إلى النهاية المقصودة أصلاً في هذا المقام؛ رداً على التحدي والاستعجال .{ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك نجزي القوم المجرمين }.وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ،

واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحاً شديداً ، وخرجوا يستقبلونها في الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء : { قالوا هذا عارض ممطرنا } . .وجاءهم الرد بلسان الواقع : { بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها } . . وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة أخرى . كما جاء في صفتها : { ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم } والنص القرآني يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير : { تدمر كل شيء بأمر ربها } وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حي . وكل قوة من قواه واعية . وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه . والإنسان أحد هذه القوى . وحين يؤمن حق الإيمان ، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة ، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله ، وأن يتجاوب معها ، وأن تتجاوب معه ، تجاوب الأحياء المدركة ، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك . ففي كل شيء روح وحياة ، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق . والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار ، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار .وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء { فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم }

. أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار . . { كذلك نجزي القوم المجرمين } . سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين .وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب { ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون } . .

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكناهم فيما لم نمكنكم فيه . . إجمالاً . . من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة – والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره – ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها { إذ كانوا يجحدون بآيات الله } . . والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك . { وحاق به ما كانوا به يستهزئون } . . من العذاب والبلاء . .

والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بعلمه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شيء ، وتتركهم { لا يرى إلا مساكنهم } حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المجرمين .

والريح قوة دائبة العمل ، وفق النظام الكوني الذي قدره الله ، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني ، تعمل وفق الناموس المرسوم . فلا حاجة لخرق النواميس الكونية - كما يعترض المعترضون واهمين - فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم . وكل حادث وكل حركة ، وكل اتجاه ، وكل شخص ، وكل شيء ، محسوب حسابه ، داخل في تصميم الناموس والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدي ما قدره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله . ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها . المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيره لها . وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم في هذا الوجود ، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد . وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي ينتهي إلى التناسق الكوني العام . وكل شيء مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب .ويختم هذا الشوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد : { ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون } . .وقد أهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة .

---

٤٤. البطرُ في المعيشةِ :

قال تعالى : { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) [القصص/٥٧-٥٩] }

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَمَّا اعتَذَرَ بِهِ بَعْضُ الُمشْرِكِينَ إلى النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبَبِ عَدَمِ إيمانِهِمْ بِرِسَالَتِهِ ، وَكَانَ مِنْ هؤلاءِ الُمعتَذِرِينَ الحَارِثُ بنُ عُثْمَانَ بْنِ نَوْفَل بْنِ عَبْدِ مُنَافٍ فَقَدْ جَاءَ النَّبيَّ ﷺ ، وَقَالَ لَهُ : نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَلى الحقِّ ، ولكِنَّنا نَخَافُ إنْ اتَّبَنَاكَ ، وَخَالَفْنا العَرَبَ ، أَنْ يُخرِجُونامِنْ أَرضِنا ، ويَغْلِبُونا عَلَى سُلْطَانِنا ونَحنُ قِلَّةٌ . وَيَردُّ الله تَعالى عَلَى هؤلاءِ بقَولِهِ : إنّ الذِي اعْتَذَرُوا بِهِ بَاطِلٌ ، لأنَّ اللهَ جَعَلُهُمْ في بَلَدٍ آمِنٍ ، وَحَرمٍ مُعظَّمٍ آمِنٍ مُنْذُ وُضِعَ . فَكَيفَ يَكُونَ هذا الحَرَمُ آمِناً لَهُمْ وَهُمْ كُفّارٌ ، مُشْرِكُونَ ، وَلا يَكُونُ آمنا لَهُمْ إذا أَسْلَمُوا واتَّبَعُوا الحَقَّ؟ ثُمَّ يَقُولُ تَعَالى : إنَّهُ يَسَّرَ وصُولَ الثَّمَراتِ والأَمتِعَةِ والأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إلى أهلِ الحَرَمِ ، وهذا كُلُّهُ بفَضْلِ اللهِ ، وَمنْ عِنَايَتِهِ ، ولكِنَّ أَكثَرَ هؤلاءِ جَهَلَةٌ لاَ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِ خَيرُهُم وَسَعَادَتُهُمْ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا .

يُعَرِّضُ اللهُ تَعَالى بأهلِ مَكَّةَ ، وَيُنَبِّهُهُمْ إِلى أَنَّهُ قَدْ سَبَق لَهُ أَنْ أَهلَكَ كَثيراً مِنَ المُدُنِ والقُرى ، التي طَغَتْ وأَشِرَتْ وكَفَرَت بنِعْمَةِ اللهِ ، فيما أَنْعَمَ بهِ عَلَيها ، فَدَمَّرَهَا تَدمِيراً ، وَلَم يَتْرُكْ أَحَداً مِنْ أهلِهَا حياً ، وَلَم يَعُدْ يُرى فِيها إِلاّ المَسَاكِنُ الخَرَابُ المَهْجُورَةُ ، لَمْ يَسْكُنها أَحدٌ بَعدَهُمْ ، إِلاَّ عَابرُو السَّبيلِ لفَتَراتٍ قَصِيرةٍ ، وَهُمْ مَارُّون مُجْتَازُونَ بها ، وَآلتْ وِرَاثُتها إِلى اللهِ ، لأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهلِهَا أَحَدٌ يُمْكِنُ أَنْ يَدَّعِيَ وَرَاثَتَها

وَيُخبرُ اللهُ تَعَالى عَنْ عَدْلِهِ فَيقُولُ : إِنَّهُ لاَ يُهْلِكُ أَحَداً وَهُوَ ظَالِمٌ لَهُ ، وَإِنَّما يُهلكُهُ بعدَ أَنْ تَقُومَ عَليهِ الحُجَّةُ . وإِنَّهُ لاَ يُهلِكُ القُرى حَوْلَ مَكَّةَ بكُفْرِهِم وَظُلْمِهِم إِلاَّ بَعْدَ أَن يَبْعَثَ فِي أُمِّ القُرَى (مَكَّةَ) رَسُولاً يدْعُوهُم إِلى اللهِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُم سَبيلَ الهِدَايَةِ والرَّشَادِ ، وَيتلُو عَلَيهِمْ آياتِ اللهِ ، وإِنَّهُ لا يُهلِكُ هذهِ القُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظَالِمُونَ ، قَدْ كَذَّبُوا النَّبيَّ ، وَرَفَضُوا اتِّباعَهُ ، وقَبُولَ دَعْوَتِهِ .

(وَفُهِمَ مِنْ هذِهِ الآيةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بُعِثَ إِلى النَّاسِ كَافَّة ، وَلَيسَ لأَهلِ مَكَّةَ خَاصَّةً) .

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامي؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطهم لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة؛ وأن هذا ليس وهماً وليس قولاً يقال لطمأنة القلوب . إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوي إلى ركن شديد ، في واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة في هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطهما معاً برباط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف؛ بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة في الأرض تصريف الحياة .

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير

الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ : { إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا } . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان .

فمن الذي وهبهم الأمن؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام؟ ومن الذي جعل القلوب تهوي إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعاً؟ تتجمع في الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة :

{ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا؟ } . .فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم؟ أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة؟!

{ ولكن أكثرهم لا يعلمون } . .لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله .فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقاً ، وأن يأمنوا التخطف حقاً ، فها هي ذي علة الهلاك فليتقوها :{ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين } . .إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن؛ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية . . { لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً } . وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها . وتروي قصة البطر بالنعمة؛ وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحداً ، ولم يرثها بعدهم أحد { وكنا نحن الوارثين } .على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولاً . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده : { وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون } . .وحكمة إرسال الرسول في أم القرى أي كبراها أو عاصمتها أن تكون مركزاً تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي ﷺ في مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير . { وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون } . . يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين!

---

٤٥. الكفرُ بآيات الله وقتل النبيين بغير حق

قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) [آل عمران/٢١، ٢٢] }

يَذُمُّ اللهُ تَعَالَى أَهْلَ الكِتَابِ الذِينَ ارْتَكَبُوا المَآثِمَ وَالمَحَارِمَ بكُفْرِهُمْ بِاللهِ وَآيَاتِهِ ، وَقَتَلُوا الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ الذِينَ يَدْعُونَ إلى اللهِ وَإِلى اتِّبَاعِ الحَقِّ . وَالمَقْصُودُونَ فِي هَذِهِ الآيَةِ هُمُ اليَهُودُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، الذِينَ قَتَلُوا عَدَداً مِن أَنْبِياءِ اللهِ فِي يَومٍ وَاحِدٍ اسْتِكْبَاراً ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيا ، وَبَشَّرَهُمْ بعَذَابٍ أليمٍ مُهِينٍ فِي الآخِرةِ ، لأنَّ هَذَا هُوَ جَزَاءُ جُرْمِهِمْ وَصَنِيعِهِمْ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ : " يَا أَبَا عُبَيْدَةَ قَتَلَتْ بَنُو إِسْرائيل ثَلاَثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِياً أَوَّلَ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . فَقَامَ مِئَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً مِنْ عُبَّادِ بَنِي إِسْرَائيلَ فَأَمَروا القَتَلَةَ بِالمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ، فَقُتِلُوا جَمِيعاً مِنْ أخِرِ ذَلِكَ اليَوْمِ فَهُمْ الذِينَ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ " (أَخْرَجَهُ ابْنُ أبي حَاتِمٍ) .

وَيَقُولُ تَعَالَى إنَّ الذِينَ يَرْتَكِبُونَ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ يُهْلِكُ اللهُ أعْمَالَهُمْ وَيُبْطِلُها فِي الدُّنْيا ، فَلاَ يَنَالُونَ عَليها حَمْداً ، وَلا ثَنَاءً مِنَ النَّاسِ . وَقَدْ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ وَأبْدَى مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبَائِحِ أعْمَالِهِمْ ، عَلَى أَلْسِنَةِ أنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ . وَقَدْ أعَدَّ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ، العَذَابَ الأَلِيمَ وَالخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ ، وَلَنْ يَجِدُوا لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ بَأسِ اللهِ .

فهذا هو المصير المحتوم : عذاب أليم لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة . فهو متوقع هنا وهناك . وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور . فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً ، توطئة لهلاكها . . وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين . ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام!

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط . . ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود ، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت! ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك . فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع . . وكثير ما هم في كل زمان . .

ويحسن أن نتذكر دائماً ماذا يعني القرآن بوصف { الذين يكفرون بآيات الله } . . فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر . إنما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية ، وقصر العبودية عليها . وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين . . فمن جعل لغير الله شيئاً من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته . ولو قالها ألف مرة باللسان!

قال تعالى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) [آل عمران/١٥٢، ١٥٣]}

لَمَّا رَجَعَ النَّبيُّ ﷺ والمُسْلِمُونَ إلَى المَدِينَةِ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أحُدٍ قَالَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ : مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذا وَقَدْ وَعَدَنَا اللهُ تَعَالَى النَّصْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ وَفِيها يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ : إنَّهُ صَدَقَكُمْ مَا وَعَدَكُمْ بِهِ مِنْ نَصْر ، فَكُنْتُمْ تَقْتُلُونَهُمْ قَتْلاً ذَرِيعاً بِإِذْنِ اللهِ ، وَسَلَّطَكُمْ عَلَيهِمْ ، حَتَّى إذَا أَصَابَكُمُ الضَّعْفُ وَالفَشَلُ ، وَعَصَيْتُمْ أَمْرَ الرَّسُولِ ، وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ، (وَهُوَ مَا وَقَع لِلرُّمَاةِ الذِينَ أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ أنْ يَلْزَمُوا مَوَاقِعَهُمْ فَتَخَلَّوا عَنْهَا) ، وَكَانَ اللهُ قَدْ أَرَاكُمُ الظَّفَرَ ، وَهُوَ مَا تُحِبُّونَهُ ، فَكَانَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا ، وَيَطْمَعُ فِي المَغْنَم ، حِينَ رَأَوْا هَزِيمَةَ المُشْرِكِينَ ، فَتَرَكُوا مَوَاقِعَهُمْ عَلَى الجَبَلِ ، وَمِنْكُمْ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الآخِرَةَ فِي قِتَالِهِ المُشْرِكِينَ لاَ يَلْتَفِتُ إلَى المَغْنَم ، فَثَبَتَ مَكَانَهُ وَقَاتَلَ ، ثُمَّ أدَالَ اللهُ المُشْرِكِينَ عَلَيكُمْ ، وَجَعَلَ لَهُمُ الغَلَبَةَ عَلَيْكُمْ لِيَخْتَبِرَكُمْ ، وَيَمْتَحِنَ ثَبَاتَكُمْ عَلَى الإِيمَانِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكُمْ ذَلِكَ الفِعْلَ ، وَهُوَ عِصْيَانُ أَمْرِ الرَّسُولِ ، وَالهَرَبُ مِنَ المَعْرَكَةِ ، وَمَحَا أَثَرَهُ مِنْ نُفُوسِكُمْ ، حِينَمَا أَظْهَرْتُمُ النَّدَمَ ، وَرَجَعْتُمْ إلَى اللهِ ، حَتَّى صِرْتُمْ وَكَأَنَّكُمْ لَمْ تَفْشَلُوا . وَلَمْ يَسْمَحِ اللهُ باسْتِئْصَالِكُمْ لأَنَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ .

فَقَدْ صَرَفَكُمُ اللهُ عَنِ المُشْرِكِينَ فَأَخَذْتُمْ فِي الهَرَبِ مِنْ أَعْدَائِكُمْ فِي الجِبَالِ ، لاَ تَلْتَفِتُونَ إلَى أَحَدٍ مِنَ الدَهَشِ وَالخَوْفِ ، وَقَدْ خَلَّفْتُمُ الرَّسُولَ وَرَاءَكُمْ وَهُوَ يَدْعُوكُمْ إلَى العَوْدَةِ إلى القِتَالِ ، وَيَقُولُ : هَلُمَّ عِبَادَ اللهِ أنَا رَسُولُ اللهِ ، مَنْ يَكِرُّ فَلَهُ الجَنَّةُ ، فَجَزَاكُمُ اللهُ ﷺ لِفِرَارِكُمْ ، بِغَمٍّ يَمْلأُ نُفُوسَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ ، وَعَلَى تَرْكِكُمْ رَسُولَ اللهِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُ ، وَهُوَ ثَابتٌ دُونَكُمْ ، وَذَلِكَ لِكَيْلاَ تَهْتَمُّوا وَتَحْفَلُوا بِشَيءٍ فَاتَكُمْ ، وَلا بِأَذَى أَصَابَكُمْ ، وَلِتَمْرُنُوا عَلَى تَجَرُّعِ الغُمُومِ ، وَاحْتِمَالِ الشَّدَائِدِ ، إذْ كَانَ مَا أَصَابَ النَّبِيِّ ، وَمَا لَحِقَ بِنُفُوسِكُمْ مِنَ النَّدَمَ ، وَهُوَ أَكْبَرُ عِنْدَكُمْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ : أَكْبَرُ مِنَ الجِرَاحِ وَالقَتْلِ وَضَيَاعِ المَغْنَمِ . وَاللهُ خَبِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ وَمَقَاصِدِكُمْ ، وَقَادِرٌ عَلَى مُجَازَاتِكُمْ عَلَيْهَا .

إن التعبير القرآني هنا ليرسم مشهداً كاملاً لمسرح المعركة ولتداول النصر والهزيمة . مشهداً لا يترك حركة في الميدان ولا خاطرة في النفوس ولا سمة في الوجوه ولا خالجة في الضمائر إلا ويثبتها . . وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر ويحمل في كل حركة صوراً جديدة نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد في الجبل والهروب في دهش وذعر ودعاء الرسول - ﷺ - للفارين المرتدين عن

المعركة المصعدين للهرب . يصحب ذلك كله حركة النفوس وما يدور فيها من خـــوالج وخـــواطر وانفعالات ومطامع . . ومع هذا الحشد من الصور الحية المتحركـــة النابضـــة تلـــك التوجيهـــات والتقريرات التي يتميز بها أسلوب القرآن ومنهج القرآن التربوي العجيب : { ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه } . .

وكان ذلك في مطالع المعركة حيث بدأ المسلمون يحســون المشـــركين أي يخمـــدون حســـهم أو يستأصلون شأفتهم . قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة . وكان رسول الله – ﷺ – قد قال لهـــم : « لكم النصر ما صبرتم » فصدقهم الله وعده على لسان نبيه . { حتى إذا فشلتم وتنـــازعتم في الأمـــر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة } . .

وهو تقرير لحال الرماة . وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ؛ ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله – ﷺ – وانتهى الأمر إلى العصيان . بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه . فكانوا فريقين : فريقاً يريد غنيمة الدنيا وفريقاً يريد ثواب الآخرة . وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة و لم يعد الهدف واحداً . وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة . فمعركة العقيدة ليست ككل معركة .

إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير . ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصـــار في معركـــة الضمير . إنها معركة لله فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له .

وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها ؛ كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية . ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعـــون راية الباطل صريحة في بعض المعارك – لحكمة يعلمها الله – أما الذين يرفعـــون رايـــة العقيـــدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد فلا يمنحهم الله النصر أبداً حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا . . وهـــذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة وهـــذا مـــا أراد الله – سبحانه – أن يعلمه للجماعة المسلمة وهي تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمـــرة لهـــذا الموقـــف المضطرب المتأرجح!

{ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة } . .والقرآن يسلط الأضواء على خفايـــا القلـــوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم . . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنـــه قال : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله – ﷺ – يريد الدنيا ، حتى نزل فينا يوم أحد : { منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة } . . وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ؛ ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها!

وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره ، وراء هذه الآلام التي تعرضوا لهـــا ؛ ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة : { ثم صرفكم عنهم ليبتليكم } . .

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين وصرف الرماة عن ثغرة الجبل وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار . . وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ؛ ولكن مدبراً من الله ليبتليهم . . ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ؛ وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب ومن تمحيص النفوس وتمييز الصفوف - كما سيجيء . وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسباها وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها . بلا تعارض بين هذا وذاك . فلكل حادث سبب ووراء كل سبب تدبير . . من اللطيف الخبير . .{ ولقد عفا عنكم } . .عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ؛ وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد . . عفا عنكم فضلاً منه ومنة وتجاوزاً عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة . . عفا عنكم لأنكم تخطئون وتضعفون في دائرة الإيمان بالله والاستسلام له وتسليم قيادكم لمشيئته : { والله ذو فضل على المؤمنين } . .ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ما داموا سائرين على منهجه مقرين بعبوديتهم له ؛ لا يدعون من خصائص الألوهية شيئاً لأنفسهم ولا يتلقون هجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ولا موازينهم إلا منه . فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة . . فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص . .ويستحضر صورة الهزيمة حية متحركة : { إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم } . .كي يعمق وقع المشهد في حسهم ؛ ويثير الخجل والحياء من الفعل ومقدماته التي نشأ عنها من الضعف والتنازع والعصيان . . والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل . . فهم مصعدون في الجبل هرباً في اضطراب ورعب ودهش لا يلتفت أحد منهم إلى أحد! ولا يجيب أحد منهم داعي أحدا! والرسول - ﷺ - يدعوهم ، ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح : إن محمداً قد قتل فزلزل ذلك قلوهم وأقدامهم . . إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول - ﷺ - بفرارهم غماً يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه - وهو ثابت دوهم وهم عنه فارون - ذلك كي لا يحفلوا شيئاً فاهم ولا أذى أصاهم . فهذه التجربة التي مرت هم وهذا الألم الذي أصاب نبيهم - وهو أشق عليهم من كل ما نزل هم - وذلك الندم الذي ساور نفوسهم وذلك الغم الذي أصاهم . . كل ذلك سيصغر في نفوسهم كلّ ما يفوهم من عرض وكل ما يصيبهم من مشقة : { فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم } . .والله المطلع على الخفايا يعلم حقيقة أعمالكم ودوافع حركاتكم : { والله خبير بما تعملون } . .

---

٤٧. عدم شكر النعم ولاسيما بعد النصر :

قال تعالى ذاما بني إسرائيل : *وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ* (١٦١) *فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ* (١٦٢) سورة الأعراف

وَبَعْدَ أنْ أَسْكَنَهُمْ رَبُّهُمُ البَلَدَ الذِي دَخَلُوهُ بَعْدَ أَنِ انْتَصَرُوا عَلَى العَمَالِيقَ ، أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ بِشُكْرِهِ ، وَبِدُخُولِ البَابِ (أَيْ بَابِ البَلَدِ) سُجَّداً شُكْراً للهِ ، وَبِأَنْ يَقُولُوا : حِطَّةٌ - (أَيْ اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا خَطَايَانَا) - لِيَسْتَجِيبَ اللهُ إلى دُعَائِهِمْ ، فَيَغْفِرَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ ، وَيَزِيدَ الحَسَنَاتِ لِمُحْسِنِهِمْ .

فَلَمْ يَدْخُلِ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بَابَ البَلَدِ سُجَّداً خَاشِعِينَ كَمَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ ، بَلْ دَخَلُوهُ زَاحِفِينَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ (أَيْ أَدْبَارِهِمْ) ، وَبَدَّلُوا قَوْلَ اللهِ ، فَلَمْ يَقُولُوا (حِطَّةٌ) وَإِنَّمَا قَالُوا سَاخِرِينَ حِنْطَةٌ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ .

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ؛ وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل . ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم . . ثم ها هم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق ! ها هم أولاء يعصون الأمر ، ويبدلون القول !

ها هم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها - أي مدينة كبيرة - لا يعين القرآن اسمها - لأنه لايزيد في مغزى القصة شيئاً - وتباح لهم خيراتها جميعاً ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجداً ، إعلان للخضوع لله في ساعة النصر والاستعلاء - وذلك كما دخل رسول الله ﷺ مكة في عام الفتح ساجداً على ظهر دابته - وفي مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين في حسناتهم . .

فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التي أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التي كلفوا أن يدخلوا عليها . .

لماذا ؟ تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة: (فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم) . .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً . . السماء التي تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام ! . .

(فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون) . .

وهكذا كان ظلم فريق منهم - أي كفرهم - ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله . .

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذي أصابهم في هذه المرة . لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه . فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله ، وتحقيق النذر ، ووقوع الجزاء العادل الذي لا يفلت منه العصاة . . وحتى يتعرض في هذه المجاهدة للابتلاء والصبر على الجهد والصبر على الأذى والصبر على الهزيمة والصبر على النصر أيضاً - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة - وحتى يتمحص

القلب ويتميز الصف وتستقيم الجماعة على الطريق وتمضي فيه راشدة صاعدة متوكلة على الله .
حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان . لأنه يجاهد نفسه أولاً في أثناء مجاهدته للناس؛ وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن سالم؛ وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة؛ ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته وبعاداته وطباعه وبانفعالاته واستجاباته ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة المريرة .
وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته وعلى حقيقة غايته؛ ثم تتعرف هي على حقيقة اللبنات التي تتألف منها مدى احتمال كل لبنة ثم مدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الصدام .

وقال تعالى :{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) } [إبراهيم : ٦ - ٨]
وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ آذَنَكُمْ رَبُّكُمْ ، وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ ، فَقَالَ : لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ النِّعَمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا ، لأُعَاقِبَنَّكُمْ عِقَاباً شَدِيداً عَلَى كُفْرِهَا ، وَلأَسْلُبَنَّكُمْ إِيَّاهَا .
(وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى لِعِبَارَةِ : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ " هُوَ : وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ بِعِزَّتِهِ وَجَلاَلِهِ وَكِبْرِيَائِهِ) .
وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ حِينَمَا عَانَدُوا وَجَحَدُوا : إِنْ كَفَرْتُمْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، أَنْتُمْ وَجَمِيعُ مَنْ فِي الأَرْضِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَإِنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ لَهُ ، وَهُوَ الحَمِيدُ المَحْمُودُ ، وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَهُ ، وَإِنَّكُمْ لاَ تَضُرُّونَ ، بِالكُفْرِ وَالجُحُودِ ، إِلاَّ أَنْفُسَكُمْ لأَنَّكُمْ تَحْرِمُونَهَا بِذَلِكَ مِنْ مَزِيدٍ مِنَ الإِنْعَامِ ، وَتُعَرِّضُونَهَا لِعَذَابِ اللهِ .
قَصَّ اللهُ تَعَالَى خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالأُمَمِ الأُخْرَى المُكَذِّبَةِ ، الذِينَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالحُجَجِ ، وَالبَرَاهِينِ القَاطِعَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ، وَعَلَى تَصَرُّفِهِ المُطْلَقِ بِالكَوْنِ ، وَعَلى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ فَقَالَ : إِنَّهُمْ كَذَّبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ ، وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُوا لَهُمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مُثِيرٍ لِلرَّيْبِ مِمَّا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ .

(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّ مَعْنَى { فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا كَلاَمَ اللهِ عَجِبُوا ، وَرَجعُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُسْمِعَ صَوْتَهُ مَنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْهُ ، أَيْ إِنَّ هَذا تَعْبِيرٌ عَنْ أَنَّهُمْ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ مُعْلِنِينَ كُفْرَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ) .

وَقِيلَ إِنَّ هَذا التَّعْبِيرَ مَثَلٌ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَرُدُّوا جَوَاباً .

(وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ وَضَعُوا أَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ اسْتِغْرَاباً وَاسْتِنْكَاراً) .

(وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّ المَعْنَى هُوَ أَنَّهُمْ عَضُّوا عَلَى أَنَامِلِهِمْ تَغَيُّظاً مِنَ الرُّسُلِ وَكَلاَمِهِمْ) .

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم . نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون ، يسامونه سوماً ، أي يوالون به ويتابعون ، فلا يفترعنهم ولا ينقطع . ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث ، منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم .

فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر . وتذكر لتشكر .

{ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم } . .

بلاء بالعذاب أولاً ، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له . فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى . ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية ، واستمرار العزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان . وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان . . وبلاء بالنجاة لامتحان الشكر ، والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة .

ويمضي موسى في البيان لقومه . بعد ما ذكرهم بأيامه . ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة . وهي الصبر للعذاب والشكر للنجاة . . يمضي ليبين لهم ما رتبه الله جزاء على الشكر والكفران :

{ وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد } . .

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر ، والعذاب الشديد على الكفر .

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق . فلا بد أن يتحقق على أية حال . . فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا ، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية . فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي ، في الفطرة المستقيمة . .

هذه واحدة . . والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته ، تراقبه في التصرف بهذه النعمة . بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد .

وهذه وتلك مما يزكي النفس ، ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها؛ ويرضي الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عوناً؛ ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات

في أمان . إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة . وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن ، أدرك الأسباب أو لم يدركها ، فهو حق واقع لأنه وعد الله .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد . . وكله كفر بنعمة الله . .

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة . عيناً بذهابها . أو سحق آثارها في الشعور . فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين! وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله . ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء .

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته . وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره .

فالله غني بذاته محمود بذاته ، لا بحمد الناس وشكرها على عطاياه .

{ وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد } . .

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم ، فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها . فالمنعم موجود ، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه . ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات . وذلك من بدائع الأداء في القرآن ، لإحياء المشاهد ، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع ، وتتحرك فيه الشخوص ، وتتجلى فيه السمات والانفعالات . .

---

٤٨. الاغترار بالعدد والعدة :

قال تعالى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) سورة التوبة

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِهِ عَلَيهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ (مَوَاطِنَ) مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ، وَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَبَتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، لاَ بِعَدَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلاَ بِعُدَدِهِمْ ، وَلاَ بِعَصَبِيَّتِهِمْ ، وَلا بِقُوَّتِهِمْ ، وَلاَ بِكَثْرَةِ أمْوَالِهِمْ ، وَنَبَّهَهُمْ تَعَالَى إلى النَّصْرَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، قَلَّ الجَمْعُ أوْ كَثُرَ .

وَفِي يَوْمِ حُنَيْنٍ أعْجَبَتِ الْمُسْلِمِين كَثْرَتُهُمْ فَلَمْ تُفِدْهُمْ شَيْئاً ، فَوَلَّوا مُدْبِرينَ حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِم الأَرْضَ عَلَى سَعَتِها مِنْ شِدَّةِ فَزَعِهِمْ ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى النَّجَاةِ سَبِيلاً ، وَلَمْ يَثْبُتْ مِنْهُمْ إلاَّ عَـدَدٌ قَلِيـلٌ مَـعَ الرَّسُول ﷺ ، وَكَانَ ذَلِكَ ابْتِلاءً مِنَ اللهِ لَهُمْ عَلَى عُجْبِهِم بكَثْرَتِهِمْ . (ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، لِيُعَلِّمَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَإِنْ قَلَّ الجَمْعُ) .

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الطُمَأْنِينَةَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَعَلَىالْمُؤْمِنِينَ الذِينَ ثَبَتوا مَعَهُ ، فَأَذْهَـبَ رَوْعَهُـمْ ، وَأَزَالَ حَيْرَتَهُمْ ، وَأَعَادَ إِلَيْهِمْ شَجَاعَتَهُمْ ، وَلَزِمَ الرَّسُولُ ﷺ مَكَانَهُ ، وَمَعَهُ القِلَّةُ التِي ثَبَتَتْ مِـنَ الْمُـؤْمِنِينَ ، وَاسْتَنْصَرَ الرَّسُولُ رَبَّهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ جُنُوداً مِنَ المَلائِكَةِ لَمْ يَرَها الْمُسْلِمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ ، بَلْ وَجَدُوا أَثَرَها فِي قُلُوبِهِمْ ، بِمَا عَادَ إِلَيْهَا مِنْ رَبَاطَةِ جَأْشٍ ، وَشِدَّةِ بَأْسٍ . وَأَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ حَفْنَةً مِنْ تُرَاب قَـذَفَهَا فِي وَجْهِ القَوْمِ ، فَلَمْ يَبْقَ مُقَاتِلٌ مِنْ هَوَازِنَ إلاَّ وَدَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ أَوْ فَمِهِ حَبَّةٌ مِنْ تُرَاب أشْـغَلَتْهُ عَـنِ القِتَالِ ، وَتَرَاجَعَ الذِينَ هَرَبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَى حَيْثُ كَانَ يَقِفُ رَسُولَ اللهِ وَصَـحْبُهُ الثَّـابِتُونَ ، وَحَمَلُوا عَلَى هَوَازِنَ فَنَصَرَهُمُ اللهُ ، وَعَذَّبَ الذِينَ كَفَرُوا ، وَقَاتَلُوا رَسُولَ اللهِ ، فَأَخْزَاهُمُ اللهُ وَأَذَلَّهُـمْ بِالقَتْلِ وَالسَّبْيِ ، وَهَذَا هُوَ مَصِيرُ القَوْمِ الكَافِرِينَ ، وَجَزاؤُهُمْ .

ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ ، مِنْ بَعْدِ القَتْلِ وَالخِزْيِ وَالتَعْذِيب ، عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ هَوَازِنَ فَيَهْدِيهِمْ إِلَى الإِسْـلاَمِ ، وَقَدْ قَدِمُوا عَلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْلِمِينَ ، وَلَحِقُوا بِهِ فِي مَكَّةَ فِي مَكَانٍ يُعْرَفُ بالجعْرانَةِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ المَوْقِعَةِ بِعِشْرِينَ يَوْماً ، وَحِينَئِذٍ خَيَّرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ سَبْيِهِمْ ، وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ ، فَاخْتَارُوا سَبْيَهُمْ ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلافِ أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ فَرَدَّهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَقَسَّمَ الأَمْوَالَ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ .

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوي قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسـلمة باديـة القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله سبحانه وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعدا واحدا:هو الجنة . ولم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا:هو الصبر . .

فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ؛ وجعل يحرضها عليه ويشـفي صدورها به . ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته . وإن هـي إلا سـتار لقدرته . .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافـة ؛ وأن يقـف المسلمون إزاءهم صفا . .

لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا و الخبايا ، ولإزالة الأستار التي يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التي يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة مـن قـربى أو مصلحة . . لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الـذين

يخبئون في قلوبهم خبيئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، في ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة: (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون) .

لقد كان في المجتمع المسلم - كما هو الحال عادة - فئة تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار . وتتقن استخدام الأعذار . وتدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة ، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات في المفاصلة بين المعسكرات . فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة ، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون الملتوون ، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان الله يعلمهم من قبل: (والله خبير بما تعملون) . .

ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم . وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء وتتميز الصفوف ، وتتمحص القلوب . ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات .

ثم لمسة للمشاعر بالذكرى ، وباستعراض صفحة من الواقع الذي عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب . . المواطن التي نصرهم الله فيها ، و لم تكن لهم قوة ولا عدة . ويوم حنين الذي هزموا فيه بكثرتهم ثم نصرهم الله بقوته . يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء ! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في العدد والعتاد . ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد ؛ وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد: لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وبذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم .

ولقد كان نصر الله لهم في المواطن الكثيرة قريبا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة . فأما وقعة حنين فكانت بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم ، وبنو سعد ابن بكر ، وأوزاع من بني هلال - وهم قليل - وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر ؛ وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ؛ وجاءوا بقضهم وقضيضهم . فخرج إليهم رسول الله ﷺ في

جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الـذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء ، في ألفين ؛ فسار بهم إلى العدو ؛ فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين" فكانت فيه الواقعة في أول النهار في غلس الصبح . انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ، فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين - كما قال الله عـز وجل - وثبت رسول الله ﷺ يومئذ وهو راكب بغلته الشهباء ، يسوقها إلى نحر العـدو ، والعبـاس آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانهـا لـئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو المسلمين إلى الرجعة ، ويقول:" إلي يا عباد الله . إلي أنا رسول الله " ويقول في تلك الحال:" أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلـب " وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ومنهم من قال ثمانون ؛ فمنهم أبو بكر وعمر - رضـي الله عنهما - والعباس وعلي والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم - رضي الله عنهم - ثم أمر النبي ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته:يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصـار تحتها على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم:يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة:يا أصـحاب سـورة البقرة . فجعلوا يقولون:يا لبيك ، يا لبيك . وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول - الله ﷺ - حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ، ورجع بنفسـه إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم رسول الله ﷺ أن يصدقوا الحملة . . . وانهزم المشركون فأتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، ومـا تراجـع بقيـة النـاس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

هذه هي المعركة التي اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش عدته اثنا عشر ألفا فأعجبتـهم كثرتهم ، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة في أول المعركة إليـه ؛ ثم نصـرهم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله ﷺ والتصقت به .

والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية ، وبانفعالاتها الشعورية: (إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغـن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) . . .

فمن انفعال الإعجاب بالكثرة ، إلى زلزلة الهزيمة الروحية ، إلى انفعال الضيق والحرج حـتى لكـأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم . إلى حركة الهزيمة الحسية ، وتولية الأدبار والنكـوص علـى الأعقاب . .

(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) . . وكأنما السكينة رداء يترل فيثبت القلوب الطائرة ويهدئ الانفعالات الثائرة .

(وأنزل جنودا لم تروها) . . فلا نعلم ماهيتها وطبيعتها . . وما يعلم جنود ربك إلا هو . .

(وعذب الذين كفروا) . بالقتل والأسر والسلب والهزيمة:

(وذلك جزاء الكافرين) . . (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم) . .

فباب المغفرة دائما مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب .

إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية . حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة . إن الكثرة العددية ليست بشئ ، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة . وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا في الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين في غمارها ، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها ، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة ؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله ، انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة .

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة ، لا بالزبد الذي يذهب جفاء ، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح !

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ذكرت المؤمنين بجانب من نعم الله عليهم . ومن رحمته بهم ، وأرشدتهم إلى أن النصر لا يتأتى لمن أعجبوا بكثرتهم فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه – سبحانه – وإنما النصر يتأتى لمن أخلصوا لله سرائرهم وعلانيتهم . وباشروا الأسباب إلى شرعها – سبحانه – للوصول إلى الفوز والظفر .

قال ابن القيم : افتتح الله – تعالى – غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، لهذا يقرن بين هاتين بالذكر ، فقال بدر وحنين وإن كان بينهما سبع سنين . . وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزوة رسول الله – ﷺ – والمسلمين . فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

البابُ الخامس

النصر قادم بإذن الله تعالى

١- المستقبلُ لهذا الدين :

حين يتقرر أن الإسلام هو - وحده - القادر على إنقاذ البشرية مما يحدق بها من أخطار ماحقة، تدلف إليها مقودة بسلاسل الحضارة المادية البراقة. وهو - وحده - القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقية. وهو - وحده - الذي ينسق بين خطاها في الإبداع المادي وخطاها في الاستشراف الروحي. وهو - وحده - الذي يملك أن يقيم لها نظاماً واقعياً للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في النظام الإسلامي - وحده - على مدى التاريخ

حين يتقرر هذا كله تتضح معه شناعة الجريمة التي يرتكبها - في حق البشرية كلها - أولئك الذين يوجهون الضربات الوحشية لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان - وفي أولهم مستر دالاس الذي يصرح ويستصرخ في طلب مثل هذا المنهج - والذين يجندون قواهم كلها، لطمس معالم المنهج الإسلامي، ومواراته عن أعين البشرية المتطلعة إلى منقذ، المتلفتة على (مخلص)، وتنفيرها منه بشتى الخدع والتمويهات والأكاذيب!

إنها جريمة بشعة - في حق البشرية كلها - البشرية المسكينة المنكوبة بهذه الحضارة المناقضة لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقة - كما يقرر العالم الغربي الكبير- المهددة بغلبة الفلسفة المادية عليها - كما ينذر مستر دالاس — البشرية التي تدلف إلى الهاوية، مقودة بسلاسل هذه الحضارة المادية البراقة، وهي في كل لحظة تقترب من الهوة الرعيبة، ولا منقذ لها إلا هذا الدين، الذي يحاربه أعداء البشرية، في كل مكان على وجه الأرض، بشتى الخطط والمؤامرات والأساليب!

إلا أن هذه الحرب المشبوبة على الإسلام لا تفقدنا الثقة المطلقة في أن (المستقبل لهذا الدين).

لقد صمد الإسلام في حياته المديدة، لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية، التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامي في كل مكان. وكافح - وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية- وانتصر، وبقي، وأبقى على شخصية الجماعات والأوطان، التي كان يحميها، وهو مجرد من السلاح!

إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار؛ كما حماه من هجمات الصليبيين على السواء .. ولو انتصر الصليبيون في الشرق كما انتصروا في الأندلس قديماً، أو كما انتصر الصهيونيون في فلسطين حديثاً، ما بقيت قومية عربية، ولا جنس عربي ولا وطن عربي ..

والأندلس قديماً وفلسطين حديثاً كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض، فإنه لا تبقى فيها لغة ولا قومية، بعد اقتلاع الجذر الأصيل!

والمماليك الذين حموا هذه البقعة من التتار، لم يكونوا من جنس العرب إنما كانوا من جنس التتار! ولكنهم صمدوا في وجه بني جنسهم المهاجمين، حمية للإسلام، لأنهم كانوا مسلمين! صمدوا بإيحاء من العقيدة الإسلامية، وبقيادة روحية إسلامية من الإمام المسلم (ابن تيمية) الذي قاد التعبئة الروحية، وقاتل في مقدمة الصفوف!

ولقد حمى صلاح الدين هذه البقعة من اندثار العروبة منها والعرب واللغة العربية .. وهو كردي لا عربي .. ولكنه حفظ لها عروبتها ولغتها حين حفظ لها إسلامها من غارة الصليبيين. وكان الإسلام في ضميره هو الذين كافح الصليبيين. كما كان الإسلام في ضمير الظاهر بيبرس، والمظفر قطز، والملك الناصر .. هو الذي كافح التتار المتبربرين!

والإسلام هو الذي كافح في الجزائر مئة وخمسين عاماً. وهو الذي استبقى أرومة العروبة فيها. حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة في اللغة والثقافة، حينما اعتبرت فرنسا اللغة العربية —في الجزائر– لغة أجنبية محظوراً تعليمها! هنالك قام الإسلام – وحده – في الضمير، يكافح الغزاة، ويستعلي عليهم، ولا يحنى رأسه لهم لأنهم أعداؤه (الصليبيون)! وبهذا – وحده – بقيت روح المقاومة في الجزائر، حتى أزكتها من جديد الحركة الإسلامية التي قام بها عبد الحميد بن باديس، فأضاءت شعلتها من جديد .. وهذه الحقيقة التي حاول أن يطمسها المغفلون والمضلِّلون، يعرفها الفرنسيون والصليبيون جيداً لأنهم (صليبيون)!

إنهم على يقين أن (الإسلام)، باستعلاء روحه على أعدائه، هو الذي يقف في طريقهم في الجزائر. ومن ثم يعلنونها حرباً على (المسلمين) .. لا على (العرب) ولا على (الجزائريين)!

والإسلام هو الذي هب في السودان في ثورة المهدي الكبير على الاحتلال البريطاني للقسم الشمالي من الوادي (مصر) ثم القسم الجنوبي (السودان) ومراجعة إعلانات (المهدي) الكبير ، ورسائل (عثمان دقنة) لكتشنر وكرومر وتوفيق، تشهد بحيوية هذا الباعث الأصيل.

والإسلام هو الذي كافح في برقة وطرابلس ضد الغزو الطلياني .. وفي أربطة السنوسية وزواياها نمت بذرة المقاومة. ومنها انبثق جهاد عمر المختار الباسل النبيل..

وأول انتفاضة في مراكش، كانت منبثقة من الروح الإسلامي. وكان (الظهير البربري) الذي سنه الفرنسيون سنة ١٩٣١ وأرادوا به رد قبائل البربر هناك إلى الوثنية، وفصلهم عن الشريعة الإسلامية .. هو الشرارة التي ألهبت كفاح مراكش ضد الفرنسيين.

لقد كافح الإسلام – وهو أعزل – لأن عنصر القوة كامن في طبيعته. كامن في بساطته ووضوحه وشموله، وملاءمته للفطرة البشرية، وتلبيته لحاجاتها الحقيقية .. كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد

بالعبودية لله رب العباد؛ وفي رفض التلقي إلا منه، ورفض الخضوع إلا له من دون العالمين .. كامن كذلك في الاستعلاء بأهله على الملابسات العارضة كالوقوع تحت سلطان المتسلطين. فهذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته .. ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالما عمر الإسلام القلب والضمير، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين.

ومن أجل هذه الخصائص في الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة، لأنه يقف لهم في الطريق، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية، كما يعوقهم عن الطغيان والتأله في الأرض كما يريدون!

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة، كما يطلقون عليه حملات التشويه والخداع والتضليل!

ومن أجل هذا يريدون أن يستبدلوا به قيماً أخرى، وتصورات أخرى، لا تمت بسبب إلى هذا المناضل العنيد؛ لتستريح الصهيونية العالمية، والصليبية العالمية، والاستعمار العالمي من هذا المناضل العنيد!

إن خصائص الإسلام الذاتية هي التي تحنق عليه أعداءه الطامعين في أسلاب الوطن الإسلامي ٠٠ هذه هي حقيقة المعركة؛ وهذا هو دافعها الأصيل..ولكن الذي لا شك فيه – على الرغم من ذلك كله – هو أن (المستقبل لهذا الدين)..(فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين؛ ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين. وأن له دوراً في هذه الأرض هو مدعو لأدائه – أراد أعداؤه أم لم يريدوا – وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى – كما لا يملك منهج آخر– أن يؤديه. وأن البشرية بجملتها لا تملك كذلك أن تستغني طويلاً عنه) ٠٠ كما قلنا في صدر هذا الكتاب٠٠ولا حاجة بنا إلى المضي في توكيد هذه الحقيقة على هذا النحو. فنكتفي في هذا الموضع بعرض عبرة عن الواقع التاريخي للإسلام، لعلها أنسب العبر في هذا المقام:

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِىُّ – وَهْوَ ابْنُ أَخِى سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ – أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَأَبِى بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِى بَنِى مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ ، فَقَالَ يَا سُرَاقَةُ ، إِنِّى قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ – أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ . قَالَ سُرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ ، فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا . ثُمَّ لَبِثْتُ فِى الْمَجْلِسِ سَاعَةً ، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِى أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِى وَهْىَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَىَّ ، وَأَخَذْتُ رُمْحِى ، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ ، فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِى فَرَكِبْتُهَا ، فَرَفَعْتُهَا تُقَرَّبُ بِى حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرَتْ بِى فَرَسِى ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ ، فَأَهْوَيْتُ يَدِى إِلَى كِنَانَتِى فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ فَخَرَجَ الَّذِى أَكْرَهُ ، فَرَكِبْتُ فَرَسِى

، وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ ، تُقَرِّبُ بِى حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَهْوَ لاَ يَلْتَفِتُ ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الاِلْتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِى فِى الأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً ، إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِى السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ ، فَخَرَجَ الَّذِى أَكْرَهُ ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا ، فَرَكِبْتُ فَرَسِى حَتَّى جِئْتُهُمْ ، وَوَقَعَ فِى نَفْسِى حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ . وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمِ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ ، فَلَمْ يَرْزَآنِى وَلَمْ يَسْأَلاَنِى إِلاَّ أَنْ قَالَ أَخْفِ عَنَّا . فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِى كِتَابَ أَمْنٍ ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ ، فَكَتَبَ فِى رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ ...."[١٤٦]

وعَنِ الْحَسَنِ ، قَالَ : لَمَّا أُتِيَ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِسِوَارَيْ كِسْرَى أَمَرَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ فَجَعَلَهَا فِي يَدَيْهِ ، قَالَ : " يَدَانِ سَوْدَاوَانِ مُحْتَرِقَتَانِ " ، ثُمَّ قَالَ : " اللَّهُ أَكْبَرُ ، سِوَارَا كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، فِي يَدَيْ سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشُمٍ ، أَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ اللَّهُمَّ إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تَكُونَ إِنَّمَا أَعْطَيْتَنِي هَذَا لِتَمْكُرَ بِي " قَالَ : " وَجَعَلَ يَبْكِي "[١٤٧]

يعده سوارى كسرى شاهنشاه الفرس! (ملك الملوك!).

والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة؛ حول هذا العرض العجيب؛ من ذلك المطارد الوحيد .. إلا من صاحبه الذي لا يغني شيئاً عنه، والمهاجـــــر – سرّاً – معه!

ولكن كالرسول – ﷺ – كان عارفاً بالحق الذي معه، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك .. وكان واثقاً من أن هذا الحق لابد أن ينتصر على هذا الباطل. وأنه لا يمكن أن يوجد (الحق) في صورته هذه، وأن يوجد (الباطل) في صورته هذه، ثم لا يكون ما يكون!

كانت الشجرة القديمة قد تآكلت جذورها كلها، بحيث لا يصلها ري ولا سماد .. كانت قد خبثت بحيث يتحتم أن تجتث .. وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبأة للغرس والنماء .. وكان واثقاً من هذا كله ثقة اليقين ..

نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته، وكل سماته. مع الجاهلية كلها من حولنا .. فلا يجوز – من ثم – أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة. العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا. على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا!

إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج، ليست بأقل من حاجتها يومذاك .. وإن وزن هذا المنهج اليوم – بالقياس إلى كل ما لدى البشرية من مناهج – لا يقل عنه يومذاك ..ومن ثم ينبغي ألا يخالجنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لابد أن يقع. ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك،

[١٤٦]- صحيح البخارى (٣٩٠٦)

[١٤٧]- تَهْذِيبُ الْآثَارِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٥٦٣) صحيح مرسل

بسبب ما نراه من حولنا، من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان، ولا بسبب ما نراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة المادية.. إن الذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام. إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق، ومدى الصمود للضربات!

إننا لسنا وحدنا .. إن رصيد الفطرة معنا .. فطرة الكون وفطرة الإنسان .. وهو رصيد هائل ضخم .. أضخم من كل ما يطرأ على الفطرة من أثقال الحضارة .. ومتى تعارضت الفطرة مع الحضارة، فلا بد أن يكتب النصر للفطرة .. قصر الصراع أم طال( ).أمر واحد يجب أن يكون في حسابنا .. إن أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً. لاستنقاذ الفطرة من الركام. ثم لتغليب الفطرة على هذا الركام.

كفاحاً مريراً يجب أن نستعد له استعداداً طويلاً ..يجب أن نستعد بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين ..نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله. وفي حقيقة معرفتنا بالله فإننا لن نؤمن به حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة ..

ونرتفع إلى مستواه في عبادتنا لله. فإننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا إذا عبدناه حق العبادة.

ونرتفع إلى مستواه في وعينا بما حولنا، ومعرفتنا لأساليب عصرنا .. ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته.

ونرتفع إلى مستواه في إحاطتنا لثقافة عصرنا وحضارته؛ وممارسة هذه الثقافة وهذه الحضارة ممارسة اختبار واختيار .. فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع، إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة. فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار .. ونرتفع إلى مستواه في إدراكنا لطبيعة الحياة البشرية وحاجاتها الحقيقية المتجددة، فنرفض ما نرفض من هذه الحضارة، ونستبقي ما نستبقي عن خبرة بالحياة ذاتها تعادل خبرتنا بهذه الحضارة كذلك!

وهذا كفاح مرير .. وكفاح طويل .. ولكنه كفاح بصير وفاح أصيل..

والله معنا .. "والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" ..وصدق الله العظيم.

---

٢ . من معاني النصر الحقيقية :

قال تعالى : {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (٥١) {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} (٥٢) سورة غافر

إن وعد الله حق لا يتخلف أبدا

فما معنى النصر ؟ والمقصود به ؟؟

إن وعد الله قاطع جازم: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . .) .

بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذباً مطروداً ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى في الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد . .

فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل !

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير .

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها !

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . .

إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها . .

أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة ؟

ما من شك – في منطق العقيدة – أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار . كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة . وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب ! . .

ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور . ومن القيم . قبل أن نسأل:

أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا !

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد ﷺ في حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً . من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية . وفق تقدير الله وترتيبه .

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا . ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها . وحقيقة الإيمان كثيراً ما يتجوز الناس فيهـــا . وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله . وإن هنالك لأشـــكالاً مـــن الشرك خفية ؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحـــده ، ويطمـــئن إلى قضاء الله فيه ، وقدره عليه ، ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا مـــا اختـــار الله . ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول . وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير . فسيكل هـــذا كلـــه لله . ويلتـــزم . ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير . .

وذلك معنى من معاني النصر . .

النصر على الذات والشهوات . وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونـــه بحـــال مـــن الأحوال .

إنَّ من معتقد أهل السنة والجماعة في معاني أسماء الله وصفاته أن الله لا يَخذل من توجّه إليه بصـــدق وتوكل واعتمد عليه. فإنه لم يحصل في تاريخ البشرية منذ أن خلق الله هذه الأرض أن نبياً من الأنبياء أو عالماً أو داعيةً أو مجاهداً أو مجتمعاً أو دولةً أو غيرهم توكلوا على الله وصدقوا الله واعتمدوا علـــى الله وتركوا جميع الناس من أجل الله ثم خذلهم الله، هذا لا يعرف في التاريخ أبداً، بل من فهمنا لمعاني أسماء الله وصفاته أن كل من توكل على الله واعتمد عليه وترك من سواه من الخلق، فإن الله لا يخذله، بل سينصره كما قال سبحانه: وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧].

فإن هذا من معاني أسمائه وصفاته. فالله عز وجل بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا كتب النصر والغلبة لأهل الحق من أوليائه الصالحين والمصلحين، وكتب المهانة والذلة على أعدائه مـــن الكـــافرين والمنافقين، وهذه سنة لا تتخلف إلاّ إذا تخلفت أسبابها فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّـــهِ تَحْوِيلاً [فاطر:٤٣].

لكن لهذا النصر صور عديدة، وليس النصر محصوراً في انتصار المعارك فحسب، بل قد يقتل الـــنبيّ أو يطرد العالم أو يسجن الداعية أو يموت المجاهد أو تسقط الدولة، والمؤمنون منهم من يسام العـــذاب، ومنهم من يلقى في الأخدود، ومنهم من يَستشهد، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، ومع ذلك يكون كل هؤلاء قد انتصروا بل وحققوا نصراً مؤزراً، وتحقق فيهم قول الله تعالى: وَكَانَ حَقّـــاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ.

ومن قَصَرَ معنى النصر على صورة واحدة وهي الانتصار في المعارك فحسب، لم يدرك معنى النصر في الإسلام.

أول معاني النصر:

إن أعظم أنواع النصر وهو الذي يتحقق لكل مجاهد سواءً على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة، هو انتصار المجاهد على نفسه وشيطانه والمحبوبات الثمانية وما يتفرع عنها من محبوبات عندما يسلك طريق الجهاد، وتلك الجواذب الأرضية التي فشل كثير من المسلمين بل فشلت الأمة بمجموعها في الانتصار عليها عدها الله تعالى بقوله (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) [التوبة : ٢٤])، والعبد حينما يترك هذه المحبوبات الثمانية ويخرج للجهاد يكون قد انتصر على نفسه وعلى شهوته وعلى هذه الجواذب المثبطة.

ومن خلال هذا النصر يكون قد حقق نصراً آخر هو أعظم من الأول حينما ثبت له أنه ليس من أهل الفسق وأنه غير مخاطب بتهديد الله ووعيده في آخر الآية، كل هذا النصر قد حصل له عندما أثبت عملياً أنه يحب الله ورسوله والجهاد في سبيله فما أعظم ذلك النصر.

المعنى الثاني من معاني النصر:

وإذا خرج العبد للجهاد يكون قد حقق انتصاراً آخر ولكن هذه المرة انتصاره على شيطانه الذي يتربص به ويحاول إعاقته عن الجهاد بكل السبل فعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لاِبْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ لَهُ : تَسْلَمُ وَتَذَرُ دِينَكَ ، وَدِينَ آبَائِكَ ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ فَغَفَرَ لَهُ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ : تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ ، وَسَمَاءَكَ ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ ، فَقَالَ لَهُ : تُجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ ، وَالْمَالِ ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتُلُ ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ.[١٤٨]

فبالجهاد يتحقق النصر على الشيطان وينال العبد جنة الرحمن.

المعنى الثالث من معاني النصر:

إن المجاهد إذا خرج للجهاد فإنه قد حقق نصراً لأنه أصبح من أهل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) سورة القصص(٦٩)) .

فما أعظم ذلك النصر عندما يتعرض المجاهد لهداية الله سبحانه وتعالى، فأعظم نصر على الشيطان هو الهداية وأعظم فضل من الله سبحانه وتعالى هو التوفيق لها، فمن جاهد فقد حقق النصر بالهداية وأصبح من المحسنين الذين لهم من الله معية خاصة معية النصرة والتوفيق والهداية والصلاح، ولو

---

[١٤٨]- صحيح ابن حبان - (١٠ / ٤٥٣) (٤٥٩٣) صحيح

جاهدت الأمة بمجموعها وشاركت في الجهاد حقاً لأصبحت أمة مهدية لها معية خاصة كما كانت في عهد الصحابة والتابعين أمة موفقة غالبة منصورة.

المعنى الرابع من معاني النصر:

وبخروج العبد للجهاد يكون قد انتصر على المثبطين من بني جلدته الذين يتحدثون بلسانه، بل بعضهم يتفيهق بلي أعناق النصوص لتخدم تثبيطه للأمة عن الجهاد وقد فضحهم الله تعالى بقوله: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [التوبة : ٤٧]) .

يخاطب الله بهذه الآية صحابة رسول الله ﷺ أن فيهم (سَمَّاعُونَ) للمثبطين، ليس لضعف إيمانهم ولكن لأن المثبطين أصحاب منزلة في أقوامهم أخفت بواطنهم، و لعظم فتنة المثبطين ولبسهم الحق بالباطل وبإتقان شبههم يمكن لأهل الإيمان أن ينخدعوا بقولهم ،لذا حذر الله خير الناس بعد الأنبياء منهم، ومن المثبطين من فضحه الله تعالى بقوله: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ [التوبة : ٨١]).

فالمثبطون عن الجهاد يجلبون بخيلهم ورجلهم وبكل ما أوتوا من قدرة كل ذلك ليمنعوا العبد من الجهاد وبالتالي يمنعون الأمة من السير على طريق العزة، والمجاهد حينما يخرج للجهاد يكون قد حقق انتصاراً على الخوالف المثبطين، فبعد انتصاره على نفسه وشهوته ودنياه انتصر على شيطانه ومن ثم انتصر على المخذِّلين من بني جلدته الذين يتحدثون بلسانه.

المعنى الخامس من معاني النصر:

وهو انتصار العقيدة والإيمان، وهو أن يَثْبُت المؤمنون على إيمانهم وأن يضحوا بأبدانهم حماية لأديانهم وأن يؤثروا أن تخرج أرواحهم ولا يخرج الإيمان من قلوبهم، فهذا نصر للعقيدة ونصر للإيمان.

فنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟

ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار، مع أن الذين ألقوه في النار يرون أنفسهم قد هزموه، كما أنه انتصر مرة أخرى، وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة، وهما في الظاهر بعيد من بعيد، فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب!

إن المجاهد حينما يثبت على طريق الجهاد وعلى مبادئ هذه الشعيرة رغم ما يصيبه من نصب وشدة وما يعرض له من تثبيط إن هذا وحده يعد انتصاراً بمفرده والله تعالى يقول: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إبراهيم : ٢٧]).

فمن ثبت على طريق الجهاد واستمر بأداء هذه الشعيرة وأصبح من أهل هذه الآية ألا يعد ذلك نصراً له؟ بلى والله، فكم رأينا من جاهد وانتصر في الميدان ولكن مبادئه هزمت وقناعاته تغيرت وخدم شهوته ودنياه بما تحصل له من طريق الجهاد، وكم رأينا آخرين لم يصبهم من الشدة والشقاء ما أصاب غيرهم ممن لا يزال ثابتاً يجاهد، وهم لم يهزموا في الميدان ولكن الدنيا هزمت مبادئهم وهزمت قناعتهم، لفَّتهم تيارات فاسدة فأصبحوا لها خدماً يخذلون ويعتذرون لهزيمة قناعتهم بآلاف الأعذار، أليست هذه هي الهزيمة والثبات على المبدأ هو النصر الحقيقي؟.

وهذا خبر الغلام في قصة أصحاب الأخدود حين عجز الملك عن قتله فقال له: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِى حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِى عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِى ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ.

ثُمَّ ارْمِنِى فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِى. فَجَمَعَ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِى صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِى صُدْغِهِ فِى مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ.

فَأُتِىَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ..[١٤٩]

فانظروا كيف ضحى هذا الغلام بحياته من أجل الدعوة، وهذا ما يجب على الدعاة إلى الله عز وجل، أن لا يبخلوا بشيء في سبيل نشر دعوتهم، ولو أنفقوا حياتهم ثمناً لإيمان الناس، فقد مضى الغلام إلى ربه، إلى رحمته وجنته وآمن الناس بدعوته، عند ذلك أمر الملك بحفر الأخاديد في أفواه السكك وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا حتى جاءت امرأة، ومعها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق.

وسجل الله عز وجل لنا في كتابه الخالد خاتمة القصة، وعاقبة الفريقين في الآخرة فقال عز وجل: قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ [البروج:٤-١١].

أيها المسلمون، وقافلة الإيمان تسير يتقدمها الأنبياء الكرام والصديقون والشهداء.

---

[١٤٩] - صحيح مسلم (٧٧٠٣)

مّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً [الأحزاب:٢٣]، ما جفت الأرض من دماء الشهداء في عصر من العصور، ولا خلت الأرض من مخلص يقدم للأمة نموذجاً، فيموت هو، وينتشر الخير بعده بسببه.

فهذا صاحب الظلال رحمه الله كان قتله انتصاراً لمنهجه الذي عاش من أجله ومات في سبيله، بذل حياته كلها من أجل أن يبين أن الحكم من أمور العقيدة والتحاكم إلى غير شرع الله، والحكم بغير حكمه كفر بالله عز وجل: إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ [يوسف:٤٠]، وقال تعالى: وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة:٤٤]، وبعد أن حكم عليه بالإعدام وقبل أن ينفذ فيه الحكم الظالم كتب هذه الأبيات وكتب الله عز وجل لها الحياة وخرجت من وراء القضبان تقول للعالم.

أخي أنت حر وراء السدود ....أخي أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصما ......فماذا يضيرك كيد العبيد

أخي ستبيد جيوش الظلام ....ويشرق في الكون فجر جديد

أخي إن نمت نلق أحبابنا ......فروضات ربي أعدت لنا

وأطيارها رفرفت حولنا ......فطوبى لنا في ديار الخلود

أخي إن ذرفت عليّ الدموع ....وبللت قبري بها في خشوع

فأوقد لهم من رفاتي الشموع ......وسيروا بها نحو مجد تليد

إنه نصر وأيّ نصر، إنه أعظم وأجلّ من انتصارات كثير من المعارك والتي سرعان ما تنتهي بانتهائها، أما هذا النصر فإنه يبقى ما شاء الله أن يبقى.

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته، ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، ويظن أعداؤه أنهم قد انتصروا عليه، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي كتبها بدمه، فتبقى حافزاً ومحركاً للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزاً ومحركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال.

المعنى السادس من معاني النصر:

وبخروج العبد للجهاد يكون قد حقق انتصاراً آخراً وذلك حينما يبذل نفسه ووقته وماله في سبيل مبادئه ونصرة لمعتقده ودينه، فإن الفداء لهذا الدين هو انتصار بنفسه سواء كانت له الغلبة أم لعدوه، فبما أنه علا بمبدئه وقاتل من أجله وبذل نفسه رخيصة له، فإن ذلك علو حقيقي حتى لو هزم في الميدان فقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ ولأصحابه عندما هزموا في أحد: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران : ١٣٩]) قتل منهم سبعون ومثل بهم و جرح رسول الله صلى الله عليهم وسلم وفر آخرون ثم تاب الله عليهم، إلا أن ذلك لا يغير من الحقيقة شيئاً بل رغم ذلك

فإنهم في علو، فعلو المجاهد حصل عندما دخل ميدان النزال وخاض معركة الإسلام فهذا هو علـــوه، فانتصر على عدوه بعلوه، فعندما يجابه قوم عزل لا يملكون من السلاح إلا القليل وهم فقراء قلة ليس معهم إلا الإيمان، فمن أجل ماذا تجاهد الأمة عدوها وهي أقل منه عدداً وعدة؟ من أجل ماذا تجاهـــد الأمة عدوها وهزيمتها بالمقياس المادي البحت مؤكدة واقعة؟ أليست أمة لا تملك المقومات المادية نسبة لعدوها وتواجهه بعدما أعدت ما استطاعت أليست أمة منتصرة من مجرد بدء الصراع، إن الأمة الـــتي تواجه بإيمانها عدوها المدجج بأحدث الأسلحة والعتاد إنها أمة منتصرة بشموخها ومبادئها.

عندما يواجه من كان هذا حاله دول العالم بعدها وعتادها وما تملكه من تكنلوجيا ألا يعد هذا علـــوا ونصراً أرخص العبد فيه نفسه من أجل ما يعتقده؟ بلى والله إن التاريخ يكتب بمداده حياة الأبطـــال ولو كانت نهايتهم الشهادة، ومن خلد أكثر منهم وعاش في ذل فإن التاريخ لا يذكره بل يمقته، ومـــا أكبر البون وأعظم الفرق بينهم عند رب العالمين.

وفي ثبات المجاهد على طريق الجهاد وعلى معتقده ومبادئه التي قاتل من أجلها، يكون قـــد حقـــق نصر المبدأ وعلو العقيدة والدين على طائفتين :

الطائفة الأولى: انتصر بمبادئه على مبادئ الضلال المِلّية من أهل البدع والخرافة والفلسفة التي أبعـــدت النجعة وكدرت صفو النصوص وأولتها وحرفتها عن أصلها من أجل إرجاع المجاهد عن مبادئه ،فإذا أصر وقاتل من أجلها و لم يستمع لما يطرح من أهل الضلال والتخذيل من شبه فإنـــه حقـــق نصـــراً عليهم.

الطائفة الثانية: انتصر بمبادئه على مبادئ أهل الكفر والزندقة والردة والإلحاد، فحينما يعلنها صـــريحة أنه يتمنى الموت في سبيل ما يعتقد وأن الموت لا يقدم في قناعاته ولا يؤخر شيئاً فإن ذلك يعـــدُّ مـــن أعظم النصر.

ويتجلَّى ذلك النصر العظيم بموقف من كانوا سحرة لفرعون حينما هددهم بالقتل والصلب بعـــدما أعلنوا إيمانهم فقال: (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى [طه : ٧١]) فأجابوا بعزة المؤمن وبعلو منقطع النظير (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَـــى مَـــا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [طه : ٧٢]) وفي جواب آخر لهم قالوا: (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَـــا مُسْلِمِينَ [الأعراف : ١٢٦])

الله أكبر نعم والله إن هذا لهو النصر العظيم الثبات على المبدأ حتى الممات.

ويتجلى النصر أيضاً بقصة خبيب رضي الله عنه عندما كان مصلوباً بين أيدي كفار قريش وليس بينه وبين الموت إلا لحظات حيث قَالَ خُبَيْبٌ وَهُمْ يَرْفَعُونَهُ عَلَى الْخَشَبَةِ : اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا ، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا . وَقَتَلَ خُبَيْبًا أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَمَّا وَضَعُوا فِيهِ السِّلَاحَ

وَهُوَ مَصْلُوبٌ نَادَوْهُ وَنَاشَدُوهُ : أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ الْعَظِيمِ ، مَا أُحِبُّ أَنْ يَفْدِيَنِي بِشَوْكَةٍ يُشَاكُهَا فِي قَدَمِهِ . فَضَحِكُوا ، وَقَالَ خُبَيْبٌ حِينَ رَفَعُوهُ إِلَى الْخَشَبَةِ :

لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ

وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ ....وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي ثُمَّ كُرْبَتِي وَمَا أَرْصَدَ الْأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي

فَذَا الْعَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي فَقَدْ بَضَعُوا لَحْمِي وَقَدْ بَانَ مَطْمَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ........ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

لَعَمْرِي مَا أَحْفُلُ إِذَا مُتُّ مُسْلِمًا .....عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لِلَّهِ مَضْجَعِي[١٥٠]

وعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ : " أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ حَضَرُوا قَتْلَ زَيْدٍ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : يَا زَيْدُ ، أُنْشِدُكَ اللَّهَ ، أَتُحِبُّ أَنَّكَ الْآنَ فِي أَهْلِكَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا مَكَانَكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، مَا أَحَبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا يُشَاكُ فِي مَكَانِهِ بِشَوْكَةٍ تُؤْذِيهِ وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي ، قَالَ : يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنَ قَوْمٍ قَطُّ أَشَدَّ حُبًّا لِصَاحِبِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لَهُ " [١٥١]

الله أكبر ما أعظمه من نصر وعلو.

وكم من أمة قتلت وأبيدت وانتدثرت لم يخلد الله ذكرها ويثني عليها كما أثنى على أولئك الذين وصفهم بأهم فازوا فوزاً كبيرا، لقد ساوم أهل الكفر أصحاب الأخدود على أمرين إما الرجوع عما هم عليه أو الموت حرقاً بالنار والثبات على المبادئ، فلم تكن نار الدنيا لترجعهم عما هم عليه، فآثروا النجاة من نار الآخرة بدخول نار الدنيا، فتهافتوا في النار كأهم جراد بإقدام وفداء لم يرعهم منظر النيران العظيمة، بل دخلوا فيها لينتصروا، وعندما تقاعست امرأة واحدة وفكرت وغاب عنها مفهوم النصر أنطق الله رضيعها ليشرح لها مفهوم النصر الحقيقي والفوز الكبير، (فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِى فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ)[١٥٢]، فقفزت في النار فانتصرت ورضيعها.

فخلد الله ذكرهم مادحاً لهم بما لم يمدح به أحداً قبلهم ولا بعدهم فقال: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ [البروج : ١١]).

فكل مؤمن غاب عنه معنى النصر الحقيقي كتلك المرأة منهم،فإن هذه الآية وهذا المدح وهذه الشهادة تبين معنى النصر وتوضح ما غاب عن الأفهام.

المعنى السابع من معاني النصر:

---

[١٥٠]- المعجم الكبير للطبراني - (٥ / ٢١٤) (٥١٤٦) حسن مرسل

[١٥١]- الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ(١٥٠٦) صحيح مرسل

[١٥٢]- انظرها مفصلة في صحيح مسلم (٧٧٠٣)

ومن معاني النصر أن ينصر الله عباده نصر حجة وبيان وهو قريب من المعنى الذي سبق إلا أنه يفترق أن المبدأ المنتصر هنا لا يكون لازماً على المنتصر بل يتعدى إلى غيره سواء مات صاحبه أم لم يمت، المهم أن حجته تبلغ ويقتنع بها أقوام ولو كان مستضعفاً لم ينتصر نصراً ميدانياً،كما قال تعالى عن نصر حجة إبراهيم عليه السلام على قومه بعد مناظرتهم حيث قال: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام : ٨٣]) والرفع هو الانتصار، وكذلك نصر الله إبراهيم على النمرود عندما حاجّه فقال الله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [البقرة : ٢٥٨]).

وفي قصة انتصار مبدأ غلام أصحاب الأخدود دليلٌ واضحٌ على معنى نصر المبدأ، فقد قتل الغلام ولكن حجته ومبدأه انتصر وغلب كفر الملك وأسلم الناس جميعاً، فنصر الحجة بسبب مقتل الغلام وثباته قبل مماته كان نصراً ظاهراً هزم الكفر في عصره رغم ما يملكه الكفر من قوة وسطوة إلا أنه اندحر أمام ذلك الثبات والمبدأ والمعتقد العظيم.

والطائفة المنصورة أخبر الرسول ﷺ بظهورها ونصرها ،فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ »[١٥٣].

فهذا الظهور أدناه أنه ظهور حجة وبيان، وقد يكون معه ظهور دولة وسلطان، ولكن رغم خذلان الأمة لهم واجتماع أعدائهم عليهم فإنهم ظاهرون.

المعنى الثامن من معاني النصر:

أن يهلك الله عز وجل الكافرين والمكذبين وينجي رسله وعباده المؤمنين، قال عز وجل حاكياً عن نوح عليه السلام: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ [القمر:١٠-١٤]، ولما نصر الله عز وجل هوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً عليهم الصلاة والسلام، أهلك الله عز وجل الكافرين والمكذبين وأنجى رسله وعباده المؤمنين.

فالله تعالى قادر على أن يهلك عدوهم بقارعة من عنده ويكون سبب تلك القارعة هو جهاد المجاهدين، فقد يعجز المجاهدون عن هزيمة عدوهم في الميدان وهذا غالباً لعدم المكافأة في المعركة، ولكن الله قوي عزيز، وبما أن المجاهدين قد بذلوا السبب وعملوا بما أوتوا من قوة ووسع للإعداد لجهاد الأعداء، فإن الله سيجعل من مجهودهم البسيط ومواجهتهم الضعيفة سبباً لهلاك عدوهم بقارعة

---

[١٥٣]- صحيح البخارى(٧٣١١) وصحيح مسلم(٥٠٥٩) وهذا لفظه

من عنده وأكد الله لنا ذلك بقوله: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة : ٢٤٩]).

والقارعة التي حلّت بفرعون من أجل جهاد موسى عليه السلام ومن معه توضح هذا الأمر، فإن الله تعالى قادر على أن يهلك فرعون قبل مجيء موسى عليه السلام أو بعد مجيء موسى،ولكن في أول إعراض فرعون وتكبره، ولكن الله أمهله حتى طغى وتجبر وخرج بخيله ورجله لإطفاء نور الله تعالى، وفي الميدان حلت القارعة بفرعون وجنوده وكان السبب موسى عليه السلام فقال الله تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [الشعراء : ٦٣]) وقال: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف : ١٣٧]).

ولما ظهر جهاد النبي ﷺ وأعرضت قريش عن الانصياع للحق سلط الله عليهم عذابه ليذعنوا لأمر النبي ﷺ فقد جاء في الصحيحين عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ النَّبِىَّ – ﷺ – لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا قَالَ « اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ » . فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَىْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجِيَفَ ، وَيَنْظُرَ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى الدُّخَانَ مِنَ الْجُوعِ ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا ، فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) [الدخان : ١٠ – ١٦]) فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقَدْ مَضَتِ الدُّخَانُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَآيَةُ الرُّومِ . [١٥٤]

كل ما أصابهم كان بسبب جهاد النبي ﷺ لهم وكان ذلك بعد الهجرة وتشريع الجهاد، ولم يصبهم ما أصابهم بسبب جيش النبي ﷺ في ميدان المعركة، فالرسول ﷺ قتل من قريش ما لا يزيد عن ٢٠٠ رجل في معاركه معهم، وهم قتلوا من المسلمين قريباً من نصف هذا العدد، ولكن الله أصاب قريشاً بقارعة من عنده أذعنت لأمر رسول الله ﷺ فهدى منهم أقواماً وأهلك آخرين على كفرهم.

وفي عصرنا الحاضر أكد زوال الاتحاد السوفيتي هذه الحقيقة فلم يكن المجاهدون في ميدان المعركة أقوى ولا أقدر ولا أكثر من السوفييت، ولكن بجرمهم لدين الله تعالى وقتلهم لأوليائه، تتابعت عليهم المحن والبلايا والفقر والفساد حتى سقط الاتحاد السوفيتي، فمن قال إنه سقط بسبب النظام الشيوعي الاشتراكي فهاهي دول لا زالت على ذلك النظام ولم تسقط، ومن قال بسبب ديونهم فأمريكا وقت سقوط الاتحاد السوفيتي كانت أكثر ديوناً منها لا سيما الديون الداخلية، ومن قال بسبب الحكم العسكري الدكتاتوري لها، فلا تزال دولاً أشد منها حكماً عسكرياً باقية، و الناظر لأسباب سقوط

[١٥٤]- صحيح البخارى(١٠٠٧) وصحيح مسلم (٧٢٤٤) حصت : استأصلت

الاتحاد السوفيتي لا يمكن أن يبدي أسباباً أعظم من حربهم للدين وجهاد المجاهدين لهم،والشواهد من التاريخ ومن قصص الأنبياء أكثر من أن تحصر وكلها تدل على أن جهاد المجاهدين هو السبب الرئيسي لإحلال العذاب والدمار على من حاربهم، فالجهاد سبب لهلاك الكافرين والنصر للمؤمنين من عند الله تعالى، ولو لم نر النصر عاجلاً فإنه يوشك أن يكون، ولا يوجد في التاريخ قوم هلكوا بدون سبب وكل القوارع التي حلت بالكافرين كان بسبب جهاد رسلهم لهم أو بسبب جهاد المؤمنين من عباد الله الصالحين.

المعنى التاسع من معاني النصر:

ومن صور النصر أيضاً أن يكون الجهاد سبباً في فقر الكافرين وموتهم على كفرهم وعدم هدايتهم، وهذا من أعظم أنواع النصر، فحربهم للدين ومجابهتهم للمجاهدين تصبح سبباً لضلالهم وإيغالهم في الكفر حتى الموت، وهذا ما دعا به موسى وهارون عليهما السلام على فرعون وقومه فقال موسى عليه السلام: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس : ٨٨]).

فدعاء موسى عليه السلام بهذه الأمور يدلُّ على أن تحققها يعدُّ نصراً حقيقياً، وأيُّ هزيمة أعظم من أن يشدد الله على قلوب الكافرين حتى يلاقوا العذاب الأليم وحينها يفرح المؤمنون بذلك الموقف الذي يقال فيه لأئمة الكفر: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان : ٤٩]) فبطرهم وأشرهم وطغيانهم وزعمهم الدفاع عن الحرية والحضارة وحرب الإرهاب كل تلك الأمور سوف تنتهي بانتهاء حياتهم التي لم يبق منها إلا أقل مما فات، وبعدها ينتقل إلى موقف يشفي الله به صدور المؤمنين عندما يقال لهم: (قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) [الصافات : ٥٤ - ٥٧]).

وإن تحقق فقر الكافرين في الدنيا فقد منح الله أكتافهم لعباده المؤمنين.

وقد كان جهاد النبي ﷺ أيضاً سبباً في بغي اليهود وطغيانهم، فشدَّ الله على قلوبهم حتى ماتوا وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فماتوا على الكفر والموعد يوم الحساب.

المعنى العاشر من معاني النصر:

ومن صور النصر أن يتخذ الله من عباده شهداء، فكل عبد يعمل ويكدح لله تعالى إنما ذلك من أجل أن يدخل الجنة ،لذا فإن الله تعالى قال: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران : ١٤٠]).

فالشهادة اصطفاء من الله تعالى لعباده ومن يصطفيه الله لهذه المترلة فقد فاز وانتصر، والشهادة هي غاية مطلوبة لذاتها لأنها اصطفاء من الله، ولأن النبي ﷺ تمناها ثلاثاً بقوله كما في الصحيح عن أَبي

هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِى وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّى أُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ »[١٥٥] .

وقال الله مؤكداً ذلك النصر (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [آل عمران : ١٦٩]) .

وقال (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ [البقرة : ١٥٤])

ودليل على أن الشهادة نصر بذاتها ما جاء في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ – رضى الله عنه – قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ – ﷺ – أَقْوَامًا مِنْ بَنِى سُلَيْمٍ إِلَى بَنِى عَامِرٍ فِى سَبْعِينَ ، فَلَمَّا قَدِمُوا ، قَالَ لَهُمْ خَالِى أَتَقَدَّمُكُمْ ، فَإِنْ أَمَّنُونِى حَتَّى أُبَلِّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَإِلاَّ كُنْتُمْ مِنِّى قَرِيبًا . فَتَقَدَّمَ ، فَأَمَّنُوهُ ، فَبَيْنَمَا يُحَدِّثُهُمْ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – إِذْ أَوْمَئُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَطَعَنَهُ فَأَنْفَذَهُ فَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ . ثُمَّ مَالُوا عَلَى بَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ فَقَتَلُوهُمْ ،...."[١٥٦]

فكيف لمن قتل وعاين الموت أن يقسم بالفوز، إلا أنه قد وجد ريح الجنة، والأدلة على انتصار المجاهد بنيل الشهادة وحدها كثيرة جداً بسطها العلماء في أبواب مستقلة في فضائل الشهادة في سبيل الله، فمن رزق الشهادة فقد انتصر النصر المحقق.

المعنى الحادي عشر من معاني النصر:

ومن صور النصر أيضاً النصر الميداني نصر المعركة : نصر العزة والتمكين في الأرض وجعل الدولة للإسلام والجولة للإسلام، كما نصر الله عز وجل داود وسليمان عليهما السلام كما قال سبحانه: وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ [البقرة:٢٥١]، وقال عز وجل: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً [الأنبياء:٧٩]، فجمع الله عز وجل لهذين النبيين الكريمين بين النبوة والحكم والملك العظيم.

وكذلك موسى عليه السلام نصره الله على فرعونَ وقومه وأظهر الدين في حياته، كما قال سبحانه: وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ [الأعراف:١٣٧].

أما نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد نصره الله نصراً مؤزراً، فما فارق النبي الدنيا حتى أقرّ الله عز وجل عينه بالنصر المبين، والعز والتمكين، بل جعل الله عز وجل النصر ودخول الناس في دين الله أفواجاً علامة قرب أجل النبي فقال تعالى: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوبَا [سورة النصر]، فما فارق النبي الدنيا حتى حكم الإسلام جزيرة العرب، ثم فتح تلامذته من بعده البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، حتى استنارَ أكثرُ

---

[١٥٥]- صحيح البخارى (٣٦)

[١٥٦]- صحيح البخارى (٢٨٠١) وصحيح مسلم (٥٠٢٦)

الأرض بدعوة الإسلام، وسالت دماء الصحابة في الأقطار والأمصار، يرفعون راية الإسلام، وينشرون دين الله عز وجل، حتى وقف عقبة بن عامر على شاطئ المحيط الأطلنطي وقال: "والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرضاً تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا".

وما كان يعلم رضي الله عنه أن وراء ذلكم البحر الأمريكتان، ولو كتب الله وخاض البحر ودخل المسلمون تلك البلاد لكان التاريخ شيئاً آخر، فشاء الله تعالى أن تقف خيول عقبة بن عامر على شاطئ الأطلنطي لحكمة يعلمها سبحانه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. وهذا الخليفة المسلم هارون الرشيد نظر إلى السحابة في السماء وقال لها: "أمطري حيث تشائين فسوف يأتيني خراجك".

لقد انتصر الإسلام عباد الله لما وجد الرجال الذين يقومون به ويضحون من أجله والله عز وجل يقول: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وهذا هو الذي يعرف معناه كل الناس وكثير منهم يحصر النصر به فقط وهذا خلل في المفهوم، فما النصر الميداني إلا أحد أنواع النصر وقد فرح به رسول الله ﷺ في آخر حياته وأراه الله ذلك النصر قبل مماته ثم قال له ممتناً عليه (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) (سورة النصر).

هذه بعض صور النصر وهي كثيرة لا مجال لحصرها ولكن مثلنا بهذه الصور التي تدخل كلها تحت وعد الله سبحانه وتعالى عندما قال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر : ٥١]) .

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم : ٤٧]) فمن ضعف إدراكه عن معاني النصر فإنه يقول كيف يحق الله على نفسه نصر الرسل والمؤمنين، ومن الرسل من قتل ومنهم من لم يملك سلطة و لم يسلم معه أحد، ومن فهم معاني النصر فإن الإشكال عنه يزول.

علماً أن نصر التمكين والغلبة والسلطان هو الذي سيؤول إليه الحال في نهاية الأمر للأمة الإسلامية، فإن لم يحصل هذا في زماننا فإنه قطعاً سيحصل دون أدنى شك فيمن بعدنا، فبشائر الرسول ﷺ ووعوده بالتمكين في الأرض لا تنصرف إلا إلى معنى النصر الميداني والغلبة العسكرية والسلطان في الأرض، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة ، وقد مرت سابقاً ..

ومنها عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِىَّ -ﷺ- قَالَ « سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِى الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِى الْبَحْرِ ». قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِى إِسْحَاقَ فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاَحٍ وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ قَالُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا ». قَالَ ثَوْرٌ لاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ قَالَ « الَّذِى فِى الْبَحْرِ ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ فَقَالَ إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ. فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَىْءٍ وَيَرْجِعُونَ »[157].

وقد تواترت أخبار المهدي الذي بشر النبي ﷺ بخروجه في آخر الزمان، فعَنْ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي ، وَخُلُقُهُ خُلُقِي ، فَيَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا.[158]

والنصوص المبشرة بالنصر العسكري للأمة والتمكين في الأرض والغلبة والسلطان كثيرة، ولا يسوغ أبداً أن يتكل العبد على تلك النصوص ويترك العمل بحجة أن النصر آت لا محالة، ولكن يجب عليه إذا فهم معاني النصر أن يكون سباقاً لها، فإن الأمة إذا انتصرت وليس له مجهود في ذلك النصر فإنه من الخاسرين، ولكن لا بد أن يحاول جاهداً أن يحقق لنفسه شيئاً من معاني النصر الأخرى حتى يأتي وعد الله بالنصر الميداني (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * [الروم : ٤ ، ٥]).

المعنى الثاني عشر من معاني النصر:

وهو أن يحمي الله عز وجل عباده المؤمنين من كيد الكافرين كما قال تعالى: وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً [النساء:١٤١]، وكما قال عز وجل لنبيه : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة:٦٧].

وجاء في السيرة المباركة كيف عصمه الله عز وجل من الرجل الذي رفع عليه السيف فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : كُنَّا إِذَا صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ تَرَكْنَا لَهُ أَعْظَمَ شَجَرَةٍ وَأَظَلَّهَا فَيَنْزِلُ تَحْتَهَا ، فَنَزَلَ ذَاتَ يَوْمٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَعَلَّقَ سَيْفَهُ فِيهَا ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَأَخَذَهُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " اللَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ ، ضَعِ السَّيْفَ " فَوَضَعَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ " سورة :(المائدة آية : ٦٧)[159].

وقصة الشاه المسمومة التي أنطقها الله عز وجل، وأخبرت النبي بأنها مسمومة فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْيَهُودِ أَهْدَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – شَاةً مَسْمُومَةً، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَ: مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ؟ قَالَتْ: أَحْبَبْتُ أَوْ أَرَدْتُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ مَطْلِعُكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَبِيًّا أُرِيحُ النَّاسَ مِنْكَ[160]...

[157] –صحيح مسلم (٧٥١٧)

[158] – صحيح ابن حبان – (١٥ / ٢٣٧) (٦٨٢٥) صحيح

[159] – تَفْسِيرُ مُجَاهِدٍ (٣٤٨) صحيح

[160] – غاية المقصد فى زوائد المسند ٢ – (١ / ٣٨٨) (٣٥٠٦) صحيح

وقصة إجلاء بني النضير، ونزول جبريل وميكائيل يوم أحد يدافعان عن شخص النبي ﷺ .

وكذلك ما حدث يوم الرجيع فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ – ﷺ – سَرِيَّةً عَيْنًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ – وَهْوَ جَدُّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَىٍّ مِنْ هُذَيْلٍ ، يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ ، فَتَبِعُوهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَامٍ ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلاً نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ . فَتَبِعُوا آثَارَهُمْ حَتَّى لَحِقُوهُمْ ، فَلَمَّا انْتَهَى عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ ، وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ ، فَقَالُوا لَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَنْ لاَ نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلاً . فَقَالَ عَاصِمٌ أَمَّا أَنَا فَلاَ أَنْزِلُ فِى ذِمَّةِ كَافِرٍ ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ . فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِى سَبْعَةِ نَفَرٍ بِالنَّبْلِ ، وَبَقِىَ خُبَيْبٌ ، وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرُ ، فَأَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا . فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ الَّذِى مَعَهُمَا هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ . فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ ، فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَقَتَلُوهُ ، وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدٍ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ ، فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أَجْمَعُوا قَتْلَهُ اسْتَعَارَ مُوسَى مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ أَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ ، قَالَتْ فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِىٍّ لِى فَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ ، فَوَضَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ فَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَ ذَاكَ مِنِّى ، وَفِى يَدِهِ الْمُوسَى فَقَالَ أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَاكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكَانَتْ تَقُولُ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ ، وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِى الْحَدِيدِ ، وَمَا كَانَ إِلاَّ رِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ ، فَخَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ ، لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ دَعُونِى أُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ . ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَوْلاَ أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِى جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ ، لَزِدْتُ . فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ثُمَّ قَالَ مَا أُبَالِى حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَىِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِى وَذَلِكَ فِى ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ ، وَبَعَثَ قُرَيْشٌ إِلَى عَاصِمٍ لِيُؤْتَوْا بِشَىْءٍ مِنْ جَسَدِهِ يَعْرِفُونَهُ ، وَكَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَىْءٍ[١٦١] .

فإن قال قائل: لماذا لم يمنعهم الله عز وجل من قتله كما منعهم من الوصول إلى جسده بعد قتله؟ فالجواب: أن الله عز وجل يحب أن يرى صدق الصادقين، ويحب أن يرى عباده المؤمنين، وهم يبذلون أنفسهم لله عز وجل فيبوئهم منازل الكرامة، ويزيدُهم من فضله، فالله عز وجل أراد أن يشرّفه بدرجة

[١٦١] – صحيح البخارى (٤٠٨٦)

الشهادة، فلم يمنعهم من قتله ثم حمى الله عز وجل جسده من أن يمسه مشرك. فهذه صورة من صور النصر ولو انتهت بموت وقتل صاحبه.

هذه أنواع من النصر كلها تدخل في وعد الله سبحانه وتعالى: وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ [الروم:٤٧]، ولكن النصر الذي بشرنا الله عز وجل به، وبشرنا به رسوله هو النصر الأول، وهو نصر التمكين والظهور، قال الله تعالى: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [الصف:٩]

---

٣. لماذا يبطئ النصر ؟

إن الثقة بنصر الله، وعونه ووعده الحق لمن جاهد في سبيله، هي زاد الطريق، ومفتاح الأمل، ونور الأجيال الإسلامية التي تبصر بها آفاق الرحلة، وتبقى لحظة النصر وبشارة التمكين حية شاخصة في رؤى المجاهدين ومشاعرهم، وإن من فقد هذه الثقة بالله ونصره، فقد خسر خسراناً مبيناً، ومن تشكك فيها لحظة، فقد تأخر عليه النصر على قدرها مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّـهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ وَكَذالِكَ أَنزَلْنَاهُ ءايَاتٍ بَيّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ [الحج:١٥، ١٦].

فمن كان يشك في نصر الله لأوليائه فليقرأ قول الله تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [غافر:٥١]، وقوله سبحانه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءوهُم بِالْبَيّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧]، وقوله عز وجل: ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنفُسكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف:١٠-١٣]، وقوله سبحانه: ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧]، وقوله تعالى: ذالِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ [الحج:٦٠].

إن نصر الله جل وعز متحقق لمن يستحقونه، وهم المؤمنون الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أي حل آخر، ولا إلى نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله.

ومع ذلك نقول: إن من سنن الله تعالى أن النصر قد يتأخر، ولو كان أهله مسلمون وأعداؤهم كفار وذلك لأسباب:

منها: أن البنية للأمة لم تنضج بعد و لم يتم بعد تمامها، و لم تُحشد بعد طاقاها و لم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته وشيكاً لعدم قدرها على حمايته طويلاً. لأن النصر السريع الهين اللين، سهل فقدانه وضياعه، لأنه رخيص الثمن لم تُبذل فيه تضحيات عزيزة.

ومن الأسباب أيضاً: أنه قد يتأخر النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتتأذى وتبذل ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا ملجأً إلا إليه، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على المنهج الصحيح بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به.

وقد يتأخر النصر أيضاً: لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه أو تقاتل حمية لذاها أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده، وفي سبيله بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه، فَعنْ أَبِى مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ – فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْقِتَالُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً . فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ – قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا – فَقَالَ « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[١٦٢]

وقد يتأخر النصر أيضاً: لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذٍ فقد يجد الباطل له أنصاراً من المخدوعين فيه لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل مدة من الزمن حتى يتكشف عارياً للناس، وإذا ما ذهب فإنه يذهب غير مأسوف عليه.

وقد يتأخر النصر أيضاً: لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصر حينئذٍ للقيت معارضة من البيئة حولها لا يستقر معها قرار، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه.

أيها المسلمون، من أجل هذا كله ومن أجل غيره مما يعلمه الله ولا نعلمه نحن قد يتأخر نصر الله، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام وتتضاعف معها الأجور، وفي كل ذلك خير مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصلاةَ وَاتَوُاْ الزكاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ وَإِن

[١٦٢] – صحيح البخارى (١٢٣ ، ٢٨١٠ ، ٣١٢٦ ، ٧٤٥٨)

يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمَّا تَعُدُّونَ وَكَأَيّن مّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ [الحج:٤٠-٤٨].

---

٤. النصر له ثمن باهظ :

قال تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا } [الفرقان/٣١]

وكَمَا جَعَلْنَا لَكَ أعْدَاءً من المُشْرِكينَ يَتَقَوَّلُونَ عليكَ الترّهَاتِ والأبَاطِيلَ ، كذلكَ جعَلْنَا لكلِّ نَبيٍّ من الأنبياءِ السَّابقِينَ أعداءً لَهُمْ من شَياطينِ الإنسِ والجنِّ ، يُقَاوِمُون دعْوَتَهم ، ويُزْعِجُونَهم ، ويُكَذِّبُونَهُمْ ، فلا تَحْوَنْ يَا مُحَمَّدُ عَلَيهِمْ ، فَهَذا دَأْبُ الأنبياءِ قَبْلَكَ ، فاصبِرْ كما صَبَرُوا . وحَسْبُكَ بِرَبِّكَ هادِياً لَكَ إلى مَصَالِحِ الدين والدُّنْيَا ، وسينصُرُك على أعدائِكَ ، ويُبَلِّغُكَ غايةَ ما تَطْلُبُ ، ولا يَهُولَنَّكَ كَثْرَةُ عَدَدِهِم فإنَّه تعالى جَاعلٌ كلمتَه هي العُلْيا لا مَحَالَة .

. فتلك هي السنة الجارية قبله في جميع الرسالات . فلكل نبي أعداء يهجرون الهدى الذي يجيئهم به ، ويصدون عن سبيل الله . ولكن الله يهدي رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا) . .

ولله الحكمة البالغة . فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها ؛ ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها . وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها - مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق - هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة ؛ وهو الذي يمحص القائمين عليها ، ويطرد الزائفين منهم ؛ فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة ، التي لا تبتغي مغانم قريبة . ولا تريد إلا الدعوة خالصة ، تبتغي بها وجه الله تعالى .

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون ، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون ، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة . ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات ، هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودا . فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ،

الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا . بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها . ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودا ، وأشدهم إيمانا ، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس . .

عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل . وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء . وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها ، واجتازوا امتحانها وبلاءها . أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته . وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي ، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين .

وقد علمتهم التجارب والابتلاءات كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور . وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم ، فنما رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة . فيكون هذا كله رصيدا للدعوة التي يحملون رايتها على السراء والضراء .

والذي يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات ؛ حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب الدعوات ، وهم ثابتون على دعوتهم ، ماضون في طريقهم ، قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام ، إلا أن في هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن . .

وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة ، ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة . وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجا في هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع !

من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي عدوا من المجرمين ؛ وجعل المجرمين يقفون في وجه دعوة الحق ، وحملة الدعوة يكافحون المجرمين ، فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون في الطريق ، والنهاية مقدرة من قبل ، ومعروفة لا يخطئها الواثقون بالله . إنها الهداية إلى الحق ، والانتهاء إلى النصر: (وكفى بربك هاديا ونصيرا) .

وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي . فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية . فساد في القلوب ، وفساد في النظم ، وفساد في الأوضاع . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون ، الذين ينشئون الفساد من ناحية ، ويستغلونه من ناحية . والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد ، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء . والذين يجدون فيه سندا للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها . .

فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعا عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ، ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر ،

وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري ، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون . .

فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، يستميتون في كفاحها . وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية ، لأنها تسير مع خط الحياة ، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله ، والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله . .

(وكفى بربك هاديا ونصيرا) . .

الباب السادس

تصحيح مفاهيم خاطئة في صراعنا مع اليهود والنصارى

هناك مفاهيم خاطئة حول صراعنا مع اليهود والنصارى كرَّسها بعد الناس عن الدين ودعايات اليهود والنصارى وتكريس كثير من العلماء المغفَّلين لها، وتشجيع الحكام الذين باعوا أنفسهم للشيطان عليها ومنها :

١. الصراع ديني وليس سياسيا

إن جميع أنواع الصراع في الأرض سببها الرئيس هو سبب ديني وإن تلبس بأسباب ظاهرة أخرى والصراع بيننا وبين اليهود والنصارى ليس صراعا سياسيا كما يظن المغفلون منا وكما يشيعه علماء العافية الذين يدافعون عن عروش السلاطين أو الذين لا يفقهون ولا ينظرون إلى حقائق الأشياء وليس إلى جوهرها

فالذين يقولون بان الصراع هو بيننا وبين الصهاينة وليس بيننا وبين اليهود لا يعرفون مدلول هذا الكلام الذي يتفوهون به دون دليل ولا برهان فالصهاينة يهود واليهود صهاينة فكلهم بالهوى سوى فالصراع في أساسه صراع ديني صراع بين الحق والباطل واليهود والنصارى لا يخفون هذا في كثير من الأحيان كما قال بوش إنها حرب صليبية فراح حفنة منا يدافعون عنه ويقولون إنها زلة لسان سبحان الله رئيس أكبر دولة في العالم : يقول إنها حرب صليبية ونقول إنها زلة لسان !!!

وأي لسان هذا ؟

بل هذه هي الحقيقة الناصعة

واليهود لم يجتمعوا إلا على التوراة وقائدهم التوراة ويستندون إليها في عودتهم إلى فلسطين وفي صراعهم معنا ، ومع ذلك يصر الذين أعمى الله أبصارهم وبصائرهم منا على أن الصراع بيننا وبينهم صراع سياسي وليس صراعا دينيا !!!!

---

٢. أشد الناس علينا :

قال تعالى عنهم :* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* (٨٢) سورة المائدة

إن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا ؛ وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى ، ويجده كل من يتأمل !

نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا . . ولكن تقديم اليهود هنا ، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين - بما أنهم أصلا أهل كتاب - يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي ! إنه - على الأقل - يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة ، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا ! ونقول:إن هذا "على الأقل" . ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا . .

وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة ، فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا !

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة . وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة . وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الإسلام ﷺ وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل ، والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا ، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا .

لقد عقد الرسول ﷺ أول مقدمه إلى المدينة ، معاهدة تعايش مع اليهود ؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة . . ولكنهم لم يفوا بهذا العهد - شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل ، حتى قال الله فيهم:(ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون . أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام ، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج ، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ﷺ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط !

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية ، وأفادتها من قرون السبي في بابل ، والعبودية في مصر ، والذل في الدولة الرومانية . ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما

ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول .

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة ؛ وراحـــوا يجمعـــون القبائـــل المتفرقةلحرب الجماعة المسلمة: (ويقولون للذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

ولما غلبهم الاسلام بقوة الحق – يوم أن كان الناس مسلمين – استداروا يكيدون له بدس المفتريـــات في كتبه – لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه سبحانه – ويكيدون له بالـــدس بين صفوف المسلمين ، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار . ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في انحاء الأرض . . حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الارض ؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة ، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصـــنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جـــذور هذا الدين !

وصدق الله العظيم: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) . .

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة ؛ وجمع بين اليهود مـــن بـــني قريظـــة وغيرهم ؛ وبين قريش في مكة ، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة . . يهودي . .

والذي ألب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات ، في فتنة مقتل عثمان – رضي الله عنه – وما تلاها من النكبات . . يهودي . .

والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ وفي الروايات والسير . . يهودي . .

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ؛ ووراء الانقلابات التي ابتـــدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال "الدستور" بها في عهد السلطان عبدالحميد ، ثم انتـــهت بإلغـــاء الخلافة جملة على يدي "البطل" أتاتورك . . يهودي . .

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان علـــى وجـــه الأرض وراءه يهود !

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية . .

يهودي . .

ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي . .

ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود !

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا ، وأعرض مجالا ، من تلك التي شـــنها عليه المشركون والوثنيون – على ضراوتها – قديما وحديثا . .

إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها . .
وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول . وأما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية . . [التي تعد الماركسية مجرد فرع لها] وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية ، التي سنتعرض لها في الفقرة التالية .
فإذا سمعنا الله – سبحانه – يقول: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) . . ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا . . ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي ، فإننا ندرك طرفا من حكمة الله في تقديم اليهود الذين أشركوا !
إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة ، التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نبي الإسلام ، فيحذر الله نبيه وأهل دينه منها . .
و لم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله ! . .
ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه . .
(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون:ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . .
إن هذة الآيات تصور حالة ، وتقرر حكما في هذه الحالة . .
تصور حالة فريق من أتباع عيسى – عليه السلام –: (الذين قالوا:إنا نصارى) . .
وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا . .
ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك في أنها تصور حالة معينة ، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين ، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها ، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة ، وموقف هذه المعسكرات منهم . لذلك نجد من الضروري – في ظلال القرآن – أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص:
إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس ، قالوا:إنا نصارى . هم أقرب مودة للذين آمنوا: (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) . .
فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم . .

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد ، ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل من قالوا:إنــا نصارى . .

إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها:

وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القـوم الصالحين . . فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس ، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا .

إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ، ولانت قلـوبهم ، وفاضـت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه . والذي لا يجدون له في أول الأمـر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير – وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التـأثر درجـة أعلى من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدي ما لا يؤديه القول ؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ؛ ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذي تأثروا به هذا التـأثر عند سماع القرآن ؛ والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان . . إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق ! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحـق موقفا إيجابيا صريحا . . موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعـلان هـذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة: (يقولون:ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنـا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟) . .

إنهم اولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه . ثم يدعونه – سبحانه – أن يضمهم إلى قائمـة الشاهدين لهذا الحق ؛ وأن يسلكهم في سلك الامة القائمة عليه في الأرض . .

الأمة المسلمة ، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق ، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملـها وبحركتـها لإقرار هذا الحق في حياة البشر . .

فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة ؛ ويشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الـذي تتبعة هذة الأمة ؛ ويدعونه – سبحانه – أن يكتبهم في سجلها . . ثم هم بعد ذلك يستنكرون علـى أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله ؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به ، ولا يـأملوا – بهذا الإيمان – أن يقبلهم ربهم ، ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع القوم الصالحين:(وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟) . .

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق . . موقف الاستماع والمعرفة ، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة ، مـع دعـاء الله – سـبحانه – أن

يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق ؛ الذين يؤدون شهادتهم سلوكا وعملا وجهادا لإقـــراره في الأرض ، والتمكين له في حياة الناس ثم وضوح الطريق ففي تقديرهم وتوحده ؛ بحيث لا يعودون يـــرون أنـــه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد:هو طريق الإيمان بالله ، وبالحق الذي أنزلـــه علـــى رســـوله ، والأمل - بعد ذلك - في القبول عنده والرضوان .

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الـــذين قالوا إنا نصارى ؛ وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله الى الرسول ﷺ من الحق ؛ وفي اتخـــاذ موقف إيجابي صريح ، بالإيمان المعلن ، والانضمام إلى الصف المسلم ؛ والاســـتعداد لأداء الشـــهادة بالنفس والجهد والمال ؛ والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو ؛ مـــع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين . . لا يقف السياق القرآني عند هذا الحـــد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا . بل يتابع خطاه لتكملة الصـــورة ، ورســـم المصير الذي انتهوا إليه فعلا:

(فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) . .

لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم ؛ وصدق عزيمتهم على المضى في الطريق ؛ وصدق تصـــميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ؛ ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه ، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة - بكل تكاليفها في النفس والمال - منة يمن الله بها على من يشاء من عبـــاده ؛ واعتبارهم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونة إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه ؛ ورجـــاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين . .

لقد علم الله منهم هذا كله ؛ فقبل منهم قولهم وكتب لهم الجنة جزاء لهم ؛ وشهد لهم - ســـبحانه - بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين:(فأثابهم الله - بما قالوا - جنات تجري من تحتها الأنهـــار خالدين فيها . . وذلك جزاء المحسنين . .) .

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام . .

والله - جل جلاله - قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين .

هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن الكريم: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنـــوا الذين قالوا:إنا نصارى) . .

هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه ، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة . وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام ، والانضمام للصف المسلم ؛ والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة ؛ وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينـــها وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين . .

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد في تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من النـــاس الـــذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا بل إنه ليمضي فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا:إنا نصارى ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكـــذبون ، ولايســـتجيبون لـــه ، ولا ينضـــمون إلى صـــفوف الشاهدين:(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) :. .

والمقصود قطعا بالذين كفروا وكذبوا في هذا الموضع هم الذين يسمعون – من الذين قالوا إنا نصارى – ثم لا يستجيبون . . والقرآن يسميهم الكافرين كلما كانوا في مثل هذا الموقف . سواء في ذلـــك اليهود والنصارى ؛ ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء ؛ ما داموا في موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق ؛ وفي موقف الامتناع عن الدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله مـــن الناس دينا سواه . .

نجد هذا في مثل قول الله سبحانه: (لم يكن الذين كفروا – من أهل الكتاب والمشركين – مـــنفكين حتى تأتيهم البينة) . .

(إن الذين كفروا – من أهل الكتاب والمشركين – في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) .

(لقد كفر الذين قالوا:إن الله ثالث ثلاثة) . .

(لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم) . .

(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) . .

فهو تعبير مألوف في القرآن ، وحكم معهود . . وهو يأتي هنا للتفرقة بين فريقين من الذين قالوا:إنـــا نصارى ؛ وللتفرقة بين موقف كل فريق منهما تجاه الذين آمنوا ؛ وللتفرقة كذلك بين مصير هـــؤلاء وأولئك عند الله . . هؤلاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلـــك جـــزاء المحســـنين وأولئك أصحاب الجحيم . .

وليس كل من قالوا:إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا) . . كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضا ، ولا ملامحها مجهلة ، ولا موقفها متلبسا بموقف سواها في كثير ولا قليل . .

ولقد وردت روايات لها قيمتها في تحديد من هم النصارى المعنيون بهذا النص:

أورد القرطبي في تفسيره:"وهذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه ، لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى – حسب ما هو مشهور في سيرة ابن اسحاق وغيره – خوفا من المشركين وفتنتهم ؛ وكـــانوا ذوي عدد ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه ، حالت بينـــهم وبين رسول الله ﷺ الحرب فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفارقريش:إن ثأركم بأرض الحبشة فأهدوا إلى النجاشي وابعثوا له برجلين من ذوي رأيكم يعطيكم مـــن عنـــده ،

فتقتلوهم بمن قتل منكم ببدر . فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة بهدايا . فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه إلى النجاشي ؛ فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم . ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة "مريم" فقاموا تفيض أعينهم من الدمع . فهم الذين أنزل الله فيهم: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى) وقرأ إلى(الشاهدين) [رواه أبو داود . قال:حدثنا محمد بن مسلمة المرادي ، قال:حدثنا ابن وهب . قال:أخبرني يونس عن ابن شهاب ، عن أبي بكر عبدالرحمن بن الحرث بن هشام . وعن سعيد بن المسيب وعن عروة بن الزبير:أن الهجرة الأولى هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة . وساق الحديث بطوله] .

"وذكر البيهقي عن ابن إسحاق قال:قدم على النبي ﷺ عشرون رجلا وهو بمكة ، أو قريب من ذلك ، من النصارى حين ظهر خبره ، من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة . فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا:خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطل مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركبا أحمق منكم – أو كما قال لهم – فقالوا:سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا نألو أنفسنا خيرا . . فيقال:إن النفر النصارى من أهل نجران . ويقال:إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات:(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله: (لا نبتغي الجاهلين) .

"وقيل:إن جعفرا وأصحابه قدم على النبي ﷺ في سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف ، فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيراء الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثمامة وقثم ودريد وأيمن . فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة "يس" إلى آخرها ، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا به ، وقالوا:ما أشبه هذا بما كان يترل على عيسى فترلت فيهم (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا:إنا نصارى) .. يعني وفد النجاشي . وكانوا أصحاب الصوامع. وقال سعيد بن جبير:وأنزل الله فيهم أيضا(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) إلى آخر الآية . وقال مقاتل والكلبي كانوا أربعين رجلا من أهل نجران من بني الحرث بن كعب ، واثنين وثلاثين من الحبشة ،

وثمانية وستين من أهل الشام . وقال قتادة:نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى ، فلما بعث الله محمدًا ﷺ آمنوا به فأثنى الله عليهم"

وهذا الذي نقرره في معنى هذا النص ؛ والذي يدل عليه السياق بذاته ، وتؤيده هذه الروايات التي أسلفنا ، هو الذي يتفق مع بقية التقريرات في هذه السورة وفي غيرها عن موقف أهل الكتاب عامة - اليهود والنصارى - من هذا الدين وأهله .كما أنه هو الذي يتفق مع الواقع التاريخي الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا .

إن السورة وحدة في اتجاهها وظلالها وجوها وأهدافها ؛ وكلام الله سبحانه لا يناقض بعضه بعضا . (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا) . . وقد وردت في هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات ، تحدد معنى هذا النص الذي نواجهه هنا وتجلو . . نذكر منها:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . .

قل:يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين . .

كذلك جاء في سورة البقرة: ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل:إن هدى الله هو الهدى ؛ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير . .

كذلك صدق الواقع التاريخي ما حذر الله الأمة المسلمة إياه ؛ من اليهود ومن النصارى سواء . وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة ؛ في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة ؛ وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم . . فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم - فيما عدا الحالات التي وقع فيها ما تصفه الآيات التي نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه . وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك ؛ يلاقون من ظلمها الوبال ! - أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يخب أوارها قط - إلا في الظاهر - منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك ! لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان ، كما تجلت في حروب الابادة التي شنتها الصليبية على الاسلام والمسلمين في الاندلس ر ، ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالیك الإسلامية في إفريقية أولا ، ثم في العالم كله أخيرا . .

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام - على كل ما بينهما من أحقاد - ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير: (بعضهم أولياء بعض) حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة ، ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة . وبعد أن أجهزوا على عروة(الحكم) ها هم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة "الصلاة " !

ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنين ، فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام ، عن طريق المساعدات المباشرة تارة ، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى !

وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد .

وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض . وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم ، ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام ، في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال !

هذا موجز سريع لما سجله الواقع التاريخي طوال أربعة عشر قرنا ؛ من موقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام ؛ لا فرق بين هذه وتلك ؛ ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام ، والحقد عليه ،والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان .

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغدا ؛ فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة ؛ التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآني - دون متابعة لبقيته ؛ ودون متابعة لسياق السورة كله ، ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة ، ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله - ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد ؛ الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها ، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة .

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئا أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة - مهما قل عددها وعدتها - فالذين ينيمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة . وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة ؛ ولكن ضررهم لا يقل - حينئذ - عن ضرر أعدى الأعداء ، بل إنه ليكون أشد أذى وضرا .

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ؛ وهو لا يناقض بعضه بعضا ، فلنقرأه إذن على بصيرة . .

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة . وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة . وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود

على الإسلام وعلى رسول الإسلام ﷺ وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل ، والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا ، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا .

لقد عقد الرسول ﷺ أول مقدمه إلى المدينة ، معاهدة تعايش مع اليهود ؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة . .

ولكنهم لم يفوا بهذا العهد - شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل ، حتى قال الله فيهم:(ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون . أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام ، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج ، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ﷺ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط !

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية ، وأفادتها من قرون السبي في بابل ، والعبودية في مصر ، والذل في الدولة الرومانية . ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول .

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة ؛ وراحوا يجمعون القبائل المتفرقةلحرب الجماعة المسلمة: (ويقولون للذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

ولما غلبهم الاسلام بقوة الحق - يوم أن كان الناس مسلمين - استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه - لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه سبحانه - ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين ، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار . ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في انحاء الأرض . . حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الارض ؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة ، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين !

وصدق الله العظيم: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) . .

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة ؛ وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم ؛ وبين قريش في مكة ، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة . . يهودي . .

والذي ألب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات ، في فتنة مقتل عثمان – رضي الله عنه – وما تلاها من النكبات . . يهودي . .

والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ وفي الروايات والسير . . يهودي . .

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ؛ ووراء الانقلابات التي ابتـدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال "الدستور" بها في عهد السلطان عبدالحميد ، ثم انتـهت بإلغـاء الخلافة جملة على يدي "البطل" أتاتورك . .

يهودي . .

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان علـى وجـه الأرض وراءه يهود !

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية . .

يهودي . .

ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودي . .

ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود !

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا ، وأعرض مجالا ، من تلك التي شـنها عليه المشركون والوثنيون – على ضراوتها – قديما وحديثا . .

إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها . .

وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول . وأما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بـين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالميـة . . [الـتي تعـد الماركسية مجرد فرع لها] وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية ، التي سنتعرض لها في الفقرة التالية .

فإذا سمعنا الله – سبحانه – يقول: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) . . ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا . . ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي ، فإننا ندرك طرفا مـن حكمة الله في تقديم اليهود الذين أشركوا !

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة ، التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وعلى نـبي الإسـلام ، فيحذر الله نبيه وأهل دينه منها . . ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يـوم أن كانوا أهله ! . .

ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه . . (الظلال)

---

٣. حريصون على إضلالنا :

قال تعالى عنهم :* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* (٢١٧) سورة البقرة

إن المسلمين لم يبدأوا القتال ، و لم يبدأوا العدوان . إنما هم المشركون . هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله ، والكفر به وبالمسجد الحرام . لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . ولقد كفروا بالمسجد الحرام . انتهكوا حرمته ؛ فآذوا المسلمين فيه ، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة . وأخرجوا أهله منه ، وهو الحرم الذي جعله الله آمنا ، فلم يأخذوا بحرمته و لم يحترموا قدسيته . .

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . . وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام . ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات ؛ الذي يتخذون منها ستارا حين يريدون ، وينتهكون قداستها حين يريدون ! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم ، لأنهم عادون باغون أشرار ، لا يرقبون حرمة ، ولا يتحرجون أمام قداسة . وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة !

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل . وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه ، لتشويه موقف الجماعة المسلمة ، وإظهارها بمظهر المعتدي . . وهم المعتدون ابتداء . وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء .

إن الإسلام منهج واقعي للحياة ، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية . إنه يواجه الحياة البشرية - كما هي - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية . يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد . يواجهها بحلول عملية تكافىء واقعياتها ، ولا ترفرف في خيال حالم ، ورؤى مجنحة:

لا تجدي على واقع الحياة شيئا

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون . لا يقيمون للمقدسات وزنا ، ولا يتحرجون أمام الحرمات ، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة . يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام ! . .

ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام ، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات ، ويرفعون أصواتهم:انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام !

فكيف يواجههم الإسلام ؟

يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة ؟

إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح ، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح ، ولا يتورعون عن سلاح . . !

كلا إن الإسلام لا يصنع هذا ، لأنه يريد مواجهة الواقع ، لدفعه ورفعه . يريد أن يزيل البغي والشر ، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال . ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة ، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة . ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة ، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة !

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات ، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه . ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ، ويؤذون الطيبين ، ويقتلون الصالحين ، ويفتنون المؤمنين ، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان ! وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد . .

إنه يحرم الغيبة . . ولكن لا غيبة لفاسق .

. فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه . وهو يحرم الجهر بالسوء من القول . ولكنه يستثني (إلا من ظلم) . . فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول ، لأنه حق . ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه !

ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلا مستوى الأشرار البغاة . ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة . . إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم ، وإلى قتالهم وقتلهم ، وإلى تطهير جو الحياة منهم . . هكذا جهرة وفي وضح النهار . .

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة ، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات . . حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله .

هذا هو الإسلام . . صريحا واضحا قويا دامغا ، لا يلف ولا يدور ؛ ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور .

وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة ، لا تتأرجح فيها أقدامهم ، وهم يمضون في سبيل الله ، لتطهير الأرض من الشر والفساد ، ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس . .

هذا شر وفساد وبغي وباطل . .

فلا حرمة له إذن ، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات ، ليضرب من ورائها الحرمات !

وعلى المسلمين أن يمضوا في طريقهم في يقين وثقة ؛ في سلام مع ضمائرهم ، وفي سلام من الله . .

ويمضي السياق بعد بيان هذه الحقيقة ، وتمكين هذه القاعدة ، وإقرار قلوب المسلمين وأقـدامهم . . يمضي فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم ، وأصالة العدوان في نيتهم وخطتهم:

(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) . .

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر ؛ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم ؛ بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم . وهو الهدف الذي لا يتغير لأعـداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل . .

إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ؛ ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم . فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل ، ويرهبه كل باغ ، ويكرهه كل مفسد . إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج ، ومن منهج قويم ، ومن نظام سليم . .

إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد . ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون .ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه ، ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة . ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين ، وتتبع هذا المنهج ، وتعيش بهذا النظام .

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ، ولكن الهدف يظل ثابتا . . أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا . وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها . .

والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبهها إلى الخطر ؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب ، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة ؛ والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر:

ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . .

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت . .

والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل ، فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوي . .

يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره ، وهلاكه في النهاية وبواره . .

مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ ّ !

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه ؛ تحت مطارق الأذى والفتنة – مهما بلغت – هذا مصـــيره الذي قرره الله له . . حبوط العمل في الدنيا والآخرة . ثم ملازمة العذاب في النار خلودا .

إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه ، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا . إلا إذا فسد فسادا لا صلاح له . وهذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذي يتجاوز الطاقة . فـــالله رحـــيم . رخـــص للمسلم – حين يتجاوز العذاب طاقته – أن يقي نفسه بالتظاهر ، مع بقاء قلبه ثابتا علـــى الإســـلام مطمئنا بالإيمان . ولكنه لم يرخص له في الكفر الحقيقي ، وفي الارتداد الحقيقي ، بحيث يموت وهـــو كافر . .

والعياذ بالله . .

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان . .

ليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه ، ويرتد عن إيمانه وإسلامه ، ويرجـــع عن الحق الذي ذاقه وعرفه . .

وهناك المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن الله . والله لا يترك عباده الذين يؤمنـــون بـــه ، ويصبرون على الأذى في سبيله . فهو معوضهم خيرا:إحدى الحسنيين:

النصر أو الشهادة . وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله ؛ لا ييئس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم) . . ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدا . . ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق ، فجاهدوا وصبروا ، حتى حقق الله لهم وعـــده بالنصـــر أو الشـــهادة . وكلاهما خير . وكلاهما رحمة . وفازوا بمغفرة الله ورحمته: (والله غفور رحيم) . . وهو هو طريـــق المؤمنين . .

---

٤. حريصون على كفرنا :

قال تعالى :* وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَـــاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِـــيرًا* (٨٩) سورة النساء

إنهم قد كفروا . . على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون ، ونطقوا بالشهادتين نطقا يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين . .

وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد . فالذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجـــود المؤمنين . ولا بد له من عمل وسعي ، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر . ليكونـــوا كلهم سواء .

هذا هو الإيضاح الأول لحقيقة موقف أولئك المنافقين . . وهو يحمل البيان الذي يرفـــع التميـــع في تصور الإيمان ؛ ويقيمه على أساس واضح من القول والعمل متطابقين . وإلا فـــلا عـــبرة بكلمـــات اللسان ، وحولها هذه القرائن التي تشهد بالكذب والنفاق:

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية مفزعة لهم ، وهو يقول لهم: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) . .

فقد كانوا حديثي عهد بتذوق حلاوة الإيمان بعد مرارة الكفر . وبالنقلة الضخمة الـــتي يجـــدونها في أنفسهم ، بين مشاعرهم ومستواهم ومجتمعهم في الجاهلية . .

ثم في الإسلام . وكان الفرق واضحا بارزا في مشاعرهم وفي واقعهم ، تكفي الإشارة إليه لاســـتثارة عداوتهم كلها لمن يريد أن يردهم إلى ذلك السفح الهابط – سفح الجاهلية – الـــذي الـــتقطهم منـــه الإسلام ؛ فسار بهم صعدا في المرتقى الصاعد ، نحو القمة السامقة .

ومن ثم يتكىء المنهج القرآني على هذه الحقيقة ؛ فيوجه إليهم الأمر في لحظة التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء: فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في ســـبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرًا . .

ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم . . أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة – وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضا – وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب ؛ ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها . كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته .

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة ، أو روابط الدم والقرابة . أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة ، أو روابط المصالح الاقتصادية في التجارة وغير التجارة . . إنما تقوم الأمة على العقيدة ؛ وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة .

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام ، وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب . . ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول . .

لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المســـلم – أي إلى الأمة المسلمة – حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله . من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أي هـــدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر . . بهذه النصـــاعة . وبهذا الحسم . وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى ، أو مصـــالح أخـــرى ، أو أهداف أخرى . .

فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم . .

في دار الحرب . . وهاجروا إلى دار الإسلام ، ليعيشوا بالنظام الإسلامي ، المنبثق من العقيدة الإسلامية ، القائم على الشريعة الإسلامية . . إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم ، مواطنون في الأمة المسلمة . وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال:

فإن تولوا فخذوهم [أي أسرى] واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرًا .

وهذا الحكم – كما قلنا – هو الذي يرجح عندنا ، أنهم لم يكونوا هم منافقي المدينة . إذ قد اتبعت مع منافقي المدينة سياسة أخرى .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ؛ فلا يكرههم أبدا على اعتناق عقيدته . ولهم – حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته – أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام . في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين . فقد ورد في القرآن من استنكار مثل هذا الطعن من أهل الكتاب ما لا يدع مجالا للشك في أن الإسلام لا يدع غير المعتنقين له ممن يعيشون في ظله يطعنون فيه ويموهون حقائقه ويلبسون الحق بالباطل كما تقول بعض الآراء المائعة في زماننا هذا ! وحسب الإسلام أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته . وأنه يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ؛ وأنه يمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام ؛ وأنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارا نهارا في العقيدة . .

ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال . لا يتسامح مع من يقولون:إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله . ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية ، كالحاكمية والتشريع للناس ؛ فيصم أهل الكتاب بأنهم مشركون ، لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . .

لا لأنهم عبدوهم . ولكن لأنهم أحلوا لهم الحلال ، وحرموا عليهم الحرام فاتبعوهم !

ولا يتسامح هذا التسامح في وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون . لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . ثم بقوا في دار الكفر ، يناصرون أعداء المسلمين !

ذلك أن التسامح هنا ليس تسامحا . إنما هو تميع . والإسلام عقيدة التسامح . ولكنه ليس عقيدة "التميع" . إنه تصور جاد . ونظام جاد . والجد لا ينافي التسامح . ولكنه ينافي التميع .

وفي هذه اللفتات واللمسات من المنهج القرآني للجماعة المسلمة الأولى ، بيان ، وبلاغ . .

وقال تعالى : * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ* (٢) سورة الممتحنة

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل .

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى: (وودوا لو تكفرون) . .

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذي يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز . كنز الإيمان . ويرتد إلى الكفر ، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان !

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ، ويهتدي بنوره بعد الضلال ، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار . أو أشد . فعدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور .

لهذا يتدرج القرآن في تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم: (وودوا لو تكفرون) . .

وقال تعالى : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* (١٠٠) سورة آل عمران

لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشئ في الأرض طريقها على منهج الله وحده ، متميزة متفردة ظاهرة . لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج الله ؛ لتؤدي في حياة البشر دورا خاصا لا ينهض به سواها . لقد وجدت لإقرار منهج الله في الأرض ، وتحقيقه في صورة عملية ، ذات معالم منظورة ، تترجم فيها النصوص إلى حركات وأعمال ، ومشاعر وأخلاق ، وأوضاع وارتباطات .

وهي لا تحقق غاية وجودها ، ولا تستقيم على طريقها ، ولا تنشىء في الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة ، إلا إذا تلقت من الله وحده ، وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما تتلقاه من الله وحده . قيادة البشرية . .

لا التلقي من أحد من البشر ، ولا اتباع أحد من البشر ، ولا طاعة أحد من البشر . .

إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف . .

هذا ما يؤكده القرآن ويكرره في شتى المناسبات . وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة . .

وهنا موضع من هذه المواضع ، مناسبته هي المناظرة مع أهل الكتاب ، ومواجهة كيدهم وتآمرهم على الجماعة المسلمة في المدينة . .

ولكنه ليس محدودا بحدود هذه المناسبة ، فهو التوجيه الدائم لهذه الأمة ، في كل جيل من أجيالها . لأنه هو قاعدة حياتها ، بل قاعدة وجودها .

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية . فكيف تتلقى إذن من الجاهلية التي جاءت لتبدلها ولتصلها بالله ، ولتقودها بمنهج الله ؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما وجودها إذن ، وليس لوجودها – في هذه الحال – من غاية ؟!

لقد وجدت للقيادة:قيادة التصور الصحيح . والاعتقاد الصحيح . والشعور الصحيح . والخلق الصحيح . والنظام الصحيح . والتنظيم الصحيح . .

وفي ظل هذه الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول ، وأن تتفتح ، وأن تتعرف إلى هذا الكون ، وأن تعرف أسراره ، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته . .

ولكن القيادة الأساسية التي تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله ، وتوجهه لخير البشر لا لتهديدهم بالخراب والدمار ، ولا لتسخيره في المآرب والشهوات . .

ينبغي أن تكون للإيمان ، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة ، مهتدية فيها بتوجيه الله . لا بتوجيه أحد من عبيد الله .

وهنا في هذا الدرس يحذر الأمة المسلمة من اتباع غيرها ، ويبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها . ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب ، وإلا فسيقودونها إلى الكفر لا مناص .

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) . .

إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة . كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعدا في طريق النماء والارتقاء . وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس ، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب .

هذا من جانب المسلمين . فأما من الجانب الآخر ، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها . فهذه العقيدة هي صخرة النجاة ؛ وخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة . وأعداؤه يعرفون هذا جيدا . يعرفونه قديما ويعرفونه حديثا ، ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة ، ومن قوة كذلك وعدة . وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين . وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم ، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، أو ممن ينتسبون – زورا – للإسلام ، جنودا مجندة ، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار ، ولتصد الناس عنها ، ولتزين لهم مناهج غير منهجها ، وأوضاعا غير أوضاعها ، وقيادة غير قيادتها . .

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعا واتباعا ، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله في سبيل الغاية التي تؤرقهم ، وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال .

ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) . .

وما كان يفزع المسلم – حينذاك – ما يفزعه أن يرى نفسه منتكسا إلى الكفر بعد الإيمان . وراجعا إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة . وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطا يلهب الضمير ، ويوقظه بشدة لصوت النذير . . ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير . .

فيا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ورسوله فيهم . ودواعي الإيمان حاضرة ، والدعوة إلى الإيمان قائمة ، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور: (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟)

أجل . إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن في ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان . .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد استوفى أجله ، واختار الرفيق الأعلى ، فإن آيات الله باقية ، وهدى رسوله ﷺ باق . .

ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون ، وطريق العصمة بين ، ولواء العصمة مرفوع: (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) . .

أجل . إنه الاعتصام بالله يعصم . والله سبحانه باق . وهو – سبحانه – الحي القيوم .

ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه – رضوان الله عليهم – في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج ، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة ، كشؤون الزرع ، وخطط القتال ، وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي ، ولا بالنظام الاجتماعي ، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان . .

وفرق بين هذا وذلك بين . فمنهج الحياة شيء ، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر . والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة . .

وفي مسند أحمد (١٦٢٨٣)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى النَّبِيِّ – ﷺ – فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّى مَرَرْتُ بِأَخٍ لِى مِنْ بَنِى قُرَيْظَةَ، فَكَتَبَ لِى جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ لأَعْرِضُهَا عَلَيْكَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ، يعني بن ثابت: فَقُلْتُ: أَلاَ تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ – ﷺ – رَسُولاً، قَالَ:

فَسُرِّىَ عَنِ النَّبىِّ – ﷺ –، ثُمَّ قَالَ : "وَالَّذِى نَفْسِ محمد بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِى لَضَلَلْتُمْ، أنتم حَظِّى مِنَ الأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ.(حسن).

وفي غاية المقصد فى زوائد المسند(١٨٧)عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضى الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَىْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِى.(حسن)

وفي المعجم الكبير للطبراني (٩٦٤٣) عَنْ أَبِي الزَّعْرَاءِ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:"لا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ أَضَلُّوا أَنْفُسَهُمْ، إِمَّا يُحَدِّثُونَكُمْ بِصِدْقٍ فَتُكَذِّبُونَهُمْ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُمْ".(حسن موقوف)

هؤلاء هم أهل الكتاب . وهذا هو هدى رسول الله ﷺ في التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشريعة والمنهج . . ولا ضير – وفق روح الإسلام وتوجيهه – من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة ، علما وتطبيقا . . مع ربطها بالمنهج الإيماني:من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للإنسان . ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية ، وتوفير الأمن لها والرخاء . وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية . شكره بالعبادة ، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية . .

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنساني . وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضا . . أما التلقي في شيء من هذا كله ، فهو الذي تغير وجه رسول الله ﷺ لأيسر شيء منه . وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته . وهي الكفر الصراح . .

هذا هو توجيه الله – سبحانه – وهذا هو هدى رسوله ﷺ فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون ، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ﷺ عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين ! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء ، ومن الفلاسفة والمفكرين:الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان ! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة ! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن ، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين . . أي دين . .

ثم نزعم – والله – أننا مسلمون ! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح . فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ . حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون – مثلنا – أنهم مسلمون !

إن الإسلام منهج . وهو نهج ذو خصائص متميزة:من ناحية التصور الاعتقادي ، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها . ومن ناحية القواعد الأخلاقية ، التي تقوم عليها هذه الارتباطات ،

ولا تفارقها ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها . فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية . ومما يتناقض مع طبيعة القيادة – كما أسلفنا – أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي . .

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء . ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغدا . بل الأمر اليوم الزم ، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني . وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي ، الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى .

لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية . وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق – بالنسبة للماضي – وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة . .

ولكن ما أثر هذا كله في حياتها ؟ ما أثره في حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف . .

والأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق ! . .

إنها لم تتقدم كذلك في تصور غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية . .

وحين تقاس غاية الوجودالإنساني وأهداف الحياة الإنسانية في ذهن الرجل المتحضر المعاصر ، إلى التصور الإسلامي في هذا الجانب ، تبدو هذه الحضارة في غاية القزامة ! بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه في هذا الوجود ، وتسفل به ، وتصغر من اهتماماته ومن أشواقه ! . .

والخواء يأكل قلب البشرية المكدود ، والحيرة تهد روحها المتعبة . .

إنها لا تجد الله . . لقد أبعدتها عنه ملابسات نكدة . والعلم الذي كان من شأنه ، لو سار تحت منهج الله ، أن يجعل من كل انتصار للبشرية في ميدانه خطوة تقربها من الله ، هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواطا بسبب انطماس روحها ونكستها . .

إنها لا تجد النور الذي يكشف لها غاية وجودها الحقيقية فتنطلق إليها مستعينة بهذا العلم الذي منحه الله لها ووهبها الاستعداد له . ولا تجد المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون ، وفطرتها وفطرة الكون ، وقانونها وناموس الكون . ولا تجد النظام الذي ينسق بين طاقاتها وقواها ، وآخرتها ودنياها ، وأفرادها وجماعاتها ، وواجباتها وحقوقها . .

تنسيقا طبيعيا شاملا مريحا . .

وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي . وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج "رجعية ! " ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ . . وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة ، كما يقود خطاها إلى النمو والرقي . . ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا

ندعو . إننا نرى واقع البشرية النكد ، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه . ونرى . نـــرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق ، والمرتقى الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع ؛ ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان ، ولكل معنى من معاني الإنسان !

وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج يتفرد ، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم . .

كيما يظل المنهج نظيفا سليما . إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى . والله أرحم بعبـــاده أن يدعهم لأعداء البشر ، الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك ! . .

وهذا ما أراد الله سبحانه أن يلقنه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم ؛ وما حرص رســـول الله ﷺ أن يعلمها إياه في تعليمه القويم . .

وقال تعالى : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَـى أَعْقَـابِكُمْ فَتَنقَلِبُـواْ خَاسِرِينَ* (١٤٩) سورة آل عمران

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ، ليثبطـوا عزائمهم ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخاوف القتال ، وعواقب الاشتباك مـع مشركي قريش وحلفائهم . .

وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب ، وخلخلة الصفوف ، وإشاعة عدم الثقة في القيـادة ؛ والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء ؛ وتـزيين الانسـحاب منـها ، ومسـالمة المنتصرين فيها !

مع إثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية ؛ وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعـة ، ثم لهـدم كيـان العقيدة ، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين !

ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة ، وليس فيها ربح ولا منفعة . فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر .

فالمؤمن إما أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل والمبطلين ، وإما أن يرتد على عقبيه كافرا – والعياذ بالله – ومحال أن يقف سلبيا بين بين ، محافظا على موقفه ، ومحتفظا بدينه . . إنه قد يخيل إليه هذا . .

يخيل إليه في أعقاب الهزيمة ، وتحت وطأة الجرح والقرح ، أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مـع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم ، وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه ! وهو وهم كبير . فالذي لا يتحرك إلى الإمام في هذا المجال لا بد أن يرتد إلى الوراء ، والذي لا يكافح الكفـر

والشر والضلال والباطل والطغيان ، لا بد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفــر والشــر والضلال والباطل والطغيان !

والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين ، والاستماع إليهم ، والثقة بهم يتنازل – في الحقيقة – عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى . .

إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته ، وأن يستمع إلى وسوســتهم ، وأن يطيع توجيهاتهم . .

الهزيمة بادىء ذي بدء . فلا عاصم له من الهزيمة في النهاية ، والارتداد على عقبيه إلى الكفر ، ولو لم يحس في خطواته الأولى أنه في طريقه إلى هذا المصير البائس . .

إن المؤمن يجد في عقيدته ، وفي قيادته ، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته . فإذا اســتمع إلى هؤلاء مرة فقد سار في طريق الارتداد على الأعقاب . .

حقيقة فطرية وحقيقة واقعية ، ينبه الله المؤمنين لها ، ويحذرهم إياها ، وهو يناديهم باسم الإيمان:

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) . .

وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب ، من الإيمان إلى الكفر ؟ وأي ربح يتحقــق بعــد خسارة الإيمان ؟

وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم ، فهو وهم ، يضــرب السياق صفحا عنه ، ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية: (بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين) .

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية ، ويطلبون عندها النصرة . ومن كان الله مــولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟

ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد ؟

---

٥. حريصون على فتنتنا :

قال تعالى عنهم :* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِــنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَــزَاء الْكَافِرِينَ* (١٩١) سورة البقرة

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية . ومن ثم فهي أشد من القتل . أشد مــن قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة . ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي ، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه . وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعلــيم

الإلحاد ، ويسن تشريعات تبيح المحرمات كالزنا والخمر ، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه ؛ بينما يقبح لهم اتباع الفضائل المشروعة في منهج الله . ويجعل من هذه الأوضاع فروضا حتمية لا يملك الناس التفلت منها .

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة ، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية . . هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام ، ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني . فغاية الوجود الإنساني هي العبادة [ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله] . وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد . فالذي يسلبه هذه الحرية ، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة ، يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته . ومن ثم يدفعه بالقتل . .

لذلك لم يقل:وقاتلوهم . إنما قال:(واقتلوهم) . . (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) . . أي حيث وجدتموهم .

في أية حالة كانوا عليها ؛ وبأية وسيلة تملكونها - مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار .

ولا قتال عند المسجد الحرام ، الذي كتب الله له الأمن ، وجعل جواره آمنا استجابة لدعوة خليله إبراهيم [عليه السلام] وجعله مثابة يثوب إليها الناس فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام . . لا قتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته ، فيبدأون بقتال المسلمين عنده . وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم . .

فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين ، الذين يفتنون الناس عن دينهم ، ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام ، الذي عاشوا في جواره آمنين .

(فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) . .

والانتهاء الذي يستأهل غفران الله ورحمته ، هو الانتهاء عن الكفر ، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين . فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون . ولكنه لا يؤهل لمغفرة الله ورحمته . فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان ، لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان .

وما أعظم الإسلام ، وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة ، ويسقط عنهم القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم ، الذي قتلوا منه وفتنوا ، وفعلو بأهله الأفاعيل !!!

وغاية القتال هي ضمانة ألا يفتن الناس عن دين الله ، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام ، وتسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات . وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ، ويهابه أعداؤه ، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة ، ولا

يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحق به الأذى والفتنة . . والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة ؛ وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . .

وإذا كان النص – عند نزوله – يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة ، وهي التي كانت تفتن الناس ، وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها في أمان . والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ؛ وتطلق الناس أحرارا من قهرها ، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله .

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة ، بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل . . هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام ؛ وينشيء مبدأ عظيما يعني في حقيقته ميلادا جديدا للإنسان على يد الإسلام . ميلادا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته ، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة ، فترجح كفة العقيدة . كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء "الإنسان" . . إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه ، ويؤذون مسلما بسبب إسلامه . أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله . . وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم ، وأن تقتلهم حيث وجدتهم (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) . .

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائما . وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى العصور . .

وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان . .

وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور ، وفي أي شكل من الأشكال ، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل ؛ وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام ، فكان ميلادا جديدا للإنسان . .

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم ؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم ؛ فلا عدوان عليهم – أي لا مناجزة لهم – لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين: (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) . ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا من باب المشاكلة اللفظية . وإلا فهو العدل والقسط ودفع العدوان عن المظلومين .

---

٦. نقضهم العهود المواثيق :

قال تعالى عنهم : وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) سورة البقرة

لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله . . إنه الفسوق وانحراف الفطرة . فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات . وهي تفرض نفسها فرضا على القلب المستقيم . فإذا كفر بها اليهود - أو غيرهم - فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة ، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون .

ثم يلتفت إلى المسلمين - وإلى الناس عامة - منددا بهؤلاء اليهود ، كاشفا عن سمة من سماتهم الوبيئة . إنهم جماعة مفككة الأهواء - رغم تعصبها الذميم - فهم لا يجتمعون على رأي ، ولا يثبتون على عهد ، ولا يستمسكون بعروة . ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم ، يكرهون أن يمنح الله شيئا من فضله لسواهم ، إلا أنهم - مع هذا - لا يستمسكون بوحدة ، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض ، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تند منهم فرقة فتنقض ما أبرموا ، وتخرج على ما أجمعوا:

(أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون) . .

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل ، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد ، وأخيرا نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ﷺ أول مقدمه إلى المدينة ؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة ، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه ؛ وأول من عاب دينة ، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم ، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه . . وبئس هي من خلة في اليهود ! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض ، يعلنها رسول الله ﷺ في قوله " المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم " . .

يسعى بذمتهم أدناهم ، فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد ، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم ، ولقد كتب أبو عبيدة - رضي الله عنه - وهو قائد لجيش عمر - رضي الله عنه - وهو الخليفة يقول:إن عبدا أمن أهل بلد بالعراق . وسأله رأيه . فكتب إليه عمر:إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا . .

فوفوا لهم وانصرفوا عنهم . . وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة . وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين .

(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) . .

وكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه . فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخـذه الله عليهم ، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه ، وأن ينصروه ويحترموه . فلما جاءهم كتاب من عنـد الله مصدق لما معهم ، خاسوا بذلك العهد ، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم ، والذي يتضمن البشرى بهذا الـنبي وقـد نبـذوه ، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضا !

وفي الآية ما فيها من سخرية خفية ، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبـذوا كتاب الله وراء ظهورهم . فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهـورهم مفهوما !

ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب . هم الذين عرفوا الرسالات والرسل . هم الذين اتصلوا بالهـدى ورأوا النور . .

وماذا صنعوا ؟

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم !

والمقصود طبعا أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم . ولكـن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ؛ ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة ، تصور هذا التصرف تصويرا بشعا زريا ، ينضح بالكنود والجحود ، ويتسم بالغلظة والحماقة ، ويفيض بسوء الأدب والقحة ؛ ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة . حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور

وقال تعالى :* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* (٧٥) سورة آل عمران

ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين ، الذين لا يردون حقا - وإن صـغر - إلا بالمطالبـة والإلحاح والملازمة . ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم ، بالكذب على الله عن علم وقصد:

(ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . ذلك بأنهم قـالوا:ليس علينـا في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) . .

وهذه بالذات صفة يهود . فهم الذين يقولون هذا القول ؛ ويجعلون للأخلاق مقـاييس متعـددة . فالأمانة بين اليهودي واليهودي . أما غير اليهود ويسموهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب [وهـم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود] فلا حرج على اليهـودي في أكـل أمـوالهم ، وغشـهم وخداعهم ، والتدليس عليهم ، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم !

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا . وهم يعلمون أن هذا كذب . وأن الله لا يأمر بالفحشاء . ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتا وبهتانا ، وألا يرعوا معهم عهدا ولا ذمة ، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم . ولكنها يهود ! يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديدنا ودينا: (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) . .

هنا نجد القرآن الكريم يقرر قاعدته الخلقية الواحدة ، وميزانه الخلقي الواحد . ويربط نظرته هذه بالله وتقواه: (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم . ولهم عذاب أليم) . .

فهي قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعورا بتقواه أحبه الله وأكرمه . ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمنا قليلا – من عرض هذه الحياة الدنيا أو بالدنيا كلها وهي متاع قليل – فلا نصيب له في الآخرة . ولا رعاية له عند الله ولا قبول ، ولا زكاة له ولا طهارة . وإنما هو العذاب الأليم .

ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى . ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق . فليس هو مسألة مصلحة . إنما هو مسألة تعامل مع الله أبدا . دونما نظر إلى من يتعامل معهم .

وهذه هي نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . في الوفاء بالعهد وفي سواه من الأخلاق:التعامل هو أولا تعامل مع الله ، يلحظ فيه جناب الله ، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه . فالباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة ؛ وليس هو عرف الجماعة ، ولا مقتضيات ظروفها القائمة . فإن الجماعة قد تضل وتنحرف ، وتروج فيها المقاييس الباطلة . فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء . ولا بد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى . .

أعلى من اصطلاح الناس ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة . .

ومن ثم ينبغي أن تستمد القيم والمقاييس من الله ؛ بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه . .

بهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من الأرض ؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السامق الوضيء .

ومن ثم يجعل الذين يخيسون بالعهد ويغدرون بالأمانة . .

(يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا) . . فالعلاقة في هذا بينهم وبين الله قبل أن تكون بينهم وبين الناس . . ومن هنا فلا نصيب لهم في الآخرة عنده ، أن كانوا يبغون بالغدر والنكث بالعهد ثمنا قليلا هو هذه المصالح الدنيوية الزهيدة !

ولا رعاية لهم من الله في الآخرة جزاء استهانتهم بعهده – وهو عهدهم مع الناس – في الدنيا .

وقال تعالى : * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * (٧) سورة التوبة

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون .

لما انتهى في مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين في الجزيرة ، وهي تعني إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعا . . بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر ، وبعضهم بعد انتهاء مدتهم . .

حيث يؤول الأمر بعد هذه الأحكام إلى حالتين اثنتين:توبة وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة – أي دخول في الإسلام وأداء لفرائضه – أو قتال وحصار وأسر وإرصاد . .

لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه أخذ في هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر – عن طريق الاستفهام الاستنكاري – أنه لا ينبغي ولا يجوز وليس من المستساغ أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . وهو استنكار للمبدأ في ذاته ؛ واستبعاد له من أساسه !

بقوله تعالى: (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) .

ولما كان هذا الاستنكار في هذه المجموعة التالية في السياق للمجموعة الأولى ، قد يفهم منه نسخ ما كان قد تقرر في المجموعة الأولى من إمهال ذوي العهود الموفين بعهودهم الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا و لم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتهم . .

فقد عاد يقرر هذا الحكم مرة أخرى بقوله: (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين) . .

وجاءت في هذا التوكيد الجديد زيادة بيان . .

إذ كان الأمر الأول مطلقا بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم . .

فجاء هذا التوكيد يقيد هذا الإطلاق بأن هذا الوفاء مرهون باستقامتهم في المستقبل إلى نهاية المدة كذلك كما استقاموا في الماضي . وهي دقة بالغة في صياغة النصوص في هذه العلاقات والمعاملات ، وعدم الاكتفاء بالمفهومات الضمنية ، وإتباعها بالمنطوقات القطعية .

ونظرا لما أسلفنا بيانه في مقدمات السورة ومقدمات هذا المقطع منها ، من الظواهر والأعراض والاعتبارات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومئذ تجاه هذه الخطوة الحاسمة الخطيرة ، فقد أخذ

السياق يثير في نفوس المسلمين ما يدفع عنهم التردد والتحرج والتهيب ، بإطلاعهم على حقيقة حال المشركين ومشاعرهم ونواياهم تجاه المسلين ، وأنهم لا يرعون فيهم عهدا ، ولا يتحرجون فيهم من شيء ولا يتذممون ، وأنهم لا يفون بعهد ، ولا يرتبطون بوعد ؛ وأنهم لا يكفون عن الاعتداء متى قدروا عليه . وأن لا سبيل لمهادنتهم أو ائتمانهم ما لم يدخلوا فيما دخل فيه المسلمون .

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟) . .

إن المشركين لا يدينون لله بالعبودية خالصة ، وهم كذلك لا يعترفون برسالة رسوله . فكيف يجوز أن يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله ؟ إنهم لا يواجهون بالإنكار والجحود عبدا مثلهم ، ولا منهجا من مناهج العبيد من أمثالهم . إنما هم يواجهون بالجحود خالقهم ورازقهم ؛ وهم يحادون الله ورسوله بهذا الجحود إبتداء . .

فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ؟

هذه هي القضية التي يثيرها هذا السؤال الاستنكارى . .

وهي قضية تنصب على مبدأ التعاهد ذاته ؛ لا على حالة معينة من حالاته . .

وقد يستشكل على هذا بأنه كانت للمشركين عهود فعلا ؛ وبعض هذه العهود أمر الله بالوفاء بها . وأنه قد وقعت عهود سابقة منذ قيام الدولة المسلمة في المدينة . عهود مع اليهود وعهود مع المشركين . وأنه وقع عهد الحديبية في السنة السادسة للهجرة . وأن النصوص القرآنية في سور سابقة كانت تجيز هذه العهود ؛ وإن كانت تجيز نبذها عند خوف الخيانة . . فإذا كان مبدأ التعاهد مع المشركين هو الذي يرد عليه الإنكار هنا ، فكيف إذن أبيحت تلك العهود وقامت حتى نزل هذا الاستنكار الأخير لمبدأ التعاهد ؟!

وهذا الاستشكال لا معنى له في ظل الفهم الصحيح لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي الذي أسلفنا الحديث عنه في مطالع هذه السورة وفي مطالع سورة الأنفال قبلها . .

لقد كانت تلك المعاهدات مواجهة للواقع في حينه بوسائل مكافئة له ؛ أما الحكم النهائي فهو أنه لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . .

كانت أحكاما مرحلية في طريق الحركة الإسلامية التي تستهدف ابتداء ألا يكون في الأرض شرك بالله ؛ وأن تكون الدينونة لله وحده . .

ولقد أعلن الإسلام هدفه هذا منذ أول يوم و لم يخدع عنه أحدا . فإذا كانت الظروف الواقعية تقضي بأن يدع من يسالمونه ابتداء من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه ؛ وأن يوادع من يريدون موادعته في فترة من الفترات . وأن يعاهد من يريدون معاهدته في مرحلة من المراحل . فإنه لا يغفل لحظة عن هدفهالنهائي الأخير ؛ كما أنه لا يغفل عن أن هذه الموادعات والمعاهدات من جانب بعض المشركين

موقوتة من جانبهم هم أنفسهم . وأنهم لابد مهاجموه ومحاربوه ذات يوم ؛ وأنهم لن يتركـوه وهـم يستيقنون من هدفه ؛ ولن يأمنوه على أنفسهم إلا ريثما يستعدون له ويستديرون لمواجهته . .
ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) . .

وهي قولة الأبد التي لا تتخصص بزمن ولا بيئة ! وقولة الحق التي لا تتعلق بظرف ولا حالة !
ومع استنكار الأصل ، فقد أذن الله – سبحانه – بإتمام عهود ذوي العهود . الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا و لم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتها ، مع اشتراط أن تكون الاستقامة على العهد – في هذه المدة – من المسلمين مقيدة باستقامة ذوي العهود عليها: (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين) .
وهؤلاء الذين تشير الآية إلى معاهدتهم عند المسجد الحرام ليسوا طائفة أخرى غير التي ورد ذكرها من قبل في قوله تعالى:(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا و لم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين) . .
كما فهم بعض المفسرين المحدثين . . فهي طائفة واحدة ذكرت أول مرة بمناسبة عموم البراءة وإطلاقها ، لاستثنائها من هذا العموم . وذكرت مرة ثانية بمناسبة استنكار مبدأ التعاهد ذاته مع المشركين مخافة أن يظن أن هذا الحكم المطلق فيه نسخ للحكم الأول . .
وذكرت التقوى وحب الله للمتقين هنا وهناك بنصها للدلالة على أن الموضوع واحد . كما أن النص الثاني مكمل للشروط المذكورة في النص الأول . ففي الأول اشتراط استقامتهم في الماضي ، وفي الثاني اشتراط استقامتهم في المستقبل . وهي دقة بالغة في صياغة النصوص – كما أسلفنا – لا تلحظ إلا بضم النصين الواردين في الموضوع الواحد ، كما هو ظاهر ومتعين .
ثم يعود لاستنكار مبدأ التعاهد بأسبابه التاريخية والواقعية ؛ بعد استنكاره بأسبابه العقيدية والإيمانية ؛ ويجمع بين هذه وتلك في الآيات التالية: (كيف ؟ وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون) . .
كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، وهم لا يعاهدونكم إلا في حال عجزهم عن التغلب عليكم . ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم ، وفي غير ذمة يرعونها لكم ؛ أو في غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم ! فهم لا يرعون عهدا ، ولا يقفون كذلك عند حد في التنكيل بكم ؛ ولا حتى الحدود المتعارف عليها في البيئة والتي يذمون لو تجاوزوها . فهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد في التنكيل بكم

، لو أنهم قدروا عليكم . مهما يكن بينكم وبينهم من عهود قائمة . فليس الذي يمنعهم من أي فعل شائن معكم أن تكون بينكم وبينهم عهود ؛ إنما يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم ! . .

وإذا كانوا اليوم – وأنتم أقوياء – يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد . فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد ؛ وتأبى أن تقيم على العهد ؛ فما بهم من وفاء لكم ولا ود !

(وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله . إنهم ساء ما كانوا يعملون) .

وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم ، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم ، والانطلاق في التنكيل بكم – لو قدروا – من كل تحرج ومن كل تذمم . .

إنه الفسوق عن دين الله ، والخروج عن هداه ، فلقد آثروا على آيات الله التي جاءتهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته . وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم ؛ أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم !

فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله . صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم [فسيجيء أنهم أئمة الكفر] . . أما فعلهم هذا فهو الفعل السيء الذي يقرر الله سوءه الأصيل:

(إنهم ساء ما كانوا يعملون !) . .

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ؛ ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم . . إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ؛ ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم . . إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها . . للإيمان ذاته . . كما هو المعهود في كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين ، على مدار التاريخ والقرون . .

فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل: (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) . . وكذلك قال رسول الله ﷺ لأهل الكتاب بتوجيه من ربه: (قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ؟) وقال سبحانه عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين:(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) . فالإيمان هو سبب النقمة ، ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ، ولا يراعون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر:

لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . .

فصفة الاعتداء أصيلة فيهم . .

تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه ؛ وتنتهي بالوقوف في وجهه ؛ وتربصهم بالمؤمنين ؛ وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة ؛ إذا هم ظهروا عليهم ؛ وأمنوا بأسهم وقوتهم . وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم ، ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم . .

وهم آمنون . . !

ثم يبين الله كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) . .

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم ؛ ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك . لا يقعدهم عهد معقود ، ولا ذمة مرعية ، ولا تحرج من مذمة ، ولا إبقاء على صلة . .

ووراء هذا التقرير تاريخ طويل ، يشهد كله بأن هذا هو الخط الأصيل الذي لا ينحرف إلا لطارئ زائل ، ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم !

هذا التاريخ الطويل من الواقع العملي ؛ بالإضافة الى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذي يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده ، وبين مناهج الجاهلية التي تعبد الناس للعبيد .

يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيه من الله سبحانه ، بهذا الحسم الصريح: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) . .

(وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) . .

فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون ، وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء . وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين ؛ وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة ، ويصبح المسلمون الجدد إخوانا للمسلمين القدامى ؛ ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب !

(ونفصل الآيات لقوم يعلمون) . .

فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون وهم المؤمنين .

وإما نكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه ، وطعن في دين المسلمين . فهم إذن أئمة في الكفر ، لا أيمان لهم ولا عهود . وعندئذ يكون القتال لهم ؛ لعلهم حينئذ أن يثوبوا إلى الهدى . .

كما سبق أن قلنا:إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهاد قد ترد قلوبا كثيرة إلى الصواب ؛ وتريهم الحق الغالب فيعرفونه ؛ ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق ؛ ولأن وراءه قوة الله ؛ وأن رسول الله ﷺ صادق فيما أبلغهم من أن الله غالب هو ورسله . فيقودهم هذا كله إلى التوبة والهدى . لا كرها وقهرا ، ولكن اقتناعا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب . كما وقع وكما يقع في كثير من الأحايين .

وبعد . .

فما المدى الذي تعمل فيه هذه النصوص ؟

ما المدى التاريخي والبيئي ؟ أهي خاصة بأهل الجزيرة العربية في ذلك الزمان المحدد ؟ أم إن لها أبعادا أخرى في الزمان والمكان ؟

إن هذه النصوص كانت تواجه الواقع في الجزيرة العربية بين المعسكر الإسلامي ومعسكرات المشركين . وما من شك أن الأحكام الواردة بها مقصود بها هذا الواقع . وأن المشركين المعنيين فيها هم مشركوا الجزيرة . .

هذا حق في ذاته . .

ولكن ترى هذا هو المدى النهائي لهذه النصوص ؟

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين – على مدى التاريخ – من المؤمنين . ليتكشف لنا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية ؛ ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ:

فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة . ولعل في هذا الجزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة .

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى . ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائما هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة:

كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة !

يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . .

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين . فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة ؛ وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ . .

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ إنما ختم بهذه الرسالة . وأنموقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين الله على الإطلاق ؛ فإن أبعاد المعركة تترامى ؛ ويتجلى الموقف على حقيقته ؛ كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة ، على مدار التاريخ البشري كله بلا استثناء !

ماذا صنع المشركون مع نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وشعيب ، وموسى ، وعيسى ، عليهم صلوات الله وسلامه والمؤمنين بهم في زمانهم ؟

ثم ماذا صنع المشركون مع محمد ﷺ والمؤمنين به كذلك ؟ . .

إنهم لم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم . .

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار ؟
ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين في كل مكان ؟ . . .
إنهم لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة ، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد . .
عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ "البداية والنهاية " لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦هـ:

"ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان . ودخل كثير من الناس في الآبار ، وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون . وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقون عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار ، إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم ، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطحة ، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة - فإنا لله وإنا إليه راجعون - كذلك في المساجد والجوامع والربط . ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم ، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي ، وطائفة من التجار أخذوا أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم . وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ، ليس فيها إلا القليل من الناس ، بوقوعه:وهم في خوف وجوع وذلة وقلة . .

"وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة . فقيل ثمانمائة ألف . وقيل:ألف ألف . وقيل:بلغت القتلى ألفي ألف نفس - فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . - وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم . وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما . .

وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر ، وعفى قبره ، وكان عمره يومئذ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر . ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام . وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وله خمس وعشرون سنة . ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبدالرحمان وله ثلاث وعشرون سنة ، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم . .

"وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي ، وكان عدو الوزير ؛وقتل أولاده الثلاثة:عبدالله وعبدالرحمن وعبدالكريم ، وأكابر الدولة واحدا بعد واحد . منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك ، وشهاب الدين سليمان شاه ، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد . .

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس ، فيخرج بأولاده ونسائه ، فيذهب إلى مقبرة الخلال ، تجاه المنظرة ، فيذبح كما تذبح الشاة ، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه . . وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي ابن النيار . وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن . وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد . .

"ولما انقضى الأمر المقدر ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر ، فتغيرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون . فإنا لله وإنا إليه راجعون . .

"ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ؛ وقد أنكر بعضهم بعضا ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد . فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى . . " الخ الخ .

هذه صورة من الواقع التاريخي ، حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات ، اختص بها التتار في ذلك الزمان ؟ كلا !

إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة ّ ! . .

إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد . .

إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند – ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء – قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط !

أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق . .

طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية ، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق ، وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش ، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة ، لا تقل – إن لم تزد – على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد ! . . .

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان ، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف . .

ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى [ممر خيبر] . . وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار ! . .

لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة ، القطار في النفق . ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء ! . .

وصدق قول الله سبحانه: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) . .

وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى .

ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟ . . .

لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا . .

بمعدل مليون في السنة . . وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق . .

ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان . وفي هذا العام وقع في القطاع الصينيمن التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار . .

لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين ، فحفرت له حفرة في الطريق العام . وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب ، أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية [التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتسخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام !!!] فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته . . وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات !

كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها . حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم . وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي – التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء في "مفارم" اللحوم التي تصنع لحوم [البولوبيف] ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء – ماضية إلى الآن !!!

وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية . . الآن . . في هذا الزمان . . ويصدق قول الله سبحانه: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ؟) .(لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون) . .

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية . ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد . .

إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية ؛ حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ؛ ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله . في كل زمان وفي كل مكان .

ومن ثم فإن تلك النصوص – وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة ، وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة – إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان . لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما في كل زمان وفي كل مكان . والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في

مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية ، ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان . .

---

٧. يريدون منا اتباع الشهوات :

قال تعالى عنهم :* وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا* (٢٧) سورة النساء

وتكشف الآية الواحدة القصيرة عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله – وكل من يحيد عن منهج الله إنما يتبع الشهوات – فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام ، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال .

فماذا يريد الله بالناس ، حين يبين لهم منهجه ، ويشرع لهم سنته ؟ إنه يريد أن يتوب عليهم . يريد أن يهديهم . يريد أن يجنبهم المزالق . يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة

وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، و لم يشرعها لعباده ؟ إنهم يريدن لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم . وفي هذا الميدان الخاص الذي تواجهه الآيات السابقة:ميدان تنظيم الأسرة ؛ وتطهير المجتمع ؛ وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة ، التي يحب الله أن يلتقي عليها الرجال والنساء ؛ وتحريم ما عداها من الصور ، وتبشيعها وتقبيحها في القلوب والعيون . . في هذا الميدان الخاص ما الذي يريده الله وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات ؟

فأما ما يريده الله فقد بينته الآيات السابقة في السورة . وفيها إرادة التنظيم ، وإرادة التطهير ، وإرادة التيسير ، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال .

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال:ديني ، أو أخلاقي ، أو اجتماعي . .

يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح ، من أي لون كان . السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة !

كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية ، وهي - في هذا الوضع - ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة !

وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه ، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي ، الذي تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهي القويم النظيف . وهو ذاته ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البهيمي ، الذي لا عاصم منه ، إلا منهج الله ، حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله .

واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار .

---

٨. يريدون منا اتباع سبيلهم :

قال تعالى عنهم :* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) سورة العنكبوت

وقد كان الذين كفروا يقولون هذا تمشيا مع تصورهم القبلي في احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة . يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها . ذلك إلى التهكم على قصة الجزاء في الآخرة إطلاقا:

(اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) . . ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم ، فيرد كل إنسان إلى ربه فردا ، يؤاخذه بعمله ، لا يحمل أحد عنه شيئا: (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء) . .

ويجبهم بما في قولتهم هذه من كذب وادعاء: (إنهم لكاذبون) . .

ويحملهم وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم ، ووزر إضلالهم للآخرين . دون أن يعفي هؤلاء من تبعة الضلال: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) .

ويغلق هذا الباب من أبواب الفتنة ؛ فيعلم الناس أن الله لا يحاسبهم جماعات . إنما يحاسبهم أفرادا ، وأن كل امرئ بما كسب رهين . .

---

٩. حقدهم وحسدهم لنا :

قال تعالى عنهم :* مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ* (١٠٥) سورة البقرة

يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء ، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد ، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل . ليحذروا أعداءهم ، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان ، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يترل عليكم من خير من ربكم . والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم) . .

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر . . وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية ؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير . وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين . هو أن يختارهم الله لهذا الخير ويترل عليهم هذا القرآن ، ويحبوهم بهذه النعمة ، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض ، وهي الأمانة الكبرى في الوجود .

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن يترل الله من فضله على من يشاء من عباده ، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل – عليه السلام – إذ كان يترل بالوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم: (والله يختص برحمته من يشاء) . .

فالله أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فإذا اختص بها محمدا ﷺ والمؤمنين به ، فقد علم – سبحانه – أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص .

(والله ذو الفضل العظيم) . .

وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة ؛ وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه . وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل ، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد . .

وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها – ويقودها – اليهود ، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين ، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين !

وقال تعالى :*أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا* (٥٣) *أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا* (٥٤) سورة النساء

لقد كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، أولى الناس أن يتبعوا الكتاب ؛ وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى ؛ وأن يحكموا كتاب الله في حياتهم ، فلا يتبعوا الطاغوت – وهو كل شرع لم يأذن به الله ، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند – ولكن اليهود – الذين كانوا

يزكون أنفسهم ، ويتباهون بأنهم أحباء الله - كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله . وكانوا يؤمنون بالطاغوت ؛ وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة الله . . وهو طاغوت لما فيه من طغيان - بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية - وهي الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله ، تلزمه العدل والحق . فهو طغيان ، وهو طاغوت ؛ والمؤمنون به والمتبعون له ، مشركون أو كافرون . .

يعجب الله من أمرهم ، وقد أوتوا نصيبا من الكتاب ، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب !

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت ، موقفهم في صف المشركين الكفار ، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضا: ويقولون للذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا . .

قال ابن إسحاق . حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة - أو عن سعيد بن جبير - عن ابن عباس . قال:"كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة ، حيي بن أخطب ، وسلام بن الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن الحقيق ، وأبو عامر ، ووحوح بن عامر ، وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة ، فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير . . فلما قدموا على قريش قالوا:هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم:أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم . فقالوا:دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله - عز وجل -: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) . . .

إلى قوله عز وجل: (وآتيناهم ملكا عظيما) . . وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة . لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين . وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم . وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب ؛ حتى حفر النبي ﷺ وأصحابة حول المدينة الخندق ، وكفى الله شرهم (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا) .

وكان عجيبا أن يقول اليهود:

إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه ، وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ﷺ ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود . . إنه موقفهم دائما من الحق والباطل ، ومن أهل الحق وأهل الباطل . . إنهم ذوو أطماع لا تنتهي ، وذوو أهواء لا تعتدل ، وذوو أحقاد لا تزول !

وهم لا يجدون عند الحق وأهله عونا لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم . إنما يجدون العون والنصرة - دائما - عند الباطل وأهله . ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق ؛ ولأهل الباطل ضد أهل الحق !

هذه حال دائمة ، سببها كذلك قائم . . وكان طبيعيا منـهم ومنطقيا أن يقولوا عن الذين كفروا:هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا !

وهم يقولونها اليوم وغدا . إنهم يشوهون بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض ؛ ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها – بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته – لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها .

ولكنهم أحيانا – لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة ولملابسات العصر الحديث – قد لا يثنون ثناء مكشوفا على الباطل وأهله . بل يكتفون بتشويه الحق وأهله . ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه . ذلك أن ثناءهم المكشوف –

في هذا الزمان – أصبح متهما ، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين ، الذين يعملون لحسابهم ، في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان . .

بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحيانا ، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم ، الذين يسحقون لهم الحق وأهله . ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام . ليبعدوا الشبهة تماما عن أخلص حلفائهم ، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة !

ولكنهم لا يكفون أبدا عن تشويه الإسلام وأهله . .

لأن حقدهم على الإسلام ، وعلى كل شبح من بعيد لأى بعث إسلامي ، أضخم من أن يداروه . . ولو للخداع والتمويه !

إنها جبلة واحدة ، وخطة واحدة ، وغاية واحدة . .

هي التي من أجلها يجبههم الله باللعنة والطرد ، وفقدان النصير . والذي يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين: (أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) . .

ولقد يهولنا اليوم أن تجد دول الغرب كلها نصيرا لليهود . فنسأل:وأين وعد الله بأنه لعنهم ، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيرا ؟

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس . ليس هو الدول . ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ إنما الناصر الحق هو الله . القاهر فوق عباده:

ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ !

والله ناصر من ينصره . .

(ولينصرن الله من ينصره) والله معين من يؤمن به حق الإيمان ، ويتبع منهجه حق الاتباع ؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم . .

ولقد كان الله – سبحانه – يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به ، متبعة لمنهجه ، محتكمة إلى شريعته . وكان يهون من شأن عدوها – اليهود – وناصريهم . وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم – اليهود – لا نصير لهم . وقد حقق الله لهم وعده الذى لا يناله إلا المؤمنون حقا . والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم .

فلا يهولننا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود . فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين . .

فليست هذه هي النصرة . . ولكن كذلك لا يخدعننا هذا . فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! ويوم يكونون مسلمين!

وليحاول المسلمون أن يجربوا – مرة واحدة – أن يكونوا مسلمين . ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير . أو أن ينفعهم هذا النصير !

وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم ؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان . .

يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ﷺ والمسلمين ؛ وغيظهم من أن يمن الله عليهم هذه المنة . . منة الدين والنصر والتمكين . وحسدهم لهم على ما أعطاعهم الله من فضله . وهم لم يعطوهم من عندهم شيئا !

ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم ؛ واستكثار أى عطاء يناله غيرهم ؛ مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة ؛ و لم يمنعهم من الحسد والكنود:

(أم لهم نصيب من الملك ؟ فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ! أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما) . .

يا عجبا !

إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده . .

فهل هم شركاؤه – سبحانه ! – هل لهم نصيب في ملكه ، الذي يمنح منه ويفيض ؟ ولو كان لهم نصيب لضنوا – بكزازتهم وشحهم – أن يعطوا الناس نقيرا . .

والنقير النقرة تكون في ظهر النواة – وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس ، لو كان لها في الملك نصيب !

والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب . .

وإلا لهلك الناس جميعا وهم لا يعطون حتى النقير !!!

أم لعله حسد . . حسد رسول الله ﷺ والمسلمين على ما آتاهم الله من فضله . . من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلادا جديدا ، وجعل لهم وجودا إنسانيا متميزا ؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين ؛ كما وهبهم النظافة والطهر ، مع العز والتمكين ؟

وإنه فعلا للحسد من يهود . مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين . .

يوم أن لم يكن لهم دين . .

ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين في الأرض ؟ وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم . .

الذي آتاه الله وآله الكتاب والحكمة - وهي النبوة - وآتاهم الملك كذلك والسيادة . وهم لم يرعوا الفضل و لم يحتفظوا بالنعمة ، و لم يصونوا العهد القديم ، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين . ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون !

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه) .

إنه لمن ألأم الحسد:

أن يحسد ذو النعمة الموهوب !

لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة ! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة ، فهذا هو الشر الأصيل العميق !

شر يهود !

المتميز الفريد !

ومن ثم يكون التهديد بالسعير ، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير: (وكفى بجهنم سعيرا) . .

وقال تعالى :* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ* (٥٩) سورة المائدة

يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة التي يخوضها معهم ويخوضونها معه . إنها معركة العقيدة . فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه . .

وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أي شيء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله:(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل . وأن أكثركم فاسقون ؟ ؟) فهذه هي العقدة ؛ وهذه هي الدوافع الأصيلة !

وقيمة هذا المنهج ، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية فيه ، عظيمة . فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها . . أمران

مهمان سواء في تحقيق شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم ، أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة . .

فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلا ، ولا يكونون في ذواتهم شيئا ، ولا يحققون في واقع الأرض أمرا ما لم تتم في نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم ، وما لم يتمحض ولاؤهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به ، وما لم يعرفوا طبيعة أعدائهم وبواعثهم وطبيعة المعركة التي يخوضونها معهم ، وما لم يستيقنوا أنهم جميعا إلب عليهم ، وأن بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء .

والنصوص في هذا الدرس لا تقف عند كشف بواعث المعركة في نفوس أعداء الجماعة المسلمة . بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم ، ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه ، وليطمئن ضميره إلى المعركة التي يخوضها ، وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة ، وأنه لا مفر منها:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . .

بعضهم أولياء بعض) . .(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا – من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار – أولياء . واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . .

وإذا جاؤوكم قالوا:آمنا . وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ! : (وقالت اليهود:يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرًا) . .

ومن هذه صفاتهم ، ومواقفهم من الجماعة المسلمة ، وتألبهم عليها ، واستهزاؤهم بدينها وصلاتها ، لا مناص للمسلم من دفعهم وهو مطمئن الضمير . .

كذلك تقرر النصوص نهاية المعركة ونتيجتها ، وقيمة الإيمان في مصائر الجماعات في هذه الحياة الدنيا قبل الجزاء في الحياة الآخرة: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) . .

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) . .

كما تقرر صفة المسلم الذي يختاره الله لدينه ، ويمنحه هذا الفضل العظيم في اختياره لهذا الدور الكبير:(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) . .

وكل هذه التقريرات خطوات في المنهج ، وفي صياغة الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة على الأساس المتين .

وحين تتم النداءات الثلاثة للذين آمنوا ، يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ليواجه أهل الكتاب ، فيسألهم:ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة ؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله ، وما أنزل إلى أهل الكتاب ؛ وما أنزله الله للمسلمين بعد أهل الكتاب . . ؟ هل ينقمون إلا أن المسلمين يؤمنون ، وأنهم هم – أهل الكتاب – أكثرهم فاسقون ؟ وهي مواجهة مخجلة . ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق: (قل:يا أهل الكتاب ، هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون ؟ قل:هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . . أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل) .

إن هذا السؤال الذي وجه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب ، هو من ناحية سؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم ؛ وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصلاتها .

وهو من ناحية سؤال استنكاري ، لاستنكار هذا الواقع منهم ، واستنكار البواعث الدافعة عليه . . وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين ، وتنفير لهم من موالاة القوم ، وتقرير لما سبق في النداءات الثلاثة من نهي عن هذه الموالاة وتحذير .

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول ﷺ وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي – إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن ؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب . .

إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون ! لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى . ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم – لا ما ابتدعوه وحرفوه – ولا يؤمنون بالرسول الأخير ، وهو مصدق لما بين يديه ؛ معظم لرسل الله أجمعين .

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء ؛ التي لم تضع أوزارها قط ، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام ؛ منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة ؛ وتميزت لهم شخصية ؛ وأصبح لهم وجود مستقل ؛ ناشئ من دينهم المستقل ، وتصورهم المستقل ، ونظامهم المستقل ، في ظل منهج الله الفريد إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة لأنهم – قبل كل شيء – مسلمون ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم ؛ فيصبحوا غير مسلمين . .

ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين !

والله – سبحانه – يقرر هذه الحقيقة في صورة قاطعة ، وهو يقول لرسوله ﷺ في السورة الأخرى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) . . ويقول له في هذه السورة أن يواجه أهل الكتاب بحقيقة بواعثهم وركيزة موقفهم: (قل:يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ؛ وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟) . .

وهذه الحقيقة التي يقررها الله سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين ، هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها وإنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب ، وكثيرون ممن يسمون أنفسهم "مسلمين" . .

باسم تعاون "المتدينين" في وجه المادية والإلحاد كما يقولون !

أهل الكتاب يريدون اليوم تمييع هذه الحقيقة بل طمسها وتغطيتها ، لأنهم يريدون خداع سكان الوطن الإسلامي – أو الذي كان إسلاميا بتعبير أصح – وتخدير الوعي الذي كان قد بثه فيهم الإسلام بمنهجه الرباني القويم . ذلك أنه حين كان هذا الوعي سليما لم يستطع الاستعمار الصليبي أن يقف للمد الإسلامي ، فضلا على أن يستعمر الوطن الإسلامي . . ولم يكن بد لهؤلاء – بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة ، وفي حرب التبشير السافرة كذلك – أن يسلكوا طريق الخداع والتخدير ، فيتظاهروا ويشيعوا بين ورثة المسلمين ، أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت !

وأنها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعا !

ثم تنور العالم و"تقدم" فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة . .

وأنما الصراع اليوم على المادة !

على الموارد والأسواق والاستغلالات فحسب !

وإذن فما يجوز للمسلمين – أو ورثة المسلمين – أن يفكروا في الدين ولا في صراع الدين !

وحين يطمئن أهل الكتاب – وهم الذين يستعمرون أوطان المسلمين – إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير ؛وحين تتميع القضية في ضمائرهم ؛ فإن المستعمرين يأمنون غضبة المسلمين لله ؛ وللعقيدة . . الغضبة التي لم يقفوا لها يوما . .

ويصبح الأمر سهلا بعد التنويم والتخدير . . ولا يكسبون معركة العقيدة وحدها . بل يكسبون معها ما وراءها من الأسلاب والمغانم والاستثمارات والخامات ؛ ويغلبون في معركة "المادة " بعدما يغلبون في معركة "العقيدة " . . فهما قريب من قريب . .

وعملاء أهل الكتاب في الوطن الإسلامي ، ممن يقيمهم الاستعمار هنا وهناك علانية أو في خفية ، يقولون القول نفسه . .

لأنهم عملاء يؤدون الدور من داخل الحدود . . وهؤلاء يقولون عن "الحروب الصليبية " ذاتها:إنها لم تكن "صليبية " !!! ويقولون عن "المسلمين" الذين خاضوها تحت رايـــة العقيـــدة:إنهم لم يكونـــوا "مسلمين" وإنما هم كانوا "قوميين" !

وفريق ثالث مستغفل مخدوع ؛ يناديه أحفاد "الصليبين" في الغرب المستعمر:أن تعالوا إلينـــا . تعـــالوا نجتمع في ولاء ؛ لندفع عن "الدين" غائلة "الملحدين" ! فيستجيب هذا الفريق المستغفل المخـــدوع ؛ ناسيا أن أحفاد الصليبيين هؤلاء وقفوا في كل مرة مع الملحدين ؛ صفا واحدا ، حينما كانت المواجهة للمسلمين !

على مدار القرون !

وما يزالون !

وأنهم لا يعنيهم حرب المادية الإلحادية قدر ما تعنيهم حرب الإسلام ، ذلك أنهم يعرفـــون جيـــدا أن الإلحادية المادية عرض طارئ وعدو موقوت ؛ وأن الإسلام أصل ثابت وعدو مقـــيم ! وإنمـــا هـــذه الدعوة المموهة لتمييع اليقظة البادئة عند طلائع البعث الإسلامي ؛ وللانتفـــاع بجهـــد المســـتغفلين المخدوعين – في الوقت ذاته – ليكونوا وقود المعركة مع الملحدين لأنهم أعداء الاستعمار السياسيون !

وهؤلاء كهؤلاء حرب على الإسلام والمسلمين . .

حرب لا عدة فيها للمسلم إلا ذلك الوعي الذي يربيه عليه المنهج الرباني القويم . .

إن هؤلاء الذين تخدعهم اللعبة أو يتظاهرون بالتصديق ، فيحسبون أهل الكتاب جادين إذ يـــدعونهم للتضامن والولاء في دفع الإلحاد عن "الدين" إنما ينسون واقع التاريخ في أربعة عشر قرنا – لا استثناء فيها – كما ينسون تعليم ربهم لهم في هذا الأمر بالذات ، وهو تعليم لا مواربة فيه ، ولا مجال للحيدة عنه ، وفي النفس ثقة بالله ويقين بجدية ما يقول !

إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب ؛ وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك . ويغفلون التحذيرات الحاسمـــة عن موالاتهم ؛ والتقريرات الواعية عن بواعثهم ، والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإســـلامية ، وخطة التنظيم ، التي تحرم التناصر والموالاة ، لأن التناصر والموالاة لا يكونان عند المسلم إلا في شـــأن الدين وإقامة منهجه ونظامه في الحياة الواقعية ، وليست هناك قاعدة مشتركة يلتقي عليها المسلم مـــع أهل الكتاب في شأن دينه – مهما يكن هناك من تلاق في أصول هذه الأديان مع دينه قبل تحريفها – إذ هم لا ينقمون منه إلا هذا الدين ، ولا يرضون عنه إلا بترك هذا الدين . .

كما يقول رب العالمين . .

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين ؛ يجزئونه ويمزقونه ، فيأخذون منه ما يشاءون – مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض براءتها – ويدعون منه ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب !

ونحن نؤثر أن نسمع كلام الله ، في هذه القضية ، على أن نسمع كلام المخـــدوعين أو الخـــادعين !

وكلام الله – سبحانه – في هذه القضية حاسم واضح صريح مبين . .

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى – بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله ومـــا أنزل إلينا وما أنزل من قبل – أن بقية السبب: (وأن أكثركم فاسقون)

فهذا الفسق هو شطر الباعث ! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم . .

وهي قاعدة نفسية واقعية ؛ تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة . .

إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم . .

إن وجوده يشعره دائما بفسقه وانحرافه . إنه يتمثل له شاهدا قائما على فسقه هو وانحرافه . . ومن ثم يكرهه وينقم عليه . يكره استقامته وينقم منه التزامه ؛ ويسعى جاهدا لجره إلى طريقه ؛ أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده !

إنها قاعدة مطردة ، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة ، إلى موقـــف أهـــل الكتاب عامة من المسلمين عامة . إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة . .

والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار ، وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين ، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين . .

هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب . .

ولقد علم الله – سبحانه – أن الخير لا بد أن يلقى النقمة من الشر ، وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل ، وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفساق ، وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين .

وعلم الله – سبحانه – أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخـــوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف . وأنها معركة لا خيار فيها ، ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل . لأن الباطل سيهاجمه ، ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه . . وغفلة – أي غفلة – أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف ؛ وأنهم يملكون تجنب المعركة ؛ وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة !

وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة ؛ من أن يستسلموا للوهم والخديعة . .

وهم يومئذ مأكولون مأكولون !

ثم نمضي مع السياق القرآني في توجيه الله – سبحانه – لرسوله ﷺ لمواجهة أهل الكتاب ، بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين . . فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم ، وشأن لهم مع ربهم ، وعقاب أليم:

(قل:هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت . أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل !)

وهنا تطالعنا سحنة يهود ، وتاريخ يهود !

إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير . إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت . .

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم ؛ وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير . .

فأما قضية عبادتهم للطاغوت ، فتحتاج إلى بيان هنا ، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة في سياق هذه السورة . .

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدوان يتجاوز الحق . .

والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا ، وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى . .

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان ؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله . فسماهم الله عبادا لهم ؛ وسماهم مشركين . .

وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق . فهم عبدوا الطاغوت . .

أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها . .

وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع ، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة . وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله .

والله – سبحانه – يوجه رسوله ﷺ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ ، وبذلك الجزاء الذي استحقوه من الله على هذا التاريخ . . كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة . . يوجهه ليقول لهم:إن هذا شر عاقبة:.

(قل:هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) . .

أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين ، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم . وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه ، وحكمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل: (أولئك شر مكانا ، وأضل عن سواء السبيل) . .

---

١٠. ولأننا مأمورون بقتالهم :

قال تعالى عنهم :* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ* (١٩٣) سورة البقرة

إذا كان النص – عند نزوله – يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة ، وهي التي كانت تفتن الناس ، وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها في أمان . والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ؛ وتطلق الناس أحرارا من قهرها ، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله .

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة ، بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل . . هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام ؛ وينشئ مبدأ عظيما يعني في حقيقته ميلادا جديدا للإنسان على يد الإسلام . ميلادا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته ، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة ، فترجح كفة العقيدة . كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء "الإنسان" . . إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه ، ويؤذون مسلما بسبب إسلامه . أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله . .

وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم ، وأن تقتلهم حيث وجدتهم (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) . .

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائما . وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى العصور . .

وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان . .

وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور ، وفي أي شكل من الأشكال ، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل ؛ وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام ، فكان ميلادا جديدا للإنسان . .

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم ؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم ؛ فلا عدوان عليهم – أي لا مناجزة لهم – لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين: (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) .

ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا من باب المشاكلة اللفظية . وإلا فهو العدل والقسط ودفع العدوان عن المظلومين .

ثم يبين حكم القتال في الأشهر الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين) . .

فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام . وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان ؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام في الزمان . تصان فيها الدماء ، والحرمات والأموال ، ولا يمس فيها حي بسوء . فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها ، فجزاؤه أن يحرم هو منها . والذي ينتهك الحرمات لا تصان حرماته ، فالحرمات قصاص . .

ومع هذا فإن إباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع في حدود لا يعتدونها . فما تباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . .

بلا تجاوز ولا مغالاة . .

والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم . وقد كانوا يعلمون – كما تقدم – أنهم إنما ينصرون بعون الله . فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين . بعد أمرهم بالتقوى . .

وفي هذا الضمان كل الضمان . .

وقال تعالى :* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* (٣٩) سورة الأنفال

وهذه حدود الجهاد في سبيل الله في كل زمان ، لا في ذلك الزمان . .

ومع أن النصوص المتعلقة بالجهاد في هذه السورة ، وبقوانين الحرب والسلام ، ليست هي النصوص النهائية ، فقد نزلت النصوص الأخيرة في هذا الباب في سورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة ؛ ومع أن الإسلام – كما قلنا في تقديم السورة – حركة إيجابية تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة ، وأنه حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . .

ومع هذا فإن قوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . .

يقرر حكماً دائماً للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم . .

ولقد جاء الإسلام – كما سبق في التعريف بالسورة – ليكون إعلاناً عاماً لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين . . وأن معنى هذا الإعلان:الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر في صورة من الصور . . . الخ .

ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين:

أولهما:دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان ، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال . . وهذا لا

يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ، وتنفذه في عـــالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين ، أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه . .

وثانيهما: تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر – في صورة من الصـــور – وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها في الأرض كلها ، بحيث لا تكون هنـــاك دينونة إلا لله وحده – فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله – وليس هو مجرد الاعتقاد . .

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول ، على حين أن الله سبحانه يقول: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) . .

ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام – وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب:"الجهاد في سبيل الله" للأستاذ أبي الأعلى المودودي ، ما يكفي للبيان الواضح . .

إلا أننا نزيد الأمر إيضاحاً ، وذلك لكثرة ما لبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين !

إن الذي يعنيه هذا النص: (ويكون الدين كله لله) . .

هو إزالة الحواجز المادية ، المتمثلة في سلطان الطواغيت ، وفي الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكـــون هناك – حينئذ – سلطان في الأرض لغير الله ، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله . .

فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفراداً يختارون عقيدتهم أحراراً من كل ضغط . علـــى ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين ، ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى ، ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان الله . .

إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم ، على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفراداً ، فلا يكونون سلطة قـــاهرة يدين لها العباد . فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد .

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله ، ولن يتحرر "الإنسان" في "الأرض" ، إلا حين يكـــون الدين كله لله ، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه .

ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة: (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . .

فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له ، قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه ، ولم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره ، وتركوا هذا لله: (فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) . .

ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصرة الله:

(وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم . نعم المولى ونعم النصير) . .

هذه تكاليف هذا الدين ؛ وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته في عالم الواقع ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده في دنيا الناس . .

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب ؛ للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة ! ولــيس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى ! كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه !

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان . .

وهو منهج حركي واقعي ، يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة . .

يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان . .

ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله . .

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري . والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية!

إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع سلطة ، ولا بد – كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئــة – أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله ، فلا تكون هنــاك دينونة لسواه .

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين . .

لا ما يقوله المهزومون والمخدوعون . .

ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من "المسلمين" ، ولكن تغيم في عقــولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين !

. . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . .

وقال تعالى : * فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْــرِكِينَ حَيْــثُ وَجَــدتُّمُوهُمْ وَخُــذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* (٥) سورة التوبة

إذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ؛ فهم – اللحظــة وموقتــا – غــير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها – ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيــذها . . ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية . وعليهم ألا يحملــوا ضعفهم الحاضر على دين الله القوي المتين . وعليهم أن يتقوا الله في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام ! إنه دين السلم والسلام فعلا ، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلــها من عبادة غير الله ، وإدخال البشرية كافة في السلم كافة . . إنه منهج الله هذا الذي يراد البشر على الارتفاع إليه ، والاستمتاع بخيره ؛ وليس منهج عبد من العبيد ؛ ولا مذهب مفكر من البشر ؛ حــتى

يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله ؛ لإطــلاق الحرية للناس أفرادا في اختياره . .

إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد ؛ وحــين تكــون الأنظمــة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا . فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مــذهب ولكــل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنا ، ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين ، ويصبح مــن حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر !

فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية ، ووضع العبودية فيه لله وحده ؛ وتكون إلى جانبــه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد . .

فإن الأمر يختلف من أساسه . ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ؛ ويحرر البشــر من العبودية للعباد ؛ ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختاروها في ظل الدينونة لله وحده .

والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى ليحرر البشر في الأرض كلها من العبودية لغير الله . ينسون هذه الحقيقة الكبرى . .

وهي أن هناك منهجا ربانيا العبودية فيه لله وحده يواجه مناهج بشرية العبودية فيها للعبيد !!!

إن للجهاد المطلق في هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهي ؛ فليراجعها المهزومــون الــذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين . لعل الله أن يرزقهم القوة من عنــده ؛ وأن يجعــل لهــم الفرقان الذي وعد به عباده المتقين !

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شــهروا عليــه السيف وحاربوه وعاندوه . .

ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التي تحول بين الأفراد وسماع كلام الله ؛ وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله ؛ فتحول بينهم وبين الهدى ، كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد ؛ وتلجئهم إلى عبادة غير الله . . ومتى حطم هذه القوى ، وأزال هذه العقبــات ، فــالأفراد – علــى عقيدتهم – آمنون في كنفه ؛ يعلمهم ولا يرهبهم ويجيرهم ولا يقتلهم ؛ ثم يحرسهم ويكفلــهم حــتى يبلغوا مأمنهم . . هذا كله وهم يرفضون منهج الله !

وفي الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد ؛ لا يأمن فيها من يخالفها من البشر علــى نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان ! ثم يقف ناس يرون هذا في واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج الله بتشويه هذا المنــهج وإحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام في وجه السيف والمدفع في هذا الزمان وفي كل زمان !

وقال تعالى :* قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* (١٤) سورة التوبة

إن تاريخ المشركين مع المسلمين كله نكث للأيمان ، ونقض للعهود . وأقرب ما كان من هذا نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ في الحديبية . ولقد قبل ﷺ من شروطهم - بإلهام من ربه وهداية - ما حسبه بعض أفاضل أصحابه قبولا للدنية !

ووفى لهم بعهده أدق ما يكون الوفاء وأسماه . ولكنهم هم لم يفوا ، وخاسوا بالعهد بعد عامين اثنين ، عند أول فرصة سنحت . .

كما أن المشركين هم الذين هموا بإخراج الرسول ﷺ من قبل في مكة ؛ وبيتوا أمرهم في النهاية على قتله قبل الهجرة . وكان هذا في بيت الله الحرام الذي يأمن فيه القاتل منهم على دمه وماله ؛ حتى لكان الواحد يلقى قاتل أخيه أو أبيه في الحرم فلا يمسه بسوء . أما محمد رسول الله ، الداعي إلى الهدى والإيمان وعبادة الله وحده ، فلم يرعوا معه هذه الخصلة ؛ وهموا بإخراجه ؛ ثم تآمروا على حياته ؛ وبيتوا قتله في بيت الله الحرام ، بلا تحرج ولا تذمم مما يتحرجون منه ويتذممون مع أصحاب الثارات ! . .

كذلك كانوا هم الذين هموا بقتال المسلمين وحربهم في المدينة . فهم الذين أصروا - بقيادة أبي جهل - على ملاقاة المسلمين بعد أن نجت القافلة التي خرجوا لها ؛ ثم قاتلوهم بادئين في أحد وفي الخندق . ثم جمعوا لهم في حنين كذلك . . وكلها وقائع حاضرة أو ذكريات قريبة ؛ وكلها تنم عن الإصرار الذي يصفه قول الله تعالى:

(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) كما تنم عن طبيعة العلاقة بين المعسكر الذي يعبد آلهة من دون الله تجاه المعسكر الذي لا يعبد إلا الله . .

وحين يستعرض السياق هذا الشريط الطويل من الذكريات والمواقف والأحداث ، في هذه اللمسات السريعة العميقة الإيقاع في قلوب المسلمين ، يخاطبهم:(أتخشونهم ؟) . .

فإنهم لا يقعدون عن قتال المشركين هؤلاء إلا أن تكون هي الخشية والخوف والتهيب !

ويعقب على السؤال بما هو أشد استجاشة للقلوب من السؤال: (فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين) . .

إن المؤمن لا يخشى أحدا من العبيد . فالمؤمن لا يخشى إلا الله . فإذا كانوا يخشون المشركين فالله أحق بالخشية ، وأولى بالمخافة ؛ وما يجوز أن يكون لغيره في قلوب المؤمنين مكان !

وإن مشاعر المؤمنين لتثور ؛ وهي تستجاش بتلك الذكريات والوقائع والأحداث . .

وهم يذكرون بتآمر المشركين على نبيهم ﷺ . .

وهم يستعرضون نكث المشركين لعهودهم معهم وتبييتهم لهم الغدر كلما التمسوا منـــهم غـــرة ، أو وجدوا في موقفهم ثغرة . وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال بطرا وطغيانـــا . . وفي غمرة هذه الثورة يحرض المؤمنين على القتال: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخـــزهم ، وينصـــركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم) . .

قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته ، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة وهـــم يتخـــايلون بالقوة ، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون . يشـــفها من غيظها المكظوم ، بانتصار الحق كاملا ، وهزيمة الباطل ، وتشريد المبطلين . .

وليس هذا وحده ولكن خيرا آخر ينتظر وثوابا آخر ينال: (ويتوب الله على من يشاء) . .

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم – وهذا ما كـــان فعلا – وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضـــالين بأيـــديهم ؛ وينـــال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين: (والله عليم حكيم) .

عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات . حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات .

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوي قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المســـلمة باديـــة القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله سبحانه وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعدا واحدا:

هو الجنة . و لم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا:هو الصبر . .

فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ؛ وجعل يحرضها عليه ويشـــفي صدورها به . ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته . وإن هـــي إلا ســـتار لقدرته . .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافـــة ؛ وأن يقـــف المسلمون إزاءهم صفا . .

لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا و الخبايا ، ولإزالة الأستار التي يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التي يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة مـــن قـــربى أو مصلحة . .

لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الـــذين يخبئـــون في قلوبهم خبيئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجـــة ، يلجـــون منـــها إلى مصـــالحهم

وروابطهم مع المشركين ، في ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة: (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون) . لقد كان في المجتمع المسلم - كما هو الحال عادة - فئة تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار . وتتقن استخدام الأعذار . وتدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة ، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات في المفاصلة بين المعسكرات . فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة ، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار . وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تمتك الأستار وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون الملتوون ، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان الله يعلمهم من قبل: (والله خبير بما تعملون) . .ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما يتكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم . وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبيء وتتميز الصفوف ، وتتمحص القلوب . ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات .

---

١١. معركتنا مع اليهود :

ما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع - مع الأسف - بتلك التوجيهات القرآنية وبهذا الهدى الإلهي : ((أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟)) ا تنتفع الأمة المسلمة بما انتفع به أسلافها فغلبوا كيد اليهود ومكرهم في المدينة والدين ناشئ ، والجماعة المسلمة وليدة . وما يزال اليهود - بلؤمهم ومكرهم - يضللون هذه الأمة عن دينها ويصرفونها عن قرآنها كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية ، وعدتها الوافية ، وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية . وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء اليهود ، سواء عرف أم لم يعرف أراد أم لم يرد ، فسيظل اليهود في مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التي تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها - حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيماني والشريعة الإيمانية ، فهذا هو الطرق . وهذه هي معالم الطريق . كان لليهود في المدينة مكانتهم وارتباطاتهم الاقتصادية والتعهدية مع أهلها ، ولم يتبين عداؤهم سافرا . ولم ينضج في نفوس المسلمين كذلك الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي العهد وهي

الوطن وهي أصل التعامل والتعاقد ، وأنه لا بقاء لصلة ولا وشيجة إذا هي تعارضت مع هذه العقيدة !! ومن ثم كانت لليهود فرصة للتوجيه والتشكيك والبلبلة ، وكان هناك مـــن يســـمع لقـــولهم في الجماعة المسلمة ويتأثر به ، وكان هناك من يدافع عنهم ما يريد النبي ﷺ أن يترل بهم من إجـــراءات لدفع كيدهم عن الصف المسلم ((كما حدث في شفاعة عبد الله بن أبي من بني قينقاع ، وإغلاظه في هذا للرسول ﷺ)) . إن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميـــدان بالســـيف والـــرمح فحسب و لم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب ، إنما كانوا يحاربونهـــا أولا في عقيدتها !! كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونشر الشبهات وتدبير المناورات !

كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها ومنها قام وجودها فيعملون فيها معاول الهدم والتوصية ذلك أنهم كانوا يدركون – كما يدركون اليوم تماما [١٦٣] – أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ولاتهن إلا إذا وهنت عقيدتها ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الإيمان مرتكزة إلى ركنه سائرة على نهجه حاملة لرايته ممثلة لحزبه منتسبة إليه ، معتزة بهذا النسب وحده .

من هنا يبدو أن أعدى أعداء الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ، و يحيد بها عـــن منـــهج الله وطريقه ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة .إن المعركة بين الأمة المســـلمة وبـــين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوهـــا علـــى الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ، ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها . . ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين من خداع هذه الأمـــة عـــن حقيقة المعركة ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال آمنون من عزمة هـــذه العقيدة في الصدور .وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين مـــن عراهـــا استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة : ((ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم)) .لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا . . .

كان يأخذ الجماعة المسلكة بالتثبيت على الحق الذي هو عليه وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيهـــا أهل الكتاب ، ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية .وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة وأهدافهم الخطرة وأحقادهم على الإســـلام والمسلمين لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم .وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها في هـــذا

---

[١٦٣] – تأمل حملة التشكيك في العقيدة ، والتعبئة الإلحادية في جيش عربي ضد الإيمان بالله قبيل هزيمة ١٩٦٧ بأسابيع !!!
ثم الإصرار الطويل النفس على إبعاد الإسلام عن قضية فلسطين مثلا .

الوجود فبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء ، كما يبين لها أن الله معها وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك وأنه سيأخذ الكفار اليهود بالعذاب والنكال كما أخذ المشركين من قبل . وعانت أمتنا التلبيس والدس من يهود .((يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون)) وهذه خصلة أهل الكتاب يجب أن يبصرها المسلمون ويأخذوا حذرهم منها .خصلة التلبيس والدس .وهذا الذي ندد الله به – سبحانه – من أعمال أهل الكتاب حينذاك . هو الأمر الذين درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة . . . فهذا طريقهم على مدار التاريخ .

اليهود بدءوا منذ اللحظة الأولى . .

ثم تبعهم الصليبيون .وفي خلال القرون المتطاولة دسوا – مع الأسف – في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون !! ولبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله – اللهم إلا هذا الكتاب الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين والحمد لله على فضله العظيم .دسوا ولبسوا في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله ودسوا في الحديث النبوي حتى قيض الله له رجاله الذين حققوه وحرروه إلا ما ند عن الجهد الإنساني المحدود .ودسوا ولبسوا في التفسير القرآني .وهناك دس جد خطير .لقد دسوا رجالا وزعامات للكيد لهذه الأمة . فالمئات والألوف كانوا دسيسة في العالم الإسلامي – وما يزالون في صورة مستشرقين وتلاميذ مستشرقين الذين يشغلون مناصب الحياة الفكرية اليوم في البلاد التي يقول أهلها : أنهم مسلمون !!

والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة في صورة ((أبطال)) مصنوعين على عين الصهيونية [١٦٤] ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين .

وما يزال هذا الكيد قائما مطردا ، وما تزال (فرصة) الأمان والنجاة منه هي اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ ، والعودة إليه لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون . وتستمر حملة التشكيك من اليهود في هذه الأمة المسلمة : ((وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين أمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)) وهي طريقة ماكرة لئيمة ، فإن إظهار هم الإسلام ثم الرجوع عنه يوقع بعض النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته . . يوقعهم في بلبلة واضطراب . . .

---

[١٦٤] – وفي المستقبل القريب سنجعل الرئيس شخصا مسئولا ويومئذ لن نكون حائرين في أن ننفذ بجسارة خططنا التي سيكون ((دميتنا)) مسئولا عنها ، لكي نصل إلى هذه النتائج سندبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة ما أو صفقة أخرى مريبة .. إن رئيسا من هذا النوع سيكون منفذا وافيا لأغراضنا لأنه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعا لسلطان الخوف .... البروتوكول العاشر من بروتوكولات صهيون .

فإذا رأوا اليهود يؤمنون ثم يرتدون حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيئة ونقص من هذا الدين وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال .وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم . في شتى الصور التي تناسب تطور الملابسات والناس في كل جيل . ولقد يئس أعـــداء المســـلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة فلجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى طرق شتى كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة .إن لهذه القوى اليوم في العالم الإسلامي جيشا جرارا من العملاء في صـــورة أســـاتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين – وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين – يحملون أسمـــاء المســـلمين لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة !! وبعضهم من ((علماء)) المسلمين !!هذا الجيش من العلماء موجه لخلخلة [١٦٥] العقيدة في النفوس بشتى الأساليب بصورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة . .

وتوهين قواعدها من الأساس . .

والتوهين من شأن العقيدة والشريعة سواء .وتأويلها وتحميلها ما لاتطيق والـــدق المتصـــل علـــى ((رجعيتها)) !

والدعوة للتفلت منها وأبعادها عن مجال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها !!

وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها . .

وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية . .

وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التي تستوي عليها العقيدة النظيفة لتخرج مـــن الوحل الذي ينثرونه في الأرض نثرا . ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص !!

وهم بعد مسلمون !! اليسوا يحملون أسماء إسلامية ؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجـــه النهار !! وبهذه المحاولات يكفرون آخره !! ((ويؤدون بهذه وتلك دور اليهود القديم)) ولا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم ! تظاهروا بالإسلام – ومعكم دليل اسمي – أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم .((ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)) .وعملاء الصهيوينة اليوم كذلك . . إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر . . هو الإجهاز على العقيدة في الفرصة السانحة التي قد لا تعود . . وقد لا يكون هذا التفاهم في معاهدة أو مؤامرة ، ولكنه تفاهم العميل مع العميل علـــى المهمة المطلوبة [١٦٦] .

ويأمن بعضهم لبعض فيفضي بعضهم إلى بعض . .

ثم يتظاهرون – بعضهم على الأقل – بغير ما يريدون وما يبيتون . .

---

[١٦٥] – لن نبيح قيام أي دين غير ديننا . ولهذا يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان وستكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين .. البروتوكول الرابع عشر .

[١٦٦] – ولا أحد من الأعضاء سيفشي بالسر للغير ، والسبب هو أنه لا أحد يؤذن له بالدخول في عالمنا ما لم يكن يحمل سمات بعـــض الأعمال المخزية في حياته .. البروتوكول الثالث عشر .

والجو من حولهم مهيأ . .
والأجهزة من حولهم معبأة . . والذين يدركون حقيقة هذا الـــدين في الأرض كلـــهم مغيبـــون أو مشردون !!
لقد تحدث القرآن كثيراً عن يهوده وشرح نفسياقم الشريرة وليس مصادفة أن يفصل القرآن هذا فإن تاريخ أمة من الأمم لم يشهد ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة وجحود وتنكر للهداة فقد قتلـــوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم – وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصـــين – وقد كفروا أشنع كفر واعتدوا . .
أشنع الاعتداء وعصوا أبشع معصية وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليســـت مثلـــها أفاعيل ! !
ومخاليق تقتل الأنبياء وتذبحهم وتنشرهم بالمناشير لا ينتظر منها إلا استباحة دماء البشر واستباحة كل وسيلة قذرة تنفس عن أحقادهم وفسقهم . والقرآن الكريم يقص علينا العجب من ســـلوك يهـــود العجيب : ((قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبه بإذن الله مصدقاً لما بـــين يديـــه وهـــدى وبشرى للمؤمنين . . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)) . في قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات اليهود . . . سمة عجيبة حقاً . . لقـــد بلـــغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن يترل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كـــل حد . .
وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل . .
لقد سمعوا أن جبريل يترل بالوصي من عند الله على محمد – ﷺ – ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلـــغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة فيزعموا أن جبريل عدوهم لأنه يترل بالهلاك والدمار والعذاب ، وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صـــاحبه جبريل ، ولو كان الذي يترل بالوحي هو ميكائيل لآمنوا فميكائيل يتترل بالرخاء والمطر والخصـــب . إنها الحماقة المضحكة . . . ولكن الغيظ والحقد يسوقانه إلى كل حماقة وإلا فخاب لهم يعادون جبريل ؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم أو ضدهم و لم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير ؟ إنما عبد الله يفعل بأمره ولا يعصي الله ما أمره ! ويمتد حقد اليهود الأسود من جبريل عليه السلام إلى رســـول الله – ﷺ . وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله – ﷺ – أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم وحقدهم لأن يترل الله من فضله على من يشاء من عباده . .
وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في اليهود هي الطبيعة الكنود . طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد ، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو متقطع منـــها ولا تشـــعر بالوشـــيجة الإنسانية الكبرى التي تربط البشرية جمعاء .وهكذا عاش اليهود في عزلة .يحسون أنهم فرع مقطـــوع

من شجرة الحياة ويتربصون بالبشرية الدوائر ويكنون للناس البغضاء ، ويعـــانون عـــذاب الأحقـــاد والضغائن ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتنا يوقدونها بين بعض الشعوب وبعـــض ، وحروبـــا يثيرونها ليجروا من ورائها الغنائم ، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفىء ، وهلاكا يســـلطونه علـــى الناس ، ويسلطه عليهم الناس . . . وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة : ((بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)) .وحقد اليهود الأسود على رسول الله ﷺ وعلـــى القـــرآن وعلى الإسلام جعلهم يؤثرون الشرك – وهم أهل كتاب – على الإسلام .وهـــم اليـــوم يـــؤثرون الشيوعية .. أي صلة أخرى فاسدة على هذا الدين بل أنهم ينشئون هذه المذاهب الإلحادية [١٦٧] لمحاربة الإسلام !عن محمد بن إسحاق قال – بإسناده عن جماعة – : إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانـــة بـــن أبي الحقيـــق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت قريش : يا معشر يهود . . إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟؟ قالوا – اليهود– بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه !!! فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ((ألم تـــر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا سبيلا)) إلى قوله تعالى : ((أم يحسدون الناس على ما أتاهم من فضله . .)) ؟ فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ واســـتعدوا له . وصـــدق الله العظيم : ((لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . .))

إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطابا للرسول ﷺ وأن تكون كذلك خطابا عاما خـــرج مخـــرج العموم لأنه يتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان .فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظـــر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد عداوة للـــذين آمنـــوا ، وإن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى ويجده كل من يتأمل !!نعم إن العطـــف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين أمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا . . ولكن تقديم اليهـــود هنـــا حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين – بما أنهم أهل كتاب – يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي !!

---

[١٦٧] – لا تتصوروا أن تصريحاتنا جوفاء ، ولا حظوا هنا أن نجاح ماركس قد رتبناه من قبل . . . ونحن على الدوام نتـــبنى الشـــيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعا لمبدأ الأخوة والمصلحة الإنسانية . وهذا ما تبشر به الماســـونية .. البروتوكـــول الثـــاني والثالث .

إنه – على الأقل – يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا !!

ونقول : إن هذا ((على الأقل)) ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا .وحين يستأنس الإنسان في هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا .لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة ، وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة ، وتضمن القرآن من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ وعلى الآمة المسلمة في تاريخها الطويل والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا وما تزال حتى اللحظة [168] يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا .لقد عقد الرسول ﷺ أول مقدمه إلى المدينة ، معاهدة تعايش مع اليهود ، ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة ، ولكنهم لم يفوا بهذا العهد ، شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل حتى قال الله فيهم : ((ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون * أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)) .ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج ، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ﷺ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط .ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية وأفادتها منذ قرون السبي ((في بابل)) والعبودية في مصر . .

والذل في الدولة الرومانية . . ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول .ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة : ((ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)) ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه – لم يسلم إلا كتاب الله الذي تكفل الله بحفظه سبحانه – ويكيدون بالدس بين صفوف المسلمين . .

---

[168] – صرخ جنود اليهود وهم يدخلون القدس في يونيو ١٩٦٧ ((محمد مات ، وخلف بنات)) .

وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار . . ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض . . حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة . . وهم يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين . .ويشنوها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين !!

وصدق الله العظيم : ((لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والدين أشركوا)) إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة ، وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم وبين قريش من مكة وبين القبائل الأخرى في الجزيرة . . .

يهودي .والذي ألب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق لشائعات في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وما تلاها من النكبات . . .

يهودي .والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله ﷺ وفي الروايات والسير . . .

يهودي .ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال ((الدستور)) بها في عهد السلطان عبد الحميد ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي ((البطل)) أتاتورك . . . يهودي .وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود !!ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية ((يهودي)) ووراء النزعة الحيوانية يهودي . . . ووراء هدم الأسرة والروابط المقدسة في المجتمع . . . يهودي [١٦٩] . .ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمد ، وأعرض مجالا من تلك التي شنها عليه المشركون والوثنيون – على ضراوتها – قديما وحديثا ، إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما في جملتها ، وكذلك المعركة مع فارس في العهد الأول . . . أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية ((التي تعد ماركس مجرد فرع لها)) . إن لقصة بني إسرائيل التي فصلها القرآن أوسع تفصيل حكمة متشعبة الجوانب.. من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حربا على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول ، وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين جميعا . . وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة . . كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة . .

---

[١٦٩] – هؤلاء بالترتيب هم ماركس .. فرويد .. دركايم .

وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة ، فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها ؟ وما طبيعتهم ؟ وما وسائلهم ، وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم ؟ ولقد علم الله سبحانه أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله ، كما كانوا أعداء هدي الله في ماضيهم كله ، فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفا. .

ووسائلهم كلها مكشوفة. ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة . .

ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف . .

كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة – وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها – بتاريخ القوم . .وتقلبات التاريخ ، وتعرف مزالق الطريق وعواقبها ممثله في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم ، لتضم هذه التجربة – في حقل العقيدة والحياة – إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون ولتتقي – بصفة خاصة – مزالق الطريق ومداخل الشيطان ، وبوادر الانحراف ، على هدي التجارب الأولى .. ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل ، وقد علم الله أن الأمة حين يطول عليها الأمد تقسو قلوبها وتنحرف أجيال منها ، وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة . .

ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل ، فجعل الله أمام أئمة الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة نماذج حية من العراقيل التي تلم بالأمم ، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . وبعد فإن المعركة بين الإسلام ويهود لا تزال دائرة وستظل كذلك لأن اليهود لا يرضون إلا بتدمير هذا الدين .كانوا – بعد أن غلبهم الإسلام – يحاربون هذا الدين بالمؤامرات والدسائس وتحريك عملائهم في الظلام .أما اليوم فقد ازدادت المعركة ضراوة وسفورا و تركيزا بعد أن جاءوا من كل فج وأعلنوا أنهم أقاموا إسرائيل .كانت أطماعهم ترف من بعيد إلى بيت المقدس ، أما اليوم فهم منه على بعد خطوات . . ولا يكف أطماعهم إلا أن يغلبهم الإسلام .. .

فقد أفسد اليهود في الأرض المقدسة فبعث الله عليهم عبادا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعد الله مفعولا .لكن على المسلمين – وهم يتأهبون للمعركة – أن يفهموا قرآنهم ، لقد كانت رحلة الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا ، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير ﷺ لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان ، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تنكشف عنها للنظرة

الأولى .وسوف ينازع بنو إسرائيل المسلمين في وراثة المسجد الأقصى .وسوف تدور المعركة .((فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليك عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعد الله مفعـــولا)) .فهذه هي الأولى :

يعلون في الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولي بأس شديد ، وأولي بطش وقوة . .

يستبيحون الديار . .

ويروحون فيها ويغدون باستهتار . .

ويطؤون ما فيها ومن فيها بلا تهيب . .

((وكان وعد الله مفعولا)) لا يخلف ولا يكذب .وتتكرر قصة الإفساد . . ويتكرر الإذلال والطرد .وكلما عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء من جنس حاضر والسنة ماضية ((وإن عدتم عدنا)) .ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة العربية كلها . .

ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم عبادا آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط الله علـــيهم ((هتلر)) ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة ((إسرائيل)) التي أذاقت العرب أصـــحاب الأرض الويلات وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقا لوعد الله القاطع ((وإن عدتم عدنا)) ووفاقا لسنته التي لا تختلف وإن غدا لناظره قريب !! ولا يهولن المسلم ما يراه من قـــوة وتهديـــد فانهم ((لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعـــا وقلوبهم شتى)) . والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم وتـــرى عصبيتهم بعضهم لبعض ، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا في معسكر واحد . . ولكن الخبر الصـــادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم ، إنما هو مظهر خارجي خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع ، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور . .

وما صدق المؤمنون مرة وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنـــون وثبتـــوا إلا وشهدوا التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار . وما تزال الأيام تكشف حقيقـــة الإعجـــاز في ((تشخيص)) حالة الكافرين حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان زفي أي مكان بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصـــداق هذا الخبر بصورة عجيبة فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين . .

فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولو الأدبار كالجرذان حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتـداء وسـبحان العليم الخبير !! [١٧٠]

---

١٢. الصراع بيننا وبينهم حتى قيام الساعة :

سيبقى الصراع بيننا وبينهم محتدما حتى قيام الساعة فلن توقفه معاهدات ولا غيرها ما دمنا مسـلمين لأنهم يعلمون أنه لن يقف في وجههم سوى الإسلام الذي أكرمنا الله تعالى به ، فإذا نظرنا إلى هـذا الموضوع الجلل من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة زال الخطب والاستغراب

قال تعالى عنهم :* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِـكَ حَبِطَـتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* (٢١٧) سورة البقرة

وفي مسند أحمد ٢٣٠/٤(١٨١٨٦) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمُسْتَوْرِدَ قَالَ بَيْنَا أَنَا عِنْدَ عَمْـرِو بْنِ الْعَاصِ فَقُلْتُ لَهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « أَشَدُّ النَّاسِ عَلَـيْكُمُ الـرُّومُ وَإِنَّمَا هَلَكَتُهُمْ مَعَ السَّاعَةِ ».(حسن)

وفي مصنف ابن أبي شيبة(١٩٣٣٨) عَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : فَارِسُ نَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ ، ثُمَّ لاَ فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ خَلَـفَ قَرْنٌ مَكَانَهُ ، هَيْهَاتَ إِلَى آخرِ الدَّهْرِ هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ. ((صحيح مرسل))

وفي صحيح البخاري ٥١/٤(٢٩٢٦) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِىُّ يَا مُسْـلِمُ هَذَا يَهُودِىٌّ وَرَائِى فَاقْتُلْهُ ».

وعند أحمد ٣٩٨/٢(٩١٦١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَيُؤْمِنَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ (لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِـنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً) وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ فَيَفِرَّ الْيَهُـودِىُّ وَرَاءَ الْحَجَـرِ فَيَقُولَ الْحَجَرُ يَا عَبْدَ اللَّهِ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِىٌّ وَرَائِى وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ »(صحيح).

---

[١٧٠] - نقلا عن كتيب " معركتنا مع اليهود " طبع دار الشروق - لبنان – للسيد قطب عليه الرحمة

١٣ – لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا :

قال تعالى : *الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً* (١٤١) سورة النساء

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى : أنَّ هَؤُلاءِ المُنَافِقِينَ يَتَرَبَّصُونَ بالمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السَّوْءِ ، وَيَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ ، وَظُهُورَ الكُفْرِ عَلَيهِمْ ، وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ . فَإذَا نَصَرَ اللهُ المُؤْمِنِينَ ، وَفَتَحَ عَلَيهِم ، وَاسْتَحْوَذُوا عَلَى الغَنَائِمِ ، قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ مُتَوَدِّدِينَ إِلَيْهِمْ : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِذاً فَنَحْنُ نَسْتَحِقُّ نَصِيباً مِنَ المَغْنَمِ الذِي حُزْتُمُوهُ . وَإِذَا كَانَ النَّصْرُ وَالغَلَبَةُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ كَمَا وَقَعَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ ، قَالُوا لِلْكَافِرِينَ المُنْتَصِرِينَ : أَلَمْ نُسَاعِدْكُمْ فِي البَاطِنِ وَنَحْمِكُمْ ، وَنُخَذِّلِ المُؤْمِنِينَ عَنْ قِتَالِكُمْ حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيهِم (أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ) ؟ فَاعْرِفُوا لَنَا هَذَا الفَضْلَ ، وَأَعْطُونَا نَصِيباً مِمَّا أَصَبْتُمْ مِنَ المَغْنَمِ .

وَيَتَوَعَّدُ اللهُ تَعَالَى المُنَافِقِينَ بِأَنَّهُ سَيُحَاسِبُهُمْ حِسَاباً عَسِيراً عَلَى بَوَاطِنِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ تَظَاهُرُهُمْ بالإِسْلاَمِ وَالإِيمَانِ وَنِفَاقُهُمْ ، وَأَنَّهُ سَيَحْكُمُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، وَبَيْنَ المُنَافِقِينَ ، الذِينَ يُبْطِنُونَ الكُفْرَ ، وَيُظْهِرُونَ الإِيمَانَ ، وَيُجَازِي كُلا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ . وَيَقُولُ تُعُالَى : إِنَّهُ لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سُلْطَاناً وَسَبِيلاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ، مَا دَامُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِمْ ، قَائِمِينَ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَإِنْ حَقَّقَ الكَافِرُونَ بَعْضَ الظَّفرِ ، فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ ، فَالعَاقِبَةُ لِلْحَقِّ دَائِماً ، وَالبَاطِلُ إلى زَوَالٍ . كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ سُلْطَاناً عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي الآخِرَةِ .

إنها صورة منفرة . تبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر ، وما يتربصون بها من الدوائر وهم – مع ذلك – يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة

فيقولون:حينئذ: (ألم نكن معكم ؟) . .

ويعنون أنهم كانوا معهم في الموقعة – فقد كانوا يخرجون أحيانا يخذلون ويخلخلون الصفوف:– أو يعنون أنهم كانوا معهم بقلوبهم ! وأنهم ناصروهم وحموا ظهورهم !

(وإن كان للكافرين نصيب قالوا:ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟) . .

يعنون أنهم آزروهم وناصروهم وحموا ظهورهم ؛ وخذلوا عنهم وخلخلوا الصفوف !!

وهكذا يتلوون كالديدان والثعابين . في قلوبهم السم . وعلى ألسنتهم الدهان !

ولكنهم بعد ضعاف ؛ صورتهم زرية شائهة تعافها نفوس المؤمنين . .

وهذه إحدى لمسات المنهج لنفوس المؤمنين .

ولما كانت الخطة التي اتبعها الرسول ﷺ بتوجيه ربه في مسألة المنافقين ، هي الإغضاء والإعراض ، وتحذير المؤمنين وتبصيرهم بأمرهم ؛ في الطريق إلى تصفية هذا المعسكر اللعين !

فإنه يكلهم هنا إلى حكم الله في الآخرة ؛ حيث يكشف الستار عنهم ، وينالهم جزاء ما يكيدون للمسلمين: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) . .

حيث لا مجال للكيد والتآمر والتبييت ؛ ولا مجال لإخفاء مكنونات الصدور .

ويطمئن الذين آمنوا بوعد من الله قاطع ؛ أن هذا الكيد الخفي الماكر ، وهذا التآمر مع الكافرين ، لن يغير ميزان الأمور ؛ ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا . .

وفي تفسير هذه الآية وردت رواية أن المقصود بهذا النص يوم القيامة . حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل .

كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الأمر في الدنيا بأن لا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال . وإن غلب المسلمون في بعض المعارك وفي بعض الأحايين .

وإطلاق النص في الدنيا والآخرة أقرب ، لأنه ليس فيه تحديد .

والأمر بالنسبة للآخرة لا يحتاج إلى بيان أو توكيد . .

أما بالنسبة للدنيا ، فإن الظواهر أحيانا قد توحي بغير هذا . ولكنها ظواهر خادعة تحتاج إلى تمعن وتدقيق:

إنه وعد من الله قاطع . وحكم من الله جامع:أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين ؛ وتمثلت في واقع حياتهم منهجا للحياة ، ونظاما للحكم ، وتجردا لله في كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة . .

فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . .

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها !

وأنا أقرر في ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان . إما في الشعور وإما في العمل – ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة – وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ؛ ثم يعود النصر للمؤمنين – حين يوجدون ! ففي "أحد" مثلا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة . وفي "حنين" كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا . . نعرفه أو لا نعرفه . .

أما وعد الله فهو حق في كل حين . نعم . إن المحنة قد تكون للابتلاء . .

ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة ، هي استكمال حقيقة الإيمان ، ومقتضياته من الأعمال - كما وقع في أحد وقصه الله على المسلمين - فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه ،جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين .

على أنني إنما أعني بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك . .

إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح ، وكلال العزيمة . فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس همودا وكلالا وقنوطا . فأما إذا بعثت الهمة ، وأذكت الشعلة ، وبصرت بالمزالق ، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق . .

فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد . ولو طال الطريق !

كذلك حين يقرر النص القرآني: أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا . .

فإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر ؛ والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورا وشعورا ؛ وفي حياتها واقعا وعملا وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعنوانات . إنما هو للحقيقة التي وراءها . .

وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان ، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان . ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك . .

ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء ؛ وألا نطلب العزة إلا من الله .

ووعد الله هذا الأكيد ، يتفق تماما مع حقيقة الأيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون . .

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى ، التي لاتضعف ولا تفنى . .

وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها . .

ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية ، أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعا

غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . .

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابته ثبوت النواميس الكونية . ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . .

ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن "حقيقة " الكفر تغلبه ، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها . .

لأن حقيقة أي شيء أقوى من "مظهر" أي شيء . ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان !

إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق . وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل . مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون . .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) . .

ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا . .

---

١٤ - لا قيمة لأموالهم ولا أولادهم عند الله :

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ (١٣) آل عمران

إنَّ الذِينَ كَفَروا بالله ، وَبآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ ، وَجَحَدُوا مَا عَرَفُوهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَنْ تُفيدَهُمْ شَيْئاً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ أمْوالُهُمْ (التِي يَبْذُلُونَهَا فِي جَلْبِ المَنَافِعِ ، وَدَفْعِ المَضَارِّ) وَلاَ أوْلاَدُهُمُ (الذِينَ يَتَنَاصَرُونَ بهِمْ فِي الدُّنيا) ، وَسَيَكُونُونَ حَطَباً تُوْقَدُ بِهِ جَهَنَّمُ .

وَسَيَكُونُ حَالُ هَؤُلاَءِ المُكَذِّبِينَ وَشَأْنُهُمْ (دَأْبُهُمْ) مِثْلَ حَالِ قَوْمِ فِرْعُوْنَ (آلِ فِرْعَونَ) ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِمَّنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فِيمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَبِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ كُفْرٍ وَآثَامٍ ، واللهُ شَدِيدُ العَذابِ أليمُهُ ، لاَ يَمْتَعُ عليهِ أحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ - وَهُمْ هُنَا اليَهُودُ - : إِنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ فِي الدُّنيا وَيُحْشَرونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَيُسَاقُونَ إلى جَهَنَّمَ ، لِتَكُونَ لَهُمْ مَهْداً وَفِرَاشاً ، وَبِئْسَ المَهْدُ وَالفِرَاشُ .

(هَذِهِ الآيةُ نَزَلَتْ فِي يَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاع . فَبَعْدَ أنْ نَصَرَ اللهُ المُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، جَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ يَهُودَ المَدِينةِ ، وَقَالَ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ أسْلِمُوا قَبْلَ أنْ يُصِيبَكُمْ اللهُ بمَا أصَابَ بِهِ قُرَيْشاً .

فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسكَ أنَّكَ قَتَلْتَ نَفَراً مِنْ قُرَيشٍ لاَ يَعْرِفُونَ القِتَالَ ، إنَّكَ وَاللهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وَأنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا . فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هذهِ الآيَةَ والتِي بَعْدَهَا ، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ فقَتَلَ المُسْلِمُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَأجْلَوا بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاع ، وَفَتَحُوا خَيْبَرَ) .

ثُمَّ حَذَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأنْذَرَهُمْ بَألاَّ يَغْتَرُّوا بكَثْرَةِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ ، فَلَهُمْ فِيمَا يُشَاهِدُونَهُ عِبْرَةٌ . فَأمَرَ رَسُولَهُ بأنْ يَقُولَ للَهُودِ الذِينَ قَالُوا لَهُ مَا قَالُوا : إنَّ اللهَ مُعِزٌّ دِينَهُ ، وَنَاصِرٌ رَسُولَهُ ، وَإنَّ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ مَا أظْهَرَهُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، إذِ التَقَتْ فِئَتَانِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ فِئةٌ مُؤْمِنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَنَصْرِ دِينهِ ، (وَهُمُ المُسْلِمُونَ) ، وَفِئَةٌ أخْرَى كَافِرَةٌ (وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيشٍ) . وَقَدْ أرَى اللهُ

تَعَالَى الُمشْرِكينَ الُمسْلِمِينَ فِي مِثْلَي عَدَدِ الُمشْرِكِينَ (أيْ قَرِيباً مِنْ ألْفَي مُقَاتِلٍ) بَصُورَةٍ جَلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ ، وَهُمْ إنَّما كَانُوا فِي الحَقِيقَةِ ثَلاَثَمِئَةٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، وَكَانَ ضَلِكَ إضْعَافاً لِقُلُوبِ الُمشْرِكِينَ ، وَلِيَهَابُوا الُمسْلِمِينَ ، وَلِيَجْبُنُوا عَنْ قِتَالِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ مَدَداً مِنَ اللهِ ، كَمَا أمَدَّهُمْ بِالَملاَئِكَةِ . وَقَدْ أرَى اللهُ الُمسْلِمِينَ الُمشْرِكِينَ قَلِيلِي العَدَدِ لِيَجْتَرِئُوا عَلَيهِمْ .

وَدَارَتِ الَمعْرَكَةُ فَانْتَصَرَ جُنْدُ اللهِ ، وَأعَزَّ اللهُ دِينَهُ ، وَقُتِلَ رُؤوسُ الكُفْرِ . وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لأولِي البَصَائِرِ لِيَهْتَدُوا إلى حِكَمِ اللهِ وَأفْعَالِهِ وَقَدَرِهِ الجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الُمؤْمِنينَ الذِينَ يَمْتَثِلُونَ لِمَا أوْصَاهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ بِقَدَرِ طَاقَتِهِمْ ، فَيُقَاتِلُونَ ثَابِتِينَ وَاثِقِينَ بِنَصْرِ اللهِ .

إن هذه الآيات واردة في صدد خطاب بني إسرائيل ، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم . وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كذلك . .

فهو يذكرهم فيها بمصير آل فرعون . . وكان الله سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بني إسرائيل . ولكن هذا لا يمنحهم حقا خاصا إذا هم ضلوا وكفروا ، ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفوا ، وأن ينالوا جزاء الكافرين في الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين انجاهم الله منهم !

كذلك يذكرهم مصارع قريش في بدر - وهم كفار - ليقول لهم:إن سنة الله لا تتخلف . وإنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قريش . فالعلة هي الكفر . وليس لأحد على الله دالة ، ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح !

(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار) . .

والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ؛ ولكنهما لا يغنيان شيئا في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه ، لأنه لا إخلاف لميعاد الله . وهم فيه: (وقود النار) . .

بهذا التعبير الذي يسلبهم كل خصائص "الإنسان" ومميزاته ، ويصورهم في صورة الحطب والخشب وسائر (وقود النار) . .

لا بل إن الأموال والأولاد ، ومعهما الجاه والسلطان ، لا تغني شيا في الدنيا:

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب) . .

وهو مثل مضى في التاريخ مكرورا ، وقصة الله في هذا الكتاب تفصيلا:وهو يمثل سنة الله في المكذبين بآياته ، يجريها حيث يشاء . فلا أمان إذن ولا ضمان لمكذب بآيات الله .

وإذن فالذين كفروا وكذبوا بدعوة محمد ﷺ وآيات الكتاب الذي نزله عليه بالحق ، معرضون لهذا المصير في الدنيا والآخرة سواء . .

ومن ثم يلقن الرسول ﷺ أن ينذرهم هذا المصير في الدارين ، وأن يضرب لهم المثل بيوم بدر القريب ، فلعلهم نسوا مثل فرعون والذين من قبله في التكذيب والأخذ الشديد: (قل للذين كفروا: ستغلبون

وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا:فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يروهم مثليهم رأي العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) . .

وقوله تعالى: (يروهم مثليهم رأي العين) يحتمل تفسيرين:فإما أن يكون ضمير(يرون) راجعا إلى الكفار ، وضمير(هم) راجعا إلى المسلمين ، ويكون المعنى أن الكفار على كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين(مثليهم) . .

وكان هذا من تدبير الله حيث خيل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة ، فتزلزلت قلوبهم وأقدامهم .

وإما أن يكون العكس ، ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين(مثليهم) هم - في حين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم - ومع هذا ثبتوا وانتصروا .

والمهم هو رجع النصر إلى تأييد الله وتدبيره . .

وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد . كما أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبوهم . .

وكان الموقف - كما ذكرنا في التمهيد للسورة - يقتضي هذا وذاك . . وكان القرآن يعمل هنا وهناك . .

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة . وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة . . إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله ، قائم في كل لحظة . ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة - ولو قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة . وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ ، وسنة ماضية لم تتوقف .

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ؛ وتثق في ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ؛ ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله ، المدبر بحكمته ، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة .

(إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) . .

ولا بد من بصر ينظر وبصير تتدبر ، لتبرز العبرة ، وتعيها القلوب . وإلا فالعبرة تمر في كل لحظة في الليل والنهار !

وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) [آل عمران : ١١٦ ، ١١٧] }

الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالُمشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الكُفَّارِ ، الذِينَ كَانُوا يُعَيِّرونَ مُحَمَّداً وَصَحْبَهُ بالفَقْرِ ، وَيَقُولُونَ لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَى الحَقِّ لَمَا تَرَكَهُ رَبُّهُ فِي هَذا الفَقْرِ ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ لَنْ تَنْفَعَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ شَيئاً يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَنْ يَمْنَعَهُمْ شَيءٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ . وَهَؤُلاءِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ يَبْقَوْنَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً .

وَالكَافِرُونَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا ، فِي الصَّدَقَاتِ وَالقُرُبَاتِ ، وَفِي اكْتِسَابِ الشُّهْرَةِ وَالثَّنَاءِ . . . وَلَكِنَّ هَذا الإِنْفَاقَ ضَائِعٌ ، وَلَن يَنْتَفِعُوا مِنْهُ فِي الآخِرَةِ شَيْئاً . وَقَدْ شَبَّهَ اللهُ تَعَالَى حَالَهُم هَذا بِحَالِ زَرْعِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكُفْرِ وَالَمعَاصِي ، أصَابَتْهُ رِيحٌ فِيها بَرْدٌ شَدِيدٌ فَأَهْلَكَتْهُ عُقُوبةً لَهُمْ . وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ بِضَيَاعِ أُجُورِ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ هُمُ الذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالكُفْرِ وَالبَغْيِ ، وَارْتِكَابِ المَعَاصِي .

إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار . . وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك ، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيراً . فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان ، ونابعاً من الإيمان . ولكن القرآن لا يعبر هكذا كما نعبر . إنما يرسم مشهداً حياً نابضاً بالحياة . . .

إننا ننظر فإذا نحن أمام حقل قد تهيأ للإخصاب . فهو حرث . ثم إذا العاصفة تهب . إنها عاصفة باردة ثلجية محرقة! تحرق هذا الحرث بما فيها من صِرّ . واللفظة ذاتها كأنها مقذوف يلقى بعنف ، فيصور معناه بجرسه النفاذ . وإذا الحرث كله مدمر خراب!

إنها لحظة يتم فيها كل شيء . يتم فيها الدمار والهلاك . وإذا الحرث كله يباب! ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا في هذه الدنيا - ولو كان ينفق فيما ظاهره الخير والبر - ومثل ما بأيديهم من نعم الأولاد والأموال . . كلها إلى هلاك وفناء . . دون ما متاع حقيقي ودون ما جزاء . .

{ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون } .

فهم الذين تنكبوا المنهج الذي يجمع مفردات الخير والبر ، فيجعلها خطاً مستقيماً ثابتاً وأصلاً . له هدف مرسوم ، وله دافع مفهوم ، وله طريق معلوم . . فلا يترك للنزوة العارضة ، والرغبة الغامضة ، والفلتة التي لا ترجع إلى منهج ثابت مستقيم . .

هم الذين اختاروا لأنفسهم الشرود والضلال والانفلات من عصمة الحبل الممدود . فإذا ذهب عملهم كله هباء - حتى ما ينفقونه فيما ظاهره الخير - وإذا أصاب حرثهم كله الدمار ، فلم يغن عنهم مال ولا ولد . . فما في هذا ظلم من الله - تعالى - لهم .

إنما هو ظلمهم لأنفسهم بما اختاروه لأنفسهم من تنكب وشرود .

وهكذا يتقرر أن لا جزاء على بذل وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان وإلا أن يكون باعثه الإيمان . . يقول الله هذا ويقرره فلا تبقى بعده كلمة لإنسان؛ ولا يجادل في هذا القـرار إلا الـذين يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . .

---

١٥ – عدم الاغترار بتقلب الكافرين في البلاد :

قال تعالى : لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّـهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨) سورة آل عمران

لاَ تَنْظُرْ إلَى مَا أتْرفَ فِيهِ هَؤُلاءِ الكُفَّارُ مِنَ النِّعْمَةِ وَالغَبْطَةِ وَالسُّرُورِ . وَلاَ تَعْجَبْ مِنْ تَصَـرُّفِهِمْ فِـي الأَسْفَارِ لِلتِّجَارَةِ وَالتَّكَسُّبِ ثُمَّ عَوْدَتِهُمْ سَالِمِينَ إلَى أَهْلِيهِمْ وَدِيَارِهِمْ .

فَإنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ زَائِلٌ ، يَتَمَتَّعُونَ بِهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ، ثمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المُسْتَقَرُّ وَالمَهْدُ أمَّا المُتَّقُونَ فَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتِهَا ، وَخِلاَلَ أَشْـجَارِهَا ، وَيَبْقَـوْنَ فِيهَـا مُخَلَّدِينَ أَبَداً ، مُنَزَّلِينَ فِيهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ مِنْ جَزَاءٍ وَثَوَابٍ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ الـذِينَ يَبرُّونَ وَالِدَيْهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ .

وتقلب الذين كفروا في البلاد ، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة . يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين ؛ وهـم يعـانون الشظف والحرمان ، ويعانون الأذى والجهد ، ويعانون المطاردة أو الجهاد . . وكلها مشقات وأهوال ، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون ! . . ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة ، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وأهله في منجاة ، بل في مسلاة ! ويحيك منه شـيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم ؛ فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد .

هنا تأتي هذه اللمسة: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) .

متاع قليل . . ينتهي ويذهب . . أما المأوى الدائم الخالد ، فهو جهنم . . وبئس المهاد !

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات . وخلود . وتكريم من الله:

(جنات تجري من تحتها الأنهار) . .

(خالدين فيها) . . (نزلا من عند الله) . . (وما عند الله خير للأبرار) . .

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة ، وهذا النصيب في كفة ، أن ما عند الله خير للأبـــرار .
وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميـــزان . ومـــا يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألباب !
إن الله – سبحانه – في موضع التربية ، وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعـــد المؤمنين هنا بالنصر ، ولا يعدهم بقهر الأعداء ، ولا يعدهم بالتمكين في الأرض ، ولا يعدهم شـــيئا من الأشياء في هذه الحياة . . مما يعدهم به في مواضع أخرى ، ومما يكتبه على نفســـه لأوليائـــه في صراعهم مع أعدائه .
إنه يعدهم هنا شيئا واحدا . هو (ما عند الله) . فهذا هو الأصل في هذه الدعوة . وهذه هـــي نقطـــة الانطلاق في هذه العقيدة:التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، ومن كل مطمع – حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله – حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منـــها المؤمنون ، ويكلوا أمرها إليه ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها !
هذه العقيدة:عطاء ووفاء وأداء . . فقط . وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كـــذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء . . ثم انتظار كل شيء هناك !
ثم يقع النصر ، ويقع التمكين ، ويقع الاستعلاء . .
ولكن هذا ليس داخلا في البيعة . ليس جزءا من الصفقة . ليس في الصفقة مقابل في هذه الـــدنيا . وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء . . والابتلاء . .
على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة ؛ وعلى هذا كان البيـــع والشـــراء . و لم يمـــنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ؛ و لم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية ، إلا حين تجـــردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء:
قال محمد بن كعب القرظي وغيره:قال عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة [ونقباء الأوس والخزرج يبايعونه ﷺ على الهجرة إليهم]:اشترط لربك ولنفسك ما شـــئت . فقال:" أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأشترط لنفسي أن تمنعوني ممـــا تمنعـــون منـــه أنفسكم وأموالكم " . قال:فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال:" الجنة " . . قالوا:ربح البيع . ولا نقيـــل ولا نستقيل . . هكذا . . "الجنة " . . والجنة فقط ! لم يقل . .
النصر والعز والوحدة . والقوة . والتمكين . والقيادة . والمال . والرخاء – مما مـــنحهم الله وأجـــراه على أيديهم – فذلك كله خارج عن الصفقة !
وهكذا . .
ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل . . لقد أخذوها صفقة بين متبايعين ؛ أنهي أمرها ، وأمضي عقدها . و لم تعد هناك مساومة حولها !

وهكذا ربى الله الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض ، وزمام القيادة ، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها ، وكل رغباتها ، وكل شهواتها ، حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها ، والمنهج الذي تحققه ، والعقيدة التي تموت من أجلها . فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه ، أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة .

---

١٦ – هلاك الظالمين والمجرمين والطغاة عبر التاريخ :

قال تعالى : قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى (٧٦) سورة طه

(فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) . . ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه . . يجمله في جملة:فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات:ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى – عليه السلام – قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدي بالسحر والسحر افتراء:

قال لهم موسى:ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى .
والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها . ويبدو أن هذا الذي كان ؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج في الأمر ؛ وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى: (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) . .
وجعل بعضهم يحمس بعضا ، وراحوا يهيجون في المترددين الخوف من موسى وهارون ، اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ؛ مما يوجب مواجهتهما يدا واحدة بلا تردد ولا نزاع . واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح:
(قالوا:إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا . وقد أفلح اليوم من استعلى) . .
وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم ، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة . وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع . وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله . . ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى . .
ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون . فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ؛ ويجمع كيده ثم يأتي ، ويحشر السحرة ويجمع الناس ؛ ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بني إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ . . إنها الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى . .
وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الارتباك في صفوف السحرة المدربين ، فتحوجهم إلى التناجي سرا ؛ وإلى تجسيم الخطر ، واستثارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات .
ثم أقدموا: (قالوا:يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى) . .
وهي دعوة الميدان إلى النزال . يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي .
(قال:بل ألقوا) . .
فقبل التحدي ، وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة . . ولكن ماذا ؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو ، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى:
(فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى) ،
والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى ، ومعه ربه يسمع ويرى . وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى:

قلنا:لا تخف . إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا . إن ما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . .

لا تخف إنك أنت الأعلى . فمعك الحق ومعهم الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرفة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا .

لا تخف (وألق ما في يمينك) بهذا التنكير للتضخيم (تلقف ما صنعوا) . فهو سحر من تدبير ساحر وعمله . والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار ، لأنه يتبع تخييلا ويصنع تخييلا ؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق . وقد يبدو باطله ضخما فخما ، مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر ؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية ، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى . . ووقعت المفاجأة الكبرى . والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها ، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضا ويدفع بعضهم بعضا . والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى .

ويخيل إليه – وهو الرسول – أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم ، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به: (فألقي السحرة سجدا . قالوا:آمنا برب هارون وموسى) . .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله . وتصادف "الزر الصغير" فينبعث النور ويشرق الظلام . إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان .

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب ؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان: (قال:آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) .

(آمنتم له قبل أن آذن لكم) . . قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون – وقد لمس الإيمان قلوبهم – أن يدفعوه عنها ، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

(إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) . . فذلك سر الاستسلام في نظره ، لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون . ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال .

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل) .

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش في الغابة . القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) !

ولكنه كان قد فات الأوان . كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل . فإذا هي قوية قويمة . وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة . وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة . وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل . ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه:

(قالوا:لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى) .

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون . فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه:

(قالوا:لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا . .) فهي علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى . (فاقض ما أنت قاض) ودونك وما تملكه لنا في الأرض . (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) . فسلطانك مقيد بها ، وما لك من سلطان علينا في غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا . وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل في الحياة الخالدة أبدا . (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانا ، فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا . (والله خير وأبقى) خير قسمة وجوارا ، وأبقى مغنما وجزاء . إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى . . .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي: إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى . فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرما هي أشد عذابا وأدوم (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حي فيتمتع . إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة . . وفي الجانب الآخر الدرجات العلى . . جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار (وذلك جزاء من تزكى) وتطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الإيمان القوية . وباستعلاء الإيمان الواثق . وبتحذير الإيمان الناصع . وبرجاء الإيمان العميق .

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع ، في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة . فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف ؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد . فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود . والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن . .

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورها الواقعية . فأما إذا ظل الإيمان مظهرا لم يتجسم في القلب ، والحق شعارا لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان . . يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان . . وهذا هو الذي كان في موقف موسى – عليه السلام – من السحر والسحرة . وفي موقف السحرة من فرعون ومثله . ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة: (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ، فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى) . .

ولا يذكر السياق هنا ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون . ولا كيف تصرف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه ، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها . إنما يعقب بهذا المشهد . مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعي . وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا في مشهد الخروج والوقوف أمام البحر – كما يطيل في سور أخرى – بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة . لأن مقدماته كانت في الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله – بني إسرائيل – ليلا . فيضرب لهم طريقا في البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل – فنعرضه نحن كذلك كما جاء – مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقا يابسا فيه ! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه !

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى) . .

هكذا يجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه ، ولا يفصله ، ليبقى وقعه في النفس شاملا مهولا ؛ لا يحدده التفصيل ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قـادهم إلى الضـلال والبحـر . وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار . .

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ما حدث في هذا الموضع ، كي نتابع السياق في حكمة الإجمـال . إنمـا نقف أمام العبرة التي يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه في القلوب . .

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئا سـوى اتباع الوحي والسري ليلا . ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عـالم الواقـع . . موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة ، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها . فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا . هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة . ولكن بعد أن اكتملت حقيقـة الإيمـان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها . بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده . . يقول الطغيان: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكـم مـن خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) فيقول الإيمان: (فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحيـاة الدنيا) . . عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .

وعبرة أخرى: إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويسـتحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واسـتكانة وخوفا . فأما حين استعلن الإيمان ، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهـم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلـج ودون تحـرج ، ودون اتقـاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة . وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب . .

هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال ، وبتتابع المشهدين بلا عائق مـن التفصـيلات . ليستيقنها أصحاب الدعوات ، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض . والطغاة يملكون المال والجند والسلاح .

وقال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَـادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَـادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) الفجر

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله :

هؤلاء هم " الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد " . . وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر الباني ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال . .

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون . . " أنا ربكم الأعلى " عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أي فساد .

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية . والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أي فساد . .

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلابد من تزييف للقيم ، وتزوير في الموازين ، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة . . وهو فساد أي فساد .

فلما أكثروا في الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

" فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد " . .

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان . ومن قوله تعالى : " إن ربك لبالمرصاد " تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصد لا يفوته شيء . مراقب لا يند عنه شيء . فليطمئن بال المؤمن ، ولينم ملء جفونه . فإن ربه هناك ! . . بالمرصاد . . للطغيان والشر والفساد

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة ، غير النموذج التي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن – ولا يزال – يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفق الحالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على الحالين . وتتوقع الأمرين ، وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء .

" إن ربك لبالمرصاد " . . يرى ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء . . فأما الإنسان فتخطئ موازينه وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ، ما لم يتصل بميزان الله .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الباب السابع

بحوث ومقالات حول أسباب النصر والهزيمة

يتضمن هذا الباب مجموعة جيدة من الخطب والبحوث والمقالات والفتاوى حول عوامل النصر والهزيمة ، وكلها تدور حول هذا الموضوع الجلل ، وتركتها كما هي ، مع عزوها لأصحابها ، فبعضها أصاب المحز ، وكثير منها يدور حول الموضوع نفسه .

معيار النصر

د:محمدبن موسى الشريف

لقد جرى ما جرى في العراق ، وضاقت صدور قوم مؤمنين ، وامتلأت قلوبهم غيظاً وحنقاً ، وليس بسبب ما جرى على صدام وحزبه ولكن لأسباب أخرى منها :

١- انهيار الوضع فجأة بحيث تمكن الصليبيون المتصهينون دون مقاومة تذكر ، ولا نكاية كانت متوقعة فيهم ، وهذا بسبب التعبئة الكبيرة الكاذبة التي قام بها النظام ، وما كانوا يدعونه من أن بغداد ستكون مقبرة للغزاة ، وتعاطفت الشعوب الإسلامية تعاطفاً كبيراً جداً مع هذا الطرح ، وبنيت عليه الآمال العظام ثم فوجئوا بما جرى مما لم يكن في حسبانهم أبداً ، وهذا أورث كثيراً من الناس إحباطاً كبيراً ويأساً عظيماً ، وانهارت آمال كثير من الشباب المتحمس المتوقد والفتيان المتوثبين.

٢- تمكن الصليبيين المتصهينين من البلاد العزيزة على قلوبنا ، ومن مهد الحضارة الإسلامية ، وبدء تهديدهم لسورية وإيران وغيرهما من بلاد الإسلام ، وفي ذلك خوف كبير على هذه البلاد العزيزة الغالية.

٣- أثر هذه الأحداث العالمية في ترسيخ الطغيان الصليبي – الصهيوني ، وما تطبعه في أذهان الناس من سيطرة هؤلاء على مقاليد الأمور ، وما تضخمه في قلوبهم وعقولهم من هذه القوة والغاشمة ، وكل ذلك مردوده سلبي جداً.

٤- اجتراء القوى الأخرى على المسلمين ، وخاصة إخوان القردة والخنازير على إخواننا في فلسطين ، واجتراء الهنادكة عباد البقر على إخواننا في كشمير ، والصليبيين الفلبينيين على إخواننا هنالك.

المصدر:http://www.altareekh.com

يوم النصر للمجاهدين الأفغان

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد، المسلمون في العالم

عبد العزيز بن عبد الفتاح قاري

المدينة المنورة

قباء

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- تحقق النصر بعد الصبر والتكاتف ٢- سقوط فلسطين بيد اليهود إحباط يعيشه المسلمون ٣- دور الجهاد في تفكك الاتحاد السوفيتي ٤- موقف المنظمات الفلسطينية من الجهاد الأفغاني ٥- دعوة لجعل المعركة مع اليهود معركة عقائدية ٦- فضل الجهاد وضرورة الإعداد

الخطبة الأولى

أما بعد:

فقال الله تبارك وتعالى: ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين [العنكبوت:٦].

هذا اليوم هو يوم المجاهدين الأفغان، نشاركهم بهجتهم وفرحتهم ونهنئهم ونهنئ أنفسنا وجميع المسلمين بهذا الظفر وهذا النصر الذي أحرزته قضيتهم، تلك القضية التي أشغلت المسلمين وأهمتهم أكثر من ثلاث عشرة سنة، التي لقيت منهم التأييد الكبير والتعاون والتكاتف خاصة في هذه البلاد مهبط الوحي ومركز الحرمين الشريفين وموئل الإيمان ومحرزه – فقد لقيت هذه القضية كغيرها من القضايا الإسلامية التأييد والدعم الواضح الكبير، ولقد كان لوعي إخواننا الأفغان وصبرهم وإصرارهم على القتال وشدة بأسهم في النزال أكبر الأثر في نجاح قضيتهم. والفضل أولا وأخيرا لله تبارك وتعالى الذي من على المسلمين بهذا النصر، وبرجوع اللاجئين إلى ديارهم وبقيام دولة الإسلام تحكم شريعة الله فيها اليوم يوم الدروس والعبر من هذا الظفر:

فأولا: هذا أول نصر نذوق طعمه نحن المسلمين في هذا العصر، نحن أبناء هذا الجيل الذي عشنا في عصر الهزائم، اعتدنا على الهزائم والنكسات، لم نذق طعم النصر أبدا حتى كاد اليأس والإحباط يستوليان على النفوس وحتى نسينا طعم النصر. فلقد شهدنا سقوط المسجد الأقصى وكيف؟ هكذا بالتقسيط في عام ٤٨ بتاريخ النصارى، القدس في يد اليهود إخوان القردة والخنازير، وفي سنة ٦٧ سقط النصف الثاني من القدس. وهذا الظفر الذي نعيش في أجوائه اليوم هو أول ظفر نذوق طعمه

وإن كان طعما فيه شيء من المرارة، وإن كان ظفرا لم يسلم من بعض المنغصات والمكدرات، ولكنه على أية حال يعد من الانتصارات.

ثانيا: هذا الظفر إنما تحقق ببركة الجهاد ورفع راية الجهاد والتمسك بشعار الإسلام الذي رفع لـــواءه إخواننا المجاهدون الأفغان وصبروا عليه حتى آخر لحظة، هذه بركات الله أكبر، فانظروا إلى أي شيء انتهت الله أكبر، إلى الظفر، إلى سقوط أعتى دولة على وجه الأرض - الاتحاد السوفيتي - فلا شـــك أن جهاد الأفغان الإسلامي قد عجل بانهيار هذا الصنم الأحمر، ولما سقطت تلك الدولة، سقط ذنبها في كابول، وهذه عادة الأذناب، ماذا تفعل الأذناب إذا سقطت الرؤوس أو تخلت عنها؟

وفي هذا الظفر وهذا النصر الإسلامي المؤزر للجهاد والمجاهدين درس بليغ لأولئك الذين يريدون تحرير بلادهم المغتصبة بالمفاوضات. وهم مثخنون بالجراح يعرجون من كثرة الهزائم، منظمـــات الترقيـــع والتوقيع التي تريد تحرير فلسطين بالمفاوضات وتناضل ضد العدو المغتصب من الفنادق والقاعـــات. تلك المنظمات، منظمات العدل والخيانة، التي كادت من قريب أن تقطع اليد التي كانت تمدها بالعون والتأييد، التي تنكرت للإسلام والمسلمين وتركت أكثر من مليار مسلم وراءهـــا ظهريـــا وشـــوهت قضيتهم الأولى، قضية المسجد الأقصى.

تلك المنظمات من أعجب العجب أنها وقفت ضد الجهاد الأفغاني مناصرة لذلك الصـــنم الأحمـــر - منظمات الغدر والخيانة يريدون أن يحرروا المسجد الأقصى باسم البعث الملحد وباسم القومية العفنـــة وباسم العلمانية الكافرة.

ولقد قالوا ذات يوم: إنهم لا يقاتلون باسم الدين، لا يريدون تحرير فلسطين والمسجد الأقصى باســـم الدين، فليهنؤوا إذن بالهزائم تلو الهزائم والنكسات بعد النكسات.

أبشري بطول السلامة يا إسرائيل إن كان هؤلاء الذين يناضلون وهم الذين يريدون تحرير فلســـطين، فهم لا يحاربون باسم الإسلام عدوا يحاربهم باسم التوراة وباسم أرض الميعاد وباسم إسرائيل - نـــبي الله يعقوب الذي هو منهم براء.

هذا درس لهؤلاء، أن الجهاد هو وحده الطريق، الطريق إلى الظفر، ولكِ الله يا فلسطين، لك الله يـــا مسجدنا الأقصى الأسير، إن موعدك ليس مع هؤلاء، إن موعدك مع أولئك المجاهدين الفلســـطينيين الحقيقيين حينما ينبعثون ويرجعون إلى الله أكبر، سيحرروك بعون الله وحوله وقوته، ثم بعون المسلمين في أقصى الأرض، فهذه هي مهمتهم تحرير ثالث مسجد من اليهود الذين دنســـوا حرمـــات ذلـــك المسجد حتى الثمالة.

ثالثا: إننا لنضع أيدينا على قلوبنا شفقة على هذا الظفر الذي حققه إخواننا الأفغان خشية أن يضـــيع، لأن الأعداء متربصون وقد عودنا هؤلاء الأعداء على سرقة الثمار والسطو على النتائج، فما لم ينالوه بقوة السلاح وما عجزوا عن نيله في ساحة القتال، فإنهم ينالونه بالمكر والخداع والمناورات السياسية.

إنهم يستغلون مشاكلنا نحن المسلمين ونقاط الضعف فينا أسوأ استغلال ونحن في قمة فرحتنا بهذا الظفر، نرى الإذاعات الأجنبية يكشفون كل العيوب والنقائص حتى نظن أن هؤلاء المجاهدين سيأكل بعضهم بعضا، فتعال نلهج إلى ربنا بالدعاء، فإن الدعاء في الأيام المباركة، ويوم الجمعة منها، وفي المساجد المقدسة، ومسجد قباء وهذه المدينة منها، الدعاء في مثل ذلك هو من أعظم ما ندعم به إخواننا المجاهدين، فلنلهج بالدعاء إلى ربنا أن يلهم هؤلاء المجاهدين من أمرهم رشدا، اللهم ألهمهم من أمرهم رشدا وشد أزرهم ووحد كلمتهم وانزع الغل من صدورهم واجعلهم إخوانا تحت لواء الإسلام متفقين متكاتفين.

الخطبة الثانية

أما بعد:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تكفل الله لمن خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله لا ينهزه إلا الجهاد في سبيله أو تصديق كلمته - أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة))(١)[١] متفق عليه.

نعم هي إحدى الحسنيين، إما الظفر وأن يعود المجاهد إلى دياره غانما منتصرا وإما الجنة. فإن من استشهد وهو يجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله دخل الجنة وسلم من النار. قال سيدنا رسول الله: ((لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد مسلم أبدا))(٢)[٢].

فالجهاد أقرب طريق إلى الظفر، والاستشهاد في سبيل الله أسرع طريق إلى الجنة، فلو علم المسلمون ما في الجهاد من فوائد ما شغلوا عنه أبدا. فالجهاد وحياة الجهاد فيها المنعة والقوة والعزة بينما حياة الخمول والاستسلام للشهوات فيها الذلة والقهر والهوان الشديد.

وهما حالتان لا يجوز للمسلم أن يخلو من إحداهما، لابد للمسلم أن يكون في إحدى هاتين الحالتين، إما الجهاد وإما الاستعداد للجهاد، والاستعداد للجهاد من الجهاد بل أهم مراحل الجهاد ويكون ذلك بنشر العلم بين الناس وبث الوعي وتصحيح الأفكار والعقائد ودعوة المسلمين إلى دينهم وشريعتهم.

فعلى المسلمين أن يعرفوا كلمة الله قبل أن ينفروا إلى الجهاد، فإنهم إن أخطأوا منهج الجهاد وطريقته فقد تذهب الدماء هدرا وتضيع الجهود هباء منثورا. فإما الجهاد وإما الاستعداد للجهاد.

---

(١) البخاري كتاب الخمس (٢٩٥٥).

(٢) أحمد (٢/٢٥٦)، ابن ماجة في أبواب الجهاد (٢٧٧٤)، وصححه الألباني.

في مقدمات النصر القادم

العلم والدعوة والجهاد

المسلمون في العالم، قضايا دعوية

عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس

مكة المكرمة

١٤٢١/٧/٣٠

جامع الفرقان

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- ذلة المسلمين اليوم وفقدهم إرادة التغيير. ٢- انتصار إخواننا العزل في أفغانستان. ٣- هزيمة عام ٦٧ لا تعني أن يستمر الإحباط إلى مالا نهاية. ٤- تغير الظروف والمؤشرات بعد تلك الحرب. ٥- إسرائيل هزمت التيارات الوطنية والقومية و لم تواجه بعد الراية الإسلامية. ٦- الأمل في نصر الله كبير ، والقنوط منه حرام.

الخطبة الأولى

عباد الله: تنوعت أقاويل الحكماء وأهل الغيرة والدين في سبب ما وصلت إليه الأمة المسلمة من وهن وضعف واستخزاء لأعدائها، وما وصل إليه أعداؤها الأذلاء من اليهود من غرور وكبرياء ووقاحة أفصح عنها مجموعة منهم حين رفعوا لافتات كتب عليها (الإسلام التطرف) كما نشرته جريدة الحياة اليوم.

ونشرت عن نتنياهو: أن روسيا وإسرائيل تقفان في خندق واحد ضد عدو مشترك، فما سبب هذا الوهن والمذلة التي منيت بها أمة المليار مسلم وأمة أكبر احتياطي للنفط في العالم، وأمة الأراضي الخصبة، وأمة المواد الخام في كل شئون الحياة، وقبل ذلك كله وأهمّ منه كله أمة القرآن، أصدق حديث، وأصدق قيل، وأحسن حديث، وأحسن قصص، وأحسن تفسير، وأمة خير نبي ((أنا سيد ولد آدم))، أوتي القرآن ومثله معه ((ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه)) وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، أمة هي خير أمة أخرجت للناس، لقد ذهل كثيرون من هذا الوهن الذي منيت به أمة الإسلام، وكشفت عنه الأحداث الأخيرة في فلسطين وتداعياتها.

وتساءل كثيرون: هل أزمتنا أزمة إرادة؟ لأن المعطيات كلها متوافرة ولا ينقص إلا الإرادة، والله يقول: ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، وليس في الأفق أي بارقة أمل تدل على الإعداد، بل ولا على مقدماته، فدلّ ذلك على عدم الإرادة أصلاً! إذ لو وجدت الإرادة لتبعها الإعداد ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ثم فقدان الإرادة وضعفها هل هو في القادة فقط والشعوب منه بريئة؟ أم هو شامل حتى للشعوب؟ بدليل أن كثيرًا من الشعوب لم تحدث نفسها بالغزو أصلاً، بل يوجد من أفراد المسلمين كثيرٌ لم يخطر بباله أن يغزو يومًا من الأيام، بل ربما هيأ نفسه للفرار من أقطارها، فهم كما قص الله عن المنافقين: ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبسوا بها إلا يسيرًا.

إن الأفغان حين اجتاحهم السوفيات لم يكن بأيديهم سوى العصي وبنادق الصيد القديمة، وكان عدوهم يملك أقوى ترسانة نووية في زمانه، فلما ملكوا الإرادة والتصميم والثقة المطلقة بنصر الله ووعده، قاوموا الغاشم وأخذوا منه سلاحه وقاتلوه به حتى قويت شوكتهم ونصرهم الله على عدوهم، ولا يليق بمشغب أن يقول ساندتهم أمريكا، ولولا ذاك لما انتصروا؛ لأننا نقول: إنهم بدأوا المقاومة و لم يحسبوا حساب مساندة أمريكا لهم، ثم من يقول إنك لو قاومت لن تجد دعمًا من دول أخرى ولو بحرّ مالك، كيف وأمة الإسلام تستطيع الاستغناء بالله وحده بما معها من عدد وعُدَد، ثم لم يلبث هذا الدب الغاشم أن دحره الله وشتت شمله وفرق جمعه، وكسر شوكته، وقل مثل ذلك في البوسنة والشيشان في حربهم الأولى كيف دحر الله أعداءهم من الصرب والروس وخرجوا منهزمين.

لو وجدت الإرادة لفتحت الحدود المحيطة بإسرائيل للمجاهدين ضدها، لو وجدت الإرادة لقوطعت كل الأمور التي تكون سببًا لقوة إسرائيل مباشرة أو بواسطة، لو وجدت الإرادة لما سجن دعاة الإسلام وعلماؤه في سجون فلسطين على يد بني جلدتهم بضغوط من اليهود من أهل السلام.

إنه ليس هناك أي دليل على إرادة صادقة عند أمة الإسلام لمواجهة عدوها، فما هذا الوهن والإحباط، ألم يسمعوا قوله سبحانه: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون وقوله: قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون أغرهم هزائم منوا بها فيما سبق فقاسوا حالهم اليوم على حالهم أمس، إنه قياس مع الفارق.

إن الحروب السابقة جرت حين كانت التيارات الأرضية من بعثية وناصرية وقومية وشيوعية وغيرها هي التي توجه الشعوب، فصرفتها عن طبيعة المعركة إلى رايات جاهلية، أما اليوم فإن الأمر قد اختلف؛ حيث غربة الإسلام بدت تتقشع شيئًا فشيئًا بفضل الله أولاً ثم بفضل جهود العلماء المخلصين العاملين الربانيين في هذه البلاد وغيرها من بلاد الله، وإذا أردت أن ترى مصداق ذلك فانظر كم من الناس كان يعرف ابن عثيمين حفظه الله عام ٩٣هـ، وهو زمن حرب رمضان، كم كان يعرفه في هذه البلاد؟ إنه لم يكن يعرف خارج بلدته، واليوم يصدر الناس عن فتواه في مشارق الأرض ومغاربها، وانظر كم دفعة تخرجت من الجامعة الإسلامية منذ تلك الحرب إلى اليوم؟ إنها

ثلاثون دفعة وكل دفعة فيها ما لا يقل عن مائة طالب توزعوا في أقطار الأرض شرقها وغربها، وقد تحملوا من العلم النافع والعمل الصالح والسمت الحسن من العلماء الربانيين من أمثال الشيخ بن باز رحمه الله وغيره كثير رحم الله أمواتهم وختم لأحيائهم بخير، وكثير منهم عين داعية إلى الله على منهج السلف في بقاع شتى من الأرض، ومن كان له بصر بمثل هذه الأمور عرف الأثر العظيم الذي تركوه في مناطقهم، فكيف بخريجي الجامعات الإسلامية الأخرى، ومن طلب العلم في الحلقات وغيرها، كدار الحديث وجامعة الإمام ومعاهدها الإسلامية، لاشك أن لجهود العلماء الربانيين المخلصين في هذه البلاد وغيرها أثرًا تغيير المعادلة ومعطيات القضية ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا فمهل الكافرين أملهم رويدًا.

ولاشك أن لهم أثرًا عظيمًا في كشف الغربة الثانية التي ألمت بالإسلام وتجلية كثيرٍ من حقائق الدين والذب عنه، ودحض الشبهات المثارة حوله.

ثم أمر آخر كان له أثر في الفارق الكبير بين هذا الوقت وأوقات الهزائم السابقة، ذلكم هو ثورة الإعلام والاتصالات التي حدثت في العالم كله، فجعلته كالقرية الصغيرة، يلقى الخطاب في أقصى العالم فيسمع في نفس اللحظة في أقصاه من الجهة الأخرى، واعتبروا ذلك بحادثة الغلام القتيل الذي ارتج العالم لمصرعه وبكى عليه أقوام وتباكى آخرون، وما شهر بجريمة اليهود في قتله إلا الإعلام.

إن الهزائم السابقة كان الخونة فيها يملكون أن يمنعوا عن شعوبهم ما يريدون منعه من المعلومات والأخبار، أما اليوم فإن الشعوب تبصر ما لا يحب الظالمون أن تراه شعوبهم، وتسمع ما لا يشتهي الظالمون، وتقرأ وتطلع على ما لا يرغبون، فما يكتمه هذا يفضحه ذاك، وهكذا دواليك، أفلا تمثل هذه الثورة الإعلامية في عصر الاتصال والفضائيات عنصرًا يستحق أن يشكل فارقًا يمنع القياس على ما مضى.

لقد جرب الناس الرايات كلها في حروبهم إلا الراية الإسلامية، والله يقول: ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ويقول: كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ويقول: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ويقول: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون.

لو أصلحت الأمة ما بينها وبين ربها لجاءها النصر، أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير أي والله إنه ليعفو عن كثير، ولولا ذاك لأخذنا أخذ عزيز مقتدر، فلنتب إلى الله ولنحسن العمل، فقد كان

أصحابه إذا تأخر النصر تفقدوا أنفسهم فظفروا بعز الدارين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلـــون إن كنتم مؤمنين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقون لا يعلمون نفعني الله وإيـــاكم بـــالقرآن العظيم.

الخطبة الثانية

عباد الله: إن رصيد الأمة واحد، رصيد الإعراض عن شرعه والمعاصي التي تقارفها يكون ضررًا عليها وسببًا لعقوبتها، والغُنْمُ بالغُرْم، فرصيد التضحيات أيضًا واحد، فكل ما يعانيه الصادقون الربانيون من حمله الإسلام من أذى وتطريد وقتل وتشريد هو أيضًا رصيد يصب في صالح الأمة كلـــها بـــإذن الله فتستحق به إذا صبرت نصر الله وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا.

لكن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالصبر واليقين وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكـــانوا بآياتنا يوقنون ولا تكون للظالمين أبدًا وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للنـــاس إمامًا قال من ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين، لا تكون لمن وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، ولا لمن يسارعون فيهم ــ أي في اليهود ــ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ((إن النصر مع الصـــبر وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسرًا)) وقد قال : ((لن يغلب عسر يسرين)).

إن إسرائيل تقرع الآن طبول الحرب عبر تصريحات قادتها، وقد جرت عادتها أن إذا أرادت حربًا تغير بها خارطة المنطقة وتحتل بها مواقع جديدة أن تفتعل حدثًا كزيارة شارون مثلاً لتتـــذرع بـــه لتنفيـــذ مخططاتها التوسعية، ونجحت في كل حروبها وأطماعها الماضية فهل تنجح الآن؟ وهل تخطئ حساباتها الآن أم تصيب، أملنا في الله كبير وهو القائل: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن ســـبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث مـــن الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم أولئـــك هـــم الخاســـرون، والقائل: قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتـــا فئة تقاتل في سبيل وأخرى كافرة يروهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشـــاء إن في ذلـــك لعبرة لأولي الأبصار.

أسباب النصر وأسباب الهزيمة

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد، المسلمون في العالم

وليد بن إدريس المنيسي

مينيسوتا

دار الفاروق

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- أسباب الهزيمة وأسباب النصر. ٢- حال المسلمين اليوم. ٣- كيفما تكونوا يولّي عليكم. ٤- التحذير من إضاعة الصلاة.

الخطبة الأولى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : ((خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سُلّط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة لا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر)) [رواه الطبراني وهو حسن، انظر: صحيح الجامع ٣٢٤٠].

وفي رواية: ((ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديداً)).

يبين لنا النبي أسباب النصر وأسباب الهزيمة فنقض عهد الله وعهد رسوله - أي معصية الله ورسوله - هو سبب الهزيمة وتسلط الأعداء وتحكيم القوانين التي وضعها البشر والإعراض عن حكم الله هو سبب الفقر والاختلاف والتفرق الذي يعاني منه المسلمون، وفي المقابل فإن طاعة الله ورسوله هي سبب النصر قال تعالى: إن تنصروا الله ينصركم ويثب أقدامكم.

مرّ سعد بن أبي وقاص يوم القادسية على معسكرات الجيش بالليل فمر بقوم يصلون فقال: من ههنا يأتي النصر، ومر بقوم نيام فقال: ومن هنا تأتي الهزيمة، رغم أن هؤلاء ناموا عن صلاة مستحبة ليست واجبة إلا أن سعداً رأى أن التكاسل عن المستحبات من أسباب الهزيمة.

ومر قتيبة بن مسلم - أحد القواد الفاتحين الكبار - على محمد بن واسع - أحد عبّاد التابعين - وهو رافع أصبعه إلى السماء يدعو وكانت الترك قد أغارت على خراسان وكان قتيبة أمير خراسان فقال قتيبة: أصبعه تلك أحب إليّ من ثلاثين ألف عنان - أي من ثلاثين ألف فارس.

فكيف ينتظر المسلمون أن ينصرهم الله وقد فشا في المسلمين تضييع الصلاة والزكاة وأكل الربا وانتشرت في بلادهم الحانات والمراقص ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا انتشر الخبث وكثر عم البلاء قيل: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((نعم، إذا كثر الخبث))، وقال تعالى: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة [الأنفال]. فإذا أراد المسلمون النصر المبين فعليهم أن يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [الرعد].

ولكن المسلم لا ييأس من رحمة الله فإن الله تعالى قد ينصر المسلمين لأجل ضعفائهم من المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فقد قال : ((إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم)).

وعلى قدر ما في عامة الناس من الخير والعدل يكون الخير والعدل في أمرائهم وحكامهم قال ابن القيم – رحمه الله –: (تأمّل حكمة الله تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم و لم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط الله عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء بسواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها، وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا به عليهم..

وقيل لعلي : لم كثرت الفتن في عهدك و لم تكن كذلك في عهد أبي بكر وعمر؟ فقال : كان أبو بكر وعمر أميرين على مثلي وأنا اليوم أمير على مثلك.

أيها المسلمون: إن من أعظم مظاهر إضاعة الدين إضاعة الصلاة فكم ممن ينتسب إلى الإسلام قد أضاع الصلاة إما أنه لا يصليها بالكلية أو لا يصلي إلا الجمعة أو يضيع أوقات الصلاة.

قال : ((لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة)) وقال : ((بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة)) [مسلم عن جابر].

((الصلاة عمود الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين)).

وهي أول ما يحاسب عليه العبد وهي آخر وصايا رسول الله : ((الصلاة الصلاة)) ووصف الله تعالى المؤمنين بقوله: والذين هم على صلاتهم يحافظون.

وقال تعالى: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً.

وقد أخبر النبي أنه ستكون بعده أمراء يميتون الصلاة يصلونها في غير وقتها فقال : ((صل الصلاة لوقتها ثم صل معهم فإنها تكون لك نافلة)).

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين.

الانتفاضة وبشائر النصر

العلم والدعوة والجهاد، موضوعات عامة

القتال والجهاد، جرائم وحوادث

هيثم جواد الحداد

لندن

١٤٢٢/٢/٢٤

المنتدى الإسلامي

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- بعض جرائم اليهود على أرض فلسطين. ٢- الصراع بيننا وبين يهود ديني تأريخي حضاري. ٣- معركة اليهود معنا متعددة الوسائل والأشكال. ٤- كل مسلم معني بهذه المعركة. ٥-مقتل الطفلة إيمان حجو إحدى جرائم اليهود. ٦-معاصينا أحد أسباب الهزيمة. ٧-صور من الجهاد يستطيعها كل مسلم. ٨-بشائر النصر في الانتفاضة.

الخطبة الأولى

وبعد:

فلقد تقرحت أكباد الصالحين كمدًا مما يجري في الأرض المباركة في فلسطين الحبيبة على وجه العموم وفي ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال والتي تضاعف فيها الصلاة، مناظر مفزعة متوالية، وعربدة صهيونية غادرة، طفل قتل بطريقة وحشية تفوق تلك الطريقة التي قتل بها محمد الدرة، لكن الله لم يشأ أن تصوره عدسات مصور، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمرة يصاب في إحدى الواجهات فلا يستطيع الكر والفر، فيأتي وغد فيركله بقدمه ويطرحه أرضاً ويدوس بحذائه القذر على رقبته، والطفل يستغيث ثم ماذا؟ يصوب ذلك الحقير بندقيته على رأس الطفل ويتلذذ بإطلاق النار عليه، ليتشحط الطفل في دمائه البريئة، لينتقل إلى عليين ولتسيل دماؤه على ثرى فلسطين مسجلة شهادة على تخاذل الأمة، وهوانها.

مسلسلات من الرعب، وإراقة دماء الأطفال، بأيد قذرة، ... محمد الدرة، قبل أشـــهر، والآن إيمـــان حجو ذات الأشهر الأربع، وغيرهم من لم يقدر الله عز وجل تسجيل أسمائهم في صفحات التـــاريخ، وما ضرهم ذلك، إذا كانوا عند الله من الخالدين..

لم يكفهم القتل، بل جاوزه إلى كل ما يهلك الحرث والنسل، كما هو دأهم وديدنهم، صورة متعددة وآلام تصرع كل الجبابرة فضلاً عن الإنسان العادي.

أيها الإخوة، معاناة تصفها لنا إحدى الأمهات التي دمر بيتها "ثوان معدودة وتحول البيت وكل مـــا يحتويه من أثاث وملابس إلى كومة رماد، وأصبحت أنا وأطفالي بلا مأوى سوى من خيمة صـــغيرة نصبت لنا على قارعة الطريق لا تتسع لمكان جلوسنا، فكيف بها وقد أصبحت المكان الوحيد الـــذي يضمنا، وعليّ أن احتمل سبل الحياة البدائية، وأصبِّر زوجي وأطفالي حتى لا تتكرر الهجرة مرة ثانيـــة ويضيع ما تبقى من أرضنا"

ثم تتابع قائلة " لقد اضطررت إلى توزيع أولادي وبناتي على بيوت أقاربي بالتناوب وخاصة أن إحدى بناتي تدرس في الصف الثالث الثانوي، وهي بحاجة إلى الهدوء والطمأنينة لتذاكر دروسها وتنجح وان كنت لا ادري إلى متى سنبقى مشردين وموزعين على البيوت".

بهذه الكلمات وصفت سيدة حال أسرتها المكونة من ١٤ فرداً بعدما هدم جيش الاحـــتلال منزلهـــا الواقع في منطقة المواصي واضطرت أسرتها إلى العيش في تلك الخيمة.

المراقبون يصفون ما يجري الآن بأنه حالة حرب حقيقية، حولت ما يسمى بمناطق السلطة الفلسطينية إلى ساحات قتال حقيقية، المدفعية الثقيلة تمطر حممها فوق رؤوس العزل، وطائرات الأباتشي تصـــب جام غضبها على الرضيع، والشيخ، والمرأة والعجوز، المجترة الحديدية تعارك الجسد البشري المجرد.

شهيد تلو شهيد، أرملة تلو أخرى، ورضيع خلف أم، وأم خلف رضيع، ومنزل مهدم، وشيخ حزين، وعجوز بائسة، وإلى متى..؟؟؟

مناظر حفرت معالمها في ثنايا التاريخ، بل في ثنايا قلب كل مسلم، ملاحم تسطرها أشلاء الرجـــال، بألوان الدم القاني، وجماجم الشهداء.

وفي المحيا سؤال حائر قلق ...أين الفداء وأين الحب في الدين

أين الرجولة والأحداث دامية ...أين الفتوح على أيدي الميامين

ألا نفوس إلى العلياء نافرةٌ ...تواقة لجنان الحور والعين

يا غيْرتي أين أنت أين معذرتي ...ما بال صوت المآسي ليس يشجيني

أين اختفت عزة الإسلام من خلدي ...ما بالها لم تعد تغذو شراييني

أيها المؤمنون: الحديث عن الانتفاضة متشعب، طويل بطول هذه الانتفاضة، عميق في الجذور، بعمـــق هذه الانتفاضة، لكنه واجب كما هذه الانتفاضة واجبة.

إن كل نفس مؤمنة أبية حرة حق لها أن تتساءل إلى متى هذا الذل؟ وماذا بإمكاننا أن نفعـــل نصـــرة لإخواننا الفلسطينيين، ومتى يأتي الوقت الذي يخلى بين المسلمين وعدوهم ليشفي الله صـــدور قـــوم مؤمنين.

هذه أحد أهم القضايا التي لا بد لأهل العلم والدعاة من التركيز عليها في مثل هذه الأيام المأســـاوية التي تعيش فيها الأمة بأسرها مخاضاً صعباً.

حتى تتضح الإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من بيان حقيقة الصراع بيننا وبين يهـــود أعـــداء الله، وأحفاد القردة والخنازير.

أيها الإخوة إن الصراع بيننا وبين يهود ديني تأريخي حضاري، متشعب، لا يحده زمان ولا مكان، ولا يتخذ طبيعة واحدة.

نعم أيها الإخوة هذه طبيعة الصراع، ليس الصراع صراعاً عسكرياً في مـــدة محـــدودة علـــى أرض فلسطين، ما المعركة في أرض فلسطين، سواء التي تجري الآن، أو التي تجري من قبل سوى جزء صغير من هذا الصراع.

لا أدلّ على ذلك أيها الاخوة من إقرارنا بناء على استقراء الواقع، من أن يهود لا يحتلون أرضـــنا في فلسطين، بل في وقت من الأوقات سيطروا على أجزاء من البلاد العربية بصورة غير مباشرة قد تكون أقبح من الاحتلال العسكري، فمثلاً: كانت لهم سيطرة سياسية، اقتصادية، وبذلوا كل ما يستطيعون من أجل السيطرة الثقافية، وما لهثهم وراء التطبيع إلا جزء من إدارتهم لهذه المعركة التي أدركوا كنهها وجهلناه نحن.

إننا نعلم أن يهود يستخدمون كل ما يمكن استخدامه من أجل إدارة هذا الصراع لينتهي لصـــالحهم، خابوا وخسروا، إنهم جند من جند إبليس الذي ذكره الله عز وجل بقوله: وَاسْتَفْزِزْ مَـــنِ اسْـــتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوالِ وَالأولَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِـــدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا [الإسراء:٦٤].

ألم يأمرنا الله عز وجل بالاستعاذة من شياطين الإنس والجن، إن شياطين الإنس متمثلين كل التمثل في هؤلاء اليهود، ألم تقل بروتوكلاتهم: علينا إغواء العالم بالنساء والخمر، والقمار واللهو، وإن لم يصح نسبة هذا إليهم فواقعم يشهد بذلك.

أيها الإخوة: من أسلحتهم في هذه المعركة كما هي أسلحة إبليس، الشهوات بأنواعها، المال، النساء، الخمور، اللعب، الإعلام، ما يسمى بالرياضة، الفن، كل هذه أسلحة من أسلحتهم.

أيها المؤمنون: وعليه، فلا بد لنا من إدارة هذه المعركة بطريقة تتناسب مع زمانهـــا الممتـــد في عمـــق التاريخ، ومكانها الذي يتجاوز بقعة واحدة إلى نواحي الأرض كلها، في جميع بلاد العـــالم، بطريقـــة

تتناسب مع طبيعتها التي تتناول جميع جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية وغيرها.

إن جنود هذه المعركة ليسوا هم الفلسطينيون وحدَهم، بل المسلمون، كل المسلمين، في جميع بقاع الأرض، في أرض الحرمين، وفي الجزائر، وفي مصر، وفي الشيشان، وفي أندونيسيا، وفي السودان، بل وفي بلاد أوروبا، وفي غيرها من بقاع العالم.

أنت أيها المسلم في هذا البلد جزء من هذا الصراع، نعم جزء من هذا الصراع، شئت أم أبيت، حتى و لم تكن على أرض فلسطين، بل حتى ولو لم تقل: إنك من الأصوليين، أو الإرهابيين، أو في أقل الأحوال من الإسلاميين، نعم يا أخي، كن من تكن، فأنا منك وأنت مني، وأنا وإياك جنود في هذه المعركة، حياتي حياتك، ونصرك نصري، وهزيمتنا هزيمة للأمة جميعاً.

أيها الأخ المبارك: لست أقول ذلك اعتباطاً، ولا حماساً، ولا أقول ذلك كي أقحمك في ما لا شأن لك به؟

ألست مسلماً؟ ألا تعبد الله؟ إذاً الشيطان عدوك، وأنت عدو للشيطان، ألم يقل هذا اللعين لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [ص:٨٢]. ألست تمتنع عن الزنا؟ عن الربا؟ ألست تحاول غض بصرك عن الحرام، ألست تحاول أداء الصلاة في أوقاتها؟ ألست تسجد لله وحده؟ إن هذا كله يغيظ عدوك اللدود الشيطان الرجيم، أليس الشيطان من جند إبليس؟

ألا يتقطع قلبك حينما يتلى عليك هذا الوصف لجنازة الطفلة إيمان حجو؟

(كانت إيمان ترقد في كفنها الصغير في بيتها في مخيم دير البلح تعلو قسمات وجهها نصف صرخة لم تكتمل بعد، في الكفن كانت صغيرة وآثار شظايا القذيفة التي قتلتها واضحة للغاية، لم يأخذ جسدها الغض من النعش سوى مساحة صغيرة في وسط تلك الأكفان البيضاء النقية بنقاء من تحمل).

جاء أطفال المخيم، أمس تركوا مدارسهم وألعابهم واصطفوا في طابور طويل لا لكي يداعبوها ولكن لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة وهي تستعد لرحلة الجنة.

أطفال صغار بعمر الورد هتفوا لإيمان التي قتلتها قذيفة إرهابية صهيونية وهي في حضن أمها، جاء الأطفال لوداعها وهم لا يعرفون معنى الموت، والقذائف والدبابات التي تحاصر مخيماتهم وتحيل السعادة إلى حزن كبير.

توقفوا أمامها في فناء المنزل محدقين في وجهها الصغير، بعضهم سالت دموعهم غزيرة وآخرون ارتجفوا من هول المشهد، بينما انحنى بعضهم وطبعوا على جبينها الغض قبلة بريئة ومضوا يكفكفون دموعهم، جاءت جدتها (أم والدتها) وربتت بكفيها على رأسها وقبلتها ، نظر الرجال فهالهم المشهد وبكوا بصمت أفسح المدى لصيحات الأطفال مكبرة في الخارج: الله أكبر الله أكبر.

إيمان هي بكر والديها، طالما حلما كما يحلم كل عروسين رزقا بمولوة تملء حياقم مرحاً وسرورا بأن يرياها عروساً تزف إلى عريسها وسط الزغاريد، ولكنه اليوم يودعها رضيعة حتى قبل أن تنطق بكلمة (بابا).

كان الأب يكتم أزيزاً في صدره، لم تكتمه الدموع التي لم تفارق عينيه، وعند رأسها توقف قليلاً قبل أن يخر باكياً على وجهها قبل أن يلثمها بعشرات القبل لآخر مرة وقال باكياً: إن استشهاد ابنتي هدية لكل العرب، وأضاف ساخراً: كانت تحمل قنابل ومدافع وصواريخ ضد إسرائيل، لهذا قتلها جـــيش الإرهابي شارون.

وأضاف أن العدو الصهيوني دمر أسرتي بقتل ابنتي وجرح زوجتي، وأنا مازلت أعاني مـــن جراحـــي برصاصة صهيونية غادرة بانتظار عمليات جراحية أخرى.

تواصلت مراسم الوداع الاخيرة وانتظر آلاف الرجال والنساء في أزقة المخيم تحت حرارة الشـــمس للمشاركة في تشيع جثمانها. حضر الأطفال واصطفوا ثم حملوها على أكتافهم تماماً مثـــل الرجـــال وهتفوا: "بالروح بالدم نفديك يا شهيد" وأخذ أحد الأطفال يبكي وهو يحتضن صورة لإيمان ويقول: شارون قتل إيمان وغداً نلتقي في الجنة ، وهتف مئات الأطفال: يا شارون يا ســـفاح لـــيش تقتـــل الأطفال".

نظر كثيرون في وجوه عشرات الأطفال الذين لم ينتعل بعضهم أحذيته فشاهدوا مسحة الحزن الـــذي تسلل بوضوح من أعينهم الصغيرة وصرخ شاب: من سيكون الضحية القادمة من بين الأطفال؟

بغيُ الطغاةِ وذلٌ منْ ذوي الرحمِ ...أحلّ سفكَ دمي في الأشهر الحرمِ

يا نادب الحظ أقصرْ والتمس عوضاً...إنّ الأمانيَ طوعُ السيفِ والقلمِ

لولا العزائمُ ما سادت بها أممٌ...بالعز ترفلُ لا بالعجز والسقم

الله أكبر ما كانت لذيَ وهنٍ ...ولا تأتت لذي خورٍ وذي صممِ

يهتز منها طغاة الأرض إن برقت...فوقَ السيوف بأيدٍ حرةٍ وفم

عذراً إليك صلاح الدين في رهط...ولو تولوك وانتسبوا لمعتصمِ

أيها المؤمنون: ألا تتحرك مشاعركم لهذه المشاهد، إن تحرك مشاعركم دليل على أنكم خضتم المعركة من حيث لا تدرون.

وعليه، فإني أختصر عليك الجواب أيها الأخ وأقول لك: إن اقترابك من الله بأداء ما افترضه عليـــك اقتراب من النصر، وإن ابتعادك عن الله باقتراف ما حرمه عليك ابتعاد عن النصر، ولأنك جزء مـــن جسد هذه الأمة، وجندي في معسكرها، وواحد من قواها، فإني أقول لـــك: لا بـــد أن تـــدرك أن اقترابك من النصر إنما هو زحف من قبل الأمة كلها نحو النصر، وأن ابتعادك عن الله إنما هو نكـــوص من قبل هذه الأمة نحو الهزيمة.

هل تعلم أيها الإخ المبارك أن كل معصية تقترفها إنما هي طعنة نجلاء توجهها نحو جيشك المـرابط في ساحة المعركة، لتزيده وهناً وتقوي شوكة العدو عليه.

ألم تقرأ قول الله عز وجل: أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَاذَا قُلْ هُوَ مِـنْ عِنـدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ [آل عمران:١٦٥].

ألم تسمع إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ما وقع بلاء إلا بذنب، وما رفع إلا بتوبة).

ألا تقرأ قول الله عز وجل: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحياةِ الدُّنْيَا وَيَـوْمَ يَقُـومُ الأَشْـهَادُ [غافر:٥١].

أيها الأخ المبارك: ولا بد لنا أن نقول إنك على ثغر من ثغور هذا الرباط، فكل ما تقدمه يمثل نوعـاً من أنواع الرباط، وصوراً من صور القتال، وإعداداً للمواجهة الكبرى.

قل لي بربك: ألست قادراً على بذل شيء ولو يسير من أموالك لتدعم به إخوانك المرابطين هنـاك، ألست قادراً على اقتطاع شيء ولو من مصروف أولادك الذين يتمتعون بأكل الحلويات هنا، لإنقـاذ حياة أطفال يأكلون الثرى، ويلعقون الحنظل، ويكرون ولا يفرون أمام مجـنزرات العـدو ودبابتـه وأسلحته الخفيف منها والثقيل.

إن تربيتك لأبنائك ليكونوا أناساً صالحين، وإعدادك لهم حتى يكونوا جنود المستقبل جزء من الصراع في هذه الملحمة.

امتناعك عن أكل الربا مع بعض صوره المحببة إلى النفس، وكفك عن النظر المحرم الذي يشـق علـى النفس لا سيما في هذه البلاد ومع هذه الأجواء، وسعيك نحو الله، كل هذا كثير يمكن أن تفعلـه، في أي زمان ومكان.

أيها الإخوة: لا يأتينكم الشيطان فيقول لأحدكم: شبعنا من الكلام، ولا حاجة له، نريد أفعالاً، وهذا حق، لكنه يريد أن يتوصل به إلى باطل، ألا وهو الإلقاء بك في أغلال الحسرات والآهـات، ولـوم الآخرين، فلا أنت تكلمت، ولا استمعت إلى كلام، ولا أنت فعلت.

أيها المؤمنون: لا يأتينا الشيطان فيصور لنا أن الفعل يقتصر على الخروج للجهاد في أرض فلسـطين فقط، ويهون كل ما عداه، حتى يصور أن من لم يذهب إلى الجهاد فكأنه لم يعمل شيئا، لا وألف لا.

إن هذه الخدعة تنطوي على من لم يفهم طبيعة هذه المعركة وحقيقة هذه الملحمة، نعـم إن الجـود بالنفس هو أسمى غاية الجود، لكن من لم يستطعه فلا يعني هذه أنه عاجز عن تقديم أي شيء.

لقد ذكرنا أن المال يمكن أن يقدم، والله عز وجل قدم الجهاد بالمال على الجهاد بـالنفس في بعـض المواطن قال الله عز وجل: يأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ يَغْفِـرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَــوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف:١٠-١٣].

هذا نوع من الجهاد كذلك، وهناك أنواع أخرى كثيرة، الكاتب يجاهد بقلمه، والمتحدث بكلامه، بل ومهندس الحاسب الآلي بآلته، ربة البيت في بيتها وتربيت أبنائها على الصلاح والتقــى، الكــل لــه جهاده.

أيها الأخ: ها قد وضح لك الجواب، فلا بعد إلا العمل، وترك القعود.

أمة الإسلام:

بعد هذا البيان المتقدم لطبيعة هذه المعركة، وماهو دورنا تجاه ما يجري، يبرز هنا سؤال آخر؟

متى النصر، وربما يقول قائل: هل من سبيل إلى النصر، أم هي هزائم متلاحقة؟ ومتى ننتقل إلى النصر؟

أيها المؤمنون: هذا سؤال كبير تحتاج إجابته إلى وقفات طويلة، ومحاور عديدة، لكني هنا أريد أن أضع نقاط على بعض الحروف التي لا تقرأ بدونها؟

إن معركة بهذه الشراسة، وهذا الامتداد التاريخي، لا يكون النصر فيها محدوداً بزمــان أو مكــان أو صورة من الصور.

نعم أيها الإخوة لا زلنا نعيش صوراً متتالية متتابعة من الهزائم، لكننا منذ فترة، وبعد أن أطلت علينــا هذه الصحوة المباركة بظلالها، حولنا بعض هزائمنا لانتصارات لا يتسع المجال لذكرها.

لكنني هنا سأقتصر على الانتصارات التي حققتها هذه الانتفاضة المباركة، والتي هــي امتــداد لهــذه الصحوة العارمة التي جاوزت الأغلال والحدود الزمانية والمكانية.

أيها الإخوة لقد قلبت هذه الانتفاضة صوراً من الهزائم إلى انتصارات مشرفة.

إن إبراز هذه الانتصارات أمر في غاية الأهمية، لأمور:

أولها: إن عدم إدراكنا لها،يصورنا ويصور هذه الدماء التي سالت وما زالت تسيل، وهذه الأشلاء التي مزقت وما زالت تمزق، يصورها كأنها تضيع هباء منثوراً، وهنا يأتي المثبطــون فيقولــون: لا داعــي لضياع هذه الأرواح البريئة، وهذه الممتلكات الثمينة بدون مقابل.

ثانياً: إن شعورنا بعدم تحقيق أي نوع من أنواع النصر، يصيبنا بالإحباط، والإحباط أيها الإخوة هــو أكبر عائق لبني البشر عن التقدم إلى الأمام ولو خطوة واحدة.

ثالثا: إن معرفة طبيعة انتصاراتنا التي حققناها يزيدنا تمسكاً بل حماساً في المضي إلى الأمام، بل إن لــه أثراً كبيراً على هزيمة عدونا النفسية قبل العسكرية.

رابعا: إن هذه المعرفة تبصرنا بمواطن قوتنا فتزيد منها، ومواطن إخفاقنا فنتجنبها، ونتجنب الصــراع حولها ريثما نصحح فيها مسيرة الجيش.

أيها الإخوة: إن الشعور بالإحباط والهزيمة النفسية أسوء مراحل الهزيمة، كم من جيش هزم في المعركة العسكرية لكنه قلب هزيمته نصراً، لأن نفوس أبنائه ما زالت مستعلية منتصرة.

وعليه فلا بد لنا في حديثنا ومجالسنا وكتاباتنا وأدبياتنا بل وحتى حديثنا مع أنفسنا ومع أبنائنا أن يكون لنا إيمان عميق بهذه الانتصارات التي حققناها وما زلنا نحققها، وبعد هذه الإيمان بها لا بد من إبرازها للعيان.

أقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد:

أيها المؤمنون: الحديث حول بشائر النصر يطول، وحتى لا تأخذني نشوة هذه الانتصارات والحديث عنها فأتجاوز حدود الوقت، سأقتصر على واحد فقط من بشائر هذا النصر من خلال هذه الانتفاضة المباركة

أمة الإسلام: وحتى لا يكون الكلام مجرد حماس أجوف ليس له رصيد من الواقع، أو لا يكون من قبيل قلب الحقائق أو تزوير التاريخ، فإني سأحاول إبراز الأدلة الواقعية على كل سيأتي:

أولاً: حب الموت، واسترخاص الدنيا، والاستعلاء على خور النفس، و تحطيم رهبة العدو في النفوس.

أيها الإخوة، إن حب الدنيا وكراهية الموت، هي من أهم أساب هزيمة أي أمة من الأمم، وهي سبب هزيمة الأمة المسلمة في كثير من عصورها.

قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم كما في حديث الإمام أحمد وأبي داود عن ثوبان رضي الله عنه: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: يا رسول الله ! فمن قلة يومئذ؟ قال : لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت))(١)[١].

لقد انتصر الفلسطينيون على حب الدنيا وكراهية الموت، وهذه نقلة كبيرة في حياتهم، تجعلهم يطرقون أبواب النصر بإذن الله.

الشواهد على استعلاء الفلسطينين على حب الدنيا وكراهيتهم للموت، بل الشواهد على حبهم للموت أصبحت أكثر من أن تحصى.

في مثل هذه الأيام أي قبل ثلاث وخمسين سنة، وفي هذا الشهر، الذي سموه شهر النكبة، كانت قوات العدو تمارس أبشع المجازر وأفظعها، وتتلذذ بقتل الرجال والنساء على حد سواء، مما ذكرنا بعض صوره في مذبحة دير ياسين، لكني هنا أذكر شواهد أخرى لم يعرفها إلا القليل من الناس.

إحدى المجازر التي ارتكبتها عصابات اليهود، تدعى مجزرة الطنطورة قام بها الجنود الصهاينة(٢)[٢]، لم يكشف عنها إلا مؤخراً، ارتكب اليهود مجزرة تشبه مجزرة دير ياسين، حيث قتلوا أكثر من ٢٠٠ فلسطيني بدم بارد – كما يقال –، يروي أحد شهود العيان الذي حضر هذه المجزرة وقد طعن في السن الآن بأن الجنود اليهود بعد أن جمعوهم في مكان واحد، كانوا يأخذونهم عشرة، عشرة، ويطلقون النار عليهم، ثم يأمرون أصحابهم بتنظيف المكان ليذبحوا العشرة التالين وهكذا.

قال بعض الرواة في هذه القرية: حاصروا بعض الرجال في المقبرة وأمروهم بحفر الحفر حتى إذا قاربوا من الانتهاء من حفرها أطلقوا على النار ليقبروهم فيها وبعض الباقين يتفرج، لدرجة أن بعض الجنود كان يضحك ويقول لصاحبه: انظر إلى هؤلاء الحمقى يحفرون قبورهم بأيديهم.

راو آخر يقول: كان لي أخوان يحضران هذه المذبحة، علموا أن الدور سيأتيهم فتعانقا قبل الذبح.

شاهد آخر يقول: اقتادوا مجموعة من الناس كان فيهم فتاة جميلة لا تتجاوز السبعة عشر عاماً أخذها أربعة من الجنود، حاول عمها الدفاع عنها لكنهم أجهزوا عليه، ثم يقول الراوي عن الفتاة التي يعرفها، لا أعرف بعد ذلك إلا أنها لم تتزوج في حياتها أبداً.

كرامة الأمة العصماء قد ذبحت ......وغيبت تحت أطباقٍ من الطين

لكنّها سوف تحيا من جماجمنا......وسوف نسقي ثراها بالشرايينِ

قارن هذه المشاهد بما يحدث الآن:

نشرت جريد الحياة(٣)[٣] قبل أشهر والانتفاضة على أشدها، عن سامي سكر أحد الفلسطينين الذي يعيشون في إحدى قرى الضفة الغربية أنه يحاول الانتقال بأولاده الثلاثة إلى عمان، وكان سبب طلب انتقاله عجيباً غريباً، فليس طلبه ذلك خوفاً على نفسه من الموت لأجل الرعب الذي دب في قلبه.

لا، لقد أصيب ابنه الأكبر ثائر في عيار ناري في قدمه، ثم أصيب ابنه الأصغر، ثم الثالث الذي يبلغ من العمر عشر سنوات بعيار مطاطي في قدمه، وما إن تماثل الأكبر للشفاء حتى عاود محاولة رشق الجنود بالحجارة مرة أخرى، تقول والدتهم: لا نتستطيع أن نثينهم عن الخروج، لما سمعوا أن الذي يموت في المواجهات مع اليهود يموت شهيداً فهم يطلبون الشهادة منذ ذلك الحين، وفقدنا السيطرة عليهم.

الله أكبر أيها المؤمنون بهؤلاء الفتية وبهذه الدماء تقرع الأمم أبواب النصر.

هتف الجهاد بإخوتي ......فمضوا بلا استئذاني

سأعيد أرضي بالدم ......القاني وبالنيراني

والله لن يطأوا الثرى ......إلا على جثماني

صورة أخرى فتاة مقدسية تتلقى تعليمها في دار الحديث في المسجد المقدسي، تدفع نعمة بصرها ثمنا لرفضها خلع خمارها بطلب من جنود الاحتلال.

استوقفها ثلاثة جنود، بعد ذلك قال لها أحدهم: اخلعي الخمار عن وجهك الآن، فرفضت، قالت: فمد يده بقوة ومزقه عن وجهي، وفوراً بصقت في وجهه، وأضافت تقول في تلك اللحظة: انهال الجنود عليّ وضربوني بأعقاب البنادق على رأسي فقدت الوعي وصحوت لأجد إلى جانبي مجموعة من الأطفال الصغار يرشون الماء على وجهي وعدت إلى البيت.

بهذه الكلمات تروي الفتاة شفاء تيسير الهندي من بلدة الجديرة المقدسية تروي قصتها مع نازية جنود الاحتلال في القدس المحتلة، وتكون النتيجة أنها تفقد بصرها، لنبشرها بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم كما في جامع الترمذي عن أبي هريرة: ((يقول الله تعالى: من أذهبت حبيبتيه فصبر و احتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة))(٤) فكيف بالله عليكم، وقد أصابها ما أصابها ثمناً للدفاع عن كرامة أمتها ودينها.

أصدرت محكمة عسكرية إسرائيلية حكماً بالسجن لمدة ستة سنوات ونصف بحق أصغر أسيرة فلسطينية في السجون الإسرائيلية وهي سعاد حلمي غزال من بلدة سبسطية قضاء نابلس والبالغة من العمر ١٧ عاماً.

وكانت قوات الاحتلال قد اعتقلت تلك الفتة قبل سنتين(٥) على خلفية محاولة طعن مستوطنة إسرائيلية، وتم اعتقالها ونقلها إلى مركز التوقيف حيث تعرضت هناك لتعذيب شديد رغم صغر سنها إذ لم تكن تتجاوز في حينه ١٥ عاماً.

وأكدت مؤسسة التضامن الدولي لحقوق الإنسان أنه وفور صدور الحكم بحق الأسيرة غزال رفعت نسخة من القرآن الكريم عالياً وهتفت ضد المحكمة الإسرائيلية قائلة " الحكم لله والبقاء لله، وسوف ينتقم الله منكم " وقامت بتحقير قضاة المحكمة والبصق عليهم(٦).

الله أكبر والحمد لله أنها لم تستغث بأحد من رؤسائنا فقد علمت كيف سيكون الجواب.

أمتي هل لك بين الأمم ....منبر للسيف أو للقلم

أألقاك وطرفي مطرقٌ خجلاً ....من أمْسك المنصرمِ

ويكادُ الدمعُ يهمي عاتبًا ....ببقايا كبرياءِ الألمِ

ألإسرائيل تعلو رايةٌ ....في حمى المهد وظلِّ الحرمِ

كيف أغضيتِ على الذلِّ ....و لم تنفضي عنك غبار التهم

أو ما كنت إذا البغيُ اعتدى ....موجةٌ من لَهَبٍ أو من دمِ

اسمعي نوحَ الحزانا واطرَبي ....وانظريِ دمع اليتامى وابسمي

رُبَّ وامعتصماه انطلقت ....ملءَ أفواه الصبايا اليتم

لا مست أسماعهم لكنها ....لم تُلامس نخوة المعتصم

أمتي كم صنم مجدته ....لم يكن يحملُ طهر الصنم

لا يلامُ الذئبُ في عدوان......إن يكُ الراعي عدوَّ الغنم

أيها الإخوة:

من كان يصدق أن ينفجر الغضب الفلسطيني علي النحو الذي رأيناه في القدس ورام الله وابلس وغزة ، وأن يخرج ألوف الشباب بالحجارة ، متحدين المجترزات والصواريخ والرشاشات الإسرائيلية .

أيها المؤمنون: إن الرد علي الحجارة بالصواريخ ليس علامة قوة ، وحشد أرتال الجنود أمام المصلين في المسجد الأقصي تأكيد للهشاشة والضعف . ودخول شارون إلى الحرم الشريف في حراسة ثلاثة آلاف جندي هو إعلان رسمي عن الخوف . واستخدام عشرات القناصة المتمرسين وراء الجدران العالية دليل علي العجز عن المواجهة .

إن الخلل في ميزان القوة العسكرية بين العرب وإسرائيل وهم كبير ، تخلص منه أولئك الشبان الشجعان في الأرض المحتلة وجنوب لبنان ، لذلك فإنهم لم ينهزموا قط ، وإنما ثبتوا وصمدوا حينا وانتصروا في حين آخر ، وظلوا مرفوعي الرأس دائماً . ولا خشية علي هؤلاء ، وإنما الخشية كل الخشية علي عناصر النخبة الذين عجز أكثرهم حتى الآن عن إدراك الحقيقة ، ولايزالون أسرى الأسطورة الزائفة .

لولا الحجارة في أيدٍ تلت قسماً...وايمُ اللهِ من قسمِ

لقلتُ ضاعت وكانت أخت أندلس ... يوم استبيحت وكانت أولَّ الذممِ

قبضاً على الجمر يا أبطالها ولكم... في الله عون لا من أمة هرم

والفجر آذن بالإبلاجِ من ظلمٍ ... والنصر وعدٌ وحق الوعدُ في الكلم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران١٣٩-١٤٢].

وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [النساء:١٠٤].

أيها الفلسطينيون:

يا أيها الأسد الكواسر أبشروا......النصر لاح مع الصباح فكبروا

لبيك إسلامنا إنا هنا......فلتفدك الأرواح منا والدماء

أيها المؤمنون: كما ذكرنا من قبل: بواشر النصر كثيرة، وشواهدها أكثر، لكن ضيق الوقت يمنعنا من الإتيان عليها في هذه العجالة، وإن كتب الله في العمر بقية أتممناها لاحقاً.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، وانظره في صحيح الجامع للألباني رقم: ٨١٨٣.

(٢) كشف النقاب عنها بحث ميداني للحصول على درجة الماجستير من جامعة حيفا قام به يهـــودي يدعى ثيودور كاتس.

(٣) عددها الصادر يوم الأحد ١٥ شعبان ١٤٢١ نوفمبر ٢٠٠٠ أي في قلب الانتفاضة.

(٤) صحيح) انظر الحديث رقم: ٨١٤٠ في صحيح الجامع.

(٥) بتاريخ ١٩٩٨/١٢/١٣ مستوطنة " شافي شمرون " سالم " القريبة من مدينة جنين

(٦) فلسطين - خاص : ٧-١١-٢٠٠٠م.

النصر الموعود

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد

وجدي بن حمزة الغزاوي

مكة المكرمة

١٤٢٢/٧/٢٤

المنشاوي

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- مجيء الفتن بين يدي الساعة. ٢- حتمية ظهور الإسلام على سائر الأديان. ٣- بقـــاء الطائفـــة المنصورة إلى قيام الساعة. ٤- سنة الله ماضية في عذاب الأمم الكافرة السابقة. ٥- جعل الله جهـــاد الأعداء عذاباً للأمم الكافرة. ٦- حتمية انتصار المسلمين على عدوهم. ٧- الثقة بنصر الله في وقـــت الشدائد. ٨- ضرورة أخذ المسلمين بالأسباب المادية. ٩- لا يرضى الأعداء منا إلا أن نتـــرك ديننـــا ونتبعهم في دينهم.

الخطبة الأولى

أما بعد:

فإن أصدق الكلام كلام الله تبارك وتعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد:

فإن بين يدي الساعة ـــ معاشر المؤمنين ـــ كما أخبر الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه فتنًا كقطع الليل المظلم(١)[١]، فتنٌ يفتتن بها العالم والصالح والحليم، فتنٌ لا عاصم منها ـــ بعد الله عز وجل ـــ إلا النظر في سنن الله عز وجل الكونية، ومعرفة أصولٍ ثابتةٍ لا تتغير ولا تتبدل.

وقد أردت لنفسي ولإخواني في هذا اليوم المبارك أن نتدارس أصولاً خمسة ينبغي ألا تغيب عن ذهن المؤمن ولا عن قلبه؛ علَّه يتسلى بها، وتكون عونًا له على الثبات في الفتن والمحن، عصمنا الله وإياكم من شرها وفتنها.

أما الأصل الأول ـــ معاشر المؤمنين ـــ الذي لا ينبغي أن يغيب عنك أيها العبد المؤمن، وهو أن الله عز وجل إنما أرسل رسوله بهذا الدين ليظهره على الدين كله هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: ٣٣].

فأول ما يجب عليك أن تعلمه ويتيقن قلبك له وبه، أن هذا الدين سيظهره الله على كل دين، وأنه أرسل رسوله بهذا الهدى، وبهذا الحق ليبلغ ما بلغ الليل والنهار، كما في صحيح مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه أن النبي قال: ((إن الله قد زوى لي الأرض ـــ أي جمعها ـــ فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغها))(٢)[٢]، وفي حديث آخر يقول : ((ليبلغن هذا الأمر ـــ أي دين الإسلام ـــ ما بلغ الليل والنهار)) وهل هناك قطعة من الأرض لا يبلغها ليل أو نهار أيها المؤمنون؟! ((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ـــ بادية وحاضرة ـــ إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر))(٣)[٣]

يعني يبلغ هذا الدين وينتشر هذا الإسلام، ويدخل كل بيت في الحاضرة والبادية بأحد خيارين: إما بعزٍ يسلم أهل ذلك القطر، ويؤمنون بالله واليوم الآخر فيعزهم الله، وإما بذلٍ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [التوبة: ٢٩] ذلاً يذل الله به الشرك وأهله.

يقول تميم الداري : (قد عرفت ذلك في أهل بيتي؛ لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية)(٤)[٤].

هذا أمر وأصل ينبغي ألا يغيب عنك أيها العبد المؤمن، أن الله ما أنزل هذا الدين ولا أرسل رسوله إلا ليظهره على الدين كله، وأنه بالغ ما بلغ الليل والنهار، فكن ممن يسهم في هذا الأمر وفي هذا النصر الذي لا يخلفه ربنا جل وعلا.

وأما الأصل الثاني ـــ معاشر المؤمنين ـــ الذي ينبغي أن تعيه وتنظر إليه بقلبك وعينك هو أنه لا تزال طائفة على الحق منصورة، مهما كثرت الفتن ومهما كثرت المعسكرات من معسكرات نفاقٍ وكفر

وغير ذلك، فإن الله عز وجل قضى بحكمته وبرحمته أنه لا تزال طائفة على الحق منصورة، طائفة على ما كان عليه النبي صلوات ربي وسلامه عليه، في العقيدة والشرع والمنهج، في العمل وتطبيق هذا الشرع، وهذا أصل لو عرفه العبد المؤمن سينشرح صدره ويحرص أن يكون من هذه الطائفة، من طائفة الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس، أو يصلحون إذا فسد الناس.

فلا تيأس يا عبد الله، واعلم أنه ما من بقعة على وجه الله إلا وعليها طائفة على الحق منصورة بإذن الله تبارك وتعالى.

وأما الأصل الثالث ــ معاشر المؤمنين ــ الذين ينبغي أن يفهمه المؤمن، ويضعه نصب عينيه ويعيشه، هو أن الله عز وجل بحكمته وعلمه جل وعلا قضى أن يعذب من يكذب أنبياءه ورسله، فما من نبي كذبه قومه وآذوه إلا عذبهم الله عز وجل، فأرسل على قومٍ ريحًا، وخسف بآخرين، وأمطر حجارة من السماء على أقوام أخر، يعذب الله كل أمة تكذب برسلها، إلا أمة المصطفى ، شرع لنا ربنا عز وجل أمرًا آخر، لا يُهلِك أعداءنا من عنده، وإنما أمرنا ربنا بقوله: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ [التوبة: ١٤]، فبين جل وعلا أنه ينبغي على أمة النبي أن تقاتل أعداءها، فإن هي فعلت فإن الله يعذب أعداءها ولكن بأيدي المؤمنين، ويخزي الكافرين، وينصر المؤمنين عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين.

وهذه سنة ينبغي أن يضعها العبد نصب عينيه؛ فلا يمكن هلاك الأعداء في سنة الله التي اختارها لأمة النبي دون جهد ودون عناء ودون تضحية من المؤمنين، لا تنزل عليهم صاعقة من السماء دون أن يأخذ المؤمنون بالأسباب، ويعدوا ما استطاعوا من قوة، ويقاتلوا أعداء الله عز وجل قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ.

ولعلكم ــ معاشر المؤمنين ــ تذكرون ما وقع في غزوة الأحزاب، إذ كان النبي وأصحابه في ضعف وعوز، وكان الرجل منهم يربط الحجر على بطنه من الجوع، فتآلبت عليه الأحزاب وجاءته قريش بعشرة آلاف كافر مقاتل يريدون أن يقاتلوا تلك العصابة المؤمنة، فلما أخذ المؤمنون بالأسباب وحفروا الخندق نصرهم الله عز وجل وسلط على أعدائهم ريحًا لا يستقر معها قِدْر، ولا يستضيئون بنار حتى قال أبو سفيان لمن معه: لا مقام لكم، فأخزاهم الله عز وجل وردهم بعد أن قام المؤمنون بجهد يسير هو كل ما يستطيعونه(٥)[٥].

فاعلم هذا ــ أيها العبد المؤمن ــ، واعلم أنه ما من أمة حوربت على وجه الأرض، ولا دين حورب وأوذي أهله مثل دين الإسلام، ولكن الله عز وجل سينصر جنده وعباده المؤمنين، وعدًا عليه حقًا جل وعلا.

وأما الأصل الرابع ــ أيها العبد المؤمن ــ فهو أن تعلم أن الثقة بنصر الله عز وجل لا تكون في وقت الرخاء، فهذا أمر يستطيعه كل أحد، من السهولة بمكان والإنسان ينعم بأمن وآمان، ويسر وسهولة

ورخاء أن يقول: وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ [آل عمران: ١٢٦]، وأن يعلم أن ما أصـــابه لم يكـــن ليخطئه، ولكن الإيمان الحقيقي أن تدرك ــ أيها العبد المؤمن ــ وأن تؤمن وتستشعر بأن النصر قادم لا محالة، وأنت في الشدة، بل وفي قمة الشدة.

ومن تأمل سيرة المصطفى وجد أمرًا عجبًا، فهذا سراقة بن مالك وهو يطارد النبي ، والنبي طريـــد لا يملك شيئًا يعد سراقة بسواري كسرى(٦)[٦]، ولما جاءه عدي بن حاتم فقال له : ((ما منعـــك أن تسلم؟)) أو قال له: ((أما إني أعلم ما يمنعك من الإسلام، تقول: اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة لـــه، وقد رمتهم العرب))، أي تخشى يا عدي أن تنضم إلى فئة ضعيفة، فبشره الـــنبي فقـــال: ((أتعـــرف الحيرة؟)) قال: سمعت بها وما رأيتها، فأخبره أن المرأة تسافر من الحيرة إلى مكة تطـــوف بالبيـــت لا تخاف أحدًا، وقال له: ((تعرف كسرى بن هرمز؟ ستفتح مدائنه وينال أمتي كنوزه)) أو كمـــا قـــال (٧)[٧].

ويوم الأحزاب ــ معاشر المؤمنين ــ لما أمر النبي أصحابه بحفر الخندق، فعرض للصحابة رضـــي الله عنهم صخرة في مكانٍ من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال البراء بن عازب: فشكونا إلى رســـول الله ، وجاء رسول الله ، ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول، فقال: ((بسم الله))، فضـــرب ضـــربة فكسر ثلث الحجر، وقال: ((الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمـــر مـــن مكاني هذا))، ثم قال: ((بسم الله))، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقـــال: ((الله أكـــبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا))، ثم قال: ((بسم الله))، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: ((الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا))(٨)[٨]، فبشر النبي أصحابه والأحزاب يحيطون بهم، وهـــم ضعفاء مستضعفون، واليهود من حولهم بشرهم بفتوحات ثلاث، وهذا هدي المؤمن ينبغي أن يثـــق بنصر الله عز وجل وفتحه، وأنه آت لا محالة، وقت الشدة ووقت العسرة، لا وقت الرخـــاء ووقـــت اليسر والأمن.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يحفظ علينا ديننا، أقـــول قـــولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آل بيته الطيـــبين الطاهرين، وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الـــدين، وعنـــا معهم بفضلك ومنك وكرمك يا أرحم الراحمين، ثم أما بعد:

فأما الأصل الخامس الذي يستأنس به العبد المؤمن في زمن الفتن والمحن والبلايا أن يضع نصب عينيه حقيقة قرآنية نص عليها ربنا جل وعلا، وهي أنه مهما فعل المؤمن، ومهما قدم من تنازلات، فإنه لا يمكن أن يرضي أعداء الله عز وجل إلا في حالة واحدة، بينها ربنا لنبيه : وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ [البقرة: ١١٩] قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ [البقرة: ١٢٠]، فبين جل وعلا لنبيه وهو سيد الخلق وأرحمهم، وأعلمهم بالسياسة وأحكمهم وأحسنهم حكمة وتعاملاً مع عباد الله عز وجل، كيف لا وهو الرؤوف الرحيم بالأمة، وهو الذي قال له ربه: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أي مهلكها أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ [الشعراء: ٣] ومع ذلك، مع كل ما أوتي من صفات وقدرات، فهو مع ذلك يخبره ربه بأنه لا يمكن له أن يرضي اليهود والنصارى، مهما فعل إلا إذا اتبع دينهم وملتهم، ثم بين جل وعلا أهم ليسوا على دين، وليسوا على ملة فقال: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ ماذا يحدث؟ لا أقول للمؤمن أو للمسلم أو لضعيف الإيمان الفاسق، بل لسيد الخلق مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ، لا ينصره الله، ولا يتولاه إن هو أطاع أهواء أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

والله عز وجل ــ معاشر المؤمنين ــ أخبرنا، وهو الذي يعلم من خلق، ويعلم السر والنجوى فقال سبحانه: يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [التوبة: ٣٢]، فبين سبحانه أهم يريدون إطفاء نور الله وهو الإسلام، وشرعه الذي أنزله على نبيه ، فماذا رد الله عليهم؟ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ سيتم هذا النور، وسيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، فلا ينبغي لمسلم يؤمن بالله وبهذه الآيات أن يتنازل أو يرضى الدنية في دينه حتى يرضي يهوديًا أو نصرانيًا، فإنهم لن يرضوا حتى يكفر العبد بالله عز وجل، ويقول: عزير ابن الله، أو عيسى ابن الله، حينها يرضون عنه أتم الرضى فيخسر الدنيا والآخر ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الزمر: ١٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠٤/٣٢) [١٩٧٣٠] وأبو داود في الفتن [٤٢٥٩]، وابن ماجه في الفتن [٣٩٦١]، من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وصححه ابن حبان [٥٩٦٢]، وهو في صحيح سنن أبي داود [٣٥٨٢]، وأخرجه أحمد (٣٥٣/٣٠) [١٨٤٠٤]، والحاكم (٥٣٠/٣) من حديث النعمان بن بشير، وأخرجه أحمد (٣١/٢٥) [١٥٧٥٣]، والحاكم (٥٢٥/٣) أيضًا من حديث الضحاك بن قيس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن [٢٨٨٩].

(٣) أخرجه أحمد (١٥٤/٢٨ ــ ١٥٥) [١٦٩٥٧]، والبيهقي (١٨١/٩) من حديث تميم الداري، وصححه الحاكم (٤٣٠/٤)، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (١٤/٦): "رجاله رجال الصحيح". وصححه الألباني على شرط مسلم في تحذير الساجد (ص١١٨ ــ ١١٩).

(٤) كلام تميم هذا قاله بعدما ذكر الحديث السابق: ((ليبلغن هذا الأمر...)).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٣٠ ـــ ٢٣٣).

(٦) علقه ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/٥٨١) عن ابن عيينة، عن أبي موسى، عن الحسن مرســـلاً. وانظر: الإصابة (٢/١٩)، وأحاديث الهجرة للدكتور سليمان سعود (ص ١٥٠ ـــ ١٥١).

(٧) أخرجه أحمد (٣٠/١٩٦ ـــ ١٩٧) [١٨٢٦٠]، والحاكم (٤/٥١٨ ـــ ٥١٩)، وأصل الحديث في صحيح البخاري، كتاب المناقب [٣٥٩٥].

(٨) أخرجه أحمد (٣٠/٦٢٥ ـــ ٦٢٦) [١٨٦٩٤]، والنسائي في الكبرى [٨٨٥٨]، وأبـــو يعلـــى [١٦٨٥] من حديث البراء بن عازب، وصححه أبو محمد عبد الحـــق كمـــا في تفســـير القـــرطبي (١٤/١٣١)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/٣٩٧)، وأخرج نحوه النسائي في الجهاد عن أبي سكينة عن رجل من أصحاب النبي وحسنه الألباني في صحيح السنن [٢٩٧٦]، وكـــذا البيهقـــي في الـــدلائل (٣/٤١٧) من طريق ابن إسحاق قال: حدثت عن سلمان وذكر نحو القصة. وهذا إسناد منقطع.

سبيل الوحدة وطريق النصر

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد، المسلمون في العالم

سعود بن إبراهيم الشريم

مكة المكرمة

١٤٢٣/١/٢٩

المسجد الحرام

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- التحذير من الافتتان بالدنيا والانغماس في ملذاتها. ٢- ضرورة الحديث عن الوحدة. ٣- الوحدة مطلب ضروري. ٤- الوحدة لا تبنى على أساس اللغة ولا على أساس العِرق. ٥- لا وحدة إلا على أساس عقيدة الإيمان. ٦- معايير الوحدة الحقة. ٧- النصرة من لوازم الوحدة. ٨- مثلان للتضـــحية والخذلان. ٩- فلسطين نقطة الارتكاز في ميدان القضايا الإسلامية والجهاد الإسلامي. ١٠- أسباب النصر والهزيمة. ١١- تقوية الثقة بالله تعالى. ١٢- ما الواجب على المسلمين؟

الخطبة الأولى

أما بعد:

فيا أيها الناس، في دنيانا المحيطة بنا أمثلة وضروب تتلوَّن وتتجدد، ثم إن بعضها يتبع بعضاً على وجه المطالبة الحثيثة بحيث إن النفوس المؤمنة تستمرِئها بسبب تتابعها رويداً رويداً، حتى تألفها فلا تكاد تتحوّل عنها.

وهذه الأمور ــ عباد الله ــ إنما هي نماذج لأحزان وأشجان وقروحٍ تمسّ بلاد الإسلام حسيّة ومعنوية، مما يجعلها سبباً لكثير من الناس في أن يسعَوا جاهدين على إزالة همومهم وغمومهم بشيء من الكيوف الموقوتة والسراب الخادع، من كل ما هو من زخرف الدنيا وزينتها. والذي يجب على المسلمين جملةً أن لا يغترّوا بما يرونه من زخرف الحياة الدنيا وزينتها في أمةٍ تقطّعت روابطها وانفصمت عُراها، وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحياةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه:١٣١].

من أجل الدنيا وزينتها يغشّ التجار ويطفّفون، ومن أجل الدنيا يتجبّر الرفعاء ويستكبرون، من أجل الدنيا وزخرفها يروّج الصحفي بقلمه الكذب والزور، ويخفي الحقائق وهي أوضح من فَلَق الصبح، من أجل الدنيا يصبح المرءُ مسلما ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا مقيت.

كل الناس على هذه البسيطة يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها، من مُترَفٍ مبطونٍ يأكل ولا يشبع، داؤه العُضال هو أن تذكّره بذوي المسغبة أو المسكنة، أو المصاب الجلل من بني ملّتِه، ومن قارونيّ يجمع ويجمع، ثم يأخذ ويمنع، ومصابُه الجلل في أن تحثَّه على الإنفاق في سبيل الله جهاداً ودعوةً وصدقةً، ومن شباب وفتياتٍ دُعُوا إلى الفضيلة فأبوا، ونودوا إلى صيانة النفس فتمرّدوا، وألقوا [ثيابهم] لكل قادم ناهب، وكشفوا أوعيتهم لكل سَبُعٍ والغ.

والحق ــ عباد الله ــ أن هذا الانطلاق المحموم في مهامِه الحياة ودروبها أفراداً ومجتمعاتٍ دون اكتراث بما كان وما يكون، أو الاكتفاء بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة أو الأعراض المخوفة، الحق أن ذلك نذير شؤم والعياذ بالله، وقد عدّه الله سبحانه سمة من سمات المنافقين الذين لا كياسة لديهم ولا يقين لهم: أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ [التوبة:١٢٦].

أيها المسلمون، في الليلة الظلماء يُفتقد البدر، وفي لهيب الشمس وسموم الحر يُستطلب الظل وتستجلب النفحات، وما أروع العدل حين يطغى الجور، والإنصاف حين يعلو الغمط، والوقوف مع

النفس في مكاشفة ومصارحة في عصرٍ غلبت عليه المجاملات والرتابة، والفرقة والوحشة، والتناصُر بين النفوس شذر مذر.
ومن هنا يأتي الحديث ضرورياً عن الوحدة والاجتماع، والتآلف والتآخي، والتناصر والتكاتف، في عصر كثرت فيه الموجعات، وقلّت فيه الرادعات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.
أيها المسلمون، لطالما تحدّث المتحدّثون، وهتف الهاتفون من أمة الإسلام بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية راسخة الأسس شامخة المعالم، تَطال أمة الإسلام طُراً، حتى تكون بعد ذلك صخراً صلداً تتحطّم أمامه أمواج الضعف وتتخاذل.
وهذه الدعوة في حقيقتها ليست مستحيلة ولا ضرباً من التخييل أو نزوةً من أحلام اليقظة، كلا عباد الله، فلو كان الأمر كذلك لما حظّ الباري جل شأنه عبادَه المؤمنين على أن يكونوا إخوةً في الله متناصرين معاونين، تجمعهم كلمةٌ واحدة ورابطة واحدة، وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ [التوبة:٧١]، ولما حرَّض رسول الله على أن يتلاحم المسلمون، ويكونوا كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.
غير أن السؤال الذي قد يشغل بال الكثيرين هو: كيف نبني هذه الوحدة؟ وعلى أي أساس يجب أن تنهض ليشتد عودها، ويستقيم ظلها؟ أتُقام هذه الوحدة على أساس من اللغة؟ لا، فاللغة وحدها غير كافية، إذ قد يكتنفها مسلم وكافر، فضلاً عن أنه لم يكن اللسان يوماً ما هو سبيل الاتحاد والوحدة، فكم هم الذين يتكلمون بلغتنا ومن بني جلدتنا، وهم في الحقيقة شياطين في جثمان إنس، كما وصفهم النبي بذلك عند مسلم في صحيحه(١)[١].
أفتقام إذاً هذه الوحدة على أساس من الجنس؟ كلا، فالجنس وحده ليس معياراً يُعتمد عليه، أو يُجعل تِكأةً للائتلاف العميق، فالإسلام لا يقيم للجنس في تقديره وزنا، فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، وإن كان لهم من أصلهم نسبٌ يفاخرون به فإنه لا يعدو كونه الطين والماء، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات:١٣].
إذاً على ماذا تقام هذه الوحدة؟ وبأي شيء تكمُل؟ إنها لا تقوم حقيقةً إلا على أساس يجمع الأرواح قبل أن يجمع الأشباح، ويقنع العقول إثر سيطرته على القلوب، ويؤلف بين الرغبات والأهواء كما يؤلّف بين النبات والماء، هذا الأساس بكلّه هو عقيدة الإيمان المستقرّة في الخواطر والصدور، وملةُ الإسلام التي تُظِل أبناءها جميعاً ليتفيّؤوا ظلالها بلواء العلي الغفار، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ [البقرة:١٣٨].
إنه يجب علينا جميعاً أن نؤمن بأن الدعوة للوحدة ليست عصبيةً أو جنسيةً أو إقليمية، أو تأليباً على الشر، أو اعتزاماً للبطش والعدوان، بل هي الوحدة المؤمنة العادلة التي يلزمها أن تقوم للناس بالحق والقسط، والدين الإسلامي هو أقوى وَتَرٍ حساسٍ في نفوس المؤمنين، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم،

وتباين أقطارهم وبلدانهم، ولن تجتمع كلمتهم يوماً ما دون أن تُؤَسلم قضاياهم، وتُحدد معاييرها من خلال الإطار الإسلامي الخالد، والإسلام بحقيقته ليس إلا.

والإسلام في حقيقة أمره إنما انطلق في وحدته من خلال توحيد الخالق سبحانه وتعالى: اللَّهُ لاَ الــه إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة:٢٥٥]، ووحدة الرسول : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ [الفتح:٢٩]، ووحدة الــدين: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ [آل عمران:٨٥]، ووحدة الكتاب: إِنَّ هَاذَا الْقُرْءانَ يهْــدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ [الإسراء:٩]، ووحدة القبلة: فَوَلّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة:١٤٤]، ووحدة الأمة: إِنَّ هَاذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَــاْ رَبُّكُــمْ فَاعْبُــدُونِ [الأنبياء:٩٢].

هذه هي معايير الوحدة الحقة، وأي وحدة سواها فهي كالظئر المستأجرة أو النائحة المزوَّرة.

عباد الله، إن من مكمِّلات الوحدة وتداعياتها نصرة الأخ المسلم، وخوض ميدان دعمه حال اشتباكه مع قوى الباطل، في معركةٍ موصولةِ الكرِّ والفرِّ، ولا يحصل مثل ذلك إلا بترويض النفس على شــيء من المجاهدة والمثابرة، وحمل همّ الإسلام لنضمن شيئاً من الكفاية ونتقي الفضول، ولنكون أعون شيء على رفع مستوى الثغور والجبهات لأمة الإسلام، وتوفير العزة إرضاءً لله سبحانه، فإنه ــ ولا شــك ــ لا يتفق طمعٌ في الدنيا وانتصار للمثل العليا، كما أنهما لا ينسجمان ألبتة، حرصٌ على إعلاء كلمة الله وحرصٌ على تكثير المغانم والعبِّ منها كما الهيم، مع استرضاء الخلائق واستزدائهم بالخور والجبن.

وفي التفاتةٍ سريعة إلى دنيا الناس في مجملها تجاه النصرة والخذلان والرفعة والدون، فإنهــا يُمكِــن أن تصوّر لنا الناس كحال رجلين اثنين: إما رجلٌ له مال وبنون، طال أجله، وأدبر شبابه، وكان واجبــاً عليه أن يتهيّأ للآخرة بزاد حسن، ومثلُه لو قتل في سبيل الله فإنه لم يترك وراءه شيئاً يخــاف عليــه الضيعة، لا الزوجة العجوز ولا الأولاد الكبار، ومع هذا فهو أشبه ما يكون بشيطان أخرص أو ناطق، يفرق من كلمة حق، ويوجل من موقف شرف، ويتشبث بأذيال الحياة طلباً للمزيد بنهمٍ وسعار، وفي المقابل مثل شباب لهم آمال، وتعتريهم صبوات أيما صبوات، ولهم أحمال، وعليهم أعباء، ومثلهم لــو توثّقت علائقهم بالدنيا أو قهرتهم الصبوة بكلكلها لما كان في سيرتهم كبير عجب، ومع هــذا كلــه يذهلون عن الدنيا المقبلة، ويتركون ذريةً ضعافاً خافوا عليهم، ويقبلون على نصرة ديــن الله بنُبــل وجلال.

هذان مثلان مضروبان، يمكن تنزيلهما في واقع الناس على كافة المحاور، شعوباً وحكوماتٍ، وأفــراداً كلٌّ بحسبه.

ومن باب أن الشيء بالشيء يُذكر، فإن المؤمن الصادق لا يملّ كثرة الحديث عن ثالث المســجدين، وعن مسرى رسول الله ، عن فلسطين الآبية؛ لأنها اليوم تُعدّ نقطــة الارتكــاز في ميــدان القضــية الإسلامية والجهاد الإسلامي، وقضيتها حديث القضايا الإسلامية، وساحتها محطّة امتحان وكشــف

لقوّة المسلمين وغيرهم على دينهم وأوطانهم وحرماتهم، فهي أرض المسلمين، ولا تصلح إلا للمسلمين، أرضٌ أظهرت صور رجالها البواسل حينما أخرجت العالم من مكتبه، والعامل من معمله، واستنجدت المرأةَ في بيتها، والطفلَ في مدرسته، أمسَوا على وهج النار، وأصبحوا على دخان البارود، إنهم يدافعون عن دينهم وكرامتهم، إنهم يسوقون في وجوه الغاصبين شباباً أنضر من الزهر، وأبهى من الوضاءة، وأثبت من الجبل، وأمضى من العاصفة، إنهم يكافحون بشيوخ لهم حماسة الشباب، وشباب لهم همّة الشيوخ، ونساءٍ لهم قوة الرجال، وصغار لهم عزائم الكبار، ولئن هلك منهم فوجٌ ليأتون بأفواج، ولئن صبر مغتصبهم يوماً ما ليرمونه بأيام.

إن من يستشعر مثل هذا ليس له منطلق إلا الإسلام، فإنه سيوقن ولا ريب أن المسلمين أصحاب دين لا يموت، ولا ينبغي له أن يموت، مهما هبّت الأعاصير، وادلهمت الخطوب، وهو باقٍ خالد إلى قيام الساعة، وعندما يشرئبُّ أعداؤه أن تُشيِّع جنازته فإنهم سيُصعقون ببزوغ شمسه من جديد.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن ندرك جيداً بأن انتصار المسلمين وانكسارهم لا يرجع إلى قوة أعدائهم أو ضعفهم، وإنما الانتصار والانكسار في الحقيقة يعودان إلى الأمة الإسلامية نفسها، فإذا وحَّدت كلمتها، ومن قبل ذلك وحّدت ربها، ولزمت أمره، وأقامت حقَّه، فإنها منصورة لا محالة، إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧].

والقلة والكثرة ليست هي المعيار الحقيقي فقد انتصر المسلمون في بدر وهم قلة أذلة، وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ [آل عمران:١٢٣]، ثم هُزموا في حُنين وهم كثرة كاثرة، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [التوبة:٢٥].

والمسلمون ـ عباد الله ـ إنما ينتصرون إذا أحسنوا علاقتهم بالله، وعزموا على نصرة دين الله، فإن من لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله، ومن لا يعرف إلا الحق لن يغلبه من لا يعرف إلا الباطل.

إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [آل عمران:١٦٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صواباً فمن الله، وإن خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله، إنه كان غفاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه المتقين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس، إن العجب كلَّ العجب أن تسفُل النفس المؤمنة حتى لا تطلب رفعةً، أو تقنط حتى لا يكون لها أملٌ.

أما لو أيقن المسلمون أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة، وأنه القاهر فوق عباده، تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوةٍ لجبروته، وأن هذا القادر العظيم بيده مقاليد كل شيء، يصرِّف عباده كيف يشاء، لما أمكن مع ذلك أن يتحكم فيهم اليأس، أو تغتال آمالهم غائلةُ القنوط.

فما على المسلمين إلا أن يتحقق بينهم روح الإخاء والتضامن في الدين، فيأخذ القوي بيد الضعيف، ويشد المقتدر من أزر العاجز، وتُرفع راية التوحيد المحصنة، ويُطرح التفاهم بإخلاص في الأمور مع الاعتماد على الله، واللجوء إليه، مع بذل الأسباب المادية، ومحض النصح للقيادة، ابتغاء وجه الله، فدين الله وشرعه وإن ضعف فيه شخص المتقين المجاهدين فهو باقٍ خالد، وُضعت فيه صفات المتقين وخُطط المجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

كما أنه من الواجب على المسلمين بعامة أن يبحثوا في كل مظنَّة ضعفٍ عن سبب قوةٍ، ولو أخلصوا في تلمّس ذلك وطلبه لانقلب الضعف إلى قوة؛ لأن الضعف قد ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله بعنايته ورعايته، فإذا هي تهدّ الجبال، وتحيّر الألباب، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [الفتح:٤]، سمع معاوية رضي الله عنه أن رجلاً من خصمائه شرب عسلا فيه سمٌّ فمات، فقال رضي الله عنه: (إن لله جنوداً منها العسل)(٢)[١].

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن نعترف بأخطائنا في الواقع والتي يتكاثر عدُّها، ويستحيل حصرها، والتي تخل بنظام السببية في النصر والتمكين، وأن يكون هذا الطرح بصورة صريحة في واقعنا، عبر كافة الوسائل المتاحة دون اقترافِ خياناتٍ قاتلة من ذوي الأقلام المؤثرة والألسن المستميلة في حق دينهم وأمتهم بتجاهل تلك القضايا المهمة، والتي بتجاهلها وغضّ الطرف عنها يُؤخَّر يوم النصر ولا يُقدَّم، فتقود إلى الغرق في بحر لجيٍّ من الخداع والتضليل، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

فهل يرتفع شعار الإسلام وترفرف رايته في تحليل القضايا الإسلامية أو تبقى تحت الرايات العميَّة لنبلغ بها القاع والعياذ بالله؟!

وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأرْضِ أَقَامُواْ الصلاةَ وَآتَوُاْ الزكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ [الحج:٤٠، ٤١].

هذا وصلوا ـ رحمكم الله ـ على من أمركم الله بالصلاة عليه، فقد قال عز من قائل عليم: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...

---

(١) يشير إلى وصف النبي لأئمة الضلال حيث قال فيهم: ((وسيقوم فيهم رجـــال قلـــوبهم قلـــوب الشياطين في جثمان إنس)) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (٥/٤٦٠)، والتاريخ الكبير للبخاري (٧/٣١١)، الثقات لابن حبـــان (٢/٢٩٨)، وصار هذا من الأمثال التي تضرب انظر: مجمع الأمثال (١/١١).

تعريف المسلمين بسبيل النصر والتمكين

الأسرة والمجتمع، العلم والدعوة والجهاد

قضايا المجتمع، قضايا دعوية

صلاح بن محمد البدير

المدينة المنورة

١٤٢٣/٢/٦

المسجد النبوي

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- الأمة الواعية تستفيد من التغيرات والتقلبات. ٢- ما تعيشه الأمة الإسلامية اليوم مـــن العـــدوان السافر. ٣- وقفات اعتبار واتعاظ. ٤- أسباب الذل والهوان. ٥- طريق النصر والعزة والـــتمكين. ٦- ضرورة الإصلاح الشامل المستمر. ٧- تخطيط اليهود والنصارى لإقصاء الإسلام عن الحياة. ٨- التحذير من العلمانيين والمستغربين. ٩- الالتفاف حول العلماء والحذر من الرويبضـــة والفويســـقة. ١٠- وجوب تقديم مصلحة الدين على جميع المصالح. ١١- الأخـــذ بســـد الـــذرائع في المســـيرة الإصلاحية.

الخطبة الأولى

أما بعد: فيا عباد الله، اتقوا الله فإن تقواه أفضل زاد، وأحسن عاقبة في معاد.

أيها المسلمون، الأمم تتقلب في أطوار وأطباق، ما بين عزة وذلة، وكثرة وقلة، وغنىً وفقـــر، وعلـــم وصناعة، وجهل وإضاعة، وأحوال متقبلة مشاعة. والأمة الواعية مهما عانت من ضراء، وعالجت من بلاء، وكابدت من كيد أعداء، فإنها سرعان ما تُفيق من غفلتها، وتصحو من رقدتها، فتقيم المائـــد،

وتقوِّم الحائد، وترتق الفتق، وترقع الوهى والخرق، لتعود عزيزة الجانب لا يتجاسر عليها غـــادر، ولا ينالها عدو ماكر.

والأمة المسلمة اليوم تعايش حروباً ثائرة وشروراً متطايرة، تشتت نظامها، وتشعب التئامها، حـــروب قذرة، يقودها قوم كفرة فجرة، غدرة مكرة، خونة خسرة، لا يرقبون في مـــؤمن إلا وذمـــة. هـــذه فلسطين المباركة، تصبح وتمسي تحت مرارة الفادحة، وألم الفازعة، وصور المأساة، ومشاهد المعانـــاة، وصرخات الصغار، وصيحات التعذيب والحصار، ولوعات الثكالى، وآهات اليتامى، تصبح وتمســـي على صفوف الأكفان المتتالية، وتشييع الجنائز المحمَّلة، والبيوتـــات المهدَّمـــة، والمســـاجد المنتهَكـــة، أحداثٌجسام، تُدمي القلوب وتفطِّر الأكباد، ويقشعر لهولهـــا الفـــؤاد. أحـــداثٌ تنـــادي المســـلمين وتستنفرهم، تستصرخهم وتستنصرهم، فهل من مجيب لهذا النداء؟! وهل من مغيث لتلـــك الـــدماء والأشلاء؟! هل يليق بالمسلمين ـــ وهم أكثر الناس عدداً وأغناهم موارد ـــ أن يُســـلموا إخـــوانهم لعُصبة الضلال ويهود البغي والاحتلال، النفوسِ الغاوية، والذئاب العاوية، ليصبحوا هدفاً للـــدبابات والبارجات، وصدفاً للصواريخ والطائرات، وطعمة للكافرين ونهبة للجائرين؟!

أيها المسلمون، إن تلك الأحداث والصور ما هي إلا صرخات إيقاظ واعتبـــار واتعـــاظ، ليعـــرف المسلمون واقعهم ومواقعهم، ويفيدوا من مآسيهم الدروس والعبر، ويقفوا على أسباب النصر والظفر، بعيداً عن ردود الفعل الوقتية التائهة، والهتافات الضعيفة الضائعة، ويصلحوا المسار، ويتجنبوا أســـباب الذل والخسار.

أيها المسلمون، إن الواجب على الأمة أن تعلم أن ما أصابها فإنما هو بسبب تقصيرها في جنب ملـــك الملوك، وتفريطها في الحكم بشريعته، واحترام أحكامها ومعالمها، والوقوف عند حـــدودها، وعـــدم تصدِّيها لرياح الإفساد ومسيرة التغريب التي نخرت في الأمة وشبابها وفتياتها، حـــتى صـــارت تعـــاني ويلات الانحراف المرّ في صفوف ناشئتها، بعد أن خان المستأمن، وفرط المستحفَّظ، وغش المستودَع، ودلَّس المستشهَد، في أعظم وديعة وأغلى أمانة، وهي حفظ الدين وتحصين مجتمعات المســـلمين مـــن عاديات التغريب وحملات التخريب.

أيها المسلمون، إن الناظر بعين البصر والبصيرة يرى الفرق الشاسع والبون الواسع بين مبادئ الإسلام وقيمه ونظمه كما حددتها نصوصه وموارده، ورسمتها مصادره، وبين واقع المسلمين اليوم. وإن مـــن أمانة الكلمة وصدق الحديث وصراحة المنطق وواجب النصح والبيان القولَ بأن الأمة ما لم تعتـــرف بتقصيرها الكبير وتفريطها الخطير وأثره المستطير على حاضرها ومستقبلها، وتقم بواجـــب المراجعـــة والمعالجة والإصلاح، فإن الحديث عن استرداد ديارها المستباحة وأموالها المجتاحة وإيقـــاف مسلســـل الاعتداءات الآثمة لا يعدو أن يكون إمعاناً في الوهم، وإسرافاً في الظن، ومغالطة فاحشة، تجـــرُّ علـــى الأمة آثاراً سيئة لا يُعرف مداها ولا منتهاها. وإذا كان أصحاب رسول الله قاموا بمخالفـــةٍ واحـــدة

لأمره في غزوة أحد، فأصابهم ما أصابهم، فما بالكم بجملةٍ لا تُحصى من المنكرات الفاضحة، والمخالفات الواضحة، التي نخشى ــ والله ــ من عاقبتها وعقوبتها.

أيها المسلمون، إن أرادت الأمة نصر الله وتأييده، وأن يعود لها التأثير في مجريات الأحداث، فعليها أن تُعيد صياغة الحياة في بلادها وفق رسالة الإسلام، وأن تسوس الدنيا بالدين، وتمحو آثار المفسدين، وتجفِّف منابع الشر، وتحسِم مواد الإفساد، وأن تعمل على تحقيق أهدافها، وبناء قوتها واستعدادها، وأن تسعى لإصلاح أوضاعها إصلاحاً شاملاً كاملاً، عقدياً وأخلاقياً وسلوكياً واجتماعياً واقتصادياً، حتى لا تتحول جهودها في مواجهة التحدِّيات والمؤامرات سلسلةً من الذل والإحباطات، والصدمات والانتكاسات، وإن الإصلاح الصادق ليس إصلاحاً تحرِّكه بواعث وقتية، أو ملابسات ظرفية، وإنما هو إصلاح صادر عن إيمان راسخ وعقيدة صادقة، واستشعار بأنها مسؤولية أمام الله عز وجل، يوم يسأل كل عبد عما استرعاه مولاه: أدَّى أم تعدي؟ يقول رسول الله : ((كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)) أخرجه البخاري(١)[١].

أيها المسلمون، إن أعداء الدين من اليهود والنصارى والملحدين لا يألون إقداماً ولا ينكسون إحجاماً في التخطيط لإقصاء الإسلام عن الحياة، وإزاحته عن أرض الواقع، ومحاولة تهميشه وحصره وقصره، وتطويع العالم الإسلامي بتبعية الحياة الغربية، يساندهم في ذلك فسّاق مستغربون، ومنافقون علمانيون، تارةً بتأويل نصوص الوحيين ولوي أعناقها، وتارةً بالنيل من علماء الإسلام، وتارة بالنيل من الدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وغمزهم ولمزهم والتطاول عليهم، واتهامهم بما ليس فيهم، وتارةً بالدعوة إلى الاختلاط، وتحرير المرأة، ونبذ قوامة الرجل عليها، جهالاتٌ مطبقة، وأفكار موبقة، تثير البلبلة، وتخلق الخلخلة، وتزرع بذور الفرقة، يلبسون ثياب الإصلاح على أفئدة عشعش فيها النفاق، فهم كالثمرة الفجَّة الملقاة، انفصلت من شجرة الطهر والعفاف والحياة، فسقطت وتعفّنت، وأنتنت وفسدت، فأنَّى يستفاد منها، يُفسدون في الأرض ولا يصلحون، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَاكِن لاَّ يَشْعُرُونَ [البقرة:١١، ١٢].

فعلى الأمة وهي تتلمَّس معالم الإصلاح ومنهجيته ومقوِّماته وأسسه ووسائله أن تحذر أدعياء الإصلاح الذين تربَّوا في حجر الأعداء، فلم تجن الأمة من جهودهم إلا كل حنظل، ومن أفكارهم إلا الأحساك والأشواك والهلاك. وعلى الأمة أن تأخذ الرأي والمشورة من علمائها الأمناء الذين ليس لهم بائقة، ولا يُخاف منهم غائلة، وهم ضمير الأمة وغيظ عدوِّها، وحُرّاس عقيدتها والفضيلة فيها، حتى يصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، يقول الله عز وجل حكاية عن ملكة

بلقيس: قَالَتْ ياأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْـهَدُونِ [النمـل:٣٢]، وفي صحيح البخاري: كانت الأئمة بعد النبي يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة، ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدَّوه إلى غيره اقتداءً بالنبي (٢)[٢]. ويقـول عمـر بـن الخطاب رضي الله عنه: (رأي الواحد كالخيط الواحد، والرأيان كالخيط السحيل، والثلاثة كالحبل).

أيها المسلمون، إن معرفة مكامن الداء وبواعث التجاوزات والأخطاء، مع العمل على سدها وصدّها من أعظم وسائل الإصلاح والبناء، وإن استعمال غير الأكفاء الأمناء الأقوياء وإسداء الأمور والثغـور إلى من لا يُؤْمَنُ في توجُّهه وأفكاره وولائه وانتمائه هو جرثومة الفساد، وخراب العباد والبلاد، وقـد قال رسول الهدى : ((إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة)) قيل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قـال: ((إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)) أخرجه البخاري(٣)[٣]. يقول ابن بطـال: "معـنى ((وأسند الأمر إلى غير أهله)): أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصـيحة لهـم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلَّدوا غير أهل الدين فقد ضيَّعوا الأمانة الـتي قلَّـدهم الله تعـالى إياها"(٤)[٤].

وعلى كل من ولاه الله أمراً من أمور المسلمين خلافةً أو وزارة أو أمارة أو قضاءً أو رئاسة أو قيـادةً أن يتخذ بطانة صالحة وجماعة ناصحة، تحثه على الخير والرشاد، وتنهاه عن البغي والفسـاد، يقـول رسول الله الهدى : ((ما بعث الله من نبي ولا كان بعده من خليفة إلا له بطانتـان: بطانـة تـأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً ــ أي: لا تقصِّر في إفساد أمره ــ فمـن وُقـي شرها فقد وقي)) أخرجه البخـاري والنسـائي(٥)[٥] وزاد: ((وهـو إلى مـن يغلـب عليـه منهما))(٦)[٦].

أيها المسلمون، وعلى الأمة أن تعمل جاهدةً وهي تلتمس الحلول والمخارج أن لا تنطق الرويبضـة أو الفويسقة من الناس في أمورها العامة، وأحداثها الهامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله : ((سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصـادق، ويـؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة))، قيل: وما الرويبضة؟ قال: ((الرجل التافـه يتكلم في أمر العامة)) أخرجه ابن ماجه(٧)[٧].

أيها المسلمون، إن الواجب على الأمة أن تقدِّم مقتضيات العقيدة وموجبات الشريعة ومصلحة الدين وحب الله ورسوله على كل أواصر القربى ومناصب الدنيا ولذائذها، في كل مواقفها وعلائقهـا، وفي جميع أمورها وشؤونها، وأن تكون على يقين لا يساوره شك أن ذلك سبيل صلاح دنياها وانكشاف بلواها. وإن لا تفعل ذلك فهي على خطر أن ينالها ذلك الوعيد الذي تنقدُّ منه الضـلوع والتهديـد الذي تنمات منه القلوب وتسيل الدموع، الوارد في قوله جل في علاه: قُلْ إِن كَانَ ءابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا

أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [التوبة:٢٤]، وقوله : ((من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، و لم يأته من الدنيا إلا ما قدِّر له)) أخرجه الترمذي(٨)[٨].

ومن نقض عهد الله وعهد رسوله سلط الله عليه عدوه فأذلّه وأخذ بعض ما في يده، يقول رسول الهدى : ((يا معشر المهاجرين، خمسٌ إن ابتلِيتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، و لم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، و لم يمنعوا الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، و لم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم، وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم)) أخرجه الحاكم والبيهقي(٩)[٩].

فاتقوا الله عباد الله، وكونوا ممن آمن بربه حق الإيمان وأسلم، وفوَّض أمره إلى مولاه وسلَّم، وانقاد لأوامره واستسلم، فقد أسال عليكم من وابل الآلاء وأزال عنكم من وبيء اللأواء وأسبل عليكم من جميل الغطاء وواسع العطاء ما يوجب الخجل منه والحياء.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا أيها المسلمون، اتقوا الله وراقبوه، وأطيعوه ولا تعصوه، يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ [التوبة:١١٩].

أيها المسلمون، إن الأمة المسلمة لا يجوز أن تقيس مسيرتها السلوكية والتربوية والأخلاقية بمن هم دونها من حثالة البشر، ولا يجوز لها أن تبرِّر تقصيرها بذلك، ولكن عليها أن تعرض أوضاعها الحاضرة وحياتها المعاصرة على نصوص الوحيين الشريفين؛ لأنها الميزان الحق والمقياس الصدق على تقدّم الأمم وتأخرها، وزينها وشينها، قال بعض أهل العلم: من لم يزن أفعالهُ وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة فلا تعدّه في ديوان الرجال. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قام رجل فقال: يا

رسول الله، إن حمدي زين وإن ذمِّي شين، فقال النبي ُ: ((ذلك الله عز وجل)) أخرجه الترمذي وغيره(١٠)[١].

أيها المسلمون، وواجب على الأمة أن ترعى في مسيرتها الإصلاحية المباركة قاعدة سدّ الذرائع والوسائل المفضية للمفاسد، سواءً كانت موضوعةً للإفضاء إلى مفسدة، أو موضوعةً للمباح قُصد بها التوصل إلى مفسدة، أو موضوعةً للمباح لم يُقصد بها التوصل إلى مفسدة، ولكنها مفضية إليها غالباً، ومفسدتها راجحة على مصلحتها.

أيها المسلمون، ليَقُم كل واحد منكم بواجبه في مسيرة الأمة الإصلاحية، بإصلاح نفسه؛ لأن مسيرة الإصلاح تبدأ بإصلاح الذات، ثم تنصدّ إلى إصلاح الأهل والقرابات، ومن ثم إلى سائر الفئات والطبقات، وعلى العلماء والدعاة والمصلحين أن يقوموا بدورهم في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهمَّة لا تعرف الفتور، وعزيمة لا تعرف العجز، وقوة لا تعرف الضعف، وحكمة وحنكة لا تعرف التهور.

وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [التوبة:١٠٥].

وصلوا وسلموا على خير البرية، وأزكى البشرية، فقد أمركم الله بذلك فقال: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم...

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٤) ، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول الله تعالى: وأمرهم شورى بينهم .

(٣) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم (٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: فتح الباري (١١/٣٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٨)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بنحوه.

(٦) هذه الزيادة عند النسائي في البيعة (٤٢٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أحمد (٢/٢٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الحاكم (٤/٤٦٥)، ووافقه الذهبي، وقد تُعقِّبا، لكن للحديث طريق أخرى وشواهد يتقوى بها، ولذا حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٧).

(٨) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٥) من طريق يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد ضعيف، قال المنذري في الترغيب (٨٢/٤): "قد وُثّق، ولا بأس به في المتابعات"، وهو قد توبع على حديثه وله ما يشهد له. انظر: السلسلة الصحيحة (٩٤٩، ٩٥٠).

(٩) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) ، والبيهقي في الشعب (١٩٧/٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، وصححه الحاكم (٥٤٠/٤)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٠٦).

(١٠) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٦٧)، والروياني في مسنده (٢٠٧)، وابن جرير في تفسير سورة الحجرات (١٢١/٢٦)، وقال الترمذي : "حديث حسن غريب"، وصححه الألباني في صحيح السنن (٢٦٠٥).

أسباب النصر والتمكين

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد، المسلمون في العالم

عبد العزيز بن الطاهر بن غيث

طرابلس

١٤٢٣/٢/٧

بلال بن رباح

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين. ٢- تحقيق الوعد في تاريخ سلفنا. ٣- أسلافنا انتصروا بالإيمان لا بالعدد والعدة. ٤- فقر المسلمين اليوم لأسباب القوة والنصر. ٥- سبب هزيمة المسلمين في أحد وحنين هزائمنا اليوم.

الخطبة الأولى

وبعد:

يقول الله سبحانه في كتابه العزيز: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنَّهُمْ مّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذالِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [النور:٥٥].
هذه آية تحمل في طيَّاتها قانون النصر، وتحتوي على عناصرِ معادلة التمكين التي ذهب المسلمون يبحثون عنها في كل مكان، وهي في متناول أيديهم، وبين دفتي كتابهم المنزّل منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام على قلب نبيهم محمد بن عبد الله ، فالله سبحانه في هذه الآيات يعدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين حققوا الإيمان في قلوبهم و لم يتوقفوا عند ذلك بل أتبعوا الإيمان بالعمل الصالح، يعدهم بوعود عظيمة ما كانت لتخطر عليهم بل كانوا يقنعون بما هو أدنى منها بكثير، يعدهم سبحانه بأن يستخلفهم في الأرض وأن يمكن لهم دينهم وأن يؤمِّنهم بعد أن كانوا خائفين، وهذه المعادلة لا يتحقق جانب منها إذا لم يتحقق الجانب الآخر، فإذا أدى الناس ما عليهم جاءت النتيجة من الله الذي لا يخلف الميعاد.
ولقد تحقق هذا الأمر في عهد رسول الله وعهد خلفائه الراشدين لأن الأمة كانت تسير على صراط الله سبحانه وتطلب مرضاته، وتحقق بعد ذلك في كل عصر كان فيه المسلمون محققين لتقوى الله في قلوبهم ساعين في عمل الخيرات، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض وأئمة الناس والولاة عليهم، بهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً، وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر المقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، ثم قام من بعده خليفته أبو بكر الصديق، فبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس بقيادة خالد بن الوليد، ففتحوا طرفاً منها وجيشاً آخر بقيادة أبي عبيدة إلى الشام، وثالث بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر، ثم آل الأمر بعده إلى عمر الفاروق الذي تم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها ومصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس..." إلى آخر كلامه رحمه الله.
من هذا نعلم أن الله يُمكِّن لأوليائه إذا كانوا مؤمنين صالحين، ومن هذا نعلم أنه إذا مكَّن العبد لدين الله في قلبه وأصبح هذا الدين يتربع على عرش القلب وتأتمر الأعضاء بأمره، فإن الله يمكن لهذا العبد في الأرض ويجعله غالباً لا مغلوباً، أما إذا طُرد الإسلام ومُكِّن للشيطان والشهوات في القلوب فإن الله سبحانه بعدله يكتب الذل والصغار على أصحاب هذه القلوب وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف:٤٩].
وهذا ما كان من هدي رسولنا وسلفنا الصالح رضوان الله عليهم، فهم لم ينتصروا بالعدد وإن كان العدد عاملاً مساعداً في النصر، بل كانوا في أكثر معاركهم وفتوحاتهم الإسلامية أقل بكثير من

عدوهم، بدء من غزوة بدر الكبرى التي كان عدد المسلمين فيها ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً أمـــام ألف من المشركين إلى معركة القادسية التي نازل فيها سبعة آلاف من المسلمين بقيادة سعد بـــن أبي وقاص ستين ألفاً من الفرس بقيادة رستم وهزموهم بإذن الله، وإذا أجرينا عملية نســبة وتناســب، لوجدنا أن كل جندي مسلم في معركة القادسية يقابل أكثر من ثمانية من جند العدو.

كما أن المسلمين لم ينتصروا بقوة وتقدم عدهم رغم أنها عامل مساعد أيضاً في النصر لأنهم لم يكونوا متقدمين تقنياً، بل كانوا يقاتلون بأدوات تقليدية كالسيف والرمح، بينما أعداؤهم يستعملون أدوات أقوى وأنجع بل وصلوا إلى استعمال الحيوانات الضخمة التي كانت مخيفة للناس وللخيل، فقد استعمل الفرس في معركة القادسية أكثر من ثلاثة وثلاثين فيلاً في القتال، ومع هذا لم يتراجع المســلمون و لم ينهزموا. لم ينهزموا رغم أنهم الأقل عدداً والأقل عدة لأنهم تسلحوا بالإيمان.

إن العقيدة في قلوب رجالها ....من مدفع أقوى وألف مهند

والعجيب ــ عباد الله ــ أن المسلمين ضيعوا حبل الله المتمثل في الإيمان به حق الإيمـان والعمـل في مرضاته، ففقدوا تأييده ونصره، وضيعوا حبل الأخذ بالأسباب الدنيوية والتقدم العلمي الـذي قـد يقربهم إن لم يساويهم بمستوى عدوهم، فأصبحوا الأضعف بين أمـم الأرض وأصـبحوا كالحمـار القصير الذي يركبه الكبير والصغير فالله المستعان، وهذا تذبذب كتذبذب المنافقين الذين ذمهـم الله تعالى في كتابه لأنهم لم يؤمنوا فيكونوا مع المؤمنين و لم يُظهروا كفرهم فيكونوا مع الكافرين، بل بقوا يتأرجحون بين ذلك، لهذا فهم في الدرك الأسفل من النار يقول الله سبحانه عنهم: مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذالِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً [النساء:١٤٣]، كل هذا لأن المسلمين ضيعوا أسباب النصر والتمكين و لم يعملوا بها.

إن من أهم أسباب النصر طاعة الله سبحانه وطاعة رسوله فأين نحن من هذين الأمرين العظيمين أيـن نحن من طاعة الله سبحانه التي هي خير عدة وخير عتاد بل هي العتاد والعدة يقول سبحانه:كَم مّـن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٍ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة:٢٤٩].

ليس المقياس مقياس عدة وعدد، إنما المقياس مقياس قرب من الله وبعد عنه، لهذا لما طـارد فرعـون بجنوده وملئه موسى عليه السلام وقومه، وقال قوم موسـى في خـوف ووجـل: إِنَّـا لَمُـدْرَكُونَ [الشعراء:٦١]، قال موسى العبد الواثق بربه: قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَـيَهْدِينِ [الشـعراء:٦٢]، إذاً فطاعة الله حصن عظيم يلجأ إليه الصالحون في الشدائد فينصرهم الله وينجيهم من كل كيد.

وهذا ما فهمه المسلمون الأوائل رضوان الله عليهم، فقد كثر وتتابع وصية الأمراء والخلفاء إلى قوادهم في المعارك طاعة الله لأنها سبيل النصر، أورد أبو نعيم في حلية الأولياء رسالة من عمر بن عبد العزيـز إلى أحد عماله أو قواده يقول فبها: (عليك بتقوى الله في كل حال يترل بك، فإن تقوى الله أفضـل العدة وأبلغ المكيدة وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسـك ومـن

معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم لأن عددنا ليس كعددهم ولا قوتنا كقوتهم).

هذه هي وصية الصالحين لجندهم فقبل الاستعداد بالسلاح يكون الاستعداد بالنفوس الطيبة والقلوب الصالحة هذا عن طاعة الله سبحانه.

أما طاعة رسوله فهي أيضاً من أهم أسباب النصر والتمكين، ولقد عرف المسلمون هذا حق المعرفة في غزوة أحد حينما خالف الرماة أمر رسول الله ، فانقلب النصر إلى هزيمة، وتراجع المسلمون بعد أن كانوا متقدمين، وعاتبهم الله أشد العتاب على مخالفتهم هذه، وأبقى هذا العتاب قرآناً يتلى على مر الزمان ليعلم المسلمون ما معنى مخالفة رسول الله في أي أمر من الأمور، يقول سبحانه: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأمْرِ وَعَصَيْتُمْ مّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الأخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٥٢].

انظروا إلى هذا الدرس العظيم وهذه الكبوة التي جناها أصحاب رسول الله لمخالفة واحدة، رغم أنهم متبعون لرسول الله في كل الأمور، فكيف نرجو النصر والتمكين ونحن نخالفه صلى الله عليه وسلم في عباداتنا وفي هدينا وفي أخلاقنا وفي معاملاتنا وداخل بيوتنا وخارجها، ثم إن الرماة في غزوة أحد خالفوا لأنهم ظنوا أن المعركة انتهت والأعداء اندحروا، فمخالفتهم غير متعمدة، مع هذا انظر ماذا جنت عليهم فكيف حال من يخالف أبا القاسم متعمداً، وأنى له النصر والتمكين.

فاتقوا الله أيها المسلمون وكونوا مع الله ليكون الله معكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم إنه هو الغفور الرحيم.

____

الخطبة الثانية

الحمد لله الكريم المنان المتفضل بالكرم والإحسان، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المصطفى من ولد عدنان وعلى آله وصحبه وذريته ومن تبعهم بإحسان.

إخوة الإيمان، لابد لنتشرف بالنصر والعز والتمكين من أن نهيئ أنفسنا وقلوبنا لكي ترقى إلى المستوى الذي يرضاه الله سبحانه، فالتمكين إنما يكون عندما يستكمل الإنسان لوازمه ومقتضياته ويكون أهلاً لأن ينال هذا الشرف، ولا ينبغي لعبد يريد التمكين من الله أن يثق في حوله وقوته البشرية أو يثق في عدد أو عدة، بل يثق في الله وحده ويبتعد عن الإعجاب بنفسه.

ولقد علم الله المسلمين درساً عملياً في غزوة حنين على أن العدد والعدة ليست كل شيء، وعلى أن الله قادر على أن يهزمهم إذا هم اعتمدوا على قوتهم واغتروا بها، فقد كان المسلمون يوم حنين

معجبين بأنفسهم فقالوا: لن نغلب اليوم عن قلة وكانوا يومئذ اثني عشر ألف رجل، ففاجأهم المشركون الذين كانوا يختبئون في جنبتي الوادي، فانهزم جيش المسلمين بالكامل، و لم يبق إلا رسول الله على بغلته الشهباء وحوله عشرة من المسلمين منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، ثبت رسول الله في هذا الموقف الرهيب وهو يقول: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)) وثبت معه هؤلاء الرهط.

ثم عاد المسلمون وقاتلو عدوهم وانتصروا عليه، وهذا درس من الله لعباده الصالحين ألا يغتروا بقوتهم وألا يعتمدوا ويثقوا إلا فيه بقول سبحانه: وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الارْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذالِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ [التوبة:٢٥، ٢٦].

إنها سنة كونية إلهية لا تتغير ولا تتبدل، التمكين يحتاج إلى تمكين، والنصر يحتاج إلى نصر، كي يكون تمكين في الأرض لابد أن يتمكن الإيمان من القلب، ولكي يكون نصر على الأرض لابد أن ينتصر دين الله في القلب، والصالحون هم الأعلون، يقول في الحديث الذي أخرجه أحمد عن أُبي والذي يتكلم فيه عن الأمة إذا سارت على نهج الله: ((بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب))، ويقول سبحانه: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء:١٠٥].

طريق النصر

العلم والدعوة والجهاد

المسلمون في العالم

صالح بن عبد الله بن حميد

مكة المكرمة

١٤٢٣/٩/٢٤

المسجد الحرام

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- خصائص القرآن. ٢- حديث القرآن عن أحوال الأمة مع مخالفيها. ٣- البشارة بقدوم النصر وقربه. ٤- اضمحلال الظلم مهما طغى. ٥- ذم اليأس والحث عل الرجاء. ٦- واجبات أهل العلم والدعاة. ٧- النصر لا يكون بمعجزة خارقة بل بسنة جارية. ٨- وجوب استيعاب الأزمة. ٩- حاجة الأمة إلى ترتيب الأمور. ١٠- الخلاص من الأزمة بالإيمان. ١١- الصبر والمعالجة الداخلية من أعظم أسباب النصر. ١٢- ختام رمضان وليلة القدر. ١٣- فرضية زكاة الفطر.

الخطبة الأولى

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عز وجل، فاتقوا الله رحمكم الله، واحذروا ضياع العمر في غير طاعة، وخافوا من التسويف، فالتسويف بئست البضاعة، فكم من مؤملٍ لم يبلغ ما أمّله، وحيل بينه وبين ما كان يرجو عمله، دارت عليه رحى المنون، كم نُصح وهو مُعرض، بات على تفريطه نادماً، يتمنى الرجوع فلا يقدر قَالَ رَبّ ارْجعُونِ لَعَلّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

أيها المسلمون، شهر رمضان المعظّم، هو شهر القرآن الكريم، في نزوله ومدارسته وملازمته، وهو شهر انتصارات الأمة، وقوتها وعزتها، انتصارُها على شهواتها وأهوائها، إن أمة الإسلام في أوضاعها المعاصرة؛ بحاجةٍ إلى استلهام الدروس وأخذ العبر ومواقف المحاسبة، من أجل هذا كان التذكير بالقرآن فَذَكّرْ بِالْقُرْءانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ [ق:٤٥]، وكان الإنذار بالقرآن وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَاذَا الْقُرْءانُ لاِنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ [الأنعام:١٩]، وكان الجهاد بالقرآن وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبيراً [الفرقان:٥٢]، ومن أجل ذلك كذلك، كان هذا القرآن شرف الأمة وذكرها وعزها، لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ [الأنبياء:١٠]، فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ [الزخرف:٤٣، ٤٤].

أمة الإسلام، والمسلمون يعيشون هذا الشهر الكريم في صيامه وقرآنه، هذه مراجعات قرآنية في أوضاع الأمة، ومعالجاتٌ لمشكلاتها وأزماتها، اقرأوا وتأمّلوا في حديث القرآن عن أحوال الأمة مع مخالفيها إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيّئَةٌ يَفْرَحُواْ بهَا وَإِن تَصْبرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً [آل عمران:١٢٠]، قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسيرُواْ فِى الأرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ هَاذَا بَيَانٌ لّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لّلْمُتَّقِينَ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الاْعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [آل عمران:١٣٧-١٣٩]، وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [النساء:١٠٤].

أيها المسلمون، إن الأمة تمرّ في حالها الراهنة بأوضاعٍ من الضعف والتشتت وظلام الطريق، بينما يمـــرّ آخرون بموجاتٍ من الاستعلاء والقوة، ونزعات التفرّد.

إن كل ذلك ـــ على ظلامه وبأساءه ـــ يشير إلى أفقٍ مضيء، وسبيلٍ عامرٍ بالأمل بإذن الله، نعم، لئن كان الباطل يزداد بطشاً وطغياناً وغدراً، وصورة ذلك جليةٌ في عدوان اليهود في فلسطين المحتلـــة، في القتل والهدم، والتشريد، والصلف والاستكبار.

لئن كان الباطل يزداد بطشاً وطغياناً وغدراً بهذه الصورة، فإن ذلك عند المؤمن في إيمانـــه وبمعرفتـــه بسنن الله هو بداية النهاية بإذن الله حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَـــاءهُمْ نَصْـــرُنَا [يوسف:١١٠]، أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَـــاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّـــهِ أَلا إِنَّ نَصْـــرَ اللَّـــهِ قَرِيـــبٌ [البقرة:٢١٤]، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ [الحشر:٢].

إن المسلم لا يسرف في التعلق بالأماني وسراب التمنيات، ولكنه في الوقت ذاته لا يكـــون مـــنكّس الرأس، في مستنقعات الهزائم ومواطن الذل والمهانة، إن أمل المسلم ليس مكابرةً ولا قفزاً على الواقـــع والوقائع، ولكنه عقيدة راسخة يؤمن بها، ويعمل في إطارها، سندها كتاب الله عز وجل، وَلاَ تَايْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [يسوف:٨٧]، وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ [الحجر:٥٦]، إن اليأس حيلة العاجز الذي يؤثر الانسحاب والعزلة، إن البلاء يُحتمـــل بعظم الرجاء، والفرج طريقهُ الثقة بالله العلي الأعلى، المؤمن الحق لا تزلزله المِحن، ولا تهدّه المكائـــد، بل يزيده ذلك عطاءً وبذلاً وتضحية وَكَأَيّن مّن نَّبِىّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِـــى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَـــا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْـــنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

معاشر المسلمين، إن من أعظم مهمات أهل العلم والرأي، والدعاة والمصـــلحين أن يُشـــيعوا الأمـــل الصادق في نفوس الأمل، الأمل الذي يدعو إلى الثبات على الدين، والعضّ عليه بالنواجذ، والعمـــل على نصرته، والذبّ عن حياضه، واليقين بأن نصر الله لن يترل على أوليائه بمعجزةٍ خارقـــة، ولكـــن بسنةٍ جارية، يمتحن فيها العباد ليبلوهم ربهم أيهم أحسن عملاً، وهذا لا يتحقق بموعظـــةٍ تُتلـــى، أو خطبةٍ تُلقى فحسب، ولكن بقدوات صالحة، قويةٍ ـــ بإذن الله ـــ ذاقت حلاوة الإيمـــان، وصـــدقت بموعود الله لأوليائه المتقين.

أيها المسلمون، أمة الإسلام تعيش غربة حقيقية بين الأمم، وتنبع غربتها في تميزها وتمنّعها على السير في ركاب الظلم والاستسلام، وقد جرّ عليها هذا ضغوطاً كبيرة وأحمالاً ثقالاً، مادية وأدبية، لا تكاد تدركوها، مسّتها فيها البأساء والضراء وزلزلت.

أيها المسلمون، طغيان القوة وغرورها، يجعل صاحبه لا يبالي بمواقف الآخرين، ولا بحقوقهم، بل إنه ليستهين بالأعراف، وقواعد التعامل، ويستكثر على غيره أن ينظر في مصالحه أو يتمسّك بحقوقه أو يعتزّ بهويته وقيمه، فالضعفاء في ميزان الظلم لا حق لهم إلا الخضوع والاستسلام، حين تضعف الأمم يتفجّر الحقد المكبوت، وينهض الخصوم يناوشون من كل مكان، إن الإنسانية كلها مدعوّة إلى التأمّل في الأخطار الرهيبة التي تنتظرها، إذا تجاهلت النُذر المتصاعدة من الصدور الحاقدة التي تبثّ نيران العداوات والصراعات المدمّرة، وازدراء الأمم في معتقدها وفكرها وديانتها، الظلم هو وقود الصراعات، والعنف لا يولّد إلا العنف، وعقلاء البشر، وقرّاء التاريخ يدركون أن قوة الظلم ما هي إلا كضوء شهاب سرعان ما ينطفئ.

إن الأمة الحيّة ــ ولو كانت مستضعفه ــ فإنها لن تقبل الظلم، بل قد تكون هذه الضغوط والمتغيرات سبباً من أسباب يقظتها وحيويتها، فلا تهون عليها عزتها وكرامتها.

الأمة الكريمة الضعيفة، وإن كانت لا تقوى على المواجهة في مرحلةٍ من المراحل لكنها لا ترضى بالدنيّة في عزّتها ومبادئها، ولن ترضى أن تنظر للآخرين باستجداء أو استحذاء.

أيها المسلمون، إن من دلائل الرشد والفقه؛ استيعاب الأزمة، وتوضيح دورها في إحياء الأمة وبنائها بنفسيةٍ عزيزةٍ وثّابة، ومن غير ضعفٍ أو خوَر.

إن من الحق والحكمة الاعتراف بأن الهزائم قد تكون لازمة من لوازم بناء الأمم، من أجل القضاء على صور الاسترخاء، ومظاهر الترف والفسق، ومن أجل الدُربة على تحمل الظروف القاسية، وزوال الطبقات الهشّة من اجل الوصول إلى القواعد الصلبة. وقد تكون الهزائم أكثر مُلازمة عندما تسود في الأمة الأمراض الاجتماعية، ويحكمها الظلم، وتشتد المظالم، وتُهمل الحقوق، ويفسق المترفون، ويكثر الخبث فتكون الهزيمة عقوبة، وتُسلط الأعداء بلاءً لتستيقظ الأمة، وتتوجّه نحو العلاج فيكون التمحيص، وتكون التنشئة على الجدّ والمسيرة والمبصرة، وحينئذٍ يستقيم المسار بإذن الله.

أيها المسلمون، الأمة لا شك في حاجة إلى إعادة ترتيب أمورها، ودراسة أوضاعها بعمق دراسة تتفهم المتغيرات، وإنها لمتغيراتٌ كبيرة طغت على ساحاتها السياسية والاقتصادية والفكرية وغيرها، مدركة إمكاناتها، مكتشفةً مكامن قوتها وتأثيرها، ومن أجل تلمّس طريق المعالجة ــ معاشر المسلمين ــ لا بد من التأكيد على أن أولى الأوليات أن تعلم الأمة علم اليقين أنها لن ترتفع لها راية، أو يعلو لها شأن إلا بصدق الإيمان، ونقاء التوحيد، وصفاء الإخلاص، إيمانٌ يستنير به القلب، وتستقيم به الجوارح، وهذا لا يكون إلا بتربيةٍ جادّة، وإنك لتحزن حين لا ترى إلا آثار تربيةٍ هشّة، وأن طاقات الأمة

تستترف في أمور تذهب بحلاوة الإيمان، وتضعف جذوته وكيف يتصور التطلع إلى النصر بنفوسٍ لم تذق حلاوة الإيمان ((ذاق حلاوة الإيمان من رضي الله عنه بالله رباً وبمحمداً رسولاً، وبالإسلام ديناً))(١)[١]. كما يجب التأكد أن الطريق الصحيح ومنهج التصحيح في مواجهة ضغوط الخارج وتحدياته ليس بالاشتغال بالرد عليها مما قد يجر أو جرّ إلى معارك خاسرة، ولكن الإصلاح الحقيقي، والتصحيح الجاد يتمثّل في التوجّه نحو الداخل وتصفيته وتنقيته، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً [آل عمران:١٢٠] ولا ريب أن التصحيح من الداخل شاقٌ على النفس وثقيل في الممارسة؛ لأن الإنسان في هذه الحالة سوف ينقد نفسه وسوف يصلحها، أي أنه يجعل من نفسه الحجر والنحّات في آنٍ واحد، وإن أصحاب الطريق المسدود والمتأزّمين هم الذين يسلطون سياط نقدهم ودائماً نحو الخارج وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً [آل عمران:١٢٠]، آية كريمة ومعلمٌ بارز، ورايةٌ مرفوعة في رسم الطريق لهذا الإصلاح الداخلي، ويقترن بهذه الآية، آية أخرى توجه إلى مواجهة الخارج بالنقد الداخلي والإصلاح والتحصين، اقرأوا في خبر غزوة أحد أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَاذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ [آل عمران:١٩٥]، إنه ليس من الحكمة تضخيم شأن العدو إلى الحدّ الذي يجعل تصّور هزيمته شيئاً بعيداً، فالعدّو بشر، له حساباته وله موازناته ومشكلاته وإمكاناته، وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ [النساء:١٠٤]، إن النصر العام لا بدّ أن يسبقه نصرٌ خاص، إن الأمة المنتصرة على أعداءها هي أمة قد حققت قبل ذلك نصراً داخلياً، ومما يجب التأكيد عليه أخيراً، سلاح الصبر، والمراد بالصبر هنا: احتمال المشاق، والتيمومة في تأدية التكاليف مهما كانت قسوة الظروف.

إن الصبر لا يعني الاستسلام للأحوال السيئة والظروف والظروف القاسية، ولكنه يعني عدم اللجوء إلى الحلول السريعة، إن الجري وراء الحلول السريعة لمشكلاتٍ مستعصية مآلة الإحباط واليأس، أو الاندفاع والتهوّر مما يزيد المشكلات تعقيداً، ويجعل الحلّ الحقيقي بعيد المنال، إن الصبر توظيفٌ صحيح للوقت والزمن لحل أوضاع لا يُستطاع حلّها في الوقت القريب.

وبعد أيها المسلمون، فإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع اليسر يسراً، وإن في رحم كل ضائقة أجنة انفراجها، ومفتاح حلّها وطريق ذلك بإذن الله دينٌ صحيح وعقل مستنير، ومبضع جرّاح، وحرقة والدة، وعلى الله قصد السبيل وهو الغالب على أمره، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوالِكُمْ وَأَنفُسكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذَى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذالِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ [آل عمران:١٨٦]، نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد ، وأقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، الحمد لله الواحد الفرد الصمد، أحمده سبحانه وأشكره، ليس لفضله منتهى ولا لإحسانه حدّ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغاماً لمن كفر به وجحد، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله بالفضائل تشرف وبالكمالات انفرد، صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه كانوا للدين أعظم مستند، والتابعين ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فإن من صعاب الأمور قياد الأمم أعقاب الهزائم، وإحياء الأمل بعد الانكسارات. ولكن الرجال يستسهلون الصعب، ويصادرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات، نعم: إن الأمة الحيّة لا تكفّ عن مراجعة أمرها، وقياس أدائها في أصولها وأساليبها كما لا تملّ بالبحث عن المعوقات والحلول، إن الأمة بحاجة إلى امتلاك الشجاعة الكافية للاعتراف بالأخطاء، والتقصير في مسيرتها، وهي بحاجة إلى التفريق الدقيق بين الأعراض والأمراض، حتى لا تعالج المظاهر والأعراض وتهمل الحقائق والأدواء. لقد كشفت الأحداث المتوالية عن الأمة اضطراباً في الفهم، واهتزازاً في قراءة الأحداث، واستسلام كثيرين للتضليل الإعلامي الذي يدير آلته العدوّ، مما أثار اللبس، وأشاع الشبهات فأنتج مع الأسف استسلاماً في بعض المواطن لأهواء الأقوياء، ولضغوط إعلامية علا صوتها.

أيها المسلمون: الإصلاح يبدأ بالنفس، وليس بضجيج الإعلام، ولا هُتاف الجماهير، ولا اندفاع الجموع، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ [الرعد:١١]، إن الإصلاح يكمن في صلاح القلوب وارتباطها بعلاّم الغيوب، خضوعٌ تام لله الواحد القهار، عبادةً وتذللاً، وانقياداً وتسليماً.

إن أهل الإسلام، وهم يعيشون، أيام هذا الشهر المبارك، أولى ما يكونون بالتوّجه نحو الإصلاح، وأولى الأولويات البدء في إصلاح النفس، فلتكن ــ يا عباد الله ــ هذه الأيام المباركة مواقف صدق، ولاسيما هذه العشر الأخيرة، إنها من أرقى الأوقات، وأحرى ما يؤمّل المسلم من فضل وخير وصلاحٍ وإصلاح، وإن لكم في نبيكم محمد لأسوة حسنة، فقد كان يخلط العشرين بصلاة وصوم، فإذا كان العشر شمّر وشدّ المئزر، وحسبها فضلاً ما يُرجى فيها من ليلة القدر، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ [القدر:٢، ٣]، (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه)(٢)[١] حديث مخرج في الصحيحين.

أيها المسلمون، إن شهركم قرب رحيله، وأزف تحويله، وقوّضت خيامه، فبادروا بالتوجه، واجتهدوا في حسن الختام، ودّعوا شهركم بالتوبة إلى الله، والإنابة إليه (وكل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون)(٣)[٢]، ومن خير أعمالكم إخراج زكاة الفطر، فهي طهرةٌ للصائم من اللغو والرفث، وطعمةٌ للمساكين، من أدّاها قبل صلاة العيد، فهي زكاة مقبولة، ومن أدّاها بعد الصلاة فهي صدقةٌ من الصدقات، فأخرجوها ــ رحمكم الله ــ طيبة بها نفوسكم.

عباد الله، هذا شهركم قد أذن بالرحيل، وفي بقيته للعابدين الجادين مستمتعاً، فهل من قلب يخشع، وعين تدمع، وعملٍ صالح يُرفع، ويا ويح قلوب خراب بلقع، تراكمت عليها الذنوب، فهي لا تبصر ولا تسمع. ألا فاتقوا الله رحمكم الله وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ [آل عمران:١٣٣]، وصلوا وسلموا على نبيكم محمد رسول الله فقد أمركم بذلك ربكم فقال في محكم تتريله إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً [الأحزاب:٥٦].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب: الدليل على من رضي الله عنه بالله رباً (٣٤) بلفظ: ((ذاق طعم الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً)).

(٢) رواه البخاري في الصوم، باب: من صام رمضان إيماناً واحتساباً (١٩٠١). ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٦٠).

(٣) رواه أحمد (٣/١٩٨). والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩) وهذا لفظه. وابن ماجة في الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥١) والحاكم (٤/٢٧٢) وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

فعليكم النصر

الإيمان، العلم والدعوة والجهاد

المسلمون في العالم، الولاء والبراء

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٤/٢/٢

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- واجب النصرة والمؤازرة لإخواننا في العراق. ٢- الوقوف مع الغزاة في حربهم ضد الأشقاء. ٣- الشامتون بجراحات إخوانهم. ٤- أدلة تحريم خذلان المسلمين في محنهم. ٥- تحية لشعب العراق على ثباته.

الخطبة الأولى

أما بعد: فيقول الله عز وجل في سورة الأنفال: وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [الأنفال:٧٢]، صدق الله العظيم.

أيها المسلمون، يا أحبة الله، تفيد هذه الآية الكريمة بأن المسلمين إذا طلبوا النصرة والنجدة من إخوانهم، فيتوجب عليهم أن يلبوا النداء وأن ينصروهم وأن يقفوا إلى جانبهم إلا إذا وجد عهد وميثاق مع الدول المعاهدة والمسالمة، كما نصت الآية الكريمة.

أما أمريكا المجرمة فهي دولة معادية محاربة، وكذلك بريطانيا الحاقدة، فلا يجوز شرعاً إجراء أي عهد وميثاق مع هاتين الدولتين المعتديتين على أرض العراق.

وعلى المسلمين جميعاً الوقوف ضد هذه الحرب.

وهاتان الدولتان تهددان الآن بغزو سوريا وإيران، وسبق لأمريكا أن غزت دول الخليج فليست أمريكا دولة معاهدة كما يزعمون، بل هي دولة معادية ومحاربة، ولا يجوز شرعاً أن نفسر هذه الآية الكريمة حسب الأهواء والأمزجة.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، وعليه لا يجوز شرعاً أن تقف الأنظمة في الدول العربية والإسلامية مكتوفة الأيدي، بل لا يجوز شرعاً أن نساعد أو نعاون أمريكا وبريطانيا على غزوهما واحتلالهما لأرض الرافدين، فالإثم أشد وأشد.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة: وَإِنْ أَحَدٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذالِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ [التوبة:٦]، ويفهم من هذه الآية الكريمة أنه إذا طلب أحد من المشركين الضعفاء النصرة والحماية، فينبغي حمايته والدفاع عنه حتى يسمع كلام الله، وحتى يصل إلى المكان الآمن له، فما بالكم — يا مسلمون — إذا كان المستجير والمستنجد مسلماً، فمن باب أولى أن نجير المسلم، وأن ننجده، ونقدم له الحماية وندافع عنه، ونقف إلى جانبه، ونحمي ظهره لا أن نطعنه من الخلف، حتى العرب في الجاهلية كانوا يجيرون وينجدون ويحمون من يستجير بهم، فكيف ببعض الأنظمة العربية تعين القوات الأمريكية والبريطانية في عدوانها على العراق، إنهم يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر، وما ينطبق على العراق فإنه ينطبق على أي قطر من أقطار العالم الإسلامي بما في ذلك فلسطين.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، إننا نؤكد على حقيقة ناصعة لا جدال فيها، وهي أن المؤمن هو أخ للمؤمن، وأن المسلمين جميعاً بمختلف ألوانهم وأصولهم وقومياتهم يشكلون أمة إسلامية واحدة ذات رسالة خالدة، هي رسالة الإسلام العظيم، فأين المؤمن الصادق في هذه الأيام الذي يقف إلى جانب أخيه ويشد من أزره؟ ما الذي نراه على أرض الواقع في العراق؟ إنه يشد على أخيه ليقتله! ولا يشد معه! فأين الأخوة الإيمانية في ما بين المسلمين؟ اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، إننا نذكر الحكام والملوك والأمراء والرؤساء في البلاد العربية والإسلامية أن يتقوا الله في أنفسهم وفي شعوبهم وفي بلادهم، ونذكرهم بواجباتهم تجاه فلسطين والقدس والأقصى وتجاه العراق الشقيق، العراق الجريح، أرض الرافدين، بلد المنصور والرشيد والمعتصم وصلاح الدين، ونقول لهؤلاء الحكام: لا يجوز شرعاً التخلي عن مسؤولياتكم، لا يجوز شرعاً معونة الكفار على المسلمين، يتوجب عليكم شرعاً الوقوف إلى جانب إخوانكم في أرض العراق، وإن الله عز وجل سائلكم يوم القيامة عن أعمالكم وعن مواقفكم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

كما لا يجوز شرعاً التشفي بما يحصل بإخوانكم في العراق، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله، ويبتليك))(١)[١]. أكرر: لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، نذكر الحكام، ونذكركم بثلاثة أحاديث نبوية شريفة تنص على وجوب النصرة وعلى تحريم الخذلان والتقاعس، فيقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن الله عز وجل: ((وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً، فقدر أن ينصره فلم ينصره))(٢)[٢] فالله عز وجل يحذر الظالمين بسبب ظلمهم، وأنه سينتقم منهم، وأنه سيحاسبهم عاجلاً أم آجلاً، كما سينتقم من الشخص الذي يتخلى عن نصرة المظلوم، وفي حديث نبوي آخر: ((ما من امرئ يخذل مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته))(٣)[٣] وهذا ما هو مشاهد في علاقات المسلمين فيما بينهم من الخذلان والطعن من الخلف لبعضهم بعضاً.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، وفي حديث نبوي ثالث: ((من أذل عند قوم، فلم ينصره، وهو يقدر على أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة))(٤)[٤]. اللهم اخذل من خذل المسلمين وأذل يا رب الشرك والكافرين.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، إن إخوانكم في العراق كما عهدناهم ثابتون مجاهدون رافضون للعدوان الأمريكي البريطاني، ومقاومون للمحتلين، وإنهم لن يستسلموا لغطرسة المعتدين، لقد هزني هتاف انطلق من آلاف الجماهير المتظاهرة في مصر وفي المغرب وفي عواصم ومدن الدول الغربية، هذا الهتاف يقول: بغداد اثبتي ولا تستسلمي، ونحن نثني على هذا الهتاف، ونقول: بغداد اثبتي ولا تستسلمي، وحماك الله يا بغداد يا بلد الرشيد.

اللهم انصر العراق وشعبه، اللهم ألحق الهزيمة بأمريكا، اللهم ألحق الهزيمة ببريطانيا، اللهم ألحق الهزيمة بمن والاهم ومن تعاون معهم سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [القمر:٤٥]، ستتحقق الآية إن شاء الله. قولوا: اللهم حققها في أرض العراق، قولوا: آمين آمين آمين.

ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، فيا فوز المستغفرين، استغفروا الله.

الخطبة الثانية

نحمد الله رب العالمين حمد عباده الشاكرين الذاكرين، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

أيها المسلمون، توجه لي صحفي أمريكي أمس بسؤال مفاده: ما حكم الدين الإسلامي بحق الجنود العراقيين الذين يتترسون في مسجد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في مدين النجف الأشرف، ويدعي هذا الصحفي أن هؤلاء الجنود العراقيين يطلقون الرصاص على الجيش الأمريكي من هذا المسجد – حسب زعمه – فكأن الأمريكان يظهرون حرصهم على بيوت الله ويتحرون معرفة رأي الإسلام في هذه المسألة الجزئية، ويتناسون ما قاموا به من قتل للأطفال والنساء والأبرياء وتدمير للمساجد والمستشفيات ودور العلم والكليات، كما يحصل في فلسطين، ولا ينظرون إلى أيديهم الملطخة بالدماء، فقلت لهذا الصحفي: إن الجنود الأمريكان والبريطانيين هم محتلون ومعتدون ويجب عليهم الخروج والانسحاب من أرض العراق، وإن أمريكا استعملت كافة الأسلحة، أسلحة الدمار الشامل بما في ذلك القنابل العنقودية والصواريخ الفتاكة، وإن أسلحة الدمار الشامل ليست بأسلحة ذكية كما يزعمون إنما هي أسلحة إجرامية غبية، لأنها تصدر عن مجرمين أغبياء.

فلم تعجبه هذه الإجابة، فكرر السؤال مرة أخرى، فقلت له: حينما تنسحب القوات الغازية المحتلة للعراق حينئذ أجيبك عن سؤالك.

أيها المسلمون، لم يعد خافياً على أحد أن العدوان على العراق يهدف إلى سرقة العراق وسرقة ثرواته ونفطه، وليس تحرير الشعب العراقي كما يدعون ويزعمون.

أيها المسلمون، إننا نحيي من على منبر المسجد الأقصى المبارك صمود وثبات شعب العراق بمختلف فئاته كما عهدناه، وتحية إكبار وتقدير للذين أبلوا بلاء حسناً في صد الهجمات التتارية في جنوب العراق، ونقول لإخوتنا الأكراد: إنكم أحفاد صلاح الدين الأيوبي الذي حرر الديار من غزو الفرنجة الصليبيين، فلا تكونوا أيها الأكراد طعماً للأمريكان، وتذكروا أيها الأكراد أنكم مسلمون، وأنكم جزء من الأمة الإسلامية، ونقول لأهلنا في العراق وفلسطين: اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.

أيها المصلون، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، فأمنوا من بعدي لعل أن يكون فيكم أنفاس طـاهرة وقلوب منكسرة، فيستجيب الله لها.

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٥٠٦)، من حديث واثلة بن الأسقع، وقد ضعفه الألباني في ضـعيف الترمذي (٤٥٠).

(٢) رواه الطبراني في الكبير(١٠٦٥٢)، والأوسط (٣٦)، من حديث ابن عباس، قال الهيثمي: وفيـه من لم أعرفهم. (مجمع الزوائد ٧/٢٦٧).

(٣) رواه أبو داود من حديث جابر وأبي طلحة (٤٨٨٤)، وأحمد في المسند (١٥٩٣٣)، وقد ذكره الألباني في ضعيف أبي داود(١٠٤٠).

(٤) رواه أحمد في المسند من حديث سهيل بن حنيف(١٥٥٥٥) قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمـد والطبراني، وفيه ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات(مجمع الزوائد ٧/٢٦٧)، وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٤٠٢).

السبيل إلى النصر والتمكين

الإيمان، التوحيد

الألوهية، الولاء والبراء

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٤/٤/٢٠

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- أهمية تحقيق الولاء والبراء في كافة مناحي الحياة. ٢- الالتجاء إلى الله والتوكل عليه هو السـبيل الأمثل للخروج من المحن. ٣- استمرار الحروب الصليبية حتى زماننا المعاصر. ٤- الأحكام الشـرعية غير قابلة للتغيير مهما كانت الظروف. ٥- نعي العالم الشيخ/ عبد القادر عبد المحسن عابـدين. ٦- جهود المسؤولين في إتمام الامتحانات الدراسية رغم الحصار والتضييق. ٧- كفالة الأيتام في الإسلام.

الخطبة الأولى

أما بعد: فيقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً [النساء:٦٠]، صدق الله العظيم.

أيها المسلمون، هذه الآية الكريمة من سورة النساء، وهي مدنية، وتشير هذه الآية إلى أنّ أحد المنافقين في المدينة المنوّرة قد رفض الاحتكام إلى الرسول ، وأراد أن يحتكم إلى أحد الطواغيت الظلمة، فهو في زمرة الشياطين الضالين.

وهناك ــ يا مسلمون ــ آية أخرى في السورة نفسها، أي: في سورة النساء تؤكّد هذا المعنى، فيقول الله عز وجل: فَلاَ وَرَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُواْ تَسْلِيماً [النساء:٦٥]، وسبب نزول هذه الآية الكريمة أنّ أحد المنافقين قد رفض الانصياع لقرار التحكيم الذي أصدره رسولنا الأكرم ، وادّعى هذا المنافق بأن هذا القرار مُتَحَيّز وغير عادل(١)[١].

أيّها المسلمون، يجهل البعض في هذه الأيام، أو يتجاهلون الأحكام الشرعية المتعلقة بالولاء والتبعية، في حين إنّ عشرات النصوص الشرعية من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة؛ صريحة في أنّه لا ولاء إلا لله ورسوله، ولا تبعية لشياطين الإنس من العلمانيين واللادينيين، ولا للقوانين الوضعية المستوردة من دول الكفر، الذين يكذبون قول رب العباد ويطبقون قول العباد، ويهجرون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويريدوننا أن نتنفس بقرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، ونسي المسلمون أو تناسوا في هذه الأيام أن ملة الكفر واحدة، وأن دول الكفر كما هو واضح ومعلن لن تغير مواقفها العدائية تجاه المسلمين، تجاه قضاياهم المصيرية، ولو أن المسلمين احتكموا إلى دينهم العظيم؛ لما أشغلوا أنفسهم، وما أضاعوا وقتهم، وهم يلهثون وراء دول الكفر والاستعمار، فأين الإيمان؟ أين اليقين؟ أين التوكل على رب العالمين؟

أيها المسلمون، يتوجب على المسلمين في هذه الأيام أن يلتزموا نهج نبيهم محمد ، في جميع مناحي الحياة من خلال سننه العملية؛ لأنه لم يكن تابعاً ولا عميلاً لأي دولة أخرى، بل كان يعد العدة، ويعبئ الصحابة روحياً وإيمانياً ونفسياً ومعنوياً ومادياً، ثم يلجأ إلى الله رب العالمين يطلب منه النصر والتوفيق، فهذا ما حصل على سبيل المثال لا الحصر قبل بدء معركة بدر الكبرى، حين توجه عليه الصلاة والسلام إلى الله بتضرع وخشوع قائلا: ((اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني))(٢)[٢].

أيها المسلمون، ومازال عليه الصلاة والسلام يهتف بهذا الدعاء ويردده مادًّا يديه، مستقبلاً القبلة، حتى حقق الله وعده.

و لم يتوجه عليه الصلاة والسلام إلى الفرس والروم، و لم يطلب منهم التدخل، كما نسمع كثيراً في هذه الأيام، فلم يكن عليه الصلاة والسلام تابعاً ولا ذليلاً لأي دولة من الدول الكبرى وقتئذ، وإنما كان اعتماده على الله وحده، هو مولاه ومولى المسلمين جميعاً، ولا أحد غيره، يقول عز وجل: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءامَنُواْ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُم [محمد:١١].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، واعلموا أن الخطأ كل الخطأ أن نأمل المساعدة من غير المسلمين، والإثم كل الإثم أن نطلب النصرة والحماية من الكافرين، الذين يتظاهرون بحرصهم وبعطفهم على المسلمين، ولكنّ الحقيقة المؤلمة أنهم يُكِنّون العداوة والبغضاء، وما تخفي صدورهم أعظم.

وإن الأحداث والوقائع من أيام الحروب الصليبية حتى يومنا هذا تؤكد ذلك، ويخطئ من يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت وقتئذ؛ لأن الغرب منذ أن طُرِد من ديار الإسلام قبل ثمان مائة عام، وهو يخطط ليعود إلى بلادنا من جديد، بأسلوب أو بآخر، و لم يتضح هذا المخطط الاستعماري لكثير من المسلمين إلا بعد الحرب العالمية الأولى، فحين دخل اللورد اللنبي البريطاني مدينة القدس في مطلع القرن الماضي قال: "الآن انتهت الحروب الصليبية"، ومثل ذلك حين دخل الجنرال غورو الفرنسي مدينة دمشق توجه إلى قرب البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه بالقرب من المسجد الأموي، وركل الجنرال غورو المجرم، ركل القبر برجله، وقال بحقد وكراهية: "قم يا صلاح الدين، الآن انتهت الحروب الصليبية".

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، والملاحظ أن كلا القائدين، البريطاني والفرنسي قد استعملا لفظ الآن، على اعتبار أنهما حققا الهدف المنشود، وهو احتلال ديار الإسلام من جديد.

وفي الحقيقة أن الحروب الصليبية لم تنتهِ في الحرب العالمية الأولى، بل هي مستمرة، وإن الأحداث هذه الأيام تؤكد ذلك، إذ إن السياسيين الغربيين الذين يلعبون في مصير الشعوب المستضعفة حالياً، هم صليبيون، ولا يجوز شرعاً أن نثق بهم أو نطمأن إليهم.

أيها المسلمون، يطرح في هذه الأيام مشروع قانون العقوبات الفلسطيني لمناقشته، ولإدخال التعديلات عليه، وقد عقدت خلال هذا الأسبوع عدة اجتماعات من قبل مجلس الفتوى الأعلى، ومن قبل رابطة علماء فلسطين، ومن قبل جمعيات قانونية، وذلك لدراسة مشروع قانون العقوبات، وبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقوبات في الإسلام، مع أنه لا يجوز الاحتكام إلى القوانين الوضعية، والتي تخالف مخالفة صريحة الأحكام الشرعية، وإن أي مشروع يجب أن يعرض على كتاب الله وسنة رسوله، وإنه لا ولاء إلا لله ورسوله، ولا تبعية لأي قانون وضعي.

أيها المسلمون، مهما نزلت من المحن والفتن، ومهما تعرض المسلمون في العالم للضغوطات فإن الحكم الشرعي لا يتغير ولا يتبدل، إن الذي بحاجة إلى التغيير هو نفوس المسلمين، نعم نفوس المسلمين، تلك النفوس التي تمردت على الله رب العالمين، واستمرأت الذل والهوان، فإن أقبلت هذه النفوس على الله واحتكمت إلى كتاب الله وسنة رسوله، فإن الله عز وجل يبدل حال العالم الإسلامي بحال أحسن وأفضل.

وهذه هي المرحلة الأولى في الإصلاح، يقول عز وجل في سورة الأنفال: ذالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيّراً نّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنْفُسهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأنفال:٥٢]. ويقول الله عز وجل في سورة الرعد: إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِم [الرعد:١١].

تداركنا يا رب العالمين برحمتك وعدلك، وهيئ لنا طريق النجاة والخلاص؛ لنرجع إلى دينك وقرآنك وسنة نبيك.

جاء في الحديث الشريف: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))(٣)[٣] صدق رسول الله .

ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة فيا فوز المستغفرين.

____

الخطبة الثانية

الحمد لله، له الحمد في الدنيا والآخرة، له الحكم وإليه ترجعون، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، صلاة وسلام دائمين إلى يوم الدين، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد.

أيها المسلمون، يا أبناء أرض الإسراء والمعراج، مِنْ على منبر المسجد الأقصى المبارك ينعي أهل العلم الشرعي في بيت المقدس بخاصة، وفي فلسطين بعامة؛ عالماً عاملاً من علماء فلسطين، إنه المرحوم ـ بإذن الله ـ سماحة الشيخ عبد القادر عبد المحسن عابدين، الذي ترك بوفاته فراغاً في هذه المدينة المقدسة المباركة، فإن فقد العلماء هو نزعٌ للعلم بين الناس، فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وعوّضَ طلاب العلم الشرعي وذويه خير العِوَض، لله ما أخذ، وله ما أعطى، فكل شيء عنده بمقدار، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها المسلمون، يا أبناء أرض الإسراء والمعراج، لا تزال امتحانات الثانوية العامة قائمة، تبذل وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية جهوداً كبيرة مباركة لإنجاح هذه الامتحانات، رغم الإعاقات والحصارات المفروضة على شعبنا، فجزى الله خيراً رجالات التربية والتعليم، والمعلمين والمراقبين

والمصححين، الذين قاموا ويقومون في إنجاح العملية التربوية، ونتمنى لطلابنـــا وطالباتنـــا النجـــاح والتوفيق والسداد.

أيها المسلمون، يا أبناء أرض الإسراء والمعراج، أتناول وبإيجاز موضوع كفالة اليتـــيم في الإســـلام، فأقول وبالله التوفيق: لا يخفى عليكم أن ديننا الإسلامي العظيم يحث على كفالة ورعاية الأيتام، فـــالله عز وجل يقول: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ [الضحى:٩]، ويقول رسولنا الأكرم : ((أنا وكافـــل اليتـــيم في الجنة هكذا))، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى(٤)[١].

ويقول في حديث نبوي آخر: ((من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كان كان له في كل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين)) وفرّق بين إصبعيه: السبابة والوسطى(٥)[٢].

وفي حديث شريف ثالث: ((إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى: من أسكته وأرضاه عليّ أن أرضيه يوم القيامة))(٦)[٣].

وفي الأثر أخبرنا رسول الله صلىالله عليه وسلم بأن امرأة تزاحمه على باب الجنة، فسأل عنها، فقيـــل له: إنها أرملة قامت على أولادها الأيتام.

فالمرأة التي تترمّل وتتفرغ لأبنائها الأيتام، لا تتزوج من رجل آخر، فإن الله عز وجل يهيئ لها مرتبـــة عليا يوم القيامة، فإنها تزاحم حبيبنا ورسولنا على باب الجنة.

وفي مجتمعنا الفلسطيني هناك العشرات، بل المئات من النساء اللواتي يزاحمن رسولنا على باب الجنـــة، إنهن الخنساوات، وليست خنساء واحدة.

والسؤال يا مسلمون: لماذا نعرض إلى موضوع كفالة اليتيم، وكفالة اليتيم معروفة لديكم يا مسلمون؟

والجواب: إن الحكومة الأمريكية تدعو إلى عدم كفالة الأيتام إذا كان آباؤهم شهداء أو استشهاديين؛ كعقوبة لهؤلاء الأيتام؛ ولردع الآخرين، كما تدّعي أمريكا.

والإجابة من على منبر المسجد الأقصى المبارك بأن الله عز وجل يقول: وَلاَ تَـــزِرُ وَازِرَةٌ وِّزْرَ أُخْـــرَى [الأنعام:١٦٤].

ثم ما ذنب الطفل البريء حتى يحرم من الرعاية والكفالة؟ ثم لم يطلب منا ديننا العظيم أن نفتح ملفـــاً للآباء حتى نقول: هذا يستحق، وهذا لا يستحق، ثم هل يحق لنا شرعاً أن نحرم المسلمين من التوافـــق بتبرعهم وكفالتهم للأيتام.

ثم إن ديننا الإسلامي العظيم هو دين الرحمة والتكافل والتضامن، وهو دين الحضارة والعزة والكرامة؛ لأنه دين سماوي؛ ولأنه خاتم الأديان، وهو دين للإنسانية جَمْعاء، وعليه فإن المطلب الأمريكي هـــو مطلب فارغ مرفوض، ويتعارض مع قِيَمِنا الدينية والإنسانية، وإن قِيَمَنا السامية بعيدة عن الانتقـــام،

بعيدة عن الأحقاد، بعيدة عن الغطرسة، وعلى أبناء هذا الدين العظيم أن يتمسكوا به، وأن يعتزّوا به وَلِلهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ [المنافقون:٨]، صدق الله العظيم.

---

(١) أخرج الطبري في جامع البيان (١٥٢/٥-١٥٤)، جملة من القصص في سبب نزول الآيات من حديث ابن عباس والشعبي وقتادة وغيرهم.

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة (ابن هشام١٦٨/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة(١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه النووي في الأربعين، ووثق رجاله ابن حجر في الفتح(٢٨٩/١٣)، وأعله ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٨٦)، وضعفه الألباني في تعليقه السنة لابن أبي عاصم.

(٤) أخرجه البخاري في الطلاق (٤٨٩٢)، ومسلم في الزهد (٥٢٩٦)، من حديث سهل بن سعد.

(٥) أخرجه أحمد (٢٥٠/٥)، والطبراني في الكبير(٢٠٢/٨)، والأوسط (٢٨٥/٣)، من حديث أبي أمامة، وضعفه الهيثمي في المجمع(١٦٠/٨).

(٦) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن(١٠١/٢٠).

من معاني النصر

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد

ناصر بن محمد الأحمد

الخبر

١٤٢٢/٨/١٠

النور

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- سنة الله الماضية في التاريخ هي نصر أوليائه وجنده. ٢- لهذا النصر صور متغايرة متنوعة. ٣- الشهادة نوع من انتصار العقيدة والإيمان. ٤- ثقة المؤمن بنصر الله. ٥- أسباب تأخر النصر.

الخطبة الأولى

أما بعد: يقسم العلماء التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

ومن معتقد أهل السنة والجماعة في معاني أسماء الله وصفاته أن الله لا يَخذل من توجّه إليه بصدق وتوكل واعتمد عليه. فإنه لم يحصل في تاريخ البشرية منذ أن خلق الله هذه الأرض أن نبياً من الأنبياء أو عالماً أو داعيةً أو مجاهداً أو مجتمعاً أو دولةً أو غيرهم توكلوا على الله وصدقوا الله واعتمدوا على الله وتركوا جميع الناس من أجل الله ثم خذلهم الله، هذا لا يعرف في التاريخ أبداً، بل من فهمنا لمعاني أسماء الله وصفاته أن كل من توكل على الله واعتمد عليه وترك من سواه من الخلق، فإن الله لا يخذله، بل سينصره كما قال سبحانه: وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧].

فإن هذا من معاني أسمائه وصفاته. فالله عز وجل بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا كتب النصر والغلبة لأهل الحق من أوليائه الصالحين والمصلحين، وكتب المهانة والذلة على أعدائه من الكافرين والمنافقين، وهذه سنة لا تتخلف إلاّ إذا تخلفت أسبابها فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً [فاطر:٤٣].

أيها المسلمون، لكن لهذا النصر صور عديدة، وليس النصر محصوراً في انتصار المعارك فحسب، بل قد يقتل النبيّ أو يطرد العالم أو يسجن الداعية أو يموت المجاهد أو تسقط الدولة، والمؤمنون منهم من يسام العذاب، ومنهم من يلقى في الأخدود، ومنهم من يَستشهد، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، ومع ذلك يكون كل هؤلاء قد انتصروا بل وحققوا نصراً مؤزراً، وتحقق فيهم قول الله تعالى: وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ.

ومن قَصَرَ معنى النصر على صورة واحدة وهي الانتصار في المعارك فحسب، لم يدرك معنى النصر في الإسلام.

فمن أنواع النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين: نصر العزة والتمكين في الأرض وجعل الدولة للإسلام والجولة للإسلام، كما نصر الله عز وجل داود وسليمان عليهما السلام كما قال سبحانه: وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ [البقرة:٢٥١]، وقال عز وجل: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً [الأنبياء:٧٩]، فجمع الله عز وجل لهذين النبيين الكريمين بين النبوة والحكم والملك العظيم.

وكذلك موسى عليه السلام نصره الله على فرعونَ وقومه وأظهر الدين في حياته، كما قال سبحانه: وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ [الأعراف:١٣٧].

أما نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد نصره الله نصراً مؤزراً، فما فارق النبي الدنيا حتى أقرّ الله عز وجل عينه بالنصر المبين، والعز والتمكين، بل جعل الله عز وجل النصر ودخول الناس في دين الله

أفواجاً علامة قرب أجل النبي فقال تعالى: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوبَا [سورة النصر]، فما فارق النبي الدنيا حتى حكم الإسلام جزيرة العرب، ثم فتح تلامذته من بعده البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، حتى استنارَ أكثرُ الأرض بدعوة الإسلام، وسالت دماء الصحابة في الأقطار والأمصار، يرفعون راية الإسلام، وينشرون دين الله عز وجل، حتى وقف عقبة بن عامر على شاطئ المحيط الأطلنطي وقال: "والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرضاً تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا".

وما كان يعلم رضي الله عنه أن وراء ذلكم البحر الأمريكتان، ولو كتب الله وخاض البحر ودخل المسلمون تلك البلاد لكان التاريخ شيئاً آخر، فشاء الله تعالى أن تقف خيول عقبة بن عامر على شاطئ الأطلنطي لحكمة يعلمها سبحانه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. وهذا الخليفة المسلم هارون الرشيد نظر إلى السحابة في السماء وقال لها: "أمطري حيث تشائين فسوف يأتيني خراجك".

لقد انتصر الإسلام عباد الله لما وجد الرجال الذين يقومون به ويضحون من أجله والله عز وجل يقول: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات:١٧١-١٧٣].

ومن أنواع النصر ـــ كذلك عباد الله ـــ: أن يهلك الله عز وجل الكافرين والمكذبين وينجي رسله وعباده المؤمنين، قال عز وجل حاكياً عن نوح عليه السلام: فَدَعَا رَبَّهُ أَنّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ [القمر:١٠-١٤]، ولما نصر الله عز وجل هوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً عليهم الصلاة والسلام، أهلك الله عز وجل الكافرين والمكذبين وأنجى رسله وعباده المؤمنين.

النوع الثالث من النصر: وهو انتصار العقيدة والإيمان، وهو أن يَثْبُت المؤمنون على إيمانهم وأن يضحوا بأبدانهم حماية لأديانهم وأن يؤثروا أن تخرج أرواحهم ولا يخرج الإيمان من قلوبهم، فهذا نصر للعقيدة ونصر للإيمان.

فنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟

ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار، مع أن الذين ألقوه في النار يرون أنفسهم قد هزموه، كما أنه انتصر مرة أخرى، وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة، وهما في الظاهر بعيد من بعيد، فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب!

وهذا خبر الغلام في قصة أصحاب الأخدود حين عجز الملك عن قتله فقال له: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، وانظر إلى عزة الإسلام وهو يقول للملك: ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال:

تجمعُ الناس في صعيد واحد وتصلُبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله ربِّ الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صُدغه، فوضع يده في صُدغه في موضع السهم فمات.

فقال الناس: آمنا بربِّ الغلام، آمنا بربِّ الغلام، فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك، قد آمن الناس.

فانظروا كيف ضحى هذا الغلام بحياته من أجل الدعوة، وهذا ما يجب على الدعاة إلى الله عز وجل، أن لا يبخلوا بشيء في سبيل نشر دعوتهم، ولو أنفقوا حياتهم ثمناً لإيمان الناس، فقد مضى الغلام إلى ربه، إلى رحمته وجنته وآمن الناس بدعوته، عند ذلك أمر الملك بحفر الأخاديد في أفواه السكك وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا حتى جاءت امرأة، ومعها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق.

وسجل الله عز وجل لنا في كتابه الخالد خاتمة القصة، وعاقبة الفريقين في الآخرة فقال عز وجل: قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْء شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ [البروج:٤-١١].

أيها المسلمون، وقافلة الإيمان تسير يتقدمها الأنبياء الكرام والصديقون والشهداء.

مّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً [الأحزاب:٢٣]، ما جفت الأرض من دماء الشهداء في عصر من العصور، ولا خلت الأرض من مخلص يقدم للأمة نموذجاً، فيموت هو، وينتشر الخير بعده بسببه.

فهذا صاحب الظلال رحمه الله كان قتله انتصاراً لمنهجه الذي عاش من أجله ومات في سبيله، بذل حياته كلها من أجل أن يبين أن الحكم من أمور العقيدة والتحاكم إلى غير شرع الله، والحكم بغير حكمه كفر بالله عز وجل: إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ [يوسف:٤٠]، وقال تعالى: وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة:٤٤]، وبعد أن حكم عليه بالإعدام وقبل أن ينفذ فيه الحكم الظالم كتب هذه الأبيات وكتب الله عز وجل لها الحياة وخرجت من وراء القضبان تقول للعالم.

أخي أنت حر وراء السدود ......أخي أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصما ......فماذا يضيرك كيد العبيد

أخي ستبيد جيوش الظلام ......ويشرق في الكون فجر جديد

أخي إن نمت نلق أحبابنا ......فروضات ربي أعدت لنا

وأطيارها رفرفت حولنا ......فطوبى لنا في ديار الخلود

أخي إن ذرفت عليّ الدموع ......وبللت قبري بها في خشوع

فأوقد لهم من رفاتي الشموع ......وسيروا بها نحو مجد تليد

فرحمة الله على صاحب الظلال ورحماته. قال عنه أحد الشيوعيين وهو في سجنه: إنني أتمنى أن أقتل كما قتل وينشر مبدئي وكتبي كما انتشرت كتبه.

نعم، لقد وجدنا مطابع النصارى في لبنان تسارع إلى طباعة ونشر كتبه بعدما قتل من أجلها، وهذا ما قصده رحمه الله عندما قال: إن كلماتَنا وأقوالَنا تظل جثثاً هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بدمائنا عاشت وانتفضت بين الأحياء.

إنه نصر وأيّ نصر، إنه أعظم وأجلّ من انتصارات كثير من المعارك والتي سرعان ما تنتهي بانتهائها، أما هذا النصر فإنه يبقى ما شاء الله أن يبقى.

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته، ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، ويظن أعداؤه أنهم قد انتصروا عليه، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي كتبها بدمه، فتبقى حافزاً ومحركاً للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزاً ومحركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال.

نوع رابع من أنواع انتصار المؤمنين: وهو أن يحمي الله عز وجل عباده المؤمنين من كيد الكافرين كما قال تعالى: وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً [النساء:١٤١]، وكما قال عز وجل لنبيه : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة:٦٧].

وجاء في السيرة المباركة كيف عصمه الله عز وجل من الرجل الذي رفع عليه السيف وقال: من يعصمك مني؟ فقال: ((الله))، فارتجف الرجل وسقط السيف من يده. وقصة الشاه المسمومة التي أنطقها الله عز وجل، وأخبرت النبي بأنها مسمومة. وقصة إجلاء بني النضير، ونزول جبريل وميكائيل يوم أحد يدافعان عن شخص النبي .

وهل سمعتم أيها الأحبة عن يوم الرجيع؟ هل تعرفون عاصم بن ثابت ؟ بعث النبي سرية عيناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذُكروا لحيّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتُهي إلى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى مكان مرتفع، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا

لا نقتل منكم رجلاً. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنّا نبيك، فقاتَلوهم حتى قَتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكـان عاصم قد قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظُّلة من الدبر، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء.

وكان عاصم بن ثابت قد عاهد الله أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً، فكان عمر يقول: لمـا بلغه خبره، يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته.

فكان عاصم مدافعاً أول النهار عن دين الله، ودافع الله عز وجل عن جسده آخر النهار، فلم يمسـه مشرك.

فإن قال قائل: لماذا لم يمنعهم الله عز وجل من قتله كما منعهم من الوصول إلى جسده بعـد قتلـه؟ فالجواب: أن الله عز وجل يحب أن يرى صدق الصادقين، ويحب أن يرى عباده المؤمنين، وهم يبذلون أنفسهم لله عز وجل فيبوئهم منازل الكرامة، ويزيدُهم من فضله، فالله عز وجل أراد أن يشرّفه بدرجة الشهادة، فلم يمنعهم من قتله ثم حمى الله عز وجل جسده من أن يمسه مشرك. فهذه صورة من صور النصر ولو انتهت بموت وقتل صاحبه.

نوع خامس من النصر الذي ينصر الله عز وجل به عباده المؤمنين: وهو نصر الحجة كما قال تعـالى: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتَيْنَاهَا إِبْراهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعـام:٨٣]، والرفع هو الانتصار، وكما قال النبي : ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم مـن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)). فهذا الظهور أدناه أنه ظهور حجة وبيان، وقد يكون معـه ظهور دولة وسلطان.

أيها المسلمون، هذه أنواع من النصر كلها تدخل في وعد الله سبحانه وتعالى: وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْـرُ الْمُؤْمِنينَ [الروم:٤٧]، ولكن النصر الذي بشرنا الله عز وجل به، وبشرنا به رسوله هو النصر الأول، وهو نصر التمكين والظهور، قال الله تعالى: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [الصف:٩]، وقال النبي : ((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنـهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعـز الله بـه الإسلام، وذلاً يذل به الكفر)) وقال : ((إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زُوي لي منها)). وعن أبي هريرة أن رسول الله قال: ((لا تقوم الساعة حـتى يقاتـل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجـر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)).

ونقرأ هذه الأحاديث تحقيقاً لوعد الله ووعد نبينا صلى الله عليه وسلم. ونحن بانتظـار الشـمس أن تشرق، وهذا الليل أن ينجلي، وذلكم الصبح أن يتنفس.

صبح تنفس بالضياء وأشرقا ...وهذه الصحوة الكبرى تهز البيرقا
وشبيبة الإسلام هذا فيلق ...في ساحة الأمجاد يتبع فيلقا
وقوافل الإيمان تتخذ المدى ...ضرباً و تصنع للمحيط الزورقا
وما أمر هذي الصحوة الكبرى ....سوى وعد من الله الجليل تحققا
هي نخلة طاب الثرى فنما ....لها جذع طويل في التراب وأعذقا
هي في رياض قلوبنا زيتونة ...في جذعها غصن الكرامة أورقا
فجر تدفق من سيحبس نوره؟! ...أرني يداً سدت علينا المشرقا
بارك الله لي ولكم ..

الخطبة الثانية

أما بعد أيها المسلمون، إن الثقة بنصر الله، وعونه ووعده الحق لمن جاهد في سبيله، هي زاد الطريق، ومفتاح الأمل، ونور الأجيال الإسلامية التي تبصر بها آفاق الرحلة، وتبقى لحظة النصر وبشارة التمكين حية شاخصة في رؤى المجاهدين ومشاعرهم، وإن من فقد هذه الثقة بالله ونصره، فقد خسر خسراناً مبيناً، ومن تشكك فيها لحظة، فقد تأخر عليه النصر على قدرها مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ وَكَذالِكَ أَنزَلْنَاهُ ءايَاتٍ بَيّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ [الحج:١٥، ١٦].

أيها المسلمون، من كان يشك في نصر الله لأوليائه فليقرأ قول الله تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحياةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [غافر:٥١]، وقوله سبحانه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءوهُم بِالْبَيّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧]، وقوله عز وجل: ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف:١٠-١٣]، وقوله سبحانه: ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧]، وقوله تعالى: ذالِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ [الحج:٦٠].

أيها المسلمون، إن نصر الله جل وعز متحقق لمن يستحقونه، وهم المؤمنون الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أي حل آخر، ولا إلى نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند

الله. ومع ذلك نقول: إن من سنن الله تعالى أن النصر قد يتأخر، ولو كان أهله مسلمون وأعداؤهم كفار وذلك لأسباب:

منها: أن البنية للأمة لم تنضج بعد ولم يتم بعد تمامها، ولم تُحشد بعد طاقاتها ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً. لأن النصر السريع الهين اللين، سهل فقدانه وضياعه، لأنه رخيص الثمن لم تُبذل فيه تضحيات عزيزة.

ومن الأسباب أيضاً: أنه قد يتأخر النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتتأذى وتبذل ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا ملجأً إلا إليه، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على المنهج الصحيح بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به.

وقد يتأخر النصر أيضاً: لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه أو تقاتل حمية لذاتها أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده، وفي سبيله بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فأيها في سبيل الله؟ فقال ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)) متفق عليه.

وقد يتأخر النصر أيضاً: لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذٍ فقد يجد الباطل له أنصاراً من المخدوعين فيه لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل مدة من الزمن حتى يتكشف عارياً للناس، وإذا ما ذهب فإنه يذهب غير مأسوف عليه.

وقد يتأخر النصر أيضاً: لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصر حينئذٍ للقيت معارضة من البيئة حولها لا يستقر معها قرار، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه.

أيها المسلمون، من أجل هذا كله ومن أجل غيره مما يعلمه الله ولا نعلمه نحن قد يتأخر نصر الله، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام وتتضاعف معها الأجور، وفي كل ذلك خير مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصلاةَ وَاتَوُاْ الزكاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأْمُورِ وَإِن يُكَذّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذّبَ مُوسَى فَأمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيّن مّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا

أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الاْبْصَارُ وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمَّا تَعُدُّونَ وَكَأَيّن مّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ [الحج:٤٠-٤٨].

النصر من الله وحده

الرقاق والأخلاق والآداب، سيرة وتاريخ

الفتن، معارك وأحداث

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٥/٤/١٦

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- رفع معنويات المؤمنين. ٢- كيد المنافقين والحروب والفتن. ٣- النصر من الله تعالى وحده. ٤- الفرق بين الغلبة والنصر. ٥- تجاوز أمة الإسلام للمصائب بسلام. ٦- من مواقف السلطان عبد الحميد الثاني. ٧- ضرورة الثقة بالله تعالى. ٨- ظاهرة غلاء إجارات البيوت في القدس. ٩- ظاهرة الباعة المتجولين في الشوارع. ١٠- قضية مقبرة الرحمة واليوسفية.

الخطبة الأولى

أمّا بعد: فيقول الله عزّ وجلّ في محكَم كتابه: وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ [آل عمران:١٣٩-١٤١]، صدق الله العظيم.

أيها المسلمون، يا أبناءَ أرض الإسراء والمعراج، هذه الآيات الكريمة من سورة آل عمران، وهي مدنية، وقد نزلت بعد معركة أُحد وذلك لمواساة المسلمين من الهزيمة التي لحقتهم، ولتقوية أعصابهم

وشدّ عزائمهم، ولإعادة الثقة لأنفسهم، ولأخذ العظة والعبرة مما حلّ بهم، ويـــأمر الله ربَّ العـــالمين المسلمين بأن لا يحزنوا وأن لا يضعفوا إن كانوا مؤمنين حقًّا.

أيّها المسلمون، أيّها المؤمنون، لقد كانت هذه الآيات الكريمة مطَمئِنةً لنفوس الصحابة ومواسِية لهـــم ومقويّة لإيمانهم، فدفنوا الشهداء، وضمّدوا الجراح، واستعدوا من جديد لردّ الاعتبار.

ومع ذلك وُجِد في المدينة المنورة بعض المنافقين الذين لا همَّ لهم إلا أن يتصيّدوا أخطـــاء المســـلمين ويشمتوا بما حلّ بهم من خسائر، وهم يروِّجون الإشاعات ويثبّطون العزائم، فيقول الله عز وجل على لسان هؤلاء المنافقين: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا [آل عمران:١٥٦]، فكأنّ المـــوت والأجـــل بأيديهم، معاذ الله عما يدعون ويفترون.

أيها المسلمون، إن مثل هؤلاء المنافقين موجودون في كل مجتمع وفي كلّ زمان ومكان، ولكن يتفاوت عددهم قلة وكثرة، وهذا ما لمسناه بعد وقوع حرب حزيران عام ١٩٦٧م، والتي سيصادف ذكراها غدًا السبت، فإنّ المندسين كان هدفهم تكريس الاحتلال والاعتراف بالأمر الواقـــع والانخـــراط في صفوفهم والانسجام معهم، وأطلقوا التبريرات الواهية لتصرفاتهم ولمواقفهم الشاذة.

أيها المسلمون، لقد تمكن رسولنا الأعظم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم من تغيير كفـــة الميـــزان لصالحهم، وذلك بعد عام واحد فقط من وقوع غزة أُحد، فكانت غزة بدر الآخرة التي وقعـــت في السنة الرابعة للهجرة، ثم غزوة الخندق "الأحزاب"، والتي وقعت في السنة الخامسة للهجرة، وأعطـــى المسلمون بتوفيق الله وتأييده درسًا قاسيًا لخصومهم، كما أنهم وضعوا حدًّا للمثبطين والمشكّكين، و لم ييأس المسلمون لما حل بهم في أُحد، لم يناموا، و لم يســـتكينوا، و لم يتـــهرّبوا مـــن المســـؤولية، و لم ويستسلموا للأمنيات.

وما نيل المطالب بالتمني...ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

ما استعصى على قوم منال...إذا الإقدام كان لهم ركابا

أيها المسلمون، يا أبناء محمد عليه الصلاة والسلام، ولا بدّ من الإشارة إلى أن النصر لفظ من الألفاظ العقدية في الدين الإسلامي، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ما يزيد عن مائة وثلاثين مرة.

والنصر مسند ومنسوب إلى الله العليّ القدير، فالنصر من عند الله، والمسلمون ينصرون بمدد مـــن الله وتأييده، وذلك حينما يَنصرون الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، كما في قوله سبحانه وتعـــالى في سورة آل عمران: إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِـــنْ بَعْـــدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ [آل عمران:١٦٠]، وكما في قول رب العـــالمين في ســـورة الحـــج: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج:٤٠]، وقوله عز وجل في سورة محمد: يَـــا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧].

أيها المسلمون، يا أحفادَ عمر وخالد وصلاح الدين، أما إذا كانت المعركة لصالح غير المسلمين فتكون لهم الغلبة ولا يكون لهم النصر، لقوله سبحانه وتعالى في سورة الروم: غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ [الروم:٢، ٣]، فإنّ دولة الفرس سبق أن تغلّبت على الروم، ثم تغلّبت الروم على الفرس، وعلى اعتبار أنهما دولتان كافرتان غير مسلمتين فلا ينسب لهم لفظ النصر، لأن النصر من عند الله، ومثل ذلك بالنسبة لأمريكا وبريطانيا وروسيا وغيرها من الدول الكافرة المستعمرة في هذه الأيام، فالنصر لفظ خاص يتعلق بالمسلمين، أما لفظ الغلبة فهو لفظ عام يشمل المسلمين وغير المسلمين.

أيها المسلمون، يا أحبة الله، لقد مرّت محن ومصائب على المسلمين في العصور الماضية أيام التتار والمغول والفرنجة الصليبيين وغيرهم، فكان أجدادنا يجتازون الصعاب بكل ثبات وصمود وإصرار وتضحية، والله عز وجل يهبهم القدرة والنصرة والتأييد بما أودع فيهم من عقيدة قوية وإيمان راسخ وعمل مثمر مفيد متواصل، وقد أصيبت أمتنا الإسلامية في القرن الماضي بعدّة محن ومصائب متوالية منذ الحرب العالمية الأولى، مرورًا بنكبة عام ١٩٤٨م، وانتهاء بنكسة حزيران بل بمسرحية حزيران عام ١٩٦٧ م، ولا تزال آثارها السلبية قائمة حتى الآن بما في ذلك الجدار العنصري الفاصل اللعين، ويكتوي شعبنا الفلسطيني المرابط بنار هذه الحرب التي لم تدم سوى ستة أيام، في حين صمد مخيم جنين في شهر نيسان إبريل من عام ٢٠٠٢م مدة تسعة أيام رغم الأسلحة الأمريكية الفتاكة المتطورة.

أيها المسلمون، أيها المرابطون، بمناسبة ذكرى حرب حزيران يوليو، يحسن الإشارة إلى موقف السلطان عبد الحميد الثاني في القرن التاسع عشر الذي تمسّك بأرض فلسطين، وكيف أن الذين جاؤوا بعده قد فرطوا بهذه الأرض المباركة المقدسة، ويقول السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله في رسالته إلى هرتزل بشأن بيع أرض من فلسطين: "إن البلاد الإسلامية ليست لي، وإنما للأمة، ولا أستطيع أن أهب قطعة منها لأحد، فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب، وإذا مزقت دولة الخلافة يومًا فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل المِبضع ــ أي: السكين ــ في بدني أهون علي من أن أرى فلسطين قد سلبت من دولة الخلافة"، ويقول أيضًا: "من الممكن أن تقطّع أجسادنا وهي ميتة، وليس من المكمن أن تُشرَّح أجسادنا ونحن على قيد الحياة"، ويقول في رسالة أخرى: "إن بيت المقدس قد افتتحه المسلمون أول مرة في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولست مستعدًا لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيع الأراضي المقدسة لليهود، أو أن أتحمل خيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بحمايتها"، هذه ــ يا مسلمون ــ هي أمانة التاريخ.

أيها المسلمون، يا خير أمةٍ أخرجت للناس، إن ما حصل للأمة الإسلامية منذ القرن الماضي وحتى الآن لن يفقدنا الثقة بالله العلي القدير القائل في كتابه العزيز في سورة البقرة: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة:٢١٤]، والقائل في سورة يوسف: وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ [يوسف:٨٧]، ويقول رسولنا الأكرم: ((احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا)).

ادعوا الله، وأنتم موقنون بالإجابة، فيا فوز المستغفرين.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، حمدَ عباده الشاكرين الذاكرين، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، صلاة وسلامًا دائمين عليه إلى يوم الدين، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

أيها المسلمون، أيها المرابطون، أتناول في هذه الخطبة ثلاث نقاط لها علاقة مباشرة ببيت المقدس.

النقطة الأولى: بشأن إيجارات البيوت، مرة أخرى: إن من سلبيات الجدار العنصري الفاصل رفع إيجارات البيوت في مدينة القدس وما ترتب على ذلك من خلافات بين المالكين والمستأجرين، ونطلب من جميع المواطنين في بيت المقدس أن يتقوا الله في أنفسهم، ونذكرهم أنه يتوجب عليهم التراحم فيما بينهم، وأن يحلوا مشاكلهم بالتراضي فيما بينهم، دون اللجوء إلى المحاكم التي لا تحفظ حقوقهم، بالإضافة إلى الخسائر المادية التي ستترتب على رفع القضايا، ولا يخفى عليكم ذلك.

ونقول أيضًا: إن إيجارات السكن والحوانيت القديمة هي منخفضة فعلاً، في حين أن الإيجارات الجديدة هي مرتفعة جدًا، فلا بد من وضع تسويات لهذه الإيجارات مع حفظ حقوق المستأجرين، ووضع سقف أعلى وسقف أدنى لها، وسبق أن طالبنا الغرفة التجارية في القدس أن تبادر في وضع حلول لهذا الموضوع.

أيها المسلمون، النقطة الثانية: بشأن البائعين المتجولين الذين يضعون بضائعهم في الطرقات وفي الممرات مما يؤدي إلى عرقلة السير للمشاة، وبخاصة في منطقة باب العمود ومنطقة باب الأسباط، وكما تعلمون أن رسولنا الأكرم قد أمرنا أن نعطي الطريق حقها، وأن نزيل الأذى عنها، كما لا يجوز شرعًا وضع مواد البناء في الطرقات، ونحن كمسلمين نؤمن بأن الأرزاق بيد الله العلي القدير، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وإن وضع البضائع في الطرقات لا يزيد في الرزق، بل فيه إثم، لعرقلة سير الناس، كما أن ديننا الإسلامي العظيم يدعو إلى النظام، ويدعو إلى النظافة.

أيها المسلمون، النقطة الثالثة والأخيرة: بشأن مقبرة باب الرحمة واليوسفية، هذه المقبرة المحاذية للجدار الشرقي للمسجد الأقصى المبارك، والتي دُفن فيها الصحابة والتابعون والعلماء، والتي تخص المسلمين وحدهم منذ خمسة عشر قرنًا، وإن هذه المقبرة محدّدة المساحة، فلا مجال للتوسع فيها، كما تزعم البلدية الإسرائيلية، وكما تزعم ما يسمى بسلطة الحدائق الوطنية، أما ما يجري داخل المقبرة فهو أمر يخصّ المسلمين، ولا علاقة للبلدية به، كما أن المقابر الإسلامية لا تدخل ضمن الحدائق والأماكن العامة، فالمقابر الإسلامية لها حرمتها، كما أن المقابر التي تخص الديانات الأخرى لها حرمتها.

ثم ماذا فعلت وزارة الأديان الإسرائيلية في المقابر اليهودية المقامة على أرض الأوقاف في رأس العامود؟! لقد قامت بتغييرات كثيرة وكثيرة، ولا اعتراض لا من البلدية ولا من سلطة الحدائق العامة.

أيها المسلمون، إن المقابر الإسلامية تقع ضمن صلاحيات الأوقاف، وندعو المواطنين للتعاون مع الأوقاف بالمحافظة على هذه المقابر وتنظيفها من الحشائش وترتيبها وتوضيح الممرات والمسارات، حتى لا يسير الناس على القبور، فإنه يحرم شرعًا الجلوس والسير على القبور، كما يحرم شرعًا نبشها وكسر عظامها، كما يحرم شرعًا سرقة هذه المقابر، وقد سبق أن صدرت فتوى شرعية بهذا الموضوع، وإن الإهمال بالمقابر يؤدي إلى انتهاك حرمتها، فليحافظ كل واحد منكم على القبور التي تخصه.

حِكَم تأخر النصر

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد

عبد الرحمن بن عبد الجبار هوساوي

الظهران

١٤١٨/١/١٠

جامع جامعة الملك فهد

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- ذكر الآيات القرآنية الدالة على انتصار الحق واندحار الباطل. ٢- أسباب تأخر نصر الله للمؤمنين ٣- من أسباب النصر.

الخطبة الأولى

أيها الإخوة، يقرأ المسلم في القرآن عشرات الآيات التي تؤكد انتصار الحق واندحار الباطل، فآيات تعد المؤمنين بالنصر والتمكين كقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا [النور:٥٥]، وآيات تبين أن نصر المؤمنين وعد من الله، ووعد الله حق لا يتخلف: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧]، وقوله: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُم الْغَالِبُونَ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وآيات تنفي أن يكون للكافرين سلطان على المؤمنين: وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً [النساء:١٤١]، وأخرى تؤكد أن الكفرة مهزومون مغلوبون غيرُ معجزين: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة:٢٠، ٢١]، وقوله تعالى: وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ [الأنفال:٥٩]، وقوله تعالى: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ [النور:٥٧]، وتأمل المؤكدات اللغوية في الآيات.

وهذه الآيات كلها محكمة غير منسوخة، لكن واقع أمة الإسلام اليوم يجعل المسلم في حَيرةٍ من أمره، فبالمقياس المادي والمنظور القريب لا يرى المسلم ملامح النصر تلوح في الأفق، بل لا يرى إلا الذلة والهوان وتسلط الأعداء والوِصاية على الأمة والاستخفاف بها.

ويقضى الأمر حين تغيب تيم...ولا يستأذنون وهم شهود

ولولا هذه الآيات والأحاديث الواعدة لأصيب الإنسان باليأس والقنوط. وهنا يبرز سؤال، بل تحصل فتنة للمسلم: أين نصرُ الله؟! ومتى يتحققُ وعدُ الله؟!

أقول: إن الله لم يرد أن يكون حَمَلةُ دعوته وحُماةُ دينه من التنابلةِ الكُسالى الذين يجلسون في استرخاء ينتظرون نصرًا سهلاً هينًا بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون بالدعاء كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء.

نعم، يجب أن يفعلوا ذلك، لكن هذه العبادةَ وحدها لا تؤهّلهم لحمل دعوةِ الله وحمايتها، كما أن النصرَ السريعَ الهينَ الذي يترل على أناس غيرِ مؤهلين لم يبذلوا من أجله شيئًا سيكون رخيصًا في نفوسهم، ولن يبذلوا جهدًا للحفاظ عليه، فما جاء هينًا ذهب هينًا ولا بد، ولقد حاول سيد رحمه الله استلهام حِكم تأخرِّ النصرِ، فذكر عدة حِكم منها:

فقال: "النصر قد يبطئ؛ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها"، نعم هذه أهمُ الحكم؛ فالأمة لم تنته بعد من تيهها، فلقد غُيِّبت حينًا من الدهر عن دينها، ورفعت شعارات فكرية تصطدم مع عقيدتها أغلى ما تملكه، ومارست كثيرًا من الشركيات السلوكية، وما زال أهم مقتضيات التوحيد مائعًا أعني: الولاء، يقول رسول الله : ((إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله))، فما زال ولاء

الأمة متشتّت في الشرق والغرب، بل أصبح وللأسف تعاملنا مع بعضنا بعكس ما وصف الله المؤمنين في قوله: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ [المائدة:٥٤]، وأصبح بأسنا بيننا شديدا، بل أشدّ مما على اليهود، كما قال الشاعر:

وليس الذئب يأكل لحم ذئب...ويأكل بعضنا بعضًا عيانًا

وقال: "قد يبطئ النصرُ حتى تبذلَ الأمةُ المؤمنةُ آخرَ ما في طوقِها من قوةٍ، وآخرَ ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا إلا بذلته رخيصًا في سبيلِ اللهِ". أقول: ليسأل كلّ واحدٍ منا نفسه: ماذا بذل؟ وما حجمُ تضحياته من أجل نصرة دينه، أو تأييد العاملين لنصرة الدين مقارنة بما يبذله من أجل دنياه؟! لو أن النصر تحقق لنا الآن ونحن نؤثر عليه دنيانا لن تكون له أيُ قيمةٍ في نفوسنا، بل سنقول: ها نحن قد نُصرنا ونحن محادّين لدينه ومشاقّين له، فما قيمةُ العبادةِ والطاعةِ إذًا، وبعد نزول النصر ـــ بلا شك ـــ لن نكون حريصين على المحافظة عليه؛ لأن ما جاء هيّنًا وبلا بذلٍ سيذهبُ كما جاء.

وقد يبطئ النصر حتى تجرّب الأمة آخرَ قواها، فتدركَ أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر، بل النصر من عند الله.

إن القوةَ الماديةَ رغم أهميتها إلا أنها ليست هي الأساس، بل هي تبع، وفي يوم حنين اغترّ المسلمون بالقوة المادية، فتلقّوا درسًا قاسيًا، وعُلِّموا أن النصر لا يعتمد على القوّة المادية بالدّرجة الأولى، قال تعالى: وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا [التوبة:٢٥]. لقد تلقّوا الهزيمة أوّل الأمر، وفرّ القوم حتى لم يثبت مع رسول الله إلا قرابةُ مائةٍ، وقبل قليل يقول أحدهم: لن نهزم اليوم من قلة، اغترارًا بالعَدد، وعلى هؤلاء القلةِ الثابتةِ مع رسول الله نزلَ النصرُ وأسِرَ ستة آلاف أسيرا، ولكثرة الغنائم كان يعطي الرجل من المؤلفة مائة من الإبل، قال تعالى: ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [التوبة:٢٦]....

وقد يبطئ النصرُ لتزيدَ الأمةُ المؤمنةُ صلتَها بالله، نعم يجب أن تركن إلى الله وحده، وتكفرَ بأي سند سوى الله، وتؤمِن يقينًا بقول الله: وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [آل عمران:١٢٦]، وبقدر قوة الصلة بالله والركون إليه والتوكل عليه تكون سرعة تنزل النصر، لذلك كانت وصيةُ الخلفاءِ لجيوشهم حثَهم على تقوى الله وتحذيرَهم من المعاصي، فمن وصايا عمر لقادته: (آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، آمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليس كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا فلن نغلبهم بقوتنا).

الخطبة الثانية

من الحكم أنه قد يبطئ النصرُ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرّد بعد من حظوظ نفسها، كـثيرٌ منـا يريـد إسلامًا بمقاس معين يتكيّف مع رغباته، فإن تعارض مع هذه الرغبات طوَّعَـه وإلا تركـه، وأظهـر حظوظ النفس حب الدنيا والرياء والسمعة والانتصار للنفس حمية والاستحسان العقلي، ومـن هنـا كان الشرك والرياء والبدعة محبطة للعمل، قال رسول الله : ((قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عـن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))، وقال رسول الله : ((من عمل عمـلاً ليس عليه أمرنا فهو رد))، وسئل رسول الله عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه: فأيها في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمة هي العليا فهو في سبيل الله)). نعم، ليس لحزب أو جماعة أو طائفة أو قبيلة، ويوم حصل جزء من النصر والنفوس لم تتجـرد مـن حظوظ نفسها وجه المسلم سلاحه الذي كان موجها إلى الكفرة لأخيه المسلم ـــ اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الأعداء ـــ لأن الباطل لم ينكشف زيفه أمام الناس، والله يريد إظهار الباطل عاريًـا للنـاس حتى لا ينخدع به أحد بعد ذلك.

يا لها من حكمة عظيمة، قد يدّعي الصلاح والإصلاح من هو عدوّ للصلاح والإصلاح، ويمثل الدور بإتقان، ويظهر غَيرتَه على الدعوة، فيغترّ كثير من الناس بعدو الله ولا يشكّون فيه؛ لأن اسمه محمد أو أحمد، بل قد يتهم غيره بالعمالة والخيانة، فيلتبس الأمر على الناس، وقديمًا اتهم فرعون اللعين موسـى الكليم عليه السلام بالخيانة والتآمر: وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ [غافر:٢٦]، فيتأخر النصرُ حتى ينكشفَ الباطلُ كلُه ويتعرّى، وما يعود أحد يغترّ به، فيأذن الله بزهوق الباطل وظهور الحق، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ [الرعد:١٧]؛ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحقّ والخير والعدل الـذي تمثله الأمة المؤمنة؛ لأن الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة فيه بقايا خير يريد الله أن يستخلص هذا الخير، ليُهلكَ بعد ذلك الشرَ المحضَ.

أيها الإخوة، إن النصر آت لا محالة كما وعد الله، لكن السؤال الذي ينبغي أن يسأل كل واحد منـا نفسه: هل أنا ممن استحق أن يتترل عليه نصر الله؟ وهل أنا ممن يحسِبُ الأعداءُ له حسابًا، أم أنني ممن يتمنى الأعداء أمثاله؟ وهل أنا صفر ذو قيمة في الصراع بين الحق والباطل، أم أني من الأصفار التي لا يؤبه بها لأني من أصفار الشمال؟ ليس الذي يحدد ذلك شهادتك أو مركزك أو جاهك، كـلا، بـل الذي يحدد ذلك أهدافك وأمانيك وبرامجك، هل هي تدور مع مصلحة الإسلام أينما دار، أم تـدور مع مصالحك الشخصية؟

ارتفع ـــ يا عبد الله ـــ لمستوى التحدّي الذي تتعرّض له أمتك أن نكون أو لا نكون، عش لـــدينك ولأمتك تعش كبيرًا وتمت عزيزًا ويخلد ذكراك، وإن أبيت إلا أن تعيش لمصالحك الشخصية فستعيش صغيرًا وتموت ذليلاً وتعدّ في عداد الأموات وأنت حيّ، وصدق الشاعر:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم...وعاش قوم وهم في الناس أموات

أو كما قال شوقي:

الناس صنفان: موتى في حياتهم...وآخرون ببطن الأرض أحياء

شهر النصر

العلم والدعوة والجهاد، سيرة وتاريخ، فقه

الصوم، القتال والجهاد، المسلمون في العالم، غزوات

خالد بن عبد الله المصلح

عنيزة

جامع العليا

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- غزوة بدر. ٢- فتح مكة. ٣- رمضان شهر الصبر والتقوى. ٤- حال الأمة الإسلامية اليـــوم. ٥- وصف مخططات أعداء الدين. ٦- أسباب النصر على الأعـــداء. ٧- واجبنـــا نحـــو إخواننـــا المستضعفين في دينهم.

الخطبة الأولى

أما بعد: فاتقو الله أيها المؤمنون، واعلموا أن شهر رمضان لم يكن عند سلفنا شهر صيام وقيام ودعاء واعتكاف وعمرة وإكثار من العبادة فحسب، بل كان شهر جهاد ومجاهدة ودعوة وعمـــل، فقـــد سطروا فيه أعظم الانتصارات وأكبر الفتوحات، وإن ليالي هذا الشهر وأيامه تحكي ما حققته الأمـــة من انتصارات وأمجاد، فقد كان في هذا الشهر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر الكـــبرى التي هي شامة في جبين التاريخ.

إذا قامت الدنيا تعد مفاخرًا...فتاريخنا الوضاح من بدر ابتدأ

فقد فرق الله في هذه الغزوة بين الحق والباطل، فنصر الله دينه، وأظهر نبيه، وأطــاح رؤوس الكفـــر والشر والظلم والطغيان، قال الله تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [آل عمران:١٢٣]. فكانت هذه الغزوة صفحة من صفحات المجد المشرق في تاريخ هذه الأمة.

وقد منّ الله تعالى على الأمة في هذا الشهر أيضًا ففتح بيته لنبيه، وطهّره من أوضار الشرك ولوثـــات الكفر ومظاهر الظلم والاستكبار، فكان حديثًا عظيمًا كبيرًا ليس في تاريخ الأمة فحسب، بـــل وفي تاريخ البشرية كلها، كيف لا؟! وقد أعزّ الله بهذا الفتح دينه ورسوله وحزبه، واستنقذ به بلدَه وبيتـــه من أيدي الكفار والمشركين، وقد استبشر بهذا الفتح أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا، وانحسرت بـــه الوثنية في جزيرة العرب. وما انفك هذا الشهر المعطاء أن يكون محلاً ومضمارًا لأمجـــاد وبطـــولات وانتصارات لهذه الأمة عبر التاريخ، وهذا يؤكد أن شهر الصيام له أثر بالغ في تحقيق النصر وصـــناعة المجد، وكيف لا يكون كذلك؟! وهو شهر الصبر والتقوى؛ أما الصبر فإن من الكلام المأثور: "الصوم نصف الصبر"، فالصوم يربي المسلم على ترك المحاب والملاذ والشهوات، ولذا قال النبي : ((قـــال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي))(١)[١]، أما التقوى فـــإن الله إنما فرض الصيام على عباده لتحقيقها، قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـــا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة:١٨٣]. وبالصبر والتقوى يحقق العبد أول درجـــات النصر الكبرى وأسبابه، قال الله تعالى: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [آل عمران:١٢٠]. فإذا صـــبرت الأمة واتقت الله سبحانه وتعالى وقاها شر عدوها ودافع عنها، إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ [الحج:٣٨].

وهذا مما يؤكد أهمية تحقيق المقصود من الصيام، فإن المتقدمين لما حققوا غايات الصيام ومقاصده جعل الله شهر صومهم شهر عِزّ ونَصر وتمكين ومجد. ولما ضعف صبر الأمة وقلّ تقواها وتمسكها بدينـــها وتركت الجهاد جعلها الله غرضًا لأعدائها، فأحل بها الكفر أعظم الضيم، وأنزل بها الأعـــداء ألـــوان الكيد والتعذيب:

أحل الكفر بالإسلام ضيمًا...يطول به على الدين النحيب

فحقٌّ ضائع وحِمى مباح...وسيف قاطعٌ ودم صبيب

أيها المؤمنون، إن المتأمل لحركة المد والجزر في تاريخ الأمة لا يعتريه شك أن الأمة اليوم تمر بأصـــعب أيامها وأشد أحوالها، فإنه وإن كان قد نزل بالأمة نكبات وحلت بها الكوارث والأزمات فإنها لم تزل على ثقة بدينها وربها، معتزة بالإسلام، فخورة بالإيمان، لذا فإنها سرعان مـــا وثبـــت مـــن ســـباتها وانقشعت كروبها بمراجعة دين ربها.

أما اليوم، فإن كثيرا من المسلمين أُصِيبوا في إيمانهم ودينهم، واجتمع عليهم أعداؤهم، فرموهم عن قوس واحدة، كما أخبر النبي حيث قال: ((يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا))، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ: ((أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ))، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: ((حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)).

وواقع الأمة اليومَ يجسّد هذا الحديث ويوضحه، فأعداد المسلمين كثيرة، ولكنها لا تفرح صديقًا، ولا تخيف عدوًّا، فهم غثاء كغثاء السيل، وأما أعداؤنا من اليهود والمشركين والنصارى والمنافقين فقد جمعوا فلولهم، ورصوا صفوفهم، وجمعوا كلمتهم على حرب الأمة وتدميرها وإذلالها ونهب ثرواتها.

فالوثنيون والملحدون ــ ممثلون بالعالم الشرقي ــ يسحقون المسلمين بالحديد والنار، يتربصون بالأمة الدوائر، ويكيدون لها المكائد، ولا يجدون فرصة ينفّسون فيها عن أحقادهم إلا فعلوا، وما تخفي صدورهم أكبر، وما يفعلونه بإخواننا في كشمير وفي الهند وفي بورما وفي بلاد الشيشان أكبر شاهد على ضراوة عداوتهم.

أما الصليبيون ــ ممثلون بالعالم الغربي الكافر ــ فهم ورثة الأحقاد والضغائن على الأمة، فالصليبيون ضائقون بالإسلام منذ ظهوره، وقد اشتبكوا مع المسلمين في حروب طويلة مضنية، إلا أن التاريخ لم يشهد حدة في العداء وخبثًا في الأداء وإصرارًا وتصميمًا على تدمير الأمة وإفنائهما كما يجرى منهم اليوم، فها هم خبراؤهم وكبراؤهم وساستهم يتنادون لحرب الإسلام، وما هذا الذي يجري في بلاد البوسنة والهرسك وغيرها من بلاد الإسلام إلا ثمرة أعمالهم وجني أحقادهم، وما هذه الهيمنة السياسية والتسلط الاقتصادي والاستكبار الحضاري على المسلمين إلا قليل من كثير وغيض من فيض، وقد صدق القائل:

عاد الصليبيون ثانية ......وجالوا في البطاح

عاثوا فسادًا في الديار.......كأنها كلأ مباح

أما اليهود فقد زرعوا دولتهم في قلب العالم الإسلامي، وهم سماسرة الكيد والمكر والخبث، وقد ضربوا أفظع الصور في تشريد المسلمين وإذلالهم والتسلط عليهم والتلاعب بهم وانتهاك مقدساتهم، ولا عجب في ذلك فهم الذين قال الله عنهم: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا [المائدة:٨٢]، وهم الذين آذوا رسول الله ودبروا له المكائد ونقضوا العهود والمواثيق، وهل ما يجري اليوم في فلسطين الغالية وفي غيرها من البلاد إلا من صنائعهم؟! فعجبًا لمن نسي الكتاب، وركض وراء السراب، بطلب الصلح أو السلم مع اليهود أرباب الغدر والمكر.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ...إن كان في القلب إيمان وإسلام

أما المنافقون فهُم أشدّ الأعداء خطرًا وأعظمهم فتكًا، لذا قال الله تعالى عنهم: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [المنافقون:٤]، لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً [التوبة:١٠]، لبسوا مسوح الضأن على قلوب الذئاب، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، دعاة على أبواب جهنم، يصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، تلونت راياتهم، وتشكلت شعاراتهم، فتارة قوميون، وتارة وطنيون، وتارة علمانيون، تعددت الأسماء والكفر واحد، عاثوا في الأمة فسادًا ودمارًا، فهل التغريب الذي تعيشه الأمة إلا من صنعهم؟! وهل تنحية الشريعة وتطبيق القوانين الوضعية إلا من أعمالهم؟! وهل محاربة الدين وأهله وعلمائه ودعاته إلا تجارتهم؟! فللّه كم من راية للدين قد نكسوها؟! وكم من شعيرة من شعائره قد عطلوها؟! وكم من عالم أو عامل أو داعية لله قد آذوه؟! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها المؤمنون، هؤلاء هم أعداء دينكم الظاهرون والمستترون، سعوا إليكم بالبوائق والأزمات، وجرمكم الذي اقترفتموه أنكم رضيتم بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [البروج:٨].

الخطبة الثانية

أما بعد: أيها المؤمنون، إن أمتكم مغزوةٌ من داخلها، ومحاربة من خارجها، أما غزوها من الداخل فذلك بالمنافقين المتربصين؛ من العلمانيين و أشياعهم الذين أضعفوا إيمان الأمة بربها ودينها بشبهاتهم وشهواتهم.

وأما حربها من خارجها فبهذا التداعي العالمي لأمم الكفر من اليهود والنصارى والمشركين والملحدين على أمة الإسلام، ولن تنجو الأمة من هذين الشبحين إلا بإقبالها على ربها، ورجوعها إلى دينها، وإعلائها رايات الجهاد بأنواعها؛ جهاد النفس وجهاد العُصاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد المنافقين وجهاد الكفار، فإن ما أصاب الأمة ما أصابها إلا لما هجرت ظهور الخيل وأخذت بأذناب البقر، ويدلّ على ذلك ما رواه أبو داود وغيره بإسناد جيد عن عبد الله بن عمر عن النبي قال: ((إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)).

فعلينا ــ أيها الإخوة ــ الأخذ بأسباب النصر وسننه للخروج من مآسي اليوم وتحقيق آمال الغد، فإن النصر لا ينزل اعتباطًا، ولا يخبط خبط عشواء، بل هو وفق سنن وقوانين مضبوطة كسير الشمس.

فمن هذه السنن أن تعلم أن النصر من عند الله تعالى، كما أخبرنا مولانا حيث قال: وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [آل عمران:١٢٦]، فمهما طلبنا النصر من غيره أذلنا الله وخيب سعينا، وما أحوجنا إلى أن نجأر إلى الله تعالى بما قاله الأول:

فيا رب هل إلا بك النصر يرتجى ...عليهم وهل إلا عليك المعول؟!

ومن أسباب النصر أن ننصر الله تعالى بأقوالنا وأعمالنا وقلوبنا، فإن الله تعالى قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧]. ونصرنا لله تعالى يكون بتعظيم دينه وامتثال أمره وإعلاء كلمته وتحكيم شرعه والجهاد في سبيله، قال الله تعالى في بيان المستحقين للنصر: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ [الحج:٤١].

ومن سنن النصر أنه آتٍ لا محالة للمؤمنين الصادقين، وأن التمكين للإسلام متحقق رغم العوائق والعقبات، فالدين دين الله، والله ناصر دينه وأولياءه، قال الله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [غافر:٥١]. لكن هذا الوعد لا يعني أن لا يبتلى المؤمنون بالنكبات والأزمات، ولا يعني أن لا تصاب الأمة بالمصائب والكوارث، بل كل هذا لا بد منه، ليميز الله الخبيث من الطيب، قال الله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة:٢١٤].

وقد يبتلي الله تعالى الأمة بتأخير النصر أو تمكين الأعداء بسبب الذنوب والمعاصي، قال تعالى: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ [آل عمران:١٦٥]، فإذا أصررت أنا وأنت على تقصيرنا وذنوبنا فهل نرجو أن يصلح الله الأحوال ويرفع عنا هذا الذل والصغار والانكسار؟! إن هذا لمن المحال، قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد:١١]. فإن لم يكن منا نزوعٌ عن الذنوب وإقلاع عن المعاصي ونصرٌ للدين وأهله، فإن الله ينصر دينه بغيرنا، قال تعالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد:١١].

أيها الإخوة المؤمنون، اعلموا أن من أقل ما يجب علينا تجاه إخواننا أن نشعر بما يشعرون به من ألم وضيق، فإن النبي قال: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) متفق عليه.

وإن من واجبنا تجاه إخواننا أن ننصرهم بما نستطيع من مال، ونعينهم به على جهاد أعدائهم وأعدائنا، ونكسو أولادهم، ونطعم جائعهم، ونخلفهم في أهليهم وذويهم، وهذا هو أقل ما يجب علينا تجاههم، فأنفقوا في سبيل الله فإنها من أعظم النفقات، قال الله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة:٢٦١]، وقال : ((أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)) رواه مسلم.

وما زال السلف الصالح رضي الله عنهم يبذلون جهدهم في الإنفاق في سبيل الله، والتقرب إلى الله تعالى بمساعدة الغزاة والمجاهدين، وإدخال السرور عليهم، بما تصل إليه استطاعتهم؛ قليلاً كان أو كثيرًا، حتى إن بعض نسائهم تصدقت بشعرها عقالاً لفرس في سبيل الله، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد:٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (٦٩٣٨).

التوكل على الله سبيل النصر

الإيمان، الرقاق والأخلاق والآداب

أعمال القلوب، خصال الإيمان

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٦/١/٢٣

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- من صور الصبر والتوكل في معركة بدر وحمراء الأسد. ٢- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. ٣- موعدة بدر الصغرى. ٤- أثر الخشية في التغلب على المحن. ٥- محاولة اليهود تشويه صورة المسلمين وتاريخهم. ٦- تواصل الاعتداءات اليهودية على مقابر المسلمين وأراضيهم. ٧- خطورة المحاولات اليهودية للنيل من المسجد الأقصى.

الخطبة الأولى

يقول الله تعالى في سورة آل عمران: الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

أيها المسلمون، قد ذكرت كتب التفسير وكتب السيرة النبوية المطهرة أنه بعد أن وقعت أحد في السنة الثالثة للهجرة وحصل مع المسلمين ما حصل انتشى أبو سفيان زعيم المشركين في مكة المكرمة وقتئذ فرحًا، ونادى بأعلى صوته: يا محمد، موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، أي: نتلاقى في العام القادم في مكان بدر، فأجابه مباشرة: ((نعم، إن شاء الله)).

أيها المسلمون، لما رجع الرسول إلى المدينة المنورة أصبح حِذَرًا من زحف المشركين إلى المدينة ليتمّموا غلبتهم وفرحتهم، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وأن لا يخرج معه إلا من شارك فقط في غزوة أحد، فاستجاب الصحابة رضوان الله عليهم إلى ذلك بعزيمة وإصرار بعد أن أصابهم القرح وضمدوا الجراح، وساروا حتى وصلوا إلى موقع يُعرف بحَمْرَاء الأسَد، وكان ما توقّعه الرسول قد حصل فعلاً، فقد كان المشركون يجهزون أنفسهم بالتوجه إلى المدينة المكرمة، ولكن لما علّموا بخروج النبي من المدينة باتجاه مكة ظنوا وتوهموا أنه قد حضر معه جيش كبير، فألقى الله عز وجل الرعب في قلوبهم، ورجعوا القَهْقَرَى إلى مكة، وعَدَلوا عن التوجه إلى المدينة.

أيها المسلمون، بينما كان في موقع حَمْرَاء الأسَد أُلقِي القبضُ مرّة أخرى على المشرك أبي عزّة الشاعر الذي سبق أن وقع أسيرًا في غزوة بدر الكبرى، وقد مَنّ عليه الرسول وقتئذ وأطلق سراحه بعد أن تعهّد أن لا ينظم شعرًا يحرّض فيه المشركين على مقاتلة المسلمين، إلا أن أبا عزّة الشاعر لم يلتزم بوعده وعهده، فاستمرّ في نظم الشعر ضد الإسلام والمسلمين، فأمر بقتله، فأخذ أبو عزّة الشاعر يتوسل ويتَمَسْكَن ليمنّ عليه الرسول مرة أخرى، فقال له: ((لا والله، لا تمسح عارضيك بالكعبة وتقول: خدعت محمدًا مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جُحر واحد مرتين)). هذا، وتعتبر غزوة حمراء الأسد أول رد اعتبار للمسلمين عما حصل لهم في أحد.

أيها المسلمون، هذا درس بليغ للمسلمين في كل زمان ومكان بأن لا ينخدعوا بالذين ينقضون العهود والمواثيق، فالمؤمن كَيّسٌ فَطِنٌ، وليس كِيْسَ قُطْن، ينبغي عليه أن لا يُلدغ من جُحر واحد مرتين. أما الأنظمة القائمة في العالم العربي والإسلامي فقد لُدِغت من جُحر واحد مرات ومرات، ولم تتعظ إلى الحين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أيها المسلمون، لقد تمكّن رسولنا الأكرم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم من تغيير الميزان لصالحهم بعد عام واحد فقط، وذلك في غزوة بدر الآخرة، وتعرف بغزوة بدر الصغرى في السنة الرابعة للهجرة، حيث عَسْكَرَ المسلمون فعلاً في موقع بدر، في حين أن المشركين لم يحضروا في المكان

والزمان اللذين سبق لأبي سفيان أن حدّدهما بنفسه، وحاول أبو سفيان إخافة وإرجاف المسلمين واللعب بأعصابهم حتى لا يخرجوا إلى موقع بدر، إلا أن محاولاته قد باءت بالفشل، وإن الحرب النفسية والإشاعات لم تؤثر على المسلمين، واستمروا متوجّهين إلى مكان بدر وهم يردّدون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فازداد المؤمنون إيمانًا مع إيمانهم.

أيها المسلمون، إذا وقع المسلم في كرب شديد فإنه يلجأ إلى الله رب العالمين داعيًا: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ لقول رسولنا الأكرم : ((إذا وقعتم في أمر عظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل))، وقد سبق وأن ردّد هذا الدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما أُلقِي في النار، فكانت النار بردًا وسلامًا عليه.

أيها المسلمون، لقد خرج المسلمون فعلاً، ومكثوا في موقع بدر ثلاثة أيام، وقاموا بأعمال تجارية بأمن وأمان، ثم عادوا غانمين سالمين، ويشير الله عز وجل إلى ذلك بقوله: الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، هذه الآيات الكريمة تدعو إلى الثبات والصمود في المواقف الصعبة والحرجة، وتدعو إلى التوكل على الله واللجوء إليه والخشية منه مع العمل الجاد، فإنه لا ملجأ إلا إليه سبحانه وتعالى، وأن المؤمن الذي يتصف بخشية الله فإن الله رب العالمين يُطوّع له المخلوقات كلها، سئل الإمام الحسن البصري رحمه الله: كيف تخاف من ربنا؟ فقال للسائل: "لو ركبت أنت البحر، فتحطّمت سفينتك، فلم يبق منها إلا لوح، فأمسكت به فوق الموج العالي، كيف يكون حالك؟" قال السائل: خوف شديد، قال البصري: "أنا هكذا مع الله، في خوف منه ليل نهار".

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، لم ييأس المسلمون مما حلّ بهم وما أصابهم في معركة أحد، لم يناموا، ولم يستكينوا، ولم يستسلموا، لم يتهرّبوا من المسؤولية، لم يتخاصموا على الكراسي والمناصب والعروش، لم يستعينوا بالفرس أو الروم، لم يربطوا مصيرهم باجتماعات أمنية ولا بمؤتمرات سياسية ولا بقرارات، لم يُوكلوا أمرهم للأوهام والتمنيات.

وما نيل المطالب بالتمنّي...ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

وما استعصى على قوم منال...إذا الأقدام كانت لهم رِكَابا

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، لقد مرّت مِحَن ومصائب على المسلمين في الماضي أيام التتار والصليبيين وغيرهم، فكان أجدادنا يجتازون الصعاب بكل صمود وإصرار وتضحية؛ لأنهم كانوا يخافون الله ويخشونه، وقد ورد عن البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي رحمه الله أنه كان يحثّ جُنده على تلاوة القرآن الكريم، وكان يطرد اليأس من قلوب ونفوس المواطنين امتثالاً لقوله عز وجل:

وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ [يوسف:٨٧].، فلا بد من الرجوع إلى الله العلي القدير في كل وقت وحين، وأن يدفعنا ذلك للأخذ بالأسباب، فمن ينصرنا؟ إنه هو الله، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [آل عمران:١٢٦]، ومن يرزقنا؟ إنه هو الله، ومن يميتنا ويحيينا؟ إنه هو الله، لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [الذاريات:٥٠].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، ورد في الأثر: إن أربعة من الملائكة يحملون عرش الرحمن، وإن هؤلاء الملائكة سَبَق أن منحهم الله عز وجل قوة السماوات والأرض والجبال والرياح، إلا أنهم لم يتمكّنوا من حمل العرش حتى قيل لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحينما قالوها استطاعوا حمل العرش.

الخطبة الثانية

أيها المسلمون، هناك أربع نقاط تهمّ أمور المسلمين ومصالحهم العامة، أشير إليها بإيجاز:

أولاً: محاولة التشويه لصورة العرب والمسلمين بأنهم يهتمّون بالجنس ويشربون الكحول، وأنهم حمقى لم يقدّموا أيّ مساهمة للإنسانية. هذا ما يزعمه محاضر يهودي في جامعة حَيْفا، وكان الأحرى بهذا المحاضر اليهودي أن يُحاسب نفسه قبل أن يحاسب وينتقد غيره، ويتوجب عليه أن يكون موضوعيًا وأمينًا في الحكم على غيره، وأن يطلع على الحضارة الإسلامية من مصادرها الموثوقة قبل أن يتطفّل ويتكلّم في هذا الموضوع، والأنكى من ذلك أن الطالب الذي ناقش هذا المحاضر واعترض على هذه الافتراءات ستحاكمه إدارة الجامعة، وتحيله إلى لجنة تأديبية، أي: إن موقف إدارة الجامعة كان مع المحاضر ضد الطالب العربي. وإننا إذ نقف إلى جانب هذا الطالب الذي تصدّى للمحاضر الجاهل العنصري، ونطالب الأساتذة والطلاب العرب في جامعة حَيْفا وغيرها من الجامعات أن يبرزوا الوجه الحضاري للشريعة الإسلامية عبر التاريخ والإنجازات التي قدمتها للحضارة الإنسانية جمعاء.

ثانيًا: المقابر الإسلامية في فلسطين، هناك انتهاكات متواصلة لحرمة المقابر الإسلامية، وكان من آخرها ما أُثير حول مقبرة الاستقلال في حَيْفا، وقد أصدرنا مؤخّرًا فتوى شرعية تأكيدًا لفتاوى سابقة، تتضمن وجوب المحافظة على حرمة هذه المقابر وصيانتها من العبث ونبش القبور، وذلك بإقامة أسوار حولها وإعادة دفن الموتى.

ثالثًا: توسيع المستوطنات ومصادرة آلاف الدونمات، لقد قررت الحكومة الإسرائيلية خلال هذا الأسبوع بناء ٦٤٠٠ وحدة سكنية في المستوطنات المنتشرة في الضفة الغربية، بالإضافة إلى توسيع المستوطنات في محيط مدينة القدس، وشقّ طرق جديدة للربط فيما بين المستوطنات لمحاصرة مدينة القدس وخنقها، وهذا يؤدي إلى مصادرة آلاف الدونمات من أراضي المواطنين الفلسطينيين، وهذا

يؤكد أن السلام المطروح هو سلام مزعوم للخداع وللمراوغة وكسب الوقت، ونؤكد على عدم شرعية هذه المستوطنات، وأن حق المواطنين في أراضيهم سيبقى قائمًا إلى يوم الدين.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، رابعًا وأخيرًا: المسجد الأقصى المبارك تاج القدس ودرّة فلسطين ورمز ثباتنا ومرابطتنا، تواصل الشرطة الإسرائيلية تحذيراتها من هجوم محتمل للمتطرفين اليهود. ونتساءل: هل الشرطة الإسرائيلية لا تعرف هؤلاء المتطرفين؟! ولماذا تتركهم يصِلُون ويفسدون ويعربدون دون أن تعتقلهم اعتقالاً على الأقل؟! وهل يستطيع هؤلاء المتطرفون تنفيذ مخططاتهم العدوانية دون علم الحكومة الإسرائيلية المحتلة؟! المسؤولة [مسؤولية] كاملة عن أي مسّ بحرمة المسجد الأقصى المبارك، كما نحمّل الأنظمة الحاكمة في العالم العربي والإسلامي المسؤولية لحماية المقدسات وتحرير البلاد والعباد.

يوم النصر العظيم وفضل يوم عاشوراء

الرقاق والأخلاق والآداب، قضايا في الاعتقاد

البدع والمحدثات، الصحابة، فضائل الأزمنة والأمكنة

عبد العزيز بن محمد القنام

وادي الدواسر

١٤٢٦/١/٩

جامع النويعمة القديم

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- البلاء وحِكمه. ٢- قصة موسى عليه السلام مع فرعون. ٣- دروس وعبر مستفادة من قصة موسى مع فرعون. ٤- مشروعية صيام يوم عاشوراء. ٥- فضل صيام يوم عاشوراء، وفضل شهر الله المحرم . ٦- بدع ومخالفات تقع في يوم عاشوراء. ٧- مذهب أهل السنة والجماعة في الصحابة رضي الله عنهم.

الخطبة الأولى

أما بعد: فاتقوا الله يا عباد الله، ثقوا بنصر الله إذا توفرت أسبابه، من الصدق والإخلاص والاستقامة على شرعه والتضرع بين يديه ورجائه والخوف منه وحده دون سواه.

أيها المسلمون، عاشوراء يوم النصر العظيم، ويوم الصراع بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، قديم قدم البشرية ذاتها، ولن يزال مستعرًا مشبوبًا إلى قيام الساعة، وهذه سنة الله في خلقه، وهي مقتضى حكمته ورحمته، قال الله عز وجل: الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء:٧٦]، وقال تعالى: ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ [محمد:٤]. فالله تعالى قادر على أن يهلك الظالمين في لحظة، ويأخذهم على حين غرة، ولكنه ابتلى بهم عباده المؤمنين ليكشف معادنهم، ويمتحن صدقهم وصبرهم وجهادهم وبذلهم. فبالابتلاء يتميز المؤمن الصادق من الدعي المنافق، ويتبين المجاهد العامل من القاعد الخامل. ولقد قصَّ الله لنا فصولاً كثيرة من هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين.

عباد الله، ومن هذه القصص العظيمة قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون مصر في عهده، والتي تكرر ذكرها في القرآن فيما يقارب ثلاثين موضعًا، وهي أكثر القَصص القرآني تكرارًا؛ وذلك لمشابهتها لما كان يعانيه الرسول من صناديد قريش وفراعين هذه الأمة، ولما فيها من التسلية له وللمؤمنين حينما يشتد عليهم أذى الكفار والمنافقين، ولما اشتملت عليه من العظات البالغة والدروس والحكم الباهرة والحجج والآيات القاطعة.

وتبدأ قصة موسى مع فرعون منذ أن كان موسى حملاً في بطن أمه، فقد قيل لفرعون: إن مولودًا من بني إسرائيل سيولد، وسيكون على يديه هلاكك وزوال ملكك. وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وقد نزح إسرائيل وأولاده من الشام إلى مصر في عهد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وكان عددهم آنذاك ثمانين شخصًا، ثم لم يزل عددهم ينمو ونسلهم يتكاثر حتى بلغوا في عهد فرعون الطاغية ستمائة ألف إنسان.

وعندما أخبر فرعون أن زوال ملكه سيكون على يد غلام من بني إسرائيل، أصدر أوامره بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر، وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [يوسف:٢١]. واحترز فرعون كل الاحتراز أن لا يوجد هذا الغلام، حتى جعل رجالاً وقابلات يدورون على النساء الحوامل، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه من ساعته. وكان هارون عليه السلام قد ولد قبل بدء هذه المحنة، فأنجاه الله من كيد فرعون، وأما موسى عليه السلام فإنه لما حملت به أمه حرصت على إخفاء حملها خوفًا عليه من القتل، وكان خوفها عليه يزداد مع مرور الأيام وقرب وقت المخاض، ولما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وضاقت عليها الأرض بما رحبت، وركبها من الهمّ والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وكان خوفها عليه أضعاف

أضعاف فرحها بقدومه، ولكن الله جل وعلا ألهمها بما يثبّت به فؤادها، كما قال تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [القصص:٧]، فاستجابت أم موسى لهذا الإلهام، وصنعت لابنها صندوقًا وألقته في نهر النيل، حيث كانت دارها مجاورة له، ألقته في النهر وكأنما ألقت معه عقلها وقلبها، فأصبح صدرها خاليًا من الطّمأنينة، خاليًا من الرّاحة والاستقرار، ولولا أنّ الله ربط على قلبها بالإيمان وشدّ عزمها باليقين، لكشفت السر وأفسدت التدبير، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [القصص:١٠]، ويمضي الموج بالوليد الضعيف داخل الصندوق، يحفه الله بعنايته، ويكلؤه بحفظه ورعايته، حتى بلغ قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون، ولما فتحوا التابوت وجدوا فيه ذلك الغلام الضعيف، ولكن رب الأرباب ومالك القلوب والألباب يلقي في قلب آسية زوجة فرعون فيضًا من الرحمة والرأفة والحنان على هذا الطفل الرضيع، وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [القصص:٩]، وكانت آسيا عاقرًا لا تلد، وقوله تعالى: وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أي: كدناهم هذا الكيد وجعلناهم يلتقطون موسى ليكون لهم عدوًا وحزنا وهم لا يشعرون.

وقد أنالها الله ما رجت منه من النفع والخير، فهداها الله بسببه، وجعلها من أهل جواره وجنته، ولكن هذا الطفل المحفوف بعناية الله يفاجئهم بأنه لا يقبل ثدي امرأة ليرضع، فحاروا في أمره، واجتهدوا في تغذيته بكل ممكن، وهو لا يزيدهم إلا عنتًا وحيرة ورفضًا واستعصاءً، وبينما هم كذلك إذا بأخته تقبل عليهم، وكانت أمها قد أمرتها بأن تتابع أخاها وهو في الصندوق، وأن تقفو أثره، لتعلم مستقره وتستطلع خبره، وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ [القصص:١١، ١٢]، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهبوا معها إلى منزلهم، فلما رأته أمه ما كادت تصدق عينيها، فأخذته وضمته إلى صدرها وألقمته ثديها، فأخذ يرضع بنَهَم شديد، وهم في غاية الدهشة والسرور. وهكذا يأبى الله عز وجل إلا أن يحمل آل فرعون هذا الوليد إلى أمه التي خافت عليه منهم، ثم يعطوها مع ذلك أجرة إرضاعها له، ويتعهدوا وليدها بالتربية والرعاية، قال الله تعالى: فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [القصص:١٣].

وما زالت الأيام تمضي والأعوام تترى، وكبر موسى وبلغ أشده، وآتاه الله حكمًا وعلمًا، فصار يأمر وينهى، ويقول فيسمع، ويشفع فيشفع، ولا غرو فهو ابن فرعون بالتبني، وهو ربيبه وواحد من أهل بيته، قال الله تعالى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [القصص:١٤].

وبعد حين وقع في محنة عظيمة، حيث قتل رجلاً من قوم فرعون ما كان يريد قتلـــه، وتخـــوف مـــن الطلب، ففر هاربًا إلى أرض مدين، ولبث فيهم عشر سنين، تزوج في أثنائها، ثم عاد إلى أرض مصـــر مع أهله، وفي الطريق إليها أكرمه الله برسالته، وأوحى إليه بوحيه، وكلمه مـــن غـــير واســـطة ولا ترجمان، وأرسله إلى فرعون بالآيات القاطعات والسلطان المبين، ولكن فرعون عاند وكابر، فَكَـــذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [النازعات:٢١-٢٤]، وادعى أن ما جاء به موسى سحر، وأن عنده من السحر ما يبطله، وجمع السحرة من جميع أنحاء مملكته، فـــألقوا مـــا عندهم من السحر، فَلَمَّا أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَـــلَ الْمُفْسِدِينَ [يونس:٨١]، فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ [الشعراء:٤]، فَوَقَعَ الْحَـــقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَـــالُواْ آمَنَّـــا بِـــرِبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [الأعراف:١١٨-١٢٢]، ولما انقطعت حجة فرعون وخـــاب كيـــده، وانكشف باطله وزيفه لجأ إلى القوة والبطش والتعذيب والتنكيل والملاحقة والتشريد وإرهاب النـــاس بالنار والحديد. إنه منطق الطغيان العاتي، كلما أعوزته الحجة وخذله البرهان وخاف أن يظهر الحـــق ويتمكن أهله ورواده.

ثم أرسل الله عز وجل على فرعون وقومه آيات عجيبة وعقوبات متنوعة، من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ [المـــدثر:٣١]، ولكنـــها ـــ والعياذ بالله ـــ لم تزدهم إلا عنادًا واستكبارًا وظلمًا وعدوانًا، يقول الله تعالى: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّـــفَادِعَ وَالـــدَّمَ آيَـــاتٍ مُّفَصَّـــلاَتٍ فَاسْـــتَكْبَرُواْ وَكَـــانُواْ قَوْمًـــا مُّجْـــرِمِينَ [الأعراف:١٣٣]، ولما تمادى فرعون في طغيانه وإيذائه لموسى ومن معه أوحـــى الله إلى موســـى أن يخرج بالمسلمين من أرض مصر ليلاً، فخرجوا قاصدين بلاد الشام، فلما علم فرعون بخروجهم جمـــع جيشه وجند جنوده من شتى أنحاء مملكته ليلحقهم ويمحقهم في زعمه، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِـــي الْمَـــدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ [الشعراء:٥٣-٥٦].

فخرج فرعون وجنوده في أثرهم، حتى أدركهم عند البحر الأحمر، فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُون [الشعراء:٦١]، فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم، فأجابهم موسى بلسان المـــؤمن الواثق بأن الله معه ولن يضيعه، وقال لهم بكل ثقة وثبات: كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء:٦٢]، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه وهو يتلاطم بأمواجه، فانفلق ـــ بإذن الله ـــ اثـــني عشر طريقًا يابسًا، وصار هذا الماء السيال وتلك الأمواج العاتيات كأطواد الجبال الراسيات، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين، ودخل فرعون وجنوده في أثرهم لاهثين سادرين، فلما جاوزه موسى وقومه وتكاملوا خارجين وتكامل فرعون وقومه داخلين أطبقه الله عليهم وأغرقهم أجمعين، وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى [طه:٧٧-٧٩]، وهذا هو مصير أعداء الله في كل حين، وتلك هي عاقبة المكذبين الضالين، وما ربك بظلام للعبيد، يقول الله تعالى: فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت:٤٠].

ويستفاد من هذه القصة أن العاقبة للمتقين والنصر حليفهم متى ما تمسكوا بدينهم، واستنزلوا النصر من ربهم، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [آل عمران:١٢٦]، إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر:٥١، ٥٢].

ويستفاد منها كذلك أن الباطل مهما انتفخ وانتفش وتجبر وتغطرس وظن أنه لا يمكن لأحد أن ينازعه أو يرد كيده وباطله أو يهزم جنده وجحافله فإن مصيره إلى الهلاك وعاقبته هي الذلة والهوان، فهذا فرعون الطاغية بلغ به التكبر والغرور أن يدعي الألوهية، وأن يعلن للناس بكل جرأة وصفاقة: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي [القصص:٣٨]، وأن يقول بملء فيه من غير حياء ولا مواربة: أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى [النازعات:٢٤]، ثم يفتخر بقوته وسلطانه فيقول: يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف:٥١]، ثم يحتقر موسى عليه السلام وهو النبي الصالح والداعية الناصح فيقول: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ [الزخرف:٥٢]، ولكنه حين حل به العذاب لم يغن عنه ملكه وسلطانه، ولا جنده وأعوانه، ولا تبجحه وادعاؤه، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [النازعات:٢٥، ٢٦].

فيا ترى متى وقع هذا الحدث العظيم وتحقق هذا النصر المبين؟! لقد كان ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر الكريم شهر الله المحرم، فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: ((ما هذا اليوم الذي تصومونه؟)) قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه، فقال رسول الله : ((فنحن أحق وأولى بموسى منكم))، فصامه رسول الله وأمر بصيامه. وقد كان صيام يوم عاشوراء واجبًا قبل أن يفرض صيام رمضان، فلما فرض صيام رمضان أصبح صيام عاشوراء سنة مؤكدة.

تقول حفصة رضي الله عنها: أربع لم يكن رسول الله يدعهن: صيام عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر، وركعتان قبل الفجر. رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني. وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن صيام عاشوراء فقال: ما علمت أن رسول الله صام يومًا يطلب فضله على الأيام إلا هذا اليوم. متفق عليه.

وبين النبي عليه الصلاة والسلام أن صيام هذا اليوم يكفر ذنوب سنة كاملة فقال: ((صيام عاشـــوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله)) رواه مسلم. وروى مسلم أيضًا عن ابن عباس قال: حين صام رسول الله يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهـــود والنصـــارى! فقال: ((فإذا كان العام القابل إن شاء الله صمت التاسع))، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ، وفي صحيح مسلم أيضًا: ((خالفوا اليهود، صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده)).

قال ابن القيم: "فمراتب صومه ثلاث، أكملها أن يصام قبله يوم وبعده يوم، ويلي ذلـــك أن يصـــام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث، ويلي ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم". وبناءً عليه فإن إفراد العاشر وحده بالصوم جائز، وبه يحصل الأجر المذكور في تلك الأحاديث، والأكمل صـــيام التاســـع والعاشر، أو العاشر والحادي عشر، حتى تحصل المخالفة لأهل الكتاب، وإن صمت يومًا قبله ويومًـــا بعده فهذا أحسن وأتم، حتى تستيقن صيام اليوم العاشر، خصوصًا إذا كان مشكوكًا في وقت دخول الشهر، ولأن السنة صيام ثلاثة أيام من كل شهر، كما أن الصيام في شهر المحرم له خصوصية ومزيـــة على ما سواه، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: ((أفضل الصيام بعد رمضـــان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)). وإن وافق عاشوراء يوم الجمعة أو السبت فلا بأس بصيامه في أحدهما؛ لأن النهي عن إفراد الجمعة أو السبت بالصيام إنما هو لمن صام من أجـــل أنه الجمعة أو السبت، أما إذا كان للصيام في أحدهما سبب شرعي يقتضيه كأن يوافق يوم عاشـــوراء أو يوم عرفة فلا حرج في الصيام حينئذ.

فاحتسبوا ـــ أيها المؤمنون ـــ وارغبوا في صيام عاشوراء رجاء أن تشـــملكم رحمـــة الله ومغفرتـــه، وجددوا لله تعالى التوبة في كل حين. اللهم تب علينا واعف عنا وتجاوز عن خطيئاتنا، اللهم اغفر لنا ذنبنا كله، دقه وجله، علانيته وسره، أوله وآخره، ما علمنا منه وما لم نعلم. كما نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، ونسأله أن يُعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل منا ويجعلنـــا مـــن المتقين.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقـــول هـــذا القول، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنـــه هـــو الغفـــور الرحيم.

الخطبة الثانية

أما بعد: أيها المسلمون، إن لله سبحانه يختص بفضله من يشاء من عباده، وله سبحانه أن يفضل بعض الأزمان على بعض، وأن يخصها بمزيد عناية وكرم، ومن ذلك ما اختص به شهر محرم، فهـــو شـــهر عظيم مبارك، وهو أول شهور السنّة الهجرية، وأحد الأشهر الحُرُم التي قال الله فيها: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ

عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماوات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذالِكَ الدّينُ الْقَيّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ [التوبة:٣٦].

أيها المسلمون، لقد أنصتّم في الخطبة الأولى قصة موسى والطاغية فرعون، وكذلك فضل اليوم العاشر من شهر الله المحرم الذي وقعت فيه تلك الحادثة العظيمة.

ثم اعلموا أن من المفارقات العجيبة ما حصل في هذا اليوم المبارك أيضًا من قتل سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن أبيه وأمه وآل بيته، حيث قتل في فتنة عظيمة بين فئتين من المسلمين، وهي فتنة طهر الله منها أيدينا فلا نخوض فيها بألسنتنا، ولكن الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن ما يفعله بعض الشيعة في هذا اليوم من البكاء والنواح على قتل الحسين وما يقومون به من تعذيب أنفسهم وإسالة الدماء من وجوههم وصدورهم وظهورهم والتقرب إلى الله بضرب أبدانهم بالسلاسل والسكاكين ولطم خدودهم ونتف شعورهم ليس من الإسلام في شيء، وهو من البدع المحدثة والمنكرات الظاهرة ومن كبائر الذنوب ـــ يا عباد الله ـــ التي تبرأ رسول الله من مرتكبيها فقال: ((ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)) متفق عليه، وعن أبي موسى أن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة. متفق عليه. والصالقة هي التي ترفع صوتها بالنياحة والندب، والحالقة هي التي تحلق رأسها عند المصيبة، والشاقة هي التي تشق ثوبها، فكل عمل يدل على الجزع والتسخط وعدم الرضا بقدر الله فإنه محرم. ويضاف إلى ذلك ما في هذه الأعمال البدعية المؤذية للأبدان من حماقة وسفاهة وتشويه لصورة الإسلام وتنفير لغير المسلمين من الدخول فيه، وقد رأينا بعض وسائل الإعلام العالمية المعادية تحرص على نشر هذه الأعمال البدعية بالصوت والصورة، زاعمة بأن هذا هو الإسلام، وأن هذا ما يفعله المسلمون في هذا اليوم من كل عام.

وأشنع من هذا ما يفعله بعض هؤلاء المبتدعة من لعن للصحابة الأبرار وإعلان للبراءة منهم، وهذا ـــ لعمرو الله ـــ من أعظم الضلال وأنكر المنكرات، ويقابل هؤلاء فرقة أخرى ناصبوا الحسين العداوة والبغضاء، فيتخذون هذا اليوم عيدًا، ويظهرون فيه الفرح والسرور، ويلبسون الجديد، ويتبادلون الهدايا، ويصنعون أطعمة غير معتادة. وهذا كله من البدع المحدثة والضلالات المنكرة، والبدعة لا تعالج بالبدعة، والخطأ لا يصحح بالخطأ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وقوم يستحبون الاكتحال والاغتسال والتوسعة على العيال واتخاذ أطعمة غير معتادة، وأصلها من المتعصبين بالباطل على الحسين ، وكل بدعة ضلالة، و لم يستحب ذلك أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا عند من استحب ذلك حجة شرعية، بل المستحب يوم عاشوراء الصيام عند جمهور أهل العلم".

فاتق الله أيها المسلم، وعليك بالسنة والجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ولتعلم بأن منهج أهل السنة في الصحابة الكرام من آل البيت وغيرهم هو اعتقاد عدالتهم جميعًا، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد رسولها ؛ ولهذا اختارهم الله تعالى لصحبته ونصرته وتبليغ هديه وسنته، ويدينون لله عز وجل بمحبتهم

كلهم والترضي عن جميعهم، ويسكتون عما شجر بينهم وحصل لهم من الفتن والمحن، ويعتقدون أنهم جميعًا مجتهدون مريدون للحق، فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد وخطؤه مغفور، وإن أخطاءهم مهما عظمت فإنها مغمورة في بحور حسناتهم التي من أعظمها صحبتهم لرسول الله وجهادهم معه، رضي الله عنهم أجمعين، وجمعنا بهم في جنات النعيم.

ألا وصلوا وسلموا ــ رحمكم الله ــ على النبي الكريم، كما أمركم بذلك المولى العزيز الرحيم، فقال تعالى قولاً كريما: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيمًا [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم أنا نسألك أن تنصرنا على أعدائنا حتى نسعد ونسر بظهور دينك...

النصر أسبابه ومقوماته

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد، المسلمون في العالم

يوسف بن عبد الوهاب أبو سنينه

القدس

١٤٢٦/٦/٣٠

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- وقفة محاسبة مع حال أمتنا الإسلامية. ٢- حالنا مع الدعاء. ٣- أسباب النصر وشروطه. ٤- الخير في هذه الأمة إلى قيام الساعة. ٥- واجب العلماء والدعاة والصالحين. ٦- الممارسات الإسرائيلية في القدس، والنشاط الاستيطاني. ٧- الغلبة لهذا الدِّين.

الخطبة الأولى

عباد الله، لماذا ندعو الله ليلا ونهارا، سرا وجهارا، أن يكتب لنا النصر ولا يستجاب لنا؟ نتوجه إليه بقلوب خاشعة وألسنة طاهرة وأيد ضارعة ولا يستجيب لنا؟!.

أيها المؤمنون، لماذا لا تزال أمتنا تحت الحصار؟ لماذا لا تزال تقرب من اليمين ومن اليسار؟ لماذا يظل أعداؤنا يتحكمون فينا تحكم السادة في العبيد؟

أليست أمتنا هي القائمة على الدين الحق؟! أليست هي الشهيدة على الناس؟! ألم يخاطبنا المولى تبارك وتعالى بقوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران:١١٠]. أو ليست أمتنا الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟!

وقد وصف الله عز وجل سِوَانا بقوله: كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [المائدة:٧٩].

إذا لماذا أصبحنا أذلاء نستجدي غيرنا وقد كنا أعزاء؟ ألم تحكم دولتنا الإسلامية العالم لقرون عديدة؟!

فما هو سبب هذا التردي والانحسار؟ ما هو سبب هذا الانكسار؟

تعالوا ــ أيها المؤمنون ــ نعالج هذه الأمور، ونضع النقاط على الحروف، حتى نعرف من أين نبدأ وإلى أين نقف؟

عباد الله، المشكل أننا ندعو الله ونحن بعيدون عن الله، ندعو الله أن ينصر الإسلام وأن يُعِزَّ المسلمين ونحن قعود على جنوبنا، ولا نريد أن نبذل أنفسًا ولا أموالاً، ولا نضحي بغال ولا رخيص، وما هكذا يستجاب الدعاء. إنما يستجاب الدعاء من قوم بذلوا ما يستطيعون وتركوا لله ما لا يستطيعون، فالله تعالى هو الذي يكمل النقص ويسد الثغرات، لأن النصر من عنده وحده، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأنفال:١٠].

وهذا نصر الله أصحاب طالوت وكانوا قلة، كانوا في عدد أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وحينما رأوا جنود جالوت قال الكثيرون: لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ [البقرة:٢٤٩]، فماذا قال أهل الإيمان ــ اسمعوا أيها المؤمنون، ماذا قالوا ــ: قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة:٢٤٩].

انظروا ــ يا عباد الله ــ إلى هذه اللفتة الإيمانية في قوله تعالى: قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ، بمجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقوا الله، قد جعل الله لهم هذه العقيدة، وإذا كان هذا حال مجرد الظن فما بالك باليقين؟

هكذا يجب علينا أن نفعل أيها المؤمنون، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك، حتى ينكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدد كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا، ومن هنا يقول الصحابي الجليل أبو الدرداء : (إنما تقاتلون بأعمالكم). فالأعمال فاسدة، والضعفاء

مهملون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة، ومشاكلنا كثيرة، وأهل العلم والصلاح نائمون وغافلون.

ألم يقل الله تعالى: اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [آل عمران:٢٠٠]، ألم يقل سبحانه وتعالى: وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا [المائدة:٢٣]، ألم يقل عز وجل: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [النحل:١٢٨]، وقال تعالى: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ [الحج:٤٠]، ألم تقرؤا ــ أيها المؤمنون ــ قوله تعالى في سورة الأنفال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [الأنفال:٤٥، ٤٦]؟!.

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على ما أصابنا وحَلَّ بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدِّين إلا رسمه؛ لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقا وغربا، برا وبحرا، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم.

عباد الله، ونظرة أخرى في هذه الآيات مع قوله تعالى: وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [البقرة:٢٥٠]. هذا هو دعاؤهم، توجهوا إلى الله وهم في قلب المعركة، وهم في ساحة القتال، هذه هي الشُحْنَةً الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه، فهو ينادي قائلاً: (ربنا)؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء.

وتأملوا ــ أيها المؤمنون ــ في قوله تعالى: أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام حتى يواجهوا العدو بإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله تعالى: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة:٢٥١].

تلك هي النتيجة التي يتمناها المؤمنون، هزيمة أعدائهم، فهل تتحقق هزيمة أعدائنا أيها المؤمنون؟ نعم سوف تتحقق باذن الله، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله : ((ساعتان تفتح أبواب السماء وقلما ترد على داع دعوته، عند حضور النداء، والصف في سبيل الله)).

واعلموا ــ يا عباد الله ــ علم اليقين أن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم ــ ونرجو أن يكون عارضا ويزول ــ ولو قام العلماء والأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم عهد الله الذي لا يخلف، لرأيتم الحق يسمو والباطل يسفل، ولرأيتم نورا يُبهرُ الأبصار، وأعمالا تحار فيها الأفكار، وأن الحركة التي نلمسها ونحس بها الآن في نفوس المسلمين في أغلب الأقطار، تُبشرنا بأن الله تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جمع الموحدين، وسوف

يكون قريبا إن شاء الله. فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم التوبة وعفا الله عنهم والله ذو فضل على المؤمنين.

فعلى الأمة وعلمائها أن تسارع إلى هذا الخير، وهو الخير كله جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا [الكهف:١٧]، وما يذكر إلا أولوا الألباب، قال رسول الله : ((لا تزال يد الله عز وجل على هذه الأمة وفي كنفه وفي جواره وجناحه، ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم، وما لم يبر خيارهم أشرارهم، وما لم يعظم أبرارهم فجارهم، فإذا فعلوا ذلك رفعها عنهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وأنزل بهم الفاقة، وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب)). وقال: ((إذا كان ذلك لا يأتيهم أمر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم عن ذلك)).

الخطبة الثانية

أيها المسلمون، من الأمور الهامة التي تستوجب انتباه وحذر ويقظة أمتنا الإسلامية، وبخاصة نحن أهل فلسطين، قضية بيت المقدس التي قفزت إلى ساحة الأحداث الساخنة، ليس بفعل يقظة الأمة الإسلامية وإنما ـــ وللأسف الشديد ـــ بفعل الممارسات الإسرائيلية، والنشاط الاستيطاني المتسارع داخلها وخارجها، والأنباء التي تتحدث عن الشروع بإقامة حَيٍّ استيطاني في البلدة القديمة، وبالتحديد في باب الساهرة بالقرب من برج اللقلق المجاور لباب حطة.

عباد الله، قلناها أكثر من مرة أن القدس في خطر، ولكن لا حياة لمن تنادي! والحقيقة الجلية هي أن اسقاط القدس من قضية ما يسمى مفاوضات التسوية، وتأجيل بحثها لما يسمى مفاوضات الحل النهائي ـــ إن وجد حَلٌّ أو بقيت قدس ـــ، قد أعطت إسرائيل الضوء الأخضر للإسراع بتنفيذ مخططات تهويد المدينة المقدسة، مستغلة ضعف الموقف الفلسطيني، وعدم وجود أي موقف عربي أو إسلامي واضح وصريح ضد هذه الممارسات، وبعبارة أخرى هو استسلام للأمر الواقع.

أيها المؤمنون، إن الحديث عن إقامة حَيٍّ استيطاني في البلدة القديمة ليس أمرًا جديدًا، بل هو مخطط قديم حان الوقت لتنفيذه، والإعلان عنه في ظل التواطئ الدولي ومعاداة دول الكفر للإسلام، وفي ظل أوضاع مزرية يعيشها شعبنا الفلسطيني المسلم.

فالقدس ـــ يا مسلمون ـــ تضيع رويدا رويدا، البؤر الاستيطانية تزداد اتساعا مساحة وعددا، حول المسجد الأقصى، وفي محيطه أكثر من خمسين بؤرة استيطانية، وفي حارات البلدة القديمة المتعددة نحو ثلاثين بؤرة، محال تجارية وعقارات تتسرب بالخفاء. الحي اليهودي الواقع في الجنوب الغربي من البلدة القديمة يحتل خمس مساحة البلدة القديمة. الحي الاستيطاني المزعم إقامته سيحتل مساحة كبيرة من القسم الشمالي الشرقي من البلدة القديمة. ومما يلفت الأنظار أن الحَيَّ الاستيطاني الجديد يأخذ الطابع

الديني كما ذكرت الصحف ليتحدى مشاعر المسلمين، وسيقام في الحي كنيس تعلوه قبـــة صـــفراء يقولون: أنها ستضاهي قبة الصخرة المشرفة على حد زعمهم. والأنباء تتحدث عن اعتزام الســـلطات الإسرائيلية جلب نحو مليون يهودي خلال السنوات العشر القادمة، حيث سيتم إسكان غالبيتـــهم في القدس والمستوطنات اليهودية المحيطة بها.

عباد الله، ما أشبه اليوم بالبارحة؛ أبرهة الأشرم بعد أن استأثر بحكم اليمن، أراد أن ينال رضا ملـــك الحبشة، فبعث إليه قائلا: سأبني كنيسة كبيرة تعلوها قبة مزركشة، يتحدث عنها العـــرب والعجـــم. واسماها القليس لعلوها، وكان هدف أبرهة أن يستقطب العرب للحج إلى هذه الكنيسة بدلا من الحج إلى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة، فالعرب كانوا يقدسون الكعبة ويحجون إليها قبل الإسلام، ونحن نفرط بمسرى رسول الله !. ولما دَنَّسَ العرب هذه الكنيسة استشاط أبرهة غضبا، وجهز جيشا لغـــزو مكة وهدم الكعبة، فمذا جرى؟ محقه الله وسحق جيشه وشتت شمله ومزق جمعه، وتلك سنة الله لمن أراد لبيته بسوء، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أيها المسلمون، ومهما طغى الطغاة، ومهما تكالبت قوى الشر والبغي والعدوان في محاربة الإســـلام والمسلمين، وتدنيس المقدسات وقتل الأبرياء، فإن الغلبة لهذا الدين، وســـتبقى مدينـــة القـــدس درة فلسطين إسلامية العقيدة عربية الجذور، ستبقى مدينة إسلامية إن شاء الله تعالى.

أيها المسلمون، الأيام القادمة ستكون صعبة على أهل بيت المقدس، سيما بعد الانتهاء من بناء الجدار العنصري، والذي سيشدد على المدينة ويضعف الحالة الاقتصادية، ويزيد من معاناة التنقل والتواصل.

أيها المسلمون، هذا هو قدرنا، إن شرفنا الله بالرباط على ثغرة من ثغر الإسلام، فهنيئا لكم ــــ يا أهلنا ــــ بهذا الشرف الإلهي وهذه النعمة العظيمة، فكونوا على قدر المسؤولية، كونوا أهل نعمة وشـــكر، ولا تكونوا أهل نقمة وكفر، وتذكروا أن العاقبة للمتقين، وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لماذا يتأخر النصر؟!

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد

خالد بن محمد الشارخ

الرياض

اللحيدان

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- أحوال الناس عند نزول الشدائد والمصائب. ٢- أسباب تأخر النصر. ٣- أسباب النصر.

الخطبة الأولى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [التوبة:١١٩]، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أيّها المسلمون، يتكررُ في فتراتٍ من التاريخ لمن تأملَ انسياح الإسلامِ في الأرضِ وغلبة المسلمين، أو انحسار مدّ الإسلام وهيمنة غير المسلمين، وإذا كانت أكثريةُ المسلمين تلتزمُ بالإسلامِ في حالةِ غلبته فإنَّ القلةَ من المسلمينَ من يتمالكُ نفسهُ ويلتزمُ بمقتضياتِ العقيدة والدين ويصبرُ على اللأواءِ والمحن في حالِ غلبةِ أعداءِ الدين، إذ من الناسِ من يُصابُ بالهلعِ وفقدان الثقةِ بنصرةِ هذا الدين، ويُصاب آخرون بالإحباطِ واليأس والقنوطِ من رحمة الله والتسخطِ لأقدارِ الله، وتلك أدواءٌ قاتلة، وهي منافية لحقيقةِ التوحيد من الصبر واليقين والتقوى والتوكل على رب العالمين.

إخوةَ الإيمان، وهذا الشعورُ قديم، وهذهِ الفتنةُ غير مستحدثة، وهذا الهاجسُ تحدثَ عنه العلماء السابقون، وذلك حين أصيبت الأمة وكادَ اليأسُ يلفُّ بعض المنتسبين للإسلام.

يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميه رحمه الله كما في جامع الرسائل الرسالة الثالثة: قاعدة في المحبة: "وهُنا نكتةٌ نافعة؛ وهي أنَّ الإنسانَ قد يسمعُ ويرى ما يصيبُ كثيرًا من أهل لإيمان والإسلام في الدنيا في المصائب، وما يصيبُ كثيرًا من الكفَّار والفجَّار في الدنيا من الرياسةِ والمال وغير ذلك، فيعتقدُ أنَّ النعيمَ في الدنيا لا يكونُ إلاَّ لأهلِ الكُفر والفجور، وأنَّ المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً، وكذلك قد يعتقدُ أنَّ العزةَ والنُّصرةَ قد تستقرُ للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاءَ في القرآن من أنَّ العزةَ لله ولرسولهِ وللمؤمنين وأنَّ العاقبةَ للتقوى وقولَ الله تعالى: وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات:١٧٣] وهو ممن يصدّقُ بالقرآن حملَ هذه الآيات على الدارِ الآخرة فقط، وقال: أمَّا في الدنيا فما نرى بأعيننا إلاَّ أنَّ الكفارَ والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين".

وهذا تلميذهُ الشيخُ ابن القيم رحمه الله يعرضُ أمامَ ناظريك ـ أيّها المسلمُ ـ الحكمة من وراءِ تمكين أهل الكُفر والفسوقِ والعصيان، فيقول في كتابه طريق الهجرتين (ص٢١٤-٢١٥): "وكان في تمكينِ أهل الكفرِ والفسوقِ والعصيان من ذلك إيصالُ أولياءِ الله إلى الكمالِ الذي يحصل لهم بمعاداةِ هؤلاءِ وجهادهم والإنكارِ عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإنَّ تمام

العبوديةِ لا يحصلُ إلاَّ بالمحبةِ الصادقة، وإنَّما تكونُ المحبةُ صادقةً إذا بذلَ فيها المُحبُّ ما يملكُهُ من مالٍ ورياسةٍ وقوةٍ في مرضاة محبوبهِ والتقرب إليه، فإذا بذلَ لهُ رُوحهُ كان ذلك أعلى درجاتِ المحبة. ومن المعلومِ أنَّ من لوازمِ ذلك أن يخلقَ ذواتًا وأسبابًا وأعمالا وأخلاقًا وطبائعَ تقتضي معاداةَ من يحبه... — إلى أن يقول: — فلولا خلق الأضدادِ وتسليط أعدائهِ وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبوديةِ من عبيده الذين هم عبيده، و لم يحصل لهم عبوديةُ الموالاة فيه والمعاداة فيه والحبّ فيه والبغضُ فيه والعطاء له والمنع له".

أيّها المؤمنون، نستبطئُ النصر أحيانًا ونحنُ بعدُ لم نُقدمُ للنصرِ ثمنا، ونستعجلُ النصرَ وقد لا يكونُ حانَ وقته بعد، ونتطلعُ إلى تغيرٍ مفاجئٍ في العالم ونحنُ بعدُ لم نغيرِّ ما بأنفسنا، وبالجملةِ فهُناك معوّقاتٌ للنصرِ وأسبابٌ لتأخره يعرفها العلماء ويجهلها البسطاء، وأسوقُ لكم طرفًا منها، استَجمعها صاحبُ الظلال يرحمه الله، فاعقلوها وقارنوا واقعَ المسلمين بها.

يقولُ سيد قطب رحمهُ الله في كتابه طريق الدعوة في ظلال القرآن (ص٣٥٩): "والنصرُ قد يُبطئُ لأنَّ بنيةَ الأمةِ المؤمنة لم ينضجُ بعد نضجها، و لم يتمُّ بعد تمامها، و لم تحشد بعد طاقاتها، و لم تتحفَّزَ كل خليةٍ وتتجمع لتتعرف أقصى المدخور فيهما من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته وشيكا؛ لعدمِ قُدرتهما على حمايتهِ طويلاً.

وقد يبطئُ النصرُ حتى تبذلَ الأمةُ المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكهُ من رصيدٍ، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليا إلاَّ وتبذلهُ هينًا رخيصًا في سبيل الله.

وقد يبطئُ النصرُ حتى تجرب الأمةُ المؤمنة آخر قواها، فتُدرك أنَّ هذه القوى وحدها بدون سندٍ من الله لا تكفلُ النصر، إنَّما يتنزلُ النصرُ من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها، ثُمَّ تكلُ الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئُ النصرُ لأنَّ البيئةَ لا تصلحُ بعدُ لاستقبالِ الحقِّ والخيرِ والعدل الذي تمثلهُ الأمةُ المؤمنة، فلو انتصرت حينئذٍ للقيت معارضةً من البيئةِ لا يستقرُ معها قرار، فيظلُ الصراعُ قائمًا حتى تتهيأ النفوسُ من حوله لاستقبالِ الحقّ الظافر لاستبقائه، من أجل هذا كله ومن أجل غيرهِ مما يعلمهُ الله قد يبطئُ النصر، فتتضاعفُ التضحيات وتتضاعفُ الآلامُ، مع دفاعِ الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية، وللنصرِ تكاليفهُ وأعباؤهُ حين يأذن اللهُ به بعد استيفائه أسبابه وأداءِ ثمنه وتهيؤ الجوِّ حوله لاستقباله واستبقائه.

وقد يبطئُ النصرُ لتزيدَ الأمةُ المؤمنة صلتها بالله، وهي تُعاني وتتألم وتبذل، ولا تجدُ لها سندًا إلاَّ الله، ولا متوجهًا إلاَّ إليهِ وحده في الضراء، وهذهِ الصلةُ هي الضمانةُ الأولى لاستقامتها على النهجِ بعد النصر عندما يأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحقِّ والعدل والخير الذي نصرها الله به.

وقد يُبطئُ النصرُ لأنَّ الأمةَ المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تُقاتلُ لمغنمٍ تُحققه، أو تُقاتلُ حميَّةً لذاتها، أو تُقاتلُ شجاعةً أمام أعدائها، والله يريدُ أن يكون الجهادُ له وحدهُ وفي سبيله، بريئًا من المشاعر الأُخرى التي تلابسهُ، وقد سُئل رسولُ الله : الرجلُ يُقاتلُ حميةً، والرجلُ يُقاتلُ شجاعةً، والرجلُ يُقاتلُ ليرى، فأيّها في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله)) متفق عليه.

كما قد يبطئُ النصرُ لأنَّ في الشرِّ الذي تكافحهُ الأمة المؤمنة بقيةً من خيرٍ يريد اللهُ أنَّ يجردَ الشرَّ منها ليُمحّص خالصًا، ويذهبَ وحدهُ هالكًا، لا تتلبسُ بهِ ذرةٌ من خيرٍ تذهبُ في الغمار.

وقد يبطئُ النصرُ لأنَّ الباطلَ الذي تحاربهُ الأمةُ المؤمنة لم ينكشف زيفهُ للناسِ تمامًا، فلو غلبهُ المؤمنون حينئذٍ فقد يجدُ لهُ أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعدُ بفسادهِ وضرورةَ زواله، فتظلَ له جذورٌ في نفوسِ الأبرياءِ الذين لم تنكشف لهمُ الحقيقة، فشاءَ اللهُ أن يبقى الباطل حتى يتكشفَ عاريًا للناس، ويذهبَ غيرَ مأسوفٍ عليهِ من ذي بقية".

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ [الرعد:١١].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه...

الخطبة الثانية

أمَّا بعدُ: إخوة الإسلام، فينبغي أن لا يخامرَ المسلم شكٌ بنُصرةِ الله لهذا الدين، حتى وإن لم يرهُ بأمِّ عينه، وتحققَ لأجيالٍ بعده، فحسبهُ أن يكونَ جنديًا صادقًا في سبيلِ خدمةِ هذا الدين، وحسبهُ أن يموتَ يوم يموت وهو يُحسنُ الظنَّ بربهِ، ويستشعرُ بمسؤوليتهِ تجاهَ دينه، قد حررَ عبوديتهُ لله.

أمَّا النصرُ فلا بُدَّ من اكتمال أسبابهِ وزوالِ معوقاته، واللهُ يحكمُ ما يشاءُ ويفعلُ ما يريد، ووعدهُ حق ونصرهُ قريب وأمرهُ بين الكاف والنون، ولكن ثَمة أدواء يتلبسُ بها المسلمون وهم يستشرفون النصر، ونصرُ اللهِ عزيزٌ لا بُدَّ فيه من تمحيصِ الصفوف، ولا بُدَّ من تمييزِ الخبيث من الطيب، لا بُدَّ من سقطٍ لأصحابِ المطامعِ والأهواء، ولا بُدَّ من تجريدٍ للصفوةِ المختارةِ التي يُحبُها الله وتستحقُ نصره، لا بُدَّ من تمييزِ المجاهدين الصادقين من المتقولين المنتفعين.

عباد الله، وليست المسؤوليةُ في هذا على الناس على حدٍ سواء، فكلٌّ بحسبه، ولست العبوديةُ المؤهلةُ للنصر ضربًا من الأماني أو قدرًا محدودًا من العبادات، يظنُّ المرءُ فيها أنَّهُ بلغَ قمَّة الإيمان واستحقَّ النصرَ لولا فساد الآخرين بزعمه، كلا، فالمسؤوليةُ كبيرة، والعبوديةُ المرادةُ لله شاملة، واسمع إلى أحدِ علماءِ السلف وهو يشخِّصُ الحال وكأنَّهُ يعيشُ اليومَ بين ظهراني المسلمين:

يقولُ ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين (٢/١٧٦، ١٧٧) وهو يتحدثُ عن نوعي العبوديةِ العامةِ الخاصة: "ولله سبحانهُ على كلِّ أحدٍ عبوديةً بحسبِ مرتبته، سِوى العبوديةِ العامةِ التي سوَّى بين عبادهِ فيها؛ فعلى العالم من عبوديةِ نشرِ السنةِ والعلم الذي بعثَ اللهُ به رسلهُ ما ليس على الجاهل، وعليه من عبوديةِ الصبرِ على ذلك ما ليس على غيره، وعلى الحاكمِ من عبوديةِ إقامةِ الحقِّ وتنفيذهِ وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي، وعلى الغنيِّ من عبوديةِ أداءِ الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادرِ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما. وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يومًا في الجهادِ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقالت لهُ امرأة: هذا واجبٌ قد وضع عنَّا، فقال: هبي أَنَّهُ قد وضَع عنكنَّ سلاح اليدِ واللسان، فلم يُوضع عنكنَّ سلاح القلب، فقالت: صدقت، جزاك الله خيرًا... ـــ إلى أن قال الشيخ رحمه الله: ـــ وقد غرَّ إبليسُ أكثرَ الخلقِ بأن حسنَّ لهمُ القيامَ بنوعٍ من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبادات؛ فلم يُحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاءِ عند ورثةِ الأنبياءِ من أقلِّ الناسِ دينًا، فإنَّ الدين هو القيامُ لله بما أمر به، فتاركُ حقوقِ الله التي تجبُ عليه أسوأُ حالاً عند الله ورسولهِ من مُرتكب المعاصي... ـــ إلى أن قال: ـــ ومن له خبرة بما بعث اللهُ به رسولهُ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أنَّ أكثرَ من يشار إليهم بالدين هُم أقلُّ الناسِ دينًا والله المستعان، وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يرى محارم الله تُنتهك وحدودهُ تُضاع ودينهُ يُترك وسنة رسولِ الله يرغب عنها وهو باردُ القلبِ ساكتُ اللسان شيطانٌ أخرس؟! كما أنَّ المتكلمَ بالباطل شيطانٌ ناطق، وهل بليَّةُ الدين إلاَّ من هؤلاءِ الذين إذا

سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاةَ بما جرى على الدين؟! وخيارهم المحزن المتلمظ، ولو نُوزع في بعضِ ما فيه غضاضة عليه في جاههِ أو مالهِ بذل وتبذل وجدَّ واجتهد واستعملَ مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء ـــ كما يقولُ الشيخ رحمه الله ـــ مع سقوطهم من عينِ الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظمِ بليَّةٍ تكونُ وهم لا يشعرون وهو موت القلوب، فإنَّ القلبَ كلَّما كانت حياتهُ أتم كان غضبهُ لله ورسولهِ أقوى وانتصارهُ للدين أكمل".

أيّها المسلمون، في تركِ أمرِ الله وعدم التمعُّر لشيوعِ الفساد والمنكر خطر عظيم، وقد ذكرَ الإمامُ أحمد وغيره أثرًا أنَّ اللهَ سُبحانهُ أوحى إلى ملكٍ من الملائكةِ أن اخسف بقريةِ كذا وكذا، فقال: يا رب، كيف وفيهم فلانٌ العابد؟! فقال: به فابدأ؛ فإنَّهُ لم يتمعَّر وجههُ في يومٍ قط. وذكر صاحبُ التمهيد أنَّ اللهَ سُبحانهُ أوحى إلى نبيٍّ من أنبيائهِ أن قُل لفلانٍ الزاهد: أمَّا زُهدك في الدنيا فقد تعجّلت به الراحة، وأمَّا انقطاعُك إليَّ فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما ليَ عليك؟ فقال: يا ربي، وأي شيءٍ لك عليّ؟! قال: هل واليتَ فيَّ وليّا أو عاديت فيّ عدوّا؟

هكذا إخوة الإسلام، فَهِمَ السلفُ رحمهم الله حقيقةَ العبوديةِ لله، وكذلك جاءتِ النصوصُ الشرعية والوصايا النبويَّة تُؤكدُ أمرَ القيامِ له بحقهِ عبوديةً عامة يشتركُ الناسُ فيها، وعبودية خاصة كلٌّ بحسبه، تضمنُ قيام أمر الله، تُرسي دعائمَ الخيرِ في الأرض، وتوالي الخيِّرينَ وتحبُ الناصحين، وتسهمُ في اقتلاع الشرِّ من جذوره، وتأخذُ على أيدي السفهاءِ وتأطرهم على الحقِّ أطرا، وتكرهُ المبطلين وتُعادي الكافرين وتبغضُ المنافقين.

وبهذه المجاهدة في الأرض ينساحُ الخيرُ وينكمشُ الباطل ويقتربُ النصر، ولكنَّ ذلك يحتاجُ إلى صبر ومصابرة وإيمانٍ ويقين، ومن خطَبَ الحسناءَ لم يغلها المهر، قال الله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [العنكبوت:٦٩]، وقال تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧]، وقال: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وصدقَ رسولُ الله : ((ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يتركُ اللهُ بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلاَّ أدخلهُ اللهُ هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل، عزًا يُعزُّ اللهُ به الإسلام، وذلاً يُذلُّ به الكفر)) رواه ابن حبان وصححه الألباني في السلسلة (٣).

اللهمَّ انصر دينك وكتابك وعبادك الصالحين، اللهمَّ اجعلنا من أنصار دينك والمنافحين عن شرعك يا رب العالمين...

بشائر النصر في فلسطين

العلم والدعوة والجهاد

المسلمون في العالم

خالد بن محمد طقاطقة

عبدون

١٤٢٦/٧/٧

جامع أبو بكر الصديق

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- فضل المبادرة إلى صلاة الجمعة. ٢- استجابة الله تعالى لدعاء المضطرين. ٣- بشائر النصر. ٤- سنة الابتلاء.

الخطبة الأولى

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هديُ محمد ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، أيتها المسلمات، يا أصحاب الجباه الطاهرة المتوضئة الساجدة الطائعة، يا من تحفكم ملائكة الرحمن بعد أن طوت الصحف ليستمعوا الذكر الآن، قال : ((إذا كان يومُ الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد يكتبون من جاء من الناس على قدر منازلهم، فرجل قدم جزورًا، ورجل قدم بقرة، ورجل قدم شاة، ورجل قدم دجاجة، ورجل قدم عصفورًا، ورجل قدم بيضة، فإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طووا الصحف ودخلوا المسجد يستمعون الذكر)) أخرجه الإمام أحمد وهو حديثٌ صحيح.

فصلاة الله وسلامه على نبيه الكريم محمد ، وصلاة الله وسلامه على النبيين والمرسلين، وسلام الله على الملائكة الكرام البررة، وسلام الله على الصديقين والشهداء ما تعاقب صيف وشتاء، وما امتدّ ظلٌ وفاء، سلام الله على شهداء الأمة الذين رووا الأرض بدمائهم الزكية، سلام الله على شهداء الأقصى الذين عرفوا طريق الجنة، ولسان حالهم يقول: وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، وهنيئًا لنا أمة الإسلام أن جعلنا الله من المسلمين، وأن أكرمنا لنكون في بيتٍ من بيوته مع الملائكة الكرام الكاتبين، فأي تشريفٍ أعظم من تشريف الله تعالى؟! وأي نصرٍ أعظم من نصر الله تعالى؟! وأي بشاراتٍ أعظم من بشارات القرآن العظيم؟! نعم، القرآن ربيع قلوب المؤمنين، ومثّبت همم المجاهدين، ومصبّر الجرحى والثكالى، وأنيس المأسورين، وأي مناجاةٍ أعظم من قرع أبواب السماء بالدعاء؟! فكم من أشعث أغبر من بين المسلمين كان صادقًا في دعواه حتى قرعت أبواب السماء وهو يقول: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ، فكانت دعوات هؤلاء الصالحين تقرع أبواب السماء حينما انقطعت كلّ الأسباب وأغلقت كلّ الأبواب إلا باب الرحمن الجبار العزيز الوهاب الذي بيده العزّ والعطاء والنّصر والتأييد، إنه الباب الوحيد الذي وقف عنده الأنبياء والصالحون والمجاهدون، قال الله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

إنه يسمع دعاء المضطرين، ويعلم صدق المجاهدين، يسمع أنين المجروحين، ويعلم نية المرابطين، فيا لها من آيةٍ متجدّدةٍ وكأنها أنزلت اليوم، سهام قسّام المجاهدين في أرض فلسطين على رؤوس إخوة القردة والخنازير من المعتدين والمغتصبين أحالت بقدرة الله ليلهم إلى جحيم ونهارهم إلى نار حتى أيقنوا بقدرةِ القادر الجبار، فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ

بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. وكأن الآية تقول لنا: إن أردتم مزيد نصر فاقرعوا أبواب من ذلّت له الرقاب، فلا إله إلا الله، ما أكرم الله، ولا إله إلا الله، ما أعظم الله.

فهذه دعوات إلى الرحمن السميع العليم صاعدة، وهذه آيات من الرحمن العزيز كأنها اليوم مترلة. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ، وقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ، فكل شيءٍ حولنا ـــ يا عباد الله ـــ لله فيه حكمة، وتذكّروا أن كل من كان عدوًا لله فهو ضعيف، قال الله تعالى: لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ، فثقوا بنصر الله وبوعد الله: وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وقال تعالى: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، وقال سبحانه: جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ، وقال تعالى: لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وقال تعالى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فلقد تضمّنت سيرة النبي مجموعةً من المبشرات لهذه الأمة المباركة، ومن ذلك ما رواه الصحابي الجليل المجاهد خباب بن الأرت قال: أتيت النبي وهو متوسّد برده وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: ألا تدعو الله؟! فقعد وهو محمرٌ وجهه، فقال: ((لقد كان مَن قبلكم لَيُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ وعَصَبٍ، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ـــ زاد بيان الراوي ـــ والذئب على غنمه)) وفي روايةٍ: ((ولكنكم تستعجلون))، وهذا الحديث في صحيح البخاري.

فثقوا ـــ يا عباد الله ـــ بنصر الله، فإن نصر الله قريب، وبشائر النصر قد لاحت بإذن الله في الأفق، يقول الله تبارك وتعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ.

أتذكرون ما أصابكم يوم أحد؟! أتذكرون ما أصابكم من جراحٍ وحصارٍ وتضييق؟! أتذكرون شهداءكم؟! أتذكرون بكاء أطفالكم؟! أتذكرون أنين الأيتام؟! أتذكرون حنين المبعدين؟! أتذكرون وتذكرون؟! فقد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة والهلاك على الكافرين، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. وإن كان قد أصابكم قتل وجرح فقد أصاب أعداءكم قريبٌ من ذلك، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء).

عباد الله، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله. نقول ذلك ـ يا عباد الله ـ ونكرره لأنّ الله وحده هو الذي يهبنا النصر ولا أحد غيره، فهو يهب النصر لمن شاء ومتى شاء، فلا يظننّ ظانّ بأن النصر لهذه الأمة يقوم بلا إسلام، قال الله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ، وقال تعالى: وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. ومدح الله المؤمنين الذين عرفوا حقيقة النصر فأقاموا شرع الله في أرض الله، فقال تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ.

فنسأل الله العظيم أن يهيّئ لإخواننا في أرض فلسطين الحكم بكتاب الله وبسنة النبي ليكون بصيص النصر في هذه الأيام مباركًا في أرض غزّة هاشم، نصرًا يشعّ بعد نحو أربعين سنةٍ من الجهاد والرباط، وفاتحةً بإذن الله لفكّ قيود الأقصى المبارك وما ذلك على الله بعزيز، ونسأل الله تعالى أن لا يحقّق لأعدائه غاية، وأن لا ينجح لهم أمنية، وأن يحفظ أهل فلسطين من مؤامرات المعتدين الذين يمكرون ويخططون لفتنة المسلمين وطمس عقيدتهم وزرع الفتنة بينهم، فقد قال الله تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ، فكلنا أملٌ وثقةٌ بإذن الله أن اندحار المغتصبين من أي شبرٍ من أراضي المسلمين هو نصرٌ وإن سماه أعداؤنا ما سموه، ولن يكتمل فرح المسلمين إلا باسترداد كامل الحقوق المغتصبة بعز عزيزٍ أو بذل ذليل، وتتويج ذلك كله بعودة الأقصى الأسير إلى

سماحة الإسلام ونوره، فنسأل الله أن يكون ذلك قريبًا، ونسأله تعالى أن يجمع قلوب إخواننا في أرض فلسطين، وأن يجنبهم الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه جواد كريم.

عباد الله، صلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه، حيث قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِ وسلم على عبدك ونبيك محمدٍ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلي، وعن سائر صحابة رسول الله أجمعين، وعمن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنا معهم بكرمك وجودك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعز الإسلام وانصر المسلمين، وأعلِ اللهم بعزتك كلمة الدين...

خواطر حول النصر والهزيمة

العلم والدعوة والجهاد

قضايا دعوية

سعيد بن عبد الباري بن عوض

جدة

سعد بن أبي وقاص

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- سنن الله الكونية. ٢- أسباب النصر. ٣- حكم وفوائد من هزيمة المسلمين في أحد. ٤- هل الأمة الإسلامية اليوم مؤهلة للنصر على أعدائها؟

الخطبة الأولى

أوجد الله هذا الكون وجعل له سننًا كونية ثابتة لا تتغير وقوانين لا تتبدل، ولهذه السنن أسباب، من أخذ بها تحققت له نتائجها وحصل على ثمراتها، ومن لم يأخذ بأسبابها خسر النتائج ولم يجن الثمار.

"من جد وجد ومن زرع حصد" مثل معروف يشير إلى سنة كونية أودعها الله في هذا الكون. وبنظرة عميقة سريعة إلى حال أمة الإسلام ووضعها التقني وما يسمى بالتكنولوجيا مقارنة مع كثير من دول الكفر يرى أن هذه السنة الكونية واضحة جلية، فقد حصل القوم على تقدم هائل في

مجالات التصنيع والإنتاج بما لا يمكن مقارنته مع وضع المسلمين، والسبب هو تحقيق هذه السنة الكونية. هذا في أمر من أمور الدنيا، ودعونا من أمر الدنيا الآن، وإنما ضربت مثلاً أريد به تقريب المعنى.

ومن السنن الكونية التي قررها الله تعالى في كتابه في مواضع عديدة أن العزة والنصر لعباده المؤمنين وأن العاقبة للمتقين، قال تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ [الأنبياء:١٠٥]، ويقول جل في علاه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم:٤٧]، وقال سبحانه: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [غافر:٥١] وغيرها كثير. وهذه قضية مسلمة لا يجوز لمسلم أن يكون عنده فيها أدنى شك، وإن حصل ذلك فإنه الكفر. أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

لكن هناك أسئلة تلح على النفس تطرح مع هذا الكلام؛ ليحصل الفهم الصحيح لهذه القضية وحتى لا تشوبها شائبة:

أولها: ما أسباب النصر؟

وثانيها: هل يعني ذلك أن المؤمنون في نصر دائم ولا يمكن أن يهزموا؟

وثالثها: هل الأمة الإسلامية اليوم مؤهلة للنصر على أعدائها؟

معاشر المؤمنين، الإجابات على هذه الأسئلة محور الحل لمشكلة من مشاكل الأمة وكبرى قضاياها التي تعاني بسببها هذه الأمة الأمرين. إن من الواجب على الأمة اليوم جماعات وأفرادًا دراسة هذه الأسئلة وبحثها بحثًا يراد منه التوصل إلى حل لأزماتها ومصائبها التي أصيبت بها، وتخرج بحل عملي يسارع في انتشال الأمة من الغرق.

أيها المسلمون، إننا مع الأسف نكثر الكلام بدون حاجة لذلك، لكننا نعيش وضعًا قد أصبح الكلام فيه بضاعتنا التي لا نستغني عنها. إننا بحاجة والله إلى تأمل وتدبر أكثر من الكلام، ولو أننا تأملنا في كتاب الله وسنة رسوله ثم تأملنا في حالنا لعرفنا الداء والدواء، ولما احتجنا إلى تلك الإطالة التي لا داعي لها. فنحن اليوم نكثر الكلام ونطيل، وكان بالإمكان أن يختصر الكلام بكلمات جامعة نافعة يتدبرها الناس ويخرجون بنتائج عظيمة، ولعل بعض من يطيل يفعل ذلك لأن ذلك هو الذي يروج عند كثير من أفراد هذه الأمة.

أمة الإسلام، إن التأمل في كتاب ربنا تبارك وتعالى يجيب على التساؤل الأول الذي طرحناه، وهو السؤال عن أسباب النصر، فعند القراءة في كتاب الله نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أجاب على هذا التساؤل بإجابة مختصرة شافية كافية، يقول جل وعلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧].

إنها ـــ عباد الله ـــ كلمات يسيرات تبين لنا أسباب النصر بما يمكن لو أردنا نحن الإجابة عليه لتكلمنا بما لا يتسع له مقام خطبة الجمعة، أما القرآن فقد بين القضية أفضل بيان وأوضحه، شرط النصـــر أن تنصروا الله، وما نصرة الله عز وجل؟ إنها إقامة شرعه وتطبيق دينه واقعًا على الأرض، يحيـــاه النـــاس عملاً وقولاً واعتقادًا. إنها العمل بكتاب الله وسنة رسوله ونشرهما بين الناس ولـــو أبغضـــك مـــن أبغضك، ولو كره الكافرون الذين يهاجموننا ويتهموننا بشتى التهم، لأننا نعمل بكتـــاب الله وســـنة رسوله .

وإن شئت ـــ أخي الكريم ـــ فاقلب السؤال الذي نناقشه الآن وقل: ما أسباب الهزيمة؟ لتسمع جوابًا شافيًا كافيًا من رسول الله فيما رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، يـــذكر فيـــه أن ترك دين الله وترك نشره وحب الدنيا والتعلق بها هو سبب الهزيمة، فعن ابن عمر رضـــي الله عنـــهما قال: سمعت رسول الله يقول: ((إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)). فهذا جواب آخر من رسول الله بلا إطالـــة ولا إكثار.

وأما التساؤل الثاني حول حصول الهزيمة للمؤمنين في بعض معاركهم ضد الكفر، فمن تأمل في كتاب الله وسنة رسوله وجد الإجابة واضحة جلية، فقد ذكر الله في كتابه قصص بني إسرائيل، وأنهم قتلـــوا بعض أنبيائهم، وأشار تبارك وتعالى إلى هزيمة المسلمين في معركة أحد، وبين أسبابها والحكمة منها في مجموعة من الآيات ذكرها سبحانه في سورة آل عمران. وقد هزم المسلمون في معارك عـــدة أمـــام الكافرين، وليس ذلك بمستغرب وإن استغربه كثير من المسلمين. وهذا ما حصل للمـــؤمنين يـــوم أن هزموا في أحد فتعجبوا كيف يهزمون وهم المؤمنون؟! بل كيف يحدث ذلـــك ورســـول الله يقاتـــل معهم؟! فعلى المسلمين أن يعلموا أنهم قد يهزمون في بعض معاركهم ضد الكافرين، ولذلك أســـبابه كحصول المعصية من المؤمنين فتكون العقوبة هزيمتهم في تلك المعركة. كما أنه يجب على المسلمين أن يفهموا أن الله جل وعلا لم يخبر بأن المسلمين سينتصرون في كل معركة يخوضونها، وإن كان قد وعد المؤمنين بالنصر، وإنما المراد بذلك النصر النهائي والعاقبة لا تكون إلا للمؤمنين، كما أشـــار تبـــارك وتعالى لذلك في غير آية، قال تعالى: قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَـــا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف:١٢٨]، وقال سبحانه: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْـــطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى [طه:١٣٢]، وقال تعالى: وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ [آل عمران:١٤٠].

عباد الله، لقد هزم المسلمون في أحد فهل كانت تلك النهاية؟! كلا، بل كانت الخاتمـــة للمـــؤمنين، وجاء الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا. لقد هزم المسلمون في أحد هزيمة شمت فـــيهم بســـببها الأعداء، فلما حصل ما حصل جعل عبد الله بن أبي بن سلول والمنافقون يشمتون ويسرون بما أصاب

المسلمين، ويظهرون أقبح القول، فيقول ابن أبي لابنه عبد الله وهو جريح قد بات يكـــوي جراحـــه بالنار: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي، عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني كنـــت أنظر إلى هذا. فقال ابنه: الذي صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير. وأظهر اليهود القول الســـيئ، فقالوا: ما محمد إلا طالب ملك؛ ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنـــه وأصـــيب في أصـــحابه. وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله أصحابهم، ويأمرونهم بالتفرق عنه، ويقولون: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل. وسمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن فمشى إلى رسول الله ليستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من اليهود والمنافقين، فقال : ((يا عمر، إن الله تعالى مظهر دينه ومعز نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم))، فقال عمر: فهؤلاء المنافقون؟ قال: ((أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟)) قال: بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف، فقد بان لنا أمرهم وأبـــدى الله تعالى أضغانهم عن هذه النكبة، فقال: ((إني نهيت عن قتل من قال: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله يا بن الخطاب، إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن)). وهكـــذا شمـــت أعـــداء الإسلام بهزيمة المسلمين، لكن النهاية كانت للمؤمنين وأعز الله دينه وأعلى كلمته.

إن الهزيمة ـــ عباد الله ـــ قد تكون نعمة والمحنة قد تكون منحة، وقد ينعم الله بالبلوى وإن عظمـــت، وربما صحت الأجساد بالعلل. فقد كان في هزيمة المسلمين في أحد حكم وفوائد، منها مـــثلاً اتخـــاذ الشهداء من المسلمين، وبيان سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، ومنها أن الهزيمة من أعلام وأدلـــة الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قـــال: سجال، يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى، قال هرقل: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبـــة. ومن فوائد الهزيمة كذلك أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب. ومنها تطهيرهم وتنقيتهم مـــن معاصيهم، وغير ذلك كثير مما ذكر العلماء. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى كل ذلـــك في ســـورة آل عمران، وجاءت تلك الآيات لتثبيت المعايير الإيمانية في مفهوم القدر، ومفهوم الحياة والموت ومفهوم النصر والهزيمة والربح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنفاق. فهل الهزيمة تعني الخسارة؟ وهل الموت يعني الخسارة؟ كلا والله، فقد مات من الصحابة في معركة أحد سبعون رجلاً، فهل خسروا؟! بل ربحـــوا ـــ والله ـــ جنة عرضها السماوات والأرض، واتخذهم الله شهداء عنده أحياء غير أموات عند ربهـــم يرزقون. ولقد قتل المؤمنون في الأخدود وأحرقوا، فهل خسروا؟! ولقد قتل الغلام المؤمن ـــ كما في حديث الغلام المؤمن والساحر ـــ بطريقة كان هو الذي دل الملك عليها بعد أن عجز عن قتله، فهل خسر؟! بل ربح أولئك جميعا رضوان الله والدار الآخرة.

ــ

الخطبة الثانية

ويبقى ـــ إخوة الإيمان ـــ التساؤل الثالث يحتاج إلى إجابة، وهو هل الأمة الإسلامية اليـــوم مؤهلـــة للنصر على أعدائها؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى تفصيل طويل ولا أريد ذلك، لكن ربمـــا يكون من المفيد لنا جميعًا أن نقسم هذا السؤال الضخم إلى أسئلة صغيرة، يكون من الســـهل علينـــا جميعًا الإجابة عليها.

معاشر المؤمنين، يقول تعالى: إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ [محمد:٧]، هل نصرنا الله بإقامة شرعه وتطبيقه على أنفسنا فالتزمنا بأوامر ربنا واتبعنا سنة نبينا ؟! لا شك أننا جميعًا نعرف الإجابة على هذا السؤال لأن كل واحد منا أدرى بنفسه من غيره. ويقول تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْـــدِ الـــذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ [الأنبياء:١٠٥]، فهل نحن صالحون بحيث تنطبق علينا هـــذه الآيـــة فيورثنا الله الأرض؟! ويقول تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَـــرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ [الحج:٤١]، فهل أقمنا الصلاة وأدينا الزكاة وأمرنـــا بالمعروف وهينا عن المنكر، أم أن الكثير منا قد ضيع الصلاة وتحايل على الزكـــاة ورأى المنكـــرات فسكت و لم يأمر بالمعروف حتى أقرب الناس إليه؟!

وهكذا في قائمة أسئلة معروفة الإجابات تظهر لنا الإجابة على ذلك السؤال الكبير، ويتبين منـــها أن الأمة اليوم بحاجة إلى عودة إلى ربها وتوبة صادقة ليتحقق لها موعود الله بالنصر. ومع ذلك كله نقول: إننا على ثقة بأن الأمة الإسلامية اليوم وإن هزمت في كثير من الميادين فإن الغلبة لها والعزة والنصـــر والتمكين، وعدًا من الله والله لا يخلف الميعاد.

وما النصر إلا من عند الله

العلم والدعوة والجهاد، سيرة وتاريخ

القتال والجهاد، غزوات

سعيد بن عبد الباري بن عوض

جدة

سعد بن أبي وقاص

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- سبب غزوة الخندق. ٢- المعجزات الباهرة الدالة على نبوته أثناء حفر الخندق. ٣- حال المنافقين في هذا الموقف الحالك. ٤- ما أصاب المؤمنين من الشدة والكرب في تلك الغزوة. ٥- أسباب النصر الحقيقية.

الخطبة الأولى

أيها المسلمون، إن في سيرة محمد وصحبه الكرام عبرة وأي عبرة، ذلك لمن تأملها ونظر فيها بعين البصيرة. لقد بعث الله رسوله بالحق، فصدع به ودعا إليه، ولكن الملأ من قريش لم يقبلوه منه، وعادوه واتهموه بتهم شتى، وآذوه في نفسه وعرضه وحاولوا قتله، لكنه لم يترك الدعوة، وخرج بدعوته إلى المدينة مهاجرًا، وحاربه كفار قريش فهزمهم مرة وهزموه مرة.

ثم جاء اليوم الذي أراد فيه أعداء الله ورسوله أن يجتثوا الإسلام والمسلمين ـــ كما يزعمون ـــ من جذورهم، وجاء اليهود إلى قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه مع محمد، أفديننا خير أم دينه؟ قال اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله فيهم: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً إلى قوله تعالى: وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا [النساء:٥١-٥٥]. فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لحرب رسول الله ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم اتجه اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه. ثم إن قريشًا تجهزت وسيرت تدعو العرب إلى نصرها، وألَّبوا أحابيشهم ومن تبعهم، وخرجوا في أربعة آلاف، وعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن حلحة، وقادوا ثلاثمائة فرس وكان معهم ألف وخمسمائة بعير، ولاقتهم بنو سليم بمر الظهران من سبعمائة، وخرجت بنو فزارة وكانوا ألفًا، وخرجت كذلك أشجع، وخرجت بنو مرة حتى اكتمل عددهم عشرة آلاف، وقادهم أبو سفيان.

أما ما كان من أمر رسول الله فإنه لما بلغه الخبر جمع الناس وشاورهم يسألهم ما يفعل، فكان أن أشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة، فأعجبتهم الفكرة، وبدأ رسول الله بحفر الخندق هو وأصحابه، ووقع في أثناء حفر الخندق معجزات باهرة من علامات نبوته ؛ كحديث الصخرة العظيمة التي اعترضتهم في حفر الخندق، فلم يعمل فيها المعاول وأعيت فيها الحيل، فأخذ رسول الله المعول وسمى الله وضربها فانهالت ترابًا كما في صحيح البخاري. وحديث الطعام القليل الذي كفى أهل الخندق وكانوا ألفًا، وكقوله لما انصرفت الأحزاب: ((لن تغزونا قريش بعدها، بل نغزوهم ولا يغزونا))، فكان كما قال عليه الصلاة والسلام، وكانت تلك الشدة خاتمة الشدائد.

أيها المؤمنون، لقد كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب كما سماها الله شدة يظن المرء معهـــا أنهـــا نهاية الدعوة والداعية. لقد كانت بالحسابات الدنيوية والمقاييس المادية النصر الأكيد للأحزاب الـــذين اجتمعوا من كل حدب وصوب على حرب الإسلام والمسلمين، وكانت الدولة الإسلامية لا زالـــت ناشئة فتية، بادئة في تأسيس ذاتها في المدينة النبوية. ولقد بلغ الحال بـــالمؤمنين أشـــده مـــن الرعـــب والخوف، فهم قلة محاصرون من قبل جماعة كثيرة يبلغون أضعافهم عددًا وعدة. وإذا أردت وصـــفًا دقيقًا لحال المؤمنين في تلك الوقعة فلن تجد أبلغ من وصف الله تعالى لهم في كتابه، حيث يقول واصفًا الشدة التي لقيها المؤمنون: وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ هُنَالِـــكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا [الأحزاب:١٠، ١١]. كيف لا يكون هذا الزلـــزال الشـــديد للمؤمنين وقد جاءهم الأحزاب من فوقهم، وكان اليهود قد غدروا بهم ونقضوا العهد مـــن أســـفل منهم، وأصبح المسلمون بين الأحزاب واليهود؟! واستمع إلى وصف الله لحالهم حيث يقـــول جـــل وعلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَـــمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَـــتْ الأَبْصَـــارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ [الأحزاب:٩،١٠]. فهل تصورت هذه الشدة وذلـــك الوضع الحرج الذي عاناه المؤمنون؟ هل تصورت كيف يزيغ البصر في وضع مثل هذا حتى يصبح المرء لا يدري أين ينظر ولا إلى أي جهة يلتفت؟ هل تصورت ــ أيها المؤمن ــ شدة تحرك القلـــب مـــن مكانه حتى يكاد أن يبلغ حلقك؟ إنها شدة وأي شدة، العدو كافر حاقد يريد الانتقام للضربة التي لقيها في معركة بدر، ولا زالت قريش تعاني من آلام الهزيمة والإهانة العظيمة التي لقيتها في بدر. ومن أسفل المدينة العدو الآخر الخبيث المتربص الذي كان في يوم من الأيام صاحب عهد وميثـــاق، إنهـــم اليهود لا عهد لهم ولا ذمة، غدروا في أحلك المواقف وهم كذلك دائمًا وأبدًا، يســـتغلون المواقـــف ويصطادون في الماء العكر. والعدو الداخلي كذلك بدأ في التخذيل والهـــرب مـــن أرض المعركـــة، المنافقون أخذوا يخذلون. واسمع إلى ما رواه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله في يوم الخندق: ((اذهبوا بنا إلى سلمان))، وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقـــال : ((بسم الله))، فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: ((الله أكبر، قصور الروم ورب الكعبـــة))، ثم ضـــرب أخرى فوقعت فلقة فقال: ((الله أكبر، قصور فارس ورب الكعبة))، فقال عنـــدها المنـــافقون: نحـــن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم.

هكذا ـــ أيها المؤمنون ـــ كان حال المنافقين في هذا الموقف الحالك، الذي يبين فيه رســـول الله أن هذا الدين منصور وقائم، حتى أنه يخبرهم بأن الله سيفتح على المسلمين قصور فارس والـــروم، حـــتى تهدأ نفوس المؤمنين، ويعلموا أن هذا الجمع وهذه الأحزاب لن تتمكن من القضاء علـــى المســـلمين واجتثاث أصل دعوتهم والقضاء عليها كما جاؤوا يحلمون بذلك.

عند هذا الموقف الإيماني التربوي من الرسول إذا بالمنافقين يشككون في هذه الأخبار التي يخبر بها الرسول ، ويقولون: نحن محاصرون ونحفر الخندق لحماية أنفسنا وما بيننا وبين الموت إلا قليل ومحمد يعدنا أننا سنفتح قصور الروم وفارس! يسخرون ويهزؤون.

ثم من تخذيلهم كذلك أنهم بدؤوا يستأذنون النبي ليعودوا إلى بيوتهم وأهليهم، ويقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، ولكنهم جبناء يريدون الهروب. حتى ذكرهم الله في كتابه وفضحهم فقال جل وعلا: وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا [الأحزاب:١٣]. يزعم المنافقون أن بيوتهم مكشوفة، ولذلك يريدون الرجوع إلى بيوتهم ليحموها، وهم كاذبون، إنما يريدون الهروب خوفًا من القتال. هكذا كان الوضع. لكن كيف كان حال المؤمنين؟ لقد كان حالهم هم ورسول الله كما وصف الله حال المؤمنين قبل معركة بدر، حيث أخذوا يسألون عن كفار قريش، فأخذ الناس يقولون لهم: إن قريش قد أعدت لكم وجمعت لكم، فكان رد رسول الله وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل. قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران:١٧٣]. فماذا كانت النتيجة والعاقبة؟! قال الله تعالى مبينًا ما جعله الله لهم جزاء على اعتمادهم على ربهم وتوكلهم عليه: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [آل عمران:١٧٤].

ثم بين الله تعالى للمؤمنين بل وللناس كلهم أن هذه الجموع لا يخافها المؤمنون، لا يخافها محمد وأصحابه، بل يخافها الذي خلا قلبه من الإيمان والتوكل على الله، فيقول سبحانه: إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٧٥]. نعم عباد الله، إن أولياء الله لا يخافون جموع الكفر ولو كثرت، إنما يخاف ويخشى هذه الجموع أولياء الشيطان، أما من كان الله وليه فقد قال الله: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [يونس:٦٢].

عباد الله، إن الخوف قد يقع وقد ينال كل النوعيات وكل المستويات الإيمانية، لكن الموقف الناتج عن الخوف يختلف من إنسان لآخر، وهنا موضع الأسوة والقدوة؛ فالمؤمنون في الخندق خافوا وبلغت القلوب الحناجر وزاغت الأبصار وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا، فالمؤمنون الصادقون الصديقون رغم ما وقع بهم من الخوف والفزع قال الله تعالى عنهم: وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا [الأحزاب:٢٢]، وأما المنافقون الذين أصابهم الخوف واقتلع قلوبهم الرعب فقال الله تعالى عنهم: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا [الأحزاب:١٢]. لقد زاد الخوف المؤمنين إيمانًا وتسليمًا، وزاغت عقيدة المنافقين قبل أن يزيغ بصرهم وقالوا: إن محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ولا يأمن أحدنا أن يخرج إلى حاجته، أو لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط! فقارن بين الموقفين، وتأمل الحالين؛ لتعلم حال المؤمنين وتستمسك بغرزهم وتفوز فوزًا عظيمًا.

الخطبة الثانية

عباد الله، أما رسول الله فلقد كان هو القمة التي لا يرقى إليها أحد في الثقة بالله والثبات أمام العدو؛ فعندما بلغه أن بني قريظة قد نقضوا عهدهم الذي عاهدوه به واشتركوا مع الأحزاب في حرب المسلمين وخانوا الله ورسوله قال: ((الله كبر، أبشروا يا معشر المسلمين)). وفي قلب هذه المحنة وشدة هذا الهول يقول عليه الصلاة والسلام: ((إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله)) ذكر ذلك الواقدي في المغازي.

أيها الموحدون، وحيث إن المعركة بين رسول الله والأحزاب معركة عقيدة فلا بد من اللجوء إلى الله تعالى وحده أن يكشف الغم ويزيل الكرب، فعن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله يوم الأحزاب فقال: ((اللهم مترل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)). وقد حرص رسول الله أن يؤكد لصحابته الكرام ثم للمسلمين جميعًا أن هذه الأحزاب العظيمة لم تهزم من المسلمين رغم تضحياتهم، و لم تهزم بعبقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده، بالمسلم الذي أسلم في قلب المعركة واندفع يخذل العدو، وبالريح التي قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا حتى قال تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ [الأحزاب:٩-٢٥]. يقول مؤكدًا ذلك كما عند البخاري: ((لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده)). إنها التربية الإيمانية، التربية على البراءة من الحول والطول، التربية على نسبة الفضل إلى الله وعدم الاغترار بالأسباب المادية.

إننا ـــ أيها المسلمون ـــ لا ننصر بكثرة العدد ولا العدة، بل ننصر بإيماننا بالله ويقيننا بموعوده، ننصر بطاعتنا لله واجتناب ما يغضبه سبحانه. بل إنه عندما اغتر المسلمون بعددهم أذاقهم الله مرارة الهزيمة، قال تعالى حاكيا ذلك في سورة التوبة: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ [التوبة:٢٥، ٢٦]. إنه درس تربوي لأولئك الذين ظنوا أن كثرتهم ستكون سببا أكيدا للنصر، فأراهم الله ماذا يصنع التعلق بالأسباب الدنيوية مع نسيان العون الإلهي والمدد الرباني؛ لذا فإن علينا اليوم خاصة أن نحيي هذه العقيدة في نفوسنا، وأن نغرسها في نفوس المسلمين عامة؛ ليعلم كل مسلم أن نصر الله قريب وسهل، إن نحن توكلنا على الله مع بذل الأسباب، وتعلقت قلوبنا به سبحانه، وتبرأنا من كل شيء إلا الله. وعند ذلك فلن يهزمنا ـــ والله ـــ أقوى وأعتى الأعداء؛ لأن الله مولانا ولا مولى لهم.

أسباب النصر الحقيقية وصفات من ينصرهم الله

الحمدُ لله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ، وأصحابه، والتابعينَ لهم بإحسانٍ وسلَّم تسليماً، أما بعد ،،،

فلقد نصرَ اللهُ المؤمنينَ في مَواطنَ كثيرةٍ في بدر، والأحزاب، والفتحِ، وحُنين، وغيرِها:

١- نصرَهُمُ اللهُ وفاءً بوعدِه: {...وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[٤٧]} [سورة الروم] . {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَدُ [٥١] يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[٥٢]} [سورة غافر].

٢- نَصرَهُمُ اللهُ لأنهم قائمونَ بدينه وهو الظَّاهرُ على الأديانِ كلِّها: فمن تمسك به فهو ظاهرٌ على الأممِ كلِّها: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[٣٣]} [سورة التوبة].

٣- نصَرَهم اللهُ لأنهم قاموا بأسبابِ النصرِ الحقيقيَّةِ المادَيةِ منها والمَعْنَويةِ: فكان عندهم من العَزْمِ ما بَرَزُوا به على أعْدائهم أخذاً بتوجيه اللهِ لَهُم، وتَمشِّياً مع هديهِ وتثبيتِه إياهم:{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [١٣٩] إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّلِمِينَ[١٤٠]} [سورة آل عمران] . {وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً[١٠٤]} [سورة النساء]. { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ[٣٥]}[سورة محمد]. فَكانوا بهذِه التَّقْوِيَةِ والتثبيتِ يَسيرونَ بقُوةٍ وعزمٍ وجدٍّ.

وأخَذُوا بكلِّ نصيبٍ من القُوة امتثالاً لقولِ ربِّهم: {وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ[٦٠]} [سورة الأنفال] من القُوَّةِ النفسيةِ الباطنةِ، والقوةِ العسكريةِ الظاهرة.

٤- نصرهم الله تعالى لأنهم قامُوا بنصر دينه: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. فوعدَ اللهُ بالنصر من ينصرُه وعداً مؤكداً بمؤكدات لفظية ومَعنوية: أما المؤكدات اللفظية: فهي القسمُ المقدَّرُ؛ لأنَّ التقديرَ: واللهِ لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ. وكذلك اللامُ والنونُ في:{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} كلاهُما يفيدُ التوكيدَ.

وأمَّا التوكيدُ المعنويُّ: ففي قوله:{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } فهو سبحانه قَويٌّ لا يضْعُفُ، وعزيزٌ لا يذِلُّ، وكلُّ قوةٍ وعزةٍ تُضَادُّهُ ستكونُ ذُلاً وضعفاً. وفي قولِه:{ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} تثبيتٌ للمؤمنِ عندما

يستَبعِدُ النصر في نَظَره لِبُعد أسبابِه عندَه، فإنَّ عواقبَ الأمورِ لله وحْدَهُ يغَيِّر سبحانَه ما شاءَ حَسْبَ ما تَقْتَضِيه حكمَتُه.

أوصاف من يستحقون النصر:

وفي هاتين الآيتين: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. بيانُ الأوْصافِ التي يُستحقُّ بها النصرُ، وهي أوصافٌ يَتَحَلَّى بها المؤمنُ بعدَ التمكين في الأرضِ، فلا يُغْريه هذا التمكينُ بالأشَرِ والْبَطرِ والعلوِّ والفسادِ، وإنما يَزيدُه قوةً في دين الله وتَمسُّكاً به.

الوصفُ الأول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. والتمكينُ في الأرض لا يكونُ إلاّ بعْدَ تحقيق عبادةِ الله وحْدَه كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[٥٥]}[سورة النور]. فإذا قام العبدُ بعبادَةِ الله مخلصاً له في أقْوَالِه، وأفعالِه، وإرادَته لا يريدُ بها إلا وجه الله والدار الآخرة، ولا يريد بها جاهاً، ولا ثناءً من الناسِ، ولا مالاً، ولا شيئاً من الدُّنيا، واستمَرَّ على هذِه العبادة المخْلصة في السَّراء والضَراءِ والشِّدةِ والرَّخاءِ؛ مكَّنَ الله له في الأرض.

إذَنْ فالتمكينُ في الأرضَ يستلزمُ وصفاً سابقاً عليه وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعد التمكين والإخلاص يَكُونُ:

الوصفُ الثاني: وهو إقامةُ الصلاةِ: بأن يؤدِّيَ الصلاة على الوجهِ المطلوب منه، قائماً بشروطِها وأركانها وواجباتِها، وتمامُ ذلك القيامُ بمُسْتَحَبَّاتِها، فيحسنُ الطُّهورَ، ويقيمُ الركوعَ والسجودَ والقيامَ والقعودَ، ويحافَظُ على الوقتِ وعلى الجمعةِ والجماعاتِ، ويحافظُ على الخشوعِ وهو حضورُ القلبِ وسكونُ الجوارح، فإنَّ الخشوعَ رُوحُ الصلاةِ ولُبُّها، والصلاةُ بدونِ خشوعٍ كالجسمِ بدون روحٍ، وعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا، رواه أبو داود وأحمد.

الوصفُ الثالث: إيتاءُ الزكاةِ:{...وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ[٤٣]}[سورة البقرة]. بأن يعْطوُهَا إلى مستحقِّيها طِّيبةً بها نفوسُهم، كاملةً بدونِ نقصٍ يبتغُون بذلك فضلاً من الله ورضواناً، فيُزكُّون بذلك أنفسَهُم، ويطهِّرون أموالَهم، وينفعونَ إخوانهم من الفقراءِ والمساكينِ وغيرهم من ذوي الحاجات.

الوصفُ الرابعُ: الأمر بالمعروفِ: {وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ} والمعروفُ: كلُّ ما أمرَ اللهُ به ورسولُه من واجباتٍ ومستحبات، يأمرون بذلك إحياءً لشريعةِ اللهِ، وإصلاحاً لعباده، واستجلاباً لرحمتِهِ ورضوانِهِ، فالمؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُ بعضُه بعضاً، فكما أنَّ المؤمنَ يحبُّ لنفسهِ أَنْ يكونَ قائماً بطاعَةِ ربِّه، فكذلك يجبُ أن يحبَّ لإخوانه من القيام بطاعةَ الله ما يحبُّ لنفسه.

والأمرُ بالمعروفِ عن إيمانٍ وتصديقٍ يستلزمُ أن يكونَ الآمر قائماً بما يأمرُ به؛ لأنه يأمرُ به عن إيمانٍ واقتناعٍ بفائدتِهِ وثمراتِهِ العاجلة والآجلةِ.

الوصفُ الخامسُ: النَّهيُ عن المنكرِ: {وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} والمُنْكَرُ: كلُّ ما نهى اللهُ عنه ورسولُه من كبائر الذنوبِ وصغائِرِها، مما يتعلقُ بالعبادةِ، أو الأخلاقِ، أو المعاملةِ؛ ينْهونَ عن ذلك كلِّه صِيانةً لدينِ اللهِ، وحمايةً لِعباده، واتقاءً لأسْبابِ الفسادِ والعقوبةِ.

فالأمرُ بالمعروفِ والنَهْيُ عن المنكر دعَامَتَانِ قَوِيَّتانِ لبقاءِ الأمَّةِ وعزتِها ووحْدَتِها حتى لا تتفرَّق بها الأهواءُ، وتَشَتَّتَ بها المسالكُ؛ ولذلك كانَ الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر من فرائِضِ الدين على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ مع القدرةِ: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[١٠٤]وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٠٥]}[سورة آل عمران].

فَلَوْلا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر لتَفَرَّق الناسُ شِيعاً، وتمزَّقوا كل ممزَّق كلُّ حزبٍ بما لَديْهِمْ فرحون.

وبه فُضِّلت هذه الأمةُ على غيرها: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ[١١٠]}[سورة آل عمران].

وبتَركه: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[٧٨]كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[٧٩]}[سورة المائدة].

فهذه الأوصافُ الخمسةُ متى تحقَّقتْ مع القيامِ بما أرشدَ الله إليه من الْحزمِ، والعزيمَةِ، وإعْدادِ القُوَّةِ الحسيَّة؛ حصل النصرُ بإذنِ الله: {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٦]يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[٧]}[سورة الروم].فيَحْصَلُ للأمَّةِ من نصْر الله ما لَمْ يخْطُرْ لهم على بالٍ.

وإن المؤمنَ الواثقَ بوعدِ الله ليَعْلَمُ أنَّ الأسباب المادِّيَةَ مَهْما قويَتْ فليستْ بشيء بالنسبةِ إلى قُوةِ الله الذي خلقها وأوْجَدَها:

افْتَخَرَتْ عادٌ بقوَّتِها وقالُوا منْ أشدُّ منا قوةً، فقال الله تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يَجْحَدُونَ[١٥]فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ[١٦]}[سورة فصلت].

وافْتَخر فرعونُ بمُلكِ مصْرَ وأنْهاره التي تْجري مِنْ تحته فأغرقه الله بالماءِ الَّذِي كان يفتَخـر بمثْلِـهِ، وأوْرث مُلْكهُ مُوسى وقومَه، وهو الَّذِي في نظر فرعونَ مَهِيْن ولاَ يكادُ يُبين.

وافتَخرت قريشٌ بعظَمتها وَجَبروتِها، فخرجوا من دِيَارِهم برؤسائِهم وزعمائِهم بطراً ورئـاءَ النـاس يقولون:'لا نَرْجعُ حتى نقدمَ بَدْراً، فننحرَ فيها الجزور، ونَسْقِيَ الخمورَ، وتعزفَ الْقِيانُ، وتسمعَ بنـا العربُ فلا يزالُون يهابوننَا أبداً'. فَهُزِمُوا على يد النبيِّ صلى الله عليه وسلّم وأصحابه شـرَّ هزيمـةٍ، وسُحبت جثثُهم جيفاً في قليبِ بدرٍ، وصاروا حديثَ الناس في الذُّلِّ والهوانِ إلى يوم القيامةِ.

ونحنُ المسَلمين في هذا العصرِ لو أخَذْنَا بأسباب النصرِ، وقُمْنَا بواجبِ ديننا، وكنَّا قدوةً لا مُقْتَـدين، ومتبوعِين لا أتباعاً لِغَيرنا، وأخَذْنَا بوسائِلِ الحرب الْعَصْرِيَّةِ بصدقٍ وإخلاصٍ؛ لنصَرنَا الله على أعدائنا كما نصر أسلافَنا. صدقَ الله وعْدَه، ونصر عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحْدَه. {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَـتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[٢٣]}[سورة الفتح].

اللَّهُمَّ هيىء لنا منْ أسبابِ النصرِ ما به نَصْرُنَا وعزتُنا وكرامتُنـا، ورفعـةُ الإسـلام، وذُل الكفـرِ والعصيانِ؛ إنك جوادٌ كريمٌ، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ، وعلى آلِهِ، وصحبِه أجْمَعين.

من كتاب:'مجالس شهر رمضان' للشيخ/ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

أسباب النصر وأسباب الهزيمة من خلال سورة الأنفال

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ؟[آل عمران : ١٠٢] ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّـذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا؟ [النساء : ١] والصلاة والسلام على سـيدنا محمـد أشرف الأنبياء والمرسلين ، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فجزاه الله خير ما جـازى نبياً عن أمته . وبعد :

لا تنتصر الأمة ولا تزدهر إلا إذا وقع تغيير جذري في كيانها ونفوس أفرادها. ولا تنهزم أمة أو تزول إلا حين تتحول نفسياتها واهتماماتها فتنحدر من الأعلى إلى الأدنى فهذه سنة الله عز وحل في عبـاده ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ومن يتتبع سنة الله عز وجل في خلقه سيجد النتيجة واضحة ساطعة مطردة ولقد بينت لنـــا ســـورة الأنفال نموذجاً من هذه السنة لفريقين: فريق مؤمن منتصر وفريق كافر منهزم، فما هي أسباب النصر وما هي أسباب الهزيمة. فريق الكافرين المشركين الذين أذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخـــرة عند ربهم أشد وأنكى ، ذكر الله هؤلاء الكفرة وبين حالتهم وهم يودعون الحياة شر وداع، تتنـــاولهم ملائكة الموت باللطمات والصفعات وهم يواجهون جزاءهم قال تعالى: ؟ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّـــذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ؟[الأنفال:٥٠-٥١]. تعالوا أيها الأخوة لنرى ماذا فعل هؤلاء في حيـــاتهم ومـــاذا قدموا ، لقد مكثوا أمداً بعيداً وطويلاً يكرهون الحق ويؤثرون الكبر والعناد ، يعيشون لأنفسهم، فما يرجون لله وقاراً، ولا يتخذون عنده مآباً. كانوا في رخاء من العيش لا تشوبه أزمـــة، وفي أمـــان لا يعكره قلق فما شكروا من هذه النعم قليلاً ولا كثيراً.

جاءهم رسول منهم أرجح الناس عقلاً وأشرفهم نسباً وأصدقهم لهجة وأبرهم رحماً لا ترقى إلى سيرته تهمة، لقبوه هم بالصادق الأمين ثم قاوموه وطاردوه في صلف وكبر غريب.والإنســـان الســـوي إذا اشتبهت عليه الأمور طلب من الله أن يهديه إلى الصواب، أما هؤلاء فقد أبغضوا الحـــق، وكرهـــوا النزول على حكمه وقالوا مكابرين رب السماوات والأرضين: ؟... اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ؟[الأنفال:٣٢].

وقد لقي دعاءهم بعض الإجابة، فلما التقوا المسلمين في بدر حل بهم الخزي الرهيب، وتبخر السراب الذي كانوا يعيشون في خداعه فسقطوا بين قتيل وأسير.

لقد قاوم المشركون النور والهداية التي امتن الله بها على عباده، قاوموه بكل ما لديهم من جـــبروت، واستماتوا لكي يبقى ليل الوثنية مخيماً على جزيرة العرب، وتبقى الخرافات تسرح وتمرح في المشارق والمغارب، الشيطان سول لهم وأملى لهم ، إذ ركبوا رؤوسهم حتى آخر لحظة ، لقد كانت الفرصـــة أمامهم متاحة ليُسلموا ويَسلموا ولكن الكفر والعناد والغطرسة والكبر الذي ملأ نفوسهم حال بينهم وبين السعادة، أنظروا إلى موقف أبي جهل ذاك الطاغية المعاند المكابر ، لقد كان بإمكانـــه أن يعـــود بقومه من أرض بدر، ما دامت القافلة التي خرجوا لإنقاذها قد نجت، غير أن مشاعر الكبرياء والغرور هاجت في دمه وعروقه، فقال: لا نعود حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمور، وتغني لنا القيان ويسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، لقد كان حريصاً على إذلال الإسلام وأهله في مهجرهم الجديد. إن هذا القصد هو الذي ذبحه ، وقاد قومه إلى المأساة وإلى الخزي والبوار، هذه الأخلاقيات والمسالك إذا بثتها أمة يهلكها الله عز وجل ويدمرها ولهذا فإن الله عز وجل يحذر المـــؤمنين مـــن أن يســـلكوا مسالكهم ، قال تعالى: ؟وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ؟[الأنفال:٤٧].

ولنترك فريق الكافرين وما آل إليه حالهم من العذاب والنكال. ونلق نظرة أخرى على الفريق المؤمن ، لننظر كيف كان يفعل وما هي الأسباب التي أخذ بها فجاء الخير والعزة والسعادة والنصر والتمكين.
لقد عاش المؤمنون بقيادة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل الهجرة وبعدها يؤمنون بربهم وحده لا شريك له ، يحترمون دينهم، ويقدمون مطالبه على رغبات نفوسهم، يحملون في الحياة رسالتهم العالمية ويرفعون راية التوحيد في ثبات ويقين دون شك ولا وجل، ولقد كان خصوم الإسلام يستكثرون على المؤمنين حق الحياة كما يريدون ، بل كانوا يروعونهم في الحرم الآمن، ويرغمونهم على التروح هنا وهناك. لكن الله جل جلاله اطلع على قلوبهم فعلم صدقهم فكافأهم مكافأة سخية كريمة لم تخطر لهم على بال حيث كتب الله لهم النصر والتمكين والسيادة، قال الله عز وجل ممتناً على المؤمنين بالنصر والظفر والعزة والتمكين الذي نالوه على الرغم من قلة عددهم وعدقم وكثرة أعدائهم : ؟وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟[الأنفال:٢٦].
نعم على المؤمنين أن يدركوا دائماً وأبداً أنهم ليسوا وحدهم في المعركة التي يواجهون بها أعداء الله، إن الله معهم جلت قدرته، يرعاهم ويؤويهم وينصرهم ويرزقهم، فلا خوف إذاً ولا قلق ، فسنة الله تعالى مع أوليائه أنه معهم يتولاهم بنصره وتأييده في كل زمان ومكان ففي معركة بدر كانت عوامل النصر الظاهرية والدلائل الواقعية في صف المشركين، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف المؤمنين حتى قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ؟... غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ ...؟ [الأنفال:٤٩]، لأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة، فهم يرون ظواهر الأمور المادية ولا يرون إلى مواطنها، لأنهم لم يؤمنوا بالله أو يستشعروا عظمته وقدرته جل وعلا. فهم لذلك يظنون المسلمين مخدوعين في موقفهم، مغرورين بدينهم واقعين في الهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين الذين يرونها.
إن المؤمنين بالله عز وجل حق الإيمان يأخذون بالأسباب ويستعدون ولكنهم يوقنون مع ذلك بأن الأمر كله لله وأن نواصي الخلق بيده فهم يتوكلون عليه ويفوضون الأمر إليه: ؟... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ؟[الأنفال:٤٩].
وما أشبه الليلة بالبارحة ، لقد تجمع الكفر والوثنية لمواجهة الرسول والمؤمنين ، فكانت المعركة بين القلة المؤمنة والكثرة الكافرة، ووقف المنافقون والذين في قلوبهم مرض يتفرجون على المعركة مؤيدين للكافرين ساخرين من المؤمنين واليوم تتكالب قوى الكفر والإلحاد العالمي بقيادة اليهود وأمريكا لتدمير الإسلام والمسلمين ويقف معها المنافقون والذين في قلوبهم مرض وجهاً لوجه في مواجهة القلة المؤمنة التي تكفر بالطاغوت وتؤمن بالله وتستعصي على الواقع وتواجه كل القوى الكافرة الملحدة معتصمة بالله متوكلة عليه وحده سبحانه وتعالى.

إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يعرفون لهذا الموقف الإيماني الثابت الشامخ الذي يقفه المؤمنون مبرراً لهذا التهور ـــ كما يسمونه ـــ وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة من يستطيع أن يواجه أمريكا وإسرائيل؟ إنهم يحسبون الحياة كلها ـــ بما فيها الإيمان والعقيدة والدين ـــ صفقة في سوق التجارة، إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها، فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى، إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ولا يزنون الأشياء بميزان الإيمان، إن هذه المعركة التي يخوضها المؤمن صفقة رابحة دائماً في حسه وميزانه، فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين: النصر والغلبة ، أو الشهادة والجنة.

ثم إن حساب القوى لدى المؤمنين يختلف عن حسابات الكافرين والمنافقين ، فهناك الله القادر المنتقم الجبار القوي العزيز .. وهذا مالا يدخل في حساب المنافقين والذين أشركوا ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم. لا تغالب قوته ولا يهزم جنده ؟ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ؟[الصفات:١٧١-١٧٣].

فتن وأهواء تعصف بالناس، وحروب ومحن واختلاف وأمراض وزلازل تهز أرضنا هذه هزاً. وكأنني بهذه الأمور والحوادث تقول للناس لا مقام لكم في هذه الدار وليست إقامتكم بها إلا يسيراً، فاستعدوا للرحيل .. ولهذا فإن الله عز وجل يدعونا إلى المسارعة والمبادرة في فعل الخير واغتنام الوقت في الإكثار من عمل الصالحات كما قال سبحانه: ؟... فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ...؟[البقرة:١٤٨] ، وقال: ؟ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ؟[آل عمران:١٣٣] ، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حاثاً أمته على المسارعة والمبادرة في فعل الخير والعمل الصالح : "بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا".

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر".

بادروا أيها الناس وسارعوا إلى عمل الخير والإكثار من الصالحات ، تزودوا لآخرتكم قبل أن تنزل بكم واحدة من هذه السبع.

ماذا تنتظرون وماذا تأملون، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ينسيكم كل شيء ولا تفكرون سوى في الغلاء والجرعات وزيادات الأسعار وقلة الأعمال وكساد التجارات وانهيار العملة. لقد تعلق الناس في بلادنا بالنفط وعولوا عليه كثيراً وظنوا أنه سيغنيهم ويسد حاجتهم، نسوا الله فنسيهم، فما ازدادوا بظهور النفط إلا فقراً وحاجة ، ألا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له.

ماذا تنتظرون أيها الناس؟ هل تنتظرون غنى مطغياً، يطغي وينسي وتدلفون منه إلى البطر والترف وتشتغلون بجمع المال وتكثيره وتنسون الله والدار الآخرة ، وتبخلون وتمنعون حق الله في أموالكم.

ماذا تنتظرون؟ مرضاً مفسداً يعطل حركتكم ويشل قواكم فلا تستطيعون فعل شيء من أعمال الخير التي تحتاج إلى صحة ونشاط وإلى سعي وحركة وجهاد.

هل تنتظرون أن يطول بكم العمر حتى يسلمكم إلى التخريف والفند أو هرماً مفنداً، ينتكس الإنسان فيه ويعود كالطفل الذي لا يعقل ولا يدرك، لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً.

ماذا ننتظر من دنيانا هذه التي نرى الموت فيها زائراً لنا يحصد فيه الناس حصداً وهم لا يرغبون في ذلك وهم كارهون أو موتاً مجهزاً ، أي سريعاً وبدون استئذان أو مقدمات.

فحتى متى وإلى متى نتوانى وأظن هذا كله نسيانا

والموت يطلبنا حثيثاً مسرعا إن لم يزرنا بكرة مسانا

إنا لنوعظ بكرة وعشية وكأنما يعني بذاك سوانا

غلب اليقين على التشكك في الردى حتى كأني قد أراه عيانا

يا من يصير غداً إلى دار البلى ويفارق الإخوان والخلانا

إن الأماكن في المعاد عزيزة فاختر لنفسك إن عقلت مكانا

ماذا ننتظر ، هل ننتظر الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر.

يا أيها الناس تنبهوا من غفلتكم واعملوا لآخرتكم وتزودوا بالتقوى والعمل الصالح فإن خير الزاد التقوى.

راجعه/ عبد الحميد أحمد مرشد.

ـــ صحيح مسلم. ج١كتاب الإيمان. باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن. الحديث رقم: ١١٨

ـــ سنن الترمذي ٤/ ٥٥٢، حديث رقم: ٢٣٠٦، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب ، وضعفه الألباني.

أسباب النصر وأصول التمكين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فلم يعد خافيًا على أحدٍ من الناس اليوم ما يعيشه المسلمون من ذلةٍ ومهانة، وما يحيط بهم من ظروف صعبة، وأحوال مريرة، تتمثل في كيد الأعداء وتسلطهم على بلاد المسلمين، كما تتمثل في أحوال المسلمين أنفسهم، وما طرأ على كثير من مجتمعاتهم من بُعْدٍ عن تعاليم الإسلام، وإقصاء لشريعة الله سبحانه، ورفض الحكم بها والتحاكم إليها.

إنَّ الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون اليوم لا يستغرب من قبل العالمين بسنن الله عز وجل في التغيير، حيث إنَّ هذا الواقع هو النتيجة الطبيعية للبعد عن دين الله عز وجل، وعدم الاستسلام لشـرعه. ولا ننتظر في ضوء السنن الربانية غير هذا، والله عز وجل يقول: ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)) (الرعد:١١) ويقول سبحانه : ((إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم)) (محمد: ٧) .

أما الذين يجهلون سنن الله عز وجل أو يغفلون عنها، وينسونها، فهم الـذين يسـتغربون مـا يحـل بالمسلمين اليوم من محنٍ وويلات، وهم الذين يتساءلون أنى هذا؟ وكيف يحصل هذا ونحن أصـحاب الدين الحق؟ فيجيبهم الله عز وجل بما أجاب به من سأل من أصحاب محمد – صلى الله عليه وسـلم – مثل هذا السؤال، فقال سبحانه وتعالى: ((أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)) (آل عمران: ١٦٥) .

ونتيجة لنسيان هذه السنة الربانية أو الغفلة عنها، يقع الانحراف في المواقف المختلفة إزاء هذه الأحوال المريرة، التي يمر بها المسلمون ما بين يائسٍ من التغيير قد أصابه الإحباط، وألقى بيده ينتظرُ المهـدي أو المسيح عليه السلام لإنقاذ الأمة والتمكين لها في الأرض، أو مستعجلاً قد نفد صبره مما يرى من الكفر والنفاق، فقرر الجهاد والمواجهة مع أعداء الدين غير ملتفت للقواعد الشـرعية وأصـول الـتمكين، وأسباب النصر، فنجم عن ذلك من المفاسد ما الله به عليم، وآخر رأى مهادنة الأعداء والرضى منهم بأنصاف الحلول، والدخول معهم في مفاوضات ومقايضات، لم تثمـر إلاَّ مزيـدًا مـن الـتمكين للمفسدين، والإقرار لهم بالشرعية والوجود.

أما الذين فقهوا سنن الله عز وجل في النصر والتمكين والتغيير، وأخلصوا دينهم لله تعالى، فقد هداهم ربهم سبحانه لما اختلف فيه من الحق، ورأوا أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها، وذلك بما كان عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام عليهم رضوان الله تعالى.

وباستقراء المنهج النبوي في الإصلاح والتغيير يظهر لنا أنه قائم على الأصول التالية :

الأصل الأول: البصيرة في الدين وصحة الفهم والعمل.

قال الله عز وجل: ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)) (يوسف: ١٠٨) .

ويعنى بهذا الأصل : أن تقوم الدعوة وينطلق التغيير من فهمٍ صحيح، وعقيدة صافية، وبصيرة واضحة في الدين، كما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله – صلى الله عليـه وسـلم –، وفهـم الصحابة– رضي الله عنهم–، لأنَّ أي دعوة تعارض هذا الفهم أو تزيد عليه أو تـنقص، فإنهـا قـد فرطت في هذا الأصل العظيم من أصول التمكين والنصر.

ويلحق بالفهم الصحيح ما يجب أن يكون عليه أصحاب الدعوة من عمل صحيح، موافق لمـا كـان عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وذلك في عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم.

وهذا هو ما أراده الرسول – صلى الله عليه وسلم – عندما وصف الفرقة الناجية المنصورة بقولـــه – صلى الله عليه وسلم – : ((ما أنا عليه وأصحابي)) [١] .

وإنَّ الجهد في إخضاع أفراد الدعوة وعامة الناس للفهم الصحيح والعمل الموافق يحتاج إلى صبر وعناء، وتضافر في الجهود، واتخاذ الأسباب المباحة المتاحة في تبليغ هذا الفهم الصحيح للأمة، ببرامج علميـــة وعملية، حتى تستقيم الأفهام في العقيدة والأحكام والتصورات على هذا المنهج النبوي الكريم، وممـــا يلحق بالفهم فهم الواقع الذي يتحرك فيه الدعاة، وطبيعته والبصيرة بأحوال الناس، واستبانة ســـبيل المجرمين، والوعي بكيدهم ومخططاتهم وإمكاناتهم.

الأصل الثاني: حسن القصد:

ويعنى بهذا الأصل إخلاص المقاصد لله عز وجل، وصدق النية في الدعوة والتغيير، بأن يكون القصـــد من ذلك التعبد لله عز وجل وابتغاء وجهه ورضاه وجنته، وإنقاذ الناس بإذن ربهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة.

وهذا بدوره ينفي كل مقصد دنيوي سواءً كان رياءً أو إرادة جاهٍ أو مالٍ أو منصبٍ أو شهرة.. إلخ، لأنَّ وجود مثل هذه المقاصد في الدعوة يفسدها ولا يكون القصد فيها حسنًا، وبالتالي لا يبـــارك الله فيها ولا ينصر أهلها، ولا يمكِّن لهم في الأرض ولو كانوا على فهمٍ صحيح؛ لأنَّهم فرطـــوا في أصـــلٍ عظيم من أصول التمكين، ألا وهو إرادة الله عز وجل والآخرة ليس إلا. ولا شك أنَّ تحقيـــق هـــذا الأصل العظيم في نفوس الدعاة يحتاج إلى جهدٍ ومجاهدة، ومناصحة وتربية علمية وعملية، يعتني فيهـــا بالقلوب وأعمالها، وتُقوَّى فيها الصلة بالله عز وجل والتحلي بالأخلاق المحمودة الباطنة والظـــاهرة، والتي على رأسها الإخلاص لله عز وجل.

الأصل الثالث : وحدة الصف:

وهذا الأصل ثمرة للأصل السابق، حيثُ إنَّ تجرد المقاصد لله عز وجل ينفي الهوى وحظوظ الـــنفس، والتي هي من أكبر أسباب الفرقة والبغضاء، لأنَّه لا يمكن لأصحاب الفهم الصحيح الواحد أن يتفرقوا إلاَّ إذا كان القصد غير حسن. وأصحاب القصد الحسن لا يفارقون غيرهم، إلاَّ إذا كانوا على فهـــمٍ منحرفٍ غير صحيح كأصحاب الفرق وأهل البدع.

وكون الاجتماع ووحدة الصف أصلٌ من أصول التمكين، لا يجادل في هذا أحد، كيـــف والله عـــز وجل يقول : ((وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـــابِرِينَ)) (الأنفـــال: ٤٦).

ولا شك أنَّ نبذ الفرقة، واجتماع القلوب، ووحدة الصف بين أهل السنة، أصحاب الفهم الصـــحيح يحتاج إلى القد وات وإلى الصبر والجهد الجهيد، والتجرد لله عز وجل، وترك حظوظ النفوس.

وتقع المسئولية في ذلك على العلماء والموجهين والمربين كل في مجالـــه، ويكـــون ذلـــك بالتواصـــي والمناصحة، وإظهار الود وحقوق الأخوة بين الدعاة، وإن لم يجد بعضنا مجالاً لهُ في جمع الكلمة، فليتق الله ولا يفرق، فإنها صدقة منه على نفسه وكف شر عن إخوانه، وهو بذلك يساهم في جمع الكلمـــة وتوحيد الصف، وإن مما يحفز الهمم على تحقيق هذا الأصل العظيم، اليقين بأنَّ نصر الله عز وجـــل لا يترل على أمةٍ متفرقةٍ متباغضة.

وقد يجد أصحاب الدعوة الحريصون على جمع الكلمة أنفسهم أمام أناسٍ غير حريصين على وحـــدة الصف، فحينئذ حسبهم أن يعلم الله عز وجل صدقهم وإخلاصهم، فيوفقهم ويعينهم وينصرهم.

الأصل الرابع: التمحيص والتميز:

قال الله عز وجل: ((وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)) . (آل عمران:١٤١).

وقال سبحانه : ((مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)) (آل عمران: ١٧٩) .

وإنَّ المتأمل في منهج الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وبخاصة في سيرة الرسول – صـــلى الله عليـــه وسلم – وأتباعه المؤمنين، ليرى هذه السنة الربانية واضحة وضوح الشمس، وذلك بما تعـــرض لـــه المسلمون من الابتلاء والتمحيص في مكة والهجرة، والجهاد في سبيل الله عز وجل، وأنهم لم يمكنوا إلاَّ بعد أن ابتلوا ومحصوا.

والابتلاء الذي يتعرض له أصحاب الدعوة نوعان :

أـــ ابتلاء عقوبة وتكفير وتنبيه :

وذلك عندما يحصلُ الخلل في واحدٍ من الأصول الثلاثة السابقة أو أكثر. فعندما يحصل الخلل في الفهم والمعتقد، أو في النية والمقصد، أو في وحدة الصف وتآلف القلوب، فإنَّ الله عز وجل قد يبتلي عبـــاده هؤلاء ببعض العقوبات والابتلاءات لعلهم يرجعون ويراجعون أنفسهم، ويكفِّر الله عز وجل عنـــهم بهذه العقوبات سيئاتهم.

ب ـــ ابتلاء تمحيص وتمييز للصفوف :

وهذا النوع من الابتلاء هو الذي نقصده في هذا الأصل، وهو الذي يتعرض لـــه أصـــحاب الفهـــم الصحيح، والقصد الحسن والصف الموحد، والحكمة منه تمحيص القلوب، وتمييز الصفوف ممـــا قـــد يكون فيها من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة، والذين يكون ضررهم شديدًا على الدعوة فيما لو بقوا مندسين في الصفوف ولم يعرف شأنهم، فيقدر الله عز وجل مثل هذا النوع من الابتلاءات ليتميز المؤمن الصادق من غيره، ويزيد الله عز وجل به المؤمنين إيمانًا وثباتًا وصلابة في إيمانهم، قال الله عـــز وجل عن المؤمنين في غزوة الأحزاب عندما رأوا الشدائد والأهوال : ((وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً)) (الأحزاب:٢٢).

وقال عن المنافقين الذين نجم نفاقهم عند الابتلاء : ((وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)) (الأحزاب:١٢)

فما زادت الشدائد المؤمنين إلاَّ إيمانًا وتسليمًا، وما زادت المنافقين إلاَّ مرضًا، وأخرج الله بها ما في قلوبهم من النفاق والكذب والذي ما كان ليعرف في حال السلم والأمان.

وإنَّ فترات التمحيص والابتلاءات لمن أشدِّ فترات الدعوة على أهلها، فهي تحتاج إلى جهدٍ عظيم من التعليم والتربية والعبادة، والتواصي على الحق والتواصي بالصبر والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ومن علم الله عز وجل صحة فهمه وحسن قصده، وعمله الصالح وحرصه على الوحدة والاجتماع، فإنَّهُ سبحانه يثبته ويخرج من الابتلاءات وقد قوي إيمانه، وصلب عوده. وعلى مثل هؤلاء يترل نصر الله تعالى ويقوم عز الإسلام.

وبقيت مسألةٌ مهمةٌ تتعلقُ بالتميز، ألا وهي ضرورة تميز أصحابِ الدعوات الذين يريدون التمكين لدين الله تعالى عمن حولهم، ممن ابتعدوا عن الدين وتعاليمه، وظهور ذلك في تصوراتهم وأفهامهم، وفي عباداتهم وسلوكهم، وفي دعوتهم وصبرهم وتضحيتهم.

وعليهم أن يوصلوا ما يحملونه من علمٍ ودعوةٍ إلى طبقات الناس قدر استطاعتهم، حتى يتم البلاغ وتقوم الحجة، ويُعرف أصحاب الدعوة بين الناس بمنهجهم الواضح وأهدافهم العالية، ومن أهم ما يقومُ به أصحاب الدعوة حتى يحصل التميز القيام فضحهم للباطل وأهله، وتبيين سبيل المجرمين للناس حتى لا تختلط عليهم الأمور ويلتبس الحق بالباطل، وما لم يتم هذا البيان فإنَّ الناس المضللون قد يُستخدمون في مواجهة أصحاب الدعوة لعدم وضوحهم ووضوح دعوتهم في مجتمعات الناس، وذلك بما يستخدمه أعداء الدعوة من تضليل وتلبيس للناس، سواء في تشويه أهل الدعوة وإظهارهم للناس بمظهر المفسدين والمهيجين للفتن، أو بما يضفونه على أنفسهم من أنهم أصحاب الحق وحماته.

فما لم يحصل البلاغ الكافي، والذي يتميز فيه الحق من الباطل، ويزول التلبيس والتضليل، فإنَّ هذا الأصل أعني أصل التميز لم يتحقق بعد، وعلى الدعاة الصبر والتأني، وبذل الأسباب في تحقيقه قدر الاستطاعة، حتى يهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وحتى يعطي الواحد من الناس ولاءه لمن يختاره من أهل الحق أو الباطل عن علم وبينة وطواعية.

الأصل الخامس: اتخاذ الأسباب المادية المتاحة والمباحة في تبليغ الدعوة ومواجهة أعدائها:

والمقصود بهذا الأصل هنا أن لا يتكل أصحاب الدعوة على أنهم مسلمون والله ناصرهم؛ فيفرطون في الأخذ بالأسباب. نعم إنَّ الله عز وجل لو شاء لانتصر من أعدائه بكلمة واحدة، ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن ينتصر دينهُ بجهد البشر، كما قال تعالى : ((ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض)) (محمد : ٤) .

وإذا علم الله سبحانه أنَّ عباده المؤمنين المصلحين قد بذلوا ما في طاقتهم من الأخذ بأسباب النصر وأصوله من الفهم والمعتقد الصحيح والمقاصد الحسنة المتجردة لله تعالى واجتماع القلوب وتميز الصف والصبر على ابتلاءات الطريق، وبذلت الجهود الكبيرة، وأخذ بالأسباب والوسائل المتاحة، والتي توصل إلى تحقيق هذه الأصول. ومن ذلك الجوانب الاقتصادية التي توفر المال للدعوة، لأنها من أهم الأسباب التي يحصل بها قوة الدعوة وانتشارها، واعتماد الدعوة بعد الله تعالى على نفسها. إذا علم الله سبحانه أنَّ أصحاب الدعوة قد بذلوا كل ما في وسعهم و لم يفرطوا في الأخذ بأسباب النصر السابقة، واستعدوا للجهاد في سبيل الله تعالى، وقال قائلهم بعد ذلك : ((أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)) (القمر:١٠). فإنَّ نصر الله عز وجل يترل حين ذاك كما نزل على أنبيائه- عليهم الصلاة والسلام-، وكما نزل على عباده المصلحين المجاهدين في مراحل التاريخ الإسلامي. و لم يكلف أصحاب الدعوة بمعرفة الطريقة التي سيترل بها نصر الله تبارك وتعالى، ولكن حسبهم أن يوقنوا بنصرِ الله عز وجل، وأنَّ لهُ سُبحانه جنود السموات والأرض، وهو على كل شيءٍ قدير، وأنَّه سبحانه لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وهذا يقودنا إلى الأصل السادس.

الأصل السادس: التوكل على الله عز وجل والاستعانة به وحده:

وهذا أصل مهم من أصول النصر والتمكين، وهو في حقيقته داخلٌ في الأصل الأول والثاني، لأنَّ صحةَ الفهم والمعتقد يجعل أصحاب الدعوة فاهمين لحقيقة التوكل، وأنَّهُ يعني تمام الثقة بالله عز وجل والاعتماد عليه مع فعل الأسباب المأمور بها وعدم الاعتماد عليها، لأنَّ خالق الأسباب ومسبباتها هو الله عز وجل، كما أنَّ حسن القصد والإخلاص يجعلهم لا يتعلقون بالأسباب ولا يعجبون بأنفسهم وإيمانهم وكثرة أتباعهم، وإنما يوقنون بأنَّهم ضعفة عاجزون لا حول لهم ولا قوة إذا لم يعنهم الله عز وجل ويقويهم.

وإفراد هذا الأصل هنا في أصلٍ مستقل مع دخوله فيما سبق للتأكيد على أهميته ولوجود من يغفله في كثير من الأحيان، وفي زحمة الأخذ بالأسباب.

وإنَّ الأخذ بهذا الأصل يعني تقوية اللجوءِ إلى الله عز وجل، ودعائه والتضرع بين يديه في استجلاب النصر ودفع الشر، مما يكون لهُ الأثر في إضفاءِ الطمأنينة واليقين والثبات، ومن اليقين والثقة بوعد الله عز وجل اليقين الذي لا يتزعزع بأنَّ لله عز وجل جنود السموات والأرض، وأنَّهُ سبحانه ينصر عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر بجندٍ من جنوده، ويظهر ذلك للعيان ولو كان عباده في قلة من العدد والعتاد، ولو كان أعداؤهم في قوة عظيمة من العدد والسلاح وأدوات الدمار.

إنَّهُ لا يجوز لأصحاب الدعوة أن ينسوا نصر الله عز وجل لأنبيائه- عليهم الصلاة والسلام- بجنوده الذين سخرهم لنصرة عباده الذين بذلوا ما في وسعهم من العبودية له سبحانه، والدعوة إلى دينه، وإبلاغه للناس والصبر على ابتلاءات الطريق، فلقد نُصِرَ نوح – صلى الله عليه وسلم – بالطوفان،

ونصر هود – صلى الله عليه وسلم – بالريح، وصالح – صلى الله عليه وسلم – بالصيحة، ومحمد– عليه الصلاة والسلام– بالرعب والملائكة التي قاتلت معه في بدر وأحد وحنين وغيرها من الغزوات، بل إنَّ الناظرَ في انتصارات المسلمين بعد ذلك وفتوحاتهم ليلحظ أنهم كانوا دائمًا في قلةٍ من العدد والعتاد مقابل أعدائهم من الفرس والروم وغيرهم، ومع ذلك انتصروا بنصر الله عز وجل لهم.

إذن من لوازم التوكل على الله عز وجل اليقين بتدخل قوة الله عز وجل لنصر عباده المؤمنين بآياتٍ ومعجزات، وتثبيت للمؤمنين، وبث للرعب في قلوب أعدائهم وغير ذلك مما يقدره سبحانه في وقته المناسب وفق علمه سبحانه وحكمته.

والناس في نصر الله عز وجل لعباده المؤمنين بالآيات والمعجزات طرفان ووسط.

الطرف الأول :

الذين يرون أنَّ الله عز وجل سينصرُ المسلمين بالآيات والجنود الذين يسخرهم للقضاءِ على أعداء الدين ولو لم يأخذوا بأسباب النصر، أو لم يكملوها، فما داموا مسلمين وأعداؤهم من الكافرين فإنَّ نصر الله عز وجل سيترل عليهم، لأنَّهم مسلمون وكفى وهذا الفريق من الناس يفرطُ في العادة في الأخذ بأسباب النصر، أو يطول الطريق فلا يكملها، وإنما ينتظر خارقةً وآية من الله عز وجل.

ولا يخفي ما في هذا القول من التفريط والغفلة عن سنن الله عز وجل في النصر والتمكين.

الطرف الثاني :

وهو مقابل للطرف الأول، وقد يكون ردةَ فعلٍ له، وذلك بقولهم بأنَّه لكي ينتصر المسلمون على أعدائهم، ويمكن لهم في الأرض، فلا بد أن يكونوا مكافئين لعدوهم في العدد والعتاد، والسلاح والأخذ بالأسباب المادية، ومثل هؤلاء يغلِّبون الأسباب المادية، ويفرطون في الأسباب الشرعية، ولا يلتفتون إلى الآيات والمعجزات والإعانات التي ينصر الله سبحانه بها عباده المحققين لأسباب النصر متى شاء سبحانه، وعلم أنَّ عباده المؤمنين قد استفرغوا ما في جهدهم من الأخذ بأصول النصر وأسبابه. ومعلومٌ أنَّ المسلمين في كل وقتٍ وبخاصة في هذا الوقت لم يصلوا ولن يصلوا و لم يكلفهم الله سبحانه بأن يصلوا إلى مستوى أعدائهم في القوة والصناعة والسلاح، لأنَّهُ ليس شرطًا في نزول النصر، ولا يخفى ما في هذا القول من تطرفٍ وغفلةٍ عن أسباب النصر الشرعية، ونسيان لقوة الله تعالى، والذي لا يقف أمامها أي قوة في الأرض ولا في السماء، والتي ينصرُ بها عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر واستحقوا أن يسخر لهم جنود السموات والأرض.

الوسط :

وهو الحق إن شاء الله تعالى، وهُم الذين بذلوا كل ما في وسعهم في الأخذ بأسباب النصر السالفة الذكر، حيث بذلوا ما في وسعهم في الأخذ بالعلم النافع والعمل الصالح، وربُّوا أنفسهم على ذلك وبلغوهُ للأمة قدر استطاعتهم، حتى عرفتهم الأمة وما هم عليه من الحق، وعرفت أعداءهم وما هم

عليه من كفرٍ وفساد، وأخذوا بالأسباب المادية المباحة والمتاحة لهم، ومع أخذهم بهذه الأسباب، فلم يعتمدوا عليها بل اعتمدوا على مسبب الأسباب، ومن بيده ملكوت السموات والأرض، وانتظروا نصره المبين الذي وعد به عباده المؤمنين، الذين أخذوا بأسباب النصر وبذلوا ما في وسعهم في ذلك، وانتظروا تأويل قوله سبحانه : ((إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)) (محمد: ٧).

و لم ينسوا قوله تعالى : ((وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)) (الفتح:٧).

وقوله تعالى : ((وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)) (المدثر: ٣١).

بل هم موقنون بتدخل قوة الله عز وجل وظهور الآيات بعد أن يبذلوا وسعهم في الأخذ بالأسباب، وإعداد العدة للجهاد، و لم يرهبهم حينئذ قوة أعدائهم من الكفرة والمنافقين مهما بلغت في القوة والدمار، لأنَّ قوة الله عز وجل فوق قوتهم ونواصيهم بيده سبحانه، ولو يشاء الله تعالى دمرها عليهم وأبطل مفعولها. ولكن هذا لا يكون إلاَّ لمن حقق أسباب النصر والتمكين.

أسأل الله عز وجل أن يشرفنا بنصرة دينه، وإعلاءِ كلمته وأن يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا.

والحمد لله رب العالمين

---

[١] رواه الترمذي : كتاب الإيمان باب (١٨) ما جاء في افتراق هذه الأمة ٥ / ٢٦ (رقم : ٢٦٤١) .

أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي

رئيسي :أحوال العالم الإسلامي :الأحد ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ١٦ مايو٢٠٠٤ م

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله وخيرته من خلقه، وعلى من سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد،،،

فإن أسباب الانتصار والهزيمة في التاريخ الإسلامي موضوع مهم ينبغي أن يعرفه المسلمون عموماً، والدعاة إلى الله خصوصاً، ينبغي أن يبحثوه ويتأملوه ليعرفوا أسباب النصر، فيعملوها، وينشروها، ويعرفوا أسباب الخذلان والهزيمة، فيجتنبوها، ويحاربوها، ويبعدوها.

ومن المعلوم عند كل مسلم أن الله وعدنا أن ينصر هذا الدين وأن يمكن لعباده المؤمنين، قال سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ[٥١]}[سورة غافر] . وقال سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...[٥٥]}[سورة النور].

إذن: هذا وعد صادق لابد أن يتحقق.. وقد تحقق في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم في عهد خلفائه، ومرت السنون والقوة الإسلامية والتمكين لها في الأرض بين مد وجزر، فبعد القرون المفضلة أصبح التاريخ الإسلامي يمر بفترات هزيمة وبفترات انتصار، ولكن النصر كلمة واسعة عامة شاملة تشمل:

انتصار الداعية: حتى ولو قتل، فهناك من الدعاة من قتل، ومن عذب، ومن شرّد، ولكنه في النهاية نصره الله- أي نصر المنهج الذي عاش من أجله، حتى ولو قتل ذلك الداعية- وأقرب مثال لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي مات سجيناً، ثم إنه بعد عدة قرون ييسر الله من يقوم بنفس المباديء التي دعا إليها شيخ الإسلام، وهو الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ويرفع لوائها، وينشرها في هذه الأرض، فليس النصر بالمعنى العام هو الظهور في الأرض فقط، إنما حديثنا يتركز حول الظهور على العدو والتمكين في الأرض .

الأمة الإسلامية اليوم تواجه واقعاً مأساوياً، نستطيع أن نلخصه في ثلاث نقاط:

١- هزيمة نفسية تنتاب كثيراً من أفراد الأمة: ومع الأسف حتى على مستويات كبيرة حتى وجد من ينادي بالانخراط في منظومة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد لنكون عجلة من عجلات هذا النظام، ويقوده ذلك الرجل الغربي الكافر .

٢- تبعية في مجالات كثيرة: ومن أهمها التبعية الثقافية والفكرية، والاقتصادية، وتبعيات كثيرة .

٣- الأمر الثالث الذي يتضح فيه واقع الأمة: الضعف والذلة والتفرق: فأصبحت الأمة المسلمة رغم كثرتها وامتداد ساحتها ورقعتها أصبحت أضعف الأمم، وأقل الأمم شأناً في هذا العصر، بينما الأمم الأخرى لا يمكن أن يحصل شيء في هذه الأرض إلا بعد أن يؤخذ رأيهم حتى البوذيين في الصين يؤخذ رأيهم، وأما الأمة المسلمة فإنه لا يؤخذ رأيها حتى في قضاياها هي ! وصدق فيها قول الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

إذن: لابد لهذه الأمة أن تعرف أسباب النصر والهزيمة، وأن تتلمس واقعها هذا، والأمور التي أدت إلى نزولها إلى هذا الحضيض، وأن تحاول أن تنتشل نفسها، وأن تخرج إلى ما أراد الله لها من قيادة هذه الدنيا، ومن سيادة العالم .فنحاول أن نلخص أسباب النصر والهزيمة بدون استطراد وتوسع وإلا فهي تحتاج إلى مجلدات.

أسباب النصر والهزيمة:

أولاً: من أسباب النصر:

لعل أهم سبب من أسباب النصر لهذه الأمة هو:

١- الإيمان الصادق والعمل الصالح: يقول الله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فإذن لابد من إيمان صادق وعمل صالح : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} وهنا شرط مهم : {...يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...[٥٥]}[سورة النور]. ثم قال في الآية التي بعدها مباشرة:{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[٥٦]}[سورة النور]. فإذن: لابد من إيمان صادق، ومن عمل صالح.

ومن أهم ما يتمثل فيه هذا الإيمان:

أ- عبادة الله سبحانه وتعالى عبادة خالصة ليس فيها شرك .

ب- وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما أمر به، وفي كل ما نهى عنه، فما أمر به يفعل، وما نهى عنه يجتنب .

ج- التوكل على الله وحده، والاعتماد عليه سبحانه، والاستنصار به جل وعلا، ودعاؤه والاستغاثة به: كما كان نبينا يفعل، ومن يقرأ قصة غزوة بدر يجد ذلك واضحاً حيث قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: [اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ] فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ...إلخ الحديث.رواه مسلم.

د- الصبر والثبات: سواء كان ذلك في المعركة، أو قبل المعركة: صبر على الابتلاء، صبر على المحن، فلا يمكن أن يمكن لهذا الدين إلا بعد ابتلاءات ومحن، ثم إذا صُفي ونُقي جاء التمكين، وجاء النصر، فلابد من صبر وثبات كما قال جل وعلا:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...[٤٥]}[سورة الأنفال]. وكما قال سبحانه:{ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[٦٦]}[سورة الأنفال].

هـ- ذكر الله كثيراً ...{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...[٤٥]}[سورة الأنفال] . إذا قارنت هذا الأمر الإلهي الذي طبقه النبي وأصحابه والسلف الصالح من بعدهم، ثم قارنته بهذا العصر الذي نعيشه؛ وجدت أن أهل هذا العصر يدخلون المعركة، وهم يغنون، ويرقصون؛ فتكون النتيجة هزيمة ساحقة، وخيبة ماحقة .

٢- ومن أسباب النصر: وحدة صف الأمة: أما إذا كانت مفرقة ومشتتة، فإن النصر لن يكون حليفها، ولذلك صلاح الدين الأيوبي رحمه الله لما أراد أن يستخلص بيت المقدس من أيدي الصليبيين

أول أمر فعله أن قام بتوحيد أقوى بلدان المسلمين في ذلك الوقت، وهي: مصر والشام، فلما وحدها نهض لقتال الصليبيين، فوحدة الصف المسلم سبب من أسباب النصر والتمكين، وأما إذا كان المسلمون مفرقين فإن النصر منهم بعيد.

٣- كذلك من أسباب النصر: وجود القيادة المؤمنة القوية: فالقيادة العلمية القوية وقيادة الدنيا إذا اجتمعتا تحقق النصر والتمكين، أما إذا وجدت القيادة العلمية، ولكن ليس معها قوة تحميها وتدافع عنها وتجاهد لنشرها فإنها لا تقوى ولا تنتصر.

٤-إعداد العدة والأخذ بالأسباب: قال الله:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...[٦٠]}[سورة الأنفال]. كل شيء تستطيعونه من أسباب القوة، فأعدوه صغيراً كان أو كبيراً ما دمتم تستطيعونه عليكم أن تعدوه.{وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} الخيل تدخل في القوة، فلماذا خصها بالذكر؟ خصها بالذكر لحكمة وهي: أن نعتني بأهم أسباب القوة، فالخيل في عهد النبي هي أهم أسباب القوة، فما دمنا نستطيع أن نوجد أهم أسباب القوة فإن علينا أن نعتني بها، في غزوة بدر لم يكن مع النبي إلا فارس واحد، وقيل: اثنان، وأكثر الأقوال أنهم ثلاثة.ويقول الحافظ ابن حجر: لم يثبت أو لم يصح أنه وجد فارس إلا المقداد وحده . فهذا هو قدر استطاعتهم، وكان مع قريش مائة فارس، والخيل في ذلك الوقت مثل الطائرات في زماننا هذا، فنحن مطالبون بأن نعد ما نستطيع ولسنا مطالبين بأن نعد ما لا نستطيع.

والنبي صلى الله عليه وسلم أعد أسباب القوة، وفعل الأسباب الموجودة في عصره، والتي استطاع أن يفعلها، فلبس الدرع يوم أحد، وحفر الخندق يوم الأحزاب، وأخذ السلاح وأعد الجنود، وأعد القادة ورباهم، وأعد الأموال فكان يعمل بالأسباب الممكنة في عصره. لكن ينبغي أن نعلم أن الاعتماد لا يكون على الأسباب إنما على الله القوي العزيز وحده.

وعلينا أن نعلم حقيقة مهمة وهي: أنه لم يلتق ولم يحصل يوم من الأيام أن كانت قوة المسلمين أقوى من قوة الكافرين، فالكافرون دائماً هم الأكثر، والكافرون دائماً هم الأقوى من ناحية العدة والعتاد، ولكن جانب الإيمان يرجح المسلمين على عدوهم ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا استبطأ النصر من قادته كتب لهم:'إنا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة إنما نقاتلهم بهذا الدين فلعلكم أحدثتم أمراً'. يذكرهم لعلكم أحدثتم شيئاً فراجعوا أنفسكم، هل أخللتم بشيء من أسباب النصر.

- سؤال: هل أمة الإسلام اليوم مطالبة بأن يكون لديها مثل ما لدى اليهود من السلاح؟ ومثل ما لدى اليهود من الخبرات ومثل ما لدى اليهود من التقدم العلمي والتكنولوجي؟

الجواب: لا، الأمة ليست مطالبة بهذا، الأمة مطالبة بأن تكون مؤمنة، وأن يكون صفها موحداً، وأن تكون قيادتها مؤمنة، ثم أن تُعِدَّ ما تستطيع من الأسباب، وتستعين بالله، وتجاهد في سبيله وسَتُنْصَرُ وتُمَكَّنُ.. هذا هو الشيء المطلوب، وهذا هو الذي يريح قلب المؤمن، ويدخل السرور على نفسه،

فإننا لسنا مطالبين بأن نكون أقوى من الكفار، ولا حتى بأن نماثلهم، ولا حتى بأن نكون قربهم، بـــل علينا أن نعد ما نستطيعه، ثم نجاهد، وسينصرنا الله جل وعلا، وأفغانستان عبرة لمن اعتـــبر حيـــث لم يكونوا يحملوا إلا أسلحة قليلة ضعيفة بالنسبة لما كان في أيدي الشيوعيين الروس، ومع ذلك خذل الله الروس على أيدي أولئك الذين يسمون في القاموس الغربي بالبدائيين .

وفعل الأسباب وإعداد العدة ينقسم لأمور كثيرة جداً لعل أهمها:

أ - إعداد الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة: هذه هو أهمها وأولها، فتعد هذه القوة التي هـــي الجنـــدي المؤمن والقيادة المؤمنة بالإيمان والعمل الصالح أولاً، وينقى الصف المؤمن من غير هـــؤلاء، ولـــذلك بمجرد أن تطالع كتب 'الفقه الإسلامي' تجدهم يقولون: وعلى القائد أن يمنع المخذل والمرجف من أن يسير مع الجيش؛ لأن هذا منافق لا يستطيع أن يواجه الكفار إذا حمي الوطيس.

فإذن: لابد من إعداد الجندي المؤمن الذي يذكر الله كثيراً، والذي يحافظ على طاعة ربه، ويجتنب ما نهاه الله عنه، والذي نصب عينيه أن يموت شهيداً ليدخل الجنة بفضل الله. كما قال عمير بن الحمام- لما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ] وكـــان بيـــده تمرات بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ] قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ: [فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا] فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ- ربما لا تتجاوز خمس تمرات - إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. رواه مسلم .

إذن إذا وجد مثل هذا النموذج الذي يقدم على الموت، فإنه سيوهب لنا النصر، وستوهب لنا الحياة، وسنحصل على الحسنيين .

ب - الأمر الآخر في إعداد العدة إعداد العدة العسكرية: بالعتاد.. بالأجهزة.. بما نستطيع من قـــوة فنعد ذلك ونجهزه، حتى لا يبقى سبب من أسباب النصر في استطاعتنا إلا وفعلناه، فإذا أعددنا تلـــك العدة، فإن القلوب تنام وهي مطمئنة مرتاحة .

ت - ومن العدة أيضاً: إعداد الأموال اللازمة: فإن الأموال الآن أصبحت عماد الجهاد، بل هي عماد الجهاد منذ عصر النبي، ولعل الجميع يتذكر أن عثمان بن عفان لما جهز جيش العسرة، فماذا كانـــت جائزته؟ كانت جائزته: [مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ] رواه الترمذي وأحمد. هذه جائزته لماذا؟ لأن المال هو عصب الجهاد، فلا بد أيضاً أن تعد الأمة الأموال اللازمة للجهاد في سبيل الله .

ث - ومن إعداد العدة: ألا يغفل المسلمون عن معرفة عدوهم وعن قدراته: كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر عندما أخذ السقاة الذين جاءوا يستقون الماء لقريش ثم سألهم: كم عدد قـــريش؟ كم ينحرون من الجزر؟ كم معهم من الخيل؟ من معهـــم مـــن صـــناديد قـــريش؟ معهـــم فـــلان وفلان،ينحرون من الجزر كذا وكذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ

] رواه أحمد . فَأَعَدَّ لذلك عدته، فهذا واجب من واجبات المسلمين، فلا يستهينوا بعدوهم، واحتقار العدو ليس من شأن المسلمين بل إننا نبحث عن مكامن القوة ومواطن الضعف فيه، ثم نستنصر بـــالله جل وعلا عليه، ومع ذلك علينا أن نتأمل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ] رواه البخاري ومسلم.أي أننا نسأل الله جل وعلا أن ينصرنا عليهم وأن يخذلهم، حتى ولو لم نلتق بهم و لم نقاتلهم .

٥- من أهم أسباب النصر: الثقة بالله سبحانه وتعالى والثقة بوعده: وأنه سبحانه سيعلي هذا الـــدين وينصره ويمكن له في الأرض إن عاجلاً أو آجلاً، فإن حساب الزمن ليس عند الله شيء، فمن المعلوم أن اليوم عند الله يساوي ألف سنة مما نعد نحن، فلا ننظر بمنظار الأعمار البشرية، بل ننظر إلى المنـــهج الذي ينتصر ويبقى، وننظر إلى الزبد الذي يذهب جفاء في الأرض .

لابد أن نكون واثقين من أن الله سينصر هذا الدين مهما ضيق عليه، ومهما حورب دعاته، ومهمـــا وقف في وجوههم، ومهما وضعت في طريقهم العراقيل؛ فإن النصر حليفهم إن عـــاجلاً أو آجـــلاً، فالحق يبتلى أولاً، ثم يمكن له وينصر . وكم من الدعاة والمجاهدين والعلماء ابتلوا حتى ظن الناس أنهم قد هلكوا وفشلت دعوتهم، فإذا بهم تنقلب في طريقهم المحن إلى منح، ويضع الله لهم القبول في الأرض والتمكين والنصر .

٦- من أهم أسباب النصر التي ينبغي أن يعرفها المؤمنون حتى لا يصابوا بشيء من الإحباط: كـــون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائمها ونياتها:كيف ذلك؟

الأمة- أحياناً- قد تحارب ولكنها لا تكون في مستوى النصر، فيؤخر الله النصر قليلاً حـــتى يرتفـــع مستوى هذه الأمة وتصبح قادرة على تحمل أعباء النصر الذي سيمنحه الله إياها إذا جاء وقته، يقول الله سبحانه:{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]}[سورة الحج] من هم يا رب؟ {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّـــهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج] . {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ} إذن: ها هنا نيات وعزائم في القلوب لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ} هذا مستقبل {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـــلَاةَ وَآتَـــوُا الزَّكَاةَ} ربما يوجد من الدعاة من لو مُكن في الأرض لترك بعض أمور الدعوة، وما أقام الصلاة ومـــا آتى الزكاة، أو ربما يقوم بالصلاة ويؤدي الزكاة، ولكنه لا يقوم تمام القيام بالأمر بالمعروف والنـــهي عن المنكر، ربما يتنازل بعض المحسوبين على الدعوة عن بعض الأمور الهامـــة، ربمـــا يتحـــالف مـــع الشيوعيين، ربما يتحالف مع علمانيين من أجل مكاسب.. هذا لا يستحق النصر.

أيضًا: تكون الأمة في مستوى النصر بالإمكانات بالقدرات، فيكون لديها من يستطيعون إدارة البلدان المسلمة لو تيسر لها النصر، أو إدارة العالم لو تمكنت من فتح العالم كله، فإذا أصبحت الأمة في هـــذا

المستوى، وتوفرت لها بقية الأسباب؛ فإن الله جل وعلا يمنحها النصر أمراً مؤكداً لا شك فيه ولا ريب .

٧- أيضاً من أهم أسباب النصر: الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذان الأمران سياجان حافظان لهذه الأمة، فالجهاد يحفظها من الخارج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظها من الداخل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ السفينة من أن تُخرق ثم بعد ذلك تغرق، والجهاد يحفظ الأمة من أن تستذل، أو أن يهينها العدو، فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا، قاعدة قالها أسلافنا رحمهم الله ،و رضي الله عن علي إذ قال:'ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا كتبت عليهم الذلة'.

الجهاد سبب العز، وسبب النصر: يقول سبحانه:{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[٢١٦]}[سورة البقرة] . عندما تقرأ تفسير هذه الآيات للإمام القرطبي الذي عاش رحمه الله وقت سقوط الأندلس تحس بالحسرة والألم بين السطور والعبارات، يقول مامعناه :'{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا} وهو القتال وسفك الدماء وبذل الأموال، {وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}: أي التمكين في الأرض والعز والنصر، { وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا} وهو الراحة والإخلاد إلى الأرض والطمأنينة في البيوت والديار، وهو شر لكم بالإذلال وانتهاك حرماتكم وأعراضكم، واستيلاء الكفار عليكم، واستئصالهم لكم' ثم قال عبارة مؤلمة محرقة:' ولما أصبح المسلمون في الأندلس على هذه الحال تسلط عليهم العدو فأخذوا ديارهم واحدة بعد الأخرى بلاد وأي بلاد '. يعني ما أحسنها من بلاد، ومع ذلك فرط فيها أهلها فضاعت.

ومن المعلوم عند كل عاقل أن الكفار لن يتركوا المسلمين ولو تركهم المسلمون، وهذه حقيقة شرعية وسنة إلهية أخبرنا الله بها في حيث قال:{ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...[٢١٧]}[سورة البقرة] . يعني مهما فعلتم، ومهما تقربتم إلى هؤلاء الكفرة، فهم لا يزالون يقاتلونكم.. لن يتركوكم ترتاحون حتى ترتدوا عن هذا الدين وتتبعوا أهوائهم كما قال سبحانه:{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...[١٢٠]}[سورة البقرة] .

فإذن: هم لن يرضوا عنك إلا بهذا.. ولن يتركوك من القتال إلا بهذا وإذا كانوا لم يتركوك من القتال والقتال هو أشق شيء على النفوس، فسيحاربونك بغير القتال من باب أولى.. سيحاربونك بغزو ثقافي.. بغزو فكري.. عن طريق المرأة.. عن طريق الإعلام.. سيحاربونك لتهديم دينك، ولتضييع عقيدتك.. فكن أيها المسلم الموحد من الكافرين على حذر .

٨- ثم أخيراً من أهم أسباب النصر: السلامة من أسباب الخذلان والهزيمة، ومنها:

أ -أهم أسباب الخذلان والهزيمة: هو الانحراف عن الصراط المستقيم: سواء كان هذا الانحراف انحرافاً عقدياً، أو انحرافاً عملياً، يعني سواء كانت المعاصي في باب الاعتقاد: بالإلحاد في أسماء الله وصفاته.. بالشرك الأكبر والشرك الأصغر، أو كان بالردة الكاملة باعتناق المذاهب الكافرة كالشيوعية، والقومية، والعلمانية، أو كان من باب الأعمال أي المعاصي العملية.

والمتتبع للقرآن يجد أن هذا هو سبب هلاك الأمم:{ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[٤٠]}[سورة العنكبوت] . فالأمم السابقة أخذت بسبب ذنوبها، وظلمها لأنفسها، والأدلة على هذا كثيرة، وما عليك إلا أن تقرأ كتاب ربك وستجد ذلك واضحاً، وعلى سبيل المثال: اقرأ قصة أصحاب سبأ، واقرأ قصة أصحاب السبت، واقرأ سبب إغراق قوم نوح، واقرأ سبب إهلاك قوم عاد وثمود وقوم لوط، وما حصل لقوم موسى، وما حصل لغيرهم من الأمم؛ فستجد الذنوب هي السبب في ذلك .

أولا:الانحراف العقدي وأثره: سنضرب على الانحراف في العقيدة مثلين هما شاهد حي على أن الأمة إذا انحرفت اعتقادياً، فإنها تضعف وتذل:

الشاهد الأول من القرن الرابع الهجري: فقد شهد مداً رافضياً شديداً، فقامت دول رافضية في شرق الجزيرة في البحرين والأحساء قامت دولة القرامطة، وفي بلاد فارس والعراق دولة بني بويه، وفي بلاد الشام الحمدانيون- أبو فراس الحمداني وجماعته كانوا رافضة- وفي بلاد المغرب قامت الدولة العبيدية الإسماعيلية القرمطية، والتي تسمى زوراً وبهتاناً بالدولة الفاطمية، ثم بعد ذلك انطلقت فأخذت مصر، ثم الحجاز. والقرامطة أهل البحرين وصلوا إلى الحجاز، وأخذوا في ذلك القرن الحجر الأسود وبقي عندهم اثنتان وعشرون سنة، ووصلوا إلى دمشق، و لم يبق من بلدان المسلمين سالماً من المد الرافضي إلا القليل، وأذكر لكم ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله في حوادث حصلت في ذلك الزمن ثم انظروا إلى تعليقاته رحمه الله على تلك الحوادث .

إنه مع قيام تلك الدول الضالة الرافضية تقدم النصارى من بلاد الروم، فأخذوا بعض بلاد المسلمين، وفعلوا من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان، يذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الحوادث، ثم يعلق عليها، فيقول في حوادث سنة ٣٥٩ للهجرة:'وفيها دخلت الروم أنطاكية فقتلوا من أهلها الشيوخ والعجائز، وسبوا من أهلها الشيوخ والأطفال نحواً من عشرين ألفاً فإنا لله وإنا إليه راجعون' ثم يعلق على ذلك بقوله:'وكل هذا في ذمة ملوك الأرض أهل الرفض الذين قد استحوذوا على البلاد وأظهروا فيها الفساد قبحهم الله'. ثم يذكر أيضاً في حوادث سنة٣٥٩ هـ أيضاً أن ملك الروم فعل أعظم من ذلك في طرابلس الشام، وفي السواحل الشامية وحمص وغيرها، يقول رحمه الله :'ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد ويأسر ما قدر عليه، ثم عاد إلى بلده ومعه من السبي نحو مائة ألف

إنسان ما بين صبي وصبية وكان سبب عوده إلى بلاده كثرة الأمـــراض في جيشـــه واشـــتياقهم إلى أولادهم'.

تصوروا عدو من أعداء المسلمين يأتي ويأخذ مائة ألف أسير من المســـلمين ولا يرجـــع إلا بســـبب الأمراض التي فتكت بجيشه و لم يحاربه أحد من ملوك الرافضة الذين كانوا ملـــوك الأرض في ذلـــك الوقت، تذكروا ما ذكرناه في أول الموضوع أن من أسباب النصر القيادة المؤمنة، ويعلق ابن كثير على ما كان يفعله الروافض في ذلك القرن من سب الصحابة، وما يفعلونه من البدع والضلالات، فيقول في حوادث سنة ٣٥١ هـــ بعد أن ذكر غارات الروم وقتلهم ما لايحصى من المسلمين قال:' وفيهـــا كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد لعنة الله علي معاوية بن أبي سفيان، وكتبـــوا أيضـــاً: ولعن الله من غصب فاطمة حقها-يعنون أبا بكر رضي الله عنه-، ومن أخرج العباس من الشورى - يعنون عمر رضي الله عنه-ومن نفى أبا ذر-يعنون عثمان رضي الله عنه- 'يقول ابن كثير رحمه الله:' رضي الله عن الصحابة وعلى من لعنهم لعنة الله' . ثم تكلم قليلاً ثم قال:'ولما بلغ ذلك جميعـــه معـــز الدولة-يقصد ابن بويه وكان رافضياً- لم ينكره و لم يغيره قبحه الله وقبح شيعته من الروافض'.

انظروا إلى تعليق ابن كثير وهو المراد في هذه المحاضرة يقول:'لا جرم أن الله لا ينصر هؤلاء وكـــذلك سيف الدولة ابن حمدان بحلب فيه تشيع وميل إلى الروافض لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بـــل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم، وتـــركهم أنبيـــاءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الإفـــرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس و لم يبق مع المسلمين سوى حلـــب وحمـــص وحماة ودمشق، وجميع السواحل وغيرها مع الإفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع' - ثم بعد ذلك صور حال المسلمين-' والناس معهم في حصر عظيم وضيق من الدين وأهل هذه المدن-يقصـــد دمشق وحلب وحمص وحماة- التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الإفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سب خير الخلق بعـــد خير الأنبياء'.

هذا نتيجة الانحراف العقائدي الذي استحوذ على هذه الأمة في القرن الرابع الهجري بل استحوذ على حكامها وقادتها في ذلك الوقت.

أما الشاهد الثاني، فأضربه لكم من عصرنا هذا: فقد هُزم العرب أمام اليهود رغم أنه لا تناسب بـــين العددين، ورغم ما كان يتشدق به طواغيت العصر في الشام، وفي مصر من أنهم سيلقون بـــاليهود في البحر، وسيفعلون وسيفعلون، كان أولئك يرفعون لواء القومية، ولواء الاشتراكية، ويحاربون الإسلام

وكان طاغوقم الأكبر قد قتل سيد قطب رحمه الله قبل المعركة بسنة، ثم لما جاءت المعركة كانت إذاعاتهم ترفع النشيد الآتي تقول موجهة الخطاب لطائرات اليهود:

ميراج طيارك هرب خايف من نسر العرب

والميج علت واعتلت في الجو تتحدى القدر

هذا كانت تتغنى به إذاعة دمشق في ذلك الوقت، إذن كانت تلك الهزيمة الساحقة التي أخذ فيها ما تبقى من فلسطين، وأخذت أضعاف أرض فلسطين مثل سيناء والجولان كانت بسبب تلك القيادات الفاجرة المنحرفة التي تسلطت على رقاب المسلمين، وكانت سبب من أهم أسباب الخذلان والهزيمة .

ثانيًا: الانحراف في ناحية المعاصي العملية، وبالإمكان أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام:

١- معاصي تؤثر أثناء المعركة: كمعصية أمر القائد في أثناء المعركة مثل ما حصل في يوم أحد لما ترك الرماة الجبل، وخالفوا أمر النبي، فحصل ما حصل مما تعرفونه.

٢- معاصي تؤثر من قبل المعركة: وهذه سنطيل في الحديث عنها، فنتركها إلى الأخير.

٣- وهناك معاصي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤبداً:وهذه المعاصي تؤثر تأثيراً مباشراً في هزيمة الأمة أمام أعدائها، وقد بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: [إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ] حديث صحيح بمجموع طرقه، رواه أبوداود وأحمد.

والعينة نوع من أنواع الربا والربا قد انتشر الآن في بلدان المسلمين فحقت عليهم الذلة، [وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ] يعني: الإخلاد إلى الدنيا والالتفات إليها.

[وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ] من أسباب ضرب الذلة، [سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا]، ليس الذل على اليهود فقط، بل الذل يضرب أيضاً على هذه الأمة إذا عصت أمر ربها، [سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ] لا يرفعه إلى متى؟ ليس إلى أن يصبح عندكم مليون جندي، ولا أن يصبح عندكم ألف طائرة، ولا أن يصبح عندكم خمسة آلاف دبابة، لا.. وإنما [حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ] فإذا رجعتم إلى دينكم يرفع الله عنكم الذلة، بهذا الشرط الوحيد، وهو أن ترجعوا إلى دينكم كله من أوله إلى آخره، لا تقولوا: هذه قشور وهذا لباب، ولا تقولوا: هذه سنن وهذه وهذه ، ولا تقولوا: هذه تفرق المسلمين إذا بحثت أمور العقائد بين السنة والروافض، أو بين السنة والأشعرية وغيرهم . بل تأخذ هذا الدين كاملاً كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه، تأخذ به كاملاً نقياً صافياً.. فعند ذلك يمنح لك النصر، ويمنح لك الظفر على العدو .

ننتقل إلى المسألة الثانية:وهي المعاصي التي توعد عليها بأنها سبب من أسباب الهزيمة فمن ذلك مايلي:

أ] الظلم: الظلم ليس سببًا من أسباب الهزيمة فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول، وتغير الأحوال، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة استقرائية ماتعة يقول:' إن الـــدول تبقى مع العدل وإن كانت كافرة، وتسقط مع الظلم وإن كانت مسلمة'. [انظر:السياسة الشرعية] .

ب] ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو سبب من أسباب الهلاك ونزول العـــذاب، يقـــول الله:{ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَـــا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ[١١٦]وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُـــرَى بِظُلْـــمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[١١٧]}[سورة هود] . إذا كان أهلها يأمرون بالمعروف وينهون عـــن المنكـــر لا يهلكهم الله، أما إذا تركوا ذلك، وانتشرت الرذائل، وأصبحت علانية، فليسوا مهددين بالهزيمة بـــل بأعظم من ذلك، وهو أن يهلكهم الله، ويحل بهم العذاب، وفي حديث أبي بكر رضي الله عنـــه: أَنَّـــهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَـــلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ[١٠٥]}[سورة المائدة] . وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [إِنَّ النَّـــاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ] رواه الترمذي وأبوداود وابن ماجة وأحمد.

كما أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب من أسباب الاختلاف، وسبب مـــن أســـباب التفرق، وهذا من أهم أسباب الهزيمة.

ج] نقض عهد الله وعهد رسوله: فقد جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّـــهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ... فـــذكرها، ومنها: [وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَـــا فِي أَيْدِيهِمْ] حديث صحيح رواه ابن ماجة وغيره . ومن المعلوم أن العدو لن يستطيع أن يأخذ بعض ما في أيدي المسلمين من الأموال، أو من الأراضي، أو من غيرهـــا إلا بعـــد أن يهـــزم المســـلمون، ويستذلوا.

د] الغلول: والغلول المراد به أخذ مال المسلمين بغير حق : جاء في الموطأ عَنْ مَالِك عَنْ يَحْيَـــى بْـــنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:' مَا ظَهَرَ الْغُلُولُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا أُلْقِـــيَ فِـــي قُلُـــوبِهِمْ الرُّعْبُ...' . ومن المعلوم أنه إذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنهم لن يواجهوا العدو وســـيهزمون ويولون الأدبار هذا أمر لا شك فيه ..

هـــ] من المعاصي التي توعد الله عليها بأن أصحابها يهزمون ولا ينصرون، البطر والفخـــر والغـــرور والعجب: قال سبحانه:{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُـــدُّونَ عَـــنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[٤٧]}[سورة الأنفال]. فهذا الرياء والبطر والكـــبر في الأرض، ثم الصد عن سبيل الله أي: الصد عن دينه حتى ولو عن جزئية من جزئيات الدين، الصد عنـــها منـــذر

بوقوع الهزيمة كما دلت عليه هذه الآيات . وكذلك العجب قال الله:{ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ[٢٥]}[سورة التوبة] . فلما أعجب الصحابة بأنفسهم وبكثرتهم، وقالوا: لن نغلب هذا اليوم من قلة؛ ما أغنت عنهم كثرتهم شيئاً، وبعض الروايات تقول: إن هوازن لم يتجاوزوا الثلاثة آلاف رجل . والصحابة كانوا عدة أضعاف لهوازن، ومع ذلك ولوا مدبرين لما أعجبوا بأنفسهم، ونسوا الاعتماد على ربهم عز وجل.

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي: أنك عندما تقرأ في القرآن في أعقاب ذكر غزوات النبي؛ لا تجد أبداً أن الله يمدح المؤمنين، ويشيد ببطولاتهم، إنما يبين لهم أن هذا النصر الذي تحقق إنما هو فضل منه:{ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[١٢٦]}[سورة آل عمران]. { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[١٠]}[سورة الأنفال].

بل إنك تجد أن الله ينبه المؤمنين إلى أخطاء وقعت منهم، وهم منتصرون، فيقول لهم يوم بدر:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...[٦٧]}[سورة الأنفال] .{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...} ثم قال لهم بعد:{... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[١]}[سورة الأنفال] . كأن هذا إشارة إلى أن اختلافكم في قسمة الغنائم والأنفال ليس بجيد، فاحذروا أن تخالفوا أمر الله وأمر رسوله.

فإذن: ما قال لهم لقد أحسنتم وفعلتم وفعلتم.. ما أشاد بهذه البطولات التي فعلها الصحابة يوم بدر، بل نبههم على أخطاء، وذكرهم بأن لا يعتمدوا على أنفسهم، وأن لا يعجبوا بأنفسهم، إنما النصر من عند الرب وحده لا شريك له. كذلك في أحد عندما تقرأ قصة أحد تجد أن الله نبههم على مكمن الخطأ وسبب ما حاق بهم وما حصل لهم . فالله سبحانه ينبهنا على أن المسلم دائماً يجب أن يكون خاشعاً لله، معتمداً عليه، مستنصراً به، مخلصاً له، يعلم أن النصر من عنده ليس بعدد ولا بعدة .

السبب الثاني من أسباب الهزيمة:

ب] الفرقة والاختلاف: تفرق المسلمين وتشتت أحوالهم سبب من أسباب الهزيمة الماحقة، يقول الله:{ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[٤٦]}[سورة الأنفال]. وهذا الأمر بالإضافة إلى الأمر السابق وهو المعصية كان من أعظم أسباب سقوط الأندلس.

ج] من أسباب الهزيمة في تاريخنا الإسلامي: موالاة الكافرين والمنافقين، وعدم الحذر منهم: لقد حذرنا الله من ذلك تحذيراً شديداً، وأبدأ وأعاد حتى قال العلامة الشيخ حمد بن عتيق من أئمة الدعوة رحمه الله:' لم يرد في القرآن الكريم بعد الأمر بالتوحيد والنهي عن ضده أكثر من النهي عن موالاة الكافرين' . وفيآية واحد يتبين لنا حقيقة الكفار، يقول الله سبحانه:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا } أي: لا يقصرون فيما يفسدكم. { وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} أي: أحبوا

ما يشق عليكم.{ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} فما استطاعوا إخفاءها. { وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ[١١٨]}[سورة آل عمران] ولكن أين الذين يعقلون؟

لقد كان هذا هو السبب في هزيمة الدولة العباسية أمام التتار لما وثقت بالرافضي الخبيث ابن العلقمي وولته الوزارة، وكان ذلك الخبيث ممن مالأ التتار وكاتبهم من أجل أن تهدم الخلافة وتسقط الدولة، فكان ذلك وحصل له ما أراد، ولكن الله كان له بالمرصاد، فجازاه ملك التتار أن قتله، وقال له: أنت لا تستحق أن يثق فيك، فقتله شر قتلة، وما أكثر أمثال ابن العلقمي في هذه العصور .

قد يندس شياطين الإنس من المنافقين في صفوف المؤمنين، ولا يميزهم المؤمنون، فمن رحمة الله بالمؤمنين أن تتوالى الابتلاءات على المؤمنين، فتكشف حقيقة المنافقين، وتميز الصف المؤمن وتطهره من هؤلاء المندسين حتى يتميز الصف، ويصبح مؤمناً خالصاً، وما هذه الابتلاءات التي حصلت لإخواننا المجاهدين في أفغانستان سابقاً ولا حقاً إلا فيما نحسب من هذا الباب، ليميز الله الصفوف فتتساقط الأوراق المندسة التي لا يستطيع المؤمن أن يكشفها لتظاهرها بالإيمان.

د] ومن أهم أسباب الهزيمة: ترك إعداد العدة والإخلاد إلى الدنيا وملذاتها والإغراق في اللهو وطلب الراحة مما يجعل الإنسان لا يستطيع أن يدخل المعركة، ولا أن يواجه العدو .

هذه بعض أسباب الهزيمة التي مرت في التاريخ الإسلامي، وهي ليست كلها، ولو تتبعت واستقرأها شخص من بطون كتب التاريخ لوجدها أضعاف ما ذكرنا أضعافاً كثيرة، ولكن حسبنا أن نذكر الأهم والأقل يدل على الأكثر .وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم .

من محاضرة:' أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي' للشيخ/ بشر البشر

أسباب النصر

فإن الأمة الإسلامية اليوم تتطلع إلى نصر عاجل يرفع عنها هذا الذل والهوان الذي تسربلت به ، وينقلها من دركات المهانة والإذلال إلى درجات العزة والرفعة والسمو ...

نصراً يعيد لها مجدها السابق ، وحماها المستباح ....

ولاشك أن الناصر هو الله تعالى وحده .... فهذه عقيدة الموحدين التي لا يساومون عليها ... ولا يشكون فيها ... عقيدة ثابتة مغروسة في النفوس ....

ولكن الله تبارك وتعالى قد جعل لذلك النصر أسباباً وأمر بتحصيلها والاعتناء بها حتى تؤتي الشجرة ثمرتها ....

وهنا جملة من أسباب النصر مادية ومعنوية فاسأل الله تعالى التوفيق والسداد .

أول تلك الأسباب : الإيمان بالله تعالى [باطناً و ظاهراً] .

قال تعالى : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

قال تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

ولاشك أن من أسباب الهزيمة المعاصي .... ومن أسباب النصر الطاعات

الثاني : الصبر

قال تعالى : (بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الثالث : الإخلاص لله تعالى . [أن يكون القصد نصر دين الله وإقامة شرعه]

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) .

قال تعالى : (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)) .

وعلامة المخلص ... ((الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))

الرابع : الإعداد المادي

قال تعالى : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ...)

فلما تركنا هذا التوجيه الرباني الكريم صرنا مطمع كل طاغية وكافر ....

الخامس : الائتلاف وعدم الاختلاف

قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

فلما اختلفنا زرع الأعداء بيننا من ليس منا ... ليزيد الفرقة والتمزق ... حتى صرنا قطعاناً تتناهشها الكلاب ....

السادس : التوكل على الله والاعتماد عليه واللجوء إليه والتضرع بالدعاء إليه ....[وهذه مجموعة من الأسباب آثرت جمعها مع بعضها لقوة الترابط بينها]

قال تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

قال تعالى : (إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قال تعالى : (وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ))

قال تعالى : (... أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)
السابع : الإقدام وعدم الإحجام ....
قال تعالى : ((قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ))
ولذلك كان الانغماس في العدو من أفضل الجهاد لما ينتج عنه من علو في الهمم ، ورفع للمعنويات ، وبه تقوى عزائم أهل الإيمان ، وبه تتحطم معنويات أهل الظلم والطغيان ...
وفي المقابل حرم التولي يوم الزحف وصار من السبع الموبقات لما يسببه من الهزيمة .... والتثبيط .... ورفع معنويات العدو ....
الثامن : مشاورة القائد [حاكماً أو قائداً] لأصحابه [أصحاب الرأي والمشورة من أهل الحل والعقد وغيرهم] وإشراكهم في صناعة القرار.... [فتطيب النفوس وتقوى العزائم]
قال تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ...)
قال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)
وهذا يشمل الجهاد وغيره فهو قاعدة عامة .
أخوكم التونسي
شبكة أنا المسلم

أصول جامعة في النصر والهزيمة وفقه الابتلاء

رئيسي :علم :الخميس ٥ جمادى الأخرة ١٤٢٥هـ - ٢٢ يوليو ٢٠٠٤
الأصل الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار- والواقع شاهد بذلك-. وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.
الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا، فمعولهم على الصبر، وعلى الاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته، فإنهم كلما شاهدوا العوض؛ هان عليهم تحمل المشاق والبلاء. والكفار لا رضا عندهم، ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله:{ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[١٠٤]}[سورة النساء] . فاشتركوا في الألم وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.
الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله، فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله، وهذا من

دفع الله عن عبده المؤمن، فإنه يدفع عنه كثيرًا من البلاء، وإذا كان لا بد له من شيء منه دفع عنه ثقله، ومؤنته، ومشقته وتبعته.

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه؛ كان أذى المحب في رضى محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له، وإحسان إليه.

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه دون ما يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان–وإن كان في الظاهر بخلافه– قال الحسن:' إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه'.

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ] رواه مسلم. فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته، ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم، فالأقرب، يبتلى المرء على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة.

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان: أمر لازم لابد منه، وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض، والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة، والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتى للأطفال والبهائم؛ لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم؛ لكان ذلك عَالَمًا غير هذا، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا، وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار كما قال تعالى:{ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[٣٧]}[سورة الأنفال] .

الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانًا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفضيل إلا الله عز وجل:

فمنها:استخراج عبوديتهم، وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائما منصورين قاهرين، غالبين؛ لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين

منصورا عليهم عدوهم؛ لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة.

فإذا غُلبوا.. تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلبوا؛ أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائمًا منصورين؛ لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة. ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا؛ لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية: أن كانت لهم الدولة تارةً، وعليهم تارةً، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم، والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد:{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[١٣٩]إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[١٤٠]وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ[١٤١]أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ[١٤١] وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[١٤٣]وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ[١٤٤]وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ[١٤٥]}[سورة آل عمران].

فذكر سبحانه أنواعا من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله، ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولًا بين الناس، فيصيب كلا منهم نصيبه منها كالأرزاق والآجال، ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم – وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه– ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومترلة رفيعة، لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو؛ لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد، ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين أي: تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة، والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد، ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائما منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم..فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

الأصل التاسع: أنه سبحانه وتعالى إنما خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها لابتلاء عباده، وامتحانهم؛ ليعلم من يريده ويريد ما عنده، ممن يريد الدنيا وزينتها، قال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...[٧]}[سورة هود]. وقال:{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[٧]}[سورة الكهف]. وقال:{ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...[٢]}[سورة الملك]. وقال تعالى:{...وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[٣٥]}[سورة الأنبياء].

وقال تعالى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ[٣١]}[سورة محمد]. وقال تعالى:{ الم[١]أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ[٢]وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ[٣]}[سورة العنكبوت].

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين:

إما أن يقول أحدهم: آمنت، أو لا يؤمن بل يستمر على السيئات والكفر، ولابد من امتحان هذا وهذا. فأما من قال: آمنت، فلابد أن يمتحنه الرب، ويبتليه ليتبين: هل هو صادق في قوله: آمنت، أو كاذب، فإن كان كاذبًا؛ رجع على عقبيه، وفر من الامتحان كما يفر من عذاب الله. وإن كان صادقًا؛ ثبت على قوله، و لم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانًا على إيمانه، قال تعالى:{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا[٢٢]}[سورة الأحزاب].

وأما من لم يؤمن: فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب، ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوبتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم، فلابد من المحنة في هذه الدار، وفي البرزخ، وفي القيامة لكل أحد، ولكن المؤمن أخف محنة، وأسهل بلية، فإن الله

يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات، والرضى والتسليم ما يهون بـه عليـه محنته، وأما الكافر، والمنافق، والفاجر، فتشتد محنته وبليته وتدوم.

فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة، فلا بد من حصـول الألم والمحنة لكل نفس آمنت، أو كفرت لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعيم ابتداءً، ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم ألبتة.. يوضحه:

الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدني بالطبع لابد له أن يعيش مـع النـاس، والنـاس لهـم إرادات وتصورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم؛ آذوه وعذبوه، وإن وافقهـم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلابد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتـهم، أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداهم وإراداهم.

ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم، واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم، أو فاحشة، أو شهادة زور، أو المعاونة على محرم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى. وإن وافقهم فرارًا من ألم المخالفـة؛ أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعاف مـا ناله من اللذة أولًا بموافقتهم.. فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد، فألم يسير يعقب لذة عظيمـة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تعقب ألمًا عظيمًا دائمًا.. والتوفيق بيد الله.

الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام، فإنه: إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب، والذي في نفسه قد يكون بتلفهـا تـارةً، وبتألمها بدون التلف.. فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله.

وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس، ومن المعلوم: أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هـذا المـؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصـة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم مـن مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات، وأفضلها، وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقـول:{ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا[١٦]}[سورة الأحزاب]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلًا؛ إذ لابـد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال:{ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[١٧] }[سورة الأحزاب]. فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءًا غير الموت الذي فرّ منه، فإنه فرّ من الموت لما كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءًا غيره؛ لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه، وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال، والعرض، والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته؛ سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلًا وآجلًا، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفه بدنه وعرضه، وآثر راحته على التعب لله، وفي سبيله؛ أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.. قال أبو حازم:' لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى'.

واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لأدم فرارًا أن يخضع له، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادمًا لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضى أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته. وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، وأن يعبدوا إلهًا واحدًا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لابد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته؛ عقوبة له، كما قال بعض السلف:' من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته'.

من كتاب:'إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان' للعلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله.

أنت من يؤخر النصر عن هذه الأمة

بينما كنت مهموما أتابع أخبار المسلمين وما أصابهم من مصائب، خاطبتني نفسي قائلة: يا هذا، أنت من يؤخر النصر عن هذه الأمة، بل وأنت سبب رئيس في كل البلاء الذي نحن فيه !

قلت لها: أيا نفسي كيف ذاك وأنا عبد ضعيف لا أملك سلطة ولا قوة، لو أمرت المسلمين ما ائتمروا ولو نصحتم ما انتصحوا ..

فقاطعتني مسرعة، إنها ذنوبك ومعاصيك ، إنها معاصيك التي بارزت بها الله ليل نهار .. إنه زهدك عن الواجبات وحرصك على المحرمات ..

قلت لها: وماذا فعلت أنا حتى تلقين عليّ اللوم في تأخير النصر ..

قالت: يا عبدالله والله لو جلست أعد لك ما تفعل الآن لمضى وقت طويل، فهل أنت ممـــن يصـــلون الفجر في جماعة؟

قلت: نعم أحيانا، ويفوتني في بعض المرات ..

قالت مقاطعة: هذا هو التناقض بعينه، كيف تدّعي قدرتك على الجهاد ضد عدوّك، وقد فشـــلت في جهاد نفسك أولا، في أمر لا يكلفك دما ولا مالا، لا يعدو كونه دقائق قليلـــة تبـــذلها في ركعـــتين مفروضتين من الله الواحد القهار ..كيف تطلب الجهاد، وأنـــت الـــذي تخـــبّط في أداء الصـــلوات المفروضة، وضيّع السنن الراتبة، و لم يقرأ ورده من القرآن، ونسي أذكار الصباح والمساء، و لم يتحصّن بغض البصر، و لم يكن بارّا بوالديه، ولا واصلا لرحمه ؟

واستطردت: كيف تطلب تحكيم شريعة الله في بلادك، وأنت نفسك لم تحكمها في نفسك وبين أهل بيتك، فلم تتق الله فيهم، و لم تدعهم إلى الهدى، و لم تحرص على إطعامهم من حلال، وكنـــت مـــن الذين قال الله فيهم: { يحبون المال حبا جما } ، فكذبت وغششت وأخلفت الوعـــد فاســـتحققت الوعيد ..

قلت لها مقاطعا: ومال هذا وتأخير النصر؟ أيتأخر النصر في الأمة كلها بسبب واحد في المليار ؟

قالت: آه ثم آه ثم آه، فقد استنسخت الدنيا مئات الملايين من أمثالك إلا مـــن رحـــم الله.. كلـــهم ينتهجون نهجك فلا يعبأون بطاعة ولا يخافون معصية وتعلّل الجميع أنهم يطلبون النصر لأن بالأمة من هو أفضل منهم، لكن الحقيقة المؤلمة أن الجميع سواء إلا من رحم رب السماء .. أما علمت يا عبدالله أن الصحابة إذا استعجلوا النصر و لم يأتهم علموا أن بالجيش من أذنب ذنبا .. فما بالك بأمة واقعة في الذنوب من كبيرها إلى صغيرها ومن حقيرها إلى عظيمها .. ألا ترى ما يحيق بها في مشـــارق الأرض ومغاربها ؟

بدأت قطرات الدمع تنساب على وجهي، فلم أكن أتصوّر ولو ليوم واحد وأنا ذاك الرجـــل الـــذي أحببت الله ورسوله وأحببت الإسلام وأهله، قد أكون سببا من أسباب هزيمة المسلمين .. أنني قـــد أكون شريكا في أنهار الدماء المسلمة البريئة المنهمرة في كثير من بقا ع الأرض ..

لقد كان من السهل عليّ إلقاء اللوم، على حاكم وأمير، وعلى مسؤول ووزير، لكـــنني لم أفكـــر في عيبي وخطأي أولا .. و لم أتدبّر قول الله تعالى: { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم }

فقلت لنفسي: الحمد لله الذي جعل لي نفسا لوّامة، يقسم الله بمثلها في القرآن إلى يـــوم القيامـــة .. فبماذا تنصحين ؟

فقالت: ابدأ بنفسك، قم بالفروض فصل الصلوات الخمس في أوقاتها وادفع الزكاة وإيـــاك وعقـــوق الوالدين، تحبّب إلى الله بالسنن، لا تترك فرصة تتقرّب فيها إلى الله ولو كانت صـــغيرة إلا وفعلتـــها، وتذكر أن تبسّمك في وجه أخيك صدقة، لا تدع إلى شيء وتأت بخلافه فلا تطالب بتطبيق الشريعة

إلا إذا كنت مثالا حيا على تطبيقها في بيتك وعملك، ولا تطالب برفع راية الجهاد وأنت الذي فشل في جهاد نفسه، ولا تلق اللوم على الآخرين تهرّبا من المسؤولية، بل أصلح نفسك وسينصلح حال غيرك، كن قدوة في كل مكان تذهب فيه .. إذا كنت تمضي وقتك ناقدا عيوب الناس، فتوقّف جزاك الله خيرا فالنقّاد كثر وابدأ بإصلاح نفسك .. وبعدها اسأل الله بصدق أن يؤتيك النصر أنت ومن معك، وكل من سار على نهجك، فتكون ممن قال الله فيهم: { إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقداكم } .. واعلم أن كل معصية تعصي الله بها وكل طاعة تفرّط فيها هي دليل إدانة ضدّك في محكمة دماء المسلمين الأبرياء ..

فرفعت رأسي مستغفرا الله على ما كان مني ومسحت الدمع من على وجهي ..

وقلت يا رب .. إنها التوبة إليك .. لقد تبت إليك ..

ولنفتح صفحة حياة جديدة .. بدأتها بركعتين في جوف الليل .. أسأل الله أن يديم عليّ نعمتهما ..

التمسك بالإسلام حقا هو سبب النصر والنجاة في الآخرة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق ليعبد وحده لا شريك له ، وأنزل كتبه وأرسل رسله للأمر بذلك والدعوة إليه ، كما قال سبحانه : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ وقال سبحانه : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وقال عز وجل : الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وقال تعالى وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ الآية ، وقال سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الله عز وجل إنما خلق الثقلين ليعبد وحده لا شريك له ، وأن ذلك هو الحكمة في خلقهما ، كما تدل على أنه عز وجل إنما أنزل الكتب وأرسل الرسل لهذه الحكمة نفسها ،

والعبادة هي الخضوع له والتذلل لعظمته بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، عن إيمان به سبحانه وإيمان برسله ، وإخلاص له في العمل ، وتصديق بكل ما أخبر به ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهذا هو أصل الدين وأساس الملة وهو معنى لا إله إلا الله ، فإن معناها : لا معبود حق إلا الله ، فجميع العبادات من دعاء وخوف ورجاء وصلاة وصوم وذبح ونذر وغير ذلك يجب أن تكون لله وحده ، وأن لا يصرف من ذلك شيء لسواه للآيات السابقات ، ولقوله عز وجل : وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الآية ، وقوله عز وجل : وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا وقوله سبحانه : ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ

مِثْلُ خَبِيرٍ وقال تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وقال عز وجل : وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ فأبان سبحانه في هذه الآيات أنه المالك لكل شيء وأن العبادة حقه سبحانه ، وأن جميع المعبودين من دونه من أنبياء وأولياء وأصنام وأشجار وأحجار وغيرهم لا يملكون شيئا ولا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولو سمعوا دعاءه لم يستجيبوا له ، وأخبر أن ذلك شرك به عز وجل ، ونفي الفلاح عن أهله ، كما أخبر سبحانه أنه لا أضل ممن دعا غيره ، وأن ذلك المدعو من دون الله لا يستجيب

لداعيه إلى يوم القيامة ، وأنه غافل عن دعائه إياه ، وأنه يوم القيامة ينكر عبادته إياه ، ويتبرأ منها ، ويعاديه عليها ، فكفى بهذا تنفيرا من الشرك وتحذيرا منه ، وبيانا لخسران أهله وسوء عاقبتهم .

وترشد الآيات كلها إلى أن عبادة ما سواه باطلة ، وأن العبادة بحق لله وحده ، ويؤيد ذلك صريحا قوله عز وجل : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ الآية من سورة الحج .

وذكر سبحانه في مواضع أخرى من كتابه أن من الحكمة في خلق الخليقة أن يعرف سبحانه بعلمه الشامل وقدرته الكاملة ، وأنه عز وجل سيجزي عباده في الآخرة بأعمالهم ، كما قال عز وجل : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وقال تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ

فالواجب على كل ذي لب أن ينظر فيما خلق له ، وأن يحاسب نفسه ويجاهدها لله حتى يؤدي حقه وحق عباده ، وحتى يحذر ما نهاه الله عنه ليفوز بالسعادة والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ، وهذا العلم هو أنفع العلوم وأهمها وأفضلها وأعظمها ، لأنه أساس الملة وزبدة ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وخلاصة دعوتهم ، ولا يتم ذلك ولا يحصل به النجاة إلا بعد أن يضاف إليه الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعلى رأسهم إمامهم وسيدهم وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومقتضى هذا الإيمان ، تصديقه صلى الله عليه وسلم في إخباره وطاعة أوامره وترك نواهيه ، وأن لا يعبد الله سبحانه إلا بالشريعة التي جاء بها عليه الصلاة والسلام . وهكذا كل أمة بعث الله إليها رسولا ، لا يصح إسلامها ولا يتم إيمانها ولا تحصل لها السعادة والنجاة إلا بتوحيدها لله ، وإخلاص العبادة له عز وجل ، ومتابعة رسولها صلى الله عليه وسلم ، وعدم الخروج عن شريعته ، وهذا هو الإسلام الذي رضيه الله لعباده ، وأخبر أنه هو دينه ، كما في قوله عز وجل : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا وقوله عز وجل : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وبهذا يتضح لذوي البصائر أن أصل دين الإسلام وقاعدته أمران :

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله وحده ، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

الثاني : أن لا يعبد إلا بشريعة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

فالأول يبطل جميع الآلهة المعبودة من دون الله ، ويعلم به أن المعبود بحق هو الله وحده ، والثاني يبطل التعبد بالآراء والبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، كما يتضح به بطلان تحكيم القوانين الوضعية والآراء البشرية ويعلم به أن الواجب هو تحكيم شريعة الله في كل شيء ، ولا يكون العبد مسلما إلا بالأمرين جميعا ، كما قال الله عز وجل : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وقال سبحانه : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وقال تعالى : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وقال عز وجل : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

وهذه الآيات تتضمن غاية التحذير والتنفير من الحكم بغير ما أنزل الله ، وترشد الأمة حكومة وشعبها إلى أن الواجب على الجميع هو الحكم بما أنزل الله والخضوع له والرضا به ، والحذر مما يخالفه ، كما تدل أوضح دلالة على أن حكم الله سبحانه هو أحسن الأحكام وأعدلها ، وأن الحكم بغيره كفر وظلم وفسق وأنه هو حكم الجاهلية الذي جاء شرع الله بإبطاله والنهي عنه ، ولا صلاح للمجتمعات ولا سعادة لها ولا أمن ولا استقرار إلا بأن يحكم قادتها شريعة الله ، وينفذوا حكمه في عباده ، ويخلصوا له القول والعمل ، ويقفوا عند حدوده التي حدها لعباده ، وبذلك يفوز الجميع بالنجاة والعز في الدنيا والآخرة ، كما يفوزون بالنصر على الأعداء والسلامة من كيدهم واستعادة المجد السليب ، والعز الغابر ، كما قال سبحانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وقال عز وجل : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وقال سبحانه : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ولما حذر سبحانه من اتخاذ الكفار بطانة من دون المؤمنين وأخبر أن الكفار لا يألون المسلمين خبالا ، وأنهم يودون عنتهم ، قال بعد ذلك : وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

وهذا الأصل الأصيل والفقه الأكبر هو أولى ما كتب فيه الكاتبون ، وعني به دعاة الهدى وأنصار الحق ، وهو أحق العلوم أن يعض عليه بالنواجذ ، وينشر بين جميع الطبقات حتى يعلموا حقيقته ويبتعدوا عما يخالفه .

وإني لأنصح إخواني أهل العلم والقائمين بالدعوة إلى الله سبحانه بأن يعنوا بهذا الأصل العظيم ويكتبوا فيه ما أمكنهم من المقالات والرسائل حتى ينتشر ذلك بين الأنام ويعلمه الخاص والعام ، لعظم شأنه

وشدة الضرورة إليه ، ولما وقع بسبب الجهل به في غالب البلدان الإسلامية من الغلو في تعظيم القبور ، ولا سيما قبور من يسموهم بالأولياء واتخاذ المساجد عليها وصرف الكثير من العبادة لأهلها كالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك .

ولما وقع أيضا بسبب الجهل بهذا الأصل الأصيل في غالب البلاد الإسلامية من تحكيم القوانين الوضعية والآراء البشرية ، والإعراض عن حكم الله ورسوله الذي هو أعدل الأحكام وأحسنها .

فنسأل الله أن يرد المسلمين إليه ردا حميدا ، وأن يصلح قادتهم وأن يوفق الجميع للتمسك بشريعة الله والسير عليها والحكم بها والتحاكم إليها والتسليم لذلك والرضا به والحذر مما يخالفها إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وأصحابه ومن سار على طريقه واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

التمكين وتأويل الأحاديث

١٤٢٥/٧/٢٣

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

"وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"(يوسف: من الآية٢١). ما أحوجنا إلى الوقوف مع هذه الآية في هذه الظروف التي تعيشها الأمة.

القنوط واليأس دخل كثيراً من القلوب بعد ما رأوا أعداء الله يعودون إلى استعمار بعض بلاد المسلمين مرة أخرى، ومن ذلك ما يفعله اليهود في فلسطين، وما يفعله الغرب في أفغانستان والعراق، نفوس أصابها التشاؤم واليأس والقنوط، والله غالب على أمره.

لقد تواترت الآيات مانعة من الخوف إلا من الله ـجل وعلاـ، وكذلك الخشية إلا من الله "فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ "(آل عمران: من الآية١٧٥)، "فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ "(المائدة: من الآية٣). "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل"(آل عمران: من الآية١٧٣). فعلينا أن نثق بالله وبوعده، وأن نأخذ بالأسباب التي توصلنا إلى العز والسؤدد والمجد، فلنحسن الظن بالله ولنثق به "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً"(الطلاق: من الآية٣). "إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" (غافر:٥١) . "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ "(يوسف: من الآية١١٠).

هذه الآية "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ"(يوسف: من الآية٢١) من سورة يوسف الذي عاش ألوان الابتلاء، يأتي تصديقها في نفس السورة "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ"

(يوسف: من الآية٢١)، التمكين تمكين خاص وعام، وقد حصل عليهما يوسف ـعليه السلامـ مكنه الله في أول الأمر من قلب العزيز، ومكنه الله ـجل وعلاـ في داخل السجن، وهذا تمكين خاص.

ثم جاء التمكين العام عندما قال: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم، فأصبح هو عزيز مصر، بل هو سيد مصر الآمر الناهي، حكم فيه بشريعة الله ـجل وعلاـ "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ" (يوسف: من الآية٢١)، وكأن الآية تشير إلى أن من يأخذ بالأسباب التي أخذ بها يوسف فسيكون نهايته التمكين ـبإذن اللهـ.

والسؤال: كيف نصل إلى ما وصل إليه يوسف؟

والجواب: هنالك أسباب جعلها الله ـجل وعلاـ من أخذ بها حصل على التمكين، إما التمكين الخاص أو التمكين العام ولعله تأتي الإشارة بشي من التفصيل إلى ذلك لاحقاً أما ما يهمنا هنا فهو ما يتعلق بتأويل الأحاديث، فالله ـعز وجلـ قرن به التمكين، فقال ـسبحانهـ: "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ"(يوسف: من الآية٢١). ذكر بعض العلماء أن تأويل الأحاديث هنا ليس محصوراً فيما يتعلق بتعبير الرؤى بل هو أعم من ذلك، فيشمل تفسير الأحداث وتوقع نتائجها والقدرة على التعامل معها، فيوسف ـعليه السلامـ أكرمه الله بتأويل الأحاديث أي تعبير الرؤيا، وهذا معنى أوّلي، وهو ما مشى عليه عامة المفسرون، ومعنى آخر، وهو تأويل الأحاديث، بمعنى تفسير الأحداث واستشرافها والتخطيط لها، وهذا ما حصل عندما ولي أمر تدبير ما بدء تحققه مما توقعه بعد تأول الرؤيا.

ولعل هذا الضرب من تأويل الأحاديث فيه شبه مما أعطيه عمر بن الخطاب ـرضي الله تعالى عنهـ، فقد كان النبي ـصلى الله عليه وسلمـ يقول: "قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم" [أخرجاه في الصحيحين] وليس ذلك من ادعاء علم الغيب. كلا وحاشا، بل هي فراسة وعلم قائم بذاته، يبنى على الحقائق والدراسات والأرقام. يلهمه الله بعض خلقه، وخاصة إذا توافر فيهم الصدق، والإيمان، والتقوى، فينير الله بصيرتهم، ويجعل لهم فرقاناً.

ولعل الناظر إلى علم دراسات المستقبل، والذي غدا اليوم علماً مستقلاً يدرس في أعرق الجامعات، يلحظ أن الذين تفارقهم التقوى والإيمان يخطئون كثيراً في هذا الجانب رغم عظم ما عندهم من وسائل مادية وإمكانات.

أما إذا توافر مع هذا العلم تقوى وورع وصدق مع الله ـجل وعلاـ والتجاء إليه، فيجعل الله لأصحابه فرقاناً يميزون به بين الحق والباطل، وفراسة لا تكاد تخطئ، وقد قال الله ـعز وجلـ:

"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ "(البقرة: من الآية٢٨٢). "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً"(لأنفال: من الآية٢٩).

كما إن دراسة السنن الكونية من الأهمية بمكان، فالسنن لا تتخلف. وكذلك دراسة التاريخ الذي تمر به حوادث مشابهة يستفيد اللبيب من نتائج تصرفات أهل تلك الحقبة، وكل ذلك جزء مما يسمى اليوم بعلم (فقه الواقع)، والذي يجب أن يبنى على الكتاب والسنة، ويجب أن نكون فيه وسط بين الإفراط والتفريط.

فهناك من غلا في هذا العلم فأخرجه عن حده، وهناك من أنكره، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فأصل هذا العلم في الكتاب والسنة، وفي سيرة السلف ــرضوان الله تعالى عليهمــ وهو علم له أصوله ومنطلقاته، كما أنه من أهم ما نحتاج إليه في عصرنا الحاضر، بل ما أحوجنا إلى أن تنشأ له المعاهد والكليات المتخصصة، وما أحوجنا إلى ربطه بالكتاب والسنة، و السنن الكونية والأحداث التاريخية، مع ملاحظة واقعنا وقدراتنا وإمكاناتنا وأحوال أعدائنا، مع الالتجاء إلى الله بأن يهدينا سواء السبيل "اللهم اهدني وسددني" كما ورد في حديث علي عند مسلم.

وبهذا يكون تعاملنا مع هذا العلم تعاملاً واقعياً بلا إفراط أو تفريط ، ويكون عالم الشرعية على مستوى من الوعي بما يقع في أمته وما يحيط بها من أخطار.

وبهذا نصبح قادرين على رسم الطريق الصحيح لخروج الأمة من واقعها الأليم، قادرين على استثمار كل خطأ وكل حدث قد يصدر من الآخرين، مترقبين له متوقعين، وبهذا يحصل العز والتمكين للمسلمين، كما حصل لنبي الله يوسف من قبل "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ".

نسأل الله أن يعز جنده، وأن يظهر كتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

الجهاد في سبيل الله فضله ومراتبه وأسباب النصر على الأعداء

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، أما بعد،،،

فهذه كلمات مختصرة في 'فضل الجهاد في سبيل الله تعالى، وأسباب النصر على الأعداء'، أوجهها إلى كل مجاهد لإعلاء كلمة الله، والله أسال أن ينصر المجاهدين في سبيله في كل مكان، وأن يوفقهم للعمل بعوامل النصر وأسبابه، والإخلاص في القول والعمل، والرغبة فيما عند الله من الثواب العظيم والتجارة الرابحة، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

أولًا: مفهوم الجهاد لغة وشرعًا:

لغة: بذل واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل.

شرعًا: بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار، والبغاة، والمرتدين ونحوهم.

ثانيًا: حكم الجهاد في سبيل الله تعالى:الجهاد فرض كفاية، إذا قام به من يكفي من المسلمين؛ سقط الإثم عن الباقين [انظر:المغني لابن قدامة]. قال تعالى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[١٢٢]}[سورة التوبة].

ويكون الجهاد فرض عين في ثلاث حالات[انظر:المغني لابن قدامة]:

١ـ إذا حضر المسلم القتال والتقى الزحفان وتقابل الصفان، قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ[١٥]وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[١٦]}[سورة الأنفال]. وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن التولي يوم الزحف من السبع الموبقات [رواه البخاري ومسلم].

٢ـ إذا حضر العدو بلدًا من بلدان المسلمين تعين على أهل البلاد قتاله وطرده منها، ويلزم المسلمين أن ينصروا ذلك البلد إذا عجز أهله عن إخراج العدو، ويبدأ الوجوب بالأقرب فالأقرب، قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[١٢٣]}[سورة التوبة].

٣ـ إذا استنفر إمام المسلمين الناس وطلب منهم ذلك.

وجنس الجهاد فرض عين: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد. فيجب على المسلم أن يجاهد في سبيل الله بنوع من هذه الأنواع حسب الحاجة والقدرة. والأمر بالجهاد بالنفس والمال كثير في القرآن والسنة، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ] رواه أبوداود والنسائي وأحمد.

ثالثًا: مراتب الجهاد في سبيل الله:الجهاد له أربع مراتب: جهاد النفس، والشيطان، والكفار، والمنافقين، وأصحاب الظلم والبدع والمنكرات .

رابعًا: الحكمة من مشروعية الجهاد: بيّنه سبحانه فقال:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٣٩]}[سورة الأنفال]. وقال عز وجل:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ[١٩٣]}[سورة البقرة].

فعلى هذا يكون الهدف والحكمة من الجهاد الأمور التالية:

أولاً: إعلاء كلمة الله تعالى: لحديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: [مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] رواه البخاري ومسلم.

ثانيًا: نصر المظلومين: قال تعالى:{ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا[٧٥]}[سورة النساء].

ثالثًا: ردّ العدوان وحفظ الإسلام: قال الله تعالى: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[١٩٤]}[سورة البقرة]. وقال سبحانه:{ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]}[سورة الحج].

خامسًا: أنواع جهاد الأعداء:

١ــ جهاد الكفار، والمنافقين، والمرتدين[انظر التفصيل في زاد المعاد ٣/١٠٠ و٦-١١ والمغني لابن قدامة ١٢/٢٦٤].

٢ــ جهاد البغاة .

٣ــ الدفاع عن الدين، والنفس، والأهل والمال:عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ]رواه أبوداود والترمذي والنسائي وأحمد.

وعَنْ مُخَارِقٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ الرَّجُلُ يَأْتِينِي فَيُرِيدُ مَالِي قَالَ: [ذَكِّرْهُ بِاللَّهِ] قَالَ فَإِنْ لَمْ يَذَّكَّرْ قَالَ: [فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَنْ حَوْلَكَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ] قَالَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَوْلِي أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَالَ: [فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ] قَالَ فَإِنْ نَأَى السُّلْطَانُ عَنِّي قَالَ: [قَاتِلْ دُونَ مَالِكَ حَتَّى تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الْآخِرَةِ أَوْ تَمْنَعَ مَالَكَ]رواه النسائي وأحمد.

سادسًا: فضل الجهاد في سبيل الله تعالى: من ذلك على سبيل المثال:

١ــ الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة:

قال الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[١١١]}[سورة التوبة].

وقال تعالى في تجارة المجاهدين الرابحة:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[١٠]تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[١١]يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[١٢]وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[١٣]}[سورة الصف].

وقال سبحانه: { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[٧٤] }[سورة النساء].

٢ــ فضل الرباط في سبيل الله تعالى: الرباط على الثغور التي يمكن أن تكون منافذ ينطلق منها العدو إلى دار الإسلام له فضل عظيم، فعَنْ سَلْمَانَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ]رواه مسلم.

٣ــ فضل الحراسة في سبيل الله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] رواه الترمذي.

٤ــ فضل الغدوة أو الروحة في سبيل الله: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا]رواه البخاري، ومسلم-مختصرا-.

٥ــ فضل من اغبرَّت قدماه في سبيل الله: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ] رواه البخاري.

٦ــ الجنة تحت ظلال السيوف: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ]رواه البخاري ومسلم.

٧ــ الجهاد لا يعدله شيء: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ: [لَا أَجِدُهُ] قَالَ: [هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ] قَالَ وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ . رواه البخاري ومسلم .

٨ ــ درجات المجاهدين في سبيل الله: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ]رواه البخاري.

٩ــ ضيافة الشهداء عند ربهم: عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ وَيُزَوَّجُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ]رواه ابن ماجة والترمذي وأحمد. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في

وصف الحور العين: [...وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا]رواه البخاري.

١٠ــ دم الشهيد يوم القيامة: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ]رواه البخاري ومسلم-واللفظ له-.

١١ــ تمني الشهيد أن يقتل عشر مرات:عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ]رواه البخاري ومسلم.

١٢ــ أرواح الشهداء تسرح في الجنة: عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[١٦٩]}[سورة آل عمران] قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: [أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا] رواه مسلم .

١٣ــ ما يجد الشهيد من ألم القتل:عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [الشَّهِيدُ لَا يَجِدُ مَسَّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ الْقَرْصَةَ يُقْرَصُهَا]رواه النسائي والترمذي وابن ماجة والدارمي وأحمد.

١٤ــ فضل النفقة في سبيل الله: قال تعالى:{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[٢٦١]} [سورة البقرة]. وعَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ]رواه النسائي.

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ]رواه مسلم.

١٥ـــ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون: قال الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[١٦٩] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ[١٧٠] يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ[١٧١]} [سورة آل عمران].

١٦ـــ الجهاد باب من أبواب الجنة: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنَجِّي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ مِنْ الْهَمِّ وَالْغَمِّ]رواه أحمد.

١٧ـــ ما يُبلِّغ منازل الشهداء:ويحصل هذا الخير العظيم لمن سأل الله الشهادة بصدق، فعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ] رواه مسلم .

١٨ـــ فضل المجاهدين على القاعدين:قال الله: { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا[٩٥]دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[٩٦]}[سورة النساء].

١٩ـــ الرحمة والمغفرة للشهداء:قال الله تعالى:{وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[١٥٧]وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ[١٥٨]}[سورة آل عمران].

٢٠ـــ القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدَّين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ] رواه مسلم.

٢١ـــ المجاهد بنفسه وماله أفضل الناس:عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ] قَالُوا ثُمَّ مَنْ قَالَ: [مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ]رواه البخاري ومسلم.

٢٢ـــ من خرج من بيته مجاهدًا فمات فقد وقع أجره على الله: قال الله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[١٠٠]}[سورة آل عمران]. و عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ] رواه البخاري ومسلم.

والأعمال بالنيات، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتِيكٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ أَوْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٢٣ـــ مثل المجاهد في سبيل الله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: [لَا تَسْتَطِيعُونَهُ] قَالَ فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: [لَا تَسْتَطِيعُونَهُ] وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: [مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى] رواه البخاري ومسلم.

٢٤ـــ ذروة الإسلام الجهاد في سبيل الله:عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: [رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ]رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد.

٢٥ـــ سياحة أمة محمد صلى الله عليه وسلم الجهاد في سبيل الله: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى]رواه أبوداود.

٢٦ـــ الرمي بسهم في سبيل الله يعدل إعتاق رقبة:عَنْ أَبِي نَجِيحٍ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ لَهُ عَدْلُ مُحَرَّرٍ] رواه الترمذي وصححه. والمحرَّرُ: الرقبة المعتقة، والعدل: المثل. ولفظ ابن ماجة: [مَنْ رَمَى الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ فَبَلَغَ سَهْمُهُ الْعَدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ فَعَدْلُ رَقَبَةٍ].

٢٧ـــ عمل قليلاً وأجر كثيرًا: عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ قَالَ: [أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ] فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا]رواه البخاري ومسلم.

٢٨ـــ من جهّز غازيًا فقد غزا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا] رواه البخاري ومسلم. وتجهيز الغازي: تحميله، وإعداد ما يحتاج إليه في غزوه، ومعنى خلف غازيًا في أهله: أي قام مقامه في مراعاة أحوال أهله..

سابعًا: الترهيب من ترك الجهاد:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ]رواه مسلم.

وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] رواه أبوداود وابن ماجة والدارمي، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ]رواه أبوداود وأحمد. وللحث على الاستعداد

للجهاد في سبيل الله، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى]رواه مسلم .

ثامنًا:أسباب النصر على الأعداء:

١ــ الإيمان والعمل الصالح: قال تعالى:{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ[٥١] يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[٥٢]}[سورة غافر]. وقال سبحانه:{...وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[٤٧]}[سورة الروم].

والمؤمنون الموعودون بالنصر هم الموصوفون بقوله تعالى:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[٢]الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[٣]أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[٤]}[سورة الأنفال]. وقال تعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[٥٥]}[سورة النور].

٢ــ نصر دين الله: ومن أعظم أسباب النصر: نصر دين الله والقيام به قولاً، واعتقادًا، وعملاً، ودعوة، قال الله تعالى:{وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠] الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. وقال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ[٧] وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ[٨]}[سورة محمد].

٣ــ التوكل على الله مع إعداد القوة من أعظم عوامل النصر: قال سبحانه:{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[١٦٠]}[سورة آل عمران]. ولابد من التوكل من الأخذ بالأسباب؛ لأن التوكل يقوم على ركنين عظيمين:

الأول: الاعتماد على الله، والثقة بوعده ونصره.

الثاني: الأخذ بالأسباب المشروعة؛ ولهذا قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[٦٠]}[سورة الأنفال].

٤ــ المشاورة بين المسؤولين لتعبئة الجيوش الإسلامية: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه مع كمال عقله، وسداد رأيه، قال سبحانه:{...وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...[٣٨]}[سورة الشورى].

٥ــ الثبات عند لقاء العدو:عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ]رواه البخاري ومسلم.

٦ــ الشجاعة والبطولة والتضحية:والاعتقاد بأن الجهاد لا يقدم الموت ولا يؤخره، قال الله تعالى:{ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ...[٧٨]}[سورة النساء].

قال الشاعر:

من لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد

ولهذا كان أهل الإيمان الكامل هم أشجع الناس، وأكملهم شجاعة هو إمامهم محمد عليه الصلاة والسلام، وقد ظهرت شجاعته في المعارك الكبرى التي قاتل فيها.

٧ــ الدعاء وكثرة الذكر: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٤٥]}[سورة الأنفال] . وكان صلى الله عليه وسلم يدعو الله في جميع معاركه، ومن ذلك:

مارواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: [اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اللَّهُمَّ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا غَزَا قَالَ: [اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أُقَاتِلُ]رواه أبوداود والترمذي. وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:' حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا:{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[١٧٣]}[سورة آل عمران]'رواه البخاري. وهكذا ينبغي أن يكون المجاهدون في سبيل الله .

٨ ــ طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: وهي من أقوى دعائم وعوامل النصر، ولهذا قال تعالى:{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[٤٦]}[سورة الأنفال]. وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ]رواه أحمد.

٩ ــ الاجتماع وعدم النزاع: يجب على المجاهدين أن يحققوا عوامل النصر ولا سيما الاعتصام بالله، والتكاتف، وعدم النزاع والافتراق، قال تعالى:{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[٤٦]}[سورة الأنفال]. وقال عز وجل: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...[١٠٣]}[سورة آل عمران].

١٠ ــ الصبر والمصابرة: قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٢٠٠]}[سورة آل عمران]. وجاء في الحديث: [...وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا]رواه أحمد. وقال تعالى:{ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ[١٤٦]وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[١٤٧]}[سورة آل عمران].

١١ــ الإخلاص لله تعالى:لا يكون المقاتل مجاهدًا في سبيل الله إلا بالإخلاص، قال تعالى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[٦٩]}[سورة العنكبوت]. وعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: [مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] رواه البخاري ومسلم. وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...] رواه مسلم.

١٢ــ الرغبة فيما عند الله: مما يعين على النصر على الأعداء هو الطمع في فضل الله وسعادة الدنيا والآخرة؛ ولهذا نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده، ومما يدل على الرغبة فيما عند الله تعالى ما يأتي:

أولاً: ما فعل عمير بن الحمام في بدر حينما قال عليه الصلاة والسلام: [قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ] فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَالَ : [نَعَمْ] قَالَ بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ] قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ: [فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا] فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

ثانيًا: ما فعل أنس بن النضر – عمّ أنس بن مالك – يوم أحد، تأخر عن معركة بدر، فشق عليه ذلك وقال: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُيِّبْتُ عَنْهُ وَإِنْ أَرَانِيَ اللَّهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَرَانِي اللَّهُ مَا أَصْنَعُ قَالَ فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا قَالَ فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ فَقَالَ وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ قَالَ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ قَالَ فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ قَالَ فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِيَ الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ وَنَزَلَتْ

هَذِهِ الْآيَةُ: {...رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا[٢٣]}[سورة الأحزاب] قَالَ فَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ .رواه البخاري ومسلم-واللفظ له- .

.والمسلم المجاهد في سبيل الله تعالى إذا رغب فيما عند الله تعالى، فإنه لا يبالي بما أصابه رغبة في الفوز العظيم.

فلست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

١٣ــ إسناد القيادة لأهل الإيمان.

١٤ــ التحصن بالدعائم المنجيات من المهالك، والهزائم، ونزول العذاب: ومن ذلك:

أولاً: التوبة والاستغفار من جميع المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها .

ثانيًا: تقوى الله تعالى.

ثالثًا: أداء الفرائض وإتباعها بالنوافل؛ لأن محبة الله لعبده تحصل بذلك، فإذا أحبه نصره، ووفقه، وسدده وأعانه. لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ] رواه البخاري.

رابعًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامسًا: الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في جميع الاعتقادات، والأقوال والأفعال.

سادسًا: الدعاء والضراعة إلى الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

من كتاب:'الجهاد في سبيل الله : فضله، ومراتبه، وأسباب النصر على الأعداء'

للشيخ/ سعيد بن علي بن وهف القحطاني

الخوف من الله ..وجيل النصر

الحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسنا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها، وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيراً وَنساءً، واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَساءَلُونَ بِهِ والأرْحامَ إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً؟[النساء:١]. ؟يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ

وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون؟ [آل عمران:١٠٢]. ؟ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمالَكُمْ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّـــهَ وَرَسُـــولَهُ فَقَــدْ فَــازَ فَــوْزَاً عَظِيمـــاً؟ [الأحزاب:٧١].

إن من الوسائل المهمة التي تحيي القلب وتدفع بالعبد إلى التسابق في الخيرات، وتحــول بينـــه وبـــين المعاصي والآثام، هي الخوف من الله عز وجل، إننا نريد خوفاً يصل بنا إلى درجة الانزعاج والفـــزع، فتتصدع به القلوب وتشيب له الرؤوس ، فإن لم يصل الخوف إلى هذه الدرجة أو قريباً منـــها فـــإن التأثر به يصبح وقتياً يزول أثره.

إن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً بدءوا دعوقم بتحذير أقوامهم من المآل الـــذي ينتظرهم إن استمروا على ما هم عليه من كفر وفساد وإعراض، فنوح عليه السلام يقول لقومه ؟ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ؟[نوح:٢] وقال لهم ؟... يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْـــرُهُ إِنِّـــيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ؟[الأعراف:٥٩]

وهود عليه السلام يقول لقومه كما قص الله: ؟ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَــتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّـــي أَخَـــافُ عَلَـــيْكُمْ عَـــذَابَ يَـــوْمٍ عَظِـــيمٍ ؟[الأحقاف:٢١]. وهكذا جميع الأنبياء أنذروا وخوفوا الذين أرسلوا إليهم، ورسول الله – صـــلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء وإمام المرسلين لما نزل عليه قول الله: ؟ وَأَنـــذِرْ عَشِـــيرَتَكَ الْـــأَقْرَبِينَ ؟[الشعراء:٢١٤].

صعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الصفا، فجعل ينادي

"يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يســتطع أن يخـــرج أرســـل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي) . قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال (فإني نذير لكم بين يدي عـــذاب شديد) . فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت { تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغـــنى عنه ماله وما كسب "

وفي رواية أنه جعل يقول – صلى الله عليه وسلم – : "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل(وأنذر عشيرتك الأقربين) . قال (يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا يا بني مناف لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغـــني عنك من الله شيئا ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا"

إن الخوف من الله تعالى هو الوسيلة الأكيدة التي توقظ الراقدين، وتنبه الغافلين، استخدمها الرسل أجمعون، وسار على نهجهم الدعاة الصادقون والعلماء العاملون، ففتح الله على أيديهم أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

الخوف من الله هو الدواء الناجح لمن أسر قلبه الهوى، وغلب عليه حب الدنيا ، الخوف من الله هو البداية الحقيقية لسير القلب إلى الله كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الصحيح: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المترل إلا إن سلعة الله غالية ، ألا أن سلعة الله الجنة".

والمعنى من خاف الله عز وجل حمله خوفه على سلوك الصراط المستقيم والإقبال على الآخرة والمبادرة بالعمل الصالح خوفاً من الشواغل والقواطع والعوائق. كالمسافر الذي يغتنم أوقات الليل فيقطع المسافات قبل طلوع الشمس وحرارة الجو ونفاد الزاد وعند الصباح يحمد القوم.

وعن إبراهيم بن شيبان قال: الخوف إذا سكن القلب أحرق مواضع الشهوات فيه، وطرد منه رغبة الدنيا، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا.

وقال ذو النون المصري: الناس على طريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق، و لم لا يكون الخوف على هذه الدرجة من الأهمية؟ وقد مدح الله أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فقال عنهم: ؟... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ؟[الأنبياء: ٩٠] ، وقال عن المؤمنين: ؟ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ؟[الرعد: ٢١].

وأثنى على الملائكة لخوفهم الشديد من رهم فقال: ؟ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ؟[النحل: ٥٠] ، ؟... وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ؟[الأنبياء:٢٨].

ووبخ الله الكفار على غفلتهم وجرأهم على محارم الله فقال على لسان نبيه : ؟ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ؟[نوح: ١٣] ، قيل في التفسير لا تخافون عظمة الله.

إن الخوف من الله هو الذي منع ابن آدم الأول أن يقتل أخاه عندما هم بقتله فقال: ؟ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ؟[المائدة: ٢٨].

الخوف من الله هو الذي دفع الرجلين من بني إسرائيل إلى حث قومهما على الشجاعة والثبات والدخول عل الجبارين لجهادهم ومقاتلتهم : ؟ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ؟[المائدة: ٢٣].

والخوف من الله هو الذي أعان القلة الباقية مع طالوت على الثبات وهزيمة جالوت وجنوده كما قال تعالى مخبراً عنهم: ؟ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ؟[البقرة: ٢٤٩].

والخوف من الله والإيمان به هو الذي جعل أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – يقولون حينما خوفهم المرجفون بالناس فكان كما قال سبحانه عنهم: ؟ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ؟[آل عمران١٧٣].

الذين يخافون الله لا يخشون غيره كائناً من كان وقديماً قال الحسن البصري رحمه الله : من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء.

الخوف من الله هو الذي يدفع العباد إلى إخلاص الدين والعمل لله فلا يبتغون به جزاءاً دنيوياً، ولا مدحاً أو ثناء وإطراء من الناس كما قال تعالى عن المؤمنين: ؟وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ؟[الإنسان:٨-١٠].

الخوف من الله عز وجل من أهم صفات ومواصفات جيل النصر جيل التمكين والاستخلاف في الأرض كما قال سبحانه وتعالى: ؟ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ؟[إبراهيم:١٣-١٤].

إن الخوف من الله عز وجل هو حقيقة التقوى، هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين، قال تعالى: ؟... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ...؟[النساء: ١٣١].

الخوف من الله عز وجل هو سبيل الفوز يوم القيامة كما قال سبحانه : ؟ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ؟[النور: ٥٢].

الخوف من الله هو رأس الحكمة كما قال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – خير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله.

والناس إنما يقتربون ويبتعدون عن ربهم بمقدار التقوى والخوف من قلوبهم يقول سبحانه: ؟ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...؟[الحجرات:١٣] ، والعبادات والطاعات التي شرعها الله هي من أجل زيادة التقوى والخوف من الله ، وخضوع القلوب وخشوعها لبارئها وخالقها فليس المطلوب من العبادات والطاعات بجوارحهم، دون أن تتأثر بها قلوبهم، قال تعالى عن الأضاحي والهدايا التي يتقرب بها إلى الله يوم النحر : ؟ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ...؟[الحج: ٣٧] فالمراد من إراقة دماء الهدي في الحج هو زيادة التقوى في القلوب.

وكذلك الحال في سائر العبادات والطاعات، فشهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هي كلمة التقوى من قالها خالصاً من قلبه عاملاً بها دخل الجنة.

والصلاة عنوان الفوز والفلاح مربوطة بالخشوع ؟ ...وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ؟[البقرة: ٤٥] ، ؟ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ؟[المؤمنون:١-٢] ، ؟ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ؟[الإسراء: ١٠٩].

والزكاة تطهر النفس وتسمو بها وهي دليل الصدق والإيمان : ؟ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ...؟[التوبة: ١٠٣]، والصدقة برهان والصوم الذي فرضه الله تعالى إنما هو لتربية الروح والنفس على الإيمان والتقوى ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ؟[البقرة: ١٨٣].

والقرآن إنما ينتفع به الذين يخافون ويتقون ؟ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ؟[الأنعام: ٥١] ، ؟ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً... ؟[الأنفال:٢].

فالتقوى هي مقصود العبادات والطاعات، ولذلك أمر الله تعالى عباده بالتزود منها فقال سبحانه: ؟... وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ؟[البقرة: ١٩٧].

الخطبة الثانية:

الخوف من الله تعالى أصل كل خير في الدنيا والآخرة كما قال أو سليمان الداراني : الخوف من الله عز وجل هو سمة الأنبياء والصالحين، يقول – صلى الله عليه وسلم – : "إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى"، وقال أبو بكر – رضي الله عنه –: يا رسول الله، أراك شبت؟ فقال : "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت".

ويقول عبد الله الشخير بن عوف – رضي الله عنه – : رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء.

وروي عن أبي بكر – رضي الله عنه – أنه كان يمسك بلسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيراً خوفاً من الله.

ويقول: ياليتني خَضرة تأكلني الدواب.

وعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قرأ سورة الطور.. حتى إذا بلغ قول الله عز وجل: ؟ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ؟[الطور:٧] بكى واشتد بكاؤه، حتى مرض وعاده الناس.

وكان في وجهه – رضي الله عنه – خطان أسودان من البكاء، قال له ابن عباس رضي الله عنهما في مرض موته: يا أمير المؤمنين مصر بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال: وددت أن أنجو ولا أجر ولا وزر. وعثمان بن عفان – رضي الله عنه –، كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – كان يبكي خوفاً من الله.. وكان يقول يا دنيا غري غيري، وأبو الدرداء – رضي الله عنه – كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء، قد علمت فكيف عملت فيما علمت.

وقرأ تميم الدري – رضي الله عنه – ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية؟ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ؟[الجاثية: ٢١] ، جعل يرددها ويبكي عليها حتى أصبح وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله إذا ذكر الموت خنقته العبرة وكان يقول : الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان علي كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل.

أيها المؤمنون إن اضطراب أمورنا وأحوالنا وفسادها سببها عدم الخوف من الله والدار الآخرة، فسبب إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين واستكبار المستكبرين هو عدم خوفهم من الله والدار الآخرة كما قال تعالى فيهم: ؟ كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ؟[المدثر: ٥٣] ، فلو خافوها لما أعرضوا ولما غفلوا : ؟ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ؟[المدثر:٤٩-٥٣].

الذين يمارسون الظلم ويعتدون على الآخرين في أموالهم وأعراضهم ودمائهم الذين يفعلون ذلك لا يخافون الله ولا يرجون لقاءه الذين ينتهكون المحرمات ويستبيحون الزنا والربا والخمر ويروجون للفساد في المجتمعات هؤلاء لا يخافون الله ولا يخافون الآخرة.

الذي يعبث بمقدرات الأمة ويهدر ثرواتها ويبدد طاقاتها الذي يسرق وينهب ويختلس ويخادع هؤلاء لا يخافون الله ولا يخافون الآخرة.

الذي يخون دينه ويتآمر على أمته ويبيع أخلاقه وقيمه ومبادئه بعرض من الدنيا قليل، من يفعل ذلك لا يخاف الله ولا يخاف من لقاءه.

من يحارب أولياء الله ويوالي أعداء الله، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من يفعل ذلك لا يخاف الله ولا يرجو لقاءه. هذا الموقف المتخاذل والمخزي والمشين الذي يقفه الحكام وتتفرج الشعوب على إخوانهم الذين يقتلون ويشردون ويحاصرون ويتآمر عليهم العدو الخارجي والداخلي في فلسطين سببه عدم الخوف من الله وعدم اليقين بلقائه.

أمور كثيرة ومظاهر عديدة تعج بها الأسر والمجتمعات وتكتوي بنارها في الحياة سببها الحقيقي الجهل بالله وعدم الخوف منه، والاغترار بهذه الحياة الزائلة والمنقضية.

وإذا ما أردنا أن نصلح نفوسنا وأحوالنا فما علينا إلا أن نتعرف على الله ربنا وخالقنا وأن نطيعه وأن نخافه وأن نذكره ونشكره ونواصل الليل بالنهار في ذكره وشكره وطاعته وعبادته لنكون من أهل

قوله سبحانه وتعالى: ؟ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ؟[الزمر: ٩].

العلم الذي يعرفك بالله ويكسبك خوفه وتقواه هو العلم النافع الذي يخلصك من عذاب الله، هذا العلم لا يوجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ويلتمس عند العلماء الربانيين الذين يخشون الله ويتقونه كما بينهم في كتابه العزيز.

راجعه/ عبد الحميد أحمد مرشد.

(١)ـــ البخاري ١٧٨٧/٤ ، حديث رقم: ٤٤٩٢.

(٢)ـــ البخاري ١٠١٢/٣، حديث رقم: ٢٦٠٢.

(٣)ـــ سنن الترمذي ٦٣٣/٤ ، حديث رقم: ٢٤٥٠، وصححه الألباني.

(٤)ـــ سنن الترمذي ٥٦٦/٤ ، حديث رقم: ٢٣١٢ ، وحسنه الألباني.

(٥)ـــ سنن الترمذي ٤٠٢/٥ ، حديث رقم: ٣٢٩٧، وصححه الألباني.

بوابة النصر الانتصار على النفس ١٤٢٥/٧/٢٦

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

يقول الله تعالى: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(يوسف: من الآية٢١). ويأتي مصداق هذه الآية تمكين يوسف بعد محن عظام، فكيف مكن ليوسف في الأرض؟ يأتي هذا السؤال، وأمتنا تعيش هذه الظروف الصعبة من تسلط الأعداء، ومن ظلم الظالمين، حتى بلغ اليأس مبلغه في نفوس كثير من المسلمين. فيأتي التساؤل، هل لهذه الأزمة من مخرج؟ هل لهذا البلاء من نهاية؟ هل يمكن أن ينتصر الدعاة، تنتصر المؤسسات، رغم ما يحاك لها؟ ورغم واقعها! ولماذا فشلت كثير من المؤسسات والدعوات في هذا العصر.

لماذا؟ لأنها أخلت بأركان الانتصار.

إن هناك عوامل التزمها يوسف عليه السلام فظهر وانتصر، وما التزم بها فرد أو جماعة أو أمة إلا انتصرت. الانتصار العاجل والانتصار الآجل. وسأقف مع أبرز هذه العوامل والأسباب التي كانت ظاهرة في سورة يوسف.

إن أول انتصار حققه يوسف عليه السلام، هو انتصاره على نفسه. ومن لا ينتصر على نفسه لن ينتصر على غيره، فالمهزوم من هزمته نفسه قبل أن يهزمه عدوه. إن بداية انتصار يوسف عليه السلام هي انتصاره على نفسه. عندما تفاجأ إخوانه، بأن الذي أمامهم هو عزيز مصر، (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) (يوسف:٨٨) (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ) (قَالُوا

أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ،قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا)(يوسف: من الآية٩١)، فانتصر يوسف عليه السلام على نفسه عندما انتصر، وانتصر لأنه انتصر على نفسه فلم يحمل حقداً جراء ما حصل، وبعض الناس يعميه الحقد أو الحسد فتغلي نفسه يقوم ويقعد ولاهم له إلاّ النيل ممن أخطأ في حقه فيخطئ بذلك درب المعالي وعزم الأمور وينشغل بالسفاسف والقضايا الشخصية وبنيات الطريق (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور).

ومن مظاهر انتصار يوسف عليه السلام على نفسه قصته مع امرأة العزيز، فقد انتصر فيها انتصارات متعددة، (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)، فانتصر على نفسه في مراودة امرأة العزيز له، ويبين هذا الانتصار قوله صلى الله عليه وسلم، في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، "ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله" [متفق عليه]. فقوله إني أخاف الله انتصار عظيم. يوسف عليه السلام قال: (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون). وذلك انتصار وأي انتصار على النفس في هذه المعركة الشرسة ومع من! مع امرأة العزيز.

ثم بعد ذلك انتصر يوسف على نفسه ولسانه بعفة منطقه العجيبة! أتريد أن تعرف عظم هذا الانتصار؟ قسه بمقداره تمكنك من سيطرتك على لسانك. وعندما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أمسك عليك لسانك. قال له الصحابي الجليل أو نحن مؤاخذون بما نتكلم به؟ قال له ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ [رواه الحاكم وصححه].

لقد رأيت عجباً في سيرة يوسف عليه السلام من عفة منطقه ولسانه؛ مع إخوانه، ومع العزيز، ومع امرأة العزيز. عفة ندركها عندما نرى ضعف الآخرين في سيطرتهم على ألسنتهم. وإليك بعض الأمثلة التي تدل على عفته وانتصاره على لسانه بينما عجز كثير عن ذلك:

لما أرسل له الملك يطلب منه الخروج من السجن في المرحلة الأولى، قال للرسول: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن). أين العفة؟ لم يقل له ارجع إلى ربك فاسأله عن امرأة العزيز التي راودتني، لم ينطق بها. قال: (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن)، من أجل ألا يحرجها، وألا يحرج النسوة، وألا يحرج زوج المرأة. هذه عفة وتعبير عن المراد بأسلوب عجيب.

انتصر على نفسه عندما جاءه إخوانه وقالوا له في قصتهم مع أخيه، قالوا: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل). هذه القضية تهمة اتهم بها يوسف وهو منها بريء عليه السلام، وذلك عندما كان صغيرا. وقد ذكر المفسرون أقوالا لعله يتأتى المرور عليها في حينها إن شاء الله. والآن وهو عزيز مصر، وهم لا يعلمون أنه يوسف، وبعدما فعلوا به ما فعلوا، وهو يدرك أن كل ما مر به من محن في تاريخه بسببهم؛ من بعد عن أبيه، ومن رمي في البئر، ومن سجن، في قصة امرأة العزيز، ومرة أخرى

يكررون تهمة باطلة. ماذا فعل؟ هل ضربهم؟ هل سجنهم؟ هل رد عليهم أمام الملأ؟ لا .. (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)(يوسف: من الآية٧٧)، (قال أنتم شر مكانا). فأسرها في نفسه و لم يبدها لهم. وأي انتصار على النفس هذا الانتصار!

ومن انتصاره على نفسه أيضا وهو تبع لهذا الموضوع، الدقة العجيبة في التعبير عما يريد دون أن يقع في الكذب إطلاقا. وكل منا يحاسب نفسه وينظر مدى قدرته على حفظ لسانه وإبعاده عن الزور. لما قال له إخوانه و لم يعلموا أنه يوسف، (أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين). ماذا قال؟ قال: (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده). لم يقل معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق. وإنما قال: (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده)، لأن أخاه لم يسرق، وهو يعرف أن أخاه لم يسرق. فكيف يعبر بتعبير يتخلص من مطلبهم دون أن يقول كلمة زور واحدة، بل قال الحقيقة: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده. وهم قد وجدوا متاعهم عند بنيامين حقاً، لكنه لم يسرق، وهذا التعبير دقيق، انتصار على النفس والشيطان والهوى، وأعظم ما يكون عندما يكون من رجل في السلطة يستطيع أن ينفذ ما يريد ويقول ما يشاء، وقد لا يحاسبه أحد في الدنيا، ومع ذلك يحاسب يوسف عليه السلام نفسه قبل أن يحاسبه الناس.

ومن انتصار عليه السلام على نفسه، عفوه عن إخوانه. هل تريد، أن تعرف مقدار هذا الانتصار؟ لنتأمل أحوالنا، قد يسيء إلينا بعض الناس، إساءات قد نكون سببا فيها، أو قد نشارك في نسبة من سبب تلك الإساءة، ومع ذلك نعجز عن العفو أو الصفح! بل أعجب من هذا إذا عفونا أو صفحنا أتبعنا ذلك بالإساءة لهم عن طريق المن عليهم، بعفونا عنهم! مع أن ما يمر بنا قد لا يعادل جزءا يسيرا مما حصل ليوسف عليه السلام، ابتداء من أول القصة إلى هذه المرحلة. فماذا كانت النتيجة وكيف كان تصرفه؟ (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين). (قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم). دون تأنيب ودون عذل ودون سجن. تسامح، وصفح، وعفو..

وإن الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحوهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس زعيم القوم من يحمل الحقدا

إنه الانتصار على النفس، إذا هذه المسائل بمجموعها تدل على أن يوسف عليه السلام انتصر على نفسه،فولج بوابة الانتصار.

نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن يهدينا لأحسن الأفعال والأخلاق، وصـــلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بوابة النصر

رئيسي :تربية :الأربعاء ٨ شعبان ١٤٢٥هـــ - ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٤ م

الحمد لله القوي الجبار، المتين القهار، والصلاة والسلام على سيِّد الأنبياء الأخيار، وعلى آله وصحبه الأطهار، ومن تبعهم من الصالحين الأبرار، أما بعد،،،

في ظلام الليل الذي يعقبه نور الصباح.. وفي نـــزول القطـــر بعـــد إقفـــار الأرض.. وفي أحـــوال كثيرات..وبما في تضاعيف التأريخ المُشْرِق لهذه الأمة من بواعث النصر، ومُحْييات التمكين؛ نـــزداد يقيناً، واقتناعاً بما في أُفق الدنيا من لوائح المبشرات، وحينها ؛ نعم في ذلك الحين ينبثق نـــور بوابـــة النصر..فَيَلِجُ منها من ذاق مرارة السطوة الظالمة، ويدخل منها من تفطرت كبده قهراً على تكالـــب سُرَّاق المشاعر، فإلى أولئك أقول: عليكم بما في ثنايا الموضوع فإنها أعمدة تلـــك البوابـــة، وعلـــيكم باغتنام سويعات النصر فإن الفجر لاح، وحذار من مُغْلِقَاتِ البوابة فهي كثيرة محبوبة .

أولاً: أعمدة النصر:

١- الإيمان بالله والنصر: قال تعالى:{...وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[٤٧]}[سورة الروم]. وقـــال تعالى:{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...[٥١]}[سورة غافر].

في هاتين الآيتين قضى الله أن نصره وتأييده إنما هولعباده المؤمنين.. نعم؛ إن النصر، والـــتمكين حـــقٌ لكل مؤمن بالله، لكل من عَمَرَ قلبه بالإيمان الصادق، والإسلام الخالص، والانقياد التام لله ورســـوله صلى الله عليه وسلم.

إن تحلي العباد بالإيمان بالله برهان كبير على أنهم هم المنصورون، وأنهم هم الجنـــد الغالبون:{وَلَقَـــدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَـــا لِعِبَادِنَـــا الْمُرْسَـــلِينَ[١٧١]إِنَّهُـــمْ لَهُـــمُ الْمَنْصُـــورُونَ[١٧٢]وَإِنَّ جُنْـــدَنَا لَهُـــمُ الْغَالِبُونَ[١٧٣]}[سورة الصافات].

وكما قال تعالى:{وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَـــالِبُونَ[٥٦]}[ســـورة المائدة].

فمتى أتى المؤمنون بإيمان تام كامل؛ كان لهم نصر تام كامل، وإن أتوا بإيمان دون الكمال، وقاصر عن التمام؛ فإن النصر لهم بحسب ذلك .

وحين نلحظ تأريخنا الحافل بالانتصارات الخالدة التي أقضت مضاجع أهل الكفر، وأذناب الضـــلال، والتي أقرَّت عيون أهل الإيمان والتوحيد؛ نجد أن أغلبها راجع إلى الإيمان قوة وضعفاً:

فهذا يوم الفرقان، يوم بدر: نصر الله عباده المؤمنين نصرًا أصبح شجى في حلوق المشـــركين زمانـــاً، وكان من أعمدة النصر في تلك الغزاة أن قَوِيَتْ قلوب المؤمنين إيماناً بالله تعالى.

وفي التأريخ المشرق لهذه الأمة المنصورة، والمُخَلَّدَة إلى قيام الساعة صورٌ كثيرة جداً لوقائع نصر مـــبين للمؤمنين .

فهذا عمود من أعمدة النصر على الأمة أن تأتي به إن كانت تطمح بالنصر، وترمق بعين الشـــوق إلى التمكين في الأرض، أما إن كانت تريد نصراً بلا إيمان فما هي وطالب السمك في الصحراء إلا سواء .

إن الله أخبرنا بأنه حافظ دينه فقال:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[٩]}[ســورة الحجــر]. وأخبر أن البقاء لدينه فقال:{ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّــهِ بِــأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّــهُ مُــتِمُّ نُــورِهِ وَلَــوكَرِهَ الْكَافِرُونَ[٨]}[سورة الصف]. وهل نور الله تعالى إلا الإيمان والدين، ونصرته لـــه نصـــرة لعبـــاده القائمين بهذا الدين، والمُتَحَلِّيْنَ بهذا الإيمان . فلا مجال حينئذٍ لمداهمة اليأس قلوبَ الصالحين، بل الدربُ مستنير، وواضح لا يعمى إلا على عُمْيِ القلوب والأبصار .

فالله تعالى وَعَدَ ووعْدُهُ حق وصدق ولابد لذلك الوعد من يوم يتحقق فيه الوفـــاء، ولـــيس الوفـــاء فحسب بل تمام الوفاء وكماله، وهوقريب إذ وَعْدُ الكريم لا يقبل المماطلات، والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد .

فما هوإلا الصبر القليل، والاستعانة بالله، والتوكل عليه، وأساس ذاك كله اليقين بموعود الله، والحـــذر من تسرُّب الشك في موعوده .

٢- العبودية لله والنصر:

قال تعالى :{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ[١٧١]إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُــورُونَ[١٧٢]}[ســـورة الصافات]. وقال سبحانه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْــدِ الــذِّكْرِ أَنَّ الْــأَرْضَ يَرِثُهَــا عِبَــادِيَ الصَّالِحُونَ[١٠٥]}[سورة الأنبياء]. ففي هذا النص القرآني عمود من أعمدة النصر، الذي يَمُنُّ بـــه الرب على من تعبَّد له حق التعبُّد. وَالْحَظْ بتمعُّنٍ وتدبر:{ لِعِبَادِنَا} و{ عِبَادِيَ} تجـــد في ثناياهـــا خالص التجرد بالعبودية لله، فلما جردوا التعبد لله وأخلصوه له؛ فلم يجعلوا في قلوبهم مـــيلاً-و لـــو قليلاً- لغيره أثابهم منه فتحاً ونصراً وتمكيناً .

ولذا نرى أن الأمة قد يَتَخَلَّفُ عنها النصر بسبب تعلُّقها بغير الله، وهذا من صُوَر صرف التعبُّد لغـــير الله، فلا عجبَ أن تخلَّف النصر عنّا، وحلَّت الهزيمة بنا، فما استنكف أحد عن التذلل لله، واتبع نفسَه ذليلة غير الله إلا زاده الله وهناً وخسارة .

وللعبودية في ساعات الشدة أثر بالغ في قرب الفرج، وبُدُو أمارات النصر:

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبَه أمرٌ فزَعَ إلى الصلاة، وجعل خير العبادة ما كـــان في زمن الهَرْجِ.

وحاله يوم بدر أكبر شاهد على ذلك؛ فقد جأر بالدعاء، واشتدَّ تضرُّعُه لربه وتذلله بين يديه، ســـائله أن يُعَجِّلَ بنصره الذي وَعَدَه إياه .

وهذه هي التي يُسْتَجْلَبُ بها نصر الله، وبدونها؛ وحين تخلُّفها وعدم الإتيان بما أراده الله؛ فهيهـــات أن ينصر من أعرض عن دينه، و لم يتبع هداه الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، واتبع ما أجلـــب به الكفار من حياة قِوَامُها على الرذيلة، والمعصية، بل ترك الشريعة كلها .

فعمود النصر التجرد لله بالعبودية؛ التي هي: تمام الذل له، وكمال المحبـــة لـــه، ومنتـــهى الانقيـــاد والاستسلام لدينه وشرعه. فمتى قامت الأمة بالتعبُّد لله والتذلل بين يديه؛ أضاء لها نور النصر واضحًا جليًا، تبصره قلوب الصالحين من أولياء الله العابدين، وتعمى عنه بل تُحرَمُه قلوب وأبصار من تعبَّـــد لغير الله . وكلما كان تعبُّد الأمة لله أتم كان نصر الله لها أكمل وأقرب .

٣- نُصْرَةُ الله والنصر: قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُـــرْكُمْ...[٧]}[ســـورة محمد]. نصر الله حليفُ قومٍ ينصرون الله ودينه، ويرفعون راية شريعته شامخة في أُفقِ العلياء .

أما من يخذل شريعته حين ضعفها؛ فليس له من نصر الله شيء. وما انتصر من انتصر من الصالحين إلا بسبب ما قاموا به من نصرةٍ لدين الله وشريعته . فمن قام ناصراً بلده، أو قومه، أو مبـــدأه ومذهبـــه المخالف لدين الله؛ فهو مخذول .

ومن قام ناصراً- ولو وَحْدَه- دين الله؛ فهو المنصور لا غيره، وهو المؤيد لا سواه، وهـــو الموعـــود بالتمكين .

فلتقم الأمةُ الطالبةُ نَصْرَ الله بنصرة دين الله، وإعلائه على الأديان كما أعلاه الله، حتى تنال موعود الله لها بالنصر، والتمكين في الأرض .

ومن نُصْرَة الله تعالى:

١- تحقيق الولاء والبراء.. فلا مداهنة في دين الله، ومحاباة لمخلوق أيًّا كان، فدين الله فَرَّقَ بين المسلم والكافر، ولو كانا في القرابة بالمكان الذي لا يفرَّق بينهما فيه .

٢- تطهير الأرض من المنكرات والموبقات ؛ التي ما فتِئ أصحابها يجاهرون بها مطلع النهار ومغربـــه، ويحاربون الله ليل نهار.

٣- القيام حمايةً لدين الله من أن يَمَسَّه دَنيٌّ بسوء، أو أن يَقْصِدَه سافل بنقيصة .

٤- حراسة محارم الله وحفظها من أن يتعرَّض لها من سلبه الله العفاف والحشمة .

فمن قام بنُصْرَة الله ودينه؛ حَظِيَ بالنصر من الله، وظَفِرَ بالغلبة على عدوِّه .

٤- النصر من الله تعالى: قال تعالى:{...وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ...[١٣]}[سورة آل عمـــران]. وقال:{...وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...[١٢٦]}[سورة آل عمران]. وقال:{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُـــوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ[١٥٠] }[سورة آل عمران]. وقال:{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْـــذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ...[١٦٠]}[سورة آل عمران].

فالنصر مِنْ الله ، وهو المانُّ به على عباده المؤمنين، فلا قُدُرَاتِهم، ولا عُدَدِهم جالبة لهم نصـــراً علـــى عدوهم، ولا اعتداد بكل أسلحة المؤمنين إذا لم يُرِد الله لهم نصراً على عدوهم .

فلو كان النصر آتياً بقوى العباد؛ لما غلب المسلمون الضعفاء ظاهرًا أُمَمَ الكفر التي ملكت مـــن آلات القتال ما الله به عليم . فمتى رجيَ المؤمنون النصر من غير الله فيا خيبتهم، ويا شؤم حالهم .

وحين ترى أحوال المسلمين في المعارك التي انهزموا بها ترى أن من أهم الأسباب: تعلُّـــقُ النفـــوس في طلب النصر بغير الله، ولنعتبر بغزوة حنين، فإن الهزيمة التي حصلت لهم إنما هي بسبب اغترارهم بقوة أنفسهم حيث قالوا:'لن نغلب اليوم من قِلَّة'.

قال ابن القيِّم رحمه الله في سرَدِهِ الفوائدَ المأخوذةَ من تلك الغزوة:'واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعُددهم، وقوة شوكتهم، ....، وليبيِّن سبحانه لمن قال:'لن نغلب اليوم من قلَّة' أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم التي أعجبتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً، فوليتم مدبرين'[زاد المعاد [٤٧٧/٣]].

وهذا الذي حصل إنما هو من طائفة عُمِرَتْ قلوبهم بالتوكل على الله، والتعلُّق به، لكن لما انصـــرف القلب انصرافاً قليلاً عن الله؛ عُوقبوا بما ذكر الله بقوله:{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَـــثِيرَةٍ وَيَـــوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا...[٢٥]}[سورة التوبة]. فكيف الحال بمن بعـــدهم ممن انصرفت قلوبهم لغير الله انصرافًا كُلِّيًا، والله المستعان؟!

ثانيًا:مبشرات النصر:

١- البشارة بظهور الدين: قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِـــرَهُ عَلَـــى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[٣٣]}[سورة التوبة]. وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْـــدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ[١٠٥]}[سورة الأنبياء]. وقال تعالى:{ كَتَبَ اللَّهُ لَـــأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[٢١]}[سورة المجادلة].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ]رواه أحمد.

فهذه نصوص قاطعة بأن الغالب هو دين الله، والواعد بذلك هو الله تعالى، ورسوله صـــلى الله عليـــه وسلم؛ والله لا يخلف الميعاد؛ فكيف إذا كان الميعاد نَصْر دينه، فمهما طال مُقـــامُ الكـــافر، ومهمـــا

استطال شرُّه وضرُّه، ومهما كِيْدَ بالمسلمين، ومهما نُكِّلَ بهم؛ فإن الغلبة لدين الله، وَعْدَاً من الله حقاً وصدقاً.. وهذا سيحدث لا محالة، فلا نستعجلَّنَّ الأمور، ولا نسابق الأحداث .

٢- الطائفة الظاهرة: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ]رواه البخاري ومسلم. فهذه الطائفة قائمة إلى قيام الساعة، والنصرة لهم، والتأييد الإلهي معهم، وهذه الفرقة المنصورة من بواعث الأمل في نصرة الدين، ومن بشائر الرفعة لدين الله، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى أنها دائمة وموجودة إلى قيام الساعة .

ولكنه ضعف اليقين بموعود الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتعلُّق القلوب بالماديَّات والظواهر، وأساس ذلك كله ضعف الإيمان بالغيبيات التي هي أصل الإيمان.

فهل يجوز بعد هذا أن ييأس المسلمون من اكتناف نصر الله تعالى لعباده المؤمنين؟! وهل يجوز أن تُعَظَّمَ قوة الكفر وجبروته؟! وهل يجوز لنا أن نتخاذل عن البذل لدين الله.. ولو بأقلِّ القليل؟! وهل يجوز أن نعتقد خطأً أن هذه الطائفة لن تقوم، أو أنها قامت ولن تعود؟! أسئلة تفتقر إلى أجوبة فعلية لا قولية .

٣- الوعد الإلهي الحق: قال تعالى:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...[٥٥]}[سورة النور]. وهذا الوعد قد تحقق في زمانه صلى الله عليه وسلم، وسيتحقق بعده حتى قيام الساعة،

فمتى توافرت الأوصاف التي ذكرها الله في هذه الآية في قوم؛ كانوا أحق بالتمكين من غيرهم مهما كانوا .

فحتى نظفر بالتمكين من الله لنعقد العزم على تطبيق شريعته في أحوال الناس اليومية، والسياسية، والاجتماعية .

عندها سننال النصر من الله بكل تأكيد ويقين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

٤- المدينتان المُنْتَظَرَتان: قَالَ أَبُو قَبِيلٍ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي وَسُئِلَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بِصُنْدُوق لَهُ حَلَقٌ فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا- يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ-] رواه أحمد والدارمي.

ومما يزيد في البشارة أن هذه المدينة قد فتحت على يد السلطان محمد الفاتح العثماني التركماني ؛ ولكن ليس هو الفتح المذكور في الأحاديث؛ لأن الفتح الذي في الأحاديث يكون بعد الملحمة الكبرى، وقبل خروج الدجال بيسير. [انظر: اتحاف الجماعة للتويجري [١/٤٠٤]].

ولفتح القسطنطينية الفتح الحق علامة واردة في أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، معروفة مشهورة، وهي :

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ- ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِ الَّذِي حَدَّثَهُ أَوْ مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ- إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا أَوْ كَمَا أَنَّكَ قَاعِدٌ- يَعْنِي مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ-]رواه أبوداود وأحمد.

فإذا كان أن الفتح الذي حصل على يد محمد الفاتح ليس هوالفتح الوارد في الحديث فإنا لعلى يقين بقرب فتحين عظيمين لمدينتين كبيرتين، وهذا قريب، ووَعْدُ الله نافذ، ومُتحقق بإذنه تعالى .

٥- المعركة الفاصلة: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ]رواه البخاري ومسلم. وهذه المعركة هي الفاصلة بين المسلمين واليهود، وهي التي يُظْهِر فيها الله عباده المؤمنين، وينصرهم على اليهود بعدما ذاقوا منهم الأذى والنكال . ولم تأتِ بعد هذه المعركة وإنا على انتظارها، وهي آتيةٌ لا محالة إن شاء الله .

٦-محمد المنتظر: مما ثبت في السنة، واعتقده السلف الصالح، ودانوا لله به: ثبوت المهدي، وأنه سيخرج في آخر الزمان .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي] رواه أبوداود والترمذي وأحمد. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا لَا يَعُدُّهُ عَدَدًا]رواه مسلم.

وأخباره متواترة تواتراً لا يعتريه شك .

وفي خروجه يكثر الخير، قال ابن كثير رحمه الله:'في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم' [النهاية في الفتن والملاحم ١/٣١]].

فهذا المهدي [محمد بن عبد الله] المنتظر لم يخرج بعدُ، وبخروجه يقوم الدين، ويرتفع الحق، ويخمد الباطل، وتتبدد كل قوة علت من قوى الباطل، وكل ما هو آت قريب، فصبر جميل.

ثالثًا:ساعات النصر:

١- اليأس والنصر: قال تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ[٢١٤]}[سورة البقرة].

وقال تعالى:{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُـرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[١١٠]}[سورة يوسف]. فهذه صورة يَحِلُّ فيها اليأس على قلب العبد، ويُخَيِّم القنوط على نفوس الصالحين،

وإنها لصورة من أشد الصور، وأخطرها على نفوس المسلمين، فالنصر يترل على العباد 'عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه'[تفسير ابن كثير [٤٩٧/٢]]. و'إنها لساعة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل،وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود، وتمرُّ الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا القليل، وتكرُّ الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عُدَّتِهم القليلة، وقوتهم الضئيلة'[في ظلال القرآن [٢٠٣٥/٤].

وإنا والله لنفرح بمثل هذه الساعة–لا لذاتها معاذ الله– ولكن لما فيها من بشائر النصر القريب، وأمارات ظهور الفجر الواعد ..نعم.. إنها ساعة فيها يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلَّق بها الناس، وسنة الله أن في مثل هذه الظروف التي يفقد المؤمنون فيها صبرهم، وتتكالب عليهم الشدائد من كل حَدْبٍ وصوب، وينالهم من أهل الشر والباطل كل أذى وسُخرية من ضعف قوتهم، وهوانهم على الناس؛ يلمح المؤمنون نور النصر يلوح، وشمسه تشرق في تمام الوضوح، فيزول عن القلب ما خَيَّمَ عليه من حُجُب وشوائب، وغزوات النبي صلى الله عليه وسلم فيها تبيان لهذا.. فاعتبرها .

٢– المظلوم والنصر: الظلم شيمة من ابتلاه الله بالكبر والغطرسة، ومن هذا شأنه كان حريًّاً بأن يناله من الله عقاب لتقرَّ عين المظلوم بنكاية الله بالظالم، ونكاله به، فجعل الله دعوة المظلوم تسلك طريقها في السماء، وتكفل الله بنصرها ولو بعد حين، ووَعْدُ الله حق، وهذه بشارة عُظمى، إن نصر الله قريب، هذا كله في عموم الناس المسلم والكافر، فكيف إذا كان المظلوم أمة مسلمة لله، والظالم لها كافر لا يؤمن بالله رباً، ولا بمحمد نبياً، ولا بالإسلام ديناً، فأقول إن الأمر غاية في اليقين أن نصر الله قريب جداً .

وهذه ساعة من أهم ساعات الانتصار والغلبة أن يتمكن العدو من المسلمين، ويتحزبون عليهم من كل جانب من فوقهم، ومن تحتهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم..{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[٣٩]}[سورة الحج]. فما على المؤمنين حال تلك الساعة إلا الجأر بالدعاء، والابتهال والتضرع بين يدي الله أن يُعجِّل بنصرهم، وأن يَخْذِل عدوَّهم[ويُحِلَّ عليهم غضبه وسخطه..وموعود الله قريب للمظلوم، والويل للظالم من عقاب الله .

رابعًا:حُجُبُ النَّصْرِ:

١–حجاب الكفر:قال الله:{ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[٥٦]}[سورة آل عمران]. وقال تعالى:{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ...[١٢]}[سورة آل

عمران]. وقال تعالى:{ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ[٤٤]سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ[٤٥]}[سورة القمر]. هذه آيات أنزلها الله في كتابه قضى فيها أن الكفر لن يغلب الإسلام مهما كانت له من القوى، ومهما ملك من العُدَد والعَدَد، ولقد صدق الله وَعْدَه، فنصر عبده، وأعز جُنْدَه، وهزم الأحزاب وَحْدَه.. فمهما قامت حروب ومعارك بين المسلمين والكفار؛ فإن الغالب هم المسلمون، والهزيمة لاحقة بالكفار ؛ وعد صادق من الله.. الكافرون سينفقون ما لديهم من أموال ورجال في حروب طاحنة مع المسلمين، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يُغْلَبُوْن على أيدي المسلمين .

وإن انتصر الكفار على المسلمين فهو نصر مؤقَّتٌ لا يدوم؛ وهيهات له أن يدوم، والله قد كتب الغلبة لدينه ورسله وأوليائه الصالحين، والله لا يؤيد بنصره أُمة قامت على كفر به، وصد عن سبيله .

٢- حجاب الظلم:قال تعالى:{...وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[٢٧٠]}[سورة البقرة]. وقال تعالى:{...وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[٨]}[سورة الشورى]. نعم ؛ إن الله لا ينصر الظالم على المظلوم بل اقتضت حكمته أنه ينصر المظلوم على الظالم مهما كان المظلوم والظالم .

وما أكثر الظلم في المسلمين؛ والذي بسببه حُرِمْنا النصر على أعدائنا، فالظلم يمنع النصر كما في هذه الآيات وكما في حديث دعوة المظلوم وأنه ليس بينها وبين الله حجاب، والله تعالى قد وعد بأنه سينصرها ولوبعد حين .

فمتى طُهِّرَت الأمة من الظلم بجميع أنواعه وصوره؛ فإن نصر الله آتٍ، ووعده متحقق سواء في ذلك قرب الزمن أو بعده .

٣- حجاب النفاق: قال الله تعالى:{...إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا[١٤٥]}[سورة النساء]. بيَّن الله في هذه الآية أن نصرَه محرومٌ منه كل منافق دخيل في صفوف المسلمين، بل محروم منه كل من قرَّب المنافقين وأنالهم منه مكاناً مرموقاً، وجاهاً رفيعاً..إن النفاق ما وُجِدَ في قوم إلا أحلَّهم دار البوار، ومنعهم الخير والنصر، وما وُجِدَ المنافقون في أرض إلا مَكَّنُوا منها العدو على المسلمين، وأذلُّوا الصالحين من عباد الله.

فإذا ما طهُرَت الأرض، وسَلِمَت الأمة من هؤلاء 'المتلونين' استحقت النصر من الله على عدوها، وكان لها الظفر بالعدو.

وما مُنِعَ المسلمون النصر يوماً قط إلا بسبب ما كان منهم من تقريب لهؤلاء المنافقين، وحبٍّ لهم، ومجالسة معهم، وتمام وُدٍّ لهم.. إن النفاق في هذه الأزمان قد طال ريشه بين المسلمين، ودام مُقامُه بينهم، ونال أهلُه من المسلمين كل ما يريدونه، بل نال الصالحين المُبيِّنين حالهم وضلالهم الأذى منهم ومن أسيادهم. وحين تلتفت الأمة إلى هؤلاء المجرمين، وتبدأ بهم، وتنكِّل بهم؛ تنعم بعد ذلك بنصر من الله مؤزَّرٌ، وبإيفاء الله وعده لهم .

خاتمة البوابة:

في ختام الولوج من هذه البوابة العريقة..وفي نهاية المرور بها..آمل أن أكون قد وُفِّقْتُ بوضع النقاط على حروفها، وأن أكون قد بعثت ما مات من آمالٍ كبار في نفوس قومي، وأسأل الله تعالى أن يُحيي ما مات من آمالنا، وأن ينصر دينه، وكتابه، وسنة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وعباده الله الصالحين .

من رسالة:'بوابة النصر' للشيخ/ عبد الله بن سليمان العبد الله

تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم

الكتاب

تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم

المؤلف

د. علي محمد الصلابي

الناشر

دار الفجر للتراث- القاهرة

الطبعة

الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الصفحات

٥٨٤

يتحدث الكاتب في الباب الأول عن أنواع التمكين في القرآن الكريم، وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول:

الأول: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

والثاني: هلاك الكفار ونجاة المؤمنين أو نصرهم في المعارك.

والثالث: المشاركة في الحكم؛ إذ إن تولي أهل الإيمان أعباء الحكم لدولة غير مؤمنة نوع من أنواع التمكين، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من التمكين في قوله تعالى:(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ). [يوسف:٥٥]. والرابع: إقامة الدولة، وقد تحدث القرآن الكريم عمّن قادوا دولاً، وساسوا شعوباً بشرع الله، من أمثال داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، والقائد العادل ذي القرنين، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- وخلفائه الراشدين.

وفي الباب الثاني الذي ينقسم إلى فصلين:

أولها: شروط التمكين، والمتمثلة في الإيمان بالله والعمل الصالح، وتحقيق العبادة، ومحاربة الشرك، معتبراً أنه على الجماعة المسلمة، والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقيقة الشرك وخطره

وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه، وأن تنقي صفها منه بجميع الأساليب الشرعية، ولا يمكن للإنسان أن يحذر من الشرك، وأن يحذّر غيره إلا إذا عرفه، وعرف خطره، و عرف تقوى الله عز وجل، مبيناً أن للتقوى ثمرات، منها: المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسب العبد، والسهولة واليسر في كل أمر، وتيسير العلم النافع، وإطلاق نور البصيرة، ومحبة الله وملائكته والقبول في الأرض.

وفي الفصل الثاني: يتحدث الكاتب عن أسباب التمكين، وأول سبب من هذه الأسباب هو: سنة الأخذ بالأسباب وإرشاد القرآن للإعداد، مبيناً أن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ إذ إن ذلك من صميم تحقيق العبودية لله، وهو الأمر الذي خُلق له العبيد، وأُرسلت به الرسل، وأُنزلت لأجله الكتب، موضحاً أنه على المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

١- الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاؤها وخوفها.

٢- ترك ما أمر الله به من الأسباب.

وفيما يتعلق بإرشاد القرآن للإعداد، فقد قال تعالى في كتابه الكريم:(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ). [الأنفال:٦٠].

ويذكر الكاتب تفسير ابن كثير -رضي الله عنه- لقول الله تعالى: "ما استطعتم" أي مهما أمكنكم، وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

والسبب الثاني للتمكين يتمثل في الأسباب المعنوية: والذي يشمل إعداد الأفراد الربانيين، والقيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفرقة.

أما السبب الثالث فهو الأسباب المادية، وأول هذه الأسباب التفرغ والتخصص ومراكز البحوث؛ إذ لابد أن تهتم الحركات الإسلامية على المستوى القطري والإقليمي والدولي بمبدأ التفرغ لأصحاب القدرات المتميزة في المواقع المهمة، وخصوصاً في مجال العلم والفكر والتربية والتكوين والدعوة والإعلام والسياسة والتخطيط والاقتصاد والمال والأمن والاستخبارات، وكافة مجالات الحياة اللازمة لتحكيم شرع الله على كافة أفراد الشعب ومؤسسات الدولة.

وثاني هذه الأسباب التخطيط والإدارة: مبيناً أن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان في عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط؛ لأن الله تبارك وتعالى قد وجّه إلى ذلك في آيات كثيرة.

قال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). [القصص:٧٧].

وثالثها الإعداد الاقتصادي: فالقوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يُقهــر ولا يُحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي -كما يقول الكاتب- علــى الحركات الإسلامية أن تعتمد على الذات في موارد ثابتة، وهذا من النفرة التي أمرنا الله -عز وجل- بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين، مما يوفر للدعوة والدعاة حرية التحرك، واتخــاذ القــرار دون ضغوط .

أما رابعها فهو الإعداد الإعلامي: ولقد أرشد القرآن الأمة إلى الأخذ بأسلوبي بأسلوب الإعــلام في دعوة الخلق، ونهج نهجاً متميزاً في إيصال الحقائق إلى الناس.

وخامس هذه الأسباب الإعداد الأمني: يوضح المؤلف ضرورة أن ينشأ الحس الأمني للأفراد العــاملين منذ دخولهم في العمل الجماعي، وأن تُشكّل لجان ومكاتب، وتتحــول مــع توســع الحركــة إلى مؤسسات، ثم إلى وزارة بعد وصول الإسلاميين إلى الحكم، وقد قال تعالى: (ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَــةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِــأَنَّهُمْ لَــا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). (التوبة:١٢٠).

وفي الباب الثالث والأخير يتحدث الكاتب عن مراحل التمكين وأهدافه، مبيناً أن مراحل الــتمكين هي: مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام، واختيار العناصر التي تحمل الدعوة، والمغالبة، والتمكين، أما عن أهداف التمكين فتتمثل في: إقامة المجتمع المسلم، والدعوة إلى الله.

حَقِيقَةُ النَّصْرِ

رئيسي :تربية :الثلاثاء ١٩ربيع الآخر ١٤٢٥هـــ - ٨ يونيو ٢٠٠٤ م

قد ينظر الكثير منا إلى فتح مكة باعتباره مَعلم النصر لصدر الأمة الأول، وهو مَعلم انتصــار عظــيم وفتح من الله مبين لا ريب، ولكن هل هو حقيقة الانتصار، أم ثمرته؟ وهل الــتمكين في الأرض هــو جوهر النصر، أم هو تتويج له؟ وإن لم يكن كذلك: فما هي حقيقة النصر التي لا يضر معها تخلــف حصول الثمرة، وتأخر حفل التتويج؟

لقد سبقت فتحَ مكة معاركُ عظام، وأحداث جسام، لم تكن ساحتها ميدان القتال بعد، كما لم تكن عدتها السيف والسنان بعد، وإنما كانت معركةً من نوع آخر، وكان تدافعًا من نوع آخر:

كانت معركة اسمها:{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ[٩٤]}[سورة الحجر].

وكانت معركة اسمها:{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ[٦]}[سورة الكافرون].

ودارت رحى المعركة الأولى حول تجريد التوحيد:{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا[٨]رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا[٩]}[سورة المزمل].

وكانت عُدة المعركة الثانية: { فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ[٨]وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ[٩] } [سورة القلم].
واشتدت أتون هذه الحرب، و تمحضت معها حقيقة التوحيد في قلوب أولئك النفر، فإذا بهم يتلذذون في آهاتهم، ويتنعمون في أنَّاتهم، قد أغناهم حب الله عن كل ما سواه، وشغلهم مشهد العبودية عن مشهد التسخط على الأذى فيه سبحانه وتعالى، وكانت تلك بداية معركة التحرير، وأولى ملامح الانتصار.
ثم أخذ مشهد المعركة يتميز شيئاً فشيئاً وأخذت معالم الطريق تتضح شيئاً فشيئاً: نعم لقد بدأ أولئك النفر يدركون أنه لابد من تسديد بعض أقساط الجنة.
فكانت الأقساط من أموالهم تارةً، ومن أجسادهم ولحومهم تارةً، كانت من الولد والأهل تارةً، ومن العشيرة والوطن تارةً، قطعوا ما بينهم وبين الناس؛ ليقيموا ما بينهم وبين الله، وطلقوا الدنيا ليخطبوا الآخرة، وأفرغوا قلوبهم من كل ما سوى الله، فتهيأت لغرسة التوحيد فيها، هُجِّروا فهاجروا، وعُذِّبوا فصابروا ، استُنصروا فنصروا، واستُنفروا فنفروا، وكلما تجردوا من علائق الدنيا كلما تميزت عندهم معالم النصر، وغدت ملامح الانتصار وحقيقته أكثر وضوحاً، وأشد نوراً من ذي قبل.
ثم كان أن تحول ميدان المعركة إلى السيف والرمح: وكانت بدر، وما أدراك ما بدر! ولكن بريق النصر العسكري، ونشوة اندحار العدو ومادته قد يخطف الأبصار أحياناً، فلربما ظن المسلمون أن النصر العسكري، والغلبة والظهور المادي أمرٌ لازمٌ ملازم، بل قد تزين نفس المرء له استحقاقها لهذا الظهور حتماً، كيف لا وقد اجتمعت الدواعي من التزام الحق، وتأييد السيف له، والإثخان في العدو، وكسر شوكته وشكيمته، ولكن ليس هذا هو تمام النصر، بل كان لا بد من جولة أخرى يكتمل فيها انتصار الإسلام والمسلمين، وهكذا كانت غزوة أحد.
دخل المسلمون غزوة أحد و لربما كانت نشوةُ النصر في بدر آخذةً بلب بعضهم، و لربما خال بعضهم أنه ومنذ بدر نصرٌ بلا هزيمة وغلبةٌ بلا انكسار، و لربما توهم البعض أن مجرد التزامِ طريق الحق موجبٌ لدوام الظهور والتمكين، وعندما انقلبت موزاين المعركة، وتجرد المسلمون من كل رداء خلا العبودية المطلقة لله؛ تمحضت آنذاك معالم النصر؛ عندما كُسرت ثنية النبي صلى الله عليه وسلم، وشُجَّ وجهه الشريف؛ تمحضت معالم النصر في أمةٍ هكذا قائدها، أمة رأس الحربة فيها هو الإمام القائد، أو قل: الرئيس الحاكم، أمةٌ لا ينشغل حاكمها بكرسي الدنيا عن كرسي الآخرة، قائدٌ يستشير الصغير والكبير، ويترل عند رأي المخالف فيما لا يغضب الله؛ تطييباً للقلوب، وجبراً للخواطر، قائدٌ يصمد حين يلتفت الناس، ويرفع لواء الحق حين يتوانى عنه الناس، قائدٌ يسدد شيئاً من أقساط الجنة من لحمه ودمه حين يلوذ الناس بلحومهم ودمائهم.
وعندما لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد، وعندما قام أبو دجانة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترَّس عليه بظهره، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك، وعندما جعلت أم عمارة

نسيبة بنت كعب تذود عن النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتيت من قوة في تسعة رهطٍ اجتمعوا حول النبي صلى الله عليه وسلم حين انفض عنه الناس، هنالك لاحت معالم النصر.

وعندما أصيب زوج وأب، وأخ المرأة من بني دينار، وهي لا تسأل إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا رأته قالت:' كل مصيبةٍ بعدك جلل' أي: هينة.

عندها كان أحد معالم الانتصار، عندما تحقق تقديم حب الله ورسوله على كل ما سواهما عندها كان النصر.

وعندما انحسر المسلمون، وقد أعجبتهم قوتهم وعددهم، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد في كمين العدو لهم في حُنين، تقدَّم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه آنذاك؛ ليعلن للناس جميعاً مسلمين وكفاراً أن أمر هذه الدعوة قائمٌ مهما انحسر عنه الناس، وأن راية الحق أبداً مشرعة مهما انكسرت لجندها شوكة، فأخذ صلى الله عليه وسلم يدفع بغلته نحو الكفار، وهو ينادي:

[أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ] رواه البخاري و مسلم .

عندها كان النصر، وعندها جلجلت كلمة الحق، أما ما كان بعد ذلك من اجتماع كتائب الحق على كلمة النبي صلى الله عليه وسلم، وقهر عدوهم فلم يكن إلا ترجمة لهذا النصر، وثمرة من ثماره ليس إلا.

وليس هذا النصر الذي نتحدث عنه ظاهرة عابرة في تاريخ أمتنا، بل هو جزء لا يتجزأ من مسيرة كلمة التوحيد عبر العصور.

فلقد انتصرت كلمة التوحيد من قبل حين سمت أرواح الموحدين فوق حضيض الدنيا، ورضيت بأن تحرق أجسادها في أخدود الكفر؛ لتحلق أرواحها في سماء التوحيد، ولتتعانق في حواصل طير خضر في سماء الجنة.

إن سورة البروج في القرآن ليست تسجيلاً لمذبحة لا يسعنا سوى التألُمُ لحال أصحابها.. كلا!

إن سورة البروج تسجيلٌ لانتصارٍ تاريخي لكلمة التوحيد على شرذمة الكفر.. نعم لقد قهر أصحاب الأخدود أجسادَ الموحدين وأحرقوها، لكنهم لم يهزموا ولا نفسَ طفلٍ واحد منهم!

وليس القول بانتصار الموحدين يومها ضرباً من المبالغة، أو تطييب الخواطر.. كلا، بل هو والله الانتصار الحقيقي، وأي انتصار لأهل التوحيد أعظم من شهادة الله تعالى لهم بالإيمان، وأي هزيمة على الكفار أشد من تربص عذابِ الحريق بهم، وأي حريق!

وقل مثلَ هذا في لقطات الانتصار التاريخية لكلمة الحق على الباطل:

- فلقد انتصرت كلمة الحق من ذي قبل حين قال هابيل:{ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ[٢٨] }[سورة المائدة].

- وانتصرت كلمة الحق حين قالت:{...هَيْتَ لَكَ...} فقال الكريم بن الكريم بن الكريم:{ ...قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[٢٣]}[سورة يوسف].
- وانتصرت كلمة الحق حينما قال سليمان عليه السلام :{أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[٣٦]}[سورة النمل].
- وانتصر الحق أيضاً يوم أن قذف الله تعالى نور الإيمان في قلوب سحرة فرعون، فإذا أنصار الباطل بالأمس شهداء الحق اليوم:{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى[٧٠]}[سورة طه]. ولعل الانتصار قد بلغ ذروته حين استخف المؤمنون الجدد بعذاب الدنيا لما لاقوه من حلاوة الإيمان:{ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[٧٢]}[سورة طه].

نعم.. هذه مواقف من الانتصار على النفس حيث مُنعت ولُجمت عن التعدي على الدم المعصوم والفرج الحرام والمال غير المستحَق والمنصب والجاه الفارغين، فسجل هذه الأمة سجل حافل بالانتصار بل هو سلسلة متصلة من الانتصار، أثمر غلبةً عسكرية، أم لم يثمر.

وإن المتأمل في طبيعة النصر الذي قدمنا نماذج منه ليدرك أن حقيقة الأمر ومداره على التمسك بالحق مهما كان الثمن، والثقة بوعد الله مهما تأخرت الثمرة: ولهذا فإني أقول إن مشهد النصر الحقيقي لم يكن في قوله تعالى:{ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ...[٢٥١]}[سورة البقرة]. بقدر ما كان في قوله تعالى:{... إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ...[٢٤٩]}[سورة البقرة].

نعم هنا كانت معالم النصر لأقوام، ومعالم الهزيمة لآخرين:{... فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ...[٢٥١]}[سورة البقرة].

وهؤلاء القليل هم الذين تعول عليهم أمة الإسلام في كل زمان ومكان:أما عند الغلبة العسكرية والظهور والتمكين، فما أكثر المسلمين حينذاك، وما أكثر من يحبون الدين آنذاك، ولكن شتان بين من أحب الدينَ والدين غريب، وبين من أحب الدينَ والدين تجبى إليه ثمرات كل شيء، وهذه هي حقيقة النصر.

من :'حقيقة النصر' د.وسيم فتح الله

ذكر الله تعالى ...وجيل النصر المنشود

الحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسنا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها، وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءً، واتَّقُوا اللَّهَ الذي

تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً؟[النساء:١]. ؟يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون؟ [آل عمران:١٠٢]. ؟ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمالَكُمْ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً؟ [الأحزاب:٧١].

من أسباب سوء الخاتمة العدول عن الاستقامة والانحراف عنها: قيل لأحد علماء السلف الصالح فلان عرف طريق الله ثم رجع عنه ، فقال لو وصلوا إليه ما رجعوا.

فمن عرف طريق ملك الملوك وجبار السماوات والأرض ثم أعرض عنه وتنكبه، واختار طرق الغواية والضلال، وآثر الغي على الرشاد، والضلالة على الهدى، والفجور على التقى، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة، وقد "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب ومن الحور بعد الكور() .

قال الله عز وجل فيمن عرفوا ثم أنكروا ، وآمنوا ثم كفروا ؟َفَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ؟[الصف: ٥] قال الإمام ابن كثير كان رجل من بني عنفوة قد وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ البقرة وجاء زمن الردة إلى أبي بكر فبعثه إلى اليمامة يدعوهم إلى الإسلام ويثبتهم على الإسلام فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة ، وكان يقول: كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا يعني مسيلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد قتل هذا الكذاب الأشر في يوم اليمامة ، قتله زيد بن الخطاب وختم له بالسوء.

وما أكثر هؤلاء المترددين الزائغين المتنكبين عن صراط الله من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ممن يتظاهرون ويظهرون أمام الناظرين على غير حقيقتهم. يلبسون أردية الدين والإيمان ويتدثرون به وهم له كارهون. فيأبى الله إلا أن يكشف زيفهم ويظهرهم على حقيقتهم في الحياة الدنيا قبل يوم القيامة يوم تبلى السرائر وتكشف الضمائر ويحصل ما في الصدور.

ولقد ضرب الله لنا نموذجاً لهؤلاء الناكثين الناكصين بقصة رجل آتاه الله آياته، وأسبغ عليه فضله ووهب له علماً، ومنحه الفرصة كاملة للهدى والارتقاء والاتصال بخالق الأرض والسماء.. ولكنه مع ذلك آثر ما يفنى على ما يبقى وهبط من سموه وارتفاعه إلى الأوحال والطين. تأمل في قوله سبحانه وتعالى وهو يأمر رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم بتلاوة ذلك النموذج بقوله الكريم: ؟ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ؟[الأعراف:١٧٥-١٧٧] فقد شبه سبحانه من آتاه كتابه ، وعلمه العلم الذي منع منه غيره ، فترك العمل واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته

والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أفسد الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً. وهمته لا تتعدى بطنه. وأشدها شرهاً وحرصاً، ومن حرصه أن لا يمشـــي إلا وأنفـــه في الأرض يتشـــمم ويستروح حرصاً وشرهاً ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه. وهو من أمهـــن الحيوانـــات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحـــب إليـــه مـــن الحلوى. وإذا ظفر بميتة تكفي مئة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلا نبح عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى فقيراً ذا هيئة رثة وثياب دنيئة، وحال مزريـــة، نبحه وحمل عليه ، كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى

إنساناً ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة، وضع له خطمه بالأرض، وخضع له ولم يرفع إليه رأســه وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه ومعرفته، بالكلب الذي هـــو في حال لهثان دائم سواء حملت عليه بالرجم والطرد أو تركته فاللهث لا يفارقه يلهث قائماً وقاعـــداً وماشياً وواقفاً، آيات وعبر يبينها الله لنا وما يعقلها إلا العالمون.

فالذي تجرد عن الهدى وانسلخ من الإيمان والتقى شبيه بالكلب ، قال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دُعِيَ أو لم يُدْعَ ، وُعِظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث طرداً وتركاً.

وفي هذا المثل الذي ضربه الله لنا في كتابه حكم ودروس ذكرها العلماء رحمهم الله.

منها: قوله سبحانه؟ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ؟ فالعلم هو محض فضل الله على الإنسان وهو نعمة أنعم الله بها عليه لكنه لم يشكر الله ويعرف قدر النعمة قال تعالى: ؟ فَانسَلَخَ مِنْهَا ؟ أي خرج منها، انسلخ كما تنسلخ الحية من جلدها ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو المتسبب لذلك الانسلاخ باتباع هواه وشهواته لدناءته وحقارته.

ومنها قوله سبحانه: ؟ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ؟ يعني أدركه ولحقه. وكان محفوظاً محروساً بآيات الله محمـــي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئاً إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفـــر بـــه الشيطان كما يظفر الأسد بفريسته ؟ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ؟ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

ومنها قوله تعالى: ؟ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ؟ فأخبر أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم. فإن هذا الـــذي ضرب به المثل كان أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه بها، ونعوذ بالله من علم لا ينفـــع. وإنما الرفعة عند الله تحصل باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله.

؟ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ؟ ركن إلى الدنيا ولصق بها واتبع سفاسف الأمور ومسافلها ، وترك معاليها ولقد ختمت الآية بقوله عز وجل: ؟ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ؟ [الأعراف:١٧٧].

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل هناك أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى، وهل هناك أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم الإنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكـــذا؟ مـــن يعريها ويجردها الغطاء الواقي والدرع الحامي ، ويدعها غرضاً للشيطان يلازمها ويركبها ، ويهبط بها إلى عالم الحيوان، الهابط اللاصق بالأرض الحائر القلق اللاهث وراء الدنيا لهاث الكلب أبداً.

ما أكثر الذين يعطون علم دين الله ثم لا يهتدون به ولا يرفعون به رأساً، وإنما يتخذون ذلك وســـيلة لتحريف الكلم عن مواضعه. واتباع الهوى به كم رأينا وسمعنا من عالم يعلم حقيقة دين الله وحكمـــه ثم يزيغ عنها ويحرفها ويعلن خلافها.. ويضلل الأمة لهثاً وراء منصب زائف أو مال زائل.

كم الذين يتنازلون ويرتدون عن دينهم وإيمانهم وقيمهم وأخلاقهم ممن يلهثون وراء الحطام ويسقطون في المستنقع الآسن ثم لا يتوبون. ولا هم يذكرون، فيخرجون من الحياة خائبين خاسرين. قد ختم لهم بسوء وعادوا إلى سوء المنقلب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

اللهم اعصمنا وثبت أقدامنا وأفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين. واجعل خير أعمارنا أواخرها وخـــير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راضٍ عنا يا رب العالمين.

الخطبة الثانية:

جعل الله الطريق إلى النصر والعزة هو طريق الجهاد والقتال والاستشهاد نطقـــت بـــذلك الآيـــات المحكمات والأحاديث الصحاح التي لن يستطيع الجبناء من البشر أن يخفوها أو يلغوها مهما فعلـــوا، ومهما سلكوا من أساليب ورسموا من خطط لإذلال الأمة واستعبادها والحيلولة بينها وبـــين مصـــدر قوتها وعزها والمتمثلة في الإيمان والجهاد، قال الله عز وجل في بيان ذلك: ؟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ؟[البقرة:٢١٦] ويقول سبحانه حاثاً عباده المؤمنين على الحيطة والحذر داعياً لهم للاستنفار واليقظة:؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّـــنَ الله لَيَقُـــولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّـــذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً وَمَـــا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ
فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً؟[النساء:٧١-٧٦].

وأمر الله نبيه بالقتال وتحريض المؤمنين على القتال فقال له: ؟ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ؟[النساء: ٨٤].

؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ؟[المائدة: ٥٤].

؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ؟[الأنفال:١٥-١٨].

؟ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ؟[التوبة: ٢٩].

؟ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ؟[محمد:٤-٨].

؟ انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟[التوبة:٤١].

وآيات الجهاد في كتاب الله كثيرة، أما الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد والقتال والرباط والشهادة فكثيرة جداً أكتف بذكر ثلاثة منها.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف"() فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال : نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل" وهذا الفعل يشبه ما يسمى اليوم بـــ (العمليات الاستشهادية)

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض"()

وفي الصحيحين عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا"()

أيها الإخوة المؤمنون: ها هي الفرصة متاحة للتجارة مع الله في الأرض المباركة أرض النبوات والرسالات، أرض الرباط والجهاد، فها هم إخوانكم يسطرون أروع الملاحم في النكاية بالعدو اليهودي المتغطرس الذي أخذ على عاتقه القيام بدور إخضاع هذه الأمة وتدميرها وإذلالها نيابة عن كل قوى الحقد والاستكبار التي تدعمه وتقف خلفه.

إن إخوانكم في فلسطين بالأمس قاموا بعملية بطولية في عمق فلسطين التي يحتلها اليهود المغتصبون فأثلجت صدور المؤمنين وأفزعت الكافرين. إن اليهود يريدون أن يقتلوا المسلمين ولا يريدون أن يُقتلوا؟ فظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.

وإن إخوانكم في أشد الحاجة إلى الوقوف بجوارهم ودعمهم بالمال والسلاح ورعاية أسر الشهداء ومدهم بكل ما نستطيع فعله.. إنهم يقومون بالواجب المناط على رقابنا فلا يجوز أن نخذلهم أو نكتفي بمواقف الحكام الذين هم جزء من الهزيمة فالكثير منهم عملاء ينفذون خطط أعداء الله الرامية إلى إضعاف الأمة وتدمير مقوماتها.. ولكن الله لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من قبضته أبداً.

إنني أراقب في الأفق ملامح العزة والنصر وملامح الملاحم والبطولات التي سيسطرها قوم يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله.. لا يجبنون ولا يخافون قد غدت لديهم المناعة ضد الجبن والخوف والهلع والخور والاستكانة.

إن جيل النصر قادم بإذن الله وها هي طلائعه تخط طريقها وتتشوق إلى الجنة إنهم من فئة الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين العشرين إلى الثلاثين ولدوا في رحم الهزائم والنكسات ولكن قدر الله غالب وجنده هم المنصورون في نهاية المطاف.

راجعه/ عبد الحميد أحمد مرشد.

صحيح مسلم: باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره: الحديث رقم: (١٣٤٢) .

صحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد:الحديث رقم: (١٩٠٢) وسنن الترمذي: أبواب فضائل الجهاد عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم: الحديث رقم: (١٧١٠) .

صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير:باب: درجات المجاهدين في سبيل الله: الحديث رقم: (٢٦٣٧) .

صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير: باب: فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير: في الحديث رقم: (٢٦٨٨) ، وصحيح مسلم في الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله..، رقم: (١٨٩٥) .

شروط النصر

الحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسنا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَــلا هادِيَ لَهُ، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وأشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها، وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيراً وَنساءً، واتَّقُــوا اللَّـــهَ الـــذي تَساءَلُونَ بِهِ والأرْحامَ إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً؟[النساء:١]. ؟يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون؟ [آل عمران:١٠٢]. ؟ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمالَكُمْ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّـــهَ وَرَسُـــولَهُ فَقَـــدْ فَـــازَ فَـــوْزَاً عَظِيمـــاً؟ [الأحزاب:٧١].

تعاني الأمة الإسلامية ومنذ زمن ليس بالقصير من الضعف والتفرق، والاختلاف والتناحر والتخلف، فهي تابعة وليست قائدة كما أراد الله لها أن تكون، مقلدة ومحاكية لغيرهـــا، ليســـت مبتدعـــة ولا مبتكرة، إنها غارقة في مشكلاتها تعاني الأمّرين من تناقضاتها وصراعاتها. وإن الأمراض قد تعـــددت ، والأوبئة المنتشرة غدت مزمنة في جسدها الكبير. ولقد حاول كثيرون تشخيص الـــداء، فتبـــاينوا في التشخيص كما تباينوا في وصف العلاج، فذهبوا مذاهب شتى فـــزاد الأمـــر تعقيـــداً، ووسّـــعوا في الجراحات ومكّنوا للأدواء وأوصلوا الأمة إلى مرحلة اليأس والاستسلام والقنوط . لقد شرقوا وغربوا وذهبوا كل مذهب، ثم رضوا من الغنيمة بالإهاب. لقد قال بعضهم: إن سبب تخلف الأمة وضـــعفها إنما هو في التحرر من قيود الدين وأحكامه.

وقال آخرون : إن القومية هي الحل الذي ينبغي أن تأخذ به الأمة وتتجمع على أساسه فلم يفلحوا.

ويرى البعض : أن سبب ضعف الأمة وتخلفها إنما هو بسبب تحجب المرأة المسلمة وصيانتها والحـــل عندهم يكمن في تحرر المرأة وتخليها عن دينها وأخلاقها وآدابها، إنهم يريدونها أن تكون كالكـــافرات في أوربا وأمريكا.

هناك من يرى أن المشكلة اقتصادية والصراع إنما هو اقتصادي فأخذوا بالفكر الشيوعي والاشتراكية التي أضفوا عليها صفة العلمية. وكانت النتيجة تكريساً للفقر والتخلف والحرمان كما هـــو معلـــوم للجميع.

هناك من يرى أن لا خلاص للأمة إلا بأن تنسلخ من هويتها وترتبط بأوربا وتأخذ بفكرها ومناهجها من الخير والشر والحق والباطل، في الحلو والمر وفي كل شيء ، وهناك من الأفكار والتصورات الـــتي أخذت بها الأمة في القرن الماضي فلم تجن من ذلك إلاّ الحزن المبين والضياع والتيه الذي لا نهاية له.

أيها المؤمنون : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علمنا كيف تبنى الأمم وتســـود ، وكيـــف تقوى وتنتصر وكيف تسمو وتسعد، وترقى في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ولن تفلح الأمة ولن تخرج من تيهها وضعفها وهوانها إلا إذا تعرفت على طريقة رسول الله – صلى الله عليـــه وســـلم –

وسارت عليه في بناء النفوس وفي بناء المجتمعات والشعوب على حد سواء ألم يكن العرب بل والعالم قبل بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – يعاني من الأمراض المستعصية التي نشكوا منها الآن.

ظلم وظلام، فساد وطغيان كان يملأ الأرض قبل بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – ولقد ذكــر الله المؤمنين بفضله ونعمته عليهم حيث أنقذهم مما كانوا فيه في جاهليتهم، أنقذهم ببعثة عبده ورســوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – حيث قال تعالى: ؟... وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْــدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَــا ... ؟[آل عمران:١٠٣].

فكيف بدأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دعوته في ذلك الليل الغاسق والظلام الدامس الــذي كان يلف البشرية بمجموعها ، لقد بدأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خاتم النبــيين في مكــة بتأسيس الإيمان واليقين وغرس عقيدة التوحيد، وتثبيتها بإقامة الأدلة والبراهين القاطعة الساطعة، أدلة تكوينية مبثوثة في عناصر الكون ومظاهر الطبيعة الناطقة بأن الله ليس له شريك.

وأدلة تتزيلية، تتزل بها الوحي لهداية العقول وتنوير القلوب، وتحصين هذه العقيدة الراسخة التي هــي المقصود الأعظم والغاية العظمى لجميع رسالات الله تعالى إلى أهل الأرض كما قال سبحانه: ؟ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ...؟[النحل:٣٦] ،؟وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِــكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ؟[الأنبياء: ٢٥].

لقد كانت هذه المرحلة مرحلة بناء الإيمان واليقين في النفس الإنسانية ، أطول مراحل ســير الرســالة الخالدة زمناً، كانت حافلة مليئة بالحجج الفكرية والعقلية، وأبلغها في إيقاظ الفطرة البشــرية، كــان الجهاد فيها جهاداً بالكلمة ، بالقرآن الكريم في دلائل آياته على عظمة الكون وخالقه ومدبره سبحانه وكان سلاح الجهاد في تلك المرحلة الصبر الجميل والتحمل الكبير ، يقول الله عز وجل في جهاد هذه المرحلة مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله: ؟ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ؟[الفرقان: ٥١-٥٢] ، ويالها من مهمة ما أعظمها، ففي هذه الآية من الحث والتــهييج للرسول والمؤمنين ما فيها.. فإن الكفار قديماً وحديثاً يجدّون ويجتهدون ، في حرب الإسلام وتهــوين شأنه، وكأن الآية تقول للرسول – صلى الله عليه وسلم – قابل صدهم وإعراضهم وعنادهم بجــدك واجتهادك ، واستمسك بالوحي الذي أنزل عليك وعض عليه بالنواجذ فإنك بذلك تغلبهم وتعلوهم: ؟... وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ؟، وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه الرسول من المشاق العظام والمهام الجسام، لأنه – صلى الله عليه وسلم – نذير لجميع القرى ، والأمم وذلك لعموم رسالته لأن الله لــو بعث في كل قرية نذيراً، لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده وعظم – صلى الله عليه وسلم – .

وكما اكتمل بناء العقيدة الإيمانية والتوحيدية في النفوس المؤمنة في هذه المرحلة وظهر شامخاً راسخ الدعائم والأركان، ثابت القواعد لا تهزه أعاصير الحياة ولا تقف أمامه ترهات الكفر والإلحاد، ولا تؤثر فيه سخافات الوثنية وأباطيل الشرك والجهالات.

لقد غرس محمد - صلى الله عليه وسلم - في أفئدة وقلوب أصحابه الإيمان بالله واليوم الآخر، كانوا على يقين جازم لا يخالطه ريب أنهم سيقومون لرب العالمين، يحاسبون بأعمالهم صغيرها وكبيرها، فإما إلى نعيم مقيم دائم لا ينتهي ولا ينقطع وإما إلى عذاب خالد شديد في نار وقودها الناس والحجارة فكانوا بين الخوف والرجاء، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، كانوا موقنين أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة، كانت هذه العقيدة تهون عليهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها، حتى لم يكونوا يكترثون لها.

إن الإيمان العميق إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش.. وهذا ما ربى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صحابته الكرام. إنهم لما آمنوا بالله العزيز الحميد وصدقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تصديقاً جازماً لا يخالطه شك ولا ريب .. صنعوا العجائب وحققوا وأنجزوا.

لما اكتمل بناء العقيدة في ضمائر وقلوب المؤمنين في مكة وهم قلة والمشركون واقفون في طريق الدعوة عقبه كأداء يصدون عن سبيل الله ويتوعدون من يؤمن ، وينزلون به ألواناً من العذاب واستمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشر عاماً يدعوا إلى ربه ويجاهد ويصبر ويصابر، حتى أذن الله للنور أن ينتشر فيمّم النبي - صلى الله عليه وسلم - وجهه شطر قبائل العرب ووفودهم في موسم الحج يعرض عليهم دعوة الله ويطلب منهم النصرة والحماية، فوجد هذا النور والخير طريقه إلى قلوب الأوس والخزرج من سكان المدينة وسرعان ما انتشر الخير وسرى النور في المدينة كما يسري نور البدر في ظلمات الليل فيبددها، والماء العذب في الأرض الجدبة فينبتها، واحتضنت المدينة الإسلام والمسلمين كما تحتضن الأم الرؤوم أولادها ، ووجد المسلمون في الأنصار خير إخوان، وأعواناً عرفتهم الدنيا في تاريخها الطويل.

لقد انتقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة إلى طور جديد، طور يبني فيه الأسس الراسخة ويقيم الدعائم الثابتة لبناء المجتمع الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية، التي تطبق أحكام الله وتقيم شعائر الدين وتبلغ الإسلام رحمة للعالمين ، فما هي يا ترى تلك الأسس التي أقام عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ، هذا ما سيتم تبيينه في خطب لاحقة إن شاء الله.

الخطبة الثانية:

أيها المؤمنون: لا تزال الدماء تسفك والأنفس تزهق والبيوت تدمر والاقتصاد ينهار، واليهود يسرحون ويمرحون على مرأى ومسمع من العالم، كل همّهم هو أن توقف الانتفاضة الشعبية

الجهادية.. والشعب الأعزل يواجه الطائرات بالمقالع والمدافع والدبابات بالحجر.. والطائرات العربية والصواريخ العربية والأموال العربية، مشلولة بالذل والصغار، قادة الأمة غير جادين في نصرة القضية الفلسطينية منذ قيام دولة إسرائيل وحتى الآن، لم توجد إسرائيل أصلاً إلا بحماية الحكام الخونة لها وحراستهم لأمتها وحدودها، ومحاربتهم لكل المجاهدين والفدائيين طوال الخمسين عاماً الماضية .

تعلقت آمال الشعوب وتطلعت إلى القادة العرب الذين اجتمعوا أخيراً وتفرقوا دون أي موقف مشرف يذكر.. لأنهم ليسوا أهلاً للقيام بشرف الجهاد وتحرير فلسطين.

أيها الناس إن النصر لا يترل على الجبناء القاعدين ، إن النصر له شروط وله مقدمات.. إذا توفرت في الأمة وأخذ بها الزعماء والقادة فإن النصر حليفها لا محالة. أما إذا لم نأخذ بها و لم نسارع في تطبيقها فإن المأساة ستستمر والمحن ستزداد والبلاء سيضاعف، لا يذهبن الوهم بنا على أن نقول: مهما كان فينا من عيوب فإن أعداءنا كفار وظلمة ومعادون ومستكبرون عن الحق وسوف ينصرنا الله عليهم.. كلا.. لقد أرانا الله تبارك وتعالى شيئاً من مظاهر الانكسار والضعف والهزيمة في صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفيهم النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم أحد بسبب مخالفتهم لأمر واحد من أوامر الرسول مع أنهم كانوا يواجهون أعتى وأكفر خلق الله يومئذ.

أيها المؤمنون: إن من شروط النصر ومقدماته :

أن تقلع الأمة عن كبائر الإثم والفواحش، أما أن تظل أمورنا على ما هي عليه ، ترك للفرائض والواجبات وانتهاك للحرمات، بارات للخمر وتصنيع له ، أماكن الدعارة والقمار، أوكار للفساد، وتحطيم الأخلاق، إباحة الربا ومحاربة الدين.. هذه الحالة الاستثنائية التي تعيشها الأمة لا بد أن تختفي من حياتها فذلك شرط من شروط النصر ومقدمة ضرورية له.

من شروط النصر الاستعداد والإعداد ورفع وتيرة الأمة بكاملها وتدريبها وإعدادها للتضحية والجهاد فهؤلاء اليهود أعداء الله يأخذون بكل أسباب القوة المادية ، تصنيع للأسلحة تدريب وتسليح لليهود المدنيين ، فلماذا لا يأخذ حكامنا بأسباب النصر في جانب إعداد التصنيع ، أين المصانع العسكرية ، لماذا تخدرت الشعوب العربية والإسلامية ، وترسم السياسات من أجل إذلال الأمة ونزع هويتها وتجريدها من أسلحتها، وإشغالها باللهو واللعب والعبث والفسوق والاستمرار في هذه السياسات يمنع النصر ويحول بين الأمة وبينه ، قال تعالى: ؟ وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ؟[التوبة:٤٦].

فالإعداد للجهاد وإحياء فريضة الجهاد هو الخيار الوحيد، وهو قدر هذه الأمة، إن تقاعس حكامنا اليوم فسوف يأتي الله بغيرهم ممن يحبّهم ويحبونه.

من شروط النصر الهامة رفع مستوى الأمة إيمانياً وجهادياً ، على الحكومات أن تفتح الأبواب الموصدة أمام العلماء والدعاة لتوعية الأمة وتذكيرها وتعليمها وتربيتها على الإيمان والجهاد. وتجفيف منابع الفساد في إعلامها، وتعليمها وسائر أمورها.

ومن شروط النصر ومقدماته هو توحيد الأمة وجمع طاقاتها .. والعمل على رسم السياسات الجادة وإيجاد البرامج التي تجمع الأمة ولا تفرقها وتقويها ولا تضعفها إن كثيراً من الزعامات في الإعلام العربي تسهم في إضعاف وحدة الأمة وتفريق كلمتها بسياسات خبيثة لا تخدم سوى أعداء الأمة المتربصين بها.

هذه الشروط والخطوات ما لم يقم بها الحكام ويترجموها إلى واقع عملي فإنهم خائنون لدينهم وأمتهم متعاونون مع أعداء الأمة متآمرون عليها.. والوقت كفيل بإفراز الصادقين وظهور المتآمرين والخائنين لكل الناظرين.

شَوْقُ الجِهَاد وجلاَلُ النَّصر

في أفغانستان

بقلم الدكتورعدنان علي رضا النحوي

أَأَسكُبُ الشَّوقَ مِنْ جَفْنٍ ومن كَبِدِ ... ... ومِنْ رُؤىً وَصَلَتْ عَهْداً مضىَ بِغَدِ

... ...

الذكْرياتُ عَلَى أَطْلاَلِها نَهَضَتْ ... ... تُعَانِقُ المجدَ شَوْقَ الأُمِّ لِلْوَلَدِ

... ...

هُنَا اللَّيالي التي فَارَقْتُها زَمَناً ... ... عَادَتْ تُحَدِّثُ عَنْ أَهْلي وعَنْ بَلَديَ

... ...

" كَابُول " داري وإنْ شَطَّ المَزَارُ فَما ... ... يُقَرِّبُ الدَّار إلا لَهْفَةُ الكَبِدِ

... ...

فَحيْثُما كَانَ ذِكْرُ الله عُدْتُ إلى ... ... حَبْلٍ مِن الله مَوْصولٍ ومُنْعَقِدِ

... ...

أَنا انتسابي إلى الإِسلام : كُلّ هَوَى ... ... ماضٍ ويبقى هوى ديني ومُعْتَقَدِي

... ...

لله دَرُّكِ يا " كَابولُ " أَيُّ شَذاً ... ... أَحْلَى مِنَ الدَّم دفَّاقاً مِنَ الوُرُدِ (١)

... ...

أَزكى مِنَ الوَرْدِ فَوَّاحاً بِروضته ... ... أَغْنَى مِنَ النَّبْع فَوَّاراً على جَدَدَ (٢)

... ...

رَحِيقُهُ : في سبيل الله ، نَفْحَتُه ... ... نَصْرٌ على عِزَّةٍ قَعْسَاءَ لم تَحِدِ (٣)

... ...

كَأَنَّهُ عَبَقٌ ، والسَّاحُ تَنْشُرُهُ ... ... مِلءَ الزَّمانِ، عَلَى الآفاق ، في النُّجُدِ

... ...

لله تَسكُبُه الأبْطَالُ صَاعِدةً ... ... عَلَى مَدَارِجِها آفَاق ، مُجْتَهِدِ

... ...

إِلى الجِنَان ! إِلى الفردَوس وثْبَتُها ... ... تَدُقُّ أبوابَها دقًّا بكلّ يَدِ

... ...

للنَّاسِ إن أَظْلَمُوا نُورٌ بِهِ وإذا ... ... مَالُوا فمِنْهُ جَلاءُ الحقِّ و السَّدَدِ

... ...

كمْ آيَةٍ عَرَضَتْ مِنْ طِيبها عَبَقا ... ... عَلى عُلاً زَاهِرٍ في أُفْقِهَا الفَرِدِ

... ...

فَقفْ هُنَا أَيُّها الإنْسَان في رَهَبٍ ... ... واخْشَعْ إلى الله في سَاحَاتِها وَعُدِ

... ...

كمْ آيَةٍ عَرَضَتْ مِنْ طِيبها عَبَقا ... ... عَلى عُلاً زَاهِرٍ في أُفْقِهَا الفَرِدِ

... ...

فَقِفْ هُنَا أَيُّها الإنْسَان في رَهَبٍ ... ... واخْشَعْ إِلى الله في سَاحَاتِها وَعُدِ

** ... ** **

جَلاَلُ نَصْرِكِ آياتٌ مبيِّنةٌ ... ... لِلمؤْمِنين وغَيْظُ الحَاقِدِ النَّكِدِ

... ...

عَشْرٌ مَضتْ ! والدَّمُ القَاني يُفَجِّرُهُ ... ... مِن الوَرِيد وَفَاءُ العَهْدِ وَالعُدَدِ

... ...

لقَدْ تَجَاوَزْتِ شَكْوَانا و واقِعَنا ... ... وَقُمْتِ مِنْ غَفْوَةٍ رَكْضاً إِلى كَبَد (٤)

... ...

إِلى المَيَادِين يُجْلَى في مَلاحمها ... ... حقٌّ ويُحْسَمُ مِنْ أَمْرٍ ومِنْ عُقَدِ

... ...

هُناكَ بَيْنَ اللَّظى صُغْتِ السِّياسَة لا ... ... بيْنَ الأرائِكِ والأطْبَاقِ والحَفَد (٥)

... ...

هُنَاكَ صُغْتِ على المَيْدَانِ فَلسفَةً ... ... تَقُولُ إن شِئتَ نَصْرَاً قُمْ لَهُ وجُدِ

... ...

وَعُذْ بربِّكَ لا تُشْرِكْ به أَحداً ... ... وَمَنْ يَعُذْ بِسوى الرَّحمن لم يَسُدِ

* * ... ... * *

١٤١٢هـ

١٩٩١م ... ...

• ملحمة الجهاد الأفغاني .

(١) الوُرِدُ أصلها الوُرْد وهي جمع الورد وهو الشجر أو الزهرة ، ومن كل شيء بين الحمرة والصفرة .

(٢) جَدَدَ : الأرض الغليظة المستوية .

(٣) قعساء : الثابت من العز .

(٤) كبد : مشقة .

(٥) الحَفَدْ : الأعوان والخَدَم

عاشوراء يوم النصر العظيم

*د.عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان ١٤٢٦/١/٩

٢٠٠٥/٠٢/١٨

الصراع بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان قديم قدم البشرية ذاتها، ولا يزال مستعراً مشبوباً إلى قيام الساعة، وهذه سنة الله في خلقه، وهي مقتضى حكمته ورحمته، قال الله عز وجل: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً)، وقال تعالى: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض). فالله تعالى قادر على أن يهلك الظالمين في لحظة، ويأخذهم على حين غرة، ولكنه ابتلى بهم عباده المؤمنين ليكشف معادنهم، ويمتحن صدقهم وصبرهم، وجهادهم وبذلهم. فبالابتلاء يتميز المؤمن الصادق من الدعي المنافق، ويتبين المجاهد العامل من القاعد الخامل.

ولقد قصَّ الله لنا فصولاً كثيرة من هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين. ومن هذه القصص العظيمة: قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون مصر في عهده، التي تكرر ذكرها في القرآن فيما يقارب ثلاثين موضعاً، وهي أكثر القَصص القرآني تكراراً، وذلك لمشابهتها لما كان يعانيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- من صناديد قريش وفراعين هذه الأمة، ولما فيها من التسلية والتأسية له وللمؤمنين،

حينما يشتد عليهم أذى الكفار والمنافقين، ولما اشتملت عليه من العظات البالغة، والدروس والحكم الباهرة، والحجج والآيات القاطعة.

وتبدأ قصة موسى مع فرعون، منذ أن كان موسى حملاً في بطن أمه، فقد قيل لفرعون: إن مولوداً من بني إسرائيل سيولد، وسيكون على يديه هلاكك وزوال ملكك.

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وقد نزح إسرائيل وأولاده من الشام إلى مصر في عهد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وكان عددهم آنذاك ثمانين شخصاً، ثم لم يزل عددهم ينمو ونسلهم يتكاثر حتى بلغوا في عهد فرعون الطاغية ستمائة ألف إنسان.

وعندما أخبر فرعون أن زوال ملكه سيكون على يد غلام من بني إسرائيل أصدر أوامره بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، حذراً من وجود هذا الغلام -ولن يغني حذر من قدر-، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، واحترز فرعون كل الاحتراز ألا يوجد هذا الغلام، حتى جعل رجالاً وقابلات يدورون على النساء الحوامل، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه من ساعته.

وكان هارون عليه السلام قد ولد قبل بدء هذه المحنة، فأنجاه الله من كيد فرعون، وأما موسى عليه السلام فإنه لما حملت به أمه حرصت على إخفاء حملها خوفاً عليه من القتل، وكان خوفها عليه يزداد مع مرور الأيام وقرب وقت المخاض، ولما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وضاقت عليها الأرض بما رحبت، وركبها من الهم والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وكان خوفها عليه أضعاف أضعاف فرحها بقدومه، ولكن الله جلّ وعلا ألهمها بما يثبت به فؤادها، كما قال تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه، فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين).

فاستجابت أم موسى لهذا الإلهام، وصنعت لابنها صندوقاً، وألقته في نهر النيل، حيث كانت دارها مجاورة له، ألقته في النهر وكأنما ألقت معه عقلها وقلبها، فأصبح صدرها خالياً من الطمأنينة، خالياً من الراحة والاستقرار، ولولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وشد عزمها باليقين، لكشفت السر وأفسدت التدبير (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين).

ويمضي الموج بالوليد الضعيف داخل الصندوق، يحفه الله بعنايته، ويكلؤه بحفظه ورعايته، حتى بلغ قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون، ولما فتحوا التابوت وجدوا فيه ذلك الغلام الضعيف. ولكن رب الأرباب، ومالك القلوب والألباب، يلقي في قلب آسية زوجة فرعون فيضاً من الرحمة والرأفة والحنان، على هذا الطفل الرضيع: (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أونتخذه ولداً وهم لايشعرون) وكانت آسية عاقراً لا تلد، وقوله تعالى: (وهم لا يشعرون) أي:

كدناهم هذا الكيد، وجعلناهم يلتقطون موسى ليكون لهم عدواً وحزنا وهم لا يشعرون. وقد أنالها الله ما رجت منه من النفع والخير، فهداها الله بسببه، وجعلها من أهل جواره وجنته.

ولكن هذا الطفل المحفوف بعناية الله يفاجئوهم بأنه لا يقبل ثدي امرأة ليرضع، فحاروا في أمره، واجتهدوا في تغذيته بكل ممكن، وهو لا يزداد إلا رفضاً واستعصاء، ولا يزيدهم إلا عنتاً وحيرة، وبينما هم كذلك، إذ بأخته تقبل عليهم، وكانت أمها قد أمرتها بأن تتابع أخاها وهو في الصندوق، وأن تقفو أثره، لتعلم مستقره، وتستطلع خبره: (وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهبوا معها إلى منزلهم، فلما رأته أمه ما كادت تصدق عينيها، فأخذته وضمته إلى صدرها وألقمته ثديها، فأخذ يرضع بنهم شديد، وهم في غاية الدهشة والسرور. وهكذا يأبى الله -عزّ وجل- إلا أن يحمل آل فرعون هذا الوليد إلى أمه التي خافت عليه منهم، ثم يعطوها مع ذلك أجرة إرضاعها له، ويتعهدوا وليدها بالتربية والرعاية، قال الله تعالى: (فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون).

وما زالت الأيام تمضي، والأعوام تترى، وكبر موسى وبلغ أشده، وآتاه الله حكماً وعلماً، فصار يأمر وينهى، ويقول فيسمع، ويشفع فيشفع، ولا غرو فهو ابن فرعون بالتبني، وهو ربيبه وواحد من أهل بيته، قال الله تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين). وبعد حين وقع في محنة عظيمة، حيث قتل رجلاً من قوم فرعون ما كان يريد قتله، وتخوف من الطلب، ففر هارباً إلى أرض مدين، ولبث فيهم عشر سنين، تزوج في أثنائها، ثم عاد إلى أرض مصر مع أهله، وفي الطريق إليها أكرمه الله برسالته، وأوحى إليه بوحيه، وكلمه كفاحاً من غير واسطة ولا ترجمان، وأرسله إلى فرعون بالآيات القاطعات والسلطان المبين، ولكن فرعون عاند وكابر، (فكذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى) وادّعى أن ما جاء به موسى سحر، وأن عنده من السحر ما يبطله، وجمع السحرة من جميع أنحاء مملكته، فألقوا ما عندهم من السحر، (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) (فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون) (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وألقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون).

ولما انقطعت حجة فرعون، وخاب كيده، وانكشف باطله وزيفه، لجأ إلى القوة والبطش، والتعذيب والتنكيل، والملاحقة والتشريد، وإرهاب الناس بالنار والحديد. إنه منطق الطغيان العاتي، كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، وخاف أن يظهر الحق، ويتمكن أهله وروّاده.

ثم أرسل الله -عز وجل- على فرعون وقومه آيات عجيبة وعقوبات متنوعة: من الطوفان، والجـــراد، والقمل، والضفادع، والدم، (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشـــر)، ولكنـــها - والعياذ بالله- لم تزدهم إلا عناداً واستكباراً، وظلماً وعدواناً، يقول الله تعـــالى: (فأرســـلنا علـــيهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين).

ولما تمادى فرعون في طغيانه وإيذائه لموسى ومن معه، أوحى الله إلى موسى أن يخرج بالمسلمين مـــن أرض مصر ليلاً، فخرجوا قاصدين بلاد الشام.

فلما علم فرعون بخروجهم جمع جيشه، وجنّد جنوده من شتّى أنحاء مملكته لـــيلحقهم ويمحقهـــم في زعمه: (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لجميع حذرون).

فخرج فرعون وجنوده في أثرهم، حتى أدركهم عند البحر الأحمر (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم!! فأجابهم موسى بلسان المؤمن الواثق بـــأن الله معه ولن يضيعه، وقال لهم بكل ثقة وثبات: (كلا إن معي ربي سيهدين)، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه وهو يتلاطم بأمواجه، فانفلق بإذن الله اثني عشر طريقاً يابساً، وصار هذا المـــاء السيال، وتلك الأمواج العاتيات، كأطواد الجبال الراسيات، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين، ودخل فرعون وجنوده في أثرهم لاهثين سادرين، فلما جاوزه موسى وقومه، وتكاملوا خارجين، وتكامـــل فرعون وقومه داخلين، أطبقه الله عليهم وأغرقهم أجمعين: (وأوحينا إلى موســـى أن أســـر بعبـــادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى).

وهذا هو مصير أعداء الله في كل حين، وتلك هي عاقبة المكذبين الضالين، وما ربك بظلام للعبيـــد، يقول الله تعالى: (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنـــهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

ويستفاد من هذه القصة أيضاً: أن العاقبة للمتقين، والنصر حليفهم، متى ما تمسكوا بدينهم، واستنزلوا النصر من ربهم: (وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم)، (إنا لننصر رسلنا والذين آمنـــوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار).

ويستفاد منها كذلك: أن الباطل مهما انتفخ وانتفش، وتجبّر وتغطرس، وظن أنه لا يمكن لأحـــد أن ينازعه، أو يردّ كيده وباطله، أو يهزم جنده وجحافله؛ فإن مصيره إلى الهلاك، وعاقبته هـــي الذلـــة والهوان، فهذا فرعون الطاغية بلغ به التكبر والغرور أن يدّعي الإلوهية، وأن يعلن للناس بكل جـــرأة وصفاقة: (ما علمت لكم من إله غيري) وأن يقول بملء فيه من غير حياء ولا مواربة: (أنـــا ربكـــم الأعلى)، ثم يفتخر بقوته وسلطانه فيقول: (يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحـــتي

أفلا تبصرون)، ثم يحتقر موسى عليه السلام وهو النبي الصالح والداعية الناصح فيقول: (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين)، ولكنه حين حلّ به العذاب لم يغن عنه ملكه وسلطانه، ولا جنده وأعوانه، ولا تبجحه وادعاؤه: (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى).

فيا ترى متى وقع هذا الحدث العظيم، وتحقق هذا النصر المبين؟!! لقد كان ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر الكريم: شهر الله المحرم. فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: "قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فنحن أحق وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأمر بصيامه".

وقد كان صيام يوم عاشوراء واجباً قبل أن يفرض صيام رمضان، فلما فرض صيام رمضان أصبح صيام عاشوراء سنة مؤكدة. تقول حفصة رضي الله عنها: "أربع لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعهن: صيام عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر، وركعتان قبل الفجر" رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني. وسئل ابن عباس -رضي الله عنهما- عن صيام عاشوراء؛ فقال: "ما علمت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صام يوماً يطلب فضله على الأيام إلا هذا اليوم" متفق عليه. وبين النبي -عليه الصلاة والسلام- أن صيام هذا اليوم يكفر ذنوب سنة كاملة فقال: "صيام عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله" رواه مسلم.

وروى مسلم أيضاً عن ابن عباس قال: "حين صام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله! إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى؟ فقال: فإذا كان العام القابل إن شاء الله صمت التاسع. فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"، وفي صحيح مسلم أيضاً: "خالفوا اليهود، صوموا يوماً قبله أو يوماً بعده".

قال ابن القيم: "فمراتب صومه ثلاثة. أكملها: أن يصام قبله يوم وبعده يوم. ويلي ذلك: أن يصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث. ويلي ذلك: إفراد العاشر وحده بالصوم" أ.هـ

وبناءً عليه، فإن إفراد العاشر وحده بالصوم جائز، وبه يحصل الأجر المذكور في تلك الأحاديث، والأكمل صيام التاسع والعاشر، أو العاشر والحادي عشر، حتى تحصل المخالفة لأهل الكتاب. وإن صمت يوماً قبله ويوماً بعده فهذا أحسن وأتم، حتى تستيقن صيام اليوم العاشر، خصوصاً إذا كان مشكوكاً في وقت دخول الشهر، ولأن السُّنة صيام ثلاثة أيام من كل شهر، كما أن الصيام في شهر محرم له خصوصية ومزية على ما سواه، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "أفضل الصيام بعد رمضان: شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل".

وإن وافق عاشوراء يوم الجمعة أو السبت فلا بأس بالصيام فيهما أو في أحدهما، لأن المنهي عنه هو إفراد الجمعة أو السبت بالصيام، لأجل أنه الجمعة أو السبت، أما إذا كان للصيام فيهما سبب شرعي يقتضيه، كيوم عاشوراء، أو يوم عرفة، ونحوهما فلا نهي حينئذ. ويشبه ذلك الصلاة في أوقات النهي إذا كان لها سبب شرعي.

ومن المفارقات العجيبة: ما حصل في هذا اليوم المبارك أيضاً من قتل سيد شباب أهل الجنة: الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وعن أبيه وأمه وآل بيته-، حيث قتل في فتنة عظيمة بين فئتين من المسلمين، وهي فتنة طهّر الله منها أيدينا فلا نخوض فيها بألسنتنا. ولكن الذي ينبغي التنبيه إليه: هو أن ما يفعله بعض الشيعة في هذا اليوم من البكاء والنواح على قتل الحسين -رضي الله عنه-، وما يقومون به من تعذيب أنفسهم، وإسالة الدماء من وجوههم وصدورهم وظهورهم، والتقرب إلى الله بضرب أبدانهم بالسلاسل والسكاكين، ولطم خدودهم، ونتف شعورهم، ليس من الإسلام في شيء، وهو من البدع المحدثة، والمنكرات الظاهرة، ومن كبائر الذنوب التي تبرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من مرتكبيها، فقال: "ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية" متفق عليه. وعن أبي -موسى رضي الله عنه- "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء من الصالقة والحالقة والشاقة" متفق عليه. والصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنياحة والندب. والحالقة: هي التي تحلق رأسها عند المصيبة. والشاقة: هي التي تشق ثوبها. فكل عمل يدل على الجزع والتسخط، وعدم الرضا بقدر الله فإنه محرم. ويضاف إلى ذلك ما في هذه الأعمال البدعية المؤذية للأبدان من حماقة وسفاهة، وتشويه لصورة الإسلام، وتنفير لغير المسلمين من الدخول فيه. وقد رأينا بعض وسائل الإعلام العالمية المعادية تحرص على نشر هذه الأعمال البدعية بالصوت والصورة، زاعمة بأن هذا هو الإسلام، وهذا ما يفعله المسلمون في هذا اليوم من كل عام!!

وأشنع من هذا ما يفعله بعض هؤلاء المبتدعة من لعن للصحابة الأبرار، وإعلان للبراءة منهم. وهذا لعمر الله من أعظم الضلال، وأنكر المنكرات.

ويقابل هؤلاء فرقة أخرى، ناصبوا الحسين رضي الله عنه العداوة والبغضاء، فيتخذون هذا اليوم عيداً، ويظهرون فيه الفرح والسرور، ويلبسون الجديد، ويتبادلون الهدايا، ويصنعون أطعمة غير معتادة. وهذا كله من البدع المحدثة، والضلالات المنكرة، والبدعة لا تعالج بالبدعة، والخطأ لا يصحح بالخطأ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : "وقوم يستحبون الاكتحال والاغتسال، والتوسعة على العيال، واتخاذ أطعمة غير معتادة. وأصلها من المتعصبين بالباطل على الحسين -رضي الله عنه-، وكل بدعة ضلالة، و لم يستحب ذلك أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم. ولا عند من استحب ذلك حجة شرعية. بل المستحب يوم عاشوراء الصيام عند جمهور أهل العلم" أ.هـ

فاتق الله أيها المسلم، وعليك بالسنة والجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار. ولتعلم بأن منهج أهل السنة في الصحابة الكرام من آل البيت وغيرهم هو اعتقاد عدالتهم جميعاً، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد رسولها صلى الله عليه وسلم. ولهذا اختارهم الله تعالى لصحبته ونصرته، وتبليغ هديه وسنته. ويدينون لله -عز وجل- بمحبتهم كلهم، والترضي عن جميعهم، ويسكتون عما شجر بينهم، وحصل لهم من الفتن والمحن، ويعتقدون أنهم جميعاً مجتهدون مريدون للحق، فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد وخطؤه مغفور. وأن أخطاءهم مهما عظمت فإنها مغمورة في بحور حسناتهم، التي من أعظمها صحبتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجهادهم معه. رضي الله عنهم أجمعين، وجمعنا بهم في جنات النعيم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العامين. *عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة بالرياض

مؤهلات النصر في جيل الصحابة

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على من لا نبي بعده صلى الله عليه و سلم تسليما كثيرا

و بعد ..

إن كل أمة تعتز بتاريخها و تفخر ببطولات أبنائها و رجالاتها و إن أحق أمم الأرض بهذا الاعتزاز و الفخار هي الأمة الإسلامية لما أنجبته على طول تاريخها من رجال و أبطال يقف التاريخ أمام صفحات بطولاتهم وقفة إعزاز و فخر و ليس هذا فحسب بل لشهادة العزيز الغفار قال سبحانه و تعالى " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ "

فسبحان من قدمنا على الناس وسقانا من الإسلام أروى كأس و جعل بيننا أفضل نبي رعا و ساس وقال لنا كنتم خير أمة أخرجت للناس .

و إن كل أمة قادة و رموزا يمثلون قيمة و يوجهون الأمة ليصعدوا بالناس إلى القمة ويبلغوا بها درجات الجنة فإن قادة و رموز المجتمع المسلم هم صحابة النبي صلى الله عليه و سلم ، من نقتهم المحن ، و محصتهم الفتن ، الذين وضعوا أيديهم في يد النبي صلى الله عليه و سلم حتى ارتفعت راية الإسلام خفاقة و انتشر الإسلام في ربوع الأرض فمن رام الرفعة و العزة استهدى بهديهم و اتبع طريقهم.

وهذه جملة من المؤهلات التي أهلت الصحابة – رضي الله عنهم – لقيادة البشرية على سبيل الاختصار لا الحصر :

١- تعظيمهم لأمر الله عز و جل و أمر رسوله صلى الله عليه و سلم

كان الصحابة – رضي الله عنهم – يسارعون إلى تنفيذ أوامر الله عز و جل و أمر رسوله صلى الله عليه و سلم عملا بقول الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ " (الأنفال٢٠)

و قوله عز و جل " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِــنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً " (الأحزاب ٣٦)

فهذا موقف الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – و استجابتهم لأمر الله عز و جل و أمــر رســوله صلى الله عليه و سلم و خروجهم إلى حمراء الأسد في صبيحة يوم أحد و قد دعاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم للخروج فخرجوا على ما بهم من جراح و ألم تعظيما لأمر الله عز و جــل و أمــر رسوله صلى الله عليه و سلم و سجل الله عز و جل لهم ذلك الموقف في كتابه الخالد في ســورة آل عمران .

٢- صدقهم – رضي الله عنهم – في إيمانهم و أقوالهم و أعمالهم

و قد وصف الله عز و جل المهاجرين الكرام بالصدق ، فقال تعالى " لِلْفُقَــرَاء الْمُهَــاجِرِينَ الَّــذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُــولَهُ أُوْلَئِــكَ هُــمُ الصَّادِقُونَ " (الحشر ٨)

و نزل فيهم – رضي الله عنهم – قوله تعالى " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً " (الأحزاب ٢٣)

و لا نستطيع أن ننسى موقف أنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحد و قوله لسعد بن معاذ الجنــة و رب النضر إني أجد ريحها من دون أحد قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، قال أنــس بن مالك رضي الله عنه : فوجدنا به بضعا و ثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رميــة بســهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

٣- زهدهم في الدنيا و رغبتهم في الآخرة

إنما سبق الصحابة رضي الله عنهم بقوة يقينهم بالآخرة الباقية و زهدهم في الدنيا الفنية قال عبــد الله بن مسعود رضي الله عنه للتابعين لأنتم أكثر عملا من أصحاب رسول الله صلى الله عليــه و ســلم لكنهم كانوا خير منكم كانوا أزهد في الدنيا و أرغب في الآخرة

تصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم فتقول " كان ينام أدما حشوه ليفا " متفق عليه وهذا عمر رضي الله عنه و هو خليفة المسلمين يرقع ثوبه و ينام على ظنفــة رحله متوسدا الحقيبة و يقول هذا يبلغني المقيل.

٤- شجاعتهم النادرة و استهانتهم بالحياة الدنيا

و كأن صحابة النبي صلى الله عليه و سلم تمثلت لهم الآخرة و تجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونهــا رأي العين فطاروا إليها طيران الحمام الزاجل لا يلوي شيء و تعددت صور شجاعتهم فهذا عمير بن الحمام يوم بدر يقول " بخ بخ إنها الحياة الطويلة إن أنا بقيت إلى أن آكل تلك الثمرات وألقاها مــن يده ثم قاتلهم حتى قتل ".

وفي يوم اليمامة أغلقت بنو حنيفة أنصار مسيلمة الكذاب الباب عليهم و أحاط بهم الصحابة فقال البراء بن مالك : يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرمح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه و دخل المسلمون الحديقة من حيطانها و أبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة – لعنه الله –

٥- قطع حبال الجاهلية وموالاة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين :

كان الواحد من الصحابة بمجرد أن يدخل الإسلام يجتهد كل الاجتهاد أن يقطع حبال الجاهلية و أن يخلع على باب هذا الدين مل ماضيه بما فيه من سوءات وظلمات

فهذا عبد الله بن أبي سلول يستأذن النبي صلى الله عليه و سلم بأن يأتي برأس والده رأس المنافقين و هذا حنظلة بن أبي عامر يطلب من النبي صلى الله عليه و سلم قتل أبيه لما آذى الرسول صلى الله عليه و سلم والمسلمين فينهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك كما نهى عبد الله بن أبي بن سلول .

٦- استهانتهم بزخارف الدنيا وزينتها الجوفاء :

علم الصحابة – رضي الله عنهم – حقارة الدنيا وزيف زخارفها فاستهانوا بها فلم تبهرهم الأضواء و لم تشغلهم الشهوات ، و ما موقف الصحابي الجليل ربعي بن عامر يوم القادسية عنا ببعيد حين دخل على رستم و قد مزق النمارق و الوسائد التي وضعت له وهو إنما يمزق شهوات الدنيا الفانية وزخارفها الجوفاء .

٧- حرصهم على الاجتماع و الوحدة ونبذ الخلاف :

كان الصحابة – رضي الله عنهم – من أحرص الناس على أسباب الرفعة و النصر و التي من أسبابها الوحدة و الاجتماع و نبذ الخلاف قال تعالى " وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ " (آل عمران ١٠٣)

قال علي رضي الله عنه السنة و الله سنة محمد صلى الله عليه و سلم و البدعة ما فارقها ، و الجماعة و الله مجامعة أهل الحق و الفرقة مجامعة أهل الباطل وإن كثروا .

٨- مسارعتهم – رضي الله عنهم – إلى التوبة والإنابة إن بدرت منهم المعصية:

كما في قصة ماعز الذي أقر عند رسول الله صلى الله عليه و سلم على نفسه بالزنا فأمر بإقامة الحد عليه ثم أتت الغامدية تقر على نفسها كذلك . و كذا الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر حتى نزلت براءهم من السماء فقد كان الصحابة – رضي الله عنهم – من أسرع الناس إلى التوبة و الإنابة و الاعتراف بالذنب ، كما أنهم دائما أسرع الناس إلى الخير فرضي الله عنهم أجمعين .

٩- تكافلهم فيما بينهم و مواساتهم لإخوانهم

قد مدح الله عز و جل الأنصار الكرام بقوله تعالى " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ " (الحشر ٩)

و كانوا رضي الله عنهم يمتثلون قوله سبحانه " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ "

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي صلى الله عليه و سلم بينه و بين سعد بن الربيع الأنصاري ، فعرض عليه أن يناصفه أهله و ماله ، فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك في أهلك و مالك " البخاري

١٠- اتهامهم أنفسهم دائما بالتقصير

قال تعالى " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّـي غَفُـورٌ رَّحِـيمٌ " (يوسف ٥٣) هذا أبو بكر رضي الله عنه يدخل عليه عمر يوما و هو يجند لسانه فيقول له : مه غفر الله لك فيرد عليه أبو بكر قائلا : إن هذا الذي أوردني الموارد " البخاري

وهذا أبو الدرداء يصيبه المرض و يدخل عليه أصحابه ليعودوه و يقول له أي شيء تشتكي ؟ فيقـول ذنوبي فيقولون له : أي شيء تشتهي فيقول الجنة "

١١- أنفتهم و استعلاء الإيمان في قلوبهم

هذا الإيمان الذي رفع رأسهم عاليا و أقام صفحة عنقهم فلن تنحني لغير الله أبدا .

١٢- تزكية نفوسهم بالعبادات

وعى الصحابة رضوان الله عليهم عمليا من أن تطهير النفس و تزكيتها هما أساس التغيير المنشـود و أساس النجاح و النصر المنشود في الدنيا و الفوز و الفلاح في الآخرة قال تعالى " قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا " (الشمس ٩)

" قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى " (الأعلى ١٤ ، ١٥)

١٣- ثباتهم أمام المطامع و الشهوات

لا شك في أن قوة الإيمان في قلب العبد تجعله يترفع عن شهوات الدنيا و أغراضها الدنيئـة فيصـون العرض و يؤدي الأمانة ، و يعف عن الغلول .

١٤- حرصهم على الأخذ بأسباب القوة

عملا بقوله عز و جل " وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـهِ عَـدْوَّ اللّـهِ وَعَدُوَّكُمْ " (الأنفال ٦٠)

وقوله صلى الله عليه وسلم " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف " رواه مسلم

١٥- استنصارهم بالله عز و جل و طلبهم العزة بما أعزهم الله عز و جل به :

و قد كان من هدي الصحابة الكرام أنهم يطلبون النصر من الله عز و جل عملا بقوله تعـالى " وَمَـا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (الأنفال ١٠)

و يطلبون العزة بما أعزهم الله عز و جل به من الإيمان و العمل بالإسلام و طاعة النبي صلى الله عليه و سلم كما قال عمر : إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله " .

١٦- ثقتهم بنصر الله عز و جل

قال تعالى " وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ " (الروم ٤٧)

و قال تعالى " وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ " (الصافات ١٧٣)

و قال صلى الله عليه وسلم " إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها " فكان من ثقة الصحابة الكرام بنصر الله عز و جل يتهمهم المنافقون بالغرور كما قال تعالى " إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (الأنفال ٤٩)

من فقه الأولين النصر ساعة صبر !!

* عبد الله فرج الله

النصر.. صبر ساعة، أو ساعة صبر، هذا ما أكده الأولون من سلفنا الصالح، الذين ذاقوا طعم النصر، بعد أن ساروا في دروبه، وخاضوا ميادينه، فهم وحدهم من يملك حق الكلام في «النصر» تنظيراً وتأطيراً، أما الذين لم يتذوقوا إلا طعم الهزائم، ولم يعيشوا «النصر» إلا من خلال الخطابات الجوفاء، والشعارات الزائفة، التي لا تسد جوعة، ولا ترجع مغتصباً، ولا تردع ظالماً.. فلا يحق لهم غير الصمت، وإن تجرءوا على الكلام أن يخرسوا.. فللذين انتصروا، فكان لهم في ميادين البطولات جولات وصولات، نصيخ السمع، ونحني الهامات، إجلالاً وإكباراً..

أما الذين غدا النصر عندهم خطبة رنانة، أو مقالة مطولة، أو قصيدة عصماء، أو مبادرة ذليلة، أو معاهدة تنازل، أو مؤتمر استجداء، نقول لهم : أخطأتم الطريق.. فلن يكون النصر أبداً ثمرة حرب «السلام والمبادرات والمؤتمرات» كما تزعمون، بل لن يكون السلام أو المبادرات أو المؤتمرات حرباً في يوم من الأيام، مهما روج لذل ك إعلامكم، وانطلقت به شياطينكم، وجعجعت به أبواقكم..

فالنصر -وهذا إيماننا المطلق- ساعة صبر، ويالها من ساعة، إنها أم الساعات، بله هي الساعات كلها، إنها كبرى الساعات وأعظمها، ساعة التضحيات الجسام، ساعة بذل الأرواح، ساعة الدماء النازفة، ساعة الجوع والحصار، ساعة الدموع والآلام، ساعة الوداع والفراق، ساعة الموت الزؤام، ساعة العصف والقصف، ساعة تهدم فيها البيوت، وتدك الحصون ، وتيتم الصبايا، وترمل النساء، وتثكل الأمهات.. إنها ساعة الزلزلة والخوف والهلع، ساعة تبلغ فيها القلوب الحناجر..

هذا هو ثمن النصر.. وهذا هو إيماننا، لا نصر بدون هذا كله، ومن ظن النصر غير هذا، فليبحث له عن مكان آخر، فليس في هذه الدنيا مكانه، وليس هذا الزمان زمانه..

فهنيئاً للقابضين على الجمر..

فهذه ساعة الصبر..

والنصر.. على مرمى حجر..

لا تسمعوا صوت الناعبين..

فالنصر مع الصبر

لكن بعد حين..

قسماً هذا هو اليقين..

قسماً هذا هو اليقين..

فالنصر العظيم هذه ساعته..

والتضحيات الجسام يا أهلنا هي ساحته

أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله وخيرته من خلقه، وعلى من سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد،،،

فإن أسباب الانتصار والهزيمة في التاريخ الإسلامي موضوع مهم ينبغي أن يعرفه المسلمون عموماً، والدعاة إلى الله خصوصاً، ينبغي أن يبحثوه ويتأملوه ليعرفوا أسباب النصر، فيعملوها، وينشروها، ويعرفوا أسباب الخذلان والهزيمة، فيجتنبوها، ويحاربوها، ويبعدوها.

ومن المعلوم عند كل مسلم أن الله وعدنا أن ينصر هذا الدين وأن يمكن لعباده المؤمنين، قال سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ[٥١]}[سورة غافر] . وقال سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...[٥٥]}[سورة النور].

إذن: هذا وعد صادق لابد أن يتحقق.. وقد تحقق في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم في عهد خلفائه، ومرت السنون والقوة الإسلامية والتمكين لها في الأرض بين مد وجزر، فبعد القرون المفضلة أصبح التاريخ الإسلامي يمر بفترات هزيمة وبفترات انتصار، ولكن النصر كلمة واسعة عامة شاملة تشمل:

انتصار الداعية: حتى ولو قتل، فهناك من الدعاة من قتل، ومن عذب، ومن شرّد، ولكنه في النهاية نصره الله- أي نصر المنهج الذي عاش من أجله، حتى ولو قتل ذلك الداعية- وأقرب مثال لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي مات سجيناً، ثم إنه بعد عدة قرون ييسر الله من يقوم بنفس المباديء التي دعا إليها شيخ الإسلام، وهو الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ويرفع لوائها، وينشرها في هذه الأرض، فليس النصر بالمعنى العام هو الظهور في الأرض فقط، إنما حديثنا يتركز حول الظهور على العدو والتمكين في الأرض .

الأمة الإسلامية اليوم تواجه واقعاً مأساوياً، نستطيع أن نلخصه في ثلاث نقاط:

١- هزيمة نفسية تنتاب كثيراً من أفراد الأمة: ومع الأسف حتى على مستويات كبيرة حتى وجد من ينادي بالانخراط في منظومة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد لنكون عجلة من عجلات هذا النظام، ويقوده ذلك الرجل الغربي الكافر .

٢- تبعية في مجالات كثيرة: ومن أهمها التبعية الثقافية والفكرية، والاقتصادية، وتبعيات كثيرة .

٣- الأمر الثالث الذي يتضح فيه واقع الأمة: الضعف والذلة والتفرق: فأصبحت الأمة المسلمة رغم كثرتها وامتداد ساحتها ورقعتها أصبحت أضعف الأمم، وأقل الأمم شأناً في هذا العصر، بينما الأمم الأخرى لا يمكن أن يحصل شيء في هذه الأرض إلا بعد أن يؤخذ رأيهم حتى البوذيين في الصين يؤخذ رأيهم، وأما الأمة المسلمة فإنه لا يؤخذ رأيها حتى في قضاياها هي ! وصدق فيها قول الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

إذن: لابد لهذه الأمة أن تعرف أسباب النصر والهزيمة، وأن تتلمس واقعها هذا، والأمور التي أدت إلى نزولها إلى هذا الحضيض، وأن تحاول أن تنتشل نفسها، وأن تخرج إلى ما أراد الله لها من قيادة هذه الدنيا، ومن سيادة العالم .فنحاول أن نلخص أسباب النصر والهزيمة بدون استطراد وتوسع وإلا فهي تحتاج إلى مجلدات.

أسباب النصر والهزيمة:

أولاً: من أسباب النصر:

لعل أهم سبب من أسباب النصر لهذه الأمة هو:

١- الإيمان الصادق والعمل الصالح: يقول الله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فإذن لابد من إيمان صادق وعمل صالح : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} وهنا شرط مهم : {...يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...[٥٥]}[سورة النور]. ثم قال في الآية التي بعدها مباشرة:{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[٥٦]}[سورة النور]. فإذن: لابد من إيمان صادق، ومن عمل صالح.

ومن أهم ما يتمثل فيه هذا الإيمان:

أ- عبادة الله سبحانه وتعالى عبادة خالصة ليس فيها شرك .

ب- وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما أمر به، وفي كل ما نهى عنه، فما أمر به يفعل، وما نهى عنه يجتنب .

ج- التوكل على الله وحده، والاعتماد عليه سبحانه، والاستنصار به جل وعلا، ودعاؤه والاستغاثة به: كما كان نبينا يفعل، ومن يقرأ قصة غزوة بدر يجد ذلك واضحاً حيث قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: [اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ] فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ...إلخ الحديث.رواه مسلم.

د- الصبر والثبات: سواء كان ذلك في المعركة، أو قبل المعركة: صبر على الابتلاء، صبر على المحن، فلا يمكن أن يمكن لهذا الدين إلا بعد ابتلاءات ومحن، ثم إذا صُفي ونُقي جاء التمكين، وجاء النصر، فلابد من صبر وثبات كما قال جل وعلا:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...[٤٥]}[سورة الأنفال]. وكما قال سبحانه:{ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[٦٦]}[سورة الأنفال].

هـ- ذكر الله كثيراً ...{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...[٤٥]}[سورة الأنفال] . إذا قارنت هذا الأمر الإلهي الذي طبقه النبي وأصحابه والسلف الصالح من بعدهم، ثم قارنته بهذا العصر الذي نعيشه؛ وجدت أن أهل هذا العصر يدخلون المعركة، وهم يغنون، ويرقصون؛ فتكون النتيجة هزيمة ساحقة، وخيبة ماحقة .

٢- ومن أسباب النصر: وحدة صف الأمة: أما إذا كانت مفرقة ومشتتة، فإن النصر لن يكون حليفها، ولذلك صلاح الدين الأيوبي رحمه الله لما أراد أن يستخلص بيت المقدس من أيدي الصليبيين أول أمر فعله أن قام بتوحيد أقوى بلدان المسلمين في ذلك الوقت، وهي: مصر والشام، فلما وحدها نهض لقتال الصليبيين، فوحدة الصف المسلم سبب من أسباب النصر والتمكين، وأما إذا كان المسلمون مفرقين فإن النصر منهم بعيد.

٣- كذلك من أسباب النصر: وجود القيادة المؤمنة القوية: فالقيادة العلمية القوية وقيادة الدنيا إذا اجتمعتا تحقق النصر والتمكين، أما إذا وجدت القيادة العلمية، ولكن ليس معها قوة تحميها وتدافع عنها وتجاهد لنشرها فإنها لا تقوى ولا تنتصر.

٤-إعداد العدة والأخذ بالأسباب: قال الله:{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...[٦٠]}[سورة الأنفال]. كل شيء تستطيعونه من أسباب القوة، فأعدوه صغيراً كان أو كبيراً ما دمتم تستطيعونه عليكم أن تعدوه.{وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} الخيل تدخل في القوة، فلماذا خصها بالذكر؟ خصها بالذكر لحكمة وهي: أن نعتني بأهم أسباب القوة، فالخيل في عهد النبي هي أهم أسباب القوة، فما دمنا نستطيع أن نوجد أهم أسباب القوة فإن علينا أن نعتني بها، في غزوة بدر لم يكن مع النبي إلا فارس واحد، وقيل: اثنان، وأكثر الأقوال أنهم ثلاثة.ويقول الحافظ ابن حجر: لم يثبت أو لم يصح أنه وجد فارس إلا المقداد وحده . فهذا هو قدر استطاعتهم، وكان مع قريش مائة فارس، والخيل في ذلك الوقت مثل الطائرات في زماننا هذا، فنحن مطالبون بأن نعد ما نستطيع ولسنا مطالبين بأن نعد ما لا نستطيع.

والنبي صلى الله عليه وسلم أعد أسباب القوة، وفعل الأسباب الموجودة في عصره، والتي استطاع أن يفعلها، فلبس الدرع يوم أحد، وحفر الخندق يوم الأحزاب، وأخذ السلاح وأعد الجنود، وأعد القادة ورباهم، وأعد الأموال فكان يعمل بالأسباب الممكنة في عصره. لكن ينبغي أن نعلم أن الاعتماد لا يكون على الأسباب إنما على الله القوي العزيز وحده.

وعلينا أن نعلم حقيقة مهمة وهي: أنه لم يلتق ولم يحصل يوم من الأيام أن كانت قوة المسلمين أقوى من قوة الكافرين، فالكافرون دائماً هم الأكثر، والكافرون دائماً هم الأقوى من ناحية العدة والعتاد، ولكن جانب الإيمان يرجح المسلمين على عدوهم ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا استبطأ النصر من قادته كتب لهم:'إنا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة إنما نقاتلهم بهذا الدين فلعلكم أحدثتم أمراً'. يذكرهم لعلكم أحدثتم شيئاً فراجعوا أنفسكم، هل أخللتم بشيء من أسباب النصر.

- سؤال: هل أمة الإسلام اليوم مطالبة بأن يكون لديها مثل ما لدى اليهود من السلاح؟ ومثل ما لدى اليهود من الخبرات ومثل ما لدى اليهود من التقدم العلمي والتكنولوجي؟

الجواب: لا، الأمة ليست مطالبة بهذا، الأمة مطالبة بأن تكون مؤمنة، وأن يكون صفها موحداً، وأن تكون قيادتها مؤمنة، ثم أن تُعِدَّ ما تستطيع من الأسباب، وتستعين بالله، وتجاهد في سبيله وسَتُنْصَرُ وتُمَكَّنُ.. هذا هو الشيء المطلوب، وهذا هو الذي يريح قلب المؤمن، ويدخل السرور على نفسه، فإننا لسنا مطالبين بأن نكون أقوى من الكفار، ولا حتى بأن نماثلهم، ولا حتى بأن نكون قربهم، بل علينا أن نعد ما نستطيعه، ثم نجاهد، وسينصرنا الله جل وعلا، وأفغانستان عبرة لمن اعتبر حيث لم

يكونوا يحملوا إلا أسلحة قليلة ضعيفة بالنسبة لما كان في أيدي الشيوعيين الروس، ومع ذلك خذل الله الروس على أيدي أولئك الذين يسمون في القاموس الغربي بالبدائيين .

وفعل الأسباب وإعداد العدة ينقسم لأمور كثيرة جداً لعل أهمها:

أ – إعداد الجندي المؤمن والقيادة المؤمنة: هذه هو أهمها وأولها، فتعد هذه القوة التي هـــي الجنـــدي المؤمن والقيادة المؤمنة بالإيمان والعمل الصالح أولاً، وينقى الصف المؤمن من غير هـــؤلاء، ولـــذلك بمجرد أن تطالع كتب 'الفقه الإسلامي' تجدهم يقولون: وعلى القائد أن يمنع المخذل والمرجف من أن يسير مع الجيش؛ لأن هذا منافق لا يستطيع أن يواجه الكفار إذا حمي الوطيس.

فإذن: لابد من إعداد الجندي المؤمن الذي يذكر الله كثيراً، والذي يحافظ على طاعة ربه، ويجتنب ما نهاه الله عنه، والذي نصب عينيه أن يموت شهيداً ليدخل الجنة بفضل الله. كما قال عمير بن الحمام- لما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ] وكـــان بيـــده تمرات بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ] قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ: [فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا] فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ- ربما لا تتجاوز خمس تمرات – إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. رواه مسلم .

إذن إذا وجد مثل هذا النموذج الذي يقدم على الموت، فإنه سيوهب لنا النصر، وستوهب لنا الحياة، وسنحصل على الحسنيين .

ب – الأمر الآخر في إعداد العدة إعداد العدة العسكرية: بالعتاد.. بالأجهزة.. بما نستطيع من قـــوة فنعد ذلك ونجهزه، حتى لا يبقى سبب من أسباب النصر في استطاعتنا إلا وفعلناه، فإذا أعددنا تلـــك العدة، فإن القلوب تنام وهي مطمئنة مرتاحة .

ت – ومن العدة أيضاً: إعداد الأموال اللازمة: فإن الأموال الآن أصبحت عماد الجهاد، بل هي عماد الجهاد منذ عصر النبي، ولعل الجميع يتذكر أن عثمان بن عفان لما جهز جيش العسرة، فماذا كانـــت جائزته؟ كانت جائزته: [مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ] رواه الترمذي وأحمد. هذه جائزته لماذا؟ لأن المال هو عصب الجهاد، فلا بد أيضاً أن تعد الأمة الأموال اللازمة للجهاد في سبيل الله .

ث – ومن إعداد العدة: ألا يغفل المسلمون عن معرفة عدوهم وعن قدراته: كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر عندما أخذ السقاة الذين جاءوا يستقون الماء لقريش ثم سألهم: كم عدد قـــريش؟ كم ينحرون من الجزر؟ كم معهم من الخيل؟ من معهـــم مـــن صـــناديد قـــريش؟ معهـــم فـــلان وفلان،ينحرون من الجزر كذا وكذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ] رواه أحمد . فَأَعَدَّ لذلك عدته، فهذا واجب من واجبات المسلمين، فلا يستهينوا بعدوهم، واحتقار العدو ليس من شأن المسلمين بل إننا نبحث عن مكامن القوة ومواطن الضعف فيه، ثم نستنصر بـــالله

جل وعلا عليه، ومع ذلك علينا أن نتأمل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ] رواه البخاري ومسلم.أي أننا نسأل الله جل وعلا أن ينصرنا عليهم وأن يخذلهم، حتى ولو لم نلتق بهم و لم نقاتلهم .

٥- من أهم أسباب النصر: الثقة بالله سبحانه وتعالى والثقة بوعده: وأنه سبحانه سيعلي هذا الدين وينصره ويمكن له في الأرض إن عاجلاً أو آجلاً، فإن حساب الزمن ليس عند الله شيء، فمن المعلوم أن اليوم عند الله يساوي ألف سنة مما نعد نحن، فلا ننظر بمنظار الأعمار البشرية، بل ننظر إلى المنهج الذي ينتصر ويبقى، وننظر إلى الزبد الذي يذهب جفاء في الأرض .

لابد أن نكون واثقين من أن الله سينصر هذا الدين مهما ضيق عليه، ومهما حورب دعاته، ومهما وقف في وجوههم، ومهما وضعت في طريقهم العراقيل؛ فإن النصر حليفهم إن عاجلاً أو آجلاً، فالحق يبتلى أولاً، ثم يمكن له وينصر . وكم من الدعاة والمجاهدين والعلماء ابتلوا حتى ظن الناس أنهم قد هلكوا وفشلت دعوتهم، فإذا بهم تنقلب في طريقهم المحن إلى منح، ويضع الله لهم القبول في الأرض والتمكين والنصر .

٦- من أهم أسباب النصر التي ينبغي أن يعرفها المؤمنون حتى لا يصابوا بشيء من الإحباط: كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائمها ونياتها:كيف ذلك؟

الأمة- أحياناً- قد تحارب ولكنها لا تكون في مستوى النصر، فيؤخر الله النصر قليلاً حتى يرتفع مستوى هذه الأمة وتصبح قادرة على تحمل أعباء النصر الذي سيمنحه الله إياها إذا جاء وقته، يقول الله سبحانه:{ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]}[سورة الحج] من هم يا رب؟ {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج] . {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ} إذن: ها هنا نيات وعزائم في القلوب لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ} هذا مستقبل {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ} ربما يوجد من الدعاة من لو مُكن في الأرض لترك بعض أمور الدعوة، وما أقام الصلاة وما آتى الزكاة، أو ربما يقوم بالصلاة ويؤدي الزكاة، ولكنه لا يقوم تمام القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ربما يتنازل بعض المحسوبين على الدعوة عن بعض الأمور الهامة، ربما يتحالف مع الشيوعيين، ربما يتحالف مع علمانيين من أجل مكاسب.. هذا لا يستحق النصر.

أيضًا: تكون الأمة في مستوى النصر بالإمكانات بالقدرات، فيكون لديها من يستطيعون إدارة البلدان المسلمة لو تيسر لها النصر، أو إدارة العالم لو تمكنت من فتح العالم كله، فإذا أصبحت الأمة في هذا المستوى، وتوفرت لها بقية الأسباب؛ فإن الله جل وعلا يمنحها النصر أمراً مؤكداً لا شك فيه ولا ريب .

٧- أيضاً من أهم أسباب النصر: الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهـذان الأمران سياجان حافظان لهذه الأمة، فالجهاد يحفظها من الخارج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظها من الداخل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ السفينة من أن تُخرق ثم بعد ذلك تغرق، والجهاد يحفظ الأمة من أن تستذل، أو أن يهينها العدو، فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا، قاعـدة قالها أسلافنا رحمهم الله ،و رضي الله عن علي إذ قال:'ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا كتبت عليهم الذلة'.

الجهاد سبب العز، وسبب النصر: يقول سبحانه:{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[٢١٦]}[سورة البقرة] . عندما تقرأ تفسير هذه الآيات للإمام القرطبي الذي عاش رحمه الله وقت سقوط الأندلس تحس بالحسرة والألم بين السطور والعبارات، يقول مامعناه :'{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا} وهو القتال وسفك الدماء وبذل الأموال، {وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}: أي التمكين في الأرض والعز والنصر، { وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا} وهو الراحة والإخلاد إلى الأرض والطمأنينة في البيوت والديار، وهو شر لكم بالإذلال وانتهاك حرماتكم وأعراضكم، واستيلاء الكفار عليكم، واستئصالهم لكم' ثم قال عبارة مؤلمة محرقة:' ولما أصبح المسلمون في الأندلس على هذه الحال تسلط عليهم العدو فأخذوا ديارهم واحدة بعد الأخرى بلاد وأي بلاد '. يعني ما أحسنها من بلاد، ومع ذلك فرط فيها أهلها فضاعت.

ومن المعلوم عند كل عاقل أن الكفار لن يتركوا المسلمين ولو تركهم المسلمون، وهذه حقيقة شرعية وسنة إلهية أخبرنا الله بها في حيث قال:{ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...[٢١٧]}[سورة البقرة] . يعني مهما فعلتم، ومهما تقربتم إلى هؤلاء الكفرة، فهم لا يزالون يقاتلونكم.. لن يتركوكم ترتاحون حتى ترتدوا عن هذا الدين وتتبعوا أهوائهم كما قال سبحانه:{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...[١٢٠]}[سورة البقرة] .

فإذن: هم لن يرضوا عنك إلا بهذا.. ولن يتركوك من القتال إلا بهذا وإذا كانوا لم يتركوك من القتال والقتال هو أشق شيء على النفوس، فسيحاربونك بغير القتال من باب أولى.. سيحاربونك بغزو ثقافي.. بغزو فكري.. عن طريق المرأة.. عن طريق الإعلام.. سيحاربونك لتهديم دينك، ولتضييع عقيدتك.. فكن أيها المسلم الموحد من الكافرين على حذر .

٨- ثم أخيراً من أهم أسباب النصر: السلامة من أسباب الخذلان والهزيمة، ومنها:

أ -أهم أسباب الخذلان والهزيمة: هو الانحراف عن الصراط المستقيم: سواء كان هذا الانحراف انحرافاً عقدياً، أو انحرافاً عملياً، يعني سواء كانت المعاصي في باب الاعتقاد: بالإلحاد في أسماء الله وصفاته..

بالشرك الأكبر والشرك الأصغر، أو كان بالردة الكاملة باعتناق المـذاهب الكـافرة كالشـيوعية، والقومية، والعلمانية، أو كان من باب الأعمال أي المعاصي العملية.

والمتتبع للقرآن يجد أن هذا هو سبب هلاك الأمم:{ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[٤٠]}[سورة العنكبوت] . فالأمم السابقة أخذت بسبب ذنوبها، وظلمها لأنفسها، والأدلة على هذا كثيرة، وما عليك إلا أن تقرأ كتاب ربك وستجد ذلك واضحاً، وعلى سبيل المثال: اقرأ قصة أصحاب سبأ، واقرأ قصة أصحاب السبت، واقرأ سبب إغراق قوم نوح، واقرأ سبب إهلاك قوم عاد وثمود وقوم لوط، وما حصل لقوم موسى، وما حصل لغيرهم من الأمم؛ فستجد الذنوب هي السبب في ذلك .

أولا:الانحراف العقدي وأثره: سنضرب على الانحراف في العقيدة مثلين هما شاهد حي على أن الأمة إذا انحرفت اعتقادياً، فإنها تضعف وتذل:

الشاهد الأول من القرن الرابع الهجري: فقد شهد مداً رافضياً شديداً، فقامت دول رافضية في شرق الجزيرة في البحرين والأحساء قامت دولة القرامطة، وفي بلاد فارس والعراق دولة بني بويه، وفي بلاد الشام الحمدانيون- أبو فراس الحمداني وجماعته كانوا رافضة- وفي بلاد المغرب قامت الدولة العبيدية الإسماعيلية القرمطية، والتي تسمى زوراً وبهتاناً بالدولة الفاطمية، ثم بعد ذلك انطلقت فأخذت مصر، ثم الحجاز. والقرامطة أهل البحرين وصلوا إلى الحجاز، وأخذوا في ذلك القرن الحجر الأسود وبقي عندهم اثنتان وعشرون سنة، ووصلوا إلى دمشق، ولم يبق من بلدان المسلمين سالماً من المد الرافضي إلا القليل، وأذكر لكم ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله في حوادث حصلت في ذلك الزمن ثم انظروا إلى تعليقاته رحمه الله على تلك الحوادث .

إنه مع قيام تلك الدول الضالة الرافضية تقدم النصارى من بلاد الروم، فأخذوا بعض بلاد المسلمين، وفعلوا من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان، يذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الحوادث، ثم يعلق عليها، فيقول في حوادث سنة ٣٥٩ للهجرة:'وفيها دخلت الروم أنطاكية فقتلوا من أهلها الشيوخ والعجائز، وسبوا من أهلها الشيوخ والأطفال نحواً من عشرين ألفاً فإنا لله وإنا إليه راجعون' ثم يعلق على ذلك بقوله:'وكل هذا في ذمة ملوك الأرض أهل الرفض الذين قد استحوذوا على البلاد وأظهروا فيها الفساد قبحهم الله'. ثم يذكر أيضاً في حوادث سنة٣٥٩ هـ أيضاً أن ملك الروم فعل أعظم من ذلك في طرابلس الشام، وفي السواحل الشامية وحمص وغيرها، يقول رحمه الله :'ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد ويأسر ما قدر عليه، ثم عاد إلى بلده ومعه من السبي نحو مائة ألف إنسان ما بين صبي وصبية وكان سبب عوده إلى بلاده كثرة الأمراض في جيشه واشتياقهم إلى أولادهم'.

تصوروا عدو من أعداء المسلمين يأتي ويأخذ مائة ألف أسير من المسلمين ولا يرجع إلا بسبب الأمراض التي فتكت بجيشه و لم يحاربه أحد من ملوك الرافضة الذين كانوا ملوك الأرض في ذلك الوقت، تذكروا ما ذكرناه في أول الموضوع أن من أسباب النصر القيادة المؤمنة، ويعلق ابن كثير على ما كان يفعله الروافض في ذلك القرن من سب الصحابة، وما يفعلونه من البدع والضلالات، فيقول في حوادث سنة ٣٥١ هـ بعد أن ذكر غارات الروم وقتلهم ما لايحصى من المسلمين قال:' وفيها كتبت العامة من الروافض على أبواب المساجد لعنة الله علي معاوية بن أبي سفيان، وكتبوا أيضاً: ولعن الله من غصب فاطمة حقها-يعنون أبا بكر رضي الله عنه-، ومن أخرج العباس من الشورى - يعنون عمر رضي الله عنه-ومن نفى أبا ذر-يعنون عثمان رضي الله عنه- 'يقول ابن كثير رحمه الله:' رضي الله عن الصحابة وعلى من لعنهم لعنة الله' . ثم تكلم قليلاً ثم قال:'ولما بلغ ذلك جميعه معز الدولة-يقصد ابن بويه وكان رافضياً- لم ينكره و لم يغيره قبحه الله وقبح شيعته من الروافض'.

انظروا إلى تعليق ابن كثير وهو المراد في هذه المحاضرة يقول:'لا جرم أن الله لا ينصر هؤلاء وكذلك سيف الدولة ابن حمدان بحلب فيه تشيع وميل إلى الروافض لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم، وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الإفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها حتى بيت المقدس و لم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق، وجميع السواحل وغيرها مع الإفرنج والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع' - ثم بعد ذلك صور حال المسلمين-' والناس معهم في حصر عظيم وضيق من الدين وأهل هذه المدن-يقصد دمشق وحلب وحمص وحماة- التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الإفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سب خير الخلق بعد خير الأنبياء'.

هذا نتيجة الانحراف العقائدي الذي استحوذ على هذه الأمة في القرن الرابع الهجري بل استحوذ على حكامها وقادتها في ذلك الوقت.

أما الشاهد الثاني، فأضربه لكم من عصرنا هذا: فقد هُزم العرب أمام اليهود رغم أنه لا تناسب بين العددين، ورغم ما كان يتشدق به طواغيت العصر في الشام، وفي مصر من أنهم سيلقون باليهود في البحر، وسيفعلون وسيفعلون، كان أولئك يرفعون لواء القومية، ولواء الاشتراكية، ويحاربون الإسلام وكان طاغوتهم الأكبر قد قتل سيد قطب رحمه الله قبل المعركة بسنة، ثم لما جاءت المعركة كانت إذاعاتهم ترفع النشيد الآتي تقول موجهة الخطاب لطائرات اليهود:

ميراج طيارك هرب خايف من نسر العرب

والميج علت واعتلت في الجو تتحدى القدر
هذا كانت تتغنى به إذاعة دمشق في ذلك الوقت، إذن كانت تلك الهزيمة الساحقة التي أخذ فيها ما تبقى من فلسطين، وأخذت أضعاف أرض فلسطين مثل سيناء والجولان كانت بسبب تلك القيادات الفاجرة المنحرفة التي تسلطت على رقاب المسلمين، وكانت سبب من أهم أسباب الخذلان والهزيمة .

ثانيًا: الانحراف في ناحية المعاصي العملية، وبالإمكان أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام:

١- معاصي تؤثر أثناء المعركة: كمعصية أمر القائد في أثناء المعركة مثل ما حصل في يوم أحد لما ترك الرماة الجبل، وخالفوا أمر النبي، فحصل ما حصل مما تعرفونه.

٢- معاصي تؤثر من قبل المعركة: وهذه سنطيل في الحديث عنها، فنتركها إلى الأخير.

٣- وهناك معاصي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤبداً:وهذه المعاصي تؤثر تأثيراً مباشراً في هزيمة الأمة أمام أعدائها، وقد بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: [إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ] حديث صحيح بمجموع طرقه، رواه أبوداود وأحمد.

والعينة نوع من أنواع الربا والربا قد انتشر الآن في بلدان المسلمين فحقت عليهم الذلة، [وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ] يعني: الإخلاد إلى الدنيا والالتفات إليها.

[وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ] من أسباب ضرب الذلة، [سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا]، ليس الذل على اليهود فقط، بل الذل يضرب أيضاً على هذه الأمة إذا عصت أمر ربها، [سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ] لا يرفعه إلى متى؟ ليس إلى أن يصبح عندكم مليون جندي، ولا أن يصبح عندكم ألف طائرة، ولا أن يصبح عندكم خمسة آلاف دبابة، لا.. وإنما [حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ] فإذا رجعتم إلى دينكم يرفع الله عنكم الذلة، بهذا الشرط الوحيد، وهو أن ترجعوا إلى دينكم كله من أوله إلى آخره، لا تقولوا: هذه قشور وهذا لباب، ولا تقولوا: هذه سنن وهذه وهذه ، ولا تقولوا: هذه تفرق المسلمين إذا بحثت أمور العقائد بين السنة والروافض، أو بين السنة والأشعرية وغيرهم . بل تأخذ هذا الدين كاملاً كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه، تأخذ به كاملاً نقياً صافياً.. فعند ذلك يمنح لك النصر، ويمنح لك الظفر على العدو .

ننتقل إلى المسألة الثانية:وهي المعاصي التي توعد عليها بأنها سبب من أسباب الهزيمة فمن ذلك مايلي:

أ] الظلم: الظلم ليس سببًا من أسباب الهزيمة فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول، وتغير الأحوال، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة استقرائية ماتعة يقول:' إن الدول تبقى مع العدل وإن كانت كافرة، وتسقط مع الظلم وإن كانت مسلمة'. [انظر:السياسة الشرعية] .

ب] ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو سبب من أسباب الهلاك ونزول العذاب، يقول الله:{ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا

مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ[١١٦]وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ[١١٧]}[سورة هود] . إذا كان أهلها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يهلكهم الله، أما إذا تركوا ذلك، وانتشرت الرذائل، وأصبحت علانية، فليسوا مهددين بالهزيمة بل بأعظم من ذلك، وهو أن يهلكهم الله، ويحل بهم العذاب، وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ[١٠٥]}[سورة المائدة] . وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ] رواه الترمذي وأبوداود وابن ماجة وأحمد.

كما أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب من أسباب الاختلاف، وسبب من أسباب التفرق، وهذا من أهم أسباب الهزيمة.

ج] نقض عهد الله وعهد رسوله: فقد جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ... فذكرها، ومنها: [وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ] حديث صحيح رواه ابن ماجة وغيره . ومن المعلوم أن العدو لن يستطيع أن يأخذ بعض ما في أيدي المسلمين من الأموال، أو من الأراضي، أو من غيرها إلا بعد أن يهزم المسلمون، ويستذلوا.

د] الغلول: والغلول المراد به أخذ مال المسلمين بغير حق : جاء في الموطأ عَنْ مَالِك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:' مَا ظَهَرَ الْغُلُولُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا أُلْقِيَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبُ...' . ومن المعلوم أنه إذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنهم لن يواجهوا العدو وسيهزمون ويولون الأدبار هذا أمر لا شك فيه ..

هـ] من المعاصي التي توعد الله عليها بأن أصحابها يهزمون ولا ينصرون، البطر والفخر والغرور والعجب: قال سبحانه:{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[٤٧]}[سورة الأنفال]. فهذا الرياء والبطر والكبر في الأرض، ثم الصد عن سبيل الله أي: الصد عن دينه حتى ولو عن جزئية من جزئيات الدين، الصد عنها منذر بوقوع الهزيمة كما دلت عليه هذه الآيات . وكذلك العجب قال الله:{ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ[٢٥]}[سورة التوبة] . فلما أعجب الصحابة بأنفسهم وبكثرتهم، وقالوا: لن نغلب هذا اليوم من قلة؛ ما أغنت عنهم كثرتهم شيئاً، وبعض الروايات تقول: إن هوازن لم يتجاوزوا الثلاثة آلاف رجل . والصحابة

كانوا عدة أضعاف لهوازن، ومع ذلك ولوا مدبرين لما أعجبوا بأنفسهم، ونسوا الاعتماد على ربهم عز وجل.

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي: أنك عندما تقرأ في القرآن في أعقاب ذكر غزوات النبي؛ لا تجد أبداً أن الله يمدح المؤمنين، ويشيد ببطولاتهم، إنما يبين لهم أن هذا النصر الذي تحقق إنما هو فضل منه:{ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[١٢٦]}[سورة آل عمران]. { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[١٠]}[سورة الأنفال].

بل إنك تجد أن الله ينبه المؤمنين إلى أخطاء وقعت منهم، وهم منتصرون، فيقول لهم يوم بدر:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...[٦٧]}[سورة الأنفال] .{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...} ثم قال لهم بعد:{... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[١]}[سورة الأنفال] . كأن هذا إشارة إلى أن اختلافكم في قسمة الغنائم والأنفال ليس بجيد، فاحذروا أن تخالفوا أمر الله وأمر رسوله.

فإذن: ما قال لهم لقد أحسنتم وفعلتم وفعلتم.. ما أشاد بهذه البطولات التي فعلها الصحابة يوم بدر، بل نبههم على أخطاء، وذكرهم بأن لا يعتمدوا على أنفسهم، وأن لا يعجبوا بأنفسهم، إنما النصر من عند الرب وحده لا شريك له. كذلك في أحد عندما تقرأ قصة أحد تجد أن الله نبههم على مكمن الخطأ وسبب ما حاق بهم وما حصل لهم . فالله سبحانه ينبهنا على أن المسلم دائماً يجب أن يكون خاشعاً لله، معتمداً عليه، مستنصراً به، مخلصاً له، يعلم أن النصر من عنده ليس بعدد ولا بعدة .

السبب الثاني من أسباب الهزيمة:

ب] الفرقة والاختلاف: تفرق المسلمين وتشتت أحوالهم سبب من أسباب الهزيمة الماحقة، يقول الله:{ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[٤٦]}[سورة الأنفال]. وهذا الأمر بالإضافة إلى الأمر السابق وهو المعصية كان من أعظم أسباب سقوط الأندلس.

ج] من أسباب الهزيمة في تاريخنا الإسلامي: موالاة الكافرين والمنافقين، وعدم الحذر منهم: لقد حذرنا الله من ذلك تحذيراً شديداً، وأبدأ وأعاد حتى قال العلامة الشيخ حمد بن عتيق من أئمة الدعوة رحمه الله:'لم يرد في القرآن الكريم بعد الأمر بالتوحيد والنهي عن ضده أكثر من النهي عن موالاة الكافرين' . وفيآية واحد يتبين لنا حقيقة الكفار، يقول الله سبحانه:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا } أي: لا يقصرون فيما يفسدكم. { وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} أي: أحبوا ما يشق عليكم.{ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} فما استطاعوا إخفاءها. { وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ[١١٨]}[سورة آل عمران] ولكن أين الذين يعقلون؟

لقد كان هذا هو السبب في هزيمة الدولة العباسية أمام التتار لما وثقت بالرافضي الخبيث ابن العلقمي وولته الوزارة، وكان ذلك الخبيث ممن مالأ التتار وكاتبهم من أجل أن تهدم الخلافة وتسقط الدولة،

فكان ذلك وحصل له ما أراد، ولكن الله كان له بالمرصاد، فجازاه ملك التتار أن قتله، وقال له: أنت لا تستحق أن يثق فيك، فقتله شر قتلة، وما أكثر أمثال ابن العلقمي في هذه العصور .

قد يندس شياطين الإنس من المنافقين في صفوف المؤمنين، ولا يميزهم المؤمنـون، فمـن رحمـة الله بالمؤمنين أن تتوالى الابتلاءات على المؤمنين، فتكشف حقيقة المنافقين، وتميز الصف المؤمن وتطهره من هؤلاء المندسين حتى يتميز الصف، ويصبح مؤمناً خالصاً، وما هذه الابتلاءات التي حصلت لإخواننا المجاهدين في أفغانستان سابقاً ولا حقاً إلا فيما نحسب من هذا الباب، ليميز الله الصفوف فتتساقط الأوراق المندسة التي لا يستطيع المؤمن أن يكشفها لتظاهرها بالإيمان.

د] ومن أهم أسباب الهزيمة: ترك إعداد العدة والإخلاد إلى الدنيا وملذاتها والإغراق في اللهو وطلب الراحة مما يجعل الإنسان لا يستطيع أن يدخل المعركة، ولا أن يواجه العدو .

هذه بعض أسباب الهزيمة التي مرت في التاريخ الإسلامي، وهي ليست كلها، ولو تتبعت واستقرأها شخص من بطون كتب التاريخ لوجدها أضعاف ما ذكرنا أضعافاً كثيرة، ولكن حسبنا أن نذكر الأهم والأقل يدل على الأكثر .وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم .

من محاضرة:' أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي' للشيخ/ بشر البشر

http://islammemo.cc/

الصبر واليقين طريق النصر والتمكين

الشيخ الدكتور علي بن عمر بادحدح

الخطبة الأولى

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون :

حديثنا اليوم عن معادلة إيمانية نصها : "الصبر واليقين طريق النصر والتمكين " .

تلك المعادلة الإيمانية نطقت بها الآيات القرآنية ، وشهدت بها الحوادث التاريخية ، وصدقتها الوقائع الحاضرة ، وتثبت كذلك في الوقائع المستقبلية .. ذلك أنها من سنن الله – عز وجل – ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

إن الإيمان إذا رسخ في القلب ، وإن اليقين إذا تعمّق في النفس تولّد منه الصبر على ما يقدّره الله – عز وجل – من البلاء ، وينبثق عن ذلك الثبات على نهج الرسل والأنبياء ، ويؤسس كل ذلك على يقين راسخ برب الارض والسماء ، ثم لا يلبث الليل الطويل – من الظلم والعسف والطغيان – أن ينبلج بفجر النصر والعز والتمكين لأهل الأيمان ، ولاتلبث القوى الأرضية – التي تتآمر على أهل الأيمان – أن تذهب ريحها ، وتتفرق صفوفها ، وأن يصبح بأسها بينها شديداً ، وأن تكون حصاداً للأيدي المتوضئة تخلص منها البلاد والعباد وتدرأ شرورها عن هذه الحياة.

وإذا تأملنا في كتاب ربنا ، وفي سيرة نبينا محمد صلي الله عليه وسلم ، ثم نظرنا إلى واقعنـــا الـــذي نعيشه ؛ فإننا نرى أن تشبث أهل الأيمان بإيمانهم وصبرهم على ما يلاقون في طريق الأيمان والـــدعوة والجهاد في سبيل الله وثباتهم دون تغييرولاتبديل هو الذي يؤذن - بإذنه سبحانه وتعالى - أن يـــترل نصر الله - جل وعلا - وأن يعجّل به ، وأن يعجّل بهزيمة أعداء الله سبحانه وتعالى.

والصبر واليقين هما عمادا الإمامة في الدين ، والله - جل وعلا - يقول : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } .

والله سبحانه وتعالى خاطب نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: { فاصبر إن وعد الله حق } .

الصبر لا يدوم ، والثبات لا يستمر إلا عندما يكون القلب موصولاً بالله ، والثقة عظيمة في نصر الله ، واليقين لا يعتريه الشك في وعد الله عز وجل ،وذلك يثبت المؤمن بإذن الله عز وجل ، كمـــا قـــال سبحانه وتعالى : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } .

وانظر إلى الأمر الرباني الذي يوصي أهل الأيمان بأن لايحيدو عن نهجه قيد شعره ، وأن لا يغـــيروا ولا يبدلوا .. { يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطو واتقو الله لعلكم تفلحون } .

إنه الصبر والمصابرة والمرابطة والاستمرار والثبات الموصول بيقين راسخ في الله عز وجل : { واتقـــوا الله لعلكم تفلحون } .

ويأتي هذا الفلاح في صورة طمأنينة في القلوب ، وسكينة في النفوس ، وثبات في الأقدام ، ووضـــوح في الحجة والبرهان في هذه الحياة الدنيا.

ثم كذلك يتجلى في صور من النصر ، وفي صور من الظفر لم تكن تخطر على بـــال ولا تـــرتبط ولا تتلائم مع القوى الضعيفة والعدة القليلة لأهل الأيمان في مواجهة أهل الكفر والطغيان والعاقبة من بعد ذلك عند الله عز وجل : { جنات عرضها السماوات والأرض } .

وإذا أردنا إن نستقرئ الأحداث والشواهد من كتاب ربنا ؛ فإننا نرى ذلك التصوير القرآني الفريـــد البديع ، الذي يبيّن كيف ينبغي أن يرتبط المؤمن بإيمانه حتى آخر لحظة من لحظات الحيـــاة ، مهمـــا أدلهمت الظروف ، ومهما تكالب الأعداء ، ومهما حصل من أسباب هذه الحياة الدنيا يعيـــق عـــن المضي في طريق الله ؛ فإنه لاينبغي للمؤمن أن يتراجع ولا أن يتخاذل مطلقاً.

انظر إلى الوصف الرباني لأهل الأيمان الصابرين { الذين إذا أصابتهم مصيبة قالو إنـــا لله وإنـــا إليـــه راجعون } لم يلتفتوا إلى شرق ولا إلى غرب إذا حلت بهم النكبات ، لم ينظـــروا إلى قـــوى الأرض ولكن التجأوا قوة رب الأرباب ، وملك الملوك ، وجبار السماوات والأرض سبحانه وتعالى .

{ الذين إذا أصابتهم مصيبة } لم يشكوا ، لم يرتابوا ، لم يغيروا ، لم يبدلوا ، لم ينافقوا ، لم يداهنوا ، لم يجاملوا في دين الله عز وجل ، وإنما ظلت حبالهم موصولة بربهم ، ويقينـــهم راســـخ في دينـــهم ، وثباتهم على كتاب ربهم ، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، يقتفون في ذلك آثار الرسل والانبياء {

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } .

إنها المعادله الإيمانية الآيات القرآنية ، والسنة الربانية التي لا تتخلف ولاتتغير أبداً { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .

وانظر إلى قصة يوسف – عليه السلام – لترى هذه المعادلة الايمانية واضحاً في قصة فردية ، فإذا بيوسف – عليه السلام – من غيابة الجب وظلمته ، إلى رحابة الأرض وسعتها ، ثم إذا به من ذل الأسر إلى عزّ القصر ، ثم بعد ذلك من ظلمة السجن إلى سدة الحكم .. ثبات وصبر وارتباط بالله ، بإذنه – عزوجل – يفرج كل كرب ، وينفس كل هم ، ويزيل كل ضائقة

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها *** فرجت وكنت أظنها لاتفرج

وانظر إلى المثل الآخر في قصة جماعية ، قصّها الله – جل وعلا – علينا من قصص الأمم الغابرة ، وهي من أكثر القصص القرآنية تكرراً في كتاب الله عز وجل .. قصة فرعون ، وهي متشعبة متعددة الجوانب متكاثرة في أسلوب عرضها في كتاب الله سبحانه وتعالى ، ومن ذلك العرض الذي جاء إيجازه في بعض صور القران قوله جل وعلا : { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ } .

هذه إرادة الله ولا راد لقضاءه وإرادته سبحانه وتعالى { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} .

والله – سبحانه وتعالى – قد ذكر لنا من سيرة المصطفي صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة ، غير أن منها مثلاً فريداً ظاهراً في هذا الأمر ، في صبر أهل الإيمان ويقينهم بالله ، وما يترتب على ذلك من النصر والتمكين لهم بإذن الله ، وتتجلي هذه الصورة في أهل النفاق .. في ضعف يقينهم ، وزوال أيمانهم ، وفي حرصهم على دنياهم ، وفي تخذيلهم للصفوف ، وتفتيتهم لعرى الروابط في صفوف أهل الأيمان .. ذلكم هو الوصف القرآني لما كان من شأن الأحزاب الذين تألبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، وليس أبلغ من وصف القرآن { إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً } .

اجتمع عليهم شدة الخوف ، مع شدة الجوع ، مع شدة البرد ، و لم يكن هناك بارقة أمل ، و لم يكن هناك في نظر أهل الارض وأهل النظرات المادية مهرباً ولا منفذاً ! إنما كان الفناء الماحق والهلاك المتحقق ، وزلزلوا زلزالاً شديداً .

ثم يأتي وصف القرآن لأهل النفاق بعد إن مرت بهم هذه الظروف ، فيقول جل وعلا : { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً }

كان أحدهم يقول : " إن محمد صلى الله عليه وسلم يعدكم بكنوز كسرى وقيصر ، وإن أحدكم لايستطيع إن يمضي خطوات ليقضي حاجته ! " .

{ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .. }.

أما لكم بهذه القوى المجتمعة والمؤامرات العظيمة والأسلحة الفتاكة والخطط المحكمة !

{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً }

جبناً وخوفاً وهلعاً .. كفراً ونفاقاً ، ولذلك جاء هذا الوصف القرآني يعري صورهم ، ويكشف حقيقتهم ، ويضرب المثل بأشياعهم ونظرائهم في كل مجتمع إسلامي وفي كل زمان ومكان .. { وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً {١٤} وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً } .

ذلك وصف أهل النفاق ، فانظر إلى وصف أهل الصبر والإيمان واليقين ، الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في ظل هذه المحنة العصيبة ، وفي ظل محاصرة هذه القوى الرهيبة .. { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً }

هذه مواقف المؤمنين .. هذه مواقف الصابرين .. هذه مواقف أهل اليقين ، وهذه كلمات أهل الثبات ، الذين لا يشكون لحظة في وعد الله ، ولا يعتريهم التزعزع أوالتردد في دين الله عز وجل ، يظل الواحد منهم ثابتاً واقفاً راسخاً لا يتزعزع .. فعلى أي شئ انتهي الأمر ؟ وبأي شئ انجلى الموقف ؟

إنها الآيات القرآنية تذكر لنا في صورة رائعة مشرقة كيف كان نزول النصر ، وكيف كان بداية التمكين ، لم تردهم السيوف ولا القوى ولا الخطط ، وإنما هي قوة الله عز وجل ، وإنما هو نصر الله الذي تنزل { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً } .

هذا كتاب ربكم ، وهذه سنة نبيكم ، فهل أنتم في شك من دينكم ؟

لابد أن نقوى اليقين بدين الله عز وجل وبوعد الله ؛ إذ حيث تكالب الأعداء في هذا العصر فتّ ذلك في عضد بعض المؤمنين ، وأضعف إيمانهم ، والتمسوا الدنية في دينهم ، وأعطوا التبعية لأعدائهم ، ومنحوا بعض الذل والولاء والمداهنة لأعداء الله عز وجل .

وماذا بعد هذا ؟ إنه مصير أهل النفاق يتكرر ، أما إذا رجعت الأمة إلى ربها ، وتذكرت ذلك الوصف القرآني { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ }

إذا مدّت الحبال مرة أخرى إلى الله .. إذا رفعت الأكفُّ مرة أخرى إلى الله .. إذا سجدت الجباه مرة أخرى ذله لله .. إذا ترابطت الصفوف وتوحدت الأمة على منهج الله ؛ فإن نصر الله متنزل ، وإن طريق التمكين ممهد .

لقد خرج محمد صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً ، وجاهد بعد ذلك عشر سنين ، وثبت – عليه الصلاة والسلام – ثم جاء بعد ذلك إلى مكة التي خرج منها مهاجراً عاد إليها فاتحاً وجاء بعصاه وهو يطيح بهذه الأصنام من حول الكعبة ، ويقرأ قول الله عز وجل : { وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } .

ولقد اعترى بعض صحابة النبي صلى الله عليه وسلم نوع مما يعتري النفوس البشرية ، وجاءه خباب بن الأرت – وكان من المعذبين المضطهدين الصابرين في مكة – وقال له : يا رسول الله ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟

فذكّره النبي صلى الله عليه وسلم : (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه، فيُجاء بالميشار ـــ المنشار ـــ فيوضعُ على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله! لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يَسير الراكب من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)

ولذلك أريد أبيّن أن بعض مشاهد الواقع عندما يأذن الله عز وجل بأن تعود فئة من الأمة إلى ربها ، وأن يسوق لها من الاحداث والمحن من يذكرها بحقيقة ضعفها وتقصيرها في إلتزامها دين الله – سبحانه وتعالى – أن ذلك يجسّد مره أخرى هذه المعادله الإيمانية والسنة الربانية .

وانظروا إلى أحداث الأمة وإلى أشدّ قضاياها قساوة ومعاناة .. انظروا إلى كل الجرائم والفضائع التي تصبّ على المسلمين .. انظروا إلى بشاعة وفضاعة وقسوة أعداء دين الله عز وجل ، ثم انظروا إلى ما انبثق في القلوب من صبره وما سكب ا لله عزوجل فيها من يقين ، وما ثبت به الأقدام فلم تتزعزع والقلوب فلم تشك و لم ترتاب .

ثم انظروا إلى بعض الصور في هذه الوقائع : انظروا إلى إخواننا في البوسنة والهرسك .. انظـروا إلى إخواننا في كشمير ، إلى إخواننا في طاجكستان وفلسطين .. انظروا إلى شرق الأرض وغربها حيـث يضطهد المسلمون ، حيث يعذبون ، حيث يحاربون .

انظروا .. فماذا ترى ؟ قد يرى الرائي إذا نظر بغير منظار إيمان صورة سوداء أو شوهاء ، ويـدقّ في قلبه بأس عجيب ، ويظن أن الأمر قد قضي ، وأن الأمة لابد أن تتراجع وأن تتخاذل ، وأن تعطـي لأعدائها ما يشاؤون !

إلا أن الناظر بنظر الأيمان يرى مثل هذه الصور تتجلى من جديد .. إخواننا في البوسـنة والهرسـك الذين ظن الأعداء – الذين تكالبوا عليهم بصورة تشبه بل قد تكون أشد مما تكالب الأعـداء يـوم الأحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم – وجاءهم صرب وكروات ، ومن ورائهم قوي عظمـى ، ومن ورائهم دول ، ومن ورائهم حيل وسياسات ومؤامرات .. ومع ذلك مازال صمودهم وثبـاتهم بحمد الله عز وجل راسخاً ! بل قد رجع كثير منهم إلى الله عز وجل ، وأصبح لسان حالهم يردد : { إنا لله وإنا إليه راجعون } ، واصبح حالهم كأنه يمضى إلى تحقيق الوصف الرباني { وما زادهـم إلا إيماناً وتسليماً }.

ولسان حالهم يذكرنا بما قص الله علينا من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وصـحابته رضـوان الله عليهم : {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّـهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }.

هل تروهم ينظرون إلى مدد من شرق أو غرب وهل تروهم يعتمدون على قوة مادية أو عسكرية.

ومع ذلك انظروا على ما فتح الله عليهم ومن النصر والإيمان ، وقبل ذلك إلى ما سكب في قلوبهم من اليقين والطمأنينة ، ومن رجوعهم إلى ربهم وصلتهم بمولاهم ، وخضوعهم له سبحانه وتعالى .. وإذا بهم يرجعون إلى القرآن ، وإلى حلق الذكر ، وإذا بنسائهم يمضين في طريق فيه التذكر ولبس الحجاب .. وغير ذلك من الأمور.

ثم انظروا إلى ما فتح الله عليهم ، فإذا بهم اليوم في الآونة الأخيرة ينتصرون ، ويعجب المـرء كيـف ينتصر الضعفاء العزل المحاصرون الذين ليس في ديارهم ماء ولا كهرباء ولا كساء ولا غذاء ، كيـف يكون مثل هذا ؟ كيف ينتصرون ويفتحون فآريس وخمس مدن وقرى كرواتيه ، ويطردون عشرات الآلاف من أولئك الأراغل الأعداء ؟

كيف يثبتون هذا الثبات في سراييفو العاصمة التي كل لحظة يتهدد أصحابها وسكانها المـوت ، إمـا برصاص وإما بقذاف وإما بجوع وإما بأية صورة من الصور.

يحصد الموت الناس حصداً ، ومع ذلك تجد الواحد منهم يقول : " ثابتون صامدون ، وبقضاء الله عز وجل راضون " .

وانظر إلى فضاعة أعداء الله عز وجل وإرهابهم وتطرفهم ، وكل الأوصاف الذميمة التي يريدون إلصاقها زوراً وبهتاناً بأهل الإسلام والإيمان هي فيهم.

وكان الناس يذكرون الصرب ، وأنهم ظلمة ، وأنهم قساة ، وأنهم طغاة ، فجدد الكروات ما أنسى سيرة الصرب ..

ونعلم قصة القرية التي أحرقوها عن بكرة أبيها ومن فيها من رجالها ونساها وأطفالها وبيوتها ، حتى أذهلوا الناس والعالم أجمع ، ومع ذلك ما فتّ ذلك في عضد أهل الأيمان ، وما رفعوا أيديهم استسلاماً ، وما قالو حسبنا هذا ! وإنما قالوا : { حسبنا الله ونعم الوكيل }.

وانظروا إلى إخواننا في كشمير اليوم ، وهم قد حوصروا في أعظم مسجد من مساجدهم " مسجد حضرة أبال " يحاصره خمسة عشرة ألف جندي ، والطائرات المروحية والقوات ، ومنع التجول ، وبعد ذلك يحصدون ، وإذا بالحصاد في بضعة أسابيع يبلغ مئات ، ومع ذلك ما يزالون صامدين ، وما يزالون في أوج مواجهتهم وجهادهم ، يتمسكون بالله عز وجل وبكتابه ، وبهدى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويثقون بالنصر ثقة ليس فيها شك .. حتى يقول قائد من قوادهم ، وهو من زعماءهم الكبار : " إن الجهاد في كشمير ماضٍ في طريقة حتى نهايته المنطقية ، وإن الشعب الكشميري قد وصل إلى منطقة اللا عودة " .

بل علماء الأيمان والإسلام في تلك الديار يحثون المؤمنين على الصبر والثبات والصمود ، وعلى أن لا يضعفوا وأن لا يجبنوا أمام أعداء الله عز وجل ، ويفتون بكفر من يكون عوناً للأعداء على المجاهدين والمسلمين في أرض كشمير المسلمة.

وانظروا إلى كل مكان ، وانظروا إلى إخواننا في أرض الإسراء وما قد أثلجوا به صدورنا مما يظهرون من مظاهر القوة والاستعلاء { ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين } .

صبر وثبات لا يتغير ولا يتبدل ، مع استقامة على أمر الله وشرع الله والصياح والهتاف : " الله اكبر .. الله أكبر ".

والأيدي المرتفعة متوضئة ، وهي ترفع في أيديها المصافح تغيرت بعض ملامح الأمة ، فاصطلحت في بعض أحوالها وأشخاصها وديارها مع الله عز وجل ، فجاءها بعض هذا النصر ، وارتسمت لها بعض مسالك التمكين ..

فالله الله في تجديد ما ذكر الله سبحانه وتعالى من هذه السنن ، وأن تكون أوثق بالله عز وجل ، أوثق بنصرة ووعده من كل شئ في هذه الأرض ومن كل قوة في هذه الدنيا ، والله لتعلمن نبأه بعد حين ، والله منجز وعده ، ومترل نصره .

الخطبة الثانية

أما بعد أيها الاخوة المؤمنون :

إذا تأمل العبد وجد الحكمة التي جاءت على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، تـبين لنـا الطريـق وتعرفنا به ، فلسنا في جهل وعماية ، بل الأمر واضح بيّن .

فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول:(حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)

فليس الطريق مفروش بالورد ، وليس على جانبيه أسباب الأمن والسلامة والسلام ، وإنما هو الطريق الذي فيه ذلك البذل والصفق مع الله عز وجل : { اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِـأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ }

إنها السنة التي ذكرها الله عز وجل بقوله : { الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَـا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } .. {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّـى يَقُـولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ }

نعم أيها الاخوة نحن في وقت عصيب ، وفي محنة شديدة ، وإخواننا في مشارق الارض ومغاربها يعانوا الأمرين من أعداء هذا الدين ، الذين تظهر فيهم الآن صورة حقيقية واضحة لا غبش فيها ، ولاشك فيها مطلقاً .. صورة تتجلى فيها صفات الكفر والكافرين ؛ لما فيهم من عداء ومن قسوة ومن حقـد حسد ، ومن انعدام الإنسانية وانسلاخ الفطرة وانعدام كل معنى من المعاني الشريفة والقيم الفاضلة .. كل ذلك يتجسد واضحاً كما اخبرنا الله عز وجل به في قوله جل وعلا : { لا يرقبوا فـيكم إلاً ولا ذمة }

والسؤال الذي يتبادر ألي أذهاننا ، ونختم به هذه الوقفة هو ما دورنا ؟ وماهي مهمتنا ؟ هـل نحـن متفرجون أم نحن مشجعون ؟

إن التشجيع لو اردنا أن نأخذه بمبدأ التشجيع الذي نعرفه في ميادين التشجيع المشهورة المعروفة هو في حقيقته موقف إيجابي ، إن المشجعين نراهم بأم أعيننا لا يجلسون على مقاعدهم ، بل كلمـا جـرت حركة في الميدان تحركوا وقاموا ، وإذا بهم أيضاً يهتفون ، وإذا استدعي الأمر يغضبون ، وإذا استدعي الأمر بعد ذلك ربما يتحركون وينصرون أو يشتبكون.

أن هذا لم يكن منهم الأ من تحريك قلوبهم وتحرقها وحماستها ومحبتها وغيرتها .. أفيكـون ذلـك في أمور من اللهو أو في أمور عارضة من أسباب هذه الحياة ومن زينتها ومن زخرفها ، ولا يكون ذلك في أمر من أعظم أسس الحياة ، ومن أعظم مهمات الإنسان المسلم في هذه الحياة في أمر دينه وأمتـه وإخوانه المسلمين !

إنه لابد إن تنبض هذه القلوب بالمحبة ، وأن تمتلئ بالولاء والنصرة ، وأن تعظم فيها الغيرة على ديـن الله والحرقة والأسى والحزن على أحول الأمة ، ولا يكون ذلك ونحن ساهون لاهون ، ونحن نمـلاء

البطون ونضحك ملء أشداقنا ، ونأكل ملء بطوننا ، وننام ملء عيوننا .. فما ذلك حال المشـــجعين الذين نعرفهم ؟

إن أولئك يسعون إلى الميادين لينظروا ، فاسعوا إلى أن تعلموا أخبار إخوانكم ، وأن تعرفوا أحوالهم ، وأن تكونوا بعد ذلك ورائهم قلباً وقالباً ، بدعاء في السحر وفي جوف الليل وفي أدبار الصلوات وفي سجودها ، حتى يأذن الله عز وجل بأن ينصر وأن يُمكّن .

وكونوا أيضا مع إخوانكم بأموالكم وبدعمكم وبذلكم في سبيل الله عز وجل ؛ فإن الجهاد بالمال من أعون أسباب النصر لهذه الأمة ولإخواننا المجاهدين والمضطهدين في كل مكان.

وليكن لنا من وراء ذلك أيضاً ما نتحرك به لنصرة هذا الدين ، ببيان الدروس والعبر ، وبيان المواقف المشرقة ، وبيان المواقف البطولية الاستشهادية ، التي يظهر فيها عيوب كفة القلة المؤمنة على الكثـــرة الكافرة في مواقع شتى في أماكن عديدة .. إذا بنا نرى صوراً تنشرح لها صدور المؤمنين ، ويفرح لهـــا أهل الأيمان عندما نرى آلاف أم من أعداء الله وهم يخشون واحداً أو اثنين إذا كبر أحـــدهم ، أو إذا صاح بآية من آيات القرآن الكريم ، وإذا بالصفوف تنفلّ ، وإذا بالجموع تتفرق ، وإذا بواحد أو فئة قليلة تنصر بإذن الله عز وجل كما وعد الله عز وجل في كتابة الكريم.

لابد أن ننقل هذه الأخبار المفرحة حتى يزول بعض اليأس الذي عرى النفوس وغزى القلوب ؛ فـــإن المؤمن لا ييأس من روح الله ، ولا ييأس من روح الله لا القوم الكافرون والقانطون ، وليس المـــؤمن بكافر ولا قانط ، إنه واثق بنصر الله وثقته بالله عز وجل عظيمة.

ينبغي أن نلقن الأمة وأن نشيع في صفوفها هذه الدروس ، وينبغي أن نرتقي بمستوانا ومستوى مـــن حولنا ومستوى من حولنا عن سفاسف الأمور وصغائرها ؛ فإنه لا يليق أن تكون الأمـــة محاصـــرة ، وأن يكون أعداء الله قد جدوا لحربها وفي إنزال البلاء بها ، ثم يكون انشغالنا بالدون مـــن الأمـــور ، وبالتافهة من القضايا ، دون أن تكون مهمتنا هي أن ننصر ديننا ، وأن نحمي أمتنا ، وأن نرعى نشأنا ، وأن ننشئ جيلنا نشأة تجدد لنا ذكر أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة وأئمة الأمة من سلفها رضوان الله عليهم.

إن بإمكاننا أن نظهر في نفوسنا وفي أسرنا وفي مجتمعاتنا نصر الله عز وجل فيتترل علينا باذنه سبحانه وتعالى النصر { إن تنصروا الله ينصركم }

ونصركم دين الله عز وجل يكون أول شئ باستقامتكم على أمره .. بالتزامكم حكمه .. باتبـــاعكم هدى النبي صلى الله عليه وسلم.

والثبات الثبات .. لاشك ولا ريب ، ولا مداهنة ولا نفاق ، ولا تراجع ولا ضعف ، وانما هو المضي وذلك هو الذي كان ويكون في كل وقت وآن ، كلما ازدادت المحنة وكان الأيمان عظيماً كلما ازداد

أثر هذا الإيمان وتجلت صورة وظهرت آثاره وأشرقت أنواره ، فإذا بها تبدد بعد ذلك كلما يعتري النفوس من ضعف أو خور أو ذلة أو قنوط ويأس ..

وذلك ما ينبغي أن يكون فيما بيننا ، وأن نشيعه في صفوفنا ؛ فإن هذه الأمة لم ولن تهزم قط مادامت متمسكة بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وفي أتون المحنة وشدتها في وقعة الأحزاب كبّر النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع خبر خيانة اليهود ، وكان خبراً كالطعنة النجلاء من الخوف قال : (الله أكبر الله أكبر أبشروا أبشروا) .

البشارة بأنه علم أن الأمة مؤمنة بربها ، وواثقة بالرسول ؛ ولأنها أمة ملتحمة متلاصة متوحدة فلا خوف عليها من أعداءها ، وانما الخوف من أنفسنا .. من ضعف إيماننا .. من كثرة معاصينا .. من تفرق صفوفنا .. من مجاهرتنا بالمعصية لله عز وجل .. من إعطائنا ولاءنا لغير الله سبحانه وتعالى ، ولغير عباد الله المؤمنين ..

هنا يكمن الخطر ، وهنا تأتي الثغرات .. فالله الله في دينكم ، والله الله في نصرة إخوانكم ، والله الله أن يؤتي هذا الدين من قبلكم ، فليكن كل منكم على ثغرة ، وليكن كل منكم قائم بأمر الله عز وجل في نفسه أهله ومجتمعه ؛ حتى يعجّل الله عز وجل بالنصر والتمكين إنه الولي على ذلك والقادر عليه .

النصر مع الصبر والفرج مع الشدة

في ظل الواقع العربي والإسلامي الرسمي والشعبي تأتي هذه الخطبة للتأكيد على أن الفرج قريب وإن بدا لبعض الساسة العرب غير ذلك.

فإلى كل من كل له قلب وبصيرة نهدي هذه الكلمات المستمدة من عقيدتنا وإيماننا بحتمية النصر وقرب الفرج.

قال الله تعالى: (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام . ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) [سورة الزمر: ٣٦-٣٨] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: " يا غلام أو يابني ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى. قال:

احفظ الله يحفظك،

احفظ الله تجده أمامك،

تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة،

إذا سألت فاسأل الله،
وإذا استعنت فاستعن بالله،
فقد جف القلم بما هو كائن،
فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه،
واعمل لله بالشكر واليقين،
واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا،
وأن النصر مع الصبر،
وأن الفرج مع الكرب،
وأن مع العسر يسرا " .

وزاد ابن أبي حاتم في روايته: " قل حسبي الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال قومه إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، قال: إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم" .

فتأمل في الآية والحديث تجد المفاهيم التالية :

حفظ الله للمسلمين مرهون بحفظ المسلمين لله (أي بتطبيق منهج الله تعالى في جميع أمورهم).

إذا أراد المسلمون معونة الله تعالى في الشدائد فلابد من التزامهم بمنهج الإسلام وأحكامه في أوقات الرخاء.

الاستعانة الحقيقية المؤثرة هي ما كانت بالله تعالى والاتكال لا يكون إلا على الله القوي العزيز.

لن تغير هذه القاعدة الربانية أي قوة في الدنيا مهما عظمت، فلا يملك كل الطغاة والمستكبرين مجتمعين إيذاء شخص إلا وفق قدر الله تعالى وقضائه.

العمل المتواصل الدؤوب بما يرضي الله تعالى (من رص الصفوف وإعداد العدة والجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ...الخ) هو صمام الأمان للعالم الإسلامي لضمان التأييد الرباني.

لابد من الصبر لمواجهة الشدائد، فلا يجوز الارتماء في أحضان العدو بحجة رفع الشدائد.

تلازم النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر، ومن أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم: اشتدي أزمة تنفرجي، يعني: يا أزمة ابلغي النهاية في الشدة حتى تنفرج، فإن الشدة إذا تناهت انفرجت بشهادة الاستقراء، فليس المراد حقيقة أمر الشدة بالاشتدا بل طلب الفرج، إن مع العسر يسرا .. وفيه نوع تسلية وتأنيس بأن الشدة المتناهية نوع من النعمة لما يترتب عليها، ومن كلام العلام: الشدة إذا تناهت انفرجت. وأنشد بعضهم :

إذا الحادثات بلغن النهى وكادت تذوب لهن المهج

وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهي يكون الفرج

يا معشر اليائسين المحبطين احذروا :

قال الله تعالى : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) قال الإمام الطبري: " يعني القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه " .

وقال تعالى: (وإذآ أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا) .

في الأنبياء أسوة حسنة :

قال الله تعالى: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنُجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

فالله عز وجل يسوق لنا قصص الأنبياء وصبرهم على الأذى والباساء والضراء، وحتمية تنزل النصر عليهم وعلى أتباعهم، وأن النصر يتنزل مع شدة الكرب.

وأنشد أحدهم :

أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوسا على الظلم والإفك

أقام جميل الصبر في الحبس برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن

فلا تيئسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

حتمية البلاء والامتحان قبل تنزل النصر والتمكين :

قال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) [سورة البقرة: ٢١٤].

فتأمل ماذا يدخل في البأساء والضراء والخوف الشديد المزلزل. و كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال: قلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا الا تدعو الله لنا؟ فقال: " إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مابين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ثم قال والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون " .

وقال الله تعالى: (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله

عنهم في يوم الأحزاب كما قال الله تعالى: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنوناهنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) .

ثم حذرنا الحق تبارك وتعالى من التشبه بالمنافقين الذين قالوا (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .

ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال سجالا يدال عينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة. رواه الشيخان .

وقوله تعالى: (مثل الذين خلوا من قبلكم) أي سنتهم كما قال تعالى: (فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين) وقوله: (وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين آمنوا معه متى نصر الله) أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج ثم ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: (ألا إن نصر الله قريب) كما قال: (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) وكما تكون الشدة يترل من النصر مثلها ولهذا قال: (ألا إن نصر الله قريب).

وفي حديث أبي رزين: "عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه فينظر إليهم قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب".

انتظار الفرج عبادة :

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج " . التدوين في أخبار قزوين ج: ٢ ص: ١١٧.

الخطبة الثانية :

التذكير بحديث الغار المشهور، وبيان أن الأعمال الصالحة سبب في تفريج الهموم والكروب:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر فدخلوا في غار في جبل فانحطت عليهم صخرة قال فقال بعضهم لبعض ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه فقال أحدهم اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى ثم أجيء فأحلب فأجيء بالحلاب فآتي به أبوي فيشربان ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان قال فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون ثم رجلي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فرجة نرى منها السماء قال ففرج عنهم وقال الآخر اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء فقالت لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار فسعيت فيها حتى جمعتها فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركتها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فرجة قال ففرج عنهم الثلثين وقال الآخر اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرا بفرق من ذرة فأعطيته وأبى ذاك أن يأخذ فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقرا وراعيها ثم جاء

فقال يا عبد الله أعطني حقي فقلت انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك فقال أتستهزئ بي قال فقلت ما أستهزئ بك ولكنها لك اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فكشف عنهم" . متفق عليه

الأمر بالتهليل والتسبيح لله جل وعلا مع التحميد لمن أصابته شدة أو كرب :

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: لقنني رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الكلمات وأمرني إن أصابني كرب أو شدة أقولهن: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحانه وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين . صحيح ابن حبان

توصيات :

- الدعاء بهذه الكلمات (لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحانه وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين) بعد صلوات الجمع حتى يحفظها الناس (فكل المؤمنين اليوم في شدة وكرب).

- دعوة المسلمين الذين يريدون أداء الحج للمرة الثانية بالتبرع بتكاليف الحج لدعم صمود المجاهدين في فلسطين المحتلة، فهذا أولى بكثير وأفضل عند الله تعالى من التنفل بعبادة الحج العظيمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د. إبراهيم أحمد مهنا

بلاد الشام ... بين قدسية الأرض وأسباب النصر

تأملات :الوطن العربي :الاثنين ٢٧ رجب ١٤٢٧هـ - ٢١ أغسطس ٢٠٠٦م

عيسى القدومي

مفكرة الإسلام: بلاد الشام بلاد مباركة، ثبت ذلك في آيات من القرآن المجيد وأحاديث صحيحة مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيها، والآثار الموقوفة على الصحابة وكبار التابعين ومن دونهم. فهي مهد الرسالات السماوية، ومحل لدعوات رسل الله تعالى.

وحين كان يتحدث المؤرخون والرواة القدامى عن الشام وأرضها كانوا يقصدون بذلك الرقعة التي تشغلها الآن سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، تلك كانت بلاد الشام على مدى تاريخ طويل، كما قال ابن الفقيه الهمداني: 'أجناد الشام أربعة: حمص ودمشق وفلسطين والأردن'. وفتوح الشام ابتدأها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم 'أبو بكر' الصديق رضي الله عنه واستكملت في زمن عمر رضي الله عنه.

و لم يتم تقسيمها سياسياً إلى دول أربع إلا بفعل الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتطبيق اتفاقية 'سايكس بيكو' على بلاد الشام، وفرض الانتداب الفرنسي على شمال الشام فقسمه إلى كيانين

هما سوريا ولبنان، وفرض الانتداب البريطاني على جنوبه فقسمه إلى كيانين هـــم الأردن فلســـطين، وأصبح لكل كيان جواز مرور وحدود ودستور وأعلام.

بركة بلاد الشام :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مقدمة كتابه 'مناقب الشام وأهله': ثبت للشام وأهلـــه مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء، وهي أحد ما اعتمدته في تحريضي للمسلمين على غزو التتـــار، ولزوم دمشق، والنهي عن الفرار إلى مصر ...'.

ومما جاء في كتاب الله تعالى قوله سبحانه: 'ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين'، قـــال الحسن: أن الأرض التي باركنا فيها: [الشام] وروي ذلك عن مجاهد، وابن زيد، وابن جريج.

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – أي الشام ... ومن بركة الشام، وأن كثيراً من الأنبيـــاء كـــانوا فيها، وأن الله اختارها، مهاجراً لخليله وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة وهو بيت المقدس.

وقال تعالى في سورة الإسراء: 'سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله'.

قال ابن تيمية – رحمه الله – والبركة تتناول البركة في الدين، والبركة في الدنيا وكلاهمـــا معلـــوم لا ريب فيه.

وجاء في الصحيح من كتب السنة أحاديث كثيرة في فضل 'بلاد الشام' أذكر منها ما جاء عن معاوية بن حيدة – رضي الله عنه – قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: 'عليكم بالشام'. وقوله صلى الله عليه وسلم: 'إن الله عز وجل قد تكفل لي بالشام وأهله'. وعنه صلى الله عليه وسلم: 'ألا إن الإيمـــان إذا وقعت الفتن بالشام'. وحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: 'الشام أرض المحشر والمنشر'. ووصى النبي صلى الله عليه وسلم بسكنى الشام: 'عليك بالشـــام فإنهـــا خيرة الله في أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده' رواه أبو داود وأحمد، بسند صحيح.

أهلها المقاتلون في سبيل الله من الطائفة المنصورة نصّاً:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة مـــن أمـــتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة' صحيح الجامع.

وفي رواية أخرى صحيحة: 'لا تزال طَائِفَة من أمَّتِي يقاتلونَ على الحَق ظَاهِرِينَ على من ناوأَهُمْ حَتَّى يقاتلَ آخِرهم المَسِيحَ الدجال'. ومن المعلوم أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم يـــدرك المســـيح الدجال بباب لد بفلسطين فيقتله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مجموع الفتاوى [٤٤٩/٤]: 'والنبي صـــلى الله عليـــه وسلم ميَّز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة، وهذا الوصف ليس لغير أهل الشام من أرض

الإسلام، فإن الحجاز التي هي أصل الإيمان نقص في آخر الزمان منها: العلم والإيمان والنصر والجهاد، وكذلك اليمن والعراق والمشرق، وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيمان ومن يقاتل عليه منصوراً مؤيداً في كل وقت'.

بلاد الشام حاضرة الخلافة الإسلامية في آخر الزمان:

عن أبي حوالة الأزدي رضي الله عنه قال: وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي أو على هامتي ثم قال: 'يا ابن حوالة: إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك' صحيح الجامع.

من أحق الناس بعمارة الأرض المباركة:

المسلمون الموحدون أحق الناس بعمارة الأرض المباركة، والشام ثغر من ثغور المسلمين وبلد جهاد إلى قيام الساعة لأن أعداء الله لن يكفوا عنها، فكان الترغيب للسكنى فيها، والرباط، والدعوة إلى التوحيد ومؤازرة من فيها من أهل الحق عنواناً مهماً في حياة المسلم.

ولأنها حلبة الصراع بين الحق والكفر، فهي مركز قيادة الناس إلى الخير الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: 'إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، ولا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة'.

ولما عرَّف أئمة الحديث الكبار – رحمهم الله – الطائفة المنصورة قالوا: هم أهل العلم بالآثار ومن تبعهم اقتداء بالسلف الصالح رضوان الله عنهم عقيدة ومنهجاً، يقصدون بذلك من كان على علم في الحديث والأثر وعلى منهاج النبوة.

عسقلان ثغر مهم من ثغور الشام:

أخرج الطبراني في 'المعجم الكبير' وهو في 'الصحيحة /٣٢٧٠' عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان'.

وعسقلان عرفت منذ أقدم العصور التاريخية وورد لفظها في معجم 'لسان العرب' بمعنى أعلى الرأس، إنها عروس الشام من جند فلسطين، جاء في 'موسوعة المدن الفلسطينية': 'وتعتبر عسقلان مدينة ساحلية ذات شأن اقتصادي على مدى تاريخها الطويل، ويعود ذلك إلى مينائها البحري وموقعها الاستراتيجي القريب من الحدود المصرية ـــ الفلسطينية، ومواجهتها للقادمين من البحر تجاراً كانوا أم غزاة، وكانت عرضة للسيطرة عليها في التاريخ القديم، ولم يعرف جيش حاول فتح فلسطين لم يحاول السيطرة على عسقلان، ولم يحدث أن فتحت فلسطين من الجنوب إلا بعد فتح عسقلان، ولم تقل أهمية عسقلان في كل عهود الحكم الإسلامي'.

الحديث من أعلام ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ففيه: 'ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر' إشارة إلى الحال الذي سيصل بالمسلمين، وأنهم يتنازعون السلطة، بسبب التفرق والاختلاف، ومن ثم كان قوله: 'وإن أفضل رباطكم عسقلان' إشارة إلى أفضل الرباط على اعتبار أن هذا الرباط في بلاد الشام، وبلاد الشام مطمع الكفار، ومن تتبع تاريخ بلاد الشام منذ القدم يرى أهمية موقعها الاستراتيجي الذي كان هدف الغزاة الأول للنفاذ إلى فلسطين، فالسيطرة عليها كان يعني التحكم في الطرق المؤدية إلى معظم أنحاء فلسطين شمالاً وجنوباً وشرقاً، يضاف إلى ذلك التحكم منها في حركة المواصلات البحرية.

ولا شك أن سقوط ثغور المسلمين بيد الكفار أعداء الله دليل واضح على فساد اعتقاد المسلمين وبعدهم عن دين ربهم، ولن يعود المجد والعزة إلا إذا رجع المسلمون لدينهم واتقوا ربهم عز وجل.

العاقبة للمتقين طال الزمان أو قَصُر:

من سنن الله تعالى أن تكون العاقبة للمتقين طال الزمان أو قصر، فالنصر والتمكين لدين الله قادم لا محالة بنا أو بغيرنا قال تعالى: [هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون].

ولكن حين يتخلى أهل الإيمان عن إيمانهم فإن سنة أخرى هي التي ستحكم هؤلاء المتراجعين: [وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم].

ولا شك أن قتال اليهود حادث ولا ريب، وسيقضي المسلمون المجاهدون على الدجال ومن معه من اليهود جميعاً، وتستريح البشرية جمعاء من شرور اليهود وأطماعهم وإفسادهم، ولكن على يد مَنْ مِنَ المجاهدين سيقتل اليهود ومعهم الدجال؟ والإجابة في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:'لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود'.

فحربنا من اليهود مستمرة والتي بدأت منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسوف تستمر حتى خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، والقضاء على آخر يهودي وستبقى بقية أهل الإيمان على الأرض المقدسة وبلاد الشام تنافح عن الحق وعن الإسلام ضد الباطل وأهله إلى أن تقاتل هذه الفئة الدجال في آخر الزمان.

ولكن على يد مَن يعود المسجد الأقصى وما سلب من بلاد الشام؟

لقد وعد الله تعالى المؤمنين بأن ينصرهم على عدوه وعدوهم وإن طال الزمان بنظر المؤمنين أو قصر، وربط الرسول صلى الله عليه وسلم الأرض المقدسة بأصلها الأصيل وهو الإسلام، فهو مستقبلها وبه حياتها، ولن يتم لها أمر، أو يعلو لها شأن إلا من خلال هذا الدين وأهله المصلين الموحدين المؤدين

فرائضه، والمجتنبين معاصيه، فالنصر موعود الله سبحانه وتعالى للجباه الساجدة، والقلوب الموحدة، والأيدي المتوضئة، قال تعالى: [وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً فمن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون] النور ٥٥.

والنصر لا يكون بالتمني والأماني والركون إلى الدنيا إنما النصر بالجهد والجهاد وبتحقيق التوحيد لله تعالى [يعبدونني لا يشركون بي شيئاً] فلا يتنزل النصر مع الإشراك بالله تعالى، وبهذا نعلم مقدار بعد الأمة الإسلامية عن النصر وأسبابه، وذلك لشيوع أسباب الشرك ومظاهره وغلبة الهوى والجهل، وظهور الفرق الضالة في الأمة وتمكنها في بلاد الشام، ومتابعة جماهير المسلمين اليوم لهذه الضلالات – إلا ما رحم الله – والتي أبعدتهم عن الجادة والنهج القويم.

فالعودة إلى الإسلام هو الطريق لإنقاذ فلسطين والمسجد الأقصى السليب، وبتمسكنا بالإسلام ترجع إلينا إن شاء الله مقدساتنا التي اغتصبت في بيت المقدس، وديارنا السليبة في جميع أنحاء الأرض ويتحقق لنا شرط التمكين والنصر قال تعالى: [الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور] الحج ٤١. وتكون بهذا العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين.

كلمات نفيسة لفضيلة الشيخ / محمد بن صالح العثيمين رحمه الله:

وأختم مقالي بكلمات لفضيلة الشيخ بن العثيمين رحمه الله تعالى في الطريق إلى النصر والتمكين: 'أيها المسلمون إن نصر الله عز وجل لا يكون إلا بالإخلاص له، والتمسك بدينه ظاهراً وباطناً، والاستعانة بالله وإعداد القدرة المعنوية والحسية بكل ما نستطيع ثم القتال لتكون كلمة الله هي العليا، وتطهر بيوته من رجس أعدائه، أما أن نحاول طرد أعدائنا من ديارنا، ثم نسكنهم قلوبنا بالميل إلى منحرف أفكارهم، والتلطخ بسافل أخلاقهم، فالنصر مشروط بما شرطه الله عز وجل، استمعوا إلى قول الله تعالى: [ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور].

هؤلاء هم الذين يستحقون النصر، الذين يوقنون بقلوبهم ويقولون بأفواههم إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور، بهذا يمكن للمسلمين أن يحتلوا بلاد الله وأن يطردوا عنها أعداء الله، لأن 'الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين' ، 'ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين'.

والحمد لله رب العالمين ،،،

بوابة النصر

الحمد لله القوي الجبار، المتين القهار، والصلاة والسلام على سيِّد الأنبياء الأخيار، وعلى آله وصحبه الأطهار، ومن تبعهم من الصالحين الأبرار، أما بعد،،،

في ظلام الليل الذي يعقبه نور الصباح.. وفي نـزول القطر بعد إقفار الأرض.. وفي أحوال كثيرات..وبما في تضاعيف التأريخ المُشْرِق لهذه الأمة من بواعث النصر، ومُحْيِيات التمكين؛ نـزداد يقيناً، واقتناعاً بما في أُفق الدنيا من لوائح المبشرات، وحينها ؛ نعم في ذلك الحين ينبثق نـور بوابة النصر..فَيَلِجُ منها من ذاق مرارة السطوة الظالمة، ويدخل منها من تفطرت كبده قهراً على تكالب سُرَّاق المشاعر، فإلى أولئك أقول: عليكم بما في ثنايا الموضوع فإنها أعمدة تلك البوابة، وعليكم باغتنام سويعات النصر فإن الفجر لاح، وحذار من مُغْلِقَاتِ البوابة فهي كثيرة محبوبة .

أولاً: أعمدة النصر:

١- الإيمان بالله والنصر: قال تعالى:{...وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[٤٧]}[سورة الروم]. وقال تعالى:{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...[٥١]}[سورة غافر].

في هاتين الآيتين قضى الله أن نصره وتأييده إنما هولعباده المؤمنين.. نعم؛ إن النصر، والتمكين حقٌ لكل مؤمن بالله، لكل من عَمَرَ قلبه بالإيمان الصادق، والإسلام الخالص، والانقياد التام لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

إن تحلي العباد بالإيمان بالله برهان كبير على أنهم هم المنصورون، وأنهم هم الجند الغالبون:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ[١٧١]إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ[١٧٢]وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ[١٧٣]}[سورة الصافات].

وكما قال تعالى:{وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ[٥٦]}[سورة المائدة].

فمتى أتى المؤمنون بإيمان تام كامل؛ كان لهم نصر تام كامل، وإن أتوا بإيمان دون الكمال، وقاصر عن التمام؛ فإن النصر لهم بحسب ذلك .

وحين نلحظ تأريخنا الحافل بالانتصارات الخالدة التي أقضت مضاجع أهل الكفر، وأذناب الضلال، والتي أقرَّت عيون أهل الإيمان والتوحيد؛ نجد أن أغلبها راجع إلى الإيمان قوة وضعفاً:

فهذا يوم الفرقان، يوم بدر: نصر الله عباده المؤمنين نصرًا أصبح شجى في حلوق المشركين زماناً، وكان من أعمدة النصر في تلك الغزاة أن قَوِيَتْ قلوب المؤمنين إيماناً بالله تعالى.

وفي التأريخ المشرق لهذه الأمة المنصورة، والمُخَلَّدَة إلى قيام الساعة صورٌ كثيرة جداً لوقائع نصر مبين للمؤمنين .

فهذا عمود من أعمدة النصر على الأمة أن تأتي به إن كانت تطمح بالنصر، وترمق بعين الشـــوق إلى التمكين في الأرض، أما إن كانت تريد نصراً بلا إيمان فما هي وطالب السمك في الصحراء إلا سواء .

إن الله أخبرنا بأنه حافظ دينه فقال:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[٩]}[ســورة الحجــر]. وأخبر أن البقاء لدينه فقال:{ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّـهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّـهُ مُـتِمُّ نُـورِهِ وَلَـوكَرِهَ الْكَافِرُونَ[٨]}[سورة الصف]. وهل نور الله تعالى إلا الإيمان والدين، ونصرته لـه نصـرة لعبـاده القائمين بهذا الدين، والمُتَحَلِّيْنَ بهذا الإيمان . فلا مجال حينئذٍ لمداهمة اليأس قلوبَ الصالحين، بل الدربُ مستنير، وواضح لا يعمى إلا على عُمْيِ القلوب والأبصار .

فالله تعالى وَعَدَ ووعْدُهُ حق وصدق ولابد لذلك الوعد من يوم يتحقق فيه الوفـاء، ولـيس الوفـاء فحسب بل تمام الوفاء وكماله، وهوقريب إذ وَعْدُ الكريم لا يقبل المماطلات، والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد .

فما هوإلا الصبر القليل، والاستعانة بالله، والتوكل عليه، وأساس ذاك كله اليقين بموعود الله، والحـذر من تسرُّب الشك في موعوده .

٢- العبودية لله والنصر:

قال تعالى :{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ[١٧١]إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ[١٧٢]}[ســورة الصافات]. وقال سبحانه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْـدِ الـذِّكْرِ أَنَّ الْـأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَـادِيَ الصَّالِحُونَ[١٠٥]}[سورة الأنبياء]. ففي هذا النص القرآني عمود من أعمدة النصر، الذي يَمُنُّ بـه الرب على من تعبَّد له حق التعبُّد. والْحَظْ بتمعُّنٍ وتدبر:{ لِعِبَادِنَا} و{ عِبَادِيَ} تجـد في ثناياهـا خالص التجرد بالعبودية لله، فلما جردوا التعبد لله وأخلصوه له؛ فلم يجعلوا في قلوبهم مـيلاً-و لـو قليلاً- لغيره أثابهم منه فتحاً ونصراً وتمكيناً .

ولذا نرى أن الأمة قد يَتَخَلَّفُ عنها النصر بسبب تعلُّقها بغير الله، وهذا من صُوَر صرف التعبُّد لغـير الله، فلا عجبَ أن تخلَّف النصر عنّا، وحلَّت الهزيمة بنا، فما استنكف أحد عن التذلل لله، واتبع نفسَه ذليلة غير الله إلا زاده الله وهناً وخسارة .

وللعبودية في ساعات الشدة أثر بالغ في قرب الفرج، وبُدُو أمارات النصر:

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبَه أمرٌ فزِعَ إلى الصلاة، وجعل خير العبادة ما كـان في زمن الهَرْجِ.

وحاله يوم بدر أكبر شاهد على ذلك؛ فقد جأر بالدعاء، واشتدَّ تضرُّعُه لربه وتذلله بين يديه، سـائله أن يُعَجِّلَ بنصره الذي وَعَدَه إياه .

وهذه هي التي يُسْتَجْلَبُ بها نصر الله، وبدونها؛ وحين تخلُّفها وعدم الإتيان بما أراده الله؛ فهيهات أن ينصر من أعرض عن دينه، و لم يتبع هداه الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، واتبع ما أجلب به الكفار من حياة قِوَامُها على الرذيلة، والمعصية، بل ترك الشريعة كلها .

فعمود النصر التجرد لله بالعبودية؛ التي هي: تمام الذل له، وكمال المحبة له، ومنتهى الانقياد والاستسلام لدينه وشرعه. فمتى قامت الأمة بالتعبُّد لله والتذلل بين يديه؛ أضاء لها نور النصر واضحًا جليًا، تبصره قلوب الصالحين من أولياء الله العابدين، وتعمى عنه بل تُحرَمُه قلوب وأبصار من تعبَّد لغير الله . وكلما كان تعبُّد الأمة لله أتم كان نصر الله لها أكمل وأقرب .

٣- نُصْرَةُ الله والنصر: قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ...[٧] }[سورة محمد]. نصر الله حليفُ قومٍ ينصرون الله ودينه، ويرفعون راية شريعته شامخة في أُفقِ العلياء .

أما من يخذل شريعته حين ضعفها؛ فليس له من نصر الله شيء. وما انتصر من انتصر من الصالحين إلا بسبب ما قاموا به من نصرةٍ لدين الله وشريعته . فمن قام ناصراً بلده، أو قومه، أو مبدأه ومذهبه المخالف لدين الله؛ فهو مخذول .

ومن قام ناصراً- ولو وَحْدَه- دين الله؛ فهو المنصور لا غيره، وهو المؤيد لا سواه، وهو الموعود بالتمكين .

فلتقم الأمةُ الطالبةُ نَصْرَ الله بنصرة دين الله، وإعلائه على الأديان كما أعلاه الله، حتى تنال موعود الله لها بالنصر، والتمكين في الأرض .

ومن نُصْرَة الله تعالى:

١- تحقيق الولاء والبراء.. فلا مداهنة في دين الله، ومحاباة لمخلوق أيًّا كان، فدين الله فَرَّقَ بين المسلم والكافر، ولو كانا في القرابة بالمكان الذي لا يفرَّق بينهما فيه .

٢- تطهير الأرض من المنكرات والموبقات ؛ التي ما فتيء أصحابها يجاهرون بها مطلع النهار ومغربه، ويحاربون الله ليل نهار.

٣- القيام حمايةً لدين الله من أن يَمَسَّه دَنِيٌّ بسوء، أو أن يَقْصِدَه سافل بنقيصة .

٤- حراسة محارم الله وحفظها من أن يتعرَّض لها من سلبه الله العفاف والحشمة .

فمن قام بنُصْرَة الله ودينه؛ حَظِيَ بالنصر من الله، وظَفِرَ بالغلبة على عدوِّه .

٤- النصر من الله تعالى: قال تعالى:{...وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ...[١٣] }[سورة آل عمران]. وقال:{...وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...[١٢٦] }[سورة آل عمران]. وقال:{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ[١٥٠] }[سورة آل عمران]. وقال:{ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ...[١٦٠] }[سورة آل عمران].

فالنصر مِنْ الله ، وهو المانُّ به على عباده المؤمنين، فلا قُدُرَاتِهم، ولا عُدَدِهم جالبة لهم نصـــراً علـــى عدوهم، ولا اعتداد بكل أسلحة المؤمنين إذا لم يُرِد الله لهم نصراً على عدوهم .

فلو كان النصر آتياً بقوى العباد؛ لما غلب المسلمون الضعفاء ظاهرًا أُمَمَ الكفر التي ملكت مـــن آلات القتال ما الله به عليم . فمتى رجيَ المؤمنون النصر من غير الله فيا خيبتهم، ويا شؤم حالهم .

وحين ترى أحوال المسلمين في المعارك التي انهزموا بها ترى أن من أهم الأسباب: تعلُّـــقُ النفـــوس في طلب النصر بغير الله، ولنعتبر بغزوة حنين، فإن الهزيمة التي حصلت لهم إنما هي بسبب اغترارهم بقوة أنفسهم حيث قالوا:'لن نغلب اليوم من قِلَّة'.

قال ابن القيِّم رحمه الله في سرَدِه الفوائدَ المأخوذةَ من تلك الغزوة:'واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعُددهم، وقوة شوكتهم، ...، وليبيِّن سبحانه لمن قال:'لن نغلب اليوم من قلَّة' أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم التي أعجبتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً، فوليتم مدبرين'[زاد المعاد [٤٧٧/٣]].

وهذا الذي حصل إنما هو من طائفة عُمِرَتْ قلوبهم بالتوكل على الله، والتعلُّق به، لكن لما انصـــرف القلب انصرافاً قليلاً عن الله؛ عُوقبوا بما ذكر الله بقوله:{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَـــثِيرَةٍ وَيَـــوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا...[٢٥]}[سورة التوبة]. فكيف الحال بمن بعـــدهم ممن انصرفت قلوبهم لغير الله انصرافًا كُلِّيًا، والله المستعان؟!

ثانيًا:مبشرات النصر:

١- البشارة بظهور الدين: قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِـــرَهُ عَلَـــى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[٣٣]}[سورة التوبة]. وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْـــدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ[١٠٥]}[سورة الأنبياء]. وقال تعالى:{ كَتَبَ اللَّهُ لَـــأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[٢١]}[سورة المجادلة].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ]رواه أحمد.

فهذه نصوص قاطعة بأن الغالب هو دين الله، والواعد بذلك هو الله تعالى، ورسوله صـــلى الله عليـــه وسلم؛ والله لا يخلف الميعاد؛ فكيف إذا كان الميعاد نَصْر دينه، فمهما طال مُقـــامُ الكـــافر، ومهمـــا استطال شرُّه وضرُّه، ومهما كِيْدَ بالمسلمين، ومهما نُكِّلَ بهم؛ فإن الغلبة لدين الله، وَعْداً من الله حقاً وصدقاً.. وهذا سيحدث لا محالة، فلا نستعجلَنَّ الأمور، ولا نسابق الأحداث .

٢- الطائفة الظاهرة: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُـــرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ]رواه البخاري ومســـلم. فهـــذه

الطائفة قائمة إلى قيام الساعة، والنصرة لهم، والتأييد الإلهي معهم، وهذه الفرقة المنصورة من بواعث الأمل في نصرة الدين، ومن بشائر الرفعة لدين الله، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى أنها دائمة وموجودة إلى قيام الساعة .

ولكنه ضعف اليقين بموعود الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتعلُّق القلوب بالماديَّات والظواهر، وأساس ذلك كله ضعف الإيمان بالغيبيات التي هي أصل الإيمان.

فهل يجوز بعد هذا أن ييأس المسلمون من اكتناف نصر الله تعالى لعباده المؤمنين؟! وهل يجوز أن تُعَظَّمَ قوة الكفر وجبروته؟! وهل يجوز لنا أن نتخاذل عن البذل لدين الله.. ولو بأقلِّ القليل؟! وهل يجوز أن نعتقد خطأً أن هذه الطائفة لن تقوم، أو أنها قامت ولن تعود؟! أسئلة تفتقر إلى أجوبة فعلية لا قولية .

٣- الوعد الإلهي الحق: قال تعالى:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...[٥٥]}[سورة النور]. وهذا الوعد قد تحقق في زمانه صلى الله عليه وسلم، وسيتحقق بعده حتى قيام الساعة،

فمتى توافرت الأوصاف التي ذكرها الله في هذه الآية في قوم؛ كانوا أحق بالتمكين من غيرهم مهما كانوا .

فحتى نظفر بالتمكين من الله لنعقد العزم على تطبيق شريعته في أحوال الناس اليومية، والسياسية، والاجتماعية .

عندها سننال النصر من الله بكل تأكيد ويقين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

٤- المدينتان المُنْتَظَرَتان: قَالَ أَبُو قَبِيلٍ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي وَسُئِلَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بِصُنْدُوق لَهُ حَلَقٌ فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا- يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ-] رواه أحمد والدارمي.

ومما يزيد في البشارة أن هذه المدينة قد فتحت على يد السلطان محمد الفاتح العثماني التركماني ؛ ولكن ليس هو الفتح المذكور في الأحاديث؛ لأن الفتح الذي في الأحاديث يكون بعد الملحمة الكبرى، وقبل خروج الدجال بيسير. [انظر: اتحاف الجماعة للتويجري [١/٤٠٤]].

ولفتح القسطنطينية الفتح الحق علامة واردة في أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، معروفة مشهورة، وهي :

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ-

ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِ الَّذِي حَدَّثَهُ أَوْ مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ- إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا أَوْ كَمَا أَنَّكَ قَاعِدٌ- يَعْنِي مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ-]رواه أبوداود وأحمد.

فإذا كان أن الفتح الذي حصل على يد محمد الفاتح ليس هوالفتح الوارد في الحديث فإنا لعلى يقين بقرب فتحين عظيمين لمدينتين كبيرتين، وهذا قريب، ووَعْدُ الله نافذ، ومُتحقق بإذنه تعالى .

٥- المعركة الفاصلة: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ]رواه البخاري ومسلم. وهذه المعركة هي الفاصلة بين المسلمين واليهود، وهي التي يُظْهِر فيها الله عباده المؤمنين، وينصرهم على اليهود بعدما ذاقوا منهم الأذى والنكال . ولم تأتِ بعد هذه المعركة وإنا على انتظارها، وهي آتيةٌ لا محالة إن شاء الله .

٦-محمد المنتظر: مما ثبت في السنة، واعتقده السلف الصالح، ودانوا لله به: ثبوت المهدي، وأنه سيخرج في آخر الزمان .

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي] رواه أبوداود والترمذي وأحمد. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا لَا يَعُدُّهُ عَدَدًا]رواه مسلم.

وأخباره متواترة تواتراً لا يعتريه شك .

وفي خروجه يكثر الخير، قال ابن كثير رحمه الله:'في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم' [النهاية في الفتن والملاحم [٣١/١]].

فهذا المهدي [محمد بن عبد الله] المنتظر لم يخرج بعدُ، وبخروجه يقوم الدين، ويرتفع الحق، ويخمد الباطل، وتتبدد كل قوة علت من قوى الباطل، وكل ما هو آت قريب، فصبر جميل.

ثالثًا:ساعات النصر:

١- اليأس والنصر: قال تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ[٢١٤]}[سورة البقرة].

وقال تعالى:{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[١١٠]}[سورة يوسف]. فهذه صورة يَحِلُّ فيها اليأس على قلب العبد، ويُخَيِّم القنوط على نفوس الصالحين،

وإنها لصورة من أشد الصور، وأخطرها على نفوس المسلمين، فالنصر يترل على العباد 'عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه'[تفسير ابن كثير [٤٩٧/٢]]. و'إنها لساعة

رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل،وهم يواجهون الكفر والعمى والإصـــرار والجحود، وتمرُّ الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا القليل، وتكرُّ الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عُدَّتِهم القليلة، وقوتهم الضئيلة'[في ظلال القرآن [٢٠٣٥/٤].

وإنا والله لنفرح بمثل هذه الساعة-لا لذاتها معاذ الله- ولكن لما فيها من بشـــائر النصـــر القريـــب، وأمارات ظهور الفجر الواعد ..نعم.. إنها ساعة فيها يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظـــاهرة التي يتعلَّق بها الناس، وسنة الله أن في مثل هذه الظروف التي يفقد المؤمنون فيها صـــبرهم، وتتكالـــب عليهم الشدائد من كل حَدْبٍ وصوب، وينالهم من أهل الشر والباطل كل أذى وسُخرية من ضعف قوتهم، وهوانهم على الناس؛ يلمح المؤمنون نور النصر يلوح، وشمسه تشرق في تمام الوضوح، فيـــزول عن القلب ما خَيَّمَ عليه من حُجُب وشوائب، وغزوات النبي صلى الله عليه وسلم فيها تبيان لهـــذا.. فاعتبرها .

٢- المظلوم والنصر: الظلم شيمة من ابتلاه الله بالكبر والغطرسة، ومن هذا شأنه كان حريًّاً بأن يناله من الله عقاب لتقرَّ عين المظلوم بنكاية الله بالظالم، ونكاله به، فجعل الله دعوة المظلوم تسلك طريقها في السماء، وتكفل الله بنصرها ولو بعد حين، ووَعْدُ الله حق، وهذه بشارة عُظمـــى، إن نصـــر الله قريب، هذا كله في عموم الناس المسلم والكافر، فكيف إذا كان المظلوم أمة مسلمة لله، والظالم لهـــا كافر لا يؤمن بالله رباً، ولا بمحمد نبياً، ولا بالإسلام ديناً، فأقول إن الأمر غاية في اليقين أن نصر الله قريب جداً .

وهذه ساعة من أهم ساعات الانتصار والغلبة أن يتمكن العدو من المسلمين، ويتحزبون عليهم مـــن كل جانب من فوقهم، ومن تحتهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم..{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُـــوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[٣٩]}[سورة الحج]. فما على المؤمنين حال تلـــك الســـاعة إلا الجـــأر بالدعاء، والابتهال والتضرع بين يدي الله أن يُعجِّل بنصرهم، وأن يَخْذِل عدوَّهم[ويُحِـــلَّ علـــيهم غضبه وسخطه..وموعود الله قريب للمظلوم، والويل للظالم من عقاب الله .

رابعًا:حُجُبُ النَّصْرِ:

١-حجاب الكفر:قال الله:{ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[٥٦]}[سورة آل عمران]. وقال تعالى:{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ...[١٢]}[ســـورة آل عمران]. وقال تعالى:{ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ[٤٤]سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ[٤٥]}[سورة القمر]. هذه آيات أنزلها الله في كتابه قضى فيها أن الكفر لن يغلب الإسلام مهما كانت لـــه مـــن القوى، ومهما ملك من العُدَد والعَدَد، ولقد صدق الله وَعْدَه، فنصر عبده، وأعـــز جُنْـــدَه، وهـــزم الأحزاب وَحْدَه.. فمهما قامت حروب ومعارك بين المسلمين والكفار؛ فإن الغالب هم المســـلمون،

والهزيمة لاحقة بالكفار ؛ وعد صادق من الله.. الكافرون سينفقون ما لديهم من أموال ورجال في حروب طاحنة مع المسلمين، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يُغْلَبُوْن على أيدي المسلمين .

وإن انتصر الكفار على المسلمين فهو نصر مؤقَّتٌ لا يدوم؛ وهيهات له أن يدوم، والله قد كتب الغلبة لدينه ورسله وأوليائه الصالحين، والله لا يؤيد بنصره أُمة قامت على كفر به، وصد عن سبيله .

٢- حجاب الظلم:قال تعالى:{...وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[٢٧٠]}[سورة البقرة]. وقال تعالى:{...وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[٨]}[سورة الشورى]. نعم ؛ إن الله لا ينصر الظالم على المظلوم بل اقتضت حكمته أنه ينصر المظلوم على الظالم مهما كان المظلوم والظالم .

وما أكثر الظلم في المسلمين؛ والذي بسببه حُرِمْنا النصر على أعدائنا، فالظلم يمنع النصر كما في هذه الآيات وكما في حديث دعوة المظلوم وأنه ليس بينها وبين الله حجاب، والله تعالى قد وعد بأنه سينصرها ولوبعد حين .

فمتى طُهِّرَت الأمة من الظلم بجميع أنواعه وصوره؛ فإن نصر الله آتٍ، ووعده متحقق سواء في ذلك قرب الزمن أو بعده .

٣- حجاب النفاق: قال الله تعالى:{...إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا[١٤٥]}[سورة النساء]. بيَّن الله في هذه الآية أن نصرَه محرومٌ منه كل منافق دخيل في صفوف المسلمين، بل محروم منه كل من قرَّب المنافقين وأنالهم منه مكاناً مرموقاً، وجاهاً رفيعاً..إن النفاق ما وُجدَ في قوم إلا أحلَّهم دار البوار، ومنعهم الخير والنصر، وما وُجِدَ المنافقون في أرض إلا مَكَّنُوا منها العدو على المسلمين، وأذلُّوا الصالحين من عباد الله.

فإذا ما طهُرَت الأرض، وسَلِمَت الأمة من هؤلاء 'المتلونين' استحقت النصر من الله على عدوها، وكان لها الظفر بالعدو.

وما مُنِعَ المسلمون النصر يوماً قط إلا بسبب ما كان منهم من تقريب لهؤلاء المنافقين، وحبٍّ لهم، ومجالسة معهم، وتمام وُدٍّ لهم.. إن النفاق في هذه الأزمان قد طال ريشه بين المسلمين، ودام مُقامُه بينهم، ونال أهلُه من المسلمين كل ما يريدونه، بل نال الصالحين المُبيِّنين حالهم وضلالهم الأذى منهم ومن أسيادهم. وحين تلتفت الأمة إلى هؤلاء المجرمين، وتبدأ بهم، وتنكِّل بهم؛ تنعم بعد ذلك بنصر من الله مؤزَّرٌ، وبإيفاء الله وعده لهم .

خاتمة البوابة:

في ختام الولوج من هذه البوابة العريقة..وفي نهاية المرور بها..آمل أن أكون قد وُفِّقْتُ بوضع النقاط على حروفها، وأن أكون قد بعثت ما مات من آمالٍ كبار في نفوس قومي، وأسأل الله تعالى أن يُحيي ما مات من آمالنا، وأن ينصر دينه، وكتابه، وسنة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وعباده الله الصالحين .

من رسالة:'بوابة النصر' للشيخ/ عبد الله بن سليمان العبد الله

مفكرة الإسلام

لماذا يتأخر النصر ؟

الحمد لله رب العالمين، تكفَّلَ بإظهار هذا الدين، ووعد بنُصرةِ المؤمنين، فقال في كتابِه المبين: ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)) (التوبة:٣٣) . وقال تعالى: ((وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)) (الروم: من الآية٤٧) وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، اقتضت حكمتهُ أن يديلَ الإسلام والمسلمين تارة، ويديلَ الكفرُ والكافرين تارة أخرى، وصدق الله ((وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)) (آل عمران: من الآية١٤٠) .

وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله عاش فترةً من حياته والمسلمون معهُ في مكة، ظروفَ المحنةِ وشدةَ الابتلاء، حتى جاءَ اللهُ بالنَّصرِ والفتحِ المبين، وعادَ المُحاربون له مسالمين مؤمنين، بل وفي عِداد الغزاة الفاتحين.

اللهمَّ- صل وسلم عليه- وعلى سائر المرسلين، وارضِ اللهمَّ عن الصحابةِ والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)) (التوبة:١١٩) ، ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)) (الأحزاب:٧٠) ، ((يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)) (الأحزاب:٧١).

أَيُّها المسلمون :

يتكررُ في فتراتٍ من التاريخ، لمن تأملَ انسياح الإسلامِ في الأرضِ وغلبة المسلمين، أو انحسار مدَّ الإسلام وهيمنة غير المسلمين، وإذا كانت أكثريةُ المسلمين تلتزمُ بالإسلامِ في حالةِ غلبته، فإنَّ القلةَ من المسلمينَ من يتمالكُ نفسهُ، ويلتزمُ بمقتضياتِ العقيدة والدين، ويصبرُ على اللأواءِ والمحن، في حال غلبةِ أعداءِ الدين، إذ من الناسِ من يُصابُ بالهلعِ وفقدانَ الثقةِ بنصرةِ هذا الدين، ويُصابَ آخرون بالإحباطِ واليأس والقنوطِ من رحمة الله، والتسخطِ لأقدارِ الله، وتلك أدواءٌ قاتلة، وهي منافيةٌ لحقيقةِ التوحيد، من الصبر واليقين، والتقوى والتوكل على رب العالمين.

إخوةَ الإيمان: وهذا الشعورُ قديم، وهذهِ الفتنةُ غير مستحدثة، وهذا الهاجسُ تحدثَ عنه العلماءَ السابقون، وذلك حين أصيبت الأمة، وكادَ اليأسُ يلفُّ بعضِ المنتسبين للإسلام .

يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميه- رحمه الله-، (وهُنا نكتةٌ نافعة ، وهي أنَّ الإنسانَ قد يسمعُ ويرى ما يصيبُ كثيراً من أهل لإيمان والإسلام في الدنيا في المصائب، وما يصيبُ كثيراً من الكفّار والفجَّار في

الدنيا، من الرياسةِ والمال وغير ذلك، فيعتقدُ أنَّ النعيمَ في الدنيا لا يكونُ إلاَّ لأهلِ الكُفر والفجـــور، وأنَّ المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً، وكذلك قد يعتقدُ أنَّ العزةَ والنُّصرةَ قد تستقرُ للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاءَ في القرآن من أنَّ العزةَ لله ولرسولهِ وللمـــؤمنين، وأنَّ العاقبةَ للتقوى، وقولَ الله تعالى: ((وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)) (الصافات:١٧٣) وهو ممـــن يصـــدقُ بالقرآن حملَ هذه الآيات على الدارِ الآخرة فقط، وقال: أمَّا في الدنيا فما نرى بأعيننا إلاَّ أنَّ الكفـــارَ والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين... الخ [١].

وهذا تلميذهُ الشيخُ ابن القيم- رحمه الله-، يعرضُ أمامَ ناظريك أيَّها المسلمُ الحكمةُ من وراءِ تمكـــين أهلِّ الكُفر والفسوقِ والعصيان فيقول: (وكان في تمكينِ أهلُ الكفرِ والفسوق والعصيان، من ذلـــك إيصالُ أولياءِ الله إلى الكمالِ الذي يحصل لهم بمعاداةِ هؤلاءِ وجهادهم، والإنكارِ عليهم والموالاة فيـــه والمعاداة فيه، وبذلُ نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإنَّ تمام العبوديةِ لا يحصلُ إلاَّ بالمحبةِ الصادقة، وإنَّما تكونُ المحبةُ صادقةً إذا بذلَ فيها المُحبُّ ما يملكُهُ من مالٍ ورياسةٍ وقوةٍ في مرضاة محبوبهِ والتقربُ إليه، فإذا بذلَ لهُ رُوحهُ كان ذلك أعلى درجاتِ المحبة، ومن المعلومِ أنَّ من لوازمِ ذلـــك أن يخلـــقَ ذواتـــاً وأسباباً وأعمالا، وأخلاقاً وطبائعَ تقتضي معاداةُ من يحبه.

إلى أن يقول : فلولا خلقِ الأضدادِ، وتسليطِ أعدائهِ وامتحانِ أوليائه لم يستخرج خاص العبوديةِ مـــن عبيده الذين هم عبيدَه، و لم يحصل لهم عبوديةُ الموالاة فيه والمعاداة فيه، والحبُّ فيـــه والـــبغضُ فيـــه، والعطاءُ له والمنعُ له) [٢].

أيَّها المؤمنون: نستبطئُ النصر أحياناً ونحنُ بعدُ لم نُقدمُ للنصرِ ثمنا، ونستعجلُ النصرَ وقـــد لا يكـــونُ حانَ وقته بعد، ونتطلعُ إلى تغيرٍ مفاجئٍ في العالم، ونحنُ بعدُ لم نغيرِّ ما بأنفســـنا، وبالجملـــةِ فهُنـــاك معوقاتٌ للنصرِ، وأسبابٌ لتأخره، يعرفها العلماء، ويجهلها البسطاء، وأســـوقُ لكـــم طرفـــاً منـــها، استجمعها صاحبُ الظلال- يرحمه الله- فاعقلوها وقارنوا واقعَ المسلمين بها،

يقولُ سيد قطب- رحمهُ الله-: (والنصرُ قد يُبطئُ لأنَّ بنيةَ الأمةِ المؤمنة لم ينضجُ بعد نضـــجها، و لم يتمُّ بعد تمامها، و لم تحشدُ بعد طاقاها، و لم تتحفزَ كل خليةٍ وتتجمع، لتعرف أقصى المد خور فيهمـــا من قوى واستعدادات، فلو نالت النصرُ حينئذٍ لفقدته وشيكا، لعدمِ قُدرهما على حمايتهِ طويلاً .

وقد يبطئُ النصرُ حتى تبذلَ الأمةُ المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخرُ ما تملكهُ من رصيدٍ، فـــلا تستبقي عزيزاً ولا غاليا، إلاَّ وتبذلهُ هيناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطئُ النصرُ حتى تجربُ الأمةُ المؤمنة آخر قواها، فتُدرك أنَّ هذه القوى وحدها بدون سندٍ مـــن الله لا تكفلُ النصر، إنَّما يتترلُ النصرُ من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها، ثُمَّ تكلُ الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئُ النصرُ لأنَّ البيئةَ لا تصلحُ بعدُ لاستقبالِ الحقِّ والخيرِ، والعدلَ الذي تمثلهُ الأمةُ المؤمنة، فلو انتصرت حينئذٍ للقيت معارضةً من البيئةِ لا يستقرُ معها قرار، فيظلُ الصراعُ قائماً حتى تتهيأ النفوسُ من حوله لاستقبالِ الحقَّ الظافر لاستبقائه، من أجلِّ هذا كله، ومن أجل غيرهِ مما يعلمهُ الله، قد يبطىءُ النصر، فتتضاعفُ التضحيات، وتتضاعفُ الآلامُ، مع دفاعِ الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية، وللنصرِ تكاليفهُ وأعباؤهُ حين يأذن اللهُ به بعد استيفائه أسبابه، وأداءِ ثمنه، وتهيؤ الجوِّ حوله لاستقباله واستبقائه.

وقد يبطئُ النصرُ لتزيدَ الأمةُ المؤمنة صلتها بالله، وهي تُعاني وتتألم وتبذل، ولا تجدُ لها سنداً إلاَّ الله، ولا متوجهاً إلاَّ إليهِ وحده في الضراء، وهذهِ الصلةُ هي الضمانةُ الأولى لاستقامتها على النهجِ بعد النصر، عندما يأذنِ به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحقِّ والعدل، والخيرَ الذي نصرها الله به.

وقد يُبطئُ النصرُ لأنَّ الأمةَ المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها، وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تُقاتلُ لمغنمٍ تُحققه، أو تُقاتلُ حميَّةً لذاتها، أو تُقاتلُ شجاعةً أمام أعدائها، واللهُ يريدُ أن يكون الجهادُ له وحدهُ وفي سبيله، بريئاً من المشاعر الأُخرى التي تلابسهُ، وقد سُئل رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم-: ((الرجلُ يُقاتلُ حميةً، والرجلُ يُقاتلُ شجاعةً، والرجلُ يُقاتلُ ليرى فأيَّها في سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله)) [٣]

كما قد يبطئُ النصرُ، لأنَّ في الشرِّ الذي تكافحهُ الأمة المؤمنة بقيةً من خيرٍ يريد

للهُ أنَّ يجردَ الشرَّ منها ليُمحِّص خالصاً، ويذهبَ وحدهُ هالكاً، لا تتلبسُ بهِ ذرةٌ من خيرٍ تذهبُ في الغمار.

وقد يبطئُ النصرُ لأنَّ الباطلَ الذي تحاربهُ الأمةُ المؤمنة لم ينكشف زيفهُ للناسِ تماماً، فلو غلبهُ المؤمنون حينئذٍ، فقد يجدُ لهُ أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعدُ بفسادهِ وضرورةَ زواله، فتظلَ له جذورٌ في نفوسِ الأبرياءِ الذين لم تنكشف لهمُ الحقيقة، فشاءَ اللهُ أن يُبقى الباطلُ حتى يتكشفَ عارياً للناس، ويذهبَ غيرَ مأسوفٍ عليهِ من ذي بقية .[٤]

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)) (الرعد: من الآية١١) .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.

الخطبة الثانية

الحمد لله ربِّ العالمين ، ((لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) (القصص: من الآية٧٠) وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وليُّ الصالحين، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ إمامَ المتقين، اللهمَّ صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين، وأرض اللهمَّ عن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمَّا بعدُ إخوة الإسلام: فينبغي ألاَّ يخامرَ المسلمُ شكٌّ بنُصرةِ الله لهذا الدين، حتى وإن لم يرهُ بأمِّ عينه، وتحققَ لأجيالٍ بعده، فحسبهُ أن يكونَ جندياً صادقاً في سبيلِ خدمةِ هذا الدين، وحسبهُ أن يموتَ يوم يموت، وهو يُحسنُ الظنَّ بربهِ، ويستشعرُ بمسئوليتهِ تجاهَ دينه، قد حررَ عبوديتهُ لله.

أمَّا النصرُ فلابُدَّ من اكتمال أسبابهِ، وزوالِ معوقاته، واللهُ يحكمُ ما يشاءُ ويفعلُ ما يريد، ووعدهُ حـــق، ونصرهُ قريب، وأمرهُ بين الكاف والنون، ولكن ثَمة أدواءٍ يتلبسُ بها المســـلمون وهـــم يستشـــرفون النصر، ونصرُ اللهِ عزيزٌ لا بُدَّ فيه من تمحيصِ الصفوف، ولابُدَّ من تميزِ الخبيثَ من الطيب، لابُدَّ مـــن سقطٍ لأصحابِ المطامعِ والأهواء، ولابُدَّ من تجريدٍ للصفوةِ المختارةِ التي يُحبُها الله، وتستحقُ نصره، لابُدَّ من تمييزِ المجاهدين الصادقين من المتقولين المنتفعين.

عباد الله :

وليست المسؤوليةُ في هذا على الناس على حدٍ سواء، فكلٌّ بحسبه، ولست العبوديةُ المؤهلـــةُ للنصـــر ضرباً من الأماني، أو قدراً محدوداً من العبادات، يظنُّ المرءُ فيها أنَّهُ بلغَ قمَّة الإيمان، واستحقَّ النصـــرَ لولا فساد الآخرين بزعمه، كلا، فالمسؤوليةُ كبيرة، والعبوديةُ المرادةُ لله شاملة، واسمع إلى أحدِ علماءِ السلف وهو يشخِّصُ الحال، وكأنَّهُ يعيشُ اليومَ بين ظهراني المسلمين،

ويقولُ ابن القيم في كتابه: (أعلام الموقعين عن رب العالمين) وهو يتحدثُ عن نوعي العبوديةِ العامةِ الخاصة: (ولله سبحانهُ على كلِّ أحدٍ عبوديةً بحسبِ مرتبته، سِوى العبوديةِ العامةِ التي ســـوى بـــين عبادهِ فيها: فعلى العالم من عبوديةِ نشرِ السنةِ، والعلم الذي بعثَ اللهُ به رسلهُ ما ليس على الجاهـــل، وعليه من عبوديةِ الصبرِ على ذلك ما ليس على غيره، وعلى الحاكمِ من عبوديةِ إقامةِ الحقِّ وتنفيـــذهِ وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي، وعلى الغنيِّ من عبوديـــةِ أداءِ الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادرِ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما) .

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهادِ والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت لهُ امرأةٌ: هذا واجبٌ قد وضُع عنَّا فقال: هبي أنَّهُ قد وضَع عنكنَّ سلاح اليدِ واللسان، فلم يُوضع عـــنكنَّ ســـلاح القلب، فقالت : صدقت، جزا ك الله خيراً . أن يقول الشيخ- رحمه الله- وقد غرَّ إبليسُ أكثرَ الخلقِ بأنَّ حسنَّ لهمُ القيامَ بنوعٍ من الذكر والقراءة والصلاة والصيام، والزهدُ في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبادات. فلم يُحدِّثُوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاءِ عند ورثةِ الأنبياءِ من أقلِّ الناسِ ديناً، فإنَّ الدين هو القيامُ لله بما أمر به، فتاركُ حقوقِ الله التي تجبُ عليه أسوأُ حالاً عند الله ورسولهِ مـــن مُرتكـــب المعاصي، إلى أن يقول: ومن له خبرةً بما بعث اللهُ به رسولهُ- صلى الله عليه وسلم- وبما كان عليـــه هو وأصحابه رأى أنَّ أكثرَ من يشار إليهم بالدين هُم أقلُّ الناسِ ديناً- والله المستعان- وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يرى محارمُ تُنتهك، وحدودهُ تُضاع، ودينهُ يُترك، وسنةَ رسولِ اللهِ- صلى الله عليه وسلم-

يرغب عنها، وهو باردُ القلبِ، ساكتُ اللسان، شيطانٌ أخرس، كما أنَّ المتكلمَ بالباطل شيطانٌ ناطق، وهل بليَّةُ الدين إلاَّ من هؤلاءِ الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلامبالاةَ بما جرى على الدين؟ وخيارهم المحزن المتلمظ، ولو نُوزع في بعضِ ما فيه غضاضة عليه، في جاهِهِ أو مالِهِ بذل وتبذل، وجدَّ واجتهد، واستعملَ مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء- كما يقولُ الشيخ رحمه الله- مع سقوطهم من عينِ الله، ومقت اللهِ لهم، قد بلوا في الدنيا بأعظمِ بليَّةٍ تكونُ وهم لا يشعرون وهو موت القلوب، فإنَّ القلبَ كلَّما كانت حياتهُ أتم، كان غضبهُ لله ورسولهِ أقوى، وانتصارهُ للدين أكمل [٥] .

أيَّها المسلمون :

في تركِ أمرِ الله، وعدم التمعُّر لشيوعِ الفساد والمنكر، وقد ذكرَ الإمامُ أحمد وغيره أثراً، أنَّ اللهَ سُبحانهُ أوحى إلى ملكٍ من الملائكةِ أن اخسف بقريةِ كذا وكذا، فقال: يا رب كيف وفيهم فلانٌ العابد، فقال: به فابدأ، فإنَّهُ لم يتمعَّر وجههُ في يومٍ قط.

وذكر صاحبُ التمهيد : أنَّ اللهَ سُبحانهُ أوحى إلى نبيٍّ من أنبيائهِ أن قُل لفلانٍ الزاهد: أمَّا زُهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة، وأمَّا انقطاعُك إليَّ فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما ليَ عليك؟ فقال: يا ربي وأي شيءٍ لك عليَّ؟ قال هل واليتَ فيَّ وليا، أو عاديت في عدا ؟ [٦]

هكذا إخوة الإسلام، فَهِمَ السلفُ- رحمهم الله- حقيقةَ العبوديةِ لله، وكذلك جاءتِ النصوصُ الشرعية، والوصايا النبويَّة تُؤكدُ أمرَ القيامِ له بحقهِ عبوديةً عامة، يشتركُ الناسُ فيها، وعبوديةٍ خاصة كلٌّ بحسبه، تضمنُ قيام أمر الله، تُرسي دعائمَ الخيرِ في الأرض، وتوالي الخيِّرينَ، وتحبُ الناصحين، وتسهمُ في اقتلاع الشرِّ من جذر وه، وتأخذُ على أيدي السفهاءِ وتأطرهم على الحقِّ أطرا، وتكرهُ المبطلين، وتُعادي الكافرين، وتبغضُ المنافقين.

وبهذه المجاهدة في ا لأرض ينساحُ الخيرُ، وينكمشُ الباطل، ويقتربُ النصر، ولكنَّ ذلك يحتاجُ إلى صبرٍ ومصابرة، وإيمانٍ ويقين، ومن خطبَ الحسناءَ لم يغلها المهر. ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)) (العنكبوت: من الآية٦٩) ، ((وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)) (الروم: من الآية٤٧) ، ((وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)) (الصافات:١٧١،١٧٢،١٧٣) .

وصدقَ رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم-: ((ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار ولا يتركُ اللهُ بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلاَّ أدخلهُ اللهُ هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل، عزاً يُعزُّ اللهُ به الإسلام، وذلاً يُذلُّ به الكفر)) [٧] .

اللهمَّ انصر دينك وكتابك وعبادك الصالحين- اللهمَّ اجعلنا من أنصار دينك والمنافحين عن شرعك يا رب العالمين.

[١]- كلام الشيخ وإجابته السديدة على هذه المشاعر الخاطئة والهواجس الفاسدة، فليراجعه من شاء في: جامع الرسائل، الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة) (عن: متى نصر الله، الجليل ص ٥٦-٧٤).

[٢]- على آخر كلامه النفيس في طريق الهجرتين ص ٢١٤، ٢١٥. طبعة قطر

[٣]- متفق عليه

[٤]- طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٣٥٩.

[٥]- أعلام الموقعين ١٧٦/٢، ١٧٧.

[٦]- أعلام الموقعين - تعليق طه عبد الرؤوف ١٧٦/٢، ١٧٧.

[٧]- رواه ابن حبا ن وصححه الألباني في السلسلة (ج ١/٧ ح ٣) .

حول بطاقة المرأة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له ، الملكُ القدوسُ السلام، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسولهُ النبي المصطفى، الإمام عليه وعلى آله وصحبه من ربهم أزكى الصلوات والسلام .أما بعد:

فأوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ، فتقوى الله جماعُ كلِّ خيرٍ ومنبع كل صلاح.

أيُّها المسلمون:

كلُّ أمةٍ تعتمدُ في قوتها وثباتها على مقومٍ من المقومات، فأمةٌ تنافسُ بقوتها البشرية، وأخرى بمقوماتها الاقتصادية، وثالثةٌ بقوتها العسكرية، ونحنُ أمةَ الإسلام نُفاخرُ الأممَ وننافسها ونصارعُها بأعظمِ مُقومات البقاء، وأقوى عواملِ الثبات، وأسمى وسائلِ التحدي، نحنُ أمةٌ تُفاخر بمقوماتها العقدية، وبنائها الأخلاقي، حيثُ الترابط الأسري، والتكافلَ الاجتماعي، وحيث السلامة من الأدواءِ الخلقية، والأمراضِ الجنسية، لأننا أمةٌ تستمدُ منهجَ حياتها من كتابٍ لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، ومن سنةِ نبيٍ وسيرةَ رسولٍ لا ينطقُ عن الهوى إن هو إلا وحيٌّ يوحى.

لقد أدرك أعداؤنا من يهودٍ ونصارى وهم يعيشون فوضى أخلاقية، وانحرافاتٍ اجتماعية، وتفككاتٍ أسرية، ويُعانون من أمراضٍ جنسيةٍ، وجرائمَ خلقية، أدركوا أنَّ المسلمين أمةٌ لن تُقهر، ما داموا يستمسكون بالمبادئ الأخلاقيةِ السامية، فبدت البغضاءُ من أفواههم، وأصبحوا كما قال الله : ((وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)) (النساء: من الآية٨٩) وكما أخبر الحق : ((ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم)وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)) (البقرة: من الآية١٠٩) .

لذا فقد عملوا عبرَ وسائلهم المختلفةِ، ومن خلال أبواقهم وأذنابهم من المنافقين والمنافقات، وسعوا إلى أن تميلَ الأمةُ ميلاً عظيماً.

لقد أحسَّ أعداؤُنا وهم يُحاولون هدم هذه الأمةِ صلابة البناءَ الأسري في المجتمعاتِ المسلمة، وقــوة الحصونِ الأخلاقية، فحملوا بخيلهم ورجلهم، وجرَّدوا الحملات المُسلحة بسهامِ الشهوات، وسمــومَ الشُبهات، لتعيثَ في قلوبِ المسلمين فساداً، وتجوسُ خلالَ ديارهم لتسلخهم من دينهمُ الحقُّ الــذي ارتضى اللهُ لهم.

لقد كان هؤلاءِ الأعداء خبثاءَ ماكرين في حربهم، إذ تفرسوا في أسبابِ قوةِ المسلمين وحــددوها، ثم اجتهدوا في توهينها وتحطيمها بكل ما أوتوا من مكرٍ ودهاء.

علموا أنَّ المرأةَ من أعظمِ أسبابِ القوةِ في المجتمع الإسلامي، وهم يعلمون أيضاً أنَّها سلاحٌ ذو حدين، وأنَّها قابلةً لأن تكون أخطرَ أسلحةِ الفتنة والتدمير، ومن هُنا كان النصيب الأكبر من حجم المؤامرات .

إنَّ المرأة تملكُ مجموعةً من المواهب الضخمةِ، الجديرةِ بأن تبني أمةً، وأن تهدم أمة، قال -صلى الله عليه وسلم- ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقــوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)) رواه مسلم.

وقال- صلى الله عليه وسلم- ((ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء)) متفق عليه.

وقال حسَّان بن عطية: ما أُتيت أمة قط إلَّا من قبل نسائهم ، وقد كان للمرأةِ المسلمةِ دورٌ رائــعٌ في بناءِ الصرح الإسلامي، وقد انتفعت الأمةُ بهذا الحدِّ النافعِ من سلاحِ المرأة في قرونها الخيرة، ثم لم تلبث الحالُ أن تدهورت شيئاً فشيئاً، وجُرحت الأمةُ بالحدِّ المُهلك من سلاح المرأة .

يجبُ أن لا ننسى أن انحرافَ المرأةِ، أو الانحرافَ بالمرأةِ كان السببُ الأول في أنَّ حضــاراتٍ عتيقــة انهارت وتمزقت كل ممزق، ونزل بأهلها العقاب الإلهي، والأوجاعُ والأمراضُ الفتاكة، كما وقع قديماً لليونان والروم وغيرهم ، أمَّا في عصرنا الحاضرِ فقد زخرَ التاريخُ الحديث بعبرٍ ومثُلات، تزيدُ يقــينَ المؤمنِ بشؤمِ هاتيك المعاصي والشهوات، التي غرق فيها الغربيون، وتبعهم عليها كثيرٌ من الأمم، الأمرُ الذي ينذرُ بسوءِ العاقبةِ، فإنَّ المثُلات لم تنتهِ من الأرض ، فلئن هلك بعضُ الأممِ الظالمةِ بالخســف أو النسف، أو الجوعِ أو المسخ، إنَّ ذلك لمستمرٌ لم ينقطع بعد ولن ينقطع، وإلاّ فما هذه الزلازلُ تقــرعُ البشر هنا وهناك، وما هذه السيولُ تجرفُ المُدن والقرى في الشرق والغرب، ومــا هــذه الأمــراضُ الفتاكة تجتاحُ الإنسان في كلِّ مكان، وقد عجزَ العلمُ عن استئصالها ، أمَّا المسخُ فما أكثرهُ في هــذا العصر، الذي مُسخ فيه مُعظمُ البشرِ آلاتٍ تُحركُ آلات، فلا وفاءَ ولا حنان، ولا عدالــةَ ولا أمــان، فكأنَّ الأرضَ كلَّها على فوهةِ بركان.

أيُّها المسلمون :

لم يعد خافياً ما تشهدهُ مجتمعات المسلمين اليوم من حملةٍ محمومةٍ، من الذين يتبعون الشهوات علـــى حجابِ المرأةِ وحيائها وقرارها في بيتها،حيثُ ضاق عطنهم، وأخرجوا مكنونهم، ونفذوا كثيراً مـــن مخططاتهم في كثيرٍ من مجتمعاتِ المسلمين، وذلك في غفلةٍ وقلةِ إنكارٍ من أهـــل العلـــم والصـــالحين، فأصبحَ الكثيرُ من هذه المجتمعاتِ تعجُّ بالسفورِ والاختلاط، والفسادِ المستطير، الأمرُ الـــذي أفســـدَ الأعراضَ والأخلاقَ، وبقيت بقيةٌ من بلدان المسلمين لا زال فيها بحمد الله يقظةً من أهـــل العلـــم، والآمرين بالمعروفِ والناهينَ عن المنكر، حالت بين دُعاةِ السفورِ وبين كثيرٍ مما يرومون .

ومن كيدِ المُفسدين في مثلِ المجتمعاتِ المحافظةِ، ولوجودِ أهلِ العلم والغيرة أنَّهم لا يُجاهرون بنواياهم الفاسدة، ولكنهم يتسترون وراءَ الدين، ويُلبسون باطلهم بالحقِّ واتباع ما تشابه منه، وهذا شأنُ أهلِّ الزيغِ كما أخبر الله، وهُم أولٌّ من يعلمُ أنَّ فساد أي مجتمعٍ إنَّما يبـــدأُ بإفســـادِ المـــرأةِ واختلاطهـــا بالرجال، وهذه حقيقةٌ لا يُماري فيها أحد، وملل الكفر أولٌّ من يعرفُ هذه الحقيقة ومـــن خلالهـــا دخلوا على كثيرٍ من المجتمعات المسلمين وأفسدوه، وحققوا أهدافهم البعيدة، وتبعهم ذلك المهزومون من بني جلدتنا، ممن رضعوا من لبانِ الغرب وأفكاره. ولكن لأنَّهم يعيشون في بيئةٍ مســـلمة، ولا زالَ لأهلِ العلم والغيرةِ حضورهم، فإنَّهم لا يتجرأون على طرحِ مطالبهم التغريبيةِ بشكلٍ صريح، لعلمهم بطبيعةِ تدينِ الناسِ ورفضهم لطروحاتهم، وخوفهم من الافتضاحِ بين الناس، ولذلك دأبوا على اتباعِ المتشابهاتِ من الشرع وإخراج مطالبهم في قوالب إسلامية، وما فتئوا يُلبسون الحقَّ بالباطل، وهم كما قال الله : ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)) (البقرة:١١) .

ومن تلك الطروحات التي أجلبوا عليها في الآونةِ الأخيرةِ ونشروها في مجتمعنا المُحـــافظ، وفي بلـــدنا الذي يأرزُ إليهِ الإيمان، وتهوي إليه أفئدةُ الصالحين، ومنه نبعت الفضيلةُ ودعاتها، مطالبتهم بكشـــفِ المرأة عن وجهها، وإخراجها من بيتها، وهم يعلمون ونحنُ نعلمُ أنَّ تلك هي الشرارةُ الأولى، والخطوةُ الأولى نحو فسادِ المرأة،، وذهابِ حيائها، وهم في دعواتهم هذه يُلبسون الباطلَ ثوبَ الحقِّ، ويصوغُون القضيةَ بقالبٍ شرعي، ويعتمدون بزعمهم على أدلةٍ شرعيةٍ وأقوالٍ لبعض العلماء.

ونحنُ أيُّها المسلمون إحقاقاً للحقِّ، وبياناً لهُ، نقفُ مع هؤلاءِ وقفات :

أولاها : أنَّ هُناك فرقاً بين فتاوى مبينةٍ على التحري والاجتهاد، وأخرى مجلولةَ العقال، مبنيةً علـــى التجري لا التحري، والتي يصدرُها قومٌ لا خلاقَ لهم من الصحفيين، ومن أسموهم المفكـــرين وأهـــل التنوير ، يفرقونَ من تغطيةِ الوجهِ لا لأنَّ البحث العلمي المجرد أدَّاهم إلى أنَّهُ مكروهٌ أو جائز، أو بدعةٌ كما يرجفون ، ولكن لأنَّه يشمئزُ منهُ متبوعهم من كفارِ الشرقِ والغرب، ولك أن تُقدرَ شدةَ مكـــرِ القومِ الذين يُريدون من جانبهم أن يتبعوا التمدن الغربي، ثُمَّ يُبررون فعلهم هـــذا بقواعـــدِ النظـــام الإسلامي الاجتماعي .

لقد أوتيت المرأةُ من الرخصةِ في النظام الإسلامي، أن تُبدي وجهها وكفيها، وما دعت إليه الحاجــةُ والضرورة في بعضِ الأحوال، وأن تخرجَ من بيتها لحاجتها، ولكن هؤلاءِ يجعلون هذا نقطــةَ البــدءِ، وبدايةَ المسيرِ، ويتمادونَ إلى أن يخلعوا عن أنفسهم ثوبَ الحياءِ والاحتشام، فلا يقفُ الأمرُ بإنـــاثهم عند إبداءِ الوجهِ والكفين، بل يجاوزهُ إلى تعريةِ الشعرِ والذراعِ والنحرِ، إلى آخرِ هذهِ الهيئاتِ القبيحةِ المعروفة، وهاهو ذا المودودي- رحمهُ الله- يصرخُ في وجهِ هؤلاءِ الأحرار في سياســتهم، العبيــدُ في عقليتهم، قائلاً : ((ولا ندري أيُّ القرآن أو الحديث يستخرج منهُ جوازُ هذا النمطِ المبتــذلِ مــن الحياة، وإنَّكم يا إخوانَ التجدد إن شاءَ أحدكم أن يتبعَ غير سبيلِ الإسلام فهلا يجترئ، ويصرح بأنَّهُ يُريدُ أن يبغي على الإسلام، ويتفلت من شرائعهِ وهلا يربأ بنفسهِ عن هذا النفاقِ الــذميم، والخيانــة الوقحة)) .

وثاني الوقفات : أنَّ قضية الحجابِ اليوم، وما يدورُ بينها وبين السفورِ من معارك، لم تُعــد قضــيةً فرعية، ومسألةً خلافية، ولكنَّها باتت قضيةً عقديةً مصيرية، ترتبطُ بالإذعانِ والاستسلامِ لشــرع الله عز وجل، في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، وعدم فصلها عن شئونِ الحياة كلها.

إنَّ التشنيعَ على تغطيةِ المرأة وجهها، والتهالكُ على خروجها من بيتها، واختلاطها بالرجال، ليســت اليومَ مسألةً فقهيةً فرعية، ولكنَّها مسألةً خطيرةً، لها ما بعدها، لأنَّها تقومُ عند المنادين بــذلك علــى فصلِ الدين عن حياةِ الناس، وعلى تغريبِ المجتمعِ، وكونها الخطوةُ الأولى أو كما يحلو لهم أن يُعــبروا عنها بالطلقة الأولى .

وثالث الوقفات : إنَّ المناديةَ اليوم بكشفِ وجه المرأةِ أمامَ غير المحارم، إنَّما يُوجِّهــون نــداءَهم إلى مجتمعاتٍ محافظة، لم تعرف نساؤهُ إلاَّ الحشمةَ و الحياء، وتغطيةَ الوجهِ والبُعد عن الرجالِ الأجانــب، وهذا مما يُثيرُ العجب، ويُحيرُ العقلَ، و يضعُ استفهاماتٍ كثيرةٍ على مطالبهم تلك، فماذا يُريدون من ذلك، وماذا عليهم لو بقيت نساؤُهم وبناتهم وأخواتهم ونساء المسلمين، على هذه الحشمةِ والعفــةِ و الحياء ، ماذا يضيرهم في ذلك ؟ ألا يشكرون اللهَ عزوجل على هذه النعمة العظيمة، ألا يعتبرون بمــا يرونه في المجتمعات المختلطة المتبرجة، حيثُ ضاعت قوامةُ الرجل، وظهرَ الفساد، وهُتكت الأعراض، وأصبحت تلك البُلدان مقصدَ كلِّ فاجر، وملاذَ كلِّ طالبٍ للرذيلة .

إن زماننا اليومَ زمنَ العجائبِ، وإلا فعلامَ يشرقُ قومنا بالفضيلةِ والطُهر والعفاف .

ورابع الوقفات : أنَّ الأدلةَ الموجبة لستر وجه المرأة و كفيها عن الرجالِ الأجانب، ووجوب الابتعادِ عنهم، أدلةً كثيرةً وصحيحة وصريحة، ويُمكنُ الرجوعُ إليها في فتاوى ورسائلِ أهل العلم الراسخين ، ولكن يحسنُ أن نُشير إلى أنَّ علماء الأمةِ قديماً وحديثاً من أجازَ منهم كشف الوجه ومــن لم يجــزه، كلهُم مُتفقون ومُجمعون على وجوبِ سترِ وجه المرأةِ وكفيها، إذا وجدت الفتنةُ وقامت أســبابها ، فبربكم أيُّ فتنة هي أشدُّ من فتنةِ النساء في هذا الزمان؟!! حيثُ بلغت وسائلُ الفتنةِ والإغــراء بهــنَّ

مبلغاً لم يشهدهُ تاريخُ البشريةِ من قبل، وحيث تفنن شياطينُ الأنس في عرضِ المرأة بصورها المُثيرةِ في كلِّ شئ، في وسائلِ الأعلامِ المقروءةِ والمسموعة والمرئية، وأخرجوها من بيتها بوسائلِ الدعايةِ و المكرِ والخداع ، فمن قال بعد ذلك إنَّ كشف المرأة عن وجهها، أو شئٍ من جسدها لا يثيرُ الفتنةَ فهو والله مغالطٌ مكابر، لا يوافقهُ في ذلك من لهُ مسكةٌ من دينٍ أو عقلٍ أو مروءة .

وإذا تبين ذلك فلنعلم أيضاً أنَّ هذا القدر من الخلاف بين العلماء بقي خلافاً نظرياً إلى حدٍ بعيد، حيثُ ظلَّ احتجابُ النساءِ هو الأصلُ في الهيئةِ الاجتماعية، خلالَ مراحلِ التاريخِ الإسلامي، كما قال شيخ الإسلام : (كانت سنة المؤمنين في زمن النبيe أنَّ الحُرة تحتجب)

وقال الإمامُ الغزالي : ((لم يزل الرجالُ على مرِّ الزمان مكشوفي الوجوه، و النساءَ يخرجن متنقبات .))

أيَّها المسلمون :

إنَّ المتأملَ في حال المتبعين للشهواتِ اليوم، ليأخذهُ العجبُ و الحيرةُ من أمرهم ، فمالهم وللمرأةِ المُسلمة التي تقرُّ في مترلها، توفرُ السكنَ لزوجها، وترعى أولادها، ماذا عليهم لو تركوها في هذا الحصن الحصينِ تؤدي دورها الذي يُناسبُ أنوثتها و طبيعتها ، ماذا يُريدون من عملهم هذا، ثُمَّ ماذا عليهم لو تركوا أولاد المسلمين يتربون على الخيرِ والدين؟! والخصالَ الكريمة؟! ماذا يُريدون من إفسادهم وتسليط برامجَ الإفسادِ المختلفةِ عليهم؟! هل يُريدون جيلاً مُختلاً يكونُ وبالاً على مجتمعه، ذليلاً لأعدائه ، عبداً لشهواته، إنَّ هذه هي النتيجة، وإنَّ من يسعى لهذه النتيجةِ التي تتجهُ إليها الأُسرُ المسلمةِ اليوم لهوَ من أشدِّ الناس خيانةً لمجتمعهِ وأمتهِ وتاريخه ، وإنَّ من عندهُ أدنى مروءةٍ ونخوةٍ فضلاً عن الدين والأيمان، لا يسمحُ لنفسهِ أن يكونَ من هؤلاءِ الظالمين المفسدين.

ثُمَّ أنتم يا مسلمون يا صالحون، يا أهلَ الشرفِ و الحياءِ و المروءةِ، كونوا يقظينَ لما يطرحهُ الظالمون لأنفسهم و أمتهم، من كتاباتٍ وحواراتٍ مؤداها إلى سفورِ المرأة و اختلاطها بالرجال، فما دامت المدافعةُ بين المصلحين و المفسدين، فإنَّ الله عز وجل يقذفُ بالحقِّ على الباطلِ فإذا هو زاهق.

يا مسلمون :

ينبغي أن لا ننسى في خضمِ الردودِ على ما يكتبهُ المفسدون من الشُبهات والشهوات، ذلك السيلُ الهادرُ الذي يتدفقُ من وسائلِ الأعلامِ المسموعةِ و المرئية في بلاد المسلمين، وذلك بما تبثُّهُ من دعواتٍ للمرأةِ إلى السفور، ومزاحمةِ الرجال في الأعمالِوالطرقات، عبر القصةِ والمسلسل والبرامج الحوارية، والمقابلاتِ والبرامجِ الغنائية ، ولقد ضربت هذه الوسائلُ بأطنابها في بلادِ المسلمين، فكان لزاماً على كلِّ غيورٍ محاربتها وإبعادها عن بيتهِ قدر الاستطاعة .

يا مسلمون :

ربُّوا نساءَكم وبناتكم على حُبِّ الحجابِ والتعلقِ به منذُ الصغر، ومن وسائلِ ذلك تحصينهنَّ الحصانةَ الفكريةِ و الأخلاقية، بأن تعلمَ المرأةُ المسلمة أوضاعَ المرأةِ الغربية، والإسفاف النفسي الذي وصلت إليه، وتعتيم الغزو لأوضاعها، وأحياناً قلبُ مفاسدها وانحرافاتها إلى فضائلَ و تكريم.

إننا لا نُريدُ المرأةَ المتحجبةِ تقليداً وعادةً تشعرُ مع الحجابِ بالضيقِ والحرج ، وتتخلى عنهُ لأدنى شبهة أو شهوة.

نريدُ المرأةَ المسلمة التي ترى في الحجاب عزاً وشرفاً، وترى في الحياءِ سلوكاً وخلقاً، نريدُ المرأةَ التي تتحجبُ استسلاماً لله ، ورضاً بشريعتهِ، وخضوعاً لحكمه، وتتمثلُ قولَ الحقِّ: ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)) (الأحزاب: من الآية٣٦) .

لا نريدُ المرأةَ المتحجبةَ المتخلفة، فإنَّ الدعوةَ إلى فريضةِ الحجابِ والعودة إليه، لا بُدَّ أن تُواكبها دعوةَ القائمين بأمرِ المرأة، إلى أن يؤدوا لها فريضة تحرير عقلها من حُجبِ التضليل والجهل والتخلف، وتِلكم مسئوليتكم أيُّها الأولياء، فاتقوا الله، وقوا أنفسكم و أهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة.

أقولُ هذا القول .

الخطبة الثانية

فإنَّ دُعاة تغريرِ المرأةش وتدميرها، ما فتئُوا يستغلون الظروفَ و الأزمات، لبثِّ أفكارهم العفنة و الدعوة إليها، وهُم في دعواهم المتكررةِ لكشفِ المرأةِ وجهها، باعتبار ذلك خطوةً نحو تبرجها و سفورها، يعمُدون إلى وسائلَ متعددة، فتارةً من خلالِ الأفلام والمسلسلات،وتارةً من خلالِ الحفلاتِ و المهرجانات، وأُخرى من خلالِ الإعلاناتِ التجارية، و التي تُبرزُ الرجلَ حالقاً للحيته، و المرأةُ كاشفةً وجهها، باعتبارهم يُمثلون المجتمع السعودي،حتى يستمرئُ الناس ذلك و يألفونه .

وآخرُ خطواتهم في ذلك، دعواهم منذُ سنواتٍ عبرَ الكتاباتِ الصحفيةِ، لاستقلالِ المرأةِ ببطاقةٍ تحملُ صورتها، بحجةِ أنَّ ذلك يحمي حقوقها ، ويثبتُ شخصيتها، ويقضي على صورِ التزوير، حتى تحولت دعواهم إلى واقعٍ عملي، استرضي به حفنةً، واستغضبت به أمة.

ونحنُ إذ نُقدرُ للمسؤولين حرصهم على أمنِ البلدِ وحمايةِ حقوق ساكنيه، و نُثمنُ لهم خطواتهم لتحقيق ذلك، فإننا يجبُ أن نعلمَ أنَّ الله لم يجعل شفاءَ أمةِ محمدٍ فيما حرم عليها ، وإننا إذ نقفُ مع كلِّ خُطوةٍ تحققُ للبلد أمنهُ و استقراره، فإنَّهُ يجبُ أن نُدركَ أنَّ هُناك أمناً لا يمكنُ التفريط فيه، ألا وهو الأمن الأخلاقي .

إن أمتناعنا عن بطاقةِ المرأةِ ليس تحجراً و لا تعنتاً، و لا من بابِ المشقةِ، بل هو نظرٌ مصلحي، ومبنيٌّ على موازنةِ المصالح و المفاسد منها ، وسدَّ باب الذرائع قاعدةً شرعيةً متقررةٌ في القرآنِ والسنة، وعليها عملُ سلف الأمة ، و بنظرٍ مُتجردٌ من الأهواءِ و العواطف، والتأثيراتِ الإعلامية، سيُدركُ كلَّ صاحبَ عقلٍ أنَّ مفاسدها راجحةً على مصالحها، و إثمها أكبرُ من نفعها .

إنَّهُ نظراً لتعلقِ البطاقةِ بالمرأة، وهي عرضُ المسلم و شرفه، فإنَّ مثلَ هذهِ الأمورِ لابُدَّ أن تُقــدر فيهــا مشاعرُ الغيرةِ لدى الناس، وليس الميزانُ في ذلك رضى البعض بها ، بل النظر هنا لمن يُوقعون عن اللهِ، وهم الذين أمرَنا اللهُ بالرجوع إليهم، وهم علماؤُنا الإجلاء، والذين قرروا بالإجماعِ في جلسةٍ لهيئــةِ كبار العلماءِ أنَّ المصلحةَ الراجحةُ تقتضي بالمنعِ من ذلك ، وكذا بيانَ اللجنةِ الدائمةِ للإفتاء، والــتي عدت المُطالبة ببطاقةِ المرأةِ من الأفكارِ المضللةِ للمجتمع .

ولابد أن نعلم أيُّها المسلمون أموراً منها :

أولاً : أن بطاقة المرأةِ وفيها صورتها خطوةً نحو حصولها على رخصةِ قيادة، مما يفتحُ البــابَ لقيادتهــا للسيارة، وهو ما يطمحُ إليه دُعاة التغريب و الضلال .

ثانياً : أن مسوغات صرف البطاقةِ للمرأة غير مقنعة البتة، سواءً في دعوى حفظِ حقوقها وكرامتــها، أو رفع الظلمِ عنها من ذويها، وذلك لوجودِ بدائلَ متاحةً حالياً، وكافيةً لحفظِ حقوقِ المرأةِ المالية أو المعنوية ، والبطاقةُ لا تمنع الولي من ظلمهِ لزوجته أو ابنته أو أخته، والذي سيسلبها حقوقها، سيسلبها بطاقتها ، فأيُّ شيءٍ ستحققهُ البطاقة للمرأة ، ورقم سجلِّها المدني، يحققُ لهــا حقوقهــا المدنيــة، و سجلاتها المستقلة سواءً كانت سجلاتٌ أمنية، أو تجارية، أو إحصائية.

ثالثاً : تصويرُ المرأة لوجهها في بطاقةٍ يُشاهدها الرجالُ في المحــاكم، و الــدوائر والمطارات،ونقــاط التفتيش وفي الفنادق وغيرها، سيرفعُ الحاجزُ النفسي عند المرأة، وسيُجرئها على كشفِ وجههــا في كلِّ مكان، ومن هُنا تنشأ المفاسد، وتكثرُ المخالفات الأخلاقية .

رابعاً : مع ما في بطاقة المرأة من إضعافٍ لقوامةِ الرجل على أهله، حينما يصيرُ لدى المــرأةِ شــعورٌ بالاستقلالية، فإننا إذا سلمنا بأهميتها أمنياً، فما المبررُ لصورتها، رغم أنَّ الإثبات بالصورةِ من أســوءِ وسائل الإثبات، في زمنٍ تطورت فيه وسائلُ التزوير ، ومعلومٌ أنَّ الصورةَ تتغيرُ كــلَّ حــينٍ عنــد الرجال، فكيف بالمرأةِ التي تتغيرُ في اليومِ أكثر من مرة .

إذا سلمنا بالحاجةِ إلى البطاقة أمنياً، فإنَّ في وسائلِ الإثبات الحديثةِ من بصماتٍ وعدساتِ عينٍ ما يُغنى عن هذه الخطوةِ الخطيرة ، والتي تعتبرُ بدايةً لخلعِ الحجاب ، فلا تسأل عن انكسارِ عيونِ أهلِ الغيرة، وتقلصِ ظل الفضيلة، و انتشارِ الرذيلةِ وشيوعِ التبرج والسفور .

وإننا أيُّها المسلون لنتساءل : ماذا لو فقدت امرأةٌ بطاقتها و فيها صــورتها؟! فعثــرَ عليهــا أربــابُ الشهوات! فجعلوا منها وسيلةً للمساومةِ على عفافِ المرأةِ و شرفها ؟ .

وماذا لو عثرَ عليها المفسدون؟! فتفننوا في وضعها بأشكالٍ مُزريةٍ فاضحةٍ عبر شــبكةِ الإنترنــت؟! فهناك الفضائح و المخازي .

إنَّهُ يومَ أن تصورَ المرأةُ و تكشفُ وجهها ليراها كلُّ موظفٍ ومسؤول، حينها ترقبوا أن يكون حديثُ المجالس، ما أجملَ امرأةَ فلان!! وفلانٌ زوجتهُ ليست بذاك!! و حينها ارتقبوا خللاً أُسرياً، و تفككاً عائلياً، ومشاكل اجتماعيةٍ لا حصر لها .

وإنَّ لنا أن نتساءلَ و نسألَ أولئك الكُتاب والكاتبات، من المستغربين والمستغربات ، أدينُ اللهِ يبغون؟! وبشريعتهِ يرضون ؟ إذاً فقد قال العلماءُ كلمتهم، وأصدروا حُكمهم، فلماذا لم تأخذوا بحكمهم ؟ أم أنَّهم غيرَ دين الله يبغون؟! وبحكمِ الجاهلية يرضون ؟ إن كانوا يؤمنون بالديمقراطيةِ، وأنَّ الرأي للأغلبية، فإنَّ غالبَ رجالَ الأمة و نساءَها، لا يرضون مثل هذه الخطوة الخطيرة، فلماذا لم يؤخذُ رأيهم بالاعتبار ؟ وبأيِّ حديثٍ هؤلاءِ يؤمنون ؟ .

وإنَّ لنا أن نتساءل : المسؤولون يُريدون من البطاقةِ تحقيقُ مطلبٍ أمني ، ولكن أرباب الشهواتِ و دُعاةِ الضلالِ جعلوا منها وسيلةً للتشفي و التحدي، وإغاضةِ أهلِ الغيرة والصلاح، فهذا أحدهم يرسمُ في جريدةٍ صورةَ لبطاقة امرأةٍ وسماها، (إنسانة بنت الوطن) لأنَّها كانت قبل البطاقة في نظرهِ حيواناً لا قيمةَ لها، ولو كانت الصالحة القانتة، ويرسمُ معها رسماً لامرأة ترفعُ يديها بعلامات النصر، وكأنَّ المرأةَ قبل ذلك مقهورةً مظلومة .

وآخر يرسمُ رسماً يُعنونَ له (الخاسرون في بطاقة المرأة) ويرسمُ تحتهُ صوراً لأشخاصٍ أشكالهم قبيحة، وفي هيئةٍ مُقززة، وقد حفوا شواربهم، وتركوا لحاهم، وهُم ثلاثُ أصناف : المجرمون، النصَّابون ، والمزورون.

فياليت شعري : هل البطاقةُ مطلبٌ أمني، أم هدفٌ علماني ؟

و إنَّ لنا أن نتساءل: لماذا لا تظهرُ الخفافيشُ إلاَّ في الظلام ؟ لماذا لا تُصدرُ هذه الدعواتِ الآثمة، والتي تفرقُ الصف، وتشتتُ الشمل، وتوغرُ الصدور، إلاَّ زمن الأحداثِ والأزمات، حيثُ تشتدُّ الحاجةُ إلى وحدةِ الصف، واجتماع الكلمةِ، ووقوفَ الرعية مع رعاقما، ولكنهُ النفاق والمنافقون ((لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ)) (التوبة:٤٧) .

وأخيراً أيُّها المسلمون :

إنَّ من حقِّ ولاتنا علينا، ومن حق هذا الوطن، وإنَّ من مقتضياتِ الغيرةِ على دينِ الله، وعلى حُرمات المسلمين، أن نبينَّ للمسؤولينَ الخطر الماحق، الذي سينشأُ من هذه البطاقة، وأن نقفَ جمعياً في خندقِ الإصلاح، ضدَّ كلِّ دعوةٍ تستهدفُ هدمَ جدارنا الأخلاقي، وزعزعةَ ثوابتِ الأمة .

إننا نتطلعُ أيُّها المسلمون إلى أن تكون غيرتُكم جبلاً، تتحطمُ عليه كلَّ نصالِ دعاةِ الضلال، وأن لا تكونَ غيرتكم جداراً من ورق، ينهارُ عند أدنى طمعٍ دنيوي، أو شهوةٍ مادية . نحنُ لا نريدُ المجتمع

الذي يقتلُ الحسينَ ويسألُ عن دمِ البعوضة، لا نُريدُ الجيلَ الذي يأنفُ أفرادهُ من ذكرِ أسماءِ نسائهم في المجالس، و يسمحُون بصورهنَّ تتداولُ في كلِّ مكان .

قد قلتُ ما قلتُ نصحاً للهِ و لدينه ولأئمةِ المسلمين وعامتهم ، وغيرةً على هذا الوطن و أهله ، ومساهمةً في تحقيقِ المواطنةِ الحقيقية، وما أريدُ إلاَّ الإصلاحَ ما استطعت، وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكلتُ و إليه أنيب .

اللهمَّ احفظ بلادنا و أهلها، و دُعاها ورعاها، من كيدِ الكائدين، وحسدِ الحاسدين، ودعوات المفسدين

الإيجابيات في زمنِ التحولات والانتخابات

إنَّ الحمد لله، نحمدهُ ونستعينه ونستغفره ...

أخوة الإسلام :

من محسوساتِ العقلِ أنَّ الزمانَ يتغيرُ، ومن مُدركات الواقعِ أنَّ الحياةَ لا تدومُ على حال، ومن مُوجبات الشرعِ أنَّ الناسَ يُبتلون بالسراءِ والضراء، ويمتحنون بالشرِّ والخير ، وأنَّ الهداية على قدرِ المُجاهدة ، وإذا كنتم تُقصرون في واقعِ حياتكم تغيراً في كلِّ يوم بل وفي كل لحظ ، فثمة سرورٌ وأحزان ، وغنى وفقرٌ ، وصحةٌ وسقمٌ ، وخيرٌ وشرٌ ، ونصرٌ وهزيمة ، وأمواتٌ وأحياءٌ، ومحالٌ في هذهِ الحياة أن تستقيمَ للإنسان الظروفُ وأن تُخلد في نعيم، وأن يتلبس بصحةٍ إلى الأبد، فمحالٌ ذلك والله يقول : ((لقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي كَبَدٍ)) (البلد:٤) .

إن كان هذا شأن واقع الحياة فاسمعوا إلى نصوصِ الشرعِ في توصيف طبيعةِ الحياة، يقول ربنا ((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإلَينا تُرْجَعُونَ)) (الأنبياء:٣٥) .

((آلم،أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)) (العنكبوت :١- ٢)

((يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)) (النور:٤٤)

((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) (العنكبوت:٦٤)

إنَّ الناسَ قد يتساوون في إدراكِ هذهِ الحقيقة المتغيرةِ للحياة والأحياء، ولكنهم يتفاوتون في أسلوبِ التعامل معها ، واستخلاص الخيرِ منها، وجلبَ المنافع، ودفع الشرور ورفض المآثم ، والاجتهادَ في حُسن العمل ، والخلاص من تلكم هي قيمةُ الحياة ، والهدف من الوجود ((الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)) (الملك:٢)

والعبادةُ حين تكون الهدف من وجودنا ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) (الذريات:٥٦) .

فهذه العبادة أنماطٌ وأشكالٌ يمارسها العبدُ حين يُصلى، وحين يبيع ويشتري ، وحين يعملُ أو يتعامل ، وحين يتحدثُ أو يكتب ، ويحن يُجاهد أو يتصدق المسلمُ يُمارس العبادة في المسجد والمترل ، وفي الوظيفة والسوق، في السفرِ والحضر ، وفي حالِ الخلوةِ أو الاجتماع . والشهودُ حاضرون، والإحصاءُ دقيق ، وكتابُ ربي لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، والعبدُ ما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد.

عبادَ الله :

وثمةَ سؤالٍ مهمٌّ يقول : كيف يتعاملُ المسلمُ مع متغيرات الحياة؟ أن تكون لغة الرفض هي الحل ؟ أم يكون القبولُ المطلق والتسليم ؟ أم هناك موقف وسطٌ راشد؟ وإيجابية تأخذُ المصالح وتنميه وتدعمه . وترفضُ الطالح ويجاهدُ في مدافعته .

إنَّها الإيجابيةُ والمجاهدةُ والسعيُ للإصلاح والوقوفُ في وجهِ الفساد، تلك هي المرتبةُ العلية التي رُبما تقاصرت عنها هِممُ الكثيرين، ما بين مُستسلمٍ سلبي مفتون، وما بين رافضٍ قاعدٍ عن العمل ، يحسبُ أنَّ الرفض كافٍ لأداءِ الواجب،

لقد علّق سُبحانه الهدايةَ بالجهاد في قوله تعالى: ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)) (العنكبوت: من الآية٦٩) .

وعلّق عليها ابنُ القيم فقال : فأكملُ الناسِ هدايةً أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهادُ النفسِ، وجهادُ الهوى ، وجهادُ الشياطين، وجهادُ الدنيا ، فمن جاهد هذهِ الأربعة في الله هداه اللهُ سُبلَ رضاهُ الموصلةِ إلى جنته، ومن ترك الجهادَ فإنَّهُ بعيدٌ من الهدي بحسبِ ما عطّل من الجهاد (الفوائد / ٦٢) .

وإذا تجاوزنا فئةَ المفتونين المستقبلين لكل سوء، ولعلهم في مُجتمعنا قليل ، فالأكثريةُ هم من يرفضون الشرَّ والفساد، ولكنَّهم يتفاوتون بين رافضٍ سلبي لا يملك إلاَّ الرفضَ، وبين رفضٍ إيجابي يُفكِّرُ في المخارج، ويبحثُ عن الحلول، ويتلمسُ سبُلَ الخلاصِ ليُنجي نفسهُ ومجتمعهُ من كلِّ فتنةٍ وافدة، ذاك هو المعول، وهذا الصنفُ هم الأقلون ولكنَّهم المباركون، فأينَ نحنُ منهم ؟

إنَّ نفراً من الناس يشغلون أنفسهم بالتُّهم للأشخاص، والإسقاطِ لكلِّ فكرةٍ واردة ، والشغبِ على كلِّ جديدٍ لم يألفوه، والرفضِ لكِ مستحدث – وإن كان فيه نفعٌ وخيرٌ– وهذه المواقفُ المــز حيــةِ للفراغ ، والمُفرَّغة للطاقة دون جدوى، ينبغي أن تكون شعاراً للأخيار، ولا دثاراً للمصلحين .

إنَّها سهلةَ التناولِ، بسيطةَ التكاليف ، ولكهنَّا ضعيفةُ الأثر، محدودةَ النتائج .

أمَّا الإيجابيةَ الدافعةِ إلى خوضِ غمارِ المعركةِ بسلاحِ العلم والإيمان واليقين. والمشتملةِ على برامجَ ومشاريعَ نافعةٍ، فتلك التي دُونها خرقُ القتاد .

أيَّها الناس :

مجتمعنا – كغيرِهِ من المجتمعات – ينفتحُ ولكن كيفَ تكونُ الإيجابيةُ في ترشيدِ الانفتاح، ومجتمعنـــا – كغيره – يمرُّ بتحولاتٍ سريعة، فكيف نُساهمُ في ضبطِ زمامِ هذه التحولات ؟

ومجتمعنا – كأيِّ مجتمعٍ – تتزاحمُ فيه الفرصُ، فمن يُبادرُ إليها ويسبقُ إلى استثمارها ؟

عبادَ الله :

حديثُ الناسِ في هذهِ الأيام – الانتخاباتُ البلدية – وتساؤلاتُهم، هل يُسجلون ومن يُرشحون؟ ومن ينتخبون ؟ .

وهذه التجربةُ التي تمرُّ بها بلادُنا ينبغي أن تُستثمرَ لصالحِ البلادِ والعباد ، وأن يتطَّلعَ الناسُ إلى الهـــدفِ الأسمى منها، ولا ينشغلون بشكلياتٍ ومظاهرَ بسيطةٍ بصورهَا المعاصرة .

الانتخاباتَ البلدية بصورهَا المعاصرةِ، تجربةً وافدةً، يُمكنُ الاستفادةُ منها بعد تهذيبها وتخليتها ممَّا علقَ بها من بيئتها، ومحضنِ تجربتها ، فلا غِشَّ ولا تزوير، ولا كذبَ ولا مُخادعة، ولا تعدٍ على حقـــوقِ الآخرين، أو محاولةٍ لإسقاطِ الأكفاءِ المنافسين .

الانتخاباتَ البلديةِ ليست استعراضاً عشائرياً، أو تسابقاً قبلياً، ولكنَّها اختيارٌ للأمثلِ وإن كان الأبعد .

الانتخاباتِ البلديةِ شعورٌ بالمسؤولية المستقبلية، وسعيٌّ صادقٌ لتحقيقِ أعلى قدرٍ ممكنٍ من احتياجات المواطن ، ورعايةَ مصالحهِ، وتأمينَ حقوقهِ، وليست مجرد ظهورٍ إعلامي ، أو منصبٍ استشـــرافي ، أو إثباتٍ للذات ليس إلاَّ ؟ .

قبل أن تُسجِّل سل نفسك لماذا تُسجل؟ ومن سترشح؟ ما مقدارُ تَمثُّلك الأمانةَ والتزامَك بالصدق ، إنَّها نوعٌ من التزكيةِ، فمن تُزكي؟ وهي نوعٌ من الشهادةِ، فعلى ما تشهد ؟ .

لقد كان للمسلمين سبقٌ في الشورى ، مارسوهُ في عصورهم الزاهية، فضربوا أروعَ الأمثلةِ في تحقيقهِ، ورسولُ الهُدى(صلى الله عليه وسلم) وقائدُ الأمةِ رُبما تنازلَ عن رأيهِ نزولاً عند رأي الأكثريةِ مـــن المسلمين، ما لم يكن في ذلك نصاً أو مأثماً .

ومارس المسلمون بعدهُ – صلى الله عليه وسلم– المشورةَ واختيارَ الأمثـــل للمســـلمين في ولايتـــهمُ الكُبرى والصغرى، فضربوا في ذلك أروعَ الأمثلةِ في الصدقِ والتحري، واختيار الأكفـــاء ، وكـــان مرشحُوهم عند حُسنِ الظنِ صدقاً وعملاً وإخلاصاً، ومارس المسلمون (الاقتراع) ، فكانوا مِثالاً في الإيثارِ والبذل، وشهدَ القرآنُ أنَّهم يُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لم يكـــن هـــذا في سِلمهم فحسب، بل وفي حربهم كانوا نماذجَ للإيثار، فشربةُ الماءِ للجريحِ النازف، رُبَّما دارت علــى أكثر من مجاهدٍ قعدت به الجراحُ عن مواصلةِ الجهاد ، فظلَّ هؤلاءِ الجرحى يتدافعون هـــذه الشـــربةِ، ويُؤثرون بها غيرهم، حتى استشهدوا جميعاً و لم يشربها أحدٌ منهم

إنَّهُ البُعد عن الشُّحِ والانعتاقِ من الأنانيةِ، تتجلى في أسمى معانيها ، فتتعانق مرتبةُ الجهادِ في سبيل الله مع خُلق الإيثارِ النبيل، ولو كان بأصحابهِ خصاصة .

تُرى كم يدركُ المسلمون ما في دينهم من سُموِّ الأخلاق، وكريمِ السجايا؟ وكم يبحثون في تـــاريخهم ليروا نماذج من الشرِّ كانت أجسادهم جسوراً عبرَ عليها الإسلامُ إلى أممِ الأرض، وكانت في مـــوتهم حياةٌ للآخرين، وكان جهادُهم عدلاً وحريةٌ للمظلومين !

((مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَــدَّلُوا تَبْدِيلاً)) (الأحزاب:٢٣) .

الخطبة الثانية

أيَّها المسلمون :

مؤهلاتُ الترشيحِ لأيِّ مسؤوليةٍ كثيرةٍ ومتكاملة ، وعلى قدرِ كبرِ هذه المسئوليةِ تزيدُ هذه المؤهلاتُ، وإذا كانت المُصداقيةُ والتقوى والصلاحُ، والنزاهةُ مؤشراتٍ مهمةٍ للترشيح، فلا بُدَّ أن يُضاف إليهـــا القوةُ والسياسة والحكمة، والمعرفةُ والعلمُ بمتطلبات هذه المسؤولية، ويُرشدُنا كتابُ ربنا إلى شيءٍ من هذا ، فيوسفُ – وهو نبيُّ اللهِ حين تقدمَ لولايةِ خزائنِ الأرض، قدَّمَ بالقول ((إِنِّي حَفِــيظٌ عَلِــيمٌ)) (يوسف: من الآية٥٥) ومارسَ فيما بعد سياسةَ الاقتصادِ بنجاحٍ واقتدار ، ومن مشورتهِ ((حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ)) (يوسف: من الآية٤٧) .

وثَمَّةَ توجيهٌ قرآنيٌّ إلى أهمِّ عناصرِ التولية والاستئجار، ((إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْــتَأْجَرْتَ الْقَــوِيُّ الْــأَمِين)) (القصص: من الآية٢٦)

وفي مخزونِ السُنةِ والسيرةِ النبوية، توجيهٌ وإرشادٌ وتقديرٌ للمواهب والقــدرات ، ووضــعٌ للرجــلِ المناسبِ في المكانِ المناسب ، فأبو ذرٍّ -رضي الله عنه- نصحهُ النبي- صلى الله عليه وسلم- ألاَّ يتولى المسؤوليةَ حين قال يا رسول الله: ألا تستعملني ؟ فضربَ رسول الله على منكبِ أبي ذر،((وقال : يا أبا ذر، إنَّكَ ضعيفٌ وإنَّها أمانة ، وإنَّها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامة، إلاَّ من أخذها بحقِها، وأدَّى الـــذي عليه فيها)) (رواه مسلم ح ١٨٢٥) فهذا أبو ذرٍ لا يُضيرُه ألاَّ يوليهِ رسول الله – صلى الله عليـــه وسلم- لمسؤولية، وإن كان أصدقُ الناسِ لهجةً ، واعظهم زُهداً، فما هو ضعفُ أبي ذر ؟ قال الذهبي في تفسيرِ ضعفِ أبي ذر: فهذا محمولٌ على ضعفِ الرأي ، فإنَّهُ لو وُلِّيَ مالَ يتيمٍ لأنفقهُ كلّهُ في سبيلِ الخيرِ ولترك الفقيرَ فقيراً، والذي يتأمرُ على الناسِ يُريدُ أن يكونَ فيه حلمٌ ومداراةٌ ، وأبو ذرٍ- رضي الله عنه- كانت فيه حِدَّة ، فنصحهُ النبي-صلى الله عليه وسلم-(ألاَّ يتولى أمــرَ النـــاسِ) (الســـير ٧٥/٢) .

وإذا كان هذا توجيهُ النبي- صلى الله عليه وسلم- لواحدٍ من أصحابهِ النُجباءَ والسابقين إلى الإسلام

.

فقد وجَّهَ أحدَ أصحابهِ - وهو بعدُ حديثُ عهدٍ بالإسلام - إلى أن يقودَ سريةً فيها من أمثالِ أبي بكرٍ وعُمر، وأبي عبيد ةَ وأمثالهم- رضي الله عنهم- أجل، لقد أمرَ رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- عمرو بن العاص- رضي الله عنه- على سريةِ ذاتِ السلاسل، في السنةِ الثامنةِ للهجرة ، ولم يجد الرسولُ- صلى الله عليه وسلم- ولا صحابته في أنفسهم شيئاً لتأميرِ المفضولِ مع وجود الفاضل ،إنَّها القدراتُ تُستثمر، والرجلُ المُناسبُ يُوضعُ في المكانِ المناسب، ولا يعني ذلك بحالٍ الأفضليةِ المطلقةِ للأميرِ ولمن وُلي ، ولا التقليلُ من شأنِ المأمورِ ومن وَلِيَ عليه، ما لنفقهَ هذه المعالمَ النبويةِ في ولايةٍ، والتعاملُ مع القدارت .

إنَّهُ صلاح الذات ليس مؤهلاً - وحدهُ - لتولي أمورِ الناسِ كما أنَّ صاحبَ المطامعِ الشخصية ، وضعيفَ الأمانة ، ورقيقَ الديانة لا يُولَّى ولو كان خبيراً بالسياسة ، قادراً على القيادة ، ومن هُنا نعودُ إلى القرآنِ لنجد فيه شرطين مهمين لمن يُولي ويُستأجر ((إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)) (القصص: من الآية٢٦) فالقوةُ والأمانةُ جناحانِ يطيرُ بهما من رُشِّح لولايةٍ في الإسلام إلى برّ الأمان، ومراقِ العزةِ والكرامة ، وتحقيقِ العدل والسعادة ، وفي مجتمعٍ كمجتمعنا الأصلُ فيه الخير ، والغالبيةُ همُ الأخيارُ لدينا، فُسحةٌ في اختيارِ الأمثلِ من الأخيار.

يا أيَّها المُشرحُ لنفسك :

أعقل هذه الوصايا ، وقدِّر هذه الأمانة ، واعلم أنك مسؤولٌ ومُستأمن ، ولا يغب عن بالك أنَّ ثقةَ الناسِ بك لا تكونُ بنصبِ الخيام الفارهة، ولا باستئجارِ القصورِ الفخمةِ ، ولا بتوفيرِ الموائدِ المتنوعة، كلاَّ .

إنَّ الواثقَ من نفسهِ لا يحتاجُ لمثلِ هذا، قدر ما يحتاجُ إلى تفكيرٍ مستديمٍ في شُغل هذه المسؤوليةِ بما ينفعُ البلاد والعباد ، ولا يُطلبُ من المرشحِ وعودٌ كلامية، وبرامجٌ مثالية، تتطايرُ كالهباءِ عند أوَّلِ وهلةٍ من محطاتِ الطريق !

إنَّ الواقعيةَ مطلبٌ ، والمصداقيةُ شرطٌ للمرشح ، ولا بُدَّ أن يكونَ المرشحُ عند حُسن ظن من رشحوهُ بتنفيذِ ما وعد به ، حتى يعلمَ الناسُ ما أنجزَ وحدودَ صلاحياته ، وما لم يُنجز، وهي من صلاحيات غيره .

أيَّها السادةُ المرشحون :

تجاوزوا في ترشيحاتكم حدودَ العشيرةِ، ودائر القبلية ، والأهواءَ الشخصية ، وضعوا الأمانةَ في موقعها ، واختاروا الأكفاءَ الناصحين، الأقوياءَ الأُمناء ، ألا وإنَّ الترشيحاتِ لوحةٌ كاشفةٌ لتوجهاتِ المجتمع ، ومؤشرٌ لوعيهم ، ومحددةٌ لنوع ثقافتهم، فليكنِ المرشحون من خيارِ الناس عدلاً وحكمةً ودرايةً ، إنَّ وضعَ الرجل المناسبُ في المكانِ المناسبِ هو عينُ الحكمةِ، ومن الظُلمِ أن نضعَ الرجلَ في غيرِ موضعه ، واللهُ كما قسَّم أرزاقَ الناسِ وأخلاقهم، قسَّم كذلك قدراتهم ومواهبهم .

عباد الله :

ومرةً أُخرى، بلادنا تمرُ بمرحلةٍ انتقاليةٍ، فلنكن إيجابيين وفاعلين ، ولتكن قدرتَنا على اســتثمارِ هــذه التجربةِ الانتخابية، لوحةً كاشفةً لعظمةِ إسلامنا ، وموقعِ بلادنا وما يتطلعُ إليه المسؤولون منَّا ، ومــا تتطلعُ إليه أبناءَ مجتمعنا ، وفَّقَ اللهُ الجميعَ لما يحبُ ويرضى، وسدد الخُطى ، وبــاركَ اللهُ في جهــودِ المُخلصين ، وأعانَ ووفق من أضمرَ الخيرَ للإسلام والمسلمين

الغيرة على دين الله

الحمد لله ذي الكرمِ والجود ، أحمدهُ وأشكره، وأعبدهُ وهو خيرُ معبود ، وأشــهدُ أن لا إلــه إلاّ الله وحدهُ لا شريك له، إنَّهُ هو الغفورُ الودود ، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسوله خيرُ من صلى وصــام، وجاهدَ واستقام، وأوفى بالعقودِ- صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، من القائمين والصائمين، والركع السجود وسلم تسليماً.

أمَّا بعد.

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَــهُ أَذِلَّــةٍ عَلَــى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) (المائدة:٥٤) .

بعيداً عن جوِّ هذا الزمان القاتم بغبارِ الالتزام الأجوف ، والمشوه بغترِ السلبية المُفرطــة ، والمظهريــةِ الجوفاء ، نحلقُ في فضاءِ الجيل السالف المعطر بورودِ الإيجابية ، ونتفيؤ ظلالَ شجرةِ البذلِ والعطــاء، والتضحيةِ والفداء .

نعودُ بذكرياتنا إلى الصورِ الرائعة، لسلفِ هذه الأمة، حيث يتجلى الإيمانُ الحقُّ، وتبرزُ حقيقة الهمِّ لهذا الدين .

تنقلنا الذاكرةُ إلى سوق بني قينقاع، حيثُ يعتدي يهودي على امرأةٍ مسلمة، ويكشفُ عورتها، فتثورُ ثائرة مسلمٍ ويأبى الدنية في دينهِ، وينهضُ بكلِّ عزةٍ وإباء، ويقتلُ ذلك اليهودي رغمَ أنَّهُ بــين أهلــهِ وقومه .

إلى موقفِ شابٍ لم تمنعهُ حداثةُ عهدهِ بالزواجِ، من الاستجابةِ لداعي الجهاد، فيخرجُ من زوجهِ وهو جنب ليلقى ربه شهيداً في أحد، فيحظى بتغسيلِ ملائكةِ الرحمة، ويُلقبُ بغسيلِ الملائكة، إنَّهُ حنظلــةَ بن أبي عامر .

إلى موقف امرأةٍ مسلمةٍ تُشاهد استعدادات المسلمين، وبذلهم لتجهيزِ جــيشِ المســلمين في إحــدى المعارك، فلا تجدُ ما تُساهم به إلاَّ أن تقص شعرها، وتجعل منهُ ظفائرَ لخيلِ قائد جيش المســلمين، إلى مجموعةٍ من صحابة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- دفعهم الحماسُ للدين إلى أن يأتوا رسول الله-

صلى الله عليه وسلم- يسألونهُ أن يحملهم للجهاد ، ولَمَّا لم يجد ما يحملهم عليه، تولوا وأعينهم تفيضُ من الدمعِ حُزناً ألا يجدوا ما يُنفقون، إلى موقف عُمير ابن أبي وقاص وهو شابٌ لما يبلغ الحُلم، يختفي في أحدَ المعاركِ خلف الرجال، حتى لا يراهُ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيرده ، ولما رأه- عليه الصلاة والسلام- وردَّهُ جعل يبكي، فأشفق عليه المصطفى- صلى الله عليه وسلم- وأذن له بالجهاد، فعقد لهُ أخوهُ سعد حمائلَ سيفهِ، فجعلت تخط في الأرض .

إلى عبد الله بن حذافة السهمي، وهو مأسوراً عند الروم، فيجوعُ ويعرضُ عليه الخمر ولحم الختريــر، فيأبى ويقول : أما إنِّي أعلمُ أنَّها قد حلت لي بالضرورة، ولكن كرهتُ أن أشمتكم بالإسلام .

إلى وإلى ما لا يحصر، والصورُ المثاليةِ التي تذكر فيهتزُ لها القلبُ طرباً وشوقاً إلى أمثالها .

إنَّ موقفَ هذا وذاك، وتلك وأولئك، ينطلقُ من شعورٍ واحد، هو الغيرة على هذه الدين، والإحساسُ بالمسؤولية، والحميَّة للمبادئ التي آمنوا بها.

إنَّ الغيرةَ على دينِ الله وحُرما ته، من صفاتِ المؤمنين الأعزاء، فهي من مقتضياتِ الإيمــان، تقــوى بقوته وتضعفُ بضعفه ، وتفقدُ الغيرة حيثُ لا يكون القلبُ مؤمناً، وفي الحديث : ((المــؤمنُ يغــارُ واللهُ أشدُّ غيرة)) .

الغيرةُ هي التألُمُ والغضبُ على حقٍّ يُهانُ ويُقهرُ، أو باطلٌ يحمى وينصرُ، وينــتجُ عــن هــذا التــألم والغضب، مساندة الحقِّ ومقاومةَ الباطل ودحره .

يا مسلمون :

إنَّ من الغيرةِ على دينِ اللهِ الوقوفُ مع الحقِّ، ومناصرة أهل الحقِّ والخير، ومناورة الباطل، ومقاومــةُ المبطلين والمفسدين، مهما كانوا ولو كانوا أولى قربى .

الغيرةُ على دينِ الله تتمثلُ فيمن ينظرُ إلى الدليلِ ويصدعُ بالحقِّ ولو كره المنافقون .

الغيرةُ على دينِ الله تكون بالمساهمةِ في نشره، والدعوة إليه، والجهاد في سبيلهِ بالنفسِ أو بالمال .

إنَّ الغيرةَ على دينِ اللهِ تشجيعُ كل مجالاتِ الخيرِ وسبل الدعوة ، فحضور المحاضــرات ، والــدعوةُ وإحياءِ الدروس العلمية ، ونشر الكتاب والشريط الإسلامي ، والكتابة في الصحف والمجلات دفاعــاً عن الإسلام ومبادئه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل هذا يُعدُّ صورةً من صورِ الغيرةِ علــى دين الله ، وبهذه الخطوات تُقمعُ راية النفاق، وتؤد خطوات التغريب .

الاعتزازُ بالدين، والافتخارُ بالانتساب إليه، والتمسكُ بشعائرِهِ الظاهرة والباطنة ، والتفاعلُ مع قضايا المسلمين ، كلُّ ذلك مظهرٌ من مظاهر الغيرة .

إنَّ من الغيرةِ على دينِ الله، مُناصرةُ المسلمين وقضاياهم، والتألم لآلامهم والفرحُ بآمالهم، ولقد كــان التحامُ المسلمين، ونصرة كل منهم لأخيه مثالاً فريداً في تاريخ التلاحم والتواصل والتنا صر، ســواءً على مستوى الأمة أو الأفراد ، ولن ينتصرَ المسلمون إلاَّ إذا تحقق فيهم بعد صفاءَ العقيــدة، حــبُّ

المسلم لأخيه ما يُحبُ لنفسه ، وشعوره بآلام أخيهِ كشعورهِ بما يصيبهُ هو، وحبُّ نصرته كما يُحبُّ أن ينصره هو، والله ينصر من ينصره وهو القوي العزيز، وإذا كانت أوضح صورِ النُصرة هي الجهادُ بالنفسِ في سبيل الله، فإنَّهُ ومع وجود المعوقات في طريقه ، حيثُ أصيبت الأمةُ بالوهن ؛ حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت ، فمع ذلك فإنَّ صور النُصرةِ للمسلمين كثيرة .

فالذبُ عن عرضِ المسلم وسُمعتهِ، والرد على أهل الباطل الذين يُريدون خدش كرامة المسلمين ، والدعاءَ للمسلمين في ظهر الغيب ، وتتبع أخبارهم، والوقوفُ على أحوالهم، كلُّ هذه تحققُ للإنسان معنى النُصرةِ وتجعلهُ عضواً عاملاً صالحاً في كيانه الإسلامي .

وفي وقتٍ يتكالبُ أعداءُ الله على المسلمين، يغزوهم في عقرِ دارهم، ولا يجدُ هؤلاءِ المسلمون ما يدفعون به عن أنفسهم وأعراضهم وأحوالهم وأوطانهم ، وقذائفُ الأعداءِ تُمزقُ لحومهم وتهشمُ عظامهم، وتقطعُ أجسامهم، في هذا الوقت يتأكدُ الجهادُ بالمال غيرةً على دين الله، ومُناصرةً للمستضعفين من المسلمين .

يا مسلمون :

إنَّ ضعفَ الغيرة على الدين أو فقدها، نقيصةً تنزل بصاحبها إلى الحضيض .

ألا وإنَّ من علامات فقدِ الغيرةِ، الهمُّ والحزن لعلو الحقِّ، والمسرةُ لانخفاضهِ والشماتة بالمنكوبين من المسلمين، والتوجعُ لفواتِ الباطلِ والفرح بحصوله أو إدراكه .

ومن علاماتِ فقد الغيرةِ الانقباضُ عند ذكر الصالحين وأحوالهم، ما لا يستأنس لولاة الكافرين والثناء عليهم ،

إنَّ المسلم الغيور هو الذي لا يُغريه طمعٌ، ولا تخيفهُ رهبةٌ عن قول الحقِّ، فيدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وينكرُ المنكر بحماسٍ منضبط بضوابط الشرع.

إنَّ الغيرةَ على دينِ الله يجب أن تكون هاجسُ كل واحدٍ منا ، وهماً في عروق كل مسلم صغيراً كان أم كبيراً ، ذكراً كان أم أنثى، عالماً أو جاهلاً ، صالحاً أو فاسقاً ، فلا يصحُّ أن تكون الذنوبُ والخطايا حاجزاً وهمياً بين العبد وبين العمل الإيجابي لهذه الدين، نريدُ أن يكون همَّ هذا الدين يلاحقُ المرأةَ في بيتها، والرجلُ في متجره، والمعلمُ في فصله ، والطالبُ مع زملائه، والموظف في دائرته ، بل ويحملهُ الشاب على الرصيفِ وفي مدرجاتِ الملاعب ، فلم تكن الخطيئةُ يوماً مهما عظمت حائلاً بين المسلمِ وبين أن يُساهم في نُصرةِ هذا الدين، فقد ذهب بعضُ الصحابة إلى غزوة أُحد بعد ليلةً من شرب الخمر كما في البخاري ، اصطبح أناسٌ الخمر يوم أُحد ثُمَّ قُتلوا شهداء .

وفي قصة أبي محجن الثقفي لنا عبرةً وعظة، فقد كان يشرب الخمر ، وفي القادسيةِ شربها، فعاقبهُ سعدٌ بأن حرمَه من القتال، وكبلهُ بالقيود ، ولما اشتدَّ القتال وحميَّ الوطيس وانكشف المسلمون، أخذت

أبا محجن الغيرةَ للدين والحميةَ لأهله، فطلب من زوجةِ سعدٍ أن تفكَّ قيده، وأن تعطيه خيـــلَ ســـعدٍ على أن يعود بعد المعركة إلى قيده، وتوسل إليها قائلاً

كفى حزناً أن تلتقي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وغلقت مصادر مع دوني قد تصم المنادي

ارمني سلاحي لا أبا لك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

ولله عهدٌ لا أبخس بعهده لئن أفرجت ألاَّ ازور الحوانيا

فرحمتهُ امرأة سعد، وأعطتهُ الخيل، فشقَّ الصفوف وأثخن في الأعداء، وأبلى بلاءً حسنا .

إن أقوى الناس ديناً أعظمهم غيرةً على حُرمات الله وحدوده ، فمحبُّ الله ورسوله يغارُ لله ورســـوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبهُ من الغيرة لله ورسولهِ، فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنَّهُ مـــن المحبين ، فكيف يصحُّ لعبدٍ أن يدعي محبةَ الله وهو لا يغارُ لمحاره إذا انتهكت، ولا لحقوقه إذا ضيعت .

أخي المسلم إن مما يقوي الغيرة في قلبك، أن تستشعر المسؤولية وجسامتها، وأن تُقدرَ الخطر الـــداهم على أمتك، وتستشعر استمرارية دُعاة الباطل في إشاعة باطلهم، (()يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُـــوا نُـــورَ اللَّـــهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)) (التوبة:٣٢).

((وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)) (صّ:٦) .

((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْـــرَةً ثُـــمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)) (لأنفال:٣٦).

أو لم تسمع عن مُنصرين يمكثون سنوات في الصحاري القاحلة، والمناطق الآسنة، دون انتظار أجـــر دنيوي، وإنَّما نُصرةً لباطلهم ونشر الضلالة .

فما بالنا معشرَ المسلمين يجلسُ الواحدُ منا شبعان متكأً على أريكته، إذا طلب من نصرةِ دينهِ الحق، أو كُلف بأبسط المهام، أو عُوتب لاستغراقهِ في اللهو والترفيه انطلق كالسهم مردداً، ((يا حنظلةَ ساعةً وساعة)) هذا إذا سلمَ من قدحِ العاملين، ولمزِ المجاهدين، وتثبيطِ همم الباذلين.

تبلدَ في الناس حسن الكفاح وقالوا الكسب والعيش رتيب

بكاءٌ يزعزع من همتي سدود الأمين وعزم المريب

ألا فليستثر الشعور بالاستحياءِ من الله عز وجل في قلوبنا، حين نرى من الإخلاص لهـــم عنـــد الله ، يُكرمون ويضحون لنصرة باطلهم، ويوفون مع إمامهم إبليس بالعهد الذي قطعه على نفسه، فبعزتك لأغوينهم، في حين يتباطأ كثيرٌ من المسلمين عن نصرةِ دينهِ الحقِّ، مع أنهم عاهدوا على الانقياد لشرعه ((وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِـــيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) (المائدة:٧) أقول هذا القول .

الخطبة الثانية

أما بعد .

فإننا إذ نتحدثُ عن الغيرةِ على دين الله، وننظر بعين الأسى والحزن لواقع الأمة، فإننا ننظـرُ بـالعين الأُخرى إلى ما يجري في عراق العزِّ والإباء، فعن أيِّ شيءٍ نتحدث .

هل نتحدثُ عن عيدهم عيدنا ، عيدهم نارٌ ودمار ، ودماءٌ وأشلاء، عيدهم جروحٌ غائرة ، ونفـوسٌ ثائرة ، عيدهم أطفالٌ يتامى ونساءٌ أيامى ، وشيوخٌ ثكالى ، عيدهم مساجدُ تهدم ، وجراحٌ تـترف، وحثثٌ ملقاةٌ في الشوارع ، وعدوٌ صليبيٌّ يسومهم سُوءَ العذاب، هذا عيدهم ، أما عيـدنا ،فغنـاءٌ وطرب ، ولهوٌ ولعب ، رجالٌ يختلطون بالنساءِ وشبابٌ يرقصون، عيدنا فنان يغني على ساحلِ البحر، في ليلةِ الجمعة فغباء؟ تسمعه حتى النساء

أهنئكم وعينُ القلب تجري على أحبابنا في الرافدين

وأشجبُ صمتكم وأقولُ إني براءٌ من عميل أو خؤون

ففي أعيادكم لعبٌ وحلوى وألوانُ المعازفِ والمجون

وفي فلوجةِ الأبطالِ قتلٌ وحربٌ للصليب تجاهَ ديني

هل نتحدثُ يا مسلمون عن الحضارة الغربية المزيفة، والمدنيةِ الغربيـة الكاذبـة، والـتي يُمجـدها المستغربون، ويغني لها المنهزمون ، والتي ظهرت معالُمها على أرض العراق ، هدماً للبيوت على العزَّل، وإجهازاً على الجرحى، وتخريباً للمُدن وإهلاكاً للحرث والنسل، وتترساً بالأطفال الأبرياء، وانتهاكاً لحُرمات المساجد، وتمزيقاً للمصاحف، وإهداراً لكرامةِ الإنسان، هذه هي حضارتهم، وتلك حريتـهم التي جاءوا يبشرون بها، فيا ليت المنافقين يعقلون .

هل نتحدثُ يا مسلمون عن الأسودِ المزمجرة، والصواعقِ المدمرة ، عن الرجالِ حقاً والأبطال صـدقاً، والذين رسموا بدمائهم وصمودهم أجملَ لوحاتِ العزِّ والشرف، في زمنِ الضعف والـوهن، والـذين مرغوا وجهَ الصليبية، وأرغموا أنوف الحاقدين وأثبتوا للعالم أنَّ القوةَ قُوة الحقِّ، وأنَّ النصرَ مع الصبر، وأنَّ في أمةِ الإسلام ((مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)) (الأحزاب: من الآية٢٣) ، لا يلتفتون إلى الوراءِ، ولا ترهبهم قوةُ الأعداء ولا تثبطهم أقاويل المرجفة،

إنَّ ما يجري يا مسلمون على أرضِ العراق إنَّما هو نصرٌ وعز، ولو قُتل من قُتل، وجُرح مـن جُـرح وأُسر من أسر، ولو سقطت مدنٌ، وخربت بيوتٌ، ليس النصر في ميزان الإسلام مدينة تفتح، أو بلدة تسرق، وإنَّما هو انتصارُ القيمِ والمبادئ، وارتفاعُ رايةَ الحقِّ .

إنَ الناسَ يُقصرون معنى النصر على صورةٍ معينة، معهودةٍ لهم قريبةَ الرؤيةِ لأعينهم ، ولكـن صـورُ النصر شتى، وقد يتلبس بعضها بصورة الهزيمةِ عند النظرة القصيرة .

إنَّ وعدَ اللهِ قاطعٌ جازم ((إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا)) (غافر: من الآية٥١) .

بينما يُشاهدُ الناس أنَّ الرسلَ منهم من يُقتل ومنهم من يُهاجر من أرضهِ وقومهِ مكذباً مطروداً ، وأنَّ المؤمنين منهم من يسام العذاب، ومنهم من يُلقى في الأخدود ، ومنهم من يُستشهد، ومنهم من يعيشُ في كربٍ وشدةٍ واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ إنَّ الناسَ يعيشون بظواهرِ الأمورِ، وبفترةٍ قصيرةٍ من الزمان، وحيزٍ محدودٍ من المكان ، وإنما النصرُ أوسع وأشمل ، وكم من شهيدٍ ما كان يملكُ أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها يوم استشهاده، وإنَّ أعظمَ أنواع النصر : النصرُ على الذات والشهوات ، والسيطرةُ على الأهواءِ والمغريات، إنَّ معركة الإسلام مع الصليبيةِ لا تتوقفُ عند حدِّ فتح مدينة، والسيطرة على موقع ، ولكنَّها حربٌ طويلة الأمد .

فنهايتها تحقيقُ الغاية التي ذكر الله، ((قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)) (التوبة: من الآية٢٩) وحتى تصل الأمة إلى هذه الغاية، فلا بُدَّ من تضحياتٍ وبذل، وإنَّ كلَّ نقطة دمٍ من نفسٍ مسلمةٍ زكية لن تضيعَ عند الله سُد ى، ولن تذهب هدراً ، وإنَّما هي خطوةٌ لطريقِ النصر، ووقودٌ لنارِ العزة، ومنارات لمعالمِ القبلةِ والفتحِ المبين، فتحُ مكة لم يكن وليد تخطيط شهرٍ أو سنةٍ، لكن نتاجَ كفاحٍ دامٍ ثلاثةَ عشر عاماً في مكة ، وهو ثمنُ دماءٍ أُريقت في بدرٍ وأحد، وجزاء نفوسٍ أُزهقت فداءً لدين الله .

فتحُ مكة لم يأت بارداً جاهزاً ، لكنهُ أتى تتويجاً لدم زكي، قد خرج من عقبي النبي- صلى الله عليه وسلم- وثمناً للبلاءِ والإيذاءِ الذي تعرض له المصطفى- صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام .

فتحُ مكةَ رسمَ معالمهُ دمُ أبي عمار وزوجه سمية ، وخط خطوطهُ أنين بلال وعمار، وخبا بٌ وصهيب، تحت سياط العذاب .

فتح مكة جاءَ ليُعلن للناس أنَّ النصرَ عزيزٌ ولا بُد له من ثمن ، وليقولَ للناسِ اليوم ، لا تهنوا ولا تحزنوا، فإنَّ دماءً في العراق تُراق ، وأُخرى في أقطارٍ وآفاق، إنَّما هي ثمنٌ تُقدمهُ الأمة للنصر القادمِ القريبِ بإذن الله ، النصرُ نورٌ مرتقبٌ وقودي دماءِ الشهداء ودعوات الأتقياء، وأموال الأغنياء، وشروطهُ صبرٌ على البلاءِ وشكرٌ عند الرخاء، ووفاءٌ مع خالقِ الأرضِ والسماء، ((وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)) (الروم:٥).

وأخيراً ، وأرض العراق تشهدُ ملحمةً من ملاحمِ الإسلام، وتَبرزُ للعالم صورَ الغدرِ والخيانةِ العلقيمة ، وتُروي للعالم صورةَ الحضارةِ الأمريكية ، وأرض العراق تُدكُ على أهلها، وتهدم بيوتها فوق سكانها، فما أكثر الشامتين من كُتَّاب وغيرهم من يقولُ بلسان الحال، ((لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) (آل عمران: من الآية١٦٨) ولن شغلنا أنفسنا بالحديث عن هؤلاءِ وإليهم وإنَّما نوجِّهُ لهم تحذيرَ الله ووعيده، ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) (آل عمران:١٥٦) .

وأخيراً ، أيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يرى محارمَ الله تُنتهك، وحدودهُ تُضاع، ودينهُ يُترك، وسنة رسوله- صلى الله عليه وسلم- يرغب عنها ، وعبادهُ يُهانون، وهو باردُ القلبِ، ساكتُ اللسان، شيطانٌ أخرس، وهل يلينُ الدينُ إلاَّ من هؤلاءِ الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم ،فلا مبالاة بما جرى على الدين ، وخيارهم المتخرن المتلمظ ، وهؤلاءِ مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، قد بلوا في الدنيا بأعظمِ بليةٍ تكون وهم لا يشعرون، وهو موتُ القلوب ، فإنَّ القلب كما كانت حياتُهُ أتم، كان غضب الله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل .

فلا بُدَّ يا مسلمين من الشعورِ بواجبِ النُصرة لهذا الدين، كلٌّ بحسبه ومرتبتهِ من العلم والقدرة، والغني وغيرها .

تلكم يحيى بن معاد، يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأته هذا واجبٌ قد وُضعَ عنَّا فقال ، هبي أنَّهُ قد وضُع عنَّا سلاح اليد فلم يُوضعُ عنا سلاح القلب، واللسان ، فقالت : صدقت جزاك الله خيراً

اللهم صل وسلم .

النصر والتمكين في يوم عاشوراء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه..

أمَّا بعدُ إخوةُ الإسلام: فإنَّ ثوبي الكبرياءِ والعظمةِ لله، لا ينبغي لأحدٍ من البشرِ مهما كان أن ينازعَ فيهما، قال اللهُ تعالى في الحديث القدسي ("الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار") ([١]) والظلمُ مرتعهُ وخيم، والمكرُ السيئُ لا يحيقُ إلاَّ بأهله، تلك معانٍ وحقائقَ يُعرضُها علينا القرآن في أكثرِ من مشهد، وغيرَ واحدٍ من المواقفِ والقصصِ في أخبارِ السابقين، ولكنَّها تتجلى بشكلٍ واضح، ويزدادُ تكرارُها في القرآن في قصةِ موسى- عليه السلام- وفرعونَ اللعين، بشكلٍ مُلفتٍ للنظرِ لمن تمعن في قصصِ القرآن، فلماذا يكثرُ ذكرُ قصةِ مُوسى- عليه السلام- مع فرعون في القرآن؟

وقد أجابَ أهلُ التفسيرِ عن ذلك بأنَّها من أعجبِ القَصص، أمَّا وجهُ العجبِ فقالوا: إنَّ فرعونَ حذَّرَ من موسى كلَّ الحذرِ، فسخَّرهُ اللهُ أن ربَّى هذا الذي يُحذِّرُ منه على فراشهِ ومائدتهِ بمترلةِ الولد، ثُمَّ ترعرعَ وعقدَ اللهُ لهُ سبباً أخرجهُ من بينَ أظهرهم، ورزقهُ النبوةَ والرسالةَ والتكليم، وبعثهُ اللهُ إليه ليدعوهُ إلى الله تعالى ليعبده ويرجعُ إليه، هذا مع ما كانَ عليه فرعون من عظمةِ المُلكِ والسُلطان، فجاءهُ برسالةِ اللهِ وليس لهُ وزيرٌ سوى أخيهِ هارون- عليه السلام- فتمردَ فرعونُ واستكبر وأخذتهُ الحميةَ والنفسَ الخبيثة الأبية، وركبَ رأسهُ وتولى بركنهِ، وادَّعى ما ليس له، وتهجمَ على اللهِ وعتا

وبغى، وأهانَ حزبُ الإيمانِ من بني إسرائيل، واللهُ تعالى يحفظُ رسولهُ موسى وأخاهُ هارون- عليهما السلام- ويُحوطُهما بعنايتهِ ويحرُسهما
بعينهِ التي لا تنام، و لم تزل المُحاجَّةُ والمجادلةُ والآياتُ تقومُ على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرةً بعد مرة، مما يُبهرُ العقولَ ويُدهِشُ الألبابَ مما لا يقومُ له شيء، ولا يأتي به إلاَّ من هو مُؤيدٌ من الله، وصمَّمَ فرعونُ وملأهُ- قبحهم الله- على التكذيب بذلك كله، والجحودِ والعنادِ والمكابرةِ حتى أحلَّ الله بهم بأسهُ الذي لا يُرد، وأغرقهم في صبيحةٍ واحدةٍ أجمعين، ((فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)) ([٢]) فهل من مُد كر؟ وكيف وقعَ الغرقُ؟ وما هي عاقبةُ الظلمِ والطغيان؟ وكيف نستفيدُ من قصصِ القرآن؟
تلك أسئلةٌ مهمةٌ، ومفتاحُ الإجابةِ عليها في أمثالِ قولهِ تعالى : ((وإذ فرقنا بكم
البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)) ([٣])
وفي قولهِ تعالى : ((وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين* الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين* فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون)) ([٤]). وتأويلُ ذلك : أن بني إسرائيلَ حين خرجوا من مصرَ صُحبةَ موسى- عليه السلام- وهم فيما قيلَ سُتمائة ألف مُقاتل سوى الذُرية- ويُقال: إنَّ إسرائيلَ وهو- يعقوبُ عليه السلام- حين دخلَ مصرَ دخلها في ستةٍ وسبعين نفساً من ولده وولد ولده، فأنمى اللهُ عددهم، وباركَ في ذريتهم ([٥]) وكان بنو إسرائيلَ حين خرجوا قد استعاروا من القبطِ (حُليًّا كثيراً ومتاعاً، وأحلَّ اللهُ ذلك لبني إسرائيل) ([٦]) فخرجوا به معهم، فاشتدَّ حنقُ فرعونَ عليهم، فأرسلَ في المدائنِ حاشرين، يجمعونَ له جنودهُ من أقاليمه، فركبَ وراءَهم في أُهبةِ عظيمةٍ وجيوشٍ هائلةٍ، لما يُريدُهُ اللهُ تعالى بهم، و لم يتخلف عنهُ أحدٌ ممن له دولةٌ وسُلطانٌ في سائرِ مملكته، فلحقوهم وقتَ شُروقِ الشمس، (وذكر الطبري أنَّ فرعونَ أُعلمَ أن موسى سرى ببني إسرائيلَ من أولِّ الليلِ فقال: لا يتبعهم أحدٌ حتى تصيحُ الديكة، فلم يصح تلك الليلةِ بمصرٍ ديك، وأماتَ اللهُ تلك الليلةِ كثيراً من أبناءِ القِبط، فاشتغلوا في الدفنِ، وخرجوا في الإتباع مُشرقين ([٧]) ((فلما تراءَ الجمعانِ قال أصحاب موسى إنا لمدركون)) وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحلِ البحرِ وأدركهم فرعونُ لم يبق إلاَّ أن يتقاتلَ الجمعان، وألحَّ أصحابُ موسى- عليه السلام- عليه بالسؤالِ كيف المخلصُ مما نحنُ فيه؟ فيقولُ: إنِّي أُمرتُ أن أسلكَ هاهنا، ((كلا إن معي ربي سيهد ين)) فعندما ضاقَ الأمرُ اتسع، فأمرهُ اللهُ أن يضربَ البحرُ بعصاه، فضربهُ فانفلقَ ((فكان كل فرق كالطود العظيم)) أي كالجبلِ العظيم، وصارَ اثني عشرَ

طريقاً لكلِّ سِبطٍ واحدة، وأمرَ اللهُ الريحَ فنشفت أرضهُ ((فأضرب لهم طريقاً في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى)) وتخرَّقَ الماءُ بين الطُرقِ كهيئةِ الشبابيك، ليرى كلٌّ قومٍ الآخرين حتى لا يظنوا أنَّهم هُلكوا، وجاوز بنوا إسرائيل البحرَ، فلمَّا خرجَ آخرُهم منهُ، انتهى فرعونُ وجندهُ إلى حافتهِ من الناحيةِ الأُخرى (وعددهم فيما قيل ألفَ ألفَ ومائتا ألف) ([٨]) ومعهم مائةَ ألفَ أدهم (فرس) سِوى بقيةِ الألوان، فلمَّا رأى ذلك فرعونُ هالهُ البحرُ وأحجم، وهابَ وهمَّ بالرجوع، وهيهاتَ ولا حينَ مناص، نفذَ القدرُ، واستُجيبتِ الدعوةُ، وجاءَ جبريلُ على فرسٍ ود يقٍ حائل (ويُقال إنَّهُ لم يكن في خيلِ فرعونَ فرسٌ أنثى، ويُقال أن جبريلَ جاءَ في صورةِ هامان، وقال لهُ:تقدم، ثُمَّ خاضَ البحرُ، فتبعهما حصانُ فرعون وميكائيل يسوقهم لا يشذٌّ منهم أحد، ([٩]) ولم يبق فرعونُ يملكُ من نفسهِ شيئاً، فتجلدَ لأُمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيلَ بأحقِّ بالبحرِ منَّا، فاقتحموا كُلهم عن آخرهم، فلمَّا اجتمعوا فيه وتكاملوا، وهمَّ أولُهم بالخروجِ مِنهُ أمرَ اللهُ القديرُ البحرَ أن فارتطم عليهم، فأرتطم فلم ينجُ منهم أحد، وجعلت الأمواجُ ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواجُ فوقَ فرعونَ، وغشيتهُ سكراتُ الموتِ، فقال وهو كذلك ((آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين)) فآمن حيثُ لا ينفعهُ الإيمانُ ((فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)) ([١٠]).

وهكذا قال اللهُ تعالى في جوابِ فرعون حين قال ما قال، ((آلآن وقد عصيت قبل)) أي أهذا الوقت تقولُ وقد عصيتُ الله قبل، هذا فيما بينك وبينه ((وكنت من المفسدين)) ([١١]).

إخوةَ الإسلامِ :هذا الذي حكاهُ اللهُ عن فرعونَ في حالهِ ذاك، من أسرارِ الغيبِ التي أعلمَ اللهُ بها رسولهُ محمداً- صلى الله عليه وسلم- فلم يسمعها، بل رُبما لم يسمعها أحدٌ من خلقهِ بقي على الحياةِ بعد فرعون، ولكنَّ جبريل وقد حضرَ الواقعةَ، وسمعَ الكلمة، أوحى بها بأمرِ الله إلى نبيهِ محمد- صلى الله عليه وسلم- وبلَّغهُ كذلك بغيرها ممَّا وقعَ بينهُ وبين فرعونَ في لحظاتهِ الأخيرة، فقد أخرجَ الإمامُ أحمدَ والترمذي عن ابن عباسٍ- رضي اللهُ عنهما- قال قال رسولُ اللهِ- صلى الله عليه وسلم-: لما قال فرعونُ آمنتُ أنَّهُ لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال: قال لي جبريلُ: يا محمد: لو رأيتني وقد أخذتُ حالاً من حالِ البحر (وهو الطينُ الأسودُ في قاعِ البحر) فدسستُه في فيهِ مخافةَ أن تنالهُ الرحمة)) ([١٢]). تلك واحدةٌ من أسرارِ القرآن، وهي معدودةٌ في دلائلِ نبوتهِ- عليه الصلاة والسلام- حتى قال الطبري: ((وفي أخبارِ القُرآن على لسانِ محمدٍ- عليه الصلاة والسلام- بهذه المغيباتِ التي لم تكن من علم العربِ، ولا وقعتْ في حقِّ بني إسرائيل إلاَّ دليلٌ واضحٌ عند بني إسرائيل قائمٌ عليهم بنبوةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ([١٣]).

والحادثةُ بمُجمَلها تُؤكدُ نهايةَ الطُغيان، وهلاكُ المجرمين، ونصرةُ الحقِّ، ونجاةُ المؤمنين، وإذا كانت هذه الحقيقةُ بارزةً في هذا المشهدِ، والحقُّ ينتصرُ على مشهدٍ من الناسِ في هذهِ الحياة، فليسَ ذلــك شــأنُ القصصِ كلهِ في القرآن، إذ ليسَ أمدُ النصرِ ينتهي في هذهِ الحياة: وليسَ معنى النصر مقصـــوراً علـــى النصرِ المحسوس للناس، فقد ينالُ النصرَ فردٌ أو مجموعةٌ من الصادقين، وإن خُيِّل للنـــاسِ أنهـــم قـــد استضعفوا أو أُهينوا أَو غلبوا في هذهِ الحياةِ الدنيا، أجل لقد انتصرَ الخليلُ- عليه السلام- على الطُغاةِ وإن قُذف في النار، وانتصرَ أصحابُ الأُخدودِ وإن حُفرت لهم الأخاديد وأُحرقوا، وانتصـــر الغـــلامُ المؤمنُ وإن كانت روحهُ قد أُزهقت على ملأ الناسِ الذي لم يتمالكوا أنفسهم وقالوا: آمنـــا بـــرب الغلام.

وهكذا يبدو النصرُ أشملَ من صورتهِ الظاهرةِ المحسوسة، وينبغي أن يعلمَ الناسُ أنَّ الثباتَ على المبـــدأِ الحقِّ حتى الممات نصر، وأن نصرُ المبادئِ والقيمِ نجاحٌ ونصر، وينبغي ألاَّ يُصاب الناسُ بالإحبـــاطِ إذا لم يشهدوا نصرَ الحقِّ وأهلِهِ في هذه الحياةِ الدنيا، فليست هذه الدارُ نهايةُ المطـــاف، بـــل وليســـت أعمارُهم هم مستغرقةً لكلِّ هذه الحياةِ الدنيا، وقد يشهدُ أبناؤُهم أو أحفادُهم النصرَ الـــذي بُـــذرت بذورهُ الأولى في عهد آبائهم وأجدادهم، ولهذا أوحى اللهُ إلى نبيه- صلى الله عليه وسلم- فيما أوحى ((وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شـــهيد علـــى مـــا يفعلـــون)) ([١٤])، وأوحى إليه أيضاً ((فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعـــدناهم فإنـــا عليهم مقتدرون)) ([١٥]).

كلُّ ذلك حتى لا يستعجلُ النصرَ، ولا يتعلقُ به أكثر، وتعلقهُ بتهيئةِ أسبابهِ والصبرِ على متطلباته.

تلكَ قيمةٌ كُبرى من قيم القرآن، وعبرةٌ عُظمى من عِبر التاريخِ، لابُدَّ من وعيها. وللهِ الأمرُ من قبـــلُ ومن بعد، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون.

الخطبة الثانية

الحمدُ لله الواحدُ القهار، ذي الجبروتِ والسلطان، وأشهدُ ألا إله إلا اللهَ وحدهُ لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسولهُ، اللهمَّ صلِ وسلم عليهِ وعلى سائرِ أنبياءِ الله ورســـله، وارضِ اللـــهمَّ عـــن الصحابةِ أجمعين، وعن التابعينَ ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

إخوةَ الإسلام: ثمةَ دَرسٌ ثالث، وقيمةٌ كبرى نستفيدُها من قصصِ القرآنِ ألاَّ وهـــي الحفـــاظُ علـــى النصر، ومضاعفةُ الشُكرِ حين تتضاعفُ النعم، وكما يمتحنُ اللهُ بالضعفِ والذلةِ والهزيمةِ والمطـــاردةِ، يمتحنُ كذلك بالقوةِ والعزةِ والنصرِ والتمكين، فمنَ الناسِ من يصبرُ حالَ الضعفِ والقلةِ، ولا يشكرُ في حالِ القوةِ والكثرة، والمؤمنونَ الصادقون: هم الذين يصبرون في الضراءِ، ويشكرون في الســـراءِ،

قال -عليه الصلاة والسلام ("عجباً لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرهُ كلهُ لهُ خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابتهُ ضراءَ صبر فكان خيراً له، وإن أصابتهُ سراءَ شكرَ فكان خيراً له") رواه مسلم.

ووصفَ اللهُ عبادهُ الذين يستحقون التمكينَ في الأرض ويستحقون النصرَ بقوله: ((ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)) ([١٦]).

وتعالوا بنا إخوةَ الإيمانِ لنقرأَ على عجلٍ شيئاً من تاريخِ هذهِ الأُمة التي نُصرت ورأت من آياتِ الله الباهراتِ ما رأت، هل قدرت هذا النصرُ وأورثها التُقى والهدى، وإتباع المرسلين، أم زاغت وحرفت وبدلت وآذت المرسلين؟.

إنَّ تاريخَ بني إسرائيل شهدَ من المعجزاتِ على يدي موسى- عليه السلام- ما لم تشهدهُ أمةٌ من الأُمم قبلهم، وشهدَ في الوقتِ نفسهُ من الحيلِ والصدودِ والإيذاءِ لموسى- عليه السلام- ما يجلُّ عن الوصف، وحُذرت هذه الأمةُ أن تسلكَ مسلكهم، ((يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها)) ([١٧]).

وإليكم طرفاً من سيرتهم: ذكرَ أبو بكر بن أبي شيبةَ عن قيس بن عباد، أنَّ بني إسرائيل قالت : وما مات فرعونُ وما كان ليموت أبداً، فلمَّا أن سمعَ الله تكذيبهم بنبيهِ- عليه السلام- رمى به على ساحلِ البحر كأنَّهُ ثورٌ أحمر يتراء هُ بنو إسرائيل، فلمَّا اطمأنوا وبعثوا من طريق البرِّ إلى مدائنِ فرعونَ، حتى نقلوا كنوزهُ وغرقوا في النعمةِ، رأوا قوماً يعكُفونَ على أصنامٍ لهم، قالوا يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، حتى زجرهم موسى وقال : ((أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين)) – أي عالمي زمانه- ثُمَّ أمرهم أن يسيروا إلى الأرضِ المقدسةِ التي كانت مساكن آبائهم، ويتطهروا من أرضِ فرعون، وكانت الأرضُ المقدسةِ في أيدي الجبارين قد غلبوا عليها، فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال، فقالوا: أتريدُ أن تجعلنا لحمةً للجبارين، فلو أنكَ تركتنا في يدِ فرعونَ لكان خيراً لنا، فدعا عليهم وسمَّاهم فاسقين، فبقوا في التيهِ أربعين سنةً عقوبةً لهم، ثُمَّ رحمهم فمنَّ عليهم بالسلوى والغمام.

ثُمَّ سارَ موسى- عليه السلام- إلى طورِ سيناء ليجيئهم بالتوراةِ فاتخذوا العجل، ثُمَّ قيل لهم: قد وصلتم إلى بيتِ المقدسِ فادخلوا الباب سُجداً، وقولوا حطة، فبدلوا وأنزلَ اللهُ بهم كما في القرآن الكريم، وكان موسى عليه السلام شديدُ الحياءِ ستِّيراً وكانوا هم يغتسلون عُراةً يرى بعضهم عورةَ بعض، فقالوا: ما استتر إلاَّ أنَّهُ (آدر)- أي من عيبٍ خُلقي في خصيته- حتى كشفَ اللهُ لهم الحقيقةَ حينما ذهبَ الحجرُ بثوبه فأبصروهُ لا عيبَ فيه، ولما ماتَ هارونُ قالوا: أنت قتلتهُ وحسدته، حتى نَزلتِ الملائكةُ بسريرهِ وهارونَ ميت عليه إلى غير ذلك من مواقفهم المُشينةِ حتى بلغَ بهم الأمرُ أن بدَّلوا التوراة، وافتروا على الله، وكتبوا بأيديهم ما لم يأذن بهِ الله، واشتروا به عرضاً من الدنيا، ثم

صار أمرُهم إلى أن قتلوا أنبياءَهم ورسلهم، فهذه مُعاملتهم مع ربهم، وسـيرتهم في دينـهم، وسـوءَ أخلاقهم ([١٨]).

أجل لقد شاءَ اللهُ أن تكون هذه الأمةُ نموذجاً لمن بغى وتجبر، وأعرضَ وأنكل، بعد أن أبصرَ من آياتِ الله ما أبصر، فأحل اللهُ بهم بأسه، ومسخهم قردةً وخنازير، وألحقهم بمن سلفهم، وكـذلك تُعمـى القلوبُ وتُصمُ الآذانُ عن رؤيةِ الحقِّ وسماع الهُدى لدى القومِ الفاسقينَ الغافلين، وصدقَ اللهُ ((ومـا تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)) ([١٩]).

إخوةَ الإيمان: هذه الملحمةُ الكُبرى، وهذا النصرُ المبينُ لحزبِ الله المؤمنين، والغرقُ والهـلاكُ للطغـاةِ والمفسدين، وقعَ كلهُ في العاشرِ من هذا الشهرِ- شهرُ الله المحرم- وعليه فيومُ عاشوراءَ يومٌ من أيـامِ الإيمان، ومناسبةٌ تستحقُ الشكرَ والعرفان- بما شرعَ اللهُ لا بما يهوى البشرُ، ولا بما يتوارثهُ أصـحابُ النحلِ والمللِ والأهواءِ الفاسدة.

وقد قدَّرَ المؤمنونَ على مدارِ التاريخ هذا اليومُ وعظموه، وكانت اليهـودُ يصـومونه ويقولـون: إنَّ موسى- عليه السلام- صامهُ شُكراً لله، فصامهُ الرسولُ- صلى الله عليه وسلم- وقال:(" نحنُ أحـقُّ بموسى منكم") ، بل كانت العربُ في جاهليتها تصومُ ذلك اليوم وتعظمه، وتكسـو فيـه الكعبـة ([٢٠])، وأمرَ النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- بمخالفةِ اليهودِ، وصيامُ التاسع مع العاشر، فقـال:("إن بقيتُ إلى قابل لأصومنَّ التاسع") (يعني مع العاشر) ([٢١]).

وصيامُ التاسعِ مع العاشر هو أصحُّ ما جاء، وعليه أكثرُ الأحاديث، أمَّا حديثُ ("صوموا يوماً قبله أو يوماً بعده") فالمرفوعُ منه للنبي- صلى الله عليه وسلم- ضعيف.

والموقوفُ: على ابن عباس- رضي الله عنهما- صحيح([٢٢]) وكذلكَ حديثُ ("صوموا يوماً قبلـهُ ويوماً بعده ")([٢٣]).

وإن كان ابنُ القيم ذكرَ مراتب صيامه فقال : ((أكملُها أن يصامَ قبلهُ يومٌ وبعده يوم، ويلي ذلك أن يصامَ التاسعَ والعاشر، وعليه أكثرُ الأحاديث، ويلي ذلك إفرادُ العاشر وحدهُ بالصوم)) ([٢٤]).

معاشرَ المسلمين : قدروا هذا اليومَ وصوموه قربةً لله وشكراً، واحتساباً للمغفرةِ والمثوبة، فقد قـالَ- عليه الصلاة والسلام-:("صومُ عاشوراء يُكفرُ سنةً ماضية") واسألوا اللهَ النصرَ للإسلامِ والمسـلمين، فالذي قدرَّ النصرُ للسابقين قادرٌ على إنزالِ النصر على اللاحقين.

(٢) رواه مسلم وأبو داود- جامع الأصول ٦٣/١٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٢٠/٤، ٢٢١.

(٤) البقرة: ٥٠ .

(٥) يونس: ٩٠، ٩٢ .

(٦) تفسير القرطبي ١/ ٣٨٩ .

(٧) القرطبي ١/ ٣٨٩ .

(٨) القرطبي ١/ ٣٨٩

(٩) تفسير القرطبي ٣٨٩/١

(١٠) تفسير القرطبي ٣٧٧/٨

(١١) غافر: ٨٤- ٨٥

(١٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧ .

(١٣) قال الترمذي: حديث حسن، تفسير ابن كثير ٢٢٧/٤.

(١٤) انظر تفسير القرطبي ٣٩٣/١ .

(١٥) يونس: ٤٦ .

(١٦) الزخرف: ٤١، ٤٢ .

(١٧) الحج: ٤٠، ٤١ .

(١٨) الأحزاب: ٦٩.

(١٩) تفسير القرطبي ٣٩٢/١، ٣١٣

(٢٠) يونس:١١

(٢١) زاد المعاد ٧٠/٢

(٢٢) رواه مسلم ١١٣٤ .

(٢٣) زاد المعاد ٦٩/٢ .

(٢٤) أخرجه البيهقي وسنده ضعيف (زاد المعاد ٧٦/٢ الحاشية)

(٢٥) زاد المعاد ٧٦/٢

النصر الحقيقي

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لِله نحمدهُ ونستعينهُ ، ونستغفرهُ ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ، ومن سيِّئاتِ أعمالِنا ، منْ يَهدِهِ اللهُ فلا مُضلَ لهُ ، ومنْ يُضلل فلا هاديَ له .

وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله .

) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ( ]آل عمران:١٠٢[.

) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ( ]النساء:١[.

) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ! يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ( ]الأحزاب:٧٠-٧١[.

أما بعدُ : فإن أصدقَ الحديثِ كتابَ الله ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ(صلى الله عليه وسلم) وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها ، وكلَّ محدثةٍ بدعة ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة ، وكلَّ ضلالةٍ في النار .

أما بعد ، أيها المسلمون :

فنتيجةً لضعفِ الإيمان بَعد العهدِ بعصرِ النبوةِ ، استخفَ كثيرٌ من المسلمين بدينهم العظيم ، وشرعهم القويم ، فاتخذوه هزواً ولعبا ، أو طقوساً ودروشة وترتب على ذلك ونتج عنه ، أن غفلَ المسلمون عن المهمةِ العظيمةِ ، التي تعلقتْ بها رقابُهم ، والمسؤوليةِ الضخمة التي شُغلتْ بها ذممُهم ، ألا وهي إخراجُ الناس من الظلماتِ إلى النور ، ومن جورِ الأديان إلى عدالةِ الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعةِ الدنيا والآخرة ، ولقد فقهَ أسلافُنا الأولون ، تلك المهمةَ بفهمٍ تام ، فقاموا بها خيَر قيام ، فتركوا من أجلها العشيرةَ والوطن ، وتخلوا عن المالِ والولد ، وحملوا أرواحَهم على أكفهم ، مجاهدين في سبيل الله ، باذلين مُهَجهم في سبيلِ إبلاغِ هذا الدين، للبشريةِ المتخبطة في وثنيتها وإلحادِها ، والسادرةِ في غيها وفجورها ، حتى ظهر المسلمون ، وتزعموا العالم، وعزلوا الأممَ المتسلطة عن القيادةِ والرياسة ، وساروا بالبشريةِ سيراً حثيثا إلى بر الأمان ، بعد أن توفرتْ في المسلمين الصفاتُ التي تؤهلهُم لقيادةِ العالم كله ، وتضمنُ سعادتهَ وفلاحَه في ظلِ الإسلام ، وتحتَ سلطتِه ، فأولُ تلك الصفاتِ: أنهم أصحابُ كتاب منزل ، وشريعةٍ من السماء ، فلا يُقننون من عندِ أنفسهم ، ولا يُشرَّعون بمحضِ عقولِهم ، لأنَّ ذلك منبعُ الجهلِ والخطأ ، والظلمِ والجور ، وثانيا: لأنهم لم يتولوا الحكمَ والإدارة ، إلا بعد أن مكثوا زمناً طويلا ، تحت يدِ محمدٍ(صلى الله عليه وسلم) ، وإشرافهِ الدقيق ، يُعلمهمُ ويُثقفهُم ، ويُزكيهمِ ويُؤدبهُم، ويأخذهُم بالزهدِ والورع ، والعفةِ والأمانة ، والخشيةِ والإنابة ، خلافاً لغالبِ الأممِ والأفراد قديماً وحديثاً ، ممن تولى مقاليدَ الأمور ، وزمامَ السياسة ، دون رصيدٍ يُذكر من تربيةٍ، أو خلقٍ أو ديانة .

وثالثاً : لأن السلف الأولين لم يكونوا خَدمةَ جنسٍ، أو لونٍ، ولا رسلَ شعبٍ أو وطن ، يَسعون لرفاهيتِه ومصلحتِه وحدَه ، ولم يخرجوا ليؤسسُوا إمبراطوريةً عربية ، ينعمون ويهنأوون في ظلها ، ويشمخونَ، ويتكبرون تحتَ حمايتها ، ولم يخرجوا من ديارهِم أشراً وبطراً، ورئاءَ الناس ، وإنما خرجوا لإقامةِ دولةِ الإسلام ، وإخراجِ العباد من عبادةِ العباد إلى عبادةِ الله وحده ، ولم يكن أسلافُنا ينظرونَ لهذه الحياة كقفصٍ من حديد ، فيعادونُه ويكسرونه ، كما أنهم في الوقتِ نفسه، لا ينظرون إليها كفرصةٍ من لهوٍ ونعيم لا تعودُ أبدا. فينتهزونها ويهتمون بها ، بكل شغفٍ وجنون ، فلا يُضيعون ساعةً واحدة دون عربدةٍ أو مجون ، لذا كان ظهورُ المدينة الإسلامية ، بروحها وأصالتها ، وقيامُ الدولةِ الإسلامية بشكلها ونظامها ، فصلاً جديدا في تاريخِ الأديانِ والأخلاق ، وظاهرةً عجيبة في

عالمِ السياسةِ، والاجتماع ، انقلبَ به تيارُ المدنية رأساً على عقب ، واتجهتْ به الدنيا اتجاهاً جديداً ، لم يُعهدْ له مثيلٌ في تاريخِ الأممِ والشعوب ، على مرِّ الدهورِ والأزمان ، فكانت المدنيةُ الإســلامية ، والفتحُ الإسلاميُ الكبير ، منحةً عظيمةً للجاهليةِ المُتخبطةِ ، والإنسانيةِ الحيرى ، وجدتْ فيها نجــاةً وسعادة ، وروحاً ومادة ، وحياةً وقوة ، وديناً ودولة ، وحكومة وسياسة ، وكان الإسلامُ الضاربُ بجراره فوقَ الأرض، ديناً عظيماً بحق ، ومنهجاً قويماً بصدق ، كلُهُ حكمــةٌ وعدالــة ، إزاء أوهــامٍ وخرافاتْ كانت سائدة ، وكله شرعٌ ووحي إزاءَ أقيسةٍ وتجارب ، وتشريعاتٍ بشريةٍ هزيلة ، كانتْ جاثمةً فوقَ الصدور ، وإذا بالجاهليةِ الفاضحة تتحول ببركة الإسلام ، إلى مدينةٍ فاضلة ، قويةِ البنيان محكمةِ القواعد ، يسودُها التقوى والورع ، والعفةُ والأمانة ، وتَسمو الأخلاقُ والآداب فوقَ المــالِ والجاه ، والمنصبِ والمكانة ، ويتساوى الناسُ ، فلا يتفاضلون إلا

بالتقوى ، ولا يتمايزون إلا بالدين والقيم ، ويهتمُ الناس بالآخرة ، فتصبح النفوسُ مطمئنة ، والقلوبُ خاشعة ، ويقلُ التكالبُ على جمعِ الحطام ، والتنافسُ من أجلِ السراب ، كلُ ذلك وأكثــر ، تحقــق للجاهليةِ حينما تغشّاهَا الإسلام ، وحطّمَ عروشَها المتصدعة ، وبنيانَهَا المهتز ، بعد أن كانت مدنيــةً صاخبة ، مضطربةً متناحرة ، يسودُها الظلم ، وتعلوهُا الكآبة ، ويلفُها البغضُ والكراهية ، ويتخللُها الفجورُ والطغيان ، والترفُ والمتعةُ الحرام ، حتى أصبحت تلك المدنيةُ الزائفة ، جحيمــا لا يطــاق ، وسعيرا لا ُيحتمل ، كما قدم المسلمون للعالم كذلك ، حكومةً عاملة ، تساوي بين رعاياهــا ، فــلا يُقدَّمُ ذو حسبٍ لحسبه ، ولا ذو نسبٍ لنسبه ، ولا مزيةَ لأسرة من الأسر ، ولا لقبيلةٍ من القبائــل ، ولا لعشيرة من العشائر ، فالكل متساوون في الفرص ، متعادلون في الحــقِ الواجــب ، والثــواب والعقاب ، وهي حكومةٌ كذلك ، تحرسُ الناسَ في أخلاقهِم وأعراضهم ، وقيمهِم ومبادئهِم تمامــاً ، كما تحرسُهم في بيوتهِم وأموالهِم ، ودماءهم وأرواحهم ، وذلك كلهُ في مقابلِ حكومــاتٍ جاهليــة كانت سائدة من قبل ، عم فيها الجورُ والعدوان ، والشرُ والطغيان ، وتواضَع رجالهاُ علــى الخيانــةِ والظلم ، والسرقةِ والغلول ، ونشرت تلك الحكوماتْ المتسلطة أسبابَ الرذيلة ، وهيأتْ سُبل الغواية، وفتنتْ الناسَ عن دينهِم ، وقدمتْ لهم الفجور باسمِ المدنية ، وعَرضتْ لهم الفساد باسمِ التقدميــة ، وإزاء هذا الانقلاب العظيم ، الذي أحدثه الإسلام في واقعِ الجاهلياتِ البغيضة ، أصبح الناسُ حينذاك ، يدخلون في دين الله أفواجا ، بكل شوقٍ وقناعة ، وإقبالٍ وحماس ، وبدون ضــغطٍ، أو إكــراه ، وكان الواحدُ منهم يدخلُ الدينَ الجديد فلا يخسُر شيئاً، ولا يفقدُ شيئاً، بل إنه ليجدُ بــردَ الــيقين ، وحلاوةَ الإيمان ، ولذةَ العبودية ، ويكتسبُ ثقةً وأمناً، وعزاً ورخاء ، وصارت أرضُ الجاهلية تنتقصُ من

أطرافها ، ودولةُ الإسلام ، تزحفُ في كل اتجاه ، وظلها يمتد في كل مكان حتى ارتفعــت الفتنــة ، وكان الدين كله لله ، وما كان ذلك ليتم ، وتلك الأمجاد لتتحقق ، لولا أن أسلافنا استجابوا لأمــر

ربهم ، وهو يأمرهم بحمل هذا الدين ، وإبلاغه للناس أجمعين ، بعز عزيز، أو بذل ذليل ، :]وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ[[البقرة: من الآية١٩٣] ، قاتلوهم حتى لا تكون وثنية وهمجية ، وظلم وجور ، وقاتلوهم حتى لا تكون رذيلة وفاحشة ، وفجور وعربدة ، فلبى المسلمون النـــداء ، وسطروا ملاحم البطولة والفداء ، ورسموا أقواس النصر ، بدمائهم ودموعهم وعرقهم ، فسل التاريخ عن بدرٍ الكبرى ، وكيف خاضها المسلمون ، المفارقون لدورهم مسقط الرأس ، ومنشأ الوالد والولد ، وواجهوا العدو المتفجر غضبا وحنقا ، فتركوه أشلاء ممزقة ، وجيفا منتنة، في قليب بـــدرٍ، وســـل التاريخ عن واقعة اليرموك الجلل يوم واجه أربعون ألفاً من المسلمين ، واجهوا مائتين وأربعين ألفاً من الروم ، أي ستة أضعافهم ، في واحدةٍ من ملاحم التاريخ، وعجائب الدنيا ، فوق أرضٍ مكشـــوفةٍ ، فما وضعتِ الحربُ أوزارها إلا على جماجم الروم الهلكى ، ودمائهم النجسة ، وهزيمة لا تنسى ، وفي القادسية أذاق المسلمون بقيادة سعد t، أذاقوا الفرس هزيمةً نكراء ، ومقتلةً مهولـــة ، لازال المجـــوس يتجرعون مرارتها حتى اليوم ، كل ذلك والمسلمون ثلاثون ألف رجل ، في مقابل مائتين وأربعين ألفاً من المجوس والأوباش ، وفي حطين أقبل الأوربيون النصارى بجيوش كالجبال ، من كل حدبٍ وصوب ، وفي نيتهم القضاء على ما تبقى من قلاع الإسلام ، واحتلالِ المدينةِ النبوية الشريفة ، فخرج إلـــيهم الأسد المعجزة ، صلاح الدين – رحمه الله – فكسر شوكتهم ، وأباد جيوشهم ، وطـــرد فلـــولهم ، وحُرر بيت المقدس ، مسرى رسول(صلى الله عليه وسلم) في واحدةً من فرائد المعارك ، وملحمـــةً من سو انح التاريخ .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم *** إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ولو تتبعنا انتصارات المسلمين ، وأيامهم العظيمة، وبلائهم في سبيل نصرة هذا الدين ، وإبلاغه للناس لعجز القلم ، وكلّ اللسان ، ولكنها إشارات خاطفة ، وبرقيـــات عاجلـــة ، لأولئـــك المســـاكين المخدوعين، بأطروحات الحمقى والمغفلين ، الباذلين جهودهم في التضليل والإغواء ، وصرف هممهم إلى انتصارات زائفة ، و أمجادٍ تافهة ، وغايات دنيئة ، ومعظمين في نفوس العامة والناشئة ، نموراً من ورق ، وأسوداً من خشب ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

بارك الله لي ولكم ،

الخطبة الثانية :

فخلاصة ما سمعتم ، يتلخص في الأمور التالية :

أولاً : يجب أن ندرك جميعا أنه لا وزن لنا، ولا قيمة في هذا الوجود إلا حين نتمســـك بالإســـلام ، ونراجع ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وسر فلاحنا ، كما يجبُ أن ندركَ أننا لن ننتزع احترام العالم، ونحظى بتقديره، واحترامه ، إلا بالإسلام الذي يهابونه، ويحسبون له ألف حساب ، كما لا يمكن أن

نسترد اعتبارنا وكرامتنا ، إلا بالإسلام ، وبالإسلام فقط ، فلتسقط كل الشعارات الزائفة ، والأطروحات التافهة ، من قوميةٍ ووطنيةٍ ، واشتراكيةٍ، وديمقراطيةٍ ، وإبليسيةٍ، وشيطانية .

ثانياً : يجب أن نعي نحن المسلمين ، أننا أصحاب رسالة ، يجب إبلاغها للناس ، وأصحاب دينٍ يجب عرضه نقياً بلا شوائب ، صافياً من غير كدر ، ناصعاً من غير تشويه ، نعرضُ هذا الدين بأصالته وشموله ، غضا كما أُنزل ، نعرضه قرآناً وسنة ، وتاريخاً وسيرةً ، لا رقصاً ولعباً ، وأهازيج وطبولا ، حينها لا نشك من إقبال الناس عليه، ودخولهم فيه ، واحتفالهم به .

ثالثاً : يجب أن تُربى الأجيال على حب الإسلام ، وفدائه بالروح والمال والولد ، وأن يوصلَ الناسُ بتاريخهم ، وبطولات أجدادهم وأسلافهم ، حتى يتشبهوا بهم ، ويقتدوا بسيرهم ، وأن يعتقد المسلمون جازمين ، أنهم متى ما أقاموا دولة الإسلام في قلوبهم ، قامت دولة الإسلام فوق أرضهم وأرض خصومهم ، تحقيقاً لنبوءة محمد(صلى الله عليه وسلم) : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها »([١][٢]) ، وقوله كذلك : « ولا يترك الله بيتَ وبر ولا مدر إلا أدخله الله الإسلام ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر»([٢][٣]) .

رابعا : يجب أن نعي نحن المسلمين بإدراكٍ تام، أن البطولات الحقيقة التي يحق لنا أن نفخر بها، ونحيي ذكراها في النفوس ، ونلوحُ للعالم بها، وأننا قادرون على تسطير أمثالها ، هي تلك البطولات التي حققها أسلافنا الأولون في بدرٍ وخيبر ، والقادسية، واليرموك ، وجلولاء، وحطين ، وأما ما عداها من البطولات ، أوهامٌ لا معنى لها ، وسرابٌ لا حقيقة له ، لا تبني مجداً، ولا تسترد عزا ، وها أنت ترى دمائنا مهدرة ، وأعراضنا مستباحة ، ومقداستنا ممتهنة ، وعدونا يلوحُ بعصاه الغليظة فوق رؤوسنا ، دون أن نجرؤ على تغيير واقعنا الُمر ، ومصابنا الجلل ، وغايةُ ما نفعله هو التباكي على عتبات هيئة الأمم ، ومجلس الأمن المزعوم ، والذي ما هو إلا ضحكٌ على الذقون ، وسخريةً بالمسلمين ، وإن ننسى فلا ننسى يوم سئلت رئيسة الوزارة البريطانية قبل سنوات حين جيشت الجيوش ، وحركت الأساطيلَ لحرب الأرجنتين واغتصاب جُزْر الفوكلاند من أهلها الأصليين ، مرة أخرى ، فقيل لها : ما الذي يمنعك من حل المشكلة بطرق سلمية ، عبر مجلس الأمن ؟ فأجابت على الفور : إن مجلس الأمن ما وضع إلا من أجل العرب !! ولقد صدقت وهي كذوب ، إلا إن العالم لا يفهم إلا لغة القوة، ولا يحترم إلا الأقوياء .

أجل أيها المؤمنون: كل الدروب مسدودةً سوى درب القوة ، ودرب الجهاد ، كل الصرخات ليس لها صدى في أودية العالم الجديد، سوى صيحات الجهاد ، صيحات التكبير ، كل الرايات سرابٌ إلا رايةُ الجهاد ، الجهاد هو الحل ، وهو السبيل ولا سبيل سواه ، شهدت بذلك الآيات الصريحة ، والأحاديث الصحيحة ، ونطق به التاريخ المجيد ، والجهاد درب طويل ، العلماءُ المخلصون قياداته ،

والدعاة الناصحون حداته ، والأبطال المقاتلون ثمرته ، في قوله تعالى :] لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [[الحديد:٢٥] .

اللهم إنا نسألك إيمانا يباشر قلوبنا ،

بشائر النصر لهذا الدين

أي نعمة عظيمة تنعم بها هذه الديار ؟ وأي منحة جليلة يعيشها أهل هذه البلاد؟ إنها نعمة الإسلام وأكرم بها من نعمة ، إنها نعمة الالتزام بهذا الدين وأعظم به من منحة ..إن دين الإسلام هو الدين الحق الذي كتب الله جل جلاله له البقاء ، وقضاء وقدر سبحانه أن الله ناصر دينه ، ومعل كلمته ، مهما طال الزمان أو قصر ، ومهما تكالب الأعداء للفتك به وبأهله فإن الدائرة على الكافرين قال تعالى {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } إذن المستقبل لهذا الدين ، والعزة لأهل هذا الدين ، والتمكين للمتمسكين بهذا الدين ، العاضين عليه بالنواجذ ، المهتدين بهديه ، المستنين بسنته ، المقتفين أثره ، السائرين على منهاجه قال جلاله في تجلية هذه الحقيقة الكبرى ، والنعمة العظمة {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }وقال سبحانه {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}

وإن ديناً كتب الله له الظهور ، ولأهله النصر والتمكين في الأرض لابد وأن يستعلي ويهيمن ، وأن يصبح أهله أهل القيادة والسيادة ، فيملأ الأرض عدلا كما ملأت جورا ، وأن يحرروا الناس من عبودية المخلوقات إلى عبادة الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ، الذي { إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}

إن هذا الدين يحتاج إلى رجال ..نعم رجال صادقين يعرفون حقيقته ..ويتمسكون بمعالمه ، ويثبتون عليه حتى يلقوا ربهم سبحانه ، ولا يهولنهم إرجاف المرجفين ، ووعيد المتسلطبن ، ولا يفتنهم انحراف الكثيرين ممن آثروا الحياة الدنيا على الدين ، واتبعوا سبيل غير المؤمنين ..لأنهم سألوا التاريخ ..واستنطقوا الأحداث الطويلة عبر سائر الأعصار وشتى الأمصار لتتجلى لهم تلك الحقيقة الناصعة ،أن هذا الدين قد حفظه الله تعالى ،وحقق لأهله العزة والتمكين والنصر المبين على سائر أعداء الدين ،مهما كانوا عليه من قلة في العدد ، وضعف في العُدد ، ومهما كان عليه أعداء الدين من كثرة العدد

، وقوة في العُدد ..إن استقرار هذا المعنى في قلوب أهل الإيمان في هذا الزمان يبعد خواطر التشاؤم عن القلوب ، ويبعث على التفاؤل بتمكن الإسلام في القلوب ، وضرورة غلبته ، وظهوره وهيمنته على سائر الأمم والشعوب ، قال عليه الصلاة والسلام : (ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار) وقال صلى الله عليه وسلم+ : (إن هذا الدين لا يترك بيت مدر ــ أي طين ــ ولا وبر إلا دخله ، بعز عزيز وذل ذليل)، ولقد بشر صلى الله عليه وسلم بانتصار المسلمين على اليهود والروم آخر الزمان وبفتح روما عاصمة الفاتيكان .. {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر

أيها المؤمنون :

إن هذا القرن المبارك ــ إن شاء الله ــ من قرون الظهور والغلبة للدين ، والعز والتمكين والنصر للمسلمين ، فلقد مضى عُشره مشتملا على أحداث ذات عبر ، وحاملا لبشائر بعد النذر ، تنبئ عن مستقبل للإسلام وهزائم منكرة لأعدائه المتربصين به الدوائر ، عليهم دائرة السوء ..فلقد ظهر خلال السنوات الماضية فشل الإلحاد ، وأعلن أهله إفلاسه على رؤوس الأشهاد ، وتلك والله خسارة الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، ولقد تهاوت فيه عروش الطغاة الظلمة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد وظلموا العباد فأخذهم الله على حين غرة ، وجعلهم لأمثالهم آية وعبرة وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}

ومن العبر الظاهرة ودلائل قدرة الله الباهرة أن الإسلام والمسلمين يتآمر عليهم الأعداء من كل جهة ، ويتنادون عليهم من كل صوب ، تسخر في حربهم الأموال الطائلة ، وتحشد عليهم الجيوش الهائلة ، وتنظم المؤتمرات العالمية لكيفية القضاء عليهم والفتك بهم خاصة العلماء الربانيين والدعاة المخلصين فيكال لهؤلاء خاصة وللمسلمين عامة صنوفا من التعذيب والإعدام ، ويكال لهم أنواع السب والشتم والاتهام ..ومع ذلك كله ولله الحمد لا يزداد الإسلام إلا تمكنا من القلوب ، وتغلغلا في الشعوب ، وانتشارا في الأوطان ، ولا يزداد أهله إلا إقبالا عليه ورغبة فيه والتزاما به وجهادا من أجله ، وصدق الله العظيم إذ يقول {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ، لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

فمع جهود أعداء الإسلام الجبارة لحرب الإسلام ، وكثرة مؤامراتهم ومؤتمراتهم على أهله على الدوام ، فإن الصحوة الإسلامية قد عمت الآفاق ، وغاضت ــ بحمد الله ــ أهل النفاق وذلك فضل الله جل جلاله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

آلا إنها دعوة للثقة بوعد الله بالنصر المبين للإسلام والمسلمين ..

آلا إنها دعوة للاستقامة على الدين والدعوة إليه والدافع عنه وتسخير الطاقات والجهود من أجلـــه ، وأن تكون حياتنا كلها فداء لهذا الدين ، وخدمة لهذا الدين فلا يشغلنا عنه شاغل ولا يصـــرفنا عنـــه صارف .

آلا إنها دعوة لأن نكون من أولياء الله المتقين ، وجنده المؤمنين { وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }

بشائر النصر في فلسطين

خالد بن محمد طقاطقة

عبدون

١٤٢٦/٧/٧

جامع أبو بكر الصديق

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- فضل المبادرة إلى صلاة الجمعة. ٢- استجابة الله تعالى لدعاء المضطرين. ٣- بشائر النصـــر. ٤- سنة الابتلاء.

الخطبة الأولى

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هديُ محمد ، وشر الأمور محـــدثاتها، وكـــل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، أيتها المسلمات، يا أصحاب الجباه الطاهرة المتوضئة الساجدة الطائعة، يا من تحفكـــم ملائكة الرحمن بعد أن طوت الصحف ليستمعوا الذكر الآن، قال : ((إذا كان يومُ الجمعـــة قعـــدت الملائكة على أبواب المسجد يكتبون من جاء من الناس على قدر منازلهم، فرجل قدم جزورًا، ورجل قدم بقرة، ورجل قدم شاة، ورجل قدم دجاجة، ورجل قدم عصفورًا، ورجل قدم بيضة، فـــإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طووا الصحف ودخلوا المسجد يستمعون الذكر)) أخرجه الإمام أحمد وهو حديثٌ صحيح.

فصلاة الله وسلامه على نبيه الكريم محمد ، وصلاة الله وسلامه على النبيين والمرسلين، وسلام الله على الملائكة الكرام البررة، وسلام الله على الصديقين والشهداء ما تعاقب صيف وشتاء، وما امتـــدّ ظـــلٌ وفاء، سلام الله على شهداء الأمة الذين رووا الأرض بدمائهم الزكية، سلام الله على شهداء الأقصى

الذين عرفوا طريق الجنة، ولسان حالهم يقول: وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، وهنيئًا لنا أمة الإسلام أن جعلنا الله من المسلمين، وأن أكرمنا لنكون في بيتٍ من بيوته مع الملائكة الكرام الكاتبين، فأي تشريفٍ أعظم من تشريف الله تعالى؟! وأي نصرٍ أعظم من نصر الله تعالى؟! وأي بشاراتٍ أعظم من بشارات القرآن العظيم؟! نعم، القرآن ربيع قلوب المؤمنين، ومثبّت همم المجاهدين، ومصبّر الجرحى والثكالى، وأنيس المأسورين، وأي مناجاةٍ أعظم من قرع أبواب السماء بالدعاء؟! فكم من أشعث أغبر من بين المسلمين كان صادقًا في دعواه حتى قرعت أبواب السماء وهو يقول: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ، فكانت دعوات هؤلاء الصالحين تقرع أبواب السماء حينما انقطعت كلّ الأسباب وأغلقت كلّ الأبواب إلا باب الرحمن الجبار العزيز الوهاب الذي بيده العزّ والعطاء والنّصر والتأييد، إنه الباب الوحيد الذي وقف عنده الأنبياء والصالحون والمجاهدون، قال الله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

إنه يسمع دعاء المضطرين، ويعلم صدق المجاهدين، يسمع أنين المجروحين، ويعلم نية المرابطين، فيا لها من آيةٍ متجدّدةٍ وكأنها أنزلت اليوم، سهام قسّام المجاهدين في أرض فلسطين على رؤوس إخوة القردة والخنازير من المعتدين والمغتصبين أحالت بقدرة الله ليلهم إلى جحيم ونهارهم إلى نار حتى أيقنوا بقدرةِ القادر الجبار، فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. وكأن الآية تقول لنا: إن أردتم مزيد نصر فاقرعوا أبواب من ذلّت له الرقاب، فلا إله إلا الله، ما أكرم الله، ولا إله إلا الله، ما أعظم الله.

فهذه دعوات إلى الرحمن السميع العليم صاعدة، وهذه آيات من الرحمن العزيز كأنها اليوم متزلة. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ، وقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ، فكل شيءٍ حولنا ــ يا عباد الله ــ لله فيه حكمة، وتذكّروا أن كل من كان عدوًا لله فهو ضعيف، قال الله تعالى: لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ، فثقوا بنصر الله وبوعد الله: وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وقال تعالى: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، وقال سبحانه: جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ، وقال تعالى: لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وقال تعالى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فلقد تضمّنت سيرة النبي مجموعةً من المبشرات لهذه الأمة المباركة، ومن ذلك ما رواه الصحابي الجليل المجاهد خباب بن الأرت قال: أتيت النبي وهو متوسّد برده وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: ألا تدعو الله؟! فقعد وهو محمرٌ وجهه، فقال: ((لقد كان مَن قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ وعَصَبٍ، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ـــ زاد بيان الراوي ـــ والذئب على غنمه)) وفي روايةٍ: ((ولكنكم تستعجلون))، وهذا الحديث في صحيح البخاري.

فثقوا ـــ يا عباد الله ـــ بنصر الله، فإن نصر الله قريب، وبشائر النصر قد لاحت بإذن الله في الأفق، يقول الله تبارك وتعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ.

أتذكرون ما أصابكم يوم أحد؟! أتذكرون ما أصابكم من جراحٍ وحصارٍ وتضييق؟! أتذكرون شهداءكم؟! أتذكرون بكاء أطفالكم؟! أتذكرون أنين الأيتام؟! أتذكرون حنين المبعدين؟! أتذكرون وتذكرون؟! فقد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة والهلاك على الكافرين، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. وإن كان قد أصابكم قتل وجرح فقد أصاب أعداءكم قريبٌ من ذلك، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء).

عباد الله، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله. نقول ذلك ـــ يا عباد الله ـــ ونكرره لأنّ الله وحده هو الذي يهبنا النصر ولا أحد غيره، فهو يهب النصر لمن شاء ومتى شاء، فلا يظننّ ظانّ بأن النصر لهذه الأمة يقوم بلا إسلام، قال الله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ، وقال تعالى: وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. ومدح الله المؤمنين الذين

عرفوا حقيقة النصر فأقاموا شرع الله في أرض الله، فقال تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ.

فنسأل الله العظيم أن يهيّئ لإخواننا في أرض فلسطين الحكم بكتاب الله وبسنة النبي ليكون بصيص النصر في هذه الأيام مباركًا في أرض غزّة هاشم، نصرًا يشعّ بعد نحو أربعين سنةٍ من الجهاد والرباط، وفاتحةً بإذن الله لفكّ قيود الأقصى المبارك وما ذلك على الله بعزيز، ونسأل الله تعالى أن لا يحقّق لأعدائه غاية، وأن لا ينجح لهم أمنية، وأن يحفظ أهل فلسطين من مؤامرات المعتدين الذين يمكرون ويخططون لفتنة المسلمين وطمس عقيدتهم وزرع الفتنة بينهم، فقد قال الله تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ، فكلنا أملٌ وثقةٌ بإذن الله أن اندحار المغتصبين من أي شبرٍ من أراضي المسلمين هو نصرٌ وإن سماه أعداؤنا ما سموه، ولن يكتمل فرح المسلمين إلا باسترداد كامل الحقوق المغتصبة بعز عزيزٍ أو بذل ذليل، وتتويج ذلك كله بعودة الأقصى الأسير إلى سماحة الإسلام ونوره، فنسأل الله أن يكون ذلك قريبًا، ونسأله تعالى أن يجمع قلوب إخواننا في أرض فلسطين، وأن يجنبهم الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه جواد كريم.

التوكل على الله سبيل النصر

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٦/١/٢٣

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- من صور الصبر والتوكل في معركة بدر وحمراء الأسد. ٢- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. ٣- موعدة بدر الصغرى. ٤- أثر الخشية في التغلب على المحن. ٥- محاولة اليهود تشويه صورة المسلمين وتاريخهم. ٦- تواصل الاعتداءات اليهودية على مقابر المسلمين وأراضيهم. ٧- خطورة المحاولات اليهودية للنيل من المسجد الأقصى.

الخطبة الأولى

يقول الله تعالى في سورة آل عمران: الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

أيها المسلمون، قد ذكرت كتب التفسير وكتب السيرة النبوية المطهرة أنه بعد أن وقعت أحد في السنة الثالثة للهجرة وحصل مع المسلمين ما حصل انتشى أبو سفيان زعيم المشركين في مكة المكرمة وقتئذ فرحًا، ونادى بأعلى صوته: يا محمد، موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، أي: نتلاقى في العام القادم في مكان بدر، فأجابه مباشرة: ((نعم، إن شاء الله)).

أيها المسلمون، لما رجع الرسول إلى المدينة المنورة أصبح حِذَرًا من زحف المشركين إلى المدينة ليتمّموا غلبتهم وفرحتهم، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وأن لا يخرج معه إلا من شارك فقط في غزوة أحد، فاستجاب الصحابة رضوان الله عليهم إلى ذلك بعزيمة وإصرار بعد أن أصابهم القرح وضمدوا الجراح، وساروا حتى وصلوا إلى موقع يُعرف بحَمْرَاء الأسَد، وكان ما توقّعه الرسول قد حصل فعلاً، فقد كان المشركون يجهزون أنفسهم بالتوجه إلى المدينة المكرمة، ولكن لما علّموا بخروج النبي من المدينة باتجاه مكة ظنوا وتوهموا أنه قد حضر معه جيش كبير، فألقى الله عز وجل الرعب في قلوبهم، ورجعوا القَهْقَرَى إلى مكة، وعَدَلوا عن التوجه إلى المدينة.

أيها المسلمون، بينما كان في موقع حَمْرَاء الأسَد أُلقِي القبضُ مرّة أخرى على المشرك أبي عزّة الشاعر الذي سبق أن وقع أسيرًا في غزوة بدر الكبرى، وقد مَنّ عليه الرسول وقتئذ وأطلق سراحه بعد أن تعهّد أن لا ينظم شعرًا يحرّض فيه المشركين على مقاتلة المسلمين، إلا أن أبا عزّة الشاعر لم يلتزم بوعده وعهده، فاستمرّ في نظم الشعر ضد الإسلام والمسلمين، فأمر بقتله، فأخذ أبو عزّة الشاعر يتوسل ويتَمَسْكَن ليمنّ عليه الرسول مرة أخرى، فقال له: ((لا والله، لا تمسح عارضيك بالكعبة وتقول: خدعت محمدًا مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جُحر واحد مرتين)). هذا، وتعتبر غزوة حمراء الأسد أول رد اعتبار للمسلمين عما حصل لهم في أحد.

أيها المسلمون، هذا درس بليغ للمسلمين في كل زمان ومكان بأن لا ينخدعوا بالذين ينقضون العهود والمواثيق، فالمؤمن كَيّسٌ فَطِنٌ، وليس كِيْسَ قُطْنٍ، ينبغي عليه أن لا يُلدغ من جُحر واحد مرتين. أما الأنظمة القائمة في العالم العربي والإسلامي فقد لُدِغت من جُحر واحد مرات ومرات، ولم تتعظ إلى الحين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أيها المسلمون، لقد تمكّن رسولنا الأكرم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم من تغيير الميزان لصالحهم بعد عام واحد فقط، وذلك في غزوة بدر الآخرة، وتعرف بغزوة بدر الصغرى في السنة الرابعة للهجرة، حيث عَسْكَرَ المسلمون فعلاً في موقع بدر، في حين أن المشركين لم يحضروا في المكان والزمان اللذين سبق لأبي سفيان أن حدّدهما بنفسه، وحاول أبو سفيان إخافة وإرجاف المسلمين واللعب بأعصابهم حتى لا يخرجوا إلى موقع بدر، إلا أن محاولاته قد باءت بالفشل، وإن الحرب النفسية والإشاعات لم تؤثر على المسلمين، واستمروا متوجّهين إلى مكان بدر وهم يردّدون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فازداد المؤمنون إيمانًا مع إيمانهم.

أيها المسلمون، إذا وقع المسلم في كرب شديد فإنه يلجأ إلى الله رب العالمين داعيًا: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ لقول رسولنا الأكرم : ((إذا وقعتم في أمر عظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل))، وقد سبق وأن ردّد هذا الدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما أُلقِي في النار، فكانت النار بردًا وسلامًا عليه.

أيها المسلمون، لقد خرج المسلمون فعلاً، ومكثوا في موقع بدر ثلاثة أيام، وقاموا بأعمال تجارية بأمن وأمان، ثم عادوا غانمين سالمين، ويشير الله عز وجل إلى ذلك بقوله: الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، هذه الآيات الكريمة تدعو إلى الثبات والصمود في المواقف الصعبة والحرجة، وتدعو إلى التوكل على الله واللجوء إليه والخشية منه مع العمل الجاد، فإنه لا ملجأ إلا إليه سبحانه وتعالى، وأن المؤمن الذي يتصف بخشية الله فإن الله رب العالمين يُطوّع له المخلوقات كلها، سئل الإمام الحسن البصري رحمه الله: كيف تخاف من ربنا؟ فقال للسائل: "لو ركبت أنت البحر، فتحطّمت سفينتك، فلم يبق منها إلا لوح، فأمسكت به فوق الموج العالي، كيف يكون حالك؟" قال السائل: خوف شديد، قال البصري: "أنا هكذا مع الله، في خوف منه ليل نهار".

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، لم ييأس المسلمون مما حلّ بهم وما أصابهم في معركة أحد، لم يناموا، ولم يستكينوا، ولم يستسلموا، لم يتهرّبوا من المسؤولية، لم يتخاصموا على الكراسي والمناصب والعروش، لم يستعينوا بالفرس أو الروم، لم يربطوا مصيرهم باجتماعات أمنية ولا بمؤتمرات سياسية ولا بقرارات، لم يُوكلوا أمرهم للأوهام والتمنيات.

وما نيل المطالب بالتمنّي...ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

وما استعصى على قوم منال...إذا الأقدام كانت لهم رِكَابا

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، لقد مرّت مِحَن ومصائب على المسلمين في الماضي أيام التتار والصليبيين وغيرهم، فكان أجدادنا يجتازون الصعاب بكل صمود وإصرار وتضحية؛ لأنهم كانوا يخافون الله ويخشونه، وقد ورد عن البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي رحمه الله أنه كـــان يحـــثّ جُنده على تلاوة القرآن الكريم، وكان يطرد اليأس من قلوب ونفوس المواطنين امتثالاً لقوله عز وجل: وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ [يوسف:٨٧]، فلا بـــد مـــن الرجوع إلى الله العلي القدير في كل وقت وحين، وأن يدفعنا ذلك للأخذ بالأسباب، فمن ينصـــرنا؟ إنه هو الله، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [آل عمران:١٢٦]، ومن يرزقنا؟ إنه هـــو الله، ومن يميتنا ويحيينا؟ إنه هو الله، لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْـــهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [الذاريات:٥٠].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، ورد في الأثر: إن أربعة من الملائكة يحملـــون عـــرش الرحمن، وإن هؤلاء الملائكة سَبَق أن منحهم الله عز وجل قوة السماوات والأرض والجبال والريـــاح، إلا أنهم لم يتمكّنوا من حمل العرش حتى قيل لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحينمـــا قالوهـــا استطاعوا حمل العرش.

الخطبة الثانية

أيها المسلمون، هناك أربع نقاط تهمّ أمور المسلمين ومصالحهم العامة، أشير إليها بإيجاز:

أولاً: محاولة التشويه لصورة العرب والمسلمين بأنهم يهتمّون بالجنس ويشربون الكحول، وأنهم حمقى لم يقدّموا أيّ مساهمة للإنسانية. هذا ما يزعمه محاضر يهودي في جامعة حَيْفا، وكان الأحرى بهـــذا المحاضر اليهودي أن يُحاسب نفسه قبل أن يحاسب وينتقد غيره، ويتوجب عليه أن يكون موضـــوعيًا وأمينًا في الحكم على غيره، وأن يطلع على الحضارة الإسلامية من مصادرها الموثوقة قبل أن يتطفّـــل ويتكلّم في هذا الموضوع، والأنكى من ذلك أن الطالب الذي ناقش هذا المحاضر واعترض على هـــذه الافتراءات ستحاكمه إدارة الجامعة، وتحيله إلى لجنة تأديبية، أي: إن موقف إدارة الجامعة كـــان مـــع المحاضر ضد الطالب العربي. وإننا إذ نقف إلى جانب هذا الطالب الذي تصدّى للمحاضـــر الجاهـــل العنصري، ونطالب الأساتذة والطلاب العرب في جامعة حَيْفا وغيرها من الجامعات أن يبرزوا الوجه الحضاري للشريعة الإسلامية عبر التاريخ والإنجازات التي قدمتها للحضارة الإنسانية جمعاء.

ثانيًا: المقابر الإسلامية في فلسطين، هناك انتهاكات متواصلة لحرمة المقابر الإسلامية، وكان من آخرها ما أُثير حول مقبرة الاستقلال في حَيْفا، وقد أصدرنا مؤخّرًا فتوى شرعية تأكيدًا لفتـــاوى ســـابقة، تتضمن وجوب المحافظة على حرمة هذه المقابر وصيانتها من العبث ونبش القبور، وذلك بإقامة أسوار حولها وإعادة دفن الموتى.

ثالثًا: توسيع المستوطنات ومصادرة آلاف الدونمات، لقد قررت الحكومة الإسرائيلية خلال هذا الأسبوع بناء ٦٤٠٠ وحدة سكنية في المستوطنات المنتشرة في الضفة الغربية، بالإضافة إلى توسيع المستوطنات في محيط مدينة القدس، وشقّ طرق جديدة للربط فيما بين المستوطنات لمحاصرة مدينة القدس وخنقها، وهذا يؤدي إلى مصادرة آلاف الدونمات من أراضي المواطنين الفلسطينيين، وهذا يؤكد أن السلام المطروح هو سلام مزعوم للخداع وللمراوغة وكسب الوقت، ونؤكد على عدم شرعية هذه المستوطنات، وأن حق المواطنين في أراضيهم سيبقى قائمًا إلى يوم الدين.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، رابعًا وأخيرًا: المسجد الأقصى المبارك تاج القدس ودرّة فلسطين ورمز ثباتنا ومرابطتنا، تواصل الشرطة الإسرائيلية تحذيراتها من هجوم محتمل للمتطرفين اليهود. ونتساءل: هل الشرطة الإسرائيلية لا تعرف هؤلاء المتطرفين؟! ولماذا تتركهم يصِلُون ويفسدون ويعربدون دون أن تعتقلهم اعتقالاً على الأقل؟! وهل يستطيع هؤلاء المتطرفون تنفيذ مخططاتهم العدوانية دون علم الحكومة الإسرائيلية المحتلة؟! المسؤولة [مسؤولية] كاملة عن أي مسّ بحرمة المسجد الأقصى المبارك، كما نحمّل الأنظمة الحاكمة في العالم العربي والإسلامي المسؤولية لحماية المقدسات وتحرير البلاد والعباد.

شهر النصر

الخطبة الأولى

أما بعد. .

فأتقو الله أيها المؤمنون واعلموا أن شهر رمضان لم يكن عند سلفنا شهر صيام وقيام ودعاء واعتكاف وعمرة وإكثار من العبادة فحسب بل كان شهر جهاد ومجاهدة ودعوة وعمل فقد سطروا فيه أعظم الانتصارات وأكبر الفتوحات وإن ليالي هذا الشهر وأيامه تحكي ما حققته الأمة من انتصارات وأمجاد فقد كان في هذا الشهر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر الكبرى التي هي شامة في جبين التاريخ.

إذا قامت الدنيا تعد مفاخراً فتاريخنا الوضاح من بدر ابتدأ

فقد فرق الله في هذه الغزوة بين الحق والباطل فنصر الله دينه وأظهر نبيه وأطاح رؤوس الكفر والشر والظلم والطغيان قال الله تعالى ؟وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ؟(١)، فكانت هذه الغزوة صفحة من صفحات المجد المشرق في تاريخ هذه الآمة. وقد منّ الله تعالى على الأمة في هذا الشهر أيضا ففتح بيته لنبيه وطهّره من أوطار الشرك ولوثات لكفر ومظاهر الظلم والاستكبار فكان حديثاً عظيماً كبيراً ليس في تاريخ الأمة فحسب بل وفي تاريخ البشرية كلها، كيف لا؟ وقد أعز الله بهذا الفتح دينه ورسوله وحزبه واستنقذ به بلده وبيته من أيدي الكفار والمشركين

وقد استبشر بهذا الفتح أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دين الله أفواجا وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً وانحسرت به الوثنية في جزيرة العرب. وما انفك هذا لشهر المعطاء أن يكون محلاً ومضماراً لأمجاد وبطولات وانتصارات لهذا الأمة عبر التاريخ وهذا يؤكد أن شهر الصيام له أثر بالغ في تحقيق النصر وصناعة المجد وكيف لا يكون كذلك وهو شهر الصبر والتقوى أما الصبر فإن من الكلام المأثور: "الصوم نصف الصبر" فالصوم يربي المسلم على ترك المحاب والملاذ والشهوات ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ((كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإن لي وأنا أجزي به يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي))(٢).

أما التقوى فإن الله إنما فرض الصيام على عباده لتحقيقها قال الله تعالى: ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ؟(٣) وبالصبر والتقوى يحقق العبد أول درجات النصر الكبرى وأسبابه قال الله تعالى: ؟إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ؟(٤) فإذا صبرت الأمة واتقت الله سبحانه وتعالى وقاها شر عدوها ودافع عنها ؟إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ؟(٥). وهذا مما يؤكد أهمية تحقيق المقصود من الصيام فإن المتقدمين لما حققوا غايات الصيام ومقاصده جعل الله شهر صومهم شهر عز ونصر وتمكين ومجد. ولما ضعف صبر الأمة وقلّ تقواها وتمسكها بدينها وتركت الجهاد جعلها الله غرضاً لأعدائها فأحل بها الكفر أعظم الضيم وأنزل بها الأعداء ألوان الكيد والتعذيب:

أحل الكفر بالإسلام ضيماً يطول به على الدين النحيب

فحق ضائع وحمى مباح وميض قاطع ودم صبيب

أيها المؤمنون إن المتأمل لحركة المد والجزر في تاريخ الأمة لا يعتريه شك أن الأمة اليوم تمر بأصعب أيامها وأشد أحوالها فإنه وإن كان قد نزل بالأمة نكبات وحلت بها الكوارث والأزمات فإنها لم تزل على ثقة بدينها وربها معتز بالإسلام فخورة بالأيمان لذا فإنها سرعان ما وثبت من سباته وانقشعت كروبها بمراجعة دين ربها أما اليوم فإن كثيرا من المسلمين أصيبوا في إيمانهم ودينهم واجتمع عليهم أعدائهم فرموهم عن قوس واحده كما أخبر النبي صلى الله علية وسلم حيث قال: ((تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها قالوا أو من قلة يا رسول الله؟ قال لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وليترعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم وليلقين في صدوركم الوهن قالوا وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت)).

وواقع الأمة اليوم يجسد هذا الحديث ويوضحه فأعداد المسلمين كثيرة ولكنها لا تفرح صديقاً ولا تخيف عدواً فهم غثاء كغثاء السيل وأما أعداؤنا من اليهود والمشركين والنصارى والمنافقين فقد جمعوا فلولهم ورصوا صفوفهم وجمعوا كلمتهم على حرب الأمة وتدميرها وإذلالها ونهب ثرواتها.

فالوثنيون والملحدون ممثلون بالعالم الشرقي يسحقون المسلمين بالحديد والنار يتربصون بالأمة الدوائر ويكيدون لها المكائد ولا يجدون فرصة ينفسون فيها عن أحقادهم إلا فعلوا وما تخفي صدورهم أكبر وما يفعلونه بإخواننا في كشمير وفي الهند وفي بورما وفي بلاد الشيشان خير شـاهد علـى ضـراوة عداوتهم.

أما الصليبيون ممثلون بالعالم الغربي الكافر فهم ورثة الأحقاد والضغائن على الأمة فالصليبيون ضائقون بالإسلام منذ ظهوره وقد اشتبكوا مع المسلمين في حروب طويلة مضنية إلا أن التاريخ لم يشهد حدة في العداء وخبثاً في الأداء وإصراراً وتصميماً على تدمير الأمة وإفنائهما كما يجرى منهم اليوم فهـاهم خبراؤهم وكبراؤهم وساستهم يتنادون لحرب الإسلام وما ذاك الذي يجري في بلاد البوسنة والهرسك وغيرها من بلاد الإسلام إلا ثمرة أعمالهم وجني أحقادهم وما هـذه الهيمنـة السياسـية والتسـلط الاقتصادي والاستكبار الحضاري على المسلمين إلا قليل من كثير وغيض من فيض وقد صدق القائل:

عاد الصليبيون ثانية وجالوا في البطاح

عاثوا فساداً في الديار كأنها كلأ مباح

أما اليهود فقد زرعوا دولتهم في قلب العالم الإسلامي وهم سماسرة الكيد والمكر والخبث وقد ضربوا أفضع الصور في تشريد المسلمين وإذلالهم والتسلط عليهم والتلاعب بهـم وانتـهاك مقدسـاتهم ولا عجب في ذلك فهم الذين قال الله عنهم ؟لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّـذِينَ أَشْرَكُوا؟(٦) وهم الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودبروا له المكائد ونقضـوا العهـود والمواثيق وهل ما يجري اليوم في فلسطين الغالية وفي غيرها من البلاد إلا من صنائعهم فعجباً لمن نسي الكتاب وركض وراء السراب بطلب الصلح أو السلم مع أرباب الغدر والمكر يهود:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد أن كان في القلب أيمان وإسلام

أما المنافقون فهم اشد الأعداء خطراً وأعظمهم فتكاً لذا قال الله تعالى عنهم: ؟هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟(٧) لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة لبسوا مسوح الضأن على قلوب الذئاب فالظواهر ظواهر الأنصار والبواطن قد تحيزت إلى الكفار دعاة على أبواب جهنم يصدون عن سـبيل الله ويبغونها عوجا، تلونت راياتهم وتشكلت شعاراتهم فتارة قوميون وتارة وطنيون وتارة علمـانيون تعددت الأسماء والكفر واحد، عاثوا في الآمة فساداً ودماراً فهل التغريب الذي تعيشه الأمة إلا مـن صنعهم وهل تنحية الشريعة وتطبيق القوانين الوضعية إلا من أعمالهم؟ وهل محاربـة الـدين وأهلـه وعلمائه ودعاته ألا تجارتهم. فللّه كم من راية للدين قد نكسوها؟ وكم من شعيرة من شـعائره قـد عطلوها؟ وكم من عالم أو عامل أو داعية لله قد آذوه؟ فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليه فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها المؤمنون هؤلاء هم أعداء دينكم الظاهرون والمستترون سعو إليكم بالبوائق والأزمات وجـــرمكم الذي اقترفتموه أنكم رضيتم بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ؟وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ؟(٨).

الخطبة الثانية

أما بعد. .

أيها المؤمنون إن أمتكم مغزوةٌ من داخلها ومحاربة من خارجها أما غزوها من الداخل فذلك بالمنافقين المتربصين من العلمانيين و أشياعهم الذين أضعفوا إيمان الأمة بربها ودينها بشبهاتهم وشهواتهم و أمـــا حربها من خارجها فبهذا التداعي العالمي لأمم الكفر من اليهود والنصارى والمشركين والملحدين على أمة الإسلام ولن تنجوا الأمة من هذين الشبحين إلا بإقبالها على ربها ورجوعها إلى دينها وإعلائهـــا رايات الجهاد بأنواعها جهاد النفس وجهاد العُصاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد المنافقين وجهاد الكفار فان ما أصاب الأمة وما أصابها إلا لما هجرت ظهور الخيل وأخذت بأذناب البقر ويدل لذلك ما رواه أبو داود وغيره بإسناد عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله علية وسلم ((إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا يترعه حتى ترجعوا إلى دينكم)).

فعلينا أيها الأخوة الأخذ بأسباب النصر وسننه للخروج من ماسي اليوم وتحقيق أمال الغد فإن النصر لا يترل اعتباطاً ولا يخبط خبط عشواء بل هو وفق سنن وقوانين مضبوطة كسير الشمس.

فمن هذه السنن أن تعلم أن النصر من عند الله تعالى كما اخبرنا مولانا حيث قال ؟وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ؟(٩) فمهما طلبنا النصر من غيره أذلنا الله وخيب سعينا وما أحوجنـــا إلى أن نجأر إلى الله تعالى بما قاله الأول:

فيارب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول

ومن أسباب النصر أن النصر لله تعالى بأقواله و أعماله وقلوبنا فان الله تعالى قال: ؟يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ؟(١٠) ونصرنا لله تعالى يكون بتعظيم دينه وامتثال أمـــره و إعلاء كلمته وتحكيم شرعه والجهاد في سبيله قال الله تعالى في بيان المســـتحقين للنصـــر ؟الَّـــذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَـــرِ وَلِلَّـــهِ عَاقِبَـــةُ الْأُمُورِ؟(١١).

ومن سنن النصر أنه آتٍ لا محالة للمؤمنين الصادقين وأن التمكين للإسلام متحقـــق رغـــم العوائـــق والعقبات فالدين دين الله والله ناصر دينه وأولياءه قال الله تعالى: ؟إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِـــي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ؟(١٢) لكن هذا الوعد لا يعني أن لا يبتلـــى المؤمنـــون بالنكبـــات والأزمات ولا يعني أن لا تصاب الأمة بالمصائب والكوارث بل كل هذا لابد منه ليميز الله الخبيـــث

من الطيب قال الله تعالى: ؟أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ؟(١٣) وقد يبتلي الله تعالى الآمة بتأخير النصر أو تمكين الأعداء بسبب الذنوب والمعاصي قال تعالى: ؟أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؟(١٤) فإذا أصريت أنا وأنت على تقصيرنا وذنوبنا فهل نرجوا أن يصلح الله الأحوال ويرفع عنا هذا الذل والصغار والانكسار إن هذا لمن أمحل المحال قال الله تعالى: ؟إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ؟(١٥) فإن لم يكن منا نزوعٌ عن الذنوب وإقلاع عن المعاصي ونصرٌ للدين وأهله فان الله ينصر دينه بغيرنا قال تعالى: ؟وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ؟(١٦).

أيها الأخوة المؤمنون اعلموا أن من أقل ما يجب علينا تجاه إخواننا أن نشعر بما يشعرون به من ألم وضيق فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((مثل المؤمنين في تواضعهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) متفق عليه.

وإن من واجبنا تجاه إخواننا أن ننصرهم بما نستطيع من مال ونعينهم به على الجهاد أعدائهم وأعدائنا ونكسوا أولادهم ونطعم جائعهم ونخلفهم في أهليهم وذويهم وهذا هو أقل ما يجب علينا تجاههم، فأنفقوا في سبيل الله فإنها من اعظم النفقات قال الله تعالى: ؟مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ؟(١٧) وقال صلى الله عليه وسلم: ((أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، دينار ينفقه على دابة في سبيل الله، دينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)) رواه مسلم. ومازال السلف الصالح رضي الله عنهم يبذلون جهدهم في الأنفاق في سبيل الله والتقرب إلى الله تعالى بمساعدة الغزاة والمجاهدين وإدخال السرور عليهم بما تصل إليه استطاعتهم قليلاً كان أو كثيراً حتى إن بعض نسائهم تصدقت بشعرها عقالاً لفرس في سبيل الله ؟وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ؟(١٨).

(١) آل عمران: ١٢٣

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم: ٦٩٣٨.

(٣) البقرة: ١٨٣.

(٤) آل عمران: ١٢٠.

(٥) الحج: ٣٨.

(٦) المائدة: ٨٢.

(٧) المنافقون: ٤

(٨) البروج: ٨

(٩) آل عمران: ١٢٦.

(١٠) محمد: ٧.

(١١) الحج: ٤١.

(١٢) غافر: ٥١

(١٣) البقرة: ٢١٤.

(١٤) آل عمران: ١٦٥.

(١٥) الرعد: ١١.

(١٦) محمد: ٣٨.

(١٧) البقرة: ٢٦١.

(١٨) محمد: ٣٨.

معيار النصر

د:محمدبن موسى الشريف

لقد جرى ما جرى في العراق ، وضاقت صدور قوم مؤمنين ، وامتلأت قلوبهم غيظاً وحنقاً ، وليس بسبب ما جرى على صدام وحزبه ولكن لأسباب أخرى منها :

١- انهيار الوضع فجأة بحيث تمكن الصليبيون المتصهينون دون مقاومة تذكر ، ولا نكاية كانت متوقعة فيهم ، وهذا بسبب التعبئة الكبيرة الكاذبة التي قام بها النظام ، وما كانوا يدعونه من أن بغداد ستكون مقبرة للغزاة ، وتعاطفت الشعوب الإسلامية تعاطفاً كبيراً جداً مع هذا الطرح ، وبنيت عليه الآمال العظام ثم فوجئوا بما جرى مما لم يكن في حسبانهم أبداً ، وهذا أورث كثيراً من الناس إحباطاً كبيراً ويأساً عظيماً ، وانهارت آمال كثير من الشباب المتحمس المتوقد والفتيان المتوثبين.

٢- تمكن الصليبيين المتصهينين من البلاد العزيزة على قلوبنا ، ومن مهد الحضارة الإسلامية ، وبدء تهديدهم لسورية وإيران وغيرهما من بلاد الإسلام ، وفي ذلك خوف كبير على هذه البلاد العزيزة الغالية.

٣- أثر هذه الأحداث العالمية في ترسيخ الطغيان الصليبي – الصهيوني ، وما تطبعه في أذهان الناس من سيطرة هؤلاء على مقاليد الأمور ، وما تضخمه في قلوبهم وعقولهم من هذه القوة والغاشمة ، وكل ذلك مردوده سلبي جداً.

٤- اجتراء القوى الأخرى على المسلمين ، وخاصة إخوان القردة والخنازير على إخواننا في فلسطين ، واجتراء الهنادكة عباد البقر على إخواننا في كشمير ، والصليبيين الفلبينيين على إخواننا هنالك.

المصدر:http://www.alta r eekh.com

بشائر النصر لهذا الدين

أي نعمة عظيمة تنعم بها هذه الديار ؟ وأي منحة جليلة يعيشها أهل هذه البلاد؟ إنها نعمة الإسلام وأكرم بها من نعمة ، إنها نعمة الالتزام بهذا الدين وأعظم به من منحة ..إن دين الإسلام هو الدين الحق الذي كتب الله جل جلاله له البقاء ، وقضاء وقدر سبحانه أن الله ناصر دينه ، ومعل كلمته ، مهما طال الزمان أو قصر ، ومهما تكالب الأعداء للفتك به وبأهله فإن الدائرة على الكافرين قال تعالى {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } إذن المستقبل لهذا الدين ، والعزة لأهل هذا الدين ، والتمكين للمتمسكين بهذا الدين ، العاضين عليه بالنواجذ ، المهتدين بهديه ، المستنين بسنته ، المقتفين أثره ، السائرين على منهاجه قال جلاله في تجلية هذه الحقيقة الكبرى ، والنعمة العظمة {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }وقال سبحانه {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}

وإن ديناً كتب الله له الظهور ، ولأهله النصر والتمكين في الأرض لابد وأن يستعلي ويهيمن ، وأن يصبح أهله أهل القيادة والسيادة ، فيملأ الأرض عدلا كما ملأت جورا ، وأن يحرروا الناس من عبودية المخلوقات إلى عبادة الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ، الذي { إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}

إن هذا الدين يحتاج إلى رجال ..نعم رجال صادقين يعرفون حقيقته ..ويتمسكون بمعالمه ، ويثبتون عليه حتى يلقوا ربهم سبحانه ، ولا يهولنهم إرجاف المرجفين ، ووعيد المتسلطين ، ولا يفتنهم انحراف الكثيرين ممن آثروا الحياة الدنيا على الدين ، واتبعوا سبيل غير المؤمنين ..لأنهم سألوا التاريخ ..واستنطقوا الأحداث الطويلة عبر سائر الأعصار وشتى الأمصار لتتجلى لهم تلك الحقيقة الناصعة ،أن هذا الدين قد حفظه الله تعالى ،وحقق لأهله العزة والتمكين والنصر المبين على سائر أعداء الدين ،مهما كانوا عليه من قلة في العدد ، وضعف في العُدد ، ومهما كان عليه أعداء الدين من كثرة العدد ، وقوة في العُدد ..إن استقرار هذا المعنى في قلوب أهل الإيمان في هذا الزمان يبعد خواطر التشاؤم عن القلوب ، ويبعث على التفاؤل بتمكن الإسلام في القلوب ، وضرورة غلبته ، وظهوره وهيمنته على سائر الأمم والشعوب ، قال عليه الصلاة والسلام : (ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار) وقا صلى الله عليه وسلم + : (إن هذا الدين لا يترك بيت مدر ـــ أي طين ـــ ولا وبر إلا دخله ، بعز

عزيز وذل ذليل)، ولقد بشر r بانتصار المسلمين على اليهود والروم آخر الزمان وبفتح روما عاصمة الفاتيكان .. {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }وإن الله ليؤيد هذا الـــدين بالرجل الفاجر

أيها المؤمنون :

إن هذا القرن المبارك ـــ إن شاء الله ـــ من قرون الظهور والغلبة للدين ، والعز والـــتمكين والنصـــر للمسلمين ، فلقد مضى عُشره مشتملا على أحداث ذات عبر ، وحاملا لبشائر بعد النذر ، تنبئ عن مستقبل للإسلام وهزائم منكرة لأعدائه المتربصين به الدوائر ، عليهم دائرة السوء ..فلقد ظهر خلال السنوات الماضية فشل الإلحاد ، وأعلن أهله إفلاسه على رؤوس الأشهاد ، وتلك والله خسارة الـــدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، ولقد تهاوت فيه عروش الطغاة الظلمة الـــذين طغـــوا في الـــبلاد فأكثروا فيها الفساد وظلموا العباد فأخذهم الله على حين غرة ، وجعلهم لأمثالهم آية وعبرة وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}

ومن العبر الظاهرة ودلائل قدرة الله الباهرة أن الإسلام والمسلمين يتآمر عليهم الأعداء من كل جهة ، ويتنادون عليهم من كل صوب ، تسخر في حربهم الأموال الطائلة ، وتحشد عليهم الجيوش الهائلـــة ، وتنظم المؤتمرات العالمية لكيفية القضاء عليهم والفتك بهم خاصة العلماء الربانيين والدعاة المخلصـــين فيكال لهؤلاء خاصة وللمسلمين عامة صنوفا من التعذيب والإعدام ، ويكال لهم أنواع السب والشتم والاتهام ..ومع ذلك كله ولله الحمد لا يزداد الإسلام إلا تمكنا من القلوب ، وتغلغلا في الشـــعوب ، وانتشارا في الأوطان ، ولا يزداد أهله إلا إقبالا عليه ورغبة فيه والتزاما به وجهادا من أجله ، وصدق الله العظيم إذ يقول {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُـــونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ، لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـــلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

فمع جهود أعداء الإسلام الجبارة لحرب الإسلام ، وكثرة مؤامراتهم ومؤتمراتهم على أهله على الدوام ، فإن الصحوة الإسلامية قد عمت الآفاق ، وغاضت ـــ بحمد الله ـــ أهل النفاق وذلك فضـــل الله جل جلاله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

آلا إنها دعوة للثقة بوعد الله بالنصر المبين للإسلام والمسلمين ..

آلا إنها دعوة للاستقامة على الدين والدعوة إليه والدافع عنه وتسخير الطاقات والجهود من أجلـــه ، وأن تكون حياتنا كلها فداء لهذا الدين ، وخدمة لهذا الدين فلا يشغلنا عنه شاغل ولا يصـــرفنا عنـــه صارف .

آلا إنها دعوة لأن نكون من أولياء الله المتقين ، وجنده المؤمنين { وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }

واقع العراق وأثر النفاق في تأخير النصر وإلحاق الأذى بالمسلمين

د محمد الدسوقي بن علي

في هذا المنعطف الخطير من تاريخ الأمة الإسلامية وفي هذا الوقت العصيب الذي تداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.. يستشعر المتأمل في واقع المسلمين عامة والمتابع لمجريات الأحداث على الساحة العراقية بخاصة، لماذا يتأخر النصر عن المسلمين؟ ويدرك – وربما أكثر من أي وقت مضى– أن أعظم معوق لإحراز النصر لأمة الإسلام هم المنافقون، وكيف أضحوا غصّة في حلوق المجاهدين الشرفاء، وشوكة في طريق المدافعين والمناضلين والساعين لتحرير أرضهم وديارهم، وكيف صاروا هم أخطر أثراً وأشد ضرراً على الإسلام وعلى أمة الإسلام من أعداء الإسلام، وأضحى مكر عدو الله وعدو المؤمنين لا يساوي بجانب مكرهم شيئاً .. كما يلحظ كيف يتزلفون ويذلون أنفسهم ويفصّلون منها نعالاً وأحذية في أرجل أهل الكفر، ينفذون مخططاتهم ويقومون بما يعجز الأعداء عن القيام به بل ويكفونهم في كثير من الأحيان مئونة الاقتتال، يستجلبون عطفهم ورضاهم ويطلبون منهم العون لقتل ذويهم وبني قومهم ويوالون ويعادون عليهم ويحبون ويكرهون لأجلهم، ولا نبالغ إذا قلنا أنهم في سبيل جلب رضاهم يساهمون في تخريب بلادهم وإهلاك حرثهم ونسلهم، ناهيك عن دورهم المشبوه في حجب نور الله وإقامة دينه والتمكين في مقابل ذلك لأعداء الإسلام.

يلمس المتابع لما يجري على أرض الرافدين وكل غيور على عروبته حريص على دينه، حجم الضرر الناتج عن أولئك الذين أصبحوا دمىً تحركهم أمريكا كيف تشاء، وكيف يسارعون في أهل الكفر يتكلمون بلسانهم ويتقدمونهم ويفدونهم بأنفسهم ويسهلون لهم مهمتهم في تكريس الاحتلال وفي قتل المسلمين وتعذيبهم وكشف عوراتهم واغتصاب نسائهم حتى صاروا حقراء حتى عند من قدموا ذلك لهم وفعلوه لأجلهم.. كما يلحظ كيف أضحوا عقبة كأداء في تحقيق موعود الله بالتمكين وسبباً مباشراً وحقيقياً في تأخير ما أوجبه الله وأحقه على نفسه في قوله: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)، وما وعد به عباده المؤمنين في قوله: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً).

ولقد أوضح لنا القرآن أن أبرز علامات المنافقين وأخص ما يميزهم عن غيرهم هو ولاؤهم للكافرين وأعداء الدين، وذلك في مواضع عديدة نذكر منها قوله جل جلاله في سورة النساء الآية الثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين بعد المائة: (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)، كذا بمجيء صفتهم بطريقة الموصول ليفيد علة استحقاقهم العذاب الأليم، وأنهم اتخذوا الكافرين أولياء وآثروا صحبتهم في مضادة المؤمنين والتربص بهم، لا لقناعتهم بما هم عليه

من كفر وإنما ليَقوُوا بهم من ضعف ويَعزوا بهم من ذل، ظناً منهم أن أعداءهم هم الأعـزاء الأقويـاء وأنهم بذلك يدفعون عن أنفسهم وعمن يوالونهم من أهل الكفر شر أهل الإيمان المتوقع منهم، وهنـا يأتي الاستفهام المنبئ عن التوبيخ والإنكار (أيبتغون عندهم العزة) "إيماء- على حد ما ذكر الطاهر بن عاشور- إلى أن المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيـدة"، وإلا لهـان الخطب في اتضاح أمرهم وانكشاف طويتهم، بل اتخذوهم ليلتمسوا منهم ما لا يملكونه مما أخـبر الله عنه في قوله: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.. المنـافقون/ ٨)، وفي ذلـك نهاية التجهيل والذم لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن ثم أتي جواب الله على هؤلاء بأسلوب التأكيد في قوله: (فإن العزة لله جميعاً)، إذ "لا عزة إلا به لأن الاعتزاز بغيره باطل، كما قيل: من اعتز بغـير الله هان.. وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية"أ.هـ

وتأتي هذه البشارة التهكمية- المنبئة بالسخرية والاستهزاء والمناسبة لتهتكهم بأهل الإيمـان- عقـب نداءين محببين للمؤمنين أحدهما يأمر بالعدل الذي يعم الأحوال كلـها، إذ العـدل في الحكـم وأداء الشهادة على وجهها على ما جاء في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم)، هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي، والانحراف عنه إلى الجور مفـض إلى فسـاد متسلسل، وما ذلك إلا لأن العدل يقتضي عدم محاباة الظالمين، تماماً كما يقتضي عـدم مجـاراتهم أو الركون إليهم ولو كانوا من أهلنا أو من أهل ملتنا أو حتى من أقرب الناس إلينا (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم مـنكم فأولئـك هـم الظالمون .. التوبة/ ٢٣)، (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجـوكم مـن ديـاركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون .. الممتحنة/٩)، فما بالك بمـن لم يكتف بمحاباة وتولي الكافرين حتى شاركهم في بغيهم على المسلمين فجمع في نفاقه واقتراف مـا نهى الله عنه بين ظلم نفسه والركون إلى أهل الكفر ومقاتلة أهل الإيمان، والنداء الثاني: يأمر بما هـو جامع لمعاني القيام بالقسط والشهادة لله (يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نـزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل)، وما ذلك إلا ليداوموا على ما أمر الله ويحذروا مآرب مـا يخل به.

وجاء عقب تلك البشارة التهكمية سالفة الذكر وفي معرض إقامة الحجة، نداء ثالث لأهـل الإيمـان يصب في نفس الإطار ويحذر من موالاة الكافرين بعد أن شرح دخائلهم وطريقة استحواذهم علـى المنافقين بقصد أذى المسلمين، (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أوليـاء مـن دون المـؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً)، وهذه آية جامعة للتحذير من موالاة أهل الكفـر علـى اختلاف مللهم وبما فيهم أهل الكتاب، ومن موالاة المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان و لم يوالوا أهله بل ناصبوهم العداء وراحوا يطيعون فيهم اليهود والنصارى، فهي تشهير بالنفاق وتحذير من الاستشـعار

بشعاره والتدثر بدثاره، وتسجيل على المنافقين أن لا يقولوا: كنـــا نجهـــل أن الله لا يحـــب مـــوالاة الكافرين، لذا كان التذييل الذي مراده أنكم إذا استمررتم على ذلك جعلتم لله حجة واضحة علـــى فساد إيمانكم.

وهنا يأتي الحسم لمصير هؤلاء الذين استهانوا بتحذير الله و لم يبالوا به: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) فلم يشُـــبْه بتردد ولا تربص بانتظار من ينتصر من الفريقين فإن كان للمؤمنين (فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)، أي وصولاً إليهم بهزيمة أو غلبة.

وفي سياق مماثل للنظم الوارد بسورة النساء، وفي ثنايا التصريح في سورة المائدة بكفر النصارى الذين قالوا: (إن الله هو المسيح ابن مريم) والذين قالوا: (إن الله ثالث ثلاثة)، وبلعن اليهود الذين (عصـــوا وكانوا يعتدون) والذين هم (أشد الناس عداوة للذين آمنوا)، والتنويه بكذب مقولة هؤلاء وأولئـــك (نحن أبناء الله وأحباؤه) .. يستمر حديث القرآن وتحذيره من مؤازرة أهل الكتاب أو التعاون معهـــم أو إحسان الظن بهم فضلاً عن مناصرتهم في قتال المسلمين وفتح المجالات أمامهم لتحقيـــق مـــآربهم، وذلك حتى لا يشكك أحد في مشروعية قتال هؤلاء أو أولئك عندما ينحاز الجميع لحرب المسلمين، أو يتهاون تحت أي مبرر في شأن التحذير والنهي عن موالاتهم .. يتواصل حديث القرآن عن ضعاف النفوس- فيما يشبه أن يكون درساً قاسياً في أيامنا لجميع مرضى القلوب مـــن المســـلمين حكامـــاً ومحكومين- وعما يظهرونه من خوف وهلع لبشر أمثالهم تكون نتيجته في نهاية المطاف الندم لكـــن بعد فوات الأوان حيث لا ينفع الندم، وما يبدونه تجاه من (لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة) مـــن ود ووفاق يطمّع فيهم أعداء الإسلام إلى حد أن يجعل منهم أداة طيعة يضربون بها أهل الإيمـــان، ومـــن حب ووئام عادة ما يكون على حساب مبادئ الإسلام، ومن تفان وإخلاص دائما ما يكون ثمنه دماء المؤمنين وأشلاء ضحاياهم واحتلال بلادهم، إذ في ذلك ضرر وأي ضرر.

وحتى لا يعمى الأمر أو يختلط لدى أصحاب القلوب المريضة من المنافقين، وحتى تتميز لديهم بالدليل القاطع صفات أهل الإيمان الذين لا يجوز التعدي عليهم ولا تسليمهم ولا خذلانهم ولا معـــاداتهم ولا مناصرة عدوهم، عن صفات أهل النفاق الواضح أمر نفاقهم بمسارعتهم في أهل الكفر، والبين أمـــر موالاتهم لعدو الله وعدوهم.. أفصح القرآن عمن تجب مـــوالاتهم ومناصـــرتهم والوقـــوف بجانبـــهم ومؤازرتهم وعدم تسليمهم أو خذلانهم فقال في محكم آياته بأسلوب القصر موجهاً خطابه لمن بقـــي منهم على الإيمان وجهل حقيقة أمره: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمـــون الصـــلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.. المائدة/ ٥٥)، فموقع هذه الجملة- على ما أفاده أهل التفسير- موقـــع التعليل للنهي عن معاونة أعداء الله أو اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، إذ الأصل أن تكون ولاية أهل

الإيمان لله ورسوله مقررة عندهم بموجب ما أظهروه من إسلام، وبالتالي يكون ولاؤهم للمسلمين، لأن من كان الله وليه لا يكون أعداء الله أولياءه، وتفيد هذه الجملة تأكيد النهي عن ولاية اليهود والنصارى.. فهي جملة خبر مستعمل في معنى الأمر، والقصر المستفاد فيها من (إنما) قصر حقيقي، وإجراء صفتي (يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) وكذا جملة (وهم راكعون) للثناء عليهم، ومعنى أن يكونوا أولياء للذين آمنوا أن يناصروهم ويعاضدوهم ويكونون منهم ومعهم ضد عدوهم كالبيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فهو في معنى قوله تعالى: (والمؤمنون بعضهم أولياء بعض).

ويجئ هذا الأسلوب القصري على غرار ما جاء في سورة المائدة عقب نداءين محببين لأهل الإيمان، أولهما: أتي بعد تهيئة النفوس لقبول النهي عن موالاة أهل الكتاب الذين بدت محاولاتهم في تضليل المسلمين والنيل منهم، فيشبه من تولاهم في استحقاق العذاب بواحد منهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم)، كذا في صورة الشرط والجواب، وقد استحق هذا الذي أضحى واحداً منهم أن يكون كذلك، لأنه كما ذكر القرطبي "خالف الله ورسوله كما خالفوا، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم، ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم أي من أصحابهم"، فإنه ومن كان على شاكلته على حد قول الآلوسي: " بالموالاة يكونون كفاراً مجاهرين"، "وهذا- كما في تفسير الرازي- تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين"، يقول ابن عطية: "من تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقدهم ولا إخلالٍ بالإيمان، فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم"، ويدخل فيما ذكره أهل التأويل- بالطبع ومن باب أولى- ما يحدث في أيامنا من مشاركة لهم في حربهم لمسلمي الفلوجة والموصل وأفغانستان وكل من كان على دينهم من أهل الإيمان، ومن إدلائهم على عورات المسلمين، ومن فتح أيٍّ من مجالات بلدان المسلمين برية كانت أو بحرية أو جوية أمامهم، ومن وضْعِ الحواجز ومنع المتناصرين من حربهم، ومن إنفاذ مخططاتهم في إهلاك حرث المسلمين ونسلهم، ومن إضفاء شرعية على الحكومات الموالية لهم .. إلى غير ذلك مما تقع فيه الأنظمة العربية والإسلامية وبمساندة أحيانا من علماء سلطاتهم، فإن هذا كله لا يتأتى إلا من ضعاف إيمان ومرضى قلوب (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) والدائرة المخشية هنا هي خشية انقضاض المسلمين على المنافقين، والأرجح أنها خشية "أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم- على حد ما ذكر

ابن كثير- أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك"، وما ذكره الحافظ هو ما يشهد له في أيامنا سطوة الباطل وهيمنة أهل الكفر كما أنه المتناسب مع واقع المسلمين الآن ومع ضعفهم.

وتفيد كلمة المفسرين أن قول (نخشى أن تصيبنا دائرة) صدر عن عبد الله بن أبي بن سلول وذلك حين عزم r على قتال بني قينقاع الذين كانوا أحلافاً لابن سلول ولعبادة بن الصامت فلما رأى

الأخير متزع رسول الله جاء فقال: (يا رسول الله إني أبرأ إلى الله من حلف يهود وولائهم ولا أولي إلا الله ورسوله)، وكان عبد الله ابن أبي حاضراً فقال: (أما أنا فلا أبرأ من حلفهم فإني لا بد لي منهم إني رجل أخاف الدوائر)، وما قالاه وفعلاه إنما يمثل الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق في كل عصر فليس العبرة بخصوص السبب بل بعموم اللفظ، والتاريخ دائماً وأبداً ما يعيد نفسه، ويؤكد موقف ابن سلول، أن المنافق لا دين له ولا عهد وأن تأرجحه بين الإيمان والكفر إنما هو لأجل الدنيا فهي ذاته ودائرته التي يعيش لها ويميل معها حيث مالت ويدور معها حيث دارت.

وقد اقتضى تحذير أهل الغفلة والنفاق من أعدائهم الذين يبغون صرفهم عن دين الله، ألا يخرجهم من دائرة الإيمان وأن ينبههم سبحانه من خلال نداء ثان على أن صلاحهم في ملازمة الدين والذب عنه، وأن الله لا يناله نفع من ذلك وإنما يعود نفعه عليهم، وأنهم لو ارتد منهم فريق أو نفر لن يضر الله شيئاً وسيكون لهذا الدين أتباع وأنصار وإن صد عنه من صد (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم).

كما دعا اعتراض هذا النداء بين ما قبله وبين جملة (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)، مناسبة الإنذار في قوله (ومن يتولهم منكم فإنه منهم)، في إشارة إلى أن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء طريق وذريعة مؤدية إلى الارتداد، لأن استمرار فريق على موالاة اليهود والنصارى يخشى منه أن ينسل عن الإيمان فريق، فأنبأ المترددين ضعفاء الإيمان إن هم اختاروا طريق الموالا ة المنهي عنها، بأن الإسلام غني عنهم .. وأتى بجملة (فسوف يأتي الله بقوم.. إلخ)، لبيان أن وعد الله آت لا محالة، ولإظهار الاستغناء عن المنافقين الذين في قلوبهم مرض وقلة الاكتراث بهم، وتطمين المؤمنين بأن الله يعوضهم بالمرتدين خيراً منهم، وطمأنتهم- فيما يشبه المحصلة من ذلك- بأن(من يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.. المائدة/ ٥٦)، واستغنى هنا عن جواب الشرط وهو الإيذان بوعد الله وبأن هذا الدين لن يعدم أتباعاً بررة مخلصين، بذكر ما يتضمنه للإشعار بأن للشرط جوابان.

ويتوالى النداء عقب التحذير من موالاة أهل الكفر وضرورة التمسك بموالاة الله ورسوله وكل ما هو منهما بسبب: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء).. ليكون بمثابة التأكيد لمضمون الكلام الذي قبله والتحذير من عدم امتثال ما نهى عنه ولتكون الحجة ألزم فلا يبق بعدها عذر لمعتذر، وفي ذكر الشرط استنهاض للهمة في الانتهاء، وإلهاب لنفوس المؤمنين ليظهروا أنهم مؤمنون لأن شأن المؤمن دائماً الامتثال.

هذا بعض ما جاء في شأن النفاق والمنافقين في مسألة اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، إنما أردنا من خلاله معالجة هذا المرض المفضي إلى تأخير النصر وإلحاق الأذى بالمسلمين، والذي يفتك بالقلوب ويعصّيها حتى يجعلها أقسى على ذوي القربى من الحجارة، وإلا فآيات سورتي التوبة

والمنافقون في كشف المزيد من حيلهم ماثلة للعيان، وهي في نهيهم عن اتخاذ الكافرين أولياء أكثر من تعد ونذكر منها قوله عزمن قائل: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء.. آل عمران/٢٨)، وقوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .. آل عمران/١١٨، ١١٩)، وقوله: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً .. النساء/ ٨٩)، وقوله: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.. المجادلة/ ٢٢)، وقوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون .. الممتحنة/ ١، ٢).

والسؤال المطروح الذي يفرض نفسه على كل من يحمل السلاح في وجه الأهل وأبناء الوطن الواحد مع أعداء الإنسانية ومدعي- كذباً وزوراً وبهتاناً- حقوق الإنسان وتحرير العراق ورافعي شعارات الحرية والديمقراطية في الوقت الذي يقتلون ويهلكون ويدمرون كل شيء .. ما يكون النفاق إن لم يكن ما ذكره القرآن من المسارعة في نجدة ونصرة هؤلاء اليهود والنصارى، وإن لم يكن التزلف والتقرب والمساعدة والمساندة والمعاونة بشكل أو بآخر والمشاركة لأولئك المحاربين الذين جاءوا من كل حدب وصوب ليهتكوا العرض ويسلبوا الأرض ويقتلوا النفس ويهلكوا الحرث والنسل؟ وما يكون الرأي في تلك الجرائم التي فاحت وشاع أمرها والتي لم يرتكبها في حق أهليكم وإخوانكم وأبناء جلدتكم سوى الأمريكان والبريطانيين ومن حالفهم من معشر يهود ومن أهل الصليب؟ وأين أنتم وقد رفع هؤلاء شعار الصليب وأقروا بأن حروبهم (صليبية) واعترفوا أن العراق ستكون عاصمة دولة ربيبتهم المزعومة من النيل إلى الفرات؟ أين أنتم يا جنود الحرس الوطني والشرطة العراقية من دينكم الذي يحرّم قتل النفس المسلمة، ومن وعيد ربكم القائل في قرآنكم (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً.. النساء/ ٩٣)، ومن تحذير نبيكم القائل (من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة كتب بين عينيه آيس من رحمة الله)، والقائل: (لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً)، والقائل: (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً)، والقائل: (إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام

عليك كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)، ومن إجماع المسلمين على حرمة سفك دم المسلم ولو أكره القاتل وهدد بالقتل .. أين ذلك كله مما تفعلونه طواعية بحجة أكل العيش وعدم وجود فرص عمل؟ وهل هذا العمل الذي تتقاضون من أجله حفنة من الدولارات وتحرمون لأجله رحمة

الله وجنته وتسهمون فيه بشكل مباشر أو غير مباشر في الإضرار بدينكم ووطنكم وأهليكم فتقتلون لأدائه طفلاً أو امرأة أو تحمون به مستعمرة أو تفادون من خلاله كافرًا أو تنتهكون به حرمة إلخ، يُعدّ في أي عرف وفي أي ملة وعند من له عقل أو ضمير عملاً شريفاً؟، وكيف تهنأون به وتقتاتون منه أنتم وأولادكم وقد دفعتم ثمنه دماء ذكية بغير حق ومساجد هدمت وحرمات انتهكت سواء كان ذلك بفعلكم أو بمعاونتكم؟ وإذا كان الصليبي الذي أشرك معه اليهودي والذي أتيتم أنتم لتشاركوهم في حرب إخوانكم وبني قومكم، جاء ليحقق هدفه في نهب ثروات بلادكم وقبض أثمان نفطكم وأخذ خيرات وأقوات أبنائكم، فما هدفكم أنتم وأين خدمتكم لدينكم وأين جهادكم في سبيل ربكم وأين دفاعكم عن عرضكم وذبكم عن نساء أهليكم، وأين نخوتكم ورجولتكم وقد جاءتكم الفرصة سانحة بعد أن دهم العدو أرضكم واغتصب زوجاتكم وأخواتكم وأمهاتكم وبناتكم وعماتكم وخالاتكم وبناتهن، أو فعل مثل ذلك في نساء إخوانكم في الدين والوطن؟، وألا كان حرياً بكم بدل أن تمكنوا لهذا المغتصب الآثم والمعتدي المجرم أن تسهموا مع إخوانكم في دفعه فتبتغون بذلك الأجر من الله وتدخلون معه في تجارة رابحة قال عنها: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها النهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين. يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله).

إليكم يا أبناء ديننا وعروبتنا وإلى كل من يحمل السلاح في وجه أهله وبني قومه ليحارب به مع أعداء الإنسانية، وإلى كل من يكرس للاحتلال – عن طريق انتخابات معلوم سلفاً نتائجها- ومستبقياً إلى ما لا نهاية الأوضاع على ما هي عليه الآن، هاكم فيما ذكرنا نماذج وبعضاً مما جاء في صحفهم وبشهاداتهم وعلى ألسنتهم (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة): أفردت جريدة (روبتر بنورث) الأمريكية على صدر صفحتها الداخلية قصة اغتصاب ٥جنود أمريكيين للفتاة العراقية (س) التي كانت متجهة لسوق البصرة لشراء احتياجات مترلها مخلفة وراءها طفلتين، وفي نهاية المقال يتساءل الكاتب: "أي أمن وأمان وديمقراطية أراد بوش أن يحققها في البلد العربي المسلم إنه يريد شيكاغو ثانية .. يريد أن يصرف أنظار مواطنيها عن دينهم وعبادتهم .. يريد بث الرعب وإنهاء حياتهم المستقرة"، كما ذكر الكاتب الأمريكي (ديفيد كول) عملية بشعة قام بها أربعة جنود أمريكان

كانوا مخمورين يدخنون الماريجوانا ضد أسرة المواطن (ص ح ز) الذي اقتحموا مترله في ساعة متأخرة من الليل، ولما لم يجدوا ما يسرقونه التقط أحدهم ذراع الزوجة البالغة من العمر ٢٧ عاماً ولديها طفلان، وبكل قسوة اختطفوها من بين أحضان طفليها الصغيرين اللذين كانا يرتعدان خوفاً وهلعاً من أصوات بنادق المحتلين، ثم اقتادوها بعد أن أشهروا السلاح في وجه زوجها الذي حاول دفعهم فأصابوه ليسقط مدرجاً في دمائه وسط بكاء طفليه.. الكاتب الأمريكي (وليام بود) لم يكن أقل صراحة وهو يروي في صحيفة (ويست بومفريت) الأمريكية في صدر صفحتها الأولى تحت عنوان (الاغتصاب الديمقراطي) تفاصيل جريمة بشعة ارتكبها جنود الاحتلال ويقول: "إن بوش قد ترك لجنوده أن يفعلوا ما يحلو لهم مع ضحايا سجنه الكبير في العراق، ترك (كول) و(ديفيد) اللذين يتميزان بالعدوانية الشديدة والهمجية يغتصبان نساء عراقيات بلغ عددهن وقتها٢٦فتاة وضحية، يقومان بعد
الثامنة مساءً باختطاف ضحيتهما من شوارع العاصمة دون تبرير ويجردانها من ملابسها أولاً ثم يُقدمان على تصويرها وإرسال هذه الصور المشحونة بأوضاع مخلة إلى أصدقائهما للاستمتاع بها وكأنهما ما حضرا إلى العراق إلا لهذا، فقط بنادقهم هي التي تتحدث وتتكفل بإسكات أي ضحية وبث الرعب في المحيطين بهم، عشرات الشكاوى وصلت إلى رؤسائهما و لم يتخذوا ضدهما أي إجراء يمكن أن يمنعهما عن هدفهما"، ويضيف الكاتب الأمريكي منتقداً: "هذه ليست ديمقراطية، يكفي تحقيق بعض الأهداف كالبترول والتوسع من أجل مصلحة الأعوان ولترحل أمريكا وترحم نساء وأطفال وشيوخ العراق".
فكيف- وهذه شهادة بعضهم- يتأتى لأبناء العراق الحبيب ولجنود شرطته وحرسه الوطني وللأنظمة العربية الذين مكنوا لأولئك الأوغاد أن يسكتوا عن هذا دون ما احتجاج فضلاً عن أن يغضوا الطرف عنه بل ويتعاونوا مع فاعليه وينفذوا مخططاته التي منها ضرورة إجراء انتخابات تحت نير هذا احتلال غاشم لا يبقي على شيء.
و لم يكن (بود) الذي ذكرنا شهادته هو آخر من انتقد الاحتلال وندد به فقد انتقده (وليام أركلين) وأفرد على صدر صفحات (ويست بومفريت) جرائم حرب لجنود أمريكان ارتكبوها في العراق، وذكر- بعد أن ندد بعمليات النصب والسلب التي يقومون بها- قصة جنود أمريكان راحوا يفتشون أحد المنازل وبقسوة قاموا بانتزاع صغيرتين من أحضان الأبوين وجردوهما من المشغولات الذهبية وحين تأخرت عملية تجريد إحداهما من قرطها انتزعه واحد منهم بشدة ليصيب الطفلة بجرح قطعي و لم يستطع أحد من أفراد الأسرة حمايتها خوفاً ورعباً من السلاح الفتاك الذي يحملونه.
وعن قتل المدنيين المتعمد حدثوا ولا حرج، وفي إطار الحديث عن بعض حوادث قتلهم وعن حجم الخسائر في الأرواح والضحايا التي سقطت على أيدي أولئك الذين يحصون عدد قتلاهم بالواحد- في

الوقت الذي فيه لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة- نكتفي هنا بما أكدته مؤسسة مدنية قامت بمسح المستشفيات والمقابر والأسر العراقية من وجود آلاف المصابين ومن أن أكثر من ٥٠٠٠عراقي من المدنيين لقوا مصرعهم في الفترة ما بين ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٤ وحتى إعلان انتهاء العمليات الرئيسية في١/ ٥ يعني في غضون شهرين فقط، ناهيك عن عشرات المئات من القتلى التي تسقط بشكل يومي عند كل مداهمة لمدينة على نحو ما جرى في الموصل والرمادي وبعقوبة والفلوجة وغيرها، فماذا يا ترى تكون حصيلة القتلى منذ بداية وطوال فترة الاحتلال إلى يومنا هذا؟ يجيب عن هذا التساؤل (مارك ريزيكه) مؤسس منظمة اجتماعية أجنبية الذي صرح عندما سؤل عن عدد الضحايا المدنيين: "إن الجيش الأمريكي لا يتعقب أثر هذه الأشياء ولا يهمه عددها"، وكان مسئولون عسكريون قد أوضحوا أنه لا توجد لديهم أرقام دقيقة أو تقديرات عن عدد القتلى والجرحى من المدنيين العراقيين حيث قالت المتحدثة الرسمية لوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) (جان كامبل): "إننا لا نحتفظ بالقائمة"، وبالطبع يغيب عن أمثال هؤلاء ما جاء في الحديث: (لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)، وقوله عليه السلام: (لو اجتمع أهل الأرض على قتل مسلم لأكبهم الله جميعاً في النار).

لكن التبعة واللائمة تقع في المقام الأول على أهل النفاق الذين مكنوا قوى التحالف من إعمال القتل في أهليهم وذويهم رغم ما يتعرض له أولئك المنافقون أنفسهم، ورغم عجز قوى التحالف البيّن عن إحراز نصر بدونهم، الأمر الذي يؤكد إمكانية انتهاء الاحتلال منذ بدايته لولا مباركة أولئك المنافقين الذين قدموا على طائرات المحتل واستعانوا به بل وطلبوا- ولا يزالون- ذلك منه صراحة، كما يفسر إصرار أمريكا إزاء ضراوة المقاومة وشدها على إجراء انتخابات بأي شكل .. لتخرج من هذا المستنقع الآسن وذاك الفخ الذي نصبته لنفسها- وقد حفظت ماء وجهها- رغم فداحة ما تكبدته في العدد والعدة .. ولتوقع أهل البلاد مع الحكومة التي ارتضتها لتحقيق مصالحها في بركة من الدماء.. ولتقف هي فيما بعد موقف المتفرج بعد أن توهم العالم أنها أدت مهمتها ووضعت العراق على بداية طريق الحرية والديمقراطية، فإياكم يا أبناء عراقنا الحبيبة وإنفاذ مخططاتها.

ولعله قد وضح الآن أن ما سبق أن ذكرنا بعضه مما يفعله أعداء الله وأعداء الإنسانية ومما جاء في فلتات ألسنتهم وهو قليل من كثير، مقصوده إقامة الحجة على أهل النفاق الذين يجدّون في البحث عن أسباب يغطون بها جرائمهم في حق دينهم ووطنهم وأهليهم، وقد وجدوها بالفعل فيما يردده أضرابهم من المرجفين خارج المدينة وداخلها من تسمية المقاومة العراقية إرهاباً .. وفيما أوحى لهم به أعداء الإنسانية من ضرورة ضبط الحدود وعقد مؤتمرات لدول الجوار للغرض ذاته ولمنع العناصر الأجنبية المتسللة (وهم لا يعنون بالطبع قوى البغي والعدوان الذين أتوا من أقاصي بلاد الدنيا وأدانيها عبر محيطات العالم وأجوائه ليحاربوا عرباً مثلهم ومسلمين في عقر دارهم ويغتصبوا نساءهم ويهلكوا حرثهم ونسلهم، ولا أولئك المرتزقة الذين أتوا بهم لتحقيق نفس هذه الأغراض من العجم، بل

يقصدون بها حفنة من شباب البلاد العربية المجاورة عز عليهم أن يتركوا إخوة الإيمـــان وأصـــحاب الجنب الذين وصى الإسلام بهم وأمر بنصرتهم) .. كما وجدوها في إطلاق عبـــارات (متمـــردين) و (مسلحين) و(قوى الظلام) إلخ، (ويعنون بهم أهل البلاد التي احتلت أراضيهم وهدمت بيوتهم ودمرت مساجدهم وأجهز على جرحاهم) .. ووجدوها كذلك فيما منّاهم به أهل الكفر من إشاعة الحريـــة وإقامة الديمقراطية وفي تهيئة المناخ الملائم لإجراء انتخابات علم سلفاً ما يكون مصيرها ومن سيحظى بها على غرار ما حدث في أفغانستان والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

ومقصود ما ذكرنا كذلك، بيان أن ما يجري من مدافعة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ما هو إلا سنة من سنن الله التي أخبر عنها في قوله: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)، وقوله: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصـــر الله ألا إن نصـــر الله قريب) .. وما هو إلا قتال في سبيل الله أمر الله به وأوجبه كما جاء في قرآن المسلمين (كتب عليكم القتال وهو كره لكم)، (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ... الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .. وما هو إلا ابتلاء منه سبحانه لعباده المؤمنين ليعلم من ينصره ورسله بالغيب على ما جاء في قوله: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله مـــن ينصـــره ورسله بالغيب)، وقوله: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم)، وليميز به بين أهل النفاق وأهل الإيمان ويبين به درجته لدى كلٍّ حتى لا يدعيه أي أحد كما جـــاء في قولـــه: (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين)، وقوله: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الـــذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) .. ما هو إلا لبث روح الأمل لدى عباده المؤمنين لكونه اقتراب لمـــا وعدهم به في قوله: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليســـتخلفنهم في الأرض كمـــا استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لكم دينكم الذي ارتضى لكم) .. وما هو إلا تحقيق لما ساقه الله في قوله: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)، وقوله: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد)، وقوله: (إن الـــذين كفروا ينفقون أموالهم

ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون)، والنبي في قوله (تتداعى عليكم الأمم .. الحديث) .. ما هو إلا إجمال لما حدث في مكة وما حدث في أحد وبدر، هو (ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء.. وليمحص الله الـــذين آمنـــوا ويمحـــق الكافرين)، (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لـــو نعلـــم قتـــالاً

لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلـــم بمـــا يكتمون).

ولا ينبغي أن نتهاون أو يفوتنا التنبه لما كشفت عنه آية آل عمران الأخيرة من جعل أهل النفاق أقرب للكفر من الإيمان، وما أكثر ما زاوج القرآن بينهما، ولنتأمل في ذلك قولـــه تعـــالى: (إن الله جـــامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً.. النساء/ ١٤٠)، وقوله: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفـــار نار جهنم .. التوبة /٦٨)، وقوله: (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً.. التوبة/ ٩٧)، وقولـــه: (ألم تـــر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيـــع فيكم أحداً أبداً ولئن قوتلتم لننصرنكم .. الحشر/ ١١)، كما لا ينبغي أن يفوتنا أمر الله لنبيه بجهادهما معاً- كذا دون تفرقة- وذلك في قوله: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم.. التوبـــة/ ٧٣ والتحريم/ ٩)، ونصحه بعدم طاعتهم والسير في ركابهم (ولا تطـــع الكـــافرين والمنـــافقين .. الأحزاب١، ٤٨).. وعلى غرار ذلك ولخطورة ما عليه أهل النفاق زاوج القرآن كذلك بينهم وبـــين المشركين في قول الله تعالى: (ليعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات .. الأحـــزاب/ ٧٣) وقوله: (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات .. الفتح/ ٦)، وفي ذلك مـــن شـــديد غضب لله على هذا الصنف من الناس- كما لا يخفى- ما فيه.

كما شهدت آي الذكر الحكيم بفسادهم (ألا إنهم هم المفسدون ولكـــن لا يشـــعرون. البقـــرة/)، وكذبهم (والله يشهد إن المنافين لكاذبون .. المنافقون/١)، ووسمتهم بالفسق والخروج عن طاعـــة الله (نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ..التوبة/ ٦٧)، وقلة الفقه والعلم (ولكـــن المنـــافقين لا يفقهون.. لا يعلمون.. المنافقون/ ٧، ٨)، وبظنهم بفعالهم القبيحة أنهم (يخادعون الله والذين آمنـــوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون..البقرة/ ٩)، وأنهم العون الوحيد للكفر والكـــافرين.. وبـــأن نفاقهم لا يظهر إلا في وجود قوتين متصارعتين يتذبذب بينهما على ما هو عليه الحـــال الآن خلافـــاً لعصر الخلفاء الذي خمدت فيه قوة الكفر .. وأوضحت أنهم لخفائهم أخطر في حربهم المسلمين مـــن الأعداء الظاهرين وأن أخطر ما في حربهم للإسلام سهولة الاستحواز على عقول البسطاء من عامـــة المسلمين ثم نشر الفتنة بألوانها بينهم وأن شخصاً واحداً يستطيع أن يفسد الآلاف من هؤلاء الســـذج كما استطاع ابن سلول حين رجع بثلث الجيش في غزوة أحد على سبيل المثال، ومسيلمة الذي أفلح في إفساد عقيدة عشرات الألوف من أهل اليمامة، وابن سبأ الذي استطاع أن يصدع كيان الأمة بعد مقتل عثمان .. كما أفصحت آيات الذكر الحكيم عن تحالفاتهم مع جميع أطياف الكفر لكونهم- من الناحية المادية وحسب نظرتهم للأمور- الأكثر عدة وعتاداً ولكون صحبتهم- من وجهة نظـــرهم- أخف ضرراً وأيسر عبئاً.. ولم تعذرهم فيما أقدموا عليه من جرائم في حق دينهم وذويهم لا في الدنيا حيث الذلة والاستكانة ولا في الآخرة حيث العذاب المهين في الدرك الأسفل من النار يوم القيامـــة..

ووصفتهم بالحرص على الدنيا والإرجاف والكبر والبخل والأمر بـــالمنكر والنـــهي عـــن المعـــروف والتكاسل عن الصلاة إشاعة الفاحشة في المؤمنين والخوف منهم وبكثرة الحلف.. وأظهـــرت مـــدى خطورتهم وعداوتهم لأهل الإيمان في عصر لم يجرئوا فيه على حمل السلاح في وجوههم، بل ونزل فيه قول الله

تعالى: (هم العدو فاحذرهم) كذا بأسلوب القصر المفيد أنهم العدو البالغ العداء لا غيرهم، وبـــأنهم في الدنيا في قلق نفسي لا يستقرون على حال (يحسبون كل صيحة عليهم .. المنافقون/٤)، الأمر الـــذي يعكس ما في بواطنهم من وساوس وتصورات لأنهم متلبسون بجرائم من الكذب والبهتان فهم لذلك على حذر دائم، ومع احترافهم الكذب والحذر الشديد سرعان ما ينكشف بهتانهم (إن الله مخرج مـــا يحذرون ..التوبة/٦٤)، ولا يهنأ لهم مقام (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورون فيها إلا قليلاً. التوبة/ ٦٠).

وفي نور الذكر الحكيم وعلى ضوء ما أفادته آياته المحكمات وأشارت إليه السنة الصـــريحة والعقـــل الصحيح أفتى أهل العلم بجواز قتل المسلم الذي تترس به العدو إذا تحقق في قتله الخلوص إلى العدو فما بالك بمن قاتل من المنافقين دون العدو، وضحى بنفسه في سبيله، كما أفتوا بأن التحرج من قتال أهل النفاق إنما كان في حال عدم مساهمتهم في قتال وقتل أهل الإيمان واكتفائهم في معاداة المسلمين بحرب المؤامرات والدعايات "حتى لا يستغلوا ذلك- على حد ما ذكر د/ عبد الحلـــيم حفـــني في كتابـــه (أسلوب القرآن في كشف النفاق ص٧١)- في الدعاية لمصلحتهم ضد المسلمين"، أما مع مواجتـــهم المسلمين وتعاونهم في ذلك مع العدو فلا فرق بينهم إذاً وبين أهل الكفر على ما أفاده ابن القـــيم في (مفتاح دار السعادة) وكما أفاده إجماع المفسرين فيما سقناه لهم في آيات سورة المائدة ســـيما وقـــد جمع القرآن بين الفريقين وأمر الله نبيه بمجاهدتهما معاً، وقد حدا ما ذكرنا بـــ ٢٩عالماً مـــن علمـــاء السعودية يمثلون غيرهم من العلماء المخلصين الشرفاء وكذا بعلماء المجلس الأعلى للشئون الإســـلامية بالأزهر الشريف لأن يصدروا فتواهم التي تقضي بعدم جواز قتال رجال المقاومـــة الـــذين يقومـــون بواجبهم في صد وإخراج المحتل ولا الاعتداء عليهم وبعدم جواز التعاون مع أعداء الإنسانية أو تنفيـــذ مخططاتهم التي يدخل فيها بالطبع تنظيم الانتخابات التي تكرس احتلالهم أو تمكن لهم وبعـــدم جـــواز اتخاذهم أولياء أو مدهم بالمعلومات تحت أى ظرف من الظروف، وهو ما أفاده كلام الشـــيخ ســـيد سابق في كتابه فقه السنة ٣/ ٧٥ حيث نص على "أن حكم القرآن في هؤلاء الذين يتعـــاونون مـــع الاستعمار وأعداء العرب والمسلمين بيّن واضح، وأن ذلك خيانة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وأنهم لم يراعوا حق الإسلام ولا التاريخ، ولا حق الجوار ولا حق المظلومين، ولا حق حاضر هذه المنطقة ولا حق مستقبلها، وهؤلاء الخونة بتصرفهم هذا قد باعوا

أنفسهم للشيطان، وسجلوا على أنفسهم خزي الدهر وعار الأبد".

إن هذه الفتنة التي أطلت برأسها وتمثلت في الاحتلال الأمريكي وتحالفه البغيض للعراق وما أحدثه أولئك المجرمون القتلة أعداء الحرية والديمقراطية والإنسانية في تلك البلد المسلم، من دمار وخراب طال الأرض والشجر والإنسان، ومن سفك دماء وحصد لا نقول لأرواح عشرات الآلاف من الأبرياء بل لمئات الآلاف، وقتل جرحى واغتصاب نساء واعتداء على أطفال، وانتهاك حرمات وتدنيس مقدسات وهدم مساجد ونهب متاحف وسرقة آثار، وارتكاب جرائم حرب واستخدام أسلحة دمار شامل وقنابل محرمة دولياً بلغت مئات الآلاف من الأطنان، واحتلال لأرض الغير بالقوة عن قصد وبعد تفادي أسباب ذلك والعلم به، واستعمال لأعمال أقل ما توصف به أنها أعمال بلطجة وهمجية، وعصف بما يدين هذه الأعمال البربرية من قرارات دولية، وإعلان بأن ما ذكر يأتي في إطار حرب صليبية، وفرض لعقيدة النصارى عن طريق مبشرين، واستحضار لليهود وإعطائهم الحق في حرب وقتل وتعذيب المسلمين وشراء أراضيهم في كركوك والموصل وأربيل تمهيداً لتطويق بلاد المسلمين ولتحقيق حلمهم من النيل إلى الفرات، وسماح لآلاف من جنودهم ولعشرات من حاخاماتهم للمشاركة في هذه الحرب القذرة، وعدم إخلاء الشوارع والمناطق الساخنة من جثث المسلمين وتركها تتعفن وتصبح مرتعاً لكلاب أتوا بها لهذا الغرض، وتقطيع أطباء أمريكيين لأوصال وأعضاء القتلى وبعض الجرحى العراقيين بقصد المتاجرة بها وبيعها للمرضى وللمراكز الطبية في أمريكا على ما أفادته تقارير أجهزة الاستخبارات الأوربية مؤخراً، وحرمان الجرحى من مواد الإغاثة الطبية سعياً إلى التخلص منهم، وتدمير العديد من المستشفيات والعيادات، ونهب محتوياتها أحيانا وضرب العاملين فيها حتى من الأطباء، وفرض أشخاص غير مرغوب فيهم ولا يمثلون هذا الشعب المقهور، وإكراه على اتباع نظم انتخابية تمهيداً لتعيينهم ولفرض أمر واقع على نمط ما جرى

في تجربة أفغانستان، واصطناع ديمقراطيات مفصلة ومعدة سلفاً لتحقيق مصالح المحتل، وتداعي الأمم الكافرة من كل حدب وصوب، ومنع شباب المسلمين- في الوقت ذاته- من مناصرة إخوانهم في الدين، وتبجح بإمرار كل ذلك بحجج كاذبة ودعاوى مختلقة يقومون بأنفسهم بتفنيدها ويقرون- لكن بعد فوات الأوان وبعد تحقيق الهدف منها وبعد ارتكابها عن عمد- بخطئها .. ونضيف لما ذكرنا ما وقع من إدانةِ خبراء وعسكريين ومختصين من نفس دول الاحتلال، ومن اعترافات صريحة منهم ولأكثر من مرة بخطأ هذه الحرب، ومن تظاهرات اندلعت من جميع دول العالم وفي قلب الدول المشاركة، ومن سحب بعض هذه الدول لقواتها بعد أن أدركت خطأ هذه الحرب .. كل هذه الأمور جعلت ليس أبناء العراق فحسب بل المسلمين في كل بقاع الأرض في المحك وأمام اختبار صعب (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)، فهل إلى خروج من هذا النفق المظلم وطريق النفاق المسدود من سبيل غير سبيل الجهاد؟ وهل من ملبٍ للنداء وتائب مقلع عن نفاقه معتصم بربه مشمر لرائحة الجنة مدافع عن دينه وأرضه وعرضه؟ هذا أملنا وليس لنا أمل سواه (إن

المنافين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً.. النساء/ ١٤٥:١٤٧)، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.. آل عمران/ ١٢٦)، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. يوسف/ ٢١).

النصر بيد الله وحده

بسم الله الرحمن الرحيم

إن كل الآيات في القران الكريم تؤكد بشكل قطعي وجازم وبما لا يقبل الشك أن الله وحده هو الذي بيده النصر يمنحه لمن يشاء وليس المنتصر إلا من نصره الله ولا يكون غير ذلك أبدا

فهل يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي نصر اليهود على العرب في عام ٦٧ مثلا وهل يكون الله هو الذي نصر أمريكا ولا يزال مثلا ، وإذا كان كذلك فكيف يكون بالله عليكم، وإذا لم يكن فهل ثمة نصر من عند غير الله؟

خلصونا من حيرتنا جزاكم الله عنا خيرا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فاعلم أنه لا يقع شيء إلا بتقدير الله تعالى وإرادته ، والله سبحانه وعد عباده المؤمنين بالنصر والتمكين ، ونفى سبحانه أن يجعل للكفر وأهله سلطانا عليهم ، فقال سبحانه: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [الروم:٤٧].

وقال: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) [الحج:٤٠].

وقال /: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور:٥٥).

فإذا انتصر الكفر، وجعل للكافرين الدولة والغلبة على المؤمنين، في بعض الأزمنة أو الأمكنة فذلك لتخلف سبب النصر وشرطه ، ووجود ما يناقضه ، فيعاقب الله المؤمنين على تفريطهم في دينهم وما أمروا به لعلهم يرجعون ، ويكون هذا ابتلاء وتمحيصا للمؤمنين ، وإمهالا واستدراجا للكافرين.

لكن إذا تمسك المسلمون بدينهم ورجعوا إلى ربهم، فإن لهم الغلبة والنصر والتمكين، لأن الله يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [محمد:٧].

ويقول سبحانه: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [لأعراف:١٢٨].

والناظر في حال المسلمين اليوم يجد أنهم في قتالهم للكفار لم يرفعوا راية الإسلام، ولم يتمسكوا بدينهم، فقاتلوا تحت رايات القومية والوطنية، فكانت النتيجة الخسران كما هو معلوم، وعندما قاتل

المسلمون في أفغانستان والشيشان تحت راية الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا حقق الله لهم النصر، وعندما اختلفوا على بعضهم جعل الله بأسهم بينهم جزاءً وفاقاً، ولا يظلم ربك أحداً، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فعلى المسلم المؤمن أن يسلم ويؤمن بقضاء الله وقدره في كل شيء، وخاصة بعد وقوع الأحداث، وأن يتجه إلى النظر في أسبابها وشروطها الموضوعية، قال تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران:١٦٥]، فهو سبحانه قادر على إنفاذ وعده لكم بالنصر، ووعيده للكفار بالخذلان، ولكنكم أنتم لم تستوفوا شروط النصر، و لم تنتف منكم أسباب الهزيمة، فهذه قاعدة نفسية، تقود من تأملها إلى العمل والإصلاح بدلاً من اليأس والشك في المقدور، ولله عاقبة الأمور.

وللمزيد في ذلك انظر الفتاوى رقم: ٢٨٥٥، ٨٥٤٦.

والله أعلم.

المفتي: ... مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

سيأتينا النصر عندما تتوفر شروطه في واقعنا

الأحد ٢ ذي القعدة ١٤٢٦هـ - ٤ديسمبر ٢٠٠٥م

الصفحة الرئيسة

- مهمة الحوار في ديننا هي دعوة الآخر إلى الإسلام.
- على الحركات الإسلامية أن تحدد أهدافها بوضوح .
- دراسة الإسلام تحولت عند البعض من علم إلى ثقافة.
- الديمقراطية عزلت الحياة الدنيا عن الآخرة عزلاً كاملاً.
- لم يجد اليهود والنصارى عدالة طوال تاريخهم كما في الإسلام.

أجرى الحوار: أسامة الهتيمي

مفكرة الإسلام : لم يعد خافيا على أحد ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية من الضعف والترهل والابتعاد عن القيم والسلوك الإسلامي وقد تحققت فيها نبوءة الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - ' توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها' .. غير أن هذا الحال ربما يجمع عقلاء الأمة ومفكريها على أن يتوحد إحساسهم بالألم والإرادة في الخروج من هذا النفق الذي امتد بها ولقرون طويلة حتى قال المؤمنون منهم ' متى نصر الله ' .

ومع كل ما تعرضت له الأمة من مكائد ومؤامرات أعدائها فما زالت باقية تقاوم وصامدة أمام هــذه المؤامرات بكل ما أتيح لها من قوة السلاح أو بقوة الفكر الذي ما زال يمثل حصنا قويا ومنيعا ضــد تذويب وفقدان هوية الأمة.

مفكرة الإسلام وسط النقاش الذي لن ينتهي حول واقع الأمة ومستقبلها حملت تساؤلاتها للــدكتور عدنان النحوي الداعية والمفكر الإسلامي وأحد من فرغوا أنفسهم للدعوة الإسلامية ليذب عنها مــا يثيره الأعداء بين الحين والآخر وليؤكد أصالة هذه الأمة التي حتما ستحظى بنصر الله إن هي عــادت إلى ربها وحققت شروط النصر في واقعها .

** الجميع من مختلف الاتجاهات يعترف بتردي حال الأمة العربية والإسلامية، غير أنهم يختلفــون في أسباب الداء وبالتالي في طرق العلاج .. هل يمكن أن تطرحوا بإيجاز عناصر مشــروع يمكــن بــه استنهاض الأمة وابتعاثها من جديد؟!

• أولاً هناك أناس ما زالوا لا يعترفون بتردِّي الحال ، وما زالوا يعتقدون أننا نحقق نصراً بعد نصــرٍ ، وما زالت الاحتفالات والمهرجانات بالنصر الموهوم ممتدة في العالم الإســلامي، ولا مجــال هنــا لأن نضرب أمثلة. وكذلك ما زال هناك أناس لا يعترفون بأخطائهم ويريدون أن يفرضوا أخطاءهم على الأمة كلها . وهنالك أناس يرون أنهم هم وحدهم يستطيعون أن ينقذوا الأمة ، وقد أُعْطِيَ الجميــع فرصة واسعة لإنقاذ الأمة !

كلٌّ يقول أنا الذي فإذا الذي ليس الذي ! يا ويل من لم يعدِلِ !

أما عن سؤالكم : ' هل يمكن أن تطرحوا بإيجاز عناصر مشروع يمكن استنهاض الأمة وابتعاثها مــن جديد ؟! ' أقول : نعم يمكن ذلك ! وكيف لا يمكن ، والله لا يُعقل أن يترك عباده دون أن يوفّر لهم سبيل النجاة والعزّة والقوة ؟! إنه وعد من الله ومن أوفى بعهده من الله ؟ ولقد كــرّر الله ســبحانه وتعالى وعده هذا للمؤمنين في آيات كثيرة تأكيداً على أهمية السبيل الذي أرشدنا الله إليه ، وأهميــة التزامه .

والنقطة الأساسية هنا هي أن النصر من عند الله وحده، ينزل نصره على عباده المؤمنين حين يستوفون شروط النصر التي أمر الله بها في واقعهم. فإذا لم يُنزِل الله نصره فلننظر في أنفسنا، فالله لا يظلم الناس شيئاً أبداً ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم.

ولأهمية هذا الموضوع فقد تفرَّغت للكتابة في ميادين متعددة بتفصيل على قدر ما هداني إليــه الله في كتب تجاوزت التسعين كتاباً في ميادين متعددة تشمل ميادين الفكر والفقه والتوحيد ، والواقع ومــا فيه من اضطرابات فكرية وما فيه من أحداث ، وتشمل السياسة والأدب ومذاهبه والردّ على المذاهب الفكرية والأدبية المنحرفة في دراسات مفصلة ، نثراً وشعراً وملاحم .

وإني أطرح من خلال هذه الدراسات نهجاً أعرضه على كل المسلمين بعامة وعلى الناس كافة، لكـــل مسلم ولكل أسرة ولكل مجتمع. ويشمل هذا النهج: النظرية العامة للـــدعوة الإســـلامية، المنـــاهج التطبيقية، النماذج، الأساليب، الأهداف، التخطيط، وغير ذلك. إن الهدف العام من هذا النهج هـــو إنقاذ المسلم من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة، ثم هناك الهدف الأكبر والأسمى، ثمَّ الأهـــداف الرَّبَّانيَّـــة الثابتة، ثمَّ الأهداف المرحلية.

ولقد أوجزت ذلك كله في كتب موجزة في مراحل متعددة ، وكان آخرها : ' الموجز الميســـر عـــن مدرسة لقاء المؤمنين ' . ذلك لأني أومن أنه لا تستطيع فئة واحدة مهما بلغت قوتها أن تنقذ الأمـــة ، والأمة ممزَّقة أقطاراً وأحزاباً وأهواءً. فذلك يجلب غضب الله ، ويفتح المنافذ لأعـــداء الله ليتســـللوا ، فيثيروا الفتن ويزيدوا الأمة بلاءً على بلاء ، وفتناً على فتن ، وتنازلاً بعد تنازل .

فلا بدَّ إذن من لقاء المؤمنين المتقين الصادقين الذين لا يسعون إلى زهوة الدنيا وتنافسها ، بل يؤثرون الآخرة على الدنيا كما أمر الله ، لا بدَّ من لقاء المؤمنين الصادقين على نهج يمثل قاعدة اللقاء . هـــذا النهج هو الذي أطرحه في دراساتي ، وهو الذي أدعو إليه ، وأعرضه قدر وسعي وطاقتي على النـــاس كافة . وهذا النهج قائم على : قواعد الإيمان والتوحيد كما جاءت في منهاج الله ، وعلـــى المنـــهاج الرباني ـــ قرآناً وسنّة ولغة عربية ـــ وعلى مدرسة النبوة الخاتمة التي يجب أن تكون ممتدة مع الـــزمن تصنع الأجيال المؤمنة دون توقف .

لا يمكن إيجاز هذا النهج هنا بأكثر من ذلك، ولكنني أنصح باعتبار كتاب: ' الموجز الميسّر ' مـــوجزاً يمكن أن يعين. وهنالك كتب أخرى موجِزَةٌ لهذا النهج تجدها في قائمة الكتب الصادرة .

وأهم العناصر : وضع النظرية العامة وتحديد بنودها ودراسة هذه البنود دراسة مفصلة ، ثمَّ تحديد أهم الأمراض والمشكلات في واقع المسلمين ، ثم التزام النهج الإيماني في التفكير ، التخطيط العام للـــدعوة الإسلامية ، التخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة ، إقامة نظام إداري يوفر التنسيق والإشراف والمتابعة والتوجيه ومعالجة الخلل والأخطاء ، ثمّ إقامة المؤسسات الإيمانية ، اعتماد ميزان المـــؤمن ، واعتمـــاد التقويم الدوري والمرحلي ، واعتماد التدريب العملي ، إلى غير ذلك من العناصر .

أنا وحدي لا أستطيع أن أحقق ذلك ، ولا أيٍّ فئة وحدها ، ولكني أستطيع أن أقدم النظرية والمناهج والنماذج والدراسات وغير ذلك ، ولكن لا بدَّ من لقاء المؤمنين الصادقين على طريق بنـــاء الأمـــة المسلمة الواحدة التي لا غناء عنها لتحقيق أي نصر في واقعنا اليوم . فاليوم كل طائفة تعمل وحدها ، وكل بلد يعمل وحده ، والأعداء يأخذون كل فريق وكل بلد على انفراد في ضعفه وهوانه .

إذا لم تَقُمْ في الأرض أمة أَحمدٍ فكلُّ الذي يجري على الساح ضائع

** يعلق البعض أسباب الفرقة التي تعاني منها الأمة على الاختلاف المذهبي على الرغم مـــن أن هـــذا الاختلاف المذهبي مصاحب للأمة منذ عهود ازدهارها ... ما تعليقكم على ذلك ؟!

* الاختلاف في الأمة اليومَ لم يعد محصوراً في الاختلاف المذهبي .فهنالــك الاخــتلاف الحــزبي ، واختلاف الأقطار ، واختلاف التصورات العامة ، واختلاف الأهواء والمصالح ، واختلافات أخــرى كثيرة !

أما الاختلاف المذهبي في أوله فلم يفرّق الأمة، لأن أصحاب المذهب كانوا يصرّون علــى أن يعــود المسلمون إلى الكتاب والسنة ، وأن يأخذوا من حيث أخذوا. فكان للجميع مرجع ربــاني واحــد . وكان الاختلاف في أمور يبيح الإسلام فيها الخلاف . إلا أن الأمور تطورت وأخذ أتباع المــذاهب يعتبرون المذهب هو مرجعهم الوحيد، فانعزلوا عن الكتاب والسنة، وأخذ الجهل يظهر ويمتد ، وأخذ التنافر يقوي بين المذاهب !

نحن الآن نعاني من اختلافات جذرية وانحرافات جليَّة عن الكتاب والسنَّة، أصبح من المسلمين ومــن دعاقم من يدعو إلى العلمانية وغيرها. وكلما ظهر شعار جديد أسرع بعض المسلمين ودعاقم يتغنون بهذا الشعار: الديمقراطية، الحداثة، العلمانية، وأخذوا يساوونه بالإسلام، أو يضعون الإســلام جانبــاً لتصبح تلك المذاهب الجديدة هي المطلب والمبتغى.

وانتشر بين المسلمين القول: ' نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه !' وبــذلك جعلنا التعاون والاختلاف مرهوناً بالبشر ورغباقم وآرائهم. ولكن الحق أن التعاون والاختلاف يجب أن يكون على أسس ربَّانيَّة. لذلك أرى أن نتبنى نصَّاً آخر هو:

' يجب أن نتعاون فيما أمر الله أن نتعاون فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا أن نختلف فيه '.

ليس اختلاف المذاهب اليوم هو العلة الوحيدة ، ولكنها علّة من بين العلل . ولا بــدَّ أن نــدرك أن اختلاف المذاهب لا يعني المذاهب كما نادى بها أصحابها، ولكنها المذاهب التي تطورت عــن ذلــك وازدادت بها الفرقة والتمزَّق.

إن واقع المسلمين اليوم بحاجة إلى خُطَّةٍ مدروسة ونهج شامل يعالج المشكلات من جذورها.

** تتزايد بين الحين والحين دعوات الحوار مع الغرب بل والتأكيد على أهمية هذا الحوار وهو ما أوجد العديد من المؤسسات التي تختصر مهمتها في ذلك في حين لا نجد من يدعو لحوار إسلامي إســلامي ... ما رأيكم ؟!

* نعم ! لا يوجد من يدعو إلى حوار إسلامي إسلامي ، إلا القليل من الدعاة . ودعوة لقاء المــؤمنين التي ندعو إليها هي التي تفتح باب الحوار بين المسلمين. الحوار بين المسلمين هــو لإزالــة الخــلاف وتأليف القلوب وبناء التعاون على أسس ربَّانيَّة وعلى قاعدة يلتزمها الجميع .

الحوار مع الغرب أو مع الآخر يجب أن يحمل معنى آخر غير معنى الحوار بين المسلم والإســلام،لحوار مع الآخر الذي يطلبه الإسلام ينطلق ويمتدُّ من دعوة الآخر دعوة واضحة إلى الإسلام ، وإبلاغه ذلك وتعهده عليه .

ونحن الآن حَوَّلْنا هذا المعنى إلى ما يمكن أن نسميه تقريب وجهات النظر. وكيف يمكـــن أن نقـــرَّب وجهة نظر أي طائفة غير مسلمة لنقرّب بين الإسلام وما يرفضه الإسلام، مهمة الحوار في الإســـلام هي دعوة الآخر إلى الإسلام، فهذا تكليف رباني من عند الله. فالدين عند الله واحد هو الإســـلام لا يقبل الله من أي إنسان غير الإسلام:

[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ]

[آل عمران :٨٥]

** هل يمكن اعتبار أن الأزمات التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية بمثابة رسائل إيقاظ لها من سباتها أم أنها تجسيد لواقع مهزوم قابل للاستمرار لفترة زمنية مقبلة ؟!

* لا شكَّ أن أول أثر للأزمات هو أن تكون نذراً من عند الله لتوقظ الغـــافلين، فـــإن لم يســـتيقظوا ويتبعوا سبيل الإيمان ويحملوا دعوة الله إلى الناس كافة، تصبح الأزمات عقاباً من عند الله:

[وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ]

[السجدة : ٢١]

** تمكنت الحركات الإسلامية في حقبة السبعينيات والثمانينات من القرن الميلادي الماضـــي مـــن أن توجد لنفسها دوراً كبيراً ومؤثراً على الساحة السياسية دولياً ومحلياً بما كان يحمل معه مؤشراً علـــى قدرتها على إحداث حالة من الاستقطاب المجتمعي تجاهها غير أن وقوعها في أخطاء جسيمة أبعـــدها عن تحقيق الهدف ... هل يمكن أن تقيم لنا أداء الحركات الإسلامية وأسباب فشلها؟!

* لا بدَّ أن تحدِّد الحركات الإسلامية ما الذي تريده ! أي أن تعرف أهدافها محدَّدة تحديداً واضـــحاً دقيقاً ، ثمَّ ترسم الدرب الذي يوصل إلى الهدف بإذن الله . وهذا هو مقياس النجاح أو الفشـــل. إن النجاح بجمع الأنصار والمؤيدين لا يكفي ليدلَّ على النجاح . وقد يكون هذا نجاحاً دنيوياً !

عدد الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي عدد ' شعر الرأس ' كما يقولون ، فلا أدري إذا استطاع بعضها أن يحقق هدفه الحقيقي !

لا أتحدث عن حركة معيَّنة ولكني أقول إن الخلل عام وممتد في الواقع الإسلامي بما فيـــه الحركـــات الإسلامية. إنه ممتد وعام وشامل.

إن النجاح الذي يجب تحقيقه هو أن تكون كلمة الله هي العليا في الأرض، وأن يحكم شرعه وأن تقام أخوة الإيمان بين المسلمين عامة ، وأن يكون المسلمون أمة واحدة . هذا هو مقياس النجاح وميزانه .

إن تقويم أداء الحركات الإسلامية بالتفصيل لا يتسع له هذا الحوار . ولكن أشير إلى بعض الأخطـــاء العامة بصورة موجزة سريعة : عدم تقويم العمل دورياً وعدم تحديد الأخطاء ومن ثمَّ عدم معالجتـــها ، فتراكمت الأمراض والأخطاء حتى أصبحت تحجب الرؤية . بروز أشكال مختلفـــة مـــن العصـــبيات الجاهلية التي نهى عنها الإسلام ، فَعطَّلت معنى أخوة الإيمان وغلبت عليها . أصبحت أخـــوة الإيمـــان

محصورة في حدود الحزب أو الجماعة أو التكتل. ظهور أشكال من التنافس على الـــدنيا ، وبـــروز اتجاهات مختلفة ومواقف مختلفة من القضية الواحدة . أصبح الولاء الأول للحزب ، فاختلفت معـــاني السمع والطاعة ، أمور كثيرة تحتاج إلى دراسة إيمانية موسعة لمعرفة الواقع اليوم مما يصعب عرضه هنا وتجد الكثير منه معروضاً في كتبي . وأخيراً مات التناصح بين المسلمين ، فقليل من ينصحون وقليـــل من يقبلون النصيحة . وكذلك الإقبال على الدنيا ، وعدم ربط المواقف والأفكار بالدار الآخرة .

** الشباب المسلم حائر بين تعدد الاتجاهات وتنازع الرؤى خاصة وأنه يعاني من هشاشة وســـطحية في فهم ومعرفة الإسلام ... كيف السبيل للخروج من هذه الحيرة ؟!

* هذه مشكلة كبيرة كونتها قرون طويلة في حياة المسلمين حين انعزل المسلم عن منهاج الله ـــ قرآناً وسنَّة ولغة عربيةـــ ، واستقرَّ في ذهنه أن عليه أداء الشعائر وكفى . فامتدَّ الجهل وامتدَّت معه الأهواء .

إن أهم سبب في هذه المشكلة هو تعطيل حديث رسول الله والآيات التي تدعو إلى ذلك : [طلـــب العلم فريضة على كل مسلم] ..هكذا كانت مدرسة النبوة . ولكن الأجيـــال المتعاقبـــة لم تشـــعر بخطورة هذا الأمر حتى انحصر العلم في طبقة محدودة.

وعندما قامت الحركات الإسلامية فإنها لم تتبنَّ تحقيق العلم من الكتاب والسنَّة واللغة العربية . ولذلك لو استعرضت الآلاف المؤلفة من المسلمين في داخل الحركات الإسلامية لوجدت أعداداً غير قليلـــة لا تتقن اللغة العربية ولا تشعر بأهمية ذلك ، ولا تعرف من القرآن الكريم إلا آية من هنا وآية من هناك ، كذلك السنَّة !

وتحوَّل التصوُّر لدراسة الإسلام من أنه علم كما سمَّاه الله ورسوله إلى أنه ثقافة !

والسبيل للخروج من ذلك هو وجوب وضع خطة ونهج كما أشرت سابقاً يعالج هـــذه المشـــكلة في جملة معالجته للمشاكل الأخرى.

** الديمقراطية في رأي البعض هي وسائل للوصول للحكم بينما الشورى هي آلية الحكم ومن هـــذا فلا تعارض بين الاثنين إذا تم الأخذ من الوسائل الديمقراطية بما لا يتنافى مع الأحكام الإســـلامية .... ما رأيكم ؟!

* لا أرى الصواب فيما ذكرته عن الديمقراطية والشورى كما يراه البعض. الشورى نظـــام ربـــاني، والديمقراطية نظام بشري نبت في الوثنية اليونانية وانطلق منـــها . ثم صـــاغته الرأسماليـــة الأوروبيـــة والعلمانية صياغة تلقي بالفتات للشعب وتخدِّره بها وتملأ جيوبها هي بنتائج شقاء الشـــعب . حريـــة الرأي في الديمقراطية أن تقول كما تشاء ولكن ليس من الضروري أن يدخل الرأي في صياغة القرار ، فالقرار يتخذ بين الكواليس ، الديمقراطية تترك الناس يعملون من الصباح الباكر إلى المســـاء ليعـــود

منهكاً لا يفكر في الموت ولا في الدار الآخرة ولا مصيره . الديمقراطية عزلت الحياة الدنيا عن الآخرة عزلاً كاملاً وألهت الناس عن الدار الآخرة .

المؤسف أن كثيرين من الدعاة استغنوا في أحاديثهم وخطبهم ومقالاتهم عن كلمة ' الإسلام'، وتبنّوا الديمقراطية ! قلت لبعضهم في مؤتمر: الديمقراطية لها دول تدعو إليها، وأنتم دعاة مسلمون على عهد مع الله أن تدعو الناس إلى الإسلام، فما بالكم تركتم الدعوة إلى الإسلام، وانطلقتم تدعون إلى الديمقراطية ؟! قال صاحبنا: نريد الحرية والعدالة والمساواة ! قلت : إذا كانت هذه موجودة في الإسلام فلماذا تنزعونها منه وتعطونها للديمقراطية لتزيفها ، وإذا لم تكن هذه موجودة في الإسلام فأعلنوا ذلك حتى يعرف الناس موقفكم .

لي كتاب : ' الشورى لا الديمقراطية ' ورأيي معروف في ذلك . نحن لسنا بحاجة إلى الديمقراطية ، نحن بحاجة إلى الإيمان الصادق بالله وبرسوله وبالإسلام، وبحاجة إلى العلم الصادق بمنهاج الله . نحن بحاجة أن نكون مسلمين حقيقة ! علينا أن نقرِّر هل نريد أن نكون مسلمين حقيقة كما يريد الله ورسوله، أم نريد أن نخلط الإسلام بالديمقراطية والحداثة والعلمانيَّة ونبتدع ديناً جديداً كما تريد أمريكا؟!

** لماذا الإصرار على الدخول في جدل نظري حول العديد من القضايا ومنها مثلاً الشورى والديمقراطية في حين يعاني الإسلاميون في كل أرجاء الأمة من الاضطهاد والاعتقالات ؟!

* سبب هذا الإصرار أن الغرب ألقى بيننا هذه الفتنة لِيُشْغِلنا عن حقيقة قضايانا الهامة ، وليصارع بعضنا بعضاً من أجل الفوز بالبرلمانات ، ويعتبر الفوز بها هو الفوز العظيم . للمسلمين تجارب واسعة في البرلمانات ومع الديمقراطية تجارب عشرات السنين ! فهل درس المسلمون نتيجة هذه التجارب وما استفادوا منها وما خسروا ؟! هي عمليَّة إشغال لنا وإلهاء عن قضايانا المصيرية . المسلمون يُجَرُّون جرَّاً إلى مثل ذلك ، ولا يملكون أحياناً إلا أن ينصاعوا بسبب الضعف الحقيقي أمام الأعداء وأساليبهم . وأهم أسباب الضعف تمزَّق المسلمين.

** فلسطين قضية عمرها أكثر من خمسين عاماً أصبحت أخبارها لا تثير لدى أغلب المسلمين أي مشاعر جديدة بل أضحت جزءاً تقليدياً في نشرة الأخبار .... في رأيكم لماذا هذه الحالة من التبلد التي أصابت المسلمين إزاء واحدة من أهم قضاياهم ؟!

* أولاً: إن قضية فلسطين عمرها أكثر من خمسة وثمانين سنة. أما سبب التبلّد هو كثرة الشعارات ثم كثرة الهزائم ثم كثرة التنازلات حتى عن الشعارات ، ثم محاولة تسويغ ذلك ، حتى كأنَّ الناس يئست بعد طول انتظار . أما السبب الثاني : فهو ضعف الإيمان وعدم وجود منهج كامل للأمة كلها يحقق النصر. والسبب الثالث: انكشاف عوراتنا وظهور ضعفنا وتخاذلنا ضعفاً وتخاذلاً لم يعد يخفيه ضجيج الشعارات.

** لا يفتأ يردد الخطابيون بين الحين والآخر أن الأمة باستطاعتها أن تنتصر وأن تعـود لمجـدها وأن النصر يقترب وفجأة سقط العراق وأصبح في براثن الاحتلال .... كيف يمكن أن نتفادى اسـتمرار مسلسل الهزائم خاصة وأن التهديدات تحاك بإيران وسوريا والسودان وغيرهم ؟!

** إنها مأساة ! إننا نحن نخدع أنفسنا وعدوّنا يخدعنا وأصبحنا لا نجرؤ على معرفة الحقيقة ، ولا نريد أن نعرف الحقيقة ، الشعارات وضجيجها تخدّر النفوس ، والجميع يريد أن تُخَدَّر النفوس ، والجميـع ليس لديهم منهج أو خطة إلا الصراخ والتهديد بالويل والثبور !

** في إطار إحداث حالة من حالات الخوف من وصول الإسلاميين للحكـم يكثـر الشـيوعيون والليبراليون وغيرهم ممن يتبنون أفكاراً غير إسلامية الحديث عن رفض الإسلام لتعدد الرؤى والأفكار في ظل دولته بل إن مصير هؤلاء في ظل الدولة الإسلامية سيكون السحل والاعتقال بل ربما المـوت ... فما رأيكم ؟! وكيف يمكن التعامل مع هؤلاء ؟!

* إن الإسلام عندما يحكم يعطي لكل إنسان حقَّه ، ولكلِّ طائفة حقَّها على أعلى درجات العدالـة ، عدالة شرع الله كما أنزله على رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – . وكما طبقه المسـلمون في عهد النبوة الخاتمة والخلفاء الراشدين وفي مراحل متعددة من التاريخ.

الإسلام يرفض الكفر والفسوق والفجور . هذا أمر واضح . وأولئك يريدون مجتمعاً تباح فيه النساء وتدور حفلات الرقص والفجور ليسمى ذلك حريّة. الإسلام يرى هذه عبودية الشـهوات وهبـوط الإنسان إلى الدرك الأسفل.

لم يجد اليهود ولا النصارى في جميع مراحل تاريخهم رحمة وعدالة كما وجدوها في الإسلام . ولكـن منهم من قابل ذلك بالغدر والخيانة والإساءة !

ولا يمكن أن يكون للإنسانية أيّ معنى خارج الإسلام. في الإسلام فقـط تجلـى معـاني الإنسـانية الصحيحة .

إذا لم يَعْتَدِ هؤلاء على الإسلام والمسلمين فلن يعتدي عليهم الإسلام إلا أن يمنعهم من الفتنة والفساد والفجور، وظلم أنفسهم وظلم الناس.

المشكلة كلها هاتِ لي المسلمين الصادقين ليمثّلوا الإسلام الحقيقي فلن يخاف عندئذ مـن الإسـلام والمسلمين إلا المجرمون الظالمون.

أما عن طريقة التعامل معهم في واقعنا الآن أن ندعوهم إلى الإسلام ونلحَّ بالدعوة بشتى الأسـاليب . من واجب الدعاة أن يتفرَّغوا للدعوة والتبليغ ولمعالجة هؤلاء وغيرهم . إنها مسؤولية خطيرة . ملايين البشر اليوم مصيرهم بميزان الإسلام إلى النار ، فمن المسئول عنهم ؟! شغل المسلمون بـألف قضـيَّة وأشغلوا ! ولا يوجد طريقة أخرى إلا دعوة هؤلاء وكسب قلوبهم وبيـان أن مصـلحتهم هـي في الإسلام عندما يمثّل الإسلام الدعاة الصادقون !

** يردد البعض أن التدين ضد الإبداع وأن أغلب المبدعين إن لم يكن جميعهم ليسوا من المتدينين ويستشهدون مثلاً بالأستاذ سيد قطب الذي انتهى إبداعه بمجرد تدينه .. ما تعليقكم ولماذا يقل فعلاً المتدينون في إبداعاتهم؟! وبمعنى آخر لماذا لا يقبل القراء على إبداعات المتدينين إن هي وجدت ؟!

* أقول لهم ولغيرهم وللناس كافة إن الدين الحق هو الذي يطلق الإبداع وينميه ، والإبداع في الأصل هو موهبة يضعها الله فيمن يشاء من عباده . والإيمان والتوحيد ومنهاج الله هو الذي يجلو المواهب الشريفة غير المنحرفة ويباركها . ولكن الظالمين والمجرمين في الأرض هم الذين يقتلون شرف الإبداع، ويظهرون إبداع المفسدين وأهل الفتنة.

والمجرمون اليوم ظاهرون في الأرض بيدهم وسائل الإعلام وقوى الدعم والإظهار والمسلمون لم تقف مصيبتهم عند ضعفهم فحسب ، ولكنهم يحسد بعضهم بعضاً ويؤذي بعضهم بعضاً ، ويضعف بعضهم بعضاً . وتثور بينهم العصبيات الإقليمية على صورة أشد مما يمكن أن تجدها بين الحداثيين .

لقد أثر الغزو الفكري في العالم الإسلام والغزو الإعلامي على تغيير الموازين عند الناس ، فقد أخذ الكثيرون يرغبون بما هو قادم من الغرب بزخرفه وفتنته ، دون أن يجدوا إعلاماً قوياً لما هو إيماني وإسلامي . إن العالم الإسلامي أصبح مفتوحاً للغزو الفكري والإعلامي والعسكري . وربما كان من المسلمين من يبذل جهده لطمس إبداع أخيه المسلم، فتتعاون عوامل كثيرة تضعف انتشار إبداع المسلمين. وللمسلمين إبداعات واضحة .

** على الرغم من أنَّ المدارس الحديثة أو المزعومة بالحديثة في الأدب العربي ' من أمثال أصحاب قصيدة النثر ' ليست لها جماهيرية أو شعبية ولا تحظى لدى المتذوق العربي بأي إقبال إلا أننا نجد أن أرباب هذه الاتجاهات هم الذين يحصدون أغلب الجوائز وهو ما يشعر المحافظين على التراث بالغبن والضيق .... ما تفسيركم ؟!

* سبب ذلك أن الإعلام المدوِّي اليوم هو بيد الدول الكبرى ومن يتبعها ، ولا يرضى هؤلاء بالإعلام عن العطاء الإسلامي فكراً أو أدباً أو علماً . وهنالك سبب آخر ، ذلك أنك تجد في أغلب الأحيان كلَّ جماعة إسلامية أو حزب إسلامي يبرز أعضاءه ومن ينتمي إليهم في ما يشبه العصبية الجاهلية . إن تمزُّق المسلمين لا بدَّ أن يكون هذا من أبسط نتائجه.

** ألسنا في حاجة فعلاً على الدخول في حوارات مع هؤلاء الفقهاء والمتدينين الذين يتخذون موقف الريبة من الإبداع مما يدفعهم إلى التقليل من شأنه لإقناعهم بأهمية المشاركة في العملية الإبداعية لإفراز جيل من المبدعين المتدينين خاصة وأن الفنون بعمومها تساهم في عملية التوجيه ؟!

* لم أفهم السؤال تماماً ... المتدينون الذين يتخذون موقف الريبة من الإبداع ..؟! ما هو الإبداع الذي يقفون منه موقف الريبة ؟! هل هو أدب الفجور والانحلال ؟! الإبداع الصادق يفرض نفسه

على المتديّنين . أنا أطرح سؤالاً آخر: لم لا يهتم أولئك المبدعين بإبداع المسلمين وهو كثير ؟! لماذا نهتم نحن بإبداعات أولئك دون تمحيص، وهم لا يبالون بالمؤمنين ولا بإبداعهم ولا يحرصون إلا على طمس كل ما هو إيمانيٌّ.

بعضنا يمدح الحداثيين ، ولكنني لم أجد حداثياً واحداً عطف على أيِّ شيء إسلامي أو إيماني ، أو ذكر أديباً مسلماً أو شاعراً مسلماً بخير .

هنالك خوف من أنَّ بعض الإبداعات غير الملتزمة قد تكون باباً لتغذية الفتنة وصرف النفوس عن الإيمان، بما تحمل من زخرف اللفظ. كم صرفت قصائد نزار الفتيان والفتيات عن العفّة وألهبت فيهم الشهوات.

ولذلك أرى أن يحكم على كلِّ إبداع وحده، ويحكم عليه بميزان إيمانيٍّ عادل.

انظر كيف أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يجعل الإعلام باباً لشعراء كفار قريش، وكانوا مبدعين ومن فحول الشعراء ! ولكنه فتح باب الإعلام لشعراء الإسلام وحملة رسالته والمجاهدين في سبيل الله .

شَوْقُ الجهَاد وجلاَلُ النَّصر

في أفغانستان

بقلم الدكتورعدنان علي رضا النحوي

أَأَسكُبُ الشَّوقَ مِنْ جَفْنٍ ومن كَبِدِ ... ... ومِنْ رُؤىً وَصَلَتْ عَهْداً مضىَ بِغَدِ

... ...

الذكْرياتُ عَلَى أَطْلاَلِها نَهَضَتْ ... ... تُعَانِقُ المجدَ شَوْقَ الأُمِّ لِلْوَلَدِ

... ...

هُنَا اللَّيالي التي فَارَقْتُها زَمَناً ... ... عَادَتْ تُحَدِّثُ عَنْ أَهْلي وعَنْ بَلَدِيَ

... ...

" كَابُول " داري وإنْ شَطَّ المَزَارُ فُما ... ... يُقَرِّبُ الدَّار إلا لَهْفَةُ الكَبِدِ

... ...

فَحيْثُما كَانَ ذكْرُ الله عُدْتُ إلى ... ... حَبْلٍ مِن الله مَوْصولٍ ومُنْعَقِدِ

... ...

أَنا انتسابي إلى الإِسلام : كُلّ هَوَى ... ... ماضٍ ويبقى هوى ديني ومُعْتَقَدِي

... ...

لله دَرُّكِ يا " كَابولُ " أَيُّ شَذاً ... ... أَحْلَى مِنَ الدَّمِ دفَّاقاً مِنَ الوُرُدِ (١)

... ...

أزكى مِنَ الوَرْدِ فَوَّاحاً بِرَوضته ... ... أَغْنَى مِنَ النَّبْعِ فَوَّاراً على جَدَدَ (٢)

... ...

رَحِيقُهُ : في سبيل الله ، نَفْحَتُه ... ... نَصْرٌ على عِزَّةٍ قَعْسَاءَ لم تَجِدِ (٣)

... ...

كَأَنَّهُ عَبَقٌ ، والسَّاحُ تَنْشُرُهُ ... ... مِلءَ الزَّمانِ، عَلَى الآفاق ، في النُّجُدِ

... ...

لله تَسكُبُه الأَبْطَالُ صَاعِدةً ... ... عَلَى مَدَارِجِها آفَاق ، مُجْتَهِدِ

... ...

إِلى الجِنَان ! إِلى الفردَوس وثْبَتُها ... ... تَدُقُّ أَبوابَها دقًّا بكلّ يَدِ

... ...

للنَّاسِ إن أَظْلَمُوا نُورٌ بِهِ وإذا ... ... مَالُوا فمِنْهُ جَلاءُ الحقِّ و السَّدَدِ

... ...

كمْ آيَةٍ عَرَضَتْ مِنْ طِيبها عَبَقا ... ... عَلى عُلاً زَاهِرٍ في أُفْقِهَا الفَرِدِ

... ...

فَقفْ هُنَا أَيُّها الإنْسَان في رَهَبٍ ... ... واخْشَعْ إلى الله في سَاحَاتِها وَعُدِ

... ...

كمْ آيَةٍ عَرَضَتْ مِنْ طِيبها عَبَقا ... ... عَلى عُلاً زَاهِرٍ في أُفْقِهَا الفَرِدِ

... ...

فَقِفْ هُنَا أَيُّها الإنْسَان في رَهَبٍ ... ... واخْشَعْ إِلى الله في سَاحَاتِها وَعُدِ

* * ... ... * *

جَلاَلُ نَصْرِكِ آياتٌ مبيِّنةٌ ... ... لِلمؤْمِنين وغَيْظُ الحَاقِدِ النَّكِدِ

... ...

عَشْرٌ مَضتْ ! والدَّمُ القَاني يُفَجِّرهُ ... ... مِن الوَرِيد وَفَاءُ العَهْدِ وَالعُدَدِ

... ...

لقَدْ تَجَاوَزْتِ شَكْوَانا و واقِعَنَا ... ... وَقُمْتِ مِنْ غَفْوَةٍ رَكْضاً إِلى كَبَد (٤)

... ...

إِلى المَيَادِين يُجْلَى في مَلاحمها ... ... حقٌّ ويُحْسَمُ مِنْ أَمْرٍ ومِنْ عُقَدِ

... ...

هُناكَ بَيْنَ اللَّظى صُغْتِ السِّياسَةَ لا ... ... بَيْنَ الأرائِكِ والأطْبَاقِ والحَفَد (٥)

... ...

هُنَاكَ صُغْتِ على المَيْدَانِ فَلسفَةً ... ... تَقُولُ إن شِئتَ نَصْرَاً قُمْ لَهُ وجُدِ

... ...

وَعُذْ بِرَبِّكَ لا تُشْرِكْ به أَحداً ... ... وَمنْ يَعُذْ بِسِوى الرَّحمن لم يَسُدِ

** ... ... **

١٤١٢هـ

١٩٩١م ... ...

• ملحمة الجهاد الأفغاني .

(١) الوُردُ أصلها الوُرْد وهي جمع الورد وهو الشجر أو الزهرة ، ومن كل شيء بين الحمرة والصفرة .

(٢) جَدَدَ : الأرض الغليظة المستوية .

(٣) قعساء : الثابت من العز .

(٤) كبد : مشقة .

(٥) الحَفَدْ : الأعوان والخَدَم

وما النصر إلا من عند الله

حسين بن محمود

في مقالة سابقة "حديث نفس" كتبت عنواناً جانبياً "مات أُسامة ... لا عجب" وكان التجاوب والتفاعل مع العنوان أكبر مما كنت أتصور (خاصة بعد أن تم نقل المقالة إلى المنتديات) ، حيث عتب كثير من الإخوة عليّ ذِكر موت أُسامة ، وإن كنت ذكرته على سبيل المجاز وليس الإخبار .. و علت التساؤلات والإستنكارات وكثر القيل والقال ، فرأيت أنه من المناسب كتابة هذه الكلمات لتوضيح بعض الأُمور المهمات التي استفدتها من هذه الردود:

أولاً: يدل هذا التفاعل الكبير على الحب العظيم الذي تكنه الجماهير الإسلامية لهذا الرجل .. فلم نرى هذا الحرص على التثبت حتى عندما نُقل إلينا خبر موت كبار علماء هذه الأمة أو قادتها .. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال: "إذا أحب اللَّه تعالى العبد نادى جبريل إن اللَّه يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .. فالحمد لله على فضله ..

ثانياً: دحض مزاعم من يدعي بأن المسلمين ليسوا مع أسامة ، ولا يرون ما يرى ، أو أنهم لا يقرونـــه على أفعاله وأقواله .. أقول: إن كان كلامكم هذا صحيحاً ، فمن أين هذا الحب والحرص على حياة الرجل !! لقد حاول بعض المغرضين التقليل من شأنه حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تـــبين لهـــم الحق .. وحاول البعض التهوين من أمره وإنكار فضله !! فنقول لهؤلاء وأمثالهم:

وليس بقولك من هذا بضائره .... العربُ تعرف من أنكرت والعجم

وأكبر دليل على هذا الكلام ما حصل في القمة العربية ، حيث لم تلقى هذه القمة أي إهتمام شـــعبي من قبل الشعوب المسلمة [إذا استثنينا المسيرات (أو المسرحيات) "الرسمية" في بعض الدول] .. لم يكن هناك اهتمام بفحوى المؤتمر ولا "بالمؤتمِرين" (بكسر الميم) .. لا أعرف أحد من العامة تابع هذه القمة على شاشات التلفاز ، بينما تسمر الناس في العالم كله على شاشات التلفاز ليسمعوا كلام أبي عبدالله أسامة وكأن على رؤوسهم الطير ، وعلت هتافات الله أكبر في بلاد الإسلام بعد ذلك القسم التاريخي الذي أطلقه هذا الرجل المجاهد فكان كالقنبلة أقضّت مضاجع فئران البيت الأبيض الذي يتسول على عتبات بابه الملوك والحكام ..

ثالثاً: اهتمام شباب الأمة بأخبار الجهاد والمجاهدين ، فكل الناس الآن يعرفون أسامة والمـــلا عمـــر ، وانتقل هذا الإهتمام إلى مجاهدي الشيشان وغيرهم من المجاهدين في الأرض. لقد أصبح الجهاد حديث عدد كبير من شباب المسلمين ، وحتى الغير ملتزمين منهم .. لقد تغير مفهوم القوى العظمـــى عنـــد كثير من المسلمين ورجعت إلى كثير منهم الثقة بالله ثم بقدراتهم كمسلمين ..

رابعاً: تحري الشباب وتثبتهم من الأخبار ، وهذا في حد ذاته مكسب عظيم يدل على درجة عالية من الوعي ، فالحمد لله ..

هذه الحرب اللتي ظن كثير من المسلمين أنها شر كلها ، هي ليست كذلك: فكم من مسلمٍ رجع إلى الله بعد هذه الحرب ، كم تارك صلاة بدأ يرتاد المساجد ، وكم من غافلٍ عن قضايا المسلمين أصبح يتابعها صباح مساء ، وهذا ليس نقل بل خبرٌ يقين .. كم من عالمٍ كان يجهله الناس فعرفوه بعد هذه الأحداث: كم من المسلمين كانوا يعرفون الجبل الشامخ الشيخ حمود بن عقلا الشعيبي رحمه الله ، أبا الله إلا أن يعْرِفه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، هذا الرجل الذي ذكّـــر المســـلمين بســـيرة سلفهم الصالح .. فرحمة الله عليه ..

خامساً: وهي نقطة سلبية ، وهي في غاية الأهمية: لاحظت التعلق الشديد من قبل بعض الإخوة بابن لادن ، وكأن النصر لا يأتي إذا مات أُسامة .. يجب أن يعي الشباب المسلم بأن هذا الأمر لا يتعلـــق بأسامة أو غيره من آحاد المسلمين ، إن الأمر أكبر من أُسامة ومن معه .. إن الإسلام أكـــبر مـــن أن تقف عجلته بموت شخص (وهذا ما حاول أبو عبدالله التركيز عليه في مقابلاته)..

لما أُشيع موت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أُحد وبدى من بعض الصحابة اليأس والإحباط الشديد .. أنزل الله سبحانه وتعالى "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ". ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم -بأبي هو وأمي- قام أبوبكر رضي الله عنه في الناس خطيباً ، فقال "من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .. ثم تلا هذه الآيات"

.. فإذا كانت الراية لم تسقط بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف تسقط بموت غيره !!

أُذكِّر إخواني في الله بأن الموت حق ، وكل إنسان يموت .. كل إنسان يموت .. ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت !! والإنسان إذا جاء أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ..

ليس من عقيدتنا التعلق بالرجال ، إنما هذا شأن أهل البدع ، أما نحن فأصحاب مبدأ نُحب من يتبعه ونناصره ونُعاونه ، ولاكن لا نتعلق به .. فالحذر الحذر ..

وأُبشر الشباب المسلم بأن الجهاد في هذه الأُمة ماضٍ "حتى يُقاتل آخرهم المسيح الدجّال". بأُسامة أو بغير أُسامة ... وأنا لا أبخس هذا المجاهد فضله ، فهو عندي كما قال الشاعر:

وسَلي الفوارِسَ يُخْبِروكِ بِهِمَّتي .... ومواقِفي في الحربِ حينَ أطاها
وأزيدُها من نارِ حربيَ شُعْلَةً .... وأُثيرُها حتى تَدُورُ رَحاها
وأكُرُّ فيهم في لَهيبِ شُعاعِها .... وأكونُ أوّلَ واقِدٍ بصَلاها
وأكونُ أوّلَ ضاربٍ بِمُهَنّدٍ .... يُفري الجماجمَ لا يُريدُ سِواها
وأكونُ أوّلَ فارسٍ يَغشى الوغى .... فأقودُ أوّلَ فارسٍ يَغْشاها
والخيْلُ تَعلَمُ والفوارِسُ أنني .... شيْخُ الحُروبِ وكَهْلُها وفَتاها

إن لهذا المجاهد شرف عظيم في هذه الأمة في زمان صغُرت فيه الهمة ، فهو حقاً شيخ الحروب وكهلها وفتاها .. رجلٌ يقاتل الكفار منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، في زمن قل فيه الرجال .. إذا كان في الناس خادم الحرمين فهذا ابن خادم المساجد الثلاثة .. إن كان في الناس من يُحترم لمنصبه أو لماله ، فهذا فرض احترامه على الدنيا بأفعاله .. هذا ابن إيمان اليمن ، وحكمة اليمن ، ورقة اليمن .. هذا ابن همة الشام ، وعزيمة الشام ، ونجدة الشام .. هذا ابن الحجاز مهبط الوحي وأرض الرسالة .. فكأنه ربط الشام واليمن بحبل الإيمان وعقد منه عقدتين على منارتين في الحرمين .. نسأل الله أن يثلّثهما بعقدة على منارة المسجد الأقصى ..

وصَفه من يعرفه بأنه: عابدٌ ، زاهدٌ ، شهمٌ ، كريمٌ ، خلوق ، شجاع ، متواضع ، صاحب مروءة ، سهل ، ليّن ، لا يُجالسه أحد إلا أحبه ، يحب المؤمنين ويُبغض الكافرين ، عالي الهمة ، بشوش ، كثير الصمت ، قليل الكلام .. قال عنه شيخ المجاهدين في عصره ومجدد حركة الجهاد وفكره ، الشيخ عبدالله عزام رحمه الله: "الأخ أبو عبد الله أسامة بن محمد بن لادن، أدعو الله أن يبارك له في أهله

وماله ونرجو الله أن يكثر من أمثاله، ولله أشهد أني لم أجد له نظيرا في العالم الإسلامي، فنرجو الله أن يحفظ له دينه وماله وأن يبارك في حياته" .. وقال في مناسبة أُخرى: "هذا رجلٌ بأُمة" ..

أقول: يكفيه أنه رجُلْ .. نعم رجل .. وقف وقفة الرجال ، قال للظالم "لا" .. رجلٌ لم يخف في الله لومة لائم .. ابن الوغى ، وأبوه ، وعمه ، وابن أخيه .. نصر الله به الموحدين ، وارغم بــه أُنــوف الكافرين ، وأعز الله به هذا الدين .. إن لم يكن هذا هو الشرف ، فقولوا لي بالله عليكم: ما الشرف !!

ولكن هذا الدين عظيمٌ عظيم .. أعظم من أن يُحدّ في شخص أو بضعة أشخاص .. وربما تبين لنــا الآن سبب عزل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنــه .. ولو كان عمر حياً لربما عزل أُسامة خشية فتنة الناس به (أُسامة يشبه خالداً في بعض فعله ولــيس في فضله) .. ولكن الفتوحات لم تتوقف بعزل خالد ، بل أدى أبو عبيدة رضي الله عنه دوره في الفــتح على أتم وجه .. وقد رأينا في أفغانستان كيف أن بعض المجاهدين القدامى انتكسوا علــى أعقــابهم ، فكان هذا سبباً لظهور قادة جدد – لم نكن نعرفهم – حملوا على أكتافهم مهمة نصرة هذا الدين .. ولولا انتكاسة القوم ما عرفناهم .. فمن منا كان يعرف الملا عمر !! " فَعَسَــى أَن تَكْرَهُــواْ شَــيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا " ..

وأطمْئن أحبتي بأن أمريكا لا تقتل أُسامة ، إنما الذي يتوفاه هو اللهُ سبحانه وتعالى: في اللحظة الــتي قدّرها ، وفي المكان الذي قدّره ، وعلى الوجه الذي قدّره ، بالسبب الذي قدّره جلّ في عُــلاه .. إن مات أُسامة بعد هزيمة الصليبيين (بإذن الله) فهذا ما نرجوه من الله ، وحتى تقر عيني أبي عبدالله ، وإن مات قبل ذلك ، فالله مولانا من قبل ومن بعد فــ "نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِــيرُ " (الأنفــال ٤٠) .. نسأل الله أن يحفظه وإخوانه ليغيظ بهم اعدائه ..

فليعلم كل إنسان بأننا إذا اتكلنا على أنفسنا أو على غيرنا من البشر ، أوكَلَنا الله إلى من اتكلنا عليــه .. فمن ينصرنا إذا تخلى اللهُ عنا وقد قال سبحانه " وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ " .. أمــا اذا توكلنــا على الله وعملنا لنُصرة دينه على الوجه الذي يرضاه عنا ، كفانا الله أعدائنا "وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَــى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" (الطلاق: ٣) .. " وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (آل عمران : ١٢٢) ..

"رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (الممتحنة: ٤) .. والله أعلم ..

كتبه:

حسين بن محمود

مقوّمات النصر

ـــــــ د.محمود الربداوي ـــ رئيس التحرير

قليلةٌ هي المؤسسات الفكرية والعسكرية، وكذلك قليلون هم الأفراد والمؤرخـون الـذين تنـاولوا بالبحث وإحياء الذكرى لقائدٍ عربي بالغ الأهمية بين قادة العالم، بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً هجريّاً على وفاته. وهو خالد بن الوليد.

كنتُ أتمنى لو أن العرب لم يحتفلوا بوفاته، وإنما أطمح أن يحتفلوا بولادته، فولادته أجدر بالاحتفـال؛ لأنها جاءت إلى الدنيا بعبقريٍّ من عباقرة فنون الحرب، وإحكام الخطط الاستراتيجية، لم تخرِّجه كلية عسكرية، ولم يتدرب في أكاديمية من أكاديميات الأركان، وإنما وُهب القيادة فطرةً، فكـان النصـر حليفه في كل المعارك التي خاضها بنجاح. فقضى على كبريات الامبراطوريـات في عـالم القـرون الوسطى: الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية، ولكنَّ المفكرين أعرضـوا عـن الاحتفـال بولادته؛ لأنها حدثتْ سنة ٥٨٦م أي قبل أن يكون للعرب تأريخٌ هجريٌّ تُنسَب إليه ولادته، فعندما اصطلح الناس على بداية الهجرة كان عمره حوالي ٣٦ سنة.

صحيح أن هذا القائد العبقري- كما أطلق عليه عباس محمود العقـاد عنـدما أدرجـه في سلسـلة العبقريات التي كتب عنها- هذا القائد خالد بن الوليد وُلِد بمكة، ولكنْ يشرِّف هذا القطـر العـربي السوري أنه احتوى جثمانه سنة ٢١ هجرية، فظفرتْ مدينة حمص باحتضان رُفاته، ولذلك لم يكـن غريباً بل ظاهرة وفاء واعتزاز أن يتنادى مفكرو حمص وكُتّابها لإحياء ذكرى هذا القائد الفذ بأبحاثٍ من جوانب عبقريته، ومن الاعتراف بعظمة هذا القائد، والاعتزاز بالدور الذي قـام بـه في خدمـة العروبة والإسلام، وبالمكتسبات التي تركها لهذه الأمة، أن أقامت جامعة حلب بالتعاون مـع جمعيـة العاديات في الفترة ما بين ٢٩ و٣١ من تشرين الأول سنة ٢٠٠٢ الندوة الدولية بعنوان (خالد بـن الوليد- رؤية معاصرة) تهدف هذه الندوة إلى تحريض الروح الجهادية، وإرادة المقاومة والصـمود في أجيالنا من خلال استعراض واستذكار هذه المعاني في شخصية خالد بن الوليد، صحيح أنـه كُتـب الكثير عن شخصية هذا القائد العظيم من قِبَل مؤرِّخين وعسكريين وسياسيين وأدباء وعلماء نفـس وعلماء اجتماع ومُحلّلي نصوص من عرب ومستشرقين، ولكنْ ما زال الزمان والمصـادر التاريخيـة تتكشف عن جوانب منه ما زالت غائبة عنا، أو مهمّشة غيّبها أناس من أعداء هذه الأمة، ساءهم أن يتحدَّثوا بإنصاف عن الدور الذي حقّقه هذا الرجل فانتزع منهم هذه الأرض التي عاش عليها العرب وتعيش عليها الأجيال العربية منذ أربعة عشر قرناً ونيّف. ثم جاء الجهلة من أبنـاء الأمـة العربيـة وتابعوهم على مقولاتهم المُغرِضة، فكان هذا التاريخ المشوّه الذي نخشى أن يصبح حقائق مقرَّرة عنـد الأجيال العربية في قادمات الأيام. عندما أحببتُ ألا تفوتني هذه المناسبة من غير أن أشـارك بكتابـة بحثٍ عن جانب من جوانب خالد بن الوليد في معركة اليرموك، وأحسِب أن أحداً لم يتطرق إليـه في حدود علمي، باستثناء كتابين لجنرالين عظيمين: أولهما الجنرال أكرم الباكستاني الجنسية

وثانيهما العماد الأول مصطفى طلاس العربي الجنسية فجذبتني القراءة في كتب التاريخ، والمرء يسعد للاطلاع على المواقف المشرِّفة في تاريخه، ويطرب لما حقّقه أبطال من أجداده، فيدفعه حب الاستطلاع والفضول العلمي أن يستَكْنِه سر النصر في شخصية هذا القائد الذي لم يُهزَم في معركة قط، فوجدتُ سر نجاحه في العناصر الأربعة التالية:

آ-الشجاعة، وهذه صفة فطرية، وهبة من الله، تلعب الوراثة- كما يقول علماء النفس- دوراً كبيراً في نقلها من السلف إلى الخلف، وتعطيها لإنسان وتحرم منها آخر، يتّصف بها الرجل كما تتّصف بها المرأة، ولا فرق فيها بين سيِّد وعبد، كما لحنا في تاريخنا الجاهلي والإسلامي، وقد تتجلى الشجاعة في الجسد عند أناس، أو تتجلى في الرأي والفكر عند أناس آخرين، ولما كانت هذه الشجاعة فطرية فإن الأحداث والأيام والمعارك تنمِّيها وتصقلها. وممارسة الحرب، وخوض المعارك من شأنها أن تؤصل الشجاعة في الشجاع، وتؤكد فيه نزعة الإقدام، ومبارزة الخصوم، بقلبٍ جسور، وعزيمة صادقة، وهذه الخصائص تمركزت في خالد كما تحدثنا نشأته الأولى، حتى وصفه الرسول (– صلى الله عليه وسلم –) بأنه سيف الله المسلول.

ب-الرأي المحرك للقدرة على التخطيط الحرْبي، ووضع القرار الحكيم، وحسن إدارة المعارك، والحكمة البعيدة أو بُعد النظر في تعبئة الجيوش، وترتيب الصفوف وتوزيع المهمات القتالية، وحسن اختيار قادة الفيالق والسرايا والكتائب وإسناد المهمات لمن يستطيع النهوض بها حسب الرتب العسكرية والحشود القبائلية والعشائرية طبقاً لما هو متعارَف عليه في مجتمع ذلك الزمان. وباختصار حسن رسم (التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي) كما هو متعارَف عليه في المصطلح العسكري المعاصر، أو كما كانوا يُسندون لخالد إدارة (القُبّة والأعِنّة) في المصطلح العسكري القديم.

فإنَّ الباحث ليتملَّكه الإعجاب من رجلٍ قاد جموعاً غالبيتها من بدو الصحراء، من الأعراب المتمردين على النظام، ولا يعرفون من سنن الحرب إلا الغزو الفوضوي الذي ألفوه في جاهليتهم، والذين لم تمكنهم صحراؤهم من امتلاك الأسلحة إلا البسيطة منها، فنظمهم خالد ورتبهم عسكرياً، وعبَّأهم كراديس وخيالة ورجَّالة وميمنة وميسرة وقلباً وساقة، وقابل بهم جيوشاً نظامية مدرّبة، فقهر بهم أكبر امبراطوريتين عُرفتا في ذلك العصر، هذا الرأي المدبِّر مع الخاصة الأولى الشجاعة كأنه هو الذي أفصح عن وصفه المتنبي بعد قرنين ونصف عندما قال في مطلع قصيدته المشهورة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أوّلٌ، وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرّةٍ

بلغتْ من العلياء كل مكانِ

وكأن المتنبي عناه بهذه القصيدة الرائعة عندما قال فيها:

رفعتْ بك العربُ العمادَ وصيَّرتْ

قِمم الملوك مواقد النيرانِ

أنساب فخرِهم إليك، وإنما

أنساب أصلِهم إلى عدنانِ

إن السيوفَ مع الذين قلوبهم

كقلوبهنَّ إذا التقى الجمعانِ

فإذا رأيتك حار دونك ناظري

وإذا مدحتك حار فيك لساني

جـ-عقيدة الجهاد في الإسلام:

فمنذ أن دخل خالد في الإسلام سنة ٨ هجرية لم يسلِم ويحسُن إسلامُه فحسب، بل تغلغلتْ العقيدة في صميم قلبه، وآمن أن الإسلام ليس للعرب فقط، وإنما للناس كافة، فآمن أكثر من غيره بوجوب نشر الإسلام في أقطار الأرض، ومن هنا انطلق خارج مكة والمدينة، فكانت فتوحات العراق والشام، فكانت بغرض نشر العقيدة التي تأصلت في وجدانه، والتي تؤججها الرغبة في الجهاد والاستشهاد، لا حباً في كسب الغنائم كما يفسر ذلك بعض محلّلي النصوص التاريخية، صحيح أن متاع الحياة الدنيا مرغوب، ولكن ثواب الآخرة هو المحرِّض الأكبر عند عامة المحاربين من المسلمين، وعلى رأسهم ابن الوليد.

د-مواتاة الظروف السياسية والاجتماعية

عندما برز العرب أمةً على مسرح الأحداث، وأخذ المسلمون في الإرهاص لتكوين أمة فتية، ودولة صاعدة، تأخذ مكانها تحت الشمس، كانت دولتا الفرس والروم قد هرِمتا، وقد دوَّختْ كل واحدة منهما الأخرى حتى لقد ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة الروم. وكان المجتمع في كل من الدولتين الكبيرتين قد نخرته المفاسد الاجتماعية، وظلم الطبقة الحاكمة، وسوء استخدام السلطة، والفقر المستشري في الطبقة الدنيا، وتطلع الناس في هذين المجتمعين، بشغف شديد إلى العدل والمساواة والرحمة، وهذا ما يُبشِّر به الدين الجديد، دين الفاتحين؛ لذلك سعى الكثيرون من رعايا هاتين الدولتين العظيمتين إلى قبول دين الإسلام بطواعية، وفتحوا بلادهم للفاتحين الجدد، وإن كانت ضلوعهم تُكِنُّ غيرة على هؤلاء الفاتحين البدو بأنهم أقل من البلاد المفتوحة حضارة ومدنية، فصالحوا الجيوش التي اجتاحتهم، ودفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وقبلوا بالشروط العادلة التي اشترطها المسلمون، فكانت هذه الجماهير، معواناً للفاتحين وعلى رأسهم خالد بن الوليد، على فتح البلاد؛ للتخلص من الظلم الذي ران عليهم قروناً طويلة.

هذا القائد العظيم الذي يتمتع بكل هذه الخصائص، وما ذكرتُ إلا أبرزها يمضي الآن على وفاته أربعة عشر قرناً، حفزت هذه القرون مجلة التراث العربي أن تقدم ملفاً يذكّر بمآثر هذا القائد الباسل، الذي يشارك في إحياء ذكراه ثُلّة من الكتاب والأدباء العرب، فكتابنا الكريم يقول في القديم: { وذكّر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين } وفي الحديث قال شوقي: "فالذكر للإنسان عمرٌ ثاني". ...

من أسباب النصر

أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – جيشا بقيادة سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – لفتح بلاد فارس وكتب إليه عهدا هذا نصه :

١ – تقوى الله :

أما بعد : فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب .

٢ – ترك المعاصي :

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، وعدتنا ليست كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم علينا الفضل في القوة ، وإن لم ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شرّ منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرُبَّ قوم سُلّط عليهم من هو شر منهم ، كما سُلّط على بني إسرائيل كفار المجوس – لما عملوا بالمعاصي (وكما سلطت اليهود على العرب المسلمين الآن) .

٣ – الاستعانة بالله :

وسلوا الله النصر على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، وأسأل الله ذلك لنا ولكم " ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية " .

الصراع بين المسلمين واليهود وحتمية النصر عليهم

فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (٣ / ٥٠٩٨)

رقم الفتوى ١٨٥٩٠ الصراع بين المسلمين واليهود وحتمية النصر عليهم

تاريخ الفتوى : ٢٠ ربيع الثاني ١٤٢٣

السؤال

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم أما بعد:
- أنا عندي مشكله وهي أني أقوم العادة السرية يومين فقط مع أني أحاول كثيراً أن أتخلى عن هذه العادة ولكن لا استطيع فماذا أفعل؟
- أود محاضرة عن نهاية إسرائيل على أن تكون بأحاديث عن الرسوال الله صلى الله عليه وسلم.
وشكراً.
الفتوى
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:
فقد تقدم الجواب عن حكم الاستمناء (العادة السرية) في فتوى سابقة برقم: ١٠٨٧ ، وفتوى رقم: ٧١٧٠ فليراجعها.
وأما عن نهاية إسرائيل، فإن الصراع بين اليهود والمسلمين لا يزال مستمراً منذ فجر الإسلام، ولا تزال الأيام دول بيننا وبينهم، وإن كان النصر في غالب الزمان لنا، لكن يوم يبتعد المسلمون عن أسباب النصر يكتب الله عز وجل الغلبة لليهود.
ونهاية اليهود قد أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود".
والله أعلم.
المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

الحكمة من استنصار النبي ربه يوم بدر مع تحققه من النصر

رقم الفتوى ٢٣٩٦٨ تاريخ الفتوى : ١٢ شعبان ١٤٢٣
السؤال
بسم الله الرحمن الرحيم
ورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ يدعو قبل غزوة بدر بقوله:"اللهم أنجزني ما وعدتني".
لم أجد كيف أفسر فائدة هذا الدعاء مع أن النبي يعرف أن الله لا يخلف وعده وأنه سينجزه ما وعده، فما هو التفسير لهذا يا شيخنا ؟ جزاكم الله خيراً....
الفتوى
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتضرع إلى ربه تعالى أن ينجز له وعده وينصر حزبه بالشاك في وعد الله، فهو القائل قبل المعركة: لكأني أنظر إلى مصارع القوم، وقام بتحديد مواضع مصارع بعضهم.

لكنه إنما قام بوظيفة العبودية، والتي يمثل الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل ذروهما، فالثمن الذي استحق به الرسول صلى الله عليه وسلم النصر والتأييد هو عبودية الله التي اتخذت مظهرها الرائع في قيام النبي صلى الله عليه وسلم طول الليل يجأر إلى ربه داعياً وخاضعاً.

وقد أشار القرآن إلى هذه بقوله: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ [الأنفال:٩].

والقيام بوظيفة العبودية حق القيام هو شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حربه وسلمه، فقد كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فتسأله عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً. رواه البخاري.

فهل يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوم هذا القيام لشك في مغفرة الله لذنبه المتقدم منه والمتأخر؟!

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

شروط النصر والتمكين للمسلمين

رقم الفتوى ٢٧٢١٦ تاريخ الفتوى : ٠٦ ذو القعدة ١٤٢٣

السؤال

فضيلة الشيخ أريد منك أن تستخرج لي بعض الأحاديث النبوية الشريفة أو الآيات القرآنية التي تدل على سبب انتصار المسلمين في غزواقم.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

ففي القرآن الكريم بيان شروط النصر والتمكين للمسلمين، وذلك في قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [النور:٥٥].

وقوله تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج:٤١].

فشروط التمكين في الآية الأولى هي:

١- الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه.

٢- العمل الصالح.

٣- تحقيق العبودية لله تعالى.

٤- محاربة الشرك والبراءة منه ومن أهله.

وبينت الآية الثانية لوازم استمرار التمكين فجاء فيها:

١- إقامة الصلاة.

٢- إيتاء الزكاة.

٣- طاعة الرسول.

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أسباب النصر المادية:

- الإعداد، كما قال الله تعالى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ [الأنفال:٦٠].

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بكل حذافيره في كل مراحل دعوته وفي جميع غزواته، ففي الهجرة -مثلاً- لم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً من الأمور إلا أعد له عدته وحسب حسابه، فقد أعد الرواحل والدليل واختار الرفيق والمكان الذي سيتوارى فيه هو وصاحبه، واستخدم الحذر والكتمان.

وكذلك الأمر بالنسبة لغزواته بدر وأحد والأحزاب، وغيرها.

ومن أسباب النصر:

إعداد الأفراد الربانيين الذين يأخذون على عاتقهم إقامة الدين والجهاد، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول من بعثته، فحرص صلى الله عليه وسلم على إعداد أصحابه إعداداً ربانياً في هدوء وتدرج وسرية، قال الله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ [الجمعة:٢].

وقال تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [الكهف:٢٨].

ومن أسباب النصر: محاربة أسباب الفرقة والأخذ بأصول الوحدة، وفي هذا يقول الله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا [آل عمران:١٠٣].

ومن أسباب النصر المادية التخطيط.. وهذا واضح جداً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الهجرة، والغزوات وغيرها.

وننصح السائل الرجوع إلى كتاب فقه التمكين للدكتور على الصلابي ففيه الكفاية.

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

النصر ليس مرتبطا بظهور المهدي

تاريخ الفتوى : ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥ رقم الفتوى ٥٧٥٧٢

السؤال

متى يأتي نصر الله، وهل هذا النصر لن يأتي إلا عند أو أثناء ظهور المهدي؟ وهل المهدي هذا حقيقة فعلا، وإذا كان حقيقة هل اقترب ظهوره أم لم يحن وقته أفيدوني بارك الله فيكم ، أرجو إجابة واضحة وسريعة ؟ إنسان حيران-تائه -مكتئب-مؤمن بعض الشيء والحمد لله.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن المهدي ثبت أمره بعدة أحاديث، وقد اقترب ظهوره ولكننا لا نعلم متى يكون بالضبط، لأنه من الغيب.

وقد سبق الحديث عنه بالتفصيل في الفتوى رقم: ٦٥٧٣ .

ثم إن نصر الله للأمة المحمدية وتغيير حالها من ذل إلى عز ليس مرتبطا بالمهدي، بل إنه إذا عادت الأمة إلى الله تعالى غير ما بها كما حصل في عهد التتار وعهد احتلال الصليبيين للقدس سابقا.

وقد سبق بيان أسباب النصر في عدة فتاوى، فراجع منها الفتاوى التالية أرقامها: ٣٢٩٤٩ ، ٣٢٧٥٤ ، ٤١٢٢٧ ، ٩٢٢٥ ، ٢٧٦٣٨ .

وراجع كتاب صلاح الأمة في علو الهمة للدكتور سيد حسين عفاني والجزء الأول من السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني.

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

التمسك بالقرآن وتحقيق النصر

تاريخ الفتوى : ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥ رقم الفتوى ٥٧٩٩٧

السؤال

كنت أتناقش مع أحد الأصدقاء في أن من يتخذ القرآن منهجاً لابد وأن يقود العالم.

فلم يقتنع و قال لي أعطني أمثلة على ذلك غير عصر الخلفاء الراشدين؛ لأن تلك

النهضة في عصرهم قد تكون نظراً لشخصياتهم الفريدة و ليس لاتخاذهم القرآن منهجاً.

فلم أستطع الرد نظراً لضعف المعلومات .

فالرجاء إرشادي إلى الرد المقنع في هذا الموضوع

و جزاكم الله كل خير،

أنس العطار

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فاعتقاد أن انتصار الإسلام أول مرة على يد جيل الصحابة كان بسبب طبيعة شخصياتهم الفريدة هو محض افتراء مفتقر إلى برهان، وعلى صاحبك أن يدلل على دعواه وليس أنت.

فمن المعروف تاريخيا أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا شيئا يذكر، كانوا بدوا يعيشون في الصحراء يعبدون الأحجار، ولا هم لهم إلا شرب الخمر وقرض الشعر والزنا وإقراض الناس بالربا ونحو ذلك، ولا يستحون من أي معرة!!

وكانوا يستخدمون قوتهم الحربية في الغدر بمن جاورهم من القبائل، وكانوا أذل أمة، فكانوا يرهبون الفرس في اليمن والعراق ويرهبون الروم في الشام، ولم يدر بخلدهم أن قوتهم ستضارع قوة الفرس والروم يوما فضلا عن أن تتفوق عليهم!!

فلما جاء الإسلام انقلبت حالهم من رعاة غنم إلى ساسة أمم، ومن قطاع طرق إلى قادة جيوش الفتح الإسلامي، ومن زناة إلى حماة أعراض، وفي ذلك يقول جعفر بن أبي طالب في حواره مع النجاشي : كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان.. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاءه من ربه، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

وعلى هذا، فإن نهضة المسلمين في زمن الخلفاء الراشدين كانت بسبب تمسكهم بهذا الدين واستقامتهم عليه واعتزازهم به، وبإرخاص حياتهم في سبيل إعزازه، وإن ما نحن فيه من ذلة وهوان

ليس راجعا إلى الإسلام، وإنما راجع لضعف إيمان المسلمين وقلة يقينهم وعدم تمسكهم بشرائعه.

هذا، ونبشرك بأن وعد الله لا يتخلف بتمكين المسلمين كما مكن الرعيل الأول من الخلفاء الراشدين والصحابة الطاهرين، ولكن باستيفاء شروط حققها المسلمون الأوائل. قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {النور: ٥٥}.

والمسلمون الآن وقع فيهم من صنوف الشرك وعبادة غير الله ما حرموا بسببه نصر الله الذي آتاه للرعيل الأول

وقال الله تعالى: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {الحج: ٤٠-٤١}.

ففي هذه الآية علق الله النصر على أربعة أمور بعد توحيده وعبادته وحده المذكور في الآية السابقة، وهذه الأمور هي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الأمور غير متحققة في واقعنا، فإذا تحققت انتصرنا ونهضنا كما انتصروا ونهضوا.

ولمزيد من التفصيل في الموضوع نحيل السائل على الكتب التالية: هل نحن مسلمون، و واقعنا المعاصر، وكلاهما للأستاذ محمد قطب. وكتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وهو للشيخ أبي الحسن الندوي.

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

استعجال النصر.. الجائز والممنوع

تاريخ الفتوى : ٢٠ جمادي الأولى ١٤٢٦ رقم الفتوى ٦٣٩٢٨

السؤال

سؤالي هو: هل يجوز في الدعاء أن نقول يا رب.. متى نصرك.. يا رب.. متى نصرك، يا رب.. متى نصرك.. وذلك عندما نرى أحوال المسلمين اليوم وما يتعرضون له من قتل وانتهاك لحرماتهم؟ وجزاكم الله خيراً.

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإنه لا بأس بهذا الكلام إن كان على وجه طلب النصر والتمني له بأن يقول الداعي ذلك طلباً واستعجالاً لنصر الله، لا أن يقول ذلك شكا ولا ارتياباً، قال الألوسي في روح المعاني عند تفسيره قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ {البقرة:٢١٤}، قال: زلزلوا أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بأنواع البلايا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه أي انتهى أمرهم من البلاء إلى حيث اضطروا إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بما يليق به تعالى وما تقتضيه حكمته والمؤمنون المقتدون بآثاره المهتدون بأنواره (متى يأتي) نصر الله طلباً وتمنياً له، واستطالة لمدة الشدة لا شكا وارتياباً. انتهى.

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال: وكما تكون الشدة يترل النصر مثلها. انتهى، ولبيان آداب الدعاء يرجى الاطلاع على الفتوى رقم: ٢٣٥٩٩ .

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

طريق النصر على الشيطان والهوى

تاريخ الفتوى : ١٦ ربيع الثاني ١٤٢٧ رقم الفتوى ٧٤٣٤٢

السؤال

أنا شاب في التاسعة عشر من عمري ومسلم والحمد لله، ولكني غير ملتزم بجميع أمور الدين، مثل الصلاة حيث إنني أصلي يوما وأقطع عشرة، وكما أنني أعاني من عادة الاستمناء التي رافقتني منذ سبع سنوات، وأنا أنوي الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى والتوبة إليه، لكنني لا أستطيع إذ سرعان ما يشدني الشيطان إليه ويمنعني من العودة، علماً بأنني أحرص على أن أظل ملتزماً بأخلاقي وأدبي مع الناس الذين حولي، وكما أنني من مستمعي الأغاني، ولكن ليس جميعها بل البعض منها التي لا أجد فيها الكلام الفاحش أو الموسيقى المؤذية للمشاعر، الرجاء المساعدة بأقرب وقت ممكن لأنني تائه ومحتار في أمري ولا أعرف ما أريده من هذه الحياة؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فنسأل الله تعالى أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين جميعاً، وأن يوفقنا وإياك لما يحب ويرضى ويحفظنا وإياك مما يسخطه سبحانه وتعالى، واعلم أن الصلاة أمرها عظيم عند الله تعالى، ومكانتها كبيرة في الدين لا يخفي ذلك على أي مسلم: قال تعالى: حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ

قَانِتِينَ {البقرة:٢٣٨}، وقال تعالى: إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا {النساء:١٠٣}، وقال تعالى: فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا {مريم:٥٩}، وقال صلى الله عليه وسلم: ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة. كما في السنن وصحيح ابن حبان .

وقال: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه .

وفي سنن ابن ماجه وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ولا تترك صلاة مكتوبة، فمن تركها متعمدا فقد برئت منه الذمة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة. وقال عبد الله بن شقيق : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر إلا الصلاة، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: من لم يصل فهو كافر. رواه ابن عبد البر في التمهيد، ولا يخفى أن هذه العقوبة لمن ترك الصلاة بالكلية، أما من يصليها لكنه يتكاسل في أدائها، ويؤخرها عن وقتها، فقد توعده الله بالويل، فقال: فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ {الماعون:٤-٥}، ونقول للسائل: لم لا تصلي؟ ألا تخاف من الله؟ ألا تخشى الموت؟

أما تعلم أن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. رواه الترمذي وحسنه، و أبو داود و النسائي .

وماذا يكون جوابك لربك حين يسألك عن الصلاة؟

ألا تعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف أمته يوم القيامة بالغرة والتحجيل من أثر الوضوء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن أمتي يدعون القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء. رواه البخاري و مسلم. و(الغرة) بياض الوجه، و(التحجيل) بياض في اليدين والرجلين.

كيف بالمرء حينما يأتي يوم القيامة، وليس عنده هذه العلامة، وهي من خصائص الأمة المحمدية، بل لقد وصف الله أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم: سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ {الفتح:٢٩}، وقد تكلم العلماء باستفاضة عن عقوبة تارك الصلاة، كما في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي .

فعليك أخي الكريم -أن تتدبر الآيات وتتفحص تلك الأحاديث وأنت موقن مصدق، وداوم على التضرع إلى الله تعالى أن يلهمك رشدك، ويعينك على نفسك، ويوفقك للقيام بما افترضه عليك، والابتعاد عما يسخطه.

وأما الأغاني فإن كانت مصحوبة بالموسيقى والمعازف فهي محرمة، وقد سبق أن بينا أدلة ذلك ونقلنا كلام العلماء فيه في الفتاوى التالية أرقامها: ٦٦٠٠١ ، ٥٤٣١٦ ، ٣٥٧٠٨ ، ٢٦٤٠٩ .

وراجع في العادة السرية الفتوى رقم: ٧١٧٠ ، والفتوى رقم: ٥٢٤٢١ ، والفتوى رقم: ٢٣٨٦٨ مع إحالاتها، وراجع في الانتصار على الشيطان والهوى الفتاوى التالية أرقامها: ٣٣٨٦٠ ، ٥٧٥٤٤ ، ٦٢٨٣٣ ، ٦٦٠٤١ ، ٦٨٤٦٨ .

والله أعلم.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه

علامات النصر والتمكين

المجيب أ.د. سعود بن عبد الله الفنيسان

عميد كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -سابقاً-

التصنيف الفهرسة/ الاستشارات/ استشارات دعوية وإيمانية/اخرى

التاريخ ١٦/٠٤/١٤٢٦هـ

السؤال

السلام عليكم.

أرجو منكم أن تعطوني خمس أو ست من علامات النصر والتمكين، مع التوضيح لكل علامة منها بدليل من القرآن الكريم أو السنة. وجزاكم الله خيراً.

الجواب

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

اقرئي وتدبري هاتين الآيتين من سورة الحج، وستجدين فيهما خمس فوائد من علامات النصر للمؤمنين: "الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز* الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" [الحج: ٤٠-٤١].

فالعلامة الأولى لنصر المظلوم: تعدي الظالم وتكبره وغطرسته على المؤمنين المستضعفين.

والثانية: إقامة الصلاة والمداومة عليها.

الثالثة: إخراج الزكاة من الأموال المفروضة إلى مستحقيها.

والرابعة: الأمر بالمعروف، ويعني القيام بالدعوة إلى الله، وتبليغها للناس كافة.

الخامسة: النهي عن المنكر، ويعني الاحتساب على العصاة من المسلمين فيما بينهم، وإذا تدبرت ما قبل هاتين الآيتين وما بعدهما من الآيات ظهرت لك معانٍ كثيرة، أرجو الله أن ينفعك بها .والله الموفق.

التمسك بالإسلام حقا هو سبب النصر والنجاة في الآخرة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق ليعبد وحده لا شريك له ، وأنزل كتبه وأرسل رسله للأمر بذلك والدعوة إليه ، كما قال سبحانه : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } (١) وقال سبحانه : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (٢) وقال عز وجل : { الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } (٣) { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } (٤) وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } (٥) الآية ، وقال سبحانه : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } (٦) فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الله عز وجل إنما خلق الثقلين ليعبد وحده لا شريك له ، وأن ذلك هو الحكمة في خلقهما ، كما تدل على أنه عز وجل إنما

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٢) سورة البقرة الآية ٢١

(٣) سورة هود الآية ١

(٤) سورة هود الآية ٢

(٥) سورة النحل الآية ٣٦

(٦) سورة الأنبياء الآية ٢٥

أنزل الكتب وأرسل الرسل لهذه الحكمة نفسها ، والعبادة هي الخضوع له والتذلل لعظمته بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، عن إيمان به سبحانه وإيمان برسله ، وإخلاص له في العمل ، وتصديق بكل ما أخبر به ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهذا هو أصل الدين وأساس الملة وهو معنى لا إله إلا الله ، فإن معناها : لا معبود حق إلا الله ، فجميع العبادات من دعاء وخوف ورجاء وصلاة وصوم وذبح ونذر وغير ذلك يجب أن تكون لله وحده ، وأن لا يصرف من ذلك شيء لسواه للآيات السابقات ، ولقوله عز وجل : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } (١) الآية ، وقوله عز وجل : { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } (٢) وقوله سبحانه : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ } (٣) { إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } (٤) وقال تعالى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ } (٥) { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } (٦) وقال عز وجل : {

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } (٧) فأبان سبحانه في هذه الآيات أنه المالك لكل شيء وأن العبادة حقه سبحانه ، وأن جميع المعبودين من دونه من أنبياء

---

(١) سورة البينة الآية ٥

(٢) سورة الجن الآية ١٨

(٣) سورة فاطر الآية ١٣

(٤) سورة فاطر الآية ١٤

(٥) سورة الأحقاف الآية ٥

(٦) سورة الأحقاف الآية ٦

(٧) سورة المؤمنون الآية ١١٧

وأولياء وأصنام وأشجار وأحجار وغيرهم لا يملكون شيئا ولا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولو سمعوا دعاءه لم يستجيبوا له ، وأخبر أن ذلك شرك به عز وجل ، ونفي الفلاح عن أهله ، كما أخبر سبحانه أنه لا أضل ممن دعا غيره ، وأن ذلك المدعو من دون الله لا يستجيب لداعيه إلى يوم القيامة ، وأنه غافل عن دعائه إياه ، وأنه يوم القيامة ينكر عبادته إياه ، ويتبرأ منها ، ويعاديه عليها ، فكفى بهذا تنفيرا من الشرك وتحذيرا منه ، وبيانا لخسران أهله وسوء عاقبتهم .

وترشد الآيات كلها إلى أن عبادة ما سواه باطلة ، وأن العبادة بحق لله وحده ، ويؤيد ذلك صريحا قوله عز وجل : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ } (١) الآية من سورة الحج .

وذكر سبحانه في مواضع أخرى من كتابه أن من الحكمة في خلق الخليقة أن يعرف سبحانه بعلمه الشامل وقدرته الكاملة ، وأنه عز وجل سيجزي عباده في الآخرة بأعمالهم ، كما قال عز وجل : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } (٢) وقال تعالى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } (٣) { وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (٤)

---

(١) سورة الحج الآية ٦٢

(٢) سورة الطلاق الآية ١٢

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٢

فالواجب على كل ذي لب أن ينظر فيما خلق له ، وأن يحاسب نفسه ويجاهدها لله حتى يؤدي حقه وحق عباده ، وحتى يحذر ما نهاه الله عنه ليفوز بالسعادة والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ، وهذا العلم هو أنفع العلوم وأهمها وأفضلها وأعظمها ، لأنه أساس الملة وزبدة ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وخلاصة دعوتهم ، ولا يتم ذلك ولا يحصل به النجاة إلا بعد أن يضاف إليه الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعلى رأسهم إمامهم وسيدهم وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومقتضى هذا الإيمان ، تصديقه صلى الله عليه وسلم في إخباره وطاعة أوامره وترك نواهيه ، وأن لا يعبد الله سبحانه إلا بالشريعة التي جاء بها عليه الصلاة والسلام . وهكذا كل أمة بعث الله إليها رسولا ، لا يصح إسلامها ولا يتم إيمانها ولا تحصل لها السعادة والنجاة إلا بتوحيدها لله ، وإخلاص العبادة له عز وجل ، ومتابعة رسولها صلى الله عليه وسلم ، وعدم الخروج عن شريعته ، وهذا هو الإسلام الذي رضيه الله لعباده ، وأخبر أنه هو دينه ، كما في قوله عز وجل : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } (١) وقوله عز وجل : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } (٢) وبهذا يتضح لذوي البصائر أن أصل دين الإسلام وقاعدته أمران :

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله وحده ، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

الثاني : أن لا يعبد إلا بشريعة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

فالأول يبطل جميع

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩

الآلهة المعبودة من دون الله ، ويعلم به أن المعبود بحق هو الله وحده ، والثاني يبطل التعبد بالآراء والبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، كما يتضح به بطلان تحكيم القوانين الوضعية والآراء البشرية ويعلم به أن الواجب هو تحكيم شريعة الله في كل شيء ، ولا يكون العبد مسلما إلا بالأمرين جميعا ، كما قال الله عز وجل : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (١) { إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } (٢) وقال سبحانه : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (٣) وقال تعالى : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (٤) وقال عز وجل { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } (٥) { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٦) { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (٧)

وهذه الآيات تتضمن غاية التحذير والتنفير من الحكم بغير ما أنزل الله ، وترشـــد الأمـــة حكومـــة وشعبها إلى أن الواجب على الجميع هو الحكم بما أنزل الله والخضوع له والرضا به ، والحذر مما يخالفه ، كما تدل أوضح دلالة على أن حكم الله سبحانه هو أحسن الأحكام وأعدلها ، وأن الحكم بغـــيره كفر وظلم وفسق وأنه هو حكم الجاهلية الذي جاء شرع الله بإبطاله والنـــهي عنـــه ، ولا صـــلاح للمجتمعات ولا سعادة لها ولا أمن ولا استقرار إلا بأن يحكم قادتها شريعة الله ،

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٨

(٢) سورة الجاثية الآية ١٩

(٣) سورة النساء الآية ٦٥

(٤) سورة المائدة الآية ٥٠

(٥) سورة المائدة الآية ٤٤

(٦) سورة المائدة الآية ٤٥

(٧) سورة المائدة الآية ٤٧

وينفذوا حكمه في عباده ، ويخلصوا له القول والعمل ، ويقفوا عند حدوده الـــتي حـــدها لعبـــاده ، وبذلك يفوز الجميع بالنجاة والعز في الدنيا والآخرة ، كما يفوزون بالنصر على الأعداء والسلامة من كيدهم واستعادة المجد السليب ، والعز الغابر ، كما قال سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُـــرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } (١) وقال عز وجل : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } (٢) وقال سبحانه : { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّـــهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (٣) { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَـــرُوا بِـــالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } (٤) ولما حذر سبحانه من اتخاذ الكفار بطانة من دون المؤمنين وأخبر أن الكفار لا يألون المسلمين خبالا ، وأنهم يودون عنتهم ، قال بعد ذلك : { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَـــا يَضُـــرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } (٥)

وهذا الأصل الأصيل والفقه الأكبر هو أولى ما كتب فيه الكاتبون ، وعني به دعاة الهدى وأنصار الحق ، وهو أحق العلوم أن يعض عليه بالنواجذ ، وينشر بين جميع الطبقات حتى يعلموا حقيقته ويبتعـــدوا عما يخالفه .

وإني لأنصح إخواني أهل العلم والقائمين بالدعوة إلى الله سبحانه بأن يعنوا بهذا الأصل العظيم ويكتبوا فيه ما أمكنهم من المقالات والرسائل حتى ينتشر ذلك بين الأنام ويعلمه الخاص والعام ، لعظم شـــأنه وشدة الضرورة إليه ، ولما

---

(١) سورة محمد الآية ٧

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩

(٣) سورة الحج الآية ٤٠

(٤) سورة الحج الآية ٤١

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٠

وقع بسبب الجهل به في غالب البلدان الإسلامية من الغلو في تعظيم القبور ، ولا سيما قبـــور مـــن يسموهم بالأولياء واتخاذ المساجد عليها وصرف الكثير من العبادة لأهلها كالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك .

ولما وقع أيضا بسبب الجهل بهذا الأصل الأصيل في غالب البلاد الإسلامية من تحكيم القوانين الوضعية والآراء البشرية ، والإعراض عن حكم الله ورسوله الذي هو أعدل الأحكام وأحسنها .

فنسأل الله أن يرد المسلمين إليه ردا حميدا ، وأن يصلح قادتهم وأن يوفق الجميع للتمسك بشريعة الله والسير عليها والحكم بها والتحاكم إليها والتسليم لذلك والرضا به والحذر مما يخالفها إنه ولي ذلـــك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وأصحابه ومن سار على طريقـــه واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

مؤتمر القمة الإسلامي وعوامل النصر (١)

مجموع فتاوى ابن باز - (٣ / ٣٤١)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه

أما بعد:

فإن من تأمل القرآن الكريم الذي أنزله الله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين؛ يجد فيه بيانا شافيا لعوامل النصر وأسباب التمكين في الأرض والقضاء على العدو مهما كانت قوته، ويتضح له أن تلك الأسباب والعوامل ترجع كلها إلى عاملين أساسيين.

وهما الإيمان الصادق بالله ورسوله، والجهاد الصادق في سبيله، ومعلوم أن الإيمان الشرعي الذي علـــق الله به النصر وحسن العاقبة يتضمن الإخلاص لله في العمل والقيام بأوامره وترك نواهيه، كما يتضمن وجوب تحكيم الشريعة في كل أمور المجتمع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورد ما تنازع فيـــه الناس إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يتضمن أيضا وجوب إعـــداد ما يستطاع من القوة للدفاع عن الدين والحوزة؛ وجهاد من خرج عن الحق حتى يرجع إليه.

أما العامل الثاني وهو الجهاد الصادق فهو أيضا من موجبات الإيمان، ولكن الله سبحانه نبه عليه وخصه بالذكر في مواضع كثيرة من كتابه، كذلك رسوله صلى الله عليه وسلم أمر به الأمة ورغبها فيه لعظم شأنه

---

(١) مجلة التوحيد المصرية من صـ ١١ - ١٥ .

ومسيس الحاجة إليه؛ لأن أكثر الخلق لا يردعه عن باطله مجرد الوعد والوعيد، بل لا بد في حقه من وازع سلطاني يلزمه بالحق ويردعه عن الباطل، ومتى توافر هذان العاملان الأساسيان وهما الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله لأي أمة أو دولة؛ كان النصر حليفها وكتب الله لها التمكين في الأرض، والاستخلاف فيها وعد الله الذي لا يخلف، وسنته التي لا تبدل ، وقد وقع لصدر هذه الأمة من العز والتمكين والنصر على الأعداء ما يدل على صحة ما دل عليه القرآن الكريم وجاءت به سنة الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام، وكل من له أدنى إلمام بالتاريخ الإسلامي يعرف صحة ما ذكرناه وأنه أمر واقع لا يمكن تجاهله وليس له سبب سوى ما ذكرنا آنفا من صدق الرعيل الأول في إيمانهم بالله ورسوله والجهاد في سبيله قولا وعملا وعقيدة.

وإليك أيها الأخ الكريم بعض الآيات الدالة على ما ذكرنا لتكون على بينة وبصيرة ولتقوم بما تستطيعه من الدعوة إلى سبيل ربك وتنبيه إخوانك المسلمين على أسباب النصر وعوامل الخذلان « ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » (١) كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } (٢) وقد أجمع أهل التفسير على أن نصر الله سبحانه هو نصر دينه بالعمل به والدعوة إليه والجهاد لمن خالفه ويدل على هذا المعنى الآية الأخرى من سورة الحج وهي قوله سبحانه: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (٣) { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } (٤) وقال تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } (٥)

---

(١) صحيح البخاري المناقب (٣٤٩٨)،صحيح مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٦)،سنن أبو داود العلم (٣٦٦١)،مسند أحمد بن حنبل (٥/٣٣٣).

(٢) سورة محمد الآية ٧

(٣) سورة الحج الآية ٤٠

(٤) سورة الحج الآية ٤١

(٥) سورة الروم الآية ٤٧

ولا ريب أن المؤمن هو القائم بأمر الله المصدق بأخباره المنتهي عن نواهيه المحكم لشريعته وقال عز وجل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } (١) وقال عز وجل في بيان صفات المؤمنين والمتقين { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } (٢)

تأمل يا أخي هذه الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة ثم حاسب نفسك بتطبيقها حتى تكون من المؤمنين الصادقين والمتقين الفائزين ، ولا ريب أن الواجب على كل من ينتسب إلى الإسلام من ملك أو زعيم أو أمير أو غيرهم أن يحاسب نفسه وأن يجاهدها على التخلق بهذه الأخلاق الكريمة، والعمل بهذه الأعمال الصالحة، وأن يلزم من تحته من الشعوب بهذه الأخلاق والأعمال التي أوجبها الله على المسلمين، وأن يصدق في ذلك ويستعين بالله عليه وأن يولي الأخيار الذين يعينونه على تنفيذ أمر الله ورسوله حسب الإمكان وأن يبعد ضدهم حسب الإمكان وأن يتعاون مع غيره من الملوك والزعماء والأعيان في هذا الأمر الجليل الذي به عزهم ونصرهم وتمكينهم في الأرض كما قال عز وجل: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (٣)

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٩

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٣) سورة النور الآية ٥٥

وقال سبحانه في سورة الأنفال آمرا لعباده بإعداد القوة: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } (١) وأمرهم بالحذر من الأعداء ومكايدهم فقال تعالى في سورة النساء: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } (٢) وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ

عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا } (٣)

فانظر يا أخي هذا التعليم العظيم والتوجيه البليغ من فاطر الأرض والسماوات وعالم السرائر والخفيات الذي بيده تصريف قلوب الجميع وبيده أزمه الأمور وتصريفها يتضح لك من ذلك عناية الإسلام بالأسباب وحثه عليها، وتحذيره من إهمالها والغفلة عنها؛ ويتبين لك من ذلك أنه لا يجوز للمسلم أن

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠

(٢) سورة النساء الآية ٧١

(٣) سورة النساء الآية ١٠٢

يعرض عن الأسباب أو يتهاون بشأنها كما أنه لا يجوز له الاعتماد عليها بل يجب أن يكون اعتماده على الله وحده مؤمنا بأنه سبحانه هو الذي بيده النصر وهذا هو حقيقة التوكل الشرعي وهو الأخذ بالأسباب والعناية بها مع الاعتماد على الله والتوكل عليه وقد نبه الله سبحانه على هذا المعنى في عدة آيات، منها قوله سبحانه { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } (١) { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (٢) فذكر التقوى أولا وهي أعظم الأسباب لأن حقيقتها طاعة الله ورسوله في كل شيء ومن ذلك الأخذ بالأسباب الحسية والمعنوية والسياسية والعسكرية ثم ذكر التوكل فقال سبحانه: { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (٣) - أي كافيه - وقال عز وجل: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } (٤) { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (٥)

أما الجهاد الصادق فذكره الله سبحانه في عدة آيات ، وذكر ما يترتب عليه من النصر في الدنيا والسعادة في الآخرة وبين صفات المجاهدين الصادقين ليتميزوا من غيرهم فقال تعالى: { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٦) وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٧) { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } (٨) { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } (٩)

(١) سورة الطلاق الآية ٢

(٢) سورة الطلاق الآية ٣

(٣) سورة الطلاق الآية ٣

(٤) سورة الأنفال الآية ٩

(٥) سورة الأنفال الآية ١٠

(٦) سورة التوبة الآية ٤١

(٧) سورة الأنفال الآية ٤٥

(٨) سورة الأنفال الآية ٤٦

(٩) سورة الأنفال الآية ٤٧

فتأمل أيها المؤمن هذه الصفات العظيمة للمجاهد الصادق حتى يتضح لك حال المسلمين اليوم وحال المجاهدين السابقين وحتى تعرف سر نجاح أولئك وخذلان من بعدهم، وأنه لا سبيل إلى إدراك النصر في الدنيا والسعادة في الآخرة إلا بالتخلق بالأخلاق التي أمر الله بها ودعا إليها، وعلق بها النصر وقد أوضحها الله سبحانه في كتابه المبين في هذه الآيات التي ذكرناها وغيرها وقال عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } (١) { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٢) { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (٣) { وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } (٤)

وقد جمع الله سبحانه في هذه الآيات أسباب النصر وردها سبحانه إلى عاملين أساسيين وهما الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله ورتب على ذلك مغفرة الذنوب والفوز بالجنة في الآخرة والنصر في الدنيا والفتح القريب، وأخبر سبحانه أن المسلمين يحبون النصر والفتح؛ ولهذا قال: { وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ } (٥)

فإذا كان ملوكنا وزعماؤنا في مؤتمرهم هذا يرغبون رغبة صادقة في النصر والفتح القريب والسعادة في الدنيا والآخرة، وقد أوضح الله لهم السبيل وأبان لهم العوامل والأسباب المفضية إلى ذلك ؛ فما عليهم إلا أن يتوبوا إلى الله توبة صادقة مما سلف من تقصيرهم، وعدم قيامهم بما يجب عليهم من حق الله وحق

---

(١) سورة الصف الآية ١٠

(٢) سورة الصف الآية ١١

(٣) سورة الصف الآية ١٢

(٤) سورة الصف الآية ١٣

(٥) سورة الصف الآية ١٣

عباده، وأن يتعاهدوا صادقين على الإيمان بالله ورسوله وتحكيم شريعته والاعتصام بحبله وجهادهم الأعداء صفا واحدا بكل ما أعطاهم الله من قوة وأن ينبذوا المبادئ المخالفة لشريعة الله وحقيقة دينه، وأن يعتمدوا عليه سبحانه لا على غيره من المعسكر الشرقي أو الغربي، وأن يأخذوا بالأسباب ويعدوا ما استطاعوا من القوة بكل وسيلة أباحها الشرع وأن يكونوا مستقلين ومنحازين عن سائر الكتل الكافرة من شرقية وغربية متميزين بإيمانهم بالله ورسوله واعتصامهم بدينه وتمسكهم بشريعته، وأما السلاح وأصناف العدة فلا بأس بتأمينها من كل طريق وبكل وسيلة لا تخالف الشرع المطهر .

والله المسئول بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل هذا المؤتمر مباركا وأن ينفع به عباده وأن يجمع به شمل المسلمين ويصلح به قادتهم ويوفق المجتمعين فيه لما فيه رضاه وعز دينه وذل أعدائه ورد الحق المسلوب إلى مستحقه ونبذ ما خالف الإسلام من مبادئ وأخلاق إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه وأتباعه بإحسان .

المجلس العشرون : في أسباب النصر الحقيقية

الحمد لله العظيم في قَدْره ، العزيز في قهره ، العالم بحال العبد في سره وجهره ، الجائد على المجاهد بنصره ، وعلى المتواضع من أجله برفعه ، يسمع صريف القلم عند خط سطره ، ويرى النمل يدب في فيافي قفره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، أحمده على القضاء حلوه ومره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقامةً لذكره ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالبر إلى الخلق في بره وبحره ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر السابق بما وقر من الإيمان في صدره ، وعلى عمر معز الإسلام بحزمه وقهره ، وعلى عثمان ذي النورين الصابر من أمره على مره ، وعلى علي ابن عمه وصهره ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ما جاد السحاب بقطره ، وسلم تسليما .

إخواني : لقد نصر الله المؤمنين في مواطن كثيرة في بدر والأحزاب والفتح وحنين وغيرها ، نصرهم الله وفاء بوعده : { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } [الروم : ٤٧] ، { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ }{ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [غافر : ٥١ - ٥٢] ، نصرهم الله لأنهم قائمون بدينه وهو الظاهر على الأديان كلها ، فمن تمسك به فهو ظاهر على الأمم كلها { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [الصف : ٩] ، نصرَهم الله تعالى لأنهم قاموا بأسباب النصر الحقيقية المادية منها والمعنوية ، فكان عندهم من العزم ما برزوا به على أعدائهم أخذا بتوجيه الله تعالى لهم وتمشيا مع هديه وتثبيته إياهم { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } [آل عمران : ١٣٩ – ١٤٠] ، { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء : ١٠٤] ، { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } [محمد : ٣٥] .

فكانوا بهذه التقوية والتثبيت يسيرون بقوة وعزم وجد وأخذوا بكل نصيب من القوة امتثالا لقول ربهم سبحانه وتعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال : ٦٠] ، من القوة النفسية الباطنة والقوة العسكرية الظاهرة نصرهم الله تعالى لأنهم قاموا بنصر دينه { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [الحج : ٤٠ – ٤١] ، ففي هاتين الآيتين الكريمتين وعد الله بالنصر من ينصره وعدا مؤكدا بمؤكدات لفظية ومعنوية ، أما المؤكدات اللفظية فهي القسم المقدَّر ، لأن التقدير : والله لينصرن الله من ينصره ، وكذلك اللام والنون في لينصرن كلاهما يفيد التوكيد ، وأما التوكيد المعنوي ففي قوله : { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج : ٤٠] ، فهو سبحانه قوي لا يضعف وعزيز لا يذل وكل قوة وعزة تُضَادُّه فستكون ذلا وضعفا ، وفي قوله : { وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [الحج : ٤١] ، تثبيت للمؤمن

عندما يستبعد النصر في نظره لبعد أسبابه عنده ، فإن عواقب الأمور لله وحده يُغَيِّر سبحانه ما شاء حسب ما تقتضيه حكمته .

وفي هاتين الآيتين بيان الأوصاف التي يُسْتَحَقُّ بها النصر ، وهي أوصاف يتحلى بها المؤمن بعد التمكين في الأرض ، فلا يُغريه هذا التمكين بالأشَر والبطر والعلو والفساد ، وإنما يزيده قوة في دين الله وتمسكا به .

* الوصف الأول : { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ } [الحج : ٤١] ، والتمكين في الأرض لا يكون إلا بعد تحقيق عبادة الله وحده كما قال تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } [النور : ٥٥] ، فإذا قام العبد بعبادة الله مخلصا له في أقواله وأفعاله لا يريد بها إلا وجه الله والدار الآخرة ، ولا يريد بها جاها ولا ثناء من الناس ولا مالا ولا شيئا من الدنيا ، واستمر على هذه العبادة المخلصة في السراء والضراء والشدة والرخاء مكَّنَ الله له في الأرض ، وإذن فالتمكين في الأرض يستلزم وصفا سابقا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له وبعد التمكين والإخلاص يكون .

* الوصف الثاني : وهو إقامة الصلاة بأن يؤدي الصلاة على الوجه المطلوب منه قائما بشروطها وأركانها وواجباتها ، وتمام ذلك القيام بمستحَبَّاتها ، فيحسن الطهور ، ويقيم الركوع والسجود والقيام

والقعود ، ويحافظ على الوقت وعلى الجمعة والجماعات ، ويحافظ على الخشوع وهو حضور القلب وسكون الجوارح ، فإن الخشوع روح الصلاة ولبها ، والصلاة بدون خشوع كالجسم بدون روح ، وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرجل لينصرف وما كُتِبَ له إلا عُشْر صلاته تُسعها ثُمنها سُبعها سُدسها خُمسها رُبعها ثُلثها نِصفها » (١) .

الوصف الثالث : إيتاء الزكاة وآتوا الزكاة بأن يعطوها إلى مستحِقِّيها طَيِّبَة بها نفوسهم كاملة بدون نقص يبتغون بذلك فضلا ورضوانا ، فيزكون بذلك أنفسهم ، ويطهرون أموالهم ، وينفعون إخوانهم من الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوي الحاجات ، وقد سبق بيان مستحِقِّي الزكاة الواجبة في المجلس السابع عشر .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي ، وقال العراقي : إسناده صحيح .

الوصف الرابع : الأمر بالمعروف وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ والمعروف : كل ما أمر الله به ورسوله من واجبات ومستحبات ، يأمرون بذلك إحياء لشريعة الله وإصلاحا لعباده واستجلابا لرحمته ورضوانه ، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فكما أن المؤمن يحب لنفسه أن يكون قائما بطاعة ربه فكذلك يجب أن يحب لإخوانه من القيام بطاعة الله ما يحب لنفسه .

والأمر بالمعروف عن إيمان وتصديق أن يكون قائما بما أمر به عن إيمان واقتناع بفائدته وثمراته العاجلة والآجلة .

* الوصف الخامس : النهي عن المنكر { وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } ، والمنكر كل ما نهى الله عنه ورسوله من كبائر الذنوب وصغائرها مما يتعلق بالعبادة أو الأخلاق أو المعاملة ، ينهون عن ذلك كله صيانة لدين الله وحماية لعباده واتقاء لأسباب الفساد والعقوبة .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان قويتان لبقاء الأمة وعزها ووحدتها حتى لا تتفرق بها الأهواء وتتشتت بها المسالك ، ولذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فرائض الدين على كل مسلم ومسلمة مع القدرة { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [آل عمران : ١٠٤ - ١٠٥] ، فلولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفرَّق الناس شِيَعًا ، وتمزقوا كل ممزق كل حزب بما لديهم فرحون ، وبه فُضِّلت هذه الأمة على غيرها { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران : ١١٠] ، وبتركه { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [المائدة : ٧٨ – ٧٩] ، فهذه الأوصاف الخمسة متى تحققت مع القيام بما أرشد الله إليه من الحزم والعزيمة وإعداد القوة الحسية حصل النصر بإذن لله { وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }{ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم : ٦ – ٧] ، فيحصل للأمة من نصر الله ما لم يخطر لهم على بال ، وإن المؤمن الواثق بوعد الله ليعلم أن الأسباب المادية مهما قويت فليست بشيء بالنسبة إلى قوة الله الذي خلقها وأوجدها ، افتخرت عاد بقوتها وقالوا : من أشد منا قوة ؟ فقال الله تعالى : { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ } [فصلت : ١٥ – ١٦] ، وافتخر فرعون بمُلْك مصر وأنهاره التي تجري من تحته فأغرقه الله بالماء الذي كان يفتخر بمثله ، وأورث ملكه موسى وقومه وهو الذي في نظر فرعون مهين ولا يكاد يُبين .

وافتخرت قريش بعظمتها وجبروتها فخرجوا من ديارهم برؤسائهم وزعمائهم بطرا ورئاء الناس يقولون : لا نرجع حتى نقدم بدرا فننحر فيها الجزور ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فهُزِموا على يد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه شر هزيمة وسحبت جثثهم جيَفًا في قليب بدر ، وصاروا حديث الناس في هذا العصر .

لو أخذنا بأسباب النصر وقمنا بواجب ديننا وكنا قدوة لا مقتدين ومتبوعين لا أتباعا لغيرنا ، وأخذنا بوسائل الحرب العصرية بصدق وإخلاص لنصرنا الله على أعدائنا كما نصر أسلافنا ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } [الأحزاب : ٦٢] .

اللهم هيئ لنا من أسباب النصر ما به نصرنا وعزتنا وكرامتنا ورفعة الإسلام وذل الكفر والعصيان ، إنك جواد كريم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أسباب النصر

أحمد بن صالح السديس

١٤٢٤/٤/١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

حينَ بَعَثَ اللهُ رسولَه لم يجعلْ ذلك سبباً لتغيير سننه في خلقِه، بل جعلَ الرسولَ والرِّسالةَ والأتباعَ يعانون ويبذِلُون في سبيلِ تحقيقِ ما إليه يسعَون ويصبُون. فعاشَ المسلمون سنواتٍ في مكَّةَ، قبلَ أنْ يؤذَنَ لهم بالهجرةِ إلى بلادٍ يأمَنُون فيها. عاشوا في مَكَّةَ، وهم قِلَّةٌ مُسْتَضْعَفَةٌ، والمشركون يسومون

المستضعفين منهم سوءَ العذابِ، حتى جَرُّوهم على الرَّمْضَاء، ووضَعوا على صدورِهم العاريةِ الصخورَ الثقيلةَ الصمَّاءَ، وألهبوا جلودَهم بالنارِ والسِّياطِ. وزادَ البلاءُ حتى وَصَلَ إلى غيرِهم مِن أهـــلِ مكّـــةَ، الذين ضُربوا، و لم يَرْقُبِ المشركون فيهم إلاً ولا ذِمَّةً، ولا رَحِماً أو رَحْمَةً.

وأُذِنَ للرسولِ الكريمِ بالهجرةِ إلى المدينةِ، بعدَ عشرِ سنواتٍ من الدعوةِ في مكةَ، فلمْ ينطلقْ في طريـــقِ الهجرةِ التي أُمِرَ بها إلا بعدَ أنِ استَعَدَّ للأمرِ، وتَزوَّدَ له؛ فاتَّخَذَ من الصدِّيق أبي بكرٍ رفيقاً، ومِن ابـــنِ عَمِّه الشُّجاعِ عليٍّ مُضَحِّياً ونصيراً، ومِن عبدالله بن أبي بكرٍ عَيناً ومُعيناً، ومِن رجُلٍ من بني عَـــدِيٍّ هادياً ودليلاً، واشترى الدَّابةَ اللازمةَ للرحلةِ، وخَرجَ من مكَّةَ مُسْتَتِراً، ومَكَثَ في الغارِ أياماً مُختَفِياً، واتخذَ الليلَ والظلامَ مَطيّةً وجَمَلاً. وانطلقَ مع صاحبِه، والمشركون يتبعون أثرَه، وقد امتلأتِ القِفَـــارُ بالباحثين عنه، في ظلِّ سيوفٍ مُشْرَعَةٍ، وأعْيُنٍ مُتيقِّظَةٍ، وأنْفُسٍ ثائرةٍ ملتهبةٍ. ومَكَثَ أياماً يواجهُ فيهـــا المخَاطِرَ، ويقابلُ المصاعِبَ، حتى وَصَلَ إلى طيبةَ بغيتِه، فطافتْ به جُمُوعُ المستقبلين فَرِحَةً مُسْتَبشِـــرَةً، وتَسَابَقَ الناسُ إلى إكرامِه وحُسْنِ وِفَادتِه، ورَجَا كلٌّ منهم أنْ يكونَ الرسولُ ضيفاً له في بيتـــه. لقـــد خرجَ الرسولُ من قومِه الأقاربِ وهم يكيدون له، ويرجون قتلَه، ووصلَ إلى قومٍ أباعِدَ وهم يُرحِّبون به، ويرجون برَّه، فما أحلى عاقبةَ الصبرِ والبذلِ وألذَّها!!

لقد كان الذي أسرى به ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى قادراً على أنْ يسْرِيَ به من مكةَ إلى المدينةِ في لَمْحِ البصرِ، ولكنّ المرادَ أنْ تتعلَّمَ الأمَّةُ أنّ عليها أنْ تبذِلَ في ســـبيلِ تحقيـــقِ غاياتِهـــا ورغباتِها، وأنّ قَدْرَها على قَدْرِ هِمَّتِها، وأنّ الكُسَالى ليس لهم من النجاحِ نصيبٌ، وأنّ الأماني مـــن غير سَعْيٍ وكدْحٍ رؤوسُ أموالِ المفاليسِ، وأنّها لا تُنالُ إلا على جسورٍ من التعَـــبِ، وأنّ النصـــرَ لا يكونُ بغيرِ البذلِ والنَّصَبِ.

تَرْجُو النَّجَاةَ و لم تَسْلُكْ مَسَالِكَها إنَّ السفينَةَ لا تمشي على اليَبَسِ

هذا الدِّينُ يربِّي أبناءه على عزائمِ الأمورِ ومَعاليها؛ وعلى الترَفُّعِ عن صغائرِها وأدانيها. وممـــا يُربّـــى المسلمون عليه: الجِدُّ والاجتهادُ والنشاطُ، وقد قال اللهُ: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) (مـــريم: مـــن الآية١٢)، فمَن جَدَّ وَجَدَ، ومَن زَرَعَ حَصَدَ، ومَن جالَ نالَ، ومَن سعى رَعَـــى، ومَـــن لم يركـــبِ الأهوالَ لم ينلِ الآمالَ. ومما يدعو إليه هذا الدِّينُ أنْ يتركَ المرءُ التوانيَ والتواكلَ، وأنْ يأخذَ بالأسبابِ والوسائلِ، ولا تزالُ مقولةُ "اعقلْها وتَوكَّلْ"(١) منارةً للعاملين الطامحين.

والأرضُ وإنْ كانت لله يورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه، إلا أنه جَعَلَ العاقبةَ للمتقين. والنصـــرُ وإنْ كـــانَ بيدِه سبحانه، إلا أنه لا يهَبُهُ إلا للجادِّين الباذلين، الذين يسعَون لتحقيق أسبابه. وحينَ يكونُ النصـــرُ من الله سبحانه يكونُ نصراً ليس كمثلِه نصرٌ: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران:١٦٠).

وفي زَحْمَةِ الآلامِ، وتطلُّعاتِ الآمَالِ، ينبغي أنْ ننسى ذلك السؤالَ: "متى نصرُ اللهِ؟"؛ بعـــدَ أنْ تيقنّـــا وقوعَه، وأنْ يبرزَ ما هو أهمُّ منه مِن السؤالِ: "كيف يتحقّقُ نصرُ اللهِ؟"؛ حتى نسعى لتحقيقِ أســـبابِه، ونتَّصفَ بصفاتِ أهلِه، وتستبينَ سبيلُ المنتصرين.

إنّ مِن أهمِّ أسبابِ النصرِ: جمْعَ الكلمةِ، وتركَ التحزُّبِ والتفرُّقِ والاختلافِ، ففي التفرُّقِ والاختلافِ الضعفُ والفشلُ والهوانُ: (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (الأنفال: من الآيـــة٤٦)، و((إنمـــا يأكلُ الذئبُ القاصيةَ))(٢). وإذا أرادَ العدوُّ بأمّةٍ سوءاً سَعَى إلى بَثِّ روحِ التنازُعِ والشِّقَاقِ، والفُرقَةِ والخِصَامِ.

والأمَّةُ حينَ تواجهُ عدوَّها تحتاجُ إلى نَبْذِ خِلافَاتِها، وتوحيدِ راياتِها، والنظرِ بعينٍ واحدةٍ إلى عـــدوِّها المتربِّصِ بها، المترقِّبِ لزلاتِها، وكما قيل: "إذا اتّحد الأشرارُ فعلى الأخيارِ أنْ يتّحدوا، وإلا ســـقطوا ضحيةً لهم".

عليها أنْ تَعِيَ أنّ الاجتماعَ أقوى أشكالِ الدِّفاعِ، وأنَّ العدوَّ تنقطعُ منه في المجتمعين الأطمـــاعُ، وأنَّ خمسةً مجتمعين أقوى من عشرةٍ متفرِّقين، وأنّ القومَ لن يعجـــزوا إذا تعـــاونوا، وأنّ ((يـــدَ اللهِ مـــعَ الجماعةِ))(٣)، وأنّ (اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَـــأَنَّهُمْ بُنْيَـــانٌ مَرْصُوصٌ)(الصـــف: الآية٤).

ألم تَرَ أنَّ جَمْعَ القَومِ يُخْشَى وَأنَّ حَرِيمَ وَاحِدِهِمْ مُبَاحُ
وأنَّ القِدْحَ حينَ يكُونُ فَرْدَاً فيُهصَرُ لا يَكُونُ لَهُ اقْتِدَاحُ
وأنّكَ إنْ قَبَضْتَ بها جميعَاً أبَتْ مَا سُمْتَ وَاحِدَهَا القِدَاحُ

ولكنّ هذا الجمعَ للكلمةِ يجبُ ألا يكونَ على حسابِ المنهجِ والعقيدةِ؛ فإنّ اجتماعاً لا يقيمُ للمنـــهجِ والعقيدةِ قَدْراً ولا وَزناً اجتماعٌ مُهَدَّدٌ في كلِّ حينٍ بالسقوطِ والزوالِ، بل ربّما كان عدوُّ اليومِ أحـــدَ المجتمعين بالأمس!! فلا نأمَنُ عدوّاً، ولا نُصَدِّقُ صديقاً.

علينا أنْ ننقِّيَ الصفَّ المسلمَ المتحدَ من المنافقين؛ فهم أخطرُ مِن أعداءَ خارجيّين ظاهرين، وعلينـــا أنْ ننقيَه من الباطنيّين الخبثاءِ؛ فهم الذين كثيراً ما يتحالفون في الأزماتِ مع الأعداءِ، وعلينا أنْ ننقيَه مـــن المشركين والكفَّارِ؛ فهم رؤوس الشرِّ والأشرارِ.

وقد أمرنا اللهُ أنْ يكونَ اعتصامُنا واجتماعُنا على دينه وعهدِه، فقال: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعـــاً وَلا تَفَرَّقُوا) (آل عمران: من الآية١٠٣)، وأنْ يكونَ ولاؤنا وبراؤنا فيه، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة:٥٧).

وقد عَرَفَ التاريخُ دولةً إسلاميةً قويةً في الأندلسِ، واجهتْ خلالَ عقودٍ طويلةٍ الصليبيين، وكانـتِ المنتصرةَ عليهم في جُلِّ هذه المواضعِ. ولكنَّها حين دَبَّ فيهـا الخـلافُ، وانقسـمتْ إلى طوائـفَ ودُويلاتٍ، هان على العدوِّ أمرُها، فتمكَّنَ منها، ومَزَّقَ كِيَانَها، فصارتْ أثَرًا بعدَ عـينٍ. استشـرتْ بينهمُ الخلافاتُ، حتى استعانَ بعضُهم على بعضٍ بالأعداءِ، وكان أوَّلُ مالٍ انتقلَ مـن بيـتِ مـالِ المسلمين في الأندلس إلى الفِرَنْجِ مالاً ساقه إليهم المهديُّ محمَّدُ بنُ هِشَامٍ، وهو أحَدُ الخلفـاءِ؛ ليقفـوا معه ضِدَّ أحدِ أبناءِ عمِّه الثائرين عليه؛ فكانت النتيجةُ بعدَ سِجَالٍ أنْ قُتِلَ المهـديُّ، و لم تُغْـنِ عنـه الفِرَنْجَةُ شيئاً، فلا هو بدينِهِ، ولا هو بمُلكِهِ، ولا هو بحياتِهِ، فصارَ كالمُنْبَتِّ؛ لا ظَهْرًا أبقى، ولا أرْضًـا قَطَعَ!!(٤).

وإنّ لجمْعِ الكلمةِ وتوحيدِ الصفِّ وسائلَ تُعينُ عليه، ومِن أهمِّها:

تقريبُ العلماءِ الربانيين، وتشجيعُهم، وقَبولُ نُصْحِهم وتوجيههم، والصدورُ عن آرائهـم؛ ذلـك أنّ الأمَّةَ وثيقةُ الارتباطِ بعلمائها الصالحين، ودعاتِها المخلصين، وحينَ ترى لهم مكانةً وقَدْرًا، فإنها تُبادِلُ مُكرِمَهم كَرامةً وفَضْلاً.

ولقد أدركَ بعضُ الأمراءِ والقادةِ مكانةَ العلماءِ والصالحين ودورَهم في النصرِ والتمكينِ، فهذا قتيبةُ بنُ مسلمٍ لما هاله أمرُ العدوِّ سألَ عن محمَّدِ بنِ واسعٍ، فقيل: هو ذاك في الميمنةِ، جـامِحٌ علـى قَوسِـه، يُبَصْبِصُ بأُصبَعِهِ(٥) نحو السماء. فقالَ قتيبةُ: ((تلك الإصبَعُ أحَبُّ إليّ من مئةِ ألفِ سـيفٍ شـهيرٍ، وشابٍّ طريرٍ))(٦). وقالَ مسلمةُ بنُ عبدِالملكِ أميرُ السَّرايا: ((برجاءَ بنِ حَيْوَةَ وبأمثالِه نُنصَـرُ))(٧). وقال صلاحُ الدِّين: ((ما فتحتُ البلادَ بالعساكرِ، بل أخذتُها برسائلِ القاضي الفاضلِ)).

ومِن وسائلِ جمعِ الكلمةِ: الشورى، وتركُ الاستبدادِ بالرأيِ؛ فمَن أعْجبَ برأيه ضَلَّ، ومَـنِ اسـتغنى بعلمِهِ زَلَّ، ومَن عُهِدَ منه طَلَبُ المشورةِ، كان أمرُه للناسِ أوثقَ قَبُولاً. وقبلَ غزوةِ بدرٍ كانَ الرسـولُ عليه الصلاةُ والسلام يحثُّ الناسَ على الشورى، ويقبلُها منهم. وكان أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه يقولُ: ((ما رأيتُ أحداً قطُّ أكثرَ مشورةً لأصحابه من رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم))(٨).

ومما يعينُ على جَمْعِ الكلمةِ: إشاعةُ العدلِ ومحاربةُ الظلمِ؛ فإنّ القلوبَ تأتلِفُ ـــ دونَ إكراهٍ ـــ حولَ مَن عُرِفَ عدلُه، وتنفِرُ ـــ مَهما بُذِلَ ـــ ممّنْ عُرِفَ ظلمُه، وظُلمُ المرءِ يصرعُه ولو بعدَ حينٍ.

والمظلومُ لا ينسى ظالِمَه، فنفسُه عليه تضطربُ، وقلبُه منه مشحونٌ، ويتربَّصُ به الدوائرَ. ومن أجـلِ ذلك حَذَّرَ عليه الصلاة والسلام من دعوةِ المظلومِ، فقالَ: ((اتَّقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبـين الله حِجابٌ))(٩). وفي المسندِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّـه عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: ((دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا، فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ)). وقالَ شيخُ الإسلامِ ابـنُ تيميّةَ: ((إنّ اللهَ ينصرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ كافرةً، ويخذُلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً)).

ومِن سبيلِ المنتصرين أنّ نفوسَهم أبيَّةٌ، وهِمَّتَهم عَلِيَّةٌ، لا يقبلون بالدُّونِ، ولا تَحُطُّ من عِزَّتِهِمُ وعزيمتهم النَّكَبَاتُ والسُّنُون، وهم عن أسبابِ الهزيمةِ النفسيَّةِ بعيدون. فلم تمنع الأخطارُ ومواجهةُ الأهوالِ الرسولَ صلى اللهُ عليه وسلم أثناءَ هجرتِه، أنْ يقولَ لصاحبِه بقلبٍ امتلأَ عِزَّةً وثباتاً ويقيناً: ((ما ظَنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالِثُهما؟))(١٠).

وكان مِن وَصْفِ اللهِ للمؤمنين أنهم (اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) (آل عمران: من الآية١٧٢)، وأنّ الناسَ حينَ قالوا لهم مُخَوِّفين: إنّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم، ازدَادَ إيمانُهم، (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: من الآية١٧٣)، فاستجابتُهم للهِ ورسولِه رغمَ الشدائدِ لا تنقطِعُ، وعزيمتُهم رَغْمَ النَّكَسَاتِ لا تَضْمَحِلُّ.

ومِن أسبابِ النصرِ: إعدادُ القوى، والاستعدادُ للعِدا، وشحذُ الطاقاتِ والجهودِ. وهو ما أرشَدَنا اللهُ إليه في كتابه بقولِه: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) (الأنفال: من الآية٦٠). وحينَ يكونُ هذا الإعدادُ جَادّاً، وبنوايا خالصةٍ، وبأيْدٍ نظيفةٍ أمينةٍ، فإنه يبذُرُ في نفسِ العدوِّ بَذْرَةَ الهزيمةِ.

وعلينا ونحنُ نُعِدُّ جيلَ النصرِ والتمكينِ أنْ نترُكَ الأمانيَ المجرَّدَةَ، والعواطفَ التي تحجُبُ عقولَنا، وعلينا أنْ نحوِّلَها إلى منطلقاتٍ لعملٍ جادٍّ وجهدٍ دؤوبٍ، لإعدادٍ قوَّةٍ تُرهِبُ أعداءنا. فالنصرُ لن يكونَ بمجرَّدِ التغني بأمجادِ الآباءِ، وفتوحاتِ الأجدادِ، وانتصاراتِ الأسلافِ؛ فهؤلاء لم ينالوا ما نالوه إلا بعدَ بذلٍ وإعدادٍ، وإننا ما لم نَسِرْ على خُطَاهم، فلن ننالَ نَوالَهم.

ومِن أعظمِ أسبابِ النصرِ: الجهادُ، الذي ما تركَه قومٌ إلا ذَلُّوا(١١). إنه سِرُّ النصرِ ولُبُّه، وبه فَتَحَ الأوائلُ البلدانَ، ونشروا الإسلامَ، وردُّوا العُدوَانَ. مَا تَكَالَبَتْ علينا الأمَمُ إلا بعد أنْ تركناه وأهملناه، ولم يتمادَ العِدَا في حربِنا إلا بعدَ أنْ حاربناه، وصارَ أعداؤنا يُدركون أثرَه في قوتنا أكثرَ مما أدركناه!!

الجهادُ الذي نجَحَ أعداؤنا في إقصائه عن مناهجنا وتربيتِنا، ونجحوا في تشويهِ صورتِه الناصعةِ. وأُنسينا أنّ له غاياتٍ ساميةً، وأنه لا يكونُ جهاداً إذا اختلفتْ هذه الغاياتُ، وأنَّ أخلاقَ المجاهدين تمنعُهم حينَ القتالِ مِن أنْ يتعرَّضُوا لطفلٍ صغيرٍ، أو امرأةٍ، أو شيخٍ كبيرٍ، أو يحرقوا شجرةً، أو يفسدوا ثمرةً. وأنّه إرهابٌ لأعداءِ اللهِ، الذين نرى تجبُّرَهم وعُدوانَهم وبَغيَهم حينَ تركناه.

ولقد جاءنا عن نبيِّنا عليه الصلاةُ والسلامُ قولُه: ((بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي))(١٢).

إنّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ ذِروةُ(١٣) سَنَامِ الإسلامِ(١٤)، وأعظمُ التجاراتِ وأربحُها، وبه خيرُ الدنيا والآخرةِ، و (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) (الصف: من الآية١٣). ولقد تحقَّقَ النصرُ لدولةِ الأيوبين لما قامتْ على الجهادِ؛ فعَمَّ خيرُها، وعُرِفَ فضلُها، وصَدَّتِ الصليبيين، وردَّتْهم على أعقابِهم خاسرين

خائبين. وما بَلَغَ صلاحُ الدين ما بلغه من نصرٍ وشرفٍ وعزَّةٍ، إلا يومَ كانتْ له هِمَّةٌ عاليةٌ في الجِهادِ، فجَعَلَ ولايتَه سبباً في رفْعِ رايةِ الجهادِ، وتطليقِ الملذاتِ.

ومما يحتاجُه طالبُ النصرِ: الصبرُ والتقوى، وقد وَعَدَنا أصدقُ الواعدين بأنّ تحقيقَنا لــذلك مَطْــرَدَةٌ للكيدِ والضَّرَرِ: (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً) (آل عمران: من الآية١٢٠).

إنّ مواجهةَ الخصومِ والجيوشِ تحتاجُ إلى صبرٍ على الأذى، وتَحَمُّلٍ لطولِ الطريقِ ووعورتِه؛ فأفضــلُ العُدَّةِ الصبرُ على الشِّدَّةِ. كما تحتاجُ إلى تقوى تَحولُ بين الباحثِ عن النصرِ وبينَ الزَّلَــلِ والخطــأِ، فالهزائمُ العسكريَّةُ تبقى محدودةَ الضَّرَرِ ما لم تُغَيِّرِ القيمَ والمبادئَ والمُثُلَ. فالنصرُ مُحَالٌ مِن غيرِ صــبرٍ وصَلاحٍ وجِلادٍ.

ومِن الصبرِ المهمِّ للنصرِ: ألا نستعجلَه، وأنْ نعملَ مِن أجلِ تحقيقِه، وإنْ طَالَ الوقتُ بنا. فالأحــداثُ المتعاقبةُ الحاضرةُ توحي بأنّ الأمرَ قد يطولُ، وأنّ صاحِبَ النَّفَسِ الأطولِ هو الذي سينتصرُ، ولا يَعدَمُ الصبورُ الظَّفَرَ، وإنْ طَالَ به الزَّمَنُ.

ومِن سبيلِ المنتصرين أنّ الدنيا لم تَشغلْهم، كما شَغَلَتْ غيرَهم، وأنّ نفوسَهم متعلِّقَةٌ بالآخِرَةِ، وأنهــم ممتثلون لأمرِ اللهِ، منتهون عن نهيِه. فمتى شَغَلَتِ الناسَ الدنيا مُنِعُوا النَّصرَ، وضُرِبَ عليهم الذُّلُّ، وقــد حَذَّرَ مِن هذا الحالِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَــذْتُمْ أَذْنَــابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَــيْكُمْ ذُلاً، لا يَنْزِعُــهُ حَتَّــى تَرْجِعُــوا إِلَــى دِينِكُمْ))(١٥).

إنّ جيلاً نشأَ عَلى الميوعَةِ والترفِ، وتَعَلَّقَ بالملذاتِ والمُتَعِ، لا يُنتظرُ منه أنْ يقفَ في وجهِ عَدُوٍّ غاشِمٍ، أو يكونَ نِدًّا لمُعْتَدٍ ظالِمٍ. بل إنّ مَن يطلبُ نصراً مِن مثلِ هذا الجيلِ مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جذوةَ نــارٍ. وإنّ مِن الخيانةِ للأمّةِ أنْ يُسرفَ الأولياءُ في ترفيهِ أبنائهم ترفيهاً يجعلُهم أشدَّ الناسِ تعرُّضاً للمهالكِ حــينَ ورودِها.

لقد عاشَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بعيداً عن الترفِ، وربّى على ذلك أصحابَه، وكان ذلــك خُطوَةً في سبيلِ نصرٍ مبينٍ. رآه عُمَرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه يوماً وَقَدْ أَثَّرَ الحصيرُ فِي جَنْبِهِ، فَبكى وقال: إنّ كسرى وقيصرَ فيما هما فيه، وأنتَ رسولُ اللهِ! فَقَالَ: ((أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لهم الدنيا ولَنَا الآخِرَةُ؟))(١٦). ورُوِي عن عُمَرَ رضي اللهُ عنه قولُه: ((اخْشَوْشِنُوا؛ فإنّ النِّعمَ لا تدومُ)).

وحينَ يطغى حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ على غيره يتحوَّلُ الناسُ ــ مهما بَلَغَ عــددُهم ــ إلى غُثــاءٍ كغُثاءِ السيلِ، ليس لهم قيمةٌ ولا وَزنٌ، ويصبحون ألعوبةً بيدِ غيرِهِم من الأمَمِ(١٧).

ويبقى قبلَ هذا كلِّه ومعَه وبعدَه أنْ نَصْدُقَ في التجائنا إلى اللهِ، وأنْ نتضرَّعَ إليه بصدقٍ وإخــلاصٍ، وأنْ نتسلَّحَ بالدُّعَاءِ؛ فهو خيرُ سلاحٍ.

لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ والمشركون أضعافُ المسلمين، اسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَــدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: ((اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِــكْ(١٨) هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ))، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَــةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلائِكَةِ(١٩).

وهاجَتْ ريحٌ سوداءُ في عهدِ المهديِّ، فوجدَه حاجبُه ساجداً على الترابِ يقولُ: ((اللهمّ لا تُشْــمِّتْ بنا أعداءنا من الأممِ، ولا تُفْجِّعْ بنا نبيَّنا، اللهمّ إنْ كنتَ أخذتَ العامَّةَ بذنبي، فهذه ناصيتي بيــدِك))، فما أتمَّ كلامَه حتى انجَلَتْ(٢٠).

ثمّ إنّ الجادّين في طلبِ النصرِ وتحصيله، لا بُدَّ أنْ يسعَوا إلى تربيةِ الأجيالِ على هذه الأسبابِ، والبُعْدِ بهم عن أسبابِ الذُّلِّ والتبعيةِ والانهزامِ.

إنّ ظاهِرَ الأحداثِ يوحي بأنّ المرحلةَ القادمةَ مرحلةُ حربٍ فكريّةٍ، وهي حربٌ قد تكــونُ أخطــرَ بمراحلَ من الحربِ العسكريَّةِ. فالحربُ العسكريَّةُ قد تبعثُ روحَ المقاومةِ والمغالبةِ، وقد تُكْسِبُ الأمَّةَ تجارِبَ ومهاراتٍ لم تتعلَّمْها، ولم تتدرَّبْ من قبلُ عليها. أمّا الحربُ الفكريّةُ فإنّ نجاحَهــا يعــني أنْ يذوبَ المنهزمون في المنتصرين، وأنْ يكونوا منهم، وأنْ يفقدوا هُويَّتَهم، وأنْ يُصــابوا بــداءِ الذّلّــةِ والتبعيَّةِ، وما أخطرَ مثلَ هذه الحالِ على الأمَّةِ وقيمِها!!

وكما أنّ الحربَ العسكريةَ تبدأُ بقَصْفٍ مُركَّزٍ لمراكزِ القوّةِ لدى المقاومين؛ لِتُضعِفَ مقاومتَهم، وتنهارَ قوَّتُهم ــ فإنّ الحربَ الفكريةَ مثلُها في أنها تبدأُ في قصْفِ مراكزِ التوجيهِ والتربيةِ قصْفاً فكريّاً، حــتى يسهُلَ فيما بعدُ السيطرةُ عليها، وتوجيهُ الجيلِ توجيهاً يقتلُ في نفسه كراهَةَ المعتدي، ويئدُ في أعماقِه روحَ المقاومةِ، ويقضي على شعورِه بالتميُّزِ.

وقد أدركَ الأعداءُ هذه الحقيقةَ فسعَوا جاهدين إلى إحداثِ انقلابٍ في المبادئ والمفــاهيمِ، وتشــويهِ صورةِ الدينِ، ووظَّفُوا في ذلك بعضَ أبناءِ جلدتِنا، وعاثتِ الفضائياتُ فَسَاداً وإفساداً في هذا الجيــلِ، حتى ظَهَرَ جيلٌ لا يعرفُ سوى الملذاتِ، ولا يَقدرُ على التصرُّفِ في المُلِمَّاتِ. ومــازالوا يســعَون إلى أكثرَ من هذا، ويطالبون بتنحيةِ الدِّينِ، وسُفُورِ مُرَبِّيَةِ الأجيالِ، وتغييرِ المناهجِ، بدعوى تطويرِها.

ولذا فإنّ تحصينَ محاضِنِ التربيةِ، وتنقيتَها من الدُّخَلاءِ والعُمَلاءِ كفيلٌ بتحقيقِ النصرِ، ولو بعدَ حــينٍ، وهو كفيلٌ بأنْ يَشِعَّ الضوءُ منها، ولو ادلهَمَّ الظلامُ، واحْلَوْلَكَ السّوادُ، واللهُ غالبٌ على أمرِه، ولكــنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون.

الهوامش :-

* – أحمد بن صالح السديس كلية اللغة العربية في الرياض

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع.

(٢) سنن النسائي: كتاب الإمامة، وسنن أبي داود: كتاب الصلاة.

(٣) سنن الترمذي: كتاب الفتن.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٧/١٣٠.

(٥) الإصبع، مثلثة الهمزة، ومع كل حركة تُثلَّث الباء: تسع لغات، والعاشر أُصْبُوع.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٦/١٢١.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٤/٥٦١.

(٨) سنن الترمذي: كتاب الجهاد.

(٩) صحيح البخاري: كتاب المظالم والغصب، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان.

(١٠) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة.

(١١) انظر: سنن أبي داود: كتاب البيوع.

(١٢) مسند الإمام أحمد عن ابن عمر، وانظر: صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير.

(١٣) ذِروة الشيء وذُروته: أعلاه.

(١٤) انظر: مسند الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل، وسنن الترمذي: كتاب الإيمان، وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن.

(١٥) سنن أبي داود: كتاب البيوع.

(١٦) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، وصحيح مسلم: كتاب الطلاق.

(١٧) انظر: مسند الإمام أحمد من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(١٨) ذكر النووي جواز ضمِّ أوله، على أنّ اسم الإشارة مفعول به، وفتحِه، على أنّ اسم الإشـــارة فاعل.

(١٩) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير.

(٢٠) سير أعلام النبلاء: ٧/٤٠٢.

المصدر http://www.almoslim.net/

القادم صعب و النصر حتمي و ما أحوجنا إلى الصبر

بقلم : الدكتور عبد العزيز الرنتيسي

نحن اليوم على أعتاب مرحلة صعبة ، و هذا أمر طبيعي جداً ، فكلما ضاق الخناق علـــى "شـــارون" كلما تفنّن في أساليب الإرهاب ، و كأني اليوم بالحبل يلتف على عنق أطماعه و أحلامه السياســـية ، فربما كان يتمنى أن يتوّج حياته التي أمضاها في خدمة المشروع الصهيوني بإنجاز صهيوني كبير و فريد ، و لا أقصد بذلك أن يصل كما يظن البعض إلى إبرام اتفاقية سلام مع الفلسطينيين ، فهذا أمـــر لا

يفكّر به صاحب التاريخ الإرهابي الحافل بالمجازر و الاغتيالات ، و لكن الإنجاز الكبير في نظر "شارون" أن يقوم بإكراه الفلسطينيين على القبول بالوطن البديل الذي من وجهة نظره سيكون وطناً مؤقتاً سرعان ما تغتصبه و تبتلعه دولة الغصب و العدوان الصهيونية ليعود الشعب الفلسطيني يبحث من جديد عن وطن ، و أعني بالوطن البديل المملكة الأردنية الهاشمية ، لكي تصبح فلسطين من بحرها إلى نهرها دولة يهودية خالصة تعد نفسها لقفزات توسعية جديدة .

هذا الحلم لا زال يراود "شارون" و "نتنياهو" ، فالأخير يقول في كتابه "مكان بين الأمم" و ذلك في الصفحة ١٦٢من الترجمة العربية "و تمتد الأردن على أربعة أخماس المنطقة التي خصصتها عصبة الأمم وطناً قومياً لليهود" ، و يقول أيضاً في الصفحة ١٦٣ : "إنهم لا يكتفون بوجود دولة فلسطينية شرق الأردن التي تسيطر على معظم أراضي أرض (إسرائيل) و فيها أغلبية فلسطينية حاسمة" ، و يعني بذلك أن الفلسطينيين عندما يطالبون بدولة في الضفة و القطاع كما تفعل السلطة بأن عليهم ألا يطالبوا بذلك و يكتفوا بدولتهم شرقي النهر ، إذن هكذا ينظرون إلى الأردن أنها أرض (إسرائيلية) محتلة من قبل الفلسطينيين ، و لذلك فإقامة دولة فلسطينية من وجهة نظرهم يجب أن تكون شرقي النهر و ليس غربية ، و بما أن هذه الدولة كما يراها نتنياهو تقوم على أرض (إسرائيلية) محتلة من قبل العرب فإذن هي دولة مؤقتة ، فما أن يتمكّن اليهود من تحرير أرضهم المزعومة في الأردن ستزول تلك الدولة الفلسطينية ليبدأ الصراع من جديد و نحن في وضع أسوأ نبحث من جديد عن وطن .

هذا الحلم كان يداعب شارون أيضاً و هو يتحدث عن الدولة اليهودية في قمة العقبة فيقول "بصفتي رئيس وزراء (إسرائيل) مهد الشعب اليهودي" ، و من هذا القول يفهم أنه لا مكان للفلسطينيين في وطنهم فلسطين لأنها مهد الشعب اليهودي كما يؤمن "شارون" ، و عندما زلّ لسان "شارون" و نطق بكلمة الاحتلال فنهشته الأقلام الصهيونية إذا به يقول في اليوم التالي إنه لم يقل إن الأرض محتلة فهذه أرض (إسرائيل) المحررة متحدثاً عن الضفة الغربية و قطاع غزة .

و أمام هذه الأحلام و المطامع الصهيونية نكون أمام تحدٍّ كبير ، فإما أن نتشبث بأرضنا و مقدساتنا و هذا لا أشك أن له ثمناً من دمائنا و راحتنا و استقرارنا و أموالنا ، و إما أن نتنازل عن كلّ شيء تحت وطأة الإرهاب الصهيوني و الضغوط الدولية ، و لا أعتقد أن هناك من يقبل بالتسليم بما يريده الصهاينة الذين وضعوا لأنفسهم خطوطاً حمراء أملاً في تحقيق مشروعهم الصهيوني كما ذكرنا ، فلا يتوقع أحد أن يقبل "شارون" بما لم يقبل به "باراك" زعيم حزب العمل في "كامب ديفيد" ، و لن يقبل الشعب الفلسطيني اليوم بما رفضه أمس و دفع من أجل رفضه ذاك ثمناً باهظاً آلاف الشهداء ، و عشرات الآلاف من المعتقلين و الجرحى ، و دمّرت حياته و بنيته التحتية و هو شامخ شموخ جبل النار يهتف بصوت عالٍ الموت و لا العار .

و أما الموقف الأمريكي البائس ، ففي أفضل صوره يقف صامتاً إزاء الجرائم الشارونية التي فاقت كلّ تصور ، و أما في أتعس صوره فنراه يقف مشجّعاً للإرهاب الصهيوني ، و محرّضاً على المزيد من سفك الدماء ، و مباركاً كلّ أشكال الإرهاب الذي يمارس ضد شعبنا الأعزل في فلسطين ، يضاف إلى ذلك ما تقوم به أمريكا من تحريض سافر للعالم بأسره ضد مقاومتنا المشروعة ، لقد كتب الكثير عن الموقف الأمريكي من قضية فلسطين ، و من الصراع القائم بين احتلال يريد أن يثبت جذوره ، و بين مقاومة فلسطينية مشروعة تبحث عن الحرية و الاستقلال ، و لقد توافقت الآراء في قراءة الموقف الأمريكي المنحاز تماماً لصالح العدوان و الاحتلال و الذي يصل إلى درجة قلب الحقائق و طمسها بطريقة مكشوفة ، فعندما يتحدّث "كولن باول" عن العوامل التي عكّرت أجواء السلام التي طفحت من قمة العقبة كما يزعم فيذكر عملية القدس التي نفّذتها كتائب عز الدين القسّام و يتجاهل بطريقة تدعو إلى الأسى ما قام به "شارون" من اغتيالات في طولكرم و غزة ، تلك الاغتيالات التي كانت السبب المباشر لتلك العملية البطولية الرادعة و التي كان لا بدّ منها لوقف شلال الدم الفلسطيني النازف على يد شارون و العصابات الصهيونية ، و لكن أمريكا ستبقى دائماً على موقفها الداعم و المبارك للممارسات الإرهابية الصهيونية ، و السبب في الموقف الأمريكي التوافق الأمريكي الصهيوني على المعتقدات التوراتية التي تتحكم في التصرفات الصهيونية ، كما أن هناك نزعة صليبية خطيرة لدى قادة البيت الأبيض تجعلهم دائماً في الخندق المعادي لأمتنا العربية و الإسلامية .

في ظلّ تلك المطامع الصهيونية و الدعم الأمريكي لتلك المطامع و ما تؤدّي إليه من ممارسات إرهابية صهيونية نستطيع الجزم بأننا أمام مرحلة صعبة ، مرحلة سيقدِم فيها الصهاينة على سفك المزيد من الدماء ، و تدمير المزيد من حياتنا اليومية بكافة صورها ، سيلقي "شارون" بكل ما لديه من أعمال إرهابية ، و لكن النتائج تحدّدها إرادة الشعب الفلسطيني و التي يمكننا أن نراهن عليها فثقتنا بها كبيرة جداً ، و كذلك تحدّدها إرادة المقاومة و استعدادها و جاهزيتها و هذه أيضاً ظني بها أنها لا تنهزم بإذن الله ، و أعتقد أنها قادرة على تجاوز العقبات التي تخلقها أمريكا لعرقلتها ، و هذا يعني أننا في المرحلة القادمة لن نعاني وحدنا فهل يفهم ذلك "شارون" ؟ أنا لا أعتقد أن من تمرّس على الإرهاب و غرّر به تاريخه الإجرامي يمكنه أن يفهم تلك الحقيقة ، و هنا سيبقى الصراع حتى يكون النصر ، فما أحوجنا إلى الصبر .

المصدر : http://www.alshaab.com

ووجدتُ من يؤخر النصر عن المسلمين !!

بينما كنت مهموماً أتابع أخبار المسلمين وما أصابهم من مصائب، خاطبتني نفسي قائلة: يا هذا، أنت من يؤخر النصر عن هذه الأمة، بل وأنت سبب رئيس في كل البلاء الذي نحن فيه! قلت لها: أيا

نفسي كيف ذاك وأنا عبد ضعيف لا أملك سلطة ولا قوة، لو أمرت المسلمين ما ائتمروا ولو نصحتم ما انتصحوا..

فقاطعتني مسرعة، إنها ذنوبك ومعاصيك التي ملّ وكلّ ملك الشمال في تدوينها، إنها معاصيك التي بارزت بها الله ليل نهار.. إنه زهدك عن الواجبات وحرصك على المحرمات.. قلت لها: وماذا فعلت أنا حتى تلقين عليّ اللوم في تأخير النصر.. قالت: يا عبدالله والله لو جلست أعد لك ما تفعل الآن لمضى وقت طويل، فهل أنت ممن يصلون الفجر في جماعة؟ قلت: نعم أحياناً، ويفوتني في بعض المرات.. قالت مقاطعة: هذا هو التناقض بعينه، كيف تدّعي قدرتك على الجهاد ضد عدوّك، وقد فشلت في جهاد نفسك أولاً، في أمر لا يكلفك دماً ولا مالاً، لا يعدو كونه دقائق قليلة تبذلها في ركعتين مفروضتين من الله الواحد القهار.. كيف تطلب الجهاد، وأنت الذي تخبّط في أداء الصلوات المفروضة، وضيّع السنن الراتبة، و لم يقرأ ورده من القرآن، ونسي أذكار الصباح والمساء، و لم يتحصّن بغض البصر، و لم يكن بارّاً بوالديه، ولا واصلاً لرحمه؟ واستطردت: كيف تطلب تحكيم شريعة الله في بلادك، وأنت نفسك لم تحكمها في نفسك وبين أهل بيتك، فلم تتق الله فيهم، و لم تدعهم إلى الهدى، و لم تحرص على إطعامهم من حلال، وكنت من الذين قال الله فيهم: "ويحبون المال حباً جماً"، فكذبت وغششت وأخلفت الوعد فاستحققت الوعيد.. قلت لها مقاطعاً: ومالهذا وتأخير النصر؟ أيتأخر النصر في الأمة كلها بسبب واحد في المليار؟ قالت: آه ثم آه ثم آه، فقد استنسخت الدنيا مئات الملايين من أمثالك إلا من رحم الله.. كلهم ينتهجون نهجك فلا يعبأون بطاعة ولا يخافون معصية وتعلّل الجميع أنهم يطلبون النصر لأن بالأمة من هو أفضل منهم، لكن الحقيقة المؤلمة أن الجميع سواء إلا من رحم رب السماء.. أما علمت يا عبدالله أن الصحابة إذا استعجلوا النصر و لم يأتهم علموا أن بالجيش من أذنب ذنباً.. فما بالك بأمة واقعة في الذنوب من كبيرها إلى صغيرها ومن حقيرها إلى عظيمها.. ألا ترى ما يحيق بها في مشارق الأرض ومغاربها؟

بدأت قطرات الدمع تنساب على وجهي، فلم أكن أتصوّر ولو ليوم واحد وأنا ذاك الرجل الذي أحببت الله ورسوله وأحببت الإسلام وأهله، أنني قد أكون سبباً من أسباب هزيمة المسلمين.. أنني قد أكون شريكاً في أنهار الدماء المسلمة البريئة المنهمرة في كثير من بقاع الأرض.. لقد كان من السهل عليّ إلقاء اللوم، على حاكم وأمير، وعلى مسؤول ووزير، لكنني لم أفكر في عيبي وخطأي أولاً.. و لم أتدبّر قول الله تعالى: { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } فقلت لنفسي: الحمد لله الذي جعل لي نفساً لوّامة، يقسم الله بمثلها في القرآن إلى يوم القيامة.. فبماذا تنصحين؟ فقالت: ابدأ بنفسك، قم بالفروض فصل الصلوات الخمس في أوقاتها وادفع الزكاة وإياك وعقوق الوالدين، تحبّب إلى الله بالسنن، لا تترك فرصة تتقرّب فيها إلى الله ولو كانت صغيرة إلا وفعلتها، وتذكر أن تبسّمك في وجه أخيك صدقة، لا تدع إلى شيء وتأت بخلافه فلا تطالب بتطبيق الشريعة إلا إذا كنت مثالاً

حياً على تطبيقها في بيتك وعملك، ولا تطالب برفع راية الجهاد وأنت الذي فشل في جهاد نفســه، ولا تلق اللوم على الآخرين تهرّباً من المسؤولية، بل أصلح نفسك وسينصلح حال غيرك، كن قدوة في كل مكان تذهب فيه.. إذا كنت تمضي وقتك ناقداً عيوب الناس، فتوقّف جزاك الله خيراً فالنقّاد كثر وابدأ بإصلاح نفسك.. وبعدها اسأل الله بصدق أن يؤتيك النصر أنت ومن معك، وكل من ســار على نهجك، فتكون ممن قال الله فيهم: { إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقداكم }.. واعلم أن كل معصية تعصي الله بها وكل طاعة تفرّط فيها هي دليل إدانة ضدّك في محكمة دماء المسلمين الأبريــاء.. فرفعت رأسي مستغفراً الله على ما كان مني، ومسحت الدمع من على وجهي.. وقلت يا رب.. إنها التوبة إليك.. لقد تبت إليك.. ولنفتح صفحة حياة جديدة.. بدأتها بركعتين في جوف الليل.. أسأل الله أن يديم عليّ نعمتهما..

بتصرف يسير من : http://www.alahbab.net

حتى نستحق النصر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين. وبعد:

فإن حقيقتين عظيمتين لا بد للمصلحين ودعاة التغيير المنشود من إدراكهما وفهمهما حق الفهم:

الأولى: أن المستقبل لهذا الدين، والعاقبة للمتقين؛ جاءت بذلك النصوص الثابتة الجلية، ومن ذلك قول ربنا الجليل ــ سبحانه ــ: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُــومُ الأَشْــهَادُ} [غافر: ٥١]، وقوله ــ تبارك وتعالى ــ: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

الثانية: أن الله ناصر من نصره، واستمسك بدينه، وخاذل من خذل دينه وعصى أمره واتبع هــواه، يشهد لذلك قوله: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]، وقوله: {يَــا أَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، وقوله: {بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُــوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: ١٥٠]، وقوله: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف: ١١٠] .

ولنا مع هاتين الحقيقتين الجليلتين عدة وقفات:

١ - أن لا يأس ولا قنوط؛ فعقيدتنا منصورة، وديننا ممكّن، وعلينا الجزم بذلك وعلمه علم الــيقين؛ لنعيش بنفسية آملة متفائلة، تركز نظرها على النور، وتتجه للاجتماع على ضوئه.

ومع أن الفأل وحسن الظن بالله ــ تعالى ــ من أهم المقومات لمريد التغيير، إلا أن أهمية ذلك تــزداد حين ندرك أن من أهم مرامي عدونا: إضعاف معنوياتنا، وغرس اليأس والإحباط في دواخلها، ليقتــل الهمم، ويستأصل باعث المقاومة من نفوسنا؛ لأن الأمة اليائسة لا تصنع شيئاً.

٢ – أن طاعة الله ـــ تعالى ـــ ولزوم شرعه هو مفتاح النصر وبوابة التمكين، وأنه لا سبيل لهذه الأمة لنيل الرفعة والظفر بالعزة إلا عبر ذلك. يقول الفاروق – رضي الله عنه –: «إنا كنا أذلّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام؛ فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به: أذلنا الله»(١).

وعليه فقد جعل الله — تعالى – عزنا وذلنا – معاشر المسلمين – بأيدينا لا بأيدي غيرنا، ومصداق ذلك من كتاب الله قوله – سبحانه –: {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ١٦٥]، فأعمالنا هي سبب ما أصابنا ويحلّ بنا، وهي نفسها باعث الإصلاح وشرطه، ومقوِّم التغيير المأمول، قال – تعالى –: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد: ١١] .

٣ – أن النصر يتخلف بانتفاء شروطه ووجود موانعه، والمتأمل في واقعنا يجد أن الإيمان ضعيف، وما يقدح في أصله أو كماله كثير، والأمة غارقة في بحور الشهوات والشبهات، وهي مع ذلك في غفلتها تهيم؛ فهي أكثر ما تكون تشتتاً وفرقة، وأبعد ما تكون عن إعداد العدة والأخذ بالأسباب.

وهي إنما يقوم على أمرها – في الغالب – أحد رجلين:

إما رجل ضعيف الإيمان، متعلق القلب بالدنيا وزخرفها، ممتلئ خوفاً وجبناً، مبادر إلى تحقيق ما يظنه مقصوداً للعدو قبل أن يطلب ذلك منه.

وإما آخر من أحفاد المنافقين الأوائل، رباه العدو على عينه؛ فهو طليعة من طلائعه، وأشد عداوة للأمة وثوابتها منه.

هذا من حيث العموم.

أما إذا جئت إلى أوساط الهداة ومبعث الأمل – العلماء والدعاة –؛ فمع كثرة خيرهم وعموم نفعهم إلا أنك تشاهد أمراضاً شتى، الواحد منها يعوق النصر ويمنع التمكين؛ فكيف بها مجتمعة؟ فأنت ترى في بعضهم قلة في الفقه، وضعفاً في النظر، أو تقصيراً في التبليغ والبيان، وطلباً للدنيا وتأكُّلاً باسم الدين، وفرقة وتشرذماً وتحزباً – في أحيان كثيرة – على غير الدين... وهلُمَّ جراً.

إنها بحق حالة مزرية، هي أبعد ما تكون عن استحقاق النصر وأهلية التمكين.

٤ – مع شدة الضعف وعظم الهوان إلا أن الأمر لم يبلغ من السوء ما كان عليه الناس قبل البعثة النبوية الشريفة، والتي نظر الله فيها إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب(١)؛ إذ الأمة مع شدة المرض ما برحت حية لم تمت، وما زالت تملك كثيراً من مقومات القوة وعوامل التغيير التي لم تستثمر بالصورة المطلوبة بعد.

لكن كل ذلك لن يجدي ما لم ينهج المصلحون المنهج النبوي في التغيير.

وحين يتأمل المرء في حال هداة عصرنا ومناهجهم في التغيير يجدهم طرائق شتى؛ ففئات تأخذ جانباً من الجوانب المطلوبة للتغيير، وتضرب صفحاً عن بقية الجوانب.

وفئات تستعجل الطريق، فتختار مرحلة متقدمة من مراحل التغيير، قافزة على ما دونها من المراحل التي لا قيام للمرحلة المختارة إلا بها؛ فهذه تركز على الجهاد أسلوباً أوحد، وأنه لا سبيل غيره؛ لأنه ذروة سنام الإسلام. وتلك تتطلع إلى الحكم مرددة ما روي عن الفاروق عمر ــ رضي الله عنه ــ: «إن الله ليَزَع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(٢).

وفئات داخلها الخور والخوف فخشيت الأذى، أو ركنت إلى الدنيا وملذاتها، فأخذت تضخم حجم الخير الموجود وتتغافل عن ضده، وزين لها الشيطان سوء عملها، فأخذت ترى أن مدافعة الشر المستطير – حتى وإن كان بطريقة حكيمة وأسلوب حسن – إنما هو تعجل وتهور وخروج عن الجادة وتنكب عن الصراط السوي!!.

وكل هذه الطرائق – مهما حققت من خير – لن تقود إلى التغيير المنشود؛ لأنها أخذت ببعض الكتاب وتركت بعضه.

٥ – يوجد عائقان متقابلان هما أعظم عوائق نجاح دعوات الإصلاح والتغيير: الاستعجال، والضعف والخور.

فأما الأول: فيقود إلى الهلكة مهما كان قصد صاحبه حسناً؛ لفقد الرفق والحكمة، وعدم إعطاء البعد الزمني حقه.

وأما الثاني: فيحول بين الإنسان والعمل ليلجأ بعدها ضعيف النفس إلى التسويغ لخوره والتأصيل لضعفه وإعطائه بعداً شرعياً.

ومن يتأمل في هدي نبينا محمد في التغيير يجد أنه بذل غاية وسعه في الإصلاح والتغيير بطريقة قوية وإصرار تنهدّ لثباته وشدته الجبال الرواسي.. كل ذلك في ظل تؤدة ورفق، وحكمة ظاهرة، وأخذ بالأسباب الشرعية، وإتيان للبيوت من أبوابها، فدعا وعلّم، وبنى وربّى، وآخى ووحد، وأقام دولة الإسلام التي من خلالها جاهد وأقام شرائع الإسلام في المجتمع.

ذلك كان هديه

فإذا أردنا لأمتنا فلاحاً ولأنفسنا نجاحاً فلنسلك مسلكه، ولْنسر على نهجه، فلن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به حال أولها.

٦ – وفي ظل هذا الواقع المأساوي رغم وجود هذه الكوكبة المشرقة من العلماء الربانيين والدعاة الصادقين وأبناء الصحوة المباركة؛ فإن واجب الوقت – من حيث الجملة – هو بيان الحق والدعوة إليه، وتعليم الدين وتربية أبنائه عليه؛ حتى تُحمى البيضة، ويُحافظ على الهوية.

وفي سبيل تحقيق ذلك والتمكين له؛ يجب تجاوز الصعاب وتحمّل الأذى مهما بلغ الأمر.

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

(١) أخرجه الحاكم ١٣٠/١، في قصة قدوم عمر الشام، إبان فتح بيت المقدس، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين... و لم يخرجاه».

(١) كما في حديث أخرجه مسلم، في كتاب: صفة الجنة (٢٨٦٥).

(٢) انظر: تاريخ بغداد ١٠٧/٤، وذكره ابن كثير في تفسيره ٦٠/٣ هذا اللفظ مرفوعاً، ولا يصح مرفوعاً.

المصدر : http://www.albayan-magazine.com

أخلاق النصر عند المسلمين كما يحكيها راهب [سنت دنيس]

تحطمت الموجات المتلاحقة التي قام بها التتار في نهاية الأمر على صخور الإسلام الراسية. وجباله الشم العالية. وذاب الغزاة في مجتمعات المسلمين. واعتنقوا آخر الأمر الدين الذي جاءوا لإزالته من الوجود. وأعلنت النصرانية حرباً ضارية على الأمة الإسلامية. وكانت حملات الصليبيين كالسيل الهادر تريد أن تمحو الإسلام من الوجود. ولقد بقيت أخبار الحملات الصليبية لطخة قذرة في جبين أمم النصارى. فقد كانت تلك الحروب صورة للتعصب المقيت. والحقد الدفين. والهمجية والرعونة. وقد هزم المسلمون في النهاية الصليبيين في ميدان القتال. وهزموهم في ميدان الأخلاق والعدل والنبل. وقد حَوَّلت الأعمال الرائعة ــ التي كان الصليبيون يرونها في المسلمين ــ جموعاً كبيرة منهم إلى الإسلام. فقد عرف هؤلاء أن ما هم فيه باطل وضلال. وعرفوا أنهم كانوا مخدوعين من قِبَل فئة من الذين استغلوهم لمصالحهم ومآربهم. وقد قارن هؤلاء بين إساءة أبناء ملتهم. وإحسان أعدائهم لهم في كثير من المناسبات. فكان ذلك باعثاً لهم؛ ليتعرفوا على دين أعدائهم المحسنين.

يروي السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس [الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام ص ٣١٦]. كان قسيساً في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع. ورافقه في إحدى غزواته طائفة كبيرة. يقول هذا الراهب: " وفي طريق الصليبيين إلى القدس. عبر جبال الأناضول. التقوا بجيش المسلمين. فهُزم الصليبيون شرَّ هزيمة. وكان ذلك في الممر الجبلي. [فريجيا] وذلك سنة ١١٤٨ م. و لم يصلوا إلى مرسى [أضاليا] إلا بشق الأنفس، ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى أنطاكية بحراً. وقد دفعوا مبالغ طائلة. وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحُجاج. فدفع لويس خمسمائة مارك [أي عن كل فرد] لليونانيين على أن يعنوا بهؤلاء الضعفاء حتى يشفوا. وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين حتى يلحقوا بمن سبقهم.

فما كان من اليونانيين الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين. واتصلوا بالمسلمين الأتراك، وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى. ممن تخلفوا من الوهن والعجز. ثم قعدوا ينظرون إلى

إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام المسلمين. ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعاً بما أصابهم. خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم فحصرهم المسلمين. وشدوا عليهم. ثم حملوا على المعسكرات الصليبية. وكان حال من خرج، ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء. و لم يُنقذوا إلا بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة. حين اطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء، وما أصابهم من ضراء رقّت قلوبهم، وذابت نفوسهم رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسوا المريض، وأحسنوا للفقير، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم، وبلغ من إحسان المسلمين أن بعضهم استرد بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج وردوها عليهم، ووزعوا على المحتاجين من الصليبيين، وقد كان الفرق واضحاً بين معاملة هؤلاء الكفار [يقصد المسلمين] للحجاج المسيحيين، ومعاملة اليونان الذين سخَّروا إخوانهم في الدين، ونهبوا أموالهم وضربوهم، كان الفرق عظيماً لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يُكْرَهُوا أو يُقْهَرُوا، لقد فروا من إخوانهم في الدين الذين أساءوا إليهم فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي بعد أن رجع عنهم، ودخلوا في دينه، لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة، لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإيمان، واحسرتاه!!! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه " أهـ.

[يتحسر هذا المسكين على ترك باطلهم، وكان أحرى به أن يتحسر على إهلاكه نفسه بسبب كفره وضلاله].

المصدر: http://www.islamic-mail.com

الصوم.. وتربية الأمة على النصر

د. علي محيي الدين القرة

فكرت كثيراً في أسباب الانتصارات العظيمة التي تحققت في شهر رمضان المبارك بدءاً بغزوة بدر الكبرى، مروراً بفتح مكة المكرمة وانتصار طارق بن زياد في الأندلس، ومعركة عين جالوت ضد المغول والتتر إلى معركة العاشر من رمضان وتحطيم خط بارليف أمام صيحات الله أكبر، حتى إن عدد الانتصارات في هذا الشهر زادت على ١٨٥ انتصاراً وفتحاً غيرت مجرى التاريخ.

وتدبرت في الربط بين هذه الانتصارات وبين الشهر الفضيل فوصلت إلى الآتي:

أولاً: رمضان هو شهر الصبر، والنصر دائماً مع الصبر، والإعداد الجيد، والتخطيط الهادف، وليس مع التعجل والتسرع اللذين يضيعان كل شيء على مستوى الأفراد، والشعوب والأمم، فلم يعرف النصر من استعجل الشيء قبل أوانه، بل عوقب بحرمانه، و لم يعرف النصر من استجاب للإثارة، وسُحبت رجله إلى ساحة الوغى قبل أن يستكمل جوانب الإعداد، بل نالته شر الهزائم.

و لم يعرف النصر من لم يخلص النية، و لم يتبع سنن الله – تعالى – في النصر، بل اعتمد على الإثـــارة والشهرة والدعاية والتضحيم، بل انكشف أمره في ساحة القتال فلم ينفعه كل ذلك، وأصابته مصائب الفشل الذريع وآثاره الخطيرة.

من هنا فإن شهر الصبر له علاقة بالنصر، ولذلك ربط الله – تعالى – بينه وبـــين نصـــر الله ونـــزول ملائكته فقال – تعالى –: "بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكـــم بخمســـة آلاف من الملائكة مسومين (١٢٥) وما جعله الله إلا بشرى"لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصـــر إلا من عند الله العزيز الحكيم" (١٢٦) (آل عمران)، حيث إن الصوم صبر على شهوتي البطن والفـــرج، فالصائم يمتنع عن الأكل والشرب والمعاشرة الجنسية طوال نهار شهر كامل، مع الامتناع عن المحرمات (من الكذب والغيبة والسب وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من جميع المحرمات) بـــل الصـــبر حسبما يريده الإسلام يفرض على الصائم ألا يرد على من سبه، أو شتمه أو قاتله: "وإن امرؤ قاتله أو سابه أو شتمه فليقل إني صائم، إني صائم، إني صائم".

وبهذا الامتناع الإيجابي يروض الصوم الصائم خلال شهر كامل على الصبر والتحمل، كما يروضـــه على التحدي لشهواته وملذاته، فتصبح إرادته قوية بالله – تعالى –، غير خاضعة لأهوائه، ولا أهـــواء أحد، وهذا هو الارتباط الثاني، وذلك لأن المعارك لا تحسم في ساحة القتال فقط، بل تحسم في ساحة الصدور، وميدان النفس، فالنفوس المنهزمة داخلياً هي التي تنهزم في ساحة القتال، بل قد لا تجرؤ على الدخول في الساحة أصلاً، وتضحي بكل شيء في سبيل أهوائها وشهواتها ومصالحها.

ثانياً: الصبر يعلم الأمة التضحية بالشهوات في سبيل رضاء الله – تعالى –، ويعودها تجويع أنفسها في سبيل كرامتها، ومن هنا تسقط أمامها أكبر التحديات المتمثلة في التحدي الاقتصادي، فقد قال رئيس إحدى الدول العربية في معرض رده على عدم التحرك العربي أمام كل ما تفعله إســـرائيل ووراءهـــا أمريكا، قال:"كيف أحارب أمريكا و٧٠% من الغذاء والحبوب يأتي من أمريكا؟!".

هنا يتدخل الصوم فينادي: لا وألف لا، فلن نخضع لشهوات البطن ونضيع كرامتنا وحقوقنـــا، فأنـــا أروض المسلم على أن يصوم ثلاثين يوماً، أي يوفر ٥٠% من الغذاء بل أكثر من ذلك لـــو التزمـــت الأمة بمنهج الإسلام في الإنفاق (دون إسراف ولا تبذير).

ولكن مع الأسف، ضاع هذا الهدف النبيل في خضم تباهي المسلمين بالأكلات والمشروبات في شهر رمضان الفضيل، حيث يصرف الفرد على الغذاء ونحوه في هذا الشهر أضعاف ما يصـــرفه في بقيـــة الشهور!.

الطريق إلى النصر

الآيات التي تحدثت عن الصوم حملت في طياتها برنامجاً كاملاً ومنهجاً متكـــاملاً للتربيـــة الصـــحيحة للوصول بالأمة إلى النصر المبين، وهو ما يأتي:

أولاً: الإصلاح الداخلي:

ركزت آيات الصوم على إصلاح الإنسان من داخله، إصلاح نفسه، وقلبه وروحه من خلال ما يأتي:

أ- بيان أن المقصد الأساسي من الصوم هو"التقوى"فقال – تعالى –: كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ١٨٣ (البقرة) والتقوى محلها الصدر والنفس، كما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – "التقوى ههنا، التقوى ههنا"، وأشار إلى صدره المبارك – صلى الله عليه وسلم – .

فالتقوى هي استشعار رقابة الله على الإنسان في السر والعلن وفي جميع التصرفات والحركات والسكنات، وذلك هو الإحسان الذي هو قمة الدين، كما ورد في حديث جبريل الصحيح المتفق عليه:"الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"، وهو أن يصل الإنسان إلى إحدى المرحلتين الآتيتين، وهما:

١ مرحة القرب من الله – تعالى – (كأنك تراه) وحينئذ لا يجرؤ المسلم أن يقترب من أي ذنب، لأنه يستحي من الله حق الحياء، هذه هي مرتبة الأنبياء والصالحين، كما كان جواب يوسف – عليه السلام –، حينما قالت المرأة: هيت لك قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ٢٣(يوسف).

٢ مرحلة الإيمان الجازم واليقين الراسخ بأن الله – تعالى – يرى الإنسان في جميع أحواله وتصرفاته وحركاته وسكناته، وحينئذ يستحي من الله – تعالى – أيضاً، فيمتنع عن المعاصي والذنوب، ومن المعلوم أن نصر الله لا يهدى لعاصٍ، بل لم يترل على رسوله صلى الله عليه وسلم – في البداية يوم حنين بسب إعجاب بعض صحابته كما سجل القرآن ذلك ليكون عبرة لأولي الألباب فقال: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٢٥ (التوبة).

ب بيان أن هناك هدفاً آخر من الصيام هو الوصول إلى عبادة الله وحده، وتوحيده في ألوهيته وربوبيته وفي تكبيره وشكره وتعظيمه فقال – تعالى –: ولتكبروا الله على"ما هداكم ولعلكم تشكرون ١٨٥ (البقرة)، والإكثار من الدعاء من خلال القرب من الله – تعالى –، والاستجابة له: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ١٨٦ (البقرة). وهذا يعني أن الصوم الحقيقي يصل بالصائم إلى مرحلة عظيمة من الارتقاء الإيجابي حتى يكون تعظيمه لله وحده وليس لغيره، ولا يكون تعظيمه لبشر ولا لدولة ولا لسلطان، مهما كان، ويكون شكره لله – تعالى –، لا لغيره. ومشكلة المسلمين اليوم في هذا الجانب أن نفوس معظمهم منهزمة في الداخل، وجلة من الأعداء، خائفة على مصالحها الذاتية، ولذلك تعظم هؤلاء

الأعداء وتخاف منهم. وبالتالي لم تحقق العبودية الكاملة التي يريدها الله – تعالى – من عبـاده، بـأن يكون سجودهم وركوعهم وخضوعهم له وحده، دون شرك ولا رياء ولا نفاق.

وكذلك تبين هذه الآيات أن هدف الصيام.. الوصول بالإنسان إلى مرحلة الرشد لعلـهم يرشـدون ١٨٦ وذلك من خلال ترويضهم على التعبد لله – تعالى – فقط، ولـيس للأهـواء أو الشـهوات والرغبات والعواطف.

ثانياً: منهج التغيير الداخلي:

يترتب على الإصلاح الداخلي الذي أراده الله – تعالى – من الصوم من خلال ترويض الصائم علـى الصبر، وعلى التقوى، والتكبير، والشكر لله وحده التغيير النفسي المطلوب في قوله – تعالى –: إن الله لا يغير ما بقوم حتى"يغيروا ما بأنفسهم (الرعد:١١).

فهذه السنة الإلهية قاضية بأن تغيير الأمة نحو الأحسن مرتبط بتغيير الأنفس تغييراً جذرياً من التردد إلى الإيمان الجازم، ومن الشرك والأوهام والخرافات إلى توحيد الله الخالص في ربوبيته، وألوهيته، ومـن هزيمة الأنفس إلى عزيمتها وقوتها وإرادتها الصلبة المعتمدة على الله – تعالى –، ومن تعظيم غير الله إلى تعظيم الله وحده. فمنهج التغيير في الإسلام منهج شامل لتغيير الإنسان: فكره، وتصوراته، وإرادتـه وسلوكه.

ثالثاً: منهج التعامل:

تشكل آيات الصيام منهجاً متكاملاً في كيفية التعامل مع الدين وشعائره، ومع الخالق ومع المخلـوقين جميعاً، وهو منهج رائع عظيم متوازن وسط، كما يتبين ذلك مما يلي:

١ التعامل مع الشعائر التعبدية بيسر وسهولة وبساطة، دون تشدد ولا تعقيد، على عكس مـا كـان متصوراً في السابق، من وجوب التعامل مع العبادات بشدة وقوة، حيث تضمنت هذه الآيات مجموعة من الرخص للصائم تبيح له الإفطار، كالمرض والسفر أو عدم الطاقة بسبب السن أو غـيره، بـل إن بعض الأعذار يسقط الصيام تماماً، فلا يجب قضاؤه، بل يوجب الفدية فقط وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين (البقرة ١٨٤)، ولا يكتفي الإسلام بهذه التخفيفات، بل يجعل منها قاعدة عامة، ومبدأ سارياً، وهو مبدأ رفع الحرج، وقاعدة التيسير فقال – تعالى –: يريد الله بكم اليسر ولا يريـد بكـم العسر (البقرة: ١٨٥).

يفهم من ذلك بوضوح أن الإصلاح يأتي مع التيسير، وليس مع التشدد والتعسير، وأن الدين لا يقود الناس بالإكراه والقيود والسلاسل، بل بالحرية والدافع الذاتي والتقوى الداخلية. ولذلك شدد الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أولئك الذين لم يفطروا في السفر، عام فتح مكة، فوصفهم بالعصـاة، لأنهم اتجهوا إلى منهج التشدد والغلو، والتنطع في الدين، الذي رفضه الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، فقد روى مسلم وغيره عن جابر – رضي الله عنه – قال: خرج رسول الله – صـلى الله عليـه

وسلم – عام فتح مكة في رمضان، فقام حتى بلغ كراع الغميم، ثم عاد بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس، ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال – صلى الله عليه وسلم – :"أولئك العصاة".

إن العبادات في الإسلام تعتمد على تربية الضمير وتصفية النفس، وتهذيب الروح، ولذلك تنشئ حالة نفسية ذاتية تدفع صاحبها ذاتياً نحو حسن الأداء وحسن السلوك في الحياة، ولا يمكن أن تعتمد على المظاهر، بل لا يمكن للمظاهر أن يكون لها هذا الدور العظيم في إصلاح القلوب، وتغيير الإنسان نحو الأحسن.

٢ التعبد في الإسلام لا يعني الترهب، والإسلام يدعو إلى الربانية لا الرهبانية: وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (القصص: ٧٧)، وإلى الجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة وحسنتيهما: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ٢٠١ (البقرة:٢٠١).

ولذا جاءت إباحة المعاشرة الزوجية في ليالي الصيام فقال – تعالى –: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى"نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى"يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ١٨٧ (البقرة).

فهذا هو الإسلام، دين الوسطية، يعطي كل ذي حق حقه، وذلك هو الإسلام، الذي يراعي الاعتدال والتوازن في كل شيء، بلا إفراط ولا تفريط.

٣ التعامل مع جميع النصوص الشرعية على سبيل التعبد لله، وليس على سبيل الانتقاء، لذلك بينت هذه الآيات أن الأخذ بيسر هذا الدين ورخَصه، من تعاليم الدين نفسه، كما أن الأخذ بعزائمه من تعاليمه كذلك.

٤ أن يتعود المسلمون على تحمل بعضهم بعضاً، فيسع من يأخذ بالعزيمة أخاه الذي يأخذ بالرخصة، لذلك لا يجوز لمن يأخذ بالعزائم أن يعيب على أخيه الذي يأخذ بالرخص، بل إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عاب على هؤلاء الذين تشددوا فلم يفطروا بسبب السفر والجهاد الذي يحتاج إلى القوة البدنية، علاوة على القوة الإيمانية بالطبع، وهذا ما كان عليه الصحابة الكرام، – رضي الله عنهم –، فقد ترجم البخاري باب: لم يعب أصحاب النبي ص بعضهم بعضاً في الصوم والإفطار، ثم روى بسنده عن أنس – رضي الله عنه –، قال:"كنا نسافر مع النبي ص فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم" (صحيح البخاري، مع الفتح ٤–١٨٦).

وما أحوجنا اليوم إلى هذا الأدب الجم في تعامل المسلمين مع بعضهم البعض، وفي أن يسع بعضهم بعضاً، وألا يهاجم بعضهم بعضاً بسبب أمر مختلف فيه، وأن يعود التآلف إليهم جميعاً للوصول إلى وحدة الأمة التي تمزقت بسبب البعد عن منهج الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام.

المصدر: http://www.almujtamaa-mag.com

بناء الأمم دعائم النهضة ومعالم النصر

محمد معجوز

إن الأمة التي تحيط بها ظروف كظروفنا؛ وتنهض لمهمة كمهتنا، وتواجه واجبات كتلك التي نواجهها، لا ينفعها أن تتسلى بالمسكنات أو تتعلق بالآمال والأماني، وإنما عليها أن تعد نفسها لكفاح طويل عنيف وصراع قوي شديد بين الحق والباطل وبين النافع والضار، وبين صاحب الحق وغاصبه، وسالك الطريق وناكبه وبين المخلصين الغيورين والأدعياء المزيفين... وليس للأمة عدة في هذه السبيل الموحشة إلا النفس المؤمنة والعزيمة القوية الصادقة، والسخاء بالتضحيات والإقدام عند الملمات، وبغير ذلك تغلب على أمرها ويكون الفشل حليف أبنائها.

والشباب المسلم الملتزم بإسلامه عدة المستقبل والدرع الواقية لأمتنا من كل عدوان مادي أو معنوي، وهذه النوعية من الرجال هم لبنات البناء الصلبة المتينة التي يقوم بها بناء الوطن، وبأمثالهم تقوم الأسرة المثالية التي تمثل ركيزة في بناء المجتمع، لذلك كان أهم عنصر في البناء، لكي يكون سليماً متيناً، بناء المواطن الصالح الذي هو ركيزة الانطلاق لمواجهة تخطيط أعداء الإسلام وما نشره في أوطاننا الإسلامية من ضياع وتدمير وضعف وتبعية وانتشار العلل والأمراض، وتولد ما يشبه اليأس من النهوض والإصلاح والنجاة من التردي.

والحقيقة أن بناء الأمم أمر ليس يسيراً إذا كان المطلوب قبل وضع أساس البناء إزالة الركام والمخلفات التي أدت إلى ضعف البناء وانهياره، ثم وضع الأساس العميق المتين الذي سيقوم عليه البناء الجديد، لذلك يقع على عاتق المسلمين المخلصين دور مهم في حمل الدعوة ونشرها حفاظاً على الصبغة والهوية الإسلامية للمجتمع المسلم وتأصيل جوانبها واستكمال أركانها عن طريق التربية والوعظ والإرشاد، والعمل على استمرار الصحوة الإسلامية وتعميقها وتوسيعها وتفعيلها والوصول بها إلى القطاعات المؤثرة.

وهناك دور آخر يتلخص في العمل على امتلاك الأمة أسباب القوة في جميع المجالات التي تمكنها من تحقيق رسالتها كما قال الله – تعالى -: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" (الأنفال:٦٠). وذلك بتغيير كافة مؤسسات المجتمع وأفراده (رجالاً ونساء) وفق رؤية شاملة، تسعى لحل مشكلات الحاضر، وتعد للمستقبل، على هيئة برامج تفصيلية تعالج مشكلات الناس وهمومهم.

ويجب أن يتم ذلك العلاج بوضوح واقتناع بأنه لا بديل للحل الإسلامي؛ وأنه الحل الحتمي لأنه من عند الله خالق البشر الخبير بما فيه خيرهم ومنفعتهم، ثم إنه ليس موضع تجربة جديدة ولكن سبق تطبيقه وسعد به الناس أزماناً طويلة قبل تعرض أقطارنا العربية والإسلامية لتجارب مريرة قاسية بسبب تطبيق نظم أرضية مستوردة من صنع البشر، الأمر الذي جر على شعوبنا قدراً كبيراً من الشقاء والمعاناة والضعف وتدهور الأحوال والتبعية للدول الغنية المتحكمة. إننا نأمل أن يسود الاقتناع بفشل النظم الوضعية وأحقية الحل الإسلامي، بالحجة والدليل.

ولابد من التنبيه هنا إلى أنه لا يصلح لتحمل هذه الأعباء والقيام بهذه الأعمال إلا من رصدوا حياتهم لهذا الدين، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يتقنون عملهم رجاء القبول فلا يقصرون ولا يتباطؤون، يبتغون وجه الله ولا يراؤون، لا يقوم بهذه الأعباء إلا من أعد نفسه، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل القوي الشاق، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها، فإنه يسهل على كثيرين أن يتخيلوا ولكن ليس كل الخيال يدور بالبال يمكن تصويره باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا، ولكن قليلاً من هذا الكثير يثبت عند العمل، وكثيراً من هذا القليل يستطيع العمل، ولكن قليلاً منهم يقدر على حمل أعباء الجهاد والعمل المضني، وقد أثبتت الأحداث والأيام أنه بقدر الاهتمام بالتربية تتحقق الأصالة للحركة الإسلامية واستمراريتها ونموها.

والأمر الطبيعي أن يسير العمل لتحقيق التمكين لدين الله في الأرض بإقامة الخلافة الإسلامية وفقاً لتخطيط دقيق وألا يكون ارتجالياً أو ردود أفعال فيقسم الهدف الكبير إلى أهداف مرحلية وتوضع الخطة لكل منها والوسائل اللازمة ويتابع التنفيذ وهكذا، وذلك يلزمه دراسة الظروف المناخية ومعرفة الإمكانات المتاحة وتحديد المخلصين الذين يقومون بالتنفيذ، والمدة المناسبة لإتمام التنفيذ، وافتراض الاحتمالات المتوقعة التي قد تؤثر فيه وكيفية مواجهتها"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"، والتطوير والتجديد أمر مطلوب يحث عليه الإسلام للترقي في أساليب العمل ووسائل الحياة:"إن الله كتب الإحسان على كل شيء"، وفتح له أبواباً كثيرة"الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.."ويلزم الدعاة أن يضعوا في الاعتبار أنهم يتعاملون مع قلوب ونفوس، وأن القلوب بيد الله، فقد يتيسر فتح مغاليق بعضها ويستعصي البعض الآخر، والتوفيق من الله، فقد يجري الله خيراً كثيراً على يد فرد صادق مع الله، وقد لا يتحقق مثله على أيدي أفراد عديدين، فلابد من التغيير وإدراك ما تبقى من الوقت، والعمل نحو جيل إسلامي فريد ووطن آمن؛ يأمن فيه الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه؛ فالأمر جد خطير، ولن يجدي الكلام وحده؟

المصدر: http://www.almujtamaa-mag.com

بشائر النصر

الدكتور عبد العزيز الرنتيسي

على النقيض تماما مما يظنه البعض فإن الأمة تحقق في هذه الأيام انتصارات عظيمة أذهلت العدو، هذه الانتصارات لم تترجم إلى انتصارات عسكرية بعد، ولكنها المقدمة التي لابد منها لإحراز النصر العسكري الذي لا يعدو كونه الجولة الأخيرة المتبقية التي تتوج النصر الذي تم إحرازه فعلا على أرض المعركة، ورب سائل يتساءل أين هذا النصر الذي تتحدث عنه وفلسطين كل فلسطين ترزح تحت الاحتلال، والأقصى في قبضة الصهاينة، والشعب الفلسطيني يشيع الجنازات في كل صباح، والأمة تُضرب في أفغانستان، وتُحاصر في العراق، ومعظم أقطارها تقع تحت التهديد، يحدق بها الخطر من كل جانب.

وللإجابة على ذلك علينا ألا ننسى أن هزيمتنا العسكرية هي ثمرة طبيعية لهزيمتنا الفكرية، ولولا الغزو الفكري الذي مكن الغرب من صناعة عملاء من بني جلدتنا انبهروا بحضارته فكانوا أكثر من الأعداء إضرارا بأمتهم وحضارتهم، انهزموا فكريا فشعروا بضآلتهم أمام الحضارة الغربية وما ملكت من عناصر القوة، ثم ما لبثوا أن عكسوا مشاعرهم تلك على واقع الأمة، وغاب عن أذهانهم ما تملك أمتهم من حضارة وإمكانات وطاقات لو أنهم فجروها ووظفوها لصالح نهضة الأمة من جديد لانتشلوها من وهدتها، ولكنها أصبحت في نظرهم أمة عاجزة ضعيفة لا تقوى على النهوض، فأعطوا ولاءهم لأعدائها ليصبحوا معاول هدم في يد الغرب الحاقد، فكانوا عاملا رئيسيا من عوامل الهزيمة العسكرية التي نعيشها اليوم.

ويعرف فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله –الغزو الفكري قائلا (الغزو الفكري هو مصطلح حديث يعني مجموعة الجهود التي تقوم بها أمة من الأمم للاستيلاء على أمة أخرى أو التأثير عليها حتى تتجه وجهة معينة. وهو أخطر من الغزو العسكري، لأن الغزو الفكري ينحو إلى السرية وسلوك المسارب الخفية في بادئ الأمر فلا تحس به الأمة المغزوة ولا تستعد لصده والوقوف في وجهه حتى تقع فريسة له وتكون نتيجته أن هذه الأمة تصبح مريضة الفكر والإحساس تحب ما يريده لها عدوها أن تحبه وتكره ما يريد منها أن تكرهه. وهو داء عضال يفتك بالأمم ويذهب شخصيتها ويزيل معاني الأصالة والقوة فيها والأمة التي تبتلى به لا تحس بما أصابها ولا تدري عنه ولذلك يصبح علاجها أمرا صعبا وإفهامها سبيل الرشد شيئاً عسيراً)، وإن الناظر لواقع الأمة لا يراها تخرج قيد أنملة عن هذا التعريف، لأن الغزو الفكري قد خلق فينا شعوراً بالضعف وإحساساً بالتخلف، حتى فقدت الأمة ثقتها بنفسها وطاقاتها وقدراتها على المواجهة، وبدا همها الأول والأخير أن تتمكن من التأثير على نتائج الانتخابات لدى العدو، علها تسقط شارون أو تقصي بوش عن الحلبة السياسية، متجاهلة

أن كل الصهاينة شارون وأن كل الأمريكان بوش، وناسية أو متناسية أن الذي يملك إخراجنا من واقع الهزيمة هو أن نغير نحن أنفسنا وإلا فسنبقى نلهث خلف السراب.

لقد أدرك العدو بعد خروجه منهزما من الحروب الصليبية أن القوة العسكرية لا يمكنها إلا أن تحقق نصرا محدودا بزمن، ولكن لتحقيق الغلبة الدائمة لابد من غزو العالم الإسلامي فكريا بعيدا عن استخدام الدبابات والطائرات وراجمات الصواريخ، فترك أعداؤنا الغزو الفضائي والغزو البري، وأحكموا قبضتهم على العالم الإسلامي بالغزو الفكري، فصرنا ننظر للغرب بأنه هو الأعلى وأنه هو الأكمل وأن ما عنده هو الأحسن، ونشعر في قرارة أنفسنا بالدونية والمهانة، ثم ما لبثنا أن سلمنا ديارنا، وأموالنا، وكرامتنا، بل ورقابنا للغرب، فأخذوا يعبثون بمقدراتنا، وينهبون خيراتنا، ويستخفون بعقولنا، ويجندون بعضنا لضرب رقاب بعضنا الآخر، وكل ذلك يجري على يد صنائع لهم من بني جلدتنا، استنكروا علينا أن نقف موقف عزة وكرامة، فحرّموا الحلال يوم حرّموا المقاومة، وأحلوا الحرام يوم أحلوا التنازل عن أرض المسلمين، وأخذ الغرب يرقب من بعيد هذه المعركة المحتدمة بين ضحايا غزوه الفكري وبين من تحصنوا بالإسلام فكانوا في منعة من الانهزام أمام الحضارة الغربية، ورفضوا بالتالي التسليم بالأمر الواقع، وأبوا إلا المواجهة، ولقد كانت الغلبة حتى عهد قريب لضحايا الغزو الفكري، مما أدى إلى استسلام الأمة وانهزامها أمام أعدائها، وأما اليوم فأستطيع القول أن الميزان بدأ يعتدل لصالح الوعي الإسلامي والصحوة الإسلامية التي باتت تمثل ضمير الأمة، مما جعل الشعوب تتحلل من واقع الهزيمة يوما بعد يوم، وكان الفضل في ذلك أولا لله سبحانه ثم للمجاهدين من أبناء الأمة في فلسطين ولبنان والفلبين والشيشان وكشمير وأفغانستان وكوسوفا والبوسنة والهرسك الذين ضربوا أروع الأمثلة في التضحية والفداء، وأثبتوا أن الأمة قادرة على إحراز النصر في ميدان المواجهة إذا تمكنت من نفض غبار الهزيمة الفكرية.

ولقد أصاب الذهول أعداء هذه الأمة الذين جيشوا جيوشا جرارة من المبشرين والمستشرقين، وزودوهم بالمليارات من الدولارات، وأرقى ما توصلت له التكنولوجيا الحديثة من وسائل، ولكنهم صعقوا عندما رأوا أن الأمة بدأت تعود لأصالتها على يد المجاهدين الذين يفجرون أنفسهم في سبيل الله، إن خروج الأمة بهذه السرعة وبهذه القوة من واقع الهزيمة دفع بالصهاينة والغرب أن يلجأوا إلى استخدام القوة العسكرية من جديد وهذا أكبر دليل يقدمونه على فشلهم أو قل على هزيمتهم في معركة الفكر.

ومن هنا فإن انتصارنا على ضحايا الغزو الفكري الذين يسارعون في تحقيق ما يرضي العدو من شجب واستنكار لما يقوم به المجاهدون لهو الانتصار الحقيقي الذي سيقودنا لا محالة إلى النصر في المعركة العسكرية الفاصلة، وها نحن اليوم نلاحق فلول مرضى الغزو الفكري، فهم في انحسار دائم،

حيث تنبهت الشعوب لحقيقة أمرهم، وهذه أول وأهم إرهاصات النصر العسكري القادم، فالنصر الفكري هو النصر الحقيقي الذي بدأت تطل بشائره.

المصدر: http://www.forsan.net

الإيمان والثقة بالله والصبر أقوى أسباب النصر

محمد محيي الدين

قال الله – تعالى -: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين * وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون" {الأنفال:٣٠٣٤}.

لقد كان من العجب العاجب أن تقوم قريش في وجه صاحب الدعوة إلى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – وهم أهله وعشيرته وذوو قرباه، وأحق الناس بالانتصار له، والذياد عنه؛ إن اعتدى عليه أحد، كان عجيبًا حقا أن يقوم هؤلاء بالتأليب عليه وتنفير الناس منه، وهم أولو العصبية وأصحاب الحمية التي ترى أنه لا وجود للقبيلة ما لم يأخذ كل واحد منها بنصرة أخيه على من يعترض له، ويضحي في سبيل ذلك بالنفس والمال إن اقتضى الأمر هذه التضحية.

وكان عجيبا أبلغ العجب أن تتمادى في مساءتة، وتبذل في سبيل ذلك الجهود الكبيرة. ثم لا تكتفي بالسخرية منه وممن اتبعه، ولا بتهديده وتهديد قرابته الأدنين بالمقاطعة والحرمان من الطعام والشراب، ولا بما فعلته من تشريد أنصاره عن أوطانهم، وإصابتهم في أنفسهم وفي أموالهم. وكان أعجب من هذا كله أن يصبر – صلى الله عليه وسلم – على أذاهم ويأمر أصحابه بالصبر، ويزيد في سماحة الخلق وكرم النفس، فيدعو الله أن يهديهم ويوفقهم إلى الاستجابة له؛ لأنه يحب لهم الخير، ويعلم أن الخير في اتباع هذا الدين الذي جاء به من عند الله. ولو كان محمد صلوات الله وسلامه عليه رجلا كعامة الرجال لأشفق على نفسه وعلى أصحابه الذين اتبعوه وعلى أعمامه الذين أخذوا أنفسهم بالانتصار له، وإن لم يتركوا دين آبائهم إلى دينه. ولخاف على نفسه وعلى هؤلاء وهؤلاء لجاجة قريش في أذاهم وافتنانها في التنكيل بهم. ولكن كان رجلا عظيم الثقة بأنه على حق يجب أن يخضع له البشر جميعا. قوي الإيمان بأنه ليس ساحرًا ولا كاهنًا ولا شاعرًا ولا اعتراه بعض آلهة قومه بسوء كما كانوا يقولون عنه وأنه لا يتلقى هذا الوحي من الجن كما كان الكهان ولا يتعلمه عن بشر كما زعم قادة الإجرام ولكنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبه لينذر به قوما لدا. وكان مع هذا كله

لا يشك في أن الله متم نوره. ومكمل به ما أراد للعالم من الصلاح والسعادة. لذلك لم تهن عزيمتـــه. ولم تضعف قوته، ولم تفت في عضده الأحداث. بل كان كلمـــا زادت قـــريش وأحلافهـــا في أذاه والنكاية به محاولين صده عن سبيل ربه زاد هو مضاء في دعوته واستهانة بما يلقاه منهم بل كان ذلك أحلى في قلبه وأعذب أن يصبر لله، ويصابر في إعلاء كلمة الله، ويرفع لواء الحق الـــذي أحبـــه الله، ويزهق الباطل الذي يبغضه الله. ولو كان محمد صلوات الله عليه رجلا كعامة الرجال لملأ قلبه اليأس، فانصرف عن هذه الدعوة وألقى حملها عن ظهره، فقد لبث في

قومه ثلاثة عشر عامًا يدعو ويلح في دعوته، وينذر ويبالغ في إنذاره، فلم يستجب له إلا نفـــر قليـــل ليس فيهم صناديد قريش الذين تقتفي العامة آثارهم وتسير على ما يرسمون لها من طريـــق. وهـــؤلاء الذين آمنوا معه ليس في استطاعتهم أن يدفعوا عنه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم. إذا أرادهـــم القـــوم بالسوء. ولكن كيف يطرق اليأس نفسه، وهي النفس المملوءة يقينا بأن الله غالب على أمره. والمفعمة ثقة بأن للحق يوما يظهر فيه على الباطل فيدمغه. وإذا كان أهل مكة لم يستجيبوا له، فلماذا لا يطلب النصر عند غيرهم ممن لا يكون قد ملئ حقدًا وحسدًا، ولا يكون فيه من الغرور والكبر ما عند أهـــل مكة، وليس له من الرياسة الزائفة ما يحرص عليه أهل مكة الذين كانوا يزعموا أنهم سادات الداعين، وهم في خوف أن تقضي هذه الدعوة الجديدة على رياستهم التي لا تعتمد إلا على الغرور والباطل.

ويبدو له هذا الخاطر خاطر أن يعرض على غير قريش من قبائل العرب دعوته التي بعثه الله بها رحمـــة للعالمين إلى سبل السلام وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومبشرًا بما يستقبل الجزيرة من الفـــلاح والغلبة. بل بما يستقبل الإنسانية جمعاء من السعادة والرخاء إذا هم اتبعوه وسرعان ما يأخذ في امضاء هذا الخاطر. وكيف يتوانى ويتردد في إمضائه. أليس هو رسول الله إلى الناس كافة؟ أليس هو النـــور الذي حمل سراجه المنير نازلا من السماء لهداية البشر أجمعين؟ إذن فما باله لا يعرضه لأعـــين النـــاس جميعا، ويوجهه إلى قلوب الناس جميعا ليهتدي به من لم يصب عينه عشى الكبر والحسد ومن لم يطبع الله على قلبه، وكيف يتوانى ويتردد في إمضائه! أليس هؤلاء الذين حرص على أن يكونوا أول حملـــة هذا السراج قد خيبوا ظنه وضيعوا الكثير من آماله؟ فما باله إذن يؤثرهم ويقصر عليهم دعوته؟.

ها هو ذا يمضي إلى الطائف حيث تقيم ثقيف. وها هو ذا يجدُّ في البحث عن سادة ثقيف وأشـــرافهم وأهل الرأي فيهم، حتى يجد ثلاثة أخوة، هم يومئذ قادة القوم وأصـــحاب الســـلطان فـــيهم وهـــم عبدياليل، ومسعود، وحبيب أبناء عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن ثقيف وها هـــو ذا يجلس إليهم فيدعوهم إلى الله ويكلمهم بما عنده، ويطلب إليهم نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه. فيواجهونه بما لا يحب فيقول له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. ويقـــول الآخر أما وجد الله أحدًا غيرك يرسله؟ ويقول الثالث: والله لا أكلمك أبدًا. لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله فينبغـــي أن لا

أكلمك. فإذا يئس منهم و لم تبد له لائحة خير فيهم قال لهم:"أما إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني". يريد ألا يبلغ خبره قريشا فيعلموا هذه الخطة الجديدة فيأخذوا عليه أفواه الطرق ويغلقوا دونه قلوب الناس.

و لم يكن عند ثقيف بقية من كرم الخلق. فلم يقبلوا منه ما جاءهم به و لم تطب أنفسهم بالكتمان عنه بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويحصبونه بالحصى، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة. وهما جالسان فيه. فعمد إلى ظل كرمة فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء ثقيف. حتى إذا اطمأن في مجلسه وتفرق عنه هؤلاء الأوشاب أخذ يناجي ربه."اللهم إليك أشكو ضعف قوتي. وقلة حيلتي. وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين. وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله". وأتى كندة في منازلهم فدعاهم إلى الله – عز وجل – وعرض عليهم نفسه. فأبوا عليه. وأتى بطنا من بني كلب يقال لهم بنو عبد الله. فعرض عليهم نفسه فلم يقبلوا منه وأتى بني حنيفة فدعاهم إلى الله فلم يكن أحد أقبح عليه ردًا منهم.

اللهم غفرًا. هذا محمد رسولك وصفوتك من خلقك والداعي إلى صراطك المستقيم وسبيلك الذي رضيته لخلقك يبذل من نفسه كل جهد ولا يألو في إعلان ما أرسلته به، ولا يجد ناصرا ولا يلقي معينا؟. هؤلاء أقاربه قطعوا أواصر القربى ومزقوا كل وشائج الرحم وهلهلوا العواطف التي من شأنها عندهم وعند غيرهم أن تصل فيما بين الناس. وهؤلاء الأباعد يتجهمونه ويغرون به السفهاء والعبيد يصيحون به ويرجمونه بالأحجار ولا يرضون منه بما يرضى به أقل العرب استمساكا بأحسن الأخلاق أن يكتموا عنه ما أفضى به إليهم من دخيلة نفسه وهو مع كل هذه البلايا التي تكفي واحدة منها لزعزعة رواسي الجبال صابر مطمئن النفس عالم أنه ما جاء أحد بمثل ما جاء به إلا عودي وأوذي واثق أن العاقبة للمتقين. وليس يخاف شيئًا إلا أن يكون بك غضب عليه. فعفوك اللهم ورضاك وتأييدك أنه لا معين له سواك.

وتعلم قريش بما كان منه وما كان من ثقيف وكندة وبني حنيفة فيعلمون أنه فكر في الانتصار عليهم بقبائل العرب وأنه أخذ لذلك أهبته. فيحذر بعضهم بعضا ويتناذرون فيما بينهم فصاحة لسانه وشدة أسر بيانه. وما يكون لذلك ولغيره من خلال الخير التي جبله الله عليها من التأثير على الناس حتى ائتمروا فيما بينهم إلا يتركوه يلقي أحدًا ممن يفد على مكة لزيارة البيت الحرام إلا حذروه أمره، ودسوا له ليجنبوه فيما زعموا الخديعة به، فكانوا لا يسمعون بقادم إلا تعرضوا له فقالوا: إنك قد قدمت بلادنا. وقد ظهر بيننا رجل أعضل بنا وفرق جماعتنا وشتت أمرنا. وإنما قوله كالسحر يفرق

بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجه. وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئًا. وربما كثر الوافدون على مكة كما يكون في موسم الحج، فلم يستطيعوا أن يتحدثوا إلى الوافدين جميعا. فامكنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاستطاع أن يلتقي بقوم من الوافدين وأن يعرض عليهم ما عنده، فما هو إلا أن يأخذ في الحديث اليوم حتى يكون الأمر قد بلغ قريشا فتراهم مسرعين إليه يفسدون عليه أمره، حدث عبد الله بن عباس:"إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقف على منازل من العرب فيقول: يا بني فلان. إني رسول الله إليكم. يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا وتصدقوا بي ومنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به، قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان وعليه حلة عدنية. فإذا فرغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان. إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم. وتسلخوا حلفاءكم من الجن من بني مالك بن اقيش. إلى ما جاء به من البدعة والضلالة. فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه. قال عبد الله: فقلت

لأبي: يا أبت من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول فقال: هذا عمه عبد العزي بن عبد المطلب. وهو أبو لهب".

ولكن عين عين الله تلحظه في خطواته كلها، وقد كفل الله له أن يعصمه من الناس. وعنده من اليقين وقوة الإرادة وصادق المعرفة بأنه إذا عز المطلب هانت التضحية في سبيله. فهو لا يبالي محاولة أعداء الحق في إطفاء نوره. ولا يعبأ بما يلاقيه في سبيل بلوغ غايته. وإذا أراد الله انفاذ أمر هيأ له أسبابه. فسار في الطريق الموصلة إليه فلم يعترضه من عقابيل الناس شيء مهما يحكموا أمرها. فقد حدث في السنين الأخيرة من مقامه بمكة أربع حوادث كانت لها الأثر الفعال في عزة الإسلام والمسلمين، أولها أنه قدم مكة قوم من أهل المدينة من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ وأبو الحيسر أنس بن رافع يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج فسمع بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأتاهم فجلس إليهم. فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل علي الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ أي قوم. هذا والله خير مما جئتم له. فيأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فيضرب بها وجه إياس بن معاذ ويقول: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس. وقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عنهم. وانصرفوا بعد ذلك إلى المدينة. ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن تُوفِّي، ويحدث قومه أنه حين حضرته الوفاة لم يزل يهلل الله – تعالى – ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فكان ذلك مبدأ لشعور أهل المدينة بالإسلام وبصاحب الدعوة إليه، فلما كان موسم الحج حدثت الثانية وخلاصتها أن قوما من

الخزرج خرجوا لزيارة بيت الله فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض: وإنـــه والله للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه

إلى ما دعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم وقالوا له"إنا تركنا قومنا ولا قوم بينـــهم مـــن العداوة والشر مثل ما بينهم. فعسى أن يجمعهم الله بك: فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعـــرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. فلما قدموا المدينـــة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ودعوهم إلى الإسلام. ففشا فيهم حتى لم تبق دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. حتى إذا كان الموسم من قابل حدثت الثالثة فقدم مكة اثنا عشر رجلا من أهل المدينة من بني النجار وبني زريق بن عـــامر وبني عوف بن الخزرج وبني سالم بن عوف وبني سلمة وبني سواد بن غنم. وكل أولئك من الخزرج وبني عبد الأشهل وبني عمرو بن عوف وهما من الأوس فكانت بينه – صلى الله عليه وسلم – وبـــين هؤلاء النفر بيعة العقبة الأولى. بايعهم فيها على أن لا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنـــوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم. ولا يعصونه في معروف. فـــإن وفـــوا بذلك فلهم الجنة. وإن فعلوا من ذلك شيئًا فأمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهـــم، فلمـــا اعتزموا الانصراف إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. فكان مصعب في المدينة معلما لمن آمن بالله ورسوله. وكان مع ذلك داعية لمن لم يؤمن. فصدق في الدعوة إلى الله وأخلص في النيابة عن رسول الله. فأسلم على يديه جماعة من أهل المدينة منهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير. وهمـــا يومئذ سيدا قومهما بني عبد الأشهل. فلما خالطت حلاوة الإيمان قلب سعد بن معاذ انطلق إلى نادى قومه فلما وقف عليهم قال"يا بني عبد الأشهل. كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا. وأوصـــلنا. وأفضلنا رأيا. وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام

حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فلم يمس في دور بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا دخل الإيمان إلى قلبه. فلما كانت الحجة القابلة حدثت الرابعة وهي بيعة العقبة الكبرى التي بايع النبي فيها أهل المدينة علـــى أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأعطاهم الرسول يده على أن يقيم بين أظهرهم ولا يعـــود إلى الإقامة بين أهل مكة وأن أظهره الله عليهم، وعلى أن ذمته ذمتهم وحرمته حرمتهم يحارب مـــن حاربوا ويسالم من سالموا وأعطوه العهد على أنهم وافون له على نهكة الأموال وقتل الأشراف".

وتبلغ هذه الأخبار كلها قريشا فيهولها الأمر. ويفزعها أن يجد محمد والصبأة من أصحابه أعوانـــا في يثرب يصيبون بهم منعة إن يشاءوا. ثم يملك عليهم نواحي تفكيرهم أن يروا هؤلاء الصبأة يتسللون إلى إخوانهم في يثرب. فيدعون إلى اجتماع عام في دار الندوة يتشاورون فيما يأخذون وما يدعون من أمر هذا الذي أعياهم بصبره وحسن تجلده ويجتمعون فيكون منهم ما قص الله – تعالى – في كتابه الكريم

في الآيات التي تلوت في صدر هذا الكلام اجتمعوا ليمكروا به. واختلفوا فيما يكون منهم ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ووقع الذي حذروه وتخوفوه منه فخرج الرسول. وترك لهم البلد الحرام وهذا الحرم الآمن الذي أمن فيه كل شيء حتى الطير و لم يأمن فيه محمد ولا أصحاب محمد على أنفسهم ولا على أموالهم وهم أحق وأولى بهذا الأمن من كل أحد لأنه – صلى الله عليه وسلم – إنما جاءهم بأمن الدنيا والآخرة.

وتحق على أهل هذه القرية الظا لم أهلها بإخراجهم رسول الله وصحبه من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله تحق عليهم من بعد ذلك كلمة العذاب. فما كان الله – تعالى – ليعذبهم والرسول بين ظهرانيهم ويسلط عليهم ضروبا من عذاب الدنيا أهونها عليهم أن يأذن لرسوله في أن يقتلهم ويستبيح أموالهم أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله {الحج:٣٩،٤٠}، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم {التوبة:١٤،١٥}. وأشدها إيلاما لهم وحزا في نفوسهم أن تتناهى إليهم الأخبار يوما بعد يوم أن قبائل العرب تدخل في دين الله أفواجا وأن أصحاب محمد الذي أخرجوه قد صاروا جندًا كثيرًا، وما النصر إلا من عند الله.

والله من وراء القصد.

المصدر: http://www.altawhed.com

الانتفاضة شعلة النصر وبوابة الاستقلال

بكل تأكيد لم تكن انتفاضة الأقصى إلا تعبيراً جماهيرياً يعكس مدى الغضب والسخط والرغبة في الخلاص والإنعتاق وتحرير الأرض من غطرسة المحتل الصهيوني الغاشم الذي أثبت بكل وضوح وبالصورة والصوت أنه لا يعرف للقيم والمبادئ الإنسانية أي معنى وانه مجرم إرهابي ومعاد للبشرية وللسلام العادل والشامل..

وبالتالي فان الانتفاضة لم تأت بقرار سياسي بل إنها هي التي صاغت القرار السياسي الذي يؤكد على وجوب استمرارها وهي التي قطعت الطريق أمام كل من يفكر بالدعوة إلى وقفها وذلك من خلال قدرتها على تحريك الشارع والرأي العام العربي والعالمي وتوسيع دائرة التأييد والمناصرة والدعم لقضيتنا الفلسطينية وفضح الكيان الصهيوني بالمشاهد الحية التي تظهر الوجه الإجرامي والوحشي لهذا الكيان الإرهابي الذي أمعن وتمادى في ممارساته القمعية والوحشية ضد الأطفال والشباب والشيوخ والنساء والممتلكات مستخدماً شتى ومختلف أنواع الأسلحة والقنابل والغازات والقذائف المدفعية والصاروخية المحرمة دولياً وخاصة منها المتفجر والإنشطاري والسام ومؤخراً شرع الجيش الصهيوني

باستخدام نوع جديد من الغازات منها ما يخلف إعاقة دماغية وعصبية ومنها ما يؤدي إلى العقم ومنها ما يذيب الأجساد ويحللها كما حصل في مخيم جنين حيث شوهدت جثث الشهداء وكأنها من عصور غابرة.

إن الانتفاضة وإن تفجرت بشكل مباشر اثر زيارة السفاح والمجرم شارون التي قام بها إلى الحرم القدسي الشريف في الثامن والعشرين من شهر أيلول الماضي حيث هبت الجماهير منافحة ومدافعة بصدورها العارية عن حرمة وقدسية الأقصى المبارك وحالت دون دخول شارون إلى قبة الصخرة كما كان يخطط إلا أنها كانت تعبيراً عن القرار الفلسطيني في المضي قدماً في مسيرة الجهاد لتحرير الأرض والمقدسات من دنس المحتل الغاشم وهذا ما شكل دفعاً وقوة للانتفاضة وللمستوى السياسي الفلسطيني إذ أصبح التلازم مفروضاً وواجباً بين قرار الجماهير والقرار السياسي وكلاهما يؤكدان على أن هذه الانتفاضة ولدت لتبقى وأنها تمثل إرادة الشعب الفلسطيني كله على اختلاف مشاربه الفكرية والسياسية والدينية وأنها ليست حجر شطرنج بيد عابث أو لاعب أو هاو يحركها كيفما شاء ويوقفها متى أراد وواهم من يعتقد ذلك لأن الشعب والقيادة اجمعوا على أنها لم تولد بقرار لتنتهي بقرار وأنها ماضية ومستمرة ومتواصلة ومتطورة بأشكال مختلفة ومن هنا كانت الوحدة بأبهى صورها وأشكالها في العمل الجهادي والنضالي الذي يكفل للانتفاضة قوتها ويعمل على ضمان تحقيق أهدافها في التخلص من الاحتلال وتجسيد الاستقلال والحرية.

ان مئات الشهداء وآلاف الجرحى هم وقود هذه الانتفاضة وشعلتها التي تعاهد الشعب الفلسطيني على المضي قدماً في مسيرة الجهاد والمقاومة حتى كنس الاحتلال من أرضنا وتطهير المقدسات من رجسه ولن يثنينا عن عهدنا هذا كل أساليب القمع والقتل والوحشية الصهيونية بل أنها لن تزيدنا إصراراً وصلابةً وتأكيداً على حقنا في المقاومة والجهاد حتى اجتثاث الورم السرطاني من جسم وطننا وخاصرة امتنا وان على باراك وشارون وكذلك كلنتون وكل من يقف منحازاً مع الكيان الصهيوني أن يفهموا أن شعبنا لن يتراجع ولن يقر له جفن ولن يهدأ له بال حتى يرى أرضه قد تحررت من ظلم الظالمين ورجس الأنجاس وقمع الوحش الصهيوني فهذه ارض لا ولن يعمر فيها ظالم والصهاينة تمادوا في غيهم وغطرستهم وظلمهم وأنها البشارة في قرب نهايتهم بإذنه – تعالى –.

لقد ولى زمن الضعف وبزغ فجر الحرية وثار بركان الغضب حمماً ملتهبة في وجه المحتل والغاصب ولن يهدأ هذا البركان وفي أرضنا أثر من آثار هذا الوحش والمجرم والسرطان الصهيوني وأننا نعتقد أن الانتفاضة قادرة على الاستمرار والتكيف مع كافة الظروف والممارسات والإجراءات الصعبة التي يقوم بها ويفرضها أعداؤنا الصهاينة وحلفاؤهم للضغط علينا لوقف انتفاضتنا المباركة وقدرة انتفاضتنا هي من قدرة وصمود وإصرار وإرادة شعبنا الذي قدم ويقدم في كل يوم اروع الأمثلة على التحدي والصمود والمواجهة من خلال إدراكه لحقيقة المعركة وطبيعتها ولحقيقة العدو وطبيعته ولحقيقة

الصراع وطبيعته بشكل يجعله أكثر فهماً للمعادلة وبالتالي أكثر قناعةً وإيماناً بقرار وخيـــار المواجهـــة والمقاومة بمختلف أشكالها وبالإمكانيات المتاحة.

انه وحتى تقدم الانتفاضة ثمارها ويقطف الشعب هذه الثمار الطيبة فلا بد من أن تتوفر عدة شـــروط وعناصر تكون بمجموعها الفروع المغذية والجذور الثابتة لشموخ هذه الشجرة ذات الثمر الطيب ومن أهم هذه الشروط:

١- تعميق روح الوحدة الداخلية بترتيب البيت الفلسطيني من أجل حماية الجبهة الداخلية من الخلخلة والفتن وهذه المسؤولية تقع على عاتق السلطة إلى جانب كل التنظيمـــات والحركـــات والأحـــزاب والأطر والمؤسسات الأهلية والسياسية الفاعلة والمؤثرة وذلك من خلال طرح الخلافات الجانبية جانباً والعمل على كل ما من شأنه تفعيل وتطوير فعاليات الانتفاضة والقضاء على كل المظـــاهر الســـلبية والأخطاء التنظيمية والتكتيكية الميدانية.

٢- تحديد استراتيجية وطنية واضحة تشكل المنطلقات والأهداف الرئيسة للانتفاضة وتكون أساســـاً وواجهة لحقيقة الموقف والمطلب الفلسطيني المعلن إقليمياً دولياً وهذه الإستراتيجية يجب أن ترتكز على الحقوق الفلسطينية المشروعة في مقاومة الاحتلال وغطرسته سعياً لنيل الاستقلال وكنس الاحـــتلال وتجسيد الدولة الفلسطيني على الأرض الفلسطينية وعاصمتها القدس وحق العودة للاجئين والنازحين والمبعدين وتحرير كافة الأسرى من سجون النازي الصهيوني.

٣- التأكيد على العمق العربي والإسلامي في الصراع مع الكيان الصهيوني وضرورة الـــدعم العـــربي والإسلامي بكل السبل وخاصةً بعد أن تأكد الموقف المنحاز للإدارة الأمريكية إلى جانـــب إســـرائيل وسياساتها القمعية والوحشة ضد شعبنا وبالتالي دفن والى الأبد أي أمل في التوصل لحل شامل وعادل مع الكيان الصهيوني عن طريق المفاوضات بل إن خيار المقاومة هو السبيل الأوحد لنيـــل الحقـــوق ودحر الاحتلال وهذا بالطبع أمر يستلزم موقفاً عربياً وإسلامياً جاداً يرقى إلى مســـتوى المســـؤولية والحدث.

٤- تكثيف النشاط الدبلوماسي من قبل القيادة الفلسطينية لفضح الجرائم الصهيونية وبيـــان مـــدى الاستهتار الصهيوني بكل الأعراف والقوانين والشرائع السماوية والأرضية والتأكيد على ضرورة اتخاذ المجتمع الدولي قرارات وإجراءات تعمل على لجم وكبح جماح العمل الإجرامي والإرهـــابي لبـــاراك وجيشه ولو اقتضى ذلك إرسال قوة من الحماية الدولية كما جرى الأمر في كثير من البلـــدان مـــع التذكير بالاستياء الشعبي من مواقف مجلس الأمن والمجتمع الدولي وهيئة الأمم المتحدة الـــتي أصـــبح علمها ملطخاً بدماء الشهداء الفلسطينيين الذين حصدهم الآلة الحربية الصهيونبة بيد باردة.

٥- تشكيل لجان شعبية ورسمية طارئة على امتداد الوطن تكون مهمتها تأمين وتوفير سبل استمرارية الانتفاضة وتعزيز عرى وروابط التكافل والتضامن الاجتماعي من أجل مجابهـــة إجـــراءات القمـــع

والحصار الصهيوني واثبات القدرة الفلسطينية على المجابهة والصمود لا بل والمبادرة الجريئة والنوعية في نطاق تطوير العمل الجهادي وتسخير كل الإمكانات المتوفرة والمتواضعة لصالح الانتفاضة وفعالياتها وذلك من خلال إشراك كل الشعب كل حسب إمكاناته وطاقاته وقدرته المادية والجسمية والمعنوية حتى تكتمل حلقات الفعل الفلسطيني.

٦- تشكيل لجان وطواقم إعلامية وأكاديمية تعمل على تحليل وتفسير الخطاب الفلسطيني وتصديره إلى العالم بالصورة التي تشكل وجهاً آخر من أوجه المجابهة ومقارعة العدو وتفنيد كل المزاعم الصهيونية بالأدلة والبراهين والوثائق الحية الناطقة والمقروءة التي عمل العدو الصهيوني على إقناع العالم الغربي بها على امتداد سنوات جثومه على أرضنا واحتلاله لها واثبات همجيته وإرهابه وقبل كل شيء وجوده غير الشرعي وعدم أحقيته في أي شبر من أرضنا فلسطين وانه مغتصب ومحتل عملت قوى الاستعمار الغربية على زرعه جسماً غريباً في خاصرة الأمة العربية والإسلامية تحقيقاً لمصالحها في المنطقة وما زالت هذه الدول تدعم هذا الجسم الغريب وتغذيه بكل عناصر القوة والتطور والتفوق النوعي.

هذه هي أهم وليست كل الشروط الواجب توفرها من اجل الحفاظ على شجرة الانتفاضة الطيبة شامخة وقوية وصامدة في وجه كل الأعاصير ورياح الدمار والسنة النيران وحمم البركان المستعرة التي تقذفها الآلة العسكرية الصهيونية من فوهات البنادق والمدافع والراجمات والدبابات والطائرات لتقتل وتجرح وتحرق وتدمر كل شيء حتى بسمة الأطفال وأمل الأشبال في العيش بأمن وأمان وسلام واطمئنان كباقي أطفال العالم.

المصدر: aq.com٧http://www.al

الصبر واليقين طريق النصر والتمكين

الخطبة الأولى:

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون:

حديثنا اليوم عن معادلة إيمانية نصها: "الصبر واليقين طريق النصر والتمكين ".

تلك المعادلة الإيمانية نطقت بها الآيات القرآنية، وشهدت بها الحوادث التاريخية، وصدقتها الوقائع الحاضرة، وتثبت كذلك في الوقائع المستقبلية.. ذلك أنها من سنن الله – عز وجل – ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

إن الإيمان إذا رسخ في القلب، وإن اليقين إذا تعمّق في النفس تولّد منه الصبر على ما يقّدره الله – عز وجل – من البلاء، وينبثق عن ذلك الثبات على نهج الرسل والأنبياء، ويؤسس كل ذلك على يقين راسخ برب الأرض والسماء، ثم لا يلبث الليل الطويل – من الظلم والعسف والطغيان – أن ينبلج

بفجر النصر والعز والتمكين لأهل الأيمان، ولا تلبث القوى الأرضية - التي تتآمر على أهل الأيمان - أن تذهب ريحها، وتتفرق صفوفها، وأن يصبح بأسها بينها شديداً، وأن تكـــون حصـــاداً للأيـــدي المتوضئة تخلص منها البلاد والعباد وتدرأ شرورها عن هذه الحياة.

وإذا تأملنا في كتاب ربنا، وفي سيرة نبينا محمد صلي الله عليه وسلم، ثم نظرنا إلى واقعنا الذي نعيشه؛ فإننا نرى أن تشبث أهل الأيمان بإيماهم وصبرهم على ما يلاقون في طريق الأيمان والدعوة والجهاد في سبيل الله وثباهم دون تغيير ولاتبديل هو الذي يؤذن - بإذنه - سبحانه وتعالى- أن يترل نصر الله - جل وعلا - وأن يعجّل به، وأن يعجّل بهزيمة أعداء الله - سبحانه وتعالى-.

والصبر واليقين هما عمادا الإمامة في الدين، والله - جل وعلا - يقول: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـــدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}.

والله - سبحانه وتعالى- خاطب نبيه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بقوله: {فاصبر إن وعد الله حق}.

الصبر لا يدوم، والثبات لا يستمر إلا عندما يكون القلب موصولاً بالله، والثقة عظيمة في نصـــر الله، واليقين لا يعتريه الشك في وعد الله - عز وجل -، وذلك يثبت المؤمن بإذن الله - عز وجل -، كما قال - سبحانه وتعالى-: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة}.

وانظر إلى الأمر الرباني الذي يوصي أهل الأيمان بأن لا يحيدو عن نهجه قيد شعره، وأن لا يغـــيروا ولا يبدلوا.. {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطو واتقوا الله لعلكم تفلحون}.

إنه الصبر والمصابرة والمرابطة والاستمرار والثبات الموصول بيقين راســـخ في الله - عـــز وجـــل -: {واتقوا الله لعلكم تفلحون}.

ويأتي هذا الفلاح في صورة طمأنينة في القلوب، وسكينة في النفوس، وثبات في الأقدام، ووضوح في الحجة والبرهان في هذه الحياة الدنيا.

ثم كذلك يتجلى في صور من النصر، وفي صور من الظفر لم تكن تخطر على بـــال ولا تـــرتبط ولا تتلائم مع القوى الضعيفة والعدة القليلة لأهل الأيمان في مواجهة أهل الكفر والطغيان والعاقبة من بعد ذلك عند الله - عز وجل -: {جنات عرضها السماوات والأرض}.

وإذا أردنا إن نستقرئ الأحداث والشواهد من كتاب ربنا؛ فإننا نرى ذلك التصوير القرآني الفريـــد البديع، الذي يبيّن كيف ينبغي أن يرتبط المؤمن بإيمانه حتى آخر لحظة من لحظـــات الحيـــاة، مهمـــا أدلهمت الظروف، ومهما تكالب الأعداء، ومهما حصل من أسباب هذه الحياة الدنيا يعيق عن المضي في طريق الله؛ فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يتراجع ولا أن يتخاذل مطلقاً.

انظر إلى الوصف الرباني لأهل الأيمان الصابرين {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالو إنـــا لله وإنـــا إليـــه راجعون} لم يلتفتوا إلى شرق ولا إلى غرب إذا حلت بهم النكبات، لم ينظروا إلى قوى الأرض ولكن التجأوا قوة رب الأرباب، وملك الملوك، وجبار السماوات والأرض – سبحانه وتعالى-.

{الذين إذا أصابتهم مصيبة} لم يشكوا، لم يرتابوا، لم يغيروا، لم يبدلوا، لم ينـــافقوا، لم يـــداهنوا، لم يجاملوا في دين الله – عز وجل –، وإنما ظلت حبالهم موصولة بربهم، ويقينـــهم راســـخ في دينـــهم، وثباتهم على كتاب ربهم، وسنة نبيهم – صلى الله عليه وسلم –، يقتفون في ذلك آثار الرسل والأنبياء {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُـــنَا عَـــنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}.

إنها المعادلة الإيمانية الآيات القرآنية، والسنة الربانية التي لا تتخلف ولا تتغير أبداً {لَقَـــدْ كَـــانَ فِـــي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَـــيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

وانظر إلى قصة يوسف – عليه السلام – لترى هذه المعادلة الإيمانية واضحاً في قصـــة فرديـــة، فـــإذا بيوسف – عليه السلام – من غيابة الجب وظلمته، إلى رحابة الأرض وسعتها، ثم إذا به من ذل الأسر إلى عزّ القصر، ثم بعد ذلك من ظلمة السجن إلى سدة الحكم.. ثبات وصبر وارتباط بالله، بإذنـــه – عزوجل – يفرج كل كرب، وينفس كل هم، ويزيل كل ضائقة

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها *** فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وانظر إلى المثل الآخر في قصة جماعية، قصّها الله – جل وعلا – علينا من قصص الأمم الغابرة، وهي من أكثر القصص القرآنية تكرراً في كتاب الله – عز وجل –.. قصة فرعون، وهي متشعبة متعـــددة الجوانب متكاثرة في أسلوب عرضها في كتاب الله – سبحانه وتعالى-، ومن ذلك العرض الذي جاء إيجازه في بعض صور القران قوله – جل وعلا –: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَـــا شِـــيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}.

هذه إرادة الله ولا راد لقضاءه وإرادته – سبحانه وتعالى- {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}.

والله – سبحانه وتعالى- قد ذكر لنا من سيرة المصطفي – صلى الله عليه وسلم – أمثلة كثيرة، غـــير أن منها مثلاً فريداً ظاهراً في هذا الأمر، في صبر أهل الإيمان ويقينهم بالله، وما يترتب على ذلك مـــن النصر والتمكين لهم بإذن الله، وتتجلي هذه الصورة في أهل النفـــاق.. في ضـــعف يقينـــهم، وزوال

أيمانهم، وفي حرصهم على دنياهم، وفي تخذيلهم للصفوف، وتفتيتهم لعرى الروابط في صفوف أهـــل الأيمان.. ذلكم هو الوصف القرآني لما كان من شأن الأحزاب الذين تألبوا على رسول الله – صـــلى الله عليه وسلم –، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، وليس أبلغ مـــن وصـــف القـــرآن {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّـــونَ بِاللَّـــهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً}.

اجتمع عليهم شدة الخوف، مع شدة الجوع، مع شدة البرد، و لم يكن هناك بارقة أمل، و لم يكن هناك في نظر أهل الارض وأهل النظرات المادية مهرباً ولا منفذاً! إنما كان الفناء الماحق والهلاك المتحقـــق، وزلزلوا زلزالاً شديداً.

ثم يأتي وصف القرآن لأهل النفاق بعد إن مرت بهم هذه الظروف، فيقول – جـــل وعـــلا –: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً}

كان أحدهم يقول: " إن محمد – صلى الله عليه وسلم – يعدكم بكنوز كسرى وقيصر، وإن أحدكم لا يستطيع إن يمضي خطوات ليقضي حاجته! ".

{وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.. }.

أما لكم بهذه القوى المجتمعة والمؤامرات العظيمة والأسلحة الفتاكة والخطط المحكمة!

{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً}

جبناً وخوفاً وهلعاً.. كفراً ونفاقاً، ولذلك جاء هذا الوصف القرآني يعـــري صـــورهم، ويكشـــف حقيقتهم، ويضرب المثل بأشياعهم ونظرائهم في كل مجتمع إسلامي وفي كل زمان ومكان.. {وَلَـــوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً {١٤} وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً}.

ذلك وصف أهل النفاق، فانظر إلى وصف أهل الصبر والإيمان واليقين، الذين كانوا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في ظل هذه المحنة العصيبة، وفي ظل محاصرة هذه القـــوى الرهيبـــة.. {وَلَمَّـــا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَـــدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}

هذه مواقف المؤمنين.. هذه مواقف الصابرين.. هذه مواقف أهل اليقين، وهذه كلمات أهل الثبات، الذين لا يشكون لحظة في وعد الله، ولا يعتريهم التزعزع أو التردد في دين الله – عز وجل –، يظـــل الواحد منهم ثابتاً واقفاً راسخاً لا يتزعزع.. فعلى أي شيء انتهي الأمر؟ وبأي شيء انجلى الموقف؟

إنها الآيات القرآنية تذكر لنا في صورة رائعة مشرقة كيف كان نزول النصر، وكيف كان بداية التمكين، لم تردهم السيوف ولا القوى ولا الخطط، وإنما هي قوة الله - عز وجل -، وإنما هو نصر الله الذي تنزل {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً}.

هذا كتاب ربكم، وهذه سنة نبيكم، فهل أنتم في شك من دينكم؟

لابد أن نقوى اليقين بدين الله - عز وجل - وبوعد الله؛ إذ حيث تكالب الأعداء في هذا العصر فتّ ذلك في عضد بعض المؤمنين، وأضعف إيمانهم، والتمسوا الدنية في دينهم، وأعطوا التبعية لأعدائهم، ومنحوا بعض الذل والولاء والمداهنة لأعداء الله - عز وجل -.

وماذا بعد هذا؟ إنه مصير أهل النفاق يتكرر، أما إذا رجعت الأمة إلى ربها، وتذكرت ذلك الوصف القرآني {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}

إذا مدّت الحبال مرة أخرى إلى الله.. إذا رفعت الأكفُّ مرة أخرى إلى الله.. إذا سجدت الجباه مرة أخرى ذله لله.. إذا ترابطت الصفوف وتوحدت الأمة على منهج الله؛ فإن نصر الله متنزل، وإن طريق التمكين ممهد.

لقد خرج محمد - صلى الله عليه وسلم - من مكة مهاجراً، وجاهد بعد ذلك عشر سنين، وثبت - عليه الصلاة والسلام - ثم جاء بعد ذلك إلى مكة التي خرج منها مهاجراً عاد إليها فاتحاً وجاء بعصاه وهو يطيح بهذه الأصنام من حول الكعبة، ويقرأ قول الله - عز وجل -: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً}.

ولقد اعترى بعض صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - نوع مما يعتري النفوس البشرية، وجاءه خباب بن الأرت - وكان من المعذبين المضطهدين الصابرين في مكة وقال له: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟

فذكّره النبي - صلى الله عليه وسلم -: (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه، فيُجاء بالميشار ـــ المنشار ـــ فيوضعُ على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله! لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يَسير الراكب من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)

ولذلك أريد أبيّن أن بعض مشاهد الواقع عندما يأذن الله – عز وجل – بأن تعود فئة من الأمـــة إلى ربها، وأن يسوق لها من الأحداث والمحن من يذكرها بحقيقة ضعفها وتقصيرها في إلتزامها دين الله – سبحانه وتعالى– أن ذلك يجسّد مره أخرى هذه المعادلة الإيمانية والسنة الربانية.

وانظروا إلى أحداث الأمة وإلى أشدّ قضاياها قساوة ومعاناة.. انظروا إلى كل الجرائم والفضائع الـــتي تصبّ على المسلمين.. انظروا إلى بشاعة وفضاعة وقسوة أعداء دين الله – عز وجل –، ثم انظروا إلى ما انبثق في القلوب من صبره وما سكب ا لله عزوجل فيها من يقين، وما ثبت به الأقدام فلم تتزعزع والقلوب فلم تشك و لم ترتاب.

ثم انظروا إلى بعض الصور في هذه الوقائع: انظروا إلى إخواننا في البوسنة والهرســـك.. انظـــروا إلى إخواننا في كشمير، إلى إخواننا في طاجكستان وفلسطين.. انظروا إلى شرق الأرض وغربهـــا حيـــث يضطهد المسلمون، حيث يعذبون، حيث يحاربون.

انظروا.. فماذا ترى؟ قد يرى الرائي إذا نظر بغير منظار إيمان صورة سوداء أو شوهاء، ويدقّ في قلبه بأس عجيب، ويظن أن الأمر قد قضي، وأن الأمة لابد أن تتراجع وأن تتخاذل، وأن تعطي لأعـــدائها ما يشاؤون!

إلا أن الناظر بنظر الأيمان يرى مثل هذه الصور تتجلى من جديد.. إخواننا في البوسنة والهرسك الذين ظن الأعداء – الذين تكالبوا عليهم بصورة تشبه بل قد تكون أشد مما تكالب الأعداء يوم الأحـــزاب على النبي – صلى الله عليه وسلم – وجاءهم صرب وكروات، ومن ورائهم قوي عظمـــى، ومـــن ورائهم دول، ومن ورائهم حيل وسياسات ومؤامرات.. ومع ذلك مازال صمودهم وثباهم بحمد الله – عز وجل – راسخاً! بل قد رجع كثير منهم إلى الله – عز وجل –، وأصبح لسان حـــالهم يـــردد: {إنا لله وإنا إليه راجعون}، وأصبح حالهم كأنه يمضى إلى تحقيق الوصف الرباني {ومـــا زادهـــم إلا إيماناً وتسليماً}.

ولسان حالهم يذكرنا بما قص الله علينا من شأن محمد – صلى الله عليه وسلم – وصحابته رضوان الله عليهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّـــهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

هل تروهم ينظرون إلى مدد من شرق أو غرب وهل تروهم يعتمدون على قوة مادية أو عسكرية.

ومع ذلك انظروا على ما فتح الله عليهم ومن النصر والإيمان، وقبل ذلك إلى ما سكب في قلوبهم من اليقين والطمأنينة، ومن رجوعهم إلى رهم وصلتهم بمولاهم، وخضوعهم له – ســـبحانه وتعـــالى–.. وإذا هم يرجعون إلى القرآن، وإلى حلق الذكر، وإذا بنسائهم يمضين في طريق فيـــه التـــذكر ولـــبس الحجاب.. وغير ذلك من الأمور.

ثم انظروا إلى ما فتح الله عليهم، فإذا هم اليوم في الآونة الأخيرة ينتصرون، ويعجب المرء كيف ينتصر الضعفاء العزل المحاصرون الذين ليس في ديارهم ماء ولا كهرباء ولا كساء ولا غذاء، كيف يكون مثل هذا؟ كيف ينتصرون ويفتحون فآريس وخمس مدن وقرى كرواتيه، ويطردون عشرات الآلاف من أولئك الأراغل الأعداء؟

كيف يثبتون هذا الثبات في سراييفو العاصمة التي كل لحظة يتهدد أصحابها وسكانها الموت، إما برصاص وإما بقذاف وإما بجوع وإما بأية صورة من الصور.

يحصد الموت الناس حصداً، ومع ذلك تجد الواحد منهم يقول: " ثابتون صامدون، وبقضاء الله – عز وجل – راضون ".

وانظر إلى فضاعة أعداء الله – عز وجل – وإرهابهم وتطرفهم، وكل الأوصاف الذميمة التي يريدون إلصاقها زوراً وبهتاناً بأهل الإسلام والإيمان هي فيهم.

وكان الناس يذكرون الصرب، وأنهم ظلمة، وأنهم قساة، وأنهم طغاة، فجدد الكروات ما أنسى سيرة الصرب..

ونعلم قصة القرية التي أحرقوها عن بكرة أبيها ومن فيها من رجالها ونساها وأطفالها وبيوتها، حتي أذهلوا الناس والعالم أجمع، ومع ذلك ما فتّ ذلك في عضد أهل الأيمان، وما رفعوا أيديهم استسلاماً، وما قالو حسبنا هذا! وإنما قالوا: {حسبنا الله ونعم الوكيل}.

وانظروا إلى إخواننا في كشمير اليوم، وهم قد حوصروا في أعظم مسجد من مساجدهم " مسجد حضرة أبال " يحاصره خمسة عشرة ألف جندي، والطائرات المروحية والقوات، ومنع التجول، وبعد ذلك يحصدون، وإذا بالحصاد في بضعة أسابيع يبلغ مئات، ومع ذلك ما يزالون صامدين، وما يزالون في أوج مواجهتهم وجهادهم، يتمسكون بالله – عز وجل – وبكتابه، وبهدى نبيه – صلى الله عليه وسلم –، ويثقون بالنصر ثقة ليس فيها شك.. حتي يقول قائد من قوادهم، وهو من زعماءهم الكبار: " إن الجهاد في كشمير ماضٍ في طريقة حتى نهايته المنطقية، وإن الشعب الكشميري قد وصل إلى منطقة اللا عودة ".

بل علماء الأيمان والإسلام في تلك الديار يحثون المؤمنين على الصبر والثبات والصمود، وعلى أن لا يضعفوا وأن لا يجبنوا أمام أعداء الله – عز وجل –، ويفتون بكفر من يكون عوناً للأعداء على المجاهدين والمسلمين في أرض كشمير المسلمة.

وانظروا إلى كل مكان، وانظروا إلى إخواننا في أرض الإسراء وما قد أثلجوا به صدورنا مما يظهرون من مظاهر القوة والاستعلاء {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}.

صبر وثبات لا يتغير ولا يتبدل، مع استقامة على أمر الله وشرع الله والصياح والهتاف: " الله اكبر.. الله أكبر ".

والأيدي المرتفعة متوضئة، وهي ترفع في أيديها المصافح تغيرت بعض ملامح الأمة، فاصطلحت في بعض أحوالها وأشخاصها وديارها مع الله – عز وجل –، فجاءها بعض هذا النصر، وارتسمت لها بعض مسالك التمكين..

فالله الله في تجديد ما ذكر الله – سبحانه وتعالى– من هذه السنن، وأن تكون أوثق بالله – عز وجل –، أوثق بنصرة ووعده من كل شئ في هذه الارض ومن كل قوة في هذه الدنيا، والله لتعلمن نبأه بعد حين، والله منجز وعده، ومترل نصره.

الخطبة الثانية

أما بعد أيها الأخوة المؤمنون:

إذا تأمل العبد وجد الحكمة التي جاءت على لسان النبي – صلى الله عليه وسلم –، تبين لنا الطريق وتعرفنا به، فلسنا في جهل وعماية، بل الأمر واضح بيّن.

فهذا رسولنا – صلى الله عليه وسلم – يقول: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)

فليس الطريق مفروش بالورد، وليس على جانبيه أسباب الأمن والسلامة والسلام، وإنما هو الطريق الذي فيه ذلك البذل والصفق مع الله – عز وجل –: {اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ}

إنها السنة التي ذكرها الله – عز وجل – بقوله: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.. {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}

نعم أيها الأخوة نحن في وقت عصيب، وفي محنة شديدة، وإخواننا في مشارق الأرض ومغاربها يعانوا الأمرين من أعداء هذا الدين، الذين تظهر فيهم الآن صورة حقيقية واضحة لا غبش فيها، ولاشك فيها مطلقاً.. صورة تتجلى فيها صفات الكفر والكافرين؛ لما فيهم من عداء ومن قسوة ومن حقد حسد، ومن انعدام الإنسانية وانسلاخ الفطرة وانعدام كل معنى من المعاني الشريفة والقيم الفاضلة.. كل ذلك يتجسد واضحاً كما اخبرنا الله – عز وجل – به في قوله – جل وعلا –: {لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة}

والسؤال الذي يتبادر ألي أذهاننا، ونختم به هذه الوقفة هو ما دورنا؟ وماهي مهمتنا؟ هل نحن متفرجون أم نحن مشجعون؟

إن التشجيع لو أردنا أن نأخذه بمبدأ التشجيع الذي نعرفه في ميادين التشجيع المشهورة المعروفة هو في حقيقته موقف إيجابي، إن المشجعين نراهم بأم أعيننا لا يجلسون على مقاعدهم، بل كلما جرت

حركة في الميدان تحركوا وقاموا، وإذا هم أيضاً يهتفون، وإذا استدعي الأمر يغضبون، وإذا استدعي الأمر بعد ذلك ربما يتحركون وينصرون أو يشتبكون.

أن هذا لم يكن منهم إلا من تحريك قلوبهم وتحرقها وحماستها ومحبتها وغيرتها.. أفيكون ذلك في أمور من اللهو أو في أمور عارضة من أسباب هذه الحياة ومن زينتها ومن زخرفها، ولا يكون ذلك في أمر من أعظم أسس الحياة، ومن أعظم مهمات الإنسان المسلم في هذه الحياة في أمر دينه وأمته وإخوانه المسلمين!

إنه لابد إن تنبض هذه القلوب بالمحبة، وأن تمتلئ بالولاء والنصرة، وأن تعظم فيها الغيرة على دين الله والحرقة والأسى والحزن على أحول الأمة، ولا يكون ذلك ونحن ساهون لا هون، ونحن نملأ البطون ونضحك ملء أشداقنا، ونأكل ملء بطوننا، وننام ملء عيوننا.. فما ذلك حال المشجعين الذين نعرفهم؟

إن أولئك يسعون إلى الميادين لينظروا، فاسعوا إلى أن تعلموا أخبار إخوانكم، وأن تعرفوا أحوالهم، وأن تكونوا بعد ذلك ورائهم قلباً وقالباً، بدعاء في السحر وفي جوف الليل وفي أدبار الصلوات وفي سجودها، حتى يأذن الله – عز وجل – بأن ينصر وأن يُمكّن.

وكونوا أيضا مع إخوانكم بأموالكم وبدعمكم وبذلكم في سبيل الله – عز وجل –؛ فإن الجهاد بالمال من أعون أسباب النصر لهذه الأمة ولإخواننا المجاهدين والمضطهدين في كل مكان.

وليكن لنا من وراء ذلك أيضاً ما نتحرك به لنصرة هذا الدين، ببيان الدروس والعبر، وبيان المواقف المشرقة، وبيان المواقف البطولية الإستشهادية، التي يظهر فيها عيوب كفة القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة في مواقع شتى في أماكن عديدة.. إذا بنا نرى صوراً تنشرح لها صدور المؤمنين، ويفرح لها أهل الأيمان عندما نرى آلاف أم من أعداء الله وهم يخشون واحداً أو اثنين إذا كبر أحدهم، أو إذا صاح بآية من آيات القرآن الكريم، وإذا بالصفوف تنفلّ، وإذا بالجموع تتفرق، وإذا بواحد أو فئة قليلة تنصر بإذن الله – عز وجل – كما وعد الله – عز وجل – في كتابة الكريم.

لابد أن ننقل هذه الأخبار المفرحة حتى يزول بعض اليأس الذي عرى النفوس وغزى القلوب؛ فإن المؤمن لا ييأس من روح الله، ولا ييأس من روح الله لا القوم الكافرون والقانطون، وليس المؤمن بكافر ولا قانط، إنه واثق بنصر الله وثقته بالله – عز وجل – عظيمة.

ينبغي أن نلقن الأمة وأن نشيع في صفوفها هذه الدروس، وينبغي أن نرتقي بمستوانا ومستوى من حولنا ومستوى من حولنا عن سفاسف الأمور وصغائرها؛ فإنه لا يليق أن تكون الأمة محاصرة، وأن يكون أعداء الله قد جدوا لحربها وفي إنزال البلاء بها، ثم يكون انشغالنا بالدون من الأمور، وبالتافهة من القضايا، دون أن تكون مهمتنا هي أن ننصر ديننا، وأن نحمي أمتنا، وأن نرعى نشأنا، وأن ننشئ

جيلنا نشأة تجدد لنا ذكر أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة وأئمة الأمة من سلفها رضوان الله عليهم.

إن بإمكاننا أن نظهر في نفوسنا وفي أسرنا وفي مجتمعاتنا نصر الله – عز وجل – فيتزل علينا بإذنه – سبحانه وتعالى– النصر {إن تنصروا الله ينصركم}

ونصركم دين الله – عز وجل – يكون أول شيء باستقامتكم على أمره.. بالتزامكم حكمه.. باتباعكم هدى النبي – صلى الله عليه وسلم –.

والثبات الثبات.. لاشك ولا ريب، ولا مداهنة ولا نفاق، ولا تراجع ولا ضعف، وإنما هو المضي وذلك هو الذي كان ويكون في كل وقت وآن، كلما ازدادت المحنة وكان الأيمان عظيماً كلما ازداد أثر هذا الإيمان وتجلت صورة وظهرت آثاره وأشرقت أنواره، فإذا بها تبدد بعد ذلك كلما يعتري النفوس من ضعف أو خور أو ذلة أو قنوط ويأس..

وذلك ما ينبغي أن يكون فيما بيننا، وأن نشيعه في صفوفنا؛ فإن هذه الأمة لم ولن تهزم قط مادامت متمسكة بكتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم –.

وفي أتون المحنة وشدتها في وقعة الأحزاب كبّر النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما سمع خبر خيانة اليهود، وكان خبراً كالطعنة النجلاء من الخوف قال: (الله أكبر الله أكبر أبشروا أبشروا).

البشارة بأنه علم أن الأمة مؤمنة بربها، وواثقة بالرسول؛ ولأنها أمة ملتحمة متلاصة متوحدة فلا خوف عليها من أعداءها، وإنما الخوف من أنفسنا.. من ضعف إيماننا.. من كثرة معاصينا.. من تفرق صفوفنا.. من مجاهرتنا بالمعصية لله – عز وجل –.. من إعطائنا ولاءنا لغير الله – سبحانه وتعالى–، ولغير عباد الله المؤمنين..

هنا يكمن الخطر، وهنا تأتي الثغرات.. فالله الله في دينكم، والله الله في نصرة إخوانكم، والله الله أن يؤتى هذا الدين من قبلكم، فليكن كل منكم على ثغرة، وليكن كل منكم قائم بأمر الله – عز وجل – في نفسه أهله ومجتمعه؛ حتى يعجّل الله – عز وجل – بالنصر والتمكين إنه الولي على ذلك والقادر عليه.

المصدر: http://islameiat.com

الجهاد طريق النصر

خالد الشريف

قانون الغاب الإسرائيلي لا يعرف الرحمة ولا الرأفة، قانون غاشم يقابل انتفاضة الحجر بالمدفع والرشاش ويواجه هتافات التنديد بالطائرات والدبابات، إنه قانون الإجرام اليهودي لا يختلف على مر العصور ولا يتبدل عبر القرون من مذبحة دير ياسين إلى مجزرة تل الزعتر ومن مذبحة كفر قاسم إلى

شهداء الأقصى إلى اغتيال الراكعين الساجدين في المسجد الإبراهيمي بالخليل إنها أيد ملوثة بدماء الأنبياء وقلوب قاسية كالحجارة أو أشد قسوة. الشجر والحجر يشهدان على إرهابهم وإجرامهم في حق الإسلام والمسلمين فهؤلاء لم يتركوا حرمة إلا انتهكوها ولا براءة إلا اغتالوها لذلك سيشهد عليهم الحجر والشجر وسيناديان يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله. إن العالم كله يعلم أن اليهود مصاصو دماء والبشرية كلها تعرف أن اليهود قلوبهم تقطر حقداً على البشرية كلها وليس على المسلمين وحدهم لكن العالم يكتفي بالفرجة على المجازر وبمصمصة الشفاه على الضحايا أما العرب وأهل الإسلام فلا يعرفون سوى الشجب والاستنكار وحرق الأعلام الإسرائيلية. لكن طريق النصر غير ذلك، طريق العزة الذي رسمه الإسلام ووضحه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فطريق النصر هو الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ومناط العزة والكرامة يقول الله – عز وجل – في كتابه العزيز في سورة الحج {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} ألا يكفي الأمة وهي ترفع راية الجهاد ضد القردة والخنازير من اليهود أنها تلقت الوعد والنصر من الله رب العالمين و لم تتلق الوعد والنصر من أمريكا أو من روسيا إنما تلقت التأييد والنصر من الله وحده والله لا يخلف وعده. إن جهاد إسرائيل اليوم أصبح ضرورة حتمية فضلاً عن أنه فريضة

ربانية فإسرائيل لن يكفيها فلسطين أو الأقصى إنما تسعى لتحقيق ملكها المنشود من الفرات إلى النيل فلا يوقف غطرستها ويحطم حلمها سوي الجهاد في سبيل الله فالجهاد هو السبيل الوحيد للثأر من قتلة الأطفال في الأراضي المحتلة، والجهاد هو الرد المناسب على من سفكوا دم الطفل الفلسطيني محمد جمال الدرة و لم يرحموا صراخه.

الجهاد هو الحل لتحرير أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن قبل ومن بعد الجهاد هو طريق النصر.

المصدر: http://www.almuhayed.com

رمضان شهر النصر

زيد بن فالح

أمة الإسلام أمة صائمة مجاهدة تستفيد من مدرسة الصوم مدرسة الجهاد ويوم يضعف فيها وازع الصوم ستنحل فيها عزيمة الجهاد وطالما هي صائمة الصوم الحقيقي فهي مجاهدة ولهذا كانت معظم انتصارات المسلمين في رمضان.

ففي السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان وتم أعظم انتصار للإسلام على الشرك في أول مواجهة عسكرية وكان هذا الانتصار منعطفاً في سير التاريخ إذ مكن للدعوة وفرض سيطرة القلة المؤمنة وأثبتت وجودها بعد أن قمعت أعتى قلاع الشرك وأقواها.

وفي رمضان في اليوم الحادي والعشرين من السنة الثامنة للهجرة تم الفتح الأعظم فتح مكة على يد النبي الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – إذ خرج – صلى الله عليه وسلم – بعشرة آلاف من أصحابه يريد غزو قريش لما نقضوا صلح الحديبية فدخل مكة مؤزراً منصوراً دخلها خاضعاً لربه مطأطئا رأسه تواضعاً وتعظيماً لله رب العالمين وطاف بالبيت وكان على البيت وحوله ثلاثمائة وستون صنماً فجعل – صلى الله عليه وسلم – يطعنها بقوس في يده ويقول: ((جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً))، وبهذا الفتح العظيم فتح مكة سقطت دولة الأوثان وارتفعت رايات الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجاً وأنزل الله – تعالى – قول الحق: ((إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً)).

وإلى غير ذلك من المعارك الفاصلة التي خاضها المسلمون في رمضان ضد أعدائهم ومن أهمها ما خاضه البطل المسلم صلاح الدين ضد الصليبيين ومعركة عين جالوت التي سحق فيها المسلمون زحف التتار الهمجي وفي زماننا الحاضر وعهدنا المعاصر وفي العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ تقدم الجنود المصريون والمسلمون فعبروا قناة السويس ودمروا وهم يهللون ويكبرون خط بارليف أقوى خط دفاع عرفه العالم في القرن العشرين وقبل أن تتدخل القوى الكبرى ويتوقف القتال لصالح اليهود كان الجنود المسلمون قد اجتاحوا مواقع بني إسرائيل في معظم سيناء، ولئن كانت معركة العاشر من رمضان هذه لم تؤت إلا على قدر الجهد المبذول والنيات الدافعة فإن ذلك يؤكد أن القدس والمسجد الأقصى لن يحررها سوى جيش من المؤمنين الصادقين الذين لا يريدون إلا الموت في سبيل الله لا القومية المنتنة ولا الوطنية الزائفة، إن تلك المعارك والانتصارات في عهد المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وعهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان والتي كانت في رمضان شهر العبادة والنصر هي أكبر حافز للمسلمين لكي يكرروا تلك الانتصارات ويعيدوا مسيرة السلف الصالح والتي تتم بالشجاعة والبطولة ولاسيما في هذه الأيام والتي يعيش فيها المسلمون والمسجد الأقصى تحت وطأة وتسلط اليهود الظالمين الجبناء.

حقاً إنهم جبناء! لقد أزعجهم وأقضى مضاجعهم المجاهدون رغم أنهم يملكون كافة أنواع الأسلحة المتطورة.

فهم يخافون من الإسلام والمسلمين يخافون من الجهاد والمجاهدين لقد أجري لقاء صحفي مع الخبيث ارييل شارون قبل فترة قصيرة فقال: إننا نخاف أن يخرج لنا صلاح الدين الثاني فقال له الصحفي: كيف يكون ذلك والمسلمون متفرقون ومختلفون فقال شارون: إن صلاح الدين الأول خرج وجاهد

في وقت كان فيه المسلمون يعانون من التفرق والاختلاف والتفكك فالله أكبر والحق ما شهدت به الأعداء، النصر قريب وآت بإذن الله فتفاءلوا أيها المسلمون واعلموا إن الله ناصرٌ دينه ومعل كلمته وهازم أعداءه قال – عز وجل –: ((إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)).

المصدر: http://www.suhuf.net.sa

مؤهلات النصر والتمكين

صلاح عبد المعبود

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

فإن الذي يتطلع إلى تمكين الله – تعالى – للمؤمنين في الأرض، يحتاج إلى العزيمة التي لا يتطرق إليها وهن، وكذلك طرح اليأس والضعف جانبًا، فهذا سبيل المجاهدين وتلك غاية الصابرين والمؤمنين من أهل الثبات واليقين.

وما دامت الأمور بيد الله يغيرها كيف يشاء فإن اليأس بضاعة الكسالى وخائري العزائم، والله وعده حق وصدق، وما على أهل الإيمان إلا تحقيق الإيمان فهو مؤهل النصر والتمكين.

وإن الناظر إلى فجر الإسلام وأحوال النبي – صلى الله عليه وسلم – مع هذا الدين في مهده ليظن أنه لن تقوم لهذا الدين قائمة، ولا سيما أنه دين عالمي خالد، ولا نبي بعد رسول اللَّه – صلى الله عليه وسلم – إلى يوم الدين، فبعد ثلاثة عشر عامًا من الدعوة في مكة لم يتجاوز المؤمنون به المائة من العدد، ولكنه مع ذلك صبر هو ومن معه من المؤمنين، ولم يتسرب إلى قلوبهم يأس أو قنوط، فقد كانت ثقتهم في وعد الله لا حدود لها، وقد استقر في قلوبهم أن الحق منصور ولو بعد حين، فقد ربى النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه على الهمة العالية والرجاء في الله وحده والاستعانة به والتعلق بجنابه والاحتماء بركنه وسلطانه وعدم الركون إلى الأسباب الظاهرة أو الاكتراث بقلتها أو كثرتها، قال – صلى الله عليه وسلم –: "استعن بالله ولا تعجز". وقال في دعائه: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال".

{رواه مسلم}

النصر مع الصبر

والله – تعالى – يفيض على قلب عبده المؤمن الطمأنينة والسكينة على قدر المصيبة والبلاء، فإذا بالمؤمن يتحمل من المتاعب والمشاق ما لا يطيقه عشرات الرجال مجتمعين، ولا يصيغه الله هذه

الصياغة إلا إذا وجد منه حسن الإقبال والتوجه إليه في المنشط والمكره وصدق التوكل عليه في الصغيرة والكبيرة.

وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن النصر مع الصبر، والفرج من الكرب، وكلما استحكمت حلقات البلاء زاد إقبال المؤمنين على الله وطال وقوفهم على بابه وذلك هو بداية الفتح المبين، ولكن المسألة تتوقف على عنصر الزمن وحده، وهذا أمر موكول إلى الله – تعالى –، فإذا رأى منا خيرًا وهمة عالية في الدعوة إليه والتقرب منه وطول القيام بالليل بين يديه وكثرة البكاء والتضرع والدعاء، فستصير دفة الأمور إلى ما يحبه أولياؤه وعباده المؤمنون، وسيورثهم الأرض وما عليها، ويُمكِّن لهم فيها كما وعدهم – سبحانه – بقوله: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون (١٠٥) إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين (١٠٦) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين {النساء: ١٠٥-١٠٧}، وإن الله أمرنا بالقيام على الشرط حتى يوفي لنا بالموعود، فإذا تأخر تحقيق الموعود فلا ينبغي لنا أن نتعجل وعد الله وإنما نطالب أنفسنا بالصدق في امتثال الأمر، فإذا صدقنا مع الله أعطانا ما وعدنا، والله لا يخلف الميعاد، فتأخير النصر منا وليس من الله، وإلا فكيف ينتظر الإجابة من سد طرقها بالمعاصي؟!

فمن ينشد مجتمعًا تضبطه شريعة الله وتتوق نفسه إلى حياة طيبة يقودها الإسلام ويضبط خطاها فلابد من التضحية بكل غال لتحقيق ذلك، فإن الأماني لا تصبح واقعًا ملموسًا إلا إذا كان وراءها تضحيات بمحبوبات النفس وشهوات الحياة. وإن الداعية إذا ضحى من أجل دينه وأخلص لله؛ لاقت دعوته قبولا، لأنه يدعو الناس إلى معروف يجتهد في تحصيله وينهاهم عن منكر قد نأى بنفسه وأهله عنه، فحينئذ لا يخالف قوله فعله، فيكون ذلك أرجى لطاعته وقبول النصح منه قناعة بأن هذا الداعي ليس بكاذب وأنه لا يدعو إلى أمور هو أبعد الناس منها.

إن الله – تعالى – جعل أوامره ونواهيه في حدود طاقة البشر، وما جعل علينا في الدين من حرج، وأخبرنا أن العبد إذا تقرب منه شبرًا تقرب إليه ذراعًا، وإذا تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، وإذا أتاه يمشي أتاه هرولة، وفي هذا دلالة على أن العبد إذا قدم ما يستطيع من تضحية رجاء ثواب ربه وطمعًا في جنته فإن الله يتقبل منه ويعده بالمزيد ويمده بالعون والتأييد، فمن بذل لله ما يستطيعه رزقه الله ما لا يستطيعه، فما على العبد إلا البذل ما استطاع ابتغاء وجه ربه الكريم وبعد ذلك فالنتائج على الله وحده.

والله – تعالى – كما تعبدنا بالغايات فإنه تعبدنا أيضًا بالوسائل، فلا ينبغي لمؤمن أن يبتكر من عنده في دين الله شيئًا بزيادة ولا نقصان، فإن الله – تعالى – قد أتم النعمة وأكمل الدين ورضي لنا الإسلام دينًا.

التضحية وأثرها في بلوغ الغايات

والتضحية في حياة الأنبياء وأتباعهم أصل مشترك، فالأنبياء خرجوا إلى أقوامهم ليبشروهم وينذروهم في نواديهم ومجامعهم ويبلغوهم أوامر ربهم وقد تحملوا في سبيل ذلك صنوفًا من الأذى والبلاء من أناس قد تحجرت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فكم بذل الأنبياء من جهد، وعلى أتباع الأنبياء الإقتداء بهم والسير على سلوكهم.

وإن التضحية لها نور ينقدح في القلب فيزيل عنه غشاوة الباطل، فيرى الحق جليًا واضحًا لا غموض فيه، ومراتب الرجال توزن على قدر تضحياتهم من أجل الدين، فلا يصل إلى هذه القمة فصيح أو بليغ بفصاحته وبلاغته، ولكن الميزان الصحيح هو ميزان التضحية من أجل هذا الدين، والذي رجح به إيمان أبي بكر رضي الله عنه على إيمان الأمة بأسرها هو تضحيته الكاملة لنصرة دين الله، حتى إنه لو وضع إيمان أبي بكر في كفة وإيمان الأمة في كفة ليس فيها رسول الله لرجح إيمان أبي بكر فهو أول من ضحى من الرجال، ومواقفه لنصرة هذا الدين ليست من الخفاء بمكان.

فإذا أراد الله – تعالى – لدعوة أن تحيا وتدوم قيض لها من عباده المؤمنين الصالحين من يرويها بدمه ويفديها بنفسه، قال – تعالى –: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون {الحجرات: ١٥}، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين {العنكبوت: ٦٩}.

والله من وراء القصد.

المصدر: http://www.altawhed.com

انهيار " إسرائيل " لا يكفي لتحقيق النصر

كثيرًا ما يطرح هذا السؤال، وللإجابة عليه سنذكر بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيوني، والتي تبين معدلات التآكل الداخلي.

من المعروف أن مؤسسة "الكيبوتس" كانت هي العمود الفقري للتجمع الصهيوني. فمعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة – بل الثقافية – كانوا من خريجيها (حتى عام ١٩٧٧). ولكن الكيبوتس تعرض لكثير من الأزمات وتغير طابعه العام، بل فقد شيئًا من طابعه الجماعي العسكري. وقد نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٠) ما يلي:

"أعلنت أمس هيئة مكافحة المخدرات أن تعاطي المخدرات الخفيفة في مزارع الكيبوتس قد تضاعف خلال خمس سنوات، حيث قام ٢٣. ٥% من أبناء الكيبوتس ممن تراوحت أعمارهم بين ١٨ – ٣٠ سنة بتعاطي مخدرات خفيفة خلال عام ١٩٩٨ مقابل ١١. ٤% تعاطوا الحشيش والماريجوانا خلال عامي ١٩٩٢ – ١٩٩٣. وكان البحث قد أجري في ٢٢ كيبوتسًا، وشمل ٦٦٢ فردًا بناء على طلب من هيئة مكافحة المخدرات

تفاقم الخمر والمخدرات

وماذا عن المجتمع ''الإسرائيلي'' ككل؟ أشارت معطيات جديدة نشرت في تل أبيب إلى تفاقم ظاهرتي معاقرة الخمر وتعاطي المخدرات بين صفوف تلاميذ المدارس ''الإسرائيليين''. وذكرت صحيفة معاريف (٥ يونيو / حزيران ٢٠٠٠) أن استطلاعًا خاصًّا أجرته وزارة العمل والرفاهية الاجتماعية ''الإسرائيلية'' لحسابها مؤخرًا أظهر أن ٣٧% من تلاميذ صفوف العاشر في المدارس ''الإسرائيلية'' معتادون على تناول الخمر، وأن ٨% من التلاميذ المعتادين على "الشرب" أبلغوا أنهم يستهلكون مرارًا في المساء الواحد ست كؤوس من الخمر.

من جهة أخرى يتضح من معطيات صادرة عن "مجلس سلامة الطفل في ''إسرائيل''" أن ارتفاعًا بنسبة ٣٠% قد سجل خلال عام ١٩٩٩ على عدد الشبان ''الإسرائيليين'' القاصرين الذين وجهت إليهم تهمة الاتجار بالمخدرات.. حيث قدم في عام ١٩٩٨ ما مجموعه ٤١٧ لائحة اتهام ضد شبان ضُبطوا يمارسون تجارة المخدرات وحيازتها لغير أغراض الاستهلاك الذاتي، وقد ارتفع عدد لوائح الاتهام المماثلة الموجهة في عام ١٩٩٩ إلى ٥٥٦ لائحة اتهام".

تآكل الحياة العائلية

والحياة العائلية في التجمع الصهيوني في حالة تآكل، فقد ذكرت جريدة معاريف (٢٥ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٠) أن من بين كل ٣ حالات زواج يكون مصير حالة منها الطلاق. وقد طرأت زيادة بنسبة ١٥% في عدد حالات الطلاق بإسرائيل منذ عام ١٩٩٠. واستمرت هذه الزيادة أيضًا خلال السنة الميلادية الماضية، حيث سجلت زيادة بنسبة ١% في عدد حالات الطلاق (نحو ٨. ٦٠٤ حالات). وتتصدر منطقة تل أبيب "قائمة الطلاق"؛ حيث وقعت بها ٣. ٠١٦ حالة طلاق عام ١٩٩٩ بزيادة قدرها ٢١% مقابل عام ١٩٩٨.

وقد ذكر ملحق هآرتس ٩ مايو/ أيار ٢٠٠٠ أن عدد السيدات اللاتي أنجبن خارج إطار الزواج ارتفع من واحد لكل مائة حالة إنجاب في السبعينيات إلى ١. ٨ لكل مائة حالة إنجاب في عام ١٩٩٤. وفي نفس الشهر أشارت جريدة يديعوت أحرونوت إلى أنه قد طرأت زيادة بنسبة ٥٠% في عدد حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال داخل الأسرة، كما طرأت زيادة بنسبة ٢٥% في عدد حالات الجرائم الجنسية التي يتعرض لها الصغار خارج نطاق الأسرة في عام ١٩٩٩.

معدلات عالية من العنف

والتآكل الأسري عادة ما يؤدي إلى تزايد معدلات العنف بين الأطفال والشباب. وبالفعل ذكرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٤ مايو/ أيار ١٩٩٩) أن الإحصاءات تشير إلى معدلات عالية من العنف في كل المجالات وجميع المراحل السنّية وكل شرائح السكان. وكشف كثير من التلاميذ عن تعرضهم للعنف اللفظي والبدني. ويعتبر العنف البدني هو الأكثر ذيوعًا بين تلاميذ المدارس الابتدائية،

بينما يقل معدله مع اقترابهم لسن البلوغ. واكتشف الباحثون أن الاعتداءات البدنية البسيطة هي الأكثر انتشارًا، وإن كان معدل السلوك المتطرف ليس هينًا.

وأضافت الصحيفة أن أكثر من ٥٠% من تلاميذ الصفوف من السادس إلى العاشر كانوا مشتركين في العنف بصورة ما. وأكثر من ٦٠% من التلاميذ اشتركوا في أعمال بلطجة تجاه زملاء لهم أو كانوا ضحايا لأعمال عنف. واشترك حوالي ١٥%: ٢٠% في مستويات أكثر خطورة من العنف، وأصيب حوالي ١٤% خلال مشاجرات وكانوا في حاجة إلى علاج طبي.

وفي محاولة تفسير ظاهرة العنف نشر مقال في جريدة هاتسوفيه (٧ إبريل/نيسان ٢٠٠٠) بعنوان "فناء مدرسة أم ساحة قتال؟ " يبين أن العنف بين الشباب لم يأتِ من فراغ، بل إنه تغذى من العنف ذي المستوى المرتفع في مجتمع البالغين، وبصفة خاصة من اللامبالاة تجاه مظاهر العنف في السلوك "الإسرائيلي".

الشذوذ الجنسي أصبح مقبولا

ثم نأتي أخيرًا للشذوذ الجنسي، ورغم أن اليهودية الحاخامية التقليدية تحرّمه، فإن معظم المذاهب الدينية اليهودية المعاصرة مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة، قد تقبّلته وقنّنت له، بل أنشأت مدارس دينية خاصة لتخريج الحاخامات الشواذ جنسيًّا. وقد أبرم حاخام إصلاحي عقد زواج بين رجلين أمام حائط المبكى عام ١٩٩٨، وكان هذا يُعَدّ انتصارًا لحرية الرأي.

والشذوذ الجنسي أصبح مقبولاً في المجتمع "الإسرائيلي"، فعلى سبيل المثال: بينيك الذي يلبس دبلة الزواج الآن، سيتزوج من صديقه العام المقبل. يقول بينيك (كما جاء في ملحق صحيفة هآرتس ١٤ إبريل / نيسان ٢٠٠٠): وضع الشواذ جنسيًّا في "إسرائيل" الآن أفضل من الناحية القانونية والتشريعية، وهو من أفضل الأوضاع على مستوى العالم. نحن متساوون تقريبًا مع الدول "المتقدمة" في العالم مثل: الدانمارك، وهولندا، فلا يوجد في "إسرائيل" قانون يمنع أن تكون شاذًا جنسيًّا، ولا يوجد قانون يمنع اللواط. بالعكس هناك قانون المساواة في فرص العمل تقوم المحاكم بدراسته ويردع أصحاب الأعمال عن التمييز ضد الشواذ. في كل مرة يحاولون التمييز ضدنا تصدر المحاكم حكمها لصالحنا. وبالإضافة إلى ذلك نحن في طريقنا نحو إصدار قوانين التبني التي تسمح للشواذ بتبني الأطفال. وهو يعتقد بأن الشواذ وحلفاءهم من أعضاء منظمات حقوق الإنسان سينجحون خلال عشر سنوات في أن يكون التشريع "الإسرائيلي" عادلاً تمامًا، بما في ذلك الاعتراف بالزواج بين الشواذ.

ولعل تقبل المجتمع "الإسرائيلي" للشذوذ الجنسي يظهر في أن عدد السحاقيات في "إسرائيل" اللاتي أنجبن أطفالاً (من خلال عمليات معملية مختلفة) هو الأعلى في العام (هآرتس ٩ مايو /أيار٢٠٠٠)، ولعل هذا يعود إلى محاولة الجيب الاستيطاني تجاوز أزمته الديموغرافية.

ولكن.. الانهيار لن يأتي من الداخل!!

والآن بعد أن ذكرنا هذه الأرقام والإحصاءات يمكننا أن نطرح السؤال الذي طرحناه في بداية المقال، هل هذا يعني أن المجتمع "الإسرائيلي" سينهار من الداخل، كما يمني البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفي القاطع للأسباب التالية

مقومات حياة التجمع الصهيوني لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم ماليًّا وعسكريًّا وسياسيًّا من الولايات المتحدة والعالم الغربي والجماعات اليهودية فيه؛ ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!.

يتسم المجتمع "الإسرائيلي" بالشفافية، وبالتالي حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها

توجد مؤسسات ديمقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان في التجمع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها

ثبت أن كثيرًا من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكمبيوتر) يساهم في هذه العملية؛ إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشريًّا أن يستمر في العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التي تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذًّا جنسيًّا أو تعاطَى الخمور والمخدرات في الليلة السابقة

إن القضاء على الجيب الاستيطاني لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تآكل في التجمع الصهيوني هي عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تُودي به أو أن تؤدي إلى انهياره. يجب ألا تخدعنا الأرقام الصماء وألا نتصور أنها الحقيقة، فالأرقام مجرد حقائق، والحقيقة غير الحقائق، فهي ثمرة اجتهاد إنساني، وليس مجرد تلقٍّ ببغائي. واجتهادنا في قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة.

والله أعلم.

١٠-٤-٢٠٠١

المصدر: http://www.elmessiri.com

عوامل النصر في القرآن الكريم

عبد العزيز التميمي

إن هذه الأمة أمة منصورة من ربها، موعودة بالتمكين والاستخلاف في الأرض بوعد الحق الذي لا يخلف، في آيات كثيرة من القرآن، كما قال الله – تعالى –: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]. وقال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا

لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]. وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: ٥٥].

ومهما تكالب أعداؤها، وأحكموا كيدهم، وأجمعوا أمرهم؛ لإطفاء نور الحق والهدى فلن يحظوا بذلك، وهيهات وقد قال الله: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٢ - ٣٣].

وقد بشرنا نبينا - صلى الله عليه وسلم - أن هذا الدين سينتشر في أنحاء الأرض قاطبة حتى يدخل كل بيت في المعمورة كما في حديث تميم الداري ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيزاً أو بذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر»(١).

إن هذه النصوص المبشرة جزء من عقيدتنا التي يجب أن نؤمن بها إيماناً تاماً لا تخالطه الشكوك ولا تساوره الظنون مهما طال ليل المحنة؛ فإن وعد الله آتٍ عما قريب {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]. بل إن هذا اليقين الكامل بنصر الله هو أحد عوامل النصر المهمة، ولذا ترى النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما تشتد الكروب وتلم الخطوب يُذكِّر بهذه الحقيقة؛ فذلك يبعث الأمل ويحيي الهمم، ويجدد العزم على العمل، كما فعل في غزوة الأحزاب وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فقد بشر أصحابه بفتح بلاد فارس والروم، كما بشر في حادثة الهجرة وهو مطارد خائف بفتح بلاد فارس، وكما طمأن صاحبه الصدِّيق ــ رضي الله عنه ــ وهما في الغار بقوله: {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠].

إن المؤمنين حينما تحيط بهم الملمات لا تزيدهم إلا ثباتاً ويقيناً وتسليماً: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٢٢]. أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فما أسرع ما يتزلزلون ويشكون بصدق وعد الله عند أدنى محنة أو نازلة: «{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا} [الأحزاب: ١٢]. غير أن النصر الذي وعدت به هذه الأمة لا يناله إلا من أدى ثمنه وقام بأعبائه؛ فإذا وجدت أسبابه وانتفت موانعه تحقق النصر بإذن الله، وإن تخلف منها شيء فربما تخلف النصر، ولله عاقبة الأمور.

وقد تتبعت عوامل النصر في القرآن الكريم ـــ حسب استطاعتي ـــ المبثوثة في مواضع كثيرة، لا سيما في سورة آل عمران والأنفال، وسلكت فيها مسلك التفسير الموضوعي، مذكراً بها نفسي وإخواني في هذه المرحلة التي نتلمس فيها طريق النصر مع اشتداد ظلمة الليل وتوالي الكروب وتكالب الأعداء {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١].

العامل الأول: تقوى الله والإحسان في عبادته؛ وذلك بطاعته وترك معصيته:

وعد الله من اتقاه بأن ينصره على عدوه وتكون معية الله له الخاصة المقتضية للنصر والتأييد كما قال الله – تعالى –: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٣٦]. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}. [التوبة: ١٢٣].

فلما أمرهم بقتال المشركين جميعاً(١) وقتال من يليهم من الكفار وكان في ذلك من المشقة والتعب وبذل المال وتعريض النفس للتلف ما لا يخفى، مع احتمال غلبة جند الباطل وانتصارهم عليهم، أرشدهم إلى أنه معهم بنصره وتأييده وتوفيقه، يسددهم.. إذا هم اتقوه حق التقوى؛ فشرط النصر والتأييد هو التقوى، وقد صرح الله به في موضع آخر فقال: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٤ – ١٢٥]. فالملائكة ستنزل لتنتصرهم إذا هم حققوا الشرط: الصبر والتقوى.

إن مؤامرات الأعداء ومكائدهم ومكرهم مهما كثرت وتنوعت ومهما بلغت من الإتقان لن تضر المسلمين ولا المجاهدين شيئاً إذا هم صبروا واتقوا(٢)، كما قال الله – تعالى –: {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠]. فيتقي المسلمون كل ما حرم الله عليهم ومنه موالاة الكفار والركون إليهم والله كافيهم وهو حسبهم. وتجدر الإشارة هنا إلى آية قد تشكل على هذا المعنى وهي قوله – تعالى –: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ} [آل عمران: ١١١]. حيث أثبت الضرر بالأذى ونفاه هناك؛ فكيف الجمع بينهما؟ قال الطاهر ابن عاشور: «وقوله: {لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}، أي بذلك ينتفي الضر كله؛ لأنه أثبت في أول الآيات أنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى؛ فالأذى ضر خفيف، فلما انتفى الضر الأعظم الذي يحتاج في دفعه إلى شديد مقاومة من قتال وحراسة وإنفاق، كان انتفاء ما بقي من الضر هيّناً؛ وذلك بالصبر على الأذى وقلة الاكتراث به مع الحذر منهم أن يتوسلوا بذلك الأذى إلى ما يوصل ضراً عظيماً»(٣).

وقد ختم الله الآية بقوله: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} ليبين ـــ والله أعلم ـــ للمؤمنين أن كيد الاعداء مهما خفي ولطف فإن الله به محيط، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا

به؛ فتوكلوا عليه(٤)، واستعينوا به؛ فسوف يكفيكم كيدهم. وقد أعقب الله هذه الآية بقصة غـــزوة أحد وما جرى فيها للمسلمين من وقوع المصيبة بهم لما ترك الرماة الصبر والتقوى، وذكّر أنه نصرهم يوم بدر؛ فكأنه تذكير بأن وعده صادق؛ لما صبروا واتقوا نصرهم ببدر وهم أذلة، ولما خالف الرمـــاة ذلك في أحد وقعت بهم المصيبة(٥)؛ فالمشروط معلق بالشرط.

وحينما تصاب الأمة المسلمة بهزيمة فتتلمس طريق النصر كي تستعيد مجدها المفقود فـــإن مـــن أهـــم مقومات النصر تقوى الله – تعالى – والإحسان في عبادته. وقد حكى الله ـــ في وسط آيات غـــزوة أحد ـــ قصة تلك الجماعة التي منيت بهزيمة على أيدي أعدائها فأخذت بأسباب(٦) النصر فنصـــرها الله، وختم الآيات بقوله: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤]. ليبين أن مـــن أحســـن في عبادته أحسن الله إليه ونصره وجعل له من أمره مخرجاً، قال الله – تعالى –: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَـــلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَـــومِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

العامل الثاني: الصبر والثبات:

وذلك بالثبات على التقوى، والثبات على القتال، وقد جعل الله الصبر والتقوى شرطاً للنصـــر كمـــا سبق، وأثنى الله على الصابرين في الآيات الآنفة الذكر {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]. وأخبر أنه معهم بنصره وتأييده، وأن الفئة المؤمنة تغلب مثليها من الكفار إذا كانت صـــابرة فقـــال: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِـــائَتَيْنِ وَإن يَكُـــن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٦].

وقد يلقى المسلم عدواً يصبر كما يصبر؛ فهو مأمور حينئذ بالمصابرة وهي (الصبر في وجه الصـــابر، وهذا أشد الصبر ثباتاً في النفس وأقربه إلى التزلزل؛ ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شـــديدٌ علـــى نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة وقِرْن له قد يساويه أو يفوقه، ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت علـــى صبره حتى يملَّ قِرْنُه، فإنه لا يجتني من صبره شيئاً؛ لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً وهي سبب نجاح الحرب(١)، قال الله – تعالى –: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠].

وقد ذكر الله في سورة آل عمران أسباباً كثيرة للنصر ثم ختمها بهذه الأية التي تأمر بالصبر والمصـــابرة والمرابطة ليبين ـــ والله أعلم ـــ أن كل الأسباب المذكورة ما لم تقترن بصبر ومصابرة فإن النصر قـــد يتخلف. وإذا لم يكن ثَمَّ قتال مع الأعداء؛ فعليهم بالمرابطة وهي (ربط الخيل للحراسة في غير الجهاد

وخشية أن يفجأهم العدو)(٢). فهم بين حالتين: إما حرب فعليهم بالصبر والمصابرة، وإما في غير جهاد قائم فعليهم بأخذ الحذر والمرابطة.

العامل الثالث: نصرة الله:

إن الله غني عن أن ينصره أحد، أو يطلبه من أحد، وإنما طَلَبَه من عباده ابتلاء وامتحاناً ليتميز الصادق من غيره. (ونصرة الله هي نصرة دينه؛ فهو غني عن النصر في تنفيذ إرادته)(٣)، كما قال: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [محمد: ٤]. فينصر المؤمن دين الله في نفسه ويقيمها على الحق، ويقدم رضى الله على رغباته وشهواته، ويحكّم أمر الله في جميع شؤونه، وينصر دين الله في واقع الحياة فيسعى لتحكيم شرعه في كل مناحي الحياة بلا استثناء(٤)، فإذا فعل المسلم ذلك فليبشر بنصر الله كما وعد الله. قال – تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤]. وقال: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] وقال: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧٣]. وجند الله هم أنصار الله الذين نصروا دينه(٥).

وثمة بشارة اخرى لمن نصر الله ذكرها في سورة محمد بقوله: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]. فوعدهم بالنصر ووعدهم بتثبيت الأقدام، (وتثبيت الأقدام يذهب الظن لأول وهلة أنه يسبق النصر ويكون سبباً فيه، وهذا صحيح، ولكن تأخير ذكره في العبادة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت، معنى التثبيت على النصر وتكاليفه؛ فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان وبين الحق والضلال؛ فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة، للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر، ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن. والعلم لله)(٦).

ولما عظم جزاء الناصرين لله كانت نصرة الله مطلباً نفسياً لا يدركه إلا القلة ممن أوقفوا نفوسهم لخدمة دين الله وإقامة شريعته في الحياة، ولذا جيء بالشرط {إِن تَنصُرُوا}، وإنما (جيء في الشرط بحرف (إن) الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه به)(٧).

العامل الرابع: صدق النية في نصرة الله مع القدرة على إقامة دينه بعد النصر.

قال الله – تعالى -: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن

يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: ٤٠ - ٤١].

فسنة الصراع بين الحق والباطل قائمة ولا بد للحق من قوة تدافع عنه وتذود عن حياضه، وقد وعد الله من فعل ذلك بصدق نية أن ينصره الله، وأنّى لقوة مهما بلغت أن تقف في وجه جند الحق ومعهم الله؟ {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}، وتأمل كيف أعقب الله هذه الأية بقوله: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلاةَ} فكأن سؤالاً يتردد عن صفات الطائفة الموعودة بالنصر فكان الجواب: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ} وهذه الصفات التي ذكرها الله لهم يتبين منها الآتي:

١ - أهم قوم صادقون مع الله لم يجاهدوا لطلب منصب ولا غنيمة ولا رياء ولا غيرها من مطامع الدنيا، بل خلصت نياهم لله؛ ولا أدل على ذلك من إقامتهم شرع الله بعد انتصارهم. إن المرء قد يجاهد في زمن الشدة والمحنة مخلصاً لله؛ حتى إذا فتح الله عليه ونصره واقبلت عليه الدنيا ربما بدّل وغيّر، وطلب المنصب والرئاسة والجاه والشهرة؛ فالإخلاص يسير في زمن الشدة: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ} [الزمر: ٨]، {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت: ٦٥]، لكنه عزيز في وقت الرخاء؛ حيث تنطلق النفوس على سجاياها فتظن أنها استغنت عن عون الله {كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦ - ٧]. إن الإخلاص مطلب رئيس لتنزُّل نصر الله {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ}، وتظل على هذا الإخلاص حتى بعد أن ينصرها الله {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ}.

وإن لتأكيد القرآن على هذا المطلب أهدافاً في غاية الأهمية منها: أن الاخلاص حين يتمكن في النفوس فإن شؤون الجهاد تُدار وفق المصلحة الشرعية فقط بقطع النظر عن أي مصالح أخرى قد تُلبس لباس النصح لدين الله. ومنها أن الإخلاص حين يتمكن في النفوس فإن دائرة الخلاف بين النافرين لنصرة دين الله تتقلص إلى أدنى الدرجات الممكنة. وإن مما يندى له الجبين أن يرى المرء مشاريع خيرية ودعوية استهلكت منها الطاقات، وبذلت لها الأموال، وصرفت فيها الأوقات تذهب كثير من ثمراتها أدراج الرياح نتيجة نقص الإخلاص أو تلاشيه. والله المستعان.

٢ - أن هؤلاء بعد نصرهم {أَقَامُوا الصَّلاةَ} فوثقوا صلتهم بالله، واستمر تعلقهم بربهم الذي نصرهم، {وَآتَوُا الزَّكَاةَ}. فتعاونوا على سد خلة المحتاج وتفريج كربة المعوز فتحقق تكافلهم الاجتماعي {وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ} وهذا يشمل المعروف العام الذي يعرفه كل أحد؛ كما يشمل المعروف الخاص من دقائق الأحكام ونحوها الذي يعرفه العلماء على اختلاف مراتبهم(١)، وهذا يعني انتشار التعليم وتسهيل طرقه للناس، {وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} بكل اشكاله وصوره سواء كانت هذه المنكرات من قبيل الشهوات أو من قبيل الشبهات كالمقولات والكتابات الفكرية المنحرفة.

وهذه الصفات تفيد استطاعتهم على المحافظة على النصر والقدرة على إقامة شرع الله في الأرض بما يملكون من مقومات تؤهلهم للاستمرار في التمكين في الأرض؛ وذلك يشمل الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

إن استعلاء هؤلاء على شهواتهم وأهوائهم؛ حيث شكروا نعمة الله فأقاموا شرعه مع قدرتهم على مخالفة أمر الله من غير خوف من أحد من البشر؛ حيث إنهم ممكنون في الأرض ليدل دلالة واضحة على أن نفوسهم بلغت من الصلاح والتقوى مبلغاً عظيماً جعلهم ذلك ينشطون في نصرة دين الله أولاً، ويتحملون أعباء النصر وتكاليفه ثانياً، وهذا لا شك في أنه لا بد أن يسبقه تربية طويلة ومرور على أحوال من الدهر وصروف تظهر الصادق الصابر من غيره، ولعل هذا ما يلمح من قول الله – تعالى –: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]. فابتلوا من قبل أن يمكنوا، فمسهم الفقر والشدة والمرض(٢)، وزلزلوا بما تفيده هذه الكلمة من شدة التحريك والاضطراب؛ فهم قد خُوِّفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً(٣)، وقلبوا من كل جانب، وطالت عليهم هذه الأيام حتى بلغ بهم الحال أن قال الرسول والذين آمنوا معه: {مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}؟ فأخبرهم أن نصره قريب من هذه الفئة التي ثبتت على الشدائد والمحن، وهي التي تَقْدُر للنصر قَدْرَه بعد أن يمكنها الله في الأرض لا من يأتيه النصر وهو متكئ على أريكته لم يبذل من أجله شيئاً، أو بذل شيئاً يسيراً؛ فما أسرع ما يفرط فيه. وإذا استمر المسلمون على إقامة دين الله بعد النصر فإن الله يكفيهم أعداءهم ويظهرهم عليهم فما هم بمعجزين؛ وهذا ما يدل عليه ترتيب الأيات في سورة النور(٤). قال الله – تعالى –: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [النور: ٥٥ – ٥٧]. فإن تكاسل المسلمون عن إقامة الدين وفرطوا وأهملوا التكاليف فإن {لِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} يصرِّفها كيف يشاء، فيبدل النصر هزيمة(٥)، والأمن خوفاً، والعز ذلاً.

العامل الخامس: حسن التعامل مع الهزيمة يحولها نصراً، ويشمل عدة أسباب:

فقد حكى عن أصحاب ذلك النبي لما قاتل ومن معه فهزموا فكان موقفهم من الحدث موقفاً صحيحاً حوّل هزيمتهم إلى نصر وعزة. قال الله – تعالى –: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن

قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

إن هذه الأيات ترسم الموقف الشرعي لتعامل المسلم مع الهزيمة حتى تتحول نصراً بإذن الله؛ وذلك لأمور:

١ - أنها موقف ربيّين وهم المتبعون لشريعة الرب، وهم أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء(١).

٢ - أن هذه الأيات ذكرت خلال الحديث عن غزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها؛ ففيها إشارة للمسلمين أن يسلكوا مسلكهم حين أصيبوا.

٣ - أن الله أثابهم على موقفهم هذا بالنصر والعزة والغنيمة {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ}.

٤ - أن الله وصف فعلهم بالإحسان {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

أما الموقف الذي اتخذوه فهو من خلال الآيات، ويتمثل فيما يلي:

١ - الحذر من الوهن والضعف والاستكانة (لأن المؤمن يركن إلى من بيده ملكوت السموات والأرض)(٢)، كما قال الله عنهم: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]. (الوهن قلة القدرة على العمل وعلى النهوض في الأمر، والضعف ضد القوة في البدن وهما هنا مجازان؛ فالأول أقرب إلى خَوَر العزيمة ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة. وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو. ومن اللطائف ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول: فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء وجاء الاستسلام فتبعته المذلة والخضوع للعدو)(٣).

إن المؤمن لا ينبغي أن يَهِن ولا يحزن ولا يضعف ولا يستكين؛ إذ كيف يهن وهو الأعلى بإيمانه وعزته وعون ربه له؟ {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، وكيف يهن ويحزن لما أصابه وقد أصاب الكفار في وقائع أخرى مثل ما أصابه أو أكثر؟ {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} [آل عمران: ١٤٠]. {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} [آل عمران: ١٦٥]. فقد أصابتهم مثل ما أصابهم أو أزيد، والفرق بين المؤمنين والكافرين فيما أصابهم {وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤]. وكيف يهن المسلم ويحزن وهو يعلم أن انتصار الكفار على المؤمنين في بعض الأحيان سُنَّة ماضية، لله فيها حكمة بالغة والعاقبة للمتقين؟ {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢]. {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [آل عمران: ١٧٩]. إن الهزيمة النفسية تفعل في

الأمة أشد من فعل أعدائها بها، وهو ما تعاني منه الأمة الإسلام ية اليوم. نسأل الله أن يهيئ لها مـــن أمرها رشداً.

٢ – الصبر الجميل كما قال الله: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]. وقد سبق الكــلام عليه.

٣ – مراجعة النفس ومحاسبتها على تقصيرها في حق الله – تعالى – أو في الأخذ بأسباب النصر المادية {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} [آل عمــران: ١٤٧]. فمــع هزيمتهم ومصيبتهم لم يبدر منهم تردد في صدقه وعدالته؛ بل كانوا واثقين به موقنين بتأييــده، وإنمــا تخلف عنهم لعلّة، فاتهموا انفسهم بالتقصير في حق الله {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَــا}(٤) [آل عمران: ١٤٧].

إن المعاصي سبب لخذلان الله للعبد أحوج ما يكون إليه {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَــانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا} [آل عمران: ١٥٥]. وقد عاقبهم الله ببعض مــا كســبوا؛ فكيف لو عاقبهم به كله؟ {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِــنْ عِنــدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. [آل عمران: ١٦٥].

إن الطاعة سبب لتثبيت الله – تعالى – لعبده في المواقف الدنيوية والأخروية {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُــوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَــاءُ} [إبــراهيم: ٢٧]. وقال: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦]. إن اصلاح النفس من أهم مقومات النصر، ولذا جاء الحديث عنه في وسط الآيات التي تتحدث عن غزوة بدر؛ فكأنه إشارة إلى أن سبب نصرهم في بدر إنما هو طاعة الله باتباع أمره واجتناب نهيه. قال الله – تعــالى – في ســورة الأنفال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُــولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُــوا فِتْنَــةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْــعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُــم مِّــنَ الطَّيِّبَــاتِ لَعَلَّكُــمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُــوا أَنَّمَــا أَمْــوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّــرْ

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٢٠ - ٣٠].

والتقصير الذي اعترف به هؤلاء الربيون يحتمل أنه مع التقصير في حق الله تقصير في شأهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال والاستعداد له أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة أمر في قوله: {وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} [آل عمران: ١٤٧]. بأن يكونوا شكوا ان يكون ما أصاهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئاً عن سببين: باطن، وظاهر. فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر؛ وهذا أوْلى من قصره على السبب الأول فقط)(١) لدلالة الأية على الأمرين لا لنقص أهمية السبب الأول.

٤ - الدعاء والالتجاء إلى الله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَومِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤٧]. وهذا شأن المؤمنين يلتجئون إلى رهم، ويتضرعون إليه يستنزلون نصره ومدده؛ فلا حول ولا قوة لهم إلا به - تعالى -: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٠]. وهو ما فعله المؤمنون في بدر فاستجاب لهم {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩]. وقد قام النبي - صلى الله عليه وسلم - قبيل معركة بدر في العريش يناجي ربه طويلاً حتى أشفق عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وما أحوج الأمة اليوم في ظل المحنة التي تعيشها أن تسلك هذا الهدي النبوي؛ فتجأر إلى رها وتلجأ إليه معلنة فقرها وضعفها بين يديه علّ نظرة رحمة منه تدركنا فترفع غُمّتنا، وتزيل كربتنا.

العامل السادس: عدم موالاة الكفار والركون إليهم:

قال الله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠]. هاتان الآيتان جاءتا خلال الحديث عن غزوة أحد لتحذر المسلمين من التفكير في موالاة الكفار والركون إليهم سواء كانوا كفاراً مظهرين لكفرهم أو كانوا منافقين(٢)؛ فمهما اشتد الكرب وعظمت المصيبة فلا يجوز للمسلمين أن يمدوا أيديهم إلى الكفار راكنين إليهم؛ فإن العاقبة وخيمة: {يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} خسارة الدنيا. وإن بعض النفوس الضعيفة عند الهزيمة قد تتطلع إلى ما عند الكفار تتلمس العزة عندهم؛ فمن كان حاله كذلك فليتذكر: {بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}، ولعل في التاريخ خير شاهد فيما جرى لمسلمي الأندلس حين أطاعوا النصارى ووالوهم وركنوا إليهم.

العامل السابع: اجتماع الكلمة:

إن تفرق الكلمة سبب للفشل وذهاب القوة والهيبة من نفوس الأعداء {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]. بل قد يحول النصر إلى هزيمة {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٥١]. إننا اليوم في أشد الحاجة إلى جمع الكلمة ورص الصفوف، واستثمار كافة الطاقات، ونبذ كل فرقة بنيت على خلاف اجتهادي، أو على خلاف قطعي لا يخرج عن ملة الإسلام لدفع عدد أكبر يريد إهلاك الحرث والنسل، ما أحوجنا إلى ترك بُنيات الطريق(*). والله المستعان.

العامل الثامن: الإيمان الكامل بالله – تعالى –:

وهذا هو جماع الأسباب كلها فهو إذا تحقق فلا بد أن تأتي أسباب النصر الأخرى له تبعاً، ولذا وعد الله المؤمنين في أكثر من موضع في كتابه بالنصر والتمكين والاستخلاف {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]. {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]. {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١٩] إنه الإيمان المقتضي للعبودية التامة لله – تعالى – والدخول في السلم كافة. (إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستفرق النشاط الانساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله؛ فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله، لا يبغي به صاحبه الا وجه الله – تعالى –، وهي طاعة الله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة ألا وهو يستغرق الإنسان كله.. وخلجات قلبه وأشواق روحه وميول فطرته وحركات جسمه ولفتات جوارحه وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس أجمعين.. يتوجه بهذا كله إلى الله)(**). وحينئذ يتحقق وعد الله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [النور: ٥٥].

العامل التاسع: العمل بالأسباب المادية:

تأمل معي قول اله – تعالى –: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٥٩ – ٦٠]. ففي الأية الأولى توهين بشأن المشركين مهما بلغت قوتهم وإعداداتهم وإمكانياتهم، لكن الله أعقبها بقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ}. حتى لا يظن ظان من المسلمين أن الكفار صاروا في قبضتهم من غير عمل ولا أخذ بالأسباب، بل لا بد من ذلك، ويكون هذا العمل وهذا الاحتراس هو سبب جعل الله الكافرين لا يعجزون(١).

وجاء في لفظ الآية «ما استطعتم» ليشمل كل إعداد مقدور عليه ويلزم منه استفراغ الجهد والطاقة سواء كان جهداً بدنياً أو عقلياً أو غيره في سبيل الإعداد.

كما جاء في لفظ الآية «من قوة» فهي نكرة في سياق الإثبات، فتقيد العموم لتشمل كل قوة نافعة في الجهاد في سبيل الله وإرهاب أعدائه. ومن ذلك القوة العسكرية بكل صورها المعاصرة، والقوة السياسية، وقوة الرأي(٢)، والقوة الإعلامية، والتعليمية، والاقتصادية، والتقنية، وغيرها.

وفي الأية إشارة — والله أعلم — إلى أن المكانة بين الدول، وهيبة الجانب، واعتبار الرأي في المؤتمرات الدولية؛ لا يكون إلا إذا استندت الدولة الإسلام ية إلى القوة في بنائها بكل صورها السابقة كما يفيد ترتيب الآية: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ} وتفسير النبي – صلى الله عليه وسلم – للقوة بأنها الرمي ثلاثاً كما رواه مسلم(٣) معناه: (أكمل أفراد القوة آلة الرمي في ذلك العصر، وليس المراد حصر القوة في آلة الرمي)(٤).

ولما كان هذا الإعداد للقوة يستلزم بذل الجهد والوقت والمال، وبذل المجهود البدنية والعقلية والنفسية وغيرها، وكانت النفوس بطبعها شحيحة مؤثرة لهواها ومصالحها الشخصية ذكّرهم الله بقوله في آخر الآية: {ومَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ} فكل شيء محفوظ وإن صغر ودق، وقوله (شيء) نكرة في سياق الإثبات فتفيد العموم لتشمل كل شيء مالاً كان او وقتاً أو علماً.. صغيراً كان أو كبيراً. نسأل الله أن يجعلنا من أنصار دينه.

ومع بذل المسلم لهذه الأسباب يجب أن يتعلق قلبه بالله – تعالى –؛ فالأمور بيده يصرِّفها كيف يشاء {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ١٠]. {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠].

إن الأسباب مهما بلغت مكانتها تبقى في دائرة الأسباب فلا يتعلق القلب بها، بل يتعلق بالله – تعالى – الذي له ملك السموات والأرض، ولقد أكد الله على هذه الحقيقة عند ذكره لإمداد المسلمين في غزوة بدر بالملائكة: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٩ – ١٠]. فالملائكة ما هم إلا سبب، ويجب ألا تتعلق القلوب بهم، بل تتعلق بالناصر الحقيقي وهو الله – تعالى –. ولعل هذا من حكم مشروعية ذكر الله عند ملاقاة العدو: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: ٤٥].

ولما ركن المسلمون إلى بعض الأسباب المادية في غزوة حنين فأعجبوا بكثرتهم خذلهم الله، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين حتى تداركهم الله برحمة منه

{ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٢٦].

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك وعبادك الصالحين، اللهم اجعلنا ممن نصرك فنصرته، اللهم مكّن لعبادك المؤمنين في الأرض يا قوي يا عزيز!

---

(١) أخرجه أحمد مسند الشاميين، رقم (١٦٣٤٤).

(١) فتح القدير (٣٥٩/٢).

(٢) قال الشوكاني: اتقوا موالاتهم أو ما حرم الله عليهم (٣٧٦/١). ويرى الظاهري بن عاشور أن معناها الحذر: أي اتقوا كيدهم وخداعهم. التحرير والتنوير (٦٨/٤) فيكون من باب الأخذ بالأسباب، وسيأتي الحديث عنه.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر عاشور (٦٨/٤). (٤) تفسير ابن كثير (٤٠٨/١).

(٥) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٠٨/٤).

(٦) وسيأتي بإذن الله – تعالى – مزيد من تفصيل لهذه الأسباب.

(١) ثواب الدنيا: النصر والغنيمة والعزة ونحوها. فتح القدير (٣٧٨/١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠٨/٤).

(٣) المرجع السابق. (٤) التحرير والتنوير (٨٥/٢٦).

(٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٢٨٨/٦).

(٦) التحرير والتوير (١٩٥/٢٣).

(٧) في ظلال القران (٣٢٨٩/٦).

(١) التحرير والتنوير (٨٥/٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨١/١٧).

(٣) فتح القدير (١٧٣/١). (٤) المرجع السابق (٢١٥/١).

(٥) في ظلال القرآن (٢٥٣٠/٤).

(١) المرجع السابق (٥٤٢٨/٤). (٢) التحرير والتنوير (١١٨/٤).

(٣) متى نصر الله. لعبدالعزيز الجليل، ص ٧٩. (٤) التحرير والتنوير (١١٩/٤).

(١) التحرير والتنوير (١١٩/٤). (٢) المرجع السابق (١٢٠/٣).

(*) بنيات الطريق: الطرق الفرعية.

(**) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٥٢٨.

(١) التحرير والتنوير (١٢١/٤).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٥٢٨).
(٣) تفسير السعدي (٢/٢١٢).
(٤) مسلم، حديث (١٩١٧).
(٥) التحرير والتنوير (١٠/٥٥).
جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ * يوليو / أغسطس ٢٠٠٤م
المصدر: http://www.albayan-magazine.com

رياح النصر هبت من الفلوجة

٢٨ شوال ١٤٢٥هـ

اليوم وبعدما بدأت الحقائق تتبدى للعالم أجمع تجاه الحرب الأمريكية القذرة على الفلوجة، وبعدما بدأت تباشير انتصار المقاومة العراقية الباسلة تتبدى لكل المراقبين السياسيين، والمحللين الإعلاميين، والمسئولين الحكوميين؛ تنطق بها التصريحات الرسمية قبل الإعلامية، وتشير إليها أصابع العسكريين قبل السياسيين، لتفضح عوار الكذب الأمريكي المستور، وتبدي شينة الولاء الإعلامي العربي الخائن لقضية أبناء شعبه ودينه، في مدينة سيكتب التاريخ عنها، إنها مدينة الشموخ الأبي في زمن الانكسار العربي، ومدينة العزة في زمن الذلة المهينة، ومدينة الانتصارات الخارقة التي تعدت كل الحسابات، وأفشلت كل التوقعات، وأعادت للعقل الإسلامي التذكير الحقيقي بضرب المعجزات عندما يكون الإيمان وحده هو المقاتل، وتكون العقيدة وحدها هي المثبت، وتكون المبادئ والثوابت الشفافة هي المدد والدعم، وتكون الشهادة هي الأمنية.

لقد أدت الهزيمة النفسية لكثير من أبناء أمتنا الإسلامية أن تصوروا استحالة ثبات الفلوجة أمام تلك الجحافل التي تقدمتها الطائرات القاذفة، والمدرعات العملاقة، والعشرون ألفاً من الجنود الأمريكيين، يتبعهم آلاف العراقيين الشيعة من أتباع السيستاني والحكيم، وممن لا قيمة لهم ولا مبدأ ولا انتماء.

[نقلت صحيفة أخبار الخليج يوم ١٠\١١ أن الكتلة الشيعية في برلمان البحرين قد رفضت إدانة الحرب على الفلوجة، واعتبرته تدخلاً في شئون دولة أخرى!!، كما نقلت الفرانس برس يوم ١١\١١ عن الشيخ مهدي الصميدعي إمام مسجد ابن تيمية، وعضو هيئة العلماء في العراق انتقاده الشديد للسيستاني بسبب صمته حيال ما يحدث في الفلوجة، وأن ذلك يعكس تأييده للحرب عليها والتحريض على ذلك].

هزيمة نفسية:

وكان أن انهزمت الأمة نفسياً لدرجة أن بحت الأصوات، وسكنت الحركات، ووقف الجميع صامتين ينتظرون الإعلان عن إبادة أبناء المدينة العظيمة، ينتظرون الصرخة الأخيرة لآخر طفل رضيع في الفلوجة؛ بينما يذبحه الأمريكي الدموي بدم بارد.

[في يوم ١٦نوفمبر أعلنت الحكومة العراقية أن سكان الفلوجة ليسوا بحاجة لأي مساعدات من أي نوع!!].

و لم تخرج من ذي قلب كلمة استنكار رسمية واحدة لمدة تعدت عشرين يوماً كاملة، تدك فيها المدينة الفاضلة، وتهدم مساجدها قبل بيوتها، ويقتل شيوخها قبل شبابها، ويذبح أطفالها قبل رجالها، وتستباح الأم والجدة والأخت والبنت، ويقتل العلماء وأئمة المساجد، وتحرق المصاحف، وتوطأ الحرمات!!

[نشرت وكالة الأنباء الفرنسية يوم ٧ نوفمبر صورة لإحدى الدبابات في اقتحام المدينة وقد بدا على فوهة مدفعها صليب ضخم!!].

وكان لابد لإتمام المذبحة التتارية الصليبية الخائنة أن تكون مدعومة إعلامياً؛ من الإعلام الصهيوني العالمي من جانب، ومن الإعلام العربي من جانب آخر، فكممت أفواه الكماة المغاوير من الإعلاميين العرب [الناعقين إذا ما ثمنت الكلمات، الخارسين إذا ما لوح بالعصا، أو نادت شريفات الفلوجة ' وامعتصماه '!].

و لم يعد المرء يقرأ أو يسمع عبر مئات الوسائل الإعلامية العربية سوى التصريحات الرسمية الكاذبة للجنرالات الأمريكيين، أو مقاطع الفيديو [الممثلة أو ' الممنتجة '] في استوديوهات الجيش الأمريكي، تبث الترهات مما لا علاقة له بما يدور على أرض الفلوجة الباسلة الأبية، وتصور المقاومة العراقية كشياه جزار تنتظر ذابحها، لتكسر إرادة المسلم في كل مكان، وتبث الرعب في قلوب أهل العراق وذويهم، وتعمق كون الجيش الأمريكي أسطورة لا تقهر [بثت شاشات الفضائيات العربية والعالمية مقطعاً من الفيديو – الموجه من الآلة الإعلامية اليهودية – ممنتجاً لجنود أمريكيين يقتلون جرحى مسلمين بأحد المساجد].

دناءة العدو؛ وعجز الصديق على مرأى ومسمع العالم:

ولقد استخدمت أمريكا في سبيل تركيعها للفلوجة وكسرها لإرادتها وعزيمتها أخس الأساليب، وأحط الوسائل التي نبذتها كل الشعوب التي لا يزال بها بقية من إنسانية، أو ذرة من عدل:

– قصفت المنازل، وهدمت المنشآت الحيوية بالمدينة بدعوى وجود الزرقاوي [كان علاوي قد اشترط على أهالي الفلوجة تسليم الزرقاوي لمنع الهجوم عليها، ثم أعلن الجيش الأمريكي والحكومة العراقية التابعة للاحتلال يوم ٩\١١ أن الزرقاوي وأتباعه قد خرجوا من الفلوجة قبل الهجوم؛ ورغم ذلك استمر الهجوم حتى هذه الساعة].

- هدمت المساجد وسوي منها ٣٣ مسجداً بالأرض، وقصف الباقي، ومنعت الصلاة فيها من ساعة الهجوم وحتى هذه اللحظة.

- قطعت القوات الأمريكية عن المدينة الماء والكهرباء تماماً، ونشرت الأسوشيتدبرس يوم ١٤\١١أن هيئات الإغاثة العالمية تنذر بحدوث كارثة إنسانية في الفلوجة نتيجة قطع المياه منها.

- قصفت المستشفى الوحيد الباقي في الفلوجة، وقتلت أطباءه في مذبحة ' الاثنين ' الشهيرة، واعتقلت المرضى.

- منعت قوافل الإغاثة من دخول المدينة.

- اعتقلت الآلاف من الصبيان والنساء والشيوخ في ساحات المدارس بلا غطاء، ولا طعام، ولا ماء، وقامت بالتحقيق المهين معهم، ما تسبب في موت العديد منهم.

مفكرة الإسلام وموقف يذكره التاريخ:

و لم يكن لدى مفكرة الإسلام الإمكانات الفائقة التي يتمتع بها الإعلام العربي الكسيح، ولكن كان لديها مبادئ إيمانية تبشر بالانتصار، ومراسلون يؤمنون بقضيتهم، لم يملكوا من نصرة أوطانهم غير الدعاء؛ وكلمة إعلامية صادقة يصفون بها الوقائع الحقيقية داخل الفلوجة وغيرها من مدن العراق.

[تعتزم مفكرة الإسلام أن يكون لها في القريب مراسلون في معظم البقاع الإسلامية والعالمية، يبثون للعالم آلام المسلمين وآمالهم].

وكان مراسلو مفكرة الإسلام يبكون في رسائلهم من داخل المدينة الثابتة دموعاً صادقة، قد تختلط أحياناً بالدماء لهول ما ينقلوه من وقائع هي أقرب إلى الخيال.

وصار الناقلون الإعلاميون من الفلوجة قسمان: قسم يصاحب القوات الأمريكية المحتلة، ويستظل بظلها، ويأكل معها، ويشرب ويحتمي بحماها؛ ومن ثم فهو يأتمر بأمرها، ولا يذكر في رسالته الإعلامية إلا ما أملاه عليه مسئولو الحملة الإعلامية في القوات الأمريكية المحتلة.

والقسم الثاني هم مراسلو مفكرة الإسلام الذين لم يتشرفوا بكونهم من أفراد المقاومة الفلوجية الباسلة؛ ولكنهم تشرفوا بنقل كلمة حق واقعة، وأحداث صدق ثابتة، قد كلفتهم في بعض الأحيان ما تكلفة تيسير علوني من اتهام واعتقال جراء كلمته الصادقة، أو أصابتهم برصاصة غدر أمريكية أفقدتهم على إثرها إحدى جوارحهم، وربما ألحقت بعضهم بمواكب الشهداء.

وكان أمام مفكرة الإسلام اختياران لا ثالث لهما؛ إما أن تتبع في أخبارها الإعلام العربي والعالمي الممارس للتعتيم والتضليل، وإما أن تقتدي بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - القائل: (لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو سمعه، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق) رواه أحمد وابن ماجه.

وكان أن اختارت سبيل الكرام، وعزة الإسلام، وشاء الله أن يثبت عبر الأيام صدق أخبارها، وسوف تنبؤنا الأيام القادمات من دلائل صدقها ما تقر به أعين الصادقين.

من بشائر الانتصار:

إنه ليس خبراً مزوراً كتلك الأخبار التي لطالما بثتها لنا الآلة الإعلامية الغربية ومن قلدها من وسائل الإعلام العربية، وليس خبراً مبالغاً فيه كأخبار الجيش الأمريكي التي تخالف العقل الإنساني السوي، كما إنه ليس خبراً كاذباً كتلك التي يصرح بها بوش ورامسفيلد وجنرالاته سفاكو الدماء وأذنابهم من المسئولين العراقيين الموالين للاحتلال.

[أعلن رامسفيلد يوم ١٢ \ ١١ أن عمليات الفلوجة توشك على الانتهاء بنجاح كبير، وفي ذات اليوم أعلن قاسم داود وزير الداخلية العراقي الموالي للاحتلال أن عملية الفلوجة قد انتهت، وأن المدينة قد حررت تماماً إلا من جيوب صغيرة يتم التعامل معها].

ولسنا ننتظر أن تعلن أمريكا هزيمتها – بالطبع –، ولا أن يتنازل رامسفيلد لقادة المقاومين أو للشيخ حارث الضاري عن المدينة في حفل يحضره قادة أوروبا والصين.

ولكننا نسطر كلمات هي للتاريخ صيحة ذكرى، وللأمم رجفة إيقاظ، تنطق علاماتها بالأمل الغائب عن أحلام أطفال المسلمين، وترفع هامة رجالات الإسلام عزاً بنصر قد لاحت بشائره.

لقد كان للانتصار في الفلوجة بشائر ليست كلها أخباراً عن دائرة المعركة – التي أبلى المقاومون فيها أحسن البلاء –، ولكنها بشائر نصر يفهمها جيداً كل المؤمنين بموعود الله – سبحانه –.

لقد كان في ثباتهم أمام تلك الجحافل نصر وحده، وكان في رفعهم للواء التوحيد أمام هجمة الصليب نصر وحده، وتركهم البيوت والأزواج والأولاد، ودفاعهم عن أرضهم وأوطانهم حين تقاعس القادرون نصر آخر، لقد كان يكفيهم لو لم يلحقوا هزيمة نكراء بعدوهم أن حققوا تلك المعاني من الانتصار، ولكن شاء الله أن يبشرهم بما يحبون، نصر من الله وفتح قريب.

وهذي بعض اعترافات سقناها لك من أفواه عدوهم [والفضل ما شهدت به الأعداء]، وافقت كلها خبر مراسلينا، غير أن هناك فارقين أساسيين بينهما:

الأول: أن أخبارنا كانت تسبقهم في معظم الأحيان بيوم أو يومين.

والثاني: أن أخبارهم هي غيض من فيض، ونقطة من بحر الأخبار الصادقة الحاصلة في المدينة الفاضلة.

١– مراسل هيئة الإذاعة البريطانية يوم ٩\١١ يقول: ' لقد شاهدت دبابتين وثلاث مدرعات مدمرة هذا الصباح '.

٢– مراسل الفرانس برس يوم ٩\١١ ' نقلاً عن أحد قادة المقاومين بالفلوجة: ' لقد سمحنا لهم بدخول الدبابات لنوقف القصف الجوي، ثم نقاتلهم وجهاً لوجه '.

[وكانت مفكرة الإسلام قد أعلنت يوم ١١\٨ أن المقاومة قد سمحت للمدرعات بالدخول كاستراتيجية لوقف القصف على المدنيين في المدينة].

٣- مراسل الفرانس برس يوم ١١\٩ أكد أنه رأى دبابتين تحترقان في أحد الشوارع وآليات مدرعة أخرى تتراجع.

٤- استخفت صحيفة 'تاجسبيجل' الصادرة في برلين بإعلان الحكومة العراقية المؤقتة حالة الطوارئ قبيل الهجوم على الفلوجة، متسائلة: 'ألا توجد هذه الدولة بالفعل في حالة طوارئ مستمرة؟' إنه لا تكاد ساعة تمر بغير هجوم من المقاومة!!.

٥- ما ذكرته إذاعة 'دويتش ويل' الألمانية من أن الحكومة الأمريكية قد خدعت الأمريكيين في قرار الحرب على الفلوجة، وأن الأمريكيين يسقطون في تلك الحرب كالذباب.

٦- في تصريح لـ رويترز يوم ١١\٩ قال الكابتن روبرت بوديش قائد فرقة دبابات أمريكية في تعليق على الهجوم على حي الجولان: إنهم أناس أقوياء البأس، إنهم يقاتلون قتالاً قوياً، لقد رأيت كثيرين منهم في الشارع الذي كنت فيه، اندفع رجل من خلف جدار وأطلق قذيفة 'أر. بي. جي' على دبابتي.

[وكان مراسل المفكرة في الفلوجة قد كذب ما تناقلته وكالات الأنباء حول سيطرة قوات الاحتلال على حي الجولان].

٧- وكالة الأنباء الفرنسية يوم ١١\١٠ تعلن على لسان مراسلها قوله: ' في شارع الأربعين أرى دبابتين تحترقان، ومقاتلين غير آبهين بالموت يندفعون إلى المعركة، إنهم يستولون على دبابتين أخريين متروكتين'.

٨- يوم ١١\١٠ نشرت صحيفة الإندبندنت البريطانية تحقيقاً حول تأثير إعادة انتشار فرقة 'بلاك وتش' البريطانية في مواقع خطيرة جنوبي غرب بغداد في المنطقة التي يطلق عليها 'مثلث الموت'، وأشارت الصحيفة إلى أن جيمس كوان كبير ضباط الكتيبة كان قبيل إعادة الانتشار قد أعرب عن قلقه من القرار الذي يأمر بتحرك جنوده إلى معسكر دوجوود؛ والذي يبعد ٢٥ ميلاً جنوبي غربي بغداد، وحذر في سلسلة من الرسائل الإلكترونية أنه من المتوقع أن تتعرض الفرقة لهجمات متوالية من قبل من وصفهم بـ'الإرهابيين'، حيث وصفهم بأنهم سيهبطون كما يهبط 'النحل إلى العسل'!

[وكانت مفكرة الإسلام قد نشرت نبأ تحرك الكتيبة البريطانية قبل أيام من نشره في وسائل الإعلام رغم التكتم الشديد على تلك المعلومات العسكرية مخافة هجوم المقاومة، ولا غرو أن نذكر أن مفكرة الإسلام كان لها قصب السبق في عدة أنباء تخص القوات البريطانية عادت وكالات الأنباء لتؤكدها فيما بعد، وبالتأكيد تعتبر هذه القوات تابعة لجيش هو من أكثر الجيوش غموضاً في تحركاته وسكناته؛ فقد كانت المفكرة الأولى في نشر خبر تحرك القوات البريطانية من البصرة إلى بغداد، والأولى في

حديثها عن اشتراكها في معركة الفلوجة، والأولى في الحديث عن انسحابها منها، والمنفردة بذكر الجهة التي انسحبت إليها القوات البريطانية من الفلوجة، وهي الجهة التي لم يكشف عنها إلى الآن أية جهة؛ حتى الصحف شبه المستقلة والقوى المناوئة للحرب في بريطانيا].

٩- يوم ١٠\١١إعترف مساعد وزير الدفاع العراقي بضراوة المقاومة المسلحة، وبفشل خطتين لعبور نهر الفرات من جهة الغرب، وأكد العقيد أحمد نجاة رمضان في اتصال مع جريدة المدينة السعودية أن خطة اجتياح الفلوجة تغيرت مرتين، وقال يبدو أن المقاتلين يمتلكون مخزوناً هائلاً من السلاح لم نكن نقدره في السابق.

[وكانت مفكرة الإسلام قد نشرت في نفس اليوم خبراً بتقهقر قوات الاحتلال إلى الشمال من منطقة السكة الحديد].

١٠- أعلن تقرير عسكري صيني نشرته وكالة الأنباء الصينية شينخوا يوم ١٠\١١ أن: ' الخسائر في معارك الفلوجة هي بنسبة ١: ٣ في صالح المقاومة [غير داخل في ذلك خسائر المدنيين].

١١ - الأسوشيتدبرس تنشر يوم ١١\١١ أن ٢١٥ جندياً أمريكياً قد نقلوا إلى مستشفى في ألمانيا نتيجة جراح خطيرة جداً إثر معارك الفلوجة.

١٢- مراسل الفرانس برس يوم ١٢ \ ١١ يقول: ' المقاومون مستمرون في القتال بضراوة، وقد تمكن اثنان من المسلحين من مواجهة القوات الأمريكية لساعات، وهما يتخذان وضعاً قتالياً على أسطح المباني، ويقاتلان باحتراف شديد.

١٣- مراسل البي بي سي ' بول وود ' ١٢\١١ يقول: ' إن المؤشرات تدل على أن المقاومين قد أعادوا تجميع قواهم، وأن مقر المارينز قد تعرض للقصف الشديد أربع أو خمس مرات فقط في يوم أمس من مواقع مختلفة، وأن هذا القصف يحدث بصورة يومية. [وكانت مفكرة الإسلام قد نشرت يوم ٩\١١ خبراً بقصف المقاومة لمراكز الاحتلال بأكثر من ١٥٠ صاروخاً موجهاً].

١٤- نشرت إذاعة البي بي سي يوم ١٢ \ ١١ أن مروحيتين قد أصيبتا بنيران المقاومة في الفلوجة.

١٥- قالت مراسلة هيئة الإذاعة البريطانية يوم ١٢\١١: إن قوات البحرية البريطانية قد اضطرت إلى طلب معونة من سلاح الجو الذي قام بأربع غارات، وقد تعرضت فرقة المشاة التي تطارد المقاومين في البيوت إلى الهجوم المتكرر بمجرد مغادرتها قاعدتها.

١٦- هيئة الإذاعة البريطانية يوم ١٢\١١ تنقل عن ماري شو - المتحدثة باسم المستشفى الألماني التابع للقوات الأمريكية - قولها: ' لقد اعتدنا إدخال ثلاثين مصاباً يومياً، ومنذ الهجوم على الفلوجة ندخل يومياً سبعين مصاباً معظمهم من الفلوجة '.

١٧- مراسل وكالة الأنباء الفرنسية يوم ١٣ \ ١١ في مقابلة مع أحد المقاومين في الفلوجة: ' دمرنا خلال الليل معظم المدرعات التي دخلت حي الجولان '.

١٨- نقلت وكالة إسوشيتيد برس يوم ١٣ \١١ نقلاً عن مصادر عسكرية أمريكية إن طائرتين من نوع [OH- Kiowa٥٨] أسقطتا في كمين للمقاومة في المنطقة الشمالية الشرقية من الفلوجة، وأضافت المصادر الأمريكية أن مروحيتين من نوع بلاك هوك [UH-٦٠] أسقطتا قرب منطقة التاجي يوم الجمعة ١٢ \١١ [كانت مفكرة الإسلام قد أعلنت سقوط ٦ طائرات في الفلوجة وضواحيها يوم الجمعة ١٢\١١].

١٩- شبكة فوكس الإخبارية تنقل كلام أحد الجنود الأمريكيين المصابين في الفلوجة يوم ١٤\١١ يقول الجندي ' رايان شابمان' : ' بصراحة شديدة من الصعب جداً محاربة رجال مستعدين للموت، ويقبلون عليه'!!

٢٠- يوم ١٧\١١ كذب مراسل وكالة الأنباء الفرنسية ما أشاعته القوات الأمريكية عن مقتل ألف مقاوم في الفلوجة. [وكانت مفكرة الإسلام قد نفت هذه الأعداد تماماً، وأوضحت أن القتلى هم من المدنيين من الصبيان والنساء والشيوخ].

٢١- قالت سي إن إن يوم ١٤ \١١ أن قوات الاحتلال لا تذكر أعداد القتلى من المدنيين أبداً!!

٢٢- يوم ١٥ \١١ قالت سي إن إن نقلاً عن الجنرال ساتلر قائد قوات المشاة الأمريكية: أن قواته اعتقلت قرابة ألف شخص إلا إنه يتوقع أن يفرج عن أكثرهم.

[والسؤال هنا كيف يفرج عن أكثرهم وهم من المقاومة - على حد زعمهم -؟، ويؤكد ذلك ما أعلنت عنه مفكرة الإسلام من أن المعتقلين هم من المدنيين والنساء والأطفال].

٢٣- يوم ١٥ \١١ تنشر نيوزويك في صفحتها الحادية عشر قول مراسلها: ' رغم الإعلان عن القتلى من المقاومين غير أنه لا يمكن العثور في أي مكان على جثث المقاومين في الفلوجة، ويبقى ذلك لغز محير عجيب!

٢٤- نقلت الفرنس برس يوم ١٧ \١١ قول الجندي في قوات المارينز تريفيس شيفر الذي جرح في يده بشظايا قذيفة: 'إنه قتال من سطح إلى سطح نرى فيه القناصة 'الإرهابيون ' يقفزون من مبنى إلى آخر'.

وتابع الجندي: 'بصراحة أقول: إنني دهشت لعدد قطع الأسلحة التي كانت لديهم'، مشيراً إلى رشاشات وأسلحة أوتوماتيكية للمقاتلين، وسيارات مفخخة'، كما نقلت الوكالة قول الكولونيل مايكل ريجنر قائد عمليات قوة مشاة البحرية الأمريكية: 'إن المقاتلين في الفلوجة يواصلون القتال حتى الموت، ويجعلون حياة عناصر المارينز والجنود صعبة للغاية!!'.

٢٥ - صحيفة هاآرتس الصهيونية يوم ١٧ \١١ تتهكم على الحرب في الفلوجة قائلة: ' إن الأمريكيين يعلنون بين الحين والآخر أنهم احتلوا قرابة ٨٠% من الفلوجة في وقت تشير فيه تقارير الهلال الأحمر أن غالبية القتلى بالفلوجة من الأطفال و المدنيين، بينما لا يزال ' المتمردون' يسيطرون

على معظم مساحات المدينة، ذلك أن القوات الأمريكية تستخدم أسلوباً خاطئاً في التعامل مع المعركة في الفلوجة، عن طريق القصف الجوي الذي يؤدي إلى تدمير مناطق الحضر، وقتل الكثير من المدنيين، بينما الهدف الحقيقي لا يتم إصابته، وأنهت الصحيفة تقريرها بمطالبتها لواشنطن بالبحث عن حل لما أسمته بمشكلتها الكبيرة في الفلوجة؛ بدلاً من ارتداء ثياب الوعظ الأخلاقية لأي نزاع في العالم'!!

٢٦- نيويورك تايمز يوم ١٨ \ ١١ تنشر تقريراً سرياً أعده عسكريون أمريكيون لتقييم الوضع في الفلوجة، يقول التقرير: ' إن النجاح النهائي في الفلوجة ليس حاسماً، وأن احتمالات عودة المقاومة إليها قوي للغاية '.

٢٧- أعلنت فضائية العربية والجزيرة يوم ١٨ \ ١١ أن المقاومة تسيطر على حي الشهداء، وأنه تحدث هناك أعنف اشتباكات شهدتها الفلوجة [وكانت مفكرة الإسلام قد أكدت تلك الأنباء قبلها بما يزيد عن عشر ساعات كاملة].

٢٨ - صحيفة شيكاغو تريبيون الأمريكية تنشر يوم ١٩\١١ تقريراً بعنوان: ' تعتيم إعلامي واسع حول الخسائر الأمريكية في الفلوجة '

٢٩- ذكرت صحيفة هاآرتس الصهيونية يوم ١٩\١١ ما قاله الحاخام 'أرفيننج ألسون' - حاخام بمدينة نيويورك الأمريكية - عن عدد الجنود اليهود في الفلوجة قائلاً: إنهم حوالي ١٠٠٠ جندي منهم بعض الضباط الكبار. [وكانت مفكرة الإسلام قد نشرت أخباراً عن تواجد يهودي كبير في الهجمة على الفلوجة].

٣٠ - يوم ٢١ \ ١١ نشرت صحيفة ' آى إيه آر نوتيثياس ' الإسبانية تقريراً يشير إلى وجود أكثر من ٤٠٠ قتيل أمريكي و٧٠٠ جريح وإحدى عشر مروحية وطائرتين إف ١٦، وخمس طائرات تجسس بدون طيار، ومروحية نقل من طراز شينوك تقل ٦٠ جندياً، وإحدى عشر دبابة من طراز أبرامز، وعدد من العربات المدرعة، وسيارات الهمر، كخسائر أمريكية في معركة الفلوجة الحالية، واستندت في تقريرها إلى مصادر عالمية موثوقة. [وكانت مفكرة الإسلام قد نشرت قبلها بكثير نقلاً عن مجلس شورى مجاهدي الفلوجة بياناً يطابق هذا العدد].

٣١ - وكالة الأنباء الصينية 'شينخوا' تعلن يوم ٢٢\١١ أن المقاومة العراقية تسيطر على ٦٠% من مدينة الفلوجة، وتحيط بعشرات الجنود الأمريكيين من المارينز في حي الجولان.

٣٢ – كشف الجنرال مايك جاكسون قائد السلاح البري البريطاني أنه سيتم سحب الفرقة البريطانية، ولن تستبدل بفرقة أخرى، وقال جاكسون في حديث مع صحيفة 'الإندبندنت' البريطانية يوم ٢٢\١١: سيتم سحب كتيبة 'بلاك ووتش' خلال أسابيع، ولن يتم استبدالها بأخرى في معسكر 'كامب دوغوود' التي تم نشر الكتيبة فيها قرب بغداد، [وكانت مفكرة الإسلام قد أعلنت أن الكتيبة البريطانية قد تعرضت لهجمات راح ضحيتها عشرات الجنود، وجرح منها أعداد كبيرة].

٣٣– وصف الخبير الاستراتيجي الفرنسي ' باسكال يونيفاس ' مدير معهد الأبحاث الاستراتيجية في باريس الحرب على الفلوجة بقوله: ' هي حرب بدأت خاسرة استراتيجياً، وستنتهي خاسرة عسكرياً '.

٣٤- الشيخ الكبيسي يعلن أن المقاومة تسيطر على أكثر من ٦٠% من الفلوجة. [كانت مفكرة الإسلام قد نشرت يوم ١١\١٠ أن المقاومة تسيطر على ٧٠% من مدينة الفلوجة].

٣٥ - كشف الشيخ 'عبد الله عواد' عضو هيئة علماء المسلمين بالعراق يوم ١١\٢٤ عن حقيقة وجود علامات أكيدة لانتصار المقاومة العراقية على قوات الاحتلال في مدينة الفلوجة تبدو في الأفق.

٣٦ – نشرت وكالات الأنباء يوم ١٢\٣ آخر إحصائية صدرت من البنتاجون حول الخسائر في العراق، والتي بلغت - على حد قول البنتاجون ! - عشرة آلاف وخمسمائة جندي بين قتيل وجريح [أي بمعدل ١٥ جندياً يومياً].

[يلاحظ عدم اعتبار قوات المرتزقة الأمريكية في عداد الإحصاءات الأمريكية الرسمية، وهم الغالبية العظمى في القوات المحتلة، وهو ما نشرت به تقارير رسمية أعلنتها صحيفتا واشنطن بوست ونيويورك تايمز].

٣٧ – أعلنت شبكة سي بي إس يوم ١٢\١ أنه لم تصدر بيانات رسمية عن البنتاجون حول الخسائر الأمريكية منذ أسبوع كامل، وتتساءل الشبكة عن أسباب ذلك، وترجعه للتضارب الكبير في أعداد القتلى الأمريكيين في الفلوجة بين المصادر العالمية المختلفة.

٣٨ – نشرت صحيفة الأوبزرفر البريطانية يوم ١٢\٢ أن القوات البريطانية قد أخلت ثلاثة آلاف جندي جريح من جنودها في العراق - وهو ما يمثل أكثر من ثلث عدد الجيش البريطاني في العراق.

٣٩ – أعلنت القوات الأمريكية المحتلة أنها وجدت معملاً كيميائياً في الفلوجة، وعرضت صوراً له قائلة إن المقاومة قد استخدمته في عمليات هجومية، [وكانت مفكرة الإسلام قد نشرت أخباراً أكيدة عن هجوم من المقاومة لإحدى القواعد الأمريكية بمواد كيماوية كرد لهجوم القوات الأمريكية بالكيماويات على المدنيين في الفلوجة]، وإن كانت الخيبة الكبيرة قد لحقت بهم عندما أعلن بليكس رئيس المفتشين المستقيل في ١١\٢٦عن استبعاده أن تكون الصور المعروضة من قبل الأمريكيين هي صور معمل كيمياوي!

٤٠ – أعلن الشيخ الكبيسي رئيس قسم العلاقات العامة في هيئة علماء المسلمين في العراق في حديث هاتفي نقلته الجزيرة الإخبارية يوم ١١\٢٧: ' أنه إلى اللحظة لا يزال أكثر من نصف الفلوجة بأيدي المقاومة العراقية، وسخر من التقارير التي كانت تزعم القضاء على المقاومة في الفلوجة في يومين، وقال: إن علامات النصر بادية قريبة - إن شاء الله -'.

٤١ – نشرت صحيفة ' آى إيه أرنيثياس ' الإسبانية تقريراً يوم ٥\١٢ قالت فيه: ' إن العسكريين الأمريكيين أنفسهم يعترفون بأنهم لم يتمكنوا من هزيمة المقاومة التي تسيطر على مناطق حيوية ومؤثرة، وفي كل بقعة من المدينة، والتي تظهر وتختفي كالأشباح، مسببين خسائر مادية وخسائر كبيرة في الأرواح في صفوف المارينز، الأمر الذي يؤكد أن استراتيجية الحرب في الفلوجة قد فشلت!!'.

وما من شك أن التقارير الإخبارية بهذا الخصوص لا يمكن حصرها بسهولة، وليس يعني هذا أننا نستمطر المصداقية من لدن أناس يعرفون الإعلام بأنه مهنة الكذب، فقط نقولها وبكل أسف: أننا بحاجة دوماً لأن نحشد مثل هذه الشواهد فقط لأولئك الذين لا تشم أنوفهم إلا رائحة حبر وكالات الأنباء الصهيونية، ويصمون آذانهم أن تسمع إلا شهادات الجزار، وتريد أن تحرم الضحية حتى أن يجري الحق على لسانها قبل أن يتبعه الدم المنساب.

((ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز))

ونسأل الله العلي القدير للإعلام الإسلامي نهضة رائدة، وللقراء توفيقاً بالدعاء لحماة الثغور في الفلوجة وغيرها، ملتمساً كاتبه في آخر الأمر دعوات القراء الصالحات.

المصدر :

http://www.islammemo.cc/taqrer/one_news.asp?IDnews٢٨٥

أسباب النصر الحقيقية وصفات من ينصرهم الله

محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله –

الحمدُ لله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ، وأصحابه، والتابعينَ لهم بِإحسانٍ وسلَّم تسليماً، أما بعد:

فلقد نصرَ اللهُ المؤمنينَ في مَواطنَ كثيرةٍ في بدرٍ، والأحزابِ، والفتحِ، وحُنينٍ، وغيرها:

١– نصرَهُمُ اللهُ وفاءً بوَعدِه: {... وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)(الروم: من الآية٤٧)} [سورة الروم].)إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (غافر:٥٢)

٢– نَصرَهُمُ اللهُ لأنهم قائمونَ بدينه وهو الظَّاهرُ على الأديانِ كلِّها: فمن تمسك به فهو ظاهرٌ على الأممِ كلِّها: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[٣٣]} [سورة التوبة].

٣– نصَرَهم اللهُ لأنهم قاموا بأسبابِ النصرِ الحقيقيَّةِ المادَيةِ منها والمَعْنَويةِ: فكان عندهم من العَزْمِ ما بَرَزُوا به على أعْدائهم أخذاً بتوجيه اللهِ لَهُم، وتَمشِّياً مع هديهِ وتثبيتِه إياهم: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا

وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [١٣٩] إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّلِمِينَ[١٤٠]} [سورة آل عمران]. {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً[١٠٤]} [سورة النساء]. {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ[٣٥]}[سورة محمد]. فكانوا بهذِه التَّقْويَةِ والتثبيتِ يَسيرونَ بقُوةٍ وعزمٍ وجدٍّ.

وأخَذُوا بكِلِّ نصيبٍ من القُوة امتثالاً لقولِ ربِّهم: {وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ[٦٠]} [سورة الأنفال] من القُوَّةِ النفسيةِ الباطنةِ، والقوةِ العسكريةِ الظاهرة.

٤- نصرهم الله – تعالى –لأنهم قامُوا بنصر دينه: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. فوعدَ اللهُ بالنصر من ينصرُه وعداً مؤكداً بمؤكدات لفظية ومَعنوية: أما المؤكدات اللفظية: فهي القسمُ المقدَّرُ؛ لأنَّ التقديرَ: واللهِ لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ. وكذلك اللامُ والنونُ في: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} كلاهُما يفيدُ التوكيدَ.

وأمَّا التوكيدُ المعنويُّ: ففي قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} فهو – سبحانه – قَويٌّ لا يضْعُفُ، وعزيزٌ لا يذِلُّ، وكلُّ قوةٍ وعزةٍ تُضَادُّهُ ستكونُ ذُلاً وضعفاً. وفي قوله: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} تثبيتٌ للمؤمِنِ عندما يستَبعِدُ النصر في نَظَره لِبُعد أسبابه عندَه، فإنَّ عواقبَ الأمورِ لله وحْدَهُ يغَيِّر – سبحانه – ما شاءَ حَسْبَ ما تَقْتَضِيه حكمَتُه.

أوصاف من يستحقون النصر:

وفي هاتين الآيتين: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. بيانُ الأوْصافِ التي يُستحقُّ بها النصرُ، وهي أوصافٌ يَتَحَلَّى بها المؤمنُ بعدَ التمكينِ في الأرضِ، فلا يُغْرِيه هذا التمكينُ بالأشَرِ والْبَطرِ والعلوِّ والفسادِ، وإنما يَزيدُه قوةً في دين الله وتَمسُّكاً به.

الوصفُ الأول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. والتمكينُ في الأرض لا يكونُ إلاّ بعْدَ تحقيق عبادةِ الله وحْدَه كما قال – تعالى –: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[٥٥]}[سورة النور]. فإذا قام العبدُ بعبادَةِ الله مخلصاً له في أقْوَالِه، وأفعالِه، وإرادَتِه لا يريدُ بها إلا وجه الله والدار الآخرة، ولا يريد بها جاهاً، ولا ثناءً من الناسِ، ولا مالاً، ولا شيئاً من الدُّنيا، واستمَرَّ على هذِه العبادة المخْلصة في السَّراء والضَراء والشِّدةِ والرَّخاءِ؛ مكَّنَ الله له في الأرض.

إذَنْ فالتمكينُ في الأرضَ يستلزمُ وصفاً سابقاً عليه وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعد التمكين والإخلاص يَكُونُ:

الوصفُ الثاني: وهو إقامةُ الصلاةِ: بأن يؤدِّيَ الصلاة على الوجهِ المطلوب منه، قائماً بشروطِها وأركانِها وواجباتِها، وتمامُ ذلك القيامُ بمُسْتَحَبَّاتِها، فيحسنُ الطُّهورَ، ويقيمُ الركوعَ والسجودَ والقيامَ والقعودَ، ويحافَظُ على الوقتِ وعلى الجمعةِ والجماعاتِ، ويحافظُ على الخشوعِ وهو حضورُ القلبِ وسكونُ الجوارح، فإنَّ الخشوعَ رُوحُ الصلاةِ ولُبُّها، والصلاةُ بدونِ خشوعٍ كالجسمِ بدون روحٍ، وعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ: [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا، رواه أبو داود وأحمد.

الوصفُ الثالث: إيتاءُ الزكاةِ: {... وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ[٤٣]}[سورة البقرة]. بأن يعْطوُهَا إلى مستحقِّيها طِّيبةً بها نفوسُهم، كاملةً بدونِ نقصٍ يبتغُون بذلك فضلاً من الله ورضواناً، فيُزكُّون بذلك أنفسَهُم، ويطهِّرون أموالَهم، وينفعونَ إخوانهم من الفقراءِ والمساكينِ وغيرهم من ذوي الحاجات.

الوصفُ الرابعُ: الأمر بالمعروفِ: {وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ} والمعروفُ: كلُّ ما أمرَ اللهُ به ورسولُه من واجباتٍ ومستحبات، يأمرون بذلك إحياءً لشريعةِ الله، وإصلاحاً لعباده، واستجلاباً لرحمتِهِ ورضوانِهِ، فالمؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُ بعضُه بعضاً، فكما أنَّ المؤمنَ يحبُّ لنفسِهِ أَنْ يكونَ قائماً بطاعَةِ ربِّه، فكذلك يجبُ أن يحبَّ لإخوانه من القيام بطاعةَ الله ما يحبُّ لنفسه.

والأمرُ بالمعروفِ عن إيمانٍ وتصديقٍ يستلزمُ أن يكونَ الآمر قائماً بما يأمرُ به؛ لأنه يأمرُ به عن إيمانٍ واقتناعٍ بفائدتِهِ وثمراتِهِ العاجلة والآجلةِ.

الوصفُ الخامسُ: النَّهيُ عن المنكرِ: {وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} والْمُنْكَرُ: كلُّ ما نهى اللهُ عنه ورسولُه من كبائر الذنوب وصغائرِها، مما يتعلقُ بالعبادةِ، أو الأخلاق، أو المعاملةِ؛ ينْهونَ عن ذلك كلِّه صِيانةً لدينِ الله، وحمَايةً لِعباده، واتقاءً لأسْبابِ الفسادِ والعقوبةِ.

فالأمرُ بالمعروفِ والنَهْيُ عن المنكر دعَامَتَانِ قَوِيَّتانِ لبقاءِ الأمَّةِ وعزتِها ووحْدَتِها حتى لا تتفرَّق بها الأهواءُ، وتَشَتَّتَ بها المسالكُ؛ ولذلك كانَ الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر من فرائِضِ الدين على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ مع القدرةِ: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[١٠٤]وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٠٥]}[سورة آل عمران].

فَلَوْلا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر لتَفَرَّق الناسُ شِيعاً، وتمزَّقوا كل ممزَّق كلٌّ حزبٍ بما لَديْهِمْ فرحون.

وبه فُضِّلت هذه الأمةُ على غيرها: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ[١١٠]}[سورة آل عمران].

وبتركه: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[٧٨]كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[٧٩]}[سورة المائدة].

فهذه الأوصافُ الخمسةُ متى تحقَّقتْ مع القيامِ بما أرشدَ الله إليه من الْحَزم، والعزيمَةِ، وإعْدادِ القُوَّةِ الحسيَّة؛ حصل النصرُ بإذنِ الله: {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٦]يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[٧]}[سورة الروم]. فيَحْصَلُ للأمَّةِ من نصْر الله ما لَمْ يَخْطُرْ لهم على بالٍ.

وإن المؤمنَ الواثقَ بوعدِ الله ليَعْلَمُ أنَّ الأسباب المادِّيَةَ مَهْما قويَتْ فليستْ بشيء بالنسبةِ إلى قُوةِ الله الذي خلقها وأوْجَدَها:

افْتَخَرَتْ عادٌ بقوَّتِها وقالُوا منْ أشدُّ منا قوةً، فقال الله – تعالى –: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[١٥]فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ[١٦]}[سورة فصلت].

وافْتَخر فرعونُ بمُلكِ مصْرَ وأنْهَاره التي تْجري مِنْ تحته فأغرقَه الله بالماءِ الَّذِي كان يفْتَخرُ بمِثْلِهِ، وأوْرث مُلْكهُ مُوسى وقومَه، وهو الَّذِي في نظر فرعونَ مَهِيْن ولاَ يكادُ يُبِين.

وافتَخرت قريشٌ بعظَمتها وَجَبروتها، فخرجوا من ديَارهم برؤسائِهم وزعمائِهم بطراً ورئاءَ الناس يقولون: 'لا نَرْجعُ حتى نقدمَ بَدْراً، فننحرَ فيها الجزور، ونَسْقِيَ الخمورَ، وتعزفَ الْقِيانُ، وتسمعَ بنا العربُ فلا يزالُون يهابوننَا أبداً'. فَهُزِمُوا على يد النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه شرَّ هزيمةٍ، وسُحبت جثثُهم جيفاً في قليبِ بدرٍ، وصاروا حديثَ الناس في الذُّلِّ والهوانِ إلى يوم القيامةِ.

ونحنُ المسَلمين في هذا العصرِ لو أخَذْنَا بأسباب النصر، وقُمْنَا بواجبِ ديننا، وكنَّا قدوةً لا مُقْتَدين، ومتبوعِين لا أتباعاً لِغَيرنا، وأخَذْنَا بوسائِل الحرب الْعَصْرِيَّةِ بصدقٍ وإخلاصٍ؛ لنصَرنَا الله على أعدائنا كما نصر أسلافَنا. صدقَ الله وعْدَه، ونصر عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحْدَه. {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[٢٣]}[سورة الفتح].

اللَّهُمَّ هييء لنا منْ أسبابِ النصرِ ما به نَصْرُنَا وعزتُنا وكرامتُنا، ورفعةُ الإسلام، وذُل الكفرِ والعصيانِ؛ إنك جوادٌ كريمٌ، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ، وعلى آلِهِ، وصحبِه أجمَعين.

٢١ شعبان ١٤٢٥هـ - ٥ أكتوبر ٢٠٠٤ م

المصدر: http://links.islammemo.cc

أسباب النصر الحقيقية وصفات من ينصرهم الله

محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -

الحمدُ لله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ، وأصحابه، والتابعينَ لهم بإحسانٍ وسلَّم تسليماً، أما بعد:

فلقد نصرَ الله المؤمنينَ في مَواطنَ كثيرةٍ في بدر، والأحزاب، والفتحِ، وحُنين، وغيرها:

١- نصرَهُمُ اللهُ وفاءً بوَعدِه: {... وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)(الروم: من الآية٤٧)} [سورة الروم].)إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (غافر:٥٢)

٢- نَصرَهُمُ اللهُ لأنهم قائمونَ بدينه وهو الظَّاهرُ على الأديانِ كلِّها: فمن تمسك به فهو ظاهرٌ على الأممِ كلِّها: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[٣٣]} [سورة التوبة].

٣- نصَرَهم اللهُ لأنهم قاموا بأسبابِ النصرِ الحقيقيَّةِ المادَيةِ منها والمَعْنَويةِ: فكان عندهم من العَزْمِ ما بَرَزُوا به على أعْدائهم أخذاً بتوجيه الله لَهُم، وتَمشِّياً مع هديهِ وتثبيتِه إياهم: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [١٣٩] إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّلِمِينَ[١٤٠]} [سورة آل عمران]. {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً[١٠٤]} [سورة النساء]. {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ[٣٥]}[سورة محمد]. فَكانوا بهذِه التَّقْوِيَةِ والتثبيتِ يَسيرونَ بقُوةٍ وعزمٍ وجدٍّ.

وأخَذُوا بكلِّ نصيبٍ من القُوة امتثالاً لقولِ ربِّهم: {وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ[٦٠]} [سورة الأنفال] من القُوَّةِ النفسيةِ الباطنةِ، والقوةِ العسكريةِ الظاهرة.

٤- نصرهم الله - تعالى -لأنهم قامُوا بنصر دينه: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. فوعدَ اللهُ بالنصر من ينصرُه وعداً مؤكداً بمؤكدات لفظية ومَعنوية: أما المؤكدات اللفظية: فهي القسمُ المقدَّرُ؛ لأنَّ التقديرَ: واللهِ لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ. وكذلك اللامُ والنونُ في: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} كلاهُما يفيدُ التوكيدَ.

وأمَّا التوكيدُ المعنويُّ: ففي قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} فهو - سبحانه - قَويٌّ لا يضْعُفُ، وعزيزٌ لا يذِلُّ، وكلُّ قوةٍ وعزةٍ تُضَادُّهُ ستكونُ ذُلاً وضعفاً. وفي قولِه: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} تثبيتٌ للمؤمِنِ عندما يسْتَبعِدُ النصر في نَظَرِه لِبُعد أسبابِه عندَه، فإنَّ عواقبَ الأمورِ لله وحْدَهُ يغَيِّر - سبحانه - ما شاءَ حَسْبَ ما تَقْتَضِيه حكمَتُه.

أوصاف من يستحقون النصر:

وفي هاتين الآيتين: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. بيانُ الأوْصافِ التي يُستحقُّ بها النصرُ، وهي أوصافٌ يَتَحَلَّى بها المؤمنُ بعدَ التمكين في الأرضِ، فلا يُغْرِيه هذا التمكينُ بالأشَرِ والْبَطرِ والعلوِّ والفسادِ، وإنما يَزيدُه قوةً في دين الله وتَمسُّكاً به.

الوصفُ الأول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[٤١]}[سورة الحج]. والتمكينُ في الأرض لا يكونُ إلاّ بعْدَ تحقيق عبادةِ الله وحْدَه كما قال - تعالى -: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[٥٥]}[سورة النور]. فإذا قام العبدُ بعبادَةِ الله مخلصاً له في أقْوَالِه، وأفعالِه، وإرادَتِه لا يريدُ بها إلا وجه الله والدار الآخرة، ولا يريد بها جاهاً، ولا ثناءً من الناسِ، ولا مالاً، ولا شيئاً من الدُّنيا، واستمرَّ على هذِه العبادة المخْلصة في السَّراء والضَراء والشِّدةِ والرَّخاءِ؛ مكَّنَ الله له في الأرض.

إذَنْ فالتمكينُ في الأرضَ يستلزمُ وصفاً سابقاً عليه وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعد التمكين والإخلاص يَكُونُ:

الوصفُ الثاني: وهو إقامةُ الصلاةِ: بأن يؤدِّيَ الصلاة على الوجهِ المطلوب منه، قائماً بشروطِها وأركانِها وواجباتِها، وتمامُ ذلك القيامُ بمُسْتَحَبَّاتِها، فيحسنُ الطُّهورَ، ويقيمُ الركوعَ والسجودَ والقيامَ والقعودَ، ويحافَظُ على الوقتِ وعلى الجمعةِ والجماعاتِ، ويحافظُ على الخشوعِ وهو حضورُ القلبِ وسكونُ الجوارح، فإنَّ الخشوعَ رُوحُ الصلاةِ ولُبُّها، والصلاةُ بدونِ خشوعٍ كالجسمِ بدون روحٍ،

وعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا، رواه أبو داود وأحمد.

الوصفُ الثالث: إيتاءُ الزكاةِ: {... وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ[٤٣]}[سورة البقرة]. بأن يعْطوُهَا إلى مستحقِّيها طِّيبةً بها نفوسُهم، كاملةً بدونِ نقصٍ يبتغُون بذلك فضلاً من الله ورضواناً، فيُزكُّون بذلك أنفسَهُم، ويطهِّرون أموالَهم، وينفعونَ إخوانهم من الفقراءِ والمساكينِ وغيرهم من ذوي الحاجات.

الوصفُ الرابعُ: الأمر بالمعروفِ: {وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ} والمعروفُ: كلُّ ما أمرَ اللهُ به ورسولُه من واجباتٍ ومستحبات، يأمرون بذلك إحياءً لشريعةِ الله، وإصلاحاً لعباده، واستجلاباً لرحمتِهِ ورضوانِهِ، فالمؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُ بعضُه بعضاً، فكما أنَّ المؤمنَ يحبُّ لنفسِهِ أَنْ يكونَ قائماً بطاعَةِ ربِّه، فكذلك يجبُ أن يحبَّ لإخوانِه من القيام بطاعة الله ما يحبُّ لنفسه.

والأمرُ بالمعروفِ عن إيمانٍ وتصديقٍ يستلزمُ أن يكونَ الآمر قائماً بما يأمرُ به؛ لأنه يأمرُ به عن إيمانٍ واقتناعٍ بفائدتِهِ وثمراتِهِ العاجلة والآجلةِ.

الوصفُ الخامسُ: النَّهيُ عن المنكرِ: {وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} والمُنْكَرُ: كلُّ ما نهى اللهُ عنه ورسولُه من كبائر الذنوبِ وصغائرِها، مما يتعلقُ بالعبادةِ، أو الأخلاق، أو المعاملةِ؛ ينْهونَ عن ذلك كلِّه صِيانةً لدينِ الله، وحمايةً لِعباده، واتقاءً لأسْبابِ الفسادِ والعقوبةِ.

فالأمرُ بالمعروفِ والنَهْيُ عن المنكر دعَامَتَانِ قَوِيَّتانِ لبقاءِ الأمَّةِ وعزتِها ووحْدَتِها حتى لا تتفرَّق بها الأهواءُ، وتَشَتَّتَ بها المسالكُ؛ ولذلك كانَ الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر من فرائِضِ الدين على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ مع القدرةِ: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[١٠٤]وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٠٥]}[سورة آل عمران].

فَلَوْلا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر لتَفَرَّق الناسُ شِيعاً، وتمزَّقوا كل ممزَّق كلُّ حزبٍ بما لَدَيْهِمْ فرحون.

وبه فُضِّلت هذه الأمةُ على غيرها: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ[١١٠]}[سورة آل عمران].

وبتَركه: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[٧٨]كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[٧٩]}[سورة المائدة].

فهذه الأوصافُ الخمسةُ متى تحقَّقتْ مع القيامِ بما أرشدَ الله إليه من الْحَزمِ، والعزيمَةِ، وإعْدادِ القُوَّةِ الحسيَّة؛ حصل النصرُ بإذنِ الله: {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٦]يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[٧]}[سورة الروم]. فيَحْصَلُ للأمَّةِ من نصْر الله ما لَمْ يخْطُرْ لهم على بال.

وإن المؤمنَ الواثقَ بوعدِ الله ليَعْلمُ أنَّ الأسبابَ المادِّيةَ مَهْما قويَتْ فليستْ بشيء بالنسبةِ إلى قُوةِ الله الذي خلقها وأوْجَدَها:

افْتخَرَتْ عادٌ بقوَّتِها وقالُوا منْ أشدُّ منا قوةً، فقال الله – تعالى –: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[١٥]فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ[١٦]}[سورة فصلت].

وافْتخر فرعونُ بمُلكِ مصْرَ وأنْهاره التي تْجري مِنْ تحته فأغرقَه الله بالماءِ الَّذِي كان يفْتَخرُ بمثْلِهِ، وأوْرث مُلْكهُ مُوسى وقومَه، وهو الَّذِي في نظر فرعونَ مَهِيْن ولاَ يكادُ يُبِين.

وافتَخرت قريشٌ بعظَمتها وَجَبروتِها، فخرجوا من ديَارهم برؤسائِهم وزعمائِهم بطراً ورئاءَ الناس يقولون: 'لا نَرْجعُ حتى نقدمَ بَدْراً، فننحرَ فيها الجزور، ونَسْقِيَ الخمورَ، وتعزفَ الْقِيانُ، وتسمعَ بنا العربُ فلا يزالُون يهابوننَا أبداً'. فَهُزمُوا على يد النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه شرَّ هزيمةٍ، وسُحبت جثثُهم جيفاً في قليبِ بدرٍ، وصاروا حديثَ الناس في الذُّلِّ والهوانِ إلى يوم القيامةِ.

ونحنُ المسَلمين في هذا العصرِ لو أخَذْنَا بأسباب النصر، وقُمْنَا بواجبِ ديننا، وكنَّا قدوةً لا مُقْتَدين، ومتبوعِين لا أتباعاً لِغَيرنا، وأخَذْنَا بوسائِل الحرب الْعَصْرِيَّةِ بصدقٍ وإخلاصٍ؛ لنصَرنَا الله على أعدائنا كما نصر أسلافَنا. صدقَ الله وعْدَه، ونصر عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحْدَه. {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[٢٣]}[سورة الفتح].

اللَّهُمَّ هيىء لنا منْ أسبابِ النصرِ ما به نَصْرُنَا وعزتُنا وكرامتُنا، ورفعةُ الإسلام، وذُل الكفرِ والعصيانِ؛ إنك جوادٌ كريمٌ، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ، وعلى آلِهِ، وصحبه أجمَعين.

٢١ شعبان ١٤٢٥هـ – ٥ أكتوبر ٢٠٠٤ م

المصدر: http://links.islammemo.cc

أسرى فلسطين .. وثمن النصر

هل يستطيع الفلسطينيون انتزاع حقوقهم دون عناء أو مشقة؟! وهل يمكن أن تنتصر الدعوات بغير البذل والتضحية والثبات على الحق..؟!

إنها سنَّة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، جاء بيانها في قول الله – عز وجـــل – :{الم* أَحَسِـــبَ النَّـــاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[العنكبوت: ١ – ٣].

إذن هو الابتلاء الذي تُمتحن فيه الأمة، وتتميز فيه الصفوف!

إنه طريق طويل فيه من الشدّة واللأواء والجراحات الشيء الكثير، ولا يقوى على تحمل آلامه وعنتـــه إلا المخلصون من أولياء الله.

المخلصون الذين أيقنوا بموعود الله لهم، فبذلوا نفوسهم رخيصة في سبيله – عز وجل – لا يتطلعـــون إلى مغنم أو جاه أو شرف شخصي، بل يرجون ما عند الله والدار الآخرة.

ومن حكمة الله – عز وجل – أن هذا الطريق لو كان يسيراً هيناً لتكاثر فيه المتسابقون من طـــلاب الدنيا، ولتزيَّن به أقوام من أصحاب الأهواء، وصدق المولى – جل وعلا –:{لَوْ كَانَ عَرَضًـــا قَرِيبًـــا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} [التوبة: ٤٢].

ونحسب أن الأسرى والأسيرات الفلسطينيين في سجون العدو اليهودي ممَّن ضرب أروع الأمثلـــة في الثبات والصبر والعض على الدين بالنواجذ، بعيداً عن المزايدات السياسية، أو الادعاءات الحزبية.

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

حتى لا يتأخر النصر

د. عبد الكريم بكار

هل طال النفق الذي نسير فيه أكثر مما ينبغي وأكثر مما هو متوقع؟ وهل طال انتظارنا للنصر الكـــبير والإصلاح الشامل والازدهار العام أكثر مما كنا نظن؟

أعتقد أن ذلك صحيح. ويمكن لكل ذلك أن يستمر عقوداً أو قروناً. وهنـــاك إمكانيـــة للانتكـــاس والارتداد على الأعقاب؛ فالتدهور لا قعر له، ولا حدود تجعله يتوقف.

لماذا لا يقدُم البشير وينبلج الفجر الجديد؟

ربما كان السؤال الأكثر دقة: لماذا يقدُم البشير ويلوح النصر الحاســم؛ ونحـــن لم نغيِّـــر في أنفســـنا وسلوكاتنا وعلاقاتنا، ولا نشعر أننا نتقدم بخطى ثابتة في الاتجاه الصحيح؟

إن التخلص من وضعية الشَّرْذَمة والانكسار والوهن يحتاج إلى الكثير من العمل والكدح، ويحتاج إلى الكثير من العلم والفهم، كما يحتاج إلى التوقف عن الممارسات السيئة أو بالغة السوء. وأود هنـــا أن أشير إلى الملمحين الآتيين:

١ – علينا أن نكف عن ممارسة دور الضحية ودور المظلومين الذين اعتُدي عليهم، وسُلبت حقوقهم. الأمة تعزو تخلفها إلى الاستعمار القديم والجديد، والمدارس تعزو إخفاقها في تخريج جيل يعرف ويحب

المعرفة إلى تقصير الأسر أو تقصير الجهات العليا في إمدادها بحاجاها، والموظف المفصول من وظيفته يشكو ظلم رؤسائه...وهكذا فإنك لا تواجه إلا المظلومين، ولا تواجه ظالمين أو معتدين.كل واحد فينا يذكر محاسن ذاته، ويتحدث عن الأعمال العظيمة التي قام بها... ومن النادر أن نجد فرداً أو جماعة أو فريقاً يتحدث عن إخفاقاته أو أخطائه، ومن النادر جداً أن تجد كاتباً من كتّابنا يتحدث عن قصور معالجته لمسألة من المسائل أو يقول: إن هذه المسألة لم تتضح في ذهنه على النحو المطلوب. كل شيء على ما يرام. كلنا ضحايا. نحن لم نفعل إلا ما يجب فعله. والآخرون دائماً هم المذنبون وهم المطالبون بالتغيير!!

لا شك أن شيئاً مما نقوله صحيح، لكن الأصح منه هو ما لا نقوله. الحقيقة المؤكدة هي أن إساءاتنا لأنفسنا هي أكبر بكثير من إساءات الآخرين لنا، بل لا يستطيع الغرب والشرق وكل الخصوم والمنافسين أن يفعلوا بنا أسوأ مما فعلناه بأنفسنا، والله – جل وعلا – قال لمن هم أكرم منا وأتقى وأنبل: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥].

٢ – من غير الممكن الحصول على الازدهار الروحي والعمراني من غير ترسيخ فضيلة (الصدق) في حياتنا، ومن أهم مظاهر الصدق ولوازمه تحمل المسؤولية بأريحية عن أعمالنا. ولهذا فنحن في حاجة إلى أن نرسخ في تقاليدنا الثقافية وفي أعرافنا ونظمنا وقوانيننا سهولة الاعتراف بالخطأ، والاستعداد لتحمل النتائج المترتبة عليه عوضاً عما هو سائد اليوم من القول: كلنا مسؤول، وكلنا مقصِّر، وعلى الجميع أن يصلح شؤونه، إن هذا الكلام صحيح في مجمله، ولكن التعميم الزائد عن الحد يُفضي إلى عكس المطلوب؛ حيث تكون المحصلة النهائية عدم وجود مسؤول تمكن محاسبته. عدم تحديد المسؤولية يعني عدم الخوف من وقوع العقوبة، وعدم الخوف من وقوع العقوبة يعني استمرار الأخطاء واستفحالها، وربما كانت حرية التعبير المنضبط بضوابط الشريعة الغراء هي الشرط الأساس لذلك. إن أجواء الكبت والقهر لا تساعد أبداً على تكوين الأشخاص النبلاء ولا تنشئة جيل يبادر إلى الخير، ويتحمل مسؤولية ما عمل.

والله الموفق.

السنة التاسعة عشرة * العدد ٢٠٥* رمضان ١٤٢٥هـ * أكتوبر/نوفمبر ٢٠٠٤م
المصدر: http://www.albayan-magazine.com

نعم النصر قريب .. لكن في أي اتجاه ؟!!

أحمد فهمي

هذه بعض المسلمات المهمة نقدم لها بين يدي المقال حتى لا تثور بشأنها تساؤلات في ثنايا الكلام، والحديث يتناول مسيرة المقاومة الفلسطينية في الأساس وكيفية قراءة توجهاتها ومستقبلها، وهذه المسلمات هي:

١.المقاومة في فلسطين أكثر حركات المقاومة بسالة وفداء وأكثرها بُعدا عن الشبهات والزلات.

٢. دعم المقاومة في فلسطين حق على كل مسلم ولو بالدعاء.

٣. نجحت فصائل المقاومة في تحقيق إنجازات باهرة في انتفاضة الأقصى.

٤. فصائل المقاومة تمكنت من إعادة التفاؤل بقرب النصر لدى الشعوب المسلمة.

٥. استمرارية المقاومة أصبحت هدف أمة وليست مجرد هدف محلي أو إقليمي..

أما موضوعنا الرئيس فهو: كيف نُقوِّم مسيرة المقاومة الفلسطينية؟ وما هو المنهج الذي نتعامل به مع الأحداث والمتغيرات المتلاحقة بما يجنبنا الإغراق في التفاؤل أو الانغماس في اليأس؟..

إن المنهج الذي ينبغي أن نستخدمه في تقويم مسيرة المقاومة يتضمن محددات شرعية وأخرى واقعية، وجانب كبير من الخلل في تقويم الواقع وقراءة المستقبل يكون مرده إهمال الرؤية الشرعية للأحداث، ونتناول فيما يلي كلا النوعين..

المحددات الشرعية لتقويم مسيرة المقاومة الفلسطينية:

المقاومة الفلسطينية هي جهاد شرعي ضد الاحتلال اليهودي، وهذا الجهاد له مراحله وتدرجاته، وينبغي عند تناول مراحل الجهاد الفلسطيني استحضار الرؤية الشرعية للأحداث وإلا فلن نصل إلى فهم دقيق وحقيق لما يحدث ويمكن أن يحدث، وهذه بعض المحددات وليس كلها - التي نحتاج إلى استيعابها لفهم الأحداث الأخيرة في فلسطين:

أولا: تتبع مشاهد غزوات النبي - صلى الله عليه وسلم - من بدر إلى أحد إلى الخندق ثم فتح مكة - من خلال تناول القرآن الكريم لها - يقدم لنا إرشادات بالغة الأهمية حول طبيعة المراحل المتتالية للمقاومة والصراع، وفي غزوة أحد بالذات لم يكن هناك تعارض بين حفظ مكانة صحابة النبي - عليه الصلاة والسلام - والحديث عن الأخطاء والتجاوزات من خلال ألفاظ واضحة مثل ' فشلتم تنازعتم عصيتم منكم من يريد الدنيا.. ' ويلفت ابن القيم - رحمه الله - إلى معنى بالغ الأهمية في مجال الصراع بين الإسلام والكفر، فيقول في ثنايا تعليقه على أحداث غزوة أحد: 'إن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى لكن تكون لهم العاقبة' [زاد المعاد ج٣ ص ١٧٢].

وعندما نتتبع الآيات التي تناولت الغزوة يتبين لنا أنها تركز على أمرين رئيسين:

أولهما: نقد أداء بعض المسلمين في الغزوة وبيان سبب ما حدث.

وثانيهما: بيان الحكمة الشرعية في ابتلاء المؤمنين..

وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة يتكشف لنا ما في كثرة الحديث عن المقاومة سواء في فلسطين وأيضاً العراق من مبالغة شديدة في إنجازاتها أو في النصر الذي تحققه أو في وصف أدائها وفزع الأعداء منها، والاعتراض ليس على ذلك فأغلبه صحيح بإذن الله، لكن الاعتراض على خلو الخطاب الذي يتنـــاول المقاومة من النقد وبيان الأخطاء وكشف العيوب والزلات، فكل ما تقوم به المقاومة حكيم وكل ما تنفذه ناجح، وأي خطأ أو إخفاق يوصف على الفور بأنه ' تكتيك '، مع أن الله – تعالى –يقـــول: [وتلك الأيام نداولها بين الناس] يعني ليس هناك من حرج في الإقرار بإخفاق أو فشل بل قد يكـــون ذلك لحكمة ربانية كما ذكر ابن القيم..

والعجيب أن يُسقط البعض في هذا المقام النتائج الموضوعية للأرقام بجرأة مدهشـــة فيرفــض إثبـــات دلالاتها، وكأن الأرقام تستخدم فقط لإثبات خسائر العدو وإنجازات المقاومة أما عند الحديث عن أي تراجع في أدائها أو تفوق للعدو يأتي الرد على الفور، إنه ' تكتيك '، والأمر المثير للحـــيرة أن موقـــع حركة حماس على الإنترنت يحفل بمثل هذه الأرقام والإحصاءات التي تبين مسار الانتفاضة، ويحلـــل رموز الحركة الأسباب التي أدت إلى تراجع العمليات الاستشهادية دون أي حرج أو تكلف، فلمـــاذا يأتي الحرج من غيرهم؟..

والطريف أن هكذا أسلوب تحويل التراجعات إلى تكتيكات – يمكن للإدارة الأمريكية علـــى ســـبيل المثال أن تستخدمه لإقناع الرأي العام الأمريكي أن ما يحدث في العراق ليس خسارة، بل هو مجـــرد تكتيك وأرقام القتلى والخسائر المادية لا تدل على أي تراجع..

ثانيا: من الأمور اللافتة أن المنظار الصحيح الذي يمكن به أن نرى بعدنا أو قربنا من النصر الحقيقـــي يختلف تماما عن أي منظار آخر.

وفي ذلك يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى –تعليقا على غزوة أحد أيضا: ' أنه إذا امتحنهم بالغلبـــة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال – تعالى –: [ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة] آل عمران ١٢٣، وقال: [ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئا] التوبة ٢٥، فهو – سبحانه – إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره '[زاد المعاد ج ٣ ص ١٧٣].

وكلامه – رحمه الله – يعني أن الحديث عن الانكسار يتضمن في أحيان كثيرة الحديث عـــن قـــرب النصر، وعندما نستعرض الفترات الزمنية التي تسبق انتصارات المسلمين مباشرة نلاحظ تـــأثير حالـــة الانكسار التي تحدث عنها ابن القيم، فكثيرا ما يصبح النصر قريبا جدا عندما يظنه الناس بعيدا جـــدا [حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا]، ويقول – تعـــالى –: [أم حســـبتم أن

تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب]..

ومن ناحية أخرى كثيرا ما ظن الناس قرب تحقق النصر دون أن يحدث ذلك فعلا كما حدث في غزوة حنين عندما توفرت قناعة تامة بالنصر مع اختلاف الأسباب - ولكن انهزم الناس في أول الغزوة..

وبذلك يمكن القول أننا قد نتفق على قرب النصر، ولكن الخلاف في تحديد اتجاه النصر القريب بناء على اختلاف تقويم الواقع..

مثال: الأسلوب الخاطئ في تقويم الجهاد الأفغاني ضد السوفيت وكثرة الحديث عن النصر والتعبئة الجماهيرية العامة الهائلة التي أعقبها إحباط غير مسبوق على أسوار كابل، وعندما اندلع القتال بين الفصائل تكشفت الخبايا والخفايا التي لم يجرؤ على الجهر بها في أول المسيرة إلا القليل، وتحول بطل تاريخي مثل حكمتيار إلى طالب سلطة وسافك للدماء لا يرعوي!!

ولا يعني ذلك وجود خفايا مماثلة لدى فصائل المقاومة الفلسطينية، بل ما يهمنا هنا التأكيد على المبدأ ذاته وهو أن: الحديث عن الأخطاء والإخفاقات وحالة الانكسار لا يعني أبدا البعد عن النصر أو إثارة الفزع والقلق بين الشعوب المسلمة..

وتكمن الصعوبة هنا في عدم القدرة على تلمس معالم النصر من ملامح التراجع أو الانكسار باستخدام المحددات الشرعية، فيُستبدل ذلك بإجراء عملية تجميل لهذه الملامح لكي تتحول إلى نصر باستخدام منهج توفيقي يعتمد على مبادئ من قبيل: ' كله تمام '..

ثالثا: عندما نقول أن المعركة بين المقاومة الفلسطينية والصهاينة ليست معركة محلية بل هي معركة أمة بأسرها، فإن ذلك ليس من قبيل ترداد الشعارات، ولكن هذا قول له تبعاته، وليس في ميدان الصراع بين الإيمان والكفر في المعتقد الإسلامي مقاعد للمتفرجين، فالجميع ينبغي أن يشارك إما بالحراب وإما في المحراب، وهذا يعني أن الحديث عن تأخر النصر ليس قائمة اتهامات توجه للمقاومة، بل هو لفت نظر للشعوب المسلمة كي تعلم أنها بقصورها عن الرقي إلى مستوى الأمة المجاهدة تُضعف تأثير المقاومة وتفشل جهودها، وقد تكون فصائل المقاومة على مستوى المسؤولية ولكن الشعوب الغافلة عن دينها لا تستحق تحقق النصر.

وهنا يكمن معنى آخر من معاني النصر وهو استمرارية المقاومة حتى مع الخذلان الجماهيري، كما جاء في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: ' لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس ' [رواه مسلم] وحركات المقاومة في فلسطين نجحت مرتين في تقريب أسباب النصر ووضعته بين يدي الأمة ولكن كان الخذلان في المرتين، مرة حين ذهب العرب يتوسلون في أوسلو، وفي الثانية تمثلت العقبة في شرم الشيخ..

رابعا: ينبغي التفريق بين حركات التحرير- من الاحتلال - الإسلامية وغير الإسلامية، وقد أفـــرط كثير من الناس في الاستشهاد بالحركات التحررية لتقويم مسار حركات إســـلامية رغـــم اخـــتلاف المنطلقات والأهداف، وفيما أعلم لا تكاد تكون هناك حركة تحررية إسلامية المنطلق نجحت في تحقيق أهدافها في العصر الحديث، وفي غالب الأحيان يتم سرقة إنجازاتها أو إفشال جهودهـــا أو تعرضـــها للخذلان من أغلب الدول الإسلامية، ورغم ذلك لا يمكن أن نزعم أنهـــا لم تنتصـــر، فالانتصـــار في المفهوم الإسلامي له أبعاد مختلفة، ويمكن الرجوع في ذلك للرسالة القيمة التي كتبها الدكتور ناصـــر العمر ' حقيقة الانتصار '..

محددات واقعية في فهم الأحداث:

هناك ثوابت منهجية لا غنى عنها عند التصدر لتقويم مسيرة المقاومة الفلسطينية بعيدا عن أسر العاطفة وأثر الحماسة الزائدة، ومنها:

أولا: المعلومات لابد أن تكون متساوقة مع عملية التحليل والاستنباط، فالمعلومات بالنسبة للمحلـــل السياسي بمثابة الدابة للمسافر يركبها لقطع الطريق، وعندما يتخلى عنها فإنه يركب الهواء ولا يقطع طريقا ولا يحفظ حقيقا، وعندما يقوم المختصون باستبدال بعض المعلومات ببعض العاطفة يحدث خلل في الرؤية، ويتزايد الخلل بحسب ما يتم الاستغناء عنه من المعلومات في مقابل العاطفة، ويحدث الخلط عندما تتهاوى الفواصل بين ما هو كائن بالفعل وما يجب أن يكون أو ما نحب أن يكون..

ثانيا: في الآونة الأخيرة حدثت طفرة معلوماتية بفعل تعدد المصادر وتنوعها، ونتيجة لذلك تزايـــدت مستويات الوعي والتفاعل مع الأحداث لدى الشعوب مقارنة بعقود سابقة، وقد أدى ذلك إلى تبلور خطاب سياسي إعلامي تفاعل بدوره مع الأحداث وتأثر بتفاعل الجماهير، وأصبح هناك نـــوع مـــن الضغط غير المباشر الذي يمارسه الرأي العام العربي والإسلامي على هذا الخطاب لكي يصبح معـــبرا عن آمال وطموحات الشعوب وليس عن الواقع بغض النظر عن السلبيات أو الإيجابيـــات، وبالتـــالي أصبح كل من يجهر بعيوب أو سقطات أو إخفاقات مغردا خارج السرب..

وقد ساهمت وسائل الإعلام المتعاطفة أو ذات التوجهات الخاصة - على اختلافها في ترســـيخ هـــذه الحالة بصورة كبيرة، بحيث إنها أصبحت تتناول القضايا الساخنة من منظور ' ما يطلبه المســـتمعون ' ولعلنا نذكر الأيام الأولى للغزو الأمريكي للعراق عندما أسرف خبراء عسكريون ومحللون سياســـيون في الحديث عن المفاجآت التي أعدها صدام واستراتيجية الاستدراج التي ينفذها في مواجهة الأمريكيين وعن المقاومة المتوقعة للجيش العراقي وأن الاحتلال الأمريكي سوف يسارع بالهروب عندما يصـــل عدد القتلى إلى ألف عسكري، ثم بعد ذلك كله جاءت اللطمة التي تلقاها الاحتلال مـــن أطـــراف أخرى غير متوقعة وتأسست هيئة علماء المسلمين لتعطي بعدا آخر للمقاومـــة العراقيـــة لم يكـــن في الحسبان، وهذا يلفتنا إلى أنه ليس في صالح المقاومة الإسراف أو المبالغة في الحـــديث عـــن إنجازاتهـــا

وخططها المستقبلية، ولولا الخشية من سوء الفهم لأوردت أمثلة كثيرة جـــدا علـــى تناقضـــات أو تصريحات جزافية أو وعود بالنصر القريب أطلقها كثير من قادة المقاومة في فورة حماستهم و لم يتحقق منها شيء وذلك لا يقدح في مصداقيتهم قطعا – وعندما يصل الأمر إلى مستوى التصريح الصـــريح والمعلن فلا يمكن هنا الحديث عن ' تكتيكات '..

ثالثا: عند الحديث عن أطروحات أو تصورات أو خطط أو استراتيجيات تتبناها إحدى الجهات لابد أن يكون الكلام موثقا من قبل هذه الجهة.. من أدبياهّا ووثائقها أو من تصريحات وأقوال ومقـــالات قادهّا، وإلا فإن الكلام عندها يصبح محصورا في اتجاهين لا ثالث لهما: إما أنه كلام عاطفي مرسل لا مستند له من الواقع، وإما أنه من قبيل الأسرار التي يمكن أن يؤدي كشفها إلى إلحاق الضرر بالمقاومة أو الانتفاضة، وعلى سبيل المثال فإن التعريفات والتوصيفات المتعلقة بالانتفاضة الفلسطينية ومرادفاهّا لابد أن يكون مصدرها الأساس فصائل المقاومة لا غيرها فهذا مقام توصيف ونقل للواقع وليس مقام تنظير، ولا يُعقل أن يتم دبج تعريفات أو توصيفات لم يقلها أو يطلقها قادة المقاومة، ولا يســـوغ أن يتم إعادة صياغة الواقع الفلسطيني ونظم مفرداته ومتغيراته في سياق لم تُسلم بـــه أو تُعلنـــه فصـــائل المقاومة نفسها..

رابعا: وتبقى إشكالية التفرقة بين الانتفاضة والمقاومة قائمة، والذي يهمنا في هذا السياق التأكيد على أن الانتفاضة شكل من أشكال المقاومة، ولا يعني توقفها أو إنهاءها أن المقاومة توقفـــت، ولا ينبغـــي التعامل مع قضية توقف الانتفاضة وكأنها نهاية العالم، والمتابع لتصريحات قادة المقاومة خاصـــة مـــن حماس في الآونة الأخيرة يلحظ ذكرهم للمصطلحين بكثرة في مقام واحد، وربما يكون ذلك للإشارة إلى الفرق بينهما، ونشير هنا إلى أنه من الأجدر أن نترك قادة المقاومة يخططون لمســـيرهم ويحـــددون استراتيجيتهم بأنفسهم دون أن نجبرهم على توجهات بعينها إلا أن ننص على أن ما نطرحه هو مـــن قبيل التوصيات والنصائح..

وإذا كنا نتحدث عن التفرقة بين الاستراتيجي والتكتيكي فلماذا لا يكون ' تبريـــد ' الانتفاضـــة أو إيقافها مؤقتا مجرد إجراء تكتيكي لا يعني أبدا أن المقاومة توقفت، بل ربما يحقق مكاسب سياســـية في حين أن العمليات الفدائية يمكن أن تظل مستمرة كما سبق وحدث في المرحلة بين الانتفاضتين، والتي بلغ من قوة أداء المقاومة أثناءها أن تداعى حكام العالم وعلى رأسهم بل كلينتون في شـــرم الشـــيخ لتدارك الأمر، ونكرر مرة أخرى أن هذا الكلام ليس دعوة لوقف الانتفاضة ولكنه إعـــادة صـــياغة مفاهيمية لكي نكون أكثر مرونة في التعامل مع المتغيرات والأحداث..

خامسا: من التأثيرات السلبية للتناول العاطفي المفرط للمقاومة الفلسطينية تجاهل حقيقـــة أن العـــدو يفكر ويخطط ويناور ويمكر وينجح بعض مكره، فهل يعني ذلك القدح في قدرات المقاومة والتشكيك

بمستقبلها؟ لقد ذكر الله في كتابه الكريم حالة صحابة النبي – عليه الصلاة والسلام – في غزوة الأحزاب بما يتناسب مع طبيعتهم البشرية، فقال – تعالى –[وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا] فلماذا نستنكف أن يتعرض رجال المقاومة لمثل تلك النزعات البشرية؟!.. ينبغي أن نكون واقعيين ونحن نتعامل مع الواقع..

وفي الأخير قد نقول إن النصر قريب ويكون ذلك القول حقيقة لا شك فيها، ولكن مع ذلك يتأخر النصر ولا يتحقق مع تتابع السنين، وتوضيح ذلك يكمن في معنى القرب، حيث المقصود به ليس فقط القرب الزماني ولكن أيضا الإرادي، فيكون المعنى أن أسباب النصر باتت قريبة بحيث لو اجتمعت إرادة الأطراف المعنية على تعاطي أسبابه لتحقق على الفور، ولكن قد يظل النصر القريب معلقا لفترة طويلة في انتظار اجتماع الإرادات، والملاحظ في طبائع المقاومة الإسلامية في العصر الحديث أنها تحقق نتائج مبهرة تقربها كثيرا من النصر، ولكن الخطوة النهائية تحتاج دوما إلى مشاركة أطراف أخرى، ومن هنا يأتي الخذلان الذي يؤخر النصر لكن لا يضر الساعين إليه، ومن هنا أيضا وجه الجمع بين قرب النصر وتأخره في ذات الوقت..

الثلاثاء ١٣ محرم ١٤٢٦هـ – ٢٢ فبراير ٢٠٠٥ م

المصدر: http://www.islammemo.cc

دور الإعلام في النصر والهزيمة

سلاحان ماضيان يستعملهما العالم القوي ضد العالم الضعيف: سلاح النار وسلاح الإعلام. الكمية الضخمة من الأسلحة بأنواعها التي تصنعها مختبرات العالم المهيمن، والتي تصدر عنوة للعالم المهيمن عليه تحت أعذار ومبررات واهمة، وتحت الشعور بالخوف من قضايا غامضة قادمة..أنظمة..فكر.. حدود.. أعراف.. انقلابات.. إلخ.. والكمية الضخمة من المعلومات الموجهة التي تخترق عقول الناس وتشعرهم إثرها بالضآلة والانهزام إضافة إلى الخوف وعدم الجدوى كأفراد وكأمة وكأنظمة وكحضارة.

الإفريقي في هذا الإعلام: متوحش يعيش على أدمغة الناس.. العربي في هذا الإعلام: جنسي أكول نؤوم دموي. الغربي في هذا الإعلام: بطل بكل معنى الكلمة.. اليهودي في هذا الإعلام: ذكي وعبقري ومضطهد ولابد من مؤازرته.

لتحقيق هذه الأغراض وما شابهها تقوم في العالم القوي شبكة متكاملة من وسائل الإعلام تصل إلى حد الأسطورة:

أولاً: أكثر من مائة معهد معلوماتي مخابراتي صهيوني/ أمريكي، تقوم برصد كل ظواهر وبواطن النفسية العربية والبلاد العربية والحضارة العربية:

- معهد "أونيل دانجمان" التابع للمخابرات الإسرائيلية والذي انضمت إليه مؤخرًا مصر بعد كامب ديفيد.
- معهد المركز الأكاديمي الإسرائيلي، وتشرف عليه السفارة الإسرائيلية في القاهرة.
- مؤسسة "روكفلر" للدراسات الاستراتيجية.
- مؤسسة "فورد فونديشن" للمعلومات.
- مؤسسة راند للدراسات العربية والإسلامية.
- مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية لدراسات الشرق الأدنى والأوسط.
- جماعة أبحاث الشرق الأوسط.
- مؤسسة "فرديش أيبرت" الألمانية.
- معهد "بيركلي" للدراسات الدولية.
- مركز شيكاغو للدراسات الخارجية والعسكرية.
- مركز "برنستون" للدراسات الدولية.
- مركز "هارفارد" للشؤون الدولية.
- وكالة التنمية الأمريكية.

وعشرات، بل ومئات المراكز الأخرى الجاسوسية والبحثية والاستراتيجية الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والدينية.. إلخ. وكلها تبحث بأسرار وتوجهات وإمكانيات وثروات ونقاط ضعف ونقاط قوة الإنسان العربي أولاً ثم الإنسان الجنوبي (المعتر).

هذه المراكز هي التي توجه الأحداث القادمة وهي التي توجه السياسات العالمية باتجاه العالم الثالث، وهي التي تدعم الصهيونية بكل وسيلة، وهي التي تكيد للوطن العربي وللعالم الإسلامي وللعالم الثالث بكل وسيلة أيضًا.

هذه المراكز تبحث في دقائقنا، في نفسياتنا، في شهواتنا، في تفكيرنا، في أحلامنا، في أطفالنا ونسائنا.. ولذلك كله؛ ولأن الفكر ابن المعلومة، فإن المعلوماتية الغربية/ الصهيونية هي صاحبة الكلمة في مستقبلنا.

ثانيًا: الإعلام الطاغي المعادي يدخل بيوتنا وقلوبنا، ويدخل مكاتب أصحاب القرار في بلادنا، ويغسل أدمغة المواطنين والحكام والصغار والكبار، حتى أنه هو الذي يقرر متى تشتري نساؤنا مكانس الكهرباء، ومن أي شركة، ومتى يصبح الجيش العراقي خطرًا عالميًا، وإلى أي مدى يجب تدمير لبنان وحرق بناه التحتية.. هل يتصور أحدنا أن السينما الأمريكية عرضت فيلمًا عن احتلال العراق للكويت وعن الحرب العالمية ضد العراق قبل الحرب ذاتها بأكثر من عشر سنوات؟!

نعم لنا أن نتصور ذلك؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية تملك ٥٠% من كل صحف العالم اليومية، و٤٥% من كل محطات الإذاعة العالمية، و٢٦% من كل المحطات التلفزيونية العالمية، أما شبكات الإنترنت فهي أمريكية أصلاً، وهي التي تنشر فكر العولمة الأمريكية إلى العالم دون منازع.

الدول المهيمنة على العالم تملك أكثر من ٩٠% من كل وسائل الإعلام العالمية، وهي رقميًا تملك حوالي سبعين ألف محطة إذاعية مقابل ما لا يزيد عن سبعة آلاف محطة إذاعية في كل العالم الثالث (ونحن منه)، كما أنها تملك أي الدول المهيمنة على العالم حوالي خمسين ألف محطة بث تلفزيوني مقابل ما لا يزيد على ثلاثة آلاف محطة تلفزيونية في كل العالم الثالث (ونحن منه)، ناهيك عن الأقمار الصناعية التي تجوب سماءنا وسماء العالم الثالث، وتحصي علينا أنفاسنا العلوية وأنفاسنا السفلية كذلك!!

ولا يخفى على أحد الآن أن هذه الأقمار الصناعية هي التي وجهت الطائرات الإسرائيلية في الحروب العربية الإسرائيلية، وهي التي وجهت الطائرات العالمية في تدمير العراق.

أما فيما يتعلق بالصحافة ووكالات الأنباء، فأكثر من ٩٠% من كل المعلومات والأخبار العالمية تصدر عن خمس وكالات هي:

١- "الاسوشييتد برس". أمريكية.

٢- "اليونايتد برس" أمريكية.

٣- "رويتر" بريطانية.

٤- وكالة الصحافة الفرنسية.

٥- وكالة الأنباء الألمانية.

ورحم الله أيام "نوفوستي" و"تاس" السوفياتيتين.

هذه الوكالات توزع يوميًا أكثر من أربعين مليون كلمة على صحف العالم، تحتل أمريكا منها أكثر من النصف، أما في كل دول العالم الثالث (ونحن منه)، فالوكالات لا توزع أكثر من ٣٠٠ ألف كلمة، أي أن العالم الثالث كله لا يبث أكثر من ١% من مجمل ما تبثه وكالات الأنباء التابعة للمهيمنين على العالم، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

أما ما يتعلق بالصحف اليومية، وهي تمثل الصحافة الفاعلة، فإحصائيات الثمانينيات ـــ وهي تعتبر قديمة جدًا ـــ تُشير إلى صدور ٧٦٨٠٨ صحيفة يومية في العالم. نصيب الولايات المتحدة فيها ١٧٧٢ صحيفة يومية، توزع حوالي ٦٢ مليون نسخة صباح كل يوم، أما في مصر وهي أكبر الدول العربية، فيصدر فيها ١٥ جريدة يومية، وتوزع حوالي ٧٧٥ ألف نسخة يوميًا.

فيما يتعلق بالكتب، فقد أظهرت إحصائيات التسعينيات أن دول العالم المهيمن (شمال العالم) يُصدر ٨١,٣% من كل إنتاج العالم من الكتب، بينما يتقاسم أكثر من ثلاثة أرباع العالم (المعتر) ونحن منه، ما نسبته ١٦,١% فقط.

وعندما نتحدث عن الكومبيوتر والأقراص المدمجة، فإن العالم الثالث يراقب هذه الأجهزة ويحلم بها، وهي غالبًا إن وجدت فللألعاب وللمعلومات الساقطة، أما الشركات الأمريكية والكندية فتحتكر ٦٢% من هذه الأقراص، وتحتكر أوروبا الغربية ٣٠% منها، ويظل ٨% لاستراليا واليابان.

وحتى لا يُصاب القارئ بالخيبة أكثر فأكثر، فلن نُكمل الأرقام عن بقية وسائل الإعلام، وعن ساعات البث التلفزيوني الأمريكي والأوروبي لبلادنا، وعن نوعيتها، وعن أثرها فينا.

المعلومات والإعلام مهيمنان على العالم بكل معنى الكلمة، ويكفي أن نراقب برامج - الفضائيات اللبنانية على سبيل المثال لتستنتج الفرق بين اهتمامات الإعلام الغربي مقابل اهتماماتنا. (ولا عزاء لأهل الجد وأصحاب الطموح).

وللعلم فقط نقول بأن المعلومات ممنوعة في بلادنا، والإعلام موجه في بلادنا، ولذلك كله يظل الوطن العربي بعيدًا عن الشر ويعزف له، مصداقًا للمثل القائل: بعد عن الشر وغنيلو!!

٢٠٠٥/٠٣/٠٧

المصدر: http://www.islamweb.net

يوم النصر العظيم

د. عبد العزيز الفوزان

الصراع بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان قديم قدم البشرية ذاتها، ولن يزال مستعراً مشبوباً إلى قيام الساعة، وهذه سنة الله في خلقه، وهي مقتضى حكمته ورحمته، قال الله - عز وجل -: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} (النساء: ٧٦) وقال - تعالى -: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} (محمد: ٤) فالله - تعالى - قادر على أن يُهلك الظالمين في لحظة، ويأخذهم على حين غرة، ولكنه ابتلى بهم عباده المؤمنين؛ ليكشف معادنهم، ويمتحن صدقهم وصبرهم، وجهادهم وبذلهم، فبالابتلاء يتميز المؤمن الصادق من الدعي المنافق، ويتبين المجاهد العامل من القاعد الخامل.

ولقد قص الله لنا فصولاً كثيرة من هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين. ومن هذه القصص العظيمة: قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - مع فرعون مصر في عهده، التي تكرر ذكرها في القرآن فيما يقارب ثلاثين موضعاً، وهي أكثر القَصص القرآني تكراراً، وذلك لمشابهتها لما كان يعانيه الرسول -

صلى الله عليه وسلم – من صناديد قريش وفراعنة هذه الأمة، ولما فيها من التسلية والتأسية له وللمؤمنين، حينما يشتد عليهم أذى الكفار والمنافقين، ولما اشتملت عليه من العظات البالغة، والدروس والحكم الباهرة، والحجج والآيات القاطعة.

وتبدأ قصة موسى مع فرعون، منذ أن كان موسى حملاً في بطن أمه فقد قيل لفرعون: إن مولوداً من بني إسرائيل سيولد، وسيكون على يديه هلاكك وزوال ملكك.

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وقد نزح إسرائيل وأولاده من الشام إلى مصر في عهد يوسف بن يعقوب – عليهما السلام –، وكان عددهم آنذاك ثمانين شخصاً، ثم لم يزل عددهم ينمو، ونسلهم يتكاثر حتى بلغوا في عهد فرعون الطاغية ستمائة ألف إنسان.

وعندما أُخبر فرعون أن زوال ملكه سيكون على يد غلام من بني إسرائيل أصدر أوامره بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم؛ حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر، {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٢١)، واحترز فرعون كل الاحتراز أن لا يوجد هذا الغلام، حتى جعل رجالاً وقابلات يدورون على النساء الحوامل، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه من ساعته.

وكان هارون – عليه السلام – قد وُلِد قبل بدء هذه المحنة، فأنجاه الله من كيد فرعون، وأما موسى – عليه السلام – فإنه لمَّا حملت به أمه حرصت على إخفاء حملها خوفاً عليه من القتل، وكان خوفها عليه يزداد مع مرور الأيام وقرب وقت المخاض، ولما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وضاقت عليها الأرض بما رحبت، وركبها من الهم والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وكان خوفها عليه أضعاف أضعاف فرحها بقدومه، ولكن الله – جل وعلا – ألهمها بما يثبِّت به فؤادها، كما قال – تعالى –: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص: ٧).

فاستجابت أم موسى لهذا الإلهام، وصنعت لابنها صندوقاً، وألقته في نهر النيل، حيث كانت دارها مجاورة له، فألقته في النهر وكأنما ألقت معه عقلها وقلبها، فأصبح صدرها خالياً من الطمأنينة، خالياً من الراحة والاستقرار، ولولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وشد عزمها باليقين، لكشفت السر وأفسدت التدبير {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (القصص: ١٠)

ويمضي الموج بالوليد الضعيف داخل الصندوق، يحُفُّه الله بعنايته، ويكلؤه بحفظه ورعايته، حتى بلغ قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون، ولما فتحوا التابوت وجدوا فيه ذلك الغلام الضعيف، ولكن رب الأرباب، ومالك القلوب والألباب، يُلقي في قلب آسية زوجة فرعون فيضاً من الرحمة والرأفة

والحنان، على هذا الطفل الرضيع: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} (القصص: ٩).

وكانت آسية عاقراً لا تلد، وقوله - تعالى -: {وهم لا يشعرون}، أي: كدناهم هذا الكيد، وجعلناهم يلتقطون موسى ليكون لهم عدواً وحزنا وهم لا يشعرون. وقد أنالها الله ما رجت منه من النفع والخير، فهداها الله بسببه، وجعلها من أهل جواره وجنته.

ولكن هذا الطفل المحفوف بعناية الله يفاجئهم بأنه لا يقبل ثدي امرأة ليرضع، فحاروا في أمره، واجتهدوا في تغذيته بكل ممكن، وهو يرفض ويزيدهم عنتاً وحيرة، وبينما هم كذلك، إذا بأخته تقبل عليهم، وكانت أمها قد أمرتها بأن تتابع أخاها وهو في الصندوق، وأن تقفو أثره، لتعلم مستقره، وتستطلع خبره: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} (القصص: ١١). ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهبوا معها إلى منزلهم، فلما رأته أمه ما كادت تصدق عينيها، فأخذته وضمته إلى صدرها وألقمته ثديها، فأخذ يرضع بنهم شديد، وهم في غاية الدهشة والسرور. وهكذا يأبى الله - عز وجل - إلا أن يحمل آل فرعون هذا الوليد إلى أمه التي خافت عليه منهم، ثم يعطوها مع ذلك أجرة إرضاعها له، ويتعهدوا وليدها بالتربية والرعاية، قال الله - تعالى -: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} (القصص: ١٣).

وما زالت الأيام تمضي، والأعوام تترى، وكبر موسى وبلغ أشده، وآتاه الله حكماً وعلماً، فصار يأمر وينهى، ويقول فيسمع، ويشفع فيشفَّع، ولا غرو فهو ابن فرعون بالتبني، وهو ربيبه وواحدٌ من أهل بيته، قال الله - تعالى -: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (القصص: ١٤)

وبعد حين وقع في محنة عظيمة، حيث قتل رجلاً من قوم فرعون ما كان يريد قتله، وتخوَّف من الطلب، ففر هارباً إلى أرض مدين، ولبث فيهم عشر سنين، تزوج في أثنائها، ثم عاد إلى أرض مصر مع أهله، وفي الطريق إليها أكرمه الله برسالته، وأوحى إليه بوحيه، وكلَّمه من غير واسطة ولا ترجمان، وأرسله إلى فرعون بالآيات القاطعات والسلطان المبين، ولكن فرعون عاند وكابر، {فكذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى} (النازعات ٢١ ــ ٢٤) وادعى أن ما جاء به موسى سحر، وأن عنده من السحر ما يبطله، وجمع السحرة من جميع أنحاء مملكته، فألقوا ما عندهم من السحر، {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} (يونس: ٨١ ــ٨٢). {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} (الشعراء: ٤٥).

{فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ* قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} (الأعراف: ١١٨ــ١٢٢)

ولما انقطعت حجة فرعون، وخاب كيده، وانكشف باطله وزيفه، لجأ إلى القوة والبطش، والتعذيب والتنكيل، والملاحقة والتشريد، وإرهاب الناس بالنار والحديد. إنه منطق الطغيان العاتي، كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، وخاف أن يظهر الحق، ويتمكَّن أهله ورواده.

ثم أرسل الله – عز وجل – إلى فرعون وقومه آيات عجيبة وعقوبات متنوعة، من الطوفان والجــراد والقمل والضفادع والدم، ولكنها والعياذ بالله لم تزدهم إلا عناداً واستكباراً، وظلماً وعدواناً، يقــول الله – تعالى –: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّــفَادِعَ وَالــدَّمَ آيَــاتٍ مُفَصَّــلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) (الأعراف: ١٣٣)

ولَمَّا تمادى فرعون في طغيانه وإيذائه لموسى ومن معه، أوحى الله إلى موسى أن يخرج بالمسلمين مــن أرض مصر ليلاً، فخرجوا قاصدين بلاد الشام.

فلما علم فرعون بخروجهم جمع جيشه، وجنَّد جنوده من شتى أنحاء مملكته لــيلحقهم ويمحقهــم في زعمه: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لجميع حاذرون}.

فخرج فرعون وجنوده في أثرهم، حتى أدركهم عند البحر الأحمر {فَلَمَّــا تَــرَاءَى الْجَمْعَــانِ قَــالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) (الشعراء: ٦١)

فالبحر أمامهم والعدو خلفهم!! فأجابهم موسى بلسان المؤمن الواثق بأن الله معه ولن يضيعه، وقــال لهم بكل ثقة وثبات: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (الشعراء: ٦٢)، فأوحى الله إليه أن اضــرب بعصاك البحر، فضربه وهو يتلاطم بأمواجه، فانفلق بإذن الله اثني عشر طريقاً يابساً، وصار هذا المــاء السيال، وتلك الأمواج العاتيات، كأطواد الجبال الراسيات، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين، ودخل فرعون وجنوده في أثرهم لاهثين سادرين، فلما جاوزه موسى وقومه، وتكاملوا خارجين، وتكامــل فرعون وقومه داخلين، أطبقه الله عليهم وأغرقهم أجمعين: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَــادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى* فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}(طه: ٧٧ـــ٧٨ـــ٧٩)

وهذا هو مصير أعداء الله في كل حين، وتلك هي عاقبة المكذبين الضالين، وما ربك بظلام للعبيــد، يقول الله – تعالى –: {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْــهُ الصَّــيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (العنكبوت: ٤٠).

ويستفاد من هذه القصة أيضاً: أن العاقبة للمتقين، والنصر حليفهم، متى ما تمسكوا بدينهم، واستنزلوا النصر من ربهم: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(الأنفال: ١٠) {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُــلَنَا

وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ* يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (غافر: ٥١ـ٥٢).

ويستفاد منها كذلك: أن الباطل مهما انتفخ وانتفش، وتجبَّر وتغطرس، وظن أنه لا يمكن لأحد أن ينازعه، أو يرد كيده وباطله، أو يهزم جنده وجحافله، فإن مصيره إلى الهلاك، وعاقبته هي الذلة والهوان، فهذا فرعون الطاغية بلغ به التكبر والغرور أن يدعي الألوهية، وأن يعلن للناس بكل جرأة وصفاقة: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}(القصص: ٣٨) وأن يقول بملء فيه من غير حياء ولا مواربة: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}(النازعات: ٢٤) ثم يفتخر بقوته وسلطانه فيقول: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ} (الزخرف: ٥١). ثم يحتقر موسى – عليه السلام – وهو النبي الصالح والداعية الناصح فيقول: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ} (الزخرف: ٥٢) ولكنه حين حل به العذاب لم يُغْنِ عنه ملكه وسلطانه، ولا جنده وأعوانه، ولا تبجحه وادعاؤه: {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} (النازعات: ٢٥).

فيا ترى متى وقع هذا الحدث العظيم، وتحقق هذا النصر المبين؟!! لقد كان ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر الكريم: شهر الله المحرم.

فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: "قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: فنحن أحق وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأمر بصيامه".

وقد كان صيام يوم عاشوراء واجباً قبل أن يفرض صيام رمضان، فلما فُرض صيام رمضان أصبح صيام عاشوراء سنة مؤكدة. تقول حفصة – رضي الله عنها –: "أربع لم يكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدعهن: صيام عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر، وركعتان قبل الفجر" (رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني).

وسُئل ابن عباس – رضي الله عنهما – عن صيام عاشوراء؟ فقال: "ما علمت أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صام يوماً يطلب فضله على الأيام إلا هذا اليوم" (متفق عليه). وبيَّن النبي – عليه الصلاة والسلام – أن صيام هذا اليوم يكفر ذنوب سنة كاملة فقال: "صيام عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله" (رواه مسلم).

وروى مسلم أيضاً عن ابن عباس قال: "حين صام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى؟ فقال: فإذا كان العام القابل ـــ إن شاء الله ـــ صمت التاسع. فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –".

وجاء في حديث آخر: " خالفوا اليهود، صوموا يوماً قبله أو يوماً بعده " (رواه مسلم).

قال ابن القيم – رحمه الله –: "فمراتب صومه ثلاثة..أكملها: أن يصام قبله يوم وبعده يوم.ويلي ذلك: أن يصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث.ويلي ذلك: إفراد العاشر وحده بالصوم" ا. هـ

وبناءً عليه، فإن إفراد العاشر وحده بالصوم جائز، وبه يحصل الأجر المذكور في تلك الأحاديث، والأكمل صيام التاسع والعاشر، أو العاشر والحادي عشر، حتى تحصل المخالفة لأهل الكتاب. وإن صمت يوماً قبله ويوماً بعده فهذا أحسن وأتم، حتى تستيقن صيام اليوم العاشر، خصوصاً إذا كان مشكوكاً في وقت دخول الشهر؛ ولأن السنَّة صيام ثلاثة أيام من كل شهر، كما أن الصيام في شهر محرم له خصوصية ومزية على ما سواه، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "أفضل الصيام بعد رمضان: شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل".

ومن المفارقات العجيبة: ما حصل في هذا اليوم المبارك أيضاً من قتل سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وعن أبيه وأمه وآل بيته، حيث قُتل في فتنة عظيمة بين فئتين من المسلمين، وهي فتنة طهَّر الله منها أيدينا فلا نخوض فيها بألسنتنا. ولكن الذي ينبغي التنبيه إليه هو: أن ما يفعله بعض الشيعة في هذا اليوم من البكاء والنواح على قتل الحسين – رضي الله عنه –، وما يقومون به من تعذيب أنفسهم، وإسالة الدماء من وجوههم وصدورهم وظهورهم، والتقرب إلى الله بضرب أبدانهم بالسلاسل والسكاكين، ولطم خدودهم، ونتف شعورهم، ليس من الإسلام في شيء، وهو من البدع المحدثة، والمنكرات الظاهرة، ومن كبائر الذنوب التي تبرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من مرتكبيها، فقال: "ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية" (متفق عليه). وعن أبي موسى – رضي الله عنه – "أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – برئ من الصالقة والحالقة والشاقة " (متفق عليه). والصالقة هي: التي ترفع صوتها بالنياحة والندب. والحالقة هي: التي تحلق رأسها عند المصيبة. والشاقة: هي التي تشق ثوبها. فكل عمل يدل على الجزع والتسخط، وعدم الرضا بقدر الله فإنه محرم. ويضاف إلى ذلك ما في هذه الأعمال البدعية المؤذية للأبدان من حماقة وصفاقة، وجهل وسفه، وتشويه لصورة الإسلام، وتنفير لغير المسلمين من الدخول فيه. وقد رأينا بعض وسائل الإعلام العالمية المعادية تحرص على نشر هذه الأعمال البدعية بالصوت والصورة، زاعمة بأن هذا هو الإسلام، وهذا ما يفعله المسلمون في هذا اليوم من كل عام!!

وأشنع من هذا ما يفعله بعض هؤلاء المبتدعة من لعن للصحابة الأبرار، وإعلان للبراءة منهم. وهـــذا لعمر الله من أعظم الضلال، وأنكر المنكرات.

ويقابل هؤلاء فرقة أخرى، ناصبوا الحسين – رضي الله عنه – العداوة والبغضاء، فيتخذون هذا اليوم عيداً، ويظهرون فيه الفرح والسرور، ويلبسون الجديد، ويتبادلون الهدايا، ويصـــنعون أطعمـــة غـــير معتادة. وهذا كله من البدع المحدثة، والضلالات المنكرة، والبدعة لا تُعالج بالبدعة، والخطأ لا يصحح بالخطأ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: "وقوم يستحبون الاكتحال والاغتسال، والتوسعة على العيال، واتخاذ أطعمة غير معتادة. وأصلها من المتعصبين بالباطل على الحسين – رضي الله عنه – ، وكل بدعة ضلالة، ولم يستحِب ذلك أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم. ولا عند مـــن اســـتحب ذلك حجة شرعية. بل المستحب يوم عاشوراء الصيام عند جمهور أهل العلم" ا. هــ

فاتق الله أيها المسلم، وعليك بالسنة والجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار. ولتعلم بأن منهج أهل السنة في الصحابة الكرام هو اعتقاد عدالتهم جميعاً، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد رسولها – صلى الله عليه وسلم –؛ ولهذا اختارهم الله – تعالى –لصحبته ونصرته، وتبليـــغ هديـــه وســـنته. ويدينون لله – عز وجل – بمحبتهم كلهم، والترضِّي عن جميعهم، ويسكتون عمـــا شـــجر بينـــهم، وحصل لهم من الفتن والمحن، ويعتقدون أنهم جميعاً مجتهدون مريدون للحق، فمن أصاب منـــهم فلـــه أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد وخطؤه مغفور. وأن أخطاءهم مهما عظمت فإنها مغمورة في بحور حسناتهم، التي من أعظمها صحبتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجهادهم معه. – رضـــي الله عنهم – أجمعين، وجمعنا بهم في جنات النعيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصدر: http://www.asyeh.com

قرار صائب ثم يأتي النصر

محمد العبدة

لا نكون مغالين أو مجرحين إذا قلنا إن المسلمين في الأعصر الأخيرة يفتقدون القرار الصائب والحاسم في اللحظات الحرجة أو اللحظات التاريخية.

القرار الذي يُتخذ دون تردد أو خوف من النقد ولوم الشباب أو الشيوخ، ودون إرضاء لطرف على آخر.

وهو القرار المناسب وليس القرار التلفيقي الذي يظن أنه يرضي الجميع وهو في الحقيقـــة لا يرضـــي أحدًا، وقبل هذا كله لا بد أن يحسب حساب الشورى وتقليب وجهات النظر، وملاحظـــة واقـــع

المسلمين والمصلحة الشرعية وما يراه العلماء في القديم والحديث، عند ذلك يأتي الفرج بعد الشدة، ويفرح المؤمنون بنصر الله، وفي القرآن والسنة وواقع المسلمين أمثلة لذلك:

١- جاء في سورة البقرة أن بني إسرائيل - وفي يقظة من يقظات الإيمان - (إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [البقرة: ٢٤٦] وأراد هذا النبي التأكد من صدق عزيمتهم ربما لأنه يعلم ما هم عليه من الخور والتردد: (قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا) [البقرة: ٢٤٦]؛ فأظهروا تصميمهم على القتال، فاستجاب الله لنبيه وبعث لهم طالوت ملكاً يقودهم لقتال أعدائهم، وقد ذكر لنا القرآن عن هذا القائد الحكيم أنه لم يستخفه حماس هذا الشعب، فراح يختبرهم المرة تلو المرة، ولم يصمد معه أخيراً إلا فئة قليلة.

واتخذ القرار الصعب وقاتل بهذه الفئة وجاء النصر: (وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وآتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ والْحِكْمَةَ) [البقرة: ٢٥١].

٢- بعد تكالب الأحزاب على المسلمين في غزوة الخندق رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يخفف عن المسلمين هذا الضيق رحمة ورأفة بهم، فاستدعى زعماء البدو من غطفان وغيرها وطلب منهم الرجوع عن المدينة وترك حصارها ويعطيهم ثلث ثمارها، وقبل تنفيذ هذا الرأي استشار السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، قالا: يا رسول الله!، أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به، أم شيئاً تصنعه لنا؟، قال: بل شيء أصنعه لكم؛ لأن العرب رمتكم عن قوس واحدة، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله!، قد كنا وهؤلاء على الشرك وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرًى أو بيعاً، أحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ !، والله لا نعطيهم إلا السيف، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أنت وذاك.

وكان وفد غطفان يسمع هذا الكلام فتزلزلت أركانه، ورجعوا إلى معسكرهم ثم جاء النصر ريحاً وجنوداً لم يروها وانهزم الأحزاب خائبين.

٣- كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أعد جيشًا بقيادة أسامة بن زيد ووجهته شمالي الجزيرة والروم، ولكن الجيش لم يمضِ بعد سماع أنباء مرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتوفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، واستخلف أبو بكر - رضي الله عنه -، ورأى الصحابة إرجاع جيش أسامة بعد أن ارتدت العرب، ولكن أبا بكر قال كلمته الحاسمة الجازمة: " لا أحل عقدة عقدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأنفذ جيش أسامة.

فقالت العرب: لو لم يكن بهم قوة وطاقة لقتال الروم لما أرسلوا لهم هذا الجيش وأصابهم الوهن والرعب بسبب ذلك، وجاء النصر من عند الله على يد قامع المرتدين خالد بن الوليد - رضي الله عنه -.

٤- عندما بلغت المدن الأندلسية في منتصف القرن الخامس الهجري - الغاية من الضعف والتفرق، واستعان بعض ملوكهم بالنصارى على بعض، اجتمع علماء أشبيلية وقرروا أنه لابد من الاستعانة بالمسلمين في المغرب، وبخاصة المرابطون وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين وعلم ملك أشبيلية المعتمد بن عباد بذلك فوافق على هذا الرأي، ولكن بعض الناس حذروه مخوفين له من أن ابن تاشفين إذا جاء لمساعدته فسيأخذ الأندلس أيضاً، ولكن ابن عباد اتخذ القرار الصعب وقال قولته المشهورة: (لأن أكون راعي إبل خير لي من أكون راعي خنازير)، ويقصد - رحمه الله - أنه يفضل أن يرعى الإبل عند ابن تاشفين ولا يؤسر عند ملك النصارى، فقدم مصلحة المسلمين وبلاد المسلمين على مصالحه الشخصية، وجاء ابن تاشفين، وكانت معركة " الزلاّقة " مع نصارى أسبانيا وانتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً، وتملك ابن تاشفين الأندلس فعلاً، وأُقصى ابن عباد - رحمه الله - وعاش بعيداً عن أشبيلية، ولكن مأثرته هذه لا تُنسى.

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

التوكل على الله سبيل النصر

عكرمة بن سعيد صبري

الخطبة الأولى:

يقول الله - تعالى -في سورة آل عمران: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

أيها المسلمون: قد ذكرت كتب التفسير وكتب السيرة النبوية المطهرة أنه بعد أن وقعت أحد في السنة الثالثة للهجرة وحصل مع المسلمين ما حصل انتشى أبو سفيان زعيم المشركين في مكة المكرمة وقتئذ فرحًا، ونادى بأعلى صوته: يا محمد، موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، أي: نتلاقى في العام القادم في مكان بدر، فأجابه مباشرة: ((نعم، إن شاء الله)).

أيها المسلمون، لما رجع الرسول — صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المنورة أصبح حِذَرًا من زحف المشركين إلى المدينة ليتمّموا غلبتهم وفرحتهم، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وأن لا يخرج معه إلا من شارك فقط في غزوة أحد، فاستجاب الصحابة رضوان الله عليهم إلى ذلك بعزيمة وإصرار بعد أن أصابهم القرح وضمدوا الجراح، وساروا حتى وصلوا إلى موقع يُعرف بحَمْرَاء الأسَد، وكان ما توقّعه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم - قد حصل فعلاً، فقد كان المشركون يجهزون أنفسهم بالتوجه إلى المدينة المكرمة، ولكن لما علّموا بخروج النبي من المدينة باتجاه مكة ظنوا وتوهموا أنه قد

حضر معه جيش كبير، فألقى الله – عز وجل – الرعب في قلوبهم، ورجعوا القَهْقَرَى إلى مكة، وعَدَلوا عن التوجه إلى المدينة.

أيها المسلمون، بينما كان في موقع حَمْرَاء الأسَد أُلقِي القبضُ مرّة أخرى على المشرك أبي عزّة الشاعر الذي سبق أن وقع أسيرًا في غزوة بدر الكبرى، وقد مَنّ عليه الرسول وقتئذ وأطلق سراحه بعد أن تعهّد أن لا ينظم شعرًا يحرّض فيه المشركين على مقاتلة المسلمين، إلا أن أبا عزّة الشاعر لم يلتزم بوعده وعهده، فاستمرّ في نظم الشعر ضد الإسلام والمسلمين، فأمر بقتله، فأخذ أبو عزّة الشاعر يتوسل ويتَمَسْكَن ليمنّ عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرة أخرى، فقال له: ((لا والله، لا تمسح عارضيك بالكعبة وتقول: خدعت محمدًا مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جُحر واحد مرتين)). هذا، وتعتبر غزوة حمراء الأسد أول رد اعتبار للمسلمين عما حصل لهم في أحد.

أيها المسلمون، هذا درس بليغ للمسلمين في كل زمان ومكان بأن لا ينخدعوا بالذين ينقضون العهود والمواثيق، فالمؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ، وليس كِيْسَ قُطْنٍ، ينبغي عليه أن لا يُلدغ من جُحر واحد مرتين. أما الأنظمة القائمة في العالم العربي والإسلامي فقد لُدِغت من جُحر واحد مرات ومرات، ولم تتعظ إلى الحين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أيها المسلمون، لقد تمكّن رسولنا الأكرم – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام رضوان الله عليهم من تغيير الميزان لصالحهم بعد عام واحد فقط، وذلك في غزوة بدر الآخرة، وتعرف بغزوة بدر الصغرى في السنة الرابعة للهجرة، حيث عَسْكَرَ المسلمون فعلاً في موقع بدر، في حين أن المشركين لم يحضروا في المكان والزمان اللذين سبق لأبي سفيان أن حدّدهما بنفسه، وحاول أبو سفيان إخافة وإرجاف المسلمين واللعب بأعصابهم حتى لا يخرجوا إلى موقع بدر، إلا أن محاولاته قد باءت بالفشل، وإن الحرب النفسية والإشاعات لم تؤثر على المسلمين، واستمروا متوجّهين إلى مكان بدر وهم يردّدون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فازداد المؤمنون إيمانًا مع إيمانهم.

أيها المسلمون، إذا وقع المسلم في كرب شديد فإنه يلجأ إلى الله رب العالمين داعيًا: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ لقول رسولنا الأكرم – صلى الله عليه وسلم -: ((إذا وقعتم في أمر عظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل))، وقد سبق وأن ردّد هذا الدعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما أُلقِي في النار، فكانت النار بردًا وسلامًا عليه.

أيها المسلمون، لقد خرج المسلمون فعلاً، ومكثوا في موقع بدر ثلاثة أيام، وقاموا بأعمال تجارية بأمن وأمان، ثم عادوا غانمين سالمين، ويشير الله – عز وجل – إلى ذلك بقوله: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، هذه الآيات الكريمة تدعو إلى الثبات والصمود في المواقف الصعبة والحرجة، وتدعو إلى التوكل على الله واللجوء إليه والخشية منه مع العمل الجاد، فإنه لا ملجأ إلا إليه - سبحانه وتعالى -، وأن المؤمن الذي يتصف بخشية الله فإن الله رب العالمين يُطوّع له المخلوقات كلها، سئل الإمام الحسن البصري - رحمه الله -: كيف تخاف من ربنا؟ فقال للسائل: "لو ركبت أنت البحر، فتحطّمت سفينتك، فلم يبق منها إلا لوح، فأمسكت به فوق الموج العالي، كيف يكون حالك؟ " قال السائل: خوف شديد، قال البصري: "أنا هكذا مع الله، في خوف منه ليل نهار".

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، لم ييأس المسلمون مما حلّ بهم وما أصابهم في معركة أحد، لم يناموا، ولم يستكينوا، ولم يستسلموا، لم يتهرّبوا من المسؤولية، لم يتخاصموا على الكراسي والمناصب والعروش، لم يستعينوا بالفرس أو الروم، لم يربطوا مصيرهم باجتماعات أمنية ولا بمؤتمرات سياسية ولا بقرارات، لم يُوكلوا أمرهم للأوهام والتمنيات.

وما نيل المطالب بالتمنّي *** ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

وما استعصى على قوم منال *** إذا الأقدام كانت لهم رِكَابا

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، لقد مرّت مِحَن ومصائب على المسلمين في الماضي أيام التتار والصليبيين وغيرهم، فكان أجدادنا يجتازون الصعاب بكل صمود وإصرار وتضحية؛ لأنهم كانوا يخافون الله ويخشونه، وقد ورد عن البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - أنه كان يحثّ جُنده على تلاوة القرآن الكريم، وكان يطرد اليأس من قلوب ونفوس المواطنين امتثالاً لقوله - عز وجل -: "وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ" [يوسف: ٨٧].، فلا بد من الرجوع إلى الله العلي القدير في كل وقت وحين، وأن يدفعنا ذلك للأخذ بالأسباب، فمن ينصرنا؟ إنه هو الله، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" [آل عمران: ١٢٦]، ومن يرزقنا؟ إنه هو الله، ومن يميتنا ويحيينا؟ إنه هو الله، لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [الذاريات: ٥٠].

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، ورد في الأثر: إن أربعة من الملائكة يحملون عرش الرحمن، وإن هؤلاء الملائكة سَبَق أن منحهم الله - عز وجل - قوة السماوات والأرض والجبال والرياح، إلا أنهم لم يتمكّنوا من حمل العرش حتى قيل لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحينما قالوها استطاعوا حمل العرش.

الخطبة الثانية:

أيها المسلمون، هناك أربع نقاط تهمّ أمور المسلمين ومصالحهم العامة، أشير إليها بإيجاز:

أولاً: محاولة التشويه لصورة العرب والمسلمين بأنهم يهتمّون بالجنس ويشربون الكحول، وأنهم حمقى لم يقدّموا أيّ مساهمة للإنسانية. هذا ما يزعمه محاضر يهودي في جامعة حَيْفا، وكان الأحرى بهـذا المحاضر اليهودي أن يُحاسب نفسه قبل أن يحاسب وينتقد غيره، ويتوجب عليه أن يكون موضـوعيًا وأمينًا في الحكم على غيره، وأن يطلع على الحضارة الإسلامية من مصادرها الموثوقة قبل أن يتطفّـل ويتكلّم في هذا الموضوع، والأنكى من ذلك أن الطالب الذي ناقش هذا المحاضر واعترض على هـذه الافتراءات ستحاكمه إدارة الجامعة، وتحيله إلى لجنة تأديبية، أي: إن موقف إدارة الجامعة كـان مـع المحاضر ضد الطالب العربي. وإننا إذ نقف إلى جانب هذا الطالب الذي تصدّى للمحاضـر الجاهـل العنصري، ونطالب الأساتذة والطلاب العرب في جامعة حَيْفا وغيرها من الجامعات أن يبرزوا الوجه الحضاري للشريعة الإسلامية عبر التاريخ والإنجازات التي قدمتها للحضارة الإنسانية جمعاء.

ثانيًا: المقابر الإسلامية في فلسطين، هناك انتهاكات متواصلة لحرمة المقابر الإسلامية، وكان من آخرها ما أُثير حول مقبرة الاستقلال في حَيْفا، وقد أصدرنا مؤخّرًا فتوى شرعية تأكيدًا لفتـاوى سـابقة، تتضمن وجوب المحافظة على حرمة هذه المقابر وصيانتها من العبث ونبش القبور، وذلك بإقامة أسوار حولها وإعادة دفن الموتى.

ثالثًا: توسيع المستوطنات ومصادرة آلاف الدونمات، لقد قررت الحكومة الإسرائيلية خـلال هـذا الأسبوع بناء ٦٤٠٠ وحدة سكنية في المستوطنات المنتشرة في الضفة الغربية، بالإضـافة إلى توسـيع المستوطنات في محيط مدينة القدس، وشقّ طرق جديدة للربط فيما بين المستوطنات لمحاصـرة مدينـة القدس وخنقها، وهذا يؤدي إلى مصادرة آلاف الدونمات من أراضي المواطنين الفلسطينيين، وهـذا يؤكد أن السلام المطروح هو سلام مزعوم للخداع وللمراوغة وكسب الوقت، ونؤكد علـى عـدم شرعية هذه المستوطنات، وأن حق المواطنين في أراضيهم سيبقى قائمًا إلى يوم الدين.

أيها المسلمون، يا إخوة الإيمان في كل مكان، رابعًا وأخيرًا: المسجد الأقصى المبارك تاج القدس ودرّة فلسطين ورمز ثباتنا ومرابطتنا، تواصل الشرطة الإسرائيلية تحذيراتها من هجوم محتمـل للمتطـرفين اليهود. ونتساءل: هل الشرطة الإسرائيلية لا تعرف هؤلاء المتطـرفين؟! ولمـاذا تتـركهم يصِـلُون ويفسدون ويعربدون دون أن تعتقلهم اعتقالاً على الأقل؟! وهل يستطيع هؤلاء المتطرفـون تنفيـذ مخططاتهم العدوانية دون علم الحكومة الإسرائيلية المحتلة؟! المسؤولة [مسؤولية] كاملة عن أي مـسّ بحرمة المسجد الأقصى المبارك، كما نحمّل الأنظمة الحاكمة في العالم العربي والإسـلامي المسـؤولية لحماية المقدسات وتحرير البلاد والعباد.

المصدر: http://www.alminbar.net

الفلوجة وحلاوة النصر

" من حدثكم أنَّ المغول قد هُزموا في معركة فلا تُصدقوه".. كلمة مهزومة سارت في ظلمات انكسارنا مسير الحقائق.. وكم تلقتها ألسنة المُرجفين والمُخذلين والجبناء..

ويشاء الله – تعالى –أن تُهزم هذه الكلمة الجبانة في"عين جالوت"أمام كلمة "وا إسلاماه".. ثم يدخل المغول في الإسلام، فلا يَحسُن إسلامهم! ويعودون من جهة الشرق بقيادة " قازان" يجوسون خلال الديار، وينشرون الفساد والدمار.. ولما اقتربت جيوشهم من دمشق، تسامع أهلُها ذلك الخبر الحزين.. فضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت، وبلغت القلوبُ الحناجر، وضج الشيوخ بالدعاء، وصعدت النساء إلى أسطحة المنازل كاشفاتٍ شعورَهن، عارضاتٍ أطفالَهن على الله..

ويتخاذل سلطان دمشق عن منازلة المغول على الرغم من تحريض شيخ الإسلام.. ويلجأ الإمام إلى مصر طالباً النجدة من سلطانها.. ولكن السلطان اعتذر بأنه لا طاقة له بالمغول، فما كان من شيخ الإسلام إلا أن أقسم له ولأمرائه الأيمان بأنهم منصورون.. فبرز"الورعون" من أشباه العلماء المتخصّصين في قلب شجرة الإسلام، وقالوا: قل إن شاء الله.. فقال الإمام: إن شاء الله، تحقيقاً لا تعليقاً..

وأعادوا مقالتهم فأعاد لهم ابن تيمية نفس الجواب.. وأقسم لهم في ذلك اليوم أكثر من خمسين قسماً أنهم منصورون.. ثم اشترى "حلاوة النصر" ووزعها على أمراء الجيش قبل المعركة!..

وقاد الإمامُ ابنُ تيمية سلطانَ مصر وأمراءه وجيشه إلى بلاد الشام.. وتقابل الجيشان في شقحب، ويعود الشيطان يوسوس لأشباه العلماء بالخذلان.. فقالوا: هل شاهدتم الميل في المكحلة! كيف نقاتل المغول وهم قوم مسلمون؟!

فقال شيخ الإسلام: إذا رأيتموني في الطرف الآخر، وعلى رأسي المصحف فابدؤوا بي.. وارتفع اللواء.. وارتفع النداء.. نداء "الله أكبر"..

ونصر الله عبادَه الصالحين، وولى المجرمون مخذولين..

ويرحم الله شيخَ الإسلام..

ومن جديد.. يعود المغول من جهة الغرب إلى بلاد الرافدين.. يعودون كأسلافهم ينشرون الظلم والظلام في مدن الحضارة.. ويعلو من جديد صوت المنافقين والمُرجفين والمخذّلين.. ويعلو أكثر صوت تكبير المجاهدين.. ويقف التاريخ حابساً أنفاسَه، ممسكاً قلمَه، ناظراً إلى مدينة المآذن.. وأقول للتاريخ ما قال الإمام: أقسم بالله العظيم لينتصرنّ المجاهدون..

بالأمس قصصت على أطفالي قصة شيخ الإسلام.. وعند الصباح فاجأني صغيري بصورة تناقلتها المواقع لمجموعة من مجاهدي الفلوجة يتحلقون حول سفرة مباركة.. وعلى الصورة عبارة خطها يمين وإيمان الصغير:

" دققْ النظر حتى ترى طبق حلاوة النصر"..
المصدر: http://www.lahaonline.com

كيف يتحقق النصر ؟

ماجد بن عيد الحربي

في الخامس من شهر نيسان عام ١٩٤٨ م كان (قائد منظمة الجهاد المقدس في فلسطين) المجاهد عبد القادر الحسيني ـرحمه الله ـ، يقف أمام (رئيس اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية) الباشا طه الهاشمي، طالباً منه تسليمه الأسلحة التي اشتراها أهل لبنان تلبية لطلب (منظمة الجهاد المقدس)، لاستعادة بلدة القسطل التي سقطت بيد العصابة اليهودية، فرد عليه الهاشمي إن هذه الأسلحة جديدة، وسوف أعطيها إلى الأفواج التي نجندها من العلويين والدروز الذين دربوا بالجيش الفرنسي سابقاً، فقال الحسيني: هذه الأسلحة اشتريت لنا ونحن أحق بها من غيرنا وأجدر من كل أحد بالدفاع عن بلادنا، ولكن طه الهاشمي أصرّ على رفضه تلبية الطلب، فما كان من المجاهد الكبير إلا أن قذف بالخرائط التي كانت بيده في وجه الهاشمي، وقال له: إنكم تريدون قتلنا، وتمهدون السبيل إلى هزيمة رخيصة، ثم أردف قائلاً: إنني ذاهب إلى فلسطين لاسترداد القسطل وسأموت هناك، ولن أترك بلادي طعمة للأعداء.

وغادر عبد القادر الحسيني مقر اللجنة بدمشق عائداً إلى فلسطين، وقاتل مع إخوانه المجاهدين حول القدس قتال الأبطال بما يملكون من سلاح وذخيرة، واستعادوا القسطل وقتلوا من اليهود ما يربو على (٣٥٠) إلا أن نفاذ الذخيرة واستشهاد القائد الحسيني واستعانة اليهود بالمصفحات البريطانية، مكّنت اليهود من استردادها وقتل جميع المجاهدين فسقطت القسطل البوابة الرئيسة للقدس، وبسقوطها دخل اليهود بيت المقدس دون أن تواجههم أي مقاومة ذات قيمة.

هذه القصة مدونة في أغلب الكتب التي صدر ت عن فلسطين بعد حرب ١٩٤٨ م، و لم آت بسردها بجديد، إلا أنني أردت إعادة السؤال الذي يتردد على شفاه أفراد الأمة وإن لم تنطقه الألسنة — هل تمت محاسبة المسؤولين عن سقوط القسطل هذا السقوط والذي أدى بدوره إلى سقوط بيت المقدس بأيدي أبناء القردة والخنازير وقتل خيرة شباب الأمة من المجاهدين الذين يعول عليهم الكثير في تحرير أرض فلسطين وتطهير بيت المقدس من دنس الاحتلال اليهودي، وقد روي عن أحد أعضاء اللجنة العسكرية قوله للحسيني دعهم يحتلون القدس حتى يكون لنا شرف استعادتها منهم، واحتلت القدس الغربية ثم الشرقية ثم كامل فلسطين، دون أن ينال أعضاء اللجنة العسكرية هذا الشرف.

و لم تكن المسؤولية متوقفة على هؤلاء الأعضاء فالجزء الأكبر يتحمله حكام الطوائف في ذلك الوقت والذين أتوا من بعدهم، فأمة لا تحاسب من يفرطون بثوابتها الاستراتيجية من أبنائها وتكافئ البررة

منهم على ما قدموه من خدمة لدينهم وأمتهم، هي أمة قاصرة لم تعي رشدها ولن تتمكن من استعادة حقوقها المغتصبة ولا رسم مستقبلها، وستبقى تعتمد على أعدائها بكل مقومات حياتها، الأمر الـــذي يجعلها تستورد منهم كل شيء، حتى فيما يتعلق بأمنها الداخلي، وبالتالي لا يمكن لها أن تدعي أنها أمة ذات سيادة.

فما أراه وحال الأمة كما ذكر فإنه من العبث إضاعة الوقت بتكريس الجهود لمتابعة أخبـــار القمـــم العربية السابقة واللاحقة وتحليل قراراتها، فهذه القمم هي التي أضاعت فلسطين سابقاً ورسّخت أقدام المحتل بأرضها الطاهرة لاحقاً، فلو أعدنا إلى الأذهان نتائج اجتماعات القمم العربية منـــذ أول قمـــة وحتى قمة الجزائر الأخيرة، لوجدنا أن كل قمة تقدم تنازلات للعدو الصهيوني تفوق التنازلات الـــتي قدّمتها القمة التي قبلها، حتى وصل بنا الحال إلى عرض فرض التطبيع مع اليهود على الشعوب العربية دون مقابل، وهذا المقترح الذي تقدم به الوفد الأردني، وأقره المؤتمرون بالجزائر تحت مسمى تفعيـــل المبادرة العربية، ما هو قادم أخطر إلا أن يشاء الله غير ذلك، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغـــيروا مـــا بأنفسهم، ولن يساورنا أي شك بالنصر والتمكين لهذه الأمة.

ولكن لن يتحقق هذا النصر بعقد المؤتمرات الهزيلة واستجداء الحل من البيت الأبيض والأمم المتحدة، وإنما يتحقق النصر _بإذن الله تعالى_ ثم بسيوف المجاهدين التي لا تعرف للحل إلا طريقين لا ثالـــث لهما – إما طريق النصر أو الشهادة، وهذا الذي يخشاه أعداء الأمة من اليهود والصليبيين، والمتهافتين على حطام الدنيا من أبناء جلدتنا، ولعّل ما يحدث في بلاد الشام هذه الأيام ما هو إلا من إرهاصـــات الحل المنشود، فالقوم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

فالذي يظهر والله أعلم – أن سدنة البيت الأبيض أرادوا بهذا العمل لفت أنظار شعبهم عما يجـــري لجنودهم بالعراق، ولكن غاب عن صنّاع القرار هؤلاء أن إضعاف النظام السوري قد يؤدي إلى كسر أحد البوابات المؤصدة على دولة العصابة اليهودية في فلسطين، الأمر الذي سيسمح بدخول المجاهدين عبر بوابة الشام إلى فلسطين المحتلة، وسيعلم وقتها الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

١٤٢٦/٣/١٥

المصدر: http://www.almoslim.net

بشائر النصر

أحمد بن صالح السديس

ظهر في الناس اليوم اليأس، وفقد الكثيرون الأمل. وكانت مصـــائب الأمـــة ونكســـاتها، وحروبهـــا وانهزاماتها؛ سبباً في أنْ ينظروا إلى واقعهم بعين السخط والتشاؤم، وأنْ يغضّوا الطرف عـــن أســـباب للنصر وبشائر؛ فخارت منهم القُوى، وتمكّن منهم العِدا. وما أحوجهم إلى استنطاق التاريخ، وقراءة

النصوص، ومعرفة البشائر، وليس ذلك ليركنوا للأماني، ويسلكوا درب التواكل، ولكنْ ليعدّوا القوى، ويأخذوا بالأسباب والوسائل، في عزم صادق، وجهد متواصل وفاعل، بعيداً عن اليأس والقنوط الذي هو أول الانكسار، وبداية الانهزام، وقد يكفي العدوَّ من الغنيمة اليأسُ والانكسار؛ ذلك أنّ مَن يئس من النصر لم يعمل من أجله، ومن قنع ورضي بالذل طال لُبثه ومكوثه فيه.

لقد قضت سنة الله العليم، وتدبيرُه الحكيم، أنّ الحق والباطل في صراع وتدافع دائم، وأنّ الباطل قد يكون له في فترةٍ الفوزُ والغلب؛ ابتلاء من الله وتمحيصاً، وتربية للمؤمنين وتطهيراً: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [محمد: ٤].

ومتى وُجد الكفر والفتنة فقد فُرضت الحرب والقتال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]، والفتنة لن تخلو منها الأرض، بل إنّ الساعة لا تقوم إلا على شرّ الخلق.

وإنْ كانت الخصوم تبحث عن ولي لها ومعين؛ فإنّ وليَّ المؤمن أعظم الأولياء، وما خاب مَن لجأ إلى الله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد: ١١].

ولو صَفَت الحياة من المصاعب والمصائب؛ لكان ذلك لأفضل البشر وخير القرون!! لقد مرّ بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه رضوان الله عليهم محن وبلاء، وبأساء وضراء، كما مرّ ذلك برسل قبلهم وأنبياء، حتى تاقت نفوسهم إلى الخلاص، وتشوَّقت إلى النصر والنجاة، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]. لقد بلغ الضر والبلاء بالمؤمنين في صدر الإسلام مبلغاً عظيماً، وامتُحنوا امتحاناً شديداً، حتى شكوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الشدة، فقالوا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم؛ يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدّه ذلك عن دينه. والله ليَتِمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

هكذا هي سنة الله التي لا تحابي أحداً، سأل هرقلُ أبا سفيان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يُدال علينا ونُدال عليه. قال هرقل: كذلك الرسل تُبتلى، ثم تكون لها العاقبة.

هذا يعقوب - عليه السلام - يفقد ابنه صغيراً، وبعد سنوات طِوال من الأحزان يفقد ابنه الآخر، فيتجدّد حزنه، ويشتد مصابه، حتى ابيضت عيناه، فيقول لأبنائه: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، فكانت عاقبة أحزان السنوات الطوال تفريجاً ورفعة في الدرجات، وفوزاً بأحسن حال.

ولما خرج الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر – رضي الله عنه – من مكة إلى المدينة مهاجرَين؛ جُنّ جنون قريش، واستنفرت قواها، وجعلت مائة ناقة لمن يأتيها بأحدهما حياً أو ميتاً، وطمع الناس بهذه الجائزة، ورجا كل منهم أنْ يكون الفائز بها، وكان سراقة ابن مالك ممن نشط لذلك، فانطلق يتبع أثرهما، حتى دنا منهما، فعثرت فرسه، وغاصت يداها في الأرض؛ فعرف أنّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – محفوظ، وأنّ أحداً لن يناله بسوء؛ فناداهما بالأمان. وقال له الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مبشِّراً: «كأني بك يا سراقة! تلبس سوارَيْ كسرى»، فوقف سراقة متعجِّباً من هذه النبوءة والبشارة؛ محمد الذي خرج من مكة مطارَداً من قومه وأقرب الناس إليه يعدني سوارَيْ كسرى!! ولكنه اليقين بنصر الله وبموعوده الذي لا يتزلزل عند الملمّات والشدائد. وانقلب الحال فتحوَّل سراقة من عدو طامع، إلى صديق مدافع، ووقف مكانه يصرف الناس عنهما.

وفي غزوة الأحزاب التي أخبر الله عن حال المؤمنين، والشدة التي صاروا فيها، حتى زاغت منهم الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنونا، إنها الحال التي ابتُلي بها المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً. فلمّا بدؤوا بحفر الخندق بذلاً للأسباب واستعداداً، ضرب الرسول – صلى الله عليه وسلم – صخرة صلْدةً بالمِعْول فصدعها، وبرقت منها برقة أضاءت المدينة، فكبَّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكبَّر المسلمون، ولما تكرَّر ذلك ثلاث مرات؛ بشَّر – عليه الصلاة والسلام – المسلمين في ذلك الكرب وتلك الصِّعاب بأنهم سيفتحون مدائن كسرى، وقصور الروم، وقصور صنعاء.

إنّ الباطل وإنْ صال وجال، وإنْ علا في زمان أو طال؛ فإنه ولا ريب سيعود إلى ما كان عليه من التراجع والصغار، وتلك سُنَّة من سنن الحكيم القهار. وقد وعد أصدق الواعدين – سبحانه –: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨]؛ ذلك أنّ هذا هو طبيعة الباطل: {إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١]. وإنّ الذي يمكث ويبقى هو ما ينفع الناس: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: ١٧].

إنّ المؤمنين الصابرين موعودون إحدى الحسنيين؛ فإما شهادة تعجِّل بهم إلى دار النعيم والكرامة، وإما نصر تَقرّ به عيونهم؛ ففيم اليأس والأسى؟ أما غيرهم ففيم يفرحون؟ وبم يُسرّون؟ أبالنار التي إليها يسيرون؟ أم بالعذاب الذي إليه يُساقون؟ أم بالخسارة التي إليها يُهرعون؟! ولقد قال الحكيم العليم – سبحانه –: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأنفال: ٣٦ – ٣٧]. لقد كانت غايتهم من إنفاق أموالهم الصدَّ عن سبيل الله، فسيخسرون أموالهم، ثم تصير نفقتهم ندامة عليهم؛ لأنهم كما يقول ابن جرير الطبري – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية: «أموالهم

تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأنّ الله معلٍ كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسله إلى جهنّم، فيُعذَّبون فيها، فأعظِم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومَن هلك! أما الحي فحُرِبَ ماله، وذهب باطلاً في غير دَرْك نفع، ورجع مغلوباً مقهوراً، محروباً مسلوباً. وأما الهالك فقُتل وسُلب، وعُجِّل به إلى نار الله يخلد فيها»، وتلك والله هي الخسارة الكبرى.

وإنّ من سنن الله – عز وجل – أنّ المستقبل لهذا الدين، والنصر لأوليائه الصادقين، مهما كاد الكائدون، وتآمر المتآمرون، {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١]، إنهم كما أخبر الله: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢]، إنهم يكيدون الليل والنهار ويمكرون، والله خير الماكرين، وهو – سبحانه – ولي المؤمنين المتقين.

والابتلاء هو سبيل المرسلين والمؤمنين، ولكنّ أمر المؤمن كله له خير؛ فهو عند النصر والسراء من الشاكرين، وعند الكرب والضراء من الصابرين. ولقد وعد الله، ولا أصدق منه وعداً، فقال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١ – ١٧٣]، ونصر المؤمنين أعظم نصر وأشرفه؛ لأنه نصر للحق على الباطل، ونصر في الدنيا والآخرة، بذا وعدنا الحكيم القادر: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، وجاء النص الإلهي الكريم في سورة الروم على انتقامه – سبحانه – من المجرمين الذين صدُّوا عن هدي المرسلين، ثم وَعَد بنصر المؤمنين، فقال – تبارك وتعالى –: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

وإنّ من نصر الله لدينه أنْ يبعث في كل حين مَن يجدِّده، كما جاء في سنن أبي داود عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها»(١). إنه رجل لا ينهض من أجل نفسه، ولكنه ينهض من أجل هذه الأمة المنصورة. إنّ الناس يموتون، ولكنّ الدين باق بعزَّة وشموخ، يقيِّض الله له من أبنائه مَن يكون عزُّه ونصره على يديه.

ومن نَصْر الله لدينه أنْ جعل الزمان لا يخلو من أهل الحق، الصابرين في سبيله، الذين يعضّون بنواجذهم عليه، ويتحمّلون في سبيله كل أذى وقتال، كما جاء في الحديث الصحيح عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس»(١).

إنّ الخوف على أنفسنا لا على دين الله، الخوف على أنفسنا في عالم تموج به الفتن أنْ يتخبّطنا الشيطان، أما الدين فله رب يحميه، وقد تكفَّل ببقائه وحفظه ونصره، ولا علينا أنْ يصيبنا ما يصيبنا في سبيل نصره وتمكينه، عن تميم الداري – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذلّ ذليل؛ عزّاً يعزّ الله به الإسلام، وذلاً يذلّ الله به الكفر»(٢).

وفي الحديث الصحيح الآخر أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «إنّ الله زوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمرَ والأبيضَ. وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيحَ بيضتهم. وإنّ ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»(٣).

ومن بشائر النصر العظيمة: فتح القسطنطينية وروما، وقد تحققت الأولى، وبقيت الثانية، ولا شكّ في حصولها، فقد أخبر بذلك مَن لا ينطق عن الهوى، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما –، قال: بينما نحن حول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نكتب؛ إذ سُئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: أيّ المدينتين تُفتح أولاً؛ قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «مدينة هرقل تفتح أولاً» يعني قسطنطينية(٤).

ولئن كان لليهود اليوم صولة وجولة، وكان للنصارى مظاهرة لهم وممانعة، ولئن ظنّ بعض المنهزمين ألا قدرة لنا عليهم، فقد جاءتنا البشارة بأنّ خاتمة المطاف تحمل نصراً لنا وإبادة لهم؛ إبادة يتعاون معنا فيها الحجر والنبات. أخبر عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «تقاتلكم اليهود، فتُسلَّطون عليهم، حتى يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهوديّ ورائي، فاقتله»(٥). وفي رواية أخرى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهوديّ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»(٦).

إنّ الإيمان ـــ أيها الإخوة ـــ هو شرط نصركم وتمكينكم، فمتى صحَّ ذلك منكم تحقَّق وعد ربكم لكم.

وإنّ العبرة ليست بالظاهر، فلربما أخفت الحقائقَ المظاهرُ. وإنّ الكافرين وإنْ كانت لهم الغلبة الظاهرة، إلا أنّ النصر الحقيقي يتمثل في الصبر والثبات، وفي خاتمة المسار والمطاف، {وَعْدَ اللَّهِ لا

يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦)يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِـــرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٦ - ٧].

لقد كانت النتائج العسكرية البحتة لكثير من الغزوات والمعارك تمثل هزائم ونكسات، ولكنها لم تكن القاضية، وكان بعدها جولات للمؤمنين غالبةٌ.

لما نجا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بالمسلمين في مؤتة؛ صاح بهم بعض الناس لمـــا رجعـــوا إلى المدينة: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله، ولكنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قـــال: «بـــل أنـــتم الكرَّارون، أنا فئتكم».

وفي أُحد دارت الدائرة على المسلمين بعدما كانت الغلبة لهم، واضطربت صفوفهم، وتمكّـــن منـــهم أعداؤهم، ولكنّ الحكيم العليم خاطبهم: {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنـــتُم مُّـــؤْمِنِينَ (١٣٩)إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّـــذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠].

وليُعلمْ علم اليقين أنّ النصر قد يتأخر، ولكنه لا يتخلّف. وقد يأتي في غير صورته المعروفة، وهيئتـــه المألوفة؛ فالابتلاء والمصائب قد تحمل من الخير الخفيِّ الكثيرَ، وقد تكون سبباً لنصر أعظـــم وأشمـــل. وعلينا ألا نيأس من نيل النصر، وأن نبحث عن أسبابه، وأنْ نجتهد في أن نكون جنداً مـــن جنـــده، {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

فأبشروا وأمِّلوا، وثقوا بالنصر واعملوا، واعلموا أنّ الخير لا يُدرى أين يكون، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدرى أوله خـــير أم آخره»(٧).

(١) صحيح البخاري، كتاب الإكراه.

(١) سنن أبي داود: كتاب الملاحم.

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة.

(٢) مسند الإمام أحمد.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) مسند الإمام أحمد.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، واللفظ له.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٧) سنن الترمذي، كتاب الأمثال.

المصدر: http://albayan-magazine.com.ربيع الآخر ١٤٢٤، يونيو ٢٠٠٣

النصر القادم

محمد أبو الهيثم

في كل صباح ننتظر النصر..ولكن لا نصر
مع ظفرات أنين خروج الليل سينبلج الفجر
هذا صلاح الدين بيده الحجر كصورة بدر
هذي الخنساء تربّي للقدس بيدها أبطال الفخر
يا كل رجال العالم ونساءه قد شُقَّ البحر
في قدس الروح وفي قلب القدس سينفلق الصخر
أطفال كالدرِّ المنثور تلألأ ليزين للقدس النحر
الحجر سلاح فتاك وبصيحات التكبير سيمتلئ الثغر
يا قدس الروح ويا روحي يا أم الخير
بجبين الأمة آلامك قسماً ستزيل القهر
النصر القادم آت لا شك، وإن طال الصبر
بسيوف السنّة والقرآن وبالحجر..سينقلع الشر

٠٢ - ٠٥ - ٢٠٠٥

المصدر: http://www.islamway.com

سبيل الوحدة وطريق النصر

سعود بن إبراهيم الشريم

الخطبة الأولى

أما بعد:

فيا أيها الناس، في دنيانا المحيطة بنا أمثلة وضروب تتلوَّن وتتجدد، ثم إن بعضها يتبع بعضاً على وجه المطالبة الحثيثة بحيث إن النفوس المؤمنة تستمرِئها بسبب تتابعها رويداً رويداً، حتى تألفها فلا تكاد تتحوّل عنها.

وهذه الأمور ــ عباد الله ــ إنما هي نماذج لأحزان وأشجان وقروحٍ تمسّ بلاد الإسلام حسيّة ومعنوية، مما يجعلها سبباً لكثير من الناس في أن يسعَوا جاهدين على إزالة همومهم وغمومهم بشيء من الكيوف الموقوتة والسراب الخادع، من كل ما هو من زخرف الدنيا وزينتها. والذي يجب على المسلمين جملةً أن لا يغترّوا بما يرونه من زخرف الحياة الدنيا وزينتها في أمةٍ تقطّعت روابطها

وانفصمت عُراها، (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [طه: ١٣١].

من أجل الدنيا وزينتها يغشّ التجار ويطفّفون، ومن أجل الدنيا يتجبّر الرفعاء ويستكبرون، من أجل الدنيا وزخرفها يروّج الصحفي بقلمه الكذب والزور، ويخفي الحقائق وهي أوضح من فَلَق الصبح، من أجل الدنيا يصبح المرءُ مسلما ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا مقيت.

كل الناس على هذه البسيطة يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها، من مُترَفٍ مبطونٍ يأكل ولا يشبع، داؤه العُضال هو أن تذكّره بذوي المسغبة أو المسكنة، أو المصاب الجلل من بني ملّتِه، ومن قارونيّ يجمع ويجمع، ثم يأخذ ويمنع، ومصابُه الجلل في أن تحثّه على الإنفاق في سبيل الله جهاداً ودعوةً وصدقةً، ومن شباب وفتياتٍ دُعُوا إلى الفضيلة فأبوا، ونودوا إلى صيانة النفس فتمرّدوا، وألقوا [ثيابهم] لكل قادم ناهب، وكشفوا أوعيتهم لكل سَبُعٍ والغ.

والحق ــ عباد الله ــ أن هذا الانطلاق المحموم في مهامِه الحياة ودروبها أفراداً ومجتمعاتٍ دون اكتراث بما كان وما يكون، أو الاكتفاء بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة أو الأعراض المخوفة، الحق أن ذلك نذير شؤم والعياذ بالله، وقد عدّه الله – سبحانه – سمة من سمات المنافقين الذين لا كياسة لديهم ولا يقين لهم: (أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ) [التوبة: ١٢٦].

أيها المسلمون، في الليلة الظلماء يُفتقد البدر، وفي لهيب الشمس وسموم الحر يُستطلب الظل وتستجلب النفحات، وما أروع العدل حين يطغى الجور، والإنصاف حين يعلو الغمط، والوقوف مع النفس في مكاشفة ومصارحة في عصرٍ غلبت عليه المجاملات والرتابة، والفرقة والوحشة، والتناصُر بين النفوس شذر مذر.

ومن هنا يأتي الحديث ضرورياً عن الوحدة والاجتماع، والتآلف والتآخي، والتناصر والتكاتف، في عصر كثرت فيه الموجعات، وقلّت فيه الرادعات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها المسلمون، لطالما تحدّث المتحدّثون، وهتف الهاتفون من أمة الإسلام بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية راسخة الأسس شامخة المعالم، تَطال أمة الإسلام طُراً، حتى تكون بعد ذلك صخراً صلداً تتحطّم أمامه أمواج الضعف وتتخاذل.

وهذه الدعوة في حقيقتها ليست مستحيلة ولا ضرباً من التخييل أو نزوةً من أحلام اليقظة، كلا عباد الله، فلو كان الأمر كذلك لما حظّ الباري جل شأنه عبادَه المؤمنين على أن يكونوا إخوةً في الله متناصرين معاونين، تجمعهم كلمةٌ واحدة ورابطة واحدة، وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ

[التوبة: ٧١]، ولما حرَّض رسول الله على أن يتلاحم المسلمون، ويكونوا كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

غير أن السؤال الذي قد يشغل بال الكثيرين هو: كيف نبني هذه الوحدة؟ وعلى أي أساس يجب أن تنهض ليشتد عودها، ويستقيم ظلها؟ أتُقام هذه الوحدة على أساس من اللغة؟ لا، فاللغة وحدها غير كافية، إذ قد يكتنفها مسلم وكافر، فضلاً عن أنه لم يكن اللسان يوماً ما هو سبيل الاتحاد والوحدة، فكم هم الذين يتكلمون بلغتنا ومن بني جلدتنا، وهم في الحقيقة شياطين في جثمان إنس، كما وصفهم النبي بذلك عند مسلم في صحيحه[١].

أفتقام إذاً هذه الوحدة على أساس من الجنس؟ كلا، فالجنس وحده ليس معياراً يُعتمد عليه، أو يُجعل تِكأةً للائتلاف العميق، فالإسلام لا يقيم للجنس في تقديره وزنا، فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، وإن كان لهم من أصلهم نسبٌ يفاخرون به فإنه لا يعدو كونه الطين والماء، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[الحجرات: ١٣].

إذاً على ماذا تقام هذه الوحدة؟ وبأي شيء تكمُل؟ إنها لا تقوم حقيقةً إلا على أساس يجمع الأرواح قبل أن يجمع الأشباح، ويقنع العقول إثر سيطرته على القلوب، ويؤلف بين الرغبات والأهواء كما يؤلّف بين النبات والماء، هذا الأساس بكلِّه هو عقيدة الإيمان المستقرّة في الخواطر والصدور، وملةُ الإسلام التي تُظِل أبناءها جميعاً ليتفيّؤوا ظلالها بلواء العلي الغفار، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ [البقرة: ١٣٨].

إنه يجب علينا جميعاً أن نؤمن بأن الدعوة للوحدة ليست عصبيةً أو جنسيةً أو إقليمية، أو تأليباً على الشر، أو اعتزاماً للبطش والعدوان، بل هي الوحدة المؤمنة العادلة التي يلزمها أن تقوم للناس بالحق والقسط، والدين الإسلامي هو أقوى وَتَرٍ حساسٍ في نفوس المؤمنين، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتباين أقطارهم وبلدانهم، ولن تجتمع كلمتهم يوماً ما دون أن تُؤَسلم قضاياهم، وتُحدد معاييرها من خلال الإطار الإسلامي الخالد، والإسلام بحقيقته ليس إلا.

والإسلام في حقيقة أمره إنما انطلق في وحدته من خلال توحيد الخالق - سبحانه وتعالى -: (اللَّهُ لاَ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) [البقرة: ٢٥٥]، ووحدة الرسول: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ) [الفتح: ٢٩]، ووحدة الدين: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) [آل عمران: ٨٥]، ووحدة الكتاب: (إِنَّ هَذَا الْقُرْءانَ يهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)[الإسراء: ٩]، ووحدة القبلة: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)[البقرة: ١٤٤]، ووحدة الأمة: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)[الأنبياء: ٩٢].

هذه هي معايير الوحدة الحقة، وأي وحدة سواها فهي كالظئر المستأجرة أو النائحة المزوَّرة.

عباد الله، إن من مكمِّلات الوحدة وتداعياتها نصرة الأخ المسلم، وخوض ميدان دعمه حال اشتباكه مع قوى الباطل، في معركةٍ موصولةِ الكرِّ والفرِّ، ولا يحصل مثل ذلك إلا بترويض النفس على شـــيء من المجاهدة والمثابرة، وحمل همّ الإسلام لنضمن شيئاً من الكفاية ونتقي الفضول، ولنكون أعون شيء على رفع مستوى الثغور والجبهات لأمة الإسلام، وتوفير العزة إرضاءً لله – سبحانه –، فإنـــه ـــ ولا شك ـــ لا يتفق طمعٌ في الدنيا وانتصار للمثل العليا، كما أنهما لا ينسجمان ألبتة، حرصٌ على إعلاء كلمة الله وحرصٌ على تكثير المغانم والعبِّ منها كما الهيم، مع استرضاء الخلائق واستزدائهم بـــالخور والجبن.

وفي التفاتةٍ سريعة إلى دنيا الناس في مجملها تجاه النصرة والخذلان والرفعة والدون، فإنهـــا يُمكِـــن أن تصوّر لنا الناس كحال رجلين اثنين: إما رجلٌ له مال وبنون، طال أجله، وأدبر شبابه، وكان واجبـــاً عليه أن يتهيّأ للآخرة بزاد حسن، ومثلُه لو قتل في سبيل الله فإنه لم يترك وراءه شيئاً يخـــاف عليـــه الضيعة، لا الزوجة العجوز ولا الأولاد الكبار، ومع هذا فهو أشبه ما يكون بشيطان أخرس أو ناطق، يفرق من كلمة حق، ويوجل من موقف شرف، ويتشبث بأذيال الحياة طلباً للمزيد بنهمٍ وسعار، وفي المقابل مثل شباب لهم آمال، وتعتريهم صبوات أيما صبوات، ولهم أحمال، وعليهم أعباء، ومثلهم لـــو توثّقت علائقهم بالدنيا أو قهرتهم الصبوة بكلكلها لما كان في سيرتهم كبير عجب، ومع هـــذا كلـــه يذهلون عن الدنيا المقبلة، ويتركون ذريةً ضعافاً خافوا عليهم، ويقبلون على نصرة ديـــن الله بنُبـــل وجلال.

هذان مثلان مضروبان، يمكن تنزيلهما في واقع الناس على كافة المحاور، شعوباً وحكوماتٍ، وأفـــراداً كلٌّ بحسبه.

ومن باب أن الشيء بالشيء يُذكر، فإن المؤمن الصادق لا يملّ كثرة الحديث عن ثالث المســـجدين، وعن مسرى رسول الله، عن فلسطين الآبية؛ لأنها اليوم تُعدّ نقطة الارتكاز في ميدان القضية الإسلامية والجهاد الإسلامي، وقضيتها حديث القضايا الإسلامية، وساحتها محطّة امتحـــان وكشـــف لقـــوّة المسلمين وغيرتهم على دينهم وأوطانهم وحرماتهم، فهي أرض المسلمين، ولا تصلح إلا للمســـلمين، أرضٌ أظهرت صور رجالها البواسل حينما أخرجت العالم من مكتبه، والعامل من معمله، واستنجدت المرأةَ في بيتها، والطفلَ في مدرسته، أمسَوا على وهج النار، وأصبحوا على دخـــان البـــارود، إنهـــم يدافعون عن دينهم وكرامتهم، إنهم يسوقون في وجوه الغاصبين شباباً أنضر من الزهر، وأبهـــى مـــن الوضاءة، وأثبت من الجبل، وأمضى من العاصفة، إنهم يكافحون بشيوخ لهم حماسة الشباب، وشباب لهم همّة الشيوخ، ونساءٍ لهم قوة الرجال، وصغار لهم عزائم الكبار، ولئن هلك منهم فـــوجٌ ليـــأتون بأفواج، ولئن صبر مغتصبهم يوماً ما ليرمونه بأيام.

إن من يستشعر مثل هذا ليس له منطلق إلا الإسلام، فإنه سيوقن ولا ريب أن المسلمين أصحاب دين لا يموت، ولا ينبغي له أن يموت، مهما هبّت الأعاصير، وادلهمت الخطوب، وهو باقٍ خالد إلى قيـــام الساعة، وعندما يشرئبُّ أعداؤه أن تُشيَّع جنازته فإنهم سيُصعقون ببزوغ شمسه من جديد.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن ندرك جيداً بأن انتصار المسلمين وانكسارهم لا يرجع إلى قوة أعدائهم أو ضعفهم، وإنما الانتصار والانكسار في الحقيقة يعودان إلى الأمة الإسلامية نفسها، فـــإذا وحَّـــدت كلمتها، ومن قبل ذلك وحّدت ربها، ولزمت أمره، وأقامت حقَّه، فإنها منصورة لا محالة، (إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ)[محمد: ٧].

والقلة والكثرة ليست هي المعيار الحقيقي فقد انتصر المسلمون في بدر وهم قلة أذلة، (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ) [آل عمران: ١٢٣]، ثم هُزموا في حُنين وهم كثرة كاثرة، (وَيَـــوْمَ حُنَـــيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) [التوبة: ٢٥].

والمسلمون ـــ عباد الله ـــ إنما ينتصرون إذا أحسنوا علاقتهم بالله، وعزموا على نصرة دين الله، فـــإن من لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله، ومن لا يعرف إلا الحق لن يغلبه مـــن لا يعـــرف إلا الباطل.

(إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّـــلِ الْمُؤْمِنُونَ) [آل عمران: ١٦٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت مـــا قلت، إن صواباً فمن الله، وإن خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله، إنه كان غفاراً.

---

[١] يشير إلى وصف النبي لأئمة الضلال حيث قال فيهم: ((وسيقوم فيهم رجـــال قلـــوبهم قلـــوب الشياطين في جثمان إنس)) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٧) من حديث حذيفة – رضي الله عنه – .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليـــه، وعلـــى آلـــه وأصحابه المتقين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس، إن العجب كلَّ العجب أن تسفُل النفس المؤمنة حتى لا تطلب رفعةً، أو تقنط حتى لا يكون لها أملٌ.

أما لو أيقن المسلمون أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة، وأنه القاهر فوق عباده، تخضع كـــل قـــوة لعظمته، وتدين كل سطوةٍ لجبروته، وأن هذا القادر العظيم بيده مقاليد كل شيء، يصـــرِّف عبـــاده كيف يشاء، لما أمكن مع ذلك أن يتحكم فيهم اليأس، أو تغتال آمالهم غائلةُ القنوط.

فما على المسلمين إلا أن يتحقق بينهم روح الإخاء والتضامن في الدين، فيأخذ القوي بيد الضـــعيف، ويشد المقتدر من أزر العاجز، وتُرفع راية التوحيد المحصنة، ويُطرح التفاهم بإخلاص في الأمور مـــع الاعتماد على الله، واللجوء إليه، مع بذل الأسباب المادية، ومحض النصح للقيادة، ابتغـــاء وجـــه الله، فدين الله وشرعه وإن ضعف فيه شخص المتقين المجاهدين فهو باقٍ خالد، وُضعت فيه صفات المـــتقين وخُطط المجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

كما أنه من الواجب على المسلمين بعامة أن يبحثوا في كل مظنَّة ضعفٍ عن سبب قوةٍ، ولو أخلصوا في تلمّس ذلك وطلبه لانقلب الضعف إلى قوة؛ لأن الضعف قد ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله بعنايته ورعايته، فإذا هي تهدّ الجبال، وتحيّر الألباب، (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَـــانَ اللَّـــهُ عَلِيماً حَكِيماً) [الفتح: ٤]، سمع معاوية – رضي الله عنه – أن رجلاً من خصمائه شرب عسلا فيـــه سمٌّ فمات، فقال – رضي الله عنه –: (إن لله جنوداً منها العسل)[١].

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن نعترف بأخطائنا في الواقع والتي يتكاثر عدُّها، ويستحيل حصرها، والتي تخل بنظام السببية في النصر والتمكين، وأن يكون هذا الطرح بصورة صريحة في واقعنا، عـــبر كافـــة الوسائل المتاحة دون اقترافِ خياناتٍ قاتلة من ذوي الأقلام المؤثرة والألسن المستميلة في حق دينـــهم وأمتهم بتجاهل تلك القضايا المهمة، والتي بتجاهلها وغضّ الطرف عنها يُؤخَّر يوم النصر ولا يُقـــدَّم، فتقود إلى الغرق في بحر لجيٍّ من الخداع والتضليل، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

فهل يرتفع شعار الإسلام وترفرف رايته في تحليل القضايا الإسلامية أو تبقى تحت الرايات العميَّة لنبلغ بها القاع والعياذ بالله؟!

(وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ) [الحج: ٤٠، ٤١].

هذا وصلوا ـــ رحمكم الله ـــ على من أمركم الله بالصلاة عليه، فقد قال عز من قائل عليم: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...

---

[١] انظر: مصنف عبد الرزاق (٤٦٠/٥)، والتاريخ الكبير للبخاري (٣١١/٧)، الثقات لابن حبان (٢٩٨/٢)، وصار هذا من الأمثال التي تضرب انظر: مجمع الأمثال (١١/١).

١٤٢٣/١/٢٩

المصدر: http://www.alminbar.net

القدس في الذاكرة حتى النصر

د. توفيق الواعي

القدس لن تُنسى وستظل في الذاكرة، وإن حاول اليهود ومن وراءهم طمس معالمها وإضاعة هويتها، وهل ينسى مسرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وثالث الحرمين، وجهاد المسلمين في استردادها، وجعلها جزءاً من تراث المسلمين المقدس؟

دخلت القدس في الحكم الإسلامي الفعلي سنة ١٦ه ٦٣٦م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عندما تسلم مفاتيحها من البطريرك "صفر ونيوس" وأعطى أهلها الأمان "العهدة العمرية" التي نصت على منع اليهود من الإقامة في القدس. وفي عام ١٠٩٩م، وقعت القدس في قبضة الصليبيين واستطاع الناصر صلاح الدين أن يحررها عام ١١٨٧م، ثم قامت صراعات محلية في بلاد الشام بعد حملات التتار والمغول، أدت إلى تخريب القدس عام ١٢٦٥م، ولكن المماليك تمكنوا من الحفاظ على القدس عربية إسلامية حتى مطلع القرن السادس الميلادي وخاصة المحافظة على الأماكن المقدسة ببناء القلاع في ساحة المسجد والمدارس وشبكات المياه...إلخ، الأمر الذي أدى إلى زيادة عدد السكان العرب المسلمين.

استمر الحكم الإسلامي لفلسطين والقدس حتى انهيار الدولة العثمانية وتولت بريطانيا الوصاية عليها عام ١٩١٦م بعد توقيع اتفاقية "سايكس بيكو" لاقتسام العالم الإسلامي بين بريطانيا وفرنسا، وبدأ المشروع الصهيوني في التبلور خلال فترة الانتداب واحتُلت معظم أراضي فلسطين والقسم الغربي من مدينة القدس عام ١٩٤٨م وتم احتلالها بالكامل عام ١٩٦٧م.

وكان الهدف من سريان حملات الاستيطان والتهويد في فلسطين وخاصة القدس مع بداية الانتداب البريطاني:

إضفاء الطابع اليهودي على المدينة المقدسة تمهيداً لإعلانها عاصمة موحدة للدولة الغاصبة.

إنكار أي مطالب عربية وإسلامية في المستقبل حول أحقية الأمة العربية في القدس. والجدول الذي أمامنا يبين لنا حقيقة الدور الكبير الذي لعبه الصهاينة لتغيير ملامح المدينة ولإثبات شرعية ادعائهم من جميع النواحي.

استراتيجية اليهود للاستيلاء على القدس:

خطوات التهويد: أخذت عملية تهويد القدس أشكالاً عدة يعود الفضل في تنفيذها إلى التنسيق المبرمج بين اليهودية العالمية والدول الاستعمارية. فكان من أبرز مشاريع التهويد "مشروع موشي مونتفيوري" الضابط في قصر ملكة إنجلترا ورجل الأعمال المصاهر للعائلة اليهودية العريقة الذي

استطاع التأثير على كل من بريطانيا وفرنسا للضغط على الدولة العثمانية من أجل استصدار فرمانات تسمح بإقامة مؤسسات يهودية في فلسطين والقدس.

الدور الذي قام به مونتفيوري:

١ تنظيم رحلات عملية إلى فلسطين لإقامة الأحياء اليهودية عام ١٨٢٧م.

٢ عقد اتفاق مع الطوائف اليهودية في إنجلترا وإيطاليا ورومانيا والمغرب وروسيا لإقامة مشروعه.

٣ إجراء عملية إحصاء لليهود في قلب القدس عام ١٨٣٩م وفي سائر أنحاء فلسطين لكي تكون مدينة بيت المقدس نقطة الانطلاق.

٤ بناء ٢٧ مستعمرة يهودية في الفترة من ١٨٤٣ ١٨٩٧م.

٥ أخذْ قطعة أرض من السلطان العثماني بحجة بناء مستشفى وإقامة أول مستعمرة يهودية عليها ١٨٥٩م.

٦ بناء مساكن شعبية لليهود.

وفي القرن التاسع عشر أقيمت أحياء أخرى على امتداد الطرق المؤدية إلى بوابات المدينة.

وقامت الصهيونية بالتحايل على القانون بشراء الأرض التي بنيت عليها الأحياء السكنية بمساعدة القنصل البريطاني في القدس.

وفي عام ١٩١٧م أنجز المخطط الصهيوني مرحلة مهمة بمحاصرة مدينة القدس.

وقدم "هرتزل" إلى فلسطين في ٤-١١-١٩٠٣م، ليجسد فكرة إقامة وطن قومي لليهود، فقام بتقديم مذكرة تفصيلية لإمبراطور ألمانيا حول الصهيونية وأهدافها التي تنوي تحقيقها على أرض فلسطين، وقد خطط الاستيطان اليهودي في القدس ليكون ركيزة ينطلق منها المستوطنون إلى سائر أنحاء فلسطين.

هذا وقد حدث تبدل ملحوظ في وضع مدينة القدس إثر قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين العربية عام ١٩٤٨م، وقد حدث هذا التطور على مرحلتين مهمتين من مراحل تطور الصراع العربي الصهيوني.

المرحلة الأولى: من مايو عام ١٩٤٨م وحتى نشوب حرب يونيو عام ١٩٦٧م، فقد قسمت المدينة المقدسة خلال هذه المرحلة إلى قسمين يخضع كل واحد منهما لإدارة قانونية وسياسية غير التي يخضع لها القسم الآخر، وكانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ المدينة التي يتم فيها تقسيم المدينة إلى قسمين؛ إذ ظلت القدس طوال التاريخ غير مقسمة.

وبعدها أعلن "الكيان الصهيوني" أن القدس عاصمته الموحدة وضم القدس نهائياً وإعلانها عاصمة الكيان الصهيوني سنة ١٩٨٠م، وحاولت كتلة غوش أمونيم اليهودية السيطرة على الأقصى بالقنابل والرشاشات.

المرحلة الثانية: في عام ١٩٩٦م، قام اليهود بافتتاح النفق الثالث تحت منطقة الحرم القدسي، ثم حاولوا مفاوضة الفلسطينيين لإعطائهم قرية أبوديس بدلاً عن القدس، ومازال وضع القدس يـــراوح مكانـــه "والكيان الصهيوني" ماض في التهويد، والعرب ومنظمة المؤتمر الإسلامي في قـــراراتهم ماضـــون، ولم يتحرك أحد لإنقاذها، وكأنهم أموات لا يحسون، فهل للقدس من صلاح الدين وجيل صلاح الدين؟! لن يكون ذلك إلا بالكفاح والعمل والصبر والتوكل على الله، وسيعلم الـــذين ظلمـــوا أي منقلـــب ينقلبون (٢٢٧) (الشعراء).

المصدر: http://www.almujtamaa-mag.com

النصر أسبابه ومقوماته

يوسف بن عبد الوهاب أبو سنينه

الخطبة الأولى:

عباد الله، لماذا ندعو الله ليلا ونهارا، سرا وجهارا، أن يكتب لنا النصر ولا يستجاب لنا؟ نتوجه إليـــه بقلوب خاشعة وألسنة طاهرة وأيد ضارعة ولا يستجيب لنا؟!.

أيها المؤمنون، لماذا لا تزال أمتنا تحت الحصار؟ لماذا لا تزال تقرب من اليمين ومن اليسار؟ لماذا يظـــل أعداؤنا يتحكمون فينا تحكم السادة في العبيد؟

أليست أمتنا هي القائمة على الدين الحق؟! أليست هي الشهيدة على الناس؟! ألم يخاطبنـــا المـــولى- تبارك وتعالى - بقوله: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " [آل عمـــران: ١١٠]. أو ليســـت أمتنـــا الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟!

وقد وصف الله - عز وجل - سِوَانا بقوله: " كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِـــئْسَ مَـــا كَـــانُوا يَفْعَلُونَ " [المائدة: ٧٩].

إذا لماذا أصبحنا أذلاء نستجدي غيرنا وقد كنا أعزاء؟ ألم تحكم دولتنا الإســـلامية العـــالم لقـــرون عديدة؟!

فما هو سبب هذا التردي والانحسار؟ ما هو سبب هذا الانكسار؟

تعالوا ـــ أيها المؤمنون ـــ نعالج هذه الأمور، ونضع النقاط على الحروف، حتى نعرف من أين نبـــدأ وإلى أين نقف؟

عباد الله، المشكل أننا ندعو الله ونحن بعيدون عن الله، ندعو الله أن ينصر الإسلام وأن يُعِزَّ المســـلمين ونحن قعود على جنوبنا، ولا نريد أن نبذل أنفسًا ولا أموالاً، ولا نضحي بغال ولا رخـــيص، ومـــا هكذا يستجاب الدعاء. إنما يستجاب الدعاء من قوم بذلوا ما يستطيعون وتركوا لله ما لا يستطيعون،

فالله – تعالى – هو الذي يكمل النقص ويسد الثغرات، لأن النصر من عنده وحده، " وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " [الأنفال: ١٠].

وهذا نصر الله أصحاب طالوت وكانوا قلة، كانوا في عدد أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وحينما رأوا جنود جالوت قال الكثيرون: " لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ [البقرة: ٢٤٩]، فماذا قال أهل الإيمان ــ اسمعوا أيها المؤمنون، ماذا قالوا ــ: قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ "[البقرة: ٢٤٩].

انظروا ــ يا عباد الله ــ إلى هذه اللفتة الإيمانية في قوله – تعالى –: " قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ "، بمجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقوا الله، قد جعل الله لهم هذه العقيدة، وإذا كان هذا حال مجرد الظن فما بالك باليقين؟

هكذا يجب علينا أن نفعل أيها المؤمنون، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك، حتى ينكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدد كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا، ومن هنا يقول الصحابي الجليل أبو الدرداء: (إنما تقاتلون بأعمالكم). فالأعمال فاسدة، والضعفاء مهملون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة، ومشاكلنا كثيرة، وأهل العلم والصلاح نائمون وغافلون.

ألم يقل الله – تعالى –: " اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [آل عمران: ٢٠٠]، ألم يقل – سبحانه وتعالى –: " وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا " [المائدة: ٢٣]، ألم يقل – عز وجل –: " إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ " [النحل: ١٢٨]، وقال – تعالى –: " وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ " [الحج: ٤٠]، ألم تقرؤا ــ أيها المؤمنون ــ قوله – تعالى – في سورة الأنفال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ " [الأنفال: ٤٥، ٤٦]؟!.

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على ما أصابنا وحَلَّ بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدِّين إلا رسمه؛ لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقا وغربا، برا وبحرا، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم.

عباد الله، ونظرة أخرى في هذه الآيات مع قوله – تعالى –: " وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " [البقرة: ٢٥٠]. هذا هو دعاؤهم، توجهوا إلى الله وهم في قلب المعركة، وهم في ساحة القتال، هذه هي الشُحْنَةً الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه، فهو ينادي قائلاً: (ربنا)؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء.

وتأملوا ـــ أيها المؤمنون ـــ في قوله – تعالى -: " أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا " أنهم طلبوا أن يمــلأ الله قلـــوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام حتى يواجهوا العدو بإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبت الأقـــدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله – تعالى -: " فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ " [البقرة: ٢٥١].

تلك هي النتيجة التي يتمناها المؤمنون، هزيمة أعدائهم، فهل تتحقق هزيمة أعدائنا أيها المؤمنون؟ نعـــم سوف تتحقق بإذن الله، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله: ((ساعتان تفتح أبواب السماء وقلما ترد على داع دعوته، عند حضور النداء، والصف في سبيل الله)).

واعلموا ـــ يا عباد الله ـــ علم اليقين أن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم ـــ ونرجو أن يكون عارضا ويزول ـــ ولو قام العلماء والأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واســـتلفتوهم عهـــد الله الذي لا يخلف، لرأيتم الحق يسمو والباطل يسفل، ولرأيتم نورا يُبهِرُ الأبصار، وأعمالا تحـــار فيهـــا الأفكار، وأن الحركة التي نلمسها ونحس بها الآن في نفوس المسلمين في أغلب الأقطار، تُبشرنا بأن الله – تعالى – قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جمـــع الموحـــدين، وسوف يكون قريبا إن شاء الله. فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجـــب الله علـــيهم، صحت لهم التوبة وعفا الله عنهم والله ذو فضل على المؤمنين.

فعلى الأمة وعلمائها أن تسارع إلى هذا الخير، وهو الخير كله جمع كلمة المسلمين، والفضـــل كـــل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل، " مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَـــهُ وَلِيًّـــا مُرْشِـــدًا [الكهف: ١٧]، وما يذكر إلا أولوا الألباب، قال رسول الله: ((لا تزال يد الله – عز وجل – علـــى هذه الأمة وفي كنفه وفي جواره وجناحه، ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم، وما لم يبر خيارهم أشرارهم، وما لم يعظم أبرارهم فجارهم، فإذا فعلوا ذلك رفعها عنهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وأنـــزل بهـــم الفاقة، وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب)). وقال: ((إذا كان ذلـــك لا يـــأتيهم أمـــر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم عن ذلك)).

الخطبة الثانية:

أيها المسلمون، من الأمور الهامة التي تستوجب انتباه وحذر ويقظة أمتنا الإسلامية، وبخاصة نحن أهل فلسطين، قضية بيت المقدس التي قفزت إلى ساحة الأحداث الساخنة، ليس بفعل يقظة الأمة الإسلامية وإنما ـــ وللأسف الشديد ـــ بفعل الممارسات الإسرائيلية، والنشاط الاستيطاني المتســـارع داخلـــها وخارجها، والأنباء التي تتحدث عن الشروع بإقامة حَيٍّ استيطاني في البلدة القديمـــة، وبالتحديـــد في باب الساهرة بالقرب من برج اللقلق المجاور لباب حطة.

عباد الله، قلناها أكثر من مرة أن القدس في خطر، ولكن لا حياة لمن تنادي! والحقيقة الجلية هي أن إسقاط القدس من قضية ما يسمى مفاوضات التسوية، وتأجيل بحثها لما يسمى مفاوضات الحل النهائي ــ إن وجد حَلٌّ أو بقيت قدس ــ، قد أعطت إسرائيل الضوء الأخضر للإسراع بتنفيذ مخططات تهويد المدينة المقدسة، مستغلة ضعف الموقف الفلسطيني، وعدم وجود أي موقف عربي أو إسلامي واضح وصريح ضد هذه الممارسات، وبعبارة أخرى هو استسلام للأمر الواقع.

أيها المؤمنون، إن الحديث عن إقامة حَيٍّ استيطاني في البلدة القديمة ليس أمرًا جديدًا، بل هو مخطط قديم حان الوقت لتنفيذه، والإعلان عنه في ظل التواطئ الدولي ومعاداة دول الكفر للإسلام، وفي ظل أوضاع مزرية يعيشها شعبنا الفلسطيني المسلم.

فالقدس ــ يا مسلمون ــ تضيع رويدا رويدا، البؤر الاستيطانية تزداد اتساعا مساحة وعددا، حول المسجد الأقصى، وفي محيطه أكثر من خمسين بؤرة استيطانية، وفي حارات البلدة القديمة المتعددة نحو ثلاثين بؤرة، محال تجارية وعقارات تتسرب بالخفاء. الحي اليهودي الواقع في الجنوب الغربي من البلدة القديمة يحتل خمس مساحة البلدة القديمة. الحي الاستيطاني المزعم إقامته سيحتل مساحة كبيرة من القسم الشمالي الشرقي من البلدة القديمة. ومما يلفت الأنظار أن الحَيَّ الاستيطاني الجديد يأخذ الطابع الديني كما ذكرت الصحف ليتحدى مشاعر المسلمين، وسيقام في الحي كنيس تعلوه قبة صفراء يقولون: أنها ستضاهي قبة الصخرة المشرفة على حد زعمهم. والأنباء تتحدث عن اعتزام السلطات الإسرائيلية جلب نحو مليون يهودي خلال السنوات العشر القادمة، حيث سيتم إسكان غالبيتهم في القدس والمستوطنات اليهودية المحيطة بها.

عباد الله، ما أشبه اليوم بالبارحة؛ أبرهة الأشرم بعد أن استأثر بحكم اليمن، أراد أن ينال رضا ملك الحبشة، فبعث إليه قائلا: سأبني كنيسة كبيرة تعلوها قبة مزركشة، يتحدث عنها العرب والعجم. واسماها القليس لعلوها، وكان هدف أبرهة أن يستقطب العرب للحج إلى هذه الكنيسة بدلا من الحج إلى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة، فالعرب كانوا يقدسون الكعبة ويحجون إليها قبل الإسلام، ونحن نفرط بمسرى رسول الله!. ولما دَنَّسَ العرب هذه الكنيسة استشاط أبرهة غضبا، وجهز جيشا لغزو مكة وهدم الكعبة، فمذا جرى؟ محقه الله وسحق جيشه وشتت شمله ومزق جمعه، وتلك سنة الله لمن أراد لبيته بسوء، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أيها المسلمون، ومهما طغى الطغاة، ومهما تكالبت قوى الشر والبغي والعدوان في محاربة الإسلام والمسلمين، وتدنيس المقدسات وقتل الأبرياء، فإن الغلبة لهذا الدين، وستبقى مدينة القدس درة فلسطين إسلامية العقيدة عربية الجذور، ستبقى مدينة إسلامية إن شاء الله – تعالى –.

أيها المسلمون، الأيام القادمة ستكون صعبة على أهل بيت المقدس، سيما بعد الانتهاء من بناء الجدار العنصري، والذي سيشدد على المدينة ويضعف الحالة الاقتصادية، ويزيد من معاناة التنقل والتواصل.

أيها المسلمون، هذا هو قدرنا، إن شرفنا الله بالرباط على ثغرة من ثغر الإسلام، فهنيئا لكم ـــ يا أهلنا ـــ بهذا الشرف الإلهي وهذه النعمة العظيمة، فكونوا على قدر المسؤولية، كونوا أهل نعمة وشـــكر، ولا تكونوا أهل نقمة وكفر، وتذكروا أن العاقبة للمتقين، وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

١٤٢٦/٦/٣٠

المصدر: http://www.alminbar.net

أختاه..حتى تكوني من أسباب النصر

لا تندهشي إذا قيل لك أنك أحد أسباب هزيمة الأمة أو نصرها برغم أنك لا تملكين سلطة ولا قوة، ولا تلقي اللوم على حاكم أو أمير أو وزير فيما وصل إليه حال الأمة رغم اشتراكهم في المســؤولية، لكن اجلسي مع نفسك وتفكري في ذنوبك ومعاصيك، واسألي نفسك وقد أحببــت الله ورســوله والإسلام وأهله: هل تحافظين على الصلوات المكتوبة لا سيما صلاة الفجر؟ هل تحافظين على السنن؟ هل تداومين على ورد القرآن وأذكار الصباح والمساء؟ هل تبرين والديك؟ هل تصلين رحمك؟ هــل تغضين بصرك؟ هل تصدقين في قولك؟ هل تحسنين إلى جاراتك؟ هل تساعدين المحتاج والفقير؟ هــل تعودين المريض؟ هل تأمرين بالمعروف وتنهين عن المنكر؟..هل.. هل.. ؟

إذا كانت الإجابة (أحياناً) فلا تدعي قدرتك على الجهاد ضد عدوّك، وقد فشلت في جهاد نفســك أولاً، في أمر لا يكلفك دماً ولا مالاً، لا يعدو كونه دقائق قليلة تبذلينها في الصلاة!! كيف تطلــبين الجهاد، وأنت تتخبّطين في أداء الصلوات المفروضة، وتضيّعين السنن الراتبة، ولا تحافظين على الــورد القرآني، وتنسين أذكار الصباح والمساء، و لم تتحصّني بغض البصر، ولا تبرّين والديك، ولا تصــلين رحمك !!

كيف تطلبين العزة للمسلمين وأنت تحتقرين الفقير والمسكين ولا تمدين لهم يد العون !! كيف تطلبين القوة للإسلام وأنت لا تعرفين جاراتك ولا تشاركينهن أفراحهن وأحــزانهن، ولا تبــذلين النصــح لصديقاتك؟ كيف تطلبين تحكيم شريعة الله في بلادك، وأنت لم تحكّميها في نفسك وبين أهل بيتك، فلم تتق الله فيهم، و لم تدعيهم إلى الهدى، و لم تأمري بمعروف أو تنهي عن منكر، وكذبت وغششت و أخلفت الوعد فاستحققت الوعيد!!

لا تقولي أنك واحد في المليار من أبناء هذه الأمة، فهناك الملايين من أمثالك – إلا مــن رحــم الله – ينتهجون نهجك فلا يعبأون بطاعة ولا يخافون معصية، وتعلّل الجميع أنهم يطلبون النصر لأنه في الأمة من هو أفضل منهم، لكن الحقيقة المؤلمة أن الجميع سواء إلا من رحم رب السماء .. فما بالك بأمــة

واقعة في الذنوب من كبيرها إلى صغيرها ومن حقيرها إلى عظيمها.. ألا ترين ما يحيق بها في مشـــارق الأرض ومغاربها !!

اعلمي أن أسلافنا كانوا إذا هُزِموا من قبل الأعداء أو حل بهم البلاء.. يتفكرون ويفتشون في أنفسهم أولاً، فإذا وجدوا مخالفة للقرآن أو السنة في أي شأن من شؤونهم سارعوا بالاســتغفار والعــودة إلى كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم –.

ومع أنهم كانوا أقل من أعدائهم عدداً وعدة إلا أنهم بعد تنفيذ هذه الخطوة كانوا ينتصرون بفضل الله – تعالى –، وتحقيقا لقوله – سبحانه – {إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.

تدبري قول الله – تعالى –{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} وهذه خطوات عمليـــة تساعدك في أن تكوني سبباً في نصر الأمة إن شاء الله:

– أقلعي فوراً عن المعاصي التي ترتكبينها، واسألي الله – عز وجل – أن يعينك في ذلك، وأكثري من الدعاء أن يثبتك الله على الطريق المستقيم، وتضرعي إليه – عز وجل –.

– حافظي على أداء الصلوات في أوقاتها، و خاصة صلاة الفجر.. {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُــؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}، وتقربي إلى الله بالسنن.

– احرصي على الاحتشام والحجاب الكامل من الآن.. ولا تقولي سوف أفعل ذلك غداً.

– احرصي على طاعة والديك وصلة رحمك، وكوني قدوة صالحة قولاً وعملاً وساعدي في نشر الخير بأي وسيلة مباحة.

– تصدَّقي على الفقراء والمساكين ولو بشيء بسيط فإن « صدقة السر تطفئ غضب الرب ».

– أخلصي في عملك سواء كان دراسة أو صناعة وتفقهي في دينك فمن يرد الله به خيراً يفقهـــه في الدين.

– ثقي في نصر الله – عز وجل – لعباده المؤمنين الصادقين، ولا تيأسي ولا تقنطي من طول الطريـــق ومشقته، فإن الفساد قد عم الأمة منذ سنين طويلة ويحتاج تغييره لوقت.

– احرصي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أهلك وصديقاتك بطريقـــة حســـنة جميلـــة، وذكريهم بحاجة الأمة إليهم ولا تنسي أن تبدئي بنفسك.

– لا تتركي فرصة تقربك إلى الله –ولو كانت صغيرة– إلا وفعلتها، وتذكري « تبسّمك في وجـــه أخيك صدقة ».

– لا تدعي إلى شيء وتأتين بخلافه، فلا تطالبين بتطبيق الشريعة إلا إذا كنت مثالاً حياً على تطبيقهـــا في نفسك وبيتك وعملك، ولا تطالبي برفع راية الجهاد وقد فشلتِ في جهاد نفسك، ولا تلقِ اللـــوم على الآخرين تهرّباً من المسؤولية، وإذا كنتِ تمضين وقتكِ ناقدة عيوب الناس، فتوقّفي واعلمـــي أن كلك عيوب وللناس ألسن، وابدئي بإصلاح نفسك، وسيصلح حال غيرك بإذن الله – تعالى –.

– اعلمي أن كل معصية تعصين الله بها، وكل طاعة تفرطين فيها، هي دليل إدانة ضدكِ فيما وصل إليه حال الأمة.

٠٩ – ٠٢ – ٢٠٠٤

المصدر: http://www.islamway.com

الكتاب والسنة مرجع المسلمين ومصدر النصر

الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي

من محاضرة: التتار الجدد

المذيع: أنا عندي مواضع عديدة والوقت يداهمني فاسمح لي أن أطرح بعضها بسرعة، نحن أشرنا إلى أن اليهود ينقضون العهود، هذا هو الطرح الإسلامي بموجب النصوص، الطرح الآخر يقول: هذه النصوص نزلت في وقت معين ويقصد بها شيء معين، واليهود الحاليين يوقعون اتفاقيات وتستمر هذه الاتفاقيات وفقاً لمصالح دولية كما حصل مع مصر مثلاً؟

الشيخ: الحقيقة بما أننا ذكرنا هذا فيجب أن نذكر إخواننا المسلمين بأن رجوعنا إلى كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو أساس النصر في كل ميدان، أولاً على أنفسنا، وثانياً على أعدائنا، وهذه المعركة مع اليهود إذا رجعنا إلى كتاب الله نجد لها معالم تفسر لنا الموضوع، وأنا في هذا الكتاب أو (الكتيب بالأحرى) جعلت لكل فصل عنوان جزء من آية وأغلبها آيات تتكلم عن اليهود بالذات، لأننا لو رصدنا كل أعمالنا أو خرائط طريقنا أو أي شيء من خلال القرآن؛ فلن نضل ولن نشقى أبداً، لا مع أمريكا وهي العدو الأكبر الآن ولا مع إسرائيل.

نعم عندما يذكر الله – سبحانه وتعالى – نقض اليهود: (أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) [البقرة: ١٠٠] اليهود في الحقيقة ينقضون المواثيق وهذا أمر مشهور، لماذا لم ينقضوا اتفاقية كامب ديفيد مع مصر؟ هل هي وفاء أم التزام بالمواثيق؟ لأن اليهودي عندما يوقع عقداً مجحفاً مع خصمه مربحاً له من كل الوجوه فلماذا ينقضه؟

فمساحة سيناء أكبر من أرض فلسطين مرتين أو ثلاث مرات، وهي الآن منطقة معزولة من السلاح، ثم إخراج أكبر جيش عربي وأكبر دولة عربية من دائرة الصراع وتتحول إلى وسيط، وهو دور مصر الآن، دور وسيط بين السلطة أو بين الإخوة المجاهدين في الفصائل الإسلامية وبين إسرائيل.

لكن انظر عندما تنجح المقاطعة الاقتصادية في القاهرة، عندما يسعى السفير الإسرائيلي بأنه غريب شاذ في القاهرة، كيف لو كان هذا قريباً من الحدود؟ إذاً إسرائيل لا تنقض العهد أو اتفاقية تعطيها مثل هذه المكاسب الضخمة!

المذيع: معي أكثر من قضية: (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً) [الأعراف: ١٦٨] أنت أشرت إليها في كتابك لكن الملاحظ الآن أن اليهود عندهم تكاتف كبير، بل إنهم يملكون رءوس الأموال العالمية، ويدعمون بعضهم، وتقام مؤسسات ضخمة لدعم توجه الهجرة إلى اليهود؟

الشيخ: التقطيع في الأرض هو أحد العقوبات، أي: منها المسخ، وأن يكونوا قردة وخنازير، ومنها تسليط العدو كما سلط عليهم في تاريخهم القديم والوسيط والحديث، ومن ذلك أيضاً التقطيع في الأرض، والتقطيع في الأرض لا يعبر عن مرحلة انتهت فقط، بل هو حالة الآن نعيشها، بمعنى: أن هؤلاء الذين يعبر عنهم بالمرتدين أصبحوا يشكلوا نسبة (٢٠%) وهم النسبة الأثري.

مثلاً: يأتي مهاجر من روسيا، وكما قلت فإن إسرائيل دولة عنصرية لا تقبل اليهودي الروسي لأنه يهودي بل لا بد أن يكون مهندساً أو طبيباً أو كذا في الأصل، يريدون النخب، وكلما كان له خبرة أكثر في صناعة الأسلحة هو أفضل طبعاً، يأتون به فيأتي فلا يقيم إلا أشهراً، أو يعمل حتى يستطيع أن يحصل على تذكرة حتى يسافر إلى أمريكا، ففي النهاية أصبحت إسرائيل مجرد جسر أو معبر ما بين الاتحاد السوفيتي السابق وبين أمريكا أو بريطانيا أو الغرب.

حتى قال أحدهم: إن إسرائيل تنضم إلى الاتحاد الأوروبي، لكن لا كدولة وإنما كأفراد؛ لأن الطائرات تأتي محملة يومياً، تروح بطاناً وتعود خماصاً، بالعكس، بمعنى تأتي فارغة وتعود ممتلئة، وبعضهم يخرج للسياحة ولا يعود، هناك (٤٠ أو ٦٠%) كما يقول الإعلام لا يعودون، هذا التقطيع يحصل في دولة إسرائيل الآن.

المذيع: مستقبل الانتفاضة في نظرك هل هو مستقبل حافل؟

الشيخ: بإذن الله تبارك وتعالى، وكما سمعنا من القادة الثلاثة المجاهدين الأبطال فأنا واثق، وعندي ثقة مطلقة بإذن الله- تبارك وتعالى -ستكون هذه الانتفاضة منتصرة، نعم. هناك مصاعب كبيرة أشار إليها الدكتور عبد العزيز، وهناك مشكلات قد تتوقع وبالذات من ناحية أمريكا، لكن هذه الأمة من طبيعتها أنه كلما اشتدت أزمتها انفرجت.

النصر على الصليبيين لم يتحقق إلا عندما أصبحت أوروبا تتكتل، حتى يقول المؤرخون: كانت السفن تمتد ما بين عكا إلى صور كأنها منظار، أو كأنها حلقة، سلسلة.

المذيع: على كل حال يا دكتور أنا أشكرك، وأسأل الله أن يجزيك خير الجزاء، وكنا نتمنى أن نتعرض لموضوع مهم، وهو واجبنا نحن نحو الانتفاضة، لكن لعله وعد يكون مساهمة منك في برنامج: (من فلسطين مع التحية) ولو عبر الهاتف، مع إخواننا ما واجبنا نحو هذه الانتفاضة؟

شكراً لضيفنا الشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي ونسأل الله أن يجزيه خير الجزاء.

المصدر: http://www.alhawali.com

مفاهيم قرآنية لأسباب النصر (١/٢)

د. فهد بن عبدالعزيز الفاضل

إن الناظر إلى واقع العالم الإسلامي اليوم، وما فيه من المصائب والمحن يكاد يحبط ويصاب باليأس والقنوط من نهضة المسلمين، ونصرة الدين. فهذه دول الكفر قد تكالبت على عالمنا الإسلامي تسومه سوء العذاب، وتنشر فيه الفساد والضياع، هذه فلسطين السليبة، تئن من ظلم اليهود وبغيهم، وهذا العراق الجريح، تعبث به أيادي الظالمين المعتدين، وفي كل يوم لهم حدث في قتل المسلمين، وإذلال الآمنين، وهذه كشمير والفلبين والشيشان والأفغان وغيرها كثير، تنتهك فيها الحرمات وتسلب فيها الأموال، والعالم يقف في صمت مطبق أمام صيحات المستضعفين، وأنات الثكالى والمشردين، فما أرخص دماء المسلمين، وما أهونهم على أمم الكفر اليوم.

في ظل هذا الواقع الأليم يصاب الكثير من المسلمين بالإحباط من نصرة الدين ورفعة المسلمين، لكن العارفين أولي الألباب ينظرون من خلف الظلام إلى انبلاج النور، ومن حلوك الليل إلى انشقاق الفجر.

وبعد العسر يأتي اليسر، ولن يغلب عسر يسرين فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا (٦) {الشرح: ٥، ٦}.

إذا اشتملت على اليأس القلوب
وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكاره واطمأنت
وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً
ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث
يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت
فموصول بها الفرج القريب(١)

وهدي الرسول { هو أكمل الهدي وأتمه، وهو القدوة للمسلمين وإمام الموحدين، فلقد كان { أقوى ما يكون تفاؤلاً واستبشاراً بنصرة الدين ورفعة المسلمين حال الشدة والمحن؛ لأن المنن تعقب المحن، والفرج يأتي بعد الشدة، واليسر مع العسر. فها هو { في غزوة الخندق، وقد تحرك الأحزاب لقتاله، يحفر الخندق، والمسلمون في حال جهد وضعف، فلما اعترضت صخرة، ضربها رسول الله { ثلاث ضربات فتفتتت. قال إثر الضربة الأولى: "الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها

الحمراء الساعة"، ثم ضربها الثانية، فقال: "الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض"، ثم ضرب الثالثة، وقال: "الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة"(٢)، وفي غزوة الخندق نفسها ينقض اليهود مواثيقهم مع رسول الله {، فيبعث نفراً من أصحابه ليستوثق من الخبر، فلما ثبتت صحته قال {: "الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين"(٣).

تأتي هذه البشارة وقت الشدة التي صورها القرآن الكريم أجمل تصوير، حيث يقول الحق سبحانه: إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ١٠ هنالك \ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ١١ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ١٢ {الأحزاب: ١٠ - ١٢}. إن الفجر اليوم لقريب وإن المستقبل لهذا الدين، كيف لا!! والله عز وجل أرسل رسوله محمداً { ليظهر دينه على الدين كله، ومهما حاول الكافرون إطفاء نور الإسلام، فهو في ازدياد واتساع، وإن خبأ يوماً، فهو في أيام شديد السطوع: يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ٨ هو الذي أرسل رسوله بالهدى" ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ٩ {الصف: ٨، ٩} ورسول الهدى { أخبر؛ أن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، فعن تميم الداري } قال: سمعت رسول الله { يقول: "ليبلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عِزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر"(٤).

إن النصر اليوم قريب للمسلمين، لكنه يحتاج إلى التضحيات والتمحيص، يحتاج إلى العودة للدين، واتباع هدي سيد المرسلين، يحتاج نصر الله إلى أن ننصر الله في ذواتنا ومن حولنا، ونصر الله عز وجل قريب من القلوب الطاهرة، والأيدي المتوضئة، والجباه الساجدة، والأعين الدامعة، والقلوب الخاشعة، والنفوس المطيعة لربها ولرسوله {.

نصر الله لا يترل على الأمة الشاردة، المطيعة لعدوها، العاصية لربها، نصر الله قريب من المسلمين اليوم، كيف لا وهو القائل: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى" جهنم يحشرون ٣٦ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على" بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ٣٧ {الأنفال: ٣٦، ٣٧}.

فكفار اليوم أنفقوا الأموال الكثيرة لحرب هذا الدين صراحة، وأقاموا المؤتمرات والجمعيات واللجان وغيرها للصد عن سبيل الله، وهي أموال خاسرة وجهود ضائعة تعقبها الحسرة والهزيمة عليهم في الدنيا والآخرة. ولعل من حكم إمهال الله عز وجل لهم في هذا الإنفاق والجهد للصد عن دين الله هو تميز الخبيث من الطيب، أي لكشف عوار الكافرين في الخبث والمكر والفساد لكل أحد حتى لا يبقى في

قلب مخلوق صدق ما ادعاه الكافرون من العدل ومكارم الأخلاق. ولتمييز الخبيث من الطيب من أبناء المسلمين ممن سار في ركاب الكافرين وصار بوقاً لهم وأجيراً لتنفيذ مخططاتهم ومكائدهم. خابوا وخسروا. فلنعد أنفسنا للنصر، لنظفر بنصر الله لنا؛ فإن الله ينصر من ينصره، ومن هنا كانت هذه المحاولة لكتابة أسباب النصر، التي ذكرها الله عز وجل في كتابه لنهتدي بهديها، ونعمل بها ليتحقق لنا النصر الظاهر على العدو الظالم، وهي محاولة مقصر أسأل الله أن يكمّل نقصها ويجبر خللها.

النصر من عند الله عز وجل:

النصر والنصرة: العون، ونصرة الله للعبد ظاهرة، ونصرة العبد لله: هي نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده(٥). والنصير: الناصر، والجمع: أنصار(٦).

والنصر من عند الله وحده، يهبه لمن يشاء والله يؤيد بنصره من يشاء ١٣ {آل عمران: ١٣}. والمؤمنون مأمورون باتخاذ الأسباب، والوسائل المعينة على النصر وأعدوا لهم ما \استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ٦٠ {الأنفال: ٦٠} الآية، وهم مأمورون أيضاً، بعدم الركون إلى الأسباب والوسائل، وإنما يستمدون النصر من مالك النصر، ومسبب الأسباب سبحانه وتعالى: وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ١٢٦ {آل عمران: ١٢٦}.

وقال سبحانه: وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ١٠ {الأنفال: ١٠}. وقال عز من قائل: إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده١٦٠ {آل عمران: ١٦٠}.

إن النصر من عند الله، لتحقيق قدر الله، وليس لأحد من الناس تدخل في تحقيقه، بل الأمر فيه لله من قبل ومن بعد، وهذه الحقيقة إذا استشعرها المجاهد في سبيل الله، اطمأنت نفسه، وسكنت جوارحه، وقوي قلبه، وأقبل على الله عز وجل، وتعلق به سبحانه يستمد منه النصر والعون، فهو المالك له، والواهب إياه لمن يشاء. وكما أن الله عز وجل مالك النصر ومنزله على من يشاء، فهو نعم النصير كما قال سبحانه: نعم المولى" ونعم النصير ٤٠ {الأنفال: ٤٠}. وفي الآية ثناء على الله عز وجل بأنه أحسن مولى وأحسن نصير، أي نعم المدبر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم(٧).

وهو سبحانه وتعالى خير الناصرين كما قال عز من قائل: بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ١٥٠ {آل عمران: ١٥٠}. وذلك لأن الله عز وجل القادر على نصرة عباده في كل ما يريدون، ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك، والله عز وجل نصره شامل للدنيا والآخرة، وغيره ليس كذلك، والله عز وجل ينصر عباده قبل سؤالهم، لأنه العالم بحالهم المطلع عليهم، وغيره ليس كذلك(٨).

والله عز وجل يهب نصره لمن ينصره سبحانه، كما قال، وقوله الحق: ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٤٠ {الحج: ٤٠}. وقال سبحانه: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ٧ {محمد: ٧}. فنصر الله عبده، معونته إياه، ونصر العبد ربه، جهاده في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا(٩)،

فإذا أحسن العبد قصده وتوجهه إلى الله عز وجل نصره الله، ومن ينصر الله، فلا غالب له. بل أوجب الله تبارك وتقدس على نفسه الكريمة، نصرة عباده المؤمنين الناصرين له تكرماً وتفضلاً منه سبحانه(١٠). قال تعالى: وكان حقا علينا نصر المؤمنين ٤٧ {الروم: ٤٧}.

والقرآن الكريم سطر لنا روائع من نصر الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه وعباده المؤمنين، لما نصروا الله عز وجل نصرهم الله أكمل نصر وأعزه، من ذلك ما قص الله عز وجل في خبر طالوت ومن معه من المؤمنين: فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من \غترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ٢٤٩ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ٢٥٠ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ٢٥١ {البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١}.

ومن ذلك أيضاً، ما حدث يوم بدر لرسول الله { ومن معه من المؤمنين، لما كانوا ضعيفي القدرة قليلي العدد في مقابل كفار قريش، بعتادها وعددها، قال تعالى: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ١٢٣ {آل عمران: ١٢٣}.

وبالمقابل امتن الله سبحانه على المؤمنين بالنصر في مواطن كثيرة، وفي غزوة حنين لما كان المسلمون كثيري العدد، فركنوا إلى عددهم، وأعجبتهم كثرتهم، وغفلوا من مالك النصر ومنزله سبحانه، وركنوا إلى أسباب النصر، وغفلوا عن المسبب سبحانه، فنزلت بهم الهزيمة في أول المعركة، وثبت رسول الله { ومن معه من القلة المؤمنة، فمنحهم الله عز وجل نصره وتأييده. يقول سبحانه وتعالى: لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٢٥ ثم أنزل الله سكينته على" رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ٢٦ {التوبة: ٢٥، ٢٦}.

ومن أخص ما اختص به أولياء الله، أنهم يستمدون النصر من الله عز وجل، ويلتجئون إليه ويدعونه أن يهبهم نصره، ويمدهم بعونه وتأييده على أعدائه، والله قريب من عباده، مجيب لمن دعاه، ينصر من نصره، ويُعِين من أمَّله واتصل به.

قال سبحانه عن نبيه نوح عليه السلام: فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ١٠ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ١١ وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على" أمر قد قدر ١٢ وحملناه على" ذات ألواح ودسر ١٣ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ١٤ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ١٥ {القمر: ١٠ - ١٥}.

وقال سبحانه في خبر طالوت ومن معه من المؤمنين: ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ٢٥٠ {البقرة: ٢٥٠}.

وقال سبحانه عن أتباع الأنبياء المؤمنين عند ملاقاة الكافرين: وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما \ستكانوا والله يحب الصابرين ١٤٦ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا \غفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ١٤٧ {آل عمران: ١٤٦، ١٤٧}.

محرومون من نصر الله، وما اتخذوا من دون الله من أولياء، لا تستطيع أن تنصر نفسها فضلاً عن أن تنصر غيرها: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ١٩٧ {الأعراف: ١٩٧}.

وقال سبحانه: واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ٧٤ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ٧٥ {يس: ٧٤، ٧٥}.

قرب نصر الله تعالى:

نصر الله قريب من المؤمنين: ألا إن نصر الله قريب ٢١٤ {البقرة: ٢١٤} وعدهم الله عز وجل به، وبشرهم إياه، وأدخره لهم وكان حقا علينا نصر المؤمنين ٤٧ {الروم: ٤٧}؛ لأنهم هم المستحقون له، والحريون به، فهم الذين يثبتون حتى النهاية، وهم الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون في الشدة، الذين لا يتلونون، ولا يتنازلون عن المبادئ، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا من الله عز وجل، ومتى شاء الله، فهم يتطلعون إلى نصر الله فحسب، لا إلى أي حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله (١١). أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى" يقول الرسول والذين آمنوا معه متى" نصر الله ألا إن نصر الله قريب ٢١٤ {البقرة: ٢١٤}.

فهذه سنة الله الثابتة، وسنته المتعاقبة في الأزمان؛ أن النصر قريب لمن صبر، وأن النصر يأتي بعد الابتلاء والتمحيص والفتن، وأن ظلمة الليل تجلوها طلعة الفجر وظهور الشمس. ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على" ما كذبوا وأوذوا حتى" أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ٣٤ {الأنعام: ٣٤}.

ونصر الله محبوب للمؤمنين: وأخرى" تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ١٣ {الصف: ١٣}. لأنه نصر ممن يملك النصر سبحانه وتعالى، ونصر الله لا رادّ له، ولا معكر له، فلا عجب أن يفرح به المؤمنون؛ لأن في هذا النصر إعزازاً للدين، وذلاً لأعداء الدين. ونصر الله ليس كنصر البشر بعضهم بعضاً محدود في زمان أو مكان، بل نصر الله ممتد في كل زمان ومكان، فهو نصر في الدنيا والآخرة: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ٥١ {غافر: ٥١}، وهو

نصر في كل أرض الله كما قال الله: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثهـــا عبـــادي الصالحون ١٠٥ {الأنبياء: ١٠٥} فأمّةُ محمد { ترث أرض الأمم الكافرة(١٢).

وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمداً { على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، فقد جعل له أنصاراً وأعواناً في المدينة، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، واستاق أسراهم مقرنين في الأصفاد، ثم بعـــد مدة قريبة فتح الله عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد الحرام، فأنقذه الله به مما كـــان فيـــه مـــن الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ثم قبضه الله تعالى إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء من بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشـــرت دعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ويوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل(١٣).

ونصر الله عز وجل خير كله؛ لأنه ممن يملك النصر وبيده الأمر، وغيره قد ينصر ويكون نصره ضرراً للمنصور.

وفي المقابل أعداء الله محرومون من كل نصر من الله، وما عبدوا من دون الله أحقر من أن تملك لهـــم شيئاً أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ١٩١ ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفســـهم ينصـــرون ١٩٢ {الأعراف: ١٩١، ١٩٢}.

فنسأل الله عز وجل أن يمدنا بنصره، وأن يوفقنا للقيام بحقه. آمين.

أسباب النصر الظاهر:

يجمع أكثر هذه الأسباب قول الله عز وجل في سورة الأنفال: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ٤٥ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتـــذهب ريحكـــم واصبروا إن الله مع الصابرين ٤٦ {الأنفال: ٤٥، ٤٦}، وفي سورة محمد سبب واحد مـــن هـــذه الأسباب وهو نصر الله، كما قال الله: يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ٧ {محمد: ٧}.

وفي سورة الأنفال في آية أخرى سبب آخر من هذ الأسباب وهو إعداد القوة، كما قـــال جـــل في علاه: وأعدوا لهم ما \ستطعتم من قوة ومن رباط الخيل... ٦٠ {الأنفال: ٦٠}.

السبب الأول: نصر دين الله تعالى:

من أهم صفات طالب النصر من الله عز وجل؛ نصره لله سبحانه كما قال عز في علاه: ولينصرن الله من ينصره ٤٠ {الحج: ٤٠}، وقال تبارك وتعالى: يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ٧ {محمد: ٧}، وذلك يكون بحسن التوجه لله عز وجل في الجهاد والقتال.

قال الإمام الطبري رحمه الله: "وقوله: ولينصرن الله من ينصره ٤٠ {الحج: ٤٠} يقول تعالى ذكـــره: وليعيننّ الله من يقاتل في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوه، فنصر الله عبده معونته إياه، ونصـــر العبد ربه جهاده في سبيله، لتكون كلمته العليا"(١٤).

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري } قال: "جاء رجل إلى النبي { فقال: الرجل يقاتـــل للمغـــنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله"(١٥).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: "جاء رجل إلى النبي { فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟، فقال رسول الله {: "لا شيء له. فأعادها ثلاث مرات. يقول له رسول الله {: لا شيء لـــه. ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغي به وجهه"(١٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن النبي { قال يوم الفتح: "لا هجرة بعد الفتح، ولكـــن جهـــاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"(١٧).

فقوله {: "ولكن جهاد ونية"، هي النية الصالحة في جميع الأعمال، ومنها: الجهاد، فتكون نيته إعلاء كلمة الله عز وجل(١٨).

مما سبق يعلم أن من أهم جوالب النصر على الأعداء توحيد المقصد لله في الجهاد؛ لتكـــون كلمتـــه سبحانه هي العليا، لا من أجل مقاصد دنيوية زائلة لا حصر لها في عالم اليوم، ومن لوازم إرادة رفعـــة كلمة الله في الجهاد امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ونصرة أوليائه، وكبت أعدائه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: واشتمل طلب إعلاء كلمة الله على طلب رضاه، وطلـــب ثوابـــه، وطلب دحض أعدائه، وكلها متلازمة(١٩).

وقال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: "ومعلوم أن نصر الله، إنما هو باتباع ما شـــرعه بامتثـــال أوامـــره، واجتناب نواهيه، ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته جل وعلا هي: العليا، وكلمة أعدائه هي: السفلى"(٢٠).

فمن نصر الله بصدق التوجه إليه سبحانه في جهاد أعدائه نصره الله القوي العزيز، ومن ينصر الله فلا غالب له.

ومن أخل بتوجهه إلى الله، وإخلاصه له، وإرادة رفعة كلمته وكله الله إلى نفسه، ومن وكل إلى نفسه لم يعن.

السبب الثاني: الثبات:

قال ابن فارس رحمه الله: "الثاء والباء والتاء كلمة واحدة، وهي دوام الشيء. يقـــال: ثبـــت ثباتـــاً وثبوتاً"(٢١).

وثبت ثباته وثبوته: كان شجاعاً ثابت القلب، ثابتاً في قتال، أو في كلام(٢٢).

قال الشاعر يمدح أحدهم:

بكل أخلاق الرِّجال قد مَهَرْ

ثبتٌ إذا ما صيح بالقوم وقَرْ(٢٣)

فالثبات ضد الزوال. وقد ثبت يثبت فهو ثابت. ورجل ثبت وثبيت في الحرب(٢٤)، والفرق بين الثبات والصبر مع ما فيهما من ترابط أن الصبر شجاعة الباطن وضده: الجزع، والثبات: شجاعة الظاهر، وضده: الفرار(٢٥)، والثبات: تابع للصبر.

قال الله جل في علاه: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ٤٥ {الأنفال: ٤٥}، فهذه الآية ذكرت أسباب النصر فبدأت بالثبات، لأنه أظهر علامات النصر، فأثبت الفريقين أغلبهما، ومايدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون؛ وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون، فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه، وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى، فسينخذل عدوهم وينهار، وما الذي لا يثبت أقدام المؤمنين وهم واثقون بإحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا ولا حياة له سواها(٢٦).

وقال سبحانه وتعالى: يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ٧ {محمد: ٧}.

وهذا وعد من كريم صادق الوعد؛ أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال، سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات في مواطن الحرب، والثبات على الدين والثبات على الصراط يوم القيامة:

ونصر الله يكون بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، وأن يقصدوا بذلك وجه الله(٢٧).

ولذلك كان من دعاء المؤمنين طلب الثبات، وخاصة في مواطن الحروب كما قال الله عز وجل: ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ٢٥٠ {البقرة: ٢٥٠}.

وقال سبحانه: ربنا \غفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ١٤٧ {آل عمران: ١٤٧}.

وفي مقابل الأمر بالثبات، نهى الله عز وجل عن الفرار حال الزحف، والقتال، وتوعد الفار بأليم العقاب فقال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ١٥ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى" فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ١٦ {الأنفال: ١٥، ١٦}.

قال ابن كثير رحمه الله: "فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب(٢٨)، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر؛ لما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما(٢٩)، عن أبي هريرة }، قال: قال رسول الله {: "اجتنبوا السبع الموبقات". قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"(٣٠).

وإذا علم المسلم، أن فراره من القتال لن ينجيه من الموت هان عليه الثبات، ومبارزة الأقران، والتقدم في الميدان.

ومن صور الثبات الرائعة، ما ذكرته أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها عن نفسها في غـــزوة أحد قالت: قد رأيتني، وانكشف الناس عن رسول الله {، فما بقي إلا في نفير ما يتمون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يمرون به منهزمين، ورآني لا ترس معي، فرأى رجلاً مولياً معه ترس، فقال لصاحب الترس: "ألق ترسك إلى من يقاتل".

فألقى ترسه، فأخذته فجعلت أتترس به عن رسول الله، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيـــل، لـــو كانوا رجّالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله، فيقبل رجل على فرس فضربني، وتترست له فلم يصنع ســـيفه شيئاً، وولى، وأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي {، يصيح: "يا بن أم عمارة أمك أمك!" قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شعوب(٣١)(٣٢).

وجرحت رضي الله عنها في أحد اثني عشر جرحاً، وقطعت يدها باليمامة، وجرحت يـــوم اليمامـــة سوى يدها أحد عشر جرحاً(٣٣).

السبب الثالث: ذكر الله كثيراً:

الذكر: الحفظ للشيء. وهو كذلك خلاف النسيان(٣٤).

قال الراغب رحمه الله: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ(٣٥).

قال الشاعر:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة

وأيسر ما في الذكر ذكر لساني(٣٦)

والذكر في الاصطلاح: يشمل كل أنواع العبادات من صلاة وصيام وحج ودعـــاء وثنـــاء وقـــراءة قرآن...(٣٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله..."(٣٨).

وفي التتريل الحكيم، ورد الأمر بذكر الله كثيراً عند ملاقاة الأعداء، قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ٤٥ {الأنفال: ٤٥}.

قال العلامة الفخر الرازي: "وفي تفسير هذا الذكر قولان: القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكـــرين الله، وبألسنتهم ذاكرين الله... - إلى أن قال -:

والقول الثاني: أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر، لأن ذلـــك لا يحصـــل إلا بمعونـــة الله تعالى"(٣٩).

والمجاهد في سبيل الله، أحوج ما يكون إلى الذكر؛ لأنه بذكر الله عز وجل يطمئن قلبه، وتسكن نفسه في وقت الطعان والتحام الأقران، وتتابع الأنفاس واشتداد البأس.

قال الباري سبحانه: الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ٢٨ {الرعد: ٢٨}.

بل المعرض عن ذكر الله، قرين للشيطان بعيد عن الرحمن.

قال الحق سبحانه: ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ٣٦ {الزخرف: ٣٦}.

وقال سبحانه: \استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ١٩ {المجادلة: ١٩}.

ولو ما في الذكر إلا أن الله سبحانه وعد الذاكرين له بالمغفرة والأجر العظيم لكفاه، قال الملك الكريم سبحانه: والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ٣٥ {الأحزاب: ٣٥}.

بل أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بذكره كثيراً، قال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا \ذكروا الله ذكرا كثيرا ٤١ {الأحزاب: ٤١}.

ورغب البشير الهادي { بالذكر، وبين فضله، وعظم مترلته عند المولى سبحانه، كما في الحديث الذي يرويه أبو الدرداء } قال: قال النبي {: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالو: بلى. قال: ذكر الله تعالى"(٤١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في التفضيل بين الذاكر والمجاهد. قال: فإن الذاكر المجاهد، أفضل من الذاكر بلا جهاد، والذاكر بلا جهاد، أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى. فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون"(٤٢).

وجمع الحافظ ابن حجر رحمه الله بين فضل الذكر، وفضل الجهاد في سبيل الله فقال: "وطريق الجمع – والله أعلم – أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء؛ الذكر الكامل؛ وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكر في المعنى؛ واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلاً من غير استحضار لذلك، وأن أفضلية الجهاد إنما هو بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أنه جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه، أو تصدقه، أو قتاله الكفار مثلاً، فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى"(٤٣).

ومدح الله عباده الذاكرين له الداعين إياه وقت التزال ومقارعة الأعداء، فأعقبهم الظفر وجازاهم بالنصر.

قال الحق سبحانه: ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ٢٥٠ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ٢٥١ {البقــرة: ٢٥٠، ٢٥١}.

وقال سبحانه: وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا \غفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنـــا وثبــت أقــدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ١٤٧فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحســنين ١٤٨ {آل عمران: ١٤٧،١٤٨}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الدعاء ذكر للمدعو سبحانه وتعالى، متضمن للطلب والثنـــاء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب،.. - إلى أن قال - : والمقصود أن كل واحد من الدعاء، والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه"(٤٤).

وذكر الحافظ الذهبي رحمه الله في السير، عن الأصمعي قال: "لما صاف قتيبة بن مسلم للترك، وهالــه أمرهم، سأل عن محمد بن واسع. فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحــو السماء. قال: تلك الأصبع أحب إلي من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير"(٤٥).

إن ذكر الله ودعاءه عند العدو، يؤدي وظائف شتى: إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب، والثقــة بــالله تعالى الذي ينصر أولياءه، ويهلك أعداءه، وهو في الوقت ذاته استحضار لحقيقة المعركــة وبواعثهــا وأهدافها، فهي معركة لله، لنصرة دينه وإعلاء كلمته لا للســيطرة، ولا للمغــنم، ولا للاســتعلاء الشخصي أو القومي(٤٦).

إن كثرة ذكر الله ودعائه، معين في الحروب، جابر للنفوس، بلسم للجروح، مثبت للجيوش، طــارد للأوهام والشرور. فحري بمن بذل نفسه للجهاد في سبيل الله أن يشتغل بذكر الله ومناجاته عن كــل أحد، وأن يزيد صلته بالواحد الأحد.

*الهوامش:

١- انظر: شعاع من المحراب للعودة (٧/٣٣٩).

٢- انظر: السير النبوية من فتح الباري للدكتور الحكمي (٢/١١٣)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة للدكتور مهدي رزق الله (ص٤٤٨).

٣- أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم: (١٨٢١٩)، وانظر: الروض الأنف في تفسير السيرة النبويــة لابن هشام للسهيلي (٣/٢٦٢).

٤- مسند الإمام أحمد (٤/١٠٣)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائــدها، وقد جمع الشيخ الألباني الكثير من أحاديث البشارة بمستقبل الدين في أول كتابه: سلسلة الأحاديــث الصحيحة (١/٧).

٥- انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٨٠٨-٨٠٩)، وبصائر ذوي التمييز (٥/٦٩).

٦- انظر: بصائر ذوي التمييز (٥/٦٩).

٧- انظر: تفسير التحرير والتنوير (١٧/٣٥٣).

٨- انظر: التفسير لابن كثير (٩/٣٨٤).

٩- انظر: تفسير الطبري (١٦/٥٨٧).

١٠- انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٣٢١).

١١- انظر: في ظلال القرآن (٩/٢١٨-٢١٩).

١٢- انظر: تفسير الطبري (١٦/٤٣٧).

١٣- انظر: تفسير القرآن العظيم (٧/١٥١).

١٤- تفسير الطبري (١٦/٥٨٧).

١٥- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: فتح الباري (٦/٢٧). ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا... صحيح مسلم بشرح النووي (٥/٤٤).

١٦- أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجهاد، باب فيمن يغزو ويلتمس الدنيا. عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/١٩١).

والنسائي في سننه - واللفظ له - كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر الذكر. سنن النسائي بشرح السيوطي (٦/٢٥). وقال الحافظ ابن حجر: روى أبو داود والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد جيد - وذكر الحديث - فتح الباري (٦/٢٨).

١٧- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب وجوب النفير، وما يجب من الجهاد والنية، فتح الباري (٦/٣٧).

ومسلم في كتاب الجهاد، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٨).

١٨- انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٨)، وفتح الباري (٦/٣٧-٣٨).

١٩- فتح الباري (٦/٢٩).

٢٠- أضواء البيان (٣/٥١٦).

٢١- معجم مقاييس اللغة (١/٣٩٩).

٢٢- انظر: معجم متن اللغة لأحمد رضا (١/٤٢٢).

٢٣- انظر: لسان العرب لابن منظور (٢/١٩)، والبيت للعجاج يمدح عمر بن عبدالله بن معمر.

٢٤- بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٢/٣٤٧).

٢٥- انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/٢٤)، والتفسير الكبير (٦/٥١٤).

٢٦- انظر: في ظلال القرآن (٣/١٥٢٨).

٢٧- انظر: فتح القدير (٤/١٠٣)، وتيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦).

٢٨- المذكورة في الآية وهي: التحرف للقتال، أو التحيز إلى فئة.

٢٩- انظر: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى" ١٠ {النساء: ١٠}الآية. فتح الباري (٥/٣٩٣). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها. صحيح مسلم (١/٨٨).

٣٠- تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨).

٣١- الشعوب، اسم من أسماء المنية. فأشعب، أي مات. انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/٤٤٢ مادة: شعب).

٣٢- الطبقات الكبرى، لابن سعد (٨/٤١٣-٤١٤).

٣٣- المرجع السابق (٨/٤١٦).

٣٤- انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٣٥٨)، وتاج العروس للزبيدي (١١/٣٧٦).

٣٥- مفردات ألفاظ القرآن (ص:٣٢٨).

٣٦- انظر: فضيلة ذكر الله عز وجل لابن عساكر (٤٠).

٣٧- انظر: الرياض النضرة لابن سعدي (ص:٢٤٥)، والذكر وأثره في دنيا المسلم وآخرته، للدكتور البورنو (ص:١٨).

٣٨- مجموع الفتاوى (١٠/٦٦١).

٣٩- التفسير الكبير (٥/٤٧٩).

٤٠- انظر تفسير العظيم لابن كثير (٧/٢٢٧).

٤١- أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، انظر الجامع الصحيح (٥/٤٢٨) وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر. انظر: صحيح سنن ابن ماجه (٢/٣١٦). والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. ووافقه الذهبي. المستدرك (١/٤٩٦).

٤٢- الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٩٢).

٤٣- فتح الباري (١١/٢١٠).

٤٤- مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥/١٩). وانظر: الدعاء ومترلته في العقيدة الإسلامية للعروسي (١/٧١-٧٨).

ومنه قول أمية بن أبي الصلت لعبدالله بن جدعان:

أأطلب حاجتي أم قد كفاني

حياؤك إن شيمتك الحياء

- إلى أن قال -:

إذا أثنى عليك المرء يوماً

كفاه من تعرضه الثناء

انظر: ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع: بشير يموت. نشر المكتبة الأهلية ببيروت ١٣٥٢ه الطبعة الأولى، (ص:١٧).

٤٥- سير أعلام النبلاء (٦/١٢١).

٤٦- انظر: في ظلال القرآن (٣/١٥٢٨).

*استاذ الدراسات الإسلامية المساعد بكلية الملك عبدالعزيز الحربية.

خطه النصر

إبراهيم السمطى

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله اللهم صلى الله علي محمد وعلى آل محمد كما صليت علي إبراهيم وعلي آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك علي محمد و علي آل محمد كما باركت علي إبراهيم وعلي آل إبراهيم إنك حميد مجيد أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله عز وجل وخير الهدي هدي محمد صلي الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ثم أما بعد

عزيزي القارئ بل أخي إن ارتضيتني لك أخا إني أحبك في الله

أحب فيك ما أراه وأحسبه من تطلعك إلي القراءة الدينية في وقت انشغل فيه الشباب بسفاسف الأمور

أحب فيك رغبتك في خدمة هذا الدين ونصره

أحب فيك سعيك لمعرفة الحل لما نحن فيه وأغلب ظني أنك ستحاول جهدك أن تقدم شيئا لخدمة هذا الدين

أحبك لأني أري وأرجو فيك كل هذا وعسي ألا أكون مخطئا

أخي ..... انظر حولك فما تري؟؟؟؟؟؟

المسلمون مستضعفون .... مستكينون .... مهضومون .... مضطهدون

أليس هذا بالحق

ألم تسأل نفسك يوما لم هذا ؟؟؟

ألم تتألم يوما لم يحدث من حولك ؟؟؟؟

ألم ترغب يوما في فعل شئ لتغير هذا الواقع المر ولكن لم تدري ماذا تفعل؟؟؟

أخي لا تقل إنك واحد ليس بيدك شئ

إن بيدك الكثير .... بل بيدك الكثير جدا .... ولكن ... إبدأ

ألا تؤمن معي أن الله هو أحكم الحاكمين؟؟؟

ألا تري أن الله هو أصدق القائلين؟؟؟

تعال أخي لنتدارس إحدي خطط القرآن لتغيير الواقع

لتعلم واجبك ثم لتفعل .... ولا تخش شيئا فالأمر ليس به أية مخاطر فالخطة محكمة تماما ومضمونة النتائج بإذن الله رب العالمين

اقرأ معي أخي أول سورة القصص

كم مرة قرأت هذه السورة؟؟؟؟

إنها تتحدث عن موسي عليه السلام وفرعون

قد تقول وما شأن ذلك بواقعنا ؟؟؟

أقول لك اصبر أخي

إنها قصة .... ولكن ليست من تأليف الأدباء

إنها من القصص القرآني

الذي قال الله عنه :" لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"

أي أن هذه القصص يستفيد منها أصحاب العقول الذكية

فخذ لك نصيبا و تأمل لتعلم أن القرآن حقا منهج حياة

أذكرك و أذكر نفسي بأول سورة القصص :

بسم الله الرحمن الرحيم طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) صدق الله العظيم

هذا هو أول سورة القصص

تأمل ههنا كيف وصف الله الحال التي كانت عليها بنو إسرائيل وكيف أنجاهم الله

قال الله :" إن فرعون علا في الأرض "
وفرعون هو الحاكم في ذلك الزمان و قد بلغ من علوه أنه ظن أن البلاد كلها ملك خالص له يفعل بها ما يشاء وأنه لولا وجوده لهلك الناس :" قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي " بل بلغ به الغرور أن ظن أنه إله الناس " فحشر فنادي فقال أنا ربكم الأعلي" وهو لم يدعي أنه خالق الناس ولكن أراد أنه الأولي بالطاعة كما قال الله :" اتخذوا أحبارخم ورهبانهم أربابا من دون الله" وقد بين رسول الله صلي الله عليه وسلم أن ذلك لأنهم أطاعوهم وتركوا أمر الله.

فههنا فرعون يريد أن يطاع فيما يأمر به مهما كان وانظر إلي حال الحكام في زماننا هذا وحال أحكامهم تعلم ما أريد.

ولكي يظل فرعون في هذه المترلة لا يعارضه أحد ماذا فعل؟؟؟؟

لقد فعل أمرا مهما جدا

"وجعل أهلها شيعا" أي جعل المصالح متضاربة والناس طبقات

فكل إنسان يري أن مصلحته لا تتم إلا علي حساب الآخرين

وظهرت الطبقية والحقد الطبقي بأبشع صوره

فبالتالي لا يتعاون أحد مع الآخر لانعدام الثقة

فالكل يوالي الفرعون لأن مصلحته مع هذا الفرعون

ثم هو مع هذا لما وجد بني إسرائيل بمنجاة من هذه الأخلاق ماذا فعل

استضعفهم أي جعل أسباب الضعف من ضيق العيش والغلاء وكثرة الشواغل والخوف الدائم من البطش أشياءا ملازمة لهم، بل سعي إلي إذلالهم بذبح أبنائهم وترك بناهم لتعمل في الخدمة لدي الأسياد وهو بكل هذا لا يريد عمار الأرض ولا يسعي إلي الإصلاح بل "إنه كان من المفسدين"

لك أن تنظر إلي ذلك الواقع وواقع المسلمين اليوم وقارن لتعلم لماذا قص الله علينا هذه القصة

إن كنت أخي قد فهمت ما أريد قوله فما الحل ؟؟؟؟

إن الله سبحانه وتعالي في نفس الآيات يرسم لنا خطة النجاة بل السيادة

" ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين"

ليس مجرد النجاة هو هدف هذه الخطة بل السيادة والقيادة والملك

انظر أخي إلي مراحل الخطة وعناصرها:

١ – الإيمان "بالحق لقوم يؤمنون"

٢ – المن من الله " نمن علي الذين استضعفوا "

٣ – الاتباع المطلق لأوامر الله " فألقيه في اليم"

٤ – الثقة بموعود الله " إنا رادوه إليكي"

٥ – التربية علي العزة " نتخذه ولدا"

والآن أخي تعال سويا نري بالتفصيل ملامح هذه الخطة العظيمة

أولا الإيمان

إن الإيمان أخي هو الفيصل بين الأعمال

هو القوة وهو العزة وهو ما يرفع الإنسان

والإيمان ليس مجرد قول ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل كما قال السلف

أما أن تظن أن الإيمان مجرد الشهادة فهذا لا يجدي قال الله :

"إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ"

فانظر أخي كيف شهد الله عليهم بالكذب في قولهم "نشهد إنك لرسول الله"

وذلك لأن أعمالهم لا تنطق بذلك بل بضد ما يقولون فاحذر أخي أن تكون من هؤلاء

والله جل وعلا يبين أهمية الإيمان في الاستخلاف قائلا :

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"

فالإيمان والعمل الصالح لا بد منهما ويقول الله مؤكدا هذا المعني :

"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"

و ثانيا المن من الله

وهذا محض فضل من رب العالمين ولكن الله جعل أسبابا لاستحقاق هذه النعمة

قال الله " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا"

وقال " وتمت كلمة ربك الحسني علي بني إسرائيل بما صبروا "

فالصبر من أهم أسباب استحقاق النعم

ثالثا الاتباع المطلق لأوامر الله

فانظر ههنا كيف أن أمر الله جاء بلقاء الرضيع في اليم

ولو اعمل أي إنسان عقله لما فعلها إذ أن أي موجة ولو ضعيفة كفيلة باغراق الطفل الذي بالتأكيد لا يستطيع العوم ولكن لأن أم موسي مؤمنة فقد سلمت لأمر الله وأطاعت دون أن تتساءل

وهذا ما نحتاجه ، أن نطيع دون مواربة فإن الطامة الكبري أننا نظن أن بإمكاننا أن ندرك حكمة كل شئ وهذا يقودنا دون أن ندري إلي أن نعبد هوانا ونطيعه والله يقول:

"أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا"

فاسمع يا أخي و أطع دون مناقشة فهذا من كمال الإيمان قال الله :

"إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"

أما أن تتردد فهذا نفاق و عدم ثقة بالله نعوذ بالله من ذلك

الرابع الثقة بموعود الله

فالإنسان يجد من نفسه حبا للتضحية حين يعلم أن هناك فائدة من بذله وعطائه

ولك في رسول الله الأسوة الحسنة

فتأمل كيف يعد النبي سراقة بن مالك بسوار كسري في الوقت الذي أجبر فيه علي الخروج متخفيا من بلده

وانظر كيف يعد أصحابه بفتح المدائن والشام وبلاد الروم في الوقت الذي تحاصره الأحزاب وتبلغ القلوب الحناجر وتزيغ أبصار أصحابه

فاعلم يا أخي أن النصر إنما هو لدين الله أولا وآخرا و لكن الأمر أن الله يبتلينا ويعطينا الفرصة لنبذل ما نستحق به أعالي الجنان

فماذا انت فاعل؟؟؟؟؟؟؟

الخامس و الأخير هو التربية علي العزة

فالله حين أرتد النجاة لبني إسرائيل جعل قائده عليه السلام يربي علي العزة والكرامة في بيت فرعون

لأن النفوس التي ألفت الذل لا تكون لديها همة للتغيير ولا أدني استعداد للبذل

لذا تجد أن الله حين أراد أن يدخل بني إسرائيل الأرض المقدسة لم يرضوا بالحرب بل أرادوا أن يخرج العدو ثم يدخلوا هم بلا قتال

فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة لكي يتغير الجيل الذي ألف الذل وينشأ جيل جديد في ظلال الحرية والكرامة ليكون لديه احساس وكبرياء ليستطيع البذل من أجل القضية التي يؤمن بها

وهذا هو المطلوب من كل منا إن كنا جبناء عن البذل فلنربي أبناءنا علي أهمية العمل لدين الله

فلنعلمهم كيف يكون لديهم كرامة وعزة الإيمان

أخي كانت تلك لمحة سريعة اردت أن ألفت بها انتباهك والأمر يطول شرحه جدا وعسي الله أن ييسر لنا ذلك يوما ،أسأل الله أن ينفعني و إياك وأن يتقبل منا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسباب النصر والتمكين ... بشرى للمؤمنين

الحمد لله الملك الجبار المتكبر القوي المتين ، والصلاة السلام على سيد ولد عدنان والعـالمين ، قائـد الصحابة المجاهدين.. محمد الأمين وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين .. أما بعد:

إخوتي الأحبة:

أزُفُّ إليكم هذه النّسَمات بعد ما لمست من بعض الإخوة من العبرات ... والحزن المرتسـم علـى صفحات الوجوه الطاهرات ... وعبرات الحروف الحزينة المكتوبة في المنتديات .. فهَمسَ هـامسٌ: العزاء ... العزاء هلك المؤمنون ، فقلتُ: بل بُشْراكَ ... بُشْراك .. "فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون"

أحببت أن أزُف لكم هذه البُشرى لتطمئن قلوب المؤمنين .. وأغيظ بها الكافرين ، وأسميتها "أسباب النصر والتمكين"

أيها الأحبة

"ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" .. لقد ذكر الله أسباب النصر في كتابه ، فـإن تمسك بها جنده فهم الغالبون، وإن أخلّوا بها فالله غالبٌ على أمره سبحانه لا معقب لكلماتـه ، ولا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون..

وهاكم الأسباب استخلصتُها كلامِ مُسبِّب الأسباب:

١- إخلاص النية ووضوح الهدف.

ودليله قوله تعالى: " وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ"

٢- الصبر على العبادات

٣- ومصابرة الأعداء

٤- والمرابطة بالمداومة على العبادة والثبات

٥- وتقوى الله في جميع الأُمور والأحوال

ودليله قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تُفلحون"

٦- الثبات عند اللقاء

٧- والإكثار من الذكر والدعاء

٨- وطاعة الله ورسوله في الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة

٩- والإبتعاد عن التزاع والإختلاف

ودليله قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين "

١٠- الإعداد حسب الإستطاعة

١١- والإنفاق في سبيل الله

والدليل قوله تعال: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعـــدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إلـــيكم وأنـــتم لا تُظلَمون"

١٢- محبة الله ورسوله

١٣- وخفض الجناح للمؤمنين والتواضع لهم

١٤- وإبداء العزة وتحقير أعداء الله (فعلى المؤمن أن يكون ضحوكاً مع أولياء الله ، قَتّالاً لأعدائه)

١٥- وعدم الخوف أو التردد للإمتثال لأوامر الله (وتطبيق شرع الله ، والأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكر).

ودليله قوله تعالى: " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"

١٦- عدم الإرتياب في دين الله ، وكمال الثقة بنصره

١٧- والجهاد بالمال والنفس

ودليله قوله تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـــابُوا وَجَاهَـــدُوا بِـــأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"

١٨- الغلظة على الكفار والمنافقين ومجاهدتهم (بالنفس ، والمال ، واللسان ، والدعاء ...)

ودليله قوله تعالى: " يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَـــأْوَاهُمْ جَهَـــنَّمُ وَبِـــئْسَ الْمَصِيرُ"

أيها المؤمنون:

أُقسم بالله الذي رفع السماء بلا عمد ليس النصر بالقنابل والصواريخ وحاملات الطائرات، إنما النصر بالثبات واليقن بوعد الله "وما النصر إلا من عند الله"

وأُقسم بالذي رفع السماء بلا عمد: إن صَدَق المؤمنون الأفغان ربَّهم ينصرُهم بإذنـــه ســـبحانه "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" ...

أقول لإخواني المجاهدين أعدّوا وتوكلوا وإياكم والتعلق بالإسباب دون المسبِّب .. أو التعلُّق بالمُسبب وإهمال الأسباب ، فالتعلق بالمُسبِّب لا يتحقق إلا بإتيان الأسباب ... فالفهم .. الفهم ..

إخوة الإيمان:

إن من حق إخوانكم عليكم نصرتهم بالتضرع إلى الله والدعاء والإلحاح عليه والتذلل بين يديه سبحانه وسؤاله لإخوانكم النصر والثبات والتمكين ، فرُبَّ دعوة خرجت من قلبِ مؤمنٍ صادقٍ في جوف الليل يُدمّر الله سبحانه وتعالى لها جحافل الكفر والنفاق ويمزق شملهم قبل أن يرتد إليهم طرفهم.

فالله الله إخوة الإيمان .. الله الله في إخوانكم .. الدعاء الدعاء ... الدعاء الدعاء .. الدعاء الدعاء .. "

وَإِذَا سَأَلَك عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ"

ومن الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحرب والنزال وعند القتال:

اللَّهُمَّ إنا نَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ

اللَّهُمَّ أنْجزْ لنا ما وَعَدْتَنا ، اللَّهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَنا

اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وَهازِمِ الأحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكتاب، سَرِيعَ الحِساب، اهْزِمِ الأحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ

اللَّهُمَّ أنْتَ عَضُدنا وَنَصيرنا ، بِكَ نَحُولُ وَبِكَ نَصُولُ، وَبِكَ نُقاتِلُ

اللَّهُمَّ إنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ

اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّنا وَرَبُّهُمْ، وَقُلُوبُنا وَقُلُوبُهُمْ بِيَدِكَ، وإنَّمَا يَغْلِبُهُمْ أنْتَ

اللهم أرنا ما وعدتنا في أعدائنا

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ

اللَّهُمَّ لَوْلا أنْتَ ما اهْتَدَيْنا .... وَلا تَصَدَّقْنا وَلا صَلَّيْنا

فأنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنا .... وَثَبِّتِ الأقْدَام إنْ لاقَيْنا

إنَّ الأُلى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنا .... إذَا أرَادُوا فِتْنَةً أبَيْنا

أبشروا أيا المسلمون :

"سيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ"

"ألا إن نصر الله قريب" ، "ألا إن نصر الله قريب" ، "ألا إن نصر الله قريب" ، "وبشِّر الصابرين"

إنَّا إذَا نَزَلْنا بِساحَةِ قَوْمٍ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرينَ

والله أكبر .. والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .. ولكن المنافقين لا يعلمون

أسباب النصر

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه والسائرين على نهجه

أما بعد

فإن الأمة الإسلامية اليوم تتطلع إلى نصر عاجل يرفع عنها هذا الذل والهوان الذي تسربلت به ، وينقلها من دركات المهانة والإذلال إلى درجات العزة والرفعة والسمو ...

نصراً يعيد لها مجدها السابق ، وحماها المستباح ....

ولاشك أن الناصر هو الله تعالى وحده .... فهذه عقيدة الموحدين التي لا يساومون عليها ... ولا يشكون فيها ... عقيدة ثابتة مغروسة في النفوس ....

ولكن الله تبارك وتعالى قد جعل لذلك النصر أسباباً وأمر بتحصيلها والاعتناء بها حتى تؤتي الشجرة ثمرتها ....

وهنا سأحاول أن أذكر جملة من أسباب النصر مادية ومعنوية فاسأل الله تعالى التوفيق والسداد .

أول تلك الأسباب : الإيمان بالله تعالى [باطناً و ظاهراً] .

قال تعالى : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

قال تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

ولاشك أن من أسباب الهزيمة المعاصي .... ومن أسباب النصر الطاعات . [وتركت إفرادها لدخولها في الإيمان] .

الثاني : الصبر

قال تعالى : (بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الثالث : الإخلاص لله تعالى . [أن يكون القصد نصر دين الله وإقامة شرعه]

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) .

قال تعالى : (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)) .

وعلامة المخلص ... ((الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))

الرابع : الإعداد المادي

قال تعالى : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ...)

فلما تركنا هذا التوجيه الرباني الكريم صرنا مطمع كل طاغية وكافر ....

الخامس : الائتلاف وعدم الاختلاف

قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

فلما اختلفنا زرع الأعداء بيننا من ليس منا ... ليزيد الفرقة والتمزق ... حتى صرنا قطعاناً تتناهشها الكلاب ....

السادس : التوكل على الله والاعتماد عليه واللجوء إليه والتضرع بالدعاء إليه ....[وهذه مجموعة من الأسباب آثرت جمعها مع بعضها لقوة الترابط بينها]

قال تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

قال تعالى : (إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

قال تعالى : (وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ))

قال تعالى : (... أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

السابع : الإقدام وعدم الإحجام ....

قال تعالى : ((قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ))

ولذلك كان الانغماس في العدو من أفضل الجهاد لما ينتج عنه من علو في الهمم ، ورفع للمعنويات ، وبه تقوى عزائم أهل الإيمان ، وبه تتحطم معنويات أهل الظلم والطغيان ...

وفي المقابل حرم التولي يوم الزحف وصار من السبع الموبقات لما يسببه من الهزيمة .... والتثبيط .... ورفع معنويات العدو ....

الثامن : مشاورة القائد [حاكماً أو قائداً] لأصحابه [أصحاب الرأي والمشورة من أهل الحل والعقد وغيرهم] وإشراكهم في صناعة القرار.... [فتطيب النفوس وتقوى العزائم]

قال تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ...)

قال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

وهذا يشمل الجهاد وغيره فهو قاعدة عامة .

وقد طبق ذلك كله المصطفى صلى الله عليه وسلم فهاهو يعتني بتربية الأتباع على الإيمان والتوكل والارتباط بالله وحده ، وهاهو يعد القوة المادية ، ويؤاخي بين الأنصار والمهاجرين ، ويزيل أسباب الفرقة من العصبيات والنعرات الجاهلية ثم لما لاقى عدوه أكثر من الدعاء والاستنصار ، وقبل ذلك كان يشاور الأصحاب ويقول : أشيروا علي أيها الناس ، وهاهو يحفر الخندق ..... والناظر في السيرة يعلم ذلك جيداً .

وهذه بعض الآيات الأخرى

- وحدة صفوف المقاتلين و تراصها

لقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ }

– الثبات عند اللقاء

لقوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ }

– الإكثار من ذكر الله

لقوله تعالى : { وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ }

– الإستغاثة بالله سبحانه

لقوله تعالى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ }

– إتخاذ الحيطة والحذر مع الأعداء

لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً }

– طاعة أمراء الجهاد و التصرف بإذنهم

لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ }

وقوله : { وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ }

– السرية في القول و العمل ورد الأخبار إلى ولاة الأمور

لقوله تعالى : { وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ }

– الرفق بالمؤمنين

لقوله تعالى : { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ }

– تحريضهم على القتال

لقوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ }

– الحذر من تسلل المنافقين والمخذلين

لقوله تعالى : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }

– منع المتخلفين من القتال

{ فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ }

– إرهاب الأعداء والغلظة عليهم

لقوله تعالى : { تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ }

وقوله :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً }

اللهم انصر الإسلام وأهله في كل مكان ....

أخوكم التونسي

شبكة أنا المسلم

إذا سب الرسول فانتظر النصر المأمون

عمرو المصري

أولا لقد أعلى الله شأن نبيه – صلى الله عليه وسلم – دينا ودنيا:

فقال – تعالى –: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين و كان الله بكل شيء عليما} (٤٠) الأحزاب.

و قال – تعالى –: {محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله و رضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة و أجرا عظيما} (٢٩) الفتح.

قال – تعالى –: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله و قالوا سمعنا و أطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير} (٢٨٥) البقرة.

قال – تعالى –: {إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه و سلموا تسليما} (٥٦) الأحزاب.

وقال – تعالى –: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي و الذين آمنوا و الله ولي المؤمنين} (٦ آل عمران.

قال – تعالى –: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا} (٤٥) الأحزاب.

قال – تعالى –: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم} (١٢٨) التوبة

قال – تعالى –: {يا أيها النبي حسبك الله و من اتبعك من المؤمنين} (٦٤) الأنفال.

قال – تعالى –: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أمهاتهم....} (٦) الأحزاب

وكرمه أعلى التكريم وأرفعه – صلى الله عليه وسلم –:

فقال – تعالى –: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير} (١) الإسراء.

قال – تعالى –: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا} (١) الكهف.

قال – تعالى –: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} (١) الفرقان.

قال – تعالى –: {هو الذي يترل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النـــور و إن الله بكم لرءوف رحيم} (٩) الحديد.
وأمر باتباعه وطاعته والإيمان به – صلى الله عليه وسلم –:
فقال – تعالى –: {فآمنوا بالله و رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و كلماتـــه و اتّبعـــوه لعلكـــم تهتدون} (١٥٨) الأعراف.
قال – تعالى –: {و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و احذروا فإن توليتم فاعلموا أنما علـــى رســـولنا البلاغ المبين} (٩٢) المائدة.
قال – تعالى –: {قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل و عليكم ما حملـــتم و إن تطيعوه تَهتدوا و ما على الرسول إلا البلاغ المبين} (٥٤) النور.
قال – تعالى –: {وما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتـــهوا و اتقـــوا الله إن الله شـــديد العقاب} (٧) الحشر
قال – تعالى –: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر و ذكـــر الله كثيرا} (٢١) الأحزاب
وأمر المؤمنين بعظيم الأدب معه – صلى الله عليه وسلم –:
فقال – تعالى –: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي و لا تجهروا له بـــالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون} (٢) الحجرات.
قال – تعالى –: {إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقـــوى لهم مغفرة و أجر عظيم} (٣) الحجرات.
قال – تعالى –: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير نـــاظرين إناه و لكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا و لا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم و الله لا يستحي من الحق.... } (٥٣) الأحزاب.
قال – تعالى –: {و ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله و لا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما} (٥٣) الأحزاب.
وحذر تحذيرا شديدا من إيذائه ولو بأقل القليل:
فقال – تعالى –: {و منهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين و رحمة للذين آمنوا منكم و الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم} (٦١) التوبة.
قال – تعالى –: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتّبع غير سبيل المؤمنين نولـــه مـــا تولى و نصله جهنم و ساءت مصيرا} (١١٥) النساء.

قال – تعالى -: {إن الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله و شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا و سيحبط أعمالهم} (٣٢) محمد.

ولكن السنة الكونية أن هناك أعداء له – صلى الله عليه وسلم -:

قال – تعالى -: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون} (١١٢) الأنعام.

قال – تعالى -: {و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين و كفى بربك هاديا و نصيرا} (٣١)الفرقان.

ثانيا: حكم السب ومناطه:

قال ابن تيمية في الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٩٧٨... وما بعدها:

قال القاضي عياض "جميع من سب النبي أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له والإزراء عليه أو البغض منه والعيب له فهو ساب له و الحكم فيه حكم الساب يقتل ولا نستثن فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد ولا نمتر فيه تصريحا كان أو تلويحا وكذلك من لعنه أو تمنى مضرة له أو دعا عليه أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عيبه في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزورا أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه قال هذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن أصحابه وهلم جرا..

وقال ابن القاسم عن مالك من سب النبي قتل و لم يستتب قال ابن القاسم أو شتمه أو عابه أو تنقصه فانه يقتل كالزنديق وقد فرض الله توقيره وبره، وكذلك قال مالك في رواية المدنيين عنه من سب رسول الله أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب، وروى ابن وهب عن مالك من قال إن رداء النبي ويروى إزاره وسخ وأراد به عيبه قتل، وذكر بعض المالكية إجماع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه انه يقتل بلا استتابة.

وذكر القاضي عياض أجوبة جماعة من فقهاء المالكية المشاهير بالقتل بلا استتابة في قضايا متعددة أفتى في كل قضية بعضهم منها رجل سمع قوما يتذاكرون صفة النبي إذ مر بهم رجل قبيح الوجه واللحية فقال تريدون تعرفون صفته هي صفة هذا المار في خلقته ولحيته، ومنها رجل قال النبي كان اسود، ومنها رجل قيل له لا وحق رسول الله فقال فعل الله برسول الله كذا قيل له ما تقول يا عدوا الله فقال اشد من كلامه الأول ثم قال إنما أردت برسول الله العقرب قالوا لا يقبل لأن إدعاءه للتأويل في لفظ صراح لا يقبل لأنه امتهان وهو غير معزر لرسول الله ولا موقر له فوجبت إباحة دمه، ومنها من قال إن سألت أو جهلت فقد سأل النبي وجهل، ومنها متفقه كان يستخف بالنبي ويسميه في أثناء مناظرته اليتيم ويزعم أن زهده لم يكن قصدا ولو قدر على الطيبات لأكلها وأشباه هذا.

قال عياض فهذا الباب كله مما عده العلماء سبا وتنقصا يجب قتل قائله لم يختلف في ذلك متقـــدمهم ومتأخرهم وان اختلفوا في حكم قتله.
وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه فيمن تنقصه أو برئ منه أو كذبه أنه مرتد وكذلك قال أصـــحاب الشافعي كل من تعرض لرسول الله بما فيه استهانة فهو كالسب الصريح فإن الاستهانة بـــالنبي كفـــر وهل يتحتم فيه قتله أو يسقط بالتوبة على الوجهين.
وقد نص الشافعي على هذا المعنى..
فقد اتفقت نصوص العلماء من جميع الطوائف على أن التنقص به كفر مبيح للدم...
ولا فرق في ذلك بين أن يقصد عيبه والازراء به أو لا يقصد عيبه لكن المقصود شيء آخـــر حصـــل السب تبعا له أو لا يقصد شيئا من ذلك بل يهزل ويمزح أو يفعل غير ذلك فهذا كله يشترك في هذا الحكم إذا كان القول نفسه سبا فإن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله – تعالى – ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب..
ومن قال ما هو سب وتنقص له فقد أذى الله ورسوله وهو مأخوذ بما يؤذي به الناس من القول الذي هو في نفسه أذى وإن لم يقصد أذاهم...
ألم تسمع إلى الذين قالوا {إنما كنا نخوض ونلعب}
فقال الله – تعالى –: {أبالله و آياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}
وهذا مثل من يغضب فيذكر له حديث عن النبي أو حكم من حكمه أو يدعى لما سنه فيلعن ويقـــبح ونحو ذلك...
وقد قال – تعالى –: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفســـهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}
فأقسم – سبحانه – بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ثم لا يجدون في نفوسهم حرجا من حكمـــه فمن شاجر غيره في أمره وحرج لذكر رسول الله حتى أفحش في منطقة، فهو كافر بنص التتريـــل ولا يعذر بأن مقصوده رد الخصم فان الرجل لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممـــن ســـواهما وحتى يكون الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين. أ. هـــ
ثالثا: سب الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أعظم الضرر في الدين:
قال ابن تيمية في الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٣٨
إن المعاهد له أن يظهر في داره ما شاء من أمر دينه الذي لا يؤذينا والذمي ليس له إن يظهـــر في دار الإسلام شيئا من دينه الباطل وإن لم يؤذنا فحاله أشد....
إن الذمّي إذا سب الرسول أو سب الله أو عاب الإسلام علانية فقد نكث يمينه وطعن في ديننا لأنه لا خلاف بين المسلمين وأنه يعاقب على ذلك ويؤدب عليه.....

و قال في الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٤٦

و لا ريب أن من أظهر سب الرسول من أهل الذمة و شتمه فانه يغيظ المؤمنين و يؤلمهم أكثر مما لـــو سفك دماء بعضهم و أخذ أموالهم فإن هذا يثير الغضب لله والحمية لله و لرسوله و هذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظا أعظم منه بل المؤمن المسدد لا يغضب هذا الغضب إلا لله.....

و في الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٤٥٣

أما سب الرسول والطعن في الدين ونحو ذلك فهو مما يضر المسلمين ضررا يفوق ضرر قتـــل الـــنفس وأخذ المال من بعض الوجوه فإنه لا أبلغ في إسفال كلمة الله وإذلال كتاب الله وإهانة كتاب الله من أن يظهر الكافر المعاهد السب والشتم لمن جاء بالكتاب.. (وهو الرسول).....

الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٤٦٢

إن إظهار سب الرسول طعن في دين المسلمين و إضرار بهم ومجرد التكلم بدينهم ليس فيـــه إضـــرار بالمسلمين فصار إظهار سب الرسول بمترلة المحاربة.....

الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٩٤٠

إن ظهور الطعن في الدين من سب الرسول ونحوه فسادا عريض وراء مجرد الكفر فلا يكون حصـــول الإسلام ما حيا لذلك الفساد....

وفى مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٢٠

و كذلك تكذيب الرسول بالقلب و بغضه و حسده و الاستكبار عن متابعته أعظم إثما من أعمـــال ظاهرة خالية عن هذا كالقتل و الزنا و الشرب و السرقة و ما كان كفرا مـــن الأعمـــال الظـــاهرة كالسجود للأوثان و سب الرسول و نحو ذلك فإنما ذلك لكونه مستلزما لكفر الباطن و إلا فلو قـــدر أنه سجد قدام وثن و لم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك...........

رابعا: عقوبة السب الربانية:

قال ابن تيمية في الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٩٨٣... و ما بعدها.

فعبد الله بن سعد بن أبي سرح افترى على النبي أنه كان يتمم له الوحي و يكتب له ما يريد فيوافقـــه عليه و أنه يصرفه حيث شاء و يغير ما أمره به من الوحي فيقره على ذلك و زعم أنه سيترل مثل مـــا أنزل الله إذ كان قد أوحي إليه في زعمه كما أوحي إلى رسول الله و هذا الطعن علـــى رســـول الله وعلى كتابه و الإفتراء عليه بما يوجب الريب في نبوته قدر زائد على مجرد الكفر به و الردة في الـــدين و هو من أنواع السب..

و كذلك لما افترى عليه كاتب آخر مثل هذه الفرية قصمه الله و عاقبه عقوبة خارجه عن العادة ليتبين لكل احد افتراؤه إذ كان مثل هذا يوجب في القلوب المريضة ريبا بأن يقول القائل كاتبه أعلم النـــاس

بباطنه و بحقيقة أمره و قد أخبر عنه بما أخبر فمن نصر الله لرسوله أن أظهر فيه آية يــبين بهــا أنــه مفتر....

فروى البخاري في صحيحه عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال كان رجلا نصرانيا فأسلم و قرأ البقرة و آل عمران و كان يكتب للنبي فعاد نصرانيا فكان يقول لا يدري محمد إلا ما كتبت له فأماته الله.. فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صــاحبنا فــألقوه فحفروا له و أعمقوا في الأرض ما استطاعوا فأصبح و قد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من النــاس فالقوه...

ورواه مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة و آل عمران.. و كان يكتب للنبي فانطلق هاربا حتى لحق بأهل الكتاب..

قال فعرفوه قالوا هذا قد كان يكتب لمحمد فأعجبوا به فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم فحفروا لــه فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذا...

فهذا الملعون الذي افترى على النبي أنه ما كان يدري إلا ما كتب له قصمه الله وفضحه بأن أخرجــه من القبر بعد أن دفن مرارا وهذا أمر خارج عن العادة يدل كل أحد على أن هذا عقوبة لما قاله وأنــه كان كاذبا.. إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا وأن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه ومظهر لدينــه ولكذب الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد ونظير هذا ما حدثناه أعداد مــن المســلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا...

قالوا كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس منــه حتى إذا تعرض أهله لسب رسول الله والوقيعة في عرضه تعجلنا فتحة وتسير و لم يكد يتأخر إلا يوما أو يومين أو نحو ذلك ثم يفتح المكان عنوة ويكون فيهم ملحمة عظيمة قالوا حتى إن كنــا لنتباشــر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظا عليهم بما قالوا فيه...

هذا و- صلى الله عليه وسلم -.

٢٩-٠١-٢٠٠٥

الطريق إلى خلاص المسجد الأقصى

الشيخ محمد عبدالكريم

١. كل المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يتطلعون إلى خلاص المسجد الأقصى وفلسطين من أيدي أعداء الله اليهود الغاصبين، ولكن هذه الأمنية تحتاج لتحقيقها واقعاً إلى تغيير في نفوسنا، يخلصنا أولاً من العبودية لغير الله في أي صورة من صور الشرك وعبادة غير الله. فلا بدّ من تغيير عميق للجذور، نبني به رجل العقيدة المسلم، الذي يحقق العبودية لله تعالى في نفسه ويعبِّد الآخرين لخالقهم، وبهذا الأساس الصلب سينفذ جيل النصر القادم لا محالة إلى اليهود القابعين في بيت المقدس، وبذلك الوصف سينادي الحجر والشجر جند الله المؤمنين الذين سينازلون اليهود: (يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله)، وسبيل ذلك التربية المتوازنة على العقيدة الصافية التي لا تكدرها شائبة، من خرافة ومحدثة وشبهة، العقدية التي يريدها القرآن الكريم، وتريدها السنة الصحيحة أن نعتقدها بشمولها عبادة ونكساً، وولاءً وبراءً، شريعة وحكماً، دون تجزئة ، أونسيان حظ مما ذكرنا به، كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) .

٢. السعي الدؤوب لوحدة المسلمين على كلمة سواء من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والاعتصام بهما (واعتصموا بحل الله جميعاً ولا تفرقوا) ، وأثبت الواقع أنه لم ولن تكون القومية العربية إطاراً يحقق الوحدة لأنها بناء قائم على جرفٍ هارٍ ودعوة مالها من الله من برهان ولا نصير، في حين اثبت الإسلام صلاحيته لتوحيد شعوب مترامية المسكن، مختلفة الأجناس، صهرهم في بوتقة واحدة، وصقلهم وهذب أخلاقهم وطباعهم، وأبدع بهم حضارة حكمت الشرق والغرب، وحقق لها شعور الانتماء الواحد ، أكثر من الذي يشعر به أبناء البلد الواحد، واعتبر الإسلام هذه الرابطة أقوى وشيجة بقوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) وقوله تعالى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ، وبمثل قوله عليه الصلاة والسلام: (أن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي أن وليّ الله وصالح المؤمنين ولكن لهم رحم أبلها ببلالها) .

إن رابطة البنوّة فَصَمَتْ بين نوح عليه السلام وابنه عندما انعدمت رابطة الإيمان (إنه ليس من أهلك أنه عملٌ غيُر صالح) ، كذلك رابطة الأبوة بين إبراهيم عليه السلام وأبيه فصمت لما انعدمت رابطة العقيدة (فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم) . كذلك لم ينفع أبا لهب وهو العربي القرشي رابطةُ النسب والقوم، وكان من الهالكين لكفره، لكنّ بلالاً الحبشي، وصهيباً الرومي، وسلمان الفارسي كانوا من خير أبناء هذه الأمة، وهكذا ضمّت دائرة الإسلام العرب والفرس والأكراد والترك والبربر والهنود والصين والأفارقة وغيرهم، وجعلت منهم أمة واحدة من دون الناس كما قال عليه الصلاة والسلام، فكان لهم التاريخ الواحد، والمآثر الواحدة، والأفراح والأعياد الواحدة، ولغة الدين الواحدة، وسل التاريخ ينبئك!! فها هم أولئك المماليك الذين حموْا هذه البقعة من بلاد الشام وبيت المقدس لم يكونوا من جنس العرب، وإنما كانوا من جنس التتار، ولكنهم قاتلوا حميّة للإسلام، وحمى صلاح الدين هذه البلاد من اندثار العروبة والعرب واللغة العربية، وهو كردي

لا عربي، ولكن حفظ لها عروبتها ولغتها حين حفظ لها إسلامها من غارة الصليبيين، وكان الإسلام في ضميره هو الذي كافح الصليبيين كما كان الإسلام في ضمير بيبرس والمظفر قطز .

لقد آن الأوان لننبذ كل تلك الطروح القومية والوطنية والاشتراكية والشيوعية والعلمانية وسواها من رايات الفشل والشقاق ، ونتخذ راية الإسلام شعاراً لتوحيد الجهد والجهاد في سبيل الله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) .

٣. ما أشبه الليلة بالبارحة! فكما رزء المسلمون في القرن الخامس الهجري قبل فتح بيت المقدس بالحركات الباطنية كالعبيديين، والحشاشين، والنصيريين والدروز، فإننا اليوم مبتلون بهذه الحركات وغيرها مما لم يكن في الماضي كالقاديانية والبهائية، وإذا كان الإمامان نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي قد وفقا لإدراك خطر الدولة العبيدية على وحدة المسلمين و لم شعثهم، فإننا اليوم ينبغي أن نتصدى لهؤلاء بكل الوسائل الممكنة، ويجب أن نحذر من اعتبارهم في أي وحدة لانهم كالسوس ينخر من الداخل.

٤. إن السبيل الأوحد في إدارة الصراع مع اليهود، لإخراجهم من بيت المقدس وفلسطين هو قتالهم في سبيل الله، وإن من أعظم صور الجهاد، وأروع ضروب الاستشهاد، ما يقوم به شباب الجهاد في فلسطين من عمليات فدائية، أفزعت اخوان القردة والخنازير، وأقضّت مضاجعهم، حتى أبلغت قلوبهم حناجرهم. ولما كانت هذه العميات الجهادية تستوجب وجود عنصر بشري لإحداث التفجير، بسبب إحكم العدو للتدابير الأمنية، سواءً بتدريع جسم المجاهد بالمتفجرات، أو باقتحام الثكنات بعربة ملغّمة، أو بالسقوط عليها بطائرة مفخخة. فإن جماهير العلماء في عصرنا الحاضر قد نصوا على جواز ومشروعية هذه العمليات الفدائية، لعموم نصوص الكتاب والسنة المحرّضة على قتال الكافرين، بُغية الإثخان في أعداء الله، والانتصار للدين، ومن ذلك قول الله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ، وقوله تعالى : (يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل (فيُقتلون ويَقتُلون)، وقوله سبحانه: (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) ، وقوله عز وجل: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) ، ومن الأحاديث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة يُحبهم الله –ذكر منهم- الرجلُ يلقى العدو في فئةٍ فينصُبُ لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه) ، وقوله صلى الله عليه وسلم: (من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كلما سمع هيْعَةً أو فزعة طار عليه يبتغي القتلَ والموتَ مظانَّهُ) ، ولحديث الغلام في قصة أصحاب الأخدود، وذلك أنَّه علَّم ملك نجران كيف يقتله، وأنه لا سبيل لهم إلى قتله إلا بالطريقة التي دلهم عليها، فكان متسبباً في قتل نفسه، من أجل دخول دخول أهل تلك البلاد في دين الله، وكان ما أراد، حيث قالوا جميعاً: آمنا بالله رب الغلام. ومن المعلوم بداهة أن قتل الأعداء من أعظم

المخاطرة، لما في ذلك من تعريض النفس للتلف..

الجود بالمال جود فيه مكرمة *** والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وإذا كان أكثر أهل العلم قديماً قد ذهبوا إلى مشروعية الاقتحام على العدو، والانغماس في صـــفوفه، مع تحقُّق الهلاك، وضعف العدة، وقلة العدد، بقصد النكاية بالعدو، وكسر عنفوانه، وفـــلِّ شـــوكته، وتوهين قناته، فإن الصورة العصرية أيضاً مشروعة لذات المقصد والغاية. قال الإمام محمد بن الحســـن الشيباني ـــ تلميذ الإمام أبي حنيفة ـــ رحمهما الله: "لو حمل رجل واحد على ألف من المشركين وهو وحده فلا بأس بذلك، إذا كان يطمع في النجاة، أو نكاية في العدو. وإن كان قصده إرهاب العـــدو، وليعلم صلابة المسلمين في الدين، فلا يبعد جوازه. وإن كان فيه نفع للمسلمين فتَلِفتْ نفسه لإعـــزاز الدين، وتوهين الكفر، فهو المقام الشريف الذي مدح الله تعالى به المؤمنين بقولـــه تعـــالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)" .

وصحح أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله جواز الاقتحام على العساكر لمن لا طاقة له بهم؛ لأربعـــة وجوهٍ: طلب الشهادة، ووجود النكاية، وتجرئة المسلمين عليهم، وضعف نفوسهم ليروا أن هذا صنع واحد فما ظنك بالجمع. ومن شواهد ذلك في السيرة: حمل سلمة بن الأكوع والأخرم الأسدي وأبي قتادة وحدهم رضي الله عنهم على عيينة بن حصن ومن معه، وقد أثنى النبي صلى الله عليـــه وســـلم فقال: (خير رَجّالتنا سلمة) . قال ابن النحاس: "وفي الحديث الصحيح الثابت أول دليل على جـــواز حمل الواحد على الجمع الكثير من العدو وحده، وإن غلب علىظنه أنه يُقتل إذا كان مخلصاً في طب الشهادة كما فعل سلمة بن الأخرم الأسدي" ، ومن المشهور أيضاً فعل البراء بن مالـــك في معركـــة اليمامة، فإنه احتُمِل في ترس على الرماح، وألقوه على العدو فقاتل حتى فتح الباب، و لم ينكر عليـــه أحد من الصحابة ، ومن ذلك أيضاً قصة أنس بن النضر رضي الله عنه في وقعة أحد، فقد قال: "واهاً لريح الجنة"، ثم انغمس في المشركين حتى قُتل .

ولا ريب أن البون شاسع بين من قتل نفسه جزعاً من الحياة و تخلصاً من آلامها كما في قصة قُزمـــان الذي نحر نفسه فاستعجل الموت ، أو ما يقع من حوادث انتحارية جراء المعيشة الضنك، وبين صورة ذلك الشاب المجاهد، الذي يقتل نفسه ليحيي أنفس الأجيال المسلمة من بعد ذلك (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) فحاشا لمثل هذه الصورة الفدائية المشرقة أن تكون مجرد حماسة فـــائرة، أو عزمـــة مفردة، أو تغريراً بأنفس متهورة في باطل فضلاً عن أن تكون انتحاراً أو قتلاً للنفس بغير حق. قـــال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله: "إن التغرير في النفوس إنما جاز لما فيه من مصلحة إعزاز الدين بالنكاية في المشركين" ، ونقل النووي الاتفاق على التغرير بالنفس في الجهاد .

وما دامت الجيوش الباسلة في بلاد المسلمين (مدجَّنةً) لا تحرك ساكناً إزاء غطرسة اليهود ومجــازرهم، وحالها أنها (ملجّمة) من قِبل المخذِّلين والمنافقين، فلا سبيل إلى زعزعة هــذا الكيــان الجرثــومي إلا بهاتيك العمليات الجهادية الفدائية، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

أما مفاوضات الاستسلام، فإنها تزيد اليهود غطرسة وعدواناً، ولا تورثنا إلاّ ذلاً وهواناً، لأن مشكلة فلسطين والمسجد الأقصى، قضية إسلامية بحتة، وماهي بمشكلة العرب وحــدهم.. أو الفلســطينيين وحدهم.. فليس من حق كائن من كان أن يساوم عليها*، فهي من شمالهــا إلى جنوبهــا بقدســها الشريف أرض إسلامية تنتظر المخلص الإسلامي المجاهد، وهذا واجب كل مسلم وهو في حق مسلمي فلسطين ومن جاورهم أوجب، وإن أخشى ما يخشى اليهود اليــوم أن تســتيقظ روح الإســلام في النفوس ، وتنتشر روح الجهاد وحب الاستشهاد، كما صرخ طائرهم بن غوريون قــائلاً: "نحــن لا نخشى الاشتراكيات، ولا الثوريات ولا الديمقراطيات في المنطقة نحن نخشى الإسلام هذا المارد الــذي نام طويلاً، وبدأ يتململ من جديد".

٥. يجب أن نترع من قلوبنا حب الدنيا والتهالك عليها، ونتعلق بالآخرة التي نعيمهــا هــو النعــيم السرمدي الباقي (ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزينّ الذي صبروا أجرهم بأحســن ماكــانوا يعملون) ، وها هو ذا صلاح الدين في الماضي قد شمر عن ساعد الجد وترك اللهو، وتقمص بلبــاس الدين، وحفظ ناموس الشرع، فحمل هموم الإسلام والمسلمين، و لم يهدأله بال، و لم يذق طعم الراحة حتى لقي ربه، يصف صاحب كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) صلاح الدين وهو ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس فيقول: (ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره، لعلمت أن له قلباً قد حمل جبلاً في فكره)

سيُدرك النصر إن يأذن به صمد *** بعد امتحان بخير المال والولد
ودولة الظلم لن تبقي إلى أمد *** وهل تدوم ومادامت الي أحد
ستشرق الشمس لا تجزع لغيبتها *** ويبزغ الفجر فوق السهل والنجد
وترجع القدس تزهو في مآذنها *** وعد الإله الكريم المنعم الصمد

الحُلولُ الإسلاميَّةُ للقضية الفلسطينية

للشيخ/ ذياب الغامدى

الفَصلُ الأولُ : الحلُّ الإسْلامي بَيْنَ الإيجابيَّات، والسِّلبياتِ .

إنَّ طرحَ الحلَّ الإسلامي أياً كان نوعه؛ لهو نوعٌ من أنواع النيات الصــادقة، والرغبــات الإيمانيــة، والعزمات الجهادية نحو الخروج بالأمة الإسلامية من هذا الهوان الذي تعيشه، وهذا الذلِّ الذي ما برح فوق رأسها ما يزيد على خمسة قرون أو يزيد، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله !.

فكان البحث عن الحلِّ الإسلامي أمراً مهماً، وفرضاً متحتِّماً على كافة المسلمين؛ وكـلٌّ بقـدره . " فاتقوا الله ما استطعتم " .
فإذا عُلم ما ذكرناه آنفاً؛ كان من العدل والإنصاف أن نضع الأمور في نصابها، وذلك ماثلٌ في معرفةِ حقيقةٍ مسلَّمةٍ وهي : أن طرح الحلول، وإيجادها، والكلام عنها لا يلـزم منـها ضـرورةً الصِّـحة والواقعيَّة؛ بقدر ما هي دعوةٌ إيمانيةٌ لشحذِ الهمم، والاستفادة من أفكار وطاقات المسلمين في التعامل مع قضاياهم الإسلامية لاسيما التي تَمسُّ دينَهم، وعزَّهم، أو شيئاً من حقوقهم !.
فعند هذا؛ كان من الحكمة البالغة أن ندعوا كافَّةَ المسلمين عالِمَهم وجاهلَهم، كـبيرَهم وصـغيرَهم، ذكرَهم وأنثاهم ... للمشاركة والتعاون في طرح الحلول، وعرضها بقدر ما نملك من استطاعة .
فكلامنا حينئذٍ يدور حول نقطتين مهمتين :
الأولى: ليس من الضرورة صحَّة الحلول عند طرحها .
الثَّانيةُ : مبدأ الشورى أصلٌ من أصول السياسة الشرعية، والتدابير المرعية .
فمن قرأ السيرة النبوية – على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم — أو قلَّب صفحات التأريخ علم يقيناً أن الإسلام لم يُهمل أحداً من المسلمين عن إبداء رأيه، والمشاركة في قضايا المسلمين؛ فالكل سـواء بسواء فما كان عنده الحل الأمثل قُبِلَ وقدِّم على غيره أيّاً كان قائله ما كانت سمة الإسـلام بينـهم ظاهره !، فقد صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ... المسلمون يدٌ على مَنْ سواهم، تتكافـأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجيرُ عليهم أقصاهم ... " الحديث، أحمد وغيره( ) . وكما قـال تعالى : " وشاورهم في الأمر " آل عمران ١٥٩، وقال تعالى : " وأمرهم شورى بينهم " الشـورى ٣٨.
وتدليلاً على ذلك أنَّ آراء الصحابة ــ رضي الله عن الجميع ــ حول أسرى بدرٍ تكاثرت بين يـدي النبي صلى الله عليه وسلم، فمنهم من قال بقتلهم، ومنهم من أمر بحرقهم، ومنهم من رجَّح فـداءهم ... الخ، وهذا كلُّه لم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من المشورة وطرح الحلِّ الذي يخدم الأمة، كما أننا لا ننسى مشورته صلى الله عليه وسلم للصحابة يوم قال في بدرٍ : " أشيروا عليَّ أيها النـاس "!، وليست عنَّا قصة سلمان الفارسي ببعيد يوم طرح حلاً لم يكن مألوفاً عند العرب آنذاك !؛ وهو أمره ــ رضي الله عنه ــ بحفر خندقٍ يحجز به العدوَّ عن دخول المدينة النبوية، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم شاور أمَّ سلمة ــ رضي الله عنها ــ في عمرته التي منعه منها أهل مكةَ، وذلك عندما أمر الناس أن ينحروا الهديَ ويحلقوا رؤوسهم، فلم يقم منهم أحدٌ إلى ذلك، فكرر الأمر ثلاث مـرات؛ فأشارت إليه بأن يبدأ هو بما يرد، ففعل، فقاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمَّاً( ) ... وغير ذلك من الأخبار والوقائع التي تضيق بها هذه الرسالة الخ، كلٌّ هذا دليلٌ على تعزيز مبدأ مشاركة الآراء، وأخذ المشورة من كافة المسلمين .

إذاً فلنجعل شعارنا حينئذٍ هو ما قاله صلى الله عليه وسلم : " أشِيرُوا عَليَّ أيُّها النَّاس "
فإنَّنا من خلال ما تقدَّم ندعو كلَّ مسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يشاركنا في طرح ما يراهُ مناسباً من الحلول الشرعية تُجاه أمته الإسلامية كي يأخذ بيدها من هذا الهوان والصَّغار إلى عزِّها وسيادتها وريادتها للعالم بأسره ! .

لذا كان حقاً على كلِّ مسلمٍ أن يُدليَ برأيه حول طرح الحلول الشرعية : فالمزارع في مزرعته لا بد أن يخدم أمته في طرح ما يراه مناسباً، وكذا التاجر في متجره، والأعرابي في إبله، والطالب في مدرسته، والمرأة في منزلها، والكلُّ في أمته ... فنحن بهذه الدعوة قطعاً – إن شاء الله – سنعيد للأمة الإسلامية مجدَها وعزَّها، ولن يخذلنا الله تعالى؛ حيث يقول : " والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " العنكبوت ٦٩ . هذا إذا علمنا أنَّنا محتاجون مضطرُّون ساعتئذٍ، والله تعالى يقول : " أمَّن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشفُ السوءَ ... " الآية النمل ٦٢.

اللهم أقرَّ أعينَنا بعزٍّ نراه في حياتنا، وجهادٍ نُسقيه بدمائنا، وخلافةٍ عامةٍ نستظلُّ بظلِّها، ونحوطُها بنصحنا ... اللهم آمين .

وبعد هذا حان لنا أن نذكرَ ما نراه مناسباً من الحلول الشرعية التي تتناسب مع واقعنا الذي نعيشه ونلامسه، مع اعتبار ما قرَّرنا آنفاً أن طرحنا للحلول لا يلزم منه ضرورةً الصواب؛ علماً أننا لم نألُ جهداً في اختيار ما نحسبه – إن شاء الله – أقرب ما يكون إلى الجادَّةِ والصواب . والله الموفِّق، والهادي إلى سواء السبيل .

الفَصلُ الثَّاني : قائِمةُ الحُلولِ .

لا شكَّ أن الحلولَ كثيرةٌ جداً؛ فكان من المناسب أن نُجملها في اثنين لا ثالث لهما، وهما باختصار : (عامٌ، وخاصٌ) .

الأوَّلُ : حلولٌ عامةٌ لا تتقيد بزمان، أو مكان فهي مستمرَّةٌ لا تنفكُّ عن حياة المسلم ما تردَّدت أنفاسُه في جوفه؛ لأنها معلومةٌ من الدين بالضرورة . لأجل هذا لم أتكلَّف التوسعَ في الحديثِ عنها فتأمل .

وهذا الحلُّ ماثلٌ في أمور منها :

١ـ دعوة المسلمين إلى تصحيح العقيدة الإسلامية، ومنابذة الشرك .

٢ـ تعليمُ المسلمين أمورَ دينِهم .

٣ـ تقوية الروابط بين المسلمين .

٤ـ إحياءُ قضيةِ الولاءِ والبراءِ في قلوب المسلمين .

٥ـ إحياءُ قضيةِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند عامة المسلمين وغير ذلك من الحلول العامة الهامَّة .

الثَّاني : حلولٌ خاصةٌ يحكمُها الزمان والمكان، فعند ذلك كانت القرائنُ والظروفُ هي مناطُ الحكمِ فيها وجوداً وعدماً، فهذه الحلول ليست متروكةً لاختيار المسلم بقدر ما هي ضرورةٌ تفرضها الوقائع والأحداث . وهذا النوع من الحلول هو بيت القصيد، والدَّافع من رسالتي هذه ! .

أمَّا إن سألت عن مثالٍ يجسِّمُ هذا الحلَّ – الثاني-؛ فهناك قضايا جسامٌ كثيرةٌ أَلَّمت بالأمة الإسلامية، كإلغاء الخلافة الإسلامية، وسقوط كثيرٌ من بلاد المسلمين في أيدي الكفرة ابتداءً بالأندلس وانتهاءً ببيت المقدس ... وتحرير بلاد المسلمين من الذين لا يُدينون بدين الإسلام مِمَّن يجاهر بحرب الإسلام والمسلمين؛ كالمنافقين، والزنادقة، وأذناب الغرب من العملاء العلمانيين، والحداثيين، ودعاة الفساد والرذيلة ...!! .

وحسبنا من هذه القضايا الآن : " قضية فلسطين " ! .

فعند هذا نستطيع أن نقطع القول : بأن الحلول الإسلامية التي طُرحتْ حول قضية بيت المقدس كثيرةٌ جداً ربما تفوق الحصر!، علماً أنَّ بعضها ما زال قابلاً للطَّرح والزيادة، والله أعلم .

وبعد هذا؛ فلنا أن نبدأ بذكر الحلول الإسلامية التي نراها نافعةً ناجعةً نحو قضية فلسطين — إن شاء الله – :

الحلُّ الأوَّلُ : الجهادُ ! .

نعم؛ إنَّ كلمة الجهاد، أو الحديث عن الجهاد أصبح عند كثير من المسلمين عبثاً، وما ذاك إلاَّ أن ترديد كلمة الجهاد أحدثت في نفوسهم تبلُّداً قلبي، فلم يعد لكلمة الجهاد عندهم كبير تأثير !، هذا لَمَّا فقدت الكلمةُ معناها الإيماني، ومحتواها الصحيح حيث أصبحت على لسان كلِّ أحدٍ من الناس، بل غدت عند بعض السَّاسة ورقةً تجاريةً يلعب بها حسبما تُمليه عليه السُّوقُ السياسية، وكذا أصبحت عند بعضهم تهمةً يُحاكم عندها من ينادي إليها، وآخرين ليلةً ذات شجونٍ يتسامرون عليها، وهكذا حتى ذهبت قداستُها الشرعية يوم تعلَّق بها من ليس أهلاً لها ... فالله المستعان .

فليت شعري؛ لو أنَّ كلمةَ الجهادِ وقفتْ عند هذا الحدِّ !؛ بل تعدَّى هذا إلى بعض الصالحين — للأسف — يوم تجدُ أكثرَهم إذا عضَّته الصور المأساوية، وقتلته المشاهد الدموية ضد المسلمين قام ينادي بأعلى صوته فوق منبره : الجهاد أيها المسلمين !، وآخر لم يملك نفسه حتى بكى على منبره ينادي بالجهاد!، وبعضهم أخذ قلمه وكسر غمده ليكتبَ عن الجهاد وفضله ... الخ . وهكذا؛ كلٌّ تدفعه الغيرة إلى الحديث عن الجهاد، لكن هيهات !؛ حيث ذهبت كلماتُهم وعبراتُهم في مهب الريح، لا أثر لها ولا تأثير !؛ لا لشئ؛ بل لأنهم — للأسف — لم يحسنوا استخدام كلمة " الجهاد " بين المسلمين، ولم يعرفوا طرحها على أرض الواقع، وكيف توجيهها لحلِّ قضية فلسطين . إنَّ الكلامَ عن الجهاد دون فعلٍ لهو مصيبةٌ؛ يوم تبقى حبيسة النفوس وأسيرة القلوب!؛ لذا كان لنا — للأسف –

نصيبٌ من هذا الخطأ يوم جعلنا من كلمة " الجهاد " كلمةً جوفاء في أذان المسلين، وطَبْلاً أجوفاً كلَّه خواء ...! .

أمَّا اليوم فلنا مع الجهاد الإسلامي كلامٌ وكلام !، يوم أخذت كلمة الجهاد منحى آخر عند كثير من الناطقين بها !، فكان ما كان كما ذكرناه آنفاً .

أقول : إنَّ الأمةَ الإسلاميةَ تجتازُ مرحلةً خطيرةً من مراحل حياتها؛ مرحلةَ قوَّةٍ، أو ضَعْفٍ !؛ فلقد اعتدى الأعداء على بلادها، وأراضيها، ودنَّسوا مقدساتها، وانتهكوا محرماتها، وعاثوا في أرجائه الفساد فأصبح الجهادُ فرضاً عينياً على كلِّ قادرٍ بالنفس، والمال، وعلى كلِّ فردٍ أن يَعُدَّ نفسه ليكون جندياً بروحِه، ودمِه يجاهد في سبيل الله، وتحرير بلاده، وإنقاذ مقدساته من أيدي الطغاة المعتدين الذين اعتدوا على المسجد الأقصى المبارك أُولى القبلتين .

إنَّ المسلمين الأولين أدركوا أهمية هذه البلاد فجاهدوا في سبيلها جهاداً مستميتاً، وباعوا نفوسهم وأرواحهم رخيصةً من أجلها .

ولقد حَدَّثَ التأريخ أن هذه البلاد المقدسة كلما أَلَمَّت بها ملمةٌ، أو وقعت بها نازلةٌ استصرخت من حولها فكان الغوثُ والعونُ يأتونها جماعاتٍ ووُحداناً يتنسمون منها نسمات الجنة، ويبتغون الفضل من الله والمنة .

ومنذ فجر الإسلام، وقوافلُ المجاهدين، ومواكبُ المقاتلين، ورَكْبُ الميامين تسيرُ نحو هذه البلاد المقدسة لتنال الشهادةَ على أرضها، وتلقى ربها راضيةً مرضيةً، وتَنعم في جوارِه بالحياةِ الطيبةِ، والرزق الكريم .

لقد كانت أشرفُ أُمنيةٍ، وأنبلُ غايةٍ يرجوها المؤمنُ الصادقُ من ربه أن يموتَ شهيداً في ساحات بيت المقدس؛ لِتُضم رفاتُه، ويُمزج دمُه مع دمِ الآلاف من الشهداء الأبرار الذين استشهدوا في موقعة مؤتة، واليرموك، وحطين وغيرها من المعارك الخالدة.

وأنَّ أسلافَنا الأكرمين قد سلَّموا لنا هذه البلاد المقدسةَ سالمةً نقيةً، وهي أمانةٌ في أعناقِنا علينا أن نُسلمها إلى الأجيالِ القادمةِ كما تسلَّمناها سالمةً نقيةً .

ولقد تآمرت علينا دولُ الاحتلال والدَّمار( ) في الشرق والغرب في حين غفلةٍ منا فأقامت لليهود دولةً في أرضنا، وملَّكتهُم ديارَنا ومقدساتِنا لتكون هذه الدولةُ شوكةً في قلب البلاد الإسلامية، ومصدرَ شرٍ وفساد في هذه المنطقة الحيوية الهامة من العالم، ولتكون أيضاً تكأةً يقفزون منها للاستيلاء على ما بقي من البلاد المجاورة، ولإخماد كلِّ حركةٍ إصلاحيةٍ، أو انتفاضةٍ جهاديةٍ تحرريةٍ .

وهنا علينا أن نعترف أننا بابتعادنا عن الله، وعن دينه، والعمل بتعاليمه، وإقامة حدوده، وإثارنا مصالحنَا الشخصية على مصالح الأُمة العامة، واختلاف كلمتنا، وإهمالنا إعداد العُدَّة المادية والروحية التي أمرنا الله بإعدادها، وتفرُّقنا شيعاً وأحزاباً كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون؛ كلُّ ذلك قد سهَّل

للأعداء تنفيذ مؤامراتهم، وتحقيق مكائدهم فسلبوا أرضنا، وانتهكوا حرمة مقدساتنا، وساموا أهلنا الخسف والاضطهاد وسوء العذاب .

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا تبايَعتُم بالعِيْنَةِ، وأخذتُم أذنابَ البقر، ورضيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهاد، سلَّطَ الله عليكم ذُلاً لا يَنْزِعُهُ حتى تَرجعوا إلى دينكم " أحمد وأبو داود( ) .

فنحن اليوم نخوضُ معركةً مصيريةً مع عدونا الغادرِ الماكرِ، وليس لنا من سبيل إلى التَّغلُّبِ عليهم إلا بالرجوع إلى الله، والاعتصام بحبله المتين، واتباع تعاليم الإسلام ومبادئه الرشيدة، التي كان التمسك بها عند المسلمين الأوائل، والعمل بموجبها سبباً في انتصارهم على أعدائهم، وامتدادَ فتوحاتهم في الشرق والغرب .

وهذه التعاليمُ واضحة جلية : " قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين " يوسف ١٠٧ .

فهي تدعوا إلى الإيمان الصادق بالله عز وجل، والاحتفاظ بالعقيدة الصحيحة، وإلى إعداد العُدَّة المادية والروحية الكافية لإرهاب الأعداء؛ كما تدعوا إلى الجهاد بالنفس والمال، والاتحاد والصبر والثبات في الميدان .

وإنَّه ممَّا يؤ لمُ النفوسَ ويُدمي القلوبَ أن يَبقى عدوُ المسلمين محتلاً لبلادِهم سنوات وسنوات، ويجول فيها ويصول، ويتجبَّر ويعلوا ويتيه؛ وفي كلِّ يومٍ يظهر علينا بشيءٍ جديد؛ اعتداءات هنا وهناك، وإجراءات تعسفية بالآمنين من السكان، وقوانين ظالمة يُطرد بموجبها أصحاب الحق من بلادهم، وتصادر أموالهم وأراضيهم وممتلكاتهم، وتآمر على المسجد الأقصى المبارك تارة بإحراقه، وأخرى بإجراء الحفريات تحته وبجانبه من أجل انهياره وسقوطه لإقامة هيكلهم المزعوم على أنقاضه بالإضافة إلى هدم العقارات الوقفية وإقامة العمارات السكنية لإسكان المهاجرين اليهود فيها لتغيير معالم بيت المقدس وتهويدها، وإزالة الصِّبغة العربية والإسلامية عنها؛ غير عابيء بالمسلمين، ولا مهتم بالعالم أجمع ! .

فاسترداد الأقصى المبارك، وتحرير الأراضي المحتلة لا يَتمُّ بالأقوال والاحتجاجات، ولا بالمسيرات والبرقيات، ولا بأي عُنصرٍ خارجٍ عن إطار الإرادة الإسلامية المخلصة وتعاليم الإسلام السَّامية التي لا ترضى لأصحابها سوى العزةِ والكرامة : " ولله العزةُ ولرسولِه وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " المنافقون ٨

فالاحتجاج والمسيرات لا تُعيدُ حقاً، ولا تُرجعُ وطناً، ولا تُنقذُ مسجداً، ولا تدفعُ شراً وكلُّ من يُحاول الوصول إلى أهدافه بمثل هذه الأمور إنما يحاول عبثاً فلغةُ الاحتجاجات أصبحت في هذا الوقتِ العصيبِ وقتِ الحديدِ والنارِ – عقيمةً عديمةَ الجدوى !، فلا يَفِلُّ الحديدَ إلاَّ الحديدُ، ولا يُقابلُ القوةَ إلاَّ القوةُ، وليس للضعيفِ مكانٌ في هذه الحياة ! .

وإنه لمن أوجب الواجبات على المسلمين أن يَهُبوا هبةَ رجلٍ واحدٍ، وينفروا خِفافاً وثِقَـالاً لنجـدةِ الأقصى من أيدي إخوان القردة والخنازير .
فلا يحقُّ لمسلمٍ أن يَغمضَ له جفنٌ، أو تنامَ له عينٌ والمسجد الأقصـى المبـارك في قبضـة الأعـداء وسيطرتهم .
والفرصة لا تزال سانحةً أمامنا فانتهزوها، فعلينا أن نملأ جوانبنا بالثقة بالله، وأن نُصمِّمَ العزم ونخلـص في العمل، وأن نأخذ بالأسباب المجدية الموصلة إلى حقوقنا، وأن نجعل من أسباب هزيمتنا عناصرَ قـوةٍ وشجاعةٍ، ومن أشلاءِ كارثتِنا مصدرَ بسالةٍ وإقدام.
وعلى المسلمين أن يعلموا : أنَّ هذه هي الأيامُ الخطيرةُ في تأريخهم؛ بل هذه هي الأوقاتُ الرهيبةُ التي تُمتحنُ فيها قوةُ إيمانِهم، وسلامةُ يقينهم، وصدقُ عزيمتِهم، وثباتُهم على الحق والدفاع عنه حتى يُشرقَ الحقُّ بنوره، ويزهقَ الباطلُ أمامه ( ) . قال تعالى : " ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ الله وعدَه ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون " الروم ٤-٦ .
وبعد هذا؛ فقد جمعنا لك أخي المسلم حلولاً لرفع راية الجهاد نحو تحرير بيت المقدس من أيدي يهود، وهي حلولٌ قابلةٌ للأخذ والعطاء؛ بل أكثرها يحكمه الواقع !. لذا لن يكون الكلام عن الجهاد اليـوم كلاماً ارتجالياً نظرياً تسعه الدفاتر، والخطب والمحاضرات كما بيَّنَّاه آنفاً كلاَّ؛ بل طرحاً فيه شيءٌ مـن الواقعية — إن شاء الله — ! .
فعند هذا؛ عذراً إليك أخي : إذا خانني اجتهادي، أو كذَّبتني آرائي؛ ولكن حسبي قول الله تعالى : " ... إنْ أُريدُ إلاَّ الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيب " هود ٨٨، وقوله : " فاتقوا الله ما استطعتم ..." التغابن ١٦، وقوله : " لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها " البقرة ٢٨٦ .
فطرحنا إذن للجهاد في أرض فلسطين، مجملٌ في طرائقَ، ومسالكٍ كثيرةٍ كما يلي :
ـــ صدقُ النِّية، وقوَّةُ العزيمة، وجلاءُ الرغبة في جهادنا لليهود في أرض فلسطين .
نعم؛ لا شك أن أكثرَ المسلمين صادقون في رغبتهم في جهاد يهود، وإخراجهم من أرض فلسـطين، ولا أبالغ يوم أقول : والله وبالله وتالله !؛ لو فُتح بابٌ إلى فلسطين لرأيت عجباً ما كان لك أن تَحلم به؛ فضلاً أن تراه أو تسمع به، وذلك يوم ترى المسلمين يركبُ بعضُهم بعضاً وهم يتدافعون علـى باب الجهاد كهولاً، وشباباً، وكباراً، وصغاراً؛ وكأني أتشنَّفُ صوتَ قائلهم : السكينةَ السكينةَ عبادَ الله !! فأرضُ فلسطين لا تسع لمليارِ من البشر !!.
إلاَّ أننا مع هذا التفاؤل الكبير ينبغي لنا ألاَّ ننسَ أمراً مهماً؛ أحسبه من الأهميَّة بمكان !، وإلاَّ ذهبـت آمالُنا، وحلولُنا هباءً منثوراً أدراج الرياح كما يُراد لها من قبلُ ومن بعدُ !! .
وذلك كامنٌ في معرفةِ حقيقةٍ خطيرةٍ، وهي : أن قضايا الأمة الإسلامية لن تتغير أبداً، كما أنها ستبقى أمداً؛ إذا ما علَّقنا آمالنا، وحلولَنا يوماً من الأيام بأيدي وسياسة أكثر حكام المسلمين !! .

إن هذه الحقيقةَ ينبغي أن تكون نصب أعيننا، وقضيةً مسلَّمةً عندنا ! .

كما يجبُ علينا أن نعلم حقائقَ مهمةً، وإن سألتني عن بعض هذه الحقائقِ ؟!، أقول لك : إن العـــالم الإسلامي لا ينسى قضيةَ أفغانستان مع الشيوعيين، يوم انتظر المسلمون من دولةٍ إسلاميةٍ أن ترفع راية الجهاد، وأن تتقدَّم بجيوشها وعتادها لتحرِّر بلاد المسلمين من قبضة الشيوعيين !! .

وعندما طال الانتظار، ويأس أهل أفغانستان عند ذلك انتفضت حفائظ المسلمين هناك، وثار طلبـــة العلم، وقام المصلحون في إنقاذ بلادهم من طغيان، ووحشية النظام الشيوعي الكافر ... نعم؛ قـــاموا قومت الليث الكاسر، والتفَّ المسلمون حول طلبة العلم ليقوموا بواجبهم نحـــو بلادهـــم؛ ضـــاربين بتنديدات واستنكارات أكثر حكام المسلمين عُرض الحائط !، فكان منهم أن طهَّروا بلادَهم، ورفعوا راية الإسلام خفَّاقةً ترفرف فوق جثثِ العابثين ببلادهم ! . الله أكبر .

كما لا ننس ما صنعه أبطال المسلمين وليوث المجاهدين في أرض البوسنة والهرسك يوم أعلن العـــالم الغربي الكافر وقف القتال، ووضع الهدنة، وطرح السلام !!. كلُّ هذا لمَّا علم طلبة العلم والمجاهـــدون أن التنديدات والاستنكارات لن تفعل شيئاً !. لذا هبُّوا وحداناً وزرافات ممتثلين قول الشاعر :

قَومٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى ناجذَيْهِ لهمْ طَارُوا إليه زَرَافاتٍ وَوُحْدَانا

لا يَسْأَلُونَ أخاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهمْ في النَّائِباتِ عَلى ما قَالَ بُرْهَانا( )

وهل ينسى أحدٌ من المسلمين ما فعله رجال وأسود الشيشان يوم انتظروا أن ترفع راية الجهاد من بلاد المسلمين، أو تأتي الجيوش العربية لتنقذ مسلمي الشيشان !!، فلمَّا كان ما كان قام المجاهدون يدافعون عن أرضهم وبلادهم ورفع الظلم عن إخوانهم ... فكان لهم ما سجله التأريخ لهم، وما عَلِمَه العـــالَمُ الغربي أجمع عنهم، بأن هنالك رجالاً لا كالرجال، ونفوساً لا كالنفوس، وأبطالاً لا كالأبطـــال !! .

إنهم مسلمون اشتروا الجنة بالحياة الدنيا !!، وباعوا أنفسهم من الله تعالى !! نعم : " ربحت البيعة ".

وليست أرتيريا عنا ببعيد يوم قام طلاب العلم بواجبهم نحو بلادهم ودينهم فرساناً وأبطالاً يجولـــون الصحاري، ويصعدون الجبال، ويخوضون البحار ... كلُّ هذا لعلمهم الصادق أن بلادهم لن تتخلص من أيدي النصارى والعلمانيين إلاَّ بدمائهم، وأرواحهم!، في حين أنهم قد ركلوا بأقدامهم ما يتشدق به غيرهم من أذناب الغرب !.

وهذه كشمير، فحدث عنها ولا حرج، يوم قامرت بقضيتها حكومةُ باكستان غير مرَّةٍ، وهذه الهنـــدُ لم تزل تقتل منهم كيف تشاء، وتعبثُ بأرواحهم كما تشاء، والعالم الإسلامي بعدُ يستنكرُ ويندِّدُ !!، وغيرها كثيرٌ من بلاد المسلمين لا سيما جنوب الفلبين، وأندونيسية ...الخ .

ومحصَّلةُ كلامي هذا : أن نعلم أن قضية فلسطين متوقِّفةٌ على أبنائها من المسلمين، كالمجاهـــدين مـــن العلماء، وطلبة العلم، والمصلحين الناصحين ... ! .

فلابد أن يقومَ أحدٌ من أبناء المسلمين هذه الأيام – خاصة – بحمل راية الجهاد، ويرفعها خفَّاقةً فوق رؤوس يهود في أرض فلسطين، أو غيرها من بلاد المسلمين . وعند ذلك سوف تلتفُّ جموع المسلمين بطريق أو آخر حوله، وسيبدأ عندئذٍ جهادُنا مع اليهود – إن شاء الله – .

كما أنَّني من هذا المكان أنادي كافة المسلمين قائلاً لهم :

" مَنَ َيأخُذُ السَّيفَ بحَقِّه " ؟!

لأجل هذا فإني أريد أن أُبرهن صدق تفاؤلنا اليوم مع يهود بموقف النبي صلى الله عليه وسلم مع يهود بني النظير !، لا سيما إذا علمنا أن قصَّة بني النظير في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم مماثلةٌ في أبعادها، وأحوالها، وملابساتها بيهود اليوم في فلسطين، فما أشبه الليلة بالبارحة !، فاليهودُ يهود ولو هملجت بهم حميرُ أمريكة، أو طبَّلت لهم دولُ الكفر قاطبة ! .

كما مرَّ معنا أن يهود بني النظير قد نكثوا العهد، ونقضوا الوعد يوم أرادوا إلقاء الحجر على رأس الرسول صلى الله عليه وسلم، فعند هذا قام رسول عليه الصلاة والسلام بمحاصرتهم بالكتائب، وقال : " إنكم لا تأمنون عندي إلاَّ بعهدٍ تُعاهِدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثمَّ غدا الغد على بني قُريظة بالخيل والكتائب – وترك بني النضير – ودعاهم إلى أن يُعاهِدوه، فعاهدوه فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل إلاَّ الحلقة – السلاح –، فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلَّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها( ) .

ويقول ابن هشام في " سيرته" :" ونزل في بني النظير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نِقمته . وما سلَّط عليهم به رسولَه صلى الله عليه وسلم، وما عَمِلَ به فيهم، فقال تعالى : " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرُجوا، وظنُّوا أنهم مانِعتُهم حُصُونُهم من الله، فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسبوا، وقذف في قلوبِهم الرُّعبَ يخرِّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين)، وذلك لهدمهم بيوتهم عن نُجُفِ أبوابهم إذا احتملوها . : " فاعتبروا يا أُولي الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء "، وكان لهم من الله نِقمة : " لعذَّبهم في الدنيا) أي بالسيف : " ولهم في الآخرة عذاب النار " مع ذلك ( ) .

فإذا تدبرنا سورة الحشر وما حصل في هذه الغزوة نستطيع أن نقف مع بعض العبر، والمواعظِ التي تدفعنا إلى الاطمئنان بنصرنا وجهادنا مع يهود اليوم في فلسطين، فمن ذلك :

١ـ أنَّ يهودَ بني النظير أخذتهم العزة بالإثم يوم تحصنوا في بيوتهم وقلاعهم ظناً منهم أنها ستحميهم . وهذا حاصل ليهود اليوم فيما بنوه وعمروه من جسورٍ، وحدودٍ !.

٢ـ أنَّ يهودَ بني النظير أيضاً أن ما عندهم من العتاد والعدة ما سيكفيهم في مقاومة المسلمين، يوم علموا أن عندهم من السلاح والكراع والحافر ما يفوق ما عند المسلمين آنذاك !.

وهذا حاصل ليهود اليوم فيما عندهم من أسلحةٍ نووية وطيران جوي متكامل وغير ذلك من الأسلحة المتطورة !.

٣ــ أنهم ازدادوا ثباتاً وقوةً يوم تحالف معهم بعض الأحلاف .

وهذا حاصل ليهود اليوم في تحالفها السَّافر مع أمريكة ودُول الغرب الكافر !.

أمَّا المسلمون آنذاك فحالهم مع بني النظير شبيهٌ بحالنا هذه الأيام بعض الشئ، وذلك في .

٤ــ أن المسلمين ظنوا أنهم لن يقدروا على إخراج بني النظير من حصونهم؛ لعلمهم أنها حصونٌ قويةٌ، وعندهم من الشجاعة والقتال ما يحملهم على الدفاع عن بلادهم ... وعندهم من أدوات الحرب الكثير ما لم يكن يخفى على المسلمين ! .

وهذا شبيهٌ بحالنا مع اليهود، مع علمنا أنهم يملكون من القوى العسكرية ما لا يخفى علينا ! .

أمَّا إذا سألت عن الفوارق بين حالنا وحال المسلمين آنذاك فهي كثيرةٌ لا تحدُّ؛ لكن بحسبنا منها : الصدق مع الله تعالى في قتال اليهود، وهذا الفارق وحده كافٍ في بيان البون الشاسع بيننا وبين من سبقونا من الصادقين !.

وهذا يوم صَدَقَ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ومن معه في قتال بني النظير، مع علمهم السابق أن بني النظير يملكون من العدة والعتاد الشئ الكثير كما أسلفنا؛ إلاَّ أنهم امتثلوا لأمر نبيهم، وصَدَقُوا مع الله تعالى، فكان حينئذٍ النَّصرُ حليفَهم، والعزَّةُ لهم . وذلك لَّما علم الله تعالى منهم الصدق وامتثالهم للأمر مباشرة – نصرهم الله تعالى حين أرسل جنوداً لم يروها، جنوداً ليسوا من البشر ولا من الملائكة؛ بل جنوداً من السماء حين أنزل عليهم الرعبَ والخوفَ في قلوبهم، فما كان منهم إلاَّ أن ألقوا السلاح، وجعلوا مع هذا يخربون بيوتهم بأيديهم؛ وأيُّ حسرةٍ بعد هذا من حسرةٍ يوم يقوم الواحد بنقض بيته الذي طالما بناه وشيده ؟!.

إنها الانتصارات الإلهية، يوم تعجز القوى البشرية، وتنقطع السبل الكونية، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله، قال تعالى : " يا أيها الذين أمنوا إنْ تَنصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامَكم " محمد ٧ .

فجديرٌ بنا أن نَصْدُقَ مع الله تعالى نياتِنا في قتالِ يهود فلسطين !، لأننا إذا صدقنا الله تعالى فسوف يتولَّى الله تعالى المسلمين حين يخذل يهود، ويقلب كيدهم عليهم، هذا إذا ما قاموا هم بتخريب ما عندهم من أسلحةٍ حربية !، وليس هذا على الله بعزيز، لكن هذا الأمر صائرٌ بأيدينا؛ عندما نَصْدُقُ مع الله تعالى .

الحَلُّ الثَّاني : إدخالُ السلاحِ لإخواننا المسلمين داخل فلسطين بطريقٍ أو آخر، وهذا الحلُّ ما أظنُّه من الصعوبة بمكان، هذا إذا علمنا أن الحدودَ كلَّها إسلامية، فخذ مثلاً من الغرب : البحر الأبيض المتوسط ومصر، ومن الشرق سورية والأردن، ومن الجنوب خليج العقبة، ومن الشمال لبنان، وأكثر هذه الحدود مكشوفة يستطيع الواحد المرور عبرها، لا سيما سيناء ! .

وقد تقول كيف هذا ؟. أقول لك : هل أهلُ تهريب المخدرات الــذين يســعون في الأرض فســاداً أحكم، وأعلم، وأوفق من المصلحين ؟! .

نعم؛ إذا صدقت العزيمة، فحينئذٍ تتحقق الأهداف سواء كانت خيراً أو شراً !.

الحَلُّ الثَّالثُ : تشجيع بعض الجماعات التي لها اهتمامٌ كبيرٌ في قضية فلسطين لا سيما جماعة "حماس" وغيرها، فهذه الجماعة لا شك أنها قد قضتْ مُعظمَ أفكارِها وطاقاتِها في تتبع قضية فلسطين، فكــان عليها حينئذٍ أن تنزل في الميدان بقوةٍ لا سيما أن المسلمين هذه الأيام تغلي مراجلُهم حنقاً على يهود( ).

الحَلُّ الرَّابعُ : تشجيع العمليات الجهادية في نفوس المسلمين الذين في فلسطين( ) مع مراعاة المصــالح والمفاسد، وذلك في تحقيق قاعدة " دَرْءُ المفاسدِ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المصالحِ " .

الحَلُّ الخامِسُ : القنوت، وهو الدعاء على يهود ومن هاودهم، والنصارى ومن ناصرهم، وذلك بــأن تتضافر جهود المسلمين، وتجتمع كلمتهم، وتتوحَّد دعوتهم على رفع أكفِّ الضراعة إلى الله تعــالى؛ بحيث يلهج بالدعاء قرابة (مليار) مسلم سواءٌ في مساجدهم جماعةً، أو في صلواتهم فُرادى .

الحَلُّ السَّادسُ : المقاطعة الاقتصادية للمنتجات اليهودية، والأمريكية، والبريطانيــة بجميــع أنواعهــا وأشكالها الصغير منها والكبير( ) .

وهذا الحلُّ أراه من أهم الحلول المهمة بعد الحل الأول دون منازع !؛ هذا إذا علمتَ أخي المســلم أن العالم الأوربي لا سيما أنَّ اليهود هم عبَّاد الدرهم والدينار !، لذا يعتبر الاقتصاد هو شــريان الحيــاة لديهم، فهم قد يقبلون التنازل في كلِّ شئ سواءٌ في دينهم، أو عِرضهم، أو أرواحهم، أو عقولهم ... أمَّا المال فلا يقبلون فيه تنازلاً بأيِّ حالٍ كان !!.

فعند هذا لا أبالغ إذا قلتُ : أن مقاطعة المسلمين للمنتجات اليهودية والأمريكية سيكون لــه الأثــر الكبير في كشف عورة يهود، وسقوط هيمنة أمريكة ! .

فكلُّ مسلمٍ مطالبٌ بنصرة إخوانه المسلمين، وبمجاهدة أعداء الدين لا سيما اليهود ومن عاونهم بقدر ما يملك من استطاعة .

وفي قصة ثمامة بن أُثال سيد بني حنيفة عبرة، يوم أخذ على نفسه ألاَّ يصل إلى كفار مكة حبة حنطــة حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم : " أنْ خَلِّ بَينَ قَــوْمِي وبينَ مِيرَتِهم "( ) البخاري ومسلم .

فشعارنا حينئذٍ نحن المسلمين هذه الأيام في حرب المقاطعة، قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم : " ويــلَ أُمِّــه مِسْعَرُ حَرْبٍ لو كَان لَه أحَدٌ "

وهذا ما فهمه أبو بصيرٍ ـــ رضي الله عنه ـــ، يوم قالها له النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن انفلت من المشركين لما أسلمه النبي صلى الله عليه وسلم لقاصدِ قريش، فأتى سيف البحر فانضم إليــه جماعــة،

فكانوا يُؤْذون قريشاً في تجارهم، فرغبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُؤويهم إليه ليستريحوا منهم، ففعل النبي صلى الله عليه وسلم( ) .

ونحن من خلال هذا نطالب كلَّ مسلمٍ أن يجاهد اليهود ومن عاونهم بقدر استطاعته لا سـيما بـــــ "بطنه"!، وذلك بمقاطعة منتجاهم .

ولا تنسَ أخي المسلم أن الله تعالى طلب من كلِّ مسلم أن يقاتل الكفار المحاربين بكلِّ ما يملك مـن عتاد وقوَّة . قال تعالى : " وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين مـن حرج، مِلَّه أبيكم إبراهيم ... " الآية الحج ٧٨ . وقال : " وقاتلوا المشركين كافَّة كمـا يُقـاتلُونكم كافَّة ... " التوبة ٣٦، وقال : "فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكـافرين ... " الآيـة البقـرة ١٩١، وقال : " ... فقاتلوا أئمةَ الكفرِ إنهم لا أيمانَ لهم لعلَّهم ينتهون " التوبة ١٢، وقال تعـالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرهِبون به عدُوَّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون " الأنفـال ٦٠، وقال تعالى : " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموهـا وتجارةٌ تَخْشَون كسادها ومساكن ترْضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسولِه، وجهادٍ في سبيله فتربَّصُـوا حتى يأتِيَ الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين " التوبة ٢٤ .

فالجهاد إذاً لا يسقُط عن المسلم القادر بما يستطيع، ومنه كان الجهادُ المطلوبُ منك أخي المسلم مـع اليهود اليوم مهماً جداً؛ كما لا تحسبه مقتصراً على القتال في ساحات المعركة؛ كلاَّ !؛ بل هو فـوق هذا، فمنه جهاد البنان، وجهاد اللسان، وجهاد المال، كما أنه اليوم جهاد المقاطعة ! .

شُبْهةٌ، ورَدُّها :

ولا تقلْ أخي المسلم بعد هذا ماذا يا ترى الذي أُقاطعه من المنتجات اليهودية والأمريكية، وأنا واحدٌ لا أَثَرَ لمقاطعتي في أشياء صغيرة كشراء قارورة " بيبسي" مثلاً، أو غيرها من الأشياء التي لا تفعـلُ في ميزان المقاطعة شيئاً ؟! .

أقول أخي المسلم أنت بهذا قد فعلت أمراً عظيماً، وجهاداً كبيراً وذلك حين تعلم ما يلي :

١ـــ أنك ساهمت في الجهاد الإسلامي ضد اليهود ومن عاونهم، وكسبتَ أجر الجهاد فلكأنـك قـد جاهدتَ، كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله ليُدخِلُ بالسهم الواحـدِ ثلاثـةً الجنَّـةَ : صانِعهُ، يحتسبُ في صنعتِه الخيرَ والرَّامي به، والمُمِدَّ به ..." أحمد، وابن ماجه ( ) .

وقال صلى الله عليه وسلم :" جاهدوا المشركين بأموالِكم، وأنفسِكم، وألْسِنتِكم"( ) .

فأنت أخي المسلم عليك نفسَك وخاصةَ أهلِك، لذا عليك الجهاد قدر استطاعتك كما قال تعالى : " يا أيها الذين أمنوا عليكم أنفسِكم لا يضُرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فيُنبِّئكم بما كنتم تعملون " المائدة ١٠٥. وقال تعالى : " يا أيها الذين أمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودهـا

الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون " التحريم ٧
.

كما لا تنسَ أن جهنم التي استعاذ منها الأولون والآخرون من الأنبياء والمرسلين وسائر المـؤمنين !، يستطيع الواحد من المسلمين أن يتَّقيها بالقليل !، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اتقوا النـارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فإن لم تجدوا فبكلمةٍ طيبةٍ " متفق عليه( ) . فهذا الحديث دليلٌ على أنَّ شِقَّ التمـرةِ الواحدةِ يمنع صاحبها النَّارَ !، فكيف إذَنْ من يتَّقيها بعشر تمرات قيمتها ذلكم " الريال " الذي يقاطع به قارورة "بيبسي" !.

٢ــ أخي إنك بريالك هذا تُعينُ أعداءَ الدِّين على قتل إخوانك من المسلمين !، كما يقول تعـال :" ... ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديدُ العقاب" المائدة ,٢

٣ــ لا تنظر أخي المسلم إلى ريالك بعين قاصرةٍ، وحكمٍ ضيقٍ؛ يوم تعلم أنَّ ريالَك سوف يَنْضَمُّ مع ريالِ غيرك من المسلمين وهكذا .

وعند حساباتنا التقريبية ستعلم أخي أنك مجاهدٌ كبيرٌ يوم شاركت المسـلمين بمقاطعتـك قـارورة "بيبسي"، فمثلاً لو قدَّرنا أن خمسمائة مليون مسلم من المليار؛ سوف يقاطعون قارورة "بيبسـي" !، فإذا حسبنا هذه الأموال خلال سنة سيكون العدد كبير جداً .

نوضحه بما يلي : (٥٠٠٠٠٠٠٠٠ × ٣٠ × ١٢ ١٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ريال، أي : مائة وثمانون مليار ريال !! .

أخي هذه مقاطعةٌ بريالٍ واحدٍ لقارورة "بيبسي" فقط، فكيف بك إذا اجتهدت في مقاطعة الكثير من منتجات اليهود ومن عاونهم لا سيما الأمريكية منها ؟! .

بَشَائِر : هناك بعض البشارات التي تُشير بأن المقاطعة الإسلامية للمنتجات اليهودية والأمريكيـة قـد أتت أُكلها ونجحت : فقد نشرت بعض الصحف : أن المقاطعة العربية ألحقت باليهود خسارة (٤٨) مليار منذ قامت المقاطعة ! .

كما نشرت جريدة " الحياة " (٢٨/شعبان/١٤٢١هـ) : أن خسائر شركات التكنولوجية اليهودية في الولايات المتحدة بلغت منذ بداية المقاطعة (٢٠) مليار دولار ! . كما أكدت بعض المصـادر أن بعض الشركات اليهودية والأمريكية قد انخفضت مبيعاتها في مصر إلى (٨٠%) !، – لله درُّك يـا مصر – .

وقبل هذا؛ أحببنا نذكر فتوى مهمةً في وجوب مقاطعة منتجات اليهود وأمريكة وغيرهم ممَّن لهم يـدٌ في مساندة اليهود :

وهي لفضيلة شيخنا العلامة عبد الله بن جبرين حفظه الله :

نصُّ السؤال : لا يخفى عليكم ما يتعرض له إخواننا الفلسطينيين في الأرض المقدسة من قتل واضطهاد من قبل العدو الصهيوني، ولا شك أن اليهود لم يمتلكوا ما امتلكوا من سلاح وعدة إلا بموازرة من الدول الكبرى وعلى رأسها إمريكا، والمسلم حينما يرى ما يتعرض له إخواننا لا يجد سبيلاً لنصرة إخوانه وخذلان أعدائهم إلا بالدعاء للمسلمين بالنصر والتمكين، وعلى الأعداء بالذلة والهزيمة، ويرى بعض الغيورين أنه ينبغي لنصرة المسلمين أن تقاطع منتجات إسرائيل وأمريكا، فهل يؤجر المسلم إذا قاطع تلك المنتجات بنية العداء للكافرين وإضعاف اقتصادهم ؟ وما هو توجيهكم حفظكم الله .

الجواب : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

يجب على المسلمين عموماً التعاون على البر والتقوى ومساعدة المسلمين في كل مكان بما يكفل لهم ظهورهم وتمكنهم في البلاد وإظهار شعائر الدين وعملهم بتعاليم الإسلام وتطبيقه للأحكام الدينية وإقامة الحدود والعمل بتعاليم الدين وبما يكون سبباً في نصرهم على القوم الكافرين من اليهود والنصارى، فيبذل جهده في جهاد أعداء الله بكل ما يستطيعه؛ فقد ورد في الحديث : " جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم " فيجب على المسلمين مساعدة المجاهدين بكل ما يستطيعونه من القدرة، وعليهم أيضاً أن يفعلوا كلَّ ما فيه إضعافٌ للكفار أعداء الدين، فلا يستعملوهم كعمال للأجرة كتَّاباً أو حُساباً أو مهندسين أو خُداماً بأي نوع من الخدمة التي فيها إقرار لهم وتمكين لهم بحيث يكتسحون أموال المؤمنين ويُعادون بها المسلمين، وهكذا أيضاً على المسلمين أن يُقاطعوا جميع الكفار بترك التعامل معهم وبترك شراء منتجاتهم سواء كانت نافعة كالسيارات والملابس وغيرها أو ضارة كالدخان بنيَّة العداء للكفار وإضعاف قوتهم وترك ترويج بضائعهم، ففي ذلك إضعاف لاقتصادهم مما يكون سبباً في ذُلهم وإهانتهم، والله أعلم . قاله وأملاه :

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

١٤٢١/٧/٢٧هـ

ويقول الشيخ حمد بن عتيق – رحمه الله – : " فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب ذلك وأكد إيجابه، وحرم موالاتهم وشدد فيها، حتى أنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبْيَنَ من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده " .

وما أجمل تلك العبارة التي سطرها أبو الوفاء بن عقيل – رحمه الله – قائلا : " إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، وإنما انظر إلى مواطئتهم أعداء الشريعة، عاش ابن الرَّاوندي والمعرِّي عليهم لعائن الله ينظمون وينثرون كفرا ... وعاشوا سنين، وعظمت قبورهم، واشتريت مصنفاتهم، وهذا يدل على برود الدين في القلب " .

فإذا تقرَّر ذلك أخي المسلم الكريم كان لنا أن نوقفك على بعض المنتجات اليهودية والأمريكية وغيرها من الدول التي تعين يهود !؛كي تستبنَ لك طريق المجرمين .

لا شكَّ أنَّ الشركات والمنتجات اليهودية والأمريكية كثيرةٌ جداً؛ لا يحصيها عادٌّ، ولا يسعُها كتابٌ؛ بل لا أبالغ لو قُلتُ أنَّ أحداً من الناس لو أراد أن يقيِّدَ كلَّ سلعةٍ يهودية، أو أمريكية لخرج بمجلَّدات ضخمة !، لأجل هذا وذاك؛ كان من المناسب أن نذكرَ ضابطاً يجمعُ لنا كــلَّ ســلعةٍ يهوديــة، أو أمريكية، اختصاراً للوقت، وحفظاً للبحث .

فأقول : إنَّ كلَّ سلعةٍ يهوديةٍ، أو أمريكيةٍ يجب مقاطعتها ، ويدلُّك على هذا ما يلي :

١ـــ إذا كان مكتوبٌ عليها : " صُنعُ أمريكة "، أو : USA .

٢ـــ إذا كانت هذه السلعة مبدوءةٌ بمجموعة أرقام تأتي تحت شكل أعمدة، الرقمُ الأول منها يرمزُ إلى الدولة، فرقم أمريكة هو (٠)، ورقم بريطانية هو ( )، ورقم فرنسا هو (٣)، وهكذا .

ـــ قد يرد سؤال بأنه إذا لم أجد بديل للمنتج الأمريكي فما الحلُّ ؟.

الجواب : عليك حينئذٍ استخدامه في أضيق الحدود، مع السعي الدؤوب لإيجاد البــديل، والتجربــة اليابانية خير شاهد للعيان في هذا المجال، كما لنا أن نعْتَبِرَ أيضاً أنَّ المُنتجَ الذي نودُّ مقاطعته مُنتجاً قد انتهت صلاحيته؛ وَلْيَكُن ! .

الحَلُّ السَّابعُ : التبرعات المالية، وهذا لا شك أنه من الحلول المهمة؛ كيــف لا؛ والله تعــالى أمرنــا بالإنفاق في سبيله في غير آية؛ بل قدَّمه تعالى على النفسِ في سبعِ مواضعَ من القرآن، وفي هذا دليــلٌ على أهمية الإنفاق بالمال في سبيل الله تعالى .

فإذا كان الإنفاقُ في سبيل الله تعالى بهذه الدرجةِ الكبيرة من الأهمية؛ إلاَّ أنَّه أصبح هــذه الأيــام – للأسف – من الأمورِ التي تحتاجُ إلى تأملٍ، وتريُّثٍ !؛ كلُّ هذا إذا علمنا أن كثيراً من الذين يُنــادون بجمع التبرعات جهاتٌ مشبوهةٌ ليسوا محلاً للأمانة، ولا أهلاً لهذا !، فكان الواجبُ علينا أن نَتمهَّل في هذه المسألة رويداً .

لذا؛ أرى من الواجب على المسلمين أن يجتهدوا في البحث عن الأيدي الأمينة التي تأخــذ أمــوالهم، والجهاتِ المرضيةِ التي تجمع تبرعاتِهم؛ لأنَّ كثراً من هذه الجهاتِ تعتبرُ مؤسَّساتٌ سياسيةٌ انتهازيــةٌ !؛ تَعرِفُ كيف تحرِّك مشاعرَ المسلمين في الأوقات العصيبة، وكيف تثيرُ جُودَهم وكــرمَهم؛ حــتى إذا حازت على تلكم الأموال قامت بوضعها في مصالحها السياسية !! .

الحَلُّ الثَّامنُ : وهذا الحلُّ يُعتبرُ الميزانُ الذي نَزِنُ به جميعَ الحلول التي مضت آنفا؛ لأن أغلبَ الحلــولِ المذكورةِ لا يستطيع النَّفرُ القليلُ منَّا أن يقوموا بها، فكان لا بدَّ إذاً من مرجعيةٍ ذاتِ ثقةٍ نستطيع مــن خلالها أن ننطلقَ في توظيفِ هذه الحلول على أرض الواقع .

لذا؛ كان من الواجب على المسلمين هذه الأيام أن يقفوا قليلاً مع أنفسهم، وأن يُراجعوا حســاباتِهم يوم زادت بينهم الشُّقَّة، وكَثُر الخلاف فيهم، وذهبت ريحُهم؛ حتى لم يَعُدْ لهم بين أعدائهم هيبةٌ، ولا

قوَّةٌ !، فمن هنا كان يجبُ علينا جميعاً أن تجتمع كلمتُنا، وأن تتوحَّد صفوفُنا، وأن يكن لنا مرجعيـــةٌ علميةٌ أمينةٌ .

في حين أننا لا نشكُّ طرفة عين؛ أنَّ جهوداً كبيرةً، وأموالاً كثيرةً قد بُذِلت وقُدِّمت على أرض الواقع من أبناء المسلمين؛ إلاَّ أنها لم تُؤتِ أُكُلُها كما ينبغي لها !؛ كلُّ هذا لَّما غابت بيننا المرجعيـــةُ العلميـــةُ الأمينةُ !، هذا إذا علمنا أنَّ الواقعَ هذه الأيام يحتاج إلى ترتيبٍ، وتنظيرٍ، وتنظيمٍ للجهود والأفكـــار؛ حتى نكون بعدئذٍ قوةً رهيبةً نستطيع أن نقابلَ بها أعداءَنا الذين ما بلغوا منَّا هذا الشَّر والعداء إلاَّ يوم آمَنُوا بأهميَّةِ تنظيم الجهود، وتنصيبِ مرجعيةٍ لها هيبتُها بينهم ! .

فكان علينا بعد هذا أن نَلْتفَّ حول علمائنا؛ لا سيما الذين رُزقوا علماً في الشريعةِ، وفَهماً للواقع ممَّن شهد الواقع بصدقهم، وبلائهم في الدِّين، وأن لا نقطع أمراً دونهـــم؛ لا لشـــئ !؛ ولكـــن توحيـــداً للجهود، وتنظيماً للأدوار .

الحَلُّ التَّاسِعُ : وهو من أوسعها؛ بل إخالك تحسبه من تتمَّةِ الرسالةِ، وواجبها على قارئهـــا، وذلـــك بفتح الباب على مِصْراعَيْه لكلِّ مسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجتهدَ في طـــرحِ ووضـــعِ الحلـــولِ الإسلامية التي يراها مناسبةً للخروج بالأمة الإسلامية عامةً، وفلسطين خاصةً من هـــذه الأزمـــات، والنكبات، والضعف، والهوان، والجهل؛ كلُّ هذا إبراءً للذِّمةِ ومعذرةً إلى الله تعالى .

لأجل هذا كان من الواجب على من قرأ هذه الرسالة أن يُراعي ما يلي :

ـــ أن يسعى حثيثاً في البحث عن الحلول الشرعية المناسبة الـــتي يراهـــا تخـــدم الأمـــة الإســـلامية، والانصراف عن تلكم الاستنكارات السياسية، والتحليلات الإخبارية الُمغْرِقَة .

ـــ وبعد بحثه عن الحلول الشرعية التي يراها مُنَاسبةَ؛ يجب عليه بعدئذٍ أن يعرضها على أهـــلِ العلـــمِ لإبداء رأيهم فيها؛ حتى لا نَقَعَ في خطأٍ شرعي من حيثُ لا ندري؛ فعندها — لا سمح الله – ستحتاجُ حلولُنا إلى حلولٍ وهكذا ! .

ـــ أن يُبلِّغ ما يراهُ حقاً من هذه الرسالة إلى من يراه من المسلمين؛ وأخص منهم العلماء، وطلبة العلم .

والحمدُ لله رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على عبدِه ورسولِه الأمين

الشيخ / ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

أسباب ضعف الأمة الإسلامية اليوم

يراد بالضعف هنا ضعف الإيمان وضعف التمسك بالدين والاقتناع من غالب المسلمين بمجرد الانتماء إلى الإسلام دون التحقيق بتعاليمه ولا شك أن لذلك أسباباً عديدية أشدها كثرة الدعاة إلى الفســـاد والمنكرات والمعاصي بالقول والفعل من أناس ثقلت عليهم الطاعات ومالت نفوسهم إلى الشـــهوات

المحرمة كالزنا وشرب الخمر وسماع الأغاني ونحو ذلك فقاموا بالدعوة إلى الاختلاط وزينـوا للمـرأة التبرج والسفور وجعلوا ذلك من حقها ودعوا إلى إعطائها الحرية والتصرف في نفسها فجعلوا لها أن تمكن من نفسها برضاها ولو غضب أبوها أو زوجها فلا حد عليها ولا على من زنا بها برضاها وعند الانهماك في هذه الشهوات ثقلت عليهم الصلوات وتخلفوا عن الجمع والجماعات ومنعوا الواجبـات وتعاطوا المسكرات والمخدرات مما كان سبباً لضعف الإيمان في قلوبهم وهكذا من أسباب ضعف الأمة الإسلامية كثرة الفتن والمغريات حيث توفرت أفلام الجنس وأصوات المغنين والفنـانين والفنانـات وصور النساء العاريات أو شبه العراة ولك ذلك سبب الانهماك في هذه المحرمات فضعف الإيمـان في القلوب وهكذا من أسباب ضعف الأمة الإسلامية انفتاح الدنيا على أغلب الناس وانشـغالهم بجمـع الحطام الفاني والإعراض عن العلم والعمل والسعي وراء جمع المال وتنمية التجارات والمكاسب فكان سبباً لنسيان حق الله تعالى وتقديم الشهوات وما تتمناه النفس مع توفر الأسباب والتمكن من الحصول عليها، ومن الأسباب أيضاً ضعف الدعاة إلى الإسلام الحقيقي وقلة ما معهم مـن العلـم الصـحيح ورضاهم بأقل عمل مع مشاهدة كثرة الفساد وتمكن المعاصي وكثرة من يتعاطى على مرأى ومسـمع من الجماهير ولا شك أن الأمة متى ضعف فيها جانب الإيمان والعمل الصـالح وفسـدت فطرهـا وانهمكت في الملاهي والشهوات وأعرضت عن الآخرة فإنها تضعف حسياً ويقوى الأعداء من كـل جانب ويسيطرون على ما يليهم من بلاد المسلمين ولا يكون مع المسلمين قوة حسـية ولا معنويـة تقاوم قوة الأمم الكافرة وذلك

ما حصل في كثير من البلاد الإسلامية التي تسلط عليهم الأعداء يسومونهم سوء العـذاب وتسـلط عليهم ولاة السوء وأذلوهم وقهروهم حتى يرجعوا عن دينهم والله المستعان.

الشيخ عبدالله بن جبرين

وما النصر إلا من عند الله

الدكتور عصام بن هاشم الجفري

الحمد لله وعد بنصر أوليائه وبدحر وهزيمة أعدائه ، أحمده سبحانه وأشكره علـى فضـله وجـوده وعطائه،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في صفاته ولا في أسمائه وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله خصه الله من بين خلقه باصطفائه صلى الله عليه وعلى آله وصـحبه وسـلم تسليماً كثيراً.أما بعد:فأوصيكم معاشر المؤمنين ونفسي أولاً بتقوى الله فهي مفتاح النصر والـتمكين والمدد الرباني يقول تعالى:{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَـةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}([١]) .

أمة العزة والإباء رمضان شهر انتصارات المسلمين في معاركهم الحاسمة وذلك على مــدار التــاريخ فغزوة بدر كانت في رمضان وفتح مكة كان في رمضان،وعين جالوت كانت في رمضان وغيرها من المعارك الحاسمة ونحن في هذا الشهر وفي ذكرى تلك المعارك الفاصلة العظيمة أو أن أقف بكــم مــع السبب الأساسي للنصر وليس أي نصر إنه نصر أمة الإسلام ، أيها الأحبــة في الله إن معــارك أمــة الإسلام مع أعدائها تعتمد على جانبين جانب حسي وهو عدد الجنود وكثــرة الآليــات وحســن التخطيط لإدارة المعركة وهو جانب أعطاه الإسلام أهميته فأمر العظيم سبحانه أمة الإسلام أن تعــد مثل هذا العتاد الحسي ولكنه سبحانه لم يطالبنا بأن نكون مثل الأعداء في القوة والعدد والعتاد حــتى ندخل المعركة معهم وإنما أمرنا بان نبذل جهدنا في ذلك وما نستطيع فقال سبحانه:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}(٢).

فلماذا يكون الإعداد على قدر الطاقة؟وإن كانت طاقتنا لا تمثل شيئاً أمام القوة الرهيبة التي يمتلكهــا الأعداء فما العمل؟الإجابة إن النصر لا يكون بالعوامل المادية فقط إلا إذا تساوى الطرفان فإذا تقابل كافر مع كافر ففي هذه الحالة تكن الغلبة للأكثر عدة وعتاداً و الأدق تنظيماً أما إذا تقابل المؤمن مع الكافر فإن الميزان يختلف،ولو كان لكثرة العدد والعتاد دور رئيس في النصر لانتصر المسلمون في يوم حنين حينما بلغوا من الكثرة حتى قال بعضهم لن نغلب اليوم من قلة فماذا حدث؟استمعوا إلى ربكم يقص عليكم الخبر في آيات خلدها ليوم القيامة لتكون عبرة للمتعلقين بكثرة العدة والعتاد حيث قــال سبحانه:{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَــيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}(٣).ولو كان للعدد والعتاد دور في النصــر في معركة المؤمنين مع الكافرين لأباد جيش جالوت طالوت ومن معه ولو كان للعــدد والعتــاد دور في النصر في المعركة لأباد جيش قريش المسلمين في بدر فقد كان يفوقهم ثلاثة أضعاف العــدد وقرابــة عشرة أضعاف في العتاد،لو كان للعدد والعتاد دور في نصر المؤمنين على الكافرين لما قال الله:{كَــمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}(٥)ولما حدث للمسلمين ما حدث في أحد لم يرجع الله ذلك إلى قلة عددهم أو ضعف خططهم وإنما أعاد ما أصابهم إلى المعصية وحب الــدنيا واستمعوا للعليم الخبيريخبرنا عن ذلك بقوله:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّــى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ
ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}(٤).هل يكون النصــر إذاً من الملائكة التي تقاتل إلى جوار المؤمنين؟ ففي بدر نزل يقاتل إلى جوار المؤمنين جيش من الملائكــة بقيادة جبريل فهل هم الذين حققوا النصر؟ استمعوا إلى القوي القدير ينبئنا عن ذلك بقوله :{ بَلَى إِنْ

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ()وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}(٦). نعم هذه هي القاعدة التي يجب على المؤمنين أن يدركوها وما النصر إلا من عند الله فلا العدد ولا العدة ولا حسن التخطيط والتنظيم تغني وتنصر إن لم ينصر الله،عرف تلك الحقيقة نبينا صلوات ربي وسلامه عليه فقام ليلة بدر يتضرع إلى من بيده النصر حتى سقط رداءه عن منكبه وأشفق عليه صاحبه فترل النصر،وعرف تلك الحقيقة الملك المظفر قطز فأخذ يمرغ وجهه في التراب ذلاً لمن بيده النصر فأنزل الله عليه النصر وهزم التتار،لكن متى يترل النصر ذكر الله لنا ذلك بقوله:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(٧).نعم تنتصر أمة الإسلام يوم أن تطبق شريعة الله في حياتها وتطهر نفسها من منكرات فشت فيها عرف ذلك المعنى أقوام قاتلوا مع أنبيائهم فكان دعاءهم عند لقاء أعدائهم أن يغفر الله لهم ذنوبهم أخبرنا بذلك اللطيف الخبير حيث قال:{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ()وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}(٨).هذا المعنى فقهه الفاروق عمرy فقال ناصحاً لأحد قواده إياكم والذنوب فإنكم إن عصيتم الله كنتم أنتم وهم سواء وهم أكثر منكم عدداً وعده فيهزموكم،الله سبحانه أوصانا إذا لقينا العدو أن نثبت مهما كان عددنا وعتادنا وأن نتصل به سبحانه من خلال كثرة ذكره فقال سبحانه:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(٩).هذه الحقيقة وهذا البعد الإيماني في معركة أمة الإسلام الذي بهت في نفوس بعض المسلمين ونسيه البعض الآخر أدركه أعداؤنا وهم يحاولون أن يطمسوه في قلوب عباد الله المؤمنين من خلال استعراضهم لقنابلهم النووية وأساطيلهم البحرية وسفنهم الفضائية،وكم من المسلمين بُهروا بتلك القوة والأسلحة وظنوا بأن أعداءهم قوة لا تقهر وأنه لا غالب لهم مثل هذا الشعور سيطر على بني إسرائيل يوم أن دعاهم موسى لإخراج أعداء الله من الأرض المقدسة فقالوا :{قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}ولكن من نور الله قلوبهم بالإيمان وعرفوا أن النصر من عند الله كان لهم رأي آخر وموقف آخر:{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}(١٠).مثل هذا الشعور سيطر على جمع من جيش طالوت{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}ولكن الفئة التي عرفت أن النصر من عند الله كان جوابها:{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}فعلى الأمة إن أرادت النصر والنجاة من ذلها وتمزقها وهوانها أن تراجع دينها وأن تقلع عن ذنوبها وأن تعرف أن النصر لا يكون

إلا من عند ربها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:{إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ}(١١).

الخطبة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .أما بعد:فاتقوا الله عباد الله وأقبلوا على ربكم واغتموا عشر شهركم فقد كان نبينا ونبيك صلوات ربي وسلامه عليه يخص هذه العشر بمزيد من الطاعات والقربات لرب الأرض والسموات كان صلوات ربي وسلامه عليه يعتزل أهله ويتفرغ للعبادة في المسجد أخبرت بذلك أمنا أم المؤمنين عَائِشَةَ yحيث قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ eإِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ(١٢)،أتدرون لما كان يفعل ذلك كان يتحرى ليلة القدر التي قال الله عنها في محكم التتريل:{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}فما أعظمها من غنيمة باردة غفل عنها المحرومون عبادة ليلة واحدة خير من عبادة ما يزيد على ثلاث وثمانين عاماً ، هذه الليلة قال فيها خير البرية صلوات ربي وسلامه عليه: ((مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))(١٣).فما أحوجنا لأن يغفر لنا الكريم ذنباً واحداً وهاهو سبحانه بكرمه وإحسانه يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا بقيام ليلة واحدة،وقد أخفى الله عنا وقتها ليختبر جدية من تحراها فهي في ليالي العشر الأواخر من رمضان فمن قام جميع العشر يكون قد قام ليلة القدر ولا يشترط لنيل ثواها معرفة أي ليلة هي،وهي في الأوتار من العشر الأواخر أكد وأكد ما تكون في ليلة سبع وعشرين،وأهل العلم جمعوا بين الأحاديث الواردة فيها بأها متنقلة في ليالي العشر الأواخر من رمضان فاحرصوا رحمني الله وإياكم على تحريها وحثوا أولادكم ونساءكم على تحريها وبينوا لهم فضلها وما فيها وليحاول كل منا أن يطهر بيته من المنكرات ابتداء من هذه العشر وأن يقبل بقلبه على الله عل الله أن يرحمه ويصلح حاله،واعلموا أن مما سن لكم في هذه العشر الاعتكاف في المساجد والتفرغ للطاعة،ومع الأسف هناك من يتفرغ في هذه العشر من الرجال والنساء للأسواق ونحوها.

([١]) آل عمران:١٢٥.(٢)الأنفال:٦٠.(٣)التوبة:٢٥.(٤)آل عمران:١٥٢.(٥)البقرة:٢٤٥.(٦)آل عمران:١٢٦،١٢٥.(٧)محمد:٧.(٨)آل عمران:١٤٧،١٤٦.(٩)الأنفال:٤٥.(١٠)المائدة:٢٣،٢٢. (١١)آل عمران:١٦٠.(١٢)البخاري،كتاب صلاة التراويح،ح١٨٨٤.(١٣)البخاري،كتاب الصوم،ح١٧٦٨.

الهزيمة النفسية

د. نهى قاطرجي

ضعفاء هم ، نعم ، عاجزون هم ، نعم ، مهزومون هم ، نعم ، كل كلمة من كلمات الإحساس بالخزي والضعف والمهانة تنطبق على بعض مسلمي اليوم العاجزين عن إيجاد أي انتماء لهم سواء من الناحية الدينية أو الثقافية أو الاجتماعية .

إن الضبابية التي تسيطر على الرؤية عند هؤلاء تجعلهم عاجزين عن إيجاد هوية ينتمون لها ، فالإسلام الذي يحملون هويته في أوراقهم الثبوتية لا يجدون فيه ضالتهم وأمنهم لأنهم لاعتبارات تربوية جهلوا أحكامه وتعاليمه ، وثقافتهم ولغتهم التي رفع من شأنها القرآن الكريم لم تعد تفي بغرضهم لأنهم لا يستخدمونها في معاملاتهم اليومية ، أما هويتهم الاجتماعية فهي بدورها مبددة مع تبدد العادات والتقاليد ومع تفتت الأسرة وضياع كل من المرأة والرجل .

مسكين هذا المسلم الذي يعجز عن إيجاد هويته ، وهو الذي كان اعتقد قبل الآن أنه وجدها عندما ناصر من ظن فيه التجدد وقول الحق ونصرة المظلوم والدفاع عن الحريات فإذا هو أول ضحاياه ...

كل هذا الظلم يراه فاقد الهوية ولا يقتنع بحقيقة ما يرى ، فيلقي اللوم على المسلم الآخر الذي شوه صورته وجعل صديقه يغضب عليه ، لذا يقف في صف ذلك الصديق ضد أخيه المسلم عاكساً بذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " ليصبح " أنصر عدوك ظالماً أو مظلوماً ، وكل هذا يقع تحت ستار حجج واهية منها :

١- الادعاء بحماية هذا الأخ من بطش عدو يملك القوة والعتاد بينما لا يملك هو إلا الإيمان الذي يمكن أن يلهب الحماس ولكنه قد يعجز عن مواجهة الأساطيل البرية والبحرية والجوية ، مع أن مثل هذا الشخص لو عاد إلى التاريخ لوجد أن الجيش الذي يحارب بمعنويات عالية وثقة بالنصر قادر " على أن ينتزع النصر من جيش يبلغ أضعاف حجمه في العدد والسلاح " ، وصدق الله تعالى بقوله : "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " .

٢- الادعاء أن هذا الأخ عاجز عن إدراك كنه الإسلام وحقيقته ، واقف عند حدود الحروف والنصوص التي تبدلت أحكامها بتبدل الأزمان ، فلم تعد كلمات التعبئة التي كانت تستخدم سابقاً تفيد اليوم . من هنا لو ردد الأفغاني أو العراقي ألف مرة في اليوم " وإسلاماه " فلن يجيبه أحد لأن معتصم الأمس لم يعد موجوداً اليوم، فلقد استُبدل بالمصالح الاستراتيجية والأمنية والحدودية وغير ذلك من التعريفات التي تجعل حدود الأمن لا تتجاوز البلد الواحد .

وكل هذا لا يمنع المسلم ، في بعض البلدان ، من التعبير عن تضامنه مع أخيه والتعبير عن سخطه من ظلم الآخرين وبطشهم ، ولكن كل هذا بشرط عدم تجاوز الأمر الكلام والهتافات ، أما الأفعال والمشاغبات ، بمفهوم المنهزمين ، فممنوعة بطرق عدة ، إما بإقفال الحدود أمام المجاهدين وإما عن

طريق الاستخفاف بمفهوم الجهاد الذي تحاول بعض وسائل الإعلام تشبيه الداعين إليه بالأطفال الذين لا يملون من لعبة " بيت بيوت " ، تلك اللعبة التي تُشعر اللاعب بها بأنه بطل حقيقي فيتحمس ويصرخ ويندد، ولكنه بعد انتهاء الوقت المحدد للعبته يعود إلى واقعه وبيته وكأن شيئاً لم يكن .

أما المسكين الآخر فهو أيضاً ذلك المسلم الذي يعود إلى نفسه في لحظة من لحظات صفاء فطرته فيبحث في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة عن دلائل النصر التي وعد بها الله عز وجل ، ويستغرب سبب تأخر هذا النصر مع وجود كل هذا الظلم والمعاناة التي تحيط بالمسلمين اليوم .

إن هذا المسكين قد نسي أو جهل أو أغفل أسباب النصر التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتي ربطها الله عز وجل بالعمل الجاد وإخلاص النية وبذل النفس والمال وما إلى ذلك من الأعمال التي لا يمكن أن يتم من دونها نصر أو مدد ولو استغرق الظلم قروناً عدة .

لقد أدرك السلف الصالح أسباب النصر ودواعيه وعملوا منذ اللحظة الأولى التي أعلنوا فيها إسلامهم على التقيد بأسبابه ، ومع ذلك ابتلاهم الله عز وجل في بعض الأحيان بتأخير لحظة النصر حتى يمتحن صبرهم ويقينهم بالله عز وجل حتى إذا استيئسوا جاءهم النصر ، وكلنا يذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم " يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ؟ قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنيَّة في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيّعني " .

وإذا كان الصحابة رضوان الله عليهم مع ما هم عليه من مرتبة رفيعة ، قد ابتُلوا بتأخير النصر فكيف بالمسلم اليوم الذي قد يصل به الجهل بدينه وأحكامه أن لا يرى في القرآن الكريم إلا آيات تتلى في مناسبات الموت والعزاء ، وأن لا يرى في أحكام القرآن وحدوده إلا تخلفاً وتقهقراً كان لهما اليد الطولى ، بزعمه ، فيما وصل إليه المسلمون من انهزام وذل .

وكذبوا والله ، فلا عز إلا بالإسلام ولا ذل إلا بالنفاق والرياء اللذان باتا من الشعارات التي يرفعها بعض المسلمين اليوم بدون حياء أو خجل ، مدعين خدمة الإسلام وتنقيته من الشوائب التي يحاول بثها بعض أبنائه الرجعيون ، بينما هم في الحقيقة يدعون إلى نسيان القرآن وهجره وترك أحكامه وإبطال حدوده .

ويستغربون ... ويستغربون ... لماذا يبطئ نصر الله عز وجل الذي وعد عباده به ؟

إن أسباب حجب الله سبحانه وتعالى النصر عن المسلمين اليوم متعددة وإن كانت لا تخرج عن مستويات ثلاث:

المستوى الأول تشريعي مرجعه الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى فيما أمر به ، والالتفاف حول حكم الدساتير والقوانين التي سنها اليهود وأتباعهم بطريقة تخدم مصالحهم وأهواءهم .

المستوى الثاني جماعي مرجعه التباغض والتحاسد والتنافر بين المسلمين مما مكّن الأعداء من اختـــراق صفوفهم والكيد لهم بأيدي إخوانهم الذين زينوا لهم الباطل وألبسوه ثوب الحق .

أما المستوى الأخير فهو فردي مرجعه تغلب حب الدنيا وحب الجاه على نفوس بعض المسلمين ممـــا جعلهم يحوّرون مفهوم الجهاد والنصر بما يتناسب مع أهوائهم الشخصية والفردية .

وختاماً نقول ... مهزومون نحن ... نعم ... ولكن هزيمتنا ليست خارجية، بل إنها هزيمة داخلية ، وما لم نعد إلى أنفسنا ونصحح ما في ذواتنا ... فلن يأتي النصر... لأن النصر لم ولن يكون بـــالقوة والعتاد ... وإنما هو بالعزم والجهاد .

أسباب الهزيمة وعوامل النصر: الطاعة والمعصية

المعصية من غير ستار يسترها عارية مفضوحة، نتنة الرائحة، خبيثة المنظر ينفر منها كـــل أحـــد ولا يستسيغها أحد، لكنها حين تحف بالشبهة وتأتي إليك وهي تنطق كلمات الله فإنها تتزين للنـــاظرين، وهذا هو مكمن قوتها وسر قبولها ولذلك صدق من قال: كم يخيفني الشيطان حين يأتيني ذاكرا اسم الله.

العلم الصحيح القائم على الحق المطلق (الكتاب والسنة)، وترك التقليد، ونبذ التعصب، ومتابعة السنة، والاهتداء بمن ماتوا على خير، وترك التعلق بالغرائب والشذوذات، كل هذه محصنات للمسلم من أن تمرر عليه ألاعيب أهل الباطل من السدنة الكاذبين، وعلماء اللسان والسلطان، وخطباء الفتنة.

قال تعالى: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كســبوا ولقــد عفى الله عنهم إن الله غفور رحيم}(آل عمران).

هذه الآية من سورة آل عمران في عرضها لذكر المصاب الجلل في غزوة أحد، وهذه الآية جامعة لكل معوقات النصر وموانع وقوعه: وإنما هي الذنوب.

{إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا} وبعيدا عما قاله أهل التفسير رحمهم الله تعالى حيث أكثروا فيها القول فإنما أقوالهم تعود إلى أمر واحد، وهو أن الشيطان لا يكون له على المسلم سبيل في تحقيق مراده منه حتى يعطي المسلم الحجة لها.

{استزلهم الشيطان}: أي أوقعهم في الزلل، والزلل هنا الهزيمة وعدم الثبات في المعركة، أي هو تعطيل النصر وعدم تحقيقه.

{ببعض ما كسبوا}: لقد كان للشيطان عليهم سبيل بأن حقق فيهم الهزيمة بسبب أعمالهم وذنوبهم.
فهكذا هي سنة الله الجارية في المسلمين، وهي سنة لا تتخلف ولا تتعطل وهي أن الهزائم لا تقـــع إلا بسبب أعمال يصيبها المسلم فتبعد عنه النصر وتقرب إليه الهزيمة.

وهنا لا بد من أمر نذكره وهو أن هذه المعاصي (أسباب الهزيمة) لا بد أن يكون لها من ارتباط سنني مع الهزيمة. أي أنها ليست مطلق المعاصي والذنوب لكنها المعاصي التي لها علاقة الحرب والقتال مثل: ترك التدريب، والإعراض عن الجماعة، وعصيان الأمير، وترك الأخذ بالسنة القدرية كعدم تعيين صاحب الأمر المفيد في بابه، وهذا لا يعني التقليل من شأن الذنوب الأخرى لكن تأثيرها على نتيجة المعركة تأثير غير مباشر بخلاف الذنوب التي لها علاقة مباشرة بعملية الجهاد والقتال، ولذلك من إبعاد النجعة حين نبحث عن أسباب الهزيمة في معركة من المعارك وموقع من المواقع أن نذهب فنعدد معصية عدم صلة الرحم، أو معصية أكل مال اليتيم كأسباب لحصول الهزيمة ونترك الأسباب المباشرة لحصول الهزيمة، فلا بد أن ننتبه إلى العلاقة القدرية بين السبب والمسبب، بين العمل والنتيجة، بين الذنب والهزيمة.

قال تعالى: {إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين} (القصص).

في هذه الآية من سورة القصص يبين الله سبحانه وتعالى أسلوب الطاغوت في فرض ألوهيته على الخلق، وكيف حصل له العلو والإفساد، والعلو في القرآن مقارن للفساد: قال تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا} (الإسراء).

قال تعالى: { علا في الأرض وجعل أهلها شيعا) فأول أمر فعله لاستتباب حكمه وإفساده هو تفريق الناس فجعلهم شيعا.

واللفظ القرآني (جعل أهلها شيعا) فيه من الدلالات العميقة والتي تحتاج إلى كشف وبيان: فقول الله تعالى: (شيعا) دل على أن فرعون لم يستخدم كثيرا من القهر في تحزيبهم وتشتيتهم وتفرقهم، بل استخدم شيئا من المكر والدهاء في إثارة عوامل التفرق الكامنة في نفوسهم، فالتشيع هو التناصر على شيء، فشيعة الرجل أتباعه وأنصاره، هذا التشيع حصل بإثارة كوامن ذاتية في النفوس، فيها القبول الذاتي بحصول التشيع أي الأتباع والأنصار، فصارت كل فرقة تتبع وتناصر شيئا فيه الدافع الذاتي من المحسن الخارجي، وإلا فلو كان فقط القهر الخارجي هو الذي صنع الفرقة لما جاء لفظ (شيعا) ولجاء لفظ غيره. ولكنهم صاروا شيعا بعامل ذاتي فيه القبول الذاتي والرضوخ النفسي لهذا المحرض الخارجي وهو فساد فرعون.

وقد ذكر الله تعالى عقب هذا قوله: { يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم} وهنا لم يذكر الله تعالى شأن الذين اتخذهم فرعون ليمارسوا القهر والذبح والسبي، فحيث اتخذ طائفة للاستضعاف فإنه ولا بد اتخذ طائفة أخرى للاستكبار والاستعلاء.

والحديث هنا في ذكر القرآن لقصة موسى عليه السلام مع بن إسرائيل، ولكن الحديث القرآني عنه في جعل الناس شيعا جاء عاما { إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا}.

هكذا هي سنة الطاغوت في استتباب ملكه وتجذير شره في الناس: أن يكون الناس شيعا، التفرق والتنازع والتعدد.

والقران لا يذم التفرق على أساس الحق حيث يتعدد الناس إلى فرق بحسب أديانهم، بل هذا هو الواجب في دعوة الأنبياء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس، فالمؤمنون يترعون أنفسهم من بين الكافرين ويتفرقون عنهم ويتشيعون دونهم على حقهم، وأهل السنة يترعون أنفسهم من بين أهل البدع ويتشيعون دونهم على السنة، وهذا من أسباب تحقيق الرفعة لهم والعزة لدينهم ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الذنب الذي لا يجبر في هذه الدنيا فهو التشيع على الباطل، والتحزب على غير الحق، والتفرق على أسس الجاهلية، فهذا الذي يجعل لزلل الشيطان فيهم موضعا.

وكذلك من الذنب الذي تعجل به العقوبة وتحصل به الهزيمة الاجتماع على غير الحق، والالتفاف على الباطل.

متى... متى... متى... متى النصر؟

(المعنى..)

(الشروط..)

(نصر قريب..)

(الناصر الله وحده..)

ثم ماذا بعد؟.

(المعنى..)

قال الله جل شأنه: {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}..

إن تنصروا الله: شرط، جوابه: ينصركم..

فما نصر الله؟.. وما نصرنا؟..

متى ننصر الله؟، ومتى ينصرنا؟.

النصر في لغة العرب[معجم مقاييس اللغة ٥/٤٣٥] بمعنى: "إتيان الخير وإيتائه" فهو على وجهتين:

الأول: إتيان الخير.. أي قصده وفعله، تقول العرب: نصرت بلد كذا، إذا أتيته، قال الشاعر:

إذا دخل الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر

الثاني: إيتاء الخير.. أي إعطاؤه وبذله، فالنصر: العطاء، قال الشاعر:

إني وأسطار سطرن سطرا لقائل يا نصر نصرا نصرا

* (الشروط..)

وبهذا يتضح المعنى الشرعي للنصر، فنصرنا لله تعالى يكون بمعنى قصدنا وفعلنا للخير الذي أمر به؛ ونصره لنا يكون بمعنى إيتاءنا وإعطاءنا الخير الذي وعد به؛ ومعنى الآية:

يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا دين الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتوحيده وحده بالطاعة والعبادة، لا شريك له، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وموالاة المؤمنين ونصرهم، ومعاداة الكافرين، ينصركم على أعدائكم، فيظفركم بهم، ويشف صدوركم منهم، ويعليكم عليهم، ويعزكم ويذلهم، ويجعل العاقبة لكم، كما قال تعالى:

{ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}.

وقال:{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا}.

وقال: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون}.

وقال: {فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون}.

وقال: {والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا}.

فقد اشترط لحصول النصرة من الله تعالى أمورا هي من نصر الله، هي كما وردت في الآيات:

١- توحيده بالعبادة والطاعة، في قوله: {يعبدونني لا يشركون بي شيئا}.

٢- تصديقه، واليقين بما أخبر به وأمر، في قوله: {الذين آمنوا}.

٣- القيام بطاعته، في قوله:{وعملوا الصالحات}.

٤- المحافظة على الصلوات في أوقاتها، في جماعة، في قوله: {أقاموا الصلاة}.

٥- أداء الزكاة تامة، وإخراجها في وقتها، في قوله:{آتوا الزكاة}.

٦- القيام بالنصيحة، بالحث على الخير، والزجر عن الشر، في قوله:{أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر}.

٧- عدم الثقة في الكفار، والاطمئنان إليهم، ومودتهم، ونصرتهم، في قوله:{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا}.

٨- نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، بالاتباع والتأييد والذب عنه في قوله: {وعزروه ونصروه}.

٩- نصرة المؤمنين، بالتأييد، والجوار، والمنع، والإكرام، في قوله:{آووا ونصروا}.

فهذه الشروط منها:

ما هو حق لله تعالى، من عبادته وحده، ومنع عبادة غيره، أيا كان، سواء كان قبرا وضريحا ومزارا، أو صنما ووثنا، أو شخصا ومخلوقا؛ وكذلك طاعته وحده، ومنع طاعة المخلوقين، مهما كانوا، مشـايخ أو حكاما أو علماء، في معصية الله تعالى، واتخاذهم أربابا من دون الله تعالى؛ وكذلك معاداة وبغـض من كفر به، ولم يؤمن برسله، والتبريء ممن تحقق عنادهم بعد البلاغ.

ومنها: ما هو حق بين المؤمنين، من صدقة الأغنياء على الفقراء، والنصيحة للمـؤمنين، ومـودهم، ومحبتهم، ونصرهم، ومنع الكافرين منهم.

فالطائفة التي تمتثل لهذه الشروط بالفهم والتطبيق هي الطائفة المنصورة، بهذا وعد الله تعالى حيث قال: {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}..

وقال:{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشـركون بي شيئا}.

وقال: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقـاتلون بـأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيهـا اسـم الله كـثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}.

* (نصر قريب..)

هذا النصر ليس في الآخرة فحسب، بل هو متحقق في الدنيا، كما قال تعالى:

{إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}.

وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب ألـيم * تؤمنـون بـالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم مؤمنين * يغفـر لكـم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين}.

وقد نصر الله المؤمنين في بدر وفي مواطن كثيرة، كما قال تعالى:

{ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة}.

وقال: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة}.

لكن هذا النصر مع كونه متحققا واقعا في الدنيا، إذا تحققت الشروط الآنفة، إلا أنه ينبغي التنبـه إلى أنه قد يتأخر، ابتلاء وامتحانا، وصورة هذا الابتلاء: أن في تأخر النصر ترجح كفة العدو، وفي ترجح كفة العدو تظهر فائدتان جليلتان، لا غنى للمؤمنين عنهما، ولأجلهما يهون تأخر النصر:

الأولى:

تكفير السيئات وزيادة الأجر، حيث – والحالة هذه - يصب العذاب على المؤمنين بالأذى والقتل والتشريد والتخويف، وكل ذلك في ميزان أعمالهم، فما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كان له بها أجر، هذا في دنياه، فكيف إذا كان لأجل جهاده الكفار؟.

قال الله سبحانه:

{ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ومخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعلمون}.

الثانية:

التمحيص، حيث يعلم المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب المفتون، ففي النصر السريع يكثر الأدعياء، المدعون أنهم مع المؤمنين، ليحصل لهم شيء من الغنيمة، وقد بينهم الله تعالى بقوله:

{الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين}.

وقال تعالى عما أصاب المؤمنين في غزوة أحد:

{وما أصابكم يوم التقى الجمعان فإذن الله وليعلم المؤمنين}..

وقال: {إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}.

بل قد يبلغ التأخر غايته حتى ليصاب المؤمنون باليأس والضعف والوهن، وهذه حقيقة، فالنفس البشرية مهما علت في إيمانها، إلا أن الوهم قد يستحوذ عليها ويسوقها، لكن لا يستمر ذلك طويلا، فالإيمان وإن ضعف قليلا إلا إنه لا يتلاشى ولا يموت، بل ينتفض حيا، برحمة الله تعالى، حيث يترل نصره في تلك الأوقات الحرجة، حينما يقع اليأس والخوف، مع الضراعة الحارة، كما في قوله تعالى:

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب}.

وكما في قوله تعالى: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}.

وفي قوله: {إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا}.

وإذا كان النصر متحققا، إذا تحققت شروط النصر، فينبغي اليقين بوقوع النصر، ولو تأخر إلى حين، وقد كان مما رد الله تعالى به على المرجفين والظانين أن الله لن ينصره دينه قوله تعالى:

{من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ}،

"قال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل فيها أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه، {فليمدد بسبب إلى السماء}، أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء، {ثم ليقطع}، أي ثم ليقطع النصر إن تهيأ له، {فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ}، وحيلته ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم، والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا، لم يصل إلى قطع النصر". تفسير القرطبي ١٢/٢١.

قال تعالى: {وكان حقا علينا نصر المؤمنين}.

* (الناصر الله وحده..)

إن النصر من الله وحده، والمؤمنون وحدهم هم الذين يعلمون كيف يكون منه وحده؟، إذ الأمر كله له، والعباد كلهم في حكمه وقهره، وهو يقول سبحانه:

{إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

وهو سبحانه ينهى عن الركون وطلب العون من الكافرين، إذ إنهم لا يقدرون على شيء، ثم هم لا ينصرون إلا بثمن مقابل، والثمن هو الدين، فنصرتهم خسارة كبيرة لا تعوض، يقول الله تعالى:

{يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين}..

فالله هو خير الناصرين، وهو وحده النصير، وليس للمؤمنين نصير غيره، قال تعالى:

{ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير}..

وقال: {والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا}.

وما استنصر أحد بالله تعالى صادقا مخلصا إلا نصره الله تعالى وأعزه وآتاه الثواب كله، في الدنيا والآخرة، وسكن روعه، وأذهب خوفه، وأمنه من عدوه، كما قال جل شأنه:

{وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين* وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين}.

وقال: {ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء}.

وقال تعالى: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم* إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}.

وما دعا نبي ربه أن ينصره على الظالمين إلا نصره، قال تعالى: {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر}.

ثم ماذا بعد؟.

ليس بعد هذا الفضل من الله تعالى على المؤمنين إلا أن يقولوا:

{ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله}..

فالحبل المتين، والصراط المستقيم، والبشارة الدائمة، والتسلية، والتخفيف، والأجر، وتكفير السيئات، والعزة والرفعة، كل ذلك من الخير الذي أنعم الله به على هذه الأمة المؤمنة بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا خوف بعد هذا، ولا قلق، فالله معنا.

أبو سارة

عوامل النصر في المعارك الإسلامية

عبد الظاهر عبد الله علي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد....

فقد أرتضى الله لخلقه الإسلام دينا ليحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة وأرسل رسله هداة للبشر ليبلغوا عن الله دينه وكان أخرهم محمد صلى الله عليه وسلم. ولكن الشياطين أبت إلا أن تضع العراقيل والشوك في طريق دعاة الإسلام، ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يظل الحق والباطل في صراع أبدي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويكتب الله الغلبة للحق ما تمسك به أصحابه ومن هنا فقد شرع الله الجهاد ليرد العدوان وليزيل الباطل وليحمي العقيدة وليحقق السلام الذي يقوم على العدل والتفاهم والصدق دون الأضرار بأحد أو الإساءة إليه ومن هنا رأينا الإسلام يسعى إلى السلام بقلب مفتوح والعقل الواعي والنية الصادقة ويرفض الاستسلام كما يرفض السلام الذي يقوم على الغدر أو الخيانة أو الخداع .

وتاريخ الجهاد الإسلامي على طول الزمان وعرضه مشرق ناصع يرد الحقوق لأصحابها ويزيل البغـــي والظلم اللذين ينشر هما البغاة والظالمون.

ولقد حققت المعارك الإسلامية نصراً مؤزرا على طول الزمان وعرضه و لم تر الدنيا في تاريخها معارك أشرف من معارك الإسلام ولا أسمى منها غاية، وقد خاضها رجال بواسل كانوا بحـــق جنـــد الله أو كانوا رهبان الليل وفرسان النهار فملئوا الدنيا عدلا ونورا وحققوا ألوهية الله في الأرض كمـــا هـــي محققة في السماء، ونشروا العدل والمساواة في ربوع الأرض فعم نور الله الكون وتحقق لهم قول ربهم، ((وأن جندنا لهم الغالبون)) وكان ذلك بعوامل النصر التي خططها لهم ربهم في قرآنه ونفذها رســـول الله وخلفاؤه وأصحابه من بعده وصدق وعد الله لهم في (وعد الله الـــذين آمنـــوا مـــنكم وعملـــوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما أستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضـــى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)، فكانوا خير أمة أخرجت للنـــاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله فهل آن لهذه الأمة أن تعود إلى النبع الصافي الذي شرب منه آباؤها الأولون فعزوا وسادوا وكانوا إذا تكلموا أنصتت لهم الدنيا لتسمع مقالتهم ولـــتكن طوع أرادهم ورهن إشارهم، وما أحوجنا اليوم لأن نعيد أمجاد ماضينا لنمحو عارا علق بجباهنـــا في دنيا كشرت لنا عن أنيابها وقد شحذ أعداؤنا سكينا يريدون أن يجهزوا علينا بها وكـــان ذلـــك بمـــا اكتسبت أيدينا عملا بقول الله تعالى (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وتحقيقا لنبوة رسولنا صلى الله عليه وسلم (وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله علـــيهم عدوا من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم) .

وتحقيقا لنبؤة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم (وما نقضوا عهد الله وعهد رســـوله إلا ســـلط الله عليهم عدوا م غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم).

فهيا يا أخوة الإسلام ننفض اليوم غبار النوم عنا لنحقق العزة التي أرادها الله لنا في قوله : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ومن نذكر بتلك الأسباب لعل قومنا يتقون ويعودون إلى الله فيحسنوا العمل (فأن الذكرى تنفع المؤمنين) (أن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون)

وهم حسبنا ونعم الوكيل

،لآن إلى عوامل النصر في المعارك الإسلامية فما هي يا ترى ؟ ،،

الشيخ

عبد الظاهر عبد الله علي

عوامل النصر في الإسلام :-

لقد خاض الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والأجيال المسلمة من بعده معارك شتى بدءا من يوم الفرقان في بدر واستمرار في خيبر وفتح مكة وتبوك وامتداد إلى اليرموك والقادسية وفتح بيت المقدس ومصر وبلاد الأندلس إلى عين جالوت وحطين ونهاية بالعاشر من رمضان ، وكان انتصارهم في كل معركة يرجع إلى عنصرين أثنين :-

العنصر الأول : -

هو تأييد الله تعالى لجنده بنصره المبين تحقيقا لقوله سبحانه وتعالى : (وأن جندنا لهم الغالبون) وتأكيدا للشرط والجواب في قوله عز وجل (يا أيها الذين أمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ولانهم حققوا معية الله التي طلبها منهم فكان النصر الأكيد لهم كما جاء في قوله تعالى (أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وهذا عنصر لا يحتاج إلى تزكية للنفس فالله أعلم بخلقه ويعطي عباده حسبما يعلم من إيمانهم لأن ذلك وعده الذي تكرم به عنده قوله سبحانه (أنا لننصر رسلنا والذين أمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

العنصر الثاني : -

هو الأسباب العسكرية البشرية ، وهذه الأسباب العسكرية تتفرع إلى :

أ – عوامل معنوية .

ب – عوامل مادية .

ج – قيادة مؤمنة .

د – حرب عادلة .

هـ - وضع أجتماعي وسياسي وديني وأقتصادي وأخلاقي مترد لدى أعدائهم من المشركين ويهود وروم وفرس .

ولنأخذ في بيان العوامل العسكرية المعنوية وهي :-

١ – الإيمان وقوة العقيدة .

٢ – عوامل مادية .

٣ – ذكر الله .

٤ – طاعة الله ورسوله .

٥ – طاعة ولي الأمر أو القائد .

٦ – الاتحاد وعدم التنازع والفرقة .

٧ – الصبر وتحمل المشاق .

٨ – النهي عن الغرور والبطر .

وأما بيان العوامل العسكرية المادية فهي :

١ — الأعداد الجيد والتدريب الدائم للجند .

٢ — الأخذ بأحدث أساليب العصر مما يستحدث .

٣ — تطوير وتصنيع الصناعات الثقيلة .

وأما القيادة المؤمنة الواعية فهي ترتكز على : -

١ — عدم الأستئثار بأي خير دون الجند .

٢ — عدم التعالي على أحد منهم .

٣ — التشاور معهم والأخذ برأيهم أن كان صوابا .

٤ — حسن الاختيار لمن يكلف بالمهام .

٥ — الاجتهاد في كشف خطة العدو (الاستطلاع الجيد).

٦ — الحذر والحيطة وكتمان الخطة .

٧ — سرعة الحركة والتعجيل في أتخاذ القرار .

ولنعد إلى تفصيل وشرح هذه الأسباب السابقة فنقول والله المستعان :

العوامل المعنوية :

١ — وأولها الإيمان وتربية العقيدة :

ونلاحظ أهمية هذا العنصر في أن رسول الله قد ظل بين قومه يبلغهم دعوته قرابة خمس عشرة سنة وكان أصحابه يلاقون الذل والهوان واشكال العذاب وصنوف البلاء من أعدائهم طوال بقائهم في مكة وكانوا يتحمسون لرد العدوان الواقع عليهم ولكن القرآن لم يأذن لهم في ذلك لأنها كانت فترة تربية على العقيدة وترسيخ لمبادئ الإيمان في نفوسهم حتى إذا ما تغلغل اليقين الذي لا يخالجه شك وأطمانت نفوسهم بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر أذن لهم بعد ذلك بالقتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها أسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) . ٣٩ — ٤٠ سورة الحج .

وحينما ثبت الإيمان في قلوبهم وثبتت العقيدة في صدورهم رأينا الإيمان يعمل عمله حينما ألتقوا بأعدائهم فما ثبتت للكفر قوة أمام هذا اليقين الراسخ بل صار الكفار أمامهم كالهباء المنثور ولقد كان الجيش الإسلامي لا يعتمد بكثرة العدد لانه لم ينظر إلى الكم بل كانت نظرته إلى اليقين المؤمنين به والداخلين فيه إذ كانوا يندفعون الى المعركة بدافع من إيمانهم سواء في ذلك الشباب والشيوخ والرجال والنساء لأنهم كانوا جند الله الذين تخاذلت أمامهم قوات اعدائهم فكانوا جميعاً مضرب المثل في القوة والشجاعة والاقدام وكان لواؤهم لا يسقط من يد حامله حتى يأخذه من خلفه وبهذه

العقيدة وبهذا الإيمان كان كل جندي مسلم معجزة من معجزات الحرب وبهذا كــان رجــل منــهم يحسب بألف رجل .

فحينما طلب عمرو بن العاص المدد من عمر بن الخطاب أمده باربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل وكتب إلى عمرو (إني أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف الــزبير بن عوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وخارجة بن حذافة).

وأمثلة الإيمان وصمود أصحابه أمام خصومهم في المعارك الأسلامية أكثر من أن تحصى في يوم بــدر وموقف أبني عفراء اللذين كرا على أبا جهل فقتلاه بين معروف وموقف عمير بن الحمــام وألقــاءه التمرات التي في يده محفوظة بين العامة والخاصة .

وما فعله الإيمان بنسيبة بنت كعب أم عمارة وهي تدافع عن رسول الله ظاهر بين .

وموقف حنظله غسيل الملائكة يوم أحد وتركه عروسه حجلية بنت عبد الله بن أبي بن ســلول ليلــة زفافه ليقاتل في سبيل الله لهو أعظم دليل على انهم ما كانوا يعدلون بالإيمان شيء آخر .

لقد بذل المؤمنون كل شيء رخيصا في سبيل الإيمان الذي أعتنقوه ، ففي بدر مثلاً ألتقى الآباء بالأبناء والأخوة بالأخوة والأهل بالأهل خالفت بينهم المبادئ ففصلت بينهم السيوف .

كان أبو بكر مع المسلمين وأبنه عبد الرحمن مع المشركين .

وكان عتبة بن ربيعة مع المشركين وأبنه حذيفة مع المسلمين .

ولما أستشار الرسول عمر في أسرى بدر فقال : أرى أن تمكنني من فلان قريب عمر فاضرب عنقــه وتمكن .

وتمكن علياً من أخيه عقيل فضرب عنقه وتمكن الحمزة من فلان فضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين .

وفي غزوة بن المصطلق حاول رأس النفاق عبد الله بن ابي إثارة الفتنه وعندما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن النار سوف تشب بين المهاجرين والأنصار أمر بالرحيل فورا حتى وصل الجيش إلى مشارف المدينة فطلب عبد الله بن عبد الله بن ابي من رسول الله أن يامره بقتل أبيه ولكن الرسول عفــا عنــه قائلا :

بل نفترق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وقبيل الفتح ذهب ابى سفيان إلى أبنته ام حبيبة أم المؤمنين فطوت فراش رسول الله من تحته لانه نجس مشرك .

وموقف المؤمنين في المعارك التي خاضوها يغلب الأساطير وموقف الشهداء في أحد من أمثال مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وعمرو بن الجموح وموقف المؤمنين في غزوة الخندق حيثما رأوا تأليب قوى الكفر واليهودية والنفاق عليهم ولم يتبدل إيمانهم بل قالوا ما قصة القرآن علينا في قوله سبحانه (

ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) .

لأكبر دليل على عقيدة المسلمين بسمو اهدافهم جعلتهم يستميتون في القتال دفاعا عن تلك الأهداف مما جعلهم اكثر الناس سعيا إلى الموت فيسبيل الله وكانوا يأملون أن يكونوا من أصحاب الجنة حيث يعيشون في ظل العناية الإلهية والرعاية الربانية فرحين بما آتاهم الله من فضله .

وهذا هو ما وصفهم به المقوقس ملك مصر في خطاب له وجهه إلى هرقل الروم فقال (والله أنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا أن الرجل الواحد يعادل مائة رجل منا . ذلك لأنهم قوم الموت احب لهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستبسل ويتمنى ان لا يرجع إلى أهله ولا إلى بلده ولا إلى داره ويرون أن لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوا منا ويقولون أن قتلوا أدخلوا الجنة ونحن قوم نكرة الموت ونحب الحياة فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم) هذا ما فعله الإيمان وفعلته العقيدة بقوم آمنوا بالله ورسوله وبذلوا كل شيء لله مقابل الجنة ورضوان الله ففازوا في العاجل والآجل ورضى الله عنهم ورضوا عنه (أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون) .

٢ – الثبات في المعارك :

وكيف لا يثبت من علم أن الله أشترى من نفسه وماله بأن له الجنة ؟ بل كيف يفر من علم أن الشهيد يغفر له من أول دفعة من دمه ويرى مقعده في الجنة ويحاى حلية الإيمان ويزوج من حور العين ويجار من عذاب النار وبعد أن عد رسول الاسلام من السبع الموبقات الفرار يوم الزحف .

لقد قال علي كرم الله وجهه (لا أدري من أي يومي من الموت أفر ، يوم لا يقدر أم يوم يقدر أم يوم قدر يوم لا يقدر لا لأرهبه ، ويوم يقدر لا يغني الحذر) .

أقول لها وقد طارت شعاعا *** من الاعداء ويحك أن تراعى
فأنك أن طلبت بقاء يوم *** على الأجل الذي لك لن تطاعى
فصبرا في مجال الموت صبرا *** فما نيل الخلود بمستطاع
وما ثوب البقاء بثوب عز *** فينغى عن اخي الخنع البراعى
سبيل الموت غاية كل حي *** فداعيه لأهل الارض داعى
ومن لم يمت يعمر فيهرم *** وتسلمه المنون إلى خداع

لقد كان الجند المسلمون يرون في الإقدام على الأستشهاد حياة وهذا هو قائلهم :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد *** لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على العقاب تدمى كلو منا *** ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وآخر يقول :

ولست أبالي حين أقتل مسلما *** على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الاله وأن يشاء *** يبارك على أشلاء شلو ممزع

وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والذي نفس محمد بيده لوددت أغزوا في سبيل الله فأقتل ثم أحيا ثم أقتل فأحيا ثم أقتل) .

٣ – ذكر الله :-

ثم يأتي ذكر الله معينا على الثبات عند اللقاء فالمرء ينظر إلى المنايا تتخطف من حوله ويذكر زوجه ويذكر أولاده ويذكر الترقى والرفعة التي يؤمل فيها من دنياه ما الذي يجعله يتغلب على كل ذلك وينحيه جانبا بل ولا يلتفت إليه أنه ذكر الله الذي سوف يبدله زوجا خير من زوجه ودارا خيرا من داره بل وهو الذي سيعوضه خيرا من كل ما في الدنيا وزخرفها وهو الذي سيتولى أولاده من بعده فلا يضيع الله من وراءه لانه باع نفسه لله وتاجر مع الله وأذن فلن يضيعه الله فيهم ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لئلا الله تحشرون) .

والله الذي دعاهم للشهادة فلبوا قد طمأنهم على اولادهم من بعدهم حين دعا إلى مراعاة اليتامى وحفظ حقوقهم وصيانة حياتهم واعدادهم أعدادا صالحا تماما كما يفعل الأب وأكثر (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا).

ثم هم بعد وقبل ذلك قد نبههم ربهم على مكانتهم أن قتلوا في سبيله حين قال (قل ءأونبئكم بخير من ذلكم للذين أتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار) وفي قوله (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) وفي قوله سبحانه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

٥ – طاعة القيادة أو ولي الأمر : –

ويتبع طاعة الله ورسوله طاعة القائد أو ولي الأمر في غير معصية وتاريخ القيادة والتسليم لها في أوامرها لدى الجند المسلمين مضرب الأمثال والتي نتج عنها أنتصار أذهل أعدائهم فهم كما قال عليه الصلاة والسلام تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم فلقد كان القادة خير رعاة لجندهم وخير رفقاء بهم وكانوا يشاورون أهل الرأي عند الملمات والأزمات والشورى دستور الأسلام وقاعدة نظام الحكم في دولة الأسلام والقائد كان واحدا من الرعية غير أنه كان أكثرهم مسؤلية عند الله فلم يترفع على جنده ولم يستأثر عليهم بشيء ، فكيف لا يطاع وكيف يعصى له أمر ؟.

٦ – الاتحاد والنهي عن التنازع والفرقة : –

ولقد أعتبر الأسلام الفرد جزء لا ينفصم من كيان الأمة وعضوا موصولا بجسدها لا ينفك عنها كما أعتبر الأسلام إتلاف القلوب والمشاعر وأتحاد النيات والمناهج من أوضح تعاليم الاسلام ولا ريب أن توحيد الصفوف وأجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ودوام دولتها ونجاح رسالتها ولئن

كانت كلمة التوحيد باب الاسلام فأن التوحيد الكلمة سر البقاء في الاسلام والابقاء عليه والضمان الاول للقاء الله بوجه مشرق .

وأن العمل الواحد ليختلف بحقيقته وصورته أختلافا كبيرا حين يؤديه الانسان وحيدا أو حين يؤدي مع الجماعة ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الاحتراس والتحذير من عواقب الاختصام والفرقة والتنازع وكان في حله وترحاله يوصي بالتجمع والاتحاد في السلم وفي الحرب فعن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشيطان يهم بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم) وقد كان الناس في سفرهم إذا نزلوا مترلا تفرقوا في الشعاب والاودية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن تفرقكم هذا من الشيطان) فلم يترلوا بعد مترلا إلا أنضم بعضهم إلى بعض حتى قال (لو بسط عليهم ثوب لعمهم) ، وذلك أثر أنتزاع المشاعر وأجتماع القلوب وتبادل الحب وأنسجام الصفوف .

أن الناس أن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل ، وغذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشيطان وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا ومن هنا كان التنازع والتخاصم من شيم وخصائص الجاهلية المظلمة ودين من لا إيمان له .

ان الشقاق يضعف الأمم القوية ويميت الامم الضعيفة ومن هنا فقد جعل الاسلام أول نصيحة لهم بعد أنتصارهم في غزوة بدر حينما أختلفوا على الغنائم – أن يوحدوا صفوفهم ويجمعوا أمرهم (فأتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين) ثم أفهمهم أن الاتحاد في العمل هو الطريق النصر المحقق والقوة المرهوبة (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) .

وأعداء الامة يدبرون لها ويكيدون لها بمكر الليل والنهار وهم يحرصون على تفريق كلمتها وتشتيت شملها وتمزيق وحدتها وتاريخ الأمة يؤكد أن الأنتصار كان حليفا لها أيام أن كانت يدا واحدة ويبرهن أن عدوها لم ينل منها الا بعد أن فرق جمعها وأختلفت فيما بينها ولقد حذر القرآن المسلمين من عاقبة الفرقة والتنازع فقال (ولا تكونوا كالذين تفرقوا وأختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم) ويقول لهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) والامثلة على ذلك حية في جميع المعارك التي خاضها المسلمون ففي أحد حينما أختلفوا وتنازعوا وخالفوا امر الرسول لحقت بهم لطمة موجعة أفقدتهم سبعين .

وقفات مع آيات النصر في كتاب الله

(الحلقة الأولى)

إبراهيم بن محمد الهلالي

الحمد لله الذي وعد فصدق ، وأعطى فأغدق ، رحمته واسعة ، وفضائله يانعة ، وصلى الله على محمد بن عبد الله النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ثم أما بعد :

إن الذي ينظر بعين البصيرة لأحوال المؤمنين في أصقاع المعمورة ، وما أصابهم من الذلة والمسكنة ، وضياع حقوقهم ، وتسلط أعدائهم ، واستباحة بيضتهم ، لترجع به الذاكرة إلى احوال المستضعفين من المؤمنين إبَّان إظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته في العهد المكي ، وأقصد بالمشابهة في الظروف المحيطة وإلا ففرق بين ما كان يعيشه أولئك الصحب الكرام رضي الله عنهم من الإيمان واليقين وصالح العمل مما خفف عنهم المصاب ، وثبتهم أمام الفتن ، بخلاف ما يحدث من المسلمين اليوم من تفريط في دينهم ، ونسيانٍ لتراثهم ، وتنكرٍ لهويتهم ، مما زاد في مصيبتهم وأحلهم دار البوار الدنيوية ونسأل الله العلي القدير أن يجيرنا والمسلمين من دار البوار الأخروية بمنّه وكرمه إنه جوادٌ كريم.

ولذا كان علينا أن نستلهم العبرة ، ونكرر النظرة في أحوالهم وبم خاطبهم ربهم سبحانه ، ووجههم نبيهم صلى الله عليه وسلم لنعلم المخرج مما نحن فيه من التيه والتخبط ، فأردت أن أذكر نفسي وإخواني بما ييسره الله من تدبرٍ لآيات النصر في كتاب الله سبحانه لتعلو الهمم ، وتنقشع سحب الهزيمة ، وننظر لواقعنا نظرة المتفائل الذي يعلم ليعمل ، ويترقى في سبل المعالي والعزة ، ولا يقعد به اليأس ليراوح يديه على خديه يندب حظه ، ويمقت عمره ونفسه ، فالكون سائر بمن فيه فمن تقدم معه وإلا خلفه وراءه مع الخالفين وسيقال لهم كما قيل لمن قبلهم ؟ إنكم رضيتم بالقعود أول مرةٍ فاقعدوا مع الخالفين ؟ [التوبة ٨٣] ، وسيكون حديثي بإذن الله عن آيات النصر حسب التسلسل في السور وليس في النزول ولا الحوادث ، إلا ما تدعو الضرورة لربطه من الآيات ببعضها والله نسأل أن يسدد القول والنية إنه جوادٌ كريم.

وهذه أولى الوقفات مع آية من سورة البقرة يقول فيها الله عز وجلَّ : ؟ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ؟

قال الإمام ابن كثير في تفسيره :

يقول تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ } قبل أن تُبتَلُوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: { وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ } وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.

قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومُرّة الهَمْداني، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، والسّدي، ومقاتل بن حَيّان: { الْبَأْسَاءُ } الفقر. وقال ابن عباس: { وَالضَّرَّاءُ } السّقَم.

{ وَزُلْزِلُوا } خَوْفًا من الأعداء زلْزالا شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا، كما جاء في الحديث الصحيح عن خَبَّاب بن الأرَتّ قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: "إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفْرَق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يَصْرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه". ثم قال: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون".

وقال الله تعالى: { الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت: ١ -٣] .

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: { إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا } [الأحزاب ١٠و١١]

ولما سأل هرقلُ أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان الحرب بينكم؟ قال: سِجَالا يدال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلى، ثم تكون لها العاقبة.

وقوله: { مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ } أي: سنتهم. كما قال تعالى: { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأوَّلِينَ } [الزخرف: ٨] .

وقوله: { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } أي: يستفتحون على أعدائهم، ويَدْعون بقُرْب الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: { أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } كما قال: { فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا } [الشرح: ٥، ٦].

وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلُها؛ ولهذا قال تعالى: { أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } وفي حديث أبي رَزِين: "عَجب ربّك من قُنُوط عباده، وقُرْب غيثه فينظر إليهم قَنطين، فيظل يضحك، يعلم أنّ فرجهم قريب" الحديث.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ــ رحمه الله ــ في تفسيره على هذه الآية كلاما نفيساً يجدر بنا تفهمه وتعقله أنقله بنصه أيضاً حيث يقول : ((يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية، التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة آلتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم { مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ } أي: الفقر { وَالضَّرَّاءُ } أي: الأمراض في أبدانهم { وَزُلْزِلُوا } بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به.

ولكن لشدة الأمر وضيقه قال { الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } .

فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: { أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت، إذا صابر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك، الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ })) اهـ

فهل يعي المسلمون اليوم الدرس ويصابروا عدوهم ويواجهوا يأسهم ، ويمتثلوا أمر الله لنبيه ومن معه بالصبر وانتظار أحسن العواقب حيث يقول عزَّ من قائلٍ عليماً وآمرٍ حكيماً ؟ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ؟ [هود ٤٩].

ما أجملها من وقفات إيمانية مع آية واحدة من كتاب الله فحسب ، فكيف بمن تدبر كل آيات النصر في كتابه ، لامتلأ من الثقة ، وحُسْنَ الظنِّ بالله ما يجعله يسير إلى الله لا يلوي على شيء ، المكاره عنده أمارة صدق النية ، وعلامة صحة الطريق على حدِّ قول أحد السلف رحمة الله عليه حين قال ((لو لم نُبْتلى لشككْنا في الطريق)) وليس قصده تمني الفتنة ، ولا التعرض لها ولكن تسلية لنفسه عند نزول البلاء ، وحلول المصائب.

هذا ما تيسر إيراده ، ونتمنى من الله العلي القدير أن ييسر لنا الوقوف مع آية نصر ثانية في اللقاء القادم إن شاء الله والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

حرر في ١٤/١١/١٤٢٩هـ بمدينة الرياض

متى نصر الله؟

د. وائل محي الدين الزرد

تتابع الأحداث المؤلمة على الأمة المسلمة اليوم، ويزداد المؤمنون الذين يسألون عن نصر الله متى هـــو؟ يستعجلون النصر القادم، ويستقدمون الفجر الآتي، وما ذاك إلا لكثرة الهموم والمصائب المتلاحقة على بلاد العرب والمسلمين، وقديماً قالوا:

ولو أنَّ الهُمومَ هَم وَاحد *** لاتقيتُهُ ولكنَّهُ، همٌّ وثَانٍ وثَالِثٌ

والإنسان بطبعه عجول كما وصفه الله تعالى في القرآن [خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ] وقال [وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولًا] وهذه العجلة كانت قد لازمت الصحابةَ رضي الله عنهم، فيوم أن كَثُرَ البلاء عليهم جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يشكون إليه ما وقع بهم من ظلم وضيم على يد الظالمين في قريش، وكان صلى الله عليه وسلم مُتَوَسِّداً بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فقَالَ: "وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ".

ثم من هذا الذي لا يحب أن يرى نصر الله الآن، بل من هذا الذي لا يحب أن يرى الأمةَ عزيزة كريمة في كل مكان، ويرى آمالَ الأمة قد تحققت في كل شؤونها وعلى كل الأصعدة وفي كل ميدان، فكم من مظلوم مقهور ينتظر الفرج، وكم من امرأة تنتظر بفارغ الصبر أن يخرج إليها زوجُها من سجون الظلمة، وكم من مسلم يتوق لتحكيم شرع الله في الأرض لتسود المحبة والعدالة، وكم وكم فقائمة الظلم الممارس على أبناء الأمة كثيرة وكثيرة جداً.

ولكن:

الدنيا لا تسير وفق مراد البشر، بل إن الله تعالى جعل لكل شيء أجلاً مسمىً [وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا] فالله لا يعجل بعجلة عباده، ولا يتم مراد العباد حتي يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فيا من تظن أن النصر قد تأخر، اعلم أن الأدب مع الله يقتضي عدم استعجاله، وأن حكمة الله البالغة اقتضت أن يختبر أحبابه وأصفياءه، وأن النصر يأتي في وقت يعلم الله فيه أن خيرَ المؤمنين أصبح في النصر...

والسؤال عن اقتراب النصر ليس بدعاً من القول، فقد سأل ذلك من سبقنا من الصالحين والأولياء وذكر الله ذلك في القرآن الكريم [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ].

يعلق سيد قطب رحمه الله فيقول: إن سؤالهم مَتَى نَصْرُ اللهِ ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب مَتَى نَصْرُ اللهِ؟ وعندما تثبت القلوب المؤمنة على مثل هذه المحنة المزلزلة، عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله تعالى أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ، إذاً هو مدخر لمن يستحقونه،

ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة حتى يأتي أمر الله وهم كذلك...

نعم سيأتينا نصر الله تعالى ونحن ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّنَا مَنْ خَذَلَنَا، ونحن عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لِعَدُوِّنَا قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّنَا مَنْ خَالَفَنَا، إِلَّا مَا أَصَابَنَا مِنْ لَأْوَاءَ، حَتَّى يَأْتِيَنَا أَمْرُ اللَّهِ وَنَحْنُ كَذَلِكَ إن شاء الله تعالى، بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بإذن الله رب العالمين.

ثم إن الله تعالى يمد للظالم مداً [قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا]، وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ".

وفي القرآن الكريم ما يثبت أن الله تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ [فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا]، وفي الحديث الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم "التأني من الله، والعجلة من الشيطان" وقالوا: في العجلة الندامة وفي التأني السلامة.

ولقد ذكر الله لنا متى يأخذ الظلمة، وبَيَّنَ أنه لا يأتيهم أمر الله بالهلاك إلا بعد أخذِ الأرض لزخرفها وتزينها، وظنِّ أهلها أنهم قادرون عليها، ساعتها يأتيهم أمر الله الذي لا يُرَدُّ!

يقول الله تعالى [حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]، على مثل هؤلاء القوم الذين لا يرقبون في المؤمنين إلاً ولا ذمة يأتي أمر الله ليلاً أو نهاراً.

هؤلاء الذين قالوا [مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً] وقال غيرهم [نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ] وقال أولهم [أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ] وقال ثانيهم [أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ]، وقال وزيره السيئ [إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي]، هؤلاء جميعاً إنما أخذهم الله يوم تكبروا في الأرض [كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ]، وظلمة اليوم لن يطول حسابهم، وستشهد الأيام عويلَهم بإذن الله تعالى.

وها هي آيات الله تتلى إلى يوم القيامة تصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله، وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد [حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ].

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كُذِبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟ في هذه اللحظة التي

يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً [جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ] هكذا يقول ويختم سيد قطب رحمه الله.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين

إمام المسجد العمري الكبير ــ غزة

ولكنكم تستعجلون

الدكتور عصام بن هاشم الجفري

الحمد لله المتره عن الأشباه والأمثال والأضداد،الواحد الأحد الذي لم يتخذ صاحبة و لم يكن له أولاد، أحمده سبحانه وأشكره تكفل بنصر دينه وعباده مهما كثر عدد الأعداء ومهما ملكوا من العتاد،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أرجو بها النجاة يوم المعاد ، وأشهد أن نبينا وإمامنا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله المصطفى من بين العباد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة سرمدية إلى يوم التناد.أما بعد:فاتقوا الله عباد الله تسعدوا في دنياكم وأخراكم يقول ربكم وخالقكم جل في علاه:{..وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا()وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}([١]).

معاشر المؤمنين بالله الواحد الأحد وقفنا في الجمعة الماضية مع قاعدة ربانية وضعها الله في آية من كتابه ، واليوم نعود إلى نفس ذلك الكتاب الخالد كتاب ربنا لنستلهم منه ونقتبس منه ونستنير بنوره فإن من لم يستنر بنور القرآن حكم على نفسه بالتخبط في الظلمات ، ومن لم يبن حياته على القرآن حكم على نفسه بالضيق والضنك ثم في الختام إلى النار والعياذ بالله ، واليوم أيها الأحبة في الله أود أن أقف مع صفة بين لنا ربنا وخالقنا وموجدنا من العدم أنها من طبيعة ابن آدم فقال سبحانه : {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}(٢). ويقول جل جلاله : {..وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا}(٣). وعجلة الإنسان لها تطبيقات عدة ولكني اليوم أريد أن أربط بين عجلة الإنسان والأحداث المؤلمة التي تعيشها أمة الإسلام في هذه الأيام ؛ حيث قد يلقي الشيطان في نفوس البعض شبهة عظيمة يقول لهم فيها ألم يعدكم ربكم بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض فأين هذا الوعد لم يتحقق ؟ ما بال الأمة تعيش هذه الحال من الذل والهوان ؟ هذه الشبهة الخطيرة مدخل لتشكيك العبد في كل وعود الله ، فهي تشككه في وعد الله بالجنة للمؤمنين الطائعين ، وفي وعده بالنار للمجرمين المعاندين ، وفي وعده بالحشر يوم القيامة وغيرها من وعود الله العظيمة، وإن لم يحصل له شك فيها فهو على الأقل يضعف تأثير تلك الوعود في نفسه ، فنقول لمن عرضت له هذه

الشبهة إن إيمانك بوعد الله يجب أن لا يتزحزح قيد أنمله لأن الله قد قال في محكم التتريل :{..وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلًا}(٤). وقال سبحانه : {أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}(٥). وقال جل جلاله وتقدست أسماؤه :{ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا}(٦). ويقول :{ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ}(٧).والآيات في هذا كثيرة ، لكن هل قال العليم الخبير الحكيم بأن النصر سيأتي بعد يوم أو يومين أو عام أو عامين أو قرن أو قرنين؟ لا . ولكن متى ما أخذت الأمة بأسباب النصر واقتضت حكمته سبحانه وبحمده أن يترل ا لنصر نزل ، وما يتأخر النصر إلا لعيوب بنا وذنوب منا ثم لحكمة يريدها الله. ألم تسمعوا إلى قصة نوح عليه السلام مع قومه كم صبر على أذيتهم وعلى تكذيبهم وعلى صدهم ؛ صبر على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقد استعجل قوم نوح عليه السلام عذابهم :{ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ}(٨).فأجابهم نوح عليه السلام إجابة الواثق بوعد ربه : {قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}(٨). فصدقه الله وعده وجاءه النصر وانتقم الله من القوم الكافرين بأن أغرقهم ونجى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين : {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}(٩). فرعون كم عاش من السنوات يبطش ببني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، كم من السنوات أمضى يضطهد موسى ومن معه استكبر وعاث في الأرض فساداً لأنه لم يصدق بوعد الله أن إليه مرجعه : {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ}(١٠) حتى جاءت تلك الساعة الحاسمة وتدخلت القدرة الإلهية وتحقق وعد الله بالنصر فأغرق الله فرعون وجنوده ونجى موسى والقوم المؤمنين:{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}(١٠). نعم هكذا هي سنة الله فإن النصر للمؤمنين وهلاك القوم الكافرين لا يأتي على ما يشتهيه المرء منا وإنما يأتي وفقاً لتدبير

الله ولحكمة الله ولأمر الله فهذه عاد كذبوا وبطشوا وتحدوا واغتروا بقوقم فمتى هلكوا يوم أن جاء أمر الله:{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}(١١). وهؤلاء ثمود كذبوا نبيهم صالحاً فصبر عليهم حتى جاء النصر بتدبير الله وبأمر الله:{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ()وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}(١١).وهؤلاء قوم لوط آذوا نبيهم وسنوا في البشرية فاحشة هي من أقذر الفواحش فصبر عليهم حتى جاء الفرج من الله وجاء النصر من الله وهلكوا بأمر الله : {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ()مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}(١١).وهذا شعيب مع قومه آذوه وكذبوه وهموا أن يرجموه بالحجارة فصبر حتى جاء النصر من الله وجاء الانتقام من الله :{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ()كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}(١١). وهاهو رب العالمين يوجه الحبيب المصطفى ويوجه الأمة من بعده لنفس المعنى :{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}(١٢). فكان هذا دأب رسولنا وحبيبنا صلى الله عليه وسلم

الثقة بوعد الله بالنصر ففي صحيح البخاري عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ: ((كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ))(١٣). أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ}(١٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده أنجز وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، أحمده سبحانه وأشكره على ما أنعم من فضله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى أله وصحبه . أما بعد : فاتقوا الله عباد الله واعلموا أن من أسباب الذل والهوان والخذلان وتخلف النصر على الأعداء الذنوب والمعاصي وقد نبه على هذا المعنى من بيده ملكوت السموات والأرض بقوله:{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(١٩).وسار على نفس النهج القرآني الفاروق الملهم رضي الله عنه يوم أن أوصى قائداً لجنده وهو متوجهاً للقاء الأعداء فقال له:إياك والذنوب فإنكم إن عصيتم الله كنتم أنتم وهم سواء وهم أكثر منكم عدداً وعده فيهزموكم نعم أيها الأحبة في الله إن مفتاح النصر على الأعداء في أيدينا وفي مقدورنا ألا وهو تحسين الصلة بالمالك لهذا الكون المدبر له باتباع أوامره واجتناب نواهيه والثقة بوعده، وبإعداد من العدة ما نستطيعه ، فإذا حققنا ذلك حق لنا أن ننتظر تحقيق وعد الله لنا بالنصر،وقد بين ربنا جلت قدرته أنه لا يكون النصر من قبل أي قوة في الأرض ولا في السماء عداه بقوله:{إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ}(١٥). ولكنه بين سبحانه أيضاً أن النصر لا يترل على أمة لاهية غافلة وإنما له متطلباته وشروطه فقال سبحانه :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقْــدَامَكُمْ} (١٦). وقـــال جــــل جلاله{وَلَيَنصُـــرَنَّ اللَّـــهُ مَـــنْ يَنصُـــرُهُ إِنَّ اللَّـــهَ لَقَـــوِيٌّ عَزِيزٌ}(١٨)الحج:٤٠.ولينظر كل امرئ منا في نفسه وبيته وولده وأهله
وليتفكر هل هو من أسباب نصر الأمة باستقامته على الدين أم لا قدر الله من أسباب خذلانها بسبب غفلته وبعده عن ربه .

([١])الطلاق:٣،٢.(٢)الأنبياء:٣٧.(٣)الإسراء:١١.(٤)النساء:١٢٢.(٥)يونس:٥٥.(٦)الإســراء: ١٠٨.(٧)الـــروم:٦.(٨)هـــود:٣٢،٣٣.(٩)الفرقـــان:٣٧. (١٠)القصـــص:٣٩،٤٠. (١١)هود٩٥،٩٤،٨٣،٨٢،٦٧،٦٦،٥٨.(١٢)الأحقاف:٣٥.(١٣)البخاري،المناقب،ح(٣٣٤٣).(١٤)النور:٥٥.(١٥)آل عمران:١٦٠.(١٧)محمد:٧.(١٨)الحج:٤٠.(١٩)آل عمران:١٦٥.

لايغُرَّنَّك تقلب الذين كفروا في البلاد

ناصر بن يحيى الحنيني

الحمدلله العزيز الحميد ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، الحمد لله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملـك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، الحمـد لله مقـدر الأقدار، ومسبب الأسباب، ومكور الليل على النهار ، الحمد لله الذي لا يخلف وعـده ، ولا يهـزم جنده ،الحكيم العزيز ، والصلاة والسلام على النبي الكريم ، والرسول العظيم ، خير من صبر وظفر ، ومن تمكن وحلم وغفر ، وعلى آله الأبرار ،لصابرين على الأذى ما تعاقب الليل والنهار،وعلى مـن تبعهم بإحسان إلى يوم تشخص فيه الأبصار أما بعد :

أيها المؤمنون : إن اشتداد المحن ، وتوالي الفتن ، في آخر الزمن ، تُحزن القلـب ، وتُـدمع العـين ، وتذوب النفس لما يحدث حسرات ، فيا لعظم المصاب ، وقلة الحيلـة والجـواب ، أرواح تزهـق ، وأعراض تنتهك ، ودين يشكك ، وكافر يمكّن ، فالحمد لله على كل حال فاللهم ألهمنا الصبر علـى أقدارك ، واليقين بوعدك ولقاءك .

أيها المؤمنون : من تأمل في النور المبين بين أيدينا ، ذلكم القرآن العظيم ، خرج منه بـأعظم العـبر والدروس، وخاصة حين تظهر الأيام وجهها العبوس ، ويصطلي المؤمنون بحر الموت ويـذوقون منـه الكؤوس ، المؤمن عنده الدليل المرشد ،والهادي المُسْعِد، فيرجع إليه معظماً مصدقاً ،ومؤمناً موقنـاً ، فيطمئنَّ قلبه ، وينشرحَ صدره ،ويحمدَ ربَّه لعظيم النعمة التي بين يديه .

ولنا وقفة مع آية من كتاب ربنا تُزيل الغمة ،وتكشفُ الكربة عن الأمة ، ألا وهي قول الله عزوجـل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (لايغرَّنَّك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهـنم وبئس المهاد)، ولها مثيلاتها في كتاب الله عزوجل وجل ،قال سبحانه : (فلا يغررك تقلبهم في البلاد

) ، وقال أيضاً : (نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ)،ومن هذه الوقفات مع هـــذه الآيـــات الكريمات:

الوقفة الأولى : في الآية تسليةٌ للمؤمنين ؛حين يشتد بهم الأذى، وتطول المعانـــاة ، تســـليةٌ للقلـــوب المكلومة ، والنفوسِ الجريحةِ المحزونة ، تسليةٌ وأي تسلية .

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي عند تفسيره لهذه الآية : "وهذه الآية المقصود منها التســـليةُ عمـــا يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمِهم فيها ، وتقلبِهم في البلاد ، بأنواع التجارات والمكاسب واللذات ، وأنواعِ العزِّ والغلبةِ في بعض الأوقات ، فإن هذا كلَّه متاعٌ قليلٌ ليس له ثبوتٌ ولا بقـــاء ، بل يتمتعون به قليلاً ، ويعذبون عليه طويلاً هذه أعلى حالةٍ تكون للكافر ، وقد رأيتَ ما تؤول إليـــه "أ.هـــ

الوقفة الثانية : في الآية إزالةٌ للشكوك والتشكيك التي تصدر من الشيطان وجندِه، إزالةٌ لما قد يَحِيكُ في قلوب المؤمنين ، وهم يعانون الشظفَ والحرمان ، ويعانون الأذى والقهر والطغيـــان ، ويعـــانون المطاردةَ والجهادَ في وضح النهار وأمامَ العيان ، وكلُّها مشقاتٌ وأهوال ، بينمـــا أصـــحابُ الباطـــلِ يَنْعمون ويستمتعون بظاهر من الحياة الدنيا ،وما كتب عليه الزوال، بل يحيك هذا الخـــاطر وذلكـــم الهاجس في قلوب الجماهير الغافلة ،وهي ترى ما يؤلِمُها من تسلط الأعداء ،بـــل يحيـــك في قلـــوب الكفرة المعتدين الظالمين فيزيدهم غياً وظلماً وطغياناً وإفساداً، وهنا..وهنا تأتي اللمســـة الحانيـــة (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد)، فيا لله ما أعظمها من لمسة لامست القلوب المجروحة والنفوس المتألمة فهدأت القلوب بعد انزعاجها ، واطمأنت النفوس بعد غليانها ، تسلية بأن ما عندَ الكفار من متاع، هو قليلٌ زائل غير ثابت وماعند الله خير للأبـــرار، مـــن الجنات والنعيم المقيم، والعزِّ والتمكين إن عاجلا أو آجلا ، ولا يدخل مؤمنٌ الشكَّ في أن ما عند الله خير وأبقى .

أيها المؤمنون: يا من تقرأون كتابَ ربكم ،يامن امتلاءت قلوبُكم بحبِّ الله وتعظيمِه والإيمانِ والـــيقينِ بوعده ، اعلموا أن من صفات المؤمنين الإيمانَ بالغيب، واليقينَ والتصديق بوعد الله ووعيده وأنه حق، فالمنافقون قالوا يوم الأحزاب (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً)، والمؤمنون لما رأوا جمـــوعَ الكفـــر وهيلمانه قالوا: (هذا ما وعدنا الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانـــاً وتســـليماً)،المؤمنون أهـــلُ الحـــق ،والكافرون أهل الباطل، فاثبت أيها المؤمن على إيمانك ولا تضيعَ شيئاً من أجرك بكلمة تقولها وقت حزنٍ و غضب أو همٍّ ونصب ولتصبر وتتجلد وقل بخشوع وخضوع (إنا لله وإنا إليه راجعون) ،قل (أمنت بالله وبوعد الله) ،و(استعذ بالله من الشيطان الرجيم).

الوقفة الثالثة : فيه توجيه للمؤمنين الصادقين بالتأني وتركِ العجلة ، وعدمِ التسرُّعِ في الحكـــم علـــى الحال من واقعةٍ واحدة في زمنٍ محدود فالأيامُ دول، والدنيا لم تنتهي، والأقدارُ تُخَبِّأُ الكثير، وسنةُ الله

لو أخذ بها المؤمنون لوجدوا أن الأمور في صالِحِهم ، والميزانَ رجح بكفتِهم ، فأين نحن من غزوة أحد لما هزم المسلمون؟، وقتل بين يدي رسوله سبعون من أصحابه، هل ترك الجهاد؟، هل ترك الدين والعبادة؟، بل صبر وصابر وأخذ العبرة وجاءت بعدها غزوات حتى فتح الله على يديه، ومكنه من أعدائه وشانئيه، وإن لنا في التاريخ لعبرة فبغداد وما أدراك ما بغداد؟ مركزُ خلافة المسلمين ، ومنطلقُ جيوش المجاهدين ،ما ذا حصل لها سنة ستمائة وست وخمسين؟ لقد سقطت الخلافة الإسلامية وقتل أكثرَ من مليونِ مسلم ، وتحول نهرُ دجلةَ إلى اللون الأزرق ؛لكثرة ما ألقي فيه من كتب العلم ، وتحول ماؤه إلى اللون الأحمر لكثرة ما أريق من دماء المسلمين ، وتعفنت الجثث ،وانتشر الوباء وانتهكت أعراض النساء فهل انتهت الدنيا؟هل أفل نجم المسلمين؟ هل انقطعت انتصاراتهم ؟ بعدها بسنوات قليلةكانت الغلبة والتمكين للمؤمنين وهزم التتار شر هزيمة وطردوا من بلاد المسلمين فلا تنظروا إلى يومِكم ولكن استشرفوا المستقبل وتفاءلوا ،وهذه القدس السليبة وما أدراك ما القدس؟ ماذا حصل للمسلمين يوم أن استولى عليها النصارى في نهاية القرن الخامس وظلت تحت حكمهم أكثر من تسعين سنة ما يقارب مائة سنة وبعدها رجعت عزيزة بأيدي المؤمنين وأذل الله النصارى على يد القائد المجاهد صلاحِ الدين الأيوبي، فيا أيها المؤمنون أبشروا وأملوا فوالله أني لأرى بصيصَ النور في هذه الظلمة الحالكة، و عسى الله أن يأتيَ بالفتح أو أمر من عنده .

الوقفة الرابعة : فيه توجيه للمؤمنين أن يعبدوا الله ويجاهدوا ويبذلوا كل غال ونفيس في سبيل الله وفي سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمة الله ولا ينتظروا شيئاً من الدنيا حتى النصر والتمكين على العدو قد لايحصل لهم حتى تصفوا نياتهم وتصل إلى درجات عالية من الإخلاص والصدق والتجرد وهنا يأتي النصر ، (قال عبدالله بن رواحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة —ونقباء الأوس والخزرج يبايعونه على الهجرة إليهم قال له : اشترط لربك ونفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : (الجنة) ، قالوا ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل) ، نعم الجنة فقط ولا شيء من حطام الدنيا ، لم يقل جزاؤكم النصرُ والتمكين وإقامةُ الدولة المسلمة ،ولكن ربَّاهم على الإخلاصِ والتجردِ في أبهى وأعلى وأجلى صوره حتى من الأمور الدنيوية التي فيها مصالح شرعية ،فلما صفت النفوس وخلصت قامت دولتهم ،ومكن الله لهم وثبتهم عند لقاء عدوهم.

الوقفة الخامسة : في الآية إشارة إلى قرب النصر (ألا إن نصر الله قريب) ، فعندما تتدبر قوله (لايغرنك) أي لا تخدع ببهرجة كلامه ونصرهم الزائف المزيف فهو تقلب وليس بثابت ولا حقيقي ،و لكن العجلةَ سمةٌ من سمات البشر فجاءت الآيات لتعالج قلوب المؤمنين حتى يكونوا أكثرَ أناةً، وأعمقَ نظرة للأحداث ، وأن طريقَ النصر طويل، وليس بهذه السهولة، طريقٌ فيه أشلاء ودماء

،ولابد من معرفة هذه الحقيقة ، فبقدر التضحية وعظمِها يكون النصر، ولو كان النصرُ تمراً يؤكـــل لأعطيه أفضلُ الخلق وأحبُّهم إلى الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

الوقفة السادسة : أن ما قدمه المؤمنون من أعمال صالحة، وجهادٍ وبذل، ودعاء صادق ،فلن يـــذهب سدى ، والله لايضيع أجر من أحسن عملاً فقد قال سبحانه عقب هذه الآيـــة (والله عنـــده حســـن الثواب) فقد لا تحصِّل نصرا ولا عزا في الدنيا ،ولكن يُدَّخر لك أجرا ورفعةً ومنزلةً في جنة عرضـــها السموات والأرض .والدعاء له ثلاث مراتب فقد يمن الله عليك وتحوز أعلاها (فأدناهـــا وأقلّهـــا أن يحقق الله لك ما تتطلبه ، وأوسطَها أن يدفع الله عنك من البلاء ماهو أعظم ، وأعلاها أن يدخرَه لك أجراً عنده في الآخرة) فأنت لن تعدو هذه الخيرات والفضائل تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال.

الوقفة السابعة والأخيرة : في آخر الآيات يذكرنا الله بجامعِ الخير كله، وبقاعدةِ النصر التي لا تغيـــب ولا تتخلف (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون).فالصبرُ علـــى شهوات النفس وحظوظها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالها من طـــول الطريق وكثرة الأعباء ، الصبرُ على شهوات الناس ونقصهم وجهلهم وسوءِ تصورِهم ، وضيقِ أفقِهم ، وانحرافِ طباعهم ، وغرورِهم ، واستعجالِهم ،الصبر على انتفاخة الباطل ، ووقاحـــةِ الطغيـــان ، وانتفاشِ الشر ، وغلبةِ الشهوات ، وتصعيرِ الخدود، والغرور والخيلاء ، الصبرُ علـــى قلـــةِ الناصـــر، وضعفِ اليقين، وطولِ الطريق، ووساوسِ الشيطان في ساعات الكرب والضيق ، الصبرُ على مـــرارةِ الجهاد لهذا كله ، الصبرُ بعد ذلك كلِّه على ضبطِ النفس في ساعة القدرة والانتصار، واستقبالِ الرخاء في تواضع وشكر ، والبقاءِ في الضراء على صلة بالله مع الصبر، ورد الأمر كلـــه إليـــه في طمأنينـــة وخشوع.

وقوله (وصابروا) المصابرة : أي الاستمرار على الصبرِ وعدمِ الانقطاع ،فلا بد من مقابلةِ صبرِ العـــدو وجَلَدِهِ وتجلُّدِهِ بصبرٍ أقوى وأدوم ، فإذا كان الباطل يُصِرٌّ ويصبر ويمضي في الطريق ، فما أجدر الحق أن يكون أشدَّ إصراراً وأعظمَ صبراً .

(واتقوا الله لعلكم تفلحون): فالتقوى تصاحب هذا كلَّه ، فهي الحارس اليقظ في الضمير ، يحرسه أن يضعف ، يحرسه أن يعتدي ، يحرسه أن يحيد عن الطريق ، ولا يدرك الحاجة إلى التقـــوى -ذلكـــم الحارس اليقظ- إلا من يعاني مشاقَّ هذا الطريق ، ويعالجُ الانفعالات المتناقضة والمتكاثرة مع تكـــاثر الأحداث وتكاثر الأعداء وتكاثر المغريات في كل لحظة وفي كل حركة.فاللهم ارزقنا الصبر واليقين ، والثبات على الإيمان والدين .

ألا إن نصر الله قريب

د.ناصر بن يحيى الحنيني

الحمد لله القائل : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز)، الحمد لله الذي صدق وعـــده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، والصلاة والسلام على الذي بعث للناس كافة بشـــيراً ونـــذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولـــو كره الكافرون ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

عباد الله : مع كثرة المحن ، واشتداد الفتن ، قد يتسلل اليأس إلى بعض القلوب ، وقد يدخل الشـــك بعض النفوس بنصر الله وتمكينه لأولياءه ، وهذه الظنون والشكوك تفعل فعلها في القلوب التي لم تمتد بنور الوحي حق الاهتداء ، أو قل لم تتدبر كتابَ ربها حق التدبر ، كتابُ الله الذي فيـــه البشـــارةُ بالنصر والتمكين لعباد الله المؤمنين ولا نشك ولا نرتاب لحظةً واحدة في ذلك ، ولعلي أذكر نفســـي وإياكم ببعض الآيات البينات التي أكدت وصرحت بما نعتقده وندين الله به والتي يجب علـــى كـــل مسلم الإيمان بها فمن هذه الآيات :

قول ربنا جل وعلا : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) غافر [٥١]، ويقول سبحانه : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) آل عمـــران[١٦٠، ويقول المولى جل شأنه:(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) الحج [٤٠]، ويقول سبحانه : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ، ويقول جل وعلا: (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريـــب) الصف[١٣]،وقال سبحانه لنبيه الكريم : (وينصرك الله نصر عزيزاً) الفتح [٣]، ويقول سبحانه مسلياً أنبياءه وأولياءه : (فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) الأنعام [٣٤]، وقال سبحانه عن الحال التي قد تصل بالأنبياء من الشدة والبلاء : (حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهـــم قـــد كـــذبوا جاءهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله) يوسف [١١٠]،ويقول سبحانه : (والله يؤيد بنصره من يشاء) آل عمران[١٣]،ويقول سبحانه عن الحقيقة التي لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا : (ولقـــد ســـبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون،وإن جندنا لهم الغالبون) الصافات[١٧١-١٧٣]

ومن خلال هذه الآيات وما تقرره من حقائق ثابته ومعلومات مسلمة لا شك فيها ولا ريب أرســـل بهذه الرسائل علها أن تجد في قلوب وعقول من أرسلت لهم مكاناً :

الرسالة الأولى : إلى عموم الأمة المسلمة : لاتيأسوا يا من رضيتم بالله ربا وبالإسلام دينـــا وبمحمـــد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وأبشروا وأملوا فإنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكـــافرون ، واعلموا أن هذه هي سنة الله لن تمكن الأمة حتى تبتلى وتمحص وحتى يُعلمَ الصادق مـــن الكـــاذب والمؤمنُ من المنافق ، ولا يغيبن عن أذهانكم طرفة عين ما ذكر من آيات بأن هذه الأمة منصورة فـــلا تجزعوا لفترة قد تمر بالأمة عصيبة ولكن هي من مقدمات النصر فلا نصر بدون ابتلاء ، ولـــو وجـــد النصر بدون الابتلاء لكان أحق الناس به أحبُّ الخلق إلى الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

الرسالة الثانية : إليكم ياشباب الأمة يامن تعقد الأمة أملَها بعد الله عليكم فأنتم عدة المستقبل ، وأنتم الشوكة التي في حلوق الأعداء ، وإننا والله لنفرح بالأعداد الكثيرة في شرق الأرض وغربها من عودة الشباب إلى الإسلام الصحيح والتمسك بالعقيدة ومحبة العلم وتسارعهم للجهاد في سبيل الله ، ونقول إن هذه من بشائر النصر للأمة فإذا كان شبابها شباب علم ودعوة وجهاد فبمثل هؤلاء يحصل النصر ، إننا لما نرى صغار المسلمين وهم في حلق القرآن وفي حلق العلم ، نفرح ونقول هذا هو جيل النصر ، نفرح لما نرى صغار المسلمين وكبارهم وهم يتكلمون بكلمات تنم عن التربية التي سوف ينشأون عليها فنراهم يرددون البغض للأعداء ومحبة الصالحين والعلماء والمجاهدين فنقول هذا والله الذي نريد ، ولكن رسالتي ليس إلى هؤلاء فالذين ذكرت أقول لهم ثبتكم الله وزادكم هدىً وتقوى ولكن رسالتي إلى فئة من شباب الأمة تقف حائرةً متخبطةً فيها خير كثير ولكن يغلبهم الشيطان في بعض الأحيان وفي أحيان كثيرة تغلبهم الدنيا وزهرتُها أقول لهولاء (إن تنصروا الله ينصركم) ياشباب الإسلام كيف ننصر ونحن لمن ننصر الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ياشباب الإسلام كيف ننصر وفينا من يقلد الأعداء في قصة أوفي لبسة أو يعيش بعيداً عن دينه وربه ، فلكم مني هذه الرسالة اقبلوا على ربكم وانصروا دينكم وسوف تعيشون عيش العزة والرفعة ولا يعرف قدرها إلا من جربها وتاب إلى الله وأقبل على دين الله .

الرسالة الثالثة : إليكم أيها الدعاة يا طلبة العلم يامن تبذلون من أوقاتكم وأموالكم وجهدكم نسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتكم ، لا تستعجلوا النصر وعليكم بالصبر فهو طريق الأنبياء ، وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء في صحيح البخاري (عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)

تأملوا وتدبروا (ولكنكم تستعجلون) اعلموا أن الطريق طويل وفيه تضحيات بالمال والنفس والأهل ، يا دعاة الحق يا طلاب العلم ، لا تستعجلوا قطف الثمرة فتهدموا ما بنيتم ، فبعضكم تحالف مع الباطل وأهلِه وتنازل عن بعض أصول دينه طمعاً في النصر والتمكين ونسي أو غفل أن النصر بيد الله ومن عند الله وليس من عند أعداءه ، نسي بعض الدعاة أن الدين لن ينصر إلا إذا تجردنا من كل حظوظ الدنيا ، وهذا ربنا جل وعلا يحذرنا من هذا الطريق ويقول (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) ، ويقول لنبيه الكريم (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا

نصيراً)الإسراء [٧٤-٧٥]،وتأمل في الآيائين كيف ربط النصر بعدم الركون إلى الذين ظلموا ثبتنا الله وإياكم على الحق والدين حتى نلقاه ، والشق الآخر من الدعاة وطلبة العلم الذي استعجل الثمرة والمواجهة مع أعداء الله في معركة غير متكافئة وفي مواطن ليست أرضاً للجهاد فقاتل في بلاد تقام فيها الصلاة ويدعى فيها إلى الله ودين الله ظاهر ، مترعه طيب وهدفه سام نبيل ، ولكنكم قوم تستعجلون ، ولايفهم من هذا أننا لا نعتقد الجهاد ولكن نقول به الجهاد له ميادينه وأماكنه ورجاله وليس في كل مكان وهو ماضٍ إلى يوم القيامة وسيأتي مزيد بسط لهذا في كلام قادم ، رسالتي إلى كل داعية وطالب علم وكل من يريد نصر الأمة لن تنصر الأمة وهي بعيدة عن منهج الله كيف تنصر وفيها المعاصي ظاهرة والشرك والبدع تضرب أطنابها في أقطار المسلمين كيف تنصر وقد اشترط ربنا لتمكينها ونصرها أن تعبده ولا تشرك به شيئاً، كيف تنصر وهي تحكم بغير شرع الله بالقوانين الوضعية فالصبر الصبر وعليكم بمجاهدة الباطل الذي استغل نفوذه وسلطانه في وسائل الإعلام فغرب المسلمين ويحاول أن يفسد عليهم دينهم وأخلاقهم فقابلوا الحرب الفكرية بمثلها

وانشروا دين الله واكشفوا زيف دعاويهم واعلنوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يعلم الناس ويتعلموا ويتربوا على معرفة المنكر وبغضه وبغض أهله ومحبة المعروف ومحبة أهله ، واستمروا في تربية الأمة وأجيالها حتى يخرج على أيديكم جيلَ النصر المنشود ولا تستعجلوا الثمرة فإن النصر يلوح في الأفق فلا تأخروا مسيرة الإصلاح بعجلة لاتخدم أهدافكم وإياكم والجبن والخور والخوف فالجبان لا ينصر مظلوماً ولا يرفع راية لدعوة ولا لعلم ، والعدوا لا يخاف إلا من المؤمنين الشجعان الأبطال الذين يقولون الحق ولا يخافون في الله لومة لائم .

الرسالة الرابعة : إلى المتفرجين الذين يرون المعركة بين الحق والباطل بين الإسلام والكفر عبرميادين شتى دينيةً و عسكرية وثقافية وسياسية أين موقعكم من هذه المعركة؟ ، يامن جعلت اهتمامك وشغلك الشاغل تسلية نفسك والتنقل في البراري والوديان تتنسم عبير الأشجار وعلى ضفاف الأنهار ، يامن ذهب وقته في التفرج والنظر في الأحداث والتسمع في المجالس لما يكيده الأعداء ،ثم تقلب طرفك وتنظر في نفسك وتقول هذا ليس لي ولست بكفء للدعوة والجهاد ونصر دين الإسلام ، وتعلم حق العلم أنك في ذلك غير صادق بل أنت تريد التهرب من المسؤولية ، ألا فلتعلم أن الدين مسؤولية الجميع والدفاعَ عن دين الله والذبَّ عن شريعته وعن حرمات المسلمين ، والدعوةُ إلى الله وإلى دين الله مسؤوليتنا جميعاً مهما كنت مقصراً ، وأول طريق حتى تكسر هذه الأوهام استقم على دين الله وجاهد نفسك واضرب بسهم في نصر دين الله قبل أن يأخذ الناس أخذاتهم ، تصور كم هي حسرتك حين يقطف المسلمون الثمرة ويفرح من جاهد وبذل ونصح وأنت تقف متفرجاً لالدينك نصرتك ولا لنفسك نصحت فالله الله فالبدار البدار فنصر الدين أبوابه كثيرة بالنفس والمال والجاه

والعلم ، فياعبدالله لا تبخل في تقديم أي شيء لدينك ، وكن مبادراً ولا تنتظــر مـــن الآخـــرين أن يدفعوك فقد تجد وقد لا تجد من يدفعك للخير سر على بركة الله ووفقنا الله وإياك للطاعة .

الرسالة الخامسة : رسالة إلى الأبطال ، غرةِ الزمان ، وجندِ الإيمان ، إلى المرابطين في الثغور إلى الذين أثخنوا في أعداء الله ، إلى أحبابنا الذين رفعوا العار والذلة عن جبين الأمة ، يامن تركتم لذيذ العـــيش لنصرة دينكم والمسارعة لنيل الشهادة في سبيل الله ، إلى الأبطـــال المجاهـــدين في أرض الإســـراء في فلسطين ، إلى المجاهدين في الشيشان إلى المجاهدين في أفغانستان ، إلى المجاهدين في كشمير والفلـــبين والسودان وفي العراق اثبتوا فهذا هو طريق النصر والله ثم والله لن تنصر الأمة إلا بالجهاد ،(وما تـــرك قوم الجهاد إلا ذلوا) كم لكم من فضل علينا أحييتم قلوبنا وربيتم أبناءنا ونساءنا على الجهاد والبذل ، لا نستطيع أن نصف لكم شعورنا ونحن نتابع أخباركم ونطارد مواقعكم التي يحجبها أعداءكم مـــن الأمريكان وغيرهم لنسمع صوتكم أو نعرف أخباركم ،ووالله إننا لفـــي شـــوق أن نشـــارككم في جهادكم ولكن نستغفر الله من تقصيرنا وعجزنا ، وإن كان لنا عذر فنقول أنتم في أعلى الثغور ونحن في بعض الثغور ، أيها المجاهدون سيروا فإنكم تعلمون كما نعلم أنكم تقطفون الآن ثمـــرة النصـــر في فلسطين فقد زلزلتم عرش اسرائيل وأمريكا من وراءها وما هذه الألوف التي جاءت إلى العراق إلا من أجلكم لكي تنقذ الدولة اللقيطة اللعينة اسرائيل ، لله دركم أيها الأبطال كم نفرح ونبكي لما نســـمع عن عملياتكم الاستشهادية ونقول يا يهود إن أول الغيث قطرة ، كم فرحنا وسعدنا عن تطـــويركم لآلات الحرب فقد سمعت قلوبنا وان لم نتشرف بسماعها بآذاننا صوت دوي البتار والبنا والقسام التي دكت مغتصبات يهود ، استمروا فقد ضجت الصليبية واليهودية العالمية مـــن حنكـــتكم السياســـية ومقدرتكم القتالية سيروا واثبتوا ولا تتركوا هذا الخيار فهو الذي يُذل أعناق أعداءكم ، وأنـــتم يـــا أبطال أفغانستان يامن تركتم الديار والأهل لنصرة دين الله والإثخـــان في أعـــداء الله ، إننـــا نتـــابعُ أخبارَكم رغم التعتيم الإ علامي والحربِ

النفسية وتصلُ أخبارُ عملياتكم فما يمر يوم أو يومان إلا ويقتل من علوج الروم مايفرح قلـــب كـــل مسلم ونحن ننتظر المزيد نصركم الله وثبتكم على كل أعداءكم ، وأنتم يا أبطال الشيشان لقد شاهدنا وشاهد الناس كلُّهم عبر أشرطة الفيديو التي ولله الحمد والمنة تباع في كل مكان شاهدنا كيف تقتلون وتأسرون أعداء الله بالعشرات وليس الخبر كالمعاينة ، العالم يتعجب من قلة عددكم وكثرة قتلكم في الروس الذين يملكون الترسانةَ القويَّة من الأسلحة ولكنهم لا يفقهون قول الله (وكم من فئة قليلـــة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) ، إن ظهور الجهاد هو من بشائر النصر للأمة فلكم أجـــر إحيـــاءه بـــين المسلمين نسأل الله أن يثبتكم وينصركم على عدوكم ويرزقنا وإياكم الشهادة في سبيل الله إنـــه ولي ذلك والقادر عليه .

الرسالة السادسة : أيها الإعلاميون ، إن من حق الأمة عليكم أن تبشروها بالنصر وترفعوا معنوياها من خلال إظهاركم لانتصارات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لماذا لانسمع في وسائل إعلام المسلمين عن الانتصارات في فلسطين والشيشان وافغانستان والعراق لماذا تتعاونون مع أعداء الله في هزيمة المسلمين معنوياً ، لماذا تركزون في برامجكم وتغطياتكم الإعلامية على الهزائم وكل أمر يصيب المسلمين بالإحباط ، لماذا لا تبثون لنا ما يلحق بأعداء الله من التنكيل والقتل على أيدي المجاهدين إننا لن نعلِّمَكم حرفتكم فأنتم أقدر الناس على صياغة الأخبار وعرضها بطريقة تزيل الغمة عن المسلمين وترفع معنوية الأجيال القادمة ، إن أكبر جريمة تمارس أن يتربى أجيال الأمة على مشاهدة الهزائم المتوالية وتحجب عنهم مواقف النصر والتمكين على أعدائهم ، لما ذا لا تنشرون وتبشرون الأمة بدخول الآلاف بل مئات الآلاف من الناس في الإسلام في أفريقيا في الآونة الأخيرة ، لما ذا لا تبشرون الأمة بدخول عشرات الآلاف من النصارى في أمريكا وأوربا في الإسلام رغم التشويه والتعتيم الإعلامي على دين المسلمين ، أيها الإعلاميون : ألم تأخذكم الحمية وتفعلون كما فعلت أمريكا حينما تحجب أخبار هزائمهم وقتلاهم في أفغانستان والعراق ، فلا أقل من أن تفعلوا مثل ما فعلوا ، فأمريكا لم تنتصر إلا بالأكاذيب ونحن نطلب أن تنصروا المسلمين بالصدق والمصداقية في عرض الأخبار ، هدانا الله وإياكم لكل ما يحبه ويرضاه.

الرسالة السابعة : إلى كل عدو لله ورسوله من الكفار والمنافقين والمندسين في صفوف المسلمين نقول لهم أبشروا بالذي يسوؤكم فبالرغم من المرحلة العصيبة التي تعيشها الأمة إلا أننا نرى ولله الحمد بشائر النصر تقترب فهاهي الأمة تنادي بالجهاد وبإعلان الجهاد في شرق الأرض وغربها بعد أن غيبت الأمة سنوات وسنوات عن مثل هذه المعاني ، يا أعداء الدين يامن استخدمتم كل الوسائل لإغراق الأمة في الشهوات والبعد عن الدين هاهي الأمة المنصورة تعود إلى الله بكل شرائحها فالعودة لم تشمل رواد المساجد ولا رواد المراكز الإسلامية فقط فالهداية والرجوع إلى الله شمل الرياضيين والفنانين والسياسيين وكبار المجرمين والتجار والرجال والنساء والمراهقين والمراهقات فالحمد الله أولا وآخرا فكفوا شركم واغتنموا الفرصة وتوبوا إلى ربكم وإلا سوف يحل بكم ما حل بأسلافكم من أعداء الدين ، كما فعل نبينا في بني قريظة بعد أن تمكن منهم ولنا في رسول الله أسوة حسنة .

تأخير نصر الدين لُطف بالمؤمنين ومُكر بالكافرين والمنافقين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد ..

أما بعد ..

فإن لله سبحانه وتعالى عادة لوْ تغيّر وتبدل كل شيء لم تتغير و لم تتبدل، نافذة في ممالكه بلا ممانع، قاهرة لخلقه بلا مدافع، مصدرها الحكمة والرحمة وشمول القدرة مع القيام بالقسط .

فمنها ما يظهر العلم به لكثير من الخلق، ومنها مالا يعلمه إلا القليل منهم، ومنها مالا يعلمه سواه سبحانه .

فمن أمثلة ما يخفى على كثير من الناس من عادة الرب وسنته لاسيما أهل النفاق تأخير نصر الدين وأهله وهو على الحقيقة بالرغم من شدة وَطْأته وثقل حمله نصر خفي مَوْصول بالنصر الجلي، فلابد من هذا للمؤمنين إذا قاموا بنصرة الدين، وهو لطف بهم كما حصل في غزوة أُحد .

وتأمل كلام الإله وتعرّف على سننه التي لا تتبدل، ترى أنها تشتد الحال ويعظم الكرب حتى يقول الرسول والمؤمنون معه : {متى نصر الله} . فيكون الجواب من الولي النصير : {ألا إن نصر الله قريب} ومثله : {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا} فيقول تعالى : {أتاهم نصرنا} .

وهُنا يَرِدُ سؤال يكون في جوابه كشف المستور المخبأ عن علم أكثر الخلق، والسؤال هو : هل الرب عز وجل كان خاذلاً لرسله وعباده المؤمنين في شدتهم ثم إنه بدالَهُ بعد أن ينصرهم حينما قال تعالى : {ألا إن نصر الله قريب} وحينما قال : {أتاهم نصرنا}.

الجواب : تعالى عن ذلك علواً كبيراً وإنما من أسرار الأقدار أن يكون الابتلاء خفياً والمحنة مستورة {ليميز الله الخبيث من الطيب} وإلا فالرب سبحانه لا يستجد له جديد كان خافٍ عليه قبل ولا يؤثر في قدرته مؤثّر من دونه كيف ومقاديره جارية على سننه، سابقة لخلقه .

وتمام جواب السؤال هو أن الرب سبحانه وتعالى لم يتخل عن رسله وعباده المؤمنين، و لم يخذلهم وقت شدتهم ووقت الغلبة التغريرية الاستدراجية لعدوهم والتي هي غير مستقرة ولا مستمرة وإنما ليظهر معلومة وآياته وعجائب قدرته، وحيث إن الكمائن تظهر عند المحن فمن أعظم ذلك ظهور كمائن المنافقين وظنهم السوء برب العالمين ألا ينصر من نصر دينه .

وحِكَمٌ غيرها عظيمة القدْر ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه (زاد المعاد) في كلامه على غزوة أحد أحببت نقلها هنا لما فيها من العبرة والعِظة ولِمشابهة الحال وإن لم يكن من كل وجه، {ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة} .

قال رحمه الله تحت عنوان : (فصل في ذكر بعض الحِكَم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحد) :

(فمنها) تعريفهم بسوء عاقبة المعصية والفشل(١) والتنازع وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى : {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم} .

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان، [و لم تكن معصيتهم إلا مخالفة الرماة مَوْضعهم الذي أمرهم الرسول r بلزومه

فبسبب تلك المخالفة جرت الأمور الكبيرة من إدالة العدو وغير ذلك من الأمور المحزنة، فكيف بمخالفاتنا التي لا تحصي ؟] .

(ومنها) أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جَرَتْ بأن يُدَالوا مرة ويُدال عليهم أخرى لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم و لم يتميّز الصادق من غيره، ولَوْ انْتُصِرَ عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميَّز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤا به ممن يتبعهم على الظهور والغَلبة خاصة .

(ومنها) أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان : هل قاتلتموه؟ قال : نعم ، قال : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قال : سجال، ندال عليه ويُدال علينا، قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

(ومنها) أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطارَ لهم الصّيت دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميّزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رؤسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم صريحاً، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دُورهم وهم معهم لا يفارقونهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم، قال الله تعالى : {ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء} . أي ماكان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميّزهم بالمحنة يوم أحد {وما كان الله ليطلعكم على الغيب} الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء فإنهم متميزون في علمه وغيبْه وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة، وقوله : {ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء} استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب كما قال : {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول} فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة [ومن هذا الغيب أن يسْتيقن المؤمن أن الله ينصر دينه لا محالة] .

(ومنها) استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السّراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

(ومنها) أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلّوا وانكسروا وخضعوا فاسْتوْجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع وَلاية الذل والإنكسار، قال تعالى : {ولقد نصركم الله ببدر

وأنتم أذلة} وقال : {ويوم حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً} .

فهو سبحانه إذا أراد أن يُعز عبده ويجبره وينصره كَسَرَهُ أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره .

(ومنها) أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم و لم يكونوا بالِغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيّض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها .

(ومنها) أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولوْ تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه .

(ومنها) أن الشهادة عنده أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خوَاصّه والمقربون من عباده وليس بعد درجة الصّدّيقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تُراق دماؤهم في محبته ومرضاته ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيْل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو . [هذا فيه شَبَه من السور الذي باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قِبَله العذاب، فتأمل حال المؤمن والمنافق هنا] .

(ومنها) أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قَيّض لهم الأسباب التي يسْتوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم وطغيانهم مُبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلّط عليه فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محْقهم وهلاكهم [تأمل هذا وترقّب فعل رب العالمين بأعدائه، وقد ظهرت ولله الحمد علامات ذلك واضحة من قَوَارِعِهِ المتوالية عليهم ونحن نسأله المزيد، وتدبّر قوله سبحانه عن فرعون وقومه : {فلما آسفونا انتقمنا منهم} فالطغاة يتمادوْن بطغيانهم والرب يمهلهم ويظنون أنه مهملهم حتى إذا استكمل غضبه عليهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا معنى الآية .

وقد بيّنت في (جواب الأمريكيين) وغيرهم عظم فساد هؤلاء الكفرة في الأرض وأنه أعظم من إفسادهم بالمحاربة وتقتيل المسلمين فنحن نتربّص بهم سنن شديد المِحال] .

ثم إن ابن القيم رحمه الله ذكر كلاماً ثم قال في قُبح طاعة الكفار : وحذّرهم سبحانه من طاعة عدوهم وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحد، ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين وهو خير الناصرين، فمن

وَالاه فهو المنصور، ثم أخبر أنه سيلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم والإقدام على حربهم، فإنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدْر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شيء خوفاً ورعباً، والذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بالشرك لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء [تأمل رعب أعداء الله] ، وذكر كلاماً ثم قال عن المنافقين أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية وقد فُسّر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل وأنه يُسْلمه للقتل، وقد فُسّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه، فَفُسّر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يُتم أمر رسوله ويُظهره على الدين كله.

[انظر قوله في معنى ظن السوء : (وأن أمره سيضمحل) واعلم أن هذا ظن أكثر الخلق اليوم وهو ظن المنافقين لأن طغيان الباطل وطوفانه الذي تفجّر في وقتنا قد طغى على العقول وزيّفها، ولما جاء الابتلاء بتكالب الكفار على المسلمين وحصول نوع هزيمة هي على الحقيقة ابتلاء للمنافقين ولطفاً بالمؤمنين ظهرت الكمائن الخبيثة ممن لم يقْدر الله قدره ولا يعرف حكمته فتكلم من تكلم وعمل من عمل وظنوا أن الدين لن تقوم له قائمة، وكانت قد امتلات أذهانهم الخاوية المظلمة أن الدين لا يصلح لهذا الزمان اللهم إلا دين مُلَقّح بمادة كفرية ونحْلة طاغوتية، فيبقى اسم ورسم في غاية الذلة والهوان قطع الله دابر كل من ظن هذا الظن وأراد هذه الإرادة من نوّاب إبليس ووكلائه من الكفرة والمنافقين الذين {نسوا الله فنسيهم} والذين (هانوا على الله فعصوْه ولوْ عَزّوا عليه لعصمهم).(١)

أيظن المنافق أن الله تخلى عن ملكه وَوَكل دينه وعباده إلى غيره وأنه يخذل من نصر دينه ؟ لا، وعزته، فتعْساً للظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء، والله غالب على أمره] ثم قال ابن القيم، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول : {ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل وظن غير الحق لأنه ظَنٌّ غير مايليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء بخلاف ما يليق بحكمته وحمْده وتفرده بالربوبية والإلهية ومايليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه ولكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن أنه لا ينصر رسوله ولا يُتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويُعْليهم ويظفرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لايقوم بعده أبداً فقد ظن بالله ظن السوء ونَسَبَهُ إلى خلاف مايليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمْده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يُذل حزبه وجنده وأن تكون

النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به فمن ظن ذلك فما عرفــه ولا عــرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله .

[تأمله فإنه كلام نفيس للغاية منطبق على مانحن فيه من وجوه عديدة حيث ظن أكثر الخلق بــرب العالمين سبحانه ظن السوء وظن الجاهلية حيث اعتقدوا أن الله يُضَيِّع للأفغان والعرب الــذين معهــم سعْيهم بإقامة دينه وشرعه ومُنابذتهم أعدائه وجهادهم إياهم وأنه يخذلهم وينصر الكفار عليهم] .

ثم قال رحمه الله : ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير وهو ابتلاء مافي صدورهم وهــو اختبار مافيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافق ومَــن في قلبــه مرض لابد أن يظهر مافي قلبه على جوارحه ولسانه .

[لقد ظهر من كثيرين مكنونات سوء يصعب حصر ما ظهر منها وما خفي أكثر، ومن ذلك ماكتب بعض المعتوهين عن المجاهدين في بعض الجرائد من قوله في إجابته المعترضين عليه لما يظهر من بغضــه للمجاهدين، يقول : (أحسن الله عزاءك في أُسامتك وطالبانك) ويقول أهلكه الله ســاخراً : (فــلا طالبان ولا حالِمان) .

وأهل الإيمان ولله الحمد على يقين لا يتزعزع أن الله سوف يُخلف ظنون المنافقين ومرضى القلــوب الظانين بالله الظن الذي لا يليق به سبحانه كما أخلف ظنون إخوانهم مِن قبل بنصره للحق ولمن قــام به وكبْته لأعدائه وخذلانهم وموتهم بغيظهم .

وقد ظهرت ولله الحمد بشائر النصر وتحقق قول الله عزل وجل في الكفار والمنافقين : { ولن تغــني عنكم فئتكم شيئاً ولوْ كثرت وأن الله مع المؤمنين } فما زالت ولله الحمد القوارع الإلهية والآيــات الربانية تتابع على أعداء الله مثل الرعب وهو جند من جند الإله العظيم وغير ذلك مــن الخســران والخذلان والأمراض والجراد والطوفان والأعاصير والحرائق والزلازل واختلافهم فيما بينهم وغير ذلك مما يؤيّد الله به عباده المؤمنين ويخذل أعداءه الكافرين وما زلنا في انتظار المزيد من الولي الحميد، قــال تعالى : {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم} .

ثم قال ابن القيم قدّس الله روحه : ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتيمز فيه أحد الفريقين من الآخر تميّزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير تكلُّــم المنافقين بما في نفوسهم فسمعه المؤمنون وسمعوا رَدّ الله عليهم وجوابه لهم وعرفوا مؤدّى النفاق ومــا يؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة، فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة، ونعمه على المؤمنين سابغة وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشــاد وتنبيه وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما، انتهى باختصار .

وإن من عرف بعض حِكَم تأخير النصر للمؤمنين على أعدائهم لم يظن بربه ظن سوء ولم يقنط مــن رحمته ويعلم أن تأخيره سبحانه لنصره نصر لهم وإن رغمت أنوف أعداء الله من الكفرة والمنافقين.

وإن في هذا الكلام البليغ لابن القيم كفاية كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شـــهيد، أمـــا المنافق المطبوع على قلبه فلوْ تناطحت الجبال وكلمه الموتى فإنه لا يزداد إلا عتواً ونفـــوراً، فلْيمـــت بغيظه.

وتأمل قول ابن القيم : (فلله كم من حكمة في هذه القصة بالغة، ونعمة سابغة) مع أنه حصـــل في غزوة أحد ما حصل على النبي r وأصحابه فتأمل كيف جاءت المِنن عن طريق المِحن، واعلم أن رب الزمانين واحد وأنه رقيب على عباده شهيد عليهم .

فالحذر كل الحذر من عزل المالك الحق عن ملكه والتعوّض بالسياسات الطاغوتية المنتنة، فإن هذا بحر قد غرق فيه أكثر الخلق على اختلاف طبقاتهم في هذا الزمان المُوَطئ للدجال والأمور العظيمـــة {ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} و { سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون }.

والحمد لله وصلى الله على نبينا محمد ،،، .

كتبه

عبد الكريم بن صالح الحميد

أواخر ربيع الأول ١٤٢٣هـ

خطوات على طريق الفلوجة

د.أسامة الأحمد

" الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا "..

تذكرت هذه الكلمة الرافعية التي خاطب بها الرافعي شباب الأمة ..

تذكرتها لما رأيت آلاف العرب المسلمين يبدؤون مسيرهم على الطريق الطويلة الممتدة من بغـــداد إلى الفلوجة ..

كانوا سائرين بعد الفجر يطلبون لأمتهم يوم النصر ..

كانوا غاضبين غضب الجمر .. ثائرين ثورة البحر .. عازمين على إنقاذ إخوانهم المحاصرين في الفلوجة على مرأى من العالم الكابي ..

كانوا يحملون لهم الغذاء والدواء ، ليقايضوهم ببضاعة أغلى هي عزم تجلـــى في ســـواعد الفلوجـــة المتوضئة ، ونور تبدّا في جبهتها الساجدة لربها ..

كانوا يسيرون وهم يكبّرون ، وكنت في نفسي أقول: " الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا " ..

كنت ألمح في وجوههم قبساً من أنوار الأنصار..

أنصار المدينة الذين استقبلوا المهاجرين على الثنيات ..

وهاجر أنصار بغداد لينصروا إخوانهم المهاجرين في فلوجة الثبات ..

وكنت في نفسي أقول : " لن تخلو أرض من مهاجرين ، ولن يخلو زمن من الأنصار " ..

كانت جنة الحضارة الإسلامية متلهفة تنتظر طلائع الركب الذي طال انتظاره ..

كانت أقدامهم تخطّ في الأرض ، ولكنّ آثارها كانت تُكتب في لوحة التـاريخ هكـذا: " الخطـوة المتقدمة تبدأ من هنا " ..

كانت خطواتهم المصمّمة تخط بين بغداد والفلوجة ، ولكني كنت أراها بين الأرض والسماء ..

يا روعة الإسلام !

إن خطوة حبٍّ على الأرض ، هي خطوة إيمان تصعد إلى السماء ..

الحب آية الإيمان الكبرى ، ووحده الإيمان الذي يشق للأمة دروب النصر في الـدنيا ، والنجـاة في الآخرة ..

ولكن الخطوة المتقدمة إلى الحب والإيمان تبدأ من هنا ..

فيا كل مسلمي في العالم

كونوا هناك مع إخوانكم بأي معنى من المعاني .. فقد أفلح من كان معهم ، أو من قال في نفسه : (ياليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيما) ..

كونوا هناك .. فإن لم تكونوا هناك لم تكونوا هنا ..

كونوا هناك .. فإن لم تكونوا في إحدى جبهات المعركة كنتم أنتم وقودها ، ولا كرامة ! ..

وهوذا الإمام ابن القيم قد ترك لكل منكم وصية تقول : ((إذا لم تكن من أنصار الرسول في المعركة ، فكنْ من حرّاس المتاع .. فإن لم تفعل فكن من نظّارةِ الحرب الذين يتمنّون النصر للمسلمين .. ولا تكن الرابعة فتهلك)) .

اللهم لا تحرمنا من شرف الانضمام إلى راية الأنصار..

اللهم إنا نعلم أنك من وراء هذه الأمة ، فردّها اللهم إلى كتابها ، وإلى درب نبيها ، وجمِّلـها اللـهم بأيام النصر وألوان الحضارة ..

اللهم إن لم تعنّا فإنا عاجزون عن تغيير ما بأنفسنا ، فاللهم عونك ونصرك الذي وعدت ..

اللهم ارحم الفلوجة .. وأبناء الفلوجة .. وأبناء أبناء الفلوجة ..

اللهم ومن سلك طريق بغداد إلى الفلوجة فسهل له طريقا إلى الجنة..

أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ

مبارك عامر بقنه

نحن مع صراعنا مع العدو في حاجة ماسة للتفاؤل والاستبشار بالنصر والبعد عن التشـاؤم والتـبرم، فالعدو إن نال من أجسادنا وممتلكاتنا فلا ندع له الفرصة أن ينال من عقيدتنا وآمالنـا وطموحاتنـا،

فأكبر نصر يحققه العدو هو تحطيم أنفسنا، والشعور باليأس؛ لأننا بذلك نخضع ونذل ونستكين ويحقق العدو آماله فينا.

لنقلل من اللوم والعتب لأنفسنا فإن كثرة اللوم قد يؤدي إلى فقدان الثقة وازدراء الذات. فنحن نريد ان نعيد بناء امتنا كي تستعيد قيادتها ومكانتها التي منحها الله إياها ولن يتحقق البناء لأمة تزدري ذاتها وتحتقر بعضها وتهمش دورها. والبناء الحقيقي يبدأ بالشعور بالعزة والتقدير " وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ " فشعورنا بالعزة في وقت المحن والاستضعاف هو من بدايات النصر والخروج من المأزق. والداعية والمربي عليه أن يتغلب على مشاعر اليأس ويزرع في ذاته وفي الأمة التفاؤل وإشراقه الأمل، فلا نزيد الناس جرحا، بل نضمد جراحهم، ونحيي فيهم الأمل كي يستمروا في محاولة النهوض ومقاومة الاستضعاف.

ولو تأملنا لوجدنا أنه مع هذه الآلام التي تمر بها الأمة إن هناك انتصارات وإنجازات تجعلنا ننطلق في مسيرتنا الدعوية والتربوية النهضوية فوجود أمة تقاوم العدو وتكافح عن دينها يعتبر بذاته نصر؛ فكون هناك طائفة تأبى الخنوع والخضوع وتقاتل من أجل دينها هو بحد ذاته نصر يستحق الفخر، وخصوصا أن الأمة قد تعرضت لسنين طويلة لحرب عقدية وفكرية يراد منها تغيير المفاهيم وتحريف التصورات؛ إلا إنه مع كل محاولات التطبيع والتغريب تبقى طوائف من الأمة ممانعة ضد هذا المسخ فهذا نصر لنا يجعلنا نشعر بعزة وأننا انتصرنا على عدونا بعدم قدرة على تحقيق أهدافه على كافة أفراد الأمة.

وفي صراعنا مع اليهود وغيرهم من المهم أن لا يحدث لدينا انكسارا داخليا بسبب ما نراه من قتل ودمار في صفوفنا، فنحن وإن كنا نألم فهم كذلك يألمون "وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً" فنحن أسمى منهم فالله مولانا ولا مولى لهم، ونرجو من الله مالا يرجون؛ فنرجوا رضى الله والجنة وهم يرجون رضى شهواتهم وشياطينهم، " وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" ويقول سبحانه :" فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ" فالخسارة في الأرواح والماديات في سبيل الله لا تزيد المؤمنين إلا عزاً وافتخاراً؛ وحسبنا عزاً أن الله مع المؤمنين. ومعرفة ذلك يجعلنا أن لا نصاب بالإحباط واليأس عند حدوث ضعف في الصف الإسلامي لن عقب هذا الضعف تكون القوة والانتصار. فنصر الله قريب كما قال الله تعالى :" ألا إن نصر الله قريب" ولا نشك في ذلك، فالعاقبة للمتقين.

وما هذه الصدمات التي تواجهها الأمة ما هي إلا تزكية للأمة وتربية لها وتنقية للصف الإسلامي من المخذلين والمثبطين ومن الطابور الخامس الذي ينخر في جسد الأمة ويمنع إنطلاقتها وعودة مجدها وسؤددها. وقد تفقد الأمة ـــ في طريقها لإعلاء كلمة الله وتحقيق كرامتها وإعادة عزتها ـــ أنفساً عزيزة وأموالاً كثيرة ولكن هكذا مضت سنة الله تعالى أن لا يتحقق النصر إلا بالتضحية وبذل المهج

قال الله تعالى:" أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ " ويقول سبحانه :" أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ " وتاريخنا الإسلامي يشهد على ذلك فمنذ فجر الإسلام والأمة في صراع مع الكفر وأهله وما حققت نجاحاتها وانتصاراتها إلا ببذل الغالي والنفيس من أجل انتصار عقيدتها ونشر دينها.

ونحن إن فقدان القوة والتمكين فعلينا أن نسعى إلى تحقيقها فنحن أحق بها، فقد أُخرجنا لإصلاح البشرية وتعبيدها لله تعالى ولن يكون هذا إلا بتحقق القوة المادية والمعنوية في الأمة. وما نراه من ممانعة ومقاومة هو في الحقيقة سعي قوي نحو تحقيق العزة والتمكين للأمة. فالعزة والرفعة لن تنال إلا بالقوة، فالأمم المسيطرة والمتجبرة لن ترضى بفقدان قوتها وسيطرتها ولن ترضى بقيام قوى أخرى تنازعها مكانتها فهي لن تمنح أحد العزة والكرامة. فالتمكين في الأرض لا يأتي إلا عن طريق مواجهة أعداء الله تعالى؛ ومن جهل ذلك وظن أن تمكينه في الأرض قد يأتي من موالاته لأعداء الله والانتصار بهم فقد جهل حقيقة العزة والنصر فالله يقول :" الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً" فالعزة لله هو الذي يهبها لمن يشاء ويحرمها من يشاء؛ ولكنها قطعاً لن تأتي من اعداء الله وموالاتهم واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين. ومن جهل هذا المفهوم فهو لن يسعى للمقاومة بل يسعى إلى الاستسلام والركون إلى العدو للحصول على مكاسب دنيوية صغيرة حقيرة "أيبتغون عندهم العزة"؛ وحتما لن ينالوا إلا الذلة والمهانة، فالعدو يحتقرهم ويستخدمه لتحقيق أهدافه ومآربه فإذا انتهى دورهم رماهم في مزبلة التاريخ. والله غالب على أمره.

للتواصل: mubarak٢٠٠@hotmail.com

غزة تحت الحصار القرشي!!

مصعب بن عبدالعزيز المرشدي

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد :

غزة تحت الحصار القرشي.. هاهي الأيام تعيد نفسها .. وهاهي السنن الكونية تتكرر.. وهاهم أهل الحق في كل زمان ومكان .. يواجهون الحصار والتجويع .. لكن الغريب في أهل الإيمان أنهم هم الوحيدون الذين يتلذذون بتلك الحصارات .. فقد علمهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.. منذ أن أوحي إليه ..أن هذا الدين فيه بلاء ومشقة وأن المؤمن يبتلى على قدر دينه.. وعلمهم عليه الصلاة والسلام كيفية التعامل مع ذلك الحصار .. فقد كان من الذين حوصروا في الشعب في مكة .. فقدم مع صحابته دروساً في التعامل مع ذلك الحصار يجب على الأمة وعلى اخواننا في غزة أن يلتفتوا لها

لكي تكون عاقبة الحصار الإسرائيلي كما كانت عاقبة الحصار القرشي .. فحصار قريش استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقلبه في غضون سنوات إلى انتصار عظيم .. كان فتح فلسطين احد تلك الثمرات في عهد من عاش ذلك الحصار عمر بن الخطاب .. فهي كلمات من القلب لعلها تصل إلى القلب .. لعامة المسلمين ..ولأهلنا في غزة خاصة .. فيها سنعيش مع الحصارين حصار أهل الإيمان في غزة .. وحصار محمد صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب قبل ألف وأربعمئة سنة .. ولنا في هذين الموقفين المتشابهين رغم فارق الزمن وفارق الأشخاص العديد من العبر والدروس والوقفات التي سيستفيد منها كل عاقل أراد نصرة دينه .. وفيه تثبيت لكل مجاهد همه أن تكون كلمة الله هلي العليا .. وأن يرفع الظلم عن أهل لا إله إلا الله ..

١/ الوقفة الأولى :

قبل أن ندخل في الأحداث يجب أن يعلم المؤمنون .. أن هذا الحصار ابتلاء من الله .. وعجيب أمر المؤمن إن صبر كان خيراً له .. { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين } نعم أحبتي.. فالله يريد أن يعلم الصابرين وهو أعلم بهم سبحانه .. ويريد أن يظهر للناس من هو المؤمن الصابر ومن هو المنافق الذي يعبد ماله وشهواته .. فالكل في زمن الرخاء مؤمنون .. لكن في زمن الشدة يتميز الخبيث من الطيب .. ويظهر الرجال الصادقون .. ويتبين عوار أهل النفاق والمصالح .. إنها الشدائد والمحن ميزان الرجال .. وفيها يتبين الأبطال ..فيها تمحيص لأهل الإيمان .. ومحق لأهل الكفر ولكل من تولاهم وعاونهم ونصرهم ..{وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ..}

أحبتي ..كلما عظمت المصيبة وزاد البلاء قرب الفرج والنصر .. قال تعالى :{ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله } نعم أحبتي حتى الرسول وهو المؤيد من الله ينتظر النصر قد طال به البلاء .. لكن الجواب الإلهي يأتي وفيه تباشير النصر والفرح القريبة بإذن الله ..{ ألا إن نصر الله قريب } .. نعم فنصر الله قريب .. والنصر قادم لامحالة .. كلما أظلم الليل اقترب الفجر من الظهور.. وكلما طال الدرب اقترب الوصول.. وكلما اشتدت الأزمة كانت تلك بشرى الإنفراج.. فالله الله ياأهل غزة ويا أهل الإسلام لم يبق إلا القليل .. إنما النصر صبر ساعة.. ونصر الله قريب وإن رآه الأعداء بعيداً ..

٢/ قبل حصار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب بأربعة أسابيع وقعت حوادث ضخمة هزت كبرياء قريش .. وزلزلت عرشها.. منها إسلام أسد الله حمزة .. ثم أسلم الفاروق رضي الله عنهم أجمعين..حتى أن ابن مسعود رضي الله عنه يقول :" مازلنا أعزة منذ أسلم عمر ".. وهاهي الانتفاضة أحبتي قد زلزلت الكيان الصهيوني ..وأرعبتهم كما أرعبهم إسلام عمر وحمزة.. وكما هي

قوى الكفر تتخذ نفس الأساليب البائسة في مقاومة أهل الإيمان .. فقريش حاصرت محمد صلى الله عليه وسلم ومعه هؤلاء الأسود من الصحابة ومعه الشيوخ والنساء والأرامل.. والكيان الصهيوني يحاصر أسود الانتفاضة في غزة ومعهم الشيوخ والأرامل والنساء العزل .. فهو حصار قد أعاد نفسه .. وسيعيد أبطال غزة وأسود الانتفاضة صبر أسلافهم الأسود .. لأنهم خير خلف لخير سلف ..فهم أحفاد الأسود.. ولا يخلف الأسد إلا أشبالاً.. بقي أن نعلم أن حصار غزة لخوف في نفوس الصهاينة من أولئك الأسود .. وهي محاولة يائسة بائسة لكسر عزتهم وكبريائهم .. لكن هيهات أن يكسر القرود عزة الأسود.. وللأسود نقول أبشروا فالنصر القدم ويكفيهم قوله تعالى :{ ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنت الأعلون إن كنتم مؤمنين ..إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين }فالأيام دول .. فأبشروا واستمروا في المقاومة .. فمهما طال الألم وزادت الجراح فالنصر قادم ..{ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون } لكن الفرق الشاسع .. والبون الواسع ..{ وترجون من الله مالا يرجون } .. نعم ولا نستوي في الصراع ..فالانتفاضة مولاها الله .. ولا مولى لهم .. وقتلانا في الجنة وقتلاهم في النار .. والله أعلى وأجل ..

٣/ اجتمعت قريش وتحالفت لتحاصر بنو هاشم وبنو المطلب ..وهم في نفس الوقت منها .. فهي تحاصر نفسها إن صح التعبير .. وغزة تحاصر الآن من أهلها .. ممن أسلم نفسه للعدو .. وارتمى في أحضان الأعداء .. وتولى الصهاينة والأمريكان ونصرهم على إخوانهم في غزة ..{ ومن يتولهم منكم فإنه منهم }.. حسبنا أنهم أذلاء لايعرفون للعزة معنى .. ولا للكرامة طريق .. همهم مايأكلون وقدرهم مايخرجون.. قد سقطوا من عين الله .. فليتق الله من أعان المحتل في حصاره .. من أهل فلسطين خاصة ومن كل البلاد الإسلامية عامة ..وليعلموا أنهم إن لم يتوبوا .. فهم في الدرك الأسفل من النار .. وفي الدنيا سيتلقفهم أسود الله ..ويقعدون لهم كل مرصد.. ويذبحون كما تذبح الأضاحي وسيشفي الله صدور المؤمنين منهم ويذهب غيظ قلوبهم ..وياأهل غزة اصبروا ولاتركنوا وأبشروا .. { ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون } نعم فاطلبوا النصر من الله .. فإن طلبتموه من غيره فلن يأتي..وتكونوا ضيعتم دينكم ودنياكم ..فقريش امتنعت عن مجالسة بنو عمها وتحالفوا على أن لايبايعوهم ولايناكحوهم .. وهاهم أهل الدناءة من بعض المنافقين الفلسطينيين يقولون لاحوار مع المجاهدين .. ولا حوار إلا الحصار ..يطبقون مافعل أسلافهم .. وينفذون أوامر أسيادهم من القردة والخنازير .. ومن كان أسياده هؤلاء فماذا سيكون العبيد..وياأهل فلسطين اصبروا وأبشروا فالنصر قادم..نعم قادم لامحالة ..

٤/ أخيراً نقول لكل المسلمين أنه يجب علينا النصرة بجميع أشكالها ..بالتفس وبالمال وبالقلم وبكل شيء..فالله الله لاتخذلوا اخوانكم في غزة .. فإن لم تقدر على شيء فلا تبخل بالدعاء .. الله الله

بالدعاء .. في جوف الليل وفي ساعات الإجابة ..وللمرة الأخيرة.. ياأهل غـزة اصـبروا وأبشـروا فالنصر قادم .. ألا إن نصر الله قريب..عندها ستشرق الشمس بنور صبركم وتضحيتكم ..وستتفتح زهور التفاؤل التي رواها الشهداء بدمائهم الزكية الطاهرة ..

اللهم أعز الإسلام والمسلمين .. اللهم فك حصارهم .. وتقبل شهيدهم .. وعجل بفرجهم ..وثبتهم عند اللقاء ..اللهم احفظهم من بين يديهم ومن خلفهم وعن أيماهم وعن شمائلهم ومن فوقهم ونعـوذ بعظمتك أن يغتالوا من تحتهم ..

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمدلله رب العالمين ..

ومتى فقناهم عددا أو عدة؟

بقلم: محمد حسن يوسف

يعتري الكثير من الناس حالة من الإحباط واليأس من جراء ما يحدث للمسلمين في كل مكـان مـن العالم الآن، حيث ينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه ثوبان، أنـه قـال: يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل! ولينزعن الله من صدور عـدوكم المهابـة مـنكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية المـوت .[١]

ويتساءلون: هل بعد كل هذه النكبات من وثبة أخرى للمارد؟! هل يستطيع المسلمون الخروج مـن قمقم الهزائم التي مُنيت بهم وتوالت عليهم، حتى أصبحت صفة ملازمة لهم؟! ومتى سيكون ذلك؟! أم أن على المسلمين الاستسلام لتلك الضربات المتوالية التي تلحق بهم، وفي كل مكان من العالم، لكـي تستأصل شأفتهم وتزيل دولهم، ومن ثم وجودهم من على خريطة العالم؟!!

وفي الواقع فإن المتبصر بأمر الدين لا يعتريه مثل هذا الشعور المحبط، بل على العكس تجده واثقـا في قدرة الله. فكل ما يحدث للمسلم هو خير له. وحسبك تلك النازلة العظيمة التي حدثت ببيت الـنبي صلى الله عليه وسلم ، وما قيل في عرضه، وما اُتهمت به أعز زوجاته إليه وأحبهن إلى قلبه من حادثة الإفك. فإذا بالوحي يتنزل قائلا بأن كل ذلك إنما هو في حد ذاته خير للمسلمين وليس شرا، حيـث قال تعالى: ؟ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ؟] النور: ١١ [.

إذن ما يحدث للمسلمين في جميع أنحاء العالم من حولنا إنما هو في حقيقة الأمر قَدَر رباني يجري وفقـا لسنن الله الكونية التي يستحيل تغييرها إلا إذا تغير مضمونها. فإذا أردنا الخروج من الأزمة التي ألمـت بنا حاليا، فعلينا العمل من أجل تغيير الواقع من حولنا حتى نسمح لسنن الله التي تساند المسلمين مـن العمل مرة أخرى. ونوضح هذا الأمر فيما يلي:

مفاهيم ينبغي ترسيخها في النفس

هل يريد المسلمون حقا تحقيق النصر؟!! هذا سؤال هام لابد لكل منا أن يسأله لنفسه ويحدد إجابته عليه. إن نصر الله يتترل وفقا لسنن ربانية لابد من تحققها. وحين يريد المسلمون أن يتحقق ذلك النصر في أرض الواقع فلابد من عدة أمور تستقر في عقيدتهم تكون محركا ودافعا لهم على الانطلاق، حتى يستفيدوا من " معية الله " في المعركة إلى جانبهم:

؟ التخلي عن المعاصي واللجوء إلى الله: فلن يتم النصر إلا بذلك، فالإيمان أقوى سلاح لتحقيق النصر. ولنستعرض في ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومن معه من الأجناد حينما أرسله في أحد فتوح العراق: أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم. فإذا استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستَحْيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدوّنا شرٌ منا فلن يُسلَّط علينا وإن أسأنا، فرُبّ قوم سُلّط عليهم شرٌ منهم، كما سُلّط على بني إسرائيل – لما عملوا بمساخط الله – كُفّارُ المجوس ؟ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً ؟] الإسراء: ٥ [. واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم. اسأل الله ذلك لنا ولكم [٢]. وانظر إلى هذا القول الملهم: وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم. فهنا يتجلى سر نصر المؤمنين في معاركهم. فمتى تحقق هذا الشرط، جاء النصر بإذن الله ولا ريب. وإلا فقل لي بربك كيف ينصر الله قوما يخذلون نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ويكرهون تطبيق سنته المطهرة، ولا يجدون في وقتهم متسعا لقراءة القرآن، ويبارزون الله بالمعاصي جهارا نهارا؟!! فالنصر لن يتحقق إلا بعد التمحيص، أي تنقية المسلمين وإفراز القلة المتمسكة بدين الله. قال

تعالى: ؟ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ؟] آل عمران: ١٤١ [. قال القرطبي في تفسيره: فيه ثلاثة أقوال: يمحص: يختبر. الثاني: يطهر؛ أي من ذنوبهم ... والمعنى: وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا ... الثالث: يمحص: يخلص ... فالمعنى ليبتلي المؤمنين ليثيبهم ويخلصهم من ذنوبهم. " ويمحق الكافرين ": أي يستأصلهم بالهلاك. أ. هـ. فلابد للأمة من الإقلاع عن الذنوب التي يرتكبها أفرادها ليل نهار، سرا وجهرا. والأمثلة كثيرة: الإقلاع عن التدخين، التخلي عن الكذب، عدم النميمة والغيبة، ترك النفاق ... الخ. فقد أصبحت تلك المعاصي متفشية كالسرطان الخبيث في

جسد الأمة. ولابد أن تتيقن أنك أنت - بذنبك الذي تصر عليه — من يؤخر النصر عن الأمة. فابدأ بنفسك وأعلنها توبة شاملة لله لعل نصر الله يتزل على الأمة بسببك.

؟ جهاد النفس في مرضاة الله: ذلك أن نصر يتحقق بعد العمل بتشريعه والكف عن مناهيه، قبـــل أن يتحقق الجهاد في ميدان القتال. قال تعالى: ؟ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ؟] العنكبوت: ٦٩ [. قال القرطبي في تفسيره: أي جاهدوا الكفار في الله، أي في طلب مرضاة الله ... وقال ابن عبـــاس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون ... وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عـــن علم ما جهلنا، تقصيرنا في العمل بما علمنا. ولو عملنا ببعض ما علمنا، لأُورثنا علمـــا لا تقـــوم بـــه أبداننا. قال الله تعالى: ؟ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ ؟] البقرة: ٢٨٢ [. وقال أبو ســـليمان الـــداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين والرد علي المبطلين؛ وقمع الظالمين؛ وتعظيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهـــاد الأكـــبر. وقـــال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: " لنهدينهم ". والجهاد في عمل الطاعات يستلزم إرغام النفس على الاســـتيقاظ لأداء صـــلاة الفجر في جماعة، وقيام الليل، وقراءة جزء من القرآن على الأقل يوميـــا، وأداء جميـــع الصـــلوات في جماعة، وإخراج جزء من مالك للفقراء من حولك، ومساعدة المشردين من المسلمين في أنحاء العـــالم. كل هذه أمثلة على الجهاد في سبيل مرضاة الله.

؟ تحقيق التربية الإيمانية المطلوبة لأفراد الأمة: فلابد من سلوك طريق الأنبياء وهو تعبيد الناس لـــرب العالمين حتى يتحقق النصر من عند الله. إذن لابد من طريق الدعوة إلى الله عـــز وجـــل، والارتفـــاع بقلوب الناس وعقولهم إلى المستوى الإيماني المطلوب، وتبيين حقائق الإسلام، والـــدعوة إلى توحيـــد الملك العلام. قال تعالى: ؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟] الروم: ٤٧ [. فلابد أن يكون الجميع متشوق لرؤية نواة المجتمع المسلم تتحقق على أرض الواقع. أما البيئة التي تطرد من كيانها امرأة لأنهـــا ارتدت النقاب، أو تنظر بعين الشك إلى رجل أطلق لحيته فما زالت بعيدة عن نيل رضا الله بله نصره.

؟ انفراد الله تعالى وحده بالقدرة: وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته. فقال عز من قائل: ؟ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ؟] آل عمران: ١٥٤ [، ؟ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ؟] الرعد: ٣١ [، ؟ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ؟] الروم: ٤ [. أي النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء. أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فكل ما تلتمسونه إنما يكون بأمر الله. وهذا دحض للنظرية التي مفادها أن " ٩٩% من أوراق اللعبة بيد أمريكا ". بل جميع مقدرات الأمر بيـــد الله، ولا تملك لا أمريكا ولا غيرها أياً من مقدرات الأمور، ولا حتى نصف بالمائة! فالله سبحانه ينصـــر مـــن يشاء، ويخذل من يشاء، ويرفع من يشاء، ويذل من يشاء. تلك العقيدة يجب أن تستقر في النفـــوس، وتكون هي الموجه الأول والأخير لنا في كل تحركاتنا.

؟ ترسيخ مفهوم الاستطاعة: وهو أن المطلوب منا إعداد ما في الطاقة، وليس كل شيء. قال تعالى: ؟ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ؟] الأنفال: ٦٠ [. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، و لم يقل كل القوة. إذن ما استطعتم أي ما في أيديكم. وقوله تعالى: " من قوة ": أي من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها. وهذه القوة تتحقق بما يتحقق به معناها، وهو القدرة على تنفيذ إرادة صاحبها. فقد يكون تحقيقها بإعداد السلاح للجند، وتدريبهم على فنون القتال، وتربيتهم على معاني الإيمان التي تهيئهم للقتال في سبيل الله والرغبة في الشهادة في سبيله [٣]. إذن توافر اليقين مع القوة المؤمنة هو المحك الأصلي للجهاد وليس العدة أو العدد. قال القرطبي في تفسيره: " وأعدوا لهم " أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد تقدمة التقوى. فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ. ولذلك فإن السيف الخشب الذي أخذه عكاشة بن محصن من رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر قتل به الكفار، لأنه كان يضرب بإذن الله. فقد شهد عكاشة بن محصن بدرا وأبلى فيها بلاء حسنا، وانكسر في يده سيف، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرْجُونا – أو عودا – فعاد في يده سيفا يومئذ شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يزل يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قُتل في الردة وهو عنده، وكان ذلك السيف يسمى العَوْن [٤].

؟ إرجاع النصر لله: بمعنى أنه حتى مع تحقق العدة الكافية في أيدي الفئة المؤمنة، وحين يتحقق النصر لهذه الفئة، فإن هذه الفئة يجب أن تُرجع هذا النصر لله، وألا تنسب تحقيق هذا النصر لنفسها. وذلك مصداقا لقوله تعالى: ؟ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ؟] الأنفال: ١٧ [. فما يتحقق من نصر فمرجعه الله وحده، وليس كثرة العدد أو تطور الإمكانيات.

؟ التخلص من حب الدنيا ونعيمها: انظر إلى سؤال الصحابة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت. هذا هو الداء. أننا أصبحنا الآن نتعلق بالدنيا ونتمسك بها، وكأنها أصبحت هي دار القرار بالنسبة لنا. مع أن المسلمين على مدار تاريخهم كانوا ينظرون إلى الدنيا باستهانة، وأنها ليست إلا ممر لدار مقر. انظر إلى قول خالد بن الوليد، حينما سار إلى الحيرة بعد فراغه من أمر اليمامة، فخرج إليه أشرافهم مع أميرهم الذي عيّنه عليها كسرى. فقال له خالد ولأصحابه: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا و بينكم [٥]. فهذه هي ثقافة الإسلام، أو ثقافة الدار الآخرة التي يحملها الإسلام. الحرص فيها على الآخرة يكون مثل حرص غير المسلمين على

دنياهم، التي هي جنتهم. إن أهم شيء في حياة المسلم هو نظرته إلى الدار الآخرة، حتى وإن كان ثمن ذلك حياته.

؟ تغيير ما بأنفسنا: فلابد أن يستشعر كل فرد منا بفداحة الوضع الذي أصبحنا عليـــه الآن. فـــالأمر ليس هزلا. ولابد لكل فرد أن يتغير، وأن يستشعر هذا التغيير في كل مفردات حياته. فما لم يحـــدث ذلك، فلن يُنزل الله نصره علينا. قال تعالى: ؟ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـــا بِأَنفُسِـــهِمْ ؟] الرعد: ١١ [. إن نصر الله لا يتنزل على قوم إلا إذا كانوا قد اتخذوا منهج الله شريعة لهم تحكمهـــم ويتمسكون بتطبيقها مستقبلا بعد تحقق نصر الله لهم. فهل ينزل نصر الله علينا الآن، ونحن لم نـــتغير بعد، حتى إذا انتهت المعركة، عدنا لإدارة حياتنا بالطريقة التي كان أعداؤنا يديرون بها حياقم؟! كلا! لن يحدث هذا. قال تعالى: ؟ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـــلاةَ وَآتَـــوْا الزَّكَـــاةَ وَأَمَـــرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ؟] الحج: ٤١ [.

مواقف من السنة المطهرة

ومن أهم المواقف التي تثبت عدم سريان قانون الإمكانيات مع رسوخ عقيدة الإيمان والتوكل على الله في العهد النبوي، موقف الصحابة في غزوة مؤتة. فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة. وقال: إن أصيب زيـــد، فجعفر بن أبي طالب على الناس. فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة على الناس.

فتجهز الناس، ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلموا عليهم. ثم مضوا حتى نزلوا مكانا قريبا من أرض الشام. فبلغ الناس أن هرقل زعيم الروم، إحدى أكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت، قد نزل بالقرب منهم في مائة ألف مـــن الروم، وانضم إليهم من القبائل القريبة مائة ألف آخرين. مائتي ألـــف في مواجهـــة ثلاثـــة آلاف!! وإمبراطورية عريقة ضالعة في الحروب في مواجهة دولة فتية ناشئة لم تثبت أركانها بعد!!

فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا في مكانهم ليلتين يفكرون في أمرهم. وقالوا: نكتـــب إلى رســـول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضـــي لـــه. فوقف عبد الله بن رواحة يشجع الناس، وقال: يا قوم! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبـــون: الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنـــا الله بـــه. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحـــة، فمضى الناس. وذهبوا للقاء عدوهم. أرأيت إلى قول عبد الله بن رواحة: وما نقاتل الناس بعـــدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. هذا هو سر الحرب لـــدى المســـلمين. ولنتابع بقية القصة.

ثم بدأت المعركة. فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى استشهد برماح القوم. فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب يقاتل تحت لوائها. وقد أخذ جعفر الراية بيمينه، فقطعت. فأخذها بشماله، فقطعت. فاحتضنها بعضديه، حتى قُتل رضي الله عنه. فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء. ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين.

فلما استشهد جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها، وهو على فرسه. فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد. ثم حسم أمره وتقدم نحو العدو. فلما كان في طريقه نحو العدو، أتاه ابن عم له بعرق من لحم. فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس. فقال لنفسه: وأنت في الدنيا!! يريد أن المعركة حامية وهو مازال بأكله عرق اللحم هكذا يفكر في الدنيا! ثم ألقى عرق اللحم من يده، وأخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتل.

ثم أخذ الراية أحد المسلمين، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاول تثبيت مواقع الجيش حتى نزول الظلام. فلما أصبح بدأ في إعادة ترتيب جيشه: فجعل مقدمة الجيش مكان ساقته، وساقة الجيش مكان مقدمته. وميمنة الجيش مكان ميسرته، وميسرة الجيش مكان ميمنته. فلما رأى الروم جيش المسلمين بهذه الهيئة، أنكروا ما كانوا يعرفون من راياهم وهيئاهم. وقالوا: قد جاءهم مدد! وهم قد كانوا رأوا الأعاجيب من هذه القلة التي تقاتلهم، فما بالك بمدد يأتيهم ليشد أزرهم. فرُعبوا وانكشفوا منهزمين، فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم. فأين كانت الإمكانيات التي قاتل بها المسلمون في هذه الموقعة؟!!

بل قد تكون الوفرة في العدد والعدة سببا في نزول الهزيمة بالمسلمين، إذا تمسكوا بأسباها و لم يتجهوا إلى حول الله وقوته. وأكبر دليل على ذلك ما شهدته غزوة حنين في بادئ الأمر من هزيمة ماحقة للمسلمين حين اتكلوا على أنفسهم. فلما فاءوا إلى الله وتمسكوا بحبله، أنزل نصره وسكينته على المؤمنين. وقال تعالى: ؟ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ؟] التوبة: ٢٥ [، يُعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس اللأمة والعِدد، وإنما النصر من عنده تعالى. كما قال تعالى: ؟ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ؟] البقرة: ٢٤٥ [.

مواقف من جيل الصحابة

كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر ما جمعت الروم من الجموع. وأن الله لم ينصرنا مع نبيه صلى الله عليه وسلم بكثرة عدد ولا بكثرة جنود. وقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معنا إلا فَرَسَان، وإن نحن إلا

نتعاقب الإبل. وكنا يوم أُحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معنا إلا فرس واحد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبه، وقد كان يظهرنا ويعيننا على من خالفنا [٦].

ومما يروى في ذلك، قول خالد حين قال له رجل: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقل الروم، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر (اسم فرس خالد) براء، وأنهم أضعفوا (أي: زادوا) في العدد [٧].

وفي فتوح العراق، كان الفرس قد فروا بكمالهم إلى المدائن، وتحصنوا بها. وقد فروا إليها عن طريق نهر دجلة وأخذوا كل سفنهم معهم. فلما وصل سعد بن أبي وقاص قائد المسلمين في فتوح العراق إلى شاطئ دجلة لم يجد شيئا من السفن، ورأى دجلة قد زادت زيادة عظيمة وأسود ماؤها.

فوقف سعد يخطب في المسلمين على شاطئ دجلة. فأوضح للمسلمين أن عدوهم قد اعتصم منهم بهذا البحر ... فهم لا يستطيعون الوصول إلى هذا العدو بسببه، بينما هم يستطيعون الوصول إلى المسلمين متى شاءوا. وأنظر إلى تلك العبارة الرائعة التي قالها لهم في هذا الموقف: وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصدكم الدنيا. ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم [٨]. انظر إلى هذه الكلمات الرائعة التي يبثها القائد في جنوده. فالمسلمون لا يهمهم شيء أن يفوتهم إذا ما قورن بالجهاد. فالجهاد هو أفضل الأعمال في الإسلام. والشهادة في سبيل الله هي أسمى ما يتوق المسلم لنيله. والموت قادم لا محالة. فمن لم يمت بالسيف مات بغيره. فالنهاية محتومة. فلماذا لا تكون شهادة ومنزلة رفيعة في الآخرة، بدلا من حياة ذليلة يعقبها موت أيضا، ولكن في درجة متدنية من الجنة أو في النار نعوذ بالله منها! وقد عزم على خوض البحر إليهم بلا سفن يمتلكها! يمضي في البحر هكذا! بلا إمكانيات! يواجه جيش إمبراطورية فارس بعددها وعتادها بلا سفن!! لا ... إنه يواجه ذلك بسلاح أقوى من أي سلاح آخر ... إنه سلاح الإيمان. ولذلك فقد طلب منهم إخلاص نياتهم لله، وقد كان.

ونعود للقصة. فقد وافق الجند على خوض البحر مع سعد رضي الله عنه. فانتدب لذلك كتيبة تسمى في كتب التاريخ بكتيبة الأهوال. وهي كذلك بالفعل. وكانت هذه الكتيبة تتكون من ستين فارس من ذوي البأس، وكان عاصم بن عمرو أميرا عليها. وكانت مهمة هذه الكتيبة عبور البحر إلى العدو وتأمين ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى حتى تستطيع بقية الجيش أن تعبر هذه المخاضة وهم آمنين.

تأمل هذا الموقف ... العدو واقف على شاطئ النهر، يرصد تحركاتك، ويشهر سلاحه في وجهك، وأنت تقف على الشاطئ الآخر، تريد أن تعبر هذا النهر لكي تصل إلى العدو، وتشتبك معه، وتتحصن في بقعة تكون بمثابة نقطة ارتكاز تُؤمّن من خلالها الطريق لبقية الجيش حتى يعبر ويستقر فيها وينطلق للبدء في عملياته منها. موقف في غاية الصعوبة!

وقد أحجم أفراد الكتيبة في بادئ الأمر عندما فكروا في هذا الأمر بهذه الطريقة المنطقية. إلى أن تقدم رجل من المسلمين وقال لهم: أتخافون من هذه النقطة؟ ثم تلا قوله تعالى: ؟ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ؟] آل عمران: ١٤٥ [. ثم أقحم فرسه فيها ومضى. فلما رأى الناس ذلك اقتحموا معه. هنا زالت العقلانية المثبطة، وارتفعت سحائب الإيمان والثقة بالله وبوعده للمؤمنين، فبدأوا في اجتياز المخاضة.

فلما رآهم الفرس يقفون على وجه الماء، قالوا: مجانين! مجانين! ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنسا بل تقاتلون جنا! وحاولوا منع هؤلاء المتقدمين نحوهم عن طريق الماء ليمنعوهم من الخروج منه. ولكن المسلمين شرعوا لهم الرماح وتوخوا الأعين، فقلعوا عيون الخيول. فرجعوا أدراجهم من حيث أتوا، وواصل المسلمون تقدمهم. حيلة بسيطة استخدمها المسلمون، وهداهم الله إليها لما رأى شدة تمسكهم به، فأدت إلى السيطرة على النقطة الحصينة التي ستكون محور تحرك الجيش بعد ذلك.

ثم نزلت الكتيبة الثانية فالثالثة. ثم أمر سعد بقية الجيش بالنزول في الماء، وذلك بعد تحصن الجانب الآخر بوجود نقاط الارتكاز الإسلامية فيه. وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه. حسبنا الله ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [٩]. هذه هي مبادئ النصر في الحرب في الإسلام. تفويض مطلق للأمر لله، ثم تضرع وابتهال له بأن ينزل نصره وسكينته على المسلمين.

يقول المؤرخون: وسار الناس في النهر كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى ملؤوا ما بين الجانبين. فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة. وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده. فكان ذلك معجزة بكل المقاييس.

ثم أكمل المسلمون معاركهم انطلاقا من هذه النقطة وأكملوا بقية فتوحات العراق. فأين هي الإمكانيات التي كانت متاحة للمسلمين في ذلك الوقت. إنها لم تكن إلا بقدر الاستعانة المطلوبة، ولكن جيشان الإيمان في الصدور هو الذي يقف وراء هذه الانتصارات الباهرة.

وكان سعد يقول: والله لينصرن الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات [١٠]. وهكذا يحدد سعد بن أبي وقاص مفاتيح النصر في المعركة. عدم وجود بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.

والمتأمل في تاريخ المسلمين يجد الكثير والكثير من المواقف التي وقف فيها المسلمين يواجهون أعتى الظروف، من أسود وفيلة وغيرها، بمجرد إيمانهم القوي المتدفق من صدورهم، ليكتب الله لهم النصر في معاركهم التي خاضوها.

مواقف معاصرة

ومن الأمثلة الحديثة على هذه القضية، ما حدث في جهاد الشعب الأفغاني ضد روسيا. فقد كان هذا الجهاد هو الذي أعاد لأذهان المسلمين مفهوم الجهاد في الآونة الأخيرة. لقد واجه الشعب الأفغـــاني الدبابات الروسية أول أمره بالحجارة والصخور. لقد آمن الشعب الأفغاني بالحقيقة الإيمانية البديهيـــة التي تمثلها المعادلة التالية: الله أقوى من روسيا. الله لا يُقهر ولا يُهزم! إذن ستُهزم روسيا وتُقهر بـــإذن الله.

ومن المواقف المثيرة التي واجهتها المقاومة الأفغانية في ذلك الوقت، أنها تعرضت على مدى سبعة أشهر تقريبا لقصف الطائرات الروسية كل يوم مرتين إلى خمس مرات، و لم يستشهد واحد من المجاهـــدين، وذلك لأنهم كانوا يدعون الله قائلين: اللهم إنا نشكو إليك ضعف قوتنا وقلة حيلتنا تجاه الطـــائرات، فيحميهم الله.

ويقول أحد المجاهدين: ما هجمت الطائرات علينا مرة إلا ورأيت الطيور تحتها، فأقول للمجاهـــدين: جاء نصر الله! ولقد توقف ذات مرة مضاد الطائرات، فدعوت الله، فساق الله علينا الغمام تغطينا من الطائرات. ويقول: لقد هجمت علينا ستمائة دبابة وناقلة، وكنا مجموعة من المجاهدين لـــيس معنـــا سوى (١٤) بندقية مع العصي والسيوف، وهزمهم الله!

ويحكي أحد المجاهدين الأفغان: كانت معنا قذيفة واحدة مع مضاد واحد للدبابات. فصلينا ودعونـــا الله أن تصيبهم هذه القذيفة، وكان مقابلنا مائتا دبابة وآلية. فضربنا القذيفة، فإذا بها تصيب الســـيارة التي تحمل الذخيرة والمتفجرات، فانفجرت ودمرت (٨٥) دبابة وناقلة وآلية، وانهزم العدو، وغنمنا كثيرا [١١].

كما أن ما قامت به المقاومة الفلسطينية مؤخرا يعطي أكبر الدلالة كذلك على هذه القضـــية. فعلـــى الرغم من قلة إمكانيات المقاومة، وعلى الرغم من تطوير العدو الصهيوني لعرباته المدرعـــة ودباباتـــه بحيث فشلت أسلحة المقاومة المتمثلة في قذائف الآر بي جي في وقف زحف الدبابة ميركافا من قبـــل، وخاصة بعد تطوير وتحديث هذه الدبابة لتكون الأحدث والأولى في العالم، حيث ترك هذا التطـــوير مآسٍ كبيرة في نفوس الأبطال عندما استعدوا لها في مخيم جنين، ولكن كانت طلقات الآر بي جـــي لا تفعل معها شيئا. وبالرغم من ذلك نجد المقاومة قادرة اليوم على تفجير هذه الدبابة بعـــد أن قامـــت المقاومة بتطوير أسلحتها هي أيضا، فأصبحت قادرة على النيل من هذه الدبابة وتدميرها.

فهذه إرادة التحدي التي يبثها الله في قلوب عباده المخلصين ليثبتهم وينصرهم على عدوهم هي الـــتي جعلت المقاومة تستطيع إدخال التطوير على نوعية سلاحها، بحيث استطاعت تفجير هذه الدبابة حتى بعد تطويرها، لتصيب العدو بالصدمة والذهول. لقد نوّعت المقاومة الفلسطينية أسلحتها من الحجارة إلى صواريخ القسّام وهاون حماس والعمليات الاستشهادية.

ويقول أحد قادة لواء (حبعاتي) الذي سقط جنوده على أيدي عناصر المقاومة، في معرض تعليقه على ثبات وبسالة المقاومة: كان بإمكان الفلسطينيين أن يتركونا ننسحب متذرعين بتفوقنا الهائل عليهم. لكنهم تحدونا وتجاهلوا مظهر تفوقنا. إن المقاتل الفلسطيني لا يهاب أي شيء. وأضاف ضابط آخر في نفس اللواء: ماذا لو كان هؤلاء يملكون عشرة بالمائة من إمكاناتنا؟ بكل تأكيد لابد أن شكل هذه المنطقة كان قد تغير منذ زمن بعيد.

ونفس الشيء يحدث في الفلوجة. فئة قليلة لا تكاد تملك من حطام الدنيا وأسلحتها إلا الشيء اليسير تقف بالمرصاد في مواجهة أعتى ترسانة للسلاح في العالم اليوم، وتجبرها على التراجع والانسحاب مذعورة من المدينة.

إن الفلوجة هي الأكثر وضوحا والأعمق في هذا الإطار، لأنها مدينة صغيرة (حوالي ٢٠٠ ألف نسمة)، وهي تواجه أكبر قوة غاشمة في التاريخ، فليس بعد الولايات المتحدة قوة الآن. وبالتالي فإن درس الفلوجة هو الدرس الأوضح، الذي لا يمكن أن يكابر أحد أو يغالط أحد في أننا أمة قادرة على المواجهة والصمود. وأن أصغر قرية في العالم، وبالذات العالم العربي والإسلامي، لأسباب حضارية وثقافية ودينية مرتبطة بالجهاد والاستشهاد، قادرة على مواجهة الولايات المتحدة والصمود أمامها، بل وإنزال أكبر الأذى بها.

إن ظهور المقاتلين في فلسطين والفلوجة يمسكون المصحف الشريف بيد، والبندقية أو أي سلاح آخر باليد الأخرى، هو دلالة هامة على تطور البعد الإسلامي والعقائدي في الصراع ضد العدو، وهو شرط ضروري للصمود والانتصار في معاركنا.

الخاتمة

يجب أن يسود بين المسلمين مفهوم الاستعلاء على قوى الكفر بديلا عن الانبطاح والتركيع. فالمسلمون الأوائل عند مجابهة حضارة الروم والفرس كانوا يشعرون أنهم هم الأعلون حتى وإن كان الروم والفرس متفوقون عليهم في التقدم العلمي وتقنيات الحياة. لكن كان إيمانهم يعطيهم دفعة كبيرة للاستعلاء على سائر من حولهم، وذلك تطبيقا لقوله تعالى: ؟ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ ٱلأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟] آل عمران: ١٣٩ [.

إن السُنة التي يتعامل بها الله سبحانه وتعالى معنا تتمثل في وجوب أن نتصف بعدة صفات: عدم معصية الله، وإعداد ما في الاستطاعة، واليقين في نصر الله، وصدق اللجوء إلى الله، وضرورة مراجعة النفس وتغييرها إلى الأفضل. فمتى تقاعسنا عن تحقيق أحد هذه الشروط، تساوينا مع الأعداء عند الله، فعندئذ تسود سُنة ربانية أخرى، تتمثل في إحراز الفئة الأقوى للنصر.

إن المتأمل في واقع خطط الأعداء في القديم والحديث يجدها تتمثل في إغراق الشعوب في الملذات والملهيات والشهوات، حتى تغدو كالقطعان السائمة التي لا تعرف معروفا ولا تُنكر منكرا، بحيث

تصبح شعوبا لا هم لها إلا الترفيه والتسلية. وتنفق الولايات المتحدة وربيبتها دولة يهود الكثير والكثير على إضلال الشعوب، فهذا سلاحهم وطبعهم منذ القديم.

قال صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير لزملائه من المبشرين في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥: إنكم أعددتم شبابا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية. وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده له الاستعمار: لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل. ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات. ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء [١٢].

وهكذا تخمد جذوة الإيمان في الصدور، فتصاب حركة المسلمين بالشلل والتوقف التام. إن المحرك الأساسي للمسلمين هو الدافع العقدي. فلو تحولت حركة المسلمين لكي تصبح في سبيل تحقيق شهوات النفس، فهذا هو بداية طريق الانحراف عن جادة الصواب، والهزيمة في كل ميادين الحياة، وفي معركة القتال بالطبع. إن على المسلمين أن يسايروا التطور الحادث في جميع مناحي الحياة، ولكن بنظرة مختلفة لما ينظر إليها الآخرون. فهم يفعلون ذلك بدافع من إيمانهم بالله. فكل عمل يفعلونه فإنهم يبتغون من ورائه وجه الله. وهذا هو الفارق الجوهري بينهم وبين غيرهم. وما لم يحدث ذلك، أي ما لم يظهر الجيل الرباني الذي يحمل هم مرضاة الله سبحانه وتعالى من وراء جميع أفعاله، فلا تنتظر من المسلمين تحقيق أي تقدم أو انتصار، بغض النظر عن إمكانياتهم أو تقنياتهم.

١٢ من ربيع الثاني عام ١٤٢٥ (الموافق في تقويم النصارى ٣٠ مايو عام ٢٠٠٤).

---

[١] صحيح / صحيح سنن أبي داود للألباني، ٤٢٩٧

[٢] العقد الفريد: ١/١١٩.

[٣] عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٢. ص ص: ٦٦-٦٧.

[٤] أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٤/٦٥.

[٥] تاريخ الأمم والملوك: ٢/٣٠٧.

[٦] سعيد عبد العظيم، طبيعة الصراع بين المسلمين واليهود، دار الإيمان، ٢٠٠١. ص: ٦٠.

[٧] الكامل في التاريخ: ٢/٢٦٠.

[٨] البداية والنهاية: ٧/٥٣.

[٩] البداية والنهاية: ٧/٥٣.

[١٠] البداية والنهاية: ٧/٥٤.

[١١] كل هذه الروايات مأخوذة من: عبد الله عزام، آيات الرحمن في جهاد الأفغان.

[١٢] عبد الله التل، جذور البلاء، المكتب الإسلامي، ١٩٩٨. ص: ٢٧٦.

غزة ألم وأمل

١٤٣٠/١/١

أ.د. ناصر العمر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فهذه المآسي التي تعيشها الأمة في بلدان متفرقة، ولاسيما ما يحدث هذه الأيام في غزة، تضطرنا للوقوف معها فتلك أحداث لا ينبغي تجاوزها.

والحديث عن غزة ليس حديثاً عن مساحة أو رقعة صغيرة من الأرض وإنما هو حديث عن الأمة التي هي كمثل الجسد الواحد.

وأوجه كلمتي أولاً لأخوتي في غزة، فأقول: أحسن الله عزاءكم، وغفر لموتاكم، وتقبلهم شهداء، وداوى جرحاكم، وعظم أجوركم، واعلموا أن إخوانكم في بلاد الحرمين وغيرها يقفون معكم، وينصرون قضيتكم، ويقنتون لكم، ويبذلون ما في سعهم.

ثم أقول لإخوتي المسلمين ولاسيما المعنيين بالتحليل والمتابعة: إن قول الله ينبغي أن يكون نبراساً لنا في تحليلنا للأحداث، ومن أغفله أو زاغ عنه فقد أبعد، وإن القنوات الفضائية والوسائل الإعلامية اليوم مليئة بالأراء والتحليلات، وكثير منها بعيد لإغفاله ما بينه الكتاب ودلت عليه السنة، وكل ما قرب التحليل من فقه الكتاب والسنة كان أصوب.

وغش اليهود وخيانتهم للمسلمين وعداوتهم لهم وتمنيهم السوء لهم مما تواردت عليه آيات الكتاب، قال الله تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) [المائدة: ٨٢]، وقوله: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يترل عليكم من خير من ربكم) [البقرة: ١٠٥]، وقال عنهم: (لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) [آل عمران: ١١٨]، ولن أتحدث في هذا فإن من قرأ القرآن عرفه، ولن أتحدث كذلك عن الواقع فقد رأيتم وسمعتم في الوكالات ما فيه كفاية، وحسبكم أن عدد القتلى قد بلغ نحواً من ثلاثمائة قتيل، والجرحى قد تجاوزوا الألف.

وعزاؤنا قول ربنا سبحانه: (وكأين من نبي قتل) كما قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، أو (قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) [آل عمران: ١٤٦-١٤٨]، وتأمل كيف ردوا الأمر إلى أنفسهم، ففزعوا إلى ربهم واستغفروه واستغاثوا به، فجاءهم

الفرج، فعلى إخواننا أن يحاسبوا أنفسهم، كما أن علينا إخوة الإسلام أن نحاسب أنفسنا، وأن نتساءل ماذا قدمنا لهم؟

كم يستغيث بنا المستغيثون وهم *** قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم *** وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم *** أما على الحق أنصار وأعوان

إخوة الإسلام إن ما يحدث اليوم في غزة نتيجة مقدمات سابقة مهدت له، فتاريخ العرب مع فلسطين تاريخ مؤسف ممتلئ بالخيانات والمؤامرات ووضع الأيدي في أيدي الأعداء، وانظر وتأمل من الذي يحمي اليهود؟ إن للغرب ولاسيما أمريكا دور ظاهر لا ينكر، ولكن أليس من يحمي الحدود ويمنع المجاهدين من الوصول أو الخروج شريك في الجرم؟ ألا يعد خائناً من يلاحق المجاهدين الصادقين الذين يريدون تحرير أرض فلسطين؟ مع أن هؤلاء المجاهدين كانوا وما زالوا من أشد الناس انضباطاً وحرصاً على أن لا ينتقل الصراع ليكون مع دول الجوار، بخلاف شأن بعض المنظمات العلمانية، التي أساءت لفلسطين، بل باعوا قضيتها بأبخس الأثمان.

وفي الحقائق التي أُعلنت قريباً في برنامج الجزيرة: "بلا حدود" كفاية، خيانات وتجسس على الداخل والخارج وعلى البلدان العربية لصالح دولة اليهود، وانظروا من قمع الفلسطنيين في الضفة لّما أظهروا التضامن مع إخوتهم في قطاع غزة!

أفبعد ذلك يقرب هؤلاء ويضيق على المجاهدين المخلصين الحادبين على قضيتهم وعلى أمتهم؟!

والمتأمل في شأن المتآمرين خلف الحدود يظهر له تآمر الرافضة ويبدو له كذبهم في دعواهم التضامن مع القضية الفلسطينة وهم يغلقون الحدود اللبنانية الفلسطينة ويشددون الحراسة عليها فلا يمكن أحداً النفوذ من جهة حرس إسرائل من الرافضة في جنوب لبنان، وصدق شيخ الإسلام لّما قال: " إذا صار اليهود دولة بالعراق وغيره، تكون الرافضة من أعظم أعوانهم، فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى، ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم"، وإن أظهروا خلاف ذلك، ولو كانوا صادقين لفتحوا الحدود من جهتهم، ونصيحتي لمن انخدع من إخواننا في فلسطين بالرافضة أن يتبصر، وأن يعلم أن القوم في العداء لأهل السنة سواء، والتاريخ والواقع يشهدان على ذلك.

ومع تواطؤ أمثال هؤلاء مصاب آخر متمثل في مسلسل السلام الذي اغتر به بعض الناس مع أن الفتاوى الشرعية قد صدرت بتحريم السلام الذليل الذي هو في حقيقته استسلام للعدو، وتسليم للأرض له، وفرق بين الهدنة الشرعية التي أقرها بعض أهل العلم وبين بيع فلسطين والاعتراف للعدو بأرض لا يملكها.

وعجباً ممن يدعون إلى التعايش السلمي مع قوم يرفعون السلاح ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، قد بدت البغضاء منهم، ودوا لو عنتنا، وقد علمنا بأنهم لن يرضوا عنا، فهل يتصور بعد ذلك من تفكر

تعايشاً مرضياً مع هؤلاء بالاستجداء والاستخذاء؟ إن قوماً لم يتعايشوا مع أنبيائهم بل آذوا موسى وقتلوا الأنبياء بغير حق، لا سبيل لاستجداء تعايش عزيز معهم ما لم نتفاوض معهم فيه لننتزعه بمنطق القوة.

وقد قال الله تعالى: (ولا تجادوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم) [العنكبوت: ٤٦]، فبالله عليكم هل ظلم هؤلاء اليهود ومن يدعمهم من الأمريكان أم لم يظلموا؟

ومع ذلك يحفل بعض الناس بهذه الدعوات، ومن أمعن النظر علم أنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء!

إخوة الإسلام إن ثمة سنناً كونية وقواعد شرعية لابد أن نعيها من أجل أن نبصر الحقيقة، ومنها:

أولاً: أن الصراع بين الحق والباطل ماض أبداً من أجل العقيدة، (ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) [البقرة: ٢١٧]، فالصراع عقدي، شاء من شاء وأبى من أبى، وكل تحليل يقصي الجانب العقدي ويغفله أو يهمش من شأنه فهو تحليل باطل، بل الواجب أن ننظر في الصراع والعوامل المؤثرة على الأحداث دون تخطي لمقررات العقيدة، وأحكام الشريعة، وهل جر الويلات غير إخراج قضية فلسطين من نطاقها الإسلامي إلى الناطق العربي والقومي؟

ثانياً: لن يتحقق لنا النصر إن لم نحقق أسبابه، فتلك سنة الله، ومن أعظم أسبابه نصر دينه، كما قال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) [محمد: ٧]، ولن يتحقق المشروط إن لم يتحقق الشرط، فحققوا أسباب النصر يتحقق لكم النصر.

ثالثاً: من السنن الكونية أن الله يبتلي عباده ليمحصهم، ويميز الخبيث من الطيب، قبل أن يمكنهم، كما قال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) [العنكبوت: ٢-٣]، (أم حسبتم أن تدخول الجنة ولّما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) [البقرة: ٢١٤]، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولّما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) [آل عمران: ١٤٢]، (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) [آل عمران: ١٧٩]، (أم حسبتم أن تتركوا ولّما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) [التوبة: ١٦].

رابعاً: من البدهي أن يكون للانتصار ثمن، وإذا أريد لشجرة المبادئ والقيم أن تورق وتثمر فلتسقى بالدماء، كما قال سيد رحمه الله: "إن كلماتنا وأقوالنا تظل جثثاً هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها، وغذينها من دمائنا؛ انتفضت حية، وعاشت بين الأحياء"، وأجل من ذلك قول الله تعالى: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) [محمد:٤]، ولن تموت نفس قبل أن تستكمل أجلها، وانظر إلى عدد من يموتون في بلادنا بحوادث

المرور كيف ذهبوا وفيم ذهبوا! (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم) [محمد: ٤-٦]، فهل غبن من نال هذا مهما كان الثمن؟

خامساً: ليس الذليل من يذق الردى عزيزاً، بل الذليل من توعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا يترعه حتى تراجعوا دينكم" [رواه أبو داود (٣٤٦٢)]، أما من صدق مع الله فنال الشهادة فقد ربح البيع، وفاز ورب الكعبة!

سادساً: الفوز الحقيقي هو فوز المبادئ وظهور القيم، لا انتصار الأشخاص، واقرأوا سورة البروج.. قتل الرجال والنساء والأطفال، أبيد القوم عن بكرة أبيهم، فلم يبق منهم أحد، ومع ذلك لم يرد في القرآن الكريم وصف فوز بأنه كبير إلاّ عقيب ذكر خبرهم (ذلك الفوز الكبير) [البروج: ١١].. أما المقاييس المادية المزدرية لمقاييس العقدية وموازين الشريعة فقد يرى أصحابها أن القوم خسروا..! أقعوا بأنفسهم الهزيمة، أما أهل النظر الشرعي فيعلمون أن انتصار المبادئ هو الفوز الحقيقي.. ولا يشك هؤلاء في أن الانتصار العسكري ضرب من أضرب الانتصار، وكما أن غلبة الحجة والبيان نوع آخر، ولكن الفوز الحقيقي الكبير هو في الثبات على الدين إلى يوم لقاء رب العالمين.

فهنيئاً لكم أيها المسلمون في أرض العزة غزة ثبات قادتكم، فاثبتوا كما ثبتوا وأملوا في الفوز وارتقبوا، (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) [آل عمران: ١٢٠]، خذوا بالأسباب المعنوية والمادية واتحدوا مع إخوتكم، ولا تنازعوا فالقضية قضية إسلامية، وحذاري من أن تحول إلى قضية حزب أو حركة بل القضية قضية أمة مسلمة، ومما يحمد للمجاهدين في فلسطين تماسكهم، وصبرهم على استفزازات المنافقين والمرجفين، وقد كفاهم ذلك شر جبهة داخلية، (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) [الروم: ٦٠].

ومما يجب أن يقال للمرجفين في الداخل أو الخارج الذين ما فتئوا يتحدثون عن أخطاء حماس، وأخطاء المجاهدين الذين يذبون عن ديارهم ومقدساتهم أيدي المعتدين: كفوا شركم، فتلك صدقة منكم على أنفسكم، واعلموا أن أشد الناس عدواة للمسلمين إن قدروا لن يعدموا ذريعة للنيل من المسلمين، وقد قال الله تعالى: (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) [الممتحنة: ٢]، فاليهود (لايرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) [التوبة: ١٠].

وخير لكم أن تتركوا لغة القوم القائلين: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

ويقال كذلك لمن أراد أن يقف موقف الحياد من الإعلاميين وغيرهم، اتقوا الله (وكونوا مع الصادقين)، كنوا حنفاء مائلين إلى الحق كما كان إبراهيم عليه السلام، حنيفاً مائلاً عن الشرك إلى

التوحيد، فالمائل إلى الحق محمود، والميل إليه واجب، والمذبذب المتحيد (بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) مذموم.

إخوة الإسلام .. وسط هذا الركام من الأحزان والآلام لا ينبغي أن نغفل البشائر الموجودة.. وهي بحمد الله كثيرة تدل على أن العاقبة للتقوى، فالنصر آت لا محالة كما ثبتت بذلك الآثار النبوية، المصدقة للوعود القرآنية، وقد اعترفت صحيفة معاريف بأن الحملة الإسرائيلية فاشلة، ونحوها ذكرت صحيفة التايمز البريطانية، ومن بوادر فشل اليهود وقرب النصر ما نراه في هذه الأمة، وما نسمعه من نشيج شبابها وشيوخها ونسائها جراء ما أصاب إخوتهم، وهذا يدل على أن الأمة أمة حية .. توشك أن تجد من يستثمر طاقاتها، ويوجه مشاعرها وقواها، فكيف لا نرقب النصر وفي الأمة الجموع الغفيرة الحية المنفعلة بقضايا المسلمين؟ بل كيف لا نرقب النصر وفي أكناف بيت المقدس ثلة على الحق ظاهرين منصورين، وقد سقطت الشعارات والرايات غير راياتهم، وتوشك الصفوف أن تتمحص بمثل هذا البلاء، كيف لا نستبشر وقد بدأت مبادئ أهل الكفر تسقط بعد أن اغتر بها طوائف من المسلمين، فالحرية والديمقراطية التي طالما دعا إليها الغرب ها هم اليوم يحاولون إقصاءها.

ولئن كانت بشائر النصر تترى مصدقة الوعود الشرعية، فإن علينا أن نتفاعل معها، ببذل المزيد من الأسباب الشرعية والكونية، كالاستقامة على منهج الله، وتجنب أسباب سخطه، فالهزيمة قد يكون سببها ذنب، كما أن علينا الحذر من الفوضى ودعاتها، فإن لهم مآرب لن تعود على نصرة إخواننا في غزة بخير، فلا يخرجن أحداً الحماسُ عن الانضباط ففي غمرة الحماس والاندفاع قد يُجر من لم يتفطن لأمور لا تحمد عقباها، وكم من مرة استثمر الضغط النفسي للشباب فنجمت عنه أحداث أخرت مسيرتهم، فإياكم أن تنجروا لفوضى، واسعوا إلى نصر إخوتكم بما تطيقون من البذل، والدعاء، والنصر بالكلمة، والاقتراح، والتوجيه، عبر المنابر الإعلامية المختلفة، وليكن لكل منّا مشروع ينصر به إخوته في فلسطين ويخدم به قضيتهم.

والمأمول من حكام المسلمين تفويت الفرصة على من يسعون لإثارة الفوضى، بالنظر في فتح الحدود، بل والدعم وفتح المجال للتبرعات، فذلك خير من أن تخرج بطريق غير منضبطة، مع مقاطعة اليهود والمتعاملين مع اليهود وإن كانوا عرباً، وليعلموا أن مسؤوليتهم أعظم من مسؤولية من سواهم، وأن ما بوسعهم يتجاوز التنديد والشجب والإنكار، والوسائل كثيرة لن يعدمها من نظر وتأمل.

هذا وأكثروا إخوة الإسلام في كل مكان من الدعاء لإخوتكم، فذلك من حقهم عليكم، سواء بالقنوت لهذه النازلة، أو في السجود وغيره من المواطن التي تتحرى فيها الإجابة.

والله أسأل أن يرفع ما بهم، وأن يحقن دماءهم، وأن يترل رجزه وعذابه على اليهود الظالمين، وأن ينجي إخواننا المستضعفين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

من يبلغ عني أهل الجهاد في العراق ؟!

محمد جلال القصاص

في ديننا الوسائل لها أحكام المقاصد، فواجبٌ ما يستلزمه الواجب، وحرامٌ كل ما أفضى إلى الحـــرام. فنحن إذا نتعبد الله بالوسائل كما نتعبده ــــ جلّ شأنه ــــ بالغايات. وكل المسلمين دعاة إلى الله، قال تعالى " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين " [يوسف: ١٠٨].

فمن اتبع يدعو ــــ بالمعنى العام للدعوة ــــ. يدخل في هذا المجاهدون وغير المجاهدين. وأنتم أهل الجهاد في العراق قد عنيتُ.

قد كانت رسائل المجاهدين الأُول تنطق صراحة: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا، ليخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان على عدل إلى عدل الإسلام...)

ويوم اليرموك تحدثت الروم: أن ما نرى من هؤلاء فوق ما نسمع عن حواري عيسى عليه السلام.

ويوم هبط المسلمون على الجزيرة الخضراء في الأندلس نادى القوط ـــــ سكان الأنـــدلس ـــــــــ قومهم: أدركونا فقد جاءنا قوم لا ندري أمن أهل الأرض هم أم من أهل السماء؟

ويوم بدرٍ قَدُرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على من آذوه ورموه بكل قبـــيح وعـــذبوا صـــحابته الكرام، وما كان سبٌّ ولا تمثيل بل أُحسنت معاملتهم حتى حكم فيهم رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم.

وغدرت (رعل) و (زكوان) بسبعين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم،بعد سبعين قتلوا في أحد فكانت بليّة أيُّ بلية، وحين قتل عمرو بن أمية الضمري ــــ رضي الله عنه ـــــ رجلين منهم ــــ وهو عائد لتوِّه من غدرهم ــــ يريد الثأر لإخوانه، اعتذر رسول الله ــــ صلى الله عليه وسلم ــــ عـــن الغدر وفدى القتيلين.

وكشفت يهود سوءة المسلمة في السوق، فكان الحصار والطرد، وما كشف المسلمون عورة نسائهم. وقطعت الفروج والآذان وبجرت البطون يوم أحد، وما فُعل شيء من هذا، بل جاء قول الحكيم الخبير " ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذهم " "... ولئن صبرتم لهو خير للصابرين "

لذا أسلم المقاتلون..... ودخل الأعداء الألدون في دين الله أفواجا، وبعد أن كانوا قادة الكفر ورأسه ما هي إلا سنين، بل أيام وهم على جيوش الإسلام، دعاة قبل أن يكونوا غزاة.

أريد أن أضع إصبعي على شيء... هو ما أدندن حوله:

لابد أن يكون أول قصدنا هو هداية هؤلاء إلى الإسلام.كما كان حال رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم فمن يتتبع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعامل مع عدوه يتبين له أن أشد ما كـــان

يحرص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو هداية عدوه إلى الإسلام. كما قال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لعلي ـــ رضي الله عنه ـــ وهو يحمل الراية للقتال.: "ادعوهم إلى الإسلام فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم " وقد قيل هذا الحديث يوم خيبر بعد ستة أيام من القتال.

وفيما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ثمامة بن آثال، من ربطه في سارية المسجد ثلاثة أيام ليحضر الصلاة ويسمع القرآن.. يعرض عليه الإسلام بطريقته صلى الله عليه وسلم، وما فعله صلى الله عليه وسلم مع أسارى طيء حتى أسلموا، وما فعله مع بني المصطلق من الزواج منهم والمن على أسراهم فأسلموا، وما فعله مع قريش يوم الفتح... في هذا كله دليل على أن أشد ما كان يحرص عليه صلى الله عليه وسلم هو هداية عدوه إلى الإسلام.

والحرام ليس فقط ما حرمه الشرع ابتداءً، وإنما هناك نوع آخر من الحرام وهو (الحرام لغيره) كما يسميه أهل الأصول ـــ أصول الفقه أعني ـــ.

يطرأ على الحلال أمر فيتغير وصفه إلى (حرام لغيره)، ويُخاف من أمر ما فيُترك الحلال من أجله ويصير حرام فعله، وهو ما يسميه أهل الأصول سد الذرائع أو اعتبار المآلات، وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل المنافقين حتى لا يتحدث الناس أن محمدا ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ استعان بقوم فلما ظهر استدار عليهم وقتلهم، ومثل هذا كثير... كل هذا يُفعل... وكل هذا يُحرم من أجل غاية واحدة وهي هداية الناس إلى صراط الله المستقيم.

فالله الله أن تستأنسوا بكثرة الأصوات التي تؤيد في المنتديات والبالتوك من المتحمسين، وتنسوا أنكم دعاة إلى الله ـــ بالمعنى العام للدعوة، ويتحول الأمر إلى قتال لا جهاد.

ووالله لو رأى هؤلاء منكم ما رأى أجدادهم من الصحابة والتابعين لأسلموا ولعادوا دعاة إلى قومهم وإن قطعهم بوش إربابا ولقالوا له ما قال السحرة لفرعون " لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقض هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر فالله خير وأبقى ".

أيها الكرام!

لا يوجد من يقول أنه يعصي الله أو من يقول أنه يتعمد فعل الخطأ، ولكن الكل يتأول والكل يدعي الإصلاح حتى بوش يزعم انه (قوة الخير) التي تحمل الرسالة السماوية لـ (قوى الشر) على وجه الأرض، وهو كذاب أشر، والعبرة ليست بحجج يستصيغها عوام الناس من المندفعين الحماسيين، وإنما العبرة أن توافق الشرع حقيقة.

أيها الكرام!

ونحن المسلمين ـــــــ كل المسلمين ـــــــ مأمورين برد الأمر إلى العلماء الربانيين العــاملين قــال تعالى " وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منـــهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " وأولي الأمر هم العلماء والأمراء، وعند التحقيق يتبين لك أنهـــم هـــم العلماء لأنهم أهل الحل والعقد... بهم تنعقد بيعة الأمراء... ومنهم تعطى الشرعية لغيرهم للخـــروج عليهم. والذين يستنبطونه منا هم ــــ أيضا ــــ العلماء الربانيين الناصحين للأمة.

وإنا نأخذ عليكم استقلالكم برأيكم وعدم التواصل مع علماء الأمة، حتى تكونوا على بصـــيرة، ولا تكونوا ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـــــــ عياذا بالله ـــــــــ، والخير موجود في هذه الأمة لا ينقطع. ولكن أين من يطلبه؟!

فهلا حاورتم العلماء، وصدرتم عن رأيهم؟

والأمر سهل هين لمن أراد، فغرف البالتوك لا ترد أحدا، وأماكن الشات كثيرة لا يقف علـــى بابهـــا بواب.

وإن سكت القوم عن بعض الأمور علانية فلا أحسب أنهم في الحوار الهادئ الفردي أو شبه الفردي، أو الرسائل الخاصة التي تأخذ شكل الاستفتاء و لا تنشر على الملأ يسكتون.

أيها الكرام!

أقول من أسباب النصر، بل إن السبب الرئيس للنصر المبين.. المبارك الذي يؤتي أكله أضعافا مضاعفة بإذن الله هو طاعة الله عز وجل فيما أمر قال تعالى: " ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيـــز "، والمعصية من موانع النصر " قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ".

فالمعصية تأخر النصر، وتصرف الملائكة من الصف وتجرئ عليكم عـــدوكم، فـــلا بـــد إذن مـــن الاستمساك بهذا السبب الأكيد للنصر،وهو طاعة الله عز وجل ــــ وهذا يستلزم ـــــــ فضلا عن التزام هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد وتحيق أمر الله تعالى بالسير خلف العلماء الربانيين ـــــــ تنقية الصف من أهل البدع من العلمانيين والوطنيين وغيرهم، أقول هـــذا لأن أخشـــى مـــا أخشاه أن ينضم إلى الصفوف حين تبدوا بشائر انتهاء المعركة ثلة من المنافقين وتصير بأيدهم الأمـــور كما حدث في ثورة الجزائر وفي مصر وغيرهما من قبل، فيقطفون ثمرة جهادكم، ويفتحون علينا دوامة أخرى من جديد.

أيها الكرام!

لا بد أن أمريكا سترحل يوما عن العراق، وعن غير العراق، فالأيام دول، والدول تزول، ولكن ليس هذا هو غاية المقصود من الجهاد، إنما شرع الجهاد لإزالة الطواغيت الذين يصدون الناس عن الإسلام وبالتالي وضع الناس في حالة خيار حقيقي ليختاروا الدين الصحيح.

والجهاد ما شرع إلا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وما شرع الجهـــاد إلا لدرء فتنة الكفر عن العباد والبلاد " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ". وهذا يســـتلزم الاستعلاء على الأغراض الدنيوية من تحرير الأرض والدفاع عن العرض. والثأر للأشخاص. وإنا نؤمل منكم أكثر من العراق، فهاهم اليهود كادوا ينتهون من إقامة الجدر ـــــــ الجدار الفاصـــل لـــيس جدارا واحدا في الحقيقة وإنما هو عدة جدران ـــــــ وقد أقامو القرى المحصنة ـــــــ المســـتعمرات ـــــــ وأنتم شرقي نهر الأردن، وأركم أنتم أو من يأتي بعـــدكم المعنيـــون بقـــول الله تعـــالى " لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر "

دور العقيدة الإسلامية في صياغة الشخصية

نموذج توضيحي : خالد بن الوليد ـــ رضي الله عنه ـــ

محمد جلال القصاص

(خرجت قريش ـــ يوم أحد ـــ بحدِّها وجدِّها وحديدها وأحابيشها ، ومن تابعها من بني كنانـــة ، وأهل تهامة والظعينة)[١] موتورين بآبائهم وإخوانهم ، يُجعجع فرسانهم ، وتضرب بالدف نساءهم ، وينادي بالثارات جميعهم ؛ فيهم مائتي فارس على رأسهم خالد بن الوليد يواجهون سبعمائة رجلا رجالا حُسرا ، و لم يغنِ قريش أن بها خالدا بن الوليد ، و لم يستطع شيئا إلا على غرَّة ، وعلى غـــرَّةٍ والناس منهزمون قد انفضوا من مواقعهم واستدار بعضهم على بعض ما استطاع خالدٌ بثلاثـــة آلاف أن يقتل إلا سبعين ـــ أو أقل ـــ نفرا . !!

وفي يوم الحديبية خرجت قريش كخروجها يوم أحد أو أ شد ، ووقف خالد بن الوليـــد علـــى رأس فرسان قريش ، وما جرئ على قتال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وصحابته ، وهم حُرُمٌ لا يحملون إلا سيف الراحلة ، وقف يبحث عن وقت غفلة كي يأخذهم على غِرَّة ـــ كما فعل يوم أحد ـــ وما استطاع شيئا [٢].

وفي سنة تسع من الهجرة عقدَ رسولُ الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لواءً لخالد بن الوليد ـــ رضـــي الله عنه ـــ بأربعمائة وعشرين فارسا إلى إحدى قرى الشام (دومة الجندل) كي يغير على ملكهـــا أُكَيْدِرِ ، فقال خالد : ((يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كَلْبٍ وإنما أنا في أناس يسير ؟ فقـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ستجده يصيد البقر فتأخذه)))[٣]. فتشجع خالد وصـــار إليـــه فوجده على الحال التي وصف رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فأخذه.

وبعد عامين فقط تجمعت قبائل كلب ومن جاورها من بني تميم ومعهم أحياء قضـــاعة عنـــد دومـــة الجندل فتحرك إليهم خالد في جيش أقل منهم بكثير جدا وذبحهم في الحصون وحولها .

وبعد عامين فقط ركب خالد بن الوليد في نفر يسير ــ بالنسبة لقوات العدو ــ لمن ارتد من العرب من غطفان وبني حنيفة ثم صار إلى أهل العراق والشام فأتى على قوى الكفر كلها من عرب وفــرس وروم في هذه البلاد . وما تردد في معركة . وما انهزم .

ما الذي حدث ؟

خالد هو خالد . بل . كَبُرَ سنه ورقَّ ــ بعض الشيء ـــ عظمه ، كيف يَهزم كل هذه الجيــوش المتماسكة المجتمعة وكيف يقتل كل هذا العدد من البشر ؟[٤]

حدث هناك نوع من التغيير في المفاهيم والتصورات الداخلية التي تُحرِّك خالدا بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ ومن معه ، نوع جديد من المفاهيم عن طبيعة المعركة وأسباب النصر والهزيمة ، جعلت خالدا يُحدث كل هذا الأثر في واقع الناس . وتدبر هذين الموقفين :

يوم اليرموك جاء أحدهم يخوفه من الروم وقد أقبلت كالسحابة السوداء تسد الأفــق ، تمــوج بهــم الأرض كما يموج البحر ، صوتهم كالرعد . كما يصف ابن كثير ــ رحمه الله ــ على لســان مــن حضر المعركة . والمسلمون قلة ، جاء يقول لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ويلك، أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر [أي من الله][٥] ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجــال، والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد.

وحين همَّ بعبور بادية الشام من العراق إلى اليرموك تخوف من معه واستداروا كأنهم يريدون مراجعته في أمر العبور إلى الشام فقام فيهم خطيبا بهذه الكلمات (اعلموا أن المعونة على قدر النية ، والأجــر على قدر الاحتساب ، فأروا الله من أنفسكم خيرا يمدكم بمدده) .

خالد بالأمس القريب ، حين أُمِرَ بالتوجه لأُكيدر يحسب للعدد حساب وينادي : كيــف .... وإنما أنا في نفر يسير ، وهو اليوم يلغي عامل العدد من أسباب النصر والهزيمة .

وخالد يتمنى شفاء فرسه ليكون أنشط في القتال مقابل أن يزيد جيش الروم ضعفا كاملا . أهذا خالد يوم أحد والحديبية ؟!

وخالد يُقدم على عبور المفازة سالكا طريقا لا يقول عاقل أن جيشا يسير به وينجو ، معتمدا على أن (المعونة (من الله) على قدر النية) فهو يتكلم بأن السبب المطلوب بذله لعبور هذه المفازة هو صدق اللجوء إلى الله وحسن التوكل عليه . ويُذكِّر من معه بالاحتساب حتى لا يضيع الأجر .

إن العامل الأساسي هو العقيدة وليس شخص خالد رضي الله عنه ، فكما رأيت حــدثت نقــالات نوعية في شخصية خالد وما أنجزه بعد الإسلام وهذا الأثر ازداد تدريجيا بثبات الإسلام في صــدر أبي سليمان ــ رضي الله عنه ــ ، كما علل هو رضي الله عنه وأرضاه .

يزداد هذا الأمر وضوحا في ذهنك أخي القارئ حين تتذكر أن الفتوحات الإسلامية لم تتأثر مطلقا برحيل خالد عن القيادة ، وإنما برحيل الجيل الأول من الصحابة ومجيء من كانوا أقل شأنا في أمر الدين .

ويزيد من هذه الفرضية أن النصر والهزيمة وطبيعة المعركة من حيث أطرافها له تصور خاص في الشريعة الإسلامية . فالشريعة تتكلم عن حضور الملائكة القتال تثبت الذين آمنوا وتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا . { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الأنفال : ١٢] . وحضور الملائكة الكرام متوقف على تقوى الله لا على عدد المسلمين وعتادهم ولا على كونهم منتسبين للإسلام فقط يقول الله { بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ }[آل عمران : ١٢٥] . وفي التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة العدد ليس من الأهمية بمكان فـ { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }[البقرة: من الآية ٢٤٩] ، وفي التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة أننا ستار لقدر الله سبحانه وتعالى ، فالله ينفذ من خلال عباده قدره ويظهر آثار صفاته ، فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المتاحة للنصر والله ينصر من ينصره ،وفي الشريعة الإسلامية الهزيمة سببها الذنوب ــ ومنها التقصير في الأخذ بالأسباب المتاحة كما أمر الله ــ قال الله " { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[آل عمران: ١٦٥] .{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن
يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }[آل عمران : ١٥٢]

والشاهد : أن هذه معارف يكتسبها أحدنا بقراءتها فقط إن صدَّق المخبر بها ، أما أن تستيقن منها وتصطبغ بها وتتعامل من خلالها فهذا لا تناله في يوم وليلة ، فالشهوات والشبهات تتصارع مع خطاب الوحي ولا يستقر الإيمان في القلب إلا بعد حين .. . وبين حين يجد من يناوشه ويريد زحزحته فإن لم ينتبه تزحزح[٦] .

وحين استقرت هذه المعاني في قلب خالد ورفاقه تغيرت أسباب النصر ، لا من خالد ولكن من الصياغة الجديدة التي صاغتها العقيدة لخالد ورفاقه .

وفرض الصورة العكسية يبين لك الأمر أكثر ، لو اجتمع ثلاثين ألفا من مشركي العرب أمام ربع مليون أو يزيد من الروم والعرب هل كانوا ينتصرون ؟؟

لم يكونوا ليجتمعوا أولا ، وإن اجتمعوا ما كانوا ليفكروا في غزوهم وإن غزوهم ما ثبتت أقـــدامهم ساعة .

ولتستبين قولي ، ولتعلم أن العقيدة هي المحرك الأساسي وهي التي صاغت خالد وغير خالد من قـــادة الأمة راجع الآيات التي تتكلم عن المنافقين حين القتال مثل قول الله تعالى {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُـــم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }[الفـــتح : ١١] { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّـــهَ عَزِيـــزٌ حَكِيمٌ }[الأنفال: ٤٩] {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّـــا غُرُوراً }[الأحزاب : ١٢]

من تكلموا في هذه الآيات من المنافقين كانوا من جنس المسلمين لا يختلفون عن بعضـــهم شـــيء في الصفات الخارجية ، ولكن خُلِعَ قلب هؤلاء حين جاء الخوف لأنهم لم يؤمنوا ، ولم تســـتقر حقـــائق الإسلام في قلوبهم . لم يستيقنوا الفرار لن ينفعهم ، وأنه لا عاصم من الله إن أراد بهم ضرا أو أراد بهم نفعا ، ولذا راحت جوارهم تبحث عن مخرج حين جاء الخوف .

أما الصادقون . . المستيقنون . . فأقدموا وصبروا واحتسبوا وعلموا أنه النصر وإن يدركوه هم فمَـــن بعدهم .

إشكال والجواب عليه :

يشكل على بعضهم أنه إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يتساوى الجميع أو يرتبوا على حسب إيمانهم ، هل برز خالد وأبو عبيدة وقتيبة الباهلي كونهم أكثرهم إيمانا ؟

نقول : ليس الأمر كذلك ، فالله سبحانه وتعالى خصَّ بعض الأفراد ببعض الصفات ، وفـــتح علـــى بعضهم من أبواب دون أبواب ، فهذا حَبَّبَ إليه الجهاد ورزقه بنية قوية وقوة في قلبه ، وهذا حبـــب الله إليه طلب العلم وتعليمه ورزقه عقلا وعزيمة في الطلب ، وهذا حبب الله إليه الإنفاق وأمده بالمال ، وهكذا .

والعقيدة تصل بالمرء إلى أقصى مستوى ؛ بل تصيغه صياغة جديدة بحيث لا يقارن بمثله الذي لم يتأثر بالعقيدة بعد أو ما زال في المراحل الأولى من التفاعل مع مفاهيم الدين وتصوراته .

تتمة : العقيدة وقوة البدن

لا يقتصر الأمر فقط على صياغة الشخصية من جديد ، بل أستطيع أن أقرر أن التزام الشرع يعطـــي قوة بدنية ، ولهذا الأمر شواهد كثيرة منها هذا الحديث .

عند مسلم من حديث علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ أن فاطمـــة ـــ رضـــي الله عنـــها ـــ اشتكت ما تلقى من الرحى في يدها وأتى النبي صلى الله عليه وسلم سبي فانطلقت فلم تجده ولقيـــت

عائشة فأخبرتها فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري ثم قال " أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهْوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ "[٧]

توجيه الدليل :

فاطمة ـــ رضي الله عنها ـــ تعمل بالرحى حتى أثرت في يدها ، ويشهد لهذا ما جاء في سنن الترمذي عن علي رضي الله عنه (شكت فاطمة إليَّ مَجَلَ يديْها) ، ويقال لليد مَجَلَتْ إذا ثخنَ جلدها وتعجر وظهر فيها ما يشبه البتر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة . ففاطمة رضي الله عنها تشتكي من الجهد المبذول في بيتها وتريد خادمة تحمل عنها ، ويكون الجواب وِرْدٌ من الأذكار (يحصل لها بسبب هذه الأذكار قوةٌ على الخدمةِ أكثرَ مما يَقدرُ الخادم [٨]. أو بعبارة أخرى (أن الذي يلازم ذكر الله يُعطى قوة أعظم من القوة التي يعملها له الخادم ، أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أُموره أسهل من تعاطي الخادم لها ، هكذا استنبطه بعضهم من الحديث)[٩]

---

[١] من سيرة بن هشام في ذكر غزوة أحد .

[٢] المغازي الجزء الثاني ٥٨٢ ، وذكره النووي في شرح حديث صالح بن خوّات عن صلاة الخوف في البخاري باب المغازي / ٣٨١٧ .

[٣] ذكره الواقدي في المغازي الجزء الثالث / ١٠٢٥

[٤] يذكر أهل السير أن جملة من قتلوا على يد خالد في أول أربعين يوما من فتح العراق فقط أربعمائة ألف مقاتل . أي بمعدل عشرة آلاف لكل يوم ، وما كان يقاتل كل يوم .

[٥] ما بين القوسين مني ، والنص من بن كثير رحمه الله في أحداث غزوة اليرموك .

[٦] وهذا مفهوم من المثل المضروب في سورة الرعد {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ }[الرعد : ١٧] ، ولابن القيم في مدارك السالكين وفي الداء والدواء كلام طيب عن النفس المطمئنة والنفس الأمارة أو قوة الخير وقوة الشر وكيف الطريق لغلبة الخير على الشر لمن أراد المزيد .

[٧] متفق عليه .

[٨] تحفة الأحوذي لشرح سنن الترمذي في التعليق على الحديث / ٣٣٣٠ــ كتاب الدعوات . وهو قول العَيْنيُ نقله صاحب التحفة .

[٩] فتح الباري /٢٤٩٤

كيف انتصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

٢٠/١١/١٤٢٦هـ

د. فيصل بن سعود الحليبي

الحمد لله ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا .

أما بعد : فيا عباد الله ، اتقوا الله واعبدوه ، { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } .

أحبتي الكرام : مع قلة عدد ، وضعف عتاد ، حقق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم النصر على أعدائهم ، ومن عجب أن هذا النصر وذلك التأييد ما كان في ميدان دون ميدان ، أو في وقت دون وقت ، وإنما كان في كل الميادين وفي كل الأوقات !!

الله تعالى يختار للنصر جنودًا يستحقونه ، تغلبوا على نفوسهم ، ودحروا شياطينهم ، ولم تغرهم دنياهم ، ووضعوا الآخرة نصب أعينهم ، ألا يستحق نصرهم هذا أن نلتفت إلى أسبابه ، فنتأمل فيها ، لنقيمها في أنفسنا وننهض بها في أمتنا ، لنأخذ بيدها نحو نصر الله تعالى .

إن أول أسباب النصر في جيل الصحابة ــ إخلاص الوجهة والعمل لله تعالى ، فإن الله تعالى : { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) رواه مسلم .

وانتصر الصحابة ــ باتباعهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى خالطت السنة أمشاجهم ، وجرت في دمائهم ، هذا أبو بكر ــ يصر بكل شدة أن يقاتل مانعي الزكاة ويقول : (والذي نفسي بيده لأن

أقع من السماء أحب إليّ من أترك شيئًا قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أقاتل عليـــه))
فقاتل مانعي الزكاة حتى رجعوا إلى الإسلام .

أما عُمَر ابْنَ الْخَطَّابِ ـ فقد التفت إلى الحجر الأسود وهو يطوف فقال له : أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ فَاسْتَلَمَهُ ثُـــمَّ قَالَ فَمَا لَنَا وَلِلرَّمَلِ ــ وهو المشي بهرولة ــ إِنَّمَا كُنَّا رَاءَيْنَا بِهِ الْمُشْرِكِينَ ــ أي نظهر فيـــه قوتنـــا للمشركين ــ وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ شَيْءٌ صَنَعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَلَا نُحِبُّ أَنْ نَتْرُكَهُ) رواه البخاري .

هكذا تنتصر الأمة حينما تتبع هدي حبيبها محمد صلى الله عليه وسلم ، هكذا تظهر على كل الأمـــم حينما تسير على هداه ، ولا تتنكب عنه ، القوة مصدرها ، والنصر حليفها ، وما من أمة تعرض عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويأتيها يوم يزول عرشها ، وينهد بنيانها ، فعن عبد الرحمن بـــن جبير بن نفير عن أبيه ، قال : لما فتحت قبرس فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبـــا الدرداء جالسًا وحده يبكي ، فقلن أبا الدرداء : ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله فقـــال : ويحك يا جبير : ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهـــم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى .

قال أبو القاسم الجنيد : ((الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ، ولزم طريقه ، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه)) .

وانتصر الصحابة يا أحبة بتطهير النفوس ، فقد قرن الله تعالى الفلاح بتزكيتها فقال تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(٩)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } .

كيف نسأل كيف انتصر النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نعلم أنه كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّـــى تَتَفَطَّـــرَ قَدَمَاهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَـــالَ أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا) رواه البخاري .

ويهذب نفسه بالصيام ، والصدقة ، ولا يفتأ عن الذكر ، ولا يغفل عن حسن التفكـــر في نعـــم الله وآلائه ، وعلى الطريق سار أصحابه الكرام ـ يطهرون أنفسهم من متعلقات هذه الدنيا ليصـــنعوها نفسًا أبية تعشق النصر ولا ترضى بغيره .

قال الحسن : تزوج عثمان ابن أبي العاص امرأة من نساء عمر بن الخطاب بعد طلاقها منه ، فقـــال : والله ما نكحتها حين نكحتها رغبة في مال ولا ولد ، ولكن أحببت أن تخبرني عن ليل عمر ، فسألها : كيف كانت صلاة عمر بالليل ؟ قالت : كان يصلي العتمة ، ثم يأمر أن نضع عند رأسه تورًا (إناء) من ماء نغطيه ، ويتعار من الليل ، فيضع يده في الماء ، فيمسح وجهه ويديه ، ثم يذكر الله ما شـــاء الله أن يذكر ، ثم يتعارّ مرارًا حتى يأتي على الساعة التي يقوم فيها لصلاته) .

وعن الحسن ـ قال : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ : لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، وأني لأكره علي يوم لا أنظر في المصحف ، ما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه .

وقد تعجب كما عجبت .. فما علاقة النصر بمثل هذه الركعات وتلك الوقفات مع كتاب رب الأرض والسموات !!

فالجواب أيها الحبيب ما أوصى به عمر بن الخطاب ـ سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد حينما قال لهم : ((أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولو ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإن لم ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا)) .

وانتصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بزهدهم للدنيا ، حيث نظروا إليها بأنها دار اختبار وامتحان ، وأنها مزرعة الآخرة ، وتمثلوا قول الله تعالى : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ } .

فأبو بكر ـ من أثرياء المهاجرين يدعى إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى وتجهيز الجيوش فيأتي بكل ماله ، وحين سأله النبي صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله)) .

وأما عثمان فإنه يجهز جيشًا بأكمله حتى قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) رواه أحمد .

فحين تحرر الصحابة من سيطرة الدنيا بزخارفها وزينتها وأسلموا أنفسهم لله تعالى أعزهم اله وأيدهم بنصر منه ، فإنه هو القوي المتين ، إننا بحاجة اليوم إلى يقين تام بأننا غرباء في هذه الدنيا أو عابري سبيل ، وأن هذه الدنيا لا وزن لها عند الله إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلمًا ، وأن نهاية الدنيا قريبة وإن بدت بعيدة ، { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } .

اللهم ألهمنا أسباب نصرك ، وانصرنا على أعدائنا ، واغفر لنا ذنوبنا فإنك أنت الغفور الرحيم .

الخطبة الثانية :

الحمد لله وحده يستحق الحمد كله ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا .

أما بعد : فيا أيها الأكارم ، لعلكم تنتظرون مني أن أقول لكم أن من أهم أسباب نصر الصحابة هو اجتماع كلمتهم ، وإيمانهم بأن الوحدة سبيل إلى النصر ، وأن تنازع القلوب ، وتفكك الكلمة سبيل

إلى الهزيمة ، إنها التربية الربانية التي انقادت لها تلك النفوس الطيبة ، ألم يقل الله تعالى : { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } ، ألم يقل الله تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } .

أي نفس نشأت على حب التنازع وعشق الفرقة فهي نفس مهزومة ولا شك ، أي نفس تسعى في تشتيت الشمل ، وتمزيق الاعتصام فهي نفس هابطة مهينة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ) رواه الترمذي وصححه .

ألا تتفق معي ـــ يا رعاك الله ـــ أن الأمة اليوم تلاقي جبهة عدائية شرسة من الخارج ، لم تقف عند الاعتداء على حدودها أو أخلاقياتها بل تعدت إلى سوء الأدب على ربها وكتابه ونبيه صلى الله عليه وسلم ، فما أقبح أن نكون فرقًا شتى ، يستغل العدو فينا كل ثغرة أو ضعف فرقة ، وإن هذه الوحدة تبدأ من ألفة الزوجين إلى الأبناء إلى الجيران إلى المجتمع من حولنا إلى البلد بكامله إلى الأمة بأسرها ، هكذا كالبنيان المرصوص ، فإن الله يقول : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } ، فما أروعها من نفس تتطهر الآن عن كل الأحقاد عن كل الضغائن ، لتعود من جديد نفسًا طاهرة لا تعرف إلى الحق طريقًا ولا إلى الحسد مسلكًا ، تتزاور في الله ولله ، وتعمر قلوبها بالمحبة الصادقة من دون غبش الدنيا ولا عتمتها ، تتناصح من أجلها سعادتها ، وتتحاور من أجل اجتماعها ، ويعذر بعضها بعضا ، ويصفح بعضها عن بعض .

وللحديث عن أسباب نصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية إن بقي في العمر بقية .

صلوا على القدوة العظمى ، والأسوة الحسنة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ، واحم حوزة الدين ، وانصر عبادك الموحدين ، اللهم احفظ هذه الأرض من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، اللهم من أرادها وبلاد المسلمين بسوء فأشغله في نفسه واجعل كيده تدميرًا له ، اللهم رد كيده في نحره ، واجعله عبرة لمن يعتبر ، اللهم إنك أنت القوي فأمدنا بقوتك ، وإنك أنت الحليم فأسبغ علينا حلمك ، وإنك أنت الرحيم فأنزل علينا سكينتك ، وإنك أنت الرزاق فامنن علينا بكريم رزقك ، وإنك أنت العفو فاسترنا بعظيم عفوك ، اللهم انصر إخواننا المسلمين في كل مكان ، وأمدهم بمدد من عندك وجند من جندك ،واحفظ ديارهم وأموالهم وأهليهم ، ورد عنهم بقوتك وجبروتك ، اللهم وفق أولياء أمورنا للعمل بما يرضيك ، واجعلهم هداة مهتدين ، سلمًا لأوليائك ، حربًا على أعدائك ، ووحد على الحق كلمتهم ، ووفقهم لإصلاح رعاياهم ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولأحبابنا ولجميع المسلمين ،وصلوا وسلموا على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

سقوط بغداد أم سقوط أخلاق؟!!!

يسري صابر فنجر

لما سقطت بغداد ودخلها العلوج أصاب كل مسلم إعصارٌ من الهم والغم والنكد والهزيمة والانحطاط والسقوط ؛ لفقد عزيز وأي عزيز،وفقد قريبٍ وأي قريب،وكم لنا في العراق من آباء،وأمهاتٍ،وأبناءٍ إنه ضياعٌ لمستقبل شعب، واحتلالٌ لأرقى دولة من دول الإسلام، وسألت نفسي سؤالاً ما هو حال من عاصر سقوط القدس؟ وهل الألم الذي أصاب كل مسلم من سقوط بغداد أم من الطريقة التي سقطت بها؟ إنها سهام متعددة،وطعنات موجعة:

ولو كان سهماً واحداً لاتقيته ولكنه سهمٌ وثانٍ وثالث

ولكن لا بد من الابتلاء، ويقابل الابتلاء بالصبر والرضا،حتى يفرز هذا الابتلاء جيلاً يأتي على يديه النصر،والأيام دول .

وسقوط بغداد –وقبلها القدس والخلافة الإسلامية– هو نتيجة حتمية لسقوط المبادئ والقيم والأخلاق،وضياع الدين بين فلسفات المتكلمين،وماديات الطبيعيين،فالقضية ليست سقوط دولة بل سقوط الشعوب الإسلامية في مستنقع من المادية الزائفة والشهوات الزائلة سواءٌ كانت تلك الشهوات قلبية(عاطفية) أو عقلية أو جسدية،وفي ظل ذلك فالحديث عن النصر وهم وسراب،والواقع يحس به كل مسلم ويكابده في ليله ونهاره.

أما أسباب التفاعل مع هذا الواقع،والارتقاء به إلى الفضيلة، وتكوين العدة الإيمانية التي تكون بها النصر،فذلك بأسبابٍ منها:

١ـ الرجوع إلى الدين بجميع جزئياته كما قال –صلى الله عليه وسلم–:" سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" رواه أبو داود(٣٤٦٢) وغيره وصححه الألباني فإذا تم الرجوع إلى الدين تمت العزة للمسلمين وأزيل الذل المسلط عليهم،ولا بد من لفظ كل الفوارق العرقية،والأهواء العقلية.

٢ـ إن الإسلام أخذ في أحكامه بمبدأ الوقاية خير من العلاج،فلا بد من الوقاية قبل استئصال الداء،ولن يصَفَّى الصف المسلم من العملاء والخونة والمنافقين إلا بتربية الصف المسلم والارتقاء بمستواه إلى تطبيق مبادئ الإسلام،وقتها لن يجد العملاء والدخلاء مرتعاً خصباً في الصف المسلم يرتعون فيه، ولن تكون سمومهم ذات تأثير.

٣ـ عدم التباغض والتحاسد بين الصف المسلم بسبب أمور الخلاف فيها واسع،قد وسع السلف الصالح خلافهم فيها، والعمل على تكوين الوحدة الإسلامية وإحياء مبدأ الولاء للمؤمنين وإلانة

الجانب لهم وتآلف القلوب وإشاعة جو من هضم الذات،وظهور الأمثلة الحية من الإيثار" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" [الحشر:٩].

٤ـ عدم التكالب على الدنيا فهي حقيرة مهما عظمت،جيفة مهما تزينت،عفنة مهما تعطرت،فانية مهما بقيت،وطالبها في غفلة فإن أفاق قبل حلول الأجل وإلا ندم يوم لا ينفع الندم.

٥ـ إعداد العدة والأخذ بأسباب القوة والأخذ بالأساليب العلمية الحديثة في أمور الدنيا بتكوين قوة إعلامية وحربية واقتصادية وطبية وغيرها تظهر عليها الروح الإيمانية والمظاهر الإسلامية.

٦- العمل الجماعي والدولي يحتاج إلى مرجعية تفصل في الأمور وتتحدث بلسان الكل ويكون لديها من الإمكانيات ما يؤهلها لتحقيق ما قامت لأجله.

٧ـ تنمية المؤهلات والقدرات التي تدفع الفتور أو اليأس في مسيرة العمل الإسلامي.

٨ـ تربية الأجيال الصاعدة على تحمل المسؤولية، وإعداد الكوادر المستقبلية وإعطائها الفرصة لتحقيق الذات.

٩ـ تربية الأفراد على الجلد والاجتهاد فالطريق شاق محفوفٌ بالأشواك وكلمة الجهاد ليست سهلة والمجاهد لا يعرف اليأس ولا القنوط بل يعيش بين الكر والفر وتتشعب لديه المسالك والضروب،وتكوين العقلية التي تملك القرار الصائب والمناسب لا يأتي من فراغ.

١٠ـ إقامة الاحترام المتبادل بين الكبير والصغير،والابن وأبيه،وحفظ حقوق العلماء وسماع نصحهم وإرشادهم والتأدب في الحديث معهم وعنهم.

وختاماً فإن النصر من عند الله ابتداءً وانتهاءً نسأل الله الصدق في القول والإخلاص في العمل والله المستعان وعليه التكلان ونصلي ونسلم على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دروس مستفادة مما حصل في العراق (*)

الدكتور الشيخ: علاء الدين زعتري

يقول الله تعالى: { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(١٥٦)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

وقال تعالى: { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١)أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(١٤٢)} [آل عمران:١٤٠].

وقال تعالى: { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران:١٦٥].

وقال تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ }[الشورى:٣٠].
وقال تعالى: { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر:٤٥].

ليس المهم سرد الأحداث فقط، بل هي الدروس والعبر والاستفادة من الماضي لتجنب الأخطاء في المستقبل.

ولقد مرت بالأمة أحداث كبيرة؛ آخرها سقوط بغداد، وفيها عبر ودروس، أوجزها بما يأتي:

أول الدروس: هل فعلاً انتصرت أمريكا وحلفاؤها؟

يتحدث الناس عن انتصار أمريكا؛ وأنا أراه تفوقاً عسكرياً فحسب، وعلى الأقل حتى الآن، ولكن النصر الحقيقي لم يتحقق لأمريكا ولن يتحقق لها بإذن الله، ما دامت الأمة بوعيها.

وإذا كانت أمريكا قد دخلت العراق ، واستلمت بغداد، فهي قد سقطت أخلاقياً.

فأمريكا لم تلتزم بمواثيق الحروب التي نزلت في الكتب السماوية، ولا بمواثيق بشرية أقرتها القوانين الوضعية، ومَن سقط أخلاقياً فيكون سقوطه الكامل قريباً.

لقد سقطت أمريكا دولياً؛ لتحديها دول العالم، ولقد نُشرت أحصائية تبين استطلاعاً عن شعبية أمريكا داخل بعض الدول الصديقة لأمريكا؛ فقد وصلت شعبيتها في بعض تلك الدول إلى ٢٥%، بل إلى ١٢%، وهي في نزول وانهيار بسبب حملتها الظالمة الجائرة، وتحديها العالم أجمع، فشعبية أمريكا خلال سنة فقط انهارت أكثر من ٥٠%.

والأيام القادمة، والشهور القادمة، والسنوات القادمة تحمل مزيداً من العداء والكُره والبُغض لأمريكا، حتى من الشعب الأمريكي ذاته.

منذ عهد قريب كانت أمريكا تتهم المسلمين بالإرهاب، وليس الغريب أو العجيب أن تتهم أمريكا المسلمين بالإرهاب، فهذا ديدنها، وما هي إلا شهور فينكشف للعالم أن أكبر دولة إرهابية في العالم هي: أمريكا.

فقد ثبت باليقين أن أمريكا هي حاضنة الإرهاب، وداعمة الإرهاب، سواء في فلسطين وفي أقطار عدة من العالم.

وما حدث في بغداد، وفي العراق، وما تتوعد به الآن دليل على ذلك.

سئل وزير الدفاع الأمريكي بعد دخول بغداد: أين أسلحة الدمار الشامل؟

وبإجابة خبيثة تدل على ما تخفي الصدور، قال: إن أسلحة الدمار الشامل يبدو أنها هُرِّبت إلى سوريا!!

وأراد أن يكسب شيئين:

١- أن يقول للناس: نحن ما كذبنا أن في العراق أسلحة دمار شامل، لكن هرَّبها إلى سوريا.

٢- حتى تكون ذريعة لمواجهة سوريا التي بدأت لها التهديدات الآن، وإذا دخلوا سوريا – ونسأل الله أن لا يحقق أمنيته – سيقول: هُرِّبت إلى بلد آخر، وهكذا دواليك.

لن تنعم أمريكا بالأمن ولا بالراحة ولا بالهدوء في العراق، ولن تستقر لا في داخلها، ولا في خارجها، بل ولن تستقر مصالحها لا في الداخل، و لا في الخارج، وهذا هزيمة نفسية وعاطفية كبرى لأمريكا بلا شك.

لقد انكشفت أمريكا على حقيقتها، وسقطت شعارات العدالة والحرية، والديمقراطية التي تغنَّت بها أمريكا طويلاً.

والبرهان على ذلك: ما حدث في العراق بعد سقوط بغداد، فلقد انتهى النظام الذي جاؤوا لإسقاطه، وإذ بالنهب والسلب قد بدأ تحت بصر وسمع ما سمي بقوات التحالف، وبمباركة أمريكية ورعاية بريطانية.

أين الحُرِّية التي جاءت بها أمريكا؟

لقد رأى العالم عامة والعراقيون بوجه خاص الفوضى والدمار والإخلال بالأمن والسرقات، فهل هذه هي حُرِّية العراق، كما تفهمها أمريكا.

الدرس الثاني: إن الجيوش والأمم إذا رُبِّيَت على خدمة الأفراد وطاعتهم هُزِمت في لحظات، أما إذا رُبِّيت على طاعة الله – جل وعلا – انتصرت، وعاشت بين الأمم.

ومن آخر الأمثلة في ذلك: ما حدث في العراق، فلما هوى الصنم استسلم الجميع.

وبقراءة التاريخ يُلاحَظ أن الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد نَبَّه لهذا الأمر، الذي غاب عن أذهان القادة والحكام اليوم:

لما توفِّي صلى الله عليه وسلم وكان الموقف الذي وقفه بعض الصحابة من هول الصدمة والمفاجأة، حتى قال بعضهم، كما قال عمر: إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يمت، وقد ذهب ليكلم ربه، قام أبو بكر فقال قولته الشهيرة:

(من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

فليعمل المصلحون والقادة على جعل الناس يعبدون الله، ويكونوا مع الله في حبهم وفي بغضهم، قال الله تعالى: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، ولتكن محبة الأوطان وقيادات الأوطان بعد محبة الله الباقي الذي لا يحول ولا يزول.

الدرس الثالث: أثبت المسلمون أنهم عاطفيون، والعاطفة أمر مهم وجميل وجيد، لكن يجب أن تخضع تلك العواطف للعقل، والعقل يجب أن يخضع للشرع.

لاحظوا: بدأ سقوط بغداد بعد العصر! فما الذي حصل عشاءاً؟.

المسلمون في صلواتهم كانوا يقنتون في كل يوم، وفي كل صلاة، منذ بدء العدوان العسكري، فما أن حانت صلاة العشاء حتى أوقف القنوت! وكان الجواب الفعلي: انتهى الأمر!

وفي الحقيقة أن حاجة المسلمين للقنوت الآن أكثر من حاجتهم إلى القنوت من قبل؛ لأن العدو الذي جاء هو أعظم ظلماً وطغياناً وكبراً من الظالم الأول.

الدرس الرابع: عدم استعجال النصر، ودوام الثقة بوعد الله، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك.

ولعل من أسباب تأخر النصر: أن الأمَّة ليست أهلاً له الآن؛ وواقعها يشهد بذلك، وإلا فوعد الله لا يتخلف أبداً، ولكن مع تخلف أسبابه، ووجود موانعه؛ يتأخر، فإذا توافرت الأسباب، وزالت الموانع تحقَّق النصر بإذن الله، قال تعالى: { وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [الروم:٦].

فلا تستعجلوا النصر، وأبشروا بالخير، وأمِّلوا بالجيل الحالي والقادم، واثبتوا على يقينكم، واصبروا بإسلامكم، وصابروا بإيمانكم، وسترون – بإذن الله – أو يرى أبناؤكم ما يسرُّهم ويسر هذه الأمة.

الدرس الخامس: أظهرت الأحداث مدى الحاجة إلى إصلاح الأمة في عامتها وخاصتها.

ففي الوقت الذي كان الطغاة البغاة يدخلون بغداد ويستبيحون هذه الدولة المسلمة بشعبها المسلم، فإذا مباراة تقام في الوقت نفسه يحضرها أكثر من (٥٠) ألف متفرج!!!

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!!

ألا نستحي من الله؟ ألا نخاف من الله؟ ما أحلم الله علينا! يقول تعالى: { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر:٤٥].

إن الأمة بحاجة إلى إصلاح في داخلها من أفرادها ومن عامتها وخاصتها، كلٌ منا يبدأ في بيته.

كثيراً ما تتوجه ألسنة الانتقاد، وأقلام التجريح للدول وللمؤسسات، لكن ما مدى تطبيق الإسلام على بيوتنا وعلى أنفسنا؟

ما مقدار قيام المسلم بأمر الله في صلاته، في عبادته، في إنابته، في أخذه بالحق، في ماله، في أكله، في شربه، في تربية أبنائه؟.

ألا ترى أنه ما زالت الاستراحات العامة تعج بروادها مع اختلاطهم؛ لهواً ولعباً، طعاماً وشراباً؛ تقليداً لأعمال الكافرين، ؟ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ؟[محمد:١٢]، ومقاهي الأنترنيت مليئة بالشباب والشابات مع سفاهة ما يرون وخسة ما يستخدمونه في الشبكة العالمية، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ؛ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟!!، قَالَ: "فَمَنْ؟" رواه

البخاري ومسلم وأحمد. ، والأسواق ما زالت مليئة بما لا يرضي الله؛ من الغش والكذب والتدليس والتعامل بالربا، الذي لم يذكر في القرآن حرب من الله إلا على آكله ومتعاطيه، قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٧٨)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ }[البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

الدرس السادس: سذاجة الشعوب العربية والإسلامية وبساطتها.

شعوب ساذجة بسيطة، سواء المعجبون بصدام، أو المعجبون المرحِّبون بأمريكا.

كم ضاعت الأمة وهي تصفِّق للطغاة.

عشرون سنة أو ثلاثون سنة تصفِّق لصدَّام، وقبل صدَّام كانت تصفِّق لآخرين هووا وذهبوا، والآن يسقط صنم، فيرحبون بأمريكا ببساطة وسذاجة عجيبة جداً.

إذن هذا يحتاج إلى إصلاح الأمة، وإلى بث الوعي فيها أكثر من أي وقت مضى.

الدرس السابع: إن الأمة – في هذه الأحداث – ثبت أن فيها أخياراً وصلحاء، وعلماء ومجاهدين، رجال أثبتت الأحداث صدقهم، وفتحوا صفحات مشرقة بإيمانهم وحسن ظنهم بربهم، ذكَّرونا بعهد السلف – رضوان الله عليهم – من الرجال والنساء.

الأمة فيها علماء بررة، وصلحاء خيرة، في الوقت الذي كانت فيه بغداد تسقط كانت هناك مجموعات من الأخيار ارتفعت أصواتهم، وجماعات من الشباب الصالحين، والفتيات المؤمنات؛ عبروا عن غيرتهم لدين الله، ولأرض من أراضي الإسلام، ولله الحمد.

فالخير موجود في الأمة، وقد ثبت في هذه الأحداث أن هناك رجالاً يتألَّمون ويتحسَّرون على واقع أمَّتهم.

الأمة فيها خير كثير، ولكنها تحتاج إلى جمع هذه الجهود وترتيبها، حتى لا تذهب هباء منثوراً، فهذه الطاقات، والقدرات الهائلة من الشباب المتحمس المندفع الغيور، أين العمل الجاد لتوظيف تلك الجهود في خدمة قضايا الأمة المصيرية المستقبلية؟.

الدرس الثامن: كانت هذه المحنة مفيدة للمسلمين الذين بدأوا يصحون من رقادهم، ويرتفعون في مستوى تفكيرهم، ويعودون إلى ربهم، ويتوبون إلى بارئهم، ويدركون ما يحل بهم، وبمَن حولهم.

الدرس التاسع: قوة الإعلام وأهميته في الحياة، قال تعالى: { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[التوبة:٣٢]، وقال تعالى: { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف:٨].

فالإعلام هو الذي أدار المعركة أكثر من السلاح!

فلو تم إنفاق ٥٠% على الإعلام، و٥٠% على الاستعداد للجهاد من سلاح وغيره، لكان صـــواباً، وما ذاك إلا لأهمية الإعلام اليوم، والدعم أو الرعب الذي يبثه، فلا نقلل من شأن الإعلام، لأنه هـــو الذي يؤثِّر في الناس الآن.

الدكتور الشيخ: علاء الدين زعتري

سورية ـــ حلب

E-Mail: alzatari@scs-net.org

(*) الموضوع اختصار لمحاضرة الشيخ ناصر العمر الله أكبر غلبت الروم

الطاعة طريق العزة والتمكين

الدكتور عصام بن هاشم الجفري

الحمد لله ولي المتقين وناصر ومعز عباده المؤمنين،أحمده سبحانه وأشكره جعل العاقبة للمتقين والنصر لعباده الطائعين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا يخرج عن تدبيره وقهره وسطوته خلـــق من العالمين وأشهد أن رسولنا وحبيبنا وأمامنا محمداً عبد الله ورسوله المبعوث بالرسالة للثقلين الإنس والجان أجمعين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحســـان إلى يـــوم الـــدين.أما بعد:فأوصيكم عباد الله بتقوى الله فهي طريق العزة والتمكين يقول ربنا جل وعلا:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِـــي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ}([١]).

دخل على رستم قائد الفرس في مجلسه الذي قد زينه وبالغ في زينته حيث زين بالنمـــارق الذهبيـــة وزرابي الحرير وأظهرت فيه اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة ، وجلس رستم على سرير مـــن ذهب ووضع على رأسه تاجاً مرصعاً بأثمن الجواهر ، دخل عليه وهو بثياب صفيقة وســـيف وتـــرس وفرس قصيرة لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، فهل احتقر نفسه ولبسه أمـــام أبهـــة العظمة والسلطان التي تذهب بالأبصار أمامه ؟ هل زاغت عينه يوم أن رأى الذهب والجواهر وبهر بها فصرفته عن مراده وغرضه ؟ لا . لأن في قلبه إيمان رفعه فوق الدنيا وزينتها وحلق به في السماء ، نظر إلى تلك البهرجة الدنيوية وتذكر جنات الخلد جنات عرضها السموات والأرض أعـــدها الله لعبـــاده الصالحين وجعل الشهداء الذين سفكوا دماءهم في سبيله يتبوؤن أعلى المنازل بها ، وقـــارن مقارنـــة سريعة ما هذا الذهب وما هذه الجواهر وما هذه الزينة التي زين بها الإنسان دنيا زائلة إلى جوار جنـــة زينها بديع السموات والأرض فاحتقر تلك الزينة وأخذ يدلل لهم على احتقاره لها بغرســـه لرمحـــه في تلك الفرش الحريرية وهو يتوكأ عليه ويمزقها به حتى وقف الذي شغل بإيمانه وجنة ربه أمـــام الـــذي شغل بدنياه وقوته وزينته ودار ذلك الحوار بين الفريقين واسمعوا لذلك الحوار ؟ يسأل رستم : ماجاء بكم ؟ فلم يتلعثم و لم يفكر لأن الغاية واضحة في نفسه كالشمس فهم قوم ما خرجوا يقـــاتلوا مـــن

أجل تراب أو من أجل قبيلة أو عصبية أو من أجل أي شعارات من الشعارات الأرضية إنما خرجوا ليجعلوا كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، خرجوا من أجل نصرة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خرجوا من أجل نشر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأجاب : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها،ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى

قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله ، قالوا : وما موعود الله ؟ قال الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي(٢).الله أكبر ما أعظمها من كلمات لا تصدر إلا عن يقين عظيم وإيمان راسخ كالجبال الرواسي؛ كان ذلكم الرجل هو ربعي ابن عامر و لم يكن يمثل نفسه فقط بل كان يمثل أمة الإسلام بأكملها في ذلك الزمان التي عرفت أن طريق النصر والعزة والتمكين يبدأ بطاعة الله وينتهي بطاعة الله يبدأ بطاعة الله لأن القوي المقتدر يقول : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(٣).تبدأ بطاعة الله لأن الله يقول:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(٤).وتنتهي بطاعة الله لن المليك المدبر يقول: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}(٥). هذا المعنى كيف تغفل عنه أمة الإسلام اليوم وقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ : ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ..))(٦). فكيف بأمة أغلبها من أولياء الله، للأمة آيات بينات في سيرة رسولها r تدلها على أن طاعة الله والاستقامة على منهجه هي طريق العزة والنصر والتمكين فهذا يوم بدر يوم أن أقبلت قريش بخيلها وخيلائها وحدها وحديدها تنوي استئصال الإسلام وإبادة أهله، فحشدت ذلك الجيش العظيم العدد والعدة، بينما كان جيش الإسلام قليل العدد والعدة ولكن كانوا قوماً أهل طاعة وإيمان كانوا قوماً تربوا على يدي رسول الله r فماذا حدث ؟ تعطلت القوانين المادية الأرضية وانتقلت قيادة المعركة من الأرض إلى

السماء:{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(٧).اشتركت جنود السماء مع جنود الأرض في المعركة وصدرت التوجيهات الربانية : {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}(٨).فكان النصر لأهل الطاعة والاستقامة وكان الذل والصغار على أهل المعصية والكفر ، وفي يوم الخندق الذي اجتمعت فيه العرب قاطبة وتمالأ معها اليهود من داخل المدينة على إبادة الإسلام وأهله ووقع المسلمون في شدة وضيق يصفها العليم الخبير بقوله:{إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ()هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}(٩).

لكنهم كانوا قوماً أهل طاعة أهل صلاح أهل استقامة أهل صلاة وقرآن ، وما كان الله ليخلف وعده لهم ويتخلى عنهم في تلك الظروف حاشاه سبحانه وبحمده فجاء النصر الإلهي والذي عبر عنه القوي العزيز بقوله : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}(١٠).فأذل الله وأخزى أهل المعصية والكفر والطغيان ونصر أهل الطاعة والاستقامة والإيمان وأخبرنا عن ذلك بقوله: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}(١١).أيها الأحبة في الله وقد يأتي الشيطان فيقول لأحدنا هذا رسول الله مع صحبه وذلك خاص بذلك الزمان ولا مكان له في غيره ، فنقول له لا والله بل هي قاعدة مضطردة خالدة إلى يوم القيامة وضعها رب العالمين بقوله : {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}(١٢). فهذا أبو مسلم الخولاني يقتحم النار التي أو قدها له الأسود العنسي الكذاب فتستحي النار أن تحرق رجلاً ألقي فيها من أجل لا إله إلا الله فلا تحرق أبا مسلم بإذن الله ويخرج منها سليماً كما دخل، وهذا عقبة بن نافع لما افتتح القيروان جاء إلى غابة مليئة بالهوام والسباع فناداهم بأعلى صوته يا أيها الدواب إنا نازلون فاظعنوا وكررها ثلاث مرات فلم يبقى شجر ولا حجر إلا خرج من تحته دابة حتى شوهدت الوحوش وهي تحمل أولادها هاربة مطيعة لأمر ذلك القائد المسلم المطيع لربه(١٣)، وهذا الإمام أحمد يرسل إليه الخليفة العباسي بأن لدينا جارية تصرع فتعال لتقرأ عليها فيرسل الإمام أحد تلامذته بحذائه ويقول له خاطب الشيطان الذي فيها وقل له إن الإمام أحمد يخيرك بين أن تخرج وبين أن تضرب بهذا النعل فتأتي الإجابة من ذلك الشيطان بقوله:إن الإمام أحمد أطاع الله فأطاعه كل من في الأرض ولو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا! الله أكبر فهل بعد هذا يشك أحد في أن طاعة الله هي مفتاح السعادة والنصر والعزة والتمكين في الأرض؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ}(١٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه . أما بعد : فاتقوا الله عباد الله. فها نحن قد علمنا طريق السعادة والعزة فما نحن فاعلون ؟ ليعد كل منا وليتأمل في حاله وحال زوجه وبيته وأولاده هل هم من العباد المؤمنين الطائعين؟لينظر حاله مع الصلاة حاله مع القرآن حاله مع قيام الليل حاله مع بر الوالدين حاله مع صلة الرحم حاله مع كل جوانب الطاعة، فإن كان مطيعاً فالحمد لله وإن وجد غير ذلك فليتب إلى الله وليعد لطريق

الحق.ثم لينظر كل منا ماذا فعل ليكثر من عدد الصالحين في الأمة حتى يتنزل النصر على الأمة ؟ مـاذا فعل مع أهل بيته،مع أقربائه،مع أهل حيه،مع زملائه في العمل؟معاشر المؤمنين إن أردنا لأمتنا نصـراً وعزاً وتمكيناً وأمناً وغنى فلابد لنا من العمل على نشر الطاعة بين العباد وتحبيبهم فيها،وإلا والعيـاذ بالله فالتردي في الحال والمآل وقد قال الله في محكم التنزيل:{..إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنفُسِهِمْ..}(١٥).

([١]) الأنبيـاء:١٠٥.(٢)ابـن كثير،البدايـة والنهاية،ج٧،ص٣٩.(٣)محمد:٧.(٤)الأنفال:٤٥.(٥)الحج:٤١.(٦)البخاري،الرقـاق، ح(٦٠٢١).(٧)الأنفـال:١٧.

(٨)الأنفال:١٢.(٩)الأحزاب١١،١٠.(١٠)الأحزاب:٩.(١١)الأحزاب:٢٥.(١٢)الروم:٤٧.(١٣)ع قيلان، أبطال ومواقف،ص١٨٨.(١٤)النور:٥٥. (١٥)الرعد:١١.

وتلك الأيام نداولها بين الناس

محمد بن شاكر الشريف

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد :

فإن جمهرة الناس ينظرون إلى قوى البغي والعدوان الممثلة اليوم في أمريكا وحلفائها على أنها قـوى شريرة تمتلك المال والعتاد لإهلاك الحرث والنسل ، وأن لا أحد على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدول قادر على أن يوقف إرهاب تلك القوة التي تمتلك إمكانات لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية .

وينقسم الناس إزاء ذلك إلى فئات متعددة ؛ فمنهم الذي يبادر ويسارع في استرضاء أمريكا بتنفيـذ سياساتها وإعطائها ما تريد ؛ على أمل أن تتفادى الانتقام الأمريكي أو الضربة القاتلة ، { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ } (المائدة : ٥٢) ، ويجلس فريق آخر يائساً بائساً حزيناً كئيباً لا يرى في الخلاص من هذا المأزق أملاً ، فيجلس ينتظر متى يحـين دوره كما تبقى الشياه تنتظر سكين الجزار ، ويبقى فريق ثالث يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانـاً حقيقيـاً وصادقاً ، يؤمنون بما وعد الله ورسوله ، ويعلمون السنن التي يجريها الله تعالى في خلقه ، فهم يعملون بها ويتصرفون من خلالها ، ويغالبون قدراً بقدر حتى يأتي نصر الله الذي وعد عباده المتقين : { فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ } (المائدة : ٥٢) .

إن علو أمريكا وحلفائها من قوى الشر والطغيان ؛ إنما هو دورة من دورات الزمن ، وإن الزمن لن يقف عند هذا الحد ، وإن التاريخ لن ينتهي بهذا المشهد بل ستمر دورات ودورات تحقيقاً لقول الله تعالى : { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس } (آل عمران : ١٤٠) .

من كان يظن عندما جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى توحيد الله العلي الكبير ، ونبذ الشرك وعبادة ما سوى الله تعالى ؛ بين ظهراني مشركي مكة وسادالها ، واشتداد أذى صناديد كفار قريش لمن آمن من المسلمين ؟!

من كان يظن أن بلال بن رباح ذلك العبد الأسود الحبشي الذي لا قيمة له في نظر المشركين ، والذي كان يُعذَّب في وقت الظهيرة في بطحاء مكة الملتهبة ، من كان يظن أنه سيرقى يوماً ما على ظهر الكعبة في وجود أشراف قريش وسادتها وهم ينظرون إليه ولا يملكون إلا النظر ، وهو يردد بصوته الجهوري الندي وهو آمن ما يكون : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ... ؟!

هذه صورة وقعت في الماضي وغيرها كثير لم يكن أحد يتخيل حدوثها في ظل موازين القوى المختلفة بين الفريقين ، ففريق قوي مسيطر يملك كل شيء ، وفريق آخر ضعيف مستعبد لا يملك شيئاً ، ومع ذلك فقد حدث الذي حدث ، وسيحدث من مثله ما شاء الله أن يكون ، يدرك ذلك المتقون المؤمنون ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه في مكة قبل الفتح ، عندما قال له بعضهم من شدة ما يلاقي من الأذى ولا يجد ما يكف به ذلك : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « والله ! ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » [١] .

فهذا الصحابي لما رأى من شدة التباين في موازين القوى بين معسكر الإيمان الضعيف مادياً في ذلك الزمان ، وبين معسكر الكفر القوي مادياً ، ورأى من خلال المقاييس والحسابات المادية والتصورات العقلية أنه ليس بإمكان المسلمين النصر على العدو ، ورأى أن ذلك لا يمكن حدوثه إلا من خلال عقوبة إلهية ؛ طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء والاستنصار ، وكان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا التصور الذي قد يدفع بعض الناس إلى الإحباط وفقدان الأمل ؛ يتمثل في أمرين :

الأول : التبشير بالنصر والتمكين ؛ وبغلبة الحق وأهله ، واندحار الباطل وجنده : « والله ليتمن هذا الأمر » .

الثاني : دعوته لهم بعدم الاستعجال ، حيث ينبغي عليهم الصبر والتحمل والعمل والجد والاجتهاد والجهاد : « ولكنكم تستعجلون » .

وهذا ما ينبغي علينا فعله اليوم إزاء تكبر الأعداء وطغيانهم ؛ أن نبشر قومنا بأن النصر حليفهم وإن طال الزمان ، وأن على الباغي تدور الدوائر ، وأن ندعوهم إلى الإيمان الصادق والعمل الصالح ، والجد والاجتهاد والجهاد ، { وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة } (الأنفال : ٦٠) ، والرسول صلى الله عليه وسلم في موقفه هذا ينطلق من السنّة القدرية المكنونة في قوله تعالى : { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس } (آل عمران : ١٤٠) ؛ أي أن النصر والغلبة في الحروب تكون تارة للمؤمنين على الكافرين ، وتارة للكافرين على المؤمنين ، وكل ذلك يجري بأسبابه التي قدّرها الله تعالى في إطار المشيئة الربانية التي تحوي حِكَماً عديدة من وراء علو الكافرين أحياناً وتسلطهم على المسلمين .

* أسباب إدالة الكافرين على المسلمين :

تجتمع أسباب إدالة الكافرين على المسلمين – أي غلبة الكافرين للمسلمين – في كلمة واحدة ؛ وهي : (معصية المسلمين ربهم) ، فمتى عصى المسلمون ربهم ، وانتشرت بينهم المعاصي بغير نكير منهم ، أو بنكير ليس فيه تغيير ؛ عاقب الله المسلمين بذلك ، وأظهر عليهم الكافرين جزاء ما فعلوا ، وقد تبين من النصوص الشرعية أن المؤمنين منصورون غالبون قاهرون لعدوهم مهما كانت قوة العدو وعدده وعدته ، ومهما اختلت موازين القوى لصالح الكفار ؛ إذا كان المؤمنون صادقين عاملين بما يجب عليهم ، تاركين لما نُهوا عنه ، قد أخذوا من أسباب القوة ما كان في طاقاتهم ووسعهم ، ولم يقصّروا في امتلاك القوة التي يمكنهم امتلاكها ، وقد قال الله تعالى مبيناً ذلك : { كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } (المجادلة : ٢١) ، وقال سبحانه : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ } (الصافات : ١٧٣) ، وقال تعالى : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ } (غافر : ٥١) ، والآيات في ذلك كثيرة .

وكان عمر – رضي الله عنه – يحذر جيوشه المنطلقة للقتال في سبيل الله من الوقوع في المعاصي ، ويقول لهم : « إن أهم أمركم عندي الصلاة » [٢] ، ويبين ابن رواحة – رضي الله عنه – أن المسلمين لا ينتصرون على عدوهم بعدد أو عدة ، وإنما ينتصرون بطاعة المسلمين لله ، ومعصية الكافرين لله ، ويقول عندما استشاره زيد في لقاء الروم بعد أن جمعوا جموعاً كثيرة : « لسنا نقاتلهم بعدد ولا عدة ، والرأيُ المسير إليهم » [٣] .

وقد كانت الجيوش الإسلامية التي يبلغ تعدادها ما بين ثلاثة إلى خمسة آلاف تقاتل الجيوش الكافرة التي تربو على مائتين وخمسين ألفاً ، ثم يكون النصر حليف المسلمين ، { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ } (البقرة : ٢٤٩) ، ثم يعقب الله على ذلك بقوله : { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } ، والصبر هنا ، وفي مثله من المواضع ، ليس هو الصبر الذي يفهمه كثير من الناس اليوم بمعنى الإذعان للواقع والاستكانة للظلمة المتجبرين ، فإن من كان هذا حاله فإن الله لا يكون معه ، وإنما الصبر المراد هنا هو حبس النفس عن الجزع عند ملاقاة العدو ، والثبات على الحق ، وعدم التخلي عنه أو التحايل

عليه ، وتحمل المشاق في الدعوة إلى الله والعمل الصالح رجاء ما عند الله من المثوبة [٤] ، وقد بيَّن أهل العلم أن النصر والظفر قرين الطاعة .

قال الزجاج : « ومعنى نداولها : أي نجعل الدولة في وقت للكفار على المؤمنين إذا عصى المؤمنون ، فأما إذا أطاعوا فهم منصورون » [٥] .

وقال القرطبي : « { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس } (آل عمران : ١٤٠) ؛ قيل هذا في الحرب تكون مرة للمؤمنين لينصر الله دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ؛ ليبتليهم وليمحص ذنوبهم ، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون » [٦] .

ومن هنا يتبين أن الجيش المقاتل في سبيل الله عليه أن يحرص على الطاعات والبعد عن الوقوع في المعاصي ؛ مثل أو أكثر مما يحرص على امتلاك السلاح المتقدم ، فإن السلاح المتقدم بيد العاصي الخوار الجبان أقل غنى من السلاح العادي بيد الطائع القانت لربه ، { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً } (الأنفال : ١٧) .

* الحكمة من إدالة الكافرين على المسلمين :

ولله سبحانه وتعالى في ذلك حكم عظيمة ، ظهر أكثرها فيما ورد من الآيات التي عالجت غزوة أحد ، والتي ظهر فيها الكفار على المسلمين بسبب معصيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا بسبب ضعفهم أو قلّتهم ، قال الله تعالى : { أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ } (آل عمران : ١٦٥) ، وقال سبحانه : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ } (آل عمران : ١٥٢) ، فبين أن ما لحق بهم كان لمعصيتهم بعد ما لاحت بشائر النصر ، وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – ما فهمه من الحكم المتعلقة بمداولة الأيام بين الناس في كتابه (زاد المعاد) ، نذكرها مختصرة مع زيادات قليلة تناسب المقام ، فمن الحكم والغايات المحمودة في ذلك : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع ، وأن هذا أشد عليهم من أسلحة أعدائهم . ومنها : أن النصر لو كان للمسلمين في كل مرة دخل معهم الصادقون وغيرهم و لم يتميز المؤمن حقاً من غيره .

ومنها : أنه لو انتُصر عليهم دائماً وكانوا على مر الزمان مقهورين لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة ، وهو إظهار الحق وإقامة الحجة على الناس .

ومنها : فضح المنافقين وإظهارهم للناس حتى يحذروهم ، وحتى يستقيم الصف بخلوّه منهم ، وذلك أن المنافقين عند هزيمة المسلمين يظهرون ما كانوا يكتمون ويصرحون بما كانوا يلوحون ، ومن هنا يدرك المسلمون أن لهم عدواً من أنفسهم يعيش معهم وبين ظهرانيهم لا يفارقهم ، فيستعدون لهم ويحذرون منهم ، وهذا من سنة الله تعالى أنه لا يترك المؤمنين مختلطين بالمنافقين من غير أن يُقدِّر

امتحاناً أو بلاء تتميز به الصفوف ، قال الله تعالى : { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } (آل عمران : ١٧٩) .

ومنها : استخراج عبودية أوليائه وحزبه في الضراء كما هي في السراء ، وفيما يكرهون كما فيما يحبون ، فإن المسلم إذا ثبت على الطاعة والعبودية في السراء والضراء وفيما يحب وفيما يكره ؛ كانت عبوديته حقة ، وليس كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية . ومنها : أن الله لو نصر المؤمنين في كل موقف وكل موقعة فلربما طغت نفوس أكثر الناس ، وبغوا في الأرض ، ووقع في نفوسهم أن النصر من عندهم وليس من عند الله . ومنها : أنه إذا امتحنهم بالهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا وابتهلوا إلى الله وتضرعوا ، فيستوجبون بذلك من الله النصر والعز . ومنها : أن بلوغ الدرجات العالية في الجنة لا تنال إلا بالأعمال العظيمة ، ومن الناس من لا تبلغ أعمالهم تلك المنازل فيقيض الله لهم من أسباب الابتلاء والامتحان ما يرفع به درجاتهم . ومنها : أن الله يبلغ بعضاً من عباده درجة الشهادة التي هي من أعلى مراتب الأولياء ، ولا تنال هذه الشهادة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها . ومنها : أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ؛ قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها الهلاك والمحق ، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه ، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم ، فيكون ذلك سبباً في تعجيل العذاب في الدنيا للكفار وهلاكهم ، كما قال تعالى في بيان الحكمة من غلبة الكفار : { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ } (آل عمران : ١٤١) ، قال ابن كثير – رحمه الله – : « وقوله { وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ } ؛ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم » [٧] . ومنها : تنقية المؤمنين وتخليصهم من الذنوب وآفات النفوس التي قلّما ينفك منها الناس ، كما قال تعالى : { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } .. إلى غير ذلك من الحكم والغايات المحمودة [٨] .

* وسائل دفع غلبة الكافرين :

من أول هذه الوسائل : الإيمان الصادق والاعتقاد السليم ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؛ إيماناً لا تخالطه شائبة ، إيماناً مبرءاً من البدع والقصور ، إيماناً يبعث على العمل الذي تتحق به المنجزات . ومنها : الحرص على الطاعة والبعد عن المعصية ، فإن هذا أولى ما تُوجه إليه الهمم بعد الإيمان ؛ بحيث يكون الغالب على جماعة المسلمين الطاعة ، وتكون المعصية منغمرة في جنب ذلك ليس لها ظهور ولا فشو ، فقد قيل للرسول صلى الله عليه وسلم : « أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ! إذا كَثُر الخبث » [٩] ، ولذلك فإن من أهم ما يستحق العناية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقوم بذلك الأفراد والهيئات والدول ، فإن طاعة الله تعالى من أهم ما يجلب للمؤمنين نصره ، وللكافرين الهزيمة والخذلان ؛ ومنها : إعداد العدة المستطاعة لمنازلة العدو ؛ إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والإسلام لم يطلب منا أن نعد العدة الكاملة القادرة على مواجهة

الكفار ، ولكن طلب منا أن نبذل جهدنا واستطاعتنا ، فقال تعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة } (الأنفال : ٦٠) ، وذلك أن النصر من عند الله وليس من عند أنفسنا وليس من سلاحنا .
ومنها : ترك الوهن والضعف والتخاذل الذي يقضي على كل همّة ، ويجلب الذل والهزيمة في ميادين الجهاد ، وترك الحزن الذي يستحكم في النفوس فيحيلها إلى نفوس هامدة قابعة ليس لها قدرة على المواجهة ، قال تعالى بعد هزيمة المسلمين في أُحد مسلياً لهم ومحرضاً لهم على الثبات : { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (آل عمران : ١٣٩) . ومنها : اليقين بأن تسلط الكفار على المسلمين لن يدوم ، وإنما هذا ابتلاء من الله ، وأن الأيام يداولها الله بين الناس ، وأن على المسلمين أن يأخذوا بأسباب التغيير التي تغير
الأوضاع التي بها تمكن الكفار منهم ، قال الله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ } (الرعد : ١١) . ومنها : اليقين بما وعد الله عباده المؤمنين ، ومن ثم العمل على تحقيق الوعد ، قال الله تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } (النور : ٥٥) .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » [١٠] .
وقال : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ، إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر » [١١] .
نسأل الله من فضله أن يجعل ذلك قريباً ، وأن يوفقنا للعمل بالأسباب التي تجعل الدولة للمسلمين على الكافرين .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب المناقب ، رقم ٣٣٤٣ .
(٢) أخرجه مالك في الموطأ ، ٦/١ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٤٠/١ .
(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، ٦٢٤/٢ ، ٣٨/١٠ .
(٥) زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي ، ٤٦٦/١ .
(٦) تفسير القرطبي ، ٤/ ٢١٨ .
(٧) انظر : زاد المعاد ، لابن قيم الجوزية ، ففيه المزيد من الحكم في هذا الباب .
(٨) تفسير ابن كثير ، ٤٤٠/١ .

(٩) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم ٣٠٩٧ ، و مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم ٥١٢٨ .

(١٠) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ٥١٤٤ .

(١١) أخرجه أحمد ، مسند الشاميين ، حديث رقم ١٦٣٤٤ .

وقام صائحهم بأعلو هبل(العصر).. ألا نجيب..؟؟؟

د.بنت الرسالة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على نبي الهدى وآله وصحبه

الله .. يا نطف النخل وقد أُخذ عليها العهد والميثاق بإتباع هذا الرسول صلى الله عليه وسلم.

بعزم الرواسي وأن لا تحيد..

وشددت الوصايا من ربنا(لا تمنن تستكثر ولربك فاصبر)..

بصبرا جميلٍ ومصابره ومرابطة ..

وما في الأرض أقوى من تقي ..... ولا في الأرض أبأس من مريب.

يا حملة سيوف محمد من أمة التوحيد ..!!

إن عبّاد هبل العصر .. ينادون .. أعلو هبل ..ألا من يجيبهم .. بل الله أعلى وأجل ..

أما من يشخص لهم يبين بفصيح البيان أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

نعم ورب محمد ... إن العزة لله .. والعزة لرسوله . والعزة للمؤمنين .

ولا ينكر ذلك إلا منافق .. جاهل ..

قال تعالى .. (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)؟

إنهم الجهلة الذين أغتروا بسلطان كبرائهم .. و سلاطينهم ..

وقال تعالى (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون)

هذه العزة المحنة لمن استعانوا بعزة العبد الضعيف . العاجز من كل وجه ، فأغتر بما لديه من ملك وجند ..

غرهم تلك الأبهة والجاه والسلطان . و لم تتجلى لهم حقائق الأمور ..

فجهروا بقسمٍ منهم بعزة هذا الطاغوت الذي أطاعوه وداروا في فلكه إنهم الغالبون على كل من يخالفوهم .. أو يعترضوا على طريقتهم ..

فكانت المدافعة بين جند الحق المعتزون بالله وبين جند الغرور وعسكر الشياطين المعتزون بقوة وجبروت كبراءهم وساداتهم ..

ومالك المالك .. جبار السماوات والأرض المطلع على أحوال الفريقين .المهيمن على مجريات الملاحم التي يتواجهون فيها بينهم .. ينادي المعتصمين به . ليثبتهم فيقول : (إن تكونوا تألمون فإنهم يـــألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون)..

إنه الرحمن الرحيم يواسي عباده المكلومين ، أن خصومهم يصيبهم مثل ما أصابهم من الآلام والجروح .. لكنهم لا يرجون ولا ينالون من ثواب الله شيئا ..

بينما يجزي المؤمنين لصبرهم في سبيل الله على ما أصابهم بإحدى الحسنين، وهو موعودهم الحق مـــن رهم..

فليسوا سواء .. قتلى الكفار في النار، وشهداء عسكر الإيمان في الجنة ...

وعليه .. فإنه تعالى يأمرهم .بإلتزام عقيدة الإستعلاء .. قال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنـــوا وأنـــتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).

إنه النهي الجازم من أن يدب في أبدانهم الوهن والضعف ..أو الذله والمهانة والصغار ،

أو أن يحزنوا وتكتئب نفوسهم عند حلول المصائب....

لأن ذلك الحزن في القلوب والوهن في الأبدان عون للأعداء على عباد الرحمن ..

أمرهم أن يدافعوا الحزن والأسى ، وأنه غير لائق بإيمانهم وبحقيقة توكلهم على مولاهم، وهـــو نعـــم المولى ونعم النصير لهم ..

إنهم الأعلى في الإيمان والثواب ، ولهم وعد أكيد بالنصر والتمكين ، ولهم حسن الثـــواب في الـــدنيا والآخرة ومن أصدق من الله قيلا .

يا كتائباً أُردفت بجند من السماء..!!

يخاطبنا مولانا فيقول : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).

فالكفار يسامون العذاب والألم مثلكم ... والعليم الحكيم الخبير يداول الأيام بين المؤمنين والكـــافرين جولة لهؤلاء وجولة لهؤلاء ..

ليميز المؤمن من المنافق بهذه المداولات من الإبتلاءات .. كالهزيمة في الميادين ..

يقول الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية : (لأنه لو أستمر النصر للمؤمن في جميع الوقائع لـــدخل الإسلام من لا يريده).

فمن الحكم أنه في حصول الإبتلاءات في بعض المواقع يتميز المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في السراء والضراء واليسر والعسر ممن ليس كذلك .

وفي قوله عز وجل : (ويتخذ منكم شهداء).

إنه لعلو منزلة الشهيد عند الله تعالى ، جعل سبحانه وتعالى أن لا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من عبـــاده من تقديم لأثمانها ..

و من رحمة الله بعباده المؤمنين ، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه نفوسهم لينيلهم ما يحبون مـــن المنازل العالية والنعيم المقيم .

وفي قوله تعالى : (وليمحص الله الذين آمنو) أي يمحّصهم ويجلوا عنهم ذنوبهم وعيـــوبهم بالشـــهادة والطعان والجراح التي يصابون بها في ميادين المعارك في سبيل الله...

وكلها قد جعلها الرحمن مكفرات للذنوب ، مزيلات للعيوب...

وبها أيضاً يمحص المؤمنين من غيرهم من المنافقين في المجتمع ، فيسقط المرجفون الـــذين لا يزيـــدون إلجسد المؤمن إلا خبالا..

هذه الوقائع والصوارف تجليهم فيعرفونهم.. ومتى عُرفوا سيقوم جند الرحمن بإزالتهم من مجتمعـــاتهم ويتخلصون منهم ، ويبتر العضو الفاسد من الجسد .

وأما قوله (ويمحق الكافرين).

فالحكم من الله أن قدر هذه المصائب والإبتلاءات ليمحق الكافرين .. بحيث تكـــون ســـبباً لمحقهـــم واستإصالهم ..

ذلك أن انتصاراتهم ستدفعهم بلا ريب إلى الإزدياد في الطغيان ، مما يجعلهم مســـتحقون لمعاجلتـــهم بالعقوبة رحمة من الله بعباده المؤمنين فلا يمكثوا بين أظهرهم طويلا ..

فبهذه الإنتصارات ينكشف طغيانهم وجبروتهم مما يؤذن بسرعة حسابهم .

ويخاطبنا جل وعلا : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين).

ففيه استفهام استنكاري :

أي لا تظنوا أنكم ستدخلون الجنة من دون مشقة واحتمال أذى ومكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته ...

فإن الجنة أعلى مطلوب وأفضل ما يتنافس المتنافسون عليها ..

وكلما عظم المطلوب عظمت أسباب ووسائل الحصول عليه... كما عظمت الأعمال الموصولة إليـــه ..

ولا يدرك النعيم إلا بترك نعيم .

وهذه المكاره الدنيوية تعمل على تدريب العبد على الابتعاد عما يبعده عن جنان ربه ، وتجعله عارفـــاً لما ستؤول إليه أمور العسر والشدة ، وما ستنقلب إليه .

عندها تتحول هذه المحن عند أرباب البصائر إلى منحاً يسرون ويستبشرون بها ولا يبالون بها ..

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ..

يا بن ديني في أرض الكنانة وتونس والمغرب، في بلاد الحرمين وشامنا ويمننا وعلى رؤوس كل الجبال وسفوح الأرض..

ليت شعري .. يا بن أمتي في كل مكان وتحت كل سماء.

متى ننصر الله لينصرنا؟ . أما علمنا أنه تعالى حي قيوم لا يموت..

متى نبدأ الصلح مع ربنا ليصلح لنا أحوالنا .؟

أما علمنا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

إن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقامٍ لو أقسم على الله لأبره. ..

وهي تقيم فيه داعي الرشد ، التي تنتهي به إلى العز والشرف عند الله وعند الناس.

يا سقى الله أياماً تجمعنا فيها طاعة ، ونسأله تعالى أن يختمها علينا بالشهادة ، لتجمعنا الآخرة في دار الرضوان، إخوانا على سرر متقابلين... فالعاقبة للمتقين.

يا أمة الإستجابة والنصر .. لن يخلف الله وعده لرسله.

فلنجبر الكسر، ونقيل عثرة كل كريم فينا ومنا..

فالإسلام الكامل لم يدخل المعركة بعد ..لم يدخل الإسلام الكامل بعد في معركتنا مع عبّاد هبل العصر..

لا غيب الله يقيناً في صدورنا أن مولانا يجيب المضطر ولو كان كافرا إذا أنطرح بين يديه..

فكيف بنا ونحن لحمة الإسلام نسل امة منصورة بسلاحها المسدد..

تنصر بدعاء واحد منها لو أقسم على الله لأبره .

أما والله إن الله أكرم من أن يخزي نبيه في أمته... لن يخزي أمته وقد وعدها بالنصر المبين لطائفتها المنصورة حتى قيام الساعة..

أما وقد رحمهم جميعهم بأن كل من شهد لا إله إلا الله محمدا رسول الله دخل الجنة .. ولا يخلّد في النار مع الكافرين ..وإن سرق وإن زنى ..

إنه قدر هذه الأمة ..أن تجتمع عليها أمم كافرة حاقدة تتدافع لتحطم البنيان المرصوص فيهم الذي يشد بعضه بعضا ..فبشروا وسددوا وقاربوا ... ثم واستيشروا .. إن الله لا يخلف الميعاد.

لنمسك بخطام أسلحتنا المعطلة ..نهز سهامنا في الثلث الأخير من الليل..

وسينصرنا الله عليهم .. فإن كانوا على الأرض حصدناهم وإن أرتقوا إلى الفضاء أصعدنا الله إليهم لنقتلهم ، ويأخذ الله لنا بثأرنا منهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين.

وانا لندعوا الله حتى كأنما ****** نرى بجميل الظن ما الله صانع.

علم يقين ومكاشفة بأنه متى دوى نداء التوحيد الخالص فثم الرابطة الإيمانية تشدها العروة الوثقى ..
التي تجمع الجسد بكل أعضائه الرأس فيه مع الساق ..
ولإن كبا أحدنا هوى الجسد كله لينتشله ثم نمضي ..
فكل منا له مقامه ودوره المعلوم في صناعة النصر المبين لأمة خير المرسلين ..
فالله الله أن يكون أحدنا هو من سيؤتى الإسلام من قبله ...
ثقة بالله وتوكلا عليه إنا نحن الغالبون بحوله وقوته..
ولإن لاقينا من أعداء ربنا العسر، ففي يمنانا يسرين قد يسرهما الله لأمة حبيبه المجتباة .
اللهم وحد صفوف المسلمين ، وأعلى كلمتهم ، وقوي شوكتهم ، و لاتذهب ريحهم ، والقي الرعب في صدور أعدائهم ، وأجعل قلوبهم على قلب أتقى رجل من أمة نبيك خاتم المرسلين ..
اللهم واجعلهم ممن استغاثوا بك فأغثهم ، ودعوك فأجبتهم ، وتضرعوا إليك فرحمتهم ، وتوكلوا عليك فكفيتهم ، واستعصموا بك فعصمتهم ، ووثقوا بك فحميتهم ، وانقطعوا إليك فآويتهم ، واستنصروك فعجّلت بنصرهم ، وأناخوا عند بابك فرحمت عبرتهم وتقبلتهم في الصالحين .
اللهم أدخلهم جميعهم بعظيم جرمهم في وسيع رحمتك يا أرحم الراحمين ..
اللهم أنصر دينك وكتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم وعبادك الصالحين.
وصلى اللهم على نبينا وآله وصحبه وسلم.
والله من وراء القصد ،،،،

تأملات قرآنية (متى نصر الله ؟)

عامر بن عيسى اللهو

هذا سؤال لم يصدر من إنسان متضجر أو شخص ضعيف الصلة بالله تعالى وإنما صدر من الرسول والذين آمنوا معه . من الرسول الموصول بالله ومن المؤمنين الذين وثقوا بوعد الله (أم حسِبتُم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثلُ الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) سورة البقرة . فلماذا هذا السؤال إذا ؟!

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : إن سؤالهم (متى نصر الله) ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب فتبعث منها ذلك السؤال ، وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة عندئذ تتم الكلمة ويجيء النصر من الله . إنه مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية . الذين يثبتون على البأساء والضراء الذين يصمدون للزلزلة . الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة . الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله ، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون

فحسب إلى (نصر الله) لا إلى أي حل آخر . بهذا يدخل المؤمنون الجنة بعد الجهاد والامتحان والصبر والثبات والتجرد لله وحده وإغفال كل ما سواه وكل من سواه أ.هـ

إن الصراع بين الحق والباطل قديم منذ أن خلق الأرض ومن عليها (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) سورة البقرة . لكن الله تعالى وعد عباده بالنصر والتمكين في الأرض قال تعالى (والعاقبة للمتقين) سورة الأعراف .وقال (وإن جندنا لهم الغالبون) سورة الصافات . وقال عز شأنه (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ..) سورة النور .

والسؤال الذي قد يُطرح بداهة يا أخي المسلم متى يتحقق هذا النصر ؟؟

فنقول إن الإجابة واضحة لمن تأمل كلام الله تعالى فوعد الله حق لا يتخلف ونصر الله مؤكد . لكننا لا نجد في كتاب الله أبدا أن النصر يُبذل للمؤمنين من غير تضحيات وابتلآت وصبر على الأذى من أجل الله بل على العكس من ذلك تماماً قال تعالى (ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) سورة الأنعام . وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) رواه الإمام أحمد .

تريدين لقيان المعالي رخيصة *** ولا بُد قبل الشهد من إبر النحل

ووجدنا في كتاب الله تعالى أن الله ينصر من ينصره (ولينصرنّ الله من ينصره) سورة الحج . (إن تنصروا الله ينصركم ويُثبت أقدامكم) سورة محمد . ونصر الله يكون على مستوى الأفراد بأن يلتزم المسلم منهج ربه في كل صغيرة وكبيرة في حياته ، وعلى مستوى الأمة بإقامة دين الله في الأرض وتحكيم شرعه واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) سورة الحج . فنصر الله لا يتحقق إذا رُفعت شعارات جاهلية أو قومية بل لا بد من أن تكون إسلامية ونصر الله لا يتم إذا عُطل شرعه وكانت الحاكمية لغيره .

فإذا استقرت هذه الحقيقة في الأذهان والقلوب يأتي الجواب الإلهي الصريح (ألا إن نصر الله قريب) .

آداب الجهاد بعد انتهاء المعركة

أولا: إظهار التجلد للعدو، ولو أحرز انتصاراً على المجاهدين المسلمين.

المسلم عزيز على عدوه الكافر في كل وقت من الأوقات، حتى ولو بدا ذلك العدو منتصراً في بعض الأحيان، فإن عاقبته الذلة والمهانة، لأنه من أولياء الطاغوت والمسلم من أولياء الله، والله عز وجل يقول: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء

الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً} [النساء: ٧٦]. {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}{المنافقون ٨}

والكافر يألم كما يألم المؤمن، ولكن ألم المؤمن يخف، لأنه يرجو من ربه النصر في الدنيا والثواب في الآخرة، ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يظهر الضعف لعدوه، بل عليه أن يتجلد ويريه من نفسه القوة: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً} [النساء: ١٠٤].

وقد سبق الحديث المتفق عليه أن المشركين لما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى مكة لعمرة القضاء، قالوا: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها، إلا الإبقاء عليهم [راجع ما سبق في الخيلاء في الحرب].

فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يظهروا للمشركين أنهم أقوياء، بالإسراع في الطواف في الأشواط الثلاثة التي كان العدو يرونهم فيها، وفي الشوط الرابع الذي لا يرونهم فيه راعى ضعفهم، فلم يكلفهم الإسراع فيه، كل ذلك من أجل أن يرى المشركون من جند الله قوة وجلداً.

ولقد نهى الله عباده المؤمنين عن الاستسلام وإظهار الضعف والحزن، وذكَّرهم بأنهم هم الأعلون على عدوهم، حتى في حالة نيله منهم وانتصاره عليهم، كما قال تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: ١٣٩].

قال ابن جرير رحمه الله: "وهذا من الله تعالى ذكره تعزية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد، قال ولا تهنوا ولا تحزنوا يا أصحاب محمد، يعني ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأُحد، من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم.. ولا تحزنوا ولا تأسوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ، فإنكم أنتم الأعلون، يعني الظاهرون عليهم، ولكم العقبى في الظفر والنصرة إن كنتم مؤمنين) [جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٢/٤)].

ويذكر الله المؤمنين بأن ما أصابهم يوم أحد، قد أصاب أعداءهم يوم بدر، وأصابهم شيء منه كذلك يوم أحد، وأن أيام الله التي يلتقي فيها أولياؤه وأعداؤه دول بين المسلمين وبين المشركين، إذا أخذ المسلمون بأسباب النصر أدالهم على عدوهم كما حصل يوم بدر، وإذا فرطوا فيها أدال عليهم أعداءه، كما حصل يوم أحد، ليميز الله صادق الإيمان من غيره، وليختار من المؤمنين — الذين انتهت آجالهم — شهداء تكريماً لهم، كما قال تعالى: {وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين} [آل عمران: ١٤٠، وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٣/٤) وكذلك الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢١٦/٤-٢١٧)].

ويصغي جند الله لهذه الآيات التي تثير فيهم عزة الإيمان، فينسون ما أصابهم من قتل وجراح، ويدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم والدماء تسيل من أجسادهم، لملاحقة المشركين بعد انتهاء معركة أحد، فيستجيبون له ويخرجون في أثر العدو حتى بلغوا حمراء الأسد، ليرى الناس أن به صلى الله عليه وسلم وبأصحابه قوة: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم} [آل عمران: ١٧٢، وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٦/٤)].

ويوحي شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أن يبثوا إشاعات كاذبة في صفوف المؤمنين لتخويفهم من أعاد الله، فيأتيهم من يقول لهم: إن المشركين قد جمعوا لكم جموعاً لا طاقة لكم بها، فيثبتهم الله ويزدادون إيماناً على إيمانهم، فلا يخافون إلا الله، بل يعتمدون عليه ويتوكلون عليه وحده: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران: ١٧٣].

قال ابن جرير رحمه الله: (والناس الأوّل، هم قوم فيما ذكر لنا كان أبوسفيان سألهم أن يثبطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين، خرجوا في طلبه بعد منصرفه من أحد إلى حمرراء الأسد، والناس الثاني، هم أبو سفيان وأصحابه من قريش الذين كانوا معه بأحد...) [جامع البيان (١٧٨/٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم} قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبوك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: (من يذهب في أثرهم؟) فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال كان فيهم أبو بكر والزبير [صحيح البخاري رقم: ٤٠٧٧، فتح الباري (٣٧٣/٧)].

وبعد: فقد رأيتَ من هذه النصوص من الكتاب والسنة أن المؤمنين مهما أصابهم من البلاء، ومهما بدا أن عدوهم انتصر عليهم، حتى لو أصاب نبيهم بالجروح وقتل عمه حمزة وغيره من صناديد الصحابة، فإنهم هم الأعلون لا يضعفون ولا يستكينون، بل يظهرون لعدوهم القوة من أنفسهم بمطاردته وإظهاره بمظهر المهزوم في النهاية، فأين المنتسبون إلى الإسلام اليوم من هذه المعاني العالية التي سطرها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفيهم أسوة حسنة؟ إن المنتسبين إلى الإسلام اليوم ليروع غالب قادَتِهم شعوبَهم، ويدخلون عليهم الرعب من قوة أعداء الله، ويدعونهم إلى الاستسلام للكافرين ويركع غالب أولئك القادة لأولئك الأعداء ويذلون لهم، ناسين هذه المعاني الرفيعة وتلك الصفات الحميدة، في الأجداد الأوائل الذين لا يزالون يعيشون على فتات موائد جهادهم وتضحياتهم فلا حول ولا قوة إلى بالله.

(٨٩)

الإقامة في أرض المعركة ثلاثة أيام بعد الانتصار على الأعداء

قد ينتصر في أول المعركة أحد الخصمين، وقد يستمر له النصر إلى النهاية، وقد لا يستمر بل قد يدال عليه خصمه، وليس النصر هو أن يصاب العدو بالقتل والجروح وأخذ الأموال والغنائم فقط، بل ذلك ومعه شعور العدو بالهزيمة الساحقة التي ييأس معها من العودة إلى المحاربة، وشعور الغالب بأنه الأعلى الذي أصبح مسيطراً وبيده زمام أمر المعركة السابقة، ويأمل أن يكون له النصر كـــذلك في معركـــة لاحقة.

ومن علامة الشعور بالهزيمة الساحقة أن يولي العدو هارباً لا يدري ما خلفه، بل لا يهمه إلا أن ينجو بنفسه، وهذا ما حصل في معركة بدر بالنسبة للمشركين فإنهم ولوا فارين مدبرين لا يلـــوون علـــى شيء.

لا بل إن المشركين في أحد، وكانت الغلبة في ظاهرها لهم على المسلمين، ولكنهم لم يحـــافظوا علـــى ذلك الغَلَب وذلك الانتصار عندما ولوا مدبرين، والرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين تسيل أجسادهم دماً من جروح المعركة يتابعونهم، فكان ذلك ضرباً من الهزيمة، بخلاف المسلمين فـــإنهم – وإن بدا أنهم هزموا في المعركة فكان منهم سبعون قتيلاً وجرح الكثير منهم حتى نبيهم صلى الله عليه وسلم- مع ذلك أخذوا زمام مبادرة النصر بمتابعة المشركين، وهم على تلك الحال وفـــر المشـــركون عندما علموا بخروجهم إلى حمراء الأسد، وقد مضى ذلك قريباً في المبحث السابق.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حافظوا على انتصارهم في غزوة بدر، فأقام صلى الله عليه وسلم بها ثلاثاً، وكانت تلك عادته إذا غلب عدوه أقام بمكان المعركة ثلاثاً.

كما في حديث أبي طلحة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشـــرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذِفوا في طُوى من أطواء بدر، خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحله... الحديث [البخـــاري رقم الحديث: ٣٩٧٦، فتح الباري (٣٠٠/٧) ومسلم (٢٢٠٣/٤)].

وقال الحافظ في الفتح: "وقال ابن الجوزي: إنما كان يقيم ليظهر تأثير الغلبة، وتنفيذ الأحكام، وقلـــة الاحتفال، فكأنه يقول: من كان فيه قوة منكم فليرجه إلينا) [فتح الباري (١٨١/٦)].

وقال ابن القيم رحمه الله: "ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرصتهم ثلاثاً، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً، ثم ارتحل مؤيَّداً منصوراً قرير العين بنصر الله له...) [زاد المعاد في هدي خير العباد (١٠٠/٢) وراجع البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٣/٣)].

(٩٠)

مواصلة التدريب القتالي وعدم القعود عنه

الجهاد في سبيل الله باق ما بقي في الأرض مسلم وكافر، فإذا أعد المسلمون العدة لمعركة مع عدو وانتصروا عليه، فعليهم أن يواصلوا الإعداد لمعركة أخرى مع عدو آخر – وسيأتي الكلام على إعداد العدة في فصل أنواع الجهاد إنشاء الله – والمقصود هنا التنبيه على أنه لا يجوز للمسلمين أن يكسلوا عن التدريب والتمرين على أساليب القتال وأنواع السلاح ركوناً إلى معركة انتصروا فيها.

وقد ظن بعض المسلمين بعد أن حققوا انتصاراً على الكافرين أن أمر القتال انتهى، وأنه لا حاجة بعد ذلك إلى اقتناء السلاح وإعداد العدة، بل جاء وقت الراحة والرخاء – هذا الظن كان بعد تحقيق النصر على العدو، فكيف حال من يزعم ذلك وهو مهزوم والعدو منتصر عليه – فكذب الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الظن، وأمر بالاستمرار في إعداد العدة والتدريب، كما في حديث سلمة بن نفيل الكندي رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: يا رسول الله، أذال الناس الخيل – أي أهانوها واحتقروها و لم يُعْنَوا بها كما كانوا من قبل يهتمون بها استعداداً للحرب – ووضعوا السلاح، قالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال: (كذبوا! الآن جاء القتال ولا تزال في أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى يأتي وعد الله، الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحَى إليّ أني غير مُلَبَّثٍ، وأنتم تتبعوني، ألا فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام) [النسائي في كتاب الخيل (١٧٨/٦) مطبعة الحلبي، وهو في جامع الأصول (٥٧٠/٢) رقم: ١٠٤٩، قال المحشي: وإسناده صحيح].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى) [صحيح مسلم (١٥٢٣/٣) رقم الحديث: ١٩١٩].

(٩١)

دفن قتلى المسلمين في مصارعهم

والسنة أن يدفن قتلى المسلمين في مصارعهم – أي في مكان المعركة – ولا ينقلوا إلى المقبرة المعتادة، ولو كانت قريبة.

وقد ظن نساء الصحابة اللاتي قمن بالخدمة – من سقي وتمريض وغيرهما – في معركة أحد أن نقل الموتى إلى المقبرة – اعتباراً بالأصل – سنة فنقلن بعض الموتى مع الجرحى إلى المدينة، كما ثبت في صحيح البخاري عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها، قالت: كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنسقي القوم، ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة [صحيح البخاري رقم: ٢٨٨٣، فتح الباري (٨٠/٢)].

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمَرَهم أن يردوا القتلى إلى مصارعهم، كما في حديث جابر قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلى أحد أن يردوا إلى مصارعهم، وكانوا نقلوا إلى المدينة

[المصنَّف (٢٧٨/٥) رقم: ٩٦٠٤، أبو داود (٥١٤/٣) رقم: ٣١٦٥، النسائي (٦٥/٤) الترمذي (٢٧٩/٥) رقم:١٧٧١، وانظر نيل الأوطار (٢٧/٤) وكذا بدائع الصنائع (٨٠٨/٢) في الفقه الحنفي، والكافي في الفقه الحنبلي (٣٥٦/١)].

ولعل من حِكَم أمره صلى الله عليه وسلم بردهم إلى مضاجعهم كون ذلك عبرة للمسلمين الذين يجيئون بعدهم، ويزورون ساحة المعركة فيتذكرون أعلام الجهاد في سبيل الله الذين حملوا على أكتافهم دعوة الإسلام، وضحوا في سبيل الله تعالى من أجل رفع راية هذا الدين، وهداية الناس له بكل ما يملكون حتى نفوسهم وروَّوا بدمائهم تلك الأرض التي مازالت شاهد صدق على البذل والتضحية.

وكذلك عندما يقف المسلم متأملاً أحداث الغزوة ومواقع حزب الله المجاهدين، وحزب الشيطان المحاربين، يأخذ في الدعاء لهؤلاء الذين اختارهم الله شهداء عنده.

وكذلك إرشاد للمسلم بأن يدفن في أي أرض يموت، ولا داعي لنقله من مكان إلى آخر فالأرض كلها أرض الله {وما تدري نفس بأي أرض تموت} [لقمان: ٣٤] وإذا كانت الأرض تشهد لأهل الطاعة بطاعتهم، وعلى أهل المعاصي بعصيانهم فإن خير عمل يقدمه المؤمن – بعد الإيمان بالله – الموت في سبيله، ومضجعه الذي فاضت روحه فيه، وهو يجاهد في سبيل الله أولى به من غيره من بقاع الأرض، كما أن مرقده في ذلك الجزء الذي بلله دمه خير له من بقعة أخرى، وفي تفسير ابن كثير: عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {يومئذ تحدث أخبارها} [الزلزلة: ٤] قال: (أتدرون ما أخبارها) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها) ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب اهـ [تفسير القرآن العظيم (٥٣٩/٤)].

أما حكم نقل الميت من مكان موته إلى مكان آخر، فالذي يظهر في الشهيد عدم مشروعية نقله من مضجعه إلا لضرورة، كأن يقتل وهو في البحر، ولا توجد جزيرة قريبة بمكان دفنه فيها، أو لا يتمكن المسلمون المجاهدون من دفنه في مكانه لتغلب الأعداء الكافرين عليه، ونحو ذلك، لأن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بردهم إلى مضاجعهم وقد نقلوا إلى المدينة ظاهر في الوجوب فنقل الشهيد غير مشروع، بخلاف الأموات غير الشهداء، فقد رأى بعض العلماء مشروعية ذلك، ففي تحفة الأحوذي: "والظاهر أن نهي النقل مختص بالشهداء، لأنه نقل ابن أبي وقاص من قصره إلى المدينة بحضور جماعة من الصحابة، ولم ينكروا" [تحفة الأحوذي، بشرح جامع الترمذي (٣٨٠/٥)]، وقال الحافظ في فتح الباري: "واختلف في جواز نقل الميت من بلد إلى بلد" [فتح الباري (٣٠٧/٣)].

فقيل يكره، لما فيه من تأخير دفنه وتعريضه لهتك حرمته، وقيل يستحب.

والأولى تتريل ذلك على حالتين: فالمنع حيث لم يكن هناك غرض راجح، كالدفن في البقاع الفاضلة، وتختلف الكراهة في ذلك فقد تبلغ التحريم.

والاستحباب حيث يكون ذلك بقرب مكان فاضل كما نص الشافعي على استحباب نقل الميت إلى الأرض الفاضلة، لملة وغيرها والله أعلم" اهـ

ولكن ما جرى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه دفن الميت في مكان موته – في الأغلب – فالأولى عدم النقل.

(٩٢)

التبشير بالنصر والفتح

الطائفة من الناس التي تشترك في بعض الأمور، كالعقيدة – أي عقيدة – أو التجارة، أو الأرض، يُسَرُّ أفرادُها إذا انتصروا على عدو لهم ينافسهم في شيء أو يحاول القضاء عليهم، ويحزنون إذا الهزموا وانتصر عدوهم.

وإذا أفرز جيش منهم لمحاربة ذلك العدو، فإلهم يتطلعون لأخباره ويتابعونها، ويودون أن تأتيهم تباعاً وأولاً بأول، لما في نتائج ذلك من السرور أو الحزن، والبقاء أو الفناء.

بل إلهم ليودون أن ينتصر من هو أقرب إليهم في العقيدة أو الفكر أو غير ذلك على من هو أبعد، ويتطلعون لأخباره كما يتطلعون لأخبار جيشهم.

وكان هذا واضحاً في أول الإسلام بمكة عندما انتصرت فارس، وهم وثنيون على الروم، وهم أهل كتاب، ففرح المشركون بذلك، وأخذوا يفخرون به على المسلمين، لأن أهل فارس والمشركين من العرب أهل أوثان، والروم أهل كتاب، كالمسلمين – في الجملة – وكان المسلمون يحبون أن تنتصر الروم على فارس، لما في ذلك من الإغاظة للمشركين وإنذارهم بأن الغلبة ستكون للمسلمين عليهم من باب أولى، لألهم أهل الكتاب الحق، فذكر أبو بكر رضي الله عنه ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إلهم سيهزمون، فذكر ذلك أبو بكر للمشركين.. فقالوا: أفنجعل بيننا وبينكم أجلاً، فإن غَلَبُوا كان لك كذا، وإن غَلَبْنا كان لنا كذا، فجعلوا بينهم وبينه أجلاً خمس سنين.

قال فمضت فلم يَغْلِبوا–أي الروم– فذكر ذلك أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أفلا جعلته دون العشر... والبضع ما دون العشر... فَغُلِبَ الروم، ثم غَلَبَت، فذلك قوله: {ألم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله... } [الروم: ١–٥].

فقد بشر الله المؤمنين بأمرين:

الأمر الأول: غَلَب الروم على فارس كما مضى.

والأمر الثاني: نصر الله تعالى إياهم الذي سيفرحون به، ولذلك قال سفيان الثوري الذي روى القصة – بسنده إلى ابن عباس – بعد ذكر قوله تعالى: {ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله} قال: فبلغني أنهم غَلَبُوا يوم بدر.

لذلك كان من السنة أن يبعث المنتصرون بشيراً يبشر المسلمين بالنصر.

وقد بوب البخاري في صحيحه لحديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه في قصة هدمه صنم خثعم – ذا الخَلَصة – فقال: "باب البشارة في الفتوح"

وأورد الحديث عن جرير قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تريحني من ذي الخلصة؟ وكان بيتاً فيه خثعم، يسمي كعبة اليمانية فانطلقتُ في خمسين ومائة فارس من أحمس–إلى أن قال–: فأتاها، فحرقها بالنار وكسرها، ثم بعث جرير رجلا من أحمس يكنى أبا أرطاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبشره بذلك، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب قال: فبَرَّك النبي صلى الله عليه وسلم على خيل أحمس ورجالها خمس مرات [الحديث رقم ٣٠٧٦، ٤٣٥٧، فتح الباري (١٨٩/٦، ٧٠/٨)].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: "وقد بعث عليه السلام – أي بعد بدر – بين يديه بشيرين إلى المدينة بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وجحده وبه كفر: أحدهما عبد الله بن رواحة إلى أعالي المدينة، والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة... قال أسامة: فلما قدم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلى، وقد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاصي بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، قال قلت: أبه أحق هذا؟ قال: أي والله يا بُنَي [البداية والنهاية (٣٠٣/٣–٣٠٤)].

وكانت البشارة بما يسر من الأمور التي يسارع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، بل ويكافئ من بُشِّر بما يسره المُبَشِّرَ على بشارته، وقد بوب البخاري رحمه الله لذلك فقال: "باب ما يعطى البشير" وأشار إلى قصة كعب بن مالك رحمه الله، فقال: "وأعطى كعب بن مالك ثوبين حين بُشِّرَ بالتوبة"

وقصة كعب في الصحيحين وفيها: (فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي، وضاقت بي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفَى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فقال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج – إلى أن قال: – فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما) [البخاري رقم: ٤٤١٨،فتح الباري (١١٣/٨) ومسلم (٢١٢٠/٤)].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالبشارة من حيث هي، كما في الصحيحين عن أبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما: بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن فقال: (يسرا ولا تعسرا وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا) [صحيح البخاري رقم: ٣٠٨٣، فتح الباري (١٩١/٦)].

(٩٣)

استقبال المجاهدين والترحيب بهم

ومن حق المجاهدين في سبيل الله على من بقي من المسلمين في البلد أن يستقبلوهم ويرحبوا بهم ويشعروهم بالاحترام والتقدير، لما نالوه من مشقة في سبيل الله تعالى وما واجهوا من التعب والمشقة في الحروب، من الجوع والعطش ومفارقة المضاجع والظلال، ولكونهم أدوا الفرض وأسقطوه عن غيرهم، وهكذا كان السلف يعملون وعلى رأسهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بوب لذلك البخاري رحمه الله فقال: "باب استقبال الغزاة" وأورد فيه حديثين: أحدهما حديث السائب بن زيد رضي الله عنه، قال: (ذهبنا نتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثنية الوداع) [صحيح البخاري رقم: ٣٠٨٣، فتح الباري (١٩١/٦)].

وبينت رواية الترمذي لنفس الحديث أن ذلك كان عند قدومه من غزوة تبوك، وفيه توضيح أكثر للمتلقين (الناس) وهو يدل على كثرتهم وهذا نصه: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك خرج الناس يتلقونه إلى ثنية الوداع، قال السائب: فخرجت مع الناس وأنا غلام) [الترمذي رقم الحديث: ٢٧٧٢، تحفة الأحوذي (٢٨١/٥)].

وقال ابن القيم رحمه الله: فلمادنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولدان يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وبعض الرواة يَهِمُ في هذا، ويقول: إنما كان عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام... [زاد المعاد (١٢/٣)].

هكذا كان السلف الصالح يعاملون المجاهدين في سبيل الله، يودعونهم عند سفرهم داعين لهم بالنصر والشهادة، ويكرمونهم عند قدومهم بالاستقبال والترحيب، لأن المقياس عندهم هو سبيل الله.

وكانوا إذا فرت طائفة من الجيش الإسلامي وتركته ورجعت إلى المدينة، بسبب ما رأت تلك الطائفة من كثرة العدو وغلبة ضعفها البشري عن التحمل والثبات، كانوا يستقبلون تلك الطائفة بالتأنيب

ويَحثُون التراب عليهم، ويعيرونهم بقولهم لهم: يا فُرَّار فررتم في سبيل الله [السيرة النبوية لابن هشام (١٨/٢) والبداية والنهاية لابن كثير (٢٤٨/٤)].

فهل بقي هذا المقياس للتكريم أو التأنيب عند المسلمين؟

لقد انعكست الأمور وانقلبت الموازين واختلت المقاييس وأصبح الخونة الجبناء الذين يبيعون الدين والأرض والشعوب للأعداء الكافرين، هم موضع التكريم وإذا خضع أحدهم لعدو المسلمين فركع له واستسلم وتآمر على شعبه ودينه وأرضه، ثم رجع إلي ذلك الشعب، رأيت غوغاء الناس وهم يركضون لاستقبال الزعيم والتصفيق له كأنهم قطعان من الحيوان، يهتفون بحياته ويثنون على خطواته، ويلقبونه بألقاب الفاتحين الأبطال، وقليل هم الذين يدركون الخيانة ويعرفون الخونة، فتراهم ينظرون إلى تلك الجموع الضائعة متعجبين مشفقين، يدعون لها بالهداية والإنابة إلى الله.

وهؤلاء القليل مغلبون على أمرهم لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، محاصرون من كل جانب لا يملكون أن يوصلوا إلى تلك الجموع الضائعة الخاسرة كلمة الحق عن طريق أقل وسيلة للإعلام، وإذا تجرءوا فقالوا كلمة حق بأي وسيلة اتهموا بالشذوذ والتآمر على مصالح الشعب والخروج عن الصف، وقيل فيهم ما قال أعداء الله من قبل في ذوي الصلاح والهدى والدعوة إلى الله بأنهم خارجون على النظام مفسدون، يريدون القضاء على مكاسب الشعب التي حققها له القادة الأبطال: {قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبان بطريقتكم المُثْلى} [طه:٦٣].

وبمقدار ما تُسلط أجهزة الإعلام على أولئك الصالحين لتصفهم بكل أوصاف الذم حتى يظهروا أمام الجموع الضائعة بمظهر الشذاذ المفسدين الذين يجب نبذهم وعدم الإصغاء إلى آرائهم، بمقدار ذلك أو أكثر تكيل تلك الأجهزة المديح والثناء للأبطال المتآمرين حتى يصبحوا هم الملائكة الأبرار، الذين لا يريدون إلا الحق ولا يسلكون إلا سبيل الهداية والرشد، فيرتسم في أذهان الغوغاء أن هؤلاء الضالين المفسدين هم الهداة المهتدون، وأن أولئك المجاهدين – فعلاً – الأبرار، هم أهل الغواية والضلال.

وقد سبق هؤلاء الذين يقلبون الحقائق، فيظهرون الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، سبقهم إخوانهم الذين سجل التاريخ عليهم كل تصرفاتهم، فلحقتهم لعائن الله في الأرض وتنتظرهم نقمته في الآخرة.

{وقال فرعون ذروني أقتلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّه، إني أخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد} [غافر: ٢٦].

قال فرعون {ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرَّشاد} [غافر: ٢٩]

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فقط، ولا يتعداه إلى التعذيب والإهانة والقتل والتشريد، وسيأتي مزيد بيان لهذا في الباب الثالث إنشاء الله عند الكلام على الابتلاء وأنواعه.

وممن ينالون التكريم والتعظيم أولئك العجول البشرية، الذين لا يذكرون الله إلا قليلا، بل ربمـــا لـــو سألت الكثير منهم عن جهة القبلة ما دلك عليها، لعدم اتجاهه إليها، أولئك هم نجوم الرياضة وأبطالها الذين أصبحوا شغل الناس الشاغل قبل المباراة بالإعلانات عنها في جميع أجهزة الإعلام، وفي وقـــت المباراة بمراقبتها وتحمس كل طائفة لفريق منها، وبعد المباراة بالحديث عن البطولة والنصـــر، ورفـــع بيارق النصر والرقص في الشوارع والتصفيق وإزعاج الناس بأبواق السيارات وترديد علـــم المنتصـــر الذي يعرف به.

ومما يؤسف له أن يطلق على تلك الفرق أسماء غزوات كانت غرة في جبين التاريخ حقق المســـلمون فيها انتصارات رائعة على أعدائهم، والآن تطلق على فرق عمد إلى إلهائها باللعب وتلهية الناس بهـــا، حتى أصبحت مثل ثيران أسبانيا تتصارع ليتلهى بها الجمهور [راجع على سبيل المثال جريدة المدينـــة المنورة، عدد (٤٦٢٠) الصادرة بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٩٩هـــ وعـــدد (٤٢٥٨) بتـــاريخ ١١ رجب سنة ١٣٩٩هـــ وعدد (٤٦١٥) بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٣٩٩ هـــ].

وهكذا تجد التكريم والتعظيم للراقصات والمومسات اللاتي تتألق أسماؤهن وأشباههن مـــن الرجـــال، ويلقبون بالألقاب الرفيعة: النجوم، الرواد العظماء، المبتكرون... وتفتح لهم أبواب الظهـــور، حـــتى يصبحوا أئمة الشعوب وقادتها في تحطيم الأخلاق والمعنويات والقضاء على الرجولة الشرف، وهكذا.

والسبب في ذلك أن المقياس عند عامة الناس انقلب من سبيل الله إلى سبيل الشيطان، فكان الســـلف يكرم أهل سبيل الله لأنه المقياس عندهم، وأصبح المنتسبون إلى الإسلام الآن يكرمون أهـــل ســـبيل الشيطان لأنه المقياس عندهم.

(٩٤)

إشعار قادة البلاد المفتوحة بالتكريم

تأليفاً لقلوبهم

وينبغي أن يشعر المجاهدون في سبيل الله، أهلَ البلاد التي يتغلبون عليها ويفتحونها، بـــأنهم لم يفتحـــوا بلادهم ليذلوهم ويهينوهم، وإنما جاهدوهم لإعلاء كلمة الله تعال،ى وفي ذلك بركة وخـــير لهـــم، ومظهر ذلك تكريم بعض قادة البلاد، بأي نوع من أنواع التكريم التي تجعلـــهم يطمئنـــون للفـــاتحين ويألفونهم ويرحبون بهم، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة، فإنه أشعر أهلـــها بأنه لم يأت للقضاء عليهم وتدمير بيوتهم، على رغم ما مما عملوه معه صلى الله عليه وســـلم ومـــع أصحابه قبل الهجرة، من الإيذاء والفتنة والتآمر، لذلك أمر صلى الله عليه وسلم أن ينادى في القوم أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمـــن [مســـلم (١٤٨٠/٣) رقم الحديث: ١٧٨٠].

وفي رواية: فقال أبو سفيان: أَدارِي؟ فقال النبي صلى اله عليه وسلم: (نعم) [المصنف (٣٧٦/٥) رقم الحديث: ٩٧٣٩].

وفي أخرى، فقال له – أي للرسول صلى الله عليه وسلم –: يا رسول الله إن أبا سفيان رحل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئاً قال: (نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق على نفسه الباب فهو آمن) [أبو داود (٤١٦/٣) رقم الحديث: ٣٠٢١، وانظر المبسوط للسرخسي (٣٨/١٠)].

وأنت ترى أن هذا الأمر الذي أعطاه صلى الله عليه وسلم أبا سفيان، لا يختلف عن أي دار في مكة، لأن من دخل داره أو دار غيره وأغلق الباب مشيراً بذلك إلى عدم مقاومة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فهو آمن، ولكن ذكر أبي سفيان باسمه في ذلك الموقف طيَّب نفسَه، وجعله يتعجب ويستفهم: أداري، أداري؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعطه هذا الحق إلا بعد أن أسلم، كما في رواية أبي داود: (فأسلم بمر الظهران، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر...) الخ.

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عزم على قتل بعض المشركين وعدم تأمينهم والعفو عنهم، وخشي أن يدخلوا في لفظه العام في قوله: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...) استثناهم وأمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن أبي السرح، فأما عبد الله بن خطل، فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فقتل، وأما مقيس بن صبابة فأدركوه وهو في السوق فقتلوه أيضاً، وأما عكرمة فقد فر في سفينة في البحر، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، وأما عبد الله بن أبي السرح، فقد اختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة، جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه النبي أن يبايعه وهو ينظر إليه و لم يبايعه ثلاث مرات، وفي الرابعة بايعه وهو غير راض عنه، ثم أقبل صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقال: (ما كان منكم رجل شديد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله) قالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) [انظر مضمون هذه القصة في صحيح البخاري رقم: ٤٢٨٦، فتح الباري (١٥/٨)، وصحيح مسلم (٩٨٩/٢) رقم: ١٣٥٧، وسنن أبي داود (١٣٤/٣) رقم: ٢٦٨٥، وجامع الأصول (٣٧٣/٨) وما بعدها رقم: ٦١٤٨، ٦١٤٩، والمبسوط (٣٨/١٠-٣٩)].

كتبه

د . عبد الله قادري الأهدل

من أسباب نصر ونجاة الأمة

* الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.......وبعد:

فإن الأمة الإسلامية اليوم تتطلع إلى نصر عاجل يرفع عنها هذا الذل والهوان الذي تسربلت به ، وينقلها من دركات المهانة والإذلال إلى درجات العزة والرفعة والسمو ...

نصراً يعيد لها مجدها السابق ، وحماها المستباح ....

ولاشك أن الناصر هو الله تعالى وحده .... فهذه عقيدة الموحدين التي لا يساومون عليها ... ولا يشكون فيها ... عقيدة ثابتة مغروسة في النفوس ....

ولكن الله تبارك وتعالى قد جعل لذلك النصر أسباباً وأمر بتحصيلها والاعتناء بها حتى تؤتي الشجرة ثمرتها ....

وقبل أن أذكر جملة من أسباب النصر المادية والمعنوية لابد من بيان سنة ربانية يترتب على فهمها حقيقة عقدية تؤهلنا إلى معرفة أسباب نصر ونجاة هذه الأمة المسلمة المستضعفة.... وهذه السنة هى :

* سنة الله في القرى:

* أولا : أنباء القرى :

قال تعالى: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ "(١٠٠) هود.

** أى: قال قتادة: القائم ما كان خاويا على عروشه، والحصيد ما لا أثر له. وقيل: القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قاله ابن عباس:

وقال مجاهد: قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعني محصودا كالزرع إذا حُصد.

* مصير القرى المؤمنة:...

قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٩٦) الأعراف.

** مصير القرى الفاسقة الظالمة:

قال تعالى: "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢) هود.

أي كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة ، فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدم من الأمم المهلكة إذ أخذهم.

وقال تعالى: "وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا"(٥٩) الكهف.

* وقوله :" وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا " أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم " وجعلنا لمهلكهم موعدا " أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر.

وقال تعالى: "وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١) الأنبياء.

* وقوله: " وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة " هذه صيغة تكثير كما قال " وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح " وقال تعالى ": وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها " الآية. وقوله " وأنشأنا بعدها قوما آخرين " أي أمة أخرى بعدهم.

وقال تعالى: "وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ(٤٨) الحج.

وقال تعالى:" وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ(٣١) العنكبوت.

وقال تعالى: "وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا(٨) الطلاق.

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه ومخبرا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى: "وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله" أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله "فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا" أي منكرا فظيعا.

* * وفى السنة المطهرة:

* أخرج البخارى فى كتاب الفتن: عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ".

* وأخرجه مسلم أيضا فى كتاب الفتن..وقال النووى فى شرح مسلم:

قوله صلى الله عليه وسلم : (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : إذا كثر الخبث) هو بفتح الخاء والباء ، وفسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل : المراد الزنا خاصة ، وقيل : أولاد الزنا ، والظاهر أنه المعاصي مطلقا . و (نهلك) بكسر اللام على اللغة الفصيحة المشهورة ، وحكى فتحها . وهو ضعيف أو فاسد . ومعنى الحديث أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام ، وإن كان هناك صالحون ...

* وأخرج البخارى فى كتاب تفسير القرآن: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ".

قوله :(إن الله ليملي للظالم)وفى رواية " إن الله يملي " وربما قال " يمهل "

قوله : (حتى إذا أخذه لم يفلته) بضم أوله أي لم يخلصه ، أي إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك وهـذا على تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه ، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به ، والله أعلم .

* كيف يأخذ الله القرى وبما يهلكها:

قال تعالى: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(١٦) الاسراء.

وقال تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(١٢٣)الأنعام.

* والمعنى: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية. "مجرميها" والأكابر جمع الأكبر.وهم الرؤساء والعظماء. وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد. والمكر الحيلة في مخالفة الاستقامة، قال مجاهد: كانوا يجلسون على كل عقبة أربعة ينفرون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم. ......

وقال تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) النحل.

وهذا مثل أريد به أهل مكة فإنها كانت أمنة مطمئنة مستقره يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف ، "يأتيها رزقها رغدا" أي هنيئا سهلا "من كل مكان فكفرت بأنعم الله" أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم كما قال تعالى "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار"

ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال "فأذاقها الله لباس الجوع والخوف" أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه

وقوله:" والخوف" وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه.

* والله لايهلك القرى الا بعد الانذار:.

قال تعالى: "وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ"(٥٩) القصص.

وقال تعالى: "ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١) الأنعام.

أى: لم يرسل إليهم رسول يبين لهم؟

* وما من قرية الا سترى ذلك أو نحوا منه كله مقدر عند الله فى كتاب:
قال تعالى: " وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ(٤) الحجر.
أى: أي أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ.
وقال تعالى: " وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا "(٥٨) الاسراء.
* أى: هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم "عذابا شديدا" إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين "وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم" وقال تعالى "فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا".
* وأخذه لايُعلم وقته وهو غيرُ مأمون:..... قال تعالى: " وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ "(٤) الأعراف.
** أى: ليلا... أو نائمون بالظهيرة والقيلولة إستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم، أي مرة جاءها ليلا ومرة جاءها نهارا..
الأعراف.
وقال تعالى: " أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ "(٩٧) الأعراف.
* * أى: ليلا... وهم غافلون عنه...
وقال تعالى: " أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ "(٩٨) الأعراف.
* * أى: أي وهم فيما لا يجدي عليهم؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه لاعب،
وقال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ "(٩٤)
ومن العجيب أن مثل ذلك لم يحدث الا قليلا جدا مثل ما حدث فى قوم يونس كما فى قوله تعالى: {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين}.

وروي في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا؛ فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم؛ فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم في تلك الحالة. وقال ابن مسعود: وكان الرجل يأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيرده؛ وعن ابن

عباس أنهم غشيتهم ظلة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرها بين أكتافهم. وقال ابن جبير: غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب. وقال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب؛ وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم

العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قال القرطبي: قول الزجاج حسن؛ فان المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك. ويعضد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر). والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا. والله أعلم.

* والنجاة من ذلك أن يكون أهل القرى مصلحين:

قال تعالى: "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(١١٧) هود.

أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده).[صحيح الجامع برقم:١٩٧٣].

وقيل: المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم هنا المعاصي على هذا المعنى.

* ولذلك أمرنا أمرا جامعا لعل فيه النجاة:

فقال تعالى: "وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا(٧٥) النساء.

أي: يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ولهذا قال تعالى "الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية" يعني مكة كقوله تعالى "وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك" ثم وصفها بقوله "الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا أي سخر لنا من عندك وليا ناصرا.

* خلاصة:

مما سبق بيانه نفهم عدة حقائق:

١- أن القرى – الدول – منها ما يبقى ومنها ما يحصد.

٢- أن البقاء والحصاد أمر رباني لا يحكمه ويقدره الا الله وحده لأن الملك ملكه والكون له وحده.

٣- أن أعظم أسباب إهلاك القرى الظلم والطغيان حتى لو كان فيها إيمان.

٤- أن أعظم أسباب البقاء والنجاة هو الإيمان والتقوى لتكون القرى طائعة عادلة.

٥- أن هلاك القرى يبدأ بتسليط مترفيها ومجرميها عليها.

٦- أن الهلاك لايتحقق الا بعد الإنذار من الله لعل القرى ترجع.

٧- ما من قرية الا وسيأتيها هذا الإنذار والبلاء والعذاب...سنة الله سبحانه فى القرى...وحكمته إرجاع القرى قبل هلاكها...لعلهم يتضرعون.

٨- ذلك الأخذ والإنذار لايعلم وقته لكل قرية الا الله وحده ، ويأتى فجأة بلا مقدمات...وهو أمر مسطور.

٩- من أعظم أسباب نجاة أهل القرى أن يكونوا مصلحين...ولذلك علينا بالصلاح والاصلاح والتمسك بأسباب النجاة والنصر.

* * أسباب النجاة والنصر:

أولا لابد هنا من معرفة أن النصر نوعان:

الأول: نصر العبد في نفسه منفرداً بالثبات على الحق حتى الممات:

فمن مات على الحق فقد نصره الله نصراً فرديا مؤزراً.وهذا النوع من النصر جاء فيه مثل قول الله تعالى:" إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠ التوبة).

وهو بين فى أيات كثيرة من كتاب ربنا العلى حيث قال:

قال تعالى:" وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"(٤٠ الحج).

وقال تعالى:" إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١ غافر).

ويقول تعالى:" يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ"(٢٧ إبراهيم).

وقال تعالى:" وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤٨ البقرة).

وقال تعالى:" أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٨٦ البقرة).

وهذا النصر هو أعظم النصر للعبد ولايملكه له الا الله وحده قال تعالى:
" وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٧ الأعراف).
وقال تعالى:" وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (١٠ الأنفال).
وقال تعال:" وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ"(٤٧ الروم).
وقال تعالى:" وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢ الأنفال).
وقال فى حق من حرم هذا النوع من النصر:
قال تعالى:" فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ(٨١ القصص).
وقال تعالى:" وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(٣٤ الجاثية).
* * والنوع الثاني من النصر:
هو المعلوم المعروف ....وهو نصر جماعة المؤمنين الذين رضى الله عنهم ، على عصابات الكافرين الضالين الهالكين وهو الذى تبحث عنه الأمم جميعا حتى الكافرة التى ترفع رايات الكفر وتقول إن الله – بزعمهم وضلالهم – سينصرهم ،فأنت ترى قوى الكفر ترفع الصليب والعلمانية والصهيونية والإلحاد ، وتقول الله ينصرنا ...والله سيهلكهم بكفرهم وطغيانهم كما علمنا سبحانه ، لكن الأمة المسلمة الباحثة عن هذا النوع من النصر ، لابد للأمة أن تقف على أسبابه وتعرف مقوماته ، وهو ما سأذكر منه نبذة أو أذكر ببعضه....لكن من الأهمية بمكان أن تعرف أن النوع الأول من النصر هو من أعظم أسباب النوع الثانى فهو كالأساس بالنسبة له...ثم من الأسباب:
١- الإيمان بالله تعالى [باطناً و ظاهراً]:
قال تعالى : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)
قال تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)
ولاشك أن من أسباب الهزيمة المعاصي .... ومن أسباب النصر الطاعات.
٢- الصبر..[على الطاعة وعلى ترك المعصية والإبتلاء]:
قال تعالى : (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥آل عمران) .
قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦ الأنفال) .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠ آل عمران).

* وهنا أذكر أن المعاصي تمنع النصر وتورث الحرمان لمن عصى من الموحدين يدل على ذلك موقف يوم أحد حيث قال الله تعالى:" وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢ آل عمران)....وانظر الى قوله تعالى " حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ"...

أخرج البخاري في كتاب المغازى عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشًا مِنْ الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ (ابن جبير) وَقَالَ لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا... في رواية " وإن رأيتمونا تخطفنا الطير "... فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ فَأَخَذُوا يَقُولُونَ الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا.. وفي حديث ابن عباس " فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفت الرماة جميعا فدخلوا في العسكر ينتهبون ، وقد التفت صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم هكذا – وشبك بين أصابعه – فلما أخلت الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على الصحابة ، فضرب بعضهم بعضا والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير...... ووقع عند الطبري من طريق السدي قال : " تفرق الصحابة : فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله ، فرماه ابن قمئة بحجر فكسر أنفه ورباعيته ، وشجه في وجه فأثقله ، فتراجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلا فجعلوا يذبون عنه . فحمله منهم طلحة وسهل بن حنيف ، فرمى طلحة بسهم ويبست يده . وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي يستأمن لنا من أبي سفيان ، فقال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قتل

فرب محمد لم يقتل . فقاتلوا على ما قاتل عليه "..... وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ فَقَالَ لَا تُجِيبُوهُ فَقَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ قَالَ لَا تُجِيبُوهُ فَقَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ اعْلُ هُبَلُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجِيبُوهُ قَالُوا مَا نَقُولُ قَالَ قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجِيبُوهُ قَالُوا مَا

نَقُولُ قَالَ قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ وَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي"..

* أرأيت أخي كيف تمنع المعاصي النصر....نسأل الله العافية

٣- الإخلاص لله تعالى . [أن يكون القصد نصرالنفس بالإيمان ونصر دين الله وإقامة شرعه]:

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧ محمد) .

قال تعالى : (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠ الحج) .

وعلامة الإخلاص ... في قوله تعالى:"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١ الحج).

٤- الإعداد المادي [وأعدوا لهم].

قال تعالى : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ...(٦٠ الأنفال).

فلما تركنا هذا التوجيه الرباني الكريم هنا على أنفسنا وصرنا مطمع لكل طاغية وكافر.

٥- الائتلاف وعدم الاختلاف:

قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦ الأنفال) .

فلما اختلفنا زرع الأعداء بيننا من ليس منا ... ليزيد الفرقة والتمزق ...وقسمونا عبادا وأرضا وأقليم..وقادونا بسياسة فرق تسد.... حتى صرنا قطعاناً تتناهشها الكلاب ....

٦- التوكل على الله والاعتماد عليه واللجوء إليه والتضرع بالدعاء إليه والإستغاثة به وحده:

قال تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩ آل عمران).

قال تعالى : (إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠ آل عمران)

قال تعالى : (وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠ البقرة).

وقال تعالى : (... أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦ البقرة).

٧- الإقدام وفداء الدين بالنفس والنفيس:

قال تعالى : (قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣ المائدة)

ولذلك كان الانغماس في العدو من أفضل الجهاد لما ينتج عنه من علو في الهمم ، ورفع للمعنويات ، وبه تقوى عزائم أهل الإيمان ، وبه تتحطم معنويات أهل الظلم والطغيان ...وفي المقابل حُرم التولي

يوم الزحف وصار من السبع الموبقات لما يسببه من الهزيمة .... والتثبيط ...وتخبيل صفوف المسلمين.... ورفع معنويات العدو ....

٨- الشورى والمشورة:

وذلك بمشاورة القائد [حاكماً أو قائداً] لأصحابه وبطانته [من أصحاب الرأي والمشورة من أهل الحل والعقد وغيرهم] وإشراكهم في صناعة القرار.... [فتطيب النفوس وتقوى العزائم ...ويسدد القول والرأى]

قال تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ... (١٥٩ آل عمران).

قال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (٣٨ الشورى)

وهذا يشمل الجهاد وغيره من أمور سياسية واقتصادية وتعليم ومجتمع ...ألخ... فهو قاعدة عامة الحكم والقيادة.

٩- طاعة أمراء الحق والدين و التصرف بإذنهم وعدم الخروج عليهم:

لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩ النساء)}

وقوله : { وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ (٦٢ النور)}.

١٠- تقريب الخيار وإبعاد الفجار وإتخاذ بطانة خير وبر لا بطانة سوء [كالخبراء والمستشارين]:

يقول تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢ الأنفال).

وقال تعالى:" وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٧١ التوبة).

وحذر من بطانة السوء فقال سبحانه: " وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(١١٣ هود)

ويقول تعالى:" لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(٢٨ آل عمران).

وقال تعالى:" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا(١٤٤ النساء).

وقال تعالى:" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١ المائدة).

١١- التصرف على وفق الشرع في الشدائد والحروب وعند الملاقاة:

وهذا باب واسع يحتاج الى فقه عظيم وعلم دقيق للمسائل المتعلقة بذلك لكن أذكر منها على سبيل الإجمال:

أ- وحدة صفوف المقاتلين و تراصها:

لقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤ الصف)}

ب- الثبات عند اللقاء:

لقوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ (٤٥ الأنفال) }

ج- الإكثار من ذكر الله:

لقوله تعالى : { وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ(٤٥ الأنفال) }.

د- الإستغاثة بالله سبحانه:

لقوله تعالى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩ الأنفال)}.

ر- إتخاذ الحيطة والحذر مع الأعداء:

لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً (٧١ النساء)}.

" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ"(١٤٩ آل عمران).

س- السرية في القول و العمل ورد الأخبار إلى ولاة الأمور:

لقوله تعالى : { وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ (٨٣ النساء)}.

ع- الرفق بالمؤمنين و تحريضهم على القتال:

لقوله تعالى : { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ (٥٤ المائدة)}.

لقوله تعالى : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧ التوبة)}.

ق- منع المتخلفين من القتال:

{ فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣ التوبة) }.

ك- إرهاب الأعداء والغلظة عليهم:

لقوله تعالى : { تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ (٦٠ الأنفال)}
وقوله :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً (١٢٣ التوبة)}.
هـــ- دعوة من طلب الأمان من الأعداء إلى الإسلام قبل أي أمر أخر:
لقوله تعالى:" وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَــهُ ذَلِــكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ(٦ التوبة).

* ومن المبشرات:
" سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ"(١٥١ آل عمران)
" وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُــمْ عَــذَابٌ مُهِينٌ "(١٧٨ آل عمران)
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(١٩٦ آل عمران).

* وبعد أخي الباحث عن النصر فهذه نبذة فيها القليل مما ينبغى على الأمة ولعله ينفع مع قلتــه ..... اللهم أنصر الإسلام وأعز المسلمين واهلك الكفرة اعداءك أعداء الدين ...وأخرجنا منها منصــورين بالإيمان غير خزايا ولا مفتونين ، ولا مغيرين ولا مبدلين...أمين...اللهم ارحــم الأمــة واكشــف الغمة...وأعد عليها أسباب نصرها وعزها...أمين...أمين ...أمين .
هذا والحمد لله رب العالمين ولاعدوان الا على الظالمين وصلى اللهم وسلم على محمد وآله وصــحبه أجمعين...سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد الا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك....
جمعه ورتبه وكتبه الفقير
د/ السيد العربي بن كمال

دور العلماء ورجال الحسبة في الانتصار العسكري والسياسي والحضاري

خالد بن عبدالله الغليقة

كلما ابتعد المجتمع الإسلامي عن الإيمان كلما بعد عن الأخلاق المنبثقة منه كالإنصــاف وإنصــاف الآخرين، وكلما بعد عن الإنصاف وإنصاف الآخرين، قرب من الانحطــاط، وكلمــا قــرب مــن الانحطاط ضربت عليه الذلة والمسكنة وارتفع عليه أعداؤه، وهذه صفة المجتمع اليهودي، لكن قد يحذو المجتمع المسلم حذو المجتمع اليهودي، كما قال I: [لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِــذِراعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ لتتبعن سَنَنَ مــن كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضبٍ لدخلتموه] (١) .

فقد وصف الله المجتمع اليهودي بالذل، وسبب ذلهم أنهم لم يؤمنوا الإيمان الذي يبعث على الإنصاف، فلم ينصفوا الأنبياء واعتدوا على اختصاصهم بالوحي، فقد قال الله عنهم: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: ١١٢].

وبما أن العلماء ورثة الأنبياء فعدم إنصاف المجتمع المسلم لهم، والاعتداء على تخصصهم، والتضييق عليهم بهذا يكون المجتمع المسلم تشبه بالمجتمع اليهودي، وحذا حذوه، فمصيره كمصيره الذلة والمسكنة والتشتت، كما هو واقع المسلمين اليوم.

ومما يدل على أن للمجتمع المسلم نصيباً من هذه الآية إ ذا فعلوا بورثة الأنبياء ما فعلته اليهود مع الأنبياء أن الله ذكر قبل هذه الآية (الخيرية) التي هي عكس (الذل والمسكنة والتشتت)، وشرط لتحقيقها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المعلوم أن هذه من أكبر وظائف العلماء، كما أنها من أعظم مهام الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - .

قد يقول شخص لديه نقص يقين في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]، {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [الحشر: ١٤] إنَّ اليهود في هذا العصر مجتمعون غير مشتتين، وأعزاء غير ذليلين، ومنتصرون غير منهزمين، فكيف الجمع بين هذا الواقع وتلك الآيات؟

** الجواب:

أولاً: يجب اليقين بهذه الآية، واتهام البصر بعدم رؤية الحقائق كما ينبغي، وتوجيه التهمة للعقل بعدم الإدراك، فلا تناقض بين الآيات والواقع، ولا ينقض الواقع الآيات، إنما التناقض في عقل الشخص، وذلك دليل على نقص في اليقين، وبرهان على يقين ناقص، لذلك قال الشوكاني - رحمه الله -: قد وجدنا ما وعدنا - سبحانه - حقًّا، فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر، ولا اجتمع لهم جيش إلا ويغلب بعد نزول هذه الآية: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: ١١١]. فهي معجزة النبوءة ا هـ.

ولو عاش الشوكاني إلى هذا العصر - عصر احتلال اليهود القدس لم يغير رأيه، ولو أدرك الحروبَ بين اليهود والمسلمين لم يبدل حكمَه ؛لأن صفاتهم في القرآن ما زالت فيهم لم تتغير و لم تتبدل،

فالتشتت لم يتغير إلى تجمع إلا في أعين بعض المسلمين بسبب نقص يقينهم وذلة في قلوبهم، والمسكنة ما زالت مسكنة لم تتبدل إلى غنى إلا في تصور بعض المسلمين بسبب نقص يقينهم وفقرهم. والانهزام وعدم النصر عادة اليهود في الحروب ما بقيت السماوات والأرض، إلا أمام جيش مسلم شعاره الخوف، ورايته عدم اليقين بقوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: ١١١]، والتشتت والتفرق خلق له، والخيانة من سلوكياته، فجيش يحمل صفات اليهود وشعارهم، وخلقهم، وسلوكهم، كيف ينتصر على جيش يهودي الأصل ؟ فاليهود في هذا العصر لم ينتصروا على جيش مسلم الإسلام الموصوف بالنصر، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧].

و لم يهزموا جيشاً مؤمناً إيماناً مبشَّراً وموعوداً بالاستخلاف في الأرض، والتمكين في العالم، كما قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٥٥].

فإن قلنا: هذا هو الجيش الموصوف بالنصر، لكن الواقع تغير، وإن ادعينا بأن هذا هو الجيش المؤمن الموعود بالاستخلاف والتمكين، لكن اليهود ليسوا هم اليهود، فهذا إثبات للتعارض بين الواقع والآيات، وتثبيت للتناقض بين الآيات والواقع، فهذا دليل على نقص اليقين، وبرهان على اليقين الناقص لدى بعض المسلمين، فالعيب ليس في اليهود، والواقع ليس هو السبب، بل:

نعيب زماننا والعيب فينا *** وما لزماننا عيب سوانا

فعيب الجيش المسلم شعاره(الخوف)، وذنبه رايته(عدم اليقين)، وسر هزيمته خلقه (الخيانة)، وخطؤه سلوكه (التشتت والتفرق).

فأي جيش يتصف بهذه الصفات عاقبته الهزيمة، وأي جيش هذه شعاراته وهذه أخلاقه وسلوكياته نهايته عدم النصر والتمكين.

وسبب تخلق هذه الصفات المانعة من النصر، وعلة تكوُّن هذه الشعارات والأخلاقيات والسلوكيات الجالبة للهزيمة: هو عدم التناهي عن هذه الصفات بين أفراد المجتمع المنبثق منه الجيش، وعدم إنكار هذه الأخلاق وتلك السلوكيات بين أعضاء الجيش، وسبب عدم التناهي وعدم الإنكار هو التضييق على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وأولى من يقوم بهذه الوظيفة هم العلماء، والعلماء هم أولى الناس بها، فالتضييق عليهم توسيع لـــدائرة المنكر، وتقويضهم فسح المجال لارتكاب المنهيات. فإذا اتسعت دائرة المنكر انتشر في المجتمع صـــفات اليهود الجالبة للذل والمسكنة، والجيش من المجتمع، وإذا فسح المجال للمنهيات حـــذا المجتمـــع حـــذو المجتمع اليهودي الجالب للهلاك،كما قال تعالى: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَـــانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة: ٧٩].

وقال الرسول I: [إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يـــا هذا! اتق الله و دع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك من أن يكـــون أكيلـــه وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قرأ: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَـــنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة: ٧٩]، ثم قال -: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنـــهوُنَّ عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطراً (٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) من رو اية ابن مسعود.

جهاد فلسطين . . أمال عظيمة رغم الألام الجسيمة

د.عبدالعزيز بن مصطفى كامل

عد أربعين عاماً على ضياع القدس وأسر الأقصى، وما يقرب من ستين عاماً على اغتصاب اليهـــود لفلسطين، ونحو تسعين عاماً من احتلال الإنجليز لها، وما يزيد عن قرنٍ ونصف من بداية التآمر عليها، بالتخطيط لما صار يسمى بـــ (أزمة الشرق الأوسط)، وبعد تضحيات ضخمة في حـــروب كـــبرى فاشلة، وتنازلات فادحة في عمليات (سلام) خاسرة..، بعد كل ذلك؛ هانحن نرى تلك الأزمة تقف بأطرافها عند طريق مغلق وأفق مسدود، وأمل لا رجاء به إلا في رحمة الله اللطيف بعباده.

حصار متواصل يُشارك فيه القاصي والداني، وتآمر جديد يتحالف فيه القريب مع البعيد، وأعداء جُدد في الداخل لا يقلون شراسة عن أعداء الخارج، وأعباء حياتية إلى جانب التحديات السياسية والأمنية والاقتصادية، وتلاعب ومكر ونفاق على أعلى مستوياته الرسمية، وابتـــزاز وانتهازيـــة مـــن الفـــرق البدعية.. قتل وأسر، هرج ومرج، ونار وتضييق ودمار، دون قدرة على نصرة من قريب أو بعيد! و لم يعد هناك مخرج إلا الهروب.. نعم.. الهروب إلى الله، بل الفرار إليه، فهذا هو المخرج أيها المجاهـــدون والمرابطون: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} [الذاريات: ٥٠].

إنَّ الفرار إلى الله في هذه المرحلة ليس سيراً إلى مجهول، أو ذهاب إلى عدم؛ بل إنه انطـــلاق جديـــد مطلوب، وفق خطٍّ إلهي محسوب؛ أظهرته الآيات، وفصَّلته الأحاديث، وبيَّنتْه مجريات السنن الإلهية في

القديم والحديث. إنه طريق لا يمكن أن تكون له نهاية إلا النصر بإذن الله، بل النصر القريب؛ لأنه طريق طائفة اقترن اسمها بالنصر؛ هي الطائفة المنصورة التي أخبر النبي أنها ـــ وإن تفرقت بعض الأزمان في بعض الأمصار ـــ ستتركز مع مرور الزمن في بلادكم وحول بلادكم.. يا أهل فلسطين!

لن أخوض في هذه المقالة في تحاليل السياسة وتشعباتها وتقلباتها، وبخاصة في الآونة الأخيرة؛ فقد أصبح الأمر أكبر من حِيَل الساسة وأعقد من دهاليز السياسة التي لم تعد توصل إلا إلى طريق التيه، ومع تلك الورطات والارتباكات فإن الأمر يتجه بقوة نحو الوضوح العقدي الصارخ على المستويات العالمية والإقليمية والمحلية، بحيث صارت المواقف واضحة وضوح الشمس: قوم معتدون مغتصبون كافرون؛ هم اليهود وحلفاؤهم من النصارى، يتواطأ معهم ويدخل في حلفهم ظاهراً أو باطناً أقوام زائغون منافقون، في خطة فساد وعناد، تهدف في النهاية إلى إسكات صوت الإسلام في فلسطين، ولكن.. هيهات!

سأخصص هذه المقالة في تلك العجالة للتذكير بأمور، أعلم أن الكثير منها ليس بجديد، ولكن متى كانت الذكرى تحتاج لجديد؟! فأعظم الذكرى التي تنفع المؤمنين إنما تكون بالأمر العتيد الذي كثيراً ما نغفل عنه في زحمة الأحداث وتقلبات المراحل وتلبيسات الشياطين.

معانٍ عظيمة في النصر والهزيمة:

لا ريب أن كل جهود واجتهادات المجاهدين في فلسطين وغيرها إنما تروم في النهاية إلى تحقيق النصر أو بعض النصر، بالتغلب على المشكلات سياسية كانت أو عسكرية أو أمنية أو اقتصادية، ولكن البُعد شبه الغائب عند بعضنا؛ هو إدراك أن أي نجاحات ـــ بالمنظور الإسلامي ـــ لا بد أن تستند أو تنطلق من رؤى شرعية واضحة تُبنى عليها السياسات وتُتخذ على وفقها المواقف؛ فلسنا مخيرين ـــ ما دمنا مسلمين ـــ في أن نخالف بين الموازين، أو نغير في المعايير التي نفصل بها بين الأعداء والأولياء، والتي تُحدد على أساسها المنطلقات والسياسات.

طريق الانتصار ـــ إخوتنا ـــ ليس مجرد بذلٍ وتضحيات، أو رسم مخططات وسياسات؛ فكل ذلك إن لم يستند إلى: (قال الله وسَنّ رسول الله) فإنه لا يُوصل إلا إلى المزيد من إطالة زمن الأزمة، وزيادة أمد المحنة.

لا شك ـــ أيها المجاهدون ـــ أنَّ النصر مطلب المؤمنين جميعاً في كل عصر ومِصْر؛ إذ به يحق الله الحقّ ويبطل الباطل؛ وتتحقق العزة ويزول الذل، وتدول دولة الباطل؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

لذلك فهو الأمنية الباقية في القلوب، والأمل الشاخص أمام الأعين؛ ينتظره الصادقون، ويتشوق إلى قربه الشرفاء، ضعفاء كانوا أو أقوياء؛ فالنصر قد يكون قريباً وقد يطول طريقه فيكون بعيداً، لكنَّ النفوس تتوق إلى النصر القريب: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}

[الصف: ١٣]. صحيح أن العاقبة للمتقين، ولو بعد عشرات السنين، ولكنْ للنصر القريب أسـباب تطوي بُعدَه وتُقدِّم وقته، كما أن هناك من الأسباب ما يؤخرِّه، بل ما يرفعهُ ويمنعه.

إنَّ قول الله ـ تعالى ـ: {وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ} [الأنفال: ١٠]، يقدِّم بدهيةً عقدية، وحقيقةً رسالية، وسنةً إلهية، إذا نُسيت أو أُهملت فإنها تتسبب في فصل صفة القرب عن وصف النصر، مع أن قُرْبَ النصر نعمة لا تقل عن نعمة النصر نفسه. والنصر القريب يزداد قرباً كلما اختصر طريقـه، ولا سبيل إلى اختصار طريق الانتصار إلا بتحقيق أسبابه (الشرعية)، ونُكرر: (الشرعية!)؛ فإذا كان النصر من عند الله فلا بد أن تُستمد أسبابه من شريعة الله، وقد قال الله ـ تعالى ـ: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَـن يَنصُرُهُ} [الحج: ٤٠]، أي: ينصر مَنْ نصر دينه ونبيه – صلى الله عليه وسلم – .

بوسعنا إذن أن نقترب من النصر ـ بإذن الله ـ أو نبتعد عنه ـ عياذاً بالله ـ ولهذا دعانا الله للأخذ بأسباب الاقتراب فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧].

قال الطبري في تفسيرها: «إن تنصروا الله؛ بنصركم رسوله محمداً – صلى الله عليه وسـلم – علـى أعدائه من أهل الكفر به، وجهادكم إياهم لتكون كلمته العليا؛ ينصركم عليهم ويظفركم بهم؛ فإنـه ناصر دينه وأوليائه»(١).

حقيقة النصر:

نعلم أن المجاهدين في فلسطين يجتهدون ـ زادهم الله توفيقاً ـ في الاقتراب من تلك المعاني، و لذلك فإن الكلام هنا عام، لا نخص به الفصائل المعروفة الآن فقط، بل هي وغيرها ممن سينضـم إليهـا أو يلتحق بها، فلا يزال الطريق طويلاً، وستظل الحاجة ماسةً للتأسيس على معانٍ صحيحة.

جوهر الانتصار في الإسلام هو ما أشارت إليه غايات القتال والجهاد في سبيل الله، وأهمها ألا تكـون فتنة بسبب علو الشرك والكفر، وأن تكون الدينونة لله، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]، وعندما تتحقق هاتان الغايتان فإن طرق الخير تنفتح، وأعظمها: باب الهداية والاستقامة على الدين، وبذلك يكون النصر لدين الله، ويكون مفتاحاً للطريق إليه وعودة الناس له عز وجل. وقد حَوَتْ (سورة النصر) إشارة باهرة إلى هذا المعنى، في قول الله ـ تعالى ـ: {إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنَّـهُ كَـانَ تَوَّاباً} [النصر: ١ – ٣].

ففتح الطريق إلى الله وتيسير السير إليه هو المعنى الأساس لأنْ يكون الجهاد (في سـبيل الله)، ولهـذا اقترنت آيات الجهاد والقتال في نصوص الوحي بِذكر (سبيل الله). وسبيل الله ـ كما قال المفسرون ـ هو: «طاعة الله». وعلى هذا؛ فكل جهاد لا يكون في طاعة الله ووفق دين الله فإنه لا يكـون في سبيل الله.

وقد سُئل رسول الله: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها»، فقال السائل ــ وهو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ــ: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(٢).

ولما سُئل: أيُّ الناس أفضل؟ قال: «مؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»(٣).

وقد سُئل النبي عن الرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُرى مكانه؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله»(٤).

والقتال في غير سبيل الله لا يوصل إلى نصر الله، ولا يُبلِّغ الناس رضى الله ــ سبحانه وتعالى ــ بل يؤدي إلى السخط والحبوط وميتة السوء، قال رسول الله: «من قاتل تحت راية عمية، يغضبُ لعَصَبَة أو يدعو إلى عَصَبَة أو ينصرُ عَصَبَة، فقُتِل فقِتلة جاهلية»(٥).

وفي رواية: «من قُتِل تحت راية عمية، يدعو عصبية أو ينصر عصبية، فقتلته جاهلية»(٦). والراية العمية ــ بضم العين وكسر الميم وتشديدها ــ هي عكس الراية الواضحة؛ فهي الاجتماع على أمر مجهول، لا يُعرف إذا كان حقاً أو باطلاً، قال النووي ــ رحمه الله ــ: «هي الأمر الأعمى لا يتبين وجهه، كذا قال الإمام أحمد. وقال: «هي أن يُقاتل لشهوة نفسه وغضبه لها، ويُؤيد هذا الحديث المذكور: (يغضب للعصبة، ويُقاتل للعصبة)، ومعناه: إنما يُقاتل عصبيةً لقومه وهواه». وإذا كان هذا يقال فيمن يقاتل على أمر مجهول، أو على عصبية جاهلية قبلية أو عنصرية أو حزبية غير شرعية؛ فما الحال فيمن يقاتل مع الكفار، أو يقاتل نيابة عنهم؟! هل يُعدُّ هذا أخاً، أو شريكاً، أو رفيق سلاح؟!

إن غياب هذه المعاني الشرعية (البدهية) وإحلال الشعارات الدنيوية اللادينية الدخيلة محلها عند بعض الناس، هو ما يهوِّن قضايانا، ويفضّ الصادقين عنها، وهذا ما حدث للقضية الفلسطينية طوال العقود التي رُفعت فيها الرايات العمية العلمانية، وغابت فيها الرايات الإسلامية.

ولما بدأ ظهور الأُطروحات الإسلامية، بظهور الفصائل الجهادية على أرض فلسطين في أواخر عقد الثمانينيات الميلادي، أي بعد أربعين عاماً من احتلال اليهود لها، مسَّت الحاجة إلى ترشيد هذا الجهاد وتقويمه ودعمه؛ حيث إن النُقلة من القاع إلى القمة لم تكن بالمهمة السهلة، والمجاهدون دائماً يحتاجون إلى التسديد والتقويم والتناصح والتعاون على البر والتقوى، ولا عصمة لشخص أو فصيل أو جماعة بحيث لا تحتاج إلى نصح أو تذكير أو تقويم.

إن الجهاد عندما يكون في سبيل الله حقاً فإن الانتصار هنا يكون للمنهج المنَزَّل من السماء، قبل أن يكون للجنود المرصوصين على الأرض؛ ولذلك فإن انتصار المنهج ــ ولو كُسِرت الجيوش واستُشْهِد الجنود ــ لا يُسمى هزيمة؛ فالمنهج الحق لا يهزم، ولذلك لم يُهزم رسولٌ قط، وإنما يُبتلى أو يُصاب.

أما الأتباع فإن حاملي الحق منهم لا يُهزمون أيضاً هزيمة تطول أو تعم في الأرض، وحتى لو ارتفعت أرواحهم إلى السماء مع الشهداء؛ فإن قضيتهم تبقى الأساس في هداية الناس؛ فأصحاب الأخدود لم يُهزموا، وغلام الأخدود لم يُهزم، وأصحاب النبي لم يُهزموا هزيمة عامة، وإنما تلقوا درساً في طريق الانتصار كان سبباً في انتصارات أعظم، وكذلك فإن الشهداء المشهود لهم بالصدق في عصرنا لم يُهزموا، وإنما ابتلوا أو أُصيبوا؛ لأن المناهج التي حملوها وحموها بدمائهم وأشلائهم لم تسقط ولم تُهزم. {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ}[آل عمران: ١٤٦ - ١٥٠].

إن الهزيمة بمعناها الثقيل الصريح لم تنسب للمؤمنين أبداً في القرآن، ولكنها نُسبت للكافرين، كما جاء في قول الله ـــ تعالى ـــ عن هزيمة العماليق الوثنيين في فلسطين أمام داود ـــ عليه السلام ـــ وجنوده: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ} [البقرة: ٢٥١].

لقد بدت أمامي من خلال استعراض الآيات التي ذُكر فيها النصر في القرآن ملاحظة عجيبة! حيث وجدتُ أن النصر لم يُنسب بلفظه قط إلى الكفار! قصارى ما يُمكن أن يُنسب إليهم هو (الغَلَبة)، والغلبة قهر قوة مادية لقوة مادية. صحيح أن بعض الكفار قد ينتصر بعضهم على بعض، لكن نصوص الوحي تُعبِّر عن ذلك بالغلبة أو الظهور فقط؛ لأن الأمر كما قال الله: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ} [آل عمران: ١٢٦]، وقال: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} [الحج: ٤٠]، ولذلك لم يقل الله ـــ تعالى ـــ: انتصر الفرس، أو انتصر الروم، وإنما قال ـــ سبحانه ـــ: {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ} [الروم: ٢ - ٤]، وقد لاحظت أيضاً أن النصر يقترن دائماً باسم الله ويسند إليه سبحانه، مما يُفهم منه أن نصره ـــ عز وجل ـــ لا يُمنحُ لمن حاد عن منهجه؛ فهو سبحانه (النَّاصر) و (النَّصير)، ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من المفسرين ذهبوا إلى أن قول الله ـــ تعالى ـــ في آية الروم: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الروم: ٤ - ٥]، إنما المقصود به نصر الله للمؤمنين المسلمين في غزوة بدر على مشركي قريش؛ حيث كان هذا النصر متزامناً مع ما وقع من غلبة الروم على الفرس(٧).

ومع أنَّ الكفار قد ينتصر بعضهم على بعض انتصاراً مادياً محسوساً، غير أنهم لا ينتصرون على المؤمنين أبداً وإن غلبوهم أو نالوا منهم في الميادين في بعض الأحايين، وهذه الغلبة أو المصيبة التي تصيب المؤمنين أحياناً لا تكون أيضاً إلا بنوع من التفريط في أسباب النصر الشرعية؛ كما قال الله ـــ تعالى ـــ: {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٥ - ١٦٦].

ويلاحظ هنا أيضاً أن لفظ الهزيمة لم ينسب لهم، وإنما سُمي ما حدث مصيبة.

للنصر أقوام:

هناك من يهيئهم الله ــ تعالى ــ لتَنَزُّل النصر الإلهي عليهم، وهؤلاء هم أصلحُ الناس أعمالاً وأقربهم امتثالاً للحق وأخذاً به، ثم الأمثل فالأمثل، وهؤلاء يكرم الله الأمة بهم من أجل إخلاصهم. ولذلك كان أبو الدرداء يقول لأصحابه قبل المعركة: «عملٌ صالحٌ قبل القتال؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم»(٨). وقد بوَّب البخاري ــ رحمه الله ــ في كتاب الجهاد باباً بعنوان: «عملٌ صالحٌ قبل القتال»(٩). فالنجاة من فتنة الأعداء والانتصار عليهم إنما يكون بكثرة الصلاح وقلة الخَبَث، ليس في صفوف المجاهدين فحسب، ولكن في عموم الأمة التي تُمنَح النصر عن استحقاق، أو تخضع لسنن الابتلاء والتمحيص والتطهير.

وليس من قبيل الصدف أن يستقر وصفُ خلاصة الفرقة الناجية من هذه الأمة بـ (الطائفة المنصورة)، والوارد ذكرها في الحديث المتواتر: «لا تزال عصابةٌ من أمتي يُقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم كذلك»(١٠).

وحتى لا يقول قائلٌ: إن الحق هو كل ما يمكن أن يكون دفاعاً عن قضيةٍ عادلة، ولو كانت قوميةً أو وطنيةً أو تحت أي راية عمية علمانية؛ فإن الرواية الأُخرى من الحديث تُبين أن هذا (الحق) ــ الذي ينصر الله المتمسكين به والقائمين عليه ــ هو دين الإسلام نفسه؛ ففي رواية أبي أُمامة من ذلك الحديث جاء قول الرسول: «لا تزال طائفة من أُمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأْواء، فهم كالإناء بين الأكلة، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك»(١١). ونلاحظ هنا ــ أيضاً ــ أن الهزيمة لم تلحق بهم كوصف، وإنما جاء وصف اللأواء، وهو المصيبة أو البلاء الناجم عن شدة التربص بهم.

ووصفهم بالظهور هو وصف بالانتصار؛ فوصف (الطائفة المنصورة) مأخوذ من ذاك الظهور «على الحق ظاهرين»، «على الدين ظاهرين»، وهذا معناه أنهم لا يُهزمون هزيمة كاسرة قاهرة أبداً، وإنما يبتلون بقدر ما يُصلحهم. وقد كان من دعاء وثناء النبي على ربه ــ عز وجل ــ أن يقول: «اللهم لا يُخلف وعدك، ولا يُهزم جندك»(١٢).

انتصار الطائفة المنصورة لا يكون إلا بالحق وللحق؛ فالحق مقترن بمنهجهم وبغايتهم وبرايتهم، لهذا وُصفوا في الحديث بأنهم «على الحق ظاهرين»، وأنهم «يُقاتلون على الحق».

وهذا الحق ليس شيئاً آخر غير ما كان عليه النبي وأصحابه، ولذلك فإنه عندما أخبر عن افتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، بعد افتراق اليهود ثم النصارى على إحدى وسبعين ثم اثنتين وسبعين

فرقة، سُئل ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ عن تلك الفرقة الناجية؛ فقال: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»(١٣).

إن رابطة المنهج الحق هي الرابطة الوحيدة للطائفة المنصورة والفرقة الناجية مـــن أهـــل السـنة؛ وإن اختلفت لغاتُهم، وتفرقت أوطانهم، وتعددت قضاياهم، ولهذا لا يمكن القول بأن شعباً بعينه، أو جماعة بخصوصها، أو بقعةً بذاتها، هي موضع أو موطن الحق في كل الأحوال، وقد قال الإمام النـــووي ـــ رحمه الله ـــ عن تلك الطائفة: «ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونـــوا متفـــرقين في أقطـــار الأرض»(١٤)، وإن كان هذا لا يمنع من تجمُّعهم بحسب ظروف وصروف الزمان مـــن مكـــان إلى مكان؛ حيث يكثرون في أزمان في أمكنة، ويكثرون في غيرها في بقاع أخرى.

قال ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ: «دلَّ الكتاب والسنة وما روي عن الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ مع ما عُلِم بالحس والعقل: أن الخلق والأمر ابتداءً من مكة أم القرى؛ فهي أم الخلق، وفيها ابتدأت الرسالة المحمدية التي طبق نورها الأرض، وهي التي جعلها الله قياماً للناس: إليها يُصلون ويَحجُّـــون، ويقوم بها ما شاء الله من مصالح دينهم ودنياهم؛ فكان الإسلام في الزمان الأول ظهـــوره بالحجـــاز أعظم، ودلت الدلائل المذكورة أن ملك النبوة بالشام والحشر إليها، فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يحشر الخلق، والإسلام في آخر الزمان أظهر بالشام»(١٥)، وقال أيضـــاً وهـــو يعدد فضائل الشام كما دلت عليه النصوص: «وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعـــث أنبيـــاء بـــني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها مسرى نبينا ومنها معراجه، وبها ملكه وعمود دينـــه وكتابـــه، وطائفة منصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد كما أن مكة المبدأ؛ فمكة أم القرى، من تحتها دُحيـــت الأرض والشام إليها تُحشر الناس، كما في قوله: {لأَوَّلِ الْحَشْرِ} [الحشر: ٢] نبه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ وإيليا ميعاد في الخلق وكذلك في الأمر؛ فإنه أُسريَ بالرسول من مكة إلى إيليـــا، ومبعثـــه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى مملكة المهدي بالشام؛ فمكة هي الأول والشام هي آخر في الخلق والأمر في الكلمات الكونية والدينية». ا. هـــ.

لواء الإسلام.. ومسؤولية أهل الشام:

كثيراً ما يراودني سؤال؛ فحواه: «هل الأمور القدرية الغيبية كلها مجرد غيب ينتظر، أم أن منها ما هو شرع يُمتثل وواجب يُستحضر؟».

إن سلفنا الكرام ـــ رضوان الله عليهم ـــ كانوا لا يتعاملون مع أمور الغيب كلها على أنها أمـــور مستورة وينبغي أن تظل مستورة حتى تُظهرها الأقدار، بل إن منها ما كان عندهم يُستدعى ويُتسابق إليه. فلما علموا مثلاً أن الله ـــ تعالى ـــ سيورِّثهم خزائن كسرى وقصور قيصر، ولما سمعوا بأخبـــار فتح مصر، ودخول العراق، وانضمام الشام، وخضوع اليمن؛ تسارعت طلائعهم بُعيد وفاته – صلى الله عليه وسلم – إلى استخراج ذلك الغيب الصادق إلى عالم الشهادة الواقع، وعندما نُقلـــت إلـــيهم

أخبار فتح القسطنطينية، والمناقب العظيمة المذكورة لفاتحيها؛ سارعوا وسارع من بعدهم إلى اقتناص الفرصة لنيل ذلك الشرف، وتسابقوا جيلاً بعد جيل، غير مبالين بالإخفاقات أو المعوقات لتحقيق وتطبيق قول النبي – صلى الله عليه وسلم – :

«لتفتحن القسطنطينية؛ فلَنِعْم الأمير أميرها، ولَنِعْم الجيش ذلك الجيش!»(١٦).

وقد كان هذا الحديث دافعاً ووازعاً لأمراء المسلمين في التسابق إلى فتح القسطنطينية؛ للفوز بتلك المنقبة المذكورة للجيش الذي سيفتحها.

قال بشير الخثعمي ـــ راوي الحديث ـــ: «فدعاني مَسْلَمة بن عبدالملك، فحدثته؛ فغزا القسطنطينية»، وكان معاوية بن أبي سفيان ـــ رضي الله عنه ـــ قد وجَّه حملة بحرية إلى القسطنطينية عام ٤٩ هـ، الموافق للعام ٦٦٩ ميلادية، وقد شارك فيها جَمْعٌ من كبار الصحابة وقت ذاك، منهم عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وأبو أيوب الأنصاري ـــ رضي الله عنهم ـــ ولكنَّ تلك الحملة لم تُحقق أهدافها، واستُشهِد أبو أيوب الأنصاري فيها، فبعث معاوية حملةً أُخرى عام (٥٤هـ ـــ ٦٧٤م)؛ ففتح المسلمون عدداً من المدن المحيطة بالقسطنطينية.

وحملات معاوية ـــ رضي الله عنه ـــ إلى القسطنطينية هي التي استشهدت فيها الصحابية الجليلة (أم حرام بنت ملحان)؛ حيث إنها كانت قد حدَّثت عن النبي أنه قال: «رأيت قوماً من أُمتي يركبون ثَبَجَ البحر كالملوك على الأسِّرة»، فقالت: يا رسول الله! اُدع الله أن يجعلني منهم! قال: «أنتِ منهم»(١٧)؛ فأرادت أن تتحقق هذه البُشرى، فخرجت مع جيش معاوية ـــ رضي الله عنه ـــ لغزو القسطنطينية، فماتت هناك ودُفنت بالقرب منها.

ثم وجّه الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك حملةً أُخرى في جيشٍ قُوامه نحو مائة ألف جندي، على رأسهم أخوه مَسلمة بن عبدالملك، وكان ذلك عام (٩٨هـ، ٧١٧م)، غير أن حصار القسطنطينية لم يُفلح في فتحها هذه المرة أيضاً، رغم استمرار الحصار عاماً كاملاً. ولما جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز ـــ رحمه الله ـــ وجد أن دولة الخلافة الإسلامية في عصره أحوج إلى جيوشها من فتح القسطنطينية؛ فأمر باستقدام القوات المرابطة حول القسطنطينية لِيُقوي بها دولة الخلافة، تاركاً هذا الفتح لجيلٍ قادم. وقد تحقق ذلك الأمر القدري في شكله الشرعي على يد السلطان العثماني (محمد الفاتح) عام (٨٥٧ هـ ـــ ١٤٥٣م).

هذا مثالٌ تفصيليٌّ واحد يدل على كيفية تعامل المسلمين مع أخبار الغيب من الأمور القدرية التي تتعلق بها تكاليف شرعية، وأمثلة التسابق في هذا المضمار كثيرة، ومع كل ما حدث من تسابق لفتح القسطنطينية في الأزمنة السابقة فإنها تظل تنتظر فتحاً آخر سيكون في آخر الزمان، وهو ما أخبر عنه النبي في قوله: «الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر»(١٨).

الشواهد كثيرة ــ لمن أراد أن يستقصيها ــ عن تطلُّع الصحابة الأخيار إلى تحقيق ما فيه خــيرٌ ممــا صحت به الأخبار، والمقصود هنا: أن إخبار الرسول باتجاه رايات الحق وانتصابها في أرض (إيلياء) أو بيت المقدس، في زمان علو اليهود، لَهُو من البواعث الجاذبة للفوز بهذه المنقبة، ممن يستطيعُ ذلك مــن المؤمنين الأطهار، القادرين على خرق حاجز الانتظار؛ الذي يَحْجرُ الكثيرين عن المشــاركة في هــذا الفضل بدعوى ترك القضية لأهلها، أو بزعم أن أهل مكة أدرى بشعابها!

إننا في زمان أعتقد ــ غير جازم ــ بأنه الزمان الممتد إلى وقت الصدام الأخير مع اليهــود في بيــت المقدس وأكناف بيت المقدس، بل في سائر الأرض، عندما يتحقق (العلو الكبير) الذي أخــبر الله ــ تعالى ــ عنه في أوائل سورة الإسراء في قوله ــ تعالى ــ: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِــي الْكِتَــابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً} [الإسراء: ٤].

حيث إن معالم ذلك العلو يتضاعف ظهورها مع الأيام، وبخاصة مع ركــوب اليهــود للأمريكــان، وتحالفهم مع غيرهم من أطراف القوى الكبرى، وهو ما يقود حتماً ــ والله أعلم ــ إلى علو كــبير ربما يفوق علوهم الشاخص اليوم على كل ما حولهم من قوى إقليمية. وليس من الممتنع ــ قبل دحر اليهود الأخير ــ من أن تكون الحرب معهم سجالاً؛ فيتقلب شأنهم ما بين خفض وارتفــاع، لكــن الطائفة التي سترغم آنافهم دائماً هي الطائفة المنصورة من هذه الأمة، التي حدد النبي – صلى الله عليه وسلم – حقيقتهم في قوله: «هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»(١٩).

لا ينبغي أن ننسى هنا ــ بالمناسبة ــ أن (دولة الدجال العالمية) التي أخبر النبي عن ظهورها هي دولة يهود، وفيها صولة اليهود؛ فهي إمبراطورية يهودية؛ لأن الدجال قائدَها هو نفســه يهــودي وأمــه يهودية، ويخرج من بلدة تدعى (اليهودية) في إيران، وذلك في قوله عن الدجال: «يخرج الدجال مــن يهودية أصبهان»(٢٠).

وأما أن هذه الدولة ستكون عالمية؛ فيدل على ذلك قول النبي – صلى الله عليه وســلم – : «يبلــغ سلطانه كل منهل، لا يأتي أربعة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصــى، ومســجد الطــور، ومسجد الرسول»(٢١).

إن وصف (بني إسرائيل) يشمل، من حيث الأصل، الضالين من النصارى إلى جانب المغضوب عليهم من اليهود؛ لأن موسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ أرسلا إلى بني إسرائيل، ولكن التسمية غلبــت على اليهود وعلى من كان على ضلالتهم في التدين بالتوراة المحرفة. ولذلك فإن العلــو المــذكور في سورة (الإسراء) المسماة أيضاً بسورة (بني إسرائيل) هو علو للطائفتين معاً ــ والله أعلــم ــ وهــو مايؤكد أن صداماً حتمياً سيقع بين الأمم الثلاث التي اختلفت في شأن المسيح الحق ومسيح الضــلالة على أرض فلسطين وما حولها.

طلائع الدجال وطلائع الطائفة المنصورة:

أعود لما ذكرته من أن بعض أخبار الغيب ليست قدراً ينتظر بقدر ما هي شرع يُمتثل ويُستحضر، لأُذكِّر أيضاً بأن الأحاديث الدالة على بقاء طائفة من هذه الأمة على الحق، والمستوجبة لفرضية السعي لتكوينها أو تطويرها أو الالتحاق بها ــ هي نفسها الأحاديث التي يدل بعضها على أن وجود هذه الطائفة سيتركز ــ كلما تقارب الزمان ــ في بيت المقدس وما حوله، كما أخبر النبي في إحدى روايات ذلك الحديث؛ حيث سُئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن مكان وجود هذه الطائفة فقال: «هم ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»(٢٢).

إن هناك دلائل وقرائن كثيرة تدل على أن الفصائل المجاهدة في فلسطين اليوم وما حولها هي طلائع ومقدمات هذه الطائفة المنصورة المذكورة في الأحاديث، كما أن هناك دلائل وقرائن على أن عصابات اليهود الموجودة الآن في فلسطين وما حولها هي طلائع دولة الدجال العالمية التي لا يعلم إلا الله متى ستقع فتنتها، والتي لن تعمر كثيراً ــ بإذن الله ــ كما دلت الأحاديث. لكن مقصودنا في هذا المقال ليس في الجدال حول تفاصيل هذا النزال المستقبلي والحتمي، ولكن النقاش في مقدماته وإرهاصاته التي يأتي على رأسها: الجواب على سؤال: كيف يستجمع المجاهدون في بيت المقدس وما حوله أوصاف تلك الطائفة المنصورة؟

لتلك الطائفة خصائص وصفات لا بد أن يتمثلها اليومَ كل المجاهدين، وبخاصة في فلسطين التي تأخر النصر فيها كثيراً بسبب اختلاف الرايات والزعامات والمناهج. ومع أن كثيراً من صفات وخصائص الطائفة المنصورة بدأ يتجمع ويتوزع على فصائل المجاهدين بمجموعها، غير أننا نرى أن من المهم تكرار استحضار هذه الصفات؛ ليتعلم متعلم، ويتذكر متذكر، ويعود عائد، علماً بأن تلك الخصائص قابلة للتحقق في أي طائفة تقوى على استجماعها في نفسها؛ لأنها في الأصل تكاليف شرعية موجهة إلى عموم الأمة الخيرية في صورة فروض تُؤدى، وواجبات تُقام، وأخلاق تُلتزم، يفوز بفضلها من استقام عليها. وأهم هذه الخصائص والصفات:

١ ــ الاستمساك بالحق: لوصف النبي أهل هذه الطائفة بأنهم «على الحق ظاهرين»، أو «ظاهرين على الحق». ومعنى ظهورهم على الحق: التزامهم الظاهر بالدين كتاباً وسنة، على أُسس النهج القويم المبني على الدليل الشرعي الصحيح، والتوجه القلبي السليم؛ إخلاصاً لله، واتباعاً لرسول الله؛ فالاتباع والإخلاص هما ركنا قبول الأعمال، كما قال الله ــ عزَّ وجلّ ــ: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠].

وهنا لا يمكن أن نتصور أن يتنزَّل النصر والتمكين على غير المنتسبين للحق من أصحاب الرايات الضالة؛ قوميةً كانت أو بعثيةً أو يساريةً أو ليبرالية، أو على أي صيغة علمانية لا دينية، وكذلك لن ينتصر الدين القويم أو يتمكن بطائفة ضالة خارجة في مُعتقدها عن منهاج الفرقة الناجية المتبِّعة لمنهاج الصحابة؛ إذ إن الوصف الرئيس لطائفة الحق المنصورة هو ما أخبر عنه النبي - صلى الله عليه وسلم -

في قوله: «ما أنا عليه وأصحابي»، أما الذين يُكفرون الصحابة بدلاً من تعظيمهم والتزام هديهم، مع الادعاء بتحريفهم للوحي كِتاباً وسنة؛ فإنهم ـــ وإن أحرزوا الغلبة في بعض الجولات ـــ فإن هـــذا لا يُعدُّ نصراً للدين، وإن ادعى أصحابه أنهم (حزبُ الله)، أو تلقب زعيمهم بـــ (نصر الله).

٢ ـــ القيام بالحق : فالطائفة المنصورة لا تلتزم بالحق فقط اعتقاداً أو تصديقاً، بل تقوم بـــه تنفيـــذاً وتطبيقاً، ولهذا جاء وصفُ هذه الطائفة بأنها «قائمة على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(٢٣). ومعنى ذلك أنهم أهل استقامة ظاهرة كما أنهم أهل سلامة باطنة، وأن دينهم دعوة يحملونها ويـــدعون الناس إليها؛ أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، لا يخشون في الله لومةَ لائم، وهم على هـــذا يجتمعـــون، وحوله يتحزبون.

{أَلا إنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]. فالقيام بأمر الدين، هو المهمة العظمـــى للرســـل وأتباع الرسل، قال ـــ تعالى ـــ: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَـــا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣].

٣ ـــ الدفاع عن الحق : فالطائفة المنصورة لا تعتقد الحق نظرياً فقط ولا تمتثل له عملياً فحسب، وإنما تُدافع عنه وتبذل دونهُ المُهَج والنفس والنفيس؛ فمن أبرز خصائص أهلها المذكورة في الحديث أنهـــم: «يُقاتلون على الحق»(٢٤)، وفي رواية: «يُقاتلون على أمر الله»(٢٥). وهو قتال في الميادين، ولـــيس فقط على صفحات الكتب والدواوين: «يُقاتلون على أبواب دمشق وما حوله وعلى أبـــواب بيـــت المقدس وما حولها»(٢٦) فهي طائفة علم وعمل، جدالاً بالحق وقتالاً على الحق، وسيظل هذا شأنهم حتى تضع الحرب أوزارها في آخر الزمان، كما دل على ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «حتى يُقاتل آخرهم المسيح الدجال»(٢٧).

٤ ـــ الظهور بالحق: فوصفُ النبي لهم بأنهم «على الحق ظاهرين»، يفيد معاني زائـــدة عـــن معـــنى الاستمساك بالحق، وهذه الصفة تحتمل ثلاثة معانٍ:

أولها: أنهم بارزون للناس، معروفون بهويتهم المنهجية الثابتة على الحق والمقاتلة عليـــه، دون مهادنـــة عاجزة أو مداهنة فاجرة.

وثانيها: ظهور حجتهم على الناس؛ فهم منصورون بالحجة والبيان، قبل نصرهم بالسيف والسنان.

وثالثها: أنهم في موقع الغلبة والعلو والتمكين بهذا الحق ومن أجله.

والواضح أن الظهور بالمعنى الثالث هو ثمرة الظهور في المعنيين الأولين. والثابت في ذلك أن الطائفـــة المنصورة، وإن اختلفت درجات ظهورها من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان، غير أنها تستعصي على القهر والزوال والاختفاء علمياً وعملياً.

٥ ـــ المصابرة على الحق: فالصفات السابق ذكرها تُبيِّن كلها أن أهل الطائفة المنصـــورة يأخـــذون أنفسهم بالعزيمة ويتواصون فيما بينهم بالثبات، وهذا ما لا يستطيعه المخذولون المُخذِّلون، الـــذين لا

يلقى المجاهدون منهم إلا التحبيط والتثبيط، بل الوشاية والتشويه، أما شأن المنصورين حيال ذلك فإنهم ـــ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ـــ «ولا يُبالون من يخالفهم»(٢٨)، «ولا يضرهم من خذلهم»(٢٩)، ويستمرون على نهج المصابرة والمرابطة، امتثالاً لقول الله ـــ تعالى ـــ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠].

٦ ـــ البقاء على الحق : فالطائفة المنصورة قديمة الوجود، لم ينقطع وجودها عبر مراحل رسالات السماء، ولن ينقطع حتى تقوم الساعة؛ ففي كل الأجيال والقرون الإنسانية كانت هناك دائماً بقية تمثلها هذه الطائفة النقية، {فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } [هود: ١١٦]، وهي امتداد للفرقة الناجية في كل ملة، كما دل على ذلك حديث افتراق الأمم الثلاث إلى أكثر من سبعين فرقة من كل ملة، ليس في كل منها إلا فرقة واحدة ناجية. وأول أجيال الفرقة الناجية في هذه الأمة هم أصحاب النبي الذين يُمثلون ذروة الخيرية في الأمة الخيرية، والمخبرون بأنهم خير القرون.

وقد استلزم هذا أن يكون شرط تعظيم الصحابة والاقتداء بهم أبرز شروط الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، التي سيظل أهلها يتعاقبون كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «حتى يُقاتل آخرهم المسيح الدجال»(٣٠) و«حتى تقوم الساعة وهم على ذلك».

إن المهام الجسام الملقاة على عاتق جيل النصر، القادم قريباً، ليست خاصةً بحماس وحدها أو غيرها من المنظمات الجهادية الفلسطينية، بل ليست خاصةً بالفلسطينيين وحدهم، ولا بالعرب دون غيرهم، بل إنها مهام كل إنسان رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وسولاً؛ فمجموع هؤلاء ـــ وإن كانوا متفرقين في أنحاء العالم ـــ هم الذين اليوم، وغداً، سيُمثلون تمكين تلك الطائفة واقعاً محسوساً، بعد أن كان أملاً .

ويظل البقاء القدري للطائفة المنصورة مُسهِّلاً عملية بعثها و لمَّ شعثها وتوحيد صفها.

ولهذا نقول: إن إعداد أو استعداد أي طائفة مسلمة في أي عصر من العصور، وفي أي مكان من الأمكنة، لأَنْ تكون مستوفية لخصائص الطائفة المنصورة ـــ لَهو أمرٌ مقدور شرعاً ومشروع قدراً، كيف لا وكل خصائص الطائفة المنصورة ما هي إلا تكاليف شرعية وواجبات دينية، يُعرِض عنها الأكثرون، ويَتَشبث بها الأقلون، الذين يتعوض ضعفهم العددي والعتادي بقوتهم العملية والعلمية؛ كما حدثت بذلك السنة الإلهية التي جاء الإخبار عنها في قول الله ـــ تعالى ـــ: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]؟!

إن الطائفة الصابرة المنصورة التي سيُقاتل آخرها المسيح الدجال تواجه اليوم مسؤولية الوقوف أمام دجاجلة العصر الذين يمهدون الطريق للدجال الأكبر، وليست مواجهة الدجال على أبواب بيت المقدس غداً بأولى من مواجهة طلائعه من الكفار والمنافقين داخل بيت المقدس اليوم.

[] اختصار خطوات الانتصار:

لديَّ يقين يتأكد على مر الأيام والسنين، وهو أن الاستقامة على منهاج الله تختصر المسافات وتطوي المراحل وتوفر وقت التجارب أمام المؤمنين، في أي نوعٍ من أنواع المواجهات والصراعات التي يخوضونها؛ فالتخبط المنهجي، والدَّخَنُ العقدي، والاضطراب القيمي والسلوكي..، كل ذلك يُؤخر النصر ويُعقد القضايا ويُطيل من عمر الأزمات، ولنا في هذه القضية بالذات ــ قضية فلسطين ــ أعظم العظة والعبرة؛ فليس أكثر من الحق فيها وضوحاً، وليس أشد من الأعداء فيها ظهوراً، وليس أعظم من المتعاطفين والأنصار لها حماساً وعدداً، ومع هذا وعبر أكثر من مائة عام ــ هي عُمر القضية ــ منذ وُضِع كتاب (الدولة اليهودية)(٣١).

فإن ما سُمي بــ (أزمة الشرق الأوسط)، كانت ولا تزال، أعقد وأطول وأكثر أزمات العصر استعصاءً على الحل والحسم، في حين أن أزمات احتلال غيرها بدأت وانتهت، وأخرى كادت تنتهي في سنوات معدودة وأزمنة محدودة، وآخر ذلك ما حدث في العراق، الذي لم يمر على احتلاله إلا أربع سنوات ونيف، ومع ذلك فإن الطريق إلى قهر العدو المحتل فيه قد اختصر اختصاراً؛ مع ضخامة العدو، وضآلة العون، وضحالة الإمكانات لدى المجاهدين، إلا من مدد النصر الإلهي المبين!

الأمة في حاجة إلى استحقاق العون الإلهي لطلائع الطائفة المنصورة على أرض بيت المقدس، كما رأينا ذلك العون لطلائعه على أرض العراق: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: ٤٠ - ٤١].

نقله لصيد الفوائد محمد جلال القصاص

القيادات الانهزامية في ضوء القرآن

طارق حميدة – رام الله

كثيراً ما تبتلى الأمم والشعوب بالهزائم وترك الديار وخسارة الأوطان والتشتت ومفارقة الأهل والولد والأحبة، ولا ريب في أن تلك الهزائم والنكبات لا تأتي من فراغ وإنما من خلال الأمراض الاجتماعية التي تعشش في النفوس والتي أوجدت القابلية للهزيمة مصداقاً لقوله تعالى " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ، وفي القرآن الكريم لقطة خاطفة عن مجتمع لديه الأسباب المادية للنصر وكان بإمكانه أن يصمد أمام الغزاة ولكن النفسية الخائرة المهزومة لأبنائه جعلته يترك دياره للغاصبين لقمة سائغة فاستحق الموت المعنوي والحقيقي في البلاد التي هاجر إليها عقوبة من الله على سوء فعلته ، يقول سبحانه " ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم

أحياهم " نلاحظ الاستهجان والاستغراب في فعلتهم من السؤال الإنكاري في قوله تعالى " ألم تر ؟" ..

والغرابة من وجوه : أولها أنهم خرجوا بإرادتهم واختيارهم ودون إجبار أو إكـراه ، وثانيهـا أنهـم خرجوا من ديارهم والأصل أن الديار والأوطان غالية عزيزة لا يغادرها أهلها بهذه السهولة ، ثم هـم في ديارهم متحصنون بها أمام الغزاة ويعرفون مداخلها ومخارجها وأزقتها ، بينمـا عـدوهم الـذي يحذرون هجومه جاهل بكل ذلك ، ثم هم يخرجون من ديارهم الفسيحة المريحة التي لا يزاحمهم فيهـا أحد ولا يزاحمون فيها أحدا ، يعيشون فيها بكرامتهم . ولكنهم يتركونها إلى ديار مجهولة لا يعرفـون ما ينتظرهم فيها وربما يضطرون إلى أن تجتمع عدة أسر في بيت واحد أو خيمة واحدة أو مغـارة أو تحت السماء ، ثم هم يزاحمون أهل الديار الجديدة في أرزاقهم فيصبحون محل نقمتهم واحتقارهم .

وثالثها أنهم خرجوا وهم ألوف فلو كانوا عشرات أو مئات لكان لهم بعض العذر ولكنـهم آلاف لا بل ألوف وهي جمع كثرة حيث غادروا ديارهم وهم بعشرات الألوف أو بمئاتها . ومهما كان تعداد الجيوش الغازية فإنها تضيع في خضم أهل الديار فكيف يهربون وهم بهذا العدد الهائل ؟؟

والرابعة أنهم يخرجون حذر الموت فلم يكن خطر الموت والقتل ماثلاً أو واقعاً بهم ولا حتى متوقعاً بل هو الحذر والاحتياط من خطر قد يحل بهم ، فما بالهم يغلبّـون الاحتمـال الضـعيف ويتجـاهلون الاحتمال القوي وهو النصر ورد الغزاة خائبين إن هم واجهوهم ؟!

إن مجتمعاً تنحط فيه النفسيات والتفكير إلى هذا الحضيض لا يستحق الحياة ولا الكرامـة ولا العـزة ولذلك كانت العقوبة أن يموتوا ، لقد هربوا من الموت فلاقاهم ، ولو طلبوه لوهبهم الله الحياة ، هذا الموت قد يشمل الكوارث الطبيعية ومذابح أهل البلاد المضيفة وملاحقة الغزاة الغاصـبين في الـبلاد الجديدة التي هاجروا إليها ، ويشمل الموت المعنوي بالذلة والاحتقار والاستهانة والاستهزاء بهم حيثما حلوا أو ارتحلوا جزاءاً وفاقاً ، وما ربك بظلام للعبيد . ولكن رحمة الله واسعة وفضله عظـيم فهـو سبحانه يعيدهم إلى رشدهم ، ويهديهم سبيل النصر والعودة ، ويدلهم إلى طريق الحياة .. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة فهذه الشعوب تكون مبتلاة بقيادات وزعامات تقودهـا إلى الضـلال والهـزائم والنكبات وتستمر في الزعامة على الرغم مما سببته من هزائم ، وفي أجواء الهزيمة تنشأ قيادات أخرى تستفيد من الوضع الجديد ، ويرعاها العدو المنتصر ويمكن لها أسباب القبول لدى أبناء شعبها .

ثلاثة مطالب

وفي سورة البقرة وبعد آيات قلائل من الآية التي تتحدث عن مشهد الخروج نرى نموذجاً لزعامـات نشأت وقادت وتزعمت في الظلام وفي غفلة من الشعب حتى كان ذات يوم جاء نفر مـن هـؤلاء القادة إلى نبي لهم يتقدمون بطلبات ثلاثة : قال تعالى : "ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقـاتلوا

قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين " .

في هذه الآية يأتي الملأ ـ وهم القيادات والأشراف ـ وسموا بالملأ لأنهم يملأون عيون الناس لمكانتهم ومالهم ـ يأتي هؤلاء إلى النبي طالبين منه أن يعين لهم ملكاً يجمع شملهم ويوحد شتاتهم ذلك لأن الشعوب المهزومة يكون لها قيادات كثيرة ، والطلب الثاني أن يقودهم هذا الملك للقتال ، وحددوا نوع القتال في طلبهم الثالث بأنه في" سبيل الله" .

وجه الغرابة

والحق أن صدور هذه المطالب الثلاثة من مثل هذه الزعامات أمر مستغرب بل مستهجن ويدعو إلى الشك والريبة ، فلقد عهد الناس في زعماء الهزيمة انهم لا يحبون الوحدة لأنها تكلفهم التنازل عن كراسيهم .. ولا يحبون القتال لأنه يكلفهم حياتهم وبالتالي فهم دعاة الصلح والسلام ، وابغض شئ لديهم رفع راية " في سبيل الله " ولذلك فهم يفضلون عليها كل الرايات الوضيعة من شرقية وغربية .. إضافة إلى أنهم يريدون أن يكونوا أصناماً معبودة لا أناساً عاديين . وهنا يثور التساؤل مرة أخرى : لماذا توجهوا إلى النبي يطلبون هذه المطالب وهم كاذبون ؟! بدليل انهم بمجرد أن كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، وبمجرد أن عين طالوت ملكاً عليهم وقائداً عاماً للجيش رفضوا إمرته واعترضوا عليه مما يعني أن يرفضون الوحدة التي جاءوا يطالبون بها ، وكذلك فإن رفضهم لطالوت الذي اختاره الله واصطفاه عليهم يدل على انهم غير صادقين في رفعهم راية " في سبيل الله " وقد بين لهم نبيهم ذلك " إن الله قد بعث لكم طالوت " فهو اختيار الله ، فما حقيقة الأمر يا ترى ؟

الوحدة

إن الشعوب لا تظل مستغفلة عمياء ابد الدهر ولكنها تصحو من نومها وتفيق من سباتها وتدرك أن سببا رئيسياً من أسباب الهزيمة هو التفرق والتمزق ولذلك تسعى للوحدة ، ولكن هذه الشعوب تحس بأن القيادات المتسلطة هي سبب تفرقها فتتمنى الجماهير لو تزيلهم أو يتحدوا ، وها هنا يخشى الزعماء على أنفسهم فيجتمعون ويشكلون هياكل ومنظمات وحدوية هشة ليضحكوا بها على ذقون الشعوب وتكون بمثابة " اللهاية" التي تسكتهم عن المطالبة بالوحدة الحقيقية .. ولدينا العديد من الأمثلة والنماذج كالجامعة العربية ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ...وربما سارع هؤلاء الزعماء أنفسهم إلى تقويض الوحدة الهشة التي صنعوها بأيديهم كي تيأس الجماهير ولا تعود تطالب بالوحدة ، ثم تسري في الناس مقالة " اتفق العرب على ألا يتفقوا " .

لماذا القتال ؟

هذا عن الوحدة ولماذا يطالبون بها .. فلماذا يا ترى يطالبون بالقتال ؟؟

إن الشعوب التي بدأت تفيق وتصحو من سباتها تدرك أن هزيمتها كانت لأنها لم تدخل معارك حقيقية أو أنها حاربت بدون تخطيط واستكمال للعدة ، ونتيجة لتآمر زعمائها عليها ، وبالتالي فالقيادات تطالب بأن تخوض ميدان الوغى مدفوعة بحماس الجماهير حتى لا تتهم بالجبن والخيانة ، وربما كانوا يظنون بأن القتال لن يحصل فلا بأس من المزايدة .

أو فليخوضوا الحروب ليكبروا في أعين الناس لأن الذي يقاتل يكسب احترامهم وثقتهم وتصبح له مكانة في قلوبهم .. مع أن هذه القيادات لم تشترك فعلياً في القتال بل زجوا الشعوب بها ، وبالتالي تظل القيادات على كراسيها .

وهم حين يخوضون الحروب فإنهم يخوضونها دون إعداد ولا تخطيط ، بل هم يتآمرون على مزيد من بيع الأوطان وجعل جنودهم وجيوشهم بين قتيل وأسير وجريح أمام الأعداء الذين يتسلمون اغلب الأسلحة والمعدات غنيمة باردة ، وتتحطم معنويات الشعوب وتصاب باليأس والإحباط فيقنعها الزعماء عن طريق وسائل إعلامهم بأن لا طاقة لهم بقتال الأعداء حتى يجدوا سبيلاً للتفاوض والاستسلام .

وبرغم ذلك فإن الشعوب لا تموت _ وبخاصة إذا كانت مؤمنة _ وبالتالي فهي لا تتوقف عن المطالبة بقتال الغاصبين ، وهنا يخوض الحكام بالشعوب المتحمسة المعبأة حروباً جديدة ، يحققون فيها انتصارات تكتيكية صغيرة ليكبروا في أعين الجماهير وتكون هذه الانتصارات الوهمية جسراً ومعبراً لمفاوضة الأعداء ووقف القتال وإسكات الجماهير عن المطالبة بكامل الحقوق المسلوبة والأوطان المضيعة ... وينادي واحدهم فيقول انه بطل العبور .. وهو اليوم أيضاً بطل السلام .

لقد خاض بنا زعماؤنا معارك ٤٨ و ٦٧ ، كي تزرع اليأس في النفوس وتتحطم معنويات الشعوب ، ولكن إيمان هذه الأمة لا يزال يدفعها إلى ميدان الوغى دفعاً ، فاضطر الحكام إلى خوض مسرحية ٧٣ ، وحققوا فيها نصراً تافهاً للتنفيس عن الغيظ المكبوت والجمر المتقد في النفوس والقلوب ليعبروا من هذا النصر التكتيكي الصغير إلى التفاوض مع الغاصب والتنازل له عما اغتصبه .. وإلا فهل يمكن مقارنة معركة الكرامة ونصر ٧٣ بهزيمة ٤٨ و ٦٧ ؟؟

التستر بالدين.. ورفع راية " في سبيل الله "

وتدرك الشعوب من جملة ما تدرك وهي تصحو من سباتها أن أهم أسباب هزائمها المتلاحقة هو بعدها عن منهج الله .. حيث أنها قد جربت كل الرايات الوضعية فلم تحصد إلا الهزائم وانكبات ... وتتذكر زماناً رفعت فيه راية الإسلام فسادت وملكت وحققت اعظم الانتصارات ... كل هذا وغيره تسمعه الجماهير من القيادات المؤمنة والدعاة إلى الله فتستجيب لهم وتبدأ بهجر الرايات الأرضية والقادة الذين يدعون إليها ... وهنا يخشى الزعماء وقادة الهزيمة أن تتركهم الشعوب وتسير خلف القيادات المؤمنة الصادقة ... فيلجأوا إلى التستر بالدين ، وربما خاضوا حربهم في رمضان ، وربما

اظهروا التودد للعلماء وزاروهم في بيوتهم كما حدث مع " الملأ " إذ أتوا إلى النبي ، ربما وضع المناضلون على رأس مجلسهم "جبة وعمامة" ، وربما تسموا باسم مقتبس من القرآن ، كل ذلك حتى ينخدع الشعب بهم ويظن انهم على الإيمان فلا ينبذهم ويتبع القيادات المؤمنة .

إن التاريخ يذكر انه خلال ثورة ال ٣٦ اجتمعت وتوحدت عدة أحزاب وتنظيمات وأظهرت تأييدها للثورة ثم كان لها دور ، بالتنسيق مع بعض العرب والغربيين في احتوائها وتحويل مسارها وإيقاف الإضراب العام بعد ستة اشهر .

عِبَرْ طالوتية

ونعود إلى قصة طالوت نستلهم منها مزيداً من العبر والدروس .. فالمتوقع انه بمجرد أن نكص الزعماء عن القتال أن يتولى معهم جنودهم وأنصارهم ، وحتى الذين لم يتولوا فليسوا جميعاً صادقين حيث انهم اعترضوا على قيادة طالوت قائلين " أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالمُلك منه و لم يؤت سعة من المال " ... وهنا يظهر هدفهم سافراً واضحاً وهو أن يكون القائد الأعلى واحداً منهم ويكون الكيان الوحدوي هشاً ... ويظل كل واحد منهم على كرسيه ويبقى التمزق على حاله ... انهم يرفضون زعامة طالوت لأنهم _ في تصورهم _ أحق بالملك منه ...فهم الذين ورثوا الزعامة كابراً عن كابر ... وهم أصحاب الغنى والثراء ... وهم الذين شاركوا في الحروب السابقة وبالتالي هم الممثلون الشرعيون للشعب .

لقد ذهب زعماء القوم إلي النبي ليفوتوا الفرصة على طالوت وأمثاله من القيادات المؤمنة الصاعدة وحرصوا على أن يكون التعيين صادراً من القيادة الروحية_ النبي _ ولكن النبي الفطين الحكيم المؤيد بوحي الله ، يعيّن القائد الذي لا يصلح سواه لهذه المرحلة وليس ذلك فحسب بل انه قبل ذلك يكشفهم أمام جماهيرهم حين يعلمهم بان الله قد فرض عليهم القتال فيكون منهم النكوص .

ويشاء الله تعالى أن يجعل لطالوت كرامة يزيد فيها من رصيده في القلوب وقبوله في النفوس وليطوع له الرقاب ، فتكون آية ملكه وعلامة اصطفاء الله إياه أن يأتي التابوت إلى قومه بني إسرائيل تحمله الملائكة _ وهو صندوق فيه بعض آثار لما تركه آل موسى وآل هارون يبدو أن بني إسرائيل فقدوه في إحدى معاركهم التي هزموا فيها .

وكأن رب العزة يجعل في هذا الزمان آيات وكرامات للناس في ارض الإسراء لتكون دليلاً وآية على ملك الفئة المؤمنة واصطفائها لقيادة المسيرة الجهادية ، ومن اظهر هذه الآيات ما يحققه تعالى على أيدي الصادقين من إثخان في العدو ، إضافة إلى استمرارهم في الجهاد وتوقف غيرهم .. فإن ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل .

اختبار وتمحيص

ويدرك طالوت أن في جيشه من التحق به خجلاً أو بدون إيمان واقتناع ، وان فيهم المنافقين ومرضى القلوب وضعاف النفوس الذين إذا كانوا في الجيش زادوهم خبالاً ... فكان لا مناص من استثنائهم ... ويقف طالوت خطيباً بالجند فيعلمهم أن الله مختبرهم بنهر فمن شرب منه فليس مـــن طـــالوت وليفارق الجيش وأما من يصبر و لم يشرب أو شرب غرفة بيده فهو فقط الذي يسمح له بالاستمرار . إن من لا يصبر على الماء لا يرجى منه أن يصبر إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق ... والذي لا يطيع قائده في الأمر الصغير فلن يطيعه في الأمر الكبير ... ومن هنا تلجأ الحركات الجهادية إلى طلب بعض التكليفات للجماهير أمراً أو نهياً لقياس مدى استجابة الجماهير لها ولقياس طاقة وإمكانيات وقدرات تحمل الشعب في الخطوات القادمة كما في الإضرابات وأيام المواجهة والصيام وغيره ...

وتحكي الآيات نكوص أكثرية الجند وقعودهم إذ شربوا من النهر ... ولا يبقى مع طالوت إلا اقـــل القليل وينظرون إلى أنفسهم فيستصغرونها أمام جحافل جالوت بعددهم وعُددهم ويقولون " لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده " ... فلو تأخر القتال كي نزيد عددنا وعتادنا ، فيرد عليهم الذين يظنـــون انهم ملاقو الله " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " فيذكرونهم بالقـــانون الرباني بأن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد ، وإذا أذن الله لفئة بالنصر فإنها تغلب الفئة الكـــثيرة والله مع الصابرين ... إن موازين الدنيا كلها ليست هي التي تحدد المنتصر من المنهزم ، ولكن مشـــيئة الله هي التي تقرر ذلك وبالتالي فلا نصر لمن لم يرد الله نصره ولو كان معه كل القوى العظمى في العالم ، ولا هزيمة لمن أراد الله نصره ولو اجتمعت ضده كل القوى الباغية .

وحين يلتقي الجيشان يتوجه المؤمنون إلى الله أن يفرغ عليهم صبراً ويثبت أقدامهم وينصرهم " علـــى القوم الكافرين " فهم لم ينسوا حتى في اشد حالات الهول أنهم يقاتلون لجعل كلمة الله هـــي العليـــا وكلمة الكفار هي السفلى .. إن القضية إذاً ليست إزالة كافر أجنبي عن حكم الأوطان ثم اســـتبداله بكافر وطني ... وإنما إزالة نظام الكفر وظلمه ليحكم شرع الله وعدله .

وحين تكون الراية واضحة يستحق الجنود النصر وتحق على أعدائهم الهزيمة بمشـــيئة الله " فهزمـــوهم بإذن الله " ... إنه ما إن يدخل الإيمان ساحة الصراع مع الكفر حتى تحل بالكفر وأهله الهزيمة الماحقة سواء كان ذلك الصراع في حلبة القتال والنزال أو في ميدان العقل والفكر " بل نقذف بالحق علـــى الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " .. ويبرز من بين المجاهدين جندي شـــاب يقتـــل قائـــد الأعـــداء ــ جالوت ــ فتتضاعف هزيمة الأعداء وتتأكد ويؤتى الله داود الملك ... ذلك أنه لا يصـــلح للملـــك والقيادة إلا من كان جندياً ممتازاً ... وإذا أراد الله لعبد التمكين هيأ له أسبابه وجعل له من الآيـــات والكرامات ما يرسخ مكانته في القلوب ليكون هذا الحدث جسراً ربانياً يعبر به داود لقيادة شعبه .. إن الاثخان في الأعداء ، وزعاماتهم بالذات هو السبيل إلى القيادة والنصر ... وهـــو الأمـــر الـــذي أخفقنا فيه حتى الآن بينما نجح فيه الأعداء .

ويأتي التعقيب القرآني " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين " فلولا انه سبحانه يدفع الكافرين بالمؤمنين ويسلطهم عليهم لتمادي الكفار في غيهم وفسادهم ... وإذن فلا خوف على العباد والبلاد من مدافعة الكافرين وقتالهم ، وإنما الخوف من ترك الكافرين يعيثون فساداً .

لا لليأس والإحباط

غربتنا شديدة لا يعلمها إلا الله ينظر المسلم حوله فلا يرى إلا كفرا مسيطرا وشرا مستطيرا وعدوا متجبرا .الأعداء كثير والتخطيط محكم سلاحهم قوي حاملات وطائرات وصواريخ وقنابل وأقمار ترصد وعدو يترقّب حملات يهودية وأخرى صليبية حصار على إخوتنا ومحاسبة لنا والقادم أعظم أحاطوا بالأمة إحاطة السوار بالمعصم يتلفّت المسلم فيرى حوله في ديار المسلمين خرابا ودمارا أيتاما وأيامى. أرامل و مفجوعين . بيوت تهدّم وأعراض تنتهك وحمى يستباح وثروات تنهب وخيرات تسرق وهكذا يرى المسلم هذه الأهوال فيصيبه الحزن واليأس والإحباط ولسان الحال يقول (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) ولكن الأمر ليس بهذا السوء أيها الإخوة فالأمل باق في هذه الأمة والخير فيها إلى يوم القيامة وما ينبغي أن يصيبنا اليأس والإحباط والقنوط الذي يدفعنا إلى الحزن المقعد عن العمل . وهذه الكلمات ليست للتخدير ولا لمحاولة التغاضي عن الواقع المرّ وإنما هي للنهوض بالنفوس لئلا تقع فريسة لليأس القاتل .

إن من الواجب على الدعاة إلى الله أن يشيعوا روح الأمل ويخبروا الناس بحقيقة الفجر الساطع الذي لا يأتي إلا بعد اشتداد الظلام في آخر الليل والنبي صلى الله عليه وسلم يقول((بشروا ولا تنفروا))

والمسلمون مهما حلّ بهم من الضيم فإنهم يبقون المخاطبين بقول الله تعالى(ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) ومن الخطأ الفادح أن يظن بعض الناس أن هذه الأمة قد ماتت وأنها تحتضر وأنها تنتظر رصاصة الرحمة وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الفكر التحبيطي الميئس فقال صلى الله عليه وسلم ((إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"بالرفع" أو فهو أهلكهم"بالنصب")) رواه مسلم على الرفع أي أكثرهم هلاكا وعلى النصب فمعناه هو جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا في الحقيقة .

إن النصر لهذه الأمة وإن التمكين لهذا الدين لا نشكّ في ذلك ولا نرتاب ما الدليل على هذا الإدعاء ؟
هناك أدلّة كثيرة من القرآن ومن السنة ومن التاريخ ومن الواقع .

أولا الدليل من القرآن الكريم قال تعالى(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وقد وعد الله المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع والولاية على وجه العموم قال

تعالى(وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وقال تعالى(ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين) وقال تعالى(إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وقال تعالى(الله وليّ الذين آمنوا) ويتاكّـد هـذا المعنى عند نزول البلاء بساحة المؤمنين وتشتد المحنة هناك يكون النصر أقرب مايكون من المسلمين قال تعالى(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولّما يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)

ولربّ نازلة يضيق بها الفتى ***** ذرعا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ***** فرجت وكنت أظنّها لا تفرج

– وفي السنّة النبوية الشريفة أدلة كثيرة على أن النصر للإسلام روى الإمام أحمد عن تميم بـن أوس الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ((ليبلغنّ هذا الأمر مـا بلـغ الليل والنهر ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل عزا يعـز الله به الإسلام وذلا يذلّ الله به الكفر)) وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال"بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب إذ سئل أيّ المـدينتين تفـتح أولا قسطنطينية أم رومية ؟ " فقال صلى الله عليه وسلم ((مدينة هرقل تفتح أولا)) وورمية هـي رومـا والقسطنطينية هي مدينة هرقل وهي الآن اسطنبول وقد فتحت على يد محمد بن مراد المعـروف في التاريخ بمحمد الفاتح رحمه الله تعالى إذن فقد تحقّق الشطر الأول من الوعد الصادق وبقـي الشـطر الثاني وهو فتح روما ونظن أن هذا الفتح سيكون بالدعوة والقلم واللسان وليس بالسلاح والقتال .

والبشارات في هذا المجال كثيرة جدا والناس في الغرب الآن يدخلون في دين الله أفواجا .

في عام ألف وتسعمائة وسبعون كان عدد المسلمين في أمريكا خمسمائة ألف مسلم الآن عددهم يزيد على تسعة ملايين وهم في زيادة كبيرة وهم يفوقون عدد اليهود الأمريكيين وتقـول الإحصـائيات الأمريكية أن نسبة الدخول في الإسلام في صفوف الأمريكيين الأصليين قد تضاعفت أربعة أضـعاف بعد أحداث أيلول .

في عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين كان في بوسطن مسجد واحد فقط الآن يوجد ثلاثون مسـجدا كلّها يقام فيها الجمعة وتوجد المصليات هناك في كثير من الجامعات والثانويات والمستشفيات .

اضطرت هيلاري كلنتون للإعتراف بان الإسلام هو الدين الأسرع إنتشارا في أمريكا.

ازداد الإقبال على الكتب التي تتحدث عن الإسلام بشكل هائل حتى فقد الكتـب مـن المكتبـات وتضاعفت أسعارها عدة أضعاف .

صارت الكتب الإسلامية المترجمة تحتل مرتبة ضمن الكتب العشرة الأكثـر مبيعـا لـدى شـركة amazon.com على الأنترنت وهناك دراسات في جامعات الغرب عن الحكم العظيمة من أحكام وتشريعات الإسلام حتى أن غوستاف لوبون يقول"إن مبدأ تعدّد الزوجات في الإسلام نظـام جيـد

ويرفع المستوى الأخلاقي للأمم" اعترفوا أن لحم الخنزير ضار ويكثر فيه حمض البوليك بشكل مكثّف وأنه عسير الهضم وأن خمسين بالمائة من لحم الخنزير دهون بينما لا تتعدى هذه النسبة في الضأن سبعة عشر بالمائة وخمسة بالمائة في البقر.

اعترفوا بمنافع السواك اعترفوا أن الإستنشاق في الوضوء يعالج إلتهاب الجيوب الأنفية وأن الوضوء يقي من الأمراض الجلدية وأن الصوم فيه صحة للبدن وهكذا الأمور تسير لصالح الدعوة إلى الله وتهيئة الجو لفتح تلك البلاد بالإسلام .

– إن اتساع الدولة الإسلامية في المشارق والمغارب والرخاء والأمن وفيض المال وعودة الخلافة على منهاج النبوة والإنتصار على اليهود وبقاء الطائفة المنصورة وظهور المجدّدين في كل قرن وظهور المهدي ونزول المسيح كل هذه الأمور مبشّرات بانتصار الإسلام وهي بشائر حقيقية ثبتت بالنصوص النبوية الصحيحة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم . والقوة البشرية والمادية والروحية والإقتصادية والجغرافية كلها مقومات للنصر وأسباب كفيلة بان تجعل النصر في صالح المسلمين . وهناك أمر مهم وصفة عجيبة تتصف بها هذه الأمة وهي "قوّتها عند الشدائد" إنها المخزون النفسي والروحي الكبير الذي تدّخره الأمة ولا يبرز إلا في المحن والخطوب إنها القوة المذخورة في الأمة وقد رأينا ذلك في غزوة بدر وفي حروب المرتدّين يوم قاتل عدد قليل من الصحابة آلافا مؤلفة من المشركين المرتدّين وانتهت المعارك بانتصار المسلمين و لم تمض إلا سنتان حتى كانت جيوش أبي بكر تضرب قيصر وكسرى ورأينا هذه القوة المذخورة في الحروب الصليبية يوم زحفت أوربة كلها إلينا يقودهم الرهبان وكانت جيوشهم أولها في القدس وآخرها في روما وبقي المسجد الأقصى بأيديهم مائة سنة إلا قليلا ثم تحركت القوة المذخورة وجاءت القيادات الربانية الشجاعة جاء عماد الدين زنكي ونور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي وانتصر المسلمون في حطين ومعركة بيت المقدس التي تساقط فيها الشهداء مثل أزهار حديقة غنّاء لوّحتها ريح الشمال وتساقط الصليبيون في تلك المعركة كالحشرات مثل ذباب خنقت أنفاس الحياة فيه نفثات مطهّر صاعق مبيد وكانت بعد ذلك معارك في مصر انتهت بأسر ملكهم لويس التاسع في دار ابن لقمان بالمنصورة . ورأينا ذلك في حرب التتار الذين احتلوا البلاد بلدا بلدا وزحفوا إلى بغداد عروس الشرق وكعبة العلماء ودرة المسلمين فقتلوا الخليفة وسالت الدماء حتى بلغت الركب وقتل فيها من المسلمين مليون مسلم واسود ماء دجلة لكثرة

ما ألقي فيه من كتب الحضارة الإنسانية حتى يقول أحد المؤرّخين ياليتني متّ قبل ذلك اليوم، تماما هذا ما فعلته أمريكا اليوم "التتار الجدد وهولاكو العصر جورج بوش" يوم جاؤا بالهمج واللصوص من الصرب والبلغار والمجرمين من السجون وأطلقوهم في متاع الناس يسرقونها ويسرقون المتاحف والتراث والحضارة حتى نهبت من متحف بغداد سبعون ألف تحفة أثرية لا تقدّر بآلاف المليارات

وشاهد العالم بأثره جنود المارينز وهم يحملون هذه التحف ويضعونها في سياراتهم هذه هي حضارتهم حضارة القرد والخنزير حضارة الحصار والقتل والتجويع حضارة القنابل النووية .

ملكنا فكان العدل فينا سجية *** فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحلّلتم قتل الأسارى وطالما *** غدونا على الأسرى نمنّ ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا *** فكلّ إناء بالذي فيه ينضح

لقد كتب علينا أن نعيش المحنة ذاتها وأن نشاهد بغداد تهوي تحت سنابك خيل الصليبيين وأن نردّد مع الشاعر الأبيات التي قيلت في بغداد يوم سقطت للمرة الأولى

قف في ديار الظاعنين ونادها ***** يا دار ما فعلت بك الأيام

يا دار أين الساكنون وأين ذيّاك ***** البهاء وذلك الإعظام

من كان مثلي للحبيب مفارقا ***** لا تعذلوه فالكلام كلام

ويذيب روحي نوح كل حمامة ***** فكأنما نوح الحمام حمام

يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم ***** نار لها بين الضلوع ضرام

والله ما اخترت الفراق وإنما ***** حكمت عليّ بذلك الأيام

في ذلك الوقت حل اليأس بالناس وصار المثل السائد إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدّق، إنها أسطورة الجيش الذي لا يقهر يعيدها اليهود على اسماعنا اليوم لتحطيم المعنويات .عندئذ تحرّكت القوة المذخورة في الأمة وكان الذي حرّكها في مصر سلطان العلماء العز بن عبد السلام والأمير المملوكي قطز والذي حرّكها في دمشق الإمام العظيم العامل المجاهد شيخ الإسلام ابن تيميّة عليه رحمة الله فانتصر المسلمون في عين جالوت وعند دمشق . انتصر المسلمون مرتين مرة بالقتال ومرة بنبل الفعال حين احتضن الإسلام هذا الشعب الهائج الأهوج من المغول والتتار فاستوعبهم الإسلام ولأول مرة في التاريخ يدخل الغالب في دين المغلوب ولمعرفة التفاصيل يراجع في ذلك البداية والنهاية لابن كثير ورجال الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوي في الجزء الثاني . ورأينا هذه القوة المذخورة في العصر الحديث رأينا الجهاد البطولي ضد الغزاة المستعمرين في سائر ديار الإسلام رأينا جهاد الشيخ الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر رأينا جهاد الشيخ عبد الكريم الخطابي في المغرب ضد الأسبان رأينا جهاد الشيخ عمر المختار ضد الطليان في ليبيا والشيخ عز الدين القسام ضد اليهود والإنكليز في فلسطين واعترف بذلك مؤرّخوهم حتى يقول برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط" إن الحركات الدينية كانت قائدة معارك التحرير في سائر البلاد الإسلامية ضد الإستعمار حتى حركة كمال أتاتورك نفسه" ولكن للأسف فإن المجاهدين يعملون والفاسقين يلأخذون المشايخ يزرعون والعلمانيون يحصدون إنهم لصوص مدرّبون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين . وهكذا نجد أن

الإسلام على مرّ العصور قد قصر قيصر وكسر كسرى وصلب الصليبيين وفـرّق التتـار واسـتعمر المستدمرين وصدق تعالى إذ يقول (إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)

-إن الإسلام قادم وهو قادم بقوة وسيبقى الإسلام ما بقيت الحياة على هذه الأرض يقـول رابـين اللعين"إن وقتا طويلا سيمرّ قبل أن يترك الإسلام سيفه" ونحن نقول للعالم أجمع الإسلام لن يترك سيفه ولتعلم أمريكا وأذنابها وحلفاؤها أنهم مهزومون مهزومون مهزومون وأننا بحول الله وقوته سنقتّل فيهم تقتيلا وسنقتل فيهم ماشاء الله وهاهم أسود المقاومة في فلسطين والعراق وأفغانستان يذيقونهم كـل يوم ألوان العذاب وصنوف القهر إنهم أحفاد ابي عبيدة وسعد والمثنى "ثوري يا أرض الرشيد في وجه الغرب . ثوري يا أطلال مساجد وصبايا يا أفقا من كرب . ثوري يا حقلا فقد النـوار. وفي عينيـه استشرى شجر الرعب. ثوري يا أحفاد سعد جمرا وشظايا. ثوري عاصفة من أنّات حرّى تترع أقنعة الكذب .أبيي أن سلاح الحقد المغروز بشريان القلب له نصلان نصل الحقد ونصل الغرب" وهـاهي الفتاة العظيمة هنادي جردات حفيدة سميّة والخنساء صاحبة عملية حيفا التي أطلقت عليهـا لقـب "سوبر ستار العرب" هذه الفتاة الحرة الماجدة أخت الرجال وبنت الأبطال أدمـت حبّـات قلـوب الكافرين وملأت صدورهم غيظا وقهرا رحمك الله ياهنادي يا خيرا من ألف ألف من رجال العـرب الأشاوس نعم بيّضي وجوه العرب لقد رفعت رأس كل العرب ، فكيف لو كنت رجلا ذا شـنب؟ سنكسر الصمت أيها الناس وسنعمل بقوة وسنصنع الرجال والنساء وسنربّي الأجيال لنقاتـل بهـم أعداء الله

سأروي حكاية موت الضمير *** وأكتب قصة درب المقابر
سأعلن أني قبضت وأني *** سحقت كل حقير وغادر
سأكسر قيد صمت الشعوب *** وألعن صمت جميع السماسر
سأشهر سيفي لسند اليراع *** وأنسى كيف تكون الخناجر
سأبرأ من كل طاغ حقير *** خان الشباب وهان الحرائر
سأنزع عني ردائي الثمين *** وأسرج خيلي فإني مهاجر
سأوري عدوي بأسي وعزمي *** وشدة ضربي ورهج الحوافر
وأخرج أهتف في العالمين *** أخيّ رفيقي إلى الموت بادر
فمالي أراك تعيش هنيئا *** كأن لم ينغّص عيشك بائر
فهذا وضيع ربيب جهنم *** وذاك رضيع حليب العواهر
وهذي مجالس كسرى وقيصر *** تروح وتغدو لنصرة كافر (*)

ونقول للغربين نقول للمحتلين نقول للذين قتلوا شعبنا ونهبوا مالنا وشتموا نبينا وداسـوا مصـحفنا ويريدون الآن أن يحاسبونا نقول لهم إننا لا ننسى ثأرنا ولن ننسى ما فعلتموه بنا ، يا مـن تبحثـون

بالجهر عن الخلايا الإرهابية في اليمن والصومال والسودان والبلاد التي قتلتم أهلها جوعا إن الإرهاب عندكم وفي بلادكم وهو أنتم ولا أحد سواكم وتأكدوا أنه لا يوجد مسلم على وجه الأرض يحبّكم وإن تبرّعوا لكم بالدماء وإن ادانوا العمليات ضدكم فهم يفعلون ذلك نفاقا لكـــم وخوفـــا مـــنكم وتأكدوا أيضا أن المسلمين جميعا مع المجاهدين ومع المقاومين ومع الإستشهاديين يفـــدون المجاهـــدين بأرواحهم ودمائهم ولسان حال كل مسلم يقول

إن كان يرضيك أن تهوي جماج *** منا فهذا الفعل يرضينا

ماتخجل الشمس إلا من مواقعنا *** ولا تهاب العدا إلا مواضينا

ونقول للشيطان بوش ... لا تظنّن أيها السطحي الغبي يا صاحب العينين الغائرتين كعيني ذئب غادر والذئب أشرف منك ومن أهلك وإدارتك .لا تظنن أن أصغر مسلم في العالم سوف يعدّل دينه طبقا لفتاواك الخسيسة وستظل العمليات الإستشهادية عمليات بطولية فدائية وسيظل من قام بهـــا أعظـــم رجالات الأمة وسنرفع رؤوسنا بهم وسنسمي ابناءنا بأسمائهم وسنتقرّب إلى الله بحبهم رغـــم أنفـــك وأنف أبيك المجرم وسيظل الإرهاب والإجرام راية لا يحملها إلا أنت وقومك وسيظل أصغر مسلم في بقاع الأرض لا ينظر إليك نظرة الإنسان إلى ذئب غادر أو ثور كاسر بل نظرة إنســـان نظيـــف إلى خنزير نجس لوّث الدنيا كلها بقذارته والله لكم بالمرصاد وهو نعم المولى ونعم النصير .

محمود الدالاتي /سوريا

mahmooddalati@hotmail.com

المشرف العام على موقع البصائر الإسلامي

----

* الأبيات للشاعر ماهر علوش

لماذا لا ننتصر؟!

خباب بن مروان الحمد

@hotmail.com٠٠khabab

أحمدك ربي حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ، وأصلي وأسلم على الهادي البشير، والسراج المنير المبعوث رحمة للعالمين .

صلى عليك الله ما جن الدجى وما جرت في فلك شمس الضحى

ورضوان الله على الصحابة الأخيار، والهداة الأبرار،الذين جاهدوا مع رسول الله حـــق جهاده،فمـــا وهنوا لما أصابوهم في سبيل الله وما ضعفوا،وما استكانوا والله يحب الصابرين .

اللهم فاطر السموات والأرض ،عالم الغيب والشهادة،أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون،اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم،وبعد،،

فإن من سنن الله الجارية،أنه إذا عصى الناس أمره،واستباحوا محارمه، وبغوا وظلموا، وابتعدوا عن صراطه المستقيم،ومنهجه القويم،أن يجازيهم بسوء أعمالهم،وينتقم من كل جبار عنيد،((وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)) (فاطر:٤٣)

ومن سنن الله أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، من الانحراف عن المنهج، وسلوك الطريق الخاطئ، وتضييع الأمانة .

((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) (الأنفال:٥٣)

إلى الله نشكو :

في هذه الأيام تجد الناس في مجالسهم يخوضوا ويتحدثوا عن حال الأمة الإسلامية المنكوبة،ومآسيها،ونكباتها،وما أُصيبت به من الهوان والذل خاصة بعد أن رأوا وسمعوا في وسائل الإعلام المتعددة ،صوراً لمآسي المسلمين تفت الفؤاد،وتجرح الخاطر، وتقلق القلب، وتهز البدن.

إنها صور ليست في قطر واحد من أقطار المسلمين ، بل هي صور تتعدد وتتكرر كرات ومرات ، ففي فلسطين وأفغانستان ؛ صور ومآسي ، وفي العراق والشيشان ؛ صور ومآسي، وفي الفلبين وكشمير وبورما والسودان والصومال وأندونيسيا مجازر وجزائر .

في كل جزء من بلادي قصة تروي ضياع كرامة الإنسان

فصورة لرجل كبير السن في فلسطين وقد خط الشيب لحيته فلا تراها إلا بيضاء وهو يرفع يديه يناجي رب الأرض والسماء بأن يهلك الأعداء ويصب عليهم القوارع والفواجع، وأن يدمرهم تدميراً.

وصورة لطفلة صغيرة في أفغانستان تبكي وتشهق من البكاء بحثاً عن والديها اللذين كانا تحت أنقاض البيت الذي هدم عليهما ففاضت روحهما وهما تحت الأنقاض،والطفلة المسكينة تصيح وتصرخ بحثاً عن والديها! وصورة ثالثة لطفل صغير قد أمسك خمسة من اليهود به فأحدهم يكاد أن يخنقه،وأحدهم قد شد شعره بكل ما أوتي من قوة وعنجهية، وآخر يركله بقدمه يريد أن يمشي على قدمه بكل سرعة، فهذا الطفل مجرم وإرهابي!والطفل يبكي ويصيح ولكن أين المغيث ؟!

وصورة أخرى لأم تريد أن تدافع عن ابنها،وفلذة كبدها، بعد أن أمسك اليهود بتلابيب ثيابه ، وهي تترجاهم بأن يفلتوه ويطلقوا سراحه،فما كان من أحد هؤلاء القردة إلا أن فقد صوابه وطار لبه فأمسك بهذه المسكينة بيديه الغليظتين ودفعها على الأرض بقوة فسقطت وهوت على رأسها ثم أطلق

عليها عياراً نارياً من سلاحه فجندلها بالدم ثم قهقه ضاحكاً بسخرية قائلاً لها بكل خبث " ابنك لـــن تراه عينك " .

وصورة أخيرة لرجل شاب قد بلغ الثلاثين من عمره في إندونيسيا قد أسره أعداء الله النصارى فربطوه يديه مع رجليه،وشدوا الحبال الموثوقة على جسمه، ثم أهووا به إلى الأرض لتبدأ المجزرة حيث أنهـــم جاءوا بالدبابة تمشي رويداً والشاب يصرخ ثم أَمَرُّوا الدبابة على جسده الموثوق ببطء لكي يموت ألف مرة إلى أن وصلت الدبابة لرأسه فلم يبق له رسماً ولا أثراً، فقد اختلطت دماؤه بعروقه بلحمه فأصبح كتلة لحم، بل لا أثر له،إنه جسم أصبح لا يرى بعد أن هشمته جنازير الدبابة التي لا ترحم .

لا أريد أخي القارئ أن أستطرد فكأني بك قد استبشعت تلك الصور،ووقف الدم في جســـمك،ولم تطق أن تسمع الباقي .

وبعد أن يرى القوم في مجالسهم مثل هذه الصور المبكية، فلن تسمع إلا أنين الزفرات،ولن تبصـــر إلا سكب العبرات وكثرة التأوهات .

حقاً إنها تبعث القشعريرة في الجسد، فالعين تفيض دمعاً،والقلب يشكو لوعة وهماً،واللسان يتحوقـــل ويسترجع،بل تخنقه العبرة فيخرس عن الكلام ألماً وغماً .

أين الخلل ؟

لا شك أننا في زمن كثرت فيه النكبات،وحلت به المصائب، والمدلهمات وانتشرت فيـــه المعاصـــي والموبقات،وكثرت الأمراض والآفات .

تلك قضية لا يناقش فيها إلا جاهل بواقع أمته،أو رجل مكابر!

إنه سيقرع سمعنا في مثل المجلس الذي ذكرته آنفاً أنه ما حل البلاء علينا إلا لتخاذل الحكام،وضـــعف الشعوب،وتقاعس العلماء .

وإني أقر وأجزم أن هذا الذي قيل هو جزء، بل سبب من الأسباب الهامة التي جعلت الأمة الإسلامية أمة ضعيفة ووصمت بهذا المثل .

ولكن هل هذا هو السبب الرئيس الذي جعلنا مهانين في الأرض وأصبحت أمتنا توصف بأنهـــا أمـــة المصائب،أم أن هناك شيئاً آخر قد ضيعناه ونسيناه ؟

هل سألنا أنفسنا أين يكمن الخلل،ومن أين انتشرت هذه الأزمات؟

* ثمت أمور يجب علينا أن نسألها أنفسنا ونجيب عنها بصدق وواقعية، لماذا تراجع المسلمون وهزموا ، وتقدم غيرهم وانتصروا ؟

لماذا تفكك المسلمون وانقسموا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون،وأعداء الله يرصـــون الصـــفوف، ويجمعون الجموع ؟

لماذا حورب الإسلام وأهل السنة والجماعة، وفتح الباب على مصراعيه لأهل العلمنة والشر والفتنة وغيرهم ؟

هل من الصحيح إذا سمعنا مثل تلك المآسي آنفة الذكر أن نصرخ قائلين :

وامصيبتاه؟ أو يرفع أحدنا صوته قائلاً:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وبيد شعب كامل مسألة فيها نظر

إنني لا أحقر من تلك الصرخات، ولكن هل هي الطريق الصحيح لتصحيح المسار، ومعالجة الأخطاء، والرد على الكفار أعداء الله ؟

ـ لا شكَّ أن الوقاية خير من العلاج،والسلامة لا يعدلها شيء،لكنَّ من المهم أن يعلم أنه ليست المشكلة بأن تجد المرض يدب في جسم إنسان،فإن الجسم معرض للآفات والأمراض،ولكن المشكلة،أن تجد ذلك المرض يدب في جسم الإنسان ويفتك بأعضائه، وينتهب منها السلامة،ومع ذلك فإنَّ الإنسان لا يشعر بذلك المرض، وإن شعرلا يقاومه، بل يندب حظه،ويرثي حاله، ويزعج الناس بأناته، ويوقظ أهله بآهاته،وزفراته.

مثلاً لمثل هذا حال كثير من المسلمين، فهم في الحقيقة لم يكتشفوا المرض الداخلي في أمتهم و لم يعالجوه، ومع ذلك فما تراهم إلا وهم يندبون تلك المصائب، ويبكون هاتيك الفواجع.

دع النياحة وابدأ بالعمل

إذا علمَ ذلك وأن الداء منا فلا بد أن نبحث عن الدواء، ورسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه أخبرنا أنه(ما أنزل الله داء وإلا وأنزل له دواء) أخرجه البخاري،وزاد ابن ماجة بسند صحيح:(علمه من علمه وجهله من جهله) ومن الجدير بنا أن نعقل هذه المصائب،ونحاول أن نعالجها .

وقد يتبادر إلى أذهاننا سؤال:هل ظلمنا الله – عز وجل – عند ما أنزل علينا المصائب؟

والجواب؛لا،وحاشا ربنا، فإن الله عز وجل كما قال عن نفسه((إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَـيْئاً وَلَكِـنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)) (يونس:٤٤) وقال تعالى:((وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)) (فصلت: ٤٦)

وأخبر ـ سبحانه ـ أنه حرَّم الظلم على نفسه،فقال:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) أخرجه مسلم .

وقال تعالى : ((وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ)) (آل عمران: ١٠٨) وقال تعالى ((وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ)) (غافر: ٣١)

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث،فيقيننا بالله أنه صاحب العدل المطلق والبعيد كل البعد عن الظلم والجور.

ولكن الله عز وجل أنزل علينا قرآناً يتلى إلى يوم القيامة وقد بيَّن فيه أنه ما من مصيبة تحل بالمسلمين إلا بسبب معاصيهم وذنوبهم وتضييعهم حرمات ربهم وأوامره ونواهيه،فقال تعالى:((وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)) (الشورى:٣٠)

وقال تعالى:((فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)) (لأنفال:٥٤)

وقال تعالى:((مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)) (النساء: ٧٩)

فهذا أول العلاج الذي يجب علينا أن نعرفه حتى نعالج به واقعنا كي نعلم أنه ما من مصيبة وقعت علينا وحلت بديارنا إلا بسبب أنفسنا وذنوبنا وتقصيرنا في حق الله، ومستحيل أن ننتصر ونحن قد ضيعنا الله ونسيناه ولا غرابة بعدها أن ينسانا ربنا((وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)) (الحشر:١٩) ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)) التوبة:٦٧)

إن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل فالله عز وجل وعدنا بالنصر وأن يهزم عدونا ولكن إن نصرناه وجاهدنا لإعلاء كلمته،وربينا أنفسنا على طاعته، والفرار من معصيته،قال تعالى:((إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)) (محمد:٧)،وأخبر تعالى أنه لن ينصر إلا أهل الطاعة والإيمان لا أهل الفجور والخذلان فقال تعالى:((إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)) (غافر:٥١)

وبين لنا سبحانه أنه إن تولينا عن نصرة دينه ورفع رايته،فإنه يستبدل قوماً يقومون بحق الله وبنصرة دينه((وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)) (محمد: ٣٨)

قال سيد قطب – رحمه الله -:(لقد كتب الله عز وجل على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته وأصحاب عقيدته،ولكن علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم،وسلوكهم، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وبذل الجهد الذي في وسعهم ، فهذه سنة الله،وسنة الله لا تحابي أحداً،فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير، فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن، وإبطال النواميس ، فإنما هم مسلمون،لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدراً كذلك ، ولا يضيع هباءً فإن استسلامهم لله وحملهم الراية وعزمهم على طاعته، والتزام منهجه، من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب تزيد من نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ، وتؤهل للنصر الموعود، تنتهي بالخير والبركة، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته،بل تمدهم بزاد الطريق،مهما يمسهم من القرح والألم والضيق أثناء الطريق.

وبهذا الوضوح والصراحة معاً يأخذ الله الجماعة المسلمة،وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع،ويكشف عن السبب القريب من أفعالها ((أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)) (آل عمران:١٦٥)

فأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله صلى الله عليه وسلم وأنفسكم هي التي خالجها الهواجس والأطماع،وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم((وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ)) (آل عمران: ١٥٢)

فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم وتقولون:كيف هذا؟هو من عند أنفسكم بانطباق سنن الله عز وجل حين عرضتم أنفسكم لها)ا.هـ(في ظلال القرآن)

ولهذا ورد في الأثر عن العباس بن عبد المطلب:(ما نزل البلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة) فلنندب ذنوبنا قبل أن نندب مآسينا ولنحارب أنفسنا الأمارة بالسوء وننهاها عن المنكر عندئذ سيحصل النصر وينجلي الغبار والله لا يخلف وعده ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) (النور:٥٥)

أي أُخي: تأمل وانظر إلى بلاد المسلمين:

كم يوجد فيها من ضريح يعبد من دون الله و يطاف عليه ويستغاث بصاحبه ؟

كم هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله بل يتحاكمون إلى الطاغوت؟

كم من بدعة تقام في ديار المسلمين صباح مساء ؟

كم من فاحشة تنتهك في ظلام الليل الدامس،وفي الصباح المتفتح الزاهر؟

كم من إنسان يبخس الكيل والميزان ولا يصدق في المعاملة مع ربه ومع الناس ؟

كم من صَرْحٍ لبنوك الربا التي جاهرت الله بالمحاربة والمعصية ؟

كم هم الناس المعرضون عن دين الله وحكمه وأقبلوا على الملاهي والخمور والأغاني والمسلسلات ؟

كم هم الناس الذين لا يصلون ويدعون بأنهم مسلمون ؟

أنظر للشوارع والأسواق فلا ترى – ويا للأسف ـــ إلا تخنث للرجال ، وترجل النساء، والغيبة،والكذب، والنميمة ، والغش ، والظلم ، وخفر العهود ، وإخلاف المواعيد ، وأكل حقوق الناس، والعصبية القبلية والعرقية المنتنة، والزنا،واللواط، والنفاق، وسوء الأخلاق ـــ إلا قليلاً ممن رحم ربك ـــ

ثم مع هذا كله نريد نصر الله ، وأن يهزم عدونا ويكف شره ويكبت أمره !!

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – قال كنت عاشر عشرة من المهاجرين،عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأقبل علينا بوجهه،وقال : (يا معشر المهاجرين – خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن:ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوها إلا ابتلاهم الله بالسنين، وشدة المؤنة ، وجور السلطان ، ولا منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم العدو فأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل في كتابه إلا جعل بأسهم بينهم) أخرجه البيهقي والحاكم بسند صحيح .

جزاءً بجزاءٍ ، ومثلاً بمثل ، إذا نحن عصينا الله وخالفنا أمره سلط علينا الأعداء والوباء،والضراء((فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (النور:٦٣)

إن الله عز وجل- لما ذكر الأمم الكافرة التي عصت رسله،وخالفت أمره قال عنهم بعد ذلك:((فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)) (العنكبوت:٤٠)

فنفسك لم ولا تلم المطايا :

أخي القاري الكريم:قد ورد في الأثر(إذا عصاني من لا يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني) وقد قال نبي من أنبياء بني إسرائيل لما رأى ما يفعل بختنصر بقومه:(بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفنا ولا يرحمنا) .

وورد في المسند (٣٦٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند صحيح (حد يقام في الأرض خير من المطر لأهلها أربعين صباحاً) .

وقد علق الإمام ابن تيمية على هذا الحديث بقوله:(وهذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو،كما يدل عليه الكتاب والسنة،فإذا أقيمت الحدود وظهرت طاعة الله،و نقصت معصية الله حصل الرزق والنصر)

وعليه فالنحيب على بلاد للمسلمين ضاعت دون عمل وتوبة صادقة،لا تحقق نصراً ولا تعيد أثراً!

وقد قيل في المثل(إيقاد شعلة خير من لعن الظلام) فلنبدأ في التغيير والعمل ولنترك لوم الزمان والدهر،فهو فعل الفاشلين العاجزين لا فعل الطموحين الناجحين وقد قال الشاعر الإسلامي عدنان النحوي – في أبيات له جميلة قائلاً :

ما لي ألوم زماني كلما نزلت *** بي المصائب أو أرميه بالتهم

أو أدعى أبداً أني البريء وما *** حملت في النفس إلا سقطة اللمم

أنا الملوم فعهد الله أحمله *** وليس يحمله غيري من الأمم

فإذا أردنا أن نغير فلنغير من حالنا ومن فساد قلوبنا وأنفسنا يغير الله حالنا، ويرفع ما بنا من مصائب أرقتنا أو بلايا أقلقتنا .

قال تعالى:((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)) (الرعد: من الآية١١)

وقال تعالى:((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) (لأنفال:٥٣)

ومن أول الأمور التي نغير بها حال أنفسنا التوبة النصوح، فهي وظيفة العمر، وطريق الفلاح، والتي تفتح كل عمل خير وبر وصلاح .

ومن ثمَّ الأعمال الصالحة،التي تقرب من رضوان الله عز وجل وجنته، وتبعد عن سخطه وأليم عقابه، ورحم الله أبا الدر داء حيث كان يقول للغزاة (يا أيها الناس:عمل الصالح قبل الغزو،فإنما تقاتلون بأعمالكم) ولله در الفضيل بن عياض حين قال للمجاهدين عندما أرادوا الخروج لقتال عدوهم: (عليكم بالتوبة، فإنها ترد عنكم ما ترده السيوف)

فابذل الجهد واستحث المطايا *** إن صنع النجاح ليس مزاجاً

ليس من يعمر البلاد بزيف *** مثل من يعمر البلاد نجاحاً

أي أخي : هذا هو الطريق الذي أراه يصلح حالنا ويسمو بكرامتنا،ويعيد عزتنا،ويرفع شأننا.

وإن التوبة والعمل الصالح ومحاسبة النفس ومراجعة الذات،وإعداد هذه النفس إعداداً إيمانياً وبدنياً،والارتباط بالله والتعلق به، كل هذا مفتاح للطريق الذي يعيد لنا المجد بنصاعته.

ومن المتوجب علينا معرفته أن إقامة النصر في الأرض،وإعادة الخلافة الراشدة،لا يقدم ذلك لنا مباشرة على طبق من ذهب بل لا بد من الكلل والتعب،والوصب والنصَّب،حتى يأتينا نصر الله بعد أن علم منا الصدق في القلوب،والصلاح في الأعمال،والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

عقد مقارنة :

من المعلوم قطعاً أن الكفار أعداء الله – ضيعوا أسباب نصرة الله المعنوية لهم من الإيمان بالله وبرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكنهم أبدعوا في صناعة الصواريخ والمتفجرات وأسباب النصرة المادية.

ونحن نعلم كذلك كما قدمت سابقاً أن المسلمين ــ ويا للأسف ــ قد نسوا الله فأنساهم أنفسهم وزاغوا عن الصراط المستقيم ــ إلا قليلاً - وابتعدوا عن طاعة الله والقرب منه وعن أسباب النصرة المعنوية التي تكفل الله لمن فعلها من المسلمين بالنصرة والتأييد ولو كانت قوتهم العسكرية وأسبابهم المادية أضعف من الكفار .

وكذلك فإن المسلمين ضيعوا أسباب نصرهم المادية فأين هي القنابل الذرية والمتفجرات النووية،وأين الأسلحة والعتاد والقوة والرجال، فلم نسمع لها صفيراً ولا همساً، بل علاها الغبار و لم تستخدم في قتال أعداء الله.

ولهذا فإن منطق العقل السليم أن يحكم بالانتصار لمن كانت عنده القوة والأسباب المادية ولو كان مضيعاً للأسباب المعنوية على الذي ضيع أسبابه المادية والمعنوية التي تحق النصر والتأييد؛ ولذلك انتصر الكفار أعداء الله على المسلمين الذين ضيعوا أوامر الله فنساهم سبحانه وضيعهم وقد روت لنا كتب التاريخ أنه في أعقاب معركة اليرموك الشهيرة ،وقف ملك الروم يسائل فلول جيشه المهزوم ، والمرارة تعتصر في قلبه ، والغيظ يملأ صدره ، والكآبة بادية على محياه(ويلكم أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟ ! قالوا : بلى أيها الملك ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟! قالوا:نحن أكثر منهم في كل موطن، قال : فما بالكم إذا تنهزمون ؟!

فأجابه شيخ من عظمائهم:إنهم يهزموننا لأنهم يقومون الليل ويصومون النهار،ويوفون بالعهد،ويتناصفون بينهم) البداية والنهاية (١٥/٧)

تلك هي صفات المسلمين؛ولذلك نصرهم الله ولاحت أمام أعينهم أقواس العزة والرفعة في سماء المجد .

فقم بالله أخي لنصرة دينك وأصلح ذاتك فصلاح الذات قبل صلاح الذوات، ومن قاد نفسه قادم العالم، وردِّد:

قم نعد عدل الهداة الراشدين *** قم نصل مجد الأباة الفاتحين
قم نفك القيد قد آن الأوان *** شقي الناس بدنيا دون دين
فلنعدها رحمة للعالمين *** لا تقل كيف ؟ فإنا مسلمون
يا أخا الإسلام في كل مكان *** اصعد الربوة واهتف بالآذان
وارفع المصحف دستور الزمان *** واملأ الآفاق إنا مسلمون
مسلمون مسلمون مسلمون *** حيث كان الحق والعدل نكون
نرتضي الموت ونأبى أن نهون *** في سبيل الله ما أحلى المنون

هذا هو الدواء لمن وقع في فخ الداء :

والذي أراه يحقق لنا النصر ويعز به هذا الدين بعد التوبة إلى الله أمور ثمانية وهي :

١ــ الاعتصام بكتاب الله تعالى وقراءته وتدبره والعمل بما فيه ، والاعتصام بسنة محمد صلى الله عليه وسلم وأن نقدم كلامهما على كلام أي إنسان، ونبتعد عن كل هوى خالف القرآن والسنة .

٢ــ الاهتمام والالتفاف على عقيدة أهل السنة والجماعة،وتطبيقها في أرض الواقع،واحذر أخي ممن يثبط عن تعلم العقيدة،أو يجعل تعلمها في مراحل متأخرة فإنه رجل سوء فلا تجالسه.

٣ــ الإعداد البدني والإيماني،والجهاد في سبيل الله،فإن الجهاد ينبوع العزة،ومعين الكرامة،وهوالمجد لمن أراد المجد،والعزَّ لمن أراد العز، و(من مات و لم يغز و لم يحدث بها نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) كما أخبر الصادق المصدوق ــ عليه الصلاة والسلام ــ قال الإمام ابن تيمية(فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه) مجموع الفتاوى (١٠/١٩٣)

٤ــ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لدين الله – عز وجل – وهذا أمر فرضه الله عز وجل علينا فقال:((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)) (آل عمران: من الآية١١٠)

٥ــ الدعوة إلى الله عز وجل وإلى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى:((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) (النحل:١٢٥) وقال تعالى : ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي))(يوسف: ١٠٨)

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ (فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد) (مفتاح دار السعادة ١/١٥٣) ورحم الله من قال:

إن نفساً ترتضي الإسلام ديناً

ثم ترضى بعده أن تستكينا

أو ترى الإسلام في أرض مهيناً

ثم تهوى العيش نفس لن تكونا

في عداد المسلمين العظماء

(المنطلق للراشد ص ٢٢٧)

٦ــ الالتفاف على جماعة المسلمين الصادقة ولزوم غرزهم، وعلى رأسهم العلماء الربانيون والمجاهدون الصادقون،والدعاة المخلصون، فيجب الحذر من التكلم في أعراضهم أو سبهم وليعلم أن من تكلم فيهم فإنه قد شق الصف و لم يوحده وفرق الجماعة والقلوب .

وقد أورد مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد حديث ثوبان رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) وكذا حديث عقبة بن عامرــ رضي الله عنه ــ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك)

فصفة عصابة المسلمين وجماعتهم أنها قائمة بنصرة دين بالحجة والبيان، والسيف والسنان ، وسيأتي أناس يخالفونها الرأي بتلك النصرة البيانية أو الجهادية،فأخبر عليه السلام أن تلك المخالفة وذلك التخذيل لن يضرهم لأنهم على هدى مستقيم ، ومنهج قويم ،ولذا ستبقى هذه الطائفة منصورة إلى

قيام الساعة، وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه حديث جابر بن سمرة مرفوعاً إلى الرسول صـــلى الله عليه وسلم (لن يبرح هذا الذين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الســـاعة) فعلـــى الثابت على هذا المبدأ،ألَّا يضره كلام مخالفيه وخاذليه،بل ينطق بكل علو وصمود:

ماضٍ وأعرف ما دربي وما هدفي *** والموت يرقص لي في كل منعطف

وما أبالي به حتى أحاذره *** فخشية الموت عندي أبرد الطرف

ماض فلو كنت وحدي والدنا صرخت *** بي قف لسرت فلم أبطء و لم أقف

أنا الحسام بريق الشمس في طرفي *** مني وشفرة سيف الهند في طرف

فلا أبالي بأشواك ولا محن *** على طريقي ولي عزمي ولي شغفي

٧ـــ محاسبة النفس ، والنظر مرَّة بعد مرَّة إلى عيوبها،حتى لو تابت ورجعت إلى الصراط المستقيم،فإن (كل بني آدم خطاء،وخير الخطائين التوابون) رواه أحمد والترمذي عن أنس وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٨٣١/٢) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخفف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا)

٨- رسم المنهج والتخطيط لنصرة دين الله،على تعاون بين المســـلمين فـــلا يصـــح عمـــل بـــدون خطة،والتنظيم والتخطيط قانون النجاح ومن أجمل ما قرأت في ذلك ما كتبه الدكتور:عدنان النحوي في كتابه(حتى نغير ما بأنفسنا) صـــ١٠(إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمـــان والتوحيـــد والمنهاج الرباني في واقع أي أمة، فلا يبقى لديها إلا الشعارات التي تضج بها ولا تجد لهـــا رصـــيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخطا، ثم الشقاق والصراع وتنـــافس الـــدنيا في الميدان، ثم الخدر يسري في العروق،ثم الشلل،ثم الاستسلام!)

هذه نقاط ثمانية كاملة،أُرى إن تحققت في واقع المسلمين، فإنهم سيجنون بعدها الفلاح والعز والسؤود في الدنيا والآخرة، وما ذلك على الله بعزيز .

((مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّـــهَ عَزِيـــزٌ حَكِيـــمٌ)) (الأنفال:١٠)

هذا والله أسأل أن يوفقنا لما فيه صلاح أنفسنا وأمتنا وآخرتنا،وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً،إنه علـــى كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وسبحانك اللهم وبحمد أشهد أن لا إله إلا أنت،أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

خطوات مهمة لكشف الغمة

الحمد لله مزيل الكربات .. وفارج الملمات .. ومنفس الشدائد و المصيبات .. وقاضي الحاجـــات .. والصلاة والسلام على هادي البرية ..وأزكى البشرية ..والذي حذرها من أسباب العقوبات ..وبـــين لها موجبات السلامة و الرحمات ..أما بعد :

فإن الناظر في مجريات الأحداث .. والمطلع على وقائع الأمور .. والمتابع لما يدور في الساحة اليوم .. يجد أن الأمر جلل .. والخطب جسيم .. وقد يؤدي إلى واقع أليم .. فالعدو قد كشر عن أنيابـــه .. وأظهر ما كان يخفيه من أحقاده .. وقد يتساءل المرء في ظل الظروف الصعبة .. والمواقف الحرجة .. ماذا يفعل ؟ وماذا يصنع ؟ وهل بمقدوره أن يدفع البلاء.. أما أن الأمر لا يعنيه لا من قريب ولا مـــن بعيد .. أو يكون دوره هو التفرج على مسرح الأحداث .. دون أن يكون للإنسان أي أثر فاعل .. أو أن يحيل الأمر إلى غيره .. وينسب التقصير إلى من حوله .. ويقول .. الناس فعلوا .. والناس تركوا .. ويخرج هو كالشعرة من العجين .. كل هذه التساؤلات وغيرها يجيبنا عنها .. من يتأمل نصـــوص القرآن والسنة .. فإنها تذكر الدور المطلوب .. والعمل المرغوب .. الذي يجب فعله على كل مســـلم ومسلمة .. ليسلموا من العذاب .. ويندفع عنهم غضب الملك الوهاب .. فأرعني سمعك يا رعاك الله .. واستحضر القلب يرحمك الله ..

لابد أن تعلم يا رعاك الله ..أن كل واحد منا قادر على أن يعمل شيئا .. وأن يقدم لأمته عمـــلا .. ولن أذكر لك .. ما لا تستطيع فعله .. أو تعجز عن عمله .. بل ما سأذكره من خطـــوات .. ومـــا سأضعه بين يديك من وسائل .. هي بمقدور الجميع .. وكل واحد معني بها .. الصـــغير والكـــبير .. الأمير والوزير .. الغني والفقير .. والذكر والأنثى .. ولا تتصور أن المخاطب بها غـــيرك .. بـــل إني أعنك أنت بالذات .. فلا تلتفت إلى غيرك .. ولا تشر بأصبعك إلى من سواك .. فأنا أقصد نفســـي أولاً .. ثم أقصدك ثانياً .. ثم أقصد غيرك ثالثاً .. وهذه الخطوات .. إلم نبادر إلى فعلها .. ونســـارع إلى عملها .. فإني أخشى من عقوبة التهاون والتساهل فإن الله يمهل ولا يهمل ..

أحبتي في الله ..

أولى هذه الخطوات .. تحقيق الإيمان والابتعاد عما يخدشه وينقصه : لقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين بالنجاة من العذاب ..فقال سبحانه :{ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين } [يونس:١٠٣] والله تعالى تكفل بالدفاع عن المؤمنين فقال سبحانه :{ إن الله يدافع عـــن الـــذين آمنوا } فلماذا يتأخر أقوام عن الإيمان بالله حق الإيمان .. والله جل جلاله .. وعد إن آمنـــوا حـــق الإيمان أن يدافع عنهم ..فمن يغالب قوم يدافع عنهم القوي القهار .. العزيز الجبار .. وأي قـــوة في الأرض توازي قوة القهار .. وما يعلم جنود ربك إلا هو .. يقول الله تعالى :{ إنا لننصـــر رســـلنا والذين آمنوا } هذا كلام الله .. ووعد الله .. فنصره لمن ؟ للمؤمنين .. نعم للمؤمنين ..فأين أهـــل الإيمان ..أين المخبتين للرحمن .. إن النصر والسلامة من الردى مقرونة بقوة الإيمان بـــالله تعـــالى ..

فالواجب على العباد .. أن يسعوا لزيادة الإيمان لأن الله كتب العاقبة للمتقين ..والأرض لله تعالى يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ثانياً التوبة والرجوع إلى الله تعالى : يقول بعض السلف : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة .. يقول الله تعالى { وقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين } [يونس :٩٨] يقول قتادة رحمه الله في هذه الآية .. يقول .. لم يكن هذا في الأمم قبلهم لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وألهوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم) فهل من توبة صادقة ..ورجعة إلى الكريم الوهاب .. الرحيم التواب .. ليدفع عنا العذاب .. ونسلم من غضب رب الأرباب .. فيتوب أصحاب الربا من الربا .. وأصحاب الغناء من الغناء .. ومن فرطوا في صلاتهم إلى صلاتهم .. والمرأة تتوب من تقصيرها في تفريطها في جنب الله .. وكلنا يتوب من ذنبه .. صغيرا كان أو كبيرا .. عزيزا كان أو ذليلاً ..فالكل لابد أن يتوب إلى ربه .. ويعود إلى رشده .. ويكثر من الاستغفار : كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل فقد كان يستغفر الله تعالى في المجلس الواحد مائة مرة .. و لأن الاستغفار سبب عظيم في تحصيل الخيرات .. ودفع المصائب والملمات .. يقول الله تعالى :{ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} ويقول الله تعالى : { وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسنا إلى أجل مسمى } [هود :٣] بل إن من أسباب القوة ومضاعفتها كثرة الاستغفار كما قال الله تعالى :{ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين } [هود:٥٢] فالاستغفار يزيد العبد قوة في جسده ، فيتمتع بجوارحه وحواسه وعقله ، وكذلك هو قوة له في طاعة ربه ، فهو قوة
على كل خير في العاجلة والآجلة .

ثالثاً: كثرة الأعمال الصالحة : يقول الله تعالى :{ واستعينوا بالصبر والصلاة } وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى " رواه أحمد ، ويقول صلى الله عليه وسلم :" العبادة في الهرج ــ أي في الفتن ــ كهجرة إلي " لأن الناس كثيراً ما ينشغلون في وقت الأحداث بمتابعة القنوات الفضائية والإذاعات العالمية ويكون هم الواحد منهم ماذا حدث ؟ وماذا جرى ؟ وينصرف تماماً عن الذكر والصلاة وقراءة القرآن فيتنبه لذلك .. كما أن العبادة .. والأعمال الصالحة لها أثر في طمأنينة القلب .. وسكينة النفس .. ولذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت الملمات يفزع إلى الصلاة .. حتى تهدأ نفسه ويطمئن قلبه .

رابعاً : الإكثار من الصدقة : لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الصدقة لتطفيء غضب الــرب وتدفع ميتة السوء " رواه الترمذي .. وقال صلى الله عليه وسلم :" أكثروا الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا " رواه ابن ماجه وغيره .. فأين المتصدقين في الأسحار .. أيــن المــنفقين في الليل والنهار .. يقول صلى الله عليه وسلم :" صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة الســر تُطفئ غضب الرب .." [رواه الطبراني : صحيح الجامع ٣٧٩٧] . قال ابن أبي الجعد : (إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء).. فلا تتردد في البذل والعطاء .. خاصة لإخوانك المجاهدين .. الــذين يواجهون أمم الكفر .. ويصدون ظلمها وجبروتها .. فالوقوف معهم من أوجب الواجبات .. وأهــم المهمات .. لأنه بدعمنا لهم يكفون عنا وعن الأمة شرورا كثيرة .. فأنفق ينفق الله عليــك .. ومــا نقص مال من صدقة .. ذكر الأديب الكبير علي الطنطاوي رحمه الله في ذكرياته (٤٨/٧ـــــ٤٩).. قائلاً : ذهبت سنة ست وأربعين إلى مصر ، وكان الطريق على فلسطين ، فأقمت فيها عشرة أيــام ، وكان لي فيها أصدقاء من الوطنيين العاملين فلمتهم على قعودهم وقيام اليهود ، وعلى تقصيرهم بجمع المال وشراء السلاح ، فقالوا : إن الأيدي منقبضة ، والنفوس شحيحة ، قلت : لا بل أنتم المقصرون ، قالوا : هذا تاجر من أغنى التجار ، فهلم بنا إليه ننظر ماذا نأخذ منه ؟

وذهبت معهم إليه في مخزن كبير حافل بالشارين ، وحوله ولدان له شابان يتفجران صحة ورجولــة وجمالا ، وكلمناه .. وحشدت له كل ما أقدر عليه من شواهد الدين ، وأدلــة المنطــق ، مــثيرات الشعور ، فإذا كل ما قلته كنفخة وانية على صخرة راسية ، ما أحست بها ، فضلا عن أن ترتج منها .

وقال : أنا لا أقصر .. أعرف واجبي .. وأدفع كل مرة الذي أقدر عليه .

قلت : وهل أعطيت مثل الذي يعطي تجار اليهود ؟ قال : وهل تمثلني باليهود ؟ قلت : وهل أعطيت مرة مالك كله ؟ فشده وفتح عينيه ، وظن أن الذي يخاطبه مجنون ، وقال : ما لي كله ؟ ولماذا أعطي مالي كله ؟ قلت : إن أبا بكر لما سئل التبرع للتسلح أعطى ماله كله .. قال : ذاك أبو بكر وهل أنــا مثل أبي بكر ؟ قلت : عمر أعطى نصف ماله ، وعثمان جهز ألفاً .. فلم يدعني أكمل وقــال : يــا أخي أولئك صحابة رسول الله ، الله يرضى عنهم ، أين نحن منهم ؟ قلت : ألا ترى البلاد في خطر ؟ وإننا إذا لم نعط القليل ذهب القليل والكثير ؟ قال : يا أخي الله يرضى عليك اتركني بحــالي .. أنــا رجل بياع شراء .. لا أفهم في السياسة ، وليس لي بها صلة ، وهذا مالي حصلته بعرق جبيني ، وكد يميني ، ما سرقته سرقة ، فهل تريد أن أدفعه وأبقى أنا وأولادي وأحفادي بلا شيء ؟ قلــت : مــا نطلب مالك كله ، ولكن نطلب عشره .. قال : دفعت ما عليّ .. ما قصرت .. وأعرض عنا وأقبل على عمله ، يا سادة هذه حادثة أرويها لكم كما وقعت .... ومرت سبع سنوات ، وذهبــت مــن سنتين ـــ أي سنة ١٩٥٣ـــ إلى المؤتمر الإسلامي في القدس ، ومررنا في الطريق بمخــيم اللاجــئين ،

وأقبل الناس يسلمون علينا ، وإذا أنا بشيخ أبيض اللحية ، محني الظهر ، غائر الصدغين ، رث الثياب ، أحسست لما التقت العينان ، كأن قد برقت عيناه برقة خاطفة ، وكاد يفتح فمه بالتحية ، ثم تماسك وأغضى .. وارتبك كأنه يريد الفرار .. فلما انتهى السلام راغ مني ودخل في غمار الناس .. ولبثت أفكر فيه من هو ؟ وأين قابلته ؟ فما لبثت أن ذكرته .. وتكشف لي المنسي فجأة ، كأني كنت في غرفة مظلمة سطع فيها النور .. إنه هو .. هو يا سادة .. وكلمته فتجاهلني ، فلما ألححت عليه اعترف ، و لم أشمت به ، ومعاذ الله ، أن يراني أنحدر إلى هذا الدرك ، و لم أزعجه بلوم ، ولكن كان في نظرتي ما يوحي بالكلام ، لذلك استبقني فقال :

ـــ لا تقل شيئا ، هذا هو المقدر ..[وليت أن الله وفقني ، ووفق] إخواني التجار النزول عن نصف ما كنا نملك .. قلت : أو لم يبق لك شيء .. فابتسم ابتسامة حزينة يقطر من حواشيها الدمع ، وقال : بلى بقي الكثير بقيت الصحة والثقة بالله ، وبقي هؤلاء وأشار إلى امرأة عجوز وطفل صغير . قلت : لا تيأس من رحمة الله ، قال : الحمد لله أن جعلنا عبرة ، ولكن أرجو أن يكون إخواننا في الشام ومصر والأردن قد اعتبروا بنا ..)

فهل يعتبر أهل المال والثراء .. فيتصدقوا وينفقوا ويجودوا بالعطاء للمجاهدين الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الله يحاربون الكفار .. ويقاتلون الفجار .. فإن السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ غيره به !!

خامساً: الدعاء : وقد نجى الله تعالى أقواماً بسبب دعاءهم .. فلولا الدعاء لهلك أقوام .. يقول الله تعالى :{ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ } [الفرقان :٧٧] أي لولا دعاؤكم إياه .. أيها المخاطبون له وحده عند الشدائد والكروب لهلكتم ، فالله تعالى يستجيب لمن دعاه مخلصاً ولو كان كافرا كما قال تعالى :{ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون } [العنكبوت : ٦٥] والله تعالى يبتلي عباده حتى يرجعوا إليه ويدعوه سبحانه { وما أرسلنا من قبلك في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون } [الأعراف :٩٤] ويقول الله تعالى :{ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ورسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة بدر لم يقل أنا رسول الله ..وأنا منصور ..كلا ..بل قام ليلته تلك رافعاً يديه .. يدعو ربه ويناجيه .. ويقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض .. اللهم أنجز لي ما وعدتني .. حتى سقط رداءه من على كتفيه .. فأخذه أبو بكر الصديق .. وقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي .. كفاك مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك .. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في وقت الكرب بهذا الدعاء :" لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم " رواه البيهقي ..فألحوا على الله بالدعاء ..خاصة في وقت الأسحار ..فإن الله تعالى يترل في الثلث

الأخير من الليل ويقول ..هل من داعي فاستجيب له ..هل من سائل فأعطيــه ..وأمــة الإســلام ..تعدادها ..أكثر من مليار مسلم .. ومن ظن أن الله لا يستجيب دعاء هذه الأمة .. فقد أساء الظن بربه ..وهو القائل : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } فلماذا لا ترفع الأيدي بالدعاء ..

ولماذا لا تسبل الأدمع الغزار في رجاء الملك الغفار ..ليهلك الظالمين .. وينتقم من النصارى واليهــود الحاقدين .. ويدمر أعداء الدين وينصر أهل الإسلام المستضعفين فهل من دعاء لهذه الأمة ؟ وهل من مناجي لرفع الغمة ؟

ولهذا كان السلف يدركون أثر الدعاء .. لما صافَّ قتيبة بن مسلم الترك ، وهاله أمرهم .. سأل عن محمد بن واسع فقيل : هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه ..يشير بأصبعه نحو السماء يدعو ..فقال : تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير ..فأكثروا من الدعاء ..ولا تستهينوا به ..وصدق القائل :

سهام الليل لا تخطي ولكن لها أمد وللأمد أنقضاء

سادساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : لقوله تعالى :{ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون } و لم يقل صالحون .. فهم يدعون الناس إلى الهدى .. وينهون عن الفســاد والــردى .. فحصل من نفعهم سلامة القرى .. من الهلاك والردى .. ويقول صلى الله عليه وسلم : " إن النــاس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده " [صحيح الجامع١٩٧٠] والقيــام بهذه الشعيرة والإتيان بها سبب للسلامة من العقوبات يقول الله تعالى :{ وسئلهم عن القريــة الــتي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويــوم لا يســبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون } إلى قوله :{ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين }[الأعراف :١٦٣ـــ ١٦٦] ففي هذه الآيات نبأ عظيم لمن أنار الله بصيرته ..فقد أخبر لله عن سنته الماضية ..وهي أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكــر .. يقول ابن عباس رضي الله عنهما : قسم الله هذه الأمة ـــ أي بني إسرائيل ـــ إلى ثلاثة أقسام : قسم : عملوا المنكر ، وهو الصيد في السبت ، وقسم : خذلوا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فلما نزل العذاب أهلك القوم الأولين ، ونجى الله القســم الثالث من المسخ إلى القردة والخنازير ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر)

فالواجب علينا أن نعزز هذا الواجب ، وأن نساند من قام به ، ونؤيده معنويا وحسياً .

سابعاً: اجتناب الظلم : وهو التعدي على الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم بغير حق ..يقــول الله تعالى :{ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهــم موعــدا } [الكهــف:٥٩] روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " قال ثم قرأ :{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود:١٠٢] فلا يتجرأ العبد على ظلم العباد وهذا الظلم لـــه صـــور عديده فمن تلك الصور :

ـــ ظلم العمالة وعدم تسليم الرواتب لهم أو تحميلهم ما لا يستطيعون .

ـــ ظلم الناس في الغيبة والنميمة والبهتان .

ـــ ظلم الناس في أكل أموالهم من رشوة وغصب وغش ونحوها .

ـــ ظلم الناس في قطيعة الرحم

ـــ ظلم الأولاد وعدم النصح لهم بإحضار أجهزة الفساد لهم .

ـــ ظلم الناس لزوجاتهم .

ثامناً : الالتفاف حول العلماء الربانيين ، والأئمة المهديين ، الأتقياء الصالحين .. فإن الالتفاف حولهم يعد سبيلا مهما من سبل الوقاية والنجاة من الفتن على مختلف أنواعها وأشكالها ، كما يعـــين علـــى الأمن من الزيغ والضلال ، فكم أنجى الله بالعلماء .. الأمة الإسلامية .. من محن عصيبة ، وفتن رهيبة ، كإعزاز الله لدينه بالصديق رضي الله عنه ، يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة ، فكم ثبـــت الله المسلمين في تلك الفتن بعلمائهم .. فلابد إذا من لزومهم ، والعيش في أكنافهم ، والالتفاف حولهم لا سيما وقت الفتن .

ثم أوصي العلماء بأن يتقوا الله تعالى في أمتهم ..وأن يقولوا كلمة الحق..ظاهرة بلا خفاء .. بينة بـــلا غموض .. فالوضوح وتخصيص الدلالات هو ضمانة ضد الفتن أكيدة .. أما الكلمات الفضفاضة .. والعبارات العائمة فإنها لا تزيد النار إلا اضطراما .

تاسعاً: السير في ركب جماعة المسلمين وإمامهم : عن حذيفة قال : ((كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني : فقلت يا رسول الله : إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت وهل بعد ذلـــك الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن (أي فيه كدر) قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هـــديي تعرف منهم وتنكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهـــنم مـــن أجابهم اليها قذفوه فيها ، قلت يارسول الله صفهم لنا قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت فما تأمرني أن أدركني ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت فإن لم يكن لهم جماعـــة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنـــت علـــى ذلك))رواه البخاري وغيره.

أ- انظروا إلى صفات الحالة الأخيرة التي خشي الصحابي الجليل حذيفة أن يدركها :-

١- دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها .

٢- أن هؤلاء الدعاة إلى الباطل ليسوا يهوداً أو نصارى ولا أعاجم وأنماهم من جلـدتنا ويتكلمـون بألسنتنا)

ب- فما المخرج - الرسول أوصى حذيفة : (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)

عاشراً : لابد من الاهتمام بالعلم الشرعي ..خاصة في وقت الفتن ، لأن كثيرين يخوضون بغير علم .. فيؤدي خوضهم الى أنواع من البلاء .. والتفرق والتصرفات الطائشة .. ومما يلاحـظ :- انتشـار القصص والروايات الواهية الضعيفة وقت الفتنه ، فيكثر القصّاص الذين يوردون الحكايات والقصص التي لا أصل لها . انظر الى قول ابن عمر - كما رواه ابن حبان - (لم يكن يُقصّ في زمان رسـول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبي بكر ولا عمر ولا عثمان إنما كان القصص زمن الفتنة).

أيها الأخوة الأكارم : إن التأصيل العلمي الشرعي لا بدّ منه .. لأن الوصول الى الحق والصـواب لا يتم الا بالرجوع إلى الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة .. ولأنه يحمي من الاجتهادات الـتي تمليهـا الظروف والأهواء ، ويرجع الأمور الى أصولها الصحيحة . ومن خلال العلم يعـرف المـرء كيـف يتصرف .. وماذا يفعل ؟ فهل من اهتمام بالعلم وطلبه وتأصيله على منهج شرعي ..

الحادي عشر : الاستعداد : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دائماً يهيأ أصحابه للأحداث القادمة .. ويسألهم ماذا سيصنع لو حدث كذا .. وماذا سيفعل لو جرى كذا ؟ يقول صلى الله عليه وسـلم :" احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز " رواه مسلم .. ومن نماذج هدي الرسول لتـهيأة أصحابه .. ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان بن عفان : كما عند ابن ماجه عن عائشـة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوما فأرادك المنـافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه يقول ذلك ثلاث مرات .. قال هذا قبل موته صلى الله عليه وسلم وعثمان تولى الخلافة بعد أكثر من فترة طويلة .. ولم تأتي مناسبة هـذا الكـلام إلا في آخـر خلافته رضي الله عنه .. فالرسول صلى الله عليه وسلم يهيأ عثمان نفسياً للحدث الذي يصيبه..ولذا عندما تولى الخلافة أراد المنافقون خلعه ولكنه رفض بناء على توجيه النبي صلى الله عليه وسلم له .

ــ و روى الحاكم في المستدرك عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : يا أبا ذر ..قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك .. قال .. كيف أنت إذا أصاب الناس جوع .. تأتي مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك ..وتأتي فراشك فلا تستطيع أن تنـهض إلى مسـجدك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم .. قال :" عليك بالعفة " ثم قال : يا أبا ذر .. قلت : لبيك يا رسـول الله وسعديك ..قال : كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم ..قلت الله ورسوله أعلـم .. قال :" تلحق بمن أنت منه أو قال : عليك بمن أنت منه " قلت : أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي .. قال : شاركت إذاً .. قلت ..فما تأمرني يا رسول الله ؟..قال الزم بيتك ..قلت: أرأيت إن دخل على بيتي ؟ قال : " فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فالق رداءك على وجهك يبوء بإثمه وإثمك "

والنصوص في هذا كثيرة في حث النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه للاستعداد والتـهيأ لأحـداث المستقبل ، وهذا الذي يجب فعله في الأيام القادمة أن نستعد ..وأن نتهيأ لما سيحدث والله المستعان :
والاستعداد على قسمين :
أولاً : الإعداد النفسي من خلال :
ـــ تهيئة الأسرة نفسياً من الآن تحسباً لأي طارئ يطرأ في المستقبل ..وتحديثهم بالغزو والجهاد يقـول النبي صلى الله عليه وسلم : " من مات و لم يغز و لم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق " رواه أبو داود .
ـــ التوكل على الله تعالى .. لأن الله تعالى { ومن يتوكل على الله فهو حسبه } أي كافيه وناصره .. يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطـير تغدو خماصاً ـــ أي جائعة ـــ وتروح بطانا ـــ أي شباعا " رواه أحمد .
ـــ أن يتيقن العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطئه لم يكن ليصيبه ..وأن يستقين الإنسان بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما : " واعلم أن الأمة لو اجتمعت علـى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضـروك بشـيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف " رواه الترمذي وصححه .
ـــ أن يعلم الإنسان أن نصر الله قريب .. وأن الله ينصر من نصره .. وأن هذا الدين منصور ..ومـا على الأمة إلا أن تطبق وتعمل بأسباب النصر والتمكين التي ذكرها الله في كتابـه .. فـإذا عملـت وطبقت فإن النصر لا محالة قريب .
ـــ أن يبشر الإنسان غيره ويتفائل .. خاصة في وقت الأزمات والملمات .. لأن النفوس بأمس الحاجة إلى التفائل الذي يدفعها إلى العمل .. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل .. فعنـدما أراد الأحزاب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ عليه الصلاة والسلام بحفر الخنـدق ..وبينـا أصحاب رسول الله يحفرون الخندق إذ واجهتم صخرة شقت عليهم .. وكلت أيديهم منها فكلمـوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك .. فأخذ رسول الله المعول من سلمان .. فضرب الصـخرة ضربة صدعها .. وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها ـــ يعني لابتي المدينة ـــ حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم .. فكبر رسول الله تكبير فتح .. وكبر المسلمون .. ثم ضربها رسـول الله الثانيـة فصدعها وبرق منها برقة أضاء منها ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم ..فكـبر رسول الله تكبير فتح ..وكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها ..وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم ..فكبر رسول الله تكبير فتح .. وكبر المسـلمون .. ثم أخذ بيد سلمان فرقي .. فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله .. لقد رأيت شيئا ما رأيته قط .. فالتفت رسول الله إلى القوم ..فقال : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يا رسـول الله

بأبينا أنت وأمنا .. قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج .. فرأيناك تكبر فنكبر .. ولا نرى شيئا غير ذلك ..قال : صدقتم .. ضربت ضربتي الأولى .. فبرق الذي رأيتم .. أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب .. فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها .. ثم ضربت ضربتي الثانية .. فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم .. كأنها أنياب الكلاب .. فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ..ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق منها الذي رأيتم ..أضاءت لي منها قصور صنعاء .. كأنها أنياب الكلاب .. فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها .. فأبشروا يبلغهم النصر .. وأبشروا يبلغهم النصر.. وأبشروا يبلغهم النصر.. فاستبشر المسلمون .. وقالوا : الحمد لله موعد صادق بار وعدنا النصر بعد الحصر .. فطلعت الأحزاب .. فقال المؤمنون : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ..فهكذا كان هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الأزمات .

ثانياً : الإعداد البدني : ويتم ذلك من خلال :

١ ــ ممارسة المشي والجري وحمل الأمتعة الثقيلة والتقلل من الطعام والشراب ونحو ذلك ..لقول النبي صلى الله عليه وسلم :" المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير .." رواه مسلم .

٢ ــ أن يتعلم الرماية ..لقول النبي صلى الله عليه وسلم :" ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا " رواه البخاري .

٣ ــ أن يتعلم الإنسان الإسعافات الأولية .

٤ ــ أن يعود الإنسان نفسه على ترك ما ألفه من حياة الترف والكماليات ، لقول عمر رضي الله عنه : اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم .

وأخيرا .. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. فإذا غيرنا ما بأنفسنا .. من المعاصي والذنوب .. وانتقلنا إلى فعل الطاعات ..والمسابقات إلى الخيرات ..غير الله علينا .. ما كان فينا من الشقاء ..إلى الخير والهناء .. إنها دعوة صادقة .. من محب لأحبابه .. ومن صديق لأصدقائه .. ومن قريب لأقربائه .. ومن أخ في الله لإخوانه .. أناشدهم فيها إلى المسارعة إلى التغيير .. والمبادرة إلى تحسين الأوضاع .. قبل أن تسكب العبرات .. وترتفع الآهات .. وتحل الأحزان .. وتكثر الأشجان .. ويفرح الأعداء .. ويحزن الأصدقاء .. فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه محمد بن عبدالله الهبدان

١٤٢٤/١/١هـ

التمحيص طريق التمكين

الدكتور عصام بن هاشم الجفري

الحمد لله ذي العزة والجبروت والكبرياء،تفرد جل جلاله بالدوام والبقاء وكتب على من سواه الفناء،أحمده سبحانه وأشكره جعل طريق النصر مسبوقاً بالتمحيص والابتلاء،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا يكشف سواه الضراء ولا يأتي غيره بالسراء،وأشهد أن نبينا وحبيبنا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله خاتم الأنبياء وقدوة المؤمنين الأتقياء صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما لاح بعد الظلمة ضياء ، وما تحقق للأمة نصر بعد ذل وعناء. ....وبعد:فاتقوا الله عباد الله فالتقوى سبيل النصر والتمكين ودفع الأذى إذا ما خالطها الصبر أخبر بذلك اللطيف الخبير بقوله:}وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{([١])معاشر من آمن بالله واليوم الآخر لو أن شركة من الشركات أرادت أن تولي شخصاً منصباً قيادياً بها فتقدم لها عدد من الناس وكل يدعي أهليته لهذا المنصب فماذا ستفعل تلك الشركة؟ لا شك أنها ستجري امتحاناً وتمحيصاً للمتقدمين حتى يتبين للجميع أن فلاناً هو الأحق والأجدر بهذا المنصب، هذا فيما يتعلق بمنصب قيادي في شركة فما بالكم بأمة يعدها ربها لقيادة العالم؟ وأدعياء التقوى والعلم والإيمان فيها كثير فلابد لهم من التمحيص والاختبار حتى يتميز الصادق من الكاذب وقد نص الله سبحانه على ذلك في كتابه بقوله جل شأنه : }الم()أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ()وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{ (٢)،. وقد يقول قائل لماذا الامتحان والتمحيص والله يعلم السرائر والبواطن؟ فنرد عليه بقول رب العالمين:} لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ{ (٣) ؛ وهذا التمحيص والابتلاء الذي يترل بالأمة أيه الأحبة في الله

نتيجته أحد أمرين أما نجاحاً وفوزاً وتمكيناً وإما إخفاقاً وذلاً مهيناً ، وفي قمة الامتحان والابتلاء يأتي الفرج والتمكين كما أخبر بذلك رب العالمين بقوله : }أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ{(٤) ؛ تعالوا معي أحبتي نأخذ أمثلة لامتحان بعده نصر وتمكين : فهذا موسى عليه السلام ومن آمن معه أشتد أذى فرعون لهم حتى بلغ طغيان فرعون أن قرر قتلهم وإبادتهم ليقضي على دعوة الإيمان ويصفو له الجو وحشر لعملية قتل تلك الفئة القليلة المستضعفة كل قواته وإمكانياته واستمع للعليم الخبير ينبئك عن ذلك بقوله :} فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ()إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ()وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ()وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ{(٥) . فماذا كانت النتيجة ؟ استمع لها ممن له القوة جميعاً : }فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ()وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا

يَعْرِشُونَ{(٦) . أرأيتم أيها الأحبة في الله بينما كان أهل الكفر الأقوياء يتوعدون أهل الإيمان الضعفاء بالقتل والإبادة تدخلت القدرة الإلهية التي لا يقف لها شئ فقتل أهل الكفر وبقي أهل الإيمان وأبيد أهل الكفر وكان التمكين لأهل الإيمان ، وهذا لوط عليه السلام ابتلي بقومه أهل الفاحشة

النكراء وقرروا طرد لوط من بلاده وليس له ذنب إلا الطهارة من رجسهم ونتنهم : }فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ{(٧) . وبلغ الابتلاء والتمحيص قمته يوم أن أرادوا فعل تلك الفاحشة القذرة بضيوفه الكرام حتى ضاق الأمر بلوط عليه السلام وقال تلك المقولة التي تعبر عن قمة الحالة التي وصل إليها :} قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ{ (٨) . فجاءته البشرى : }قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ{(٩) .وهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم تتفق قريش على قتله فداه نفسي وأبي وأمي والناس أجمعين ويشرعون في تنفيذ الخطة ويحيط الرجال الأقوياء بمنزله استعداداً للفتك به فيخرجه الله من بينهم كما تخرج الشعرة من العجين ، وتكون الهجرة التي عاد بعدها صلوات ربي وسلامه عليه فاتحاً معززاً مكرماً، ويتكرر مشهد الابتلاء والتمحيص فكم عذب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وكم لقوا من الأذى ، وكان من مواقف التمحيص الشديدة يوم الأحزاب حيث اجتمعت قوى الكفر لإبادة الإسلام وأهله وبلغ البلاء من أهل الإيمان مبلغه حتى يصفه الله بقوله : }إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ()هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا{(١٠) .فماذا كانت النتيجة؟ أرسل الله عليهم تلك الريح الباردة التي أقضت مضاجعهم وأجبرتهم على الانسحاب و لم يستطيعوا العودة بعدها لغزو المدينة، ثم

كان الفتح والتمكين لأهل الإيمان، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أصيبت الأمة الإسلامية بزلزال عنيف وتمحيص عظيم إلا وهو قضية الردة فثبت الله الأمة بالصديق رضي الله عنه ثم أعقب تلك المحنة وذلك التمحيص فتح أكبر دولتين في ذاك الزمان الروم وفارس وإخضاعها لشريعة الإسلام ، وحينما تخفق الأمة في الامتحان والتمحيص تشتد المصيبة وتحل العقوبة من الجبار وإليكم مثالاً واحداً لذلك بنوا إسرائيل اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة واستمعوا للقصة يخبركم بها رب العالمين بقوله : }وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ()يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ()قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ{(١١) . وتمادوا في عصيانهم أوامر ربهم التي أخبرهم بها نبيهم بقولهم : }قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا

إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ{(١٢) . فماذا كانت النتيجة؟ استمع لها من رب العالمين : }قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ{(١٣) .أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :}وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ{(١٤) .

الخطبة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره وستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وحبينا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.أما بعد:فاتقوا الله عباد الله واعلموا أن النصر والتمكين لا يكون لأمة غافلة لاهية عن ربها وأن وقت التمحيص والابتلاء هو وقت الرجوع إلى من بيده مقاليد السموات والأرض ، فاحرص أخي أن تكون ممن ينجحون عند التمحيص والابتلاء ولا تكن من الفريق الآخر ، وقوي صلتك بقيوم السموات والأرض تفلح ، ألا وإن من الطرق لذلك الصيام وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن الصادق المصدوق قوله : ((أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ))(١٥) .وقد حبب إليكم خير الورى صلى الله عليه وسلم صيام يوم عاشوراء فقد سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ فَقَالَ يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ.

([١]) آل عمران: ١٢٠.(٢)العنكبوت:١-٣.(٣)الأنفال:٤٢.(٤)البقرة: ٢١٤.(٥)الشعراء:٥٣-٥٦.(٦)الأعراف:١٣٧،١٣٦.(٧)النمل:٥٦.(٨)هود:٨٠.(٩)هود:٨١.(١٠)الأحزاب:٩-١٠(١١)المائدة:٢٠-٢٢.(١٢)المائدة:٢٤.(١٣)المائدة:٢

أثر الدعاء في نصرة المجاهدين

بقلم الأستاذ/ خباب بن مروان الحمد

@hotmail.com· ·khabab

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً، وبعد:

منذ أن انبثق فجر التاريخ الإسلامي ، بدأت دواعي النفوس الشريرة ، والتي أكلها الحسد، وقتلتها الغيرة، بتصويب أسلحتهم وسهامهم إلى صدور الموحدين، راجين أن يمحقوا دين الإسلام ، وحركته

الحضارية، ونمو الإيمان المتجذر في النفوس الصادقة... لكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ، ويفلق هامات الخواجة أولي الكفر والفجور، ويعز دينه وأولياءه ولو كره المجرمون.

واليوم ونحن على درجة كبيرة من درجات التحدي العالمي لقوى الصهيونية العالمية، والإمبريالية الأمريكية الطاغية، والتي حاكت الشر للمسلمين، ودفعت بجنودها إلى اقتحام بلاد الإسلام، ونهب خيراتها، وسلب أموال أصحابها، وتركيعهم ــ زعموا ــ لقوى التحالف النصرانية!!

وقد شاهد المسلمون فصولاً من ذلك التآمر المتواطئ من بني الكفر والنفاق ضد أبناء الإسلام وهوياتهم ومقدساتهم، ففي فلسطين الصامدة روايات وحكايات ، وفي العراق مآسي ومذكرات، وفي أفغانستان حكايات وتضحيات، وفي الشيشان تاريخ وملمات، وفي غيرها من بلاد الإسلام أنّات وزفرات، وهكذا... تمضي رايات الكفر والنفاق لتصطفَّ تجاه رايات الإيمان في كل فرصة سانحة بوثبة جامحة كاشحة.

وفي قلب تلك الأحداث التي تكرر نفسها، وتعيد دورتها ، يحسن بجنود الرحمن ومن يرفع رايات الجهاد الصادقة؛ أن يزداد فرارهم إلى الله ، وتنعطف أفئدتهم إلى الرحمن ، ويتعلقوا بحبال العرفان للرب المنان ، ويطالعوا سير أسلافهم المجاهدين وتعلقهم بالله رب العالمين ، حين تأتي قوافل الكفر الغاشمة لتدك بلاد الإسلام، فيتطاير فرسان الجهاد، وأبطال الملاحم لمنازلة النوازل، ومقارعة الخطوب، ومكافحة الإرهاب الكافر حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وسأعرض في هذه المقالة شيئاً من سير المجاهدين السابقين، لنرى أنهم ما كانوا يقدموا على أرض المعركة،إلا ويتوجهوا للحي القيوم بالدعاء، والرجاء، والاستغاثة والتضرع إليه بأن ينصرهم،ويخذل عدوهم،وأن يهيئ لهم من أمرهم رشداً، لتعلم النفس المؤمنة، بأنَّ النصر لا يكون بالأسباب المادية فقط، بل إنَّ ركيزته الكبرى، وقاعدته الأسمى،التعلق بالله رب العالمين وانطراح العبد على عتبات الربوبية بالدعاء للمسلمين.

وثَمَّة أمر أحببت أن ألوِّح به، وهو: أنَّ من دواعي انقداح الكتابة في هذا الموضوع ، ما نجده في قلوب بعض المسلمين ــ ويا للأسف ــ من تقليل الاهتمام والاعتناء بهذا الأمر، وكأنَّ الدعاء صار لا يجدي ولا ينفع خصوصاً مع كثرة النوازل والمصائب التي تصيب المسلمين، وقد ينظر البعض لمن يتحدث بهذا الأمر، ويصيح به في آذان الناس، نظرة المتشائم، والذي يظنُّ أنَّ الدعاء سبب بسيط ولا تأثير له كبير في أرض الواقع، ومن هنا أحببت أنْ أسطِّر بعض المواقف العملية الجهادية،والتي دعا فيها المسلمون ربهم بإخلاص ومثابرة،فأكرمهم الله بالنصر المبين، والظهور على أعداء الدين.

ولعلَّه بعد ذلك وحين تقرأ النفوس وكأنها تشاهد أثر الدعاء في نصرة المسلمين والمجاهدين؛ فترفع أكفَّ الضراعة إلى الحي الذي لا يموت، بأن ينصر الله دينه ويخذل أعدائه، ويكون من بين تلك

النفوس رجل صادق لو أقسم على الله لأبرَّه، يستحي الله حين يراه قد شرع في الدعاء، ومدَّ كفـــيَّ الرجاء،أن يرد الله يديه صفراً خائبتين.

إلاّ أنّه من الأهمية أن يُعْلَمَ أنَّ أولئك السابقين ما كانوا يـــدعون الله فقـــط بـــأن ينصـــرهم علـــى عدوهم،وهم لم يهيئوا أسباب النصرة المادية، من الجهاد بالنفس والمال والكلمة الصادقة، وما تحتاجه تلك المعركة الدائرة بين الإسلام والكفر من تحفيز ونصرة.

لقد كانوا ــرضوان الله عليهمــ يدعون الله وهم متوجهون للقتال، أويتضرعوا إلى الله ولهم مشـــاريع قد أعدت لنصرة دين الله، والتي منها الدعاء، ولهذا أنبه قبل عرض سيرهم بأنَّ من أســـباب النصـــر العظمى الدعاء، والذي يعقبه الكفاح والعمل والبناء،أمَّا أن يدعو الإنسان ربه وليس لديـــه بـــرامج عملية لنصرة هذا الدين، فإنَّ هذا كطالب مخفق أخرق في دراسته، ثمَّ يسأل الله النجاح و لم يعد لذلك النجاح،فهل ينال حينئذٍ النجاح...هيهات! فليعلم أنَّ هذا الدين يحتاج لرجال أكفاء يقومون بنصرته في جميع ميادين النصر، وصدق من قال:

إسلامنا لا يستقيم عموده *** بدعاء شيخ في زوايا المسجد

إسلامنا نور يضيء طريقنا *** إسلامنا نار على من يقتدي

فليس النصر الدعاء، وليس هوالقوة المادية فحسب، وليس كذلك بالكثرة العددية، إنَّ النصر مجتمع في ذلك كلِّه لا ينفصل جزء من شمول، ولا ينبتر بعض من كل.

ولعلِّي أبدأ هذه الأكتوبة، وأطرِّز المسيرة وأُتوِّجَ السيرة، برسول الأمة المختارة، محمد بن عبـــدالله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فإنَّ: تاريخنا من رسول الله مبدؤه وما عداه فلا ذكر ولا شان، فقـــد نـــام صحابته الأكارم ـــ رضي الله عنهم وأرضاهم ـــ ليلة بدر، إلا هو ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فقـــد بات تلك الليلة يصلي إلى جذع شجرة ، ويكثر في سجوده أن يقول:"يا حيُّ يا قيوم" يكرر ذلك ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ويسأل الله النصر(البداية والنهاية٥/٨٢)، وحين رأى رسول الله جند قريش قال:" اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغـــداة" (السيرة النبوية لابن هشام٣/١٦٨).

وقد روى عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لَّما كان يوم بدر نظر النبي ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل الـــنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره ، ثمَّ قال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تملك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً" قال عمر بن الخطاب: فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه، حتَّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردَّاه، ثمَّ التزمه من ورائـــه ثمَّ قال: يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك، فإنَّه منجز لك ما وعدك" أخرجـــه أحمـــد(١/٣٠ـــــ٣١)

برقم(٢٠٨)، وقال الشيخ/أحمد شاكر:سنده صحيح، ورواه مسلم (١٧٦٣)، وأصله في البخـــاري، وانظر جامع الأصول(١٨٣/٨).

ولهذا فإن الله _سبحانه_ وصف حال رسوله العظيم وصحابته الكرام في غزوة بدر بـــأهم كـــثيري الاستغاثة به، ومكثري رجائه ودعاءه فقال:"إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف مـــن الملائكة مردفين"(الأنفال: ٩) فأين نحن من الاقتداء برسول الله وصحابته بالدعاء للمجاهدين بالنصر، وخذلان عدوهم!

وعليه فإنَّ مما نستفيده من ذلك أنَّه في حالة نشوب الحرب، وقيام المعركة، واضطرام القتال،أن نرفـــع أكف الضراعة والاستغاثة بالله ، فلعله ـــ سبحانه ـــ أن يستجيب لنا فيقهر عدونا ، ويخذل محاربنا، ويمدنا بمددٍ من عنده كما أمد رسول الله وصحابته بجند من عنده من الملائكة المرسلين حين دعوه في غزوة بدر، فانخلعت قلوب الكافرين، وفروا خاسرين ، وتم بفضله ـــ تعالى ـــ النصر المبين.

لهذا كان الدعاء في الغزو مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع المجاهدين في أرض المعركة،وقد بوَّب الإمام الترمذي في جامعه(باب في الدعاء إذا غزا) وأورد تحته ما رواه أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كـــان رسول الله ـــ صلَّى الله عليه وسلَّم ـــ إذا غزا قال:اللهم أنت عضدي وأنت نصيري وبـــك أقاتـــل" أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات برقم(٣٥٨٤) وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألباني في صـــحيح الترمذي برقم(٢٨٣٦).

وهنا وقفة لابد منها قبل أن نأتي على سير المجاهدين وتعلقهم بربهم بالدعاء قبيل المعركة وفي أثنائهـــا، وهي أن من مآسي واقعنا المعاصر، وحين تدك بلاد الإسلام بالراجمات ، وتقذف بالقنابـــل، يهـــرع الكثير من المسلمين إلى شاشات التلفاز، ليروا أثر المعركة، ويستمعوا الأخبار، حتى يعلموا ماذا حلَّ في تلك البلاد.

وفي نظري أنَّ هذا الأمر وإن كان هامَّاً؛ لأنَّ فيه الاهتمام بأخبار المسلمين، إلاّ أن المداومة على ذلك ، لا يفيد إلاّ كثرة الهم والغم والحزن، والذي لا ينفع ولا يصنع شيئاً، والرأي الوجيه لمن قعـــد عـــن الجهاد للظروف المحيطة به، أن يوظِّف المسلم ذلك الحدث توظيفاً إيجابياً ، ومن أولى الأمور لتفعيـــل تلك القضية بين المؤمنين، اللجوء إلى محراب العبودية، والانكسار بين يدي ربِّ البريـــة ، والتضـــرع والبكاء ، والرجاء والدعاء لرب الأرباب ، ومسبب الأسباب، بأن يكف الله شرَّ الكافرين، وأن ينصر عباده المجاهدين، وأن يخذل المنافقين وعملاء الصليبيين.

تلك والله سمة المؤمن ، وشيمة الموحد ، وهو أكبر دليل على صدق ما في قلبه من الحـــب لإخوانـــه المؤمنين وحمل همِّهم، وخاصَّة أنَّ الدعاء يستجاب وقت اشتداد المعركة،وشدَّة التحارب بين المـــؤمنين والكافرين، فقد قال النبي ـــ صلَّى الله عليه وسلَّم ـــ:" ثنتان لا تردان أو قلَّما تردَّان:الـــدعاء عنـــد النداء، وعند البأس حين يُلْحِمُ بعضهم بعضاً" أي: حين تشتبك الحرب بينهم، أخرجه أبو داود، وقال

الحافظ في النتائج(١/٣٧٨):حديث حسن صحيح،وصححه النووي في (الأذكار/ صـ٥٧ـ٢٦٧) ، وقال الألباني في (الكلم الطيب): حسن صحيح(صـ٧٦).

ولقد عاب الله أقواماً نزلت بهم المصائب والبأساء ، فأعرضوا عن ربهم،ولم يدعوه لكشف ضـرهم ، فلم يرفع عنهم تلك النازلة ، قال ـتعالىـ: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (الأنعام:٤٢، ٤٣) وقال في آية أخرى: "وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ" (المؤمنون:٧٦) فصار المصير إلى أن نعلم علم اليقين، أنَّ من أوجب الواجبات في زمن الكوارث والملمات، رفع اليدين بالدعاء لله رب العالمين، فلعل ذلك الدعاء من أكف بيضاء نقية، وقلوب صادقة وفيَّة، وأعين باكية تقيَّة تخفف من تلك المآسي التي أقلقت المسلمين وأقضَّت مضاجعهم، وقد علَّمنا رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ أنَّه"لا يردُّ القضاء إلاّ الدعاء" أخرجه الترمذي(١٣٩)، وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم(٧٦٨٧)، وأخبرنا بأنَّه"لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما قد نزل ومما لم يترل، وإنَّ البلاء يترل فيتلقاه الدعاء، فيتعالجان إلى يوم القيامة" أخرجه الترمذي وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي(٢٨١٣) زاد الحاكم بسندٍ لا بأس به، فعليكم عباد الله بالدعاء، ولهذا كان الدعاء من أسباب النصر على الأعداء، وخاصَّة إذا كان ذلك من عباد الله الضعفاء، وقد دلَّ على ذلك حديث رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ "إنما ينصر الله هذه الأمَّة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) أخرجه النسائي وصححه الألباني في صحيح النسائي(٢٩٧٨).

فأين نحن يا أخا الإسلام عن ذلك السلاح العظيم والمنجي لنا من بطش الأعداء؟! وأين الإلحاح على الله بأن يكشف الضر عن المسلمين؟! وأين الانطراح بين يديه؟! وأين الانكباب عليه؟! وأين التوجه إليه؟!

أين ذلك كلَّه ونحن نستمع صرخات المكلومين، وأنات الجرحى والمظلومين، وصراخ المضطهدين في سجون الكفرة الملاعين في كوبا وأبي غريب وسجون إسرائيل؟ وصدق من قال:

وإنِّي لأدعو الله والأمر ضيِّق *** عليَّ فما ينفك أن يتفرجا

وربَّ فتى ضاقت عليه همومه *** أصاب له في دعوة الله مخرجا

يا للأسف حين يظن الكثير بأنَّ المهم أن يستمعوا الأخبار عمَّا حصل في الفلوجة،أو الرمادي، أوبغداد،أو الموصل،أو نابلس،أو جباليا،أو جنين،أو غزة،أو رفح،أو كابل،أو مزار شريف،أوجروزني،أو....ثمَّ لا يفعل شيئاً ينصر به دينه ولو بالدعاء وهو أقل ما يستطيع!!

يا للمأساة حين يظن البعض أنَّه إذا تحدث مع زميل له عن مآسي المسلمين وهو يشرب الشاي! ثمَّ تكلَّم عن ظلم الاحتلال الصليبي أنَّه أدَّى دوره، وانقضت مهمته!!

عجباً ـــ وربي ـــ من تلك القلوب المعمورة بحب الدعة والراحة، والكسل والنقاهة ـنسأل الله العفو والمغفرةـــ.

ودعني الآن ـــ أخي ـــ أقلب لك شيئاً من صفحات التاريخ ، وطوايا الأحداث لترى العجب مـــن قوم جاهدوا في سبيل الله، ولم يثنهم فعلهم ذاك من الفرار إلى الله ، واللجوء إلى كنفـــه؛ بالـــدعاء، والابتهالات الشرعية، والاستغاثات الربانية، سائلينه ـتعالىـ أن ينصرهم وأن يكف بأس أعـــدائهم عنهم؛ وذلك لأنَّ الغازي في سبيل الله يستجيب الله له الدعاء ، كما قال ـــ صلَّى الله عليـــه وســـلَّم ـــ: "الغازي في سبيل الله ، والحاج والمعتمر؛ وفد الله دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم"أخرجه ابـــن ماجة برقم(٢٨٩٣) في كتاب المناسك، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم(٤١٧١).

فمتِّع ناظريك،وتشبه بسلفك، وبهداهم اقتده، لتعلم أنَّ الدعاء ركيزة كبرى من ركائز النصر، وقاعدة عظمى من قواعد معركة الإسلام مع الكفر، وإياي وإياك أن يكون ما قرأناه وكتبناه حجة علينـــا لا لنا ـــ نسأله تعالى ألطافاً من عنده، ومغفرة من لدنه ـــ

١- فهاهو طالوت وجنده قبل بداية المعركة يقول ـتعالىـ عنهم: "ولمَّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين" (البقرة: ٢٥٠) وبعد هذا الـــدعاء، كان الجواب من الله"فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت" وكان النصر حليفهم حـــين دعـــوا الله وتوكلوا عليه.

٢- وهاهو الغلام المؤمن صاحب الملك الكافر حين اكتشف أمره، وعلم أنه موحد،أراد أن يفتنه عن دينه ، ويخيفه بجنده ولكن هيهات فإنَّ مع الغلام سلاحاً لا ينفد، وكنزاً لن يفقد؛ إنَّه الدعاء فحـــين أراد جنود هذا الطاغية،أن يلقوه من فوق الجبل إلى هاويته، نطق الغلام بكل مسكنة وافتقار للملـــك القهار"اللهم اكفنيهم بما شئت"، فسقط الجنود من فوق الجبل وكانوا في الهاوية، بـــل في القـــاع ، ويمضي ذلك الغلام شامخاً بإيمانه إلى الملك الكافر، ليعلمه دروساً في التوحيد من التوكـــل علـــى الله، والاستعانة به، وعدم الخوف إلا منه إلى غير ذلك، لكن الطغاة متكبرون، ولا يسمعون داعي الإيمان، فما كان من ذلك الملك إلاّ أن أمر جنده بأن يذهبوا بذلك الغلام في إحدى السفن فـــإذا توســـطت السفينة في البحر، ألقى الجنود ذلك الغلام ليتخلصوا منه ، وحين أرادوا أن يفعلـــوا ذلـــك بعـــد أن توسطت بهم السفينة في البحر،إلاّ ويطلق الغلام سلاحه على أعدائه"اللهم اكفنـــيهم بمـــا شـــئت"، واستجاب الله الدعاء، وقلب السفينة بمن فيها من جند الطاغوت ونجا ذلك الغلام المؤمن من مكـــر الكافرين، والقصَّة معروفة، ومن أراد المزيد فليقرأ تفاسير العلماء لسورة البروج.

٣- وهذا المثنَّى بن حارثة الشيباني في وقعة البويب في السنة الثالثة عشرة من الهجـــرة يـــدعون لـــه المسلمون، والجند المقاتلون، بأن ينصره الله على أعدائه، ويكفيه شرهم، وكان النصر لـــه في آخـــر المطاف.(انظر:معارك المسلمين في رمضان للدكتور:عبدالعزيز العبيدي/صـــ٣٤ـــ٣٨).

٤- وتأمل قصة النعمان بن مقرن في سنة إحدى وعشرين، فبعد أن تحصن الفرس بخنادقهم ، وطال حصار المسلمين لهم،استشار النعمان قادته، فأشاروا عليه باستدراج الفرس والتظاهر بالهروب حتَّى إذا ابتعد الجند عن حصونهم وخنادقهم نشبت المعركة، ووافق النعمان على الخطة، وقال لهم: إني مكبر ثلاثاً فإذا كان الثالثة فابدؤوا بالقتال، وهنا لم ينس النعمان الاتصال الروحي مع الله ، فقد ذهب النعمان إلى أحد الأمكنة ودعا الله قائلاً: "اللهم اعزز دينك، وانصرعبادك،اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيداً"، وبكى الناس مع النعمان وابتهلوا إلى الله وتضرعوا، واستجاب الله دعاءهم فنصرهم على عدوهم نصراً عظيماً، واستجاب الله دعاء النعمان بن مقرن، فكان أول قتيل من المسلمين على أرض المعركة ــ رضي الله عنه ــ(البداية والنهاية٧/٨٩) (إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء للخضري/صـ٩٥ـ٩٦)، ورضي عن جميع صحابة رسول الله ، الذي رباهم بروضته الشريفة ، وبمسيرته المباركة فكان نتاجه عظيماً، وتربيته قديرة، فصلى الله على محمد صلاة دائمة تتعاقب بتعاقب الليل والنهار:

خلَّفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم *** تصوغ بين الورى روحاً وريحاناً
كانت فتوحاتهم براً ومرحمة *** كانت سياستهم عدلاً وإحساناً
لم يعرفوا الدين أوراداً ومسبحة *** بل أشبعوا الدين محراباً وميداناً

٥- واقرأ ما فعله حبيب بن مسلمة ــ رضي الله عنه ــ حين أمِّر على جيش،فلمَّا أتى العدو قال: سمعت رسول الله ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ يقول: "لا يجتمع قوم فيدعو بعضهم ويؤمِّن بعضهم إلا أجابهم الله ـتعالىـ" ثمَّ إنَّه حمد الله وأثنى عليه، وقال:"اللهم احقن دماءنا، واجعل أجورنا أجور الشهداء" فبينما هم كذلك إذ نزل أمير العدو، فدخل على حبيب بن مسلمة سُرَادقَه، وسلَّم إليه بدون حرب" أخرجه البيهقي والطبراني، وللمزيد انظر)التحفة المستطابة لرشيد الراشد/ صـ٧٧ـ٧٨).

٦- وأنعم النظر في قصَّة قتيبة بن مسلم مع محمد بن واسع ، فقد ذكر ابن الجوزي في (صفة الصفوة ١٣٦/٢) أنَّه كان مع قتيبة بن مسلم في معركته الإمام محمد بن واسع، وقد كان قتيبة بن مسلم صاحب خراسان وكانت الترك قد خرجت إليهم فبعث قتيبة إلى المسجد لينظر من فيه، فقيل له: ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه، فقال قتيبة: إصبعه تلك أحبُّ إلي من ثلاثين ألف شاب طرير". وفي (سير أعلام النبلاء ١٢١/٦) قال قتيبة بن مسلم: تلك الإصبع أحب إلي من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير" فتأمل دعاء الإمام محمد بن واسع وقت المعركة، وحب القائد قتيبة بن مسلم لدعائه ذاك، بل تفضيله لدعائه على وجود ألف شاب مقاتل!

إليك وإلاّ لا تشد الركائب *** ومنك وإلا فالمؤمل غائب
وفيك وإلا فالرجاء مضيع *** وعنك وإلا فالمحدث كاذب

٧- ومما يدلَّ على أنَّ النصر يستنزل بالدعاء ما قاله أسد بن عبدالله القسري أمير خراسان في قتالــه للفرس:"إنَّه بلغني أنَّ العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله، وإنِّي نازل وواضــع جبــهتي، فادعوا الله، واسجدوا لربكم، وأخلصوا له الدعاء، ففعلوا، ثمَّ رفعوا رؤوسهم، وهم لا يشــكُّون في الفتح" (تاريخ الطبري ١١٩/٧).

٨- وهكذا كان عقبة بن نافع فقد كان مستجاب الدعوة، وكان يتوجه إلى الله بالدعاء عند الشروع في معاركه، ويصادم العدو في شجاعة مذهلة، كما ذكره عنه أهل السير، ثمَّ يكتب الله لــه النصــر المبين(أبطال ومواقف/صــ١٨٧).

٩- وهكذا يمضي جنود الإسلام ، وتسير قوافل المجاهدين إلى الله رب العالمين، فهذا الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك الحنفي يقول لألب أرسلان في موقعة(ملاذكرد) بعد أن رأى كثــرة جــيش الروم والتي قُدِّرت بمئتي ألف مقاتل: إنَّك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره، وأرجو أن يكــون الله قد كتبه لك بجيشك القليل شرف النصر، فسر إلى العدو الكافر يوم الجمعة، بعد الزوال، والأئمة على منازلهم يدعون لجيشك بالنصر والله غالب على أمره، وتمَّ ذلك عند ظهيرة يوم الجمعة من صيف أربعمئة وثلاث وستين للهجرة، فقد صلَّى وبكى فبكى الناس لبكائه ، ودعا الله فدعا الناس بدعائه، وعفَّر وجهه بالتراب ثمَّ ركب وقال للناس: ليس عليكم الآن أمير وكلكم أمير نفسه ، من شــاء أن ينصرف فليعد إلى أهله، ولبس البياض وتحنَّط ، وحمل بجيشه حملة صادقة، فوقعوا في وســط العــدو يقتلون ما يشاؤون، وثبت العسكر، ونزل النصر،وولت الروم، واستحر بهم القتل،وقتــل طاغيتــهم أرمانوس،بعد أن أسره مملوك وسار به ذليلاً ليقتل رغم أنفه" انظر السير (٤١٤/١٨ــ٤١٦) والبداية والنهاية(٩١/١٢) أليس ذلك من بركات الدعاء يا عبدالله؟!

١٠- وانظرــ أخي الموفق ــ في حال نور الدين محمود في فتح حارم سنة٥٥٩هــ وقد انفرد تحــت تل حينما التقى الجمعان وسجد لربه ــ عزَّ وجل ــ ومرَّغ وجهه وتضرع، وقال: "هؤلاء يــا رب عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعدائك ، فانصر أوليائك على أعدائك"(ما فضول محمود في الوسط) ــ يشير إلى أنَّك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بســبب محمود يعني نفسه إن كان غير متحقق النصر) ثمَّ بعد ذلك فتح الله على يديه فتحاً عظيماً)(معــارك المسلمين في رمضان للدكتور:عبدالعزيز العبيدي صــ٦٥).

١١- ومتِّع عينيك بقصَّة البطل العظيم صلاح الدين محرر القدس من الصليبيين" فقد جمــع صــلاح الدين الجموع ، ونظَّم الجيوش ثمَّ عقد مجلس شوراه للتشاور في منازلة العدو، وتوقيت المعركة فاتفقوا على الخروج في ١٧/ ربيع الآخر عام ٥٨٣هــ بعد صلاة الجمعة، وبين تكبير المســلمين وابتــهالهم وتضرعهم بالدعاء". (صلاح الدين الأيوبي للدكتور:عبدالله ناصح علوان صــ٦٧).

ويقول القاضي ابن شدَّاد: " وكان صلاح الدين إذا سمع أنَّ العدو قد داهم المسلمين خـــرَّ إلى الأرض ساجداً لله، داعياً بهذا الدعاء:اللهم قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك،ولم يبق إلا الإخـــلاد إليك ، والاعتصام بحبلك،والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل" ويقول: " ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثمَّ على سجَّادته ، ولا أسمع ما يقول ، ولم ينقض ذلك اليـــوم إلاّ ويأتيـــه أخبار النصر على الأعداء، وكان أبداً يقصد بوقفاته الجمع ، سيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بـــدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الاستجابة" (سيرة صلاح الدين الأيوبي للقاضي ابن شدَّاد ــرحمهما الله_ صـــ٨ وما بعده).

١٢- وانظر ماذا كان يفعل المظفر قطز في معركة عين جالوت سنة(٦٥٨)هــ وهو يحمِّس المجاهدين ويصيح واإسلاماه ، واإسلاماه، ويسجد ويعفِّر وجهه في التراب ويقـــول: يـــا الله انصـــر عبـــدك قطز(معارك المسلمين في رمضان للعبيدي/صـــ٧١). وقال ابن كثير في البداية والنهايـــة(١٣/١٨٨) عن قطز: " ولَّما رأى عصائب التتار، قال للأمراء والجيوش: لا تقاتلوهم حتَّى تزول الشمس وتفـــيء الظلال وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء في صلاتهم". واستجاب الله دعاءه وهزم المغول ووقعوا بـــين يديه ما بين قتيل وجريح وأسير، بل وقع بين يديه قائد المغول فقتله تنكيلاً به، وجزاء إجرامه في قتل المسلمين.

١٣- أمَّا محمد الفاتح فقد دخل المسجد في صباح يوم التاسع والعشرين من مايو عام ١٤٥٣م فوجد شيخه ومعلمه ومربيه آق شمس الدين منطرحاً بين يدي ربه مستغرقاً بالدعاء فاستبشر خيراً بالنصـــر، وحين كان المجاهدون يهيئون للمعركة عدهّا كان هتافهم: ياالله ، يالله، ولَّما فتحت القســـطنطينية رآه الناس وهو يمرِّغ وجهه في التراب تواضعاً لله والمؤمنون يهنئونه بالنصر وهو لا يزيد علـــى أن يقـــول النصر من عند الله، النصر من عند الله. (أبطال ومواقف/ صـــ٤٥٠ــ٤٥١) هكذا يا ـــ أخا العقيدة ـــ عرف هؤلاء البواسل دربهم ، فساروا إلى ساح الجهاد، وفتحوا الفتوحات، وغيروا مجرى التـــأريخ لصالح أمة الإسلام الخالدة، وأكثروا الدعاء لربهم، والاستغاثة بمعبودهم، حتى خطَّ الله لهم طريق النصر المبين، والعز والتمكين.

فأين نحن عن هذا الأمر العظيم ، بل أين نداءاتنا لله، ودعاءنا له؟وأين قنوتنا في المساجد على الصليبيين والصهاينة؟هل حققنا شيئاً من ذلك أم نبقى على فتورنا الآثم؟ أم ذلك استهانة بحق الدعاء، و تكاسلاً عن تأدية تلك العبادة!!

أتهزأ بالدعاء وتزدريه *** وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن *** لها أمد وللأمد انقضاء

إنَّ العجب كل العجب حين تجد أناساً يستثقلون بالدعاء لإخوانهم المجاهدين، وحاملي رايات المقاومة الإسلامية، والأغرب من ذلك أن يقول البعض: لقد دعونا الله و لم يستجب، أو أن يقول البعض: إنَّ ما يكتبه الله سيقدره سواء دعوناه أو لم ندعه فكل مقدر ومكتوب!!!

وإلى هؤلاء أخاطبهم راحماً حالهم، ومشفقا عليهم، فأقول:

يا من قلتم: إننا دعونا الله و لم يستجب لنا ، هل ابتعدتم عن جميع الموبقات والفواحش والظلم وموانع إجابة الدعاء؟ وهل دعوتم الله بقلب صادق، وضمير حيٍّ حاضر؟

إن من أهم ما يجب عليكم معرفته أنَّ الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل، فقد روى أبو هريرة أنَّ رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال:" ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابـــة واعلمـــوا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه" أخرجـــه الترمـــذي(٣٤٧٩) وحسَّـــنه الألبـــاني في صـــحيح الترمذي(٢٧٦٦).

ثمَّ ألا تعلموا أن رسولكم قد نهاكم عن استعجال إجابة الدعاء، فقد روى أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أنَّ رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال:" يستجاب لأحدكم ما لم يعجل،يقول: دعـــوت فلم يستجب لي" متفق عليه ، وفي جزء من رواية مسلم قيل : يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قـــال: "يقول قد دعوت ، وقد دعوت فلم يستجب لي، فيستحسر عند ذلك،ويدع الدعاء".

ثمَّ ما أدراكم أيها الفاترون عن الدعاء أن يكون الله قد خفف عنَّا وعن إخواننا المسلمين كثيراً مـــن البلاء الذي كتب أن يحل بنا، وما أدراكم أن يكون من فوائد هذا الدعاء أن يكون دعاؤنا واستغاثاتنا بالله سبباً من أسباب صد المكروه عن بلادنا وعن كثير من بلاد المسلمين، والتي يتمنى عـــدو الله أن يحتلها ويجدها لقمة سائغة؟! وما أدراكم أن يكون دعاؤنا لإخواننا في ثغور الجهاد، ومواطن الكفاح، حفظاً لهم من أعدائهم، ورداً لهم من تربصات المحتلين بهم، أو تخفيفاً لما يلاقيه إخواننـــا في أراضـــي الجهاد،أو سجون التحالف الكفري"وقد ذكر بعض الأسرى أنَّ العذاب ربما كان يهدأ أحياناً داخـــل السجن بلا سبب ظاهر، ولا وضع مألوف ، فلا يجدوا له تفسيراً إلا دعوات إخـــوانهم"(من مقـــال لأخينا/ عبدالحكيم محمد بلال بعنوان: واجبنا تجاه الأسرى في فلسطين، في مجلة البيـــان عـــدده٢٠٥/ صـــ٧١) ووالله لو لم يكن من ذلك الدعاء ورفع الكفين لرب السماء إلا لذة مناجاة الله ، وجمعيـــة القلب عليه لكفى!

قال الإمام ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ: "والدعاء من أنفع الأدوية،وهو عدو البلاء يدافعـــه، ويعالجـــه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن، وله مع الدعاء ثلاث مقامات:

١ـــ أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

٢ـــ أن يكون أخفَّ من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد ولكن يخففه ، وإن كان ضعيفاً.

٣ـــ أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم صـــ١٣).

وأما الجواب على ما ذكره البعض بأنَّنا لو دعونا الله فأجاب الدعاء، فإنَّ ذلك مــن بــاب تحصــيل الحاصل، ولو دعوناه و لم يقدِّر لنا ما نريد ، فإنَّ دعاءنا لم ينفع، و لم نجنِ منه فائدة!

فيجاب عن ذلك بأنَّ هذه الشبهة خطيرة جداً بل إنَّ أول من قالها الجهم بن صفوان، والذي رمــاه العلماء المحققين بالكفر والمروق عن الدين لعدة أقوال كفرية صدرت عنه،فليخشَ العبد على نفسه من أن ينطق بعبارات أهل البدع والضلال لئلا يتزلق في مهاوي الردى، ومجانح الضَّلال.

وممن أجاب على تلك الشبهة الإمام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ حيث قال:(الدعاء والتوكل والعمــل الصالح، سبب في حصول المدعو به من خير الدنيا والآخرة والمعاصي سبب، والحكم المعلق بالســبب قد يحتاج إلى وجود الشرط وانتفاء الموانع، فإذا حصل ذلك حصل المسبب بلا ريب" ـــ ثمَّ قال بعــد مناقشة عقدية لتلك الشبهةـــ(وقد أجيب بجواب آخر وهو أنَّ الله ــتعالى ــ إذا قدَّر أمراً فإنَّه،يقــدر أسبابه ، والدعاء من جملة أسبابه، كما أنَّه لَّما قدَّر النصر يوم بدر وأخبر النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قبل وقوعه أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي ـــ صلَّى الله عليــه وسلم ـــ ودعاؤه، وكذلك ما وعده به ربُّه من الوسيلة، وقد قضى بها له ، وقد أمر أمَّته بطلبها له ، وهو ــسبحانهــ قدَّرها بأسباب منها ما سيكون من الدعاء)(مجموع الفتاوى١٤/١٤٣ـــ١٤٨).

وبعد أما بعد:

فهل نريد ـــ أخي ـــ أن نكون ممن تنكب طريق الدعاء، وأقبل على الأحاديث السمرية مع الخلَّــان والأصدقاء، ثمَّ نطلب نصراً من الملك العلام، ونحن مفرطين بحقوقه، مضيعين لدعائه؟ فحينها لا بــأس أن نقول كما قال عمر بن الخطَّاب ـــ رضي الله عنه ـــ: "عجباً من جلد الفاجر وعجز المؤمن"!!!

وإذا كان الكفار يتعرفون على ربهم وقت الحروب والمعارك، ويطلب منهم رؤسائهم بالدعاء لأجــل أن ينصروا على المسلمين، فألا يليق بنا أن يكون ذلك منَّا أشدُّ ، والحقيقة المخجلة أنَّ كــثيراً مــن المسلمين نائمون، وقد نشرت مفكرة الإسلام في موقعها بتاريخ١٤٢٤/١/٢٧هـــ، بــأنَّ الــرئيس جورج بوش طلب من جنوده الدعاء له بأن ينتصر على المسلمين ، ووزعت على الآلاف من رجــال مشاة البحرية الأمريكية كتيبات بعنوان(الواجب المسيحي)، وتحتوي تلك الكتيبات علــى أدعيــة ، وعلى جزء يتمُّ نزعه من الكتيب لإرساله بالبريد إلى البيت الأبيض ، ليثبت أنَّ الجندي الذي أرســله كان يصلي من أجل بوش!!

وهكذا هو الصراع الدائم بين قوى الإسلام العظيم، وقوى التحالف الصليبي اليهودي، وكل يســير لمبتغاه، ويعمل لتحقيق هدفه، ولكن...هيهات هيهات فإنَّ العزة والغلبة للمؤمنين ولو طال الطريــق، وامتدت الحروب، فإنَّ دين الإسلام هو الدين الحق، وهو دين الله ، وقد تكفَّل الله بحفظه، وأن يكون

له العلو المطلق على سائر الأديان، وحينئذٍ فلا يأس، ولا قنوط، ولا تأخر، ولا تراجع، فإنَّ الغلبة لله ورسوله وجنده المؤمنين، وقد قال ـتعالىـ: "إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد*يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار" (غافر:٥١) وصدق الله، وكذب الصليبيون.

لكنه النصر القريب

بإذن علّام الغيوب

مهما تواترت الخطوب

والنصر آت فوق أشلاء الكماة المخلصين

النصر آت خلف إمداد الكرام الباذلين

والنصر آت بالدعاء وبالبيان

آت بإذن الله رغم غواية الغاوي وهذرمة الجبان

لكنَّ دورك يا أخي أن تقوم بنصرة دين الله ما استطعت، وبما تقدر، وبكامل وسعك الذي فطرك الله عليه،وكن مع ذلك داعياً، لدينك بأن ينصره الله، ويخذل الكفر وأوليائه، وسبح ربك كثيراً، وكفى بربك هادياً ونصيراً.

وأختم هامساً في أذن كلِّ رجلٍ من رجال الثغور المقدسة بكل حب، وإكبار:

ارفع أكفك يا مجاهد سائلاً *** ما خاب من يرجو الكريم ويطلب

ما خاب من يرجو الإله *** وعوده فالله حقٌ وعده لا يكذب

اسأله ذلَّا للذين تجبروا *** فالله يقصم من يشاء ويعطب

اسأله نصراً كي يعزَّ مجاهد *** واسأله بالتثبيت فهو المطلب

ارفع أكفك يا مجاهد إننا *** بهوى الصبابة في الملاهي نلعب

لا يستوي عند الإله دعاؤنا *** ودعاء من للكرب دوماً يطلب

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت ،أستغفرك وأتوب إليك، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ، والحمد لله رب العالمين،،،

المصدر / موقع المسلم

{ وإن جندنا لهم الغالبون }

د.ناصر بن يحيى الحنيني

الحمدلله القدوس السلام ، ذي العزة والجبروت الذي لا يضام ، الحي القيوم الذي لاينام ، لايعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء الملك العلام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له

شهادةً يقبل بها الإسلام ، وتنال بها العزة والرفعة على كل الأنام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى الجهاد وإحياء ذروة سنام الإسلام ، وعلى آله وأصحابه الأبطال أولي النهى والأحلام ، ومن تبعهم بإحسان وجهاد وإقدام ،إلى يوم يحكم الله فيه بين الأنام أما بعد : أيها المسلمون : الوجوه شاحبة والعيون شاخصة ،والقسمات والملامح مجهدة ، تسمع صراخ النساء وبكاء الأطفال ، وأزيز الطائرات وأصوات القنابل والانفجارات ، الكل يهرع ، الكل يجري ، وكأنك في مشهد من مشاهد يوم القيامة ، في الشوارع ترى الدماء تسيل ، والأشلاء ممزقة ، ورغم كل هذا تسمع صرخات التكبير مدوية ،وسط كل هذه المناظر المؤلمة نرى ضوء الفجر قد بزغ وإذا بالتاريخ يسجل والقنوات تصور وتعرض أعظم البطولات ، وأسمى معاني الفداء والتضحيات، ورغم كل هذا نسمع صوت الأذان مرتفعا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ،وصدق الله إذ يقول :{ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون } التوبة[٣٢]، { يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} الصف[٨]،لا إله الله وحده، نصر عبده و صدق وعده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . سبحانك لا رب غيرك ولا إله سواك ، حكمك نافذ، وأمرك مطاع ولا راد لقضائك، لك الحمد والنعمة والفضل ، أيها المسلمون: رغم ألم المشاهد، وصعوبة المرحلة التي نعيشها ، ولكن والله إن البشائر قد طغت على الخسائر ، والتفاؤل هزم التشاؤم ، وصدق الله إذ يقول ولا أصدق ولا أجل ولا أحكم منه سبحانه :{ وإن جندنا لهم الغالبون } اسمعها

يامؤمن ياعبدالله وتأملها وخذها بشارة من ربك، بشارة من الذي يدبر الكون ،ويصرف الأمور من الذي إذا قال للشيء كن فيكون { وإن جندنا لهم الغالبون } ولنا مع الأحداث وقفات وعبر ودروس وبشائر ، ولنقف نحن وإياكم ولنتنعم بهذه الهبات والعطايا الربانية، ونستبشر وإياكم بهذه البشائر الإلهية، فإياك إياك أن يتسلل اليأس إلى نفسك ،أو يتملك الحزن والقنوط قلبك ،وثق بربك وأحسن الظن به فهو عند حسن ظن عبده به ونحن يارب لا نظن فيك إلا خيراً، إسمع إلى ما يبشرك به ربك ومولاك نعم أنت أريد يامن هويتك الإسلام وشعارك القرآن وقدوتك محمد خير الأنام :

البشارة الأولى : الحقيقة التي لا تتبدل، والحق الذي لا يتغير والبشارة التي لاتزول ما أخبر الله به في كتابه في غير موضع حيث : يقول ربنا جل وعلا : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) غافر [٥١]، ويقول سبحانه : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) آل عمران[١٦٠، ويقول المولى جل شأنه:(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) الحج [٤٠]، ويقول سبحانه : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ، ويقول جل وعلا: (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) الصف[١٣]،وقال سبحانه لنبيه الكريم : (وينصرك الله نصراً عزيزاً) الفتح

[٣]، ويقول سبحانه مسلياً أنبياءه وأولياءه : (فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتـــاهم نصـــرنا) الأنعام [٣٤]، وقال سبحانه عن الحال التي قد تصل بالأنبياء من الشدة والبلاء : (حتى إذا اســـتيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله) يوسف [١١٠]،ويقول ســـبحانه : (والله يؤيد بنصره من يشاء) آل عمران[١٣]،ويقول سبحانه عن الحقيقة التي لا يجوز أن تغيـــب عن أذهاننا : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون،وإن جندنا لهـــم الغـــالبون) الصافات[١٧١-١٧٣]

أبعد هذا يمكن أن يداخلك شك، فاستعد فإن النصر قد قرب والفجر قد بزغ { إن رحمت الله قريب من المحسنين }

البشارة الثانية : ما شاهدناه وشاهده كل العالم من بطولات أحفاد سعد والمثنى الذين أعادوا لنـــا ربى حطين والقادسية واليرموك ، لكم الله يا أبطال الفلوجة ياغرة الزمان وياشامة الإسلام ، يامن رفعـــتم جبين الأمة ، إننا نكاد أن نذوب خجلا وحياء من هذه البطولات التي فاقت كل التصورات وكـــل تحليلات المحللين وتوقعات المنظرين والمخططين ، هذه البطولات التي أخرســـت الألســـنة اليائســـة والنفوسَ المريضة ، والقلوب الضعيفة ، كم هي فرحتنا وأنتم تنتقمون لنا ممن ظلمنـــا ،ممـــن هتـــك الأعراض وخرب الديار وسرق الخيرات وجعل الأرض كلها بوار ، لقد ثأرتم لكل أب مظلوم لكـــل حر أبي مكلوم، ثأرتم ورب الكعبة فأطفئتم الحسرة والحرقة في الفتاة التي هتك عرضها ونيـــل مـــن كرامتها ،لقد مرغتم كرامة أمريكا وأذهبتم هيبة أمريكا، وكسرتم حاجز الخوف من حامية الصليب، أنكم أعطيتم الدرس واضحا للجيوش النظامية التي لم تحرك ساكنا ولم تحم وطنا ولم ترع ذمما ، بكم ياغرة الزمان تصنع الأمجاد وعلى أيديكم تتعلم الشعوب معنى العزة والكرامة، لقد أعطيتمونا الـــدرس العظيم الذي لن ننساه بأن حياة العز والشرف خير من حياة الذل مع الترف ، يا أبطال الفلوجـــة إن بطولاتكم فضحت وعرت الممارسات الرخيصة والقذرة في إعلامنا العربي عذرا أيها الأبطـــال أنـــتم تصنعون التاريخ ونحن نقدم البرامج التي تجعلنا في زبالة التاريخ ، عذراً أيها الأبطـــال كـــاد اليـــأس والإحباط أن يذهب بحشاشات القلوب ونحن نشاهد العبث الذي أجمعت عليه القنوات الفضـــائية في زمن قل فيه الإجماع فإذا بكم تبعثون الأمل وترسلون الرسالة بالأفعـــال لا بـــالأقوال ،إن في الأمـــة رجال، إن في الأمة أبطال يدافعون عن الدين والعرض والأرض والمقدسات ،.

يا أبطال الفلوجة ياأبطال العراق الأباة لقد أعطيتمونا درساً في معنى الإيمان الصحيح الإيمان الحق :{ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذي آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً }

يا أبطال العراق : لئن فاتكم شيء من الدنيا ولم تتمعتوا بها، لئن لم تحوزوا على أوسمة الخيانة والـــذل التي أعطاها المحتل للخونة من بني جلدتكم فلن يفوتكم الوسام الذي أعطاكموه ربكم إذ يقول مبينـــا مترلتكم ودرجتكم :{ لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهـــدون في ســـبيل الله

بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً }

البشارة الثالثة : كم من نعمة يسديها العدو لكم وهو لا يشعر ، لو قيل لأمريكا نريدكم أن تدربوا أبناء العراق على الجهاد والقتال والصبر وتحمل الأعباء لمدة طويلة حتى يستطيعوا أن يقاوموا المحتل ، هل تتصورون أن يتجاوبوا معكم ، إن المتأمل في واقع خطط الأعداء في القديم والحديث هو إغراق الشعوب في الملذات والملهيات والشهوات حتى تغدوا كالقطعان السائمة التي لا تعرف معروفا ولاتنكر منكرا ، تغدوا شعوبا لا هم لها إلا الترفيه والتسلية كم تنفق أمريكا وربيبتها دولة يهود على إضلال الشعوب فهذا سلاحهم وطبعهم منذ القديم ، فنحن إلى الآن مازلنا نتابع البرامج التي تعرض الرذيلة في أقبح صورها وتهدم الفضيلة بأحط الأساليب وأرذلها ، وصدق الله إذ يقول :{ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيم} النساء[٢٧]، فيا أبطال العراق لقد أعطاكم عدوكم دورة تدريبية مكثفة على شظف العيش فخرجتم أبطال الميادين ، وصناع النصر، لقد حاصركم العدو ومنع منكم الغذاء والدواء فتربيتم على عين الله فخرجتم أقسى ما تكونون على عدوكم ، وأصبر ما يتصوره منكم عباد الصليب وأحفاد القردة والخنازير ، لقد حاصركم فأصبح الموت أسمى أمانيكم ، والجنة أغلى مطالبكم، فلله كما هي تلك الأحداث في ظاهرها نقم ومحن، وفي حقيقتها نعم لا تقدر بثمن { ويمكرون ويمكر الله وهو خير الماكرين }.

البشارة الرابعة : لقد عجزت وسائلنا الإعلامية بل تعاجزت عن فضح أمريكا وإبداء وجهها الكالح ، عجزنا عن تعريتهم وبيان حقيقة حضارتهم التي يزعمون ،وأنهم في حقيقة الأمر برابرة همج لا يراعون طفلا صغيرا ،ولا شيخا كبيرا ،ولا امرأة ضعيفة، لقد نُزعت الرحمة من قلوبهم، فالمساكن تدك على رؤوس العزل من أصحابها ،والمساجد تهدم على الآمنين المطمئنين في جوار ربهم ، أي حضارة التي تبشر بها أمريكا ؟وهي تستخدم الأسلحة والقنابل المحرمة دولياً ، أي نظام تحترم ؟وأي شعوب تقدر؟ وأي عدالة تدعوا لها؟ وأي حقوق تريد؟ ، يا أبطال العراق : لقد غيرتم وسائل الإعلام رغماً عنها فجعلتموها تفضح الحضارة الأمريكية وتعريها للعالم عبر عدسات المصورين وهم يشاهدون همج المبشرين بالدين المحرف المكذوب على المسيح عليه السلام ، فإذا بالعالم يزداد قناعة بفشل المشروع الأمريكي التي تبشر به حامية الصليب وعباد الشهوات، ليس بمستغرب من عدونا أن يفعل هذا فهذا هو الأصل فيهم كما أخبرنا جل وعلا بقوله :{ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة } ، إن عجبنا لا ينقضي من المنافقين المندسين بين صفوفنا الذين يتكلمون بألستنا ويحملون أسماء المسلمين ، ويعيشون بيننا فهذا أحدهم يقول إنه : (يستبشر بقدوم أمريكا للمنطقة لانها سوف تحرك عجلة التغيير والتقدم في المنطقة) فنقول له أبشر ما يحدث في العراق هو التقدم والتغيير الذي تريدون؟ تباً لهذه العقول وتباً

لهذه الوقاحة وتباً لهذه الزندقة والنفاق وصدق الله إذ يقول { ولتعرفنهم في لحن القول } وصدق الله إذ يقول :{ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر }.

البشارة الخامسة : لقد أفشلتم مخططات عدونا في المنطقة وأخرتم مشاريعها التغريبية والتوسعية ، إنـــه يعيش تخبطاً وارتباكاً لم تعشها أمريكا ولا حتى في حربها مع فيتنام التي هزمت فيهـــا فالهزيمـــة الـــتي تعيشها الآن لها نكهة أخرى يتلذذ بها الأحرار المؤمنون ولا يشعر بها إلا من كان قلبه معظمـــا لربـــه ومولاه محبا للمؤمنين مبغضا لأعداء الملة والدين ، يا أبطال العراق : إن النصر الحقيقي هو في ثباتكم على مبادئكم وليس في نصر يكون بالتنازل عن الدين والمبادئ،إن حقيقة النصر أن لا يستطيع العدو أن يحقق أهدافه ويرجع خائباً خاسراً على عقبيه ، فهاهو لم يستطع أن يتنعم النفظ الذي كان يحلم به ، ولا بالاستثمارات التي كان يتمناها ، ولا بالتوسع الذي كان ينشده ، يا أبطال العراق تذكروا قول ربكم فهو تسلية لكم وتطييباً لنفوسكم { إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون } ، وتذكروا قول ربكم ومولاكم { ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعـــون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتدون } أقول ما تســـمعون وأســـتغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

أمة لن تموت

الدكتور / راغب السر جاني
www.islamstory.com

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومـــن ســـيئات أعمالنا ، إنه من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الله وحـــده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

فإن الناظر إلي بلاد المسلمين يجد أن كثيراً من أبناء المسلمين قد أصابهم الإحباط من واقع المسلمين ، ويأسوا من أن تقوم لأمة الإسلام قائمة من جديد. كثير من أبناء المســـلمين يعتقـــدون أن ســـيادة المسلمين للعالم كانت تاريخاً مضى ، وأن المستقبل قد يكون للشرق أو للغرب، ولكـــن حتمـــا – أو غالبا – ليس للمسلمين ، وأكثر هذه الطائفة تفاؤلاً يعتقد أنه لو كان الإسلام سيعود مـــن جديـــد لصدارة الأمم ، فإن هذا لن يكون إلا بعد عمر مديد، وأجل بعيد ، لا نراه نحـــن ولا أبناؤنـــا ، ولا حتى أحفادنا.

في هذا الجو من الإحباط واليأس ، يستحيل علي المسلمين أن يفكروا في قضية فلسطين أو الشيشان أو كشمير أو العراق أو أفغانستان أو غيرها ، فضلا عن أن يسهموا في حلها ، ومن ثم فإن حديثنا في هذا الكتاب سيتناول وسيلة هامة من وسائل بناء هذه الأمة، ألا وهي زرع الأمل في نفوس المسلمين ، ومحو الإحباط الذي سيطر على طوائف شتى من الأمة الإسلامية، وبالذات الشباب منهم..

وقد قسمت الكتاب إلى بابين رئيسيين. أما الباب الأول فهو بعنوان: "لماذا أحبط المسلمون؟" ، وأتحدث فيه عن الأسباب التي أدت إلى إحباط المسلمين. وأما الباب الثاني فهو بعنوان: "أمة لن تموت" وأتحدث فيه عن عشر حقائق هامة، تشير جميعها إلى أن هذه الأمة فعلاً لن تموت!

والكتاب في مجموعه دعوة للأمل...

الأمل في قيام جديد... الأمل في سيادة و تمكين... الأمل في نصر و صدارة...

الأمل في أن تستعيد هذه الأمة مكانتها الطبيعية بين الأمم... تلك المكانة التي أرادها الله لها ، وما ذلك على الله بعزيز......

وأسأل الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي و حسناتكم أجمعين..

والآن مع صفحات الكتاب...

الباب الأول

لماذا أحبط المسلمون؟

إنه لمن العجب حقاً أن تحبط أمة تملك كتاباً مثل القرآن ، وحديثاً مثل حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم.. وإنه لمن العجب حقاً أن ييأس شعب له تاريخ مثل تاريخ المسلمين ، وله رجال أمثال رجال المسلمين.. وإنه لمن العجب حقاً أن يقنط قوم يملكون مقدرات كمقدرات المسلمين ، وكنوزاً مثل كنوز المسلمين. عجيب حقا أن تقنط هذه الأمة وقد قال ربها في كتابه: "قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون".. لكنها حقيقة مشاهدة ، وواقع لا ينكر. والواقع أن غياب الأمل ، وضياع الحلم، وانحطاط الهدف ، كارثة مروعة حلت على المسلمين ، ومصيبة مهولة لا يرجى في وجودها نجاة. لابد أن الذي زرع اليأس في قلوب بعض المسلمين أمر تعاظم في النفوس الواهنة ، وحدث أكبرته القلوب الضعيفة ، فخضعت خضوعاً مذلاً حين كان يرجى لها الانتفاض ، وركعت ركوعاً مخزياً حين كان يرجى لها القيام.

لابد أن نقف وقفات ووقفات ، لنحلل وندرس ونفقه:

لماذا صرنا إلى ما صرنا إليه؟!! وكيف السبيل لقيام وسيادة وصدارة ومجد؟

أما لماذا صرنا إلى هذا الوضع فهذا يرجع إلى عوامل عديدة ، وتراكمات مختلفة ، نستطيع أن نقسمها إلى قسمين كبيرين: القسم الأول هو واقع صنعه المسلمون بأيديهم لما فرطوا في دين الله ، وابتعدوا

عن منهج الله ، واستهانوا — وأحياناُ تحالفوا !!- بأعداء الله. أما القسم الثاني فهو مـــؤامرة بشـــعة ، نسجت خيوطها على مدار أعوام طويلة ، وتعاون على التخطيط لها طوائف مختلفة من أعداء الأمة.

أولاً الواقع الذي يعيشه المسلمون:

(١)ـــ الواقع الذي يعيشه المسلمون من هزائم متكررة بدءاً من سقوط الخلافة العثمانية ومن ســـقوط فلسطين وإعلان إسرائيل في١٩٤٨ ومن هزيمة مرة في ١٩٥٦- لولا الرئيس الأمريكي أيزنهاور الذي جعل المسلمين يصورون الحدث وكأنه نصر، بل ويحتفل به بعد ذلك! - ومـــروراً بنكســـة ١٩٦٧ وتدمير الجيش المصري والسوري وضرب كل المطارات - حتى المطارات الداخلية جدا مثـــل المنيـــا والأقصر والغردقة وأبو صوير - في هزيمة كبيرة منكرة. حتى نصر أكتوبر ١٩٧٣ - والـــذي كـــان نصراً مجيدا حقا - أتبع بثغرة مرة ، وبوقف لإطلاق النار ، وبخسارة سريعة لمكاسب هائلة.

(٢)ـــ الواقع الذي يعيشه المسلمون من خيانات مستمرة في أطراف كثيرة متفرقة من العالم الإسلامي ، أدت إلى ضياع البلاد والعباد ، وأدت إلى غياب القدوة ، وفقد الثقة في كل من يقود.

(٣)ـــ الواقع الذي يعيشه المسلمون من إباحية في وسائل الإعلام الرسمية وغير الرسمية ، ومجاهرة بكل فسق ومجون وانحلال ، وافتخار بكثير من الموبقات ، وإهمال لمشاعر أمة كاملة عاشت قروناً وهـــي تحترم كل قانون إسلامي ، وكل أدب إسلامي ، وكل عرف إسلامي.

(٤)ـــ الواقع الذي يعيشه المسلمون من سرقات وإحتيالات ، ورشوة وفساد ، و هروب بمليارات من أموال المسلمين ، بينما يتضور بعضهم — أو كثير منهم — جوعاً.

(٥)ـــ الواقع الذي يعيشه المسلمون من انهيار للإقتصاد، وديون متراكمـــة، وإفلاســـات مشـــهرة ، وسيطرة هائلة للإقتصاد الأجنبي على معظم مقاليد الأمور في البلاد الإســـلامية ، واتســـاع مهـــول للفجوة بين طائفة الأغنياء القليلة جداً وبين طائفة الفقراء - أو المعدمين — عظيمة الاتساع.

(٦)ـــ الواقع الذي يعيشه المسلمون من فرقة وتناحر وتشاحن بين المسلمين ، حتى قل أن تجد قطرين متجاورين لا يتنازعان على الحدود والأفكار و أحياناً على العقائد. بل وقد يمتد الصراع أحياناً — أو كثيراً - بين المتمسكين بهذا الدين من أبناء المسلمين.

هذا الواقع يورث في نفوس بعض المسلمين - أو في نفوس كثير من المســـلمين - إحباطـــاً ويأســـاً يشعرون معه أن القيام من جديد - إن لم يكن صعباً - فهو من ضروب المستحيل.

ثانياً: المؤامرة الفكرية على الإسلام:ـــ

والمؤامرة على الإسلام قديمة جداً وطويلة جداً وذات أبعاد كثيرة ، وليس المجال متسعاُ لشرح أبعـــاد المؤامرة بالكامل ، ولكن ما يهمنا في هذا المقام هو الحديث — بإيجاز - عن أحد أبعاد هذه المـــؤامرة وهو البعد الفكري منها.

لقد دأبت طوائف شتى من أعداء الأمة على العمل على انحراف أفكار الأمة عن الفكــر الإســلامي الصحيح ، ومن ثم تفقد الأمة المقياس السليم للحكم على الأمور. وكان أحد الأهــداف الواضــحة والمحددة لهذه المؤامرة هو زرع بذور اليأس في قلوب المسلمين ، وإقناعهم باستحالة النهوض من هذه الكبوة التي وقعوا فيها.

لكن بداية ، من هم هؤلاء المتآمرون على الإسلام؟!

لقد اشترك في هذه المؤامرة الكثيرون:

(١)ــ المستشرقون: وهم طائفة من العلماء الأوربيين، أكل الغل قلوب معظمهم، وحــرق الحقــد صدور غالبيتهم، وأعمي الحسد بصائر جلهم، فجاءوا يتعلمون الإسلام، ويدرسون تاريخه ورجالــه ومنهجه، لا ليهتدوا بهداه، ولكن ليطعنوا فيه، وليلبسوا على المسلمين دينهم.. انتشــرت كتبــهم، وعمت أفكارهم، وطغى تحليلهم، وباتوا شوكة حامية في حلق المسلمين.

(٢)ــ المستغربون: لقد تبع هؤلاء المستشرقين طائفة أخرى يحلو لي أن أسميها طائفة المستغربين. وهم من أبناء المسلمين الذين فتنوا بالغرب، وتاقت نفوسهم إليه، واستغل الغرب الفرصة، ومــدوا إلــيهم أيديهم بالسوء ، وصنعوهم على أعينهم ، ودسوا في عقولهم أفكارهم، ثم أعــادوهم إلى أوطــانهم.. يحبطون أبناء جلدتهم، ويشككونهم في دينهم، ويقنطونهم من القيام إلا بإتباع الغرب، حتى إن بعضهم كان يقول إن بلادنا لن تتقدم إلا إذا نقلت ما في لندن وباريس، بحلوه ومــره، وبحســنه وســيئه، وبمعروفه ومنكره!!..لقد ذهب أحدهم – وهو من أبناء الأزهر الحافظين للقرآن – إلى فرنسا فــتعلم هناك، ثم عاد إلى بلاد المسلمين، يعلم تلامذته أن ينقدوا القرآن الكريم.. فهذه آية قوية، وهذه آيــة ضعيفة.."كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً" وكان يقول لتلامذته ليس معــنى أن القرآن ذكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن هذا أمر حقيقي!!.. لابد من برهان مــادي.. وكان يقول لتلامذته إن الآيات المدنية أكثر نضجاً من المكية!!، وكأن هذا من تراكم الخبرة "تعــالى الله عما يصفون".. وكان يكتب كتباً عن الصحابة – وبالذات في زمن الفتنة – فيطعن في كل مــن استطاع بلا خجل ولا مواربة، ثم إذا به يترقى في المناصب حتى يصبح وزيراً للتعليم!، يــربي ويعلــم ملايين التلاميذ.. وهكذا أصبح الشيخ الأزهري من دعاة العلمانية والإحباط، والأزهر منهم براء..

(٣)ــ المستعمرون: اشترك أيضا في مؤامرة الإحباط المستعمرون الذين جثموا على صــدور الأمــة عشرات السنين، أذاقوها من العذاب ألواناً.. في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وليبيا والجزائر وتونس والمغرب واليمن والسودان والعراق والكويت و في كل بلاد المسلمين.

(٤)ــ بعض الحكام: اشترك في المؤامرة أيضاً بعض الحكام المسلمين الذين أقنعوا شعوبهم أنهم لا طاقة لهم اليوم بجالوت وجنوده..ولا سبيل لحرب الدول " الكبرى" ..وأنهم إن لم يكونوا تبعاً لهذا فليكونوا تبعاً لذاك..وأن الفجوة بيننا وبينهم لا تعد بالسنين بل بالقرون..

(٥)ـــ السلبيون من المسلمين: وهي طائفة كبيرة قد تدرك الحق لكنها لا تعمل لـــه، وقـــد تعـــرف المعروف ولكنها لا تأمر به، وقد ترى المنكر ولكنها لا تنهى عنه..إنهم ينتظرون إما حلاً من السماء ، أو من غيرهم من أهل الأرض!!..ليس لهم عمل إلا الانتقاص من غيرهم ، ونقد العـــاملين الحـــاملين للواء هذا الدين..

ماذا فعلت هذه الطوائف الهمجية؟!

لقد فعلوا جرائم عدة ، فعلى سبيل المثال:

(١)ـــ جريمة تزوير التاريخ: وهي جريمة بشعة لا يتسع المجال للخـــوض في تفصـــيلاتها الآن ، وقـــد أفردت لها محاضرة خاصة..لقد كذبوا وزورا، والتقطوا الضعيف والموضوع، وأعرضوا عن الصـــحيح والحسن، ونقبوا عن المصائب ـــ ولابد أن في تاريخ كل أمة مصائب ـــ وتركوا الأمجاد والفضائل.. ركزوا على الجوانب السياسية بمشكلاتها، وأغفلوا الجوانب الأخلاقية والعلمية والمعمارية والعسكرية والاقتصادية والفكرية والأدبية وغيرها من جوانب الحضارة.. أساءوا التأويل عن عمد، وطعنـــوا في الشرفاء عن قصد، فخرج التاريخ إلينا مسخاً مشوهاً، يستحي منه الكثير، ويتناساه الأكثر، واقتنـــع المعظم بأنه إذا كان السابقون الأولون علي هذه الشاكلة، فكيف يرجى خير ممن لحق!!..لقد كانـــت حقاً جريمة كبرى!!!

(٢)ـــ جريمة تشويه الواقع: فهم طمسوا تاريخ المسلمين المشرق، فليطمسوا واقعهـــم وحاضـــرهم.. فليشترك المربون والإعلاميون من المستغربين في تغييب الأمة ، وزرع اليأس في القلوب ، وليســـاعد الإعلام الغربي في هذه المهمة ، فتسمى الأشياء بغير أسمائها ، فلـــيكن الالتـــزام بالإســـلام مرادفـــاً للإرهاب!!، وليكن الحجاب مرادفاً للتزمت!!، وليكن تطبيق الشرع مرادفـــاً للرجعيـــة والجمـــود والتخلف.. إذا أجرم مسلم في الغرب قالوا أجرم مسلم ، وكذلك إذا أجرم مسلم ملتزم بإســـلامه في بلاد المسلمين ذكروه بصفته الإسلامية..أما إذا أجرم نصراني فإنهم يذكرونه باسمه لا بدينه!.. كما في حادث تفجير "أكلاهوما" المشهور في أمريكا سنة ١٩٩٥ حيث قالوا فعلها المسلمون، فلما تـــبين أن الذي فعلها نصراني قالوا فعلها "مكفاي" باسمه لا بديانته!! .. إذا أساء مسلم قالوا أساء مســـلم، وإذا نبغ مسلم في علمه قالوا نبغ مصري أو سوري أو باكستاني، وصفوه بقوميتـــه .. وآه مـــن تصـــوير الملتزمين بالإسلام في وسائل الإعلام!!..كم من المرات يأتون بالشيخ أو المأذون في صـــورة هزليـــة مضحكة!!.. كم من المرات يأتون بالمسلمين في الأفلام التي يطلقون عليها إسلامية وهم في صـــوره عجيبة!!.. ينظرون نظرات حالمة، وأبصارهم معلقه بالسماء، ويبتسمون في بلاهة، ويتحركون ببطيء شديد، وكأن الإنسان إذا أسلم لابد أن يتخلف عقليا بهذه الصورة!!.. كم من المرات يـــأتون بمـــن التزم طريق الإسلام ينقلب من الحديث بالعامية إلى الحديث بالعربية الفصحى، وليتها الفصحى الرائعة التي أنزل الله بها القرآن ، والتي تحدث بها خير البشر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم يأتون

بالمسلمين يتحدثون العربية في تنطع وتقعر شديدين، والذين حوله من الناس لا يفهمون، وينظـــرون إليه مستنكرين.. سبحان الله!!.. مع أن اللغة العربية من أرقي - بل هي أرقى - لغات العالم أجمع.

(٣) جريمة تعظيم الغرب: فبعد أن حطموا النماذج الإسلامية في التاريخ والواقع رفعوا لك جدا مـــن قيمة الغرب، حتى لا يبقي أمامك خيار إلا الإتباع الذليل، والتقليد الأعمى.. عظموا سلاح الغـــرب، ومدنية الغرب، وأخلاق الغرب، وعقل الغرب، وأدب الغرب، وفن الغرب، بل وعظموا لغة الغرب.. حتى افتتن المسلمون.. وأصبح الرجل يحرص على تعليم الإنجليزية لابنه أكثر من حرصه على العربية، وحتى تدرج الأمر بنا إلى أن ابتلينا بما أطلقوا عليه مدارس إسلامية "اللغات"!!!، بحجة أننا يجـــب أن نعلم أبناءنا لغة الغرب لندعوهم إلى الإسلام!! أتتعلمها علي حساب لغتـــك؟ وبحجـــة أن الأعمـــال المرموقة لابد لها من لغة أجنبية جيدة.. هل على حساب لغة القرآن؟!.. وحتى لو أتيت لابنك بمعلـــم للعربية في البيت ، سيظل الطفل معظماً للغته الأولى في مدرسته..أنا لست ضد تعليم الأطفـــال لغـــة أجنبية "ثانية" ، ولكن بشرط أن تكون فعلاً لغة "ثانية"!!..لا أن ندرس للأطفال العلوم والرياضيات والجغرافيا والتاريخ باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو أي لغة أخرى إلا العربية!!.. هل هـــذا منطق مقبول؟!.. معظم البلاد التي ترجو صدارة تعظم من لغتها، وتقدمها على غيرها.. في فرنسا لو خاطبت رجلاً بالإنجليزية ما رد عليك إلا متأففاً لاعتزازه بلغته.. في ألمانيا كذلك إذا أردت أن تعيش هناك، فلا حديث إلا بالألمانية..بل أكثر من ذلك.. لقد ذهبت إلى المركز الثقافي الأسباني أبحث عـــن بعض الصور الخاصة بتاريخ المسلمين في الأندلس..والله ما وجدت عندهم كتاباً واحداً بالإنجليزيـــة فضلاً عن العربية.. لم أجد إلا كتباً باللغة الأسبانية فقط!!.. وعندما قلت لهـــم إن اللغـــة الأســـبانية محدودة جدا في مصر، وعليهم أن يأتوا بكتب مترجمة حتى نفهمها، قالوا من أراد أن يعرف عنا شيئا فليتعلم لغتنا!!.. هكذا يعتزون بلغتهم المحدودة!!..لقد أدت جريمة تعظيم الغرب إلى فقد الطموح عند الشباب، وضعف الهمم، وهوان العزم، فيصبح

أمل الشاب المسلم في الحياة أن يلقي بوطنه وأهله وراء ظهره، وينطلق إلي بلاد الغرب.. إلى أمريكـــا وأوروبا، ليعيش في جنة الله في أرضه كما يزعمون!!..

وهكذا نتيجة هذه الجرائم والمؤامرات وغيرها أحبط كثير من المسلمين إحباطاً شـــديداً، ورضـــخوا للواقع، وقنعوا بالسير في ذيل الحضارة الغربية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

الباب الثاني

أمة لن تموت

ومع كآبة الواقع ، وضخامة المؤامرة ، وبشاعة الكيد ، فإني أعود من جديد وأتعجب.. كيف يمكـــن أن تحبط أمة تمسك في يديها بكتاب القرآن ، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

لقد حفل القرآن العظيم والحديث الشريف بالعشرات — بل المئات – من الحقائق المبشرة التي تؤكد حتمية عودة هذه الأمة لصدارة العالمين.. هذا أمر لا ينكره من يدرك طبيعة هذا الدين ، وطبيعة هذه الأمة.. كل ما نرجوه أن يعود المسلمون لدينهم ، وأن يأخذوه من مصادره الصحيحة لا من مصادر المستشرقين أو المستغربين.. وأن يستمعوا وينصتوا لكلام ربهم ونبيهم ، ولكلام من يثقون بدينهم ويعرفون إسلامهم وأخلاقهم لا لدعاة العلمانية والتحرر من قيود الدين كما يدعون!!

ولقد اخترت لكم عشر حقائق فقط من الحقائق المبشرة ، ومن أراد الزيادة فليعد إلى الكتاب والسنة ، فإن عجائبهما لا تنتهي ، وكنوزهما لا تنقطع!!.. "صنع الله الذي أتقن كل شئ"..

الحقيقة الأولى

سنة التداول

إن هؤلاء الذين قنطوا لم يدركوا طبيعة سنن الله في الأرض ، فالله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل الأيام دولاً بين الناس. قال تعالى: " إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس". فكما تعاني أمة المسلمين من القرح اليوم ، فقد كان هناك أيام عانى فيها الآخرون من القرح، بينما كانت أمة المسلمين في سلامة وعافية. كل الأمم تسود فترة وتتبع غيرها فترات... كل الأمم تقود زمنا وتنقاد لغيرها أزماناً... بل إن كل الأمم تعيش مرة وتموت وتندثر وتختفي مرات، إلا أمة واحدة ، قد تنقاد لغيرها فتره من الفترات ، وقد تتبع غيرها زماناً من الأزمان ، لكنها لا تموت أبدا.... تلك هي أمة الإسلام!!

أين حضارة الرومان؟!

لم يبقي منها إلا أطلال وأبنية..

أين حضارة الإغريق؟!

لم يبقي منها إلا فلسفة فارغة ، ومعابد وثنية

أين حضارة الفرس؟!

ماتت و لم تترك ميراثا..

أين حضارة الفراعنة؟!

بقيت منها جمادات وديار كديار عاد وثمود، وبقيت جثث محنطة وأوراق بالية ، لكن أين الفراعنة؟ إما في بطون القبور ، أو في جوف البحر، حيث ينتظر جنود فرعون الساعة!!

أين التتار وجيوشهم؟!

لم يبق لهم أثر واحد..

أين إنجلترا الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس؟!

إنها تابع ذليل...

أين الإمبراطورية الروسية القيصرية ثم الشيوعية؟!

سقطت سقوطاً مروعا...

وسيأخذ غيرهم دورات ودورات ثم يسقطون، وسيعلو نجمهم فترة ثم يهبطون، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين..

ومن ثم فلا عجب أن ترى أمة ظالمة قد ارتفعت وتكبرت وتجبرت.. إنها في دورة ارتفاع ، ولكنها حتماً لن تخرج عن سنة الله في أرضه وخلقه.. إن مصيرها إلى زوال.. حتماً إلى زوال.. فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً...

الحقيقة الثانية

أمة الإسلام أمة باقية

وإذا كان من سنة الله أن كل الأمم تموت وتندثر ، فإن من سننه كذلك أن أمة الإسلام لها طبيعة مغايرة.. إنها ما سقطت إلا وكان لها بعد السقوط قيام، وما ضعفت إلا وكان لها بعد الضعف قوة، وما ذلت إلا وكان لها بعد الذل عزة!!.

لماذا؟!

لأن طبيعة أمة الإسلام أنها أمة شاهدة على غيرها من الأمم "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً".. حتى الأمم الغابرة – قبل أمة الإسلام – نشهد عليها بما جاء في كتابنا القرآن ، والأمم المعاصرة نشهد عليها بما رأيناه بأعيننا، وقومناه بمنهجنا وأحكامنا وشرعنا، وسنظل نشهد على الأمم إلى يوم القيامة، فنحن باقون ما دامت الحياة ، وغيرنا لا شك مندثر وذاهب.

طبيعة هذه الأمة أنها تحمل الرسالة الخاتمة، والكلمة الأخيرة من الله إلى خلقه، وليس هناك رسول بعد رسولنا صلي الله عليه وسلم ، وليست هناك رسالة بعد الإسلام، فلابد وأن يحفظ الله المسلمين لأجل أهل الأرض جميعاً.

طبيعة هذه الأمة أنها الأمة الوحيدة التي كان من همها أن تعلم غيرها دون ثمن ولا أجر، بل قد يدفع المعلمون المسلمون مالاً، ويبذلون جهدا وعرقاً ووقتاً بل ونفساً حتى يعلموا غيرهم. َمن ِمن الأمم يفعل ذلك غير أمة الإسلام؟! ألم تكن الشعوب تغير علي الشعوب لتأخذ خيرها، وتنهب أرضها، وتقتل أهلها، بينما كان المسلمون يضحون بأرواحهم ليستنقذوا الناس من جحيم الكفر والضلال إلى جنة الإيمان والهدي؟ ألم يقل ربعي بن عامر رضي الله عنه قولاً ما تكرر في التاريخ على ألسنة المتحضرين من الأمم غير أمة الإسلام يوضح فيه الرسالة الإسلامية بإيجاز فيقول" لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة".. هكذا..لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً..

هذه هي طبيعة الأمة الإسلامية.. بقاؤها هو خير الأرض، وذهابها فناء الأرض "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"..

إذا كانت هذه هي طبيعة الأمة الإسلامية ، فلماذا الإحباط واليأس ؟..

الحقيقة الثالثة

حقيقة المعركة

يقول الله سبحانه وتعالى "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"..

آية عظيمة مبهرة!!

يا أخواني وأحبابي: إن كل ما ذكرناه من جرائم ومكائد ومؤامرات وتزوير وتشويه وخيانات وعمالات ونفاق وكذب - كل هذا - يدخل تحت كلمة "ويمكرون".. لكن انظر إلى الجانب الآخر من المقابلة: "ويمكر الله والله خير الماكرين"

فالله عز وجل يقابل مكرهم بمكره.. "وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون"

أيها المسلمون:

إن كان أصابكم شئ من الإحباط فلكونكم لم تفهموا المعركة على حقيقتها، و لم تدركوا الصدام بكامل أبعاده.. إنها ليست حرباً بين المسلمين والكافرين، وإن كان ظاهرها كذلك.. إنما هي في حقيقتها حرب بين الله وبين من مرق عن طريقه، وكفر بعبادته، وارتضى غيره حكماً ، وقبل غير كتابه شرعاً.. هي حرب بين الله، وبين طرف صغير حقير من مخلوقاته سبحانه.. لكن الله من رحمته بالمؤمنين، ومن كرمه عليهم، منّ عليهم بأن جعلهم جنده وحزبه وأولياءه.. فالمؤمنون يقفون أمام الكافرين، ملتزمين بمنهج ربهم في وقوفهم، كما أمرهم يفعلون، لا يترددون ولا يفرون، واثقين بوعده، راغبين في جنته، راهبين لناره، مخلصين له، معتمدين عليه، لاجئين إليه.. إن فعلوا ذلك كان هو ـــ سبحانه جلت قدرته وتعاظمت أسماءه ـــ كان المدافع عنهم، الحامي لهم، المؤيد لقوتهم، الناصر لجيشهم، الناشر لفكرتهم، المنتقم من عدوهم.. واسمعوا وأنصتوا أيها المسلمون لقوله سبحانه وتعالى حتى تفهموا حقيقة المعركة:

" فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"

"إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً"..

" ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون، فأنظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين"..

أيها المسلمون المعتزون بإسلامهم:

هل تعلمون لمن تعملون؟! وإلى أي ركن تأوون؟!

إنكم تعملون لله وتأوون إلي ركن شديد سبحانه!!..

هل إذا جلس المتآمرون في جنح الظلام يدبرون ويخططون ، أهم بعيدون عن عينه سبحانه؟ " يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن في صخرة أو في السماوات أو الأرض ، يأتي بها الله ، إن الله لطيف خبير"

هل إذا أطلق المتآمرون صاروخاً أو رصاصة ، أتسقط بغير علمه سبحانه؟!.. إذا كان يعلم بسقوط أوراق الشجر عبر الزمان والمكان، فكيف بسقوط الصواريخ؟!.. اقرأ هذه الآيات وتدبرها بعناية: "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى، ثم إليه مرجعكم، ثم ينبأكم بما كنتم تعملون، وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكو نن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون، قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون، وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل ، لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون"..

الحقيقة الرابعة

حقيقة البشرى في الكتاب والسنة

أيها المسلمون المعتزون بربهم:

هذا الإله العظيم الجليل الكبير، هذا الإله الرحيم الكريم الودود ، يبشركم في كتابه.. يقول صاحب العزة والجبروت: " وكان حقاً علينا نصر المؤمنين".. هكذا بهذه الصياغة العجيبة المعجزة!! والله لو تنزل من آيات البشرى غيرها لكفت!!.. هذا الإله القادر المقتدر يتعهد بنصر المؤمنين، ويجعله حقاً عليه سبحانه.. ليس هذا نصراً في الآخرة فقط بدخول الجنة، ولكنه نصر في الدنيا كذلك.. قال سبحانه "إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد".. هكذا الوعد: نصر في الدارين، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.. إن كان هناك مؤمنون ، فلابد لهم من نصر، هكذا وعد، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.. استمعوا إلى قوله تعالى" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون".. فإذا توفر الإيمان والعمل الصالح والعبادة الخالصة دون الشرك به سبحانه، كان

الاستخلاف في الأرض، وكان التمكين للدين، وكان الأمن بعد الخوف.. من الذي وعد بذلك؟ إنه جبار السماوات والأرض، مالك الملك ذو الجلال والإكرام..

أيها المسلمون:

انظروا إلى هذه الصورة الرائعة الجليلة في غزوة بني النضير يقول سبحانه وتعالى: "هو الـــذي أخـــرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا..(أنتم أيهـــا المؤمنـــون المقاتلون المجاهدون لما رأيتم مناعة الحصون وبأسها ظننتم أن اليهود لن يهزموا) " وظنوا(أي اليهـــود) أنهم مانعتهم حصونهم من الله (ماذا حدث؟) فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقـــذف في قلـــوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين (ثم ما هو التعليق على الحدث؟) فـــاعتبروا يـــا أولي الأبصار".. الغاية من القصة أن نعتبر.. القرآن ليس تأريخاً لما سبق لمجرد التـــأريخ.. القـــرآن كتـــاب عظيم، ينبض بالحياة، ويهدي إلي صراط مستقيم..

أيها المسلمون المعتزون برسولهم صلي الله عليه وسلم:

ألم تسمعوا إلى قول رسولكم وحبيبكم محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقول في الحديث الـــذي رواه الإمام مسلم رحمه الله عن ثوبان رضي الله عنه: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربهـــا ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها".. نعم يا إخواني، سيبلغ ملك المســـلمين مشـــارق الأرض ومغاربها ، بكل ما تحمله الكلمة من معاني...

ألم تسمعوا إلي قول مرشدكم وقدوتكم محمد صلي الله عليه وسلم وهو يقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والطبراني وابن حبان وصححه الألباني عن تميم الداري رضي الله عنه قال سمعت رســـول الله صلي الله عليه سلم يقول: "ليبلغن هذا الأمر (يعني الإسلام) ما بلغ الليل والنهار (أي كل الأرض) ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين (المدر هو الحجر أي بيوت المدن ، والوبر هو الشعر أي بيوت البادية أي كل بيوت الأرض: بيوت المدن وبيوت البادية سيدخلها الإســـلام) بعـــز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر".. وعد من الصادق المصدوق صلى الله عليه سلم.. "وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى"..

بل اسمع وتأمل إلى ما رواه الإمام أحمد وصححه الألباني عن أبي قبيل رحمه الله قال: "كنا عند عبـــد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله نكتـــب إذ سئل رسول الله صلي الله عليه وسلم: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فقـــال مدينـــة هرقل (أي القسطنطينية) تفتح أولاً".. والقسطنطينية هي عاصمة الدولة الرومانية الشرقية آنذاك وهي إستانبول الآن، ورومية هي روما، وكانت عاصمة الدولة الرومانية الغربية، وكانتا معاقل النصـــرانية في العالم، ويفهم من الحديث أن الصحابة كانوا يعلمون منه صلى الله عليه سلم أن هاتين المـــدينتين

ستفتحان، لكن يسألون أي المدينتين تفتح أولاً فبشر رسول الله صلى الله عليه سلم بفتح القسطنطينية أولاً ، وقد كان، وتحققت البشارة النبوية بعد أكثر من ثمانمائة سنة!!.. وبالضبط في ٢٠ جماد الأولى سنة ٨٥٧ هجرية ، على يد الفتى العثماني المجاهد محمد الفاتح رحمه الله، وستحدث البشارة الثانية لا محالة، وسيدخل الإسلام روما عاصمة إيطاليا إن شاء الله تعالى. ولي على هذا الحديث تعليقان:

التعليق الأول: هو أن بعض العلماء يعتقدون أن فتح رومية (أو روما) سيكون بالدعوة إلى الإسلام وبإنشاء المراكز الإسلامية والمساجد فقط، ويستبعدون الفتح عن طريق الجهاد ، والحق أن الحديث لم يشر إلى ذلك، بل أرى أن قصر تفسير فتح رومية على الدعوة دون الجهاد هو نوع من الهزيمة النفسية، فالذي يقول ذلك لا يتخيل أنه بالإمكان أن يحرك المسلمون جيشاً لإيطاليا، فلتكن الدعوة إذن هي التفسير للحديث!.. لكن على العكس من ذلك..فإن سياق الحديث يوحي بأن الفتح سيكون جهاداً.. وسياق الواقع كذلك، فقد فتحت القسطنطينية بعد حلقات متتالية من الجهاد المضني المستمر، وقد تفتح رومية بطريق متشابهة، ولذلك جمعت مع القسطنطينية في حديث واحد، ولتعلمن نبأه بعد حين!!..

التعليق الثاني: هو أن محمد الفاتح رحمه الله كان يعد العدة، ويجهز الجيوش فعلاً لفتح رومية وذلك لاستكمال تحقيق البشارة النبوية، لكنه لم يوفق لذلك، والحق قد تعجبون من قولي هذا: أنني قد سعدت بل وحمدت الله على أنه لم يتم له فتح رومية!!.. لماذا؟! ذلك حتى تبقى بشارة رسول الله صلى الله عليه سلم تبعث الأمل في نفوسنا ، وحتى يبقى لنا شئ نفتحه، وإلا فأين دورنا؟! أليس لنا من دور غير التصفيق لأجدادنا الفاتحين؟!.. أبداً.. نحن إن شاء الله على دربك يا رسول الله سائرون، ولما بقي منك يا محمد الفاتح – إن شاء الله — فاتحون.

الحقيقة الخامسة

حقيقة التاريخ

ليس وعد رسول الله صلى الله عليه سلم بمدينتين فقط: القسطنطينية ورومية، فقد وعد كما ذكرنا بفتح الأرض جميعاً ، ووعد ربنا بنصر المؤمنين، ولقد رأينا ذلك كثيراً في صفحات تاريخنا، لا أقول أياماً أو شهوراً أو سنوات، بل رأيناه قروناً عديدة.

لقد كان المسلمون ينتصرون دائماً وهم أقل عدداً وعدة:

* انتصر المسلمون علي عدوهم في بدر، مع فارق العدد والعدة، انظروا إلى وصفه سبحانه: " ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون"

* انتصر المسلمون في موقعة اليمامة باثني عشر ألفاً من المجاهدين على أربعين ألفاً (على الأقل) من المرتدين..

* فتح خالد بن الوليد رضي الله عنه العراق بثمانية عشر ألفاً من الرجال الأبطال ، فدك حصون الفرس في خمس عشرة موقعة متتالية دون هزيمة ، وكان أقل جيوش الفرس تبلغ ستين ألفاً ، ووصلت إلى مائة وعشرين ألفاً في موقعة الفراض.

* انتصر المسلمون المجاهدون في موقعة القادسية باثنين وثلاثين ألفاً من الرجال الأفذاذ على مائتين وأربعين ألفاً من الفرس ، وكانت موقعة فاصلة كسرت فيها شوكة الفرس ، وقتل فيها معظم قادة الجيش الفارسي.

* انتصر المسلمون المؤمنون في موقعة نهاوند بثلاثين ألفاً على مائة وخمسين ألفاً من الفرس..

* انتصر المسلمون الصابرون في حصار تستر بثلاثين ألفاً على مائة وخمسين ألفاً من الفرس،وقد تكرر القتال أثناء ذلك الحصار ثمانين مرة ، وانتصر فيها المسلمون جميعاً دون هزيمة واحدة!!!..

* انتصر المسلمون في اليرموك بتسعة وثلاثين ألفاً على مائتي ألفاً من الرومان..

* انتصر المسلمون في معركة وادي برباط في فتح الأندلس باثني عشر ألف رجل على مائة ألف قوطي أسباني..

لقد رأينا ذلك وأمثاله مئات - بل آلاف - من المرات.. وما هذا الذي ذكرته إلا مقتطفات يسيرة من سفر الإسلام الضخم!!.. اقرءوا التاريخ يا إخواني.. فوالله الذي لا إله إلا هو ، لا يوجد تاريخ في الأرض مثل تاريخ المسلمين، ولا يوجد دين مثل دين المسلمين، ولا يوجد رجال مثل رجال المسلمين..

وحتى السقطات التي كانت في تاريخ المسلمين اتبعت بقيام أقوى وأشد، وتعالوا نقلب صفحات قلائل:

* بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ارتدت الجزيرة العربية بكاملها إلا ثلاث مدن وقرية: المدينة ومكة والطائف وقرية هجر بالبحرين، ولم تكن الردة - كما يعتقد البعض - بمنع الزكاة فقط، بل ارتد كثير عن الإسلام بالكلية، ومنهم من فتن المسلمين في دينهم، ومنهم من قتل المسلمين، بل إن منهم من ادعى النبوة، وليسوا بالقليلين، وعمّ الكفر جزيرة العرب، ويأس بعض الصحابة!! فكان الموقف أشد مما نحن فيه الآن ألف مرة، حتى قال بعضهم يا خليفة رسول الله لا طاقة لنا بحرب العرب جميعاً، الزم بيتك وأغلق عليك بابك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين، وهكذا ظنوا أنه لا أمل في القيام، لكن الله عز وجل منّ على المسلمين بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، الذي قام كالأسد الهصور، يردد قولة لو قالها المسلمون لسادوا الدنيا جميعاً.. قال: "أينقص الدين وأنا حي؟" كلمة عظيمة جداً.. "أينقص الدين وأنا حي؟.. أقاتلهم وحدي حتى تنفرد سالفتي" (حتى تقطع رقبتي).. وقام الصديق رضي الله عنه وقام معه المسلمون، فما هو إلا عام من الجهاد والقتال والنزال، حتى أشرقت الأرض من جديد بنور ربها، وأسلمت الجزيرة العربية بكاملها، بل وأخذ أبو بكر الصديق قراراً أحسب أنه

أعجب قرار في التاريخ!! وهو إخراج جيشين من جزيرة العرب: جيش لفتح بلاد فــارس، وجــيش لفتح بلاد الروم...!! عجبا لك أيها الجبل!!.. دولة صغيرة خارجة من حرب أهلية مدمرة تواجــه دولتين تقتسمان العالم فارس والروم!! لكنه موعود.." وكان حقا علينا نصر المــؤمنين"، ويفــتح الله عليه الدولتين، وتكون انتصارات بلا هزائم، وتمكين بلا ضعف، وأمن بلا خوف!!...

* أسمعتم يا إخواني عن ملوك الطوائف في بلاد الأندلس؟ أرأيتم كيف قســمت بــلاد الأنــدلس في عهدهم إلى أكثر من عشرين دويلة صغيرة متناحرة؟!، أرأيتم العمالة والخيانة والخزي والعار؟! أرأيتم السفه والمجون والخلاعة والانحلال؟ ثم أرأيتم ما شابه ذلك في بــلاد المغــرب والجزائــر والســنغال وموريتانيا في قبائل البربر آنذاك؟ أرأيتم الزنا كيف فشا؟! والخمور كيف انتشرت؟ أرأيتم الســلب والنهب كيف طغى على الأرض؟ ثم ماذا حدث؟ لقد تغير الوضع تماماً في سنوات معــدودات فيمــا يشبه المعجزة!! كيف؟! لقد جاء رجل!! رجل واحد!! هو الشيخ عبد الله بن يس رحمه الله ، جــاء يدعو إلى الله على بصيرة، جاء يربي ويعلم ويجاهد و يصابر، فإذا الرجل رجلين ، والرجلان أربعــة، والأربعة ألف وألفين وعشرة آلاف، وإذا البلاد تفتح، والإسلام ينتشر، وإذا بدولة المرابطين تقــوم، وإذا برجال وكأنهم ملائكة يوسف بن تاشفين وأبو بكر بن عمر رحمهمــا الله يعلمــان ويربيــان ويجاهدان ويصابران، فإذا بالدولة تتسع، والخير يعم، ويدخل في الإسلام ثلث أفريقيــا!!.. ويصــبح الجيش مائة ألف فارس في الشمال، وخمسمائة ألف جندي في الجنــوب، وإذا بــالجيوش تعــبر إلى الأندلس، فتعيد البسمة إلى شفاه المسلمين، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتذهب غيظ قلوبهم، وتذل الشرك وأهله، وتعز الإسلام وحزبه، وينصرها الله في "موقعة الزلاقة" بثلاثين ألفاً من الأبطال يهلكون ستين ألفاً من القوط الأسبان!.. أرأيتم كيف تكون طاقة الإسلام؟ أرأيتم كيــف يكــون رجــال الإسلام؟ أرأيتم كيف يكون شرع الإسلام؟

* ولماذا نذهب بعيدا؟ هل آتاكم نبأ فلسطين؟! لماذا الجزع من احتلال دام خمسين سنة؟ ألم تســمعوا عن حملات الصليبيين التسعة البشعة؟ ألم تعلموا أنهم مكثوا في أرض فلسطين محتلين مائتين من السنين؟ وفي بيت المقدس اثنين وتسعين سنة؟ ألم تقرءوا أنهم قتلوا في بيت المقدس سبعين ألفاً من المسلمين في يوم واحد؟! وكانوا يسيرون في دماء المسلمين إلى ركبهم؟

ثم ألم ترى كيف فعل ربك بالصليبيين؟!.. دارت دورتهم في التاريخ ، وانتهت دولتهم البشعة القذرة، وقام رجال متوضئون متطهرون، قارئون لكتابهم، خاشعون في صلاتهم، حاملون لسيوفهم، معتمدون على ربهم، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، قام رجال أمثال عماد الدين زنكي ونــور الدين محمود الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي رحمهم الله جميعاً... قاموا يحرصون على الموت فوهبــت لهم الحياة، قاموا يتزينون للجنة فتزينت الجنة لهم، قاموا مع الله فكان الله معهم، صدقهم الله وعــده،

ونصر عباده، وأعز جنوده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا هو سبحانه، فكانت حطين، وكان ما بعد حطين، وكانت أيام تشرف التاريخ بتدوينها...وحق للتاريخ أن يتشرف بتسجيل أيام المسلمين..

الحقيقة السادسة

حقيقة الواقع

ولماذا نقلب في التاريخ فقط؟ أليس في واقعنا ما يشهد لوعد ربنا بالتحقيق؟!

نعم والله رأينا وسمعنا، ونحن على ذلك من الشاهدين، واعقدوا معي مقارنة بين واقعنا الآن وواقعنا منذ أربعين سنة، وهي ليست في عمر الأمم بشيء..

* انظروا إلى الصلاة في المساجد.. أرأيتم زوار المساجد وعمارها؟ من هم؟ وكيف أعدادهم؟ كنا في القديم لا نشاهد إلا أرباب المعاشات، وقليل ما هم، أما الآن فالمساجد أكثر من أن تحصى، وعمارها كذلك، وكلهم من الشباب والأطفال، ألا ينبئ ذلك بمستقبل لهذا الدين؟

* انظروا إلى الحج والعمرة.. ملايين من المسلمين في كل عام، من كل حدب وصوب.. أعلمتم أنه أصبح من المستحيل أن تجد الكعبة خالية من الزوار والطواف؟ أرأيتم اشتياق الرجال والنساء والشيوخ والشباب إلى الحج والعمرة؟

* انظروا إلى الحجاب وانتشاره في الستينات.. لم يكن في الجامعة المصرية — على سبيل المثال – إلا فتاة محجبة واحدة فقط على مستوى الجامعة ، ثم دارت الأيام، فإذا دخلتم الجامعة الآن، ونظرتم إلى النصف المملوء من الكوب بروح التفاؤل، وجدتم آلافاً من الفتيات مسلمات مؤمنات قانتات تائبات، أما إذا نظرتم إلى نصف الكوب الفارغ فسيدخل في روعكم ما نحن بصدد دفعه..

* انظروا إلى الانتخابات في النقابات والاتحادات وغيرها.. ألم تلمسوا تعاطفاً وحباً وتضامناً مع مَن رفع الإسلام شعاراً، واتخذه منهجاً وإمامًا؟ ألم تشاهدوا بأعينكم كيف يختار المسلمون المسلمين دون أن يعرفوا أشخاصهم، لا لشيء إلا لأنهم فقط يعتزون بإسلامهم؟

* انظروا إلى معارض الكتاب.. ألم تلحظوا أن أكثر الكتب مبيعاً هي الكتب الإسلامية؟ وأن أشد الأجنحة زحاماً هي الأجنحة الإسلامية؟ وأن أكثر الدور إنتاجاً هي الدور الإسلامية؟

* بل أرأيتم كيف إن كل الفئات على اختلاف توجهاتها تحاول الآن أن تلعب بورقة الإسلام، حتى وإن كانوا لا يرغبون فيه، وذلك لعلمهم بأن هوى الناس وميلهم أصبح للشرع والإسلام:

o رأينا أحزاباً علمانية تعلن في برامجها أطروحات إسلامية!!..

o رأينا بنوكاً ربوية تفتح فروعاً للمعاملات الإسلامية!!..

o رأينا محلات لتصفيف الشعر للنساء تفتح أقساماً للمحجبات!!..

o رأينا برامج تلفزيونية ما كانت تحادث إلا فنانين وفنانات وراقصين وراقصات، بدأت تروج لبرامجها باستضافة علماء المسلمين..

رأينا كل ذلك وغيره، وسوف تحمل الأيام المزيد ثم تعالى يا أخي ندقق النظـــر، ونوســـع المـــدارك، ونخرج للساحة العالمية:

* ألم تسمع إلى نصر الأفغان على الروس في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفـــرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكـــن أكثـــر الناس لا يعلمون.. إياك إياك أن تظن أن الروس هزموا لجبال أفغانستان الوعرة، بل هزمـــوا لأن الله هزمهم، وردوا لأن الله ردهم ، وذلك لما رأى من أهلها رجالاً أمثال الجبال أو أقوى من الجبال..

* ألم تشاهدوا جنود إسرائيل يرقصون طرباً، ويهللون فرحاً، لأنهم فروا كالجرذان، وهربوا كالقطيع، بمقاومة شعبية قادها حزب الله ، في بلد فقير كلبنان، خرج من حروب أهلية إلى أزمات اقتصادية..

* ألم تشاهدوا كيف احتلت جمهوريات إسلامية بقيصرية روسية، ثم بشيوعية بلشفية، ما يزيد علـــى ثلاثمائة عام.. قهر وتعذيب وتشريد وتذبيح ..حمل المصحف كان جريمة يعاقب عليها القانون، الإيمان بالله ينكرونه، والإيمان برسوله يحاربونه.. ثم تمر السنوات، ويولي الليل، وتشـــرق الشـــمس، فـــإذا بشعوب مازالت مسلمة، وبقلوب مازالت مؤمنة، وبأيد مازالت متوضئة، وبرؤوس مازالت ساجدة.. فعل من هذا فعله؟! إنه فعل الله الذي وعد.. وكان حقا علينا نصر المؤمنين..

ثم تعالى معي يا أخي أبعد من ذلك:

* انظر إلى أمريكا كيف كان بها بضعة آلاف مسلم فقط في الستينات، فإذا بهم الآن ثمانية ملايين!!.. لقد رأيت شقة في مدينة أمريكية كانت تستخدم مسجداً في السبعينات.. وكانت هذه الشقة هـــي المسجد الوحيد بالمدينة.. فإذا بالأيام تمر، وفي ذات المدينة رأيت عشرة مساجد!!..

* انظروا إلى الجاليات الإسلامية في الغرب.. أسمعتم عن مدارسها عن مساجدها، عن مراكزها، عـــن جرائدها، عن مؤتمراتها، عن شركاتها؟

* أعلمت يا أخي أن دين الإسلام هو أسرع الأديان نمواً في العالم الآن؟

* أعلمت أن موقعاً إسلامياً على الإنترنت يدخله يوميا مليونان من الزائرين؟! منهم مليون في أمريكا وحدها؟!

أليس هذا – يا أحبابي - فتحاً و نصراً وعزاً وأملاً؟

الحقيقة السابعة

حقيقة الأعداء

يا إخواني ويا أحبابي:

من تقاتلون؟ وأي الأقوام تحاربون؟

أليسوا اليهود ومن عاونهم؟!

أليسوا الذين قال عنهم ربنا: " ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا"؟

أليسوا الذين قال عنهم ربنا: " لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر"؟
أليسوا الذين قال عنهم ربنا: "ولتجدهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا"؟
هؤلاء هم اليهود!!..
"أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء، والله عليم حكيم"
إن كان اليهود أو كانت الأرض جميعاً معهم:
* أتخشون كثرتهم وأحزابهم وتجمعهم؟ ألم يخاطبهم الله وأمثالهم بقوله: "ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين"؟
* أتخشون عددهم؟ ألم يقل ربنا: " قل الذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد"؟
* أتخشون أموالهم؟ ألم يقل ربنا: "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون"؟
* أتخشون عقولهم وجوارحهم؟ ألم يصفهم ربنا بقوله: "لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها،أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون"
ثم هل تظنون أيها المسلمون أن حياة هؤلاء نصر بلا هزيمة، وعز بلا ذل؟
* شاهدنا أمريكا المتكبرة تخرج مهرولة ومولولة من فيتنام التي لا ترى على الخريطة بتسعة وخمسين ألف قتيل!!.. وشاهدناها مره أخرى ومره ثالثة تخرج بنفس الهرولة والولولة من الصومال ولبنان!!
* شاهدنا مفاعل "تشرنوبل" الروسي المحكم ينفجر ويلوث آلاف الأفدنة..
* شاهدنا صاروخ " تشالنجر" أو المتحدي الذي قالوا عنه إنهم بلغوا فيه حد الكمال "تعالى الله عما يشركون" "وظن أهلها أنهم قادرون عليه آتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس".. لقد انفجر الصاروخ الكامل بعد ثوان معدودات من إطلاقه، وأمام أعينهم ليزيد من حسرتهم!!..
ثم ألم تشاهدوا قدرة الله عليهم ، وهم يقفون أمامها مكتوفي الأيدي تماماً:
* شاهدنا فيضاناً يغرق مدينة في ساعتين!!.. حدث ذلك في مدينة "نيو أورليانز" في أمريكا في مايو سنة ١٩٩٥.. "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً، فالتقى الماء على أمر قد قدر"..
* شاهدنا عاصفة ثلجية تدفن السيارات تماماً، وتغلق الشوارع، وتوقف الحياة ثلاثة أيام متصلة في "نيويورك" المدينة العصرية الحديثة!!..
* شاهدنا إعصاراً يحمل سيارات النقل الضخمة ويقذف بها فوق المنازل!!..

* شاهدنا ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، تقتلع الشجر في الغابات، وتمحو الحياة في لحظات، شاهدنا ذلك ولكن يا للحسرة لم نشاهد هناك مدكر!!..

وهل رأيتم هذا المجتمع من داخله؟!

لقد شاهدنا مجتمعاً مهللاً مفككاً منحطاً ، يعيش على الرذيلة، ولا يهتم بالفضيحة.. أهواءه تسيره، ورغباته تحركه، وشهواته تسيطر عليه وتدمره..

انظروا معي إلى هذه الأرقام تصف حال المراهقين الأمريكان الذين لم يبلغوا بعد ثمانية عشر عام من العمر، والذين سيحكمون بلدهم بعد عشر سنوات:

* ٥٥؟ من هؤلاء الشباب ارتكبوا جريمة الزنا، وترتفع النسبة إلى ٨٠؟ في المدن الكبرى وتنخفض إلى ٣٣؟ في المناطق الريفية.. أي أن أشرف مناطق أمريكا يرتكب فيها الزنا بنسبة ٣٣؟!! ..هذا تحت الثامنة عشرة من العمر، فإذا صعدنا فوق ذلك قاربت النسبة ٩٠؟!!..

* ثلاثمائة وخمسون ألف حالة حمل بدون زواج كل عام في البنات الأصغر من ١٨ سنة، وهذا عدد أقل بكثير من الحقيقي، وذلك لكثرة الإجهاض!!

* ٢٤؟ من العائلات الأمريكية ليس فيها أب، إما لأن الأم لا تعرف الأب لأنها ارتكبت الزنا مع أكثر من رجل، وإما بسبب الطلاق!!..

* ٤٠ ؟ من الشباب المراهق يجربون المخدرات!!.. أما الخمور فحدث ولا حرج فالرقم أكبر من أن يحصى..

* الجرائم زادت في مدينة دالاس الأمريكية بنسبة ٧٠؟ في عام واحد!! (من سنة ١٩٩٨ إلى سنة ١٩٩٩)

* السبب الثالث للوفاة في المراهقين هو الانتحار! أي أن الانتحار هو السبب الثالث في الوفاة في المراهقين الذين سيحكمون أمريكا بعد ذلك.. أمريكا وحدها تسجل ٣٢٠٠٠ حالة انتحار كل عام!!..

* عدد المرضى بالقمار الإجباري (أي إدمان القمار) واحد من كل سبعة من المراهقين..

هذه هي أمريكا من الداخل!!.. هذا هو مجتمع أمريكا المهلهل الذي نخشاه!!..

أخي وحبيبي ورفيقي في طريق الله:

أتشك في نصر على قوم كهؤلاء؟

أتشك في نصر على جيش غالبيته من الزناة والشواذ؟

أتشك في نصر على جيش أشرب في قلبه حب الخمور والمنكرات؟

أخي وحبيبي ورفيقي في طريق الله:

" لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل، ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد"

"ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون"

الحقيقة الثامنة

النصر لا يأتي إلا بعد أشد لحظات المجاهدة

أخي يا من تظن أن النصر قد تأخر:

اعلم أن النصر لا يأتي إلا بعد أشد لحظات المجاهدة.. ألم تسمع إلى قوله تعالى: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا، جاءهم نصرنا، فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين".. في هذه اللحظة التي ظن فيها الجميع – الرسول وقومه – أن الأمر قد وصل إلى نهايته في التكذيب والظلم والإعراض والشك، في هذه اللحظة التي وصل فيها الأذى للدعاة إلى مداه، وقد ثبت الدعاة على مبادئهم.. هنا في هذه اللحظة فقط " جاءهم نصرنا"..

اسمع أيضا إلى قوله تعالى: " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه، متى نصر الله".. في هذه اللحظة التي بلغ فيها السيل الربا، والصبر إلى نهايته، في هذه اللحظة المجيدة يقول سبحانه: "ألا إن نصر الله قريب"..

ألم تلاحظ في السيرة النبوية أن أشد لحظات الابتلاء للمؤمنين كانت في غزوة الأحزاب، حيث وصفها ربنا في كتابه فقال: "وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً".. ألم تلحظ أنه بعد غزوة الأحزاب كان المسلمون في فتح يتلوه فتح؟.. بعد أشد لحظات المجاهدة، جاءت الحديبية، ثم مكة، ثم الطائف، ثم جزيرة العرب بكاملها.. أمجاد تعقبها أمجاد، وأيام نصر وفرح وتمكين..

الحقيقة التاسعة

الله لا يعجل بعجلة عباده

أخي يا من تظن أن النصر قد تأخر:

اعلم أن الأدب مع الله يقتضي عدم استعجاله، وأن حكمة الله البالغة اقتضت أن يختبر أحبابه وأصفياءه، وأن النصر يأتي في وقت يعلم الله فيه أن خير المؤمنين أصبح في النصر، وليس في انتظار النصر..

يروي البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه أنه قال: "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعوا الله لنا؟.. ألم شديد، وإيذاء عظيم.. جلد وحرق وخنق وشنق.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد كان الرجل في من قبلكم ، يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن

دينه، والله ليتمن هذا الأمر (أي ليتمن الله هذا الأمر) حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"

سبحان الله.. تستعجلون؟!! بعد كل هذا التعذيب في مكة كان خباب بن الأرت يستعجل؟!

نعم.. مازال هناك أشياء أخرى..

مازال هناك ترك للمال وترك للأهل، وترك للديار..

مازال هناك صراع ونزال..

مازال هناك جهاد وشهادة..

ثم..... يأتي النصر!!

في الميعاد الذي حدده الخالق.. لا في الميعاد الذي حدده المخلوق!!

الحقيقة العاشرة

الأجر لا يرتبط بالنصر ولكن بالعمل

أخي يا من تظن أن النصر قد تأخر:

اعلم أن الأجر غير مرتبط بالنصر، ولكن بالعمل.. "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"..

واعلم أنه كلما حسن عملك، كلما عظم أجرك..

وكلما زاد جهدك، كلما كمل ثوابك..

وأنك إن لم ترى النصر بعينيك، فسيراه أبناؤك وأحبابك..

واعلم أن الأجر يضيع إذا فقدت اليقين في النصر..

وأن النصر لا يأتي إلا بيقين فيه.. يقين لا يساوره شك.. ولا تخالطه ريبة.."من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع فلينظر، هل يذهبن كيده ما يغيظ"

أرأيت صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم كيف كانوا في الأحزاب لا يأمنون على شئ؟ كيف كانوا محاصرين ومهددين.. ثم هم يستمعون إلى بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمور تفوق الخيال، فإذا هم مصدقون، وبالبشرى موقنون.. انظروا كيف يحكي البراء رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه سلم كان يضرب الحجر ويقول: "بسم الله، ثم ضرب ضربة وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصوره الحمراء الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر أعطيت فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الآن، ثم ضرب الثالثة فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني".. والصحابة في هذا الحصار يستمعون إلى بشرى فتح الشام وفارس واليمن، فيصدقون عن يقين، وكأنهم يرونه رأي العين مع رسول الله صلي الله عليه وسلم..

ولهذا جاء النصر!!

أيها المؤمنون!!

أنتم الأعلون

إخواني وأحباب:

أحمل لكم آية عجيبة، وكل آيات الله عجيب.. آية هي كتر من كنوز المنان، وعطية من عطايا الرحمن:

"ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين"..

أتعلمون أيها المسلمون: متى نزلت هذه الآية؟

لقد نزلت بعد غزوة أحد!!.. بعد الهزيمة!!..

وذلك ليعلم الله المؤمنين أن العزة والعلو لا يتأثران بهزيمة مرحلية، ولا يرتبطان بنصر مرئي، ولا يعتمدان على تمكين مشاهد.. وليعلم الله المؤمنين أن الأيام دول، وأن للتاريخ دورات، فلهذا دورة، ولهذا دورة، أما الدورة الأخيرة فللمؤمنين إن شاء الله..

أيها المؤمنون.. " عباد الله ":

* أنتم الأعلون لأن إلهكم الله الذي لا إله إلا هو سبحانه، وما كان الله ليعجزه من شئ في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً..

* أنتم الأعلون لأنكم أتباع النبي الخاتم محمد صلي الله عليه وسلم، خير الخلق، وسيد الرسل والماحي الذي يمحو الله به الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدمه، والعاقب الذي ليس بعده نبي صلى الله عليه وسلم..

* أنتم الأعلون لأن كتابكم القرآن فيه نبأ من قبلكم، ونبأ ما يأتي بعدكم، وحكم ما بينكم، من خالفه من الجبابرة قسمه الله عز وجل، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستقيم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلقه كثرة الترديد..

* أنتم الأعلون لأن شريعتكم الإسلام، دين ودنياً جسد وروح، عقل وقلب، ما ترك الله في شريعته من شئ إلا وضحه وبينه: " اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً"..

* أنتم الأعلون لأنكم الأكمل أخلاقاً.. "إنما بعثت لأتتم مكارم الأخلاق"..

* أنتم الأعلون لأنكم الأقوى رابطة "لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم"..

* أنتم الأعلون لأن الملائكة تثبتكم.. " إذ يوحي ربك للملائكة أني معكم، فثبتوا الذين آمنوا"..

* أنتم الأعلون لأن الطمأنينة في قلوبكم "وما جعله الله إلا بشرى، ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم"..

* أنتم الأعلون لأن الجنة موعدكم.. "إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً، حتى أنسوكم ذكري، وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون"..

أنتم أيها المؤمنون الصابرون – إن شاء الله – الفائزون..

وختاماً

أخي وحبيبي ورفيقي في طريق الله:

يا مسلم يا عبد الله..

يا من سيناديك الحجر والشجر بلسان الحال أو بلسان المقال: – بكليهما نؤمن ونصدق – يا مسلم يا عبد الله..

جفف دمعك، واجبر كسرك، وارفع رأسك..

وأعلم أن الأيام القادمة لك لا عليك..

وأن المستقبل لدينك لا لدين غيرك..

وأن العاقبة للمتقين..

وأعلم أيضا أن مع الصبر نصراً..

وأن مع العسر يسراً..

وأن أنوار الفجر لا تأتي إلا بعد أحلك ساعات الليل..

وأن الله ناصرك ما دمت ناصره..

ومعك ما دمت معه..

وهاديك إلى سبيله، ما دمت مجاهداً في سبيله..

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين"..

"فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد"

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

وجزاكم الله خيراً كثيراً .

{ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً } [*]

أ.د. عبدالكريم بكار

تشعر أمة الإسلام اليوم بغربة حقيقية بين الأمم المعاصرة ، وتجد نفسها فريدة ومتميزة على مستوى المبادئ والمفاهيم والأهداف ؛ وهذا التميز والتأبي على السير في ركاب القوى العظمى جرّ عليها ضغوطاً أدبية ومادية ، هي أكبر مما نظن بكثير .

إن أدبياتنا تعلمنا أن الأسلوب الصحيح في مواجهة ضغوط الخارج وتحدياته لايكمن في التشاغل بالرد عليها ؛ مما قد يجرنا إلى معارك خاسرة ، وإنما يتمثل في الانكفاء على الداخل بالإصلاح والتنقية والتدعيم ... ولا ريب أن ذلك شاق على النفس ؛ لأن المرء آنذاك ينقد نفسه ، ويجعل من ذاته الحجر والنحّات في آن واحد !

والآية الكريمة التي نحن بصددها معْلم بارز في التأصيل لهذا الانكفاء ، ولعلنا نقتبس من الدوران في فلكها الأنوار التالية :

١- إن كثيراً من النصوص يوجهنا نحو الانكفاء على الداخل في مواجهة الخارج بالنقد والإصلاح والتقويم والتحسين ، وإن المتتبع للمنهج القرآني في قصِّه أحوال الأمم السابقة يجد أن ما ذكره القرآن الكريم من أسباب انقراضها واندثار حضاراتها لا يعود أبداً إلى قصور عمراني ، أو سوء في إدارة الموارد واستغلالها ؛ وإنما يعود إلى قصور داخلي ، يتمثل في الإعراض عن منهج الله (جلّ وعلا) واستدبار رسالات الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، وهذه الحقيقة بارزة في جميع أخبار الأمم السابقة ؛ حتى يتأصل في حسِّ القارئ للكتاب العزيز إعطاء الأولوية لصواب المنهج قبل أي شيء آخر .

وحين حلّت الهزيمة بالمسلمين في أحد ، وقال بعض الصحابة (رضوان الله عليهم) : كيف نُهزَم ونحن جند الله ؟ ! جاء الجواب : { قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ } [آل عمران : ١٦٥] فالهزيمة وقعت بسبب خلل داخلي ، وليس بسبب شراسة الأعداء ، وكثرة عددهم وعتادهم ؛ إذ لا ينبغي تضخيم العدو إلى الحد الذي يجعل تصور هزيمته شيئاً بعيداً ؛ فالعدو بَشَر له أحاسيسه ، وله موازناته ومشكلاته ، وبالتالي إمكاناته أيضاً ، وفي هذا يقول (سبحانه) : { إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ } [النساء : ١٠٤] .

٢- ترمي الآية الكريمة إلى تدعيم (الذاتي) في مقابل (الموضوعي) ؛ إذ تعلِّم المسلم أنه إذا ساءت الظروف فإن عليه أن يُحسِّن من ذاته ؛ لأن من المعروف أنه حين تسوء الظروف ، فإن الغالب أن يسوء الإنسان نفسه ، ولذلك : فإنه يحدث في حالات الفقر الشديد نوع من التحلل الخلقي من نحو : السرقة ، والرشوة ، وسؤال الناس ، والذل ، والتحايل ، والغش ، والبخل ، وقطيعة الرحم ... والمطلوب من المسلم آنذاك : أن يقف (وقفة رجل) فيضغط على نفسه ، ويضبط سلوكه ويُلغي أو يؤجل بعض رغائبه ، ويقتصد في نفقاته ، حتى تمر العاصفة ، وينتهي الظرف الاستثنائي .

ومن النصوص الواضحة في تدعيم الشخصية عند صعوبة الظروف قوله :

(يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة ، فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) [١] .

لم نكن على مدار التاريخ نمتلك الوعي الكافي بهذه الحقيقة ، فبدل أن نلجأ إلى التربية والتوجيه والتعاضد والتراحم ، واكتساب عادات جديدة ، واقتلاع المشكلات من جذورها .. كنا نواجه التفسخ الاجتماعي والانحراف السلوكي بأمرين : القوة ، ومزيد من القوانين ، حيث كانا أقرب الأشياء إلينا تناولاً ، وأقلها تكلفة حسب ما يبدو وقد عبّر عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) عن هذه الحقيقة حيث قال : (يحدث للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور) .

ونحن نقول : إن شيئاً من التوسع في الأنظمة والتشريعات الرادعة يحدث عند جميع الأمم ، حين يقع تهديد خطير لأمن الناس وحقوقهم ، لكن الجزاءات والعقوبات هي أشبه شيء بالتدخل الجراحي في العلاج الطبي ، فهو آخر الحلول ، وعند اللجوء إليه ينبغي أن يتم في أضيق الحدود ! .

إن العقوبات الرادعة إنما وجدت لمن فاتتهم التنشئة الاجتماعية القويمة ؛ والعقوبات لا تنشيء مجتمعاً لكنها تحميه . وهذه رؤية إسلامية جلية ، فآيات الأحكام والعقوبات جزء منها لا تشكل أكثر من عُشْر آيات القرآن الكريم ، أما الباقي فكان يستهدف البناء الإيجابي للإنسان من الداخل . إن التجربة علمتنا أن كثرة القوانين وتعقيدها تصب دائماً في مصلحة الأقوياء ، وتزيد في قيود الضعفاء ! ، وأن البطش لا يحل المشكلات ، لكن يؤجلها ، فيكون حال المجتمع كمن يأكل عن طريق الدّين ، فهو ينتقل من سيء إلى أسوأ ! ! .

إن الدولة الفاضلة هي التي تدير مجتمعها بأقل قدر ممكن من العنف واستخدام القوة ؛ لأنها ترتكز أساساً على استخدام الأساليب والأدوات السلمية في الضبط والإدارة .

إن الآية الكريمة تعلمنا مرة أخرى : أن النصر الخاص يسبق النصر العام ، وأن الأمة المنتصرة على أعدائها هي أمة حققت نصراً داخليّاً أولاً ، وحقق كل واحد من أفرادها نصراً خاصّاً على صعيده الشخصي قبل كل ذلك .

٣- لا ينبغي لنا أن نفهم نصّاً من النصوص بمعزل عن المنظومة التي ينتمي إليها ، ويعالج معها مشكلة واحدة ؛ والنص الكريم هنا يوجهنا إلى أمرين : الصبر ، والتقوى .

ويعني الصبر : احتمال المشاق والديمومة في تأدية التكاليف الربانية ، مهما كانت الظروف قاسية ؛ لأن ذلك نصف النصر ، إذ إن نصف الفوز يأتي من جهودنا ، وقبله من توفيق الله (تعالى) لنا ، والنصف الثاني يأتي من أخطاء أعدائنا .

إن الصبر لا يعني الاستسلام للأحوال السيئة كما هو مفهوم العوام لكنه يعني عدم اللجوء إلى الحلول السريعة ، وقد جرت العادة أن الناس حين يرون إنساناً متفوقاً : يطلبون منه حلولاً سريعة لمشكلاتهم

المتخمرة والمتأسنة ؛ والحلول السريعة تفضي في كثير من الأحيـــان إلى اليـــأس والإحبـــاط ، أو إلى الاندفاع والتهور ؛ مما يعقّد المشكلة أكثر مما يحلها ! .

إن من المهم أن ندرك أن ثمة أوضاعاً كثيرة لا نستطيع أن نفعل حيالها الآن شيئاً ، لكن إذا قلنا : ماذا نستطيع أن نفعل تجاهها خلال عشرين عاماً ، فسوف نرى أننا نستطيع أن نفعل أشياء كثيرة جـــدّاً ، فكأن الصبر استخدام للوقت في الخلاص من أوضاع لا نستطيع الآن أن ننجح في الخلاص منها .

حقيقةُ ضرورة اقتران الصبر بالعمل والحركة للخلاص من الأوضاع الصعبة حقيقة قرآنيـــة لامعـــة ، نطقت بها الكثير من الآيات القرآنية ، مثل قوله (سبحانه) : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : ١١٠] ، وقوله (سبحانه) : { يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بْالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : ١٥٣] ، وقوله (تعالى) : { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً } [الإنسان : ٢٤] .

إن احتمال المعاناة دون حركة للخلاص من مسبّباتها قد يكون ضرباً من اليأس والاستسلام ، وقـــد يكون ضرباً من العجز أو قصر النظر أو ضيق الأفق ... وهذا ما لا يرضى الله (جل وعـــلا) لعبـــاده المؤمنين منه شيئاً .

أما التقوى فتعني هنا بصورة أساسية : نوعاً من الحصانة الداخلية من التأثر بالظروف السيئة المحيطة ؛ إذ إن الهزائم العسكرية والظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية .. كل ذلك محدود الضرر مـــا لم يغير من المبادئ والأخلاق والنفوس والسلوك ، بل إنها تصلّب روح المقاومة ، وتُكســـب الخـــبرة ، وتكشف عن الأجزاء الرخوة في البناء الداخلي ، وتحطِّم هيبة العدو في النفوس .

وقد مرّت أمم كثيرة بأقصى مما نمر به ، لكنها استطاعت عن طريق الانتفاضة النفسية والشعورية ، أن تتجاوز المحن ، وتنبعث من جديد ! .

٤- إن المفهوم الأساسي للصبر والتقوى هنا هو : تهذيب الذات وتحسينها ، وتدعيمها ، والرقي بها ؛ وهذا التدعيم يأخذ أشكالاً كثيرة ، منها : المزيد من الالتزام الصارم ، ومقاومة الشهوات ، والتعاون ، والمفاتحة ، والمراجعة ، والتضحية ، والمواساة لبعضنا بعضاً ، والحفاظ على رأس المـــال الـــوطني ، والاقتصاد في الاستهلاك .. إنه يعني اكتساب عادات جديدة ، من نحو تكثيـــف القـــراءة الجيـــدة ، والنظر دائماً إلى المستقبل بعقل مفتوح ، وتحسين العلاقات مع الآخرين ، والإكثار مـــن المعـــروف والنوافل ، إلى جانب التخلص من أكبر قدر ممكن من العادات السيئة ، مثل عدم الدقة وخلف الوعد ، وتأجيل أعمال اليوم إلى أوقات أخرى ...

٥- يركز الخطاب الإسلامي بصورة عامة على تدعيم الذاتي في كل الأحوال ، وقلمـــا يتطـــرق إلى علاج الظروف العامة التي يعيش فيها المسلم ، ومن ثم : فإننا نجده يؤكد على الصـــلاح واســـتقامة السلوك والانتهاء عن المناهي ...

أما تناول الشروط الموضوعية الضرورية لاستجابة المسلم للدعوة فإنه ضعيف ، وعلى بعض الأصعدة معدوم ، وهو على كل حال فقير ، وتنقصه الخبرة والدربة .

إن بين الإنسان والظروف والأوضاع الحياتية العامة التي يعيشها علاقة جدلية فهو يؤثر فيها ويتأثر بها ، ولا بد للدعاة من أن يدركوا أن الفرد المسلم لا يستطيع أن يبتعد مسافات كبيرة عن الوضعية العامة للمجتمع ، وذلك التباعد مرهق ومكلف ؛ فحين يكون كسب القوت الضروري لا يتأتى للسواد الأعظم من الناس إلا عن طرق محرمة أو ملتوية مثلاً فإن الذين سوف يستجيبون لنداء (اللقمة الحلال) سيكونون قلة ، وسوف تظل مبادئهم في حالة اختبار دائم ، وربما أدخلهم ذلك في مشكلات مع أقرب الناس إليهم .

ولهذا : فكما أن محاولات تحسين المستوى الشخصي للمسلم يظل ضروريًّا وحيويّاً ، فإن تحسين المناخ العام ينبغي أن يظل موضع عناية واهتمام ؛ إذ ليس المطلوب تحقيق شروط الدعوة الجيدة ، وإنما تحقيق شروط الاستجابة الناجحة أيضاً .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(*) الآية : ١٢٠ من سورة آل عمران .

(١) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح .

كيف نغير ما بأنفسنا ؟

تأليف: د/ مجدي الهلالي

القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط:١، ١٤٢٥هـ، ١٢٠ ص.

عرض وتحليل

محمد حسن يوسف

يناقش هذا الكتاب مفهوم إحدى سنن الله التي تحدث في القرآن، وهي ضرورة تغيير أي قوم لأنفسهم من الداخل، وذلك إذا ما أرادوا تغيير واقعهم من حولهم. وهي قضية هامة وحرجة بالنسبة للأمة الإسلامية في الوقت الراهن. فإذا كانت الأمة تعاني من التدهور الحاد في جميع مناحي الحياة من حولها، فلابد لها – إذا ما أرادت بصدق الخروج من ذلك – من التغيير الداخلي لنفس كل مواطن فيها حتى ينعم الله علينا بتغيير هذا الواقع الأليم. فكيف يحدث هذا التغيير الداخلي داخل نفوسنا؟

يحاول هذا الكتاب أن يضع المنهجية الخاصة بذلك على ما يلي:

يقول المؤلف: ما من عام يمر على أمتنا الإسلامية في وقتنا الحاضر إلا ويحمل معه جرحا جديدا في جسدها يضاف إلى جراحاتها السابقة ... فعام لأفغانستان، وعام للشيشان، وآخر للعراق، أما

فلسطين فجرحها يتجدد باستمرار، ويزداد عمقا بمرور الأيام. ورغم الدعاء والتضرع والاستغاثة بالله عز وجل، فإن الوضع مستمر على ما هو عليه، بل ويزداد سوءا في بعض الأماكن. فلماذا إذن لا ينصرنا الله عز وجل وقد بُحت أصواتنا بدعائه؟ لماذا تأخر المدد الإلهي ونحن في مسيس الحاجة إليه اليوم قبل الغد؟ فإن قيل: إن هذا المدد لا يتترل إلا على من يستحقه ... كان السؤال: فما المطلوب منا أن نفعله لنكون أهلا له؟ أين نضع نقطة البداية لطريق النصر والتغيير؟ وكيف نبدأ؟

القادر المقتدر

لا يستطيع أحد أن يقيم نفسه بنفسه، أو يتولى تصريف أموره ولو لطرفة عين. فالقلب مثلا يحتاج إلى إمداد منه سبحانه بالقدرة على ضخ الدم للجسم سبعين مرة في الدقيقة الواحدة، ولو توقف المدد لتوقف القلب وانتهت الحياة. وهكذا كل أجهزة الجسم، لا تستطيع أداء وظائفها إلا به سبحانه. ولو تخلى عن عباده طرفة عين لهلكوا جميعا، يستوي في ذلك المؤمن والكافر.

ومن البديهي أن قيوميته سبحانه على عباده تستدعي اقترانها بعلمه، وإحاطته التامة بهم. ومع علمه التام بعباده وإحاطته بهم جميعا، فهو سبحانه وتعالى رقيب عليهم. إذن فكل ما يحدث لنا من ذل وهوان وهزائم ونكسات فبعلم الله وإذنه: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } [الأنعام: ١١٢] .

ومع قيومية الله وإحاطته بجميع خلقه، فهو سبحانه مقتدر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ... يفعل ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره. وهو سبحانه لا يخاف من شيء – حاشاه – ولا يخشى عقبى شيء من أمره، كيف وهو صاحب هذا الكون والقائم عليه.

ومع هذه القدرة المطلقة والمشيئة النافذة التي لا تستطيع أي قوة في الأرض مهما كان حجمها أن تقف أمامها، فإنها لا تتترل إلا على من يستحقها: لا تتترل على الكافرين بالهلاك إلا بعد أن يستنفذوا فترة إمهال الله لهم، ويستقبلوا النعمة بالكفر، ويظلموا الناس، ويستدعوا بأفعالهم غضب الله عليهم. كما لا تتترل بالمدد والنصر على الفئة المؤمنة إلا إذا استوفت الشروط المؤهلة لذلك، بأن يتغير حالها إلى الحال الذي يُرضي الله عز وجل، وتترك ما يبغضه.

الأمل في الله وحده

من ينظر ويتفحص ما عند أعدائنا من إمكانات مادية، وتكنولوجيا متطورة، وأسلحة دمار شامل، ثم يقارن ذلك كله بما نملكه، فقد يصيبه الإحباط، أو يتسرب إلى نفسه اليأس، فلا وجه للمقارنة بيننا وبينهم. ومن ناحية أخرى، فواقع الأمر يخبرنا بأنه لا أمل حقيقيا لدينا للحاق بهم لأنهم لن يسمحوا لنا بامتلاك سباب القوة. فالمساحة التي أتاحوا لنا التحرك فيها محدودة، ومهما اجتهدنا فيها فسنكون دوما في ركب التخلف وأذيال الأمم. إذن فلا أمل حقيقيا لنا إلا باستدعاء القوة الإلهية التي لا تقهر، والتي لا تقف أمامها أي أسباب مهما عظمت.

وليس معنى القول بأن أملنا في الله وحده أن نترك الأسباب المادية بدعوى عدم جدواها، بل المطلوب هو العكس. علينا أن نملأ كل فراغ يتاح أمامنا، ونتغلغل في كل القطاعات، ونجتهد غاية الاجتهاد في امتلاك أسباب القوة. على أن نأخذ في الاعتبار دائما أن الأسباب بعينها لن تحقق لنا النصر. واجتهادنا في تحصيلها يأتي امتثالا لأمر الله، وتنفيذا لمقتضى سننه التي ربطت الأسباب بمسبباتها.

ما المقصود بالتغيير؟

إن الوظيفة الأساسية لكل فرد يخرج إلى الأرض هي ممارسة العبودية لله عز وجل في فترة وجوده في الدنيا، بداية من بلوغه الحلم وحتى موته. على أن وجودنا على الأرض بما تحتويه من زينة يتطلب منا جهادا لأنفسنا ونصرة لله عليها، إن أردنا أن نرتدي رداء العبودية وننجح في الامتحان. إن كرامة العبد عند الله مرتبطة بمدى عبوديته له، ولا علاقة لذلك بالنسب أو الماضي ... الخ. فالولاية والكرامة على قدر الاستقامة، واستمرارها مرتبط ببقاء حالة تلك الاستقامة.

فإذا ما أسقطنا هذه القاعدة على الواقع الذي تحياه أمتنا الآن، نجد أن ما يحدث لنا من ذل وهوان وبؤس وعذاب لم يأتِ من فراغ، بل بسبب ما اقترفته أيدينا. فبأفعالنا استدعينا غضب الله علينا. لقد ملأ حب الدنيا قلوبنا، فأصبحت تصوراتنا وأحلامنا منبثقة منها ... اتجهت أعيننا إلى الأرض، وتصارعنا على ما فيها. ودخلنا بذلك كأمة إسلامية في دائرة الغضب والعقوبة الإلهية، وإن اختلف شكلها من مكان لآخر.

فإن قلت: ولكن أنا لا أفعل هذه الموبقات، وأعمل جاهدا على إصلاح نفسي، والاستقامة على أمر الله. فلماذا أُعاقب بما يُعاقب به العاصون؟ والجواب هو أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، يشكل مجموع المسلمين جسدها. فإذا حدث لعضو في هذا الجسد مكروه، فعلى الجميع أن يعملوا على عودته لصحته مرة أخرى. إذن فكون البعض منا صالحا في نفسه، مبتعدا عما يغضب ربه، فهذا لا يعفيه من مسئوليته عن الأمة وما يحدث لها.

إن الغمة لن تنكشف عنا بالدعاء فقط، بل لابد أن يسبق هذا الدعاء ويصاحبه تحول حقيقي عن كل ما يغضب الله، وانتقال إلى ما يرضيه. لابد من روح جديدة تسري في كيان الأمة، فتوقظها من سباتها، وتعمل على تغييرها تغييرا جذريا يشمل المفاهيم والتصورات، والسر والعلانية، والأقوال والأفعال.

عوائق التغيير

وهو من أهم فصول هذا الكتاب. وفيه يبدأ المؤلف: قد يقول قائل: إن كل ما قيل قد سمعناه مرات ومرات، ولا يوجد من يختلف حوله، ولكن النقطة التي نقف عندها ولا نستطيع تجاوزها هي كيفية التغيير. كيف نحوّل الكلام النظري إلى واقع عملي؟ كيف يصبح الله عز وجل أحب إلينا وأعز علينا من كل شيء؟ إن هناك انفصال بين القول والفعل ... بين الواجب والواقع ... فما السبب في ذلك؟

الإجابة عن هذا السؤال تستلزم معرفة الدوافع التي تدفع الإنسان للسلوك بصفة عامة، والمراحل التي يمر بها، قبل أن يظهر للواقع.

لكي يظهر سلوك اختياري ما إلى الوجود، فإن هناك ثلاث مراحل لابد أن تتم داخل الإنسان:

أولا: القناعة العقلية بالفعل المراد القيام به.

ثانيا: إصغاء قلبي لصوت العقل ورضاه بما يشير إليه.

ثالثا: صدور أمر من القلب إلى الجوارح بالتنفيذ.

فإذا أردنا أن نُشخّص أسباب السلوك غير السوي، والذي نشكو من وجوده ونريد تغييره إلى ما يحبه الله ويرضاه، فلابد أن يتناول البحث محاور ثلاثة:

المحور الأول: يتعلق بعقل الإنسان وفكره وقناعاته التي تشكل المنطلق الأول للسلوك.

المحور الثاني: يتعلق بقلب الإنسان وما يحول بينه وبين تنفيذ ما يمليه عليه العقل.

المحور الثالث: يتعلق بالنفس التي تشكل العائق الأساسي الذي يقف أمام إخلاص هذا الفعل لله عز وجل.

فإذا كان المطلوب أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله عز وجل ما بنا، فإن هذا التغيير لابد أن يشمل:

١- الاهتمامات والتصورات والأفكار، وهذا يستدعي تغيير اليقين الخاطئ في العقل الباطن.

٢- زيادة الإيمان وتمكنه التام من القلب وطرد الهوى منه.

٣- جهاد النفس وترويضها وإلزامها الصدق والإخلاص لله عز وجل.

من أين نبدأ؟

مما لا شك فيه أن هناك دواءً أنزله الله عز وجل نداوي به ما نعاني منه، وأن رحمته التي يغمرنا بها تستلزم وجود هذا الدواء الذي يعيدنا إلى حظيرة العبودية له ... فما هو يا تُرى هذا الدواء؟ باستقراء تاريخ الأمة الإسلامية نجد فيها صفحات مشرقة لجيل من الأجيال كانوا قبل إسلامهم غاية في الغرابة والجاهلية، ثم تبدل حالهم وتغير تغييرا جذريا، ليصبحوا عبيدا لله عز وجل، ويعملون من أجله ويضحون في سبيل مرضاته بالغالي والنفيس ... ذلكم جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

لقد حدثت معجزة عظيمة لهؤلاء نقلتهم هذه النقلة البعيدة، وأعادت صياغتهم وتشكيلهم من جديد. فما هو سر هذه المعجزة؟ كان القرآن هو الدواء الذي تناوله هؤلاء فتغيروا هذا التغيير. إنه السر الأعظم والمعجزة الكبرى التي اختص الله بها هذه الأمة. ومع القرآن وقدرته الفذة والعجيبة في التأثير والتغيير، كان المربي العظيم صلى الله عليه وسلم هو الذي يشرف بنفسه على عملية التغيير ويتابعها ويوجهها.

إذن فالحل الذي نريده ينطلق من محورين: المنهج وهو القرآن، والمربي وهو الذي يتعهد عملية التغيير.

هذا القرآن

إن القرآن هو القادر - بإذن الله — على تغييرنا وإعادة صياغتنا من جديد، ولِمَ لا وهو يمكنه تغيير طبيعة الجبال الصلبة القاسية: { لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر: ٢١] . والقرآن كذلك هو الطريق للاستقامة الدائمة على أمر الله، كما قال تعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء: ٩] . فبالقرآن توحد المسلمون الأوائل على هدف واحد، وبه ارتفعوا إلى السماء وتخلصوا من جواذب الأرض. ولقد أكد على هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: " أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تُهلكوا ولن تضلوا بعده أبدا ". [صحيح / رواه الطبراني في الكبير عن جبير، وأورده الألباني في صحيح الجامع، ح: (٣٤)].

من هنا يتضح لنا أن نقطة البداية التي ينبغي أن نبدأ بها ليتم التغيير الداخلي المنشود هي العودة إلى القرآن. ونعني بالعودة: الدخول إلى دائرة تأثيره، والتعرض الحقيقي لمعجزاته، وتشغيل مصنعه وماكيناته، ليتم من خلاله التغيير المنشود، فنكون من بعده عبيدا لله عز وجل.

كيفية التغيير القرآني

استعرضنا فيما سبق الأسباب التي تحول بيننا وبين أن نكون عبيدا مخلصين لله عز وجل، والتي تنطلق من محاور ثلاثة: العقل والقلب والنفس. ومن ثم فإن التغيير الحقيقي في ذات الإنسان ينبغي أن يشمل هذه المحاور الثلاث:

o فبالنسبة للعقل: يقوم القرآن بإعادة تشكيل العقل وبناء اليقين الصحيح فيه، فتتغير تبعا لذلك تصورات صاحبه واهتماماته، ومن ثم تلقائية أفعاله.

o وبالنسبة للقلب: تعني لحظات الانفعال والتجاوب القلبي مع قراءة القرآن، تعني دخول نور هذه الآيات إلى القلب وتأثيره على المشاعر، مما يؤدي إلى زيادة الإيمان. وكلما ازداد الإيمان في القلب، انعكس ذلك على الجوارح بأعمال صالحة لم يكن من السهل قبل ذلك القيام بها.

o وبالنسبة للنفس: تكمن طريقة القرآن الفريدة في التعامل مع النفس من خلال محورين رئيسيين، هما: معرفة الله، ومعرفة النفس، مع ممارسة مقتضى تلك المعارف. فمعرفة الله لها دور كبير في إخلاص العمل لله عز وجل، وعلى قدر تمكنها من القلب وتعمقها فيه يكون صدق معاملة العبد لربه. أما تعريف القرآن للمرء بحقيقة نفسه وطبيعتها، وحبها للشهوات، وميلها للفجور، وأنها لو تُركت لما أمرت بخير ... كل ذلك ليشتد حذر الإنسان منها، فلا يركن إليها ولا يرضى أو يفرح بها.

كيف ننتفع بالقرآن؟

إذا كان القرآن هو المخرج من الفتن التي تعصف بنا، فلابد — إذن — أن نعود جميعا إلى القرآن. فالعودة إليه تمثل طوق النجاة ومشروع النهضة للأمة جمعاء. إن الدخول إلى عالم القرآن ودائرة تأثيره

يحتاج منا إلى جهد ومثابرة، وبخاصة في البداية، حتى نستطيع تجاوز الطريقة التي اعتدنا عليها في تعاملنا مع هذا الكتاب، والتي تهتم باللفظ أكثر من المعنى.

وأكبر عامل يساعدنا على تجاوز طريقتنا الشكلية مع القرآن، ويُدخلنا إلى دائرة تأثيره، ويُذيقنا حلاوة الإيمان الناتج عنه: الاستعانة الصادقة بالله عز وجل، والإلحاح عليه بالدعاء ... أن ينفعنا بمعجزة القرآن، وينور قلوبنا بنور آياته، ويحييها بمعرفته. ومع الاستمرار في الدعاء والإلحاح على الله عز وجل، فإن هناك بعض الوسائل المعينة على العودة الهادئة والمتدرجة إلى القرآن، علينا أن نجتهد في الأخذ بها جميعا. وهي:

١- الانشغال بالقرآن والتجرد له

٢- التهيئة الذهنية والقلبية

٣- سلامة النطق والقراءة الهادفة

٤- التركيز في القراءة وعدم السرحان

٥- التجاوب مع القراءة

٦- أن نجعل المعنى الإجمالي هو المقصود

٧- ترديد الآية التي تؤثر في القلب

٨- دراسة الآيات والعمل بمقتضاها

المربي

أهم دور يضطلع به المربي هو الإشراف على عملية التغيير ومتابعته، ليكون النتاج صالحا، فلا يحدث تضخم في جانب وضمور في جانب آخر. لذلك فمن طبيعة وظيفته:

أولا: تربية من معه على التوازن والاعتدال

ثانيا: ضبط الفهم الصحيح عند الأفراد لمراتب الأحكام وفقه الأولويات مع النظرة الشاملة للإسلام

ثالثا: حسن توجيه الطاقات المتولدة لدى الأفراد نتيجة تعاملهم مع القرآن ومنابع الإيمان، وذلك بفتح مجالات العمل أمامهم، وتنظيم حركتهم بين الناس

رابعا: شحذ همم الأفراد

خامسا: المحافظة على الأفراد

سادسا: التذكير الدائم بحقيقة الدنيا

ومما لا شك فيه أن طبيعة دور المربي تستدعي منه تواجدا مستمرا مع الأفراد ليتسنى له متابعتهم وحسن توجيههم. ولكن ذلك لا يعني المتابعة الدقيقة واللصيقة لكل منهم، والتأكد من تنفيذ توجيهاته بدقة. ولكن يترك المربي الإيمان في قلوب الأفراد يحركهم، فالإيمان هو أكبر ضامن يضمن

تنفيذ الخطط والتوجيهات، مع عدم إغفال دور المتابعة العامة التي تتعرف على الواقـــع فتـــبني عليـــه توجيهات المستقبل.

المحاضن التربوية

قد لا نجد مثل هؤلاء المربين الدالّين على الله وعلى كتابه، ولكن مع وجود المنهج – ألا وهو القـــرآن – ومع فهم طبيعة دور المربي، يمكننا أن نستعيض عن دوره – ولو بصفة مؤقتة – من خلال تعاهـــد بعضنا البعض بالنصح والإرشاد، وتبادل الخبرات، وتبني الأدوار التي يقوم بها المربي. وحبذا لو كـــان بيننا من سبقنا إلى الدخول لمأدبة القرآن ليوفر علينا الوقت والجهد. وهذا ما يمكن أن نطلق عليـــه " المحاضن التربوية ".

والمقصد من ذلك هو إرشاد الأفراد إلى كيفية الانتفاع بالقرآن وتذوق حلاوته. مع العلم أنه بالمداومة على استخدام وسائل العودة إلى القرآن سيبدأ الأفراد في تذوق حلاوة الإيمان، لتكون هذه المحاضـــن وسيلة لتبادل هذه الأذواق وشحذ الهمم وفتح آفاق أوسع للتعامل مع الآيات. وفي المحاضن التربويـــة يتم تدارس بعض كتب العلم النافع التي تعين الفرد على تعميق فهمه للقرآن، وتضبط له عملية التغيير. على أن يتم ربط هذه الكتب بالقرآن قدر المستطاع، وألا تطغى عليه.

هذا الشكل المقترح للمحاضن التربوية، والتي يمكن أن تتم في البيت بـــين الأب وأبنائـــه، أو بـــين الأصدقاء بعضهم مع بعض، لها امتداد عبر تاريخ الأمة، فقد بدأها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان القرآن هو المنهج الذي يتدارسونه ويعيشـــون معـــه. أمـــا توجيهاته صلى الله عليه وسلم فكانت بمثابة الشرح والبيان لآيات القرآن، مع ضبط الفهم، وتنظـــيم حركة الأفراد، وشرح كيفية التعامل مع مستجدات الحياة.

ومع أهمية وجود المحاضن التربوية للإشراف على عملية التغيير القرآني للأفراد، إلا أنه ينبغي أن يكون لها دور آخر في توجيههم لدعوة الناس. فمن الضروري تبليغ الناس بـــذلك، والأخـــذ بأيـــديهم إلى مأدبته، فينصلح حالهم، ويعودون إلى ربهم، ويمارسون الوظيفة التي خلقوا من أجلها، فيتحقق بـــذلك الوعد الذي وعدنا الله به بالاستخلاف والتمكين.

هيا إلى العمل

إذا كان القرآن هو مشروع الأمة الإسلامية القومي للنهضة، وهو السبيل لعودة مجدها وعزها، فلابد أن ينتفض كل غيور ويبدأ بنفسه ويعود إلى القرآن، ويقبل عليه بكيانه كله.

لابد أن نعمل على تبليغ هذه الدعوة في كل مكان، وأن نرشد الناس إلى كيفية العودة إلى القـــرآن، والانتفاع الحقيقي به، وأن نلح عليهم بذلك. وشيئا فشيئا ستسري هذه الدعوة في أعمـــاق الأمـــة، وستجد لها – بمشيئة الله – آذانا صاغية.

فلنبدأ من الآن، ولنعد إلى القرآن، فكفى ما مضى من أعمارنا ونحن بعيدون عن هذا الكنز العظيم. ولنستبشر جميعا، فما هي إلا سنوات قليلة حتى نجد نور القرآن يسري في النفوس، ليبدأ التغيير في جنبات الأمة، ويصطلح الناس مع ربهم، ويعودوا إليه.

١ من صفر عام ١٤٢٧ من الهجرة (الموافق في تقويم النصارى ١ من مارس عام ٢٠٠٦).

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ

د. علي بن عمر بادحدح

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فإن أنباء تجَدُّد العدوان الصهيوني الآثم على فلسطين ولبنان تطغى على كل الأخبار، وتشغل المساحة الأكبر في وسائل الإعلام المختلفة، فعلى مرأى ومسمع من العالم كله قام الكيان الصهيوني بأبشع جرائم القتل التي كان ضحاياها من المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ، كما مارس التدمير الآثم على خدمات الكهرباء والمياه والمطارات والموانئ والجسور والطرقات، في جريمة كبرى قلَّ مثيلها في وضوحها وبشاعتها، وفي خضم المناورات والحسابات السياسية تختلط كثير من الحقائق والرؤى الصائبة، وهذه نظرات مستلهمة من القرآن والسنة حول المفاهيم والمواقف :

أولاً: مفاهيم الصراع المبدئية:

١- الصراع مع اليهود الصهاينة - ومركزه أرض الإسراء - صراع عقدي حضاري ، وأسبابه لها جذور تاريخية في عداء اليهود للإسلام منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، و من هنا يأتي فهم سياق الأحداث الجارية من مثل قوله تعالى: { كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } [المائدة: ٦٤]،أي "كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها،وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم" [ابن كثير ص ٦٣٤] "وكون المراد من الحرب محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم هو المروي عن الحسن ومجاهد" [الألوسي ١٨٣/٦] ، ومزيد من البيان نجده في قوله تعالى: { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } [المائدة:٨٢] ،" وهذا خبر مطلق منسحب على الزمن كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن، وذلك أن اليهود مَرَنُوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، ودَرَبُوا العتوَّ والمعاصي، ومَرَدُوا على استشعار اللعنة وضرب الذلة والمسكنة، فهم قد لَحَجَتْ عداوتهم، وكَثُرَ حسدهم، فهم أشد الناس عداوة للمؤمنين" [ابن عطية ص ٥٦٨]، وطبيعة الإجرام والعدوان اللاإنساني الغاشم الذي يمارسه الكيان الصهيوني المحتل نراه جلياً بكل قسوته وفظاعته في قوله تعالى: { كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلّاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا

عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } [التوبة:٨ ــ ١٠] .

٢- الغايات التي يريدها الصهاينة،وأمريكا الداعمة لهم ، والغرب المتواطئ معهم معرفتها سهلة لظهورها في الواقع مصداقاً لقول الله تعالى: ؟ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة:٣٢-٣٣)

] ، فالغايات الكبرى هي مناوأة الإسلام، ومحاربة عقائده ومبادئه، ومن ثم استهداف معتنقيه وحملته بالقتل بصفة دائمة كما ورد في قوله تعالى: { وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:٢١٧].

٣- سنة الكون لا تتبدل ولا تتغير فالتمكين في الأرض ممزوج ومسبوق بسنة الابتلاء ، قال تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة: ٢١٤]

٤- نهاية الصراع وعاقبة المواجهة والجهاد واضحة عند المسلمين، وهي دائرة بين اثنتين: (النصر أو الشهادة) وفي الأولى عز الدنيا، وفي الثانية فوز الآخرة { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة:٥٢]، والبيان التوضيحي لذلك نجده في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة) رواه البخاري.

ثانياً: مفاهيم المقاومة والانتصار:

١- إن مقاومة المحتل والدفاع عن الأرض والعرض حق مكفول في جميع الملل والشرائع ، ومشروعية المقاومة ضد المحتل أقرها الأعراف والقوانين الدولية، واستمداد المشروعية – عند المسلم – لا يفتقر إلى ذلك لأن أساسه الوحي المعصوم ومواده آيات القرآن الكريم فالحق جل وعلا يقول: { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } [التوبة:١٢ – ١٤]، وفي سنة سيد المجاهدين صلى الله عليه وسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه

فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شـــهيد) [رواه الترمذي،ولـــه رواية مختصرة عند البخاري]، فهل بعد هذه المشروعية الواضحة المحددة في الحالات المختلفة حاجـــة لمزيد ؟

وينبغي التنبيه أن مشروعية الجهاد الإسلامي الصحيح المشروع دائمة ومستمرة ومستمدة مـــن ســـنة المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد روى سلمة بن نفيل الكندي قال:كنت جالسا عنـــد رســـول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: يا رسول الله أذال الناسُ الخيل ووضعوا السلاح، وقالوا لا جهـــاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال: (كذبوا، الآن الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حـــتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) رواه النسائي.

٢- إن المرابطين المقاومين المجاهدين في سبيل الله، ومن ورائهم المؤمنون بالله حق الإيمـــان يـــدركون الحقائق الإيمانية ويعرفون الموازين الإسلامية فيمضون في معاركهم وهم على بصيرة،فهم على يقين أن النصر من الله وليس بعدة ولا عتاد ولا كثرة أعداد { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَـــةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة: ٢٤٩] { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّـــهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [آل عمران: ١٢٦]، ومن قوة إيمانهم يثبتون ويصبرون فموقفهم في مثـــل هـــذه المواجهة – رغم شدتها – التقدم لا التراجع وكأنهم يمضون مع قوله تعالى: { وَلا تَهِنُوا فِـــي ابْتِغَـــاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمـــاً حَكِيماً } [النساء:١٠٤]، ويجددون ما مضى عليه أسلافهم من المجاهدين المؤمنين { مِنَ الْمُـــؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَـــا بَـــدَّلُوا تَبْـــدِيلاً } [الأحزاب:٢٣].

٣- إن المقاومة دليل حياة الشعوب، ومؤشر على كرامة وحرية الرافضين للاحـــتلال ، ولا يرضـــى بالذل ويستسلم للعدوان إلا من سفه نفسه وفقد إنسانيته، ،ولا بد من تثبيت معاني كرامـــة وعـــزة المسلم وأنه يجب أن لا يذل إلا لخالقه استجابة لنداء الحق جل وعلا: { وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْـــتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٣٩]، وحين يكثر الظلم وتتوالى الضـــربات والإهانـــات تضمر هذه المعاني ، وللأسف فإننا نجد أن وسائل الإعلام تسهم في تكريس ذلك من خلال تزييـــف معاني العزة والكرامة والاستهزاء بها، وبالتالي تنسى هذه المعاني مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال، ممـــا يستدعي التأكيد على ذلك سيما في مثل هذه الأزمنة التي مرت فيها الأمة الإسلامية بحـــالات مـــن الضعف الشديد، ولعل من سبل مواجهة ذلك إبراز أثر المقاومة في العزة والاستعلاء الإيماني.

٤- إن تاريخ أمتنا يكشف لنا أن المسلمين انتصروا في معاركهم الكبرى جميعها رغم قلة قوتهم عدداً وعدة مقارنة بعدوهم، ففي يوم بدر يقول سبحانه وتعالى: { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَـــا فِئَـــةٌ

تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } [آل عمران:١٣]، وهكذا كان الحال في اليرموك والقادسية، بل وفي حطين وعين جالوت، ومثل ذلك في فتح الأندلس والقسطنطينية، وفي العصر الحديث كانت المقاومة الباسلة للمحتل الفرنسي في الجزائر، وللمحتل الإيطالي في ليبيا، وللمحتل الإنجليزي في مصر والعراق وغير ذلك، وقل أن تجد في التاريخ مقاومة لمحتل لديها قوة مكافئة للمحتل فضلاً عن أن تكون متفوقة عليه، ومن ثم لا بد من تقديم ضريبة العز، وبذل عربون النصر من خلال تقديم الشهداء، وضرب أروع أمثلة التضحية والفداء، وأما الانتظار إلى أن تتعادل الكفة وتتكافأ القوى فغير ممكن وخاصة في ظل حكومات عربية لا هم لها سوى الحفاظ على كراسي حكمها، وبالتالي فإن اقل القليل هو دعم المقاومة الشعبية التي تنهك هذا العدو وتزلزل كيانه وتقلق راحته .

ثالثاً: مفاهيم المواجهة الحالية:

١- إن أساس المواجهات الحالية وأصلها يتمثل في الاحتلال، ووجود الصهاينة المحتلين على أرض فلسطين ولبنان هو السبب لكل ما يجري، ولذا يجب أن تتجه الأنظار إلى لب المشكلة لا إلى آثارها، ولا يغيب عن ذهن أي عاقل ما سبق هذه الاعتداءات الصهيونية على فلسطين ولبنان من أعمال إجرامية مليئة بالغطرسة والعدوان من قتل وهدم وتحريف واعتقال وهو ما يعتبر سمة أساسية في هذا الكيان الغاصب، الذي يضرب عرض الحائط بكل القوانين والقرارات الدولية،فلا يصح بحال قطع ما يحصل الآن من قصف لفلسطين ولبنان عن تاريخ هذا الكيان المليء بالانتهاكات والعدوان والظلم الشنيع ، ومن ثم فإن كل فعل ضد هذا الإجرام الفظيع أقل درجاته أنه من باب الدفاع عن النفس، واسترداد الحق، ومعاقبة المجرم المعتدي، { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [البقرة:١٩٤]، { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } [الشورى:٣٩] .

٢- ينبغي الانتباه إلى أنه – في هذه الأحداث الدامية العصيبة – يوجد عدو مشترك وهو العدو الصهيوني الذي استقوى بأمريكا وغيرها من قوى الاستكبار ، ومارس القتل والتشريد للمستضعفين من المسلمين بكافة أجناسهم وطوائفهم وهذا عدو للجميع، وينبغي التوحد في مواجهته ، حتى وإن اختلفنا في المذاهب والتوجهات، وإن كل ما يضر العدو الصهيوني ويؤذيه ويوقع فيه النكاية فالموقف منه التأييد بعض النظر عن مصدره ومعتقده أو مذهب فاعله، ولذلك أصل في أول سورة الروم { غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الروم: ٥].

٣- إن المعارك والمواجهات الحالية إنما هي جزء من مرحلة طويلة في مضمار الصراع ، ولا زالت هناك مراحل مليئة بالمواجهات فلا ينبغي أن تختصر القضية في هذه الأحداث الجارية حالياً، ولا ينبغي أن نؤخذ بالأحداث الآنية فالأيام دول، { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ } [آل عمران: ١٤٠]، وفي يوم أحد : " قال أبو سفيان يوم بيوم بدر يوم لنا ويوم علينا، ويوم نُسَاء ويوم نُسَر، حنظلة بحنظلة وفلان بفلان وفلان بفلان " ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا سواء، أما قتلانا فأحياء يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون) ، وإن الأحـــداث الراهنة – بما فيها من شدة و عسر – تكشف صدق الصادقين وزيف المدعين الذين وجدوا في ظاهر الأحداث فرصة للتشفي من أمتهم ومبادئها، وتأكيداً لخنوعهم ودعوتهم المخذلة للارتماء في أحضـــان الخصوم والأعداء { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَـــا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُـــوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [آل عمران:١٧٩].

٤- إن العقيدة الصهيونية قائمة على استغلال أي فرصة لضرب أي جهـــة تقاومهـــا أو تفكـــر في مقاومتها مستقبلاً ، ويخطئ من يظن أن المقاومة في فلسطين لها قدرة على تجنب القتال لأنه مفـــروض عليهم بحكم النظرية العدوانية الصهيونية ومن خلال التفوق في القوة والآلة العسكرية التي تتظافر على وجوب إرغام الجميع لسيادتها سواء تحت تهديد القوة أو الاستسلام المسمى بأسماء السلام أو التطبيع .

رابعاً: مواقف الأطراف المختلفة:

١- إن موقف الدول الكبرى تراوح بين التأييد الظالم والسكوت المظلم، والمسارعة للضـــغط علـــى الطرف المظلوم وتحميله المسئولية، ومطالبته بتنفيذ شروط المعتدي والرضوخ لإرادتـــه دون قيـــد أو شرط، وإضفاء الشرعية على عدوانه وصبغه بالدفاع عن النفس ، وهذا هو موقف أمريكـــا المعلـــن، وموقف أوروبا المبطن، وموقفهم جميعاً – قبل الأحداث الأخيرة – كان متفقاً على محاربة الحكومـــة الفلسطينية المنتخبة ومحاصرتها هي والشعب الفلسطيني بكامله رغم المأساة والمعاناة، وكل ذلك دليـــل على زيف دعاوى تحقيق الديموقراطية، وعدم مصداقية الحفاظ على حقوق الإنسان، واختلال ميـــزان العدل، وغياب المساواة، وترسيخ مبادئ الظلم والعدوان ، كما أنه دليل على أن تلك الدول تتـــبنى الإضرار بالعرب والمسلمين وتفرح بأذاهم وتساعد على ذلك وتؤيده ، بل إن أمريكا تمنع مجرد إدانة المعتدي وذلك من خلال استخدام حق النقض الفيتو الذي يمثل شريعة الغاب، ويلغي الحق والعـــدل بالقوة والهوى، { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } [البقرة:١٢٠]

٢- تعودت الشعوب المضطهدة في فلسطين ولبنان وغيرها أن تسمع من الـــدول العربيـــة كلمـــات الشجب والاستنكار التي لا تدفع ولا تنفع، وقبل هذه الأحداث كانت مجازر شاطئ غـــزة وجـــرائم وحشية يهودية متكررة، فضلاً عن وجود آلاف الأسرى الفلسطينيين بمن فيهم من النساء والأطفـــال وكل ذلك قابله السكوت المطبق طوال الأشهر السابقة في فلسطين ، وموقف الدول العربيـــة مـــن الأحداث الحالية يكشف عن ضعف وعجز وتخاذل وانكسار، وليت الأمر توقف عند هذا الحد على ما فيه من خزي وعار ومهانة، إلا أننا نرى بعض تلك الحكومات نزلت إلى درجة لم تكن متوقعة من

التخلي التام عن المقاومة المشروعة بل وإدانتها بشكل مباشر أو غير مباشر، وذلك يتضمن إعطاء العدو الصهيوني مشروعية التدمير والعدوان ، وهذا ما تذكره وتستشهد به أمريكا، وأين هذه المواقف من قوله تعالى: { وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال:٧٢]،وهذا كله بخلاف ما عليه شعوب البلدان العربية والإسلامية التي تؤيد في معظمها المقاومة وتتلهف لمعاونتها والوقوف في صفها .

خامساً: الموقف من حزب الله:

١- إن اتخاذ المواقف – في مثل هذه الأحداث – يؤسس على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد، وذلك يرجع إلى اجتهاد أهل الشأن حسب تقديرهم المستهدي بأصول الشريعة ومحكماتها، والمستند إلى معرفة وخبرة واقعية بمجريات الأحداث، وهو اجتهاد قد يعتريه الخطأ ويتغير بحسب ظروف الزمان والمكان .

٢- لا يخفى على أي مطلع أن الحزب شيعي المذهب، وله ارتباطاته الواضحة بإيران، وصلاته المعروفة بسوريا،وذلك له أثره الواضح على توجهاته وأعماله، ولكن هذا ليس هو المقياس الوحيد في هذه المعركة التي نحن بصددها .

٣- إن للحزب وحلفائه أهدافاً تخصهم وتصب في مصالحهم الذاتية، وأهدافاً يشتركون فيها – من خلال العمل الميداني على الأقل – مع المقاومة في فلسطين ومع مصالح بقية الأمة، وذلك في إلحاق الضرر بالعدو الصهيوني، وكل أذى ونكاية في هذا العدو مطلوبة ومرغوبة.

٤- الوقت الحالي – مع استمرار هذا العدوان – ليس وقتاً مناسباً للمحاسبات المذهبية أو الطائفية بل هو وقت ينبغي فيه التركيز على العدو الأكبر الذي يهلك الحرث والنسل ويهدد البلاد والعباد .

٥- إن النظرة الكلية للصراع تقتضي رد الجزئيات إلى الكليات وربط الفروع بالأصول والنظرة الشاملة هي المطلب الذي يساعد على صواب الرأي ووضع الأمور في نصابها من خلال رؤية خطورة وشمولية المعركة، والأطراف المشاركة والمؤيدة للعدوان، بحيث يكون التأييد أو التحفظ في إطار محدد ومتوازن، وبما يحقق المصالح ويدفع المفاسد.

٦- إن العدوان الصهيوني الحالي في لبنان ليس وليد وقته وليس ردة فعل لحدث معين – كما يبدو للناظر لأول وهلة – بل إن الوقائع تدل على غير ذلك، حيث لا يمكن أن يكون تحديد الأهداف الكثيرة، والعمليات المتواصلة مع تحديد مدد ومطالب معينة، كل ذلك لا يُمكن إلا بتخطيط مسبق وإعداد مبيت، ومثل هذا تماماً يُقال في الأحداث الأخيرة في فلسطين بعد عملية (الوهم المتبدد) وما تلاها من عمليات عسكرية وخطف للوزراء والنواب، وهذا يتوافق مع إستراتيجية العدوان الصهيوني الذي يسعى إلى إنهاء كل قوة محتملة يمكن أن تشكل مقاومة له أو حجر عثرة في طريق مخططاته.

سادساً: المواقف والأعمال المطلوبة:

إنه لابد لنا إزاء هذه الأحداث أن نغير في مسيرة حياتنا فكراً وشعوراً وسلوكاً بما يلزم من الاستمساك بالدين والاعتصام بالكتاب والسنة وهذه بعض الخطوات المطلوبة :

١- تجديد التوبة، وصدق الالتجاء إلى الله، والاجتهاد في الاستقامة على شرع الله، واجتناب المعاصي والابتعاد عما حرم الله.

٢- تحقيق الأخوة الإيمانية وتوكيد الرابطة الإسلامية بنصرة إخواننا المجاهدين في فلسطين ببذل المال وتقديم الإغاثة لهم بكل الوسائل والإمكانات المتاحة ومشاركتهم شعورياً وعاطفياً باستشعار مصابهم وآلامهم، علماً بأن إخواننا من أهل السنة في لبنان أصابهم بلاء كثير وحصل لهم تهجير كبير وهم موجودون في مزارع شبعا الحدودية وبعض قرى الجنوب و مدينتا صيدا وصور هما عمق سني لشمال لبنان.

٣- التوعية بالحقائق الإيمانية والمبادئ الإسلامية في مواجهة الأعداء ومجابهة الخطوب وتوضيح المعاني الشرعية الصحيحة للمفاهيم الإسلامية المهمة كالجهاد والولاء والبراء، وتعزيزها في ضوء النصوص الشرعية والأحداث الواقعية وحقيقة الصراع بين الحق والباطل مع التحذير من التخذيل واختلاط المفاهيم .

٤- التخفف من الدنيا وتجنب الركون إليها والبعد عن الاستكثار من المباحات والانشغال بالكماليات ، والاعتبار بما جرى لإخواننا من الدمار والعدوان، وتهيئة النفوس لحياة الجد والعزم، واستنهاض الهمم لعيش العزة والكرامة، وتحديث النفس بالدفاع عن الإسلام والمسلمين وصد عدوان المعتدين .

٥- العمل على إحياء المقاطعة الاقتصادية للبضائع والخدمات والمصالح التجارية للكيان الصهيوني وأمريكا الداعمة له، والتنبيه على أهمية ذلك وجدواه كسلاح من أسلحة المقاومة ضد العدو.

٦- استحضار ضراوة المعركة وخطورة المؤامرة التي يجتمع فيها العدو الصهيوني، مع دعم مطلق من أمريكا، وتآزر مباشر وغير مباشر من بعض دول أوروبا، وأهمية إدراك استهداف مكامن القوة والعزة عند المسلمين، والعمل على تفريق صفهم وتفتيت وحدتهم والاستفراد بهم كلاً على حده على مستوى الدول والشعوب، وضرورة تفويت الفرصة على الأعداء بالوحدة والنصرة حتى لا يأتي يوم يقال فيه أكلت يوم أكل الثور الأبيض .

٧- الابتهال إلى الله تعالى، والقنوت في الصلوات، والتضرع في الخلوات، وتحري أوقات الإجابة في جوف الليل والأسحار بأن يعز الله الإسلام والمسلمين ويحبط كيد الأعداء المجرمين .

٨- قيام علماء الإسلام ودعاته ومفكريه بواجبهم في إيقاظ الأمة وتنبيهها للمخاطر، وتقوية عزيمتها، وحفظ إرادتها من أسباب الوهن والإحباط والاستسلام، وكشف طرائق ومخاطر الذين يسعون في جعلها تابعة ذليلة خانعة، ومن أوجب واجباتهم وضع التصورات والخطط وبرامج الأعمال التي

تستهدف نهضة الأمة ووحدتها ورفع معنوياتها وزيادة فاعليتها ورسم مستقبلها وحفظ حقوق أجيالها وعدم الاكتفاء بإلقاء التبعة في ذلك على الحكومات.

والله نسأل أن يلم شمل المسلمين ويوحد صفهم ويزيد قوتهم، وأن يـدحر أعـداءهم مـن اليهـود وحلفائهم ، وأن يكتب العاقبة للمؤمنين، ويجعل الدائرة على الكافرين ولو بعد حين، والحمد لله رب العالمين.

المصدر : islameiat.com

فن استجلاب معية الله

طارق حسن السقا

المواهب والقدرات مع القوة والمهارات إضافة إلي الذكاء والخبرات أمور لا غنى عنها في حياة كـل منا. وهي أمور لا غنى عنها لكل من يبحث عن التميز أو التفوق أو الكسب في دنيا الناس . ولكن : هل مواهبنا وقدراتنا ومهاراتنا وحدها تكفينا لكي نتميز أو نفوز أو نحقق ربحا كبيرا أو فوزا عريضا ؟ ولا شك أن هذه المواهب وهذه القدرات المميزة لكل منا ، ما هي إلا نعم أنعم الله بها علينا . وكـل من أراد منا التميز أو التفوق في هذه الحياة فعليه الاهتمام البالغ بهذه المنح الربانية . كما ويجب علينا التحديث الدائم لهذه المواهب وهذه القدرات . بل وعليه أن يسعى إلي تطويرها وتنميتها وتجديـدها من حين لحين . فهي لا غنى عنها لكل من يسير في معترك هذه الحياة التي أصبحت لا تعترف بخامـل أو كسول، ولا .بمصر على السير سير الهويني أو السير على أنغام المارشات الجنائزية .

إن الإنسان الايجابي في هذه الحياة هو ذلك الذي يملك موهبة أو مهارة أو حتى سمعة حسنة يشتهر بها في دنيا الناس . هو من يفعل هذه المواهب والقدرات في المحيط الذي يعيش فيه . ينفع بها ويصلح فيه . هو الذي له دور في هذه الحياة . وهو الذي يشارك في صنع الإحداث من حوله . هو من لا يكتفي بالوقوف متفرجا على هذه الأحداث وهي تمر أمامه . ولا بد من أن يعمل كل منا و يسعي ويجـد- بل ويكد – في تطوير مواهبه وقدراته وإتقانها إلي الحد الذي تجعله يتخطى حدود الدائرة التي يعـيش فيها . ليعمل مع العاملين على تغيير وجه التاريخ . فكما يقول الفيلسوف الفرنسي المشـهور جـان جاك روسو :

نحن في حاجة إلى المزيد من فئة صانعي الأحداث

لأنهم وحدهم دون غيرهم الذين يستطيعون إن يغيروا وجه التاريخ .

وكل من أراد أن يكون من هذه الفئة لابد أن يكون من أصحاب المواهب والقـدرات والمهـارات المتميزة .

وعند النزول إلى معترك الحياة والعمل يجب ألا نعتمد على مواهبنا ولا على قدراتنا اعتمادا كليا .كما و يجب ألا نركن إليها مهما تعاظمت أو تكاملت . بل يجب علينا أن نتعلم كيف نمزج هذه القدرات وهذه المواهب بمعية الله الواهب . يجب علي كل باحث عن التميز أن يتقن فن استجلاب معية الله له في كل أعماله . يجب على كل من أراد الكسب أو السبق أو الفوز أو النصر أن يتعلم كيف يستجلب تلك المعية الإلهية له في كل أعماله صغرت تلك الإعمال أو كبرت . فلا حول ولا طول ولا نصر ولا كسب ولا نجاح ولا فلاح إلا بالله العلي العظيم .

وكان هذا هو هدي رسولنا صلي الله عليه وسلم وديدنه في الأمور كلها . فكان صلي الله عليه وسلم يتقن هذا الآمر أيما إتقان . فكان إذا ما انتهي من مرحلة استغلال الإمكانات المتاحة أمامه و المواهب والقدرات المتوافرة تحت يديه ، حتى يبدأ في مرحلة استجلاب معية الله .

ففي يوم بدر بذل المصطفى صلي الله عليه وسلم الوسع في الإعداد : فصف الجيش ، وعبأ الجند ،ورسم الخطط ،و افترض الافتراضات ، واحتمل الاحتمالات، حاور، وتشاور وغير وبدل . وما أن انتهى من الاستفادة من كل هذه الإمكانات والقدرات المتاحة حتى انتحى صلي الله عليه وسلم يناجي ربه في دعاء عميق ، ومناجاة حارة ، وإلحاح شديد يستجلب بها معية الله . ابتهل صلي الله عليه وسلم " وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق – رضي الله عنه – وقال :

حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك" .

يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك .

ولكن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان خير من يعلم انه إذا ما امتزجت معية الله القادر بمواهب العباد وقدراتهم – مهما كانت محدودة – فحتما سينتج عن ذلك مخرجات تفوق قدراتهم على استيعاب أثارها الايجابية اللامحدودة .

وقد كان جاء مدد السماء بطريقة فاقت عقول أهل الأرض وامتزج المدد الروحي بالمدد المادي . وجاء النصر وتحقق الفوز لفئة لم تتكل على قدراتها ولا على مواهبها دون الاتكال على الله . و لم تتكل على الله دون الاستفادة القصوى من قدراتها ومواهبها وخبراتها .(أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة ؛ وأن يصبح لها قوة وسلطان ... وأراد لها أن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة وليس بالمال والخيل والزاد إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد.) كما يقول صاحب الظلال .

إن مرحلة استجلاب معية الله هي الحلقة الأضعف في حياتنا . فكثيرا ما تنسينا القدرات والخبرات والمواهب الخاصة مرحلة استجلاب معية الله . كثيرا ما نعتمد على مواهبنا وننسي الواهب . كثيرا ما نعتمد على قدراتنا وننسى القادر . كثيرا ما نعتمد على قوتنا وننسى القوي . وهنا نخسر الكثير .

ففي يوم حنين بذل المسلمون الجهد في إعداد المدد المادي الهائل : العتاد ، العدد ،العدة ، الكثـــرة في عدد الجند حتى اكتمل الهيكل العام للجيش على صورته المبهرة . حتى دخل العجب لقلوب الـــبعض فقالوا :

"لن نهزم اليوم من قلة " .

أنستهم القوة والعدة مرحلة استجلاب معية الله. أنساهم العدد والعتاد الاتكال علـــي الله . أنســـتهم قدراتهم البشرية استجلاب معية الله والاتكال عليه وحده لا على تلك الأسباب . لقد أتقن المسلمون يوم حنين مرحلة الإعداد و لم يتقنوا مرحلة الاستجلاب فكانت الانكسارة . كانت الانكسارة الـــتي كان لابد منها لتعي الأمة أن مرحلة استجلاب معية الله من المراحل التي لا غنى عنها في حياة الأمـــم والإفراد والجماعات . كما وأنها سند كل إنسان في هذا الوجود مهما كانت قدراته ومواهبه .

و رسولنا صلي الله عليه وسلم وهو صاحب المواهب والقدرات التي لا تحصى ولا تعـــد إضـــافة إلى كونه المؤيد بالمعجزات ، والمزود بالكاملات، والمحلى بالمدد الرباني كان دائما ما يردد : "

اللهم لا تكلني إلي نفسي طرفة عين ولا ادني من ذلك " .

فالخذلان أن يكلك الله إلي نفسك ويخلي بينك وبينها . والتوفيق ألا يكلك الله إلي نفسك ولا يخلـــي بينك وبينها . كما يقول ابن القيم رحمه الله .

وإذا كانت مرحلة استجلاب معية الله هي الحلقة الأضعف في حياتنا كما قلنا . فيجب على علمـــاء الأمة ودعاتها وأهل الخير فيها أن يسعوا جميعا – كل في مجاله – إلي معالجة هـــذا الـــداء وتضـــميده وترميمه عند أبناء المسلمين . وليبذل كل غيور من أبناء هذه الأمة الجهد إلى أن تبصير الأمة بكيفيـــة إتقان فن استجلاب معية الله حتي لا نندم . حتي لا نندم على أمر عظيم كندم يوم حنين . ولا علـــى أمر صغير كندم جحا الذي قرر ذات يوم شراء حمار. واخذ يخبر كل من يقابله عن نيته في الـــذهاب إلي السوق غدا في الصباح الباكر لشراء حمار . فنصحه احدهم: بان يا جحا قل إن شاء الله . قل إن شاء الله غدا سأشتري حمارا . فرد عليه جحا بثقة الواثق من قدراته والمعتمد على مواهبه :

ولماذا أقول إن شاء الله ؟!

دنانيري في جيبي وما أكثر الحمير في الأسواق .

وفي اليوم التالي ذهب جحا وعاد من السوق مطأطئ الرأس ، خالي الوفاض بدون حمار. فسألوه :

أين حمارك يا جحا ؟

فقال : إن شاء الله سرقت كل دنانيري .

طارق حسن السقا

@hotmail.com٢٢alsaqa

فلنعد قبل أن تأتينا الطامات وتحل علينا العقوبات!

وليكن شعارنا عودة ودعوة

كنا نتكلم قبل فترة وجيزة عن مآسي ومذابح إخواننا العديدة الرهيبة، والتي وقفت أمة المليار مسلم عاجزة عن إيقاف ما يحدث لهم!!!...،ونادى المصلحون بضرورة عودة الأمة عودة جادة كاملة إلى دينها لأنها هي الحل الأساس الذي يعيد للأمة عزها ومجدها وقوتها وفقا للسنة الربانية المقتضية أن نصر الله لنا مرتبط بتمسكنا بأوامر الله والتزامنا بشرعه، وعندها ستكون الأمة في موقف القوة والعزة والتمكين، وسيظهر وقتها الجهاد القوي الهادر من أمة نصرت ربها بالتزامها بأوامره فيتحقق لها النصر وتوقف هذه المذابح والمآسي المتكررة على أبناء أمتنا . بل وبها يحمي المسلمون الذين لم يصلهم بعد بطش الأعداء أنفسهم!! من شرور الأعداء وكيدهم، فعندما تستعيد الأمة هيبتها لا يتجرأ أعداؤها عليها.

قال عز من قائل (إن تنصروا الله ينصركم) الآية (محمد-٧)

وقال سبحانه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)الآية (الرعد-١١) .

والآن.... بعد أن قربت منا الأخطار واتضحت بشكل أكبر أمام أعيننا وظهر شر الأعداء وتحاملهم وتحالفهم وكيدهم، وظهر بوضوح أكبر شدة ضعف الأمة وهوانها وضياعها فإن الحاجة للعودة إلى الله والاستيقاظ من غفلتنا أصبحت أكبر وأكبر..

قال صلى الله عليه وسلم (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا قلنا يا رسول الله أمن قلة نحن يومئذ قال أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل) الحديث (صححه الألباني) .

ولا يليق بنا كمسلمين مؤمنين بكلام ربنا العظيم أن نتغافل ونتعامى وننسى كيد الأعداء الكبير للمسلمين وخطرهم علينا وعدم رضاهم عنا. وليتنا نقرأ بتمعن تفسير العديد من الآيات القرآنية المتحدثة عن ذلك ومنها قوله تعالى (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) (التوبة-١٠) .

وأعداء الإسلام اليوم متمكنون ومتجهزون ونحن في ضعف شديد ولا مقارنة بيننا وبينهم فيما يملكونه من قوة وعتاد ، ولو أرادوا ذبحنا كما ذبحوا إخوة لنا قريبا فالأمر متاح لهم - إلا أن يمنعهم الله- ومن سيحمينا في وقتنا الحاضر..!! .

وسواء فعلوا ما يبيتونه للمسلمين الآن أو فيما بعد فإن الشاهد هو أن الأخطار تتزايد وتتعاظم. وتقترب منا أكثر وأكثر.......

فإلى متى الرقاد والنوم يا أبناء الإسلام عما يحاك لكم..!!، وإلى متى تستمر غفلتنا ويستمر لهونا وسط ألمنا.. !!، وإلى متى يستمر ابتعادنا عن طريق نصرنا..!! الذي لا شك أنه السبيل الوحيد لانقاذنا وحمايتنا من المخاطر.

إلى متى ونحن نرى المعاصي ظاهرة في كل مكان في مجتمعاتنا..!! في المنازل والشوارع، في الأسواق، في الجرائد والمجلات، في الشاشات والإذاعات، في المؤسسات ،في المعاملات، في القوانين وفي ...وفي ...وفي.... بل قل في شتى إن لم يكن في كل جوانب حياتنا.

ألم ندرك بعد ونتيقن أن ذلك هو أساس ذلنا وضغفنا وهواننا !.

إلى متى ونحن نبارز جبار السماوات والأرض بالمعاصي..!! أما نخاف ونخشى ..!! أما نخاف ونخشى من وعيده وعقابه ...!!

أما آن أن نصحو...!!، أما آن أن نصحو...!!، أم أننا لن نصحو إلا عندما تأتي علينا الطامات والعقوبات التي بدأت نذرها تلوح في السماء ونكون وقتها استحققناها بإعراضنا وقسوة قلوبنا.....

قال تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وهم لا يشعرون)(الأنعام٤٣-٤٤).

وإن على الذين يستهينون بالمنكرات والأوامر الشرعية صغيرة كانت أو كبيرة وسط هذا الواقع المؤلم الخطير الذي تعيشه الأمة أن ينتبهوا إلى أن تقصيرهم لا يعود بالضرر على أنفسهم هم فقط ،بل يعود على الأمة بأكملها، فيكونوا من أسباب انهزامها وتأخر نصرها وبعد فرجها من كربها العظيم الذي تعيشه !!.... وأجزم أنهم لحبهم لدينهم وأمتهم لا يرضون ذلك ولكن هل بدؤوا بالعمل والتغيير!!؟.

ومن المؤلم أنه وعلى الرغم من الأحداث الأخيرة الخطيرة التي نعيشها فإن الكثير من المسلمين أفرادا ومجتمعات لا زالوا في بعد عن التطبيق الحقيقي الكامل لأحكام الشرع . والإصرار على المعاصي والمجاهرة بها لا زال قائما وواضحا...

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) (سورة الأنفال-٢٧).

وإن على كل مقصر في أمتنا سواء قصر في تطبيق أوامر الشرع والتزامه بدينه، أو قصر في الدعوة إلى الله والجد فيها أن يخجل ويخاف من كونه سبباً في تأخر نصر الأمة وبالتالي يكون من أسباب استمرار استئساد أعداء الدين على إخواننا وعلينا واستمرار تعرضهم وتعرضنا لشتى أشكال البلايا والنكايات.

وعليه وعلى كل مسلم أن يتذكر ذلك الموقف العظيم، يوم يقف أمام الله ويكلمه سبحانه كما ورد في الحديث الصحيح.......فماذا سيجيب إذا سئل عن ما قام به تجاه الواجبات الكثيرة الكبيرة المتعلقة

بواقع أمته المؤلم، وهل نصرها بقوة أم كان سببا في هزيمتها وذلها. خاصة أن إيذاء المسلمين وقتلهم من أعظم الأمور التي تغضب الجبار سبحانه، ونحن من أسباب استمرار ذلك بتقصيرنا.

وطريق النصر وقت المخاطر يستلزم صحوة سريعة قوية يبدأ بها كل فرد في الأمة بأن يعمل على تغيير نفسه ثم يهب مباشرة مسارعا للواجب الكبير الذي نسيه أكثر المسلمين الآن وكأنه ليس واجبا عليهم ألا هو واجب الدعوة إلى الله وإصلاح الغير (عودة ودعوة) ...

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) الآية(الأنفال-٢٤)

وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (آل عمران-١٠٤).

ومن هنا أبعث نداء حارا أرسله إلى كل مسلم في أرجاء الأرض خاصة الدعاة والمفكرين والكتاب والشعراء بأن يركزوا على تبيين طريق النصر لأمتنا بخطابات قوية مؤثرة، دقيقة مفصلة، تصف الداء والدواء، علَّ أمتنا تصحو من غفلتها وتنتبه للداء الأساسي الذي أصابها ونتجت عنه كل الأعراض والأمراض والبلايا الأخرى ، وعلَّها تلتفت لمسؤولياتها وتبدأ العمل.

وتبيين كيد الأعداء مهم ، والحديث عن آلامنا مهم، ولكن الأهم هو إيضاح طريق النجاة والخلاص والنصر ،.... والسعي لتحقيقه.

وليت أمتنا تحمل بقلوبها وُتذكِّر بألسنتها وتطبق بأعمالها هذا الشعار العظيم الذي يرمز للطريق الحقيقي للخلاص والنصر لأمتنا... (عودة ودعوة) ...أي عودة إلى الله ودعوة إلى سبيله.

قال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) (النور-٥٥)

وقال سبحانه ووعده الحق (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين) (الأنبياء ١٠٥-١٠٦).

ما أروع هذه الكلمات عن العودة الى الله للكاتب:نور اليقين (هذا من التفعيل الذي نحتاجه)

(ان مثل هذه القضايا لن يحييها القاء من خطيب ولا موعظة من داعيه بقدر ما سيحييها اثارة الموضوع للنقاش في كل مجلس واشباعه بالنقاش حتى يصبح الهم نابع من نفوس بدل نفس ومن قلوب بدل قلب ..

ان ما نريده ان يصبح هم الامه وهم رجوعها الى الله متأصل في كل نفس.. الفاجر قبل التقي والصغير قبل الكبير..

وهي دعوة مني في نهاية مقالي هذا الى ان يطرح الموضوع ولو لثوان في كل مجلس وسنرى ان الجميع سيتكلم بلا حدود مما يثير فطرته الى الرجوع الى الله عز وجل .....)

ملاحظة أرجو الإنتباه لها:

العودة لاتعني عدم الأخذ بالأسباب المادية..... بل هو جزء منها ؛

* أرجو ألا يفهم العديد من الاخوة اننا عندما نذكر بالعودة والدعوة بأن ذلك يعني اننـــا لا ننـــادي بأهمية الأخذ بأسباب القوة المادية ؛ وهل يعني كلام وتذكير انسان بموضوع نظرا لأهمبته وأولويته في جانب معين انه ألغى ونفى أهمية المواضيع الأخرى ،

ثم أيها الأحباب ان مفهوم العودة يشمل جانب العودة لكل ما أمر به الدين من أوامره ومنها الأخـــذ بأسباب العز المادية لأمتنا والإستعداد ماديا للأعداء ،

* ثم الأهم والأهم اننا حتى لو تقدمنا ماديا بدون تمسك بأوامر بديننا فإننا لن ننتصر ولن نتقدم التقدم الحقيقي المبارك لأننا مسلمين فذنوبنا تؤخر نصرنا وتقدمنا واما الكافرين فقد ينصرون وهـــم علـــى كامل كفرهم عندما يتمكنون من المسلمين بحبل من المسلمين أنفسهم عندما يتركون اوامـــر رهبـــم وتعاليم دينهم،

وعلينا الا ننسى ان صدقنا مع الله يبارك في جهودنا المادية.

*- أعود واذكر وؤأكد لكل احبابنا الغيورين ولكل مسلم يؤرقه واقع أمته بأننا لن ننتصر لن ننتصـــر لن ننتصر إنتصارا حقيقيا شافيا لآلامنا ولو عملنا ما عملنا ولو عملنا ما عملنا من وسائل ضد أعدائنا اذا لم إذا لم يصاحب ذلك تقوى لله والتزام بأوامره. لأن ذنوبنا هي التي ستهزمنا.

حتى موضوع وحدة المسلمين التي يكثر الحديث عنها كثيرا فإنها وان حصلت !! فلن ننتصـــر فلـــن ننتصر طالما ان الأمة لم تحترم أوامر ربها وتصر على المعاصي وتجاهر بها في مجتمعاتها ســـواء كانـــت صغيرة او كبيرة.

تعصون ربي جهارا ----- فكيف ترجون نصرا

*- من كان يظن أن الأمة ليست في لهو وبعد ورقص على جراحنا---مع اقرارنا الواثق بـــالخير في السواد الأعظم من المسلمين وحبهم وغيرهم على دينهم--- فليتذكر فقط وعلى الأقل ما يعرض في القنوات،

وليتذكر أن السواد الأعظم من المسلمين هم ممن يشاهدون هذه القنوات بما فيها من الطامات ، وأصبح النظر الى النساء المتبرجات(مذيعات كن أو ممثلات) بإستمرار وإصرار أمرا عاديا وكانه ليس منكراً يغضب رب السماوات، وأصبح الكثير من الأمور التي لا شك في حرمتها وقباحتها وإفسادها لمجتمعاتنا وإغضابها لمالك الكون العظيم.... تعرض وترى في بيوت الكثير من المسلمين.

د مهدي قاضي

إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا !!

سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي صلى الله عيه وسلم، فقالت: كان خلقه القرآن. [صحيح / صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، ٤٨١١]. قال المناوي في فيض القدير: أي ما دل عليه القرآن من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده إلى غير ذلك. وقال القاضي: أي خلقه كان جميع ما حصل في القرآن. فإن كل ما استحسنه وأثنى عليه ودعا إليه فقد تحلى به، وكل ما استهجنه ونهى ع! نه تجنبه وتخلى عنه. فكان القرآن بيان خلقه. انتهى. وقال في الديباج: معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته.

وروى مسلم في صحيحه أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة. فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزي. قال: ومن ابن أبزي؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين.] صحيح مسلم، ٨١٧(٢٦٩) [. قال السندي في شرحه على سنن ابن ماجه: (قال عمر): تقريرا لاستحقاقه الاستخلاف. وقوله (بهذا الكتاب): أي بقراءته، أي بالعمل به. وقوله (أقواما): أي: منهم مولاك. (ويضع به): أي بالإعراض عنه وترك العمل بمقتضاه.

وهكذا كان توقير الرعيل الأول لكتاب ربهم في صدورهم. وكان السلف ينشئون أطفالهم على حفظ القرآن، ثم يحفظونهم الكتب الستة (أي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه). وبعد أن يتمون ذلك يقومون بتحفيظهم مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم. وبذلك يشب الطفل المسلم على وعي بكتاب ربه وسنة نبيه صلوات ربي وسلامه عليه. وهكذا حقق الإسلام تقدمه وتفرده، وازدهرت حضارة الإسلام على جميع الحضارات التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وتفوقت عليها؛ وذلك بحفظ كتابها والعمل بمقتضاه.

ثم خلف من بعد ذلك خلف أضاعوا هذه القيم، ولم يهتموا بكتاب ربهم. هان الله في نفوسهم، فأهانهم الله بما اقترفوه من ذنوب. وقد ضرب لنا القرآن المثل على الأمة التي تضيع العمل بكتابها، فقال تعالى مخبرا عن بني إسرائيل، والخطاب للتذكرة والتحذير: ؟ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟] الأعراف: ١٦٩ [. قال الشيخ أبو بكر الجزائري في تفسيره لهذه الآية: يحكي الله تعالى عن اليهود أنه قد خلفهم خلف سوء، ورثوا التوراة عن أسلافهم، ولم يلتزموا بما أُخذ عليهم فيها من عهود، على الرغم من قراءتهم لها. فقد آثروا الدنيا على الآخرة، فاستباحوا الربا والرشا وسائر المحرمات، ويدّعون أنهم سيغفر لهم. وكلما أتاهم مال حرام أخذوه، ومنوا أنفسهم بالمغفرة

كذبا على الله تعالى. وقد قرأوا في كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الحق وفهموه، ومع ! هذا يجترئـــون على الله ويكذبون عليه بأنه سيغفر لهم.

وقال القرطبي في تفسيره: وهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به هؤلاء موجود فينا. فقد روى الدارمي في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سيبلى القرآن في صدور أقوام كمـــا يبلـــى الثـــوب، فيتهافت، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الـــذئاب، أعمـــالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا سنبلغ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئا.

واستمر خط الابتعاد عن كتاب الله يمضي قدما، بطيئا وبشكل يخفى عن العامـــة في أول الأمـــر، ثم بخطى متسارعة وبصورة سافرة بعد ذلك. فبعد أن كانت الأمة مجمعة الكلمة على العمـــل بكتـــاب ربها، وتستمد تشريعاتها من أحكامه، بدأت في التخلي عنه شيئا فشيئا، فعاقبها الله بأن ســـلبه مـــن يدها، إلى أن أصبحت لا تعمل به. وبالطبع كان هناك دورا رئيسيا لأعداء الأمة في الوصول إلى هذه الحالة التي أصبحنا عليها.

فقد جاء الاحتلال الفرنسي فتعامل بقسوة مع الأمة، وحاول إجبار الأمة على التخلي عـــن تعـــاليم الدين بالحديد والنار. وبسبب إتباع هذا المنهج السافر، فلم تزدد الأمة إلا تمسكا بدينـــها وبتعـــاليم كتاب ربها. ورغم أنه لم يكن قد بقي من الإسلام إلا طلاسم وذكريات إلا أن الأمة وقفـــت صـــفا واحدا في وجه من حاولوا تشويه صورة دستورها. ولذلك تعامل الإنجليز الذين أعقبـــوا الفرنســـيين بصورة أكثر دهاء ومكرا ولكن بنفس المنطق والحزم في زحزحة الأمة عن دينها.

فيقف جلادستون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق في مجلس العموم البريطاني يحث قومه علـــى زعزعـــة الأمة عن دينها فيقول: " مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا الســـيطرة علي الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان ". ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مـــرور مائة سنة على استعمار الجزائر: " إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القـــرآن ويتكلمـــون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم ".

ويسير المنصرون الذين رافقوا هذه الحملات على نفس الخط. فيقول المنصر وليم جيفورد بالكراف، في كتاب جذور البلاء: " متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئـــذ أن نـــرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداُ عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وكتابـــه ". ويقـــول المنصر تاكلي، في كتاب التبشير والاستعمار: " يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضـــى ســـلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضي عليه تماماً. يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القـــرآن ليس جديداُ، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً ". ويقول المنصر ذاته " تاكلي "، في كتاب الغارة علـــى العالم الإسلامي: " يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني، لأن كثيراً من المسلمين

قد تزعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية ".

واستدعى ذلك الأمر العمل على عدة محاور وفي نفس الوقت. فتم إلغاء الكتاتيب والحد من تأثيرها وإضعاف مكانتها في النفوس. وبالطبع لا يختلف أحد في أن الكتاتيب كان قد أصابها شيء من القصور، ولكن كان يجب العمل على علاج تلك الأخطاء الناجمة والتي تراكمت عبر الزمن وليس إلغائها تماما. وتزامن هذا مع الإبقاء على الأزهر – كمؤسسة دينية – قائما مع إضعاف مكانته وزعزعة ثقة الناس فيه بإنشاء المدارس الأجنبية اللادينية إلى جانبه، والمسارعة إلى تعيين خريجي هذه المدارس في مختلف الوظائف المرموقة وبأجور مرتفعة للغاية، مع عدم توفير فرص عمل لخريجي الأزهر (وبالأخص حملة القرآن منهم)، وإن وجدت فهي ضعيفة الأجر.

وهكذا بدأت النظرة إلى القرآن واللغة العربية تتغير في نفوس الناس! ومع رثاثة حال حملة القرآن وخريجي المدارس الدينية، ووجاهة خريجي المدارس اللادينية، بدأت هذه النظرة الجديدة تتغلغل في النفوس، ليتجه المجتمع بأكمله نحو هجران القرآن!! و لم يعد فخرا للأسر أن ترتبط بمن يحمل مؤهل ديني، لضعف مترلته الاجتماعية في المجتمع. مع ما تركه هذا من آثار عميقة في نفوس هؤلاء الأفراد، الذين شعروا أنهم ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بسبب اتجاههم للدين، فكان أن مقتوه في داخل نفوسهم، وسعوا بكل الطرق إلى عدم تكرار تجاربهم. وصار طموح أي فرد في المجتمع أن يصبح طبيبا أو مهندسا أو ضابطا. و لم تعد تجد من يحلم أو تحلم له أسرته بأن يكون " عالم دين " أو " دارس فقه " أو حامل للقرآن ". وتواكب مع هذا صناعة نجوم في المجتمع يشار إليها بالبنان تبتعد تماما عن الإسلام وقيمه. وغُيبت عن عمد نماذج رجال الدين أو رموزنا الدينية من صفحات ! الجرائد أو المجلات أو وسائل الإعلام الأخرى حتى يستقر هذا الاتجاه في النفوس.

وبدأ المخطط بتحويل كتاب الله من قوة حاكمة دافعة للمجتمع إلى مجرد كتاب يحمل ذكريات. تُغير عليه قوى الشر ولا يتحرك المسلمون للدفاع عنه. وتنتشر من حوله الخرافات. وهكذا يصبح القرآن الذي هو حياة الأمة، رمزا للموت فيها، فلا يقرأ إلا في سرادقات العزاء، ولا تكاد تسمع القرآن في مكان حتى تسأل عمن توفى!!! وجعلوا من فاتحة الكتاب – التي هي دستور حياة المسلمين، والتي كان حرص الشارع على قراءتها سبع عشرة مرة على الأقل يوميا في كل ركعة من الصلوات المفروضة – وسيلة لجلب الرحمة على الأموات، فلا تذكر ميتا حتى يقال " اقرءوا له الفاتحة "!!!

وصدق فيهم قول ربي عز وجل: ؟ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ؟] الفرقان: ٣٠ [. قال ابن القيم في كتابه القيم " الفوائد ": وهجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه. والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته

لفظية لا تحصل العلم. والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به ... وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

وجميع هذه الأنواع من هجر القرآن واقعة بيننا ومتفشية فينا الآن. ومن صور هذا الهجران ما يلي:

- عدم قراءته. فمن منا يقرأ القرآن يوميا؟! إن القرآن مقسم إلى ثلاثين جزء، ومتوسط كل جزء عشرون صفحة. فهل من الصعب قراءة عشرين صفحة يوميا؟ إنه أمر لا يستغرق منك سوى نصف ساعة. إن قراءة الصحف اليومية تستغرق من المرء أكثر من ساعة يوميا، فهل قراءة تلك الصحف أهم من قراءة القرآن؟!!

- وسماع القرآن ... لقد استبدلناه بسماع الأغاني ومشاهدة الأفلام والتمثيليات ومتابعة المباريات.

- وأخلاقنا الآن في وادٍ وما ينادي به القرآن من التحلي بقويم الأخلاق في وادٍ آخر.

- ونعرف حلاله وحرامه ولا نقف عندهما، بل نتفاخر بالتملص منهما، ونصم من يلتزم بهما بالسذاجة وقلة الخبرة.

- وتعلمنا كيف نجادل لا لإثبات تعاليم ربنا ولكن لكي نتفلت منها، ونعمل بغيرها. ظننا أن التقدم الخادع الذي أحدثته الأمم من حولنا إنما مرجعه للتخلي عن الدين، فلما تخلينا عن ديننا انحرفنا وزغنا عن طريق التمكين.

- التخلي عن التحاكم إليه في حياتنا وفي معاملاتنا.

- تركنا فهم معانيه ومن ثم تدبر آياته، وأصبح معظم ما نعرفه عنه عكس المراد به.

- تركنا تعلم لغته ولجأنا إلى لغات المستعمر، وأصبح تجنب الحديث باللغة العربية والرطانة بهذه اللغات مصدر فخر وإعزاز بيننا.

- تركنا التداوي به ولجأنا إلى الاعتماد على الأسباب المادية فقط.

إني لأعجب من أمة تهجر كتاب ربها وتُعرض عن سنة نبيها، ثم بعد ذلك تتوقع أن ينصرها ربها؟ إن هذا مخالف لسنن الله في الأرض. إن التمكين الذي وعد به الله، والذي تحقق من قبل لهذه الأمة، كان بفضل التمسك بكتاب الله عز وجل، الدستور الرباني الذي فيه النجاة مما أصابنا الآن. إن الذين يحلمون بنزول النصر من الله لمجرد أننا مسلمون لواهمين. ذلك أن تحقق النصر له شروط. قال تعالى: ؟ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُ! دُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ؟] النور: ٥٥ [. كما أن ما بعد النصر له شروط. قال الله تعالى: ؟ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتو! ا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا

عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ؟] الحج: ٤١ [. فعودوا إلى كتاب ربكم تنالوا نصره في الدنيا وتدخلوا جنته في الآخرة.

٢٧ من صفر عام ١٤٢٥ (الموافق في تقويم النصارى ١٧ ابريل عام ٢٠٠٤).

بين المقاومة والمهادنة

د. علي بن عمر بادحدح

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد:

إن العدوان على المقومات الأساسية للأمة « الدين، اللغة، التاريخ » أشد وأعظم من نهب ثروتها واحتلال أرضها، لأن المال يسترد، والأرض تستعاد، لكن العدوان على الدين و اللغة والتاريخ، أخطر وأفظع لأنه يأتي البناء من قواعده، ويمسخ هوية الأمة ، ويلغي ذاكرتها، وينسخ ثقافتها، فالمقاومة للحفاظ على المقومات هي مقاومة للحفاظ على العراقة والأصالة التي تعد أساسية للأمة، وهي تجديد وتقوية للعزة والكرامة التي هي صبغة الأمة ومزيتها.

وتتأكد المقاومة إذا كان العدوان شاملاً أي حسياً ومعنوياً، وبالتالي ينبغي أن تستنفر المقاومة كل القوى، وتستنفد كل الإمكانات، للحفاظ على المقومات والمقدسات ولا يدخر لتحقيق ذلك مال ولا جهد بل تبذل لأجله الأرواح، وهذا من الناحية الإنسانية مقرر ومسلَّمٌ به، فضلاً عن النهج الإسلامي والمبدأ الإيماني.

وإذا خصصنا الحديث عن مقاومة المحتل الذي يسلب الأرض وينتهك العرض ويسفك الدم، وهو محارب للدين، ومدنِّسٌ للمقدسات فالأمر أشد وضوحاً في أهمية المقاومة، وإذا وضحنا التخصيص وجعلنا الحديث عن مقاومة الصهاينة اليهود الذين احتلوا بلاد المسلمين فالأمر أظهر واظهر، وإليك بعض التفصيل بعد الإجمال:

١- مشروعية المقاومة:

إن مقاومة المحتل والدفاع عن الأرض والعرض حق مكفول في جميع الملل والشرائع ، ومشروعية المقاومة ضد المحتل أقرها الأعراف والقوانين الدولية، واستمداد المشروعية - عند المسلم - لا يفتقر إلى ذلك لأن أساسه الوحي المعصوم ومواده آيات القرآن الكريم فالحق جل وعلا يقول: { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } [التوبة:١٢ – ١٤]، وفي سنة سيد المجاهدين صلى الله عليه وسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه

فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شـــهيد) [رواه الترمذي،ولـــه رواية مختصرة عند البخاري] ، فهل بعد هذه المشروعية الواضحة المحددة في الحالات المختلفة حاجة لمزيد؟

وينبغي التنبيه أن مشروعية الجهاد الإسلامي الصحيح المشروع دائمة ومستمرة ومستمدة مـــن ســـنة المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد روى سلمة بن نفيل الكندي قال:كنت جالسا عنـــد رســـول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: يا رسول الله أذال الناسُ الخيل ووضعوا السلاح، وقالوا لا جهـــاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال: (كذبوا، الآن الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حـــتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) رواه النسائي.

٢- موازين المقاومة:

إن المرابطين المقاومين المجاهدين في سبيل الله، ومن ورائهم المؤمنون بالله حق الإيمان يدركون الحقائق الإيمانية ويعرفون الموازين الإسلامية فيمضون في معاركهم وهم على بصيرة،فهم على يقين أن النصـــر من الله وليس بعدة ولا عتاد ولا كثرة أعداد { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـــةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة: ٢٤٩] { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [آل عمران: ١٢٦]، ومن قوة إيمانهم يثبتون ويصبرون فموقفهم في مثل هذه المواجهة – رغم شدتها– التقدم لا التراجع وكأنهم يمضون مع قوله تعالى: { وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّـــهُ عَلِيمـــاً حَكِيمـــاً } [النساء:١٠٤]، ويجددون ما مضى عليه أسلافهم من المجاهدين المؤمنين { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } [الأحزاب:٢٣] .

٣- تاريخ المقاومة:

إن تاريخ أمتنا يكشف لنا أن المسلمين انتصروا في معاركهم الكبرى جميعها رغم قلة قـــوتهم عـــدداً وعدة مقارنة بعدوهم، ففي يوم بدر يقول سبحانه وتعالى: { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَـــا فِئَـــةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ } [آل عمران:١٣]، وهكذا كان الحال في اليرموك والقادسية، بل وفي حطـــين وعين جالوت، ومثل ذلك في فتح الأندلس والقسطنطينية، وفي العصر الحديث كانت المقاومة الباسلة للمحتل الفرنسي في الجزائر، وللمحتل الإيطالي في ليبيا، وللمحتل الإنجليزي في مصر والعراق وغـــير ذلك، وقل أن تجد في التاريخ مقاومة لمحتل لديها قوة مكافئة للمحتل فضلاً عن أن تكـــون متفوقـــة عليه، ومن ثم لا بد من تقديم ضريبة العز، وبذل عربون النصر من خلال تقديم الشـــهداء، وضـــرب

أروع أمثلة التضحية والفداء، وأما الانتظار إلى أن تتعادل الكفة وتتكافأ القوى فغير ممكن وخاصة في ظل أوضاع الاستسلام والسلام والتطبيع التي لا تخفى على أحد.

٤- نموذج المقاومة:

المقاومة الجهادية في فلسطين هي النموذج الأظهر لأصالة المقاومة وبسالتها، ولقد تحملت المقاومة الفلسطينية أشد وأبشع صور العدوان الصهيوني الغاشم خلال عدة عقود، وقدمت التضحيات الكبيرة، ولكنها مع ذلك _ وخلال الانتفاضات المتعاقبة _ ألحقت بالعدو الصهيوني أضراراً جسيمة في الأرواح والممتلكات، وأضرت باقتصاده وسياحته، وأقلقت أمنه واستقراره، وهي صاحبة الدور الأبرز في مواجهة اليهود الصهاينة ومن ثم ينبغي إعطاءها حقها من الإشادة بها، وتسليط الأضواء الإعلامية عليها بما يتناسب مع خطورة وأهمية دورها، وبما يبرز منجزاتها وبطولاتها- بأكثر بكثير مما هو واقع الآن - حتى تستطيع مواصلة مسيرتها والقدرة على زيادة فعاليتها.

٥- جهادية المقاومة:

المقاومة التي نتحدث عنها للعدو الغاصب هي أحد نوعي الجهاد في الإسلام وهو جهاد الدفع، وهو النوع الذي لا خلاف في حكمه ووجوبه عند علماء المسلمين فالجصاص من الحنفية يقول:"ومعلوم في اعتقاد جميع المسلمين أنه إذا خاف أهل الثغور من العدو ولم تكن فيهم مقاومة لهم، فخافوا على بلادهم وأنفسهم وذراريهم، أن الفرض على كافة الأمة أن ينفر إليهم من يكف عاديتهم عن المسلمين، وهذا لا خلاف فيه بين الأمة، إذ ليس من قول أحد من المسلمين إباحة القعود عنهم حتى يستبيحوا دماء المسلمين وسبي ذراريهم" [أحكام القرآن للجصاص ١١٤/٣] ، والقرطبي من المالكية يقول: "إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً شباباً وشيوخاً كل على قدر طاقتهن من كان له أب بغير إذنه .. ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر، فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعته، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم فالمسلمون كلهم يد على من سواهم" [تفسير القرطبي ١٤٢٢/١] ، ومن الشافعية يقول النووي: " الضرب الثاني: الجهاد الذي هو فرض عين، فإذا وطئ الكفار بلدة للمسلمين، أو أطلوا عليها، ونزلوا بها قاصدين، ولو لم يدخلوا صار الجهاد فرض عين"(الروضة٢١٤/١٠)، ويقول ابن قدامة الحنبلي:"ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع: .. الثاني: إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم" [المغني ١٧٩/٩]، وكلام الفقهاء في ذلك كثير مشهور.

٦- شبهات وردود:

تكلّم بعض الساسة، وكتب بعض الإعلاميين نقداً للمقاومة باعتبارها تعرّض البلاد والعباد للخطر والضرر، وانضم للركب بعض أهل العلم فرأى أن عدم التكافؤ في القوة مسقط للمقاومة وموجب للمهادنة وكان الاستشهاد بآيات الأنفال التي فيها ذكر العدد المكافئ للمسلمين من أعدائهم، ومن هنا أقول: ما جاء في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال:٦٥-٦٦]، لا يصلح للاستدلال على منع جهاد ومقاومة العدو المحتل بحجة أن عدد المجاهدين المقاومين أقل من نصف عدد الأعداء، وذلك لأمرين أساسيين :

الأول: وهو الأكثر أهمية، وهو أن النص عن عموم المسلمين وليس عن المسلمين في بلد بعينه، أي يكون عموم المسلمين أقل من عدوهم، وقد مر بنا حكم وجوب الجهاد إذا نزل العدو بلاد المسلمين ووجوب نصرة المسلمين لإخوانهم الأقرب فالأقرب، وإذا نزَّلْنا الأمر على الواقع فالمسلمون في فلسطين وما جاورها أكثر عدداً من عدوهم، وعندهم من أسباب وأدوات القتال ما لا يصح معه أن يُقال إنه لا يجوز لهم القتال، وهذا أمر مهم فليس الأمر يخص أهل بلد ولا هو متعلق بمجرد ما يقع بالعدوان من القتل والإتلاف بل هو حكم شرعي، فلو رضي أهل فلسطين – على سبيل المثال – بالاحتلال وامتنعوا عن مقاومته فلا يتغير الحكم بوجوب الجهاد لاستخلاص ديار المسلمين ومقدساتهم من العدو الغاصب، وما جد البوم من تسمية الدول وحدودها فضلاً عن أوضاع المعاهدات والاتفاقات بين بعض الدول وأعداء الإسلام من اليهود لا يغير من الحكم الشرعي شيئاً.

الثاني: أنه ورد في كلام المفسرين معان أخرى جديرة بالاعتبار ولها قوة في الاستدلال ، فقد روى الطبري في تفسير الآية عن ابن عباس رواية يقول فيها:" فلا يغرنَّك قولُ رجالٍ ! فإني قد سمعت رجالا يقولون: إنه لا يصلح لرجل من المسلمين أن يقاتل حتى يكون على كل رجل رجلان، وحتى يكون على كل رجلين أربعة، ثم بحساب ذلك، وزعموا أنهم يعصون الله إن قاتلوا حتى يبلغوا عدة ذلك، وإنه لا حرج عليهم أن لا يقاتلوا حتى يبلغوا عدَّةَ أن يكون على كل رجل رجلان، وعلى كل رجلين أربعة، وقد قال الله: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } [سورة البقرة: ٢٠٧]، وقال الله: { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } [سورة النساء: ٨٤]، فهو التحريض الذي أنزل الله عليهم في الأنفال، فلا تعجزن، قاتلْ، قد سقطت بين ظهري أناس كما شاء الله أن يكونوا"(تفسير الطبري ١٤/٥٣،٥٤).وغاية ما نُقل في ذلك هو أن المسلمين إذا كانوا أقل من النصف من عدوهم لم يجب عليهم القتال، وعدم وجوبه لا يعني حرمته، فقد روى الطبري عن ابن عباس قوله:" وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا

منهم ،عن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يُقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم" [تفسير الطبري ٥٢/٨].

وقد مال الرازي إلى ترجيح القول بعدم النسخ فقال:" والحاصل أن الجمهور ادعوا أن قوله { الآن خفف الله عنكم} ناسخ للآية المتقدمة، ، وأنكر أبو مسلم الأصفهاني هذا النسخ،وتقرير قوله أن يقال : إنه تعالى قال في الآية الأولى : { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صابرون يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ } فهب أنا نحمل هذا الخبر على الأمر إلا أن هذا الأمر كان مشروطاً بكون العشرين قادرين على الصبر في مقابلة المائتين ، وقوله : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل في حق هؤلاء ، فصار حاصل الكلام أن الآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، وهذه الآية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هذه الجماعة ، فلا جرم لم يثبت ذلك الحكم ، وعلى هذا التقدير لم يحصل النسخ البتة .

فإن قالوا : قوله : { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صابرون يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ } معناه : ليكن العشرون الصابرون في مقابلة المائتين ، وعلى هذا التقدير فالنسخ لازم .

قلنا : لم لا يجوز أن يقال إن المراد من الآية إن حصل عشرون صابرون في مقابلة المائتين ، فليشتغلوا بجهادهم؟ والحاصل أن لفظ الآية ورد على صورة الخبر خالفنا هذا الظاهر وحملناه على الأمر ، أما في رعاية الشرط فقد تركناه على ظاهره ، وتقديره إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم ، وعلى هذا التقدير فلا نسخ... "وختم بقول:" إن ثبت إجماع الأمة على الإطلاق قبل أبي مسلم على حصول هذا النسخ فلا كلام عليهن فإن لم يحصل هذا الإجماع القاطع فنقول: قول أبي مسلم صحيح حسن " [تفسير الرازي ٢٠١/٨،٢٠٢] .

كما أن الرازي لفت النظر إلى المعاني والحقائق الإيمانية التي تحرر المسلم من الرضوخ لضغط الواقع عند ضعف إيمانه فقال رحمه الله: "واعلم أن هذا التكليف إنما حسن لأنه مسبوق بقوله تعالى : { حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين } فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلاً لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إيذائه".

وفي علة نصر المؤمنين على الكافرين بأنهم لا يفقهون قال قولاً نفيساً جاء فيه:" أنه تعالى بين العلة في هذه الغلبة، وهو قوله: { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } وتقرير هذا الكلام من وجوه :

الوجه الأول : أن من لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالمعاد ، فإن غاية السعادة والبهجة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية . ومن كان هذا معتقده فإنه يشح بهذه الحياة ولا يعرضها للزوال ، أما من اعتقد أنه لا سعادة في هذه الحياة وأن السعادة لا تحصل إلا في الدار الآخرة فإنه لا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يلتفت إليها ولا يقيم لها وزناً ، فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح ، ومتى كان الأمر كذلك ، كان الواحد من هذا الباب يقاوم العدد الكثير من الباب الأول .

الوجه الثاني : أن الكفار إنما يعولون على قوهم وشوكتهم ، والمسلمون يستعينون بـــربهم بالـــدعاء والتضرع ، ومن كان كذلك كان النصر والظفر به أليق وأولى " [تفسير الرازي ١٩٩/٨].

د. علي عمر بادحدح

إمام وخطيب جامع سعيد بن جبير

والمشرف العام لموقع إسلاميات

/http://islameiat.com/main

الهزيمة في معركة أحد

العلم والدعوة والجهاد، سيرة وتاريخ

القتال والجهاد، غزوات

ماجد بن عبد الرحمن الفريان

الرياض

سليمان بن مقيرن

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- وصف بعض ما أصاب المسلمين يوم أحد. ٢- شؤم المعصية وأثرها في الهزيمة. ٣- نصـــر الله لا يتخلف لمن يستحقه. ٤- أهمية العمل الصالح في الإعداد. ٥- مقارنة ما حل بالمســلمين اليـــوم في أفغانستان مع ظروف غزوة أحد. ٦- الفائزون هم المجاهدون.

الخطبة الأولى

أما بعد: اتقو الله حق التقوى.

معاشر المسلمين، لقد كانت أمتكم هذه قبل ألف وأربعمائة سنة في مطالع خطواتها لقيادة البشـــرية فرباها الله بالابتلاء بالشدة في معركة أحد بعد أن ابتلاها بالرخاء في معركة بدر.

وابتلاها بالهزيمة المريرة في معركة أحد بعد أن ابتلاها بالنصر العجيب في معركة بدر.

لقد أصاب المسلمين القرحُ في معركة أحد وأصابهم القتل والهزيمة.

أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير، قتل منهم سبعون صـحابياً وكسـرت رباعية الرسول وشج وجهه وأرهقه المشركون وأثخن أصحابه بالجراح وقتل عمه حمزة بن عبد المطلب، وفر من فر من المسلمين، وأصيب النبي بغم عظيم أسفاً على فرار بعض أصحابه، وأصاب المسلمين غـمٌ ملأ نفوسهم على ما كان منهم وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه، وهو ثابـت دونهـم، وهم عنه فارون.

وسمع النبي لأهل المدينة نحيباً وبكاء على قتلاهم، فقال: ((ولكن حمزة لا بواكي له)) وحزن النبي على أصحابه، وتمنى أن يكون استشهد معهم وقال: ((أما والله لوددت أني غودرت مع أصـحابي نحـص الجبل أي في سفحه)) رواه أحمد بسند حسن.

وكانت صورة المقاتلين الشجعان تمر بمخيلته كثيراً فيثني عليهم، ولما أعطى علي سيفه لفاطمة رضـي الله عنها قائلاً: (هاك السيف فإنها قد شفتني) قال رسول الله : ((لئن كنت أجدت الضرب بسـيفك فلقد أجاد سحل بن حنيف وأبو دجانة وثابت بن عاصم الأقلح، والحارث بن الصـمة)) أخرجـه الحاكم.

بل لقد بقي النبي يتذكر قتلى أحد ويحن إليهم طيلة عمره، فعن عقبة بن عامر قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: ((إِنِّي بَيْنَ أَيْـدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا)) قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَـى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رواه البخاري ومسلم.

وعند ابن أبي شيبة قال: (خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به أنه صـلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم).

معاشر المسلمين، لقد كانت آثار معركة أحد عظيمة على النبي حتى كان يتذكرها ويتذكر رجالهـا طيلة عمره، بل وفي آخر أيام حياته.

وكانت الآثار أبلغ ما تكون على صحابته الكرام الذين اهتزت نفوسهم وصدمت قلوبهم لهذا الحدث العظيم الذي لم يكن متوقعاً بعد النصر العجيب في معركة بدر، حتى قال المسلمون حين أصابهم مـا أصابهم (أنَّى هذا) وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟؟؟.

لقد كانوا يعلمون أن الله قد كتب على نفسه النصر لأوليائه، حملة رايته، وأصحاب عقيدته فكيـف يصيبهم ما أصابهم؟؟؟

فأنزل الله تعالى لبيان ذلك كله وعلاجه وتقريره ستين آية من سورة آل عمران، آيات مفصلات تبين حقيقة الإيمان ومقتضياته،وارتباط النصر أو الهزيمة بجزئياته التي قد لا يحسب لها كثير من الناس بل من الدعاة حساب.

فيعرض دهشتهم لما صارت إليه الأمور، واستغرابهم لوقوع ما وقع بهم ــ وهم المسلمون ــ ومــن ثم يوقفهم على الأرض الصلبة المكشوفة؛ وهو يبين لهم أن ما أصابهم كان بفعلهم، وكان الثمرة الطبيعية لتصرفهم!..

أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَاذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ [آل عمران:١٦٥].

إن سبب ما أصابكم هوالمعصية والمخالفة التي حدثت من بعض الجيش لأمر الرسول .

وكان شؤم المعصية شاملاً للجميع حتى النبي كسرت رباعيته وشج وجهه الكريم مما يدل على أهمية التحرز من المعاصي في انتصار المسلمين على أعدائهم.

أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَاذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ.

إن المسلمين الذين أصيبوا في أحدٍ بما أصيبوا؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجــراح والآلام التي عانوها في هذا اليوم المرير؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم، وهــم المســلمون، وهــم يجاهدون في سبيل الله، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله.. المسلمون الذين أصيبوا بهــذه المصــيبة، كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها:أصابوا مثلها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش. وأصــابوا مثلها يوم أحد في مطلع المعركة، حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله وقبل أن يضــعفوا أمام إغراء الغنائم. وقبل أن تهجس في أنفسهم الخواطر التي لا ينبغي أن تهجس في ضمائر المؤمنين!.

ويذكرهم الله هذا كُلَّه، وهو يرد على دهشتهم المتسائلة، فيرجع ما حدث لهــم إلى ســببه المباشــر القريب: قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر. وأنفســكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ، وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس. وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله وخطته للمعركة، فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم، وتقولون: كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم، بانطباق سنة الله عليكم، حين عرضتم أنفسكم لها. فالإنسان حين يعرض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه، مسلمًا كان أو مشركًا، ولا تنخرقُ محاباةً له.

معاشر المسلمين، و لم يقف تعقيب القرآن على هذه المعركة العظيمة عند حــدود المعركــة القتاليــة ودروسها الحية، بل تعرض بوضوح وتفصيل لأعمال إيمانية كثيرة، ذلك أن القــرآن كــان يعــالج المسلمين على أثر معركة لم تكن معركة في ميدان القتال وحده، إنما كانت معركة في القلوب أيضــاً ومن ثم عرج على الرِّبا فنهى عنه، وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحض عليه، وعرج علــى طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة، وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس، وعلى الإحســان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار، والتوبة وعدم الإصرار، فجعلها مناط الرضوان.

كما عرج على رحمة الله المتمثلة في رحمة الرسول ولين قلبه، وعلى مبدأ الشورى وتقريره في أحرج الأوقات، وعلى الأمانة التي تمنع الغلول، وعلى البذل والتحذير من البخل في نهاية ما نزل في التعقيب على هذه الغزوة من آيات.

عرج على كل هذه الأعمال الصالحة لأن العمل يعتبر مادة مهمة لإعداد الإيمان في نفوس المسلمين، و لم تكن هذه التوجيهات الشاملة بمعزل عن المعركة، فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية، حين تنتصر على نفسها ومعاصيها، فإذا تطهرت الأمة من الذنوب والتصقت بالله ورجعت إلى كنفه كان ذلك من عدَّتها في المعركة و لم ينعزل ذلك عن الميدان. معاشر المسلمين، وإذا كانت معصيةً واحدة هي المخالفة الجزئية لخطة المعركة ـ كما وقع من الرماة في معركة أحد ـ وتطلع بعض النفوس إلى الغنائم المادية، وتولي بعض الأفراد حين حمى الوطيس ـ نذائرَ شؤم وأسبابَ هزيمة وخسارة لذلك الجيل الطاهر، جيل النبي وصحابته الكرام، فكيف تنتصر أمة الإسلام اليوم وهي تلقي كتاب ربها وراءها ظهرياً، وتعبد الدرهم والدينار، ولا يخطر على بالها جهاد قط حتى لو أُخذت مقدساتها وأخذت أراضيها واستنصرها إخوانها، وتستحل الربا والغلول، وتفعل ما تعرضت له هذه الآيات وما لم تتعرض له، ثم تستبطئ نصر الله الذي وعد به المؤمنين، وتحسب نفسها مؤمنة حق الإيمان لأنها تصدق بقلوبها وتقر بلسانها.

إن مقارنة يسيرة بين حال الأمة في يومها وبين حالها يوم هزمت في معركة أحد وجعلت الهزيمة بسبب معصيتها ومخالفتها لرسولها توحي بأن الأمة اليوم لم تكمل أسباب النصر والتمكين التي وردت في كتاب الله تعالى وإنما هي في غفلة معرضة، لم ترفع بالدين رأساً في كثير من بقاعها وأصقاعها وفي كثير من أحوالها وأهوالها.

نتذكر هزيمة المسلمين في معركة أحد في شهر شوال، ونبصر اليوم في نفس الشهر هزائم الأمة المنكرة هزائمها في ميدان النفوس والعقائد عندما استنفرت فلم تنفر، واستنصرت فلم تنصر، ودعيت إلى الله فلم تلق بالاً وشغلت بالدرهم والدينار وتقليد الكافرين وموالاتهم، وهذه والله هي الهزيمة المنكرة.

أما المجاهدون الذين نذروا للدين أنفسم فلم ينهزموا والذين قتلوا منهم لم يموتوا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا ءاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران:١٦٩، ١٧١]، لقد حرق أصحاب الأخدود في الأخاديد فكان ذلك فوزاً كبيراً لأنه نتيجة جهاد وصبر على الثبات على دينهم الحق، فقال الله عنهم: إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ [البروج:١١].

نعم يا إخوة الإسلام، إن المنهزم هو الذي هزم في دينه وعقيدته وولائه وبرائه، أما الذي انتصر في دينه وعقيدته وولائه وبرائه فهو الفائز فوزاً كبيراً ولو قتل وسحق ومحق، لأن الفوز هو فوز الآخرة، لا فوز الدنيا والله المستعان.

اللهم انصر من نصر الدين واخذل من خذل عبادك المؤمنين.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

لا يأس مع الهزيمة

العلم والدعوة والجهاد، موضوعات عامة

القتال والجهاد، جرائم وحوادث

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٣/٦/٢١

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- كيف تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع هزيمة المسلمين في أحد. ٢- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. ٣- صدق اللجوء والتوكل على الله وحده. ٤- لا ملجأ لنا إلا الله. ٥- مطالبة اليهود بترحيل الفلسطينيين من فلسطين. ٦- تدخل سلطات اليهود في إعمار الأقصى وترميماته.

الخطبة الأولى

أما بعد:

فيقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء وَٱتَّبَعُواْ رِضْوانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذالِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [آل عمران:١٧٣، ١٧٥]. صدق الله العظيم.

أيها المسلمون، أيها المؤمنون، أيها المرابطون، لقد ذكرت كتب التفسير والسيرة النبوية أنـــه بعـــد أن وقعت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة وحصل مع المسلمين ما حصل، انسحب أبو سفيان زعـــيم المشركين فرحاً، ونادى بأعلى صوته: يا محمد موعدنا موسم بدر القادم إن شـــئت. فأجابـــه عليـــه الصلاة والسلام مباشرة " نعم إن شاء الله تعالى.

رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة وأصبح حذراً ومتخوفاً من رجوع المشركين إلى المدينـــة ليتمموا غلبتهم، فنادى عليه الصلاة والسلام في أصحابه بالخروج فوراً خلف العدو وأمر أن لا يخرج معه إلا من شارك فقط في غزوة أحد، فاستجاب الصحابة إلى ذلك بعزيمة وإصرار بعـــدما أصـــابهم القرح وضمدوا الجراح وساروا حتى وصلوا إلى موقع يعرف "بحمراء الأسد".

وكان ما توقعه الرسول عليه الصلاة والسلام قد حصل فعلاً، فقد كان المشركون يجهزون أنفســـهم للتوجه إلى المدينة المنورة، ولكن لما علموا بخروج النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة باتجاه مكـــة، ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس، فألقى الله عز وجل الرعب في قلوب المشركين وأسرعوا بالتوجه إلى مكة.

أيها المسلمون، أيها المؤمنون، بينما كان الرسول عليه الصلاة والسلام في موقع حمراء الأســـد ألقـــي القبض على أبي عزة الشاعر، وهذا الشاعر كان يهجو الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان يحـــرض المشركين على المسلمين بشعره، وقد سبق أن وقع أسيراً في غزوة بدر الكبرى ومنّ عليـــه الرســـول وقتئذ بعد أن تعهد أن لا يلفظ شعراً يحرض فيه المشركين على مقاتلـــة المســـلمين، إلا أن أبي عـــزة الشاعر لم يلتزم بتعهده، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتل أبي عزة الشاعر فأخذ أبو عـــزة يتوســـل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليمُنّ عليه مرة أخرى فقال عليه الصلاة والسلام: ((لا والله لا تمســـح عارضيك بالكعبة، وتقول: خدعت محمداً مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مـــرتين))(١)[١]. وتعتبر غزوة حمراء الأسد رد اعتبار للمسلمين عما حصل لهم في أُحد.

أيها المسلمون، أيها المؤمنون، هذا درس واضح للمسلمين في كل زمان ومكان بـــأن لا ينخـــدعوا بأعمال المنافقين والمشركين وأن لا ينخدعوا بالذين ينقضون العهود والمواثيق، فالمؤمن ينبغـــي أن لا يلدغ من جحر واحد مرتين.

أيها المسلمون، أيها المؤمنون، لقد تمكن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم من تغيير الميزان لصالحهم بعد عام واحد فقط، وذلك في غزوة بدر الآخرة، وتعرف بغزوة بدر الصغرى في السنة الرابعة للهجرة، حيث عسكر المسلمون في مكان بدر في حين أن المشركين لم يحضروا في المكان والزمان الذين سبق لأبي سفيان أن حددهما بنفسه، وحاول أبـــو ســـفيان إرجـــاء المسلمين واللعب بأعصابهم حتى لا يخرجوا إلى موقع بدر، إلا أن محاولاته قد باءت بالفشل.

وكان المسلمون وهم متوجهون إلى بدر يرددون: حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران:١٧٢] وازداد المؤمنون إيماناً، فعلينا أن نردد: حسبنا الله ونعم الوكيل، وبخاصة ونحن الآن في أمر عظيم ومأزق عصيب، فالله كافينا، وهو حسبنا، وهو ناصرنا وراعينا، وهو نعم المولى ونعم النصير، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف: ((إذا وقعتم في أمر عظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل))(٢)[٢] وقد سبق أن ردد سيدنا إبراهيم عليه السلام هذه العبارة حين أُلقي في النار.

أيها المسلمون، أيها المؤمنون، لقد خرج المسلمون فعلاً، وأقاموا في موقع بدر ثلاثة أيام، وأقاموا أعمال تجارية بأمن وأمان، وعادوا غانمين سالمين، ويشير الله سبحانه وتعالى إلى ذلك الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران:١٧٢] فهذه الآيات الكريمة تدعو إلى الثبات والصمود في المواقف الصعبة والحرجة وتدعو إلى التوكل على الله وإلى اللجوء إليه وإلى الخشية منه، فإنه لا ملجأ له إلا هو سبحانه وتعالى، فإن المؤمن الذي يلتصق بخشية الله، فإن الله عز وجل يسخر له المخلوقات كلها.

أيها المسلمون، أيها المؤمنون، لم ييأس المسلمون رغم ما حل بهم وما أصابهم في معركة أحد، لم يناموا، لم يستكينوا، لم يتهربوا من المسؤولية، ولم يتخاصموا على الكراسي والعروش، لم يطعن بعضهم بعضاً من الخلف، لم يستعينوا بالفرس أو الروم، لم يربطوا مصيرهم باجتماعات أمنية ولا مؤتمرات سياسية ولا مقررات أممية، كما يحصل الآن لدى حكام العالم الإسلامي، ومنه العالم العربي، لم يستسلموا للتمنيات والأوهام:

وما نيل المطالب بالتمني ....ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال ....إذا الإقدام كان لهم ركابا

أيها المسلمون، لقد مرت محن ومصائب على المسلمين في الماضي أيام حرب التتار والصليبيين وغيرهم، فكان أجدادنا يتجاوزون الصعاب بكل صمود وإصرار وتضحية، لأنهم كانوا يتقون الله ويخافونه ويخشونه، فقد ورد أنه سئل الإمام الحسن البصري: كيف تكون خشيتك لله؟ فأجاب السائل: إذا كنت في سفينة وتحطمت هذه السفينة، وبقي منها لوح واحد وعلقت بهذا اللوح، وأنت في الأمواج الهائجة فكيف يكون شعورك ؟ فأجاب: أكون في رعب شديد، فقال الحسن البصري رضي الله عنه: كذا تكون خشيتي لله في الليل والنهار.

أيها المسلمون، ابتليت أمتنا في القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن بمحن ومصائب كُثُر، غير أن ذلك لن يفقدنا الثقة بالله عز وجل القائل: وَلاَ تَايْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [يوسف:٨٧].

أيها المسلمون، إنما نمر به الآن يحفزنا بالرجوع إلى الله العلي القدير قولاً وعملاً، ويدفعنا للأخذ بالأسباب، فمن ينصرنا؟ إنه هو الله، ومن يحمينا؟ الله، ومن يحررنا؟ الله، ومن يغيثنا ويحيينا؟ الله، لا

إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين [الذاريات:٥٠]، جاء في الحديث النبوي الشريف: ((عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحـــرس في سبيل الله))(٣)[٣].

ادعوا الله وأنتم موقنون في الإجابة، فيا فوز المستغفرين.

\-

الخطبة الثانية

الحمد لله نستعينه ونحمده حمد عباده الشاكرين الذاكرين، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صيت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمـــد وعلـــى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

أيها المسلمون، يا أبناء أرض الإسراء والمعراج، هناك ثلاثة أمور قائمة ساخنة أتعرض لها بإيجاز:

أولاً: الحصارات العسكرية اللعينة المفروضة على مدننا وقرانا ومخيماتنا، هذه الحصارات الـــتي تمثـــل عقوبات جماعية للشعب بأكمله، بقصد أن نستسلم، ونقول: إن الأسلحة الأمريكية لن تقـــود هـــذا الشعب إلى الاستسلام، ثم إن فرض منع التجول يتعارض مع حرية العبـــادة وحريـــة التنقـــل، وإن سلطات الاحتلال تتعمد فرض منع التجول أيام الجمع، مما يحرم مئات الآلاف من المصلين من إقامـــة صلاة الجمعة، ومن أبسط الحقوق أن يمارس المسلم عبادته بحرية وامن وأمـــان، وهـــذه الإجـــراءات التعسفية الصهيونية والعدوانية هي فساد وإفساد وعلو في الأرض.

ثانياً: طالب أحد الحاخميين مؤخراً السلطات المحتلة بطرد العرب من فلسطين، وهذه المطالبة ليســـت الأولى، فقد سبق لهم أن صرحوا بتصريحات عنصرية معادية ضد أهل فلســـطين، وكـــان المفـــروض بالحاخامين أن يكونوا قدوة لعمل الخير والإصلاح، ولكن كل إناء بما فيه ينضح، ثم نسأل من يطالب بتسفير الفلسطينيين عن أرض آبائهم وأجدادهم، نسألهم من أي بلاد أتيتم أنتم؟ فالأولى أن تعـــودوا إلى البلاد التي أتيتم منها، أما نحن، فنحن متجذرون هنا منذ آلاف السنين.

أيها المسلمون، ثالثاً: التصريحات الأخيرة التي صدرت عما يسمى رئيس بلدية القدس بشأن الســـور الجنوبي لسور المسجد الأقصى المبارك، ونقول باسم المسلمين بأرض الإسراء والمعراج نقول: إن هذه التصريحات هي عبارة عن حلقة جديدة تُنمّ عن نوايا المحتلين للتدخل في شؤون المســـجد الأقصـــى المبارك، بحجة أعمال الترميم والصيانة التي تقوم بها لجنة إعمار الأقصى الإســـلامية، وهـــي صـــاحبة الاختصاص، ولها الحق الوحيد في القيام بأعمال الصيانة والترميم وكل ما يتعلق بالمسجد الأقصى من أساساته إلى جدرانه من الجهات الأربعة وكل مناطقه وساحاته.

وإن الترميم الذي قامت به الأوقاف في المصلى المرواني لا صلة له ولا علاقة له بالتصدع الذي لحق الجدار الجنوبي، إنما هذه التصدعات أتت نتيجة الحفريات الإسرائيلية في محيط الأقصى وأسفله، فمِن على منبر المسجد الأقصى المبارك نؤكد على موقفنا الإيماني بأن وجودنا في أرض الإسراء والمعراج ليس بقرار من هيئة الأمم، إنما بقرار إلهي رباني، غير خاضع للمفاوضات ولا للتنازلات، وإن المسجد الأقصى هو جزء من إيماننا وعقيدتنا، ولن نسمح بالمس من حرمته، ونؤكد أنه لا علاقة لليهود بالأقصى، ولا نعترف لهم بأي حق فيه، ولن يكون هذا المسجد – بإذن الله وعونه – إلا للمسلمين وحدهم، وقد وعدنا الله به، ووعده الحق، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزِنة عرشه ومداد كلماته...

---

(١) الخبر رواه ابن إسحاق في سيرته، و لم يدكر له سنداً، سيرة ابن هشام (٤/٥٥)، وقد رواه مسندا إلى ابن مسعود البيهقي في سننه (٩/٦٥).

(٢) لم أجده.

(٣) صحيح، سنن الترمذي ح (١٦٣٩) وقال: حديث حسن غريب.

فقه الهزيمة والنصر

العلم والدعوة والجهاد

القتال والجهاد

عبد الباري بن عوض الثبيتي

المدينة المنورة

١٤٢٤/٢/٩

المسجد النبوي

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

ملخص الخطبة

١- الثقة بنصر الله تعالى. ٢- المستقبل لهذا الدين. ٣- ضرورة الأخذ بأسباب النصر. ٤- حقيقة النصر وصوره. ٥- سنة الله تعالى في النصر. ٦- أساس النصر. ٧- أسباب الهزيمة. ٨- حِكم الابتلاء بالهزيمة.

الخطبة الأولى

أمّا بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ [آل عمران:١٠٢].

إخوة الإسلام، حين تكثر الأزماتُ على الأمّة وتشتدّ عليها وطأة الحوادث فإنَّها تتلمّس طريقَ النصر، والذي ينبغي أن نعيشَ به دائماً مهما اشتدَّت المحن هو الثقةُ بنصر الله، وأنَّه آتٍ لا شكَّ فيه، قال: ((والله، ليتِمّنّ هذا الأمر)) أخرجه البخاري(١)[١]، وقال تعالى: وَلَقَدْ كُذّبَتْ رُسُلٌ مّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ [الأنعام:٣٤]. وفي مكّة حيث الشدائد والأهوالُ ترى الرسولَ يذكّر أصحابَه بضرورة التحمّل والصبر، وفي نفس الوقتِ يطمئِنهم إلى المستقبل الزاهر للإسلام، ويبثّ الثّقةَ في نفوسهم، وأنَّ دينَهم سيُنير الدنيا من مشرقها إلى مغربِها؛ لتستقرَّ في الأعماق روح التفاؤل والاستبشار والأمَل، وأنَّ المجتمعات لا تسعَد إلا في ظلِّ هذه المعاني. ذلك أنَّ الهزيمة النفسيةَ مِن أنكى وأمرّ وأشدّ الهزائم خطراً على مستقبل الأمّة، وإنَّ واقع الذلّ والهوان هذا لا ينبغي أن يكونَ مسوِّغًا لليأس والقنوط.

إنَّ الثقةَ بنصر الله تولِّد السكينةَ في المحن، فعندما لجأ رسولنا إلى الغار، واقترَب الأعداء حتى كانوا قابَ قوسين أو أدنى شاهرِين سيوفَهم، قال أبو بكر رضي الله عنه: لو أنَّ أحدَهم رفع قدمَه رآنا، فردّ عليه رسولنا بكل ثقة: ((ما ظنّك باثنَين اللهُ ثالثُهما)) أخرجه البخاري(٢)[٢]. ثقةٌ بالله ونصرِه، يقينٌ برفع البلاء، شعورٌ بمعيَّة الله تعالى.

ومن قبلُ يقِف موسى وجنوده عند شاطئ البحر، فيقول بعضهم: إنَّ فرعونَ مِن ورائنا، والبحر من أمامِنا، فأين الخلاص؟! قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [الشعراء:٦١]، فيردّ نبي الله موسى عليه السلام في ثقة كاملةٍ بموعود الله: إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ [الشعراء:٦٢]، فكان بعدها النصرُ والتمكين.

حينَ ينظر الإنسان إلى المكر الكُبَّار الذي يُكاد للإسلام والمسلمين في عهودٍ متطاولة، قتلٌ وتشريدٌ وتعذيبٌ، ومع ذلك يبقى الإسلام صامدًا والإيمان قويًّا، حين ينظرُ المسلم إلى هذا الواقع لا يساوره شكّ في تحقُّق نصر الله، وأنَّ المستقبل لهذا الدين ولو بعدَ حين، والمبشِّرات لهذا الدّين شرعًا وواقعًا أكثر من أن تُحصَى، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِى الأَذَلّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ [المجادلة:٢٠، ٢١]، وقال تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحياةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [غافر:٥١].

عبادَ الله، إنَّ الدين محفوظٌ بحفظ الله، إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر:٩]، فلا تخشَ على الإسلام، ولكن اخشَ على نفسك وإيمانِك وثباتك، قال تعالى: وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم [محمد:٢٣].

إنَّ المبشِّرات بنصر الله لا تَعني تركَ العمَل والتواكُل والخلودَ إلى الدَّعة والكسَل، فنصرُ الله لا يــتنزَّل على نفوسٍ لُوِّثت بالمعاصي، وقلوبٍ مستعبَدَة للشهوات، مدنَّسةٍ بالحِقد والغلِّ والحسَد، وأُخوَّةٍ دبّ فيها داء الفرقة والتنازع والتناحر والتمزّق، هذه سنّة الله التي يجب أن نفقهَها ونتعامل معهــا، قــال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ [الرعد:١١].

إنَّ الصحابةَ رضوان الله عليهم كانوا موقنين بالنصر، وكان وعد الله وَقودًا لمزيد عملٍ وعطاء، عبادةٌ وبَذل في سبيل الله وتضحية، يبذل أحدُهم مالَــه كلَّــه في ســبيل الله قــائلاً: أبقيــتُ لهــم اللهَ ورسوله(٣)[٣]، قال تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْــدِيَنَّهُمْ سُــبُلَنَا وَإِنَّ اللَّــهَ لَمَــعَ الْمُحْسِــنِينَ [العنكبوت:٦٩].

قد يحصل أصحابُ الباطل على انتصارٍ مؤقَّت، لكن البناء الذي أُسِّس على قواعدَ فاسدةٍ لا بــدَّ أن ينهار، ثمَّ تكون العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين، قال تعالى: لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى الْبِلَــادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران:١٩٦، ١٩٧]، وعندما هاجر رسول الله وعده الله بقوله: إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ [القصص:٨٥]، فعاد إلى مكّة ســالمًا غانمًــا منتصرًا، وتحقّق وعد الله.

عبادَ الله، يُخطئ من يحصُر معنَى النصر في صورةٍ واحدة، ذلك أنَّ للنّصر مفهومًا أوسَع وصوَرًا أشمَل، فالذي يلتزم بالإسلام ويتغلّب على لذَّاتِه المحرَّمة ونفسه الأمّارة بالسّوء يغدو منتصِراً. ومِــن معــاني النصرِ أن يلقى المسلم ربَّه وهو راضٍ عنه. ومن معاني النّصر الثباتُ على الــدّين في المِحَــن والعــزّة بالإيمان في المِحن، فإبراهيم عليه السلام ألقي في النّار بعدَ أن كشف زيفَ الباطل وثبَت على عقيدتِه، وكان هذا أنصارًا، قال تعالى: قُلْنَا يانَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَامَا عَلَى إِبْراهِيمَ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَــاهُمُ الأَخْسَرِينَ [الأنبياء:٦٩، ٧٠].

سحرةُ فرعون هدّدهم بالقتل هدَّدهم بالتعذيب، فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ [آل عمران:١٤٦]، وكان هذا نصرًا للعقيدة والدّين، قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء:٥٠، ٥١].

الغلامُ المؤمن في قومِه ماتَ منتصرًا، فقد أحيى الله بموتِه أمّةً مِن النّاس حين آمنوا بالله ربِّ الغلام، قال تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحياةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [غافر:٥١].

يقول المفسِّرون: إنَّ الله سبحانه ينصُر رسلَه والمؤمنين به في الحياة الدنيا وإن اختلفت صورُ النصــر، فمنهم من يمكِّنهم الله سبحانه حتى يظهَروا على عدوّه ويغلبوه وينتصروا عليه، ومِنهم من يعجِّــل الله العذاب لأقوامِهم المكذّبين لهم، ومنهم من يسلّط الله عليه القتل، ومِنهم مَن يسلَّط عليهم بعد قتلــهم أنبياءَهم من ينتقِم للأنبياءِ وينتصرُ لهم.

ويقول المفسِّرون: ولهذا أهلك الله عزَّ وجلّ قومَ نوح وعادٍ وثمود وأصحابَ الرسّ وقومَ لوط وأهـــلَ مدين وأشباههم وأحزابَهم ممّن كذّب الرسلَ وخالف الحقَّ، وأنجى الله تعالى مِن بينهم المؤمنين، فلـــم يُهلك منهم أحداً.

ويقول المفسِّرون: لم يبعث الله عزّ وجلّ رسولاً إلى قومه فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يـــدعون إلى الحق فيقتَلون، فيذهب ذلك القَرن حتّى يبعثَ الله تبارك وتعالى لهم من ينصُرهم، فيطلب بدمائهم ممَّن فعَل ذلك في الدنيا، فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتَلون في الدنيا، وهم منصورون فيها. انتهى.

لقد كان الله سبحانه قادرًا أن يمنَح النصرَ لنبيِّه ولدعوته ولدينه منذ اللحظةِ الأولى مِن غزوة أحُد بـــلا كللٍ ولا ملل، بلا كلل من المؤمنين ولا عناء، ولكن المسألة ليسَت هي النصر فحَسب، إنّمـــا هـــي التربية على الثبات، إنّما هي الصّبر على البلاء والشدّة، إنّما هي تزكية النّفوس وإصلاحها.

إنَّ إيمانَنا بأنَّ المستقبَل لهذا الدين يمنحُنا الأمَل الذي يدفعنا إلى العِلم والعمَـــل للوصـــول إلى النصـــر بترسيخ العقيدةِ والإخلاص في العبادة، وتصحيح معاملاتِنا، وسموّ أخلاقِنا، مع إعداد العدّة، وإذا ظلّ الإيمان ـــ عبادَ الله ـــ لم يتحقَّق في القلب و لم ترسَخ العقيدة في النّفوس فإنَّ الطغيان يغلِب والباطـــلَ ينتفش؛ لأنهما يملِكان قوَّة مادّية.

إذا أراد المسلمون نصرَ الله فسبيل ذلك أن ينصُروا اللهَ أولاً في أنفسِهم، أن ينصـــروا اللهَ في أُســـرِهم وبيوتِهم، أن ينصُروا لله في مجتمَعهم وفي معاملاتِهم، فيحكّموا شرعَه ويطبّقوا شريعتَه. إنَّك بهذا تهزِم عدوَّك نفسيًّا من داخِله باعتزازك بدينك وثباتِك على منهجك والدعوةِ إلى الله، إنّه يريدك أن تكون من حزبه، قال تعالى: وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ [النساء:٨٩]، وقال تعالى: فَاسْتَمْسِـــكْ بِالَّـــذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ [الزخرف:٤٣].

إخوةَ الإسلام، إنَّ أساسَ النّصر الحقيقيّ تحقيقُ العبوديّة في القلب والانتصار على النفس، قال تعـــالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّـــذِينَ مِـــن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنَّهُمْ مّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً [النور:٥٥]، ولكنَّنا نُغلب حين نختلِف ونتنازَع فنفشل وتذهَب ريحنا، ونُهزَم حين تفسد النيات والمقاصِد، وتحلّ الدنيا في قلوبنا محلَّ الآخرة، قال تعالى: إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مّنْ بَعْدِهِ [آل عمران:١٦٠].

لقد تحوّل نصرُ المؤمنين إلى هزيمةٍ في أحُد لمخالفةِ نفَرٍ من أصحاب رسول الله لأمرٍ من أوامِـــره دونَ قصدٍ منهم أو فسادٍ منهم، وكان الدّرس أليماً والعقاب قاسياً، ولذا لا تعجَب لِما حلّ بالمســـلمين في هذه الأيّام العصيبَة من تمزيقِ الشّمل وذهابِ الشوكة، قال تعالى: أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَـــبْتُمْ مّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَاذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ [آل عمران:١٦٥].

لهذا كان عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه يقول لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لّما أمَّره على أحدِ الجيوش الإسلامية: (أمّا بعد: فإنِّي آمرُك ومَن معك من الأجناد بتقوى الله في كلِّ حال، فإنّ تقوى الله أفضلُ العدّة على العدوّ وأقوى المكيدَة على الحرب، وآمرُك ومن مَعك أن تكونوا أشدّ احتراساً منكم من عدوِّكم، فإنَّ ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنّما ينتصِر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوّة؛ لأنَّ عددَنا ليس كعددِهم، وعدّتنا ليست كعدَّتهم، فإن استوينَا في المعصيَة كان لهم الفضل علينا في القوّة، وإن لم نُنْصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوَّتنا، واعلموا أنَّ عليكم في سيركم حفظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا عدوّنا شرٌّ منّا فلن يسلَّط علينا، فربّ مسلَّط عليهم من هو شرّ منهم)(٤)[٤]، ويقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضاً للجُند: (إنّكم لن تنتصِروا على عدوِّكم إلا بعدَ تقرّبكم من الله وبُعدِهم عنه، فإذا تساويتم ـ أي: في المعاصي ـ كانت الغلبَة لأكثرِكم عدّةً وعتادًا) انتهى كلامه رحمه الله.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهَدى، أحمده سبحانه وأشكره على نعَمه التي لا تعدّ ولا تُحصَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العليّ الأعلى، وأشهد أن سيدنا ونبيّنا محمّدًا عبده ورسوله الذي لا ينطِق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الأحلام والنهى.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله.

قد تهتزّ بعض النفوس فتستبطئ نصرَ الله وتساوِرها شبهةٌ في خضَمّ الأحداث، يظنّون بالله غيرَ الحق ظنَّ الجاهلية، لماذا يُصابُ الحقّ وينجو الباطِل؟ لماذا لا ينتصِر المسلمون؟! أسئلةٌ تتردَّد في أذهان من لا يفقهون سنّةَ الله تعالى في النّصر والهزيمة، ولا يفقَهون سنتَه في الابتلاء والمِحن، وأنَّ الأمورَ تجري بحِكمةٍ وحكمة.

منها: أنَّ الله يُملي للباطل والظالم لينال أشدَّ العذاب بالاستحقاق، قال تعالى: وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ [آل عمران:١٧٨].

ومِن الحِكَم أنَّ الله يميز الخبيث من الطيِّب، ويعظم الأجرَ لَمن ابتُلي فصبَر كما قال تعالى: مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيّبِ [آل عمران:١٧٩].

ومِن الحِكم أن تتجرّد النفوس ويصفوَ الإيمان ويتميّزَ الصّفّ ويتماسَك المؤمنون، ويتماسك البنيان بين المؤمنين.

ومنها: أن يتعلّمَ المؤمنون الصبرَ على الأذى والصبرَ على المِحن، ويتعلّمَ المؤمنون الصبرَ على الهزيمة والصبرَ على النّصر، قال تعالى: إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران:١٤٠].

ألا وصلّوا ــ عبادَ الله ــ على رسول الهدى فقد أمركم الله بذلك في كتابه فقال: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً [الأحزاب:٥٦].

اللهمَ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمَّد، وارض اللهمّ عن الخلفاء الأربعة الراشدين...

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٦٣١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٦٣) من حديث أبي بكر رضي الله عنه، وهو أيضا عند مسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١).

(٣) ممن قال ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥) من طريق زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الحاكم (١٥١٠)، وأعله ابن حزم في المحلى (١٥/٨) بهشام بن سعد، وقال الحافظ في الفتح (٢٩٥/٣): "تفرد به هشام بن سعد عن زيد، وهشام صدوق فيه مقال من جهة حفظه"، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٤٧٢).

(٤) أخرج نحوه أبو نعيم في الحلية (٣٠٢/٥-٣٠٣) عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

سنة الهزيمة والنصر

الرقاق والأخلاق والآداب، العلم والدعوة والجهاد

آثار الذنوب والمعاصي، المسلمون في العالم

عكرمة بن سعيد صبري

القدس

١٤٢٤/٦/١٧

المسجد الأقصى

محامد و أدعيةطباعة الخطبة بدون محامد وأدعية

____

ملخص الخطبة

١- وعد الله المؤمنين بالنصر والظفر. ٢- تحقيق هذا الوعد في تاريخ المسلمين. ٣- أسباب هزائم المسلمين في هذا العصر. ٤- حول معاناة المسلمين في القدس. ٥- المؤامرة على الأقصى.

____

الخطبة الأولى

أما بعد: فيقول الله عز وجل في سورة محمد: يأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [محمد:٧-٩]. ويقول سبحانه وتعالى في سورة الروم: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءوهُم بِالْبَيّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ [الروم:٤٧]، صدق الله العظيم.

أيها المسلمون، هاتان الآيتان الكريمتان توضح صورة لنا، لا لبس فيها ولا غموض، أن الله عز وجل قد ربط الأسباب بالمسببات، فهو سبحانه يعطي وعدًا على نفسه بأن ينصر المؤمنين، لأن النصر من عنده وحده، ولن يخلف الله وعده، ولكن يا مسلمون متى يتحقق وعد الله؟ والجواب: إذا نصرنا الله، وكيف يكون نصر المؤمنين لله؟

أيها المسلمون، أقرأ على مسامعكم بعض فقرات من رسالة قيمة وجّهها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي كان قائدًا للجيوش الإسلامية في العراق، يقول عمر في هذه الرسالة التي كتبت قبل أربعة عشر قرنًا: (فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب).

أيها المسلمون، إن أمير المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يركز في رسالته أول ما يركز على تقوى الله رب العالمين، فإن أول عامل من عوامل نصر المؤمنين لله هو الاتصاف بتقوى الله في جميع الأحوال، وتقوى الله هي أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب.

أيها المسلمون، ويقول عمر في رسالته أيضًا: (وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم)، فمن عوامل النصر ـــ يا مسلمون ـــ الابتعاد عن المعاصي، لأن المعاصي والآثام إذا اقترفها المسلمون تكون أشد خطرًا عليهم من أعدائهم.

والأشد خطرًا وإثمًا هو المجاهرة بالمعاصي، وهذا ما نشهده في أيامنا هذه، فإن ارتكاب المعاصي والآثام والموبقات والمجاهرة بها من أسباب إلحاق الهزائم المتكررة بالأمة.

أيها المسلمون، ويتابع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسالته القيمة فيقول: (وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة)، أي أن من أسباب نصر الله للمؤمنين معاصي أعدائهم، ولولا ذلك لم تكن للمسلمين غلبة على أعدائهم، لأن عدد المسلمين أقل عددًا من الأعداء، ولأن عدة المسلمين لم تكن كعدتهم، وإن استوى الطرفان، أي المسلمون والأعداء في المعصية، كانت الغلبة للأعداء كما نلحظ في أيامنا هذه.

أيها المسلمون، من المعلوم أن المسلمين عبر التاريخ لم يسبق لهم أن انتصروا على أعدائهم بسبب زيادة في العدد أو العدة، فما من معركة انتصر بها المسلمون إلا وكان الأعداء أكثر منهم عددًا وعدة، إنما انتصر المسلمون على الأعداء بتقوى الله والتزام الشريعة الإسلامية والابتعاد عن المعاصي، والله رب العالمين يقول في معركة بدر: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ [آل عمران:١٢٣]، أي وأنتم ضعاف، وعددكم قليل، وهذا يؤكد بأن نصر المسلمين لم يكن في يوم من الأيام مرتبطًا بالقوة المادية، ولا يعني هذا إهمال القوة المادية، ولكن ليست هي العامل الأساس في النصر، والدليل على ذلك ما حصل قبيل معركة اليرموك، فقد قال أحد الجند من المسلمين: ما أكثر الروم وما أقل العرب! لأن الروم عددهم كثير، فأجابه قائدهم: لا بل قل: ما أكثر العرب وما أقل الروم، فالعبرة يا مسلمون ليست بالعدد، بل بالكيف والنوع، وانتصر المسلمون على الروم رغم التفاوت في العدد.

أيها المسلمون، إن انتشار المعاصي بين المسلمين في هذا الوقت لمؤشر على الهزيمة المستمرة، فلا بد من العودة إلى الله رب العالمين، وبالدعاء والتضرع له مع إعداد العدة، ليحقق الله وعده، وليُجري النصر للمؤمنين، فالنصر من الله رب العالمين لمن يستحق النصر، وأي شك في ذلك هو شك بالإيمان، وهو عين الهزيمة.

أيها المسلمون، والسؤال بالمقابل: كيف يكون نصر الله للمؤمنين؟

إن الله العلي القدير العزيز الجبار لا يعوزه أي أسلوب من الأساليب، ولا أي شكل من أشكال النصر للمؤمنين، فيقول الله عز وجل في سورة المدثر: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ [المدثر:٣١]، ويتمثل جند الله أحيانًا بالملائكة كما حصل في معركة بدر، لقوله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَئِكَةِ مُرْدِفِينَ [الأنفال:٩]، ويقول سبحانه وتعالى أيضًا في سورة الأنفال: إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ ءامَنُواْ سَأُلْقِى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الاعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [الأنفال:١٢].

أيها المسلمون، قد يقول قائل: نحن الآن في عصر الصواريخ والأقمار الصناعية والبوارج البحرية، وهذه الأساليب الحديثة المتطورة هي التي تقرر النتائج وتحسم الموضوع، فما علاقة نصر الله وقدرته في

هذا المجال؟ والجواب على هذا الطرح التشكيكي، أقول: إن قدرة الله رب العالمين أزلية دائمة، وهي قائمة، سواء كان ذلك في عصر الجِمال أم في عصر الصواريخ، وإن حرب تشرين عام ثلاثة وسبعين للميلاد لتؤكد ذلك، حين انطلق الجند المؤمنون بهتاف: الله أكبر، كانوا يشاهدون القتلى من الأعداء قبل أن يصلوا إليهم، وكاد هؤلاء الجند أن يقلبوا الموازين لولا الأوامر بالتوقف.

ثم إن هزيمة العراق مؤخرًا جاءت نتيجة للخيانات أولاً، وثانيًا لأن المسئولين في العراق وقتئذ لم يطلبوا النصر من الله، و لم يكون متصلين بالله، و لم يتقوا الله أصلاً، فكيف سيأتيهم النصر، والله سبحانه وتعالى يقول: إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد:٧]، جاء في الحديث الشريف: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم، قيل: أين هم يا رسول الله؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس))(١)[١]. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، فيا فوز المستغفرين.

الخطبة الثانية

الحمد لله، له الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، صلاة وسلام دائمين إلى يوم الدين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد.

أيها المسلمون، يا أبناء أرض الإسراء المعراج، هناك ثلاث نقاط تهم المؤمنين في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس وهي:

أولاً: الأسرى المعتقلون السياسيون في السجون الإسرائيلية، لقد قام قبل أيام أهالي الأسرى المعتقلين السياسيين بمسيرات عدة يطالبون فيها بالإفراج عن أبنائهم، ويشرحون الأوضاع السيئة التي يعيشها أبناؤهم خلف القضبان، ونحن نضم صوتنا إلى مطالبهم العادلة، فالحرية والكرامة هما حق شرعي لكل إنسان، وما بعد الضيق إلا الفرج إن شاء الله.

ثانيًا: مكتب الداخلية في مدينة القدس مرة أخرى، وسبق أن أشرنا إلى الشكاوى من قِبل المواطنين الذين يعانون ما يعانونه أمام مكتب وزارة الداخلية في القدس، واليوم نشرت الصحف المحلية عن اعتقال قائد حرس مكتب الداخلية وعن اعتقال عدد من اللذين يعملون في مكتب الداخلية بتهمة الرشاوى وتهمة التحرش الجنسي، ونحن نقول: ليس هذا الاعتقال هو العلاج الكافي، نحن نقول: لا

بد من تسهيل المعاملات لدى المواطنين ورفع المعاناة والتعقيد والابتزاز وحماية الناس من المستغلين، فإن تسهيل المعاملات أصلاً يمنع أي ابتزاز وأي رشاوى.

ونشكر الشباب الذين حاولوا فرض النظام والهدوء ومنع الفوضى والرشاوى من أهل القدس، هذا هو جهدهم، وبارك الله فيهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أيها المسلمون، ثالثًا: المسجد الأقصى المبارك، ويوم الخميس القادم تصادف ذكرى إحراقه، وفي هذه الأجواء وقبل أيام، يصرح ما يسمى بوزير الأمن الداخلي الإسرائيلي أنه سيسمح للزوار من غير المسلمين بزيارة باحات المسجد الأقصى المبارك اعتبارًا من الأسبوع القادم، سواء وافقت الأوقاف أم لم توافق، حسب قوله.

وينطبق على هذا الوزير المثل القائل: "سكت دهرًا، ونطق كفرًا" فهل من صلاحياته أن يقرر إعادة برامج السياحة للمسجد الأقصى المبارك؟ ونؤكد له ولغيره بأن الأوقاف الإسلامية هي صاحبة الصلاحية والاختصاص في الإشراف على المسجد الأقصى المبارك، وأن استئناف برامج السياحة هو بيد الأوقاف الإسلامية في الوقت الذي تراه مناسبًا، وإن الأوقاف الإسلامية ترفض التهديد، كما ترفض التدخل في شؤونها، فلا يجوز شرعًا أن يتدخل غير المسلم في شئون المسلمين عامة، والله سبحانه وتعالى يقول: وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً [النساء:١٤١]، ويقول عز وجل: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَاكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ [المنافقون:٨]، وسيبقى المسلمون والمرابطون ـــ بإذن الله ـــ السدنة والحراس الأوفياء لمسجدهم المبارك، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

---

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي أمامة (٢١٨١٦) قال الهيثمي: رواه عبد الله وجادة عن خط أبيه والطبراني ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٧/٢٨٨.

المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية

تأليف : عبد الله أحمد الشبانة

عرض : أحمد أبو عامر

من أعظم ما أصيب به المسلمون اليوم هو ما سيطر عليهم من روح الانهزام أمام أعداء الإسلام ، وضعف الهمة من بعث روح المقاومة والمغالبة ، والعجز عن مجرد التفكير في ذلك ، حتى بلغت أمتنا في ذلك مبلغاً من الانحطاط والتقهقر والتخلف لا نريد عليه... ونحن اليوم في أشد الحاجة إلى تعرية هذا المرض الخبيث الذي يقلب الموازين ويعكس المفاهيم حتى أصبحنا نظن العدو صديقاً ، والأبيض أسود ، والغاش ناصحاً ، والناصح غاشاً ، وهذا ما حدا بالمؤلف إلى علاج هذه الظاهرة المرضية في

واقعنا ، وقبل أن يحدد معنى الهزيمة النفسية تطرق إلى مدخل لبيان أهمية معرفة هذه الظاهرة كبداية لعلاجها ثم عن مظاهر الهزيمة النفسية في ثلاثة أبواب:

أولاً: في مجال الفكر ، وتطرق فيه للفكر التربوي ثم الفكر الإعلامي.

ثانياً: في مجال النظم ، وتطرق فيه للنظامين الاقتصادي والسياسي.

ثالثاً: في مجال السلوك ، وتطرق فيه للسلوك الفردي والسلوك الاجتماعي.

ثم بين خطر هذه الظاهرة في محيط الفرد، ثم في محيط الأسرة ثم في محيط الجماعة والأمة . ثم تطرق المؤلف إلى أسباب هذه الظاهرة وعوامل تكوينها ، وأرجعها إلى أسباب وعوامل ذاتية ، ثم أسباب وعوامل خارجية. ثم تطرق المؤلف إلى طريق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها.

ومما يجدر ذكره أن المؤلف استعرض الجهود العلمية والفكرية والتي سبقته لعلاج وبحث هذه الظاهرة في النفس والمجتمع ، ومن سبق إلى البحث فيها أمثال (شكيب أرسلان) في كتابه (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم) وكذلك أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ومالك بن نبي في (شروط النهضة) وأبو الأعلى المودودي في كتابه (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) و د.ناصر العقل في كتابه (التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية) وهو لم يطبع بعد طبعته الأولى ، وهذه فرصة للدعوة لإعادة طبع الكتاب لأهمتيه في هذا الباب... وغيرها من الأبحاث الهامة في هذا الباب.

وقد وضح طرق علاج هذه الظاهرة ووسائل القضاء عليها في بابين :

١ – طريق التربية والتعليم .

٢ – طريق التوجيه والإرشاد (الإعلام).

وفي خاتمة الكتاب جمع المؤلف خلاصة ما تضمنه البحث من أبواب وفصول ، وأكد أنه كبير الأمل وعظيم الثقة في أن نجاحاً كبيراً سيتحقق من جراء الأثر الإيجابي للعلاج ، وأن شفاء الأمة من هذا المرض سيتم بإذن الله من هذا الداء الخطير ، وستمضي بحول الله تعيد سيرة سلفها الصالح ، وأمجادها الغابرة ، ونبه إلى أن واجب كل مسلم واع مدرك للخطر منتبه لما يراد بالأمة وما تساق إليه بل ما سيقت له منذ أزمان أن يعمل بكل ما أوتي من قوة وبكل وسيلة ممكنة لتبصير الأمة بالأخطار التي هددتها وتهدد كل فرد من أفرادها..

وأن واجب المسئولين في كل دولة واجب مضاعف ، وخاصة مسئولو ذينك المجالين المهمين : (التربية والإعلام) ثم نبه إلى نوع من الانهزامية لم يتطرق له لعدم دخوله في منهج البحث وهو ما تتعرض له الأمة في مجال الأدب ومناهج النقد عن طريق ما يسمى بالحداثة والتي انكشفت كل أوراق أدعيائها بما ظهر من دراسات علمية وموضوعية حول ذلك.

والكتاب دراسة يلمس فيها القارئ حسن القصد وحسن البحث ولن يعدم كل قارئ للكتاب من أصول ومعلومات علمية قيمة تزيد ثقافته وتناقش كثيرًا من الشبهات المطروحة في الساحة بمنهج علمي جدير بالتقدير والاحترام .

مَعْرِض الهزيمة

شعر: عبد الله بن عبد الكريم الخميس

سئمتُ وقد شابهَ اليومُ أمسا طِبتُ لدى الجُرحِ بالموتِ نفسا
وما بي قُنُوطٌ ولكنّ عصري يُسَامُ به الشتّمّ خنقاً ودهسا
ألم يأنِ أن نحتوي عِزّةَ الدينِ نُحْيي لإسلامِنا الحُرّ عُرسا
شربنا من الذّلِ حتى ارتوينا كَرَعنا على الكُرهِ كأساً فكأسا
كِنانتُنا أُتخِمَتْ بالسهامِ و لم نَحْتَمِلْ طيلةَ الحَربِ قوسا
تناحُرُ فُرسانِنَا مَنْبَعُ الذّلّ في الخَالِياتِ لنا كان درسا
شتَاتٌ عِصَابتُنا واختِلافٌ وشرٌ يَدِبّ إذا الليلُ أمسى
وغَابٌ تمن الشوكِ تُدمي الحيارى ثِمَارٌ خبيثٌ لما كان غرسا
وبين جوانحِنا خَافِقَاتٌ قُلُوبٌ هي الصّخرُ بل هي أقسى
فهلاّ نُجَدّدُ عَهْدَ التّآخي ونقتُلُ (ذُبْيَان) فينا و(عبسَا)
ونتركُ ما فيه كُنّا افترقنا ونخلِطُ بـــ(الخَزْرَجيّةِ) (أوسَا)
و(داحِسَ) ما حازتِ السّبقَ حازتهُ (غبراءُ) والحَادِثُ الشُؤمُ يُنْسَى
لِنُصبحَ للعِز أهلاً وكُفْئاً ونبعَث للنُورِ والدفءِ شمسا
وننعَم بالحُبّ حتى كأنّا لنسمع للحُبّ قرعاً وجرسا
إذا ما افترقنا كأفلاكِ بَحرٍ فإنّ العقيدة يا قومُ مَرسَى

الهزيمة عقوبة

للسيد حسين التهامي

قال السيد حسن التهامي مستشار الرئيس أنور السادات ورئيس بعثة الحج المصرية لهذا العام: إن جميع القوى العالمية –بلا استثناء– تجتمع اليوم ضد المسلمين وتتكتل لتقويض صرح الإسلام.

ويقول مراسل وكالة الأنباء السعودية: بأن السيد التهامي تحدث عما أسماه عار يونيو (١٩٦٧)م؛ فقال: إنه كان نتيجة طبيعية للتخلي عن الإسلام وللزيف والزيغ العقائدي الذي اجتاح عالمنا العربي عشرين سنة.

ودعا السيد حسن التهامي إلى التمسك بالدعوة الإسلامية وإلى أن ينهض القادة جميعاً بهـــذا العـــبء وأن ينحازوا كلياً إلى الإسلام. فبغير الإسلام لن يستعيد العرب الأراضي وبغير الإسلام لن تقوم لهـــم قائمة.

وقال: إن التخطيط للجهاد ثم الجهاد هو طريقنا وإن كل ما سوى ذلك ليس إلاّ ألاعيب وأباطيـــل. وأكّد على أنه ليس يكفي المسلمين المؤتمرات الإسلامية ولا الأمانة الإسلامية. حتى ولا الحج إلى بيت الله الحرام ..

أسباب الهزيمة الموجودة في الأمة

التغيير والنصر يأتي متأخراً، وحديثنا كان يقدم الهزائم على الانتصارات؛ لأننا إلى حد ما في ظـــلال الهزائم، والانتصارات هي الأمل المفتقد بإذن الله عز وجل، وقد بدت بشائره وتبدو هنا وهنـــاك في عودة الأمة إلى دينها، ورجوعها إلى ربها، واعتزازها بشخصيتها وإســـلامها وإيمانهـــا وولائهـــا لله، وبراءهما من أعداء الله سبحانه وتعالى، وأخذها بأسباب الوحدة والألفة والاجتماع، ونبذها لأسباب الفرقة، وإن كانت هذه الصور ما تزال جزئياً هنا وهناك باقية، ويسعى أعداء الله عز وجل إلى إطالـــة أمدها، وإلى تعميق آثارها، وإلى توسعة دائرتها حتى لا تقوم للمسلمين قائمة؛ ولذلك أكثر ما يبتلى به المسلمون الشقاق والنزاع، وأكثر ما يسلط عليهم ليفتنوا هو الفساد والانحراف؛ ولـــذلك أريـــد أن أوجز الحديث لأختم هذا اللقاء فيما يتعلق بتكريس أسباب الهزيمة في الأمة .

أسباب الهزيمة في مجال السياسة

هناك أوضاع ومجالات تكرس أسباب الهزيمة في الأمة، والحديث عنها الأصل فيه أن يطـــول، لكـــن الإشارة إن شاء الله تغني عن الإفاضة والتوسع، وهي مجالات كثيرة سلط أعداء الله عليهـــا الجهـــود؛ لتبقى في الأمة أسباب الهزيمة والضعف، وذلك في مجالات ثلاثة رئيسة ومهمة، ربما تكون هي أبـــرز وأظهر هذه المجالات.

أولها: في المجال السياسي، وذلك بزرع الفرقة بين المسلمين على مستوى دولهم، وتقطيع أوصـــالهم، وإثارة النزاعات العرقية، والخلافات الحدودية، وغير ذلك من هذه الأسباب.

ثانياً: تنحية شرع الله عز وجل في كثير من بلاد المسلمين، وتغييبه عن واقع الحياة.

ثالثاً: الموالاة لأعداء الله عز وجل، والسير في فلكهم، والتحقيق لأطماعهم في بلاد المسلمين، والموافقة لهم في مخططاتهم، والسير وراءهم فيما يخططون ويدبرون من كيد وتدمير وهدم لـــبلاد المســـلمين، وكذلك أيضاً في صور أخرى متعددة يطول ذكرها.

أسباب الهزيمة في مجال التعليم

المجال الثاني: مجال التعليم الذي يصبغ الأمة بصبغات شتى، بحسب ما يوجه ويصب في أذهان أبناء الأمة المسلمة في شرق الأرض وغربها، فإذا بنا نجد مظاهر منها: الفصل بين التعليم الديني والمدني كما يسمى.

التضييق على التعليم الإسلامي.

تغيير المناهج وإبعادها عن الروح الإسلامية، وربط الأمة بدينها وبتاريخها، وذلك ظاهر في كثير من بلاد الإسلام والمسلمين، حتى إن كل توجه يصبغ أول ما يصبغ الأمة عبر مناهج التعليم؛ ولذلك نجد هذه الصورة واضحة حتى أن بعض البلاد اختزلت تاريخ الأمة المسلمة اختزالاً مشيناً، فنجد أن حظ تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يتجاوز سبعة أسطر، وحظ تاريخ عثمان رضي الله عنه الطويل المديد لم يتجاوز خمسة أسطر في مناهج بعض البلاد العربية الإسلامية، وهكذا يسلط على الأمة في هذا المجال والميدان كثير من الأدواء والانحرافات التي تعمق هذا الجانب، وتغير الأفكار، وتشتت الأذهان، وتقطع الأمة عن تاريخها، والمجالات في ذلك كثيرة، حتى إن التعليم الإسلامي يجعل له منزلة أدنى من غيره، كما يعلم الجميع أن بعض البلاد لا تدخل المواد الدينية في النجاح والرسوب، يرسب الطالب أو ينجح في المواد الدينية فليست هناك مشكلة، أو لا تدخل في معدلات النسب والتقديرات من الامتياز وغيره، إضافة إلى اغتيال وإضعاف منابر التعليم الإسلامي ذات الأثر والتاريخ العريق، وتفريغها من مضمونها ومحتواها، وتحويرها وتحويلها إلى صور لا حقيقة لها أو إلى مظاهر لا باطن لها.

أسباب الهزيمة في مجال الإعلام

أخيراً المجال الخطير: وهو مجال الإعلام الذي يغير في الأمة، ويرسخ فيها كثيراً من مجالات الانحراف والأخطاء العقدية والسلوكية والفكرية، ويظهر ذلك من صور شتى كثيرة، أبرزها وأهمها: وجود التناقض بين الحكم والواقع، فبينما يأتي البرنامج الذي يسمى برنامجاً دينياً وينشر فيه أن حكم الغناء الحرمة، وحكم الرقص الحرمة، ثم بعده يأتي هذا الغناء وهذا الرقص! فيشعر الناس بالتناقض أو أن يقبلوا هذين، على أن كلاً منهما له حكمه كما يقولون: ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، أو أن يضطرب الناس فيظنون الحلال حراماً، والحرام حلالاً، إضافة إلى ما يسلط على الأفكار والمعتقدات من انحرافات، فضلاً عما يفتك بالمسلمين من قضايا الانحراف السلوكي عبر الخلاعة والمجون وغير ذلك.

ثم أمر مهم وخطير وهو: تعظيم الأجنبي غير المسلم، وإعطاؤه صورة من الحضارة والعلو والرفعة، حتى إنه لا يظهر إلا بصورة الممجد المعظم، بينما غيره من المسلمين لا يعطى مثل هذه الصورة.

وأيضاً: تسليط الأضواء في مجتمعات المسلمين ليس على الأخيار، ولا على الأبرار، ولا على الدعاة العاملين، ولا على العلماء المخلصين، وإنما تسلط الأضواء على من تاريخهم يشهد بخيانتهم للأمة،

وانحرافهم عن نهج الله عز وجل، وإن كانوا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، فهذه المجالات كلها تكرس أسباب الهزيمة وصورها في واقع المجتمعات؛ ولذلك البشائر التي تبدو في الأفق من هذه الصحوة الإسلامية ينبغي أن تعلم أن البداية هي في علاج هذه الانحرافات والأخطاء، وفي وقف سير الأضرار التي تجرف المجتمعات المسلمة من جراء هذه الميادين والمجالات، وأيضاً أن تعلو بإذن الله عز وجل راية الحق والجهاد.

وقد ظهر للمسلمين عياناً أن الأمة إذا ارتبطت بدينها، ورفعت شعار التوحيد، وأرادت أن تقاتل وتحارب، وأن تواجه أعداءها باسم الله، راجية من الله عز وجل أن يحقق لها النصر كما ظهرت صور ذلك أيضاً في كثير من المواطن والبلاد الإسلامية هنا وهناك.

النفس بين قوة العزيمة ومرارة الهزيمة

الحمد لله الذي شرح الصدور بالإسلام، وطمأن القلوب بالإيمان، وهدى البصائر بالقرآن، له الحمد سبحانه وتعالى أن وفقنا بالإسلام إلى الطاعة، وهدانا بالإيمان إلى الاستقامة، وأمدنا من اليقين بالقوة، ووفقنا بالإسلام إلى العزيمة الصادقة والهمة العالية.

له الحمد سبحانه وتعالى على آلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، حمداً كما يحب ربنا ويرضى، نحمده جل وعلا كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، هو أهل الحمد والثناء لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، فله الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء من شيء بعد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن نبينا وقائدنا وقدوتنا وسيدنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، علم الهدى، ومنار التقى، شمس الهداية الربانية، ومبعوث العناية الإلهية، وأشهد أنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فجزاه الله خير ما جازى نبياً عن أمته، ووفقنا وإياكم لاتباع سنته، وحشرنا يوم القيامة في زمرته، وجعلنا من أهل شفاعته.

وصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وعلى صحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران:١٠٢].

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء:١].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أين الخلل

أيها الإخوة المؤمنون! في مثل هذه الأيام من كل عام يدور بالخواطر والعقول، ويجيش في المشاعر والنفوس، ويتغير إلى حد ما في واقع الأحوال والأعمال شيء في واقعنا العام، وفي حال كل فرد منا، فنحن مع هذا الموسم العظيم، والفريضة الجليلة، والأيام المباركة، والعبادات الصالحة، نعزم عزائم وننوي نوايا ونجدد عهوداً، ونحدث في عقولنا ونفوسنا صوراً مشرقة وضيئة لصفحات قادمة جديدة، ولا أظن أحداً منا لن يمر به مثل ذلك، سواء من حج وعظم أمله في مغفرة ذنوبه، وبداية صفحة جديدة، أو من لمن يحج واغتنم ذلك الموسم العظيم، والعشر الفاضلة، بصيام وقيام وذكر وإنفاق وطاعة وأضحية وتقرب إلى الله عز وجل.

لكن السؤال هنا: كم من همة علت ثم سفلت؟ وكم من عزيمة أبرمت ثم نقضت؟ وكم من صحيفة جديدة فتحت ثم أغلقت؟ ما القصة إذاً؟! هل نحن نكذب؟! وعلى من نكذب؟! هل نكذب على أنفسنا؟! فمثل هذا غباء، أم نكذب على الخلق؟! فإن هذا هو عين الرياء، أم نكذب -عياذاً بالله- على الله؟! فإن هذا هو محض الافتراء.

ما القصة إذاً؟! لا أظن أحداً عندما عزم تلك العزائم ونوى تلك النوايا كان كاذباً، بل كان في أعظم لحظات صدقه، وأصفى لحظات تجرده، وأصدق لحظات إخلاصه، ما الأمر إذاً؟! هل نحن جاهلون لا نعرف وجوب الفرائض أو لا نعرف حرمة المنكرات؟! هل نحن لا نعرف فضيلة الأعمال في الصفوف الأولى أو في الصلوات أو في الإنفاق والزكوات! هل منا أحد يجهل هذه الأصول العامة التي تحرك إيمان القلوب، وتبعث همم النفوس، وتمضي الأعمال في واقع الحياة؟ أظن أن أكثرنا -إن لم يكن كلنا- لا يجهل مثل ذلك، فأين المكمن والخطر؟ وأين الداء والمرض؟ وما بالنا نمضي ثم نتوقف؟ ونتقدم ثم نقهقر؟ سؤال أعتقد أنه الآن وضح في أذهانكم، وتشوقنا جميعاً إلى أن نبحث عن إجابته، وإلى أن نعرف العلة، وهنا سنعرف الأمر، والفرق بين العزائم والهزائم.

كيف تمضي العزائم إلى آفاقها السامية، وإلى ذراها العالية، ولا تعود هزائم تضعف بها الهمم، ويتضعضع بها اليقين، وتزوي بها شمعة الإيمان في القلوب.

هنا أمر مهم، وهنا مكمن خطر عظيم، أحسب أنه بالنسبة لنا هو الداء الدوي، ومكمن والخطر الخفي، إنه ضعف العزيمة والإرادة، إنه الكسل والخور والعجز، إنه الاستسلام للضعف والراحة والدعة، إنه الركون إلى الدنيا والاغترار والانشغال بها، إنه قطعاً ليس جهلاً؛ فنحن بحمد الله نعرف الأحكام الأساسية، من واجبات ومحرمات ومن فضائل الأعمال وما يقابلها من رذائل المنكرات، إذن فهنا وقفتنا المهمة بين العزائم والهزائم.

كمال الإنسان بهمة ترقيه وعلم يهديه

يقول ابن القيم رحمه الله: كمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين: ١- همة ترقيه.
٢- وعلم يبصره ويهديه.

علم تقع به البصيرة، وتتضح به طريق الهداية، لكن ذلك لا يكفي، فإن الطريق واضحة، وإن المعالم ظاهرة، لكن العزائم ضعيفة خائرة، والهمم باردة فاترة، فلا تبعث حينئذٍ قوة للحركة ولا عزيمة للمضي، ومن هنا لابد من همة ترقي بعد علم يهدي.

وهنا كذلك يبين ابن القيم رحمه الله: أن الهمة مبدأ الإرادة، وأن أعلى الهمم في باب الإرادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف على مراده الديني الأمري، فمن فعل ذلك فإنه يريد الله ويريد مراده، وحينئذٍ تحصل الفائدة الأولى وهي التوجه الصحيح إلى الغاية المنشودة.

ومبدأ كل طريق تسلكه أن تعرف الغاية التي تنتهي إليها، والطريق الموصل إلى هذه الغاية، ومن هنا فإنه لابد لنا أن ننتبه إلى ذلك، ونحن ندرك تماماً أن إيجاز القول في هذا جاء في كتاب الله في آيات كثيرة، من أظهرها قول الحق سبحانه وتعالى في بيان حقيقة هذه الحياة كلها: { قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

إذاً لابد أن نوجه الغاية، ونحدد المسار الواضح في قول الله جل وعلا: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران:٣١]، تلك هي الغاية: محبة الله وطلب رضوانه، وتلك هي الطريق التي رسمها سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، فنحن نترسم خطاه، ونتبع سنته، ونعرف طريقته، ونترسم منهجه، وندرك كيف عالج أدواء القلوب، وأمراض النفوس، وضلال وزيغ العقول، وانحراف المشاعر والعواطف، واختلال العلائق والروابط.

ثم أمضي مرة أخرى لنرى المكمن الذي نتحدث عنه، وهو ضعف الهمة والعزيمة، ذلك أنّا إذا بدأنا شيئاً لم نمش فيه خطوات حتى نتوقف أو نتراجع، إن هذه المسألة متعلقة أولاً بالبواعث النفسية القلبية، بالإيمان واليقين، بالمحركات والعواطف الإيمانية شوقاً إلى الله، وصدقاً في التعامل معه، وقوة في الثقة به والاعتماد عليه والتوكل عليه، تلك هي المشاعر الأولى.

مدى أثر النية في استنهاض الهمة

يقول الغزالي رحمه الله: (النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحداً، وهي حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وكل عمل لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه، فلابد وأن يعلم، ولا يعلم ما لم يرد، فلابد له من إرادة، ومعنى الإرادة: انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال وإما في المآل).

ذلك فهم دقيق، إن خفايا النفوس والقلوب تكمن في هذا الأمر، فإن صدق الإيمان، ورسخ اليقين، وخلصت النية، وجدت الهمة والعزيمة المرتبطة بالغاية الصحيحة، وهي رضوان الله عز وجل، والمؤسسة على العلم الصحيح من كتاب الله وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، فحينئذٍ اكتملت أسباب المسيرة الصحيحة بهمتها العالية، وعزيمتها الماضية، ومنهجيتها الواضحة، كما كان على ذلك رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام.

نحن نرى في سيرهم، وفي سير كل المؤمنين إلى عصرنا هذا فكيف نرى الشوق إلى طاعة الله، كيف نرى الصبر والثبات على دين الله، كيف نرى الهمة والعزيمة في طاعة الله، أين وقود ذلك؟ إنه هذه المشاعر الإيمانية التي مبعثها القلب، بدءاً من همة تتوجه نحو الله عز وجل ورضوانه، وإرادة تريد الإقدام في إنفاذ الأمر واجتناب النهي، حتى يكون لنا ذلك السمت الذي يتقدم ولا يتأخر ولا ينقص، ونسأل الله أن يعيننا عليه، والإنسان قد يصاب بالعجز إذا ضعف يقينه، ولكنه إذا تعلقت نفسه وأيقنت بمقابلة ربها في الآخرة اختلف الأمر.

كيف تنفق المال وتتخلى عنه إذا عظم يقينك بأنك تلقاه يوم القيامة أضعافاً مضاعفة؟! كيف تترك راحتك وتقوم ليلك وتضني جسدك إذا علمت أن ذلك يكون لك خيراً في دنياك وأخراك؟! إذا عرفت الأجور والثواب، إذا عرفت البركة والتوفيق، إذا عرفت الهدى والتسديد، إذا عرفت كل هذه الثمرات تحركت همتك وانبعثت، ولذلك ينبغي لنا أن نعلق القلوب بالآخرة حتى نصل إلى مرتبة الإيمان كما كان الصحابة، لقد جادوا بأنفسهم وأرواحهم طلباً لحياة خالدة لا تنقطع، تركوا نعيم الدنيا لنعيم لا ينفذ.

وكان سيد الخلق صلى الله عليه وسلم يبيت اليوم واليومين والثلاثة ولا يوقد في بيته نار، وكان لو شاء لدعا أن يحيل الله له الصفا والمروة ذهباً، ولكنه قال: آكل يوماً وأجوع يوماً؛ لأن ما عند الله أعظم، { مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ }[النحل:٩٦]، يوم نحرر هذه المعادلة تحريراً علمياً ونترجمها إلى شعور نفسي يستولي على القلب والنفس، فحينئذٍ يكون انطلاق عظيم بإذن الله سبحانه وتعالى.

ثم ننظر كذلك إلى أمر الدعاء والاستعانة بالله عز وجل، فإن الإنسان ليس له من أمر يحققه إلا بعون الله عز وجل: إذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

عوائق في الطريق

ولنعرف العوائق في آخر كلمة في هذا المقام، إنها كما أوجزها ابن الجوزي رحمه الله بقوله: (رؤية الهوى العاجل، والتسويف بالتوبة، ورجاء الرحمة).

ورجاء الرحمة ليس فيه شيء، لكنه دون معرفة العقوبة، رؤية الهوى العاجل، أي: رؤية الشهوة واللذة بمشاعر الهوى والمحبة، فإنها تعمي البصر والبصيرة عن الأخطار والأضرار في تلك المعاصي.

إن الشهوة تدعو إلى ممارسة الفاحشة بالزنا عند من ينظر إليها بالهوى، فلا يراها إلا جمالاً مشرقاً، ولذة جميلة، وهوى ومحبة رائعة، لكنه ينسى حينئذٍ -وقد غشي على بصره- الأضرار النفسية والقلبية والشرعية والعقوبات، وكأنه لا يعرفها مع أنه يعرفها.

لذلك فإن رؤية الهوى العاجل خطر، فانظر في كل شهوة ولذة إلى ما وراءها، وإلى صورتها الحقيقية في دين الله عز وجل، بل وفي واقع حياة الإنسان وفطرته السوية.

ثم كذلك تسويف التوبة وتأخيرها، فإنه لو حضر العقل لحذر من آفات التأخير، فربما هجم الموت قبل التوبة.

وأخيراً بالنسبة لرجاء الرحمة فالمقصود به مع نسيان العقاب، والله جل وعلا قد بين أنه هو الغفور الرحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم، فالله الله ونحن في هذه الأيام المباركة، وبعد هذه الفريضة العظيمة، وهذا الموسم الجليل، وقرب انتهاء عام وابتداء عام أن نجدد النية والعزيمة، ونصدق الله عز وجل في أن نغير أحوالنا إلى الأفضل والأحسن، وأن نقوي عزائمنا وهممنا، وأن نعزم على ألا نستسلم لضعفنا وكسلنا، وأن نحيط أنفسنا وإيماننا بسياج منيع مباعدةً للمعاصي والمنكرات، والترفع والتورع عن الشبهات، بل وكثير من المباحات.

أسأل الله عز وجل أن يردنا إلى دينه رداً جميلاً، وأن يحفظ إيماننا ويزيده ويعظمه، وأن يرسخ يقيننا ويثبته، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، وأن يوفقنا للطاعات، وأن يصرف عنا الشرور والسيئات.

اللهم إنا نسألك أن تأخذ بنواصينا إلى طريق الحق والسداد، وأن تلهمنا الرشد والصواب، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واهدنا اللهم لما اختلف فيه من الحق بإذنك، وأخرجنا اللهم من الظلمات إلى النور.

اللهم اجعل لنا من نور الإيمان ما يكشف الشبهات، واجعل لنا من محبة الطاعات ما يقوي العزائم والهمم، واجعل لنا اللهم من معرفة مغبة وأثر الذنوب ما يصرفنا ويبعدنا عنها يا رب العالمين! اللهم إنا نسألك أن تجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راض عنا، اللهم تول أمرنا، وارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، واغفر ذنبنا، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا.

اللهم طهر قلوبنا، وزك نفوسنا، وهذب أخلاقنا، وحسن أقوالنا، وأخلص نياتنا، وأصلح أعمالنا، وضاعف أجورنا، وأمح أوزارنا، وارفع درجاتنا، وبلغنا اللهم فيما يرضيك آمالنا، اللهم اجعل الحياة زيادة لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من عبادك المخلصين، وأن تكتبنا في جندك المجاهدين، وأن تجعلنا من ورثة جنة النعيم، برحمتك يا أرحم الراحمين! اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وارفع بفضلك كلمة الحق والدين، ونكس رايات الكفرة والملحدين، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بخير فوفقه لكل خير، ومن أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوء فاجعل دائرة السوء عليه، واجعل تدبيره تدميراً عليه يا سميع الدعاء! اللهم رحمتك

ولطفك بعبادك المؤمنين، اجعل لهم اللهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ومن كل فتنة عصمة، ومن كل بلاء عافية، اللهم انصر عبادك وجندك المجاهدين في كل مكان يا رب العالمين! اللهم استر بلاد الحرمين من كل سوء ومكروه، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً رخاءً وسائر بلاد المسلمين، وأصلح اللهم أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك يا رب العالمين! اللهم وفق ولي أمرنا لما تحبه، واجعل عمله في رضاك، وارزقه البطانة الصالحة التي تدله على الخير، وتحثه عليه يا سميع الدعاء! عباد :الله صلوا وسلموا على رسول الله؛ استجابة لأمر الله { إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [الأحزاب:٥٦].

وترضوا على الصحابة الكرام أصحاب الحضوة الرفيعة والمقام الجلي أبي بكر و عمر و عثمان و علي وعلى سائر الصحابة والتابعين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على نبيك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

صفاً! لهزيمة التطبيع.. لا تطبيع الهزيمة

د. عبد العزيز كامل

على الرغم من مضي أكثر من مائة عام على انطلاق المشروع الصهيوني في مؤتمر بازل بسويسرا عام ١٨٩٧م، واقتراب ما كان يسمى بـ (الصراع العربي الإسرائيلي) من إكمال الستين عاماً، بعد حرب النكبة عام ١٩٤٨م؛ فإن مواقف الكثير من زعماء العرب ونخبهم السياسية والثقافية لا تزال تتخبط في فهم أبعاد هذا الصراع وإدراك أسراره، فضلاً عن الثبات في مواجهته للتغلب على أخطاره، وقد فضحت التطورات الأخيرة ـ وآخرها قمة شرم الشيخ بمصر، والقمة العربية في الجزائر ـ جوانب من هذا التخبط؛ حيث ظهر بعد كل ما مضى من عمر المواجهة، أنها لم تكن يوماً واضحة المعالم أو معروفة الغايات عند غالبية من تصدوا لها وتحدثوا باسمها؛ فالثوابت عندهم تتحول إلى متغيرات، والمقدسات تُجَرَّد من الحِمى والحرمات، وما كان ضاراً صار ضرورياً، وما كان محرماً مجرَّماً أضحى حلالاً أو واجباً في مسلسل جراءة وتهور لا يُعرف منتهاه.

ü لاءاتهم.. ولاءاتنا:

فبعد أن عشنا دهراً نسمع عن (الإجماع) العربي بلاءاته المشهورة «لا اعتراف.. لا تفاوض.. لا صلح مع الكيان الصهيوني» و... «لا تفريط في شبر... في بوصة... في حبة رمل من الأرض»، و... «لا تنازل عن: عودة اللاجئين... عن إعادة القدس... عن الانسحاب إلي حدود ١٩٦٧م ... عن إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة...»، بعد كل هذا أصبحنا نسمع باسم الواقعية والعقلانية

والمصلحة الوطنية والإقليمية عن طروحات وشعارات في شكل لاءات من قبيل: «لا بديل عن السلام كخيار استراتيجي»... «لا جدوى من المقاومة»... «لا سبيل إلا مائدة التفاوض»... «لا حل عن طريق الحرب»... «لا أوراق إلا بيد أمريكا»... «لا لعسكرة الانتفاضة»... «لا فرار من حتمية التطبيع»... «لا أمل في عمل عربي مشترك»... «لا مجال أمام الفلسطينيين إلا الاعتماد على جهدهم الذاتي»... «لا مشروعية إلا للشرعية الدولية»!

وفي المقابل... نتحدى العلمانيين العرب، أن يكون (العلمانيون) أو المتدينون في دولة اليهود، قد تنازلوا عن (لا) واحدة من لاءاتهم الثابتة منذ قامت تلك الدولة؛ فالإسرائيليون يرفعون لاءاتهم — في السر والعلن، وبلسان الحال أو المقال — فيقولون: «لا عودة لحدود ١٩٦٧م»، «لا تفاوض حول القدس بقسميها عاصمة موحدة وأبدية للدولة الإسرائيلية»، «لا تفكيك للمستوطنات»، «لا رجوع عن يهودية يهودا والسامرة» أي الضفة الغربية. «لا مجال لإعادة اللاجئين»، «لا جلوس ولا تفاوض مع مَنْ يحمل السلاح»، «لا ترسيم للحدود»، «لا تنازل عن بقاء الدولة خالصة لليهود»، «لا وزن لما يسمى بالشرعية الدولية إذا تهددت مصالح الدولة اليهودية»، «لا سماح بدولة فلسطينية إلا منزوعة السلاح مقطعة الأجزاء»، «لا صلح... لا تفاوض.... لا تطبيع... لا اعتراف متبادل، بل لا أمان لزعيم أو نظام إلا بعد التخلي (نهائياً) عن الدخول كطرف في الصراع ضد دولة (إسرائيل)»!

ومع أن اليهود لم يتنازلوا يوماً عن شيء من تلك اللاءات، قولاً أو عملاً، بل حشدوا لأجل حمايتها قواهم الذاتية والمتعدية؛ فإن العرب — في ظل العلمانية المتخاذلة — ساهموا في حفظ لاءات اليهود من أن يمسها ضعف أو انتقاص؛ حيث عطلوا جُل عوامل القوة في الأمة، وأبطلوا كل سلاح كان يمكن لها أن تستعمله للدفاع عن حقوقها المشروعة ديناً وعرفاً وقانوناً؛ فلا الحروب في نظرهم مجدية... ولا المقاطعة أو المقاومة مغنية... ولا الدفاع المشترك أصبح صالحاً.. ولا النفط عاد سلاحاً... ولا دعم المجاهدين صار مباحاً... لا سماح بفتح الحدود، بما يهدد أمن اليهود!

لا، بل إن الأمر لم يعد تبرعاً بشل قوى الأمة وفلّ أسلحتها، بل تجاوز ذلك إلى (دعم) ... نعم! دعم العدو، في كل مجال يمكن أن يُدعم فيه... كالتسابق في دعوتهم لحضور المؤتمرات... وفتح السفارات والقنصليات، ومكاتب تبادل «المصالح» والاستشارات وتعاون الاستخبارات.

ووصل الاستهتار بأمر القضية إلى أن تصبح مثاراً للهزء والضحك في اجتماع قمة الدول العربية؛ حيث استمع العرب والعالم معهم إلى «فيلسوف العرب» في حديث هراء مخرَّف يدين فيه أمجاد الجهاد في فلسطين، ويصف أصحابه السابقين واللاحقين بالغباء مرة، وبالإرهارب أخرى، ويتهم من لا يزالون يخلصون للقضية بالجمود وعدم الواقعية التي أصبحت تفرض القبول بدولة (إسراطين) كجماهيرية شعبية اشتراكية ديمقراطية فلسطينية إسرائيلية يهودية عربية عبرية... عظمى...!

ذلك ما كان في مؤتمر قمة عربية (عادية) في ظروف غير عادية، لم يتسع الوقت فيها ليستمع العـــرب إلى ما اتُّخذ من قرارات وتحركات لمواجهة الاستمرار في بناء الجدار الذي وصل إلى عـــزل مدينـــة القدس عن محيطها، ليستفرد بها اليهود، ولم يكف وقت المؤتمرين لمناقشة ما سوف يفعلون إذا نفـــذ المتطرفون اليهود خطتهم المعلنة باقتحام المسجد الأقصى في وقت قريب. ولم تسنح الفرصة لمناقشـــة كيفية التوحد في المواقف قبل اجتياح سوريا أو استباحة لبنان، وكذا لم يكن هناك وقت لاستصـــدار قرار بالوقوف مع السودان ضد محنة التقسيم، ولا كانت هناك فرصة لمناقشة استحلال (الفـــرس) في إيران للعراق، بعد احتلاله من الأمريكان، إنما كان الهاجس الكبير الذي سيطر على الأجواء قبل وبعد الانعقاد هو التوجه نحو التطبيع (الجماعي) بإجماع طبيعي، يتفق عليه الكل، مع فـــارق (بســـيط) في «الاجتهاد» بين من يرون الدخول فيه قبل حل القضية الفلسطينية، ومن يرون عدم إضاعة الوقـــت، وانتهاز الفرصة عاجلاً، ولو لم تحل القضية.

يراد الآن بكل ما هو شاذ و (غير طبيعي) من الوقائع والمتغيرات الحادثة بسبب العدوان اليهودي على العرب والمسلمين، أن يتحول إلى شيء (طبيعي جداً) في ظل هرولة عجلى طائشـــة، وراء ســـراب التطبيع المخادع، وليت الأمر سيقتصر على المستويات الرسمية، ولكن المقصود به في الأســـاس هـــو الإحاطة بالمحيط الشعبي ليدخل التطبيع بكل سوءاته في جملة مسلَّماته.

- فالعَلَم الإسرائيلي الذي لا يزال يحمل بخطيه الأزرقين حدود التوسع الإسرائيلي ـــ من النيـــل إلى الفرات ـــ سيكون متعيناً على الأجيال بين النهرين أن تراه مرفرفاً على البلدان والمدن الممتدة بينهما، بل ترى بأعينها رمز قبلة اليهود (النجمة الدالة على الهيكل) تتراقص بينهما فوق بنايات الســـفارات، ووسط الأعلام والرايات (الشقيقة والصديقة).

- وسوف يتعين على الأجيال أن يكون شيئاً اعتيادياً لديها، أن تسمع معزوفات التحية العسكرية في الاستقبالات الرسمية، تتخللها الانحناءات والتحيات لذلك العلم وما يحمله، وللشخصيات التي تمثله.

- وستُطالب الأجيال ـــ في ظل ذلك التطبيع ـــ ألا تتحرج من وضع كلمة (إسرائيل) بـــدلاً مـــن (فلسطين) على الخرائط في الكتب والصحف والمجلات وشاشات الفضائيات (١) وغيرها، وسيكون مطلوباً من تلك الأجيال ألا ترى غضاضة وهي تشاهد على الشاشة بعض الساســـة وهـــم يلقـــون الكلمات الودية تحت قبة الكنيست الإسرائيلية، وهي لا تزال تحمل على واجهتها العبـــارة التوراتيـــة (لنسلِك أعطي هذه الأرض، من نهر الفرات الكبير إلى نهر النيل).

- وفي ظل التطبيع سيُنكَر على من ينكرون فتح أبواب الفـــتن الأخلاقيـــة والتحرشـــات الأمنيـــة والتشوهات المنهجية والتضييق على الأحرار وبخاصة الإسلاميين بقصد خنق الصحوة وتحويلـــها إلى غفوة بل كبوة، بعدما تبين أن تلك الصحوة هي الشيء الوحيد الباقي في عالم العـــرب والمســـلمين، الذي يملك (الفعل) ولا يكتفي برد الفعل.

ليس المطروح في مشاريع التطبيع، أن يكون مجرد (مرحلة) من هدنة يقبل بها العرب والمسلمون اضطراراً بسبب ضعفهم (المؤقت) كما يفهم بعض من يُفتون بجواز التطبيع بعد الصلح مع من يجنح إلى السلم، ولكن المطروح أن يكون هذا التطبيع ذا أثر جذري في تغيير العقليات والنفسيات، حتى تقتنع بعد عجزها وكسرها؛ بتفوق العدو واستحالة قهره مع حسن الظن في «تحسن» خلقه واستمالة قلبه من أجل سلام (دائم وشامل).

وهنا أمر هام ينبغي التنبه له عند النظر في الفتاوى والأحكام المتعلقة بمعاهدات الصلح واتفاقيات التطبيع، وهو أن هناك فرقاً جوهرياً، بين أحكام الهدنة والصلح التي تحدَّث عنها الفقهاء والتي يمكن أن يضطر إليها المسلمون مع بقاء الأعداء أعداء، والأولياء أولياء، ومع احتفاظ المسلمين بحقهم في الأخذ بأسباب القوة وحرية الاختيار، والاحتفاظ بالخصائص والثوابت والحقوق؛ وبين هذا المصطلح الغريب الجريء الشاذ البشع الذي لم يقره شرع ولم يعرفه عُرف طوال تاريخ هذه الأمة، وهو مصطلح (التطبيع) مع العدو المغتصب مع بقاء عداوته واستمرار اغتصابه.

إن تسويغ ذلك التوجه باسم الدين أو حتى المصلحة، أمر لا يقول به إلا أخرق أحمق أعمى البصيرة، متفلت العقل والعقال؛ فإذا كان التطبيع المطروح تعميمه يرمي في جملته إلى نزع العداء (من جانب واحد)؛ فإنه يستلزم بداهة نزع السلاح قبل نزع العداء، وخسئ من ادعى أن الله يرضى لنا أن نكون أمة منزوعة السلاح.

من بدهيات الإيمان والأحكام أن تطبيع العلاقة (بمعنى الموالاة والمودة والمحبة وتبادل النصح والنصرة) لا تكون إلا بين المؤمنين؛ فالتطبيع بهذا المعنى مع المؤمنين إيمان، ومع المنافقين نفاق، ومع الظالمين ظلم، ومع الفجار فجور، ومع الكفار كفر... والتطبيع بالمعنى الذي سترد تفاصيله، والذي يجري تفعيله هو في حقيقته ولاية، والولاية لا تجوز إلا لمسلم. قال الله ــ تعالى ــ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [الممتحنة: ١ – ٢]
.

ü عندما يغلب الطبع التطبع... والتطبيع:

باعتبار أن اليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؛ فإن العلاقة معهم ــ كأعداء ــ لا يمكن أن تستوي مع بقية الأعداء، وبخاصة أنهم يجمعون بين طباع الضباع والسباع في خستها ودناءتها، وقسوتها، وهو ما يجعل استقامتهم مستحيلة في التعامل مع البشر؛ فهكذا خُلقوا، وهكذا وُصفوا، وهكذا سيظلون إلى يوم القيامة: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ١٥٥] ، {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} [المائدة: ١٣] ، {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة: ٦٠ - ٦٤] ؛ فهذه أخلاقهم وبخاصة مع المسلمين كما قال ـــ تعالى ـــ: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [المائدة: ٨٢] .

لماذا يطبّعون إذن ما دامت هذه طباعهم..؟ يمكن إرجاع ذلك إلى ما يلي:

- الاستراتيجية اليهودية تقوم على التوسع والسيطرة، بالسلم أو بالحرب، ولما كانت الحرب غير قابلة للاستمرار على الدوام {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ} [المائدة: ٦٤] ، فكان لا بد من صور أخرى لحرب صامتة وساكنة إلى جانب نمط الحرب الصارخة والساخنة، بحيث يظلون في حالة استنفار دائم، يمكّنهم من إرباك وإنهاك الخصوم، مرة بالقتال في الساحات، ومرات بالمراوغة وإضاعة الأوقات في المباحثات والمفاوضات.

- أن الأفعى اليهودية التي تقضم في غضون كل عقد زمني (منذ حرب ١٩٤٨م) قضمة من أراضي المسلمين، تحتاج إلى هضمها بعد قضمها، في فترة من الهدنة أو (الاستراحة) التي تكفي لارتخاء القبضة، وترهل القوة عند (الأغيار) وما يسمح بوقت كافٍ للتجهيز لمرحلة جديدة، يفاجئون بها العرب من جديد، ويقلبون في وجوههم طاولات المفاوضات ـــ كما حدث عام ٢٠٠٠م ـــ وينكثون ما سبق أن أبرموا من عهود وعقود: {أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ١٠٠] .

- نظرية (الحدود الآمنة) التي طرحها (شيمون بيريز) الزعيم الإسرائيلي المبشر بالسلام النووي، في خطته «السلمية» التي عرفت بـــ (الشرق أوسطية) تتلخص فكرتها في ضرورة صهر شعوب المنطقة في هوية جديدة، هي الانتماء إلى الشرق الأوسط بدلاً من الإسلام أو العروبة، فلا يكون الانتماء فيها للديانة أو العرق، بل للمنطقة، حتى يصبح اليهود جزءاً من نسيجها الظاهر، مع احتفاظهم الباطن

بكل خصوصياهم، وحرصهم في الوقت نفسه على تمييع خصوصيات من حولهم، حيث يكون هـذا التمييع هو جوهر التطبيع.

– إذا كانت الحروب الساخنة هي أقصر الطرق للسيطرة على الأرض؛ فإن الحروب الساكنة هي أضمن الطرق للهيمنة والاستحواذ على ما فوق هذه الأرض، والتطبيع ــ على النمط الإسرائيلي ــ هو الوسيلة المثلى في ذلك؛ لأنه يقرِّب من القدرة على الاختراق في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والإعلامية والأمنية.

– اليهود رغم شدة بطشهم عند القدرة، هم قوم جبناء، يسكنهم الرعب الدائم والذعر المزمن الذي ينتاب السرَّاق والمجرمين المطاردين، والتطبيع هو طريقهم الوحيد للتخلص من هذا الكابوس، عندما يوقِّع لهم زعماء المنطقة تباعاً أهم لن يحاربوهم وإنما سيحاربون من يحارهم، ولهذا فإن البنود الأمنية هي أهم بنود كل الاتفاقيات السابقة للتطبيع، وأهم موضوعات المفاوضة والمقايضة في السنوات الأخيرة حتى كادت القضية كلها أن تكون قضية أمنية، لا تتباحث بشأها إلا أجهزة المخابرات.

– مجموعة المفاهيم الإسلامية التي تدفع إلى استمرار روح المدافعة لدى العرب والمسلمين، مثل حب الجهاد والرغبة في الاستشهاد، وافتداء الدين والأرض والعرض.. كل ذلك يؤرق أحلام اليهود، ولا بديل عندهم من محاولة خلخلة تلك المفاهيم، مع السعي لإزالة ما ترسخ في الوجدان العربي والإسلامي من اعتبار اليهود أشد الأعداء، الذين يهددون أقدس المقدسات ويتجاوزون كل المحرمات.

– والعدو دائماً يحتاج إلى آلية، لتوظيف قطار المنافقين بين صفوف المسلمين، واستثمار نشاط المفسدين والجواسيس والخونة، على أيدي عناصر الاختراق التابعة له أو المتعاونة معه، ولا آلية أنسب لذلك من التطبيع.

– وإذا كان تقسيم البلدان العربية المحيطة بإسرائيل هدفاً يطول وقت الوصول إليه، فلا أقل من التعجيل بتقسيم مواقف تلك البلدان، وتجزئة جبهاها، بحيث ينفرد العدو بكل طرف في مسار منفرد، ودهاليز خاصة، محجوب بعضها عن بعض بأسوار من الجدار العازل للثقة، والحاجب للبصيرة، ولهذا تكررت مهازل (الصلح المنفرد) فانفردت السياسة المصرية بعد كامب ديفيد، ثم انفردت منظمة التحرير للوصول إلى أوسلو، وانفردت الأردن لإبرام (وادي عربة)، ثم اشترط الإسرائيليون على السوريين واللبنانيين أن يدخلوا في مسارات منفردة.

– ولعل من أخطر أهداف التطبيع ــ إضافة إلى ما سبق ــ حرص اليهود على إلجاء العناصر الفاعلة في الأمة ــ وعلى رأسهم الإسلاميون ــ إلى التسليم بالعجز، والاقتناع بالانصراف إلى معارك أخرى غير المعركة الكبرى، التي شرع الجميع ــ إلا من رحم الله ــ يتسللون عنها لِواذاً.

لكل هذا وغيره كان التنويع بين الحرب والتطبيع لدى اليهود حلماً فخاطراً فاحتمـالاً، ثم أضـحى حقيقة لا خيالاً، وقد تنوعت أشكال هذا التطبيع، وتعددت من ثَمَّ مخاطره، وأخذت ألواناً سياسـية ودبلوماسية واقتصادية وثقافية وتعليمية وإعلامية وأيضاً... أمنية.

ü وأخطرها: التطبيع السياسي والدبلوماسي:

وهو أخطرها لأنه البوابة الرئيسة التي تلج منها بقية الأنواع؛ فعندما يمارس الكبراء والزعماء التطبيـع تحت سمع الميكروفونات وبصر الكاميرات، فإنهم بذلك يقصون شريط الافتتاح أو يطلقون رصاصـة البدء، وعندها تغدو العقول مشدودة مشدوهة لفهم ما يجري، ثم يتتابع انفراط العقد المنظوم؛ حيـث لا تكتفي الحكومات بأن يقتصر التطبيع عليها، فينحصر العار فيها، بل هي تسـتخدم كـل قواهـا لتصوير التطبيع على أنه (إرادة الأمة) و (مطلب الشعب) و (مصير الجماهير)! وأن معارضـيه مجـرد «زمرة» غير مسؤولة، أو «شرذمة» ذات عقلية غير ناضجة، وتبدأ حملات التعاون الإعلامي والأمني لإثبات أن القرار التاريخي ـــ للزعيم ـــ هو الخيار الاستراتيجي للأمة، وأن هـذا القـرار هـو رأس الحكمة، وعين الصواب، والفراسة التي سبقت عصرها!

إزالة الحواجز ـــ بالتطبيع ـــ تبدأ أولاً على مستوى السياسيين والدبلوماسيين؛ فالتطبيع السياسي يبدأ باتصالات سرية، ثم مصافحات خجولة علنية، ثم لقاءات وجلسات تعقبها مباحثات لإبرام المعاهدات الشاملة لبقية أنواع التطبيع، والبداية دائماً على يد وسطاء مشبوهين، يجمعون بين رأسين في (الحـرام السياسي).

تفيض مذكرات واعترافات من شاركوا في مثل هذه المفاوضـات، أن البدايـة المتعمـدة دائمـاً في اللقاءات، كانت تقصد إلى ما يسمى: (إزالة الحواجز النفسية) أو قل رفع الحياء بين المسؤولين مـن الطرفين، حيث يجلسون سوياً على «مائدة عمل» يتبادلون خلالها الطعام، والكلام والابتسام، وربمـا النكات و (القفشات)، وسط أنخاب (الصداقة) الجديدة الجريئة التي تزيح الرواسب و (العقد) وتريح النفوس من هواجس العداوات (المصطنعة) والأحقاد (التاريخية) التي عفى عليها الزمن! ولا بأس بعـد ذلك من مسامرات وسهرات وزيارات وجلسات ـــ ربما تكون عائلية ـــ مع شيء مـن المباريـات الرياضية، والحفلات الفنية... حتى يتروض المتفاوضون السياسيون (نفسياً) على وضـع طبيعـي، أو تطبيعي، يجعل كلاً منهما (يتفهم) الآخر، ويكون أكثر (ليناً) وأكبر (عقلاً) وأقدر علـى (العطـاء!) (١).

ولا غرابة بعد هذا أن تجد هذا السياسي العربي «المكافح والمناضل»، وقد تذلل لسانه بعبارات مـن قبيل (حق اليهود في الوجود)، (إسرائيل وُجدت لتبقى)، (حتمية الخيار السلمي)، (عقلانية القبـول بالواقع) و (ضرورة الاعتراف بالآخر) ... مع أن هذا «المهذب» سرعان ما يتحول إلى مخلوق آخر،

إذا كان هذا (الآخر) المطلوب الاعتراف به هو الشعب نفسه الذي يعلن معارضته، أو يكـــون هـــذا (الواقع) المراد القبول به هو الضرر الذي يتأكد حصوله.

ü التطبيع الاقتصادي... استراتيجية التسميم:

يعتمدون على دعوى أن العرب استترفوا مواردهم الاقتصادية في النفقات العسكرية خلال حــروبهم (الخاسرة) ضد «إسرائيل»، ولو أنهم استخدموا هذه الطاقات في بناء مجتمعاتهم، لــوفروا للشــعوب الرفاه والاستقرار والأمن، ودعم المنظمات الدولية السياسية الاقتصادية!

كلام يقال لاستثارة غرائز الجشع والأنانية، التي تُجبَل عليها النفس الإنسانية عند ضــعف الإيمـــان، حيث يلهج الأفراد والمجتمعات بعد الفتنة بهذا الدجل، بشعار من وحي الشيطان يقول: (أنا... ومـــن بعدي الطوفان)!

ومع خسة هذا الشعار ودناءته؛ فإن مردديه (الواقعيين) يتعامون عن عدم واقعيتهم؛ فمصر ــ مثلاً ــ التي تخلت عن نهج المواجهة وتكاليف (المجهود الحربي) منذ ربع قرن؛ لم يتحسن أداؤها الاقتصـــادي ولا مستواها المعيشي، بل الجميع يعرف أن الشريحة الأوسع من الشعب المصـــري، وهـــي الطبقـــة المتوسطة اقتصادياً، كادت تختفي ليبرز في الصورة شريحتان هما: الطبقة الفقيرة المعدمة، والطبقة الغنية المتخمة، وهو ما يعكس واقع الأزمات الاقتصادية المتتابعة التي أوصلت معدل البطالـــة إلى ١٠,٥% وإجمالي الديون الخارجية إلى حوالي ٣٠ مليار دولار، والديون الداخلية إلى نحو ٣٠٠ مليـــار جنيـــه، حتى أصبح نصيب كل فرد من الشعب في الديون ٦٦٠٠ جنيه بما أوصل نســـبة الفقـــر إلى ٥٥%، بحسب التقديرات الدولية لحد الفقر، و٢٥% بحسب التقديرات المصرية بعد أن كان مبرمو اتفاقيـــة كامب ديفيد قد وعدوا الشعب بالرفاه والرخاء طبقاً لمشروع (مارشال) الذي وعدت بـــه أمريكـــا، وظروف كل من الأردن وفلسطين ــ في ظل اتفاقات السلام، ليست أفضل مـــن هـــذا؛ فالشـــعب الفلسطيني في ظل (أوسلو) لم يزدد إلا معاناة وعوزاً، بالرغم من أن الوعود كانت تأتيـــه بتحويـــل أراضي السلطة إلى سويسرا الشرق!

ولقناعة الأمريكيين بأن سياسات التطبيع الاقتصادي ــ في ظل الجشع الإســـرائيلي ــ ســـتؤدي إلى نتائج محرجة؛ فقد تعهدوا مبكراً بتقديم «مساعدات»، مالية، هي في حقيقتها مقايضـــات سياســـية، لتجميل قبح المقايضة من ناحية، ولتطويل عمر الصفقة من جهة أخرى، حيـــث إن قـــبح المقايضـــة مخيف، وثمنها فادح، فعلى المصريين في مقابل تقاضي ٢ مليار دولار سنوياً، أن يظلوا «متمســـكين» بالتخلي عن فلسطين وما قد يلحق بها، فلا يمدون يداً للمساعدة إلا علـــى المســـتوى الدبلوماســـي والسياسي و... الأمني!

إضافة إلى أن ما يأخذه المصريون باليد اليمنى، تسرقه (إسرائيل) باليد اليسرى، على شكل تسهيلات وضمانات واحتكارات اقتصادية، لعل أخطرها وأقذرها احتكار بترول سيناء؛ حيث تحتكر (إسرائيل)

بمقتضى كامب ديفيد ٨٠% من وارداته ولمدة ٥٠ سنة منها، وبثلث السعر العالمي، وهو المادة التي لا يمكن بدونها تشغيل الطائرات ولا الدبابات ولا الغواصات، بل ولا المحطات النووية الإسرائيلية.

ومن جانب آخر فإن ما يتقاضاه المصريون مقابل الالتزام بأن تكون حرب أكتوبر ١٩٧٣م هي آخر الحروب مع إسرائيل، تتقاضى (إسرائيل) أكثر منه دون أن تلتزم بأن تكون أي حرب هي آخر الحروب مع العرب؛ فهي تتقاضى أيضاً ٣ مليارات دولار سنوياً، مكافأة على «التزامها» بعدم العدوان العسكري على مصر (فقط). في حين أنها تتقاضى لتوسيع العدوان على بقية جيرانها وجيران جيرانها ما لا يقل عن عشرات المليارات، فبين عامي ١٩٧٦م وحتى عام ٢٠٠٠م بلغت المنح الأمريكية للدولة اليهودية أكثر من ٩٠ مليار دولار، هذا بخلاف القروض المسهلة والمؤجلة والملغاة السداد.

وبمناسبة اتفاقية كامب ديفيد (السياسية) المنعقدة عام ١٩٧٩م، فهناك «كامب ديفيد» أخرى اقتصادية، أبرمت بين مصر وإسرائيل في (عام الذبح) الفلسطيني ٢٠٠٤م، وهي اتفاقية (الكويز) التي تعني اختصاراً: (المناطق الاقتصادية المؤهلة)، وهذه الاتفاقية تعد اختراقاً إسرائيلياً جديداً، للاقتصاد العربي ـــ بإخراج أمريكي ـــ عبر البوابة المصرية، وهي تهدف إلى تحقيق الغاية التي عجزت عنها سياسات التطبيع في معاهدات السنوات الماضية، وهي: إدماج (إسرائيل) في المحيط العربي الشعبي الرافض لها.

وتعد هذه الاتفاقية هي باكورة إنتاج مشروع (الشرق الأوسط الكبير) أو (الشرق الأوسع) الذي أطلقه جورج بوش، وهي تطبيق لبعض أفكار شيمون بيريز في مشروعه (الشرق الأوسط الجديد) الذي صدر في كتاب له بنفس الاسم عندما كان رئيساً للوزارة الإسرائيلية، وهنا تلاقت أفكار الهيمنة والصهينة الأمريكية الإسرائيلية، الهادفة في النهاية إلى تفكيك المنطقة العربية ثم إعادة تركيبها وفقاً للمصالح اليهودية والصليبية، وقد وقع الاختيار على مصر في (كامب ديفيد الاقتصادية) كما وقع الاختيار عليها في كامب ديفيد السياسية لتكون البداية منها باعتبارها (الشقيقة الكبرى) التي «تقلدها» أخواتها الأخريات ولو بعد فترة من المعاكسات والمشاكسات.

الاتفاقية ظاهرها تأهيل الصناعات المصرية (وبخاصة صناعة النسيج) لتكون قادرة على المنافسة مع السوق الأمريكي، ولكن هذا التأهيل ـــ ولاحظ الخبث ـــ يحتاج إلى أن يكون داخل هذه الصناعة مكوِّن إسرائيلي بنسبة ١١,٧% ومكوّن أمريكي بنسبة ١٥%، وهو ما يعني أن تكون لهم شراكة مباشرة في صناعة النسيج المصري كبداية، حيث ستكون تلك الاتفاقية بداية لاتفاقيات شبيهة في صناعات أخرى؛ ووفقاً لهذه الاتفاقية ستدخل (إسرائيل) كعنصر أساس من عناصر تشغيل العديد من المصانع المصرية حيث سيستجيب الكثيرون بدوافع مختلفة؛ فأي دعوة مهما كانت شيطانية وإجرامية، ستجد من يستجيب لها، ثم يبحث عن مسوغاتها، وقد كشف رئيس اتحاد الصناعات الإسرائيلي في

بداية شهر مارس ٢٠٠٥م، أن أكثر من ٤٠٠ مصنع مصري في مجالات الأنسجة والمعادن والجلــود والأغذية قدمت طلبات لإقامة خطوط إنتاج مشتركة مع مصانع إسرائيلية في منطقة التجارة المصــرية الإسرائيلية المشتركة، وقال المسؤول الإسرائيلي إنه من المتوقع أن ينمو حجم التصدير الإسرائيلي إلى مصر ليبلغ ١٠٠ مليون دولار سنوياً، وأنه سوف يتضاعف ليصل إلي مبلغ ٢٠٠ مليون بعــد أربــع سنوات، وكثير من الدول العربية مرشحة للحاق بهذا الركب، وهو أمر لم يعد غريباً بعد أن بلغــت قيمة التعامل الاقتصادي السري والعلني بين (إسرائيل) وبعض الدول العربية ما قيمتــه ١٩٤ مليــون دولار، رغم قرارات المقاطعة العربية، وهو ما يعني أن هذه الاتفاقية ستكون بداية للقضاء علــى مــا كان يسمى بــ (استراتيجية المقاطعة العربية) مثلما قضت اتفاقية كامب ديفيد على ما كان يســمى بــ (استراتيجية الدفاع العربي المشترك)، وهو ما يقدم خدمة مجانية لدولة اليهود، ترفع عن كاهلــها كابوس المقاطعة التي كبدتها بين عامي ١٩٤٨م إلى ٢٠٠٤م، ما يقرب من مائة مليار دولار. والخدمة الأكبر التي تقدمها هذه الاتفاقية لــ (إسرائيل) هي أنها ستدعو بقية الدول إلى الاستعلان بالتطبيع بعد أن كانت

تستخفي به، وهو ما أعلنه (إيهود ألمرت) وزير التجارة الإسرائيلي بعد توقيع الاتفاقية. ومن الطبيعي أن تستهدف (إسرائيل) إضافة إلى ترويج سلعها في السوق العربية بهذه الاتفاقيــة؛ تحطــيم البــدائل الوطنية، حتى لا يجد المنادون بتلك البدائل عن المنتجات الأمريكية والإسرائيلية ما يشــجعهم علــى الاستمرار في دعوات المقاطعة، إضافة إلى ما ينتظر من انسحاب الدول المنضمة إلى اتفاقية الكويز من اتفاقية المقاطعة العربية لــ (إسرائيل)، مثلما فعلت الأردن التي أعلنت انسحابها بعد التوقيــع علــى الاتفاقية نفسها قبل مصر، ويذكر هنا أن اتفاقية الكويز أو (الكامبويز) لا تقتصــر علــى التطبيــع الاقتصادي، بل تتوسع إلى ما تبقى من مساحات لم يملأها التطبيع السياسي والثقافي.

والعجيب أنها جاءت بعد أربع سنوات من الإذلال السياسي للعرب جميعاً مشخصاً في الفلســطينيين؛ حيث لم يستطع العرب أن يفعلوا شيئاً لشعب ظل هدفاً للرماية المسعورة في عملية اجتياح مجنونــة، ختمت بقتل ثلاثة من الرموز التي بقيت غصة في حلوق الإسرائيليين وهم: الشــيخ أحمــد ياســين، والدكتور عبد العزيز الرنتيسي والرئيس ياسر عرفات، وجاءت بعد ثلاثة استباحات لساحات عربية وإسلامية، وهي فلسطين وأفغانستان والعراق، وجاءت بالتزامن مع برهنة (إسرائيل) على «احترامها» لكامب ديفيد السياسية، بإطلاق نيران دبابة إسرائيلية عمداً لقتل ثلاثة جنود مصريين في رفح داخــل الحدود المصرية.

ü التطبيع الثقافي واقتحام المحرمات:

قد يقلل بعضهم من خطر التطبيع الثقافي وعدم جدواه في المنظور القريب، نظراً لمســتوى الطمــوح الجامح الذي يتطلع إليه الإسرائيليون من خلال تطبيق أفكار ذلك التطبيع، وهذا صحيح إذا نظرنــا

لفردية التحرك الإسرائيلي في هذا الجانب، ولكن الهجمة الأمريكية الأخيرة التي أصبحت رديفاً للمخططات الإسرائيلية في كل مجالاتها، أعطت هذا الأمر بُعداً أخطر؛ حيث أفصحت تفاصيل تلك الهجمة عن استهداف صريح للخصوصيات الثقافية للأمة باسم الحرب علي الإرهاب، وهي الحرب التي تتضمن في جانب كبير منها ما أسموه (التصدي لثقافة الإرهاب)! وهذه الثقافة (الإرهابية) كما يزعمون، لا تعني في الحقيقة إلا التوجهات الداعية للرجوع بالأمة إلى ثوابتها المأخوذة من منهج السلف، ولهذا فإن (التوجه المنهجي السلفي) يأتي الآن في مقدمة التوجهات التي تستهدفها الحملة الأمريكية، مرة بذريعة (التشدد الحنبلي) وتارة تحت وصف (التطرف الوهابي) ومرات أخرى باسم (الأصولية الإسلامية). فالحملة ليست قاصرة على محاربة العنف فقط، ولهذا فإن المتوقع هو أن تركز حملات التطبيع الثقافي في الحاضر والمستقبل القريب على محاربة مرتكزات التوجه المنهجي السلفي، بوجه عام لأنه يعكس هوية الأمة، إضافة إلى أنه أصبح خط الدفاع الأول عن ثوابتها، والرافد الأساس لما يمكن أن يسمى بـ (ثقافة المقاومة) في كل المجالات والساحات المستباحة في العالم الإسلامي، حيث أصبح (أهل السنة)، هم الفصيل الوحيد الفاعل في مواجهة الهجمة الصهيونية المشتركة بين أمريكا وإسرائيل وحلفائهما.

يدل على ذلك دلالة لا تقبل الشك، ما تضمنه مشروع (الإسلام المدني الديمقراطي) الهادف في جوهره إلى إلجاء المنهج السني السلفي إلى أضيق الطرق، لإفساح المجال للبديل (الروحي) للشعوب، ممثلاً في التصوف والتشيع و (الاستنارة)!

والعجيب هنا، أن الأمريكيين الذين لا أصل لهم ولا تاريخ، يطالبوننا ـــ لصالح اليهود ـــ بالتخلي عن أصولنا الأصيلة اللاصقة بهويتنا وحضارتنا، والأعجب منه: أنهم يتجاوزون في الوقت نفسه عن تنامي المد (الأصولي) اليهودي في (إسرائيل)؛ حيث تقوم دعائم هذا الكيان على منهجية ثقافية عقائدية عنصرية تعود إلى ما قبل ألفي عام، ولا تجد من يطالبها بتغيير المناهج ولا تعديل الأفكار ولا الاقتراب من قيم التسامح والعدالة وقبول الآخر، ثم إنك تعجب ـــ مرة ثالثة ـــ من التطبيعيين العرب الذين لا يستحي أجلافهم من المطالبة بـ (نسيان الماضي) في تراثنا، ويلمزون هذا التراث بجملته بـ (الماضوية) و (الظلامية) في حين أنهم يتعامون عن تشبث أصدقائهم الطبيعيين من الإسرائيليين بإحياء موروثاتهم الثقافية المثبتة لدعواهم التي يطلقون عليها: (الحق التاريخي)، وهذا (الإحياء) يتضمن إعادة الاعتبار لكل ما هو عبري يهودي، ونزعه من كل ما هو عربي إسلامي، كنزع اسم فلسطين ليوضع مكانها (إسرائيل) ونزع اسم (القدس) ليوضع (أورشليم) ووضع اسم (يهودا والسامرة) بدلاً من الضفة الغربية لنهر الأردن، وإعادة تسمية المدن والقرى والآثار بأسماء عبرية. وحتى المساجد والمعابد التاريخية يجري التغيير في اسمها ورسمها لمحو رمزيتها الثقافية والحضارية، فيتحول (المسجد الأقصى) إلى (جبل الهيكل) بكل ما يعنيه ذلك من توجهات خطيرة تهدف إلى تنفيذ أكبر عملية سطو حضاري

يتطلع إليه الإسرائيليون، لتغيب هذه الرمزية الثقافية والدينية الأكبر التي تربط العرب والمسلمين بفلسطين، وذلك من خلال ذلك المشروع الشيطاني المعاند لمسيرة التاريخ، والمتعلق بمخطط هدم المسجد الأقصى لبناء (الهيكل الثالث) مكانه؛ حيث يراد أن يقام هذا البناء العبري ليزيل التاريخ العربي الإسلامي بأكمله عن فلسطين، حتى تنشأ أجيال تقول: كان هنا فلسطين... كانت هنا القدس! كان هنا الأقصى، مثلما نقول نحن الآن ونحن ننظر إلى

خريطة جنوب غرب أوروبا ونقول: كانت هنا الأندلس.. كانت هنا إشبيلية.. كانت هنا غرناطة... كانت هناك دولة خلافة أموية... قبل الخلافة العثمانية، التي (كانت) في جنوب شرق أوروبا!

كل يوم يمر، يثبت لأعداء الأمة أن الإسلام هو سر ما تبقى من قوتها، بما تبقى من التمسك به؛ ولهذا فإن المعركة بمرور الأيام تتمحض مع ما يمثله هذا الإسلام من منهاج وثقافة ورموز وأتباع. يقول الكاتب الإسرائيلي (ألوف هارايفين): «هناك عقبات صعبة أمام التطبيع، وأهمها الموقف الثقافي والعقائدي للإسلام والعروبة تجاه (إسرائيل) واليهود، والحل يستدعي الاعتماد والارتكاز على ضرورة وجود برامج مركزة في المجال التعليمي والثقافي، بهدف تفتيت الملامح السلبية للموقف تجاه الآخر، وأحد الأسس الحيوية لبرنامج كهذا هو الرصد الشامل والتغيير العميق لبرامج ومناهج التعليم».

إن هذه المهمات التي يراها أعداؤنا (عقبات صعبة) يتبرع التطبيعيون بتسهيلها وتذليلها في معاهدات رسمية، تتحول مع الوقت إلى جزء من النظام العربي و (الشرعية الدولية).

ومثلما نصت معاهدة كامب ديفيد على رعاية الجانب الثقافي في التطبيع؛ فقد جاءت اتفاقية (وادي عربة) على الطبيعة نفسها، بل زادت في التفصيل، حيث نصت في المادة العاشرة على أوجه من التطبيع الثقافي، فقالت:

- «انطلاقاً من رغبة الطرفين في إزالة كافة حالات التمييز التي تراكمت عبر فترات الصراع؛ فإنهما يعترفان بضرورة التبادل الثقافي والعلمي في كافة الحقول، ويتفقان على إقامة علاقات ثقافية طبيعية بينهما».

- وجاء في المادة الحادية عشرة: «يسعى الطرفان إلى تعزيز التفاهم المتبادل فيما بينهما والتسامح القائم على ما لديهما من القيم «التاريخية» المشتركة، وبموجب ذلك فإنهما يتعهدان بما يلي:

أ - الامتناع عن القيام ببث الدعايات المعادية القائمة على التعصب والتمييز، واتخاذ كافة الإجراءات القانونية والإدارية الممكنة التي من شأنها منع انتشار مثل هذه الدعايات؛ وذلك من قِبَل أي تنظيم أو فرد موجود في المناطق التابعة لأي منها.

ب - القيام بأسرع وقت ممكن بإلغاء كافة ما من شأنه الإشارة إلى الجوانب المعادية، وتلك التي تعكس التعصب والتمييز، والعبادرات العدائية في نصوص «التشريعات» الخاصة بكل منهما.

ج - أن يمتنعا عن مثل هذه الإشارات أو التعبيرات في كافة المطبوعات الحكومية.

ü التطبيع الاجتماعي... قاع الضياع:

فالضياع في هذا المجال من التطبيع، هو هدف بحد ذاته؛ حيث لا يطمع الإسرائيليون ـــ وقد لا يريدون ـــ أن تذوب الحواجز الاجتماعية بينهم وبين (الجوييم) أو (العامة) أو (الكوفريم) ـــ يعني الأغيار الكفار ـــ ولكن لما كان من دأب اليهود على مر التاريخ أن يستخدموا سلاح (الفساد الأخلاقي) ضد (الغرباء)؛ فقد كان متوقعاً منهم ـــ إذا فتحت لهم الأبواب ـــ أن يسارعوا إلى إغراق الأجواء العربية الاجتماعية بكل ألوان الإفساد، وبخاصة الإفساد الموجه لشريحة الشباب، وتشهد المناطق التي فتحت السياحة فيها للإسرائيليين كيف أن اليهود استغلوا هذا الجانب في دفع الشباب إلى أوجه متعددة من الانحراف الذي قد يصل إلى حد التجنيد للعمالة أو الجاسوسية أو القوادة، وقد سهلت تشريعات التطبيع هذه المهمة بالسماح باقتران اليهوديات المشبوهات من شباب العرب والمسلمين؛ حيث وصل عدد الزيجات المختلطة ـــ على الجانب المصري في ظل كامب ديفيد ـــ إلى واحد وعشرين ألف حالة..! هذا عدا عما يمكن أن يقام من علاقات ـــ خارج القانون ـــ بسبب الانفتاح السياحي الإباحي في المنتجعات والشواطئ والملاهي.

– و لم يخلُ الأمر من إفساد الأجواء الصحية إلى جانب إفساد الأجواء الأخلاقية؛ فهناك موجة من انتشار الأمراض الناشئة عن الانحلال الخلفي والممارسات المحرمة، إلى جانب إغراق الأسواق بأشكال وأنواع من المخدرات التي أصبحت في متناول الفقراء قبل الأغنياء، في ظاهرة لم يعرفها الشعب في مصر إلا بعد تمكين اليهود من ممارسة مهمتهم (الطبيعية) في إفساد الأجيال، كما دلت عليها بروتوكولاتهم المعاصرة التي تبرمج لتطبيق معتقداتهم وتصوراتهم القديمة في طرق إخضاع الأعداء.

ومن ضمن ما يستهدفه اليهود من وراء التطبيع الاجتماعي، أن يجدوا مدخلاً إلى وضع حد لظاهرة (الانفجار السكاني) كما تطلق عليه وسائل الإعلام العربية نفسها؛ حيث يعتقد الإسرائيليون أن هذا التوسع السكاني هو القنبلة الموقوتة التي تهدد وجودهم برمته ـــ وبخاصة في فلسطين ـــ التي بارك الله في نسلها كما بارك في أرضها، فيعمد الإسرائيليون إلى فعل ما يستطيعون لتقليل هذا النسل، إما بالترويج لوسائل تحديد النسل ـــ من خلال عملائهم التطبيعيين ـــ أو من خلال وسائل نشر أمراض التناسل، أو إيقافه بوسائل من التعقيم المباشر ـــ بإشراف أوساط طبية مشبوهة، أو أدوية مانعة مغشوشة. وقد وصل الأمر في الأراضي الفلسطينية المحتلة ـــ كما يقول (عبد العزيز شاهين) وزير الصحة الفلسطيني السابق، إلى حد ترويج أنواع من علكة اللبان، التي تؤدي إلى العقم، حيث اكتشفتها السلطات الفلسطينية وصادرت منها ـــ كما يقول الوزير ـــ نحو عشرين طناً!

ü هراوات لا تخيف الأمة... وهرولات لا تُلزمها:

من مفارقات زمن الوهن الذي نعيشه، أن الهرولة العربية كانت تسوقها دائماً هراوة أمريكية في كل مرة تسارع فيها الأنظمة صوب عدوها، وقد اقترن التطبيع باسم أمريكا في كل مراحله السابقة بدءاً

من كامب ديفيد الأولى وحتى شرم الشيخ الأخيرة، فقد درجت الولايات المتحدة على أنها كلما صُفع العرب صفعة حرب، أتبعتها بصفقة سلام حقيقته استسلام، هكذا فعلت بعد حرب أكتوبر والثغرة وفك الارتباط (كامب ديفيد) وبعد حرب لبنان (اتفاق ١٧ مايو) وبعد حرب الخليج الثانية (مؤتمر مدريد ثم أوسلو ثم وادي عربة). وها هي بعد حرب الخليج الثالثة تطمع بالتنسيق مع (إسرائيل)، في حشد بقية الدول العربية وحشرها في سلك السلام... سلام (إسرائيل).

وقد اتضح بعد غزو العراق أن أمن (إسرائيل) كان يشغل أكبر هواجس أمريكا؛ حيث شرعت بعده مباشرة في الحديث عن مشروع الشرق الأوسط الكبير، الذي يهدف إلى جعل إسرائيل جزءاً من المنطقة، ليتطابق ذلك مع مشروع الشرق أوسطية لبيريز، ولتتحول هذه المنطقة الشاسعة المحيطة بـ (إسرائيل) بعد تطويقها وتطبيعها، إلى فِناء فارغ لفضاء آمن، ولهذا سارعت أمريكا بشكل متسرع إلى الدعوة إلى برامج جديدة للتغيير» و «الإصلاح» الأمريكي الذي يستهدف إضعاف ما تبقى من مناعة الأمة ضد أي اختراق ثقافي أو حضاري أو سياسي أو اقتصادي.

لا نبالغ إن قلنا إن الوجه المدني من الحرب الأمريكية على ما تسميه بـ (الإرهاب) هو في حقيقته نوع من تطبيع الهزيمة، وفرض التعايش السلمي معها، لا بحسابات السنين والأعوام، ولكن بحسابات الأحقاب والأجيال، ولهذا سارع شارون ببسط يده الحمراء ليضعها في يد بوش الغبراء، مبايعاً إياه على النصرة والشراكة في تلك الحرب المصيرية الشاملة.

أما الشعوب العربية والإسلامية في وسط كل هذا؛ فهي غير معنية ــ إذا خُيِّرت ــ بذلك التطبيع، ولو أجريت استفتاءات محايدة لتبين أن جُل الأمة تلعن كل سياسة تقرب من اليهود باعاً أو ذراعاً، في أي مجال من المجالات، وهنا ندرك عمق الهوة بين هوية الأمة وأهواء كثير من حكامها. ولكن نستطيع أن نقول: إن تلك الأهواء مهما كان وراءها من دوافع ترغيب أو ترهيب، فإنها لا تلزم الشعوب؛ حيث إنه من الممكن أن تصمد تلك الشعوب أمام الترهيب وترغب عن الترغيب، لأنها تملك مساحة أوسع للتحرك، وحرية أكبر في القبول أو الرفض؛ ولذلك فإن استراتيجية المقاطعة التي تقاطعها الأنظمة الآن تباعاً، يمكن أن تُبقي عليها الشعوب وتفعِّلها في جميع أوجهها الثقافية والاقتصادية والتعليمية والإعلامية لتهزم التطبيع وتحول دون تطبيع الهزيمة، وبخاصة إذا كان في طليعة مقاومة الهزيمة ومقاطعة التطبيع وجهاءُ الأمة وعلماؤها ورموز الدعوة والحركة فيها على أن تكون لهم منطلقاتهم وبرامجهم ووسائلهم الواضحة، ونقترح منها ما يلي:

- نفض اليد من قيام الجهات الرسمية العربية بدور فاعل في مناهضة التطبيع، والاعتماد ــ بعد الله تعالى ــ على استنهاض أخص خصائص الأمة الخيرية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للوقوف في وجه هذا المنكر المتعدد الوجوه: التطبيع.

- تأصيل أبعاد التصدي للتطبيع على أسس شرعية، مستخرجة من محكمات الكتاب والسنة، واستحداث الدراسات والفتاوى في ذلك، حتى لا تبقى الأمور المتعلقة بالتطبيع مجرد «حريات شخصية» أو «أذواق فردية».

- استخدام ذلك في إيجاد جبهة ــ وليس لجنة ــ لمقاومة التطبيع، تضع أسساً لمدافعته، كما يضع أصحاب التطبيع في المقابل الاستراتيجيات لنشره وتقويته.

- إبراز الآثار الوخيمة العاجلة والآجلة للتطبيع، من خلال لجان لرصدها، والتعاون مع المنظمات والهيئات الشعبية في ذلك، لإظهار آفات التطبيع ونتائجها الملموسة والمحسوسة في البلدان التي بليت بها.

- استغلال وسائل الإعلام الأوسع انتشاراً، والأقوى أثراً ــ وعلى رأسها المساجد ــ للتذكير بهذا البُعد المهمل من المعركة مع اليهود في حربهم الصامتة ضدنا، وإبقاء جرائمهم التاريخية ــ القديمة والمعاصرة ــ حاضرة في الذاكرة وبارزة في الأذهان.

- من الأسلحة الأمضى في مقاومة مشاريع التطبيع دعم مشاريع المقاومة؛ فهناك ارتباط وثيق بين ضعف المقاومة وزيادة الإقبال على التطبيع ــ رسمياً أو شعبياً ــ والعكس صحيح.

- إذا كانت المقاطعة سلاحاً قوياً في وجه أصحاب مشاريع التطبيع، فإنها ينبغي أن تكون السلاح الأقوى في مقاطعة الداعين والداعمين له، باعتبارهم مناصرين للعدو، ومؤيدين لتطبيع الهزيمة أمامه.

وأخيراً.. فلعل السؤال الذي يتكرر كثيراً عند طرح الكلام عن الأخطار والمؤامرات، مجسداً في عبارة: (ما دورنا نحن)؟ يجد الإجابة أو شيئاً من الإجابة في ثنايا هذه المقترحات وغيرها، لعلنا حقاً نكون معاً.. لهزيمة التطبيع.. لا لتطبيع الهزيمة.

جيل الصحوة بين الهزيمة والانطلاق

(١ - ٢)

- ضيوف الندوة:

- فضيلة الأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر: المشرف على موقع المسلم على الشبكة العالمية.

- فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: الأستاذ بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

- فضيلة الدكتور عبد الله الصبيح: الأستاذ بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

مرت بالأمة الإسلامية في فترة من الفترات هزائم وانكسارات متعددة الجوانب، سواء أكان ذلك على المستوى العسكري أم على المستوى السياسي أم على المستوى العقدي والفكري والاجتماعي، إلى

نحو ذلك من ألوان الهزيمة التي حصلت بعد سقوط الدولة العثمانية، ودخول الاستعمار إلى البلاد الإسلامية. ثم بدأ الناس يتطلعون إلى النهضة العربية، أو النهضة الإسلامية، وبرزت في تلك الفترة — وخاصة في البلاد العربية — مجموعة من التيارات الفكرية، ابتداءً بالاتجاهات الشيوعية واليسارية، ومروراً بالشعارات العروبية والقومية والوطنية وغيرها من الشعارات التي ضجت بها الساحة العربية، خصوصاً في فترة الخمسينيات والستينيات والسبعينيات الميلادية من القرن الماضي. ومع قوة هذه الشعارات الثورية حصلت الهزائم والانكسارات أيضاً مرة أخرى، ووجد الناس أن تلك الشعارات، وتلك الأحزاب العروبية، والقومية لم تخرجهم من مأزق إلا أدخلتهم في مأزق أشد منه، وفي هذه الأجواء تنامت الصحوة الإسلامية، وكان لها أثر كبير جداً في إعادة العزة للناس من جديد، وإعادة الثقة بالدين، وبجذور الأمة العقدية والفكرية.

وأنجزت الصحوة الإسلامية، على الرغم من المضايقات الكثيرة التي مرت بها، إنجازات متعددة الجوانب، حتى أصبحت ملء السمع والبصر.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر صار هناك حضور أقوى للصوت الإسلامي، وأخذت الهجمة الغربية طوراً جديداً في الهجوم على المسلمين، وجعلت الخصم الأساس للغرب هو الإسلام، وعلى وجه التحديد تيار الصحوة الإسلامية بمدارسه المختلفة. وفي هذه الأثناء أيضاً حصل شيء من الانهزام النسبي عند بعض الإسلاميين على المستوى العقدي والثقافي، وحصلت اجتهادات ومراجعات، قد يسميها أناس هزيمة، وقد يسميها آخرون إعادة بناء للفكر الإسلامي، وإعادة نظر في المسلّمات الإسلامية، وظهرت أطروحات متعددة ومتباينة تحاول قدر الإمكان أن تتقاطع أو تتعايش أو تتقارب مع بعض الأطروحات الغربية.

وبدأ بعض الإسلاميين يقدم الفكر الإسلامي بصورة المدافع، وليس بصورة الإنسان المعتز بالدين والمعتز بالقيم، وبالثوابت الشرعية، وبدأ بعض الناس يتساءلون: هل هناك حقيقة هزيمة نفسية في جيل الصحوة أم أن هذه الأطاريح ما هي إلا بناء من جديد لطريقة التفكير ولطريقة التعايش مع الواقع الذي تمر به الأمة الإسلامية؟ وهل وصلت هذه الهزيمة إلى مستوى الظاهرة في أوساط الإسلاميين، وما ملامح هذه الهزيمة؟! وكيف نستطيع إعادة التوازن من جديد لبناء الصحوة الإسلامية؟!

هذا هو مجال حديثنا في هذه الندوة المباركة:

ونبدأ بالسؤال المباشر: هل نحن أمام هزيمة نفسية في جيل الصحوة..؟

– د. عبد الرحمن الزنيدي: حقيقةً أن العنوان هذا — الهزيمة النفسية — يحدث اهتزازاً لدى الإنسان، أنا سأبني حديثي عن هذه النقطة على تصوري للهزيمة النفسية، حاولت أن أوجد مسارات تتمثل بها الهزيمة النفسية إذا أخذناها بمفهومها هزيمة نفسية.

الهزيمة النفسية: هي شعور بعدم القدرة على الفعل لدى من يستطيع أن يفعل، وإذا كان لا يستطيع أن يفعل فهو شعور خاطئ.

الهزيمة النفسية: هي يأس من إمكانية أي عمل إيجابي.

الهزيمة النفسية: هي التخلي عن الأهداف التي كان يتبناها، وربما تبني ما يقابلها.

الهزيمة النفسية: هي انكفاء على الذات، وتخوف من الآخر.

الهزيمة النفسية: هي حالة ذل، حالة استكانة، تجعل الإنسان لا يرفع رأسه، ولا يطيق أحياناً حتى نفسه، يعني حالة إحباط يتولد من خجل، من كسل، وأحياناً من شعور بالجرم إزاء وضع يحيط به.

كما نعلم أن أبرز صورة راجت في الاتجاه الثقافي عند المسلمين في العصر الحاضر عن الهزيمة النفسية هي التي التصقت بالمدرسة التي سميت العقلانية، أو المدرسة العصرانية، ونحوها من التسميات، والتي كانت هي أول حركات التفاعل الفكري مع الغرب، والتي هي نتاج مجموعة من الناس، أبناء لأمة وعت نفسها على أمة أخرى: أمة ضعيفة متخلفة فوضوية، التقت بأمة حضارية متقدمة مدنية متطلعة استعمارياً؛ فحصل عندهم هذا الاهتزاز.

اهتزار نفسي ولّد مواقف هي مظاهر الهزيمة النفسية التي كان من أبرزها انعكاس في القضية لديهم؛ فالأصل أن الإسلام (القرآن والسنة) ابتداءً هو الذي يوجه الفكر ليحكم الأشياء، فصارت القضية معكوسة؛ وصارت الرؤية الغربية والحضارة الغربية هي التي توجه فكره ليأتي بعد ذلك بالقرآن والسنة، فيحاول حلحلتها، وجعلها تتفق معها.

طبعاً ما زالت الهزيمة النفسية موجودة، لكن الهزيمة التي أقصد أنها موجودة هي الهزيمة النفسية لدى بقايا فلول مَنْ يُسمَّوْن بمفكري التغريب ونحوهم، ولهم صور ربما نشير إليهم بعد ذلك كمحيط موجود الآن يلابس الصحوة، ويحاول أن يوجه مسارها بقدر الاستطاعة. هذه الهزيمة النفسية بهذه الصورة التي يمكن أن نقول: إنها تمثل حالة إحباط، أو حالة اجتلاب للآخر، أو قابلية الاستعمار، أو نحوها من التسميات.

البيان : عفواً د. عبد الرحمن! إذن أنت تؤكد أن هذه الهزيمة النفسية موجودة في أوساط الصحوة الإسلامية، كما أنها موجودة في أوساط العامة.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: لا، لم آتِ بعدُ على ذلك؛ لم أُجب عن السؤال، أردت أن أنظّر للقضية لأجيب بناءً على تنظيرها.

جوابي: هو أن الهزيمة النفسية بالمفهوم الذي ذكرته، وبصوره التي سردتها غير موجودة إطلاقاً في أوساط الصحوة، لا لدى القادة، ولا لدى الأفراد، هناك موقف شامل في أوساط الصحوة الإسلامية إيماناً بالإسلام بصفته منجياً عند الله ــ سبحانه ــ ومحققاً للنهوض، ويقيناً بهزيمة ما سواه، وقناعة بالأدلة، فضلاً عن الدليل الإيماني الأصل الذي يأخذ الإنسان منه دليله، دليل واقع يشهد بهذا، وهو

هزيمة جميع الأطروحات التي قدمت في العالم الإسلامي كله مستبعدةً الإسلام. فهناك إيمان بأن الإسلام مشروع إصلاح، وهناك إحساس في أوساط الصحوة الإسلامية بأن المسلمين الآن رغم العوائق والعثرات يتجهون للإسلام. هناك شعور أن هذه العقبات دليل على إدراك هذه الحقائق من قِبَل الأعداء. يعني أن الأعداء الذين يضعون العقبات في وجه أوساط الصحوة يدركون أنها صحوة حضارية مستهدفة، وحركة أو اتجاه استقلالي، ومن ثم بروز حضاري، ونحو ذلك.

ومثل هذه الوضعيات النفسية لا يمكن أن توجِد نفسية مهزومة. يمكن أن أقول ـــ حتى لا تكون القضية مصادرة ابتداء ـــ: إن هناك حالة أخرى ليست هزيمة لا اصطلاحاً ولا مضموناً، يمكن أن أسميها: حالة ارتباك فكري في الصحوة الإسلامية، وبالذات لدى بعض الرواد ـــ رواد الصحوة الإسلامية ـــ هذا الارتباك الفكري نتيجة حالة عامة يعيشيها هؤلاء الرواد، هناك شعور بضخامة المسؤولية في ظل الظروف التي يعيشونها، والتي لم تعد مسؤولية تربوية كما كانت في السابق، بل أصبحت مسؤولية سياسية، بل مسؤولية عالمية. هناك انفتاح على العالم في دائرة الصحوة الإسلامية، وانتقال من طور الانكفاء على الذات إلى طور المداخلة في الحياة: مداخلة المجتمع الذي يعيشون فيه، ومداخلة حتى العالم بمؤسساته، وبوضعه العالمي كله.

هناك إقبال من الناس على التدين، ومن ثم إلحاح من هؤلاء على طلب برمجة حياتهم.

هؤلاء الناس المتدينون المقبلون على الدين الذين يدخلون فيه أفواجاً من السهل أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، هذه أمور سهلة وواضحة لديهم، لكنهم يريدون برمجة حياتهم على الإسلام. يقول بعضهم: أنا دخلت في الدين، أنا عدت إلى الله سبحانه، أنا الآن رجل أعمال، أنا الحمد لله أصبحت أصلي، تركت الفواحش، أصبحت أعتمر... لكن لديَّ مئات الملايين من الأموال أريد أن تجري على نمط إسلامي، ومع ذلك يكون عصرياً، لا أريد أن تردني إلى معاملات فردية كانت سائغة في السابق. الناس يطالبون هؤلاء الرواد بأن توضَع مسالك حياتية في الاقتصاد، في السياسة، في الإدارة، في الفنون، في الآداب... في جميع شؤون الحياة، بأن توضع برامج حياتية تكون إسلامية، وتكون عصرية في الوقت نفسه.

هناك ما أستطيع أن أسميه: تساؤلات من الأتباع، ونقد من الآخر تجاه الصحوة الإسلامية. الأتباع كانوا فيما سبق أتباعاً بالمعنى اللفظي؛ بمعنى مجرد: متلقين من روادهم، من مشايخهم، من علمائهم، من دعاتهم، الآن يشعرون أنهم يريدون الانفتاح، ويريدون أن يناقشوا الآخر خارج الدائرة الصحوية، يثيرون نقداً حاداً، مثلاً: محاضرة تلقى، أو كلمة تكتب في موقع، أو صحيفة من داعية، وغير ذلك تخرج لها ردود من هؤلاء، وهذا يحرج ـــ الآن ـــ رواد الصحوة الدعاة؛ لأنهم لم يتعوَّدوا على هذه الصفة، ومن ثم هم بحاجة إلى أن يكونوا على مستوى التأقلم مع هذه القضية.

الانتقال من العاطفية إلى العقلانية: في السابق كانت حركة الدعوة ــ في فترة طويلة ــ تركز على الجانب العاطفي، خاصة حينما كانت الأمة في عموم العالم الإسلامي في حالة شرود عن الدين وفي حالة غفلة؛ فكانت الدعوة: عودوا إلى الله، عودوا إلى دينكم؛ فالخير في دينكم، منطلقات وشعارات عامة، وكانت مجدية في ذلك الوقت، لكن الناس الآن رجعوا إلى دينهم، والآن يريدون حركة منطقية عملية تجسد حياتهم عملياً في واقع الحياة، هذه الحالات ونحوها، وغيرها من أمثالها انفتحت على الصحوة الإسلامية: على روادها، ثم على أتباعهم ثانياً وبشكل متسارع، وبشكل ملحّ لا يحتمل بطئاً لتحديد المواقف، ورسم المسالك. والصحوة بدعاتها وعلمائها هي حركة ثقافية بالدرجه الأولى، والحركة الثقافية لا يتم تفاعلها بشكل سريع كما هو الشأن السياسي؛ الذي يتخذ موقفاً ثم ينتهي؛ فطبيعة الدعاة والمفكرين والمثقفين أنهم يحتاجون لموازنات لرسم المواقف، يحتاجون إلى تفكير هادئ، حتى يضعوا الأمور في أنصبتها الصحيحة، وحتى لا يزيغ الناس بالمهاوي؛ خاصة أنهم يتعاملون بدين يدينون الله به، وليس الأمر مجرد مصالح مادية لو فاتت فسوف تأتي بعد ذلك مصالح بديلة.

لا شك أن الصحوة الإسلامية سعت للمواكبة؛ يعني سعت للاستجابة الإيجابية في حدود الإمكانات، لكن الذي لا ريب فيه أن الملحوظ بشأنها هو ما ذكرته، وهو أن هناك حالة ارتباك، أو إن أردت أن أخفف هذه اللفظة فأستطيع أن أقول: إن الصحوة الآن تعيش لحظة تأمل، لحظة استبصار، لحظة محاولة إعادة نظرات، تأهيل الذات بالقدر الكافي من أجل التفاعل الحيوي مع هذه التغيرات المحيطة بها.

الصحوة كان لها ضجيج من داخلها، وضجيج من الآخرين بشأنها، وفي الأونة الأخيرة بدأ يخفت هذا الصوت، لكن خفوت هذا الصوت لا يعني الغياب حقيقة. أنا أعتقد أن خفوت هذا الصوت يعكس شعوراً بالثقة بالنفس، ويعكس عقلاً في التعاطي مع الحياة، ربما بأرشد وأكثر سداداً مما كان قبل ذلك، لكنه بكل حال لا يعني أيضاً التراجع في أوساط الصحوة.

البيان : إذن أنت ترى يا فضيلة الدكتور أن الصحوة من حيث العموم لا تشهد هزيمة، وإنما هناك ارتباك فكري أدى إلى بعض الظواهر التي قد تفسر عند بعضهم بالهزيمة، وتفسر عند آخرين بالارتباك الفكري؛ فهل المشايخ يوافقون على هذا الطرح؟

– د. ناصر العمر: الكلام الذي ذكره الدكتور عبد الرحمن جميلٌ جداً، وأوافقه في جملة ما قال، لكن ما دمنا في التعريف؛ فالذي فهمته من التعريف أن قول: (الهزيمة في جيل الصحوة) أنه ليس عنواناً تقريرياً بل هو دراسة؛ بمعنى أن هناك شيئين مختلفين: هناك شيء اسمه الهزيمة النفسية، وشيء آخر اسمه جيل الصحوة. وهذا ما لاحظته من قول الدكتور عبد الرحمن من أن الهزيمة شيء والصحوة شيء آخر، ولا ارتباط بينهما. والحقيقة أن البيان سبقت في معالجة المشكلة قبل أن تقع؛ لأن مشكلتنا في كثير من الأحيان أن ننتظر حتى تقع المشكلة، ثم نذهب نبحث عن حلولها.

والذي أراه أن الهزيمة لم تعد ظاهرة، وإن اختُلف في بعض تشخيص الحالات الفردية التي قد أشير إليها.

وإضافة لما ذكر في الموضوع حتى أشخّص ماذا نريد من معنى الهزيمة؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

فالهزيمة في اللغة تدور في أصلها اللغوي على معنى واحد: وهو الغمز والكسر، ومنها الهزيمة في المعركة، والهزيمة النفسية وغيرها.

الهزيمة: هي انكسار إرادة النفس أمام حدث معين، أو واقع معين، أو فكر معين، أو ظاهرة معينة؛ بحيث لا تقوى على مجابهته، فهي تستسلم أو تسلم بدون تفكير في التخلص منه أو مواجهته؛ لذلك انكسار الإرادة يعني: لا قدرة ولا استطاعة.

أعطي أمثلة من ألوان الانكسار في واقع الأمة. مثلاً: الانبهار بكل خُلُق دخيل خالف أخلاق الإسلام، وأعراف أهله؛ فهذا ضرب من الهزيمة.

الخجل من القيام بأمر الله تجاه الأفراد والمجتمع ضرب من الهزيمة النفسية أيضاً. التبرؤ من بعض العقائد الإسلامية كعقيدة الولاء والبراء، كما يحدث من بعض المسلمين أيضاً هزيمة نفسية.

محاولةُ لَيِّ الشريعة لتوافق أهواء العصر وأهل الشرق والغرب هزيمة نفسية. التبعية الغربية أو الشرقية هي أيضاً من جوانب الهزيمة النفسية. الافتتان بالحضارة الغربية جانب من جوانب الهزيمة النفسية.

وإن كان في هذا الكلام نوع من التداخل، لكن يفسر نوعاً من الهزيمة النفسية؛ بهذا المنظور وبالمنظور، الذي قدمه د. عبد الرحمن فأرى أنه لا توجد في الصحوة هزيمة نفسية، وأرى أنها لا توجد بصفتها ظاهرة عامة، لكن توجد حالات فردية قد تزيد أحياناً، وتنقص أحياناً أخرى، وبعض المواقف قد يفهمها بعض المتابعين على أنها هزيمة، ويفهمها آخرون على أنها اجتهاد في استثمار فرص متاحة، وقد يوافقون عليها وقد يخالفون؛ فالدعاة وأهل العلم ومن عرفوا بسلامة المنهج وعرفوا بالخير، ولهم أثر في هذه الصحوة، وإن نشأت بعض الاجتهادات ــ بغض النظر عن الموافقة أو عدم الموافقة عليها ــ فهي ليست نابعة ــ غالباً ــ من الهزيمة، وإنما نابعة من أسباب أخرى: استثمار فرص أو غيرها. والصحوة الإسلامية الآن في هذه المرحلة لا تعاني من هزيمة نفسية، والدليل على ذلك الأجيال التي تتطلع إلى الجهاد وتمارسه، بل وقع بعضها في الغلو المنهي عنه، اعتداداً بنفسها وثقة بما عندها.

لعلك تقابل شباباً يعملون أعمالاً أكبر من طاقتهم؛ فبعضها أعمال مشروعة، مثل ما نرى في فلسطين، وما نرى في العراق، وغيرهما من مواطن الجهاد.

شباب يقفون أمام أعتى قوة؛ هل يوصفون بالهزيمة؟ مستحيل، ونجد آخرين في بعض بلاد المسلمين يعملون مثل أعمال التفجيرات وغيرها، وهذا غلو وخروج عن المنهج، وليس من الإصلاح، ولكن لا يمكن أن يكون هذا نابعاً من الهزيمة، بل نابعاً من الاعتداد المفرط بالذات؛ لذلك أقول: إن الهزيمة غير

موجودة بصفتها ظاهرة عامة، لكن يوجد حالات فردية في كل عمل، وفي كل جيل يحدث ذلك.

بقيت نقطة أشار إليها د. عبد الرحمن، وهي أن الصحوة الآن تمر بمراحل ــ مثل مرحلة العمر ــ هل تسمى مرحلة فتور؟

توجد مظاهر أوافق أنها مظاهر فتور، وقد تحدثت عنه قبل سنوات في كتاب (الفتور). والفتور غير الهزيمة هذا أولاً.

ثانياً: القادة والذين لهم السبق في نشأة الصحوة ــ كما أشار الدكتور ــ هم أناس كانوا يوجهون، أما الآن فانتقلوا من التنظير إلى العمل وإلى المشاريع؛ فهم الآن انشغلوا ببرامج عملية علمية.

ولو نظرنا قبل عقدين مثلاً فسنجد أنه لم تكن القنوات الموجودة الآن، و لم تكن المواقع موجودة في المنهج العلمي والدورات وغيرها من الانشغال بالعمل الذي يوازن التنظير، بعضهم يتصور أنه نوع من الهزيمة، هذا غير صحيح، أيضاً عدم التجاوب مع الاستفزاز الذي يحدث الآن فهذا رشد وعقل وفكر.

بقيت نقطة أخيرة هي أنه لا شك أن الصحوة عندها إشكالات معينة، ولا شك أن عمرها قصير بالنسبة لما تحقق لها من إيجابيات ناجحة، وهناك إشكاليات عالقة، سواء سميناه الارتباك كما تحدث د. عبد الرحمن، أو نوعاً من التأمل، أو عدم الوضوح والضبابية، أو هزيمة فردية محدودة عند بعض الأشخاص، ولا شك أن هذه مرحلة طبيعية، وهذه تفسر بعض الأحداث الموجودة، والله أعلم.

- د. عبد الله الصبيح: كلمة جميلة قالها الدكتور عبد الرحمن في تعريفه الهزيمة: هي الشعور بعدم القدرة على الفعل لدى من يستطيع أن يفعل. وهذا التعريف يشرح جانباً من جوانب الهزيمة، وهناك جانب آخر يوضحه تعريف آخر أورده الدكتور عبد الرحمن وهو الهزيمة النفسية هي التخلي عن الأهداف التي كان يتبناها، وربما ما يقابلها. وهذان التعريفان يوضحان صورتين للهزيمة سوف أتطرق إليهما حينما أتحدث عن مفهوم الهزيمة.

وقبل الإجابة عن السؤال: «هل نحن أمام هزيمة نفسية في جيل الصحوة؟».

أحب أن أشير إلى أن أول من تحدث عن الهزيمة النفسية فيما أعلم هو ابن خلدون ــ رحمه الله ــ في مقدمته؛ حيث عقد فصلاً خاصاً بذلك، وسماه (تقليد المغلوب للغالب) يقول ابن خلدون: «المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب في زيه وشعاره، وعوائده، وشأنه كله».

وذكر ابن خلدون صوراً من هزيمة المسلمين النفسية في الأندلس، أو تقليد المغلوب للغالب - كما سماها - ومنها وضعهم الصلبان في البيوت ومجاراتهم للنصارى في سلوكهم ولباسهم ومأكلهم ومشربهم، ويعلل ابن خلدون ذلك بأنه لظن المغلوبين أن تقليد الغالب في عوائده يمنحهم القوة التي انتزعها منهم عدوهم.

وما ذكره ابن خلدون عن تقليد المغلوب للغالب ليس قاعدة مطردة؛ فهناك من غلب واستولى عدوه على أرضه، ومع ذلك بقي معتزاً بدينه وقيمه ونفسه، ولم يقلد من غلبه؛ فالمسلمون لما هزمهم التتار، وجدنا الغالب هو الذي قلد المغلوب ودخل في دينه. وفي العصر الحاضر نرى إخواننا في فلسطين معتزين بإيمانهم محافظين على عقيدتهم، يشعرون بتميزهم عن عدوهم الغالب الجاثم على أرضهم.

بعد هذه المقدمة أقول: يظهر لي أن للهزيمة النفسية صورتين:

١ – هزيمة الذات أمام المبدأ؛ حيث لا يستطيع الفرد تحمُّل تبعة المبدأ ودفع ثمنه فيتخلى عنه، إما للحصول على مكسب دنيوي، أو الخلاص من أذى يلحقه بسبب مبدئه.

٢ – هزيمة المبدأ أمام الواقع؛ حيث يكتشف الشخص أن المبادئ التي يحملها عاجزة عن إحداث تغيير أو إصلاح في الواقع، فيتخلى عنها بحثاً عن مبدأ آخر، وقد لا يكون في هذا الجانب هزيمة نفسية واضحة؛ لأن منه ما هو هزيمة، ومنه ما ليس كذلك. وينبغي ملاحظة أن مصطلح الهزيمة مصطلح فضفاض كمصطلح الصحوة الذي سأتحدث عنه؛ فهناك فتور يمكن أن تلحقه بالهزيمة، وهناك انشقاق في الصف يمكن أن تلحقه بالهزيمة، وهناك الاجتهاد في التأول، وفي تطويع المبدأ للواقع الذي يتداخل أحياناً مع الهزيمة النفسية وأحياناً مع الاجتهاد.

وسواء قلنا إن الصحوة تعاني من الهزيمة النفسية أم لا تعاني منها، فلا بد من تحديد المراد بالصحوة الإسلامية.

تيار الصحوة الإسلامية في نظري لم يعد محدوداً بمجتمع معين، أو أفراد محدودين، أو جماعة أو تنظيم أو حزب، بل أصبح تياراً واسعاً، ودخل تحت هذا التيار كل من رفع الإسلام شعاراً للحياة، ونحن نعلم أن ممن رفع الإسلام شعاراً للحياة من كان على سنن صحيحة، وطريقة سديدة، ومن رفعه وهو ليس كذلك، بل هناك من رفعه نتيجة انهزام في مبدأ سابق، مثل: بعض القوميين، وبعض العلمانيين الذين انهزمت أفكارهم فرفعوا الشعار الإسلامي، ولكنهم يريدون الإسلام الذي في أذهانهم، وليس الإسلام المترل على محمد.

وهؤلاء في نظري يعيشون حالة من الهزيمة النفسية، وفيما رفعوه يحدث خللاً داخل الصف الإسلامي، والصحوة الإسلامية.

إذن تيار الصحوة الإسلامية تيار واسع، ويمكن أن نقول: إن الصحوة بمجملها لا تعاني من هزيمة نفسية، لكن يمكن أن نلاحظ عند بعض قطاعاتها وعند بعض الأفراد ـــ وهم ليسوا قليلين ـــ هزيمة نفسية بناءً على ما ذكرته عن صور الهزيمة. وهذه ليست ظاهرة عامة شاملة، بل ظاهرة جزئية، ولا يمكن تعميمها على تيار الصحوة بكامله. ولعل مما يساعد في انتشار الهزيمة النفسية أو مما يفضي إليها ما ذكره الدكتور عبد الرحمن مما سماه بـــ (الارتباك الفكري). الصحوة الإسلامية كانت في وقت من الأوقات تعيش مرحلة العاطفة، ومخاطبة الفرد في صلاح نفسه، ثم انتقلت إلى مواجهة الواقع بتقديم

حلول عملية. وبعض هذه الحلول العملية تداخلت مع بعض أطروحات المشروع العصراني الذي ظهر في أواخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر، وهو يقوم على تطويع النص ومقاصد الشرع للواقع.

وربما كان ظهور المشروع العصراني بسبب ضعف البناء الثقافي، والإعداد العلمي عند الصحوة في المرحلة السابقة، مرحلة البناء العاطفي أو مرحلة تربية الفرد. وعودة المشروع العصراني للظهور مرة ثانية، سواء على مستوى النخب أو مستوى الأفراد والأتباع صورة من صور الهزيمة النفسية التي نتحدث عنها.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: لي تعليقات مباشرة على ما سبق، أذكرها باختصار:

أولاً: ما ذكرته هنا حالة من الارتباك والتأمل البطيء لدى بعض رواد الصحوة من مفكرين أو عاملين، وهذه ألمح إليها الدكتور ناصر العمر، هذا قد يُحدث حالة من الهزيمة النفسية مستقبلاً إذا لم يستطع هؤلاء أن يطوروا صُعُداً ما يقدمونه؛ بمعنى إذا تباطؤوا عن تقديم هذه البرمجة العملية لمساوقة الحياة بصبغها بالحلال والحرام؛ بحيث يعيشها الناس حياة إسلامية؛ فإذا تباطؤوا وتلكؤوا فقد يملّون من قِبَل من لديهم انفتاح عليهم، أو قبول لهم من حكام وغيرهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية سيبدأ الناس يطلعون بعمومهم على الطرح الآخر الذي يمكن أن يطرحه العصرانيون، وخاصة أن العصرانيين الآن ليسوا على النمط السابق الذي يعلنون فيه قطيعتهم مع الإسلام؛ فقد صاروا الآن يقدمون رؤاهم العصرانية، ويلبسونها لباساً إسلامياً.

وهنا نقطة ثانية وهي تعليق على كلمة الدكتور عبد الله في قضية ولع المغلوب بالتقليد للغالب فهو حقيقة، ولكن انهزام النفس أمام الغالب له درجات وليس درجة واحدة، هو أحياناً يكون انهزاماً مبدئياً؛ بمعنى يمسخ فيه الإنسان ويذوب حضارياً، وقد يكون الانهزام ليس مبدئياً، فلا نقول هذا انهزام، وإن كان قد تأثر في الغالب ببعض مجرياتها العملية، وانفعل ببعض معطياتها الفكرية والثقافية... إلخ؛ فهي انهزمت عملياً، لكنها ما انهزمت حقيقة؛ لأن الهزيمة النفسية في الحقيقة هزيمة قاصمة؛ لأن النفس هي آخر شيء عند الإنسان. وحتى لا يكون الكلام فكرياً بحتاً أضرب مثالاً: الاستعمار جاء إلى العالم الإسلامي، فاستعمر الغربيون بلاد المسلمين، وكانت مكيدتهم، خاصة في الجانب الثقافي أكثر من غيره؛ والغربيون استعمروا أيضاً أمريكا اللاتينية كما هو معروف ورحل المستعمرون من البلاد الإسلامية، ورحلوا من أمريكا اللاتينية؛ فما الذي حدث؟ الذي حدث هو اختلاف واضح بين الجهتين: أمريكا اللاتينية مُسخت نهائياً؛ فلا أديانها التي كانت بقيت بها، ولا تقاليدها التي كانت بقيت لها، ولا لغاتها أيضاً التي كانت بقيت؛ وهكذا؛ فهناك هزيمة نفسية ساحقة؛ بمعنى أن الشخصية الحضارية التي كانت هناك ذابت أمام حضارة الغازي وصارت الآن تابعة لها. لكن بالنسبة للأمة الإسلامية فلا.

نعم! انفعلوا وتأثروا، لكن بقيت لديهم الخميرة الداخلية، وبقي لديهم أن ما يحملون من هذا الكتاب ـــ وهو القرآن ـــ يمثل الأعلى، ومهما ضعف التزام الإنسان في عمله إلا أنه يشعر أن هذا هو الحق، ومن ثم أي فكرة وأي نظرية تخالفه فإنها باطلة. تلقائياً يعرف هذا الشيء، قد ينجر أحياناً نتيجة شهوة، أو مؤثرات إغرائية، قد ينجر وراء هذا الشيء الجديد، لكن يبقى في قرارة نفسه الأساس الديني؛ فالحقيقة أن الهزيمة النفسية ليست صورة واحدة، وإنما تأخذ أشكالاً مختلفة. هناك نقطة أخيرة هي ـــ وقد أشار إليها الدكتور عبد الله ـــ قضية أن الصحوة مفهومها واسع، صحيح أن مفهومها ليس مفهوماً مصطلحياً؛ بمعنى: أن له تعريفاً جامعاً مانعاً، لكن لا أعتقد أن من أدخلهم الدكتور عبد الله في الصحوة، أنهم من الصحوة، ومن سماهم وهم المنهزمون نفسياً أو العصرانيون ونحوهم؛ فهؤلاء ليسوا من الصحوة، ولا يعتبرون هم أنفسهم من الصحوة، حتى وإن كتبوا في الإسلاميات وإن فسروا الإسلام؛ فلا أعتقد أنهم يُعَدُّون من الصحوة؛ فلا محمد أركون، ولا شحرور، والقمني ولا سعيد عشماوي.... ولا نحوهم من الفئة التي كانت دراستهم تتجه للإسلام وتفسير القرآن، وتحاول أن تقدم صورة بديلة أو مقابلة للصورة التي تقدمها الصحوة، لكنها ليست للصحوة؛ فهؤلاء هم خارج سور الصحوة الإسلامية.

– د. عبد الله الصبيح: يعتمد على هؤلاء بعض أبناء الصحوة يقرؤون لهم، ويتأثرون بفكرهم.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: القراءة نعم! أما التأثر فقضية ثانية، وهي إذا كان التأثر بفكرهم تأثراً منهجياً، تأثرهم بحيث أن لديهم قدرات على أن يستوعبوا المنهج لنقدهم، ولتقديم رؤاهم داخل دائرة الصحوة من خلال المنهجية الجديدة إذا تلبَّسوا بها بمنهجهم أصبحوا منهم، لا أعتقد أن في دائرة الصحوة من يتفاعل مع هؤلاء بهذه الصيغة التي ذكرها الدكتور عبد الله.

– د. عبد الله الصبيح: ليس بالضرورة الأسماء التي ذكرتها، لكن هناك من قطاع الصحوة من تأثر ببعض الكتابات، وحصل عنده نوع من الهزيمة؛ فإذا كنت تريد أنت أن تُخرج هؤلاء من قطاع الصحوة فحينئذ أنت تنفي الهزيمة النفسية عن الصحوة بإخراج كل من انهزم منها.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: نحن من خلال حديثنا عن الصحوة والهزيمة. أنا أقول: إذا تلبَّس وأصبح هو صورة لهذا الإنسان الذي حكمت محكمة علمانية بردته؛ فكيف ندخله في الصحوة؟ هذه رؤيتي.

– د. عبد الله الصبيح: ليس بالضرورة أن ندخلهم.

البيان : ربما كان ذكر الأسماء هو الذي أوجد فارقاً كبيراً في الحكم، لكن ألا ترى أن هناك مجموعة ممن ينسبون للفكر الإسلامي قد تكون عندهم طروحات عصرانية تميل أحياناً إلى الغلو الذي لا يخرجهم عن دائرة الإسلام، لكنهم أيضاً تأثروا بشكل أو بآخر ببعض الأطروحات العصرانية؟

– د. عبد الرحمن الزنيدي: أما أن تكون أفكار أفراد فهذا صحيح، وأما أن تكون ظاهرة فلا أعتقد، ونحن نتحدث عن الهزيمة بصفتها ظاهرة.

النقطة الأخيرة وهي أن الدكتور عبد الله ذكر مشروعاً عصرانياً يعاد طرحه، والحقيقة أنا لا اعتبر أن هناك مشروعاً عصرانياً يعاد طرحه، والعصرانيون أنفسهم يعترفون؛ فمشروعهم الآن مواجهة الصحوة، ومحاولة إفساد أعمدة هذه الصحوة، وتبديد طاقاتها، وهذا هو الجهد ذكرته. مَنْ هذه الأسماء، وما هو دورها؟ دورها هو هدم قدسية القرآن؛ لأن متعلق الصحوة الإسلامية الأكثر الآن الرجوع للكتاب والسنة، والرجوع بصفته العاصم الأساس لحركة المسلم، ولهذا هم يجدون حالة مفارقة عجيبة يعترف بعضهم مثل (هشام جعيط) في كتابه «الشخصية الإسلامية والمصير العربي» يقول: مشكلة العلمانيين العرب مع النص المقدس ــ القرآن ــ أنه واضح وحاسم، وأنه أصل لدى المسلم لا مجال للارتياب فيه، هذا يجعل الإنسان الآخر ــ يعني العلماني ــ مُحْرَجاً عندما يصادم القرآن مباشرة، وهناك سيكون منهزماً.

(فؤاد زكريا) في محاضرة ألقاها وطبعت عنوانها «العلمانية ضرورة»، قال وهو يتحدث عن العلمانيين والإسلاميين: العلمانيون ثلاثة أقسام: اشتراكيون، قوميون، ناصريون، والحقيقة أنهم يعرفون ما لا يريدون، ولكنهم لا يعرفون ما يريدون؛ يعرفون ما يريدون في تطبيق الشريعة التي كانت صيحة الصحوة قبل ١٠ سنوات أو نحوها، ويقفون هم في وجهها، ويعرفون أن هذه هي القضية التي يريدون الوقوف في وجهها، لكنهم لا يعرفون ما يريدون، ليس لديهم مشروع بديل يقدمونه، سقطت مشاريعهم، فبقيت لديهم عملية هدم وتفتيت إلا إذا كانت مشروعات هدمية ناقدة كمشروع الجابري، ونحوه الذي هو نقد للثقافة الإسلامية، ومثل منهج (أركون) الذي لا يقدم مشروعاً بقدر ما ينقد الدين، ويفتت قدسية هذا النص، ومثل ما يطرحه الآن الدكتور (طيب تيزيني) في قضية تعدد القراءات في النص المقدس، أو الاعتماد على نظرية موت المؤلف في قراءة القرآن، ونحو ذلك.

– د. ناصر العمر: حول نقطة أشار إليها الدكتور عبد الله وعقب عليها الدكتور عبد الرحمن في موضوع وجود أشخاص داخل الصحوة أصبحت لديهم مواقف تتقارب مع المدرسة العصرانية. أنا أوافق أنه توجد أسماء تطرح طروحات تتوافق مع هؤلاء، وهذا نوع من الهزيمة النفسية كما اتفقنا، لكن حتى الآن لم يظهر لي من خلال الحديث أن هذه العناصر مؤثرة؛ فلم تكن أصلاً من قيادات أو رواد الصحوة، وإنما كانوا أفراداً أو شاركوا في بعض المشاريع المحدودة عملياً. وينبغي أن ننظر إلى القضية بنظرة متزنة لا ننفي الموجود، وهو كما اتفق الجميع ليست ظاهرة، والحمد لله.

البيان : ليست ظاهرة، لكن هناك ممارسات سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى أوسع قد تزداد في بعض الأوساط؛ بحيث تتسع دائرته وممارساته عند آخرين... ونخشى أن تكون ظاهرة في المستقبل.

– د. ناصر العمر: إن لم تعالج؛ وهذه الندوة حلقة من حلقات التوعية، حتى لا تزلَّ قدم بعد ثبوتها.

البيان : نتحدث الآن عن مظاهر هذا الارتباك الذي أشار إليه الدكتور عبد الرحمن، أو ما قد يسمى عند آخرين بأنه هزيمة على مستوى الأفراد أو على مستوى أوسع من ذلك؛ لأن هذا سوف يزيد أيضاً من توضيح تحديد المسار الذي نتحاور فيه.

– د. عبد الله الصبيح: أعود إلى إشكالية مصطلح الهزيمة النفسية. في نظري أننا حينما نتحدث عن الهزيمة النفسية فنحن نتحدث عن منحنى متدرج له طرفان ووسط، والصور في الأطراف تكون واضحة تماماً لا يختلف الباحثون في تصنيفها، ولكن في الوسط سوف نجد صوراً ربما احتاروا في الحكم عليها، فربما عدها بعض الباحثين من صور الهزيمة النفسية بينما ينازعهم آخرون في ذلك. ومن تلك الصور ما ذكرته من قبل: كالفتور، والاجتهاد في تأويل النصوص، وتطويعها للواقع، أو التخلي عن بعض المبادئ استجابة لضغط الواقع. وما كان من هذه من صور الهزيمة النفسية قد يختلف الباحثون في اعتباره ظاهرة بناء على مقدار شيوعه في المجال الذي حدده الباحث.

البيان : ولهذا ربما يكون تحديد الصورة هو الذي يضبط المسار؛ فربما يوجد تباين في تحديد مفهوم الهزيمة، لكن عندما نترل هذا المفهوم على الأمثلة الواقعية تنضبط الفكرة ويظهر المقصود، وعندما نتحدث عن موضوع الصحوة لا نقصد بلداً بعينه أو فصيلاً بعينه من فصائل الصحوة الإسلامية، وإنما نتحدث بشكل عام.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: أنا أشرت إلى بعض المظاهر فيما سبق، ومنها الشعور بضخامة المسؤولية، والارتباك في الانفتاح على المجتمع، يعني مثلاً: قضية التفاعل مع المجتمع كيف تتم؟

هل من خلال المسار التربوي الذي كان منتشراً على نطاق الصحوة الإسلامية فيما سبق، أو من خلال قفزة إلى المستوى الحزبي؟ في مصر مثلاً: أراد مجموعة من الإخوان أن ينشئوا حزباً سياسياً، واعترضت عليهم الجماعة، ثم عادت الجماعة من خلال مرشدها لتقول: نحن مستعدون أن نشكل من أنفسنا حزباً إذا كانت الحكومة ستقبل. فعلاً هذا يعكس حالة ارتباك في القضية، حالة ارتباك تتضح أحياناً أمام بعض المفاجآت التي تحدث في المجتمع. يحدث مثلاً حركة مفاجئة، أو تغيير مثلاً نتيجة ضغوط داخلية، أو ضغوط خارجية فيحدث تغيير، وقد حدث هذا مثلاً في بلاد كثيرة في قضية مناهج التعليم، أو في قضايا أخرى. أمام مثل هذا لو كانت الوضعية كما كانت فيما سبق لكانت الخُطَب والتصريحات النارية، ونحو ذلك هي الإجابة مباشرة، لكن في ظل الوضعية التي ذكرتها صار هناك حالة تساؤلات.

مثلاً قضية التفاعل مع الآخر، أي تفاعل الصحويين مع من هم خارج دائرة الصحوة، مع المثقفين من خارج دائرة الصحوة، من الليبراليين ونحوهم؛ وتعرفون أنه جرى أحياناً تفاعل، وأحياناً لقاءات، وأحياناً بيانات مشتركة ونحو ذلك، وهذا النمط كان جديداً على الصحوة الإسلامية؛ فالصحوة الإسلامية كانت تعيش دائرتها الخاصة، وأولئك يعيشون أيضاً دائرتهم الخاصة، وإن كانوا يزعمون

الإقصاء، أي أن الصحوة الإسلامية تقصيهم، كانوا هم يُقصون أهل التدين من وسائل الإعلام، وغير ذلك؛ فكلٌ يسير وحده.

بدأت قضية اللقاءات كحركة شخصية، ثم بدأ التساؤل: ما هي الأساسيات التي ينبغي أن يقوم عليها هذا اللقاء بين أناس تبنوا المشروع الإسلامي إن شئنا تضخيم الأمور، وبين أناس يتبنون مشروعاً آخر، لكن قد يلتقون في خطوط عريضة، أو مسارات تتقاطع؛ فما هي الأسس الشرعية، والأسباب المصلحية، والمحظورات المتوقعة؟ جرت تساؤلات، كُتب في بعض المجلات والمواقع الإسلامية ملفات في قضية التعاون بين الإسلامي وغير الإسلامي ونحو ذلك، هذه صورة من الصور التي تمثل ارتباكاً.

مثلاً التفاعل بين الفئات داخل الصحوة الإسلامية، ونحن نعلم أن الصحوة الإسلامية أجنحة وليست جناحاً واحداً. هناك الذين يمكن أن نسميهم الجناح السلفي مثلاً، وهناك الجناح التحرري الذي له سمات معينة في دراساته منها التوسع في عملية المقاصد الشرعية. وكلٌ يسير في طريقه مستقلاً عن الآخر ونحو ذلك، ثم لما بدأت الصحوة الإسلامية تدخل في الواقع وتتحرك فيه رأت أنها بحاجة فعلاً أن ترتكز على المقاصد الشرعية، وأن تتحرك في ضوء المصالح والمفاسد، وأن ذلك الخط لم يكن على خطأ في كل مساراته التي كان يسير فيها، وأن لديه حقاً في جوانب ينبغي أن تؤخذ ويستفاد منها، لكن كيف يتم التفاعل مع هذه الفئة؟

هذه أيضاً حالة أو صورة من صور الارتباك الفكري.

أيضاً من صور الارتباك المشكلة بين موقف الرائد الداعية القائد وبين الأتباع. الداعية القائد بحكم قدراته الفكرية، وبحكم نضجه، وبحكم عمره عنده القدرة أن يتحول، أن يتفاعل، أن يتغير، أن يتجدد، أن يترقى. المشكلة هي قضية الأتباع؛ فإن سار في طريقه غير عابئ بهم فقد يُحدِث لهم انتكاسات، قد يعتبرون أنه ضل، وأن تجديده هذا ضلال، وخروج عن نسق كان يسير عليه معهم ومن ثم خرج عليهم. إن أراد أن يتحرك بهم معه، فهذا صعب؛ لأن طبيعة الأتباع وطبيعة البسطاء أن حركة تحولهم بطيئة؛ فهناك حالة ارتباك في الحركة لدى هذا القائد في حركته، وفي عمله.

البيان : عفواً دكتور! ولكن تبقى هذه الصور في مجال الممارسة العملية، ولم نتحدث عن الارتباك على المستوى الفكري؛ لأن الممارسة العملية أقل خطورة، فقد يخطئ الناس في وقت من الأوقات ويستدركون الخطأ، لكن الارتباك أو الهزيمة على المستوى الفكري، ربما تكون أكثر خطراً، ولها انعكاسات عميقة ومتجذرة!

- د. عبد الرحمن الزنيدي: حقيقةً أنا تصوري أن هذه تتداخل فيها القضايا الفكرية مع القضايا العملية، يعني ليست هي قضية عملية بالمعنى المباشر، لكن دعني أذكر مثالاً فكرياً آخر: لدينا نحن في المملكة مثلاً: الدعوة تعتز بأنها في أصل عمقها، وخلفيتها التاريخية، سلفية إسلامية ـــ أنا أعتبر أن الصحوة الإسلامية كلها سلفية منهجية على الأقل؛ لأن شعارها الرجوع للكتاب والسنة، وهذا هو

شعار السلفية ـــ لكن لدينا نحن الصحوة الإسلامية تعتز بأن خلفيتها التاريخية التي ورثتها عن الآبـــاء والاجداد، خلفية سلفية ذات عمق علمي شرعي؛ إلا أن الصحوة الإســـلامية لـــدينا اســـتنامت أو تخدرت بفعل هذه الخلفية التي أعطتها راحة، ولو رجعنا إلى هذه الخلفية التي ركنت إليها لوجدنا أنها تتمثل في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي خرج قبل ثلاثة قرون في جزيرة العرب في بيئة نجد بالتحديد بدعوة سلفية؛ بمعنى أنها دعوة تريد أن تعود بالنـــاس إلى الكتـــاب والســـنة، إلى الصـــورة النموذجية التي كان عليها صحابة رسول الله ﷺ في مقتبل الإسلام. وكانت الوضعية الاجتماعية التي خرج منها مشكلتها الكبرى هي في توحيد العبادة، ومن ثم ركز جهده في علاج هذا الواقع؛ فهذا هو منهج التجديد الذي ركز جهده فيه، فجاء كتابه الذي يمثل دستور حركة الشيخ ـــ محمد بن عبـــد الوهاب ـــ وهو (كتاب التوحيد)، وأثمرت هذه الحركة في التجديد، وصاغت حياة النـــاس صـــياغة جديدة؛ صياغة عقلية نفسية، وصياغة حركية عملية، وأدت دورها بأتم ما يكون، ثم صارت تتحول مع التاريخ، وبعثها الملك عبد العزيز ـــ رحمه الله ـــ بعثاً قوياً

جديداً، وأراد أن ينقلها حتى خارج دائرة الدولة السعودية إلى العالم الإسلامي، وتواصل مع علمـــاء آخرين.

المشكلة تأتي هنا في هذه الآونة بعد منتصف القرن الرابع عشر أن المجتمع السعودي بدأ يـــتغير، بـــدأ ينفتح على العالم من حوله، بدأت الوافدات الفكرية والتطبيقية في الحياة، بدأت دولته تتفاعـــل مـــع العالم في منظمات ودول، وأفراده بدؤوا أيضاً يتفاعلون مع أفكار الآخرين، سواء كانـــت أفكـــاراً إسلامية، أو حتى أفكار الآخرين غير الإسلامية، هنا كان المنطق الطبيعي هو أن تكون هناك حركـــة تجديد لحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حركة تجديد تصوغ المنهجية للحياة، ابتـــداء بالجانـــب العقدي وما بعده لتصوغ حياة الناس في ظل الظرفية التشكلية الجديـــدة، في أفكـــارهم، في نمطهـــم الحضاري، في نمطهم المادي الذي تغير تغيراً جذرياً، في كل هذه الجوانب، وهو أن يكـــون حركـــة تجديدية تتفاعل فيها هذه الدعوة السلفية الموروثة مع هذا الواقع الجديد المتغير. للأسف لم يحدث هذا بدرجة كافية، فبقيت القضية على هذا الموروث. أعتقد أن هناك في الآونة الأخيرة بدأ تنبـــه إلى أنـــه ينبغي أن يكون هناك تجديد. السلفية تبقي الكتاب والسنة هما المصدر، والنموذج المثـــالي لصـــحابة رسول الله ﷺ هو المَعْلَم، دعوة الإمام ابن تيمية هي نموذج صياغة العقل بعد تأثير الوافدات الفكرية، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي الرصيد الذي نرتكز عليه. لكن نتحدث عن صياغة نموذجيـــة تعطينا منهجاً جديداً: في البناء العقدي، في الاجتهاد التشريعي، في التفاعل الحضـــاري، في الصـــيغ المطلوبة آنياً، هناك تنبه لهذا، وهناك محاولة استباق من فئات لا يعتبرها الصحويون مـــن الصـــحوة، وهناك استباق من أناس من الصحوة، وربما الدكتور عبد الله كان يلمح إلـــيهم في قضـــية الانهـــزام

النفسي وهي من هذا، وإن كنت لا أعتبره هزيمة، أقصد أهم أناس ينقدون الاتجاه السلفي من داخله، والآخرون الذين يمثلون تياراً محافظاً في دائرة السلفية بدأت بعض

حركتهم ترتبك، هم يرون أنه لا بد من حركة تجديد، أن يستجيبوا لهذا النقد الذي يكون أحياناً صارخاً في أدائه وفي قوة لذعاته. أيضاً هذه مشكلة، هذه حالة ارتباك فكري حاد، وأنا اعتبره في هذا الموضوع.

البيان : نعود مرة أخرى إلى مظاهر هذا الارتباك الفكري سواء على مستوى الممارسة أو على المستوى الفكري والثقافي.

- د. ناصر العمر: يمكن أن نتفق على وجود هذه الأمور التي سماها الدكتور ارتباكاً، أو يمكن تسميتها مشكلات أو نوعاً من الضبابية، أو نحوها. التسمية ليست مهمة في رأيي، سأذكر بعض المشكلات على سبيل المثال لا على سبيل الحصر من أجل فتح هذا الموضوع وطرحه للنقاش.

أنا أعتقد أن من المشكلات الموجودة أصلاً عدم وضوح البرنامج العملي في ذهن بعض قادة الساحة؛ حيث كان تركيزهم على جانب معين، وعدم التكافؤ ــ فيما أرى ــ بين الوعود والمكتسبات العملية أحدث مشكلات؛ عدم واقعية الناس أيضاً في مطالبهم تجاه ما ينبغي تحقيقه، الناس بطبعهم يتمنون ويتخيلون عندما يتحدث المتحدث، وقد يكون القائد في ذهنه شيء محدد، الناس يأخذون من الخيال، فلما يرون ما يحدث ما يتوقعون أنه هو الأمر، ومن هنا نشأت مشكلة. أيضاً توجد نقطة اعتبرها رئيسة وكانت جديدة على الصحوة، وهي أن الصحوة في أول أمرها كانت كالذي يسير على الأرض السهلة، ثم بدأت العقبات التي أخبر الله بها بقوله ــ تعالى ــ: { أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ١ - ٢]، فبدأت الفتن والابتلاءات بشتى أنواعها {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، ونشأ اختلاف في وجهات النظر في مواجهة التحديات، وخاصة من القوى الضاغطة؛ فحدث تراجع أو هزيمة. أيضاً هنا إشكال معين وهو الاختلاف بين النقد فقط وتقديم البرنامج؛ لا يلزم أن من ينقد الواقع أنه لا بد أن يقدم برنامجاً، قد يكون عنده قدرة على نقد الواقع، كما يقال في محيط الأدب أنه لا يلزم في ناقد الشعر أن يكون شاعراً، قد تكون قدرة الناقد على النقد أسهل، ربما كان في الماضي التركيز على النقد فقط، وهذا طبيعي، بل هو منهج وله أصل، حتى يبين للناس الواقع الذي يعيشونه ليتخلصوا من سلبياته. ثم بدأ بعضهم يطالب بالخطوة التالية، لكنها لم تكن جاهزة فكان بطء فقه الحركة من قادة الصحوة، وضعف القدرة على

استثمار الفرص المتاحة. أما ما يتعلق بالجانب الفكري، فأعتقد أن عدم تحديد بعض المصطلحات والرؤى السابقة مشكلة ظاهرة. كانت تطلق رؤى لم تحرر، ثم أُخِذت على أنها مسلّمات وهي ليست

كذلك؛ فلما جاء صاحبها بعد حين لأجل أن يحررها ويبينها ترى أنه تراجع، تغير، اختلف. ومنها أيضاً الخلط بين الوسيلة والمبدأ، فكان الناس ـــ أنا أتكلم عما كان سابقاً من قادة الصحوة على أنها تكون مبادئ، قد تكون وسائل ومراحل في هذا الجانب؛ فهم لا يفرقون بين الوسيلة والمبدأ، في ما كان مرحلياً أو مبدئياً، المرحلة تتغير؛ فما كان قبل ١٠ سنوات نجد أنه يختلف عما هو عليه الآن، أما المبدأ فهو الذي لا يختلف الناس عليه. وحدث إشكال في الجانب الفكري.

– د. عبد الله الصبيح: إذا أردت أن أتحدث عن الارتباك الفكري فالمجال فيه واسع جداً، والارتباك الفكري ربما يكون بسبب مواجهة المواقف الجديدة التي تتطلب اجتهاداً غير معهود، وربما لم ينجح المجتهد في الوصول إلى اجتهاد سليم؛ بسبب عدم إدراك الواقع إدراكاً صحيحاً، أو بسبب البقاء على نوع من المطلقات الفكرية العامة جداً التي يصعب تتريلها على الواقع وتحويلها إلى صيغ عملية. ومن معوقات الاجتهاد التي تساهم في إحداث الارتباك الفكري أنه قد يستقر عند بعض الناس أنماط فكرية، وصيغ عملية، وحينما يواجهون ما استجد من الحياة يظهر عجز تلك الأنماط الفكرية، والصيغ العملية التي استقروا عليها عن مواجهة الواقع، وربما ظن بعضهم أن تلك الصيغ العملية، والأنماط جزء من الدين، بينما هي اجتهاد أو رأي، أو ربما مجرد عادات لا علاقة لها بأمر الدين. ويقع الارتباك الفكري حينما يعجز العالم عن الاجتهاد بما يفي بحاجة الناس أو حينما يجتهد فيختار غير ما ألفه الناس من تلك الأنماط الفكرية، والصيغ العملية، وربما فسر بعض الأتباع هذا بأنه نوع من التراجع، أو أنه نوع من الارتباك الفكري.

وبعض صور الارتباك الفكري ليست من الهزيمة النفسية في شيء، وينبغي تمييزها عنها. أما الهزيمة النفسية، فكما قلت من قبل لها عدد من المظاهر، وأوضح هذه المظاهر وفقاً للمنحنى المتدرج الذي أشرت إليه آنفاً أقصى صور المنحنى، وهي التخلي عن المبدأ والقبول بمبدأ الخصم. هذه صورة فاقعة تماماً لا يستطيع أحد ألا يدركها.

البيان : لكن هل هذه الصورة موجودة في الصحوة؟

– د. عبد الله الصبيح: هذه ليست موجودة بهذه الحدية، لكن هذه أقصى صورة من صور الهزيمة النفسية وهي موجودة عند بعض أبناء الأمة.

ومن مظاهر الهزيمة أيضاً: الانطواء والعزلة، وهذه أزعم أنها موجودة عند أفراد من الصحوة الإسلامية، بل إن بعض قطاعات الصحوة لما عجزت عن مواجهة الواقع آثرت الانطواء والعزلة، وتمسكت بما هي عليه من فكر، وهذه أعدها صورة من صور الهزيمة النفسية. وهناك صورة أخرى ربما يختلف فيها القول، ويثور حولها الجدل وهي تطويع النص وتأويله. أحياناً يكون ذلك ناتجاً عن اجتهاد سائغ، وأحياناً يكون عن هزيمة نفسية؛ لأن القضية التي تشغل الذهن هنا هي: ما حدود ذلك التطويع وذلك التأويل؟

أحياناً يكون التأويل السائغ للنص نوعاً من الاجتهاد المطلوب الذي يثاب عليه صاحبه، وفي أحيان أخرى لا يكون كذلك؛ لأنه يتجاوز ثابتاً من ثوابت الشريعة وقطعياً من قطعياتها، فيكون عبارة عن هزيمة وتخلٍّ عن ثابت من ثوابت الشريعة، وواضح فيه مسايرة الطرف الآخر صاحب القوة وصاحب الغلبة؛ فهذه صورة من صور الهزيمة النفسية، وهذا الذي عنيته حينما قلت: عودة المشروع العصراني إلى البروز حينما بدأت الصحوة الإسلامية تواجه الواقع، وأنا أرى أنه لا يوجد مشروع عصراني مستقل، ولكن هناك طريقة في التفكير تحاول أن تتخلى عن بعض ثوابت الشريعة، و تطوع بعض ما في الشريعة استجابة لضغط الواقع. نعم! هناك أشياء لا بد للفقيه أن يراعي فيها حاجات الناس وأوضاعهم، وليس هذا من الهزيمة النفسية أو الولاء المذموم، لكنَّ هناك صوراً فيها نوع من الطبعة العصرانية التي كانت في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، بدأت تعود إلى البروز مرة أخرى. وهذه أرى أنها هزيمة نفسية لكن أرجو ألا تكون واسعة الانتشار.

وهناك مظهر من مظاهر الهزيمة النفسية، وهو تقليد الغالب في اللباس، وفي الزي، وفي أمور سلوكية أخرى؛ هذه ظاهرة من ظواهر الهزيمة النفسية في المجتمع المسلم، ولكنها ليست ظاهرة في الصحوة الإسلامية، أو أرجو ألا تكون كذلك. هذه بعض ظواهر الهزيمة التي تبدو لي، وقد لا يخلو واحد منها من جدل وخلاف؛ لأن المصطلح فضفاض.

جيل الصحوة بين الهزيمة والانطلاق

(٢ - ٢)

التحرير

- ضيوف الندوة:

- فضيلة الأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر: المشرف على موقع المسلم على الشبكة العالمية.

- فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: الأستاذ بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

- فضيلة الدكتور عبد الله الصبيح: الأستاذ بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

في العدد الماضي دارت الأسئلة والأجوبة حول: هل نحن أمام هزيمة نفسية في جيل الصحوة، وهل هي موجودة في أوساط العامة؟ وقد بين المشاركون أن الصحوة من حيث العموم لا تشهد هزيمة وإنما هناك ارتباك فكري أدى إلى بعض الظواهر التي قد تفسر عند بعضهم بالهزيمة، وتفسر عند آخرين بالارتباك الفكري. وتطرقت الندوة إلى أمور عدة منها الأطروحات العصرانية. - البيان -

البيان : نعود لقضية تطويع النص على اعتبار أنها من الممارسات التي بدأت تظهر بشكل أوسع، ومن نتائجها محاولة التأقلم مع المتغيرات الحضارية والمتغيرات الثقافية والتأثر بطوفان العولمة؛ فهل أصبحت

قضية تطويع النص ظاهرة؟ وهل تمثل هذه القضية مشكلة في واقع الصحوة أم أنها مجرد ممارسات فردية يمكن تجاوزها بيسر وسهولة؟ مثلاً أصبح الآن عدد من المفكرين والمثقفين يحاول أن يبحث عن اجتهادات فقهية سابقة، ويحاول أن يعيد الحياة إليها من جديد؛ ليس لأن الدليل الشرعي يقويها، وليس لأن المصلحة الشرعية تقتضيها، ولكن لأن الواقع السياسي أو الواقع الثقافي والاجتماعي ربما يتجاوب معها؛ فبدأت تظهر بعض الاجتهادات الفقهية التي قد يعدها بعضهم جزءاً من الهزيمة.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: حتى يكون في الأمور شيء من الوضوح أريد أن أبين أن حديثي هنا يتناول تيارين مختلفين:

١ – تيار تحريف النصوص.

٢ – تيار منهج التيسير أو ما يسمى الآن: منهج أصحاب التيسير؛ وهما خطان مختلفان.

بالنسبة لمنهج تحريف النصوص؛ فهذا لا يوجد في دائرة الصحوة، بل هو خارج دائرة الصحوة، وهذا له مقتضى ظرفي؛ فهو ما ظهر إلا لبروز الصحوة. ومشكلة أعداء الإسلام قديماً وحديثاً هي قضية قدسية النص القرآني لديهم؛ هذه هي أعمق مشكلة لدى أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وقد صرحوا بهذا كما تعلمون في فرنسا؛ حيث حاول المستشرقون جهدهم عبر قرون أن يسقطوا قدسية النص، واستبشروا حينما رأوا الالتزام بالقوانين الوضعية بعد دخول الاستعمار، إلا أن المشكلة التي فاجأتهم هي عودة الصحوة الإسلامية لتجعل شعارها العودة إلى القرآن والسنة، يعني أن الأمر انعكس عليهم، وكما يقولون: انقلب السحر على الساحر، وهنا أصبحت الصحوة الإسلامية مزعجة لهم، وقامت دراسات ومراكز دراسات متخصصة في الغرب، وعقدت مؤتمرات في الغرب لدراسة واقع الصحوة وفكرها.

ومن هنا برزت جهود متعددة منها الجهد المتمثل بدراسات مفكرين عرب والذي يمكن تسميته بالاستشراق العربي، وهو قيام أناس بالتعامل مع النصوص الشرعية، وهم في الأصل غير إسلاميين، وقد يكون أصلاً بعضهم غير مسلمين بالمعنى الفكري، يعني أنهم يتبنون الماركسية المخالفة للإسلام تماماً، لكنهم جاؤوا ليدرسوا النص الشرعي، وليقدموا للمسلمين صورة منه تنتهي بهم في مجملها بنظرة استشراقية، والمقصود بالنهاية هو هدم قدسية هذا النص، وقد ذكرت النماذج من خلال الأسماء مثل: (حامد نصر أبو زيد)، وكل كتبه تتعلق بهذه القضية، ومثله (الدكتور محمد شحرور) في كتابه (القرآن والكتاب.. قراءة معاصرة)، ومثله (محمد أركون) الذي يقرأ القرآن من خلال المنهج الألسني.

البيان : لا شك أن هذا الكلام مهم جداً، لكنه استطراد في محور آخر، وكلامنا هنا عن تطويع النصوص في دائرة الصحوة، وهؤلاء ليسوا من أوساط الصحوة؟

- د. عبد الرحمن الزنيدي: هذا الذي ذكرته موجود خارج دائرة الصحوة، وكما قلت هم لا يعدون أنفسهم من الصحوة، بل يعدون أنفسهم من أعدائها، والصحوة لا تعدهم منها، ولا غيرهم أيضاً من المحايدين يعدهم من الصحوة.

أما المسار الثاني فهو مسار ما يسمى (منهج التيسير)، وهو الذي ذكر فضيلتكم أنه ظهر نتيجة تفاعلهم مع الواقع المعاصر. ربما يقول بعض الناقدين إنه نتيجة ضغط الواقع عليهم، ويمكن أن نعبر تعبيراً آخر فنقول: نتيجة تفاعلهم المباشر مع الواقع. والحقيقة أن الواقع له ضغطه بلا شك، ونتيجة لهذا حاولوا أن يبحثوا فيما يعتبرونه هم الدائرة الإسلامية التي تشمل النصوص المباشرة وقطعيتها.

ثم في مجال الاجتهادات فإن هذه الاجتهادات الموجودة منها اجتهادات راجحة، واجتهادات مرجوحة. المذاهب المشهورة عندنا أربعة؛ لكن هناك اجتهادات خارج هذه المذاهب، فيقولون: لماذا لا نأخذ بها؟ عندهم عدة مناهج في قضية منهج التيسير أو بناء أحكام جديدة غير ما توافَق عليه المسلمون في عصور سابقة، وإن كانت هي موجودة ولكنها مطمورة في هذا. حقيقة أنا لا أُدخل هذا فيما يسمى بـ (الهزيمة النفسية)، أنا أُدخله في (قضية التفاعل مع الواقع) الذي كان لهذا الواقع فيه ضغط عليه، وأن هذا وضع طبيعي. أقول: إن هذا وضع طبيعي لمن يلابس الواقع، ولا بد لمن يلابس الواقع ألا يبقى في دائرة صورة مثالية؛ فما كان نظرياً مثالياً يتغير في دائرة التطبيق؛ فالتطبيق يستلزم مرونة في التدرج ومراعاة الظروف وما تعم به البلوى... إلخ. أنا باستطاعتي أن أجمع مجموعة من الكتب في التربية فأصوغ خطبة عن تربية الأولاد التي تخرج الملائكة، وأخطب في الناس، ويتخيلون أنني ملاك، لكن أنا إذا ذهبت إلى بيتي أجد أنني لا أستطيع أن أطبق لا نصف ولا ربع ما أتحدث به إليهم أحياناً؛ فالأمر النظري شيء، والأمر التطبيقي الواقعي شيء آخر. أمامك وضعيات، أمامك نفسيات، أمامك بشر له اهتماماته ومصالحه وأعرافه وعلاقاته.

البيان : لكن ألا تلاحظ أنه حصل في هذا الاجتهاد نوع من الارتباك؛ بمعنى أن الفقهاء تفاوتوا في هذه القضية، فتوسع أقوام وانضبط أقوام آخرون؛ وبعض الذين توسعوا كانت توسعاتهم غير مرضية وغير متزنة؟

- د. عبد الرحمن الزنيدي: القضية نسبية؛ لأن كل واحد يحكم من موقعه، ويرى أن دائرته منضبطة، وما تجاوزه هو نوع من الارتباك. أما الارتباك فهو سيحدث حتماً. المسلم العالم الداعية حينما يعالج هذه القضية، ويتنزل فيها تجاوباً مع الواقع سيشعر بحرج، ليس فقط حرجاً نفسياً، بل أيضاً حرجاً فكرياً، يعني هو يشعر بأنه مسؤول أمام الله في فتواه إن أفتى بها، ومسؤول أمام الله إن نأى بنفسه عنها.

- د. ناصر العمر: أما جانب تحريف النصوص فإنه بيّن، لكن ما يسمى بالتيسير أرى أنه يجب أن نفرق بين أمرين: ما ندعو إليه الناس وبين تطبيقات الناس، وقد نجد للناس مخارج أو حلولاً بعدما يقع

منهم الفعل، الخطورة في أن يتابع واقع الناس المتردي، وذلك بسبب ضغط الواقع على المفتين وعلى الناس.

والإشكال هو أن يتحول الاستثناء إلى منهج، أو أن تتحول الرخص في الشريعة إلى منهج، ويبدو لي أن هذا هو الذي وقع فيه بعض الفقهاء. يقابل هذا المنهج جانب متشدد فتراه يتعامل بمثالية، وكِلا هذين المنهجين خطأ. والخلاصة أن نكيِّف الواقع مع الإسلام، ولا نكيف الإسلام مع واقعهم.

– د. عبد الله الصبيح: في قضية تطويع النص للواقع كما قلت بعضهم يسميه نوعاً من الاجتهاد، وقد يكون كذلك، وقد يسميه الطرف الآخر تطويعاً للنص؛ فالقضية موضع إشكال وتباين في وجهات النظر، وهذا الأمر له أسباب في واقعنا المعاصر، ومنها:

١ – انتشار الفتوى وشيوعها بسبب الفضائيات؛ فالفتوى الآن لم تعد خاصة بالمجتمع الذي تصدر له فلا يطَّلع عليها غيره؛ والأصل في الفتوى أن تكون خاصة بمن صدرت له، ولكن الفضائيات نشرتها وأصبحت الفتوى التي يفتي بها الفقيه لشخص يعيش قضية خاصة في فرنسا يسمعها الشخص في السعودية وفي اليمن وفي غيرهما من بلاد المسلمين، وهذا يجعل الشخص المستفتي ربما يعترض على مفتيه في بلده الذي يعرف ظروفه ويقدر وضعه، ويبحث عن فتوى أخرى ربما يظنها أيسر أو ربما يظنها أتقى لله عز وجل.

٢ – أن بعض ما نظنه ليّاً للنصوص هو نوع من الخلاف الفقهي الذي ربما يكون أحياناً معتبراً، ومن الأمثلة على ذلك ما يحصل من خلاف حول قضية تغطية الوجه: الرأي الفقهي المعتبر في السعودية هو وجوب تغطية الوجه، وعلماء آخرون لهم رأيهم ولهم أدلتهم يرون خلاف ذلك، ومن هؤلاء (الشيخ ناصر الألباني)، ولا يمكن أن تتهم الشيخ ناصر الألباني بأنه أراد أن يجاري الواقع، ولكن هذا نوع من الاجتهاد السائغ والخلاف المعتبر.

البيان : هذا صحيح، لكن لا شك في أن بعض الفقهاء المعاصرين رجَّح هذا الرأي أو ذاك ليس من منطلق دراسة النصوص الشرعية، بل بسبب ضغط الواقع، أو الاستسلام للإلف والعادة.

– د. عبد الله الصبيح: ربما؛ وهنا تأتي أهمية وعي الفقيه وتجرده للحق، ولا بد من ملاحظة ضرورة اتساع الصدر للرأي المخالف.

البيان : أعود لأصل الموضوع وأقول: كيف يمكن إعادة التوازن في بناء الصحوة من جديد؟

– د. عبد الرحمن الزنيدي: الصحوة الإسلامية تيار عام، الصحوة تعم الأمة بمختلف شرائحها، ومن ثم فينبغي أن لا نضع صورة مثالية نحكم بأن عدم الوصول إليها اختلال وسقوط.

وحتى أوضِّح الصورة؛ فإن غالب التيارات الأخرى في العالم الإسلامي تيارات نخب ثقافية وسياسية محدودة، ومن ثم يمكن مطالبتها بأن تكون على مستوى دعوتها، لكن الأمر غير ذلك بالنسبة لصحوة أمة تحتوي وستبقى محتوية على الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات.

لا يعني ذلك أن نقف في البناء الصحوي عن ترقيته نحو الأفضل إلى مجرد النظر المعجب بها فقط، كلاَّ! إن ترشيد مسيرة الصحوة، وعلاج الأدواء العارضة لها أمر واجب؛ إذ هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة للمسلمين.

ومن أهم قضايا الإصلاح المطلوبة في الصحوة الإسلامية تحقيق التوازن المعتدل بين جوانب بناءاتها بين الجانب التعبدي والجانب الاجتماعي، بين المجال التربوي، والمجال السياسي، بين الاندفاع في حماية الدين ونصرة الحق والتعقل ورعاية المصالح في اتخاذ المواقف والتصرفات... إلخ.

من أهم وسائل تحقيق هذا التوازن فقه الدين؛ فقه منهج الإسلام المبني على تحقيق المصالح ودرء المفاسد، منهج الإسلام الشمولي، وعدم الاندفاع مع ردات الفعل غير محسوبة العواقب للأحداث والمفاجآت.

البيان : كيف يستطيع جيل الصحوة تحصين الصف من مظاهر الهزيمة النفسية لدى عامة المسلمين والتقليل من آثار الارتباك؟

- د. عبد الرحمن الزنيدي: نعم! للارتباك وجه سلبي من حيث كونه اضطراب رؤية، وتخويفاً من الجو المحيط، وعجزاً عن اتخاذ مواقف، أو عدم ثقة في المواقف المتخذة، لكنَّ له وجهاً مشرقاً يتمثل في أنه يحمي الإنسان من الاندراج في تيار الأحداث انسياقاً معها أو مضادة لها دون وعي، وفي أنه ليس مجرد وعي، وإنما هي لحظات استبصار وتأمل يبحث عن الأرشد؛ ولهذا فالسؤال هو: كيف نتجاوز موقف الارتباك نحو مواقف إيجابية مبنية على هدي الشريعة وعقلانية النظر وحساب كل جوانب القضية؟

السبيل هنا هو ما ذكرته ــ ربما ــ قبلاً من الانطلاق من الرؤية الشرعية المتزنة لا من ردات الفعل، والفقه السديد بمقاصد الشريعة وأولويات المصالح؛ لأن غالب إشكاليات الصحوة ليست في مسائل تعبدية جاءت عموم أحكامها محسومة في الشرع، لكنها في مناهج دعوية وفي شؤون اجتماعية مدارها مقاصد الشريعة وجلب المصالح ودرء المفاسد، وأيضاً فقه الواقع بامتلاك تصورات صحيحة متماسكة لهذا الواقع ليكون الحكم عليه المنطِلقُ من هذا التصور سديداً.

البيان : هل من تجارب معاصرة تُستثمر في تجاوز الأزمة؟

- د. عبد الرحمن الزنيدي: أزمة؟ أية أزمة؟ الأمة الإسلامية ممثلة بصحوتها الشاملة لمختلف شرائحها تعيش حالة تطلع وتحفز نفسي للنهوض، وتهيؤ لتقديم الجهود لتحقيق هذا النهوض الحضاري.

نعم! المعوقات كثيرة وضخمة، ونواقص العلم والمعرفة حقيقة موجودة، وبطء الحركة مشهودة، لكن كل ذلك لا يبرر وصف الأمر بأزمة، بل ربما بعض هذه الأشياء تعد نعمة للصحوة، وبالذات المعوقات وجهود الأعداء؛ لأنها تشحذ العزم وتستحث لجمع الجهد، وللتوحد في العمل، وهي متطلبات ضرورية لحركة النهوض الحضاري.

البيان : النظر للجانب المحزن المولد للاحباط.

– د. عبد الرحمن الزنيدي: ليس هذا منهج المسلم، منهج المسلم دائماً استبشاري تفاؤلي، وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أعظم الناس تفاؤلاً في الساعات الحرجة، وكيف تحجب النظرة السوداوية رؤية المسلم وهو الذي يوقن بحكمة الله في تدبيره، وبمعية الله لعباده المؤمنين، وبأنه ما دام محتسباً مستقيماً على خير في كل أحواله «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

ليس معنى هذا طبعاً أن يتجاهل المسلم ما تعيشه الأمة من تخلف، وما يعتور سيرها من عثرات ونواقص، بل يستحضرها في حسبانه، لكنه لا يقعد عندها نائحاً نادباً دون حراك وتطلع؛ إنه يُبعد هذه الحجارة عن طريقه ما دام نظره إلى أهدافه من ورائها سائراً إلى تلك الأهداف مزيلاً تلك الحجارة عن طريقه.

البيان : هل هناك مؤشرات حقيقية لهذا التفاؤل؟

– د. عبد الرحمن الزنيدي: إذا تجاوزنا القاعدة الشرعية لموقف التفاؤل شعوراً بعدل الله وحكمته في أمره، وبمعيته للمؤمنين، وبحربه لمن يعادي أولياءه الصالحين؛ فإن مؤشرات السنن الاجتماعية والمعطيات الواقعية إذا قُرئت من زاوية أوسع من الأحداث الفردية بانفعالاتها السريعة اشتعالاً وانطفاء، كلها تدعم التفاؤل بظهور الإسلام ونهضة المسلمين نهضة مرتكزة على الإسلام بصفته المبدأ الأرشد في إصلاح الأحوال وحل المشكلات والشهادة على الناس.

– إن تحولات الأمة إذا نُظر إليها عبر مسيرة قرن كامل أو نصف قرن أو حتى ربع قرن تؤكد التقدم نحو الأفضل في القرب من الإسلام وارتقاء مستوى الفقه فيه وبناء الحياة على مقرراته.

– إن انفتاح رواد الصحوة علماءً ودعاةً ومثقفين على عصرهم بروح الإسلام دون انبهار مُعمٍ، ولا استغلاقٍ انكماشي.

– إن سقوط رايات الكفر والضلال والشرود والاغتراب في العالم الإسلامي كله على المستويات الثقافية والسياسية.

– إن الاستثمار الراشد لمنجزات العصر في الدعوة إلى الإسلام والبناء الحضاري.

– إن التفاعل الإيجابي مع تداعيات العولمة السلبية والإيجابية.

– إن اعتراف أعداء الأمة ودينها بأن صحوتها الراهنة ليست محصورة في تدين شخصي، وإنما هي انبعاث حضاري بمشروع شامل ينبغي أن تُستنفر القوى الكبرى لمواجهته.

– ثم إن إحسان المواقف تجاه هذه التداعيات العولمية والاستفزازات والتضييق، وضبط النفس وتلمس بدائل ممكنة للأبواب التي تغلق تجاه الدعوة وحركة النهوض.

كل ذلك يمثل مؤشرات للتفاؤل والاستبشار والآمال التي ينبغي أن تحفز على الحركة والتواصل وتقوية الذات أكثر فأكثر. إن وجود معوِّقين ومخذِّلين وأُجَراء لأعداء الأمة حتى أحياناً باسم الدعوة والغـيرة على الدين، وإن وجود متطرفين يقفزون فوق سنن الله في التغيير الاجتماعي، ونحو ذلك لا يمثل عامل إحباط يُسقط تلك المؤشرات؛ خاصة ونحن نشهد أن مثل هؤلاء أصبحوا شذوذاً عن مسيرة الصحوة العامة محدودين في أعدادهم ومساحة التقبل لهم.

– د. عبد الله الصبيح: يقال دائماً «الحكم على الشيء فرع عن تصوره» فالتصور الصحيح يؤدي إلى حكم صحيح، وما تحتاجه الصحوة من أجل إعادة التوازن في البناء ـــ في نظري ـــ هو إعادة بنـاء تصوراتها المعرفية بناء صحيحاً؛ وهذا يقتضي وجود تكامل معرفي يحتوي على مجموعة من المعـارف: الشرعية، والفلسفية، والاجتماعية، والاقتصادية. في الماضي كان ما يدرسه الفقيه في المتن الفقهي هو ما يمارسه الناس في الواقع أو قريب منه؛ أما الآن فلم يعد المتن الفقهي الذي يدرسه الطالـب يمثـل مرجعية للسلوك في كثير من شؤون الناس، وأصبحت المعارف الأخرى بل تجارب الشعوب الأخرى تمثل مرجعية للسلوك أكثر من كتاب الفقه. والفقيه كي يعدِّل سلوك الناس ويحكم على الواقعات التي يراها أمامه لا بد له من معرفة بهذه العلوم والمعارف التي تؤثر في سلوك الناس.

والتكامل المعرفي يكون بإعادة بناء مناهجنا الدراسية في الأقسام الشرعية والأقسام الاجتماعية علـى حد سواء، وإذا لم يتحقق ذلك فلا أقل من إقامة ندوات مشتركة يشترك فيها أصحاب التخصـص الشرعي مع نظرائهم من أصحاب التخصصات الأخرى، وهذه الندوات سوف تثري الطـرفين بـلا شك، ويطلع كل فريق على ما خفي عليه مما يعلمه الطرف الآخر.

البيان : كيف يستطيع جيل الصحوة تحصين الصف من مظاهر الهزيمة النفسية الموجودة عنـد عامـة المسلمين، والتقلل من آثار الارتباك التي أشرنا إليها في أول الندوة؟

– د. ناصر العمر: لعلِّي أركز على أبرز الأسباب التي توقع في الهزيمة النفسية، فمنها:

الفتور، الانقطاع عن الطريق، اختلاف القلوب، تنقّص العلماء والحكماء، الانتكاسة والعياذ بـالله، الاستسلام للعدو، ذهاب ريح الأمة، كل هذه الأسباب توصل في النهايـة إلى الهزيمـة النفسـية إذا وقعت، فتجنب هذه الأشياء بكاملها، وتصور عقبات الطريق كل ذلك ينقذ ـــ بإذن الله ـــ من هذا الأمر؛ ومن هنا فإن الأسباب التي تنجي، وتكون حصانة وعلاجاً ألخصها فيما يلي:

أولاً: فهم القرآن: إننا لم نُعطِ القرآن حقه الواجب من الفهم والتدبر، ولا شك أن للقـرآن تـأثيره الإيجابي في التخلص من كثير من الأمراض والآفات الحسية والمعنوية؛ ففهم القرآن هو المنجي بإذن الله والمخلص، بل أكاد أجزم أنه مانع بإذن الله من الهزيمة، والآيات صريحة في توضيح هذا الأمر، مـثلاً: {فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ} [الروم: ٦٠] ، هذا نموذج للخلاص من الهزيمة النفسية.

ثانياً: سيرة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم - وسير الأنبياء ـــ عليهم الصـــلاة والســـلام ـــ: فالذي يدرس سيرة الأنبياء يتعجب، مع ما مروا به من أحوال قاسية وظروف صعبة يلحظ أنه لم تمر بهم الهزيمة النفسية أبداً في حياتهم؛ فدراسة سيرة محمد -صلى الله عليه وسلم - وسيرة الأنبياء الثابتـــة في القرآن والسنة هذه أيضاً تخلِّص من الهزيمة، وكلمةُ تخلّص تتضمن المعنيين: عدم الوقوع، والنجـــاة إذا وقعت.

ثالثاً: سِيَر المجددين والمصلحين: وهذا أيضاً مهم جداً؛ لأن المجددين والمصلحين ليسوا أنبياء، ومع ذلك نرى كيف واجهوا ذلك ونقلوا الأمم من واقع إلى واقع، ولو أنهم استسلموا للهزيمـــة النفســـية لمـــا أصبحوا من المجددين، وما أثروا في تاريخ الأمة.

رابعاً: أيضاً من أبرز ما يحتاج أن يربى عليه الناس عدم الاعتماد المجرد على المظاهر المادية؛ فالإشكال أن أكثر ما يوجِد الهزيمة النفسية هو التعامل المباشر مع المظاهر المادية دون الرجوع إلى السنن الكونية والكتاب والسنة، فلا شك أنها تؤثر؛ فالأحداث الجارية صباح مساء مؤثرة في حياة الناس؛ إذن عدم الاعتماد عليها فقط وفهم وإدراك هذه الأحداث يساعد بإذن الله.

خامساً: فهم الواقع على حقيقته دون مبالغة، والتعامل معه بفقه ووعي، كل هذا يخلص بإذن الله.

وأركز هنا على ضرورة أن تكون الدعوات مبنية على أصول شرعية ثابتة وهـــي أصـــول الكتـــاب والسنة؛ فإذا كانت الدعوات مؤصلة فإنها لا تنهزم ولا تهتز، كالبناء الذي له أسس قوية جداً، أما إذا كانت هشة ضعيفة فهي عرضة للتبديل والتغيير، والله أعلم.

البيان : ذكرتم فضيلة الشيخ! سِيَر الأنبياء والمجددين والمصلحين؛ فهل ثمة تجارب من التاريخ أو مـــن الواقع المعاصر يمكن من خلالها أن نستثمر تلك التجارب وتعيننا في تجاوز الأزمات الـــتي يمكـــن أن تحدث في المستقبل؟

- د. ناصر العمر: أبرز التجارب المعاصرة لدينا تجربة أفغانستان، ويجب أن ننظر إليها مـــن الزاويـــة الإيجابية. لما دخلت روسيا بجبروتها وقوتها وغطرستها إلى أفغانستان؛ فإن الذين يتعاملون مـــع المـــادة يرضون بالهزيمة، وقد يستسلمون مباشرة وحدث هذا، لكن الذين تعاملوا بأسلوب آخـــر وأعلنـــوا الجهاد الحقيقي في حينه ماذا حدث بسبب ذلك؟ كما تعلم ما هي إلا سنوات معدودة ـــ اعتقد أنها قصيرة جداً ـــ في عمر الزمن حتى تداعت الأمة إلى الجهاد مع حداثة التجربة، ومع أن الأمة منقطعـــة لفترة طويلة عن الجهاد، وما يجري في فلسطين لم تشارك فيه الأمة من خارج فلسطين إلا قليلاً، مـــع ذلك انظر كيف كانت النتائج؟ أما ما حدث من سلبيات بعد ذلك فمسألة أخرى ليست مقصـــودة في حديثي، ولم يستثمر هذا الانتصار في أفغانستان واستغله الأعداء. وقد تحقق في قضـــية فلســـطين انتصارات ضخمة مع أن العالم تقريباً يكاد يُجمع ـــ حتى من داخل الدول العربية وغيرها ـــ ضـــد المسلمين وضد المجاهدين، ومع ذلك فالانتصار ظاهر وبارز. بالأمس القريب كنت أنظر إلى محاولـــة

اليهود اقتحام المسجد الأقصى، وفجأة نجد هذا الحشد الهائل بعشرات الآلاف من الفلسطينيين مع قوة الضربات، ومع شدة الأزمات، ومع الظروف المعيشية ومع التعذيب ومع التنكيل، ومع ذلك كله نلحظ القوة والسيطرة وتراجع العدو في أماكن كثيرة.

يكفي أن أقول كلمة واحدة: إن الصوت الأعلى هو صوت الجهاد ضد تلك المؤامرات، بل حتى في العمل السياسي عندما أجريت الانتخابات البلدية الفلسطينية، حصلت حماس على ٧٠% تقريباً، مع أننا لا نسلِّم بنزاهة الانتخابات تماماً؛ فكيف لو كانت نزيهة؟

في المشهد العراقي مثال آخر؛ لما دخلت أمريكا للعراق ما كان أحد يتصور أن يصمد الشعب العراقي هذا الصمود، الآن أمريكا في مأزق لا يُشَك فيه.

وهذا الثبات بحد ذاته انتصار عظيم، وعدم استسلام المصلحين لروح الهزيمة هي البداية القوية للنصر. قارن بين ما يحدث في العراق خلال السنتين الماضيتين وبين أيام التتار عندما استسلم الناس وهُزموا نفسياً!

إن هذه الأمثلة من أعظم التجارب. أيضاً تجربة البلقان وما حدث فيه يؤكد هذه الحقيقة.

إذن هذه تجارب واضحة وقوية لم يستسلم أصحابها للهزيمة النفسية أبداً؛ مع أن كل الأدلة الظاهرة المادية قد تدعو إلى مثل ذلك.

وأؤكد أن من أعظمها وأبرزها لديَّ قضية فلسطين، ولا تزال وستظل بإذن الله أنموذجاً حياً حتى يتحقق الانتصار الحاسم.

– د. عبد الله الصبيح: جواباً على سؤالك: «كيف يستطيع جيل الصحوة تحصين الصف من مظاهر الهزيمة النفسية الموجودة عند عامة المسلمين والتقلل من آثار الارتباك؟» أقول: قد ذكرت في مطلع حديثي عن الهزيمة النفسية أن لها صورتين: الأولى: هي هزيمة الذات أمام المبدأ. والثانية: هي هزيمة المبدأ أمام الواقع. وعلاج الصورة الأولى يكون بالتربية الإيمانية، والتربية على الزهد في الدنيا. وعلاج الصورة الثانية يكون بأمور:

الأول: بالتكامل المعرفي، والجمع بين الثقافتين الشرعية والمدنية.

الثاني: بتجاوز صدمة الانبهار أمام الواقع؛ فبعض الأساليب التربوية تحول بين الفرد والاتصال بالواقع ومعايشته، ويصور له بأنه شر وفساد؛ فإذا واجه الشخص الواقع فربما اكتشف أن الواقع ليس كما صُوِّر له، أو يكتشف أن أدواته عاجزة عن التعامل مع الواقع الجديد، فيشعر بالانبهار، وينهزم أمامه. ومعالجة هذا بتربية الفرد على مواجهة الواقع والتعايش معه بدلاً من العزلة عنه ثم مواجهته فجأة. إن المواجهة المستمرة المتدرجة مع الواقع تجبر الشخص على تطوير أدواته في التعامل مع واقعه والتكيف معه.

الثالث: الاطلاع على التجارب الناجحة التي استطاعت مواجهة الواقع وقدمت نماذج سليمة. إن توسيع المدارك بمعرفة بدائل عديدة من تجارب الشعوب سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة لا يجعل الشخص يشعر بالإحباط في مواجهة الواقع، بل يكبر عنده الأمل في التغلب عليه لما يعلمه من بدائل ناجحة.

البيان : لكن لو نظرنا إلى واقع بعض الناس فإننا نجد أنهم ينظرون إلى الجانب المحزن من هذه التفاعلات العالمية في الواقع المعاصر، وهذا ولَّد شعوراً بالإحباط عند بعض الناس.

- د. ناصر العمر: هذا يفسر ما قلته لك سابقاً. لا ينبغي أن نتعامل مع الحدث اليومي مباشرة بمعزل عن السنن الكونية والمنهج القرآني وسيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم - . فالذي يدرس سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم - يرى أنه مر بمكة في ظروف أقسى من التي نمر بها ونعيشها الآن. يقول الله ــ عز وجل ــ: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: ١١٠] .

الذي يتعامل مع الجانب المادي والحدث اليومي فقط قد يحدث عنده شيء من الانهزام، وأما من يتعامل مع القرآن والسنن الكونية، مع الأخذ بالأسباب فإنه لا يشك ــ بإذن الله ــ في تحقيق نصر الله. لكن نؤكد على حكمة الله ــ جل وعلا ــ البالغة في جعل الأسباب مؤثرة في الحياة؛ فمثلاً: الخلاف والاختلاف بين الدعاة عوامل مؤثرة تؤخر النصر، وكذلك سوء الظن بالله ــ جل وعلا ــ من أبرز الأسباب التي تؤخر النصر؛ وفي هذا الأمر يقول ــ تعالى ــ: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣] ، وقال ــ تعالى ــ: {وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا} [الفتح: ١٢] .

ولذلك لو أن الناس تلافوا الأسباب التي هم واقعون فيها واجتهدوا في هذا الأمر؛ فإن النصر سيكون أقرب مما يتصورون. قد يقول قائل: الناس الآن لم يتلافوا هذا الأمر؛ فمعناه أن الهزيمة قد وقعت. هذا غير صحيح، بل الانتصار قائم الآن ولله الحمد، والمناطق الساخنة في العالم مثل فلسطين، العراق، الشيشان، نموذج لذلك.

إذن نحن نتعامل مع نصوص الوحي ونتعامل مع الأسس والقواعد والسنن الكونية، ولا نتعامل فقط مع مجرد الحدث اليومي، مع أهمية مراعاة الحدث اليومي؛ فقد جعل الله ــ جل وعلا ــ له أساساً في الانتصار. قال ــ تعالى ــ: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٦] ، ولكن يراعى في حدود، ولكن لا يعني الاستسلام كما قال ــ تعالى ــ: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩] .

البيان : لكن هل هناك مؤشرات حقيقية لهذا التفاؤل. نحن نؤمن بأن النصر قادم وبأن العاقبة للمتقين، لكن هل يمكن أن يتحول هذا الفأل الحسن إلى واقع تعيشه الأمة؟

- د. ناصر العمر: نعم! يمكن، بل هذا هو الذي يجب أن يكون، وهذا دائماً أطرحه باسم التفاؤل الإيجابي، وهو أن يتحول التفاؤل الذي تطرحه الألسنة وتتلقاه الأسماع والقلوب إلى برامج عملية، مع ما أشرت إليه سابقاً بعدم الاستسلام للهزيمة مهما كانت النتائج.

التفاؤل الإيجابي ليس تحقيقه مرتبطاً بتحقق النتائج المباشرة؛ إنما يتحقق بإيجاد التفاؤل الإيجابي الدافع للعطاء، وبهذه المناسبة أوضح هذا المفهوم؛ لأن بعضاً قد أخطأ في فهمه للتفاؤل. فالتفاؤل هو مقدار تحقق التزام الدعاة بالمنهج الذي أنزله الله ــ سبحانه ــ سواء التزم به الناس أو لم يلتزموا؛ فثبات الدعاة وثبات المصلحين على مناهجهم مهما كان الأمر يعتبر انتصاراً، وأعطي دليلاً يؤكد هذه الحقيقة؛ فقد بينت قبل سنوات في كتاب (حقيقة الانتصار) أن الله ــ جل وعلا ــ قال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١] ؛ فبعض الأنبياء كما في الحديث الصحيح لم يؤمن معه أحد، وبعضهم آمن معه رجل واحد فقط، مع أن الله ــ تعالى ــ قال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١] ، ليس فقط في الآخرة ويوم يقوم الأشهاد، بل في الدنيا. إذن مفهوم النصر والهزيمة في أذهان كثير من الناس خطأ، لأنه يتعامل مع الواقع المادي فقط، وهذا خطأ، والصواب أن ثبات الداعية وثبات النبي والرسول وثبات المصلح والمجدد على مبدئه ومنهجه هو الانتصار بذاته، وهو أعظم الانتصارات.

أيضاً لفت نظري في سورة القصص قوله ــ تعالى ــ والخطاب لموسى وهارون ــ عليهما السلام ــ: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [القصص: ٣٥] ، بعد ذلك جاءت قضية السحرة؛ والقول الراجح أن فرعون قتلهم ومع ذلك فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قال: {أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} ، والسحرة ممن اتبع موسى وهارون؛ إذن وهم قتلوا فأين الغلبة؟ الغلبة أنهم ثبتوا عندما هددهم فرعون بالقتل، وكان جوابهم له كما في سورة الشعراء، وطه: {قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} [الشعراء: ٥٠] ، وأيضاً في السورة الأخرى: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [طه: ٧٢] .

كل الآيات تدل على أنهم ثبتوا على منهجهم إلى آخر لحظة، سواء أكان فرعون نفذ تهديده أم على القول الآخر أنه لم ينفذ، لكن الراجح أنه نفذ، وهذا الذي يدل عليه سياق الآيات، ومع ذلك ثبتوا، ولهذا يعتبر هذا انتصاراً عظيماً كما قال ــ تعالى ــ: {أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [القصص: ٣٥] ؛ فهذه هي الغلبة في الحقيقة.

على مدار التاريخ نجد أن حاكماً أو غيره يقتل مصلحاً لكن القاتل يشعر في داخله أنه هو المغلـــوب، ويشعر أن المقتول هو المنتصر، وأقوى دليل على ذلك قصة أصحاب الأخدود أنهم كلهم قتلوا ومـــع ذلك فهذا انتصار عظيم: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: ١١] .

لو أننا تعاملنا مع هذه الحقائق لما كان لليأس مكان. إذن التفاؤل الإيجابي هو تفاؤل النبي -صـــلى الله عليه وسلم – حيث كان يربي في أصحابه التفاؤل، لكنه كان يعمل، وكان يجتهد، وكان يســـتحثهم على العمل والإنجاز.

هنا أختم بكلمة: لا أعرف فترة خلال السنوات الماضية مرت بها الصحوة مـــن الانتشـــار والقـــوة والمكانة والتمكن كما هي اليوم، ومع ذلك لو أن كل واحد من هؤلاء الدعاة أو كل مجموعة دعوية قامت بمشروع إيجابي عملي لتغير واقع الأمر لانتصرت الأمة، لكن مع الأسف نميل للنقاش والجـــدال والخصومة وخدمة الأعداء من حيث لا نشعر.

وأخيراً: وجدت تلازماً بين تفاؤل النبي -صلى الله عليه وسلم – وبين اشتداد الأزمة؛ فإذا اشـــتدت الأزمة على محمد -صلى الله عليه وسلم – وجدنا أنه أكثر الناس تفاؤلاً، وهذا واضح في كل سيرته، بل وجدت في القرآن تلازماً بين الشدة والفرج، والعسر واليسر. إذن فالشدة التي يجـــدها بعضـــهم طريقاً للهزيمة النفسية، أو دليلاً عليها، اعتبرها من أكبر أدلة التفاؤل؟ لأن الانتصار يـــأتي بعـــدها إذا أخذت الأمة بأسبابه، وكانت إيجابية، وكانت عملية، ولا أشك في تحقق هذا، وأقوى مثال عنـــدي قضية فلسطين؛ فلو خُلّي بين الأمة وبين عدوها في فلسطين ما لبث اليهود إلاَّ قليلاً، هـــذه قنـــاعتي، لكن مع الأسف الواقع غير ذلك.

– د. عبد الله الصبيح: هناك عدد من العوامل مرتبطة بنظرة التشاؤم هذه التي تتحدث عنها منها:

١ – النظر إلى الجانب المحزن والنظر إلى الجانب الإيجابي من واقع الأمة هو نتيجة للتربية الـــتي يتـــربى عليها الشخص؛ فإذا كان المنهج التربوي يتصيد الأخطاء عند الأمة والمصائب التي تمر بها، ويتربى على نظرية المؤامرة؛ فإن النتيجة هي الشعور بالإحباط أو الثورة على الأمة والتغيير بالقوة.

٢ – النظرة المثالية التي يتربى عليها بعض الناس ويريد الأمة أن تكون عليها. إن الذي يجب أن نعلمه أن الفساد والضعف حدث في الأمة متدرجاً عبر عشرات السنين، بل مئات السنين، وليس نتيجة يوم وليلة؛ إنه لم يحدث فجأة وحاشا لله أن يقع فجأة؛ وزواله لا يكون فجأة، بل لا بد من التـــدرج في إصلاحه. ولهذا لا بد أن يتربى الشباب على الواقعية في الإصلاح، فيُسَرَّ بالإصلاح الجزئي ويشـــارك فيه ويسعى لما بعده من الإصلاح ويطالب به. أما أن يرفض كل خطوة نحو الإصلاح؛ لأنها لا تحقـــق ما يسعى إليه من الصورة المثالية التي في ذهنه؛ فهذا سوف يفضي به إلى النظرة التشاؤمية واليـــأس في صلاح الأمة؛ وربما ينتج عن هذا هزيمة نفسية، وهي هزيمة المبدأ أمام الواقع الذي أشرت إليه من قبل.

الهزيمة النفسية .. وفقه المرحلة

عبد العزيز عبد الله الحسيني

الهزيمة النفسية سقوط حضاري لا يضاهيه نوع آخر من الهزائم العسكرية التقليدية، وخطورتها تكمن في كونها استعماراً للعقول والقلوب، قبل أن تكون استعماراً لخيرات الأرض ومقدراتها.

وعلى شدة وقع الاستعمار العسكري إلا أنه وسيلة قوية لإيقاظ الأمة من غفلتها، وتقوية لُحمتها، وتحرُّك غيرتها، وإحياء حميّتها الدينية، وفي النهاية طال هذا الاستعمار أم قصر فإن مصيره الرحيل.

أما الاستعمار النفسي فيتغلغل في نفوس معظم أبناء الأمة دون أن يدركوا أثره وخطره؛ بل دون أن يشعروا بإصابتهم به!

ولأثر هذا الغزو النفسي فقد فطنت بعض الدول إلى أهميته حتى غدا عنصراً مهماً في الحملات الفكرية والإعلامية الموجهة للدول المغزوّة أثناء الصراعات الحضارية، كي يدب فيها الوهن ويدوم اليأس.

- من أسبابها:

لعل من أهم أسباب هذه الهزيمة النفسية التي أصابت الأمة في مقتل وأدى إلى ضعفها ووهنها، بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وجهلهم بحقيقته، ومرارة الواقع الذي يعيشونه، وخذلان المسلمين بعضهم بعضاً، وعدم اتحادهم أمام قوة أعدائهم، وعدم إدراكهم لأسباب المد والجزر في تاريخ أمتهم، وعدم إلمامهم بعوامل النصر والهزيمة، وتأثرهم بوسائل الإعلام الموجهة إليهم التي يحرص الغرب من خلالها على إبراز أنشطته العسكرية وقدراته الحربية واستعراض أسلحته وتقنيته المتطورة، وإشهار اكتشافاته العلمية وغزوه حتى للفضاء الخارجي، ونحو ذلك من الأمور التي تُعزز مكانته وتوهن غيره وتوحي له بالعجز واليأس، بالإضافة إلى ما يرونه من هيمنة أعدائهم على معظم المنظمات والبنوك والهيئات الرسمية واستغلالها لإخضاع الدول الإسلامية وإخضاع بعضها بالعقوبات والمقاطعات الاقتصادية، وأحياناً بالقوة والتدخل العسكري إذا لزم الأمر.

مثل هذه الأمور مجتمعة ولّدت هزائم نفسية متتابعة، كان الغرب يهدف إليها ويغذيها بشتى وسائله الإعلامية والسياسية والاقتصادية، ليستمر التخدير، ويدوم الخنوع.

وتجاوز الأمر قنطرته وأثّر رجع ذلك الصدى في بعض أبناء جلدتنا ـــ الانهزاميين ـــ الذين أكدوا هذه الهزيمة وعززوها؛ بكتاباتهم وتحليلاتهم الانهزامية في الصحف والمجلات والفضائيات بثنائهم المبالغ فيه على الغرب وحضارته وقيمه وقوته وديمقراطيته، وأنه إنما سيطر على هذه الأمة بسبب ضعفها وتخلفها في الجوانب العلمية والسياسية والاقتصادية والتقنية فحسب.

ومع مصداقية بعض تلك التحليلات ظاهرياً؛ لكونها أعراضاً للمرض الحقيقي الذي تعانيه أمتنا؛ إلا أن أولئك الكتاب والمحللين جعلوها أمراضاً مستقلة ينبغي أن يتجه إليها العلاج مباشرة، وذهلوا ذهولاً أعمى عن (السبب الأساس) في نشوء تلك الأعراض، وحادوا عن استلهام تعاليم القرآن، وتوجيهات

السنَّة، واستقراء التاريخ، ومعرفة السنن الجارية، والنواميس الشرعية، حول أسباب ضعف الأمة الإسلامية والمخرج منها، ولم يتطرقوا إلى ذلك من قريب أو بعيد، لعدم إدراكهم لأبجديات تلك المسائل، ولجهلهم بفقه الهزيمة التي حلّت بالأمة، ولخوضهم في أمور لا يملكون أدواتها، ولتصدرهم لقضايا لا علاقة لتخصصاتهم فيما يتحدثون عنه أو يكتبون فيه، وللهوى والحقد الذي يُكنّه بعض أولئك لهذا الدين.

وللأسف فإن ذلك الطرح المادي المتكرر، قد أثر على قطاع عريض من شباب المسلمين، وكان سبباً في صرفهم عن عودتهم لهذا الدين، وإصابة غيرهم باليأس والقنوط، وأصبح بعضهم الآخر (يُسقط) تقصيره وأخطاءه على غيره، ويخرج نفسه من مغبّة مسؤولية ضعف أمته وهوانها، فعطلوا طاقاتهم وقدراتهم، بل وجميع أسلحتهم المعنوية الأخرى؛ فهم برأيهم ــ وكما فهموه من أولئك المحللين الانهزاميين ــ لا يملكون شيئاً لمواجهة تلك القوة القاهرة؛ حتى أصبح كثير منهم يعتقد أن هذا الواقع السيئ أمر لا مفر عنه وشر لا بد منه، فأصيبوا بهزيمة نفسية محبطة، وأصبحوا لا يؤمنون ولا يعتمدون ولا يطمئنون ولا يثقون، إلا بالقوة المادية فحسب، وغدوا ينظرون إلى الغرب بنفسية الغالب والمغلوب، وجنت الأمة آثار تلك الهزيمة النفسية المحبطة، وهو ما تعيشه اليوم بكل مآسي الواقع ومرارته.

- من آثار الهزيمة النفسية:

لا يحتاج المرء إلى كبير تأمل ليدرك إلى أي مدى أثرت هذه الهزيمة النفسية في واقع أمته؛ فهي لا تعاني من شيء كمعاناتها من آثار هذه الهزيمة التي دمرت معنوياتها، وحطمت دوافعها، وأحبطت تطلعاتها، وأصابتها بالضعف والهوان، وألقت بنفسها في أحضان عدوها، ومكّنته من كيانها، ودانت له بالتبعية، والولاء التام، وانقادت له مستسلمة دون أي مقاومة تذكر، حيث تشعر بمرارة العجز والقهر واليأس إلى درجة أنه قد زال لدى معظم المسلمين أية بارقة أمل في نهضة حضارية جديدة أو مستقبل مشرق واعد، فتحقق لعدوها ما أراد من السيطرة على معظم أفرادها نفسياً، ومن ثم ثقافياً وسياسياً واقتصادياً بل وسلوكياً.

وإنه ليصعب على المسلم أن يُشخّص الآثار المترتبة للهزيمة النفسية على أمته دون أن يصاب بحشرجة يصعب معها مواصلة حديثه، ومن يُتابع وسائل الإعلام والاتصال المختلفة، يجد أن الأمة الإسلامية بلغت ــ بسبب عجزها ويأسها ــ حداً لا مزيد عليه من الذل والهوان، حتى إنه لا يكاد يوجد عضو من أعضائها، إلا وفيه جرح ينزف، ودم يثعب، وشعب يُهان، وحرمات تنتهك، وأراضٍ تغتصب.

ووصلت أوضاع أمتنا إلى منتهى (الانحطاط والتخلف)(١)، وأصبحنا نعيش على هامش العالم وفي ذيل القائمة، وتداعت علينا الأمم الكافرة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وتسلطوا علينا من كل جانب، وأصبحنا نعيش عصر (الغثائية) التي أخبر عنها المصطفى -صلى الله عليه وسلم- بقوله:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أوَ من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»(٢).

نعم! مليار ومئتا مليون مسلم، ولكن لا وزن لأكثرهم ولا قيمة، معظم دُولهم ضعيفة تعاني الفساد وتشكو الفقر، وأكثر شعوبهم مسكينة تعاني الجهل وتشكو القهر.

وجنت الأمة آثار الهزيمة النفسية التي تعايشت معها سنين طويلة، و لم تستطع معظم دولها الخروج منها حتى الآن؛ بل و لم تبذل ما يوحي بمجرد المحاولة، فقعدت واستسلمت وتخلفت وذلت، فاستُبيحت(٣).

- فقه الضعف والقوة:

القوة المادية ــ في كل زمان ومكان ــ هي إحدى دعائم الأمم والدول، ولا ينبغي التهوين من شأنها أو التشكيك في أثرها؛ فهي سبب من الأسباب، والأخذ بالأسباب واجب شرعي، وطلب النصر من دون بذل الغاية القصوى في الإعداد ــ حسب سنن الله ــ عبث بالأسباب، وتعطيله تعطيل لحكمته سبحانه؛ فالله ــ تعالى ــ جعل للطير والبهائم عُدة وأسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب والظفر والناب، وخلق للآدمي عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ويهديه إلى التحصن بالأبنية والدروع، ومن عطّل نعمة الله في ترك السبب فقد عطّل حكمته(٤).

فلا أحد يقلل من أثر القوة المادية وشدة الحاجة إليها؛ إلا أن المبالغة في الحديث عنها، وإشعار شباب الأمة أن ما هم فيه من الذل والهوان، إنما هو بسبب ضعف قوتهم المادية، وأن طريق النهوض والخروج من الهوان الذي حلّ بأمتهم إنما يكمن ــ فقط ــ في الحصول على تلك القوة ومجارات الغرب في تقدمه العلمي والتقني حتى يصبح لنا قوة تضاهي قوته، ونحو ذلك من المفاهيم الخاطئة التي ولّدت الكثير من السلبيات المتعددة. فبالإضافة إلى كون ذلك المفهوم خطأ محضاً يخالفه التاريخ والواقع، وكونه انحرافاً كبيراً في التصور الصحيح لمفهوم القوة والموازنة بينها وبين القوة الروحية ــ كما سيأتي ــ فهو أيضاً صرف لشباب الأمة عن واقع أمتهم من حيث بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وعدم إشعارهم بأثر ذلك في ضعف أمتهم وهوانها، كما أن التركيز على القوة المادية وجعلها المخرج الوحيد لأزمة الأمة وهوانها فحسب؛ تعطيل للقوة الروحية التي تمتلكها الأمة، وتغييب لها في نفوس أبنائها بالرغم من أهميتها وأثرها الكبير في تغيير نفوسهم وإحياء روحهم وإعادة الثقة إليهم، كما أن التركيز على القوة المادية فحسب استمرار لهزيمتهم النفسية وزيادةٌ ليأسهم وقنوطهم من إمكانية نهضة أمتهم مرة أخرى؛ إذ إن الأمة الإسلامية الآن لا تملك ذلك التفوق المادي الذي تضاهي به ما تملكه الدول الغربية؛ فهم قد سبقونا في هذا المضمار سبقاً واسعاً، وليس من المنتظر ولو بعد عدة قرون أن نجاريهم في هذا الجانب فضلاً عن التفوق عليهم ــ إلا أن يشاء الله تعالى ــ.

ومع أهمية القوة المادية وضرورة العناية بها، إلا أن أمتنا تمتلك من مقومات القوة والنهضة ما هو أهم من القوة المادية البحتة، تمتلك القوة الإيمانية، وكانت السبب الأول في نهضتها وعزها في ذلك الوقت، وهو ما نؤمِّل أن يكون سبباً في نهضتنا وعزتنا مرة أخرى.

ولا أقصد من هذا التقليل من شأن القوة المادية، أو أن نيأس ونقنط من إمكانية امتلاكها، أو أن نُسلّم ونستسلم لأعدائنا لعدم مجاراتهم في قوتهم المادية، بل لا بد من السعي الجاد للإعداد والاهتمام بالنواحي العلمية والتقنية والعسكرية والحربية، وأن نبذل فيها غاية جهدنا ووسعنا، ولكن لا بوصفها (الإكسير) الذي سيعيد لنا العزة والهيبة المفقودة، وإنما بوصفها (مطلباً) لعمارة الأرض واستخلافها، و (ضرورة) ذاتية لوجودنا وتقدمنا، و (حاجة) ملحة للذبّ عن ديننا ومواجهة عدونا(١).

والله ــ تعالى ــ أمرنا بذلك وأوجب علينا العناية بالنواحي المادية، وعمارة الأرض، وإعداد القوة، فقال ــ سبحانه ــ: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠]، فالله أمرنا بالإعداد ولكن حسب الاستطاعة، والمقصود بذلك كما يقول ابن كثير ــ رحمه الله ــ: «أي مهما أمكنكم»(٢)، والإعداد حسب الاستطاعة ــ مع الإيمان ــ من أسباب النصر لا من أسباب الهزيمة. وحينما ذكر الله ــ سبحانه ــ القوة فقد أطلقها دون قيد، وفي ذلك أيضاً دلالة صريحة على أن القوة نسبية، فلا يُشترط التكافؤ فيها، فضلاً عن أن يكون لدينا قوة أعظم مما لدى العدو.

ولذا يجب عدم الاستسلام للعدو وإيقاف المقاومة (جهاد الدفع)، إذا احتل بلداً من بلاد المسلمين، بحجة عدم كفاية الإعداد، ليقوم العدو بعد ذلك بابتلاع ديار المسلمين بلداً بعد آخر، فلا بد من الدفع حسب الاستطاعة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ: «أما قتال الدفع عن الحرمة والدين فواجب إجماعاً؛ فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط، بل يُدفع بحسب الإمكان»(٣).

وإذا رأى علماءُ أهلِ بلدِ النازلةِ عدمَ قدرتهم على الجهاد، فليس شرطاً أن يكون ذلك عبر أساليب قتالية، وإنما عبر وسائل كثيرة: علمية، أو اجتماعية، أو دعوية، أو إغاثية، أو إعلامية وهو الأهم ــ والأهم جداً ــ في هذا العصر، ونحو ذلك مما يحتاجه أهل كل بلد؛ فهم الأدرى بحسابات المصالح والمفاسد، والضرورات الشرعية التي تُقدر بقدرها.

ومثل تلك الحسابات والضرورات التي لها علاقة بمصير أمة ما، ينبغي ألا ينبري لها آحاد العلماء وأفرادهم، فلا أحد يؤمَن عليه النقص أو الزلل، وإنما الذي يُقدّر الجهاد من عدمه، علماءُ أهل بلد النازلة الراسخون في العلم، أهل الدين الصحيح، ولا يكفي هذا، بل لا بد أن يكونوا من الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ: «الواجب أن يُعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون أهل الدنيا الذين يغلب

عليهم النظر في ظاهر الدين؛ فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهـــل الـــدين الـــذين لا خـــبرة لهـــم في الدنيا»(٤).

ومشكلة كثير من المسلمين اليوم في نظرتهم للقوة المادية، أنهم ما بين مُشرّق ومُغرّب:

- فبعضهم يهوّن من القوة المادية ويقلل من أثرها والعمل على امتلاكها، لدرجة أن بعضـــهم يـــرى قوله ـــ تعالى ـــ: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠] ويتناسى ما بعدها: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠] فغفلوا عن الغرض من إعداد القوة، وهـــو إرهاب العدو.

- وبعضهم الآخر، ضخّم قضية القوة المادية وبالغ في أثرها، وعلّق ثقته بها واعتماده عليها، حتى جعل بعضهم من القوة المادية إلهاً يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحوُ الأسباب أن تكون أســـباباً نقـــصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْح في الشرع»(٥).

والتوازن في النظر إلى القوة المادية أمر مطلوب؛ فهي سبب وإن كانت من أهم الأسباب إلا أنه ينبغي عدم الاعتماد عليها، وانظر وتأمل آثار التعلق والاعتماد على السبب: ما نتائجه وعواقبه؟ لقد كـــان صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في كل غزوة يشاركون فيها أقل عـــدداً وعُـــدّة مـــن عدوهم، وكان اعتمادهم بالنصر على الله ـــ تعالى ـــ وحده، فكان النصر حليفهم والفوز رديفهـــم، عدا معركة واحدة هي معركة (حنين) شاركوا فيها وكانوا أكثر عدداً، فاعتمدوا ـــ في البدايـــة ـــ على ذلك، حتى قال قائلهم: «لن نُهزَم اليوم من قلة»، فوكلهم الله ـــ تعالى ـــ إلى الســـبب الـــذي اعتمدوا عليه، فلم يُغن عنهم شيئاً {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَـــاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥].

فنحن أمة رسالة، نستمد قوتنا وعزتنا من ديننا أولاً، وإذا كان الله ـــ تعالى ـــ قد أمرنا بإعداد القوة المادية، فقد أمرنا قبل ذلك بإعداد القوة الإيمانية، فلا ينبغي الاعتماد عليها فحسب؛ وما قيمة الإيمان حينئذٍ إذا كان مطلوباً منا ـــ كما يزعم بعض الانهزاميين ـــ أن نعد قوة كقوة العـــدو، وألا نقاتلـــه حتى نماثله في القوة، فالمسألة توازن لا إفراط ولا تفريط، وإذا كان الإعداد المـــادي (مهمّـــاً) وهـــو كذلك؛ فإن الإعداد الروحي والزاد الإيماني (أهمُّ) وأوْلى. فمن المسلّم به أن المقدمات إذا صـــحّت، أعقبها نتائج مثمرة بإذن الله.

والشواهد تدل على أن حركة التاريخ لا تخضع للعوامل المادية فحسب؛ وإلا فما كـــان لموســـى أن يصارع فرعون، ولا للضعفاء أن يقاوموا المستبدين من المستعمرين، ولا لمحمد -صلى الله عليه وسلم - ومن آمن معه أن يقاتلوا قريشاً والقبائل العربية وفارس والروم. ولولا الخيانات لما سقط (العـــراق) حتى وإن تفوَّق الأعداء في العدد والعدة، وبالرغم من تلك القوة القاهرة؛ فإن المقاومة العراقيـــة مـــا

زالت صامدة ثابتة، ولو تمكنت من امتلاك (بعض) أنواع الأسلحة التي يمتلكها العدو لما بقي أولئك الأعداء يوماً واحداً في بلدهم. قال ــ تعالى ــ: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

ومن يستقرئ التاريخ يجد فيه ما يبدد التشاؤم ويرفع اليأس ويزرع الثقة ويُذكي الأمل؛ فليس شرطاً أن الأمم المؤمنة بالله لا تتفوق ولا تنتصر على أعدائها إلا إذا كانت مكافئة لهم أو أقوى عدداً وعدة منهم.

بنو إسرائيل، كانوا يعيشون في مصر، وكانت بالنسبة لهم بيئة قاتمة خانقة، قد أطبقت عليهم كل الإطباق، وسدت في وجوههم المنافذ والأبواب؛ فهم يعيشون في حاضر شقي، ومستقبل مظلم، وقلة عدد وعدة، وفقر وذلة، وفي ظل هذه الظروف يولد موسى ــ عليه السلام ــ وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب، ومنطق الأشياء: أراد فرعون ألا يولد فوُلد، وأراد ألا يعيش فعاش. يعيش في صندوق خشبي مسدود، وفي ماء النيل الفائض، وينشأ عند عدو قاهر، وسُخرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي؛ فيجد الضيافة الكريمة، ويزوجونه إحدى بناتهم، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بها، فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل، ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة، فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها، ويكرم بالنبوة والرسالة، ويدخل على فرعون في أُبهته وسلطانه، وفي ملئه وأعوانه. وهكذا يهلك فرعون وقومه (الأغنياء الأقوياء) ويملك بنو إسرائيل (الضعفاء الفقراء): {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧].

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي (القوة) التي قهر بها موسى (أعظم قوة) في عصره ومصره؟! وما سر انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟! وما (سلاحهم) الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر(١)؟

وماذا لو كان موسى ــ عليه السلام ــ يفكر تفكير كثير من المسلمين اليوم، ويستعرض الإمكانات والقوة التي يملكها هو وقومه، ويوازنها بما يملكه فرعون وجنده، بنظرة مادية محضة، هل كان سيواجه فرعون ويدخل معه في حرب لا هوادة فيها؟!

ومثال آخر: أرجو أيضاً أن يكون في ذكره ما يبدد اليأس ويزرع الأمل والثقة:

فالأمة العربية كانت أمة موغلة في التخلف والضعف والهوان والانحطاط في معظم الميادين والمجالات، السياسية والعقدية والاجتماعية والسلوكية والحربية.

ومن كان هذا شأنهم فإنهم لا يفكرون ولا يحلمون حتى في المنام بالهجوم على الدول المجاورة فضلاً على الانتصار عليها، حتى إن فارس والروم (الدول العظمى في ذلك الوقت) لم تفكرا مجرد تفكير في فتح الجزيرة والاستيلاء عليها، وذلك لقلة خيراتها ومواردها، وهوان أهلها عليهم.

ولكن الله ـــ تعالى ـــ امتن على تلك الأمة بأن بعث فيهم خاتم أنبيائه ورسله محمداً -صلى الله عليه وسلم - ، فجاء إليهم وعندهم من الفساد والهوان والبعد عن الفطرة ما ذُكر، وفي ظـــل ســـنوات معدودة، تغيرت حالهم، وانقلبت أمورهم، فخرجوا من جزيرتهم كالسيل الجارف يفتحون ويقهرون، بثياب مرقعة، وسيوف بالية، على خيل بعضها عارية؛ فما لبثوا أن ملكوا الدنيا، وانقلب رعاة الشاة والإبل إلى ساسة لأرقى الأمم.

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي، وهذا الانقلاب الهائل في جميع الميادين والمجالات، اعتبره المؤرخون الغربيون لغزاً من ألغاز التاريخ، بل رأوا أن هذا الحدث هو أغرب مـــا وقـــع في التـــاريخ الإنساني كله.

لماذا سموه لغزاً؟

لأنهم قالوا: إن العادة جرت أن الغلبة والانتصار للدول بسبب أمرين: إما كثرة عدد أو قـــوة عتـــاد، والأمة العربية في ذلك الوقت لم تكن تملك لا كثرة عدد ولا قوة عتاد.

أما مسألة العدد:

فكلنا نعلم أنه ليس هناك معركة شارك فيها المسلمون إلا وهم أقل عدداً وعدة: بـــدر ـــ أحـــد ـــ الأحزاب ـــ المريسيع ـــ مؤتة... إلخ، عدا معركة واحدة، كان المسلمون فيها أكثر عدداً وعدة وهي معركة حُنين، وقد سبق أن ذكرنا ما حصل فيها من اعتمادهم على كثرتهم فلن تغن عنهم شيئاً. كل ذلك ليُشعرهم ـــ ومن بعدهم إلى قيام الساعة ـــ أن المسلمين لا ينبغي أن يتعلقوا بأي ســـبب مـــن الأسباب المادية، لا بكثرتهم، ولا بقوتهم، وإنما بإسلامهم وإيمانهم وتوكلهم على ربهم وثقتهم به أولاً.

أما مسألة قوة العتاد:

فالمسلمون لم يكونوا متقدمين في ذلك الوقت بأي نوع من أنواع السلاح، والجيش لم يكن منظمـــاً، إنما هم مجموعة من المتطوعين يجهزون أنفسهم بأنفسهم حتى إن بعضهم كان يسمع منادي الجهـــاد فيخرج وما معه شيء، لا رمح ولا سيف ولا مركب {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ} [التوبة: ٩٢](١). ومع ذلك اكتسحوا العالم المعروف كله.

فما هي القوة التي قهر بها الرسول -صلى الله عليه وسلم - من وقف في طريق دعوته؟ ومـــا ســـر انتصار المسلمين في معظم الغزوات التي شاركوا فيها وأخضعوا أعظم قـــوتين في عهـــدهم (فـــارس والروم) تحت حكمهم وسيادتهم؟ وما سلاحهم الذي واجهوا به جميع أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة؟

والجواب: ليس لغزاً ولا يحتاج لكثير تأمل؛ فنحن معشر المسلمين نعرف أن الإيمان هو السبب الـــذي عز به المسلمون وسادوا.

وتصوروا ماذا لو كان الرسول -صلى الله عليه وسلم - ومن بعده من صحابته الكــرام يفكــرون تفكير كثير من المسلمين اليوم ويوازنون ما يملكونه بما يملكه أعداؤهم من القوة المادية فحسب؟ ومـــا كان مصير الإنسانية لو قال المسلمون في ذلك الوقت: لا حول لنا ولا قوة في مقارعة تلك القبائـــل والدول، ولا ينبغي أن نقاتلهم حتى نملك مثل ما يملكون من كثرة العدد وقوة العتاد؟

لو قالوا مثل ذلك، فهل كانوا سيُخضعون العالم في ذلك الوقت تحت نفوذهم وسلطانهم؟

ولأجل ذلك كله، فإن سبب ضعف أمتنا، وذلها، وهوانها، وتسلط أعدائها عليها، ليس لأنها متخلفـــة علمياً وتقنياً وحربياً وعسكرياً ـــ وإن كان لذلك أثر ولا شك ـــ إلا أن الســـبب ـــ الـــرئيس ـــ لضعفها وتخلفها هو بعدها عن دينها، وما تخلفها في النواحي العلمية وغيره من المجالات إلا أعـــراض للبعد عن الدين، وهو المرض الحقيقي الذي تعانيه أمتنا، وكان السبب الأول في ضعفها وهوانها، وهو عقوبة من العقوبات الإلهية لبعد الأمة عن دينها. يقول شيخ الإسلام ابن تيميـــة ـــ رحمـــه الله ـــ: «وحيث ظهر الكفار، فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله، وإذا كان في المسلمين ضعف وكان عدوهم مستظهراً عليهم، كان ذلك لتفـــريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً»(٢).

ولذا فإنه لا مخرج من الحالة المتردية والأوضاع المأساوية التي تعيشها أمتنا، إلا بالرجوع إلى هذا الدين القويم.

الهزيمة النفسية داء عضال لم يتسلط على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء.

وأمتنا اليوم لا تعاني من شيء كمعاناتها من آثار هذه الهزيمة التي دمرت معنوياتها، وحطّمت دوافعها، وأحبطت تطلعاتها، وأصابتها بالضعف والهوان؛ حيث ألقت بنفسها في أحضان عدوها، ومكّنته مـــن كيانها، ودانت له بالتبعية والولاء التام، وانقادت له مستسلمة دون أي مقاومة تذكر، حيث تشـــعر بمرارة العجز والقهر واليأس، إلى درجة أنه قد زال لدى معظم المسلمين أية بارقـــة أمـــل في نهضـــة حضارية جديدة، أو مستقبل مشرق واعد، فتحقق للعدو ما أراد من السيطرة على كثير مـــن أفـــراد هذه الأمة نفسياً ومن ثَم ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وسلوكياً.

- حتى لا نيأس:

في عصور مضت دانت القوة والغلبة للأمة الإسلامية واستمرت قروناً طويلة، وحينما بدأ المســـلمون بالتخلي عن دينهم بدأ الضعف يدب في أوصالهم حتى دانت القوة والغلبة لغيرهم.

وحينما استكملت أمريكا أسباب النصر من القوة وإقامة العدل وأداء الحقوق وعدم الظلم لرعاياهـــا؛ دانت لهم القوة حسب سنن الله الجارية في التمكين والاستخلاف. يقول شيخ الإسلام ابن تيميـــة ـــ رحمه الله ـــ: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثـــر ممـــا

تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»(٣).

واليوم بدأت تتعالى الأصوات وترتفع من عقلاء أمريكا قبل غيرهم، محذرين من السقوط والزوال، بعد أن فقدت أمريكا تلك الخاصية، وأصبح الظلم والإرهاب والاستبداد وانتهاك حقوق الآخرين والجور والغطرسة، سمة من أهم سماتها. وستسقط حتماً كل دولة تجعل من الظلم والاستبداد والقهر والإرهاب منهجاً لها ومبدأً من مبادئها، فالكون يسير حسب نواميس شرعية ووفق سنن جارية، قال ــ تعالى ــ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: ٥٩].

وليس المهم متى سيحدث ذلك؛ إنما المهم أنه سيحدث إن عاجلاً أو آجلاً، والذي أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى، قادر على أن يهلك مَنْ دونهم، وأن يسلط عليهم جنداً من جنده {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ} [المدثر: ٣١]، وأمتنا متى استكملت أسباب النصر والتمكين فإنها حتماً ستعود قوية عزيزة، في هذا الجيل أو الذي بعده، والنصر والتمكين ليس شرطاً أن يراه الداعية بعينه؛ فالرسول -صلى الله عليه وسلم - وعد بفتح فارس والشام واليمن، ولكن ذلك لم يتحقق إلا بعد وفاته -صلى الله عليه وسلم - بسنين. فدعوة الله لا بد أن تعلو، ودين الله لا بد أن ينتصر ويسود، ولا نقول هذا جُزافاً؛ وإنما هو عقيدة نستقيها من كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم - .

- المد والجزر في تاريخ المسلمين:

أقول هذا بعد أن بلغ اليأس والقنوط والإحباط ــ من عودة هذه الأمة إلى مجدها ــ منتهاه عند قطاع عريض من المسلمين، ونسوا أن ما تمر به الأمة من ضعف، إنما هو مرحلة سبق أن مر بها ما هو أشد ضراوة وأعنف شراسة؛ فقد تعرضت من قبل وعلى امتداد تاريخها الطويل لمحاولات عديدة للقضاء عليها واستئصال شأفتها وإبعادها عن دينها ومصدر عزها، ولكنها في كل مرة كانت تقوم من جديد، بعزيمة أقوى وشكيمة أشد، ومن يستقرئ تاريخ أمتنا، يجد أنه كان بين مد وجزر؛ فمتى كانت الأمة قوية بدينها وحققت أسباب النصر عزّت وسادت، ومتى ضعف تمسكها به ذلّت واستكانت، وإليك مصداق ذلك:

- قبل وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم - ، كانت الأمة في عز وسؤدد، وقوة ومنعة، وحينما توفي -صلى الله عليه وسلم - ، مرت الأمة بأزمة عصيبة، ومرحلة خطيرة؛ حيث عَظُمَ الخطب، واشتد الكرب، وظهر مدّعو النبوة، وامتنع قوم عن أداء الزكاة، وارتد من ارتد من العرب، حتى إنه لم يبق للجمعة مقام في بلد سوى في مكة والمدينة، وأصبح حال المسلمين كما يقول عروة ــ رضي الله عنه ــ: «كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم، وقلة عددهم، وكثرة عدوهم» حتى وُجد

من المسلمين من بلغ به اليأس أن قال لأبي بكر ــ رضي الله عنه ــ: «إن هــؤلاء جُــل المســلمين والعرب على ما ترى قد انقصت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين»(١).

في ظل تلك الأوضاع، واليأس قد بلغ منتهاه، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة مرة أخرى؟!

ولكن أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ لم يعتره اليأس، و لم يتملكه القنوط، وإنما واجه هذه الأحــداث، وهذه البلبلة، وهذه النكبات، بإيمان راسخ، وعزيمة ثابتة، وتفاؤل عظيم، حتى ثبت وحارب مــدعي النبوة والمرتدين، وأعاد للمسلمين قوتهم، وللخلافة هيبتها، ولليائسين تفاؤلهم.

وفي القرن الرابع الهجري من كان يظن أن تقوم للإسلام قائمة، حينما قام القرامطة في عام ٣١٧هــ باستباحة مكة يوم التروية! «حيث نهبوا أموال الحجاج، وقتلوا في رحابها وشعابها وفي المسجد الحرام بل وفي جوف الكعبة خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبو طاهر ــ لعنه الله ــ علــى بــاب الكعبــة، والرجال تُصرع من حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام وفي الشهر الحــرام وفي يــوم التروية الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول: أنا الله وبالله أنا، أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا، ثم أمــر بأن يُقلع الحجر الأسود، وقال: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟! ثم قلع الحجر الأســود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم (اثنتين وعشرين) سنة»(٢).

وتأمل أي ذلة ومهانة كانت تعصف بالمسلمين في ذلك الوقت: الحجر الأسود يُقلــع مــن مكانــه الطاهر، ويُحمل إلى بلد القرامطة ويمضي عندهم اثنين وعشرين عاماً قبل أن يعيدوه بأنفسهم، والأمة الإسلامية كلها لا تستطيع أن تجتمع لاسترداد حجرها الأسود!

وبعد هذه الحادثة المأساوية، التي لم تتكرر في تاريخ الإسلام والمسلمين، قل لي بربك: هل من مجــال للمقارنة بين ما مر على المسلمين في ذلك العصر من الضعف والذل والمهانة، وما نمر به في هذا الوقت من أزمات؟

ومع ذلك فقد عاد المسلمون مرة أخرى، ونهضوا من كبوتهم وصحوا من غفوتهم، وعادوا كأقوى ما يكونون.

– وفي أواخر القرن الخامس الهجري، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما تــدفقت الجيــوش الصليبية من أوروبا بأسرها على الخلافة الإسلامية، في تسع حملات صليبية شرسة، فقتلوا وطمســوا معالم الحضارة، واستعملوا جميع مظاهر الاضطهاد والعنف، واستولوا على كثير من البلاد الإسلامية، وأُغلق المسجد الأقصى و لم تُقم فيه جمعة ولا جماعة، ووضعت الصلبان فوقه ما يقارب (قرنــاً) مــن الزمان، حتى ظن كثير من المسلمين في ذلك الوقت، ألاَّ أمل في انتصار المسلمين على الصليبيين، وألاَّ رجاء في رد أرض فلسطين مع المسجد الأقصى إلى حوزة المسلمين، ولا ســيما بعــد أن فتكــوا في الأنفس، وذبحوا من المسلمين في يوم واحد أكثر من (سبعين ألفاً).

في ظل هذه الظروف، من كان يظن أن هذه البلاد ستتحرر في يوم ما، على يد البطل (صلاح الدين الأيوبي) في معركة حطين الحاسمة، ويصبح للمسلمين من العزة والقوة والسيادة ما شـرّف التـاريخ الإنساني.

ومرة أخرى.. لم ييأس المسلمون و لم يقنطوا من رحمة الله؛ فقد عادوا ونهضوا من كبوتهم، واستردوا المسجد الأقصى بعد أن رفع النصارى الصلبان فوقه ومنعوا المسلمين من الصلاة فيه أو مجرد دخوله قرابة (قرن) من الزمان. بينما يصاب اليوم كثير من المسلمين باليأس والقنوط وفقد الأمل بالكلية من مجرد التفكير في إمكانية استرداد المسجد الأقصى مرة أخرى رغم أنه لم يمض على احتلاله سوى سنوات معدودة.

وإذا كان المسلمون في ذلك الوقت ــ وحالهم كانت أشد مرارة من حالنا ــ قد نهضوا بعد تلك الكبوة؛ فالأمة اليوم قادرة بعون الله تعالى، ثم بالجهود المنتظرة من أهل الصلاح والإصلاح، أن تعود من جديد؛ وإرهاصاتُ ذلك تبدو في الأفق واضحة جلية بعون الله تعالى.

- وفي القرن السابع الهجري، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة، لما خـرّب المغـول العالم الإسلامي، ونهبوا الأموال، وداسوا القِيَم، وفتكوا بالأنفس والأعراض فتكاً ذريعاً، حتى قيل إن جبالاً وأهرامات عالية أقامها هولاكو من جماجم المسلمين؛ حيث كانوا في غاية الهمجية والوحشية، فكانوا يقتلون كل من يقابلهم دون تفرقة، فقتلوا العلماء والمشايخ والكهول والنساء والولدان، وأحرقوا المساجد ودور الكتب، وحطموا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية. وقد ذكر ابن كثير ــ رحمه الله ــ عدد قتلى المسلمين إثر ذلك الغزو فقال: «وقد اختلف الناس في كمية من قُتِل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس»(١).

وبلغ من شدة الحدث، أن المؤرخ ابن الأثير ــ رحمه الله ــ قال: «لقد بقيت عدة سنين مُعْرِضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أُقدّم إليه رجلاً وأُؤخر أخرى؛ فمن الذي يسهَل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً»(٢).

من كان يظن أن بلاد الإسلام ــ بعد هذا ــ ستقوم لها قائمة، أو أنها ستتحرر في يوم من الأيام على يد البطل المقدام (قطز) في معركة عين جالوت الحاسمة، ويعود المسلمون إلى سابق عهدهم(٣).

ومرة أخرى.. هل من مجال للمقارنة بين ما حصل للمسلمين في ذلك الوقت من القتل والإيذاء والتنكيل، بتلك الصورة وتلك الوحشية وتلك الشراسة وذلك العدد الكبير من القتلى، وبين ما يحصل للمسلمين في هذا الوقت!

ومع ذلك كله فقد نهضوا من كبوتهم وصححوا خطأهم وعادوا إلى ربهم، فبنوا حضارتهم وواصلوا مسيرة فتوحاتهم بكل قوة وثبات.

ومن عجائب التاريخ وفرائده، أنه مع هزيمة الأمة في ذلك الوقت عسكرياً، إلا أنها لم تُهزم نفسياً؛ فقد ظل كثير من المسلمين معتزين بدينهم مستمسكين به، لدرجة أنهم أثَّروا بالغالب ولم يؤثر بهم، على خلاف العادة؛ إذ جرت أن المغلوب مجبول على التأثر بالغالب، إلا أن الذي حصل هو عكس ما جرت عليه تلك العادة، فدخل الغالب بدين المغلوب، وهذا من غرائب التاريخ الإنساني. وفي هذا دلالة على أن الأمة وإن هُزمت عسكرياً إلا أن كثيراً منهم لم ينهزموا نفسياً، ولم يفقدوا الأمل، ولم يصابوا باليأس والإحباط كما أصيب به كثير من المسلمين اليوم. فقد صحا أبناء ذلك الجيل من غفلتهم واستيقظوا من غفوتهم، وعادوا إلى دينهم فعاد لهم العز والتمكين مرة أخرى، بعد معركة عين جالوت المشهورة.

- وفي القرن الرابع عشر الهجري المنصرم، من كان يظن أن الإسلام سيعود من جديد، وقد أُصيب المسلمون بعدة طعنات لو وُجهت لغيره من الأديان لذاب واندرس؛ ففي ذلك القرن: سقطت دولة الخلافة الإسلامية على يد الهالك أتاتورك، وأصبح يُنادَى بالعصبية والقومية، واستُعمرت الدول الإسلامية وقُسمت بين دول الغرب، وعمت البلوى والافتنان بالحضارة الغربية حتى أصبح المثقفون ينادون بضرورة اللحاق بركب تلك الحضارة والانضواء تحت لوائها بخيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحمد منها وما يُعاب. أما العقائد فقد أصبحت الطرق الصوفية هي السائدة حتى عم الظلام والجهل والبدع والخرافات لا أقول بعض أوطان المسلمين، بل معظمها، وعاد الدين غريباً كما بدأ، وغابت معظم معالمه التشريعية حتى كاد يندرس في معظم البلدان الإسلامية، وبلغ اليأس منتهاه في إمكانية عودة الإسلام من جديد لدى البقية الباقية من المستمسكين به، بل ظن كثير منهم أن الإسلام لن تقوم له قائمة مرة أخرى.

ولكن الله ـــ تعالى ـــ بعث هذه الأمة من جديد، وبدأ الناس يعودون إلى دين الله أفواجاً، وبدأت الأمة تنهض بعد الغفلة، نرى ذلك ونلمس مظاهره في جوانب كثيرة ومجالات عديدة بحمد الله تعالى.

- من بشائر النصر:

إن مما يسر الخاطر ويفرح القلب ويُقوي الأمل في إمكانية عودة هذه الأمة إلى سابق عزها ومجدها، ما نراه من الآثار الملموسة للصحوة التي بدأت تؤتي أُكلها ونتنفس ثمرها ونستنشق عبيرها.

هذه الصحوة نتاج طبيعي لإخفاقات متكررة وهزائم متتابعة عاشتها الأمة، ولذا فقد ولدت وترعرعت وهي متعطشة لعز الإسلام وتمكينه، بعد أن جُربت جميع الشعارات الرنانة ولم تفرز إلا النكسات المتعددة، وتكالب الأعداء عليها من كل جانب.

وقد كانت هزيمة أو نكسة يونيو ١٩٦٧م، بداية تحول كبير في عقول كثير من شباب الأمة الإسلامية؛ حيث تركت تلك الهزيمة آثاراً موجعة في نفوس ما لبثت أن تجلت على شكل صحوة عارمة بين طلبة الجامعات، ثم امتدت وبسرعة لتعبر عن نفسها في مظاهر كثيرة ومجالات عديدة بين جميع المسلمين في شتى أنحاء العالم.

وما تزال إيجابيات هذه الصحوة قائمة ملموسة، تنمو وتزداد مع تقادم الأيام والسنين؛ فقد فرضت نفسها على الأحداث العالمية برمتها، وأصبحت همّاً عالمياً، تُفرِح الأصدقاء وتؤرق الأعداء، وتُقام من أجلها المؤتمرات، وتُعقد بسببها اللقاءات، ما بين محب يسعى لإصلاحها وتقويمها، وكاره يخطط لوأدها وإجهاضها؛ فهي أكبر مشروع حضاري نهضوي في العالم المعاصر، وإن كانت ثمراتها ظاهرة ملموسة، إلا أنها حتماً ستؤتي أُكلها وسيتم جني ثمرها بصورة أكبر في القادم من الأجيال اللاحقة بإذن الله تعالى.

ولعل من أهم مظاهر ثمراتها ما نراه من العودة الجماعية لهذا الدين، حيث عمّت بفضل الله ــ تعالى ــ الصحوة ربوع العالم الإسلامي كله، بل تجاوزت إلى ربوع المعمورة، حتى أصبحت الكنائس تُشترى وتُحوّل إلى مساجد للعبادة.

وأصبحنا نرى ونسمع عن مكتسبات ومستجدات ما كان أحد يظنها قبل بضع سنوات، من انتشار الوسائل الدعوية التربوية المختلفة من فضائيات وصحف ومجلات إسلامية، أصبحت تتكاثر وتتوالد بكثرة العائدين إلى الله.

وهذه الأمة ما تزال حُبلى بالمبشرات، وهي قادرة بعون الله ــ تعالى ــ على النهوض والعودة من جديد إلى سابق عزها ومجدها، ولعل مما يُبشر بذلك:

- تتابع سقوط الشعارات والحركات والنقابات والأحزاب غير الإسلامية، وثقة الناس في المقابل بالأحزاب والمنظمات والحكومات الإسلامية.

- ظهور أطفال الحجارة في فلسطين والعراق والفلبين وكشمير، والشيشان، وأفغانستان وغيرها في وسائل الإعلام المختلفة وهم يحملون المصحف في يد والبندقية في اليد الأخرى.

- صمود المقاومة العراقية واستمرار ثباتها، بل وتجدد قوتها شهراً بعد آخر وسنة بعد أخرى، ولولا الخيانات وخذلان الأصحاب لما سقطت العراق ــ ابتداء ــ بهذه السهولة حتى وإن تفوقت أمريكا في العدد والعدة، ولو تمكنت المقاومة من امتلاك (بعض) أنواع الأسلحة التي تمتلكها أمريكا لما بقي أولئك الأعداء يوماً واحداً في بلدهم.

- ولعل من أهم المبشرات التي تدل دلالة واضحة على صحوة هذه الأمة، تنامي العمل الإسلامي في معظم دول العالم وقيامه بدور بارز في نشر رسالته، وهو الأمر الذي جعل حكومات العالم تقف أمامه بقوة للحد منه ومحاولة تجفيف منابعه بدعوى محاربة الإرهاب. {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ

بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}

[الصف: ٨ - ٩].

والبشائر بحمد الله كثيرة، ولا يمكن الإحاطة بها أو حصر مظاهرها، وإنما هي أمثلة ونماذج تحيي الأمل وتدفع اليأس؛ فالأمة معطاء، والفأل مطلوب، والخير في هذه الأمة إلى قيام الساعة، والثقة بالله ــ تعالى ــ هي مقدمة النصر، والقوة المعنوية في كل أمة هي التي تدفع شبابها ورجالها إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الخالدة في كل زمان ومكان.

وما تمر به أمتنا اليوم من الضربات المتتابعة والصفعات الموجعة، ما هي إلا إرهاصات مبشرة لنهضة الأمة وصحوتها من غفلتها، وعودتها مرة أخرى إلى دينها ومصدر عزها ومجدها. فإن الظلام كلما احلولك وادلهمّ فإن وراء الأفق نوراً، وفي حضن الكون شمس ساطعة، وكلما اشتد غلس الليل اقترب ميلاد النهار، وشدة ظلمة الليل دليل على قرب انبلاج الفجر.

بشائر الهزيمة الأمريكية

آيات وتحديات

(٢ ــ ٢)

د. عبد العزيز كامل

يخطئ كثيراً من يظن أن الصراع الدائر في العراق، شأن يخص العراقيين وحدهم، أو يخص المجاهدين هناك فقط، وهذا الخطأ يعود لأمرين جوهريين: أولهما: أن المحتل الأمريكي الذي جاء إلى المنطقة لمطامع إمبراطورية بذرائع نشر الحرية والديمقراطية انطلاقاً من العراق؛ أراد تحويل هذا البلد إلى قاعدة عسكرية يمكن الوثوب منها إلى دول الجوار القريب والبعيد للهيمنة عليها بصورة أو بأخرى؛ فالخطر هنا لم يكن قاصراً على العراق، والأمر الثاني: أن المحتل الأمريكي أعلن مراراً على ألسنة ساسته بأن العراق أصبح الساحة الرئيسية لما تسميه أمريكا بالحرب (العالمية) على الإرهاب! وهو ما يعني أن تلك الحرب يمكن أن تنتقل إلى ساحات أخرى في بلدان أخرى، يقع عليها الاستهداف الخبيث بخطة إبليس المسماة بـ (الفوضى الخلاقة) التي يريد الأمريكيون تكرارها في كل بلد يريدون أن ينقلوا إليه مركز الحرب العالمية على الإسلام، المتسترة وراء الحرب على الإرهاب.

المجاهدون في العراق، أو ما يصطلح على تسميتهم في الإعلام العربي بـ (الجماعات المسلحة)، وما يصطلح في الإعلام الأمريكي والغربي على تسميتهم بالإرهابيين أو المتمردين، هؤلاء قاموا بقدر كبير من الواجب التاريخي في التصدي للهجمة الأمريكية، من الناحية العسكرية الميدانية على الوجه الذي

فصلت الكلام عنه في الحلقة السابقة من هذا المقال، وهو الأمر الـذي رأيـت فيـه ـ ولا أزال ـ معجزة تاريخية، وآية ربانية تمر بنا وأكثرنا عنها معرضون أو غافلون.

إلا أن تلك الإنجازات الضخمة والنتائج الجبارة التي ألجأت قوة عظمى بحجم الولايـات المتحـدة إلى التسليم «العملي» بالهزيمة باتخاذ قرار الانسحاب بعد أقل من ثلاث سنوات مـن الغـزو تتهـددها تحديات، يمكن أن تفرغ الإنجاز الضخم من محتواه، وتحوِّل النتائج المبهرة من صـورها الإيجابيـة إلى صور أخرى سلبية، وهذا المحظور الخطير؛ يمكن أن يقع ـ ونسأل الله ألا يقع ـ إذا حدثت محـاذير أساسية، يمكن اختصارها فيما يلي:

١ ـ إذا لجأ الأمريكيون إلى خيار (الأرض المحروقة) عند انسحابهم المخزي المهزوم، بإشعال حـرب أهلية، طائفية وعنصرية، يمكن أن تؤدي إلى إحراق ما تبقى من العراق، إذا استجاب لها أقـوام دون تقدير للظرف التاريخي الخطر، والمنعطف الحضاري الحساس.

٢ ـ إذا أصيب بعض المقاومين بداء نشوة النصر، فراحوا يسارعون إلى جمع الغنائم واقتسـامها في شكل مواقف متعجلة، وقرارات منفردة من شأنها أن تمكن الأعداء من استعادة التـوازن، أو تمكِّـن بعض الفرقاء من اختطاف النصر، واقتطاف الثمار.

٣ ـ إذا استمرت الأنظمة في الدول العربية والإسلامية في خذلان العـراقيين والسـير في ركـاب الأمريكيين، لينوبوا عنهم ـ بعد الانسحاب ـ في أداء مهمة أمريكا المستحيلة في العراق، وهي تقوية العملاء وحمايتهم وإضفاء الشرعية على حكومتهم.

٤ ـ إذا استمر أكثر الإسلاميين في رفع أيديهم عن التحدي الذي تواجهه الأمة في العراق عقائـدياً وحضارياً ـ حيث يتربص به العلمانيون ليسلخوه عن الإسلام، والفرس ليعزلـوه عـن العروبـة، وأمريكا والغرب واليهود ليردوه إلى عصور ما قبل الحضارة.

والضرورة تقضي ـ ونحن على مشارف الاستبشار بالنصر الجديد ـ ألا يسمح الغيورون على الأمة وحرماتها في العراق وخارجه؛ أن يتحول هذا الانتصار إلى انكسار؛ فكم في التاريخ من نجاحـات لم يحفظها أهلها فتحولت إلى إخفاقات؛ فما حدث في أُحُد، كُبِّرت صور عديدة منه في الشام وإفريقيـا والأندلس، وكُررت في عصرنا في حرب رمضان وحرب أفغانستان. ولكن أوضاع الأمة هذه المرة لا تحتمل مثل هذه التحولات الحادة، فالخصم ضخم، والمشوار طويل، والجراح كثيرة.

ü لكن الفرصة سانحة:

نعم!... فهناك متسع من الحظ لأن تغالب الأمة هذه التحديات، وتمارس خيريتها مرة أخرى فتستنقذ العالم من غول المغول الجدد، والصليبيين المعاصرين في حملاتهم المتجهة ـ كما هي العادة في التـاريخ ـ نحو شرقنا العربي الإسلامي بغرض إنشاء إمبراطورية جديدة من إمبراطوريات الشر، وقد ساق الله بأقداره الحكيمة الأمور إلى تناغم عجيب بين أداء الفداء الأسطوري للمقاومين في العراق، مع الغبـاء

الاستثنائي للتخطيط الأمريكي الذي يتخبط في ورطاته، ويتورط في تخطيطاته من مرحلة إلى مرحلة وفق إستراتيجية هلامية، اتفقت عليها النخبة الحاكمة في أمريكا.

هذه الإستراتيجية، كانت تقوم ــ حتى الانتخابات الأمريكية الأخيرة ــ على أمور ثلاثة أساسية وهي:

وهذه الإستراتيجية التي تبدو منطقية لدى الأمريكيين، هي في الحقيقة غير عملية؛ لأنها تستند إلى عدة افتراضات وهمية: الوهم الأول منها: هو افتراض أن الوجود الأمريكي سيظل ممكناً رغم فداحة الخسائر حتى تحقق أمريكا مصالحها وتؤكد هيبتها وتثبت عملائها، والوهم الثاني: هو توقع أن يوافق أحرار العراق على قرار أمريكا بالاستقرار في بلادهم دون أن يضاعف هبّتهم لرد الصاع صاعين في وجه الغزاة ومن يشابههم، والوهم الثالث: هو افتراض سهولة القضاء على المقاومة عسكرياً، أو تدجينها والتغرير بها سياسياً، والوهم الرابع: هو افتراض وجود القابلية للممارسة الديمقراطية في البنية الطائفية والعنصرية العراقية، التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تقدم النموذج المحتذى ــ كما يحلم الأمريكان ــ في نشر ما يسمى بقيم الحرية والتعددية وقبول الآخر؛ فالطائفية والعنصرية في العراق جبرية قهرية تاريخية، لا يحيّدها أو يحد من أثرها إلا التوازن بين الأقوياء، ولا يزيل أوضارها إلا أخوّة الدين.

وعليه، فإن إستراتيجية أمريكا للانتصار في العراق هي إستراتيجية مفلسة سلفاً، لاستنادها إلى تلك الأوهام والافتراضات الخاطئة، وقد بدت أمام العالم مؤشرات إقبال الولايات المتحدة على مواجهة أسوأ النتائج المترتبة على انهيار إستراتيجيتها في العراق، وهذا وإن كان يحمل في طياته من المبشرات والتطمينات ما يحمل، وبخاصة فيما يتعلق بتسريع وتيرة الانسحاب المهزوم، إلا أنه يشير في الوقت نفسه إلى الكثير من المحاذير؛ لأن أمريكا التي ستواجه أسوأ النتائج، لا شك أنها وعملاءها سيُقْدِمون على أسوأ الحيل وأنذل التوجهات والإجراءات، للتغطية على النتائج الكارثية لهزيمتهم التاريخية في العراق.

والمتوقع أن يترجم هذا إلى عدد من التحديات الجديدة التي ستتوجب مواجهتها على الصعيد العراقي الخاص، والعربي الإسلامي العام.

ويمكننا أن نصنف هذه التحديات إلى مستويات عديدة، باعتبار أن تحديات ما بعد الانسحاب، لن تأتي من أمريكا وحدها، وإنما من أطراف عديدة، يمكن تفصيلها على الوجه التالي:

أولاً: أمريكا وخيارات الانتقام:

إن هذه التحديات الجسام، تحتاج إلى مئات العقول المفكرة، والقلوب النيرة والكفاءات القديرة كي تنتدب لمواجهة ما قد تخبئه الأيام لا على مستوى العراقيين فحسب، بل على مستوى الأمة كلها بالأقرب منها فالأقرب؛ فمن غير المقبول أن نكون شركاء في إجهاض النصر وتبخر الحلم وفقدان

الفرصة، بترك هذه التحديات تمضي لغايتها. وبما أن العثور على الحلول لا يُنال بمجرد الآمال، فإن ذوي الرأي وأصحاب الفقه وأرباب التخصصات الدينية والسياسية والإستراتيجية والإعلامية في الأمة مدعوون اليوم بإلحاح إلى تقديم المستطاع من الرأي والمشورة، والتسديد والتقريب والنصيحة، إلى أصحاب القرار الإسلامي في العراق باعتبارهم نواباً عن الأمة في مواجهة الملمات التي تحيق بجزء من جسدها على أرض الرافدين، علماً بأن عاماً أو أكثر قد يمضي حتى ينتهي الاحتلال، وتبدأ مشكلات ما بعد الاحتلال.

ولعل ما يتبادر إلى الذهن منها ــ فيما يتعلق بالتحديات على المستوى الأمريكي ــ ما يلي:
{وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠] ثم قال بعدها: {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: ٦٠] وهم المنافقون الممالئون للكافرين. ومن الخير أن يتواكب النصح مع الردع، بإقناع الفرقاء بأن العراق الموحد قوة للجميع؛ وتمزيقه إضعاف للجميع، فدعاة التقسيم لن يقفوا عن حد ثلاث دويلات للأكراد والسنة والشيعة، بل قد يسعون إلى مزيد من التفتيت حتى يصل الأمر ــ لا قدر الله ــ إلى أن نسمع عن الإمارات العراقية «المتحدة»، مع الولايات الأمريكية المتحدة!!

ثانياً: إيران واللعب بالنيران:

هيام الفرس بعبادة النار قديماً، قد ترك آثاره فيما يبدو على تكوين مَنْ لم يتطهر بالكامل من أدران تلك النيران الفارسية الجاهلية الماضية؛ فالثورة والثأر والتثوير، كلها مفردات جاهزة للإنتاج والتصدير، في ظل معتقدات التشيع الفارسي التي حولت هذه السلوكيات الدخيلة إلى قربى إلى الله، وزلفى إلى أهل بيت رسول الله ﷺ، فانضمام الطبيعة الفارسية إلى العقيدة الشيعية، جعل مذهبهم ناراً على نار بدلاً من أن يكون نوراً على نور.

وقد أخرجت دوافع الثارات التاريخية القديمة أصحاب القرار في إيران عن كثير من فرضيات العقل والمنطق، فضلاً عن مقتضيات الدين والمصلحة، فراحوا يُحنون ظهورهم أمام العدو الكافر الظاهر ليمر من فوقها إلى اقتحام حرمات المسلمين ومقدراتهم في كل من أفغانستان والعراق، وسوف يكتب التاريخ بحروف سوداء تلك المواقف النكراء التي كرر بها هؤلاء سلوك أشياعهم وأجدادهم من أمثال نصير «الدين» الطوسي، ومؤيد «الدين» العلقمي الذين جعلوا من الدين ستاراً يخفي التآمر مع أعداء الدين.

وإذا كنا لا نزال نذكر مواقفهم في الموالاة الصريحة لـ «الشيطان الأكبر» قبل وأثناء وبعد غزو أفغانستان والعراق، فإننا ــ وبكل مرارة ــ نتوقع الأسوأ بعد أن تمضي سحابة الاحتلال السوداء الهوجاء.

وسيناريو التغلغل الشيعي على الصعيد السياسي أو العسكري، قد أسس له منذ البداية خميني العـــراق «الإيراني» السيستاني، فهو الذي دفع بالشيعة إلى الانخراط بقوة في العمل السياسي والعســكري في ظل الاحتلال الذي لن يقتصر في المستقبل ــ على ما يبدو ــ على جزر الإمارات العربية، بل يريـــد الامتداد للسيطرة على بعض العواصم العربية، بالتواطؤ مع الأمريكيين حيناً، وبالانفراد عنهم أحياناً.

وعلى غرار الجهد المطلوب لمواجهة التحديات الأمريكية، تتأكد الحاجة لجهود مضــاعفة لمواجهـــة التحديات الإيرانية، ولعل من المعالم البارزة في هذا الصدد أن يجري استحضار الحقائق التالية:

١ ــ ليس كل الشيعة من أهل القناعات الدينية؛ فهناك شرائح منهم علمانية، ولكن الديني والعلماني في إيران، مشبع بروح فارسية، تستبطن العداء للعرب، وبخاصة السنة منهم، ولذلك فلن يكون لشيعة العراق العرب مهما توهموا كبير وزن في إدارة شؤون العراق إذا ما تمكنت إيران هناك، ولهـــذا فـــإن الحاجة ماسة إلى شيء من التأليف وتقريب الآراء بين العرب السنة والعرب الشيعة في العراق، لا على خلفية عنصرية ضد الفرس؛ فذلك ليس من الإسلام، بل على خلفية المصلحة العامة التي يحتاج إليهـــا الطرفان في مواجهة التغول الإيراني القادم.

والذي نعرفه أن شيعة العراق من غير الفرس، أقل خبثاً وأدنى قرباً من السنة هناك، بفعـــل عوامـــل التعايش والتجاور والمصاهرة، وبخاصة العامة منهم؛ حيث يعتقد أنه يسهل كســـبهم أو تحييـــدهم إذا افتضح استغلال الإيرانيين لهم.

٢ ــ لأن شيعة العراق منهم المتدينون المتشددون، ومنهم العلمانيون والليبراليون؛ فإن رهان أمريكـــا منذ البداية كان على الشيعة العلمانيين، وبخاصة الليبراليين الذين رأت أنها يمكنها من خلال تمكينـــهم أن تدعي النجاح في إحلال قيم الحرية والديمقراطية في العراق، كنموذج أول في الشرق الأوسط.

ومن غير المستبعد أن تتدخل أمريكا بشكل ما، لإفساد الطبخة التي أنضجها الدينيون المتشـــددون في الانتخابات الأخيرة، لتعيد العلمانيين الليبراليين من أمثال العلاوي والجلبي إلى سُدَّة الحكم، وهـــذا ــ إن وقع ــ سيكون مقدمة صِدام مصالح آخر بين أمريكا وإيران على أرض العراق، وبوسع السنة أن يستفيدوا من هذا التناقض، وهم وحدهم الأقدر على اغتنام هذه الفرص.

٣ ــ من الممكن أن يجد شيعة العراق العرب أنفسهم في خيار يدفعهم إلى التقرب من جديد إلى أهل السنة؛ وذلك عندما يكتشفون حقيقة الطمع الإيراني والجشع الأمريكي، وهنا... فعلى سنة العراق ــ وبخاصة العلماء والدعاة ــ أن يحسنوا استثمار هذه الفرصة إذا سنحت، من خلال إعلان المبـــادرات المشتركة لحقن الدماء وإيقاف الشحناء، والانتقال ــ أو بالأحرى ــ الرجوع إلى صـــيغة التعـــايش التاريخية المعروفة عن شعب العراق حتى يهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولا شك أن هذا الخيار قد يكون فيه الخير للطرفين؛ فالسنة ليسوا في حاجـــة إلى تكـــثير الأعـــداء، والشيعة ليسوا في حاجة إلى مزيد من الاستعداء لقوم بدا أنهم أولو بأس شديد إذا جاســـوا خـــلال الديار.

ثالثاً: العراق: عراك ما بعد المعركة:

لكن الأمر سيختلف، والمنطق سيتعقد، والحسابات سترتبك، إذا ما تغيرت معالم المواجهة في الميـــدان العراقي بعد الانسحاب الأمريكي، سواء بفعل الأمريكيين الراغبين في إغراق أو إحراق العراق مـــن بعدهم، أو بفعل الفرقاء المتشاكسين الذين سيحاول كل منهم أن يؤسس لواقع جديد، يخدم الشريحة التابعة له، ولهذا فإن ألواناً جديدة من التحديات على الساحة العراقية، ربما يتـــوالى ظهورهـــا علـــى مسرح الأحداث هناك، وهو ما يستدعي إعادة النظر في بعض الاجتهادات وربمـــا الاســـتراتيجيات لمواجهة هذه المتغيرات بما يحفظ ما تحقق من مكاسب على صعيد المواجهة الكبرى مع أمريكا.

ومن التحديات المتوقع بروزها على المستوى العراقي ما يأتي:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: ٧٣] .

ü المواجهة لا الهروب:

عوَّدنا المجاهدون من أهل السنة في العراق، على الإقدام لا الإحجام، وعلى المجابهة لا الهـــروب مـــن المواجهة، وأملنا أن تثبت الأقدام في مهمة الإقدام على مواجهة تلك التحديات قبـــل فـــوات الأوان؛ فالهروب منها أو تأجيلها لن يقلل من أهميتها، ولن ينفي خطورتها، على أنَّـــا لا يمكـــن أن نحمِّـــل المجاهدين، أو حتى عموم العراقيين مسؤولية المواجهة وحدهم لكل تلك التحديات؛ فالنازلة ليســـت خاصة بهم وحدهم، كما أسلفت في صدر المقال، وإنما هي عامة لكافة الأمة، وهي ينبغي أن تـــوزع على الجميع ـــ أعني التحديات ـــ في صورة واجبات كفائية وعينية وفروض وقتية ومستقبلية، كـــل بحسب قدرته واستطاعته، مع تأكيد التذكير بأن المجاهدين الأبرار، قد قاموا عن الأمة، بما أزاح عـــن مجموعها الإثم وإزالة العار، فلا أقل من أن تقوم بقية صلحاء الأمة بقسطهم من الواجبات في مجابهـــة التحديات.

فعلى كل ذي رأي وخبرة واختصاص، من أصحاب الأقلام أو المنابر أو القدرات العلمية أو البحثيـــة أو المالية، في كل ميدان يحتاج إليه أن يسارعوا للقيام بواجب النصرة، والمشاركة في صنع النصر، ولن يعدم حريص الوسيلة لإيصال النصيحة وتقديم العون وتيسير المنفعة، لمن يمسكون الآن بدفـــة تغـــيير التاريخ وتصحيح المسار.

ومع الاعتراف بأن التحديات المقبلة أكبر من قدرات قطاع إسلامي واحـــد في داخـــل العـــراق أو خارجه، لتفرعها وتنوعها، فإن ذلك لا ينبغي أن يصد عن التقريب والتسديد بحسب الاستطاعة، ولو كانت البداية ـــ كما يحدث الآن ـــ محاولة رصد أهم تلك التحديات، والبدء في دراســـتها، وتمييـــز

الحقيقي منها والوهمي، والنظري والعملي، ثم وضع الأسس العريضة لمواجهتها، بتضافر الجهود بين المختصين والمجربين والمراقبين.

وهذه بعض المعالم العامة في هذا الموضوع:

{فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} [التوبة: ١٢٢] وندرة المرجعيات العلمية المشهورة في العراق تحتاج إلى معالجة لا يكفيها المدى القريب، ولكن الضرورة تقضي بألا تؤجل وظائف هذه المرجعية حتى وجودها؛ فمن خارج العراق يمكن أن تدرس كبار المسائل، وتبحث دقائق النوازل بالتواصل العلمي الذي تيسرت أسبابه في عصرنا، وإن كان هذا لا يغني عن أن تنتدب طائفة من أهل السنة العراقيين لتعويض هذا النقص، لمعادلته بما هو حادث مع الطوائف الأخرى.

لغة الهزيمة

لغة الهزيمة لغة وضيعة تسقط فيها كل ألوان العزة والكرامة..!

لغة الهزيمة لغة تافهة، مقيَّدة بإسار التبعية، لا تجيد إلا المحاكاة والتقليد الأعمى.

إنها آية من آيات السقوط الفكري والإنساني، تتقاصر بكل مهانة عند مخاطبة من يسمونهم بالآخَر، وتتعالى بكل قسوة على الأهل والأصحاب؛ فعقدة تحقير الذات تحاصرها من كل زاوية.

خبرنا هذه اللغة ردحاً طويلاً من زمن العنتريات العروبية الثورية، وها نحن نجني ثمراتها في الخطاب الليبرالي المتزين بقبعة الغرب.

خبرنا هذه اللغة؛ فهي ليست جديدة علينا، لكن المؤسف حقاً أن بعض معالم ذلك الخطاب المنهزم بدأ يتسلل أحياناً إلى بعض روّاد الخطاب الإسلامي، ممَّن كان ينبغي أن تكون العزة شعاره والأنفة دثاره؛ فصار بعض خطابه واهن القوى، منخفض الصوت، يسري على استحياء..!

وحسبنا ها هنا أن نذكِّر ببعض الأمثلة:

فبعد الهبَّة الشعبية لنصرة النبي الخاتم -صلى الله عليه وسلم-، وبعد أزمة الرسوم الدانمركية، ظهرت عند بعض المفكرين والدعاة لغة اعتذارية باردة لا يخفى ضعفها، بل لا يخفى انحرافها؛ فنحن نحب السلام، ونحترم جميع الأديان وندعو إلى التعايش، ولا نستعدي الآخرين، ولا ندفع العالم إلى الصراع الحضاري؛ فلماذا تستفزون شعوبنا..؟!

وعندما تجرأ بابا الفاتيكان وانتقد الإسلام، وعرَّض بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، بادر بعضهم للمطالبة بالهدوء وعدم التشنج، ودعا إلى الحوار والاعتراف بالآخر، وأنه لا سبيل لإطفاء التطرف من الطرفين إلا بالتقارب بين العقلاء، بل نهى بعضهم عن تكفير النصارى، وعدّ ذلك من الإقصاء الذي لا ينبغي ذكره في هذه المرحلة..!

وعندما زعم البابا أنَّ الإسلام انتشر بحدِّ السيف، بادر بعضهم إلى نفي التهمة، وأنكر جهاد الطلب، وقصر الجهاد في الإسلام على جهاد الدفع فحسب.

وعندما دخل بعض الإسلاميين حلبة المعترك السياسي شن العلمانيون هجوماً شرساً على المشـــروع الإسلامي وما أسموه بــ (الدولة الثيوقراطية) فلم يجد بعض هؤلاء إلا المناداة بالدولة المدنيــة، ونحــو ذلك من الشعارات الانهزامية..!

إنَّ هذه الانهزامية ترسِّخ نمطاً من أنماط التبعية التي همها إرضاء الناس، ولا تلتفت كثيراً إلى رضا الخالق سبحانه وتعالى.

صحيح أن زمن الاستضعاف له فقهه وأولوياته، لكن لم يقل أحد من أئمة العلم أن تحريف الــدين أو التنازل عن بعض أصوله وأحكامه من الفقه في شيء؛ فمن لم يستطع أن يقول الحق، فلا يجوز لــه أن يقول الباطل.

استراتيجية بوش: استثمار عوامل الهزيمة

طلعت رميح

دون الغرق في تفاصيل الاستراتيجية الأمريكية «الجديدة» في العراق، فواقعُ الحال أنَّ ما أعلنه الرئيس الأمريكي في خطابه بشأن استراتيجيته «الجديدة»، وكذا ما شرحه وزير دفاعه الجديد ورئيس أركانه أمام الكونجرس في أوقات تالية، قد دارت جميعاً حول تطبيق الاستراتيجية العسكرية «القديمة» لغــزو العراق، التي أعدَّها العسكريون ورفضَها وزير الدفاع الأمريكي المهزوم (رامسفيلد)، ذلك أنَّ الفارق الجوهري بين الخطة الأمريكية القديمة / الجديدة التي جرى الحديث عنها مؤخراً، والخطة التي طبَّقهـــا (رامسفيلد) منذ بداية العدوان؛ يتمحور أساساً حول عدد القوات الأمريكية التي كـــان ينبغـــي أن تشترك في عملية غزو العراق، والسيطرة على سكانه، وهو عَيْن الفارق بين الخطة التي قُــدِّمت لـــــ (رامسفيلد) عند خوض العدوان على العراق ورفَضَها.

لقد اعتمد (رامسفيلد) خطة عسكرية للغزو والاحتلال، تقتصـــد في حجـــم القـــوات العســـكرية الأمريكية، بقصد خفّة الحركة في الهجوم، وتقليل مساحة انتشارها الأَرْضيِّ لتقليل خسائرها، باعتبار أنَّ الميزات الرئيسية ــ المتوقّعة وقتَها ــ للجيش العراقي وللمقاومة من بعد ــ في حال وجودهـــا ــ هي ميزات عمل على الأرض لا في الجوّ. وفي ذلك اعتمد (رامسفيلد) وبعض من قادته العســـكريين فكرةَ تشكيل ميليشيات عراقية موالية للاحتلال ـــ تابعة للقيادات الشيعية المتعاونة مع الاحتلال، مع دعم ميليشيا البشمركة وتقويتها؛ للاعتماد عليها في حالات خاصة إضافة إلى تأمين المناطق الكرديـــة ــ كبديلٍ لزيادة عدد القوات، وكأساسٍ لنجاح المواجهة مع المقاومة العراقية، وكبـــديلٍ للجـــيش العراقي بعد حلِّه. كما اعتمد على شركات الأمن الغربية الخاصة، للقيام بمهمات حراسة الشخصيات

العراقية المتعاونة مع الاحتلال ورجال الأعمال الأمريكيين، وفي القيام بالعمليات الإرهابيــة المموّهــة والأشدّ إجرامية تجاه الشخصيات العراقية الرافضة للاحتلال. ووقتها فإن بعضاً من القادة العسكريين الميدانيين وآخرين من المتقاعدين والمتواجدين في مؤسسات صنع القرار في الدولة الأمريكية؛ كان لهم رأي آخر أعلنوه في مختلف المناسبات، وحوّلوه إلى مطالبة في بعض الفترات ــ خاصة بعد تصــاعد خسائر القوات الأمريكية، وثبوت عدم قدرتها على السيطرة على الأوضاع، وفشلها في إخضاع إرادة الشعب العراقي ــ بإقصاء (رامسفيلد) نفسه، إذ إنهم رأوا أنَّ الدخول في بلد بهذا الحجم من السكان وبهذه التكوينة الحضارية والمليء بالقدرات والطاقات العسكرية والعِلْمية، لا يمكن أن يكون ناجحــاً إلا بتوافر حشد عددي كثيف من الجنود، يكفل السيطرة على السكان وإخضاعهم، ويمكِّن من إعادة تأسيس العراق وفق الخطة الأمريكية كعراقٍ قابل للاحتلال ومتعايش معه. وها هي الخطة الأمريكيــة الجديدة تعود إلى الخطة القديمة السابقة والتي رفضها

(رامسفيلد)؛ فترسل القوات الأمريكية أعداداً أكبر على الفور ــ تقرر زيادة عدد القوات بنحو ٢١ ألفاً ــ، كما سترسل قوات إضافية يبلغ تعدادها ٩٢ ألفاً على مدار السنوات الخمس القادمة، كمــا أنها باتت تتحدث عن ضرورة نزع سلاح الميليشيات الموالية لإيران، التي سبق أن أسَّســها وموَّلهــا وأشرف عليها (بريمر) نفسه، وتعلن أول إجراءاتها بــ «خطة» جديــدة للســيطرة علــى بغــداد وإخضاعها. وهذا كله يأتي متعارضاً مع التوقُّعات التي أشارت بخطة جديدة في ضوء تقريــر (بيكــر هاملتون)، واعتبر وقتها أن معيار جدّتها سيكون بجدولة الانسحاب، وبالتفاوض مع سوريا وإيــران حول الأوضاع في العراق، ومع أطراف عراقية لتغيير النهج الراهن في حكم العراق.. إلخ.

الخطة ــ إذاً ــ ليست جديدة على الصعيد العسكري، وإقرارها ــ في حدِّ ذاته ــ هو إقرار بالهزيمة في المرحلة الماضية من العدوان على العراق، لكن ذلك ــ في حدِّ ذاته ــ لا يعني أنَّ الخطة الجديــدة هي مجرد استعادة ملف قديم وإعادة قراءة أوراقه، حيث إنّ الخطة القديمة أفرزت وضعاً مختلفــاً عــن سابقه الذي وضُعت على أساسه تلك الخطة ذاتها.

– فيتنام.. ولعبة الخطط:

يبدو هنا أمرٌ التذكيرُ به مهمٌّ، في إطار ما أشرنا إليه من أن الخطة الجديدة ليست إلا الخطة القديمــة، وهو أن الخطة الجديدة / القديمة هذه تذكِّر بما كان يجري في فيتنام؛ من تغيير الخطــط بــين القــديم والجديد، ومن زيادة القوات وتقليلها، ومن اعتمادٍ على الطيران والقصف من بُعْد، إلى التركيز علــى العمل العسكري على الأرض، ومن العمل لتشكيل ميليشيات إلى حلِّها، ومن تشكيل جيش فيتنامي موالٍ ومساند لجيش الاحتلال، ثمَّ الإعلان عن فشله في إخضاع السكان وسوء تدريبه، وهو ما جعل المحلّلين والمؤرّخين يعلنون من بعد أن كل ما كان يجري لم يكن سوى محاولة الهروب مــن إعــلان الهزيمة، إذ إن الخطط رغم تبدُّلاتها وتغييراتها لم تستطع إنقاذ الجيش الأمريكي من الهزيمــة، ولم تكــن

تسير إلا في اتجاه واحد، هو زيادة الانغماس الأمريكي في الأزمة، واشتداد العنف الدموي ضد الشعب الفيتنامي والسير نحو هزيمة في غاية القسوة للقوات الأمريكية في تلك الحرب.

ومن المفيد هنا التذكير ــ أيضاً ــ بأنَّ فكرة عدد القوات الأمريكية على الأرض وتشكيل ميليشيات تابعة أو متعاونة مع الاحتلال من قِبَل بعض العرقيات في مواجهة عرقيات أخرى، وفق استراتيجية تفريق بين الفيتناميين بعضهم عن بعض، وإجراء انتخابات داخل فيتنام وفق عملية سياسية خاضعة للاحتلال؛ لإكساب السلطات العميلة شرعية داخلية وخارجية.. كلها إجراءات واستراتيجيات جرى التقلّب فيها حتى إعلان الهزيمة أو القبول بإعلان الهزيمة والإقرار بها من خلال المفاوضات التي جرت بين الفيتناميين والأمريكيين على الأرض الفرنسية.

والأهم ــ هنا ــ أن الولايات المتحدة حينما وضعت خطتها للتفاوض مع الفيتناميين؛ لإعلان القبول ضمنياً بالهزيمة والبدء في الانسحاب، وضعت إلى جوارها وبالتوازي معها خطةً عسكرية جديدة، قامت على تصعيد القصف الجوي إلى أعلى درجة من العدوانية ضد الفيتناميين، وعلى بدء هجمات عسكرية جديدة ضد الثوار الفيتكونج. وكان الارتباط بين الخطتين أنَّ التفاوض يجب أن يجري دوماً من موقع القوة لا الضعف، وأنَّ إعلان الهزيمة يجب أن يتمَّ وفق غطاء من مظاهر القوة، وهو ما لم يكن ليغيِّر من جوهر الأمور شيئاً.

فهل نحن أمام تكرار لنفس السيناريو في العراق؟ أي: هل نحن أمام حالة تصعيد عسكري للوصول إلى حالة انسحاب تحت غطاء من عوامل القوة؟ أم أننا ما زلنا نشاهد محاولة أمريكية للحصول على النصر على المقاومة الذي سمَّاه بوش (انجاز المهمة)؟!

– احتمالان:

واقع الحال أننا أمام الاحتمالين تماماً في العراق ــ حيث الإعلانات السياسية من بوش وغيره لا تعطي فرصة للحكم باعتبارها جزءاً من الخداع الاستراتيجي في أيّة خطة عسكرية ــ، ذلك أنَّ هناك مؤشرات على أنَّ الاستراتيجية الجديدة هي استراتيجية الانسحاب تحت غطاء من عوامل القوة الظاهرة، كما أن هناك مؤشرات أخرى على أن الولايات المتحدة لم تقرر الانسحاب بعد، وأنها ما يزال أمامها مشوار قد يبلغ العامين حتى الإقرار بالهزيمة والانسحاب من العراق.

في الاحتمال الأول: فإن المؤشرات عديدة كما ذكرها (توم هايدن)(١) في مقالة له على موقع (كومون دريمز)، وقد عدّد لهذه المؤشرات مظاهر وشواهد، أولها: ما قاله (جيمس بيكر) لأحد محامي (صدام حسين) أنّ (طارق عزيز) ــ نائب رئيس مجلس الوزراء العراقي السابق ــ سوف يُطلق سراحه من السجن في نهاية هذا العام، على أمل أن يتفاوض مع الولايات المتحدة بالنيابة عن قيادة حزب البعث. وقد حدثت هذه المناقشة في الآونة الأخيرة في عمَّان، وفق صحيفة القدس العربي، وهو ما يعزِّزه ــ أيضاً ــ تواتر الحديث حول نقل (طارق عزيز) للعلاج في إيطاليا.

الشاهد الثاني: طلب وزيرة الخارجية الأمريكية (كوندوليزا رايس) شخصياً من مجلس التعاون الخليجي في أكتوبر/ تشرين الأول، أن يتوسط المجلس بين الولايات المتحدة وجماعات المقاومة السُّنّية ــ من غير حركة القاعدة ــ، وأنَّها أعربت عن رغبة الولايات المتحدة في التفاوض معهم في أيِّ زمان أو مكان. وقالت مازحة ــ وهي تتحدث في أوائل أكتوبر/ تشرين الأول ــ: «إنَّ وزير الدفاع ــ وقتئذٍ ــ (دونالد رامسفيلد) لو سمعني لشنّ عليَّ حرباً أشرس وأعنف من الحرب التي شنَّها على العراق»، حسب ما قال دبلوماسي عربي مطّلع على الجلسة المغلقة.

والشاهد الثالث: هو ما جرى من عقد اجتماعات سرّية (غير مسبوقة) بين مسؤولين أمريكيين على مستوى رفيع وممثّلين عن (مكوّن رئيسي من مكوّنات المقاومة العراقية)، ودامت ثلاثة أيام، ونتيجة ذلك وافق العراقيون على العودة إلى المحادثات فيما بعد.

والشاهد الرابع: هو ما تكشف من رسائل إلكترونية مفصَّلة ــ مؤرَّخة في ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي ــ تكشف جهداً أمريكياً نشيطاً من خلف الكواليس للتوسط في اتفاق سلام مع زعماء المقاومة العراقية، ضمن خطة قد تتضمن انقلاباً سياسياً ضد رئيس الوزراء (نوري المالكي).

والشاهد الخامس: هو حملُ المستشار الأمني للرئيس بوش (ستيفن هادلي) رسالة إلى المسؤولين العراقيين لدى زيارته الأخيرة إلى بغداد، تتضمن ست نقاط، هي: اشملوا المقاومة والمعارضة العراقيتين في أيِّ مبادرة نحو المصالحة الوطنية، وأصدروا عفواً عامّاً عن مقاتلي المقاومة المسلَّحة، وحلّوا اللجنة العراقية المكلّفة بحظر حزب البعث، وابدؤوا حلَّ الميليشيات وفِرَق الموت، وألغوا أيَّ اقتراح للفيدرالية لتقسيم العراق إلى ثلاث مناطق، ووحّدوا السلطة المركزية للحكومة، مع حكم ذاتي أكبر للحكام المحليين.

ونضيف ــ نحن ــ المؤشر السادس وهو أن الهرولة في اغتيال الرئيس العراقي (صدام حسين)، كان مؤشراً على فتح الطريق أمام المفاوضات وأمام تغيير في التوجُّه ــ وليس العكس ــ، إذ كان الرجل وهو في محبسه حاجزاً وسدّاً أمام كل من يفكر في التفاوض من البعثيين مع الأمريكان. كان الإعدام غير المتوقع في سرعته وهمجيته رغبة عاجلة في إنهاء حقبة الغرور الأمريكي بالاستناد إلى انتصار رخيص تمهيداً لإبداء حالة الضعف، تحت غطاء من الجرائم الدموية.

في الاحتمال الثاني: فإن الحجم الخطير لنتائج القبول بالهزيمة الأمريكية في العراق على صعيد المصالح الأمريكية في العراق، أو على صعيد الوضع الاستراتيجي الخطير الذي سيصبح عليه الكيان الصهيوني والمشروع الغربي في المنطقة برمّتها، جميعها عوامل تجعل الولايات المتحدة أشد تصلّباً في رفض الهزيمة. وكذلك فإن الشواهد المشار إليها في الاحتمال الأول ربما لا تخرج عن كونها أحد أشكال الخدعة أو أحد أساليب زرع الفتن داخل العراق. كما أننا أمام مؤشرات أخرى تشير إلى احتمال استمرار محاولات بوش والإدارة الأمريكية لإحراز النصر على المقاومة العراقية، مع إدراكنا بتغيير اللهجة

واختفاء كثير من المصطلحات القديمة، ومن تلك المؤشرات: ما نشاهده على الأرض في العراق مـــن تحرّكات أمريكية بالغة الضراوة، حيث مدنٌ بأكملها ــ سنّية لمن يتصورون العكس ــ تعيش محاصرة بسبب احتضالها المقاومة، وهناك أخرى بدأت القوات الأمريكية تشيد حولها أسواراً ترابية عازلـــة إلا من بوابة دخول وخروج. كما أن القوات الأمريكية ما تزال تواصل بناء قواعد عسكرية دائمة لها في العراق آخرها ما يجري تشييده حالياً في منطقة كردستان العراق، كما أن تلك القوات تزيد عـــددها وتعلن عن خطة لزيادة عدد قواها خلال السنوات الخمس القادمة.

وكذا فإننا نشهد على الطرف الآخر أنَّ المقاومة الإسلامية العراقية تعلن بوضوح أن لا تفاوض بينـــها وبين الولايات المتحدة، وأنها تشترط مسبقاً إعلان جدول بالانسحاب قبل الدخول في التفاوض.

وهو ما يدعو إلى القول: إنَّ الولايات المتحدة إنما تعتمد سيناريو الحرب حتى الانتحار، إذ إن الهزيمـــة تساوي الانتحار الأكيد والنهائي، كما أن النصر يعني الحصول على كل شيء في المنطقة.

- كيف نرجّح أحد الاحتمالين؟

لفهم وترجيح أيٍّ من الاحتمالين، أو لفهم ما يجري؛ فإنَّ عدداً من العوامل يجب وضعها في الاعتبار:

أولها: ضرورة التفريق بين ما قاله الرئيس بوش وغيره من القيادات الأمريكية وبين أن تكـــون هنـــاك استراتيجية أمريكية مختلفة. كما لا يجب أن يُقرأ من مثل هذا الكـــلام والتصـــريحات رؤيـــةٌ كليـــة للاستراتيجية بشكل عام ــ أية استراتيجية ــ، إذ إن ما يُكشف النقاب عنه في الأحاديث السياســـية والإعلامية هو فقط ما يراد أن يُكشف عنه للرأي العام، كما أنَّ هذا الذي يُكشف النقاب عنه إنمـــا يكون في أغلب الأحيان جانباً من جوانب التغطية الإعلامية الواردة ضمن مقوّمات إنجاح الخطـــة ــ أي: هناك جانب إعلامي لترويج الخطة لا للكشف عنها ــ.

ثاني تلك العوامل: التنبُّه إلى أننا أمام تطوّر جديد انتقل إليه تأثير المقاومة العراقية من الضغط في العراق على قوات الاحتلال لإيصال أوضاع بوش الداخلية إلى المأزق، إلى مرحلة وصل فيها بوش إلى المأزق فعلاً، وباتت الأزمة متجسدة في الداخل الأمريكي وفق قوى متضاربة المصالح والآراء حول الأوضاع في العراق، تصبح فيها المقاومة آلية تحريك وتفعيل الأزمة. وبمعنى آخر: يجب الوضع في الاعتبار أن ما أعلنه بوش بات تحت تأثير حالة جديدة لم تعد المقاومة ــ على أرض العراق ــ هي المؤثر فقـــط في تغيير اتجاهات الرأي العام، بل باتت هناك قوى ضاغطة في الداخل الأمريكي على الرئيس الأمريكـــي ومؤثِّرة على قدرته في التحرُّك والقول.

ثالث تلك العوامل: وجوب مراجعة ما يجري بين الولايات المتحدة وإيران، سواء على صعيد الشواهد المتعلِّقة بالعمليات التي جرت ضد أفراد وديبلوماسيين على الأرض العراقية، أو على صعيد الـــدخول المباشر للولايات المتحدة على خط التفكيك للتحالفات الشيعية المرتبطة بإيران مثل: ــ دفع المـــالكي

إلى مواجهة الصدر، وإعلاء الحكيم في مواجهة الصدر والمالكي، وتقوية دور علاوي، وغير ذلك ـــ، أو على صعيد تطوير آليات المواجهة الديبلوماسية في مجلس الأمن مع إيران.. إلخ.

رابع تلك العوامل: فهم الاستراتيجية الأمريكية من خلال قراءة التحرك الأمريكي في المنطقة بشكل عام ومحيط العراق بشكل خاص. وقبل هذا وذاك؛ فإن الساعي إلى فهم استراتيجية بوش «الجديدة» يجب أن يحقق تقديراً فعلياً للأوضاع في العراق.

وفي ضوء مراجعة الأوضاع القديمة والطارئة في معادلة اتخاذ القرار مما سبق الإشارة إليه ـــ وغيرها بطبيعة الحال ـــ ومع استبعاد مؤثرات الخداع السياسي والإعلامي، فإن معالم الخطة الأمريكية الحالية في خطوطها العامة يمكن تلخيصها في التالي:

١ ـــ تطوير المعركة في العراق باتجاه المحيط (الهروب إلى الأمام)، سواء لإرباك ترتيبات القوى التي نتجت عن المرحلة السابقة والتي باتت تسير بالولايات المتحدة نحو الهزيمة الكاملة، أو بإدخال قوى أخرى في الصراع عبر إخضاع دول أخرى في المنطقة للاستراتيجية الأمريكية وضروراتها، أو بنقل الصراع من داخل العراق إلى المحيط حيث إن الولايات المتحدة لديها في السيطرة على المحيط آلياتٌ أقوى من السيطرة على الأرض مباشرة في العراق (توسيع ساحة المعركة لتقليل قدرة القوى المحلية المناوئة).

وفي ذلك؛ فإن الولايات المتحدة تعمل على استثمار عوامل هزيمتها لتحويلها إلى عوامل قوة، كما هو الحال في إخافة دول المحيط من النفوذ الإيراني في العراق، وفي تخويفها من انتشار المقاومة في المنطقة على حساب النُّظم القائمة.

٢ ـــ تحويل ساحة المعركة في العراق نحو الفوضى الشاملة على صعيد تحالفات القوى، وفي ذلك يجري الدفع إلى إعلان العديد من التحالفات والجبهات الجديدة، كما يجري فضّ التحالفات القائمة وإشاعة الشكوك بالجُملة، كما يجري تقديم محاور في الصراع على أخرى ـــ تقديم مواجهة إيران على مواجهة الولايات المتحدة ـــ، والضغط عن طريق المفاوضات تارةً والقوة تارةً أخرى لتفكيك كل عوامل التماسك الداخلي، وكل ذلك ظاهر في تفكيك التحالفات الشيعية، وفي فتح المجال لتقسيم أوسع داخل حزب البعث، وفي توسيع هوّة الخلافات بين التيارات المقاومة ذاتها.

٣ ـــ التركيز في العمل العسكري على تيارات هي الأشد وقوفاً ضد الاحتلال، وتنميط الخطط العسكرية لتحقيق أهداف سياسية وليس فقط لتحقيق حالة إضعاف لقوى مقاومة.

٤ ـــ استخدام لغة جديدة في التعامل الإعلامي والسياسي مع الحالة العراقية، سواء بإشغال الرأي العام الأمريكي بقضية أخرى كما هو الحال بالنسبة لإيران ولبنان، أو بإنهاء استخدام المصطلحات القديمة التي كانت أشدّ عجرفة من تلك المستخدمة في لغة الخطاب الأمريكي الآن.

٥ ــ إعادة تأسيس العملية السياسية داخل العراق؛ لاستيعاب عدد أكبر من القوى، ولإحداث وضع جديد يمكِّن التقاط الأنفاس والتحرُّك باتجاهات جديدة لمحاصرة القوة الأشدّ راديكالية.

استراتيجية تقزيم الهزيمة

د. حنان فاروق

يقول علماء تنمية وتطوير الذات في العصر الحديث: إن الفشل أو الهزيمة ليسا المشكلة الحقيقية لمن يُمنَى بهما، لكن المشكلة الرئيسة هي الاستسلام لهما والرضا بهما.

إن الإنسان المهزوم هو الذي يسلم قياده لهزيمته ويرتاح بطريقة أو بأخرى في كنف (عدم استطاعة) وفي أغلال (فقدان المقدرة) على تغيير الواقع والعمل على خلق غدٍ أفضل بإذن الله؛ وهو الذي يركز على الجانب السلبي للفشل ولا ينظر إليه بمنظار مختلف وناحية مغايرة للانكسارية والتيه والضياع.

لقد أدرك الغرب المناوئ للإسلام وأمريكا سيدة مشروع (القرن الأمريكي الجديد) هذا الأمر، وفهمت أن سحق أي أمة لا يأتي إلا من داخل قلوب أبنائها وعقولهم قبل أن يكون جهاداً بالسلاح، ومن ثَم فقد عملت على تأكيد هذا السحق وتعميقه حتى تبدد أي أمل في النصر القادم الذي وعدنا به رب العزة تبارك وتعالى، وكذلك حتى تنسى الأمة نهج رسولها - صلى الله عليه وسلم - واستراتيجياته في معالجة الهزائم وتحويلها إلى بدايات لانتصارات جديدة حين يتكالب الطغاة والبغاة على الأمة تكالب الأكلة على قصعتها. وها هو - صلى الله عليه وسلم - ، في بداية رسالته ونزول الوحي، عندما أتاه خبَّاب بن الأرتّ ــ رضي الله عنه ــ وهو متوسد بُرْدَه في ظل الكعبة وقال له: ألا تدعو الله؟! فقعد - صلى الله عليه وسلم - وهو محمرٌّ الوجه، ثم قال: «لقد كان مَنْ قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ــ زاد بيان الراوي ــ: والذئب على غنمه» وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون».

كان المسلمون آنذاك في أوج هزيمتهم النفسية، يسامون سوء العذاب ليل نهار، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبشرهم بالنصر والتمكين؛ بيد أنه حين رأى أن نفوسهم قد دخلت إلى منعطف الاستسلام لانكسارهم واليأس من حاضرهم أمدهم بجرعة أمل منبعثة من أعماق الإيمان برسالته؛ وكأنه يقول لهم قول الله ــ تعالى ــ: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ}. فالضعف لا يزيد الإنسان إلا خساراً وترهلاً نفسياً لا يؤهله لأن تقوم له قائمة، أو تبزغ له شمس.

وحين ذهب - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف ولقي ما لقي من الأذى والعنت والسخرية اضطر للعودة إلى مكة مرة أخرى واستئناف ما بدأه هناك، فقال له زيد بن حارثة الذي كان يصحبه في رحلته تلك: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك (يعني قريشاً)؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : «يا

زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دينه ومظهرٌ نبيه» فبدل بقوله هذا ما أحسه زيد من انكسار وقلة حيلة وهو يرى نبي الله وأباه بالتبني ـــ قبل أن يحرّم ـــ يُسَبُّ ويرمى بالحجارة، إلى أمل وإيمان بنصر عزيز من لدن حكيم خبير. وحين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة تاركين وراءهم أموالهم وديارهم وحياتهم بجوار بيت الله الحرام بعد أن سلبتهم قريش كل شيء مقابل خروجهم سالمين؛ كانوا وقتها يشعرون بالظلم القاهر لما اضطروا إليه فراراً من أذى قريش الذي أرهق أرواحهم قبل أجسادهم، وكانوا موقنين أنهم على الحق، لكنَّ تأخُّر النصر يؤلمهم ويقض مضجعهم. كانوا يتحرقون شوقاً لأن يسترجعوا حقوقهم المسلوبة وكرامتهم المنهوبة؛ فلم يتركهم الله ورسوله لهذا الشعور لكي يتغذى على نفوسهم وإيمانهم فيستسلموا له، بل نزلت الآيات الكريمة بالإذن بالقتال: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَي نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: ٣٩].

فكانت السرايا والغزوات التي أعطتهم الدفعة نحو الأمام والثقة بأنهم قادرون على الانتصار بإذن الله؛ لا يفت في عضدهم قصور في العدة أو العدد؛ مثل سرية سِيف البحر ورابغ والخزار، وغزوة الأبواء وبواط وسفوان، وغزوة ذي العشيرة، وسرية نخلة.. تلك السرايا والغزوات لم تكن إلا لرد كرامة المسلمين الذين لم يقترفوا ما يدعو إلى إيذائهم والاعتداء عليهم إلا أنهم اختاروا الله الواحد الأحد، فباعوا له أموالهم وأنفسهم، ونصروه ولم يستسلموا للتخذيل الهدام الذي كان يبثه المنافقون في نفوسهم؛ فلما أبوا الاستسلام ونصروا ربهم نصرَهم نصراً عزيزاً مؤزراً بعد سنوات من العذاب والصبر والتحمل.

أما ما حدث بعد الهزيمة النفسية المؤلمة التي تعرض لها المسلمون في أُحُد فهو الدرس الواضح الصريح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في استراتيجية مقاومة وتقزيم الهزيمة؛ فقد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسلمين الذين شهدوا معركة أحد والمثخنين بالجراح والأحزان صباح الغد من الهزيمة بالخروج ليطاردوا فلول الكفار العائدين بنصرهم المؤقت؛ فرحين يخططون لإعادة الكرَّة للإغارة على المدينة المنورة ليفتكوا بالمسلمين وهم بعدُ لم يخرجوا من روح هزيمتهم، فهبُّوا سمعاً وطاعة لرسولهم الصادق الأمين – صلى الله عليه وسلم – ، وعسكروا بحمراء الأسد على بُعد أميال من جيوش الكفار؛ مما جعل المشركين يفرون خوفاً منهم ومن سرعة قيام قائمتهم، وخاصة بعد أن خذّلهم معبد بن أبي معبد الخزاعي بإيعاز من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أن اسلم وأدى واجبه في إكمال الحرب النفسية على الكفار والمشركين، وعاد المسلمون دون أن يمس أحدَهم سوء؛ وشعورُ النصر والقوة يملؤهم ويدفعهم دفعة جديدة بعد أن كادوا يركنون إلى إحساس الفشل والألم والحسرة.

هذا ما علَّمناه رسولنا الأمين – صلى الله عليه وسلم – . وإننا نرى اليوم الحرب النفسية على المسلمين؛ فحين تتوالى الأخبار عن هزيمة العدوان في العراق وأفغانستان أو غيرهما من بلاد المسلمين

ومقتل عدد لا يحصى من أفراد القوات المحتلة.. نراهم يسمحون بتسريب أخبار عن تعذيب المسلمين في جوانتانامو وأبي غريب بأساليب تتدنى عن أحط الأخلاق الحيوانية، بل ينشرون صور ذلك الإذلال على الملأ في نشرات أخبارهم وبرامجهم السياسية والحوارية وجرائدهم المحلية والعالمية ليعمقوا إحساس المهانة لدى المسلم المتابع لقضايا مجتمعه في جميع أنحاء العالم بالصوت والصورة والشعور حتى يتغلغل داخله ويقيده فلا يستطيع منه فكاكاً.

ثم يعود العدو فينشر أخباراً عن إهانة المصحف وتدنيسه المتعمد في السجون والمعتقلات نفسها التي أُعدت خصيصاً للمسلمين القابضين على الجمر الذين جُرِّدوا من كرامتهم قبل ملابسهم تحت تهديد السلاح، ثم تعرض الصحف الأجنبية رسوماً مسيئة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وترفض الاعتذار بدعوى أننا ـــ أعني المسلمين ـــ لا نفهم معنى الحرية الحقة، فيحمِّلوننا الإساءة والتخلف معاً.

ويعاود رأس الكاثوليك الكرَّة فيسيء للإسلام، ثم يقول: لم أقصد.. وهو الذي يعد رئيس دولة؛ فهو ليس زعيماً دينياً فحسب، ولكنه أيضاً يضطلع بالعمل السياسي مثل رؤساء الدول وملوك الممالك وسلاطينها ومن شابههم؛ وعليه فلا يمكن إدراج إساءاته تحت النقل أو زلات اللسان أو الهفوات الفكرية؛ لأنها بالقطع مقصودة، وتضيف لسابقاتها المتكررة المعلنة وغير المعلنة أرصدة جديدة من الألم النابض في قلوب المسلمين وعقولهم. ثم يعود الإعلام فينشر صور حاكم عربي كبير، مهما اختُلف عليه فهو مسلم، وهو بملابسه الداخلية في المعتقل الخاص المعد له دون إذن منه وكأنه يمعن في فضحه والنيل منه.

ثم يعود فينشر فيلماً لإعدامه صبيحة عيد الأضحى المبارك والمسلمون في أوج عزتهم وتوحدهم الذي يستشعرونه كل عام من كل فج عميق خلال رحلتهم لبيت الله الحرام عبر القنوات الفضائية العربية وغير العربية والإنترنت ورسائل الوسائط للهواتف المحمولة التي استكملت المشهد التلفزيوني الذي رفض إعلاميوه عرض أواخره، فقامت الشبكة العنكبوتية وأجهزة المحمول بالغرض وبالمهمة عنهم ليضرب مشاعر المسلمين في مقتل وائد لفرحتهم قبل أن تكتمل، وسعادتهم قبل أن تتم.

إنها الحرب النفسية واللعب على وتر التحطيم الداخلي قبل الخارجي، وإرساء حالة من الاكتئاب واليأس العام قبل تنفيذ أي مخطط بفترة كافية كي تتسنى التهيئة التامة لركوع المغتصَبين لغاصبيهم، بانتزاع كل أمل في النصر والتمكين من قلب الفريسة لتتبدد مقاومتها قبل أن تولد، ويشل تفكيرها قبل أن يتأجج، ويموت الحلم حتى في الخيال، فيدخل المحتل إلى حيث يريد، ويأخذ ما يريد في الوقت الذي يريد، ويجعل فريسته إما صورة في مرآته، أو كمّاً مهمَلاً في سلة قاذوراته.

إن هذا هو مفتاح الانتصار الذي يعتمد عليه الآخر في حروبه معنا، معنويةً كانت أو ماديةً؛ وبغير هذا المفتاح لا يهنأ لغاصب قلب ولا يغمض له جفن، ولا يفرح مهما حقق من نجاحات ومهما نفذ

من مخططات؛ ولهذا فنحن مطالبون بقمع هزائمنا النفسية والفعلية، والعمل على الخروج من قوقعة اليأس، وزنزانة التكبيل الفكري، ودائرة الإحباط المفرغة التي ندور فيها بلا هدف غير البكاء والتباكي على حالنا بكل طريقة ممكنة ومتيسرة: بالكلمة والفعل وتعلُّم وإرساء مهارات العمل الجماعي، ونبذ ثقافة الحزن على اللبن المسكوب في مقالاتنا وفكرنا، ودراسة تاريخنا الحقيقي لا ذلك الذي لُقِّنَّاه في مدارسنا وجامعاتنا.. وأولاً وأخيراً: بالثقة بوعد الله ــ تعالى ــ لنا: {وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٠٤].

فصول الهزيمة الأمريكية في العراق

حسين عبد عواد الدليمي

منذ الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله عام ٢٠٠٣ ميلادية والإدارة الأمريكية تنفذ فصولاً متتالية على أرض الرافدين لكسب النصر المزعوم الذي تحلم به إدارة البيت الأبيض في واشنطن. إنها فصولٌ متسلسلةٌ أُعِدَّ قسم كبير منها بالتعاون مع بعض الساسة الذين وعدوا واشنطن بحلم النصر الأكيد يوم أن كذبوا عليهم بأنَّ شعب العراق سوف يستقبلهم بالورود؛ فضلاً عن سيناريوهات الفصول الأخرى التي لا تفتأ إدارة الاحتلال تعمل على إعدادها لتحقيق «المهمة» التي طالما تحدث عنها رأس الدولة الأمريكية (جورج بوش).

وهكذا تتوالى الفصول ليكون فصل الحسم الأخير، في نظر كثير من المراقبين، ما يسمى بـ «الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في العراق» التي أُعلن عنها على لسان الرئيس الأمريكي بوش، وهي بلا شك يُنظَر إليها على أساس أنها حبل النجاة أو الهلاك إذا التف حول رقاب واضعيها، طبقاً لمدى نجاحها أو فشلها؛ لإنقاذ أمريكا من المستنقع الذي تعيشه قواتها المحتلة في العراق في ظل التصاعد المستمر للمقاومة العراقية والعمليات النوعية التي تقوم بها الفصائل الجهادية على اختلاف أسمائها في الأشهر الأخيرة الماضية، التي رأينا فيها العدو مهزوماً مكسوراً أكثر من اي وقتٍ مضى قبل ذلك.

وإذا كان المشهد العراقي متشابك الأطراف ولا يمكن التكهن بالمجريات السياسية الجارية فيه، في مقال إعلاميٍ قصيرٍ فإنَّ معرفة الفصل الأخير من فصول الفشل الأمريكي في العراق أمر ضروري للغاية؛ لأن تحالف الاحتلال الذي قاد حملته العسكرية لغزو العراق بحججٍ واهيةٍ بدأ يتصدع على ما يبدو، يوم أن اعترفت بريطانيا بهزيمتها ــ جهاراً أو إسراراً ــ وقيامها بسحب ربع جيشها المهزوم في فترة قياسيةٍ وجيزة، بمفاجأة غير معلنةٍ وقت ذاك.

وإذا كان هذا الانهزام ــ الذي لم يعلن عنه سابقاً ــ نصراً للمقاومة والمخلصين بحد ذاته؛ فإنَّ مرحلةً مّا بعد الهزيمة التي ستتلوها هزائم قريبة ــ على ما يبدو ــ توجب على كل الخيِّرين والوطنيين

والشرفاء العراقيين التفكير الجدي بالعمل المشترك لاستثمار ذلك الانتصار. وقد تنبهت هيئة علماء المسلمين ــ وهي رائدة المشروع الوطني ــ لذلك منذ اليوم الأول لإعلان رئيس الوزراء البريطاني هزيمته بسحب ما يقرب من ١٦٠٠ جندي بريطاني من جنوب العراق؛ حيث دعت في بيان لها يحمل الرقم (٣٧٨) أبناء العراق المخلصين من الساسة والميدانيين إلى التفكير الجدي في مرحلة ما بعد هزيمة المحتل، معللة ذلك بأن مرحلة ما بعد هزيمة المحتل بحاجة إلى عمل مبكر وجهود مضاعفة، يلزم من خلاله اتفاق القوى الفاعلة على برنامج عمل موحد، يرسم الجميع من خلاله معالم مستقبل العراق على نحو يرضي الله أولاً ثم العراقيين جميعاً بكل أطيافهم ومكوناتهم، ويحقق المصالح العليا لأمتهم؛ مشيرةً إلى أن هذه الخطوة تُعَدُّ مؤشراً واضحاً على بداية التصدع في التحالف الأنجلو ــ أمريكي في قضية العراق، وبداية هزيمة متوقعة لمشروع الاحتلال في هذا البلد الصابر المحتسب المجاهد؛ في الوقت الذي صرحت فيه بأنَّ الانسحاب الأمريكي بات وشيكاً، وهذه هي النهاية الطبيعية لكل احتلال طال أمده أم قصر، وأن الفضل في تحصيل مثل هذه التطورات المبهجة بعد الله لأبنائنا البررة الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ومن أجل تحرير بلادهم.

وإذا كانت الخطة الأمنية الأخيرة في بغداد التي سميت بـ «خطة فرض القانون» قد أتت نتيجة جزئية للمساعي الأمريكية لحفظ ماء وجهها للخروج بأقل الخسائر من العراق في ظل الاستراتيجية الجديدة؛ فإنها تستوجب وقفات عديدة نلمس من خلالها الفشل المرتقب الذي ستُمنى به، وما سيترتب عليه من تداعيات وتحالفات وموازنات جديدة على مستويات عديدة ستشهدها الساحة العربية والعراقية، ولن أبالغ إذا قلت: والعالمية، على المستوى السياسي والأمني؛ فضلاً عن تعامل السياسة الخارجية العالمية مع العراق، بما في ذلك تعامل الولايات المتحدة الأمريكية وفق ما يفرضه الواقع الذي لا نستطيع تجاهله.

إنَّ مجرد العودة للوراء قليلاً وتحديداً في تعامل الولايات المتحدة الأمريكية في محاولة التخلص من شبح الموت الذي منيت به في غزوها لفيتنام آنذاك وما جرى من خلال تعاملها من تغيير للخطط العسكرية، وزيادة عدد قواتها، واعتمادها على تكثيف القصف الجوي بالطائرات، وتشكيل ميليشياتٍ وجيشٍ موالٍ للأحتلال؛ كل ذلك يوحي بتكرار السيناريو ذاته في العراق اليوم؛ فإنَّ الذي يجري في بلاد الرافدين ــ عموماً ــ هو عملية لاستعادة النَفَس الأمريكي بعد أن ضاق عليه الخناق جراء الخسائر الفادحة التي تكبدتها قوات الاحتلال في الأشهر الأخيرة الماضية عموماً بفعل المقاومة الباسلة، مع ضرورة التركيز على حجم الخسائر بالأرواح والمعدات، وبخاصة الطائرات العشر التي خسرتها تلك القوات الغازية في شهر شباط الماضي تحديداً.

٣ خطة أمنية جديدة وواقع مؤلم:

وإذا كنا قد عرفنا بعض الدواعي التي قام من أجلها ما يسمى بـ (خطة أمن بغداد) فإنه من المناسب إلقاء الضوء على بعض المجريات التي صاحبت هذه الخطة، وتوقيت تنفيذها، ومدى إمكانية نجاحها أو فشلها.

ولا شك أن أي نظرة سريعة على الواقع الذي يعيشه العراق عموماً وبغداد خصوصاً يستطيع القارئ من خلالها معرفة حجم التآمر الذي تسعى كثير من القوى السياسية المشاركة في الحكومة إلى تنفيذه. ففي ظل التسريبات التفصيلية للخطة الأمنية والإفصاح عن حيثياتها للقوى المساندة للحكومة كـ (التيار الصدري) الذي نزح قياديوه نزوحاً جماعياً إلى إيران وعلى رأسهم (مقتدى الصدر) الذي كثر الكلام حول هروبه أو اختفائه في إحدى مناطق الشيعة في الجنوب، لنضع ألف علامة استفهام أمام مصداقية هذا التيار في الشارع العراقي في ظل التناقض العجيب الذي صاحب هروب (مقتدى) إلى إيران قبيل بدء الخطة الأمنية التي تنفذها قوات الحكومة بمساندة قوات الاحتلال، والتي لقيت تأييداً من قِبَل (التيار الصدري) نفسه قبيل وأثناء تنفيذها.

في ظل هذه التسريبات المفضوحة بدأت عوامل الفشل والهزيمة، تدب في أوصال هذه الخطة العسكرية، وبخاصة إذا عرفنا المواقف التي أفصحت عنها بعض الشخصيات التي تشارك في الحكومة والبرلمان أمثال طارق الهاشمي ــ أمين عام الحزب الإسلامي ــ الذي توقع الفشل ــ ضمناً ــ للخطة؛ لأنه لم يتوفر فيها عنصر المباغتة؛ ولأن خريطتها سُرِّبت قبل البدء بها إلى عناصر الميليشيات التي تُتهم بقتل العراقيين؛ مع أنه ــ وحزبه ــ من المؤيدين للخطة الأمنية في بغداد.

٣ مواقف يجب معرفتها:

في ظل تنفيذ هذه الخطة الأمنية العسكرية التي مضى على البدء بها بضع أسابيع، ينبغي معرفة ما يلي:

أولاً: إنَّ الأمر أصبح واضحاً لكل مراقب أنها في طبيعتها تستهدف أهل السنَّة في بغداد، وهي على كل حال تأتي تطبيقاً لاتفاقات سابقةٍ عمل عليها تياران شيعيان هما: (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) و (التيار الصدري) في إطار تسوية تحدثت عنها بعض تسريبات الإعلام في اتفاق سري يقضي بالعمل على تسليم الجنوب لـ (عبد العزيز الحكيم) لتكوين إقليم فدرالي؛ على أن يتم إعطاء (التيار الصدري) مدينة السلام (بغداد) بعد إفراغها من أهل السنة.

وموضوع استهداف أهل السنة في بغداد أمر ظاهر للعيان، تحدث عنه مؤيدو الخطة الأمنية أنفسهم، والكل سمع (د. عدنان الدليمي) وهو يتحدث عن استهداف مناطق السنة ومهاجمتها من قِبَل الجيش الحكومي دون الاقتراب من مناطق الشيعة.

وقد تحدث (الشيخ الدكتور عبد السلام الكبيسي ــ مسؤول العلاقات العامة في هيئة علماء المسلمين) في بيان يحمل الرقم (٣٧٣) تلاه أمام جمع من وسائل الإعلام حول الخطة الأمنية وتداعياتها

على الساحة العراقية، مبيناً أنها إذا ما سارت على ما هي عليه من أساليب معلنة فلا يعني ذلك إلا أن الهدف المبيت هو «محرقة أهل السنة والجماعة الرافضين للاحتلال في بغداد».

هذا في الوقت الذي طالبت فيه الهيئة الحكومة الحالية بترك مواقعها؛ لأنها لم تعد قادرة على حفظ الأمن، وأن عهدها غدا شؤماً على هذا الشعب الجريح، ومن ثم فإنَّ عليها أن تترك مواقعها؛ فإنما تُنَصَّب الحكومات في العادة على مواقع القيادة لتوفر الأمن والأمان للشعب، وتحول بينه وبين أعدائه؛ فضلاً عن تلبية متطلباته الضرورية الأخرى؛ فإذا لم تكن قادرة على ذلك كله فما جدوى بقائها؟!

ثانياً: ولذلك عملت الحكومة ـ جاهدة ـ على تطبيق سياسة الإيحاء الكاذب أو المخادع الذي تريد من خلاله إفهام العالم بأنَّ خطة أمن بغداد لا تستهدف السنة فحسب، بدليل ما ترونه من مداهماتٍ لمناطق شيعية كمدينة الصدر (الثورة) وغيرها، مع ما يرافقه من تصنُّع في مداهمة بعض مكاتب (التيار الصدري) في بغداد ومناطق الجنوب.

وسر هذه الفضيحة يكمن في أمور عديدة، منها:

(١) إعطاء الحكومة الضوء الأخضر لـ (مقتدى الصدر) وقادة جيشه للهروب من العراق إلى إيران، في بيان سري وجهه المالكي إلى مقتدى وجماعته.

(٢) فشل نتائج مداهمات مناطق الشيعة ومكاتب الصدر من قِبَل قوات الاحتلال والحكومة؛ فلم نسمع أو نشاهد ـ على وجه اليقين ـ أن اعتقالات نالت عناصر التيار أو جيش الصدر الذي طالما اتُّهم بكثير من قضايا العنف الطائفي في البلاد بما لا يخفى على أحد.

(٣) إنَّ عدداً كبيراً من منتسبي الجيش والشرطة وقوات الأمن التي تقود الخطة الأمنية هم في حقيقتهم أفراد فاعلون في جيش المهدي، وقد تحدثت دراسات غربية، ووسائل الإعلام عن ممارسة أفراد من الشباب مهام الشرطة أو الجيش نهاراً، إلى جانب الميليشيات الطائفية التي تقتل العراقيين ليلاً.

ومن نافلة القول أنه يمكن استجلاء الموقف الأمريكي من جيش المهدي الذي طالما خدم مصالح أمريكا في العراق، وخاصة تلك التي تعمل على بث روح الفرقة والطائفية في البلاد، معلنة الشعار الذي يقول: (فرق تسد!). فهي بهذا المعنى حليف كبير ومشارك، بل مشجع لأعماله التي تصب في هذا الإطار؛ بدليل ما نراه من عدم تدخلها في كثير من الأحيان عندما تقوم ميليشيات هذا الجيش بقتل السنَّة وحرق مساجدهم على مرأى ومسمع من الاحتلال والحكومة وقواتهما.

إنَّ السياسة الأمريكية تمتاز بميزة التخفي والتستر، فهي في الوقت الذي تقلّب أوراق الضغط على الساحة العراقية على المستويين: الأمني والسياسي متى شاءت وكيفما شاءت؛ نجدها تعمل وفق سياسة غامضة مخفية، لا يمكن التنبؤ بها من أول وهلة.

وإذا كان الموقف المعلن للولايات المتحدة تجاه (ميليشيا جيش المهدي) معلناً على أساس أنه منظمة إرهابية يجب قتاله، وهو ما يدركه الصدريون أنفسهم ويتحدثون به في وسائل الإعلام؛ فإنَّ هذا التيار

هو من خدم الساسة الذين تعاونوا مع المحتل، بل هو من أوصلهم إلى سدة الحكم والتربع على كرسي الرئاسة في العراق.

كما لا يخفى التحالف القائم بين حزب الدعوة والتيار الصدري الذي أوصل نوري المالكي إلى رئاسة الحكومة الحالية ـــ التي هي في كل حال امتداد لحكومة الجعفري ـــ وإبعاد لـــ (عادل عبد المهـــدي) الشخصية الثانية في المجلس الاعلى للثورة الإسلامية الذي يترأسه عبد العزيز الحكيم.

وهنا يأتي التساؤل: ما موقف نوري المالكي من الضغوطات التي يتعرض لها التيار الصدري على الاقل في الظاهر؟

إنَّ احتمالين يقفان أمام هذا التساؤل، حسب مصداقية هذه الضغوط أو عدمها:

أولهما: أن يكون هذا التعرض والضغط حقيقياً، وعندها من المتوقع أن يقوم التيار الصدري بســـحب ثقته من الحكومة وغل يده إلى عنقه التي طالما مدها لحكومة المالكي، ومن ثم سينال تلـــك الحكومـــة ويهدد بقاءها تهديداً كبيراً، وخاصة في ظل التقلبات السياسية التي يمارسها التيار، والتي تعوَّد النـــاس على سماعها منذ الغزو الأمريكي ولحد الآن.

وثانيهما: أن يكون هذا التعرض إعلامياً وهمياً، وعندها فإنَّ مصير العراق سيزداد ســـوءاً لـــو بقـــي (جيش المهدي) مستمراً بعمليات القتل العدائية ضد العراقيين المخلصين، وعندئذٍ لا نستبعد المنزلـــق الخطير للحرب الأهلية التي تتولد عن مزيد من الشحن الذي تمارسه الأحزاب الحاكمـــة في العـــراق اليوم. ولا شك أنَّ هذا الاحتمال سيجعل مصداقية الإدارة الأمريكية والعراقية تحت الصفر في نظـــر أصدقائهما قبل أعدائهما.

٣ الخطةُ الجديدة وحلمُ البيت الأبيض:

إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى إلى تحقيق النصر المزعوم في ظل خططها التي لا تقف عند حدٍ من الحدود؛ لأنها تأتي كنتائج لسياسة عوجاء عرجاء غير مخطط لها سابقاً باعترافات رجال البيت الأبيض أنفسهم، عندما أقروا بأنهم تفاجؤوا بشراسة المقاومة المتصاعدة التي أعـــادت إلى ذاكـــرتهم مقاومة فيتنام، بما لم يكونوا يتوقعونه في يومٍ من الأيام، حينما أقدموا على ولوج العـــراق وإشـــعال الحرب فيه.

أمام هذه الحقيقة خياران لا ثالث لهما ـــ حسب ما أشار إليه الأستاذ طلعت رميح في مقال سابق في البيان ـــ فاستراتيجية بوش الجديدة: إما أن تتضمن انسحاباً من العراق تحت غطـــاء عامـــل القـــوة والانتصار الموهوم، أو أن تبقى في جحيم المقاومة الذي سيأكل جيش الاحتلال مهما بلـــغ عـــدده وعدته إلى أن تقرر هذه القوات الهزيمة فتجبر على خيبة الانسحاب.

وهناك مؤشرات عديدة ترجح الخيار الأول في الوقت الذي توجد مؤشرات أخرى تـــرجح الخيـــار الثاني. ولعلَّ ما يبعثُ على التفكير بالخيار الأول هي تلك الوساطات التي تتحدث عنها بعض وسائل

الإعلام، والتي تسعى قوات الاحتلال من خلالها للتفاوض مع الجماعات التي تقاومها في العراق، مع رفض كثير من تلك الجماعات ــ أصلاً ــ لمبدأ التفاوض؛ لأنه يفتقر إلى مزيدٍ من الجدية والجدوى؛ بالإضافة إلى ما حمله المستشار الأمني للرئيس الأمريكي جورج بوش عند زيارته الأخيرة لبغداد التي تتضمن نقاطاً عدة فيها حثٌّ للسياسيين العراقيين على شمول المقاومة والمعارضين بمبادرة المصالحة الوطنية، وإصدار عفو عام عن المقاتلين، مع ضرورة حل لجنة اجتثاث البعث التي اتُّخذت غطاءً لإقصاء كل الخيِّرين من المؤسسات العراقية، والعمل على حل الميليشيات وفِرَق الموت، وغيرها.

و لم يفتأ نوري المالكي يغازل معارضيه في مناسبات عديدة بناءً على دواعٍ يعرفها هو قبلَ غيره، ولعل آخرها دعوته لانضمام ضباط الجيش السابق إلى جيشه الجديد؛ مع غصن الزيتون الذي طالما لوَّح به للجماعات المسلحة مقابل أن تترك السلاح، وهو ما ترفضه جماعات المقاومة رفضاً قاطعاً.

هذا في الوقت الذي نشاهد فيه مؤشرات أخرى تشير إلى احتمال استمرار محاولات بوش والإدارة الأمريكية لإحراز النصر على المقاومة العراقية، في ظل ما نشهده من تصرفاتٍ همجية وحشية تتعرض لها مناطق وقرى ومدن كل المناهضين للاحتلال، لتعيش هذه المناطق أوضاعاً مأساوية بالغة الصعوبة كالرمادي وسامراء والبغدادي وحديثة وهيت والرطبة وراوة والزركة، وغيرها.

هذا إذا اخذنا بنظر الاعتبار تلك التحركات الحثيثة التي تواصلها قوات الاحتلال لإقامة قواعد عسكرية دائمة لها في مناطق مختلفة من العراق، جرى الحديث عن آخرها بإقامة القاعدة الأمريكية في كردستان العراق.

وإذا كانت الصعوبة تقف أمام ترجيح أحد الخيارين؛ فإنَّ من المتفق عليه أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى جاهدة لتحويل هزائمها المتكررة إلى عوامل نصرٍ وقوةٍ، تتخذ من خلالها غطاءً لشد رحالها ومغادرة العراق بوجه مشرِّف، كما سماه نائب الرئيس الأمريكي (ديك تشيني).

٣ الفشل الأكيد... وماذا بعد؟

إذا كان الفشل يتبادر إلى ذهن أي متابع للخطة الأمنية وأدواتها وأساليبها؛ فإنه من الضرورة بمكان معرفة ما يترتب على هذا الفشل، مع تأكيدنا على الحل البديل لمثل هذه الخطط التي ملَّ أبناء العراق منها ومن كثرتها دونما نتائج تذكر.

فإنَّ حكومة المالكي أضعف ما تكون في هذه الأيام بعد أن فضحت وانكشف وجهها لكل العالم، فضلاً عن فشلها في توفير الخدمات أو الأمن للمواطنين، وقد تسعى أطراف سياسية إلى تكتل كبير تقوم من خلاله بسحب الثقة من هذه الحكومة وتشكيل حكومة جديدة، ربما يقودها علاوي أو غيره، وقد يكون الواقع مشجعاً على هذا الاحتمال خاصة بعد إعلان تكتل جديد يضم (كتلة علاوي) و(التوافق) و (الحوار) في إطار عمل موحد، ربما بإشارة من قوات الاحتلال، مع ما رافقه من تصدع كبير في جدار الائتلاف الشيعي الحاكم بعد الأنباء التي تواردت عن انسحاب (حزب

الفضيلة) الذي يُعَدُّ من أهم مكونات هذا الائتلاف الذي يسيطر على العدد الأكبر من مقاعد الحكومة الحالية والبرلمان؛ وخاصة إذا علمنا أن العدد الذي يملكه حزب الفضيلة في البرلمان هو ١٥ مقعداً.

ولكنَّ الحكومة البديلة لا يمكن الارتياح إليها ـــ أبداً ـــ مهما كانت خلفيات تشكيلها، على أساس إنقاذ البلد من المنزلق الطائفي والمذهبي الذي قد يشعل حرباً أهلية في العراق. والكل يذكر أن (فلوجة الصمود) قُصفت ودُمِّرت، وقتل شبابها وأطفالها ورجالها ونساؤها، وشُرِّد أهلها، بإمضاء من (إياد علاوي) يوم أن كان رئيساً للحكومة آنذاك.

وهذا يدعونا إلى التفكير بالمعطيات الأخرى على الساحة العراقية، وهي المقاومة الجهادية والميليشيات الطائفية بعد الفشل الذي ستمنى به القوات المحتلة والحكومية.

وإذا كان القضاء على فرق الموت والميليشيات الطائفية أمر واجب، فإنَّ دعم المقاومة التي تعمل على تحرير العراق لا يقل وجوباً عن ذلك، وعلى فصائل المقاومة أن تدرك خطر التفرقة، فتعمل على توحيد كلمتها، ورصِّ صفوفها، وهي مدعوة لأن تعمل وفق منهجية شرعية واحدة؛ لأنَّ العدو بدأ يهلك، وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة، وقد قرب الخلاص منه إن شاء الله.

إنَّ المقاومة من أجل أن تقطف ثمار الانتصار يجب أن تبتعد كل البعد عن روح المشاحنة أو الاختلاف؛ فإنَّ الانتصارات تزداد يوماً بعد يوم، والمقاومة الباسلة في تصاعد مستمر؛ ولله الحمد، وهذا ما يدعونا إلى التخطيط بجدية للمستقبل؛ فمن الحَيْف والجور أن يتحوَّل من جاد بنفسه في سبيل الله، وساهم في تحرير بلده من الاحتلال ليصبح غداً أو بعد غد مطارداً، ولا يشارك في بناء بلده من جديد.

وعلى جميع المخلصين من أبناء الرافدين ومعهم المسلمون الغيورون أن يقدموا الدعم المادي والمعنوي لهذه الفصائل المخلصة؛ لأنَّ المشروع الجهادي هو الذي أوقف المد الأنجلو ـــ أمريكي الذي لم يكن ليقف عند حد احتلال العراق؛ وللمقاومة الفضل الكبير في إفشال المشروع الكوني الأمريكي وإلحاق الهزيمة به، وعليها أن تُبقي الإصبع على الزناد، وأن لا تتحول إلى خلايا نائمة، فينال منها العدو مأربه على حين غفلة من أمرها.

أما محاولات الإنقاذ التي لا تفتأ الإدراة الأمريكية تستخدمها؛ فإنها ستؤول إلى الفشل مهما خططت وأعدت لها. وليس متناغماً ما تفعله إدارة الحرب الأمريكية من دعمها المستميت لعملية متهالكة أثبتت فشلها على مدى سنوات الاحتلال الماضية وما تدعو إليه من مؤتمرات تبغي من خلالها الخروج من عنق الزجاجة الذي بدأ يضيق كلما توغلت في أعماق المستنقع العراقي جراء تزايد خسائرها في البعدين الميداني والسياسي؛ فمن الناحية الميدانية لم تكد قوات الاحتلال تعالج خسارتها لأكثر من مائة جندي خلال شهر واحد حتى ظهر لها سقوط تسع طائرات خلال اقل من شهر. أما من الناحية

السياسية فهي الآن مدركة تماماً أنها لم تعد قادرة على الانفراد بالقرار الدولي مثلما فعلت إبّان غـــزو العراق.

لقد أغرى هذا التخبط الامريكي كثيراً من الدول سواء منها الكبرى أو الإقليميـــة علـــى اســـتغلال الثغرات للظهور على مسرح الأحداث كلاعبين بدلاء لهذا اللاعب الوحيد الذي بدا عليـــه التعـــب والإعياء؛ حيث لم تكن حسابات من خططوا له على درجة عالية من الدقة ومعرفة وثيقة بما سيجري على أرض الواقع من تقلبات.

ولتفادي هذه التداعيات عمدت الإدارة الأمريكية ممثلة بصقورها الذين يعشقون الـــدم إلى التـــرويج لمؤتمر تارة يسمونه إقليمياً؛ لأنه سيشمل سورية وإيران، وأخرى يطلقون عليه صفة الدولية، غـــير أن الحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن المتحاورين أو المؤتمرين وتحت أي سقف هي أن أمريكا لن ترضـــى في حواراتها ومؤتمراتها إلا بالحل الذي يؤكد سيطرتها وينتشلها من السقوط في الهاوية.

إنَّ اشتعال المنطقة بحرائق الديمقراطية الأمريكية المصدرة عبر بوابة خريطة الطريق وخريطـــة الشـــرق الأوسط الجديد أو الكبير دعت أمريكا هذه المرة إلى معالجات، ولكن المتابع للسياسة الأمريكية يرى أنها تقف كثيراً عند عوارض المشكلات، وتُعنى بمعالجتها متناسية أو متجاهلة الأسباب الـــتي أفـــرزت هذه العوارض؛ فهي تعالج نتائج سياستها الهوجاء لا أسبابها.

وبعد كل ذلك: على السياسيين ـــ وخاصة من تورط ممن يحسب على أهل السنة، إن كـــانوا كمـــا يدَّعون انهم شاركوا لمصلحة أهلهم ووحدة العراق ـــ أن يعترفوا صراحة بفشل المشروع السياســـي الذي كانوا ولا يزالون جزءاً منه؛ لأنَّ انسحابهم اليوم ـــ قبل غد ـــ من عملية كُتِبَ لها الفشل بعـــد أن مضى عليها أربع سنين يحسب لهم قبل فوات الفرصة؛ وذلك لسببين:

أولهما: أنهم سيكونون عندئذٍ ضمن الصف الوطني الذي نأى بنفسه عن أن يكون ضـــحية عمليـــةٍ سياسية تمتاز بالظلمة والمصير المجهول، بسبب السياسة الهوجاء للمحتل.

وثانيهما: لأن انسحابهم اليوم يعدُّ الحلقة الأخيرة من فصل المهزلة السياسية الجارية الآن في العـــراق، وهو بمترلة الترع الأخير لكل متهالك متعاون مع المحتل وأذنابه؛ ومن عاند منهم وأبى الإنابة وارتضى أن يستمر في طريق مشروع الاحتلال فإنَّ عليه أن يكف لسانه عن مكونات المشروع الوطني العراقي الأصيل من هيئات ومنظمات وتجمعات وفصائل جهادية وغيرها؛ فإنَّ التاريخ يسير وهو يسجل كل موقف وكلمة، وقد علمتنا الدنيا أنها يوم لك ويوم عليك.

إنَّ المواقف غير المسؤولة التي يقوم بها بعض الساسة ممن يُحسَبون على السنَّة ضد القـــوى الوطنيـــة المشرفة المناهضة للاحتلال، ستقدم حبل النجاة لأعداء الله والوطن من المحتلين وأعوانهم؛ في الوقـــت الذي نشاهد فيه عدونا وقد توجه نحو الاندحار وهو على وشك السقوط المدوي الذي سيهوي به في قعر الهزيمة والشنار.

نسأل الله ـــ تعالى ـــ أن يبصرنا بالحق، وأن يرزقنا اتباعه إنه سميع مجيب.

الهزيمة في العراق أم في أفغانستان: أيها أخطر على أمريكا؟!

د. محمد مورو

لماذا يعدُّ الغرب الهزيمة في أفغانستان أخطر من الهزيمة في العراق رغم أن العراق يتمتع بثروات بترولية هامة تجعله مطمعاً للقوات الاستعمارية، ورغم الموقع الاستراتيجي للعراق؛ كونه على بوابة الوطن العربي الشرقية، فإن الغرب يعدّ الهزيمة في أفغانستان أخطر من الهزيمة في العراق، وذلك لعدة أسباب تتصل بأن التحدي الرئيسي الذي يواجهه الغرب – من وجهة نظر الغرب طبعاً – هو الإرهاب الإسلامي.

الهزيمة في العراق لها بالطبع تداعيات استراتيجية كبرى، على مستوى خطورة الصعود الإيراني من ناحية، وعلى مستوى التداعيات بالنسبة لدول المنطقة، وأيضاً على مستوى إحساس الشعوب بالقدرة على مواجهة العدوان الأمريكي الصهيوني، وعدم قدرة آلة الحرب العسكرية الأمريكية على إخضاع الشعوب، الأمر الذي سيقلص قدرة أمريكا على فرض إرادتها بسهولة على الآخرين، ويرفع الروح المعنوية لقوى المقاومة للمشروع الأمريكي الصهيوني، ولكن هذا الأمر أيضاً يتحقق بالهزيمة الأمريكية الغربية في أفغانستان، صحيح أن زخم الهزيمة في العراق من الناحية الإعلامية كبير جداً، ولكنه في النهاية في إطار الدعاية والإعلام اللذين من الممكن احتواء آثارهما.

الهزيمة في العراق تعني أيضاً فشل المشروع الإمبراطوري الأمريكي الذي كان يخطط للقفز على سوريا ثم مصر وهكذا، وإخضاع المنطقة بالكامل للنفوذ الأمريكي الصهيوني، ولكن هذا الفشل في المشروع الإمبراطوري الأمريكي يعني فقط فشل أجندة اليمين المحافظ الأمريكي، ويمكن ـــ من ثَمَّ ـــ لإدارات أمريكية أخرى أن تتخلَّى عن هذا المشروع بالكامل وتعود إلى سابق سياساتها في المنطقة، وهو في النهاية فشل لأحد المشروعات الأمريكية.

هذا بالطبع ليس بالأمر البسيط وله آثاره الكبيرة والممتدة، ولكن من الممكن لأمريكا أن تتحمل هذا الفشل خاصة أنها نجحت إلى حدٍّ بعيد في إحداث فتنة طائفية في العراق يمكن لها أن تمنع قيام قاعدة إسلامية (سنية) في العراق إلى فترة غير قصيرة يمكن أن تشكل خطراً على الغرب وأمريكا.

بخصوص أفغانستان فإن الأمر مختلف، فالهزيمة الأمريكية الغربية تعني مباشرة تحول أفغانستان إلى منطلق للمقاومة الإسلامية السنية ضد الغرب وأمريكا، وهي المقاومة التي لا تقبل ولا تملك عناصر التفاهم مع أمريكا، على عكس المشروع الشيعي، الذي لا يمانع من التفاهم مع الغرب وأمريكا على حساب السُّنّة، بل يسعى إلى ذلك سعياً حثيثاً، ولولا وجود مشكلات عويصة مثل الدولة الصهيونية والملف النووي الإيراني وغيرها؛ لأمكن لهذا التفاهم أن يتم.

من الناحية العرقية والمذهبية فإن أفغانستان يمكن أن تصلح قاعدة للمقاومة السنية، والتحالف الشمالي في أفغانستان وصل إلى حالة من التفكك والإحساس بعدم جدوى المراهنة على الأمريكان بحيث أنـــه لم يعد قادراً على منع تحول أفغانستان إلى قاعدة للمقاومة السنية، أضف إلى ذلك أن هذا التحالف لا يستند إلى عمق استراتيجي عرقي أو مذهبي؛ فباكستان ـــ مثلاً ـــ من الناحية الشـعبية والمذهبيـة والعرقية ستنحاز إلى البشتون وطالبان، خاصة أنها لم تجد من أمريكا أي فائدة في إطار صراعها مـع الهند، وهي ترى أن طالبان والبشتون هما عمق استراتيجي لها في النهاية في إطار المعادلات الإقليميـة المعقدة في تلك المنطقة، أما شيعة العراق أو حلفاء أمريكا في الغرب فهناك امتدادات مذهبية لهـم في إيران وعرقية بالنسبة للأكراد في العراق وكل من إيران وسورية وتركيا وهكذا، فـإن طالبـان لـو استعادت السلطة ستكون أكثر استقراراً من أي حركة سنية تصل إلى نوع من السلطة في العـراق أو بعض مناطقه، والمحصلة النهائية أن الحرب على الإرهاب ستتأثر بالهزيمة في العراق، ولكنها ستصـاب بضربة قاتلة بالنسبة لأمريكا في حال الهزيمة في أفغانستان.

ولعل نائب الرئيس الأمريكي (ديك تشيني) قد شخَّص الحالة بشيء من الدقة عندما قال في خطـاب له في أستراليا في زيارته الأخيرة إليها أن الجهاديين يمكن لهم بعد أن ذاقوا طعم النصـر أن يشـكلوا ملاذاً وقاعدة للإرهاب في أفغانستان، ومن ثم فإن قرار رئيس الوزراء البريطاني بسحب نصف قواتـه من العراق يتضمن أيضاً توجيههم إلى أفغانستان.

المؤشرات في أفغانستان تشير إلى غير صالح الاحتلال، ورغم وجود ٣٣ ألف جندي من قوات حلف الأطلنطي، بالإضافة إلى ٢٠ ألفاً من القوات الأمريكية في أفغانستان، ويتم زيادتهم باستمرار، وقـد طلب الرئيس الأمريكي زيادة قدرها ١٠,٦ مليار دولار لحساب الحرب في أفغانستان، وبرغم تسلُّم قائد أمريكي جديد هو (دان ماكنيل) يوم ٤ فبراير ٢٠٠٧م من زميله البريطاني (ديفيد ريتشـاردز) مهمةَ قيادة قوات الناتو في أفغانستان؛ فإن الحقائق على الأرض تظهر تصاعد قوة طالبان، فالخسائر في الأرواح، وعدد العمليات الاستشهادية والفدائية التي نفذتها عناصر طالبان في عـام ٢٠٠٦م كانـت كبيرة جداً، بالقياس إلى مستوياتها منذ عام ٢٠٠١م حتى عام ٢٠٠٥م، وتعتـرف مراسـلة مجلـة (نيويورك تايمز) الأمريكية في أفغانستان أن حركة طالبان أصبح لها وجود مقاوم في كـل ولايـات أفغانستان من دون استثناء، وأن هناك ثلاث ولايات تسيطر عليها طالبان بالفعل وهي: أوروزغـان، وهلمند، وقندهار، وهناك ثلاث ولايات أخرى تسيطر طالبان على أجزاء منها وهي: كابول وغازني وبكتيكا، كما شهد بداية عام ٢٠٠٧م استيلاء طالبان على عدد من المدن الهامة، بل ووجود مساندة من جانب جنود منسوبين للحكومة لطالبان في هذا الصدد، كما حدث في الهجوم على مدينة موسى قلعة، الأمر الذي يعني وجود اختراق قوي لطالبان في صفوف الجيش الحكومي، ووجود تعاطف لدى هؤلاء الجنود مع حركة طالبان، وعدم قدرة الحكومة على السيطرة على جيشها، وهو أمر يضع أعباء

كبيرة على عاتق القوات الأجنبية، وفي الحقيقة؛ فإن الرفض الشعبي الأفغاني لقوات الاحتلال يتزايد، والفشل والفساد المستمران لحكومة كابول أدّيا إلى عزلتها وعدم وجود تأثير لها خارج القصر الرئاسي الذي يحرسه حراس أجانب!

ووصل الأمر إلى حدٍّ اندلاع مظاهرات تندِّد بالاحتلال في قلب العاصمة كابول، بل في مناطق من كابول ليست من الأغلبية البشتونية، بل تابعة لأعراق أخرى كانت تؤيد تلقائياً تحالف الشمال، وهذا يعني أن الإفلاس الحكومي ورفض الاحتلال وصل إلى كل الأعراق الأفغانية وليس البشتونية فقط، أضف إلى ذلك أن الإحساس الباكستاني بضرورة تأييد طالبان رغم أنف الجنرال (برويز مشرف) حاكم باكستان أو برضاه الصامت؛ أصبح يعبر عن نفسه علناً، فالسيد (محمد خان أوركزاي) حاكم الولاية الحدودية الشمالية الغربية الباكستانية المتاخمة لأفغانستان وصف حركة طالبان بأنها (حركة تقوم بحرب تحرير وطنية)، مما دفع الإدارة الأمريكية والرئيس الأفغاني (حامد كرزاي) إلى اتهام باكستان بأنها توفر ملاذاً آمناً لمقاتلي طالبان، والحقيقة أن تعاون الشعب الباكستاني مع حركة طالبان هو تعاون يستند إلى أسباب دينية وعرقية ومن ثم فهو أقوى من أن تمنعه حكومة باكستان، بل إن شخصيات كثيرة داخل الحكومة ذاتها تعدُّ دعمَ طالبان جزءاً هاماً من المصلحة الباكستانية والأمن القومي الباكستاني.

وهكذا؛ فإن فشل حكومة (كرزاي) وفسادها، وعدم نجاح قوات الاحتلال في تقديم أي خدمات أو مزايا للشعب الأفغاني، وكذا إحساس الشعب الأفغاني بالمهانة بسبب الاحتلال الأجنبي، إلى جانب رفضه التقليدي المعروف والعتيد للاحتلال؛ جعل الشعب الأفغاني يتعاطف مع حركة طالبان التي نجحت بدورها في تنظيم صفوفها واستعادت زمام المبادرة، مما يعني أن أياماً عصيبة تنتظر القوات الأجنبية في أفغانستان، وأن العدَّ التنازلي لهزيمة الغرب في أفغانستان قد بدأ.

(*) رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي.

إضاءات في الهزيمة النفسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الهزيمة النفسية التي حلت بها الأمة الإسلامية

الناظرلأحوال المسلمين اليوم يجد أن الكثير منهم قد تشبه بالكفارفي أمور كثيرة والله المستعان .ولاشك أن هذا التشبه هو عين الهزيمةالنفسية لدى شعوبنا اليوم .

وهذه الهزيمة لها ماوراءها من أسباب وظروف. وحسبي في هذه الوريقات أن أسلط الضوء حول هذه الهزيمة من مظاهر وأسباب ثم أعرج على شيء من العلاج وليعذرني القاريء فيما سأعرضه من إيجـــاز مع شيء من التنقيط...

أولا/ مظاهر الهزيمة النفسية

في الحقيقة أن المظاهر كثيرة ولكن حسبي ما أد ونه. ولعل هناك من يتفرغ لإخراج مثل هذا الموضوع في مجلد جديد. ومن الظاهر مايلي:

١- اليأس من إصلاح وضع المسلمين .وذلك لما يراه ويسمعه جهارا نهارا من وضع المسلمين المتـــدني شرقا وغربا - سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتقنيا .. - مع ما يراه ويسمعه أيضا من تسلط الكفـــر عليهم، وتقدمه في نفس الوقت - سياسيا واقتصاديا وتقنيا -

٢- النظرة إلى الدون بمعنى (انعدام الطموح).

حيث يكتفي بإنجاز مهام حياته الروتينية، ولايفكر يوما في الارتقاء بنفسه فضلا عن أمته.

٣-التقليدالأعمى للغرب..... ومن آثاره..

أ/ذهاب الابتكار وهذه تكفي ..حيث أصبح الأمر سهلا عند المعجبين بالغرب إذ كل ما في الأمر أن يبحث عن آخر ما استجد لديهم فيما يبحث عنه ومن مظاهر ذهاب الابتكار مايلي:

- التقليد في الملبس..
- التقليد في المأكل والمشرب.
- التقليد في الأسماء سواء أسماء أفراد أومؤسسات أومحلات ...
- التقليد في تصميم العمران ولك أن تتأمل الفنادق فإنها على الطريقة الغربية .
- التقليد في طريقة الكلام
- التقليد في طريقة المستشفى
- التقليد في أنماط الحفلات
- تقليدهم في الاعياد
- اقتناء المجسمات والتماثيل والصور

الخلاصة (أن التقليد يعني إلغاء الشخصية)

ب/ رضا كثير من الناس بواقعهم الضعيف ، ويتجلى في الفرد حيث لا يحمل هم الإسلام

٤ـــ عدم إظهار الهوية الإسلامية

٥ـــ ترك الأهداف السامية والرضا بهدف قريب محدود.

ومن الأمثلة..

• تربية الأبناءعلى الدراسة والزواج وبناء الدورفقط . وضمان شيء من قوت الحيـــاة دون تربيتـــهم على الإيمان الصادق والنهوض بأمتهم والدعوة إلى الله وحمل هم المسلمين.أقول صحيح أن المرء يهتم بقوته وأمور دنياه كما قال الله ((ولاتنس نصيبك من الدنيا)) ولكن نقـــول كمـــا قـــال الله أيضـــا ((وأحسن كما أحسن الله إليك)) وماذكرناه آنفا كله من الإحسان .

• أن البعض ليس له هدف واضح ومحدد يرتقي بمستواه حيث يجعله بعد نهاية ذلـــك الهـــدف مـــن المؤثرين ومن القدوات. إنك تعجب من بعضهم حيث يحلم أن يعمل للأمة شيئا العمـــل ولكنـــه لا يعمل خطوات عملية لما يريده فهذه هزيمة نفسية لأنها مجرد خواطر .

• كذلك تجد أن الشاب يتخرج من الثانوية ولايدري أي تخصص يعمل فيه .

• أيضا التخاذل والتكاسل عن تبليغ الدعوة إلى الله .

• وكذلك التخاذل عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

• تفضيل الصناعات الغربية على الصناعات المحلية الإسلامية

• الحرص على التردد إلى البلاد الغربية والتفاخر بذلك .

إن الواجب على المسلمين أن ينتبهوا لذلك وأن يكون حذقين بما يمكر به أعداؤنا .

تلك هي المظاهر والآن نتحدث عن الأسباب والعلاج وما هذا الموضوع إلا محاولة يسيرة لدفع عجلة الأمة للأمام والله الموفق .

ثانيا/ الأسباب المؤدية إلى الهزيمة .

وتنقسم إلى قسمين :

١ـــ أسباب داخلية عند المسليمن .

• ضعف الإيمان .

• ترك الجهاد

• الخوف والهلع من المشكلات التي تواجههم عند التزامهم بهذا الدين .

• النظرة الضعيفة للتاريخ . فينظر إلى القدس فيقول لها خمسين سنة و لم تتحرر. أن الأمـــة أصـــبحت تجهل طاقاتها الحقيقية .

• قلة الطموحات في أفراد هذه الأمة .

• عيش المسلمين في عقدة المغلوب .

٢ـــ أسباب خارجية .

• قوة الأعداء وتمكنهم بل وتسلطهم على بلاد المسلمين وخيراتهم

• وجود المنافقين وما أكثرهم .

• أن أعداء الله يحاولون أن يظهروا للناس دعايات تضخم قوتهم وجبروتهم .

ثالثا/ العلاج :

والعلاج هو العمل بضد الأسباب فبضدها تتميز الأشياء ولكن نضيف قائلين :

- أنه لابد علينا أن نعرف المشكلة.وأن نعرف مكمن الخطر .
- لابد من التربية على العقيدة الصحيحة .
- الابتعاد عن التعلق بالدنيا والإقبال على الآخرة .
- الرجعة إلى التاريخ .
- الهمة والإرادة .
- إبعاد التشاؤم .

وعلى الأمة جميعا أفرادا وجماعات ،شعوبا ودولا أن يرجعوا إلى ربهم وأن ينفضوا ثوب الهزيمة عنهم لكي تعود الأمة إلى رشدها وطريقها الصحيح عندئذ نحرر الأقصى ونتربع على عرش الأمم.

والله المستعان .

ثقافة الهزيمة إلى مزبلة التاريخ

د. فيصل القاسم

لا أعتقد أن هناك أمة عانت من ثقافة الهزيمة أكثر من الأمة العربية، فقد عمل أعداؤنا على مدى عقود على تكريس الشعور بالهزيمة لدينا، وقد ساعدهم في ذلك رهط من أبناء جلدتنا الذين ما فتئوا ينشرون اليأس والعجز والإحباط بين ظهرانينا بدعوى الواقعية وضرورة أن نعرف قدر أنفسنا، على اعتبار أنه ليس بالإمكان أكثر مما كان.

ولا بد من الاعتراف بأن أولئك الأشرار قد نجحوا إلى حد كبير في حربهم النفسية الخطيرة ضد الشعب العربي من المحيط إلى الخليج، خاصة وأن الأخطر من الهزائم العسكرية التي مُنينا بها هو القبول بها والعيش معها كأمر واقع، فقد وصل الأمر بالكثير منا إلى حد الخوف حتى من استخدام كلمة مقاومة أو جهاد أو تصدٍ في الآونة الأخيرة، خشية أن نُتهم بالإرهاب بحيث أصبحنا نخشى من الكلام فما بالك القتال.

لقد انحدرت بنا ثقافة الهزيمة إلى ذلك الدرك الأسفل من الهوان والاستكانة. ويؤكد هذه الحقيقة كتاب شهير بعنوان "ثقافة الهزيمة" The Culture of Defeat، إذ يرى مؤلفه وولفغانغ شيفلبوش أن أهم شيء في فنون الحرب الحديثة ليس الانتصار على عدو ما، بل إبقاء ذلك العدو أسيراً لعار السقوط ولحظة الهزيمة والوقوع على الأرض لا يخرج منها أبداً ولا يخرج من عاره أو من هزيمته.

بعبارة أخرى، فإن النصر الأعظم الذي تستطيع قوة من القوى أن تلحقه بأعدائها هو أن تظل تضغط عليها نفسياً باستمرار، وأن تذكرها طوال الوقت بهزيمتها وأن تستبقيها إلى الأبد أسيرة لثقافة الهزيمة. وقد درس المؤلف تجارب ألمانيا واليابان وبولندا وفرنسا، وأخذ حالة هذه البلدان وكيف واجهت الوضع الصعب، مع العلم أن ألمانيا استسلمت بلا قيد أو شرط وفتحت أبوابها للمنتصرين ليدخلوا ويفعلوا ما يشاؤون، وأن اليابان ركعت على ركبتيها أمام القنبلة النووية الأمريكية واستسلمت بالكامل.

ولا ننسى أن فرنسا بجلالة قدرها هُزمت واحتلت من قبل هتلر في سنة ١٩٤٠وظل نصفها تحت حكم الألمان والنصف الآخر بقيت فيه حكومة عميلة. لكن الشعوب الأوروبية لم تسمح للهزيمة بأن تتحول إلى ثقافة عامة، كما فعل العرب. لقد فهم الألمان واليابانيون والفرنسيون تلك الحقيقة جيداً، كما يقول محمد حسنين هيكل، وواجهوها واجتثوها من جذورها. وقد لعب المثقفون الوطنيون وقتها دوراً كبيراً في إزالة آثار الهزيمة وتشجيع المقاومة وإعادة استنهاض الروح المعنوية للشعوب الفرنسية والألمانية واليابانية، بمعنى أن المثقف الحقيقي هو أول من يجب أن يتنبه إلى أن استبقاء شعبه أو أمته أسيرة لثقافة الهزيمة أمر في غاية الخطورة، فلا ديمقراطية ولا حرية ولا تنمية ولا شرعية ولا هوية ولا كرامة، طالما أن الأمة أسيرة لثقافة الهزيمة. فلا يمكن أن تصنع مستقبلاً وأنت أسير لحظة الانكسار.

لكن بينما تصدى المثقفون والإعلاميون الغربيون لثقافة الهزيمة ووأدوها في مهدها، راح بعض مثقفينا يكرس الهزيمة ويجعلها ثقافة عامة مستدامة. وقد عاد ذلك الرهط الوضيع ليطل برأسه بقوة أثناء المواجهة الأخيرة بين رجال المقاومة الوطنية اللبنانية والدولة العبرية ليمارس لعبته القديمة، متعامياً عن النصر المؤزر الذي حققته المقاومة الوطنية اللبنانية، فامتلأت بعض المواقع الالكترونية والصحف العربية الصفراء والخضراء بالمقالات والتحليلات التحبيطية التي وجدت طريقها بسهولة فيما بعد إلى موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية الالكتروني.

وكم كان التناغم واضحاً بين بعض المواقع والصحف العربية وبين المواقع الإسرائيلية الرسمية،على اعتبار أن بعض الصحف الإسرائيلية غير الرسمية كانت أكثر توازناً في تقييمها للمعركة وأكثر اعترافاً ببسالة المقاومين اللبنانيين من الطابور الإعلامي العربي الخامس. كيف لا وقد اعترف قائد لواء (جولاني) الذي يُعتبر صفوة الجيش الإسرائيلي بأنه كم تمنى لو كان المقاومون الذين واجههم في بنت جبيل وعيتا الشعب من لوائه لشدة بأسهم وعبقريتهم القتالية وصمودهم الرائع. لكن ذلك الاعتراف الإسرائيلي المر لا يعني من استمرأوا الهوان والذل وراهنوا على الهزيمة المستدامة من إعلاميينا ومثقفينا المزعومين.

وعلى ما يبدو أن خبراء التحبيط والتيئيس العرب ما زالوا أسرى أدواتهم ونظرياتهم القديمة التي أكل عليها الدهر وشرب، فليس لديهم من أسطوانة يلعبونها كلما أرادوا النيل من حركات المقاومة وداعميها سوى أسطوانة أحمد سعيد المذيع الشهير في إذاعة (صوت العرب) أيام النكسة، على اعتبار أن العرب، برأيهم، ليسوا أكثر من ظاهرة صوتية تتغنى بالانتصارات الفارغة وتطلق العنتريات على الهواء وتُمنى بالهزائم على الأرض.

والمضحك في موقف التيئيسيين العرب أنهم كلما سمعوا عربياً يبشر بالنصر ويدعو إلى شحذ الهمم سخروا منه فجأة وذكروه بشكل أتوماتيكي بأحمد سعيد الذي صار ديدنهم الدائم، مع العلم أن وسائل إعلام المقاومة اللبنانية ممثلة بقناة المنار ابتعدت كلياً عن الخطاب الإعلامي التهييجي والتطبيلي "السعيدي" في تغطيتها للحرب الأخيرة مع الصهاينة.

وقد لاحظنا أن خطابات السيد حسن نصر الله كانت متزنة وواقعية ورزينة إلى أبعد الحدود، فيما اتسمت التصريحات الإسرائيلية بنبرة عنترية مضحكة، بينما كان الجنود والضباط الإسرائيليون يتساقطون كالذباب أمام رجال المقاومة البواسل وبينما كا يشتكي سكان الملاجئ الإسرائيليون من أن صواريخ المقاومة جعلتهم "يعيشون كالكلاب في دهاليز مظلمة".

وقد رأينا أن معظم الجنود الإسرائيليين المصابين كانوا مستلقين على الحملات الطبية على بطونهم وليس على ظهورهم، مما يؤكد أنهم أصيبوا وهم هاربون من أرض القتال. وقد صلى الجنود بعد انتهاء المعركة بأن تكون حربهم الأخيرة مع المقاومة. لهذا كان حرياً بمروجي ثقافة الهزيمة العرب أن يشبهوا بيانات وسائل الإعلام الإسرائيلية بخطابات أحمد سعيد، إلا إذا اعتبروا الهمجية النازية التي مارستها الطائرات الإسرائيلية الجبانة بحق النساء والأطفال والشيوخ في لبنان انتصاراً عسكرياً. وهي بالتأكيد دليل يأس وعجز وهزيمة أكثر من أي شيء آخر.

لقد وصف أحد المعلقين سلاح الجو الإسرائيلي بعد الحرب الأخيرة بأنه سلاح الجبناء. فما الفائدة إذا استطاعت طائرات هتلر في الحرب العالمية الثانية تسوية بعض الأحياء اللندنية بالأرض بينما بقي تشيرتشل ومونتغمري يقودان المعركة على الأرض ضد القوات النازية الفاشية ويدحرانها على أكثر من جبهة؟

لقد أظهرت الإحصائيات التي نشرتها وكالة الأنباء الفرنسية نقلاً عن مصادر إسرائيلية أن القصف الإسرائيلي قتل ألفا وثلاثين لبنانياً، خمسة منهم فقط عسكريون والباقي مدنيون، بينما قتل حزب الله مائة وثلاثين إسرائيلياً (حسب البيانات الإسرائيلية) مائة منهم من خيرة الضباط والجنود، والباقي مدنيون. لاحظوا الفرق! من المنتصر الحقيقي بربكم، الذي يقصف المشافي والسيارات المدنية والطرق والجسور، أم الذي يسحق الجنود ويجعل دبابات الميركافا العتيدة أثراً بعد عين؟

ولو كنت مكان جوقة الانهزاميين العرب لخرست من الآن فصاعداً،لأن البطولات التي سطرها رجال المقاومة في لبنان أنهت ثقافة الهزيمة لدى العرب إلى غير رجعة كما يتبين من ردة فعل الشارع العربي من المحيط إلى الخليج. لقد تغير الشعور العام مائة وثمانين درجة لدى العامة والخاصة على حد سواء. والدليل على ذلك أن ألد أعداء حزب الله راح يبارك صمود المقاومة وانتصاراتها، على مبدأ أن الهزيمة يتيمة وأن للنصر مليون أب.

لقد كان الشارع العربي هذه المرة حذراً جداً في التفاؤل، خاصة أنه تجرع في السابق مرارة الهزائم والتسرع في إعلان النصر. وقد تميزت ردود الفعل الشعبية بالتروي والانتظار على مدار الحرب، لكن الشارع بات متيقناً مائة في المائة الآن أن النصر قد تحقق، وأن الشعور بالهزيمة الذي صاحبنا منذ عقود قد تلاشى تماماً بعد أن تمكنت حركة مقاومة صغيرة جداً من أن تدحر رابع أقوى جيش في العالم وتجعل أحد كهنة السياسة الإسرائيلية شمعون بيريز يصف الحرب الأخيرة بأنها "حرب حياة أو موت". صحيح أن الدولة العبرية لم تمت، لكنها برأي الشارع العربي والخبراء الاستراتيجيين فقدت هيبتها وتحطمت أسطورتها مهما دججوها بالعتاد والأسلحة الجهنمية. ألم تفقد إسرائيل وظيفتها الأساسية ككلب حراسة في المنطقة وأصبحت بحاجة حقيقية لمن يحرسها؟

ألا يشعر السواد الأعظم من العرب الآن أن النصر الكامل أصبح، قاب قوسين أو أدنى، في متناول اليد بالصواريخ فقط؟ ألا يشعر كل عربي من المحيط إلى الخليج بأنه مستعد لخوض المعركة ضد الأعداء بعد أن كان يلوذ بالخوف والصمت في السابق؟

لقد تخلص شارعنا من عقدة الذل والهزيمة، وهي، كما رأينا في كتاب (ثقافة الهزيمة) آنف الذكر أنها أخطر بكثير من الهزيمة ذاتها. ولا شك أن المثقفين العرب الحقيقيين سيستعيدون من الآن فصاعداً زمام المبادرة ولن يخشوا تسمية الأمور بمسمياتها الحقيقية بعدما كانوا يتجنبون عبارات التحدي والمقاومة في الماضي.

ولعل النصر الأهم للمقاومة اللبنانية إذن ليس دفع نصف إسرائيل تحت الأرض كالفئران المذعورة ونقل المعركة لأول مرة في تاريخ الصراع إلى ساحة العدو الداخلية، بل تخليص الأمة من نير الهزيمة، بشرط أن نستغل ذلك النصر المعنوي العظيم للنهوض سياسياً واقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً واجتماعياً كما فعل الألمان واليابانيون من قبلنا، وأن نحمي النصر التاريخي بأسناننا كي لا يفرغه الحاقدون من مضمونه، وألا نقايضه بمكاسب وصفقات ومتاجرات سياسية رخيصة، كما فعل البعض بعد حرب تشرين المجيدة ليحولوها وبالاً على العرب.

لا نريد النصر لمجرد النصر، فقد انتصر الجزائريون من قبل، لكنهم سلموا رقابهم بعد التحرير لمن أسماهم أحد المفكرين الجزائريين بـ"أبناء باريس"، أي أن المحتل عاد ليحكم من خلال عملائه الداخليين القدامى في الجزائر والكثير من الدول التي تحررت عسكرياً من ربقة الاحتلال الغربي. لهذا

يجب أن يكون النصر هذه المرة أساساً لبناء الدولة الوطنية الديموقراطية الحديثـــة، لا دولـــة التجـــار والمرتزقة والمقاولين والوكلاء

.مظاهر الهزيمة النفسية في مجال الفكر

يتناول الدرس السمات الظاهرة التي انعكست على المنهزمين نفسيا في مجال الفكر التربوي من حيث المضمون الذي يقدم وطريقة تقديمه ومن الذين يقدمونه، وكذلك الهزيمة النفسية في الفكر الإعلامـــي ومظاهر ذلك .أولاً : الفكر التربوي : من مظاهر الهزيمة النفسية في مجال الفكر التربوي :

١- محاصرة التعليم الديني ماديًا ومعنويًا ؛ فماديًا بفتح مجالات التعليم اللاديني في مواجهته ،وتشجيعه على حسابه ، ومعنويًا بأمور منها:

أ- السخرية بوسائل التعليم الديني من أستاذ وتلميذ ومنهج.

ب- التفرقة بين معلم الدين واللغة العربية وبين غيرهما من معلمي العلوم الأخرى في التعامـــل بكـــل صوره من حيث الحوافز والمميزات المالية الأخرى.

ج- اختيار أسوأ أوقات اليوم الدراسي عند الطالب للمواد الدينية والعربية ؛ فهـــي دائمًـــا تـــأتي في الساعات الأخيرة وهدف المهزومين من ذلك ألا يعي الطالب منها شيئًا ، وأن يكرهها ويسأم منـــها ومن مدرّسها.

د- حرمان معلمي الدين والعربية في الغالب الأعم من الفرص الإدارية والمناصب القيادية والوظـــائف الإشرافية حتى لا يتسنموا ذروة التوجيه أو يحتلوا موقع صنع القرار.

٢- تقسيم التعليم إلى ديني وتعليم آخر يسمى أحيانًا مدنيًا وأحيانًا عصريًا وفي أحيان أخرى لايسمى شيئًا، وهذا التقسيم مظهر من مظاهر الهزيمة، وذلك أن التعليم في البلاد الإسلامية لا يمكن أن يكون إلا دينيًا؛ ألا ترى إلى الأمم الأخرى من أصحاب العقائد الباطلة تلحّ على أن يكون التعليم ومنهاجه والثقافة وفروعها مصطبغين بصبغتها الحضارية الخاصة بها؛ منبثقين من عقائدها الدينية وخـــير مثـــال على ذلك اليابان البوذية والهند البرهمية.

٣-إهمال الجامعات والمعاهد الإسلامية العريقة.

٤-التوسع في الابتعاث إلى الدول الكافرة ، وليت ذلك التوسع كان من نصيب العلـــوم التجريبيـــة والطبيعية التي تشكو البلاد الإسلامية من ضعف شديد فيها لكان الأمر أهون ، ولكن ذلك التوســـع كان في مجالات تتصل بالبيئة والتراث والوضعيات المحلية كعلوم التربية وطـــرق التـــدريس والعلـــوم الإنسانية؛ فقد نشرت الجريدة الرسمية بمصر تقريرًا عن البعثات الدراسية التي ستوفدها وزارة التعلـــيم العالي لسنة ١٩٧٣م وذكر التقرير أن نصيب العلوم الطبيعية لا يتجاوز أكثر من خمس بعثات من بين

أكثر من مائتي بعثه وخُصِّص الباقي للعلوم الإنسانية التي كان نصيب علوم التربية وطرق التــدريس منها أكثر من مائة وعشرين بعثة.

٥-انتشار المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية.

٦-تمييع المناهج الإسلامية واختصارها باسم التطوير والاصطلاح والتعديل.

٧-الاختلاط بين الجنسين ؛ حيث كان مظهرًا من مظاهر الانهزام في الحياة الاجتماعيــة العامــة وفي محيط الأسرة ، ثم انتشر ذلك الاختلاط بين الطلاب والطالبات ابتداءً بالمرحلة الابتدائية بحجة بــراءة كل من الفريقين، ثم ارتفع مستوى ذلك الاختلاط إلى المرحلة التي بعدها؛ الإعدادية والثانوية بحجــة تعوّد كل من الفريقين على الآخر، وأخيرًا شمل الاختلاط مرحلة الجامعة؛ إذ كيف يفصل الجنســان عن بعضهما في الجامعة وقد اختلطا فيما قبلها.

٨-الترويج للهجمات السوقية المحلية ، ووجه كون ذلك انهزامًا أنه استجابة لرغبات أعــداء الأمــة الحريصين على تمزيق وحدتها عن طريق تفتيت لغتها الجامعة المانعة ؛ وإحلال لهجات عاميــة محلــها لتتفرق الأمة بتفرق ألسنتها.

٩-محاولة انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن لتزع قداسة اللغة العربية ، وحرمانها من حماية الدين ، وكشفها أمام أعدائها ، وإعانتهم على الإجهاز عليها بعد تجريدها من كــل نصــير أو معين ، ومن أبرز من حاول ذلك الدكتور طه حسين الذي نقل عنه الدكتور محمد محمد حســين في كتابه [حصوننا مهددة من داخلها] نصً يدل على استماتته في هذا السبيل ، قال: [إن اللغة العربيــة ليست ملكًا لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها ، ويقومون وحدهم من دونها ، ويتصرفون وحــدهم منها لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعًا من الأمم والأجيال، وكل فرد من هؤلاء النــاس حــر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هــذا التصــرف، وإذًا فمــن السخف أن يُظنّ أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف والأزهريين].

١٠-اتخاذ مجامع اللغة العربية ومكاتب جامعة الدول العربية ميدانًا لنشاط هدام أشرنا إلى طرف منــه في فقرات سابقة كدعوة أحدهم في المؤتمر الأول لمجامع اللغة العربية بدمشق ســنة ١٣٧٦هـــــ إلى تأليف [معاجم محلية] ، ودعوة آخر إلى إعادة النظر في تبويب النحو وتدوينه من جديد.

١١- ضعف مناهج التعليم من جهة العقيدة الإسلامية ؛ بل إنا نجد في مناهج دول إسلامية أن نصيب التربية الإسلامية حصة واحدة في الأسبوع ، وفي كثير من البلدان هذه الحصة اختياريــة، وللطالــب كامل الحرية في أن يؤدي الامتحان فيها أو لا.

١٢- قطع الصلة بين الدين والعلوم التجريبية في أكثر الجامعات الإسلامية.

١٣- الإهمال المتعمد لتدريس الناشئة تاريخ إسلامهم العظام ابتداءً بالسيرة النبويــة وانتــهاءً بســير المصلحين والدعاة من أبطال الإسلام ورجالاته الفاتحين وعلمائه المبرزين.

ثانيًا: الفكر الإعلامي

الإعلام مجال من أخطر مجالات الحياة ، وأكثرها حساسية ، وأعظمها أهمية لقدرته علـــى تشـــكيل الأفكار وصناعة الأفراد حسب النوعية التي يريدها ، وتستطيع أن تنظر إلى إعلام أية أمة فتحكم على واقعها ومدى عمق نظرتها للكون والإنسان والحياة أو سطحية تلك النظرة، وعلى مدى جدية الأمـــة أو هزليتها وتقدمها أو تخلفها، وأمتنا تعيش في وقتها الحاضر أبشع مظاهر الهزيمة النفســـية في مجـــال الإعلام ، ومن تلك المظاهر:

١- التناقض الواضح فيما يقدمه الإعلام في البلاد الإسلامي بمختلف وسائله إلى درجة تصل إلى حد العبث والاستهتار بالجمهور المتلقي ، خذ مثلاً: ذلك البرنامج الذي يعرضه التلفاز، وقد يكون برنامجًا دينيًا أو صحيًا فيتحدث عن أضرار التدخين فما أن ينتهي ذلك البرنامج ؛ حتى يعقبـــه مسلســـل أو تمثيلية تعج مشاهدها بالدخان والمدخنين، وقد يعرض التلفاز برنامج تفسير الآيات من القرآن وقـــد تكون الآيات تتعلق بتحريم المعازف والمزامير، فلا يكاد المفسر ينهي تفسيره حـــتى تصـــك مســـامع المشاهدين وتصافح أعينهم مطربة تتلوّى ومعها فرقة تعزف ، وهكذا يتمزق المشـــاهد - وخاصـــة الشاب - من هذا التناقض؛ فلا يقيم لشيء وزنًا .

٢- ضياع الهوية الحقيقية للأمة في وسائل إعلامها ، وتخبط تلك الوسائل وجمعها بين الغث والسمين مع طغيان الغث في معظم الأحيان ، وهي ذلك فريقان ، فريق يسير بلا عقـــل واعٍ لأهميـــة دوره في الامة ، ولا ينطلق فيما يقدمه للناس من مواد سياسية مرسومة واضحة المعالم ظاهرة الأهداف

فريق بان خبثه وفاحت رائحته التي تزكم الأنوف وظهرت أهدافه التدميرية في صورة ما يقدمه للناس من مواد هابطة وما ينفثه من سموم قاتلة ليس فيها مجال لخير، وهم ينطلقون من سياسة هدم متعمـــد وإفساد مقصود.

٣- نقل الوسائل الإعلامية للأخبار والتحليلات السياسية وغيرها هكذا كما وردت من وكـــالات الأنباء العالمية والصحف الأجنبية دون تمحيص أو تدقيق أو إعادة نظر وصياغتها صياغة تتناسب مـــع مفاهيمنا، وتنطلق من قيمنا ومبادئنا مثل تسمية المجاهدين الأفغان أو الشيشـــان بــــ[المتمردين] أو [الثوار] .

اسم الكتاب: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية تأليف: عبد الله بن حمد الشبانة

من وحي الهزيمة

بدوي الجبل

رمل سيناء قبرنا المحفور وعلى القبر منكر ونكير

كبرياء الصحراء مرغها الذل فغاب الضحى وغار الزئير

لا شهيد يرضي الصحارى، وجلى هارب في رمالها وأسير
أيها المستعير ألف عتاد لأَعاديك كل ما تستعير
هدك الذعر لا الحديد ولا النار وعبء على الوغى المذعور
أغرور على الفرار؟! لقد ذاب حياء من الغرور الغرور
القلاع المحصنات ـــ إذا الجبن حماها ـــ خورنق وسدير !
لم يعان الوغى (لواء) ولا عانى (فريق) أهوالها و (مشير)
رتب صنعة الدواوين.. ما شارك فيها قرٌّ الوغى والهجير
وتطير النسور في زحمة النجم، وفي عشه البغاث يطير
جَبُنَ القادة الكبار وفروا وبكى للفرار جيش جسور
تركوه فوضى إلى الدور، فيحاء، لقد ضمت النساء الخدورُ !
هُزِم الحاكمون، والشعب في الأصفاد، فالحُكْمُ وحده المكسور
هُزِم الحاكمون، لم يحزن الشعب عليهم، ولا انتخى الجمهور
يستجيرون ! والكريم لدى الغمرة يلقى الردى ولا يستجير !
لا تسل عن نميرها غوطةَ الشام ألح الصدى وغاض النمير
وانس عطر الشآم، حيث يقيم الظلم تنأى.. ولا تقيم العطور
أطبقوا.. لا ترى الضياء جفوني فجفوني عن الضياء ستور
بعض حريتي السماوات والأنجم والشمس و الضحى و البدور
بعض حريتي الملائك والجنة والراح و الشذا و الحبور
بعض حريتي الجمال الإلهي ومنه المكشوف و المستور
بعض حريتي ويكتحل العقل بنور الإلهام، و التفكير
بعض حريتي، ونحن القرابين لمحرابها، ونحن النذور
بعض حريتي، من الصبح أطياب ومن رقة النسيم حرير
ثم أملى الطغاة أن يبغض النور علينا ويعشق الديجور
نحن أسرى، ولو شَمَسْنا على القيد لما نالنا العدو المغير
لاقتحمنا على الغزاة لهيباً وعبرنا وما استحال العبور
سألوني عن الغزاة فجاوبت: رياح هبت ونحن ثبير
سألوني عن الغزاة فجاوبت: رمال تسفى ونحن الصخور
سألوني عن الغزاة فجاوبت: ليال تمضي ونحن الدهور !
هل درت عدن أن مسجدها الأقصى مكان من أهله مهجور

أين مسرى البراق، والقدس والمهد وبيت مقدس معمور؟
لم يرتل قرآن أحمد فيه ويزار المبكى ويتلى الزبور
طوي المصحف الكريم، وراحت تتشاكى آياته والسطور
تستبى المدن والقرى هاتفات أين... أين الرشيد والمنصور !
يا لذل الإسلام. إرث أبي حفص بديد مضيع مغمور
يا لذل الإسلام: لا الجمعة الزهراء نعمى، ولا الأذان جهير
كل دنيا للمسلمين مناحات وويل لأهلها وثبور
لبست مكة السواد، وابكت مشهد المرتضى ودك الطور
هل درى جعفر؟ فرف جناحاه إلى المسجد الحزين يطير
ناجت المسجد الطهور وحنت سدرة المنتهى وظل طهور
أين قبر الحسين ؟(١) قبر غريب! من يضم الغريب أو من يزور
أين آي القرآن تتلى على الجمع وأين التهليل والتكبير ؟
أين آي الإنجيل ؟ فاح من الإنجيل عطر وضوأ الكون نور
أين روما ؟ وجَلَّ حَبْرٌ بروما مهد عيسى يشكو ويشكو البخور
النصارى و المسلمون أسارى وحبيب إلى الأسير الأسير
صلب الروح مرتين الطواغيتُ! جراح كما يضوع العبير
يا لذل الإسلام والقدس نهب هتكت أرضه فأين الغَيور
قد تطول الأعمار لا مجد فيها ويضم الأمجاد يوم قصير
من عذولي على الدموع؟ وفي المروة والركن والصفا لي عذير
وحرامٌ علي أن يترل البشر بقلبي وأن يلم الحُبور
كحلت بالثرى الخضيب جفون وهفت للثرى الحبيب ثغور
لا تشق الجيوب في محنة القدس ولكنها تشق الصدور
حبست أدمع الأباة من الخوف ويبكي الشذا وتبكي الطيور
أنا حزن شخص يروح ويغدو ومسائي مع الأسى والبكور
أنا حزن يمر في كل باب سائل مثقل الخطى مقهور
طردتني الأكواخ، والبؤس قربى وتعالت على شقائي القصور
يحتويني الهجير حيناً، ولا يرحم أسمال فقري الزمهرير
وعلى الجوع والضنى والرزايا في دروبي أسير ثم أسير
نقلتني الصحراء حيناً.. وحيناً نقلتني إلى الشعوب البحور

حاملاً محنتي أجرر أقدامي ويومي سَمْحُ الغَمام مطير
حاملاً محنتي أوزعها في كل دنيا وشرها مستطير
محنتي الغيث إن أرادوا وإلا فهدير البركان والتدمير
حاملاً محنة الخيام، فَتَزْوَرُّ وجوه عني وتغلق دور !
الخيام الممزقات.. وأمّ في الزوايا وكسرة وحصير
وفتاة أذلها العري والجوع ويلهو بالرمل طفل صغير
كلما أن في الخيام شريد خجل القصر والفراش الوثير
خجل الحاكمون شرقاً وغرباً ورئيس مسيطر و وزير
هيئة(٢) للشعوب تمعن في الذنب ولا توبةٌ ولا تكفير
شارك القوم كلهم في أذانا ومن القوم غُيَّبٌ و حضور
من قوانينها المداراة للظلم ومنها التغريب والتهجير
ويقام الدستور، أضحوكة الساخر منا ويوأد الدستور
كل علم يغزو النجوم ويغزو بالمنايا الشعوب علم حقير
والحضارات بعضهن بشير يتهادى وبعضهم نذير
نعميات الشعوب شتى، فنعمى حمدت ربها ونعمى كفور
لن يعيش الغازي وفي الأنفس الحقد عليه، وفي النفوس السعير
يحرق المدن، والعذارى سبايا وصغير لذبحه وكبير
دينه الحرق والإبادة والحقد وشتم الأعراض و التشهير
صورته التوراة بالفتك والتدمير حتى ليفزع التصوير
من طباع الحروب كرٌّ وفرٌّ والمجلّي هو الشجاع الصبور
ليس يبنى الفجاءات فتح علمي في غد هو المنشور
تنتخي للوغى سيوف معد ويقوم الموتى وتمشي القبور
عربي فلا حماي مباح ـــ عند حقدي ـــ ولا دمي مهدور
نحن أسرى، وحين ضيمَ حمانا كاد يقضي من حزنه المأسور
كل فرد من الرعة عبد و من الحكم كل فرد أمير
ومع الأسر نحن نستشرف الأفلاك والدائرات كيف تدور
نحن موتى! وشر ما ابتدع الطغيان موتى على الدروب تسير
نحن موتى ! وإن غدونا ورحنا والبيوت المزوَّقات قبور
نحن موتى ! يسر جار لجارٍ مستريباً: متى يكون النشور

بقيت سبة الزمان على الطاغي ويبقى لنا العُلى و الضمير
سألوا عن ضناي، محض تشف هل يَصِحُّ المعذب الموتور
أمن العدل أيها الشاتم التاريخ أن تلعن العصور العصور ؟
أمن النبل أيها الشاتم الآباء أن يشتم الكبير الصغير
وإذا رفت الغصون اخضراراً فالذي أبدع الغصون الجذور
اشتراكية ؟! وكنز من الدر وزهو ومنبر وسرير
اشتراكية تعاليمها: الإثراء والظلم والخنا و الفجور
اشتراكية ! فإن مرّ طاغ صف جند له ودَوّى نفير
كل وغد مصعر الخد لا سابور في زهوه ولا أزدشير
يغضب القاهر المسلح بالنار إذا أنَّ أو شكا المقهور
ينكر الطبع فلسفات عقول شأنهن التعقيد والتعسير
كل شيء متمم لسواه ليس فينا مستأجر و أجير
بارك الله في الحنيفية السمحاء فيها التسهيل و التيسير
ورقيب على الخيال.. فهل يسلم منه المسموع والمنظور
عازف عن حقائق الأمر لؤماً وكفى أن يلفق التقرير
فيجافي أخ أخا ويشقى بالجواسيس زائر ومزور
لصغار النفوس كانت صغيرات الأماني وللخطير الخطير
يندُرُ المجد، والدروب إلى المجد صعاب، ويكثر التزوير
علموا أنه عسير فهابوه ولا بدع فالنفيس عسير
محنة الحاكمين جهل ودعوى جبن فاضح و مجد عَثور
نهبوا الشعب، واستباح حمى المال جنون النعيم والتبذير
كيف يغشى الوغى ويظفر فيها حاكم مترف وشعب فقير
مزقوه، ولن يمزق الشعب، فالشعب عليم با أرادوا خبير
حكموه بالنار فالسيف مصقول على الشعب حده مشهور
محنة العُرْبِ أُمَّةٌ لم تهادن فاتحيها وحاكم مأجور
هتكوا حرمة المساجد لا جنكير باراهم و لا تيمور
قحموها على المصلين بالنار فشِلْوٌ يعلو وشِلْوٌ يغور
أمعنوا في مصاحف الله تمزيقاً ويبدو على الوجوه السرور
فقئت أعين المصلين تعذيباً وديست مناكب و صدور

ثم سيقوا إلى السجون، ولا تسأل، فسجانها عنيف مرير
يشبع السوط من لحوم الضحايا وتأبى دموعهم و الزفير
مؤمن بين آلتين من الفولاذ دام، ممزق، معصور
هتفوا باسم أحمد فعلى الأصوات عطر وفي الأسارير نور
هتفوا باسم أحمد فالسياط الحمر نعمى وجنة و حرير
طرف أتباع أحمد في السماوات وطرف الطاغي كليل حسير
عبرة للطغاة مصرع طاغ وانتقام من عادل لا يجور
المصلون في حمى الله يُرديهم مُدِل بجنده مخمور
جامع شاده على النور فحل أموي مُعَرِّقٌ منصور
لم ترع فيه قبل حكـ الطواغيت طيور ولا استبيحت وكور
مطلق النار فيه، في الجمعة الزهراء شِلْوٌ دام وعظم كسير
والذي عذب الأباة رأى التعذيب حتى استجار من لا يجير(٣)
قدماه لم تحملاه إلى الموت فزحف على الثرى لا مسير
وخزته الحراب وهو مسوق لرداه، محطم مجرور
ويجيل العينين في إخوة الحكم وأين الحاني وأين النصير؟
كل فرد منهم لقتل أخيه يصدر الرأيُ منه والتدبير
وغداً يذبح الرفيقَ رفيقٌ منهم والعشيرَ فيهم عشيرُ
يأكل الذئب، حين يردى، أخوه ويعض العقورَ كلب عقورٌ
ارجعوا للشعوب يا حاكميها لن يفيد التهويل والتغرير
صارحوها.. فقد تبدلت الدنيا وجدت بعد الأمور أمور
لا يقود الشعوب ظلم وفقر وسباب مكرر مسعور
والإذاعات! هل تخلعت العاهر؟ أم هل تقيأ السكير؟!
صارحوها.. ولا يُغَطِّ على الصدق ضجيج مزور و هدير
واتقوا ساعة الحساب إذا دقت فيوم الحساب يوم عسير
يقف المتهمان وجهاً لوجه حاكم ظالم وشعب صبور
كل حُكْم له ـــ وإن طالت الأيام ـــ يومان: أول و أخير
كل طاغ ـــ مهما استبد ـــ ضعيف كل شعب ـــ مهما استكان ـــ قدير
وهب الله بعض أسمائه للشعب، فهو القدير وهو الغفور
يبغض الظلم ناصحيه، وإني لملوم في نصحكم معذور!

يشهد الله ما بقلبي حقد شفَّ قلبي كما يشف الغدير
وجراحي ينطفن شهداً وعطراً أدمعي رحمة وشعري شعور
يرشف النور من بياني فإن غنيت فهو المدله المخمور
وطباعي ــ على ازدحام الزرايا ــ لم ينلها التبديل والتغيير
مسلم.. كلما سجدت لربي فاح من سجدتي الهدى و العبير
ومع الشيب والكهولة قلبي ــ كعهود الصبا ــ بريء غرير
لي حريتي وإيماني السمح فحلمي هان وجفني قرير!
لم أهادن ظلماً وتدري الليالي في غد أينا هو المدحور!

(١) الحسين بن علي زعيم الثورة العربية مدفون في جوار الأقصى.

(٢) هيئة الأمم المتحدة المسؤولة عن نكبة فلسطين.

(٣) الطاغية الذي يقترف الآثام انتهى به الأمر إلى أن يحاكم ويقتل.

نشوة الهزيمة

يوسف الحجيلان ١٤٢٥/٢/٢١

٢٠٠٤/٠٤/١١

"نشوة النصر".. مصطلح ذاع وشاع، وعبارة لطالما غنت بها شفاه، وشنفت أسماع.

إن كأس النصر ثورت صاحبها حالة سيكولوجية؛ تجعله يجرُّ رداءه على هام الثريّا، متوشحًا هالة القمر، ومتمنطقًا بأفق الأرض، ولا غرو!

فغبار المعركة، وشلال الدم، وهرير الرجال، وألف ألف حساب؛ جعله في ساعة ما يحسب الأرض تميد تحت قدمه.

أما وقد اكتحلت عيناه بالنصر؛ فغول خمرته أعظم من أن تدفع!

ونشوة رشفته أقوى من أن ترد!

إن نشوة النصر دفعت أولي الأحلام، وعقلاء الرجال إلى أن يكتبوا نصرهم بدم العدو، ولو كان صديق الأمس!

لطالما حرقت نشوة النصر أرضًا!

وهتكت عرضًا!

واستباحت محرمًا!

واستحقرت معظمًا!

* لما دخل عبد الله بن علي دمشق؛ دعا بالغداء، وإن رجال بني أمية تحت البسط لهم أنين!!

ذاك هو السر الذي جعل محمدًا – صلى الله عليه وسلم- يدخل مكة فاتحًا، وإن رأسه لتمس الرحـــل تواضعًا لله!

فما بال نشوة الهزيمة إذًا؟!!

إنها –وباختصار شديد- حال من اللاّشعور أحيانًا، أو من المنطق المعكوس في أحيان أخرى؛ تجعـــل أعدادًا لا يستهان بها من المنظِّرين، أو المفكرين، أو الأنصار؛ ينظرون إلى واقع الحياة بعـــين ســـوداء؛ حَجب عنها بياضَ المستقبل، ولمعانَ الحق؛ يأس تبطّن في خوف تسلل من خلال قصـــور نظـــر، أو مزاجية في الطرح؛ غاب عنها الرأي الآخر؛ فركبت الخطأ بدافع السعي إلى إيقاظ الأمة من غفلتها!

هل تريد رصد أشد جراحات الأمة نزفًا، وأكثرها إيلاما؟!

هل تريد سماع صوت المعذبين، والمقهورين، والمشردين ؟!

هل تريد معرفة عدد المقتولين، والمعذبين، والبائسين ؟!

هل تريد النظر إلى أماكن البلاء، والدماء، والأشلاء ؟!

لستَ بحاجة إلى طبق، أو (رسيفر) فقط : جمعتان، وعيد، ومحاضرة : وإن كان لا بد فشريط.

إنها محطات من الإحباط في أحيان كثيرة؛ يخرج منها أبناء الأمة محبطي الهمم، مطـــأطئي الـــرؤوس، يجرون ثوب الأسى، تعرف في وجوههم الكآبة، وتقرأ في بياض شفاههم ما تكن صدورهم، مـــن ألم وحرقة!!

تبدأ الخطبة بنذر حرب!

وتنتهي بحالة مأتم!

وما بينهما طعن وطعان وبكاء وآهات !!

لا يكذب من قال إن الجمعة والعيد اليوم، وفي حالات عدة أيام مناحة للمسلمين!!

تعدد فيها فاجعات؛ تجعل نهاية الخطبة والخلاص من حالة السرد هذه، وما يخللها من نشيج، وبكـــاء، وعويل في حالات كثيرة؛ هدفًا يرنو إليه الكثير من المصلين، الذين طالما حلمـــوا –ولـــو مـــرة- أن يسمعوا ما يبسط أسارير، أو يشق ابتسامة، أو يزيل كآبة!

لكن!!

كيف السبيل؟

وقد قال صلاح الدين: لا أضحك، والقدس في يد الصليبيين!!

أسألكم بربي!!

أيها أشد بلاءً ؟!!

اليوم؛ والتدين يجتاح معاقل الفسق، والإسلام يزلزل قلاع العلمنة، والحجاب يغزو بيوت التفسـخ، واللحية، والثوب القصير، والسواك، وفوق هذا أمواج المصلين والحجـاج، والمعتمـرين، والـدعاة، والمجاهدين؛ تتدفق كسيل تحدّر من علو!!

اليوم؛ والمعركة في بداياتها، وبوادر نصر تُكتب بقلم تفاؤل، مداده واقع إسلامي، لا تزال صـحوته غضّة طريّة!!

وبرغم ذلك؛ فرضت نفسها رقمًا في حساب اللعبة؛ جعل أعتى قوى الشر، بل دفع بأحلاف الباطـل إلى رصّ صفوفها للمواجهة!

وهل كانت ستفعل لولا ما تراه في الأفق من نذر حق؛ قد انعقد غمامه!!

أَم الأمس ؟!!

يوم الأحزاب، يوم بلغت القلوب الحناجر، وطوق الكفر دولة الإسلام، بحده وسنانه!

حتى قال قائل الصحابة: وإن أحدنا لا يأمن على بوله!

وسيدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يضرب الأرض بالمعول، فينقدح الشرر؛ فيقول: الله أكبر فتحت فارس والروم، والله لتنفقن كنوزهم في سبيل الله.

نعم!

ما عندنا من خير عند رسول الله وصحبه في يوم الخندق ما لا يماثله خيرنا ولا يجاريه!

لكن ما عندنا من بلاء لا يجاري بلاءهم، ولا يدانيه، وما نسمعه من الخطباء والوعاظ، و القصاصين من إحباط يتنافى مع ما قاله سيدي في موقف يمتّ إلى واقعنا بكذا سبب!

يطارد عليه السلام ؛ فيقول: "يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا".

يُقاتل وهو الأقل عددًا؛ فيقول: أبشر يا أبا بكر، ويقول: إني لأرى مصارع القوم!

لا يخبر بالمنافقين إلا واحدا، ويعلن عن أهل الجنة على أعواد المنابر(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

إن القادر على إبكاء الجموع أسى، هو الأقدر على تخريج العشرات من المحبطين والقاعدين!

وإن الأمة في حالة ترنّح بحسب ما يحيط بها من خطوب؛ تجعلها أحوج إلى حقن من المنشطات منـها إلى إبر المثبطات!

لن تحتاج إلى جهد كي تسرد على شباب الإسلام قصص الأبطال في صد غارات الصليبيين، والتتـار، والاستعمار؛ بل لن تحتاج إلى كبير عناء كي تضع لهم في خطبتك خطة عمل لمشروع يجعلهم ينظرون إلى المستقبل باستشراف أكبر، وأمل أعظم!!

فالنفس البشرية جُبلت على التعامل مع الأمل بروح أكثر عنفوانًا منها مع الألم.

إن طرح المشكلة يجعل السامع يفكر بمشكلتين: الإحباط منها، والحل لما وراءها.

وإن الحديث عن العلاج، والأمل يجعله؛ يفكر بالثانية فقط، وما بين الأمل واليأس حـــواجز نفســـية وشَعَرَات أحاسيس؛ تحتاج فقط إلى قدرة على قنص المشاعر واستدرار العقول!!

المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية ...

بقلم الدكتور راغب السرجاني ... تاريخ الإضافة : ٠٤/١٠/٠٦ ...

مقدمة

تمر النفس الإنسانية بحالات شديدة التباين خلال مسيرتها في الحياة.. فبينما تشرق أحيانًــا، ويملؤهـــا الطموح، ويدفعها الأمل لتحقيق لمعجزات.. تدهمها أمواج البأس ــ في أحيان أخرى ــ فتنهزم أمام المصائب والصعوبات والمخاوف..

ولعل من أخطر ما يهدد سلام النفس الإنسانية، ويقضي على مقدراتها ويشل إمكانياتها استســـلامها للإحباط والهزيمة الداخلية.. واستشعارها ألا فائدة، وأن شيئًا مما فسد لا يمكن إصلاحه، وأن الأجدى ــ وقد انسكب اللبن ــ أن نعكف عليه باكين نادمين بدلاً من القيام والبحث عن حل.

ومن خطورة الشعور بالإحباط والهزيمة النفسية أنه يقضي على أي أمل للإصلاح مـــع أن الأمـــل لا ينقطع ما بقيت هناك حياة.. إلى جانب أنه ينطوي على راحة لا تخفى.. فبدلاً من الكـــدّ في ســـبيل الخروج من الأزمة يكتفي المحبط بالعويل واعتبار نفسه شهيد المصيبة! ومن ثم يعزو كل فشل لاحـــق إلى مصيبته التي وقع فيها ــ أو أوقع نفسه ــ ومن ثم أيضًا تُسلمه كل مصيبة وهزيمة إلى أختـــها أو أكبر منها!.

براعة المنهج الإسلامي في علاج انكسار النفس

للإسلام منهج فريد في علاج انكسار النفس أمام متاعب الحياة ومصائبه، وينبع هذا التفرّد من كـــون الإسلام منهجًا ربّانيًا.. شرعه من سوَّى النفس الإنسانية وأبدع أسراره، وعلم ــ وحده سبحانه ــ مداخلها ومخارجها..

ولا تقتصر روعة المنهج الإسلامي على إحكام تفاصيله ودقة توجيهاته.. بل تتعدى ذلك إلى القالـــب الذي سيق فيه الدرس؛ فلا يعرض الإسلام أفكارًا نظرية جافة قد يراها البعض صالحة، ويظنها آخرون ضربًا من الخيال.. وإنما يساق الدرس ضمن تجربة عملية واقعية حدثت على الأرض، وخاضها نـــاس من البشر ــ في عصر الوحي أو فيما قبله ــ أصاب بعضهم في هذه التجربة وأخفق آخرون.. ومـــن ثنايا سياق التجربة الواقعية يُستخرج الدرس وتستنبط العبرة، فتلتصق بوعي الإنسان ويقتنـــع النـــاس بإمكانية النسج على منوالها..

ومع أن الله يحب عباده المؤمنين وينصرهم ويدافع عنهم.. إلا أنه يقدّر عليهم البلاء ويمتحنهم بــالآلام ليقوّي عودهم؛ فيثبتوا في مواجهة الإحباطات، ويأخذ بأيديهم (من خلال هديه) ليدربهم على فــن مواجهة الهزيمة النفسية والخروج مها بسلام.. بل بغنائم!!

ظهر هذا الأمر جليًا في يوم أحُد الذي سماه الله تبارك وتعالى في كتابه:(مصيبة) حين قــال: [أَوَلَمَّــا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا] {آل عمران: ١٦٥}

وقد كان يوم أحد مصيبة بحق حين خالف المؤمنون من الرماة – متعمدين – صريح الأمــر النبــوي بعدم مغادرة أماكنهم خلف المسلمين مهما تكن الظروف، وفقد الجيش من جــرّاء هــذه المخالفــة سبعين من خيار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.. وانكسرت النفوس التي استكانت – منذ عام – للذة النصر يوم بدر، وغزا اليأس القلوب.. وخاصة عندما أشيع مقتل الرسول صلى الله عليه وســلم فقعد الناس عن القتال.. بل ولّى بعضهم الأدبار فرارًا!!.

إننا ــ بالفعل ــ أمام مصيبة حقيقية أصابت المجتمع المسلم بأكمله و لم تكن الخسائر مادية فقط بــل تعدتما إلى الخسارة النفسية بهذا الانكسار ووقوع بعض العيوب التي كشفتها المصيبة.

عناصر المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية

ما نريد في هذه الأسطر هو تحليل أحداث المعركة تاريخيًا أو عسكريًا، فليس المقام بمتسع لذلك.. وإنما لابد لنا أن نخرج من هذا الحدث الذي عالجه القرآن في ستين آية متواصلة (من ســورة آل عمــران) بمنهج واضح للخروج من الأزمات وللتغلب على الهزيمة النفسية؛ فما أكثر ما تتكرر بعض مصــائب أحد ــ أو معظمها ــ في حياتنا.. ما أكثر ما نحبط لأزمات تمر بنا أو بأمتنا.. وما أكثر ما يعطلنــا حب الدنيا عن كمال الطاعة لله ورسوله فنقصر أو نسوّف الطاعة.. وربما نتورط في بعض ما يغضب الله..

فنحن ــ إذًا ــ محاجون كأفراد وجماعات لتعرّف هذا المهج الرباني للخروج من الأزمات وعــلاج الانكسار النفسي..

لهذا المنهج عناصر تستخلصها إذا أحسست تدبر آيات الله التي عالجت (مصيبة أحد)..

١ــ أول هذه العناصر: رفع الروح المعنوية بلفت النظر إلى الجوانب الإيجابيــة في الفــرد والأمــة.. خاطب الله عباده المنكسرين نفسيًا فقال لهم: [وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُــؤْمِنِينَ] {آل عمران: ١٣٩}

وكان خطابًا واقعيًا و لم يكن تحذيرًا لنفوسهم أو تسكينًا مؤقتًا لآلامهم (تعالى الله عن ذلك)؛ فلــيس هناك شخص مركب من شر محض.. أو فشل محض أو ضعف محض.. إن بكل إنسان جوانب قــوة وجوانب ضعف.. ولابد من لفت نظر الإنسان المنكسر نفسيًا إلى جوانب القوة الحقيقية فيه ليحسن توظيفها في التغلب على جوانب ضعفه..

يخاطب بهذا المعنى كل إنسان فقد مقومًا من مقومّات نجاحه في الحياة..
كمن فقد مالاً أو صحة أو حاسّة.. بل حتى لمن فقد عزيزًا لديه كان يحسبه سنده الوحيد في الحياة ويرى الحياة صفرًا يدونه..
ويخاطب أيضًا بهذا المعنى المجتمع المنكسر لضعفه وقوة عدوه أو غلبة العوائق على طريق تقدمه..
ولسنا في حاجة إلى التأكيد أن هذا العلاج لا يعني أن ينتشي المنكسر والمهزوم نفسيًا فيقعد عن علاج أزماته طالما أنه يحوز إيجابيات عديدة وألا لما شرط الله علوّ المؤمنين في الآية السابقة بالإيمان الذي يقتضي منطقيًا العمل والبذل وعدم القعود دون المنازل العالية..

٢ـ من تلك العناصر أيضًا إبراز الجوانب الإيجابية في المصيبة نفسها فالله عز وجل يلفت نظر المؤمنين في أكثر من موطن من كتابه الكريم إلى أن أي مصيبة لابد أن تنطوي على نقاط مضيئة وجوانب إيجابية.. انظر إلى قوله عز وجل: [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ]{البقرة: ٢١٦} وقوله تعلى: [فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا] {النساء: ١٩}
ولا تخفي عليك دلالات تحملها كلمة (كثيرًا) فالإيجابيات داخل قد تكون متعددة!
ربَّى الله المؤمنين على ذلك من خلال سياق علاجه لمصيبة "أحد" عندما وضعت الآيات أيديهم وأبصارهم على فوائد حصّلوها من الحدث المؤلم ومن الجراح والآلام التي أصابتهم..
ظهر هذا واضحًا في آيات من مثل قله تعالى: [وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا] {آل عمران: ١٦٦ – ١٦٧} فتميز الصادق من المنفق ثمرة إيجابية تفيد أي مجتمع يكافح من أجل البقاء والنهوض ولولا المصيبة التي وقعت لبقى المنافق جرثومة مستترة جاهزة لنفث سمومها في جسد المجتمع في أي وقت..
ـ وليس معنى هذا أن نسعى في طلب المصائب وتمنيها بل نحن مأمورون بسؤال الله العافية..
إنما المقصود أن المصيبة أو الانكسار والألم كلها ليست نهاية الدنيا.. وليست شرًا محضًا بل في باطنها ـ دومًا ـ خير كثير لا يراه إلا أهل التوفيق..
ورضي اله عن الفاروق إذ يقول: "ما أصبت بمصيبة إلا كان لله عليّ فيها أربع نعم: أنها لم تكن في ديني، وأنها لم تكن اكبر منها، وأنني لم أُحرم الرضا عند نزولها، وأنني أرجو ثواب الله عليها".. فقد رزق من نفاذ البصيرة وإيجابية النفس ما جعله يرى في المصيبة الواحدة أكثر من فائدة..
٣ـ من عناصر معالجة الانكسار النفسي أيضًا التي يربينا عليها الإسلام أن المصائب أمر مقدّر.. كتب الله لكل مخلوق حظه منه من قبل أن يوجد بالتأكيد هناك أسباب مادية واقعية تقود إلى المصيبة ولكن هذا لا ينفي ارتباط الأمر ـ من قبل ومن بعد ـ بقضاء الله وقدره.. وإنما يتحرك الإنسان سعيًا لجلب نفع أو دفع ضر لأن الله أمره بالأخذ بالأسباب وهو مأجور على العمل والسعي ما دام

موافقًا للشرع.. كما أنه يتحرك لذلك وهو موقن أن الله قادر على تعطيل الأسباب وقادر كـذلك على إنفاذها..

فالإنسان وأهل الأرض جميعًا إن اجتمعوا على دفع مصيبة قدّرها الله لن يستطيعوا مهما أوتوا من أسباب.

بهذه الفلسفة لحركة القدر في الحياة يتحرك المؤمن إيجابيًا فاعلاً قويًا أمام المصائب.. سريع القدرة على القيام بعدها وعلاج آثارها..

وهو بذلك عصى على الهزيمة النفسية والانكسار تحت وطأة الحدث مهما كان مريرًا.. لا يعرف معنى للإحباط وتمنّي المستحيل ولا تطول به الأيام والليالي في انتظار معجزة متوهمة تردّ عجلة الزمان إلى الوراء وإلى هذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته التربوية المعجزة التي وجهها لقلب المنكسر وعقله حين قال: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا.. ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان

وما عمل الشيطان المقصود هنا سوى ذلك الإحباط الذي يسيطر على النفس أمام فرصة فائتة أو خطب نازل..

٤ ـــ اتخذ القرآن الكريم ـــ إلى جانب ما سبق ـــ وسيلة أخرى هامة لعلاج المنهزم نفسيًا حين وجّه المسلمين بعد مصيبة أحد إلى إمكانية استئناف المسير وفتح صفحات ناصعة إذا هم أحسنوا التوبة مما وقعوا فيه من أخطاء مهما كانت (وإن كانت ضخمة كالفرار من الزحف أو مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم) نعم.. قد يخطئ الإنسان أخطاء كبيرة أو صغيرة ولكن الحياة لن تنتهي عند حدود الأخطاء التي وقعت طالما أن باب الإصلاح والتوبة مفتوح.. المهم أن يسارع المخطئ إلى تدارك الأمر.. وانظر [وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ]...{آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥}

فلا شك أن الصفحة البيضاء بل الجنات الواسعة التي يوعد بها المخطئ إن نجح في تعديل المسار.. كل ذلك كفيل أن يفتح أمامه الباب للنهوض والعمل من جديد..

٥ـــ يجد المحبط المنكسر نفسيًا دواءً جديدًا في هدى رب العالمين إذ يعده ـــ ولا أصدق من الله ـــ بالقيام من جديد ويغذيه بالأمل في نصر قادم إن أحسن الاستدراك لما فات..

في أوساط خطاب الله تعليقًا على أحداث أحد يقول لعباده المنكسرين نفسيًا: [إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ]{آل عمران: ١٦٠}

إن فرص النجاح قائمة حتمًا لمن أتوكل على الله حق التوكل وأحكم الأخذ بالأسباب..

٦ــ كما أن القرآن لكريم يسلك سبيلاً آخر حكيمًا إلى النفوس المنكسرة يمسح عنها الأسى حين يلفت أنظارها دائمًا إلى عبرة الماضي المتكررة وهي أن السقوط يعقبه قيام ونصر لمن سار على الدرب يقول الله تبارك وتعالى: [وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا] {آل عمران: ١٤٦}

وهذا منهج قرآني تكرر في غير هذا الموضع في مواجهة أزمات مرت بالمسلمين واقتربت بهم من دائرة الإحباط.. فتجد أن الله يترل سورتين متواليتين في العام العاشر من البعثة في أواخر العهد المكي حين ضاق الحال تمامًا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مكة تكذيبًا وإيذاءً وصدوداً عن لحق فتترل القرآن بسورة هود وما حوته من قصص لرسل سابقين وكيف صبروا وثبتوا حتى جاءهم نصر الله.. ثم يختتمها الله تعالى بقوله: [وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ] {هود: ١٢٠}

فتعرّف أخبار السابقين المشابهة يثبت القلب ويزيل اليأس ويلقي في روع المهموم أن ما أصابك من همّ لم يكن جديدًا اختصصت به دون غيرك بل سبقك إلى ساحة الامتحان آخرون مثلك فنجحوا وعبروا الأحزان..

كما تترلت بعدها سورة (يوسف).. وليس بخافٍ ما تحفل به من سلوى للمصابين وآمال لليائسين من خلال العديد من المآزق التي تعرض لها يوسف عليه السلام فصبر وثبت حتى نجاه الله منها جميعًا.. إلى جانب الأزمة العنيفة المتصاعدة التي مرت بيعقوب عليه السلام والمتجسد في فقد أحد بنية ثم تزيد بفقد التالي له في المترلة بعد سنوات من الصبر..

إلا أنه ــ عليه السلام ــ لما وجّه بنية للبحث عن يوسف وأخيه ذيّل كلامه لهم قائلاً: [وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ] {يوسف: ٨٧}

فتتجسد العبرة وينضح الدرس الذي من اجله يسوق الله هذا القصص فكما قال عز وجل في نهاية نفس السورة: [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى] {يوسف: ١١١}

إنه منهج قرآني معجز نستطيع، نسميه (التربية بالتاريخ)، فأحداث الزمان تتكرر، وسنن الله في الأرض ثابتة لا تتبدل والعاقل من اتعظ بتجارب من سبقوه..

٧ــ ويلفت القرآن الكريم أنظار المسلمين تعقيبًا على أحد إلى أن الألم الذي أصابهم قد أصاب عدوّهم مثله، فلم يخرج عدوّهم من المعركة (وإن بدا منتصرًا) سالمًا من الجراح والآلام.. قال لهم الله تعالى: [إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ] {آل عمران: ١٤٠} فلم يذهب كفاحكم ضد عدوكم سدى، بل إن جهادكم قد آذاهم مثل ما أصابكم منهم من أذى (قرح مثله) وهي سنة ماضية معركة الحق مع الباطل فصّلها الله في موضع آخر من كتابه حين قال: [إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ

يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ] {النساء: ١٠٤} ولا ريب أن فرقًا كبيرًا بين من هزم وهو يرى عدوه مكتمل الفوز والانتصار ومن هزم وهو يشعر انه هو أيضًا قد نجح في النيل من عدوه مكتمل الفوز والانتصار ومن هزم وهو يشعر أنه هو أيضًا قد نجح في النيل من عدوه ولو بعض النيل.. شتان بين النفسيتين!!

وهو درس بليغ لأمة المسلمين في صراعها مع الباطل في الأرض.. فمهما انتعش الأعداء بغرور قــوّهم إلا أن عين المتأمل لا تخطئ جراحًا تؤلمهم وخسائر بين الحين والآخر تستنزف مواردهم..

٨ــ وكما يربي القرآن الكريم المنهزمين نفسيًا على أن الجراح والآلام ليست حكــرًا علــيهم دون أعدائهم يوجه أبصارهم نحو سنة كونية ثابتة متى استقرت في النفس المحبطة عاودها الأمل من جديد..

تلك السنة هي المتمثلة في قوله تعالى: [وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ] {آل عمران: ١٤٠} فلــيس من شأن الأحوال أن تثبت على هيئة واحدة بل من شأن المقاعد أن يتبادلها الجالسون كل حين فــلا المهزوم يظل مهزومًا ولا المنتصر يظل منتصرًا..

وكذلك الغني والفقر والصحيح والسقيم..

وإذا فهم المحبط ذلك أيقن بلا شك أن بالإمكان حتمًا أن يتجوز دائرة إحباطه التي تسيطر عليــه لأن الأحوال حتمًا تمضي إلى تبدّل، وخير له أن يستثمر هذا التحول لصالح النهوض من كبوته..

٩ــ كما أن الإنسان يوم القيامة يحاسب على عمله الذي كسبته يداه ولا يحاسب على النتائج المترتبة على فعله هذا..

والإسلام يرسخ هذا المعنى في نفوس المؤمنين، لأن العامل قد يحسن العمل ثم لا تأتي النتيجــة علــى المستوى المطلوب فيحبط ويشعر بالفشل..

فيربط الإسلام جهودك وخططك بما تستطيع تحقيقه لا بما يتعلق بالغيب والقدر المحض..

ومن ثم يربط القرآن المؤمنين ــ في كفاحهم عبر الحياة ــ بثواب الآخرة المستقر اليقــيني المترتــب مباشرة على عملهم، فترى الله عز وجل يقول عن المؤمنين المجاهدين في سبيله: [فَآَتَاهُمُ اللَّــهُ ثَــوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ] {آل عمران: ١٤٨} فالثواب الحسن حقًا هو ثواب الآخرة.

أما الذين كفروا فحتى لو حققوا انتصارًا (أي: نتيجة حسنة) فيهم من الخاسرين في الآخرة (لســوء عملهم) يقول تعالى: [لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِــئْسَ الْمِهَادُ]..{آل عمران: ١٩٦، ١٩٧} ويقول تعالى: [وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُــمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا]{آل عمران: ١٧٦}

١٠ــ وأخيرًا يلفت الإسلام نظر المنكسر إلى أن طول القعود عقب الهزيمة يوجب العقاب مــن رب العالمين.. وذلك حتى يعلم الإنسان أن واجبه عقب الانكسار أن يبادر بالنهوض وإصلاح ما فــات، فالعمر ضيق لا مجال فيه لطول القعود يأسًا وإحباطًا، والفرص المتاحة قد لا تظل متاحــة إلى الأبــد يقول تعالى معالجًا أشد ساعات الهزيمة النفسية لدى المؤمنين يوم أحد: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُــولٌ قَــدْ

خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا]{آل عمران: ١٤٤}

فقه هذا المعنى رجلان من الأنصار ـــ قبل أن تنزل الآية الكريمة ـــ فهذا أنس بن النضر يصيح بأولئك الذين أحبطوا وقعدوا عن القتال لما سمعوا بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم: "ما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه".. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل..

أما الآخر فكان ثابت بن الدحداح (أو الدحداحة) رضي الله عنه..

يصيح بأصحابه الأنصار يوم أحد بعد الانكسار والهزيمة: "إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت، فقاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم".. فربط السعي بالله الباقي.. ومن كانت هذه جهة سعيه فلن ييئس لأنها جهة مفتوحة على الدوام..

بهذا المنهج الإسلامي الفريد قاد النبي صلى الله عليه وسلم أصحبه إلى الخروج من أزماتهم كلها ومنها ازمة أحد.. فها هو صلى الله عليه وسلم بعد أحد بيوم واحد .. يتخذ القرار لمطاردة المشركين العائدين إلى مكة بما يشبه الانتصار.. وأصر صلى الله عليه وسلم ألا يأخذ معه في هذا الخروج إلا من اشترك في أحد، وقال: "لا يخرج معنا إلى من شهد القتال"..

برغم أن أولئك الذين شهدوا القتال بالأمس سيخرجون اليوم والجراح تملأ أجسادهم ونفوسهم جميعًا.. إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يداوي هذه النفوس الكسيرة بعمل من شأنه أن يرفع معنوياتهم ويرد إليهم هيبتهم ويضعف من حلاوة النصر لدى قريش إذا اختتم المشهد بمطاردتهم إلى مكة!!

وقد كان هذا القرار النبوي العظيم قرارًا تربويًا من الدرجة الأولى..

فقد تعمد صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الذين شاركوا في (أحد) فقد، مع ما بهم من جراح وآلام ونفسية سيئة مهزومة، وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه و لم ذلك ليقول لهم: إنه يثق بهم تمامًا، وبقدراتهم وكفاءاتهم.. بل وبإيمانهم وعقيدتهم..

وأن ما حدث في (أحد) لم يكن إلى حدثًا عابرًا يندر تكراره، وأن الأمل فيهم كبير، والنصر لهم حليف إن شاء الله.. لقد كان هذا التكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة عودة لأجساد الصحابة وعزائمهم، فقاموا مسرعين ملبين برغم أزماتهم الجسدية والنفسية، وبرغم أحزانهم لفقد سبعين من إخوانهم وأحبابهم.. لقد قاموا جميعًا و لم يتخلف واحد.. لقد نجح الجميع في الاختبار وقامت الأمة من كبوتها في أقلا من أربع وعشرين ساعة!!

وخرج المسلمون للقتال في إصرار، وعسكروا في (حمراء الأسد) وهو مكان علي بعد ثمانية أميال من المدينة.. وكان جيش قريش معسكرًا على بعد ستة وثلاثين ميلاً.. فلما سمعوا بمقدم المسلمين ترددوا في قتالهم وأرسلوا إليهم من يخوّفهم من أعداد المشركين وقوّتهم.. ولكن هذا التهديد الآن صادف

نفوسًا عادت إليها قوتها وعافيتها، فما تأثرت نفوس المؤمنين قيد أنملة بل على العكس ازداد إصرارهم على القتال، وازدادوا رغبة في الخروج من الأزمة، وإعادة الكرة على الكافرين...

وإزاء هذا الإصرار من قبل المؤمنين فر المشركون وتجنبوا القتال مع كثرة عددهم وقوة عدتهم.. وخرج المسلمون من أزمتهم بنجاح..

وهكذا يصنع الإصرار في نفوس أصحابه وفي نفوس خصومهم..

ويمجد الله ـــ في آيات بينات ـــ أصحاب حمراء الأسد.. مع أنهم هم أهل أُحد الذين وقعوا في أخطاء الأمس، ولكنهم أحسنوا الخروج من آثار أخطائهم..

يقول تعالى: [الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ] {آل عمران ١٧٢ - ١٧٤}

ولابد أن نتأمل ـــ في الختام ـــ المقابلة بين سرعة استجابتهم لله والرسول وبين شدة القرح التي أصابتهم لنعلم أن المنهج الإسلامي تنزيل من رب العالمين العليم بأدواء النفوس وبما يعالجها.. ولنتأكد أن أفضل درجات السم النفسي يبلغها الناس بسلاسة ويسر متى عمل هذا المنهج القويم في هذه النفوس....

الهزيمة والخزي مصير الخائنين

لقد طبع اليهود على أسوأ الأخلاق، ويأتي على رأسها الغدر والخيانة، فلم يُعرف عنهم عبر تاريخهم الطويل التزام بعهد وميثاق، حتى مع أنبيائهم !!

ولقد عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم يهود المدينة وتوافقوا على بنود سجلت بوثيقة تعد أول دستور للدولة الإسلامية، ولكنهم سرعان ما غدروا وخانوا فنقضوا عهودهم، وكان يهود بني قينقاع أول من نقض العهد، وكانوا أكثر اليهود قوة وعدة، وكانت منازلهم أقرب المنازل للمسلمين. وهم الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن دعاهم للإسلام بعد غزوة بدر، قالوا: "لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس". وفي هذا تهديد واضح بالحرب وإن كان مبطنا. وفيهم نزل قوله تعالى: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) فالميزان الحقيقي في النصر ليس كثرة العدد والعدة، بل هو نبل الغاية التي يحارب من أجلها، أن تكون في سبيل الله، وفي غزوة بدر (يوم الفرقان) العبر والدروس الكثيرة لكل متأمل بصير، فكان على اليهود

أن يستجيبوا لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وألا يغتروا بقوهم المادية، خاصة بعد تجربـــة عمليـــة حدثت أمام أعينهم في بدر، ولكنهم وكعادة اليهود يحقدون على كل ما هو غـــير يهـــودي، فـــأبوا واستكبروا وعاندوا وأسروا الغدر والخيانة، وقد كان.

أخذ يهود بني قينقاع يزيدون في سخريتهم واستهزائهم بالمسلمين وكان سوق بني النضـــير المكـــان المفضل لممارسة هذه الهواية الشاذة (السخرية والاستهزاء على المسلمين)، وحدث أن دخلت امـــرأة مسلمة السوق وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فلما أبت عمد الصـــائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت مستنجدة، فوثـــب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، أي أنهم اجتمعوا عليه فلـــم تعد المسألة قضية شخصية.

حدث ذلك بعد عشرين يوما من غزوة بدر، وأنزل الله تعالى فيهم (وإما تخافن من قوم خيانة فانبـــذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني أخاف خيانتهم، فنبـــذ عهدهم وحاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلة، حتى استسلموا ورضوا بحكم النبي صلى الله عليـــه وسلم، وكانوا يعولون على حليفهم رأس النفاق عبدالله بن أبي ابن سلول في النجاة من الذبح، حيث كان الخزرج حلفاء لبني قينقاع من قبل، وأثمرت هذه العلاقة المشبوهة بين اليهود والمنافقين في نجـــاة بني قينقاع من الذبح، فبعد إلحاح شديد من ابن سلول حتى أنه مسك النبي صلى الله عليه وسلم وأبى أن يتركه حتى يطلقهم له بحجة أنهم مواليه، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وأطلقهم وهو كـــاره، ولكنه أمر بإجلائهم من المدينة ومنعهم من أخذ السلاح.

هذا هو موقف الطابور الخامس، بينما كان موقف المؤمنين حقا كما فعل عبادة بن الصامت رضـــي الله عنه وكان عبادة من بني عوف له من حلفهم مثل الذي لهم من عبدالله ابن سلول، فقد جاء عبادة للنبي صلى الله عليه وسلم وتبرأ من حلف هؤلاء الخونة وولايتهم، ونزل بذلك قرآن يتلـــى إلى يـــوم الدين، ففي ابن سلول وأمثاله كثير إلى يومنا هذا، نزل قوله سبحانه: (فترى الذين في قلوبهم مـــرض يسارعون فيهم ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة). وفي عبادة وأمثاله من المجاهدين المؤمنين إلى يومنـــا هذا، نزل قوله تعالى: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون).

أيها المسلمون ...

مع أي فئة نريد أن نكون .. مع ابن سلول والعياذ بالله، الذي اتخذ اليهود أولياء من دون المؤمنين، أم مع عبادة رضي الله عنه الذي تبرأ من موالاة الكافرين فضلا عن الخائنين.

يا قادة العالم الإسلامي ...

لقد تحرك الجيش الإسلامي برمته من أجل امرأة مسلمة أهينت، فكيف بنا الآن وأعراض المســـلمين مستباحة في فلسطين ؟

كم دم سفك ظلما وعدوانا في فلسطين وغيرها من بلاد المسملين ؟

كم بيت هدم بغير حق ؟

كم مسجد دنس وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ؟

كم بريء سجن ؟

كم طفل شُرّد أو يتّم ؟

كم امرأة ترملت ؟

كم شريف أصبح مطاردا مطلوبا ؟

كم زرع خُرّب وأحرق ؟

كل هذا وجيوش المسلمين ساكنة لا تتحرك !!

فبدل الحركة الفورية التي ينبغي أن تكون، (فانبذ إليهم على سواء)، نجد الحركة الفورية في الاتجاه غير الصحيح، لمسالمة المعتدين وإقامة علاقات طبيعية معهم إذا انسحبوا من جزء من الأرض التي احتلوها !!

إننا نرحب بالعلاقات الطبيعية مع المعتدين الغاصبين الجاثمين على أرض الإسراء والمعراج، نعم نرحب بها لأن العلاقة الطبيعية مع المعتدي هي مقاومته لا مسالمته، وإن أطفال الحجارة وشباب المقاومة يعطون الأمة النموذج الأمثل في التعامل الطبيعي مع المعتدين، إنهم جند عبادة لا ريب، وعبادة قبره هناك في الأرض المقدسة قرب المسجد الأقصى المبارك، فكأنهم أخذوا العبرة منه وكأنهم عاهدوه على السير على دربه ومقاومة درب ابن سلول .

العلاقات الطبيعية معهم كما أخبر رب العزة، حيث نزلت هذه الآيات في بني قينقاع (وما زال بنو قينقاع يحاربون المسلمين) قال تعالى:

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون).

فهل نحن فاعلون ؟؟

وصل اللهم على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الهزيمة التفسية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهـــده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه ، وأشـــهد أن محمداً عبده ورسوله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [آل عمران:١٠٢]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً [النساء:١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِـــعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً [الأحزاب:٧٠-٧١]

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثـــة بدعـــة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

فحيَّا الله هذه الوجوه الطيبة المشرقة، وذكى الله هذه الأنفس، وشرح الله هذه الصدور.

طبتم جميعا وطاب ممشاكم وتبوأتم من الجنة منزلاً.

حياكم الله جميعاً وأسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجمعني وإياكم في الدنيا دائما وأبداً على طاعته وفي الآخرة مع سيد الدعاة وإمام النبيين في جنته ودار كرامته.

إنه ولى ذلك ومولاه وهو على كل شىء قدير..

أحبتي في الله :

لقد ابتلى المسلمون بنكبات وأزمات كثيرة مروراً بأزمة الردة الطاحنة والهجمات التتارية الغاشمـــة.. والحروب الصليبية الطاحنة.. وسقوط الأندلس وزوال ظل الخلافة وضياع القدس الشريف!!

ومع ذلك فإن الأمة مع كل هذه الهزمات والنكبات كانت تمتلك مقومات النصر من إيمـــان صـــادق بالله واعتزاز بهذا الدين... أما اليوم فقد فقدت جُلَ مقومات النصر!!

في الجانب الإيماني، والجانب المادي على حد السواء، فهزمت هزيمة نفسية نكراء وهذا هو موضوعنا مع حضراتكم اليوم في هذا اللقاء

" الهزيمة النفسية "

وكعادتنا فسوف نركز احديث مع حضراتكم تحت هذا العنوان الهام في العناصر التالية :

أولاً: أعراض الهزيمة النفسية

ثانياً: أسباب الهزيمة النفسية

وأخيراً: ما العلاج

فأعرني قلبك وسمعك فإن هذا الموضوع في هذه الأيام من الأهمية بمكان والله أسأل أن يجعلني وإياكم جميعاً ممن يستمعون القلب فيتبعون أحسنه، وأن يقر أعيننا وإياكم بنصرة الموحدين وعـــز الإســـلام والمسلمين أنه ولي ذلك والقادر عليه .

أولاً: أعراض الهزيمة النفسية

أيها الأحبة : إن للهزيمة النفسية أعراضاً كثيرة خطيرة أهمها ما يلي:

العرض الأول : تنحيةُ الشريعة الربانية وتحكيمُ القوانين البشرية !!

وهذا بلا منازع هو أخطر أعراض الهزيمة النفسية التي نُكبت بها الأمة المحمدية في هذا العصر الحديث.

يقول الله عز وجل ((وتللك الأيام نداولها بين الناس))

فالأيام دُول، والصراع بين الحق والباطل صراع دائم لا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولا شك على الإطلاق أن الدولة والجولة الآن للغرب الذي انتصر في الجولة الأخيرة ، فراحت الأمة المهزومة عسكرياً ، واقتصادياً ، ونفسياً تحاكي الغرب الذي انتصر في هذه الجولة .

ويا ليت الأمة راحت تنقل أروع ما وصل إليه الغرب في الجانب العلمي والتكنولوجي ، ولكنها بكل أسف نقلت أسوأ ما وصل إليه الغربُ في الجانب العقدي والايماني والأخلاقي والروحي حتى رأينا من بني جلدتنا من يدندن على هذا الوتر ، يمجد الغرب ويسبح بحمده ، حتى قال قائل قد عزمنا أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رأسهم والنجاسات التي في أمعائهم ولله در القائل :

قالوا لنا الغرب !! ... قلت : صناعةُ وسياحةٌ ومظاهرُ تغرينا ...

لكنه خاوٍ من الايمان ... لا يرعى ضعيفاً أو يسر حزينا ...

الغرب مقبرة المبادئ لم يزل ... يرمي بسهم المغريات الدينا ...

الغرب مقبرة العدالة كلما ... رفعت يد أبدا لها السكينا ...

الغرب يحمل خنجراً ورصاصة ... فعلام يحمل قومنا الزيتونا ...

كفر وإسلام فإنا يلتقي ... هذا بذاك أيها اللاهونا ...

أنا لا ألوم الغرب في تخطيطه ... لكن ألوم المسلم المفتزنا ...

أمتنا التي رحلت على ... درب الخضوع ترافق التنينا ...

وألوم فيها نخوة لم تنتفض ... إلا لتضربنا على أيدينا!! ...

راحت الأمة تقلد الغرب المنتصر في هذه الجولة وظنت الأمة المسكينة أنها بتنحيتها للشريعة الربانيـــة وتحكيمها لشريعة الغرب العلمانية !!

ظنت أنها قد ركبت قوارب النجاة وسط هذه الرياح الهوجاء والمواج المتلاطمـــة فخابـــت الأمـــة وخسرت وغرقت الأمة وأغرقت، ولا زالت الأمة إلى هذه الساعة تجني ثمار الخذلان واليأس والهزيمـــة النفسية بل والعسكرية والإقتصادية والعلمية .

والعودة إلى شريعة رب البرية ليست نافلة ولا تطوعا ولا اختيارا فإن الحياة البشرية من خلق الله ولن تفتح مغاليق فطرها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولن تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يقدم لها من يد الله، ولا يمكن أبدا أن يتعدى هذا الدواء كتاب الله وسنة الحبيب رسول الله

قال الله تعالى فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا النساء : ٦٥

وقال تعالى وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا الأحزاب : ٣٦

وقال تعالى إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ النور : ٥١ - ٥٢

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ الحجرات: ١ - ٢

قال ابن القيم :

إذا كان مجرد رفع الصوت على النبي يحبط العمل فما ظنك بمن قدم قوله وفعله وسياسته على قول الله وفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسأل الله أن يرد الأمة إلى الشريعة الربانية رداً جميلاً أنه ولي ذلك والقادر عليه .

العرض الثاني : اليأس من إمكانية التغيير

وهذا عرض خطير أصاب كثيراً من المسلمين في هذه الأيام ممَّن يرددون هذه الكلمات التي أصبحت تمثل معتقداً لدى غالب المسلمين فهم يرددون " لا فائدة " ، " أنت تؤذن في خرابة " ، " أنت تنفخ في رماد " عش عصرك ، " لا فائدة " " ربِّ أولادك " " تفرغ لتجارتك.. ولأولادك !!..لمكتبك.. لكرسيك.. لوظيفتك !! هلك الناس"

إلى آخر هذه الكلمات التي تزيد المهزوم هزيمة والنشيط يأساً وخذلاناً.

وقد شخُص المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه النفسيات المهزومة تشخيصاً دقيقاً في حديث صحيح رواه الإمام مسلم فقال :

" إذا قال الرجل هلط الناس فهو أهَلكُهْم " (١)

قال الإمام النووي: أهلكهم برفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر ومعناها : أشدهم هلاكا، وأما رواية الفتح فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة .

واتفق العلماء على أن هذا الذّم إنا هو يقال على سبيل الإزدراء على الناس واحتقــارهم ، وتفضــيل نفسه عليهم ، وتقبيح أحوالهم ، لا أنهم هلكوا في الحقيقة .

واتفق العلماء على أن هذا الذّم إنما هو فيمن قيل على سبيل الإزدراء علــى النــاس واحتقــارهم ، وتفضيل نفسه عليهم ، وتقبيح أحوالهم ، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا : فأما من قــال ذلــك تحزنا لما يرى في نفسه، وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه . أ . هـــ (٢)

فهذا عَرَض خطير من أعراض الهزيمة النفسية ألا وهو اليأس من إمكانية التغيير لهذا الواقع المر الألــيم الذي تحياه الأمة ويريد كثير من أبناءها أن يفرضوا سياسة الأمر الواقع على النشطين ممن يتحركــون لدين الله ودعوة الله جل وعلا .

العرض الثالث : السلبية القاتلة في الدعوة إلى الله وأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد ظلت سماء الأمة سحابةٌ قاتمةٌ من هذه السلبية القاتلة .

المسلم يرى أخيه المسلم على معصية : ويهز كتفه ويمضي كأن الأمر لا يعنيه .

و لم أرى في نفسي عيبا ... كنقص القادرين على التمام ...

وفي الحديث الذي رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((بلغوا عنيَ ولو آية)) (٣)

وقال كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري :" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (٤)

وتغيير المنكر كما نعلم جميعاً يكون بالضوابط الشرعية المعلومة .

فلا عذر لك أمام الله عز وجل فنحن جميعاً نركب سفينة واحدة فيها الصالح والطــالح ، وإن نجــت السفينة نجا الجميع ، وإن هلكت هلك الجميع كما في الحديث من حديث النعمان قال : ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم وآذوهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) (٥)

العرض الرابع : الدفاع عن الإسلام كمتهم في قفص الإتهام

وهذا عرض خطير

فالغرب يثير من آن لآخر بل في كل آن شبهات خطيرة ضد الإسلام مثل: الإسلام ديــن إرهــاب الإسلام دين تطرف !! الإسلام ظلم المرأة !! البيت للمرأة المسلمة سجن مؤبد !! .

الزواج سجان قاهر !! الأمومة تكاثر حيواني !! لماذا تزوج محمد تسعة ؟ لمــاذا يتــزوج الرجــل في الإسلام أربعة ؟! لماذا حرم الإسلام الخلوة بين الرجل والمرأة ؟!! لماذا حرم الإسلام الإختلاط ؟!

لماذا تقطع يد السارق ؟! لماذا يرجم الزاني ؟! إلخ... شبهات تثار !!
فينبري للرد على هذه الشبهات فريق من أهل العلم وكن بمنطق أن الإسلام متهمُ في قفص الإتهام فتأتي الردود هزيلة ، لأنها ردود المهزوم نفسياً .
ومن الجفاء أن أذكر هذا العرض الخطير ولا أُذَكر بهذا الوجه المضئ المنير لسلفنا الصالح يوم أن اعتزوا بهذا الدين وارتفعت به رؤوسهم لتعانق كواكب الجوزاء .
أو إن شئت فقل لفضلهم وكرمهم تنزلت كواكب الجوزاء لتتوج هذه الرؤوس التي وحدت اله جل وعلا .
فها هو ربعي بن عامر ذالكم البطل المسلم.. ضعيف البنية قوي الإيمان الذي ركب جواده وانطلق لمقابلة قائد الفرس ، وكلكم يعلم القصة ولكني أردت أن أنبه لأمر هام ألا وهو الإستعلاء .. العزة بهذا الدين ... وأراد الحرس أن يدخل ربعي على رستم وهو يمشي على قدميه فأبى ودخل على ظهر جواده فسأله رستم قائد الجيوش الكسورية وقال: من أنتم وما الذي جاء بكم ؟
فقال ربعي : نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد إن شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .. ابتعثنا الله بدينه لندعوا الناس إليه فمن حال بيننا وبين دعوة الناس إلى دين الله قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله .
قال رستم: وما موعود الله؟!
قال ربعي : الجنة لمن مات على ذلك ، والنصر لمن بقي منا .
فقال رستم : لقد سمعت مقالتك فهل لكم أن تأجِّلوا هذا الأمر لننظر فيه ولتنظروا ؟! فقال ربعي : كم أحب إليكم ، يوم أو يومان ؟
قال رستم : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .
قال ربعي: لا ، قال رستم: و لم ؟! قال : ما سنَّ لنا رسول الله أن نُأجِّل الأعداءَ عند اللقاء أكثرَ من ثلاث فانظر أمرك وأمرهم !!
قال رستم : أسيدهم أنت ؟
قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم .
عزة.. استعلاء.. أما آن فقد شربت الأمة كؤوس الذل والهوان ألواناً وأصنافاً وأشكالاً ، هُزمت وراحت لتركعَ ولتخضعَ في محرابٍ الشرق الملحد تارة ، ومحراب الغرب الكافر تارة أخرى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!
العرض الخامس : الخوف من إظهار الهوية الإسلامية
وهذا عرض فَتَاك من أعراض الهزيمة النفسية ، يخشى المسلم الآن في ظل هذه الظروف أن يُظهر السُنة!! وأن يظهر هويته وبعزة واستعلاء ويخشى أن يتُهم بالإرهاب !! يخشى أن يُتهم بالتطرف !!

ويخشى أن يُتهم بالجمود والرجعية والتخلف ، وضيق الأفق ، وعدم القدرة على الانفتاح العصـــري !! إلى آخر هذه التهم التي يغني بطلانها عن إبطالها وفسادها عن إفسادها وكسادها عن إكسادها !! بل تجد المسلم الآن إلا من رحم الله إذا تعامل مع غير المسلمين أو سافر إلى بلاد الشرق والغرب يأكـــل كما يأكلون !! ويشرب كما يشربون !! ويلبس كما يلبسون !! ويتكلم كمـــا يتكلمـــون !! بـــل ويخشى أن يقول هذا حلال .. وهذا حرام وهذه سُنَة وهذه بدعة.. وهذا حق وهذا باطل !! لماذا ؟! لأنه مهزوم من داخله !

هُزم نفسياً فلا يعتز بدينه ورحم الله من قال :

ومما زادني فخراً وتيهاً ... وكدت بأخمُي أن أطأ الثريا ...

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن أرسلت أحمد لي نبيا ...

ارفع رأسك واعتز بتوحيدك ... اعلن هويتك بكل كرامة .. واعلن السُنَة ... تمسك بهذا الدين فأنت لك وظيفة .. أنت لك غاية.. لا تعش كهؤلاء الذين قال الله في حقهم: أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ الأعراف ١٧٩

وقال تعالى : وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ آل عمران ١٣٩

أحبتي في الله :

أن هذه الأعراض كانت نتيجة لأسباب عديدة وهذا هو عنصرنا الثاني .

أسباب الهزيمة النفسية

وأسباب الهزيمة النفسية في واقعنا عديدة عجيبة منها أسباب داخلية وأخرى خارجية اسمحـــوا لي أن أستهل الحديث بالأسباب الداخلية لأنه بكل أسف يقلل غالب المسلمين من شأنها مع أن الله عز وجل قال أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُـــلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ آل عمران ١٦٥

الهزيمة من عند أنفسنا من الداخل

أولاً : الأسباب الداخلية

السبب الأول : ضعف الإيمان عند غالب المسلمين

أيها الحبيب : هذا بلا منازع أخطر سبب من أسباب الهزيمة النفسية والإيمان لـــيس قـــولا باللســـان فحسب ولكن الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالجوارح والأركان .

الإيمان يزيد وينقص ، ويقوى ويضعف ، وهذا أصل من أصول أهل السنة وقد جسد لنا الحبيب هذه الحالة تجسيدأ دقيقاً في حديثه الصحيح الذي رواه أبو النعيم منحديث علي رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي أنه قال : ((ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، بينا القمر مضـــيء إذ علتـــه سحابة فاظلم ، إذ تجلت عنه فأضاء)) (٤)

فكذلك القلب ، تعلوا القلب من آن لآخر سحبُ مظلمة من آثار المعاصي والذنوب ، فتضعف الإيمان في القلب ، فإذا زاد الإيمان وذاق الإنسان حلاوته انقشعت تلك السحب وأشرق القلب بأنوار التوحيد وقوى صاحب هذا الإيمان .

أيها الحبيب إذا أردت أن تتعرف على سر الإيمان إذا استقر وازداد في القلوب فبسرعة ارجع إلى التاريخ وعد إلى أصحاب الحبيب محمد الذين حولهم الإيمان من رعاة الإبل والبقر ، والغنم إلى سادة وقادة لجميع الأمم ... انطلقوا بهذا الإيمان إلى أعظم الإمبراطوريات على هذه الأرض وأقاموا للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر موجاً في فترة لا تساوي في حساب الزمن شيئاً !!!

الإيمان هو الذي جعل هذا البدوي الذي لا ذكر له في أرض الجزيرة يُرفع إلى عنان السماء يوم أن ترس بجسده على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وليجعل من ظهره حائط صَدًّ منيع لتتحطم عليه رماح وسيوف الأعداء ليحمي رسول الله وهو يقول للحبيب نحري دون نحرك يا رسول الله !!

الإيمان هو الذي جعل هذا العربي البدوي في أرض الجزيرة يقول للحبيب والله لا نقول لك ما قاله بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول لك يا رسول الله : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون .

إنه الإيمان .. أنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب ، فضعفُ الإيمان سبب خطير من أسباب الهزيمة النفسية عند غالب المسلمين في هذه الأيام أسأل الله أن يزيد إيماننا وإيمانكم إنه ولي ذلك والقادر عليه .

السبب الثاني : ترك الجهاد في سبيل الله

ترك الجهاد يساوي الذل والهوان والاستسلام وهذا وهو كلام الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبوداود من حديث ابن عمر أنه قال : ((اذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا يرفعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم)) (٧)

إنه الذل... إنه الهوان بترك الجهاد .

أيها الأحباب : إن أعداء الأمة يعلمون علم اليقين أن الأمة إذا رفعت من جديد راية الجهاد في سبيل الله لأذلت الشرق والغرب ولذا هم يحرصون كل الحرص على أن تُنحَّى الأمة عن الجهاد وروح الجهاد وعلى ألا تُربَى هذه الأجيال على سِير الجهاد وسِيرْ الأبطال الفاتحين لتظل الأمة ذليلة مبعثرة كالغنم في الليلة الشاتية الممطرة . لا عز لهذه الأمة إلا إذا عادت من جديد لترفع راية الجهاد في سبيل الله العزيز الحميد ولترفع ذروة سنام هذا الدين .

السبب الثالث : عدم المعرفة عند غالب المسلمين بطبيعة الطريق

إن الطريق إلى الله ليس هيناً أيها المسلمون .. الطريق إلى الله ليس مفروشاً بالورود والزهور ، بـــل إن الطريق مفروش بالدماء والأشلاء ، محفوف بالعنت وبالأذى والابتلاء فيأتي كثير من الناس يردد كلمة الإيمان يحسبها سهلة هينة ، يرددها في وقت الرخاء وهو يظن أن الكلمة هينة فإذا ما تعـــرض علـــى الطريق لأول محكٍ عملي من الفتن والأذى انقلب على عقبيه وتخلى عن طريق الله جل وعلا .

فهو يردد كلمة التوحيد والعقيدة فإن ربحت فهو مع الرابحين .

قال سبحانه وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـــةٌ انقَلَـــبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الحج ١١

فلابد من معرفة طبيعة الطريق حتى لا تتزلق مع أول منعطف من المنعطفات على طريق المحن والفتن و الابتلاءات قال تعالى :

الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّـــهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ العنكبوت ١ – ٣

أخي الحبيب : لابد أن تعي هذه الطبيعة حتى لا تنقلب على عقبيك فمن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً

قال تعالى وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ آل عمران : ١٤٤

السبب الرابع : عدم المعرفة عند غالب المسلمين بالقدرات والإمكانيات والطاقات مع قلة الطموحات .

فهذا سبب خطير من أسباب الهزيمة النفسية دائماً نقلل من شأن الطاقات والقـــدرات والإمكانيـــات الهائلة التي مَنُ الله بها علينا ، من أرض ومناخ وأموال وثروات وعنصر بشري هائل جبار فضلاً عـــن إسلام رضيع العزيز الغفار للبشرية كلها ديناً ، ومع ذلك ترى من أبناء هذه الأمة من يقلل من قـــدر هذه القدرات والطاقات والإمكانيات .

أيها المسلمون : إن أموال المسلمين هى التي دير دفة السياسة العالمية في بنوك الشرق والغرب .

إن عقول المسلمين والعرب هى التي تخطط وتبني في بلاد الشرق والغرب اسألوا عن علماء الـــذرة . اسألوا عن علماء الجيولوجيا !! أسألوا عن علماء الهندسةز!! عقول إسلامية وعربية حُجِر عليهـــا في بلادها فقوبلت بقانون الروتين القاتل للإبداع فرحلت فاستُقبلت في بلاد الشرق والغرب اســـتقبال الأبطال الفاتحين ، ومنحوا الإمكانيات الهائلة للعمل والعطاء والإبداع فأبدعوها وهذا واقـــع نعيشـــه الآن .

لقد ممرت على جسر رهيب جداً في نيويورك على المحيط ، ولو نظرت إليه كاد عقلك أن يطـــيش !! ومانت المفأجأة حينما وصلنا إلى الشاطئ الآخر ووقف مرافقي فقال لي: هل تعلم إن الـــذي صـــمم هذا الذي ترى مهندس مسلم من الباكستان؟؟هذه عقولنا!!

أيها المسلمون :- إن لسلاحا واحدا كسلاح البترول استخدمه المسلمون والعرب استخداماً صحيحاً للحظات فانقلبت الموازين كلها!!

إن عندنا قدرات وطاقات وإمكانيات وثروات هائلة وكننا لا نحسن الإستخدام ونقلل دائما من شأن هذه القدرات والطاقات في الوقت الذ لا نرى فيه طموحاً على الإطلاق .. لا يمكن أبـــداً أن نـــرى شاباً يطمح الآن إلا في أن يتخرج من الجامعة ، وأن يتزوج بفتاة جميلة وأن يسكن سكناً مؤثثاً تأثيثاَ فاخراً ، وإن مَنَّ الله عليه بسيارة فالحمد لله وهكذا .

هل فكر في هذا الدين؟! هل فكر في أن يغير أمته ؟ أبداً لا يفكر في هذا؟! ولا يطمح لهذا؟! ويظـــل المسلم غالبا لا ينظر إلا تحت قدميه!!

ومن يتهيب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر

وأختم هذه الأسباب حتلا لا أطيل بهذا السبب الهام ألا وهو :

السبب الخامس : النظرة الضيقة للزمان والمكان

شبابنا الآن ينظرون للمكان والزمان نظرة ضيقة فتصيبهم هذه النظرة باليأس والقنوط كيف ؟ كثُرتْ الفتن !! قل الملتزمون !! كثر المتبرجات !!الكتاتيب توقفت !! إذن بعد فترة لن نرى حافظاً للقـــرآن !!

هذه النظرة الضيقة للمكان الذي يعيش فيه تصيبه باليأس والقنوط فيهزم هزيمة نفسية قاتلة فيشل عقله وفكره ، بل وحركته إن كان يستطيع أن يفعل شيئا ، يتوقف تماما عن فعل أي شئ مع أنه لو خرج بها من قريته أو مدينته أو دولته ونظر نظرة أوسع ، ونظرة أشمل إلى المكان تعَلمَ يقينا أن الأرض مـــا خلت ولن تخلوا أبدا من أبناء الطائفة المنصورة التي لا يخلو منها زمان ولا مكان بشهادة الصادق سيد ولد عدنان .. كن واسعَ النظرة كن شمولىَ النظرة كذلك، لا تنظر إلى الزمان نظرة ضيقة فشابنا الآن يقولون : ضاع الدين.. هزمت الأمة .. إن الإسلام يتعرض لأشد الهجمـــات .. بـــل أن المســـلمين يتعرضون لأشد الضربات يتعرض لأشد الهجمات .. بل أن المسلمين يتعرضون لأشد الضربات على أيدي الأعداء!! : يقولون إذن لا فائدة !! إلى آخر هذه الكلمات مع أنه لو نظر نظرة واسعة للزمـــان لعلم يقيناً أن الأمة قد نكبت نكبات أشد ومع ذلك غير الله الواقع وبدل الله الحال .

أخي الحبيب

إني أقول لك بلغة يحدوها الأمل وبقلب ملأه اليقين :

إن هذا الواقع سيتغير وأن هذا الحال سيتبدل .

يا مسلمون : لقد هجم التتار على المسلمين فملأت شوارع بغداد بأكوام اللحوم والأشلاء بـل و لم تَصَلى صلاة جماعة في مسجد واحد من مساجد بغداد أربعين يوماً .. إلى هذا الحد ؟! نعم أغلقت المساجد..!!

كان المسلم يخشى أن يخرج إلى المسجد خوفاً من القتل !!

كان المسلم إذا رأى التتاري، يقف في مكانه لا يتحرك خطوة حتى يأتي المجرم ليقتله!! انظر إلى حجم الهزيمة من الداخل .

ومع ذلك سلط الله على التتار مضنْ هزمهم شر هزيمة وغبر الله الحال وبدل الله الواقع .

الصليبون هجوا على المسلمين ووضعوا الصلبان على كل حوائط المسجد الأقصى .. بـل ومنعت الصلاة في المسجد الأقصى واحدا وتسعينا عاما.. تدبر وتذكر التاريخ، ومع ذلك قيض الله للأقصى من يطهره ، وبدل الله الحال وغير الله الواقع .

وإن كان الله قد قيض للأقصى من يطهره فإننا على يقين جازم أن الذي قيض للأقصى منْ طَهَّره حي لا يموت !!

فلئن عرف التاريخ أوسا وخزرجا ... فلله أوسُ قادمون وخزرجٌ ...

وإن كنوز الغيب يفضي طلائعاً ... حُرة ، رغم المكائد تخرج !! ...

أيها المسلمون : وهجم القرامطة على المسلمين في بيت الله الحرام .. فقتلوا المسلمين في الكعبة وهم يلبسون ملابس الإحرام وامتلأ بيت الله بالدماء والأشلاء وانطلق المجرم أبو طاهر القرمطي قائد القرامطة فانتزع الحجر الأسود من الكعبة المشرفة ورفع رأسه إلى السماء وصرخ في جوف بيت الله وقال : أين الطير الأبابيل؟! أين الحجارة من سجيل؟!

أنها فتنة تعصف بالقلوب يا عباد الله ، وظل الحجر الأسود بعيدا عن الكعبة المطهرة ما يزيد على عشرين عاما .

ومع ذلك غير الله الحال وبدل الله الواقع !!

فيا أيها المسلمون : لا تيأسوا ولا تقنطوا ، ولا تنظروا للزمان نظرة ضيقة فهذا من أخطر أسباب الهزيمة النفسية الداخلية .

أما الأسباب الخارجية للهزيمة النفسية : فنراها بالجملة حتى لا نطيل تتمثل في السبب الخطير ((التضخيم والتهويل من قوة أعداء الإسلام))

وتَرَ يُعزف عليه بالليل والنهار بقصد أو بغير قصد.. قوة الأعداء .. القنابل النووية .. القنابل الجرثومية، .. الصواريخ .. الطائرات والدبابات... العلم والتكنولوجيا .

لا نود أن ننفي ما وصل إليه الغرب في هذا الجانب ولكننا نود أن نقول ينبغي أن نعلم يقيناً أن الله عز وجل ما أمر المسلمين بالإعداد إلا على قدر الإستطاعة فقال سبحانه وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ

وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ الأنفال : ٦٠

وعَبَّر الله جل وعلا بالقوة بصيغة التنكير ليبحث المسلمون عن القوة التي تناسب كل عصر وكل مصر وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ الأنفال : ٦٠

فما عليك إلا أن تبذل أقصى ما في استطاعتك فإن علم الله منك أنك قد عملت أقصى ما في طاقتك وما في وسعك فاصبر واطمئن وكل النتائج إلى من بيده الكون كله .

قال تعالى وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ المدثر : ٣٠

وقال تعالى إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ الفجر : ١٤

قال تعالى إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ غافر : ٥١

والله لو علم المسلمون قدر قوة الله وازداد إيمانهم وثقتهم بالله ، لغَيَّر الله الحال ولبدَل الله الواقع .. لأن الله عز وجل لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء .

فلنعد إلى الله ابتداءً ولنحقق الإيمان لأن الله قد عَلِق النُصرة به ((وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)) فلا نبغي أن نضخم من قوة الأعداء في الوقت الذي يجب علينا فيه أن نبذل أقصى ما في استطاعتنا لإعداد القوة ، وقد شاء الله أن يرينا كيف أرغم الفتناميون أمريكا ووضعوا أنفهم في التراب ؟!!

وكيف وضع الصوماليون الحفاة العراة الجياع أنف أمريكا في التراب ؟!! يوم أن جَرِ شباب الصومال بعض الجنود الأمريكيين في الشوارع والطرقات ، ونقلت وكالات الأنباء هذه الصور فاضطرت أمريكا أن تسحب جيوشها من الصومال في الحال .

كيف وضع المسلمون في البوسنة أنف لا أقول الصرب فحسب إنما أقول كيف وضع المسلمون في البوسنة أنف تآمر عالمي حاقد يهودي صليبي علماني رهيب ؟!!

كل المراقبين قرورا أت الحرب في البوسنة لن تستمر أكثر من أسبوع وصمد المسلمون في البوسنة !!

كل المراقبين قرروا أن الحرب في الشيشان ومرَغوا أنف الدب الروسي الغبي في التراب .

والأفغان يوم أن صَدَقوا الله ورفعو الراية للجهاد في سبيل الله وضعوا أنف الدب الروسي في التراب ، ويوم أن رفعوا الراية للعصبية المنتنة سلَط الله بعضهم على بعض لنَعِي سنةً ربانية لا ينبغي أن نتجاهلها أبداً .

أيها الأحبة : يجب علينا أن نعي هذه الحقيقة وألا نبالغ لأن هذه المبالغة تزيد المهزوم هزيمة وتزيد المنتصر على نفسه خذلانا وتكاسلا .

وأكتب بهذا القدر لأعرج كثيرا على العنصر الأخير وذلك بعد جلسة الإستراحة وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية :

أن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وزد وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه وأتباعه وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين .

أما بعد فيا أيها الأحبة الكرام

" فما هو العلاج "

العلاج في نقاط سريعة لا تحتاج إلى تفصيل

أولاً : معرفة أسباب الداء فإن تشخيص الداء نصف الدواء

ثانياً : العودة الجادة الصادقة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ، وتربية أفراد الأمة على العقيدة الصالحة بشمولها وكمالها ولابد أن نَعِي أن العقيدة الآن هى التي تحرك العالم كله فالحرب في الشيشان حرب عقدية ، والحرب في الصومال حرب عقدَية .. الحرب في فلسطين عقدِية .. والحرب في كشمير حرب عقدَية . والحرب في البوسنة حرب عقدَية . فلابد أن نربي الجيل على العقيدة الصحيحة بشمولها وكمالها .

ثالثاً: التخلص من الوهن كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود من حديث ثوبان أن النبي قال ((يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها قالوا أمن قلة يا رسول الله ؟ قال لا ، إنكم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وليترعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفن الوهن في صدروكم قيل له وما الوهن يا رسول الله ؟ قال: حب الدينا وكراهة الموت)) (٨)

رابعاً : تربية شباب الأمة على روح الجهاد في سبيل الله

خامساً : العودة الصحيحة إلى التاريخ وسير السلف الصالح

لا لمجرد الثقافة الذهنية الباردة ، وإنما لأخذ العبر من ناحية ولتتدفق في عروق الأجيال دماءُ الغيرة والعزة والكرامة من ناحية أخرى .

وأخيراً : الاعتزاز المطلق بهذا الين وفي نصرة رب العالمين .

قال الله تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا النور : ٥٥

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ الأنفال : ٣٦

وقال الله تعالى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ التوبة : ٣٣

قال تعالى وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ الروم : ٤٧

قال تعالى وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا الإسراء : ٨١

أسأل الله عز وجل أن يتقبل منا وإياكم صالح الأعمال ، وأن يرزقنا وإياكم العز والاستعلاء بالإيمان بهذا الدين إنه ولي ذلك والقادر عليه .

----

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٢٣) في كتاب البر ، باب النهي عن قول هلك الناس

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٨ / ٤٢٤) ط. دار الحديث القاهرة

(٣) رواه البخاري (٦ / ٣٦١) في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني اسرائيل / والترمذي رقم (٢٦٧١) في العلم ، باب ما جاء في الحديث عن بني اسرائيل ، وانظر شرح الحديث في "الفتح" حديث رقم (٣٤٦١)

(٤) رواه مسلم رقم (٤٩) في الإيمان ، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان ، والترمذي رقم (٢١٧٣) في الفتن : باب ما في جاء في تغيير المنكر باليد ، وأبو داود رقم (١١٤٠) في صلاة العيدين : باب الخطبة يوم العيد رقم (٤٣٤٠) في الملاحم : باب الأمر والنهي والنسائي (٨ / ١١١) في الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان ، وأخرجه ابن ماجة رقم (٤٠١٣) في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي هن المنكر

(٥) أخرجه البخاري (٥ / ٩٤) في الشركة ، باب هل يقرع في القسمة ، وفي الشهادات : باب القرعة في المشكلات ، والترمذي رقم (٢١٧٤) في الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب .

(٦) أخرجه أبو النعيم في الحلية وحسنه شيخنا الألباني في الصحيحة رقم (٢٢٦٨)، وصحيح الجامع(٥٦٨٢) .

(٧) رواه أبو داود رقم (٣٤٦٢) في البيوع، باب في النهي عن العينة وصححه شيخنا الألباني في صحيحه رقم (١١)، والعينة: نوع من أنواع البيوع الربوية المحرمة .

(٨) رواه أبو داود رقم (٤٢٩٧) في الملاحم ، باب تداعي الأمم على الإسلام وفي سنده أبو عبد السلام صالح بن رستم الهاشمي ، وهو مجهول لكن قد رواه أحمد (٥ / ٢٧٨) من طريق آخر بسند قوي ، وصححه شيخنا الألباني في الصحيحة (٩٥٦)، وصحيح الجامع (٨١٨٣) .

إن الحمد لله رب العالمين، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلفه وخليله، أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة فكشف الله به الغمة، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فاللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيا عن أمته، ورسولا عن دعوته ورسالته، وصل اللهم وسلم وزد وبارك عليه وعلى آله واصحابه وأحبابه وأتباعه وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد فحيا الله هذه الوجوه الطيبة المشرقة، وزكى الله هذه الأنفس وشرح الله هذه الصدور، وطبتم جميعاً وطاب ممشاكم وتبوأتم من الجنة منزلاً ، وأسأل الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجمعنا فى هذه الدنيا دائماً وأبدا على طاعته أن يجمعنا فى الآخرة مع سيد الدعاة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى جنته ودار مقامته، إنه ولى ذلك والقادر عليه...

أحبتى فى الله ... مهلا يا دعاة الهزيمة

هذا هو عنوان محاضرتنا مع حضراتكم فى هذه الليلة الطيبة وكعادتى فى مثل هذه المحاضرات المنهجية حتى لا ينسحب بساط الوقت سريعاً من تحت أقدامنا فسوف ينتظم حديثى مع حضراتكم فى هذا الموضوع المهم فى العناصر المحددة التالية:

أولاً: أعراض الهزيمة.

ثانياً: أسباب الهزيمة.

ثالثا: فما الحل؟

وأخيراً: لا تيأسوا: فالصبح من رحم الظلماء مسراه

فأعيرونى القلوب والأسماع جيداً، والله أسأل أن يقر أعيننا جميعا بنصره الإسلام وعز الموحدين إنه ولى ذلك والقادر عليه.

أولاً: أسباب الهزيمة:

أحبتى فى الله إن الصراع بين الحق والباطل قديم بقدم الحياة على ظهر الأرض والأيام دول، قا تعالى: { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } (١٤٠) سورة آل عمران ولاشك أن الدولة الآن للباطل وأهله يوم أن تخلى عن الحق أهله، فلقد ابتليت الأمة بنكبات وأزمات كثيرة ابتداء بأزمة الشرك ومروراً بأزمة الردة الحادة والهجمات التترية الغاشمة، والحروب الصليبية الطاحنة، وزوال ظل الخلافة واغتصاب القدس وضياع الأندلس وضياع كثير من أراضى المسلمين، ومع ذلك فأنا أؤكد لحضراتكم بأن أخطر هزيمة قد بليت بها الأمة فى العصر الحديث هى الهزيمة النفسية، لأن المهزوم نفسياً مشلول الفكر والحركة، واستطيع أن أقف الليلة مع حضراتكم مع أهم أعراض هذه الهزيمة النفسية التى تشكل واقعاً مريراً أليما للمسلمين الآن.

وهذا هو عنصرنا الأول من عناصر هذه المحاضرة أعراض الهزيمة النفسية:

أول عرض من هذه الأعراض الواقع الأليم واليأس من إمكانية التغيير، أنا لا أجهل الواقع الذى تحيـــاه أمتنا الآن لكن الذى يؤلم القلب أن كثيراً من المسلمين قد هبت عليهم رياح عاتية من القنوط واليأس وهزموا هزيمة نفسية أمام هذا الواقع حتى راحت هذه الهزيمة النفسية تمثل معتقداً جديداً عند الكثيرين ممن صاروا يرددون هذه الكلمات التى تقول: لا فائدة أنت تؤذن فى خرابة، أنت تصرخ فى صـــحراء مقفرة، أنت تنفخ فى قربة مقطوعة (عش عصرك) رب أولادك، لن يسمعك أحد لن تغير شيئاً د ع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله بل ومنهم من يقول د ع ما لله لقيصر.

لقد أسمعت لو ناديت حيا... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارا نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفسخ فى رماد

وقد وصف الصادق الذى لا ينطق عن الهوى هذه النفسية المهزومة وصفاً دقيقاً كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قال الرجل هلك النـــاس فهو أهلكهم" ([١]) وفى

لفظ : "فهو أهلكهك" بالضم والفتح والضم أشهر كما قال النووى: فهو أهلكهم أى: حكم عليهم بالهلاك.. وقد اتفق أهل العلم أن من قال ذلك على سبيل الإزدراء والتحقير فهو مذموم، أما من قال ذلك على سبيل أنه ينظر تقصيراً فى نفسه وعند إخوانه وهو يقول ذلك من باب أنه يحفز الهمم للعمل بدين الله تبارك وتعالى فهذا لا بأس به ، لكن الهزيمة النفسية التى صارت تمثل معتقداً عند الكـــثيرين الآن من يقولون: إن هذا الواقع لا يمكن أبداً أن يتغير هذا عرض خطير.

العرض الثانى: بإيجاز شديد، لأن المحاضرة طويلة، العرض الثانى من أعراض هذه الهزيمة النفسية السلبية الشديدة عند كثير من المسلمين وذلك من منطلق مقلوب لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (١٠٥) سورة المائدة وقديماً خشى الصديق رضى الله عنه هذا الفهم المقلوب للآية فارتقى المنبر وقال: أيهـــا الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك الله أن يعمهم جميعاً بعقاب من عنده".. وفى لفظ " ثم يدعونه فلا يستجاب لهم".([٢]) والحديث رواه أحمد والترمذى وغيرهما بسند صـــحيح صـــار المسلم الآن ينظر إلى الباطل وإلى المنكرات تصبح بها مجتمعات المسلمين فيهز كتفيه ويمضى كأن الأمر لا يعنيه لا من قريب ولا من عبيد مع أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطـــب الأعظـــم فى هذا الدين وهو شرط من شروط خيرية أمة سيد المرسلين: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـــأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (١١٠) سورة آل عمران وفى صحيح البخارى مـــن حديث عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " بلغوا عنى ولـــو آيـــة"([٣]) ... وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " مـــا

من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا وكان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يقولون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، فمن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" ([٤]) وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد

الخدرى أن النبى

قال: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"([٥]) . بالضوابط الشرعية المعلومة بشرط ألا يترتب على المنكر الأصلى ما هو أنكر منه.

قال ابن القيم: إن النبى صلى الله عليه وسلم قد شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإن كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر من المنكر فهو أمر بمنكر وسعى فى معصية الله ورسوله، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله عليه مكة وصارت مكة دار إسلام وعزه على هدم بيت الله الحرام ورده على قواعد إبراهيم لم يفعل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك مع قدرته على فعل ذلك، لأن قريشاً كانت حديثة عهد بكفر وقريبة عهد بإسلام فنحن نشهد الآن سلبية قاتلة خيمت فى سماء الأمة كانت عرضا خطيراً من أعراض هذه الهزيمة النفسية القاتلة.

العرض الثالث: الدفاع عن الإسلام كمتهم: وإن الغرب يثير شبهات خطيرة حقيرة على الإسلام، من بين هذه الشبهات أن الإسلام دين إرهاب ودين تطرف، وأن الإسلام ظلم المرأة والمرأة فى الإسلام مهملة وثروة معطلة، والأمومة تكاثر حيوانى والزوج سجان قاهر، والقرار فى البيت سجن مؤبد، ثم لماذا تزوج النبى صلى الله عليه وسلم تسعا ثم لماذا يتزوج الرجل المسلم أربعا ؟ لماذا لا تتزوج المرأة هى الأخرى أربعة من الرجال ؟ ثم لماذا حرم الإسلام الخلوه؟ ثم لماذا حرم الإسلام الاختلاط؟ ثم لماذا فرض الإسلام الحجاب على المرأة المسلمة؟ يثيرون شبهات حول هذه القضايا يطعنون فى ثوابت هذا الدين.

مكمن الخطر أيها الأفاضل أنه قد انبرى للرد على هذه الشبهات فريق من أهل العلم لكنه انبرى للدفاع عن الإسلام من منطلق أن الإسلام متهم فى قفص أتهام، ومن ثم جاءت الردود هزيلة، لأنها خرجت من مهزوم نفسياً والله جل وعلا يقول:" {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ } (٢٩) سورة الكهف فكان من الواجب أن تخرج الردود على هذه الشبهات قوية بقوة الإسلام عظيمة بعظمة هذا الدين هذا عرض آخر من أعراض الهزيمة النفسية.

العرض الرابع: الاستجياء من إظهار الهوية الإسلامية. كم من المسلمين الآن يستحى أن يظهر هويته إن كان بين غير المسلمين، إن سافر إلى بلاد الشرق وإلى بلاد الغرب يستحى أن يظهر هويته فى الوقت الذى نرى فيه اليهود والنصارى والبوذيين والمسيحيين- فى الوقت الذى نرى فيه أهل الكفر-

يعتز أحدهم بإظهار دينه وإظهار هويته وإظهار عقيدته، فترى كثيراً من المسلمين الآن قد انصهروا فى بوتقة المناهج الغربية وراحوا يقلدون الغرب تقليداً أعمى النظر.

أنظر إلى الكثير من شبابنا فى بلاد المسلمين أنظر إلى قصة الشعر، أنظر إلى المظهر، أنظر إلى الزى، أنظر إلى الأغانى التى يستمع إليها شبابنا، بل لو قدمت الآن استمارة استبيان لعينة عشوائية من شباب المسلمين ، وخرجت مجموعة من الأسئلة ، وطرحت نفس الأسئلة على عينة عشوائية من شباب الغرب، سينقلب إليك بصرك خاسئاً وهو حسير، لأنك سترى الإجابات متشابهة إلى حد كبير، ولا حول ولا قوة إلا بالله وصدق البشير النذير إذ يقول كما فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى: " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب".. فى لفظ: " حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لتبعتموهم" قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟! قال: " فمن"([٦]) ومن أخطر هذه الأعراض للهزيمة النفسية تنحية الشريعة الربانية والذوبان فى بوتقة المناهج الغربية.

استبدلت الأمة بالعبير بعرا ، وبالثريا ثرى وبالرحيق المختوم حريقا محرقا مدمراً وظنت الأمة المهزومة عسكريا واقتصاديا ونفسيا أنها بتقليدها للغرب الذى انتصر فى الجولة الأخيرة ستخرج من حالة الذل والهوان هذه إلى حالة العزة والكرامة ، فنحت شريعة الله جل وعلا بالجملة وراحت تحكم شريعة الغرب فى الأعراض والدماء والفروج والله جل وعلا يقول: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (٦٥) سورة النساء والله جل وعلا يقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} (٣٦) سورة الأحزاب والله عز وجل يقول: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرسول صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} (٦١،٦٠) سورة النساء وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (١) سورة الحجرات .

فمن أخطر أعراض الهزيمة النفسية أن نحت الأمة شريعة رب البرية ومنهج سيد البشرية حتى قرأت لأستاذ كبير فى هذه الأمة – لأن الأمة الآن تخطو على غير الموازين السوية – قرأت له يقول: لقد عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين الالتهابات التى فى رئاتهم والنجاسات التى فى أمعائهم ليته قال: لقد غزمنا على أن نأخذ أروع ما وصل إليه الغربيون من تكتيك علمى تقنى مذهل فنحن لا ننكر ذلك لا حرج أن تنقل الأمة أروع ما وصل إليه الغرب فى الجانب العلمى والمادى ما دام هذا لا يصطدم اصطدام مباشراً مع عقيدتنا وأخلاقنا وديننا لكن الأمة بكل أسف راحت لتنقل أعفن ما

وصل إليه الغرب فى الجانب العقدى والإيمانى والروحى والأخلاقى وتركت منهج ربها ومنهج نبيهـــا والله جل وعلا يقول: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (١١)سورة الرعد.

وقال أستاذ دكتور آخر: إن تطبيق الشريعة الإسلامية ردة حضارية بكل المقاييس، وقال آخر

هبونى عيدا يجعل العرب أمة... وسيروا بجسمانى على دين برهم

أى: على دين إبراهيم ... ...

هبونى عيدا يجعل العرب أمة وسيروا بجسمانى على دين برهم

سلام على كفر يوحد بيننا أهلا وسهلا بعده بجهنم

هذه أخطر الأعراض وإلا فأنا لا أريد الإطالة مع كل عنصر من عناصر المحاضرة والسؤال الآن أليست هذه الأعراض نتيجة حتمية لمجموعة من الأسباب الداخلية والخارجية؟

والجواب: بلى! فما هى أخطر هذه الأسباب لهذه الهزيمة النفسية القاتلة؟ والجواب فى عنصرنا الثـــانى من عناصر هذه المحاضرة أسباب الهزيمة وأنا أقسم الأسباب إلى قسمين: أسباب داخليـــة وأســـباب خارجية.

الأسباب الداخلية كثيرة وأخطرها وأهمها ما يلى:

ضعف الإيمان بالله عز وجل ، بل أنا أرى هذا السبب هو أخطر أسباب الذل والهـــوان، فالإســـلام عقيدة تنبثق منها شريعة تنظم هذه الشريعة كل شؤون الحياة ولا يقبل الله من قوم شـــريعتهم إلا إذا صحت عقيدهم، اعلموا أيها الأفاضل أن الله وعد بالنصر والعز والتمكين لكن للمؤمنين فإن لم تجـــد نصرة ولا عزة ولا استخلافاً ولا تمكيناً فكن على يقين مطلق أن الإيمان الذى يستحق به المؤمنون هذا لم يتحقق بعد { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} (٤٧) سورة الـــروم { وَلِلَّـــهِ الْعِـــزَّةُ وَلِرَسُـــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } (٨) سورة المنافقون {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِـــي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّـــن بَعْـــدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٥٥) سورة النور .

وإذا أردت حبيبى فى الله أن تعرف عظمة الإيمان وكيف يكون الإيمان من أعظم الأســـباب للتغلـــب على الهزيمة النفسية القاتلة؟ وكيف كان ضعف الإيمان من أخطر الأسباب للوقوع فى الهزيمة النفســـية القاتلة؟ إن أردت أن تتعرف على ذلك، فانظر إلى واقع الصحابة رضى الله عنهم الذى حولهم هـــذا الإيمان من رعاة الإبل والغنم إلى سادة وقادة لجميع الدول الأمم، استطاعوا بهذا الإيمـــان أن يتغلبـــوا على العالم القديم كله بصولجانه وجبروته وأن يحولوا إمبراطورياته العظيمة القوية إلى ركام فى ركـــام وإلى تراب فى تراب، استطاع الصحابة بهذا الإيمان أن يأتى أحدهم بتاج كسرى بن هرمز بكل درره وجواهره ولآلئه ليضع هذا التاج فى حجر عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو الأسد القابع فى عرين

فى مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم بهذا الإيمان أذل كسرى، وبهذا الإيمان أهين قيصـــر، وبهـــذا الإيمان استطاع المصطفى صلى الله عليه وسلم بهذا الايمان أذل كسرى، وبهذا الإيمان أهـــين قيصـــر، وبهذا الإيمان استطاع المصطفى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أن يقيم للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر موجاً، فإذا هى بناء شامخ لا يطاوله بناء، وذلك في فترة لا تساوى فى حساب الـــزمن شيئاً على الإطلاق فالإيمان ليس مجرد كلمة ترددها الألسنة فحسب، كلا هذا إيمان المرجئة الذى دمر الأمة تدميرا، ولكن الإيمان كما هو معلوم لكل طالب علم وينبغى أن يعلم ذلك كل مسلم الإيمـــان عند أهل السنة: قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعات ويـــنقص بالمعاصى والزلات، قال رب الأرض والسماوات: " {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُـــوبِ الْمُـــؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ } (٤) سورة الفتح فأثبت زيادة فى إيمانهم بتنزل السكينة على قلـــوبهم، وفى الحديث الذى رواه الطبرانى بسند حسن من حديث عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وســـلم قال: "إن الإيمان ليخلق فى جوف

أحدكم كما يخلق الثوب- أى: كما يبلى الثوب- فاسألوا الله أن يجدد الإيمان فى قلـــوبكم"([٧]) .
والله ما ذلت الأمة إلا يوم أن ضعف الإيمان وما هانت الأمة إلا يوم أن

ذبحت العقيدة فى الأمة شر ذبحة، كانت العقيدة بالأمس إذا مس جانبها سمعـــت الصـــديق يتوعـــد والفاروق يزمجر وخالد بن الوليد يهرول، رأيت الصادقين المخلصين من اصـــحاب ســـيد المرســـلين يبذلون من أجل نصرتها الغالى والرخيص أين العقيدة الآن فى أمة تسأل غير الله؟ بل أين العقيـــدة الآن فى أمة تثق فى بعض دول الأرض أكثر من ثقتها فى رب السماء والأرض؟ هذا أخطر الأسباب.

السبب الثانى: من الأسباب الداخلية الجهل بطبيعة الطريق إلى الله تبارك وتعالى:

كثير من إخواننا وأحبابنا يهزم نفسيا إذا سمع أزمة من الأزمـــات فى فلســـطين وفى الشيشـــان أو فى كشمير أو طاجكستان أو فى ليبيريا أو فى أريتريا يصدم وربما ينحرف وينعطف عن الطريق لماذا؟ لأنه لا يعلم طبيعة الطريق يجهل هذه الطبيعة فلابد أن نعلم أيها المسلمون ان الطريق إلى الله تبارك وتعالى ليس ممهداً بالورود ولا مفروشاً بالزهور والرياحين، لو كان الأمر كذلك لكان أولى الناس بذلك هو المصطفى صلى الله عليه وسلم :

ماذا فُعل برسول الله ؟! وضعت النجاسة على ظهره ووضع التراب على رأسهن وخنـــق المصـــطفى صلى الله عليه وسلم كادت أنفاسه أن تخرج وطرد من بلده وأتهم بالكهانة والشعر والجنون هذا هـــو الطريق: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (٢، ٣) سورة العنكبوت {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّـــا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرسول صلى الله عليـــه وسلم صلى الله عليه وسلم وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} (٢١٤) ســـورة

البقرة {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} (١٤٢) سورة آل عمران. فمن المسلمين من يردد كلمة الإيمان وهو يحسبها هينة المؤنة خفيفة الحمل فإن تعرض لمحنة أو لفتنة أو لأزمة على الطريق انحرف، ولقد وصف الله هذا الضعف وصفا دقيقا فى قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (١١) سورة الحج. الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فحسب لكنه قول وتصديق وعمل أمانة ذات تكاليف وحمل كبير، فلا تظنوا السير على هذا الطريق مفروشاً بالورود والزهور والرياحين، فالذى يجهل طبيعة الطريق مع أول محنة ربما ينحرف عن الطريق، ربما ينهزم قد يقول لى كثير من شبابنا وطلابنا كنت قبل الالتزام أتمنى أن أنظر إلى فتاة وبعد ما شرح الله لى صدرى وأطلقت اللحية، وإذ
بالفتيات يتعرضن إلى فى كل وقت وحين.

إنها الفتن للتمحيص للابتلاء من الذى يثبت ومن الذى سينحرف؟ ولا تظنوا أن المحنة التى يشهدها إخواننا هنالك الآن فى فلسطين شر محض كلا بل أذكر بقول الله تعالى: { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } (١١) سورة النور. وقد نزلت الآية فى أحلك فتنة تعرض لها المصطفى صلى الله عليه وسلم ألا وهى فتنة حادثة الإفك أو حادثة الإفك يوم أتهم المنافقون رسول الله فى عرضه فى طهارة بيته وهو الطاهر الذى فاضت طهارته على العالمين يوم اتهم فى صيانة حرمته، وهو القائم على صيانة الحرمات فى أمته يوم رمى فى عائشة وهى أحب نسائه إلى قلبة ونزلت الآيات ومنها: { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } .

وقد سأل الآن أخ فاضل أى الخير فى فتنة حالكة كهذه؟ أقول: لو لم يكن فى هذه الفتنة التى أمتنع فيها الوحى شهراً كاملاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى حطم الألم فؤاد المصطفى صلى الله عليه وسلم وكاد الحزن أن يفتت كبده حتى قام ليسأل عن عائشة جاريتها وليسأل عنها أسامة وليسأل عنها عليا رضى الله عنه.

أقول: لو لم يكن فى هذه الفتنة من الدروس إلا أن الله أراد أن يعلم الأمة أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب لكفى.

إلى غير ذلك من الدروس فلا تحسبوه شرا لكم لا تنظروا إلى كل ابتلاء أو إلى كل محنة على أنها انتقام من الله جل وعلا كلا كلا: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (٣) سورة العنكبوت. فالجهل بطبيعة الطريق من أخطر أسباب الوقوع فى الهزيمة النفسية.

ثالثاً: النظرة الضيقة للزمان والمكان: يأتى شاب من شبابنا، كثر التبرج البناطيل الإسترتش، قل حفاظ القرآن، انتهت الكتاتيب التى تحفظ القرآن ضاع الدين، ضاع الإسلام، نظر نظرة ضيقة فى حدود المكان الذى يعيش فيه فأصيب بهذه الحالة من اليأس والهزيمة والقنوط مع أنه لو نظر نظرة أوسع لعلم

علم اليقين أن أبناء الطائفة المنصورة لا يخلو منها زمان بموعود الصادق الذى لا ينطق عن الهوى كما فى صحيح مسلم من حديث معاوية/ لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خـــذلهم أو خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهو ظاهرون على الناس"([٨]) وفى لفظ :" وهم كذلك"([٩]).

ثم تأتى النظرة الضيفة للزمان التى تصيب إخواننا وأحبابنا بهزيمة نفسية قاتله يقول: الآن سيطر اليهود واستولى الروس على الشيشان وضاعت الأندلس وهزمت الأمة: إنا لله وإنا إليه راجعون انتهت الأمة كفنت الأمة دفنت الآمة، لا حياة لمن تنادى لقد أسمعت لو ناديت حيا ... إلى آخر هذه الكلمـــات، مع أنك لو نظرت نظرة أوسع للزمان ما أصبت بهذه الحالة، فلقد ابتليت الأمة بنكبات اشد وبأزمات أخطر هل تعلمون أن التتار قد هجموا على الأمة ودمروا عاصمة الخلافة بغداد، وذبحـــوا المســـلمين أربعين يوما متتالية حتى منعت صلاة الجماعة أربعين يوما فى كل المساجد فى بغداد لم يرفـــع مـــؤذن واحد الأذان فى اى مسجد من مساجد المسلمين فى بغداد وهى عاصمة الخلافة فى هذا الوقت، هـــل استمر الحال.

لا يا أخى بل غير الله الحال وسيغير الله الحال إن شاء الله غير الله الحال ونصر الله عز وجل المســـلمين على التتريين الغاشمين، ثم اشتعلت شرارة الصراع الصليبى الحاقد، واستولى الصليبيون علـــى القـــدس الشريف، ومنعوا الصلاة فى المسجد الأقصى واحداً وتسعين عاما، لابد أن تتعرفوا على هذا التـــاريخ حتى تنظروا نظرة أوسع إلى الزمان، لقد سيطر الصليبيون على الأقصى ومنعوا الصـــلاة فى الأقصـــى واحداً وتسعين عاماً ، ووضعت الصلبان على كل جدران الأقصى، ونصر الله المسلمين ثم فى صـــحن الحرم.

جاء أبو طاهر القرمطى المجرم الخبيث فاقتلع الحجر الأسود من الكعبة، وظل يصرخ فى بيت الله وهو يقول باستهزاء: أين الطير الأبابيل؟! أين الحجارة من سجيل؟! وظل الحجر الأسود يا إخوة بعيداً عن الكعبة المشرفة واحداً وعشرين عاما، ظل الحجر الأسود بعيداً عن الكعبة واحدا وعشرين عاماً، كان الطائفون ف هذا الوقت يطوفون والحجر الأسود ليس موجوداً فى موضعة، وغـــير الله الحـــال ورد الحجر الأسود إلى موضعه، واستولى اليهود الآن على الأقصى لكن المسلمين يصلون، والله الذى جعل القدس مدينة وسكنا للأنبياء لن يديمها أبداً سكنا لقتلة الأنبياء.

ومن أخطر هذه الأسباب أيضاً تجاهل الطاقات والإمكانيات الهائلة لدى الأمة التى تملك أدمغة، ابحثوا عنها فى بلاد الغرب وأسألوا عنها فى بلاد الغرب كيف برعت؟ يوم أن شعروا بأن نكبت الطاقـــات وتقتل المواهب، هربوا لكنها أدمغة رجالنا فى كل الميادين وفى كل المجالات، الأمة هى التى علمـــت الغرب يا إخوة.

اقرأوا التاريخ عند المنصفين حتى فى علمائهم يوم أن كانت فرنسا لا تعرف الضوء الكهربائى كانت الأندلس مضاءة بالكهرباءن أضيئت الأندلس بالكهرباء فى ظل الإسلام فى الوقت الى كانت فرنســـا

تعيش فى الظلام، والأمة تملك من الطاقات العلمية والمادية والعددية والعقلية والفكرية والاقتصادية والمناخية ما تستطيع به أن تسترد مكانتها وكرامتها لكنها الهزيمة النفسية كما أقول.

الأمة قد حباها الله بمناخ تغبط عليه، وقد حباها الله بموقع استراتيجي خطير وقد رزقها الله عز وجل بالبترول الذى لو استعملته مرة ثانية لغيرت الدفة وقلبت الموازين بالكلية كما استخدم فى إطار محدود فى حرب العاشر من رمضان فغير الدفة وقلب الموازين إن كانت الأمة الآن لا تقدر على إعلان الحرب أو على إعلان الجهاد، فإنها تملك من الخيارات الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية ما تستطيع به ان تسترد مكانتها وكرامتها فى عالم لا يحترم الان إلا الأقوياء كما قال الإرهابى مناحم بيجن: إننا نحارب إذا نحن موجودون.

الأمة ليست فقيرة بل إن أموال الأمة الآن تحرك الشرق والغرب، وقفت على رقم الفائدة البنكية لأموال المسلمين فى بنوك الغرب، والله ما استطعت أن أقرأ الرقم، والله ما استطعت أن أقرأ رقم الفائدة فضلا عن رؤوس الأموال، فالأمة تمتلك من الطاقات الكثير لكن بكل أسف الأمة تتجاهل هذه الطاقات والقدرات الهائلة الجبارة وهذا من أخطر أسباب الله وأنا أدين لربى جل وعلا: أن الأمة ما ذلت إلا يوم أن تركت العقيدة والجهاد قال كما فى مسند احمد بسند صحيح من حديث أبى عمر: "غذا تبايعتهم بالعينة، ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد فى سبيل الله سلط الله عليكم ذلالا يترعة عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم"([١٠])

هذه أخطر الأسباب الداخلية للهزيمة النفسية وقد تعمدت أن أبدأ بها لأننا فى الغالب نعلق هزيمتنا عسكريا واقتصادية وسياسياً وثقافياً وفكريا ونفسيا على أعدائنا وقد حذر الله من مثل هذا المسلك الخطير فقد قال جل وعلا: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (١٦٥) سورة آل عمران

أما الأسباب الخارجية فتتمثل يا إخوة فى المبالغة فى التضخيم والتهويل من شأن قوة الأعداء تسمعوا إرجافا خطيراً يقول لك دا عندهم صاروخ لو وضعت قطعة فضية على يدك الصاروخ قادر أن يأتى ليصيب القطعة المعدنية فى كفك دون أن يصيب كفك بأذى أنظر إلى الإرجاف، ظن بعض المسلمين الآن أن أعداءنا يتحكمون فى الكون كله، وردد كثير منهم كلمات خطيرة تحمل هذا المعنى وقد شاء الله جل وعلا أن نرى بأعيننا كيف وضع الفيتناميون أنف أمريكا فى التراب وكيف وضع الأفغانيون أنف الدب الروسى الغبى الوقح فى التراب يوم أن صدقوا مع الله، وشاء الله أن نرى بأعيننا كيف مرغ الشيشانيون مرة أخرى أنف الدب الروسى الغبى فى التراب، فلقد كان الروس يعلنون أن جولتهم فى الشيشان ما هى إلا نزهة حربية انظر إلى حجم الخسائر التى تكبدهم الجيش الروسى فى الشيشان بعد أفغانستان، وانظر إلى التآمر العالمى على المسلمين فى البوسنة ما هى نتيجته، وشاء الله جل وعلا أن نرى فى أيامنا هذه كيف يفر الجندى اليهودى المدجج بالسلاح، بل بأحدث السلاح

أمام شاب فلسطيني مسلم يبذل نفسه لدين الله جل وعلان ولتسقط عندنا هذه الأسطورة التي أصابتنا بالإرجاف وملأت قلوبنا بالخوف والرعب، وشاء الله أن نرى سقوطاً مزريا مـــدوبا لمـــا يســـمونه بالديمقراطية المزعومة فى أمريكا فى المهزلة الانتخابية الأخيرة التي لازالت حلقاتها مستمرة ، وأنا المـــح وراءها شيئاً آخر ولا تؤاخذونى إن قلت: بأننى أرى فى هذه

الحبكة، وفى هذه التمثيلية التي ستطول بعض الشئ حتى وإن كرر الإعلام ما كـــرر أى أن فى هـــذه الحبكة الإعلامية الانتخابية صرفا لأنظار وكالات الأنباء العالمية عن واقع فلسطين سقطت أســـطورة الديمقراطية الأمريكية.

ومنهم الآن من بدأ يرسم الكاريكاتير ليتندر وليهزأ وليسخر، فأنت ترى تمثال الحريـــة فى إحـــدى الصور قد تناثر تناجه هنا وهنالك وسقطت منه الشعلة وهو يحاول أن يأتى بها أو يلاحقها ولكنـــه لا يستطيع فلماذا التضخيم والتهويل والمبالغة فى الوقت الذى نقلل فيه من شأننا؟

إنه الإرجاف إرجاف أصاب الأمة الهزيمة، إرجاف قتل الأمل فى كثير من القلوب يجب علينـــا أيهـــا الأخيار الكرام أن ننتبه إليه والسؤال الآن فما الحل؟

وهذا هو عنصرنا الثالث من عناصر المحاضرة والحل فى نقاط محددة حتى لا ينسى أخ أو أخت الخطوة الأولى على طريق الحل وعلى طريق الخروج من هذه الهزيمة النفسية المدمرة.

الخطوة الأولى: العودة الصادقة الجادة إلى العقيدة الصحيحة بشمولها وكمالها العودة الصادقة الجـــادة إلى العقيدة الصحيحة بشمولها وكمالها فأنا أتذكر لما ظهرت الطائرات لأول مرة وقالوا بأن بريطانيـــا وكانت الدولة العظمى تملك الآن طائرات فقال رجل من آبائنا الأفاضل فى منطقة القصـــيم تلـــك المنطقة التي أحبها من كل قلبى، أسأل الله أن يجعل بلاد المسلمين أمنا وأمانا سخاء رخاء وسائر بـــلاد المسلمين إنه عل كل شئ قدير قيل لهذا الوالد الفاضل الشيخ الكبير الربانى قالوا: الآن فيه طـــائرات قال: شو يا خويا الطائرات ، لا تعرف شيئاً عن الطائرات ولو حدثتك عن الطائرة قبل أن تراها مـــا عرفت عنها شيئاً ما تصورناها فقال : ما هى الطائرات فأراد أخ أن يبسط له المسألة فقال: شئ يطير فى السماء يترل ناراً فيحرق البيوت ويهدم البيوت ويقتل الأشخاص قال: فى السماء، قال له: نعـــم : قال هذا الرجل المبارك: (طيب يا خويا الطيارات ذى فى السماء هى فوق ربنا اللى أعلى منها هـــى أعلى ولا ربنا أعلى قالوا: لأ الله أعلى قال: خلاص) انظروا إلى الفطرة قد يظن بعض العلمانيين الآن حينما يسمع مثل هذا إننا دراويش، لأنهم لا يحسبون أبدا ولا يضعون ضمن خطة خمسية أو سنوية لا يضعون ضمن خطة خمسية أو سنوية لا يضعون ضمن خطة واحدة أبدا قدرة وعظمة رب البرية: { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} (٣١) سورة المدثر. رأيتم الفيضانات التي كادت ان تفصل بريطانيا عن العالم كله فى الأيام الماضية ورأيتم الحرائق التي كادت أن تدمر الأخضر واليابس فى أمريكـــا ورأيـــتم كيف دمر زالزل مدينة المكسيك أو سان فرانسيسكو { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } لكننا لا نثق

فى الله ولا تصدق فى التوكل على الله يردد أحدنا بلسانة: توكلنا على الله بل ستعجب إذا سمعت هذه الكلمة ممن خرج ليسرق خرج فى الصباح ليسرق ثم يقول: توكلنا على الله، يارب ارزقنا برزء العيال) طبعا هذا فعل.

والرزء هو المصيبة، لكن الرزق يختلف، فنحن لم نصدق فى التوكل على الله جلا وعلا، فالعودة الصادقة إلى العقيدة- أدين لربى بأن الخطوة الأولى على الطريق- هى العودة إلى العقيدة هى العودة إلى العقيدة بمفهومها الشامل بمفهومها المتكامل لا أريد أيضا أن تقول بأن العودة إلى العقيدة هى العودة إلى شرك القبور فحسب أو هى العودة إلى الحاكمية فحسب، أو هى العودة إلى عقيدة الولاء والبراء فحسب، بل هى العودة إلى كل هذا وإلى أكثر من هذا العودة إلى العقيدة بشمولها وكمالها.

ثانياً: الاعتزاز بهذا الدين، ارفع رأسك أيها الموحد، سبحان الله أيها العملاق قم ودثر العالم كله بعز واستعلاء، دثره ببردتك ذات العبق المحمدى الطاهر قم وضم العالم كله إلى صدرك وأسمعه خفقات قلبك الذى وحد الله جل وعلا، لم الهزيمة لم الخوف، لم الاستحياء؟ اعتز بدينك فأنت تدين بدين الحق الذى من أجله خلق الله السماوات والأرض، ومن أجله خلق الله لجنة والنار ، ومن أجله أنزل الله كل الكتب ومن أجله أرسل الله كل الرسل، ومن أجله خلق الله الجنة وخلق النار فريق فى الجنة وفريق فى السعير من أجل دينك أنت أيها الموحد. إن الدين عند الله الإسلام كيف لا تعتز بهذا الدين، كيف لا نرفع رؤوسنا لتعانق رؤوسنا كواكب الجوزاء أو إن شئت فقل: إن صدقنا لتتزل كواكب الجوزاء لتتوج رؤوسنا إن وحدنا ربنا جل وعلا لماذا لا نعتز بهذا الدين؟

أين نحن الآن من الصحابة الذين افتخروا واعتزوا بدينهم؟ هذا ربعى بن عامر- والله ذكرنى الله به الآن- هذا ربعى بن عامر رضوان الله عليه الذى يدخل على قائد الجيوش الكسروية رستم قال كسرى حينما هزمت جيوش كسرى أمام جيوش المسلمين: والله لأرمين المسلمين بقائدى الذى ادخرته ليوم الكريهة وولى كسرى رستم قيادة الجيوش الكسروية الجرارة وهزم رستم، فطلب رستم من قائد الجيوش سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن يرسل إليه رسلا ليسمعوا منهم وليسمعوهم، فأرسل سعد ربعى بن عامر وذهب ربعى يركب جواده وعليه ثيابه المتواضعة، ولا أريد أن أقف مع الجزئيات فأرادوا أن يمنعوه فقال لهم: بعزة واستعلاء المؤمنين : {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (١٣٩) سورة آل عمران . فشتان شتان بين استعلاء المؤمنين وتكبر المتكبرين- فقال لهم ربعى: أنا لم آتكم وإنما جئتكم فإن تركتمونى وإلا سأرجع . قال لهم رستم: ائذنوا له- إرهاب- فدخل ربعى فقال له رستم: من أنتم وما الذى جاءبكم - انظر إلى ربعى الذى فهم الغاية وعرف الهدف- قال ربعى: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

فمن حال بيننا وبين دعوة الناس لدين الله قاتلناه حتى نفضى إلى موعود الله.

قال رستم: وما موعود الله: قال ربعى: الجنة لمن مات منا والنصر لمن بقى من إخواننا.
قال رستم: لقد سمعت قولك فهل لكم أن تؤخرونا لننظر فى أمرنا؟! ولتنظروا فى أمركم قال ربعى: ما سن لنا رسول الله أن نؤجل الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ليال فانظر فى أمرك وأمرهم واختر لنفسك واحدة من ثلاث قال رستم: ما هى؟ الإسلام نقبله ونرجع عنك قال رستم: والثانية؟ قال: الجزية- التى تدفعها الأمة الآن كاملة غير منقوصة- قال: الجزية وإن احتجت إلينا نصرناك. وما الثالثة؟ قال ربعى : القتال. لن نبدأك بالقتال فيما بيننا وبين اليوم الثالث إلا أن بدأتنا أنت فقال رستم: أسيدهم أنت؟ هل أنت القائد؟ قال: لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد يسعى بذمتهم أدناهم على أعلاهم.
إنها العزة بالإسلام، اللهم ارزقنا العزة بك وبدينك فاعتز بهذا الدين لا تضع رأسك أبدا، لأنك موحد لرب العالمين فافخر بإسلامك واعتز بدينك وأظهر هويتك.
ثالثاً: الخطوة الثالثة على طريق الخروج من هذه الهزيمة النفسية بل على طريق النصر نبذ الفرقة وتوحيد الصف:
لقد تحولت الأمة إلى غثاء من النفايات البشرية تعيش على ضفاف مجرى الحياة الإنسانية كدول أو كدويلات متناثرة متصارعة متحاربة تفصل بينها حدود جغرافية مصطنعة وترفرف على سمائها رايات القومية والوطنية، وتحكم الأمة قوانين الغرب العلمانية إلا من رحم رب البرية فتشتت الشمل وتشرذمت، والله جل وعلا يقول: { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ } فالفشل قرين التنازع { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } (٤٦) سورة الأنفال .
ولكن أرجو أن يحفظ أحبابنا وإخواننا منى ذلك إن كنت الآن أدعو إلى وحدة الصف، فإنى لا أريدها وحدة تجمع شتاتاً متناقضا ناشزا على غير حق وسنة وهدى، وإنما أريدها وحدة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله فإن وحدة على غير القرآن والسنة تشتت ولا تجمع وتفرق ولا تضم وتجرح ولا تضمد، وهذا هو الواقع لابد من أن تتحد الصفوف على كلمة التوحيد فكلمة التوحيد هى التى ستوحد الكلمة.
رابعاً: العودة الصادقة إلى أخلاق هذا الدين:
إنما الأمم الأخلاق ما بقيت وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
سامحونى إن قلت يحسن الكثير منا الكلام الآن لكن أين العمل؟ إننا نرى فجوة رهيبة بين القول والعمل فى الأمة وأنا أقول لإخواناً فى أمريكا أو فى أوربا حينما أسافر إليهم أقول: إن اخطر عقبة فى طريق انتشار الإسلام فى الشرق والغرب هى كثير من المسلمين ممن انحرفوا خلقيا عن منهج رب العالمين فالكافر ينظر إلى المسلم فيراه يزنى ويشرب الخمر ويتعامل بالربا ويتأخر فى عمله ولا يصدق فى مواعيده ولا يتقى الله فى عهوده، بالله عليك هل هذا المسلم يمثل رسولا لدينه يمثل داعية لإسلامة،

لا والله بل إنه يشكل حجر عثرة فى طريق الإسلام، ولذلك أقول: أن أعظم خدمة تقـدمها اليـوم للإسلام هى أن تشهد له شهادة عملية على أرض الواقع بعد أن شهدنا له جميعا شهادة قولية بألسنتنا قال تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} (٢،٣) سورة الصف

خامسا: على طريق الحل والعودة إعداد المسلمين المتخصصين فى كل المجـالات العلميـة والماديـة والدعوية:

نريد المسلم الذى يفهم الإسلام بشمولة وكماله ثم ينطلق ليحول هذا الإسلام فى موقع عمله وموقـع إنتاجه إلى منهج الحياة، نحن لا نريد هذا الجمع المبارك أن يتحول إلى دعاة على المنابر لكن نريـد أن تتحول الأمة كلها إلى دعاة لدين الله جل وعلا، كل فى موقع إنتاجه وموطن عطائه حينمـا نفهـم الإسلام بشموله وكماله، وينطلق كل مسلم صادق ليحول هذا الإسلام فى موقعه أيا كان إلى واقـع عملى وإلى منهج الحياة.

وأخيراً النقطة الأخيرة على طريق الحل ايضاً والعودة هى الجهاد كما ذكرت ، لكن فلنبدأ بالجهاد فى ميدان النفس والهوى والشيطان، ثم بعد ذلك يأتى الجهاد الذى به عز الأمة الذى جعله النبى صلى الله عليه وسلم ذروة سنام الإسلام، فلابد أن نتربى على جهادنا لأنفسنا وأهوائنا وشهواتنا ونزواتنا، لابد من أن ينتصر كل مسلم على شيطانه وهواه، فإنك ترى الآن طحنا بين الإخوة من الصفوة، وتـرى كثيرا ممن ينسبون إلى العلم يتطاول أحدهم على العلماء الأخيار الأطهار فكيف لا ينتصر أحدنا على نفسه فى هذا الميدان ثم يزعم أنه قادر على أن يجاهد فى سبيل الله؟!.

أنا أسأل وسامحونى فى هذا السؤال من منا يدعو الله عز وجل فى كل صلاة لإخواننا الفلسطنيين؟ والله وأنا إن شاء الله لا أحنث لو صدقنا الله فى الجواب على هذا السؤال لرأينا أن نسبة قليلة جداً فى الأمة هى التى تتضرع إلى الله فى كل صلاة بصدق لينصر الله لإخواننا فى فلسطين أو فى أى مكان، وأنـا أسأل بعد هذا وأقول: بخلت بالدعاء فهل تجود بالأموال فالأمر يحتاج إلى صدق.

وأخيرا لا تيأسوا:

فالصبح من رحم الظلماء مسراه

بعد هذا الطرح أقول:

لأن عرف التاريخ أوسا وخزرجا فلله أوس قادمون وخزرج

وإن كنوز الغيب تخفي طلائعا حرة رغم المكائد تخرج

أيها الأحبة إن الذى وعد بنصرة دينه هو الله الحى الذى لا يموت: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِـؤُوا نُـورَ اللَّـهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (٨ ، ٩) سورة الصف وقال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَـا

الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (١٧١ ، ١٧٣) سورة الصافات . قال تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } (١١٠) سورة يوسف وقال كما فى صحيح مسلم من حديث ثوبان:" إن الله تعالى زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها". ([١١])

وفى الحديث الذى رواه أحمد وغيره بسند حسن من حديث حذيفة بن اليمان أنه قال: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها". وها نحن نعيش هذه المرحلة قال بعدها :" ثم تكون خلافة على منهاج النبوة"([١٢]) .. وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة:" لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم"([١٣]) .. لن يقول: يا

عربى يا وطنى يا قومى." يا مسلم يا بعد الله ورائى يهودى تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود".

وفى رواية البزار بسند رجاله ثقات قال الهيثمى فى مجمع الزوائد: ورجالها رجال الصحيح ومن أهل العلم من باب الأمانة العلمية من ضعف سند هذه الرواية أن النبى صلى الله عليه وسلم حدد موقع المعركة فقال :" أنتم – يقصد المسلمين– أنتم شرقى الأردن وهم غربيه". ولم تكن هنالك ويوم قال المصطفى صلى الله عليه وسلم دولة تعرف بدولة الأردن ولكنها النبوة : {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} (٥) سورة النجم ثم يأتى الواقع فى البشريات ليؤكد أيضاً أن الجولة المقبلة بإذن الله تعالى

لدين محمد .

لقد قرأت بنفسى وثيقة التنصير الكنسى التى تتكون من مائة وخمس صفحات وتعد عبر كوادر متخصصة فى الفاتيكان وتوقع بتوقيع جون بول الثانى وفى خلاصتها ينادى باب الفاتيكان ويقول: ايها المبشرون.. يقصد المنصرين .. أيها المبشرون هيا تحركوا وبسرعة، لماذا؟ يقول: لوقت الزحف الإسلامى الهائل فى أنحاء أوروبا. الإسلام الذى يتحرك بجهود فردية متواضعة لكن الله يباركها، لأن الإسلام دين الفطرة.. حضرت

مؤتمرا فى أمريكا فى أكبر صالة مغطاة فى العالم (الماتسن سكوير جاردن) وكان

هذا المؤتمر لغير المسلمين وحضره أكثر من ثلاثين ألف رجل وامرأة يريدون أن يتعرفوا على الإسلام دفع أحدهم خمسة وعشرين دولاراً للتذكرة لمجرد أنه يريد أن يتعرف

على الإسلام.

انتشرت المراكز الإسلامية والمدارس الإسلامية والمساجد فى أمريكا بصورة ملفتة لجميع الأنظـــار فى السنوات القليلة الماضية.. وقف رئيس أمريكا ليهنئ المسلمين بعيدهم وبرمضان فى العام الماضـــى وفى هذا العام، وأنا أعلم أنه لا ينبغى أن اقول هذا لاسيما وأنا أتحدث عن الهزيمة النفسية لكننى أقرر واقعاً أنا لا أقول ذلك على سبيل الشرف ، وإنى أقرر ذلك على سبيل تقرير الواقع...

(١) رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٦٢٣).

(٢) رواه الترمذى فى التفسير (٣٠٥٧) وقال: حديث حسن صـــحيح ، وأحمـــد (٢/١) وســـنده صحيح.

(١) رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٦١).

(٢) رواه مسلم فى الإيمان (٥٠ /٨٠).

(٣) رواه مسلم فى الإيمان (٤٩).

(١) رواه البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠) ومسلم فى العلم (٢٦٦٩).

(١) رواه الحاكم (٤/١) وصححه، وقال الذهبى: رجاله ثقات، وقال الهيثمى فى المجمـــع (٥٢/١): رواه الطبرانى فى الكبير وغسناده حسن.

(١) رواه مسلم فى الإمارة (١٠٢٧ / ١٧٤).

(٢) رواه مسلم فى الإمارة (١٩٢٠ / ١٧٠ ، ١٩٢٤ / ١٧٦).

(١) رواه أحمد (٨٤/٢) وأبو داود فى البيوع (٣٤٦٢) وسنده صحيح.

(١) رواه مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩ / ١٩).

(٢) رواه أحمد (٢٧٣/٤) وسنده حسن.

(٣) رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٩٢٦)، ومسلم فى الفتن واشراط الساعة (٨٢/٢٩٢٢).

الرد على حكماء الهزيمة

منير شفيق

أصبح من الجلي الآن أن الشروط التي حملتها إدارة بوش للدول العربية بعد العدوان علـــى العـــراق واحتلاله (سبق وبُلّغت قبل ذلك) قد سقطت في الفلوجة والنجف وكربلاء، بل إن أهداف الحـــرب على العراق واحتلاله فشلت.

وذهبت كل توقعات الإدارة الأمريكية لعراق ما بعد الاحتلال بدداً، و لم يبقَ منها غير اليسير الـــذي يراد أن يكبر من خلال وسائل أخرى غير الحرب والإملاء.

ينطبق هذا على الشروط الأمريكية (قائمة الإملاءات) التي قدّمت للدول العربية، كما ينطبق على الموضوع الفلسطيني أكثر حيث بات من الواضح أن كل ما يحدث في القطاع منذ ثلاثة أشهر – في الأقل – قد فقد هدفه السياسي الأساسي، وأصبح محكوماً بروح الانتقام والتدمير والغيظ، مما سيفاقم أزمة شارون والاحتلال (الجيش الإسرائيلي) ولا يحلّها.

صحيح أن الثمن الذي سيُدفع عالٍ جداً سواء كان بفقدان الشهداء القادة الشيخ أحمد ياسين ود. عبد العزيز الرنتيسي وإسماعيل أبو شنب والكوادر، أم بمئات الشهداء والجرحى من الناس العاديين، أم بالدمار الهائل الذي تعرضت له رفح وبخاصة حيّ تل السلطان وحيّ البرازيل، وصحيح أن الجرح في قلوب الفلسطينيين والعرب والمسلمين صار أعمق، والغضب أشدّ اشتعالاً، إلا أن ما يجري لا مفرّ منه ما دام العدو هو المشروع الصهيوني، وما دام مناصروه من الدول الكبرى لا يستطيعون أن يردّوه مهزوماً أمام المقاومة والانتفاضة والشعب الفلسطيني، وهو ما أعطاه إجازة ليرتكب كل ما عرفته رفح، وقبلها غزة؛ من جرائم حرب وسفك دماء ودمار، ومع ذلك فإن قرار الهزيمة اتخذ على شكل انسحاب من طرف واحد دون قيد أو شرط، كما أن قرار انسحاب القوات الأمريكية وضع على أجندة العراق، كما غدت قائمة الإملاءات الأمريكية على الدول العربية مطروحة على الطاولة، وكانت قبل بضعة أشهر غير قابلة للتفاوض (إما أخذها كلّها وإما فلا).

هنا يأتي دور (الحكماء) الذين ابتلعوا ألسنتهم قبل الوصول إلى تلك النتيجة تاركين المجال لبوش وشارون ليحققا أهداف هجمتهما، لكن عندما انكسرت الهجمة، وبدت في الأفق إشارات هزيمة في فلسطين والعراق جاء دور (الحكماء) الذين يريدون إنقاذ الوضع، وبالتحديد إنقاذ شارون وبوش تحت حجة الخوف من الفوضى ومن الإرهاب في حالة انسحاب القوات الأمريكية من العراق، أو تنفيذ شارون لخطة الانسحاب من قطاع غزة بلا قيد أو شرط.

وبكلمة أخرى حرمان الشعبين الفلسطيني والعراقي من الانتصار عبر مساومة تتنازل فيها أمريكا عن (العُشر) وتستبقي التسعة أعشار، علماً أنها كانت خاسرة تماماً، فيا للحكمة، ويا لإنقاذ الوضع.

ومن هنا فإن من يتابع التعليقات والتصريحات التي عجّت بها أجهزة الإعلام يجد أن صوت أولئك (الحكماء) أخذ يعلو كأنهم هم الذين قاتلوا في الفلوجة والنجف وكربلاء، أو هم الذين كانوا في قلب الانتفاضة والمقاومة والصمود في فلسطين، أو هم الذين كانوا يضغطون ضدّ تلبية الدول العربية لقائمة الشروط الأمريكية، ولهذا توجّب الرد عليهم، وضرورة التعبئة في هذه المرحلة ضد الاستجابة لهذه (الحكمة) التي يمكنها أن ترمي طوق نجاة مؤقت لأمريكا، لكنها ستزيد من أزمة الوضع، وترفع من وتيرة الشهداء والدمار، لأن من غير المعقول كما من غير الممكن أن يحقق بوش وشارون من خلال (حكمتهم) ما لم يحققاه من خلال الصاروخ والدبابة، وليعودا سيرتهما الأولى من جديد وفي أسرع الآجال، وهؤلاء الحكماء يستندون إلى ما يلي:

أولاً: أن نظرية وقوع العراق في الفوضى، وتحوّله إلى مسرح للإرهاب إذا انسحبت القوات الأمريكية ليست صحيحة، وإن بدت في الظاهر منطقية، فالفوضى خرجت بسبب وجود الاحتلال الأمريكي، وإذا صحّ أن القوى التي ارتكبت أعمالاً إجرامية إرهابية في العراق مثل: زرع القنابـــل، أو إطـــلاق قذائف على الحشود في عاشوراء، أو ارتكبت جرائم الاغتيالات، أو ضربت ضدّ مراكز الشرطة، أو هيئة الأمم أو السفارات؛ هي من التنظيمات المشار إليها بالإرهابية؛ فحتى هذه جـــاء بهـــا احـــتلال العراق، وسمح بها مناخ الإرهاب الذي مارسه الاحتلال و لم يزل، ابتداء بالقتل والاعتداءات، والنهب وتدمير الدولة، ومروراً بالقصف العشوائي والقنص كما حدث في الفلوجة والنجف وكربلاء وبغداد والأنبار، وانتهاء (ليس بمعنى النهاية) بالجريمة المروعة التي ارتكبت بحق عرس في قرية القائم.

هذا ناهيك عن الفضائح الأمريكية في سجون ومراكز الاعتقال ومثالها سجن أبو غريـــب، وهـــذه بالصورة والصوت.

علماً أن تضخيم دور تلك القوى إن وُجدت حقيقة (لأن الأعمال المشار إليهـــا تـــدخل في دائـــرة الشبهات التي تصل إلى الموساد) يكذبه ما تكشفت عنه معارك الفلوجة والنجف وكربلاء، مما يؤكد أن القوى التي وراء المقاومة الحقيقية ضد الاحتلال الأمريكي على اختلاف توجهاتها نابعة من الشعب العراقي، وملتزمة بخط سياسي لا علاقة له من قريب أو بعيد بما تعبّر عنه البيانات الصادرة عن تنظيم (القاعدة)، أو عن الزرقاوي، أو أسماء أخرى مشابهة، كما أن الإشارة إلى المتطوعين العرب وأعدادهم أبطلت صدقيتها الفلوجة ناهيك عن الأنبار والموصل والنجف وكربلاء والناصرية والبصرة وبغـــداد، فالشعب وممثلوه وأبناؤه كانوا المقاومة (بكل أشكالها التي يجيزها الشرع).

وباختصار نحن أمام فزاعة كاذبة، وتقدير موقف وهمي، هذا إذا أحسنّا الظن، علماً أن ثمة خشية من أن يكون الدافع وراء التخويف من انسحاب قوات الاحتلال من العراق هو الخوف مـــن الشـــعب العراقي، ومن تمكّنه من بناء عراق بعيد عن الهيمنة الأمريكية، وبقيادة قوى ممثلة حقاً لغالبية الشعب، وهذه هي الضمانة الفعلية لحماية العراق من أن يصبح مرتعاً للإرهاب والفوضى، وهذان (الإرهـــاب والفوضى) لا يترعرعان إلا في المياه العكرة التي نموذجها كل حـــوض تحركـــه العصـــا الأمريكيـــة والصهيونية.

أما حجة الفوضى والإرهاب فكيف يمكن أن تطبق على قطاع غزة في حالـــة انســـحاب القـــوات الإسرائيلية مهزومة منه وبلا قيد أو شرط، فمن جهة لم تعرف تجربة انتفاضة الأقصـــى والمقاومـــة في فلسطين ذلك النمط من التنظيمات التي تتبنّى عمليات من طراز ١١ أيلـــول / ســـبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا، أو ١١ آذار/مارس في إسبانيا، أو تفجيرات عاشوراء في العـــراق، أو الاغتيـــالات بســـبب المواقف السياسية أو الانتقام (أو لأي سبب كان)، فالقوى التي سترث الاحتلال في فلسطين معروفة، ولا يستطيع أحد أن يتهمها بأنها ستجعل من الأراضي التي ينسحب منها الاحتلال مرتعاً للإرهاب أو

الفوضى.ومن ثم فإن الذين يريدون أن يدعموا (حكمتهم) بفزاعة الإرهاب والفوضى في حالة نــزول هزيمة بقوات الاحتلالين في العراق وفلسطين إنما يقيمونها على أرجل خشبية لا تقوى على الصـــمود حين يُردّ عليها بقراءة الواقع كما هو.

ثانياً: الحجة الأخرى تنطلق من أن الإدارة الأمريكية في مأزق، وهي مستعدة للتراجع جزئياً (وهـــذا عظيم جداً وفرصة!)، وقد حوّلت ملف العراق وفلسطين والشرق الأوسط الكبير (ملــف الــدول العربية) من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد إلى وزير الخارجية كولن باول (وهذه فرصة!)، ولهذا فــإن الحكمة تقضي بضرورة اغتنام هذا التحول (الهام) الذي كشف عنه عدم استخدام الفيتو الأمريكـــي ضد قرار مجلس الأمن الذي طالب الدولة العبرية باحترام التزاماتها الدولية في رفح، أو كما تكشــف قبولها بوساطة الأخضر الإبراهيمي في العراق.

حسناً: ما المطلوب؟ (الحكمة) تقتضي وقف المقاومة والانتفاضة والتسليم بتهدئة كل شيء على ضوء خطة شارون في فلسطين، والسير وفقاً لاقتراحات الإبراهيمي في العراق، أما على مســتوى لبنــان وسوريا فمن الممكن التقدّم بتنازلات لا تجعل الأمريكيين يتمسكون بكل شروطهم، فيكفي في كــل الحالات أن يتمسكوا بتسعة أعشارها ويتنازلوا عن العشر للإبراهيمي ولمجلس الأمن وللدول العربيــة المعنية حتى تتحقق الصفقة الرابحة، وتلكم الحكمة في هذه المرحلة التي تواجه فيها إدارة بوش المــأزق الخانق. وإذا كان هناك من سيقول إن بوش سيعود سيرته الأولى بمجرد خروجه من المأزق وإعــادة انتخابه، فإن الحكمة تقتضي أن نكسب هذه اللحظة الآن ويبنى عليها بعد ذلك، وبهذا يكون منطــق أولئك (الحكماء) هبط بهم إلى الدرك الأسفل عندما يلخصون (الحكمة) السياســية بإنجــاز وهمــي وخاسر ومؤقت، خوفاً من النتائج غير المحسوبة لهزيمة الاحتلالين، أو لفشل سياسات بوش (الشــرق أوسطية).

من هنا فإن التقدير الصحيح للموقف والذي يقول إن الظرف الراهن فلســطينياً وعراقيــاً وعربيــاً وإقليمياً، ورأياً عاماً عالمياً، وفي مقابله الظرف الخانق الذي يواجهه بوش، فشل عسكري وسياسي في العراق وفلسطين، وفضائح يندى لها الجبين، وعدم قدرة على تفاهم حقيقي مع حلفاء يريدون إنقاذه من نفسه، ويخافون عليه من هزيمته، إلى جانب أزمة داخلية حيث اهتزت شعبيته، وارتفعت أســهم منافسه، ثم مأزق حليفه شارون الذي إذا واصل ارتكاب جرائم الحرب عمّق مأزقه، وخرّب علــى بوش أكثر، وإذا تراجع كانت هزيمة مجلجلة، ولهذا فإن الحكمة الحقيقية تقتضي عكس تلك (الحكمة) المزيّفة ألا ينقذ بوش وشارون من الهزيمة، وعدم الخوف من النتائج من خلال التهويل بفزاعة الفوضى والإرهاب.

المصدر : http://www.fm-m.com/٢٠٠٤jun/٢٠٠٤sto r y/١٦htm.

بشائر الهزيمة الأمريكية وتحديات ما بعد أمريكا

د.عبدالعزيز بن مصطفى كامل

في الحياة من حولنا، وفي المستجدات التي تمور بها الدنيا أمامنا، نرى آيات وآيات، تكون قبل وقوعها شبيهة بالمستحيلات، وتبدو بعد حدوثها قريبة من وقوع المعجزات، ولكن إلفَ الإنسان للشيء الباهر بعد وقوعه يقلل من الانبهار به، ويحدُّ من وقع الشعور بأن المعجزة معجزة والآية آية، حتى تبدو الأمور التي كانت بالأمس أشبه بالخوارق، أموراً عادية، بل ربما تجد من يجادل في عظمتها وفي جليل دلالتها.

خذ مثلاً أصناف وأشكال المخترعات التي تموج بها الحياة في عصرنا.. إنها كانت قبل قرن واحد، أو عدة عقود، من الأحلام والأوهام التي ربما رُمي من زعم قدرة البشر على صنعها بالخرافة والدّجل، فلما وُجدت ورآها الناس وعايشوها خرجت عن وصف الإعجاز الخيالي إلى الإنجاز الاعتيادي، فالإنسان المعاصر صار يهيم في الهواء، ويطير على سطح الماء، ويتنقل صوته وصورته عبر الفضاء، وربما نسي هذا الإنسان أن يسبِّح اسم ربه الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، والذي علم الإنسان ما لم يعلم.

قسْ على ذلك المستجدات الحادثة على خريطة التاريخ المعاصر، وقارنْها بما كان عليه الحال، لا نقول قبل قرون، بل قبل عقود.. لا بل قبل سنين، ترَ عجباً!

* فمن كان يصدق أن تشهد السنون القلائل الماضية، عودة الاستعمار واستهداف العالم الإسلامي بغارات جديدة، تستهدف صراحةً أوطان المسلمين في عصر شعارات التعايش السلمي، والتفاهم الأممي والمنظمات الدولية المصنوعة من أجل (السلام العالمي)؟

* من كان يتخيل أن تبدأ الجولة الاستعمارية الجديدة من الشرق، باجتياح الروس لأفغانستان، ليتّحد العالم الإسلامي بعدها ــ بلا قيادة واحدة ــ ضد الاتحاد السوفييتي حتى تكون ثمرة هذا الاتحاد الإسلامي إسقاط الاتحاد الإلحادي، الذي يُعدّ الكيان الأكبر في التاريخ الذي قام على فكرة إنكار وجود إله للكون؟!

؟ ومن كان يظن أن تتزامن مع هذه الملحمة نهضة وصحوة إسلامية عالمية، ظلّت تتزايد وتتفاعل حتى أصبحت بالفعل تجديداً جديداً على رأس مئة عام، تصديقاً لخبر المعصوم ؟

* ومن كان يتصور أن دولة اليهود التي حازت ترسانات السلاح من كل نوع، تعجز عن قهر فتية فلسطين شبه العزّل، بعد أن هزم اليهود في حروب ثلاثة متوالية جيوش العرب مجتمعة؟

* ومن كان يخمِّن أن يبدأ مع ذلك مسلسل سقوط الأصنام القومية، والزعامات الثورية والدمى العلمانية، شرقية كانت أو غربية، لتسلِّم الأمة قيادها من جديد لقادة غير متوّجين من الإسلاميين، في

مجال الفكر والفقه، والنظر السياسي والتنظير الإستراتيجي والعسكري في كل ميادين المجابهة الكبيرة التي تولى العلمانيون عنها يوم الزحف؟

* ومن كان يحدث نفسه، أن يأتي الدور بهذه السرعة على القطب الثاني الذي أصبح قطباً وحيداً في قيادة العالم (أمريكا) لتدخل هي الأخرى في ركب الدول الاستعمارية بعدما ظن الناس أن عهود الاستعمار قد ولّت إلى غير رجعة، وليتحول (النظام الدولي الجديد) الذي دعا إليه بوش الأب، إلى استعمار عالمي جديد في عهد بوش الابن، ولتدخل الدنيا مع مجيئه بوتيرة متسارعة إلى مقدمات صراع الحضارات الذي يريدون له أن يفضي إلى نهاية التاريخ!

* إن في ذلك لآية:

أطلْتُ ـــ نوعاً ما ـــ فيما سبق ـــ في التعريج على الذكريات أو التذكيرات ؛ لأنبِّه إلى أننا نمرُّ بحدث جلل، وكائنة عظيمة، أخشى أن تذهب كثرة الإمساس فيها بالإحساس بها، والتهيؤ لتبعاتها، ألا وهي: الهزيمة الجسمية التي بدأت تلوح بوادرها في الأفق القريب لأعتى قوة في التاريخ، مدعومة بتحالف دولي، وتواطؤ عالمي، حيث تجيء مقدمات تلك الهزيمة ـــ ويا للعجب! ـــ على يد أناس لا يجمع بينهم ـــ بعد الإسلام ـــ إلا الحصار والإفقار والمطاردة والاستضعاف، في أرض طال أسرها في سجن البعث لتخرج منه إلى فضاء الفوضى بلا جيش ولا شرطة ولا سلطة.

كل الشواهد تدل على أن الولايات المتحدة مقبلة على الإدبار من العراق تجللها الفضيحة والعار، في هزيمة مركبة، وتحوُّلٍ حضاري عسكري، من شأنه أن يغير مجرى تاريخ العالم.

لقد تحدث العالم كثيراً عن تورط الولايات المتحدة في حرب «فيتنام»، وكيف أن شعب ذلك البلد الصغير الفقير، استطاع أن يجبر ثاني قوة في العالم على الانسحاب تحت وقع ضرباته ولسعاته. وقد سجلت الشعوب بطولات هذا الشعب الثائر ـــ رغم وثنيته وشيوعيته ـــ لا لشيء، إلا لأنه لم يخنع ولم يخضع، بل هبَّ لردِّ العدوان وصد الغارة، وعُدّ هذا في وقته من الكفاح المشروع الذي تكتلت بسببه قوى عالمية وإقليمية للوقوف مع المعتدى عليه ضد المعتدين، فالفيتاميون ـــ بخلاف العراقيين ـــ كانت لهم حكومة معترف بها وثوار يدعمونها، ومعسكر شرقي كامل يقف خلفها يضم الاتحاد السوفييتي والصين والدول الشيوعية.

لكن انظر إلى العراق اليوم: ما هو ذلك المعسكر الدولي الذي يقف مع المقاومين فيه..؟! من هي تلك الكتلة الشرقية أو الغربية أو التحالف الذي يرمي بثقله معهم..؟! من هي تلك المنظمات الدولية التي تنصفهم أو العربية التي تنصرهم؟ وما حجم الهيئات أو التجمعات أو حتى الجماعات الإسلامية التي تقف معهم، ولا تقف ضدهم..؟!

إن المقاومين في العراق ـــ ومنذ بدأ العدوان ـــ بدؤوا وحدهم يقاتلون باسم الله من كفر بالله واعتدى على خلق الله، فلم يجدوا نصيراً أو معيناً سوى الله، ثم بعض الشرائح القليلة في الأمة، ومع

هذا.. نرى الأعداء المتجبرين يتورطون ثم يرتبكون ثم يتراجعون.. وها هم اليـوم يتنـادون بحتميـة الخروج، ويتقاذفون التهم في التسبب بتلك الورطة الكبرى!!

إن هذا ــ وأيم الله ــ آية من الآيات، تزيد أهل الإيمان إيماناً بموعود الله الذي قال: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٤٩]، نعم! إن الفئة القليلة التي لا يزيد عددها عن بضعة عشرات من الآلاف في مواجهة مئة وستين ألفاً من الأمريكيين مع من معهم من الحلفاء، ونحو مئـة ألف من العراقيين المنهزمين الذين يلتحقون بالجيش أو الشرطة التي ركبها ودرّبها وخطط لها المحتـل على عينه ولأجل مصلحته، كل هؤلاء في مواجهة نُزَّاع مفرقين، بلا صولة ولا دولـة، ولا كيـان سياسي ولا جيش عسكري ولا مصدر اقتصادي... والله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} [النحل: ١٣].

ونحن نقول: إذا قدَّر الله للكيان القاهر (أمريكا) أن يُقهَر على أيدي المستضـعفين مـن المـؤمنين، فستكون هذه هي المرة الثانية في أقل من عقد ونصف، التي يرى العالم فيها خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم رأي العين، بعد أن يكون الله ــ تعالى ــ قد جعل على أيديها إذلال أكـبر قـوتين في التاريخ المعاصر، وهما:

الاتحاد السوفييتي والاتحاد الأمريكي، دون أن يكون لأمتنا أي اتحاد، ليكون ذلك آيـة للمـؤمنين، وليكون تجديداً لعهد الفخار والاقتدار الذي أسقط فيه المسلمون الأوائل إمبراطوريتي الفرس والروم في أقل من خمسة وعشرين عاماً، ليصدق بهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : «مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرَى أوله خير أم آخره»(١).

ولكن دون ذلك وقبل اكتماله تضحيات وتحديات، فلم يكن انتصار المؤمنين يوماً بـلا مقابـل، ولم يكن اندحار الكافرين بلا ثمن باهظ من الدماء والأشلاء وجيش جرّار مـن الأسـرى والسـجناء والشهداء، ولكن مع الفارق العظيم بين من يضحون لأجل الله، ومـن يصـدون عـن سـبيل الله ويصبحون ويمسون في حرب مع الله ومع أولياء الله: {وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَـأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤].

وابتغاء القوم، وتتبع مكائدهم، والوقوف في وجه طوفانهم، لم يكن بالأمر السهل أو اليسير التكاليف، فلنكن على ذكر ــ حتى لا ننسى ــ كيف سار المجاهدون في مشوار (ابتغاء القوم) دون وهن، رغم الألم والتنكيل والتخذيل، حتى قام من وسط ركام الهزيمة أولئك القوم الذين يردون اليوم الهزيمة على من أراد أن يلحقها بعموم المسلمين.

* أمريكا: نصر رخيص... وهزيمة باهظة:

بات معلوماً للعالم أن إزاحة صدام حسين لم تكن سبباً وحيداً في فكرة غـزو العـراق، بـدليل أن الأمريكيين لم يصبهم ضرره قبل الحرب، ولم يؤرقهم خطره بعدها، وأصبح واضحاً أن أسلحة الدمار الشامل (المزعومة) التي فُرض لأجلها الحصار الشامل على العراق لأكثر من عقد كامل، لم تكن هـي

الأخرى سبباً حقيقياً لتلك الحرب، وظهر أيضاً أن أحداث سبتمبر، وما ادعي بعدها من تواطؤ صدام مع القاعدة، كان مجرد هراء، بدليل أن قرار الغزو قد اتخذ قبل تلك الأحداث كما قال ذلك «فويزلي كلارك» المرشح الديمقراطي السابق للرئاسة الأمريكية في كتاب (النصر في الحروب الحديثة)، وقد كان «كلارك» قائداً عاماً لقوات الحلف الأطلسي الذي تسيطر عليه أمريكا. ويدل أيضاً على أن قرار الغزو قد اتخذ قبل أحداث سبتمبر تصريحات وزير الخزانة الأمريكي الأسبق (بول أونيل) الذي قال في كتابه (ثمن الولاء): إن قرار الغزو اتخذته الإدارة الأمريكية قبل ضربات القاعدة، وهو ما يذكر أيضاً بالتقارير المتعددة التي أشارت إلى أن قرار ضرب أفغانستان قد اتخذ قبل هذه الضربات، بل حدث فعلياً أن استهدفت بصواريخ كروز في نهايات عهد «بيل كلينتون».

وقد تبين أن للغزو أهدافاً أخرى، لم تكن خافية على المراقبين والمهتمين، وعلى رأسها ضم النفط المخزون في العراق إلى جانب النفط في قزوين بالقرب من أفغانستان، إلى نفط الخليج، ريثما يتم بطريقة أو بأخرى الاستيلاء على مخزون نفط إيران، إضافة إلى هدف رئيس آخر وراء الغزو وهو تأمين مستقبل (إسرائيل) أو بالأحرى (نصف إسرائيل) من تهديدات على شاكلة توعدات صدام لها بالحرق عندما قال: «سأحرق نصف إسرائيل»! ومن تهديداته بتحرير القدس، عندما أعد لتحريرها كما أشيع جيشاً باسمها يبلغ قوامه نصف مليون متطوع!

أما الهدف الأبعد من وراء ذلك فهو ما تواتر عن عزم الإدارة الأمريكية الجديدة ذات القيادة المزدوجة من الإنجيليين النصارى والمحافظين اليهود الجدد، على البدء الفعلي في تنفيذ مشروع بوش الأب عن (إمبراطورية القرن الحادي والعشرين) الذي اختاروا الشرق الأوسط ليكون ساحة ابتدائية لتنفيذه، واختاروا العراق ليكون نقطة انطلاق للوصول إليه، فيصبح ذلك المشروع الإمبراطوري على هذا هو الهدف الرئيسي الجامع في داخله لكل الأهداف الفرعية والجزئية.

ومشروع بهذه الضخامة والجسامة، كان يستحق أن تحشد الولايات المتحدة لأجله الحشود، وترصد الميزانيات، وتستنفر الحلفاء، حتى تكشف أنها أنفقت للاستعداد للغزو قبل أن يبدأ أربعمائة وخمسين مليار دولار.

وكتم العالم أنفاسه بانتظار أن ينتحر مغول العصر على أبواب بغداد ــ كما توعد صدام ــ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وتسببت عمليات (الصدمة والترويع) التي بدأت بها الحرب في إصابة العالم الإسلامي كله ــ لا العراق فحسب ــ بالصدمة والترويع، وجعلت الأنظمة والحكومات ــ بل الشعوب ــ تتحسس الأرض من تحتها، وتتحسب للدور الآتي عليها، بعد أن أنجز الأمريكيون نصراً خاطفاً في حرب سريعة ضد ما كان يشكِّل أقوى قوة عربية في المنطقة، استطاعت أن تذل كبرياء زعماء الثورة «الإسلامية» الإيرانية التي كانت تستعد للوثوب على دول الجوار!

وانفتحت شهية الأمريكيين، وانطلقوا مسارعين إلى تأمين الفريسة وإعدادها كوجبة شهية تتبعها وجبات، وإنجازٍ سهلٍ يقود إلى إنجازات، وتتابعت الخطوات:

* فور احتلال بغداد أصدر الأمريكيون المحتلون قرارات بتفكيك كل أجهزة الدولة العراقية البعثية، من جيش وشرطة ووزارات واستخبارات.

* شرعوا في تكوين أجهزة بديلة عميلة عبر مراحل متعددة، كان أولها الإعلان عن إنشاء مجلس الحكم الانتقالي برئاسة اليهودي الأمريكي (جاي جارنر)، ثم خلفه الاستخباراتي العريق (بول بريمر) الذي عمل على اجتذاب كل العناصر المأجورة ليشكل بها وضعاً جديداً.

* أُعلن عن تشكيل مجلس للوزراء دون وزارات، بحيث يُختار الأشخاص أولاً، لينشئ كل وزير وزارته بالتعاون مع مستشار أمريكي، هو الوزير الحقيقي الذي يؤسس سياسات الاحتلال في «وزارة التحرير»!

* نظراً لأهمية تأمين هذا المشروع التآمري الوليد، كان لا بد من إنشاء جهاز شرطة عميل، يسهر على أمن الأمريكيين مضحياً بمستقبل العراق وأهله.

* تزامن مع ذلك سعي آخر لإنشاء جيش جديد، قوامه مئتا ألف جندي، لا لحماية الثغور والدفاع عن الحدود من الخارج؛ بل لتنفيذ العمليات المشتركة مع الأمريكيين ضد المقاومة في الداخل.

* ولإضفاء الشرعية على هذه التمثيلية، أعلن الاحتلال تشكيل لجنة «قانونية» لصياغة دستور عراقي جديد، وضع أسسه وفق التصور الأمريكي، اليهودي العراقي (نوح فيلدمان) ذو الجنسية الإسرائيلية الأمريكية المشتركة ليضمن هذا الدستور ألا يكون العراق إسلامياً.. لا ولا عربياً، بل عراق عراك طائفي، ونزاع مذهبي يضمن بقاء بنائه هشّاً ومفتقراً للاحتلال، ومهيّأ لأعاصير «الفوضى الخلاّقة» التي تريد أمريكا اللعب عليها.

* ثم عُين الرافضي العلماني الجاسوس، الجامع بين تلك الظلمات الثلاث «إياد علاوي»؛ ليكون أول رئيس لمجلس وزراء معيَّن من قِبَل الاحتلال، ثم عُين (غازي الياور)؛ ليكون أول رئيس للعراق «المستقل» في ظل الاحتلال!

* مع الوقت شرع الاحتلال في تجسيد التقسيم الطائفي، فأعلن عن تنظيم انتخابات على أسس طائفية، اضطر معها السُّنة أن يقاطعوا الانتخابات، لتكون النتيجة تشكيل وزارة جديدة، غالبيتها من الشيعة المشايعين للأمريكيين والرافضين لأي تعاون إلا معهم أو مع إيران.

وفي ظل هذه القفزات المتسارعة لتثبيت الاحتلال بدعوى الاستقلال، وجد العراقيون الشرفاء أن العدو ليس واحداً، بل هم مجموع من متحالف من الألداء، ومع أن مقاومة هذا الأخطبوط بدأت مبكرةً في أسرع إفاقة بعد أكبر مصيبة، إلا أن المجاهدين المقاومين بدت أمامهم تحديات وعقبات كان لا بد من مواجهتها جميعاً؛ لأن إهمال شيء منها سيعني إخفاق المشروع المقاوم برمّته.

لقد وجدوا أنفسهم أمام واجب مركَّب، يحوي داخله العديد من الواجبات التي لن ينتـدب أحـد لحلِّها، ما لم يقفوا هم بأنفسهم لأجلها، متوكلين محتسبين، فأمامهم قوى الاحتلال الذي قال قادتـه: إنهم جاؤوا ليبقوا، وضمن ذلك تحديات كبيرة:

منها: الإصرار على محاولات إضفاء الشرعية على هذا الاحتلال من خلال حكومات عميلة تـتكلم باسم العراقيين، وتتصرف لمصالح أجنبية أو شخصية أو طائفية.

ومنها: جهود إسباغ الشرعية عربياً وإسلامياً على حكومة الاحتلال عبر إقامة العلاقـات وإنشـاء السفارات.

ومنها: شبح التقسيم الذي وضعت بذوره في ثنايا الدستور الذي أصرت أمريكا وعملاؤهـا علـى تمريره.

ومنها: إشكالية التنسيق بين الخطط العسكرية والمشاريع السياسية، والتصدي لمحاولة الاحتلال وعزل كل منهما عن الآخر.

ومنها: إيجاد مواطئ أقدام ونقاط ارتكاز تنطلق منها المقاومة وتفيء إليها، مع ما يحتاجه ذلـك مـن جهود مطلوبة لإدارة هذه النقاط أو المناطق التي يمكن السيطرة عليها.

وقد جابهت المقاومة هذه التحديات بتحركات، تطورت عبر مراحل، سلمت كل منها إلى الأخرى، فبدأت بُعيد الغزو بمناوشة المحتلين؛ لتكوين الخبرات وتنشئة العناصر القادرة على المواجهة، ثم بـدأت بتنظيم هجومات تكتيكية ضمن حالة الدفع العام للصائل المعتدي، ورتبت بعدها للانتقال إلى خطـة الهجوم الإستراتيجي الذي يحوّل الخصم إلى موقع الدفاع، ثم جرى العمل وفق سياسة استتراف العدو وإفقاده القدرة على الدفاع، لينتقل المجاهدون بعد ذلك إلى تكثيف المطاردة والإنهاك؛ لحرمان المعتدي مستقبلاً من الظهور بمظهر المنتصر، أو حتى المنسحب انسحاباً آمناً، أما المتعاونون مع الأعداء فقـد اعتمد المجاهدون سياسة إفقادهم التوازن، ببثِّ الخوف في أوساط كل من يتعاون مع الأمـريكيين في الداخل، مع إرباك مخططات إسباغ الشرعية من الخارج، وفوق كل هذا نجح المجاهدون في نقل جـزء من المعركة إلى الداخل الأمريكي، عن طريق اتِّباع سياسة إعلامية تركز على إعادة تصدير إستراتيجية «الصدمة والترويع» ـــ التي عانى منها الشعب العراقي في أول الحرب ـــ إلى الشعب الأمريكي نفسه، وذلك بإصدار البيانات وبثّ الأفلام الحية عن العمليات الناجحة، وهو ما أوجد انقساماً في الـرأي العام الأمريكي تجاه جدوى الحرب، سرعان ما تحول إلى شقاق حـول مشـروعية تلـك الحـرب ومسوّغاتها.

ومع هذا النجاح في تشكيك الأمريكيين في قدراتهم وقوتهم، ظهرت أيضاً بوادر تفكيـك التحـالف الدولي المتعاون مع الأمريكيين، بإجبار العديد من الدول على سحب قواتها أو الشـروع في ذلـك، فحتى الآن؛ انسحبت أكثر من ١٥ دولة من التحالف، وأعلنت كلٌّ من إيطاليا وبولندا وهنـدوراس

وغيرها عن نيتها على الانسحاب، وهو ما تسبب في ردع دول أخرى كانت ترتب لإرسال قـوات مساعدة.

ليس معنى ما ذكرناه عن إنجازات المقاومة أن يُظن أن أهل السنة في العراق يملكون قدرات خارقة، أو إمكانات خرافية، بل على العكس، فسقوط النظام البعثي جعل الطائفة السنية في العراق هي الأكثـر تضرراً، بفعل الأحقاد الطائفية الرافضية من جهة، والعنصرية العلمانية الكردية من جهـة أخـرى، والاستغلال الأمريكي لهذين الطرفين الكارهين من جهة ثالثة، إضافة إلى أن حلّ مؤسسات الدولـة كان في غير مصلحة السنة الذين كانوا يمثلون ـــ كطائفة ـــ غالبية الحكومة العراقية، وهذه الأسباب مجتمعة دفعت المقاومة إلى العمل السري، فكان هذا عاملاً إضافياً في صعوبة مهمتهم، والمقصود هنـا أن هذه المقاومة عملت في ظروف استثنائية غير طبيعية، ومع هذا أحرزت ـــ بفضل الله ـــ نجاحات قياسية في حجمها وفي وقتها وفي أثرها القريب والبعيد، فحقاً إن في ذلك لآية.

* إن المقاومة ـــ مع هذا ـــ ليست كياناً واحداً، ولا حتى فصائل متحدة ذات سياسـات واحـدة واجتهادات واحدة في كل الأحوال، فهي وإن كان قوامها أهل الدين والالتزام من العراقيين الـذين أحيا الله فيهم روحاً جديدة بعد الغزو، إلا أن فيهم فئات من الجيش العراقي المنحل وكذا رجال مـن الاستخبارات السابقة وأبناء العشائر، وبعض الحزبيين البعثيين، مع بعض العناصر القوميـة والوطنيـة المستقلة، إضافة إلى شريحة ليست بالهينة من العرب القادمين من خارج العراق؛ فكيف تناسـق أداء هذا الفريق المتنوع ليوصل إلى هذه النتائج المبهرة في أقل من ثلاث سنوات، بل كيف انبعـث بعـد كابوس البعث عشرات الآلاف من الأحرار المجاهدين، بعد أن كنا لا نسمع خلال سني صدام عـن صوت معارض أو رمز مجاهد.

لقد تكاثَرَ الحديث في الآونة الأخيرة عن حتمية الانسحاب الأمريكي من العراق، وعنـدما يـذكر «الانسحاب» فلا بد أن يُعلم أن هذا هو مجرد تلطيف في العبارة لحقيقة الاعتراف بالهزيمة، سواء كان هذا الانسحاب آجلاً أو عاجلاً؛ لأن خطة الغزو أصلاً كانت موضوعة لبقاء دائم في العراق، وهو ما كشفت عنه صحيفة الجمهورية التركية في أوائل عام (٢٠٠٤م)، حيث ذكرت أن الولايات المتحدة بنت سبع قواعد عسكرية دائمة في العراق لوجود دائم.

* أبعاد الهزيمة: شواهد ومشاهد:

هناك عدد من الملامح المتفرقة، تصنع بمجموعها الصورة الكاملة لما وصل إليه الوضع في العراق، على المستوى القريب والمتوسط، ومن أبرزها:

* المستوى الذي وصل إليه حجم الخسائر البشرية الأمريكية في الحرب، وهو الأمر الـذي يجـيء في مقدمة الأسباب التي تذهب بصبر الأمريكيين [١] حكومة وشعباً على الاستمرار الطويـل في تلـك الحرب، فالإعلام الأمريكي ـــ رغم عدم دقّته وحياده في نقل الأنباء المتعلقة بالحرب في العـراق ـــ

يبث على الشعب الأمريكي كل يوم أنباء القتلى والجرحى والمخطوفين والمفقودين والهاربين وصرعى الأمراض البيئية والنفسية والعقلية على ساحة الصراع في العراق، وقد وصل حجم الخسائر البشـــرية المعلن عنها نحو (٢٥٠٠) من الجنود الأمريكيين، وأصيب نحو عشرة آلاف جندي، هذا مع تأكيـــد الملاحظة بأن الإعلام الرسمي الأمريكي لا يذكر من الضحايا إلا من يحملون الجنسية الأمريكية، دون ذكر الراغبين في الحصول عليها من المرتزقة والمتطوعين.

* الاقتصاد الأمريكي المنهك بعد أحداث سبتمبر، زادته حرب العراق إنهاكاً، بحيث لم يعـــد يحتمـــل إطالة أمد هذه الحرب، فالمقاومة كلّفت المحتل تكاليف باهظة بلغت حـــتى شـــهر ســـبتمبر ٢٠٠٥م (٧٠٠) مليار دولار في أقل من ثلاث سنوات فقط، في حين أن حرب فيتنام بكاملها التي اســـتمرت ١٨ سنة كلفت الاقتصاد الأمريكي (٦٠٠) مليار دولار، وهذه التكاليف أثّرت سلباً على انتعـــاش الاقتصاد الأمريكي الذي سيصبح العجز فيه مضاعفاً على امتداد السنوات العشر القادمـــة، بحســـب توقعات مكتب الميزانية في الكونجرس في أغسطس (٢٠٠٥م)، وقد بلغ عجز الميزانية (٤٤٢) مليـــار دولار، وهو مستوى قياسي ستضطر الحكومة معه إلى إلغاء الكثير مـــن بـــرامج التنميـــة المجتمعيـــة والاقتصادية والإسكان.

* أما الخسارة (الحضارية) فلا يمكن أن تُقدّر بثمن، حيث تستنفد أمريكا رصـــيدها مـــن شـــعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، كلما طارت الأنباء بفظائع الممارسات الأمريكية في احتلالهـــا العراق، فإضافة إلى ما سرّبته صحيفة «لانسيت الطبية» البريطانية منذ عدة شهور عن وصول عـــدد القتلى من المدنيين العراقيين أثناء الغزو إلى (١٢٠) ألف قتيل بخلاف العسكريين، وإضافة إلى ما سمعه العالم ورآه عن فظائع سجن «أبو غريب» والسجون العراقية التابعة للاحتلال، وكذلك مـــا ســـبق الاحتلال من موت ما لا يقل عن مليون و نصف من أطفال العراق بسبب الحصار الاقتصادي، فـــإن الفضائح لا تزال تتوالى عن «الانتصار» الأمريكي لحقوق الإنسان في العراق، حيث تواترت الأنبـــاء عن أن الولايات المتحدة استعملت بعد الغزو القنابل العنقوديـــة، والأســـلحة المـــزودة بـــاليورانيوم والفسفور الأبيض، والقنابل الثقيلة التي تُعدّ قنابل نووية صغيرة، والأسلحة الكيماوية، وهو ما يعـــني باختصار أن الولايات المتحدة استعملت في العراق (من أجل تحريره من صدام حسين) أسلحة الدمار الشامل، وهو أصبح يمثل كارثة على ذلك الشعب، بحيث أصبحت حالات الإصابة بالسرطان تتفشى بشكل مخيف، وصل إلى (٤٠) ألف حالة إصابة بسرطان الدم أو الجلد، وأكثرها بين الأطفال.

* وقد أوقعت هذه الفظائع الإعلام الأمريكي في ربكة، جعلته في حيرة بين الإصرار على ما اشـــتهر عنه من الشفافية والحيادية؛ لتأكيد قيم الحرية وحقوق الإنسان، وبين أن يكذب ويتحرى الكذب ــــ على مذهب رامسفيلد ــــ فتكون النتيجة هزيمة إعلامية أمريكيـــة تضـــاف إلى الهزيمـــة العســـكرية والاقتصادية والحضارية!

لكن المأزق يبدو أنه أصعب مما نتصور، إلى درجة أن جورج بوش فكَّر جدياً ــ كما كشف مؤخراً ــ في محاولة قصف مقرّ قناة الجزيرة في قطر، كعمل يائس مجنون، يحكي عمق الأزمة الإعلامية الأمريكية، وجاء لجوء وزارة الدفاع إلى إعادة تشغيل جهاز «التضليل الإعلامي» في البنتاجون بتكلفة (٣٠٠) مليون دولار، تأكيداً جديداً على أن الإعلام الأمريكي أصبح غير قادر على حجب الحقيقة التي تحكي أبعاد الهزيمة.

* مع اهتزاز الأوضاع بسبب الحرب في العراق، عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً؛ فقد كان لزاماً أن ينعكس ذلك على الداخل الأمريكي من الناحية الأمنية، فالإدارة الإمريكية التي استنفرت نحو مليون جندي أمريكي؛ لإدارة ما تسميه أمريكا «الحرب العالمية على الإرهاب» في العراق وأفغانستان والعديد من القواعد في بلدان العالم، أوجدت ضغطاً أمنياً يمكن أن يتحول إلى ضعف في مواجهة أي طارئ حادّ، وهو ما صرح به مؤخراً وزير الأمن الأمريكي عندما قال: إن الولايات المتحدة لا تستطيع تحمّل ضربات أخرى على شاكلة أحداث سبتمبر.

* كلما ازداد التورط الأمريكي في العراق، شعر حلفاء أمريكا بأنها ستغرقهم معها في المستنقع العراقي، وهذا يعمِّق هوة خلاف الأحلاف، ويؤدي إلى تسارع وتيرة تفكيك التحالف الدولي مع أمريكا، لا على مستوى العراق فحسب، بل على المستوى العالمي، في ما يسمى بـ «الحرب على الإرهاب»، حيث صارت عمليات الانتقام تطال حلفاء أمريكا داخل أراضيهم، لا على أرض العراق فحسب، كما حدث في لندن وإسبانيا وتركيا، وهو ما كان سبباً مباشراً في انسحاب جيوش دول عديدة من التحالف، واستعداد أخرى للانسحاب.

* بل إن تخالف التحالف بدأ يسري داخل أوروبا، بل داخل البلد الأوروبي الواحد، كما حدث في بريطانيا، عندما اتهم عمدة لندن رئيس الوزراء «توني بلير» بأنه هو السبب الحقيقي في تفجيرات لندن.

* ومما يزيد في أرق الجميع ــ أمريكا وحلفائها في العراق وخارجه ــ ما تبثّه التحليلات عن تضاعف قدرات المقاومة، وزيادة إمكاناتها كمّاً وكيفاً، وهو ما ينعكس زيادة في نوعية العمليات وتأثيرها؛ فالتقارير تؤكد أن المقاومة ستزداد قوتها بفعل عوامل كثيرة، على عكس ما يراهن عليه بعضهم من انحسارها وانكسارها، وقد ذكرت بعض الدراسات أن المقاومة ستصل أعدادها إلى الضعف، في الفترة الممتدة من شهر يناير (٢٠٠٦م)، إلى سبتمبر من العام نفسه، وهو الوقت الذي ستتهيأ فيه القوات الأمريكية للانسحاب، وهذا ما جعل الباحث الاستراتيجي «إنتوني كوردسمان» يحدد السقف الزمني للوجود العسكري الأمريكي في العراق بعام ونصف، إن لم يكن أقل!

* هذه المخاوف المستقبلية لها ما يسوغها من الوقائع السابقة واللاحقة على أرض الصراع في العراق، فالقوات الأمريكية ومن يتحالف معها، تتعرض في العراق إلى ما يقارب (٢١٠٠) عملية كل شهر،

كما صرح دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي، أي: ما يعادل (٧٠) عملية كل يوم، ينفّذها ما يقارب خمسين ألفاً من المقاومين، منهم نحو عشرين ألفاً من المتطوعين العرب، وهو ما جعل العـــراق في نظر الاستخبارات الأمريكية والدولية؛ أخطر من أفغانستان أيام طالبان، لاتِّساع حدوده، وتعـــدد الدول المجاورة له.

* التقارير تثبت في المقابل ضعف أو عجز الشرطة والجيش العراقيين المكلفين بمقاومة المقاومة عن أداء مهامهما، فبحسب صحيفة «النيويورك تايمز» الصادرة في ٢١ يوليو ٢٠٠٥م، فإن (٥٠%) من قوى الأمن العراقي، لا تزال تحت التدريب، والنسبة الباقية لا تستطيع وحدها إنجاز أي مهمة دون مساندة أمريكية.

* يراقب الأمريكيون والأوروبيون والإسرائيليون بتوجس بالغ، تأثّر قطاعات شعبية في بلدان عربيـــة، بانتصارات المقاومة وإنجازاتها، وهو ما قد يزيد من حالات التوتر التي بدأت بالفعل تشكل هاجســـاً أمنياً خطيراً، وبخاصة في الدول المحيطة بـــ «إسرائيل» التي كان تأمينها هدفاً رئيساً من أسباب غـــزو العراق، وهذا عامل محيّر للأمريكيين، لا يدرون ما الحل فيه: أيظلون في المنطقة ليدافعوا بالنيابة عـــن «أمن إسرائيل»؟ أم يغادرونها ويتركون اليهود يلاقون مصيرهم وحدهم؟

* كان طبيعياً أن يقود كل ما سبق إلى زيادة خصوم الحكومة الأمريكية في الداخل، وقـــد اســـتغل الديمقراطيون بوجه خاص ورطات بوش في العراق، كي يضغطوا باتجاه المطالبة بانسحاب سريع، وهو ما يزيد من حالة الحرج التي يتعرض لها بوش وإدارته، حتى أصبح يخرج إلى الإعلام بكثرة مـــدافعاً أو محذراً أو مبرراً أو رافضاً أو مصدراً للقرارات والتصريحات التي يحاول أن يدفع بها الحملة عليه وعلـــى إدارته، وهناك الكثير ممن كانوا يؤيدون قرار الحرب سحبوا موافقتهم، منهم المرشـــح الـــديمقراطي للرئاسة في الانتخابات السابقة (جون كيري)، والرئيس السابق (بيل كلينتون)، وقد اتهم جورج بوش زعيم الديمقراطيين في مجلس النواب في شهادة أمام الكونجرس بأنه يعرض الأمن القـــومي الأمريكـــي للخطر، فقال: «مستقبل جيشنا في خطر... إن جنودنا وعائلاتهم يحمّلون فوق طاقاتهم، وأصبح الناس يتحدثون أن الجيش الأمريكي هزم»!

* وقد تضافرت كل هذه العوامل في إيصال إنذار مبكر إلى «جورج بوش»، بأن هزيمة أمريكا قـــد تكون كارثية على يديه، وهو الذي كان يتفاخر مع أنصاره من الإنجيليين والمحافظين الجدد بـــإطلاق مشروعات على امتداد العالم مكانياً، وعلى امتداد القرن زمانياً، انطلاقـــاً مـــن الشـــرق الأوســـط «الكبير»!

هبطت شعبية «بوش» بشكل كبير في الشهور الأخيرة، فنزلت إلى معدل (٤٢%) بحسب الاستطلاع الذي أجرته صحيفة (نيويورك تايمز) وشبكة ((C.B.S نيوز، و لم يكن هناك تفسير لهـــذا الهبـــوط الحاد، إلا الارتفاع الحاد في معدل خسائر أمريكا بشرياً واقتصادياً وإعلامياً.

كل هذه الأمور وغيرها من مظاهر ودلائل الهزيمة، جعلت المشروع الأمريكي برمّته في العراق في مهب الريح، وقد بدا هذا باعتراف «جورج بوش» الصريح مؤخراً في ٢٠٠٥/١٢/١٧م بأن: «قرار الحرب قد اتخذ بناء على معلومات استخباراتية خاطئة»! وهو اعتراف يعني بلفظ آخر، أن هناك خطأ ما تسبب في خسارة الحرب!

ويحاول الأمريكيون التغطية على بوادر الهزيمة، بالإعلان عن إجراء (حوارات) مع بعض رموز المقاومة. وفي محاولة لحفظ ماء الوجه؛ يركزون على ما يعدونه «نجاح» التجربة الديمقراطية العراق عبر الانتخابات، وهي تلك التجربة التي فاضت رائحتها من بلاغات الشكوى المتبادلة من التزوير والتزييف التي يحاول بها الفرقاء في العراق إثبات أن الشعب يقف معهم. وفي شكل آخر من أشكال التغطية على النتائج المخيبة لآمال الأمريكيين، جُرّت الجامعة العربية للتحرك ضمن ما سُمي بـ «مؤتمر الوفاق الوطني» الذي يحاول الأمريكيون من خلاله إسباغ شرعية عربية على العملاء العائدين إلى العراق على ظهور الدبابات الأمريكية، مع أن هؤلاء أنفسهم يستشعرون الخطر كلما علت الأصوات بضرورة الانسحاب، إلى درجة المطالبة ببقاء الاحتلال والتحذير من تعريض العراق للخطر إذا وقع هذا الانسحاب في وقت قريب.

والعجيب أن هذا نفسه ما يحس به الأمريكيون، حيث يصرحون بأن هذا الانسحاب لو تم مبكراً لكان هزيمة مشتركة للأمريكيين، ولحلفائهم العراقيين في وقت واحد.

وقد كرّر جورج بوش ذلك في الفترة الأخيرة، وقال ردّاً على من يطالبونه بالانسحاب السريع: «إن الانسحاب الفوري خطأ جسيم، وسيؤدي إلى انتصار الإرهاب، وهزيمة أمريكا»! والمعنى نفسه صرَّح به «جيفري وايت» المحلل السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية، حيث قال: «لا نستطيع أن نسيطر سوى على الأرض التي نقف عليها، وإذا غادرنا العراق، فسوف تسقط في أيدي المسلحين»، وكذلك قال «رامسفيلد» في زيارته الأخيرة للعراق في ٢٠٠٥/١٢/١٢م: «الانسحاب السريع من العراق، هو أقصر الطرق إلى الهزيمة،»! ولكن الأعجب في استعمال لفظ «الهزيمة» على ألسنة «جورج بوش» و«رامسفيلد» وغيرهما من المسؤولين الأمريكيين أن التصريح بها وباحتمالات وقوعها؛ يجيء بعد أن كان «جورج بوش» قد أعلن من فوق بارجة أمريكية في ٢٠٠٣/٥/٢ ـــ أي بعد انتهاء العمليات العسكرية بشهرين، انتصار أمريكا في حربها ضد العراق!

ولكن بعد مرور ما يزيد على عامين ـــ وبالتحديد في أول شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٥ ـــ تصدر حكومة بوش ما أسمته: «إستراتيجية صنع النصر في العراق»!!، وقد جاء فيها ـــ كما نشر على موقع الخارجية الأمريكية ـــ: «إن الهزيمة في العراق، ستشجع الإرهابيين على توسعة رقعة نشاطهم، والنجاح في العراق سيوجه ضربة حاسمة إلى الإرهابيين تشلّ قواهم، إن مصير الشرق الأوسط الكبير، الذي سيكون له تأثير عميق ودائم على الأمن الأمريكي؛ هو الآن في كفة الميزان»!

* الانسحاب أو بالأصح: (الهزيمة) بدأت فعالياتها من الآن، فقد صرح موفق الربيعي مستشار الأمن الوطني العراقي، بأن ما يقرب من (٢٥%)، أي نحو ثلاثين ألفاً من القوات الأمريكية بالعراق، ستنسحب في أوائل عام ٢٠٠٦م.

هناك حالة من الإحباط واليأس، لم يستطع الأمريكيون كتمها، حتى «دونالد رامسفيلد» الذي تعوَّد الناس على ظهوره متبختراً مازحاً أمام الشاشات في أعقاب حرب أفغانستان، وأثناء حرب العراق، لا يُرى الآن إلا متجهماً عابساً، وقد اعترف في تصريح له في شهر يونيو (٢٠٠٥م) بأن المقاومة في العراق عندها من الإمكانيات أن تستمر لاثني عشر عاماً في محاربة أمريكا، وقد كرر قائده الميداني ورئيس الأركان السابق في العراق «مايرز» الكلامَ نفسه، إلا أن أحد الجنرالات الأمريكيين المتقاعدين ـــ وهو «باري ماكفراي» ـــ قد فاجأ الجميع بكلام أخطر من تصريحات «رامسفليد» وقائده «مايرز»، حيث قال ـــ بحسب موقع الجزيرة على الإنترنت في ٢٠٠٥/٧/١٩م ـــ: «إن الأعمال المسلحة ستبلغ ذروتها في العراق خلال الشهور التسعة الأولى من عام (٢٠٠٦م)، وبعدها سيكون الانسحاب الأمريكي أمراً لا مفرّ منه»!

هناك من السيناريوهات ما هو أكثر خطورة عند الأمريكيين من كل ما سبق، وهو أن لا يستطيع الأمريكيون الانسحاب من العراق في الوقت الذي يريدون، وذلك عندما يثبت عجزهم عن تثبيت الأقدام الخشبية لـ «جيش الدفاع» العراقي المكون من الميلشيات الكردية العلمانية والشيعية الرافضية، وعندها قد تضطر أمريكا اضطراراً للبقاء القسري، متلقية الضربات الموجعة التي يختار المجاهدون زمانها ومكانها، وعندها لن يستطيع «جيش الأشباح» ـــ كما وصفه الكاتب «باتريك كوك» ـــ أن يدافع عن الأمريكيين، كما لا يستطيع الأمريكيون أن يدافعوا عنه؛ لأن قسماً كبيراً من ضباط هذا الجيش ـــ كما يقول الكاتب ـــ يتسلمون رواتب جنود وهميين، جالسين في البيوت، أو غير موجودين أصلاً، فإحدى الوحدات التي يفترض أن يكون فيها عشرون ألف رجل، لا يعدو العدد الحقيقي فيها (٣٠٠) رجل فقط، والولايات المتحدة التي تتحدث عما يقرب من (١٥٠) ألف عراقي في قوات الأمن، لا يزيد عددهم في الحقيقة عن (٤٠) ألفاً فقط!

* ماذا تعني هزيمة أمريكا؟

سيكون لهذه الهزيمة عندما تحدث ـــ وهي لا بد أن تحدث بإذن الله ـــ ستعني أموراً كثيرة وكبيرة:

* ستعني أن المشاريع ذات الطبيعة الكونية العالمية، مثل: «مشروع الإمبراطورية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين» للإنجيليين الأمريكيين النصارى، ومشروع «القرن الأمريكي الجديد» للمحافظين اليهود الجدد في أمريكا، قد توقفا أو تعرقلا إلى أجل غير مسمّى، وربما أُلغيا بالمرة، بعد أن أنسى المجاهدون في العراق عصابة «الأبواش» وساوس الشيطان.

* ستعني أن أحلام اليهود ــ من المحافظين الجدد أنفسهم ــ في تسلّم دفة الحكم في أمريكا، في مهب الأعاصير؛ نظراً للإحباط الذريع في العراق أولى محطات التآمر العالمي ليهود أمريكا في القرن الجديد.

* ستعني أيضاً، أن مشروع «الشرق الأوسط الكبير» سوف يرفع إلى رفٍّ صغير في البنتاجون أو البيت الأسود؛ لأن منصة إطلاق هذا المشروع في العراق قد احترقت.

* ستعني أن دولة اليهود التي لا يغيب ظلّها عن كل تلك المؤامرات الدولية ستصبح عما قريب في مواجهة حقيقية مع خطر حقيقي، يختلف مع المخاطر الوهمية الماضية، مثل: الناصرية، والقومية، والبعث العراقي، والبعث السوري، والثورة الإيرانية.

* ستعني أن حاجز الرعب الغربي قد انهدم، وسيف الإرهاب الأمريكي قد انخرم، وبكسر هذين الحاجزين سيكون ما دونهما أهون منهما بإذن الله.

* ستعني أن خيرية الأمة الإسلامية ستتجلى من الآن فصاعداً، في شعوبها، لا في دولها وأنظمتها، فالشعب في العراق هو الذي يدافع عن العراق وعن كرامة الأمة كلها، والشعب في فلسطين هو الذي يدافع عن فلسطين وعن كرامة الأمة كلها، والشعب في أفغانستان هو الذي يدافع عن أفغانستان وعن كرامة الأمة كلها، وكذا يقال، وسيقال عن بقية الأمة بشعوبها في أكثر أوطانها.

* ستعني أن عصر القطبية الواحدة آيل للأفول، وسوف تبرز أقطاب أخرى قريباً ــ بإذن الله ــ سيكون منها: القطب الإسلامي العالمي، مُسقِط القطبين قبله، وما ذلك على الله بعزيز؛ فسنن الله الكونية ماضية إلى غاياتها الحكيمة، وفق محكمات السنن الشرعية الدينية؛ لأن امتثال أحكام الله الشرعية، هو الطريق الوحيد لتحقيق أحكام الله القدرية، حتى لو ظنها الناس معجزات أو خوارق لا يمكن أن تتحقق {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

تحدثت عن الآيات... وتبقى بقية عن التحديات:

فإلى عدد قادم بإذن الله.

تحديات ما بعد أمريكا

* يخطئ كثيراً من يظن أن الصراع الدائر في العراق، شأن يخص العراقيين وحدهم، أو يخص المجاهدين هناك فقط، وهذا الخطأ يعود لأمرين جوهريين :

أولهما: أن المحتل الأمريكي الذي جاء إلى المنطقة لمطامع إمبراطورية بذرائع نشر الحرية والديمقراطية انطلاقاً من العراق ؛ أراد تحويل هذا البلد إلى قاعدة عسكرية يمكن الوثوب منها إلى دول الجوار القريب والبعيد للهيمنة عليها بصورة أو بأخرى؛ فالخطر هنا لم يكن قاصراً على العراق.

والأمر الثاني: أن المحتل الأمريكي أعلن مراراً على ألسنة ساسته بأن العراق أصبح الساحة الرئيسية لما تسميه أمريكا بالحرب (العالمية) على الإرهاب! وهو ما يعني أن تلك الحرب يمكن أن تنتقل إلى ساحات أخرى في بلدان أخرى، يقع عليها الاستهداف الخبيث بخطة إبليس المسماة بـ (الفوضى

الخلاقة) التي يريد الأمريكيون تكرارها في كل بلد يريدون أن ينقلوا إليه مركز الحرب العالمية على الإسلام، المتسترة وراء الحرب على الإرهاب.

المجاهدون في العراق، أو ما يصطلح على تسميتهم في الإعلام العربي بـ (الجماعات المسلحة)، وما يصطلح في الإعلام الأمريكي والغربي على تسميتهم بالإرهابيين أو المتمردين، هؤلاء قاموا بقدر كبير من الواجب التاريخي في التصدي للهجمة الأمريكية، من الناحية العسكرية الميدانية على الوجه الذي فصلت الكلام عنه في الحلقة السابقة من هذا المقال، وهو الأمر الذي رأيت فيه ـ ولا أزال ـ معجزة تاريخية، وآية ربانية تمر بنا وأكثرنا عنها معرضون أو غافلون.

إلا أن تلك الإنجازات الضخمة والنتائج الجبارة التي ألجأت قوة عظمى بحجم الولايات المتحدة إلى التسليم «العملي» بالهزيمة باتخاذ قرار الانسحاب بعد أقل من ثلاث سنوات من الغزو تتهددها تحديات، يمكن أن تفرغ الإنجاز الضخم من محتواه، وتحوِّل النتائج المبهرة من صورها الإيجابية إلى صور أخرى سلبية، وهذا المحظور الخطير؛ يمكن أن يقع ـ ونسأل الله ألا يقع ـ إذا حدثت محاذير أساسية، يمكن اختصارها فيما يلي:

١ ـ إذا لجأ الأمريكيون إلى خيار (الأرض المحروقة) عند انسحابهم المخزي المهزوم، بإشعال حرب أهلية، طائفية وعنصرية، يمكن أن تؤدي إلى إحراق ما تبقى من العراق، إذا استجاب لها أقوام دون تقدير للظرف التاريخي الخطر، والمنعطف الحضاري الحساس.

٢ ـ إذا أصيب بعض المقاومين بداء نشوة النصر، فراحوا يسارعون إلى جمع الغنائم واقتسامها في شكل مواقف متعجلة، وقرارات منفردة من شأنها أن تمكن الأعداء من استعادة التوازن، أو تمكِّن بعض الفرقاء من اختطاف النصر، واقتطاف الثمار.

٣ ـ إذا استمرت الأنظمة في الدول العربية والإسلامية في خذلان العراقيين والسير في ركاب الأمريكيين، لينوبوا عنهم ـ بعد الانسحاب ـ في أداء مهمة أمريكا المستحيلة في العراق، وهي تقوية العملاء وحمايتهم وإضفاء الشرعية على حكومتهم.

٤ ـ إذا استمر أكثر الإسلاميين في رفع أيديهم عن التحدي الذي تواجهه الأمة في العراق عقائدياً وحضارياً ـ حيث يتربص به العلمانيون ليسلخوه عن الإسلام، والفرس ليعزلوه عن العروبة، وأمريكا والغرب واليهود ليردوه إلى عصور ما قبل الحضارة.

والضرورة تقضي ـ ونحن على مشارف الاستبشار بالنصر الجديد ـ ألا يسمح الغيورون على الأمة وحرماتها في العراق وخارجه؛ أن يتحول هذا الانتصار إلى انكسار؛ فكم في التاريخ من نجاحات لم يحفظها أهلها فتحولت إلى إخفاقات؛ فما حدث في أُحُد، كُرِّرت صور عديدة منه في الشام وإفريقيا والأندلس، وكُررت في عصرنا في حرب رمضان وحرب أفغانستان. ولكن أوضاع الأمة هذه المرة لا تحتمل مثل هذه التحولات الحادة، فالخصم ضخم، والمشوار طويل، والجراح كثيرة.

* لكن الفرصة سانحة:

نعم!... فهناك متسع من الحظ لأن تغالب الأمة هذه التحديات، وتمارس خيريتها مرة أخرى فتستنقذ العالم من غول المغول الجدد، والصليبيين المعاصرين في حملاتهم المتجهة ـــ كما هي العادة في التـــاريخ ـــ نحو شرقنا العربي الإسلامي بغرض إنشاء إمبراطورية جديدة من إمبراطوريات الشر، وقد ساق الله بأقداره الحكيمة الأمور إلى تناغم عجيب بين أداء الفداء الأسطوري للمقاومين في العراق، مع الغبـــاء الاستثنائي للتخطيط الأمريكي الذي يتخبط في ورطاته، ويتورط في تخطيطاته من مرحلة إلى مرحلـــة وفق إستراتيجية هلامية، اتفقت عليها النخبة الحاكمة في أمريكا.

هذه الإستراتيجية، كانت تقوم ـــ حتى الانتخابات الأمريكية الأخيرة ـــ على أمور ثلاثـــة أساســـية وهي:

- البقاء في العراق حتى تحقيق مصالح أمريكا الاقتصادية وتأكيد هيبتها السياسية.
- الانتهاء من هزيمة من تسميهم أمريكا بـــ (المتمردين) كجزء رئيس من الحـــرب العالميـــة علـــى (الإرهاب)
- تثبيت حكومة موالية للأمريكان، يمكن من خلالها مواصلة تحقيق الأهداف الأمريكيـــة، والادعـــاء بتحقيق الديمقراطية والحرية للشعب العراقي.

وهذه الإستراتيجية التي تبدو منطقية لدى الأمريكيين، هي في الحقيقة غير عملية؛ لأنها تستند إلى عدة افتراضات وهمية:

الوهم الأول منها: هو افتراض أن الوجود الأمريكي سيظل ممكناً رغم فداحة الخسائر حـــتى تحقـــق أمريكا مصالحها وتؤكد هيبتها وتثبت عملائها.

والوهم الثاني: هو توقع أن يوافق أحرار العراق على قرار أمريكـــا بالاســـتقرار في بلادهـــم دون أن يضاعف هبّتهم لرد الصاع صاعين في وجه الغزاة ومن يشابههم.

والوهم الثالث: هو افتراض سهولة القضاء على المقاومة عسكرياً، أو تدجينها والتغرير بها سياسياً.

والوهم الرابع: هو افتراض وجود القابلية للممارسة الديمقراطية في البنية الطائفية والعنصرية العراقيـــة، التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تقدم النموذج المحتذى ـــ كما يحلم الأمريكان ـــ في نشر ما يسمى بقيم الحرية والتعددية وقبول الآخر؛ فالطائفية والعنصرية في العراق جبرية قهرية تاريخية، لا يحيّدها أو يحد من أثرها إلا التوازن بين الأقوياء، ولا يزيل أوضارها إلا أخوّة الدين.

وعليه، فإن إستراتيجية أمريكا للانتصار في العراق هي إستراتيجية مفلسة سلفاً، لاستنادها إلى تلـــك الأوهام والافتراضات الخاطئة، وقد بدت أمام العالم مؤشرات إقبال الولايات المتحدة على مواجهـــة أسوأ النتائج المترتبة على انهيار إستراتيجيتها في العراق، وهذا وإن كان يحمل في طياته من المبشـــرات والتطمينات ما يحمل، وبخاصة فيما يتعلق بتسريع وتيرة الانسحاب المهزوم، إلا أنه يشير في الوقـــت

نفسه إلى الكثير من المحاذير؛ لأن أمريكا التي ستواجه أسوأ النتائج، لا شك أنها وعملاءها سيُقْدِمون على أسوأ الحيل وأنذل التوجهات والإجراءات، للتغطية على النتائج الكارثية لهزيمتهم التاريخية في العراق.

والمتوقع أن يترجم هذا إلى عدد من التحديات الجديدة التي ستتوجب مواجهتها على الصعيد العراقي الخاص، والعربي الإسلامي العام.

ويمكننا أن نصنف هذه التحديات إلى مستويات عديدة، باعتبار أن تحديات ما بعد الانسحاب، لن تأتي من أمريكا وحدها، وإنما من أطراف عديدة، يمكن تفصيلها على الوجه التالي:

أولاً: أمريكا وخيارات الانتقام:

* قد تلجأ الولايات المتحدة إلى سيناريو اليابان بدلاً من سيناريو فيتنام؛ ففي مواجهة الهزيمة في فيتنام اكتفت أمريكا بالانسحاب الذليل دون ضجة أو انتقام، بينما أفرطت في الانتقام في حالة اليابان حتى استعملت القنابل النووية، كي تستعيد هيبتها وتفرض احترامها على من تجرؤوا بالهجوم عليها في سيناريو (هاربر). وفي حالة الهزيمة في العراق؛ لن تلجأ الولايات المتحدة إلى مثل هذه الخيارات المجنونة ــ في اعتقادي ــ إلا في حالة واحدة، وهي الحالة التي يمكن أن يُعلن فيها عن إقامة دولة إسلامية سنية سلفية جهادية بعد الانسحاب، تصلح لأن تكون قاعدة امتداد إسلامي عالمي جديد، فعندها سيكون هذا بمثابة إعلان حرب على أمريكا والغرب، ولن تكون المعالجة هنا تقليدية عقلانية، بل ستكون شمشونية جنونية.

* اعتماد مبدأ (الفوضى الخلاَّقة) قد يكون خيار الأمريكيين في آخر الحرب كما كان خيارهم في أولها؛ فالولايات المتحدة التي تعمدت فك كل الأربطة في جسم الدولة العراقية بُعَيْد الغزو، لتغرقها في فوضى يمكن النفاذ فيها إلى كل الأهداف الأمريكية؛سوف تلجأ إلى هذا الخيار إذا رأت فيه تحقيقاً لشيء من مصالحها، ضاربة عرض الحائط بمبادئ الديمقراطية والإصلاح والتعمير.

وخيار (الفوضى الخلاَّقة) يمكن تنفيذه بتسعير أتون الحرب الأهلية، لا بين الشيعة والسُّنة فحسب بل بين العرب والأكراد، وبين العلمانيين والإسلاميين، بل بين الإسلاميين الذي يُدعون (معتدلين) وإخوانهم الموصوفين بـ (المتشددين)، والحرب الأهلية يمكن أن تندلع إذا تركت أمريكا أرض العراق وهي واقعة تحت سيطرة الشيعة والأكراد وحدهم دون السنة العرب، أو تحت سيطرة العلمانيين دون بقية طوائف المتدينين، أو إذا تركت العراق بدون حكومة أصلاً.

* سيناريو إشعال الحرب الأهلية، قد يدفع باتجاه المخطط القديم بغرض التقسيم، حيث سيطالب الشيعة بجنوب العراق ــ وفقاً لترتيبات ما يسمى بـ (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق) وسينفصل الأكراد (رسمياً) بالشمال، بعد أن استقلوا به عملياً منذ فرض الحظر الجوي على شمال العراق بعد حرب الكويت؛ وهنا قد يضطر أهل السنة إلى وضع أيديهم على ما يبقى من الكعكة

العراقية في الوسط، أو ما يبقى من ذلك الوسط، بعد أن يكون الشيعة قد فصلوه وفصّلوا أجزاء منه لصالح الجنوب الشيعي.

* الأمريكيون سيلجؤون حتماً إلى إعمال مبدأ (فرق تسد) بين الفصائل الجهادية السنية العراقية وبين العناصر المشتغلة بالسياسة من سنة العراق. أما تفريقها بين فصائل المجاهدين أنفسهم، فقد بدأته أمريكا بفتح قنوات اتصال مع المقربين من بعض الفصائل الجهادية، مع الترويج إعلامياً للتفريق بين ما يسمى (المقاومة الشريفة) و (المقاومة غير الشريفة)! والتفريق بين (الراديكاليين) و (الواقعيين) من السياسيين، وبين (المعتدلين) و (المتشددين) من الإسلاميين، وغير ذلك من التقسيمات الخبيثة التي بدأت أمريكا في استغلالها أسوأ استغلال.

* ستغير الولايات المتحدة في ولاءاتها بحسب مصالحها؛ فهي وإن كانت قد استهلكت الورقة الدينية الشيعية في معظم ما مضى من زمن الاحتلال، إلا أنها قد تُحل الشيعة العلمانيين محل الشيعة المتدينين، ليكون رهانها على تغيير البنية الثقافية للشعب العراقي أوقع وأقرب، والأخطر من ذلك، أن تضم إلى ذلك شرائح من السنة المتميعين أو العلمانيين فتجعل بعضهم رؤوساً في نظام الحكم تنطح بهم المقاومة التي قد تفاجأ ــ كما كان عهد الاستعمار دائماً ــ بخلفاء الاستعمار وحلفائه، الذين لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة.

* ستضطر الولايات المتحدة إلى إنهاء حملتها العسكرية في يوم من الأيام القريبة المنظورة ــ بإذن الله ــ تحت وقع الضربات الجهادية، ولكن حرب الدمار والاستعمار، كانت تعقبها دائماً حرب الأفكار، وقد صار مصطلح «حرب الأفكار» مستقراً في إستراتيجية المواجهة الأمريكية للمد الإسلامي، وهو وإن كان لم يفعَّل إلى الآن بالصورة المخطط لها، إلا أن المتوقع أن يشهد العراق، وتشهد الكثير من دول العالم الإسلامي، هجمة ثقافية وإعلامية تحاول يائسة تشويه صورة المنتصر النبيل وتقديمه على أنه عدو للحضارة، وطارد للتقدم، وعاشق للتخلف. ولن يألو المنافقون جهداً في تقديم وقود تلك الحرب، من خلال مراكز أبحاثهم ووسائل إعلامهم ومنابر أفكارهم المقروءة والمسموعة والمشاهدة، لتكون الحرب هذه المرة ليست موجهة فقط إلى المفردات الشاذة التي ذللوها على ألسنة الجهلة من العامة، كاالإرهاب والتطرف والأصولية، بل ستوجه إلى الإسلام نفسه تحت مسمى مواجهة السلفية والوهابية والعقيدة السنية.

* إن هذه التحديات الجسام، تحتاج إلى مئات العقول المفكرة، والقلوب النيرة والكفاءات القديرة كي تنتدب لمواجهة ما قد تخبئه الأيام لا على مستوى العراقيين فحسب، بل على مستوى الأمة كلها بالأقرب منها فالأقرب؛ فمن غير المقبول أن نكون شركاء في إجهاض النصر وتبخر الحلم وفقدان الفرصة، بترك هذه التحديات تمضي لغاياتها. وبما أن العثور على الحلول لا يُنال بمجرد الآمال، فإن ذوي الرأي وأصحاب الفقه وأرباب التخصصات الدينية والسياسية والإستراتيجية والإعلامية في الأمة

مدعوون اليوم بإلحاح إلى تقديم المستطاع من الرأي والمشورة، والتسديد والتقريب والنصيحة، إلى أصحاب القرار الإسلامي في العراق باعتبارهم نواباً عن الأمة في مواجهة الملمات التي تحيق بجزء من جسدها على أرض الرافدين، علماً بأن عاماً أو أكثر قد يمضي حتى ينتهي الاحتلال، وتبدأ مشكلات ما بعد الاحتلال.

هناك معضلات معقدة، لا يصلح لها إلا أهلها من أصحاب التخصص في الفتاوى الفقهية أو التنظيرات العسكرية والإستراتيجية، ولكن هناك عمومات، تحكمها المبادئ المستقرة في الفهم الإسلامي قد تضيع ـــ مع بداهتها ـــ في زحمة التفصيلات والتفريعات وهي تحتاج فقط إلى حسن التقدير، مع حسن التقديم.

ولعل ما يتبادر إلى الذهن منها ـــ فيما يتعلق بالتحديات على المستوى الأمريكي ـــ ما يلي:

* يمكن تضييق خيارات أمريكا في الانتقام، بشد اللُّحمة، وتقريب الهوة بين فصائل المجاهدين من جهة، وبين عموم الشعب من جهة أخرى حتى لا تتمكن أمريكا وأولياؤها من عزل المقاومة وتصويرها بصورة الخروج عن الصف العراقي. والبداية في توحيد الصف العراقي ـــ ولو في حدها الأدنى ـــ لن تكون إلا من المجاهدين؛ فهم الأقدر على مجاهدة شياطين الفرقة وغربان البين، والشعب سيكون تبعاً لهم إذا اتحدت كلمتهم، وبقية الأمة ستكون مع خيارهم، وعندها سيظهر الانتقام الأمريكي ـــ إذا حدث ـــ على أنه انتقام من الشعب، يمكن أن يضاف إلى سجلات الإجرام بانتظار إجراء مماثل من المعاملة بالمثل.

* هناك متسع من الوقت لتفويت فرصة (الفوضى الخلاَّقة) التي قد تترجم إلى حرب أهلية؛ وذلك باجتماع الرؤوس الكبيرة من سنة العراق عرباً وأكراداً على إستراتيجية موحدة لما بعد الانسحاب ولو في خطوطها العريضة، استباقاً للتحرش الأمريكي الذي يراهن على إشعال المواقف وإذكاء الفتنة، وكذلك فإن الاتفاق على آلية للتحاور والتفاهم من الآن، أمر لا بد منه ديناً وعقلاً؛ لأن الشح المطاع، والهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، قد يغرق السفينة بركابها وربانها.

* خطر التقسيم لا يمكن دفعه إلا بمدافعة الواقفين وراءه؛ فلو علم كل ساعٍ في التقسيم أن ثمن سعيه سيكون وبالاً عليه لرجع وارتدع؛ فكم من مَرَدَة ردهم المخاوف والحسابات الدقيقة للمستقبل، عن أحلام التفرد والتمرد. قال الله ـــ تعالى ـــ: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠] ثم قال بعدها: {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: ٦٠] وهم المنافقون الممالئون للكافرين. ومن الخير أن يتواكب النصح مع الردع، بإقناع الفرقاء بأن العراق الموحد قوة للجميع؛ وتمزيقه إضعاف للجميع، فدعاة التقسيم لن يقفوا عن حد ثلاث دويلات للأكراد والسنة والشيعة، بل قد يسعون إلى مزيد من التفتيت حتى يصل الأمر ـــ لا قدر الله ـــ إلى أن نسمع عن الإمارات العراقية «المتحدة»، مع الولايات الأمريكية المتحدة!!

*** حرب الأفكار الأمريكية، لا بد من الإعداد لمواجهتها من الآن بأفكار إسلامية، وهذا الواجب ألصق بخارج العراق منه بداخله؛ فالمستهدَفون بهذه الحرب ليسوا العراقيين المشغولين في المعركة فقط، لكن المستهدَف هو الأمة كلها، ولهذا يتكاثر من الآن نشاط المراكز البحثية المشبوهة، والقنوات الفضائية الفوضوية لخوض غمار تلك الحرب التي يتوقع أن تستعر أكثر بعد الانسحاب، لإلهاء الناس عن فضيحة الهزيمة التاريخية لأمريكا. من واجب الباحثين والإعلاميين الإسلاميين، أن يرصدوا فعاليات تلك الحرب ـــ حرب الأفكار ـــ ليتمكنوا من صدها قبل أن تؤتي ثمارها المرة؛ فهذا واجب إسلامي عام، لا يحتاج إلى ساحات تدريب أو ميادين رماية.

ثانياً: إيران واللعب بالنيران:

هيام الفرس بعبادة النار قديماً، قد ترك آثاره فيما يبدو على تكوين مَنْ لم يتطهر بالكامل من أدران تلك النيران الفارسية الجاهلية الماضية؛ فالثورة والثأر والتثوير، كلها مفردات جاهزة للإنتاج والتصدير، في ظل معتقدات التشيع الفارسي التي حولت هذه السلوكيات الدخيلة إلى قربى إلى الله، وزلفى إلى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانضمام الطبيعة الفارسية إلى العقيدة الشيعية، جعل مذهبهم ناراً على نار بدلاً من أن يكون نوراً على نور.

وقد أخرجت دوافع الثارات التاريخية القديمة أصحاب القرار في إيران عن كثير من فرضيات العقل والمنطق، فضلاً عن مقتضيات الدين والمصلحة، فراحوا يُحنون ظهورهم أمام العدو الكافر الظاهر ليمر من فوقها إلى اقتحام حرمات المسلمين ومقدراتهم في كل من أفغانستان والعراق، وسوف يكتب التاريخ بحروف سوداء تلك المواقف النكراء التي كرر بها هؤلاء سلوك أشياعهم وأجدادهم من أمثال نصير «الدين» الطوسي، ومؤيد «الدين» العلقمي الذين جعلوا من الدين ستاراً يخفي التآمر مع أعداء الدين.

وإذا كنا لا نزال نذكر مواقفهم في الموالاة الصريحة لـــ «الشيطان الأكبر» قبل وأثناء وبعد غزو أفغانستان والعراق، فإننا ـــ وبكل مرارة ـــ نتوقع الأسوأ بعد أن تمضي سحابة الاحتلال السوداء الهوجاء.

إذا كانت القوات الأمريكية وشريكتها البريطانية، وغيرهما من الشركاء والحلفاء يفكرون من اليوم في كيفية الهروب الآمن من العراق؛ فالقوات الإيرانية الأجنبية ـــ تحت رايات وطنية ـــ لا بد أنها تستعد من اليوم للحلول مكانها، والحؤول دون رجوعها، لتستفرد هي بالقصعة العراقية؛ وقد تمهد الأمر من الآن لإيران بعدما تمكن شيعة العراق الموالين لها من السيطرة على معظم كيان الجيش والشرطة. ولا نظن أن هذا الإنجاز الذي توافر للشيعة في كل من إيران والعراق، سيسهل التفريط فيه عند عموم الطائفة المتطلعة إلى استكمال الهلال (الخضيب) من أفغانستان إلى لبنان، مروراً بإمارات الخليج والعراق وسورية، ولهذا فإن ذلك يمثل تحدياً عظيماً من تحديات ما بعد الهزيمة الأميركية، ليس لأهل

السنة في العراق فحسب، بل لأهل السنة في العالم أجمع، هؤلاء الذين لم يجمعهم ــ إلى الآن ــ إلا التفرق والتنازع، دون ما مرجعية علمية موحدة، أو قيادة سياسية واحدة.

قد تسارع إيران في مساندة خيار التقسيم كخطوة أولى، لتضمن مشايعة الجنوب الشيعي لها، وانضواءه تحت لوائها، وجيش الغدر المسمى بـ (فيلق بدر) جاهز من الآن ليكون الجهاز العسكري لدولة المجلس الأعلى «للثورة الإسلامية» في العراق، بقيادة عبد العزيز الحكيم، وحزب الدعوة، جاهز لإدارة الجهاز السياسي فيها.

وسيناريو التغلغل الشيعي على الصعيد السياسي أو العسكري، قد أسس له منذ البداية خميني العراق «الإيراني» السيستاني، فهو الذي دفع بالشيعة إلى الانخراط بقوة في العمل السياسي والعسكري في ظل الاحتلال الذي لن يقتصر في المستقبل ــ على ما يبدو ــ على جزر الإمارات العربية، بل يريد الامتداد للسيطرة على بعض العواصم العربية، بالتواطؤ مع الأمريكيين حيناً، وبالانفراد عنهم أحياناً.

اختراق إيران للعراق، والذي سيكون ــ إن وقع ــ اختراقاً للخليج كله، وسوف ينعش ثورات التشيع في أكثر دول المنطقة؛ حيث سنسمع عن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في أكثر من عاصمة عربية، بل وغير عربية، وهو ما سيؤسس ــ إذا سارت الأمور على حسب مخططات بروتوكولات حكماء قم إلى مدٍّ رافضي خطير، يطال العقيدة والدين، بعدما يهدد الأوطان والمقدرات؛ وهنا قد تقع الشعوب الإسلامية السنية بين فكي كماشة الفرس والروم!

وعلى غرار الجهد المطلوب لمواجهة التحديات الأمريكية، تتأكد الحاجة لجهود مضاعفة لمواجهة التحديات الإيرانية، ولعل من المعالم البارزة في هذا الصدد أن يجري استحضار الحقائق التالية:

١ ــ ليس كل الشيعة من أهل القناعات الدينية؛ فهناك شرائح منهم علمانية، ولكن الديني والعلماني في إيران، مشبع بروح فارسية، تستبطن العداء للعرب، وبخاصة السنة منهم، ولذلك فلن يكون لشيعة العراق العرب مهما توهموا كبير وزن في إدارة شؤون العراق إذا ما تمكنت إيران هناك، ولهذا فإن الحاجة ماسة إلى شيء من التأليف وتقريب الآراء بين العرب السنة والعرب الشيعة في العراق، لا على خلفية عنصرية ضد الفرس؛ فذلك ليس من الإسلام، بل على خلفية المصلحة العامة التي يحتاج إليها الطرفان في مواجهة التوغل الإيراني القادم.

والذي نعرفه أن شيعة العراق من غير الفرس، أقل خبثاً وأدنى قرباً من السنة هناك، بفعل عوامل التعايش والتجاور والمصاهرة، وبخاصة العامة منهم؛ حيث يعتقد أنه يسهل كسبهم أو تحييدهم إذا افتضح استغلال الإيرانيين لهم.

٢ ــ لأن شيعة العراق منهم المتدينون المتشددون، ومنهم العلمانيون والليبراليون؛ فإن رهان أمريكا منذ البداية كان على الشيعة العلمانيين، وبخاصة الليبراليين الذين رأت أنها يمكنها من خلال تمكينهم أن تدعي النجاح في إحلال قيم الحرية والديمقراطية في العراق، كنموذج أول في الشرق الأوسط.

ومن غير المستبعد أن تتدخل أمريكا بشكل ما، لإفساد الطبخة التي أنضجها الدينيون المتشـــددون في الانتخابات الأخيرة، لتعيد العلمانيين الليبراليين من أمثال العلاوي والجلبي إلى سُدَّة الحكم، وهـــذا ـــ إن وقع ـــ سيكون مقدمة صِدام مصالح آخر بين أمريكا وإيران على أرض العراق، وبوسع السنة أن يستفيدوا من هذا التناقض، وهم وحدهم الأقدر على اغتنام هذه الفرص.

٣ ـــ من الممكن أن يجد شيعة العراق العرب أنفسهم في خيار يدفعهم إلى التقرب من جديد إلى أهل السنة؛ وذلك عندما يكتشفون حقيقة الطمع الإيراني والجشع الأمريكي، وهنا... فعلى سنة العراق ـــ وبخاصة العلماء والدعاة ـــ أن يحسنوا استثمار هذه الفرصة إذا سنحت، من خلال إعلان المبـــادرات المشتركة لحقن الدماء وإيقاف الشحناء، والانتقال ـــ أو بالأحرى ـــ الرجوع إلى صـــيغة التعـــايش التاريخية المعروفة عن شعب العراق حتى يهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولا شك أن هذا الخيار قد يكون فيه الخير للطرفين؛ فالسنة ليسوا في حاجـــة إلى تكـــثير الأعـــداء، والشيعة ليسوا في حاجة إلى مزيد من الاستعداء لقوم بدا أنهم أولو بأس شديد إذا جاســـوا خـــلال الديار.

ثالثاً: العراق: عراك ما بعد المعركة:

* معركة العراقيين مع الأمريكيين مع شراستها وفظاعتها، ستبدو بعد انتهائها بســـيطة في تركيبـــها المنطقي، سهلة في حسابات الخسائر والمكاسب؛ فهذا صائل معتدٍ، جاء للقتال مـــن أجـــل مطامحـــه ومصالحه الخارجية، فلما تهددت بسبب ذلك مصالحه الخارجية والداخلية، انزوى ورجع القهقـــرى، والطرف الآخر أبناء وطن معتدىً عليه، انتدب شرفاؤه للدفاع عنه مع من فاؤوا إليهم من مهاجرين و أنصار، تسابقوا إلى الفداء بالأرواح والأموال والدماء.

لكن الأمر سيختلف، والمنطق سيتعقد، والحسابات سترتبك، إذا ما تغيرت معالم المواجهة في الميـــدان العراقي بعد الانسحاب الأمريكي، سواء بفعل الأمريكيين الراغبين في إغراق أو إحراق العراق مـــن بعدهم، أو بفعل الفرقاء المتشاكسين الذين سيحاول كل منهم أن يؤسس لواقع جديد، يخدم الشريحة التابعة له، ولهذا فإن ألواناً جديدة من التحديات على الساحة العراقية، ربما يتـــوالى ظهورهـــا علـــى مسرح الأحداث هناك، وهو ما يستدعي إعادة النظر في بعض الاجتهادات وربمـــا الاســـتراتيجيات لمواجهة هذه المتغيرات بما يحفظ ما تحقق من مكاسب على صعيد المواجهة الكبرى مع أمريكا.

ومن التحديات المتوقع بروزها على المستوى العراقي ما يأتي:

* سيرحل الأمريكيون دون أن تكون مشكلات العراق قد حُلَّت، والمرجح أن يستمر التـــوتر وربمـــا القتال لإعادة رسم الخريطة الجديدة، والتحدي الذي سيواجه أهل السنة بعد الانسحاب، سيكون ـــ على الأرجح ـــ متعدد الأوجه، فمن ناحية سيكتشف أهل السنة أنهم الحلقة الأضعف على الســـاحة السياسية، بينما تكمن قوتهم في ميدان القدرة القتالية، وهي لا تكفي على كل حال لبناء مستقبل آمن

للأجيال، ومن ناحية أخرى فإن أمور القتال نفسها تميل الطبيعة البشرية إلى النفور من طول التضحية فيها بلا أفق منظور، ومن ناحية ثالثة فإن طبيعة القتال بعد انسحاب الأمريكيين ستتغير، وسوف تفقد الكثير من شرعيتها في نظر الناس داخل العراق وخارجه، حتى ولو كانت ضد الوكلاء الرسميين للأمريكيين.

* هناك ندرة ملحوظة في المرجعيات العلمية الدينية عند أهل السنة في العراق في مقابل فائض كبير في المرجعيات الدينية الشيعية داخل العراق وخارجه، ومع تداعيات الأحداث بعد الانسحاب، وفي ظل تغير الأوراق سيحتاج العراقيون السنة إلى من يقودهم في الملمات، ويفتي لهم في المعضلات، ويتكلم باسمهم جميعاً كلاماً مفهوماً ومسؤولاً، وهذا تحدٍّ ماثلٌ للعيان من الآن، ويتفرع عنه تحد آخر، وهي احتمالات انتشار أفكار الغلو والابتداع، سواء من جهة التشدد الخارجي، أو التسيب الإرجائي أو لوثات التصوف أو التشيع، وكلها اتجاهات يمكن أن تنتعش وتنتشر في بيئة فكرية كبيئة العراق، التي لا تزال بكراً عذراء على الساحة السنية، بينما هي ثيب شمطاء على الساحة الشيعية، ولا شك أن الفوضى وعدم الاستقرار من الناحية السياسية، كثيراً ما ينعكس على النواحي الفكرية.

* هناك تضخم في الخبرة القتالية والعسكرية الميدانية على حساب الخبرات السياسية والاستراتيجية، والمشروع السياسي للمجاهدين لا يزال غير واضح المعالم، وإذا وضح عند بعضٍ فإن بعضاً آخر قد لا يوافق عليه، والخطورة هنا أن ينعكس هذا الضعف في الخبرة على التعاطي مع الأحداث، فتنطلق المبادرات، والاجتهادات الشخصية في النوازل الكبرى، دون الرجوع إلى أهل الشأن في مجالات الاجتهاد الشرعي والسياسي والاستراتيجي والإعلامي والاقتصادي.

* هزيمة أمريكا في العراق، لا تعني تراجعها عن أطماعها فيه أو في بقية بلدان العالم الإسلامي؛ فالخطط يمكن أن تتغير، بل قد تلجأ أمريكا إلى تعويض فشلها في العراق باقتحام ساحات أخرى، لاختلاس نجاحات رخيصة في أماكن ضعيفة، ولهذا لا ينبغي النظر إلى هزيمتها في العراق على أنها نهاية المطاف.

قد تنجح أمريكا في جلب قوات عربية وإسلامية، لتكون المعركة في العراق عربية عربية، وهذا سيناريو خطير، لا بد من التنبه له والاستعداد لإبطاله، وخاصة إذا أخذ شكل قوات لحفظ السلام أو إعادة النظام أو غير ذلك من الشعارات الخداعة التي يمكن أن تحقن بها أمريكا دماء جنودها، لتريق دماء المسلمين بعضهم ببعض.

* الساحة في العراق مهيأة لتفحش وتوحش ظاهرة العملاء الخونة، سراق الجهود وقطّاف الثمرات وخدم الأعداء، وهؤلاء يقتضي الأمر إحكام أمر التعامل معهم فقهياً أولاً ثم عملياً، حتى لا تتكرر مصائبهم التي ألحقوها بالجهاد في فلسطين، عندما تحولوا إلى سرطان خبيث بيد الصهاينة.

* إذا كان المشروع السياسي أمراً مهماً في مواكبة المشروع الجهادي، فإن هناك مشـــاريع أخـــرى دعوية وتنموية واجتماعية وإعلامية، سيكون تفعيلها وتقويتها إسناداً مستقبلياً لأهل السنة في العراق واستمراراً لدورهم المركزي في إفشال مخططات الهيمنة والإفساد من الداخل والخارج، وهذا الأمـــر بحد ذاته ينشئ دوراً لكل راغب في الاستجابة لواجب النصرة، وكل مشتاق للشراكة في صنع النصر، من داخل العراق أو من خارجه؛ فمن غير المقبول أن يتداعى يهود العالم لمساندة إخوانهم المغتصبين في فلسطين، ويتخاذل أهل الإسلام عن نصرة من ينافحون عن عموم المسلمين {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: ٧٣].

ومما يخشى منه أيضاً، أن يقفز إلى عجلة توجيه السفينة قدامى القوميين أو البعثـــيين أو اليســـاريين، ليزايدوا على الإسلاميين.

* استمرار عمليات الجهاد ستكتنفها مصاعب جمة، إذا أُلجئ الأمريكيون إلى التحصن خارج المـــدن، في انسحاب شكلي لا حقيقي، ومع أن هذا في حد ذاته لا ينفي حقيقة الهزيمة الأمريكيـــة، إلا أنـــه سيقلل من شأن الانتصار العراقي؛ حيث سيظل العراق يبدو في حكم الاحتلال مع إظهـــار مظـــاهر الاستقلال، وستزداد مهمة المجاهدين صعوبة إذا ما صدَّر لهم الأمريكيـــون عملاءهـــم ووكلاءهـــم المتسمين بأسماء المسلمين، وسيكون الأمر أصعب وأصعب، إذا كان الوكلاء والعملاء، من المنسوبين لأهل السنة من داخل العراق أو خارجه؛ حيث سيسهل على الأمريكيين أن يصوروا النصر العراقـــي بصورة الهزيمة التي أثمرت قتالاً بين أبناء الوطن الواحد والمصير الواحد.

؟ قد يلجأ الأمريكيون إلى حيلة اللعب بورقة الإسلام المعتدل في مواجهة الإسلام المتشـــدد، وهـــي استراتجية يبدو أن الولايات المتحدة ماضية في تشجيعها في عدد من البلدان العربية والإســـلامية، وفي حالة العراق، فإن هذا الاعتدال سيبدو أمام المجاهدين في صورة الانتقال من نهج إلى نهج، بل ربما من ملة إلى ملة، وهو ما قد يفتح أبواباً أخرى من الفتن.

المواجهة لا الهروب:

عوَّدنا المجاهدون من أهل السنة في العراق، على الإقدام لا الإحجام، وعلى المجابهة لا الهـــروب مـــن المواجهة، وأملنا أن تثبت الأقدام في مهمة الإقدام على مواجهة تلك التحديات قبـــل فـــوات الأوان؛ فالهروب منها أو تأجيلها لن يقلل من أهميتها، ولن ينفي خطورتها، على أنَّـــا لا يمكـــن أن نحمِّـــل المجاهدين، أو حتى عموم العراقيين مسؤولية المواجهة وحدهم لكل تلك التحديات؛ فالنازلة ليســـت خاصة بهم وحدهم، كما أسلفت في صدر المقال، وإنما هي عامة لكافة الأمة، وهي ينبغي أن تـــوزع على الجميع ـــ أعني التحديات ـــ في صورة واجبات كفائية وعينية وفروض وقتية ومستقبلية، كـــل بحسب قدرته واستطاعته، مع تأكيد التذكير بأن المجاهدين الأبرار، قد قاموا عن الأمة، بما أزاح عـــن

مجموعها الإثم وإزالة العار، فلا أقل من أن تقوم بقية صلحاء الأمة بقسطهم من الواجبات في مجابهة التحديات.

فعلى كل ذي رأي وخبرة واختصاص، من أصحاب الأقلام أو المنابر أو القدرات العلمية أو البحثية أو المالية، في كل ميدان يحتاج إليه أن يسارعوا للقيام بواجب النصرة، والمشاركة في صنع النصر، ولن يعدم حريص الوسيلة لإيصال النصيحة وتقديم العون وتيسير المنفعة، لمن يمسكون الآن بدفة تغيير التاريخ وتصحيح المسار.

ومع الاعتراف بأن التحديات المقبلة أكبر من قدرات قطاع إسلامي واحد في داخل العراق أو خارجه، لتفرعها وتنوعها، فإن ذلك لا ينبغي أن يصد عن التقريب والتسديد بحسب الاستطاعة، ولو كانت البداية ـــ كما يحدث الآن ـــ محاولة رصد أهم تلك التحديات، والبدء في دراستها، وتمييز الحقيقي منها والوهمي، والنظري والعملي، ثم وضع الأسس العريضة لمواجهتها، بتضافر الجهود بين المختصين والمجربين والمراقبين.

وهذه بعض المعالم العامة في هذا الموضوع:

* لا بد من السعي المكثف لبناء برنامج سياسي لأهل السنة، يراعي تعدد الاجتهادات والسيناريوهات واختلاف الخيارات؛ فالقتال لن يستمر إلى الأبد في العراق، واستغلال مدة ما قبل الانسحاب للوصول إلى صورة واضحة في ذلك، أوْلى من ضرب الأخماس في الأسداس عندما تخلو العراق من الأمريكيين، وتقع فريسة بين خلفائهم أو عملائهم الذين لا بد أنهم قد أعدوا عدتهم ورتبوا صفوفهم منذ زمن.

< لا مناص من الاجتماع على كلمة سواء بين فصائل أهل السنة، سواء المجاهدون منهم أو السياسيون، فكل منها درع للآخر ورِدء، ولن يتعوض الضعف السياسي الظاهر في أهل السنة إلا بذلك، وكثير من مسائل الاختلاف بينهم ـــ على ما نرى ـــ هي مسائل اجتهادية، والاجتماع ـــ ولو على أمر مرجوح ـــ خير من الافتراق أو التنازع.

* وضع أسس شرعية محكمة، وقواعد قتالية معلنة، من شأنه أن يخفف من هاجس فقدان أو نقصان مشروعية القتال بعد الانسحاب، إذا دعت الضرورة إليه، فلا بد من التحديد الواضح للشرائح التي يمكن أن تكون هدفاً للجهاد من الخونة والمرتدين والجواسيس ونحوهم، مع بذل أقصى ما يمكن من الخدمة الإعلامية لهذه الأسس القتالية، بما يزيل الغموض ويدفع الظنون عن غايات الجهاد السامية.

* المرجعية العلمية ـــ بفهم أهل السنة ـــ قضية بنائية في غاية الأهمية لا تقل في أهميتها عن بناء القوى السياسية والعسكرية {فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ} [التوبة: ١٢٢] وندرة المرجعيات العلمية المشهورة في العراق تحتاج إلى معالجة لا يكفيها المدى القريب، ولكن الضرورة تقضي بألا تؤجل وظائف هذه المرجعية حتى وجودها؛ فمن

خارج العراق يمكن أن تدرس كبار المسائل، وتبحث دقائق النوازل بالتواصل العلمي الذي تيسـرت أسبابه في عصرنا، وإن كان هذا لا يغني عن أن تنتدب طائفة من أهل السنة العراقيين لتعويض هـذا النقص، لمعادلته بما هو حادث مع الطوائف الأخرى.

----

[١] المحرر : للشيخ ــ حفظه الله ــ رسالة بعنوان (أمريكا وإسرائيل وعقدة الدم) ، يشرح فيهـا أهمية العنصر البشري عند اليهود وإخوانهم الأمريكان . بكلام لم يسبق إليه ــ فيما أعلم و أنا مـن المتابعين ــ وهو منشور في مكتبة صيد الفوائد قسم قضايا معاصرة . (محمد جلال)

خاطرة ((أفراح الهزيمة))

ــ[أبو بكر بن عايد]ــــــــــــ[٢٥-٠٤-٢٠٠٨، ١٠:٢٥ ص]ــ

بسم الله الرحمن الرحيم

فهذه اول مشاركة لي معكم في منتدى اللغة العربية

وهي خاطرة لوصف مبسط لحالنا:

منذ فجر ميلادي اسمع عن افراح الانتصار

ولكنني رايت مأتم الهزيمة

رأيت علي هامة أمتي تاج الانتصار

ولكننا أودعناه الطينَ

أبصرت مأتم الحزن

والناس تركوها

وجلسوا في افراح العديمة

أين جمعهم في مأتم الهزيمة؟!!

وأين عقولهم الحليمة؟!!

كل يوم هزيمة جديدة

فأين قلوبنا الرحيمة؟!

صباح النهار يقولون:

سنلقي قنبلة كهورشيمة!!!!

وأخر النهار

خبرٌ عاجلٌ:

قتلوا سعاد وايمان وفاطيمة!!!!!!!!!!

وكذا دمروا بيتاً فيه ...

أب وأم وصارت الأطفال يتيمة!!!!!

وغدا مفاوضات ....

رفعوا شعارها

تديرها وجوهٌ وأقنعة لئيمة!!!!

أين تلك أفراح النتصار ؟؟!!!!

أو حتي مأتم الهزيمة؟!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

عجيبٌ أمرنا

نهزم كل لحظةٍ

ولسنا نقيم مأتم الهزيمة!!!!

أوحتي نسرع لنثأر من عدونا !!!

أو نقتل أعداءناونذيقهم الغريمة!!!!

تجرعنا الهزيمة كأسا بعد كأسٍ

حتي نسينا أمجادنا الكريمة!!!!

وتوالت الهزائم وتتبعها الهزيمة!!!!

أعرضنا عن أمتنا الجريحة!!!!!!

أمتنا ....

في غرفة الانعاش......

ولكن اذا ماتت .....

من سيقيم سرادق العزاء ؟!!!

واذا أنقذت ....

من يشارك ....

في أفراح .....

الهزيمة؟!!!!

محبكم في الله:

أبو بكر بن عايد

غبار الهزيمة

مها الجريس

ليس جديداً أن نقول:

إن أمة الإسلام تعرضت للعديد من النكبات والفتن التي عصفت بها وأذاقتها المر والهزيمة على فترات متقطعة من تاريخها المشرق الطويل..

ولن أتحدث عن أسباب ذلك ودواعيه؛ لأن ذلك يطول... غير أن الذي أعنيه هو ما يعقب تلك الهزائم والنكبات من أمور عظيمة ودروس كثيرة..، فبينما ينفض قوم غبار الهزيمة عن رؤوسهم يسارع آخرون إلى حثو المزيد منه على أنفسهم ومن حولهم!!

إننا وبلا شك لم نؤتَ إلا من قبل أنفسنا.. لكن المخجل أن نظل مستسلمين ننتظر من عدونا المزيد.. إن لم نكن نحفر له الخنادق ونرسم له خارطة الطريق!! كم أعجب ولا ينقضي عجبي من قوم ينعقون بما ينعق به الغرب من هجوم على ثوابت الدين ومبادئه. شأنهم في ذلك شأن من يمد طرف الحبل لمن يريد أن يشنقه به!! وشرّ الهزائم على الإطلاق هزائم النفوس.. وتلك التي لا يجبر صدعها..

لم يكن لأبرهة أن يعرف الطريق لولا أبي رغال..

و لم يكن للتتار أن يفعلوا ببغداد ما فعلوا لولا الوزير الرافضي ابن العلقمي... ويبقى أمر الله ــ قبل ذلك وبعده ــ قدرا مقدورا!

فليت شعري.. كم بيننا من ابن العلقمي؟! وكم فينا من أبي رغال؟!

فليس للغرب أن يفهموا ديننا أو يتلمسوا منا الثغرات لولا أبناء من بني جلدتنا تبرعوا بهذه المهمة ونصبوا أنفسهم لها.. بطريقة لا يشم منها رائحة الإخلاص ولا نزاهة النصح.. وشتان بين عتاب الأخ وشماتة العدو..

كل الذي أعرفه:

أن الغضبة على أبي رغال استمرت لأجيال عديدة، فكان الجاهليون يرجمون قبره كلما مروا به..

وأن العدو انقلب على ابن العلقمي فمات كمداً وضيقاً مما لقيه على أيدي التتار الذين ناصرهم.

فمتى يدرك أمثالهم منطق الأعداء وأنموذج هداياه وعطاياه على مر العصور؟!

المصدر : http://www.lahaonline.com

حوار.. على ضفاف الهزيمة

الجوهرة بنت علي النغيمشي

{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (يوسف٥٣)

ألقت عليّ سؤالها

مستوضحة..

ما بال عينك بالدموع الحائرة..

تذكي الجراح الغائرة..
تسقي ربيع العمر فيضاً من هموم جائرة..
تهدي خلاصة عمرها أرض الصحاري المقفرة..
ما بال بسمة ثغرك الفتّان أضحت منكرة..
ما لي أراك وقد تسربلت ثياب الآخرة..
ورحلت عنّي مدبرة..
*****
ألقت علي سؤالها..
متعجّبة..
أهو الهوى يرمي شباك الأسر في بحر جديد!
أهي الأماني تزرع الأحلام في دنيا الوعود..
بل ربما شغل الفؤاد بفارس
كبقية الفتيات في سنّ الورود..
*****
ألقت علي سؤالها مستفسرة..
كانت تظنُّ بأنّ مثلي بالفضيلة تسخرُ..
كانت تظنُّ بأنّ مثلي في المدائح تفخرُ..
كانت ترى زيف الحياة..
لمن بسني يبهرُ..
بل قد تظنُ بأنّني مفتونة بلذائذ..
لا أصبرُ..
فأعبُّ من كأس المعاصي
نشوة لا تكفرُ..
لها عُذُرها..
فشباب أمتي الأباة
تخدّروا..
وعلى ضفاف شواطئ الأحلام..
غرقى.. بُعثروا..
فتناثروا..

*****

ألقت علي سؤالها مستفسرة..

أتراها قد نسيت بأنّي مسلمة؟!

وبأنّ قلبي بالعقيدة قد نما..

سُقياه آيات الكتاب المحكمة..

جهلت بأنّي قصة حبلى..

بآلاف القضايا المؤلِّمة..

*****

أم أنّها تتجاهل الآيات في القرآن..

والآفاق كم هي حالمة..

وتنام ملء جفونها مستسلمة..

وتلوك ذل الصمت في عصر

الجراح المزمنة..

أترى تبيت عَلَى المثالبِ مُدمنَة؟!

*****

ألقت على سؤالها مستفسرة !

يا قلب كيف لها تجيب؟!

أتجيب بالزفرات يُذكيها النّحيب..

وترتّل الآيات حزناً ساجياً..

ينسابُ في الأعماق..

يقطعُه الوجيب..

أتراك يا قلبي تبُثُّ خوالج الوجدان

ما تخشى الخطوب؟!

الصمت يطبق راحتيه..

بجفن أمّتنا..

ويلوي رأسها نحو الغروب..

والخوف يُهدي ليله الدّاجي الدروب..

والصبح يخفي حُسنه

الباكي الكئيب..

خلف اللهيب..
والشمس تقسم أن تظلَّ على شفاه البيد..
حرفاً لا يُجيب..
فهي الحقيقة لن تتوب..
ولن تُطامن للخُطُوب..
كم من بذور الغدر.. يزرعها الغريب..
*****
يا كوثراً ينساب في روحي..
فيرسم لوحة الأمل الجديد..
سيظل إيماني المُرسّخ..
يُسْمِعُ الفجر الوعود..
إنّ المصائب كُلَّما ثارت..
وضجّ القيدُ وانتفض الحديد..
إنّ المآسي كُلَّما عمّت..
وغمّ الصبح..
مهما الكون فجّر أمنه قهر عتيد..
مهما اشتكى للقبر سكّان اللحود..
سأُقيم عند ولادة الألم الجديد..
وأصيح.. إيماني تضمّخ في شغاف القلب..
يستجلي سنا الفجر الوليد..
سأكون رمزاً للصمود..
سأموت..
كي يحيا العبيد!
المصدر : http://www.lahaonline.com

نحن أمة لا تعرف الهزيمة

عندما شنت الإدارة الأمريكية حربها الصليبية على الإسلام بعد هزيمة الدب الأحمر وزوال الشيوعية على يد المجاهدين الأفغان والعرب على أرض أفغانستان المسلمة، ظنت أمريكا أنها في طريقها نحو

تحقيق نصر جديد سيجعلها الدولة القوية الوحيدة في العالم، وسيمكّنها من أن تدير شؤون الأمم بدون منازع أو رادع.

وهكذا بدأت تلك الإدارة المتصهينة حربها المباشرة على أفغانستان المسلمة، إلى أن حققت ما ادعته من نصر على دولة الطالبان الإسلامية والأنصار العرب، بإزالتها للدولة الإسلامية من كابول وتنصيب أحد عملاءها على رأس الدولة الأفغانية المرتدة الجديدة، التي أغدقت الوعود البراقة بتطبيق الديمقراطية، والعيش الرغيد.

لكن وبعد مرور أشهر قليلة، ظهرت الحقيقة والتي ما تزال الإدارة المحتلة تعمل على إخفاءها وهي فشلها في تحقيق أمنها على أرض هذا البلد الأبي.

إن حركة طالبان الإسلامية لم تهزم أبداً، فقد ثبت الآن للجميع بأن انسحابها من المدن كان أمراً تكتيكياً، إذ أنها احتفظت بكامل قوتها وسلامة عناصرها.

كما أن التحالف العسكري الصليبي والمرتد إلى الآن لم يستطع أن يقبض على واحد من أركان تنظيم القاعدة، ولا كبار حركة طالبان.

كما أننا لم نر سوى انتشار الفقر والرذيلة والسرقة والأمراض والانفلات الأمني وإعادة زراعة المخدرات في المناطق التي سيطر عليها التحالف الشيطاني هناك.

هذا فضلاً عن هزيمتها العسكرية المستمرة والناتجة عن تصاعد كبير في العمليات العسكرية التي يشنها المجاهدون ليل نهار على قوى التحالف والتي اضطرتها على الانسحاب من كثير من مواقعها في الولايات الجنوبية والشرقية والوسط على وجه الخصوص، لتقلل من حجم خسائرها البشرية والمادية.

و لم تتفهم الإدارة الأمريكية وتحلل نتائج غباءها عندما فكرت أن تغزو أفغانستان، بل تمادت في غرورها وقامت باحتلال العراق في وضح النهار وبحجج واهية أظهرت نهاية الأحداث كذبها ودجلها.

ومرة أخرى تقوم هذه القيادة المتصهينة باستعمال نفس الأساليب الهمجية المجرمة، من اعتقالات عشوائية للرجال والشيوخ والنساء وحتى الأطفال، وقامت بتدمير للبنى التحتية للعراق، وقتلت وخطفت المئات، ظناً منها أنها بذلك ستثني ذراع الشعب العراقي المسلم وتذله، لكنها غفلت بأن هذا الشعب لم ينس أن أرضه كانت لمئات السنين أرض الخلافة الإسلامية، ولها تاريخ مبارك من التضحية والفداء.

وما هي إلا أسابيع قليلة – بل قل من أول يومٍ للعدوان الصليبي على أرضهم – حتى بدأت المقاومة الجهادية الباسلة من الشعب العراقي المسلم، ضد الكفرة الصليبيين.

فبدأت الطائرات الأمريكية تتهاوى، والدبابات والمدرعات تحترق، وعشرات من جنودها تقتل وتجرح، حينها أحس الجيش المحتل أن الأمر جد خطير، وأهم محتلون وليسوا محررين كما تزعم إدارهم الكاذبة. كما ظهر ذلك للعيان أمام الرأي العام للعالم أجمع.

ولن يؤثر على المقاومة المسلمة وجود بعض المنافقين في صفوف الأمة، ولا مجلس الثورة الشيعي، ولا الملكي ولا غيرهم، ضد المقاومة المسلمة.

إن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تدرك أن معركتها مع الإسلام، دين الله تعالى القويم لا شك أنها خاسرة، و لم ولن تهزم أمة آمنت بهذا الدين القويم وبهذه الشريعة الغراء وطبقتها.

فما على الإدارة الأمريكية إلا أن تراجع حساباتها وتراجع قراءة التاريخ حتى تعلم بأننا أمة لن تهزم أبداً.

ربما تخسر هذه الأمة معركة ما هنا أو هناك، ولكن الأمة لن تخسر في نهاية المطاف، ولهم (أي للصليبيين) في هزيمة أجدادهم الذين قادوا حروباً صليبية كهذه على الأمة الإسلامية، خير دليل على ما نقول.

فالأفضل لهذه الإدارة الإرهابية في واشنطن، أن تدرك أن حربها على الإسلام هي حرب خاسرة لا محالة، ولو طال الزمان أو قصر.

وعليها أن تجمع مرتزقتها وجيوشها وترحل عن أرض الإسلام بلا رجعة، قبل أن يفوتها الزمان وتندم حين لا ينفع الندم.

وعليها أن تنتظر زوال كيانها وقوتها العسكرية والاقتصادية، لأنها إرادة الله تعالى في الظالمين. ولن تنفعها نبوءاتها الخرافية التي تمنيهم بالنصر والسيطرة على العالم أجمع.

هذه حقيقة عليهم أن يدركوها بعد أن ظلموا. حيث يقول ربنا تبارك اسمه وتعالى جده وهو خير القائلين: {وَتِلكَ القُرَى أَهلَكنَاهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلنَا لِمَهلِكِهِم مَّوعِدا} الكهف: ٩٥

المصدر: http://www.islam.org.au

نشوة الهزيمة

يوسف الحجيلان

"نشوة النصر".. مصطلح ذاع وشاع، وعبارة لطالما غنت بها شفاه، وشنفت أسماع.

إن كأس النصر ثورت صاحبها حالة سيكولوجية؛ تجعله يجرُّ رداءه على هام الثريّا، متوشحًا هالة القمر، ومتمنطقًا بأفق الأرض، ولا غرو!

فغبار المعركة، وشلال الدم، وهرير الرجال، وألف ألف حساب؛ جعله في ساعة ما يحسب الأرض تميد تحت قدمه.

أما وقد اكتحلت عيناه بالنصر؛ فغول خمرته أعظم من أن تدفع!

ونشوة رشفته أقوى من أن ترد!

إن نشوة النصر دفعت أولي الأحلام، وعقلاء الرجال إلى أن يكتبوا نصرهم بدم العدو، ولو كان صديق الأمس!

لطالما حرقت نشوة النصر أرضًا!

وهتكت عرضًا!

واستباحت محرمًا!

واستحقرت معظمًا!

* لما دخل عبد الله بن علي دمشق؛ دعا بالغداء، وإن رجال بني أمية تحت البسط لهم أنين!!

ذاك هو السر الذي جعل محمدًا - صلى الله عليه وسلم - يدخل مكة فاتحًا، وإن رأسه لتمس الرحل تواضعًا لله!

فما بال نشوة الهزيمة إذًا؟!!

إنها - وباختصار شديد- حال من اللاّشعور أحيانًا، أو من المنطق المعكوس في أحيان أخرى؛ تجعل أعدادًا لا يستهان بها من المنظِّرين، أو المفكرين، أو الأنصار؛ ينظرون إلى واقع الحياة بعين سوداء؛ حَجب عنها بياضَ المستقبل، ولمعانَ الحق؛ يأس تبطّن في خوف تسلل من خلال قصور نظر، أو مزاجية في الطرح؛ غاب عنها الرأي الآخر؛ فركبت الخطأ بدافع السعي إلى إيقاظ الأمة من غفلتها!

هل تريد رصد أشد جراحات الأمة نزفًا، وأكثرها إيلاما؟!

هل تريد سماع صوت المعذبين، والمقهورين، والمشردين؟!

هل تريد معرفة عدد المقتولين، والمعذبين، والبائسين؟!

هل تريد النظر إلى أماكن البلاء، والدماء، والأشلاء؟!

لستَ بحاجة إلى طبق، أو (رسيفر) فقط: جمعتان، وعيد، ومحاضرة: وإن كان لا بد فشريط.

إنها محطات من الإحباط في أحيان كثيرة؛ يخرج منها أبناء الأمة محبطي الهمم، مطأطئي الرؤوس، يجرون ثوب الأسى، تعرف في وجوههم الكآبة، وتقرأ في بياض شفاههم ما تكن صدورهم، من ألم وحرقة!!

تبدأ الخطبة بنذر حرب!

وتنتهي بحالة مأتم!

وما بينهما طعن وطعان وبكاء وآهات!!

لا يكذب من قال إن الجمعة والعيد اليوم، وفي حالات عدة أيام مناحة للمسلمين!!

تعدد فيها فاجعات؛ تجعل نهاية الخطبة والخلاص من حالة السرد هذه، وما يجللها من نشيج، وبكـــاء، وعويل في حالات كثيرة؛ هدفًا يرنو إليه الكثير من المصلين، الذين طالما حلمـــوا -ولـــو مـــرة- أن يسمعوا ما يبسط أسارير، أو يشق ابتسامة، أو يزيل كآبة!

لكن!!

كيف السبيل؟

وقد قال صلاح الدين: لا أضحك، والقدس في يد الصليبين!!

أسألكم بربي!!

أيها أشد بلاءً؟!!

اليوم؛ والتدين يجتاح معاقل الفسق، والإسلام يزلزل قلاع العلمنة، والحجاب يغزو بيوت التفســـخ، واللحية، والثوب القصير، والسواك، وفوق هذا أمواج المصلين والحجـــاج، والمعتمـــرين، والـــدعاة، والمجاهدين؛ تتدفق كسيل تحدّر من علو!!

اليوم؛ والمعركة في بداياتها، وبوادر نصر تُكتب بقلم تفاؤل، مداده واقع إسلامي، لا تزال صـــحوته غضّة طريّة!!

وبرغم ذلك؛ فرضت نفسها رقمًا في حساب اللعبة؛ جعل أعتى قوى الشر، بل دفع بأحلاف الباطـــل إلى رصّ صفوفها للمواجهة!

وهل كانت ستفعل لولا ما تراه في الأفق من نذر حق؛ قد انعقد غمامه!!

أم الأمس؟!!

يوم الأحزاب، يوم بلغت القلوب الحناجر، وطوق الكفر دولة الإسلام، بحده وسنانه!

حتى قال قائل الصحابة: وإن أحدنا لا يأمن على بوله!

وسيدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يضرب الأرض بالمعول، فينقدح الشرر؛ فيقـــول: الله أكبر فتحت فارس والروم، والله لتنفقن كنوزهم في سبيل الله.

نعم!

ما عندنا من خير عند رسول الله وصحبه في يوم الخندق ما لا يماثله خيرنا ولا يجاريه!

لكن ما عندنا من بلاء لا يجاري بلاءهم، ولا يدانيه، وما نسمعه من الخطباء والوعاظ، و القصاصين من إحباط يتنافى مع ما قاله سيدي في موقف يمتّ إلى واقعنا بكذا سبب!

يطارد – عليه السلام –؛ فيقول: "يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا".

يُقاتل وهو الأقل عددًا؛ فيقول: أبشر يا أبا بكر، ويقول: إني لأرى مصارع القوم!

لا يخبر بالمنافقين إلا واحدا، ويعلن عن أهل الجنة على أعواد المنابر(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

إن القادر على إبكاء الجموع أسى، هو الأقدر على تخريج العشرات من المحبطين والقاعدين!

وإن الأمة في حالة ترنّح بحسب ما يحيط بها من خطوب؛ تجعلها أحوج إلى حقن من المنشطات منها إلى إبر المثبطات!

لن تحتاج إلى جهد كي تسرد على شباب الإسلام قصص الأبطال في صد غارات الصليبيين، والتتار، والاستعمار؛ بل لن تحتاج إلى كبير عناء كي تضع لهم في خطبتك خطة عمل لمشروع يجعلهم ينظرون إلى المستقبل باستشراف أكبر، وأمل أعظم!!

فالنفس البشرية جُبلت على التعامل مع الأمل بروح أكثر عنفوانًا منها مع الألم.

إن طرح المشكلة يجعل السامع يفكر بمشكلتين: الإحباط منها، والحل لما وراءها.

وإن الحديث عن العلاج، والأمل يجعله؛ يفكر بالثانية فقط، وما بين الأمل واليأس حواجز نفسية وشَعَرَات أحاسيس؛ تحتاج فقط إلى قدرة على قنص المشاعر واستدرار العقول!!

١٤٢٥/٢/٢١

٢٠٠٤/٠٤/١١

المصدر: http://www.islamtoday.net

غبار الهزيمة

أ.مها الجريس

ليس جديداً أن نقول:

إن أمة الإسلام تعرضت للعديد من النكبات والفتن التي عصفت بها وأذاقتها المر والهزيمة على فترات متقطعة من تاريخها المشرق الطويل..

ولن أتحدث عن أسباب ذلك ودواعيه؛ لأن ذلك يطول... غير أن الذي أعنيه هو ما يعقب تلك الهزائم والنكبات من أمور عظيمة ودروس كثيرة..، فبينما ينفض قوم غبار الهزيمة عن رؤوسهم يسارع آخرون إلى حثو المزيد منه على أنفسهم ومن حولهم!!

إننا وبلا شك لم نؤتَ إلا من قبل أنفسنا.. لكن المخجل أن نظل مستسلمين ننتظر من عدونا المزيد.. إن لم نكن نحفر له الخنادق ونرسم له خارطة الطريق!! كم أعجب ولا ينقضي عجبي من قوم ينعقون بما ينعق به الغرب من هجوم على ثوابت الدين ومبادئه. شأنهم في ذلك شأن من يمد طرف الحبل لمن يريد أن يشنقه به!! وشرّ الهزائم على الإطلاق هزائم النفوس.. وتلك التي لا يجبر صدعها..

لم يكن لأبرهة أن يعرف الطريق لولا أبي رغال..

و لم يكن للتتار أن يفعلوا ببغداد ما فعلوا لولا الوزير الرافضي ابن العلقمي... ويبقى أمر الله ــ قبل ذلك وبعده ــ قدرا مقدورا!

فليت شعري.. كم بيننا من ابن العلقمي؟! وكم فينا من أبي رغال؟!

فليس للغرب أن يفهموا ديننا أو يتلمسوا منا الثغرات لولا أبناء من بني جلدتنا تبرعوا بهذه المهمة ونصبوا أنفسهم لها.. بطريقة لا يشم منها رائحة الإخلاص ولا نزاهة النصح.. وشتان بين عتاب الأخ وشماتة العدو..

كل الذي أعرفه:

أن الغضبة على أبي رغال استمرت لأجيال عديدة، فكان الجاهليون يرجمون قبره كلما مروا به..

وأن العدو انقلب على ابن العلقمي فمات كمداً وضيقاً مما لقيه على أيدي التتار الذين ناصرهم.

فمتى يدرك أمثالهم منطق الأعداء وأنموذج هداياه وعطاياه على مر العصور؟!

المصدر: http://saaid.net

إذ تمسي ثقافة الهزيمة جزءً من ثقافتنا الوطنية

محمود سلطان

كان ابن خلدون – رحمه الله – أول من لفت إلى أن "ثقافة الهزيمة" لها لغة ومفردات ومصطلحات، تتجلى في ممارسات النخبة التي تكون عادة شديدة التماس مع كل ما هو فكري أو ثقافي أو سياسي. واعتبر "التطبيع الثقافي" من أبرز تجليات العلاقة بين "الغالب والمغلوب"، سيما في مفردات الحياة اليومية: المأكل والمشرب والملبس، وطريقة الكلام والتفكير، والعقائد والفلسفات، وهي علاقة ليست حوارية مؤسسة على "المثاقفة"، وإنما علاقة تبعية وتقليد وإذعان، وهي المحطة الأخيرة في سلسلة الانكساريات المتتالية أمام الغالب، التي تبدأ بالهزيمة العسكرية، لتنتهي بالتسليم بالهزيمة الثقافية. ويرجع ذلك ابن خلدون، إلى أن "المغلوب عادة ما يعتقد الكمال في الغالب المنتصر".

بعد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) ثم هزيمة أحمد عرابي (١٨٤١ ــ ١٩١١) عسكريا و احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، كانت بعض النخب السياسية والفكرية المصرية النشطة والمتنفذة في دوائر التأثير على الرأي العام، البيئة التي تلقت الهزيمة، ليس باعتبارها "حدثا عدوانيا" وإنما باعتبارها "منحة إلهية"، تحمل البشارة "بالانعتاق الثقافي" من أسر ظلمات "العصور الوسطى"!!. وتدفقت التفسيرات التي عزت الهزيمة، إلى تمسك العرب والمسلمين – ليس بالتقاليد والأعراف الجاهلية الدخيلة على الإسلام– وإنما بمرجعيتهم الدينية، حتى وإن كانت في صيغتها النقية، باعتبارها "شرا" لا خير فيها لولوج الأمة آفاق النهضة. ولعلنا نتذكر ما كتبه قاسم أمين (١٨٦٣ ــ ١٩٠٨)، في بداية القرن الماضي، عندما تساءل قائلا: "هل يظن المصريون.. أن أولئك القوم ــ يقصد الأوربيين ــ بعد أن بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء، يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا فيه خيرا؟ كلا! "، وفي الوقت الذي كان فيه

المصريون، يرسلون أطفالهم إلى المدارس القرآنية "الكتاتيب" لتلقي علوم القرآن، أحضر قاسم أمين لطفلته الأولى "زينب" مربية فرنسية وللثانية "جلنس" مربية إنجليزية، وهو مثل انتقيناه من المشهد الثقافي المصري آنذاك، الذي كان في سبيله إلى تدشين أكبر عملية لتغيير هويته الحضارية، لتماثل في معمارها الثقافي والحضاري، ثقافة وحضارة الغالب المنتصر، حتى بات شعار عميد الأدب العربي طه حسين (١٨٨٩ ــ ١٩٧٣)، في مؤلفه الشهير "مستقبل الثقافة في مصر".. هو "أن نحذو حذو أوروبا في حلوها ومرها، خيرها وشرها".

وفي وسط هذا المناخ المكتظ بمشاعر الهزيمة الحضارية أمام الغرب، بات الخطاب السياسي والثقافي العربي، مصدرا يقذف العقل العربي، بحممه الاصطلاحية، والتي كانت في حينها جديدة على الرأي العام، مثل الوطنية القومية (بتجلياتها المختلفة: الأشورية، البابلية، الفرعونية، الفينيقية)، والتنوير.. إلخ. و لم تكن محض مصطلحات وإنما كانت دعوات وحركات وأحزابا وروابط، استقت مفاهيمها ورؤاها من منطلق محاكاة أوربا باعتبارها مركز العالم وقبلته في ذلك الوقت، واعتقادا بان التاريخ قد اكتمل، وبلغ نهايته بانتصار النموذج الأوروبي بأسسه المادية على حضارة الشرق الروحية. ما يعني أن تلك المصطلحات والدعوات، كانت في حقيقتها إحدى تجليات الشعور بالدونية، و التسليم بالهزيمة الحضارية أمام الغرب، فالتنوير لغة وحركة وسياقا تاريخيا، صناعة باريسية، اخترعته "باريس" المنتصرة على العالم العربي، التي دكت جيوشها قاهرة المعز عام ١٧٩٨، وبالت خيولها و جنودها في باحة الأزهر الشريف، واحتلت عددا من الدول العربية. وعلى الجانب العربي كان عنوانا كبيرا من عناوين ثقافة الهزيمة، إذ كان في صيغته العربية، حركة اقصائية، لم تكتف بالتطبيع الثقافي مع الغرب، و إنما تجاوزت ذلك إلى ما هو أبعد، حيث دعت إلى إقصاء الثقافة العربية لصالح الثقافة الغربية، بحيث يحل فولتير، روسو ومنتسيكيو، محل ابن رشد وسيبويه والشافعي وعبد القاهر الجرجاني!!. فالتنوير الذي طرح آنذاك ــ ولا يزال حتى الآن حيا بالأتباع والمريدين ــ كان مؤسسا على "المحاكاة" وليس على "الإبداع"، والمسافة بين الأولى والثانية، تعادل الفارق بين "التبعية" و"الاستقلال". ولما كانت ثقافة الهزيمة، تستند في التنظير لمشروعيتها على نزعة استغلالية، تستغل حالة الشعور العام بفقدان الثقة في قدرة الأمة على الصمود وتجاوز المحنة أو إعادة إحيائها من جديد، فإنها تؤسس لحضورها –

في واقع لم يألف هذا الحضور من قبل– على إحداثيات عدة، أهمها المراوغة والتبرير والتشهير والإرهاب، إنها لا تستطيع محاججة "ثقافة المقاومة" إلا من خلال هذه الأبعاد "الرخيصة": فالدعوة إلى "الوطنية" بمضمونها الانعزالي المغلق، استغلت تحمل الشعوب العربية أعباء سداد فاتورة المواجهات العسكرية العربية في حروب التحرير من الاستعمار في القرنين: التاسع عشر وأوائل العشرين أولا ثم مع إسرائيل لاحقا، لتجد مبرراتها في الاتكاء على مبدأ "المصلحة"، إذ جعلت من الأخيرة معيارها الأساسي في تأطير شكل ومضمون وشرعية العلاقة مع العالم بما فيه العالم العربي والإسلامي، بتنويعاتها

المختلفة ابتداء من التنصل من أي نص دستوري يشير ضمنا أو صراحة إلى الانتماء العربي، وصولا إلى رفض أي شكل من أشكال المساندة المباشرة أو الغير مباشرة للشعوب العربية أو الإسلامية في كفاحها ضد ما يتهددها من أخطار.

إن الوطنية على هذا النحو المتطرف، كانت تطبيعا مع المخطط الغربي، الرامي إلى تفتيت العالم العربي، وتوزيعه إلى مناطق نفوذ بين القوى التي هزمته عسكريا من جهة، وتنصلا من أعباء المقاومة وانتصارا لثقافة الهزيمة من جهة أخرى. ولما كانت ثقافة الهزيمة، تعتمد على لغة مراوغة، وتفتقر في الوقت ذاته إلى منطق التاريخ و"الحق" والجغرافيا، فضلا عن أنها سليلة سياق تاريخي غريب وطارئ، فإنه سريعا ما تتبدى قامتها القزمية، أمام منطق الحق الحاضن لحركات وثقافة المقاومة، ما يجعلها دعوة "تغريرية"، تغرر بأصحابها لاعتماد خطاب دعائي عصبي يعتمد على التشهير بالخصوم و إرهابهم واغتيالهم فكريا ومعنويا: فكل من عارض التنوير بصيغته الانهزامية، فهو ظلامي.. رجعي.. متخلف!!. و من انتقد الوطنية في تقوقعها نحو الداخل، فهو عميل لهذا النظام أو لذاك!!

ولئن كانت "ثقافة الهزيمة" ـــ التي تتمثلها النخبة في دول الهامش ـــ هي وليدة أوضاع دولية، تستأثر فيها قوة وحيدة بالسيطرة على العالم عسكريا وسياسيا و اقتصاديا وثقافيا (لاحظ فتور ثقافة الهزيمة في العالم العربي خلال الحرب الباردة ووجود قوتين تتنازعان الهيمنة على العالم)، فإنها تتبدل مصطلحاتها و تتلون مسمياتها، وفقا للخصوصية الثقافية والحضارية، لتلك القوة الوحيدة، التي رشحتها الشروط التاريخية في حينها، للهيمنة المباشرة أو غير المباشرة على العالم: فالعصر الإمبريالي الذي مثلت "باريس" و"لندن" معا ـــ في القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين ـــ سنامه وقوامه الأساسي، كانت له مصطلحاته، الفرعية ـــ والتي ظهرت في العالم العربي وفي غيره أيضا ـــ سواء في جانبها السياسي (مثل القومية والوطنية) أو في جانبها الفكري (مثل التنوير والعلمانية)، داخل إطار اصطلاحي أوسع يعكس الخصائص الكونية لثقافة الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية مثل: "الفرانكفونية" و"الانجلوسكسونية"، وعلى الرغم من أنها اصطلاحات أفرزتها تداعيات هزيمة العالم العربي عسكريا، إلا أن النخبة لم تخف سعادتها بانتمائها لهذه الثقافة أو لتلك، حتى أن طه حسين لم يتحرج من التباهي بـــ"فرنكفونيته" وكذلك عباس محمود العقاد لم يخف سعادته بـــ"انجلوسكسونيته".

بيد أن "ثقافة الهزيمة" بدلت مصطلحاتها، بعد أن حلت الولايات المتحدة محل أوروبا لزعامة العالم عقب نهاية الحرب العالمية الثانية في منتصف القرن الماضي، ثم اختفاء الاتحاد السوفيتي في مطلع تسعينياته، واستبدل المثقفون العرب مفاهيم "التنوير والحداثة والبنيوية" الباريسية (ثقافة "الغالب" القديم) بنظريات "ما بعد الحداثة" و"التفكيكية" الأمريكية (ثقافة "الغالب" الجديد)، بكل تجلياتها الانهزامية، إذ تراجعت الصرامة في قداسة "الحدود السياسية" و"السيادة الوطنية" للدول، لصالح مفهوم

"العالم ــ القرية"، واستبدال "الإنسان الأيديولوجي" بــ"الإنسان الهلامي"، والتسليم بالعولمة (أمركة العالم)، ليس باعتبارها حالة طارئة فرضها منطق القوة والتفوق التقني، وإنما باعتبارها، وعلى نحو ما ذهب إليه "فوكوياما"، المحطة الأخيرة والنهائية في مسيرة التطور الإنساني، ولعل ذلك هو "أصل" محنة العالم العربي، إذ إنه يستقبل ما ينتجه الغالب ــ المنتصر من مصطلحات ومفاهيم تكون عادة مستبطنة تفوقه واستعلائه الحضاري من جهة، وانتصاره العسكري من جهة أخرى، ثم تستهلكها النخب الفكرية والسياسية العربية، باعتبارها استجابة طبيعية لــ"الواقعية السياسية" أو لــ"العقلانية الفكرية"، رغم أن استهلاكها على هذا النحو الذي لا يقبل مراجعة و يغالي في قداستها، هو في واقع الحال عمل بالوكالة عن "المنتصر" لتجميل الهزيمة ودغدغة مشاعر المهزومين، ولعل اخطر ما في هذه الظاهرة، إنها ــ بتواتر تداولها في النصوص السياسية و الفكرية العربية ــ قد تكتسب في الضمير والوجدان الجمعيين قيمتها الواقعية، وربما تمسى بمضي الوقت ــ وهذا هو الأخطر ــ جزءا أصيلا من ثقافتنا الأصلية.

٢٠٠٤/٠٩/٠٨

المصدر: http://www.alasr.ws

الرد على حكماء الهزيمة

منير شفيق

أصبح من الجلي الآن أن الشروط التي حملتها إدارة بوش للدول العربية بعد العدوان على العراق واحتلاله (سبق وبُلّغت قبل ذلك) قد سقطت في الفلوجة والنجف وكربلاء، بل إن أهداف الحرب على العراق واحتلاله فشلت.

وذهبت كل توقعات الإدارة الأمريكية لعراق ما بعد الاحتلال بدداً، و لم يبقَ منها غير اليسير الذي يراد أن يكبر من خلال وسائل أخرى غير الحرب والإملاء.

ينطبق هذا على الشروط الأمريكية (قائمة الإملاءات) التي قدّمت للدول العربية، كما ينطبق على الموضوع الفلسطيني أكثر حيث بات من الواضح أن كل ما يحدث في القطاع منذ ثلاثة أشهر – في الأقل – قد فقد هدفه السياسي الأساسي، وأصبح محكوماً بروح الانتقام والتدمير والغيظ، مما سيفاقم أزمة شارون والاحتلال (الجيش الإسرائيلي) ولا يحلّها.

صحيح أن الثمن الذي سيُدفع عالٍ جداً سواء كان بفقدان الشهداء القادة الشيخ أحمد ياسين ود. عبد العزيز الرنتيسي وإسماعيل أبو شنب والكوادر، أم بمئات الشهداء والجرحى من الناس العاديين، أم بالدمار الهائل الذي تعرضت له رفح وبخاصة حيّ تل السلطان وحيّ البرازيل، وصحيح أن الجرح في قلوب الفلسطينيين والعرب والمسلمين صار أعمق، والغضب أشدّ اشتعالاً، إلا أن ما يجري لا مفرّ منه

ما دام العدو هو المشروع الصهيوني، وما دام مناصروه من الدول الكبرى لا يستطيعون أن يردّوه مهزوماً أمام المقاومة والانتفاضة والشعب الفلسطيني، وهو ما أعطاه إجازة ليرتكب كل ما عرفته رفح، وقبلها غزة؛ من جرائم حرب وسفك دماء ودمار، ومع ذلك فإن قرار الهزيمة اتخذ على شكل انسحاب من طرف واحد دون قيد أو شرط، كما أن قرار انسحاب القوات الأمريكية وضع على أجندة العراق، كما غدت قائمة الإملاءات الأمريكية على الدول العربية مطروحة على الطاولة، وكانت قبل بضعة أشهر غير قابلة للتفاوض (إما أخذها كلّها وإما فلا).

هنا يأتي دور (الحكماء) الذين ابتلعوا ألسنتهم قبل الوصول إلى تلك النتيجة تاركين المجال لبوش وشارون ليحققا أهداف هجمتهما، لكن عندما انكسرت الهجمة، وبدت في الأفق إشارات هزيمة في فلسطين والعراق جاء دور (الحكماء) الذين يريدون إنقاذ الوضع، وبالتحديد إنقاذ شارون وبوش تحت حجة الخوف من الفوضى ومن الإرهاب في حالة انسحاب القوات الأمريكية من العراق، أو تنفيذ شارون لخطة الانسحاب من قطاع غزة بلا قيد أو شرط.

وبكلمة أخرى حرمان الشعبين الفلسطيني والعراقي من الانتصار عبر مساومة تتنازل فيها أمريكا عن (العُشر) وتستبقي التسعة أعشار، علماً أنها كانت خاسرة تماماً، فيا للحكمة، ويا لإنقاذ الوضع.

ومن هنا فإن من يتابع التعليقات والتصريحات التي عجّت بها أجهزة الإعلام يجد أن صوت أولئك (الحكماء) أخذ يعلو كأنهم هم الذين قاتلوا في الفلوجة والنجف وكربلاء، أو هم الذين كانوا في قلب الانتفاضة والمقاومة والصمود في فلسطين، أو هم الذين كانوا يضغطون ضدّ تلبية الدول العربية لقائمة الشروط الأمريكية، ولهذا توجّب الرد عليهم، وضرورة التعبئة في هذه المرحلة ضد الاستجابة لهذه (الحكمة) التي يمكنها أن ترمي طوق نجاة مؤقت لأمريكا، لكنها ستزيد من أزمة الوضع، وترفع من وتيرة الشهداء والدمار، لأن من غير المعقول كما من غير الممكن أن يحقق بوش وشارون من خلال (حكمتهم) ما لم يحققاه من خلال الصاروخ والدبابة، وليعودا سيرتهما الأولى من جديد وفي أسرع الآجال، وهؤلاء الحكماء يستندون إلى ما يلي:

أولاً: أن نظرية وقوع العراق في الفوضى، وتحوّله إلى مسرح للإرهاب إذا انسحبت القوات الأمريكية ليست صحيحة، وإن بدت في الظاهر منطقية، فالفوضى خرجت بسبب وجود الاحتلال الأمريكي، وإذا صحّ أن القوى التي ارتكبت أعمالاً إجرامية إرهابية في العراق مثل: زرع القنابل، أو إطلاق قذائف على الحشود في عاشوراء، أو ارتكبت جرائم الاغتيالات، أو ضربت ضدّ مراكز الشرطة، أو هيئة الأمم أو السفارات؛ هي من التنظيمات المشار إليها بالإرهابية؛ فحتى هذه جاء بها احتلال العراق، وسمح بها مناخ الإرهاب الذي مارسه الاحتلال ولم يزل، ابتداء بالقتل والاعتداءات، والنهب وتدمير الدولة، ومروراً بالقصف العشوائي والقنص كما حدث في الفلوجة والنجف وكربلاء وبغداد والأنبار، وانتهاء (ليس بمعنى النهاية) بالجريمة المروعة التي ارتكبت بحق عرس في قرية القائم.

هذا ناهيك عن الفضائح الأمريكية في سجون ومراكز الاعتقال ومثالها سجن أبو غريب، وهذه بالصورة والصوت.

علماً أن تضخيم دور تلك القوى إن وُجدت حقيقة (لأن الأعمال المشار إليها تدخل في دائرة الشبهات التي تصل إلى الموساد) يكذبه ما تكشفت عنه معارك الفلوجة والنجف وكربلاء، مما يؤكد أن القوى التي وراء المقاومة الحقيقية ضد الاحتلال الأمريكي على اختلاف توجهاتها نابعة من الشعب العراقي، وملتزمة بخط سياسي لا علاقة له من قريب أو بعيد بما تعبّر عنه البيانات الصادرة عن تنظيم (القاعدة)، أو عن الزرقاوي، أو أسماء أخرى مشابهة، كما أن الإشارة إلى المتطوعين العرب وأعدادهم أبطلت صدقيتها الفلوجة ناهيك عن الأنبار والموصل والنجف وكربلاء والناصرية والبصرة وبغداد، فالشعب وممثلوه وأبناؤه كانوا المقاومة (بكل أشكالها التي يجيزها الشرع).

وباختصار نحن أمام فزاعة كاذبة، وتقدير موقف وهمي، هذا إذا أحسنّا الظن، علماً أن ثمة خشية من أن يكون الدافع وراء التخويف من انسحاب قوات الاحتلال من العراق هو الخوف من الشعب العراقي، ومن تمكّنه من بناء عراق بعيد عن الهيمنة الأمريكية، وبقيادة قوى ممثلة حقاً لغالبية الشعب، وهذه هي الضمانة الفعلية لحماية العراق من أن يصبح مرتعاً للإرهاب والفوضى، وهذان (الإرهاب والفوضى) لا يترعرعان إلا في المياه العكرة التي نموذجها كل حوض تحركه العصا الأمريكية والصهيونية.

أما حجة الفوضى والإرهاب فكيف يمكن أن تطبق على قطاع غزة في حالة انسحاب القوات الإسرائيلية مهزومة منه وبلا قيد أو شرط، فمن جهة لم تعرف تجربة انتفاضة الأقصى والمقاومة في فلسطين ذلك النمط من التنظيمات التي تتبنّى عمليات من طراز ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا، أو ١١ آذار/مارس في إسبانيا، أو تفجيرات عاشوراء في العراق، أو الاغتيالات بسبب المواقف السياسية أو الانتقام (أو لأي سبب كان)، فالقوى التي سترث الاحتلال في فلسطين معروفة، ولا يستطيع أحد أن يتهمها بأنها ستجعل من الأراضي التي ينسحب منها الاحتلال مرتعاً للإرهاب أو الفوضى.

ومن ثم فإن الذين يريدون أن يدعموا (حكمتهم) بفزاعة الإرهاب والفوضى في حالة نزول هزيمة بقوات الاحتلالين في العراق وفلسطين إنما يقيمونها على أرجل خشبية لا تقوى على الصمود حين يُردّ عليها بقراءة الواقع كما هو.

ثانياً: الحجة الأخرى تنطلق من أن الإدارة الأمريكية في مأزق، وهي مستعدة للتراجع جزئياً (وهذا عظيم جداً وفرصة!)، وقد حوّلت ملف العراق وفلسطين والشرق الأوسط الكبير (ملف الدول العربية) من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد إلى وزير الخارجية كولن باول (وهذه فرصة!)، ولهذا فإن الحكمة تقضي بضرورة اغتنام هذا التحول (الهام) الذي كشف عنه عدم استخدام الفيتو الأمريكي

ضد قرار مجلس الأمن الذي طالب الدولة العبرية باحترام التزاماتها الدولية في رفح، أو كما تكشف قبولها بوساطة الأخضر الإبراهيمي في العراق.
حسناً: ما المطلوب؟ (الحكمة) تقتضي وقف المقاومة والانتفاضة والتسليم بتهدئة كل شيء على ضوء خطة شارون في فلسطين، والسير وفقاً لاقتراحات الإبراهيمي في العراق، أما على مستوى لبنان وسوريا فمن الممكن التقدّم بتنازلات لا تجعل الأمريكيين يتمسكون بكل شروطهم، فيكفي في كل الحالات أن يتمسكوا بتسعة أعشارها ويتنازلوا عن العشر للإبراهيمي ولمجلس الأمن وللدول العربية المعنية حتى تتحقق الصفقة الرابحة، وتلكم الحكمة في هذه المرحلة التي تواجه فيها إدارة بوش المأزق الخانق.
وإذا كان هناك من سيقول إن بوش سيعود سيرته الأولى بمجرد خروجه من المأزق وإعادة انتخابه، فإن الحكمة تقتضي أن نكسب هذه اللحظة الآن ويبنى عليها بعد ذلك، وبهذا يكون منطق أولئك (الحكماء) هبط بهم إلى الدرك الأسفل عندما يلخصون (الحكمة) السياسية بإنجاز وهمي وخاسر ومؤقت، خوفاً من النتائج غير المحسوبة لهزيمة الاحتلالين، أو لفشل سياسات بوش (الشرق أوسطية).
من هنا فإن التقدير الصحيح للموقف والذي يقول إن الظرف الراهن فلسطينياً وعراقياً وعربياً وإقليمياً، ورأياً عاماً عالمياً، وفي مقابله الظرف الخانق الذي يواجهه بوش، فشل عسكري وسياسي في العراق وفلسطين، وفضائح يندى لها الجبين، وعدم قدرة على تفاهم حقيقي مع حلفاء يريدون إنقاذه من نفسه، ويخافون عليه من هزيمته، إلى جانب أزمة داخلية حيث اهتزت شعبيته، وارتفعت أسهم منافسه، ثم مأزق حليفه شارون الذي إذا واصل ارتكاب جرائم الحرب عمّق مأزقه، وخرّب على بوش أكثر، وإذا تراجع كانت هزيمة مجلجلة، ولهذا فإن الحكمة الحقيقية تقتضي عكس تلك (الحكمة) المزيّفة ألا ينقذ بوش وشارون من الهزيمة، وعدم الخوف من النتائج من خلال التهويل بفزاعة الفوضى والإرهاب.
المصدر : http://www.fm-m.com/٢٠٠٤jun/story٢٠٠٤/١٦htm.

الإسلام : أمل فلسطين بعد عشرين عاما على الهزيمة

بمناسبة مرور الذكرى العشرين لحرب حزيران ١٩٦٧ حذرت الحكومة الإسرائيلية خطباء المساجد في مدن وقرى فلسطين من أن يشيروا إلى الاحتلال الإسرائيلي، أو يحرضوا الناس على ما من شأنه أن يبث الوعي بينهم، وينبههم إلى حقوقهم الأساسية المنهوبة من قبل العدو اليهودي.
و لم تكتف سلطات الاحتلال بالتحذير، بل إنها استجوبت بعض هؤلاء الخطباء عما ينشرونه بين الناس من أفكار رافضة لكل أشكال الهيمنة والاحتلال.
ومناسبة يوم الخامس من حزيران لا ينبغي أن تمر دون أن يشار إلى مجموعة من الحقائق التي تتعلق بها.

– لابد من الإشارة إلى أن الهزيمة عام ١٩٦٧ أمام اليهود، ومن قبلها هزيمة عام ١٩٤٨ كانت هزيمة أنظمة، وليست هزيمة شعوب، تلك الأنظمة التي جثمت على صدر شعوبها، وبدل أن تكون حارساً أميناً، وراعياً رحيماً، كانت على خلاف ذلك، فلا هي تسلمت هذه الأمانة الثقيلة بجدارة، ولا هي حافظت عليها بحرص وحصافة، وإنما أذاقت محكوميها المرَّ كله، وجردها من كل معاني العزة والكرامة، وداست كل حرمة في سبيل الحفاظ على هيمنتها وتحكمها وامتيازاها التي اغتصبتها من حق الشعوب المسكينة المسوقة بالحديد والنار إلى مالا تريد.

وإن تعجب؛ فإن أعجب العجب ما بلغته هذه الأنظمة المهزومة التي كانت بادية العري لكل ذي مُسكة من عقل، فأصبحت بعد هزيمة ١٩٦٧ مكشوفة السوءات لكل ذي عينين؛ حيث ادعت أن هدف إسرائيل (كان) إسقاط هذه الأنظمة التي هي رأس مال كل مجد وعزة لشعوبها (! !) ولكن الله قدر ولطف! فلم تستطع إسرائيل تحقيق هذا الهدف الإستراتيجي! في حين احتلت الأرض وشردت ناسها، ولكن ذلك لا يعتبر شيئاً، وليس خسارة تقاس بالكسب الذي تحقق، وهو خروج هذه الأنظمة سليمة معافاة من هذه المحنة! !.

أرأيت هذه القِحّة؟ ! وهل هناك صفاقة إعلامية تعدل هذه الصفاقة؟ !.

– في الوقت الذي بنت فيه إسرائيل دولتها على أساس من إيماها بالتوراة المحرفة، وجعلت عقيدها الدينية هي المحرك الفكري الذي تنطلق منه وتعتز بباطلها أشد الاعتزاز، وتعلن بذلك أمام سمع العالم وبصره، ترانا على المستوى الرسمي –نحن الذين هزمتنا إسرائيل بمثل هذه العقيدة العنصرية الباطلة، وبمثل هذا الزور المفضوح– ضائعين تائهين نتسول الأفكار والمذاهب من عتبات الشرق والغرب، ونلبس المرقَّعات التي يفصلها لنا أعداؤنا الذين لا يريدون لنا خيراً، فنبدو كمجموعات من المتسولين الأذلاء، فاقدي الحس والكرامة.

ولكن رغم هذه الصورة القاتمة التي يعكسها إعلامنا، ورغم الحرب التي يعلنها على الإسلام أعداؤه في الداخل والخارج، ورغم الاحتلال الصهيوني الذي يحاول أن يلغي هوية الشعب الفلسطيني وينكر عليه أي انتماء فإننا نجد هذا الشعب أكثر ما يكون تمسكاً بحقوقه، وكذلك فإن بوادر رجوعه إلى الإسلام يحس بها كل من يرصد الاتجاهات الفكرية التي تحرك هذا الشعب.

– والعودة إلى الإسلام تتجلى بالإحساس العميق الذي أخذ يشعر به الجيل الجديد من أبناء فلسطين؛ من أن له هوية قد منع من التعبير عنها لمدة طويلة، وله عقيدة تمده بكل عوامل الصمود في وجه التحديات.

وأن هذه العقيدة –وهي الإسلام– هي العقيدة الوحيدة القادرة على التصدي للعدو الذي فشلت في صده كل النظريات والأيديولوجيات والأفكار التي قوبل بها حتى الآن.

وهذه العقيدة لا تعوزها الاستدلالات الملتوية، ولا الدعاية المركزة من أجل غرسها وتحبيب الناس بها، بل هي مركوزة في ضمير هذا الشعب وفي وعيه الباطن، والتفاتة بسيطة إلى الماضي كـي يكتشف أبسط الناس ثقافة في فلسطين وفي غيرها أن هذه البلاد قد تعرضت لهجوم صليبي استيطاني شرس في السابق، وأنها وقعت ضحية الفرقة والتناحر التي ضربت العالم الإسلامي، وبعد مدة طويلـة عندما استفاق الوعي الإسلامي، وأخذ المسلمون بأسباب النصر من الرجوع إلى الله والإعداد الجاد طـردوا الصليبيين شر طردة، واقتلعوهم من هذه الأرض التي دنسوها لفترة ليست بالقصيرة.

والرجل العادي حينما يتذكر ذلك يتذكر ببساطة أن الجحافل التي نظفت فلسطين وباقي بلاد الشام من رجس الصليبيين كانت تفعل ذلك باسم الله، وتحت راية الإسلام، وتتخذ من مصطلحاته زادها الفكري والتعبوي من مثل الجهاد والمرابطة، والذود عن حياض الإسلام، وتطهير مسرى النبي – صلى الله عليه وسلم –، وإعادة الأرض التي بارك الله فيها إلى حظيرة ديار الإسلام..

وأن سنين طويلة منذ أوائل هذا القرن، من التبعية للغرب ولرموزه، ومـن الجـري وراء سـراب الشعارات التي يرفعها أعداء الإسلام من شتى الألوان والاتجاهات، يستغلون ويخـدعون بهـا ذراري المسلمين؛ لم تورثنا إلا ذلاً على ذلك، ولم نجن من وراء سرابها إلا الخيبة والخذلان على كل صعيد!.

كل ذلك جعل أهل الحق يحاولون نفض الغبار والتراب الذي أهاله أهل الباطل عليه، ممـا نقـرأه أو نسمع عن أنبائه في داخل فلسطين المحتلة.

* هذه العودة المباركة إلى الإسلام تلقى حرباً من جهتين: فاليهود وحلفاؤهم يتخوفون مـن آثارهـا ويرصدونها بعيون مفتوحة، ويحاولون الوقوف في طريقها بشتى الوسائل، مثل التعتيم الإعلامي الـذي تعامل به، وذلك التشويه الذي يمارس ضدها.

وهذا طبيعي بالنسبة لليهود فهل يعلمون أن العقيدة الوحيدة التي لا ينطلي على معتنقيهـا كيـدهم وغدرهم هي العقيدة الإسلامية، وأن عدوهم الأول الإسلام، وصدق الله القائل: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا) [المائدة / ٨٢].

على أن الشيء المؤسف هو معاداة التوجه الإسلامي بين العرب في فلسطين من قبل أدعياء الوطنية من العلمانيين والمرتبطين بهذه الجبهة أو تلك ممن يتاجرون بالقضية الفلسطينية، والذين افتضح إفلاسـهم وتضخيمهم لأدوارهم وألاعيبهم لكسب الأنصار والأعوان.

ومما يثير الأسى ويؤلم الفؤاد ما كتبه صحفي فلسطيني –ممن تدفع لهم منظمة التحرير وتنفـق علـى صحفهم في الضفة الغربية– ناعياً على أصحاب هذا التوجه الإسلامي من أهل فلسـطين، ومعتـبراً خطورة فكرهم قد تفوق الفكر الصهيوني، وإذا عرفنا سبب هذه الحملة التي يحملها هذا الصـحفي وأمثاله على التوجه الإسلامي الفتي في فلسطين بطل عجبنا وزال استغرابنا.

فتنامي التيار الإسلامي في فلسطين يهدد بسحب البساط من تحت الذين يحتكرون ادعـــاء مقاومـــة إسرائيل في العلن، بينما هم يلتقون معهم في السر [انظر ما نشر من كتاب يوري أفنيري: صـــديقي العدو].

وكذلك فإنه لا يروق لأمثال حنا سنيورة وإلياس فريج أن يروا للمسلمين أثراً ولا أن يســمعوا لهــم صوتاً، كي لا يفقدوا مبرر وجودهم وعيشهم على ما تقدمه منظمة التحرير من رواتب وامتيازات.

- تبقى هناك كلمة أخيرة حول النشاط الإسلامي في فلسطين، فهذا النشاط هو معقد الأمل بالنســبة لغالبية المسلمين في كل بقاع العالم من أجل تحرير فلسطين.

وهذا البعث الإسلامي الذي يبشر بخير هو الجدير منا بكل مساندة مادية أو معنوية، وينبغي التنويه به وتسديد طريقه نحو سلامة التصور ووضوح الهدف.

أما سلامة التصور فتتلخص في اتخاذ الإسلام القائم على كتاب الله وسنة رسوله والانطلاق من هـــذا الأساس الواضح لفهم الإسلام، والبعد كل البعد عن ما يخالف ذلك من المناهج والســبل، وكـــذلك عدم الانخداع بكثير ممن يحملون الراية الإسلامية ليغطوا بها كراهيتهم الدفينة للإسلام وحقدهم القديم على العرب -حملة الإسلام للعالمين- كالشعوبيين والباطنيين الذين يفوقـــون في خطـــرهم اليهـــود والنصارى والملاحدة لأن هؤلاء كراهيتهم معلنة ممكن اتقاؤها، أما أولئك فعداوتهم باطنة قد تخفى أو تغيب عن كثير من ذوى النوايا الطيبة.

وكلنا أمل في أنه لو قيض لأصحاب الصوت الإسلامي النقي -ممن يرزحون تحـــت نـــير الاحـــتلال الإسرائيلي والقهر اليهودي، ومن إخوانهم في المهاجر في شتى بقاع العالم- القيادة الحكيمة التي تجمع كلمتهم على التقوى والمنهج الإسلامي الصحيح، بعيداً عن أصحاب الأهواء من مستغلين ومبتدعين، وبعيداً عن تجار الجماجم الذين انكشفت خزاياهم؛ لو حصل ذلك -وما ذلك على الله بعزيز- لزالت أسطورة (إسرائيل) من الوجود كما زال كثير من الأساطير التي كانت في يوم من الأيام حقائق.

فنسأل الله لإخواننا في فلسطين المحتلة السداد والثبات والرشاد بمنه وكرمه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

الهزيمة والنصر تاريخ وتحليل (١)

د. علي بن عمر بادحدح

الحمد لله وبعد:

قدمت الهزيمة لأن لها ظلال في الحاضر وأخِّر النصر لأنه أمل المستقبل بإذن الله – سبحانه وتعـــالى –، وقدم التاريخ الماضي ليكون عوناً على تحليل الحاضر والغاية من هذا الموضوع هو استقراء يمليه علينـــا منهج القرآن الكريم لما وقع من الأحداث ليستنبط منها طريق النصر ويعرف من خلالها ثغرات الهزيمة،

والله – سبحانه وتعالى – كثيراً ما ذكر في القرآن الدعوة للمؤمنين (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) حتى يكون لهم موضع عبرة..

ولأن لله – سبحانه وتعالى – سنة جارية لا تتغير (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) وهذه السنة تكرر وفق ما ذكر الله – جل وعلا – في كل زمان ومكان ولذا قال القائل

اقرأ التاريخ إن في التاريخ عبر***ضاع قوم ليس يدرون الخبر

وأمة ليس لها تاريخ وماضي لن يكون لها مستقبل، والقرآن العظيم حينما قص قصص الأنبياء والمرسلين نبه على ذلك بقوله – جل وعلا – (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) ليعلم الإنسان أن ما ذكر الله – جل وعلا – من قصص الغابرين وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وما جرى عليهم من قدر الله – سبحانه وتعالى –، الذي نصر المؤمنين وأذل الكافرين والمعرضين ليعلم أن هذا درس يتكرر متى وجدت أسبابه تكررت نتائجه.

وهذا نهج قرآني ظاهر في الآيات كلها وفي قصص القرآن على وجه الخصوص، ومن هنا لنا وقفات تاريخية نلتمس منها العظة والعبرة ونقف في المواطن الفاصلة او الوقائع ذات الأثر الكبير سواء كانت سلبية أو إيجابية.

بشائر النصر تترى قبل بداية المعركة

مصارع القوم

ولذلك أول وقفاتنا مع سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ أعلن – عليه الصلاة والسلام – في غير ما موضع أعلن النصر قبل بداية المعركة، وهذا لا بد أن يكون موضع لفت نظر وتأمل عند العبد المؤمن فإنها ليس خاصية النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا دعاءه المستجاب، ولكنه النظرة التي حينما يتفحص العبد المؤمن أسباب النصر ويراها فإنه يغلب على ظنه جيران سنة الله – سبحانه وتعالى – بالنصر، فإن محمدا – صلى الله عليه وسلم – لما خرج يوم بدر و لم يكن يبغي قتالاً ثم قضى الله – جل وعلا – بلقاء الفريقين وتوجه – عليه الصلاة والسلام – في ذلك الدعاء المتبتل وتلك النداءات والمناجاة التي استنزل بها نصر الله – جل وعلا – بعد ذلك حينما رجع إلى أصحابه كان يقول – عليه الصلاة والسلام – (أبشروا فوالله إني لأنظر إلى مصارع القوم)وحدد مقتل فلان ومقتل فلان هنا ومقتل فلان هنا، وما ذلك إلا لأنه – عليه الصلاة والسلام – رأى من أصحابه إيماناً ويقيناً قوياً ورأى منهم وحدة وتماسكاً وطيداً ورأى منهم همة عالية ورأى منهم بسالة وشجاعة كبيرة، فرأى بشائر النصر ظاهرة للعيان وكان تثبيت الله من قبل ومن بعد مؤيداً لذلك، ومن هنا كان النصر الذي وقع مطابقاً لما قاله – عليه الصلاة والسلام –.

أبشروا بالنصر

ويوم الخندق يوم اجتمعت على المسلمين شدة البرد مع شدة الجوع مع شدة الخوف وصور القـــرآن الكريم صورة المسلمين حينما التف واحتف بهم الأعداء من كل جانب (إذ جاؤكم من فوقكم ومـــن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونـــا) في هـــذا الكـــرب العصيب وفي هذه الشدة القاسية نبى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نبأ نقض بني قريضـــة للعهد، وكان ذلك بمثابة الطعن من الخلف وكان بمثابة الزعزعة الشديدة التي فاقت كل ما مضى من قبلها ومع ذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما لحن له السعدان – رضـــي الله عنـــهما – وعلم من قولهما نقض قريش للعهد، كان يكبر – عليه الصلاة والسلام – ويقول الله اكبر الله اكـــبر ابشروا بالنصر، في هذه الشدة العصيبة يبشر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالنصر ويثبت الأقـــدام والقلوب ويربط على العزائم وعلى الهمم، وما ذلك أيضاً إلا لأن الأسباب التي ذكرها الله – سبحانه وتعالى – للنصر كانت أيضاً رغم كل هذا ظاهرة للعيان في ثبات وإحتمال وصبر أصحاب محمـــد – صلى الله عليه وسلم –.

والله إنكم لمنصورون

ولذلك مرة أخرى يعلن النبي – صلى الله عليه وسلم – النصر قبل المعركة وحتى نعلم أن القضية إنما هي إستقراء لأسباب النصر وحسن ظن بالله متعلقة بالنبي – صلى الله عليه وسلم –، فإننا نرى موقفاً تاريخياً نذكره هنا فيه ذكر للنصر قبل نشوب المعركة، وذلك كان جلياً في موقف شيخ الإسلام ابـــن تيمية في مواجهة المسلمين للتار في ما قبل معركة شقحب وسيأتي لنا ذكر لها، كان رحمة الله عليـــه يطوف بالجند وبفرق الجيش وهو يقول " والله إنكم لمنصورون في هذه الكرَّة " ويحلف على ذلـــك بجزم شديد، حتى إن بعض الناس يراجعونه ويقولون له قل إن شاء الله فيقول " إن شاء الله تحقيقـــاً لا تعليقاً " ويقسم على ذلك وهذه فراسة المؤمن وكرامة عبد صالح ولكنها بصيرة عـــالم بســـنة الله – سبحانه وتعالى –، لأنه رأى أن العزائم قد شحذت ورأى أن الإيمان قد اتقدت ناره في القلوب ورأى أن العزة قد جرت مع الدماء في العروق، رأى كل ذلك وثبت الله المؤمنين فبشـــرهم بالنصـــر قبـــل نشوب المعركة.

وهذه المواقف نستجلي منها أمراً واحداً لأننا ندخل هنا في التفاصيل من حيث القـــوة المتكافئـــة ولا الظروف المناسبة وإنما رأينا فقط ومضة النصر في هذه البشائر، لماذا لنعلم أو لنستخلص أن القضية في النصر والهزيمة إنما هي من الداخل، إنما النصر نصر النفوس ونصر الهمم ونصر العزائم، وإنمـــا أيضـــاً الهزيمة هي هزيمة النفوس وهزيمة العقائد وهزيمة العزائم والهمم.

وكذلك كما كان في النصر بشارات قبل نشوب المعارك، كذلك كانت الهزائم حينما تضعضـــعت النفوس، كانت الهزيمة تأتي وتعلن بذورها قبل أن تثار غبارها، وهذا يدلنا على الحقيقة التي نحـــب أن

نؤكدها وهي أن القضية متعلقة بإيجاد أسباب النصر وأعظمها إنما هو متعلق بالقلب والنفس والحقائق الإيمانية التي تفعل فعلها في نفوس المؤمنين.

النصر رغماً عن الهزيمة

حمراء الأسد

ولنا من بعد ذلك وقفة أخرى تؤيد هذا الجانب، وهي النصر رغم الهزيمة، فإن المسلمين مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في يوم أحد كتب الله لهم النصر في أول المعركة، ثم جاءت أحد أسباب الهزائم مخالفة أمر الله وأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – وخالف أقوام؟ كما تعلمون. ثم أراد الله – جل وعلا – أن يربي أصحاب محمد والأمة المسلمة من بعده أن كل مخالفة يقع بها من بلاء الله وقضاءه ما يقضيه وتقدره حكمته – سبحانه وتعالى –، فكانت الكرَّة في آخر الأمر على المسلمين، وأثخنوا جراحا؟ واستشهد منهم سبعون وجرح منهم من جرح.

ثم ماذا من بعد رجع المسلمون واقتنص كفار قريش هذا النصر الذي لم يكن من قوتهم ولا بإحكام عدتهم وخطتهم ولا كذلك بقوة نفوسهم وعزيمتهم، ولا بصحة عقيدتهم ووفائهم وإنما كان ناشئاً من خطأ في الجانب المقابل من معصية في جانب الصف المؤمن المسلم، ولذلك هؤلاء الذين حل بهم هذا المصاب العظيم رجعوا إلى المدينة ثم نادى النبي – صلى الله عليه وسلم – في اليوم القابل في اليوم التالي مباشرة أن يخرج من كان معه ممن شهد أحداً وأن لا يخرج معه غيرهم وأين يريد محمد – صلى الله عليه وسلم – وأي شيء يريد، وقد إثخنت الجراح وسالت الدماء وفي النفوس ما فيها من حزن على من مضى وفي النفوس ما فيها من حزن على من مضى ومن أسى على ما وقع من المخالفة، لكن النفوس التي كانت عامرة بالإيمان قوية في إستجابتها في أمر الله وأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكانت تلك المرحلة إنما هي كما يقال لكل جواد كبوة، قامت كأنما ما مسها من ضر وما سالت لها دماء وما أصيبت بجرح، وما تأثر بشيء من الأمور، فخرج صحابة رسول الله وما تخلف أحد، وما خرج معهم أحد ممن لم يشهد أحداً وقد صور القرآن هذا المشهد بقوله – عز وجل – (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال في شأنهم أيضاً (الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) الذين استجابوا مع هذه المعاناة دل على أن هذه النفوس لم تهزم، هزموا في مرحلة عابرة هزموا في صورة ظاهرة لكن في حقيقة النفوس وقوة العزائم لم تكن هناك هزيمة.

وإذا بقي هذا الجانب لم يصله أثر الهزيمة فإن الأمر إلى خير إن شاء الله وإن الجولة وشيكة في أن ينتصر المسلمون مرة أخرى، وماذا كان الحال أبو سفيان رجل عسكري حربي راجع نفسه، قال ماذا فعلنا؟ أخذنا القوم على غرة، وما قتلنا قادتهم وما دخلنا مدينتهم، أراد أن يرجع ليستأصل شأفة المسلمين ببعض ما ظن أنه قد أوقع من هزيمة في النفوس وما شحذ به عزائم أصحابه من هذا النصر

الباهت الهزيل، وأراد أن يرجع فلقي أبا مُعَيْط وكان قد رأى أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وهم خارجون فقال ما خبر أهل المدينة قال لقد رأيت محمدا – صلى الله عليه وسلم – يجهز أصحابه وهم خارجون في إثركم، فانسحب أبا سفيان قانعاً من المعركة بهذه الجولة الصغيرة خوفاً من أن يحرم هذا النصر وأن يغلب من جديد كرة أخرى، وأقبل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى حمراء الأسد فضرب بها خيامه وأقام بها أياماً ينتظر القوم أن يأتوا ولكنهم هزموا في نفوسهم وولوا الأدبار وما رجعوا فهذه معركة فيها نصر رغم الهزيمة، لأن النصر إنما هو في داخل هذه النفوس المؤمنة.

إسترجاع بيت المقدس خلال عامين

والأمر أيضاً ظاهر في بعض الجولات في الأمة المسلمة ربما نشير إليها الآن سريعاً ويأتي ذكرها تفصيلاً، سقط بيت المقدس في أيدي النصارى في عام ٤٩١ هـ وبعد سنتين كانت وقعة بين المسلمين وبين النصارى الذين انتشوا وانتصروا وقتلوا وتمكنوا وكانت لهم أمارات في عكا وفي حيفا وفي الساحل والتقوا مع فئة من المسلمين بعد عامين عام ٤٩٣ هـ وكانوا ثلاثين ألفاً أي النصارى، ولقوا المسلمون وهم أقل منهم عدداً ثم انتصر المسلمون وقتلوا النصارى عن بكرة أبيهم وما بقي منهم إلا ثلاثة آلاف ما منهم إلا وهو جريح، إذاً كان إنتصاراً ساحقاً، كيف لأمة حصل لها ما حصل أن يكون فيها هذا الأمر بقدر ما يكون في الأمة من أسباب النصر والعزائم والنفوس المؤمنة بقدر ما يتحقق لها المكافأة.

ردع التتار

وكذلك الأمر في جولة أخرى في عام ٦٥٦ هـ كان سقوط بغداد في أيد المغول الذين كانوا مثالاً في الهمجية والوحشية كما سيأتي وصف ذلك، ومن بعد في عام ٦٥٨ هـ بعد عامين من سقوط بغداد، إذا بهؤلاء المغول الذين دمروا شرق العالم الإسلامي كله اكتسحوا الأخضر واليابس ما سلم منهم شجر ولا حجر ولا نهر ولا بحر يقف أمامهم المسلمون في عين جالوت فيكسروهم كسرة كانت من أعظم وقائع الإسلام ومن أعظم إنتصارات المسلمين، فالنصر يأتي بعد الهزيمة وشيكاً إن كان في النفوس ما زال فيها هذا السر من أسرار النصر.

فإذاً أول أمر أحببت أن أشير إليه هو أن النصر والهزيمة لا ينظر إليها من الظاهر ومن الملامح العامة، وإنما ينظر إليها من الباطن ومن الأسباب المحركة والمهيجة وهذا الأساس الذي ينبغي أن نفطن له ليكون معيناً لنا على فهم وتحليل الواقع.

أسباب النصر والهزيمة بمعالم تاريخية:

مع بعض التفصيلات التاريخية في الوقائع المهمة التي أشرت إليها وهي سقوط بيت المقدس سقوط بغداد ووقعة شقحب، نقف عندها لنرى صورة مجملة نستنبط منها أسباب النصر وثغرات الهزيمة وتحتاج إلى تأمل لأن فصل كل سبب على حدة، يقتضي منا أن نقطع الحدث التاريخي فنقول أن

سبب النصر هو قوة الإيمان نحتاج أن نأتي من هذه المعركة ومن تلك ومن تلــك، نحــب أن نأخــذ المعركة كاملة ونستنبط منها، ثم من بعد يكون هذا الاستنباط يجمع الأسباب كلها.

أولاً: سقوط بيت المقدس:

نلمح في ما يتعلق بسقوط بيت المقدس أنها كانت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية، وهي ظــاهرة عامة لا بد من دراستها بشكل موسع، ولكن نلمح منها بعض المعالم في النصر والهزيمة بشكل عام.

معالم الاستنصار والاستهزام على المسلمين:

١-إحياء المنطلقات العقدية والمضادة:

كانت الحرب ومنطلقها عقائدياً فهي صراع حق وباطل صراع النصرانية والإسلام، وكل ما يحاك في عالم الناس اليوم من مواجهات ومخططات إنما مبعثه صراع العقائد وإنما مبعثه تكالب القــوى ضــد الإسلام والمسلمين، وكل ما يقال غير هذا، إنما هو محض افتراء وتلبيس على الناس، وشواهد ذلــك كثيرة، وربما يأتي ذكر بعضها.

هذه نداءات من بعض زعماء النصارى من أيام الحروب الصليبية تبين لنا كيف كان توجههم وبــأي شيء كانوا يدفعون ويندفعون، هذا أحد كبار ملوكهم وقساوستهم ينادي بهم فيقول: "وإلى رجــال الدين والدنيا تحية وسلاماً" ويخاطب أحد الملوك "أيها السيد العظيم حامي العقيدة المســيحية أود أن أحيطك علماً بما وصل إليه التهديد لفرق وجماعات من المسلمين للأمة المسيحية"، ثم يؤكــد هــذا فيقول: "لذا استحلفك بمحبة الله وباسم جميع المسيحيين الإغريق أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يــد العون والمساعدة، وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين من كبير وصغير، فضلاً عن العامة ممن يتســنى لهم جمعهم من بلادك" وهذا أحد الباباوات ينادي مرة أخرى مثيراً نار حقد الصليبية ضد الإســلام والمسلمين فيقول: "يا شعب الفرنجة يا شعب الله المختار لقد جاءت من تخوم فلسطين ومــن مدينــة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بــلاد المسيحيين يقصد به جيوش الإسلام والمسلمين، التي كانت قد فتحت تلك الديار يقول وخربهــا بمــا نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخــر بعد أن عذبوهم أشد التعذيب، وهم يهدمون المذابح والكنائس؟ بعد أن يدنسوها برجسهم".

ويقول لينبه على المكامن التي تحرك الأمم أول مكمن هو مكمن العقيدة، هو الذي يحرك لا تصــدقوا أن شيئاً غير ذلك يمكن أن يكون هو المحرك.

٢-إثارة ثم إرساء الروابط التاريخية بين الكفار:

ثم يربط برباط آخر مهم وهو الرباط التاريخي الذي نستدعيه اليوم "ألا أن يكون من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم، أمجاد شارلمان وغيره وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتكم، فليثر همــتكم ضــريح

المسيح المقدس" فإذاً الربط بالقدوات وبالأمجاد وبالوقائع التاريخية التي تحقق فيها نصر الإيمان على الكفر.

٣-رص الصفوف والقضاء على الخلافات بدون تجاوزها:

فيقول: "طهروا قلوبكم من أدران الحقد واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، وهذا معلم مهم أن تترك النزاعات والخلافات الداخلية، وأن توجه نحو العدو الحقيقي وأن توجه نحو العدو الحقيقي وأن توجه نحو كل ما يستهدف الأمة ليس في فروع عارضة وليس في مشكلات بسيطة، وإنما يستهدفها في أساسها من دينها، ومن شخصيتها ومن مقوماتها المادية والمعنوية بشكل عام، ولذلك هذه أحد هذه المعالم.

٤-تيئيس الأمة من الاتحاد والإصلاح:

أيضاً من كلام المسيحيين في تلك الفترة حينما كانت مكاتباتهم بينهم وبين المسلمين، أيضاً كانت نوعاً من الحرب النفسية والعقائدية، كان أحد ملوك المسلمين وهو من الملوك الصالحين وكان اسمه مودود وهو من ملوك الهند، وكان قد عزم على منازلة الفرنج وكان له معهم جولات كثيرة، ثم في يوم العيد دبرت له مكيدة واغتيل وقتل فأرسل زعيم النصارى وملكهم إلى من جاء بعده ماذا يقول له، تأملوا في هذه العبارة يقول " إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها " والحق ما شهدته به الأعداء وهذا ليس على الاسترسال. هذا اغتيل في داخل المسجد في يوم العيد، فإذا كل خلاف في الداخل إنما هو فت في العضد، لا يهيء الأمة أن تواجه الخطر، وأن تكون قوية على أعدائها، وهذا أيضاً من الأمور الواضحة المهمة.

معالم استنصار المسلمين على الكفار:

ونأخذ جانباً آخر وهو جانب الروح الإسلامية التي تهيأت وبدأت تتكون في تلك الفترة لمواجهة المسيحية وللمعركة الفاصلة التي حرر بها صلاح الدين رحمة الله عليه بيت المقدس، كانت تلك الوقعة في عام ٤٩١ هـ كانت وقعة دخل بها النصارى إلى بيت المقدس، وقتلوا نحواً من سبعين ألف نفس، حتى بلغت الدماء إلى الركب ودلغت فيها الخيول، وما تركوا أحداً إلا أجهزوا عليه، ثم بقيت مملكتهم على نزاع بينهم وبين المسلمين فترة من الزمن حتى بدأت ملامح التغيير على يد صلاح الدين الأيوبي.

وإن كنا قد أشرنا في مرة سابقة إلى موجز في رد سؤال ينبغي أن نؤكده مرة أخرى وهو أن نصر الله – سبحانه وتعالى – لصلاح الدين الأيوبي لم يكن هو فقط في هذه المعركة على هذه الصورة الظاهرة، وإنما ما بعده وما قبله من الإعداد، وقد عمل صلاح الدين في ثلاثة محاور ومن أهم المحاور التي تهيأ الأمة للنصر..

المعالم المقدسية:

المعلم الأول: محاربة الفساد والمنكرات والمعاصي:

أنه حارب الفساد والمنكرات والمعاصي التي كان يجهر بها فأغلق الخمارات والحانات ومنع من استعلان الناس بالفجور والفسق، وحارب المنكرات حرباً شعواء لأنه لا يمكن لأمة تعلن حربها على الله أن تنتصر على أعداء الله – سبحانه وتعالى –، لأنها بذلك هي في نوع من العداء مع الله تستوي بذلك مع أعداء الله – سبحانه وتعالى –، ولذلك كانت كلمات أهل الإيمان وقواد المسلمين وخلفائهم تنبه المسلمين على أن أعظم أسباب هزيمتهم، إنما هي مخالفتكم لأمر الله – سبحانه وتعالى –، بقدر ما يعظم ويكثر فيكم من الآثام والمعاصي، بقدر ما تكون الهزيمة وشيكة الوقوع.

ولذلك لما استعصى النصر على بعض جيوش الإسلام في عهد عمر – رضي الله عنه –، كتب إليهم أنكم لا تنصرون بقوتكم ولا عتادكم وإنما تنصرون بطاعتكم لله فإذا عصيتم الله – جل وعلا – استويتم وأعدائكم في معصية، فغلبوكم بقوة عتادهم، فانظروا ما أحدثم فإنه جدير إن أصلحتموه أن تنصروا، هذا هو المكمن فأول عامل أن وطد لهذه المرحلة المهمة.

المعلم الثاني: إحياء الروح العلمية الشرعية:

ليزيل ما تسرب إلى العقائد من انحراف وإلى ما دخل في الفكر من ترف وجدال ومناظرات وما دخل إلى العلم من خرافات وشعوذات وما ضرب به الجهل على الناس، فكان من أعظم أعماله أنه أقام المدارس وأوقف الأوقاف عليها ونصب لها العلماء الذين يحيون في الأمة معالم الإسلام وعزة الإسلام ويبصرونها بأسباب النصر والهزيمة ويكونون أحد العوامل المحركة والمحرضة لوجود النصر في الأمة، كما يأتي ذكر الوقائع والأحداث.

المعلم الثالث: تجميع الأمة وتوحيد الصف:

ومن ذلك أنه عمل جاهداً على تجميع الأمة وتوحيد الصف فلا يمكن لأمة ان تواجه خصماً وهي مفككة الأوصال، يدها في جهة والأخرى في جهة وقدمها في جهة وتلك في جهة فلا يمكن أن تتقدم هذه وأن تكون وثابة إلى الأمام، فلذلك سعى إلى أن يضم البلاد واحدة تلو أخرى تحت إمرته، ولما رأى الناس منه إخلاص وصدق تجمعوا خلفه فحينما تقدم حينئذ فضلاً عن صلاح سيرت وصلاح من حوله حينما رأوهم يستنزلون النصر بالدعاء والابتهال مع ظهور فهم حقيقي للدين، لما تهيأت هذا الأمر خاض صلاح الدين المعركة فكتب الله له النصر، وذلك لأن الأسباب تحققت وسنة الله وقعت وتكررت مرة أخرى، وكلما توفرت وتهيأت أسباب النصر وتحققت وفق سننه – جل وعلا –، فليس هي المعركة الأخيرة التي جاءت بهذا النصر، رغم أنها كانت معركة حامية الوطيس وشديدة الوقع، ووجد المسلمون عناء شديد ومقاومة عنيفة، لكن كانت الأسباب مهيأة ونصر الله – سبحانه وتعالى – تنزل بعدها.

المعلم الرابع: التحفيز على الجهاد:

ونقف هنا مع لمحة من رسائل ووثائق فيها بيان هذه الأسباب التي هيأت والتي تحقق النصر، وهي رسالة من صلاح الدين الأيوبي إلى الملك المظفر ملك مصر، يقول فيها (وقد كاتبت أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعاءهم وأن يحزموا بجميع العساكر أوامرهم لأمرائهم-فماذا كان لما هيأت الأمة- فما منهم إلا من سابق إلى تلبية النداء، ويسارع إلى إجابة الدعاء ويعشق ولا عشق الأحبة لقاء الأعداء، -تأملوا قوله ويعشق ولا عشق الأحبة يعني أنه يعشق ويتوق للقاء الأعداء كما يتوق العاشق إلى لقاء معشوقه-وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء وإذا رأوا آذار مقبلا أقبلوا، وإنهم منذ شاهدوا برع (...) احتلفوا وأجمعوا أمرهم قبل الاجتماع بأمرنا فعلوا بما فعلوا، والله – عز وجل – يمد الإسلام بفتوح تفوح أرجائها بأريج النصر و (...) للمجاهد في سبيله ما وعدهم من درك الفوز) وهذه الرسالة تبين لنا ما قام به من عمل، وتتضح من الرسالة الروح التي كانت تدب في أوصال الأمة.

المعلم الخامس: المرجعية المثبتة:

وحينما كتب المظفر ملك حماة كتب إلى صلاح الدين في أمر يستشيره فيه وهو أن النصارى بنوا حصنا قريباً منه بدأ تهديد، وأرسل إليهم طلب هذه، فطلبوا دفع نفقات إنشائه فدفع مئة ألف دينار ثم داخلهم الطمع فطلبوا أكثر من ذلك، نوع من الضغط فأرسل إلى صلاح الدين فكان جوابه (إن هذا الرأي الذي أزمعت عليه ليس بشيء، وإن الله – تعالى -يسألك عن إعطائهم هذا المال-لأعداء الله- وإنك قادر على المسير إليهم والرأي أن تصرف هذا المال على الأجناد، وترغبهم في الجهاد، وتسير بعساكرك وتنزل عليهم والله في معونتك ونصرك) فإذاً كان صلاح الدين مرجعاً لمن حوله من الأمراء والملوك لما رأوا تقدمه، وكان هو ثابتاً في نهج الإيمان وراسخاً في اليقين ولا يعطي الدنية في دينه، ولا يساوم في دينه مهما كانت الظروف التي أحاطت به، لأنه يلتمس العزة من الله – سبحانه وتعالى – وكذلك أيضاً نجد الروح الإسلامية التي كانت من قبل ومن بعد.

المعلم السادس: الفرح بالتقديس عن رجز التثليث بعد حصول النصر:

ولذلك لما نصرهم الله-كيف حالهم هذه كانت حالهم في ثبات على النهج وتحركهم ببسم الله، ولما كتب الله النصر لهم كانوا على منهج الله أقوى وأثبت مما كانوا من قبل، فهم في حال أوج النصر ونشوة فرحه كانوا على ذكر الله – عز وجل – وشكره – سبحانه وتعالى –، وعلى معرفة راسخة من أن النصر لم يكن سبباً لقوتهم وتدبير وكيدهم وخططهم.

وهذا يتضح من رد صلاح الدين الأيوبي على رسالة القاضي الفاضل والذي كان أحد سواعد صلاح الدين وممن يعتمد عليه ومن خيار قضاة المسلمين، والذي أرسل إلى صلاح الدين تهنأة للنصر في معركة حطين لأنه لم يكن حضر المعركة مع صلاح الدين، وقد كان رده على تهنأته يبين لنا حال

المسلمين بعد حصول النصر لهم (المملوك هذه الخدمة والرؤوس لم ترفع إلى الآن من السجود شكراً والدموع لم تمسح من خدودها وكلما فكر الخادم يقصد نفسه صلاح الدين-كلما فكر أن البيع- الكنائس-تعود وهي مساجد والمكان الذي يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة ينادى فيه أنه واحد، جدد الله له شكراً تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه وجزاء يوسف خيراً من إخراج سجنه) بين أن صورة الأمة في ذلك إنما كانت محض شكر بالعبادة والذلة والسجود وإفاضة الدمع، بما فتح اللهم بذلك، فما فرطوا مزهوين بالنصر بل فرحوا أن البِيَع التي كانت تعلن فيها شرك النصارى بتثليثهم وشركهم ورجسهم، عادت يرفع فيها اسم الله موحداً ومنزهاً من كل شرك.

ولعل الحديث بإيجازه لا يغني عن التفصيلات ربما يرجع إليها في وصف ذلك اليوم المشهود والخطبة التي خطبت في أول جمعة في بيت المقدس، وما فيها من عظيم المنهج الإسلامي الإيماني الجدير بأن يلفت أنظار المسلمين حينما يقرأون تاريخهم، وأيضاً في رسالة أخرى يبين لنا ماذا كانت نظرة المسلمين في معركتهم، ولأي شيء يشكرون هذا النصر، هل لأنهم عادت إليهم ديارهم أو لقوا أزواجهم او انهم كسبوا اموالهم، كلا ما من شيء من ذلك، إنما كان قولهم (وعاد الإسلام إلى البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه التقوى على تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس تأسيسه، وفتح الله باب الرحمة لأهلها، ودخلت قبة الصخرة لفضلها) هذا وصف التغير من النصرانية إلى الإسلام، ثم وصف الناس قال (ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس وجليت هدي النبي – صلى الله عليه وسلم – من الصخرة المقدسة جلوة العروس وزارها شهر رمضان مضيفاً لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح)..

المعلم السابع: الربط بمعالم القدوات التاريخية:

إذاً تأمل كيف حال الناس لنعلم بأي شيء كان هذا النصر التي كتبه الله – سبحانه وتعالى – وتنزل عليهم، وأيضاً نؤكد ما سبق أن ذكرناه من ربط الأمة بتاريخها، وهو الذي قام به صلاح الدين وشهد له به مما يظهر في الرسائل التي بعثت إليه وهذه أحدها (جددتم للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية فجزاكم الله عن نبيكم محمد – صلى الله عليه وسلم – أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء-ماذا بعد ذلك- فاقدروا رحمكم الله لهذه النعمة حق قدرها وقوموا لله – جل وعلا – بواجب شكرها-فله المنة عليكم بتخصيصكم لهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة فهذا الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وانبلجت بأنواره وجوه الظلماء وابتهج به الملائكة المقربون، وأقر به عينا الأنبياء والمرسلون).

لذا كان النهج الربط بهذا التاريخ الإسلامي وأن القضية أنها مرحلة لشيء مر وسبق، والتذكير التي كان يأتي لصلاح الدين في مراسلاته مع العلماء كثير جداً.

دور العلماء وأهل العلم:

ثم نؤكد الجانب الذي أشرنا إليه وهو دور العلماء والتنبيه على العلة التي فيها الهزيمة ومن تلك النماذج رسالة أيضاً القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يقول له (إنما أوتينا من قبل أنفسنا ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل ما لا نقدر عليه إلا به) وتأمل هذه العبارة ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، كما قال الله – سبحانه وتعالى – في قصة بني إسرائيل (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) مجرد أن تقوم بالأمر وفق أمر الله يهيأ لكم الله – سبحانه وتعالى –، وهزي إليك بجذع النخلة امرأة في حال المخاض والتعب تهز جذع النخلة ماذا كانت النتيجة تساقط عليك رطبا جنياً ما تحركت النخلة ولا اهتزت ولكن استجابة لأمر الله وعلمه بصدق عبده ومولاه وحاجته وضره يتزل عليه النصر ويفتح له أبواب السماء ويفتح له خزائن الأرض ولذلك قال " ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله ولا يرجو إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل فلان، وكل هذا مَشاغلٌ عن الله ليس النصر بها وإنما النصر من عند الله ولا نأمل أن يكلنا الله إليها والنصر به والوقت منه وأستغفر الله من ذنوبنا فلو أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائد خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق) أي اختار له الخير. فتأمل حينما يكون علماء الأمة مع أمرائهم على هذا الصورة كيف تحيا القلوب وكيف تتهيأ النفوس وكيف يأتي النصر نتيجة طبيعية لتحقيق سنة الله – سبحانه وتعالى –.

ومن ذلك أيضاً مما كتب إليه يقول (إن الله – سبحانه وتعالى – لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لشريعته والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية فإذاً هي عائق النصر فليرجع إليه وليصور؟ حتى يكون ذلك من أسباب النصر.

قطرات العُصارة:

ثم أيضاً الروح التي نشأت عن هذه المعالم حينما أبطلت المنكرات حينما أحيي العلم حينما تأمل الناس في منهج الإسلام وعرفوا أين يكون الخطأ وأين يكون الصواب ومن يقدم ومن يؤخر وفق منهج الله جاءت الروح فماذا كان.

حصار عكا حوصر أهل عكا حصاراً شديداً وصلاح الدين من ورائهم لم يأتهم من بعد، وذلك ليسلموا للنصارى، وكان صلاح الدين يرأف بالمسلمين ويخشى عليهم وكان ربما ينازعه الأمر ما يصنع لهم فكان تأتيه الرسائل سرية من المحاصرين في الداخل الذين منعوا أقواتهم ومنعوا مياههم والسيوف مشرعة لقتالهم، يقولون له أهل عكا (إنا قد تبايعنا على الموت ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن نحيا فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعهم لقتالنا فهذه

عزائمنا وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له فأما نحن فقد فات أمرنا) المحاصرون يخاطبون من في الخارج اثبتوا ولا تلينوا للعدو فنحن قد انتهى أمرنا وعزمنا الأمر على الموت وأن لا نسلم وفي أحدنا عرق ينبض، ويذكرنا قولهم بموقف أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – لما جاء بعض الأنصار إلى رجل منهم ويتفقدونه في أمر الرسول فقال لهم ليس فيكم خير قط إن خلص إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفيكم عين تطرف أن يجعلوا أموالهم ودمائهم وأنفسهم فداء لهذا الدين ولحرمات هذا الدين، وللدفاع عن أهل هذا الدين، ومن ذلك قولهم يقولون له (لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا وبالله المستعان).

ولما جاء هذه الصور جاءت صور الهزيمة في الصف المقابل من غير معارك لما كتب الله النصر للأمة في هذه الأسباب انظروا بعض نماذج العزة للمؤمنين والذلة للكافرين حينما تتحقق هذه الأسباب، أحد ملوك النصارى وهو ملك الأنجليز يستجدي صلاح الدين إذا ما صار الصلح في هذه المدة يحتاج أن يشتي هنا يعني يبقى الشتاء ولا يرجع إلى بلاده لأنه سينقطع به في الطريق فماذا كان جواب صلاح الدين، جواب جميل جداً والكلام كان عن مدينة عسقلان والمفاوضات حولها، يقول " أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما تشتيته في هذه البلاد فلا بد منه يشتي يجلس ما شاء الله له أن يجلس لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذناها بالضرورة، فإذا قام أيضاً إن شاء الله- يعني إذا راح سنأخذها وإذا قام أيضاً إن شاء الله-يقول لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة وإذا قام أيضاً إن شاء الله ستؤخذ وإذا سهل عليه أن يشتي ها هنا ويبعد عن وطنه وأهله مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته يقول إذا هو صعب عليه ما يسهل عليه أن يشتي وأصيِّف وأشتِّي وأصيف وأنا في وسط بلادي وعندي أولادي وأهلي ويأتي إليّ ما أريد ومن أريد وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عن (...) العسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف، وأنا أعتقد في أعظم العبادات مرابط في سبيل الله ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، فإذاً هنا مكمن الصورة التي ينبغي أن نقف عليها حينما نحلل التاريخ، وليس فقط نقرأ التاريخ.

ثانياً: سقوط بغداد:

في عام ٦٥٦ هـ وأنا أنقل نصاً يشمل جملة من الأسباب المهمة في هزيمة المسلمين حينما تحل بهم. وهذا النص من البداية والنهاية لابن كثير فيما ذكر عن الأحداث التي حدثت في عام ٦٥٦ هـ

معالم هزيمة البغاددة:

المعلم الأول: ولاية الخائف للكافرين:

يقول ابن كثير (جاء هولاكو على مقدمة جيش التتار ثم ماذا وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل، من هو صاحب الموصل، مسلم يساعدونهم على البغاددة ومعه ميرته وهداياه وتحفه كل ذلك خوفاً على نفسه من التتار ومصانعة لهم قبحهم الله – جل وعلا –، انظر موقف أصحاب عكا وهم محاصرون، وهذا يخشى من التتار فيأتيهم بهداياه وبعض جيشه ليكونوا عوناً على قتال المسلمين، فإذاً أول علة هي تلك الفرقة التي تجعل بعض المسلمين عوناً لأعداء الله على المسلمين وعلى حرمات المسلمين.

المعلم الثاني: السهم الناطق على الوالي الضائع:

في صورة النص يقول "وأحاطت التتار بدار الخلافة يعني دخلوا بغداد وصلوا قريباً من دار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه وكانت من جملة حضاياه وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، الجيوش من شهور، وهي مرابطة والمعارك محتدمة ويحاط قصر الخليفة ويضرب بالنبال حتى يصيب السهم جارية تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، إذاً أيضاً معلماً من معالم الهزيمة وهي تخلي ولاة الأمر عن دورهم وفرضهم الذي فرض الله – سبحانه وتعالى – عليهم، ويذكر ابن كثير يقول " فنزع السهم الذي أصابها بين يديه فإذا مكتوب عليه " إذا أراد الله إنفاذ قضاءه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم" فأمر الخليفة حين ذلك بالاحتراز وكثرت الستائر على دار الخلافة وكان قدوم هولاكو في نحو مئتي ألف مقاتل في اليوم الثاني عشر من شهر محرم.

المعلم الثالث: فلاح مندس:

الأعداء المندسين في داخل المسلمين في داخل الصفوف الذين حينما غاب النهج الإسلامي لم يقال أنهم أعداء و لم يُظهر أمرهم، و لم يبين أنه مهما كان حالهم ينتظرون الفرصة ليوقعوا بالإسلام والمسلمين، فمن كان له الدور البارز في هذه الوقعة، إنه الوزير الرافضي الخبيث الشيعي ابن العلقمي، يقول ابن كثير وهذا هو الذي أشار به الوزير مؤيد الدين محمد ابن العلقمي على الخليفة أشار إليه بأن يبعث أى هولاكو بهدايا، ليكون له ذلك مداراة عن ما يريده، ثم بعد ذلك كان هو الرسول الذي ذهب إليه واتفق معه على المسلمين.

المعلم الرابع: خيبة المدسوسين:

ثم أيضاً نأتي إلى سبب آخر مهم جداً يقول فيه ابن كثير " ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكاثرة –أي هولاكو–ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية أين كان جيش المسلمين في حاضرة الخلافة الإسلامية يقول ابن كثير " وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس وهم بقية الجيش لهم كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم–سرحوا من الجيش لا

يوجد رواتب-حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وعند أبواب المساجد، الجنود جنود الجيش صرفوا وسرحو وما عاد لهم مصدر دخل وصار يطلبون من الناس العون في الأسواق وعند أبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير الرافضي ابن العلقمي.

المعلم الخامس: حذر الأعداء وامتهان الخائبين:

ثم أيضاً موقف آخر أو سبب ظاهر آخر قال ابن كثير (خرج الخليفة هو وأهله وخدمه وحشمه فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه أيضاً هذه إشارات ثم وصف ما أنتهب من دار الخلافة فقال فأحضر من دار الخلافة الشيء الكثير من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وكل ذلك من مشورة كما يقول أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين أشاروا به على هولاكو (...) أن لا يصالح الخليفة. ثم تكملة القصة أنه أشاروا عليه بقتل الخليفة، هولاكو تهيب لفعل هذا الأمر لأن هذا هو خليفة المسلمين مهما كان له ناس وله أنصار وكذا فتهيبوا أن يقتله فهونوا عليه قتله، أي هؤلاء المندسين من الرافضين الخبثاء، وهم خافوا إذا قتلوه يكون دمه مؤجج للثأر، فماذا صنعوا جعلوه في شوال ثم رفسوه ومات رفساً أو خنقاً حتى يقع شيء من دمه، خوفاً أن يطالب بثأره.

المعلم السادس: الهجوم الكاسح والهروب البارد:

ثم صور ابن كثير الصورة التي هي ليست صورة هزيمة عسكرية بل هي صورة هزيمة نفسية كامنة ماذا يقول "وكان جماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم أبوابها فتفتحها عليهم التتار إما بالكسر وإما بحرقها ثم يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، و لم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن إلتجأ إليهم إلى دار الوزير ابن العلقمي" فتأمل هذا النص حتى تعلم كيف يكون تواطئ الأعداء مهما ظهرت الصورة مناقضة لذلك.

المعلم السابع: استهداف بقيّة المرسوم الديني:

ثم من الذين كانوا موضع القتل قال "وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والجمع مدة شهور في بغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد، ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة كبيرة ينشرون علمهم وعلمهم عليها فلم يقدره الله على ذلك بل أزال نعمته وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة وأتبعه بولده فاجتمع" يقول ابن كثير وهذا نص جميل "فاجتمعا -والله أعلم -بالدرك الأسفل من النار ".

إذن هذه الوقفات فيها ومضات كيف كان حال المسلمين في ذلك الوقت جيوشهم مضعضعة بل ليست موجودة بل هي في غاية الذلة والهوان، ولاتهم منشغلون بالترف والثراء وباللعب والضحك المندسون في صفوفهم يعيثون فساداً، وليس هناك من يشير إليهم ولا يتكلم عنهم، فإذاً هذه كانت الصورة التي وقعت بها هزيمة المسلمين في سقوط بغداد، لكن قدر الله لهؤلاء التتار كسرة وهزيمة عنيفة وشديدة بعد سنتين اثنتين فحسب، كان على يد المظفر قطز، وكانت على يد الظاهر بيبرس القائد العسكري.

ماذا كانت الصورة أيضاً ننقل من البداية والنهاية من إبن كثير في شكل موجز كانوا قد دخلوا أي التتار إلى بلاد الشام وأعطوا الأمان لأهلها ثم غدروا بهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال وجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة، إذن هذه هي الصورة كافية أن تثير الرعب في المسلمين سينازلون التتار في الجولة القادمة، ولكن أيضاً كانت هناك ملامح النصر حينما بدأت المسلمون ينظمون صفوفهم.

وقبل ذلك أيضاً نلاحظ المعونات التي كانت في دخول التتار في دمشق كيف كان وهو أحد المراحل قبل وقوع معركة عين جالوت، قال (كان من ضمن الناس الأمير الذي جعل على دمشق من قبل التتار يقول عنه ابن كثير كان لعنه الله معظماً لدين النصارى فاجتمع به أساقفتهم وقساوسهم فعظمهم جداً وزار كنائسهم فصارت لهم دولة وصولة بسببه وذهب طائفة من النصارى وأخذوا إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحف وقدموا من عنده ومعه أمان فرمان من جهته" إذن هم الأعداء في كل وقت وحين، "ودخلوا ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوسهم، وينادون بشعارهم ويقولون ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون دين الإسلام ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون بباب مسجد إلا ورشوا فيها خمراً، وقمائم ملآنة يرشون بها على رؤوس الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون بهم في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ ابي البيان ورشوا عنده خمرا، وكذلك على باب مسجد إلخ ثم قال دخلوا إلى الجوامع بخمر وكانت نيتهم إن طالت مدة التتار ان يخربوا من المساجد وغيرها"..

إذن ينتهزون الفرصة ليظهروا عداءهم لما تمسكنوا حتى تمكنوا، وهذه وقعة عين جالوت أصلاً كانت في العشر الأخيرة من رمضان، فتأمل فتوح الإيمان والعبادة والتقوى التي تكون في هذه الفترة، ثم يقول "عزم الملك الناصر صاحب دمشق على الرحيل إلى مصر لكنه ما فعل"، والمقصود أن المظفر قطز لما بلغه ما صنع التتار بأهل الشام هذا العنف الساحق الرهيب العجيب في تاريخ البشرية مما وقع التتار في الشام، ماذا صنع "لما بلغه ما حصل بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى الديار المصرية بعد تمهيد ملكهم في الشام إذا وطدوا أمرهم أن يسيروا إليه".

"ماذا فعل بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه لم تكن هناك فرقة في الصفوف ولا خيانة حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول، وكان إذ ذاك في البقاع فاستشار هولاكو أصحابه فأشاروا عليه أنه لا قبل لهم بالمسلمين ولكنه أراد المقابلة، فكانت الوقعة بالخامس والعشرين من شهر رمضان، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول وجماعة من بيته وأتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع حتى بلغوا بهم إلى الشام وبلغوا وراءهم إلى حلب، حتى هرب من بدمشق يوم الأحد في السابع والعشرين من رمضان فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم".

"وجاءت بذلك بشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون، فتبادر عند ذلك المسلمين إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها، وقتلت العامة وسط الجامع شيخاً رافضياً كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له الفخر بن محمد بن يوسف بن محمد الكنجي كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئا لهم على أموال المسلمين قبحه الله، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين".

إذن هذه الصورة من الصور لننظر إلى سيرة الملك الظاهر بيبرس الذي كان هو قائد المعركة، يقول ابن كثير عنه "كان رجلاً صالحاً كثير الصلاة في الجماعة ولا يتعاطى المسكر ولا شيء مما يتعاطاه الملوك وكانت مدة ملكه إلى هذه المدة يعني مدة ملكه قصيرة" ومع ذلك بصلاحه عرف أحد هذه الأسباب، فحينما يتأمل الإنسان أعتقد أن الصور كثيرة في هذا الباب.

ثالثاً: وقعة شقحب

فيما بعد العام السبعمائة كانت هناك التمهيد ثم وقعت المعركة بعد ذلك أيضاً نلمح الدور للعلماء في إحياء الأمة وإحياء دينها وإحياء علمها، يقول ابن كثير رحمة الله عليه في هذه الواقعة كان التتار لا زالت لهم صولات وجولات يعني لم يدحروا نهائياً، وكان لهم فتنة وراجعوا مرة أخرى ليدخلوا إلى الشام وإلى مصر مرة أخرى، فماذا يقول قال وجلس "الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع وحرض الناس على القتال" كان الناس يفرون بدأ الرعب من قدوم التتار "وحرض الناس على القتال وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ونهى عن الإسراع في الفرار ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم وأن ما ينفق في أجرة الهرب لو أنفق في سبيل الله كان خيراً " تجهز الأموال والطعام لتهرب اجعل هذه في سبيل الله يكون في ذلك لك خيراً .

"وأوجب جهاد التتار حتماً في هذه الكرة وتابع المجالس في ذلك، ونودي في البلاد لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ليعينهم".

"ثم جاء ملك الشام وطلب من ابن تيمية أن يذهب إلى مصر ليحرض أميرها وملكهـــا " انظـــر دور العلماء، ليذهب إلى مصر ليحرض أميرها وملكها "أن يأتي لأنهم كانوا قد خرجوا ثم رجعوا وترددوا فذهب إلى هناك وقال لملك مصر إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميـــه ويستغله في زمن الأمن وكان تابع لهم الشام، ولم يزل بهم يحرضهم حتى جردت العساكر إلى الشام" ثم قال لهم "لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهلها وجـــب علـــيكم النصـــر فكيف وانتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم وقوي جأشهم وضمن لهم النصر في هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام فلما وصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحاً شديداً، إلى آخر ما كان من دوره".

ثم كانت صورة من صور داخل المجتمع، نحن قلنا في بغداد كان الناس مندسين والأشـــقياء ظـــاهرين ويأخذون المناصب والمواقع، هنا في هذه السنة وقبل أن تحتدم المعارك ماذا حصل، حصل أنه كان قتل في اليوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول قتل الفتح بن احمد الثقفي بالديار المصرية وحكم عليه القاضي زين الدين ابن مخلوف المالكي بما ثبت عنده من تنقيصه للشريعة واستهزائه بالآيات المحكمات ومعارضته المشتبهات بعضها ببعض، ويذكر أنه كان يحل المحرمات من اللواط والخمر وغيره، ولذلك أقاموا عليه الحد وقتل، إذن ما كانت هناك تلك الصورة كانت التهيئة مختلفة عن هذه الصورة.

ومن هنا طبعاً تكلم ابن تيمية في الجيوش وشجعهم وأقسم لهم بالنصر يقيناً وعقيـــدة لمـــا رأى مـــن بشائره وكان هذا أحد التهيئات لهذا النصر. آخر وقفة مع الصورة التي كانت في أثناء وقعة شقحب وهي صدق التجاء الناس إلى الله، فيقول "أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه مـــن الخـــوف وضيق الأمر، ثم ماذا فابتهلوا إلى الله – عز وجل – بالدعاء في المساجد والبلد وطلع النساء والأطفال على الأسطحة وكشفوا رؤوسهم وضج المسلمين ضجة عظيمة أي بالدعاء ووقع في ذلـــك الوقـــت مطر غزير ثم سكن الناس، وهذه بشائر النصر ودلائله".

في بدر دعا النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم نزل المطر هذه حينما تصدق النوايا، فإذاً استعرضنا من الصور إنما كان دليلاً على أن القضية ليست هي في الهزيمة الظاهرة العسكرية وأن الهزائم التي وقعـــت كانت علتها ظاهرة في أسباب واضحة من التخلي عن منهج الله والوقوع في معاصي الله والـــتمكين لأعداء الله والانصراف عن إعداد الجيوش في الجهاد في سبيل الله، وكذلك الصور التي مرت بنا تـــبين هذا، وبالمقابل الصور التي أشرنا إليها أن تحرك معاكساً من خلال جهد العلماء وصلاح الأمراء وتهيأة الأسباب يفضي بإذن الله – سبحانه وتعالى – إلى نصر سريع.

ظلال الهزيمة وبشائر النصر

هذه جولات تاريخية لعلنا نقول إننا انتهينا من شطر الموضوع ولكن مع ذلك سنركز على الصورة المعاصرة، ظلال الهزيمة التي تظلل المسلمين وبشائر النصر التي نرجو أن تكون إن شاء الله مقدمات قد بدت وظهرت.

الأمة المسلمة في بداية هذا القرن تعرضت للهجمة الاستعمارية الشرسة واحتلت بلادها وهزمت لكن قبل ذلك أيضا نوع من نفس الصورة التي كانت في كل موقع هزم فيه المسلمون، ضعف الإيمان واليقين انحرف الناس في عقائدهم قعدت بهمم الناس تصوفات منحرفة وزاغت بهم مجادلات نظرية، وانحصر العلم في جموع وتقليد محض وفي صفصفة وجدل ومسائل ليس لها صلة بالحياة ولا بالواقع، وانكمش دور العلماء إلى حد كبير وبدأت النظرة أي نظرة الانبهار بالغرب وحضارته تبهر العقول والقلوب وتسلب الأبصار، ثم بدأ يتسرب شيء من الشعور بالذلة والتبعية للغرب، ثم بدأ نوع من الاندفاع للتطبيق العملي في تقليد الغرب.

ثم بعد ذلك حصل انسياق وتمجيد للغرب وربط تقدمه بتركه للدين، وبدأت المقولات (...) وتتضح، ثم كان بعد ذلك رفض جزئي للإسلام نأخذ من الإسلام جانب ونترك جوانب المدنية للعقول والأفكار، ونتج بعد ذلك أن رفض الإسلام بالكلية في ديار الإسلام من بعض أبنائه وتول الناس شرقاً وغرباً، وكانت هذه مقدمات ظاهرة لهزيمة ماحقة لا تحتاج إلى بحث عن أسباب عسكرية أو قوى مادية أو نحو ذلك.

ولذلك وقفتنا عند استشفاف بعض هذه الصور الانهزامية التي ما يزال بعضها ينفث سمه على ضعف إن شاء الله فيه وعلى قلة إن شاء الله فيه لكن يبين لنا هذه الصورة، نريد أن نقف على بعض المقولات كما وقفنا على مقولات في ما كان بين المسلمين وبين النصارى في تلك الأعصر التاريخية لرأينا كيف كانت الروح والنفوس كذلك نرى كيف كان الأمر في بدايات هذا القرن مع وجود هذه الحضارة الغربية وافتتان الناس بها، نجد أن كثيراً من المفكرين أو المستنيرين أو الذين كانوا أصحاب كلمة في بيئاتهم كانوا قد أخذوا في التأثر والتغير.

طلائع المستغربين

ومن ذلك نأخذ بعض الأعلام وهم أعلام وإن كانوا ليسوا أعلاماً في ميزان الإسلام لأنهم خالفوا عن ضعف أو عن ضغط أو تصور واجتهاد خاطئ لكنهم كانت لهم كما يقولون آثار في بواكير النهضة سواء كانت نهضة علمية أو فكرية.

رفاعة الطهطاوي

وهو شيخ أزهري لما بعث محمد علي باشا أول بعثة للدراسة في فرنسا وكان هذا أحد آثار الإنهزام النفسي، بدأوا يشعرون أنهم تبع فبعث هذه البعثة أرسل معهم رجل أزهري لماذا؟ ليؤمهم في الصلاة ويعلمهم الدين ويحافظ عليهم، وهذا كان أساس مبعثه لكن الأضواء والأحوال بدأت تغير فيه على ما

قد يظهر من كلامه أنّ فيه خيراً وأثر تعلمه الشرعي يظهر ويبدو أحياناً، لكن لنرى كيف كانت المقالات المكتوبة في مؤلفات القوم حتى نعلم كيف كان الضعف يسري شيئاً فشيئاً، من ذلك أنه يقول " إن أعظم تقدم الوطن في المنافع العمومية هو رخصة المعاملة مع أهالي الممالك الأجنبية واعتبارهم في الوطن كالأهلية" يعني التساهل في الممالك الأجنبية يقصد بهم النصارى والغربيين، واعتبارهم مواطنين يقول هذا أساس التقدم، إذن هناك ظهور إلى اختلال الثقة بالنفس والمنهج.

ويقول أيضاً "لا نحتاج إلى المواجهة، المملكة الضعيفة في هذا العهد مأمونة الدوام، يعني ممكن ان ندوم ما لم يحصل لها يعني بعض الأحوال إذا خرجت عن حدود (...) فمحض القوة في إحدى ممالك هذه العصر لا يسوغ لها التغلب على غيرها بدون وجه" يعني يقول إنه الآن ما في قدرة على مواجهة الأعداء، ولذلك بدأ يُسقط مفهوم المواجهة وهو أحد المفاهيم الحضارية الإيمانية في الغالب.. إذا لم يكن عندك اليقين بأنك تخالف هذا وأنك ما عندك أنت به معتصم وبه معتقد وبه متشبث مهما كان هذا الحال هذه بدايات الهزيمة النفسية.

ومن هذا أيضا أنه بدأ من نوع التركيب، نركب الإسلام على حسب ما هو موجود في واقع الغرب فيقول "ومن زاول علم أصول الفقه وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد" ماذا يقول "جزم ان الاستنباطات العقلية التي وصلت إليها عقول أهالي الشعوب المتمدنة إليها هي نفسها وجعلوها أساساً لقوانين تمدنهم وأحكامهم يقول هذه قل ان تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الأصول الفقهية" يعني كأنه يقول حتى تتهيأ الأمة للتقبل فيقال إن هذه بضاعته ردت إليها، هذا التمدن إنما أخذوه من أصول الفقه ونأخذه نحن كما هو أو على أقل تقدير هو نسخة حديثة من أصولنا الإسلامية، ويتدرج الحال مرة أخرى.

ونجد أن بدأ الانسلاخ الجزئي من الأحكام الإسلامية من رجل أزهري يقول "ترتب الآن في المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى بين الأهالي والأجانب بقوانين في الغالب أوروبية" مع أن هذا اثر له إيماني ما زال يعارض فيقول "مع ان المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل بما أخلت بالحقوق بتوقيفها على الوقت والحال، يقول هذا الذي وقع هو ينكره، كذلك أيضا يتدرج هو وغيره في هذه الاتجاهات، ولذلك هذه الصورة من الصور تبين لنا كيف كان بعض الناس كانت لهم كلمة مسموعة بهذه الأبواب يعني يكون واضحاً وأيضاً من مقالاته "فكل ما يمنعه الشرع صراحة أو ضمناً فغير مباح ولا يعد تمدناً" هذه بعض الملامح الأصيلة الباقية بخلاف المباحات إذا تصرف بها العقل بالتصرفات التحسينية ومن بعد جاء على نهجه كثيرون جداً ويقولون بدأ هو يجعل أننا نرى ما في الغرب من حضارة ثم ندعمها بالآيات والأحاديث ونقول "هي موجودة يقول اقتطفها قوم من ثمار الكتب العربية اليانعة عن كلامه اقتطفته من ثمار الكتب العربية اليانعة واجتنيتها من مؤلفات

الفرنساوية النافعة، مع ما سنح البال وأقبل على الخاطر أحسن إقبال"، إذن أخذ هذه الأفكار من هذه الخلطة ثم ماذا "وعززها بالآيات البينات والأحاديث الصحيحة والدلائل المبينات".

إذن جاء بها أولاً ثم التمس الشواهد ليعضدها، ومن هنا كانت عدة وقفات لكثير من هؤلاء القـــوم ومنهم قاسم أمين وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم كان كلامهم في أول الأمر أن الإسلام يختلف عن النصرانية والغرب وبعد ذلك أن الغرب لا بد أن نأخذ منهم، ثم تهيأ الناس في هذا الجانب شيئاً فشيئاً، وبعد أن انسلخوا من ذاتيهم خرجوا إلى التماس الطريق وبدأوا في ما زرعه الأعداء كبـــدائل يـــراد للمسلمين أن يدخلوا فيها على أنها أمل للنصر.

فكان من ذلك أن النصارى والغربيون ما انتصروا وما تحضروا إلا بتركهم الدين جانباً عـــن أمـــور الدولة فجاءت نداءات العلمانية، التي عصفت بالأمة دهراً طويلاً، ثم بعد ذلك بزغت بذور القوميـــة وصارت الناس بها ردحاً طويلاً يلتمسون من أبوابها فتحاً ومن خلالها نصراً، وخابت وخاب من دعا بدعوتها، وكذلك تشعبت بهم بعد ذلك موجة الاشتراكية وأرادوا بها أن تكون اشتراكا يشمل الناس ويشركهم في الأمر الواحد، وان تكون معلماً من معالم النضال كما يســـمونه النضـــال الفكـــري والنضال العسكري، وخاضت الأمة في ذلك واستنفذت طاقات من جهود أبنائها ضلوا وانحرفوا بـــل خرجوا من الدين والملة وكفروا وساروا ردحاً من الزمن وسقطت هي بأيدي أصحابها، ومـــن بعـــد ذلك سار الناس مع البعث كأحد نتائج وثمار القومية المتميزة وساروا ردحاً طويلاً، وكب أصـــحابه على وجوههم فظهر للناس أن كل هذه المناهج وأن كل هذه الطرق والسبل لم تكـــن بحـــال مـــن الأحوال إلا خدعة هيئها الأعداء.

مثل حينما يكون الإنسان نائماً نوماً عميقاً دهراً طويلاً، ثم يستيقظ ومازال في عقله غبش النـــوم وفي عقله أحلام الليلة أو أحلام النومة فإذا استيقظ أول من يقول له من هنا الطريق يمشي معه، ما زال ما استجمع قواه العقلية ولا ثبت أقدامه ولا رجع إلى ذاته، هكذا كانت حال المسلمين مـــع مفاجـــأتهم بالهجمة الشرسة وسقوط الخلافة العثمانية، استشراء الاستعمار والاحتلال الاستيلاء على الثـــروات والموارد، ظهور الحضارة الغربية، مع هذه الهجمة كلها تيقظ الناس أو بدؤا يريدون أن يتحركوا فكان ما زال هناك بقية النوم وأثر الركود والتخلف والعلمي والشرعي والحضاري الفكري الذي يجعلـــهم يستطيعون أن يواجهوا، فكانت هذه الفترة فترة خبط عشوائي لم يتميز فيهـــا للنـــاس أو بـــأكثرهم الطريق الصحيح، فخبطوا خبط عشواء ودخلوا في هذه الاتجاهات.

ومع ذلك كانت هناك وقفات وكان هناك لفتات وكانت هناك كتابات مبكرة تحذر من هذا الجانب أكثر تحذير، وكانت هناك سلسلة كما أن هناك سلسلة في جانب التحـــدير أو في جانـــب التمييـــع حصلت في ديار الإسلام، كذلك كان في الجانب الآخر من أوائل من كتب في التنبيـــه علـــى هـــذه القضايا الأمير شكيب أرسلان الذي كتب سر وأسباب [لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم]، أراد أن

يبين للناس منهجاً إسلامياً رغم كثرة ما كتب وما اقتنع به الناس خلاف هذا لكنـــه أراد أن يوضـــح هذا توضيحاً جلياً وكتب كتاباً نفيساً بين فيه أن الأسباب والعلل إنما هي مرتبطة بالمنـــهج الإيمـــاني القرآني، الذي نعرف فيه أن التقدم من خلال ما أمر الله وان التخلف من خلال ترك ما أمر الله بـــه، وذكر الأسباب من الجهل وفساد الأخلاق لا سيما أخلاق العلماء والأمراء وبين هذا كثيراً بياناً جلياً.

ثم جاء من بعد ذلك محب الدين الخطيب ومساعد اليافي وترجموا كتاب مقالات [الغارة على العـــالم الإسلامي] ليبينوا أن الهجمة حضارية إيمانية عقدية فكرية وليست عسكرية وإنما المستهدف إنما هـــو قناعات الناس ونفوسهم وما تحتويه عقولهم من أفكار ومبادئ، ولذلك كانت هناك سلسلة طويلـــة ومنها كان كتاب [شروط النهضة] لمالك بن نبي ومنها كتاب [ماذا خسر العالم بانحطاط المســـلمين] [وإلى الإسلام من جديد] لأبي الحسن الندوي، وكان منها كتابات محمد محمد حسين رحمة الله عليه، الذي كتب [حصوننا مهددة من الداخل] والذي كتب عن الأدباء وأثرهم في الانحـــراف النفســـي، ومنها كتابات المودودي رحمة الله عليه حينما ألف بعض الكتب منها [أسباب نهـــوض المســـلمين]، وأيضاً تواصلت الكتابات تبين هذا الأمر وقوي زخمها حتى وصلت إلى أن تؤكّـــد أصـــالة المنـــهج الإسلامي وبدأت القناعات بها، وهذه هي الفقرة التي نقف عليها لنكمل إن شاء الله بعد الأذان،...

وكان من أثر هذا الانهزام النفسي صور نعرض لها في صورة نقاط مركزة كانت تظهر لها مظـــاهر في جوانب شتى من هذه الجوانب الجانب الفكري وخاصة في الناحية التربوية التعليمية، وتجلـــت هـــذه المظاهر في صور نذكرها في النقاط التالية:

أولاً: عوامل تكريس الهزيمة في الجانب الفكري

١-محاصرة التعليم الديني مادياً ومعنوياً

أي للحيلولة بين الأمة وبين معرفة دينها وحقائقه ومقاييسه وموازينه، وهذا علـــى مســـتوى العـــالم الإسلامي ظاهر جداً وقد مر بنا في حديثنا عن الحقيقة والوهم، كيف قلصت مناهج التعليم الدين في مصر وكيف اجتزئت الأشياء التي لها صلة بالدين.

٢-ازدواجية التعليم

وجعل هناك تعليم ديني وتعليم مدني، حتى يكون هناك فراق وشقاق بين الفريقين كما كان ظاهراً في أوائل هذا القرن.

٣-إهمال وإضعاف الجامعات الإسلامية العريقة

كالأزهر وجامعة القرويين وغيرها من الجوامع التي كانت منارات علم في الإسلام.

٤-الابتعاث وكثرته إلى الخارج

في بعض الدوائر التي لا حاجة فيها ايضاً من هذه النواحي.

٥-كثرة المدارس الأجنبية: وهي المدارس الغير الإسلامية في ديار المسلمين.

٦-تمييع المناهج الإسلامية

بحيث يحذف منها الموضوعات المهمة التي لها ظهور وتميز المسلمين، مثل الجهاد ومثل الولاء والبراء ومثل الاستعلاء على الكافرين، ونحو ذلك مما كان مشهوداً معروفاً، حتى إن العلماء والأئمة في الزمن الماضي كانوا يلزمون أهل الذمة أن يلبسوا لباساً يتميزون به عن غيرهم ويخرج بذلك قرارات من السلطان فلهم عمائم معروفة بألوانها حتى لا يختلطوا ولا يميعوا بين الناس ولا يكون لهم الأثر السلبي الذي يقع كثيراً منهم.

٧-إيجاد الاختلاط في جانب التعليم

حتى يبدد قوته وأثره، ويضعف الأمة في هذا الجانب.

٨-تقوية اللهجات العامية على حساب اللغة العربية

وهو أمر ظاهر له آثاره السلبية في هزيمة الأمة وضعف صفها.

٩-محاولة إخراج الدراسات اللغوية من الإسلام

فيقولون نتكلم في الأدب بمقاييس الأدب لا تدخل الدين في الأدب هذا أدب شعر أو هذه عواطف وهذه أساليب وأرادوا أن يخرجوا من هذا، وجاءوا بالمذاهب مثل الحداثة وغير الحداثة ويقولون في الأدب لا دخل للدين في الأدب، وهذه أيضاً أنواع من الإضعاف للأمة وتركيز معاني الهزيمة فيها.

١٠-الدراسات الأدبية الحديثة

وأنا أقصد به الأدب الشعبي والأدب الحر والأدب التي فرغ معاني القوة حتى في اللغة حتى في المعاني وفي المبادئ والأفكار والموضوعات التي تتناولها مثل هذه الموضوعات، تقرأ كلاماً تنفق فيه وقتاً وتحاول أن تجمع له خيوطاً من الأول والآخر ما تجد شيء، فهذه نوع من التفكيك والتفريغ حتى تبقى ذليلة في علمها وفي تميزها العلمي سواء كان علماً حضارياً أو حتى علماً شرعياً لأن هذه مداخل تفتت في الناس صورة الدين الحق فتجعلهم تختلط أفكارهم بحداثة وبانحلال مضمن في صور أدبية بشكل أو بآخر في رواية أو قصيدة أو نحو ذلك.

١١-إضعاف دراسة التاريخ الإسلامي

ومر بنا في الحديث على تغيير المناهج كيف كان التركيز على تغيير المناهج في التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص، أو على أقل تقدير إذا كان هناك دراسة للتاريخ فتكون دراسة شكلية، وقلنا أن المناهج الحديثة في مصر فيها سبعة أسطر عن تاريخ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كله وخمسة أسطر عن عثمان بن عفان فتصور يتخرج من المدارسة الثانوية و لم يعلم عن عثمان إلا خمسة أسطر وعن عمر إلا سبعة أسطر.

وتحريف أيضاً في طريقة معالجة التاريخ وجعله صراعاً مادياً وجعله صوراً مختلفة عن المنهج الإسلامي أيضاً أحد المعالم لإضعاف الأمة وإبقاء صور الهزيمة في الناحية العلمية والحضارية.

ثانياً: عوامل تكريس الهزيمة في الجانب الإعلامي

الجانب الآخر في جوانب الفكر بعد الفكر التعليمي والتربوي الفكر الإعلامي ولـــه أثـــر كـــبير في إضعاف الأمة وتكريس الهزيمة في نفوسها وعقولها ويظهر ذلك من خلال صور نوجزها في التالي:

١-التناقض بين الدين وواقع الإعلام:

فيأتيك برنامج فيه سؤال وجواب ويفتي الشيخ بحرمة الغناء وسؤال مثلاً عن كذا وبعـــد البرنـــامج مباشرة يأتي الغناء الذي حرمه الشيخ في الدرس الذي قبله، وهذا يجعل هناك الاضطراب والتعـــارض والاختلال في التصورات وحصول الضعف اليقيني في نفوس المسلمين.

٢-ضياع الهوية الحقيقية للأمة:

تريد أن تخرج الذي يبث في ديار الإسلام فلا تجد بأنك عربي وقومي لا تجد، بأنك نصراني لا تجـــد، خليط من كل شيء لا يبقي أو لا يعطي للأمة توجه ولا أصالة في أي جانب من أي الجوانـــب لا في دينها ولا في لغتها ولا في فكرها ولا في حضارتها المادية أو العملية التي تعيش فيها، بل هو نوع مـــن الخليط الذي يريد أن ينشأ كماً هائلا من الناس فارغ المحتوى والمضمون شكلاً ومضمون، ليس عنده شيء في هذه الحياة ويحاكي قولاً من قال "جئت لا أدري من أين أتيت وجـــدت طريقـــاً أمـــامي فمشيت" يعني كأنه دهري يقول ما قال المشركين أرض تدفع وأرض تبلع، ويبقى في الحياة بلا غايـــة بلا منهج بلا وضوح تصور. هذه صورة من صور تكريس الهزيمة.

٣-غياب المنطق الإسلامي في التحليل الإعلامي:

فالأخبار والوقائع والأمور التي تجد لا ينظر إليها نظرة إسلامية وإنما بالعكس يؤتى بها مجردة، والأطم من ذلك أنها يؤتى بها ويدس معها التحليل والتعليل الذي يناقض الإسلام ويضعف صلة المسلمين به.

٤-البرامج الهدامة التي تقتل معاني القوة وتزرع معاني الضعف:

التي تقتل معاني القوة وتزرع معاني الضعف فتجد سواء في البث الفكري سواء كان كلاماً أو مقـــالاً أو في الصورة التمثيلية أو الروائية أنها تهدف إلى الإخلاد إلى الراحة والعيش الحالم وبناء المستقبل هـــو أن تجمع أموال وأن تتزوج وان تعيش في هذا الجانب وهذا هي صراع الحياة وهذا هو الكفاح وهـــذا هو النضال وهذا هو النصر. فيبقى الناس بعيدون عن الجانب الذي ينبغي أن يكونوا فيـــه وان تهيـــأ نفوسهم له.

٥- سقوط قيمة الكلمة وشرفها:

لم يعد للكلمة شرف ولا قيمة لأنها ابتذلت وامتهنت فصارت نفاقاً وصارت تزويراً وصارت كـــذباً حتى ما صار الناس يعتمدون ولا يثقون بما يكتب ولا بما يسمع، لأنه لم يعد للكلمـــة لا شـــرف ولا قيمة وقل أن تجد إلا ما رحم الله أن تجد شيء يمثل أصالة أو شرفاً أو أمانة هكذا يوجه الإعلام هـــذه الصورة لأن لماذا قلنا من عوامل النصر الربط بالتاريخ وإبراز القدوات والمجاهدين والملوك والسلاطين

الذين كان لهم شرف رفع راية الإسلام، إذا غاب هؤلاء وغيبوا وجئنا إلى المعركة معركة الغناء وحرب الكلمة وإذا نحن في ملحمة الألحان وإذا نحن في مجالات أخرى عجيبة يسمع بها الإنسان، دبجتها أيدي الفاسقين والمنحرفين وأرادوا بها أن يترعوا بها من الأمة صور القيادة التي تقوي حماسها وتدفعها إلى اللحاق بهذا الركب.

٧-العمل على تضييع الأوقات:

ووقت البث الإذاعي والإعلامي طويلة جداً تأخذ من أوقات الناس وقتاً كبيراً جداً، بعض الإحصائيات ذكرت أن الأطفال في ما بين السن السادسة والعاشرة يكون حوالي خمس وعشرين في المائة أمام أجهزة التلفاز، فهذا الطفل الذي يعيش أمام التلفاز خمس وعشرين في المائة من وقته يكون مهيأ إلى أن يعيش في فراغ لا نهائي.

٨-جهد الإعلام في مسألة تحرير المرأة:

بأنها أحد عوامل الإفساد والإنهاك والإضعاف لأخلاق ومبادئ الأمة.

٩-عرض صورة مشرقة للأجنبي غير المسلم وتمجيده وإظهاره بصورة مشرقة ووضاءه وأنه الذي يفهم والآخرون لا يفهمون، وأنه هو الذي يعمل والآخرون لا يعملون، ونحو ذلك من الصور التي تظهر بشكل واضح ولا تحتاج إلى تمثيل ولا تعليق.

١٠-تسليط الضوء على الشخصيات الهدامة والمنحرفة والإكثار من تردادها في وسائل الإعلام، حتى تكون هي مجال التوجيه والإرشاد للناس.

وهذه صور من صور الهزيمة التي كرست في فترات ولا يزال ظلالها وآثارها في هذا الحقل بادياً وظاهراً في هذا الجانب.

عوامل تكريس الهزيمة في الجانب السياسي

١-سقوط الخلافة العثمانية في تركيا.

٢-احتلال البلاد الإسلامية في أواخر القرن الميلادي الماضي.

٣-تنازل الدول في ضعفٍ وخورٍ عن شريعتها الإسلامية وحكمها، واستبدالها بعد ذلك شريعة الله وإتيانها بالقوانين الوضعية من الشرق والغرب، في نوع من الإعلان بأنها وإن جلي عنها الاستعمار فإنها ما زالت محكومة بحكمة وقائمة بشرعة كأنه ما غادرها ولا ارتحل منها.

٤-استجابة البلدان الإسلامية لخطط الأعداء في زعزعة الاستقرار للبلاد الإسلامية عن طريق الانقلابات والانشقاقات والأحزاب والتحالفات، وما زال العالم الإسلامي من أكثر الديار تشرب للأفكار والمذاهب والأحزاب، أمريكا كلها حزبين، وعندنا نحن أي بلد شبر في شبر فيها مئة حزب لأن كل واحد حزب لوحده. هذه المخططات مرادة من أعداء الإسلام ليضعفوا كلمة المسلمين وقوّتهم وشوكتهم.

٥-وقوع كثير من البلدان الإسلامية إن لم تكن كلها في براثن الأعداء ولاءً ومناصرةً واستجداء وطلباً وهي صور شديدة جداً في الضعف.

٦-التسليم بما ينادي به الاستعمار أو الاستجمار الغربي والصهيونية والصليبية من فكرة فصل الدين عن الدولة، وما يزال الصدى لها بارزاً وظاهر.

٧-إضعاف روح العداء من خلال الولاء والبراء، وجعل الدول تقوم على غير الأساس الديني. وسمعنا آخيراً عدم مساواة الصهيونية بالعنصرية وقد حصل تصويت بذلك على هذا الأمر وامتنع ست من الدول العربية عن التصويت في صورة غنية عن التعليق أو التعبير.

٨-ضعف ظهور الشعارات الجوفاء التي أشرنا إليها.

٩-المضي في درب مخططات اليهود على وجه الخصوص وخاصة بما يتعلق بالسلام وبالإخاء الديني وبالتطبيع ونحو ذلك. مما يبيد الأمة سياسياً فلا يبقى لها كيان ولا يبقى لها وضوح تتجلى به أو تظهر به.

١٠-ظهور الحكم الديكتاتوري الطغياني الفرعوني الفردي الذي تكاد تكون ديار الإسلام في غالبها تزرح تحته وتنتقل فيه من صورة فيه إلى صورة أخرى محسَّنة أو معدلة أو مغيرة الإسم أو مغيَّرة الشكل، وإن كان المضمون في ظاهره واحداً.

وهذه الصور بشكل عامل تعطينا الصورة الإنهزامية التي تكرس في هذا الجانب.

عوامل تكريس الهزيمة في الناحية العسكرية

١-العمل على إفقاد الأمة مقومات استمرارية الصراع

يراد للأمة أن تفقد مقومات البقاء، مقومات استمرارية الصراع لا بد أن نعرف أنه لا بد من إبقاء استمرارية الصراع، بتميز العقيدة الإسلامية عن غيرها، يراد من هذا الهدف لهذا المعنى أن يهزم من خلال الإخاء الديني، ومن خلال النظام العالمي الجديد، ومن خلال الانفتاح على العالم فليس هناك داع أن نفرق على الناس بحسب دياناقم وليس لنا بالتالي أعداء بل يمكن أن يكون هناك أصدقاء وهناك مصالح مشتركة إلى غير ذلك من الأمور.

٢-الدعوة إلى الحد التسلح الإستراتيجي

بما يردد بنوع من ضرورة نزع والحد من الأسلحة النووية والإستراتيجية والتكتيكية والتخبيطية حتى لا يظهر أي نوع من أنواع القوة، لأن أصلها ليست مصدراً قوي وليست عندها مصادرها التي تغذيها بالسلاح والعتاد، الآن في الأسبوع الماضي تكاثرت الصيحات حول وجود بعض ملامح التسليح في بعض البلاد الإسلامية من الناحية الحربية، ونحن نعلم الهجمة الشرسة على باكستان المسلمة في برنامجها النووي، الذي يقوم العالم كله ويقعد لأجل نزع فتيله، ومؤخراً تزايد الخطر والذعر الشديد من الأسلحة النووية (...) والموجودة في الجمهوريات الإسلامية، وهذا كله نوع من

إلغاء كل سبب من أسباب القوة، لكي لا يبقى في أيدي المسلمين قوة يستطيعون بها أن يواجهوا أعداءهم.

ولكن كل هذه الصور يمكن أن لا تكون ذات أثر إذا ما دخلت في القلوب والنفوس.

إذا بقيت في الظاهر فإن الذي هو ضعيف في البنية اليوم يقوى غداً والذي ليس عنده سلاح اليوم يكون عنده سلاح غداً، لكن الذي لا يكون عنده إيمان ولا روح ولا همة ولا عزيمة لا بد أولاً من علاجه من الداخل، وهذا هو سر الأمر وهذا هو مجال المعركة، أعدائنا عرفوا السر فأرادوا أن يغزونا في عقولنا وأفكارنا، في طموحنا وآمالنا في شهواتنا ورغباتنا، أن يحرفونا ويصرفونا عن كل ما يؤدي إلى إحباط القوة الداخلية الباطنية القلبية النفسية حتى نتعطل من الإندفاع للأخذ بأسباب القوة المادية.

لماذا تريد ان تتسلح وأن تجاهد إذا لم يكن عندك إيمان ويقين بأنك لا بد أن تعلي راية الله وان تجاهد في سبيل الله إذا نزع هذا المعنى من قلبك فلن يكن عندك أصلاً دافع لئن تتحرك أو تعد سلاحا أو تصنع سلاح أو تعد جيشاً لكن المغزى هو الطعن في صميم هذه العقيدة ولاء وبراء تميزاً عن أعداء الله، قوة في دين الله إستعلاء بالإيمان بالله، نصرة لدين الله إذا تضعضع هذا الجانب فإنما هو المقتل الذي يصاب به المسلمون، وأما إذا كانت هناك ردود الفعل التي تجنب المسلمين من هذا الجانب ومن هذه القضايا فإنه يؤذن للمسلمين بإذن الله – عز وجل – أن يأخذوا أسباب النصر.

ويمكن أن نوجز ملمحاً منهجياً عاماً مما ذكرناه من الوقائع والأحداث التاريخية ثم نذكر إن شاء الله بشائر نرجو أن تكون بشائر للأمة في مستقبل أيامها.

الخطوات على طريق النصر

١-إحياء الإيمان وتنقية التوحيد والتركيز على المعاني الإيمانية التي تستهدف على وجه الخصوص مثل الولاء والبرء وغيره.

٢-تقوية العبودية وتنحية الإبتداع لأن هذا الجانب كان أحد عوامل ضعف الأمة في بدايات هذا القرن عندما دخل عليها الإستعمار.

٣-نشر العلم وإحياء مدارسه وتقوية أصالته في نفوس الناس وفي عقولهم وفي المساجد وفي المدارس والمناهج بقدر المستطاع، حتى خارج الإطر التي تعتبر هي المنهجية والمفروضة على الناس في بعض ديار الإسلام والمسلمين.

٤-محاربة المنكرات ودرء المفاسد لأنها أحد معامل الهدم، فلا بد أن يكون لها القيام الكامل بدرءها لئلا تنتشر في الأمة وتكون بذلك سبباً من أسباب ضعفها.

٥-توحيد الصفوف وربط القلوب وأن الأمة المفرقة لا تستطيع أن تقاوم أعداءها. فلا بد من تكريس معالم الوحدة، وأحد المعالم التي رُكِّز عليها في الفترة الأخيرة من أعداء الأمة أن يجعلوا الأمة بعد أن

كانت على قومية واحدة وعلى وطنية واحدة أصبحوا في قوميات، كل بلد له وطنيته، بل كل منطقة من بلد لها وطنيتها وشخصيتها التي تكرس ويراد لها أن تظهر.
إذاً لا بد أن نعرف أن أهم الأسباب هي محاربة أسباب الفرقة وأسباب الاختلاف ومحاولة التأكيد على عوامل الانتقاء والتقارب والتوحد وشحذ الهمم على توسيع دائرة الالتقاء، ونقض كل أسباب الخلاف وذكر البحث في مسائل الخلاف لتكون ظاهرة بالدليل والحجة، فلا تبقى عند الناس فيها غبش أو لا تبقى مثاراً للنزاع يؤدي إلى فرقة الصفوف، بقدر المستطاع وللعلماء والأئمة دور كبير.
٦-رفع راية الجهاد في سبيل الله لاسترداد ديار المسلمين ولنشر الإسلام في كل بقاع الأرض شرقها وغربها، لأن هذا هو نهج الله وكما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - الجهاد ماض إلى يوم القيامة.
بشائر النصر
البشارة الأولى: الطائفة المنصورة
والبشائر موجودة في الأمة لأنا ذكرنا صوراً من صور الهزيمة وتخطيط أعداء الله، فينبغي أن لا تكون هذه الصورة الوحيدة حتى لا يدب اليأس في النفوس أو يكون هناك خور وضعف وتراجع، لا بد أن نعرف أن الأمة المسلمة إلى خير بإذن الله - عز وجل -، والنبي - صلى الله عليه وسلم - قال (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرها من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله) وهذه الطائفة كلما زادت وكلما اتسعت كلما كانت مبشرة من مبشرات النصر فنحن لنا ولله الحمد قوة في التيار الذي يعمل في صفوف الأمة المسلمة والصحوة الإسلامية على إحياء معاني العقيدة والتوحيد والولاء والبلاء ونلمحه ظاهراً جلياً، في أن كثيراً من أصحاب القوة سواء كانوا حكاماً أو سلاطين أو مفكرين أو أدباء تنازلوا وذابوا وبقي شباب صغار، ربما ليست لهم مكانة في مجتمعاتهم لكن هم الذين ثبتوا بفضل الله - سبحانه وتعالى - وبفضل ما تعلموا وما تلقنوا من هذا الأمر المهم في حياة الناس.
البشارة الثانية: قوة الحركة العلمية في الديار الإسلامية
والبلاد والمجتمعات، وهذا بشكل عام يتفاوت من منطقة إلى أخرى لكننا نرى نشر الكتب التراثية أصبح أكثر من ذي قبل، الكتب الإسلامية أصبحت تطغى على الكتب التي كانت في يوم من الأيام تكتسح الساحة فلا ترى إلا كتباً عِلمانية وقومية أصبحت الآن هذه في صور تختلف نسبتها أصبحت تتوارى في زوايا المكتبات، وأصبح الناس يقرؤون الكتاب عنوانه ومؤلفه فيعلمون أنه غير مقبول وأنه مبنيٌ على خطأ لأنهم تلقنوا ذلك، وأصبح علم الإسلام ونهجه يكثر بحمد الله سواء في الدروس أو في الكتب أو في نحو ذلك.
البشارة الثالثة: الارتباط بالإسلام والاعتزاز به
أصبحت ظاهرة قوية جداً تظهر في كثير من الأحيان، كما سنمثل بمثلين في آخر الأمر، اعتزاز بالإسلام وتشبذ به رغم كل ما قد يلقى الناس والمسلمون من ضغوط، وشاهِدنا ٧٠ عاماً من

الشيوعية الماحقة والإسلام ما زال نبض القلوب حتى سنح الله – سبحانه وتعالى – للمسلمين وحانت الفرصة في تلك الديار، وظهر الإسلام بملايينه الغفيرة وبكتبه المدسوسة وبمصاحفه التي كانت تقرأ تحت الأرض، ما زال الإسلام قوياً لما تجددت هذه الروح في الارتباط بالإسلام وعدم الانسلاخ منه.

البشارة الرابعة: انتشار العودة بالمطالبة بتطبيق شرع الله – سبحانه وتعالى –

والتعاطف الشعبي الإسلامي مع ذلك لأننا نرى في فترات سابقة أن الشعوب المسلمة ضللت، فأصبحت هي تنادي بأن يغير شرع الله أما اليوم ففي كثير من ديار الإسلام تنادي بملء أصواتها وبنبض قلوبها وفي ليلها ونهارها، ولئن كان حيل بينها وبين ذلك في وقت، فنرجو أن ييسر الله – سبحانه وتعالى – لها في القريب العاجل بإذن الله – سبحانه وتعالى –، فنحن نرى في كل الديار الإسلامية مطالبة مِلِحَّة بإقامة شرع الله، في صورة تكاد أن تكون استفتاءً جماعياً يظهر من خلال حتى المناهج الديموقراطية أن التصويت مع شرع الله ولشرع الله حتى أصدر لغلق هذا الباب أصدر قرار رسمي في بعض الدول الإسلامية لا يفتح النقاش في مجلس الشعب موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية لماذا لأنه عندما يطرح يكتسب الشعبية ويكون له دور في المطالبة بالنسبة للناس.

البشارة الخامسة: التجارب الجهادية التي يسرها الله للأمة

في بدايات هذا الوقت المعاصر أعطت للأمة روحاً جديدة أعادت إليها ثقتها بنفسها ويقينها بربها وإرتباطها بأصالة دينها، ويظهر ذلك في مثلين ظاهرين أفغانستان وفلسطين وخاصة أفغانستان لأن طبيعة ظرفها وأرضها مختلفة، بقي هؤلاء المجاهدون رغم قلة ذات يدهم وقلة قُوتهم وسلاحهم إلى غير ذلك ظلوا حتى كتب الله لهم صوراً من النصر في معارك شتى، وحتى كانوا أحد الأسباب في سقوط الدولة الروسية الشيوعية، وقد كانوا ثابتين رغم كل ما حصل لهم، مما يعطي للأمة أن هذا المنهج إذا رفع وهو منهج الله وأن الراية إذا رفعت راية لا إله إلا الله وأن الصيحة إذا رُفِعَت صيحة الله أكبر فإن الله يثبت الأقدام وينزل النصر ولو بعد حين.

وكذلك أيضاً أبناء الأقصى المجاهدين في الانتفاضة الفلسطينية، إنما هم أبناء المساجد وإنما صيحتهم خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود، حينما بدأ الناس يتلمَّسون الطريق الصحيح ووضعوا خطواتهم على الطريق الصحيح، لكنها ظهرت آثارها مما قوّى روح الجهاد في الأمة وعزمها في دينها.

البشارة السادسة: دخول الإسلام إلى ميادين الحياة العامة

هو أيضاً معلماً مهم من بشائر النصر، فيما مضى لم تكن هناك مؤسسات اقتصادية قائمة على منهج الإسلام ولا مؤسسات سياسية قائمة على منهج الإسلام، ولا مؤسسات تعليمية أو إغاثية أو اجتماعية، لكن ظهرت هذه المؤسسات الآن مما أعطى للمسلمين قناعة بأن الإسلام كما نقول شامل لكل أنظمة الحياة ومجالاتها فإنه ليس ذلك قول نظري، بل هو قول عملي فإذا بالاقتصاد الإسلامي نافس وظهر وأثبت جدارته رغم ما يعتري ذلك من عقبات أو صعوبات.

وكذلك في مجال الإغاثة والمعونات الاجتماعية بدأ العمل الخيري الإسلامي ينافس حتى المؤسسات التنصيرية والتبشيرية، لا منافسة في الإمكانيات وإنما منافسة في الآثار على الواقع، كما نسمع عن لجنة مسلمي أفريقيا وآثارها البيضاء في أفريقيا رغم أنها لجنة واحدة إلا أنها أصبحت مثار رعب للمؤسسات التنصيرية العاملة في أفريقيا.

ودخول الإسلام إلى ميادين الحياة في صور عملية جعل الناس يرون منهج الإسلام ونجاحه في تجارب محدودة، مما يشوقهم إلى أن يحكم الإسلام ديار المسلمين في كل مناحي هذه الحياة، فهذه البشائر بإذن الله – سبحانه وتعالى – لا شك أنها تحيي الأمل في نفس المؤمن، ولا ينقطع الأمل ما دام الإنسان متصل بالله معتقداً بقول الله – سبحانه وتعالى – (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقول الله – سبحانه وتعالى – (والعاقبة للمتقين) وقوله – تعالى –(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) والآيات في ذلك كثيرة، لا ينقطع رجاء العبد المؤمن بنصر الله – عز وجل –، لا شك أن هناك عقبات سواء كانت من التيارات الإفساد الخلقي والفكري الذي يعبث به في مجتمعاتنا من يعبثون، ويحتاجون منا تبصر وتمعن وإلى توقُّد وحذر وأيضاً إلى مواجهة وكشف وفضح، وكذلك تيار الاستبداد السياسي الذي أشرنا إليه وهجمات التشويه الإعلامي وعوائق الوحدة المتكاملة.

هذه الصور من البشائر و بعض العوائق تجعلنا لا لنستبشر ونفرح ونقول إن الإسلام قادم وصلاح الدين أوشك أن يطرق الأبواب وإنما هذا يعظم ويثقل المسؤولية على أعناقنا ويجعلنا أمام مواجهة أمر الله – عز وجل – لنا بأن لا تأخذنا في الله لومة لائم، وأن نقيم أمر الله، وأن ننشر رايته وأن ننشر دينه، فهذا نوع من مزيدٍ من تحمل المسئولية وتعظيمها عند كل فرد، حتى يكون أحد الروافد التي تحرك عجلة الأمة، وتسرع بها نحو النصر القريب المنتظر بعون الله – سبحانه وتعالى –، وهذا إن شاء الله فيما مضى مما ذكرنا من صور تاريخنا، أن الأمة عادت إلى النصر بعد فترات قليلة بعد أن – عز وجل – عات وثابت إلى ربها، ولئن كان الردح طويلاً والزمن طويلاً حينما مضت الأمة في طرق ومناهج ضالة وفي سلوكيات منحرفة فإنها بدأت تثوب إلى رشدها، وصحوتها اليوم صحوة مباركة إن شاء الله يرجى لها الخير بإذن الله – سبحانه وتعالى –،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصدر: http://www.olamaalshareah.net

جيل الصحوة بين الهزيمة والانطلاق (١ – ٢)

* ضيوف الندوة:

* فضيلة الأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر: المشرف على موقع المسلم على الشبكة العالمية.

* فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: الأستاذ بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

* فضيلة الدكتور عبد الله الصبيح: الأستاذ بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

مرت بالأمة الإسلامية في فترة من الفترات هزائم وانكسارات متعددة الجوانب، سواء أكان ذلك على المستوى العسكري أم على المستوى السياسي أم على المستوى العقدي والفكري والاجتماعي، إلى نحو ذلك من ألوان الهزيمة التي حصلت بعد سقوط الدولة العثمانية، ودخول الاستعمار إلى البلاد الإسلامية. ثم بدأ الناس يتطلعون إلى النهضة العربية، أو النهضة الإسلامية، وبرزت في تلك الفترة ـــ وخاصة في البلاد العربية ـــ مجموعة من التيارات الفكرية، ابتداءً بالاتجاهات الشيوعية واليسارية، ومروراً بالشعارات العروبية والقومية والوطنية وغيرها من الشعارات التي ضجت بها الساحة العربية، خصوصاً في فترة الخمسينيات والستينيات والسبعينيات الميلادية من القرن الماضي. ومع قوة هذه الشعارات الثورية حصلت الهزائم والانكسارات أيضاً مرة أخرى، ووجد الناس أن تلك الشعارات، وتلك الأحزاب العروبية، والقومية لم تخرجهم من مأزق إلا أدخلتهم في مأزق أشد منه، وفي هذه الأجواء تنامت الصحوة الإسلامية، وكان لها أثر كبير جداً في إعادة العزة للناس من جديد، وإعادة الثقة بالدين، وبجذور الأمة العقدية والفكرية.

وأنجزت الصحوة الإسلامية، على الرغم من المضايقات الكثيرة التي مرت بها، إنجازات متعددة الجوانب، حتى أصبحت ملء السمع والبصر.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر صار هناك حضور أقوى للصوت الإسلامي، وأخذت الهجمة الغربية طوراً جديداً في الهجوم على المسلمين، وجعلت الخصم الأساس للغرب هو الإسلام، وعلى وجه التحديد تيار الصحوة الإسلامية بمدارسه المختلفة. وفي هذه الأثناء أيضاً حصل شيء من الانهزام النسبي عند بعض الإسلاميين على المستوى العقدي والثقافي، وحصلت اجتهادات ومراجعات، قد يسميها أناس هزيمة، وقد يسميها آخرون إعادة بناء للفكر الإسلامي، وإعادة نظر في المسلّمات الإسلامية، وظهرت أطروحات متعددة ومتباينة تحاول قدر الإمكان أن تتقاطع أو تتعايش أو تتقارب مع بعض الأطروحات الغربية.

وبدأ بعض الإسلاميين يقدم الفكر الإسلامي بصورة المدافع، وليس بصورة الإنسان المعتز بالدين والمعتز بالقيم، وبالثوابت الشرعية، وبدأ بعض الناس يتساءلون: هل هناك حقيقة هزيمة نفسية في جيل الصحوة أم أن هذه الأطاريح ما هي إلا بناء من جديد لطريقة التفكير ولطريقة التعايش مع الواقع الذي تمر به الأمة الإسلامية؟ وهل وصلت هذه الهزيمة إلى مستوى الظاهرة في أوساط الإسلاميين، وما ملامح هذه الهزيمة؟! وكيف نستطيع إعادة التوازن من جديد لبناء الصحوة الإسلامية؟!

هذا هو مجال حديثنا في هذه الندوة المباركة:
ونبدأ بالسؤال المباشر: هل نحن أمام هزيمة نفسية في جيل الصحوة..؟
* د.عبد الرحمن الزنيدي: حقيقةً أن العنوان هذا ـــ الهزيمة النفسية ـــ يحدث اهتزازاً لدى الإنسان، أنا سأبني حديثي عن هذه النقطة على تصوري للهزيمة النفسية، حاولت أن أوجد مسارات تتمثل بها الهزيمة النفسية إذا أخذناها بمفهومها هزيمة نفسية.
الهزيمة النفسية: هي شعور بعدم القدرة على الفعل لدى من يستطيع أن يفعل، وإذا كان لا يستطيع أن يفعل فهو شعور خاطئ.
الهزيمة النفسية: هي يأس من إمكانية أي عمل إيجابي.
الهزيمة النفسية: هي التخلي عن الأهداف التي كان يتبناها، وربما تبني ما يقابلها.
الهزيمة النفسية: هي انكفاء على الذات، وتخوف من الآخر.
الهزيمة النفسية: هي حالة ذل، حالة استكانة، تجعل الإنسان لا يرفع رأسه، ولا يطيق أحياناً حتى نفسه، يعني حالة إحباط يتولد من خجل، من كسل، وأحياناً من شعور بالجرم إزاء وضع يحيط به.
كما نعلم أن أبرز صورة راجت في الاتجاه الثقافي عند المسلمين في العصر الحاضر عن الهزيمة النفسية هي التي التصقت بالمدرسة التي سميت العقلانية، أو المدرسة العصرانية، ونحوها من التسميات، والتي كانت هي أول حركات التفاعل الفكري مع الغرب، والتي هي نتاج مجموعة من الناس، أبناء لأمة وعت نفسها على أمة أخرى: أمة ضعيفة متخلفة فوضوية، التقت بأمة حضارية متقدمة مدنية متطلعة استعمارياً؛ فحصل عندهم هذا الاهتزاز.
اهتزار نفسي ولّد مواقف هي مظاهر الهزيمة النفسية التي كان من أبرزها انعكاس في القضية لديهم؛ فالأصل أن الإسلام (القرآن والسنة) ابتداءً هو الذي يوجه الفكر ليحكم الأشياء، فصارت القضية معكوسة؛ وصارت الرؤية الغربية والحضارة الغربية هي التي توجه فكره ليأتي بعد ذلك بالقرآن والسنة، فيحاول حلحلتها، وجعلها تتفق معها.
طبعاً ما زالت الهزيمة النفسية موجودة، لكن الهزيمة التي أقصد أنها موجودة هي الهزيمة النفسية لدى بقايا فلول مَنْ يُسمَّوْن بمفكري التغريب ونحوهم، ولهم صور ربما نشير إليهم بعد ذلك كمحيط موجود الآن يلابس الصحوة، ويحاول أن يوجه مسارها بقدر الاستطاعة. هذه الهزيمة النفسية بهذه الصورة التي يمكن أن نقول: إنها تمثل حالة إحباط، أو حالة اجتلاب للآخر، أو قابلية الاستعمار، أو نحوها من التسميات.
البيان: عفواً د. عبد الرحمن! إذن أنت تؤكد أن هذه الهزيمة النفسية موجودة في أوساط الصحوة الإسلامية، كما أنها موجودة في أوساط العامة.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: لا، لم آتِ بعدُ على ذلك؛ لم أُجب عن السؤال، أردت أن أنظّر للقضية لأجيب بناءً على تنظيرها.

جوابي: هو أن الهزيمة النفسية بالمفهوم الذي ذكرته، وبصوره التي سردتها غير موجودة إطلاقاً في أوساط الصحوة، لا لدى القادة، ولا لدى الأفراد، هناك موقف شامل في أوساط الصحوة الإسلامية إيماناً بالإسلام بصفته منجياً عند الله – سبحانه – ومحققاً للنهوض، ويقيناً بهزيمة ما سواه، وقناعة بالأدلة، فضلاً عن الدليل الإيماني الأصل الذي يأخذ الإنسان منه دليله، دليل واقع يشهد بهذا، وهو هزيمة جميع الأطروحات التي قدمت في العالم الإسلامي كله مستبعدةً الإسلام. فهناك إيمان بأن الإسلام مشروع إصلاح، وهناك إحساس في أوساط الصحوة الإسلامية بأن المسلمين الآن رغم العوائق والعثرات يتجهون للإسلام. هناك شعور أن هذه العقبات دليل على إدراك هذه الحقائق من قِبَل الأعداء. يعني أن الأعداء الذين يضعون العقبات في وجه أوساط الصحوة يدركون أنها صحوة حضارية مستهدفة، وحركة أو اتجاه استقلالي، ومن ثم بروز حضاري، ونحو ذلك.

ومثل هذه الوضعيات النفسية لا يمكن أن توجد نفسية مهزومة. يمكن أن أقول ـــ حتى لا تكون القضية مصادرة ابتداء ـــ: إن هناك حالة أخرى ليست هزيمة لا اصطلاحاً ولا مضموناً، يمكن أن أسميها: حالة ارتباك فكري في الصحوة الإسلامية، وبالذات لدى بعض الرواد ـــ رواد الصحوة الإسلامية ـــ هذا الارتباك الفكري نتيجة حالة عامة يعيشيها هؤلاء الرواد، هناك شعور بضخامة المسؤولية في ظل الظروف التي يعيشونها، والتي لم تعد مسؤولية تربوية كما كانت في السابق، بل أصبحت مسؤولية سياسية، بل مسؤولية عالمية. هناك انفتاح على العالم في دائرة الصحوة الإسلامية، وانتقال من طور الانكفاء على الذات إلى طور المداخلة في الحياة: مداخلة المجتمع الذي يعيشون فيه، ومداخلة حتى العالم بمؤسساته، وبوضعه العالمي كله.

هناك إقبال من الناس على التدين، ومن ثم إلحاح من هؤلاء على طلب برمجة حياتهم.

هؤلاء الناس المتدينون المقبلون على الدين الذين يدخلون فيه أفواجاً من السهل أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، هذه أمور سهلة وواضحة لديهم، لكنهم يريدون برمجة حياتهم على الإسلام. يقول بعضهم: أنا دخلت في الدين، أنا عدت إلى الله – سبحانه –، أنا الآن رجل أعمال، أنا الحمد لله أصبحت أصلي، تركت الفواحش، أصبحت أعتمر... لكن لديَّ مئات الملايين من الأموال أريد أن تجري على نمط إسلامي، ومع ذلك يكون عصرياً، لا أريد أن تردني إلى معاملات فردية كانت سائغة في السابق. الناس يطالبون هؤلاء الرواد بأن توضَع مسالك حياتية في الاقتصاد، في السياسة، في الإدارة، في الفنون، في الآداب... في جميع شؤون الحياة، بأن توضع برامج حياتية تكون إسلامية، وتكون عصرية في الوقت نفسه.

هناك ما أستطيع أن أسميه: تساؤلات من الأتباع، ونقد من الآخر تجاه الصحوة الإسلامية. الأتبــاع كانوا فيما سبق أتباعاً بالمعنى اللفظي؛ بمعنى مجرد: متلقين من روادهم، من مشايخهم، من علمــائهم، من دعاتهم، الآن يشعرون أنهم يريدون الانفتاح، ويريدون أن يناقشوا الآخر خارج الدائرة الصحوية، يثيرون نقداً حاداً، مثلاً: محاضرة تلقى، أو كلمة تكتب في موقع، أو صحيفة من داعية، وغير ذلــك تخرج لها ردود من هؤلاء، وهذا يحرج ــ الآن ــ رواد الصحوة الدعاة؛ لأنهم لم يتعوَّدوا على هــذه الصفة، ومن ثم هم بحاجة إلى أن يكونوا على مستوى التأقلم مع هذه القضية.

الانتقال من العاطفية إلى العقلانية: في السابق كانت حركة الدعوة ــ في فترة طويلة ــ تركز علــى الجانب العاطفي، خاصة حينما كانت الأمة في عموم العالم الإسلامي في حالة شرود عن الــدين وفي حالة غفلة؛ فكانت الدعوة: عودوا إلى الله، عودوا إلى دينكم؛ فالخير في دينكم، منطلقات وشعارات عامة، وكانت مجدية في ذلك الوقت، لكن الناس الآن رجعوا إلى دينهم، والآن يريدون حركة منطقية عملية تجسد حياتهم عملياً في واقع الحياة، هذه الحالات ونحوها، وغيرها من أمثالها انفتحــت علــى الصحوة الإسلامية: على روادها، ثم على أتباعهم ثانياً وبشكل متسارع، وبشكل ملحّ لا يحتمل بطئاً لتحديد المواقف، ورسم المسالك. والصحوة بدعاتها وعلمائها هي حركة ثقافيــة بالدرجــه الأولى، والحركة الثقافية لا يتم تفاعلها بشكل سريع كما هو الشأن السياسي؛ الذي يتخذ موقفاً ثم ينتــهي؛ فطبيعة الدعاة والمفكرين والمثقفين أنهم يحتاجون لموازنات لرسم المواقف، يحتاجون إلى تفكير هــادئ، حتى يضعوا الأمور في أنصبتها الصحيحة، وحتى لا يزيغ الناس بالمهاوي؛ خاصة أنهم يتعاملون بــدين يدينون الله به، وليس الأمر مجرد مصالح مادية لو فاتت فسوف تأتي بعد ذلك مصالح بديلة.

لا شك أن الصحوة الإسلامية سعت للمواكبة؛ يعني سعت للاستجابة الإيجابية في حدود الإمكانات، لكن الذي لا ريب فيه أن الملحوظ بشأنها هو ما ذكرته، وهو أن هناك حالة ارتباك، أو إن أردت أن أخفف هذه اللفظة فأستطيع أن أقول: إن الصحوة الآن تعيش لحظة تأمل، لحظة استبصــار، لحظــة محاولة إعادة نظرات، تأهيل الذات بالقدر الكافي من أجل التفاعل الحيوي مع هذه التغيرات المحيطــة بها.

الصحوة كان لها ضجيج من داخلها، وضجيج من الآخرين بشأنها، وفي الأونة الأخيرة بدأ يخفت هذا الصوت، لكن خفوت هذا الصوت لا يعني الغياب حقيقة. أنا أعتقد أن خفوت هذا الصوت يعكس شعوراً بالثقة بالنفس، ويعكس عقلاً في التعاطي مع الحياة، ربما بأرشد وأكثر سداداً مما كــان قبــل ذلك، لكنه بكل حال لا يعني أيضاً التراجع في أوساط الصحوة.

البيان: إذن أنت ترى يا فضيلة الدكتور أن الصحوة من حيث العموم لا تشهد هزيمة، وإنمــا هنــاك ارتباك فكري أدى إلى بعض الظواهر التي قد تفسر عند بعضهم بالهزيمة، وتفسر عند آخرين بالارتباك الفكري؛ فهل المشايخ يوافقون على هذا الطرح؟

* د. ناصر العمر: الكلام الذي ذكره الدكتور عبد الرحمن جميلٌ جداً، وأوافقه في جملة ما قال، لكن ما دمنا في التعريف؛ فالذي فهمته من التعريف أن قول: (الهزيمة في جيل الصحوة) أنه ليس عنواناً تقريرياً بل هو دراسة؛ بمعنى أن هناك شيئين مختلفين: هناك شيء اسمه الهزيمة النفسية، وشيء آخر اسمه جيل الصحوة. وهذا ما لاحظته من قول الدكتور عبد الرحمن من أن الهزيمة شيء والصحوة شيء آخر، ولا ارتباط بينهما. والحقيقة أن البيان سبقت في معالجة المشكلة قبل أن تقع؛ لأن مشكلتنا في كثير من الأحيان أن ننتظر حتى تقع المشكلة، ثم نذهب نبحث عن حلولها.

والذي أراه أن الهزيمة لم تعد ظاهرة، وإن اختُلف في بعض تشخيص الحالات الفردية التي قد أشير إليها.

وإضافة لما ذكر في الموضوع حتى أشخّص ماذا نريد من معنى الهزيمة؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

فالهزيمة في اللغة تدور في أصلها اللغوي على معنى واحد: وهو الغمز والكسر، ومنها الهزيمة في المعركة، والهزيمة النفسية وغيرها.

الهزيمة: هي انكسار إرادة النفس أمام حدث معين، أو واقع معين، أو فكر معين، أو ظاهرة معينة؛ بحيث لا تقوى على مجابهته، فهي تستسلم أو تسلم بدون تفكير في التخلص منه أو مواجهته؛ لذلك انكسار الإرادة يعني: لا قدرة ولا استطاعة.

أعطي أمثلة من ألوان الانكسار في واقع الأمة. مثلاً: الانبهار بكل خُلُق دخيل خالف أخلاق الإسلام، وأعراف أهله؛ فهذا ضرب من الهزيمة.

الخجل من القيام بأمر الله تجاه الأفراد والمجتمع ضرب من الهزيمة النفسية أيضاً. التبرؤ من بعض العقائد الإسلامية كعقيدة الولاء والبراء، كما يحدث من بعض المسلمين أيضاً هزيمة نفسية.

محاولةُ لَيِّ الشريعة لتوافق أهواء العصر وأهل الشرق والغرب هزيمة نفسية. التبعية الغربية أو الشرقية هي أيضاً من جوانب الهزيمة النفسية. الافتتان بالحضارة الغربية جانب من جوانب الهزيمة النفسية.

وإن كان في هذا الكلام نوع من التداخل، لكن يفسر نوعاً من الهزيمة النفسية؛ بهذا المنظور وبالمنظور، الذي قدمه د. عبد الرحمن فأرى أنه لا توجد في الصحوة هزيمة نفسية، وأرى أنها لا توجد بصفتها ظاهرة عامة، لكن توجد حالات فردية قد تزيد أحياناً، وتنقص أحياناً أخرى، وبعض المواقف قد يفهمها بعض المتابعين على أنها هزيمة، ويفهمها آخرون على أنها اجتهاد في استثمار فرص متاحة، وقد يوافقون عليها وقد يخالفون؛ فالدعاة وأهل العلم ومن عرفوا بسلامة المنهج وعرفوا بالخير، ولهم أثر في هذه الصحوة، وإن نشأت بعض الاجتهادات ــ بغض النظر عن الموافقة أو عدم الموافقة عليها ــ فهي ليست نابعة ــ غالباً ــ من الهزيمة، وإنما نابعة من أسباب أخرى: استثمار فرص أو غيرها.

والصحوة الإسلامية الآن في هذه المرحلة لا تعاني من هزيمة نفسية، والدليل على ذلك الأجيال الـــتي تتطلع إلى الجهاد وتمارسه، بل وقع بعضها في الغلو المنهي عنه، اعتداداً بنفسها وثقة بما عندها.

لعلك تقابل شباباً يعملون أعمالاً أكبر من طاقتهم؛ فبعضها أعمال مشـــروعة، مثـــل مـــا نـــرى في فلسطين، وما نرى في العراق، وغيرهما من مواطن الجهاد.

شباب يقفون أمام أعتى قوة؛ هل يوصفون بالهزيمة؟ مستحيل، ونجد آخرين في بعض بلاد المســـلمين يعملون مثل أعمال التفجيرات وغيرها، وهذا غلو وخروج عن المنهج، وليس من الإصلاح، ولكن لا يمكن أن يكون هذا نابعاً من الهزيمة، بل نابعاً من الاعتداد المفرط بالذات؛ لذلك أقول: إن الهزيمة غير موجودة بصفتها ظاهرة عامة، لكن يوجد حالات فردية في كل عمل، وفي كل جيل يحدث ذلـــك.

بقيت نقطة أشار إليها د. عبد الرحمن، وهي أن الصحوة الآن تمر بمراحل ـــ مثل مرحلة العمر ـــ هل تسمى مرحلة فتور؟

توجد مظاهر أوافق أنها مظاهر فتور، وقد تحدثت عنه قبل سنوات في كتاب (الفتور). والفتور غـــير الهزيمة هذا أولاً.

ثانياً: القادة والذين لهم السبق في نشأة الصحوة ـــ كما أشار الدكتور ـــ هم أناس كانوا يوجهـــون، أما الآن فانتقلوا من التنظير إلى العمل وإلى المشاريع؛ فهم الآن انشغلوا ببرامج عملية علمية.

ولو نظرنا قبل عقدين مثلاً فسنجد أنه لم تكن القنوات الموجودة الآن، و لم تكن المواقع موجـــودة في المنهج العلمي والدورات وغيرها من الانشغال بالعمل الذي يوازن التنظير، بعضهم يتصور أنه نـــوع من الهزيمة، هذا غير صحيح، أيضاً عدم التجاوب مع الاستفزاز الذي يحدث الآن فهذا رشد وعقـــل وفكر.

بقيت نقطة أخيرة هي أنه لا شك أن الصحوة عندها إشكالات معينة، ولا شك أن عمرهـــا قصـــير بالنسبة لما تحقق لها من إيجابيات ناجحة، وهناك إشكاليات عالقة، سواء سميناه الارتباك كما تحـــدث د. عبد الرحمن، أو نوعاً من التأمل، أو عدم الوضوح والضبابية، أو هزيمة فردية محدودة عند بعـــض الأشخاص، ولا شك أن هذه مرحلة طبيعية، وهذه تفسر بعض الأحداث الموجودة، والله أعلم.

* د. عبد الله الصبيح: كلمة جميلة قالها الدكتور عبد الرحمن في تعريفه الهزيمة: هي الشـــعور بعـــدم القدرة على الفعل لدى من يستطيع أن يفعل. وهذا التعريف يشرح جانباً من جوانب الهزيمة، وهناك جانب آخر يوضحه تعريف آخر أورده الدكتور عبد الرحمن وهو الهزيمة النفسية هي التخلـــي عـــن الأهداف التي كان يتبناها، وربما ما يقابلها. وهذان التعريفان يوضحان صورتين للهزيمة سوف أتطرق إليهما حينما أتحدث عن مفهوم الهزيمة.

وقبل الإجابة عن السؤال: «هل نحن أمام هزيمة نفسية في جيل الصحوة؟ ».

أحب أن أشير إلى أن أول من تحدث عن الهزيمة النفسية فيما أعلم هو ابن خلدون – رحمه الله – في مقدمته؛ حيث عقد فصلاً خاصاً بذلك، وسماه (تقليد المغلوب للغالب) يقول ابن خلدون: «المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب في زيه وشعاره، وعوائده، وشأنه كله».

وذكر ابن خلدون صوراً من هزيمة المسلمين النفسية في الأندلس، أو تقليد المغلوب للغالب – كما سماها – ومنها وضعهم الصلبان في البيوت ومحاراتهم للنصارى في سلوكهم ولباسهم ومأكلهم ومشربهم، ويعلل ابن خلدون ذلك بأنه لظن المغلوبين أن تقليد الغالب في عوائده يمنحهم القوة التي انتزعها منهم عدوهم.

وما ذكره ابن خلدون عن تقليد المغلوب للغالب ليس قاعدة مطردة؛ فهناك من غلب واستولى عدوه على أرضه، ومع ذلك بقي معتزاً بدينه وقيمه ونفسه، ولم يقلد من غلبه؛ فالمسلمون لما هزمهم التتار، وجدنا الغالب هو الذي قلد المغلوب ودخل في دينه. وفي العصر الحاضر نرى إخواننا في فلسطين معتزين بإيمانهم محافظين على عقيدتهم، يشعرون بتميزهم عن عدوهم الغالب الجاثم على أرضهم.

بعد هذه المقدمة أقول: يظهر لي أن للهزيمة النفسية صورتين:

١ – هزيمة الذات أمام المبدأ؛ حيث لا يستطيع الفرد تحمُّل تبعة المبدأ ودفع ثمنه فيتخلى عنه، إما للحصول على مكسب دنيوي، أو الخلاص من أذى يلحقه بسبب مبدئه.

٢ – هزيمة المبدأ أمام الواقع؛ حيث يكتشف الشخص أن المبادئ التي يحملها عاجزة عن إحداث تغيير أو إصلاح في الواقع، فيتخلى عنها بحثاً عن مبدأ آخر، وقد لا يكون في هذا الجانب هزيمة نفسية واضحة؛ لأن منه ما هو هزيمة، ومنه ما ليس كذلك. وينبغي ملاحظة أن مصطلح الهزيمة مصطلح فضفاض كمصطلح الصحوة الذي سأتحدث عنه؛ فهناك فتور يمكن أن تلحقه بالهزيمة، وهناك انشقاق في الصف يمكن أن تلحقه بالهزيمة، وهناك الاجتهاد في التأول، وفي تطويع المبدأ للواقع الذي يتداخل أحياناً مع الهزيمة النفسية وأحياناً مع الاجتهاد.

وسواء قلنا إن الصحوة تعاني من الهزيمة النفسية أم لا تعاني منها، فلا بد من تحديد المراد بالصحوة الإسلامية.

تيار الصحوة الإسلامية في نظري لم يعد محدوداً بمجتمع معين، أو أفراد محدودين، أو جماعة أو تنظيم أو حزب، بل أصبح تياراً واسعاً، ودخل تحت هذا التيار كل من رفع الإسلام شعاراً للحياة، ونحن نعلم أن ممن رفع الإسلام شعاراً للحياة من كان على سنن صحيحة، وطريقة سديدة، ومن رفعه وهو ليس كذلك، بل هناك من رفعه نتيجة انهزام في مبدأ سابق، مثل: بعض القوميين، وبعض العلمانيين الذين انهزمت أفكارهم فرفعوا الشعار الإسلامي، ولكنهم يريدون الإسلام الذي في أذهانهم، وليس **الإسلام المنزل على محمد ﷺ**.

وهؤلاء في نظري يعيشون حالة من الهزيمة النفسية، وفيما رفعوه يحدث خللاً داخل الصف الإسلامي، والصحوة الإسلامية.

إذن تيار الصحوة الإسلامية تيار واسع، ويمكن أن نقول: إن الصحوة بمجملها لا تعاني مـــن هزيمـــة نفسية، لكن يمكن أن نلاحظ عند بعض قطاعاتها وعند بعض الأفراد ـــ وهم ليسوا قليلين ـــ هزيمـــة نفسية بناءً على ما ذكرته عن صور الهزيمة. وهذه ليست ظاهرة عامة شاملة، بل ظاهرة جزئيـــة، ولا يمكن تعميمها على تيار الصحوة بكامله. ولعل مما يساعد في انتشار الهزيمة النفسية أو مما يفضي إليها ما ذكره الدكتور عبد الرحمن مما سماه بـــ (الارتباك الفكري). الصحوة الإسلامية كانت في وقت من الأوقات تعيش مرحلة العاطفة، ومخاطبة الفرد في صلاح نفسه، ثم انتقلت إلى مواجهة الواقع بتقـــديم حلول عملية. وبعض هذه الحلول العملية تداخلت مع بعض أطروحات المشروع العصراني الذي ظهر في أواخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر، وهو يقوم على تطويع النص ومقاصد الشـــرع للواقع.

وربما كان ظهور المشروع العصراني بسبب ضعف البناء الثقافي، والإعداد العلمي عنـــد الصـــحوة في المرحلة السابقة، مرحلة البناء العاطفي أو مرحلة تربية الفرد. وعودة المشروع العصراني للظهور مـــرة ثانية، سواء على مستوى النخب أو مستوى الأفراد والأتباع صورة من صور الهزيمة النفســـية الـــتي نتحدث عنها.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: لي تعليقات مباشرة على ما سبق، أذكرها باختصار:

أولاً: ما ذكرته هنا حالة من الارتباك والتأمل البطيء لدى بعض رواد الصـــحوة مـــن مفكـــرين أو عاملين، وهذه ألمح إليها الدكتور ناصر العمر، هذا قد يُحدث حالة من الهزيمة النفسية مستقبلاً إذا لم يستطع هؤلاء أن يطوروا صُعُداً ما يقدمونه؛ بمعنى إذا تباطؤوا عن تقديم هذه البرمجة العملية لمســـاوقة الحياة بصبغها بالحلال والحرام؛ بحيث يعيشها الناس حياة إسلامية؛ فإذا تباطؤوا وتلكؤوا فقد يملّـــون من قِبَل من لديهم انفتاح عليهم، أو قبول لهم من حكام وغيرهم. هذا من جهة، ومن جهـــة ثانيـــة سيبدأ الناس يطلعون بعمومهم على الطرح الآخر الذي يمكن أن يطرحه العصـــرانيون، وخاصـــة أن العصرانيين الآن ليسوا على النمط السابق الذي يعلنون فيه قطيعتهم مع الإسلام؛ فقـــد صـــاروا الآن يقدمون رؤاهم العصرانية، ويلبسونها لباساً إسلامياً.

وهنا نقطة ثانية وهي تعليق على كلمة الدكتور عبد الله في قضية ولع المغلوب بالتقليد للغالب فهـــو حقيقة، ولكن انهزام النفس أمام الغالب له درجات وليس درجة واحدة، هو أحياناً يكـــون انهزامـــاً مبدئياً؛ بمعنى يمسخ فيه الإنسان ويذوب حضارياً، وقد يكون الانهزام ليس مبدئياً، فلا نقـــول هـــذا انهزام، وإن كان قد تأثر في الغالب ببعض مجرياتها العملية، وانفعل ببعض معطياتها الفكرية والثقافية... إلخ؛ فهي انهزمت عملياً، لكنها ما انهزمت حقيقة؛ لأن الهزيمة النفسية في الحقيقة هزيمة قاصـــمة؛ لأن

النفس هي آخر شيء عند الإنسان. وحتى لا يكون الكلام فكرياً بحتاً أضرب مثالاً: الاستعمار جاء إلى العالم الإسلامي، فاستعمر الغربيون بلاد المسلمين، وكانت مكيدتهم، خاصة في الجانب الثقافي أكثر من غيره؛ والغربيون استعمروا أيضاً أمريكا اللاتينية كما هو معروف ورحل المستعمرون من البلاد الإسلامية، ورحلوا من أمريكا اللاتينية؛ فما الذي حدث؟ الذي حدث هو اختلاف واضح بين الجهتين: أمريكا اللاتينية مُسخت نهائياً؛ فلا أديانها التي كانت بقيت بها، ولا تقاليدها التي كانت بقيت لها، ولا لغاتها أيضاً التي كانت بقيت؛ وهكذا؛ فهناك هزيمة نفسية ساحقة؛ بمعنى أن الشخصية الحضارية التي كانت هناك ذابت أمام حضارة الغازي وصارت الآن تابعة لها. لكن بالنسبة للأمة الإسلامية فلا.

نعم! انفعلوا وتأثروا، لكن بقيت لديهم الخميرة الداخلية، وبقي لديهم أن ما يحملون من هذا الكتاب ــ وهو القرآن ــ يمثل الأعلى، ومهما ضعف التزام الإنسان في عمله إلا أنه يشعر أن هذا هو الحق، ومن ثم أي فكرة وأي نظرية تخالفه فإنها باطلة. تلقائياً يعرف هذا الشيء، قد ينجر أحياناً نتيجة شهوة، أو مؤثرات إغرائية، قد ينجر وراء هذا الشيء الجديد، لكن يبقى في قرارة نفسه الأساس الديني؛ فالحقيقة أن الهزيمة النفسية ليست صورة واحدة، وإنما تأخذ أشكالاً مختلفة. هناك نقطة أخيرة هي ــ وقد أشار إليها الدكتور عبد الله ــ قضية أن الصحوة مفهومها واسع، صحيح أن مفهومها ليس مفهوماً مصطلحياً؛ بمعنى: أن له تعريفاً جامعاً مانعاً، لكن لا أعتقد أن من أدخلهم الدكتور عبد الله في الصحوة، أنهم من الصحوة، ومن سماهم وهم المنهزمون نفسياً أو العصرانيون ونحوهم؛ فهؤلاء ليسوا من الصحوة، ولا يعتبرون هم أنفسهم من الصحوة، حتى وإن كتبوا في الإسلاميات وإن فسروا الإسلام؛ فلا أعتقد أنهم يُعَدُّون من الصحوة؛ فلا محمد أركون، ولا شحرور، والقمني ولا سعيد عشماوي.... ولا نحوهم من الفئة التي كانت دراستهم تتجه للإسلام وتفسير القرآن، وتحاول أن تقدم صورة بديلة أو مقابلة للصورة التي تقدمها الصحوة، لكنها ليست للصحوة؛ فهؤلاء هم خارج سور الصحوة الإسلامية.

* د. عبد الله الصبيح: يعتمد على هؤلاء بعض أبناء الصحوة يقرؤون لهم، ويتأثرون بفكرهم.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: القراءة نعم! أما التأثر فقضية ثانية، وهي إذا كان التأثر بفكرهم تأثراً منهجياً، تأثرهم بحيث أن لديهم قدرات على أن يستوعبوا المنهج لنقدهم، ولتقديم رؤاهم داخل دائرة الصحوة من خلال المنهجية الجديدة إذا تلبّسوا بها بمنهجهم أصبحوا منهم، لا أعتقد أن في دائرة الصحوة من يتفاعل مع هؤلاء بهذه الصيغة التي ذكرها الدكتور عبد الله.

* د. عبد الله الصبيح: ليس بالضرورة الأسماء التي ذكرتها، لكن هناك من قطاع الصحوة من تأثر ببعض الكتابات، وحصل عنده نوع من الهزيمة؛ فإذا كنت تريد أنت أن تُخرج هؤلاء من قطاع الصحوة فحينئذ أنت تنفي الهزيمة النفسية عن الصحوة بإخراج كل من انهزم منها.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: نحن من خلال حديثنا عن الصحوة والهزيمة. أنا أقول: إذا تلبَّس وأصبح هو صورة لهذا الإنسان الذي حكمت محكمة علمانية بردته؛ فكيف ندخله في الصحوة؟ هذه رؤيتي.

* د. عبد الله الصبيح: ليس بالضرورة أن ندخلهم.

البيان: ربما كان ذكر الأسماء هو الذي أوجد فارقاً كبيراً في الحكم، لكن ألا ترى أن هناك مجموعة ممن ينسبون للفكر الإسلامي قد تكون عندهم طروحات عصرانية تميل أحياناً إلى الغلو الذي لا يخرجهم عن دائرة الإسلام، لكنهم أيضاً تأثروا بشكل أو بآخر ببعض الأطروحات العصرانية؟

* د. عبد الرحمن الزنيدي: أما أن تكون أفكار أفراد فهذا صحيح، وأما أن تكون ظاهرة فلا أعتقد، ونحن نتحدث عن الهزيمة بصفتها ظاهرة.

النقطة الأخيرة وهي أن الدكتور عبد الله ذكر مشروعاً عصرانياً يعاد طرحه، والحقيقة أنا لا اعتبر أن هناك مشروعاً عصرانياً يعاد طرحه، والعصرانيون أنفسهم يعترفون؛ فمشروعهم الآن مواجهة الصحوة، ومحاولة إفساد أعمدة هذه الصحوة، وتبديد طاقاتها، وهذا هو الجهد ذكرته. مَنْ هذه الأسماء، وما هو دورها؟ دورها هو هدم قدسية القرآن؛ لأن متعلق الصحوة الإسلامية الأكثر الآن الرجوع للكتاب والسنة، والرجوع بصفته العاصم الأساس لحركة المسلم، ولهذا هم يجدون حالة مفارقة عجيبة يعترف بعضهم مثل (هشام جعيط) في كتابه «الشخصية الإسلامية والمصير العربي» يقول: مشكلة العلمانيين العرب مع النص المقدس ـــ القرآن ـــ أنه واضح وحاسم، وأنه أصل لدى المسلم لا مجال للارتياب فيه، هذا يجعل الإنسان الآخر ـــ يعني العلماني ـــ مُحْرَجاً عندما يصادم القرآن مباشرة، وهناك سيكون منهزماً.

(فؤاد زكريا) في محاضرة ألقاها وطبعت عنوانها «العلمانية ضرورة»، قال وهو يتحدث عن العلمانيين والإسلاميين: العلمانيون ثلاثة أقسام: اشتراكيون، قوميون، ناصريون، والحقيقة أنهم يعرفون ما لا يريدون، ولكنهم لا يعرفون ما يريدون؛ يعرفون ما يريدون في تطبيق الشريعة التي كانت صيحة الصحوة قبل ١٠ سنوات أو نحوها، ويقفون هم في وجهها، ويعرفون أن هذه هي القضية التي يريدون الوقوف في وجهها، لكنهم لا يعرفون ما يريدون، ليس لديهم مشروع بديل يقدمونه، سقطت مشاريعهم، فبقيت لديهم عملية هدم وتفتيت إلا إذا كانت مشروعات هدمية ناقدة كمشروع الجابري، ونحوه الذي هو نقد للثقافة الإسلامية، ومثل منهج (أركون) الذي لا يقدم مشروعاً بقدر ما ينقد الدين، ويفتت قدسية هذا النص، ومثل ما يطرحه الآن الدكتور (طيب تيزيني) في قضية تعدد القراءات في النص المقدس، أو الاعتماد على نظرية موت المؤلف في قراءة القرآن، ونحو ذلك.

* د. ناصر العمر: حول نقطة أشار إليها الدكتور عبد الله وعقب عليها الدكتور عبد الرحمن في موضوع وجود أشخاص داخل الصحوة أصبحت لديهم مواقف تتقارب مع المدرسة العصرانية. أنا

أوافق أنه توجد أسماء تطرح طروحات تتوافق مع هؤلاء، وهذا نوع من الهزيمة النفسية كما اتفقنا، لكن حتى الآن لم يظهر لي من خلال الحديث أن هذه العناصر مؤثرة؛ فلم تكن أصلاً من قيادات أو رواد الصحوة، وإنما كانوا أفراداً أو شاركوا في بعض المشاريع المحدودة عملياً. وينبغي أن ننظر إلى القضية بنظرة متزنة لا ننفي الموجود، وهو كما اتفق الجميع ليست ظاهرة، والحمد لله.

البيان: ليست ظاهرة، لكن هناك ممارسات سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى أوسع قد تزداد في بعض الأوساط؛ بحيث تتسع دائرته وممارساته عند آخرين... ونخشى أن تكون ظاهرة في المستقبل.

* د. ناصر العمر: إن لم تعالج؛ وهذه الندوة حلقة من حلقات التوعية، حتى لا تزلَّ قدم بعد ثبوتها.

البيان: نتحدث الآن عن مظاهر هذا الارتباك الذي أشار إليه الدكتور عبد الرحمن، أو ما قد يسمى عند آخرين بأنه هزيمة على مستوى الأفراد أو على مستوى أوسع من ذلك؛ لأن هذا سوف يزيد أيضاً من توضيح تحديد المسار الذي نتحاور فيه.

* د. عبد الله الصبيح: أعود إلى إشكالية مصطلح الهزيمة النفسية. في نظري أننا حينما نتحدث عن الهزيمة النفسية فنحن نتحدث عن منحنى متدرج له طرفان ووسط، والصور في الأطراف تكون واضحة تماماً لا يختلف الباحثون في تصنيفها، ولكن في الوسط سوف نجد صوراً ربما احتاروا في الحكم عليها، فربما عدها بعض الباحثين من صور الهزيمة النفسية بينما ينازعهم آخرون في ذلك. ومن تلك الصور ما ذكرته من قبل: كالفتور، والاجتهاد في تأويل النصوص، وتطويعها للواقع، أو التخلي عن بعض المبادئ استجابة لضغط الواقع. وما كان من هذه من صور الهزيمة النفسية قد يختلف الباحثون في اعتباره ظاهرة بناء على مقدار شيوعه في المجال الذي حدده الباحث.

البيان: ولهذا ربما يكون تحديد الصورة هو الذي يضبط المسار؛ فربما يوجد تباين في تحديد مفهوم الهزيمة، لكن عندما نترل هذا المفهوم على الأمثلة الواقعية تنضبط الفكرة ويظهر المقصود، وعندما نتحدث عن موضوع الصحوة لا نقصد بلداً بعينه أو فصيلاً بعينه من فصائل الصحوة الإسلامية، وإنما نتحدث بشكل عام.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: أنا أشرت إلى بعض المظاهر فيما سبق، ومنها الشعور بضخامة المسؤولية، والارتباك في الانفتاح على المجتمع، يعني مثلاً: قضية التفاعل مع المجتمع كيف تتم؟

هل من خلال المسار التربوي الذي كان منتشراً على نطاق الصحوة الإسلامية فيما سبق، أو من خلال قفزة إلى المستوى الحزبي؟ في مصر مثلاً: أراد مجموعة من الإخوان أن ينشئوا حزباً سياسياً، واعترضت عليهم الجماعة، ثم عادت الجماعة من خلال مرشدها لتقول: نحن مستعدون أن نشكل من أنفسنا حزباً إذا كانت الحكومة ستقبل. فعلاً هذا يعكس حالة ارتباك في القضية، حالة ارتباك تتضح أحياناً أمام بعض المفاجآت التي تحدث في المجتمع. يحدث مثلاً حركة مفاجئة، أو تغيير مثلاً نتيجة ضغوط داخلية، أو ضغوط خارجية فيحدث تغيير، وقد حدث هذا مثلاً في بلاد كثيرة في قضية

مناهج التعليم، أو في قضايا أخرى. أمام مثل هذا لو كانت الوضعية كما كانت فيما سبق لكانت الخُطَب والتصريحات النارية، ونحو ذلك هي الإجابة مباشرة، لكن في ظل الوضعية التي ذكرتها صار هناك حالة تساؤلات.

مثلاً قضية التفاعل مع الآخر، أي تفاعل الصحويين مع من هم خارج دائرة الصحوة، مع المثقفين من خارج دائرة الصحوة، من الليبراليين ونحوهم؛ وتعرفون أنه جرى أحياناً تفاعل، وأحياناً لقاءات، وأحياناً بيانات مشتركة ونحو ذلك، وهذا النمط كان جديداً على الصحوة الإسلامية؛ فالصحوة الإسلامية كانت تعيش دائرتها الخاصة، وأولئك يعيشون أيضاً دائرتهم الخاصة، وإن كانوا يزعمون الإقصاء، أي أن الصحوة الإسلامية تقصيهم، كانوا هم يُقصون أهل التدين من وسائل الإعلام، وغير ذلك؛ فكلٌ يسير وحده.

بدأت قضية اللقاءات كحركة شخصية، ثم بدأ التساؤل: ما هي الأساسيات التي ينبغي أن يقوم عليها هذا اللقاء بين أناس تبنوا المشروع الإسلامي إن شئنا تضخيم الأمور، وبين أناس يتبنون مشروعاً آخر، لكن قد يلتقون في خطوط عريضة، أو مسارات تتقاطع؛ فما هي الأسس الشرعية، والأسباب المصلحية، والمحظورات المتوقعة؟ جرت تساؤلات، كُتب في بعض المجلات والمواقع الإسلامية ملفات في قضية التعاون بين الإسلامي وغير الإسلامي ونحو ذلك، هذه صورة من الصور التي تمثل ارتباكاً.

مثلاً التفاعل بين الفئات داخل الصحوة الإسلامية، ونحن نعلم أن الصحوة الإسلامية أجنحة وليست جناحاً واحداً. هناك الذين يمكن أن نسميهم الجناح السلفي مثلاً، وهناك الجناح التحرري الذي له سمات معينة في دراساته منها التوسع في عملية المقاصد الشرعية. وكلٌ يسير في طريقه مستقلاً عن الآخر ونحو ذلك، ثم لما بدأت الصحوة الإسلامية تدخل في الواقع وتتحرك فيه رأت أنها بحاجة فعلاً أن ترتكز على المقاصد الشرعية، وأن تتحرك في ضوء المصالح والمفاسد، وأن ذلك الخط لم يكن على خطأ في كل مساراته التي كان يسير فيها، وأن لديه حقاً في جوانب ينبغي أن تؤخذ ويستفاد منها، لكن كيف يتم التفاعل مع هذه الفئة؟

هذه أيضاً حالة أو صورة من صور الارتباك الفكري.

أيضاً من صور الارتباك المشكلة بين موقف الرائد الداعية القائد وبين الأتباع. الداعية القائد بحكم قدراته الفكرية، وبحكم نضجه، وبحكم عمره عنده القدرة أن يتحول، أن يتفاعل، أن يتغير، أن يتجدد، أن يترقى. المشكلة هي قضية الأتباع؛ فإن سار في طريقه غير عابئ بهم فقد يُحدِث لهم انتكاسات، قد يعتبرون أنه ضل، وأن تجديده هذا ضلال، وخروج عن نسق كان يسير عليه معهم ومن ثم خرج عليهم. إن أراد أن يتحرك بهم معه، فهذا صعب؛ لأن طبيعة الأتباع وطبيعة البسطاء أن حركة تحولهم بطيئة؛ فهناك حالة ارتباك في الحركة لدى هذا القائد في حركته، وفي عمله.

البيان: عفواً دكتور! ولكن تبقى هذه الصور في مجال الممارسة العملية، و لم نتحدث عن الارتباك على المستوى الفكري؛ لأن الممارسة العملية أقل خطورة، فقد يخطئ النـــاس في وقـــت مـــن الأوقـــات ويستدركون الخطأ، لكن الارتباك أو الهزيمة على المستوى الفكري، ربما تكون أكثر خطـــراً، ولهـــا انعكاسات عميقة ومتجذرة!

* د. عبد الرحمن الزنيدي: حقيقةً أنا تصوري أن هذه تتداخل فيها القضايا الفكريـــة مـــع القضـــايا العملية، يعني ليست هي قضية عملية بالمعنى المباشر، لكن دعني أذكر مثالاً فكرياً آخر: لدينا نحـــن في المملكة مثلاً: الدعوة تعتز بأنها في أصل عمقها، وخلفيتها التاريخية، سلفية إسلامية ــ أنـــا أعتـــبر أن الصحوة الإسلامية كلها سلفية منهجية على الأقل؛ لأن شعارها الرجوع للكتاب والسنة، وهذا هـــو شعار السلفية ـــ لكن لدينا نحن الصحوة الإسلامية تعتز بأن خلفيتها التاريخية التي ورثتها عن الآبـــاء والاجداد، خلفية سلفية ذات عمق علمي شرعي؛ إلا أن الصحوة الإســـلامية لـــدينا اســـتنامت أو تخدرت بفعل هذه الخلفية التي أعطتها راحة، ولو رجعنا إلى هذه الخلفية التي ركنت إليها لوجدنا أنها تتمثل في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي خرج قبل ثلاثة قرون في جزيرة العرب في بيئة نجد بالتحديد بدعوة سلفية؛ بمعنى أنها دعوة تريد أن تعود بالنـــاس إلى الكتـــاب والســـنة، إلى الصـــورة النموذجية التي كان عليها صحابة رسول الله في مقتبل الإسلام. وكانت الوضعية الاجتماعيـــة الـــتي خرج منها مشكلتها الكبرى هي في توحيد العبادة، ومن ثم ركز جهده في علاج هذا الواقع؛ فهذا هو منهج التجديد الذي ركز جهده فيه، فجاء كتابه الذي يمثل دستور حركة الشيخ ـــ محمد بن عبـــد الوهاب ـــ وهو (كتاب التوحيد)، وأثمرت هذه الحركة في التجديد، وصاغت حياة النـــاس صـــياغة جديدة؛ صياغة عقلية نفسية، وصياغة حركية عملية، وأدت دورها بأتم ما يكون، ثم صارت تتحول مع التاريخ، وبعثها الملك عبد العزيز – رحمه الله – بعثاً قوياً
جديداً، وأراد أن ينقلها حتى خارج دائرة الدولة السعودية إلى العالم الإسلامي، وتواصل مع علمـــاء آخرين.

المشكلة تأتي هنا في هذه الآونة بعد منتصف القرن الرابع عشر أن المجتمع السعودي بدأ يـــتغير، بـــدأ ينفتح على العالم من حوله، بدأت الوافدات الفكرية والتطبيقية في الحياة، بدأت دولته تتفاعـــل مـــع العالم في منظمات ودول، وأفراده بدؤوا أيضاً يتفاعلون مع أفكار الآخرين، سواء كانـــت أفكـــاراً إسلامية، أو حتى أفكار الآخرين غير الإسلامية، هنا كان المنطق الطبيعي هو أن تكون هناك حركـــة تجديد لحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حركة تجديد تصوغ المنهجية للحياة، ابتـــداء بالجانـــب العقدي وما بعده لتصوغ حياة الناس في ظل الظرفية التشكلية الجديـــدة، في أفكـــارهم، في نمطهـــم الحضاري، في نمطهم المادي الذي تغير تغيراً جذرياً، في كل هذه الجوانب، وهو أن يكـــون حركـــة تجديدية تتفاعل فيها هذه الدعوة السلفية الموروثة مع هذا الواقع الجديد المتغير. للأسف لم يحدث هذا

بدرجة كافية، فبقيت القضية على هذا الموروث. أعتقد أن هناك في الآونة الأخيرة بدأ تنبه إلى أنه ينبغي أن يكون هناك تجديد. السلفية تبقي الكتاب والسنة هما المصدر، والنموذج المثالي لصحابة رسول الله هو المَعْلَم، دعوة الإمام ابن تيمية هي نموذج صياغة العقل بعد تأثير الوافدات الفكرية، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي الرصيد الذي نرتكز عليه. لكن نتحدث عن صياغة نموذجية تعطينا منهجاً جديداً: في البناء العقدي، في الاجتهاد التشريعي، في التفاعل الحضاري، في الصيغ المطلوبة آنياً، هناك تنبه لهذا، وهناك محاولة استباق من فئات لا يعتبرها الصحويون من الصحوة، وهناك استباق من أناس من الصحوة، وربما الدكتور عبد الله كان يلمح إليهم في قضية الانهزام النفسي وهي من هذا، وإن كنت لا أعتبره هزيمة، أقصد أنهم أناس ينقدون الاتجاه السلفي من داخله، والآخرون الذين يمثلون تياراً محافظاً في دائرة السلفية بدأت بعض

حركتهم ترتبك، هم يرون أنه لا بد من حركة تجديد، أن يستجيبوا لهذا النقد الذي يكون أحياناً صارخاً في أدائه وفي قوة لذعاته. أيضاً هذه مشكلة، هذه حالة ارتباك فكري حاد، وأنا اعتبره في هذا الموضوع.

البيان: نعود مرة أخرى إلى مظاهر هذا الارتباك الفكري سواء على مستوى الممارسة أو على المستوى الفكري والثقافي.

* د. ناصر العمر: يمكن أن نتفق على وجود هذه الأمور التي سماها الدكتور ارتباكاً، أو يمكن تسميتها مشكلات أو نوعاً من الضبابية، أو نحوها. التسمية ليست مهمة في رأيي، سأذكر بعض المشكلات على سبيل المثال لا على سبيل الحصر من أجل فتح هذا الموضوع وطرحه للنقاش.

أنا أعتقد أن من المشكلات الموجودة أصلاً عدم وضوح البرنامج العملي في ذهن بعض قادة الساحة؛ حيث كان تركيزهم على جانب معين، وعدم التكافؤ ــ فيما أرى ــ بين الوعود والمكتسبات العملية أحدث مشكلات؛ عدم واقعية الناس أيضاً في مطالبهم تجاه ما ينبغي تحقيقه، الناس بطبعهم يتمنون ويتخيلون عندما يتحدث المتحدث، وقد يكون القائد في ذهنه شيء محدد، الناس يأخذون من الخيال، فلما يرون ما يحدث ما يتوقعون أنه هو الأمر، ومن هنا نشأت مشكلة. أيضاً توجد نقطة اعتبرها رئيسة وكانت جديدة على الصحوة، وهي أن الصحوة في أول أمرها كانت كالذي يسير على الأرض السهلة، ثم بدأت العقبات التي أخبر الله بها بقوله – تعالى –: {الم۱ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ١ – ٢]، فبدأت الفتن والابتلاءات بشتى أنواعها {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، ونشأ اختلاف في وجهات النظر في مواجهة التحديات، وخاصة من القوى الضاغطة؛ فحدث تراجع أو هزيمة. أيضاً هنا إشكال معين وهو الاختلاف بين النقد فقط وتقديم البرنامج؛ لا يلزم أن من ينقد

الواقع أنه لا بد أن يقدم برنامجاً، قد يكون عنده قدرة على نقد الواقع، كما يقال في محيط الأدب أنه لا يلزم في ناقد الشعر أن يكون شاعراً، قد تكون قدرة الناقد على النقد أسهل، ربما كان في الماضي التركيز على النقد فقط، وهذا طبيعي، بل هو منهج وله أصل، حتى يبين للناس الواقع الذي يعيشونه ليتخلصوا من سلبياته. ثم بدأ بعضهم يطالب بالخطوة التالية، لكنها لم تكن جاهزة فكان بطء فقه الحركة من قادة الصحوة، وضعف القدرة على استثمار الفرص

المتاحة. أما ما يتعلق بالجانب الفكري، فأعتقد أن عدم تحديد بعض المصطلحات والرؤى السابقة مشكلة ظاهرة. كانت تطلق رؤى لم تحرر، ثم أُخِذت على أنها مسلَّمات وهي ليست كذلك؛ فلما جاء صاحبها بعد حين لأجل أن يحررها ويبينها ترى أنه تراجع، تغير، اختلف. ومنها أيضاً الخلط بين الوسيلة والمبدأ، فكان الناس ــ أنا أتكلم عما كان سابقاً من قادة الصحوة على أنها تكون مبادئ، قد تكون وسائل ومراحل في هذا الجانب؛ فهم لا يفرقون بين الوسيلة والمبدأ، في ما كان مرحلياً أو مبدئياً، المرحلة تتغير؛ فما كان قبل ١٠ سنوات نجد أنه يختلف عما هو عليه الآن، أما المبدأ فهو الذي لا يختلف الناس عليه. وحدث إشكال في الجانب الفكري.

* د. عبد الله الصبيح: إذا أردت أن أتحدث عن الارتباك الفكري فالمجال فيه واسع جداً، والارتباك الفكري ربما يكون بسبب مواجهة المواقف الجديدة التي تتطلب اجتهاداً غير معهود، وربما لم ينجح المجتهد في الوصول إلى اجتهاد سليم؛ بسبب عدم إدراك الواقع إدراكاً صحيحاً، أو بسبب البقاء على نوع من المطلقات الفكرية العامة جداً التي يصعب تنزيلها على الواقع وتحويلها إلى صيغ عملية. ومن معوقات الاجتهاد التي تساهم في إحداث الارتباك الفكري أنه قد يستقر عند بعض الناس أنماط فكرية، وصيغ عملية، وحينما يواجهون ما استجد من الحياة يظهر عجز تلك الأنماط الفكرية، والصيغ العملية التي استقروا عليها عن مواجهة الواقع، وربما ظن بعضهم أن تلك الصيغ العملية، والأنماط جزء من الدين، بينما هي اجتهاد أو رأي، أو ربما مجرد عادات لا علاقة لها بأمر الدين. ويقع الارتباك الفكري حينما يعجز العالم عن الاجتهاد بما يفي بحاجة الناس أو حينما يجتهد فيختار غير ما ألفه الناس من تلك الأنماط الفكرية، والصيغ العملية، وربما فسر بعض الأتباع هذا بأنه نوع من التراجع، أو أنه نوع من الارتباك الفكري.

وبعض صور الارتباك الفكري ليست من الهزيمة النفسية في شيء، وينبغي تمييزها عنها. أما الهزيمة النفسية، فكما قلت من قبل لها عدد من المظاهر، وأوضح هذه المظاهر وفقاً للمنحنى المتدرج الذي أشرت إليه آنفاً أقصى صور المنحنى، وهي التخلي عن المبدأ والقبول بمبدأ الخصم. هذه صورة فاقعة تماماً لا يستطيع أحد ألا يدركها.

البيان: لكن هل هذه الصورة موجودة في الصحوة؟

* د. عبد الله الصبيح: هذه ليست موجودة بهذه الحدية، لكن هذه أقصى صورة من صور الهزيمة النفسية وهي موجودة عند بعض أبناء الأمة.

ومن مظاهر الهزيمة أيضاً: الانطواء والعزلة، وهذه أزعم أنها موجودة عند أفراد من الصحوة الإسلامية، بل إن بعض قطاعات الصحوة لما عجزت عن مواجهة الواقع آثرت الانطواء والعزلة، وتمسكت بما هي عليه من فكر، وهذه أعدها صورة من صور الهزيمة النفسية. وهناك صورة أخرى ربما يختلف فيها القول، ويثور حولها الجدل وهي تطويع النص وتأويله. أحياناً يكون ذلك ناتجاً عن اجتهاد سائغ، وأحياناً يكون عن هزيمة نفسية؛ لأن القضية التي تشغل الذهن هنا هي: ما حدود ذلك التطويع وذلك التأويل؟

أحياناً يكون التأويل السائغ للنص نوعاً من الاجتهاد المطلوب الذي يثاب عليه صاحبه، وفي أحيان أخرى لا يكون كذلك؛ لأنه يتجاوز ثابتاً من ثوابت الشريعة وقطعياً من قطعياتها، فيكون عبارة عن هزيمة وتخلٍّ عن ثابت من ثوابت الشريعة، وواضح فيه مسايرة الطرف الآخر صاحب القوة وصاحب الغلبة؛ فهذه صورة من صور الهزيمة النفسية، وهذا الذي عنيته حينما قلت: عودة المشروع العصراني إلى البروز حينما بدأت الصحوة الإسلامية تواجه الواقع، وأنا أرى أنه لا يوجد مشروع عصراني مستقل، ولكن هناك طريقة في التفكير تحاول أن تتخلى عن بعض ثوابت الشريعة، و تطوع بعض ما في الشريعة استجابة لضغط الواقع. نعم! هناك أشياء لا بد للفقيه أن يراعي فيها حاجات الناس وأوضاعهم، وليس هذا من الهزيمة النفسية أو الولاء المذموم، لكنَّ هناك صوراً فيها نوع من الطبعة العصرانية التي كانت في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، بدأت تعود إلى البروز مرة أخرى. وهذه أرى أنها هزيمة نفسية لكن أرجو ألا تكون واسعة الانتشار.

وهناك مظهر من مظاهر الهزيمة النفسية، وهو تقليد الغالب في اللباس، وفي الزي، وفي أمور سلوكية أخرى؛ هذه ظاهرة من ظواهر الهزيمة النفسية في المجتمع المسلم، ولكنها ليست ظاهرة في الصحوة الإسلامية، أو أرجو ألا تكون كذلك. هذه بعض ظواهر الهزيمة التي تبدو لي، وقد لا يخلو واحد منها من جدل وخلاف؛ لأن المصطلح فضفاض.

ضيوف الندوة:

* فضيلة الأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر: المشرف على موقع المسلم على الشبكة العالمية.

* فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: الأستاذ بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

* فضيلة الدكتور عبد الله الصبيح: الأستاذ بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

في العدد الماضي دارت الأسئلة والأجوبة حول: هل نحن أمام هزيمة نفسية في جيل الصحوة، وهل هي موجودة في أوساط العامة؟ وقد بين المشاركون أن الصحوة من حيث العموم لا تشهد هزيمة وإنما هناك ارتباك فكري أدى إلى بعض الظواهر التي قد تفسر عند بعضهم بالهزيمة، وتفسر عند آخرين بالارتباك الفكري. وتطرقت الندوة إلى أمور عدة منها الأطروحات العصرانية. - البيان -

البيان: نعود لقضية تطويع النص على اعتبار أنها من الممارسات التي بدأت تظهر بشكل أوسع، ومن نتائجها محاولة التأقلم مع المتغيرات الحضارية والمتغيرات الثقافية والتأثر بطوفان العولمة؛ فهل أصبحت قضية تطويع النص ظاهرة؟ وهل تمثل هذه القضية مشكلة في واقع الصحوة أم أنها مجرد ممارسات فردية يمكن تجاوزها بيسر وسهولة؟ مثلاً أصبح الآن عدد من المفكرين والمثقفين يحاول أن يبحث عن اجتهادات فقهية سابقة، ويحاول أن يعيد الحياة إليها من جديد؛ ليس لأن الدليل الشرعي يقويها، وليس لأن المصلحة الشرعية تقتضيها، ولكن لأن الواقع السياسي أو الواقع الثقافي والاجتماعي ربما يتجاوب معها؛ فبدأت تظهر بعض الاجتهادات الفقهية التي قد يعدها بعضهم جزءاً من الهزيمة.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: حتى يكون في الأمور شيء من الوضوح أريد أن أبين أن حديثي هنا يتناول تيارين مختلفين:

١ - تيار تحريف النصوص.

٢ - تيار منهج التيسير أو ما يسمى الآن: منهج أصحاب التيسير؛ وهما خطان مختلفان.

بالنسبة لمنهج تحريف النصوص؛ فهذا لا يوجد في دائرة الصحوة، بل هو خارج دائرة الصحوة، وهذا له مقتضى ظرفي؛ فهو ما ظهر إلا لبروز الصحوة. ومشكلة أعداء الإسلام قديماً وحديثاً هي قضية قدسية النص القرآني لديهم؛ هذه هي أعمق مشكلة لدى أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وقد صرحوا بهذا كما تعلمون في فرنسا؛ حيث حاول المستشرقون جهدهم عبر قرون أن يسقطوا قدسية النص، واستبشروا حينما رأوا الالتزام بالقوانين الوضعية بعد دخول الاستعمار، إلا أن المشكلة التي فاجأتهم هي عودة الصحوة الإسلامية لتجعل شعارها العودة إلى القرآن والسنة، يعني أن الأمر انعكس عليهم، وكما يقولون: انقلب السحر على الساحر، وهنا أصبحت الصحوة الإسلامية مزعجة لهم، وقامت دراسات ومراكز دراسات متخصصة في الغرب، وعقدت مؤتمرات في الغرب لدراسة واقع الصحوة وفكرها.

ومن هنا برزت جهود متعددة منها الجهد المتمثل بدراسات مفكرين عرب والذي يمكن تسميته بالاستشراق العربي، وهو قيام أناس بالتعامل مع النصوص الشرعية، وهم في الأصل غير إسلاميين، وقد يكون أصلاً بعضهم غير مسلمين بالمعنى الفكري، يعني أنهم يتبنون الماركسية المخالفة للإسلام تماماً، لكنهم جاؤوا ليدرسوا النص الشرعي، وليقدموا للمسلمين صورة منه تنتهي بهم في مجملها بنظرة استشراقية، والمقصود بالنهاية هو هدم قدسية هذا النص، وقد ذكرت النماذج من خلال

الأسماء مثل: (حامد نصر أبو زيد)، وكل كتبه تتعلق بهذه القضية، ومثله (الدكتور محمد شحرور) في كتابه (القرآن والكتاب..قراءة معاصرة)، ومثله (محمد أركون) الذي يقرأ القرآن من خلال المنـــهج الألسني.

البيان: لا شك أن هذا الكلام مهم جداً، لكنه استطراد في محور آخر، وكلامنا هنـــا عـــن تطويـــع النصوص في دائرة الصحوة، وهؤلاء ليسوا من أوساط الصحوة؟

* د.عبد الرحمن الزنيدي: هذا الذي ذكرته موجود خارج دائرة الصحوة، وكما قلت هم لا يعدون أنفسهم من الصحوة، بل يعدون أنفسهم من أعدائها، والصحوة لا تعدهم منها، ولا غيرهم أيضاً من المحايدين يعدهم من الصحوة.

أما المسار الثاني فهو مسار ما يسمى (منهج التيسير)، وهو الذي ذكر فضيلتكم أنـــه ظهـــر نتيجـــة تفاعلهم مع الواقع المعاصر. ربما يقول بعض الناقدين إنه نتيجة ضغط الواقع عليهم، ويمكن أن نعـــبر تعبيراً آخر فنقول: نتيجة تفاعلهم المباشر مع الواقع. والحقيقة أن الواقع له ضغطه بلا شك، ونتيجـــة لهذا حاولوا أن يبحثوا فيما يعتبرونه هم الدائرة الإسلامية التي تشمل النصوص المباشرة وقطعيتها.

ثم في مجال الاجتهادات فإن هذه الاجتهادات الموجودة منـــها اجتـــهادات راجحـــة، واجتـــهادات مرجوحة. المذاهب المشهورة عندنا أربعة؛ لكن هناك اجتهادات خارج هذه المذاهب، فيقولون: لماذا لا نأخذ بها؟ عندهم عدة مناهج في قضية منهج التيسير أو بناء أحكام جديدة غير ما توافَـــق عليـــه المسلمون في عصور سابقة، وإن كانت هي موجودة ولكنها مطمورة في هذا. حقيقة أنا لا أُدخل هذا فيما يسمى بـــ (الهزيمة النفسية)، أنا أُدخله في (قضية التفاعل مع الواقع) الذي كان لهذا الواقع فيـــه ضغط عليه، وأن هذا وضع طبيعي. أقول: إن هذا وضع طبيعي لمن يلابس الواقع، ولا بد لمن يلابس الواقع ألا يبقى في دائرة صورة مثالية؛ فما كان نظرياً مثالياً يتغير في دائرة التطبيق؛ فالتطبيق يســـتلزم مرونة في التدرج ومراعاة الظروف وما تعم به البلوى... إلخ. أنا باستطاعتي أن أجمع مجموعـــة مـــن الكتب في التربية فأصوغ خطبة عن تربية الأولاد التي تخرج الملائكة، وأخطب في الناس، ويتخيلـــون أنني ملاك، لكن أنا إذا ذهبت إلى بيتي أجد أنني لا أستطيع أن أطبق لا نصف ولا ربع ما أتحدث بـــه إليهم أحياناً؛ فالأمر النظري شيء، والأمر التطبيقي الواقعي شيء آخر. أمامك وضـــعيات، أمامـــك نفسيات، أمامك بشر له اهتماماته ومصالحه وأعرافه وعلاقاته.

البيان: لكن ألا تلاحظ أنه حصل في هذا الاجتهاد نوع من الارتباك؛ بمعنى أن الفقهاء تفاوتوا في هذه القضية، فتوسع أقوام وانضبط أقوام آخرون؛ وبعض الذين توسعوا كانت توسعاتهم غير مرضية وغير متزنة؟

* د. عبد الرحمن الزنيدي: القضية نسبية؛ لأن كل واحد يحكم من موقعه، ويرى أن دائرته منضبطة، وما تجاوزه هو نوع من الارتباك. أما الارتباك فهو سيحدث حتماً. المسلم العالم الداعية حينما يعـــالج

هذه القضية، ويتزل فيها تجاوباً مع الواقع سيشعر بحرج، ليس فقط حرجاً نفسياً، بل أيضاً حرجاً فكرياً، يعني هو يشعر بأنه مسؤول أمام الله في فتواه إن أفتى بها، ومسؤول أمام الله إن نأى بنفسه عنها.

* د. ناصر العمر: أما جانب تحريف النصوص فإنه بيّن، لكن ما يسمى بالتيسير أرى أنه يجب أن نفرق بين أمرين: ما ندعو إليه الناس وبين تطبيقات الناس، وقد نجد للناس مخارج أو حلولاً بعدما يقع منهم الفعل، الخطورة في أن يتابع واقع الناس المتردي، وذلك بسبب ضغط الواقع على المفتين وعلى الناس.

والإشكال هو أن يتحول الاستثناء إلى منهج، أو أن تتحول الرخص في الشريعة إلى منهج، ويبدو لي أن هذا هو الذي وقع فيه بعض الفقهاء. يقابل هذا المنهج جانب متشدد فتراه يتعامل بمثالية، وكِلا هذين المنهجين خطأ. والخلاصة أن نكيِّف الواقع مع الإسلام، ولا نكيف الإسلام مع واقعهم.

* د. عبد الله الصبيح: في قضية تطويع النص للواقع كما قلت بعضهم يسميه نوعاً من الاجتهاد، وقد يكون كذلك، وقد يسميه الطرف الآخر تطويعاً للنص؛ فالقضية موضع إشكال وتباين في وجهات النظر، وهذا الأمر له أسباب في واقعنا المعاصر، ومنها:

١ - انتشار الفتوى وشيوعها بسبب الفضائيات؛ فالفتوى الآن لم تعد خاصة بالمجتمع الذي تصدر له فلا يطَّلع عليها غيره؛ والأصل في الفتوى أن تكون خاصة بمن صدرت له، ولكن الفضائيات نشرتها وأصبحت الفتوى التي يفتي بها الفقيه لشخص يعيش قضية خاصة في فرنسا يسمعها الشخص في السعودية وفي اليمن وفي غيرهما من بلاد المسلمين، وهذا يجعل الشخص المستفتي ربما يعترض على مفتيه في بلده الذي يعرف ظروفه ويقدر وضعه، ويبحث عن فتوى أخرى ربما يظنها أيسر أو ربما يظنها أتقى لله - عز وجل -.

٢ - أن بعض ما نظنه ليّاً للنصوص هو نوع من الخلاف الفقهي الذي ربما يكون أحياناً معتبراً، ومن الأمثلة على ذلك ما يحصل من خلاف حول قضية تغطية الوجه: الرأي الفقهي المعتبر في السعودية هو وجوب تغطية الوجه، وعلماء آخرون لهم رأيهم ولهم أدلتهم يرون خلاف ذلك، ومن هؤلاء (الشيخ ناصر الألباني)، ولا يمكن أن تتهم الشيخ ناصر الألباني بأنه أراد أن يجاري الواقع، ولكن هذا نوع من الاجتهاد السائغ والخلاف المعتبر.

البيان: هذا صحيح، لكن لا شك في أن بعض الفقهاء المعاصرين رجَّح هذا الرأي أو ذاك ليس من منطلق دراسة النصوص الشرعية، بل بسبب ضغط الواقع، أو الاستسلام للإلف والعادة.

* د. عبد الله الصبيح: ربما؛ وهنا تأتي أهمية وعي الفقيه وتجرده للحق، ولا بد من ملاحظة ضرورة اتساع الصدر للرأي المخالف.

البيان: أعود لأصل الموضوع وأقول: كيف يمكن إعادة التوازن في بناء الصحوة من جديد؟

* د. عبد الرحمن الزنيدي: الصحوة الإسلامية تيار عام، الصحوة تعم الأمة بمختلف شرائحها، ومن ثم فينبغي أن لا نضع صورة مثالية نحكم بأن عدم الوصول إليها اختلال وسقوط.

وحتى أوضِّح الصورة؛ فإن غالب التيارات الأخرى في العالم الإسلامي تيارات نخب ثقافية وسياسية محدودة، ومن ثم يمكن مطالبتها بأن تكون على مستوى دعوتها، لكن الأمر غير ذلك بالنسبة لصحوة أمة تحتوي وستبقى محتوية على الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات.

لا يعني ذلك أن نقف في البناء الصحوي عن ترقيته نحو الأفضل إلى مجرد النظر المعجب بها فقط، كلاَّ! إن ترشيد مسيرة الصحوة، وعلاج الأدواء العارضة لها أمر واجب؛ إذ هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة للمسلمين.

ومن أهم قضايا الإصلاح المطلوبة في الصحوة الإسلامية تحقيق التوازن المعتدل بين جوانب بناءاتها بين الجانب التعبدي والجانب الاجتماعي، بين المجال التربوي، والمجال السياسي، بين الاندفاع في حماية الدين ونصرة الحق والتعقل ورعاية المصالح في اتخاذ المواقف والتصرفات... إلخ.

من أهم وسائل تحقيق هذا التوازن فقه الدين؛ فقه منهج الإسلام المبني على تحقيق المصالح ودرء المفاسد، منهج الإسلام الشمولي، وعدم الاندفاع مع ردات الفعل غير محسوبة العواقب للأحداث والمفاجآت.

البيان: كيف يستطيع جيل الصحوة تحصين الصف من مظاهر الهزيمة النفسية لدى عامة المسلمين والتقليل من آثار الارتباك؟

* د. عبد الرحمن الزنيدي: نعم! للارتباك وجه سلبي من حيث كونه اضطراب رؤية، وتخويفاً من الجو المحيط، وعجزاً عن اتخاذ مواقف، أو عدم ثقة في المواقف المتخذة، لكنَّ له وجهاً مشرقاً يتمثل في أنه يحمي الإنسان من الاندراج في تيار الأحداث انسياقاً معها أو مضادة لها دون وعي، وفي أنه ليس مجرد وعي، وإنما هي لحظات استبصار وتأمل يبحث عن الأرشد؛ ولهذا فالسؤال هو: كيف نتجاوز موقف الارتباك نحو مواقف إيجابية مبنية على هدي الشريعة وعقلانية النظر وحساب كل جوانب القضية؟

السبيل هنا هو ما ذكرته — ربما — قبلاً من الانطلاق من الرؤية الشرعية المتزنة لا من ردات الفعل، والفقه السديد بمقاصد الشريعة وأولويات المصالح؛ لأن غالب إشكاليات الصحوة ليست في مسائل تعبدية جاءت عموم أحكامها محسومة في الشرع، لكنها في مناهج دعوية وفي شؤون اجتماعية مدارها مقاصد الشريعة وجلب المصالح ودرء المفاسد، وأيضاً فقه الواقع بامتلاك تصورات صحيحة متماسكة لهذا الواقع ليكون الحكم عليه المنطلِقُ من هذا التصور سديداً.

البيان: هل من تجارب معاصرة تُستثمر في تجاوز الأزمة؟

* د. عبد الرحمن الزنيدي: أزمة؟ أية أزمة؟ الأمة الإسلامية ممثلة بصحوتها الشاملة لمختلف شرائحها تعيش حالة تطلع وتحفز نفسي للنهوض، وتهيؤ لتقديم الجهود لتحقيق هذا النهوض الحضاري.

نعم! المعوقات كثيرة وضخمة، ونواقص العلم والمعرفة حقيقة موجودة، وبطء الحركة مشهودة، لكن كل ذلك لا يبرر وصف الأمر بأزمة، بل ربما بعض هذه الأشياء تعد نعمة للصحوة، وبالذات المعوقات وجهود الأعداء؛ لأنها تشحذ العزم وتستحث لجمع الجهد، وللتوحد في العمل، وهي متطلبات ضرورية لحركة النهوض الحضاري.

البيان: النظر للجانب المحزن المولد للاحباط.

* د. عبد الرحمن الزنيدي: ليس هذا منهج المسلم، منهج المسلم دائماً استبشاري تفاؤلي، وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أعظم الناس تفاؤلاً في الساعات الحرجة، وكيف تحجب النظرة السوداوية رؤية المسلم وهو الذي يوقن بحكمة الله في تدبيره، وبمعية الله لعباده المؤمنين، وبأنه ما دام محتسباً مستقيماً على خير في كل أحواله «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

ليس معنى هذا طبعاً أن يتجاهل المسلم ما تعيشه الأمة من تخلف، وما يعتور سيرها من عثرات ونواقص، بل يستحضرها في حسبانه، لكنه لا يقعد عندها نائحاً نادباً دون حراك وتطلع؛ إنه يُبعد هذه الحجارة عن طريقه ما دام نظره إلى أهدافه من ورائها سائراً إلى تلك الأهداف مزيلاً تلك الحجارة عن طريقه.

البيان: هل هناك مؤشرات حقيقية لهذا التفاؤل؟

* د. عبد الرحمن الزنيدي: إذا تجاوزنا القاعدة الشرعية لموقف التفاؤل شعوراً بعدل الله وحكمته في أمره، وبمعيته للمؤمنين، وبحربه لمن يعادي أولياءه الصالحين؛ فإن مؤشرات السنن الاجتماعية والمعطيات الواقعية إذا قُرئت من زاوية أوسع من الأحداث الفردية بانفعالاتها السريعة اشتعالاً وانطفاء، كلها تدعم التفاؤل بظهور الإسلام ونهضة المسلمين نهضة مرتكزة على الإسلام بصفته المبدأ الأرشد في إصلاح الأحوال وحل المشكلات والشهادة على الناس.

– إن تحولات الأمة إذا نُظر إليها عبر مسيرة قرن كامل أو نصف قرن أو حتى ربع قرن تؤكد التقدم نحو الأفضل في القرب من الإسلام وارتقاء مستوى الفقه فيه وبناء الحياة على مقرراته.

– إن انفتاح رواد الصحوة علماءً ودعاةً ومثقفين على عصرهم بروح الإسلام دون انبهار مُعمٍ، ولا استغلاقٍ انكماشي.

– إن سقوط رايات الكفر والضلال والشرود والاغتراب في العالم الإسلامي كله على المستويات الثقافية والسياسية.

– إن الاستثمار الراشد لمنجزات العصر في الدعوة إلى الإسلام والبناء الحضاري.

– إن التفاعل الإيجابي مع تداعيات العولمة السلبية والإيجابية.

– إن اعتراف أعداء الأمة ودينها بأن صحوتها الراهنة ليست محصورة في تدين شخصي، وإنما هي انبعاث حضاري بمشروع شامل ينبغي أن تُستنفر القوى الكبرى لمواجهته.

– ثم إن إحسان المواقف تجاه هذه التداعيات العولمية والاستفزازات والتضييق، وضبط النفس وتلمس بدائل ممكنة للأبواب التي تغلق تجاه الدعوة وحركة النهوض.

كل ذلك يمثل مؤشرات للتفاؤل والاستبشار والآمال التي ينبغي أن تحفز على الحركة والتواصل وتقوية الذات أكثر فأكثر. إن وجود معوِّقين ومخذِّلين وأُجَراء لأعداء الأمة حتى أحياناً باسم الدعوة والغيرة على الدين، وإن وجود متطرفين يقفزون فوق سنن الله في التغيير الاجتماعي، ونحو ذلك لا يمثل عامل إحباط يُسقط تلك المؤشرات؛ خاصة ونحن نشهد أن مثل هؤلاء أصبحوا شذوذاً عن مسيرة الصحوة العامة محدودين في أعدادهم ومساحة التقبل لهم.

* د. عبد الله الصبيح: يقال دائماً «الحكم على الشيء فرع عن تصوره» فالتصور الصحيح يؤدي إلى حكم صحيح، وما تحتاجه الصحوة من أجل إعادة التوازن في البناء ــ في نظري ــ هو إعادة بناء تصوراتها المعرفية بناء صحيحاً؛ وهذا يقتضي وجود تكامل معرفي يحتوي على مجموعة من المعارف: الشرعية، والفلسفية، والاجتماعية، والاقتصادية. في الماضي كان ما يدرسه الفقيه في المتن الفقهي هو ما يمارسه الناس في الواقع أو قريب منه؛ أما الآن فلم يعد المتن الفقهي الذي يدرسه الطالب يمثل مرجعية للسلوك في كثير من شؤون الناس، وأصبحت المعارف الأخرى بل تجارب الشعوب الأخرى تمثل مرجعية للسلوك أكثر من كتاب الفقه. والفقيه كي يعدِّل سلوك الناس ويحكم على الواقعات التي يراها أمامه لا بد له من معرفة بهذه العلوم والمعارف التي تؤثر في سلوك الناس.

والتكامل المعرفي يكون بإعادة بناء مناهجنا الدراسية في الأقسام الشرعية والأقسام الاجتماعية على حد سواء، وإذا لم يتحقق ذلك فلا أقل من إقامة ندوات مشتركة يشترك فيها أصحاب التخصص الشرعي مع نظرائهم من أصحاب التخصصات الأخرى، وهذه الندوات سوف تثري الطرفين بلا شك، ويطلع كل فريق على ما خفي عليه مما يعلمه الطرف الآخر.

البيان: كيف يستطيع جيل الصحوة تحصين الصف من مظاهر الهزيمة النفسية الموجودة عند عامة المسلمين، والتقلل من آثار الارتباك التي أشرنا إليها في أول الندوة؟

* د. ناصر العمر: لعلِّي أركز على أبرز الأسباب التي توقع في الهزيمة النفسية، فمنها:

الفتور، الانقطاع عن الطريق، اختلاف القلوب، تنقّص العلماء والحكماء، الانتكاسة والعياذ بالله، الاستسلام للعدو، ذهاب ريح الأمة، كل هذه الأسباب توصل في النهاية إلى الهزيمة النفسية إذا وقعت، فتجنب هذه الأشياء بكاملها، وتصور عقبات الطريق كل ذلك ينقذ ــ بإذن الله ــ من هذا الأمر؛ ومن هنا فإن الأسباب التي تنجي، وتكون حصانة وعلاجاً ألخصها فيما يلي:

أولاً: فهم القرآن: إننا لم نُعطِ القرآن حقه الواجب من الفهم والتدبر، ولا شك أن للقـــرآن تـــأثيره الإيجابي في التخلص من كثير من الأمراض والآفات الحسية والمعنوية؛ ففهم القرآن هو المنجي بإذن الله والمخلص، بل أكاد أجزم أنه مانع بإذن الله من الهزيمة، والآيات صريحة في توضيح هذا الأمر، مـــثلاً: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ} [الروم: ٦٠]، هذا نموذج للخلاص مـــن الهزيمة النفسية.

ثانياً: سيرة الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – وسير الأنبياء ـــ عليهم الصـــلاة والســـلام ـــ: فالذي يدرس سيرة الأنبياء يتعجب، مع ما مروا به من أحوال قاسية وظروف صعبة يلحظ أنه لم تمر بهم الهزيمة النفسية أبداً في حياتهم؛ فدراسة سيرة محمد – صلى الله عليه وسلم – وسيرة الأنبياء الثابتة في القرآن والسنة هذه أيضاً تخلّص من الهزيمة، وكلمةُ تخلّص تتضمن المعنيين: عدم الوقوع، والنجـــاة إذا وقعت.

ثالثاً: سِيَر المجددين والمصلحين: وهذا أيضاً مهم جداً؛ لأن المجددين والمصلحين ليسوا أنبياء، ومع ذلك نرى كيف واجهوا ذلك ونقلوا الأمم من واقع إلى واقع، ولو أنهم استسلموا للهزيمـــة النفســـية لمـــا أصبحوا من المجددين، وما أثروا في تاريخ الأمة.

رابعاً: أيضاً من أبرز ما يحتاج أن يربى عليه الناس عدم الاعتماد المجرد على المظاهر المادية؛ فالإشكال أن أكثر ما يوجِد الهزيمة النفسية هو التعامل المباشر مع المظاهر المادية دون الرجوع إلى السنن الكونية والكتاب والسنة، فلا شك أنها تؤثر؛ فالأحداث الجارية صباح مساء مؤثرة في حياة الناس؛ إذن عدم الاعتماد عليها فقط وفهم وإدراك هذه الأحداث يساعد بإذن الله.

خامساً: فهم الواقع على حقيقته دون مبالغة، والتعامل معه بفقه ووعي، كل هذا يخلص بإذن الله.

وأركز هنا على ضرورة أن تكون الدعوات مبنية على أصول شرعية ثابتة وهـــي أصـــول الكتـــاب والسنة؛ فإذا كانت الدعوات مؤصلة فإنها لا تنهزم ولا تهتز، كالبناء الذي له أسس قوية جداً، أما إذا كانت هشة ضعيفة فهي عرضة للتبديل والتغيير، والله أعلم.

البيان: ذكرتم فضيلة الشيخ! سِيَر الأنبياء والمجددين والمصلحين؛ فهل ثمة تجارب من التـــاريخ أو مـــن الواقع المعاصر يمكن من خلالها أن نستثمر تلك التجارب وتعيننا في تجاوز الأزمات الـــتي يمكـــن أن تحدث في المستقبل؟

* د. ناصر العمر: أبرز التجارب المعاصرة لدينا تجربة أفغانستان، ويجب أن ننظر إليها مـــن الزاويـــة الإيجابية. لما دخلت روسيا بجبروتها وقوتها وغطرستها إلى أفغانستان؛ فإن الذين يتعاملون مـــع المـــادة يرضون بالهزيمة، وقد يستسلمون مباشرة وحدث هذا، لكن الذين تعاملوا بأسلوب آخـــر وأعلنـــوا الجهاد الحقيقي في حينه ماذا حدث بسبب ذلك؟ كما تعلم ما هي إلا سنوات معدودة ـــ اعتقد أنها قصيرة جداً ـــ في عمر الزمن حتى تداعت الأمة إلى الجهاد مع حداثة التجربة، ومع أن الأمة منقطعـــة

لفترة طويلة عن الجهاد، وما يجري في فلسطين لم تشارك فيه الأمة من خارج فلسطين إلا قليلاً، مع ذلك انظر كيف كانت النتائج؟ أما ما حدث من سلبيات بعد ذلك فمسألة أخرى ليست مقصودة في حديثي، و لم يستثمر هذا الانتصار في أفغانستان واستغله الأعداء. وقد تحقق في قضية فلسطين انتصارات ضخمة مع أن العالم تقريباً يكاد يُجمع ـــ حتى من داخل الدول العربية وغيرها ـــ ضد المسلمين وضد المجاهدين، ومع ذلك فالانتصار ظاهر وبارز. بالأمس القريب كنت أنظر إلى محاولة اليهود اقتحام المسجد الأقصى، وفجأة نجد هذا الحشد الهائل بعشرات الآلاف من الفلسطينيين مع قوة الضربات، ومع شدة الأزمات، ومع الظروف المعيشية ومع التعذيب ومع التنكيل، ومع ذلك كله نلحظ القوة والسيطرة وتراجع العدو في أماكن كثيرة.

يكفي أن أقول كلمة واحدة: إن الصوت الأعلى هو صوت الجهاد ضد تلك المؤامرات، بل حتى في العمل السياسي عندما أجريت الانتخابات البلدية الفلسطينية، حصلت حماس على ٧٠% تقريباً، مع أننا لا نسلِّم بنزاهة الانتخابات تماماً؛ فكيف لو كانت نزيهة؟

في المشهد العراقي مثال آخر؛ لما دخلت أمريكا للعراق ما كان أحد يتصور أن يصمد الشعب العراقي هذا الصمود، الآن أمريكا في مأزق لا يُشَك فيه.

وهذا الثبات بحد ذاته انتصار عظيم، وعدم استسلام المصلحين لروح الهزيمة هي البداية القوية للنصر. قارن بين ما يحدث في العراق خلال السنتين الماضيتين وبين أيام التتار عندما استسلم الناس وهُزموا نفسياً!

إن هذه الأمثلة من أعظم التجارب. أيضاً تجربة البلقان وما حدث فيه يؤكد هذه الحقيقة.

إذن هذه تجارب واضحة وقوية لم يستسلم أصحابها للهزيمة النفسية أبداً؛ مع أن كل الأدلة الظاهرة المادية قد تدعو إلى مثل ذلك.

وأؤكد أن من أعظمها وأبرزها لديَّ قضية فلسطين، ولا تزال وستظل بإذن الله أنموذجاً حياً حتى يتحقق الانتصار الحاسم.

* د. عبد الله الصبيح: جواباً على سؤالك: «كيف يستطيع جيل الصحوة تحصين الصف من مظاهر الهزيمة النفسية الموجودة عند عامة المسلمين والتقلل من آثار الارتباك؟ » أقول: قد ذكرت في مطلع حديثي عن الهزيمة النفسية أن لها صورتين: الأولى: هي هزيمة الذات أمام المبدأ. والثانية: هي هزيمة المبدأ أمام الواقع. وعلاج الصورة الأولى يكون بالتربية الإيمانية، والتربية على الزهد في الدنيا. وعلاج الصورة الثانية يكون بأمور:

الأول: بالتكامل المعرفي، والجمع بين الثقافتين الشرعية والمدنية.

الثاني: بتجاوز صدمة الانبهار أمام الواقع؛ فبعض الأساليب التربوية تحول بين الفرد والاتصال بالواقع ومعايشته، ويصور له بأنه شر وفساد؛ فإذا واجه الشخص الواقع فربما اكتشف أن الواقع ليس كما

صُوِّر له، أو يكتشف أن أدواته عاجزة عن التعامل مع الواقع الجديد، فيشعر بالانبهار، وينهزم أمامه. ومعالجة هذا بتربية الفرد على مواجهة الواقع والتعايش معه بدلاً من العزلة عنه ثم مواجهته فجأة. إن المواجهة المستمرة المتدرجة مع الواقع تجبر الشخص على تطوير أدواته في التعامل مع واقعه والتكيف معه.

الثالث: الاطلاع على التجارب الناجحة التي استطاعت مواجهة الواقع وقدمت نماذج سليمة. إن توسيع المدارك بمعرفة بدائل عديدة من تجارب الشعوب سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة لا يجعل الشخص يشعر بالإحباط في مواجهة الواقع، بل يكبر عنده الأمل في التغلب عليه لما يعلمه من بدائل ناجحة.

البيان: لكن لو نظرنا إلى واقع بعض الناس فإننا نجد أنهم ينظرون إلى الجانب المحزن من هذه التفاعلات العالمية في الواقع المعاصر، وهذا ولَّد شعوراً بالإحباط عند بعض الناس.

* د. ناصر العمر: هذا يفسر ما قلته لك سابقاً. لا ينبغي أن نتعامل مع الحدث اليومي مباشرة بمعزل عن السنن الكونية والمنهج القرآني وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم –. فالذي يدرس سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – يرى أنه مر بمكة في ظروف أقسى من التي نمر بها ونعيشها الآن. يقول الله – عز وجل –: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: ١١٠].

الذي يتعامل مع الجانب المادي والحدث اليومي فقط قد يحدث عنده شيء من الانهزام، وأما من يتعامل مع القرآن والسنن الكونية، مع الأخذ بالأسباب فإنه لا يشك ـــ بإذن الله ـــ في تحقيق نصر الله. لكن نؤكد على حكمة الله – جل وعلا – البالغة في جعل الأسباب مؤثرة في الحياة؛ فمثلاً: الخلاف والاختلاف بين الدعاة عوامل مؤثرة تؤخر النصر، وكذلك سوء الظن بالله – جل وعلا – من أبرز الأسباب التي تؤخر النصر؛ وفي هذا الأمر يقول – تعالى –: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣]، وقال – تعالى –: {وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا} [الفتح: ١٢].

ولذلك لو أن الناس تلافوا الأسباب التي هم واقعون فيها واجتهدوا في هذا الأمر؛ فإن النصر سيكون أقرب مما يتصورون. قد يقول قائل: الناس الآن لم يتلافوا هذا الأمر؛ فمعناه أن الهزيمة قد وقعت. هذا غير صحيح، بل الانتصار قائم الآن ولله الحمد، والمناطق الساخنة في العالم مثل فلسطين، العراق، الشيشان، نموذج لذلك.

إذن نحن نتعامل مع نصوص الوحي ونتعامل مع الأسس والقواعد والسنن الكونية، ولا نتعامل فقط مع مجرد الحدث اليومي، مع أهمية مراعاة الحدث اليومي؛ فقد جعل الله – جل وعلا – له أساساً في الانتصار. قال – تعالى –: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٦]، ولكن يراعى في حدود، ولكن لا يعني الاستسلام كما قال - تعالى -: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

البيان: لكن هل هناك مؤشرات حقيقية لهذا التفاؤل. نحن نؤمن بأن النصر قادم وبأن العاقبة للمتقين، لكن هل يمكن أن يتحول هذا الفأل الحسن إلى واقع تعيشه الأمة؟

* د. ناصر العمر: نعم! يمكن، بل هذا هو الذي يجب أن يكون، وهذا دائماً أطرحه باسم التفاؤل الإيجابي، وهو أن يتحول التفاؤل الذي تطرحه الألسنة وتتلقاه الأسماع والقلوب إلى برامج عملية، مع ما أشرت إليه سابقاً بعدم الاستسلام للهزيمة مهما كانت النتائج.

التفاؤل الإيجابي ليس تحقيقه مرتبطاً بتحقق النتائج المباشرة؛ إنما يتحقق بإيجاد التفاؤل الإيجابي الدافع للعطاء، وبهذه المناسبة أوضح هذا المفهوم؛ لأن بعضاً قد أخطأ في فهمه للتفاؤل. فالتفاؤل هو مقدار تحقق التزام الدعاة بالمنهج الذي أنزله الله - سبحانه - سواء التزم به الناس أو لم يلتزموا؛ فثبات الدعاة وثبات المصلحين على مناهجهم مهما كان الأمر يعتبر انتصاراً، وأعطي دليلاً يؤكد هذه الحقيقة؛ فقد بينت قبل سنوات في كتاب (حقيقة الانتصار) أن الله - جل وعلا - قال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]؛ فبعض الأنبياء كما في الحديث الصحيح لم يؤمن معه أحد، وبعضهم آمن معه رجل واحد فقط، مع أن الله - تعالى - قال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، ليس فقط في الآخرة ويوم يقوم الأشهاد، بل في الدنيا. إذن مفهوم النصر والهزيمة في أذهان كثير من الناس خطأ، لأنه يتعامل مع الواقع المادي فقط، وهذا خطأ، والصواب أن ثبات الداعية وثبات النبي والرسول وثبات المصلح والمجدد على مبدئه ومنهجه هو الانتصار بذاته، وهو أعظم الانتصارات.

أيضاً لفت نظري في سورة القصص قوله - تعالى - والخطاب لموسى وهارون - عليهما السلام -: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [القصص: ٣٥]، بعد ذلك جاءت قضية السحرة؛ والقول الراجح أن فرعون قتلهم ومع ذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - قال: {أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}، والسحرة ممن اتبع موسى وهارون؛ إذن وهم قتلوا فأين الغلبة؟ الغلبة أنهم ثبتوا عندما هددهم فرعون بالقتل، وكان جوابهم له كما في سورة الشعراء، وطه: {قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} [الشعراء: ٥٠]، وأيضاً في السورة الأخرى: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [طه: ٧٢].

كل الآيات تدل على أنهم ثبتوا على منهجهم إلى آخر لحظة، سواء أكان فرعون نفذ تهديده أم على القول الآخر أنه لم ينفذ، لكن الراجح أنه نفذ، وهذا الذي يدل عليه سياق الآيات، ومع ذلك ثبتوا،

ولهذا يعتبر هذا انتصاراً عظيماً كما قال - تعالى -: {أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [القصص: ٣٥]؛ فهذه هي الغلبة في الحقيقة.

على مدار التاريخ نجد أن حاكماً أو غيره يقتل مصلحاً لكن القاتل يشعر في داخله أنه هو المغلوب، ويشعر أن المقتول هو المنتصر، وأقوى دليل على ذلك قصة أصحاب الأخدود أنهم كلهم قتلوا ومع ذلك فهذا انتصار عظيم: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: ١١].

لو أننا تعاملنا مع هذه الحقائق لما كان لليأس مكان. إذن التفاؤل الإيجابي هو تفاؤل النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث كان يربي في أصحابه التفاؤل، لكنه كان يعمل، وكان يجتهد، وكان يستحثهم على العمل والإنجاز.

هنا أختم بكلمة: لا أعرف فترة خلال السنوات الماضية مرت بها الصحوة من الانتشار والقوة والمكانة والتمكن كما هي اليوم، ومع ذلك لو أن كل واحد من هؤلاء الدعاة أو كل مجموعة دعوية قامت بمشروع إيجابي عملي لتغير واقع الأمر لانتصرت الأمة، لكن مع الأسف نميل للنقاش والجدال والخصومة وخدمة الأعداء من حيث لا نشعر.

وأخيراً: وجدت تلازماً بين تفاؤل النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين اشتداد الأزمة؛ فإذا اشتدت الأزمة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وجدنا أنه أكثر الناس تفاؤلاً، وهذا واضح في كل سيرته، بل وجدت في القرآن تلازماً بين الشدة والفرج، والعسر واليسر. إذن فالشدة التي يجدها بعضهم طريقاً للهزيمة النفسية، أو دليلاً عليها، اعتبرها من أكبر أدلة التفاؤل؟ لأن الانتصار يأتي بعدها إذا أخذت الأمة بأسبابه، وكانت إيجابية، وكانت عملية، ولا أشك في تحقق هذا، وأقوى مثال عندي قضية فلسطين؛ فلو خُلّي بين الأمة وبين عدوها في فلسطين ما لبث اليهود إلاَّ قليلاً، هذه قناعتي، لكن مع الأسف الواقع غير ذلك.

* د. عبد الله الصبيح: هناك عدد من العوامل مرتبطة بنظرة التشاؤم هذه التي تتحدث عنها منها:

١ - النظر إلى الجانب المحزن والنظر إلى الجانب الإيجابي من واقع الأمة هو نتيجة للتربية التي يتربى عليها الشخص؛ فإذا كان المنهج التربوي يتصيد الأخطاء عند الأمة والمصائب التي تمر بها، ويتربى على نظرية المؤامرة؛ فإن النتيجة هي الشعور بالإحباط أو الثورة على الأمة والتغيير بالقوة.

٢ - النظرة المثالية التي يتربى عليها بعض الناس ويريد الأمة أن تكون عليها. إن الذي يجب أن نعلمه أن الفساد والضعف حدث في الأمة متدرجاً عبر عشرات السنين، بل مئات السنين، وليس نتيجة يوم وليلة؛ إنه لم يحدث فجأة وحاشا لله أن يقع فجأة؛ وزواله لا يكون فجأة، بل لا بد من التدرج في إصلاحه. ولهذا لا بد أن يتربى الشباب على الواقعية في الإصلاح، فيُسَرَّ بالإصلاح الجزئي ويشارك فيه ويسعى لما بعده من الإصلاح ويطالب به. أما أن يرفض كل خطوة نحو الإصلاح؛ لأنها لا تحقق

ما يسعى إليه من الصورة المثالية التي في ذهنه؛ فهذا سوف يفضي به إلى النظرة التشاؤمية واليـــأس في صلاح الأمة؛ وربما ينتج عن هذا هزيمة نفسية، وهي هزيمة المبدأ أمام الواقع الذي أشرت إليه من قبل.
المصدر: http://www.albayan-magazine.com

الهزيمة النفسية بدور تحفيظ القرآن الكريم

تشكل الهزيمة النفسية لدى مشرفي وإداريي دور تحفيظ القرآن الكريم أكبر العقبات التي تواجه تقـــدم هذه الدور وتطورها نحو الأفضل

ولعل الأسباب التي تكمن وراءها في نظري ما يلي:

•ضعف الثقة بالنفس

•الركون إلى الروتين وعدم الرغبة في التجديد.

•انعدام الطموح والرغبة في تحسين الذات لدى الفرد.

•قلة الخبرة وعدم البحث أو الاطلاع على كل ما هو جديد بالساحة.

•الخوف من المجهول وعدم وجود روح المغامرة.

•توقع النتائج السلبية والخوف من ردود الأفعال.

•الانقياد خلف آراء المثبطين دون محاولة التثبت من صحتها.

•التعليل بقلة الإمكانات المادية.

ولا شك أن الاستسلام لمثل هذه الأمور سيعيق تقدم الدور هذا إن لم يشل حركتها، لاسيما ونحـــن الآن في عصر كثرت فيه الفتن

والمغريات أمام الأبناء والبنات وأصبحنا في حاجه ماسة لطرق وبرامج تشبع احتياجات هؤلاء الأبناء وتشجعهم على الالتحاق بدور وحلقات التحفيظ بكامل رغبتهم وليس مجاراة لإلحاح الأهل (والذي ينشأ عنه تسرب الطلاب فيما بعد)

وقبل الحديث عن بعض التساؤلات والمثبطات المنتشرة بين الدور ينبغي علينا أن ندرك أمرا في غايـــة الأهمية وهو أن نجاح أي عمل يقوم به الإنسان يرجع بالدرجة الأولى إلى توفيق الله لهذا الإنسان وأما العمل في حد ذاته مهما بذل الإنسان فيه من جهد أو تنظيم أو إبداع فهو مجرد بذل سبب...لذا كان من الضروري قبل البدء بأي عمل الاستعانة بالله والتوكل عليه

وطلب التوفيق والنجاح منه... مع إخلاص النية لله واحتساب الأجر منه... ومن كان هذا نهجه فلن يخيب الله سعيه.

بعض المثبطات التي تواجه الدور عند الإقدام على خطوات جديدة

•هذا العمل صعب؟!

ونقول هنا أنه لا يوجد شيء صعب أمام العزيمة و الإرادة القوية لدى الفرد إنما بتعاون الجميع والبحث عن أفضل الطرق المعينة

على حسن الأداء ودراسة العقبات ووضع الحلول لها فان أصعب الأمور ستتحقق بإذن الله – تعالى –

.

هذا العمل يحتاج لمجهود؟!

ونقول هنا أن كل شيء في الدنيا يحتاج لمجهود حتى شرب الماء يحتاج لمجهود ولا يوجد هناك شيء يأتي بيسر وسهوله... ولذلك كان التخطيط المسبق و الأعداد المبكر لأي برنامج من عوامل نجاح هذا البرنامج... كما ينبغي أن لا نغفل أن الإنسان مأجور على أي طاعة يؤديها وأن الأجر بقدر المشقة فليحتسب جهده وتعبه عند الله.

لا استطيع آداء العمل؟!

وهذا من أكبر العوائق فلا تقل لا أستطيع إنما قل سأحاول وأحاول حتى أنجز العمل فإن أصبت فهذا فضل من الله ومنه وإن فشلت فهذه تجربة قد خرجت منها بخبرة تعينني على تلافي الأخطاء مستقبلاً.

لم يظهر العمل على النحو المطلوب !!

لا تتوقع الكمال التام لأي عمل فالكمال لله وحده إنما الإنسان يحاول ويسعى لتحقيق أكبر قدر ممكن من النجاح مع مراعاة التقييم الدائم للعمل ودراسة أسباب النقص لتلافيها لاحقا.

الخوف من النقد وردود الأفعال السلبية من الآخرين!!

وهنا نقول أن على الإنسان أن يسعى ويبذل ما في وسعه لتطوير ذاته وعمله للأفضل دون النظر إلى ردود الآخرين فرضا الناس غاية لا تدرك وما دام أن البرامج التي يسعى لتحقيقها لا تتعارض مع أحكام الشريعة ولا أنظمة الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن فعليه المبادرة بتنفيذها دون أن يلتفت لآراء مجموعة أو أفراد قد تكون نظرتهم للأمور قاصرة أو أنهم من النوع الذي لا يحب التغيير.

التوقع المسبق لفشل البرنامج؟!

وكثير ما نواجه بالدور مثل هذا الأمر (من قبيل أن هذا البرنامج لن ينجح أو لن يعجب الدارسات أو....) ليس لشيء إنما لأن هذا الأمر جديد عليهم و لم يطبق من قبل وهنا نقول مثلما قلنا في النقطة السابقة أن البرنامج مادام لا يخالف الشريعة ولا الأنظمة

فلا بأس بهم أن الغيب عند الله فلماذا طرح الأحكام المسبقة. ومن خلال ممارستي للعمل فإن أغلب الأمور التي تتم معارضتها تنجح بشكل كبير بتوفيق من الله وفضل.

الاهتمام بالشكليات دون المضمون !!

حيث يقتصر اهتمام البعض على أمور شكليه في البرنامج (من قبيل هل البرنامج من إعدادك أم أنه مقتبس ــ هل البرنامج يدر دخل على الدار أم لا...... وهكذا) ويغفلون المضمون والنتائج الإيجابية

للبرنامج ومدى الفائدة التي ستعود على الطلاب أو الطالبات من وراء تحقيق البرنامج وهذا غالبا ما يلاحظ في البرامج الدعوية .

إمكانيات الدار المادية قليله!!

ونقول هنا انه ليس بالضرورة لأي برنامج الكلفة المادية العالية بل يجب تخفيض الكلفة قدر المستطاع من خلال الشراء بالجملة ومن التخفيضات أو استخدام الأدوات والخامات الرخيصة والتي تؤدي نفس الغرض مع الابتكار واستخدام خامات البيئة الموجودة والاستعانة بالمتطوعين وحث المقتدرين على المشاركة الماديه في هذه البرامج وهكذا...

وأخيراً فالإنسان مكلف بالعمل دون انتظار النتائج فعلينا السعي نحو تطوير دور وحلقات التحفيظ نحو الأفضل باستغلال كافة الوسائل الممكنة دون كلل أو ملل أو توقف عند أي من هذه المثبطات وأن نجعل من برامج وأنشطة الدور والحلقات واقع ملموس وليست مجرد أفكار نظرية نتبادلها دون محاولة تطبيقها والاستفادة منها.

المصدر: http://www.qaaaf.org

الهزيمة النفسية .. وفقه المرحلة

عبد العزيز عبد الله الحسيني

الهزيمة النفسية سقوط حضاري لا يضاهيه نوع آخر من الهزائم العسكرية التقليدية، وخطورتها تكمن في كونها استعماراً للعقول والقلوب، قبل أن تكون استعماراً لخيرات الأرض ومقدراتها.

وعلى شدة وقع الاستعمار العسكري إلا أنه وسيلة قوية لإيقاظ الأمة من غفلتها، وتقوية لُحمتها، وتحرُّك غيرتها، وإحياء حميّتها الدينية، وفي النهاية طال هذا الاستعمار أم قصر فإن مصيره الرحيل.

أما الاستعمار النفسي فيتغلغل في نفوس معظم أبناء الأمة دون أن يدركوا أثره وخطره؛ بل دون أن يشعروا بإصابتهم به!

ولأثر هذا الغزو النفسي فقد فطنت بعض الدول إلى أهميته حتى غدا عنصراً مهماً في الحملات الفكرية والإعلامية الموجهة للدول المغزوّة أثناء الصراعات الحضارية، كي يدب فيها الوهن ويدوم اليأس.

* من أسبابها:

لعل من أهم أسباب هذه الهزيمة النفسية التي أصابت الأمة في مقتل وأدى إلى ضعفها ووهنها، بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وجهلهم بحقيقته، ومرارة الواقع الذي يعيشونه، وخذلان المسلمين بعضهم بعضاً، وعدم اتحادهم أمام قوة أعدائهم، وعدم إدراكهم لأسباب المد والجزر في تاريخ أمتهم، وعدم إلمامهم بعوامل النصر والهزيمة، وتأثرهم بوسائل الإعلام الموجهة إليهم التي يحرص الغرب من خلالها على إبراز أنشطته العسكرية وقدراته الحربية واستعراض أسلحته وتقنيته المتطورة، وإشهار

اكتشافاته العلمية وغزوه حتى للفضاء الخارجي، ونحو ذلك من الأمور التي تُعزز مكانته وتوهن غـــيره وتوحي له بالعجز واليأس، بالإضافة إلى ما يرونه من هيمنة أعدائهم على معظم المنظمات والبنـــوك والهيئات الرسمية واستغلالها لإخضاع الدول الإسلامية وإخضاع بعضـــها بالعقوبـــات والمقاطعـــات الاقتصادية، وأحياناً بالقوة والتدخل العسكري إذا لزم الأمر.

مثل هذه الأمور مجتمعة ولّدت هزائم نفسية متتابعة، كان الغرب يهدف إليها ويغذيها بشتى وســـائله الإعلامية والسياسية والاقتصادية، ليستمر التخدير، ويدوم الخنوع.

وتجاوز الأمر قنطرته وأثّر رجع ذلك الصدى في بعض أبناء جلدتنا ـــ الانهزاميين ـــ الذين أكدوا هذه الهزيمة وعززوها؛ بكتاباتهم وتحليلاتهم الانهزامية في الصحف والمجلات والفضائيات بثنائهم المبالغ فيـــه على الغرب وحضارته وقيمه وقوته وديمقراطيته، وأنه إنما سيطر على هذه الأمة بسبب ضعفها وتخلفها في الجوانب العلمية والسياسية والاقتصادية والتقنية فحسب.

ومع مصداقية بعض تلك التحليلات ظاهرياً؛ لكونها أعراضاً للمرض الحقيقي الذي تعانيه أمتنا؛ إلا أن أولئك الكتاب والمحللين جعلوها أمراضاً مستقلة ينبغي أن يتجه إليها العلاج مباشرة، وذهلوا ذهـــولاً أعمى عن (السبب الأساس) في نشوء تلك الأعراض، وحادوا عن استلهام تعاليم القرآن، وتوجيهات السنَّة، واستقراء التاريخ، ومعرفة السنن الجارية، والنواميس الشرعية، حول أسباب ضـــعف الأمـــة الإسلامية والمخرج منها، ولم يتطرقوا إلى ذلك من قريب أو بعيد، لعدم إدراكهم لأبجـــديات تلـــك المسائل، ولجهلهم بفقه الهزيمة التي حلّت بالأمة، ولخوضهم في أمور لا يملكون أدواتها، ولتصـــدرهم لقضايا لا علاقة لتخصصاتهم فيما يتحدثون عنه أو يكتبون فيه، وللهوى والحقد الذي يُكنّـــه بعـــض أولئك لهذا الدين.

وللأسف فإن ذلك الطرح المادي المتكرر، قد أثر على قطاع عريض من شباب المسلمين، وكان سبباً في صرفهم عن عودتهم لهذا الدين، وإصابة غيرهم باليأس والقنوط، وأصبح بعضهم الآخر (يُســـقط) تقصيره وأخطاءه على غيره، ويخرج نفسه من مغبّة مسؤولية ضعف أمته وهوانها، فعطلـــوا طاقـــاتهم وقدراتهم، بل وجميع أسلحتهم المعنوية الأخرى؛ فهم برأيهم ـــ وكما فهموه مـــن أولئـــك المحللـــين الانهزاميين ـــ لا يملكون شيئاً لمواجهة تلك القوة القاهرة؛ حتى أصبح كثير منهم يعتقد أن هذا الواقع السيئ أمر لا مفر عنه وشر لا بد منه، فأصيبوا بهزيمة نفسية محبطة، وأصبحوا لا يؤمنون ولا يعتمدون ولا يطمئنون ولا يثقون، إلا بالقوة المادية فحسب، وغدوا ينظرون إلى الغـــرب بنفســـية الغالـــب والمغلوب، وجنت الأمة آثار تلك الهزيمة النفسية المحبطة، وهو ما تعيشه اليوم بكل مآســـي الواقـــع ومرارته.

* من آثار الهزيمة النفسية:

لا يحتاج المرء إلى كبير تأمل ليدرك إلى أي مدى أثرت هذه الهزيمة النفسية في واقع أمته؛ فهي لا تعاني من شيء كمعاناتها من آثار هذه الهزيمة التي دمرت معنوياتها، وحطمت دوافعها، وأحبطت تطلعاتها، وأصابتها بالضعف والهوان، وألقت بنفسها في أحضان عدوها، ومكّنته من كيانها، ودانت له بالتبعية، والولاء التام، وانقادت له مستسلمة دون أي مقاومة تذكر، حيث تشعر بمرارة العجز والقهر واليأس إلى درجة أنه قد زال لدى معظم المسلمين أية بارقة أمل في نهضة حضارية جديدة أو مستقبل مشرق واعد، فتحقق لعدوها ما أراد من السيطرة على معظم أفرادها نفسياً، ومن ثم ثقافياً وسياسياً واقتصادياً بل وسلوكياً.

وإنه ليصعب على المسلم أن يُشخّص الآثار المترتبة للهزيمة النفسية على أمته دون أن يصاب بحشرجة يصعب معها مواصلة حديثه، ومن يُتابع وسائل الإعلام والاتصال المختلفة، يجد أن الأمة الإسلامية بلغت ــ بسبب عجزها ويأسها ــ حداً لا مزيد عليه من الذل والهوان، حتى إنه لا يكاد يوجد عضو من أعضائها، إلا وفيه جرح ينزف، ودم يثعب، وشعب يُهان، وحرمات تنتهك، وأراضٍ تغتصب.

ووصلت أوضاع أمتنا إلى منتهى (الانحطاط والتخلف)(١)، وأصبحنا نعيش على هامش العالم وفي ذيل القائمة، وتداعت علينا الأمم الكافرة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وتسلطوا علينا من كل جانب، وأصبحنا نعيش عصر (الغثائية) التي أخبر عنها المصطفى –صلى الله عليه وسلم– بقوله: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أوَ من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل)(٢).

نعم! مليار ومئتا مليون مسلم، ولكن لا وزن لأكثرهم ولا قيمة، معظم دُولهم ضعيفة تعاني الفساد وتشكو الفقر، وأكثر شعوبهم مسكينة تعاني الجهل وتشكو القهر.

وجنت الأمة آثار الهزيمة النفسية التي تعايشت معها سنين طويلة، ولم تستطع معظم دولها الخروج منها حتى الآن؛ بل ولم تبذل ما يوحي بمجرد المحاولة، فقعدت واستسلمت وتخلفت وذلت، فاستُبيحت(٣).

* فقه الضعف والقوة:

القوة المادية ــ في كل زمان ومكان ــ هي إحدى دعائم الأمم والدول، ولا ينبغي التهوين من شأنها أو التشكيك في أثرها؛ فهي سبب من الأسباب، والأخذ بالأسباب واجب شرعي، وطلب النصر من دون بذل الغاية القصوى في الإعداد ــ حسب سنن الله ــ عبث بالأسباب، وتعطيله تعطيل لحكمته – سبحانه –؛ فالله – تعالى– جعل للطير والبهائم عُدة وأسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب والظفر والناب، وخلق للآدمي عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ويهديه إلى التحصن بالأبنية والدروع، ومن عطّل نعمة الله في ترك السبب فقد عطّل حكمته(٤).

فلا أحد يقلل من أثر القوة المادية وشدة الحاجة إليها؛ إلا أن المبالغة في الحديث عنها، وإشعار شباب الأمة أن ما هم فيه من الذل والهوان، إنما هو بسبب ضعف قوتهم المادية، وأن طريق النهوض والخروج من الهوان الذي حلّ بأمتهم إنما يكمن ـــ فقط ـــ في الحصول على تلك القوة ومجارات الغـــرب في تقدمه العلمي والتقني حتى يصبح لنا قوة تضاهي قوته، ونحو ذلك من المفاهيم الخاطئة الـــتي ولّـــدت الكثير من السلبيات المتعددة. فبالإضافة إلى كون ذلك المفهوم خطأ محضاً يخالفه التـــاريخ والواقـــع، وكونه انحرافاً كبيراً في التصور الصحيح لمفهوم القوة والموازنة بينها وبين القوة الروحية ـــ كما سيأتي ـــ فهو أيضاً صرف لشباب الأمة عن واقع أمتهم من حيث بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وعـــدم إشعارهم بأثر ذلك في ضعف أمتهم وهوانها، كما أن التركيز على القوة الماديـــة وجعلـــها المخـــرج الوحيد لأزمة الأمة وهوانها فحسب؛ تعطيل للقوة الروحية التي تمتلكها الأمة، وتغييب لها في نفـــوس أبنائها بالرغم من أهميتها وأثرها الكبير في تغيير نفوسهم وإحياء روحهم وإعادة الثقة إليهم، كمـــا أن التركيز على القوة المادية فحسب استمرار لهزيمتهم النفسية وزيادةٌ ليأسهم وقنوطهم من إمكانية نهضة أمتهم مرة أخرى؛ إذ إن الأمة الإسلامية الآن لا تملك ذلك التفوق المادي الذي تضاهي به ما تملكـــه الدول الغربية؛ فهم قد سبقونا في هذا المضمار سبقاً واسعاً، وليس من المنتظر ولو بعد عدة قـــرون أن نجاريهم في هذا الجانب فضلاً عن التفوق عليهم ـــ إلا أن يشاء الله – تعالى –.

ومع أهمية القوة المادية وضرورة العناية بها، إلا أن أمتنا تمتلك من مقومات القوة والنهضة ما هو أهـــم من القوة المادية البحتة، تمتلك القوة الإيمانية، وكانت السبب الأول في نهضتها وعزها في ذلك الوقت، وهو ما نؤمِّل أن يكون سبباً في نهضتنا وعزتنا مرة أخرى.

ولا أقصد من هذا التقليل من شأن القوة المادية، أو أن نيأس ونقنط من إمكانية امتلاكها، أو أن نُسلّم ونستسلم لأعدائنا لعدم مجاراتهم في قوتهم المادية، بل لا بد من السعي الجـــاد للإعـــداد والاهتمـــام بالنواحي العلمية والتقنية والعسكرية والحربية، وأن نبذل فيها غاية جهدنا ووسعنا، ولكن لا بوصفها (الإكسير) الذي سيعيد لنا العزة والهيبة المفقودة، وإنما بوصفها (مطلباً) لعمارة الأرض واستخلافها، و (ضرورة) ذاتية لوجودنا وتقدمنا، و (حاجة) ملحة للذبّ عن ديننا ومواجهة عدونا(١).

والله– تعالى– أمرنا بذلك وأوجب علينا العناية بالنواحي المادية، وعمارة الأرض، وإعداد القوة، فقال – سبحانه – : {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَـــدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠]، فالله أمرنا بالإعداد ولكن حسب الاستطاعة، والمقصود بذلك كما يقول ابن كثير – رحمه الله – : «أي مهما أمكنكم»(٢)، والإعداد حسب الاستطاعة ـــ مع الإيمان ـــ مـــن أســـباب النصر لا من أسباب الهزيمة. وحينما ذكر الله – سبحانه – القوة فقد أطلقها دون قيد، وفي ذلك أيضاً دلالة صريحة على أن القوة نسبية، فلا يُشترط التكافؤ فيها، فضلاً عن أن يكون لدينا قوة أعظم ممـــا لدى العدو.

ولذا يجب عدم الاستسلام للعدو وإيقاف المقاومة (جهاد الدفع)، إذا احتل بلداً من بلاد المسلمين، بحجة عدم كفاية الإعداد، ليقوم العدو بعد ذلك بابتلاع ديار المسلمين بلداً بعد آخر، فلا بد من الدفع حسب الاستطاعة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «أما قتال الدفع عن الحرمة والدين فواجب إجماعاً؛ فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط، بل يُدفع بحسب الإمكان»(٣).

وإذا رأى علماءُ أهلِ بلدِ النازلةِ عدمَ قدرتهم على الجهاد، فليس شرطاً أن يكون ذلك عبر أساليب قتالية، وإنما عبر وسائل كثيرة: علمية، أو اجتماعية، أو دعوية، أو إغاثية، أو إعلامية وهو الأهم ـــ والأهم جداً ـــ في هذا العصر، ونحو ذلك مما يحتاجه أهل كل بلد؛ فهم الأدرى بحسابات المصالح والمفاسد، والضرورات الشرعية التي تُقدر بقدرها.

ومثل تلك الحسابات والضرورات التي لها علاقة بمصير أمة ما، ينبغي ألا ينبري لها آحاد العلماء وأفرادهم، فلا أحد يؤمَن عليه النقص أو الزلل، وإنما الذي يُقدّر الجهاد من عدمه، علماءُ أهل بلد النازلة الراسخون في العلم، أهل الدين الصحيح، ولا يكفي هذا، بل لا بد أن يكونوا من الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ قدس الله روحه ـــ: «الواجب أن يُعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين؛ فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا»(٤).

ومشكلة كثير من المسلمين اليوم في نظرتهم للقوة المادية، أنهم ما بين مُشرّق ومُغرّب:

– فبعضهم يهوّن من القوة المادية ويقلل من أثرها والعمل على امتلاكها، لدرجة أن بعضهم يرى قوله – تعالى –: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠] ويتناسى ما بعدها: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠] فغفلوا عن الغرض من إعداد القوة، وهو إرهاب العدو.

– وبعضهم الآخر، ضخّم قضية القوة المادية وبالغ في أثرها، وعلّق ثقته بها واعتماده عليها، حتى جعل بعضهم من القوة المادية إلهاً يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحوُ الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْح في الشرع»(٥).

والتوازن في النظر إلى القوة المادية أمر مطلوب؛ فهي سبب وإن كانت من أهم الأسباب إلا أنه ينبغي عدم الاعتماد عليها، وانظر وتأمل آثار التعلق والاعتماد على السبب: ما نتائجه وعواقبه؟ لقد كان صحابة رسول الله–صلى الله عليه وسلم– في كل غزوة يشاركون فيها أقل عدداً وعُدّة من عدوهم، وكان اعتمادهم بالنصر على الله – تعالى – وحده، فكان النصر حليفهم والفوز رديفهم، عدا معركة

واحدة هي معركة (حنين) شاركوا فيها وكانوا أكثر عدداً، فاعتمدوا ــ في البداية ــ على ذلك، حتى قال قائلهم: «لن نُهزَم اليوم من قلة»، فوكلهم الله – تعالى- إلى السبب الذي اعتمدوا عليه، فلم يُغن عنهم شيئاً {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥].

فنحن أمة رسالة، نستمد قوتنا وعزتنا من ديننا أولاً، وإذا كان الله – تعالى – قد أمرنا بإعداد القوة المادية، فقد أمرنا قبل ذلك بإعداد القوة الإيمانية، فلا ينبغي الاعتماد عليها فحسب؛ وما قيمة الإيمان حينئذٍ إذا كان مطلوباً منا ــ كما يزعم بعض الانهزاميين ــ أن نعد قوة كقوة العدو، وألا نقاتله حتى نماثله في القوة، فالمسألة توازن لا إفراط ولا تفريط، وإذا كان الإعداد المادي (مهمّاً) وهو كذلك؛ فإن الإعداد الروحي والزاد الإيماني (أهمُّ) وأَوْلى. فمن المسلّم به أن المقدمات إذا صحّت، أعقبها نتائج مثمرة بإذن الله.

والشواهد تدل على أن حركة التاريخ لا تخضع للعوامل المادية فحسب؛ و إلا فما كان لموسى أن يصارع فرعون، ولا للضعفاء أن يقاوموا المستبدين من المستعمرين، ولا لمحمد –صلى الله عليه وسلم– ومن آمن معه أن يقاتلوا قريشاً والقبائل العربية وفارس والروم. ولولا الخيانات لما سقط (العراق) حتى وإن تفوَّق الأعداء في العدد والعدة، وبالرغم من تلك القوة القاهرة؛ فإن المقاومة العراقية ما زالت صامدة ثابتة، ولو تمكنت من امتلاك (بعض) أنواع الأسلحة التي يمتلكها العدو لما بقي أولئك الأعداء يوماً واحداً في بلدهم. قال – تعالى -: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

ومن يستقرئ التاريخ يجد فيه ما يبدد التشاؤم ويرفع اليأس ويزرع الثقة ويُذكي الأمل؛ فليس شرطاً أن الأمم المؤمنة بالله لا تتفوق ولا تنتصر على أعدائها إلا إذا كانت مكافئة لهم أو أقوى عدداً وعدة منهم.

بنوا إسرائيل، كانوا يعيشون في مصر، وكانت بالنسبة لهم بيئة قاتمة خانقة، قد أطبقت عليهم كل الإطباق، وسدت في وجوههم المنافذ والأبواب؛ فهم يعيشون في حاضر شقي، ومستقبل مظلم، وقلة عدد وعدة، وفقر وذلة، وفي ظل هذه الظروف يولد موسى – عليه السلام – وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب، ومنطق الأشياء: أراد فرعون ألا يولد فوُلد، وأراد ألا يعيش فعاش. يعيش في صندوق خشبي مسدود، وفي ماء النيل الفائض، وينشأ عند عدو قاهر، وسُخرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي؛ فيجد الضيافة الكريمة، ويزوجونه إحدى بناتهم، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بها، فيجد نوراً يسعد به بنوا إسرائيل، ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة، فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها، ويكرم بالنبوة والرسالة، ويدخل على فرعون في أُبهته وسلطانه، وفي ملئه وأعوانه. وهكذا يهلك فرعون

وقومه (الأغنياء الأقوياء) ويملك بنوا إسرائيل (الضعفاء الفقراء): {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧].

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي (القوة) التي قهر بها موسى (أعظم قوة) في عصره ومصره؟! وما سر انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟! وما (سلاحهم) الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر(١)؟

وماذا لو كان موسى - عليه السلام - يفكر تفكير كثير من المسلمين اليوم، ويستعرض الإمكانات والقوة التي يملكها هو وقومه، ويوازنها بما يملكه فرعون وجنده، بنظرة مادية محضة، هل كان سيواجه فرعون ويدخل معه في حرب لا هوادة فيها؟!

ومثال آخر: أرجو أيضاً أن يكون في ذكره ما يبدد اليأس ويزرع الأمل والثقة:

فالأمة العربية كانت أمة موغلة في التخلف والضعف والهوان والانحطاط في معظم الميادين والمجالات، السياسية والعقدية والاجتماعية والسلوكية والحربية.

ومن كان هذا شأنهم فإنهم لا يفكرون ولا يحلمون حتى في المنام بالهجوم على الدول المجاورة فضلاً على الانتصار عليها، حتى إن فارس والروم (الدول العظمى في ذلك الوقت) لم تفكرا مجرد تفكير في فتح الجزيرة والاستيلاء عليها، وذلك لقلة خيراتها ومواردها، وهوان أهلها عليهم.

ولكن الله - تعالى - امتن على تلك الأمة بأن بعث فيهم خاتم أنبيائه ورسله محمداً -صلى الله عليه وسلم-، فجاء إليهم وعندهم من الفساد والهوان والبعد عن الفطرة ما ذُكر، وفي ظل سنوات معدودة، تغيرت حالهم، وانقلبت أمورهم، فخرجوا من جزيرتهم كالسيل الجارف يفتحون ويقهرون، بثياب مرقعة، وسيوف بالية، على خيل بعضها عارية؛ فما لبثوا أن ملكوا الدنيا، وانقلب رعاة الشاة والإبل إلى ساسة لأرقى الأمم.

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي، وهذا الانقلاب الهائل في جميع الميادين والمجالات، اعتبره المؤرخون الغربيون لغزاً من ألغاز التاريخ، بل رأوا أن هذا الحدث هو أغرب ما وقع في التاريخ الإنساني كله.

لماذا سموه لغزاً؟

لأنهم قالوا: إن العادة جرت أن الغلبة والانتصار للدول بسبب أمرين: إما كثرة عدد أو قوة عتاد، والأمة العربية في ذلك الوقت لم تكن تملك لا كثرة عدد ولا قوة عتاد.

أما مسألة العدد:

فكلنا نعلم أنه ليس هناك معركة شارك فيها المسلمون إلا وهم أقل عدداً وعدة: بدر ـــ أحد ـــ الأحزاب ـــ المريسيع ـــ مؤتة... إلخ، عدا معركة واحدة، كان المسلمون فيها أكثر عدداً وعدة وهي معركة حُنين، وقد سبق أن ذكرنا ما حصل فيها من اعتمادهم على كثرتهم فلن تغن عنهم شيئاً. كل

ذلك ليُشعرهم ــ ومن بعدهم إلى قيام الساعة ــ أن المسلمين لا ينبغي أن يتعلقوا بأي سبب من الأسباب المادية، لا بكثرتهم، ولا بقوتهم، وإنما بإسلامهم وإيمانهم وتوكلهم على ربهم وثقتهم به أولاً.

أما مسألة قوة العتاد:

فالمسلمون لم يكونوا متقدمين في ذلك الوقت بأي نوع من أنواع السلاح، والجيش لم يكن منظماً، إنما هم مجموعة من المتطوعين يجهزون أنفسهم بأنفسهم حتى إن بعضهم كان يسمع منادي الجهاد فيخرج وما معه شيء، لا رمح ولا سيف ولا مركب {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ} [التوبة: ٩٢](١). ومع ذلك اكتسحوا العالم المعروف كله.

فما هي القوة التي قهر بها الرسول –صلى الله عليه وسلم– من وقف في طريق دعوته؟ وما سر انتصار المسلمين في معظم الغزوات التي شاركوا فيها وأخضعوا أعظم قوتين في عهدهم (فارس والروم) تحت حكمهم وسيادتهم؟ وما سلاحهم الذي واجهوا به جميع أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة؟

والجواب: ليس لغزاً ولا يحتاج لكثير تأمل؛ فنحن معشر المسلمين نعرف أن الإيمان هو السبب الذي عز به المسلمون وسادوا.

وتصوروا ماذا لو كان الرسول–صلى الله عليه وسلم– ومن بعده من صحابته الكرام يفكرون تفكير كثير من المسلمين اليوم ويوازنون ما يملكونه بما يملكه أعداؤهم من القوة المادية فحسب؟ وما كان مصير الإنسانية لو قال المسلمون في ذلك الوقت: لا حول لنا ولا قوة في مقارعة تلك القبائل والدول، ولا ينبغي أن نقاتلهم حتى نملك مثل ما يملكون من كثرة العدد وقوة العتاد؟

لو قالوا مثل ذلك، فهل كانوا سيُخضعون العالم في ذلك الوقت تحت نفوذهم وسلطانهم؟

ولأجل ذلك كله، فإن سبب ضعف أمتنا، وذلها، وهوانها، وتسلط أعدائها عليها، ليس لأنها متخلفة علمياً وتقنياً وحربياً وعسكرياً ــ وإن كان لذلك أثر ولا شك ــ إلا أن السبب ــ الرئيس ــ لضعفها وتخلفها هو بعدها عن دينها، وما تخلفها في النواحي العلمية وغيره من المجالات إلا أعراض للبعد عن الدين، وهو المرض الحقيقي الذي تعانيه أمتنا، وكان السبب الأول في ضعفها وهوانها، وهو عقوبة من العقوبات الإلهية لبعد الأمة عن دينها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «وحيث ظهر الكفار، فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله، وإذا كان في المسلمين ضعف وكان عدوهم مستظهراً عليهم، كان ذلك لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً»(٢).

ولذا فإنه لا مخرج من الحالة المتردية والأوضاع المأساوية التي تعيشها أمتنا، إلا بالرجوع إلى هذا الدين القويم.

الهزيمة النفسية داء عضال لم يتسلط على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء.

وأمتنا اليوم لا تعاني من شيء كمعاناتها من آثار هذه الهزيمة التي دمرت معنوياتها، وحطّمت دوافعها، وأحبطت تطلعاتها، وأصابتها بالضعف والهوان؛ حيث ألقت بنفسها في أحضان عدوها، ومكّنته من كيانها، ودانت له بالتبعية والولاء التام، وانقادت له مستسلمة دون أي مقاومة تذكر، حيث تشعر بمرارة العجز والقهر واليأس، إلى درجة أنه قد زال لدى معظم المسلمين أية بارقة أمل في نهضة حضارية جديدة، أو مستقبل مشرق واعد، فتحقق للعدو ما أراد من السيطرة على كثير من أفراد هذه الأمة نفسياً ومن ثَم ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وسلوكياً.

* حتى لا نيأس:

في عصور مضت دانت القوة والغلبة للأمة الإسلامية واستمرت قروناً طويلة، وحينما بدأ المسلمون بالتخلي عن دينهم بدأ الضعف يدب في أوصالهم حتى دانت القوة والغلبة لغيرهم.

وحينما استكملت أمريكا أسباب النصر من القوة وإقامة العدل وأداء الحقوق وعدم الظلم لرعاياها؛ دانت لهم القوة حسب سنن الله الجارية في التمكين والاستخلاف. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله - : «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»(٣).

واليوم بدأت تتعالى الأصوات وترتفع من عقلاء أمريكا قبل غيرهم، محذرين من السقوط والزوال، بعد أن فقدت أمريكا تلك الخاصية، وأصبح الظلم والإرهاب والاستبداد وانتهاك حقوق الآخرين والجور والغطرسة، سمة من أهم سماتها. وستسقط حتماً كل دولة تجعل من الظلم والاستبداد والقهر والإرهاب منهجاً لها ومبدأً من مبادئها، فالكون يسير حسب نواميس شرعية ووفق سنن جارية، قال - تعالى -: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: ٥٩].

وليس المهم متى سيحدث ذلك؛ إنما المهم أنه سيحدث إن عاجلاً أو آجلاً، والذي أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى، قادر على أن يهلك مَنْ دونهم، وأن يسلط عليهم جنداً من جنده {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ} [المدثر: ٣١]، وأمتنا متى استكملت أسباب النصر والتمكين فإنها حتماً ستعود قوية عزيزة، في هذا الجيل أو الذي بعده، والنصر والتمكين ليس شرطاً أن يراه الداعية بعينه؛ فالرسول- صلى الله عليه وسلم- وعد بفتح فارس والشام واليمن، ولكن ذلك لم يتحقق إلا بعد وفاته –صلى الله عليه وسلم- بسنين. فدعوة الله لا بد أن تعلو، ودين الله لا بد أن ينتصر ويسود، ولا نقول هذا جُزافاً؛ وإنما هو عقيدة نستقيها من كتاب ربنا وسنة نبينا –صلى الله عليه وسلم-.

* المد والجزر في تاريخ المسلمين:

أقول هذا بعد أن بلغ اليأس والقنوط والإحباط ـــ من عودة هذه الأمة إلى مجدها ـــ منتهاه عند قطاع عريض من المسلمين، ونسوا أن ما تمر به الأمة من ضعف، إنما هو مرحلة سبق أن مر بها ما هو أشـــد ضراوة وأعنف شراسة؛ فقد تعرضت من قبل وعلى امتداد تاريخها الطويل لمحاولات عديدة للقضـــاء عليها واستئصال شأفتها وإبعادها عن دينها ومصدر عزها، ولكنها في كل مرة كانـــت تقـــوم مـــن جديد، بعزيمة أقوى وشكيمة أشد، ومن يستقرئ تاريخ أمتنا، يجد أنه كان بين مد وجـــزر؛ فمـــتى كانت الأمة قوية بدينها وحققت أسباب النصر عزّت وسادت، ومتى ضعف تمســكها بـــه ذلّـــت واستكانت، وإليك مصداق ذلك:

- قبل وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم-، كانت الأمة في عز وسؤدد، وقوة ومنعة، وحينما توفي –صلى الله عليه وسلم ، مرت الأمة بأزمة عصيبة، ومرحلة خطيرة؛ حيث عَظُمَ الخطـــب، واشـــتد الكرب، وظهر مدّعو النبوة، وامتنع قوم عن أداء الزكاة، وارتد من ارتد من العرب، حتى إنه لم يبـــق للجمعة مقام في بلد سوى في مكة والمدينة، وأصبح حال المسلمين كما يقول عروة - رضي الله عنه - : «كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم، وقلة عددهم، وكثرة عدوهم» حتى وُجـــد مـــن المسلمين من بلغ به اليأس أن قال لأبي بكر - رضي الله عنه - : «إن هؤلاء جُل المسلمين والعـــرب على ما ترى قد انقصت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين»(١).

في ظل تلك الأوضاع، واليأس قد بلغ منتهاه، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة مرة أخرى؟! ولكن أبا بكر - رضي الله عنه - لم يعتره اليأس، ولم يتملكه القنوط، وإنما واجه هـــذه الأحـــداث، وهذه البلبلة، وهذه النكبات، بإيمان راسخ، وعزيمة ثابتة، وتفاؤل عظيم، حتى ثبت وحارب مـــدعي النبوة والمرتدين، وأعاد للمسلمين قوتهم، وللخلافة هيبتها، ولليائسين تفاؤلهم.

وفي القرن الرابع الهجري من كان يظن أن تقوم للإسلام قائمة، حينما قام القرامطة في عام ٤١٧هـــ باستباحة مكة يوم التروية! «حيث نهبوا أموال الحجاج، وقتلوا في رحابها وشعابها وفي المسجد الحرام بل وفي جوف الكعبة خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبو طاهر ـــ لعنه الله ـــ علـــى بـــاب الكعبـــة، والرجال تُصرع من حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام وفي الشهر الحـــرام وفي يـــوم التروية الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول: أنا الله وبالله أنا، أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا، ثم أمـــر بأن يُقلع الحجر الأسود، وقال: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟! ثم قلع الحجر الأســـود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم (اثنتين وعشرين) سنة»(٢).

وتأمل أي ذلة ومهانة كانت تعصف بالمسلمين في ذلك الوقت: الحجر الأسود يُقلـــع مـــن مكانـــه الطاهر، ويُحمل إلى بلد القرامطة ويمضي عندهم اثنين وعشرين عاماً قبل أن يعيدوه بأنفسهم، والأمة الإسلامية كلها لا تستطيع أن تجتمع لاسترداد حجرها الأسود!

وبعد هذه الحادثة المأساوية، التي لم تتكرر في تاريخ الإسلام والمسلمين، قل لي بربك: هل من مجـــال للمقارنة بين ما مر على المسلمين في ذلك العصر من الضعف والذل والمهانة، وما نمر به في هذا الوقت من أزمات؟

ومع ذلك فقد عاد المسلمون مرة أخرى، ونهضوا من كبوتهم وصحوا من غفوتهم، وعادوا كأقوى ما يكونون.

- وفي أواخر القرن الخامس الهجري، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما تـــدفقت الجيـــوش الصليبية من أوروبا بأسرها على الخلافة الإسلامية، في تسع حملات صليبية شرسة، فقتلوا وطمســـوا معالم الحضارة، واستعملوا جميع مظاهر الاضطهاد والعنف، واستولوا على كثير من البلاد الإسلامية، وأُغلق المسجد الأقصى و لم تُقم فيه جمعة ولا جماعة، ووضعت الصلبان فوقه ما يقارب (قرنـــاً) مـــن الزمان، حتى ظن كثير من المسلمين في ذلك الوقت، ألاَّ أمل في انتصار المسلمين على الصليبيين، وألاَّ رجاء في رد أرض فلسطين مع المسجد الأقصى إلى حوزة المسلمين، ولا ســـيما بعـــد أن فتكـــوا في الأنفس، وذبحوا من المسلمين في يوم واحد أكثر من (سبعين ألفاً).

في ظل هذه الظروف، من كان يظن أن هذه البلاد ستتحرر في يوم ما، على يد البطل (صلاح الدين الأيوبي) في معركة حطين الحاسمة، ويصبح للمسلمين من العزة والقوة والسيادة ما شـــرّف التـــاريخ الإنساني.

ومرة أخرى.. لم ييأس المسلمون و لم يقنطوا من رحمة الله؛ فقد عادوا ونهضوا من كبوتهم، واستردوا المسجد الأقصى بعد أن رفع النصارى الصلبان فوقه ومنعوا المسلمين من الصلاة فيه أو مجرد دخولـــه قرابة (قرن) من الزمان. بينما يصاب اليوم كثير من المسلمين باليأس والقنوط وفقد الأمل بالكلية من مجرد التفكير في إمكانية استرداد المسجد الأقصى مرة أخرى رغم أنه لم يمض على احتلالـــه ســـوى سنوات معدودة.

وإذا كان المسلمون في ذلك الوقت ـــ وحالهم كانت أشد مرارة من حالنا ـــ قد نهضوا بعـــد تلـــك الكبوة؛ فالأمة اليوم قادرة بعون الله – تعالى –، ثم بالجهود المنتظرة من أهل الصلاح والإصـــلاح، أن تعود من جديد؛ وإرهاصاتُ ذلك تبدو في الأفق واضحة جلية بعون الله – تعالى –.

- وفي القرن السابع الهجري، من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة، لمـــا خـــرّب المغـــول العـــالم الإسلامي، ونهبوا الأموال، وداسوا القِيَم، وفتكوا بالأنفس والأعراض فتكاً ذريعاً، حتى قيل إن جبالاً وأهرامات عالية أقامها هولاكو من جماجم المسلمين؛ حيث كانوا في غاية الهمجية والوحشية، فكانوا يقتلون كل من يقابلهم دون تفرقة، فقتلوا العلماء والمشايخ والكهول والنساء والولـــدان، وأحرقـــوا المساجد ودور الكتب، وحطموا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية. وقد ذكر ابن كثير – رحمـــه الله – عدد قتلى المسلمين إثر ذلك الغزو فقال: «وقد اختلف الناس في كمية من قُتِل ببغداد من المسلمين

في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس»(١).

وبلغ من شدة الحدث، أن المؤرخ ابن الأثير – رحمه الله – قال: «لقد بقيت عدة سنين مُعْرِضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أُقدّم إليه رجلاً وأُؤخر أخرى؛ فمن الذي يسهَل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً»(٢).

من كان يظن أن بلاد الإسلام ـــ بعد هذا ـــ ستقوم لها قائمة، أو أنها ستتحرر في يوم من الأيام على يد البطل المقدام (قطز) في معركة عين جالوت الحاسمة، ويعود المسلمون إلى سابق عهدهم(٣).

ومرة أخرى.. هل من مجال للمقارنة بين ما حصل للمسلمين في ذلك الوقت من القتل والإيذاء والتنكيل، بتلك الصورة وتلك الوحشية وتلك الشراسة وذلك العدد الكبير من القتلى، وبين ما يحصل للمسلمين في هذا الوقت!

ومع ذلك كله فقد نهضوا من كبوتهم وصححوا خطأهم وعادوا إلى ربهم، فبنوا حضارتهم وواصلوا مسيرة فتوحاتهم بكل قوة وثبات.

ومن عجائب التاريخ وفرائده، أنه مع هزيمة الأمة في ذلك الوقت عسكرياً، إلا أنها لم تُهزم نفسياً؛ فقد ظل كثير من المسلمين معتزين بدينهم مستمسكين به، لدرجة أنهم أثّروا بالغالب ولم يؤثر بهم، على خلاف العادة؛ إذ جرت أن المغلوب مجبول على التأثر بالغالب، إلا أن الذي حصل هو عكس ما جرت عليه تلك العادة، فدخل الغالب بدين المغلوب، وهذا من غرائب التاريخ الإنساني. وفي هذا دلالة على أن الأمة وإن هُزمت عسكرياً إلا أن كثيراً منهم لم ينهزموا نفسياً، ولم يفقدوا الأمل، ولم يصابوا باليأس والإحباط كما أصيب به كثير من المسلمين اليوم. فقد صحا أبناء ذلك الجيل من غفلتهم واستيقظوا من غفوتهم، وعادوا إلى دينهم فعاد لهم العز والتمكين مرة أخرى، بعد معركة عين جالوت المشهورة.

– وفي القرن الرابع عشر الهجري المنصرم، من كان يظن أن الإسلام سيعود من جديد، وقد أُصيب المسلمون بعدة طعنات لو وُجهت لغيره من الأديان لذاب واندرس؛ ففي ذلك القرن: سقطت دولة الخلافة الإسلامية على يد الهالك أتاتورك، وأصبح يُنادَى بالعصبية والقومية، واستُعمرت الدول الإسلامية وقُسمت بين دول الغرب، وعمت البلوى والافتنان بالحضارة الغربية حتى أصبح المثقفون ينادون بضرورة اللحاق بركب تلك الحضارة والانضواء تحت لوائها بخيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحمد منها وما يُعاب. أما العقائد فقد أصبحت الطرق الصوفية هي السائدة حتى عم الظلام والجهل والبدع والخرافات لا أقول بعض أوطان المسلمين، بل معظمها، وعاد الدين غريباً كما بدأ، وغابت معظم معالمه التشريعية حتى كاد يندرس في معظم البلدان الإسلامية، وبلغ اليأس منتهاه في

إمكانية عودة الإسلام من جديد لدى البقية الباقية من المستمسكين به، بل ظن كثير منهم أن الإسلام لن تقوم له قائمة مرة أخرى.

ولكن الله – تعالى – بعث هذه الأمة من جديد، وبدأ الناس يعودون إلى دين الله أفواجاً، وبدأت الأمة تنهض بعد الغفلة، نرى ذلك ونلمس مظاهره في جوانب كثيرة ومجالات عديدة بحمد الله – تعالى –.

* من بشائر النصر:

إن مما يسر الخاطر ويفرح القلب ويُقوي الأمل في إمكانية عودة هذه الأمة إلى سابق عزها ومجدها، ما نراه من الآثار الملموسة للصحوة التي بدأت تؤتي أُكلها ونتنفس ثمرها ونستنشق عبيرها.

هذه الصحوة نتاج طبيعي لإخفاقات متكررة وهزائم متتابعة عاشتها الأمة، ولذا فقد ولدت وترعرعت وهي متعطشة لعز الإسلام وتمكينه، بعد أن جُربت جميع الشعارات الرنانة و لم تفرز إلا النكسات المتعددة، وتكالب الأعداء عليها من كل جانب.

وقد كانت هزيمة أو نكسة يونيو ١٩٦٧م، بداية تحول كبير في عقول كثير من شباب الأمة الإسلامية؛ حيث تركت تلك الهزيمة آثاراً موجعة في نفوس ما لبثت أن تجلت على شكل صحوة عارمة بين طلبة الجامعات، ثم امتدت وبسرعة لتعبر عن نفسها في مظاهر كثيرة ومجالات عديدة بين جميع المسلمين في شتى أنحاء العالم.

وما تزال إيجابيات هذه الصحوة قائمة ملموسة، تنمو وتزداد مع تقادم الأيام والسنين؛ فقد فرضت نفسها على الأحداث العالمية برمتها، وأصبحت همّاً عالمياً، تُفرِح الأصدقاء وتؤرق الأعداء، وتُقام من أجلها المؤتمرات، وتُعقد بسببها اللقاءات، ما بين محب يسعى لإصلاحها وتقويمها، وكاره يخطط لوأدها وإجهاضها؛ فهي أكبر مشروع حضاري نهضوي في العالم المعاصر، وإن كانت ثمراتها ظاهرة ملموسة، إلا أنها حتماً ستؤتي أُكلها وسيتم جني ثمرها بصورة أكبر في القادم من الأجيال اللاحقة بإذن الله – تعالى –.

ولعل من أهم مظاهر ثمراتها ما نراه من العودة الجماعية لهذا الدين، حيث عمّت بفضل الله – تعالى – الصحوة ربوع العالم الإسلامي كله، بل تجاوزت إلى ربوع المعمورة، حتى أصبحت الكنائس تُشترى وتُحوّل إلى مساجد للعبادة.

وأصبحنا نرى ونسمع عن مكتسبات ومستجدات ما كان أحد يظنها قبل بضع سنوات، من انتشار الوسائل الدعوية التربوية المختلفة من فضائيات وصحف ومجلات إسلامية، أصبحت تتكاثر وتتوالد بكثرة العائدين إلى الله.

وهذه الأمة ما تزال حُبلى بالمبشرات، وهي قادرة بعون الله – تعالى – على النهوض والعودة من جديد إلى سابق عزها ومجدها، ولعل مما يُبشر بذلك:

- تتابع سقوط الشعارات والحركات والنقابات والأحزاب غير الإسلامية، وثقة النـاس في المقابـل بالأحزاب والمنظمات والحكومات الإسلامية.

- ظهور أطفال الحجارة في فلسطين، والعراق، والفلبين، وكشمير، والشيشان، وأفغانستان وغيرها في وسائل الإعلام المختلفة وهم يحملون المصحف في يد والبندقية في اليد الأخرى.

- صمود المقاومة العراقية واستمرار ثباتها، بل وتجدد قوتها شهراً بعد آخر وسنة بعد أخرى، ولـولا الخيانات وخذلان الأصحاب لما سقطت العراق ــ ابتداء ــ بهذه السهولة حتى وإن تفوقت أمريكـا في العدد والعدة، ولو تمكنت المقاومة من امتلاك (بعض) أنواع الأسلحة التي تمتلكها أمريكا لما بقـي أولئك الأعداء يوماً واحداً في بلدهم.

- ولعل من أهم المبشرات التي تدل دلالة واضحة على صحوة هذه الأمة، تنامي العمل الإسلامي في معظم دول العالم وقيامه بدور بارز في نشر رسالته، وهو الأمر الذي جعل حكومات العـالم تقـف أمامه بقوة للحد منه ومحاولة تجفيف منابعه بدعوى محاربة الإرهاب. {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُـوا نُـورَ اللَّـهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[الصف: ٨ - ٩].

والبشائر بحمد الله كثيرة، ولا يمكن الإحاطة بها أو حصر مظاهرها، وإنما هي أمثلة ونماذج تحيي الأمل وتدفع اليأس؛ فالأمة معطاء، والفأل مطلوب، والخير في هذه الأمة إلى قيام الساعة، والثقـة بـالله - تعالى - هي مقدمة النصر، والقوة المعنوية في كل أمة هي التي تدفع شبابها ورجالها إلى تحقيق المزيـد من الانتصارات الخالدة في كل زمان ومكان.

وما تمر به أمتنا اليوم من الضربات المتتابعة والصفعات الموجعة، ما هي إلا إرهاصات مبشرة لنهضـة الأمة وصحوتها من غفلتها، وعودتها مرة أخرى إلى دينها ومصدر عزها ومجدها. فإن الظلام كلمـا احلولك وادلهمّ فإن وراء الأفق نوراً، وفي حضن الكون شمس ساطعة، وكلما اشتد غلس الليل اقترب ميلاد النهار، وشدة ظلمة الليل دليل على قرب انبلاج الفجر.

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

الهزيمة في معركة أحد

ماجد بن عبد الرحمن الفريان

الخطبة الأولى:

أما بعد: اتقو الله حق التقوى.

معاشر المسلمين، لقد كانت أمتكم هذه قبل ألف وأربعمائة سنة في مطالع خطواتها لقيادة البشـرية فرباها الله بالابتلاء بالشدة في معركة أحد بعد أن ابتلاها بالرخاء في معركة بدر.

وابتلاها بالهزيمة المريرة في معركة أحد بعد أن ابتلاها بالنصر العجيب في معركة بدر.

لقد أصاب المسلمين القرحُ في معركة أحد وأصابهم القتل والهزيمة.

أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير، قتل منهم سبعون صحابياً وكسرت رباعية الرسول وشج وجهه وأرهقه المشركون وأثخن أصحابه بالجراح وقتل عمه حمزة بن عبد المطلب، وفر من فر من المسلمين، وأصيب النبي بغم عظيم أسفاً على فرار بعض أصحابه، وأصاب المسلمين غمٌ ملأ نفوسهم على ما كان منهم وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه، وهو ثابت دونهم، وهم عنه فارون.

وسمع النبي لأهل المدينة نحيباً وبكاء على قتلاهم، فقال: ((ولكن حمزة لا بواكي له)) وحزن النبي على أصحابه، وتمنى أن يكون استشهد معهم وقال: ((أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي نحص الجبل أي في سفحه)) رواه أحمد بسند حسن.

وكانت صورة المقاتلين الشجعان تمر بمخيلته كثيراً فيثني عليهم، ولما أعطى علي سيفه لفاطمة – رضي الله عنها – قائلاً: (هاك السيف فإنها قد شفتني) قال رسول الله: ((لئن كنت أجدت الضرب بسيفك فلقد أجاد سحل بن حنيف وأبو دجانة وثابت بن عاصم الأقلح، والحارث بن الصمة)) أخرجه الحاكم.

بل لقد بقي النبي يتذكر قتلى أحد ويحن إليهم طيلة عمره، فعن عقبة بن عامر قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: ((إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا)) قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –. رواه البخاري ومسلم.

وعند ابن أبي شيبة قال: (خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم).

معاشر المسلمين، لقد كانت آثار معركة أحد عظيمة على النبي حتى كان يتذكرها ويتذكر رجالها طيلة عمره، بل وفي آخر أيام حياته.

وكانت الآثار أبلغ ما تكون على صحابته الكرام الذين اهتزت نفوسهم وصدمت قلوبهم لهذا الحدث العظيم الذي لم يكن متوقعاً بعد النصر العجيب في معركة بدر، حتى قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم (أَنَّى هذا) وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟؟؟.

لقد كانوا يعلمون أن الله قد كتب على نفسه النصر لأوليائه، حملة رايته، وأصحاب عقيدته فكيف يصيبهم ما أصابهم؟؟؟

فأنزل الله – تعالى – لبيان ذلك كله وعلاجه وتقريره ستين آية مـن سـورة آل عمـران، آيـات مفصلات تبين حقيقة الإيمان ومقتضياته، وارتباط النصر أو الهزيمة بجزئياته التي قد لا يحسب لها كـثير من الناس بل من الدعاة حساب.

فيعرض دهشتهم لما صارت إليه الأمور، واستغرابهم لوقوع ما وقع بهم ـــ وهم المسلمون ـــ ومـن ثم يوقفهم على الأرض الصلبة المكشوفة؛ وهو يبين لهم أن ما أصابهم كان بفعلهم، وكان الثمرة الطبيعية لتصرفهم!..

{أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَـى كُـلِّ شَىء قَدِيرٌ }[آل عمران: ١٦٥].

إن سبب ما أصابكم هو المعصية والمخالفة التي حدثت من بعض الجيش لأمر الرسول.

وكان شؤم المعصية شاملاً للجميع حتى النبي كسرت رباعيته وشج وجهه الكريم مما يدل على أهميـة التحرز من المعاصي في انتصار المسلمين على أعدائهم.

{أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَـى كُـلِّ شَىء قَدِيرٌ}.

إن المسلمين الذين أصيبوا في أحدٍ بما أصيبوا؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجـراح والآلام التي عانوها في هذا اليوم المرير؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم، وهـم المسـلمون، وهـم يجاهدون في سبيل الله، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله.. المسلمون الذين أصيبوا بهـذه المصـيبة، كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها: أصابوا مثلها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش. وأصـابوا مثلها يوم أحد في مطلع المعركة، حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله وقبل أن يضـعفوا أمام إغراء الغنائم. وقبل أن تهجس في أنفسهم الخواطر التي لا ينبغي أن تهجس في ضمائر المؤمنين!.

ويذكرهم الله هذا كُلَّه، وهو يرد على دهشتهم المتسائلة، فيرجع ما حدث لهـم إلى سـببه المباشـر القريب: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} أنفسكم هي التي تخلخلـت وفشـلت وتنازعـت في الأمـر. وأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله، وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس. وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله وخطته للمعركة، فهذا الذي تسـتنكرون أن يقـع لكـم، وتقولون: كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم، بانطباق سنة الله عليكم، حين عرضتم أنفسـكم لهـا. فالإنسان حين يعرض نفسه لسنة الله لا بد أن تنطبق عليه، مسلمًا كان أو مشركًا، ولا تنخرقُ محاباة ًله.

معاشر المسلمين، و لم يقف تعقيب القرآن على هذه المعركة العظيمة عند حـدود المعركـة القتاليـة ودروسها الحية، بل تعرض بوضوح وتفصيل لأعمال إيمانية كثيرة، ذلك أن القـرآن كـان يعـالج المسلمين على أثر معركة لم تكن معركة في ميدان القتال وحده، إنما كانت معركة في القلوب أيضـاً

ومن ثم عرج على الرِّبا فنهى عنه، وعرج على الإنفاق في السراء والضراء فحض عليه، وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة، وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس، وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار، والتوبة وعدم الإصرار، فجعلها مناط الرضوان.

كما عرج على رحمة الله المتمثلة في رحمة الرسول ولين قلبه، وعلى مبدأ الشورى وتقريره في أحرج الأوقات، وعلى الأمانة التي تمنع الغلول، وعلى البذل والتحذير من البخل في نهاية ما نزل في التعقيب على هذه الغزوة من آيات.

عرج على كل هذه الأعمال الصالحة لأن العمل يعتبر مادة مهمة لإعداد الإيمان في نفوس المسلمين، و لم تكن هذه التوجيهات الشاملة بمعزل عن المعركة، فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية، حين تنتصر على نفسها ومعاصيها، فإذا تطهرت الأمة من الذنوب والتصقت بالله ورجعت إلى كنفه كان ذلك من عدَّها في المعركة و لم ينعزل ذلك عن الميدان.

معاشر المسلمين، وإذا كانت معصيةً واحدة هي المخالفة الجزئية لخطة المعركة ـــ كما وقع من الرماة في معركة أحد ـــ وتطلع بعض النفوس إلى الغنائم المادية، وتولي بعض الأفراد حين حمي الوطيس ـــ نذائرَ شؤم وأسبابَ هزيمة وخسارة لذلك الجيل الطاهر، جيل النبي وصحابته الكرام، فكيف تنتصر أمة الإسلام اليوم وهي تلقي كتاب ربها وراءها ظهرياً، وتعبد الدرهم والدينار، ولا يخطر على بالها جهاد قط حتى لو أُخذت مقدساتها وأخذت أراضيها واستنصرها إخوانها، وتستحل الربا والغلول، وتفعل ما تعرضت له هذه الآيات وما لم تتعرض له، ثم تستبطئ نصر الله الذي وعد به المؤمنين، وتحسب نفسها مؤمنة حق الإيمان لأنها تصدق بقلوبها وتقر بلسانها.

إن مقارنة يسيرة بين حال الأمة في يومها وبين حالها يوم هزمت في معركة أحد وجعلت الهزيمة بسبب معصيتها ومخالفتها لرسولها توحي بأن الأمة اليوم لم تكمل أسباب النصر والتمكين التي وردت في كتاب الله – تعالى – وإنما هي في غفلة معرضة، لم ترفع بالدين رأساً في كثير من بقاعها وأصقاعها وفي كثير من أحوالها وأهوالها.

نتذكر هزيمة المسلمين في معركة أحد في شهر شوال، ونبصر اليوم في نفس الشهر هزائم الأمة المنكرة هزائمها في ميدان النفوس والعقائد عندما استنفرت فلم تنفر، واستنصرت فلم تنصر، ودعيت إلى الله فلم تلق بالاً وشغلت بالدرهم والدينار وتقليد الكافرين وموالاتهم، وهذه والله هي الهزيمة المنكرة.

أما المجاهدون الذين نذروا للدين أنفسم فلم ينهزموا والذين قتلوا منهم لم يموتوا {بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا ءاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩، ١٧١]، لقد حرق أصحاب الأخدود في الأخاديد فكان ذلك فوزاً كبيراً لأنه نتيجة

جهاد وصبر على الثبات على دينهم الحق، فقال الله عنهم: {إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: ١١].

نعم يا إخوة الإسلام، إن المنهزم هو الذي هزم في دينه وعقيدته وولائه وبرائه، أما الذي انتصر في دينه وعقيدته وولائه وبرائه فهو الفائز فوزاً كبيراً ولو قتل وسحق ومحق، لأن الفوز هو فوز الآخرة، لا فوز الدنيا والله المستعان.

اللهم انصر من نصر الدين واخذل من خذل عبادك المؤمنين.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

المصدر: http://www.alminbar.net

بشائر الهزيمة الأمريكية آيات وتحديات (٢ ــ ٢)

د. عبد العزيز كامل

يخطئ كثيراً من يظن أن الصراع الدائر في العراق، شأن يخص العراقيين وحدهم، أو يخص المجاهدين هناك فقط، وهذا الخطأ يعود لأمرين جوهريين: أو لهما: أن المحتل الأمريكي الذي جاء إلى المنطقة لمطامع إمبراطورية بذرائع نشر الحرية والديمقراطية انطلاقاً من العراق؛ أراد تحويل هذا البلد إلى قاعدة عسكرية يمكن الوثوب منها إلى دول الجوار القريب والبعيد للهيمنة عليها بصورة أو بأخرى؛ فالخطر هنا لم يكن قاصراً على العراق، والأمر الثاني: أن المحتل الأمريكي أعلن مراراً على ألسنة ساسته بأن العراق أصبح الساحة الرئيسية لما تسميه أمريكا بالحرب (العالمية) على الإرهاب! وهو ما يعني أن تلك الحرب يمكن أن تنتقل إلى ساحات أخرى في بلدان أخرى، يقع عليها الاستهداف الخبيث بخطة إبليس المسماة بـ (الفوضى الخلاقة) التي يريد الأمريكيون تكرارها في كل بلد يريدون أن ينقلوا إليه مركز الحرب العالمية على الإسلام، المتسترة وراء الحرب على الإرهاب.

المجاهدون في العراق، أو ما يصطلح على تسميتهم في الإعلام العربي بـ (الجماعات المسلحة)، وما يصطلح في الإعلام الأمريكي والغربي على تسميتهم بالإرهابيين أو المتمردين، هؤلاء قاموا بقدر كبير من الواجب التاريخي في التصدي للهجمة الأمريكية، من الناحية العسكرية الميدانية على الوجه الذي فصلت الكلام عنه في الحلقة السابقة من هذا المقال، وهو الأمر الذي رأيت فيه ــ ولا أزال ــ معجزة تاريخية، وآية ربانية تمر بنا وأكثرنا عنها معرضون أو غافلون.

إلا أن تلك الإنجازات الضخمة والنتائج الجبارة التي ألجأت قوة عظمى بحجم الولايات المتحدة إلى التسليم «العملي» بالهزيمة باتخاذ قرار الانسحاب بعد أقل من ثلاث سنوات من الغزو تتهددها تحديات، يمكن أن تفرغ الإنجاز الضخم من محتواه، وتحوِّل النتائج المبهرة من صورها الإيجابية إلى

صور أخرى سلبية، وهذا المحظور الخطير؛ يمكن أن يقع ــ ونسأل الله ألا يقع ــ إذا حدثت محــاذير أساسية، يمكن اختصارها فيما يلي:

١ ــ إذا لجأ الأمريكيون إلى خيار (الأرض المحروقة) عند انسحابهم المخزي المهزوم، بإشعال حــرب أهلية، طائفية وعنصرية، يمكن أن تؤدي إلى إحراق ما تبقى من العراق، إذا استجاب لها أقــوام دون تقدير للظرف التاريخي الخطر، والمنعطف الحضاري الحساس.

٢ ــ إذا أصيب بعض المقاومين بداء نشوة النصر، فراحوا يسارعون إلى جمع الغنائم واقتســامها في شكل مواقف متعجلة، وقرارات منفردة من شأنها أن تمكن الأعداء من استعادة التــوازن، أو تمكِّــن بعض الفرقاء من اختطاف النصر، واقتطاف الثمار.

٣ ــ إذا استمرت الأنظمة في الدول العربية والإسلامية في خذلان العــراقيين والســير في ركــاب الأمريكيين، لينوبوا عنهم ــ بعد الانسحاب ــ في أداء مهمة أمريكا المستحيلة في العراق، وهي تقوية العملاء وحمايتهم وإضفاء الشرعية على حكومتهم.

٤ ــ إذا استمر أكثر الإسلاميين في رفع أيديهم عن التحدي الذي تواجهه الأمة في العراق عقائــدياً وحضارياً ــ حيث يتربص به العلمانيون ليسلخوه عن الإسلام، والفرس ليعزلــوه عــن العروبــة، وأمريكا والغرب واليهود ليردوه إلى عصور ما قبل الحضارة.

والضرورة تقضي ــ ونحن على مشارف الاستبشار بالنصر الجديد ــ ألا يسمح الغيورون على الأمة وحرماتها في العراق وخارجه؛ أن يتحول هذا الانتصار إلى انكسار؛ فكم في التاريخ من نجاحــات لم يحفظها أهلها فتحولت إلى إخفاقات؛ فما حدث في أُحُد، كُرِّرت صور عديدة منه في الشام وإفريقيــا والأندلس، وكُررت في عصرنا في حرب رمضان وحرب أفغانستان. ولكن أوضاع الأمة هذه المرة لا تحتمل مثل هذه التحولات الحادة، فالخصم ضخم، والمشوار طويل، والجراح كثيرة.

* لكن الفرصة سانحة:

نعم!...فهناك متسع من الحظ لأن تغالب الأمة هذه التحديات، وتمارس خيريتها مرة أخرى فتستنقذ العالم من غول المغول الجدد، والصليبيين المعاصرين في حملاتهم المتجهة ــ كما هي العادة في التــاريخ ــ نحو شرقنا العربي الإسلامي بغرض إنشاء إمبراطورية جديدة من إمبراطوريات الشر، وقد ساق الله بأقداره الحكيمة الأمور إلى تناغم عجيب بين أداء الفداء الأسطوري للمقاومين في العراق، مع الغبــاء الاستثنائي للتخطيط الأمريكي الذي يتخبط في ورطاته، ويتورط في تخطيطاته من مرحلة إلى مرحلــة وفق إستراتيجية هلامية، اتفقت عليها النخبة الحاكمة في أمريكا.

هذه الإستراتيجية، كانت تقوم ــ حتى الانتخابات الأمريكية الأخيرة ــ على أمور ثلاثــة أساســية وهي:

< البقاء في العراق حتى تحقيق مصالح أمريكا الاقتصادية وتأكيد هيبتها السياسية.

< الانتهاء من هزيمة من تسميهم أمريكا بـ (المتمردين) كجزء رئيس من الحرب العالمية على (الإرهاب).

< تثبيت حكومة موالية للأمريكان، يمكن من خلالها مواصلة تحقيق الأهداف الأمريكية، والادعاء بتحقيق الديمقراطية والحرية للشعب العراقي.

وهذه الإستراتيجية التي تبدو منطقية لدى الأمريكيين، هي في الحقيقة غير عملية؛ لأنها تستند إلى عدة افتراضات وهمية: الوهم الأول منها: هو افتراض أن الوجود الأمريكي سيظل ممكناً رغم فداحة الخسائر حتى تحقق أمريكا مصالحها وتؤكد هيبتها وتثبت عملائها، والوهم الثاني: هو توقع أن يوافق أحرار العراق على قرار أمريكا بالاستقرار في بلادهم دون أن يضاعف همّتهم لرد الصاع صاعين في وجه الغزاة ومن يشابههم، والوهم الثالث: هو افتراض سهولة القضاء على المقاومة عسكرياً، أو تدجينها والتغرير بها سياسياً، والوهم الرابع: هو افتراض وجود القابلية للممارسة الديمقراطية في البنية الطائفية والعنصرية العراقية، التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تقدم النموذج المحتذى ـــ كما يحلم الأمريكان ـــ في نشر ما يسمى بقيم الحرية والتعددية وقبول الآخر؛ فالطائفية والعنصرية في العراق جبرية قهرية تاريخية، لا يحيّدها أو يحد من أثرها إلا التوازن بين الأقوياء، ولا يزيل أو ضارها إلا أخوّة الدين.

وعليه، فإن إستراتيجية أمريكا للانتصار في العراق هي إستراتيجية مفلسة سلفاً، لاستنادها إلى تلك الأوهام والافتراضات الخاطئة، وقد بدت أمام العالم مؤشرات إقبال الولايات المتحدة على مواجهة أسوأ النتائج المترتبة على انهيار إستراتيجيتها في العراق، وهذا وإن كان يحمل في طياته من المبشرات والتطمينات ما يحمل، وبخاصة فيما يتعلق بتسريع وتيرة الانسحاب المهزوم، إلا أنه يشير في الوقت نفسه إلى الكثير من المحاذير؛ لأن أمريكا التي ستواجه أسوأ النتائج، لا شك أنها وعملاءها سيُقْدِمون على أسوأ الحيل وأنذل التوجهات والإجراءات، للتغطية على النتائج الكارثية لهزيمتهم التاريخية في العراق.

والمتوقع أن يترجم هذا إلى عدد من التحديات الجديدة التي ستتوجب مواجهتها على الصعيد العراقي الخاص، والعربي الإسلامي العام.

ويمكننا أن نصنف هذه التحديات إلى مستويات عديدة، باعتبار أن تحديات ما بعد الانسحاب، لن تأتي من أمريكا وحدها، وإنما من أطراف عديدة، يمكن تفصيلها على الوجه التالي:

أولاً: أمريكا وخيارات الانتقام:

< قد تلجأ الولايات المتحدة إلى سيناريو اليابان بدلاً من سيناريو فيتنام؛ ففي مواجهة الهزيمة في فيتنام اكتفت أمريكا بالانسحاب الذليل دون ضجة أو انتقام، بينما أفرطت في الانتقام في حالة اليابان حتى استعملت القنابل النووية، كي تستعيد هيبتها وتفرض احترامها على من تجرؤوا بالهجوم عليها في

سيناريو (هاربر). وفي حالة الهزيمة في العراق؛ لن تلجأ الولايات المتحدة إلى مثل هذه الخيارات المجنونة ــ في اعتقادي ــ إلا في حالة واحدة، وهي الحالة التي يمكن أن يُعلن فيها عن إقامة دولة إسلامية سنية سلفية جهادية بعد الانسحاب، تصلح لأن تكون قاعدة امتداد إسلامي عالمي جديد، فعندها سيكون هذا بمثابة إعلان حرب على أمريكا والغرب، ولن تكون المعالجة هنا تقليدية عقلانية، بل ستكون شمشونية جنونية.

< اعتماد مبدأ (الفوضى الخلاّقة) قد يكون خيار الأمريكيين في آخر الحرب كما كان خيارهم في أولها؛ فالولايات المتحدة التي تعمدت فك كل الأربطة في جسم الدولة العراقية بُعَيْد الغزو، لتغرقها في فوضى يمكن النفاذ فيها إلى كل الأهداف الأمريكية؛سوف تلجأ إلى هذا الخيار إذا رأت فيه تحقيقاً لشيء من مصالحها، ضاربة عرض الحائط بمبادئ الديمقراطية والإصلاح والتعمير. وخيار (الفوضى الخلاّقة) يمكن تنفيذه بتسعير أتون الحرب الأهلية، لا بين الشيعة والسُّنة فحسب بل بين العرب والأكراد، وبين العلمانيين والإسلاميين، بل بين الإسلاميين الذي يُدعون (معتدلين) وإخوانهم الموصوفين بـ (المتشددين)، والحرب الأهلية يمكن أن تندلع إذا تركت أمريكا أرض العراق وهي واقعة تحت سيطرة الشيعة والأكراد وحدهم دون السنة العرب، أو تحت سيطرة العلمانيين دون بقية طوائف المتدينين، أو إذا تركت العراق بدون حكومة أصلاً.

< سيناريو إشعال الحرب الأهلية، قد يدفع باتجاه المخطط القديم بغرض التقسيم، حيث سيطالب الشيعة بجنوب العراق ــ وفقاً لترتيبات ما يسمى بـ (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق) وسينفصل الأكراد (رسمياً) بالشمال، بعد أن استقلوا به عملياً منذ فرض الحظر الجوي على شمال العراق بعد حرب الكويت؛ وهنا قد يضطر أهل السنة إلى وضع أيديهم على ما يبقى من الكعكة العراقية في الوسط، أو ما يبقى من ذلك الوسط، بعد أن يكون الشيعة قد فصلوه وفصَّلوا أجزاء منه لصالح الجنوب الشيعي.

< الأمريكيون سيلجؤون حتماً إلى إعمال مبدأ (فرق تسد) بين الفصائل الجهادية السنية العراقية وبين العناصر المشتغلة بالسياسة من سنة العراق. أما تفريقها بين فصائل المجاهدين أنفسهم، فقد بدأته أمريكا بفتح قنوات اتصال مع المقربين من بعض الفصائل الجهادية، مع الترويج إعلامياً للتفريق بين ما يسمى (المقاومة الشريفة) و (المقاومة غير الشريفة)! والتفريق بين (الراديكاليين) و (الواقعيين) من السياسيين، وبين (المعتدلين) و (المتشددين) من الإسلاميين، وغير ذلك من التقسيمات الخبيثة التي بدأت أمريكا في استغلالها أسوأ استغلال.

< ستغير الولايات المتحدة في ولاءاتها بحسب مصالحها؛ فهي وإن كانت قد استهلكت الورقة الدينية الشيعية في معظم ما مضى من زمن الاحتلال، إلا أنها قد تُحل الشيعة العلمانيين محل الشيعة المتدينين، ليكون رهانها على تغيير البنية الثقافية للشعب العراقي أوقع وأقرب، والأخطر من ذلك، أن تضم إلى

ذلك شرائح من السنة المتميعين أو العلمانيين فتجعل بعضهم رؤوساً في نظام الحكم تنطح بهم المقاومة التي قد تفاجأ ــ كما كان عهد الاستعمار دائماً ــ بخلفاء الاستعمار وحلفائه، الذين لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة.

< ستضطر الولايات المتحدة إلى إنهاء حملتها العسكرية في يوم من الأيام القريبة المنظورة ــ بإذن الله ــ تحت وقع الضربات الجهادية، ولكن حرب الدمار والاستعمار، كانت تعقبها دائماً حرب الأفكار، وقد صار مصطلح «حرب الأفكار» مستقراً في إستراتيجية المواجهة الأمريكية للمد الإسلامي، وهو وإن كان لم يفعَّل إلى الآن بالصورة المخطط لها، إلا أن المتوقع أن يشهد العراق، وتشهد الكثير من دول العالم الإسلامي، هجمة ثقافية وإعلامية تحاول يائسة تشويه صورة المنتصر النبيل وتقديمه على أنه عدو للحضارة، وطارد للتقدم، وعاشق للتخلف. ولن يألو المنافقون جهداً في تقديم وقود تلك الحرب، من خلال مراكز أبحاثهم ووسائل إعلامهم ومنابر أفكارهم المقروءة والمسموعة والمشاهدة، لتكون الحرب هذه المرة ليست موجهة فقط إلى المفردات الشاذة التي ذللوها على ألسنة الجهلة من العامة، كالإرهاب والتطرف والأصولية، بل ستوجه إلى الإسلام نفسه تحت مسمى مواجهة السلفية والوهابية والعقيدة السنية.

إن هذه التحديات الجسام، تحتاج إلى مئات العقول المفكرة، والقلوب النيرة والكفاءات القديرة كي تنتدب لمواجهة ما قد تخبئه الأيام لا على مستوى العراقيين فحسب، بل على مستوى الأمة كلها بالأقرب منها فالأقرب؛ فمن غير المقبول أن نكون شركاء في إجهاض النصر وتبخر الحلم وفقدان الفرصة، بترك هذه التحديات تمضي لغايتها. وبما أن العثور على الحلول لا يُنال بمجرد الآمال، فإن ذوي الرأي وأصحاب الفقه وأرباب التخصصات الدينية والسياسية والإستراتيجية والإعلامية في الأمة مدعوون اليوم بإلحاح إلى تقديم المستطاع من الرأي والمشورة، والتسديد والتقريب والنصيحة، إلى أصحاب القرار الإسلامي في العراق باعتبارهم نواباً عن الأمة في مواجهة الملمات التي تحيق بجزء من جسدها على أرض الرافدين، علماً بأن عاماً أو أكثر قد يمضي حتى ينتهي الاحتلال، وتبدأ مشكلات ما بعد الاحتلال.

< هناك معضلات معقدة، لا يصلح لها إلا أهلها من أصحاب التخصص في الفتاوى الفقهية أو التنظيرات العسكرية والإستراتيجية، ولكن هناك عمومات، تحكمها المبادئ المستقرة في الفهم الإسلامي قد تضيع ــ مع بداهتها ــ في زحمة التفصيلات والتفريعات وهي تحتاج فقط إلى حسن التقدير، مع حسن التقديم.

ولعل ما يتبادر إلى الذهن منها ــ فيما يتعلق بالتحديات على المستوى الأمريكي ــ ما يلي:

< يمكن تضييق خيارات أمريكا في الانتقام، بشد اللُّحمة، وتقريب الهوة بين فصائل المجاهدين من جهة، وبين عموم الشعب من جهة أخرى حتى لا تتمكن أمريكا وأولياؤها من عزل المقاومة

وتصويرها بصورة الخروج عن الصف العراقي. والبداية في توحيد الصف العراقي ــ ولو في حدها الأدنى ــ لن تكون إلا من المجاهدين؛ فهم الأقدر على مجاهدة شياطين الفرقة وغربان البين، والشعب سيكون تبعاً لهم إذا تحدت كلمتهم، وبقية الأمة ستكون مع خيارهم، وعندها سيظهر الانتقام الأمريكي ــ إذا حدث ــ على أنه انتقام من الشعب، يمكن أن يضاف إلى سجلات الإجرام بانتظار إجراء مماثل من المعاملة بالمثل.

> هناك متسع من الوقت لتفويت فرصة (الفوضى الخلاَّقة) التي قد تترجم إلى حرب أهلية؛ وذلك باجتماع الرؤوس الكبيرة من سنة العراق عرباً وأكراداً على إستراتيجية موحدة لما بعد الانسحاب ولو في خطوطها العريضة، استباقاً للتحرش الأمريكي الذي يراهن على إشعال المواقف وإذكاء الفتنة، وكذلك فإن الاتفاق على آلية للتحاور والتفاهم من الآن، أمر لا بد منه ديناً وعقلاً؛ لأن الشح المطاع، والهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، قد يغرق السفينة بركابها وربانها.

> خطر التقسيم لا يمكن دفعه إلا بمدافعة الواقفين وراءه؛ فلو علم كل ساعٍ في التقسيم أن ثمن سعيه سيكون وبالاً عليه لرجع وارتدع؛ فكم من مَرَدَة ردهم المخاوف والحسابات الدقيقة للمستقبل، عن أحلام التفرد والتمرد. قال الله ــ - تعالى -ــ: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠] ثم قال بعدها: {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: ٦٠] وهم المنافقون الممالئون للكافرين. ومن الخير أن يتواكب النصح مع الردع، بإقناع الفرقاء بأن العراق الموحد قوة للجميع؛ وتمزيقه إضعاف للجميع، فدعاة التقسيم لن يقفوا عن حد ثلاث دويلات للأكراد والسنة والشيعة، بل قد يسعون إلى مزيد من التفتيت حتى يصل الأمر ــ لا قدر الله ــ إلى أن نسمع عن الإمارات العراقية «المتحدة»، مع الولايات الأمريكية المتحدة!!

> حرب الأفكار الأمريكية، لا بد من الإعداد لمواجهتها من الآن بأفكار إسلامية، وهذا الواجب ألصق بخارج العراق منه بداخله؛ فالمستهدَفون بهذه الحرب ليسوا العراقيين المشغولين في المعركة فقط، لكن المستهدَف هو الأمة كلها، ولهذا يتكاثر من الآن نشاط المراكز البحثية المشبوهة، والقنوات الفضائية الفوضوية لخوض غمار تلك الحرب التي يتوقع أن تستعر أكثر بعد الانسحاب، لإلهاء الناس عن فضيحة الهزيمة التاريخية لأمريكا. من واجب الباحثين والإعلاميين الإسلاميين، أن يرصدوا فعاليات تلك الحرب ــ حرب الأفكار ــ ليتمكنوا من صدها قبل أن تؤتي ثمارها المرة؛ فهذا واجب إسلامي عام، لا يحتاج إلى ساحات تدريب أو ميادين رماية.

ثانياً: إيران واللعب بالنيران:

هيام الفرس بعبادة النار قديماً، قد ترك آثاره فيما يبدو على تكوين مَنْ لم يتطهر بالكامل من أدران تلك النيران الفارسية الجاهلية الماضية؛ فالثورة والثأر والتثوير، كلها مفردات جاهزة للإنتاج والتصدير، في ظل معتقدات التشيع الفارسي التي حولت هذه السلوكيات الدخيلة إلى قربى إلى الله،

وزلفى إلى أهل بيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ، فانضمام الطبيعة الفارسية إلى العقيدة الشيعية، جعل مذهبهم ناراً على نار بدلاً من أن يكون نوراً على نور.

وقد أخرجت دوافع الثارات التاريخية القديمة أصحاب القرار في إيران عن كثير من فرضيات العقل والمنطق، فضلاً عن مقتضيات الدين والمصلحة، فراحوا يُحنون ظهورهم أمام العدو الكافر الظاهر ليمر من فوقها إلى اقتحام حرمات المسلمين ومقدراتهم في كل من أفغانستان والعراق، وسوف يكتب التاريخ بحروف سوداء تلك المواقف النكراء التي كرر بها هؤلاء سلوك أشياعهم وأجدادهم من أمثال نصير «الدين» الطوسي، ومؤيد «الدين» العلقمي الذين جعلوا من الدين ستاراً يخفي التآمر مع أعداء الدين.

وإذا كنا لا نزال نذكر مواقفهم في الموالاة الصريحة لـ «الشيطان الأكبر» قبل وأثناء وبعد غزو أفغانستان والعراق، فإننا ــ وبكل مرارة ــ نتوقع الأسوأ بعد أن تمضي سحابة الاحتلال السوداء الهوجاء.

< إذا كانت القوات الأمريكية وشريكتها البريطانية، وغيرهما من الشركاء والحلفاء يفكرون من اليوم في كيفية الهروب الآمن من العراق؛ فالقوات الإيرانية الأجنبية ــ تحت رايات وطنية ــ لا بد أنها تستعد من اليوم للحلول مكانها، والحؤول دون رجوعها، لتستفرد هي بالقصعة العراقية؛ وقد تمهد الأمر من الآن لإيران بعدما تمكن شيعة العراق الموالين لها من السيطرة على معظم كيان الجيش والشرطة. ولا نظن أن هذا الإنجاز الذي توافر للشيعة في كل من إيران والعراق، سيسهل التفريط فيه عند عموم الطائفة المتطلعة إلى استكمال الهلال (الخضيب) من أفغانستان إلى لبنان، مروراً بإمارات الخليج والعراق وسورية، ولهذا فإن ذلك يمثل تحدياً عظيماً من تحديات ما بعد الهزيمة الأميركية، ليس لأهل السنة في العراق فحسب، بل لأهل السنة في العالم أجمع، هؤلاء الذين لم يجمعهم ــ إلى الآن ــ إلا التفرق والتنازع، دون ما مرجعية علمية موحدة، أو قيادة سياسية واحدة.

< قد تسارع إيران في مساندة خيار التقسيم كخطوة أولى، لتضمن مشايعة الجنوب الشيعي لها، وانضواءه تحت لوائها، وجيش الغدر المسمى بـ (فيلق بدر) جاهز من الآن ليكون الجهاز العسكري لدولة المجلس الأعلى «للثورة الإسلامية» في العراق، بقيادة عبد العزيز الحكيم، وحزب الدعوة، جاهز لإدارة الجهاز السياسي فيها.

وسيناريو التغلغل الشيعي على الصعيد السياسي أو العسكري، قد أسس له منذ البداية خميني العراق «الإيراني» السيستاني، فهو الذي دفع بالشيعة إلى الانخراط بقوة في العمل السياسي والعسكري في ظل الاحتلال الذي لن يقتصر في المستقبل ــ على ما يبدو ــ على جزر الإمارات العربية، بل يريد الامتداد للسيطرة على بعض العواصم العربية، بالتواطؤ مع الأمريكيين حيناً، وبالانفراد عنهم أحياناً.

< اختراق إيران للعراق، والذي سيكون ــ إن وقع ــ اختراقاً للخليج كله، وسوف ينعش ثـورات التشيع في أكثر دول المنطقة؛ حيث سنسمع عن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في أكثر من عاصمة عربية، بل وغير عربية، وهو ما سيؤسس ــ إذا سارت الأمور على حسب مخططات بروتوكـولات حكماء قم إلى مدٍّ رافضي خطير، يطال العقيدة والدين، بعدما يهدد الأوطان والمقدرات؛ وهنا قـد تقع الشعوب الإسلامية السنية بين فكي كماشة الفرس والروم!

وعلى غرار الجهد المطلوب لمواجهة التحديات الأمريكية، تتأكد الحاجة لجهود مضـاعفة لمواجهـة التحديات الإيرانية، ولعل من المعالم البارزة في هذا الصدد أن يجري استحضار الحقائق التالية:

١ ــ ليس كل الشيعة من أهل القناعات الدينية؛ فهناك شرائح منهم علمانية، ولكن الديني والعلماني في إيران، مشبع بروح فارسية، تستبطن العداء للعرب، وبخاصة السنة منهم، ولذلك فلن يكون لشيعة العراق العرب مهما توهموا كبير وزن في إدارة شؤون العراق إذا ما تمكنت إيران هناك، ولهـذا فـإن الحاجة ماسة إلى شيء من التأليف وتقريب الآراء بين العرب السنة والعرب الشيعة في العراق، لا على خلفية عنصرية ضد الفرس؛ فذلك ليس من الإسلام، بل على خلفية المصلحة العامة التي يحتاج إليهـا الطرفان في مواجهة التغول الإيراني القادم.

والذي نعرفه أن شيعة العراق من غير الفرس، أقل خبثاً وأدنى قرباً من السنة هناك، بفعـل عوامـل التعايش والتجاور والمصاهرة، وبخاصة العامة منهم؛ حيث يعتقد أنه يسهل كسـبهم أو تحييـدهم إذا افتضح استغلال الإيرانيين لهم.

٢ ــ لأن شيعة العراق منهم المتدينون المتشددون، ومنهم العلمانيون والليبراليون؛ فإن رهان أمريكـا منذ البداية كان على الشيعة العلمانيين، وبخاصة الليبراليين الذين رأت أنها يمكنها من خلال تمكينـهم أن تدعي النجاح في إحلال قيم الحرية والديمقراطية في العراق، كنموذج أول في الشرق الأوسط.

ومن غير المستبعد أن تتدخل أمريكا بشكل ما، لإفساد الطبخة التي أنضجها الدينيون المتشـددون في الانتخابات الأخيرة، لتعيد العلمانيين الليبراليين من أمثال العلاوي والجلبي إلى سُدَّة الحكم، وهـذا ــ إن وقع ــ سيكون مقدمة صِدام مصالح آخر بين أمريكا وإيران على أرض العراق، وبوسع السنة أن يستفيدوا من هذا التناقض، وهم وحدهم الأقدر على اغتنام هذه الفرص.

٣ ــ من الممكن أن يجد شيعة العراق العرب أنفسهم في خيار يدفعهم إلى التقرب من جديد إلى أهل السنة؛ وذلك عندما يكتشفون حقيقة الطمع الإيراني والجشع الأمريكي، وهنا... فعلى سنة العراق ــ وبخاصة العلماء والدعاة ــ أن يحسنوا استثمار هذه الفرصة إذا سنحت، من خلال إعلان المبـادرات المشتركة لحقن الدماء وإيقاف الشحناء، والانتقال ــ أو بالأحرى ــ الرجوع إلى صـيغة التعـايش التاريخية المعروفة عن شعب العراق حتى يهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولا شك أن هذا الخيار قد يكون فيه الخير للطرفين؛ فالسنة ليسوا في حاجـــة إلى تكـــثير الأعـــداء، والشيعة ليسوا في حاجة إلى مزيد من الاستعداء لقوم بدا أنهم أولو بأس شديد إذا جاســـوا خـــلال الديار.

ثالثاً: العراق: عراك ما بعد المعركة:

< معركة العراقيين مع الأمريكيين مع شراستها وفظاعتها، ستبدو بعد انتهائها بســـيطة في تركيبـــها المنطقي، سهلة في حسابات الخسائر والمكاسب؛ فهذا صائل معتدٍ، جاء للقتال مـــن أجـــل مطامحـــه ومصالحه الخارجية، فلما تهددت بسبب ذلك مصالحه الخارجية والداخلية، انزوى ورجع القهقـــرى، والطرف الآخر أبناء وطن معتدىً عليه، انتدب شرفاؤه للدفاع عنه مع من فاؤوا إليهم من مهاجرين و أنصار، تسابقوا إلى الفداء بالأرواح والأموال والدماء.

لكن الأمر سيختلف، والمنطق سيتعقد، والحسابات سترتبك، إذا ما تغيرت معالم المواجهة في الميـــدان العراقي بعد الانسحاب الأمريكي، سواء بفعل الأمريكيين الراغبين في إغراق أو إحراق العراق مـــن بعدهم، أو بفعل الفرقاء المتشاكسين الذين سيحاول كل منهم أن يؤسس لواقع جديد، يخدم الشريحة التابعة له، ولهذا فإن ألواناً جديدة من التحديات على الساحة العراقية، ربما يتـــوالى ظهورهـــا علـــى مسرح الأحداث هناك، وهو ما يستدعي إعادة النظر في بعض الاجتهادات وربمـــا الاســـتراتيجيات لمواجهة هذه المتغيرات بما يحفظ ما تحقق من مكاسب على صعيد المواجهة الكبرى مع أمريكا.

ومن التحديات المتوقع بروزها على المستوى العراقي ما يأتي:

< سيرحل الأمريكيون دون أن تكون مشكلات العراق قد حُلَّت، والمرجح أن يستمر التوتر وربمـــا القتال لإعادة رسم الخريطة الجديدة، والتحدي الذي سيواجه أهل السنة بعد الانسحاب، سيكون ـــ على الأرجح ـــ متعدد الأوجه، فمن ناحية سيكتشف أهل السنة أنهم الحلقة الأضعف على الســـاحة السياسية، بينما تكمن قوتهم في ميدان القدرة القتالية، وهي لا تكفي على كل حال لبناء مستقبل آمن للأجيال، ومن ناحية أخرى فإن أمور القتال نفسها تميل الطبيعة البشرية إلى النفور من طول التضحية فيها بلا أفق منظور، ومن ناحية ثالثة فإن طبيعة القتال بعد انسحاب الأمريكيين ســـتتغير، وســـوف تفقد الكثير من شرعيتها في نظر الناس داخل العراق وخارجه، حتى ولو كانت ضد الوكلاء الرسميين للأمريكيين.

< هناك ندرة ملحوظة في المرجعيات العلمية الدينية عند أهل السنة في العراق في مقابل فائض كـــبير في المرجعيات الدينية الشيعية داخل العراق وخارجه، ومع تداعيات الأحداث بعد الانســـحاب، وفي ظل تغير الأوراق سيحتاج العراقيون السنة إلى من يقودهم في الملمات، ويفتي لهـــم في المعضـــلات، ويتكلم باسمهم جميعاً كلاماً مفهوماً ومسؤولاً، وهذا تحدٍّ ماثلٌ للعيان من الآن، ويتفرع عنه تحد آخر، وهي احتمالات انتشار أفكار الغلو والابتداع، سواء من جهة التشدد الخارجي، أو التسيب الإرجائي

أو لوثات التصوف أو التشيع، وكلها اتجاهات يمكن أن تنتعش وتنتشر في بيئة فكرية كبيئة العــراق، التي لا تزال بكراً عذراء على الساحة السنية، بينما هي ثيب شمطاء على الساحة الشيعية، ولا شك أن الفوضى وعدم الاستقرار من الناحية السياسية، كثيراً ما ينعكس على النواحي الفكرية.

< هناك تضخم في الخبرة القتالية والعسكرية الميدانية على حساب الخبرات السياسية والاستراتيجية، والمشروع السياسي للمجاهدين لا يزال غير واضح المعالم، وإذا وضح عند بعضٍ فإن بعضاً آخر قد لا يوافق عليه، والخطورة هنا أن ينعكس هذا الضعف في الخبرة على التعاطي مع الأحـــداث، فتنطلـــق المبادرات، والاجتهادات الشخصية في النوازل الكبرى، دون الرجوع إلى أهل الشـــأن في مجـــالات الاجتهاد الشرعي والسياسي والاستراتيجي والإعلامي والاقتصادي.

< هزيمة أمريكا في العراق، لا تعني تراجعها عن أطماعها فيه أو في بقية بلدان العـــالم الإســـلامي؛ فالخطط يمكن أن تتغير، بل قد تلجأ أمريكا إلى تعويض فشلها في العراق باقتحام ســـاحات أخـــرى، لاختلاس نجاحات رخيصة في أماكن ضعيفة، ولهذا لا ينبغي النظر إلى هزيمتها في العراق على أنها نهاية المطاف.

< قد تنجح أمريكا في جلب قوات عربية وإسلامية، لتكون المعركة في العراق عربية عربية، وهـــذا سيناريو خطير، لا بد من التنبه له والاستعداد لإبطاله، وخاصة إذا أخذ شكل قوات لحفظ السلام أو إعادة النظام أو غير ذلك من الشعارات الخداعة التي يمكن أن تحقن بها أمريكا دماء جنودها، لتريـــق دماء المسلمين بعضهم ببعض.

< الساحة في العراق مهيأة لتفحش وتوحش ظاهرة العملاء الخونة، سراق الجهود وقطَّاف الثمـــرات وخدم الأعداء، وهؤلاء يقتضي الأمر إحكام أمر التعامل معهم فقهياً أولاً ثم عملياً، حـــتى لا تتكـــرر مصائبهم التي ألحقوها بالجهاد في فلسطين، عندما تحولوا إلى سرطان خبيث بيد الصهاينة.

< إذا كان المشروع السياسي أمراً مهماً في مواكبة المشروع الجهادي، فإن هناك مشـــاريع أخـــرى دعوية وتنموية واجتماعية وإعلامية، سيكون تفعيلها وتقويتها إسناداً مستقبلياً لأهل السنة في العراق واستمراراً لدورهم المركزي في إفشال مخططات الهيمنة والإفساد من الداخل والخارج، وهذا الأمـــر بحد ذاته ينشئ دوراً لكل راغب في الاستجابة لواجب النصرة، وكل مشتاق للشراكة في صنع النصر، من داخل العراق أو من خارجه؛ فمن غير المقبول أن يتداعى يهود العالم لمساندة إخوانهم المغتصبين في فلسطين، ويتخاذل أهل الإسلام عن نصرة من ينافحون عن عموم المسلمين {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: ٧٣].

< ومما يخشى منه أيضاً، أن يقفز إلى عجلة توجيه السفينة قدامى القوميين أو البعثيين أو اليســـاريين، ليزايدوا على الإسلاميين.

< استمرار عمليات الجهاد ستكتنفها مصاعب جمة، إذا أُلجئ الأمريكيون إلى التحصن خارج المدن، في انسحاب شكلي لا حقيقي، ومع أن هذا في حد ذاته لا ينفي حقيقة الهزيمة الأمريكية، إلا أنه سيقلل من شأن الانتصار العراقي؛ حيث سيظل العراق يبدو في حكم الاحتلال مع إظهار مظاهر الاستقلال، وستزداد مهمة المجاهدين صعوبة إذا ما صدَّر لهم الأمريكيون عملاءهم ووكلاءهم المتسمين بأسماء المسلمين، وسيكون الأمر أصعب وأصعب، إذا كان الوكلاء والعملاء، من المنسوبين لأهل السنة من داخل العراق أو خارجه؛ حيث سيسهل على الأمريكيين أن يصوروا النصر العراقي بصورة الهزيمة التي أثمرت قتالاً بين أبناء الوطن الواحد والمصير الواحد.

< قد يلجأ الأمريكيون إلى حيلة اللعب بورقة الإسلام المعتدل في مواجهة الإسلام المتشدد، وهي استراتجية يبدو أن الولايات المتحدة ماضية في تشجيعها في عدد من البلدان العربية والإسلامية، وفي حالة العراق، فإن هذا الاعتدال سيبدو أمام المجاهدين في صورة الانتقال من نهج إلى نهج، بل ربما من ملة إلى ملة، وهو ما قد يفتح أبواباً أخرى من الفتن.

* المواجهة لا الهروب:

عوَّدنا المجاهدون من أهل السنة في العراق، على الإقدام لا الإحجام، وعلى المجابهة لا الهروب من المواجهة، وأملنا أن تثبت الأقدام في مهمة الإقدام على مواجهة تلك التحديات قبل فوات الأوان؛ فالهروب منها أو تأجيلها لن يقلل من أهميتها، ولن ينفي خطورتها، على أنَّا لا يمكن أن نحمِّل المجاهدين، أو حتى عموم العراقيين مسؤولية المواجهة وحدهم لكل تلك التحديات؛ فالنازلة ليست خاصة بهم وحدهم، كما أسلفت في صدر المقال، وإنما هي عامة لكافة الأمة، وهي ينبغي أن توزع على الجميع ــ أعني التحديات ــ في صورة واجبات كفائية وعينية وفروض وقتية ومستقبلية، كل بحسب قدرته واستطاعته، مع تأكيد التذكير بأن المجاهدين الأبرار، قد قاموا عن الأمة، بما أزاح عن مجموعها الإثم وإزالة العار، فلا أقل من أن تقوم بقية صلحاء الأمة بقسطهم من الواجبات في مجابهة التحديات.

فعلى كل ذي رأي وخبرة واختصاص، من أصحاب الأقلام أو المنابر أو القدرات العلمية أو البحثية أو المالية، في كل ميدان يحتاج إليه أن يسارعوا للقيام بواجب النصرة، والمشاركة في صنع النصر، ولن يعدم حريص الوسيلة لإيصال النصيحة وتقديم العون وتيسير المنفعة، لمن يمسكون الآن بدفة تغيير التاريخ وتصحيح المسار.

ومع الاعتراف بأن التحديات المقبلة أكبر من قدرات قطاع إسلامي واحد في داخل العراق أو خارجه، لتفرعها وتنوعها، فإن ذلك لا ينبغي أن يصد عن التقريب والتسديد بحسب الاستطاعة، ولو كانت البداية ــ كما يحدث الآن ــ محاولة رصد أهم تلك التحديات، والبدء في دراستها، وتمييز

الحقيقي منها والوهمي، والنظري والعملي، ثم وضع الأسس العريضة لمواجهتها، بتضافر الجهود بين المختصين والمجربين والمراقبين.

وهذه بعض المعالم العامة في هذا الموضوع:

> لا بد من السعي المكثف لبناء برنامج سياسي لأهل السنة، يراعي تعدد الاجتهادات والسيناريوهات واختلاف الخيارات؛ فالقتال لن يستمر إلى الأبد في العراق، واستغلال مدة ما قبل الانسحاب للوصول إلى صورة واضحة في ذلك، أوْلى من ضرب الأخماس في الأسداس عندما تخلو العراق من الأمريكيين، وتقع فريسة بين خلفائهم أو عملائهم الذين لا بد أنهم قد أعدوا عدتهم ورتبوا صفوفهم منذ زمن.

> لا مناص من الاجتماع على كلمة سواء بين فصائل أهل السنة، سواء المجاهدون منهم أو السياسيون، فكل منها درع للآخر ورِدء، ولن يتعوض الضعف السياسي الظاهر في أهل السنة إلا بذلك، وكثير من مسائل الاختلاف بينهم ـ على ما نرى ـ هي مسائل اجتهادية، والاجتماع ـ ولو على أمر مرجوح ـ خير من الافتراق أو التنازع.

> وضع أسس شرعية محكمة، وقواعد قتالية معلنة، من شأنه أن يخفف من هاجس فقدان أو نقصان مشروعية القتال بعد الانسحاب، إذا دعت الضرورة إليه، فلا بد من التحديد الواضح للشرائح التي يمكن أن تكون هدفاً للجهاد من الخونة والمرتدين والجواسيس ونحوهم، مع بذل أقصى ما يمكن من الخدمة الإعلامية لهذه الأسس القتالية، بما يزيل الغموض ويدفع الظنون عن غايات الجهاد السامية.

> المرجعية العلمية ـ بفهم أهل السنة ـ قضية بنائية في غاية الأهمية لا تقل في أهميتها عن بناء القوى السياسية والعسكرية {فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ} [التوبة: ١٢٢] وندرة المرجعيات العلمية المشهورة في العراق تحتاج إلى معالجة لا يكفيها المدى القريب، ولكن الضرورة تقضي بألا تؤجل وظائف هذه المرجعية حتى وجودها؛ فمن خارج العراق يمكن أن تدرس كبار المسائل، وتبحث دقائق النوازل بالتواصل العلمي الذي تيسرت أسبابه في عصرنا، وإن كان هذا لا يغني عن أن تنتدب طائفة من أهل السنة العراقيين لتعويض هذا النقص، لمعادلته بما هو حادث مع الطوائف الأخرى.

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

الهزيمة والخزي مصير الخائنين

لقد طبع اليهود على أسوأ الأخلاق، ويأتي على رأسها الغدر والخيانة، فلم يُعرف عنهم عبر تاريخهم الطويل التزام بعهد وميثاق، حتى مع أنبيائهم!!

ولقد عاهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – يهود المدينة وتوافقوا على بنود سجلت بوثيقة تعد أول دستور للدولة الإسلامية، ولكنهم سرعان ما غدروا وخانوا فنقضوا عهودهم، وكان يهود بني قينقاع أول من نقض العهد، وكانوا أكثر اليهود قوة وعدة، وكانت منازلهم أقرب المنازل للمسلمين. وهم الذين قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – بعد أن دعاهم للإسلام بعد غزوة بدر، قالوا: "لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس". وفي هذا تهديد واضح بالحرب وإن كان مبطنا. وفيهم نزل قوله – تعالى –: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) فالميزان الحقيقي في النصر ليس كثرة العدد والعدة، بل هو نبل الغاية التي يحارب من أجلها، أن تكون في سبيل الله، وفي غزوة بدر (يوم الفرقان) العبر والدروس الكثيرة لكل متأمل بصير، فكان على اليهود أن يستجيبوا لدعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – وألا يغتروا بقوتهم المادية، خاصة بعد تجربة عملية حدثت أمام أعينهم في بدر، ولكنهم وكعادة اليهود يحقدون على كل ما هو غير يهودي، فأبوا واستكبروا وعاندوا وأسروا الغدر والخيانة، وقد كان.

أخذ يهود بني قينقاع يزيدون في سخريتهم واستهزائهم بالمسلمين وكان سوق بني النضير المكان المفضل لممارسة هذه الهواية الشاذة (السخرية والاستهزاء على المسلمين)، وحدث أن دخلت امرأة مسلمة السوق وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فلما أبت عمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت مستنجدة، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، أي أنهم اجتمعوا عليه فلم تعد المسألة قضية شخصية.

حدث ذلك بعد عشرين يوما من غزوة بدر، وأنزل الله – تعالى –فيهم (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: إني أخاف خيانتهم، فنبذ عهدهم وحاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلة، حتى استسلموا ورضوا بحكم النبي – صلى الله عليه وسلم –، وكانوا يعولون على حليفهم رأس النفاق عبدالله بن أبي ابن سلول في النجاة من الذبح، حيث كان الخزرج حلفاء لبني قينقاع من قبل، وأثمرت هذه العلاقة المشبوهة بين اليهود والمنافقين في نجاة بني قينقاع من الذبح، فبعد إلحاح شديد من ابن سلول حتى أنه مسك النبي – صلى الله عليه وسلم – وأبى أن يتركه حتى يطلقهم له بحجة أنهم مواليه، فغضب النبي – صلى الله عليه وسلم – وأطلقهم وهو كاره، ولكنه أمر بإجلائهم من المدينة ومنعهم من أخذ السلاح.

هذا هو موقف الطابور الخامس، بينما كان موقف المؤمنين حقا كما فعل عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – وكان عبادة من بني عوف له من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله ابن سلول، فقد جاء

عبادة للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتبرأ من حلف هؤلاء الخونة وولايتهم، ونزل بذلك قرآن يتلى إلى يوم الدين، ففي ابن سلول وأمثاله كثير إلى يومنا هذا، نزل قوله – سبحانه –: (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة). وفي عبادة وأمثاله من المجاهدين المؤمنين إلى يومنا هذا، نزل قوله – تعالى –: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون).

أيها المسلمون...

مع أي فئة نريد أن نكون.. مع ابن سلول والعياذ بالله، الذي اتخذ اليهود أولياء من دون المؤمنين، أم مع عبادة – رضي الله عنه – الذي تبرأ من موالاة الكافرين فضلا عن الخائنين.

يا قادة العالم الإسلامي...

لقد تحرك الجيش الإسلامي برمته من أجل امرأة مسلمة أهينت، فكيف بنا الآن وأعراض المسلمين مستباحة في فلسطين؟

كم دم سفك ظلما وعدوانا في فلسطين وغيرها من بلاد المسملين؟

كم بيت هدم بغير حق؟

كم مسجد دنس وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك مسرى نبينا – صلى الله عليه وسلم –؟

كم بريء سجن؟

كم طفل شُرّد أو يتّم؟

كم امرأة ترملت؟

كم شريف أصبح مطاردا مطلوبا؟

كم زرع خُرّب وأحرق؟

كل هذا وجيوش المسلمين ساكنة لا تتحرك!!

فبدل الحركة الفورية التي ينبغي أن تكون، (فانبذ إليهم على سواء)، نجد الحركة الفورية في الاتجاه غير الصحيح، لمسالمة المعتدين وإقامة علاقات طبيعية معهم إذا انسحبوا من جزء من الأرض التي احتلوها!!

إننا نرحب بالعلاقات الطبيعية مع المعتدين الغاصبين الجاثمين على أرض الإسراء والمعراج، نعم نرحب بها لأن العلاقة الطبيعية مع المعتدي هي مقاومته لا مسالمته، وإن أطفال الحجارة وشباب المقاومة يعطون الأمة النموذج الأمثل في التعامل الطبيعي مع المعتدين، إنهم جند عبادة لا ريب، وعبادة قبره هناك في الأرض المقدسة قرب المسجد الأقصى المبارك، فكأنهم أخذوا العبرة منه وكأنهم عاهدوه على السير على دربه ومقاومة درب ابن سلول.

العلاقات الطبيعية معهم كما أخبر رب العزة، حيث نزلت هذه الآيات في بني قينقاع (وما زال بنو قينقاع يحاربون المسلمين) قال – تعالى –: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون). فهل نحن فاعلون؟؟

وصل اللهم على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصدر: http://www.palestine-info.info

الهزيمة واضحة ورامسفيلد لا يزال يكذب

د / محمد مورو

٢٩ رمضان ١٤٢٧هـ الموافق له ٢١ أكتوبر ٢٠٠٦م

يمكن أن يحصل دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي على لقب الكذاب الأول في العالم لأنه يصر في كل مرة يعترف فيها الآخرون بالهزيمة الأمريكية في العراق أن بلاده منتصرة هناك!!، ويمكن أن يضاف إلى لقب الكذاب الأول صفات الصفاقة والبجاحة والإدعاء، ذلك أنه لم يعد يصدقه أحد أولاً، ولأنه يعرف أنه يكذب في أمر واضح للعيان وليس هناك شك فيه.

الهزيمة الأمريكية في العراق واضحة منذ زمن بعيد، ولكنها الآن أكثر وضوحاً بما لا يدع مجالاً للشك، فالمقاومة العراقية صمدت أمام جميع المناورات العسكرية والسياسية، صمدت أمام عشرات العمليات التي استهدفتها والتي كانت تتخذ أسماء رنانة مثل عقرب الصحراء، الأفعى ذات الأجراس، العاصفة، القبضة الحديدية... الخ، وصمدت أمام مناورات العملية السياسية تمرير الدستور بالتزوير، وإجراء انتخابات، وتشكيل حكومات غير منتخبة وأخرى منتخبة، بل أكثر من هذا صمدت أمام الحرب الطائفية التي تشنها فرق الموت الشيعية بالتعاون مع الجيش والشرطة، ورغم النزيف الضخم الذي يعاني منه السنة في العراق – وهم الذين يقومون بالمقاومة أصلاً، ورغم تورط ما يسمى بجيش المهدي في تلك العملية القذرة وانتهاء مزاعمه حول معارضة الأمريكان، ومشاركة زعمائه في البرلمان؛ رغم كل هذا فإن السنة والمقاومة لا يزالون قادرين على توجيه الضربات للقوات لأمريكية، وفي شهر أكتوبر ٢٠٠٦ مثلاً كان معدل القتلى من الأمريكان حوالي ٥ أفراد يومياً، وهو المعدل الأعلى حسب التصريحات الأمريكية منذ يناير ٢٠٠٥، وهكذا فإن المقاومة لم تتأثر بالحرب الطائفية القذرة الأمر الذي يعني أن أخر الوسائل القذرة لم تنجح في تحجيم المقاومة.

من ناحية أخرى فإن تقارير ١٦ جهازاً استخباراتياً أمريكياً قد أكدت أن المشـــروع الأمريكـــي في العراق يعاني من أزمة حادة، وأن المسألة تسير من سيئ إلى أسوأ، وأن معدل التطرف يرتفع، وهـــو الأمر الذي أكده تقرير استخباراتي بريطاني صدر في أعقاب هذه التقارير الأمريكية، بـــل إن رئـــيس الأركان البريطاني أعلن أنه من الأفضل سحب القوات البريطانية من العراق وهو ما يعـــني اهتـــزاز التحالف الدولي الذي تقوده أمريكا في العراق، لأن بريطانيا هي أهم أعضاء هذا التحالف، وهو أمر له دلالاته ومردوده السلبي على الوجود الأمريكي نفسه حتى ولو كان تأثيره العسكري محـــدوداً، في الإطار نفسه فإن الرئيس الأمريكي اضطر إلى تطمين رئيس الوزراء العراقي جواد المالكي وأكـــد في تصريح له أنه لا ينوي سحب القوات الأمريكية في العراق، والتصريح يعني أن هناك شـــعور داخـــل التحالف الشيعي الكردي المتورط في التعاون مع الأمريكان في العراق بأن الأمريكـــان يفكـــرون في الانسحاب نتيجة الفشل والخسائر الأمريكية العالية، ولولا ذلك لما قال الرئيس الأمريكي يمثل هـــذا التصريح.

الأمر الأكثر دلالة في هذا الصدد أن اللجنة البرلمانية الأمريكية الخاصة بالعراق والتي تشـــكلت مـــن جمهوريين وديمقراطيين برئاسة وزير الخارجية الأمريكية الأسبق جيمس بيكر توصلت إلى أنه لـــيس هناك حل سحري للمشاكل المستفعلة في العراق، وأن جيمس بيكر شخصياً قد أصيب بصدمة عندما زار العراق مؤخراً، وأكد الرجل في كلمة أمام مجلس هيوستون للشئون العالمية على أنـــه لا يوجـــد طريقة سهلة للخروج من العراق، وأن الاعتقاد بإمكانية التوصل إلى حل نهائي للأزمة هو من قبيـــل التخمينات، وذكرت صحيفة لوس أنجلوس تايمز الأمريكية أن اللجنة تعتزم التقدم باقتراح مطلع عـــام ٢٠٠٧ لإجراء تغييرات كبيرة على استراتيجية الولايات المتحدة في العراق، وبديهي أن هـــذا يعـــد تراجعاً كبيراً في السياسة الأمريكية في المنطقة، وللأسف فإنه يفكر في حل مشكلته على حساب السنة بإعطاء مكاسب لإيران وسوريا!!.

وهكذا فالفشل الأمريكي واضح باعتراف تقرير ١٦ جهـــاز اســـتخباراتي، وبـــاعتراف بريطـــاني، وباعتراف لجنة برلمانية أمريكية، وبالنظر إلى تصاعد الخسائر الأمريكية المعلنة رسمياً ومع ذلـــك فـــإن دونالد رامسفيلد لا يزال يصر على أن أمريكا لم تخسر عسكرياً في العراق، ولكن المسألة تحتاج إلى ما هو أكثر من القوة العسكرية لتحقيق النصر!!.

المصدر:http://www.islammemo.cc

الهزيمة تحدق بأمريكا وإن فاز الديموقراطيون

شيماء نعمان

١٧ شوال ١٤٢٧هـ الموافق له ٨- ١١- ٢٠٠٦م

مع ما تثيره انتخابات التجديد النصفي بالكونجرس الأمريكي من توقعات بشأن مستقبل الولايات المتحدة في حال سيطر الديموقراطيون على الجهاز التشريعي في البلاد؛ استهل الباحث الأمريكي البارز بجامعة ييل "إيمانويل واليرشتاين" مقاله الأخير الذي نشرته صحيفة "سان فرانسيسكو كرونكيل" الأمريكية بتساؤل قال فيه:

ما هو الاختلاف الذي سيحدث إذا ما فاز الديموقراطيون بمجلس واحد بالكونجرس، أو حتى فازوا بمجلسيه الاثنين (الشيوخ والنواب)؟

وأوضح واليرشتاين صاحب كتاب "انحدار القوة الأمريكية: الولايات المتحدة في عالم مضطرب" أنه شخصياً يمكنه أن يعلن أنه سوف يصوت لصالح الحزب الديموقراطي، مشيراً إلى أن الغرض الرئيس وراء ذلك الخيار هو التصويت ضد الرئيس الأمريكي "جورج دبليو بوش" حيث قال: "مثل الكثير من الناس فإنني بشكل أساسي سأصوت له – الحزب الديموقراطي – كنوع من التصويت السلبي ضد "جورج دبليو بوش"، وثانياً ضد الغالبية الجمهورية بكلا المجلسين، سوف أفعل ذلك لأسباب عديدة، ولكن باديء ذي بدء لأنني أعتقد أن غزو العراق كان عملاً غير أخلاقياً، وذي نتائج عكسية، وبوجه عام يمثل انتكاسة للولايات المتحدة والعراق والعالم بأسره".

وأكد الباحث الأمريكي الشهير في مقاله أنه لديه العديد من الانتقادات ضد النظام الحاكم من بينها: انتهاكاته للحريات الأساسية للمواطنين الأمريكيين، وسياساته الاقتصادية والاجتماعية الداخلية المتداعية، وسياسته الخارجية غير الحكيمة، مشدداً على أن العراق يتصدر جميع تلك الانتقادات كسبب رئيس للتصويت لصالح الديموقراطيين.

ويلجأ الكاتب مجدداً لطرح أسئلته لإثارة ذهن القاريء، وحثه على التكهن بما يمكن أن تؤول إليه الأوضاع في ظل سيطرة ديموقراطية على الجهاز التشريعي، حيث يقول:

ولكن ما هو الأفضل الذي سيقدمه كونجرس يسيطر عليه الديموقراطيون؟

هذا ليس واضحاً على الإطلاق، في الحقيقة يجب أن تساورنا شكوك في كون الديموقراطيون لديهم بشكل عام سياسة خارجية أفضل لتقديمها، فالمشكلة الرئيسة في قيادة الحزب الديموقراطي هي أنها تؤمن على الأقل بنفس مستوى إيمان الجمهوريين بأن الولايات المتحدة هي مركز العالم، وعين الحكمة فيه، والمدافع العظيم عن حريته، وأنها باختصار دولة فاضلة في عالم محفوف بالمخاطر!

إن أسوأ ما في الأمر ما يبدو من أنهم يعتقدون أنه بمجرد التخلص من عنصر الانعزالية أحادية الجانب التي يمارسها النظام الحالي سيكون بمقدروهم إعادة الولايات المتحدة إلى وضع المركزية بالنظام العالمي، واستعادة تأييد حلفائهم السابقين ومناصريهم خاصة في أوروبا الغربية، ثم في جميع أنحاء العالم، إنهم يعتقدون على ما يبدو أنها مسألة إطار وليس مضمون، وأن خطأ نظام بوش يكمن في أنه لم يكن مجيداً بما يكفي في عالم الدبلوماسية، صحيح أن ذلك الأسلوب في التفكير لا يمثل جميع الديموقراطيين،

وأن كذلك ليس كل الجمهوريين والاستقلاليين يعتنقونه، إلا أنه حتى هذه اللحظة لا يوجد سوى أقلية فقط هي التي لديها الاستعداد للنظر الفعلي في سقطات السياسة الأمريكية، ولكنها أقلية دون أجندة واضحة، وبالطبع بلا زعيم سياسي رئيس للتعبير عن وجهة نظر بديلة.

إذن ما الذي سيحدث؟

من المحتمل – وليس من المؤكد – أن تُجبر الولايات المتحدة على الانسحاب من العراق قبل الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ٢٠٠٨، إلا أن الافتراض الأكثر تأكيداً هو أن يلقي الجمهوريون باللوم على الديموقراطيين في "خسارة" الحرب، وأن ينكر الديموقراطيون ذلك، ولكن خلف الهراء السياسي المعهود سيأتي الانسحاب كصدمة نافذة للأمريكيين حتى وإن كان غالبيتهم مقتنعون بعدم وجود بدائل.

وحاول "إيمانويل واليرشتاين" عقد مقارنة بين حرب العراق والحروب الأخرى التي خاضتها الولايات المتحدة حيث قال:

إن مثل ذلك الانسحاب المتوقع يجب أن يوضع في إطار الحروب التي قاتلت فيها الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥، والتي تعد أهمها من حيث التأثير الجغرافي السياسي، والتكلفة الاقتصادية، والتأثير الانفعالي للشعب؛ حرب فيتنام، وهي حرب خسرتها أمريكا، وكانت نتيجتها انقسام حاد في الرأي العام الشعبي حول من "خسر" الحرب، وما إذا كان من الممكن الانتصار فيها.

إن الولايات المتحدة لم تتعافى قط مما يعرف باسم "أعراض فيتنام" أو Vietnam syndrome التي تسببت فيها تلك الحرب آنذاك، ويتوقع واليرشاين أن يكون الانسحاب من العراق ذو تأثير أشد ألماً من مغادرة مدينة سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية عام ١٩٧٥، مؤكداً أن تكبد هزيمتين سيكون ذي تأثير مدمر، ولكنه كذلك يكشف بصورة قاطعة الحد الحقيقي للقوة الأمريكية.

ويقدم الباحث الأمريكي في نهاية مقاله احتمالات يتصورها للمستقبل الأمريكي قائلاً:

عند تلك النقطة هناك احتمالان وحيدان فقط: أحدهما أن يحدث لدى الولايات المتحدة حالة من البحث العميق عن الذات يؤدي بها إلى إعادة تقييم صورتها، وإدراكها لما هو متاح في النظام العالمي الآن وفي المستقبل، وطبيعة القيم التي تؤمن بها، وهو ما إذا حدث سيدفع بقوى من داخل الحزب الديموقراطي للتقدم من أجل تجسيد ذلك النوع من إعادة التقييم.

ولكن هناك بالطبع احتمال ثانٍ: وهو أن تتحرك الأمة بغضب عميق بشأن "فقد" صدارتها، وأن تسعى للبحث عن أكباش فداء (والعثور عليهم)، والتحرك في النهاية في اتجاه تدمير دستور الولايات المتحدة والحريات التي من المفترض أن يدافع عنها.

ويشير واليرشاين إلى أن شيئاً كهذا كان قد حدث بمدينة فايمار الألمانية، مضيفاً: "بالرغم من أن الوضع يختلف في العديد من الأوجه، وبالرغم من أنني لا أتوقع بأي شكل انبعاث حزب نازي؛ إلا

أنه مع ذلك ستلحق بالولايات المتحدة والعالم كارثة مفجعة إذا ما تقدمت الولايات المتحدة إلى أية درجة جدية في ذلك الاتجاه".

على النحو الآخر يرى الكاتب أن صدمة عنيفة من نوع هزيمة أمريكية بالعراق يمكن أن يكون لها تأثير صحي لإحياء ما أسماه أفضل ما في التراث الأمريكي، والخاص بالأشخاص المنادين بالحرية، والأشخاص ذوي الوعي الاجتماعي الذين سترحب بهم مجدداً الكلمات المنقوشة على تمثال الحرية والتي تقول: "الجماهير الحاشدة تتوق إلى أن تكون حرة".

المصدر:http://www.islammemo.cc

تحضيرات ما بعد الهزيمة الأمريكية

أحمد موفق زيدان

١٥/١٠/١٤٢٧هـ

الشرق/ الراصد لتصريحات المسؤولين الأمريكيين ومحلليهم، والمتمعن في ما بين السطور وما خلفها يجد أن إعلان الهزيمة الأمريكية والانسحاب من العراق وأفغانستان مسألة وقت، وأن القرار اُتخذ بغض النظر عن كل التصريحات البوشية العنترية التي لا تُقرأ إلا على أنها زفرة ما قبل الموت، ولسنا هنا بصدد الحديث والتدليل على ذلك، فما يعنينا في هذا المقال هو التحضيرات التي لجأت أو سيلجأ إليها الطرفان المهمان والمعنيان في هذه المعادلة، طرف خاسر بكل تأكيد وهو الدول المتحالفة مع الأمريكيين، وحرصت على دعم هذا المخطط منذ البداية، ونافحت عنه، وسعت إلى إنجاحه لبلوغه نتيجته غير المنطقية، وطرف مقاوم لم يكشف عن المرحلة الجديدة باستثناء برنامج القاعدة السياسي الذي أثار جدلاً في تأييده أو معارضته، أو مجلس شورى المجاهدين الذي تشكل القاعدة رأس الحربة فيه أو عموده الفقري، في حين آثرت جماعات المقاومة الأخرى مثل الجيش الإسلامي، وكتائب ثورة العشرين عدم التركيز كثيراً على شكل الدولة التي يريدانها، وهو موضوع في غاية الأهمية، وتحديداً في هذه الظروف العصيبة.

سأبدا بالحديث عن الطرف الثاني كونه الأهم في هذه المعادلة خصوصاً أن مواقفه وبرامجه ستنعكس سلباً أو إيجاباً على الطرف الأول الذي سأتطرق إليه لاحقاً، فتنظيم القاعدة منذ البداية يعتمد في إيديولوجيته وفكرته على قيام الدولة على أي بقعة أرض من أجل الانطلاق إلى ما بعدها، وهو ما تحدث عنه بإسهاب الشخصية الثانية في تنظيم القاعدة الدكتور أيمن الظواهري في كتابه فرسان تحت راية النبي، وبالتالي فلسنا بحاجة إلى بذل الجهد في معرفة مواقفه وسياساته، غير أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى أن أي مشروع لا بد أن يكون متسقاً مع ظروفه وبيئته والجهات العاملة هناك، حتى يكتب له النجاح أولاً، ولا يصطدم مع قوى نافذة أحياناً، لكن المهم هنا معرفة موقف الجيش

الإسلامي وكتائب ثورة العشرين وتحديداً الموقف السياسي، فحتى الآن حسب معرفتي القاصرة لم نلمس لهما تأكيداً واضحاً على قيام الدولة الإسلامية وشكلها، وربما أكون مخطئاً.

هذا السؤال في غاية الأهمية، وهنا لست معنياً في أن يلجأ الجيش الإسلامي أو كتائب ثورة العشرين في تأييد القاعدة وبرنامجها في دولة العراق الإسلامية بقدر ما أنا معني في الكشف عن برامجهما السياسية لمرحلة ما بعد رحيل الاحتلال، فظهور ممثل البعث العراقي على شاشة الجزيرة، وحديثه السياسي يرافقه صمت الآخرين يستدعي الكثير من التوقف والتبين، ويستدعي بالمقابل مزيداً من قراءة المستقبل، وخشية جدية من أن تُسرق الجهود مرة أخرى، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار ما رددته وسائل إعلام غربية عن إمكان أن تلجأ أمريكا إلى البعثيين لملاحقة الجهاديين – أو القاعدة تحديداً – وهو ما عكسه مقال مطول لبيتر برغن في النيويورك تايمز يوم الجمعة الماضي.

هل سنشهد ملاحقة عناصر القاعدة أو الجهاديين بشكل عام في مرحلة ما بعد خروج المحتل كما حصل للمجاهدين العرب في أفغانستان حين طوردوا واعتقلوا في بيشاور وغيرها، أم أن فصائل المقاومة ستفاجئنا وتكشف عن برنامجها السياسي، وتخفض جناحها بعضها لبعض بحيث تتنازل عن حظوظ نفسها، تحقيقاً للمصلحة العليا وهي مصلحة مئات الآلاف من الشهداء والجرحى والمعوقين، وقبلهم مئات الملايين من الأحياء منهم والمتعاطفين معهم.

الأمر الآخر الذي يثير الاستغراب هو عدم طرح مقاومي الجيش الإسلامي وكتائب ثورة العشرين لرموزهم، وتعريف الناس بهم عبر وسائل الإعلام، بينما الكل يقدم رموزه، فالرمزية مهمة في مرحلة الالتفاف الشعبي، وكذلك في مرحلة ما بعيد رحيل الاحتلال.

الطرف الآخر من المعادلة العراقية الصعبة هنا هو أمريكا والدول الحليفة لها في المنطقة من غربية وعربية وإسلامية، بداية لا بد من تذكر ما قاله مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق زبيغنو بريجنسكي الذي هو مع وزير الخارجية السابق هنري كيسنجر يشكلان كعب أخيل في كل الحكومات الأمريكية وحتى الحالية؛ بريجنسكي قال في الذكرى السنوية الخمسين للعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ إن هذا العدوان شكل علامة فارقة لتراجع الدور البريطاني وهيمنة الدور الأمريكي، وإن الوقت الحالي يشكل نهاية وتراجع الدور الأمريكي بعد غزو العراق، مضيفاً:" إننا نواجه وضع تراجع حقيقي على مستوى الشرق الأوسط، واحتمالية طردنا من المنطقة، "أما ريتشادر هاس رئيس مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي الذائع النفوذ فقد قال في مقال له مطول في فصلية الشؤون الخارجية الأمريكية: "إن عصر الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط انتهى، وعصر جديد لتاريخ المنطقة المعاصر قد بدأ".

رئيس الوزراء البريطاني توني بلير وصف هزيمة الأمريكيين والبريطانيين في أفغانستان والعراق إن حصلت بأنها هزيمة للغرب كله، أما كيسنجر فقد قال إنها هزيمة لمكاسب حصدها الغرب طوال

خمسة قرون ماضية، واقتفى أثر تصريحاتهما أيضاً الجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة أركان القـوات الأمريكية المشتركة بقوله: "إن انتصار قوات التحالف على المقاومة العراقية كمثل الانتصار في الحرب العالمية الثانية أو أزيد".

أما حلفاء أمريكا في الدول العربية والأطلسية فسيكونون أحد الضحايا الأساسيين للهزيمة الأمريكية، ورحيل واشنطن عن المنطقة، ينضاف إليهم رموز الليبرالية العربية وهو ما سيعني تلقائياً تصاعد المـد الإسلامي والمقاوم، فقد تحدثت تقارير كثيرة عن عكوف دول الأطلسي للبحث في مرحلة ما بعـد الهزيمة الأمريكية، وانسحاب الجيوش الأمريكية من العراق وأفغانستان، كما أن بعض الدول الخليجية بدأت بفتح علاقات جديدة مع دول في شرق آسيا كماليزيا وسنغافورة وغيرهما من أجل التعـويض عما سيحصل في حال الهزيمة الأمريكية، وانسحاب القوات الأمريكية من العراق وأفغانستان.

لكن يبدو أن ما يساعد أمريكا حتى الآن هو عدم وجود المنافس أو البديل للحلول محلها في المنطقـة، فالاتحاد الأوربي فشل في اجتراح سياسة واستراتيجية عسكرية للحلول محلها، كما أنه لا تستطيع أي دولة في العالم أن تقدم مثل هذا العدد الضخم من الأموال لتنفقها في العراق فضلاً عـن نشـر مئـة وأربعين ألف جندي هناك.

المصدر:http://www.almokhtsar.com

استراتيجية تقزيم الهزيمة

د. حنان فاروق

يقول علماء تنمية وتطوير الذات في العصر الحديث: إن الفشل أو الهزيمة ليسا المشكلة الحقيقية لمـن يُمنَى بهما، لكن المشكلة الرئيسة هي الاستسلام لهما والرضا بهما.

إن الإنسان المهزوم هو الذي يسلم قياده لهزيمته ويرتاح بطريقة أو بأخرى في كنف (عدم اسـتطاعة) وفي أغلال (فقدان المقدرة) على تغيير الواقع والعمل على خلق غدٍ أفضل بإذن الله؛ وهو الذي يركز على الجانب السلبي للفشل ولا ينظر إليه بمنظار مختلف وناحية مغايرة للانكسارية والتيه والضياع.

لقد أدرك الغرب المناوئ للإسلام وأمريكا سيدة مشروع (القرن الأمريكي الجديـد) هـذا الأمـر، وفهمت أن سحق أي أمة لا يأتي إلا من داخل قلوب أبنائها وعقولهم قبل أن يكون جهاداً بالسلاح، ومن ثَم فقد عملت على تأكيد هذا السحق وتعميقه حتى تبدد أي أمل في النصر القادم الذي وعـدنا به رب العزة تبارك وتعالى، وكذلك حتى تنسى الأمة نهج رسـولها – صـلى الله عليـه وسـلم – واستراتيجياته في معالجة الهزائم وتحويلها إلى بدايات لانتصارات جديدة حين يتكالب الطغاة والبغـاة على الأمة تكالب الأكلة على قصعتها. وها هو – صلى الله عليه وسلم –، في بداية رسالته ونـزول الوحي، عندما أتاه خبَّاب بن الأرتّ – رضي الله عنه – وهو متوسد بُرْدَه في ظل الكعبة وقال له: ألا

تدعو الله؟! فقعد – صلى الله عليه وسلم – وهو محمرٌّ الوجه، ثم قال: «لقد كان مَنْ قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله ـــ زاد بيان الراوي ـــ: والذئب على غنمه» وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون».

كان المسلمون آنذاك في أوج هزيمتهم النفسية، يسامون سوء العذاب ليل نهار، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبشرهم بالنصر والتمكين؛ بيد أنه حين رأى أن نفوسهم قد دخلت إلى منعطف الاستسلام لانكسارهم واليأس من حاضرهم أمدهم بجرعة أمل منبعثة من أعماق الإيمان برسالته؛ وكأنه يقول لهم قول الله ـــ – تعالى –ـــ: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ}. فالضعف لا يزيد الإنسان إلا خساراً وترهلاً نفسياً لا يؤهله لأن تقوم له قائمة، أو تبزغ له شمس.

وحين ذهب – صلى الله عليه وسلم – إلى الطائف ولقي ما لقي من الأذى والعنت والسخرية اضطر للعودة إلى مكة مرة أخرى واستئناف ما بدأه هناك، فقال له زيد بن حارثة الذي كان يصحبه في رحلته تلك: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك (يعني قريشاً)؟ فقال – صلى الله عليه وسلم –: «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دينه ومظهرٌ نبيه» فبدل بقوله هذا ما أحسه زيد من انكسار وقلة حيلة وهو يرى نبي الله وأباه بالتبني ـــ قبل أن يحرّم ـــ يُسَبُّ ويرمى بالحجارة، إلى أمل وإيمان بنصر عزيز من لدن حكيم خبير. وحين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة تاركين وراءهم أموالهم وديارهم وحياتهم بجوار بيت الله الحرام بعد أن سلبتهم قريش كل شيء مقابل خروجهم سالمين؛ كانوا وقتها يشعرون بالظلم القاهر لما اضطروا إليه فراراً من أذى قريش الذي أرهق أرواحهم قبل أجسادهم، وكانوا موقنين أنهم على الحق، لكنَّ تأخُّر النصر يؤلمهم ويقض مضجعهم. كانوا يتحرقون شوقاً لأن يسترجعوا حقوقهم المسلوبة وكرامتهم المنهوبة؛ فلم يتركهم الله ورسوله لهذا الشعور لكي يتغذى على نفوسهم وإيمانهم فيستسلموا له، بل نزلت الآيات الكريمة بالإذن بالقتال: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَي نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: ٣٩].

فكانت السرايا والغزوات التي أعطتهم الدفعة نحو الأمام والثقة بأنهم قادرون على الانتصار بإذن الله؛ لا يفت في عضدهم قصور في العدة أو العدد؛ مثل سرية سِيف البحر ورابغ والخزار، وغزوة الأبواء وبواط وسفوان، وغزوة ذي العشيرة، وسرية نخلة.. تلك السرايا والغزوات لم تكن إلا لرد كرامة المسلمين الذين لم يقترفوا ما يدعو إلى إيذائهم والاعتداء عليهم إلا أنهم اختاروا الله الواحد الأحد، فباعوا له أموالهم وأنفسهم، ونصروه ولم يستسلموا للتخذيل الهدام الذي كان يبثه المنافقون في نفوسهم؛ فلما أبوا الاستسلام ونصروا ربهم نصرَهم نصراً عزيزاً مؤزراً بعد سنوات من العذاب والصبر والتحمل.

أما ما حدث بعد الهزيمة النفسية المؤلمة التي تعرض لها المسلمون في أُحُد فهو الدرس الواضح الصريح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في استراتيجية مقاومة وتقزيم الهزيمة؛ فقد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسلمين الذين شهدوا معركة أحد والمثخنين بالجراح والأحزان صباح الغد من الهزيمة بالخروج ليطاردوا فلول الكفار العائدين بنصرهم المؤقت؛ فرحين يخططون لإعادة الكرَّة للإغارة على المدينة المنورة ليفتكوا بالمسلمين وهم بعدُ لم يخرجوا من روح هزيمتهم، فهبُّوا سمعاً وطاعة لرسولهم الصادق الأمين – صلى الله عليه وسلم –، وعسكروا بحمراء الأسد على بُعد أميال من جيوش الكفار؛ مما جعل المشركين يفرون خوفاً منهم ومن سرعة قيام قائمتهم، وخاصة بعد أن خذّلهم معبد بن أبي معبد الخزاعي بإيعاز من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أن اسلم وأدى واجبه في إكمال الحرب النفسية على الكفار والمشركين، وعاد المسلمون دون أن يمس أحدَهم سوء؛ وشعورُ النصر والقوة يملؤهم ويدفعهم دفعة جديدة بعد أن كادوا يركنون إلى إحساس الفشل والألم والحسرة.

هذا ما علَّمناه رسولنا الأمين – صلى الله عليه وسلم –. وإننا نرى اليوم الحرب النفسية على المسلمين؛ فحين تتوالى الأخبار عن هزيمة العدوان في العراق وأفغانستان أو غيرهما من بلاد المسلمين ومقتل عدد لا يحصى من أفراد القوات المحتلة.. نراهم يسمحون بتسريب أخبار عن تعذيب المسلمين في جوانتانامو وأبي غريب بأساليب تتدنى عن أحط الأخلاق الحيوانية، بل ينشرون صور ذلك الإذلال على الملأ في نشرات أخبارهم وبرامجهم السياسية والحوارية وجرائدهم المحلية والعالمية ليعمقوا إحساس المهانة لدى المسلم المتابع لقضايا مجتمعه في جميع أنحاء العالم بالصوت والصورة والشعور حتى يتغلغل داخله ويقيده فلا يستطيع منه فكاكاً.

ثم يعود العدو فينشر أخباراً عن إهانة المصحف وتدنيسه المتعمد في السجون والمعتقلات نفسها التي أُعدت خصيصاً للمسلمين القابضين على الجمر الذين جُرِّدوا من كرامتهم قبل ملابسهم تحت تهديد السلاح، ثم تعرض الصحف الأجنبية رسوماً مسيئة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وترفض الاعتذار بدعوى أننا ــ أعني المسلمين ــ لا نفهم معنى الحرية الحقة، فيحمِّلوننا الإساءة والتخلف معاً.

ويعاود رأس الكاثوليك الكرَّة فيسيء للإسلام، ثم يقول: لم أقصد.. وهو الذي يعد رئيس دولة؛ فهو ليس زعيماً دينياً فحسب، ولكنه أيضاً يضطلع بالعمل السياسي مثل رؤساء الدول وملوك الممالك وسلاطينها ومن شابههم؛ وعليه فلا يمكن إدراج إساءاته تحت النقل أو زلات اللسان أو الهفوات الفكرية؛ لأنها بالقطع مقصودة، وتضيف لسابقاتها المتكررة المعلنة وغير المعلنة أرصدة جديدة من الألم النابض في قلوب المسلمين وعقولهم. ثم يعود الإعلام فينشر صور حاكم عربي كبير، مهما اختُلف

عليه فهو مسلم، وهو بملابسه الداخلية في المعتقل الخاص المعد له دون إذن منه وكأنه يمعن في فضحه والنيل منه.

ثم يعود فينشر فيلماً لإعدامه صبيحة عيد الأضحى المبارك والمسلمون في أوج عزهم وتوحدهم الذي يستشعرونه كل عام من كل فج عميق خلال رحلتهم لبيت الله الحرام عبر القنوات الفضائية العربية وغير العربية والإنترنت ورسائل الوسائط للهواتف المحمولة التي استكملت المشهد التلفزيوني الذي رفض إعلاميوه عرض أواخره، فقامت الشبكة العنكبوتية وأجهزة المحمول بالغرض وبالمهمة عنهم ليضرب مشاعر المسلمين في مقتل وائد لفرحتهم قبل أن تكتمل، وسعادهم قبل أن تتم.

إنها الحرب النفسية واللعب على وتر التحطيم الداخلي قبل الخارجي، وإرساء حالة من الاكتئاب واليأس العام قبل تنفيذ أي مخطط بفترة كافية كي تتسنى التهيئة التامة لركوع المغتصَبين لغاصبيهم، بانتزاع كل أمل في النصر والتمكين من قلب الفريسة لتتبدد مقاومتها قبل أن تولد، ويشل تفكيرها قبل أن يتأجج، ويموت الحلم حتى في الخيال، فيدخل المحتل إلى حيث يريد، ويأخذ ما يريد في الوقت الذي يريد، ويجعل فريسته إما صورة في مرآته، أو كمّاً مهمَلاً في سلة قاذوراته.

إن هذا هو مفتاح الانتصار الذي يعتمد عليه الآخر في حروبه معنا، معنويةً كانت أو ماديةً؛ وبغير هذا المفتاح لا يهنأ لغاصب قلب ولا يغمض له جفن، ولا يفرح مهما حقق من نجاحات ومهما نفذ من مخططات؛ ولهذا فنحن مطالبون بقمع هزائمنا النفسية والفعلية، والعمل على الخروج من قوقعة اليأس، وزنزانة التكبيل الفكري، ودائرة الإحباط المفرغة التي ندور فيها بلا هدف غير البكاء والتباكي على حالنا بكل طريقة ممكنة ومتيسرة: بالكلمة والفعل وتعلُّم وإرساء مهارات العمل الجماعي، ونبذ ثقافة الحزن على اللبن المسكوب في مقالاتنا وفكرنا، ودراسة تاريخنا الحقيقي لا ذلك الذي لُقِّنَّاه في مدارسنا وجامعاتنا..وأولاً وأخيراً:بالثقة بوعد الله ـــ - تعالى -ـــ لنا: {وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٠٤].

المصدر: http://www.albayan-magazine.com

بشائر الهزيمة الأمريكية وتحديات ما بعد أمريكا

محمد يوسف

في كتابه "بشائر الهزيمة الأمريكية وتحديات ما بعد أمريكا" يستعرض المؤلف د. عبدالعزيز مصطفى كامل الأسباب الخفية لاحتلال العراق، ودور المقاومة العراقية واستراتيجياها ضد المحتلين، كما يرصد واقع العراق، ومدى الخسائر الأميركية وهزيمتها في العراق من خلال عرضه لمؤشرات وشواهد الهزيمة،

ودلالات الهزيمة الأميركية، كما يطرح المؤلف تحديات العراق بعد خروج أميركا مقدماً بعض التوصيات للسنة في العراق أو في العالم من أجل إحياء العراق، وعودته إلى الأمة الإسلامية والعربية.

يؤكد المؤلف في كتابه أن الولايات المتحدة مقبلة على الخروج من العراق تجللها الفضيحة والعار، في هزيمة مركبة، وتحوُّلٍ حضاري عسكري من شأنه أن يغير مجرى تاريخ العالم، ويشير المؤلف إلى أن المقاومة العراقية – منذ بداية الغزو – تقاتل بضراوة المعتدين والغزاة، وأن هذه النتيجة آية من الآيات، تزيد أهل الإيمان إيماناً بموعود الله الذي قال: ((كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ))[البقرة: ٢٤٩]، فالفئة القليلة التي لا يزيد عددها على بضعة عشرات من الآلاف في مواجهة مئة وستين ألفاً من الأميركيين وحلفائهم، وعملائهم العراقيين المنهزمين الذين يلتحقون بالجيش أو الشرطة العميلة؛ استطاعوا أن يلقنوا الأميركيين وحلفائهم درساً لن ينسوه على الإطلاق، وأن يحولوا نتائجهم العسكرية والسياسية إلى فشل ذريع.

كشف القناع:

يتعرض المؤلف في كتابه للأسباب الحقيقية وراء غزو العراق، مؤكداً أن إسقاط الرئيس العراقي الراحل صدام حسين لم يكن السبب الوحيد أو الحقيقي في مخطط غزو العراق، مؤكداً كذب ادعاء وجود أسلحة الدمار الشامل (المزعومة) التي فُرض لأجلها الحصار الشامل على العراق لأكثر من عقد كامل، وظهر أيضاً أن أحداث سبتمبر وما ادعي بعدها من تواطؤ صدام مع القاعدة كان مجرد هراء، بدليل أن قرار الغزو قد اتخذ قبل تلك الأحداث كما قال ذلك «فويزلي كلارك» المرشح الديمقراطي السابق للرئاسة الأميركية في كتاب (النصر في الحروب الحديثة)، وتصريحات وزير الخزانة الأميركي الأسبق (بول أونيل) الذي قال في كتابه (ثمن الولاء): "إن قرار الغزو اتخذته الإدارة الأميركية قبل ضربات القاعدة".

ويكشف المؤلف عن أن الأهداف الحقيقية للغزو هي الاستيلاء على النفط العراقي، وتأمين مستقبل الكيان الصهيوني من تهديدات أطلقها صدام مثلما قال: «سأحرق نصف إسرائيل»!، وهدف تنفيذ مشروع بوش الأب عن (إمبراطورية القرن الحادي والعشرين)، واختيار "الشرق الأوسط" ليكون ساحة ابتدائية لتنفيذه، واختيار العراق ليكون نقطة انطلاق للوصول إليه.

ذكاء المقاومة:

يتطرق المؤلف إلى تكتيكات المقاومة وآلياتها، فيوضح أن المقاومة بدأت بُعيد الغزو بمناوشة المحتلين؛ لتكوين الخبرات، وتنشئة العناصر القادرة على المواجهة، ثم بدأت بتنظيم هجومات تكتيكية ضمن حالة الدفع العام، ورتبت بعدها للانتقال إلى خطة الهجوم الاستراتيجي الذي يحوّل الخصم إلى موقع الدفاع، ثم جرى العمل وفق سياسة استنزاف العدو وإفقاده القدرة على الدفاع؛ لينتقل المجاهدون بعد

ذلك إلى تكثيف المطاردة والإنهاك؛ لحرمان المعتدي مستقبلاً من الظهور بمظهر المنتصر، أو حتى المنسحب انسحاباً آمناً.

أما المتعاونون مع الأعداء فقد اعتمد المجاهدون سياسة إفقادهم التوازن ببثّ الخوف في أوساط كل من يتعاون مع الأميركيين في الداخل، كما نجح المجاهدون في نقل جزء من المعركة إلى الداخل الأمريكي عن طريق اتّباع سياسة إعلامية تركز على تصدير استراتيجية «الصدمة والترويع» – التي عانى منها الشعب العراقي في أول الحرب – إلى الشعب الأمريكي نفسه، وذلك بإصدار البيانات، وبثّ الأفلام الحية عن العمليات الناجحة، وهو ما أوجد انقساماً في الرأي العام الأمريكي تجاه جدوى الحرب، سرعان ما تحول إلى شقاق حول مشروعية تلك الحرب ومبرراتها.

ويشير المؤلف إلى أنه مع نجاح المقاومة العراقية ظهرت أيضاً بوادر تفكيك التحالف الدولي المتعاون مع الأميركيين بإجبار العديد من الدول على سحب قواتها، أو الشروع في ذلك، فانسحبت أكثر من ١٥ دولة من التحالف، وهو ما تسبب في ردع دول أخرى كانت ترتب لإرسال قوات مساعدة.

أبعاد الهزيمة: شواهد ومشاهد:

يصل المؤلف في كتابه – بعد التطرق لأسباب الاحتلال، ومدى قوة المقاومة، وتنوع تكتيكاتها – إلى حتمية الانسحاب الأميركي من العراق، ويعدد المؤلف شواهد الهزيمة مثل:

* حجم الخسائر البشرية الأميركية في الحرب.

*حالة الاقتصاد الأمريكي المنهك بعد أحداث سبتمبر التي زادته حرب العراق إنهاكاً، بحيث لم يعد يحتمل إطالة أمد هذه الحرب، فالمقاومة كلّفت المحتل تكاليف باهظة بلغت حتى شهر سبتمبر ٢٠٠٥م ما يصل إلى ٧٠٠ مليار دولار في أقل من ثلاث سنوات فقط، في حين أن حرب فيتنام بكاملها التي استمرت ١٨ سنة كلفت الاقتصاد الأمريكي ٦٠٠ مليار دولار.

* الخسارة الحضارية وهذه لا تُقدّر بثمن، حيث تستنفد أميركا رصيدها من شعارات الديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، بقتلها المدنيين العراقيين، وفظائع سجن «أبو غريب»، والسجون العراقية التابعة للاحتلال، وكذلك ما سبق الاحتلال من موت ما لا يقل عن مليون ونصف من أطفال العراق بسبب الحصار الاقتصادي، واستعمالها بعد الغزو القنابل العنقودية، والأسلحة المزودة باليورانيوم والفسفور الأبيض، والقنابل الثقيلة التي تُعدّ قنابل نووية صغيرة، والأسلحة الكيماوية.

* عمق هوة الخلاف بين دول الاحتلال، وتسارع وتيرة تفكيك التحالف الدولي مع أمريكا لا على مستوى العراق فحسب بل على المستوى العالمي فيما يسمى بـ«الحرب على الإرهاب»، حيث صارت عمليات الانتقام تمتد إلى حلفاء أمريكا داخل أراضيهم كما حدث في لندن وإسبانيا وتركيا، وهو ما كان سبباً مباشراً في انسحاب جيوش دول عديدة من التحالف، واستعداد أخرى

للانسحاب، والانشقاق داخل أوروبا بل داخل البلد الأوروبي الواحد كما حدث في بريطانيا عندما اتهم عمدة لندن رئيس الوزراء «توني بلير» بأنه هو السبب الحقيقي في تفجيرات لندن.

* تضاعف قدرات المقاومة، وزيادة إمكاناتها كمّاً وكيفاً، وهو ما ينعكس زيادة في نوعية العمليات وتأثيرها.

* زيادة خصوم الحكومة الأمريكية في الداخل، وحالة الحرج الشديدة التي يتعرض لها بوش وإدارته، وهناك الكثير ممن كانوا يؤيدون قرار الحرب سحبوا موافقتهم منهم المرشح الديمقراطي للرئاسة في الانتخابات السابقة (جون كيري)، والرئيس السابق (بيل كلينتون).

دلالات هزيمة أمريكا:

يتطرق المؤلف إلى دلالات فشل المخطط الأميركي في العراق، موضحاً أن الهزيمة عندما تحدث بخروج أميركا بالفعل من العراق – وهي لابد أن تحدث بإذن الله – ستعني أموراً كثيرة وكبيرة منها:

* فشل المخططات الدولية مثل «مشروع الإمبراطورية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين» للإنجيليين الأمريكيين النصارى، ومشروع «القرن الأمريكي الجديد» للمحافظين اليهود الجدد في أمريكا.

* أن أحلام اليهود – من المحافظين الجدد أنفسهم – في تسلّم دفة الحكم في أمريكا في مهب الأعاصير؛ نظراً للإحباط الذريع في العراق أولى محطات التآمر العالمي ليهود أمريكا في القرن الجديد.

* أن مشروع «الشرق الأوسط الكبير» سوف يوضع في أدراج البنتاجون أو البيت الأبيض؛ لأن مخطط إطلاق هذا المشروع في العراق قد احترقت.

* أن عصر القطبية الواحدة آيل للأفول، وسوف تبرز أقطاب أخرى قريباً – بإذن الله – سيكون منها: القطب الإسلامي العالمي؛ فسنن الله الكونية ماضية إلى غاياتها الحكيمة، وفق محكمات السنن الشرعية الدينية؛ لأن امتثال أحكام الله الشرعية هو الطريق الوحيد لتحقيق أحكام الله القدرية حتى لو ظنها الناس معجزات أو خوارق لا يمكن أن تتحقق ((وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ))[الحج: ٤٠].

تحديات ما بعد أميركا:

يرى المؤلف أنه من الخطأ الاعتقاد أن الصراع الدائر في العراق شأن يخص العراقيين وحدهم، أو يخص المجاهدين هناك فقط، وذلك لأن المحتل الأميركي الذي جاء إلى المنطقة لمطامع إمبراطورية تحت شعارات نشر الحرية والديمقراطية انطلاقاً من العراق؛ أراد تحويل هذا البلد إلى قاعدة عسكرية يمكن الوثوب منها إلى دول الجوار القريب والبعيد للهيمنة عليها بصورة أو بأخرى؛ فالخطر هنا لم يكن قاصراً على العراق.

ويطرح المؤلف سيناريوهات وتحديات ما بعد الانسحاب الأميركي كالتالي:

أولاً: أمريكا وخيارات الانتقام:

* قد تلجأ الولايات المتحدة إلى سيناريو اليابان بدلاً من سيناريو فيتنام؛ ففي مواجهة الهزيمة في فيتنام اكتفت أميركا بالانسحاب الذليل دون ضجة أو انتقام، بينما أفرطت في الانتقام في حالة اليابان حتى استعملت القنابل النووية كي تستعيد هيبتها، وفي حالة الهزيمة في العراق؛ لن تلجأ الولايات المتحدة إلى مثل هذه الخيارات المجنونة إلا في حالة واحدة وهي الحالة التي يمكن أن يُعلن فيها عن إقامة دولة إسلامية سنية سلفية جهادية بعد الانسحاب، تصلح لأن تكون قاعدة امتداد إسلامي عالمي جديد، فعندها سيكون هذا بمثابة إعلان حرب على أمريكا والغرب، ولن تكون المعالجة هنا تقليدية عقلانية بل ستكون جنونية.

* اعتماد مبدأ (الفوضى الخلاَّقة)، قد يكون خيار الأمريكيين في آخر الحرب كما كان خيارهم في أولها؛ وسوف تلجأ إلى هذا الخيار إذا رأت فيه تحقيقاً لشيء من مصالحها، ضاربة عرض الحائط بمبادئ الديمقراطية، والإصلاح، والتعمير، وخيار الفوضى الخلاَّقة يمكن تنفيذه بتسعير أتون الحرب الأهلية، وما قد ينتج عنه من محاولات للتقسيم.

* ستغير الولايات المتحدة في ولاءاتها بحسب مصالحها؛ فهي وإن كانت قد استهلكت الورقة الدينية الشيعية في معظم ما مضى من زمن الاحتلال إلا أنها قد تُحل الشيعة العلمانيين محل الشيعة المتدينين، ليكون رهانها على تغيير البنية الثقافية للشعب العراقي أوقع وأقرب.

ولا يكتفي المؤلف بعرض السيناريوهات الأميركية للانسحاب وما بعده، وإنما يطرح سبل مواجهة هذه السيناريوهات بتأكيد أهمية تقريب الهوة بين فصائل المجاهدين من جهة، وبين عموم الشعب من جهة أخرى حتى لا تتمكن أميركا وحلفاؤها من عزل المقاومة، وتصويرها بصورة الخروج عن الصف العراقي، كما يشير المؤلف إلى إمكانية وأد الفوضى الخلاَّقة التي قد تُترجم إلى حرب أهلية؛ وذلك باجتماع الرؤوس الكبيرة من سنة العراق عرباً وأكراداً على استراتيجية موحدة لما بعد الانسحاب ولو في خطوطها العريضة، والاتفاق على آلية للتحاور والتفاهم من الآن.

ثانياً: إيران وأهدافها بالعراق:

يحذر المؤلف من المخطط الإيراني وأهدافه وخطورته بعد الانسحاب الأميركي، فيوضح أنه إذا كانت القوات الأميركية وشريكتها البريطانية، وغيرهما من حلفاء الاحتلال يفكرون من اليوم في كيفية الهروب الآمن من العراق؛ فإن القوات الإيرانية لابد أنها تستعد من اليوم للحلول مكانها، وقد تمهد الأمر من الآن لإيران بعدما تمكن شيعة العراق الموالين لها من السيطرة على معظم كيان الجيش والشرطة، ولهذا فإن ذلك يمثل تحدياً عظيماً من تحديات ما بعد الهزيمة الأميركية، ليس لأهل السنة في العراق فحسب بل لأهل السنة في العالم أجمع، هؤلاء الذين لم يجمعهم – إلى الآن – إلا التفرق والتنازع دون مرجعية علمية موحدة، أو قيادة سياسية واحدة.

ويوضح المؤلف – وفق ما ذكره موقع صيد الفوائد – أن اختراق إيران للعراق هو اختراق للخليج كله، وسوف ينعش ثورات التشيع في أكثر دول المنطقة؛ حيث قد نسمع عن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في أكثر من عاصمة عربية، بل وغير عربية، وهو ما سيؤسس – إذا سارت الأمور على حسب مخططات بروتوكولات إيران – إلى مدٍّ رافضي خطير يطال العقيدة والدين بعدما يهدد الأوطان والمقدرات؛ وهنا قد تقع الشعوب الإسلامية السنية بين فكي كماشة الفرس والروم!

ويعتقد المؤلف أنه من الممكن أن يجد شيعة العراق العرب أنفسهم في خيار يدفعهم إلى التقرب من جديد إلى أهل السنة؛ وذلك عندما يكتشفون حقيقة الطمع الإيراني والجشع الأميركي، وهنا يشدد المؤلف على أن يحسن سنة العراق – وبخاصة العلماء والدعاة – هذه الفرصة إذا سنحت من خلال إعلان المبادرات المشتركة لحقن الدماء، وإيقاف الشحناء، والانتقال – أو بالأحرى – الرجوع إلى صيغة التعايش التاريخية المعروفة عن شعب العراق حتى يهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

توصيات:

يقدم المؤلف في كتابه بعض التوصيات لأهل السنة بالعراق من أجل أن يقوم العراق من كبوته، ومن أهم هذه التوصيات أنه لابد من السعي المكثف لبناء برنامج سياسي لأهل السنة يراعي تعدد الاجتهادات، والسيناريوهات واختلاف الخيارات، وكذلك لابد من الاجتماع على كلمة سواء بين فصائل أهل السنة سواء المجاهدين منهم أو السياسيين.

المصدر:http://www.islamicnews.net

بيان أسباب الهزيمة وما قد تؤدي إليه من نتائج

الشيخ محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله الواسع العليم العلي العظيم المتصرف في خلقه بما تقتضيه حكمته ورحمته فهو الحكيم الرحيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الفضل العظيم والخير العميم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالهدى والرحمة والصبر واليقين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما.

أما بعد:

أيها الناس: اتقوا الله وآمنوا بقضائه وقدره، واعلموا أن ما يقضيه الله في خلقه فإنه صادر عن مقتضى حكمته ورحمته لا يخلق شيئاً سدى ولا يقدر شيئاً إلا رحمة بالعباد، فإن رحمته سبقت غضبه، ولا يقضي لعباده المؤمنين إلا ما هو خير لهم، فإن المؤمن إما أن يصاب بسراء ونعمة فيقوم بالشكر لله – تعالى –فيكون ذلك خيراً له، وإما أن يصاب بضراء ونقمة فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر من الله ويعلم أن لله في ذلك من الحكمة ما لا تدركه العقول ويكون بالصبر على المصائب خير له، وقد يقدر

الله الأمر يكرهه الناس فينتج عن ذلك من المصالح ما تتبين به حكمة الله – تعالى –ورحمته قال الله – تعالى –: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦] فالمقاتل مثلاً يحب الانتصار على عدوه والظهور عليه، ولكن قد تأبى ذلك حكمة الله فيغلب ويهزم وينتصر عليه عدوه فيكره ذلك ويمتعض منه، ولكن قد يكون في هذه الهزيمة خير كثير تظهر نتائجه إما عاجلاً وإما آجلاً، وذلك أن الهزيمة تمحيص وابتلاء فقد يكون المهزوم مسرفاً على نفسه مقصرا في حق ربه فتكون الهزيمة تأديباً له وتكفيراً لسيئاته، وقد يكون المهزوم مفتخرا بنفسه معجبا بقوته الداخلية والخارجية فيهزمه الله ليعرف بذلك قدر نفسه وأنه ضعيف لا حول له ولا قوة إلا بالله الذي بيده أزمة الأمور ونواصي الخلق، وقد يهزم الجنود بسبب تفرقهم واختلاف كلمتهم فتكون الهزيمة سبباً

لمعرفة الداء الذي أصيبوا منه، فيسعون في إزالة هذا الداء ويجمعون كلمتهم ويوحدون صفوفهم. وقد بين الله – تعالى –في كتابه هذه الأسباب الثلاثة للهزيمة ليحذر الناس منها، ففي غزوة أحد حصل من بعض المسلمين مخالفة فيما أمروا أن يكونوا فيه فحصلت الهزيمة عليهم، قال الله – تعالى –: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٦] وذكر لذلك حكماً عظيمة، وفي حنين أعجب المسلمون بكثرتهم وكانوا اثنى عشر ألفاً فقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فقال – تعالى –مخبرا عن ذلك: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شيئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٢٥، ٢٦]. والحكمة في ذلك أن يعلم العباد أن النصر من عند الله – تعالى –وأن الأسباب ليست وحدها هي الكافية في الانتصار ودحر الأعداء، خصوصاً إذا افتخر العبد بها ونسي أن الأمور كلها بإذن الله، وإن العبد إذا وكل إلى قوته وكل إلى ضعف وعجز وعورة، أما التنازع والتفرق فهو أيضاً من أسباب الهزيمة قال الله – تعالى –: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦] فإذا كانت هذه الأمور الثلاثة من أسباب الهزيمة فإن الجنود المخلصين لا بد أن يتأملوا الأسباب، ومن أين حصلت هزيمتهم ثم ليسعوا في القضاء على الداء فتكون النتيجة خيراً ويكون المهزوم أوعى وأبعد نظراً مما كان قبل هزيمته، ويكون في الهزيمة من المصالح أضعاف أضعاف النصر يقول الله – تعالى –:

{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦] والإنسان قد يحب أن ينال شيئاً من المال ويطمع في ذلك ثم يصرف عنه ولا يحصل له فيندم على ذلك، ولكن عندما يراجع نفسه يقول لعل الله صرفه عني لخير أراده لي فيزول ندمه ويطمئن قلبه. ففوات المحبوب أيها المسلم قد يكون خيراً لك كما أن حصول المكروه قد

تكون عاقبته خيراً، والله – تعالى –يقدر هذا وهذا، فمن وفق للرضا بقضاء الله وقدره نال الخير والطمأنينة وراحة البدن، ومن فكر وقدر واعترض على القضاء و لم يرض فذلك القلق الهالك.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال الله – تعالى –: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} [الطلاق:١٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.. إلخ.

١١/٤/١٤٢٨ هـ

٢٩/٠٤/٢٠٠٧ م

المصدر: http://www.alukah.net

العراق: الهزيمة النفسية تطارد المحتل

أسامة نبيل

١٢/٧/١٤٢٩هـ الموافق له ١٥/٠٧/٢٠٠٨م

تحقيق النصر في أي حرب مَا يتطلب العديدَ من المُقَوِّمات على أرض الواقع لكي يكتمل بناؤه، ولكن مع أي خَلَل في تلك المقوِّمات يصبح النصر منقوصاً، وإذا اعتبرنا أن وجود القوات الأمريكية في العراق نصر لأمريكا؛ فإنه ينبغي أن يعود هذا النصر بالفخر للجنود الذين حققوا هذا الانتصار، لكن إن علمنا أن هؤلاء الجنود يعيشون أسوأ أيامهم، فضلاً عن أنهم مهزومون نفسياً – بحسب العديد من التقارير – يشربون المخدرات، ويتعاطون الخمر بضراوة؛ نتأكد ساعتها أن المنتصر هو مَن ترك هذا الأثر النفسي السيئ في قلوب وعقول الجنود الأمريكيين الذين بات الانتحار الحل الوحيد للخروج من أزماتهم النفسية.

الوصول لهذه النتيجة يجعلنا نرفع القبعة للمقاومة التي يحاربها الإعلام الموالي لأمريكا، ويعتبرها مهزومةً؛ في حين أنها منتصرة، ويمتد تأثير انتصارها حتى للعائدين من الحرب وليس فقط لمن لا يزال موجوداً بالعراق.

انتحار الجنود:

لم يجد العديد من الجنود الأمريكيين سوى الانتحار للخروج من أزماتهم النفسية التي يحيونها سواء أثناء وجودهم على خطّ القتال في العراق وأفغانستان، أو بعد عودتهم إلى وطنهم، فقد أثبتت تقارير أن ١١٥ جنديّاً انتحروا عام ٢٠٠٧م، وهو الرقم الأعلى منذ أن بدأ الجيش تسجيل هذه الحالات في ١٩٨٠م، وأكدت التقارير أن حوالي ١٠٠٠ جندي أيضاً حاولوا الانتحار، وتوقع مسئولون أمريكيون استمرار ارتفاع أعداد المنتحرين والمقدمين على الانتحار خلال العام الحالي أيضاً.

وذكر تقرير أن معظم حالات الانتحار جرت بصورة قد تكون "متماثلة"؛ حيث أقدم الجنود على الانتحار باستخدام أحد الأسلحة النارية التي بحوزتهم، وأوضح أنّ معظمهم عانوا إما من الخوف من بشاعة المقاومة، أو الانعزالية، وفشل علاقاتهم الاجتماعية والعاطفية، أو مشكلات مالية أو قانونية، أو لأسباب تتعلق بـ"عمليات قتالية".

وتحكي جريدة "النيويورك تايمز" قصة أحد جنود البحرية الأمريكية ويُدْعَى طوني كليكر، كان عائداً من ساحات القتال في العراق وتقول: إنه في معظم الليالي حينما يخلد إلى النوم في منزله بسانت بول عاصمة ولاية مينيسوتا الأمريكية يجد نفسه قد استعاد مشاهد القتال في أرض المعركة، فيقفز من نومه مذعوراً مرتعداً، ثم لا تفلح كل محاولاته في إعادته إلى النوم مرة أخرى، وبحسب الجريدة تصلح حالة الجندي كليكر لأن تكون نموذجاً لما خلّفَتْه حرب العراق من آثار نفسية ومَرَضِيَّة على من شارك فيها جراء المقاومة القوية التي لاقاها جنود الاحتلال هناك، وأنّ حالة كليكر هذه ما هي إلا جزء من شواهد عديدة بأن الإفراط في تناول الكحول بات ظاهرة متعاظمة وسط الجنود العائدين من العراق وأفغانستان.

تكرار لسيناريو فيتنام:

ويقول خبراء: إن ثمة دراسات تشير إلى أن المشكلة تتفشى بصفة خاصة بين مَنْ يعانون من اضطراباتٍ تَعْقُبُ الإصابة كما كان الحال إبان حرب فيتنام، كما تشير الدراسات إلى أن الإفراط في تعاطي المخدرات وسط العائدين زاد قليلاً، لكنه يظلّ أقل كثيراً من حالات الإفراط في شرب المسكرات، وبالتالي – تقول الصحيفة – يجد أعداد متزايدون من أولئك الجنود أنفسهم قد انزلقوا في متاهات الجريمة؛ ليقفوا أمام القضاء الجنائي متهمين، وينتهي الأمر ببعضهم في السجن لارتكابهم جرائم قتل أو غيرها من الجرائم الكبيرة، أما الكثرة الغالبة منهم فيتورطون في قضايا عراك في الحانات، أو قيادة السيارة بإهمال، أو جرائم عنف منزلي بسبب السُّكْر.

ووجدت دراسة أجرتها منظمة "محاربون قدامى من أجل أمريكا" أن حاجة الجنود إلى المساعدة النفسية قد تعاظمت، وأن العبء على العيادات أثقل كاهل نظام الصحة العقلية، حتى طفق الجنود ينتظرون شهراً كي يحصلوا على مقابلة الطبيب، فما كان من الجنود والحالة هذه إلا أن يضمدوا جراحاتهم في الحانات المحلية كما تقول الصحيفة.

٤٠ ألف حالة:

وكانت بيانات للجيش الأمريكي قد أفادت أن حالات الإصابة الجديدة باضطرابات نفسية بين الجنود الأمريكيين الذين أرسلوا إلى العراق وأفغانستان ارتفعت بنسبة ٤٦,٤ بالمئة في ٢٠٠٧م ليبلغ إجمالي عدد الحالات في خمس سنوات نحو ٤٠ ألف حالة، وأظهرت الإحصاءات التي أصدرها الجيش

أن عدد الحالات الجديدة التي شخصتها المنشآت العسكرية على أنها اضطرابات نتيجة التعرُّض لصدمات ارتفعت إلى ١٣٩٨١ حالة العام الماضي من ٩٥٤٩ حالة في عام ٢٠٠٦م.

وارتفعت تلك الأعداد بعد أن أرسل الرئيس الأمريكي جورج بوش مزيداً من القوات للعراق في محاولةٍ لرفع مستوى العمليات ضد المقاومة، وزاد فترة خدمة الجندي من ١٢ إلى ١٥ شهراً، وزادت الولايات المتحدة قواتها في أفغانستان كذلك.

هزيمة نفسية:

وأكّد خبراء نفسيون أن الاضطراب الذي يصاحب عدداً من الجنود الأمريكيين العائدين من العراق وأفغانستان ما هو إلا هزيمة؛ لأن الاضطراب النفسي مسئول عن الشعور بأي إنجاز، سواء كان هذا الإنجاز سلبيّاً أو إيجابيّاً، وبالتالي عودة الجنود الأمريكيين من العراق ليدخلوا مَصَحَّات نفسية أكبر دليل على الهزيمة، أو على أقل تقدير انكسار نفسي، وهو ما يُعَدّ بداية الطريق نحو هزيمة حقيقية.

ويقول الخبير والاستشاري المصري د. محمد المهدي أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر: الاضطراب النفسي الذي يصاحب الجنود العراقيين العائدين إلى واشنطن لا يعني إلا الهزيمة؛ لأن الانتصار له نشوة وفرحة، ولكن ما يحدث أن معظم هؤلاء الجنود يعودون إلى بلادهم ليدخلوا مَصَحَّات نفسية، وليس لهذا معنى سوى أنهم مهزومون نفسيّاً، ويحتاجون لرعاية خاصة؛ كي يستطيعوا الخروج من الحالة السيئة التي يحيونها بعد تجربة قاسية خاضوها في العراق.

ويُرْجِع الدكتور المهدي سبب الانهزام النفسي للجنود الأمريكيين في العراق إلى المقاومة العراقية التي أظهرت بَسَالةً وشجاعةً أمام جيش كان يعتبر نفسه الأقوى في العالم، وفجأة أمام مجموعات من المسلحين يقعون قتلى، ويرون ما لا يمكن أن يتخيلوه، وبالتالي النتيجة هي إما: القتل، أو التشوه، أو الاضطراب النفسي، مشيراً إلى أنه ليس بالضرورة أن نعتبر النصر في الحرب استقراراً لقوى المعتدي في البلد المحتل، وإنما لا بدّ أن نحسب النصر على كافة الأصعدة إذ ما هي الفائدة التي عادت على الجنود الأمريكيين من تجربة حرب العراق، هل هم يعيشون نشوة النصر؟ الإجابة بالطبع لا.

ويؤكد الدكتور المهدي أن ظهور الهزيمة على وجه الجنود الأمريكيين ربما يداريها الآن الإعلام الأمريكي، لكن مع خروج الرئيس الحالي جورج بوش من الحكم ستظهر حقائق يَشِيب لها الوجدان، وستقع ورقة التوت عن الجميع، وسيعلم العالم كيف أن المقاومة العراقية حققت نجاحات لم تحققها قوات أكبر دولة في العالم.

وبدوره وصف الدكتور عمار علي حسن مدير مركز أبحاث ودراسات الشرق الأوسط الحالة النفسية التي يعود عليها الجنود الأمريكيون إلى بلدهم من العراق بالانكسار، وقال: نحن أمام حالة انكسار، لكنها لم تصل بعدُ إلى درجة الهزيمة النهائية لهذه الجنود؛ لأنه عندما تتحدث عن هزيمة ونصر لابد لهذا النصر أن يكون له شروط وظواهر جوهرية على الأرض، لكنها حالة انكسار تطول كل الجنود

الأمريكيين الذين شاركوا في حرب احتلال العراق، كما أنها حالة انكسار عام للولايات المتحدة بعد أن أصبحت على مشارف الهزيمة، والتي ستكتمل بانسحاب جيش الاحتلال الأمريكي من العراق.

وعن المعاناة النفسية التي يعيشها الجنود الأمريكيون يقول الدكتور عمار: المعاناة النفسية لجنود الاحتلال بالعراق بدأت مع اليوم الأول للغزو؛ لأنه هناك بعض الجنود - إن لم يكن معظم الجنود - لم يكن لديهم اقتناع بأنها حرب عادلة ومشروعة، وغياب هذا الاقتناع جعل الجنود الأمريكيين يحبطون، وزاد هذا الإحباط مع عدم اكتشاف أسلحة الدمار الشامل التي كانت الذريعة التي أعلنتها وقتها الإدارة الأمريكية لاحتلال العراق، فضلاً عن تحول السياسة الأمريكية في العراق إلى سياسةٍ ديكتاتورية تقتل ولا شيء آخر، مما كان له الأثر السيئ في نفوس الجنود الأمريكيين الذي وعوا أنها حرب لا علاقة لها بالعدل وتكريس الديمقراطية، وإنما هي لدوافع أخرى.

ويستطرد الدكتور عمار قائلاً: إدارة بوش لعبت أيضاً على فكرة احتضان القوات العراقية، ولكن مع الوقت باتت هذه الفكرة مجرّد وهْمٍ مع زيادة عمليات المقاومة ضد الاحتلال ومن يعاونهم، وإصرارها على النصر، وبالتالي ارتفاع معدلات المرضى النفسيين في العراق أمر طبيعي لكل هذه الأمور؛ لأن الجندي الأمريكي ببساطة بات الآن غير مقتنع أصلاً بسبب وجوده هناك؛ لأنه يواجه عدوّاً غير معروف، وشرساً، ولديه إصرار على الانتقام والثأر، كما أن هذا الجندي يعيش في أرض ليست أرضه، والخبرة الاستعمارية للولايات المتحدة هشَّة.

وينهي الدكتور عمار حديثه: بالطبع الانهزام النفسي لقوات الاحتلال الأمريكي في العراق ربما يعدّ انكساراً لكنه انتصار للمقاومة العراقية برغم كل الظروف الصعبة التي تعيشها الفصائل الآن، لكنه ليس انتصاراً حاسماً، وإنما هو طريق واضح المعالم إلى النصر، يتعزّز كل يوم.

http://www.islamtoday.net/articles/show-articles-١٣٣١٠&artid٧٩&catid٧٢content.cfm?id

---

الهزيمة النفسية

٣/١٤٢٤هـ

د. فيصل بن سعود الحليبي

الحمد لله الخافض الرافع ، الباسط الرازق ، القوي المتين ، أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا .

أما بعد : فيا معاشر المسلمين ، اتقوا الله فيما تعلنون وتسرون ، فإن الله يوصيكم بالتقوى فيقول : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } .

أيها الأحبة في الله : في مثل هذه الأزمات العصيبة والمصيرية التي يمر عليها العالم الإسلامي اليوم يتلذذ أقوام بوصف الأمة بالضعف والمهانة ، ويتفكهون بزرع هذه الأوصاف في القلوب ، غير متيقظين إلى أن من أسباب هذا الضعف هو بث الهزيمة في النفوس وتنشئة الأجيال على سلوكياتها والتطبع بأنماطها إن هذا الصنف من الناس سلبي الإرادة فهو لا يجيد إلا النقد غير المجدي ، أو التشاؤم غـــير المفيـــد ، وتراه أبعد ما يكون عن ميدان العمل الجاد ، والعطاء المثمر ، كما أنه يتوهم كثيرًا من العراقيل الـــتي تحول دون نتاجه لأمته ومجتمعه ، وربما يصل الأمر ببعض هؤلاء أن تتحول قطرات المطر في الصـــباح الباكر تجعله يفكر طويلاً في ذهابه إلى عمله،وقد لا يذهب !!

لن أسهب طويلاً في وصف في هذا الصنف ، لأن من العجيب كما يبدو لي أنه صنف يعـــي هـــذه الصفات في قرارة نفسه ، ويعلم وجودها فيه،غير أنه مهزوم بسببها..

ولنبحث سويًا أيها الأفاضل في بعض أسباب الهزيمة النفسية وعلاجها، علنا نتحسس الـــداء ، ونجـــد الدواء .

السبب الأول : ضعف التوكل على الله تعالى ، الذي كرر علينا الأمر بالتوكل عليه في كتابه فقال : } وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ { ، وقال سبحانه : } إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ { ، فإذا ما ملأ المؤمن قلبه بالتوكل على الله لم يبـــق للجـــزع في قلبـــه موضـــعًا ، ولا للاضطراب في نفسه مكانًا ، بل تراه ثابت الجنان ، واثق الخطى ، يعمل للدنيا كأنه سيعيش أبـــدا ، ويعمل للآخرة كأنه سيموت غدا .

فما خاب حقًا من عليه توكلا *** توكل على الرحمن في الأمر كله

تفز بالذي ترجوه منه تفضلا *** وكن واثقًا بالله واصبر لحكمه

السبب الثاني : الفراغ الروحي ، فإن الروح إذا لم تجعل لها جدولاً عمليًا يخدم الإنسان فيه كل مـــن تجب عليه خدمته ، انشغلت هذه الروح بأوهام الهزيمة والضعف ، وأصبحت هشة تشرب كل خبر ، وتصدق كل نبأ ، فكلمة تميل بها يمينًا وكلمة شمالاً ، أخي الحبيب : إن الحقوق كـــثيرة ، فاشـــغل نفسك بتأدية كل حق لصاحبه ، تجد نفسك في غاية الأنس والسعادة ، فأهلك في حاجتك ، وبلادك في حاجتك ، وأمتك في حاجتك ، فتأمل كيف تزيد هذا الحقوق من قوة الأمة إذا هي أديت ، ومـــا والله ما ضعفت الأمة إلا بعد أن فرطنا في أداء حقوق بعضنا مع بعض ، يقول النبي صـــلى الله عليـــه وسلم : (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّـــاةِ الْقَرْنَـــاءِ) رواه مسلم .

عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ آخَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَـــزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً : فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ ؟ قَالَتْ : أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَـــهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا ، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا ، فَقَالَ : كُلْ قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ

حَتَّى تَأْكُلَ ، قَالَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ ، قَالَ نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، قَالَ سَلْمَانُ قُمِ الْآنَ ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَدَقَ سَلْمَانُ) رواه البخاري .

السبب الثالث : عدم اليقين بنصر الله تعالى ، وضعف الإيمان بقدرته ، وإنما أتى ذلك من الجهل بعظمته ، وقلة تدبر كتابه العزيز ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقصر النظر في كل حادثة تقع ، حتى يظن بعض المنهزمين نفسيًا بأن كل قضية كبرى تحدث بأنها هي نهاية المسلمين وفيها هلاكهم ، ألم يقرأ من دبت الهزيمة في أوصاله قول الله تعالى : { إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم } ، وقوله سبحانه : { والعاقبة للمتقين } ، ألم يسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ) رواه البخاري ، فلنوقن بأن النصر لمن نصر الله لا لمن حاربه وحارب أولياءه ، ولنؤمن بأن العاقبة لأهل التقوى ، لا لأهل الفجور والمنكرات ، ولنجزم بأن أهل الحق ظاهرون حتى يأتي أمر الله .

السبب الرابع : التعلق بالدنيا ، والمبالغة في حب البقاء فيها ، ومحاولة التلذذ بكل ملذاتها ، وبالمقابل نسيان الآخرة ، وما أعد الله فيها من النعيم للمتقين ، والجحيم للكفرة والمجرمين ، فذلك التعلق وهذا النسيان لا شك أنهما يوديان بالمرء في حفر الحرص على هذه الدنيا ، حتى يشعر بأنه لابد أن يبقى فيها بلا موت ، ويحس بأن كل صيحة عليه وعلى أمواله ، حتى يصل به الحال أن يهون حال الأمة في نظره بالنسبة لحال دنياه ، فيا بؤس من تعلق قلبه بالدنيا وهي دار الغرور والفناء ، ونسي الآخرة وهي دار البقاء والقرار { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } .

لو لم يكن منها إلا راحة البدن *** هي القناعة فالزمها تعش ملكًا

هل راح منها بغير القطن والكفن*** وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها

السبب الخامس : قلة العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف لم تهزمه أعاصير الكفر ، ولم تزده في نفسه إلا ثباتًا ويقينًا ، إلى أن استعذبت ألسنة العرب والعجم شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فلم تكن الأحزاب لتقهره ، ولم تكن المغريات لتثنيه ، بل سار على طريق ربه عز وجل إلى أن أقر الله عينه بأمته في الدنيا ، وسيقر الله عينه بها في الآخرة ، لتكون أكثر الأمم دخولاً الجنة ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ ، قُلْتُ مَا هَذَا !! أُمَّتِي هَذِهِ ؟قِيلَ : بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، قِيلَ : انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ، ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ)رواه البخاري .

أيها المسلمون : لننبذ عن أنفسنا الهزيمة المقيتة ، فليست خليقة بأمة كأمة محمد صلى الله عليه وسلم ملأ ضياؤها مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبحت شامة بين الناس بجميل أخلاقها وحسن منهجها ، فالأمة اليوم أحوج ما تكون لأفراد أقوياء في سواعدهم ونفوسهم وعقولهم وعتادهم ، لتكون بهذا كله حصنًا منيعًا يحول دون طمع الأعداء ، ويحجب دون نظرات الحاقدين ، ويحبط كيد المغرضين .أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : } وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ { .أستغفر الله فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو التواب الرحيم .

الخطبة الثانية :

الحمد لله مجيب دعوة المضطرين ، وناصر عباده الموحدين ، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وأجمعين .

أما بعد : فما من أزمة تمر إلا وينبغي أن تذكرنا بذنوبنا وتقصيرنا في حق الله وحق خلقه كل خلقه حتى البهائم ، يقول الله تبارك وتعالى : { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

فلنرجع الله تعالى ، ولنتب إليه ، ولنكثر من الاستغفار والتضرع لله تعالى أن يكفي بلاد المسلمين شر الكوارث والحروب ، وأن يحفظ على المسلمين أمنهم ودينهم وأعراضهم وقوتهم ، ولنقلع عن الذنوب والمعاصي ، ولنأخذ على يد الظالم والعاصي ، بالنصح بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولنرفع أكف الضراعة إلى الله تعالى أن يكشف الغمة عن ديار الإسلام ، وأن يجعل مكر السوء بأهله .

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا ، أن تعز الإسلام وتنصر المسلمين ، وأن تذل الشرك والمشركين ، اللَّهُمَّ إِنَّا نسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قلوبنا ، وَتَجْمَعُ بِهَا أمرنا ، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِنا ، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائبنا ، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدنا ، وَتُزَكِّي بِهَا أعمالَنا ، وَتُلْهِمُنا بِهَا رُشْدنا ، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتنا ، وَتَعْصِمُنا بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، اللَّهُمَّ أَعْطِنا إِيمَانًا وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ ، وَرَحْمَةً نَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْعَطَاءِ ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ .

ونسألك اللهم دعوة مستجابة لإخواننا المستضعفين في كل مكان ، أنت العليم بحالهم ياربنا ، من لهم سواك ، يا سامع الشكوى ، ويا عالم السر والنجوى ، يا عظيم السلطان ، يا منزل القرآن ، يا من خضعت لك الرقاب ، وذلت لجبروتك الصعاب ، ولانت بقدرتك الصلاب ، اللهم ففك أسراهم ، وعافي مرضاهم ، وارحم أطفالهم وشيوخهم ونساءهم ، وأيد مجاهديهم ، وبارك لهم في عتادهم ، وبدل فقرهم غنى ، وخوفهم أمنا ، وانشر على أرضهم دينك وكتابك يا عزيز .

ربنا اشف صدورنا في اليهود الغاصبين ،وفي كل عدو لك وللمسلمين ، اللـــهم أحصـــهم عـــددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ، اللهم شتت شملهم ، وأضعف قوتهم ، وزلزل الأرض من تحـــت أقدامهم ، وجمد الدماء في عروقهم ، واجعلهم غنيمة للمسلمين ، فإنهم لا يعجزونـــك ، وأنـــت الله الجبار ، أنت الله العزيز ، أنت الله المنتقم ، اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ، وأدر عليهم دائرة السوء،وأنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عـــن القـــوم المجرمين . اللهم أقر عيوننا بتحرير المسجد الأقصى ، وارزقنا فيه صلاة مطمئنة قبل الممات ، وما ذلك عليك بعزيز . اللهم أعن أولياء أمورنا وعلماءنا للعمل بكتابك ، وتطبيق سنة نبيك محمد صـــلى الله عليه وسلم ، اللهم من أراد بلادنا وبلاد المسلمين بسوء فأشغله في نفسه ، واجعل تدبيره تدميرًا له .
وصلوا وسلموا على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كيف دخل الإنكليز على مصر

إعداد

سليمان بن صالح الخراشي

/http://www.saaid.net

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرؤا التاريخ إذ فيه العِبَر ضلّ قومٌ ليس يدرون الخَبَر

من قرأ تاريخ الاحتلال الإنجليزي للبلاد المصرية المسلمة في القرن الماضي وتابع خطواته، متأملاً مـــا تبين من سبيل المجرمين للوصول إلى هذا الأمر الجلل؛ وجد في ذلك الكثير من العِبَر الـــتي تســـتحق التدوين، ويمكن الاستفادة منها لمنع تكرار ما حدث في دولٍ أخرى –لا قدّر الله-. لأن طرائق مكـــر الأعداء –على اختلاف دولهم- متشابهة؛ يبني اللاحق منهم على خطط السابق، وينسج على منواله، كما هو واضحٌ جداً الآن في العراق؛ حيث استفاد الأمريكيون كثيراً من الملـــف الإنجليـــزي القـــديم للإيقاع من جديد بهذا البلد المسلم.

وتاريخ الإنجليز مع الدول العربية والإسلامية - عامة - في هذا العصـــر مليـــئ بالخبـــث والحقـــد والمؤامرات المتنوعة في أماكن شتى من بلاد الإسلام . فمامن مصيبة تحل بهم إلا وتجد من ورائها كيد الإنجليز وتدبيرهم ، والشواهد على هذا كثيرة لاأظنها تخفى على متابع . حتى وصفهم شاعر العـــراق الرصافي زمن احتلالهم لبلاده بقوله في ديوانه (٣/٢٤٠-٢٤٣) :

دع اللوم واسمع ما أقول فإنني *** قتلتُ طباع " التيمسيين " بالبحث

كأنهم والناس عُث وصوفة *** وهل يستقيم الصوف في عثة العُث

فكم حرثوا في أرض مستعمراتهم *** مظالم سودًا كن من أسوأ الحرث

وكم أيقظوا والناس في الليل نُوّم *** بها فتنًا كالدجن يهمي على الوعث
وهم يأكلون الزبد من منتجاتها *** ويُلقون للأهلين منهن للفرث
يقولون إنا عاملون لسعدكم *** ولم يعملوا غير الكوارث والكرث
إذا مارأيت القوم في فخ مكرهم *** رققت لهم تبكي على القوم أو ترثي
فلا ترجُ في الدنيا وفاء لعهدهم *** فلا بد في الأيام للعهد من نكث

لذا فقد أحببت أن ألقي الضوء –باختصار– على خطوات ذاك الاحتلال البغيض وما قاله المؤرخون عنه، وما يستفيده المسلمون والدول الإسلامية منه – لا سيما بلاد التوحيد – من عبر ومواعظ؛ كي يغلقوا الفرجات التي لا زال ينفذ منها شياطين الإنس.

مبتدئاً ذلك بموجز تسلسلي لما حدث، ثم بذكر أقوال المؤرخين، ثم أذكر العِبَر التي يُمكن الاستفادة منها .

سائلاً الله أن ينفع بما كتبت، وأن يهيئ له آذاناً صاغية، وعقولاً واعية، والله الموفق.

موجز تاريخي للأحداث :

– كانت مصر كغيرها من بلاد العالم الإسلامي تحكمها الدولة العثمانية . وكانت تُحكم بالشريعة الإسلامية ، وترتكز في أمورها على الإسلام بوجود الأزهر ، وهيئة كبار العلماء ، مع قصور وانحراف ، قلما يسلم منه أحد .

– قام الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت بحملتهم على مصر عام ١٧٩٨م ، بعد أن مهدوا لذلك بإرسال الجواسيس الذين يدرسون وضع البلاد ومدى قابليته للاحتلال .

ولكنهم لم يفلحوا في البقاء فيها سوى ٣ سنوات نظرًا لاتحاد أهل البلاد ضدهم، ووقوفهم صفًا واحدًا تجاه حملتهم –حكامًا ومحكومين– ؛ رغم تطمينات نابليون الكثيرة لهم بأنه لا يريد الإسلام بسوء !

– كرر الإنجليز ما قام به إخوانهم الفرنسيون؛ فأرسلوا حملة عسكرية بقيادة "فريزر" لاحتلال مصر؛ لكنها باءت بالفشل –أيضاً–؛ للأسباب نفسها.

– استمر العثمانيون يحكمون مصر من خلال الولاة الذين يعينونهم واحداً تلو الآخر، ولكن الشعب المصري لا يرتضيهم لظلمهم وتعسفهم.

– إلى أن تم تعيين (محمد علي باشا) والياً على مصر بعد أن اختاره الشعب والعلماء والوجهاء – بإذن مسبق من الدولة العثمانية– مشترطين عليه أن يحكم بالعدل!

– استغل (محمد علي باشا) الفرصة ولم يفوتها ، فحكم البلاد ، مفتتحًا حكمه بمذبحة شنيعة لبقايا "المماليك" ، الذين كانوا ينافسونه .

– انشغل (محمد علي باشا) بالأمور العسكرية التي كان من أهمها: حملته الظالمة على أهل الدعوة السلفية في الجزيرة العربية، وحملته على السودان، وغيرها من الحملات العسكرية.
– هلك محمد علي باشا عام (١٨٤٩م).
– تولى الحكم بعده حفيدة: عباس بن طوسون بن محمد علي (من عام ١٨٤٨م إلى ١٨٥٤م).
– ثم جاء بعده سعيد بن محمد علي (من١٨٥٤ إلى ١٨٦٤). وفي عهده: تم منح امتياز شق قناة السويس لصديقه المهندس الفرنسي " دي ليسابس " بشروط مجحفة جرَّت على بلاد مصر الويلات فيما بعد.
وفي عهده أيضاً بدأت مشكلة الديون حيث بدأ يستدين من الغرب بفوائد ربوية لينجز قناة السويس وغيرها من الأعمال المرهقة لميزانية البلاد دون فائدة كبيرة تجنى منها .
– جاء بعده: الخديو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي(من١٨٦٣ إلى ١٨٧٩م).
وفي عهده افتتحت قناة السويس، وتضخمت الديون التي كان يستدينها لينفقها بإسراف على أمور شكلية أولافائدة منها للبلاد ؛ مما اضطره لبيع نصيب مصر من القناة على الإنجليز !!
وفي عهده بدأ تدخل الدول الأوربية في البلاد بشكل سافر بدعوى حماية حقوقها المالية ؛ إلى أن وصل الحال إلى فرض وزيرين أوروبيين ضمن تشكيلة الوزراء ! إضافة إلى تدفق الأجانب في عهده على مصر ، وإقامة محاكم خاصة بهم .
– كان رئيس الوزراء في عهد إسماعيل : القبطي النصراني ! نوبار باشا الذي كانت ميوله وعواطفه إلىجانب بريطانيا.
– في عهد إسماعيل: قدم الرجل الغامض "جمال الدين الأفغاني" إلى مصر بدعوة من الوزير رياض باشا .(كان رياض من أصل يهودي، ادعت عائلته الإسلام).
– أخذ الأفغاني يبث أفكاره "الثورية" و"العصرية" بين أصناف المصريين الطامحين من مسلمين وغيرهم؛فتشكلت من حوله مجموعة من المتأثرين بأفكاره.
تركزت فكرة الأفغاني ومن معه على تكوين الصحف المتنوعة والمشاركة فيها، وتشويه صورة الحاكم والعلماء في أذهان الناس ، واستغلال أوضاع البلاد لتهييجهم ، إضافة إلى الإلحاح على المطالبة بالحكم النيابي، وتأسيس الأحزاب، والمشاركة الشعبية .. الخ. فعلى سبيل المثال: كان الأفغاني يهاجم الخديو إسماعيل علانية ويقول للمتجمهرين حوله: (أنت أيها الفلاح تشق الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟! لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟!) (دراسات في تاريخ العرب الحديث، للدكتور عمر عبد العزيز عمر، ص ٢٩٧) ، وغيرها من الكلمات الثورية التهييجية.

- تم عزل الخديو إسماعيل من قبل الدولة العثمانية بعد ضغوط إنجليزية لأنه بدأ يعارض بعض قراراتها .

- تولى الحكم بعده ابنه الخديو توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢م) الذي أحس بخطورة الأفغاني وما يبثه من أفكار، فنفاه خارج البلاد؛ لكن بعد أن بذر بذرته الخبيثة في البلاد.

- كان وزير الحربية في عهد توفيق : (عثمان رفقي)، وهو شركسي متعصب قام بعدة أعمال ظالمة ضد الجنود والضباط المصريين؛ كمنعهم من الترقيات وغيرها.

- مما دفع بأحمد عرابي (وهوأحد المتأثرين بدعوة الأفغاني ومحمد عبده) أن يثور ضد هذا الظلم ويطالب بإقالة عثمان رفقي . فاستجيبت مطالبه بعد عدة أحداث ومنازعات.

- لم يكتف عرابي بما تحقق ؛ إنما اغتر بمن حوله وظن أنه ممثل الشعب، مما أداه إلى الاستطالة على ولي أمره، والخروج بمظاهرة ضده.

- كان الإنجليز يشايعهم الفرنسيون يرقبون الأحداث بغبطة وسرور! وكانوا يوعزون من خلف ستار إلى عرابي أن امض في طريق "الإصلاح"، ولا تخش أحدًا! ومن ذلك ما ذكر محمد عبده في مذكراته عن الثورة العرابية –وهو أحد أقطابها- من أن قنصل فرنسا (أرسل إلى أحمد عرابي وإخوانه يقول لهم: إنه يسره ما يراه من صلابتهم وعزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يُضعفهم ما يُهَددون به) ! (الأعمال الكاملة لمحمد عبده، ٥٢٨/١، ٥٣١) .

و(أرسل إلى عرابي كتابًا يمدحه فيه على ثباته، ويشجعه على عدم المبالاة بالحكومة). (مصر المجاهدة في العصر الحديث، عبد الرحمن الرافعي، ص ٣٤) .

أما إنجلترا فكانت تفعل الأمر نفسه بل أشد، من خلال جاسوسها المدعو: " بلنت" الذي كان يجوس بلاد مصر يؤلب الناس على الحكم، ويراسل عرابي ويستحثه على مواصلة الضغط على الحكومة لعلها تستجيب لمطالب "الإصلاح"! ، وهدفه الحقيقي فصل مصر عن الدولة العثمانية تمهيدًا لاحتلالها .

يقول الدكتور محمد محمد حسين –رحمه الله- عن "بلنت" هذا: (كان لا يفتر عن التنقل بين مضارب الأعراب في مصر.. يدعو المصريين إلى الثورة، ويتكلم بعد وقوعها باسم عرابي، ويقدم له صورًا مضللة عن صفته الرسمية، وقدرته السياسية، وقوة الجيوش الإنجليزية..). (الإسلام والحضارة الغربية، ص ٦٦).

ويقول الأستاذ مصطفى غزال عنه : (كان من أشد الناس تفانياً في مصالح الإنجليز، رغم أنه يتظاهر بصداقته للشرق المتمثل بالشعوب التابعة لتركيا، وبعدائه للحكومات البريطانية، بل كان أحياناً يتظاهر بالدفاع عن قضايا الشعوب الشرقية، ويقف بجانبهم، كما وقف بجانب عرابي، ودافع عنه بعد أسره، كان هذا نوعًا من الدهاء والحنكة الإنجليزية).(دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، ص ١٢٣).

- أحس الخديو توفيق بالخطر فلجأ إلى الإسكندرية طالباً من الإنجليز المتربصين بسفنهم في البحر حماية عرشه ! مع ضغطه هو والإنجليز على السلطان العثماني لإصدار منشور في عصيان عرابي ؛ لكي ينفض الناس عنه .

- افتعل الإنجليز مذبحة للنصارى في الإسكندرية ليتخذوها ذريعة لاحتلالها عام (١٨٨٢م) بدعوى حماية رعاياهم !

قبل أن تتم المصالحة بين عرابي والدولة العثمانية .

- تعاون المنافقون الخونة من أبناء مصر مع الإنجليز ، ومكنوا لهم من احتلال البلاد بعرض من الدنيا قليل !

- لم يستجب عرابي للناصحين الذين حثوه على سد قناة السويس لكي لا يتسلل منها الإنجليز إلى عمق الأراضي المصرية ؛ منخدعاً –كما سيأتي- بتطمينات المهندس الفرنسي صاحب امتياز القناة .

- قضي على الثورة العرابية بعد أن أوقعت البلاد بيد الاحتلال الإنجليزي ، الذي استمر أكثر من ٧٠ عاماً !! (١٨٨٢ – ١٩٥٦م). رغم ادعاءاتهم وتصريحاتهم المتكررة بأنهم سيخرجون حالما يعود الهدوء والأمن للبلاد !!

- بعد أن تمكن الإنجليز من البلاد المصرية عاثوا فيها فساداً في جميع المجالات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، مستعينين في ذلك كله بالمتعاونين معهم من أفراد الطابور (الخامس) ؛ وعلى رأسهم العصرانيون بقيادة شيخهم محمد عبده الذي كان له ولتلاميذه من بعده الدور الأول في تغريب البلاد وترويضها لقبول مطالب الاحتلال .

- استمر الخديو توفيق في الحكم ، ثم جاء بعده ابنه عباس حلمي (١٨٩٢ – ١٩١٤) ثم حسين كامل ابن إسماعيل (١٩١٤م – ١٩١٧م) ثم فؤاد بن إسماعيل (١٩١٧م – ١٩٣٦م)، ثم الملك فاروق ابن فؤاد (١٩٣٦-١٩٥٢م) . وجميع هؤلاء الحكام لم يكن لهم عقد ولا حل، إنما كانوا واجهة شكلية أمام الناس، وأما السلطة الحقيقية فكانت بيد الإنجليز.

- قام جمال عبد الناصر ومن معه بثورتهم العسكرية على الحكم الملكي عام (١٩٥٢م) معلنين قيام الجمهورية العلمانية بتواطؤ وتمكين من الغرب ، (لاسيما أمريكا التي رعت ثورتهم منذ البداية) (انظر : " ثورة يوليو الأمريكية " لمحمد جلال كشك - رحمه الله -) .

- رحل الإنجليز عن مصر عام (١٩٥٦م) بعد أن سلموا السلطة لمن يحققون أهدافهم في مسخ البلاد وتغريبها، والقضاء على مظاهر الإسلام فيها ؛ وعلى رأس ذلك إلغاء الحكم بالشريعة . وبعد أن تحقق أهم هدف لهم ؛ وهو التكين ليهود من إقامة دولة لهم في أرض فلسطين .

أقوال المؤرخين :

أ - حال البلاد قبل الخديو إسماعيل :

(كانت فكرة احتلال مصر قد راودت الأوساط الفرنسية مراراً في القرن الثامن عشر) . (تـاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٢٧).

(في عهد لويس السادس عشر كتب سفير فرنسا بالأستانة سنة ١٨٧١ يحث حكومته على فتح مصر ، وكان مما جاء في رسالته " إن جيش مصر ضئيل ، والجنود لم يقفوا في ميدان حرب منظمة ، وليس لديهم مدفع واحد ") . (موسوعة التاريخ الإسلامي ، د أحمد شلبي ، ٥ / ٣١٣) .

(لم تكن حملة نابليون على مصر واحتلالها (١٧٩٨-١٨٠١) مغامرة طارئة مدفوعة بظروف آنية يأتي على رأسها الصراع الفرنسي البريطاني، وفي محاولة فقط لضرب عدوته اللدود -بريطانيا- بقطع شريان مواصلاتها ومن ثم تهديد أعز مستعمراتها -الهند- وإنما كانت -وإضافة إلى ذلك- حركة بارعة ذات هدف استراتيجي مدروس بعناية فائقة، فلا شك أن نابليون يدرك جيداً -وفي ذهنه صورة الحروب الصليبية وما انتهت إليه- أن مصر هي مفتاح الشرق، وإنها هي الحاجز المنيع الذي يحمي هذا الشرق بإمكاناتها البشرية ومكانتها الثقافية والحضارية كقلعة من أهم إن لم تكن أهم قلاع الذود عن العالم الإسلامي، وموقعها الجغرافي المتميز، ولكنه يدرك أيضاً وبكل وضوح أنه وإن استطاع اختراق هذا الحاجز بحراب جيشه لن تلبث هذه الحراب أن ترتد وتنكسر إن لم ينسف هذا الحاجز من أساسه، هذا الحاجز هو الحاجز الديني بإيديولوجيته الثقافية ومضمونه الحضاري ، ومن ثم يستطيع أن يحول مصر إلى قاعدة أوربية يستطيع بواسطة إمكانياتها البشرية وموقعها الاستراتيجي المتميز أن يبسط سيطرته على كل هذا الشرق ويحقق أهداف أسلافه رواد الحركة الصليبية متجنباً المواجهة السافرة بين الإسلام والمسيحية باستخدام قوة إسلامية لتحقيق أهداف صليبية).

(قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية ، د سليمان الغنام ، ص ١٢-١٣).

(إن الباحث المنصف يجد الحملة الفرنسية فتحت على مصر باب المتاعب والاستعمار ، فقد لفتت أنظار الإنجليز إلى أهمية مصر ..) . (موسوعة التاريخ الإسلامي ، د أحمد شلبي ، ٥ / ٣٣٣) .

(وفي عهد الحملة الفرنسية فكر نابليون .. في وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، وعهد بدرس هذا المشروع إلى المسيو (لوبير) كبير مهندسي الري والطرق والجسور ، فقضى عامين في درسه وفحصه ، وعاونه فيه بعض مهندسي الحملة، وقدم تقريرًا إلى نابليون بعد مغادرته مصر). (عصر إسماعيل ، الرافعي ، ص ٥٣) .

كان التفكير في شق قناة السويس من أيام محمد علي باشا ؛ لكنه لذكائه رفض ذلك (خوفاً من أن تجر قناة السويس على مصر ويلات التدخل الأجنبي) . (١٠٠ عام على الثورة العرابية ، مركز الأهرام للدراسات ، ص١٧).

(توفي محمد علي عام ١٨٤٩، وكانت مصر قد دخلت مرحلة تاريخية جديدة في حياتها السياسية والثقافية، وقد حاول خلفاؤه الاستمرار في النهضة، على أن سياسة الإسراف والتبذير التي اتبعها

هؤلاء، ثم القروض المالية التي استدانوها من الأجانب فتحت الباب أمام التدخل الأجـنبي في شـون البلاد الداخلية). (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٥٣).

(في عهد سلطة سعيد باشا كانت مصر بلا جدال أكثر بلاد الشرق رخاء) . (تاريخ مصـر قبـل الاحتلال البريطاني وبعده ، تيودور روذستين ، ص ٤٤). بسبب أن الحرب توقفت

(من أغلاط سعيد أنه .. هو الذي منح امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفـة لمصـر . وقنـاة السويس سلاح ذو حدين ؛ فإذا استطاعت مصر حمايتها واستغلالها كانت لمصر خيرًا وبركة ، أما إذا كانت بابًا نفتحه للأجانب ، ونجلب بسببه استعمار مصر والسيطرة عليها لصالح الدول القوية الـتي تستعمل القناة ، فلا كانت القناة) .(موسوعة التاريخ الإسلامي ، د أحمد شلبي ، ٥ / ٤١١) .

(قدم فرديناند دي لسبس (١٨٠٥ – ١٨٩٤) الفرنسي الجنسية Ferdinand De Lesseps إلى مصر سنة ١٨٣٢، وشغل منصب نائب قنصل فرنسا بالإسكندرية ، وعثر – بمحض المصادفة – في أثناء قضائه فترة الحجر الصحي على مذكرة كتبها المهندس لوبير عـن قنـاة البحـرين، فـاهتم بالمشروع أيما اهتمام، وناقش تفاصيله مع ذوي الشأن، وتمكن خلال إقامته بمصر من توثيق صـداقته بالأمير محمد سعيد، أصغر أبناء محمد علي، وغادر دي لسبس مصر سنة ١٨٣٦ وظل على علاقتـه بالأمير، وتقلب في عدة مناصب دبلوماسية إلى أن اعتزل الحياة السياسية سنة ١٨٤٩، إثر أزمة تسبب في إحداثها، وتبنى عقب هذا مشروع حفر قناة تصل البحرين: المتوسط والأحمر ، وعكـف علـى دراسة كل ما كتب عنه، ولما تولى الأمير سعيد حكم مصر سنة ١٨٥٤، خلفاً لعباس، كتب إليه دي لسبس مهنئاً، فرد سعيد يدعوه لزيارته، فلبى الدعوة في نوفمبر.وسرعان ما استحوذ علـى إعجـاب الوالي وحاشيته بشخصيته الجذابة وبراعته في الفروسية ومهارته في الصيد.. وانتهز دي لسبس فرصة تواجده مع الوالي في إحدى الرحلات فعرض عليه بلباقة وقوة حجة، مشروع حفر القناة، فاقتنع برأيه ووافق عليه ومنحه في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ فرمان الامتياز الأول بشق القنـاة). (قنـاة السـويس ، جورج كيرلس ، ص ٩١) .

ب – الخديو إسماعيل وإسرافه وديونه :

(وافى إسماعيل أمته وهي في مفترق الطرق، تتنازعها حضارتان: حضارتها الإسلامية القديمة تنزع إليها بتقاليدها، والحضارة الغربية الحديثة، تندفع نحوها بحكم التجديد، فلم يتـردد إسماعيـل، ومـال إلى الحضارة الغربية..) . (الخديو اسماعيل باشا ، إصدار وزارة المعارف المصرية ، ص : د) .

(كان إسماعيل باشا أول خديو على مصر، وهو الذي نقل مصر من حضارة الشـرق إلى حضـارة الغرب، وجعل الأهالي يلبسون الملابس الأوربية، ونظم الإدارة على المبادئ الحديثة، وأدخل قـانون نابليون في المحاكم). (مجلة الهلال ، عدد ابريل ١٩٢٨) .

(تربى تربيته الأولى في النمسا، ثم بعد ذلك في باريس، وهناك تعلم وأتقن اللغة الفرنسية، وبهرته باريس وما فيها من جمال وفتنة، ومن هناك نشأت ميوله الباريسية التي لازمته طوال حياته، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى في أن يجعل القاهرة باريساً ثانية) . (١٠٠ عام على الثورة العرابية ، مركز الأهرام للدراسات ، ص١٦).

(وضع مجهوده في إعطاء مصر قشور الحضارة ومظاهرها) . (مذكرات الزعيم أحمد عرابي ، ص ٥-٦).

(أخذ إسماعيل يعمل في ما في وسعه الجهد من أجل صبغ البلاد بالصبغة الأوربية، فشجع الاستثمارات الأجنبية وأخذ يرعاها) . (١٠٠ عام على الثورة العرابية ، مركز الأهرام للدراسات ، ص١٦).

(كان إسماعيل في مصر قد أعلن أن مصر قطعة من أوربا، وأقام المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية بديلاً للقضاء الإسلامي، وكان القضاء في عهد إسماعيل موحى به من الاستعمار الفرنسي نقلاً من نظامهم في الجزائر...) . (اليقظة الإسلامية ..، أنور الجندي ، ص ١٦٣) .

(كان إسماعيل .. قد تلقى دراساته الأولى في باريس ؛ فأعجب بالحضارة الأوربية أيما إعجاب ، وحين تولى الحكم أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا . والمعروف عنه أنه كان مولعًا بالإسراف والبذخ ؛ حتى أغرق مصر بالديون) . (لمحات اجتماعية .. ، علي الوردي ، ٥١/٢) .

(في عهده – أي إسماعيل – ازدهرت الماسونية ، ودخلها الكثير من علماء مصر وأعيانها) . (لمحات اجتماعية .. ، علي الوردي ، ٣٦٤/٣) .

(استطاع النفوذ الاستعماري استغلال إسماعيل في مرحلة ضعفه وديونه، والضغط عليه لفتح الطريق أمام التغريب، وقد كان إسماعيل باشا هو أول من حمل لواء التغريب، حين أعلى كلمته التي ما تزال لها دلالتها "إن مصر قطعة من أوربا) . (اليقظة الإسلامية ..، أنور الجندي ، ص ١٩٣) .

عهد إسماعيل (كان بدء النكبات التي توالت على هذه البلاد بعد ذلك، حتى رمت بها بين براثن الاحتلال). (التاريخ السري لاحتلال انجلترا لمصر ، الفرد بلنت ، ص ١١) .

وديونه (كانت الباب الذي تسرب منه النفوذ الأجنبي إلى سلطة الحكومة المصرية، ودخلت منه انجلترا حتى وضعت يدها على مصر) . (التاريخ السري لاحتلال انجلترا لمصر ، الفرد بلنت ، ص ٢١) .

وكان ينفقها (على ملاذه الشخصية وحماقته في بناء القصور، وطيشه مع النساء الأوربيات، وخَرَقه في إقامة الحفلات الملوكية..) . (التاريخ السري لاحتلال انجلترا لمصر ، الفرد بلنت ، ص ١٨) .

(هذه الديون لم يكن لها إلا سبب واحد؛ هو إسراف الخديو إسماعيل وتبذيره وفساد حكمه). (الثورة العرابية وأثرها .. ، محمد المرشدي ، ص ٩) .

(معظم هذه القروض عقدها إسماعيل للإنفاق والبذخ على حياته الخاصة) . (تاريخ مصر الحديث ، فرغلي تسن ، ص ٢٥٢).

(دفع مبلغ ٦٩٥٨ جنيهاً ثمناً لأطقم قهوة من الذهب المرصع بالماس ومشبك مرصــع بالمـــاس) . (تاريخ مصر الحديث ، فرغلي تسن ، ص ٢٥٢).

(مد يده إلى المرابين الأجانب يستدين منهم بغير تدبير ولا حساب؛ حتى قاربت تلك الديون مائــة مليون جنيه؛ فأتاح بذلك للمستعمرين أن ينشروا ظلهم الأسود على مصر). (ثلاثة من أعلام الحرية ، قدري قلعجي ، ص ٤٠) .

كان (فاسد التدبير، سيئ التقدير) . (٥٠ عامًا على ثورة ١٩١٩، هيكل ، ص ١٦) .

(كان يتوهم حسن نية الدول الأوربية نحوه، ونحو مصر، وظل هذا الوهم مسيطراً عليه حــتى أدرك خطأه في نهاية عهده) . (تاريخ العرب الحديث ، د عمر عبدالعزيز ، ص ٢٥٣) .

(إنها – أي مصر في عهد إسماعيل – تشكو من كثرة النفقات التي سببتها محاولــة إدخــال مدنيــة الغرب، والتي تترتب على مشروعات لا تجدي نفعاً) . (أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه ، محمــود الخفيف ، ص ٢١-٢٢، تقرير لإنجلترا من مندوبها) .

(ترك إسماعيل مصر مثقلة بالديون وترك موارد البلاد ومرافقها في قبضة الشركات الأجنبية تستغلها لحسابها.).(كشف الستار ، أحمد عرابي ، ص ح).

صندوق الدين (أول هيئة رسمية أوربية أنشئت لفرض التدخل الأجنبي في شئون مصـــر) . (١٠٠ عام على الثورة العرابية ، مركز الأهرام للدراسات ، ص٣٣).

(أنشئ صندوق الدين مايو ١٨٧٦ وكان بمثابة حكومة أجنبية مطلقة التصرف في مصر) . (الثورة العرابية ، صلاح عيسى ، ص ٧٢) .

(بدأ هذا التدخل مالياً، ولكنه يطوي في ثناياه عوامل التدخل السياسي) . (١٠٠ عام على الثـــورة العرابية ، مركز الأهرام للدراسات ، ص٣١).

(وجدت كل من إنجلترا وفرنسا في الديون الكبيرة التي تورط فيها الخديو إسماعيـــل فرصـــة ذهبيـــة للتدخل في شئون مصر الداخلية، والسيطرة على اقتصادها) . (الثورة العرابية وأثرهـــا .. ، محمـــد المرشدي ، ص ٥٠)

(إن قروض إسماعيل من فرنسا عندما زادت تدخلت بريطانيا لكي تلفت نظر الباب العالي إلى ممارسة سلطته في منعه من الاقتراض، وكانت تهدف بذلك إلى إحباط خطة فرنسا للتسلط على مصـــر). (الثورة العرابية ، صلاح عيسى ، ص ٩١) .

(هذا البذخ نتجت عنه القروض التي عقدها إسماعيل والتي كانت فرصة حقيقية للتدخل الأجـــنبي في شئون مصر الداخلية) . (تاريخ مصر الحديث ، فرغلي تسن ، ص ٢٥٣).

(إن مشروع قناة السويس كان من العوامل الرئيسة التي أثقلت الخزينة المصرية، وجعلتها ترزح تحت أعباء مالية قاسية) . (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٥٤).

(وقد أثقلت مصر من جراء المشاريع التي ذكرناها، بالديون، وكان الدائنون من الأجانب، من مرابين ومن مصارف، وقد استنزف المرابون ثروة الأمة بالربا الفاحش، وبذلك فتح المجال لتدخل الأجانب في الأمور السياسية، وكان هذا التدخل سافراً عندما فرضت إنكلترا وفرنسا وزيرين في الوزارة المصرية، واحد بريطاني، وآخر فرنسي، وأعطيا مركزاً ممتازاً فيها، فأوجد ذلك مراقبة ثنائية إنجليزية أفرنسية، كما فرض بوغوص نوبار رئيساً للوزارة، وبوغوص هذا أرمني تمصر، عرف بولائه للأجانب، وكان متهماً في أنه أثرى عن طريق السمسرة لأصحاب الأموال والمرابين على حساب الشعب، كما كان أيضاً أول من أنشأ المحاكم التي عززت الأجانب). (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٥٨-٣٥٩) .

(عندما تولى إسماعيل وجد أن النظام القضائي الذي يخضع له الأجانب في حالة فوضى ، وكان الواجب انهاء هذه الفوضى بإعادة الشريعة الإسلامية إلى مكانها ، وجعلها هي المهيمنة على الحكم ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية التي تخالف ذلك ، والجهاد في سبيل تحقيق ذلك مهما كلف الأمر . ولكن بطانة السوء لا تأمر إلا بالشر ، ولاتدعو إلى خير أبدا ؛ لقد رأى نوبار باشا وزير الخارجية المصري (الأرمني) في ذلك الوقت أن سبيل الإصلاح هو إيجاد المحاكم المختلطة) . (الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية ، د عمر الأشقر ، ص ٦٨ - ٦٩) .

ج - إسماعيل يبيع نصيب مصر في قناة السويس ! والإنجليز لم يفوتوا الفرصة !!

(انتهزت الحكومة البريطانية هذه الفرصة الذهبية وسارعت لا إلى رهن الأسهم المصرية في شركة قناة السويس لديها، وإنما إلى شراء حصة مصر بأكملها من الخديو إسماعيل، وتمت هذه الصفقة ، التي خسرت مصر فيها أسهمها في القناة في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني، نوفمبر من عام ١٨٧٥، ولقد كان لبعض الصهاينة دور معروف في إتمام هذه الصفقة وأشهر هؤلاء الذين لعبوا أدوارهم بدقة هما: دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية آنذاك، وروتشلد الثري البريطاني المعروف، فوقعت اتفاقية حفظت لمصر بعض الحقوق، إلا أن احتلال الإنكليز لمصر عام ١٨٨٢ وأحداث الحرب العالمية الأولى التي أعقبت ذلك، ووقوف الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، جعلت بريطانيا تستولي على القناة وتقيم عليها التحصينات، ضاربة عرض الحائط بما كان من اتفاق بينها وبين الحكومة المصرية، ولما قامت الحرب العالمية الثانية، مكنت بريطانيا قبضتها على القناة، خوف استيلاء الألمان عليها ؛ فحصنتها واستولت على منشآتها العسكرية) . (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٥٧) .

(وتصاعدت الأزمة المالية عام ١٨٧٥م، وتفاقمت أحداثها، إلى أن سارع "ديزرائيللي" رئيس وزراء بريطانيا آنذاك –دون انتظار لموافقة مجلس الوزراء– لشراء كل أسهم مصر في قناة السويس، مقابل أربعة ملايين من الجنيهات!.. دفعها "روتشيلد" أحد ذئاب الرأسمالية اليهودية العالمية، ليحقق دزرائيللي أعجب صفقة مالية في التاريخ!.. كانت سبباً مباشراً في تدخل انجلترا لإدارة الشئون المالية لمصر، حتى انتهى الأمر في عام ١٨٨٢م باحتلالها العسكري للبلاد). (القاهرة في عصر إسماعيل ، عرفه عبده علي ، ص ٨٩) .

د – خلع إسماعيل :

(ثم إن إسماعيل باشا رأى منهم أنهم صاروا يتدخلون في أكثر الأمور، ويريدون أن لا يفعل شيئاً إلا بإطلاعهم ومعرفتهم، فخاف من اتساع الأمر وسلب الملك منه، فأراد أن يجعل له عصبية من أهالي مصر، وأن يشكل منهم مجالس، ويكون أعضاؤها من العلماء ووجوه الأهالي والعمد من مشايخ البلدان، فشرع في ذلك ليكون الأمر بيدهم صورة، وأنه لا يفعل شيئاً إلا بمشورتهم؛ ليدفع بذلك تغلب الإنكليز والفرنسيين وتسلطهم، ففطنوا لذلك، فسعوا في خلعه..) (خلاصة الكلام .. ، دحلان ، ص ٦٥) .

هـ – هجرة الأجانب إلى مصر :

(كان من الطبيعي أن يكون لسياسة إسماعيل المذكورة أثر كبير في زيادة مجيء الأجانب إلى مصر للاستفادة من هذه الفرص، وللمشاركة في المشاريع الجديدة، وأعمال التعمير) . (١٠٠ عام على الثورة العرابية ، مركز الأهرام للدراسات ، ص١٧).

(من محاولاتهم لتحقيق الاستعمار الشامل: تشجيع هجرة الأوربيين إلى مصر؛ ومنهم كثير من الإنجليز والفرنسيين، حتى يكونوا عوناً لهم في احتلال البلاد). (الثورة العرابية وأثرها .. ، محمد المرشدي ، ص ٥١-٥٢)

(كان من الطبيعي مع زيادة أعداد الأجانب في مصر وتزايد جالياتهم، ووضوح نفوذهم السياسي أن يفرضوا أنفسهم على خريطة السلطة في مصر، وأن يكون لهم دولاً تحمي مصالحهم وتدافع عنهم، بل وتدافع عن استلابهم للبلاد..) . (تاريخ مصر الحديث ، فرغلي تسن ، ص ١٥٩).

(من أخطر الأمور التي أسفر عنها إنشاء هذه المحاكم – فضلاً عن اختصاصاتها– أن أغلبية القضاة كانوا من الأجانب، وأنهم كانوا يرأسون الدوائر..) . (تاريخ مصر الحديث ، فرغلي تسن ، ص ١٦١).

و – حركة أحمد عرابي :

(أدركت الطبقة الممتازة من الأمة ! أن إصلاح هذا النظام إنما يكون بقيام الدستور، وإنشاء مجلس نيابي يوطد مبادئ العدل والحرية، ويتحقق فيه معنى الرقابة على الحكام، ويحول دون ارتكاب المظالم...).(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ١٥).

عرابي(هو الذي بث في نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهاراً على ولاة الأمور، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة.. فهذه الجرأة كان لها أثر كبير في ظهور الثورة).(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ١٣).

و(كان للباقته وفصاحته في الكلام، واستشهاده ببضع الأحاديث الشريفة النبوية، والحكم المأثورة تأثير كبير في نفوس الضباط، اجتذبهم إليه، ومال بهم إلى تلبية ندائه، والاستماع لنصائحه، والاقتناع بآرائه).(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ١٢٣).

(إن بداية الثورة العرابية كانت عسكرية تهدف إلى فتح المجال العام أمام المصريين للترقي في رتب الجيش، لكنها تطورت إلى ثورة سياسية تشريعية تنادي بالديمقراطية وبالدستور..) . (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٦٦).

كتب عرابي منشورًا (يبين فيه أخطاء الحكومة واستبدادها، ويدعو الناس إلى معاونته لانتشال البلاد مما هي فيه). (أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه ، محمود الخفيف ، ص ٢١-٢٢)

وكان يقول قبل الإحتلال : (دعهم يأتون! فكل رجل وطفل في مصر سيقاتلهم) . (عبدالله النديم ..، د علي الحديدي ، ١٧٠).

ولكن :(كانت عاقبة الثورة الوقوع في قبضة الاحتلال) !! (الشيخ محمد عبده في أخباره وآثاره ، د رحاب عكاوي ، ص ٤٩) .

(لا يخفى أن موقف هذا الرجل لا يزال محوطاً بأسرار كثيرة، فإن التاريخ لم يكشف لنا حقيقة الدافع له على ما فعل، ولم يبين لنا المؤثرات التي كان خاضعاً لها) .(ثورة ١٩١٩ ..، عبدالرحمن الرافعي ، ١٢٩).

أما هو – أي عرابي – فيقول في مذكراته : (والله الذي لا إله إلا هو فالق الحب وبارئ النسمة أني ما خدمت بذلك دولة إنكلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما). فالله أعلم .(مذكرات الزعيم أحمد عرابي ، ص ٦١).

ز – حركة عرابي إحدى ثمار فكر الأفغاني :

سبق معنا أن الأفغاني قدم مصر بدعوة من الوزير رياض باشا ، الذي كان (من أصل يهودي، وكان ميالاً إلى الإنجليز والأجانب، رغم أنه دخل في الإسلام، والله أعلم بإسلامه، يقول الصحافي والكاتب المشهور أديب اسحق –وهو أحد تلاميذ جمال الدين الأفغاني– تحت عنوان رياض باشا ما يأتي: هو

من بيت الوزان، من يهود مصر الأذكياء، أقيم جده على وزانة النقود، فأظهر الإسلام، وتبعه بنوه من بعده) . (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ١٥٧).

يقول أبو رية: (اتخذ السيد! جمال الدين طوال حياته لتحقيق غاياته: وسائل الثورة السياســية). (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ٣٧٠).

ويقول أنور الجندي: (آمن جمال الدين بأن الثورة السياسية هي الوسيلة المثلى لتحقيق دعوتــه). (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ٣٧١).

(كانت ثورة عرابي من تحريضه). (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ٣٧١).

(اتفق المؤرخون على أن بذور الثورة في مصر قد وضعها جمال الدين (الأفغاني) قبل أن يُطرد مــن البلاد) . (التحفة الندية في الفتنة العرابية ، أحمد سعيد نونو ، ص ٦٦) .

(أوعز جمال الدين إلى تلاميذه إنشاء الصحف) . (المرجع السابق ، ص ٦٧) .

(لم تكن فكرة تدخل الشعب في السياسة واعتراضهم على الحكام موجودة في مصر حــتى دخــول الأفغاني مصر . وفي هذه الفكرة مفاسد كثيرة ، بل هي أصل من أصول إفساد الشعوب والــبلاد .. وإثارة الشعوب على حكامها تؤدي إلى ثورات وإراقة دماء وفتن جاء الإسلام بالقضاء عليها ووأدها) . (المرجع السابق ، ١٣٢) .

(تحول الفكر المصري في آخر عهد إسماعيل ، وكثر الحديث عن الظلم والظالمين ، والحقوق ، والحد من سلطة الحاكم ، والدستور ، وبدأت الصحف في نشر معايب الحكومة ؛ فظهرت أفكار لم تكــن موجودة من قبل ذلك في مصر) . (المرجع السابق ، ص ١٣٣) .

ح – دور الإنجليزي بلنت في تحريض عرابي ! :

(كان من أشد الناس تفانياً في مصالح الإنجليز، رغم أنه يتظاهر بصداقته للشرق المتمثــل بالشــعوب التابعة لتركيا، وبعدائه للحكومات البريطانية، بل كان أحياناً يتظاهر بالدفاع عن قضــايا الشــعوب الشرقية، ويقف بجانبهم، كما وقف بجانب عرابي ودافع عنه بعد أسره، كان هذا نوعاً مــن الــدهاء والحنكة الإنجليزية) . (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ١٢٣).

وهو (واضع كتاب (مستقبل الإسلام) الذي يدعو فيه إلى هدم الخلافــة الإســلامية، بنقلــها مــن السلاطين العثمانيين إلى العرب الضعفاء، ويدعو إلى الاعتماد على الإنجليز في إقامة خلافة إســلامية قوية)! (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ١٢٤).

(كان على صلة بزعماء الثورة العرابية التي انتهت باحتلال مصر من قبل قومه). (دعوة الأفغــاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ١٢٤).

(بلنت شجع عرابي على الثورة، وهو يعلم أنه ضعيف لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الاحـــتلال، وهو الذي زين لعرابي الحكم الجمهوري) . (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ١٢٤).

(بلنت أودى بصاحبه عرابي وثورته وبلاده إلى الهاوية، ومع ذلك لم يفطن عرابي لخطره، بل بقي على صداقته له بعد ذلك). (دعوة الأفغاني في ميزان الاسلام ، مصطفى غزال ، ص ١٢٤).

ط – دور القنصل الفرنسي في تحريض عرابي على الثورة ! :

(أرسل إلى عرابي كتاباً يمدحه فيه على ثباته، ويشجعه على عدم المبالاة بالحكومة)!!(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ٣٤).

ي – الذرائع التي تعلق بها الإنجليز والفرنسيون للضغط على مصر :

(بدأت الدولتان التحرش بالحكومة بافتعال سلسلة من الأزمات التي تضع العراقيل في طريق تقدم سير الأمور، فلم يكد مجلس شورى النواب يجتمع في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ حتى طلب المراقبان الإنجليزيـــان عدم تعرضه للميزانية؛ لأنها من اختصاصهما) ! (عبدالله النديم ..، د علي الحديدي ، ١٦٩).

(سوغت الدولتان هذا العمل العدواني بأن الغرض منه حماية رعاياها من الأخطار التي يستهدفون لها) .(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ٨١).

(كانت الأسباب الظاهرية التي تذرعت إنجلترا بها لإرسال سفنها الحربية هـــي حمايـــة الأجانـــب في مصر). (الثورة العرابية وأثرها .. ، محمد المرشدي ، ص ٥٤)

(و لم يكن ثمة خطر ولا خوف من هذه الناحية، وإنما هي حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغـــرض الحقيقي، وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح في شئون مصر).(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ٨١).

(كان من أهم أسباب الاحتلال إذ ذاك عسر المالية وتدخل الأجانب في أمور البلاد، واستئثارهم بها على عهد الوزارة المختلطة في آخر مدة إسماعيل باشا، واشتداد وطأتهم وطموح أبصـــارهم إلى مـــا أوجب استحكام الضغائن في صدور الجهادية واستيائهم من الأجانب بســـبب قطـــع مرتبـــاتهم).(كشف الستار ، أحمد عرابي ، ص ١٢٥)

(ظهر استعانة الإنجليز بالأجانب على ذلك النحو في تدبير مذبحة الإسكندرية). (الثـــورة العرابيـــة وأثرها .. ، محمد المرشدي ، ص ٥٢).

(وقد وجدت كل من إنجلترا وفرنسا في الديون الكبيرة التي تورط فيها الخديو إسماعيل فرصة ذهبيـــة للتدخل في شئون مصر الداخلية والسيطرة على اقتصادها). (الثورة العرابية ، محمد المرشـــدي ، ص ٥٠).

ك – تواطؤ الفرنسيين مع الإنجليز :

(انسحبت فرنسا من الميدان، وأمرت أميرال أسطولها بمغادرة الإسكندرية قبل الضـــرب ، فبارحهـــا مساء ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢، ومعنى ذلك أن الحكومة الفرنسية تركت إنجلترا تفعل ما تشاء وتعتدي ذلك الاعتداء الغشوم على المدينة فتدك حصونها وتهدم مبانيها وتحصد أرواح أهلـــها دون أن تبـــدي حراكاً، قابلت فرنسا هذا الاعتداء الوحشي بالجمود). (مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ص ١٢٣) .

(لم يكد الجيش الإنجليزي ينتصر على العرابيين في واقعة التل الكبير حتى بادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن إلى مقابلة اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا وهنأه باسم الحكومة الفرنســية علـــى هـــذا الانتصار . وكان جواب جرانفيل على تهنئته : " إن واقعة التل الكبير هي انتصار أوربي ، ولو انهـــزم الجيش الانجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابًا للتعصـــب الإســـلامي" !).(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ١٢٤).

ل – الخيانة من أسباب هزيمة عرابي :

(إن العامل الجوهري في الهزيمة كان الخيانة). (أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه ، محمود الخفيف ، ص ٢١-٢٢) .

(كان للخيانة أثر كبير في إحداث هذه الهزيمة) . (تاريخ العرب الحديث ، زاهيـــة قـــدورة ، ص ٣٦٥).

(هدى شعراوي هي ابنة محمد باشا سلطان الذي كان يرافق جـــيش الاحـــتلال في زحفـــه علـــى العاصمة، ويدعو الأمة إلى استقباله وعدم مقاومته، ويهيب بها إلى تقديم كافة المساعدات المطلوبة لـــه). (الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار ، ص ٨٢) .

محمد سلطان (لعب دوراً هاماً في تدعيم موقف العناصر الخائنة). (الثورة العرابية ، صلاح عيسى ، ص ٤٢٤) .

و (كان من أهم العوامل في إخفاقها وخذلانها) . (الأعلام الشرقية ، زكي مجاهد ، ١٦١/١) .

(كان – أي سلطان باشا – أكبر مساعد للإنكليز على قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الأغنيـــاء). (تاريخ الأستاذ الإمام ، رشيد رضا ، ٢٣٣/١) .

(إن سلطان باشا قد لعب دوراً هاماً في تدعيم موقف العناصر الخائنة). (الثورة العرابية ، صـــلاح عيسى ، ص ٤٢٤) .

(الرشوة اللعينة كانت تنساب في الظلام فتقتل بسمومها بعض الضباط ؛ أمثال الخائن علي يوســـف الذي أخلى الطريق للإنجليز عند التل الكبير) . (موسوعة التاريخ الإسلامي ، د أحمد شـــلبي ، ٥ / ٤٧٤) .

(وقد لعبت الخيانة أقذر أدوارها في هذه الفترة من الحرب: فإن الأميرالاي علي يوسف خنفس أثرت الرشاوي الإنجليزية في نفسه الضعيفة، فجعل من نفسه جاسوساً للإنجليز داخل صفوف الجيش المصري الباسل). (الثورة العرابية ، محمد المرشدي ،ص ٨٣) .

(ويذكر بلنت أن وزارتي الحرب والبحرية في إنجلترا قد عقدتا النية منذ أوائل السنة أن يكون الهجوم على مصر من ناحية قناة السويس، وأنه تقرر في أواسط يوليو أن تمهد السبل لذلك بالرشوة بين بدو الشرق). (الثورة العرابية ، صلاح عيسى ، ص ٤٢٧) .

م – انخداع عرابي بالفرنسي (دي ليسابس) من أهم أسباب الهزيمة :

(إن مجلساً عسكرياً عقد في كفر الدوار أجمع فيه المجتمعون باستثناء عرابي وحده على عدم اعتبار رسالة دلسبس، ووجوب سد القناة). (الثورة العرابية ، صلاح عيسى ، ص ٤٥٧) .

(كان عرابي قد فكر ردم القناة كإجراء دفاعي، لكن (دي ليسابس) أكد له أن القناة لن تُستخدم في الهجوم على مصر، وأنه يضمن له ذلك، وقد أرسل له كتاباً في هذا الصدد "لا تحاول أية محاولة في سد قناتي، فإني هنا، فلا تخش شيئاً من هذه الناحية، فإنهم لن يستطيعوا إنزال جندي إنجليزي..) . (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٦٤).

(انتقلت البوارج البريطانية تحت جنح الظلام إلى بور سيعد، ثم دخلت القناة، ومن منطقة القناة بدأت أعمالاً حربية انتهت بهزيمة عرابي). (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٦٤).

(ولو سُدت قناة السويس في بداية القتال لامتنع الاتصال بين القوات الإنجليزية الآتية من البحر المتوسط والقوات الآتية من الهند، واستحال عليها الوصول إلى الإسماعيلية من طريق القناة، وفي هذه الحالة يضطر الجنرال ولسلي إلى المغامرة بجيشه في الصحراء الشرقية حيث لا ماء ولا كلأ، أو يهاجم مصر من طريق الدلتا فتعوق الترع والجسور زحفه وخاصة في أيام الفيضان (أغسطس–سبتمبر)، ولكن عرابي لم يستمع لنصيحة محمود فهمي وخشي عواقبها، وظن أن الإنجليز يحترمون حياد القناة فلا يتخذونها قاعدة للزحف، فكان هذا الخطأ أكبر عامل في إخفاق خطة الدفاع التي وضعها محمود فهمي، واكتفى عرابي بإقامة معسكر في التل الكبير على بعد نحو خمسين كيلو متراً من الإسماعيلية، و١١٠ كيلو مترات من القاهرة حشد فيه جانباً من الجيش، ولكنه وزع معظم قواته في كفر الدوار وعلى سواحل البحر المتوسط، فكان الجنود السودانيون وهم من خيرة الجنود مرابطين في دمياط بقيادة عبد العال حلمي، ورابط في رشيد فيلق كبير، واستقر معظم الجيش بقيادة طلبة عصمت في كفر الدوار، ومع أن الإنجليز استعجلوا الحركات الفدائية في قناة السويس وكانت هذه الحركات نذيراً كافياً لعرابي بما اعتزموه من خرق حياد القناة، فإن عرابي أحجم عن العمل بنصيحة محمود فهمي في سدها).(مصر المجاهدة ..، عبدالرحمن الرافعي ، ص ١٣١) .

وقد قال القائد البريطاني (ولسلي) فيما بعد: (لو أن عرابي سد القناة كما كان ينوي أن يفعل، لكنا للآن لا نزال في البحر نحاصر مصر). (تاريخ العرب الحديث ، زاهية قدورة ، ص ٣٦٤).

(وكان من أكبر أخطاء عرابي تردده في سد القناة، وانخداعه بالمؤامرة القذرة التي دبرها الإنجليز مع ديلسبس). (الثورة العرابية ، محمد المرشدي ، ص ٨٠) .

(لقد خدع فرناند عرابي وخانه ، وفُتحت القناة أمام الأساطيل لتحتل بورسعيد والإسماعيلية ، ثم بدأت القوات بعد ذلك تتجه إلى القاهرة) . (الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ، د عبدالودود شلبي ، ص ١٢٩) .

ن – من أسباب الهزيمة انفضاض الناس عن عرابي بسبب منشور السلطان :

(ظلت إنجلترا تضغط سياسياً على السلطان حتى أصدر منشوراً بعصيان عرابي لسلطان المسلمين، وبشرعية اشتراك الجيش الإنجليزي في إخماد الثورة المصرية). (عبدالله النديم ..، د علي الحديدي ، ٢٣٦).

(وأدت منشورات الخديو المرفقة بمنشور السلطان إلى ذهاب الحمية الدينية من النفوس، وجعلت الجنود يعتقدون أن من يموت في هذه الحرب ليس شهيداً كما كانوا يظنون، بل يكون مأواه جنهم لأنه عاصٍ للسلطان خليفة الله في الأرض). (عبدالله النديم ..، د علي الحديدي ، ٢٣٧).

يقول عرابي : (نصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لأحكام الدين الإسلامي؛ لأننا إنما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الإسلامية). (الثورة العرابية ، صلاح عيسى ، ص ٤٦٦) .

ص – أيمان الإنجليز الكاذبة بعد الاحتلال ! :

(في مجلس العموم البريطاني، وفي ٢٤ يوليو ١٨٨٢، وفي أعقاب ضرب الإسكندرية: صرح جلادستون رئيس الوزراء البريطاني بأنه: ليس لبريطانيا العظمى مطامع في مصر، ولم ترسل الجنود لها إلا لإعادة الأمن فيها). (تاريخ العرب المعاصر ، د عبدالعزيز نوار ، ص١٦١) .

(وأقسم جلادستون غير مرة بشرف بريطانيا! أنها لن تستمر في احتلال مصر، أقسم بذلك في مجلس العموم في ٩ أغسطس ١٨٨٢ قائلاً: إن الحكومة البريطانية لم تفكر في ضم مصر..) . (تاريخ العرب المعاصر ، د عبدالعزيز نوار ، ص١٦٢) .

(منذ أن دخلت بريطانيا مصر محتلة لم تكن تفكر أبداً في الانسحاب منها).(مجلة العربي ، العدد ٨٠) .

ع – مفاسد الإنجليز في مصر بعد الاحتلال :

(منذ أن احتل الإنجليز مصر وهم يعملون على إضعافها بشتى الوسائل؛ تارة بمحاربة اللغة العربيــة، وأخرى بنشر الحركات الاجتماعية الهدامة، وثالثة بخلق الأحزاب السياسية التي تفرق الأمــة..) . (الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار ، ص ٧١) .

(وأخذ الاحتلال .. يثبت أقدامه ، ويدعم كيانه ، فتسلط على الجيش بعد أن حله وأعــاد تكوينــه ضئيلا هزيلا أعزل ، لا يتجاوز عدده ستة آلاف في قبضة سردار إنجليزي يعاونه نفر من كبار الضباط من بني جنسه . وأغلقت جميع مصانع الأسلحة .. الخ) . (الاتجاهات الوطنية ، محمد محمد حسين ، ١ /١٦٠) .

(.. وافتتحت الخمارات في كل مكان، حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال، وافتتحــت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم، وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات، والجهر باسم الحرية الشخصية التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد، ولا يُبالون ديناً ولا عرفــاً ولا مصلحة). (الاتجاهات الوطنية ..، محمد محمد حسين ، ١ / ٢٦٤) .

(فرض الاحتلال للتعليم المدني هدفاً ضيقاً لا يتجاوزه، وهو إعداد طبقة من المــوظفين الحكــوميين، على أن يكون ذلك في أضيق نطاق ممكن، وعلى أن تسيطر الثقافة الإنجليزية علــى مناهجــه) . (الاتجاهات السياسية والفكرية والاجتماعية في الأدب المعاصر ، سالم قنيبر ، ص ٨٩) .

(شرع كبار رجال القانون الإنجليز يدرسون القوانين الجديدة التي يجب أن تطبق في مصــر ، وصــبغ مصر بالصبغة الإنجليزية، ورفع شأن العامية للقضاء على العربية الفصحى، ورفع شأن الفرعونية الــتي غادرتها مصر منذ أكثر من ألف عام، وملؤا الوظائف بالموظفين الإنجليز، وجعلوا الوظائف الكتابيــة الصغرى في يد المصريين، وفرضوا على مصر اقتصاديات ارتبطت مالياً وتجارياً بالصناعات الإنجليزية، والبيوت التجارية البريطانية) . (تاريخ العرب المعاصر ، د عبدالعزيز نوار ، ص ١٨٩) .

(وكان مما فوجئ به – أي عبدالله النديم – عقب عودته موجة من الانحلال والفساد الخلقي في البلاد، فإفراط وجهرة في شرب الخمر لم يكن معهوداً من قبل، واستهتار الشاربين بنقد النقــاد، وانتشــار الخمارات انتشاراً كبيراً في البلاد والقرى يبتز الأروام عن طريقها أموال الأهالي. وانحــلال الأســرة بسبب الشراب، وتقليد النساء المصريات للأجنبيات في شرب الخمر، وانتشار الحشــيش والمعــاجين والمخدرات، والاحتفاء بمجالسها، ثم إساءة فهم معنى الحرية واستعمالها وسيلة للانهماك في الملــذات والشهوات ، ثم السقوط في تقليد المصري للأوربي تقليداً أعمى ..) . (عبدالله النــديم ..، د علــي الحديدي ، ٣٣٣).

(وقد وصل التغيير إلى نساء المسلمين في عاداتهن وحياتهن الاجتماعية ؛ حتى في زيهن ، فكــنّ قبــل الاحتلال لا يعرفن إلا التستر والحجاب وعدم مخالطة الرجال وعدم الجلوس في مجالســهم ، وتغطيــة المرأة لوجهها ، وما تطور من ذلك إلى البرقع المعروف في الأجيال السابقة القريبة ؛ فأصبحن يتــزين

بزينة الكافرات الفاسقات الأوربيات ..) . (التحفة الندية في الفتنة العرابية ، أحمد سعيد نونو ، ص ٢٣١) .

ف – تعاون الاحتلال مع الطائفة العصرانية التي تُضعف روح مقاومته وتروج أفكاره :

(لقد كان الاستعمار حريصاً على صنع طبقة خاصة من المثقفين، عمل كرومر على إعدادها، ووعدها بأن تتعلم قيادة الأمة بعد خروج الإنجليز، ووفى لها) . (عقبات في طريق النهظة ، أنور الجندي ، ص ٥٩) .

كرومر : (كان يعايش الصفوة المختارة من المصريين ويتحسس طريقه نحو اختيار أكثرهم صـــلاحية للمشاركة في الحكم).(سعد زغلول بين اليمين واليسار ، ص ٢٣).

من جهود العصرانيين ! : (نذكر أصحاب الفضل على التمثيل من غير المحتلين، في مقدمتهم حكومة سعد زغلول التي عنيت بالتمثيل، وأجازت للممثلين فترة يمثلون فيها على مسرح الأوبـــرا) .(روز اليوسف سيرة وصحيفة ، د ابراهيم عبده ، ص ٣١-٣٢).

أرسل محمد عبده رسالة إلى شيخه الأفغاني يلخص فيه مهمتهم :

(نحن الآن على سنتك القويمة: لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين) !! (الأعمال المجهولة / محمد عبده ، تحقيق : د علي شلش ، ص ٥٣) .

دروس وعبر .. من احتلال الإنجليز لبلاد مصر :

العبرة الأولى: أن أعداء الأمة الإسلامية من اليهود والنصارى وغيرهم لم ولن يفتروا عـــن محاربتـــها والكيد لها، ومحاولة تفريق شملها، وبث التنازع داخل صفوفها ، وإيجاد الثغرات التي يتمكنـــون مـــن الولوج من خلالها ، واحتلال أراضيها، ونهب ثرواتها. قال تعالى: (ولا يزالون يقاتلونكم).

العبرة الثانية: أن لا تأمن الدولة المسلمة كيد عدوها لها، ومكره بها، بل تقدر أسوأ الاحتمالات نتيجة لهذا الكيد والمكر، ولو كان احتلال أرضها ، ولتكن كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنـــوا خـــذوا حذركم) وكما قال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة). فتُعد القوة اللازمة الرادعة للعدو من أسلحة متنوعة متعددة المصادر لردعه إذا ما فكر في الأمر السابق.

العبرة الثالثة: أن تحذر الدولة المسلمة من جواسيس أعدائها الذين يقدمون إليها على هيئات مختلفة — إما خبراء أو سياح أو باحثين..– وهم إنما يرصدون أحوالها تمهيداً لما ينوون التخطيط له تجاهها؛ إمـــا غزواً ثقافياً أو عسكرياً.

العبرة الرابعة: أن الأفكار العنصرية الجاهلية التي يقع فيها بعض المسلمين؛ من تعصب لجنس أو أرض، تؤدي إلى تفريق الدولة المسلمة وإضعافها؛ مما يسهل المهمة أمام العدو المتربص بها.

فلو لم تكن هناك فجوة عنصرية جاهلية بين الترك والعرب –مثلاً– لما استطاع الغرب تفتيت العالم الإسلامي، مستغلاً هذا الأمر في إذكاء نار الفرقة بين الطائفتين . فلتأخذ الدولة المسلمة على يد كل من يثير مثل هذه النعرات الجاهلية بين أبنائها؛ ولو كان على سبيل المزاح.

العبرة الخامسة : أن مخالفة أوامر الله بالركون إلى أعدائه من اليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع ، وتوليتهم المناصب، وتقريبهم ؛ يؤدي حتماً بالبلد المسلم إلى الهاوية، وتسليمه للعدو –سياسياً أو فكرياً– بأبخس الأثمان – كما حدث في مصر بجهود اليهود والنصارى الأرمن والمنافقين وغيرهم – . والله يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً..) وكم في التاريخ من نماذج وأمثلة للخيانات التي قام بها الكفار والمنافقون لأمة الإسلام . فلتحرص الدولة المسلمة على عدم تقريب هؤلاء من السلطات المؤثرة ، واتخاذهم بطانة ؛ فإنهم سرعان ما ينقلبون عليها ساعة العسرة. ولا يبقى لها إلا أهل الإيمان، وأصحاب العقيدة السليمة.

العبرة السادسة: أن تبتعد الدولة المسلمة عن الإسراف وتبذير الأموال فيما لا ينفع العباد والبلاد؛ مما يؤدي بها إلى الاستدانة من أعدائها بفوائد ربوية تتراكم عليها، تكون نهايتها وقوع البلد في قبضتهم رويداً رويداً، ثم يبدأ الابتزاز والضغط عليها لتنصاع لأهوائهم في شتى المجالات.

فخير للبلد المسلم أن يبتعد عن الترف والإسراف والتعامل بالربا الذي عاقبته المحق والهلاك وتسلط الأعداء. قال تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يُحب المسرفين) وقال :(يمحق الله الربا ويربي الصدقات) .

العبرة السابعة: إذا اضُطرت الدولة المسلمة إلى المال فليكن ذلك عن طريق التعاون مع أبنائها أو الدول المسلمة الأخرى عبر صناديق تعاونية مشتركة تحميها من الربا والاستدانة من أعدائها.

العبرة الثامنة: أن تنظر الدولة المسلمة في عاقبة أي مشروع ضخم يُقْترح عليها أو تقوم به، ومدى مصلحته للبلاد، وتوازن بين مصالحه ومفاسده، وتستشير الخبراء من أهل الأمانة.

العبرة التاسعة: أن تحد الدولة المسلمة من هجرة الأجانب (غير المسلمين) إليها؛ ممن يُكونون أرضية ممهدة لتدخل الأعداء ، وفرض الامتيازات لهم .. الخ . ولتتخذ الاحتياطات اللازمة حال الحاجة لبعضهم لتجنب شرورهم؛ كالتفريق بينهم ومراقبتهم.

العبرة العاشرة: أن تحذر الدولة المسلمة من الشخصيات المشبوهة التي تحل أرضها –سواءً ممن يدعون الإسلام أم من غيرهم– ويكون لها نشاط مريب في بث الأفكار المنحرفة بين شباب البلاد؛ مما يكون عاقبته شراً ؛ فإن معظم النار من مستصغر الشرر.

وتأمل ماذا فعل الأفغاني المشبوه وهو فرد واحد بأهل مصر حتى أرداهم في الهاوية بأفكاره السامة.

ولا تحتقر كيد الضعيف فربما *** تموت الأفاعي من سموم العقارب

فقد هدّ قُدمًا عرش بلقيس هدهدٌ *** وخرّب فأرٌ قبل ذا سدَ مأرب

العبرة الحادية عشرة: أن تعلم الدولة المسلمة أن ما يسمى بـ"الحرية الإعلامية" –سواء في الصحافة أم في غيرها- التي تجعل مسائل الشرع كلأ مباحاً لكل أحد، وتسمح بالجرأة على العلماء ورجال الدولة هي فكرة مخادعة ضارة بالبلاد؛ لأنها تؤدي إلى بث الاختلافات المتنوعة بين الناس وتغذية التراعات والخصومات، وشحن النفوس، وتهييجها وتحزيبها، وتمهد بتمزق البلاد فكرياً قبل تمزقه سياسياً.

فلتحد الدولة المسلمة من هذه الحرية المزعومة التي يروج لها الأعداء بخُبث ؛ لأنهم يعلمون ما يجنونه منها، ولتوجه وسائل إعلامها إلى ما ينفع الناس ويجمعهم على الحق الظاهر.

وخير ما تفعله الدولة في وسائل إعلامها: تقليل برامج ومقالات الرأي التي تؤدي إلى ما سبق بيانه، والاستغناء عنها بالمقالات العلمية النافعة (سواء في الطب أو الحاسب أو الهندسة أو الفيزياء... الخ).

وبعث ذوي العقول والنوابغ الموجودين لديها بدلا من عبث أهل الرأي وخوضهم بالباطل .

العبرة الثانية عشرة: أن تتيقن الدولة المسلمة أن أعداء الإسلام (يهودًا ونصارى ومنافقين وغيرهم) سيقفون صفاً واحداً أمامها وقت الفتن والأزمات –مهما اختلفوا فيما بينهم- كما قال تعالى: (تحسبهم جميعاً). وقد رأينا كيف غضت فرنسا الطرف عن احتلال الإنجليز لمصر رغم عداوتهما الظاهرة –ولكن الكفر ملة واحدة-. وكما فعل " ديلسبس " الفرنسي عندما غدر بعرابي في حادثة سد القناة .

العبرة الثالثة عشرة: أن أعداء الإسلام يفتعلون الأحداث، ويستغلون الذرائع –مهما كانت صغيرة- ليتدخلوا في شؤون الدولة المسلمة، ولو أدى ذلك إلى احتلالها، ومن هذه الذرائع: حماية الرعايا الأجانب، أوضمان حقوق الأقليات!، أوضمان حقوق المرأة!، وهكذا ..

العبرة الرابعة عشرة: أن الأعداء يحرصون جداً تجاه الدولة المسلمة التي يريدون الضغط عليها أو التحرش بها أن ينشروا بين أبنائها –بواسطة عملائهم- فكرين خبيثين هما: فكر التهييج والثورة، وفكر العصرنة والتميع.

فبالفكر الأول تُتاح لهم فرصة التدخل في شؤون الدولة المسلمة.

وبالفكر الثاني: يضمنوا مسخ عقول أبناء المسلمين وترويضهم نفسياً لقبول التغريب .

فعلى سبيل المثال: من يشكك في مبدأ الولاء والبراء ، كيف يرجى منه أن لا يتعاون مع الكافر أو يتخذه أخاً يحقق له مصالحه ولو على حساب دينه وبلده ، وهو قد أزال الحاجز الإيماني الذي يصونه عن ذلك ؟!

فلتحرص الدولة المسلمة على اجتثاث هذين الفكرين الخبيثين قبل أن يتغلغلا في عقول بعض أبنائها ممن يكونون سلاحاً بيد عدوها ضدها.

ويكون ذلك بالحزم مع من يحمل أياً منهما، وعدم تصديرهم في وسائل الإعلام والتأثير، فإن التهاون في مثل هذه الأمر – تحت أي مسوغ – قد يُكلف الكثير لاحقاً.

أرى خلل الرماد وميض نار *** ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن لم يُطفها عقلاء قوم *** يكون وقودها جثث وهام

فإن النار بالعودين تذكى *** وإن الحرب أولها كلام

العبرة الخامسة عشرة: أن الأعداء يفرحون كثيراً بتلقي أبناء المسلمين العلوم عندهم، لاسيما أبناء الذوات ممن هم مهيؤون لتولي المناصب المهمة إذا ما عادوا إلى بلادهم ؛ لأنها تعلم أنهم سيتأثرون – عرضاً أو قصداً– بثقافتها ، وسيكونون خير ناقل لها إلى بلاد المسلمين؛ كما رأينا ذلك واضحاً في حياة سعيد باشا والخديو إسماعيل اللذين تربيا في بلاد الغرب ، ثم أرادا محاكاتها لما توليا الحكم . فلتحرص الدولة المسلمة على أن يكون تلقي أبنائها للعلوم داخل أرضها؛ دون حاجة إلى البعثات الدراسية الخارجية إلا في حالة اضطرارية محدودة ؛كما في التخصصات الدنيوية النادرة مثلاً، مع تحصين المبتعث ضد الأفكار الغربية الضارة.

العبرة السادسة عشرة: أن الأعداء لن يعدموا أن يجدوا من المسلمين أفراداً مغفلين أو طامحين يخدمونهم من حيث لا يشعرون، ممن يصدق فيهم قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ *** نصيب ولاحظٌ تمنى زوالها

ولو كان ذلك على حساب دينهم وبلدهم –كما فعل عرابي في مصر– وسيلجأ الأعداء للاتصال بهم، والاهتمام بقضيتهم، وتشجيعهم على المضي في معارضة الدولة المسلمة تحت مسمى "الإصلاح!". وهدفهم من هذا كله ليس حباً في هؤلاء الإصلاحيين –زعموا– إنما ضربهم بالدولة المسلمة، لتفريق أهلها، وزرع الفتن والشقاق بين الراعي والرعية؛ حتى يلجأ كلٌ منهم –خاضعاً مطيعاً– إلى العدو لحمايته من الآخر!! وقد تقع البلاد بعدها –لا قدر الله– في احتلال أجنبي بغيض بعد أن استغل هذا النزاع والتفرق –كما حدث في مصر– حيث لجأ الخديو توفيق للإنجليز في الوقت الذي كانوا فيه يُهيجون عرابي ومن معه عليه !

فلتأخذ الدولة المسلمة على أيدي هؤلاء المعارضين الطامحين أو المغفلين من مدعي الإصلاح قبل أن يتعاظم شرهم فيوقعوا بلاد الإسلام فيما لا تُحمد عقباه؛ كما قال تعالى: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار). وقال : (وكان في المدينة تسعة رهط يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون) .

وجرمٌ جره سفهاء قوم *** فحل بغير صاحبه العقاب

العبرة السابعة عشرة: أن تبادر الدولة المسلمة بالإصلاح الحقيقي النافع القائم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجد غيرها قد سبقها إلى طرح إصلاح مزعوم لا يرضي الله ولا

رسوله صلى الله عليه وسلم. بل يرضي أعداء الإسلام الذين ينفخون فيه وفي أهله لمــآربهم - كمــا سبق - .

والإصلاح الحقيقي هو الذي يكون غايته وهدفه الأول تعبيد الناس لرب العالمين وتحقيق التوحيد؛ عن طريق كل ما يساهم في ذلك من وسائل ؛ كالاهتمام بأمر العقيدة والدعوة إليها ، وإزالة ما يُخالفها .

وهو الإصلاح الذي ينشر الفضيلة بين المسلمين ، ويدعم أسبابها ومنافذها . ويُحارب الرذيلة ويُضيق على أهلها .

وهو الإصلاح الذي ينشر العدل بين الناس ، ويباعد بين الدولة المسلمة وبين ظلم الرعيــة، فيــؤمن احتياجات المسلمين ، ويوفر لهم أسباب العيش الكريم دون أن يحوجهم إلى الآخرين . عــن طريــق إقامة المشاريع النافعة التي تتبناها الدولة ؛ كإقامة المجمعات السكنية لذوي الدخل المحدود ، وتشــغيل العاطلين ، وإعطاء العاملين والموظفين الرواتب المجزية التي تتناسب مع حال المعيشة ... الخ

وهو الإصلاح الذي يحقق للمرأة المسلمة بيئة العلم النافع ، والعمل الكريم – إذا احتاجــت إليــه – بعيدًا عن كل ما يخالف شرع الله .

وهو الإصلاح الذي ينهض بالبلاد – دنيويًا - في مجالات التقنية والصناعة والزراعة .. وغيرها ؛ عن طريق تشجيع العقول والنوابغ ، وتسهيل أمورهم ، وإعطائهم الثقة ، ووضعهم في المكان المناســب ، وتنفيذ مخترعاتهم وأفكارهم .. الخ.

العبرة الثامنة عشرة (الأخيرة) : أن تعلم الدولة المسلمة أن خير منجى لها من مكر الأعداء وفتنــهم هو الاعتصام بالكتاب والسنة ، والثبات على دين الله ، وعدم المساومة أو التنازل عنه ولو بالقليــل . قال تعالى : (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) . وقال محذرًا من مداهنة الأعداء : (يــا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) .

أسأل الله العظيم أن ينفع بما كتبتُ ، وأن يوفق بلاد المسلمين عامة وبلادنا خاصة للتنبه لكيد أعدائها ، ويثبتها على الحق ، ويصرف عنها الشر وأسبابه . والله أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينــا محمــد وآله وصحبه أجمعين

علم يهدي وسيف ينصر

محمد بن عبدالمجيد المصري

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وبعد:-

موضوع فقه التمكين في القرآن يحتاج لبحث تحليلي عميق لخطورته ولأهميته في حياتنا المعاصرة حيث إن الأمة تمر بفترة عصيبة من تاريخها، فهي في أشد الحاجة لفهم فقه التمكين حتى ترســم أهــدافها

وتسعى لتحقيق آمالها وفق سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والمجتمعات والدول، ولقد لاحظت في دراستي للقرآن الكريم أن أصول فقه التمكين واضحة المعالم في كتاب الله الكريم، فما على الباحث إلا أن يجمعها ويرتبها ويحللها ويبين أثرها على حياة الأمة عندما حرصت على تطبيقه في كل شئون حياتها، وماذا أصابها عندما ابتعدت عن كتاب ربها وسنة نبيها صلي الله عليه وسلم، إن وصول الأمة الإسلامية في هذا الزمان إلى التمكين ليس بالأمر السهل، ولكنه كذلك ليس بالأمر المستحيل، إذ على الرغم من التضييق الشديد والحرب الضروس التي تشن على الإسلام والمسلمين، فإن كثيرًا من المسلمين يرون أن التمكين لدين الله قاب قوسين أو أدنى من ذلك، ومهما رأى الأعداء أن التمكين للإسلام بعيد يشبه المستحيل فإن المسلم واثق بوعد الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون، وهذا ليس من باب الأحلام والتمنيات، ولكن من باب الثقة في الله تعالى، واليقين بوعده، إن كثيرًا من علماء الأمة وطلاب العلم فيها أجادوا في التصنيف في فنون متعددة ومتنوعة من علوم الدين، كما أنهم أفادوا الأمة في شرح الداء الذي أصيبت به الأمة، وفي بيان المؤامرات التي تحاك ضدها من قبل اليهود والنصارى وأعداء الإسلام، وبينوا شراسة الحملة التي شنها أعداء الإسلام بضراوة، وبكل الصور والأساليب على الأمة الإسلامية لتثبيط المسلمين، وخنق الأمل في صدورهم، وبث روح الهزيمة النفسية بين جوانحهم حتى لا ترتفع رؤوسهم، ولا تقوى عزائمهم، فيظلون في ذلك الضعف والهوان الذي صاروا إليه، فيصل بهم الأمر إلى الذوبان، والضياع، والتمزق بين سطوة الأمم التي تداعت عليها كما تتداعي الأكلة إلى قصعتها، لقد تحدث بعض الخطباء والوعاظ عن

مشاكل الأمة، وفساد أحوالها، بصورة تنشر اليأس وتوصد أبواب الأمل في وجه أبناء الأمة الغيورين، وشاعت روح الهزيمة بين صفوفهم، وأصبحنا كثيرًا ما نسمع من يقول: ماذا نفعل؟ ضاع الإسلام والمسلمون!..ويقفون على ذكريات الماضين ويتغنون بأمجادهم، فأدركت أن الأمر كبير، والقضية خطيرة ورأيت أن الأمة في أمسِّ الحاجة إلى ما يرد إليها ثقتها بربها، ومنهجها، في حاجة إلى من يوقظ الإيمان في قلبها، ويرشدها للأخذ بأسباب التمكين وشروطه، ويبين لها طبيعة الطريق، وكيفية السير فيه، ويوضح لها المعالم لتعرف كيف تعمل؟ وإلى أين تسير؟(١)

ولهذا جاء هذا المبحث المتواضع الذي أقوم فيه بعرض أحد العوامل اللازمة للتمكين لدين الله في الأرض وهي العلم والمعرفة ،ولا أزعم أن قدمت جديد في هذا المبحث وإنما قمت فقط بتسليط الضوء علي أحد المعالم التي أحسبها هامة في فقه التمكين لدين الله ،وعملي في هذا المبحث لا يعدو عن قيامي بتجميعات نقولات وأبحاث مختلفة مترامية هنا أو هناك ،أقوم بتجميعها وتهذيبها وإلقاء الضوء عليها لتخرج في صورة تبين المعني وتجلو المقصود،وإن تكررت في هذا المبحث بعض المعاني والكلمات فبغرض تثبيت المعني وتقريره ،فالعبارات إذا تكررت تقررت كما يقولون ،وطبيعة المبحث

نفسها تفرض الإسهاب أحياناً والتكرير ،وما هي إلا محاولة أقوم بها فإن كانت موّفقة فهذا فضل من الله وحده،وإن كان فيها من خلل فمن نفسي والشيطان والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

العلم قبل القول والعمل(٢)

اصطفى الله ــ تبارك وتعالى ــ رسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ، وتولاهم بحسن النشأة، وتعهدهم بتمام الرعاية، ونبأهم بما يحتاج إليه العباد من العلم؛ فكان للعلم في دين الله شأن ينبئك عنه أول القرآن نزولاً على نبينا-صلى الله عليه وسلم- حين خاطبه ــ تبارك وتعالى ــ بقوله: ((اقْـرأً بِاسْمِ رَبِّكَ الَذِي خَلَقَ)) (٣) وبهذه الآيات وضع الله ــ تعالى ــ معالم الرسالة الإسلامية الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم مبيناً أنها رسالة العلم والمعرفة والعقل، وهي أعظم نعم الله ــ تعالى ــ على الإنسان)(٤) وبهذه الآيات البينات، وما تضمنته من الإشادة بالقراءة والكتابة والعلم، أبان الله ــ عز وجل ــ لنبيه-صلى الله عليه وسلم- ولأمة الإسلام أن المعرفة بوسائلها: من قراءة وكتابة وتعلّم هي الأسلوب الأمثل لتبليغ الرسالة.

وبهذه الآيات أعطيت الأمة مفاتيح الإصلاح والتقدم والرقي؛ لتعلم أنه لا إصلاح ولا مدنية ولا حضارة بغير علم ومعرفة؛ فالجهل ــ وهو نقيض العلم ــ لا يأتي إلا بالشر والفساد والتخلف، كما أن الهداية إلى معرفة الحق واعتناقه والحرص على إقامة معالمه والدعوة إليه لا يكون إلا مع العلم، ولا يكتب للعلم النمو والانتشار إلا إذا سجله القلم ونشره وأعلن عنه(٥) ومن اللافت للنظر أن استفتاح الوحي بهذه الآيات البينات فيه دلالة واضحة على أن العلم في دائرة سنن الله في الحياة يعد من أهداف الأمة الإسلامية في تبليغها رسالة الإسلام؛ (لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها)(٦) ، وبقي شعاره التمثل لهذا الأمر مع طلب الزيادة منه: ((وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً))٧ وذكر بعض المفسرين أنه -صلى الله عليه وسلم- ما أمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم، وكان يقول: (اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً) وكان يستعيذ من العلم الذي لا ينفع.٨ ، فأعلن منهجه أبلجَ يضاهي وضوحه ضياء الشمس: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...}٩.

من هنا كانت سنة الدعاة ــ المقتدين بالرسل في الوظيفة ــ تري طريقتهم في التكوين والنشأة..

فصارت الركيزة الأولى في تكوين الداعية: العلم، فهو الذي يهتدي به العمل، ويُحفظ به الدين.

قوام الدين: "علم يهدي، وسيف ينصر" {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً} ١٠،وكما حرس الله بيضة الإسلام بالمجاهدين في سبيله، فقد حفظ شريعة الإيمان بالعلماء والمتعلمين.

والجهاد لا يتم على وجهه الحق إلا بالعلم المؤهل المؤصل المفصل بالقرآن الكريم والسنة النبوية. فالعلم ضرورة فوق ضرورة المأكل والمشرب والملبس والدواء؛ إذ به قوام الدين والدنيا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولا غرو فإن الدعوة إلى الله إذا كانت (أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي) ١١ ،ولقد كان من أعظم أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر: الجهل، وقلة العلماء العاملين، وسوء الخطط في مراحل الدراسة المختلفة في البلاد الإسلامية، وضعف الهمم والعزائم في الجد والبحث والتحصيل، والتخصصات الجزئية التي أضعفت العلوم الشرعية، والانهزام النفسي أمام بعض العلوم المادية، والنظر إلى التخصصات الشرعية نظرة دونية.

هذه الأسباب وغيرها جزء من واقع الأمة ــ في الجانب العلمي ولا شك أن بُعْد الهوّة بين الأمة وماضيها أذهل دعاتها الغيورين عن كثير من مصالحهم، وأفقد بعضهم شيئاً من التوازن سواء في تربيتهم لأنفسهم، أو في برامجهم التربوية المطروحة التي يسعون لتحقيقها؛ فلربما كانت الحركة الدؤوب على حساب بعض العلم، فإذا وضع هذا في الحسبان عرفنا ما يجب الفئة التي تضلع لإحياء الأمة والعمل للتمكين للدين تجاه العلم، وأنه لا بد من منح الهدف العلمي أولوية تليق به، بل يجب أن تصاغ الأهداف الأخرى على ضوئه؛ لأن التعليم والتربية صنوان لا ينفكان: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}١٢

إن العاملين للتمكين لدين الله في الأرض اليوم يجب أن تصاغ خططهم ومناهجهم في كل الجوانب الدعوية والتربوية والفكرية صياغة كاملة شاملة على أساس علمي متين؛ لأن التغيير الذين يرمون إليه عبء ثقيل وأمانة عظمى لا تتأتى إلا ببناء العقول وإصلاح الفكر؛ وهو أمر غاية في الخطورة والصعوبة، لا يحصل بالأحلام والأمنيات، ولا بالعواطف والانفعالات، ولا بالارتجال والاحتمالات.

إن قاعدة هذا التغيير والبناء والإصلاح متينة، ترسم أهدافاً عنوانها: الشرعية والوضوح والمرونة والملاءمة، وتنهج طريقاً واضحة علائمه، بيّنة منائره.. إنه منهج تعظيم النصوص الشرعية من الكتاب والسنة الصحيحة، وفهمها بفهم سلف الأمة ــ الذين اختارهم الله لإقامة دينه وحمل رسالته ــ، ثم التسليم والانقياد لها خِلْواً من المعارضات المرفوضة التي تتكئ إلى القياسات العقلية الفاسدة، والأذواق الرديئة، والمنامات الفارغة.. التي ما ناب الأمة منها إلا التفرق والشقاق والتيه والتأخر.

بهذا المنهج السلفي يجب أن تدرس وتفهم أصول الدين ومهماته من مسائل الاعتقاد والسلوك، ثم فروعه وأحكام الحلال والحرام، وبه تُدرك سبيل المجرمين، ويُفهم الواقع، وتُصنع الحياة.

ويوم أن نهجت الأمة ذلك النهج سطع نجمها، وعلا ذكرها، وامتد سلطانها، وبقي ذكرها، ونالت المجد والسؤدد... يومها وأدت نوابت السوء في مهدها، وكان السيف ينصر يوم أن كان العلم يهدي.

ثبت المراجع

*القرآن الكريم.

*مأخوذ من مبحث "المعرفة وفقه التمكين"للباحث محمد المصري.

١- مقدمة كتاب فقه التمكين في القرآن للدكتور علي بن محمد الصلابي.

٢-مجلة البيان العدد ١٣٢شوال ١٤١٨هـ-فبراير ١٩٩٨م افتتاحية العدد.

٣-سورة[العلق: ١].

٤-محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ج١، ص ,٥٤٢

٥ -المصدر السابق ج١ ,٥٤٣

٦- المرجع السابق، ج١، ص ,٥٤٥

٧-سورة[طه: ١١٤].

٨- أصول التربية والتعليم كما رسمها القرآن د. أحمد بن شرشال
دار الحرمين لنشر التراث.

٩-سورة[يوسف: ١٠٨].

١٠-سورة[الفرقان: ٣١].

١١-مفتاح دار السعادة ١٥٤/١.

١٢-سورة[الجمعة: ٢].

الدروس والعبر المستفادة من رمي اليهود بالحجر

الحمد لله القائل في كتابه : ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)) والصلاة والسلام على إمام المجاهدين وقائد الغر الميامين الذي جاهد في الله حق جهاده، فأقام به الملة ورفع آية التوحيد وحذر أمته من تركه فقال : " ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا ".

وعلى آله وصحبه أجمعين الذين ضربوا بجهادهم أروع الأمثلة وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السير قدماً في مسيرة الجهاد فقالوا :

نحن الذين بايعوا محمدا *** على الجهاد ما حيينا أبداً

وعلى من اقتفى أثرهم في مسيرة الجهاد إلى يوم الدين أما بعد :

يتعرض الشعب الفلسطيني المسلم اليوم وعلى تراب الأرض المقدسة إلى أبشع ألوان القتل والتعذيب والتنكيل والتشريد من أحفاد القردة والخنازير اليهود ، وهذا القتل وهذه المجازر تعرض لها شعبنا علي مدار تاريخه الجهادى وفي مقدمتها مذابح المسجد الأقصى ،وما من قرية ومدينة في فلسطين إلا وكان لها نصيب من هذه المجازر على مرأى ومسمع العالم، ولا تمر سنة من السنين إلا ويرتكب فيها اليهود مجازر جماعية ومجازر فردية، وها هي المجازر اليوم ترتكب في كل مدينة وقرية وشارع وزقاق على أرض الإسراء والمعراج ، ولكن مع بشاعة الجريمة التي يرتكبها اليهود بكل غطرسة إلا أن جميع أفراد الشعب مصممون على مواصلة الطريق حتى يندحر على الأقل أذى الاحتلال عن أرض فلسطين فضلاً عن تحرير كل شبر من أرض فلسطين بما في ذلك المسجد الأقصى ومدينة القدس.

وبات واضحاً لكل الشعوب الإسلامية وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني الذي يواجه غطرسة الاحتلال وهمجيته أن لا بديل عن مواصلة الجهاد لأن الاتفاقيات التي تسمى باتفاقيات السلام لم تحقق على أرض الواقع إلا مزيداً من القتل والتعذيب والاعتقال ومصادرة الأراضي وتدنيس المقدسات والدمار الاقتصادي والفساد الاجتماعي وتمزيق شمل الأمة الواحدة.

ولذا فإن الأمر الذي يترسخ لدى الشعب الفلسطيني في هذه المرحلة نتيجة الشعور بالاضطهاد والظلم هو مقاومة الاحتلال بكل الوسائل المتاحة ومواصلة الطريق ولو أريقت الدماء وأزهقت الأرواح.

وقد تحققت للأمة العربية والإسلامية دروس وعبر وثمرات جلية تعتبر بمثابة معجزة يجنيها ذوو العقول والأبصار، لو رسمت لها خطة وبدأ بتنفيذها ما كان ليتحقق لها بعض هذه العبر، ولو أمضت فيها عقوداً من الزمن ومليارات من الدولارات ولكن قبل الخوض في بيان هذه الدروس والعبر نريد أن نبين السبب الحقيقي للصراع على ارض فلسطين .

السبب الحقيقي للصراع بيننا وبين اليهود على أرض فلسطين :

يحلو للبعض أن يصور الصراع بين المسلمين في فلسطين وبين اليهود صراعاً سياسياً واقتصادياً ويغفلون أو يتغافلون عن السبب الحقيقي للصراع إلا وهو اختلاف الدين كما قال الله تعالى : ((ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)) وقال تعالى : ((ولو شاء الله ما اقتتل الذي من بعدهم من بعد ما جاءهم البينات فمنهم من آمن ومنهم من كفر)) والذين يريدون إبعاد الناس عن السبب الحقيقي للصراع يظلمون أنفسهم وغيرهم ويورطون الأمة في مصائب لا حصر لها ويحرمونها من ثواب الدنيا بالنصر والتمكين، ومن تراب الآخرة برضوان الله ودخول جنات النعيم، ففكرة حصر هذه القضية في الفلسطينيين وحدهم أو في منظمة هي فكرة خبيثة، الهدف من ورائها تجنب الصراع مع مليار مسلم على وجه الأرض ولكن اقتضت حكمة الله جل وعلا أن يكون المسجد الأقصى بؤره الصراع لينال كل مسلم على وجه الأرض شرف المشاركة في الجهاد للدفاع

عن المسجد الأقصى والأرض المقدسة، فلم تأت قدسية المسجد الأقصى والأرض المقدسة من كوننا فلسطينيين أو كنعانيين، وإنما ترسخت هذه القدسية في قلوبنا لأننا مسلمون نؤمن بما جاء في كتاب ربنا تعالى وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم من مكانة للمسجد الأقصى والأرض المقدسة وبيان ذلك فيما يلي :

١) منزلة المسجد الأقصى والأرض المقدسة في دين الله :

إن لفلسطين والمسجد الأقصى بمدينة القدس مكانة عظيمة عند المسلمين فقد سمى الله أرض فلسطين بالأرض المقدسة وهي جزء من الأرض المباركة في عدة مواضع في القرآن قال سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ((ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين))(الأنبياء ٧١). ولما خرج موسى بقومه بني إسرائيل من مصر قاصداً أرض فلسطين قال لهم : ((يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين)) (المائدة ٢١).

ولما نكلوا عن دخولها حرمها الله عليهم أربعين سنة وضرب عليهم التيه في أرض سيناء، فلما نشأ فيهم جيل على شظف العيش ومكابدة الصحراء وأصبحوا مؤهلين للجهاد في سبيل الله استحقوا الدخول إلى الأرض المقدسة وتحقيق موعود الله على يد نبي الله يوشع بن نون عليه السلام : ((وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا)) (الأعراف ١٣٧)

وبين القرآن بركة أرض فلسطين بجبالها وسهولها وطيورها بالتسبيح والتهليل والتكبير إذ أسمع الله نبيه داود ذلك بقوله ((يا جبال أوبي معه والطير)) وبتسخير الريح لسليمان ((ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها)) (الأنبياء٨١)

وعظمت بركة أرض فلسطين وازداد شرفاً بمسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتبط المسجد الأقصى بالمسجد الحرام بأوثق رباط إلى يوم القيامة وبقيت أرض فلسطين وستبقى مرتبطة بمنهج الإسلام وعقيدة التوحيد ، هذا المنهج هو منهج الأنبياء في رحاب المسجد الأقصى، يقول الله تعالى : ((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)) (الإسراء ١)

وتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحلة الإسراء والمعراج فقال : " أتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت ركعتين ثم عرج بي إلى السماء " رواه مسلم.

والمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث المساجد بعد الحرمين (١) فقد توجه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته إليه في صلاتهم ثمانية عشر شهراً ثم حولت القبلة إلى المسجد الحرام كما قال تعالى :

((قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره))

والمسجد الأقصى أحد المساجد التي تشد إليها الرحال قال رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هـــذا، والمســـجد الأقصـــى) رواه البخاري ومسلم.

ويعظم أجر الصلاة فيه كما جاء في حديث رسول الله : " لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثاً : " حكماً يصادف حكمه،وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وألا يأتي هذا المسجد أحد ، لا يريد الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " فقال النبي : " أما اثنتـــان فقـــد أعطيهمـــا ، وأرجوأن يكون قد أعطى الثالثة " رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

وأرض فلسطين قلب أرض الشام التي جاءت الأحاديث تبين فضلها ومكانتها ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (طوبى للشام طوبى للشام، قال زيد بن ثابت راوي الحديث : قال مابـــال الشام؟ قال : الملائكة باسطوا أجنحتها على الشام " رواه الترمذي وأحمد والحاكم، قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمـــتي منصـــورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة " رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

٢) أرض فلسطين تتنازعها الديانات :

يتنازع على أرض فلسطين المسلمون واليهود والنصارى ،أما اليهود فيزعمون حسب كتبهم المحرفـــة أنهم أصحاب الحق في هذه الأرض ومن هذه النصوص :

أن نوحاً قال لسام الذي يعتبره اليهود أباهم : " ملعون كنعان (جد قبائل فلسطين الكنعانيـــة) عبـــد العبيد يكون لأخويه، فقال : مبارك الرب إله سام، وقال: ليكن كنعان عبداً لهم" (سفر التكـــوين / الأصحاح ٩)

ومنها أن الله قال لإبراهيم " أقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهـــداً أبـــدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، أرض غربتك، كل ارض كنعان ملكاً أبدياً " (سفر التكـــوين / الأصحاح ١٢)

ويرون أن هذا الوعد خاص بأبناء اسحق دون أبناء إسماعيل فقد جاء في التوراة قولها : ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده سارة في هذا الوقت من السنة الآتية) (سفر التكوين / الأصحاح ١٧)

وتوضح التوراة حدود الأرض التي منحت لبني إسرائيل " لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " (سفر التكوين / الأصحاح ١٥)

ويعتبرون أن سكناهم في أرض فلسطين تغفر لهم ذنوبهم حيث جاء في التوراة عـــن أرض فلســـطين (الشعب الساكن فيها مغفور الاثم " (سفر أشعيا / الإصحاح ٣٣) ولذا تقول جولد مـــائير رئيســـة

وزراء دولة اليهود : " ومن يعيش داخل أرض إسرائيل يمكن اعتباره مؤمناً ، وأما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له"

ولذا يرتكب اليهود أبشع الجرائم وينتهكون الأعراض ويدنسون المقدسات ويقتلون الأطفال والشيوخ وينهبون الأموال ويصادرون الأرض من سكانها الفلسطينيين المسلمين ظلماً وعدواناً ويعتبرون أنهم بذلك يرضون إلههم .وهنا سأذكر عبارتين من كتبهم المحرفة تشكلان العقيلة اليهودية الإجرامية.

في التوراة " وكلم الرب الإله إسرائيل قائلاً : سأنزل يا إسرائيل ، وأضع السيف في يدك، واقطع رقاب الأمم واستذلها لك" وعبارة التلمود " الأميون (٢) هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار وكلما نفق حمار ركبنا حماراً آخر ".

أما النصاري فإنهم على الرغم من اختلافهم الكبير مع اليهود في الدين فإنهم يؤمنون بحق اليهود في فلسطين وبظهور المسيح ثانية في فلسطين ليقودهم إلى النصر المبين، ويرون أن قيام دولة إسرائيل شرط في رجوع المسيح الذي سيحكم أرض إسرائيل في رجوعه الثاني، فيما يعتبر اليهود أن القادم ليس هو مسيح النصارى بل آخر يأتي لأول مرة، وفي التبشير بهذا القادم تقول التوراة " يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه،ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسة وللسلام ، لانهاية على كرسي داود (عرش فلسطين) وعلى مملكته ليثبتها ولا يعضدها، بالحق والبر، من الآن إلى الأبد، وغيرة رب الجنود تصنع هذا " (سفر إشعيا / الإصحاح التاسع)

يقول المبشر المسيحي أوين " إن إرهابيين يهوداً سينسفون المكان الإسلامي المقدسي وسيستفزون العالم الإسلامي للدخول في حرب مقدسة مدمرة مع إسرائيل ترغم المسيح المنتظر على التدخل".

ويقول رونالد ريجان رئيس أمريكا الأسبق " أجد في التوراة أن الله سيلم شمل بنى إسرائيل في أرض المعاد، وقد حدث هذا بعد قرابة ألفى سنة، ولأول مرة فإن كل شيء مهيأ لمعركة مجدو والمجئ الثاني للمسيح" ومعركة مجدو هي (المعركة النهائية التي يتوقع النصارى أن ينتصروا فيها هم واليهود على عدوهم).

أما نحن المسلمين فنقول : إن الله وعد إبراهيم عليه السلام ببركة واستخلاف في ذريته حين طلب ذلك من الله : ((وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين)) (البقرة ١٢٤) ، وكان هذا الوعد الإلهي مشروطاً بالصلاح،وقد تكرر هذا الشرط عندما سأل إبراهيم ربه أن يرزق أهل البلد الحرام من كل الثمرات : ((إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير)) (البقره ١٢٦)، فالتمييز يكون باعتبار الصلاح والفساد ،قال الله عن اسماعيل ((وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)) (الصافات :١١٣) وعلى ذلك نقول إن الصالحين المؤمنين من ذرية إبراهيم هم الذين يستحقون

البركة والاستخلاف وهذا لا يتحقق إلا فيمن آمن برسالات جميع الأنبياء وآخرهم محمد ؟، وبين الله كذب اليهود في ادعاء أن لهم خصيصة ومزية على الناس بقوله تعالى: ((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)) (الأنبياء ١٠٥) ، وقوله تعالى : ((وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض ومابينهما وإليه المصير)) (المائدة ١٧)، .وقد كان استخلاف بني إسرائيل في الأرض المقدسة مشروطاً بإقامة منهج الله في الأرض، أما وقد كفروا بالله وخاتم رسله محمد ؟وناصبوه العداء وألبوا عليه قوى الكفر والطغيان وحسدوه على نبوته وعملوا جاهدين على قتله والتخلص منه فإنهم بذلك فقدوا استحقاقهم لاختيار الله واصطفائه، ونقل هذا الاصطفاء والاختيار إلى الأمة الإسلامية التي تعبد الله وحده وتقيم دينه وشريعته قال الله سبحانه : ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)) (آل عمران ١١٠) وتمضي الآيات توضح حال اليهود وبيان السبب الذي من أجله نزع الاصطفاء والتفضيل منهم فتقول : ((ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)) (آل عمران ١١٢).

الدروس والعبر المستفادة من قذف اليهود بالحجر :

بعد هذا الإيضاح المختصر جداً عن بعض المفاهيم المتعلقة بحديثنا نود أن نستقي الدروس والعبر مما ابتلينا به لنواصل معاً وسوياً سبيلنا لتحرير أرضنا المقدسة ومسجدنا الأقصى من دنس اليهود .فإن الله تعالى قص علينا في القرآن قصة يهود بني النضير وما أحل بهم غضبه عليهم وإجلائهم عن ديارهم ثم أرشدنا قائلاً : ((فاعتبروا يأولي الأبصار)) ولأخير فينا إن لم نتعظ ونعتبر وننظر في سنن الله في الأرض :-

١) إن طريق الجهاد هو طريق عزة المسلمين : وقد أمرنا الله جل وعلا به في آيات كثيرة من كتابه منها قوله تعالى : ((انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)) التوبة ٤١. وحذر سبحانه عن التقاعس والنكول عن الجهاد فقال : ((إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولاتضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير)) التوبة ٣٩. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ماترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا) وقال صلى الله عليه وسلم : (إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) أخرجه أبو داود والبيهقي وهو حديث حسن. وحينما نتكلم عن الجهاد إنما نعني به الجهاد الوارد في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومنهج سلف

الأمة ، الجهاد الذي ترفع به راية التوحيد وتحمى به الديار وتأمن به السبل وتحفظ به الأرواح والدماء والأعراض والأموال ، وتهيأ به السبل للدعوة إلى الله لينعم الناس بالعيش في ظلال الإسلام ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين))،فإن منهج الإسلام هو المنهج الحق الذي من سار عليه لا يضل ولا يشقى ومن خالفه فإن له معيشة ضنكى ، وذلك كله ((ليهلك من هلك على بينة ويحي من حي عن بينة)).

٢) أن الأمة الإسلامية تملك قدرات وإمكانيات هائلة لو أحسنت استغلالها لساهمت مساهمة فعالة في تغيير واقع الأمة من الضعف إلى القوة : فهاهم الأطفال والشباب في فلسطين على الرغم من سوء الأوضاع التي يعيشونها وقلة ذات اليد إلا أنهم لا يهملون أي وسيلة تردع العدو عن غطرسته ولو كان حجراً لا يقدم ولا يأخر بالنسبة للأسلحة الفتاكة التي يستعملها اليهود ولكنه علامة خزي وعار لأعداء الله ، وللمجاهدين أسوة في ذلك نبي الله داود عليه السلام حينما وقف في وجه عدو الله جالوت وقذفه بمقلاع كان في يده فأصابه في أم رأسه فقتله ، ولذا فإن المسلم لن يعدم الوسيلة في قتال الأعداء مهما بدت في نظر الآخرين ضعيفة وغير مجدية ، فالمهم أن ينالوا من عدوهم ويشعروه بأنه مهدد دائماً قال الله تعالى : ((...ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولانصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح...)) (التوبة ١٢٠) ومن هنا نجد التركيز القرآني على الثقة بالنفس والثبات على الحق ،فإن شر الهزيمة هي الهزيمة النفسية التي تعقبها الهزيمة العسكرية ، والأمة الإسلامية تملك إلى جانب الأمور المادية قواعد إيمانية دونها الجبال الراسيات قال الله تعالى : ((ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)) وقال سبحانه : ((قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)) .

٣) أن السلام مع اليهود ضرب من العبث : فالسلام الذي يريده اليهود هو سلام أمنهم وأرواحهم وممتلكاتهم ، فهم يستترون وراء هذا السلام المزعوم لإخفاء كل أنواع المكر والخديعة للوصول إلى أهدافهم ومآربهم ، ولاشك أن أي مسلم يحب السلام ولكنه السلام القوي الذي يستند إلى شريعة الرحمن لا إلى إملاءات اليهود ، فاليهود لم يسالموا رب العالمين كما حكى عنهم القرآن ((وقالت اليهود يد الله مغلولة)) و((قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)). و لم يسالموا الأنبياء حيث قتلوهم واتهموهم بالفواحش وأثاروا عليهم قوى الكفر والطغيان ،فقد أهدوا رأس نبي الله يحيى عليه السلام إلى بغي من بغاياهم ، أفننتظر منهم بعد كل هذا أن يسالمونا ، هذا شيء عجاب .

٤) إنقاذ الشعوب الإسلامية من التهور في بناء علاقات مع اليهود : فما يكتوي بناره الشعب الفلسطيني لا نريد أن يكتوي به أي شعب مسلم على وجه الأرض، فاليهود داء عضال يبدأ أول ما يبدأ ضعيفاً ثم يستشري شيئاً فشيئاً حتى يعم الجسم كله، كالشيطان يدلك على سبعين باباً من أبواب الخير ليصل بك إلى باب واحد من أبواب الشر، ولا تستطيع أن تخلص نفسك منه بعد ذلك .

٥) أن اليهود لايحسبون للمسلمين حساباً ماداموا متفرقين : وهم يسعون جاهدين لتفريـــق كلمـــة المسلمين وبث الخلافات بينهم ، ولكن الله جل وعلا سيخيب آمالهم ، فها نحن نرى –بحمـــد الله – كلمة المسلمين بدأت تتوحد وجهودهم تتظافر وخلافاهم تذوب عملاً بقول الله تعالى ((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تتفرقوا)) وستتوج هذه الوحدة –بإذن الله تعالى – حينما تجتمع الكلمـــة علـــى خليفة واحد ،وسيكون ذلك بمشيئة الله كما أخبر رسول الله ؟ بقوله: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون مـــا شـــاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون ،ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها،ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعهـــا ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت " رواه أحمد ، نرجوا أن يكون ذلك قريباً.

٦) أن إرادة الشعوب لا تقهر إذا ترسخت لديها العزيمة على التغيير : فكيف إذا منحت قدراً كافيـــاً من الوعي والتوجيه فإن القوة ستتضاعف وتأتي بآثار طيبة قال الله تعالى : ((إن الله لا يغير ما بقـــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) وقال سبحانه : ((وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)).

٧) أن الأمة الإسلامية هي الأمة المؤهلة لقيادة العالم ورعاية شئونه : فإن الله ائتمنها علـــى ذلـــك إذ جعلها خير الأمم ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) وجعلها خيار الأمم والشهيد عليها ((وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علـــى النـــاس ويكون الرسول عليكم شهيداً)) وجعلها أمة الدعوة ((قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)) وهي أمة الجهاد في ســـبيل الله ((وجاهـــدوا في الله حق جهاده)) ولذا فإن الأمة الإسلامية هي الأمة المؤتمنة على إقامة دين الله في الأرض الذي تحفظ به العهود والمواثيق والمقدسات والأرواح والدماء والأعراض والأموال من العبث والتخريب والدمار .

٨) أن الأمة مستهدفة في دينها ، ودينها هو أساس عزها وكرامتها : فإن ضيعت دينها كانت لغـــيره أضيع . وإقامة الدين تحتاج إلى قوة علمية وقوة مادية ، وذلك ليتقوى الدين بقوة الحديد ،وينضـــبط الحديد بقوة الدين ،وقد وضح الله ذلك في كتابه العزيز بقوله : ((لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)) .

٩) تحطمت لدى اليهود فكرة التعايش السلمي مع العرب في فلسطين : حيث كانوا يراهنون علـــى أبناء الجيل الذي نشأ بعد حرب ١٩٦٧ أن يشكلوهم حسب العقلية اليهودية وقد تحقق لهم بعض ما يريدون ولكن جاءت هذه الأحداث المتلاحقة وإذا بهذا الجيل هو الذي يتصدى لليهـــود ويقارعـــه ويواجهه بالحجر ويصرخ في وجهه بالتكبير والتهليل ويكيل له الصاع صاعين .حقاً إن هذا الجيل آية من آيات الله الباهرة ، إنه جيل لا يخشى الموت ولا يرهب الردى ، جيل يتمنى الشهادة في سبيل الله

، جيل يعلو بإيمانه وعزيمته على كل ألوان الغطرسة والهمجية اليهودية ، فلعله يكون هـو الجيـل أو مقدمة للجيل الذي شرفه الله بالإضافة إلى نفسه في جهاد اليهود كما كان سلفهم الأول من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ((فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كمـا دخلـوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيراً)).

١٠) أن على الأمة أفراداً ودولاً أن تكون على استعداد تام في حالات السلم والحرب لمواجهـة أي طارئ يحدث لها حتى لا تؤخذ على حين غرة : وهذا يعني إعداد العدة التي أمر الله بها في كتابه حيث قال ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)) فكل عـدو لله فهو عدو لنا ، وأشكال الإعداد التي ترفع بها راية الحق وتخفض بها راية الباطل كثيرة ومتنوعة منها على سبيل المثال لا الحصر بناء الجامعات والمعاهد والمدارس والمشافي وأقامـة الحصـون والتـدريب المستمر على كافة أنواع السلاح ،وبناء مصانع السلاح ومصانع الأغذيـة واستصـلاح الأراضـي وزراعتها بالزراعات الأساسية للفرد والتخلي عن سياسة الاستيراد من الدول الأخـرى والاهتمـام بوسائل الإعلام لتؤدي دورها في نشر الفضيلة والبعد عن الرذيلة،وعلى كل فلن يعـدم المسـلمون وسائل الإعداد التي يقهر بها العدو ويعز بها الإسلام والمسلمون ويتحقق بها النصر المبين على الكفـرة المجرمين أعداء الدين ، وما ذلك على الله بعزيز.

١١) أن ارتكاب المعاصي سبب تسلط اليهود على المسلمين في فلسطين : ودليل ذلك عدم الاستجابة لتحذير العلماء والخطباء والوعاظ والمرشدين والغيورين على الدين من مفاسد الصيف ، إذ كثـرت الحفلات الموسيقية في الأفراح طوال الليل وكأن الناس ليس فيهم من قتل له قتيل أو أصيب له مصاب مازال يعاني الويلات وهو يتردد على أبواب المؤسسات يسأل عمن يمد له يد العون والمساعدة ، ومن أغرب ما أرقنا وقض مضاجعنا وخشينا نزول الغضب علينا هو عدم الاتعـاظ والشـعور بمصـائب الآخرين حينما يقف المشيعون للجنازات على المقابر وهم يدفنون ميتهم وآلات الموسيقى وأصـوات المغنين بالليل والنهار تصك آذانهم ، وأمام الفساد والانحلال الخلقي الذي بدأ ينخر في جسـد الأمـة نردد مع أصحاب العاهات والمصائب والنكبات التي أصابت أمتنا وشعبنا في فلسطين قول الله تعالى : (حسبنا الله ونعم الوكيل) وانتشرت الصالات التي ترقص فيها الراقصات شـبه عاريـات ويـدار بكئوس الخمر فيها على الشاربين ، يفعل كل هذا من لا خلاق لهم بينما اليهود في انتفاضة الأقصـى الماضية تعلموا درساً قاسياً فحصنوا مستوطناتهم ومواقعهم وأعدوا عدتهم لمواجهة كل طارئ فسارعوا منذ اللحظة الأولى التي اندلعت فيها المواجهات إلى الضرب بيد من حديد لكل من يقف في وجوههم فهل نتعظ ؟؟ ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

نسأل الله تعالى أن يشتت شمل اليهود، ويفرق كلمتهم ويجعل الدائرة عليهم، ويقينا شرهم ، ونسـأله تعالى أن يوحد كلمتنا ويسدد رمينا ويصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ويصلح لنا دنيانا التي فيها

معاشنا ويجعل الدنيا زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر وأن يرزقنا قبل الموت توبـــة وعند الموت شهادة إنه ولي ذلك والقادر عليه، آمين آمين.

كتبه ناصح أمين للإسلام والمسلمين

---

(١) توسع الناس في إطلاق كلمة الحرم على الكثير من المساجد ومنها المسجد الأقصى بل قالوا عـــن ساحات الجامعات بأنها حرم وهذا خطا، فالحرم لا يطلق إلا على المسجد الحرام والمســـجد النبـــوي ومعنى أنها حرام.أنه لايقطع شجرها ولايصاد صيدها ولاينفر طيرها

(٢) الأمميون عند اليهود هم غيرهم من الأمم

من سيد قطب إلى أبطال "غزة" الصامدين

وبعد تلك السنين التي وسدت فيها في قبري حركني زيارة العديد من إخواني الشهداء القادمين مـــن أرض الرباط والعزة "غزة" فأحببت أن أرسل من مرقدي رسالة لمن بقي منهم عسى أن ينطبق عليهم قول الحق جل شأنه: ؟؟ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ؟؟ [الأحزاب:٢٣]

أكتب لكم ــ يا أهل "غزة" ــ هذه الرسالة بدمي الذي ما زال يتضرج ويفوح.... أكتبها بـــدمي لعله أن يكون مشعلا لكم في "غزة" كما كان مشعلا للعددين منذ أن تقدمتُ رابط الجـــأش رافـــع الرأس لمنصة الظلم والكفر والإلحاد فقتلتُ من أجل "لا إله إلا الله".

إن الثبات على المبادئ والقيم يعني سفك الدماء الطاهرة من جهة، وهو أول علامات النصر من جهة أخرى... إن وعد الله قاطع جازم: { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . . }. . بينمـــا يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومـــه مكـــذباً مطـــروداً، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعـــيش في كرب وشدة واضطهاد. . فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل!

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور. ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بـــين عصـــر وعصر ولا بين مكان ومكان. ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر مـــن غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها. فليس لأصحاب هذه القضـــية وجـــود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها!

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى.

وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة. . إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها. . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟

ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار. كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة. وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب!. . والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟

في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين. من المسلمين. وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال. .

ما النصر؟ .... وما الهزيمة؟

إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور. ومن القيم . قبل أن نسأل: أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا!

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد صلى الله عليه وسلم في حياته. لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض. فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً. من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة. فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة. ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية. وفق تقدير الله وترتيبه .

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك. إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا. ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها. وحقيقة الإيمان كثيراً ما يتجوز الناس فيها. وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله. وإن هنالك لأشكالاً من

الشرك خفية؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه وحده، ويطمئن إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله.

ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول.

وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصـــر أو صور الخير .فسيكل هذا كله لله.

ويلتزم ويتلقى كل ما يصيبه على أنه خير.. وذلك من معاني النصر.. النصر على الذات والشهوات.. وهو النصر الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال.

؟؟ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ؟؟ [غافر:٥١]

أقول هذا لمن يفهم حقا معاني النصر الحقيقية، أما من في قلبه شيء من الريب والشك، ويسأل عـــن أسباب تأخر النصر عن الجماعة المؤمنة فأذكر له بعض أسباب تأخر النصر الظاهر القريب...

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامهـــا، ولم تحشـــد بعـــد طاقاها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالـــت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرها على حمايته طويلاً!

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فـــلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند مـــن الله لا تكفل النصر. إنما يتترل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعـــدها إلى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل؛ ولا تجد لها ســـنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النـــهج بعـــد النصر عندما يتأذن به الله. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه.

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجـــل يقاتـــل ليرى. فأيها في سبيل الله. فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ».

قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشـــر منـــها ليتمحض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار. فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

يا أهل الجهاد والرباط في "غزة" الأبية إنكم بايعتم الله على الثبات على الدعوة والجهاد وعدم التراجع فلا تيأسوا من روح الله، وإن اليأس من النصر قد يصيب حتى أولى العزائم الكبيرة والهمم السامقة، فقد بلغ اليأس قلوب أعظم الدعاة والمجاهدين ألا وهم بعض الأنبياء عليهم صلوات ربي وسلامه { حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}. .

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يجاهدون ولكن يتأخر النصر عنهم، وتكر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس. . تراهم كُذِبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى: { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله . . . ؟ } ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة. . في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً:

{ جاءهم نصرنا، فنجي من نشاء، ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين }. .

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً. فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً. فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء.

والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدَّعوها، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل؛ إما أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات!. .

ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثيرة التكاليف أيضاً. وأنه من ثم لا تنضم إليها في أول الأمر الجماهير المستضعفة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً. ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً .

أخيرا هذه كلمتي الأخيرة إلى أهلي في "غزة" العز والنصر والإباء

اعلموا أن عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو. والاتصال بالله بالذكر. والطاعة لله والرسول. وتجنب النزاع والشقاق. والصبر على تكاليف المعركة. والحذر من البطر والرئاء والبغي . .

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما. وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون؛ وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا

الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟!

وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

سيد قطب

المصدر موقع (لُجينيات)

هزيمتنا في العراق .. في إطارها الصحيح

هيثم بن جواد الحداد

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، لا يحصى عدد نعمته العادون، ولا يؤدى حق شكره المتحمدون، ولا يبلغ مدى عظمته الواصفون، بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

أحمده على الآلاء، وأشكره على النعماء، وأستعين به في الشدة والرخاء، وأتوكل عليه فيما أجراه من القدر والقضاء

وأشهد ان لا إله إلا الله وأعتقد أن لا رب إلا إياه، شهادة من لا يرتاب في شهادته، واعتقاد من لا يستنكف عن عبادته.

وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، دعا إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا في هذه الأمة قدوتها ومصابيحها، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا.

وبعد،

فلقد خلق الله جل وعلا هذه الحياة الدنيا للإمتحان والإبتلاء (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)، ولذلك فإن الله جل وعلا لم يجعل النصر فيها حليفا للمسلمين في كل وقت وكل زمان، بل إن من حكمته جل وعلا أن يصيب المسلمين بهزمات ونكبات، ومن استقرأ التاريخ رأى هذا الأمر رأي العين، ولهذا فإن المؤمن الواثق بدينه يعلم أن ما يجري على المسلمين من نكبات في هذه الأيام ما هو إلا إنموذج من سنن الله في هذه الحياة، فهو أمر طبيعي

{ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } سورة آل عمران (٣)

أمة الإسلام في قلب هذه الأزمة، ومع هذه الهزيمة الشنيعة التي حلت ببلد من بلاد المسلمين، قد تتسائل الجموع المسلمة بعد أن أحرق قلبها ما شاهدته مقل أعينها في عاصمة الإسلام لخمسة قرون من الزمن، تتسائل هذه الجموع المؤمنة، وهل انقضى كل شيء، أم هل انتهى دورنا، وحتى نقدم بإجابة متزنة بعيدة عن أمل مفرط، ويأس محبط، لا بد لنا من أدراك أمور:

الأمر الأول: لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين

عباد الله: إن الهزائم العسكرية المادية التي جرت على الأمة لم تكن يوما من الأيام إيذانا بفنائها، ولا علامة على قرب زوالها، بل كانت تلك الهزائم تحمل في طياها بذور النصر، وشعاعات الأمل

بغداد لا تهني فالله منتصرٌ *** لأمة الحق إن آبوا وإن عادوا

بغداد فلتقرأي التاريخ إن به *** أخبار من قبلنا فيهن أشهادُ

فرعون حاصر موسى من تغطرسه *** فأغرق الله من عن دينِهِ حادوا

حادوا ، فبادوا وكان الله منتصراً *** لجنده وبفضل الله قد سادوا

بغداد كل قوى الكفار فانيةٌ *** كما فنى قوم نوحٍ أو فنت عادُ

لم يحدث في تاريخ المسلمين كله أن هزم المسلمون هزيمة عسكرية في ناحية من النواحي، أعقبها اجتياح عام لكل بلاد المسلمين، وتلا ذلك ظهور دائم للكافرين على المسلمين في الأقطار كلها.

و لم يحدث في تاريخنا كله أن هزيمة حلت بنا، قصمت ظهورنا فلم تقم لنا بعد ذلك قائمة، لم يحدث هذا ولن يحدث هذا أبدا.

روى مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها و مغاربها، و إن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، و إني أعطيت الكنزين الأحمر و الأبيض، و إني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكوا بسنة عامة و لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم،

و إن ربي عز و جل قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد و إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، و أن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم و لو اجتمع عليهم من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يفني بعضا، و إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين

ثم قال صلى الله عليه وسلم (و لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) ([١]).

إن المتأمل يا أمة الإسلام في تاريخنا الطويل الممتد أربعة عشر قرنا يكاد يلحظ أن كثيرا من هذه المصائب العسكرية التي تصيب الأمة، وما يصاحبها من سفك وقتل وتعذيب وتشريد، تبث فيها الحياة من جديد، أو توقظها من غفلة رانت عليها، أو تدغدغ فيها خلايا النشاط النائمة.

أمة الإسلام: هذه الأمة تسقي شجرة حياتها، بدماء تسيل من جوانبها، حياتها تنبعث من الموت، وأملها يولد من الألم، { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } البقرة

هذه هي الحقيقة، حقيقة مرة، لا يتجرعها إلا من ذاق حلاوة الإيمان وبرد اليقين، وألئك هم الذين تحيا الأمة على كواهلهم

إن غياب هذه الحقائق عنا هو الخطر الداهم، والمصاب الحقيقي، فإنه يجلب علينا الهزائم الحقيقة، ويرمي بنا في أوحال الذل، ويغرقنا في للجج الأسى.

أمة الإسلام: ولما كان هذا هو الداء القاتل لهذه الأمة، فلم نر الأمة يوما من الأيام قط تجرعته، و لم يشهد التاريخ عليها أنها استسلمت له.

في غزو أحد ابتلي المسلمون بلاء عظيما، أحاط بهم الكفار، وأخذوا يقتلونهم، قتل جمع من كبرا الصحابة، وسارت شائعة أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل، قتل أملهم، وقتل قائدهم، فهل انتهى كل شيء، مر أنس بن النضر الصحاب الجليل عم أنس بن مالك، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، مر هذا الصحابي وهو في لجج المعركة بعمر بن الخطاب ومعه رهط فقال ما يقعدكم؟ قالوا قتل رسول الله قال فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم جالد بسيفه حتى قتل فوجد قتيلا وفيه بضع وثمانون من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم

لا تسقني ماء الحياة بذلة واسقني بالعز كأس الحنظل

فاختر لنفسك مترلاً تعلو به أو مت كريماً تحت ظل القسطل

موت الفتى في عزة خير له من أن يبيت أسير طرف أكحل

الأمر الثاني: قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار

أيها المؤمنون: إن اليأس ليس له مكان في حياة المسلم أبدا، وإن الشعور بالإحباط وليد ضعف الإيمان، وهو من ثمرات تسلط الشيطان الرجيم على بني آدم، ولذلك فإنك تجد المؤمن مستبشرا دائما، قوي النفس، ثابت الجأش، لا تهزه الرياح، ولا تزحزحه الأعاصير.

أيها الإخوة: لو فرضنا جدلا أن الذي حدث في بغداد هو نهاية مطاف هذه الأمة، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تربعت على عرش حكم العالم إلى أبد الدهر، أين إيماننا بالموت، وأين إيماننا بنهاية الحياة الدنيا { قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } آل عمران

أين نحن أيها المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه و لا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه) ([٢])

وانظروا إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بعدما أعلنت هزم المسلمون في غزوة أحد

هزيمة عنيفة، وقتل من الصحابة جمع كثير، قال ابن اسحاق ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته أعلمتم أن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، أعل هبل، أي ظهر دينك، فقال رسول الله لعمر قم يا عمر فأجبه، فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار

أجابه عمر بن الخطاب موضحا له الميزان الحقيقي، وأن هذه الدنيا لا تعبر عن الميزان الحقيقي، قال له لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

نعم هذا هو المقياس، لا مقياس الحياة الدنيا، قتلانا نحن في الجنة وقتلاكم أيها الصليبيون في النار، لا سواء.

{ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }

الأمر الثالث: الأمل في قلب المحنة

أمة القرآن: إن المسلمين مطالبين بأن تكون لهم الغلبة، ومطالبين ببذل كل ما يستطيعون في سبيل الوصول إلى ذلك (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ([٣]) نعم هم مطالبون بذلك، لكن لا يجوز أبدا أن يكون عجزهم عن تحقيق ذلك الأمر سببا لإسلامهم إلى اليأس والإحباط، ولا يجوز أبدا أن يكون ذلك مانعا لهم من اصطحاب الأمل.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الأمل والتفاؤل في أشد الظروف وأحلكها، في غزوة الأحزاب، حيث تكالبت القوى التي تحمل الكره للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتتمنى أن تستأصل هذه الدعوة من شأفتها، والنبي صلى الله عليه وسلم في قلة من أصحابه، والمدينة النبوية كلها قطرة عذبة وحيدة في وسط أمواج هائلة من رمال الكفر والطغيان، في هذا الوقت، والصحابة يحفرون الخندق إذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يبشر أولئك العدد المحدود المحاصر يبشرهم بماذا، يبشرهم بفتح قصور كسرى وقيصر.

الأمر الرابع: إنكم قوم تستعجلون

جاء الصحابي الجليل خباب بن الأرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقي من المشركين شدة، فقال: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق

باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه " ([٤]) .

أيها الإخوة المؤمنون مقياس الزمن عند ربنا غير المقياس عند البشر { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } الحج

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قال الله جل وعلا (اقتربت الساعة وانشق القمر) منذ أربعة عشر قرنا أربعة عشر قرنا يا عباد الله اقتربت الساعة، منذ ألف وأربعمائة سنة اقتربت الساعة، إن العشر سنين، والخمسين سنة، بل والمائة سنة، ليس لها في مقياس الزمن أي قيمة، وانظروا أيها المسلمون يوم تنتهي هذه الحياة الدنيا، ويحشر جميع الناس ملايين الملايين، من عهد آدم عليه السلام، منذ آلاف السنيين، حتى تنتهي الدنيا، يحشر الناس الذين يعيشون في بلاد الأرض كلها، يحشر الأبيض والأسود، والصغير والكبير، يحشر الملايين من البشر في صعيد واحد في وقت واحد، ينتهي مقياس الزمن الذي نعرفه، وتتضاءل هذه الانتصارات التي حققها الكفار علينا، وتضمحل تلك السعادة التي أحسوا بها، انظر ماذا يتذكرون

{ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } المؤمنون ٢٣

الأمر الخامس: وزلزلوا

أمة الإسلام، قال ربنا جل وعلا في كتابه الذي هو شفاء لما صدورنا، وتسلية لمصابنا، الذي يتترل علينا كالبلسم الشافي، قال جل وعلا { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ } البقرة

من الذي زلزل بالله عليكم أيها المؤمنون، من الذي زلزل حتى تسائل أين نصر الله، من الذي زلزل حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت من أيها المؤمنون، من أيها اليائسون، من أيها المستسلمون، من أيها المتخاذلون

نبي من أنبياء الله، نبي اصطفاه الله، نبي يتترل عليه الوحي، نبي يؤيده الله، زلزل، وزلزل ، وزلزل الذين آمنوا معه، زلزلوا حتى أصبحوا يقلبوا نواظرهم في السماء، أين أنت أيها النصر، أين أنت أيها النصر، هزيمة تعقبها تعقبها هزيمة، وذل يتلوه ذل، رحماك ربنا رحماك، أين نصرك الذي وعدت، أين نصرك الذي ضمنت للموحدين، أين نصرك على ألئك الذين كفروا بك.

أيها الإخوة استغفروا ربكم من هذه الظنون الذي ظننتموها بربكم، استغفروا ربكم من تقصيركم في حق ربكم، استغفروا ربكم إنه كان غفارا

الخطبة الثانية

وبعد،

أيها المؤمنون:

بعد كل هذا لا بد من ذكر تنبيهين هامين، ونحن نعالج الآثار المترتبة على هذه الأزمة :

التنبيه الأول:

إن يقيننا بجميع ما تقدم لا يجوز أن يكون مخذلا لنا، ومخدرا عن العمل الجاد، فالنصر لا يبنى إلا على بسواعد أبناء الأمة، ولا يرقى إلا على أكتاف الرجال.

كسب المعالي بحب الموت مرتبط *** ما بالسلامة مجد نيل والكسل

فاخرج متى ترتضي حب السلامة من *** تحت السماء الى ما شئت وارتحل

وإن رضيت قليل العيش مقتنعا *** قم واتخذ نفقا في الأرض واعتزل

رضا الجبان بحب الجبن أجبنه *** والمجد بين ظهور الخيل والأسل

نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الموعود بالنصر من السماء، قاتل وجاهد، وصبر وصابر، ولما تنزل عليه القرآن إذا به يقول لخديجة عليها السلام مضى عهد النوم يا خديجة.

نحن يا أمة القرآن أولى بهذه المقولة، أولى أن نردد دائما مضى عهد النوم أيها المسلمون، مضى عهد الدعة والراحة، مضى عهد العيش الرغيد،

ليس أمامنا إلا طريق مخضب بالدماء، ليس أمامنا إلا ذل وقهر، أو عز نصر فلنختر لأنفسنا، { وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } سورة الفتح (٤٨)

التنبيه الثاني:

حذار ثم حذار يا عباد الله أن نظن أن ثمة مقياس زمني قصير لتلك الوعود الربانية، متى يأتي وعد الله، هل يأتي خلال سنة، أم سنتين، أم عشر سنين، أم عشرين سنة، العلم عند الله تعالى، ولهذا فإنه يجب علينا العمل، والعمل، ومتى تحصل النتيجة، ومن يقطف الثمرة، العلم عند الله تعالى.

قتل حمزة بن عبد المطلب و لم ينعم برؤية هزيمة قريش وهو الذي امتلء قلبه كرها وبغضا لهم، وحنقا عليهم، قتل مصعب بن عمير بعد أن تخلى عن جميع ما يملك، وترك أمه المنعمة، وهاجر إلى المدينة النبوية في عمل دؤوب، وإعداد مستمر، قتل و لم يجد الصحابة له كفنا يكفنونه به، قتل عمار بن ياسر تحت وطئة التعذيب، وقتل سمية، وزوجها وأبوها.

أيها المؤمنون: هذه سنة كونية، ليس خاصة بالمسلمين، بل هي عامة لأمم الأرض كلها، أتحسبون أيها المسلمون أن هذا النصر الذي تحققه الولايات المتحدة الأمريكية وليد سنة أو سنتين، إنه وليد عشرات من السنين، بل وليد مئات من السنين.

أتحسبون هذه القوة التي تملكها هذه الدولة الطاغوتية نتيجة أعمال متناثرة قامت بها تلك الدولة بصورة هزيلة.

لقد عمل الأمريكيون أثناء الحرب العالمية الأولى بجد واجتهاد، كان جنودهم يقاتلون على جبهات القتال، وكان علماؤهم ومفكروهم يصلون الليل بالنهار حتى اخترعوا القنبلة الذرية، فتحقق لهم النصر الساحق على اليابان.

أمة الإسلام: الحذر كل الحذر من أن تعمل المصائب التي تنزل بساحتنا على خلخلت طريقة تفكيرنا، وصرفنا عن استبصار طريق النصر، فنقعد عن الأعمال المؤثرة، والمشاريع البناءة، بحجة أنها بعيدة المدى، ضعيفة التأثير، لا ترى نتائجها.

غزو العراق واحتلال منابع النفط خطط له الأمريكان من عهد رئيسهم الأمريكي القس كارتر، أي قبل أكثر من عشرين سنة، وقوة التدخل السريع أنشأت في عهد ريجان، أي قبل عشرين سنة تقريبا، ونحن نريد أن نخطط اليوم، فننفذ غدا، فننتصر بعد غد ...

هذا أحد ما يريده أعداء الإسلام منا، لقد صممت حرب العراق بصورة تبعث على اليأس في قلوب المسلمين، وتورث الإحباط، تعلق المسلمون وهفت قلوبهم إلى هزيمة هذه الدولة الظالمة، صمد العراق أياما، وقتل من الأمريكان أعدادا، وامتص العراقييون الصدمة، أصبحت قوات البغي في وضع حرج، خطوط الإمداد طويلة، وحرارة الجو تدخلت في المعركة، فاشرأبت الأعناق، وجحظت الأبصار، وأصبح الناس يتحدثون عن فيتنام ثانية، بل ربما قال القائل كيف سيكون شكل العالم بعد هزيمة أمريكا

بدأت طلائع المعتدين في الدخول إلى بغداد، وترقب الناس سحقهم على أسوار بغداد، قلب المسلمون شاشات التلفاز حتى يمتعوا نواظرهم بأشلاء المعتدين، ودماء المجرمين

وبين ليلة وضحاها، إذا بكل شيء ينتهي، ينتهي بكل سهولة، في لغز محير، سقطت بغداد، سقطت بغداد في أيدي تتر القرن الحديث، وسقطت وسقط معه كل أمل بناه المسلمون خلال عشرين يوما، سقطت وسقط همم المسلمين، سقطت وسقط عزائم أفراد الأمة ...

هذا ما أراده الأعداء، وهذا ما يريدونه، إنهم يدركون أن الهزيمة الحقيقية هي الهزيمة المعنوية، إنها تربك الخصم، وتشل قواه عن المقاومة، وتكبله عن أي عمل، إنها تجعله كالنعجة حينما يهاجمها الذئب، تستلم له، فيأكلها لقمة سائغة.

عباد الله: هل يكون منا نعاجا، وهل يكون منهم ذئابا، لا والله لا يكون، لا والله لا يكون، وهذا القرآن في أيدينا، وهذا الكتاب في صدورنا

أخوكم

هيثم بن جواد الحداد

([١]) (حم م د ت هـ) عن ثوبان. وهو صحيح، انظر حديث رقم: ١٧٧٣ في صحيح الجامع

([٢]) (هب حب) عن أبي هريرة (البزار) عن أنس وهو حديث حسن ، انظر حديث رقم: ١٢١١ في صحيح الجامع.

([٣]) الأنفال آية ٣٩

([٤]) أخرجه البخاري

لن تضيع فلسطين .. كيف

الدكتور راغب السرجاني

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أما بعد؛

فإنَّه في يوم ٢ من ربيع الأول في سنة ٨٩٧ هجرية، الموافق ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ميلادية وقَّع أبو عبد الله محمد الصغير –آخر ملوك الأندلس من المسلمين– معاهدة الاستسلام، وذلك بعد قتل انتفاضة المسلمين التي قامت بين ربوع غرناطة –آخر معاقل المسلمين في الأندلس–، وخرج أبو عبد الله الصغير من مدينة غرناطة، ووقف علي تلٍ من التلال القريبة من قصر الحمراء –قصر الحكم في غرناطة– وهو يبكي وينتحب، فقالت له أمه عائشة الحرة: " أجل فلتبكِ كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال"، وخرج المسلمون بذلك من الأندلس خروجاً نهائياً بعد أن حكمت بالإسلام ثمانية قرون، غير أن الأيام تحمل معها مفاجآتٍ كثيرةٍ فتلك البلاد التي حُكمت بالإسلام هذه المدة الطويلة لا يعيش فيها الآن من المسلمين إلا حوالي مائة ألف مسلمٍ فقط، فهي من أقل بلاد العالم تعداداً للمسلمين، وهو درس لابد أن يفقهه المسلمون.

وكأني ألحظ دهشة تعلو الوجوه!، لماذا الحديث عن الأندلس؟ أليس موضوع الكتاب خاص بـ " فلسطين "؟! نعم.. يدور حديثنا هنا عن فلسطين، ولكن العلاقة وثيقة جدا بين قضية فلسطين الحالية وبين الأندلس الماضية.. سبحان الله.. مع تباعد الزمان وتباعد المكان فإن العلاقة وثيقة بين الأندلس وبين فلسطين؟ ولعلنا ندرك ذلك من خلال هذه الملاحظة وهي في غاية الأهمية:

لماذا لم يعد للإسلام ذكر في هذه البلاد إلا آثاراً قليلةً، وبعض المساجد التي حولت إلى كنائس، بينما احتلت بلادٌ إسلاميةٌ كثيرةٌ غير بلاد الأندلس ومع ذلك لم يخرج منها الإسلام؟! احتلت مصر،

والجزائر، وسوريا، والسودان، وليبيا، والعراق، ومعظم بلاد العالم الإسلامي لكن هذه البلاد لازالت مسلمة بعد الاحتلال الطويل، أما أسبانيا والبرتغال –أو الأندلس– فالوضع فيها مختلف، لماذا؟! لأن الاحتلال الأسباني للممالك الإسلامية في الأندلس كان احتلالا استيطانيا إحلاليا سرطانيا، بمعنى أن الأسبان ما كانوا يدخلون المدينة الإسلامية إلا ويقتلون أهلها جميعا، ويقومون بمذابح جماعيةٍ في كل مكان، أو يطردوهم خارج البلاد، وهكذا وبمرور الوقت يتحول سكان البلد المسلمون إلى شهداء أو لاجئين، ثم يأتون بالأسبان من كل مكان ليوطنوهم في هذه البلاد، وهكذا وبمرور الوقت أصبح سكان الأندلس كلهم من الأسبان وليسوا من المسلمين واختفي المسلمون بالكلية من ساحة الأندلس.

تري كيف كان حال المسلمين حول بلاد الأندلس في البلاد المجاورة، في تونس والجزائر والمغرب ومصر والشام؟ كيف كان حال المسلمين وقت سقوط الأندلس؟ كان المسلمون في فرقة شديدة وضعف، ومع ذلك فإنهم – ولا شك – فكروا مع هذا الضعف في استعادة بلاد الأندلس، ولكنهم لم يستطيعوا هذا لقلة حيلتهم، ومن المؤكد أن المسلمين الذين خرجوا من بلاد الأندلس عند السقوط فكروا يوما ما في العودة، ولكن لم يستطيعوا لضعف إمكانياتهم، وهكذا مرَّ شهرٌ أو شهران، وعامٌ أو عامان، وقرنٌ أو قرنان بل خمسة قرونٍ، وضاعت الأندلس — أسبانيا والبرتغال — من ذاكرة المسلمين، فَمَنْ مِن المسلمين الآن يفكر في استعادة بلاد الأندلس؟ لا أحد، فالأندلس الآن عبارةٌ عن دولتين تربطهما مع كل بلاد المسلمين علاقات حميمة.

كان المؤرخون قديماً عندما يتحدثون عن الأندلس بعد سقوطها يقولون "أعادها الله للمسلمين"، مثلما يتحدث مؤرخ فيقول " فتح طارق بن زياد رحمه الله بلاد الأندلس — أعادها الله للمسلمين — في سنة ٩٢ من الهجرة "، ذلك لأنها كانت دائما في الذاكرة، أما مع تقادم العهد فقد اختفت الكلمة — كلمة أعادها الله للمسلمين – اختفت من أفواه المؤرخين.

ما أشبه اليوم بالبارحة فالأندلس تتكرر من جديد.. أين؟ في فلسطين!!. نعم في فلسطين!!؛ نفس طريقة الاحتلال الأسباني، قتل أو طرد للمسلمين، تحويل الشعب إلى لاجئ وشهيد، هدمٌ للمباني والديار، وإقامة للمستوطنات اليهودية في كل مكان، عملية إحلالٍ منظَّمةٍ للشعب الفلسطيني بالشعب اليهودي؛ وإن تُرك الأمر علي حاله في تراجعٍ ودعةٍ من المسلمين فإن المصير سيكون واحدا، وستلقى فلسطين نفس مصير الأندلس. إذا تقادم العهد علي عملية الاستيطان والإحلال سيصبح المكان مع مرور الزمان اسمه إسرائيل، كما أصبحت الأندلس مع مرور الزمان اسمها أسبانيا والبرتغال. إذا تقادم العهد على الاحتلال فسيصبح هذا أمرًا واقعًا.. المسلمون منذ ثلاثين سنة مثلاً كانوا لا يعترفون بالكيان الصهيوني مطلقًا.. بل كانوا يصفون اليهود بأنهم مجموعة من اللصوص سطوا على أرضٍ ليست أرضهم فنهبوها واستوطنوها.. ثم مرت الأيام وقبل الرافضون القدماء من العرب بوجود

إسرائيل على مساحة ٧٨% من الأرض المحتلة وهي كل أرض فلسطين خلا الضفة الغربية وغزة.. ثم سيقبلون بعد ذلك بأن تحتل إسرائيل مساحة ٦٠% من الضفة الغربية وغزة، بالإضافة إلى الـــ٧٨% الأصلية وذلك على هيئة مستوطنات يهودية داخل الضفة الغربية وغزة..

ثم ستأتي مرحلة جديدة لا محالة يسعى فيها اليهود لإنهاء الوجود الفلسطيني بالكلية.. وساعتها قد يصرخ المسلمون يومًا أو يومين أو سنة أو سنتين أو قرنا أو قرنين.. ويتقادم العهد، وتصبح فلسطين إسرائيل.. ويرتبط المسلمون معها بما يرتبطون به الآن مع أسبانيا والبرتغال. إذا تقادم العهد على احتلال فلسطين فقد يأتي زمان يزور فيه المسلمون المسجد الأقصى بتأشيرة سياحة من السفارة الإسرائيلية كما يزورون الآن مسجد قرطبة بتأشيرة سياحة من السفارة الأسبانية!!.

قضية فلسطين قضيةٌ من أخطر قضايا أمة الإسلام، بل لعلها الأخطر على الإطلاق. قضية فلسطين هي قضية أمةٍ، تذبح، وشعبٍ يباد، وأرضٍ تغتصب، وحرماتٍ تنتهك، وكرامةٍ تهان، ودينٍ يضيع.

الدور المنوط بنا حتى لا تصبح فلسطين أندلسًا أخرى؟

أنا في هذا الكتاب لا أخاطب الحكومات والهيئات الرسمية..

أنا أخاطب عموم المسلمين الغيورين على القضية..

أخاطب الطبيب والمهندس والمحامي ورجل الأعمال..

أخاطب النجار والحداد والعامل والفلاح..

أخاطب أستاذ الجامعة كما أخاطب الطالب..

أخاطب العلماء كما أخاطب الرجل البسيط الذي لا يحسن القراءة والكتابة ولكن فقط.. يتألم.. لفلسطين.

أنا – أيها المسلمون- أخاطب عموم المسلمين الذين ليس في أيديهم قرار تسيير الجيوش، ولا قطع العلاقات، ولا غلق السفارات، ولا وقف التطبيع، ولا محاكمة شارون، ولا وحدةُ قادة المسلمين..

يقول الله عز وجل: [لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها] {البقرة: ٢٨٦}.

نحن في هذا الكتاب نحاول أن نضعَ أيدينا على هذا الوُسع.

أنا أريد منك ستة أدوار.. ستة واجبات، إذا فعلتها على الوجه الأكمل كنت ممن أدى حقَ فلسطين.. وكنت مساهمًا في تحريرها.. وكنت مستنفذًا لوسعك وطاقتك، ويوم القيامة تقول.. يا رب.. تألمت لفلسطين ففعلت كذا وكذا، وهذا ما كنت أملك.. مع العلم أنني في هذا الكتاب لا أخاطب إخواننا المجاهدين المرابطين في أرض فلسطين، فإن عليهم دورًا يسبق كل هذه الأدوار وهو الجهاد في سبيل الله.. فلا شيء يعدلُ الجهادَ ضد اليهود.. نسأل الله لهم الثبات والإخلاص..

الواجب الأول:: فهم القضية فهمًا صحيحًا وتحريكها بين الناس بسرعة.

الواجب الثاني: قتل الهزيمة النفسية وبث الأمل في عودة اليقظة للأمة الإسلامية.

الواجب الثالث: بذل المال قدر المستطاع وتحفيزُ الناس عليه.

الواجب الرابع: المقاطعة الاقتصادية الشاملة والكاملة لكل ما هو يهودي أو أمريكي أو إنجليزي أو من أي دولة أو شركة تؤيد اليهود بسفور.

الواجب الخامس: الدعاء المستفيض اللحوح لله عز وجل.

الواجب السادس: إصلاح النفس والمجتمع.

مع هذه الواجبات نعيش في هذه الصفحات القادمة؛ ونسأل الله التوفيق..

الواجب الإيجابي الأول: تحريك القضية

لا يجب أن تموت قضية فلسطين أبداً أو تنسى..

وسبحان الله فقد حركها الله سبحانه وتعالى لنا؛ تذكرون أن قضيه فلسطين قد خمدت فتره من الزمان – حوالي سبع سنوات كاملة – بعد معاهدة أوسلو؛ لكن الله حركها بزيارة شارون للمسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر سنه ٢٠٠٠، وهو حدث – مع عظمه – أهون من أحداث سابقة كثيرة.

هناك أحداث كثيرة جدا سبقت زيارة شارون للمسجد الأقصى لم يتحرك لها المسلمون هذا التحرك. حدث قتل للمسلمين.. حدث تدمير وتشريد.. حدثت مذابح مثل مذبحة صبرا وشاتيلا، ولكن تحركوا لزيارة شارون وهي أهون من قتل المسلمين. إذن هذه الحركة للقضية فعلها سبحانه وتعالي، ولابد أن نشكر هذه النعمة – نعمة تحريك القضية – وشكر النعمة يكون باستمرار تحريك القضية.

أحذر أن يمر عليك يوم أو يومان دون أن تذكر فلسطين وتُذكِّر بها..

احمل هم القضية وتحرك..

في كل الدوائر تحرك..

في كل الأماكن تحرك..

في كل الأوقات تحرك..

تحت كل الظروف تحرك

تحدث عن فلسطين في دائرة بيتك.. مع أبيك وأمك.. مع إخوانك وأخواتك.. مع أولادك وأحفادك..

تحدَّث عن فلسطين في دائرة الأقارب.. القريبة والبعيدة.. كل من تعرف من أهلك.. تحدث معهم..

تحدث عن فلسطين في دائرة أصدقائك.. وفي دائرة العمل.. فلنترك جانبًا في هذه الأيام العصيبة الحديث عن المباريات والدوري والكأس والمسلسلات والأفلام.. والقيل والقال.. وفلان وعلان.. فلنتحدث عن فلسطين..

حتى في الدوائر السطحية التي تلتقي بها قدرًا ودون ترتيب تحدث عن فلسطين.. سواءًا أكنت منتظرًا في عيادة طبيب.. راكبًا في وسيلة مواصلات... تحدث عن فلسطين..

ثم فكر أن توسع دوائر التحريك:
مقال في جريدة أو خطاب إلى بريد إحدى الصحف..
مقال في مجلة حائط في مدرسة أو جامعة..
كلمة بسيطة سريعة في مسجد أو في فصل أو في مدرج.. دقيقتين أو ثلاثة.. خبر عن عملية استشهادية أو سؤال الدعاء لأهل فلسطين.
خطبة جمعة – لو تستطيع – أو تنصح الخطيب بذلك..
اعمل صالون ثقافي في بيتك وادع أصدقائك وناقشوا القضية.. ولا مانع إن تدعو إلى اللقاء متحدثًا يدرك أبعاد القضية، يحاورهم ويشرح لهم..
ابعث رسائل على الإنترنت لكل من تعرف من الأفراد والهيئات في كل بقاع العالم.. ابعث للمسلمين ولغير المسلمين.. اشرح القضية.. وضح فضائح اليهود.. اعمل رأي عام عالمي مضاد للإعلام اليهودي.. تحرك.. ليس هناك وقت..
حتى المظاهرات السلمية تعتبر تحريكا للقضية.. لكن مع الأخذ في الاعتبار أن المظاهرة تكون بالضوابط الشرعية.. ليس فيها تكسير أو إفساد حتى للمحلات الأمريكية وغيرها.. فهي في عهدنا والمسلمون لا ينقضون العهود.. وليس فيها سباب.. فليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء.. وليس فيها اختلاط مخل بالآداب الإسلامية.. وليس فيها شعارات ضالة تؤخر القضية بدلاً من تقديمها..
هذا التحرك –يا أخي– لا بد أن يكون بسرعة..
فعلاً ليس هناك وقت..
مرور الوقت –دون عمل– ليس في مصلحة القضية..
– مع مرور الوقت يزداد عدد الشهداء، وتفقد الأمة أفرادها الواحد تلو الآخر..
– مع مرور الوقت تهدم المنازل، وتجرف الأراضي، ويُشتت الناس، ويتزايد عدد من لا مأوى لهم، وكل هذا يُكثِّر من أوراق الضغط اليهودي.
– مع مرور الوقت تزداد المستوطنات، وتزداد الهجرة اليهودية للأراضي الفلسطينيين، ويزداد الإحلال اليهودي للشعب الفلسطيني..
– مع مرور الوقت يتناقص الغذاء والكساء والدواء، وذلك لغلق كل الحدود والمعابر..
– مع مرور الوقت تتزايد الجرأة اليهودية على المسلمين فنسمع عن أشياء جديدة وبصورة متكررة:
نسمع عن عملية اغتيال لأشخاص بعينهم..
نسمع عن عمليات اختطاف لأفراد بعينهم من عقر دارهم..
نسمع عن قصف بالمروحيات والأباتشي..

نسمع عن اجتياح بالدبابات والجرافات..
نسمع عن مذابح جماعية.. ونشاهد سكوتا عالميًا مخزيًا!!..
- مع مرور الوقت يحدث شيء خطير أسميه إلف المأساة..
يتعود المسلمون على منظر الدماء..
يتعودون على منظر الجرحى بالمئات والآلاف..
يتعودون على منظر الأمهات الثكالى..
يتعودون على منظر الأطفال الباكية المشردة..
يتعودون على مناظر الهدم والتجريف والظلم والإبادة..
يتعودون على كل ذلك فلا تتحرك القلوب كما كانت تتحرك، ولا تُذرف الدموع كما كانت تُذرف ولا تتأثر المشاعر كما كانت تتأثر.. إلف المأساة..
ثم أتدري كم ستعيش في هذه الأرض؟!.. الموت يأتي بغتة.. ومن مات قامت قيامته.. ولا شك أننا سنسأل عن هؤلاء الذي يقتلون صباح مساء على بعد أميال منا.. لا داعي أن نأخذ الموضوع ببساطة..
لكي تشعر بالمشكلة ضع نفسك مكانهم.. وليس ببعيد أن يبدل الله الأدوار عما قريب.. تخيل أنك تسير في الشارع ومعك ابنك ٨ سنوات أو ١٠ سنوات، فجاء يهودي وأطلق رصاصة استقرت في قلبه أو في رأسه فسقط بين يديك، وأنت لا تملك له علاجًا، حتى مات أمام عينيك، فترفع رأسك فإذا بأكثر من مليار مسلم يشاهدون ولا يتحركون!.. ماذا تفعل؟! ألا ترفع يدك إلى السماء وتدعو على من شاهد و لم يتحرك؟.. وتدعو على من سمع و لم يعقل؟
تخيل نفسك في هذا المقام!!
ألا تخشى من دعوة هؤلاء المظلومين على إخوان لهم في الدين، شاهدوا الأرواح تزهق، والأرض تُسرق، والشعب يُشتت، فتأسفوا قليلا، ثم سارت حياتُهم بصورة طبيعية كما كانت..
تحريك القضية وبسرعة واجب حتمي يحفظ القضية من الموت أو النسيان ولكن..
لابد أن يكون التحريك بالمفاهيم الصحيحة..
تحريك القضية بمفاهيم خاطئة قد يضر بها ويُعطل سيرها.. بل ويعجل بموتها..
لابد من تفريغ الوقت لفهم القضية فهما صحيحًا وتفهيمها لغيرنا..
أعداء الإسلام يدبرون مؤامرات لا حصر لها لهدم الإسلام وإبادة أهله.. لا يهدأون ولا يكلّون..
وعلى قدر هذا النشاط من أعداءنا يجب أن تكون حركتنا أو يزيد..
مؤامرات سياسية عن طريق المفاوضات والسفارات والهيئات والأحلاف.
مؤامرات عسكرية عن طريق الجيوش والصواريخ والطائرات والبوارج.

مؤامرات اقتصادية عن طريق الحصار والقيود الاقتصادية والديون والعولمة.

مؤامرات تفريقية للتفريق بين الشعوب الإسلامية وبين أفراد الشعب الواحد بل وبين أفـراد الأسـرة الواحدة.

مؤامرات أخلاقية عن طريق إفساد أخلاق المسلمين بالإعلام والدش والإنترنت والتليفزيون والصحف الصفراء و البيضاء.

ثم مؤامرات فكرية عن طريق تغيير أفكار المسلمين وتبديل المعايير الصحيحة وقلب الموازين العادلة.

وكل هذه المؤامرات خطير.. وكلها قاتل وفتاك..

لكن أشد هذه المؤامرة خطورة هي المؤامرة الفكرية..

المؤامرة الفكرية.. التي تقلب الحق باطلاً والباطل حقًا..

تخيل أن رجالاً عاشوا طويلاً، وكافحوا وتعبوا وسهروا وبذلوا، من أجل أفكـار ضـالة، وعقائـد منحرفة، وأهداف تافهة.. كل ذلك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا..

كارثة!.. المؤامرة الفكرية تقتلع الأمم من جذورها..

لا أمل في النجاة إن انحرفت أفكار الناس..

ومن انحرف ولو درجة، فلا يرجى له وصول..

كثيرٌ ممن يكافح من أجل فلسطين.. يكافح للدفاع عن أفكارٍ منحرفة، ومفاهيم خاطئة.. ولذا فهـم يؤخرون أو يضيعون القضية..

تحريك القضية بالمفاهيم الصحيحة من أقوى الأسلحة في حرب التحرير..

هيا نختبر مفاهيمنا حول القضية..

الواجب الإيجابي الثاني: إحياء الأمل

الواجب الثاني هو قتل الانهزامية وعلاج الإحباط الذي دخل في نفوس المسلمين، أو قل رفع الـروح المعنوية وبث الأمل في القيام من جديد.. واجب من أعظم الواجبات، ليس فقط ناحية قضية فلسطين ولكن ناحية أمة الإسلام بأسرها. وقد يعجب المرء أن تُحبط أمةٌ تملك شرعًا مثلَ شـرع الإسـلام، وتاريخًا مثل تاريخ الإسلام، ورجالاً مثل رجال الإسلام..

لكنَّها حقيقةٌ مشاهدة وواقعٌ لا ينكر!!..

لماذا أُحبط المسلمون؟!

أمورٌ كثيرة تفاعلت فأورثت هذا الإحباط في نفوس المسلمين..

- الواقع الذي عاشه المسلمون من هزائم كثيرة وانتصاراتٍ قليلة في خلال القرن العشرين بدءًا مـن سقوط الخلافة العثمانية وهزيمة ١٩٤٨ و١٩٥٦ (مع أنها صُورت على أنها نصـر) وهزيمـة ١٩٦٧ والانتصار الذي لم يكتمل في ١٩٧٣ واجتياح لبنان في ١٩٨٢..

- الواقع الذي نعيشه من مذابح بشعة في فلسطين وكوسفو والبوسنة وكشمير والشيشان والعـــراق والصومال وغيرها..
- الواقع الذي نعيشه من ظلم وفسادٍ وإباحية وانهيار للاقتصاد واختلاسٍ بالمليارات وديون متراكمـــة وإفلاسات مشهرة،- وفرقة وتناحر وتشاحن وبغضاء..
- هذا الواقع المر بالإضافة إلى تزوير التاريخ حتى خرج إلينا مسخًا مشوهًا يســتحي منــه الكــثير ويتناساه الأكثر
- بالإضافة إلى تزوير الواقع وتشويه صورة الإسلام،- وإلحاق كل الجرائم بالمتمســكين بدينــهم،- ونفي كل مظهر من مظاهر الحضارة والرقي عنهم..
- هذا كله بالإضافة إلى تعظيم الغرب وتفخيمه حتى يصبح منتهى أحلام الشباب أن يلقوا بأوطــانهم وأهلهم وراء ظهورهم وينطلقوا إلى الجنة: أمريكا وأوروبا كما يقولون!..
تفاعلت هذه الأمور وغيرُها حتى رسخّت الإحباط في نفوس الكثيرين من أمة الإسلام..
إلى هؤلاء الذين أحبطوا ويأسوا.. وإلى أولئك الذين يريدون أن يبثوا الأمل في قلوب القانطين.. أوجه هذه الكلمات:
الواجب الإيجابي الثالث: الجهاد بالمال..
ما أحوجَ أهلِ فلسطين للمال في هذه الأوقات.. حصار اقتصادي رهيب.. طــرد مــن الأعمــال.. إغلاق للمعابر.. تجريف للأراضي.. هدم للديار.. نقص في الغذاء والــدواء والكســاء والســلاح.. استشهاد للشباب، وعائلات لا حصر لها تفقد عائلها..
أخي في الله.. استمع جيدًا..
إن كنت تريد جهادًا في سبيل الله وقد حيل بينك وبينه، فأثبت صدقُك لله بجهاد المال.. مــن جهــز غازيًا فقد غزا.
أخي لا تسوف.. سارع.. "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.. (أول صفة لهم) الذين ينفقون في السراء والضراء"..
"وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدَكم الموت فيقولَ رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعلمون"..
فكّر يا أخي..
جنيه واحد لفلسطين يساوي عند الله سبعمائة جنيه أو يزيد.
ألف جنيه لفلسطين تساوي عند الله سبعمائة ألف جنيه أو يزيد.. لا تتردد.. ثم كن على يقين أنــك ستُعوَّض.. "وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه".
"ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه: (أول شئ) ما نقص مال من عبد من صدقة"..

أخي في الله.. اهزم الشيطان.

"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم"..

والله يا أخي ستمر الأيام، وستذهب أنت، ويذهب المال، ويذهب أهل فلسطين، ولا يبقى شيء إلا ما عند الله، فآثروا ما يبقى ويدوم، على ما يفنى وينعدم..

اجعل بذل المال لفلسطين قضيةً ثابتة في حياتك، اقتطع نسبة ثابتة من دخلك الشهري أو اليومي أو الموسمي.. لا تنتظر حتى تتراكم الأموال فتكبر النسبة في عينيك، أولاً بأول تهزمُ الشيطان.. ولا تمتنع عن الإنفاق..

حفز الآخرين على الجهاد بالمال.. ربي أولادك على الإنفاق وإن كان قليلاً.. اشرح لهم بأسلوب مبسط أحوال أطفالِ فلسطين..

زكاة المال جائزة على أهل فلسطين.. بل هي محمودة.. ففيهم الفقير والمسكين والغارم والمجاهد في سبيل الله.

لا تمن بعطيتك، ولا تتكبر بها، ولا ترائي، ولا تستقلن تبرعًا، فرب درهمٍ سبقَ ألف درهم..

واعلم يا أخي أن الله عز وجل قسّم الأعمال بين عباده وكان نصيبُك النصيبَ الأيسر، عليهم في فلسطين أن يدفعوا أرواحهم، وعليك أنت – في بيتك الآمن – أن تدفع مالك. فارض بما قسم الله لك من العمل، يرفع عنك من البلاء ما لا تُطيق.

الواجب الإيجابي الرابع: المقاطعة

وأقصد به المقاطعة لكل ما هو يهودي أو أمريكي أو إنجليزي أو لكل من يساعد اليهود، سواء كان دولة أو شركة.. وهو واجب هامٌ هامٌ هام.. ومؤثر إلى أبعد درجات التأثير وله من الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والتربوية ما لا يمكن حصره في هذه المساحة الضيقة..

وقد فصّلت في شرح جدوى المقاطعة في كتيب خاص بها، وذكرت فيه عشرة فوائد لها.. سواء على المستوى المحلي أو الإسلامي أو العالمي أو اليهودي.. وذكرت أنها لا محالة ستؤثر على الشركات التي يصفونها بأنها متعددة الجنسية، وأشرت إلى ضوابطنا الشرعية في المقاطعة.. والفرق بين مقاطعتنا لمنتجاتهم وحصارهم لبلادنا..

وعلقت على كثير من الشبهات التي تجول في أذهان الناس.. مثل من يقول أن الأيدي العاملة في هذه المصانع والشركات وطنية مائة بالمائة، وسيؤدي ذلك إلى تشريد الآلاف ومثل من يقول رأس المال الوطني سيخسر.. ومثل من يقول أن المقاطعة ستؤدي إلى كراهية الشعب الأمريكي لنا، ومثل من يقول أن الشركات الأمريكية ستنعش الاقتصاد الوطني، ومثل من يقول أننا لا نستطيع أن نعيش بدونهم، ومثل من يقول أنا لا أستطيع أن استغنى عن كذا أو كذا.. شبهات كثيرة جدًا تعرضت لها، وفصلّت في الرد عليها، وأذكر أيضًا أنني عرضت لبعض فنون المقاطعة وطرائقها.. ذكرت كل ذلك

وغيره في كتيب المقاطعة، وأشعر أنه من المستحيل أن نفصل في هذه الأمور في هذه الوريقات، فأرجو أن تعودوا إلى كتيب المقاطعة..

الواجب الإيجابي الخامس: الدعاء...

الدعاء لأهل فلسطين بالثبات والنصر، والدعاء على اليهود وأعوانهم بالهلكة والاستئصال..

والدعاء – يا إخواني – من أقوى أسلحة المؤمنين في حربهم مع الكافرين.. الدعاء ليس شيئًا سلبيًا.. كثيرٌ من الناس يعتقدون أن الدعاء أمرٌ مقابلٌ للأخذ بالأسباب..

أبدًا.. الدعاء يرفعه العمل الصالح.. إن ترك المؤمن الأسباب واكتفى بالدعاء فهو متواكل ولا يرجى له إجابة.. ولذلك جعلتُ الدعاء الوسيلة الخامسة حتى لا يعتمد المرء عليه وينسى بقية الواجبات..

الدعاء ليس أمرًا جانبيًا في قضية فلسطين.. ليس أمرًا اختياريًا إن شئنا فعلناه وإن شئنا تركناه.. أبدًا.. الدعاء ركن أساس من أركان النصر.. وسببٌ أكيد من أسباب التمكين.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك الدعاء أبدًا، وما يأس منه قط، مهما تأخرت الإجابة، ومهما طال الطريق، ومهما عظم الخطب.. وكان أشدُ ما يكون دعاءًا ورجاءً وخشوعًا وابتهالاً عند مواقف الضيق والشدة.. يفزع إلى ربه، ويطلب عونَه، ويرجو مددَه وتأييدَه.. في بدر.. في أحد.. في الأحزاب.. في كل أيامه صلى الله عليه وسلم..

وفلسطين يا أخواني.. تحتاج إلى دعاء لا ينقطع، وتحتاج إلى رجاءٍ لا يتوقف..

o من أدراك أن طائرة تقصف فَيُصدُ قصفُها بدعائك..

o من أدراك أن مخططًا يهوديًا يدبر في الظلام فيحبط بدعائك..

o من أدراك أن شابًا فلسطينيًا أطلق حجارةً أو رصاصة فأصابت هدفها بدعائك..

نريد دعاءً لحوحًا مستفيضًا متكررًا في كل يوم وليلة أكثر من مرة..

دعاء في القنوت وفي السجود..§

دعاء فيه يقين في الإجابة..§

دعاء ليس فيه عجلة ولا يأس..§

دعاءٌ فيه حضور للقلب.. وتضرع وتذلل وانكسار لله عز وجل..§

ويتحرون§ ويتحرون الأوقات الفاضلة،§ دعاءٌ من رجال يتحرون المال الحلال،§ الأحوال الشريفة..

دعاءٌ في جوف الليل وقبل الفجر..§

دعاءٌ يجتمع فيه أهل البيت وأهل العمل وأهل المسجد..§

أخي الحبيب إن أردت أن تساعد المحصورين والمجاهدين والجوعى والجرحى.. فاستيقظ الليلة.. الليلة قبل الفجر بساعة أو بنصف ساعة وادع الله لهم.. أن يوحد صفَّهم، ويسددَ رميتَهم، ويقوي

شوكتَهم، ويثبت أقدامَهم، ويُعلي راياتِهم، وينصرهم على أعداءهم، ويُمكنَ لهم في أرضهم، ويزلزل الأرض من تحت أقدام أعدائهم..

والله لا محالة سيستجيب.. فقد وعد.. وقال ربكم ادعوني استجب لكم.

إذن تحدثنا حتى الآن عن خمس وسائل إيجابية لنصرة حبيبتنا فلسطين.. هذه الوسائل هي:

فهم القضية فهمًا صحيحًا وتحريكها بين الناس بسرعة،

قتل الهزيمة النفسية وبث الأمل في عودة اليقظة للأمة الإسلامية،

بذل المال قدر المستطاع وتحفيزُ الناس عليه،

المقاطعة الاقتصادية الشاملة والكاملة لكل ما هو يهودي أو أمريكي أو إنجليزي،

وأخيرًا الدعاء المستفيض اللحوح لله عز وجل..

كانت هذه وسائل خمسة.. ولا شك أن في أذهانكم وسائل أخرى، والأمــر علــى إطلاقــه بــين المسلمين، كلٌ يدلي بدلوه.. وكل يساهم بطاقته..

لكن تبقى الوسيلة السادسة هي الوسيلة التي تشمل كلَ ما سبق.. وتبقى الوسيلة السادسة دافعةً لكل ما سبق من وسائل.. وإن لم تُفعل فليس هناك نجاحٌ لأيٍ من الوسائل السابقة..

الواجب الإيجابي السادس: إصلاح النفس والمجتمع

لابد أن نسأل أنفسنا لماذا هذا التدهور لهذه الأمة الإسلامية التي تعودت أن تسود؟

ولماذا يسيطر ٥,٢مليون يهودي على بلد مبارك مقدس كفلسطين، مخرجين ألسنتهم لمليــار وثلــث مليار مسلم في الأرض؟

ولماذا لا يكترث زعماء الشرق والغرب وزعماء اليهود بأعدادنا؟

ولماذا لا تتحرك الحمية في قلوب بعضنا وقد انتهكت الحرمات ودُنست المقدسات وسالت الدماء؟

لابد أن الأمة قد وقعت في خطأ فادحٍ مهد الطريق لهذا الوضع.. فأمة الإسلام لا تهزم بقوة الكافرين ولكن تهزم بضعفها..

يلخص هذا الموقف حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الإمام أحمد وأبــو داود عــن ثوبان رضي الله عنه.. وفيه يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحداث وكأنه يراها رأي العين..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"يوشك الأممُ أن تَدَاعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها.. (أي يدعو بعضُها البعض ليــأكلوا من أمة المسلمين) قال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنت يومئذ كثير (مليــار وثلــث مليــار) ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل.. وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم.. وليقذفن الله في قلــوبكم الوهْن.. قالوا وما الوهْن يا رسول الله قال: حبَ الدنيا وكراهية الموت..

هذا هو موطن الداء.. هذا هو الخطأ الفادح: حب الدنيا وكراهية الموت.. إذن مصيبة الأمـــة هـــي تعاظمُ حب الدنيا في قلوب المسلمين ومن أجل الدنيا يرضى المسلمون بالدنية في دينهم.. ولو هانت عليهم الدنيا لقويت شوكتهم وعز سلطانهم..

الدنيا كلما تعاظمت في النفوس قلت قيمة الآخرة عند الإنسان.. الدنيا كانت سببًا مباشراً لاحـــتلال فلسطين.. ولن تحرر فلسطين إلا إذا خرجت الدنيا من القلوب.. قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خـــير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً..

إن وجدت صراعًا بين الأخوة، وتنافسًا على أشياء كان من الواجب أن يتعاونوا عليها..

إن وجدت موالاة لكافر على حساب مؤمن..

إن وجدت خيانة لأمانة ونقضًا لعهد وحربًا لفضيلة ونشرًا لإباحية وإنكارًا لمعروف..

إن وجدت تقديما لأهل الرذيلة وعلوًا لأهل الفسق والفجور وتأخيرًا للعلماء والفضلاء وسجنا وتعذيبًا للدعاة والمجاهدين..

إن وجدت الحبيبَ يترك حبيبَه، والولد يهملُ والديه، والحاكمَ يظلم شعبه والرجلَ يكره وطنه..

إن وجدت الأجساد هامدة والعقول خاملة والعزائم فاترة والغاياتِ تافهةً منحطة منحدرة..

إن وجدت كلَ هذا فاعلم إنها الدنيا، واعلم أن ذلك متبوع بهلكة والهلكة متبوعةٌ باســـتبدال.. وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

روى الإمام مسلم عن المستورد بن شداد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يضع أحدُكم إصبَعَه هذه (وأشار راوي الحديث إلى السَبابة) في الـــيم فلينظر أحدكم بم يرجع".

من هذا المنطلق لحجم الدنيا والآخرة نريد أن نعيد ترتيب أوراقِنا وتنظيمَ حياتِنا وتعديلَ أهدافنا.. من هذا المنطلق لحجم الدنيا والآخرة نريد أن نصطلح مع ربنا.

نعم يا أخواني.. يطول الفراق أحيانًا بيننا وبين ربنا.. وهو سبحانه لا تضره معصية ولا تنفعُه طاعة.. نحن الذين نخسر ونحن الذين نفوز..

القضية يا أخوة ليست قضية فلسطين فقط.. القضية قضيةُ الأمة بأسرها.. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. قاعدة لا تتبدل ولا تتغير.

والله والله والله.. لن يتغير حالنا من ذِلةٍ إلى عزة، ومن ضعف إلى قوة، ومن هوان إلى تمكـــين، إلا إذا اصطلحنا مع ربنا، وطبقنا شرعه، وأخرجنا الدنيا من قلوبنا، وتبنا من ذنوبنا، وعظمـــت الجنـــةُ في عقولنا..

ساعتَها.. ستصبح كلُ حركة، وكل سكنة في حياتنا، دعمًا لقضية فلسطين..

من هذا المنظور يا أخوة ستصبح صلاتنا في جماعة وقراءتُنا للقرآن وذكرُنا وصيامنا يصبح كل ذلـــك دعمًا لفلسطين..

ويصبح بر الوالدين وصلة الرحم ورعاية الجار وحفظ الطريق وعون الملهوف يصبح كل ذلك دعمـــا لفلسطين..

ويصبح غض البصر وحفظ الفرج وصيانة اللسان ووقاية السماع يصبح كل ذلك دعما لفلسطين..

وكذلك يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس الخير ودعوة الآخـــرين إلى الفضـــيلة يصبح كل ذلك دعما لفلسطين..

وكذلك تصبح محاربة الربا ومقاطعة الرشوة ونبذ الفرقة وترك المحرمات والبعد عن الشبهات يصـــبح كل ذلك دعمًا لفلسطين..

وهكذا تتحول حياتُنا – كلُ حياتِنا – لدعم فلسطين.. وغير فلسطين من أقطار الإسلام الجريحـــة..

يرفع الله عنا البلاء، ويكشف الضراء وتشرق الأرض بنور ربها..

كلمة أخيرة...

بعد هذه الرحلة السريعة في ربوع فلسطين..

أخي وحبيبي ورفيقي في طريق الله..

دينك دينك لحمك دمك..

الله الله في إسلامك وشرعك..

الله الله في أهلك وأرضك..

اغضب لدينك أشد من غضبك لنفسك..

أذكر الله أشد من ذكرك لأبيك وقومِك..

احرص على أمتك أشد من حرصك على مالك وبيتك..

لا عذر لك أن خلص لفلسطين وفيك قلب ينبض، أو عين تطرف، أو نفس يتردد..

أخي في الله..

طريقنا طويل فلا تسيرن فيه بغير صحبة، وانتق من الناس من إذا رأيتَه ذكرك بالله..

لا تفتر أبدًا.. فرب فتورٍ لا يتبع بقيام..

ولا تركن فإن الماء الراكد يأسن ويتعفن..

ابدأ الساعة، واعمل حثيثًا، فرب نفس خرج ولا يعود، ورب دقةِ قلب لا تتبع بأخرى..

أخي في الله..

لا يكفي الألم فقط لتحرير الشعوب..

لا تكفي الدموع وأنت تشاهد الأطفال يقتلون، والمجاهدون يحاصرون، والأمهات يصرخن وينتحبن..

لا تكفي الدموع لتحرير فلسطين..

لابد من عمل.. وها قد عرضنا بعض الوسائل التي في مقدورنا جميعًا..

لا تعتذر بأنك لا تملك قراراً ولا سلطة.. ولا تقول لو كان في يدي لفعلت كذا وكذا.. أبداً.. أنت تملك أسبابًا كثيرة ولابد أن تعرف ذلك..

لا تنظر إلى فلسطين على أنها عبء على كاهلك.. وهمٌ في قلبك. أبدًا.. أنظر إليها على أنها "اختبار".. فلسطين اختبار من الله عز وجل لعباده المؤمنين.. وكل يوم وكل ساعة وكل ثانية تمر عليك هي جزء مر من الامتحان.. إحذر أن ينتهي عمرك ولم تكمل الإجابة.. لأن الموتى لا يعودون إلى يوم القيامة. لا تنشغل بمن باعوا وخانوا وبدلوا وغيروا.. عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، واعلم أن كل نفس بما كسبت رهينة..

حاسب نفسك كل يوم: ماذا عملت اليوم لفلسطين فإن وجدت خيرًا فاحمد الله، وإن وجدت غير ذلك فأسرع بالعمل قبل أن يأتي يوم لا عمل فيه.

بهذه البداية يا أخوة لن تكون نهايةُ فلسطين.

بهذه البداية لن تصبح فلسطينُ أندلسًا أخرى.

[فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

{ ونبلوكم بالشر والخير فتنة }

أ.د. عبدالكريم بكار

خلق الله جل وعلا الدنيا لتكون داراً للابتلاء والاختبار ، ومن ثم فإنه جعل الإنسان يتقلب فيها بين المنشط والمكره ، والرخاء والشدة ، والخير والشر ، ليرى سبحانه كيف يصنع هؤلاء العباد ، وكيف يطلبون مراضيه في جميع الأحوال ، { ونبلوكم بالشر والخير فتنة } [الأنبياء : من الآية٣٥] .

ولعلنا نقبس من نور هذه الآية المباركة في الوقفات التالية :

١- الناظر في النُظُم العامة التي تحكم مسيرة الحياة يجد أن جوهر (الابتلاء) يقوم على (التشتيت بين المتقابلات) حيث يؤدي عدم القيام بحق الحالة الراهنة أو ما سماه القدماء بأدب الوقت إلى الإخفاق في الامتحان الذي يعني تحول الخير إلى شر أو ارتفاع وتيرة الشر والتدهور ، ولعلنا نميط اللثام عن هذا المعنى من خلال نموذجين اثنين :

(أ) يسعى كل مجتمع إلى إيجاد أكبر قدر ممكن من التماثل بين أفراده بنية المحافظة على قيمه وخصوصياته وزخمه الحركي ، وهذا التماثل من الخير ولا ريب لأن البديل عنه هو الشقاق والاحتراب الداخلي لكن التجربة الاجتماعية أثبتت أن الحرص على التماثل التام بين أفراد المجتمع يؤدي إلى انقسامه على نفسه ، حيث يتشوف أعضاؤه ولاسيما الصفوة منهم إلى النفاذ إلى واقع

المجتمع على نحوٍ منفرد ومنعهم من ذلك يؤدي إلى التوتر الاجتماعي ، ويجعل (التماهي) الظاهر عبارة عن شكل فارغ من المضمون ، فينتشر النفاق الاجتماعي والازدواجية في السلوك ، ومن ثم فإن المطلوب هو قدر من التنوع الاجتماعي واحترام الخصوصيات في إطار النظم الكبرى للمجتمع وفي إطار أهدافه ومبادئه العامة .

(ب) حث الإسلام على صلة الرحم وأداء حقوق القرابة ، ورتب في ذلك أحكاماً وآداباً عديدة ، والالتزام بها ورعايتها من الخير العظيم ، لكن ذلك لابد أن يوقف عند حدود رعاية مسائل أخرى لا تقل أهمية وحيوية من مثل احترام النظم التي تتولى توزيع وترتيب الحقوق والواجبات في المجتمع ، حيث لا يصح لعامل القرابة أن يمس العدالة الاجتماعية أو يضغط عليها ، الملحوظ أن ما تسمى بـ (سيادة القانون) لم تأخذ أبعادها بشكل جيد في العصور الحديثة إلا حيث اضمحلت العلاقات الأسرية والقرابية كما هو الشأن في المجتمعات الغربية أما في المجتمعات الإسلامية حيث التواصل الأسري والعائلي أمتن وأفضل ، فإن من الملحوظ أنه يتم الكثير من التجاوز والتفلت من النظم العامة في سبيل إعطاء الأقرباء ما ليس لهم من مكتسبات ظناً أن في ذلك صلة للرحم ! لكن هذا يعني عدم النجاح في الابتلاء والتشتت بين المتقابلات ، إن إكرام الأقرباء لا ينبغي أن يتم على حساب الآخرين ولا بخرق النظام العام ، وإلا كان شراً وبلاءً .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أشد ما عاناه التمدن الإسلامي في تاريخنا الطويل كان نقل العرب من مرحلة (القبيلة) إلى مرحلة (الدولة) حيث يتم الفصل شبه الكامل بين العلاقات والحقوق الشخصية وغير الشخصية ، ونجد إلى جانب هذا في سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وسلوك أصحابه الكرام موازنة دقيقة في هذا الشأن ، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي قال : يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت فإني لا أغني عنك من الله شيئاً [١] وهو الذي قال : .... لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها [٢] .

٢- النجاح في الابتلاء يقتضي نوعاً من اليقظة لجميع قوانا العقلية والروحية، حتى لا نقع في أسر اللحظة الحاضرة ونستسلم لخيرها وشرها رضائها وكرهها ، وهذا يعني نوعاً من الاستعلاء على الواقع وعدم الركون إليه ، والذوبان فيه ، وذلك إنما يقع عند الغفلة عن (نواة) الابتلاء الكامنة فيه ، على نحو ما حدث من غفلة الرماة يوم أحد عن نواة الابتلاء في أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم بالبقاء في مواقعهم مهما كان اتجاه المعركة ، فأدى ذلك إلى تحويل النصر الذي كان يلوح في مستهل المعركة إلى هزيمة ! لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يدع المسلمين يستسلمون لمرارة الهزيمة ، ويغرقون في التلاوم والندم ، وإنما اندفع بهم إلى ساحة ابتلاء جديد بأمره لهم بالتوجه إلى حمراء الأسد حيث تحولت مشاعر الفرّ والانكسار إلى مشاعر المبادأة والمطاردة للعدو ! [٣] .

ولعل مما يعصم عن الغرق في الحالة الراهنة تعود الاستبصار وتقليب النظر في الحالة الراهنة خيرها وشرها ، ومحاولة فهم المنطقية والآلية التي أدت إلى ولادتها وتجسدها ، وإذا ما تم ذلك أمكن أن نسيطر على تلك الحالة ، ونتصرف إلى اتجاهات سيرها وتطورها ، فإذا كان الابتلاء عبارة عن خير أي خير أصابه المؤمن ثمرة لجهده وكفاحه وجب عليه أن يستمر في ذلك الجهد على نفس الوتيرة التي كان عليها ، وإذا كان قد أصابه من غير تعب كمن ورث مالاً وفْراً وجب عليه أن يشكر الله على ذلك أولاً ، وأن يقوم ثانياً ببحث الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى المحافظة عليه وتنميته وتزكيته ، حتى لا يشعر يوماً ما أن النعمة التي هبطت عليه لم يكن يستحقها ! .

وإذا كان ما أصاب المؤمن من شر ومحنة بسبب أخطائه وخطاياه ، فإن النجاح في مواجهة ذلك الابتلاء لا يكون إلا بالخلاص مما اقترفت يداه ، وبذلك يستحق تغيير الله تعالى له كما قال سبحانه : { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } [الرعد : ١١] .

وإذا كان ما أصابه بسبب ما جناه غيره فإن عليه أن يصبر ، ويحاول أن يتجاوز ما هو فيه من بلاء بتحوله من (صالح) إلى (مصلح) لأن البلاء حين يعم بسبب انتشار الفساد لا يتأهل للنجاة منه إلا الذين يسعون إلى تحجيمه وتطهير المجتمع منه ، كما قال سبحانه :] فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون [[الأعراف : ١٦٥] ، ولابد للتوطئة لكل ذلك من سيادة روح المفاتحة والمكاشفة والنقد المنصف البناء حتى لا تندغم الذات في الموضوع ، ونصبح كمن كان يدفع العجلة إلى أن أصبح يجري وراءها مستسلماً لقوة اندفاعها .

٣- إن مبدأ (الزوجية) ملحوظ في الكثير الكثير من المخلوقات والموجودات ، وهذا المبدأ كما أنه سبب في تكاثر الكائن الحي ونمو النوع كذلك هو سبب في تحول حالات الرخاء والشدة ، ففي رحم كل رخاء (نواة) لمحنة ، كما أن في أحشاء كل شدة نواة لرخاء ومنحة وهذا واضح في قوله جل وعلا : { فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا } (الشرح : ٥ ، ٦) إن فهم هذه المسألة يقتضي منا أن نضع الحالة الراهنة التي نعيشها في السياق التاريخي والسببي ، حتى يتبين لنا أنها ليست أكثر من حلقة في سلسلة غير متجانسة من النجود والوهاد والنجاحات والإخفاقات .

إن هذه الدنيا ليست هي الظرف المناسب لتموضع (الأحوال النهائية) في خير أو شر ، وإنما هناك دائماً خلف الباب محنة تنتظر إذا ما نحن أسأنا التصرف بالإمكانات التي بين أيدينا ، وفي المقابل فإن الشدائد والمحن تفجّر روح المقاومة والإصرار والعناد ، تلك الروح التي كثيراً ما تظل هاجعة خامدة إلى أن تأتيها صدمة قوية توقظها من سباتها ، وهكذا فالمطلوب دائماً أن نكون في الموقع الصحيح لمواجهة الابتلاء .

إن طبيعة الابتلاء تقوم على قاعدة من التوازنات العميقة والدقيقة ، والإنسان المبتلى يشبه في كثير من الأحيان الذي يسير على حبل مشدود فهو يطالب حتى لا يقع بأن يستنفذ كل قواه العقلية والجسمية على نحو دقيق ومتوازن وإلا ...

٤- تمتلك أمة الإسلام بحمد الله عدداً من المنظومات المعيارية والرمزية التي تمكنها من اختراق الحالة التي تعايشها ومعرفة أوجه الابتلاء فيها ، بل وتمكن الصفوة الممتازة من أبنائها من معرفة نسب الخير والشر وحجم الإيجابيات والسلبيات في الواقع المعاش ، وهذه المعرفة تنظم أيضاً ردود أفعالنا على الطوارئ والوافدات الجديدة رفضاً ومدافعة وتعديلاً وتهذيباً وقبولاً وترحيباً ، وهذا يعني أن كل ابتلاء جديد لا يدخل في حياة الأمة (الحية) إلا بعد أن يمر بمصفاة قيمها ومبادئها و (عقيدتها الاجتماعية [٤] أيضاً ، وكلما كان وقع الابتلاء الجديد حاداً ومكشوفاً استطاع أن يستفز ردود أفعال الأمة عليه بصورة قوية وسريعة ، فظاهرة الردة الأولى كانت ابتلاء كبيراً جداً واجهته دولة الخلافة الوليدة في زمان أبي بكر رضي الله عنه بالقوة والسرعة المكافئة ، لكن الابتلاء (المتدرج) الذي حصل بعد ذلك في صورة فرق وعقائد فاسدة وانحرافات سلوكية وفي صورة تحديد أطر الدولة وفق اتساع أمة الإسلام لم يستوفز الطاقات الكامنة في الأمة ، فلم تقم بواجبها تجاهه ، ولعل هذا يدفعنا إلى القول : إن أخطر ما يغيب الإحساس بالابتلاء على مستوى الفرد والجماعة معاً ليس الكوارث الكبرى ولا الجوائح العظيمة وإنما (التغيرات البطيئة) التي تدخل من أضيق المسام ، فتتكيف الأمة معها سلبياً على سبيل التدرج، وهذا ما حصل بالنسبة لأمة الإسلام وما حدث لدول عظمى في عصرنا الحديث ، فقد بدأت بريطانيا العظمى تتراجع عن مركزها العالمي ، وبدأت الشيخوخة تدب في أوصالها منذ أكثر من قرن لكن ذلك لم يظهر إلا في الحرب العالمية الثانية .

ومن الطريف أن بعض علماء (الأحياء) جاءوا بضفدع ، ووضعوه في إناء وأوقدوا تحته ناراً هادئة ، فصارت درجة حرارة الماء ترتفع بمنتهى البطء ، وكان المأمول أن يقفز الضفدع عندما يحسّ بسخونة الماء لكن حدوث التسخين على نحو بطيء أدى إلى أن يتحول (المحرّض) إلى (مخدّر) وكانت النتيجة أن الضفدع انسلق دون أن يبدي أية مقاومة !

وهنا تبرز مهمة العلماء الربانيين العظام والمفكرين المبدعين الذين يمتلكون حاسة (الاستشعار عن بعد) حيث يرون عواقب الأمور قبل فوات الآوان ، ويقومون بما تستحقه من مواجهة وعمل ، وفي هذا يقول سفيان الثوري رحمه الله : الفتنة إذا أدبرت عرفها كل الناس ، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم .

وحتى ننجح في مواجهة الابتلاء (التغيرات البطيئة) فإن علينا أن نقوم بأمرين:

أ- الانشداد إلى الأصول والثوابت في المنشط والمكره والتأبي على انصهار منهجيتنا وحاستنا النقدية في المعطيات الجديدة مع محاولة استيعاب تأثير المستجدات على تلك الأصول ومحاولة إيجاد التكييفات والتوظيفات التي ترسخها ، وتجعلها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

ب- المتابعة الجادة والدقيقة لمجمل التغيرات التي تطرأ على حياتنا لا من خلال الحدس والتخمين والملاحظة العامة ، وإنما من خلال (الرقم) والأساليب الكمية ، حتى نتعرف بدقة على سيرورة أحوالنا المختلفة والمآلات الصائرة إليها ، وهذا لن يتم إلا من خلال إعادة تنظيم حياتنا ومؤسساتنا المختلفة على أسس جديدة بحيث تخصص كل جهة أو مؤسسة قسماً أو موظفاً يتولى جمع المعلومات الخاصة بها ونشرها حتى ينمو إحساس الناس ب (الكم) وطريقة قياسه ، وليس من المستفز اليوم ذلك التلازم التام والمطلق بين درجة تحضر الدولة ودرجة تقدم الإحصاء فيها .

إن على المسلم أن يظل يكافح ويجاهد في سبيل التعرف على مراضي الله تعالى في كل حالة من أحواله ، ويستشرف بعد ذلك عاقبة المتقين .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) انظر الرحيق المختوم : ٣١٨ .

(٤) العقيدة الاجتماعية عبارة عن جماع المبادئ والمصالح ومركز التوازن بينهما .

أهمية الرمز في حياة البشر

د.ناصر الحنيني

الحمد لله واهب النعم ، ودافع النقم ، الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته ، فأحسن خلقهم ، وفاضل بينهم بعدله وحكمته ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله ، كان رحمة للعالمين وحجة على البشر أجمعين بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة حتى أتاه اليقين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الأطهار ، نور الدجى ، وقدوة الورى ، وخير من وطيء الثرى بعد الأنبياء ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

أيها المسلمون : إن الله عزوجل قدر في الكون أن الصراع بين الحق والباطل ، وأن الأيام دول {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} وجعل سبحانه لكل شيء ولكل نصر وغلبة سبباً ، فمن أخذ بأسباب النصر والغلبة حازه ولو كان من أصحاب الباطل .

وإن من الأسباب التي لها أثر على مر التاريخ ، لها أثر في النصر والهزيمة ، وفي التقدم والتأخر ، وفي التحضر والتخلف ، هم الرموز والأشخاص ، فالنصر لايترل من السماء دون أن يحمله رجال ويقوم به أقوام ، وعلى قدر البذل والتضحية تكون النتيجة ، ولهذا أولى القرآن الرموز والأشخاص عناية واهتماماً خاصاً سواء الذي كان لهم أثر إيجابي كالأنبياء والصالحين ، أو الذين لهم أثر سلبي كرؤوس

الكفر والطغيان ، فالقرآن تحدث عن الأنبياء وبين أن الذين حملوا النور والهدى وأصلحوا وغيروا المجتمعات وقاوموا الفساد إنما هم أشخاص كانوا رموزاً معروفة بين أقوامهم {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ }[الأنعام ٩٠]، وبلغت العناية بهؤلاء الرموز في القرآن حتى سميت سور بأسماء هؤلاء الأنبياء وكررت قصصهم وذكرت جوانب من حياتهم وسيرتهم وصراعهم مع رموز الباطل وكيف قابلوا المكر والكيد الكبار ، فاقرأوا إن شئتم سورة نوح ، ويوسف وهود ومحمد وإبراهيم ، فموسى عليه السلام ذكرت قصته وتكررت في القرآن وفي كل مرة فيها من العبر والدروس ما لا يخطر على بال حتى نأخذ بهديهم ونقتدي بهم حتى ننتصر ونجو كما انتصروا ونجوا {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}

وإن أعظم رمز عرفه التاريخ هو حبيبنا وقدوتنا وقرة عيوننا محمد بن عبدالله المطلبي القرشي الهاشمي ،صلى الله عليه وسلم ، الصادق الأمين ، الرؤوف الرحيم بأمته ، كان قدوة للعالمين وحجة على البشر أجمعين إلى قيام الساعة هو رمزنا الذي نفاخر به الأمم في الدنيا وفي الآخرة ، خاتم الرسل وأفضلهم ، ومقدمهم وإمامهم ، هو الرمز الذي لا يمكن لا أحد أن يعرف النصر في الدنيا ولا النجاة والسعادة في الآخرة إلا من طريقه ، فوجه الأمة وحفظ الله لنا أقواله وأفعاله وسننه وأيامه وسيرته ومواقفه لتكون لنا نبراساً وهدى فما أعظم هذه النعمة علينا ، {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }[التوبة١٢٨]،إن أي أمة بغير رمز يكون لها هادياً وإماماً فهي كالقطيع الضال بلا راع تهيم على وجهها لا تعرف للسعادة والنعيم والطمأنينة طريقاً ، إن من رحمة الله بهذه الأمة أن أرسل إليها هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وحتى يبقى محمد بيننا حتى بعد موته حفظ الله لنا سننه وسيرته وأيامه فنحن نقلبها ونستفيد منها كاننا نعيش معه صلى الله عليه وسلم فنقلها إلينا خير رموز عرفتهم البشرية بعد المصطفى صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام البررة الأطهار الذين بلغوا لنا هذا الدين وأثنى عليهم وعدلهم وزكاهم رب العالمين {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }[الفتح٢٩]،لقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أهمية الرمز بعد وفاته وأنه تحفظ بهم الأمم وبهم تقتدي حتى تنجوا وقت الفتن ، وحتى تسلم وقت المحن ، فكان يهيء أصحابه على هذا الأمر ويظهر اهتمامه بالقواد والرموز من بعده ، فكان يذكر ويعرض بمن يأتي من بعده ويأمر الأمة بالاقتداء بهم على وجه العموم }عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ { لأنه يعلم أن الأمة تحتاج إلى أهل علم وفقه وقت

الأزمات وقت النوائب والنوازل الحادثة فأوصى بمن يأتي بعده ، ولكن الرسول اهتم لهذا الأمر وصرح وقال كما جاء في الحديث الصحيح }اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر { ويأمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، ويسمر ليناقش قضايا المسلمين مع ابي بكر وعمر ، كل هذا تهيئة لهذين الرمزين العظيمين من بعده ، حتى أصبح معروفاً مألوفاً حتى عند أعداء الدعوة من كفار قريش فيوم أحد بعد أن انتهت المعركة ينادي أبو سفيان وكان آنذاك زعيم المشركين وقال هل فيكم محمد ، وكان أشيع أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمات ، فأمرهم أن لا يجيبوه ثم قال هل فيكم أبوبكر فلم يجيبوه ، فقال هل فيكم عمر ، فقال عمر : أبقى الله ما يخزيك ياعدوا الله ،والشاهد من هذا أن الكفار يعرفون أن الرمزين اللذين برزا على غيرهما من الصحابة هما أبو بكر وعمر ، ولم توليا أمور المسلمين كانا خير خليفتين ثم جاء عثمان ثم علي واستمرت الأمة في عزها ونصرها رغم المحن ، ويشير النبي ويوصي امته إلى بعض الرموز فيقول عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن أبيه }إن أبني هذا سيد وإن الله سيصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين { ويتحقق الوعد النبوي فيكون هذا الرمز الصالح هو الذي تنتهي على يديه أعظم فتنة في عصر الصحابة وهو الخلاف الذي حدث بين علي ومعاوية وسمي عام الجماعة ويتنازل هذا الرمز لأجل أن

ينقذ الأمة لمعاوية وهكذا تكون الرموز المؤثرة أنها تضحي بحظوظ نفسها لأجل غيرها ، ويستمر التاريخ ويظهر رمز يؤثر في البشرية أيضا إلى يومنا هذا عمر بن عبد العزيز ، ثم الصالحون والمجددون كل رمز في تخصصه القائد والملك والخليفة والعالم في العلم الشرعي أو العلم التجريبي ، ويكونون مشعل هداية ونور للأمة ، ولعل من أبرز الرموز التي كان لها أثر في التاريخ هم العلماء الذين حملوا أمانة العلم ، وصدعوا بالحق ووقفوا موقف الشجاعة والبطولة ولو خالفت أهواء ذي السلطان حتى يصل الدين صافيا نقيا إلى الأمة ، وكيف أنهم كانوا صمام الأمان وقت الأزمات ، فالأئمة الأربعة }أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل { حفظ الله بهم شريعة المسلمين وأحكام رب العالمين التي يتعبد الناس بها لله ، ووقفوا أمام الفتن في عقائد الناس وأديانهم كما صنع أحمد بن حنبل وقت المحنة ، ثم تتابع المصلحون والعلماء على مر العصور والقائمة طويلة .

أيها المسلمون : وكما أن رموز الخير والصلاح كان لهم أثر إيجابي على الأمة فنشير إلى الأثر السلبي لرموز الباطل ، فهذا فرعون الذي وصل به الطغيان إلى أن قال {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }[القصص٣٨]،إن هذا الرمز بلغ من تأثيره أنه ألغى عقولهم فلم يعودوا يفكرون إلى أي هلكة سوف يودي بهم {فاستخف قومه فأطاعوه } وكذلك النمروذ بن كنعان ، وقارون ، هامان ، أبو لهب وأبو جهل ، كانوا رموز للطغيان ولضخ الحياة في الباطل حتى لا يتراجع ، لقد كان أثر هذه الرموز كبيراً سواء تأثير عن طريق المنصب السياسي أو من طريق المنصب العلمي ، أو من

خلال الوسائل الإعلامية ، ومن ضمن الوسائل الإعلامية القديمة والتي ما زالت مؤثرة الكتابة والتأليف ، كم من مذاهب قامت وآمن بها الملايين وقامت لها دول وكانت في بدايتها فكرة ألف وكتب فيها وانتشرت وما فكرة الشيوعية والإلحاد عنا ببعيد.

أيها المسلمون : يجب أن لا نستهين بصناعة الرمز فهو عامل مؤثر في الأمة ، وعليه لابد أن نضع النقاط على الحروف من خلال الآتي :

أولاً: لا بد أن نساهم نحن المسلمين كل منا في موقعه في إبراز رموز الخير وسيرهم وجعلها قدوة للأجيال وخاصة الرموز التي حققت نجاحاً في حياتها وفي المجتمعات التي عاشت فيها فأعظم رمز يجب العناية به هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، وقبلهم الأنبياء الكرام ، ثم العلماء والمصلحون والمجددون .

ثانياً: إن أولى جهة بإبراز الرموز هي الجهات التعليمية والتربوية والعاملين فيها من موجهين ومشرفين ومعلمين فهم الذين سلمنا أبنائنا وأجيالنا بين أيديهم فأي الرموز التي سوف تكون قدوة لأجيالنا .ويلحق بهم المترل وخاصة الوالدين .

ثالثاً: أن أخطر جهة تؤثر في كل شرائح المجتمعات هي وسائل الإعلام فهي التي تستطيع بالمؤثرات الصوتية والمرئية أن ترفع من شأن الرمز أو تخفضه ، تستطيع أن تصنع الرمز أو تتلفه ، ومن نظر نظرة عدل وإنصاف إلى وسائل إعلامنا العربي ليعجب أي رموز تمجد وتصنع ، هل تربي وسائل الإعلام الأمة على سيرة الأنبياء والصحابة والمجددين ، هل تذكر سيرهم وجهادهم وبطولتهم وتضحيتهم هل تبرز إبداع علماء المسلمين وحضارتهم وماضيهم المشرق ، لقد نجحت وسائل إعلامنا في إبراز رموز لكن رموز الشر والإفساد رموز الهزيمة والتخلف ، رموز اللهو واللعب ، رموز تعلمنا كيف نعيش عيشة الانحطاط والبهيمية فهنيئاً لنا بهذه الوسائل ، أقول ما تسمعون واستغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين أما بعد :

أيها المسلمون : ماذا نقول ، لقد فضحنا أمام الأمم ، في حين تحتفل الدول بإطلاق مركبة فضائية ، وتحتفل بصناعة نوع جديد من الأسلحة العابرة للقارات ، تحتفل بآخر رجل أمي في بلدها ، أمم تعيش هم المنافسة والسعي للسيطرة على العالم ، أمم تعيش لتصنع من أبنائها وشعوبها قادة للعالم ، في كل الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية ، أمام هذه الأمم نحن نحتفل بأن هشام فاز في برنامج ستار أكاديمي ، هنيئاً للشعب السعودي شاب سعودي انتصر على البنات الناعمات فأصبح يغني ويرقص أحسن من تلك الناعمات ، استطاع أن يستعرض أما الراقصات ويغني أمام المغنيات هنيئاً لهذا الفتح ،

في وقت يعاني فيه شبابنا من البطالة ، من الضحالة في الفكر والتخلف نعاني من الفتن والقلاقل ، ونحتاج إلى من يطفئ النار وإعلامنا يوقد النار فيها ، نحتاج إلى من يعلم أبنائنا كيف الجد في التحصيل والدراسة كيف يكون جاداً في العمل كيف يكون صبوراً قنوعاً له ولاء لوطنه وشعبه وأمته ، في وقت والحرب مستعرة على حدودنا في العراق وفي فلسطين وإعلامنا يبرز لنا قدوات في الغناء والرقص يبرز لنا رموز يتربى عليها الشباب والأطفال ، ياقومنا أليس منكم رجل رشيد ، ياأرباب المال يا من تمولون القنوات الفضائية لقد أصبحنا أضحوكة للناس في كل العالم لقد آذيتمونا في ديننا وفي هويتنا وها أنتم تصنعون لنا رموزاً وقدوات يرسخوا فينا العجز والهزيمة والميوعة والليونة في وقت نحن أشد من نحتاج إلى الرجولة والفحولة وإلى أسباب النصر والغلبة .

أيها الآباء الكرام والأمهات الفاضلات : أنا لا ألوم تلك الفتاة الطائشة المراهقة ولا ذلك الطفل السفيه أنا ألوم ذلك الرجل صاحب العقل والرجاحة الذي يدفع من حر ماله لكي نصوت لهشام الرقاص تدفع الآلاف ، وتعلق صوره على صدور بناتنا ويستقبل استقبال الأبطال أهذه الأمانة التي حملكها الله أيها الأب الكريم وأنت ياأيتها الأم الفاضلة .(كلكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

أيها المعلم الفاضل والمعلمة الفاضلة : ليكن لك دور فأبناونا وبناتنا بين أيديكم قولوا لهم إن هؤلاء لا يمثلون الأمة ولا يمثلون دينها ولا هويتها علموهم وأرضعوهم بغض هذه الرموز النكرة الفاسدة المفسدة ورسخوا في قلوبهم وعقولهم رموز الخير رموز البطولة والرجولة والإبداع رموز الحضارة وصناع الرأي والحكمة في تاريخ الأمة .

إلى كل مسؤول وإعلامي لا تساهموا في هزيمة الأمة نحن بحاجة إلى جيل النصر جيل القوة جيل العزة حتى نسلك طريق النجاة إن هذه خيانة للأمانة التي أنيطت بكم فيا صاحب القلم السيال ساهم في رفع مستوى وعي الأمة ويا مقدم البرامج وياصاحب الكلمة في الإذاعة وياصاحب المال ساهموا في أبراز رموز الحضارة الحقيقية الذين بهم يصنع النصر وتقوم الأمة من كبوتهم .

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذلك فيه أهل معصيتك ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ياسميع الدعاء .

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الفهرس العام

الباب الأول 5
عوامل النصر والهزيمة العامة 5
* الابتلاء والمحن سنة الدعوات : 5
* توجيهات عامة في سورة آل عمران : 6
* تعقيب القرآن الكريم على غزوة أحد : 16
* معالجة القرآن لأحداث الغزوة : 20
* التذكير بمعجزة النصر في بدر : 22
* سنة الله في الابتلاء والتمحيص والتداول : 27
* أهم أحداث المعركة وتصحيح التصور : 35
* مسؤولية أحداث أحد وحكمتها : 47
* تسلية ومواساة بعد أحداث أحد : 53
* دروس هامة من غزوة أحد : 58
* في الطريق إلى بدر والفرق بين إرادة الله وإرادة المسلمين : 68
* حرمة الفرار من المعركة وقدر الله في النصر : 74
* استمرار المعركة بين الهدى والضلال : 76
* نصر الله المؤمنين وغلبة الروم على الفرس وطبيعة الكفار : 81
الباب الثاني 86
شروطُ الاستخلافِ والتمكين في هذه الأرض 86
١-الدلالة اللغوية لكلمة "التمكين": 86
2- التمكين في اصطلاح القرآن الكريم: 87
3- وعد القرآن بالتمكين لدعوة الحق: 89
4- وعدُ الرسل بالتمكين ومزاياه: 90
5- وعدُ المؤمنين بالتمكين ومزاياه: 91
6- قتلُ الأنبياء والوعد بالتمكين لهم: 94
7- الانتصارُ من قتلة الأنبياء: 95
8- أن تحمله جماعة من البشر وتضحي من أجله بالغالي والنفيس: 97
9- أن يعي المسلمون معنى لا إله إلا الله : 103
10- الجماعةُ المناصرةُ: 114
١١- اتباع الطريق الصحيح لإقامة الدولة الإسلامية 116
الباب الثالث 119
عوامل النصر الخاصة في القرآن والسنة 119
1- الإيمانُ المطلقُ : 119
2- الإيمان العميق بالله تعالى : 123
3- العملُ الصالحُ : 130

4- إقامةُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر : 132
5- الاعتصامُ بحبل الله ووحدة الصف وعدم الفرقة : 137
6- يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين : 141
7- بالجهاد في سبيل الله تلك الفريضة الشاقة........ 148
8- لا يوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه : 151
9- الإيثارُ : 154
10- الرحمةُ الشاملةُ : 157
11- الإصلاح بين المسلمين إذا تناعوا :........ 165
12- السمعُ والطاعة والإنفاق في سبيل الله : 167
13- تغييرُ ما بالنفس من شر إلى خير:........ 168
14- التواصي بالحق والتواصي بالصبر : 169
15- الخوفُ من الوعيد : 177
١٦- التوكل على الله تعالى في شئون حياتهم........ 181
١٧- الهجرة في الله : 187
١٨- الإيمان بالقضاء والقدر : 189
19- أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل : 190
20- القيام بأعمال البرِّ كلها........ 193
21- نصرةُ دين الله : 197
22- الإيمانُ الحقُّ :........ 199
23- الثباتُ عند لقاء العدو والإكثار من ذكر الله 201
٢٤- الاعتزاز بالله ورسوله :........ 207
25- الإنابةُ إلى الله : 217
26- أن يكونوا جنداً للرحمن : 218
27- بذلُ الجهد الكامل لهداية الكفار واليأس من إصلاحهم : 219
28- الصبرُ على أذى الكفار في حال الضعف : 229
29- الصبر على البلاء :........ 238
30- الاستغاثةُ بالله تعالى : 240
وفي كتاب فقه السيرة :- أهمية التضرع الى الله تعالى وشدة الإستعانة به : 243
31- عدمُ الخوف إلا من الله : 245
32- عدم الفرار من المعركة : 249
33- شعورهم بانهم مظلومون وسعيهم لإزالة الظلم : 252
34- اليقينُ بوعد الله تعالى : 257
35- وجوبُ الإعداد والاستعداد للمعركة :........ 267
36- بذلُ الغالي والنفيس في سبيل الله :........ 282
37- النظرُ في السُّنَن الربانية:........ 288
38- وجوبُ التعلُّق بالمبدأ وليس بالأشخاص : 295
39- الاقتداءُ بالصالحين من السلف الصالح : 296

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية - (ج ٦ / ص ٤١٩).. 300
40- عدم التطلع إلى أية لعاعة من لعاعات الدنيا 311
41- أن يكون القتال في سبيل الله وإنقاذ المستضعفين ليس إلا : 312
42- عدمُ الخوف إلا من الله وحده مهما بلغت الشدائد.. 317
43- يقينُهم -مهما كانوا ضعفاء- أنهم على الحقِّ وعدوهم على الباطل : 319
44- كون الأمة في مستوى النصر بإمكاناتها بقدراتها بعزائمها ونياتها:.. 321
45- عدمُ الاكتراث بالذينَ لا يوقنون :.. 322
46- وجوبُ الصبر و المصابرة والمرابطة والتقوى:.. 323
47- وجوبُ الاستعانة بالصبر والصلاة : 326
48- تحملُّ الأذى الشديد في سبيل الله تعالى وعدمُ الوهن في طلب الكفار 328
49- أن يكون القتال في سبيل الله :.. 331
50- المواظبةُ على طاعة الله بكل أشكالها في السِّرِّ والعلَن : 338
51- وجوبُ التحلي بمكارم الأخلاق : 340
52- المسارعةُ بالتوبة من الذنوب والآثام : 342
53- اللجوءُ إلى الله تعالى ولا سيما عند الشدائد : 346
54- إيثارُ حبِّ الله ورسوله على كل شيء.. 353
55- لا يلهيهم شيءٌ عن أداء رسالتهم في الأرض 355
56- تلاوة كتاب الله حق تلاوته 357
57- التجارةُ التي تنجي من العذاب الأليم : 359
58- أن يكونوا أنصاراً لله : 361
59- إقامةُ العدل بكل أشكاله وصوره 362
60- الحكمُ بين الناس بالحقِّ.. 368
61- إقامة الحدود على الجميع : 369
62- الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.. 388
63- عدمُ الاغترار بالحياة الدنيا 394
64- اتباعُ شرعِ الله : 395
67- تحكيمُ الله والرسول في كل شئون حياتنا.. 405
69- الاستجابةُ لله وللرسول.. 411
70- لا بد من انتفاضة العقيدة 414
71- عدم الردة مهما أصاب المسلم من مكروه.. 426
72- وجوب التعلق بالرسول والرسالة.. 430
73- ببيان ثواب الشهادة في سبيل الله : 439
74- أخذ الحيطة والحذر من المنافقين والمثبطين:.. 450
75- عدم موالاة الكفار والفجار.. 454
76- أن يستحضروا فضل الله تعالى عليهم : 456
77- أن يكون القرآن الكريم مصدر التوجيه للحياة:.. 458
78- اليقين بوعد الله : 462

79- وجوب موالاة المجاهدين ونصرتهم : 463
80- أن يكونوا من للمتقين : 484
81- إرادة إحدى الحسنيين : 486
82- البداية بقتال الأقربين من الكفار والفجار : 486
83- التحرر من الدينونة لغير الله : 494
84- الأخذ بفقه الحركة لا فقه الأوراق : 509
85- من صفات جيل النصر المنشود : 523
86- لا بد من الفتنة : 539
87- الصبر لحكم الله : 543
88- التطلع إلى ما عند الله دون سواه : 545
89- التسبيح والاستغفار قبل وبعد النصر : 549
90- تحمل المشاق في سبيل الله : 552

الباب الرابع 555

عوامل الهزيمة الخاصة في القرآن والسنة 555

1. الانحراف عن الصراط المستقيم: 555
2. عدمُ الإنفاق في سبيل الله : 557
3. أكلُ الربا : 563
4. انتشارُ الربا والزنا : 569
5. الركونُ إلى الدنيا: 570
6. حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت: 574
7. إيثارُ الدنيا ومتاعها الزائل على الآخرة : 576
8. الركونُ إلى الظالمين: 578
9. تركُ الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر : 579
10. الترف: 590
11. عدمُ الإنابة إلى الله : 594
12. ارتكابُ خمس فواحش : 595
13. تركُ الجهاد في سبيل الله : 597
١٤. الهزيمةُ النفسيةُ 605
15. ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى ضرب الذلة على الأمة المؤمنة ضرباً مؤبداً: 610
16. التنازعُ والخصامُ على الدنيا والعلو في الأرض: 611
17. أن يكون بأسنا بيننا : 613
18. الغفلةُ عن أسلحتنا وأمتعتنا : 615
19. تولي الكفار والثقة بوعودهم : 616
20. تولي المنافقين والتهاون معهم : 622
21. الظلمُ بكل أشكاله : 629
22. كثرةُ الفساد والإفساد : 631

لا ينجو من عذاب الله إلا الذين كانوا ينهون عن الفساد 636

23. كثرةُ الذنوب و المعاصي : 637
٢٤. السخرية واللمز والتنابز بالألقاب 644
25. اتباعُ الشهوات : 648
26. التحاكمُ إلى الطاغوت (مهما كان نوعه) : 650
27. التقدمُ على الله ورسوله ﷺ بقول أو فعل : 657
28. عدمُ تحكيم الرسول ﷺ في شئون حياتنا : 659
29. تولي أعداء الله ورسوله ﷺ من الكفار والفجار 660
30. تولي اليهود والنصارى : 661
31. عدمُ تحكيم شرع الله تعالى في شئون حياتنا : 664
32. الإيمانُ ببعض الكتاب والكفرُ ببعضٍ : 675
33. تضييعُ الأمانة : 677
34. الغلولُ : 677
35. التلاعب بإقامة الحدود أو تركها : 680
36. عدمُ التراحم : 685
37. نقضُ العهود والمواثيق : 686
38. الغدرُ : 692
39. الخيانةُ : 694
40. إيثارُ حبِّ الأشياء على حب الله ورسوله 698
41. الأمرُ بالمنكر والنهي عن المعروف 700
42. الاستهزاءُ بدين الله أو رسله : 702
43. الجحودُ بآيات الله تعالى : 705
44. البطرُ في المعيشةِ : 709
45. الكفرُ بآيات الله وقتل النبيين بغير حق 711
46. الفشلُ والتنازعُ في الأمر 713
47. عدم شكر النعم ولاسيما بعد النصر : 715
48. الاغترار بالعدد والعدة : 719

البابُ الخامس 724

النصر قادم بإذن الله تعالى 724

١- المستقبلُ لهذا الدين : 724
٢ . من معاني النصر الحقيقية : 728
٣. لماذا يبطئ النصر ؟ 744
٤. النصر له ثمن باهظ : 746

الباب السادس 749

تصحيح مفاهيم خاطئة في صراعنا مع اليهود والنصارى 749

١. الصراع ديني وليس سياسيا 749
٢. أشد الناس علينا : 749
٣. حريصون على إضلالنا : 760

4. حريصون على كفرنا : 764
٥. حريصون على فتنتنا : 773
6. نقضهم العهود المواثيق : 775
٧. يريدون منا اتباع الشهوات : 788
٨. يريدون منا اتباع سبيلهم : 789
٩. حقدهم وحسدهم لنا : 789
10. ولأننا مأمورون بقتالهم : 800
11. معركتنا مع اليهود : 808
١٢. الصراع بيننا وبينهم حتى قيام الساعة : 818
١٣ – لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا : 819
١٤ – لا قيمة لأموالهم ولا أولادهم عند الله : 822
١٥ – عدم الاغترار بتقلب الكافرين في البلاد : 826
١٦ – هلاك الظالمين والمجرمين والطغاة عبر التاريخ : 828
الباب السابع 836
بحوث ومقالات حول أسباب النصر والهزيمة 836
معيار النصر 836
يوم النصر للمجاهدين الأفغان 836
في مقدمات النصر القادم 840
أسباب النصر وأسباب الهزيمة 843
الانتفاضة وبشائر النصر 846
النصر الموعود 857
سبيل الوحدة وطريق النصر 862
تعريف المسلمين بسبيل النصر والتمكين 868
أسباب النصر والتمكين 874
طريق النصر 878
فعليكم النصر 884
السبيل إلى النصر والتمكين 888
من معاني النصر 893
النصر من الله وحده 901
حِكم تأخر النصر 905
شهر النصر 909
التوكل على الله سبيل النصر 914
يوم النصر العظيم وفضل يوم عاشوراء 918
النصر أسبابه ومقوماته 925
لماذا يتأخر النصر؟! 929
بشائر النصر في فلسطين 934
خواطر حول النصر والهزيمة 938

وما النصر إلا من عند الله 942
أسباب النصر الحقيقية وصفات من ينصرهم الله 947
أسباب النصر وأسباب الهزيمة من خلال سورة الأنفال 950
أسباب النصر وأصول التمكين 954
أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي 961
أسباب النصر 973
أصول جامعة في النصر والهزيمة وفقه الابتلاء 975
أنت من يؤخر النصر عن هذه الأمة 980
التمسك بالإسلام حقا هو سبب النصر والنجاة في الآخرة 982
التمكين وتأويل الأحاديث 985
الجهاد في سبيل الله فضله ومراتبه وأسباب النصر على الأعداء 987
الخوف من الله ..وجيل النصر 997
بوابة النصر الانتصار على النفس ١٤٢٥/٧/٢٦ 1003
بوابة النصر 1006
تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم 1014
حَقِيقَةُ النَّصْرِ 1016
ذكر الله تعالى ...وجيل النصر المنشود 1019
شروط النصر 1024
شَوْقُ الجهَاد وجلاَلُ النَّصر 1029
عاشوراء يوم النصر العظيم 1031
مؤهلات النصر في جيل الصحابة 1037
من فقه الأولين النصر ساعة صبر !! 1041
أسباب النصر والهزيمة في التاريخ الإسلامي 1042
الصبر واليقين طريق النصر والتمكين 1054
النصر مع الصبر والفرج مع الشدة 1063
بلاد الشام ... بين قدسية الأرض وأسباب النصر 1067
بوابة النصر 1072
لماذا يتأخر النصر ؟ 1080
النصر والتمكين في يوم عاشوراء 1104
النصر الحقيقي 1110
بشائر النصر لهذا الدين 1115
بشائر النصر في فلسطين 1117
التوكل على الله سبيل النصر 1120
شهر النصر 1124
معيار النصر 1129
بشائر النصر لهذا الدين 1130
واقع العراق وأثر النفاق في تأخير النصر وإلحاق الأذى بالمسلمين 1132

النصر بيد الله وحده.. 1145
سيأتينا النصر عندما تتوفر شروطه في واقعنا.. 1146
شَوْقُ الجهَاد وجلاَلُ النَّصر 1155
وما النصر إلا من عند الله.. 1157
مقوّمات النصر 1160
من أسباب النصر... 1164
الصراع بين المسلمين واليهود وحتمية النصر عليهم 1164
الحكمة من استنصار النبي ربه يوم بدر مع تحققه من النصر 1165
شروط النصر والتمكين للمسلمين... 1166
النصر ليس مرتبطا بظهور المهدي... 1168
التمسك بالقرآن وتحقيق النصر 1168
استعجال النصر.. الجائز والممنوع 1170
طريق النصر على الشيطان والهوى 1171
علامات النصر والتمكين... 1173
التمسك بالإسلام حقا هو سبب النصر والنجاة في الآخرة.................................... 1174
مؤتمر القمة الإسلامي وعوامل النصر (١)... 1178
المجلس العشرون : في أسباب النصر الحقيقية 1183
أسباب النصر... 1186
القادم صعب و النصر حتمي و ما أحوجنا إلى الصبر... 1193
ووجدتُ من يؤخر النصر عن المسلمين !!.. 1195
حتى نستحق النصر.. 1197
أخلاق النصر عند المسلمين كما يحكيها راهب [سنت دنيس] 1200
الصوم.. وتربية الأمة على النصر 1201
بناء الأمم دعائم النهضة ومعالم النصر 1206
بشائر النصر.. 1208
الإيمان والثقة بالله والصبر أقوى أسباب النصر 1210
الانتفاضة شعلة النصر وبوابة الاستقلال... 1215
الصبر واليقين طريق النصر والتمكين 1218
الجهاد طريق النصر.. 1227
رمضان شهر النصر 1228
مؤهلات النصر والتمكين... 1230
انهيار " إسرائيل " لا يكفي لتحقيق النصر... 1232
عوامل النصر في القرآن الكريم 1235
رياح النصر هبت من الفلوجة 1248
أسباب النصر الحقيقية وصفات من ينصرهم الله.. 1257
أسباب النصر الحقيقية وصفات من ينصرهم الله.. 1261
أسرى فلسطين .. وثمن النصر 1264

حتى لا يتأخر النصر 1265
نعم النصر قريب .. لكن في أي اتجاه ؟!!! 1266
دور الإعلام في النصر والهزيمة 1272
يوم النصر العظيم 1275
قرار صائب ثم يأتي النصر 1281
التوكل على الله سبيل النصر 1283
الفلوجة وحلاوة النصر 1286
كيف يتحقق النصر ؟ 1288
بشائر النصر 1289
النصر القادم 1295
سبيل الوحدة وطريق النصر 1295
القدس في الذاكرة حتى النصر 1301
النصر أسبابه ومقوماته 1303
أختاه..حتى تكوني من أسباب النصر 1307
الكتاب والسنة مرجع المسلمين ومصدر النصر 1309
مفاهيم قرآنية لأسباب النصر (١/٢) 1311
خطه النصر 1324
أسباب النصر والتمكين ... بشرى للمؤمنين 1329
أسباب النصر 1331
إذا سب الرسول فانتظر النصر المأمون 1335
الطريق إلى خلاص المسجد الأقصى 1340
الحُلولُ الإسلاميَّةُ للقضية الفلسطينية 1344
أسباب ضعف الأمة الإسلامية اليوم 1359
وما النصر إلا من عند الله 1360
الهزيمة النفسية 1364
أسباب الهزيمة وعوامل النصر: الطاعة والمعصية 1366
متى... متى... متى... متى النصر؟ 1368
عوامل النصر في المعارك الإسلامية 1373
وقفات مع آيات النصر في كتاب الله 1380
متى نصر الله؟ 1383
ولكنكم تستعجلون 1386
لايغُرَّنَّك تقلب الذين كفروا في البلاد 1389
ألا إن نصر الله قريب 1392
تأخير نصر الدين لُطف بالمؤمنين ومُكر بالكافرين والمنافقين 1397
خطوات على طريق الفلوجة 1403
أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ 1404
غزة تحت الحصار القرشي!! 1406

ومتى فقناهم عددا أو عدة؟ 1409
غزة ألم وأمل........ 1420
من يبلغ عني أهل الجهاد في العراق ؟! 1425
دور العقيدة الإسلامية في صياغة الشخصية 1428
كيف انتصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) 1433
سقوط بغداد أم سقوط أخلاق؟!!! 1437
دروس مستفادة مما حصل في العراق (*) 1438
الطاعة طريق العزة والتمكين........ 1443
وتلك الأيام نداولها بين الناس........ 1446
وقام صائحهم بأعلو هبل(العصر).. ألا نجيب..؟؟؟ 1452
تأملات قرآنية (متى نصر الله ؟)........ 1456
آداب الجهاد بعد انتهاء المعركة........ 1457
من أسباب نصر ونجاة الأمة........ 1469
دور العلماء ورجال الحسبة في الانتصار العسكري والسياسي والحضاري........ 1480
جهاد فلسطين . . أمال عظيمة رغم الألام الجسيمة........ 1483
القيادات الانهزامية في ضوء القرآن........ 1495
لا لليأس والإحباط........ 1501
لماذا لا ننتصر؟! 1506
خطوات مهمة لكشف الغمة........ 1516
التمحيص طريق التمكين........ 1526
أثر الدعاء في نصرة المجاهدين 1528
{ وإن جندنا لهم الغالبون }........ 1539
أمة لن تموت........ 1543
{ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً } [*] 1564
كيف نغير ما بأنفسنا ؟........ 1568
لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ 1575
فن استجلاب معية الله 1582
فلنعد قبل أن تأتينا الطامات وتحل علينا العقوبات!........ 1585
إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا !! 1588
بين المقاومة والمهادنة........ 1593
الهزيمة في معركة أحد........ 1598
لا يأس مع الهزيمة........ 1602
فقه الهزيمة والنصر 1606
سنة الهزيمة والنصر 1611
المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية........ 1615
مَعْرِض الهزيمة........ 1617
الهزيمة عقوبة........ 1617

أسباب الهزيمة الموجودة في الأمة.. 1618
النفس بين قوة العزيمة ومرارة الهزيمة.. 1620
صفاً! لهزيمة التطبيع.. لا تطبيع الهزيمة.. 1625
جيل الصحوة بين الهزيمة والانطلاق.. 1639
الهزيمة النفسية .. وفقه المرحلة 1667
بشائر الهزيمة الأمريكية 1680
لغة الهزيمة.. 1686
استراتيجية بوش: استثمار عوامل الهزيمة.. 1687
استراتيجية تقزيم الهزيمة 1693
فصول الهزيمة الأمريكية في العراق 1696
الهزيمة في العراق أم في أفغانستان: أيها أخطر على أمريكا؟! 1704
إضاءات في الهزيمة النفسية 1706
ثقافة الهزيمة إلى مزبلة التاريخ 1709
.مظاهر الهزيمة النفسية في مجال الفكر.. 1713
من وحي الهزيمة.. 1715
نشوة الهزيمة 1721
المنهج الإسلامي في علاج الهزيمة النفسية 1724
الهزيمة والخزي مصير الخائنين.. 1731
الهزيمة التفسية 1733
مهلا يا دعاة الهزيمة.. 1746
الرد على حكماء الهزيمة.. 1761
بشائر الهزيمة الأمريكية وتحديات ما بعد أمريكا 1765
خاطرة ((أفراح الهزيمة)) 1789
غبار الهزيمة 1790
حوار.. على ضفاف الهزيمة 1791
نحن أمة لا تعرف الهزيمة 1794
نشوة الهزيمة 1796
غبار الهزيمة 1799
إذ تمسي ثقافة الهزيمة جزءً من ثقافتنا الوطنية 1800
الرد على حكماء الهزيمة.. 1803
الإسلام : أمل فلسطين بعد عشرين عاما على الهزيمة.. 1806
جيل الصحوة بين الهزيمة والانطلاق (١ – ٢) 1837
الهزيمة النفسية بدور تحفيظ القرآن الكريم 1865
الهزيمة النفسية .. وفقه المرحلة 1867
الهزيمة في معركة أحد.. 1880
بشائر الهزيمة الأمريكية آيات وتحديات (٢ ــ ٢).. 1884
الهزيمة والخزي مصير الخائنين.. 1895

الهزيمة واضحة ورامسفيلد لا يزال يكذب.. 1898
الهزيمة تحدق بأمريكا وإن فاز الديموقراطيون.. 1899
تحضيرات ما بعد الهزيمة الأمريكية.. 1902
استراتيجية تقزيم الهزيمة 1904
بشائر الهزيمة الأمريكية وتحديات ما بعد أمريكا 1907
بيان أسباب الهزيمة وما قد تؤدي إليه من نتائج.. 1912
العراق: الهزيمة النفسية تطارد المحتل.. 1914
الهزيمة النفسية 1917
كيف دخل الإنكليز على مصر 1921
علم يهدي وسيف ينصر 1943
الدروس والعبر المستفادة من رمي اليهود بالحجر.. 1947
من سيد قطب إلى أبطال "غزة" الصامدين.. 1956
هزيمتنا في العراق .. في إطارها الصحيح.. 1961
لن تضيع فلسطين .. كيف.. 1968
{ ونبلوكم بالشر والخير فتنة } 1981
أهمية الرمز في حياة البشر 1985